
المقتطف



المقتطف

الجزء الاول من المجلد الرابع والتسعين

١ يناير سنة ١٩٣٩ — ١٠ ذي القعدة سنة ١٣٥٧

الدمقراطية

في العصر الحاضر

موضوع الدمقراطية في هذا العصر ، يشغل الافكار ويقلق النفوس ولا سيما نفوس الذين شبوا وترعرعوا على ان النظم الدمقراطية هي خير ما ابدعه الاختبار لتثقيف الروح الانسانية والسمو بها ، ولتنظيم المجتمع وسياسة شؤونه ، او هي خير حل عرف حتى الآن لتلك المشكلة الاساسية في تنظيم الجمعية السياسية ، مشكلة احكام التوازن بين السيادة والحرية. فنحن عندما نلتفت يمنة ويسرة نجد ما يحيرنا من انقسام وتخاذل وجدل في ناحية يقابلها حزم وقصد واتحاد — او ما يبدو اتحاداً — في الناحية الاخرى . هذا الصراع بين الدول التي لا تزال آخذة بنظام الحكم الدمقراطي والدول التي عدلت عنهُ الى مبدإ الزعامة ، يدور على مطامع مادية خاصة بالحدود الجغرافية والقواعد العسكرية والمصالح الاقتصادية — يسمو شأنها او يقل — ولكنهُ يبدو لنا صراعاً بين نظم الحكم نفسها . فيقف بعضنا من هذا الصراع موقفاً تمليه علينا نزعاتهُ الخاصة فيحكم حكماً حاسماً لا رادّ لهُ بصلاح هذه وفساد تلك ، وبعضنا يقف محيراً يبحث ويتأمل في مزايا هذه النظم ومساويها ويحاول ان يوازن ، لعلهُ يخرج من الموازنة برأي مستقيم

الا ان الانتصارات الباهرة التي احرزتها الدول الآخذة بمبدإ الزعامة في حلبة السياسة والحرب او التهديد بها في العهد الاخير ، والنكوص الذي باءت به الدول الاخرى ، يحملان كل من يتصدّى لبحث الدمقراطية في هذا العصر على ان يتروّى قبل الاقدام ، لان كل بحث من هذا القبيل

يقتضي من صاحبهِ خلتين على الاقل : خلة الشجاعة وخلة التأني

أما الشجاعة فلأن كل كلمة تقال دفاعاً عن الدمقراطية تضع قائلها في هذا العصر في منزلة المدافع عن حقوق الملوك المنزلة إبان سورة الثورة الفرنسية في مختتم القرن الثامن عشر فيُرمى بكل هجر من القول . ذلك ان الدمقراطية تبدو الآن في حالة جزر بعد مدٍّ طال قرناً ونصف قرنٍ في طورها الحديث . واذا كان من غير العجيب ان نسمع من زعيم الكتائب السود ان الفاشستية أخذت تدوس بقدميها جثة الحرية المنتنة، فالعجيب ان نرى رجلاً كالمستر ولز الكاتب الانكليزي يعلق كل امله في مستقبل العالم بقيام فئة من رجال العلم والصناعة على ادارة شؤون البلدان كما تدار الشركات الكبيرة — وهو ما يعرف في الولايات المتحدة الاميركية بالتكنوقراطية — وقد بسط رأيهُ هذا في غير واحدة من قصصهِ الاجتماعية ولا سيما قصة « عالم وليم كليسولد » . ولا يقل عنهُ عجباً برناردشو الكاتب الاشتراكي عند ما يشبهُ الانسان بسمك الاغوار ، اذا ارتفع من الغور الى السطح انتفخ حتى ينفجر . كذلك الانسانية في رأيهِ لا يمكن أن تسودها المساواة ولابد من بقاء الطبقات فيها على تفاوت دائم بينها . بل اعجب من قول شو وولز ، قول نورمن آنجل، ذلك الاشتراكي الصميم ، الثائر على الاستبداد ، المناوىء للطغاة ، فانهُ يقول على ما روى الاستاذ كاتلن ، انَّ صوت الشعب هو صوت الشيطان

فالاصداء تتجاوب من روما الى برلين الى موسكو الى طوكيو الى بعض زوايا باريس ووارسو وبوخارست وغيرها، بان القضاء على الدمقراطية ، هو الخطوة التالية لتأمين الحضارة في العالم وهو مناقض لصيحة ولسن في اثناء الحرب العالمية عندما قال ان القضاء على الروح العسكرية هو الخطوة اللازمة لتأمين الدمقراطية في العالم . فالدمقراطية في روعهم وهمٌ من أوهام الاحرار . وربة الحرية قد اسلمت الروح وانتنت جثتها . لذلك كانت الشجاعة لازمة لمن يتصدى للدفاع عن الدمقراطية ، لان من يدافع عن شر زائل — والدمقراطية في عرفهم هي هذا الشر — مرميٌّ حتماً باحدى اثنتين إما انهُ مصابٌ في عقلهِ وإما إنهُ رجعيٌّ خطِر

اما التأني فلا بد منهُ ديدناً للباحث في هذا الموضوع . لان الصراع بين نظم الحكم في البلدان التي نصفها بالدكتاتورية ، ونظم الحكم في البلدان التي جرينا على نعتها الدمقراطية، صراع عنيف شامل يتناول نواحي المشكلات السياسية الدولية، ويزج في دردوره باقطاب الحكومات، ثم لا يتعفف عن تشريح كل ما يتعلق بالكرامة الانسانية في ظل النظامين مما يتصل باعرق النزعات الروحية والاجتماعية . فكل اشارة غير قائمة على التجرد عن الهوى والتأني في الحكم يبرم بها هؤلاء واولئك ، ولا سيما اولئك لان البحث والمناقشة والموازنة لا مكان لها في فلسفتهم

ثم من نحن حتى نتصدى للحكم ! ولست اوجّه هذا السؤال باعتبار اننا في الشرق دون اهل الغرب لا نستطيعهُ، بل اريد ان الباحثين في الشرق والغرب جميعاً عاجزون عنهُ . فنظم الحكم

سواء أدكتاتورية كانت ام دمقراطية ، مظهر من مظاهر الاجتماع والاقتصاد وثقافة الروح والذهن ، والحكم الفاصل في مصيرها غير ميسور لمن يكون مغموراً بحسناتها او سيئاتها . انما الحكم للزمن والتاريخ عندما تنظر الحوادث وملابساتها وآثارها نظراً مشارفاً . فاذا اشتط الباحث في هذا البحث الدقيق ، وتنكب جادة التأني وغلا في القول ، تأييداً لهذا او ذاك ، او تجريحاً وهدماً ، كان مصير كلامه على الغالب من اذن الى الاذن التي تقابلها

وقبل ان أمضي في البحث الى قلب الموضوع أريد ان أقول انني لا أعتقد ان الدمقراطية هي النظام الكامل لحكم الشعوب . وسنشير الى نقائصه بغير رحمة ولا هوادة . وانما المسألة التي امامنا ليست هل النظام الدمقراطي هو النظام الامثل ، بل هل هو أقرب الى النظام الامثل من النظم الاخرى المقترحة او لا ؟ فكثيرون من المصلحين ينسون احياناً انه لا يكفي ان تؤدي اصلاحاتهم الى ازالة الشرور والمساوي القائمة بل يجب ان ينظروا ايضاً الى ما قد ينبت في ظل النظام الجديد المقترح من شرور قد تكون أفدح من الشرور المزالة

وللدمقراطية معانٍ كثيرة الا أننا سنستعملها في هذا البحث بمعنى النظام السياسي الذي أفضت اليه فكرة سيادة الشعب ، نعني النظام النيابي . والمجالس النيابية قائمة على فرضين ، أولهما انه من حق كل فرد وكل جماعة او طبقة اجتماعية ان تطالب الحكومة بتحقيق مطالبها جهد المستطاع . وثانيهما ان البحث خير طريقة لتدبير شؤون الانسان لان العقل أفضل أداة كشفها الانسان لتبين الصالح والطالح ، كما تبيّن له الصائب والخاطئ بوجهٍ عام

وليس ينكر أن المجالس النيابية في البلدان الدمقراطية تقترب احياناً من الصورة المخزية التي يرسمها بها خصومها : خطبٌ طويلة مملة ، فيها ثرثرة ، وفيها جهل ، وفيها غرض ، وفيها تحزب حتى ليسأل الباحث عندما يسمع او يطالع بعض هذه الخطب ، أحقيقة أصاب هؤلاء قسطاً من التعليم . الا أننا بعد لأي ، نسأل ، هل هذه الصورة تمثل النظام نفسه كما يجب ان يكون ، او هي تمثله في حالته الحاضرة الناقصة وتصف الرجال الذين يشغلون مناصب معينة فيه . والجواب بالنفي عن الشق الاول وبالايجاب عن الثاني . فالانقلابات الشعبية التي وقعت في بعض البلدان وأفضت الى قيام الحاكمين بأمرهم فيها انما وقعت لان الشعب ثار على طمع القائمين بالامر وجهلهم . وفي هذا دليل على ان الانتخاب العام ، والاعراب عن مشيئة الشعب بواسطته لا يتجه حتماً ، كما يزعم خصومه ، الى اختيار المشرعين الجهلة الطامعين . والنواب الذين هذه صفاتهم ليسوا جزءاً اساسياً من النظام التشريعي الدمقراطي . انهم في منزلة ندماء الشر عند الملوك ، ومشيري الخطاء عند الطغاة

ومما يستوقف النظر ، ان كل حركة معادية للدمقراطية في هذا العصر ، تتجه خاصة الى إنكار مبدإ العقل . فدعاة الملكية في فرنسا يريدون ان يحلوا محل العقل ، ما يطلقون عليه

النزعة اللاتينية ، او — التقليد اللاتيني — حتى يحتكموا اليه عندما يحزب الامر وتتوعّر الطريق. والفاشستيون الايطاليون ، يتغنون بروح الامة ، والوطنيون الاشتراكيون بالذات المنصرية ، والشيوعيون بمصالح العمال الاقتصادية . وكل محكمة من هذه المحاكم هي مجلس قائم على غير العقل . وكل منها فوق النقد . ثم يقوم فرد يزعم انهُ لسان هذه النزعة او تلك الروح او تلك الذات . وانهُ لمن العجيب وقد انقضت ثلاثة قرون من البحث العلمي ، اسفر خلالها انطلاق روح النقد عن اعظم النتائج ، ان نجد في هذا العصر من يعتقد ، ان في الوسع الوقوع على شخص فرد ، يتركز في شخصه كل العلم والحكمة والعدل ، حتى يصح ان تطلق قوتهُ السياسية من كل قيد ، وترفع فوق كل بحثٍ

***

من وجوه النقد التي توجَّه الى المجالس النيابية ، انها « جماعات مناظرة » . وهذا ما يسلم بهِ الدمقراطيون انفسهم. لانهم لا يجدون ثناء أعظم من هذا الثناء. فعندهم انهُ يندر بين مشروعات القوانين، مشروع يجب ان يقر بغير بحث ومناقشة . اذ اين نجد رئيساً لدولة، او رئيساً لوزارة ، او عضواً في مجلس نيابي ، بلغ من الكمال بحيث لا تكون آراؤه في غير حاجة الى التمحيص او التوضيح او النقد . وليس عندنا في ما نعرفه من عِبر التاريخ ما يدل على ان هذا الرجل متاح . هل الناس احكم الآن ، او اقل اثرة ، او اشد تساهلاً ، مما كانوا في سابق العصور ؟

قلّبوا النظر في نواحي الحياة الاجتماعية، تجدوا كل وجهٍ من وجوه التعصب الاجتماعي التي عرفت في الماضي ، ومن اليقين ان الحاجة الى النقد في هذا العصر اعظم جدًّا منهُ في اي عصر سلف لما تحوكه الدعاوات المغرضة، من غشاوات تلقيها على الابصار والبصائر

من السهل ، ان نرفع الصوت بالتبرم والتذمر ، عند ما نرى عضواً في مجلس نيابي او جماعة من الاعضاء يقفون كالسد دون سير مشروع ما سيراً عاجلاً الى سجلات القوانين . ان التبرم بمثل هؤلاء قد يخيفهم لانهُ تهمة اجتماعية كبيرة قوامها عرقلة اعمال التشريع . ولكنهُ في حدّ نفسهِ دليل على ضرورة العرقلة الى حد ما . لان كل مشروع صالح تقدمهُ الحكومة القائمة يجب ان يكون قادراً على الثبوت عند ما تثور حواليهِ اعاصير النقد . ولست اتصور احداً منكم يعتقد ان كمامة توضع في الفم او جرعة زيت خروع تفرغ فيهِ او سوطاً يلهب بهِ الظهر دليل يقام على صحة او خطاء ، او نفع او ضرر . انها قد ترغم ولكنها لن تقنع

ومما لا ريب في ان بعض اعضاء المجالس النيابية في شتى البلدان يعتمد احياناً على حقهِ في حرية البحث لعرقلة مشروعات يعرضها خصومهم عرقلة غير مجدية ، ولكن يقابل هذا ان العرقلة افضت في كثير من الاحيان الى نقد صالح استبعد كثيراً من وجوه النقص من القانون المعروض

أيجب ان نعتقد ان طغاة البلدان الدكتاتورية لم يخطئوا لمجرّد أنهم غير مقيّدين بمجالس نيابية او صحف حرّة توجه النقد الى اعمالهم ؟

ثم هناك مأخذ آخر على الحكومات النيابية وهو ضعف كفايتها inefficiency وليس ثمة ريب في انهُ اذا طلبنا الكفاية وحدها ، وقدّمناها على كل شيء آخر من شؤون المجتمع ، فالملك المطلق والزعيم الحاكم بأمره خير من الملك المقيّد ورئيس الجمهورية . فارادة رئيس الدولة المقيّد محدودة بالمجلس النيابي ، يناقشها ويؤخرها ويعدّل فيها واحياناً يأباها . وهذا يفضي ولا ريب الى ضعف الكفاية . ففي زمن الحرب تقدّم الكفاية على العدل . وليس بالشاذ ، ان يكون جميع الحاكمين بأمرهم ، او المتطلعين الى هذا النوع من الحكم ، يضربون على وتر «الخطر القومي» لكي يثيروا في اقوامهم ذلك الاحساس بالنضال الذي يقتضي تقديم الكفاية على العدل . فكل رجل عاقل يسلّم بان يحكم حكماً مطلقاً عند ما يعرّض هو وجماعته لخطر دائم . والحاكمون بأمرهم يعرفون ذلك فينقرون عليهِ . ومع ذلك فالديمقراطية نفسها لا تحول دون هذه الكفاية إطلاقاً . فنحن نجد بلاداً ديمقراطية عريقة كالولايات المتحدة الاميركية تمنح رئيسها في زمن الحرب سلطة مطلقة . فالنظم الدمقراطية لا تحول دون الكفاية في الازمات والاوقات الاستثنائية

ولكن هل الكفاية هدف اجتماعي اعلى ؟ فنحن عند ما نبحثها ونحللها نجدها اقصر وأسرع طريق الى تحقيق رغبة ما . ان صاحب المصنع يعرف ما يريد وعلى مصنعه ان يخرج البضائع التي يريدها في أقصر وقت وبأقل ثمن . تلك هي الكفاية . الاّ ان الحكم على الكفاية نفسها يجب ألاّ يهمل ايضاً الغرض الذي تتجه اليهِ . ولا سيما في الشؤون الاجتماعية . فقد يكون صاحبنا سكيراً كفوءاً . او لصّاً كفوءاً . ولكن الكفاءة مقياس لقيمة الاسلوب . وليست بحال ما مقياساً لقيمة الهدف . فصاحب المصنع يريد سيارات او أحذية او غازات حربية ، فيسير في صنعها على اكفإ اسلوب بغير نظر الى هل هذه السيارات اوالاحذية او الغازات الحربية مفيدة او ضارة ، الاّ من ناحيتهِ الخاصة اي ناحية الربح المادي

أما رئيس الدولة فعليهِ ان ينظر في الاهداف . وان يقيس قيمتها من الناحية الاجتماعية القومية . والهدف الاعلى الذي يتطلع اليهِ هو العدل . فالكفاية ، مهما تبلغ من التمام ، لا تسوّغ كونها كفاءة في سبيل هدف غير عادل . لذلك لا يمكن ان يحكم على الحكومة من هذه الناحية ناحية الكفاية ، كما نحكم على مصنع او متجر . وكل تمثيل منتزع من ميدان الاقتصاد تمثيل خاطىء

ثم يأخذ على النظم الدمقراطية ان رجال المجالس النيابية أدوات تسيرها من خلف ستار جماعات منظمة من أصحاب المصالح الخاصة . هنا كتلة الفلاحين وهنا جماعة العمال وهنا مموّلو وول ستريت او السيتي أو البانك ده فرانس وغيرها . ولست أدري هل هذه الظاهرة مما يمكن

الاستغناء عنها أو لا. ولكنها على كل حال حقيقة واقعة على الغالب. الا ان علاجها ليس في الغاء المجالس النيابية؟ بل في الاعتراف بوجود مصالح متباينة وتدبير نظام يتيح لها ان تمثل جميعاً، بحيث يفصح أصحابها عما يريدون ويسعون الى تحقيقه بالاساليب المشروعة

ان من يتأمل في علاقات البشر بعضهم ببعض يعلم انهُ حيث يجتمعان اثنان فهناك مصلحتان، وانهُ من المرجح ان تصطدم المصلحة الواحدة بالاخرى. ثم هو يعلم انهُ من المتعذر ان تحقق جميع هذه المصالح دائماً. بين مصالح المموّلين والعمال اصطدام، وبين مصالح الدولة والكنيسة اصطدام، وبين مصالح اصحاب الارض وأصحاب المصانع اصطدام، وفي كل هذه الاصطدامات أما ان تنتصر المصلحة الواحدة انتصاراً تامًّا، وتخذل الاخرى خذلاناً تامًّا، واما ان يتفق الطرفان على حلٍّ وسط. ولما كانت الدمقراطية في رأي جميع الذين تعمقوا في درسها قائمة على التعاون، فعلى الدمقراطية ان تبحث عن الحلول الوسط في كل نزاع. ومن الواضح ان الحل الوسط لا يرضي أحداً تمام الرضا. لانهُ لا يحقق مطلب فريق تحقيقاً كاملاً. وهذا ما يندِّد بهِ ممثلو الطوائف المختلفة التي لها مصالح معينة. فكتلة الصناع تعترض على نفوذ أصحاب المصانع. وهؤلاء يشكون سيطرة اولئك. والمستوردون يريدون ان تلغى الحواجز الجمركية او ان تكون منخفضة. وأصحاب المصانع يريدون رفعها. صناع السلاح يرفعون صوتهم بالمقيرة على دعاة السلام الضعاف. والوالدون يجأرون الى السماء من صناع الاسلحة الذين يسمنون بدماء أبنائهم

ضع الفلاحين في منصة الحكم، يوجهوا أعظم عنايتهم الى الريف. أحل المموّلين محلّهم تهمل العناية بالفلاح. خذ بقول صناع الاسلحة، واذا أولادنا تحولوا طعماً للمدافع، او حكّم دعاة السلام، تصبح البلاد هدفاً سائغاً لاعتداء خصومها

ان الحكم الدكتاتوري، يسهل عليهِ ان يحل جميع هذه العقد، فيبهر بحلّهِ. فهو حكم جماعةٍ واحدة، وباستئصالها الجماعات الاخرى او شلها او اخضاعها، تحكم حكماً سداه الكفاءة ولحمتهُ النظام المستتب. ثم يعمد مفكروها الى اقامة الدليل على ان الجماعة الحاكمة هي الجماعة الاساسية في المجتمع، وعليها تتوقف حياة الجماعات الاخرى او هلاكها ومن هنا تنشأ فلسفة هذه النظم، وهي لا تعدو كونها قولاً يتجهُ قصداً الى تسويغ النظام القائم. والواقع ان طبيعة الاجتماع البشري ونشوء النظام السياسي يجعلان المهمة الاولى على الحكومة هي التوفيق بين اصحاب المصالح المختلفة. وذلك لا يكون بابادتهم ولا باعتقالهم. فهذه مهمة أساسها «العدل» وطريقتها «الحلُّ الوسط»

ثم يؤخذ على النظم الدمقراطية انها تتخذ من المساواة بين الناس مطية الى نفوسهم واهوائهم وكلمة المساواة وان حلا رنينها في الاذن فلا وجود لها حقيقة في الواقع، وهذا القول فيهِ نصيب من الصحة. فقول الفرنسيين أبان ثورتهم ان الناس يولدون متساوين قول لا يقرهُ العلم

البيولوجي ولا العلم الاجتماعي ، فالناس مختلفون في ملكاتهم من يوم تكوّن نطفهم في ارحام أمهاتهم . ثم تزداد هذه الفروق ظهوراً بفعل البيئة الاقتصادية والاجتماعية . الا ان القول بسقوط مبدإ المساواة على اطلاقه يقتضي سقوط النظم الدمقراطية القائمة عليه ، قول فاسد ، لانهُ اذا انعدمت المساواة البيولوجية بين الناس، ففي البلدان الدمقراطية، حيث يعترف بالشخصية، مساواة في الفرص التي تتاح للفرد ، ومساواة في الحقوق المدنية وامام القانون ، وفي هذا — اذا صين وطبّق — ما يكفي ميداناً لبروز الكفايات . ولست أنكر ان النظم الاقتصادية لا تزال على غير ما يرام ، كما انني لا أنكر ان النظم الدمقراطية مقصرة عند التطبيق عما يجب ان تكون — ولعلّ تلازم نشوء الدمقراطية الحديثة وقيام النظام الرأسمالي أهم مواطن الضعف في دليل المدافع عن الدمقراطية[1] — ولكنني أقول ان الامل في السير نحو الهدف المقصود ، في ظلال هذه النظم اكبر منهُ في ظلال اي نظام سياسيّ آخر عرفهُ البشر حتى الآن . ان الدمقراطية لا تقوم على مبدإ المساواة المطلقة بين الناس، بل على احترام ما بينهم من فروق ووجوه اختلاف

* * *

اذا نبذنا النظام الدمقراطي ، فماذا نحلّ محله ؟ ان الشعوب في هذا العصر مخيرة بين نظام الحكومة الدمقراطية ، وقد اشرنا الى نواحٍ من محاسنها ومعايبها . وبين نظام آخر قائم على مبدإ الزعامة او الدكتاتورية ، ولا يهمنا في هذا المقام هل الدكتاتورية شيوعية او فاشستية لان الخيار بين حكومة نيابية من ناحية ، وحكومة رجل فردٍ من ناحية أخرى، حولهُ جماعة من الانصار والمستشارين ، لا يرجع الى الشعب الاّ لتسجيل الموافقة على أعماله . فهو حاكم مطلق ، يشرّع بمراسيم . وقد مرّ بنا في عصور التاريخ المختلفة حديث ملوك وحكام مطلقين ، في وسعنا ، ان نرجع اليه نستخلص منهُ العبرة والارشاد

ولست اخال احداً منكم يعترض ، على ان الحاكم الحكيم ، الفاضل ، العادل — على ماوصفهُ الفلاسفة — جديرٌ بان يتقلد السلطة المطلقة، ويتسلّم مقدرات شعب بأسره . فحكمته وعدله يحولان دون خطاءه أو جوره على فرد او على طبقةٍ من الشعب . وفي صفحات التاريخ أسماء حكام لمعت حكمتهم وأضاء عدلهم دياجير عصورهم . ولكن من يضمن لنا قيام هذا الحاكم في شعب آخذ بنظام الحاكم الفرد ، سواء أولد للملك والحكم ام ارتقى اليه من عامة الناس

ومع ذلك نقول من الناحية الفلسفية والعملية معاً ، انهُ يستحيل قيام حاكم يبلغ من الحكمة والعدل مرتبة تنزههُ عن الخطاء . واذن فعليه — اذا شاء أن يحكم بأمره — ان يسكت الناقد الذي في وسعه ان يبين وجه خطاءه . وليس ثمة شعب بالغ من الانسجام مبلغاً محا الفروق بين

(١) استمرار هذا التلازم ليس محتوماً فالدمقراطية الانكليزية حولت جانباً غير يسير من رأسماليتها الى اشتراكية معتدلة

طبقاته وأزال كل باعث من بواعث الاصطدام بين شتى مصالحها . واذن فعلى الحاكم ان يعتقل وينفي ويضطهد كل فريق من الشعب لهُ مصالح تصطدم بمصالح الفريق الذي ينتمي اليهِ او على الأقل المصالح التي يريد ان يغلبها عن اقتناع او عن انسياق. لان من القواعد التي نستخلصها من دراسة تاريخ الحاكمين بأمرهم ، ان المهم في نظرهم ليس ان يكونوا على صواب ، بل ان تعتقد رعيتهم انهم على صواب . فأمير مكيافيلي لم يكن يخطىء لان مقرراته كانت تضع الحد بين الصواب والخطاء . القاعدة في البلدان الدمقراطية — او يجب ان تكون كذلك — انك اذا استطعت ان تقنع الناس بصحة رأيك فقد ربحت القضية . الاّ أنّ الحاكمين بأمرهم يرغمون ولا يقنعون ، ولذلك يحكمون بما يقولون انهُ موافقة تامة فهم على ذلك أعظم الدمقراطيين !

ويرتدُّ فريق من مؤيدي الحكم الدكتاتوري ، الى الحياة الاقتصادية، يستمدون منها الدليل والاسناد ، لتأييد ذلك النظام من الحكم ، فيقولون ان في قدرة هذا النظام السيطرة على تنظيم الانتاج ، ويستشهدون بحالة الفوضى الضاربة أطنابها في ميادين الانتاج في البلدان التي ما زالت آخذة بمبدإ الاطلاق او عدم تدخل الحكومة laissez faire وكيف أفضت الى الازمة الاقتصادية التي أخذت بخناق العالم في السنوات العشر الاخيرة . وهو قول لا يستقيم على علاته . فالزعم ان هناك فيضاً في الانتاج نشأ عن عدم تنظيمه تنظيماً خاضعاً لسيطرة الدولة العليا ، وأفضى الى تدهور الاسعار وما تلاه من أزمة عالمية ، لا يثبت على كثير من النقد . فمن المعترف بهِ ان ملايين وعشرات الملايين من الناس، لا يفوزون من وسائل الحياة الا بما هو دون سد الرمق ودفع البرد . فالقول بفيض الانتاج خطأ من هذه الناحية ، والانحاء باللائمة على فيض الانتاج خطأ كذلك ، وانما اللائمة تقع على الخطط الاقتصادية المغالية في نزعتها القومية ، التي أرهقت التبادل الدولي بالحواجز والحصص وغيرها من القيود التجارية والمالية ، وعلى أثرة المموّلين وطمعهم

نعم ان الحكومة الفاشستية استطاعت ان تبتدع طريقاً يبدو عليهِ انهُ طريق حسنٌ لتنظيم العلاقة بين المال والعمل ، ولكن امتحانهُ في احوال سوية من الحياة لم يتح بعدُ ، وكذلك سيطرت الحكومة النازية على المرافق الصناعية وأخضعتها لنظام عام ففازت فوزاً كبيراً في حذف كلمتي « التعطل عن العمل » من قاموس الحياة الالمانية الآن وأحلّت محلها كلمة « الحاجة الى اليد العاملة » . ولكن أيصح ان تتخذ من ذلك دليلاً على ان مشكلة الانتاج والعمل قد حُلّت ؟ أليست الحياة الاقتصادية الشاذة وصرف كل جهد من جهود الامة الى صنع السلاح ، دليلاً على اننا ما زلنا في حاجة الى الحجّة البينة على ان الحكومات الدكتاتورية اقدر على حلّ مشكلات الانتاج من الحكومات الدمقراطية .

ثم هناك قول بان الدمقراطية أفلست افلاساً روحيًّا . يقول بذلك الملكيون الفرنسيون ، فيزعمون ان الفضائح المالية، والادواء الاقتصادية ، والقلق القومي ، والشذوذ الفني ، والاهمال

الديني ، كانت غير معروفة في عهد الملكية قبل الثورة ، بل كان النظام واحترامه يسودان المجتمع ، ويسيّران الرجال في سبيل الصدق والاستقامة ، الى ان عصفت بهم عواصف ١٧٨٩ ، ففتحت امام عيون الناس آفاقاً من السعادة الوهمية ، آفاق عهد تزول فيه الطبقات ويتساوى الناس جميعاً في مالهم وما عليهم . فاستهوت هذه الصورة مخيلات الشعب ، فانصرف عن ملوكه واقبل على اوهام السلام والحرية والمساواة والاخاء فكانت الحرب الكبرى وفضيحة ستافسكي والفن التكعيبي الساقط والالحاد والمالية الدولية التي يقبض الساميون على اعنتها

وفي اقوال الملكيين الفرنسيين غير قليل من صائب القول . وان كان ربط المقدمات بالنتائج ، على هذا المدى البعيد من الزمن ، من أشق الامور . وليس ثمة ريب بان كل عاقل يريد النظام ولكن ما مداه ؟ وما ثمنهُ ؟ فاذا امتدّ النظام الى اصغر صغيرة في حياة كل منا بحيث يقتل روح الاقدام فحينئذٍ يجب ان نسأل اي ثمن ندفع . والواقع ان النظام امر نسبيٌّ . ولا يمكن ان يبحث منفصلاً عن الغرض منهُ . وكثيراً ما نخطىء فنظنهُ غاية في حد ذاته . وهو في الواقع لا يعدو كونه وسيلة الى هدف سام هو السعادة . ومما لا ريب في ان « التنظيم الاجتماعي » ذو قيمة عظيمة في حفظ السلام ، والسلام ركن لا يستغنى عنهُ في كل ابداع او نشاط انساني . والدمقراطية تعترف بالقيود اللازمة في حياة الفرد وحياة الجماعة . الاّ انهُ كثيراً ما تكون الدعوة الى التنظيم وسيلة ، لتحقيق اغراض أفراد من المتطلعين الى السلطان او المجد او الثروة

فالحاكم بأمره يجب ان يبدو في مظهر المصيب دائماً . وقد أشرت الى احدى وسائله في تحقيق هذا المظهر . ومن وسائله كذلك الدعوة الى الطاعة . فالطاعة — في رأيه — عقيدة يجب ان تبثّ . والمسوّغ الاكبر لبثها النظام الاجتماعي وحفظ كيانه . ولما كان النظام لا غنى عنهُ لانهُ يتيح للملكات الانسانية ، بيئة تستطيع فيها ان تورق وتزهر ، فانحيل الطاعة كثيراً ما يلقى أنصاراً وأتباعاً . الاّ ان المجتمع الذي بلغت فيه الطاعة أقصى حدودها ، لا يعدو كونهُ ، مجموعة من آلات او دمى تتحرك ، بلا ارادة او عقل ، ولا يحركها الاّ الشعور بوجوب الطاعة . ولعلّ خير ما يشبّه به مجتمع من هذا القبيل ، هو قفير النحل . ولعلّ قفير النحل هو أبلغ مثل على « الجهاز الاجتماعي » الذي يسودهُ النظام التام والطاعة لمقتضياته ، ولكنهُ جهاز لا يستطيع ان يبدع قصائد ولا ان يصنع أدباً ولا ان يصور صوراً ولا ان ينحت تماثيل ، فهو مجتمع لا علم لهُ ولا فلسفة ولا فن . فهل هذا غرضنا ، وهدفنا من الاجتماع البشري ؟

قد يذهب بكم الظن الى انني اعترض على فلسفة « القفير » من الناحية الاجتماعية لانني اؤمن بأسطورة « الفرد » على اطلاقها . فالفرد ، اذا نظرنا اليه على انهُ وحدة مستقلة الاستقلال كلهُ ، مكتفية بذاتها الاكتفاء كله ، مساوية المساواة كلها لغيرها من الوحدات ،

اسطورة ، قضى عليها علم الحياة، ونشوء المجتمع الاقتصادي والصناعي. ولا فائدة من انكار اننا نعتمد على غيرنا في تعليمنا ومعيشتنا بل وفي أجسامنا نفسها ومثلنا الروحية . ولكننا مع ذلك لسنا أوعية تفرغ فيها هذه الكنوز المادية والروحية . وحياتنا ليست مقتصرة على الناحية السلبية. فنحن لا نستطيع أن نأكل طعاماً في مطعم اذا لم يكن في قائمته او موادهُ في مطبخهِ . ولكننا نستطيع ان نتخير ما نستطيبهُ او يوافقنا مما هو معروض علينا . فاللاعب في ميدان كرة القدم ليس حرًّا في ان يسير بالكرة الى ما وراء هدف الخصوم ، ولكنهُ في الوقت نفسه ليس بمجرد آلة لنقل الكرة من مكان الى آخر في المضمار وفقاً لقوانين الحركة . حتى في الجيوش ، حيث يقام أعظم وزن للنظام الدقيق ، لا يمكن ان يحسب الجندي آلة . وقوّاد الحرب يعترفون بأن صفة الاقدام ضرورية كصفة الطاعة . والواقع ان كل جماعة تأتلف أفرادها حول السعي لتحقيق غرض ما ، سواء أفي اللعب كان ذلك أم في السياسة أم في الفن ام في التربية ام في التجارة ، تجابهُ مشكلة أساسية هي اقامة الميزان بين الحرية والخضوع ، او بين الحرية والسلطة . وهذان اللفظان يبدوان متناقضين ، وهما متناقضان اذا طبقا على فرد واحد في وقت واحد في صدد واحد . واذن فليس في الوسع ان يكون الرجل منا مستقلاً وخاضعاً لسلطة أخرى في وقت واحد في شأن واحد . وانما لا يجوز لأي رجل عاقل ان يحمل على الخضوع في جميع الاشياء مدى الحياة فيتحول عبداً ، ولا ان يكون مطلقاً في جميع الاشياء مدى الحياة فينقلب فوضويًّا . ولنتخذ مثلنا على ذلك من ميدان التربية . فالمعلم يجب ان تطلق له الحرية في تدريس الموضوع الذي يعهداليه بتدريسه، على خير ما يرى، ولكن عليه ان يقيد تدريسه، بتدقيقهِ في تحري الحقيقة ، وبادراكه ان من حق الطلاب عليه ان تكون أقواله واضحة ومشوّقة

واذن فالحرية والنظام يتسقان . والقول بان الدمقراطية فوضى اجتماعية قول لا يستند الى أساس صحيح . خذوا مثلاً على ذلك الدمقراطية البريطانية ، فانها على الرغم مما يتطرّق الى حياتها من الاعمال النابية ، ليست اكثر فوضى من فرنسا الملكية في القرن السابع عشر او اية دكتاتورية في هذا العصر . فكل حكومة قد تتساهل فتجنح ناحية الفوضى الاجتماعية او قد تشتدُّ وتغلو في حدّ الحرية وتغليب الطاعة والنظام الدقيق . فتجنح الى الاستبداد . وليس هناك ريب في ان الحكومات الدمقراطية اقرب الى التساهل ، لانها توفيقٌ بين مصالح طوائف مختلفة ، بدلاً من ان تكون تغليب مصالح فئة ومحو مصالح الفئات الاخرى

إلاّ ان الدمقراطية لا يجب ان تلتزم جانب الدفاع فقط . فالدمقراطية نظام للحكم وصورة للحياة تتلخص فيها اغلى ثمرات النضال الانساني منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا . فيها تتجلى قيمة الحياة الانسانية . وقيمة الكرامة الانسانية . وقيمة الفكر الانساني . وهي قيم تتنافى والنظام المقابل

لها. فهي بهذا الاعتبار حامية سر الحضارة وحاضنته. فعلينا او على انصارها ان يناضلوا في سبيل تمكين قواعدها وأصولها في النفوس، بالتعليم في المدارس، والنشر في الصحف والكتب، وفي المثل يضربهُ الاقطاب الافذاذ لمعاصريهم وللاجيال التي تلي. ليست الدمقراطية نظاماً جامداً، بل هي سعي دائمٌ الى مثل عالٍ من الحياة الانسانية، فعلى المؤمنين بهذا المثل ألاّ يتراخوا، في الدعوة اليهِ بل وفي الكفاح في سبيله. فالنفوس عندما تتأصل فيها معاني الكرامة الشخصية، وتطبع بأسلوب العلم الحديث الذي يطلب الحرية المطلقة في البحث وريادة المجاهل الفكرية سعياً وراء الحقيقة، تستهين بالاهوال اذا اريد الحجر على حريتها، او امتهان كرامتها

ايها السادة. في محيط التاريخ كما في محيطات الارض نوعان من التموجات. التموجات الصغيرة التي على السطح، والتيارات القوية الدائمة المندفعة في الاغوار. وليس نظام الحكم الدكتاتوري في عصرنا هذا، او ما عرفنا من امثاله في العصور السابقة، الاّ احد هذه التموجات الصغيرة على سطح التاريخ. اما التيار العظيم القوي في تاريخ الانسان، فهو التيار السائر من الاستعباد للطبيعة ثم للكهان والملوك والطغاة، نحو الحرية والكرامة. ان النضال في سبيلها ينتظم حوادث التاريخ واذا كان قد اعتور هذا التيار المندفع، تموجات على السطح غطت عليهِ وأخفتهُ عن الانظار، فليس ثمة شكٌ في ان التموجات زالت وهو باقٍ سائرٌ الى الامام

هذا هو تراث المؤمنين بالدمقراطية. وهو تراث فخم. وهذه هي أهدافهم. وهي اهداف تلمع عند الفضاء الابعد. قد تقضي الاقدار — ونحن في غمار هذه الموجة الصغيرة التي تعبر سطح التاريخ — ان تنصب الاعواد ويعلق بحبالها جماعة الاحرار. ولكنني لست أرى سبباً يدعوهم الى عقد الحبال بأيديهم. اما نحن في الشرق، فلنا في الدين الاسلامي الحنيف، والمسيحي الكريم المتق من الشوائب أعلى مُثُل الدمقراطية من احترام لكرامة الانسان وفكره وخلقهِ. فالسيد المسيح انتقى تلاميذهُ من الصيادين والنبي العربي الكريم اتاح مكاناً في الذروة لمن يصل اليهِ بصادق ايمانهِ وكامل خلقهِ وحسن فكره وعملهِ. واذا كانت الدمقراطية، من حيث هي النظام النيابي في الحكم، جديدة القيام بيننا، واذا كان طريق الدمقراطية الى السعادة الانسانية طريقاً وعراً، يقتضي اليقظة الدائمة والجهد المستمر لانها التوازن الحيّ الدقيق بين قوات المجتمع البشري، فليكن سبيلنا الى ترسيخ قواعدها، المثل الطيب، والتعليم الصحيح، وحماية الفكر الحر. وثقوا ان الفكر الحر يمضي في نضاله يغلب ويغلب حتى يثبت على كرّ الزمن ما فيهِ النفع او الحق او الصلاح. فجانبنا في هذا الصراع الدائر واضح وهو الوقوف الى جانب الحريات، نعززها وندفع عنها، وسيجيء يوم، يجتاز فيهِ العالم هذه الفتر المريضة، فتسكن الموجة السطحية الطاغية، ويبدو أثر التيار العميق القوي، وعندئذٍ نجني ثمار الكفاح

الشيوخ والشبان

بين المطرقة والسندان

للدكتور امير بقطر

« مات في الثلاثين ودفن في السبعين »

[بطلر]

بين الشيوخ والشبان عداء قد تقادم عهده . هو صراع لم يقف دولابه منذ الخليقة لحظة واحدة ، وحرب لم تكف رحاها عن الطحن والدوران منذ ان عرف العالم ذلك الشيخ الوقور الذي اصطلح الناس على تسميته آدم ، وذلك الفتى المكابر الذي شاء مؤرخو الخليقة ان يدعوه قائين . وقد يكون ذلك الصراع نزاعاً جديًّا بين الحكمة والإقدام ، كما انهُ قد يكون ضرباً لطيفاً من المداعبة والمزاح بين أنصار الماضي والقديم ، وأنداد الحاضر والجديد . وقد يكون حرباً شعواء تتغيّر أوضاعها ، فهي تارة بين الاتزان والطيش ، أو التعقل والتهور ، واخرى بين الجمود والمرونة ، أو الوقوف والحركة . ومهما يكن من شيء فان هذا الصراع سنة من سنن الطبيعة ، ان تجد لها تغييراً ولا تبديلاً ، وهو ضرورة لا مفرّ منها ، ووسيلة توسّل بها المجتمع لحفظ التوازن ، حتى لا يسفّ الشيوخ الى الحضيض ، فيجرون العالم على ظهور الدواب الى الوراء أجيالاً ، وحتى لا يجمح الشبان ، فيحملون المجتمع على أجنحة الهواء الى الامام أجيالاً

ومن الغريب أن بين الشيوخ من يأبى أن تتسلل الشعور البيض الى رأسه ، فيحارب على الدوام مع صفوف الشبان ضدّ الشيوخ ، كما أننا نجد بين الشبان من يشتعل رأسه شيباً ، وهو بعد دون العشرين ، فيعيش طيلة عمره كالجندي الخائن ، يحارب رفاقه مع صفوف الاعداء . على أن هذا امر يغلب على الظن أنه نادر الوقوع

***

ألق بنظرك على مصلحة من المصالح ، أو لجنة من اللجان ، أو جماعة من الجماعات ، تجد كلاً من الفريقين المتحاربين يتهيأ لطعن الآخر الطعنة النجلاء . فالشيخ الفخور بتاريخه الطويل ،

المثقل ظهره باختباراته ومعارفه، ينظر شزراً الى ذلك الشاب الغر، ذى العود الرطيب. والشاب الفخور بآرائه الحديثة الحرة الذى لا يتقيد بالماضى، ولا يهاب المستقبل، يهزأ بذلك الشيخ الذى تصلبت شرايينه، وتخشبت آراؤه. وقد اصطلح الناس مراعاة للتقاليد ان ينهزم الشبان احياناً امام الشيوخ تأدباً، قبل ان تصبح المعركة فاصلة. واصطلحوا كذلك ان يكم الشيوخ (الرؤساء عادة) افواه الشبان، حتى لا تؤدي آراؤهم إلى اطلاق السهام إيذاناً ببدء القتال، بدعوى أن الشبان لم تنضج بعد آراؤهم، وان ما عليهم الا التأمين على قول من هم اكبر منهم سناً وإن كانوا حقيقة يفوقونهم فطنة. والنتيجة في أغلب الاحايين مهزلة أو مأساة إذا شئت، فجميع هذه المصالح والمنشآت، على هذا المبدأ، تديرها اوتوقراطية من الشيوخ وتحرم كثيراً من الصفات التي يتسم بها عادة بعض الشبان كالاقدام، والابتكار، والحماسة، والحمية، والقوة. وكذلك نجد الشبان يخطئون كثيراً في الحكم على الشيوخ بالجمود، والمحافظة، والتردد، والرجعية، فتضعف فيهم روح التعاون الصحيح، وإن أذعنوا لرؤسائهم (الشيوخ) في الظاهر

ولا بدع إذا خشي الشاب الذكي المحب للعمل والاصلاح والتعاون، أن تكون سنه عقبة كؤوداً في سبيل نجاحه، فيوهم الغير أنه اكبر سناً، وانه في طريق الشيخوخة. ولا بدع إذا خشي الشيخ المحب للعمل والنشاط أن تكون سنه عقبة في سبيل نجاحه، فيتصابى، ويتصنع، حتى يوهم الغير أنه لا يزال مرناً، مقداماً، في عنفوان العمر. وهذا ما فعله موسوليني أخيراً، وقد أحسن فيما فعل. وذلك انه لما أوشك على الخمسين أوعز الى الصحف ألا تشير الى هذه «الكارثة» تصريحاً أو تلميحاً

***

ولكن ... وهذا بيت القصيد من هذا المقال — ولكن هل ترى الشباب دليل المرونة والنشاط والاقدام، والابتكار، والشجاعة؟ وهل الشيخوخة دليل الجمود، والتراخي، والتردد والمحافظة، والرجعية، والجبن؟ لنترك الاجابة عن هذا السؤال الى التاريخ اولاً، وعلم النفس ثانياً

***

يقول لنا المحاربون في صفوف الشيوخ ان الذهن لا يتماثل الى النضوج والانتاج، والاستعداد للحكم على الأشياء احكاماً صائبة، إلا في سن متأخرة، ويقولون كذلك إن الحياة الجدية لا تبدأ حقيقة إلا بعد الاربعين. بيد أن التاريخ يقول لنا غير ذلك، وها كم الدليل

مات كيتس Keats بعد حياة حافلة بالادب في سن الخامسة والعشرين، وتولى بت (Pitt)

رآسة الوزارة الانجليزية في سنّ الرابعة والعشرين ، ووضع مندلسون (Mendelssohn) روايته الموسيقية الخالدة (Midsummer's Night's Dream) في سن السابعة عشرة ، وبدأت الروائية الشهيرة جين أوستن (Jane Austin) بكتابة رواياتها الدائمة الصيت في الحادية والعشرين من عمرها . ونشر كبلنج Rudyard Kipling اثنى عشر مجلداً قبل بلوغهِ الثلاثين . وقطع لندبرج Lindbergh المحيط الاطلسي الى فرنسا وهو في الخامسة والعشرين ونبغ ابن سينا في الطب والعلم والادب وهو بعد دون العشرين، وبدأت انجلترا وتركيا وفرنسا ومصر، تحسب حساباً لمصطفى كامل وهو اقرب الى العشرين منهُ الى الثلاثين

وكذلك يقول لنا المحاربون في صفوف الشبان ان الشيوخ يصيبهم الهرم والهذيان والاجداب في سن معلومة ،كما تصاب المرأة بالعقم في سن معلومة ، بيد أن التاريخ يقول لنا غير ذلك وهاكم الدليل

***

وضع دانيال ديفو Daniel Defoe اكثر من ثلاثين كتاباً بعد ان جاز السابعة والستين من عمره . وكتب سرفانتيس Cervantes مؤلفهُ الدائم الصيت دون كيشوت Don Quixote الذي يصور عصر الفروسية ، وهو في سن الثامنة والستين . ووضع الفيلسوف كانت Kant أحد مصنفاتهِ الفلسفية العظيمة في الرابعة والسبعين . وهذا تنترتو Tintoretto من اشهر فناني البندقية لم تكف ريشتهِ عن الرسم حتى الرمق الاخير. وقد أخرج لنا لوحته الخالدة « الفردوس » في سن الرابعة والسبعين . وهذا فردي Verdi الموسيقي الطلياني المعروف أتحف العالم بأشهر مقطوعاتهِ الموسيقية البديعة بين الرابعة والسبعين والرابعة والثمانين . ولا تتسع صفحات هذا المقال لتدوين ما يمكن تدوينه من اعمال اولئك الشيوخ الابطال. وحسبي ان اشير الى ما الفهُ هولمز Holmes في التاسعة والسبعين . والى قصة فوست Faust الشهيرة التي انجزها غوته Goethe في الثمانين ، والى Crossing the Bar التي دبجتها يراعة تنيسون Tennyson في الثالثة والثمانين ، وأخيراً الى معجزة المعجزات ، تلك اللوحة الفنية الخالدة « معركة ليبانتو » التي وضعها الرسام الايطالي الشهير تشيان Titian في سن الثامنة والتسعين

هذا من الناحية التاريخية . أما من الناحية العلمية ، فان علم النفس قد كشف لنا أخيراً عن ظاهرة طالما أخطأ الناس في تأويلها . فقد كان من القضايا المسلم بها الى عهد قريب — لا يتجاوز

عشر سنوات — ان النشاط الذهني ، أسوة بالنشاط العضلي ، ولا نقول البدني ، يأخذ في الانحطاط بعد سن الاربعين ، ان لم يكن قبلها بكثير . ويعزى جلّ السبب في هذا الزعم الفاسد الى عدم التفريق بين ضعف الذاكرة ، وضعف الملكات الاخرى ، كملكتي الخيال والتمييز ، وقوة الابتكار ، والمقدرة على الانتاج . ومن المعلوم ان الذاكرة تأخذ في الانحطاط بين سن الاربعين والخمسين ، غير ان كثيراً من هذا الانحطاط الذي يبدو لنا كذلك في الظاهر ، انما هو في الحقيقة شيء آخر . فالرجل متى بلغ المرحلة الخامسة من عمره ، ازدحمت ذاكراته بشتى عناصر الاختبار ، من معلومات ، وافكار ، ومسائل ، وتراكمت في مخيلته حوادث الماضي ، وصور المستقبل ، فلم يعد يعبأ بتافه الامور ، أو يكترث لتفاصيل المسائل . في حين ان الشاب فقير في هذه كلها ، خليّ البال نسبيًّا ، فيستطيع بطبيعة الحال أن يستعيد الذاكرة في سهولة ، ويسرد التفاصيل في سرعة خاطر . وما يقال عن الشيخ الكثير النسيان ، يقال عن الشاب الذي يشغل مقاماً هامًّا في المجتمع . فرئيس الوزراء ، وإن كان في الثلاثين من عمره ، لا يذكر من الحوادث والارقام والمواعيد ، الا ما يتصل بمهام الدولة اتصالاً مباشراً وثيقاً ، كما ان سكرتيره وإن بلغ الخمسين قد يذكر تاريخ اليوم الذي اشترى فيه رئيسه طربوشه الجديد

هذا ما يختص بالذاكرة التي نكرر القول انها تنحط تدريجيًّا ، وان كان هذا الانحطاط يعزى الكثير منهُ الى غير السن . اما فيما يختص بالملكات والكفايات التي أومأنا اليها ، كملكات الحس . والتمييز ، والحكم على الاشياء ، والابتكار ، والانتاج ، فيقول لنا علماء النفس بالحرف الواحد « انهُ من المرجح ان هذه لا تتأثر بالسن »

***

وفي مقدمة البحوث التي كشفت لنا القناع عن هذه المسائل . ما قام بهِ ادوارد ثورنديك ، وهو من أكابر علماء النفس ، ان لم يكن في مقدمة الاحياء منهم قاطبة . وقد خصص ثورنديك ، عدداً يذكر من مؤلفاته التي أوفت على الاربعين ، لدراسة التعلم ، وكيف تتم عمليته في الجهاز العصبي ، والى التعلم بين الكبار وموازنته بمثله بين الصغار . ويتبين من هذه البحوث الحقائق الآتية : —

(١) في نواحي النشاط الجثمانية التي تتطلب مرونة العضل وقوتهُ كالسباحة والرقص واللعب وأمثالها ، ليس ثمة شك في أن السن هي العامل الاكبر

(٢) ان بين سن الثانية والعشرين والثانية والاربعين لا يكاد يبلغ الانحطاط الذهني الاَّ ١٥ في المائة من النهاية العظمى التي يستطيع ان يبلغها الفرد من القوة الذهنية

(٣) انهُ فيما يتعلق بتلقي العلوم ، وتحصيل المواد الدراسية في مراحل التعليم ، من الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية ، لا تنحط ملكة التعلم بين الحادية والعشرين والحادية والاربعين الاَّ بنسبة نصف الواحد في المائة في العام

(٤) اما في غير ذلك فان ليس ثمة مما يحدو الى انحطاط الكفايات ، اللهمَّ الاَّ عدم الرغبة في قبول الآراء الحديثة والمحافظة ، والتعصب للماضي . غير ان هذه كلها لا يبتلى بها الشيخ الذي يتمشى مع الزمن بالمطالعة والبحث ، وتتبع الحركات الفكرية

(٥) بعد سن الاربعين او الخمسين تقل الرغبة في التعلم بطبيعة الحال ، لان الفرد يكون عندئذٍ قد كوَّن نفسه ، واستقرَّ رأيه على المهنة التي يزاولها ، والالعاب التي يمارسها ، واللغات التي يكتبها ويتكلم بها . ولكن هذا لا يقصد به ان الكفايات قد انحطت ، او ملكات الانتاج قد تدهورت ، لان التعلم شيء ، والانتاج شيء آخر . فقد ظل المخترع الشهير اديسون يبتكر ويخترع ويعمل في معمله رغم بلوغه الحلقة الثامنة من عمره ورغم ضعف حواسهِ

***

اذا كانت الحقيقة كما ذكرنا ، فهل هناك ما يبرر ما ذكرناه في صدر هذا المقال من الصراع بين الشيوخ والشبان ؟ وهل من العدل ان يحال الموظف العامل الى المعاش ، وهو بعد مبتكر مبتدع منتج ؟ وهب هذا النظام يعود الى عوامل اقتصادية ترمي الى إحلال الشبان العاطلين مكان هؤلاء الشيوخ ، أليس مما يؤسف له أن نرى في بلادنا بعض الموظفين الاذكياء الاقوياء تخبو انوارهم ، بمجرد احالتهم على المعاش ، فلا تعود نسمع عنهم شيئاً وكأنهم دفنوا أحياء ؟

***

والحقيقة التي لا شك فيها ان السن لم تكن يوماً مقياس النشاط والعمل والانتاج . كما انها لم تكن يوماً دليل الجدب والعقم والذبول . ان الامم في حاجة الى الشيوخ والشبان على السواء ، فاذا كان الفرق بين الشيخ والشاب في التفكير كبيراً ، فان الفروق الفردية بين الشاب والشاب ، والشيخ والشيخ قد تكون اكبر . ومما يغتبط له ان تكون هناك فروق وفروق . لانهُ حينما يكون التفكير متماثلاً . لا يكون ثمة تفكير البتة . وهنا اريد ان اختم كلمتي بعبارة مأثورة عن الفيلسوف الاجتماعي بطلر رئيس جامعة كولومبيا ، ارضاء للشيوخ والشبان على السواء . وهذه هي العبارة وحبذا الحال لو نقشت على بعض القبور « مات في الثلاثين ودفن في السبعين »





اربعون سنة على الراديوم

محسنة الى الانسانية

مشاهد رائعة من حياة مدام كوري

احتفلت الدوائر العلمية في اواخر نوفمبر الماضي بانقضاء اربعين سنة على كشف الراديوم . وقد سبق لنا ان نشرنا في المقتطف غير بحث واحد في هذا العمل العلمي العظيم وسيرة الاستاذ بيير كوري وزوجته ماري سكلودوفسكا كوري وضمنا كتابنا « أساطين العلم الحديث » فصلاً خاصًا بمدام كوري . وها نحن ننشر فيما يلي مشاهد رائعة من حياة هذه السيدة العظيمة مختارة من ترجمتها التي ظهرت حديثاً بقلم احدى ابنتيها ، احتفاء بذكرى كشف الراديوم في اواخر نوفمبر من سنة ١٨٩٨

***

لو طلب الينا ان نتمثل نبل الانسانية في انسان لتمثلناه في مدام كوري ، ففي عقلها عبقرية التفكير العلمي ، وفي قلبها عبقرية الشعور السامي ، وفي حياتها آيات من التضحية ، والسمو ، والبعد عن كل ما يلطخ الخلق ويهبط به من الذرى الى التراب

في سيرة هذه المرأة النجيبة آيات تليها آيات تليها آيات ، حتى لقد اصبحت آيات حياتها اجزاء من اسطورة كأنها اسطورة احدى ربات الاغريق القدماء ، مع ان النبض في قلبها لم يقف الاّ في سنة ١٩٣٤ من التاريخ الميلادي

كانت ابنة شعب مستبدّ به ، ذكيةً فقيرةً جميلةً دعاها العلم فلبّت ، ولكنها قبل ان تصبح جديرة بأسمى تقاليد العلم ، عاشت سنوات في باريس صادفة عن كل شيء الاّ عن التحصيل ، حتى لكثيراً ما صدفت عن الاكل والدفء ، ثم قابلت رجلاً في عبقريته ما لاءم عبقريتها ، فاتحدا في الحياة وبعد الممات ، لان ماري كوري ظلت بعد موت زوجها وهي لا تزال في التاسعة والثلاثين من العمر ، لا تنسى المثل العالي الذي ضربهُ في العلم الصحيح والخلق النبيل ، فما اكرمت مرة الاّ وكان في كلامها اشارة نبل وعطف اليه

كشفت الراديوم، في احوال ترهق من لم يكن مثلها مندفعاً بشعلة علوية . فتفتحت الانسانية بعنصر جديد عجيب، وبأسلوب جديد للعلاج ، وفتحت امام الذهن الانساني مغاليق علم جديد

واذ كانت ماري وزوجها بيير ، في أول الطريق الخارج من كهف الظلمة والانفار والفقر المدقع ، نزلت بهـا آية الحزن بفقد زوجها ووالد بنتيها ، ولـكنها على الرغم من الألم النفسي والوحدة الموجعة ، والتعب الجسماني ، مضت في العمل الذي بدآه معاً ووسعت آفاق العلم الذي خطَّـا قواعده الاولى. وباقي حياتها يدور حول الاعطاء الدائم والمنح المستمر . لا تحفل بنفسهـا بل تنسى نفسها وبنتيها ،حين تقتضي منها مصلحة العلم ،او مصلحة الوطنين— بولندةوفرنسا— او مصلحة الانسانية ، بذلاً ما ، تعطي وتمنح كالشجرة الفوّاحة الشذا في الحقل ، لا تفكر في ما تفوح به ، ولا بمن يرده عليها ،لان حياتها في الفوح

قصة جديرة بموسيقي عبقري يخرج منها سمفونية « الانسانية النبيلة »

***

١ — ولدت في بولندة سنة ١٨٦٧ في بيت ترفرف في جوه أجنحة الثقافة والعلم ، ويخفق في قلوب كباره وصغاره حب الوطن المظلوم . كانت صغرى ذلك البيت ، ولـكنها كانت اذكى اذكيائه . فهي في المدرسة مثل يضرب في المواظبة والطاعة والوطنية وسرعة التحصيل وقوة البداهة . وهي فيالبيت مثل للحنو والعطف على والدها الشيخ ، والاقتصاد في ما تقتضيه من نفقات في ميزانية البيت الضئيلة . وكانت تعلم ان شقيقتها « برونيا » ترنو الى طلب الطب في باريس . وانها لا تملك نفقة ذلك الطلب، فحث « ماري » آية نفسها ، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها ، ولها في حياتها آمال ومطامح وقالت لشقيقتها اذهبي انت الى باريس بما لديك وأنا أجدُ ما أعمله هنا فأرسل اليك كل شهر جانباً من النفقات . وبقيت هذه الفتاة ست سنوات مدربة أطفال في احد بيوت الريف البولندي ، لكي تمكن شقيقتها من التعليم العالي مع انها كانت تعلم ان في عقلها ملكات مدفونة تحتاج الى صقل حتى تبرز لامعة خطافة . ترى ما كان مصير « ماري » وماكان مستقبل الراديوم ، وعلاج السرطان الراديومي ، وعلم الاشعاع قاطبةً ، لو ان الزمن امتدَّ قليلاً « بماري » وهي مدربة اطفال، حتى خبت في نفسها شعلة التوق الىدراسة الطبيعة العالية ، فانثنت بقية حياتها مدرسة ممتازة في مدرسة ثانوية ببولندة ؟

إلاَّ ان في الطبيعة والحياةمن الحكمة آيات تجوز عقولنا القاصرة .ومن آياتهما انهما لم يتيحا لماري أن تذهب الى باريس،الاَّ وقد تهيأ مسرح العالم لرواية « الراديوم » بكشف الاشعةالسينية وأشعة بكريل

٢ — لقد كشف الراديوم وآمنت به الدوائر العلمية بعد ما انكرت وتنكرت ، آمنت بقوة التجربة والبرهان الرياضي والعملي . واستعمل هذا العنصر العجيب في شفاء الامراض السرطانية الخبيثة فذاع ذكراه في كل قطر . ولكن الغرام الواحد لا يستخرج الا من مئات من الاطنان من ركاز خاص ، وبأسلوب معقد لا تعرفهُ الا مدام كوري : أتسجل ذلك الاسلوب وتستخرج امتيازاً به فلا تبيح استعماله الا لمن وفّى لها أتاوة عليه ، كبيرة كانت او صغيرة ؟ أنها اذا فعلت فليس في فعلها ما هو مستغرب او مستنكر . فقد قضت أربع سنوات تبحث عن الراديوم في سقيفة ينهمل من سقفها ماء المطر وتصفر في شقوق أخشابها ألسنة الرياح ، وكثيراً ما كانت تقضي أياماً كاملة وهي تحرك مزيجاً على النار بهراوة من الحديد تكاد تماثلها وزناً . كل ذلك وهي لا تعلم من أين تجيء بالنفقات اللازمة للبيت وللابنتين ؟ نعم كان زوجها يدرس الطبيعة ولكنهُ كان يستوفي مرتباً دونهُ ما يكسبهُ الحمالون

ودخل عليها زوجها في صباحٍ ما بعيد اكتشاف الراديوم ، وقال لها لنتكلم قليلاً فيه ثم بسط لها الفرق بين التسجيل والاباحة ثم قال لها ان شركة اميركية كتبت تبتغي تفصيلاً لطريقة استخراج الراديوم . فقالت (طيب) فقال وعليك ان تقرري هل نسجل هذه الطريقة كأن الراديوم من مخترعاتنا أو نبيحها للعالم بلاشرط ولا قيد ، وقبل ان تقرري لا تنسي الفرق بين التسجيل والاباحة ، لنا ولابنتينا ، فرفعت رأسها وقالت : « ان التسجيل مخالف للروح العلمية » وكذلك أبيح الراديوم للعالم !

***

٣ — وكأن الحياة أرادت ان تجلو بالموت آية الحياة في هذه المرأة ، فجيء بزوجها في أحد أيام سنة ١٩٠٦ محمولاً على الاعناق وهو لا يزال في عنفوان رجولته وقد كسرت جمجمته ونثرت خلايا دماغه عجلة مركبة للنقل تقل ملابس للجنود . فكتمت لوعتها وانطوت على نفسها ، حتى خيل الى أقرب المقربين اليها ان خطراً يهدد عملها العلمي العظيم . وحينئذٍ نهضت فرنسا الى مستوى عظمة هذه المرأة الغريبة عن فرنسا فعينتها خلفاً لزوجها أستاذاً في كلية العلوم بالسربون — أول امرأة تدخل السربون نداً بين انداد من أقطاب العلماء !

واقترب يوم محاضرتها الاولى . فهرع الى مدرج السربون الحكام والامراء والعلماء والطلاب من أجانب وفرنسيين حتى ضاقت بهم رحابه . والجميع يسألون ما يكون موقف هذه السيدة بعد وفاة زوجها . أتستطيع حقاً ان تمضي في الشوط الى نهايته وحدها ؟

وقرعت الساعة الثالثة ، ففتح باب جانبي ودخلت سيدة هزيلة شاحبة مرتدية السواد فحياها

الجمهور بالمتاف ، فوقفت مرتبكة ثم رفعت يدها فساد السكون ، ثم شرعت في القاء محاضرتها . فاذا هي تصل ما انقطع من محاضرة زوجها قبيل مصرعه . لم تشر بكلمة واحدة إلى نكبتها ولوعتها وعظم خسارتها وخسارة العلم بفقده

وهذا ضرب من الشجاعة الصامتة جدير بأن يحتذى

***

٤ — إلاّ ان الخساسة من طبيعة النفوس الصغيرة وما كان نجاح هذه السيدة ، وذيوع شهرتها إلاّ باعثاً على حملة خسيسة دبرت عليها . فشرعت الصحف تشير اليها بوصف «السيدة الاجنبية» أو «الدخيلة» ولم يتورع بعضها عن التلميح الى أنها مدمرة البيوت — وهي التي لم يكن لها متسع من الوقت إلاّ للتفكير في الراديوم اولاً فاذا كان لها شيء من الفراغ عنيت بابنتيها

وذاع نبأ هذه الحملة في وطنها الاصلي ، فاجتمع علماء بولندة و كتابها ، وأوفدوا اليها وفداً يطلب اليها العودة إلى مسقط رأسها ، حيث ينشأ لها معهد خاص بها ، تديره وتبحث فيه ، بعيدة عن الأهواء والمطامع . فأبت ، لان لفرنسا — وطنها الثاني — وللراديوم والمعهد الخاص به الذي حلت بانشائه هي وزوجها معاً ، حقوقاً عليها لا تمحوها خساسة بعض الناس

ومع أن اكاديمية العلوم أبت ان تنتخبها عضواً فيها بحجة انها امرأة ، مع تأييد أعاظم العلماء لها ، الاّ ان اكاديمية الطب الفرنسية ، كفرت عما جنته أكاديمية العلوم بعد سنين فانتخبتها بعد الحرب ، عضواً فيها بالاجماع

***

٥ — وجاءت الحرب الكبرى ، وكانت مدام كوري قد نالت جائزة نوبل مرتين — اولاً سنة ١٩٠٣ بالاشتراك مع زوجها وبكريل — وثانياً وحدها سنة ١٩١١ — وبلغت السابعة والاربعين من العمر فتلفتت حولها ، ورأت أن تطوعها ممرضة في احد المستشفيات ، أسهل طريق لخدمة فرنسا ، فلم ترض بالطريق السهل . وبحثت في حالة المستشفيات العسكرية فرأتها خالية من أجهزة الاشعة السينية اللازمة لتشخيص كثير من العلل والاصابات التي تلازم الحياة العسكرية ، فقضت اربع سنوات من الجهد المتواصل ، في صنع هذه الاجهزة وتدريب من يستعملها ، واستعمالها ، ونظمت فرقة جوالة من السيارات بعد ما جهزتها بالمعدات اللازمة للفحص الطبي بالاشعة السينية ، ولم يقنها سنها عن تعلم سوق السيارات لكي تقود احداها بنفسها . وكثيراً ما كانت تنفق من ١٦ الى ١٨ ساعة كل يوم في التنقل من مستشفى عسكري الى آخر تعاون الاطباء في اعمال الكشف ، ولم يكن بالنادر أن تجري العمليات الجراحية والمصاب معرض للاشعة

لان ذلك يسهل معرفة مكان الرصاصة أو شظية القنبلة او العظم المكسور

وقد كانت مدام كوري تحسب نفسها جنديًا في خدمة فرنسا . فاذا ذهبت الى مستشفى من المستشفيات حيث لا تعرفها رئيسة الممرضات وعوملت معاملة امرأة عادية وبشيء من الخشونة كانت لا تباهي بمن هي ولا بما فعلت وانما كانت تتغلب على ما يساورها من شعور الخيبة بأن تتذكر ان الملكة اليصابات البلجيكية كانت مثلها تقدم مؤاساة الجرحى على المكانة والمقام

ومع ان مدام كوري أبت غير مرة ان يقترح اسمها لكي يهدى اليها وسام اللجيون دونور فالمقربون اليها يعلمون انها كانت تغتبط باهداء وسام اللجيون دونور الحربي اليها بعد الحرب ، لانها كانت تحب ان تعرف بصفة الجندي المكافح

ولكن هذه الرغبة الدفينة لم تجد من يفكر فيها ويحققها

***

٦ — وجاءتها في أحد الايام أميركية معجبة بها وفي خلال الحديث سألتها ما تبتغي لو خيرت في شيء واحد تطلبه فقالت : غرام من الراديوم أستعمله في بحوثي . فدهشت الاميركية ان تجد المرأة التي وهبت الراديوم للعالم وأباحت لهُ طرائق استخراجه المعقدة وهي لا تملك منهُ ما يكفيها للسير في بحوثها . فعادت الى أميركا وأقامت الدنيا وأقعدتها حتى اشتركت نساء أميركا في اكتتاب عام لشراء غرام من الراديوم يهدى الى مدام كوري ، ولما قدم لها رمزه في البيت الابيض في ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ قال الرئيس هاردنغ وهو يقدمه « نحن مدينون لك بمعرفتنا له (الراديوم) وملكنا اياهُ لذلك نرفعهُ اليك ونحن واثقون بأنه وهو في حيازتك لا بد ان يكون وسيلة لتوسيع نطاق العالم وتخفيف آلام الناس »

وما كادت تتسلمهُ حتى وهبته لمعهد الراديوم بباريس . ثم عادت الى اميركا بعد سنوات فوهبتها سيدات اميركا غراماً آخر فوهبتهُ لمعهد الراديوم في وارسو عاصمة بولندة

***

هذه صور خاطفة من حياة هذه المرأة الفذة في عقلها وخلقها وأثرها . ان تعديد الالقاب العلمية التي انهالت عليها من اعظم معاهد العالم وجامعاته يملأ اربع صفحات كبيرة ، ولكن لا الشهرة استهوتها ولا طلب الثروة صرفها عن سبيلها — سبيل العلم والخدمة ، فكانت حياتها سلسلة ذهبية متصلة الحلقات من الاعطاء والمنح والبذل فصحَّ فيها قول جبران « ... هؤلاء يعطون كما ينشر الريحان اريجه الفواح في ذلك الوادي . . . بمثل أيادي هؤلاء يتكلم الله ، ومن خلال عيونهم يبتسم للارض »

الالكترون[1]

نشوء فكرته وتحقيق وجوده
وبعض علاقاته بموضوع العلاج الاشعاعي

لمصطفى نظيف بك
الاستاذ بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الاول

نشوء فكرة الالكترون
في علم الطبيعة

﴿ النظرية المغناطيسية الكهربائية وماظهر من النقص فيها ﴾ وضع « كلارك مكسول » (C. Maxwell) في مبدىء الاعوام الثلاثين الاخيرة من القرن التاسع عشر أو قبيل ذلك ، —وكان أستاذاً للطبيعة بجامعة كمبردج في ذلك العهد— نظريتهُ المغناطيسية الكهربائية في الضوء . تلك النظرية التي يصح ان توجز فكرتها الاساسية في أنها تعد الضوء تغيراً دورياً في شدة المجال الكهربائي مصحوباً بتغير دوري في شدة مجال مغنطيسي اتجاههُ عمود على اتجاه الاول ، حيث ينتقل هذان التغيران في اتجاه عمود على الاتجاهين المذكورين ، بسرعة معينة يمكن تقديرها تكون هي سرعة الضوء

وقد كان دخول هذه النظرية في علم الطبيعة مبطلاً للنظرية القديمة في الضوء التي كانت تعد الضوء موجات عرضية تحدث في وسط موهوم هو « الاثير » أسبغت عليه خواص الجسم الصلب المرن فعرفت « بنظرية الصلب المرن » ، ومبطلاً للتناقض الذي نشأ عن نظرية الصلب المرن هذه بين رأي « فرينل » (Fresnel) العالم الطبيعي الفرنسي في تعيين اتجاه الاهتزازة في الضوء المستقطب بأنهُ عمود على مستوى الاستقطاب ، وبين رأي « نيومان » (Neumann) و « ماكولاغ » (Mac Cullagh) و « غرين » (Green) في القول بأن اتجاهها موازٍ لمستوى الاستقطاب

---

(١) موضوع الكلمة التي ألقاها مصطفى نظيف بك الاستاذ بكلية الهندسة في الاجتماع الذي عقدته الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٣٨ في كلية العلوم بمناسبة اسبوع السرطان

وفكرة الحركة الموجية التي تتضمنها النظرية المغناطيسية الكهربائية جعلتها صالحة للاحاطة بالظواهر الضوئية التي تعزى الى الحركة الموجية ، كظاهرة التداخل وظاهرة الحيود وظواهر الاستقطاب . وكانت النظرية أيضاً صالحة لشرح انعكاس الضوء ، ولشرح الانعطاف بصفة عامة . وأدت ايضاً الى نتائج كالتأثير الضغطي للضوء حققتها البحوث العملية

ولكن لم تكن للنظرية في مبدىء أمرها فيما عدا ذلك أدلة عملية مقنعة تعززها . ولم توجد صالحة لشرح ظاهرة « التشتت » (Dispersion) ولا ظاهرة « التشتت الشاذ » اذا صح ان نسميها كذلك (Anomalous Dispersion) التي كانت معروفة وقتئذ ولا علاقتها « بالامتصاص الخاص » أي « الامتصاص المميز » (Selectvie Absorption)

***

﴿اتمام نقص النظرية المغناطيسية الكهربائية بنظرية توهم فيها وجود «الكترونات»﴾ لذلك رأى « لورنتز » (Lorentz) العالم الهولندي سنة ١٨٧٨ ان يقيم بجانب النظرية المغناطيسية الكهربائية نظرية يكمل بها النقص الذي بدا فيها . ويتم بها شرح « ظاهرة التشتت » وظاهرة « التشتت الشاذ » . وبنى « لورنتز » نظريته على فروض ، فتصور وجود دقائق صغيرة لكل واحدة منها شحنة كهربائية بمقدار، فرضها موجودة في المادة بوجه عام. وفرضها مطلقة الحركة في الاجسام الموصلة للكهرباء . وفرضها مقيدة الحركة ، مقيدة بجزيئات المادة أو ذراتها في الأجسام العازلة

فاذا وضع العازل في مجال كهربائي ، ازيحت هذه الدقائق عن مواضعها الاولى، واذا زال المجال زالت الازاحة واذا كان المجال الكهربائي متردداً أحدث في هذه الدقائق « اهتزازة قسرية » (Forced vibration) ترددها كتردد ذلك المجال . واذا صادف ان كان تردد المجال مساوياً تردد الاهتزازة الطبيعية لهذه الدقائق ، اتسعت اهتزازتها ، وحصل « الرنين » (Resonance) وأصبحت تلك الدقائق في العازل منقادة لذلك المجال بسيرها كما يسيرها المجال في الأجسام الموصلة لولا أن حركتها تؤثر فيها قوة تقاومها ، فيصير لاتساع الاهتزازة حدٌّ ، وتستنفد طاقة المجال بعد ذلك في الشغل المبذول للتغلب على « قوة المقاومة » هذه

تلك بايجاز الفروض الاساسية التي بنى عليها « لورنتز » نظريته والنظرية من جراء هذه الفروض المحدودة المعاني، تصور تصويراً مقبولاً فكرة « الازاحة » في العازل، وفكرة « تيار الازاحة » اللتين كانت تنطوي عليهما نظرية مكسول ، واللتين كان غموض معناهما في مبدىء الأمر، عائقاً الى حد ، عن انتشار النظرية وحسن قبولها لدى بعض علماء الطبيعة في ذلك العصر . وقد استطاع

« لورنتز » أن يتوصل على أساس هذه الفروض الى معادلة يقدر بها معامل انكسار الضوء في المادة العازلة ، وبيّنت معادلته انّ معامل انكسار الضوء يتوقف على تردد الضوء . وذلك على صفة لا تتفق وظاهرة التشتت فحسب بل تصلح لشرح « التشتت الشاذ » وبيان علاقته بالامتصاص المميز بل والتنبؤ بظاهرة لم تك معروفة هي « الانعكاس المميز » (Selective Reflection)

وفي ابّان ذلك العهد شغل « لارمور » (Larmor) — وكان استاذاً للرياضة بجامعة كمبردج وقتئذٍ — ببحوث رياضية تناول فيها اهتزازة الدقيقة المشحونة ، وحركتها المستديرة حول محيط دائرة وحول محيط قطع ناقص وما ينشأ عن مثل هذه الحركة من التموجات الكهربائية ، أو بالأحرى المغناطيسية الكهربائية التي من جنسها موجات الضوء

« ولورنتز » لم يتقيد في نظريته أول الامر بقدر الشحنة الكهربائية على تلك الدقائق الموهومة التي فرضها . بل ولم يتقيد بنوع الشحنة : هل هي موجبة ام سالبة ؟

ولكن بحوث « فراداي » (Faraday) في اوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر عن توصيل السوائل للكهرباء والبحوث التي تلت بحوثه من منتصف ذلك القرن ولا سيما بحوث « هتورف » (Hittorf) و « كلوسيوس » (Clausius) و « كهلراوخ » (Kohlrausch) وغيرهم من التابعين ، دلت على أن توصيل المحاليل للكهرباء يحدث بفعل « أيونات » (Ions) هي اجزاء من جزيئات المذاب مفككة ، بعضها موجب التكهرب وبعضها سالبه ، وان اصغر مقدار لشحنة هذه الايونات هي شحنة ايون الايدروجين ، وان شحنة الايونات الاخرى اما هي تساوي شحنة ايون الايدروجين مقداراً ، واما هي تساوي اضعافها ، فكأن للشحنة الكهربائية على حسب تلك البحوث ، مقدار هو اصغر مقدار توجد عليه الكهرباء ، اي كأن للكهرباء جوهراً فرداً ، او جزءاً لا يتجزأ . هذا الرأي قد تردد في قبوله بعض كبار علماء الطبيعة في ذلك الوقت ولكنهُ لقي قبولاً حسناً لدى ناشئتهم فلم يك ما يحول دون أن تعد شحنة الواحدة من الدقائق الموهومة المفروضة في نظرية « لورنتز » هي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ من الكهرباء وكان بهذه المناسبة ان اقترح « ستوني » (Johnstone Stoney) الطبيعي الانكليزي سنة ١٨٩١ ان يطلق على الواحدة منها اسم « الكترون » فعرفت نظرية « لورنتز » بالنظرية « الالكترونية »

والنجاح الذي صادف النظرية الالكترونية من الناحية المذكورة حث كثيرين من العلماء على تطبيقها في نواحٍ اخرى من علم الطبيعة . فأخذت تطبق لشرح كيفية توصيل الموصلات للكهرباء وتوصيلها للحرارة ولشرح ظواهر اخرى لا محل للخوض فيها هنا

تلك بإيجاز هي الملابسات والظروف التي افضت الى نشوء فكرة الالكترون في علم الطبيعة

اهم الكشوف والبحوث العلمية
التي مهدت الى الكشف عن الالكترون

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد . فقد اخذت بحوث وكشوف اخرى يتتالى بعضها في اثر بعض « الاشعة الكاثودية » فمن احدى النواحي انه خطر لعالم فرنسي « ماسون » (Masson) حوالي منتصف القرن التاسع عشر ان يمرر شرارة كهربائية في فراغ « تورشيلي » الذي يعلو الزئبق في انبوبة بارومترية فاستوقف نظره تغير شكل الشرارة ، واضاءة ذلك الفراغ بضوء متصل يضرب الى الاخضرار فأخذ الكثيرون يجربون امرار الشرارات في انابيب معوجة ملتوية مختلفة الاشكال ، واتخذ بعضهم هذا الامر لهواً ومتعة ، غير ان اصلاح مفرغة الهواء في ذلك العهد اتاح لفريق من العلماء دراسة الظاهرة بصفة جدية . ويكفيني ان اذكر منهم اثنين او ثلاثة ، هم « وليم كروكس » (William Crookes) في انكلترا ، و« بلوكر » (Plucker) و« جولد شتين » (Goldstein) في المانيا . وسرعان ما بيّنت بحوثهم العملية ان احداث التفريغ الكهربائي في انابيب من الزجاج قد خلخلت حتى صار ضغط فضالة الهواء أو فضالة الغازات التي بها صغيراً جدًّا ، يحدث نوعاً من الاشعة مصدره « الكاثود » أي القطب السالب ، اذا ما وقع على جدران الانبوب من الداخل أو على بعض مواد مومضة [1] توضع فيها ، جعلها تومض أو تتلون في الظلام ، واذا ما وضع حاجز أو ساتر بحيث يحول بين الكاثود وبينها ، حصل للحاجز او للساتر ظل ، دالاً ذلك على ان هذا النوع من الاشعة يصدر عن الكاثود وينتشر على سموت الخطوط المستقيمة . ولكنهم اختلفوا في طبيعة هذه الاشعة ، وانقسموا في ذلك فريقين احدهما على رأسه « كروكس » رأى ان طبيعتها مادية ، وسماها « كروكس » « المادة المشعة » والآخر يقوده « جولدشتين » رأى ان طبيعتها حركة موجية . وظل الفريقان يتنازعان . إذ لما تبين ان هذه الاشعة تنحرف بفعل المجال المغناطيسي اتخذ الفريق الاول هذا الامر عضداً لرأيه دون الآخر . ولما بيّن « هرتز » (Hertz) ثم من بعده « لنرد » (Lenard) أنها تنفذ خلال الصفائح الرقيقة من الالومنيوم وما شابهه اتخذ الفريق الثاني هذا الامر دليلاً يقيمونهُ على صحة رأيهم دون الرأي الاول . اذ كيف يتسنى لهذه الاشعة لو كانت حقيقة دقائق من المادة من قبيل جزيئات المادة او ذراتها ان تنفذ من مثل تلك الصفائح ؟ ثم لما بين « پران » (Perrin) في مبدىء السنوات الخمس الاخيرة من القرن التاسع عشر ان هذه الاشعة اذا ما ركزت في اناء أجوف

---

(١) استعمل الكاتب في دروسه وكتاباته « البصريات » منذ زمن طويل لفظ « الوميض » للدلالة على الظاهرة المعروفة باسم (Phosphorescence) ولفظ « التلون » للدلالة على الظاهرة المعروفة باسم (Fluorescence) وللاولى فعل « أومض » وللثانية « تلون »

صغير معزول ، تكسبهُ شحنة سالبة ، عاد الرأي الاول فرجحت كفته . ولبث التنازع بين الرأيين قائماً حوالي عشرين عاماً

﴿ التأثير الكهربائي للضوء ﴾ ومن ناحية أخرى أتيح « لهرتز » وهو يجري تجاربه الخالدة في الموجات المغناطيسية الكهربائية ان لاحظ ان وقوع الضوء ، أو بالاحرى الاشعة المافوق البنفسجية منه ، على فرجة الشرارات التي تحدث خلالها الشرارة الكهربائية في تجاربه ، يساعد على مرور الشرارة . فأخذت العناية تتجه الى البحث عن حقيقة تأثير الضوء ، او الاشعة المافوق البنفسجية ، في الامر . ويكفيني ان اذكر ممن عنوا ببحث هذا الامر في ذلك الوقت اثنين او ثلاثة مثل « هلواك » (Hallwach) و « الستر » (Elster) و« جيتل » (Geitel) فقد أدت بحوثهم الى معرفة أن الموصل تنبعث منه في الفراغ بتأثير الضوء ، ولا سيما الموجات القصيرة منه ، دقائق متكهربة يدل اتجاه انحرافها في المجال المغناطيسي على ان شحنتها سالبة

وبدأ على هذه الصفة ظهور فرع من فروع الطبيعة الحديثة يعرف الآن باسم « الكهربائية الضوئية » (Photo-Electricity)

﴿ ابتعاث الاجسام المتوهجة لدقائق متكهربة ﴾ وايضاً فقد كان من المعروف بوجه عام منذ اوائل القرن الثامن عشر ، أن الاجسام المشحونة المعزولة تفقد شحنتها بتأثير اللهب والتسخين الشديد . فعاد البحث عن حقيقة هذه الظاهرة يلقى شيئاً من عناية بعض العلماء في منتصف القرن التاسع عشر وقد وجدت الظاهرة في مبدىء الامر على جانب من التعقد . فلضغط الغاز ، ولدرجة الحرارة ، ولعوامل أخرى كنوع الغاز ونوع مادة الجسم وما الى ذلك ، تأثيرات مختلفة جعلت بعض النتائج الاولى متناقضة . ولكن تتبع البحث أدى في مبدىء السنوات العشر الاخيرة من القرن ، الى التوصل الى معرفة شيء عن حقيقة الظاهرة ، ويكفيني هنا ايضاً ان اذكر ممن بحثوا هذا الموضوع اثنين او ثلاثة هم « الستر » و « جيتل » و « فلمنج » (Fleming) . فقد دلت بحوثهم على أنه اذا توهج سلك في اناء مفرغ من الهواء تفريغاً شديداً انبعثت منهُ دقائق وجدت هي ايضاً متحملة بشحنة سالبة . وبدأ على هذه الصفة ظهور فرع آخر من فروع الطبيعة الحديثة يعرف باسم « الايونية الحرارية » (Thermo-Ionics)

﴿ اشعة رنتجن والنشاط الراديومي [١] ﴾ وما كادت تتجمع المعلومات والكشوف السابقة حتى أعلن « رنتجن » (Rontgen) سنة ١٨٩٥ كشفه عن الاشعة المعروفة بأسمه . ثم أعقبهُ كشف آخر لا يقل عنهُ خطورة أتيح « لبكرل » (Becquerel) وهو خاصة ابتعاث بعض العناصر مثل

(١) تناول حديث الاستاذ الدكتور علي مصطفى مشرفة بك عميد كلية العلوم في اجتماع الجمعية موضوع «أشعة رنتجن» وتناول حديث الدكتور محمد محمود غالي موضوع «النشاط الراديومي»

« الاورانيوم » لاشعاع لم يكن للعلم الطبيعي علم سابق به . ويكفينا أن نذكر هنا ان من بين هذا الاشعاع الصادر عن هذه المواد نوعاً يتكون من دقائق صغيرة متحملة بشحنات سالبة تسمى الدقائق « البائية » او الاشعة « البائية » (Beta Rays)

﴿ كيفية توصيل الغازات للكهرباء ﴾ تلك كانت حالة علم الطبيعة من الناحية التي تخصنا هنا ، عند بدء السنوات الخمس الاخيرة من القرن التاسع عشر . فقد جاءت الكشوف والبحوث المذكورة يتبع بعضها الآخر بسرعة ولكن لم يكن يتراءى بادىء الامر أن بين تلك الكشوف والبحوث رابطاً يربطها بعضها بالآخر أو سلكاً ينظمها على وتيرة مفهومة فظهر في الميدان « جوزف طمسون » (J. J. Thomson) خليفة « مكسول » في استاذية الطبيعة بمعمل « كفندش » في « كمبردج » ومعه « رذرفورد » (Rutherford) الذي خلف « طمسون » بعد اعتزاله ، وفقده العلم في السنة الماضية . وكان قد تبين إن للدقائق السالبة التي أتينا على ذكرها آنفاً ، ولاشعة « رنتجن » وللاشعة التي تنبعث من المواد الراديومية[1] خاصة هي انها تجعل الغاز الذي تنفذ فيه موصلاً للكهرباء . فبدأ « طمسون » و « رذرفورد » البحث عن كيفية توصيل الغازات للكهرباء . وبيَّنا في بحوثهما ان توصيل الغازات للكهرباء يحدث من تولد دقائق بعضها موجب التكهرب وبعضها سالب التكهرب سميت قياساً على نظائرها في السوائل « ايونات » تتولد في الغازات بفعل العوامل المذكورة ، وان هذه الايونات اذا ما تركت وشأنها تتعادل من جراء انجذاب الموجب منها بالسالب ، فتزول عنها صفة الايونية . فاذا ما تولدت هذه الايونات بفعل أحد تلك العوامل ، في مقدار ما من الغاز ، يوجد بين قطبين ، وجُعل بينهما فرق في الجهد اي مجال كهربائي ، اكتسح المجال بعض الايونات السالبة نحو القطب الموجب ، وبعض الايونات الموجبة نحو القطب السالب ، فمر التيار في الغاز من جراء انتقال الايونات على هذه الصفة . وفي الوقت نفسه تتعادل الايونات الاخرى وتزول عنها صفتها الايونية . واذا كان المجال مستمراً والعامل الذي يولد الايونات مستمراً باقياً ، مرَّ تيار مستمر بحيث اذا زادت شدة المجال او القوة الدافعة بين الموصلين ، عظمت نسبة ما يكتسحهُ المجال من الايونات وصغرت نسبة ما يتعادل منها ، وزادت تبعاً لذلك شدة التيار . حتى اذا بلغت شدة المجال حداً معيناً اكتسح جميع الايونات بمجرد تولدها وبلغ التيار حالة التشبع

ثم عقب « تونسند » (Townsend) أستاذ الطبيعة في اكسفورد على ذلك بأنهُ اذا تجاوز المجال الكهربائي الحد المذكور كثيراً ، اكتسح الايونات بشدة عظيمة ، فتزيد سرعتها كثيراً ،

(١) النسبة هنا الى الراديوم و نؤثر استعمال « النشاط الراديومي » للدلالة على معنى "Radio - Activity" وتقصر استعمال الاشعاع للدلالة على معنى « Radiation »

فيحدث من جراء تصادمها بجزيئات الغاز ايونات جديدة ، وهكذا ، فيزيد عدد الايونات زيادة عظيمة في وقت قصير فيحدث في الغاز ما يعرف بالتفريغ الفجائي المصحوب بالشرارة الكهربائية المألوفة . وسرعان ما انتشرت هذه النظرية واتسعت البحوث على هداها ، وارتبطت المعلومات السابقة شيئاً ما بعضها بالآخر . وأجريت بحوث عدة لا يسمح المجال بالخوض فيها قيست فيها سرعة الايونات ودرست فيها خواصها في الغازات المختلفة وفي الظروف العدة التي تتولد فيها بفعل تلك العوامل

الكشف عن الالكترون

وقد توج القرن التاسع عشر قبيل انصرامه بما هو من غير شك من اعظم الكشوف التي شهدها علم الطبيعة في تاريخ نموه . فقد اجرى «جوزف طمسون» خلال الثلاث السنوات الاخيرة منهُ ، سلسلة بحوث عن حقيقة الاشعة الكاثودية ، وبعض الدقائق السالبة التي أشرنا اليها فيما قبل . ففي بعض هذه البحوث حرَّف « طمسون » الاشعة الكاثودية بفعل المجال المغناطيسي ثم سلط عليها مجالاً كهربائياً حرفها في ضد الاتجاه ، وهيأ المجالين بحيث أبطل أحدهما فعل الآخر ، واستنبط من معرفة شدة كل من المجالين مقدار نسبة شحنة الدقيقة الواحدة الى كتلتها ، بل واستطاع أيضاً قياس سرعتها . فقضت هذه البحوث بالحكم القاطع بصحة الرأي القائل بأن الاشعة الكاثودية هي دقائق كل واحدة منها ذات كتلة ومتحملة بشحنة سالبة ودلت نتائج طمسون على ان نسبة الشحنة الى الكتلة لهذه الدقائق واحدة ، ليست تختلف تبعاً لاختلاف نوع فضالة الغاز المتخلف في الانابيب ولا تبعاً لاختلاف نوع مادة الكاثود

ثم عقب «طمسون» على هذه البحوث بأخرى عيّن فيها نسبة الشحنة الى الكتلة للدقائق السالبة التي تنبعث بفعل الاشعة المافوق البنفسجية ، وبأخرى عيّن فيها تلك النسبة ايضاً للدقائق المنبعثة من الاجسام المتوهجة في الفراغ

فكانت نتائج البحوث جميعاً ان تلك النسبة واحدة . ولكنها وجدت اضعافاً مضاعفة للنسبة النظيرة لها لايون الايدروجين . فقد بلغت تلك النسبة على حسب نتائج طمسون في ذلك العهد ثمانمائة مرة قيمة النسبة الثانية وهي بحسب النتائج الحديثة حوالي ثمانمائة والف مرة . وهنا تتجلى ناحية الالهام التي لا تخلو منها الكشوف العلمية الخطيرة . فطمسون فسّر هذه النتائج بأننا ازاء دقائق شحنتها سالبة ومقدارها هو الجوهر الفرد للكهرباء او الجزء الذي لا يتجزأ منها . اي ان مقدار شحنتها كمقدار شحنة ايون الايدروجين وان كانت تختلف عنها في النوع . واذن تكون كتلة الدقيقة الواحدة منها جزءاً صغيراً جدًّا من كتلة ذرة الايدروجين ، التي هي اصغر ذرة من ذرات المادة المعروفة في الكيمياء ، فتكون كتلة الدقيقة الواحدة على حسب هذا التفسير هي

جزء من ٤٠٠٠ والفجزء من كتلة ذرة الايدروجين . وقد كان لهذا التفسير ما يبرره ، فالنسبة واحدة لجميع تلك الدقائق التي يحصل عليها بالطرق المختلفة ، وليست تتوقف على نوع المادة ، والاشعة الكاثودية قد ثبت كما في تجارب « هرتز » و« لنرد » انها تنفذ من الصفائح الرقيقة، فذلك كله في مجموعه يبرّر القول ، بأنها دقائق صغيرة اصغر من ذرة المادة ، ومن مقوّمات الذرة المادية

وما كاد « طمسون » يعلن نتائج بحوثه هذه ، حتى قام « بكرل » وتبعهُ آخرون بتعيين النسبة نفسها للدقائق البائية المنبعثة من بعض المواد الراديومية . ودلت النتائج على ان النسبة لهذه الدقائق ايضاً تساوي النسبة النظيرة لها التي توصل اليها « تومسون » في تجاربه المختلفة

وفي ابان الوقت الذي كان طمسون يجري فيه بحوثه المذكورة كشف «زيمن» (Zeeman) العالم الهولندي ظاهرة في الضوء تتلخص في ابسط حالاتها في انَّ كل خط من خطي طيف الصوديوم يعرض قليلاً بفعل المجال المغناطيسي فأرسل الى « لورنتز » ينبئهُ بالامر ويستفسره فيه

واستطاع لورنتز ان يفسر هذه الظاهرة على اصول نظريته الالكترونية بل واستطاع ان يبين الاحوال التي ينتظر ان ينشق فيها الخط الواحد من خطوط الطيف خطين ، والاحوال التي ينشق فيها ثلاثة خطوط ، واستطاع ان يتنبأ عن حالة الاستقطاب في كل واحد من هذه الخطوط ، كل ذلك على اساس انَّ الضوء يحدث عن اهتزازة الالكترونات المفروضة في نظريته . بل واستطاع « لورنتز » ان يبين كيف يمكن التحقق من نوع الشحنة على تلك الالكترونات بل وأكثر من ذلك كيف يمكن بمعادلة توصل اليها ببرهان رياضي تعيين نسبة الشحنة الى الكتلة لتلك الالكترونات من قياس الفرق في التردد بين الخطوط المنشقة الحاصلة في الظاهرة

وكان مآل ذلك أن استطاع « زيمن » تعيين نسبة الشحنة الى الكتلة للالكترونات التي توهمها « لورنتز » وبنى عليها نظريته الالكترونية ووجدت هذه النسبة ايضاً مساوية النسبة التي توصل اليها طمسون في تجاربه . على هذه الصفة تبين ان الدقائق الكاثودية والدقائق التي تنبعث من الموصلات بفعل الاشعة الضوئية لا سيما المافوق البنفسجية ، والدقائق التي تنبعث من الاجسام المتوهجة والدقائق البائية التي تنبعث من بعض المواد الراديومية ، بل والالكترونات المفروضة الموهومة في نظرية لورنتز هي جميعها دقائق كنهها واحد ، وطبيعتها واحدة ، وهي كلها بحسب تفسير « طمسون » متحملة بشحنة سالبة هي الجوهر الفرد للكهرباء ، وكتلتها جزء صغير جدًّا من كتلة أصغر ذرّة معروفة في الكيمياء

وأن كان طمسون قد أطلق على الدقائق التي اختبرها في تجاربه اسم « ذريرات » (Corpuscles) وحاول التمسك لها بهذا الاسم ، فقد غلب اطلاق اسم « الكترونات » عليها هي أيضاً ، وصار اسم «الالكترون» يدل على جميع تلك الدقائق ويلابسها جميعاً

تعيين شحنة الالكترون

وقد أراد « طمسون » ان يتحقق بالتجربة من أنَّ رأيه القائل بأن الشحنة السالبة الموجودة على كل دقيقة من تلك الدقائق ، او على الالكترون بحسب الاسم الشائع ، هي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ للكهرباء ، أراد أن يتحقق من أنَّ رأيه هذا لا تعوزه الادلة العملية . ولما كانت الغازات توصل الكهرباء بفعل الايونات التي تتولد فيها ، فان امكن قياس شحنة الايونات التي تتولد في الغازات ، وان دلت النتائج العملية على أن لشحنتها قدراً معيناً لا يوجد أصغر منهُ ويساوي قدر شحنة ايون الايدروجين ، كان هذا دليلاً على صحة القول بأن للشحنة الكهربائية جوهراً فرداً ، وان رأي طمسون في ان شحنة الالكترون هي الجوهر الفرد للكهرباء مقبول

مضى طمسون في معالجة هذا الموضوع ، واستطاع أن يتخذ المعلومات التي كانت معروفة في عصره مطية الى الغاية التي يريدها . والقصة طويلة . ولكننا نوردها بايجاز . فقد كان من المعلوم ان وجود دقائق من الهباء أو الغبار أو الدخان في الهواء يساعد على تكاثف بخار الماء المشبع أي يساعد على تكون الضباب ثم تبين ان وجود أيونات في الهواء يساعد هو ايضاً على هذا الامر . وكان قد تبين من تجارب اجراها « ويلسون » (C.T.R. Wilson) بمعمل « كفندش » في كمبردج سنة ١٨٩٧ انهُ اذا مُدد الهواء المشبع ببخار الماء فجاءة ، تمدداً نسميه ثابت الحرارة (Adiabatic) حتى صار حجمه ما بين ١٫٢٥ ، ١٫٣٠ من حجمهِ الأصلي ، تكاثف بخار الماء على الايونات السالبة دون الموجبة ، اما اذا تمدد حجمه بمقدار اعظم من ذلك ، تكاثف بخار الماء على النوعين السالب والموجب من الايونات

على هدى هذه المعلومات رسم طمسون بحوثه . فبدأ بحجم معلوم من الهواء النقي المجرد من الهباء والغبار والدخان وما إلى ذلك ، فوق سطح قليل من الماء في اناء خاص بحيث كان الهواء مشبعاً ببخار الماء . وأحدث في الهواء ايونات بفعل اشعة رنتجن . ثم جعله يتمدد بالقدر الذي يجعل التكاثف على الايونات السالبة ، وكانت هي في بعض البحوث المقصودة ، دون الموجبة . فحدث في الاناء ضباب بالتكاثف على الايونات السالبة . فراقب الضباب وهو يرسب الى قرار الاناء ، وقاس سرعة رسوبه رأساً . ومن معرفة هذه السرعة امكنهُ من قانون كان قد اثبتهُ « ستوكس » (Stokes) ببرهان رياضي ، ان يقدّر نصف قطر قطيرة الماء في ذلك الضباب ، واذن حساب حجم القطيرة ثم حساب كتلتها . ثم قدّر بطريقة حسابية كثيراً ما تَرد عليها اسئلة في امتحانات الطبيعة ، كتلة بخار الماء المشبع الموجود في الهواء قبل التكاثف ثم كتلة بخار الماء المشبع الموجود فيهِ بعد

التكاثف ، واذن كتلة ما تكاثف منهُ ضباباً ، أي كتلة الضباب الحادث في التجربة . فاذا ما عرفت على هذه الكيفية كتلة الضباب الحادث وكتلة كل قطيرة منهُ . عرف عدد القطيرات . فاذا فرض ان كل قطيرة تتكاثف حول ايون واحد . كان هذا العدد هو عدد الايونات السالبة الموجودة في الهواء . فاذا قيست الشحنة الكهربائية التي تحملها جميع الايونات ، امكن معرفة شحنة كل ايون منها على حدته

كانت هذه الطريقة اول طريقة قيست بها شحنة ايون الغاز . وقد اصلحت الطريقة فيما بعد ، اصلحها «ويلسون» H. A. Wilson ، فسلط على الايونات مجالاً كهربائياً يجذبها الى اعلى بحيث تبقى قطيرات الضباب معلقة . ثم أصلحها من بعده «مليكان» (Millikan) استاذ الطبيعة في جامعة «شيكاغو» فاستبدل بقطيرات الضباب قطيرات من رذاذ من الزيت ، فلا تتبخر بسرعة ، وأحدث الايونات . فاذا ما اتصل بعض القطيرات ببعض الايونات اصبحت مشحونة ، فسلط عليها مجالاً يجذب المشحونة بشحنة سالبة الى اعلى أو يجذب المشحونة بشحنة موجبة الى اعلى ، وبحيث يتعادل الجذب الكهربائي الى اعلى بجذب الارض لها الى أسفل فتبقى القطيرات معلقة ، لا تهوى ولا تعلو ، واستطاع أن يرقب منها واحدة ، لنظر اليها بميكرسكوب ، فتيسر له ان يقيس قطرها ويستخرج وزنها ، ثم قدّر بعد ذلك شحنتها ، دون ان يلتجيء الى مثل ما انطوت عليه طريقة طمسون الاولى من القوانين والحسابات المختلفة

وجاءت نتائج هذه البحوث معاضدة لرأي طمسون . فالشحنة الموجودة على ايونات الغاز سواء منها الموجب أو السالب توجد بمقدار له قيمة معينة محدودة بمعنى ان الايون قد تكون شحنته مساوية هذا المقدار ، أو ضعفه ، أو أضعافه ، ولكنها ليست تساوي في حال من الاحوال ، نصفهُ مثلاً أو جزءاً منهُ . وذلك المقدار وجد مساوياً مقدار شحنة ايون الايدروجين ، فهو اذن الجوهر الفرد للكهرباء ، وهو اذن مقدار الشحنة السالبة للالكترون

الصفات الذاتية للالكترون

وبعض نواحيه الخاصة

وقد اتجه الفكر منذ أول نشأة النظرية الالكترونية الى تكييف معنى كتلة الالكترون تكييفاً خاصاً . وكان «لطمسون» بحث رياضي ، بيّن فيه انهُ اذا فرضت كرة ، وكانت عليها شحنة وأريد تحريكها بسرعة معينة ، فنظراً لان حركة الشحنة هي بمنزلة تيار كهربائي ، وللتيار الكهربائي مجال مغناطيسي يتطلب حدوثه مقداراً معيناً من الشغل ، فان الشغل اللازم لتحريك الكرة وهي مشحونة يساوي طاقة حركتها بصفة كونها كتلة متحركة بسرعة معينة والطاقة

اللازمة لاحداث المجال المغناطيسي المذكور . واذن الشغل اللازم لتحريك كرة معينة ذات كتلة معينة وهي مشحونة أكبر من الشغل اللازم لتحريك الكرة نفسها بالسرعة نفسها اذا كانت مجردة عن الشحنة . فكأن وجود الشحنة على الكرة يزيد من قصورها الذاتي ، أو هو يزيد من كتلتها . أي كأن للجسم المشحون كتلة تعرض عليه من جراء وجود الشحنة الكهربائية عليه . وأيضاً اذا فرضنا شحنة كهربائية معينة متكاثفة في حجم كري صغير ، وموجودة مجردة عن وجود كرة مادية تشغل ذلك الحجم ، فانهُ يلزم لتحريكها بسرعة معينة مقدار من الشغل يساوي الطاقة الموجودة في المجال المغناطيسي الذي يحدث من جراء حركتها ، ومن السهل حساب الكتلة التي يلزم لها المقدار نفسه من الطاقة لكي تتحرك بالسرعة نفسها . على هذا الاساس وبهذا المعنى يمكن ان تعد كتلة الالكترون ، كتلة عارضة من جراء حركة شحنة الالكترون بالسرعة التي يتحرك بها ، وليست كتلة مادية من جراء كونه دقيقة من المادة لها كتلة . وهذا هو المعنى المقصود من القول بأن ماهية كتلة الالكترون هي « مغناطيسية كهربائية » وينتظر على هذا الاعتبار ان تتغير كتلة الالكترون تبعاً لتغير سرعته ، فتزداد تبعاً لزيادة السرعة على وتيرة معينة تتبين ببرهان رياضي . وقد دلت التجارب فعلاً على ذلك . بل يمكن أيضاً على أساس كون كتلة الالكترون « كتلة مغناطيسية كهربائية » تعيين نصف قطره . وبذلك يتم تعيين الصفات الذاتية للالكترون . فيكون الالكترون شيئاً لهُ شحنة سالبة معينة معلومة ولهُ كتلة معينة معلومة ولهُ حجم معلوم . وبحسب التقديرات الحديثة

شحنة الالكترون = ٤٫٧٧ × ١٠

أو = ١٫٥٩ × ١٠^-٢٠ من الوحدات المغناطيسية الكهربائية

وكتلته = ٩ × ١٠^-٢٨ من الجرام

ونصف قطره = ١٫٩ × ١٠^-١٣ من السنتمتر بالتقريب

في حين ان ذرة الايدروجين كتلتها تسعة وثلاثون وثمانمائة وألف مرة كتلة الالكترون ونصف قطرها حوالي خمسين الف مرة نصف قطر الالكترون

ولا يسمح المجال بالاسترسال في بيان ما يقال عن ان الكتلة بوجه عام وضمناً كتلة الالكترون مظهر من مظاهر الطاقة ، بالمعنى المفهوم من نظرية « الاضافة [١] » ولا في بيان ما يدور من الآراء الحديثة حول « هوية » الالكترون وكنه طبيعته . هل هو

(١) استعمل الكاتب منذ زمن طويل لفظ « الاضافة » للدلالة على نظرية « اينشتين » في النسبية . وذلك احياء لاصطلاح استخدم قديماً في الفلسفة العربية في معنى قريب من الفكرة الاساسية التي بنى عليها اينشتين أول الامر نظريته

كتلة ذات شحنة ؟ ام هل هو مجموعة من الموجات ؟ ام هويته وكنهه ووجوده ، ثنائية ، يبدو في ظروف معينة كدقيقة ذات كتلة وذات شحنة ، ويبدو في ظروف اخرى كمجموعة من الموجات ؟

ولا يسمح المجال بالاسترسال في بيان ما تم منذ خمس سنوات من الكشف عن شقيق الالكترون . ذلك الذي كتلته ككتلة الالكترون ، وشحنته كشحنة الالكترون في المقدار ولكنها تخالفها في النوع . ذلك الذي يسمونه (Positron) ويصح ان نسميه « الموجبرون » . ونضع للالكترون اسماً مرادفاً ونسميه «السالبرون» فيختص كل منهما باسم يدل عليه يميزه عن الآخر . ولا يسمح المجال ايضاً بالتوسع في بيان الرأي القائل بأن « الكم الحيمي » ذا الطاقة الشديدة والتردد المرتفع اذا صدم ذرة من ذرات المادة، انفجر شقين، احدهما «السالبرون» والآخر شقيقه « الموجبرون » . ولا يسمح المجال بتفصيل الكشف الذي اتيح خلال هذا العام عن «الكترون» ، ولا يزالون يسمونه الكتروناً ، كتلته ستون ومائة مرة او يزيد كتلة الالكترون الذي هو موضوعنا في هذا المقام . ولنكتف بذكر هذه الامور ولنشر اشارة موجزة الى الدور الذي يؤديه الالكترون في العالم الطبيعي . هو لا شك ركن من اركان الذرة او بالاحرى هو كذلك على حسب المعلومات الحالية . وهو مصدر النور والحرارة وجميع الاشعاع (الاثيري) اذا جاز لنا الآن ان نستعير من علم الطبيعة القديم احد اصطلاحاته ، او فلنقل هو مصدر جميع الموجات المغناطيسية الكهربائية سواء منها ما طالت موجته فكانت اذرعها عشرات الكيلومترات ، او ما قصرت فكان ذرعها جزءاً من عشرة اس عشرة من السنتمتر الواحد

هذا الالكترون الخطير الشأن في عالم الوجود استطاع الانسان ان يتسيطر عليه ويسخره في مآربه . استطاع ان يستخدمه لاحداث موجات اللاسلكي ولاستقبالها وما الى ذلك[1] واستطاع ايضاً ان يستخدمه لضبط اللصوص ، ولحصر عدد الارغفة التي تخبز في الافران الكبيرة ، ولتوقيت الزمن سواء في حلبات السباق او في المراصد ، ولايقاف القطرات او تحويل مجراها بل ولقياس طمي النيل ولتقدير (عكارة) السوائل ومقادير الدخان والغبار المنتشر في اجواء المصانع والمعامل[2]

ولكن ما علاقة هذا الالكترون بموضوع العلاج الاشعاعي عامة وموضوع السرطان خاصة

---

(١) الاشارة هنا الى الصمام الايوني الحراري وتطبيقه في اللاسلكي وغيره

(٢) الاشارة هنا الى الخلية الضوئية (Photo-cell) وتطبيقها في الاغراض المذكورة ومنها ما نشر من تجارب للدكتور محمد محمود غالي في تقدير طمي النيل

بعض علاقات الالكترون

بموضوع العلاج الاشعاعي

لندع جانباً القول بأن الالكترونات هي الوسيلة العملية للحصول على أشعة رنتجن التي يعالج بها السرطان . ولندع جانباً القول بأن الالكترونات ذات علاقة وثيقة بحدوث الاشعة الجيمية التي يعالج بها هي أيضاً هذا الداء ، وسواء لدينا أكان انطلاق الالكترونات من ذرات المادة هو الذي يسبب صدور الاشعة الجيمية أم كان صدور الاشعة الجيمية هو الذي يسبب انطلاق الالكترونات . فالعلة والنتيجة من الالفاظ التي تغيرت معانيها في الوقت الحاضر

ولنقل انهُ من الثابت المؤكد ان للالكترونات تأثيراً حيويًّا في الانساج وفي الخلايا . وان لم تكن الالكترونات قد تم استخدامها كطريقة من طرق العلاج الاشعاعي فان دراسة تأثيرها الحيوي اخذت تسترعي في الوقت الحاضر انتباه فريق من العلماء لا سيما في اميركا.وما يدرينا لعلها أصلح فعلاً وامعن تأثيراً

ولربما تكون علاقة الالكترونات بالعلاج الاشعاعي اشد صلة في الواقع مما يبدو في الظاهر فان كان التأثير الطبيعي لاشعة رنتجن مثلاً وهو تأيين الغاز ، انما هو بفعل الالكترونات الثانوية التي تحدثها هذه الاشعة ، وبالمثل ان كان التأثير الطبيعي للاشعة المافوق البنفسجية كذلك،ألا يصح التساؤل هل التأثير العلاجي لهذه الاشعة هو ايضاً بفعل الالكترونات الثانوية التي تحدثها وهل معنى المثل القائل « ان الاسم لطوبه والفعل لامشير » ينطبق هنا ايضاً

وايضاً ان كان «الكم الجيمي» كما اشرنا الى ذلك من قبل،ينفجر عند تصادمه بذرة المادة شقين احدهما « السالبرون » والثاني « الموجبرون » ألا يصح التساؤل هل لهذا الموجبرون ايضاً علاقة بالفعل العلاجي للاشعة الجيمية ، تلك خواطر اكتفي بذكرها مجردة عن التعليق عليها بالنفي او الاثبات

***

وعلاوة على كل هذا فقد تبين ان للالكترونات علاقة بموضوع العلاج الاشعاعي من ناحية اخرى . في سنة ١٩٣٣ كشف عما يسمونه (Neutron) ويصح ان نسميه « المتعادلرون » وهو دقيقة كتلتها كذرة الايدروجين ولكنها في حالة تعادل كهربائي ليست لها شحنة كهربائية وقد وجد ان للنيوترونات خواص تميزها تجعل لها شأناً خاصًّا في موضوع العلاج الاشعاعي. فمثلاً من خواصها ان المواد الايدروجينية اى المركبات التي تحتوي على عنصر الايدروجين تمتصها بشدة دون غيرها . فهي من جراء ذلك تمتصها الانسجة الايدروجينية بشدة دون العظام وايضاً

فان الفعل التأييني لهذه النيوترونات أشد كثيراً من نظيره لاشعة رنتجن او الاشعة الجيمية وتجارب «لورنس» (Lawrence) وزملائه في اميركا في الوقت الحاضر تدل على ان فعلها الحيوي ايضاً اشد كثيراً من نظيره لاشعة رنتجن او الاشعة الجيمية بل وتدل علاوة على ذلك على ان فعلها الحيوي مميز[1]، وهو من هذه الناحية أشد تمييزاً من نظيره لتلك الاشعة ولهذه النيوترونات خاصة اخرى هي انها تثير في المواد التي ليست لها بطبيعتها خاصة « الراديومية » ، هذه الخاصة وتكسبها هذه الخاصة بشدة

والمواد التي تثار فيها هذه الخاصة بالطرق الصناعية نسميها « مواد راديومية صناعية »ومن المرجح كثيراً انه سيكون لها في القريب العاجل شأن عظيم ربما يتجاوز حد التصور في وقتنا الحاضر لا في علاج السرطان وغيره من الامراض فحسب ، بل في نواحي شتى كثيرة منها ما يتعلق بالطب بوجه عام ، ومنها مايتعلق بالصناعة وغيرها

***

وللحصول على هذه النيوترونات في الوقت الحاضر طرق مختلفة . والذى يعنينا امره هنا ان من هذه الطرق طريقة تسدد فيها أشعة رنتجن ذات طاقة عظيمة الى مادة « البريليوم » والوسيلة لتوليد هذه الاشعة الرنتجنية ذات الطاقة العظيمة ان تصوب الكترونات هي الاخرى ذات طاقة عظيمة تتجاوز مليوناً من الفولطات الى هدف من مادة « الطنجستن » ومما يستعان به للحصول على هذه الالكترونات جهاز خاص اخترع حديثاً نسميه « المولد الدفعي »[2] يولد قوة دافعة كهربائية فجائية تبلغ مليوناً ومليونين أو يزيد من الفولطات . ويكفيني في هذا المقام ان اذكر ان من بين ما يُعدّ به الآن الاستاذ « جوليو » (Joliot) ، معمله الحديث بباريس ، جهازاً من هذا القبيل من المنتظر ان تبلغ القوة الدافعة التي تتولد منه ثلاثة ملايين ڤولط او اكثر ، فيحدث الكترونات ذات طاقة عظيمة تقع على هدف من الطنجستن، واذا احيط حوله بمادة البريليوم انتشرت خلال هذه المادة الاشعة الرنتجنية التي تتولد فتحدث النيوترونات ، حيث تستخدم هذه النيوترونات بعد ذلك للاغراض المطلوبة ، كاثارة الرديومية الصناعية في المواد التي يراد اختبارها او استعمالها ، وما الى ذلك

---

(١) نعني بمميز هنا انها تبيد أوتتلف الخلايا أو الا نسجة المريضة وتنشط السليمة

(٢) هو Impulse Generator ويسمى احيانا Surge Generator واول مانشر عن توليد النيوترونات بهذه الطريقة خطاب في مجلة Nature في العدد الصادر في ٨ دسمبر سنة ١٩٣٤ وكان مذيلا بسبعة اسماء وكان من بينها اسم « عدنان والي » المدرس الآن بقسم الطبيعة بكلية الهندسة

الدولة والفرد

توطئة لبحث المذاهب السياسية
في هذا العصر

لعلي ادهم

مسألة سيادة الدولة ومدى علاقة الفرد بتلك السيادة في طليعة المسائل التي يقوم حولها الجدل ويستفيض البحث في العصر الحديث ، وقد كانت فكرة سيادة الدولة على الدوام من الافكار التي يتناولها قادة المفكرين ويعرض لها الباحثون في السياسة والاجتماع ، وقد تناوبت العصر الحاضر صروف سياسية واحداث جمة استوجبت اعادة النظر في هذه الفكرة وعرضها من جديد على محك البحث. وسيادة الدولة عند الفاشيين والنازيين ليست مثاراً للجدل والمناقشة وانما هي من الامور المقطوع بصحتها والمسلم بها ، وقد كان ذلك مما زاد العناية ببحثها والاقبال على تدبرها حتى اصبح الحديث عنها غير مقصور على رجال السياسة وعمداء القانون

والفكرة القائلة بسيادة الدولة المطلقة تستمد قوتها من مصدرين مختلفين من مصادر التفكير اليوناني ، فقد كان في التفكير اليوناني نزعة ترمي الى اعتبار الدولة وحدة كلية قائمة بذاتها مكتفية بنفسها مستغرقة للمجتمع بأسره ، وافلاطون نفسه يأخذ بهذا المذهب ، وارسطو يعلن في بحوثه السياسية ان من طبيعة الدولة الاكتفاء بنفسها ، والعلاقة الوحيدة عندهما بين الدولة والدول الاخرى هي علاقة العداء والمنافسة والكراهة المتأصلة، ولذا كانت علاقات الحكومات اليونانية بعضها ببعض قائمة على العداء المستمر والتربص الدائم ، وقد ردد الفيلسوف هوبز ذلك حين قال « الدول بطبيعتها اعداء »

ونلمح من ثنايا ذلك ان ما يعتبره بعض المفكرين علاقتين متمايزتين وهما علاقة الفرد بالدولة من ناحية ، وعلاقتهُ بالنوع الانساني من ناحية أخرى ، لا وجود له في هذا النمط من التفكير لان الدولة مستوعبة لجميع الافراد وحقوقها مقدمة على حقوقهم ومكانتها هي المكانة السامية المرموقة فهي ملاذ الفرد وكهف رجائه

وتصور مفكري اليونان للطبيعة الانسانية هو المصدر الثاني الذي تستمد منهُ النظرية قوتها، وذلك لان الكثيرين ممن تحدثوا عن النظريات السياسية يستمسكون بالرأي الذي يذهب الى ان حقيقة الفرد هي تلك الشخصية المنفردة الحائرة التي يعرفها الفرد في تلك الحالة الافتراضية المسماة «حالة الطبيعة» وذلك قبل ان يدخل المجتمع ويخضع لاحكامه ويحمل اعباءه، والمجتمع في زعم اصحاب هذه النظرية بناء صناعي متكلف قائم على تعاقد محدود دخل بموجبه الفرد الى المجتمع ليضع حداً للحالة الطبيعية التي كان يرتع في بحبوحتها وينعم في ظلالها حيث لا ترهقهُ سلطة ولا يقيدهُ قانون، وهذه النظرية في تعليل نشوء المجتمع هي نظرية «العقد الاجتماعي»

ولكن افلاطون وارسطو يريان غير ذلك ويذهبان مذهباً آخر، فالانسان عندهما حيوان اجتماعي، وما دام الانسان مدنيًا بالطبع فمن الطبيعي له ان يعيش في المجتمع، وحياة الفرد في عزلة عن بني الانسان حياة غير طبيعية ولا مألوفة، وطبيعة الفرد لا يسترسل نماؤها ويطرد تقدمها الا بين احضان المجتمع، والمجتمع يتيح للانسان الفرصة لاختبار طاقته وتحقيق مطالبه، والانسان في مخالطته لانداده وزملائه في المجتمع يحفز مواهبه وينمي قدراته ويستكمل شخصيته فهو فضلاً عما يشعر به من الامن والطمأنينة في كنف المجتمع وحمى الدولة مدين لها بواجب الشكر لانها تمنحهُ شخصية في تراثها الجم وقوتها الفياضة

***

وعلى أساس فكرة الدولة من حيث هي ضامنة لحقوق الفرد ومجيرة له من اخطار الفوضى ودياجير الحرية السلبية وخالقة لشخصيته أقام الفيلسوف الالماني هجل بناء فلسفيًا محبوك الاطراف متسق المنطق، وعند هجل ان القوم في المجتمع يستمتعون بحرية اصدق أثراً وأعظم وقعاً من تلك الحرية الغارقة في الفوضى التي خلعوا ثوبها عند ما غادروا حالتهم الطبيعية الافتراضية الطليقة من القانون، والحرية الصادقة هي تلك الحرية التي يظفر بها الفرد في حدود المجتمع، فهي ثمرة من ثمراته مظهرها الخارجي القوانين المرعية ومظهرها الداخلي تلك الآداب التي يتلقاها الفرد من المجتمع، فالدولة تسطوّع للفرد حرية لا يظفر بها في غيرها وهي انما تفعل ذلك لان لها شخصية حقيقية وارادة مستقلة، وتمثيلها لرغبات اعضائها يكسبها ارادة عامة فوق كل ارادة، وارادة الفرد تسمو وتزداد نبلاً باندماجها في تلك الارادة العامة، ويتبع ذلك ان اعمال الدولة المنبعثة عن تلك الارادة العامة يلزم ان تكون على الدوام مسلمة من العيوب بريئة من الاخطاء لانها تمثل خير ما في ارادات الافراد

وللدولة شخصية ولهذه الشخصية حقوقها التي تسمو فوق كل خلاف وتعلو على حقوق

الافراد المزعومة — وأقول المزعومة لان الفرد بموجب هذه النظرية لا يمكن ان تكون له حقوق حقيقية متعارضة مع حقوق الدولة ، وذلك لان حقوق الفرد الحقيقية ليست هي تلك الحقوق التي حملها معها عند دخوله المجتمع عقب انتهاء تلك الحالة الطبيعية الافتراضية الدابرة وانما هي حقوق في العمل لتحقيق تلك الغايات التي تنزع اليها طبيعته التي كونها المجتمع وصقلها وهذبتها الدولة وسمت بها ، وهي طبيعة هو مدين بها للمجتمع ومن واجبه ان يقفها على خدمة الدولة ، وما دام الفرد يتلقى حقوقه وواجباته من الدولة فلا يمكن ان تكون له حقوق تتعارض مع حقوقها

***

ولجميع هذه الاعتبارات وبناء على ما يمكن استنباطهُ من فكرة طبيعة « الارادة العامة » و« شخصية الدولة » يعتبر هجل الدولة مادة اخلاقية شاعرة بنفسها ويرى ان العلاقة التي تربط الفرد بالدولة في كليتها الشاملة هي نفسها جزء من شخصية الفرد ، فهو نبت يدها وثمرة غرسها وهو من ثمَّ لا يستطيع ان يعمل في عزلة عنها ولا يمكن ان تنبعث له ارادة او يتسق له امل الا بجزء من ارادة الدولة ونصيب من آمالها ، ويرى بوزانكيه أن الفرد حتى في ثورته وانتفاضه على الدولة انما يثور بارادة مستمدة من ارادة الدولة فالدولة في حالة الثورة تعد منشقة على نفسها

وقوة الدولة المتسامية فوق الافراد وما تطلبهُ من ولاء متصل وتضحيات مستمرة توسع شخصيات الافراد وتنقيها من شوائب الاغراض الحقيرة والغايات المسفة وتنقل محور حياة الفرد من دائرة الاثرة الضيقة الى ميدان الحياة العامة ، والدولة اكبر ممثل للآداب الاجتماعية وان كان ذلك لا يستلزم انها مقيدة في اعمالها باتباع شريعة الاخلاق ، والعلاقات الاخلاقية تقتضي وجود طرفين ولا يمكن ان يكون للدولة طرف آخر لانها جماع الاحزاب

وفي وسع الدولة ان تسيطر نظريًّا في ايام السلم وعمليًّا في ابان الحرب على حياة الافراد وتوجههم الوجهة التي تريدها ، ولا سند من القانون لمصادمة احكامها لان الافراد الذين تبسط عليهم سلطانها لا يختلفون عن الافراد الذين يباشرون سير الاحوال ويتقلدون السلطة ، واوامر الحكومة موحاة من الرغبات الحقيقية لهؤلاء الذين يطيعونها ويلبون رغباتها حتى عندما يطيعونها رغم ارادتهم

***

والدولة هي التي تتصدى لحل المشكلات وتصمد للملمات ، ومن حقها ان تطلب الى الافراد ان يضعوا حياتهم رهن تصرفها وطوع يدها . قال هجل « حالة الحرب تكشف عن قوة الدولة

وتبين مدى سطوتها وعظيم بطشها والوطن حينذاك هو القوة التي تقضي بفناء استقلال الافراد»

وقد اقتفى اثر هجل في الاشادة بسيادة الدولة المطلقة بعض المفكرين الالمان وتطوح فريق منهم تطوحاً بعيداً وأسرف كل الاسراف ، وفي مقدمة المجلين في هذا الميدان المؤرخ الالماني المشهور تريتشيكه والكاتب السياسي برناردي ، ومفكرو الانجليز على وجه الاجمال لم يقبلوا نظرية سيادة الدولة المطلقة بالحماسة والتطرف والمغالاة التي قبلها بها الالمان.

ونظرية سيادة الدولة المطلقة على مايبدو بها من مظاهر التماسك الفكري والاتساق المنطقي نظرية غير سليمة ولا مطابقة للواقع ، بل هي نظرية خطرة لانها تمنح الحكومة المسوغات التي من شأنها ان تجعلها تنهج في السياسة الخارجية منهجاً غير متردد لايبالي بسنن الاخلاق ولا اصول الآداب ، وقد تطرف بعض الغلاة من منكري سيادة الدولة المطلقة حتى قالوا بعدم ضرورة وجود الدولة

***

والعيب الواضح في نظرية سيادة الدولة هو ان الدولة تبعاً لتلك النظرية تعتبر نفسها ممثلة للنوع الانساني باسره وهو افتراض منافر للحقيقة. واذا كان للدولة السلطة التامة والقدرة الكاملة من حيث علاقتها بافرادها فانهُ من الأمور المسلم بها ان هذا الحق لايمكن ان ينهض الاَّ على افتراض ان الدولة تمثل ارادات جميع الافراد الذين تتكون منهم الدولة وليس هناك مايوحى الى الفكر ان الدولة تمثل ارادات افراد الدول الاخرى فهي من ثم غير قادرة على كل شيء، وليست ارادتها اذن فوق كل ارادة وما دام ادعاء القدرة على كل شيء والسمو فوق كل ارادة يتخذ وسيلة لتبرير حق الدولة في الانعتاق من الواجب الادبي فانهُ يتبع ذلك ان هذا الانعتاق لا يمتد الى العلاقات بين الدولة والدول الاخرى، فليس هناك اذن مايبرر خروج الدولة عن الاداب في معاملتها للغير من الدول، واذا كانت قواعد الآداب مرعية في علاقات الافراد بعضهم ببعض فليس هناك مايمنع العمل بمقتضاها في علاقات الدول بعضها ببعض

***

ومع تسليمنا بان الفرد في المجتمع يتمكن من انماء طبيعته واظهار قدراته ويظفر بحريته لان الرجل الشريد في جزيرة نائية يملك حريته ولكنها حرية مجردة سلبية لانهُ وان كان في وسعه أن يعمل كل شيء ولكنهُ في الحقيقة لايستطيع ان يعمل شيئاً اقول ان تسليمنا بذلك لايقتضي كون الحكومة قادرة على كل شيء ولا ينفي ان الدولة موجودة لاجل الفرد وان الفرد لم يوجد لاجل الدولة وسعادة المجتمع ، وليس للدولة معنى ان لم تعمل على اسعاد الفرد لان الدولة ليست

غرضاً من أجل ذاتها ، واذا سلمنا بذلك اتضح لنا ماينطوي عليه مذهب سيادة الدولة المطلقة من مغالطة ووضع للأمور في غير نصابها

ويرى بعض أنصار نظرية سيادة الدولة انهُ غير ميسور للدولة ان تبني مجدها وعزها على أنقاض حياة الفرد او ان تستبد به وتطغى عليه لان مصلحة الدولة هي بذاتها مصلحة الفرد وإرادة الدولة حتى في حالة الاستبداد والطغيان هي إرادة الفرد ولكنهُ دفاع غير مستقيم لان الفصل في قضية من القضايا لا يعد فصلاً بمعرفة الفرد واتفاقه لمجرد ان القائمين بأمره أفراد في المجتمع الذي يشمله ، ونظرية السيادة المطلقة تناقض فكرة الحرية الشخصية لانهُ عندما ينشب أي خلاف بين الدولة والفرد فانهُ يفترض مقدماً ان الدولة في جانب الصواب وان الفرد حقيق باللوم ولا سبيل له لرفع صوته واسماع كلمته

وتقدم المواصلات السريع في العصر الحاضر قد أنمى العلاقات وزاد الروابط الاقتصادية والثقافية بين مختلف الامم ، وهذه العوامل الجديدة في الاجتماع الانساني قد أخذت ترسم الاتجاه الى تنظيم شؤون العالم على أساس اقتصادي ينسخ النظام الحاضر القائم على الحدود الجغرافية . واذا سلمنا انه من اللازم ان يعرف الفرد ان هناك مصلحة اسمى من مصلحته وهي مصلحة المجتمع فليس هناك مايمنع من السير بذلك الى نهايته المنطقية والوقوف عند فكرة ان مصلحة النوع الانساني فوق مصلحة الدولة. وكما ان اخلاص الفرد لاسرته او لقبيلته قد اتسعت آفاقه وتراحت حدوده وأصبح اخلاصاً للدولة فانهُ من المنظور ان يزداد اتساعاً وشمولاً ويصبح اخلاصاً وولاء لبني الانسان ، وليس هناك ما يثبت ان الدولة هي أقصى مرحلة من مراحل التدرج الاجتماعي ، وتستمد الدولة قوتها من وجود عادات وتقاليد مشتركة وبقاؤها رهن الى حد كبير بالاحتفاظ بتلك العادات والتقاليد وسيكون لسهولة المواصلات ولتقوية الروابط بين الامم اثره المحتوم في تغيير تلك العادات والتقاليد ، ومع ضرورة الاحتفاظ بالدولة باعتبارها عاملاً اصيلاً في صيانة النظام واستتباب الامن فان العالم سيتجاوزها الى تصور اسمى للدولية يضمن سلامة الدولة ووقايتها من الاخطار الطارئة والصدمات المباغتة كما ضمنت الحكومة سلامة الفرد واستنقذتهُ من حالة الطبيعة غير المحتملة ولا المرضية. وأمل الانسانية في العصر الحاضر معقود بتلك الغريزة التي اوحت المجتمع وساقت الفرد الى الاجتماع بالفرد لتكوين القبيلة وقادت القبيلة الى الاجتماع بسائر القبائل لتكوين الامة. وليس من المستنكر ان تسير سيرتها وتتابع خطواتها وتجمع بين الامم في ساحة الاممية الشاملة حيث تبطل فكرة الدولة المنطلقة من قيود الاخلاق والتي تجعل عصبة الامم امراً عديم الجدوى ضعيف الأثر

والعلماء حتى الآن لا يمكنهم ان يبينوا حدًّا للصفة التي يطلق عليها «الصفة الثقافية» ولم يتفقوا أيضاً على قاعدة يمكن اتباعها في تحديد عدد الصفات الثقافية لتكون «مركب ثقافي» . غير ان استعمال هذين الاصطلاحين في التعبير عن الثقافة مفيد جدًّا. وعليه قد اكتسب الاصطلاح والاستعمال هذين التعبيرين معنىً خاصًّا بهما في بحوث الثقافة ، وايضاحاً للامر نسرد ما يلي : —

اذا أردنا الوقوف على معرفة قوم بأسباب الملاريا مثلاً فلنطرح عليهم أسئلة لنعرف بأجوبتهم عنها هل يعرفون الملاريا او سمعوا بها ، ثم اذا سألناهم عن سببها فاننا نجد البيئة التي يكثر فيها المثقفون المتعلمون تقول بأن البعوض ينقل طفيليات الملاريا من المريض الى السليم وفي الجماعات الاخرى نجد الاجوبة تدور حول أحد الامور التالية على الغالب :

الاصابة بالعين او سرعة تغيير الهواء من بارد الى حار والعكس بالعكس ان ليلاً او نهاراً او القضاء والقدر من الله او لا نعرف

﴿الاستمرار الثقافي﴾ يجب ان لا يعزب عن البال ان الثقافة من الامور المكتسبة ولا دخل لها البتة في الامور الفطرية واذا عدنا الى الحد الذي أوردناه وجدنا الثقافة مجموع امور يتعلمها الفرد في حياته من اسلافه والمتقدمين منا في محيطه ولا علاقة للوراثة الحيوانية بها. هذا واننا نجد من الوجهة الاخرى ان ثقافة المرء تتوقف كثيراً على ما يرثهُ في تركيب جسمهِ ووظيفة اعضاء جسده . ونجد ايضاً ان الطبيعة والتطبع لهما شأن كبير في ثقافة الافراد فمن هذه الوجهة يكمل الواحد منهما الآخر فلا يمكن انفصال احدهما عن الآخر ابداً . ولكنهما غير هذا في الجماعات. فمن السهل فيها فصل احدهما عن الآخر. وهذا يتم بتغيير العامل الوراثي والنظر الى عامل البيئة مستمر التأثير ، او ان تعكس الآية فتنظر الى العامل الوراثي مستمر التأثير وتغيير عامل البيئة وهذا يكون في درس توأمين متماثلين في كل أمر فيمكن تغيير بيئتهما تغييراً كليًّا عند تربيتهما . ويلجأ العلماء الى هذه الطريقة في تعيين ما هو ثقافي بحت وما هو فطري فسيولوجي. ولما كان درس ثقافة الشرق الادنى وثقافة الغرب بهذه الطريقة قليلاً جدًّا فالاختلافات بين الثقافتين التي سأذكرها في هذا الصدد فروض فقط ولست اذكرها كحقائق راهنة . فالاختلافات التي سأذكرها على انها فروض قد تكون حقائق راهنة . وقد ينشب حولها مباحثات ومجادلات. ولكن لا يحق لرجل العلم المدقق ان يقول كلمة فصل فيها بوجه من الوجوه . بل عليهِ ان يؤجل البت في الامر حتى يتسع نطاق علمه ، بالحوادث المثبتة التي تؤيدها والوقوف على اختبارات اخرى . وعلى كل اذا كان الاختلاف الذي سأذكرهُ حقيقة راهنة ام لم يكن فيجب ان لا يسهى عن بالنا أن الثقافة كما حددناها سابقاً هي ما يتلقنهُ الفرد والمجموع من المعلومات في جيله وما يرثهُ من معلومات الجيل الذي سبقهُ. وعلى هذا نقول ان الثقافة بكليتها تعتمد في تكوينها على

البيئة والتدريب والتربية والتهذيب في اوسع معانيها ولهذا يمكن تغيير الثقافة او ابقاؤها على حالها بالتهذيب الواسع المذكور

﴿التغيير الثقافي﴾ فعلى ما تقدم في وسعنا القول بان الحقائق الثقافية قابلة التغيير بسرعة اذا تغيرت بيئتها الاجتماعية تغييراً كلياً . هذا يتم حتى ولو كانت الحقائق الثقافية المتغيرة قد سادت الامة الواحدة زمناً طويلاً وظهرت فيها بمظهر لا يمكن تغييره. ولنا في حوادث روسيا بعد الحرب وفي اليابان عند فتح ابوابها لتأثير المدنية الغربية خير برهان على صحة هذا القول . فالثقافة في كل قطر ومكان حتى وفي الصين تتغير بتغيير العوامل المؤثرة فيها. غير ان المسألة هي معرفة مدى هذا التغيير وسرعته

ثم ان الاختراعات توجد عاملاً وسيطاً لهذا التغيير وندعو هذا العامل «تميزاً» لانهُ يميز حالة عن اخرى واذا شئت فقل يميز طرق تفكير الامة وعملها وما ينتجهُ هذان مادياً ونفسياً قبل الاختراعات عنها بعد الاختراعات . وانواع تميز حالة الواحدة عن الاخرى عديدة ولكن ما يهمنا منها في هذا البحث هو التمييز الاقليمي نعني بهِ الفرق بين الاقليمين الشرق والغرب . فالجماعة التي تنفرد في اقليم واحد وتحصر نفسها في هذا الاقليم ولا ترتبط بغيرها من الجماعات في الاقاليم الاخرى تكتسب بما يظهر فيها من اختراعات وغيرها ثقافة تختص بها وتميزها عن ثقافات الجماعات في الاقاليم الاخرى. وهذا التباين يزداد بطول مدى انفراد هذه الجماعة عن غيرها . ولهذا كانت اوربا والعالم الجديد في القرون السالفة تسيران متقدمتين في جهة تختلف عن تقدم الشرق الادنى سرعة وثقافة

ومن عوامل التغيير في ثقافة الاقوام تقدم طرق المواصلات ووسائل النقل وهذا مما يسهل انتقال ثقافة الجماعة المنفردة النائية الى غيرها من الجماعات وبعده تقترب الثقافات المختلفة بعضها من بعض وعندئذٍ يبتدىء عمل تفاعلها الواحدة في الاخرى وهذا التفاعل يكون احد العوامل الثلاثة العامة التالية: اما عامل تناقض وصراع وإما عامل موافقة وتلاؤم وإما عامل تشبه واندماج. فمثلنا في العامل الاول مثل امرأة تركب الدراجة (بسكليت) وتسير في شوارع بعض مدن الشرق فعملها يثير استهجان القوم حتى لقد يندفعون الى رمي المرأة بالحجارة. هذا مظهر التناقض والصراع. ومثل العامل الثاني مثل دخول اللغة الارمنية الى الاقطار العربية فهي لم تمط اللغة العربية ولم تأخذ منها بل بقيت مظهر ثقافة مستقلة عن ثقافة القوم الذي تعيش في وسطه كل الاستقلال ومع هذا لم تثر شيئاً من الاستهجان او التناقض والصراع. فهذا مظهر الموافقة والتلاؤم . ومثل العامل الثالث مثل الالبسة الاوربية او ركوب السيارات او تحديد الاسعار في المتاجر او غيرها من بعض الصفات الغربية التي تزداد تطرقاً كلَّ يومٍ الى عادات اهل الشرق ويزداد تأثيرها في ثقافتهم وهذا مظهر التشبه والاندماج

— ٢ — تباين الثقافتين

لقد تقدم البحث عن الثقافة بوجهٍ عام وبعده يجدر بنا ان نبحث في الاختلافات الواضحة التي نفرض وقوعها بين الثقافة في الشرق الادنى والثقافة في الغرب . وهذا التباين بين الثقافتين وليد القرون السالفة. غير اننا نرى الثقافتين في هذه الايام تزدادان اقتراباً الواحدة من الاخرى ويزداد تفاعلهما الواحدة في الاخرى . ومن الخطأ الفادح ان نطبع هذا التباين بطابع الشرق والغرب . والاصح ان نقول ان الواحدة ثقافة الاجيال الوسطى وهذه عامة في الشرق الادنى . والاخرى ثقافة العصر الحديث وهذه شائعة في اوربا وأميركا وأخيراً في بلاد اليابان . وفي درسنا التباين بين الثقافتين يجب ان نعتمد على معدل كل ثقافة منهما اذ لا يمكن ان تختلف ثقافة الامة الواحدة عن ثقافة الامة الاخرى اختلافاً مطلقاً . ففي الشرق الادنى وفي الغرب صفات ثقافية مشتركة . ومن بواعث الاسف ان الناس عندما يقابلون جماعة بأخرى ينطقون بألفاظ يستدل بها على البعد بين الجماعتين لان الالفاظ التي ينطقون بها متناقضة المعنى كقولهم ابيض وأسود وما شابه . والحقيقة ان في الامتين صفات متشابهة وأشد اقتراباً الواحدة من الاخرى مما تعبر عنهُ المفردات الوصفية المتناقضة

(١ — المعيشة الزراعية تقابل المعيشة الصناعية في المرتبة [illegible] ظهوراً في الشرق الادنى منها في الغرب والصناعة أكثر شيوعاً في الغرب منها في الشرق الادنى. فهذا التباين الاقتصادي قاعدة كل صورة من صور ثقافة الامتين . فالصفات الثقافية في البدوي ترتكز على بداوته وعمله كراعٍ يسير وراء المواشي . وما يصح على البدوي من هذا القبيل يصح على الفلاح والعامل والتاجر وصاحب كل مهنة حرة وصاحب المعمل الى ما هنالك من الحرف المعروفة واسباب الارتزاق المألوفة . فثقافة كل صنف من اصناف البشر يجب ان تتفق وحالتهُ الاقتصادية اي مع مهنته وما تدر عليه هذه المهنة من المال. وهذا التباين الثقافي بالقياس الى المهن جلي وواضح وما الحاجة في اثباته الا الى حوادث معينة تتخذ شاهداً ورمزاً . وللدلالة على الاس أقول ان مستر كبلي (كان قنصل الولايات المتحدة في بيروت) أحب ان يعرف النسبة بين قوة الاحصنة (من الجياد) وقوة الاحصنة الآلية المستخدمة في الامة الواحدة لمعرفة درجة شيوع الصناعة في تلك الامة. واتخذ لذلك فلسطين والولايات المتحدة اساساً للمقابلة. فأحصى عدد الحيوانات المستخدمة في هذين البلدين وقسم هذا العدد على مجموع قوة الاحصنة المستخدمة من البخار والكهرباء وما يتولد بواسطة الاحتراق فوجد ان ٤٧ في المائة من الولايات المتحدة كان في سنة ١٩٢٥ تسودهُ الصناعة اي انهم استعاضوا في شؤونهم الاقتصادية عن الحيوانات بآلات الى الدرجة المذكورة بينما النسبة في فلسطين من هذه الوجهة كانت اقل من ٤ في المائة . غير

ان نسبة الزيادة السنوية في هذين البلدين كانت اكثر في فلسطين منها في الولايات المتحدة وهذا يدل على ان التقدم الصناعي في فلسطين كان يزداد سنوياً اكثر منهُ في الولايات المتحدة اذا راعينا النسبة

نمو القرى وازدحامها بالسكان شيء وشيوع الصناعة والتحلي بمزايا الغرب شيء آخر فيجب ان لا يخلط هذا بذاك وها قسط وافر من الثقافة في مدن الشرق الادنى يتغير بنمو هذه المدن وازدياد سكانها . فالناس ينزحون من الصحراء الى القرى ومنها الى المدن فيكثر الازدحام في هذه وتزيد العلاقات الثقافية في المدن تعقيداً وتزيد السرعة في الحياة وهلم جرًّا. وينسب الناس هذا التعقيد في الثقافة الى دخول الثقافة الغربية الى المدن المتعلق بها الامر فلا صحة لهذا الاعتقاد . فالامر مستقل في ذاته كل الاستقلال . وايضاحاً لهذا نقول : ان كثيرين يعتقدون ان سبب ضعف صفة الثقافة الشرقية المعروفة بحسن الضيافة دخول الثقافة الغربية الى هذه البلاد. اما انا فلا اعتقد بصحة هذا القول فلا دخل للمدنية الغربية بالامر . والسبب كل السبب هو نمو القرى والمدن وازدياد سكانها . واذا درسنا المسألة بالتدقيق وجدنا ان منشأ صفة حسن الضيافة في الصحراء كانت في بادىء امرها صفة لازمة للبقاء والوجود ولكنها تضعف في القرى ويزداد ضعفها في المدن . ومن الامور الجلية انهُ لا يمكن لساكن المدن ان يفتح بابه لكل طارق وكنفه لكل مستعطٍ والعدد في المدن الف او اكثر . ولكن اذا انتقل الشخص نفسه الى مكان منفرد وسكن الخيام في الصحراء ، تراه وقد انقلب في الامر كل الانقلاب فتتوق نفسه الى غريب يجالسه ويقاسمهُ الحياة المملة في الصحراء . واذا راجعنا تاريخ الولايات المتحدة وجدنا ان صفة حسن الضيافة كانت شائعة كل الشيوع بين النازحين الاولين اليها عندما كانت العائلة الواحدة تبني لنفسها اكواخاً من جذوع الاشجار التي تقطعها من الحراج . وكان الكوخ الواحد يبعد عن الآخر اميالاً . فكان كل قادم جديد الى البلاد يجد بيوتاً مفتوحة لاستقباله وطعاماً لغذائه ، بل كان المضيف يشعر ان عليهِ من باب حسن الضيافة ان يساعد ضيفهُ في بناء كوخ لهُ . ولكن لما تقلص ظل هذه الحالات بانشاء المدن ونمو القرى تقلصت معها هذه الصفة : ويظهر ان القدر كتب لهذه الصفة في الشرق عمراً اطول جدًّا من عمرها في الغرب وهي ستبقى في الشرق الى مستقبل بعيد جداً . ولذلك سببان الاول ان الصحراء الحارة القريبة ستبقى صحراء. والثاني ان هذه الصفة تعمل عملها منذ اجيال وقرون فصارت بكثرة التكرار عادة وتقليداً وصار التقليد قوة محركة تدفع هذه الصفة لتستمر في عملها على الرغم من تقلب الاحوال

﴿ ب — الميزة التقليدية مقابل الميزة المبنية على الاختبار ﴾ التباين الصناعي في القطرين يعزى بالاكثر الى تباين في العلوم الصناعية او الى تباين في تطبيق المعارف العلمية . فالموارد الطبيعية في

بعض اقسام الشرق الادنى تمتاز عنها في بعض اقسام الغرب . ولكن النقص في العلوم الصناعية حال دون استغلال هذه الموارد. ولنا في موضوع زيت النفط في العراق خير برهان. وهذا النقص في العلوم الصناعية يحول ايضاً دون شيوع الصناعة في الشرق الادنى. ولنتعمق في بحثنا في هذه الناحية من التباين بين القطرين متخذين طرق التفكير الفني الذي هو أساس العلوم الصناعية اساساً لبحثنا ولنضرب صفحاً عن عرض التباين في العلوم الصناعية بين الثقافتين بمقابلة عدد المعامل التي في القطر الواحد بها في القطر الآخر . وطرق التفكير هذه مبنية ايضاً على طرق علمية والطرق العلمية تتناول عمليات عديدة منها دقة ملاحظة الحقائق ثم استقراء المبادىء ثم معرفة العلاقة بين الامرين لتكون هذه الحقائق نظاماً ينسج على منواله ثم تطبيق المبادىء بطريق الاستدلال حتى تثبت اما باختبار شخصي وإما باحصاء مشاهدات اخرى وملاحظة حقائق جديدة. المهم في الطرق العلمية الاستقراء والاختبار وهذا عكس القول بان الوصول الى الحقائق اما بطرق تقليدية أكسبها الزمن صفة العادة المتبعة وإما بالالتجاء الى ثقات معروفين ان في الزمن الماضي او معاصرين لنا. وهامٌ الكثيرون يستدلون على علاج الحالات الحاضرة بأقوال زعيم غابر نقلت الكتبُ المقدسة او غيرها قوله المتبع. فالالتجاء الى الثقات لمعرفة الحقائق اكثر شيوعاً في الشرق الادنى منهُ في الغرب . بينما الالتجاء الى الاختبار الشخصي لمعرفة الحقائق أعم في الغرب منهُ في الشرق الادنى . واكبر برهان على صحة هذا نظام الرئيس روزفلت النظام الاقتصادي . فان الرئيس عند ما اذاعهُ قال انهُ تجربة وقد يظهر لنا الاختبار عدم صلاحهِ للبقاء

﴿ج — ميزة الاستقرار مقابل ميزة التغيير﴾ ان فرضنا السابق أن ميزة التقليد اكثر شيوعاً في الشرق منها في الغرب يقودنا حتماً الى فرض ان الثقافة في الشرق الادنى اكثر استقراراً على حالة واحدة منها في الغرب لان الحالتين متحدتان معاً لا تنفك الواحدة منهما عن الاخرى . أجل ان الاستقرار على حالة واحدة اشد في الشرق الاقصى كبلاد الصين مثلاً منهُ في الشرق الادنى. ولكن هذا لا ينفي أن الشرق الادنى في الاجيال الغابرة كان اكثر استقراراً على حالة واحدة في ثقافته من الغرب. هذا اذا قابلناه بسرعة التطور الثقافي في الغرب وبالاخص تلك السرعة الهائلة التي عمت اوربا بالانقلاب الصناعي الذي ظهر في السنوات الاخيرة . غير ان الحالة قد تغيرت حديثاً وصار الشرق الادنى اسرع تغييراً منهُ في الماضي وهذا ظاهر في تركيا في عهد كمال اتاتورك وفي غيرها من بلدان الشرق الادنى. غير ان هناك خلال هذا التطور الثقافي نزعة تعمل لابقاء القديم على قدمه . وايضاحاً للأمر نستعين بالمركب الثقافي الزراعي . الفلاح في بلدان الشرق الادنى يحجم عن استعمال الطرق الحديثة في عمله . بينما الفلاح في بلاد الغرب لا يتأخر عن نبذ ماورثهُ من الاجيال الوسطى فيأخذ بالطرق الحديثة

سواء في ذلك، طرق تسميد الارض او ارواء غليلها او حرثها فسخر العلم لكل هذه وزاد بانه جعل العلم يغير اموراً طبيعية كتفقيس البيض واستخدام الكهرباء ليلاً لاغواء الدجاج بان الوقت نهار فيكثر بيضها. وقد جاءت الاخبار، وخراً انهم يحاولون في المانيا وأميركا استخدام سائل كيماوي يضعونه في احواض يزرعونها حبوباً وما شاكل عوض ان يغرسوها في الارض ، وهم يؤملون ان يجنوا من هذه فوائد زراعية جمة منها ازدياد الخصب في المواسم وتحسين نوع الحبوب والعمل على تخليصها من الحليات المضرة. وزد على هذا انهم يؤملون أن يمكنهم إستخدام حرارة اصطناعية وضوء اصطناعي من ان يزرعوا الاوعية ويستغلون ما يزرعون في مدة لا تتجاوز العشرة ايام وبعد هذا يحق لنا أن نحلق بتصورنا في جو المستقبل فنجد ابناء ذلك الزمن ينشئون المعامل للزراعة ويضعون ضمن المعامل براميل ينسقونها على الرفوف صفوفاً صفوفاً كما تنسق الكتب هذه الايام في المكاتب العامة ويزرعون في البراميل الحبوب ويحصدون المواسم بسرعة كلية وفي كل هذا يتمشى الفلاح بين هذه الصفوف وعمله منحصر في الاطلاع على حرارة كل برميل وتعديلها بقطع المجرى الكهربائي او غير هذا كما تقتضيه الحال. وسيترك ابناء الاجيال المقبلة الارض لتكون جنائن فيحاء للتنزه والتمتع بالملذات او دور للعب والقفز والعدو هذا اذا كان لهم رادع اجتماعي والا سينمون ويكثرون ويملأون الارض ويجعلونها مدينة واحدة لاحد لاطرافها

لا بل يحق لنا ان نقول ان زمن هذا النوع من الزراعة سيكون قصيراً لان علماء الكيمياء يزدادون اعتقاداً بان في مقدور الانسان ان يجمع المواد النشائية وغيرها من المواد الغذائية رأساً مما يحيط به من الهواء والماء ونور الشمس وغيرها من المواد الغذائية فالاحداث في الغرب يهللون لهذه الاخبار ويرحبون بها اشد ترحيب ويندفعون حبّاً بها وولهاً بنتائجها الى درس الكيمياء والفنون الزراعية آملين ان يتاح لاحدهم تحقيق هذا الحلم. وخلاصة القول في هذا التباين ووضع سكان الاقليمين تجاه هذه الحالات ان سكان الشرق الادنى يفرحون بما لديهم وما اعتادوه الى أبعد مدى يمكنهم ، بينما سكان الغرب يهللون لكل تغيير وحادث جديد

***

والذين يرغبون في التغيير والتبدل يقولون ان هذا تقدم ونجاح وبقولهم هذا يضعون قيمة معنوية ومادية للتغيير والتبدل المذكورين. والمجتمع يرغب في ان يكون للتغيير والتبدل قيمة اضافية لما فيهما من معنى علمي . ونحن لم نحاول في كل ماقلناه من التباين والاختلاف ان نفاضل بين الثقافتين فنمدح الواحدة و نذم الاخرى لاننا لا نود ان نقيم للواحدة قيمة نحرم الاخرى منها

ولا نرغب في ان نسمي الواحدة تقدماً والاخرى تأخراً او رجعية. ونحن نأمل ان نفسح بتجردنا هذا مجالاً لقارئي مقالتنا هذه لكي يبحثوا فيما بينهم الفروض التي قدمناها وان يتأملوا بها

ليكوّنوا هم لانفسهم رأياً يتعلق بقيمة التباين في الثقافتين الغربية والشرقية ويبدون آراءهم في المرغوب فيهِ منهما وأيهما يرفضون

***

واذا نظرنا الى هذا التباين في حالتي الاستقرار والتبدل من وجهة أُخرى وجدنا النتائج ذاتها فالشرق الادنى كان حتى السنوات الاخيرة اكثر تسليماً للقضاء والقدر من الغرب بينما هذا كان اكثر نشاطاً واضطراباً من ذاك . ولايضاح الامر نستعمل القواعد الجبرية فنقول ان في كل قوم رغبة شديدة في الحصول على الاشياء التي قيمها كبيرة ونشير اليها برموز

ثم ان جميع الرغائب لا تنال كلها بل يُنال منها قدر كافٍ لاشباع الميول اليها فنسبة الرغبة الكاملة الى ما يمكن الحصول عليهِ منها يتخذ قياساً للقوى السيكولوجية التي تدفع القوم الى العمل والقيام بمفاخر الاعمال. وهذه النسبة ندعوها «الشد» او «عدم الاكتفاء» فمن هذا يتم معنا المعادلة الجبرية التالية ر/م = ش اي بقسمة الرغبة على مفاخر الاعمال يحصل لنا نسبة الشد وتقاس هذه الصور بعض الاحيان بوحدات كنظام العرض والطلب في الرغبات الاقتصادية أو في موقف القوم المتعلق بهِ الامر تجاه رغبات اخرى . فنسبة الشد هذه ما هي الاَّ دليل الى العوامل التي تدفع كل حي للعمل في تحقيق رغباته وتخفيض الشد والمد في اعماله . فالسعادة مثلاً زيادة في تحقيق الرغبات وتخفيض في الشد والمد في حياة الفرد هذا بصرف النظر عن كون الرغبات مادية او روحية . وفي العالم فلسفتان في كيفية الحصول على السعادة البشرية وهما طرفا نقيض . الاولى واضحة في تعاليم بوذا عن نيرفانا . والثانية جلية في العقلية الاميركية القائلة جد وحصل . فبوذا يقول ان على من اراد أن يخلص وينقص الشد والمد في حياته ان يتحرر من كل رغباته وذلك بتحويل صورة المعادلة اعلاه له الى الصفر حتى متى حم انتقاله الى نيرفانا يحصل على غبطة تامة لانهُ تخلص من كل رغباته تخلصاً كاملاً . اما الاميركي فيقول عكس هذا تماماً فهو ينادي بان يندفع المرء في العالم عاملاً مجدّاً ومثلاً رغباته الارض من اقصاها الى اقصاها فكلمة « لا استطيع » لاوجود لها في قواميس الشبان الذين يريدون كل شيء مبهجاً مفرحاً وفي هذا تتحول قوى الامة جميعاً الى زيادة الانتاج تأسيس معامل ومؤسسات اكثر تعقداً من التي سبقتها. فهذه الفلسفة فلسفة ازدياد الرغبات والجد في طلبها تخفض الشد وتزيد الحصول على الغبطة والسعادة وهذا يكون بتحويل صورة المعادلة أعلاه الى حد لا يحصى ولا يدرك . وبالنتيجة تنخفض نسبة الشد والمد الى الصفر والعدم. ومن الامور المؤكدة ان الوصول الى هذه النتيجة بما يصفهُ الفريقان مستحيل لسببين الاول ان للبشر رغبات فسيولوجية ما زالوا احياء . والثاني أن رغبات البشر

تزداد بسرعة تفوق السرعة التي يتاح بها للمرء ان يتغلب على الحواجز الطبيعية التي تحول دون تحقيق رغباته وأشباع مطامحه

أما اذا عملنا على تطبيق المعادلة المار ذكرها على حياة الافراد فاننا نرى الشرق والغرب متحدين متحالفين رغم هذا التباين بين الحد الاقصى في الشرق الادنى والحد الاقصى في الغرب . والنزعة اليوم في الشرق الادنى الى زيادة مخرج المعادلة اي الزيادة في الاعمال عوض عن الاهتمام بتخفيض صورة المعادلة اي الرغبات . ولكننا اذا قابلنا حياة كلٍّ من الامتين مجموعة بالمعادلة المار ذكرها بحيث تشمل المعادلة كل السكان في القطر الواحد وجدنا قضية القضاء والقدر تلعب في الشرق الادنى دوراً مهمًّا في وضع سكان هذه البلاد تجاه الحالات التي ليس بمقدورهم تغييرها . وقد يكون السبب في هذا الزمن الطويل الذي قضاه الشرق الادنى تحت الحكم التركي مما ساعد على رسوخ قدم هذه العقيدة في هذه البلاد. ولا يزال القرويون في هذه البلاد يعملون على انقاص رغباتهم وتسليم كل ارادتهم لله معتقدين بان لا فائدة من انتظار تقدم ونجاح عظيمين

***

واذا نظرنا الى الفلسفة الاميركية القائلة بالجد وتعداد الرغبات للفوز بالسعادة بحسب ما تقدم معنا في المعادلة المذكورة وجدنا الإخفاق بادياً في كل محاولات الاميركيين لزيادة مخرج المعادلة حتى يتم لهم تخفيض الشد والمد والتوتر في حياتهم . فالنتيجة جاءت معكوسة . فالمدنية الاميركية اكثر مدنيات العالم في شدة توترها واضطراب اعصابها وتهيج نشاطها فالنازحون الاولون الى اميركا قد استفزوا كل رغباتهم ودخلوا البلاد باحلام وآمال عديدة ولكنهم اضطروا في بادىء الامر ان يعيشوا بكل بساطة في اكواخ من جذوع الشجر وهذا ما جعل الفرق بين صورة المعادلة ومخرجها عظيماً جدًّا. وبالنتيجة كثر الشد والمد في حياتهم وهذا كان يدفعهم الى بذل جهود جبارة ونشاط مضطرب حتى يتغلبوا على حياة القفر والوحدة . أما رغباتهم وطموحهم التي جاءوا بها من اوربا فتحررت بنزوحهم الى الولايات المتحدة من القوانين التي جعلت فرقاً بين صف من صفوف البشر وصف آخر . وهذه الحرية جعلت رغائبهم تتوسع تدريجاً وبتوسعها ازداد الميل في الناس الى الاعمال الكبيرة وتعميم الصناعة وهذا الامر قد ساعد على بقاء الشد والمد عاليين . ثم هذا عامل نفسي سيكولوجي يدفع الى ما نراه اليوم في مدينة الولايات المتحدة من الانقلاب والنشاط والتهيج وتوتر الاعصاب (وعلى كلٍّ هنالك عوامل أخرى كالمناخ الذي يزيد في نشاط الامة ومواد البلاد الطبيعية وتزاوج الامم المختلفة التي تنزح الى الولايات المتحدة فكل هذه تعمل على زيادة النشاط في الامة)

[للبحث تتمة]

تحويل العناصر

اسلوب المختبرات العلمية
في صنع ذرات جديدة

تحويل العناصر في شكله الحديث قريب العهد ، وهو يختلف عن تحويل العناصر في شكله القديم ، في أنهُ قائم على فهم تركيب الذرّة ، ومعرفة الاساليب التي يمكن التوسل بها الى احداث تغيير في هذا التركيب حذفاً واضافة ، فتتحول ذرة عنصر ما الى ذرة عنصرٍ آخر . واذا كان علماء العصر الحديث قد فاتهم تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، ففي وسعهم الآن ان يحوّلوا الفصفور مثلاً الى ألومنيوم مُشيعٍ ، والنتروجين الى بورون . واهمّ من التحويل نفسه في نطاقهِ الضيق المحصور الآن ، ما تسفر عنهُ المباحث الدائرة حول موضوع التحويل في شتى المعاهد العلمية ، من توسيع نطاق المعرفة بتركيب المادة على صحتهِ . وهذا قد يكون في آخر الامر سبيلنا — في حياتنا او بعدها — الى تناول جسيمات المادة الاساسية وصنع ما نريد منها

وتحويل العناصر يقوم في اسلوب العلم الحديث على احداث تحويل في نواة الذرّة . فكل ذرّة على ما تعلم ، قوامها نواة مركزية موجبة الشحنة ، تحيط بها كهيربات (الكترونات) سالبتها ومجموع شحنات الكهيربات مساوٍ لشحنات النواة فتبطل هذه فعل تلك فتتعادل كهربائية الذرة . ولا يخفى ان الجانب الاكبر من كتلة الذرّة مركَّز في النواة والنسبة بين كتلة الكهيرب وكتلة البروتون (وهو نواة اخف الذرّات) كنسبة ١ الى ١٨٠٠ . فتحويل ذرّة عنصر من شكل الى آخر يقتضي احداث تغيير في نواة الذرّة . وليس هذا بالعمل الهيّن . وذلك اولاً لان النواة صغيرة الحجم جدًّا فيصعب ان تصيبها بقذيفةٍ ما . ثم ان الجسيمات التي تتكون منها النواة مترابطة ترابطاً وثيقاً جدًّا بقوى كهربائية عظيمة حتى لتجد ان فصْلها بعضها عن بعض من اشقّ الامور . فاذا كان قطر نواة الذرة جزءاً من عشرة آلاف جزء من قطر الذرة نفسها ، فساحة مقطوع النواة لا تزيد على جزءٍ من مائة مليون جزء من مساحة الذرة ، فاذا اطلقنا على الذرة قذيفةً ما بغية ان تصيب النواة كان احتمال النجاح واحداً على مائة مليون

ولذلك نُضيع سدى الجانب الاكبر من القذائف التي نطلقها بغية أن نصيب بها النواة .

ولنفرض اننا اطلقنا قذيفة قذيفة وهي نواة الايدروجين(اى بروتون) — على هدف من مادة معيّنة بقوة مليون فولط ، فانها تقبل على هذا الهدف بقوتها هذه فتخترق الطبقة الاولى من كهرباتها فاذا اتفق واصابت في هذه الطبقة نواة، فبها ، والاَّ فانها تخترق هذه الطبقة الى مايليها وقد خسرت من قوة اندفاعها ، بما اخذتهُ منها الكهربات التي اخترقت منطقتها ، وهكذا ، حتى اذا اصابت نواة في الطبقة العاشرة فانها تصيبها وقد فقدت جانباً كبيراً من قوتها فلا تكون الاصابة فعالة . فاذا لم تصبها ومضت في سبيلها على هذا المنوال تبقى سائرة حتى تفقد قوتها وتستقر . وما زال العلماء عاجزين عن ابتداع وسيلة تمكنهم من تسديد القذائف حتى تكثر النوى التي يصيبونها بها وعلى ذلك فمعظم الطاقة التي تستنفد في اطلاق القذائف بقوة عظيمة لاحداث التحويل ، يضيع هباء . ولذلك يعتقد علماء الطبيعة ان هذه الطريقة لن تفضي الى مصدر جديد من مصادر الطاقة مع ان الطاقة الكامنة في الذرات عظيمة جدًّا. الاَّ ان هذا لا يعني انَّ بحث طبيعة النواة لا يفيد فالمواد الجديدة التي تولد بهذا الاسلوب تستعمل كثيراً في البحث الطبي والبيولوجي

فلننظر الآن مايحدث في النواة عند ما تصيبها القذيفة ، لعلنا نستطيع ان نتبين السرَّ في اقبال طوائف من العلماء على هذا النوع من البحث . ولكي نستوضح مايحدث يجب ان نتذكر انَّ النواة قوامها نوعان من الدقائق او الجسيمات هما البروتونات والنوترونات. فالبروتون موجب الشحنة والنوترون متعادلها او هو محايد من الناحية الكهربائيـة . وقدر الشحنة الموجبة على البروتون مساوٍ لقدر الشحنة السالبة على الالكترون مع انَّ كتلة الاول تفوق كتلة الثاني نحو ١٨٠٠ ضعف . واذن فالشحنة الكهربائية العامة للنواة ، موجبة وهي مجموعة شحنات البروتونات التي فيها . اما كتلة النواة فهي مجموع كتل البروتونات والنوترونات التي تتألف منها

هذا في مايتعلق بالذرة . اما القذيفة فعلى انواع. منها الاشعة الجمية Gamma او الاشعة السينية العالية التردد القصيرة الامواج ، ثم البروتونات التي تكتسب زخماً عظيماً وطاقة كبيرة بواسطة احد الاجهزة الخاصة بذلك . ثم الدوتونات وهي نوى ذرات الايدروجين الثقيل ويمكن الحصول عليها واكسابها الطاقة والزخم بالطريقة المتقدمة . ومثلها جسيمات الفا . اما النوترونات فيحصل عليها الباحثون في التفاعلات التي تطلق فيها احدى القذائف المتقدمة على اهداف من مواد معينة فتؤثر فيها تأثيراً من شأنه اطلاق نوترونات فيزاد زخمها وتستعمل بدورها قذائف في هذا النوع من البحث . اما الكهربات (الالكترونات) فيظهر انها لا تصلح قذائف من هذا القبيل

الاشعة الجميّة أقل هذه القذائف فعلاً في احداث التغيير المبتغى . ويصدق هذا القول بوجه خاص لان مصادر الاشعة الجمية القوية نادرة . الاَّ ان تأثيرها شبيه بتأثير الضوء عند وقوعه على بصاصة (خلية ضوئية كهربائية) أي ان الاشعة الجمية تقذف من النواة التي تصيبها

او تتأثر بها نوترونا على نحو ما يقذف الضوء الكترونا من البوتاسيوم الذي في البصاصة . فاستعمال الاشعة الجية ذو شأن نظري من حيث دراسة النواة ، ولكنها لن تكون ذات شأن في صنع المواد المتصفة بالنشاط الاشعاعي الصناعي Artificial-radio-activity

وأما النوترونات فمن القذائف التي تستدعي العناية لانها لا تحمل شحنة كهربائية ولذلك فلا تدفعها النواة الموجبة الشحنة عندما تقترب منها واذن فلا يلزم النوترونات ان تصيب المادة التي تسدد بها بقوة عظيمة نسبيًا حتى تخترق طبقات الالكترونات الى النواة . فالنوترون المطلق بقوة يسيرة — نسبيًا — يستطيع ان يسير الى النواة فتستقبله ويشأ عن ذلك تفاعل يفضي الى تغيير النواة اما وقد ارتقت الاجهزة لتوليد النوترونات وقذفها ، فمن المحتمل ان تغدو هذه الطريقة لتوليد المواد المشعة اشعاعاً صناعيًا ذات شأن عظيم في المستقبل ، والسهولة التي يمكن بها اجتذاب النوترون الى النواة ولو كان سائراً سيراً بطيئاً ، يفسر انتفاء وجودها حرة في الطبيعة . فاذا اطلقت النوترونات حرة بوسيلة من الوسائل ، فانها تخترق المادة ولا تلبث حتى تجتذبها نواة

والفضل في فهم ما يحدث في النواة عند ما تصيبها احدى هذه القذائف يعود الى العالم الدنماركي نيلز بور Bohr صاحب الفضل ايضاً في فهم بناء المنطقة الخارجية في الذرة وهي المنطقة التي قوامها الكهيربات (الالكترونات) . فهو يذهب الى أن الدقائق التي تتألف منها النواة تجذب بعضها بعضاً بقوة حتى اذا دخلت قذيفة ما النواة ، تقسمت هذه الدقائق طاقة القذيفة ، فتؤسر القذيفة ، لانه لا يوجد في هذه الحالة دقيقة واحدة تفوق طاقتها طاقة زميلاتها فلا تستطيع أن تفلت من الاسر . وينشأ عن ذلك نواة قوامها جميع الدقائق التي كانت فيها وكذلك القذيفة . ولكنها تختلف عن النواة العادية ، في انها تحتوي على مقدار من الطاقة اكثر مما تحتوي عليه النواة المستقرة البناء . وهذه الطاقة هي طاقة حركة موزعة على دقائق النواة . ثم بعد قليل ، (وبسلسلة من الحوادث لا يمكن حسبانها الآن) تفوز احدهذه الدقائق بمقدار من الطاقة يفوق مقدار اخواتها ، فتفلت من جذبها وتقذف الى الخارج

فاذا كانت الذرة التي اصيبت ، والقذيفة ، والدقيقة التي تنطلق ، مما يجعل الذرة المتبقية مستقرة البناء ، فالتغير ينتهي عند هذا الحد اي ان الذرة تحولت الى ذرة اخرى . ولكن اذا كانت النواة المتبقية غير مستقرة البناء ، فانها لا تلبث بعد ايام او بعد ساعات ، حتى تحاول الوصول الى الاستقرار ، فتطلق كهيرباً سالباً او كهيرباً موجباً (بوزيترون)

وقد تقدم البحث في هذه الناحية تقدماً سريعاً في بضع السنوات الاخيرة ، حتى لقد غدا في وسع العلماء ان يذكروا مئات من الحوادث تتغير فيها ذرات مادة واحدة تغيراً يتباين بتباين القذائف التي تسدد اليها . والعناية الآن متجهة خاصة الى دراسة تفصيلات الافعال التي تقع عند حدوث التحول

والآن نضرب للقارىء امثلة على التفاعلات التي تدلُّ على تحوُّل ذرّة الى اخرى مفرغة في قالب المعادلات الرمزية المعتمدة بين العلماء. فالطريقة المتّبعة هي ان يستعمل الرمز الكيمياوي للعنصر ويوضع قبله من أسفل رقم يدلُّ على عدد البروتونات في نواة ذرة ذلك العنصر ثم بعد رمز الذرة من فوق رقم يدلُّ على مجموع عدد البروتونات والنوترونات في النواة

***

فالبريليوم يرمز اليهِ بالحرفين (بر) . فيظهر في هذه المعادلات الخاصة بتحويل العناصر $_{4}\text{بر}^{9}$ فالرمز (بر) هنا يراد بهِ نواة ذرّة البريليوم . والرقم ٤ يدل على عدد البروتونات في هذه النواة . والرقم ٩ يدل على مجموع عدد البروتونات والنوترونات اي ان النوترونات ٥ وعلى ذلك يمكن افراغ التحوُّلات في نوى الذرّات في قوالب معادلات . خذ مثلاً على ذلك المثل التالي : —

$$_{4}\text{بر}^{9} + {}_{2}\text{هل}^{4} \rightarrow {}_{6}\text{كر}^{13} \rightarrow {}_{6}\text{كر}^{12} + {}_{0}\text{نو}^{1}$$

ما معنى هذه المعادلة ؟ نواة البريليوم يطلق عليها نوى الهليوم بعد اسراعها (والهليوم مدلول عليهِ هنا بالرمز «هل» قبلهُ ٢ أي في نواته بروتونان وبعدهُ ٤ اي في نواته بروتونان ونوترونان) فيقع التحوُّل فينشأ عنهُ ذرّة كربون ، بروتونات نواتها ٦ ومجموع بروتوناتها ونترونانها ١٣ ثم تتحوَّل ذرّة الكربون هذه — وهي غير مستقرّة في الطبيعة — الى ذرّة نوع آخر من الكربون في نواتها ٦ بروتونات و٦ نوترونات وذلك باطلاق نوترون واحد

***

والمعادلة التالية تبين كيف تتحوَّل مادة غير مشعة الى مادة مشعة

$$_{15}\text{فو}^{31} + {}_{0}\text{نو}^{1} \rightarrow {}_{13}\text{لو}^{28} + {}_{2}\text{هل}^{4}$$

فهنا نواة ذرة فصفور أُطلق عليها نوترون فتحولت الى نواة ذرة ألومنيوم ونواة هليوم. هذا الضرب من الالومنيوم مشع لانهُ غير مستقرّ (الالومنيوم العادي رمزه $_{13}\text{لو}^{27}$) فتنحلُّ نواتهُ فيتحول احد نوتروناتهِ الى بروتون وكهيرب ينطلق منها. والتحول من الالومنيوم المشعّ الى الالومنيوم العادي سريع الحدوث بحيث لا يكون مدى حياة الالومنيوم المشع اكثر من ١٢٧ ثانية

هذا النوع من الالومنيوم المشع يمكن الفوز بهِ بأُسلوب آخر وذلك باطلاق النوترونات على الالومنيوم العادي فتكون معادلة التحول كما يلي $_{13}\text{لو}^{27} + {}_{0}\text{نو}^{1} \rightarrow {}_{13}\text{لو}^{28}$

فالالومنيوم المشع المولد بهذه الطريقة ينحل كما ينحل الالومنيوم المشع المتولد من اطلاق النوترون على الفصفور

البحث الاول

خليل مطران
شاعر العربية الإبداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسي للدراسات الاسلامية

النقد الادبي والشعر والشعراء

﴿توطئة﴾ الشاعر هو ذلك الانسان الذي يستوعب الحياة في الاشياء مل، نفسه ويفيض بها من شعوره ووجدانه فتخرج نابضة بأسرار الحياة الروحية. ورسالة الشاعر — ان كان ثمة رسالة له — لا تخرج عن التعبير عن الحياة في سرّها الروحي ؛ ومن هنا لا يختلف الشاعر في رسالته عن رسالة الفنان مصوراً كان او نحاتاً او موسيقياً ولذا — نرى عن حق — ان الشعر غاية في ذاته ، لانهُ يتضمن اغراضه في نفسه ، من حيث هو شعور يخالط الحياة فيجيء منها

ولما كان الشعر تجربة الدنيا تملي على الشاعر صوراً من الحياة ، فهذه الصور من حيث تخالط شعور الشاعر وتجيء من وجدانه ، فانها تجمل اغراض الشعر منتهية عند حدّ التعبير عما في الوجدان من معاني الحياة وصورها التي خالطته

هذا .. ولما كانت الحياة تأخذ صوراً مختلفة في نفوس الشعراء ، متكافئة وأمزجتهم الخاصة ، فان الشعر يبدو للوهلة الاولى وكأنهُ خاضع لاغراض خارجة عنهُ ، والواقع ان هذه الاغراض مسبغة على الاتجاه الشعري من مزاج الشاعر الخاص ، لذا كانت مخالطة وجدان الشاعر للحياة تسبغ على الحياة صوراً فتظهر نظام الاشياء الروحي في متناقضات مظاهرها الخارجية ، غير أن هذه الصور باتجاهاتها لا تحد من الشعر من حيث هو فيض الوجدان ، وانما تلوّن الموضوع الذي يخالطهُ الوجدان بلون خاص ، نتيجة للتكافؤ القائم بين مزاج الشاعر والحياة التي تبدو في طيات ذاته

من هنا لنا ان نحدّد وجهة نظرنا الى موضوع الشعر والشعراء . فالشاعر انسان لا يعنى بالجمال الاّ قدر ما هو منبث في تضاعيف الحياة التي تبدو معكوسة في اطار ذاته ، وهو الى هذا لا يعنى بابراز اللذة والالم في شعره الاّ بالمقدار الذي يخالط شعوره منها . وهو لا يعالج مشكلة ولا

موضوعاً ، ولا يتقيد بشيء غير الحياة نفسها كما جاءت مخالطة وجدانه . وعمق استيعاب الشاعر للحياة ومنحى ابرازه وعرضه لمشاعره واحساساته تحدّد معنا قيمة شعر الشاعر من الشاعرية الصحيحة

ولما كان الشاعر يقيم كل ما له من الشاعرية على شيئين : الاول عمق مخالطة وجدانه للحياة والثاني منحى عرضه الاحساسات والمشاعر التي يخاص بها من هذه المخالطة فان شاعريته تتأثر باوضاع المحيط الطبيعي والبيئة الاجتماعية من حيث تؤثر في مزاجه وبالتالي في مخالطته فتأتي شاعريته ذات نمط يكافىء ما في المحيط الطبيعي من عوامل وما يكتنفهُ في بيئتهِ الاجتماعية من مؤثرات تنحو بعقليته وتأثره بالاشياء منحىً خاصًا

ولما كان الشاعر يستوعب الحياة عن طريق وجدانه ، فانسحاب ذاتية الشاعر على الحياة، ومجيء شعره من مخالطة وجدانه لها ، تستمد خطوطها من نفس الشاعر وطبيعته ، وبلغة أخرى لما كان الشعر — من حيث الموضوع — قطعة من الحياة يعرضها لنا الشاعر من خلال مزاجه الخاص ، وهو بما أوتي من مقدرة على الابراز والعرض يقدر على اثارة احساساتنا ومشاعرنا وينقلنا الى الجو الذي خلقهُ في شعره فنشعر وكأنّنا نحيا فيهِ ونتحرك . فالعرض عنده يستمد خطوطه من طبيعة مزاجه وذاتيته التي تأثرت بأوضاع المحيط الطبيعي والبيئة الاجتماعية . فمن هنا لنا ان نعتبر الشعر مظهراً نفسيًا يدل على وجه تفهم الحياة والاحساس بها

وطبيعة الشاعر أظهر ما تكون في تأثرها بأحكام البيئة الاجتماعية والمحيط الطبيعي في منحى انسحابها على صفحة الحياة ووجه عرضها من خلال مزاجها الخاص قطعاً من الحياة . بيان ذلك ان الاوضاع التى تقيد الانسان في نظره للعالم تقيد انسحابه على الحياة بأشكال وأنماط . فالذهن الانساني في غرارتهِ الاولى كان مدفوعاً بعجزه عن الافصاح عن تفهُّم المظاهر الطبيعية وصور الحياة الى خلع احساساته البشرية على الطبيعة وتضمينها فيها وتشخيصها . مثال ذلك شعراء اغريقية الاقدمين ، ولهذا جاء شعرهم اسطوريًا . فلما كدّ الذهن مستنبطاً أوضاع الحياة، شغل الانسان بالعوالم المحسوسة وصارت خلجات النفس تصدر مصوغة في قوالب فكانت (كلاسيكية) الادب والفن . ومن هنا لنا ان نعرف المذهب «الاتباعي» في الشعر بأنهُ صوغ خلجات الشعور والنفس في قوالب من فعل العقل المحض وعمل الذهن الصرف [1] . غير ان الاغراق في استنباط أوضاع العالم المحسوس ووضع صيغه واستخراج قيمه اقام ثورة ضد المذهب (الاتباعي) تمثلت في الحركة (الرومانسية) التي عملت على تحطيم القوالب والصيغ (الكلاسيكية)

ولما كانت الحركة (الرومانسية) ردّ فعل للاتجاه (الكلاسيكي) ، فقد قامت على تغليب ماوراء

---

(١) ابن خلدون في المقدمة فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول الشعر صناعة وسبيل هذه الصناعة كثرة مطالعة دواوين الشعراء فيحصل مع كثرة القراءة والمرانة على اساليب صوغ الشعر قالب من التراكيب يتركز في ذهن الشاعر فيفرغ فيه صور ما ينظم من الشعر وهذا القالب كالمنوال الذي ينسج عليه

المحسوس على المحسوس ، ومن هنا جاء ارسال الخلجات النفسية المترعة من القلب في النزعة (الرومانسية) ومن هنا كانت الرومانسية حركة « ابداعية » في تاريخ الفن والأدب

غير انهُ نتيجة للاغراق في تغليب المشاعر وما وراء الحس على العقل والعالم المحسوس من جهة ولا كمال الدعوة العقلية في الغرب من جهة أخرى ، استنبط الفكر متأثراً بالعقل (واقعية) الأدب . فكان النقل المجرد عن الطبيعة في المحسوس والمدى الظاهر من الاشياء . غير ان طغيان عالم الحس على عالم ماوراء الحس لم يقض عليها ، فكانت لها يقظة في العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر تمثلت في الحركة (الرمزية) التي هي مظهر مكتمل من الحالة الاسطورية . فكأن الاتجاهات الأدبية في الشعر مقيدة بالاوضاع التي اخذتها الحياة الانسانية في اطوارها المختلفة

اما الشعر نفسه فيعلو عن التقيد بالاوضاع من حيث هو فيض الوجدان والشعور . وان كانت الأوضاع تبدو مع الشعر فائضة من وجدان الشاعر

—١—

لما كان الشعر من حيث هو فيض الشعور والوجدان نتيجة اهتزاز اوتار النفس البشرية أمام الحياة الكامنة في الاشياء ، فانه على قدر الاهتزاز وقوته يكون مقدار عمق الشاعرية في الشعر ، ذلك ان الهزة التي تستولي على نفس الشاعر كلما كانت قوية تكشفت اسرار الحياة ومعانيها لوجدان الشاعر في حقيقتها . فتجعل الشاعر قادراً على النفوذ ، عن طريق وجدانه الى ما وراء المظاهر الخارجية للأشياء، ومن هنا يمكن ان يقال ان الطبيعة تلقي جانباً من معانيها الخالدة لنفس الشاعر في اهتزازات أوتار نفسه أمامها . فالشاعر أشبهُ بآلة موسيقية أمام الطبيعة . والطبيعة كالانامل التي توقع عليها، والأنغام التي تخرجها الآلة أشبهُ ما تكون بالشعر الذي يفيض به وجدان الشاعر أمام

غير انهُ من المهم ان نضع موضع النظر حقيقة كون الحياة في الاشياء مرتبطة بالنسبة الينا مع العمل. و لما كان العمل يتعلق بالجانب الكمي من الحياة ، فاننا نجد ان حياتنا العملية تتعلق بالأشكال الخارجية للحياة . اما الحياة نفسها في حقيقتها فتعلو عن تناول تجاربنا اليومية [١]

والشاعر من حيث هو صاحب فنّ هو ذلك الانسان الذي ينفذ بوجدانه وبصيرته الى ما وراء الاشكال الخارجية للحياة مصروفاً عن العمل بالتعلق ملء نفسه بالحياة في اعماق الاشياء . غير ان الحياة لا تؤاتي الشاعر باكثر من هزات تصلهُ بجانب من جوانب الحياة الداخلية للأشياء رافعة جانباً من الوشاح الذي بين الشاعر وبين الحياة الداخلية للأشياء. فيفيض الشاعر من وجدانه

(١) هنري برجسون في كتابه رسالة الشواهد المباشرة للشعور . باريس ١٨٨٩ . وفيها يقول ان ما اعرفه من نفسي ليس الا ما يتجلى للنظر أي ما يشترك في العمل. واذاً فان حواسي ووجداني لا تكشف لي الا عن ناحية موجزة من نواحي الحقيقة العملية للاشياء

بخلجات طالما ترددت في اعماق نفسه القصية كلحن موسيقي . غير ان هذه الخلجات في خروجها من العالم المضمر في نفس الشاعر الى العالم الخارجي ، تستمير الانغام لتبدو لحناً كلامياً ملحوظاً

من هنا لنا ان نعتبر الوزن والقافية في الشعر اشياء ان لم تتصل بروح الشعر فانها هي كل مظهرها الخارجي ، ومن هنا يصح قولنا ان التعبير عن الشاعرية هو كل اغراض الشاعر. ذلك ان الشاعرية تستعين بالاوزان او القوافي او مايقوم مقامها لتخرج الى العالم الظاهر متميزة بنبرات يتميز بها الشعر عن بقية ضروب الكلام . فالشاعر حين يستعير الاوزان او القوافي او ما يقوم مقامها فهو يستعين بها ليؤلف وحدة موسيقية يتمكن ان يصب فيها الخلجات التي تتردد في وجدانه ، وهو حين يصب هذه الخلجات في الالفاظ فانها تتصاعد فتكون وحدة لا يمكن ان تنفصل الالفاظ فيها عن الشعور ، والشاعر في ذلك كالموسيقي ، « وكما أنهُ لا يوجد في الموسيقى أنغام في جانب ومعانٍ يعبر عنها بهذه الانغام في جانب آخر ، بل يوجد هناك فقط صوت تعبيري »[1] كذلك في الشعر لا يوجد ألفاظ وحدها ومعانٍ وحدها ، انما يوجد ألفاظ تعبيرية عما في وجدان الشاعر ، هي مظهر الشاعرية والشعر نفسه

ولما كان الشعر يفيض من وجدان الشاعر متخذاً لنفسه القالب اللفظي الدال عليه ، فان الجو الذي في نفس الشاعر يتخذ الالفاظ التي تخلق بذاتها في عالم الشعر نفس الجو الذي يحس بهِ الشاعر في عالمه الداخلي مجرداً. وعن طريق هذا الجو الذي يخلقهُ الشاعر من الالفاظ في شعره ننتقل الى الجوّ الذي كان هو فيه ، فنشعر وكأننا نحيا فيه معهُ ونتحرك

والشاعر حين يستعين بأصوات الكلام ليؤلف الوحدة الموسيقية الدالة على المعنى ، انما يعتمد على انتظام اصوات الالفاظ وتلازم نبراتها ، وانشاد الشاعر لشعره وطريقة انشاده تظهر لك حقيقة هذه الموسيقية التي تخلق الجو الشعري فتشعر بروح الشعر في القصيد

— ٢ —

تفيض شاعرية الشاعر من وجدانه متخذة من الكلام شكلاً تظهر فيه من العالم المضمر الى عالم الاشكال ، والاتساق في الشاعرية يحمّل الشكل اتساقاً يوحي بالجو الذي اضطربت فيهِ الشاعرية ، من هنا يمكننا ان نتكلم في الشعر : عن الشاعرية التي تجتاح الوجدان وتضطرب في نفس الشاعر حتى تفيضها ، وعن الشكل الذي اتخذته الشاعرية لتظهر ، وعن الجو الذي تخلقهُ الشاعرية باتساقها في الشكل . على اعتبار ان جميع هذه الاشياء تنصهر في بوتقة واحدة لينبث منها شيء واحد — ذلك الذي نسميه شعراً

---

(١) برادلي في محاضرته « الشعر للشعر » ، ألقيت في الخامس من يونيــة سنة ١٩٠١ بجامعة اكسفورد وينظر تلخيص عربي لهــا من قلم الدكتور احمد زكي ابو شادي في كتابه « نظرة من براع في الادب والاجتماع » القاهرة ١٩٢٢ ج ٢ ص ١٠ — ٣٣ وعلى وجه خاص ص ٢٠ — ٢١

ومن المهم ان نقول ان هذه الاشياء ان كانت تنصهر في بوتقة واحدة لتخلق ذلك الشيء الذي نسميه الشعر ، فانها ككل تقابل الموضوع الذي تدور حول الشاعرية ، وتستنزل منهُ اخيلتها الشعرية ومجازاتها التعبيرية . إذاً فيجب ألاّ نبحث عن موضوع الشعر في نفس قطعة الشعر ، ذلك ان الموضوع خارج عن الشعر . غير أنهُ من جهة اخرى يقابله ، ذلك من حيث كون الشعر شعوراً اتخذ شكلاً وجوّاً تعبيريّاً خاصاً ليظهر فيهِ . فمثلاً موضوع « الممات » الذي اتخذه حامد شاعر الترك الاعظم موضوعاً يستنزل منهُ أخيلته ويستمد منهُ تأملاته الشعرية في رثائهِ لزوجته الشابة فاطمة شيء والمقبرة التي شيدها حامد شعراً من العواطف والمشاعر والتأملات شيء آخر ، ذلك ان الشعر شيء يتصل بنفس الشاعر وفيض وجدانه ومنحى تعبيراته ، والموضوع شيء يتصل بنفس الشاعر من حيث انتشاء الشاعرية وتنسحب عليهِ مستنزلة أخيلتها ومجازاتها التعبيرية . واذاً تكون الصلة بين موضوع الشعر والشعر نفسه مرتبطة باستنزال الشاعرية من الموضوع مادة الشعر

ويجب ان نضع موضع النظر هنا هذه المسألة : المادة والشكل من جهة والموضوع من جهة اخرى . ولا يمكن ان يتخذ الموضوع قاعدة للبحث في الشاعرية وطاقتها الاّ من ناحية واحدة تتصل بالمدى الذي تسمح بهِ للتواردات الشعرية . فمثلاً موضوع « الممات » يحمل الذهن الى عالم ما وراء المنظور رابطاً بهِ العالم المنظور ويسمح بتواردات شعرية تنقل الذهن الى عوالم الشهادة والغيب . اما موضوع « الكروان » مثلاً فان تواردانه الشعرية وان كانت تحسب شيئاً غير قليل الاّ انها في مداها لا تقاس بالمدى الذي يعطيه لنفس الشاعر موضوع « الحياة » او « الممات » . فنحن ان امكن لنا ان ندخل في مقارنة جيته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) شاعر الالمان الفيلسوف الذي اتخذ الحياة موضوعاً لدراماته الشعرية وبين عبد الحق حامد (١٨٥١ — ١٩٣٧) شاعر الترك الفيلسوف الذي اتخذ الممات موضوعاً ، فان الموضوع من حيث هو متكافىء مع الآخر في مداه الشعري ، ومن حيث يحتوي على الآخر يسمح بمثل هذه المقارنة

ومع هذا يجب ألاّ ننسى ان الشاعرية من حيث تتصل بسر الاشياء الروحي ومنها تتخذ لنفسها الموضوع الذي تستنزل منهُ اخيلتها الشعرية وتعبيراتها المجازية ، يمكنها ان تلج من الموضوعات المحدودة ظاهريّاً الحياة كلها عن طريق رفعها الستر القائم بين الموضوع المحدود في عالم الاشكال وبين الحياة نفسها . مثال ذلك أن طائر الكروان موضوع محدود ظاهريّاً ، لكن الشاعرية النافذة حين تنسحب عليه يمكنها ان تنفذ من عنصر الحياة القائم فيهِ الى الحياة العامة . ذلك من حيث تتخذ الحياة الكروان شكلاً من الاشكال تبدو فيها

من هنا يجب ان نكون على شيء غير يسير من الحيطة في اتخاذ موضوع الشعر اساساً للنظر في الشاعرية ومداها وقيمتها ، ذلك ان الشاعرية تبدو بكل معانيها في القطعة الشعرية ، من حيث

تصب الشاعرية فيها معانيها المستنزلة من الموضوع الذي تنسحب عليه . وهكذا يتبين معنا معنى كون الشاعرية تبدو في منحى انسحاب الشاعر على الحياة

وهنالك بضعة نماذج فردية قوية في تاريخ الشعر العربي تتميز بمنحى خاص في انسحاب شاعريتها على مواضيع الحياة ، وهذه النماذج يمكن ان نردها الى ثلاثة نماذج تعود لطبائع الشعوب وعقلياتها وامزجتها من حيث تفاعلت فكانت من تفاعلها عقلية المدنية الاسلامية ومزاجها. هذه النماذج الثلاثة هي : النموذج المصري والنموذج العربي والنموذج اليوناني . ولكل من هذه النماذج أثر في تكييف اتجاه الشعر العربي في مصر في هذا الجيل

اما النموذج العربي فتبدو منهُ الحياة — كما يقول الرافعي — « كأنها قطع مبتورة من الكون داخلة في الحدود لابسة الثياب . ومن ذلك نجد الشاعر العربي يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود . فلا تجد في طبعه قوة الاحاطة والتبسطُ والشمول والتدقيق ولا تواتيه طبيعته ان يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها فاذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه واذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره واذا نفسه تمر على الكون مرًّا سريعاً واذا شعرهُ مقطع قطعاً واذا آلامه وافراحه أوصاف لا شعور وكلمات لا حقائق وظل طامس ملق على الارض اذا قابلتهُ بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض[1] » وسر هذا كما يقول برجسون[2] « اتصال نفس العربي بتبسطها الظاهر . فهو لا يدرك من مشاعره غير مظهرها القريب عنهُ ، والذي حدد اللفظ معناه كليةً لانهُ يكاد يكون متشابهاً دائماً ، وظروفه تكاد تكون واحدة عند جميع الناس وهكذا فان الفردية تغيب عن العربي حتى في شخصه[3] »

أما النموذج المصري، فالحياة تبدو — كما يقول توفيق الحكيم —[4] عند الفنان المصري « فكرة مجردة » مستقلة عن شكلها ، وهي من هنا تتميز بأنها من أغمض النماذج الفنية التي عرفها تاريخ الفن الانساني . وهي تقاطب النموذج العربي الذي يقف عند حدّ الشكل من حيث تقف عند حدّ القوانين المستترة التي تسيطر على الاشكال » . من هنا نجد الشاعر المصري يقع على

(١) المقتطف م ٨١ ج ٤ (نوفمبر) ١٩٣٢ ص٣٨٥—٣٩٧ وعلى وجه خاص ص ٣٨٩ ، ويمكنك ان تقابل هذا الكلام بما جاء في كتاب « تحت شمس الفكر » لتوفيق الحكيم ص ٦٤ حيث يقول : « الادب نثر وشعر عند العرب ، لا يقوم على البناء فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، انما هو وشي مرصع جميل يلذ الحس فسيفساء اللفظ والمعنى، و « آرابسك » العبارات والجمل ، كل مقامة للحريري كأنها باب للجامع المؤيد ، تقطيع هندسي بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب

(٢) هنري برجسون في الفن ومذاهبه عند الامم ، باريس ١٩٣٣ ص ٣٣—٣٤

(٣) الفردية التي يتكلم عنها برجسون هنا تعني فردية الاشياء التي تعود لصنف واحد او نوع واحد

(٤) تحت شمس الفكر ، ص ٥٥—٧٦

المعاني المستترة للاشياء ، لكن طبيعته الخفية لا تؤاتيه القدرة على ربط هذه المعاني المستترة بما تتخذ من أشكال لها في العالم الظاهر . ذلك ان الطبيعة المصرية تدور مع الحياة في تبسطها الداخلي ، ومن هنا لا يدرك المصري من مشاعره الآ معانيها الخفية ، وهذا الاغراق في معاني الاشياء الخفية وقوانينها المستترة أبعدت بين المصري والحياة في أشكالها الخارجية ، واظهر ما تكون هذه الحقيقة في الفن الفرعوني القديم [١]

أما النموذج اليوناني فتبدو الحياة — كما يقول فردريك نيتشه — [٢] من مزاجه مرتبطة « هندستها المنظورة بقوانينها المستترة » . من هنا نجد الشاعر الاغريقي يمتد الى المعنى المحدود فيحطم حدوده ويصله بتيار المعاني في عالم المشاعر والاحساسات، وهكذا ينتهي الى العالم المضمر وهو في هذا أشمل نظراً من العربي الذي يقف عند أشكال الاشياء. ومن المصري الذي يقف عند المضمر من الاشياء فالشاعر اليوناني لا يقف عند الظاهر لانهُ ينسحب على الباطن

— ٣ —

الباطنُ في جانب مصر والظاهر في جانب العرب ، والاثنان يدور حولها المزاج اليوناني ليخلص بالتناسق الذي يربط هندسة الاشياء المنظورة بقوانينها المستترة. وهذه الامزجة الثلاث نجدها قائمة في عالم الشعر العربي ، وخليل مطران يمثل ثالثها . وبعد ذلك فسندنا المادة والتعبير والجو الشعري في الشعر مما يتأثر بالمزاج الشخصي للشاعر

أما المادة في الشعر فهي الاخيلة والمعاني والتأملات والصور والعواطف والاحساسات والمشاعر ، مما تعمد الشاعرية الى استنزالها من الموضوع عن طريق غشيانها والانسحاب عليها . ومن هنا نجد ان مادة الشعر ملك خاص للشاعر يمنحاها الذي يتصل بوجه استنزالها [٣]. بيان ذلك ان التأملات والمعاني والاخيلة والصور والاختلاجات التي نجدها في « المقبرة » [٤] التي شيدها من الشعر الخالص شاعر الترك الاعظم عبد الحق حامد ملك شخصي له، لا ينازعه فيها أحد لان مزاجه الشعري وحده هو الذي استنزلها [٥] كذلك مادة القصيدة القصصية « الجنين الشهيد [٦] » لخليل مطران شاعر العربية الابداعي من الاخيلة والتأملات والمعاني الشعرية ملكه الشخصي

---

(١) فون بسنج Von Bissing في Denkmaler Agyptien sculptien بمجلدين ، م ١ ص ٢٧ وما بعد وخاصة الملخص الاخير (٢) مولد المأساة من روح الموسيقى ، ١٨٨٢ ص ١٣ وما بعده

(٣) Addison في نقده للفردوس المفقود (٤) المقبرة ديوان من الشعر الرثائي تبلغ أبياتها نحو الف ومائتي بيت كتبها عبد الحق حامد أعظم شعراء الترك في رثاء زوجته ، وتعتبر من أروع الشعر الرثائي الذي عرفه تاريخ الامم ، وهذا الديوان لا يخرج عن كونه مقبرة شيدها الشاعر لزوجته المتوفاة ، ولكنها مشيدة من التأملات والاخيلة والخلجات والعواطف الشعرية (٥) أنظر لنا دراسة وتحليل عن عبد الحق حامد الشاعر الاعظم، حلب ١٩٣٧ ص ٢٢ — ٢٣ وكذا ص ٣٥ — ٣٩ (٦) أنظر ديوان الخليل ص ١٩٩ ومابعده

لانهُ وحده الذي استنزلها من الموضوع لصحة وجدانه ثم فاض بها شعراً من الوجدان . فاذا كان هذا هو مادة الشعر في الشعر فالشكل من حيث يتصل بالتعبير كله يقابل المادة من جهة ، ويتصل بهِ عن طريق ابرازه له من جهة اخرى

ومن المهم ان نقول ان مادة الشعر خاضعة لمزاج الشاعر فان من الامزجة ما تتعلق بالالوان والاشكال ، ونظراً لكونها تحب الالوان لمجرد الالوان والاشكال لمجرد الاشكال ، فانها تستنزل لصفحة وجدانها أشكال الاشياء وألوانها اطيافاً وظلالاً ونوراً . ومن الامزجة ما تحب ان تنطوي على نفسها وتقف جهدها على التعلق بالخلجات المنتزعة من الشعور فلا تعرف غير عوالم النفس والاحساس ولهذا نجد مادة شعرها خلجات مرسلة من الشعور والوجدان . كما ان هنالك من الامزجة ما يعلق بمعاني الاشياء وروحها الداخلية ، فترى الحياة الداخلية للاشياء تضطرب من خلال تعبيراتها في شعرها . وهكذا اختلفت مواد الشعر من شاعر لآخر باختلاف أمزجة الشعراء

ولما كانت مادة الشعر لا يمكن ان توجد منفصلة عن شكل خارجي لانهُ لا يوجد مادة بلا شكل مصور ، فان مادة الشعر حتماً يتبعها تعبيرها الخاص الدال عليها المستنزل من مقدرة الشاعر التعبيرية . الا انهُ من الممكن الى حدٍ النظر في مادة الشعر مجردة عن التعبير الذي تأخذه ذلك من وجهة التجربة الشعرية ، أعني من وجه استنزال الشاعرية مادة الشعر الى صفحة الوجدان من الموضوع الذي تغشاه الشاعرية وتنسحب عليه . فمثلاً موضوع «زهرة الفول» الذي نظم فيهِ الرافعي قطعة من الشعر ، الاخيلة والصور الشعرية التي استنزلها الى صفحة وجدانه عن طريق غشيان شاعريته موضوع زهرة الفول يمكن دراستها مجردة الى حدٍّ ما عن الشكل التعبيري الذي اتخذتهُ الاخيلة والصور الشعرية . ومن هنا يمكن النظر في القيمة الشعرية لمادة الشعر [١]

غير اننا في مثل هذه الدراسة يجب ان نكون محتاطين في ملاحظة أثر التعبير في منحى الاخيلة والتأملات الشعرية ، فان القليل من الشعر في آداب الامم ، تتميز مادتهُ عن الشكل او تبقى مادته وشكله متمايزين . والشاعر بعد محتاج الى الكثير من الفقرات البيانية لا جل ان يحرك نسج قطعته الشعرية ويوطىء بين المعاني والاخيلة والتأملات الشعرية حتى تنتهي الى وحدة متسلسلة الحلقات في القصيد اذاً ففي الشعر الكثير من الفقرات المتميزة بتعبيرها وشكلها ، وهي من هنا ليست من فيض الوجدان . وانما هي أثر من آثار زخرفة الشاعر البيانية . وشكسبير نفسه المعدود من أعظم شعراء الارض قاطبة لم يخل شعره من مثل هذه الفقرات المتميزة بتعبيرها والتي لم تخرج عن كونها زخرفة بيانية [٢] . وبعد ذلك تبقى كمية لا يستهان بها من الفقرات في شعر شكسبير

---

(١) Coleridge في Lectures on Shakespeare و Hazlitt في Shakespear's Characters ورضا توفيق في عبد الحق حامد وملاحظات فلسفية ، وسيد قطب في غزل العقاد بمجلة الرسالة ، السنة السادسة

(٢) انظر Lamb في Tales from Shakespear طبعة Dent

وهي وحي شاعريته ، والتي جعلت له مقامه في عالم الفن

هذه الفقرات وان تميزت بمادتها او تميز تعبيرها ومادتها كل على حدة بخصائص ذاتية ، فان الحيطة توحي الينا بالحذر — ولو مع مثل هذه الحالات — اذا اردنا ان ندرس مادة شعر مجردة عن شكلها التعبيري ، لانهُ لايمكن القطع بان المادة يمكن ان توجد مجردة عن شكلها

فاذا عدنا الى الشكل في الشعر ، فالواقع انهُ ليس هنالك شكل محض ، ذلك ان الشكل من حيث هو التعبير ، يحتوي ضمناً على ما يعبر عنهُ[٢]. واذاً كل ما يمكن الكلام عنهُ ، انهُ يوجد في الشعر فقرات تميز بتعبيرها أعني شكلها دون مادتها ، او تميز بتعبيرها بجانب تميزها من ناحية المادة . غير انَّ هذا التميز من جهة الشكل لايخرج عن حد الزخرفة البيانية

من هنا في الامكان دراسة الأسلوب في الشعر من حيث هو مظهر التعبير من ناحية دلالته على مايعبر عنهُ من جهة ، كما انه في الامكان أنْ يدرس الأسلوب لذاته من جهة أخرى . على ان دراسة الأسلوب لذاته لكونها تقوم على أساس تجريد الأسلوب مما يحملهُ من المعاني والتأملات والأخيلة ، فسوف يكون قصراً على النظر في تلاؤم نبرات الكلام ونسق الالفاظ وسهولة العبارات ووضوح التعبير ، الى جانب تميز الاسلوب بالدقة والحركة والوحدة . غير ان مثل هذه الدراسة تظل قاصرة حتى يلاحظ المعنى الذي يحملهُ الأسلوب ، لأنَّ المعنى احياناً يحمل الاسلوب شكلاً خاصًّا يتفق وجوَّه الخاص ، وهذا اكثر مايرى في الشعر . ذلك ان الشاعرية حين تفيض من الوجدان بمعانٍ وتأملات وأخيلة وخلجات ، فان هذه التأملات والصور والمعاني تأخذ قوالبها بما يتفق وجوَّ الشاعرية ، وكم من قالب افسد على المعنى جلاله وعلى الجوّ الشعري علويته من حيث تنافره مع المعنى وجوّه الشعري . ومن هنا نرى ان الشعر الصحيح هو ذلك الشعر الذي يتفق قالبه الخارجي مع الجو الذي يحمله المعنى معهُ ، والذي تتماسك فيه المادة مع الشكل

خاتمة

اذا كان الشعر الصحيح ، هو ذلك الشعر الذي يتفق قالبه أعني شكله مع المعنى من جهة والجو الشعري الذي يحمله المعنى مع القالب من جهة أخرى ، فان في الشعر الصحيح يظهر المعنى مع القالب والقالب مع الجو الشعري في بوتقة واحدة تتماسك فيها اللبنات في بناء واحد ليتمخض عن الشعر . ومن الصعوبة بمكان أنْ نتكلم في الشعر الصحيح عن معنى مجرد لذاته وعن قالب مجرد لذاته وعن جو شعري مجرد لذاته ، ان كل ما يمكن أن نتكلم عنه كيان حي اتخذت

(٢) Matthew Arnold في Essays طبعة Dent الدراسة الخامسة في Bradley Poetry for Poetry

فيه الشاعرية من القالب شكلاً . لان الشاعرية لما كانت فيضاً من الوجدان مما احتشد في صفحته من الاخيلة والتأملات والمعاني والصور الشعرية التي استنزلها الوجدان في غشيانه الموضوع الذي دارت حوله الشاعرية او انسحبت عليه،فان هذا الحشد يفيض مع الشعور الدافق من الوجدان متخذاً قالبهُ الاسلوبي تامًا وشكله التعبيري كاملاً مبدعاً جوًا شعريًا يتفق مع الجو الذي كان عليه الحشد في الوجدان . غير ان اتخاذ الشعور الدافق من الوجدان القالبَ لا يكون دفعة واحدة ، لان الحشد الذي يفيض معهُ أشبه ما يكون بروح بدائية ، تبحث عن جسمها البدائي لتحل فيه اذا جاز مثل هذا التعبير ، اما نموها حتى قوامها الكامل وهيئتها التامة فذلك يكون عن طريق التداعي عادة حيث يستنزل من صفحة الوجدان ما تبقّى فيها من حشد الاخيلة والتأملات والمعاني الشعرية ، ويتدرج مع القالب حتى يبلغ به الى التمام [1]

من هنا نرى ان الشعر الخالص يبدو لنا ذا تأثير ساحر من حيث انهُ يظهر وكأنهُ فيض الالهام ، والواقع انهُ لا يخرج عن كونه فيضاً للوجدان من حيث المصدر الا ان الصناعة من حيث تتبعهُ — نظراً لانها تابعة وليست أصلاً — تتلاشى في الفيض العام ، ومن هنا يبدو وكأنهُ فيض الالهام . هذا وانت تجد الشاعر الذي يتخذ شكلاً من الاشكال موضوعاً لشعره ويتصورهُ في ذهنه ويتصرف بما فيه من الزخرف مأخوذاً بهندسته المنظورة ، فتجده يلبس اخيلته التي يستنزلها الى صفحة وجدانه من هذا الموضوع لغة ايقاعية تتراقص فيها الاطياف والالوان والاضواء. من هنا لا يمكن ان نخدع في حقيقة هذا الشعر . غير انهُ كثيراً ما يحتوي على جديد اصيل في شاعريته من حيث ينفذ وجدان الشاعر الى ما وراء الاشكال ويتصل بروحها التي تتظاهر في قوانين مستترة تتحكم في هندسة الأشكال المنظورة

وبعد ما الشعر ؟ وما الشاعر ؟ وما هي القواعد التي نرجع اليها في دراسة الشعر والشعراء؟

أما ان الشعر يمكن تحديده فهذا ما لا نعتقده لانهُ نفحة علوية تعلو عن التحديد . وأما أنهُ يمكن تعريفه فهذا ما لا نراه ، لانهُ أوسع من أن يشمله تعريف. فلنكتف لفهم الشعر بتحليل ماهيته كما فعلنا . ولنقل أنها نفحة علوية وكفى ! . . . أما الشاعر فهو الذي يفيض بالشعر وينظم الشعر ويقول الشعر ، وهكذا نعود للشعر ! والشعر نفحة علوية ! . . .

أما القواعد التي يرجع اليها في دراسة الشعر والشعراء فهي تستمد خطوطها من تحليل الشعر وهي دراسة ذاتية اكثر منها موضوعية ، وفنية اكثر منها علمية

(١) Bradley في Poetry for Poetry و W. Pater في Studies in Art & Poetry: The Renaissance و G.W.F, Hegel في Philosophy of Fine Art م ٣ ص ٢١٧

من شعر الهمشري[1]

العودة

الابيات التالية مختارة من قصيدة العودة ، وهي في ستين بيتا يصور فيها الشاعر ريفياً جذبته المدينة وأغرته فلما عاد الى قريته ومغاني طفولته وجدها قد صوحت أشجارها ورحـــل عنها أهلها

رجعت اليكِ اليوم من بعد غربتي … وفي النفس آلام تفيض ثوائر

رجعت وعقلي تائه الفكر شارد … وأبت وقلبي واهن الخفق خائر

فيا ارض احلامي ! أألقى طفولتي … ويسعدني يوم من العمر آخر ؟

تسفت فيك الليل .. والريح صرصر … وخضتُ اليك الموج .. والنهر ثائر

أتيت لأ لقى في ظلالك راحة … فيهدأ قلبي وهو لهفانُ حائر

أموت قرير العين فيك منعماً … يخدرني نفح من المرج عاطر

ويلحفني هذا البنفسج ... ولكن … مسارح عينيّ الربا والمخاضر

وآخر ما أصغي اليه من الصدى … خريرك يفنى وهو في الموت سائر

* * *

ولكن بلا جدوى .. أتيت فلم أجد … سوى قفرة أشباحها تتكاثر

وقد نصبت أيدي الشتاء سياجها … عليها ! وأسوار الظلام تحاصر

وقد خيم الصمتُ المتوف مع البلى … عليك ، وأرواح الدجى تتنافر

وقد هاجم الغابُ الكثيف غياضها … ليغزوها ، والموج يزبد هادر

وهبَّ نسيم بارد من كهوفها … تجاوبهُ في الريح هذا المغاور

وقد رفرف الخفاش فيها وحومت … على الشط غربان الفناء الكواسر

وداوية للبوم من فوق سرحة … قضى فوقها من قارس البرد طائر

ترتّل لحن الموت في معبد الدجى … وتروى أساطيراً روتها الدياجر

كأنك في سفر الليالي ملاحم ! … يرتلها في جانب الموت شاعر

. . . .

وخاتمتها

لقد خف نَسْمُ الصبح يهمس ناعياً … الى السهل ... أن قد فارق الكون شاعر

لذا نَفَسَ النحل الزهور فجلجلت … ونابت عن الاجراس هذي الازاهر

---

(١) هو الشاعر م. ع. الهمشري توفي الى رحمة ربه في ١٤ ديسمبر الماضي عن ثلاثين سنة

عالم الروح

والعلم الحديث

لاحمد فهمي ابو الخير

عالم الروح موجود ، لا ينكره الاّ ملحد او متعنت ، وهو قديم منذ الازل . واتصال عالمنا به قديم ايضاً ، ولكن قدم الانسان . ولقد كان هذا الاتصال سبباً في حدوث مآسي كثيرة استشهد فيها كثيرون . نعم لقد استشهد رسل وانبياء وقديسون وشهداء . وما حَرْق من سموهم السحرة والساحرات في القرون الوسطى إلاّ مثل من امثلة هذه المآسي المفجعة . وما كان هؤلاء جميعهم إلاّ قوماً كشف الحجاب عن اسماعهم وأبصارهم فسمعوا غير المسموع ورأوا غير المنظور وهم الذين يسميهم العلم الروحي الحديث «وسطاء» . وظلّ الحجاب بين العالمين منسدلاً ، يتزايد كثافة من حين الى حين . ولم تكن الكشوف العلمية تقدمت ، بل حتى حين تقدمت الكشوف لم تتجه العلوم صوب هذه الناحية وبحثها إلاّ في النصف الثاني من القرن الماضي او قبل ذلك بقليل

وكان المعول الأول في ثغر هذا الحجاب كشف غاليليو المنظار (التلسكوب) فقد رأى بهِ دناً جديدة لم تكن ظاهرة للعيان ، ووسع بهِ مجال المنظور أمام عين الانسان — ولقد اضطهد الرجل وسجن لانهُ جهر بآرائهِ ، ومنها ان الكواكب السيارة اكثر من سبعة . وقد عارضهُ معارضوه محتجين بأن في رأس الانسان سبع فتحات ، وبان في الاسبوع سبعة ايام ، وعلى ذلك فلا يوجد الاّ سبعة كواكب سيارة . بل ذهبوا في التدليل الى اغرب من هذا فقالوا ان تلك الكواكب السيارة التي يقول بها غاليليو لاتراها العين العارية ، فلا تأثير لها إذن في الارض وما دام لايرجى منها نفع فهي إذن غير موجودة. بل ذهب المتعنتون الى اكثر من هذا رافضين أن يروها خلال المنظار . فلما ان وافى احد اولئك المعارضين اجلهُ قال غاليليو « انهُ لم يشأ ان يرى وهو على هذه الارض تلك الاجرام السماوية الضئيلة فلعله يراها الآن وقد صعد الى السماء »

وتلا كشف المنظار كشف المجهر (الميكروسكوب) وبهِ اتسع مجال الابصار لدى الانسان فرأى به عالماً آخر من مخلوقات صغيرة لاتراها العين العارية رغم وجودها

(١) المقتطف : ننشر هذا البحث النفيس على انه بسط لوجهة نظر اصبح لها انصار كثر بقلم عالم بحاثة له في علوم الطبيعة وتدريسها مكانة . الا انه لا يعني أكثر من ان المقتطف محايد حيال الرأي الذي ينطوي عليه

ثم جاء نيوتن بعد ذلك وحلل ضوء الشمس الابيض الى الوانه السبعة التي نراها في قوس قزح . وتتالت البحوث في هذا الصدد فكشفوا اشعاعات اخرى غير منظورة فوق احد اللونين المتطرفين وهو اللون البنفسجي ، وتحت اللون الآخر وهو الاحمر ، واطلقوا عليهما الاشعاعات فوق البنفسجية وتحت الحمراء . ولم تقف كشوف الاشعاع عند هذا الحد ، فكشفوا في المنطقة التي تعلو فوق البنفسجية الاشعاع السيني (اشعة أكس) ، وفي المنطقة التي تسبق في سلم الاشعاعات الاشعة الحرارية المعتمة ، والاشعة اللاسلكية

وكان العلماء من جهة اخرى يبحثون في المادة ، فكشفوا العناصر الاثنين والتسعين بعد ان كانت العناصر في رأيهم اربعة : الهواء والماء والنار والتراب . ثم وصلوا في تقسيم المادة الى اصغر اجزائها مما سموه ذرة وجزيئاً

وعندئذ اتجهت عقول العلماء الى غزو الذرة التي كانت اذ ذاك لا يمكن أن تجزى ولا تحطم فاستعانوا بالاشعاعات الكهربائية ذات الضغط المرتفع جداً وسلطوها على الذرة فتحطمت الى مكوناتها ، وانتهوا الى أن الذرة متألفة من كهارب ، الموجب منها هي البروتونات (جمع بروتون) وهي كائنة في نواة الذرة وتعين وزنها ، والسالب منها هي الالكترونات (جمع الكترون) وهذه تدور حول النواة في افلاك بسرعة هائلة ، وهي التي تسبب اللون وتعين النوع . وانتهى الامر عند بعضهم الى أن الذرة نموذج مصغر للمجموعة الشمسية

على ان بحوث العلماء لم تقف عند هذا الحد فراحوا يبحثون في حقيقة هذه الكهارب ، وأدى بحثهم الى كشف جسيمات أخرى لا داعي لذكرها ، ثم انتقلوا الى أن هذه الكهارب عقد في الاثير ، وهو ذلك الخضم الذي يشغل الكون كله ، والذي لولاه ما رأينا ضوء الشمس ولا أحسسنا بحرارتها ، بل لولاه ما وجدت حياة في أي ركن من اركان الكون — لا مادية ولا روحية

وزاد واضعو العلم الروحي الحديث على ذلك ، أن الاثير في اهتزازاته المختلفة يعطينا اشعاعات مختلفة ويعطينا مواد مختلفة . وأنه مادة لا تستجيب مشاعرنا لاهتزازها فلا ندركها . وان المادة التي تدركها حواسنا المحدودة المدى ما هي إلا أثير في حالة اهتزاز خاصة . فالمادة بجميع انواعها وصيغها ، حية كانت أو غير حية ، ترجع الى أصل واحد وهو الاثير . واذا كان اصلها واحداً فهي اذن قابلة للتحول . ولقد استطاع العلماء أخيراً أن يحولوا بعض العناصر الى غيرها والى أن يستحدثوا عناصر مشعة جديدة . فلقد استطاعوا تحويل الازوت الى أكسيجين ، وكلاً من البورون والبريليوم الى هليوم ، ولقد استحدثوا من الالومنيوم عنصراً مشعاً هو نظير للفصفور ومن المغنسيوم عنصراً مشعاً آخر هو نظير للسلكون ، واستطاعوا ان يستحدثوا أيضاً العنصر الذي ترتيبه الثالث والتسعون في الجدول الدوري ، فاذا به نظير للارانيوم أثقل العناصر جميعها

وكل هذا بأجهزة كهربائية تحدث ضغوطاً كهربائية تزيد على خمسة ملايين فولط في بعض الحالات ونجد كل هذا مشروحاً مع الاجهزة في مؤلفات الدكتور أندريد استاذ الفيزيقا في جامعة لندن حالاً ، فاذا لم تكن المادة ترجع في جملتها الى اصل واحد أكان يمكن تحويل بعض العناصر الى عناصر أخرى ؟

ولطالما خدعتنا ظواهر عالمنا المادي فأخفت عنا حقيقتها . وخير مثل قريب أقدمه هو شمسنا . أليست هي المتحركة ظاهريًّا ؟ ألم يخدعنا هذا المظهر فظن آباؤنا ان الشمس تدور حول الارض على حين ان الارض هي التي تدور حول الشمس ؟ هذا مثل من جملة امثلة من مثل الخداع . والمادة مثل آخر . فتلك التي تبدو لنا جامدة صلبة ليست في الواقع شيئاً من هذا القبيل فلا هي جامدة ولا صلبة ، بل هي كما سبق بنا ، وكما يقول العلم الحديث بسرعة كل اليسر . أليست هي كهارب كلها كما قلنا ؟ فخشب المنضدة ، وجدران هذا المكان ، وجسومنا كلها بخلاياها الحية — كل هذا كهربائية ، او بعبارة أدق اثير في حالة اهتزاز خاصة تدركها المشاعر . ولو كانت اعضاء الحس عند الانسان من رتبة اعلى درجة اهتزازاً ، من رتبتها الحالية لاستجابت لما لا تدركه حواسه الحالية ، ولتكشف أمامها عالم غير منظور فيه الحياة وفيه الجمال وفيه الكمال

فلنفكر اذن بدلالة الاهتزازات ، ولندرب عقولنا على فهم هذه الاهتزازات ، فاذا تم هذا استقام كل شيء وفهمنا عالم الروح ، وعينا موقعه في خريطة الكون . وكما أنهُ توجد أضواء لا تراها العين اذا انعكست من أمثال الضوء فوق البنفسجي والاشعة السينية ، والاشعة الحرارية واللاسلكية ، كذلك توجد أصوات لا تدركها الاذن لارتفاع درجتها . وقد استطاع الاستاذ وود Wood الاميركي استحداث موجات صوتية صامتة ، وهي موجات قصيرة جداً لا تستطيع الاذن ادراكها قوية التضاغط والتخلخل بحيث اذا أطلقت في الماء رفعت درجة حرارته وقتلت صدمتها الاسماك الصغيرة . ولا يمكن الاذن ان تدركها إلاَّ اذا تداخلت موجتان منها مختلفتا الدرجة

والروح من هذا الطراز . هي مادة أثيرية مرتفعة درجة الاهتزاز ، فلا نراها ولا نسمعها ولا نحس بها إلاَّ بتوافر شروط خاصة . هي كالموجة اللاسلكية ، لا تعترف بمادية الجسوم الصلبة تنفذ منها وتتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء او اللاسلكي بمراحل ، تنهتك أمامها حجب الزمان والمكان وتعيش في رحاب الخالق جل شأنهُ خالدة ما اراد الله لها الخلود

فعالم الروح اذن يحيط بنا ، ويتخلل عالمنا ، يرانا سكانه متى ارادوا ، ويحاولون مخاطبتنا وكثيراً ما يهزون الواحد منا من كتفه أو من يده ولكننا لا نحس بهم ، وهل نحس بموجة الراديو وهي تخترق جسومنا ؟ هل نحس بالاشعاعات الاخرى التي تغمرنا من جميع الجهات ليلاً ونهاراً ؟ على أن الذين رزقوا منا الشفافية الروحية ، اولئك الذين عيونهم وآذانهم ومشاعرهم أعلى درجة اهتزاز من عيوننا وآذاننا ومشاعرنا العادية اولئك الذين رزقوا الجلاء في العين وفي الاذن وفي المشاعر

يحسون بهم ويخاطبونهم واولاء هم الوسطاء الذين لولاهم لظللنا نجهل هذا العالم مادمنا في عالمنا المادي ، وسيظل الكثيرون منا بمعزل عن هذا العالم الى ان يدركهم ذلك التغير المسمى الموت وما هو في الواقع الا ولادة لحياة أخرى أرق وأرقى كما سيجيء . وما لم يبحث في الروح بدلالة الاهتزازات فاننا لا نستطيع فهمها ، ولا فهم طبيعة العالم الذي نعيش فيه

قال القس ج . موريس اليوت في كتابه «حياة المسيح الروحية» بصدد الاهتزازات ما يأتي:—

«كل شيء في الكون يهتز ، وكل شيء له طول موجي خاص به . كل شيء في الدنا المنظورة والدنا غير المنظورة يهتز . وعلى مقتضى السرعة التي يهتز بها الشيء يكون هذا الشيء مرئياً أو غير مرئي ، جامداً او ليناً ، صلباً أو سائلاً أو غازاً

« اننا نجعل قطعة الثلج تذوب — أو تضمحل — وذلك فقط باحاطتها بما يزيد في سرعة اهتزازها . وحينما يستحيل الثلج ماء أو بخاراً أوضباباً أوغازاً فنحن لا نقول : انظروا ! تلك معجزة ! لاننا نعلم ان ذلك راجع الى قانون يسري ويعمل

« وليسمح لي قرائي ، وقد تناولت موضوع الاهتزاز هذا ، أن أذكرهم بأن الكهربائية اهتزاز وان للالوان والروائح ايضاً اهتزازاتها

« والموسيقى اهتزاز . والمرض (انعدام الراحة) معناه ان اهتزازات الجسم ليست متآلفة ولا متناسقة . وما المرض العقلي الا اختلال اهتزازات العقل واضطرابها . وها نحن نزداد ، يوماً بعد يوم، علماً بالاثر المبرىء الشافي لكل من اللون والعطر والموسيقى في الاجسام والعقول المريضة . ان الاهتزاز هو سر الظواهر الروحية جميعها »

﴿ كيف نتصل بعالم الروح ﴾ ليس لهذا الاتصال الا طريق من ثلاث : الاول ان ننتقل الى عالم الروح ، وهذا ما لا يرغب فيه أحد منا ، اذ ان معناه انقطاع هذه الحياة المادية فنحن على الرغم من ايماننا بأن الحياة الاخرى خير وأبقى من هذه الحياة الدنيا الا أننا نفزع من الموت ونرهبه . فهذا الاتصال الكلي بعالم الروح مكروه منا جميعاً ، او هو على الاقل غير مرغوب فيه . والثاني ان نرفع من درجة اهتزازتنا لكي تنسجم مع اهتزازات العالم الروحي ، وهذا غير ميسور — وسنعلم فيما بعد ان الذين ارتقوا الى المستويات العليا يستطيعون الانخفاض الى المستويات الدنيا . أما العكس فغير ممكن . والثالث ان يخفض سكان العالم الروحي درجة اهتزازاتهم بحيث تصبح في مستوى درجة اهتزازات عالمنا نراهم ونسمع اصواتهم . وفي جهاز الراديو والتلفزة ما يقرب هذه العملية الى الذهن . فالمستقبل يجب ان يكون متوافقاً مع المرسل والا عجز المستقبل عن التقاط الرسالة . وفي الموسيقى أيضاً ما يقرب ذلك الى الذهن . فلو أنك شددت على الكمان وتراً يعطي نغمة تتحد في الدرجة مع أحد أوتار البيانو مثلاً ، ثم أمسكت

بالكمان ودق أحد صحبك على وتر البيانو اهتز وتر الكمان واهتزت الكمان كلها واعطتك صوتاً يستجيب لصوت البيانو . فكيف اذن يخفض سكان العالم الروحي درجة اهتزازهم ؟ انهم من مادة أرق من مادة جسومنا وأعلى درجة اهتزاز منها . واذن لا بد من مادة تساعد على تكثيف مادتهم ، او بعبارة أصح على جعلها تطامن من حدة اهتزازها فتباطأ حتى تصير في منسوب درجة اهتزاز عالمنا ، ومن ثمّ تستجيب لها مشاعرنا اي نراها ونسمعها ونحس بها

وهذه المادة هي الاكتوبلازم الذي يعرفهُ الفسيولوجيون من تكوين الخلية ، وهي الجزء الخارجي من البروتوبلازم . فهذا الاكتوبلازم هو العامل المساعد على التواصل لأنهُ يجسد الى حدٍّ ما أعضاء الجسم الروحي او الاثيري، وذلك بتخفيضه اهتزازات هذه الاعضاء فتستجيب لها مشاعرنا. ويستعير الروح الراغب في التواصل هذا الاكتوبلازم من الجالسين جميعهم، فاذا ما انتهت الجلسة رد الاكتوبلازم الى الجالسين . وعند الكلام على حجرة التحضير الحديثة سنعلم ان اوزان الجالسين تنقص عند حدوث التواصل ، ثم تعود في نهاية الجلسة كما كانت والتجارب في هذا الصدد كمية أيضاً لا وصفية فقط

والوسيط شخص كثرت في جسمه مادة الاكتوبلازم تلك . وقد يسأل سائل ولماذا يمتاز الوسيط بهذه الميزة ؟ وجوابنا على ذلك ولماذا يكون شخص أحد بصراً او أرهف سمعاً من غيره بل لماذا يولد بعض الناس ولهم في اليد ست أصابع لا خمس ؟ بل لماذا يتفاوت الناس في قوة الجسم والعقل ، وفي الفهم والحزم والعزم ؟ بل لماذا يتفاوت الاشقاء في كثير ؟

لقد دلت الصور الفوتوغرافية على انبثاق هذه المادة بوفرة في جسم الوسيط ، ووجد بالتجربة أنها في جسمه اكثر منها في جسم غيره . ولذلك فالظواهر الروحية تكون في وجوده أشد وضوحاً منها في غيابه . ويتم الاتصال بعدة طرق: المائدة - الاجهزة الكهربائية — الصوت المباشر — التجسد . فأما المائدة فعلى ثلاثة أوجه : الاول المائدة وحدها — الثاني المائدة والكوب — الثالث المائدة وجهاز البسايكوجراف

وفي كل من هذه الحالات يجلس الحضور ليلاً ذكوراً واناثاً على التناوب وقد وضعوا أكفهم مبسوطة فوق المائدة ، ثم يضاء ضوء احمر خفيف ، ويدار فونوغراف ينصت الحضور الى موسيقاه انصاتاً تامًّا . فاذا تحركت المائدة الى أعلى او اهتزت من تلقاء نفسها كان ذلك بمثابة اعلان بأن روحاً قد حضر . وليقم أحد الجالسين نفسهُ رئيساً للدائرة ونائباً عنهم في الكلام مبدياً الى الروح غير المنظور الرغبة في الاتفاق على قانون التخاطب ، كأنْ تهتز المائدة او تحدث فوقها نقر مسموع عند النطق بكل حرف من الحروف الهجائية التي منها تتألف الكلمة التي يريد الروح تهجئتها ... وهكذا. وهذه الطريقة مضجرة متعبة قد ينجم عنها خطأ في التواصل

اما في حالة المائدة والكوب فان التواصل يكون أيسر وأسهل . وفي هذه الحالة يؤتى بالمائدة وتكتب الحروف الابجدية على شكل دائرة ، وكذلك تكتب الارقام ، ويكتب اللفظان « نعم » « ولا » فبعد انتهاء الموسيقى كما مر بنا قد يهتز الكوب الذي يكون موضوعاً في مركز الدائرة فاذا اهتز يضع شخصان او ثلاثة السبابة على حافة الكوب بحيث يكاد يلمس الكوب ، ويلاحظ ألاَّ يكون ضغط او اندفاع بالاصابع لحركة ارادية . ويحسن عصب أعين واضعي الاصابع لكي تكون الحركة بريئة بعيدة عن الشبهات العلمية . عندئذٍ يسأل الروح من هو . فيتحرك الكوب نحو الحروف التي يتكوَّن منها اسم الروح ، فاذا كان الاسم « علي » مثلاً ذهب الكوب الى الحرف ع اولاً ثم عاد الى مركز الدائرة ، ثم الى الحرف ل ثم الى الحرف ي وهكذا . ثم يلقى السؤال ويتلقى الجواب على هذا النمط . وفي الوقت نفسه يدون بعض الحاضرين على الورق الحروف المختلفة فتتكوَّن كلمات تكون جملاً مفهومة . ويستمر الحديث

وهذه الطريقة أيسر من سابقتها وأكثر استعمالاً

اما المائدة وجهاز البسايكوجراف او البلانشتا الى آخر ما هنالك ، فالغرض من هذه الاجهزة التي توضع فوق المائدة تسهيل الحركة على الروح . الحروف موجودة كما مضى ، والاجهزة في مجموعها تحتوي على مؤشر يتحرك على هذه الحرف ، والمؤشر اما ان يكون فوق كرات في اغلفة لتسهيل الحركة ، او فوق عجلات . وكلما كانت المائدة ملساء كانت الظواهر أتم

وفي هذه الاحوال كلها لا يحتاج الى وسيط قوي

وأما الاجهزة الكهربائية فنوعان : نوع يحتاج الى وسيط قوي ونوع لا يحتاج الى وسيط وجهاز الرفلكتوجراف من النوع الاول ، وهو أشبهُ شيء بالآلة الكاتبة وانما المفاتيح متصلة بمصابيح تضاء اذا تحركت هذه المفاتيح كما تضاء المصابيح الكهربائية العادية . وكل مصباح مسلط على حرف من الحروف الابجدية ، فاذا اضيء المصباح ظهر الحرف واضحاً فوق لوحة مدة الثلاث

ولاستعمال هذا الجهاز يجلس الوسيط فوق كرسي بعيداً عن هذا الجهاز ، ثم يشد وثاقه شدّاً محكماً ، فعند انتهاء الموسيقى يقع الوسيط في غيبوبة ، ويحسن أن يبدأ بالتجربة في الظلام ثم يضاء بعد ضوء أحمر خفيف . وبعد وقوع الوسيط في الغيبوبة يرى الحاضرون الاكتوبلازم وقد انبثق من جسم الوسيط ثم امتد حتى جاور الرفلكتوجراف . ويتكاثف حتى يكون على شكل قضيب مضيء . وسرعان ما يصبح هذا القضيب يد انسان كاملة يستطيع الحاضرون امساكها والتسليم عليها . فهي يد الروح الذي يريد الكلام وقد تجسدت إذ وضعت في غلاف أو قفاز من الاكتوبلازم واحياناً تتجسد اليدان والوجه والجسم فاذا بالروح بشر سوي . ويكون جهاز الرفلكتوجراف قد وصل بالتيار الكهربائي ، أي وصل باسلاك التيار الموجودة في المنزل .

وبعدئذ يبدأ الروح حديثه فيحرك المفاتيح ، وتظهر الحروف وعلامات الترقيم فوق اللوحة . وعند البدء في الحديث يحرك الروح مفتاحاً فيدق جرس ينبه الحضور الى أن الحديث قد بدأ ، وعند الانتهاء يدق الروح هذا الجرس الكهربائي معلناً نهاية الحديث

ومن النوع الثاني الذي لا يحتاج الى وسيط جهاز الكومبوجراف ، وهو مائدة من سطحين علوي وسفلي . العلوي لوحة شفافة ، والسفلي سطح به جملة ثقوب مستديرة موزعة على محيطه . وبين السطحين قب ميزان يتدلى من أحد طرفيه خيط يحمل كرة ، والميزان دقيق جداً وسهل الحركة جداً ، فاذا مال هذا الطرف سقطت الكرة في احد الثقوب ، فاحدثت تماساً كهربائياً يكفي لاضاءة مصباح كهربائي مسلط على حرف من الحروف الابجدية ، فتظهر لهذا الحرف صورة فوق اللوحة . وكما هو الحال في الرفلكتوجراف توجد علامات الترقيم وجرس التنبيه

وبهذا الجهاز الاخير كتب روح سير فنست كيلارد الكتاب المسمى « رأي جديد عن الحب » وكان سير فنست هذا مهندساً كبيراً من رجال الاعمال في انكلترا

والغريب ان تصميم هذا الجهاز جاء من عالم الروح . أملاه بالصوت المباشر روح ذلك المخترع الانكليزي الشهير المسمى جبسون Jobson ثم أشرف من عالم الروح على بنائه . وذلك لكي يقطع على المعترضين الملبين كل سبيل للشك ، نافياً كل ما يمكن ان يقام من الشبهات

واما الصوت المباشر فهو من احسن صيغ التواصل وأنقاها للشبهات . فالروح بعد وقوع الوسيط في الغيبوبة تصوغ من الاكتوبلازم قناعاً يخفض من اهتزازات اعضاء الصوت عندها حتى تستطيع هز جونا واحداث الصوت فيه . فنسمع الصوت . وقد سهل المخترعون الروحيون هذا السبيل باختراعهم البوق المفصفر لكي يرى في الظلام وهو يسبح في جو الحجرة ، ثم جهاز التلفوكس الذي يجمع الموجات الصوتية ويعكسها الى بؤرة . وهو يفوق البوق بمراحل

وأما التجسد الكامل فهو بلا نزاع أبلغ صيغ التواصل كلها . فالروح يستطيع أن يتجسد كله ، ثم يجلس اليك وتجلس اليه ، ويحدثك وتحدثه كأنما هو بشر سوي ، بل يقبل محبتك ويشرب الشاي او القهوة التي تقدمها اليه . فاذا ما ضعفت القوة تلاشى جسمه شيئاً فشيئاً حتى يختفي . ويختفي معهُ ما أكل وما شرب . ولا يحدث هذا الا اذا كان الوسيط — ذكراً كان أم انثى — قوي القدرة الروحية وبهذه المناسبة نقول ان الروح الحارس للوسيطة الشهيرة استل روبرتس ، وهو المسمى نفسه Red Cloud أي السحاب الاحمر ، قد تجسد في جلسة عقدت في أوائل نوفمبر ١٩٣٨ أمام خمسة وستين شخصاً بعد أن ألقى بالصوت المباشر حديثاً طويلاً نشرتهُ له مجلة بسايكك نيوز في العدد رقم ٣٣٧ الصادر في يوم ٥ نوفمبر الماضي . وقد أعلن هذا الروح انهُ سيتجسد عند بدء كل حديث بالصوت المباشر

لعبد الرحمن شكري

السكون بعد النغم

أنغمَ الشجوُ مقولَ النغمِ العذ ب فأمسى هذا السكون المهيبا
مثلما تحجم الشجونُ خطيباً صار في صمته قؤولاً خطيبا
كسكوت العشاقِ في نشوة الحب تناجي فيهِ القلوبُ القلوبا
او سكوت الهيف فوجيء بالبشرى ويخشى من حسنها ان تخيبا
او سكوت الشباب في حلُمِ الآ مال من قبل ان تعاني المشيبا
او سكوت الخشوع في صلوات القلب صار البعيد منهُ قريبا
او سكوت الأمّ الرءوم حنانا وابنها نائم حمتهُ الخطوبا
حلمت حلمها بما سوف يسعى في مساعيهِ جيئة وذهوبا
من ثمار الحياة يختار أحلا ها له نعمة وسعداً وطيبا

* * *

نغمةٌ خلّفت بواطن لحن دق عن أن يصيب سمعا طروبا
وكأنْ لم نزل بسمع مسحو رٍ من اللحن آملٍ أنْ تؤوبا
فهو يصغي لعودة الصوت منها وهي في نفسهِ تدبُّ دبيبا
سحرَ القلبَ شدوُها ام سكون خلّفتهُ فكان سحراً حبيبا
عجباً بسحر السكوت ام اللحن وايٌّ الحالين يصبي القلوبا
وكأنّ المسحور من اثر اللحن يناجي في ذا السكون الغيوبا
وكأنّ الاصداء من بعدها في النفس تشدو وتستثير الوجيبا
هامسات في النفس همس مسرّ بأثم بالهوى ويخشى الرقيبا
في سكون كأنما هذا الكو ن خشوعاً لها وسحراً عجيبا
هدأة الكون في المساء وقد يخشع راء والشمس تُحدى غروبا
فكأن الحياة عادت سكوناً كسكون الردى رهيباً مهيبا
تحسب الدهر ساعةً دقّها قد منع الصمتُ صوته ان يجوبا
ساعةً توهم الورى ان هذا السكونَ قلبٌ ما إن يحسُّ وجيبا
تحسب الدهر مسقطَ الماء غال الماء فيهِ جودهُ أن يصوبا
فدويٌّ بالذكر في النفس منهُ وسكوتٌ في الاذن يسبي القلوبا

من ايام اسماعيل العظيم

ضباط اميركيون
في الجيش المصري

للبوزباشي عبد الرحمن زكي

كتب القاضي الاميركي بيير كرابيتس أثناء الاعوام الاخيرة سلسلة من المؤلفات التي تبحث في التاريخ المصري خلال القرن الماضي ، نذكر من بينها « البطل ابراهيم » و « جوردون والسودان والرقيق » و « الخديو اسماعيل المفترى عليه » و « استرداد السودان »

وأخيراً أخرج كتاباً عنوانه « ضباط أميركيون في الجيش المصري »[1] فروى فيه قصة ضباط البعثة العسكرية الاميركية التي استدعاها المغفور له الخديو اسماعيل عام ١٨٦٩ لتنظيم الجيش المصري ولتدريب هيئة اركان حربه بوجه خاص [2]

واليوم الذي نشر فيه القاضي كرابيتس كتابه الذي نحن بصدده ، كانت معلوماتنا عن أعمال البعثة العسكرية المذكورة مبعثرة بين أوراق المحفوظات الرسمية ومجلدات نشرة الجمعية الجغرافية الملكية وأعداد جريدة اركان حرب الجيش المصري التي كانت تصدر في عصر المغفور له الخديو اسماعيل ، او في المؤلفات التي كتبها بعض أفراد البعثة المذكورة كالضابط داي (Dye)[3] وزميله لورنج[4]

ومنذ أعوام نشط القاضي كرابيتس للبحث في المحفوظات التاريخية بقصر عابدين ومحفوظات وزارة الحربية والمفوضية الاميركية بمصر ، فكشف لنا الستار عما كان لا يزال مجهولاً من أعمال البعثة الاميركية . ونظم أخبارها . وسرد ما خفي من أعمالها الفنية التي امتدت من البحر

---

(١) Pierre Crabitès — Americans in the Egyptian Army. George Routledge London وعدد صفحاته ٢٧٧

(٢) راجع أعداد المقتطف يوليو ١٩٣٧ مقال « صفحة من تاريخ الجيش المصري » . وعدد ابريل ومايو ١٩٣٨ مقال « الجيش المصري والاستكشاف في افريقية » . الملازم الاول عبد الرحمن زكي

(٣) Col. William Mce Dye - Moslem Egypt and Christian Egypt

(٤) Gen. Loring—A.Confederate Soldier in Egypt

المتوسط الى منابع النيل. وليس هناك أدنى شك في ان القاضي كرابيتس قد ألف كتابه وهو مغتبط بما كتبهُ عن مواطنيه الاميركيين. على أنهُ لم يسرد بايضاح ذلك الاثر العظيم الذي اشترك فيه هؤلاء مع زملائهم من الضباط المصريين، وقد تكاتفوا جميعاً على العمل الرائع كما سنرى

كنا نعلم الى عهد قريب ان أول ضابط أميركي طلب اليه الخدمة في الجيش المصري أثناء حكم اسماعيل العظيم هو الماجور جنرال موط Thaddeus P. Mott، الى ان قرأنا في صدر الفصل الثاني من كتاب القاضي كرابيتس ان منصب قيادة الجيش المصري عرض في بادىء الامر على الجنرال الاميركي جوستاف بوريجارد Gustave Beauregard وقد عثر القاضي في أوراق المحفوظات التاريخية الملكية على خطاب كتبهُ الجنرال المذكور بالفرنسية الى موظف مصري كبير أوضح فيه رغبته في الحضور الى مصر لكي يشغل المنصب الذي عرض عليه. وقد بين استعداده ليجعل الجيش المصري قوة دفاعية يتحدى بها اي جيش اوربي لدولة ثانوية (الدرجة الثانية) وان يجعل موانىء القطر المصري في حالة منيعة لتقاوم بنجاح تام كل الهجمات التي تقوم بها ضدها اقوى الاساطيل العالمية [١]

لكننا لا نعلم ما تمَّ عليه الامر مع هـذا القائد. لاننا نقرأ فيما بعد عن وصول الماجور جنرال موط الى القاهرة وصدور مرسوم بالانعام عليه برتبة الفريق في ٢٤ سبتمبر ١٨٦٩ ومنحه مرتب مبلغهُ مائة جنيه في الشهر. ولم يلبث الجنرال موط طويلاً حتى غادر مصر الى الولايات المتحدة للبحث عن نخبة من الضباط الاميركيين يضطلعون معهُ بالمهمة التي كلف القيام بها. ومن حسن الحظ ان كانت الحرب الاهلية الاميركية قد انتهت فسهلت المهمة أمامهُ. واختار من أراد من الضباط، ومن رشحتهم الحكومة الاميركية

وقبل قدوم هؤلاء الضباط الى مصر وقعوا عقوداً مع الحكومة المصرية التي كان يمثلها «موط». وجاء في الشروط ان يشهروا الحرب على عدو الفريق الاول (مصر)، كائناً من كان وان يواصلوا تلك الحرب بكل شدة، على ان يعفوا من حمل السلاح في وجه الولايات المتحدة

كان في مقدمة الذين رشحهم الجنرال شيرمان Sherman القائد المشهور الاميركي، ضابط ممتاز هو البريجادير جنرال ستون Charles Pomery Stone. ومن زملائه في الجنرالية ثلاثة ضباط كبار وهم: البريجادير جنرال وليام لورنج William Loring من فلوريدا — والبريجادير جنرال سيبلي Henry Sibley — والبريجادير جنرال كارول تفيس Carrol Tevis

---

(١) المحفوظات التاريخية الملكية بقصر عابدين وقد ورد في هذا التقرير ما يلي:

"comme officier de Génie je pourrais mettre tout les forts de Son Altesse en condition de combattre avec succès les attaques des flottes les plus puissantes du monde etc..."

ولنقف هنا لحظة لكي نعرف كيف انتهى الامر بالجنرال موط . فقد كان أقدم الضباط الاميركيين في خدمة الحكومة المصرية . لكنهُ كان يتحاشى الاندماج مع زملائه لانهُ لم يكن من هيئة اركان الحرب . فضلاً عن انهُ لم يكن « ضابط ميدان » . وقد اطلع القاضي كرابيتس على عدة خطابات كتبها موط الى بعض اصدقائهِ يشتم منها عدم توفيقه مع زملائه . ففضّل اخيراً الاستقالة بعد وصول افراد البعثة بأشهر قلائل . وقد أهدى اليهِ الخديو اسماعيل قطعتين نفيستين من الماس . أهداها الجنرال فيما بعد الى شقيقته « المسز إزاك بل »

وكان عدد الضباط الذين برتبة كولونيل عشرين وهم :

شاييه لونج — ووليليام ماك داي — وسبارو بوردي — وه. براوت — وه. ريد — وروبرت روجرز — وڤندربلت آلين — والمهندس العسكري كولستون — ودريك — وشارلزفيلد — وا. جنيفر — وبيفرلي كينون — وصموئيل لوكيت — والكسندر ماسون الكسندر — ورينلدز وريت — وجون سافدج — وه. وارد — والكولونيل ما كيفور

وكان عدد الضباط من رتبة الليفتننت كولونيل ثلاثة وهم: جيمس باسيل — وجريفز — ودنلوب

وكان الماجورات كامبل وهنت وهول وهوايت وجيمس مورجان ودنيسزن وشارلز لوش وروبرت شولر لامسون والماجور باركيز . وكان بين افراد البعثة أربعة ضباط برتبة كابتن وهم : ايرجين ، وابسكس بورتر ، وفريمان ، وكو بنجر

وهناك أيضا ثلاثة من الجراحين : جولسون وويلسون ووارين . كما ألحق المهندس ليبز ميتشيل للعمل في الابحاث العلمية الخاصة بهيئة اركان الحرب برتبة تعادل ليفتننت كولونيل . وانتخب ايضاً بعض الموظفين للقيام بالاعمال العلمية والفنية . وهؤلاء هم برنارد (السكرتير الخاص للجنرال ستون) وميدلتون وكيللي . وقد بلغ عدد أفراد البعثة الاميركية ثمانية وأربعين أوصى بانتخاب عشرين منهم الجنرال موط

وفي الفصل الرابع سرد القاضي كرابيتس الظروف التي وصلت فيها النخبة الأولى من رجال البعثة . فقد وصل هؤلاء في خامس ابريل عام ١٨٧٠ على السفينة التي أقلت اللورد نابير الى الهند ليتسلم قيادة الجيوش البريطانية فيها

وكان الجنرال موط في انتظار مواطنيهِ الجدد على الميناء . ثم صحبهم الى «اوتيل دوريان» Hotel d'Orient حيث اقاموا فيها . وفي اليوم التالي قدّمهم الى شاهين باشا ناظر الحربية فدعاهم الى مرافقته في عربتهِ المخصوصة الى القاهرة . فلما وصلوا الى العاصمة ومضت بضعة أيام استقبلهم الخديو اسماعيل في ١٥ ابريل ١٨٧٠ . وقد قدمهم الى سموه ذو الفقار باشا كبير الأمناء وكان يحلي صدره بمجموعة نفيسة من النياشين والميداليات [1]

---

(١) والد صاحب المعالي سعيد ذو الفقار باشا كبير الامناء الحالي لحضرة صاحب الجلالة الملك فروق الاول

وقد وصف المؤلف كيف أدخلوا قاعة الاستقبالات العظيمة وكيف قابلهم عاهل مصر اذ ذاك فحيَّاهم تحية طيبة بدون ان يتكلم . وحيوا التحية العسكرية ثم امرهم بالجلوس على يمينه وظلَّ الصمت سائداً لحظة الى ان نظر الخديو نحوهم ثم تكلم باللغة الفرنسية قائلاً : —

اني وبلادي ارحب بكم أيها السادة . وأود ان اعبر لكم عن اغتباطي لإجابتكم السريعة لدعوتي . وقد أستطيع ان اقول لكم وبثقة كاملة انه من المنتظر ان تدعوا للخدمة في الميدان بأسرع ما يمكن . وان تجاربكم في الحرب الاميركية الاخيرة ، وعدم وجود مصالح خاصة لدولتكم في مصر هما اللذان اوحيا اليَّ ان استدعيكم لتلك الخدمة . وسيحسدكم بعض الضباط المصريين على الحالة التي ستجدون انفسكم فيها . لذلك اسألكم ان تتحملوا هذه المظاهر بالصبر والتسامح . فاذا وصل الأمر ولم تتحملوا فلا تترددوا في الحضور اليَّ لانصافكم . واني اعتمد على حبكم واخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان لتعينوني على تحقيق استقلال مصر . ومتى تمَّ ذلك وسيتم باذن الله فسأكافئكم اعظم مكافأة(٢)

لكنهم لم يسلوا سيوفهم لمحاربة السلطان تحقيقاً لمطامع الخديو . لان اوربا ارادت ذلك على نحو ما وقفت امام محمد علي ... وكانت فرنسا وانجلترا يقظتين لجميع مشروعات اسماعيل

ولعلَّ اهم يوم في تاريخ خدمة الضباط الاميركيين في الجيش المصري هو يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ ففي ذلك اليوم عين الجنرال ستون رئيساً لاركان حرب الجيش المصري . وكان هذا التعيين نذيراً بانتهاء السيادة الفرنسية في الجيش بعد ان كانت هيئة اركان حربه معظمها ان لم يكن كلها في ايدي الضباط الفرنسيين

فأننا نعلم جيداً ان عقب حرب القرم (١٨٥٣—١٨٥٥) وبوفاة الجنرال سليمان باشا الفرنساوي رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري في أيام محمد علي الكبير والبطل ابراهيم وعباس الاول وسعيد باشا ، اندثرت هذه الهيئة الى ان حاول اسماعيل بعثها

بدأ الجنرال ستون عمله في ربيع عام ١٨٧٠ . وقصد نظارة الحربية ليدرس ويكتب تقاريره فقسَّم هيئة اركان الحرب الى سبعة أقسام أو ادارات لكل منها رئيس أميركي . وأوصى بانشاء مدرسة لاركان الحرب . ففتحت أبوابها وانتخب لها عشرون طالباً من نابهي طلبة المدارس العالية وكان لتلك المدرسة الفضل الاول في اخراج طائفة مختارة من شبان الضباط المتعلمين بين الاعوام ١٨٧٣ و١٨٧٨ . فوزعهم على الاقسام العسكرية لهيئة اركان الحرب والاسلحة المختلفة [للبحث تتمة]

(٢) راجع كتاب شايه لونج . ج ١ ص ٣٢ وعنوانه « حياتي في القارات الاربع »

السرطان والمرأة

أعراضه وتشخيصه

للدكتور فيليب الاشقر

﴿ اعراض السرطان ﴾ أعراض السرطان الرحمي سواء أفي جسم الرحم كان أم في عنقه متشابهة ولهذا سنذكرها هنا تاركين التفريق عند الكلام عن تشخيص الداء . وهذه الاعراض تختلف حدة باختلاف درجة السرطان فان اجتمعت كلها كان الداء في درجاته الاخيرة فعلى كل امرأة عندما تلاحظ شيئاً غير طبيعي في وظائف اعضائها الجنسية ان تراجع طبيبها وعلى الطبيب ان يجتهد في معرفة سبب هذه الاعراض هل هي سرطانية او لا . العارض الاول والمهم سيل الدم من المهبل. كل امرأة يمر على انقطاع طمثها فترة من الزمن ثم تعود ترى دماً يسيل من المهبل يجب ان تشتبه في وجود ورم سرطاني في رحمها. ولكي تستوثق من ذلك يجب ان تراجع طبيبها في الحال . اما في النساء اللواتي لم يزلن في سن التوالد فللنزيف المهبلي عدة اسباب غير السرطان فعليها ان تراجع الطبيب حالاً وعلى الطبيب ان يجد سبب هذا النزيف. وللنزيف الناتج عن وجود السرطان خصائص يجب معرفتها منها أنه يحدث على اثر استعمال حقنة مهبلية او مباشرة جنسية او رض ما والنزيف في الابتداء لا يكون متواصلاً بل يظهر مدة ثم ينقطع ومن خصائصه ايضاً ان يكون شديداً عند الحيض دون ان يكون هنالك سبب آخر لهذه الزيادة

﴿ العارض الثاني السيلان المهبلي المخاطي ﴾ السيلان المهبلي المخاطي كثير الحدوث في النساء واسبابه عديدة وكل امرأة تعودت ان تراه ، فوجوده بحد ذاته لا يدل على شيء مهم إلا اذا تغيرت طبيعة هذا السيلان فازداد مقداره او اصبح ذا رائحة كريهة أو غدا مصحوباً بألم شديد او ممزوجاً بخيوط دموية فالسيلان المهبلي بحد ذاته كاف لحمل المصابة به على استشارة طبيبها فكيف بها اذا لاحظت ان طبيعته قد تغيرت عما تعودته

﴿ العارض الثالث: الالم ﴾ وهذا العارض لا يظهر الا متأخراً عندما يمتد الورم السرطاني الى النسيج المجاور للرحم وهذا النسيج تكثر فيه الاعصاب فعدم وجود الالم لا يدل على عدم وجود الداء ووجوده دليل على ان الداء اصبح في ادواره الاخيرة

﴿ الاعراض المتأخرة ﴾ تظهر الاعراض عندما يصيب السرطان الاعضاء المجاورة كالمثانة والمستقيم ومجرى البول من الكليتين الى المثانة او الاعضاء البعيدة كالكبد والرئتين والسلسلة الفقرية وما شاكل

﴿ اعراض عمومية ﴾ وظهور هذه الاعراض يدل على قرب اجل المصاب وهي اصفرار شديد يقرب من لون الليمون الحامض وهزال ونقص في الوزن وفقر دم شديد واعياء عام وضعف الشهية للأكل ثم الاغماء والاسهال عند قرب النهاية

﴿ تشخيص داء السرطان الرحمي ﴾ سرطان الجسم او قعر الرحم — سبق وقلنا ان سرطان قعر الرحم اقل وقوعاً من سرطان العنق واكثر ما يصيب المرأة في العقد الرابع من عمرها وما فوق غير ان وجوده داخل الرحم لا يمكن لمسه عند الكشف الطبي ولا رؤيته بالعين المجردة فعند ما يشتبه في وجود السرطان يجب على الطبيب ان يجري على المريضة عملية القحط[1] وان يفحص المادة التي تأتي بها القاحطة فحصاً مكروسكوبيًّا وعملية القحط لاجل التشخيص ضرورية جدًّا في كل امرأة في سن الاربعين وما فوق تشكو نزيفاً مهبليًّا غير طبيعي وبالاخص اذا كان هذا النزيف بعد انقطاع الطمث بمدة. ورغبة في زيادة الاستيثاق يجب تصوير داخل الرحم بعد حقنه بمادة لا تخترقها الاشعة المجهولة فأدنى تغير في شكل الرحم المعروف يدل على وجود ورم طبيعي يجب ان يحقق نوعه. والسيلان المائي الدموي في سرطان قعر الرحم لا يكون مستديماً كما هي الحال في سرطان العنق بل متقطعاً فقد يأتي في فترات بين الواحدة والاخرى عشرة أيام او خمسة عشر يوماً ولربما كان ذلك ناشئاً عن تضيق في عنق الرحم

ومما يجب الانتباه لهُ في هذا المعرض هو وجود الاورام الليفية في الرحم فهذه الاورام لا تسبب نزيفاً بعد انقطاع الطمث فان أصيبت امرأة بنزيف دموي بعد انقطاع طمثها وكان في رحمها أورام ليفية يجب ان لا تعالج هذه الاورام بالكهرباء ما لم يستوثق الطبيب من عدم وجود ورم سرطاني في قعر الرحم وذلك عند اجراء عملية القحط وفحص المادة التي تأتي بها القاحطة

ومن خصائص سرطان القعر الرحمي انهُ بطيء الانتشار وهذا ما يجعل معالجتهُ اكثر نجاحاً من سرطان العنق

﴿ تشخيص سرطان عنق الرحم ﴾ يمكن ان نقسم سرطان عنق الرحم من الوجهة التشخيصية الى ثلاثة أقسام الورم الظاهر بجميع أعراضه والورم الذي يمكن ان يشخصه الطبيب عند الكشف البسيط والورم في ابتدائه الذي لا يمكن تشخيصه الاَّ بعد الفحص الدقيق واستعمال جميع الوسائل الفنية لمعرفته

﴿ النوع الاول ﴾ امرأة في العقد الثالث فما فوق تشكو نزيفاً مهبليًّا متواصلاً ذا رائحة

---

(١) بمعنى الجرف وهي عامية في لبنان وتقابل لفظ Curettage

كريهة. قد يكون هذا النزيف مصحوباً بألم في أسفل البطن وأسفل الظهر او بدون ألم. يلمس الطبيب عند الكشف المهبلي ورماً يملأ المهبل سريع التفتت يدمى بسهولة ولا يجد أثراً للعنق بل يجد مكان العنق قروحاً وأوراماً لحمية مغطاة بأغشية النهاية صديدية وكل من يفحص هذه المرأة يعرف أنها مصابة بالسرطان

﴿ النوع الثاني ﴾ امرأة في الثلاثين من عمرها صحيحة الجسم لا تشكو الا من سيلان مهبلي مصحوب بقليل من الدم وهذا النزيف لا يظهر الا عند المباشرة. او عند استعمال الحقن المهبلية بالفحص المهبلي يلمس الطبيب بأصبعه تضخماً في عنق الرحم وهذا التضخم نوعان حلمي او ليفي صلب ففي النوع الحلمي يظهر عند فوهة الرحم حلمات متعددة بعضها متقرح وهذه تنتشر الى الانسجة العميقة والى الغشاء المجاور

وفي النوع الليفي يكون عنق الرحم متضخماً على الشفة الواحدة نتوء قاس كقطعة الخشب وهذا النوع قلما يتقرح وهو كالنوع الاول يمتد الى الانسجة العميقة والى فوهة الرحم الداخلية

ونمو هذا الورم يؤدي الى تآكل العنق وقد يكون العنق كله ورماً سرطانياً

﴿ النوع الثالث ﴾ ومن الصعب جداً معرفته بالفحص المنظاري او الكشف الطبي فهو بمظهره الخارجي لا يختلف عن الالتهابات العادية وهو احمرار موضعي او بقع منتشرة حول الفوهة وهذا النوع يستدعي دقة في الفحص الكلينيكي والفحص الميكروسكوبي

﴿ الفحص ﴾ الكشف اليدوي — علامات السرطان باللمس اليدوي هي القساوة وتفتت الانسجة والتضخم ونزف الدم من هذا اللمس ويستحسن في الحوادث المشبوهة ان يجري الفحص بدون قفاز ليتمكن الطبيب من الشعور بالتصلب والقساوة. والفحص اليدوي ضروري ليس لتشخيص الداء فقط بل لمعرفة مقدار انتشاره الى الانسجة المجاورة للرحم ففي كل حادثة سرطان رحمي يجب اجراء فحص المستقيم والمثانة وعلى مقدار انتشار الداء يتوقف امر المعالجة ونوعها والمنفعة التي يمكن ان ترجى من هذا الفحص

﴿ الفحص المنظاري ﴾ وهذا يكون بواسطة العين المجردة وبواسطة المكبر المعروف باسم Colposcope . الآفات التي تنظرها العين هي القروح ، والاورام والنتوآت واللطخ البيض Leukoplakia وتآكل رحمي ومن هذه الآفات ينزف مقدار من الدم يتفاوت بين النزف الشديد وبعض قطرات وهذا يتوقف على نوع الآفة وعلى مقدار انتشارها

ماتقدم ذكرهُ يصدق على السرطان المتقدم اما السرطان في دوره الاول فيظهر كقرحة عادية او التهاب موضعي في شفة العنق او نتوء مرتفع قليلاً عن مستوى النسيج المجاور ففي هذه الحوادث يجب الاستعانة بالمكبر وبالتعامل الكيمياوي . المكبر يكبر الصورة اربعين مرة فتظهر

القروح والطلخ البيض ومقدار انتشارها. والتعامل الكيماوي هو ان يوضع على العنق قليل من محلول (Lugal) يود ١ يودور البوتاس ٢ ماء ٣٠٠ فالنسيج السليم يصطبغ بهذا المحلول اصطباغاً كستانويًّا قاتماً. اما النسيج السرطاني فيبقى بلونه الاصلي اصفر وهذا الاصطباغ هو نتيجة للتعامل الكيماوي الذي يحدث بين مادة اليود والمادة الكلكوجينية فالخلايا السرطانية تقدر ان تحول المادة الكلكوجينية اكثر من سواها فلا تصطبغ بمحلول اليود

《 الفحص الميكروسكوبي 》 كل طبيب يشتبه في وجود ورم سرطاني في الرحم او في عنقه ولا يأخذ قطعة صغيرة للفحص الميكروسكوبي يكون مقصراً في ما يجب عليه من الناحية الفنية نحو المريضة وأخذ القطعة عملية في غاية البساطة لا تحتاج الى اختبار جراحي ولكن المهم — وذلك في الادوار الاولى — ان تؤخذ القطعة من النسيج السليم قبل ان يكون الداء قد وصل اليها فاذا لم يتمكن الفاحص من معرفة المكان المشبوه بالفحص العادي فعليه ان يستعين اما بالمكبر وإما بالتعامل الكيماوي بمحلول Luzol

《 فحص داخل العنق 》 يبتدىء السرطان في بعض الحوادث في مجرى العنق بين الفوهة الداخلية والفوهة الخارجية فلا يمكن لمسه في بدائته او رؤيته ولكي يكون الفحص كاملاً يجب ان يشمل هذا المجرى حتى ولو ادى الى شق العنق شقاً مستطيلاً واظهار المجرى وفحصه فحصاً دقيقاً

《 سير داء السرطان 》 كثيراً ما تكون المرأة مصابة بورم سرطاني في رحمها وهي جاهلة وجوده فالاعراض في اولها مما لا تنتبه له فليس هنالك عارض خاص بالداء فللسيلان الملوث بقليل من الدم او للازدياد اليسير في مقدار الحيض اسباب عديدة غير السرطان فان لم تراجع المرأة الطبيب في فترات معينة لمشاهدة سير العلة التي تسبب هذه الاعراض فان السرطان ينمو نمواً مضطرداً الى أن يصل الى النسيج المجاور للرحم فعلى مقدار هذا الانتشار يترقب نوع المعالجة والامل بنجاحها وقد قسمت لجنة درس السرطان في جامعة الامم سرطان العنق من جهة انتشاره الى النسيج المجاور الى اربع درجات

١ — الدرجة الاولى السرطان لا يتعدى عنق الرحم وعند الفحص يمكن ان يتحرك جسم الرحم بسهولة ولا أثر لتصلب في النسيج المجاور

٢ — الدرجة الثانية حيث يكون السرطان قد وصل بنموه الى الجدار المهبلي غير ان الرحم والانسجة المجاورة لم تزل سليمة

٣ — الدرجة الثالثة حيث يكون السرطان قد لحق بالنسيج المجاور للرحم فيكون الرحم ملتصقاً ولا يمكن معالجة هذا النوع معالجة جراحية . ٤ — الدرجة الرابعة حيث يكون السرطان قد لحق بالاعضاء المجاورة كالمستقيم والمثانة والحالب او قد يكون قد انتقل الى عضو بعيد

العوامل الفعالة

في

الادب العربي الحديث

بهذا الفصل النفيس — في ما كان لكفاح القومية المصرية ، والثورتين العراقية والسورية ، والمشكلة الفلسطينية من تأثير في الادب العربي الحديث ولا سيما الشعر — يختتم العلاّمة الاستاذ أنيس المقدسي ، أستاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية ، الحلقة الاولى من دراسته الممتعة في «العوامل الفعّالة في الادب العربي الحديث» . وقد كان الموضوع الخاص بهذه الحلقة « بحث العوامل السياسية في المواطن الرئيسية للنهضة أي مصر والعراق والاقطار السورية من منتصف القرن الماضي الى الوقت الحاضر » . أما العوامل الاجتماعية والفكرية فلها فصول أخرى

ومن بواعث اغتباط المقتطف ان أتيح لهُ نشر هذه الفصول النفيسة الممتازة بالانصاف والتحليل العلمي التاريخي ووصف تقلب الحالة النفسية في الشعوب العربية خلال الفترة التي تناولها والتقصّي الدقيق . ولا يخفى على القارىء المتبصر ما تكبدهُ الاستاذ المقدسي من مشقّة في مراجعة الصحف والمجلات لاستخراج ما نشر فيها من انباء النهضة القومية العربية في شتى مراحلها وما قيل فيها من الشعر ثم في مراجعة الدواوين العربية التي طبعت ونشرت في سوريا ولبنان والعراق والمهاجر الاميركية فجاءت هذه الفصول «ديوان النهضة العربية» او هي مهّدت الطريق لوضع هذا الديوان، لان الاستاذ المقدسي اضطر في معظم الاحيان الى الاكتفاء بمختارات من القصائد او حتى بمطالعها او أبيات منها فقط مراعاة لمقتضى الحال

ويسرنا ان نذيع ان هذه الفصول ستظهر قريباً مجموعة في كتاب على حدة يسهل اقتناؤه على جمهور المعجبين بها

[المقتطف]

المشادة

بين الانتداب والاستقلال

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

وضعت الحرب الكبرى أوزارها وللوطنيين في البلدان العربية ، ولا سيما مصر وسوريا والعراق ، آمال قومية واسعة . على ان عصبة الامم لم تلبث ان قررت ان هذه البلدان لا تزال في حاجة الى وصاية او ارشاد بعض الدول الكبرى . وهكذا وضع نظام الانتداب أو الحماية (سمّه ما شئت) . فاعترى الشرق العربي شعور عام بالخيبة واستفزّ ذلك العناصر الوطنية فهبّت تسعى لنيل أمانيها . وهذه المساعي هي أساس العوامل التي كان لها أعظم اثر سياسي في شعر الحقبة الاخيرة . وهي تظهر في أربع ظواهر رئيسية : —

١ — كفاح القومية المصرية
٢ — الثورة العراقية
٣ — الثورة السورية
٤ — المشكلة الفلسطينية

ولنلق نظرة عجلى على كلّ منها

﴿ كفاح القومية المصرية ﴾ وهو قديم يرجع عهده الى بدء الاحتلال البريطاني ، على ان أول من نظمهُ وأول من وحد الاتجاهات الوطنية مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني . وقد صدق أمين الرافعي إذ قال[1] — « تبددت بمصطفى كامل كلّ الاباطيل التي كان خصوم مصر يذيعونها عن الروح الوطنية في البلاد ، وكان احتفال الامة بجنازته أروعَ مظهر اثبتت بهِ مصر أنها أمة حية لا تستطيع ان تعيش الاّ أمة مستقلة »

(١) أبطال الوطنية (رضا) ١٩٢٣ ص ١٥

وقد ألهب مصطفى كامل الشعر العربي في مصر وجرّأ الشعراء على مهاجمة المحتلين ومطالبتهم بالجلاء ، كما دفعهم الى التغني بالحرية والكرامة القومية

فلا بدع ان نرى في الشعر العربي عند موته اتقاداً تتأجج فيه العواطف القومية كقول حافظ ابراهيم من يائيته المشهورة في ذلك الزعيم [1] : —

هنيئاً لهم فليأمنوا كلّ صائح ... فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعور وساقهُ ... الى المجد فاستحيا النفوس البواليا
شهيد العلى لا زال صوتك بيننا ... يرنُّ كما قد كان بالامس عاليا
يناشدنا بالله ان لا تفرّقوا ... وكونوا رجالاً لا تسرّوا الاعاديا

وأشد من ذلك قصيدته في حفلة تأبينه ومطلعها [2] : —

نثروا عليك نوادي الازهار ... وأتيتُ انثر بينهم أشعاري
زين الشباب وزين طلاّب العلى ... هل أنت بالمهج الحزينة داري
غادرتنا والحادثات بمرصدٍ ... والعيش عيش مذلةٍ وإسار
ما كان أحوجنا اليك اذا عدا ... عادٍ وصاح الصائحون بدارِ

ومنها :

قم وامح ما خطت يمين كرومرٍ ... جهلاً بدين الواحد القهّار
جزع الهلال عليك يوم رَكتهُ ... ما بين حرّ أسىً وحر أوار
متلفتاً متحيّراً متخيّراً ... رجلاً يناضل عنهُ يوم فخار

وقصيدته الذكرى ومطلعها: [3]

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا ... واقضوا هنالك ما تقضي بهِ الذمم

ومنها :

هنا الكميُّ الذي شادت عزائمه ... لطالب الحقّ ركناً ليس ينهدم
لبيك نحن الألى حرّكت أنفسهم ... لما سكنت ولما غالك العدم
قيل أسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا ... عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
لبيك إنا على ما كنت تعهده ... حتى نسود وحتى تشهد الامم
فيعلم النيل أنا خير من وردوا ... ويستقيل احتيالاً ذلك الهرم
يا أيها النشء سيروا في طريقته ... وثابروا رضيَ الاعداء أم نقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته ... وكلكم كامل لو جازهُ السأم

---

(١) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١٠٧ (٢) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٠
(٣) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٧

ولشوقي في رثاء مصطفى كامل قصيدة مشهورة مطلعها —

المشرقان عليك ينتحبان   في مأتم قاصيهما والداني

وهي من عيون الشعر ويدور اكثرها على مآثر الفقيد وشخصيته ومنزلته في قلوب الناس. ومثلها قصيدة لخليل المطران تجدها في ذيل ديوانه (مطلعها « اعلى مكانتك الاله وشرّفا ») وهي اكثر من تسعين بيتاً عامراً وتُصوّر الفقيد زعيماً وطنيًّا ضحّى بحياته في سبيل بلاده كقوله

مصر التي كافحتَ لُدَّ عُداتها   متصدّراً لرُماتها مستهدفا

مصر التي سقت الجيوش مناقباً   وبَنَى لتكفيها المُغير المجحفا

عرَّفت اهلها حقيقة قدرهم   وكفاهمُ من قدرهم أن يُعرفا

ومن المراثي التي تذكر قصيدة احمد نسيم — ما بال دمعك لا هامٍ ولا جارٍ [1] —

وبمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل نرى لشوقي قصيدة تنضح بالوطنية كقوله يخاطب الفقيد[2]

لك الخُطبُ التي غصَّ الاعادي   بسورتها وساغت للندامى

فكانت في مرارتها زئيراً   وكانت في حلاوتها بغاما

بك الوطنية اعتدلت وكانت   حديثاً من خرافة او مناما

بنيت قضية الاوطان فيها   وصيّرت الجلاء لها دعاما

وفي هذه القصيدة يستعرض احوال البلاد السياسية ثم يستطرد الى البحث فيما تحتاج اليه من وسائل الاصلاح

ومن اراد ان يعرف شيئاً عن الحركة الادبية التي احدثها موت مصطفى كامل فليرجع الى الصحف العربية سنة ١٩٠٨ . والى ما نشر من الشعر في ذلك العهد

***

وينتقل لواء الجهاد الوطني الى يد سعد زغلول . وفي سعد تجسّمت خوالج الامة المصرية وامانيّها بعد الحرب الكبرى . وقد اصبح مثالاً في الجهاد القومي لكل الامم العربية المجاورة فها هو يثير مصر مطالباً بالاستقلال ، وها هو يُنفى مع رفاقه الى جزيرة سيشل . ولما افرج عنهم وعادوا الى الوطن استقبلهم الشعر العربي استقبال الابطال وقد اشترك فيه اكثر الادباء في وادي النيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والمطران والعقاد والمازني واضرابهم . وبموت سعد بلغت الحماسة الشعرية اعلى درجاتها . فنظم في مصر ، كما نظم في سورية ولبنان والعراق والمهاجر

(١) راجعها في ديوانه (١٩٠٨) ص ٢٣   (٢) الشوقيات ١ — ٢٧٧

ما لا يستطاع حصره الاَّ في مجلَّد خاص ، من مراثٍ تصف مناقبه العالية وكفاحه الوطني المجيد . وقد اقيمت له حفلات تذكارية متعددة نذكر منها على سبيل التمثيل تلك التي اقامها العراقيون في بغداد ١٩٢٧ وادباء المهجر البرازيلي في سانبولو سنة ١٩٢٨ وقد اشترك فيهما أبرز الادباء في تلك الاقطار

ولم تمت الحركة الوطنية المصرية بموت سعد بل ظلّ خلفاؤه يناضلون . وقد استطاعوا بثباتهم ان ينالوا حق الاعتراف باستقلال مصر وعقدوا مع بريطانيا معاهدة صداقة فتمّ لهم تنظيم شؤونهم . ولم يلبثوا ان دخلوا عصبة الامم

وقد تخلّل هذا النزاع الطويل الذي رفع لواءه مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من رجال مصر حوادث شتى كان لها أثرها الخاص في الشعر كحادثة دنشواي ورفع الحماية ، واعلان الملكية ، وثورة ١٩١٩ ، ومسألة الامتيازات الاجنبية ، وغيرها . على ان هذه الحوادث عند التحقيق ليست الاَّ حلقات من سلسلة المشادّة بين الانتداب والاستقلال

﴿ الثورة العراقية ﴾ من المعلوم انه لما احتلت بريطانيا العراق نشرت للعراقيين (كما نُشر لسواهم من ابناء العربية) منشوراً تبين فيه اسباب احتلالها وأنها انما تقصد تحرير العرب لا فتح بلادهم . واليك نص هذا المنشور :— [1]

« إن الغاية التي ترمي اليها بريطانيا العظمى وفرنسا من مواصلتها في الشرق تلك الحرب التي اثارتها مطامع الالمان هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن تحت نير الاستبداد التركي تحريراً تامًّا وتشييد حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغائب الاهالي الوطنيين الصادرة عن رضاهم وحسن اختيارهم . وتوصلاً لهذه الغاية قد اتفقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تشجيع ومساعدة حكومات وطنية في سوريا والعراق اللتين قد تم تحريرهما فعلاً على يد الحلفاء وفي البلدان الاخرى التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الحكومات عند ما يتم تنظيمها فعلاً . وإن بريطانيا وفرنسا لا يخطر في خلديهما قط ارغام هذه البلدان على قبول نظامات معينة من اي نوع وجل اهتمامها هو ان تضمنا لهذه البلدان بمساعدتهما الفعالة سير الحكومات والادارات التي يتخذونها عن محض ارادتهم سيراً منتظماً الخ الخ »

فكان من الطبيعي ان يتوقع العراقيون والسوريون وسواهم عهداً استقلاليًّا تامًّا . لكن الامور في العراق جرت منذ الاحتلال على غير ما يرام فقد رأى العراقيون سوريا تتمتع حيناً (أيام فيصل) بالاستقلال وبالملك وهم لا يزالون تحت نير الانتداب . ثم حدثت حوادث زادتهم امتعاضاً من حكامهم البريطانيين . فأخذ الوطنيون منهم يتفاوضون ويبحثون سرًّا في موقفهم

(١) راجعه في « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » للحسني ص ٨٥

واتفق الوجهاء ورجال الدين على طلب الاستقلال وتعيين أمير من أنجال الحسين . وفي سنة ١٩٢٠ دارت بينهم وبين البريطانيين مراسلات ادّت الى مؤتمر عام قدّم فيه المندوبون العراقيون ثلاثة مطالب رئيسية هي :—[١]

١ — الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامّة العراقية ليعين مصيرها وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج

٢ — منح حرية المطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وأفكاره

٣ — رفع الحواجز البريدية بين أنحاء القطر اولاً وبينه وبين الاقطار المجاورة والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم بعضهم مع بعض ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم

والظاهر ان التفاهم بين السلطة والوطنيين كان متعذراً فعمدت السلطة الى سياسة الارهاق، وقبضت على بعض الزعماء فنفت بعضاً واعتقلت آخرين . لكن هذه السياسة لم تأت الاّ بعكس المطلوب . فقد أحرجت الوطنيين ولا سيما سكان وادي الفرات حتى افتى امامهم الكبير محمد تقي الشيرازي بجواز امتشاق الحسام في وجه السلطة دفاعاً عن الحقوق القومية[٢]

وهكذا نمت فكرة اعلان الثورة . وقد القى محمد الباقر الشبيبي يومئذ خطبة حماسية وأنشد قصيدة منها[٣]

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكرا ... خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحِذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ... ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا ... اضاليلهم في الهند والكذب في مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح ... اذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وفي هذه الثورة يقول الجواهري من قصيدة[٤]

إلام التواني في الحياة وقد قضى ... على المتواني الموتَ هذا التنازعُ

وبعد ان يذكر ان في العراق نهضة يقابلها نهضات في سائر البلدان العربية يقول عن الثائرين

ويوم نضتْ فيه الحُمول غطارفٌ ... يصان الحمى فيهم وتحمى المطالع
تشوّقهم للعز نهضة ثائرٍ ... حنين ظماء اسلمتها المشارع
لقد عظموا قدراً وبطشاً وانما ... على قدر اهليها تكون الوقائع
وما ضرهم نَبْو السيوف وعندهم ... عزائم من قبل السيوف قواطع

(١) نقلاً عن العراق للحسني ص ٩٠
(٢) العراق — ص ١٠٣ (٣) العراق — ص ١٠٧ (٤) ديوانه (١٩٣٥) ص ٤٩

اذا استكرهوا طعم المات فأبطأوا أُتيح لهم ذكر الخلود فسارعوا

ثم يصف الثورة في الكوفة ووادي الفرات واستفزاز الانكليز لهم ، ويعدد مناقب موري شرارتها الاولى الشيخ الشيرازي . ومن قوله فيه : —

تثور به للموت نفسٌ أبيّة وتأبى سوى عاداتهنّ الطبائع
يطارحهُ وقع السيوف اذا مشى كما طارح المشتاق في الأيك ساجع

والقصيدة أكثر من ٧٥ بيتاً وكلها على هذا النمط الحماسي . وله قصيدة أخرى في الثورة مطلعها [١]

ان كان طال الامدُ فبعد ذا اليوم غدُ

ولخيري الهنداوي في الثورة قصيدة طويلة نارية الروح مطلعها [٢] — ايها الشرق هل فقدت الشروقا — ومنها مخاطباً وطنه

أنت أذنبتَ ام بنوك ام الظلّام شاءوا ان يغصبوكَ الحقوقا
بيّتوا امرهم بليلٍ وجاءوك جميعاً يتلو فريق فريقا
حاولوا — لا أبا لهم — ان يكون الشرق كالعبد مستضاماً رقيقا
فنهضنا كالأسد في اوجه القوم لنجتثّ بغيهم والفسوقا

ومنها : ويك لا ارتضي الحياة بذلٍّ قم فزّق إهابها تمزيقا
وأدرْ لي في الرافدين حمّيا الحرب صرفاً وكسّر الابريقا
ان موتاً يكون في ساحة العزّ لموتٌ أجدرْ به ان يروقا

الى ان يقول —

ليت شعري هل مبصر انا يوماً عَلَمَ ابن الحسين فيها خفوقا
تلك أمنيّتي فلا عيش الاّ ان أراها تهتزّ غصناً وريقا

ومن موقدي الشعور الوطني يومئذ الشيخ مهدي البصير شاعر الحلّة وهو من الذين اعتقلوا ونفوا . ومن شعره الثوري المحرّك قوله في قصيدته « لبيك ايها الوطن » . ومطلعها [٣] —

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا فلتتسعْ بي للامام خطاكا

ومنها بك همتُ او بالموت دونك في الوغى روحي فداك متى اكون فداكا ؟
ثق أنني سأذبُّ دونك باذلاً روحي لارخصها فما اغلاكا
فليسخط الغربيّ أني ناهضٌ أقصى رجائي ان أنال رضاكا
كذبتك أقطاب السياسة عهدها فلتضمننْ لك الحياة ظُباكا .

(١) راجعها في ديوانه ٢٣٦ (٢) الادب العصري (بطي) ١ — ١٦٦ (٣) الادب العصري ٢ — ٩٦

أفيطلبون لك الرعاية ضلة ماكان أقصرهم وما أحجاكا
لو أنصفوك لحرروك لأنهم ربحوا قضيتهم بظل لواكا

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الازري ، ومحمد ابي المحاسن، وعلي الشرقي، ومحمد الهاشمي، وسواهم . اما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شيئاً من ذلك في ما نشر من شعرهما

***

اشتعلت الثورة فوقع من ضحاياها مئات من الطرفين . ولم تر بريطانيا بدًّا من مصالحة الثوار . فأصدرت منشوراً بالعفو العام . ثم « شكلت » للعراق حكومة وطنية موقتة الى ان يتم انعقاد مؤتمر عربي عام يعين مصير البلاد وشكل حكومتها

وكان فيصل في اثناء ذلك قد انهار عرشه في دمشق ، فقرر باتفاق الطرفين انتخابه ملكاً على العراق وصرف النظر عن عقد المؤتمر العام على ان الشعب استفتي في امر انتخابه فنال ٩٦ بالمئة من الأصوات وهكذا نودي به ملكاً واحتفل بتتويجه في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١

وكان لهذا الحادث التاريخي اثر يذكر في الادب العربي فقد القي فيه من الخطب والقصائد ما لم يتسع المقام لذكره . واليك أنموذجاً منهُ قصيدة انشدها الزهاوي في حضرة الملك فيصل على اثر قدومه عاصمة الرشيد[1] وفيها يقول :—

إنا محيوك فاسلم ايها الملك ومصطفوك لعرش شاده الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفي تأييده الشعب والأحزاب تشترك
الناس من فرح إذ جئت ترأسهم من بعد ما قد بكوا من يأسهم ضحكوا
قد ارتضاك له فاهنأ بدولته الله والناس والتوفيق والملك
هذا السلام يعمّ الرافدين غداً فلا دمٌ بعد هذا اليوم ينسفك
جرى ليلحق ناس بابن فاطمة حتى اذا تعبوا في جريهم بركوا
من هاشم من قريش من ذوائبها حيث الوشائج والارحام تشتبك

ومنها :

لله يا فيصلٌ ما انت مورثه للعُرب من شرف في شكره اشتركوا
في نهضة برجال كنت ترأسهم حيناً لتحرير اوطان بها انسبكوا
عش للرقيّ فان الشعب اجمعهُ مذ هبّ يفتح عينيه به شدكُ

***

ولا ينكر انهُ بتنصيب فيصل استقرت الحال نوعاً في العراق على ان الاماني القومية لم تصل

(١) الادب العصري (بطي) ١ — ٤١

وثبة واحدة الى غايتها . فكان موقف العرش حرجاً بين السلطة المنتدبة والقومية العراقية المتوثبة لكنّ فيصلاً كان ربّاناً ماهراً فسيّر المركب بين اللجج برفق وحكمة ، واستطاع قبيل موته ان يوقّع معاهدة الاستقلال التام وان يدخل العراق في عصبة الامم

ولم يخل الشعر العراقي في اثناء ذلك من روح التبرم فبرغم النهضة السياسية في العراق وبرغم ما كان يضيء في العهد الفيصلي من انوار الامل والاستبشار ظلّ فريق من كبار ادبائه يغلب عليهم التشاؤم فينفثونه شعراً قاتم اللون ناقماً سوء الحال . وزعيم هذا الفريق الرصافي كما ترى في قصيدته للريحاني سنة ١٩٢٢ اذ يقول [1] —

أأمين جئت الى العراق لكي ترى ما فيه من غُرر العلى وحجوله
عفواً فذاك النجم أصبح آفلاً والقوم محتربون بعد افوله

ومنها : واذا وقفت بدارس من مجده فكوقفة الباكين بين طلوله
وانحب كما نحب الحزين مكفكفاً غُرب الدموع بجانبي منديله

ومنها : حال لو افتكر الحكيم بكنهه طولَ الزمان لعيّ من تعليله
من ذا يبدله فان قوارعي يئست لعمر الله من تبديله

الى ان يقول : —

من أين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله

وتظهر هذه الروح في قصيدته في حفلة الحزب الوطني البغدادي للمستر كراين الاميركي (سنة ١٩٢٩) اذ يقول [2]

واذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضّرع غربي الملابن
وطني الاسم لكن انكليزي الشناشن
قد ملكنا كلّ شيء نحن في الظاهر لكن...
نحن في الباطن لا نملك تحريكاً لساكن

ومثل ذلك قصيدته « الحرية في سياسة المستعمرين » (ديوانه ٤٢٦) وغادة الانتداب (٤٢٧) وكيف نحن في العراق (٤٣٥) وحكومة الانتداب (٤٣٧)

---

(١) ديوانه ٤٠٣ (٢) ديوانه ٤١٤

هذا الشعر المتبرّم الناقم كان شائعاً في الاوساط القومية المتشددة ويقابله شعر وطني مستبشر كان ينظر الى الامور بعين الرجاء مؤمناً بالنهضة الجديدة واثقاً بتقدمها . ومن امثلته ما قيل في العَلَم العراقي . والنهضة العربية ، وآمال الشباب والملك العربي والسيادة القومية وما الى ذلك كقول الجواهري من قصيدة في سفر الملك فيصل الى جنيف (١٩٣١) تمهيداً لدخول العراق عصبة الامم [1] يفتتحها بوصف مناقب فيصل وحسن سياسته وجميل خدمته للعراق ثم يقول

لا أدعي انْ قد أتم نموه من كان أمس بشكل طفل حاب
فذلك ليست بالبعيد منالها عن كل شعبٍ طامحٍ وثاب
لكن اقول أرينه مستقبلاً لا بالعديم سناً ولا الخلاب
كالشهد اول ما تذوّقهُ فمٌ ما زال بين لهاه طعم الصاب
فاليوم ها هو ذا بظلك يحتمي مثل احتماء العين بالاهداب

ومثل هذا القول بل واكثر منهُ استبشاراً وايماناً بالمستقبل يتجلى لك في كثير من الشعر الذي نظم في عهد فيصل وعهد خلفه الملك غازي الاوّل

« الثورة السورية » ذكرنا ان دمشق كانت بعد الحرب الكبرى أول عاصمة خارج الحجاز نودي فيها بالاستقلال العربي . وهاك اول برقية وردت الى بيروت بعد دخول العرب دمشق (وقد نشرت في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ بتوقيع الامير سعيد الجزائري) — « بناء على تسليمات الترك فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف طمنوا العموم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

ومعلوم ان سوريا بعد الحرب عهد بادارتها المستقلة الى الامير فيصل . ثم حدثت حوادث وجرت مفاوضات سياسية لا مجال لذكرها الآن . وفي خلال ذلك تم لحكومة دمشق تنظيم المؤتمر السوري ممثلاً لجميع الاقطار السورية ومنها فلسطين فأعلن في ٧ اذار (مارس) سنة ١٩٢٠ المناداة بالامير فيصل ملكاً دستوريّاً على البلاد السورية [2]

على ان ذلك الاستقلال لم يطل عهده . ففي ٢٥ تموز (يوليو) من السنة نفسها دخل الجيش الفرنسي دمشق فاضطرّ فيصل الى ترك عرشه وأصبحت سوريا داخلة في منطقة الانتداب . وبذلك أخمدت تلك الثائرة الملكية التي كان السوريون قد بدأوا يغتبطون بها . فبعد ان كان الشعر العربي في حمام شعر القومية السائدة والوطنية الجذلة والراية العربية الخفاقة اصبح ذكريات مؤلمة كقول حليم دموس من قصيدة في وداع فيصل مطلعها : —

اضاعوه وكان فتىً هماماً وبالأوطان صبّاً مستهاما

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٠٦ (٢) راجع الثورة العربية (سعيد) ٢ — ٣٠

(أضاعوه واي فتى أضاعوا) أضاعوا القلبَ واليدَ والحساما
فودّع في الدجى تاجاً وعرشاً وممـلكةً وآمالاً جساما
هو التاريخ عاد فعُد اليـه وصـف غرناطةً تصف الشآما
سلاماً يا أبا الغازي سلاما يعزُّ على المروءة ان تضاما
أطعتَ عصابةً ضلَّت فكانت بصدر جهادك الماضي كلاما
ولولا ذاك كنت الملك فينا ولـكن ابعدوا عنك الـكراما
فسادت في رحاب القصر فوضى فـلا رأياً هناك ولا نظاما

***

وكقول الغلاييني من قصيدة نظمها في دمشق (٢ك١٩٢٠) ومطلعها — وقفت على الاطلال اطلال قحطان [١] —

لئن كنتمُ من قبل في يـد غاصب ضعيف القوى من خمرة الجهل نشوانِ [٢]
فانـكم ذا اليـوم نهبٌ مقسَّم بأيدٍ شداد شرُّها منكم دانِ
وقدتم وسيف القوم يرهف حدُّه وما غمـده الاّ طـلى آل عدنانِ

وله كثير مثل ذلك

وكذلك لخير الدين الزركلي كقوله من قصيدة سنة ١٩٢٢ وهو في عمان [٣]

أبكي دياراً خلقتْ للجمال
ابهى مثال
أبكي تراث العزّ والعزُّ غال
صعب المنال
أبكي نفوساً قعدتْ بالرجال
عن النضال
أبكي جلال الملك كيف استحال
الى خيال

وله قصيدة سماها الفاجعة [٤] نظمها على اثر واقعة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي الشام ومطلعها —

الله للحدثان كيف يكيد بَرَدى يغيض وقاسيون يميدُ

(١) ديوانه ص ٧١ (٢) يقصد الاتراك (٣) راجعها في ديوانه ٢٤ (٤) ديوانه ٤٢

ومنها ما في دمشق لناهض من عزةٍ وبها سرادق غاصب ممدود
بلد تبوأهُ الشقاء فكلما قدم استقامَ له بهِ تجديد

وبعد ان يصف الجيش وانخذال السوريين لتنافر زعمائهم يقول —

خدعوكِ يا أمَّ الحضارة فارتمتْ تجني عليك فيالقٌ وجنود
من ذا يكفكف أدمعاً مهراقة كالغيث نهطل حسرة ونجود
تسقى بها في الغوطتين مباسم ذهب النواح بمائها، وخدودُ

ولو راجعنا ما نظمهُ كبار شعراء سوريا بعد سقوط العرش الفيصلي، كخليل مردم وفارس الخوري وشفيق جبري، ومحمد البزم وفؤاد الخطيب ومحمد الشريقي وبدر الدين حامد واضرابهم وما نظمه زملاؤهم في سائر الأقطار العربية والمهاجر لوجدنا عليه مسحة من الألم تشف عن أسفهم على ماضاع من اماني وتبدَّد من احلام

***

في خلال ذلك كانت العراق (كما مرَّ معنا) تتقد بالثورة ومصر تجاهد تحت لواء سعد. وقد رأى السوريون نتائج الثورة العراقية والجهاد المصري، فكان ذلك دافعاً لهم الى تنظيم الكلمة ومناوأة الانتداب

ولم تلبث هذه المناوأة ان انجلت عن ثورة ١٩٢٥

ولسنا نبحث الآن عن الاسباب البعيدة او المباشرة لهذه الثورة فذلك عمل مؤرخيها، على أننا نقرر هنا انها كانت خطوة كبرى في سبيل الهدف المنشود فقد انتهت بتنظيم الكتلة الوطنية. ثم باعلان الجمهورية (سنة ١٩٣٢) وبالاتفاق مبدئيًّا على معاهدة شبيهة بمعاهدة العراق

وقد نظم في الثورة السورية والحركة الوطنية شعر كثير اشتركت فيه جميع الاقطار العربية. فمن مصر مثلاً شوقي وحافظ، ومن العراق الرصافي والجواهري، ومن المهاجر السورية اللبنانية الشاعر القروي، والياس فرحات، والدكتور جورج صوايا، والياس قنصل، وابو الفضل الوليد

ومن لبنان وفلسطين مصطفى الغلاييني وعلي الحوماني وابراهيم طوقان وفتى الجبل وسواهم فاذا أضفت هذه الاسماء الى أسماء شعراء سوريا الذين مرَّ ذكرهم والى اسماء كثيرين في انحاء البلاد العربية ممن لم يذكروا استطعت ان تقدر ماكان لهذه الثورة من الاثر في الشعر العربي واننا نشير هنا اشارة خاصة الى دواوين الغلاييني، والحوماني، والشاعر القروي، والياس قنصل وبدر الدين حامد لما يتأجج فيها من نيران تلك الثورة وما تحمله الى الاقطار العربية من حرارتها المتقدة

«الجامعة العربية والروح الاقليمية» رأينا من الفصول السابقة ان الدعوة العربية لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بابناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى . فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهجون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها فازدادوا تعلقاً بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالاً ادارياً

وفي الحرب الكبرى اعلنت الثورة الحجازية باسم العرب والملك العربي ولما وضعت الحرب اوزارها انتشرت الدعوة للجامعة العربية تحت لواء الهاشميين انتشار النار في الهشيم ، وكانت ترمي الى احياء مجد العرب بتنظيم دولة كالدولة الاموية في الشام تضم الاقطار السورية والعراقية والحجازية ثم تتدرج الى سواها

حلم جميل استعذبه السواد الاعظم من سكان تلك الاقطار ، وقد كان مصدر الهام لكثير من الشعر القومي والخطب الحماسية . ولن ننسى يوم نُشر العَلَم العربي في بيروت وقد استولى فيه على الناس شعور غريب لا عهد لهم به من قبل شعور الكرامة القومية الحرة . وكان الاحتفال في دار الحكومة . وهاك بعض ما قاله الخطيب «الرسمي» مخاطباً الشعب العربي [1] —

«ان هذه الراية التي تنشر اليوم هي شعار استقلالك وستكون خافقة فوق رأسك ما خفق فؤادك لها ، فان بقاءها لهو اليوم في يديك . فان احببت لها البقاء فاستمت في حبها واعمل على اعلائها بين الامم . ان البلاد العربية اليوم هي بمثابة كتلة وطنية واحدة خاضعة لحكم شريف مكة واميرها وملك البلاد العربية جلالة مولانا المفدى حسين الاول . واننا لا ننسى ابداً حلفاءنا ونخص منهم دولة انكلترا العظمى المساعدة العظيمة التي قاموا بها نحونا لحصولنا على هذه النعمة الكبرى»

وقد اقيمت المهرجانات لرفعه في الشام وسائر المدن السورية . ولم يشكك احد يومئذٍ في ان الملك العربي اصبح امراً واقعاً وان انتصار الحلفاء على الاتراك كان الحجر الاساسي في توطيده

ودارت الايام فاذا بالانتداب يفرض على البلدان العربية . واذا بالحكومات العربية الاقليمية تحل محل الدولة المتحدة ، واذا في الادب العربي فكرتان تتصارعان فكرة الوحدة وفكرة الاقليم ، الجامعة العربية والروح الاقليمية : —

اما الاولى فكانت ولا تزال رسالة الشعر العربي منذ عهد الدستور (١٩٠٨) . وقد رأينا

---

(١) راجع جريدة صوت الاحرار ٢١ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٧

كيف برزت بعد الثورة ، وعبثاً حاول دعاة التقسيم اماتتها . فهي عند السواد الاعظم من عرب الشرق الادنى رسالة المجد والتاريخ . وقد ساعد على احيائها في الادب بضع حوادث هامة — منها المشكلة الفلسطينية ، وموت الحسين . وموت فيصل ، وتقدم الروح القومية في العراق وسوريا ، واتجاه مصر نحو الاخاء العربي

***

فالعرب عموماً يعدون مسألة فلسطين مسألة عربية عامة ولذا ترى الشعر العربي في كل قطر يعطف عليها كقول مهدي الجواهري (النجف) من قصيدة موضوعها فلسطين الدامية [١] —

فيا فلسطين ان نعدمك زاهرةً فلست أولَ حقٍ غِيلةً هُضما
سورٌ من الوحدة العصماء راعهم فاستحدثوا ثغرة جـوفاء فاتلما
ثار الشباب ومن مثل الشباب اذا ريع الحمى وشُواظ الغيرة احتدما
يأبى دمٌ عربيٌّ في عـروقهم ان يصبح العربيُّ الحرّ مهتضما

وقول بشاره الخوري (بيروت) من قصيدة موضوعها جهاد الجبابرة [٢] —

يا جهاداً صفق المجـد له لبس الغارُ عليه الأرجـوانا
شرف باهت فلسطـين به وبناء للمعالي لايدانى
إن جرحاً سال من جبهتها لثمته بخشوع شفتانا

والشاعر القروي (البرازيل) في اعاصيره من قصيدة موضوعها « وعد بلفور » —

الحق منك ومن وعودك أكبر فاحسب حساب الحق يا متجبر
تعد الوعود وتقتضي انجازها مهج العباد خسئت يا مستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن من جيب غيرك محسناً يابلفرُ
عد من تشاء بما تشاء فانما دعواك خاسرة ووعدك أخسر
فلقد نفوز ونحن اضعف امة وتؤوب مغلوباً وأنت الاقدر

ولعل شعر ابراهيم طوقان (نابلس) اصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية ولولا حرج الحال لاثبتنا هنا كثيراً من نفثاته الوطنية المستمدة من شقاء فلسطين وسوء احوالها . وهي منشورة في مختلف الصحف السيارة كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها

اما الحسين ملك الحجاز فني نقله الى قبرص ، ثم مبايعته بالخلافة في عمان ، ثم موته في تلك المدينة عبر أثارت الشعر العربي وأذكت فيه روح الرسالة القومية وانما نكتفي هنا بالاشارة

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٧٦ (٢) ملحق جريدة المعرض عدد ١١٠٥

الى بعض القصائد التي قيلت فيهِ وهي قلٌّ من كثر ، بل وشل من بحر

فلشوقي مرثاته : —

لك في الارض والسماء مآتم قام فيها ابو الملائك هاشم

ولفؤاد الخطيب : —

هي المواكب فاشهد كيف تبتدر كالسيل مصطخب التيار ينحدر

اوفت تودع جثمان الذي نُعيت الى الجزيرة في اكفانه مضر

ولشفيق جبري : —

تلكم قريش وما جفت عواليها على الحطيم ولم تنشف مواضيها

من ذاكر في ظلال البيت ثورتها والعهد غير بعيد عن لياليها

ولابراهيم طوقان — ذكرى ثورة الحسين : —

اطلقي ذاك العيارا قدك ضيماً واصطبارا

يُطلب العز ابتدارا يدرك المجــد اقتسارا

ولبدر الدين حامد — في خلافتهِ

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي

كم لبثنا السنين في وجل وذرفنا مدامع الحرَب

وله في منفاه الى قبرص: —

اسرفت فيما جئته يا زمانْ فما لعهدٍ منك يوماً امانْ

وللجواهري في ذلك : —

هي الحياة باحلاء وامرار تمضي شعاعاً كزند القادح الواري

وله مرحباً بالحسين الى العراق: —

أرى الشعب في اشواقه كالمعلق لما حدثوماً عنك يرجو ويتقي

وشبيهٌ بما قيل في الحسين ماقيل في ابنهِ الملك علي فقد نظمت فيهِ مراث وطنية تشف عن شعور العرب في مختلف الامصار نذكر منها هنا قصيدة شبلي ملاط : —

أمن جرح على جرح دميٌّ الامَ يصاب بيت الهاشميّ

فما كاد الحسين يغيب حتى تهاوت شهب فيصلَ والعلي

وأما فيصل فان موته كان عند أدباء العرب الفجيعة الكبرى وقد أُقيمت لهُ مآتم في مختلف الاقطار العربية وفي المهاجر . ولو جمع ما نظم في أعماله وفي تعداد مناقبه لملأت مجلداً ضخماً فهو عند الجميع بطل العروبة وحامل لوائها . واليك على سبيل التمثيل بعض ما وصلنا من المراثي فيهِ: —

لجميل الزهاوي — فجع المشرقين خطبٌ جليلٌ وعرى المغربين حزن طويل

لامين الريحاني — حلق النسر في الفضاء بعيداً — (وهي قطعة من الشعر المنثور)

لبشارة الخوري — لبستْ بعدك السواد العواصمْ واستقلت لك الدموع المآتمْ

لمحمد البزم — رُم عظيماً اذا أردت خلوداً وامتط الشهب في السماء صعودا

للدكتور أبي شادي — : هكذا هكذا شعوب تيتّم أيها الموت ساء غنمك مغنم

لعلي محمود طه — تألق كالبرقة الخاطفهْ وجلجل كالرعدة القاصفهْ

للشاعر القروي — أقصِر التجلد ان العقل منهزمُ وأهون الخطب ان الدمع منك دم

لوديع البستاني — قرنٌ وبنت الفجر والثقلان يوم الخميس بحضرة الجثمان

لحليم دموس — هوى من سما عليائهِ بعد ان سما فسالت عليهِ دمعة الارض والسما

لابراهيم طوقان — شبي الابل وقومي استقبلي طلعة الشمس وراء الكرمل

لصلاح الايبيدي —

كفكف دموعك وآعد شجو المأتم فالموت من جند المليك الاعظم

لصلاح الرفاعي — علم العروبة غار في العلياء لهفي على الاسلام والعرباء

لعبد المسيح محفوظ : — عبقري الملوك أي فؤاد اسكتتهُ يد الزمان العادي

هذا فضلاً عن كثير من الاناشيد الشجية وكمثال لها نثبت بعض فقرات من نشيد الكشاف المسلم في صيدا : —

دافعت بالصدق عن حرمة الحق

والناس قد كانت في الغرب والشرق

نراك يا فيصل

نراك يا فيصل

اليأس قد أبلى في الناس واستولى

في رحبة الوادي عروبة ثكلى

تفديك يا فيصل

تفديك يا فيصل

***

﴿ الاقليمية والقومية العربية ﴾ يظهر ان اشتداد الاقليمية مقرونٌ باشتداد السلطة الانتدابية في العراق وفي سوريا ولبنان وفلسطين نشأت هذه الفكرة كما رأينا بعد استقرار الانتداب ، وهي ترمي الى فصل الاقطار العربية بعضها عن بعض روحيًّا وماديًّا وتطويق كل منها بحواجز اقتصادية وسياسية تجعل اتصالها بسائر الاقطار العربية أمراً متعذراً أو شاقًّا

وللوصول الى هذه الغاية اخذوا يبنون نظام التربية الوطنية والادارة الملكية والعسكرية على اساس الوحدة الاقليمية لا على اساس الجامعة القومية العربية. فالسورية مثلاً واللبنانية والفلسطينية والعراقية والمصرية والحجازية واليمنية وحدات مستقلة لا ترتبط بعضها ببعض الا كما ترتبط الصين بالهند او ايران وتركيا، اللهمَّ الاّ ما كان منها تحت انتداب واحد او ما كان منها مرتبطاً بمعاهدة خاصة فقد تظهر النزعة الاقليمية فيه في اخف الوانها

على ان ما نالتهُ مصر والعراق من السيادة الملكية، وما يملأ صدور السوريين من آمال بالاستقلال قد انشأ من كل من هذه الاقطار شخصية مستقلة. شخصية تستطيع ان تفكر بما لها وما عليها بحاضرها ومستقبلها ولذلك تراها تقترب من فكرة التضامن القومي

وقد رأينا ان الادب المصري الصميم كان من قبل نفوراً من فكرة الجامعة العربية. ولكنهُ اخذ الآن يجاري الادب العراقي والسوري. بل اخذ ساسة مصر اليوم ينظرون بعين العطف الى ما كان اسلافهم قبل عشرين سنة يرمقونهُ شزراً. وها نحن نرى شيوخ الامة المصرية ونوابها يتحركون لنصرة فلسطين ويدعون الى عقد مؤتمر برلماني عربي (يمثل جميع الاقطار العربية) للبحث في هذه المسألة (١)

ولا ينكر ان السياسة لا تزال في جانب الاقليمية وربما ظلّت كذلك أحقاباً طويلة. اما شعور الامم العربية فانهُ يتّجه ببطء وبثبات نحو التآخي العام. وقد كان الشعر العربي ولا يزال افضل وسيلة لانماء هذا الشعور وتقويته. الشعر العربي اليوم سواء كان في مصر او العراق او الاقطار السورية أميل الى مصارعة الاقليمية فلا غرابة ان نرى لبنانيًّا في حفلة أقيمت له ببغداد (١٩٢٤) يقول من قصيدة مطلعها (٢)

غريبٌ قد طوى الفلوات سعياً ... الى هذي الربوع السندسيه

سلاماً نهر بغداد فاني ... احيي في حماك الاريحيه
احيي فيك عن قومي اخاءً ... فسوريا شقيقتك الوفيه
إخاءٌ بين اهل الضاد يحيي ... امانيَّ في نفوسهم الفتيه
ألا ان الزمان لقد دهاهم ... بما تهوى النفوس الاشعبيه
وفرّق شملهم حتى كان الـ ... ـتخاذل بينهم امسى مزيه

(١) راجع تفصيل ذلك في صوت الاحرار ٢ تموز ١٩٣٨ (وما بعده)
(٢) للكاتب راجعها في مجلة الطلبة (بيروت) حزيران ١٩٢٤

وهل هم غير اخوان فيحفظوا ويشفوا في مساعيهم سويه
لنا بلساننا وطن كريم وفي تاريخه صلة قويه

وان نرى شاعراً مصريًّا كبيراً كاحمد محرم ينادي الامة العربية بقوله من قصيدة مطلعها[1]

حيِّ المنازل واسأل امة العرب ما بال سهمك لم يظفر ولم يصب
بني العروبة هذا صوت شاعركم يرمي بهِ عربي الدار والنسب
يطوي البلاد البكم لا يغالبه تحنان مرتحل او شوق مغترب
انا الذي ان شكوتم وقع نائبة نظرت حولي هل تهوي البسيطة بي
أعزز عليَّ بما تلقون من عنتٍ وما تذوقون من همٍّ ومن نصب

ولا يمنع ذلك تغزّل اللبناني بلبنان والمصري بمصر والعراقي بالعراق ولكن يمنع هذا التنافر الاقليمي الذي ليس فيهِ الاَّ الضرر الجسيم على الشرق العربي . والذي يلوح لنا من تحليل العواطف الشعرية في مختلف البيئات العربية ان العراق وسوريا وفلسطين في مقدمة الداعين الى تعزيز القومية العربية العامة . أما في لبنان ومصر فلا يزال الصراع الروحي قائماً بين الفكرتين وقد بدأت الاقليمية تتراجع قليلاً الى الوراء . وانما هذا التراجع لما طرأ على فكرة الوحدة العربية من تطور في هذه الحقبة الاخيرة

فمعظم الداعين الى الوحدة الآن لا يؤمنون بما كان يؤمن به الدعاة الاولون من توحيد الاقطار العربية في مملكة واحدة . ذلك أمر يرونهُ بعيد المنال . وانما هم يدعون الى تعاون عام، الى تحالف اخوي يشد أزر كل اقليم ولا يمس استقلاله التام . فمصر في رسالة الشعر العربي الحديث ستبقى مصر وكذلك العراق وسوريا وسواها . وستصير كل منها في طريق الحياة مستقلة عن الاخرى ولكنها ستمد الى جارتها يد الاخاء فتهدم من بين هذه الاقطار الحواجز الاقتصادية والسياسية بحيث يشعر كل عربي اللسان أن كل بلاد عربية هي بلاده وانه اذا اصاب اي قطر عربي حيف فعلى سائر الاقطار ان تهب لمساعدته

ان افراد الاسرة الواحدة قد يستقلون بعضهم عن بعض استقلالاً اداريًّا واقتصاديًّا ولكن بينهم رابطة لا تزول هي رابطة الاسرة التي تجعل منهم اخوة مهما تكن اختلافاتهم في الحياة حتى اذا ألمت بهم ملمة كانوا يداً واحدة فلا يتسنى لغريب ان يستعبدهم او يستذلهم

تلك هي رسالة الشعر اليوم فهل يحققها الزمان أو يمزقها ثم يحمل الى الاقطار رسالة بغير هذا العنوان ؟

(١) جريدة النداء (بيروت) ٧ حزيران ١٩٣٣

باقة اشعار

للشاعر الفرنسي سوللي برودوم

[نقلها خليل هنداوي]

ابتهال

آه لو تعلمين كيف أبكي وحدتي ووحشتي !
اذاً لخطرت مرة تجاه منزلي

آه لو تدرين ما عسى تولده نظرة بريئة في النفس الحزينة !
اذاً لتطلعت علي صدفة الى نافذتي

آه لو تعرفين أي طيب يحمله الى الفؤاد وجود فؤاد !
اذاً لجلست على بابي كشقيقة .

آه لو تدركين أنني أحبك ، أو تعلمين كيف حبي !
اذاً لدخلت علي ببساطة وسلام .

***

القيود

أردت أن احب كل شيء
وإنني لشقي لأنني عددت أسباب شقائي .
ان قيوداً لا تحصى عدداً ، قيوداً واهية شفية في العالم الكامل ،
تذهب من نفسي الى الاشياء .

كل شيء يجذبني اليه في خطرة واحدة ، بجاذبية متعادلة .
الحقيقي يجذبني بلمعاته ، والمجهول بأستاره
ولمعة ذهبية مرتعشة تربط قلبي بالشمس
وخيوط طويلة ناعمة تجمعه بالنجوم .

الايقاع يقيدني باللحن الجميل
ورقة المخمل بالورود التي أمسُّها
وبسمة أضع قيد عيني ،
وبقبلة أنصبُ قيد فمي .

حياتي متعلقة بهذه العُقد الواهية
وأنا أسير ألوف من الكائنات التي أحبها
وبأضعف رجفة تثيرها نفخة فيها
أحس ان قلبلاً مني ينفصل عني . . .

***

أفراح هائمة

يدرك الانسان دائماً اسباب شقائه
ولكنهُ يفتش أحياناً عن أسباب سروره
واني لأستيقظ حيناً ساطع النفس
يؤثر فيها رقة غريبة لا أستطيع امساكها

سماء وردية تسطع على وجودي ومنزلي
فأحب كل الوجود ، ودون ان أدري لماذا ؟ اراني أشع !
لكن هذا لا يدوم الأساعة ، ثم أحس تسرُّب الظلمات الى نفسي

من أين تقبل انوار هذا الفرح الفجائية ؟
وهذه الفراديس المتفتحة التي لا تُرى الاّ استشفافاً .
وهذه الكواكب المجهولةُ في ليل الاعوام ،
التي تجري تاركةً أعماق الفؤاد أشد سواداً ؟

هل نيسان قديم يضيء لونه
وربيع يولد من رماد الأيام ؟
كنار خامدة تطرح لمعة . . .
ام هو التفاؤل السعيد لأيام الحب المقبلة ؟

لا . ان هذا الأثر الخفي السريع
ليس له ذكرى ولا شعور به
قد يمكن ان يكون سعادة هائمة تسافر ،
وهي — ضالة الفؤاد — ولا تضيء علينا الآ لحظة . . .

***

على صفة الماء

جلسا على ضفة موجة جارية ، ينظران انها تجري
اذا مرت سحابة في الفضاء ، يبصر انها تسري
واذا سطع دخان خلل السقوف ، يرمقان الدخان
واذا عبق حولهما أريج من زهرة ، ملأ نفسيهما بالأريج
وإذا فتنتهما ثمرة يأكل منها النحل ، اكلا منها
واذا غرد عصفور في الغابة المصغية اليه ، أنصتا لتغريده
واذا هدر الماء حيث يهدر تحت الصفصافة ، سمعا هديره
وهما لا يحسان — ما دام هذا الحلم — ، بدوام الزمان
ولا يحملان من الهوى العميق ، الا عبادة متبادلة
دون ان يتبرما بخصومات الوجود ، لانهما يجهلانها
وهما وحدهما سعيدان تجاه كل ما يحمل السأم ، دون أن يسأما
ويشعران بالحب ازاء كل ما يمشي ، دون أن يمشيا .

اذا استطعت

آه لو استطيع الرواح اليه لأقول له :
« انها لك . وانها لم تمنحني شيئاً ، حتى ولا صداقة .
ليس عندي منها شيء لهذه الناكثة ...
لكنها صفراء شاحبة ...
كن مشفقاً عليها ، رؤوفاً بها .

أصغ اليّ دون ماغيرة
لأن جناح هواها لم يستطع شيئاً — ووالهفاه — الاّ أن يمسني خفيفاً
وانني أدري كيف تدفع يدها !
ولكن ما أرق نفسها على من تهوى !
لا تتركها تبكي أبداً . . .

آه لو استطعت الغدوّ اليه لأقول له .
« انها كئيبة ، متأنية الابتسام ،
أعطها أزاهير كل يوم .
ولكن الزهر الأزرق اكثر من الورود .
لان أعطية الاشياء الحقيرة تؤدي الحب .

أستطيع ان أحيا بالفكرة التي هي عزيزة
عليكما — لا أنا — ولكن قلبي .
أيتها الطفلة اللئيمة التي هجرتني أنظري الألم الذي أورثتنيه .
لا أقدر على شيء يعطيك السعادة . . .

يبدأ المقتطف في الشهر القادم في نشر سلسلة من المقالات موضوعها « الحركة الادبية في سوريا ولبنان » بقلم الكاتب والشاعر اللبناني الياس ابي شبكة



الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٨

—

توطئة

انتهت سنة ١٩٣٧ وأهلّت سنة ١٩٣٨ وليس في أفق السياسة الدولية غيوم تبعث على القلق والجزع الا غيمة الحرب الاهلية الاسبانية. وكان الامل معقوداً حينئذٍ بامكان الاتفاق على تنفيذ مشروع عدم التدخل بسحب المتطوعين الاجانب من اسبانيا ، على ان يلي ذلك توسط يزيل اسبانيا من حلبة السياسة الدولية كباعث من بواعث الاضطراب. الا ان الكتّاب السياسيين الذين ظنوا هذا الظن ما كان في وسعهم أن يتصوروا ما سوف تجيء به السنة الجديدة من الحوادث الجسام ، التي غيرت من الخارطة الاوربية وبدلت من أوضاعها السياسية ، واقتربت بدول اوربا الكبرى من شفير حرب عامة . فسنة ١٩٣٨ تتصف بأنها كانت أقتم سنة مرت بالعالم بعد انتهاء الحرب الكبرى ، ولولا مقت الشعوب الصادق للحرب وويلاتها ، وبقية حكمة وتساهل في رؤوس بعض الاقطاب لكنّا الآن نعاني من هذه الويلات ، ما لا يتصوره خيال

حوادث فبراير

لعل شهر فبراير من سنة ١٩٣٨ كان أهم شهر في السنة الماضية ما عدا شهر سبتمبر، من ناحية الحوادث التي حدثت فيهما . بل لعل الحوادث الخطيرة التي حدثت في سبتمبر وكادت تزج العالم في حرب طاحنة ، ترتد الى الحوادث التى حدثت في شهر فبراير

كانت عادة الهر هتلر ان يدعو الرخستاج في يوم ٣٠ يناير من كل سنة — وهو عيد تقلده منصب المستشار وكان ذلك في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ — فيلقي عليه خطبة يلخص فيها اعماله واحوال المانيا في عهد النظام الوطني الاشتراكي ، ثم يلمح أو يصرح ببعض ما ينويه في المستقبل. ولكن انقضى ٣٠ يناير من سنة ١٩٣٨ والرخستاج لم يجتمع لسماع الخطبة التي جرت بها التقاليد ، فأخذ الناس يسألون عما يدور في طي الخفاء في المانيا ، ولكنهم لم يلبثوا بضعة أيام حتى انكشف الغطاء اذ أعلن في يوم ٤ فبراير أن المارشال فون بلومبرج ، وزير الحربية ، والجنرال فون فرتش قائد الجيش قد استقالا وان سبعة من قواد الجيش وستة من قواد سلاح الجو قد أحيلوا على المعاش : وعين الجنرال فون براوشتش قائداً للجيش وتقلد الهر هتلر نفسه القيادة العليا للقوات المسلحة وعين الجنرال فون كايتل رئيساً لاركان حربه

ولم يقتصر عمل « التطهير » على ضباط الجيش بل امتدت يد النقل والتبديل الى وزارة الخارجية ، فنقل البارون فون نوريات وزير الخارجية رئيساً لمجلس سري يستشيره الهر هتلر في الشؤون الدبلوماسية وعين الهر فون ربنتروب سفير المانيا في لندن وزيراً للخارجية وأجري تبديل في مناصب السفراء والوزراء المفوضين

فكانت هذه الحوادث ايذاناً بتفوق العنصر المتطرف في مجالس الحزب الوطني الاشتراكي على العنصر المعتدل واشارة الى ما قد يحدث في المستقبل القريب . وفعلاً لم ينقض اسبوع على هذا الحادث حتى دعي الدكتور شوشنج مستشار النمسا الى برختسجادن حيث أبلغهُ الهر هتلر — وكان يحيط بهِ اقطاب الحزب والجيش — ان النمسا تتصرف تصرفاً لا يليق بدولة جرمانية او هو تصرف مناقض لاتفاق ١١ يوليو ١٩٣٦ وأملى عليهِ وجوب تعديل وزارته بحيث يدخلها الهر سايس انكوارت النازي النمسوي وزيراً للداخلية . وقد حاول الدكتور شوشنج في هذا الاجتماع أن يؤيد موقف حكومته والدفاع عن استقلال النمسا بإبراز مشروع لاخذ النمسا بالعنف قيل انهُ وجد في مقر الحزب النازي النمسوي، ولكن الغضب البادي في حملة الهر هتلر عليهِ ، ومظاهر القوة ممثلة في اقطاب الجيش أقنعاه بالخطر الذي يواجههُ فخرج من برختسجادن ، عائداً الى فينا وهو مغلوب على أمره

وأعلن في المانيا ، ان الخطبة التي كان ينتظر ان يلقيها الهر هتلر يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٨ سيلقيها في ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ وما كاد مساء عشرين فبراير المذكور ينتهي حتى كانت الخطبة قد أُلقيت ، ولكن اسلاك العالم البرقية كانت مشغولة حينئذٍ بنبإٍ حجبها ، اعني نبأ استقالة المستر انطوني ايدن من وزارة الخارجية البريطانية

استقالة ايدن واتفاق روما

كان الخلاف بين المستر ايدن والمستر تشمبرلين قد بلغ أشده في ذلك اليوم على موضوع التفاهم مع ايطاليا. فايدن من اولئك الساسة المثاليين الذين أملت عليهم معرفتهم بوقائع الحالة الدولية ان يقف موقفاً حازماً ، من مطامع البلدان الدكتاتورية ، والوعود التي تقطعها ثم تتنكر لها. والمستر تشمبرلين من اولئك الساسة العمليين ، الذين يعتبرون الاعمال السياسية كالاعمال التجارية التي ترعرع في احضانها . فالاول لايريد أن يتفق مع ايطاليا الا اذا أقامت الدليل الفعال على حسن نيتها بتصفية المسألة الاسبانية ، والثاني يعتقد ان التفاهم معها مستطاع بقليل من حسن النية. وتعذر على المستر ايدن ان يقتنع بموقف رئيسهِ ، فاستقال فهزت استقالتـه الوزارة البريطانية، ولكن ما لبثت الحالة الداخلية في بريطانيا حتى استعادت استقرارها وعين لورد هاليفاكس — نائب الملك سابقاً في الهند — وزيراً للخارجية محل المستر ايدن

ومن ثم أقبل المستر تشمبرلين على بذل السعي للتفاهم مع ايطاليا (٢١ فبراير)، وعهد بإجراء المفاوضات الى لورد بيرث سفير بريطانيا في روما، فاتصل بالكونت تشانو وزير خارجية ايطاليا لهذا الغرض مدى شهرين تقريباً. فلما حدث حادث ضم النمسا الى الريخ الثالث في أواسط مارس — وسيجيء ذكره فيما يلي — كان لهذا الحادث صدى كبير في نفوس الايطاليين، فاستعجلت المفاوضات الدائرة بين بيرث وتشانو حتى انتهت الى اتفاق روما المشهور الذي وقع في روما يوم ١٦ ابريل قبيل أحد الفصح المجيد،

وقد انطوى هذا الاتفاق على بروتوكول وثمانية ذيول واتفاق حسن جوار تشترك فيه مصر ورسائل عدة تبادلها الكونت تشانو ولورد بيرث ووزير مصر المفوض في روما. أما البروتوكول فقد أكدت فيه رغبة الدولتين في وضع العلاقة بينهما على أساس دائم يعزز قضية السلام وانه متى وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ تجري مفاوضات لوضع اتفاقات خاصة بحدود السودان وكنيا والصومال البريطاني من ناحية وشرق افريقية الايطالي من ناحية أخرى. أما الذيول فأحدها أكد الاتفاق الانكليزي الايطالي الذي وقع في روما في ٢ يناير ١٩٣٧ خاصاً بالبحر المتوسط والمحافظة على الحالة الراهنة فيه ونفى نية ايطاليا أن تبدل من موقف اسبانيا وممتلكاتها، ونص آخر على تبادل المعلومات الخاصة بالاعمال الادارية وتبديل توزيع القوات البحرية والجوية والبرية في الاراضي الواقعة على سواحل البحر المتوسط والبحر الاحمر وخليج عدن وغيرها اجتنابا لسوء الظن، وفي ذيل آخر تعهدت الدولتان باحترام وحدة واستقلال المملكة السعودية العربية واليمن واتفقتا على أنه من مصلحتهما ألاّ تدخل دولة ثالثة هناك. وعالج الرابع موضوع الدعاية في الشرق الادنى وخامس موضوع بحيرة تانا وفي السابع والثامن تعهدت ايطاليا بألاّ تجند من الاحباش الاّ ما يلزمها لاعمال البوليس والدفاع المحلي

أما في المذكرات التي تبودلت فقد تعهدت ايطاليا بنقص قواتها في لوبيا بمعدل الف في الاسبوع حتى تصبح قواتها هناك في منزلة القوات المألوفة إبّان السلام. وتعهدت بريطانيا بأن تبذل المساعي اللازمة في مجلس العصبة للاعتراف بالسيادة الايطالية أو لازالة العراقيل التي تحول دون الاعتراف بالسيادة الايطالية في الحبشة. واشترطت بريطانيا ألاّ ينفذ الاتفاق الاّ بعد تسوية المسألة الاسبانية، ولكن لم يبين معنى «التسوية» وكيف تكون

وعلى هذا وقع اتفاق روما في ١٦ ابريل، وبدا لمتتبعي السياسة البريطانية أن تشمبرلين نجح حيث اخفق ايدن مع ان كثيرين ظلوا يعتقدون، ان اسبانيا — وهي المحك لحسن نية ايطاليا — سترقظ اتباع تشمبرلين الى خطاهم وتنبههم الى حقيقة الحال، وفعلاً ظلوا على رأيهم هذا، حتى ١٧ نوفمبر عندما اقترح المستر تشمبرلين تنفيذ الاتفاق. فانهم اعترضوا عليه، بأن سحب

عشرة آلاف من المشاة الايطاليين من اسبانيا ، لا يمكن ان يعتبره عاقل حلاً او تسوية للمسألة الاسبانية وما تنطوي عليه في حالتها الحاضرة من المخاطر الاستراتيجية لانكلترا وفرنسا . الاّ أن المستر تشمبرلين فاز على منتقديه في مجلس النواب . فأقر اقتراح ابرام الاتفاق وتنفيذه، لان الحزب المحافظ كان من ورائه يشد أزره

وبعد توقيع الاتفاق في ابريل ، عقد مجلس العصبة اجتماعه الدوري في مايو ، وحضره لورد هاليفاكس واقترح فيه ان يُحَلّ أعضاء العصبة من القرار السابق الذي مداره « عدم الاعتراف » بأي تبديل جغرافي يتم بالقوة ، فقبل الاقتراح ، وكذلك حلت بريطانيا وفرنسا من قيد « عدم الاعتراف »، وفي نوفمبر أرسلت الاولى اوراق اعتماد جديدة الى سفيرها في روما موجهة الى « الملك والامبراطور » فكان ذلك ايذاناً بالاعتراف الموعود ، وجارتها فرنسا فعينت المسيو فرنسوى بونسيه سفيرها سابقاً في برلين سفيراً في روما وارسلته بأوراق اعتماد موجهة الى الملك والامبراطور كذلك ، بعد ان ظلت سفارتها في روما نحو سنتين لا يشغلها الاّ موظف من درجة قائم بأعمال

الانشلوس

عودة يسيرة الى الوراء . فقد قلنا في ما تقدم أن الهر هتلر أنذر الدكتور شوشنج بوجوب تعيين الهر تسايس انكوارت وزيراً للداخلية فعينه في ١٦ فبراير . ولكن ما عاد شوشنج الى فينا مغلوباً على أمره ، واتصل ببعض العناصر الراغبة في المحافظة على استقلال النمسا ، حتى استرد قليلاً من شجاعته وقوته المفقودتين في برختسجادن أمام مظاهر القوة الغاشمة،وأعلن في خطبة حازمة اللهجة ان التسليم له حدود يقول عندها « الى هنا وكفى » . وكان ذلك اشارة منهُ الى نشاط النازي النمسوي . ثم اعلن انه ينوي اجراء استفتاء يدور حول استقلال النمسا في ١٣ مارس ، فأحدث هذا القرار صدى غريباً في دوائر النازي الالمانية ، التي كانت تطالب دائماً بالاستفتاء اعتماداً على قوة اتباعها من النمسويين . ولكنها أبت ان توافق عليه الآن ، واعتمدت في ابائها على ان قرار الاستفتاء ليس من حق رئيس الحكومة ، وعلى ذلك ارسل الهر هتلر انذارين في ١١ مارس الى فينا طلب في الاول الغاء الاستفتاء وفي الثاني طلب استقالة الدكتور شوشنج وتأليف وزارة اخرى محل وزارته يكون ثلثاها من النازي النمسوي ، فاستقال الدكتور شوشنج في مساء يوم ١١ مارس منعاً للحرب وحقناً للدماء لعلمه بما يتوقع اذا أصرّ على البقاء في منصبه والدفاع عن استقلال النمسا.وفي يوم ١٢ مارس اجتازت الجيوش الالمانية الحدود النمسوية ودخل الهر هتلر مدينة لنز دخول الظافرين وصدرت في يوم ١٣ مارس مراسيم في برلين وفينا

أعلنت ان النمسا اصبحت جزءاً من الريخ الالماني وفي يوم ١٤ مارس دخل الهر هتلر فينا . وفي ١١ ابريل أي بعد انقضاء شهر على استتباب الامر النازي في النمسا خدث الاستفتاء النمسوي الخاص بالانضمام الى الريخ فكانت الموافقة على هذا الانضمام ٩٩ في المائة

اضطراب الوزارات الفرنسية

حدثت حوادث النمسا،وفرنسا بغير وزارة . ذلك ان المسيو شوطان كان قد استقال للمرة الثانية في سنة ١٩٣٨، وقد كانت استقالته الاولى في ١٤ يناير فقبلت وقضى رئيس الجمهورية خمسة ايام في استشارة الزعماء وعهد الى غير قطب واحد بتأليف الوزارة التي تليها . فعجزوا وأخيراً تمكن شوطان من تأليفها ثانية في يوم ١٨ يناير ، فكان تأليف هذه الوزارة الشوطانية قائماً على حزب الراديكاليين الاشتراكيين دون الاشتراكيين ، اي ان وزارة شوطان هذه كانت دليلاً على تصدع الجبهة الشعبية التي تألفت في سنة ١٩٣٦ وفازت في الانتخابات النيابية تلك السنة وكان قوامها الراديكاليين الاشتراكيين والاشتراكيين والشيوعيين . الا ان وزارة شوطان التي تألفت في ١٨ يناير لم تلبث حتى سقطت في ١١ مارس — يوم الانذار الالماني للنمسا — وفي اليوم التالي والذي يليه تم « الانشلوس » ، وكان الرئيس قد عهد الى المسيو بلوم زعيم الاشتراكيين ، فحاول ان يؤلف وزارة قومية يمتد أساسها من يمين الوسط الى يسار الاشتراكيين فأخفق في ذلك فاكتفى بتأليف وزارة على طراز وزارته الاولى أي وزارة مستندة الى تأييد الاشتراكيين والراديكاليين الاشتراكيين . ولكنها لم تعمر لانها اصطدمت بمجلس الشيوخ الذي عارض في برنامجها الاقتصادي المالي وأبى ان يمنحها السلطة المطلوبة فآثرت الاستقالة على احداث ازمة دستورية في حين ان الاخطار الخارجية كانت تهدد البلاد ، وكان ذلك بعد انقضاء شهر او نحو شهر على تأليفها ، فدعي المسيو دالادييه الى تأليف الوزارة الجديدة ، فأسسها من الراديكاليين الاشتراكيين وبعض من أيدهم من أحزاب الوسط ، وبذلك زاد ظهور الصدع في الجبهة الشعبية ، فلما تقدمت هذه الوزارة الى المجلس في دسمبر بعد عودته الى الاجتماع ، تم انهيار الجبهة الشعبية عندما اقترع الاشتراكيون والشيوعيون ضد دالادييه ، ولم تفز الوزارة على خصومها في المجلس الا بتأييد احزاب الوسط واليمين

هذا التقلب في الوزارات الفرنسية مظهر للقلق الذي يسود البلاد .فالحالة الاقتصادية متفاقمة فيها ، العمال لايرضون بديلاً عن التشريعات التي تمت لمصلحتهم في عهد بلوم الاول ، واصحاب الاموال يرون في هذه التشريعات سبيل الخطر على أموالهم، فلا يرضون بابقائها في فرنسا خوفاً عليها والحكومة واقعة بين المطرقة والسندان ، تريد زيادة العمل في المعامل لكي تنجز أعمال

الدفاع بحيث تصبح القوة الحربية متكافئة ومكانة البلاد الدولية ، وهذا لا يكون الاَّ بزيادة ساعات العمل ، وبعودة رؤوس الاموال ، ومن هنا المراسيم التي استصدرها المسيو رينو وزير المالية الجديد ، التي حملت اتحاد العمال على اعلان اعتصاب عام عالجهُ المسيو دالادييه بالحزم فلم يصب القائلون بالاضراب الاَّ قسطاً يسيراً من النجاح ، وكان القسط الاكبر من النجاح في جانب الحكومة . ولكن هذا لا يعني ان وزارة دالادييه ثابتة ، مستقرة ، وانما الحوادث الخارجية تقضي على الفرنسيين بالاتحاد ، والاتحاد الصادق غير مستطاع ما زال هناك شعور بالجمود ولولا الخطر الخارجي لما رأينا في فرنسا حتى مظاهر الاتحاد . فالمستقبل في فرنسا قائم على ما يلوح لنا الآن

ومما لا ريب فيه الآن ان فرنسا غدت بعد حوادث السنة الماضية دولة من الطبقة الثانية في اوربا ولا سيما بعد ضم النمسا وانهيار نظام محالفتها في اوربا الوسطى والشرقية على أثر مونيخ

الطريق الى مونيخ وصنعها

الطريق الى مونيخ مرَّ بمكدن في منشوكو ثم بأديس ابابا في الحبشة ثم بيلباو في اسبانيا ثم بفينا عندما تم الانشلوس . وكان الطريق محفوفاً على جانبيه بألواح كتب عليها « لا تخفض السلاح الاَّ بعد ضمان السلامة » (فرنسا) و « أطلقوا الرصاص على هؤلاء الكلاب » (روسيا) و « احرصوا على الابتعاد عن اوربا » (اميركا) و « انقذوا العالم من الحرب » (دعاة السلام في كل ارض)

هذا الطريق المفروش بصرعى منشوكو والحبشة وأسبانيا الجمهورية والعقوبات هو الطريق الذي أفضى الى مونيخ ، فأضيف الى الاشلاء التي فرش بها شلو تشيكوسلوفاكيا

لم يطل المطال على ضم النمسا حتى بدأ كل مشتغل بالسياسة الدولية يقول ومتى يجيء دور الالمان السوديت . والواقع ان دور السوديت جاء في مايو ولكن حزم الحكومة التشيكوسلوفاكية حال حينئذٍ دون المأساة التي مثلت في سبتمبر ، إذ سارعت الى التعبئة ولو وقعت حوادث على الحدود حينئذٍ لأفضت الى نشوب الحرب ، ولخاضتها فرنسا حتماً . وانقضت أزمة مايو ولكن مشكلة السوديت لم تنقض

ما العمل ؟ بريطانيا تعلن بلسان رئيس وزرائها انها لا تستطيع ان تقف بمعزل عن حوادث أوربا الشرقية . وفرنسا تؤكد غير مرة لوزير تشيكوسلوفاكيا في باريس ، بأنها عازمة على تنفيذ المعاهدة التي تربطها ببراج . والصحف الالمانية ، ومحطات الاذاعة الالمانية لا حديث لها الاَّ مصائب السوديت وما يتعرضون له كل يوم من صنوف الاضطهاد . والهر هنلين يخطب فيطلب ان تكون السوديت دولة داخل دولة . ولكنهُ لم يشر مرة الى الضم الصريح حتى تكرم به المستر تشمبرلين بعد اشارة اليه في التيمس

يوليو مضى على ذلك وأغسطس ثم جاء شهر سبتمبر الضغط من ناحية المانيا يزداد . واللورد رنصيمن يحاول ان يبدع حلولاً بغية التوفيق . ولكن ما فعله رنصيمن في الواقع كان أن عود التشيكوسلوفاكيين فكرة التسليم بقليل هنا ثم بقليل هناك ، حتى اذا جاءتهم الضربة الكبرى ، كانت مشيئة المقاومة فيهم قد انكسرت، وكذلك ضمن تشمبرلين ودلاديه سلامة لندن وباريس، على حساب تشيكوسلوفاكيا . بين رحلة تشمبرلين الى برختسجادن ورحلته الى جودسبرج تراوح الامل بين الشعوب ، بأن يغلب الحل المعقول أو تقابل القوة بالقوة ، فلما كانت رحلة مونيخ ، كان التسليم فيها بأكثر مما طلبه الهر هتلر في مذكرة جودسبرج التي أبلغها تشمبرلين الى براج وأبى ان يتحمل تبعة الاشارة بقبولها

وكذلك تغيرت خارطة أوربا للمرة الثانية في خلال ستة أشهر فضمت الى المانيا مناطق من تشيكوسلوفاكيا فيها المان وفيها تشكيون وفيها صناعات ومناجم وخط من الحصون عظيمة الشأن . « وتشت » بولندة منطقة تشن . وأخذت هنغاريا منطقة في الجنوب . ومنحت سلوفاكيا استقلالاً ذاتياً . وأصبحت تشيكوسلوفاكيا المبتورة تابعاً يدور في فلك المانيا السياسي والاقتصادي وغدت بلدان أوربا الوسطى وشرقها الجنوبي ، تترامى على أقدام المانيا ، لانها وقد كانت في الماضي تعتمد على فرنسا في الغالب ، أمست وهي لا تستطيع الاعتماد عليها ، بعد تحصين منطقة الرين وانهيار قلعة التشيك

وما نالت انكلترا ؟ سلاماً مؤقتاً وتصريحاً بأن المشكلات تحل بعد الآن بالمباحثة وبغير حرب وبأن الهر هتلر لا مطالب لهُ في اوربا خاصة بالاراضي وأن مشكلة المستعمرات لن تحل بالقوة . ثم ذهب فون ربنتروب الى باريس ووقع تصريحاً من هذا القبيل مع المسيو بونيه وزير خارجية فرنسا ولكن لم يكد يجف حبر التصريح الاول — هتلر تشمبرلين — حتى شرع الهر هتلر واقطاب حكومته يخطبون فيحملون في خطبهم على ايدن وتشرتشل ودف كوبر وجرينوود ثم اخيراً على بلدوين . فلما علم من عهد قريب أن خطبة المستر تشمبرلين في مأدبة الصحافيين الاجانب بلندن ستنطوي على تقريع بسيط للصحف الالمانية لانها حملت على بلدوين ، قاطع جميع الالمان من دبلوماسيين وصحافيين — المأدبة التي كانوا قد دعوا اليها وقبلوا الدعوة !

اما ايطاليا فما كادت تفوز بعد مونيخ بالاعتراف بامبراطوريتها بالحبشة من قبل انكلترا وفرنسا على ما مرَّ بك ، حتى شرعت تطالب بتونس وكورسيكا وسافويا ونيس وتعديل نظام ترعة السويس ، في مظاهرات عامة في مجلس النواب الايطالي وفي الشوارع وفي الصحف ، في الوقت الذي كان فيه الهر ربنتروب يوقع مع المسيو بونيه تصريح « لا حرب » في باريس

وهذا ليس الا قليلاً مما يقال في الطريق الذي افضى الى مونيخ والطريق الذي يمتد منها الى المستقبل

من وشنطن الى ليما

الاتجاه بين جمهوريات القارتين الاميركيتين الى عقد الخناصر على الاستعداد لمقاومة كل تدخل سياسي أو ايديولوجي في نصف الكرة الغربي . وهذا يفسر النفقات الهائلة التي أقرتها حكومة الولايات المتحدة الاميركية في خلال السنة الماضية لتعزيز اسطولها الجوي بحيث يبلغ عشرة آلاف طيارة للخط الامامي أو اكثر ، وتعزيز اسطولها البحري بحيث يصبح لها اسطولان كبيران احدهما في المحيط الهادىء والثاني في المحيط الاطلنطيقي

ولا ريب في ان نداء الرئيس روزفلت كانا ذا شأن كبير في حسم ازمة سبتمبر بغير امتشاق الحسام ، ولكن الرئيس أعرب مع ذلك — بعيد عقد اتفاق مونيخ — عن رأيه في ان السلام لا يستقر في نصابه الحقيقي بالتهديد بالحرب . ثم لمح وصرّح غير مرة ، هو وبعض اعضاء وزارته الى الشدة في معاملة اليهود في المانيا ولا سيما ماروي عن المصائب التي عرضوا لها بعد مقتل فون راس في باريس . وقد استدعي السفير الاميركي من برلين ، ليشاوره الرئيس عن كثب ، ولكن قيل انهُ قد لا يرجع الآن الى برلين ، فكان هذا العمل من جانب وشنطن تقريعاً للحكومة الالمانية فاستدعت هي الاخرى سفيرها في وشنطن متوسلة بالعذر نفسه . والعلاقات الالمانية الاميركية سائرة بوجه عام نحو التوتر والجفاء

ويلوح من تتبع الرأي العام الاميركي انه بدأ يتحجر ضد المانيا يدلك على ذلك رد وكيل وزارة الخارجية الاميركية المستر سومنر ولز على القائم بأعمال السفارة الالمانية في وشنطن عندما جاء اليه يحتج على ما قاله وزير الداخلية الاميركية — هارولد ايكس — من تعريض برجال الحكومة الالمانية في خطبة لهُ . فقد رد عليه المستر ولز بأنهُ لا يرى وجه الحق في احتجاجه حالة ان كتاب الصحف الالمانية المقيدة بأوامر الحكومة ، بل ورجال النظام القائم أنفسهم يكتبون ويخطبون ويطوون كتاباتهم وخطبهم على اقوال فيها أشد تعريض بالرئيس وبرجال الحكومة الاميركية ، ثم وجه نظر القائم بأعمال السفارة الالمانية الى ان اقوال المستر ايكس تعرب عن رأي وشعور الاكثرية الساحقة من الاميركيين

فاذا أضيف الى ذلك استدعاء البرازيل لسفيرها من برلين واجتماع مؤتمر الجامعة الاميركية في عاصمة بيرو (٩ ديسمبر وبعده) حيث أجمع الرأي على استنكار التغلغل النازي والفاشيستي في العالم الجديد أثبت لنا ذلك ان الاتجاه العام في جمهوريات القارتين الاميركيتين ضد الدكتاتوريات الاوربية الكبيرة فاذا استمر على ذلك في السنة الجديدة كان ذا أثر حاسم في موقف انكلترا وفرنسا

الحربان في أسبانيا والصين

في ٧ يوليو انقضت سنة على غزوة اليابان للصين ، وفي ١٨ يوليو انقضت سنتان على بدأ الحرب الاهلية الاسبانية . ولا تزال الحربان تقتضيان من البشرية ضحايا كثيرة . فاليابان ماضية في غزوتها ، حتى غدت اكبر مدن الصين في قبضتها . فقد ختمت سنة ١٩٣٧ باحتلال مدينة نانكين واحتلت في اواخر سنة ١٩٣٨ مدينتي كانتون في الجنوب ، وهانكو في القلب وهي المدينة التي اتخذها الصينيون مقراً لحكومتهم بعد احتلال نانكين . ولكن موقفها العمومي في الصين لايزال على ماكان بوجه عام . فهي لاتحتل مناطق وانما تحتل نقطاً وخطوطاً . النقط هي المدن وعقد المواصلات . والخطوط هي السكك الحديدية . اما هدفها العسكري الاصيل وهو كسر شوكة الجيش الصيني ، واقصاء شانغ كاي شيك عن مقام الزعامة في الصين فما تزال بعيدة عنه . وهي لذلك تواجه في الصين مشكلة يواجهها كل غاز عسكري لبلاد واسعة مترامية الاطراف وهي مشكلة ابقاء جيش عظيم في المناطق الواسعة التي تحتلها لحفظ الامن فيها لان الشعب غير مطمئن الى الغزاة والعصابات كثيرة منبثة في طول البلاد وعرضها تضرب هنا ثم هناك ثم تختفي لتظهر في مكان آخر وعلى الرغم من مظهر النجاح الباهر الذي يبدو على اعمال اليابان العسكرية في الصين ، لاتزال مهددة في مصيرها . فهي لاتزال عاجزة عن كسر مشيئة المقاومة في الشعب الصيني ، وفصم الصلة بين الزعيم وشعبه . فالغزوة الصينية قد تحولت الآن الى نضال صبر ، بين صبر الصينيين على ويلات الغزوة ، وبين صبر اليابانيين على ما تقتضيه هذه الغزوة من النفقات والمتاعب المالية والاقتصادية

اما في اسبانيا ، فقد أحرز الجنرال فرانكو في مارس ومستهل أبريل انتصارات باهرة مكنت جيوشه من الوصول الى ساحل البحر المتوسط بين برشلونة وبلنسية وكان الرأي ان الحكومة الاسبانية لا تستطيع ان تصمد طويلاً في وجه هذا التيار العسكري الحاسم ، ولكن قوات الحكومة الجمهورية صمدت لقوات الجنرال فرانكو عند نهر الابرو وكبدتها خسائر كبيرة بل وفازت عليها غير مرة وقد انقضى الصيف والخريف ودخل الشتاء ببرده القارس وأمطاره وثلوجه والموقف من الناحية العسكرية جامد بين الفريقين ، لولا بعض تحول غير حاسم فيه

أما من الناحية الدولية فلا تزال مهزلة عدم التدخل قائمة واذا كان سحب العشرة الآلاف من المشاة الايطاليين مهد لتنفيذ اتفاق روما، فلا تزال الحكومتان البريطانية والفرنسية تعارضان في منح الجنرال فرانكو حقوق المحاربين ، يقابل هذا ان رغبة ايطاليا وألمانيا في فوز الجنرال النهائي ما فتئت قائمة ولذلك ستبقى الحرب الاهلية الاسبانية حافلة بالخطر من الناحية الدولية

جنون التسلح

بلغت برامج التسلح خلال السنة الماضية حدها الاقصى بعد الحرب الكبرى . ولسنا نغالي اذا قلنا ان الدول انفقت عليها خلال هذه السنة عشرة آلاف مليون جنيه . ولماذا لانها جميعاً كما تزعم تبغي ان تعزز قوى الدفاع لكي تذب عن حياضها اذا هاجمها مهاجم . واذا كانت جميع الدول لا تنوي الاعتداء فمن يجيء الخطر اذن ؟

وليس الباحث بحاجة الى الحكمة الخالصة والنظر النافذ الى المستقبل لكي يدرك ان هذه الاموال التي تنفق في مواد لا تصلح للتبادل ، تصرف الصناعات عن عملها الحقيقي ، وتشغل الوفاً وعشرات الالوف من العمال بصنع بضائع — واي بضائع ! — ليست من البضائع المألوفة في عهد استتباب الطمأنينة والسلام . فغدت الحكومات الآن بين المطرقة والسندان . صنع الاسلحة والذخائر يحل مشكلة التعطل عن العمل في بلدانها — على تفاوت بينها — فلا يسعها الا انصراف عنهُ الى اعمال الصناعة والتجارة المألوفة فجأة ، حتى لا تتلقفها موجة طاغية من التعطل عن العمل قد تفضي الى ثورة اجتماعية ، ولا يسعها في الوقت نفسه ان تمضي في هذا الانفاق الهائل الذي يكاد يقض ظهور دافعي الضرائب ، وهذا علاوة على ما يبثهُ تكدس الاسلحة من روح الحرب او وجوبها

وليست الدول الكبيرة ، التي لها موارد غنية من الثروة هي وحدها المقبلة على هذا النوع من الترف الجنوني — كان مشروع المستر تشمبرلين قبل تقلده رئاسة الوزارة ان تنفق بريطانيا على تعزيز قوى دفاعها ١٥٠٠ مليون جنيه في ثلاث سنوات فتبين خلال هذه السنة ان المبلغ سيكون اقرب الى ٢٥٠٠ مليون جنيه منهُ الى ١٥٠٠ مليون ومع ذلك عاد المستر تشمبرلين من مونيخ وهو يقول انهُ لا بد من القوة حتى نستطيع ان نعزز كلمة انكلترا بانفام اللازم في مجامع الدول وهذا يعني ان انكلترا لم تكن على جانب كاف من الاستعداد الحربي عندما اشتدت ازمة سبتمبر الماضي — بل الدول الصغيرة ترهق جميع مواردها وترهن هي والكبيرة ، مستقبل الاجيال القادمة لكي تكدس طائرات وقنابل واسلحة ، يعلم جميع متتبعي العلوم والمخترعات الحديثة انها اذا كانت من الطبقة الاولى الآن فانها ستصبح قديمة لا يؤبه لها كثيراً بعد سنوات . وقد اصيب القطر المصري بهذه الموجة الطاغية فتعرض من ناحية ما يقضيه الواجب وتحتمه المصلحة القومية لاعباء مالية ثقيلة ، وقد تكون مرهقة

كانت الحضارة تباهي بأن رفع مستوى المعيشة غرض تطلبه الحكومات بكل ما في جهدها ولكن الجهد عاد لا يجدي كثيراً في هذه الايام ، لان ما ينفق جزافاً على التسلح ، قد بدأ يؤثر

في دول بعينها حيث هبط مستوى المعيشة هبوطاً محسوساً ، ولا بد ان يؤثر عاجلاً أم آجلاً في الشعوب الاخرى . وهذا وحده كاف — اذا لم تنشب حرب تحصد الاخضر وتشمل اليابس — لان يراجع اهل الحل والربط انفسهم فيما يكيدونه لشعوبهم وللاجيال التي تليهم، في حين يعتقدون انهم يعززون الهيبة ويرفعون العلم . ان ذرة واحدة من الفلسفة تكفي لاقناعهم بأن كل ذلك باطل ولكن اينها ، في بلاد كانت وهيجل ؟ أينها في بلاد سقراط وتوما الاكويني ؟ اينها في قارة افلاطون ؟ أإلى هذا تنتهي تعاليم الفلاسفة وغيرهم من بناة الحضارة ؟ إما الى هدنة مسلحة واما الى قتال مدمر ؟ انكلترا تنفق ما يزيد على ٥٠٠ مليون جنيه في السنة ، وفرنسا ما يقرب من ذلك ، والمانيا ما هو اقرب الى الالف منهُ الى نصفه ، وأميركا لا تتكلم على عادتها الا بالارقام الفلكية . حتى بولندة قررت انفاق ثمانين مليوناً من الجنيهات علاوة على ميزانية الدفاع العادية ، وايطاليا المرهقة بتعمير الحبشة وتوفية نفقات حربها فيها ونفقات متطوعيها في أسبانيا ، ماضية في الاضافة اضافات كبيرة الى أسطولها الجوي وأسطولها البحري معاً . لقد غدا العالم وهو في غمرة التسلح هذه ، وهو كانهُ طائرة سريعة مندفعة بأقصى سرعتها . فاما أن تمضي في سبيلها لتبقى في الجو واما ان تهبط وتتحطم اذا وقف محركها فجأة اما الحل الوسط ، وهو ان يأخذها سائقها بالرفق فيخفف من سرعتها قليلاً قليلاً حتى اذا استطاع الهبوط الى الارض فعل ذلك آمناً مطمئناً — فأين من يعنى بهِ من أقطاب الحكومات ؟ ان حوادث السنة الماضية تقنعنا بان صوت العقل قد خفت — خلالها على الاقل — وارتفع صوت الغريزة المسعورة

اقطاب الرجال

— كانت الخسارة الكبرى بين اقطاب الامم ، في السنة الماضية في وفاة كمال اتاتورك منشىء تركيا الحديثة . ومن غريب ما يسجله التاريخ ، انه مرض في اكتوبر مرضاً أشفي فيه وقطع الامل منه ، ولكنه تغلب على المرض بعزمه ان لم يكن بسليم جسمه ، فاستطاع ان يعيد مع أمته العيد الخامس عشر للجمهورية التركية في ٢٩ اكتوبر الماضي ، ثم عاوده المرض ، وكأنه قضى آخر لبانته من الحياة باشتراكه في هذا العيد ، فأسلم الجسد النخر الى التراب والروح الى خالقها

— وخسر جميع المشتغلين بالشؤون العالمية على اساس التعاون الممثل في عصبة الامم الدكتور ادوار بنش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، الذي استقال بعد ان رأى الصرح الذي بناه على محالفة فرنسا وصداقة انكلترا قد انهار بموطها . ولعله حين يخرج من عزلته يكون وهو خارج منصة الحكم عاملاً افعل في العودة بالعالم الى مهيع العقل والتعقل منه وهو فيها

— اما تزاور رجال السياسة فقد اصبح عاديًّا لا نعلم مدى ما نعلقه به من شأن ولكن زيارة الملك جورج والملكة اليزابث لفرنسا تخرج عن الزيارات المألوفة وكذلك زيارة الهر هتلر لايطاليا . فالثانية كانت في مايو والاولى في يوليو ، وكان لكلتيهما مغزى سياسي واضح

***

من الطبيعي ألاَّ نكون قد اجملنا في هذه الصفحات الموجزة جميع حوادث السنة الماضية ولكننا نعتقد اننا اجملنا اهم الحوادث التي كانت ذات شأن في التيارات السياسية العامة ، فنحن لم نشر بكلمة واحدة مثلاً الى حادث الخلاف بين روسيا واليابان في اغسطس الماضي على موقع فوكنج ، ولا على خلافهما المتجدد في آخر كل سنة على المصايد . وقد اهملنا كذلك رحلة الملك كارول الى غرب اوربا ، ومصرع رئيس الحرس الحديدي الروماني كودريانو، ونشر تقرير لجنة ودهد الفلسطينية ونبذ الحكومة البريطانية مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة بيل الملكية والدعوة الى مؤتمر يعقد في لندن لحل المشكلة الفلسطينية ، ولمحنا الى غيرها تلميحاً فقط، والعذر في ذلك باد . فالغرض ليس ان نعد سجلاً للحوادث المختلفة بل ان تنظر نظرة عامة الى الاتجاهات الرئيسية

وكذلك ختمت السنة الماضية ، وفي جوها غيمة قاتمة — غيمة الخلاف بين ايطاليا وفرنسا— تنذر بأن تتسع رقعة وتزداد قتاماً في مستهل السنة الجديدة ، ولذلك تتوقع الدوائر السياسية ازمة دولية من الدرجة الاولى بين يناير وأوائل الربيع ، اخلف الله ظنهم ، ووقى العالم شر هذه الازمات المتكررة

كلما أنبت الزمان قناة ركّب المرء في القناة سنانا

ومرادُ النفوس أصغر من ان تتعادى فيهِ وان تتفانى

غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا

ولو ان الحياة تبقى لحيٍّ لعددنا اضلّنا الشجعانا

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموت جبانا

كلُّ مالم يكن من الصعب في الانفس ، سهل فيها ، اذا هو كانا

باب المراسلة والمناظرة

الطبيعة الميتافيزيقية
والعلوم التجريبية

ان بعض ما يعاب على العلوم الحديثة هو تغليب ما يعبر عنهُ بكلمة ال Experimentulisme اي النزعة التجريبية فكون العلوم الحديثة تخضع العقل الانساني للتجربة والحس قد يكون مقبولاً اذا كان الحس هو ارقى ما في الكائن البشري الذي يتميز بالادراك قبل تميزه بالحس

نحن لا ننكر التقدم العظيم الذي وصلت اليه العلوم الحديثة وما بلغتهُ العلوم التجريبية من ايغال في الكشف عن حقائق المظاهر الطبيعية وما جنتهُ البشرية من ثمار هذه العلوم غير اننا هنا نتكلم عن المعرفة من الوجهة النظرية البحتة فنقول ان الوصول الى معرفة حقائق الكون يكون منطقياً من نصيب المواهب الانسانية العليا وان ال Experimentalisme Scientifique وهي الصفة المميزة للعلوم الحديثة تقيم للمشاهدة الوزن الاول وتخضع الادراك البدهي للمشاهدة وربما كان هذا الامر وحده ممكناً في التحقيق العلمي المتداول غير انهُ ليس الطريق الصحيح لاستنباط الحقائق العلمية فما يعبر عنهُ بكلمة ال Intuitive Knowledge اي المعرفة البدهية لا يحظى بنصيب في الميدان العلمي وكل ما يصنع العلماء هو بناء نظريات خاصة بالاستناد الى مشاهدات حسية والحس كثيراً ما يخطىء بل ان لفظة الحس قد تكون مرادفة للخداع الادراكي والحقائق التي تأتي عن هذا الطريق حقائق نسبية محدودة وهي ان كانت نافعة حقاً الا انها لا تمت بصلة كبيرة للمعرفة الصائبة لماهية المظاهر الكونية لانها لا تدخل في حسابها القابليات الاولى للفرد الانساني وهي الوصول الى معرفة الحقائق العامة بطريقة مباشرة ولا يجب أن نترك مسألة المعرفة الادراكية لطبقات المتصوفة وحدها بل من اللازم ان يجعل لها نصيب في استنباط الحقائق العلمية او على الاقل اذا لم نفعل ذلك ان لا نسمي ما لدينا حقائق علمية مطلقة ولا أقول ان طرق العلم الحديث عقيمة ولكنني أعني انها ستجمل المعرفة وقد طغت عليها فكرة ال Pheuomenalisme التي تتلخص في تعليل الظواهر الكونية بظواهر أخرى وينتهي الامر بألاّ يجد العلماء أنفسهم على بينة من أمر اي ظاهرة طبيعية ولا على قدرة على معرفة طبيعية اي قوة او مادة بالنسبة لذاتها فالعلم التجريبي يعرف الطبيعة التفاعلية والتحليلية للعناصر ولا يعرف طبيعتها الميتافيزيقية التي هي العلة في الطبيعة التفاعلية والتحليلية (١)

خطأ العلم التجريبي سيتضح في عجزه الظاهر عن جمع شتات العلوم الانسانية في كلٍّ واحد

---

(١) مذكرات عن الطبيعة الميتافيزيقيا (خاصة)

هو المعرفة الحقة فالعلم او المعرفة كلٌّ روحي لا يجزأ ومبلغ المرء ومنهُ يقدر بوضوع المعرفة في ظهورها له فهي لا تقسم من حيث الكمية ولكن من حيث الظهور

والعلم الحقيقي على ما اعتقد هو الذي يعطي الـ Intuition مكانته التي يستحقها في استنباط الحقائق لان المعرفة الادراكية هي الطريقة المثالية للاتصال بالكون وحل معمياته وليست المعرفة الحسية وربما احتج البعض بان هذا غير عملي ولكنني اقول ان المعرفة لا يمكن ان تكون الاّ كذلك

نحن نقترح ايجاد علم جديد هو La Physique Metaphysique او الميتافيزيقا الطبيعية[1] الذي يمكن تعريفه بأنهُ العلم الذي يرجع الظواهر الطبيعية الى اسبابها فيما وراء الطبيعة ولا يعللها مظاهر طبيعية بأخرى كما يفعل العلم التجريبي . واسم آخر يمكن ان يطلق على الطبيعة الميتافيزيقية هو Science formulaire او علم الصيغ لاننا اذا مضينا في التحقيق العلمي بهذه الطريقة فنجد لكل تفاعل بين عنصرين صيغة خاصة هي الصيغة الميتافيزيقية فالعلم التجريبي عندما يرى تبخر الماء بسبب الحرارة يقول انهُ يحدث لانهُ كذلك فيعجز عن معرفة الطبيعة الميتافيزيقية للماء والنار وهو ان أفلح في معرفة الطبيعة التحليلية لكلاهما فانهُ يقف عند ذلك[2]

فال formula تشرح العلاقة بين عنصرين في تفاعلهما من الوجهة الميتافيزيقية والـ Inter formula تبحث في الصلة بين صيغة وأخرى والـ Conjunctio تبحث في صيغة واحدة في حالة تبديل أحد العناصر المشتركة فتفاعل الماء والحرارة ينتج عنهُ صيغة وتفاعل الاكسجين والهيدروجين ينتج عنه صيغة مخالفة والعلاقة بين الصيغتين هي الـ Inter formula. بينما تفاعل الماء والبرودة ينتج عنه الـ Conjunction بينهُ وبين تفاعليه مع الحرارة وهكذا[3]

وستجد أنّا نصل بالتحقيق الى معرفة السر الميتافيزيقي للعناصر والطبيعة الغير مادية للمادة فنعرف كنهها وهذا على ما أظن هو الطريقة الوحيدة للوقوف على أسرار الطبائع الكونية ومعرفة الماهية لذاتها لان العلم التجريبي يبحث عن الماهية التحليلية والتفاعلية ولا يعرف الماهية الذاتية للعناصر وما اسميه الكيمياء الخالقة سوف تكون إحدى نتائج التوسع في دراسة الطبيعة الميتافيزيقية[4]

هذه كلمة موجزة عما اعتقده طريقة علمية صائبة تكشف عن سر المادة والقوة[5] وهو ما اشتغل ببحثه منذ زمن وأراني على استعداد لبحث الموضوع مع من يهمهم هذا الامر ويسرني ان انشر صفحات من مذكراتي عن الطبيعة الميتافيزيقية والحركة الدائمة وسر التكوين المادي والميكانيكا غير المتوازنة وغيره مما ترون اشارة اليه في اسفل الصفحة علي حافظ

(١) الكلمة مكونة من جزئين — الطبيعة التي تبحث الظواهر المادية والميتافيزيقا تهتم بما وراء الطبيعة والميتافيزيقا الطبيعية علم مقارنة

(2) Inter—formulas & Nature of Elements.
(3) The metaphysical physics and non experimentalism (notes)
(4) Light on Creative Chemistry and Existence of Elements.
(5) Secrets of Force and Material Constitution.

باب الأخبار العلمية

القنادس كعامل جيولوجي

القندس حيوان من القوارض المائية موطنهُ الأنهار الشمالية من آسيا واميركا ويرى الفريق امين المعلوف باشا في معجمهِ «معجم الحيوان» ان القندس او الجارود يجب ان يستعملا مقابلاً للفظ Beaver الانكليزي وكلب الماء لـ otter

هذا الحيوان ثديي مائي قارض كالسنجاب صغير القد كالكلب طولهُ نحو قدمين ونصف قدم وارتفاعهُ اقل من قدم ولهُ ذنبٌ عريض صفيق طوله نحو قدم يستعمله للسباحة وعليط سدّهِ بالطين وتمليسه. ومن مزاياه ان اسنانهُ القواطع كالازاميل فيقطع بها سوق الاشجار ويبني ببعضها سداً في مجاري المياه لتكون فوق السدّ بركة يقيم فيها. ويحتفظ بالبعض الآخر مؤونة للشتاء لان اكثر طعامهِ من لحاء الاشجار

وقد روى الباحثان رويدمان وسكوغمايكر في العدد الاخير من مجلة العلم (٢ دسمبر ١٩٣٨) ان اوطا شاهد في الصيف الماضي سداً بنتـهُ القنادس فهدم السيل جانباً منهُ فاقبلت القنادس حالاً على اصلاحهِ ثم انتقلت الى مجرى النهر فوقهُ فبنت سداً آخر ثم شرعت في بناء ثالث لتقي بهِ الثاني من شرّ السيل. والحكومة الاميركية تعتمد الآن على عمل القنادس في بناء السدود حيث تشتدُّ الحاجة اليها لوقاية مناطق من الفيضان، فتنقل طوائف كبيرة منها من حيث تكثر الى حيث تندر، ويبدأ رجال الحكومة ببناء السدود في اماكن معينة من مجاري الانهر فتكمل القنادس بناءها. وقد وضع المستر ايكس وزير الداخلية تقريراً أثبت فيهِ ان عملاً قيمتهُ ستون جنيهاً تصنعهُ القنادس بنفقة لا تزيد على جنيه واحد

ومن أغرب ما يروى عن هذه السدود أن باحثاً يدعى ملز وصف سداً صنعتهُ القنادس في ولاية مونتانا فاذا طوله ٢١٤٠ قدماً (نحو سبعمائة ذراع). ولكن هذا نادر. أما المألوف فهو سدود يتفاوت طولها بين ٥٠ قدماً و٢٠٠ قدم. وقد كتب باحث يدعى شيراس Shiras ان الضفة اليسرى من بحيرة ايكو في جزيرة جراند الواقعة في بحيرة سوبيريور الاميركية أصلها سدّ قنادس طولهُ ١٥٠٠ قدم ويرجع الى ٤٠٠ سنة على الغالب. وطول السد الذي كوّن بحيرة يفر في حديقة يلوستون بأميركا طولهُ ٧٠٠ قدم

والغالب ان يكون علو السدّ خمس أقدام أو ستاً، ولكن منها ما يرتفع الى ما يزيد

على عشر أقدام . فالسدّ الطويل الذي وصفهُ كان علوه ١٤ قدماً وهناك سدّ وصفهُ مورغن فقال ان طولهُ ٣٥ قدماً وارتفاعه ١٢ قدماً

أما البحيرات التي تكون فوق هذه السدود فتختلف مساحة . فقد روى ورن ان سدًّا طوله ١٠٣ اقدام كوّن بحيرة مساحة سطحها نحو ٧٨ الف قدم مربعة . وان سدًّا طولهُ ١٦٥ قدماً كوَّن بطيحة مساحتها ٢٧٢ الف قدم مربعة . اما السدود الصغيرة فتكوّن بركاً من الماء تختلف مساحةً باختلاف طبيعة الارض والمجرى

ثم أن القنادس لا تكتفي ببناء سدّ واحد يعترض مجرى النهر ، وليس بالنادر أن تجد ستة سدود في ما طولهُ ميل من مجرى النهر . وقد عدّ هوك Houk ٤٦ سدًّا في ماطوله خمسة اميالٍ وثلاثة أرباع الميل من نهرٍ في كولورادو وكان متوسط المسافة بين كل اثنين منها ٦٦٠ قدماً . وكان عمق البركة المكونة وراء بعض هذه السدود خمس اقدام ونصف قدم

فحيوانات هذه بعض آثارها لا بدَّ ان تكون عاملاً ذا شأن في تغيير سطح الارض . فالماء الذي يجري في هذه الانهر يحمل دقائق من التراب ترسب الى القعر عندما يسدُّ النهر وتتكوّن بركة فوق السدّ . وما زالت القنادس تقطن هذه البقعة فانها تمضي في رفع السدّ كلما ارتفع مستوى قعر البحيرة برسوب الطمي عليهِ . فاذا هجرتها القنادس شقّ الماء مجرى لهُ ويترك ارضاً مرتفعة تصبح مرجاً ولذلك كثيراً ما تقع في اميركا حيث أُجري هذا البحث على مناطق تعرف بين الاهلين باسم مروج القنادس

جائزة نوبل الطبيعية ١٩٣٨

للعالم الايطالي أُريكو فرمي

منحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٨ للباحث الايطالي اريكو فرمي المختص بدراسة الذرة وتركيبها وأحد الاساتذة بمعهد الطبيعة في الجامعة الملكية برومًا

ولد فرمي في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ وحاز شهرة عالية في الطبيعة العملية والنظرية فكان اول باحث تنبأ بأن اطلاق النوترونات على العناصر يحدث تحويلاً فيها . فلما اكتشف الاستاذ كوري جوليو وزوجته النشاط الاشعاعي الصناعي أقبل الاستاذ فرمي على دراسة ستين عنصراً باطلاق النوترونات عليها فثبت لهُ ان اربعين عنصراً منها ظهرت فيهِ ظاهرة النشاط الاشعاعي . ثم انهُ كان أول من بيّن ان إبطاء سرعة النوترونات يساعد على اعتقالها عند اختراقها الذرَّة . وهذه الحقيقة من أهم ما يعتمد عليهِ في دراسة تحوُّل العناصر

أما في الطبيعة النظرية فقد اشتهر ببحث الاحصاءات الرياضية التي يعتمد عليها في التنبؤ بتركيب الذرة وتصرفها . وله في الطبيعة الرياضية نظرية خاصة بانحلال أشعة بيتا ليفسّر

بها التوفيق بين النوترينو (المحايد الصغير) وانطلاق أشعة بيتا (الالكترونات) من المواد المشعة ، ومع ان هذه النظرية بعيدة عن الصواب ، الا انها لا تزال الوحيدة بين النظريات المختلفة الخاصة بهذه المشكلة التي عليها مسحة من الاحتمال

واذ كان الاستاذ انريكو يطلق النوترونات على عنصر الاورانيوم تمكن من ان يجعل النوترون يلصق بنواة الاورانيوم او يندمج فيها فتكونت نواة ذرة اثقل من ذرة الاورانيوم فذاع حينئذٍ ان فرمي اكتشف العنصر الثالث والتسعين فشك بعضهم في ذلك ، ولكن البحث العلمي اثبت صحة قوله بل واثبت كذلك ان في الامكان توليد العنصرين ٩٤ و ٩٥ وهي عناصر صحيحة من الوجهة العلمية اي ان نوى ذراتها أثقل من نوى ذرات الاورانيوم — وهو أثقل العناصر كما لا يخفى — الا انها من الناحية العملية لا شأن كبير لها لان مدى حياة هذه العناصر قصير جداً

جائزة نوبل الكيماوية

وقد قرر معهد كارولين ان لا يمنح جائزة نوبل الكيماوية عن سنة ١٩٣٨

جائزة نوبل الادبية

منحت جائزة نوبل الادبية عن سنة ١٩٣٨ للكاتبة الاميركية المسز پرل بَك Pearl Buck ولدت پرل بَك سنة ١٨٩٢ وكان والداها مرسلين في داخلية الصين فقضت سني حداثتها فيها حيث كان من النادر الالتقاء بأحد من البيض . وطبعتها والدتها بحبّ الفن وتقديره ولا سيما الموسيقى . وكانت منذ صغرها تدوّن ما تراه وتسمعه وتشعر به فكانت امها تنقده وتدلها على مواطن الضعف والخطأ

وكان لنشأتها في داخل الصين أثر في نفسها لأنها تعلمت عن حياة الشعب الصيني ما قلما يتاح البيض فلما كانت في الخامسة عشرة من العمر طلبت العلم في مدرسة بشنغاي حيث التقت بطبقة من الصينيين والصينيات مختلفة عن الطبقة التي نشأت فيها في الداخل . ومع ذلك كانت لا تحسب نفسها مختلفة عن هذه الطبقة او تلك . وكان والدها كثيراً ما يروي لها حديث رحلاته فاتسعت دائرة معارفها الصينية

ثم طلبت العلم في احدى كليات اميركا حيث احسَّت غريبة عن زميلاتها من الاميركيات لتأثرها بالتقاليد الصينية وبعد تخرجها عادت الى الصين حيث بدأت تعاون والدتها في العناية بالمرضى وهناك تزوجت بمرسل اميركي وعاشت في منطقة اصابها الجوع وعصفت بها الثورة . وكان زوجها يدرّس في جامعة نانكين فدرَّست اللغة الانكليزية في غير جامعة صينية واحدة . ولكنها انتقلت من عهد قريب الى اميركا لتسكن فيها ، وقد طلقت زوجها المستر بك وتزوجت رئيس تحرير مجلة « آسيا »

نشرت روايتها الاولى في سنة ١٩٣٠ وكان عنوانها « ريح الشرق : ريح الغرب .. » فلم تفز

بعناية خاصة من النقاد والكتاب. وفي السنة التالية نشرت روايتها « الارض الطيبة » وكانت قد وضعتها سنة ١٩٢٧ فاحرزت نجاحاً باهراً وفي السنة الماضية صامت فلما رآه قراء المقتطف في مصر وغيرها من البلدان — ومنحت جائزة بولتزر وهي الجائزة التي تمنح لافضل رواية اميركية كل سنة واتبعتها برواية « الابناء » سنة ١٩٣٢ وبترجمة لرواية صينية عنوانها « جميع الناس اخوان ». ومن رواياتها ايضاً « الام » و« الملاك المكافح » و« المنفي »

ويعتقد النقاد الاميركيون انها منحت جائزة نوبل مكافأة لها على روايتها « الارض الطيبة » في المقام الاول، وهي دراسة في حياة الشعب الصيني تجمع بين الفهم الدقيق والعطف والقوة فنبهت الغرب الى حياة الامة الصينية

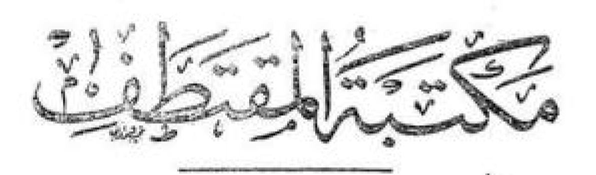
ولعل السويد ارادت بهذا المنح ان تعرب عن عطفها على الصين الديمقراطية المناثلة التي تصفها پرل بك في قصتها

زرع سرطان بشري

في عيون الارانب

عني قراء الصحف اليومية في الاسبوع الاخير من شهر نوفمبر الماضي باسبوع السرطان وما القي فيه من المحاضرات الطبية والعلمية في انواعه واصله واساليب علاجه. وفي مكان آخر من هذا الجزء جانب من فصل نفيس عن السرطان والمرأة للدكتور فيليب الاشقر. الا اننا اطلعنا والمقتطف ماثل للطبع على نبإ علمي خطير الشأن خاص باصل السرطان وسره، وهو ان الدكتور هاري جرين احد الاطباء الباحثين في معهد ركفلر الطبي بنيويورك تمكن من نقل قطعة من سرطان الثدي في المرأة وزرعه في عيون الارانب فنجح النقل والزرع. وغرضه من هذه التجربة على ما جاء في تصريح له « السعي الى معرفة طبيعة البروتين الذي في النمو السرطاني. فنحن نريد ان نعلم هل يبقى بروتين السرطان بعد نقله بشرياً او يتخذ خصائص الارانب فاذا استطعنا ان نحصن الارنب ضد النسيج البشري السوي بحيث يبقى السرطان المنقول الى الارنب آخذاً في النمو فنكون عندئذ قد خطونا خطوة كبيرة نحو فهم طبيعة السرطان ». وقد اوضح الدكتور جرين ان الغرض من هذه التجربة محاولة النفوذ الى سبب السرطان لا كشف طريقة لعلاجه

وليس الدكتور جرين باول من حاول زرع السرطان البشري في الحيوانات. ولكن تجارب من سبقه الى ذلك لم تفز بالتأييد العلمي اللازم. وقد تمكن في اثناء تجربته من نقل سرطان الثدي الى اثني عشر ارنباً فنما في سبعة منها. وقد مضى عليه ثمانون يوماً وهو يتدرج تدرجاً بطيئاً في نموه. وبعض هذه الاورام السرطانية قد بلغ حجمه في بعض الارانب خمسة اضعاف ما كان عليه عند نقله وزرعه



رائدان

كرنيليوس فانديك — جورج بوست — رسالتان باللغة الانكليزية في حياتهما واعمالهما
بقلم لطفي سعدي

وضع الاديب الباحث لطفي سعدي رسالتين باللغة الانكليزية اورد فيهما سيرة الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور جورج بوست. وقد نشرت الرسالة الاولى (فانديك) في عدد مايو ١٩٣٧ من مجلة ازيس (ISIS) التي اسسها العلامة الكبير الدكتور جورج سارطون ووقفها على البحث في تاريخ العلوم باعتبارها لساناً لجمعية تاريخ العلم والاكاديمية الدولية لتاريخ العلم. اما الرسالة الثانية (بوست) فقد نشرت في عدد مايو ١٩٣٨ من المجلة نفسها

يعلم قراء المقتطف مما نشر فيه أن الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور جورج بوست من اركان النهضة العلمية الحديثة في البلاد السورية. وهما مرسلان اميركيان جاءا تلك البلاد بغية التعليم والتثقيف ومؤاساة المرضى والعناية بهم. وكانا كذلك من الاركان التي قامت عليها جامعة بيروت الاميركية. وفضلهما على المقتطف — ولاسيما فضل الاول — لا يمكن المغالاة في تقديره فقد كان الدكتور فانديك استاذاً لمنشئيه، وهو اول من شجعهما على اصداره واختار لها اسمهُ وكتب فصلاً — نشر في اول عددٍ صدر منهُ — ، تلته فصول

تعلم فانديك وبوست اللغة العربية فاجاداها وخلفا فيها تراثاً علميًّا في الطبقة الاولى قلما جاراهما فيه احد بعدهما من الاجانب. فوضع الاول مؤلفات جليلة القدر في الهندسة والهيئة والجبر والمثلثات والتمام والتفاضل والكيمياء وسلسلة من الكتب الصغيرة في بسائط العلوم لا تزال مشهورة باسم النقش في الحجر علاوة على اشتراكه في ترجمة العهد الجديد من الكتاب المقدس

اما الدكتور بوست فقد اشتغل بالتاريخ الطبيعي خاصة فوضع كتاب نظام الحلقات في سلسلة ذوات الفقرات، وآخر في علم النبات وشرح بنيته ووظائفه ووصف الفصائل الطبيعية. ولا ريب في ان اهم آثاره في هذه الناحية اخراجهُ ذلك المجلد الضخم الواسع العلم الدقيق التحري في نبات سورية وفلسطين ومصر. والف كذلك كتاباً في الجراحة وانشأ مجلة الطبيب وحررها ووضع قاموساً للكتاب المقدس (ترجمة وتأليفاً) لا يزال على ما نعلم المرجع في هذا الباب

وقد الف هذان العالمان الجليلان الكتب المتقدم ذكرها وهما قائمان باعباء التدريس في الكلية الطبية بجامعة بيروت الاميركية (وكانت تعرف باسم الكلية السورية الانجيلية) فاحياء ذكرهما وتعيين مقامهما في نهضة الشرق العلمية خدمة اسداها المؤلف الى مورثة هذه الاعمال العلمية المجيدة

وزارة الدعاية

للدكتور احمد فريد رفاعي — مدير مصلحة الصحافة والنشر سابقاً —
صفحاته ٢١١ بالقطع الكبير — مطبوع على ورق صقيل فاخر

هذا سفر في حاجة مصر الى وزارة دعاية وضعهُ خبير بشؤونها ورفعهُ الى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

والدكتور رفاعي عالج شؤون الصحافة والنشر صحفيًّا بارعاً ومؤلفاً قديراً وموظفاً ممتازاً وأتيح لهُ خلال القيام بأعماله الرسمية زيارة اوربا لحضور مؤتمر الصحافة الدولي المنعقد في مدينة كولونيا فدرس في المؤتمر نفسهِ وفي مختلف البلدان التي زارها النظم المتبعة فيها حيال هذا الموضوع الخطير في حياة الشعوب في هذا العصر . وقد أودع خلاصة اختباره ودرسهِ في هذا الكتاب الفخم ، وهو في الواقع ليس الاَّ منهجاً للنهوض بحياة البلاد الثقافية في الصحافة والتأليف والفنون ، وعنده ان خير السبل الى بث الحياة في نواحي هذه الاعمال الثقافية هو تركيزها في وزارة مختصة بها

يرى الدكتور الرفاعي «ان مصر المحبوبة وقد كتب لها في مستهل عهد « فاروقها » السعيد استكمال استقلال البلاد ، فتمت — ولله الحمد على متواصل نعمائه وجزيل فواضله — مفاوضاتها بمعاهدة الشرف والاستقلال — والغيت الامتيازات وقيودها وتبوأت البلاد مكانتها اللائقة بكرامتها بين مصاف الدول الحرة المستقلة في عصبة الامم ، وأخذت النهضة الاصلاحية تتمشى في مختلف مرافقها الحيوية .... » غدت في حاجة الى وزارة دعاية من الناحية الزراعية تلفت الانظار الى فواكهها وخضراواتها ومختلف منتجاتها ، واستكشاف اسواق عالمية لها ، والعمل على ترقية مراتب زراعتها ... الخ

ومن الناحية التاريخية لان « مصر القديمة ذات الآثار النفيسة والتاريخ المجيد والزعامة العلمية والحضارة القديمة » يجب ان تكون قبلة لافواج السياح من شتى بلدان الغرب والشرق . وكذلك من الناحية الاسلامية والعربية والاصلاحية وغيرها

والكتاب قسمان . أما القسم الاول فبيان ما تعملهُ مصلحة الصحافة والنشر والثقافة العامة ، وما يرجوه لها من توسيع نطاق عملها في ما يخصُّ الصحافة وتشجيع التأليف واحياء الادب العربي القديم ونقل المؤلفات الغربية البليغة . وأما القسم الثاني فبيان ما شاهده المؤلف خلال سياحتهِ من النظم المتبعة في ألمانيا وايطاليا خاصة في مثل هذه الاحوال

ويقترح الدكتور رفاعي في الصفحة ٢٧ ان يضمّ الى الوزارة المقترحة المطبعة الاميرية بما في ذلك الوقائع الرسمية — على ان تصدرها الوزارة فتعيدها الى ما كانت عليهِ من المقام في

عهد المغفور له الشيخ محمد عبده — وكذلك ضمّ دار الكتب المصرية وادارة الملاهي ومصلحة السياحة وضم الفرقة الحكومية الى رقابة التمثيل وانشاء فرع للدعاية بواسطة السينما والمسرح على غرار النظام المتبع في ايطاليا وهو نظام « لوتشي » وضمهُ الى رقابة السينما . . .

ومما يقترحهُ أن يعين ملحقون صحفيون مصريون في السفارات والمفوضيات المصرية في الخارج ، فتكون مهمتهم من ناحية موافاة الوزارة المصرية بما يجد من الشؤون وما يكتب في الصحف الاجنبية عن شؤون مصر المختلفة ، ومن ناحية أخرى تصحيح ما يكتب في الصحف الاجنبية عن مصر وامدادهم ادارات تحريرها « بالدعايات الموفقة عن مصر ومصالحها ونشاطها وحيويتها واستجلاب الرضاء لها وعنها واستدعاء الزوار اليها وتجنيد المدافعين عن بيضتها الشادين بمجدها المتاجرين مع بيوتاتها المؤيدين لمقامها في الحياة والرقي .... »

وحبذا الحال لو عني الدكتور رفاعي بنشر موجز هذا السفر النفيس في كتيب حتى يسهل تداوله واطلاع الشعب على مقترحاته بثًّا للفكرة التي ينطوي عليها . وليس هناك شكٌّ في ان عناية الحكومة المصرية بالحياة الثقافية العامة ، لم تسر على نظام واحد ، بل كانت تتراوح بين النشاط والفتور ، وفقاً للاحوال السياسية وشخصية القائمين في مقاعد الحكم . فاذا استطاعت الدولة ان تنظم هذه العلاقة ، بحيث تجري على قواعد معينة ثابتة من شأنها التشجيع على الانتاج الادبي والعلمي والفني بغير ان يكون ذلك التشجيع مقيداً بقيود سياسية مرهقة فان مصر تجني من ذلك خيراً كثيراً

أناشيد عسكرية لمحمود ابو الوفا

امامنا مجموعة من الاناشيد العسكرية نظمها هذا الشاعر بوحي فطرته وليس له ماينسج على منواله سوى ما هيأت له نفسهُ الوثابة وعاهة شعر بانها تقعده عن ان يطير مع الطير ويشارك سواه مشاركةً عملية في هذه الخدمة العسكرية وهذه النهضة القومية فهو مجهود بما في ضميره ليضطلع بقسطه من هذا الفرض القومي

والاناشيد العسكرية في العربية قليلة في الشعر « الرسمي » (اذا استثنينا اشعار الحماسة في العصور القديمة) ولكنها شائعة في المواليا واشباهه من الغناء العربي في مختلف بلدانه ففي هذه الاناشيد القومية مايقطر حماسة وحمية ونشاطاً وشوقاً الى بذل الروح فداء للاهل والوطن ولو انصفنا لاحللنا جانباً منها محل الغناء المخنث الذي ابتلينا به في هذا العصر وهو غناء « الليل » « والعين » وسواها

فاناشيد محمود ابو الوفا تسد ناحية من نواحي هذا الفراغ وتصلح في رأي الذين طالعوها

لان تنشد في المدارس والكليات والاجتماعات الشعبية وفي المناسبات التي يحتاج المجتمعون فيها الى موسيقى قومية وأناشيد تؤجج نار الحماسة في صدورهم او تطابق مايخالج نفوسهم من شعور يسعى الجميع الى إنمائه وتعزيزه في نفوس النشء فيستقبل العصر الجديد بالتزاماته ومظاهره ومزاياه بما يجب أن يستقبل به

وما برحت الموسيقى ممثلة في الشعر والغناء والالحان من أفعل العوامل في تحريك العواطف وتوجيه القوي ورفع مستوى الخلق حتى صارت جزءاً من مراسم العبادات كما هو مشهود في في ترتيل القرآن والترانيم الشائعة في بيع المسيحيين وكنائس اليهود ومعابد البراهمة والبوذيين لهذا نرحب كل ترحيب بهذه الاناشيد معتقدين بأنها من باكورة اتجاه شديد الفائدة في حياة الامة المصرية

ولسنا مبالغين اذا قلنا ان ترويج هذه الاغاني القومية يجب ان يكون في طليعة الوسائل التي يتوسل بها رجال التربية والتعليم ورجال الجيش معاً

واذا كنا نشاهد الآن في دوائر وزارتي المعارف والحربية اهتماماً خاصاً بالتربية الرياضية والعسكرية فما أحوج هذا الاهتمام الى مثل هذه الاناشيد لتكون نفوس الشباب مهيأة لما تدعى اليه وحتى يكون اقدامها على التمرن العسكري ونحوه بدافع نفسي قوي فلا تشعر فيه بانه نوع من التكليف لان كل تكليف ممقوت

---

١ — نشوء اللغة العربية
ونموها واكتهالها

بقلم الاب أنستاس ماري الكرملي — طبع بالمطبعة العصرية بمصر

وهذا كتاب آخر من كتب عام ١٩٣٨ يبحث في اللغة العربية، ألفه حضرة العلامة الفاضل الاب انستاس ماري الكرملي أحد اعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية . وحضرة الاب غني عن التعريف لجهاده الطويل في حياته المباركة في سبيل لغة الضاد جهاد مقرون دائماً بالتوفيق

وكتاب اليوم هو رأي للأب المحترم تفتحت له وجوه البحث فيه منذ بدأ بدراسة اللاتينية في التاسع عشرة ثم بدراسة اللاتينية واليونانية في العشرين من عمره . لاحظ ان كل كلمة ذات هجاء او هجاءين في الرومية اليونانية ولم تكن من أصل منحوت ، بل من وضع أصيل ، اوتوقيفي فلا بد من ان يكون لها مقابل في العربية

ولما اقتنع الاب بفكرته أخذ يدعو لها في الصحف والوضائع والمجلات ، ويكتب الفصول الطوال والقصار مدعماً رأيه بالامثلة الكثيرة — فهو يقول ان كلمة Deus الرومانية لفظ

الجلالة أصلها الحقيقي Deu . وهو يوافق كلمة « ضوء » العربية لفظاً ومعنى . فان أمماً كثيرة عبدت الضوء وجعلته الهاً . ويقول ان كلمة « حداء » العربية أصل لكلمة Hode اليونانية بالمعنى نفسه. وكلمة « تنوّس » اليونانية بمعنى الفصيح الذي قصمه المرض فلا يشب ، أصلها كلمة « التنّ » العربية . وقد أخذ المؤلف يعد كثيراً من الكلمات اليونانية والرومانية ويرجعها الى أصل عربي

ونحن نرى ان مذهب العلامة الجليل على غرابته وبنائهِ على الافتراض لا على التحقيق العلمي لا يخلو من فائدة ومتعة . واذا كانت لجنة التحرير في المجمع اللغوي لم تقر حضرة الاب على آرائه فان ذلك لم يثنه عن الدعوة لها بنشرها في الكتاب الذي نتكلم عنه اليوم — وهي محاولة تدل على اقتناعه بما ذهب اليه . وفي الكتاب فصول كثيرة عن نشوء لغة قحطان . وتناظر العربية واليونانية. وتناظر الفارسية واللغات المندثرة القديمة للعربية ، والمعرب او الدخيل، وشروط الاخذ من لغة ، وغيرها وبعض هذه الفصول معروف لدى الذين يعرفون شيئاً من فقه اللغة العربية . وبعضها — وهو الخاص بتناظر العربية مع غيرها — يرجع الى اجتهاد الاب الفاضل

أما الفصل عن الحرب بين الكلم العربية والغريبة والفصل الذي يليه عن الدخيل وأيه يُقتل وأيه يستحيا ، فلنا فيه كلمة صغيرة . فان الاب الفاضل يفرض على اللغة العربية بعض الدخيل ككلمة « بنك » و « تَلَفون » بفتحتين . ويستقبح — في ذوقه هنا — كلمة التلفزة للرؤية عن بعد وأصلها Television ويفضل عليها كلمة المباصرة ، وكلمة تلغراف مع انهما جاريتان على الوزن العربي فالاولى على وزن فَعْلَلَة والثانية على وزن فِعِلاَّل

ولا ادري لماذا يُحل الاب شيئاً ويحرم شيئاً آخر أحل منه ؟ على ان المسألة مسألة ذوق واستعمال . وقد سارت الآن كلمة التلفزة والفعل تلفز وخفت على السمع فلا معنى لتحريمها

وما دامت الكلمة عن العربية فانا نسأل الاب الفاضل — مع الاحترام المظيم — لماذا يدخل اللام على جواب لو المنفي بما والاصح والافصح تجريده منها ؟ هل يذهب حضرته مذهب القائل — وهو ضعيف — « ولو نعطى الخيار لما افترقنا »

ولماذا يستعمل عدة بمعنى كثيرة والمعروف ان عدة معناها عدد قال تعالى « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » . ولماذا يقول (أن نفس الكلمة اليونانية) ولا يقول (أن الكلمة اليونانية نفسها) حتى يتم التوكيد المعنوي على اصله ؟

لقد تعوّد حضرة الاب سماع النقد حتى مرد عليه كما يقول في اول كتابهِ ونحن نرجو ان تثير المناقشة حول هذا الكتاب ما يجلو الحقيقة فان آراء مؤلفه بنيت على الافتراض اكثر مما بنيت على اليقين . . . ولعل هذا هو السر في عدم موافقة المستشرقين عليها

[المقتطف] يرى الاب انستاس ان لفظ « تلفزة » تعريباً للتلفزيون الاعجمية وضعهُ من

«من فسد ذوقه العربي» وسيادته يفضل لفظ المباصرة استناداً الى الجوهري في صحاحه قال : « باصرتهُ اذا اشرفت تنظر اليه من بعيد » . ولما كان المقتطف اول من استعمل « التلفزة » فيجدر بنا ان نقول أن التعريب جرى عليه العرب في القرون الاولى فقالوا قاطغورياس ومالنخوليا وايساغوجي وارثماطيقا والاسطرلاب والاقرباذين وغيرها . وغني عن البيان أن هذه الالفاظ أثقل وقعاً على اللسان العربي من « تلفزة » الجارية على الاوزان العربية اسماً وفعلاً ومصدراً مع عدم تنافر حروفها . اما المباصرة فقد جاء في اللسان . باصره نظارمهُ الى شيء أيهما يبصره قبل صاحبه . واورد ابن منظور ايضاً قول الجوهري الذي اورده الاب المحترم . ومن السهل ان نقول « المباصرة » تقابل « التلفزة » ولكن هل للاب المحترم ان يستعمل هذا اللفظ او ما يشتقّ منهُ للدلالة على عمل رجل ينقل مشهد وصول جلالة الملك الى قصر عابدين مثلاً ، بالتلفاز المرسل فيُرى المشهد في التلافيز المستقبلة في دائرة واسعة . ويقول الاب أن الفيزياء « مسخ شنيع » لعلم الطبيعيات Physics فما قوله في الكيمياء ؟ ويقول ان الفسيولوجية «علم مظاهر الحياة » والذي نعلمهُ ان تعريف هذا العلم في كتب العلماء هو علم وظائف الاعضاء . راجع مادة Physiology في معجم دورلند الطبي

ويقول ان الفونوغراف آلة تلقط الصوت وتلفظهُ فهي « اللاقطة » . ولكن الآلة اللاسلكية التي تلتقط الامواج اللاسلكية وتحولها أصواتاً « لاقطة » أيضاً ولكنها ليست فونغرافاً. والآلة اللاقطة في « التلفزة » تلقط الامواج اللاسلكية وتحولها نقطاً من الضوء تجتمع صورة واضحة. فهل نستعمل لفظ لاقطة لجميع هذه الاجهزة المختلفة ؟ وماذا نفعل بلاقطة المثل العربي : « لكل ساقطة لاقطة » !

٢ — مقدمة لدرس لغة العرب

تأليف عبد الله العلايلي — عدد صفحاته ٢٥٦ طبع بالمطبعة العصرية

الرغبة في اصلاح اللغة العربية وتيسير قواعدها وجعلها موافقة لمقتضيات العصر الحاضر هي رغبة أخذت من اللغويين والمصلحين محلها من العناية . ومتى انعقدت النية على الاصلاح واتفقت الآراء على التيسير فان الطريق الى تنفيذ هذه النية — طال أم قصر — موصل الى نتيجة يرضى لها ابناء العروبة

والكلام في اصلاح اللغة العربية يشمل نواحي كثيرة : يشمل الخط العربي والاستغناء عن الشكل بحروف تقوم مقامه كما في اللغات الاوربية . ويشمل قواعد الاملاء نفسها والاتفاق على توحيدها . ويشمل تعريب الالفاظ الاعجمية او ادخالها في اللغة العربية مع ملاحظة جعلها ملائمة للاوزان العربية . ويشمل تيسير قواعد النحو والصرف تيسيراً يسهل دراسة اللغة ويزيل

الصعوبة القائمة الآن في سبيل تدريسها . ويشمل تدريس علمي المعاني والبيان على طريقة يتبين بها جمال الاسلوب العربي لاعلى طريقة ميكانيكية يسقم معها الاسلوب ويفسد بها الذوق الادبي

وكتاب الاستاذ عبد الله العلايلي يعد محاولة في سبيل الاصلاح اللغوي . وموضوعات الكتاب تدل على احاطة مؤلفه بأطراف الموضوع احاطة واسعة . ولا شك ان حضرة المؤلف الفاضل قد قرأ كثيراً من كتب اللغة والنحو . ولمس كثيراً من الصعوبة البادية فيها . ولذا كانت آراؤه آراء الخبير العارف والمطلع الواقف

ومؤلف هذا الكتاب من أنصار مذهب التوسع والسماحة في اللغة . يدل على ذلك المقدمة التي كتبها حضرة الاستاذ اسماعيل مظهر . ويدل على ذلك أيضاً الروح التي تنساب في خلال الكتاب . ولكنني أخشى ان تفضي كثرة التوسع في اللغة الى فوضى في استعمالها وعدم احترام لقواعدها . وأخشى ان تكون الاخطاء النحوية في هذا الكتاب نتيجة لهذا التوسع ! وأحسن الظن بالمؤلف الفاضل وأقول لعل هذه الاخطاء مطبعية .. ولو لم يشر اليها في ذيل الكتاب ...

وفي الكتاب فصل عن تخصيص الموازين في العربية . ولعله احق فصول الكتاب بأن نقف عنده . فالمؤلف الفاضل — كما قلنا — من انصار التوسع في اللغة . إنهُ يميل الى الاشتقاق على اوزان وان كانت عربية الاَّ انها ثقيلة النطق ثقيلة على السمع . ويكفي للدلالة على ثقلها ونبوها ان كثيراً من هذه الموازين لم يحظ بأكثر من بضع كلمات في العربية

خذ مثلاً وزن «فعنلل» . فأشهر الكلمات الواردة منه غضنفر وسجنجل (المرآة) . وهذه الثانية لا تستعمل . ولن يكتب لها الاستعمال والبقاء في اللغة . ولولا ورودها في معلقة امرىء القيس ما سمع لها احد . ويخيل اليَّ ان الواضعين الاولين لهذه الاوزان الغريبة في اللغة العربية قصدوا منها الى التوسع والاثراء اللغوي . كما يقصد حضرة الاستاذ الفاضل مؤلف كتاب اليوم . الاَّ انهم خضعوا في النهاية لاذواق الناس . ولم يُخضعوا ذوق الناس لاشتقاقاتهم الغريبة .... والاَّ فما الحكمة في ان تموت مئات كثيرة من اوزان هذه الموازين ويتناساها المتكلم العربي ويودعها غير آسف على فراقها ؟ ؟

الحق ان بعض الموازين التي يرى المؤلف صوغ كلمات جديدة على مثالها مألوف مقبول . وأنا ابشره ان مثل هذه الموازين لو وجدت من يدعو لها لكانت ثروة تنسب الى يده . والحق أيضاً ان بعض هذه الموازين غير مألوف وغير مقبول في السمع ، ولعلي أجد كثيرين يوافقونني على ان كلمات سخطخات، صِوَرْنَي (ان يتصور بكل صورة أرادها) ، حِرِكّان (للبالغ الحركة) وعُجهّاة (المتكبر) ، اجْنَنْدَب (للمعدن المغنط) لا تخلو في النطق ولا السمع

عني المؤلف بمسألة الخط العربي ومسألة الشكل بالحروف . ومن المصادفات السعيدة ان

يكون من قرارات مجمع فؤاد الاول للغة العربية في دورته الخامسة قرار بتأليف لجنة « مهمتها وضع طريقة لكتابة الكلمات العربية بدون شكل بحيث يكون النطق بها صحيحاً خالياً من اللحن وتحديد مهمتها على ألاّ تخرج في ابتكارها على الاصول العامة في اوضاع كتابة العربية »

وطريقة المؤلف ان يؤلف الخط الجديد من خطوط اربعة : الثلث للحروف المضمومة والنسخ للمفتوحة . وخط الرقعة للساكنة والفارسي للمكسورة ... ومعنى ذلك أن كلمة «منزل» مثلاً تكتب بأربعة انواع من الخط في آن واحد !! ولا يخفى ما في ذلك ايضاً من الصعوبة التي أحسها حضرة المؤلف ثم اعتذر لها بالتعبيد مع المرانة

وأنا لا أحيل الاستاذ على شيء اكثر من ذوقه السليم وأسأله ان يلقي نظرة اخرى على النموذج الذي وضعهُ في صفحة ٣٨ ليرى انعدام التناسق والجمال الخطي فيهِ ...

وللمؤلف الفاضل اقتراح في سبيل توحيد الثقافة العربية ووجوب اشتراكها في امور ثلاثة اللغة والقانون والثقافة العامة . والغاية من هذا الاقتراح سامية نبيلة . ولكن قد يكون تحقيقها حلماً . فليست الصعوبة كما اعترض عليه بعضهم — في انشاء مركز لهذه المؤسسات فحسب ولكن الصعوبة في المال وفي فقدان الاستقلال وفي اختلاف حالات التقاضي باختلاف البلدان العربية

اما المعجم الجديد الذي ينوي المؤلف الفاضل اخراجه ، وأتى بنماذج منهُ في ذيل كتابه فهو خطوة اخرى من خطوات الاصلاح الذي يفيض بهِ قلبه واذا جاز ان يكون لنا رأي فيهِ — كما هي الغاية من عرض بعض نماذجه — فاننا نشير بأن يكون مصوَّراً . وبذلك يخرج المؤلف ويخرجنا جميعاً من مأزق يعرفهُ الذين يكشفون عن المعاني في المعاجم العربية . وتضيع هذه العبارة « حيوان معروف — أو نبات معروف » ويشهد الله أنهما مجهولان حتى لواضع المعجم

وهناك مسألة أخرى وهي الاسم والصفة فقد خلط المؤلف بينهما خلطاً نرى من الخير أن نشير اليهِ قبل ان يمضي حضرته في انفاذ المعجم فهو يقول أن (الأَبدوان) صفة وهو اسم . يقول (الابتوة) صفة وهي اسم لأنها ثؤلولة الحروق . ويقول انَّ (المثبت) بكسر الميم صفة وهو اسم ايضاً لأنهُ الحديدة لاذكاء النار . واذا كان حضرته يقول في نموذج معجمه ان « المثبر » اسم وهو آلة حفر الآبار فما باله يقول ان « المثبت » صفة مع أنها آلة اذكاء النار ؟؟

في النماذج التي عرضها حضرته كثير من هذا . وهو بلا شك سيراجع عمله فيها قبل انجازها . وأرجو ألاَّ يحمل رأينا في كتابهِ الاَّ على حسن الظن ، وخلوص النية . فنيته في سبيل العربية نيتنا . وغايته غايتنا . وما دمنا قد اجتمعنا في النية واتحدنا في الغاية ، فالطريق على اختلافها لاَمَّة . والجوادُّ جامعة . والله يوفقه ويوفق كل مصلح

٣ — مروج الذهب ومعادن الجوهر

للمؤرخ العربي الكبير ابي الحسن بن علي المسعودي
طبع في دار الرجاء للطبع والنشر بالقاهرة

تاريخ المسعودي من التواريخ المعتمد عليها في الدوائر التاريخية عند المسلمين وغيرهم ، وقد استحق مؤلفه بجدارة لقب امام المؤرخين كما ذكر ذلك صاحب تاريخ ابن خلدون . واطلق عليه بعضهم لقب « هيرودوت العرب » وهو خليق بذلك كله . فانهُ — على غير غرار بعض المؤرخين والرحالين — يميل كثيراً الى التحقيق العلمي ولا يقبل مايسمعهُ على علاته وانما يناقشهُ مناقشة العالم المفكر فيقبله أو يرفضهُ . ومما يؤيد ذلك الفصل الممتع الذي كتبهُ عن اخبار انتقال البحار واخبار الانهار . فهو فصل يعد مقدمة لآراء الجغرافيين المعاصرين أمثال ددلي ستامب ولايك في المحيطات والقارات

وقد سخر المسعودي في هذا الفصل من الجاحظ لزعمه أن نهر السند يأخذ مياهه من النيل ورماه بأنهُ حاطب ليل . وذكر منابع السند ومنابع النيل والاقاليم التي يمران فيها ووصف جنادل النيل وبحيرات الدلتا

والبروفسور نيكلسون من المعجبين كثيراً بالمسعودي وكتابهِ وقد خصهُ بأكثر من موضع في كتابه المشهور (تاريخ الادب العربي) . ويقول فيهِ [1] « كل ما كتبهُ المسعودي ولو أنهُ تعوزه وحدة الجمال التي تميز كتابات مؤرخي اليونان الا انهُ يرينا روح التحقيق واتساع العقل والميل الى تسجيل الحقائق من غير هوى ووصف العجائب التي رآها او سمع بها والتجارب الناضجة ونظرته الواسعة الى الحاضر والماضي »

وقد اطلعني المستشرق الفاضل المسيو ب. ه ستريكو الهولندي على كتاب الاستاذ Gibb في الادب العربي وفيه وصف لمروج الذهب (بانهُ ليس في اللغة العربية أمتع من هذا الكتاب)

والطبعة التي بين ايدينا الآن لهذا الكتاب النفيس أشرف عليها بالتصحيح والضبط والتعليق حضرة الاستاذ محيي الدين عبد الحميد المدرس بالازهر . وهو عالم فاضل عرف بنشاطه في عالم النشر والتأليف

ولم أطلع على غير هذه الطبعة التي اتكلم عليها اليوم حتى يمكن المقارنة بينها وبين ما طبع قبل ذلك . ولكني سمعت من المسيو ب. ستريكو ثناء عظيماً على طبعة المستشرق باربيه دي مينار في باريس سنة ١٨٧٢ .فعسى ان تلقى هذه الطبعة الجديدة ما تستحقه من عناية الباحثين والقراء

محمد عبد الغني حسن

(١) تاريخ الادب العربي لنيكلسون ص ٣٥٣ طبعة ثالثة

اعترافات فتى العصر — لألفريد دي موسيه

هكذا تكلم زرادشت — لفريدريك نيتشه

ظاهرة جديدة في اتجاهنا الادبيّ خليقة بالتسجيل لدلالتها على يقظة النفس وشعورها بالحاجة الماسة الى النقل عن الغرب والنهل من ينابيع آدابه المتفجرة وعلومه الفياضة ، وهذه الظاهرة التي نسجلها بفرح واطمئنان هي كطلائع الربيع ، زهرات جميلة تفتقت براعيمها تا برزت بعض وجوه من جمال أنوارها في الموسم السعيد الذي يحق ان نسميهُ « موسم الترجمة »

أمامي عشرة كتب في الادب ، والفلسفة . وعلم النفس ، وفن الرواية ترجمها ادباء أفاضل عن اللغات الاجنبية لاعاظم أعلام الفكر من معاصرين وخالدين . قرأت بعضها ، وإذ كنت أتصفح البعض الآخر ، حضرني خاطر فقلت : اليس واجب الناقد ان يقف طويلاً حيال هذه الكتب المترجمة يأخذ مترجميها بالتسط ، يحاسبهم بالدقة والضبط ، لا يتهاونون إلاَّ فيما لا حيلة لهُ الاَّ فيهِ ؟ وهل يحول بعد صيت المؤلف والمترجم دون مناقشتهما وقد ساهما في زيادة ثروة المكتبة العربية ؟ وهل اذا انتصب شيطان الشك وقامت قيامة الظنون فلا ادفعها او أردها الاَّ بنهوض الدليل على صدق الترجمة وصحتها وهي الاصل في عمل الترجمة ؟ هذا ما سألتزمه مع صديقي الفاضل الاستاذ فلكس فارس مترجم « اعترافات فتى العصر » لالفريد دي موسيه و« هكذا تكلم زرادشت » لفريدريك نيتشه

لقد وقفت من قبل مع الاستاذ فارس حين ترجم قصيدة « رولا »[1] لموسيه ، ولقد وقفت طويلاً عند هذين الكتابين اراجع الاصل الفرنسي واقارنهُ بالترجمة العربية نظير ما فعلت من قبل ، فتبيّن لي ان مترجم « رولا » الصادق ، الذي استطاع ان يتداخل روح الشاعر ويلبس ذاتيته ، ويسير معهُ على نفس واحد في مراحل القصيدة الكبيرة كلها ، لم يؤاته التوفيق كلهُ في هذه المرة ، ولم يسعفهُ الاستعداد النفساني ، فاختفى المؤلف وبرز المترجم

تساءلت عن بواعث هذا الاضطراب ، فبدا لي ما يبرر عمل الاستاذ فارس في ترجمة نيتشه ، وما يضاعف تبعتهُ في ترجمة موسيه . لقد انساق صاحبنا ، ولا أدري كيف تمَّ ذلك ، الى ترجمة « هكذا تكلم زرادشت » دون الرجوع الى كتب نيتشه الذي يعدها كبار النقاد كمفاتيح لابواب المسالك المؤدية الى كتاب زرادشت ، فاختزل الطريق بتخطي الحواجز ألفاه وجهاً لوجه أمام نيتشه الشاعر المجنح الرمزي العويص ، الفيلسوف العميق المعقد المتمرد والثائر الذي « لم يكن مفكراً منطقياً وانما كان مفكراً يرسل الكلمات مجنحة والحكم الجامعة في أسلوب قوي حار تشرق في جوانبه لمعات العبقرية واضواء الالهام » فأخذ يماشي نيتشه الجبار العملاق وآثار الاعياء

(١) المقتطف شهر مايو ١٩٣٨

بادية في خطواته . واكبر الظن انهُ لو تيسر للاستاذ فارس قراءة بعض مؤلفات نيتشه «كفجر الاصنام ، والمسيح الدجال ، وماوراء الخير والشر، ومشيئة القدرة ، والمسافر وظله ، وانسان كثير الانسانية » لاستطاع بسهولة مماشاة نيتشه الجبار المملاق جنباً الى جنب بعض المرحلة لا كلها إذ يتعذر انسجام انسان منكر، ملحد، خالق مع من تكون خواصه النفسية والثقافية عكس ذلك

أما ما لا يمكن تسويغهُ ، فهو تهاونه في ترجمة «اعترافات فتى العصر» تهاوناً لا يرضاه مترجم قصيدة « رولا » الخالدة ، وليس لناقد مهما تكن صلة الود وثيقة العرى بينه وبين صديقه المترجم ان يصيخ بسمعه الى الاعتذار (بالوقت) لانه كان يترجم الفصل بنصف ساعة تلبية لداعي النشر ، وأحسب ان الاستاذ فارس سيغير ويبدل جملاً برمتها من كتاب الاعترافات متى تيسر له طبعه طبعة ثانية وعسى ان يتاح له ذلك

بقي لي ان اقول انهُ طاب لصديقنا الاستاذ فارس ان يمهد للكتابين بما لا نقره على بعض ما جاء فيهما ، فحالة جيلنا الحاضر بناشئته الجديدة ليست في مثل ما كانت عليه الناشئة الفرنسية قبل مائة عام في حيرة وألم ، وان جيلنا لم يلابسهُ روح الالحاد واليأس والشكوك كذلك الروح الذي بثهُ فولتير ، وجيته ، وبيرون في القرن الماضي وما قبله

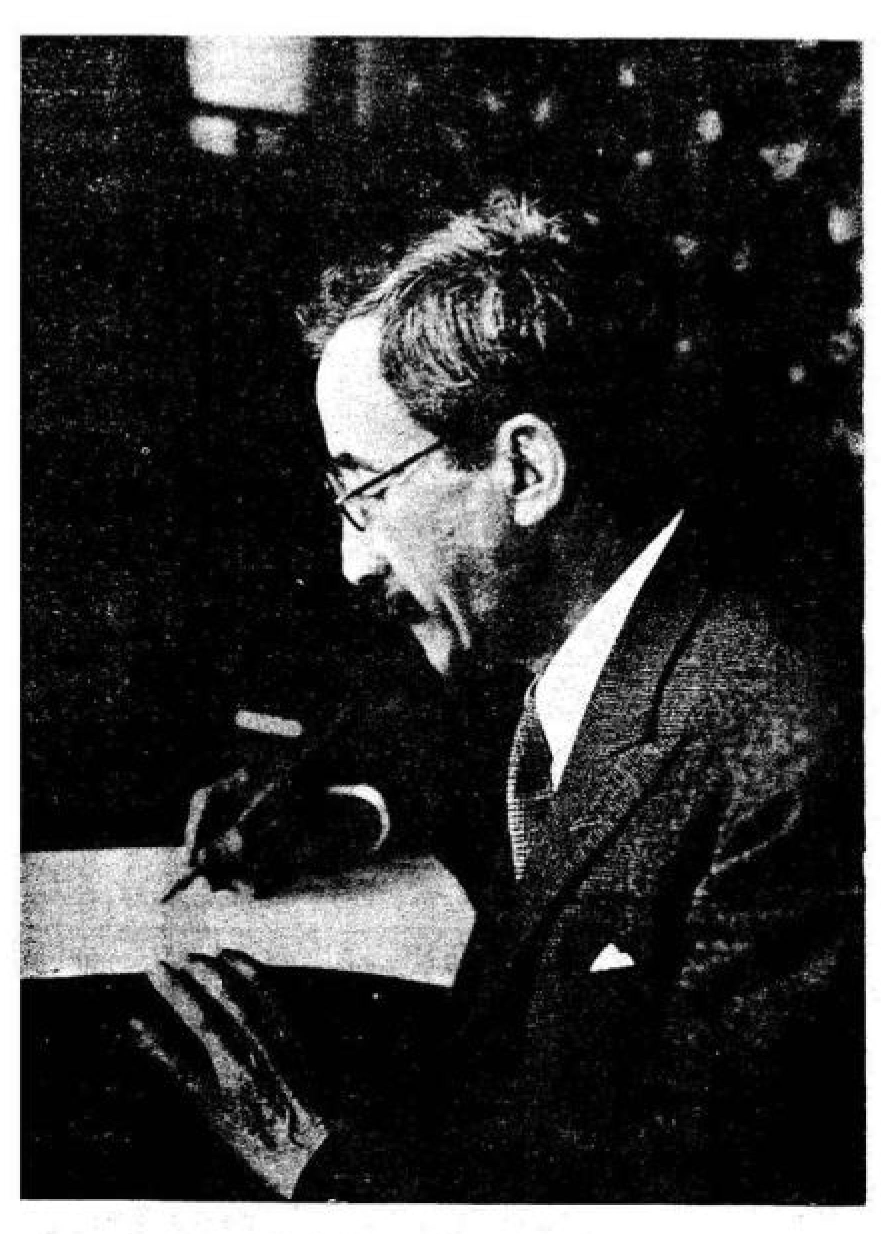
والذي يهمني ان اقوله في التمهيد لكتاب نيتشه أن ليس للمرحوم مصطفى صادق الرافعي ولا لسواه ممن ذكر من اسماء ادباء معاصرين ان يكونوا حافزين على ترجمة كتاب زرادشت ، فان كان ثمة من واجب لذكر الحافز فرجعه بلا ريب الى الاديب الفاضل المرحوم فرح انطون فرح الذي هدانا الى نيتشه ورينان واضرابهما من جبابرة الفكر، وأما في ما خلا ذلك فكتاب زرادشت سيبقى منهلاً صافياً عذباً يرده آلاف من العطاش لا ترويهم سوى الكتب المترجمة حبيب الزحلاوي

الفؤاديات

للمرحوم فؤاد محمد بك — صفحاته ١٥٩ من القطع الوسط

جمع الاديب عبد القادر يوسف شهاب الدين الطالب بكلية الحقوق الملكية قصائد المرحوم فؤاد محمد بك في ديوان اسماه الفؤاديات استهلها بكلمة عن حياة صاحب الديوان وشعره وثقافته ونظرة في الديوان تدلنا على شاعرية صاحبه وأريحيته وشدة حبه وتفانيه في خدمة اهله واصدقائه ونذكر على سبيل المثال ابياتاً قالها تدل على سمو أخلاقه

أيلذ لي يسري وغيري معسر	ويطيب لي نومي وغيري يسهر؟
وأبيت ما بين الحرير منعماً	وسواي يفترش التراب ويصبر؟
سبحانك اللهم انك مالك	الملك تعطي من تشاء وتقدر

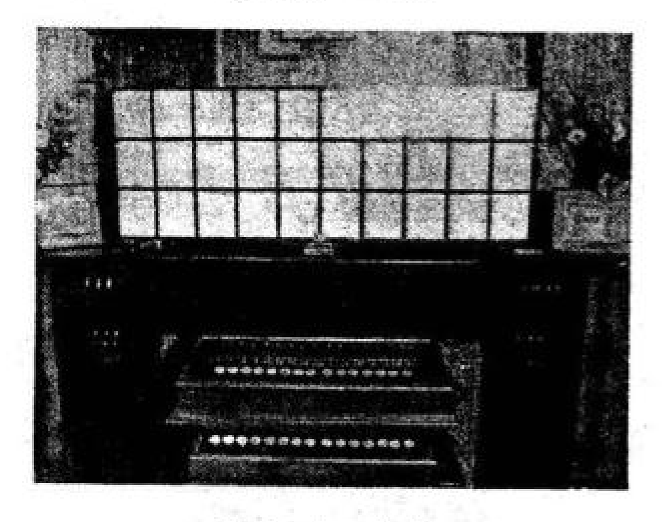


خليل مطران بك

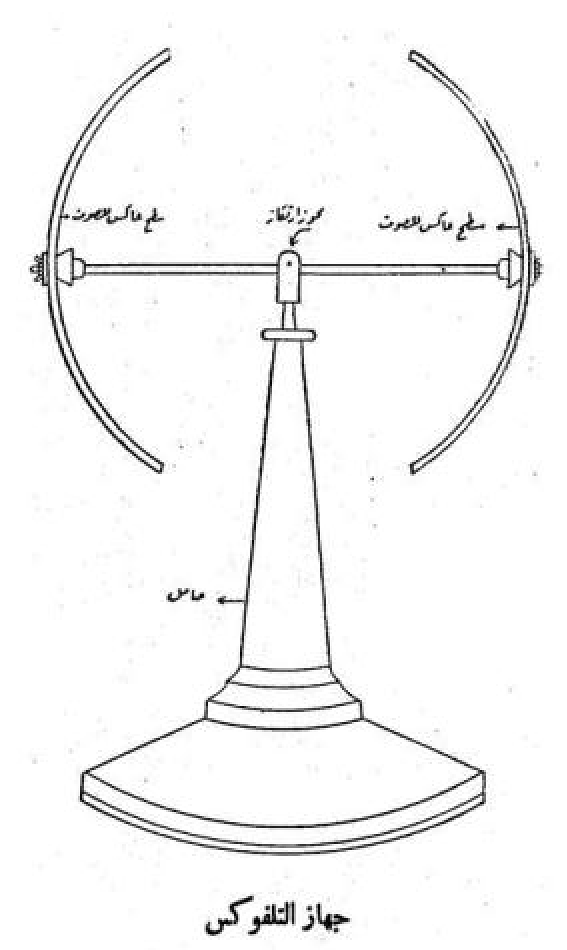
[تصوير الدكتور أحمد موسى]



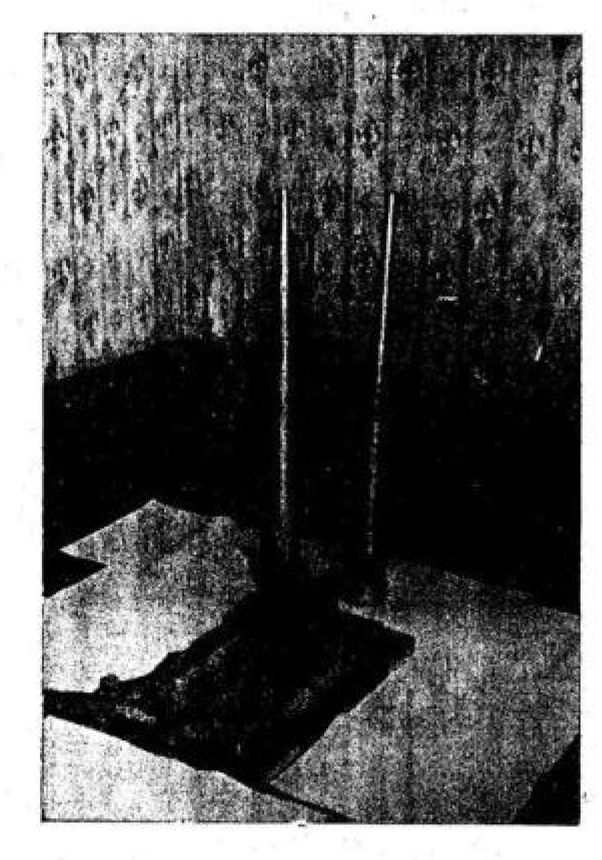
جهاز الكومبونوغراف



جهاز الرفلكتوغراف



جهاز التلفوكس





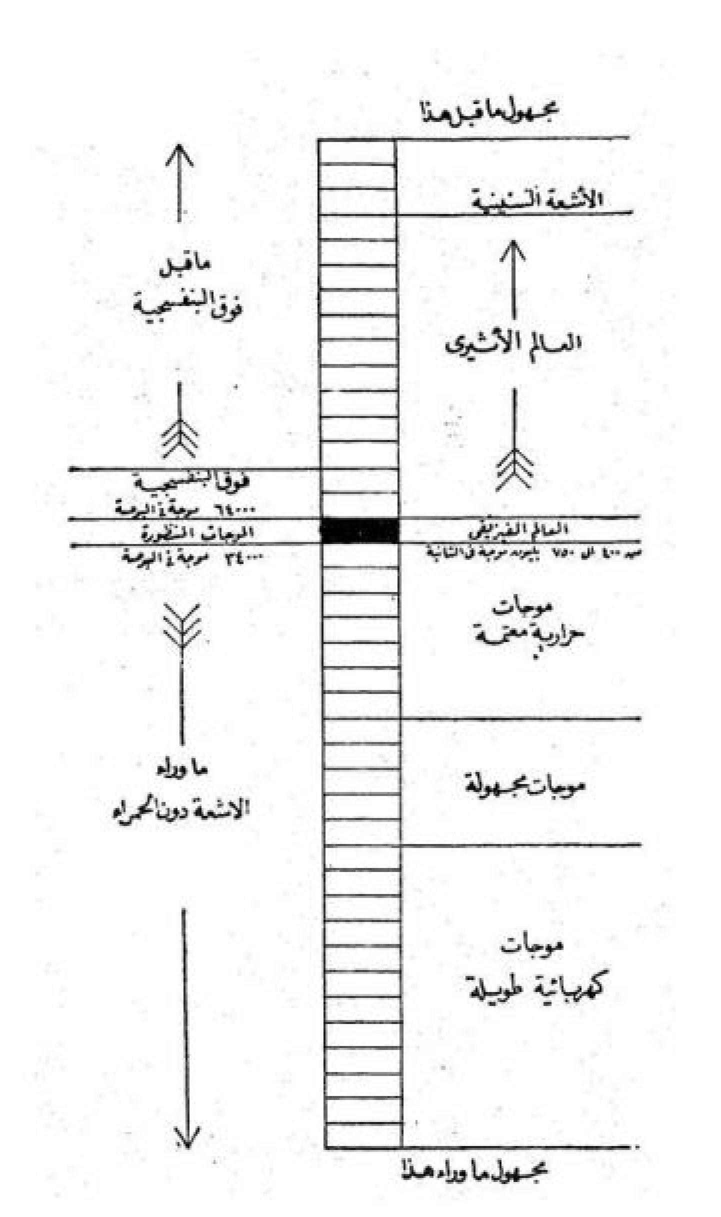
جهاز البوقين




صورتان فوتوغرافيتان مأخوذتان بالاشعة تحت الحمراء
ويظهر فيهما الوسيط ايفانز وقد طار في الجو وهو في غيبوبة




صورتان للوسيط ايفانز وقد انبثق الاكتوبلازم منه



مجهول ما قبل هذا
الأشعة السينية
ما قبل
فوق البنفسجية
العالم الأثيري
فوق البنفسجية
٦٤٠٠٠ موجة في البوصة
الموجات المنظورة
العالم الفيزيقي
٣٤٠٠٠ موجة في البوصة
من ٤٠٠ الى ٧٥٠ بليون موجة في الثانية
موجات
حرارية معتمة
ما وراء
الأشعة دون الحمراء
موجات مجهولة
موجات
كهربائية طويلة
مجهول ما وراء هذا

حديقة المقتطف

باقة اشعار

ابتهال

—

القبور

—

أفراح هائمة

—

على صفحة الماء

—

اذا استطعت

للشاعر الفرنسي سولي برودوم
[نقلها خليل هنداوي]



الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٨

حوادث فبراير

استقالة ايدن واتفاق روما

الانشلوس

اضطراب الوزارات الفرنسية

الطريق الى مونيخ ومنها

من وشنطن الى ليما

الحربان في أسبانيا والصين

جنون التسلح

أقطاب الرجال

فهرس الجزء الاول

من المجلد الرابع والتسعين

وجه


المقتطف



المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع والتسعين

١ فبراير سنة ١٩٣٩ — ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٥٧

النوم والارق

بحث علميّ عمليّ جديد

الأرق والخبل

منذ عهد قريب ذهب رجل شيخ الى مستشفى لتعمل لهُ عملية جراحية في الحبل الشوكي. وبعد اجراء العملية ، وضع في حجرة خاصة في طابق يسوده السكون ليقضي فيها فترة الشفاء والنقه . ولكنهُ على الرغم من سكون الحجرة كان يقضي ليالي متوالية أرقاً . فعولج بالعقاقير المنومة إلاَّ أنهُ لم تنقض أيام حتى ظهرت عليه أعراض تنذر بالخطر ، إذ كان يصاب في ساعات اليقظة بضرب من الخبَل . وفي مثل هذه الحالات يعرض المصاب على الطبيب العقلي . ففحصهُ وأمر بالتوقف عن معالجته بالعقاقير المنومة . وانقضى يوم ونصف يوم قبل أن زالت آثار العقاقير. ثم قال لهُ الطبيب العقليّ «لا تخف ، ان العقاقير كان تقسرك على أخذ قسطٍ من النوم اكبر مما أنت في حاجةٍ اليه . أنك في الثامنة والستين من العمر ، والرجل في مثل عمرك لا يحتاج إلاَّ الى بضع ساعات من النوم . وأنت ملقى في سريرك أربع وعشرين ساعة ، لا تنفق جهداً عقليًّا أو عضليًّا ، يقتضي منك الراحة التي تصيبها في النوم . أهمل ذهنك . اقرأ متى شئت . اقرأ في الساعة الثالثة صباحاً اذا طاب لك ذلك . اشعر بالحاجة الى النوم ثم نم نوماً طيباً هانئاً »

فقال المريض دهشاً . ان في قولك شيئاً جديداً لم أفكر فيه من قبل. فلما زاره الطبيب صباح اليوم

التالي وجد أنه كان قد نام سبع ساعات، وقضى بعد ذلك أياماً في المستشفى لم يصب في خلالها بأرق ما

وليس ثمة ريب في أن أحد العوامل في إطالة الارق اعتقاد المصابين به ان في الارق خطراً على الصحة قد يؤدي بالعقل الى الخبل. الهم يؤرق الانسان، فاذا أدرك انه مؤرق تفاقم همه. بل لقد أشار أحد نطس الاطباء الانكليز الى ذلك بقوله ان المصابين بالأرق تنتابهم مخاوف عظيمة حتى ليأبون أن يعرضوا أنفسهم على طبيب خشية أن يؤيد مخاوفهم. اما من حيث الخطر الذي يجلبه الأرق على العقل فقد قال هذا الطبيب انه لم ير بعد مخبولاً يرتد خبله الى الأرق. ومن الذين عني بهم أناس لم يناموا إلاّ بضع ساعات كل ليلة مدى سنوات ومع ذلك لم يصابوا بالخبل

ويروى عن الفيلسوف پامر Palmer استاذ الفلسفة سابقاً في جامعة هارفرد أنه كان يقول لطلبته انه لم ينم ليلة كاملة منذ شبابه. وقلما نام أكثر من ساعتين متواليتين. وبعد ذلك يأرق ساعة أو ساعتين. ثم ينام. ولكنه تعلم بالاختبار أن يسترخي في ساعة الأرق ويجتنب التفكير في ما يشغل البال، فيقضي الليلة بين النوم واليقظة من غير أن يصاب بتعب ما، ثم ينهض في الصباح، وافر النشاط كأنه نام نوماً هادئاً طوال الليل. وقد عاش على ذلك حتى بلغ الحادية والتسعين

الا ان الأرق اذا اصاب رجلاً عصبي المزاج مرهف الاحساس شديد الانفعال، فعندئذٍ يتعرض ذلك الرجل لما يضعف صحته، لان قلة النوم في هذه الحالة ليست اساس المشكلة التي تواجهه وانما اساسها تلك الساعات التي يقضيها يقظاً في سواد الليل. وقد كتب طبيب من هذا القبيل يصف ارقه فقال: اذا كنت وانا طبيب اعتقد ان فكرة الارق خرافة يجب ألاّ تقتضي همّاً وغمّاً، فقد تبدد ذلك الاعتقاد في خلال السنوات التي اصبت فيها بارق شديد فعلمت حينئذٍ انه من اشد ما ينزل بالانسان، حتى ولو كان عقله يملي عليه ان قلة النوم وحدها لا تضر كثيراً. اني اعلم ان الطبيب يشير على المؤرق بأن يضبط نفسه في ساعة الارق ويحجب عن ذهنه الافكار التي تعي المفكر فيها، وانا ذو مشيئة صلبة واعرف قيمة هذا النصح الطبي وطالما اشرت به على من اعالج، ولكنني لم اكن ادري ما افعل بعد ان اقضي يوماً كاملاً في مؤتمر طبي وساعة في القاء محاضرة والمناقشة فيها، ذلك اني كنت عند ما آوي الى فراشي، احس فكري سباقاً الى اشياء ومعانٍ لا حيلة لي في حجبها عنه وكنت احاول ان اقنع نفسي بأن المسائل التي تتركز فيها عناية فكري من المسائل التي استطيع ان انظر فيها في غدٍ ومع ذلك كان فكري يأبى الاّ ان يقيها في المركز من وعي

ان رجلاً من هذا القبيل في حاجة الى عقار « الباربيتورات » اذا شاء ان ينهض بعمله على الوجه الذي يرضيه في اليوم التالي

الارق والعقاقير

لا بدَّ لحديث الارق من ان يتصل عاجلاً ام آجلاً بحديث العقاقير . والغالب ان يسعى المؤرق الى التغلُّب على ارقهِ باساليب مختلفة لانهُ سمع في الاندية والمجتمعات ان فلاناً اصيب بضعف في قلبهِ بعد تناوله المساحيق المنومة . او ان آخر استعبدتهُ عادة الاعتماد على هذه العقاقير فغدا هو وعبد المورفين او عبد الكوكايين سواء . او ان آخر اخذ من احد هذه العقاقير جرعة كبيرة فقضت عليهِ . والروايات التي من هذا القبيل كثيرة ، وهي لا تخلو من نصيب من الصحة . الاَّ انَّ الدكتور سوما فيس Weiss الاستاذ بكلية هارفرد الطبية قرأ رسالة من عهد قريب (١٩٣٦) في الجمعية الطبية الاميركية ، بين فيها الاضطرابات المختلفة التي قد تنشأ عن تناول العقاقير المنومة ولكنهُ عزاها الى اساءة استعمال تلك العقاقير . قال : اذا احسن استعمالها وكان الطبيب عارفاً معرفةً تامَّة بخصائصها الصيدلية والسمّية ففوائدها ترجح مساويها

(٣) (٢) (١)

أ – اوكسجين ، ن – نتروجين ؛ ك – كربون ؛ يد – ايدروجين

ان حديث كشف المواد المختلفة التي تحدث هذا التأثير حديث طويل . واقدمها يرتدُّ الى ألوف من السنين عند ما تبين الانسان التأثير المنوم للكحول والافيون . ثم اضيف اليها بعد ذلك مواد طبيعية وكيمياوية منوعة تشترك على تفاوتٍ بينها في تأثيرها المنوّم . فمن اربعين سنة كان مواد البرومور Bromides اكثر هذه العقاقير استعمالاً في الطب لهذا الغرض . اما الآن فقد اخذت مواد « الباربيتورات » Barbiturates تحلُّ محلّها

هذه المواد تصنع من الحامض الباربيتوريك[1] وهو ليس بالحامض الجديد في علم الكيمياء . جزيئهُ لا يرى بالمجهر لصغره ، ولكن الكيمياويين توصلوا الى معرفة تركيب الذرات فيهِ فاذا هو كما ترى في الشكل الاول

ان الجزء الخاص من هذا الجزيء الذي يهمنا بوجهٍ خاص في هذا المقال هو ذرتا

(١) الحامض الباربيتوريك Barbituric Acid مركب عضوي مبلور ابيض قوامه اربع ذرات من الكربون واربع من الايدروجين وذرتان من النتروجين وثلاث من الاوكسجين وجزيئان من الماء ($C_4H_4N_2O_3 \cdot 2H_2O$)

الايدروجين المفردتان . ففي مستهل هذا القرن ، كان الكيماوي الالماني اميل فيشر يجرّب التجارب بجزيء هذا الحامض محاولاً ، ان يحذف ذرتي الايدروجين ليحلّ محلهما ذرتي (او مجموعتين من الذرات) مادة اخرى لعلهُ يتوصل الى تركيب مادة جديدة ،لها خاصة التنويم ومع ان الحامض لهُ ليس له هذه الخاصة رأى فيه فيشر اساساً لمادة جديدة منوّمة

وقد تحقق ما يبغيه فيشر في سنة ١٩٠٣ اذ تمكن من ان يحلّ محلّ كلّ ذرّة من الايدروجين مجموعة من الذرّات ، توجد في الايثر. وكانت كل مجموعة مؤلفة من خمس ذرات ايدروجين وذرّتي كربون (ترى رسمها وتركيبها في الشكل الثاني) فلما تمّ الحذف والتركيب ، اصبحت ذرة الحامض المذكور ، وهي كما تراها (الشكل الثالث) ، اي انها غدت ذرة مادة جديدة كان فيشر يتوقع ان تكون المادة المنومة المتوقعة

كان فيشر يتوقع أن تكون هذه المادة الجديدة ذات تأثير مخدّر وذلك بما لها من ألفة للمادة الدهنية (ليپويد) في خلايا الدماغ فتجعل أغشيتها الخارجية أصفق مما هي . وقبل أن يتمكن من الفصل في هذه المسألة دعي الى رحلة فقام معاونهُ بالتجارب وانباهُ بنجاحها . وكان فيشر عند بلوغه نبأ نجاحها في مدينة فيرونا الايطالية فدعا هذه المادة الجديدة «فيرونال» Verona . هذا العقار يعرف في الاقراباذين الانكليزي باسم « باربيتون » Barbitone وفي الاقراباذين الاميركي باسم « باربيتال » Barbital . وهو الأول من سلسلة من العقاقير المنوّمة المستخرجة من الحامض الباربيتوريك وذلك بحذف ذرتي الايدروجين من جزيئهِ واحلال مجموعة من الذرات محلّ كلّ منهما. فاذا أحللنا محلّ ذرة واحدة مجموعة من نوع الاثيل Ethyl ومحل الأخرى مجموعة من نوع الفنيل Phenyl كان المادة ذلك العقار المعروف باسم لومينال luminal وهو عقار يؤثر تأثيرهُ المنوم في بعض الناس في نصف الوقت الذي يستغرقه الفيرونال . وعلى هذا النسق صنعت عقاقير أخرى منومّة مثل « النيونال » و « الافيپال » وهي لا تتفاوت في تركيبها فقط بل تتفاوت كذلك في سرعة تأثيرها ومدى النوم الذي تحدثهُ

هل استعمال هذه العقاقير ينطوي على خطر وكيف تتفاوت من حيث تأثيرها في مختلف الناس ؟ ان التجارب التي أجريت للاجابة عن هذه الاسئلة وغيرها مما هو من قبيلها ، أجريت على الأرانب والخنازير الهندية . ولكن اجراء التجارب على هذه الحيوانات لا يمكن أن يحسب دليلاً أكيداً الى الحقيقة ، لان الأحوال النفسية تؤثر أعظم التأثير في شؤون الأرق والنوم ، بل ان الانفعال الناشئ من رؤية ولد وحيد أصيب بحادثة اصطدام يؤثر في احوال الجسم الكيماوية ، ومن هنا لا يمكن الاعتماد كلّ الاعتماد على نتيجة التجارب بالحيوانات . ولكن المشاهدات السريرية تبين للباحث بوناً شاسعاً بين الناس من ناحية تأثرهم بأحد هذه العقاقير .

فالجرعة السليمة من « الفيرونال » تتفاوت بين ٣ قمحات و ١٠ قمحات . ولكن أحد اطباء لندن عرف فتاة شفيت بعد تناولها ٩٠ قمحة وعرف كذلك شاباً توفي بعد تناوله ١٥ قمحة . ثم يختلف الناس من حيث كبر الجرعة التي يحتاجون اليها لكي يناموا . بل هنالك من تحدث فيه أحد هذه العقاقير تهيجاً بدلاً من التخدير . وهذا الضرب من التأثير يغلب في النساء . ويقول الدكتور « الفارز » أحد اطباء عيادة مايو بامبركا انهُ لايذكر انهُ رأى رجلاً تأثر بالبار بيتورات على هذا النمط

من الصفات التي تغلب على المرهفي الاحساس المعرَّضين للأرق الشديد تعرضهم للكابوس عندما ينامون، أو للاحساس ان بعضهم أعضائهم مصاب بتخدير شديد او بورم ومنهم من يبقى ساعات وأياماً وهو متنبه الذهن يقظ الشعور على حين ان السواد من الناس يكون قد نام إعياء. ومن المعروف ان التأثير الأول للتخدير قبل العمليات الجراحية هو التهيج . ولتفسير ذلك يذهب « الفارز » الى ان المخدّر البطيء الفعل عندما يصل الى الدماغ ويحدث تأثيره الأول وهو التهيج ، يجتاز المصاب فترة صعبة جداً قبل ان يرين الكرى عليه ويستولي التخدير على أعصابه. ولعلَّ الجهاز العصبي يتأثر بهذه الفترة فيبطل تأثير المخدّر بفعل كيماوي حيوي . فيبقى الشخص متنبهاً يقظاً . ويقيم الفارز الدليل على رأيه هذا بقول ان «الكلورال» من خير العقاقير لمعالجة هذا الطراز من الناس وذلك لأنهُ سريع الفعل جداً فيحدث التخدير او التنويم قبل ان يجتاز الانسان تلك الفترة الصعبة التي تحفز الجهاز العصبي الى إبطال فعل المخدّر . على ان السواد من الناس يتأثر بالعقاقير المنومة كالفيرونال والشاذ منهم يحتاج الى عقار من قبيل «الكلورال »

وهناك نوع من الأرق يصاب بهِ صاحبهُ بعد نوم قصير . أي انهُ لا يجد صعوبة ما في أن ينام ولكنهُ بعد قليل يستيقظ ويتقلّب في فراشه . وخير علاج لهذه الحالة هو عقار منوّم لا يستمرُّ فعله أكثر من أربع ساعات . ولكن الطبيب الذي يصفهُ يجب الاَّ يصفهُ الاَّ بعد ان يتبين تركيب المرء العصبي ونوع الأرق الذي يصاب به، لأن الغرض من وصف العقاقير المنوّمة هو حمل المرء على أن يتعود النوم الصحيح بغير أن يتعوّد تناول العقار فلا يستغني عنهُ

وكان زعم الباحثين في مبدإ الأمر ان المركبات المستخرجة من الحامض الباربيتوريك لا تنشئ عادة الادمان في متناولها . ومما لا ريب فيه أنها في طبقة من العقاقير تختلف عن طبقة المورفين والكوكايين والافيون. ولكن هناك مدمنون للفيرونال بمعنى أنهم أصبحوا لا يستغنون عن برشان الفيرونال قبل النوم كلَّ ليلة . وقد روي ان أحد الاطباء وضع في البرشان مسحوق سكر اللبن بدلاً من مسحوق الفيرونال فأحدث تناول هذا البرشان التأثير المنوّم المطلوب في شخص تعوَّد أخذها كلَّ ليلة . ولكن ليس جميع مدمني الفيرونال من هذا النوع القائم على الوهم . ومع ذلك

فعدد هؤلاء المدمنين قليل . ويقول الفارز انهُ لم يرَ اكثر من سبعة مدمنين من هذا الطراز خلال ثلاثين سنة من الممارسة الطبية . ويقول جلسبي Gillespie انهُ لم يعثر في جميع الرسائل والمؤلفات الطبية المنشورة في ربع قرن قبل سنة ١٩٢٩ على اكثر من اربعمائة مدمن من هذا النوع

والخلاصة انَّ هذا النوع من العقاقير قد يولّد عادة الادمان في الضعاف المصابين بجهاز عصبيّ مضطرب ولذلك يجدر بالطبيب ان يستوثق من ان تناول العقار سيبقى خاضعاً لسيطرته وامره قبل الاشارة باستعمالهِ ، وان يقنع المصاب بانَّ تناولهُ من تلقاء نفسهِ ينطوي على خطر

مركز النوم في الدماغ

يتفق الشعراء في جميع اللغات على وصف النوم بانه ضرب من الموت او هو «الموت الاصغر» ومع ان الكتب الطبية لا تحتوي على ذكر امرىء مات بقلة النوم او انتفائه فالصينيون والاسكتلنديون كانوا — على ما يقال — يعاقبون المجرم بفرض اليقظة الدائمة عليه حتى يموت . اما التجارب في الحيوانات فقد اثبتت ان كلاباً نفقت بعد ١٤ يوماً من اليقظة الدائمة المفروضة عليها والارانب بعد ثلاثة أسابيع

ولعل هناك فرقاً بين اليقظة المفروضة على الكائن الحي من الخارج بمنبهات دائمة واليقظة الذاتية التي ندعوها «الأرق» . ومما يروى في هذا الصدد ان العالم الهولندي هرمان بوير هاف الاستاذ في جامعة ليدن في مستهل القرن الثامن عشر ، قضى مرة ستة أسابيع دائم اليقظة لانشغاله ببحث خطير يهمه . ويروي « فوربز ونسلو » قصة رجل كان يسير على قدميه مسافات طويلة في النهار ثم يشغل ليلاً في مناقشات محتدمة مع أشخاص موهومين ، وانه قضى على ذلك ثلاثة أشهر لا ينام . وفي مذكرات احد الاطباء ان رجلا أصيب بالأرق خمسة عشر يوماً متوالية فكان ينهض من فراشه في الليل ويسوق مركبة تجرها ثلاثة جياد حتى ينهكها إعياء لعله بذلك ينهك جسمه فينام

يقابل هذا ان الدكتور هرتزلر — مؤلف كتاب « طبيب العربة والجواد » أي طبيب الريف — يروي عن نفسه انه دعي في احدى الليالي وهو متعب جدًّا لعلاج حالة طارئة فاستقل عربته وحقيبة أجهزته وعندما وصل الى الكوخ الذي دعي اليهِ أعد مبضعهُ لشق خراج خيث ثم ران الكرى فجأة على عينيهِ ، فاعاد المبضع الى الحقيبة وعاد الى دارهِ ولم يتذكر إلاّ في الصباح ان الخرَّاج لم يشقّ

وكذلك نرى من هذه المقارنة في مسألة النوم ان النوم يأخذ بأجفان أناس وهم في أشد الحاجة الى اليقظة ويجتنب غيرهم وهم في أمس الحاجة اليه

وليس ثمة ريب في ان احدى الفجوات الكبيرة في علم الحياة الانسانية ، جهلنا سرَّ النوم . فنحن نعلم علماً لا بأس به أساليب التنفس ودوران الدم والهضم والاتصال العصبيّ في الجسم

واسرارها. اما النوم فلا نجد رأياً واحداً في تفسيره وفهمه يفوز باجماع العلماء او بما يقرب من اجماعهم في الآراء المطروحة على بساط البحث رأي يعزو النوم الى تغيّر في مقدار الدم او محتوياته.

ولعلَّ القول بان سبب النوم هو فقر وقتي في دم الدماغ من اقدم الآراء في فهم النوم وقد وصفهُ « الكميون » اليوناني من ٢٥٠ سنة بقوله « ارتداد الدم من الدماغ الى الشرايين ». الاَّ ان جماعة من الاطباء في مستشفى مدينة بوسطن الاميركية حاولوا من عهد قريب قياس ما يجري من الدم من الدماغ الى الأوردة. فوضعوا في حبل الوريد الداخلي — وهو الوريد الذي يفرغ فيه الدماغ دمه — اجهزة كهربائية دقيقة لا تسبب لصاحب الوريد المـاً ما، فقاسوا بها سرعة جريان الدم من الدماغ الى الوريد مدى ساعتين. واخذ الكرى بمعاقد اجفان الرجل في خلال التجربة، فلم يحدث تبديل ما في سرعة جريان الدم لا في بدء النوم ولا في اثنائه ولا قبيل الافاقة منهُ. وقد اعيدت التجربة في غيره فاسفرت عن النتائج نفسها

واذن ليس في الوسع ان يقال ان هناك سنداً للرأي القائل بوجود صلة بين مقدار الدم في الدماغ والنوم. ولكن هناك ما يدل على وجود صلة بين النوم ومحتويات الدم. فمن سنوات ذهب احد علماء الفسيولوجيا الى ان الدم المأخوذ من الاوردة المحيطة Periphera في اثناء النوم يحتوي على مقدار من الكلسيوم اقل من مقداره في دم الأوردة نفسها في اثناء اليقظة. فحفز هذا القول العلماء الى البحث وهم يسألون، ترى هل يتجمع الكلسيوم في اثناء النوم في الدماغ ؟

وكان من ابرع من تقدَّم لبحث هذا الموضوع عالم سويسري يدعى ديمول Demole فحقن ملحاً من املاح الكلسيوم في ادماغ الهررة وجعل الحقن في جذر الدماغ المعروف باسم المهاد (عن شرف: thalamus) فران النوم على الهررة. ووجد ديمول بالتجربة انهُ يستطيع ان يجعل مدة النوم متفاوتة من دقائق الى ساعات بزيادة مقدار الحقنة او نقصها. وعرف بالاختبار انهُ في مكنته ان يوقظها من نومها هذا ولكنهُ عرف كذلك انها اذا استيقظت من تلقاء نفسها بدا عليها النشاط والانتعاش كأنها نامت نوماً طبيعياً

واجريت تجارب اخرى من قبيل تجارب ديمول فثبت منها انَّ املاح الفلزات لها فعل منوّم كفعل ملح الكلسيوم اذا حقن في « مهاد » الهررة وهناك ما يدلُّ على ان للكلسيوم تأثيراً في منطقة الدماغ التي تحت المهاد (التالاموس) ومن المعروف ان للكلسيوم تأثيراً خاصاً في الخلايا الحيَّة. اذ يلوح انهُ يجعل جدرانها اقل شفوفاً واشدَّ مقاومة فتغدو اقلَّ تنبهاً او تأثراً بالمنبهات. واذن يمكن ان يحسب الكلسيوم ضابطاً (فرملة) كيماويّاً حيويّاً وهذا يفضي بنا الى ان نقول ما قالهُ جلسبي في رسالته « النوم » انَّ العقاقير المنوّمة (المخدرة) تؤثر بإضعاف شفوف الاغشية الخلوية في الجهاز العصبي المركزي

وتدلُّ الدراسات المختلفة على ان الجسم يتلقى من هذه المنطقة في قاعدة الدماغ الأوامر العصبية الخاصة بالنوم واليقظة

ومن بضع سنوات قام الاستاذ هس العالم الفسيولوجي المشهور بجامعة زوريخ يبحث طريف اذ غرز اقطاباً كهربائية دقيقة كالابر في ادمغة الهررة وأحدث بوساطتها صدمات كهربائية فسبّب ذلك النوم في الهررة . وعني ايكونومو النمسوي العالم بالأعصاب بدراسة أدمغة المتوفين بالتهاب الدماغ السحائي (مرض النوم) عندما فشا هذا الوبأ في أوربا خلال الحرب الكبرى فوجد التصاقات او كتلاً من النسيج المؤوف في المنطقة التي عند قاعدة الدماغ في كل حادثة تولاها بالبحث . ومن عهد قريب قام جماعة من علماء شيكاغو يبحث دقيق ثبت لهم منهُ ان الجزء الخاص الذي يصاب في قاعدة الدماغ هو الجزء المعروف باسم «هيبو تالاموس» (وهو الجزء الذي تحت المهاد اي تالاموس) . فوجدوا ان تهييج هذا الجزء من الدماغ في الهر تهييجاً يسيراً يفضي بالهر الى رفع رأسهِ واتساع بؤبؤهِ وازدياد تنفسهِ ونشاطهِ حالة ان تهييج مناطق أخرى من الدماغ لا يفضي الى مثل هذه النتائج . يقابل ذلك انه اذا أصيب هذا الجزء من دماغ الهر بآفةٍ او باصابةٍ أحدث ذلك سباتاً في الهر ، فاذا هيج بعد حدوث النوم عجز التهييج عن ايقاظ الهر من سباتهِ

وتحولت جماعة شيكاغو بعد ذلك الى حيوان اعظم نشاطاً وأقل نوماً من الهر فاتخذوا نوعاً من القرد لا يستقرُّ على حال عندما يكون امام الناس ، فاحدثوا التصاقات في ذلك الجزءِ من دماغهِ المعروف باسم (هيبو تالاموس) فتحوَّل هذا الحيوان الصاخب الذي لا يستقرّ الى حيوان متراخٍ يغالبهُ النعاس فيغلبهُ حتى لقد يرين النوم عليهِ وهو يتناول طعامهُ . ولم يندر ان تستمرَّ هذه الحالة بضعة اسابيع . فاذا عاد القرد المعالج بهذه الطريقة الى اليقظة التامة كان أكثر استقراراً وأنساً منهُ قبلها . واللائح ان الآفة التي أصيب بها «الهيبو تالاموس» غيَّرت من طبيعتهِ الانفعالية ، وهذا يتفق والنتائج التي أسفرت عنها مباحث العلماءِ الآخرين ، وهي ان «الهيبو تالاموس» هو مركز الانفعالات

وقد تناولت تجارب جماعة شيكاغو عدداً كبيراً من الهررة وخمسة وخمسين قرداً ، فكانت النتائج التي اسفرت عنها يؤيد بعضها بعضاً . ذلك بان الاصابة في الهيبوتالاموس تفضي الى النوم . اما اذا كانت في جزءٍ آخر من الدماغ فانها لا تفضي اليهِ . ومما يجب ذكره في هذا الصدد ان الالتصاقات التي كانت تصيب هذا الجزء من الدماغ لم تمسّ مسالك الاعصاب الرئيسية الممتدة من الجسم الى الدماغ ومن ذلك خلص رئيس هذه الجماعة الى القول بأنَّ النوم في هذه الحيوانات لم ينشأ عن قطع سبل الرسائل العصبيَّة الحسيَّة السائرة من الجسم الى قشرة الدماغ . ومهما يكن من امر فهو مقتنع بأن «الهيبو تالاموس» متصل اتصالاً وثيقاً بتنظيم اليقظة والنوم وان كونهُ مركز الانفعالات يجعله عاملاً فعالاً في المحافظة على اليقظة

[ملخص بتصرف يسير عن مجلة هاربرز]

المستشرق نلينو

حياته وآثاره

للعلامة المستشرق البروفسور ليتمان
عضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية

الاستاذ كارلو الفونسو نلّينو (C. A. Nallino) علم من أعلام الاستشراق وامام المشتغلين بالمشرقيات في ايطاليا . عرفهُ طلبة الجامعة المصرية أمس واليوم أستاذاً وصديقاً وعالماً وديعاً فأحبوه وأحبهم وقد زاد تعلقهم بهِ على قدر رعايتهِ لهم وتثقيفهم

حول الاستاذ نلينو أعين تلاميذه المصريين الى القطب الآخر الذي يغيب عنهم . ذلك أنهُ عرف فيهم النباهة وسرعة الخاطر وحب الاطلاع وقوة الذاكرة ثم كشف عن النقص فلاحظ ما يحتاجون اليهِ من تنظيم معلوماتهم وحصرها وضبطها حتى يتهيأ لهم التأليف بعد البحث فتعمد في درسهِ الدقة العلمية الشديدة ووقف على كل مسئلة يوفيها قدرها من الفحص ليصلح ما انحرف وليجعل من هذا النبات الملتف شجراً مثمراً . فوصل الى غايته دون ان يرهق تلاميذه أو يكلفهم شططاً وهم يعترفون له على اختلاف مناحيهم بالفضل والأثر

وكذلك كان له خير ذكر عند زملائه علماء المشرقيات في أوربا والشرق العربي

واليك المرثية التي كتبها المستشرق ليتمن من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وأستاذ اللغات الشرقية في جامعة توبنجن بألمانيا . وهذه المرثية تبرز — على الطريقة الألمانية في المراثي — خصائص الراحل ومناحي مباحثه وألوان تأثيره

مراد كامل

— ١ —

خسر العلم بفقدان زميلنا الاستاذ نلّينو نابغة من اعظم العلماء وأجلهم قدراً . وقد ظهر نبوغ الاستاذ نلينو في علم المشرقيات وعلى الخصوص في العلوم الاسلامية ، ويندر ان نجد عالماً مثله بين اولاء الذين درسوا العلوم الاسلامية : بحث في كل فروع هذه العلوم المتشعبة فكشف لنا عن حقائق علمية جديدة في كل ناحية من نواحيها . وقد قال الاستاذ نلينو مرة لزميل من زملائهِ في مدينة بلرمو « لا يحوّلني عن دراسة العرب كائن ما كان ولكني أحاول أن

أعرف كل شيء عن العرب » . وفضلاً عن ان اللغة العربية والعلوم الاسلامية على تعدّد فروعها كانت موضع عنايته الخاصة فقد كان على علم يقين ومعرفة ثابتة بسائر لغات الشرق الأدنى وآدابها وقد عرف كيف يستعملها عند الحاجة فكان يتقن الآرامية والعبرية والفارسية والتركية ، وفي مؤلفاته شواهد باللغة الارمنية واللغة الحبشية . ولكنهُ حصر جهده في دراسة العربية كزميله المستشرق الهولندي ده غويه de Goeje (بينما نبغ زميلاه الاستاذ نولدكه Noeldeke الالماني وكذلك الاستاذ جويدي Ignazio Guidi الايطالي في علم اللغات السامية عامة بل تعدياها احياناً الى فقه لغات اخرى) وأتقن الاستاذ نلينو دراسة علوم اخرى : فدرس علم الفلك والرياضيات والفلسفة والفقه وتاريخ الاديان دراسة محقق ليستعملها في مباحثه المختلفة . وكان يتعمق في الدرس ويتعقب اغلاط العلماء المتقدمين وينقي الحبَّ من التبن — كما نقول — ويحلّ المشكلات العلمية على وجه جديد صحيح . وقال عن نفسه مرة « اذا صادفتني مسألة علمية فلا بدَّ لي أن أتعمق في بحثها فأنا لا اكتفي بمعرفة نصف الشيء » . وبدأ احياناً بدراسة نقطة ظنَّ أنها تافهة فوصل منها الى مسائل مهمة حقّقها على اتمّ وجه . وقال في معرض الكلام عن هذا النوع من الدراسة في رسالة له تقع في خمس وعشرين صفحة عنوانها (أفلسفة مشرقية أم مُشرقية عند ابن سينا) : « إنَّ المسألة التي اقصد حلها تظهر تافهة ولغويّة بعينها ولكن حلها في الحقيقة على غاية من الاهمية فهو يبيّن باطن فكر ابن سينا ومنصبه الحقيقي في تاريخ الفلسفة عند مسلمي الشرق ، فأملي ان اكون على حقّ في توسعي في هذا المقال والتدقيق في بحثه »

كان الأستاذ نلينو يملك زمام اللغة العربية كاتباً وناطقاً ، فقد الف بعض مؤلفاته بالعربية وألقى محاضرات في الجامعة المصرية بها من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٢ ثم من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣١ . وكان في جلسات مجمع فؤاد الاول للغة العربية كثيراً ماينوب عن الاعضاء الأوربيين في الكلام . وقد قرأتُ في جريدة مصرية « أن الاستاذ نلينو يعرف العربية كأنها لغة آبائه »

ولد الاستاذ نلينو في السادس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٢ في مدينة تورينو من اعمال بيمونت Piemonte ونشأ في أوديته Udine من أعمال البندقية ، ثم درس في مسقط رأسه تورينو تحت اشراف الاستاذ بتزي Italo Pizzi وحصل في سنة ١٨٩٣ على درجة الدكتوراه في الآداب وكان الاستاذ Pizzi يؤثر تدريس اللغة الفارسية فالغالب على الظن أن الاستاذ نلينو انتفع من تعليمه لتلك اللغة . أمّا الفضل في دراسته للغات الشرقية الأخرى فيرجع لنفسه واجتهاده . وقد ارسلتهُ وزارة المعارف الايطالية على نفقتها الى القاهرة في شهر ديسمبر سنة ١٨٩٣ فأقام بها الى شهر مايو من السنة التالية ليستزيد من العلم . وفي خريف تلك السنة بعثهُ مرصد ميلانو الى الاسكوريال في اسبانيا لدراسة المخطوطات العربية فيها . وكان قد سافر سنة ١٨٩١ وهو ابن تسع عشرة سنة

الى مونيخ في باڤاريا لكي يفحص عن بعض المخطوطات العربية وينسخها . ثم صار معلماً وهو ابن احدى وعشرين سنة أي في سنة ١٨٩٤ حين عيّن لتدريس اللغة العربية في المعهد الشرقي بمدينة نابولي ، وبقي في هذا المنصب الى سنة ١٨٩٩. ثم رقي في المعهد نفسه الى منصب استاذ مساعد وظل كذلك ثلاث سنوات . وكان في الوقت عينه مدرساً للغة العربية وآدابها في جامعة روما الملكية ، ثم دعي في سنة ١٩٠٢ الى الجامعة الملكية في بلرمو كأستاذ مساعد ، وبعد ثلاث سنوات عيّن أستاذاً للغة العربية بها حتى سنة ١٩١٤ ، وكذلك ألقى محاضرات في الجامعة المصرية القديمة من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٢ عن تأريخ علم الفلك عند العرب وعن تأريخ الآداب العربية ، ثم عُيّن أستاذاً بالجامعة الملكية في روما للتاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية فأنتج في التعليم والبحث والادارة ، والقى محاضرات في تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام في الجامعة المصرية كأستاذ زائر من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣١ . وكلفتهُ حكومته بعد الحرب التي شبت بين ايطاليا وتركيا ان يقوم بتنظيم ما تبقى من الأوراق الرسمية التركية السياسية وتأسيس مكتب للترجمة ، وكان ذلك في أواخر عام ١٩١٢ ، ثم عهدت اليه وزارة المستعمرات بأعمال مختلفة منها أن يكون مندوب الملك في تنظيم المعهد الشرقي في نابولي تنظيماً جديداً ، وكان ذلك فيما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٤ فنرى أن الاستاذ نلينو لم يكن صاحب علم نظريّ فحسب ، بل اكتسب تجارب عملية مفيدة من أسفاره العديدة ومناصبهِ المختلفة أهّلتهُ كوطنيّ غيور لاستخدامها بفطنة زائدة في منفعة وطنهِ ، فكان كذلك عضو المجلس الأعلى للتعليم من سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٢٨ وقد عُيّن سنة ١٩٢١ مديراً للمعهد الشرقيّ بجامعة روما فقام بادارتهِ خير قيام إلى أن وافتهُ المنية . وفي اثناء ذلك أسّس مجلة (الشرق العصري) Oriente Moderno وكان رئيس تحريرها . وهي مجلة فريدة في بابها يحق للمستشرقين الايطاليين ان يفخروا بها إذ لا مجلة هنالك على اسلوبها في العالم يُذكر فيها كل ما يتعلق بالشرق العصري بمثل هذه الدقة والأمانة التامية ، وبجانب هذا كلهِ أسندت اليهِ ادارة القسم الشرقي من دائرة المعارف الايطالية وكذلك نيابة رآسة المجمع العلمي بروما

عرف الاستاذ نلينو في اسفاره المتعدّدة البلدان ، التي حول البحر المتوسط من المغرب الاقصى الى بلاد الشام ، فبعد ان زار القاهرة للمرة الاولى في سنة ١٨٩٣ سافر مراراً الى بلدان إفريقية الشمالية ثم حملتهُ الرغبة في البحث على زيارة بلاد السودان والعراق فسافر اليها عقب إقامته في القاهرة ، واخيراً شاهد بلاد العرب التي طالما بحث عنها نظريّاً ، فبينما كنا الى مائدة طعام في يوم من ايام شهر يناير في السنة الماضية اذ بادرني بقوله « اني سأسافر مع كريمتي الى جدة » وقد ودّعتهُ في اوائل شهر فبراير ونحن نجهل ما يخبأه لنا القدر أتنا لن نتقابل مرة اخرى . أقلته

سيارة السفير الايطالي مع كريمته من القاهرة الى السويس ومنها سارا على باخرة صغيرة الى جدة فظلا هناك الى اواخر شهر مارس ،فسنحت لها الفرصة فسافرا بالسيارة الى داخل الجزيرة مارين بالطائف،وقد كتبت إليّ الآنسة ماريا نلينو عن هذه الرحلة قالت:—«اضطررنا في رحلتنا هذه ان نلبس ملابس العرب فلبس أبي المشلح والصمادة. أما أنا فلبست الجلباب الأسود ووشاحاً مضاعفاً يغطي الوجه كله ، وبتنا في طريقنا في قرية السيل في غرفة صغيرة خالية من الأثاث لا نافذة فيها،بها باب بدون مصراع تطل على السهل الواسع فتسمح للكلاب والقطط وما اليها أن تدخلها وكل ما كان لدينا من الترف كرسيان من القش اضطجعنا عليهما بملابسنا». ومع ان الاستاذ نلينو كان يتحمل متاعب الاسفار ومشاقها فأنا أظن أن متاعب تلك الرحلة اضرت بصحته ولكنهُ رجع الى روما فرحاً مرحاً فبدأ عمله هناك بما عهد فيه من النشاط . وكان يريد أن يشترك في مؤتمر المستشرقين في بروكسل ولكن توفاه الله في الخامس والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٣٨ بسكتة قلبية ، فحزنت عليه ايطاليا اذ كان من أعظم علمائها وحزن عليه جميع علماء المشرقيات وحزن عليه اصدقاؤه وتلاميذه الكثيرون في الشرق والغرب ، وكذلك كان حزن أعضاء مجمع فؤاد الاول شديداً عندما ارسل اليهم معالي رئيسه خبر الوفاة قال : « مع عظيم الأسى وبالغ الحزن أبلغ حضراتكم بأ وفاة زميلنا المغفور له السنيور نلينو. ولا شك أننا جميعاً نشعر بأن المجمع قد خسر بوفاته عضواً غزير العلم جليل النفع كريم الخلق ،نسأل الله أن يلهمنا وإياكم جميل الصبر ويهبنا جميعاً العزاء »

—٢—

أما مؤلفات الاستاذ نلينو الاولى فأظهرت تشعُّب دراساته واتساع أفقه العقلي ، فقد كتب أول مؤلفاته وهو ابن عشرين سنة وكان موضوعهُ جغرافيًّا ، وكتابه الثاني عنوانه « منتخبات قرآنية » أضاف اليها معجماً له شأنهُ في علم اللغة ، وكان موضوع رسالته الثالثة تاريخيًّا والرابعة فلكيًّا ، ثم أفاضت علينا مؤلفاته الواناً وانواعاً فشملت تقريباً كل علوم اللغة العربية والثقافة الاسلامية العربية . واهم ما نشر وأوسعه يخص علم الفلك عند العرب وتاريخ الفقه الاسلامي وفتح له هذا البحث باباً الى دراسة الفقه عند مسيحيي الشرق وهو أول من دلنا على حقيقة الكتاب المسمى (بكتاب الفقه السرياني الروماني)

والآن أحب أن أعرض مجملاً تآليف الاستاذ نلينو ، ولما كان فهرست مؤلفاته المطبوع لم يُذكر فيه نقده العلمي للكتب المختلفة ولا مقالاته المنشورة في دائرة المعارف الاسلامية ولا الايطالية فأنا لا يمكنني أن أتكلم عنها كلها هنا،وكل ما في وسعي أن أقوله إن نقده للكتب المختلفة كان في دائرة الموضوعات التي بحث فيها وقد يتعدّاها أحياناً ، ولم يكن الاستاذ نلينو ممن يكرر القول في نقده بل يوضح المسائل بأفكار جديدة ، وكثيراً ما أظهر بنقده اخطاء المتقدمين

وحدّد واجب الناقد والحاكم بقوله « أجتهد ان أقوم بهذا الواجب على وجه محايد كما يجب على كل من دعي ان يحكم حكماً »

أما أول كتبه في اللغة وتاريخ اللغة فهو (منتخبات قرآنية) كتبهُ في سنة ١٨٩٢ ونشرهُ في السنة التالية ، وقد رتّب السور المختلفة بحسب تاريخ نزولها كما أثبت ذلك الاستاذ نولدكه Noeldeke في كتابهِ عن تاريخ القرآن ، لقراءة النصوص القرآنية ومسائل أخرى ظهرت بعد ما نشر برجشترسر Bergstraesser وجفري Jeffery وبرتزل Pretzl ابحاثهم ولكن قصد الاستاذ نلينو ان يكتفي بالنصّ المعروض ، وأضاف الى كتابهِ تعليقات وملاحظات ومعجماً على غاية من الدقة ذكر فيهِ اشتقاق الكلمات كما كانت معروفة في ذاك الزمان ، وقال في ذلك « إني أعرضت أحياناً عن المعاجم العربية وبذلت جهدي لكي أعرض في معجمي هذا معاني الكلمات كما دارت في خلد النبي » . فهذا يظهر لنا الروح العلميّة الصحيحة لعالمنا الشاب ، وقد سمحت له اسفاره في افريقية أن يتعلم اللهجات العربية الحديثة فكان يتكلم باللهجة المصرية بطلاقة كما كان يتكلم بالعربية الفصحى ، فنشر أولاً (ملاحظات في اللهجة العربية التونسية على كتاب قواعد هذه اللغة الذي نشره الاستاذ Stumme) ، وتلا ذلك كتابه المشهور الذي عنوانه (اللهجة العربية في مصر) وهو يحتوي على قواعد اللغة العاميـة المصرية ومحادثات وستة آلاف كلمة تقريباً . وكتابه هذا عمدة لكل من أراد ان يدرس اللهجة المصرية فنفدت طبعتهُ الأولى لكثرة الاقبال عليهِ ثم ظهرت طبعة ثانية منقحة واقبل الاستاذ نلينو بعد ذلك بهمة عالية على إكمال هذا الكتاب وكذلك اعتنى بعلم النقوش العربية فنشر مقالتين عن رُجمتين عربيتين منقوشتين وجدتا في ايطاليا الجنوبية ، ونشر ايضاً في مجلة الهلال مقالة عنوانها (كيف نشأت اللغة العربية) ثم مقالة أخرى عنوانها (الحروف اللاتينية هل تصلح للكتابة العربية) ونشر في مجلة المجمع العربي بدمشق مقالة سماها (تصحيفات غريبة في معجمات اللغة) وكتب في مجلة الدراسات الشرقية عن المعنى الاصلي لكلمة « نـصْبَة » واستعمالها عند الفلاسفة وعلماء الفلك بناء على شواهد عربية مختلفة . ومقالة أخرى عن كلمة « يباض » بمعنى « قار » ، وردت في معاهدات بين مصر وأهل أرغون في القرن الثالث عشر الميلادي ، ونجد في بقية كتاباته الكثيرة ملاحظات شتى مفيدة عن تاريخ اللغة ومعاني الكلمات ، مثلاً كلمة « هاهنا » التي استعملها ابن رشد بمعنى « يوجد » كما تستعمل لفظة « فيه » في العاميّة ، وكذلك نجد في كتابه الفلكي المشهور عن البتاني قسماً لغوياً على غاية من الأهمية ، وله مقالة عن كتابين في اللغة العربية الجنوبية قبل الاسلام وهما كتاب قواعد اللغة العربية الجنوبية للاستاذ جويدي gnazio Guidi والمنتخبات العربية الجنوبية للاستاذ كونتي روسيني Conti Rossini اوضح فيها مسائل لغوية وتاريخية هامّة .

أما الآداب العربية وتاريخها فكان الاستاذ نلينو على معرفة يقينية بها فكان يعرف مئات من المطبوعات العربية من جميع البلدان الاسلامية القريبة منها والبعيدة ويحفظ مضمونها في ذاكرته بدون حاجة الى الجذاذات ، وكان لا يكلّ عن جمع الكتب ويأخذ معهُ من القاهرة كلما جاءها صناديق عديدة من الكتب إلى روما ، وكتب عن موضوعات أدبية منها (حيقر الحكيم وكتاب طوبيا) — (تاريخ آداب اللغة العربية) — (نقص تاريخ آداب اللغة والعلوم التاريخية عند العرب) — (بيت النابغة عن الإله ودّ) — (آثار كتب يونانية وصلت العرب عن طريق البهلوية) — (عمّ متولى ، حكاية عربية تأليف محمود تيمور مترجمة مع مقدمة وتعليقات) — (ملاحظات عن ابن المقفع وابنه) . ومن أهم مقالاته تلك التي كتبها عن الكتب اليونانية التي وصلت العرب عن طريق البهلوية دلّ فيها على أن كتب Cassianus Bassus Scholasticus و Vettius Valens و Teukros نقلت الى اللغة البهلوية أولاً ومنها الى العربية ،وفسّر بنظره الثاقب الأسماء المصحفة عند العرب بتعدّد دلالات الحروف البهلوية ، فحصل من ذلك ان تينكلوس وطينقروس وتنكلوشا صيغ مختلفة لاسم Teukros وان كتاب تنكلوشا مزوّر كما هو كتاب الفلاحة النبطية المعروف ، وبذلك يستدلّ القارىء على مقدرة الاستاذ نلينو في اللغة البهلوية وما عدا ذلك فلهُ نقد كتب كثيرة عن الآداب العربية

من أهم أعمال الاستاذ نلينو التاريخية نشره كتاب تاريخ مسلمي صقلية الذي ألفهُ Michele Amari . فقد نشر الجزء الأول في سنة ١٩٣٣ والثاني في سنة ١٩٣٥ ونصف الجزء الثالث في سنة ١٩٣٧ . ووافتهُ المنية قبل ان يتم طبع الكتاب كله ، ولا شكّ أنهُ كان العالم المستعدّ للاعتناء بمثل هذا العمل لما لهُ من تجارب طويلة في بلرمو مع معلوماته التاريخية الفذة . ونحن نتبين من مقدمة هذا الكتاب التي تقع في ثلاث وثلاثين صفحة قيمة هذا العمل الجسيم وما يحتاج اليه الانسان من عناء واجهاد . أما أعماله التاريخية الأخرى فيتعلق معظمها بتاريخ العرب قبل الاسلام لا سيما بتاريخ العرب الجنوبيين الذين ألقى عنهم محاضراته الدقيقة في الجامعة المصرية . أما الرسائل التي كتبها فهي (عن تشريع القبائل العربية قبل الاسلام) — (البندقية وسفاقس في القرن الثامن عشر حسب وصف المؤرخ العربي مقديش) — (تاريخ اليمن قبل الاسلام) — (روّاد اليمن من الأوربيين) — (هل كانت مصر تعامل رأساً مع جنوب جزيرة العرب قبل عصر البطالسة) — (علاقة العالم الاسلامي بأوربا) — (عن العرب والبربر في بلاد برقة) — (مخطوطان عربيان عن تاريخ بلاد اليمن موجودان في مجموعة كايتاني Caetani)

أما الجغرافية ، فكان اول ما نشره الأستاذ نلينو فيها (القياس الميتري لدرجة دائرة نصف

النهار عند جغرافيي العرب) وأهم ما كتبهُ من هذه الناحية مقالة عنوانها (الخوارزمي وتجديده لجغرافية بطلميوس) ، وقد ترجم ملخص هذه المقالة الى اللغة الفرنسية ، وهو المستشرق الوحيد الذي قارن من نواحي عديدة مختلف العلوم الاسلامية العربية بالعلوم اليونانية وبين علاقة بعضها ببعض لفهم الواحد من الآخر ، فاهتمّ بالأسماء الجغرافية وكتب عنها رسائل شتى وهي (كيفية كتابة الأسماء الجغرافية باللغة العربية والفارسية والتركية) — (الأسماء الجغرافية في العالم الاسلامي في بعض مؤلفات عربية جديدة) — (كيف تكتب الأسماء الجغرافية في طرابلس الغرب وبرقة باللغة الايطالية واللغة العربية) . وبينما كان ينشر ويترجم كتاب البتاني بحث أيضاً عن جداوله الجغرافية وألـف رسالة عنوانها (الجداول الجغرافية للبتاني مترجمة ومفسّرة) ، وكتب بياناً عن المكتبة الجغرافية التي نشرها الاستاذ de Goeje وكتب أيضاً في خارطة عربية من القرن السادس عشر الميلادي لعلي بن أحمد من مدينة سفاقس وعن رحلة سائح في ليبيا في القرن الثامن عشر ، وبهذه المعلومات الفذّة للأسماء الجغرافية استطاع ان يساعدنا كل المساعدة في جلسات مجمع فؤاد الأول عند المناقشة في هذه المسائل .

— ٣ —

أما علم الفلك عند العرب فالاستاذ نلينو هو العمدة فيهِ ، وكتب أحد المستشرقين عن كتابه المسمى بالبتاني الذي يقع في ثلاثة مجلدات (إنهُ الحجر الأساسي لعلم الفلك ومن يعرف استعماله يجد فيهِ ملاحظات في هذا العلم الصعب وهو فوق ذلك يهيء للقارىء ابحاثاً أعمّ منها) ، وعنوان هذا الكتاب لاتيني وترجمتهُ (كتاب البتانيّ الفلكيّ منشور بالعربية عن المخطوط الموجود في الاسكوريال ومنقول الى اللاتينية ومفسّر بتعليقات) ، طبع المجلد الاول في سنة ١٩٠٣ ويقع في سبع واربعمائة صفحة من القطع الكبير ويحتوي هذا المجلد على ترجمة الكتاب والشروح وعلى مقدمة يخبر المؤلف فيها بحياة البتانيّ الحرانيّ وبرسائله والكتب التي نسبت اليه خطأً ، ثم تكلم عن الكتاب نفسه ، فطبع المجلد الثاني بعد اربع سنين ويقع في اربع وأربعين وأربعمائة صفحة وهو ترجمة كل الجداول مع تعليقات ومعجم وفهارس ، والمعجم العربي فيهِ مقدمة نحوية قصيرة ثم ملاحظات كثيرة عن الاصطلاحات الفلكية العربية وهي تهمنا جدًّا من الجهة النحوية واللغوية. ويلي ذلك فهرس جغرافي وآخر تاريخي . اما المجلد الثالث ويقع في تسع وسبعين ومائتي صفحة فطبع قبل المجلد الاول بأربع سنين وهو المتن العربي . وله كتاب فلكي مشهور كتبهُ بالعربية وهو (علم الفلك : تاريخهُ عند العرب في القرون الوسطى) ويقع في احدى وسبعين وثلاثمائة صفحة وهو نص الاربعين محاضرة التي القاها الاستاذ نلينو في الجامعة المصرية القديمة فنشر قسماً منها كاملاً وقسماً مختصراً ، وأضاف اليها ملاحظات اخرى عديدة وثمانية عشر ملحقاً تختلف

طولاً وقصراً وفهرست المواضيع وفهرست اسماء العلماء الاوربيين المذكورين في الكتاب وقائمات المضمون في كل محاضرة ، وكثيراً ما كان الاستاذ نلينو يضيف مثل هذه المختصرات الى مؤلفاته وهي تدل على تنظيم عمله وترتيب افكاره وهي فوق ذلك تسهل على القارىء سرعة فهم الكتاب . وهذه المحاضرات تشمل جميع الكتب العربية في علم الفلك ،فنقدها المؤلف وحدّد علاقتها بعلم الفلك عند اليونان والفرس والهند وأظهر ايضاً المعلومات الفلكية عند العرب قبل الاسلام، وألّف فيما عدا ذلك رسائل قصيرة في علم الفلك واصطلاحاته وتاريخه ، منها (علم الفلك عند جنميني) — (الاشتقاق العربي للكلمتين الايطاليتين azimut و asub وملحق عن كلمة almucantarat — (هل يقال زَرْق أم رزق في علم الفلك الدارج عند العرب) — (كلمة قطْع في علم الفلك عند العرب) — (الشمس والقمر والكواكب عند المسلمين) ، وله فوق هذا نقد كثير لكتب فلكية عربية .

— ٤ —

درس الاستاذ نلينو تاريخ الفقه الاسلامي وكذلك فقه الشرق القديم والشرق المسيحي كما انهُ درس كل فروع الثقافة الاسلامية فألف رسالة عن (كتاب البيان لابن رشد الفقيه) وهو جد ابن رشد الفيلسوف . وكان هذا في سنة ١٩٠٤ ثم ابتدأ منذ سنة ١٩٢١ بتأليف كتب ورسائل عن علم الفقه الذي كان يملك ناصيته ، وكان السبب الذي دعاه الى هذا هو ان الاستاذ E. Carusi الذي عينتهُ الحكومة لتدريس الفقه الشرقي في كلية الحقوق بجامعة روما ادعى انهُ عضو المدرسة الشرقية فردتهُ المدرسة ولكنها لم تعلن ذلك الاّ مضطرة ، ثم فوّضت الى الاستاذ نلينو هذا الواجب الثقيل أن ينتقد ما كتبه الاستاذ كاروزي في تاريخ الفقه الشرقي مع قلة كفايته وضعف معلوماته في اللغات الشرقية فقام الاستاذ نلينو بهذا الواجب الصعب بما عهد فيه من دقة في البحث وعدل في الحكم ، ولهذا السبب وجب عليه أن يدرس كتاب الفقه الملقب بالسرياني الروماني وكذلك كتاب الهدايات أي القوانين لابي الفرج بن العبري وفتحت له دراسة هذه الكتب ابواباً مختلفة الى ابحاث مهمة ، ورنض على حقّ مازعمهُ الاستاذ كاروزي من ان هناك فقه سامي أصليّ ، ثم اقتفى آثر كتب الفقه السريانية والعربية وقارنها بالفقه اليهوديّ ، فبدأ بكتابة رسائل في مسائل مختلفة منها (الفقه الاسلامي في القوانين السريانية المسيحية لابن العبري) وبرهن فيها على أن ابن العبري اقتبس قسماً من قوانينه من الفقه الاسلامي دون ان يشير الى ذلك ، ورسالة (Parrhesia والزواج بلا عقد كتابي حسب الكتاب السرياني الروماني) ثم (ملاحظات جديدة عن الكتاب السرياني الروماني وابن العبري) — (كُتُب فقه رومية في تراجم عربية مسيحية) — (Apokeryxis والمنع من الميراث في كتاب الفقه السرياني الروماني) — (بعض مواضيع تتعلق بالفرائض في الكتاب السرياني الروماني) — (Pherne بمعنى مهر في كتب سريانية ويهودية)

ثم كلل هذه الرسائل كلها برسالته (عن الكتاب السرياني الروماني وعن الفقه السرياني الوهمي) وقد كان علماء تاريخ الفقه قد عرفوا أن بعض أبواب كتب الفقه السريانية التي نشرها الاستاذ Sachau رجعت من كتب فقه يونانية — رومانية ، ولكنهم ظنوا أن باب الفرائض هو فقه سرياني محض معمول به في بلاد الشام وأن هذا الفقه أصله موجود في الشرق القديم وأخذ الاستاذ نلينو في الفصل الذي سماه (مراجعة الافكار الشائعة من كتاب الفقه السرياني) يقول «لو أردنا أن نظهر ونصلح كل الآراء الخاطئة والأغلاط والالتباسات التي وقعت في درس هذا الكتاب لوجب علينا أن نكتب سفراً ضخماً». ولكنهُ أثبت أن الجزء الذي كان يظنه العلماء سريانيًا بحتاً هو في الحقيقة يحتوي على قوانين رومانية قديمة من قبل زمن يوستنيانوس قيصر الروم المعروف عند العرب بهرقل وأن كتب الفقه هذه لم يكن معمولاً بها عند السريان ومن الواضح أنها ترجمت من اليونانية ، وقد برهن الاستاذ نلينو أن قصد مؤلفها — الذي يجهل اسمه — كان تعليميًا لا عمليًا وانه انما أراد ان يكتب كتاباً تعليميًا مختصراً وأثبت كذلك ان الكتاب الملقب بالفقه السرياني الرومانيّ لم يترجم في القرن الخامس بعد الميلاد بل في القرن الثامن وان هذا الكتاب لم يستعمل قط لمجموع القوانين عند الأساقفة بل اعتبروه تحفة لمسيحي الغرب . هذه هي النتائج الجديدة المفاجئة لابحاث الاستاذ نلينو في مسألة كثر البحث فيها ولم تفهم قبله . أما رسائله الأخرى في الفقه فهي التالية (الكفالة في الفقه الحنفي) — (تحريم المؤاخاة في الفقه الروماني القيصريّ وما يماثله عند العرب) ، وكذلك كتب مقالات عن (الفقه الاسلامي) و (بيت المال) و (القاضي) في المجموع الايطالي الجديد .

وكان الاستاذ نلينو يفهم جيداً الدين الاسلامي والفكر الاسلامي وأمور المسلمين وكلّ ما يتعلق بهم ، وكتب رسالة عن الاسلام في العصر الحاضر سماها (مقاصد الاسلام العصرية) ، وفسّر تسمية فرقتين إسلاميتين تفسيراً جديداً بناء على بحث لغوي تاريخي دقيق فبيّن ان كلمة المعتزلة معناها « المحايدون » لا « المفصولون » كما يظن العلماء وقال إن القدرية الذين لم يقبلوا القدر بل رفضوه سموا بذلك الاسم لأنهم اشتغلوا بالقدر ، ووصف أيضاً الصلة بين كلام المعتزلة وكلام فرقة الاباضية في إفريقية الشمالية وشرح العلاقة بين الاثنين شرحاً واضحاً ولكنهُ ترك هذه المسألة دون ان يفصل فيها ، ثم نشر مقالة مفيدة عن رأي غريب منسوب الى الجاحظ يخصّ القرآن الشريف بأن القرآن جسد ينقلب تارة إنساناً وتارة حيواناً ، فلم يفهم العلماء هذا الرأي بل أولوه على أوجه مستحيلة شتى ، وشرحه الاستاذ نلينو على وجه بسيط قائلاً انهُ اذا زعم ان القرآن مخلوق فهذا الرأي لا يقصد تبديلاً بديهيًا وحقيقيًا بل تغيراً محتملاً نظريًا بقدرة الله لأن الله يقدر ان يغير ما خلق . وكتب أيضاً عما نشر في العراق

منذ زمن قليل عن مجادلة سياسية دينية ، وفي السنة الماضية ظهرت لهُ مقالتان « الحديث » و « الاجماع » في الموسوعة الايطالية الجديدة ، أما النبي فكتب عنهُ مقالتين الأولى عنوانها (الأستاذ Gabrieli ورسالة لم تنشر عن مصدر عربي للسيرة) والثانية سماها (في القرن الثالث عشر لوفاة النبي) ، ومقالتاه عن الخلافة احداهما (ملاحظات عن الخلافة عامة وعن الخلافة العثمانية المزعومة) فنقلت هذه المقالة الى الفرنسية والانكليزية ، والثانية (انتهاء الخلافة المسماة بالعثمانية) ، وما نشره عن التصوف في الاسلام أهميته عظيمة ، ولهُ رسالتان عن هذا الموضوع أولاهما (القصيدة الصوفية العربية لابن الفارض مترجمة الى الايطالية) والثانية (ملاحظات أخرى على ابن الفارض وعلى التصوف الاسلامي) . ولتمكنه من الأدب الصوفيّ الشرقيّ والغربيّ أمكنهُ ان يشرح جليًّا الفرق بين تصور الشاعر وبين المذهب الفلسفي وبيّن أيضاً كيف يمكن ان يكون المسلم الصوفي ثابت العقيدة ، وتوصل بمعرفته التامة لعلم النفس والفلسفة الى ان يفهم نفسية الشاعر فهماً متقناً ، فحدّد معانيه وفسّر لغته ، وصوّر « خيال الظلّ » عندما ذكر في الأدب الصوفي تصوراً حيًّا لأنهُ كان يعرف كل ما نشر عن هذا اللون في المسرح. واذا نقد كتب المؤلفين العرب أظهر مقدرة أدبية فنية في الحكم على مؤلفاتهم فيصف الأسلوب أحياناً بأنهُ جامد لا حياة فيه وأحياناً بأنهُ جميل ظريف .

كان الاستاذ نلينو خبيراً بالفلسفة الاسلامية ولكنهُ لم ينشر عنها الاَّ قليلاً ، ومن أهم أبحاثه المقالة التي نشرها عن كلمة مَشْرِقية أم مُشْرِقية عند ابن سينا ، وقد قرأها بعض العلماء مشرقية أي مضيئة وبنوا على هذه القراءة آراء شتى وبرهن الاستاذ نلينو ان قراءة مُشرقية مستحيلة صيغة ومعنى وقرأها مَشرقية فشرح معنى الفلسفة الشرقية وتاريخها شرحاً مفصلاً ، وأصبح هذا الشرح ذا شأن عظيم في طريقته ومضمونه وهو باب دقيق من أبواب تاريخ الفلسفة الاسلامية . ونشر أيضاً بحثاً عن كلمة استعملها ابن سينا وفسّرها العالم الايطالي I. Campanella خطأ ، ونقد ترجمة اسبانية لكتاب ابن طفيل الذي تكلم عنهُ في رسالته المشهورة عن الفلسفة المشرقية ، وله ما عدا ذلك نقد لكتب اخرى عديدة عن الفلسفة العربية .

أما علم الآثار القديمة فدرسهُ الاستاذ نلينو ايضاً ونقد كتباً تتعلق بهذا العلم بنفس المقدرة التي نقد بها كتباً أخرى ، وألّف رسالة عنوانها (الأساطير التي تدور حول قبر النبيّ داود ووجوده تحت المكان المقدس للعشاء السريّ)

وقد ظهر من كل مؤلفاته انه كان يلمّ بعلم الكتب وتاريخ العلوم وألف ايضاً في هذين العلمين رسائل كثيرة ، منها (ملاحظات على علم الكتب الشرقية) — (المخطوطات العربية والفارسية والسريانية والتركية في دار الكتب الوطنية ودار الكتب للمجمع العلمي في تورينو) —

(فهرست كتب تخص العربية الشمالية) — (طبع المؤلفات العربية وقانون حمايتها) — (رسالة من ايطاليا) وهو تقرير عن حالة دراسة اللغة العربية والعلوم الاسلامية في ايطاليا من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٠٥ (عن تاريخ العلوم : رسالة في تاريخ الرياضيات) — (المخطوطات العربية التي استعملها Ludovico Marracci كمصدر له في كتابه عن القرآن) — (هل كان أبو أفلح سيراقوسياً أم سرقسطياً) — (أهم النتائج التي وصل اليها E. Cerulli في رحلته الى بلاد الحبش الغربية في سنة ١٩٢٧ و١٩٢٨ و١٩٢٩ . وأضاف ذيولاً كثيرة الى كتاب المؤرخ الرياضي الفلكي المشهور H. Suter المسمى بتاريخ علماء الرياضة والفلك عند العرب ومؤلفاتهم »

كان الاستاذ نلينو على معرفة يقينية باللغات الايرانية ولكن لم يؤلف فيها إلاّ رسالتين إحداهما عن الشاعر ميرزا فتح علي آخند زاده من اذربيجان الذي الف روايات تمثيلية غربية في بابها بلهجته التركية ونالت هذه الروايات اهتمام المستشرقين وأنا اذكر أيام كنت ادرس على الأستاذ G. Jacob أنه وقف جهده على هذه الروايات ، ومنها رواية اسمها مسيو ژوردان مترجمة الى الفرنسية وكتب عنها الأستاذ نلينو ، وكذلك ألقى في الاحتفال التذكاري للفردوسي محاضرة عن هذا الشاعر المشهور ، وكان فوق ذلك يستعمل معلوماته في اللغات الايرانية لحل مسائل في تاريخ الادب ، وأظهر نقده لكتاب الأب بيدار في قواعد اللغة الكردية معرفته اللغات الهندية الايرانية» . وكتب ايضاً لخدمة الادارة الايطالية في المستعمرات مذكرتين احداهما «التعليم في المستعمرات» . والثانية «معاملة الوطنيين واشتراكهم في ادارة المستعمرات» . وقام دائماً بالواجب نحو زملائه واصدقائه بعد فراقهم لهذه الدنيا فأبنهم بكلمات موافقة أخص بالذكر الايطالي Caetani والاستاذ Snouck Hurgronje الهولندي الذي سمي في الحجاز الحاج عبد الغفار .

وكان الأستاذ نلينو عالماً نابغاً وعاملاً فذاً وجمع الى هذا البساطة والوداعة وهاتان الصفتان أحسن زينة لعظماء الرجال ، وكان له مراكز مختلفة كنائب رئيس المجمع العلمي في روما وكذلك عضو أو عضو شرف في كثير من الجمعيات العلمية في ايطاليا وفي بلدان اخرى وحاز نياشين ورتباً كثيرة فكان officier للمجمع الفرنسي ، ومن لم يعرفه حقاً لم يكن يظن ان هذا العالم المتواضع صاحب سعادة وحامل لوسام النجمة الايطالية . عاش للعلم ولابنته ولأخته ولوطنه بعد ما انتزع الموت منه قرينته وابنه ، وقد جمعني به صداقة ثلاثين سنة لم يعكر صفوها وكنا اذا التقينا في القاهرة سكنا في دار واحدة واجتمعنا كل يوم ، وكما قدم كتابه عن البتاني بهذه الالفاظ « الى والديّ العزيزين اللذين اذكرهما دائماً واللذين لا اقدر أن اعبر عن مقدار شكري لهما» أقدم أنا هذه المرثية لصديقي العزيز الذي اذكره دائماً والذي لا أقدر أن أعبر عن مقدار شكري له .

لحسن كامل الصيرفي

دمعة الحسناء

دموعُكِ أغلَى من الأُمْنِيَاتِ فصُوني دموعَكِ يا غاليَهْ !
ولا تحزَني للغيومِ الثِّقالِ تمرُّ بِقبَّتِكِ الصافيَهْ
ولا تحسبي ظُلُماتِ الحياة ستمتدُّ أمواجُها الطاغيَهْ
فشَمْسُكِ تحلمُ في خِدْرِها ببهجةِ غُدْوَتِها الصاحيَهْ
ستنفض عنها خمولَ الدُّجى وتنهض سافرةً لاهيَهْ
وتُرْسِلُ فوق عَراء الوجودِ خيوطَ أشعَّتِها كاسيَهْ
وتوقظُ من غَمَراتِ السكونِ أمانيَّكِ الحُلْوَةَ الغافيَهْ
وتختالُ في موكبٍ من ضياء يبدِّدُ أشجانَكِ الداجيَهْ
صباحُكِ يُنْبوعُهُ القُدْسيُّ يفيضُ على روحيَ العافيَهْ
فكيف تظنّين أن الظلامَ ستخلدُ رَايَتُهُ الساجيَهْ ؟
يدُ الفجرِ تعقلُ ما تَرهبينَ وتُطلِقُ أطيارَها الشاديَهْ

وتمسحُ أعيُنَنَا الدامعاتِ وتشفي جِراحاتِنا الداميه

* * *

رأيتُكِ تبكين في غشيَةٍ من اليأس مُوحِشَةٍ قاسيه

كأنكِ زَنبَقَةٌ في الدُّجَى تقطّر أنداءها الباكيه

فأحسستُ كَفَّ الظلام العَتِيَّةِ تُطْفِيءُ أحلاميَ الزاهيه

وأحسستُ أنّاتكِ الشارداتِ تُرَجِّعها نَسْمَةٌ حانيه

تمزّقُ سِتْرَ الدجى والسكونِ وتُقلِقُ أنجُمَهُ الراعيه

وتبعث في خَفَقاتِ القلوبِ كَوامِنَ أشجانها الماضيه

فذُودي عن النفس أشجانها تُعيدي ابتسامَتكِ الشافيه

وإنْ عَبَسَتْ في السماء الغيومُ فضِنّي بأدْمُعِكِ الغاليه

فما قَطَراتُ دموعِ الحسانِ سوى سُبْحَةِ الخالقِ الساميه

اذا فَرَطَتْ حبّةٌ من عُراها تُدكُّ لها الأجْبُلُ الراسيه

وتُغْلَقُ أبوابُ فِرْدَوْسِهِ وتَنْضُبُ أنهارها الجاريه

وتسكتُ أطيارُها الصادحاتُ وتَخْفُتُ أصداؤها الساريه !

البحث الثاني

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الشعر العربي : طبيعته وتطوره

يقول الازهري : « الشعر القريض المحدود بعلامات لايجاوزها . والجمع اشعار ، وقائله الشاعر ، لأنهُ يشعر ما لايشعر غيره » . والكلمة استعملت بمعنى العلم والمعرفة عند العرب في الجاهلية من حيث ان الشعور مقدمة للمعرفة والعلم ، فتقول شعرت به اي علمت ، وليت شعري ماكان اي ليت علمي محيط بما كان ، وشعرت بكذا فطنت له

وفي القرآن الكريم « وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » بمعنى ما يدريكم . فالأصل في الكلمة الشعور ومنها نقل اللفظ لباب المعرفة والعلم . ومن هنا لانجد بداً من رفض ماوهمه البعض من أن أصل الكلمة العلم . اما ما يراه بعض علماء المشرقيات في أوروبا من ان الكلمة ذات اصل في لغة العبريين بمعنى الترتيلة والتسبيحة المقدسة فهذا وهمٌ سببه ان الكلمة استعملت بهذا المعنى في بعض مواضع من العهد القديم . وهي في الأصل تفيد معنى الشعور ، ومنها نقل اللفظ لباب العلم والمعرفة في لغة العبريين . فلفظة « شأر » العبرية تستعمل بمعنى المسكة من العقل والمعرفة كما هو في ملاخي — إصحاح ثان فقرة ١٥ . وهذا الأستعمال المقابل في العبرية للاستعمال العربي ، يحمل في نفسه أصلاً يدل على الشعور . ولاشك ان نقل اللفظ من معنى الشعور الى معنى العلم والمعرفة في العبرية والعربية قديم حتى اشتركت فيه كل من اللغتين

والشعر عند العرب شعر من حيث هو فيض الشعور . وهذا وجه تفرقة الشعر عن بقية ضروب الكلام في الأصل عند العرب

والشاعر وجمعهُ شعراء ، لفظ يطلق عند العرب على من يقرض الشعر . ومن حيث ان لفظة الشعر نقلت من باب الشعور بالشيء الى العلم به فان لفظ شاعر استعمل للدلالة على أهل الحجى من العرب من حيث هم اصحاب المعرفة والعلم ، ولما كان العلم والمعرفة عند العرب لهما أصل مستمد

من الغيب ، فان اصحاب الحجى هم أصحاب المعرفة من المتصلين بقوى الغيب من الجن والشياطين ومن هنا جاء ان لكل شاعر شيطاناً يوحي اليه بما يقول . والارتباط الذي حدث بين معنى الشعور والعلم نظراً لأنه قديم أفضى الى تداخلها وأصبح الشاعر يتطلب منهُ تمثيل الحياة الجاهلية في كلامه

والواقع ان الشعر الجاهلي قد نجح في تمثيل الحياة الاجتماعية والشعورية والعقلية عند عرب الجاهلية تمثيلا قويًّا الى الحدّ الذي تسمح بهِ القريحة العربية

هذا وقد نشأ الشعر العربي كما نشأ الشعر عند بقية الأمم السامية مقفى ولكن بلا وزن ، وأقدم ما وصلنا من شعر الأمم السامية ، مقطوعات من الشعر العبري يرجع تاريخها الى القرن الثامن والتاسع قبل ميلاد المسيح . وهي مقفاة لكنها ليست موزونة ، وقافيتها قائمة على نغمة بدائية تقوم فيها ، وهذا ما يظهر للباحث من مراجعة سريعة لسفر الخروج اصحاح ١٥ من الفقرة الثانية وما بعدها حيث ترنم موسى وبنو اسرائيل للربّ عند الخروج ، ومن نظرة خاطفة لسفر العدد اصحاح ٢١ فقرة ١٧ وما بعدها . فهنا في هذين المصدرين يجري الكلام على أساس الصلاحية للغناء . ومن هنا يمكنك ان تجد ان هذه الترنيمات منتهية بمقاطع متقاربة كانت مقدمة لنشأة القافية ، او بتعبير أدق هي صورة بدائية للقافية . مثال ذلك — aromenhu — في العبرية . فهنا نجد hu مقطعاً يتكرر بنغمة واحدة في أواخر الفقرات ، وهذا ما يمكنك ان تلحظه في القرآن الكريم وفي سوره المكية على وجه خاص ، ولا شك ان العرب حين لحظوا روح التصور الشعري في القرآن الكريم مع التزام مقاطع واحدة في أواخر العبارات مما يقرب من القافية ، قالوا هذا شعر بالقياس على الشعر في كلامهم . ويعد القرآن الكريم — كما يرى الدكتور زكي مبارك — نثر روحي في كتابته أساس الغناء . وهذا ان دلنا على شيء فانما يدل على ان العرب الى عهد الرسول كانوا ينظمون الشعر مقفى ولكن بلا وزن كما كان يفعل قدماء العبريين غير أنهُ يظهر أن مثل هذا الشعر فقد في تنقله في خلال الأجيال فلم ينتهِ الى العصر الثاني من الهجرة حتى يدون [١] . ولا شك ان الوزن مستحدث في الشعر العربي بعد ان تكاملت فيه القافية ، نشأ من ملاحظة تكرار المقاطع اللفظية ، كما هو الحال في الشعر العبري ، ومن هنا لنا ان نحكم بأنهُ لا صلة بين نشأة الوزن وحدو الجمال كما ظن وتوهم بعض باحثي الافرنج والعرب [٢]

---

(١) « القرآن والشعر » في Z.R.G.I. م ٣٦ ج ١ ص ٧٢ — ٩٦ وج ٢ ص ١١٤ — ١٣٨ وكذا زيدان في الهلال م ١٤ ج ٤ ص ٣١٦

(٢) Dr. G. Jacob في Haft-Studien in Arabischen Dichtern ٣ ص ١٧٩ والزهاوي في مبحثه « تولد الغناء والشعر » بالمقتطف م ٨٥ ج ٥ ص ٤٩٤ — ٤٩٧

— ١ —

تباينت نظرات الباحثين الى الشعر العربي تبايناً كبيراً ، فبينما ترى نفراً من أعلام المدرسة القديمة يرفعون من شأن الشعر العربي حتى يصل بهم الغلو الى جعله فوق شعر أمم الارض قاطبة ، ذاهبين الى ذلك بوحي اعتقادهم أن كل ما أتى منسوباً الى العرب فهو عظيم لم يأت له مثيل في الدنيا ، حتى أنك تراهم بهذا الوهم يسيرون خبباً في جميع ساحات المعرفة [1] ، فانك لواجد من جانب آخر نفراً من رجال المدرسة الحديثة وقد نزلوا عند وحي العقل وآمنوا بالعلم والمنطق الغربي فمضوا للمقارنة بين آداب العرب وبقية الأمم كالاغريق واللاتين والجرمان والسكسون والفرس ، وخرجوا من مقارنتهم باصغار شأن الشعر العربي وانزاله دون بقية شعر الأمم . وأنت من وراء هذا كله تقف على تضارب في الرأي ومغالاة في التصور ونكران للواقع . والحقيقة ان موضوع الشعر العربي ساحة فسيحة تمتد على الزمان حقبة متطاولة يقصر معها جدّ الباحث دون تبيُّن أجزائها معاً حتى يمكنه ابداء رأي صحيح فيها . إلا أنه يخيل اليّ أن في الامكان ابداء رأي يطمئن اليه العقل وترتاح له النفس في الشعر العربي عن طريق دراسة خصائصه ومميزاته في الطبيعة العربية من حيث ان الشعر العربي مظهر لتلك الطبيعة والفطرة ، ودراسة هذه الخصائص هامة لانها التكأة التي تستند اليها الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي وتمضي استناداً اليها متطورة في الزمان الى حالات جديدة

ولا ريب في ان خصائص اي أدب لأية أمة لا يمكن تخليصها من العوامل والمؤثرات التي التي كونت طبيعة هذه الامة وجعلت لها روحاً ثابتة تميزها عن غيرها من الامم . ودراسة هذه الروح الثابتة التي نعبر عنها بروح الامة والتي تظهر في جميع ادوار تاريخها وفي مختلف صور حياتها العقلية والشعورية والمعاشية ملونة اياها بلون خاص ، شيء لا غنية عنه للباحث في الآداب وتاريخها . لان الفنون والآداب تتأثر بالعوامل والمؤثرات التي تتكيف تبعاً لها النفس البشرية ، فإذن دراسة خصائص الشعر العربي لا يمكن ان يخلص بها الباحث مجردة عن دراسة روح العنصر العربي

والعنصر العربي يتميز بانهُ في التفكير والعمل يبدأ من ذاته لينتهي عندها ، فهو يعيش في الحاضر ولا يلحظ تحول الماضي وارتباطهُ بالحاضر وتمخض المستقبل ، فهو في تخيله غير تاريخي إذ يرى التفاصيل في الظواهر جنباً الى جنب ولكن يفوته تطورها وتحولها المتنقل دائماً . فهو من هنا يجمع الاشياء متناسبة وغير متناسبة ، من غير رباط يصلها فتبقى منفصلة . وهو الى هذا صاحب خيال مطرد فهو في حكم العقل بلا توثب ولا عمق . ومن هنا تجد الشعر العربي من حيث هو صورة لنفسية العنصر العربي لا يصور ولا يحكي صور الحالات التي يعرض لها في طبيعتها الموضوعية ،

(١) مصطفى صادق الرافعي في تاريخ آداب العرب ، القاهرة ١٩١١ ص ٣٥ وما بعده

وانما يعرب عن أثرها في النفس وصداها ، فهو تعوزهُ الطاقة على التجرد من الذاتية وجعل الظواهر الموضوعية في طبيعتها الموضوعية ، ذلك ان طبيعة العربي تأثرت بفكرة الوحدة والاطراد التي غرستها فيه طبيعة البلاد التي نشأ فيها ، ومن هنا كانت أغراض العربي فردية في ان يتفتح عن نفسه وان يصور اعجابه ومقته وبسالته وشجاعته وأنفته وشغفه بالحرية . ولهذا كانت كل آدابه خلواً من الروح الفنية التي تلقي نوراً شعريًّا على دائرة غنية من الفكر . ومن هنا كان غرض الشاعر العربي رسم الحياة والطبيعة كما هما بالنسبة اليه مع اضافة القليل من الخيال . ولقد عبّر عن هذه الحقيقة الشاعر العربي قديماً حين قال :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته : صدقا !

وهذا الروح من حيث هو حسيٌّ طبع الشعر العربي بالسكون ، فهو أدب يلخص التفاصيل بدقة متناهية . مثال ذلك واضح في وصف طرفة لجمل إذ يصفهُ بدقة تشريحية ولكن تعوزه الطاقة على التجرد عن الذاتية . وأنت لو طالعت في الالياذة كيف يصف هوميروس درع أخيلوس حيث تصهر الدرع وتطرق وتنحت وتصقل أمام بصر السامعين الذهني ، لأمكنك ان تعرف الفارق الكبير بين طبيعة الشعر العربي وطبيعة الشعر الغربي ، فان الاخيرة زخمة dynamic في قوتها ونشوئها الدرامي(١)

من هنا وحده أمكننا ان نقف على السبب الذي قعد بالشعر العربي عن التصوير ، لان التصوير يستلزم التجرد عن الذاتية والعرض للظواهر الطبيعية في طبيعتها الموضوعية ، وهذه بعيدة عن طبيعة العقل العربي . ولا يجب ان ينسينا هذا النقص استكمال الشعر العربي من ناحية اخرى — ناحية الذاتية — حتى لقد بلغ تفنن العرب ، مبلغ القمة من هذه الناحية الغنائية ، وهذا ما يظهر عنهُ شاعر قوي الروح العربية كالمتنبي

ومن المهم ان نقول انهُ لا يجب ان نخلط بين شعر ابن الرومي وبشار بن برد وأبي نواس وغيرهم من الذين لهم أصل أعجمي وبين شعر شعراء العربية الخالصين ، فان ما في ادب هؤلاء من الطلاقة الموضوعية راجع لوراثاتهم ، وإن اضعف منها بعض الشيء تأثرهم بالأخيلة العربية

ولقد خيل الى كثيرين من نابهي الباحثين الافرنج والعرب ان هنالك سرًّا تكمن وراءه اسباب خفية ، جعلت العرب يتقبلون تراث الهيلينيين الثقافي في الفلسفة والعلوم ويرفضون تقبل آدابهم ، ولقد ذهب الوهم بالبعض الى حد انهم حملوا هذا على معاندة طبيعة الآداب الاغريقية

(١) I. A Edham في Al-Zahhawy, the Poet ١٩٣٧ ص ٩ — ١٢ و Germanus في Apollo مجلد ١ ج ٧ (مارس) ١٩٣٣ ص ٣٨٣ و Gauthier في Introductionà l'ethode de la philosophie Musulmane — التوطئة

والشعر اليوناني للدين الاسلامي[1] والواقع انهم توهموا خطأً ان العرب هضموا تراث اليونان في الفلسفة والعلوم ، اذ الحقيقة ان الصور العلمية والفلسفية التي قامت في نطاق المدنية الاسلامية ليست الاّ امتداداً للحركات العلمية والفلسفية في الشرق الادنى التي كانت قبل الاسلام[2] وجاء الاسلام يحتضنها بعد المسيحية . ونظراً لان اللغة العربية كانت لغة الاسلام الرسمية ، فان هذه الحركة في صورتها العلمية والفلسفية كانت قد احلت العربية لغة لها بدلاً من السريانية. من هنا يمكننا ان نعرف سر عدم معرفة العرب للشعر اليوناني خاصة والادب اليوناني عامة . فتحدر الثقافة اليونانية للعرب لم يحمل للعرب أدب الأغريق وشعرهم[3]. ومن اتصل من العارفين بالعربية باللسان الاغريقي ووقع على الآثار الأدبية في لغة اليونان ، انصرف عنها لأنهُ وجد نفسه أمام عوالم لا تقوم لها في نفسه قائمة ولا تستند من ذاته الى أساس . وهكذا قدر للعرب ألاّ يعرفوا الآداب اليونانية فلا يتأثرون بها ولا يعمدون الى محاكاتها حتى كانت النهضة الحديثة فوقفوا على بعض آثارها في آداب الافرنج ، ثم نقلت الى لغتهم الملحمة الرائعة «الالياذة» في اوائل القرن العشرين ، فكانت مقدمة تحول عظيم

هذا ووقفت طبيعة العرب المحافظة من جهة ، وعدم التأثر بآداب الامم الاخرى من جهة أخرى ، مع الطابع الخالد الذي اعطاه القرآن للغة العربية ، فكان سبب تبلور الشعر العربي عند صور معينة ، تقف عندها اغراض الشاعر العربي . وهذا مايظهر في اغراض الشعر الاتباعي العربي

— ٢ —

يقول ابن خلدون منذ نيف وخمسمائة عام في المقدمة حين عرض لذكر الأدب والشعر ما ملخصه:

(الشعر في لسان العرب كلام مفصل قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ، ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه روياً وقافية . وتسمى جلة الكلام الى آخره قصيدة . وينفرد كل بيت منه بافادته في تراكيبه حتى كأنه كلام مستقل عما قبله ومابعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح او نسيب او رثاء ، فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ، ويستطرد من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطىء المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثاني ، ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من النسيب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب او الخيل او الطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الدماء الى التأثر وأمثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من ان تساهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على أكثر الناس ولهذه الاوزان شروط وأحكام تضمنها علم العروض. . . .وفن الشعر ملكة

---

(١) اسماعيل مظهر في مبحثه «تأثر الثقافة العربية بالثقافة اليونانية» ص ٣١ — ٣٢ من كتاب « نواح مجيدة من التاريخ الاسلامي » نشر المقتطف القاهرة ١٩٣٨

(٢) اسماعيل أحمد أدهم في « تحدر الفلسفة والفكر اليوناني الى العرب في القرون الوسطى » ص ١ — ١٨ على وجه خاص

(٣) Margoliouth في Journal of the Royal Asiatic Society of London ١٩٠٥ ص ٤١٧ وما بعد

تكتسب بالصناعة والارتياض في كلام العرب حتى يحصل شبه في تلك الملكة وحيث ينزل الكلام في قواليه، ولا يكفي في الشعر ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاولة في رعاية الاساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها حيث ان الاساليب عندهم عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب او القالب الذي يفرغ فيه . ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعاني الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن صناعة الشعر ، وهي انما ترجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصور ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب او المنوال. ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعل البناء في القالب او النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام . ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه . فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقول الشاعر : (يا دارمية بالعلياء فالسند) ، ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله (قفا نسأل الدار التي خف أهلها) ، او يكون باستبكاء الصحب على الطلل كقوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ، او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقول الشاعر ، (ألم تسأل فتخبرك الرسوم) ، ومثل تحية الطلول بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله : (حي الديار بجانب الغزل) ، او بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أسق طلولهم أجش هذيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

او سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلا بالابرق واحد السحاب لها حداء الاينق

وأمثال ذلك .... ، فمن أراد قرض الشعر كان هو كالبناء او النساج والصورة الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبنى فيه او كالمنوال الذي ينسج عليه ، فان خرج عن القالب في بنائه او عن المنوال في نسجه كان شعراً فاسداً)(١)

وهذا كلام له خطرهُ في الدلالة على روح الاتجاه الاتباعي في الشعر العربي. فان الأغراض التي قال فيها الشعر والأساليب التي اتخذها لصيغ هذه الاغراض شعراء العربية المتقدمون في الجاهلية ، أصبحت منوالاً لمن اتى بعدهم يصوغون شعرهم بالنظر اليه وينسجونه عليه . ولاشك ان انصراف شعراء العربية عن قول الشعر على اعتبار ان الشعر فيض الشعور والوجدان ، الى جعله صناعة تقوم على كثرة مطالعة دواوين الشعراء المتقدمين حيث ينشأ من كثرة القراءة والمرانة على مراجعة اساليب صوغ الشعر ، قالبٌ كليٌّ من التراكيب يتركز في ذهن الشاعر فيفرغ فيه صور ما ينظم من الشعر . وهكذا قدر في ظل الاتجاه الاتباعي للشعر العربي ان يخرج عن دائرته الفنية لينتهي منها الى دائرة الصنعة . ومع الزمن اصبح الشعر العربي يفقد عناصره الوجدانية والشعورية ويتحجر عند صور وأشكال ويضحى مجرد وشي وزخرف كما انتهى في يد البحتري والشعراء الذين أتوا من بعده

ولاشك ان لطبيعة الذهن العربي من حيث تعرب عن آثار الأشياء في النفس وصداها يداً كبرى في هذا التحول من جهة قيام الحاسة الفنيّة عند العرب مرتبطة بأشكال الأشياء لذاتها فان ذلك مهد السبيل لمثل هذا الاتجاه ، عن طريق الترابط السببي بين اشكال الاشياء والتعبير عنها.

---

(١) ابن خلدون في المقدمة — طبع استانبول ٦٠٢ — ٦٠٤

ذلك ان طبيعة العربي « لما كانت لا تستوعب كل صورة شعرية بخصائصها. فاذا الشاعر على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن ان يوغل فيه واذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره . واذا هو يمرّ على الحياة الداخلية للأشياء مرًّا سريعاً . واذا كل آثاره الشعرية أوصاف لا شعور »(١) وكان هذا سبباً لجعل العقل العربي يقف عند صور الأشياء وأشكالها دون ان ينفذ الى ما وراءها ، فلما كدّ الذهن في استنباط أوضاع أشكال الأشياء في صداها وأثرها في النفس كان ان نشأ من ذلك القوالب التي هي من صنع العقل المحض وصوغ الذهن الصرف ولهذا خرج الشعر العربي في عمومه زخرفاً ووشياً مرصعاً حتى أن ابا العلاء وهو اكبر شعراء العربية العقليين التزم ما لا يلزم في الشعر جرياً وراء المحسنات اللفظية وانواع البديع من جناس وتورية ومطابقة وما اليها من محاسن التعبيرات وهذا ان كان يدل على شيء فانما يدلّ على استحكام الروح التقليدية من جهة الخضوع لاتجاه الذهنية العربية . وكان ذلك من أسباب ابتعاد الشعر العربي عن البناء فلم ينمُ محتوياً على ملاحم ولا قصص ولا تمثيل

وخرج الشعر العربي « وشياً مرصعاً يلذ الحس فسيفساء اللفظ والمعنى و « أرابسك » العبارات والجمل كل بيت شعر للبحتري كانه باب لجامع المؤيد تقطيع هندسي بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب (٢)

— ٣ —

ظل الشعر العربي في أيام الامويين حتى ايام ازدهار الحكم العباسي يرسف في القيود التي وضع مباديءها شعراء العربية في الجاهلية فسار في ركابهم الشعراء المخضرمون فشعراء الاسلام . فلما أخذت المدنية الاسلامية تفتح في ميادين الثقافة العامة عن صور لم يعرفها الفكر العربي من قبل تحت تأثير الفكر اليوناني ، تجرأ بعض شعراء العربية على القوالب التي يصاغ بالقياس لها الشعر فخرجوا عليها ، فكان ذلك سبباً لانقلاب كبير غير انهُ لم يكن كبير الأثر في تاريخ الادب العربي ذلك ان الروح الاتباعية عند العرب طغت على هذه المحاولة ، فجعلت من وجه عرض هذا النفر من الشعراء لكلامهم منوالاً قاس الشعراء المتأخرون عليه شعرهم من بعدهم

كانت هذه الحركة الجديدة ثورة على القوالب التي قيّد الشعور العربي بها في الشعر القديم ، وكان رائد هذه الحركة المتنبي وسار في ركابه الكثيرون من بعده. فكان المعري في سوريا من جهة الشرق الأدنى وابن هانيء في الاندلس من جهة المغرب . غير ان هذه الحركة من حيث قامت على أساس الرجوع بالتعبير في الشعر باعتبار افادته أصل المعنى والشعور في صيغة كاملة ، تعرضت لحملة شيوخ الادب في ذلك العصر فأنكرت عليهم شاعريتهم وكان كما يقول — ابن خلدون — ان

(١) مصطفى صادق الرافعي في المقتطف نوفمبر ١٩٣٢ ص ٣٨٩
(٢) توفيق الحكيم في كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٥ — ٦٦

اعتبر شعرهم نظماً ينزل دون مرتبة الشعر ومنزلته

هذه الحركة الجديدة تعتبر اول خروج على القديم في تاريخ الادب العربي ، وكان رائدها المتنبي ، غير ان شعراء الاندلس ساروا بها الى ابعد الشوط ، بيد أن هذه الحركة نظراً لان ثورتها تنال القوالب الاتباعية في الشعر العربي ، لم تبلغ في جرأتها حد الخروج على الزخرف والوشي البياني . ذلك ان الزخرف البياني من مستلزمات الروح العربية في الشعر ولا يعترض علينا بأن الشعر العربي احتوى على مقطوعات رائعة المعنى صادقة في وصف الشعور الى الحد الذي تسمح به الطبيعة العربية — التي تصف آثار الاشياء في النفس وصداها — فان معظم هذه المقطوعات يرتبط ما فيها من المعاني بالالفاظ .آية ذلك أنك لو جردت تلك المقطوعات التي تعتز بها العربية من مشرق اللفظ ومونق المعنى المرتبط لزاماً بذلك اللفظ ، لوقفت حيراناً لا تعرف وجهاً لها ولا غرضاً . وهذه حقيقة لمسها الباحثون من رجال الاستشراق في أوربا حين عمدوا لنقل الشعر العربي الى لغاتهم وقد اعترف بهذه الحقيقة النابهون من أدباء العربية وكتابها (١)

من هنا نجد ان القواعد التي عرفها الغربيون في نقد الشعر لا تصلح كل الصلاحية في نقد الشعر العربي فان له خصائصه التي ينفرد بها مما يستلزم أن ينظر اليه من قواعد خاصة به في النقد الادبي تكافأ مع خصائصه . والواقع ان القدماء من شيوخ الادب العربي وضعوا مبادىء في نقد الشعر مهما تظهر لنا اليوم جوفاء من جهة نظرتنا المتأثرة بمبادىء النقد الاوربي فانها بلا شك مقياس صحيح الى حدٍّ كبير لنقد الشعر العربي وتمحيصه ، ذلك ان الشعر العربي ان كان باعتراف أعلام الباحثين فيه من افرنج وعرب ، ومن مختلف المدارس الاوربية اليوم ، مستنزل من النظر في صورة الاشياء دون ان ينفذ الى ما ورائها فالقليل الذي في الشعر العربي من النافذ الى ما وراء الصور الخارجية للأشياء راجع لقوة في الطبيعة الشاعرية، تغلب بها الشاعر على الاتجاه العام الشعري في الوقوف عند أشكال الأشياء فنفذ الى ما ورائها واتصل بالروح الداخلية التي تتظاهر في قوانين مستترة تتحكم في هندسة الاشكال المنظورة والصور المحسوسة. ومن هنا فالنقد الادبي من حيث يتصل بالطابع العام ، سيراعي قيام الشعر العربي على أساس انصرافه لاشكال الاشياء الا أن القليل الذي لا يقف عند أشكال الاشياء فينفذ الى ما ورائها سيستقل بقاعدة من النقد الادبي تباين القاعدة العامة المتكافئة مع الطابع العام للشعر العربي الاتباعي

وهكذا قامت صعوبة دراسة الشعر العربي الاتباعي . غير ان هذه الصعوبة في الامكان التغلب عليها بشيء من الصبر والامعان والتدبر ، حيث يعطى الانسان كل شعر من الشعر العربي

(١) خليل مطران في الهلال م ٤٦ ج ٨ (يونيو ١٩٣٨) ص ٩٠٥ وكذلك طه حسين في المكشوف ، السنة الرابعة ، العدد ١٧٧ ص ٢ عمود ٣

ينفرد بطابع خاص له منهجاً في النقد يكافئه . غير ان هذه المناهج ستشترك في قاعدة عمومية تلك التي تستنزل من فهم حقيقة نوع ذلك وطابعه . وهكذا يمكن الوصول للعنصر الشعري المتميز في المقطوعات المدروسة وان اختلفت طوابعها الظاهريَّة

هذا المتنبي الذي يمثل كمال الاتجاه الشعري العربي[1] ، وهذا ابن الرومي الذي يمثل كمال الاتجاه الشعري الاعجمي الآخذ بأسباب العربية في الشعر العربي[2] فان في الامكان دراسة شعرهما من قاعدة مشتركة في النقد الادبي مع ملاحظة طابع كل شعر هذه القاعدة هي قاعدة الشعر العامة

على ضوء هذا الكلام يمكننا ان نعطي قواعد القدماء في نقد الشعر قيمتها الحقيقية دون ان نقع في خطأ المغالاة في اتهامها . اذ الحق ان القواعد التي رسمها شيوخ الادب من القدماء للنقد الادبي للشعر من وجهة النظر لكيفية استنزال الشاعر لمعانيه ، وملاحظة اوجه التوارد بينه وبين من نظموا في الاغراض الذي نظم هو فيها ، تتفق الى حدٍّ كبير مع حقيقة كون الشعر العربي يقوم على اساس اتباعي . وما دام سبيل الشاعر العربي الاتباعي في قوله الشعر راجعاً لمراناته على أساليب صوغ الشعر حتى يحصل معه قالب كليٌّ من التراكيب يتركز في ذهنه فيفرغ فيه صور ماينظم من الشعر، فان ملاحظة تأثر الشاعر بأساليب الشعراء المتقدمين ومعانيهم ووجه هذا التأثر مهمة لأنها مقياس للتكلف الشعري اذا بدا التأثر واضحاً بقوالب من التراكيب جزئية للشعراء المتقدمين ، كما أنها مقياس للاصالة الشعرية ان كان الشاعر يصوغ شعره في قالب كليٍّ وان استحصل عليه بالصناعة التي تماشت مع شاعريته

غير ان الجانب الصناعي طغا على الشعوري في الشعر العربي حينما اخذ الشعر العربي يتدهور ويفقد عناصره القوية حين مال ميزان العرب الى الغرب وسقطوا عن عرش الخلافة . وكان هذا التدهور سبباً لتحجر الشعر العربي عند صور لفظية وضروب من البديع والمحسنات الكلامية . وفقد بهذا التحجر والجمود الشيء القليل من الجمال الفني الذي كان يحماه في الاسلوب والذي كان يقوم على الطلاقة في استخلاص الأشكال والصور . واصبح الشعر العربي ميتاً من حيث فقد مع هذا الجمود اللغة التي كانت تتراقص فيها الأطياف والألوان والأضواء وكانت أظهر ميزة في الشعر العربي القديم

وبلغ التدهور في الشعر العربي غايته في عصور الظلام ايام حكم الأتراك العثمانيين إذ كان من وراء العكوف على طرائق القدامى وتقليدهم من جهة وضعف ملكة الابتكار من جهة أخرى ان تحجرت القوالب الشعرية في يد الشعراء المتأخرين . وكان من ذلك ان خفتت شخصيتهم وتلاشت ملكة الابتكار فيهم في التقليد والمحاكاة . فأصبح الشعر صناعة . ولكن صناعة مبتذلة وسائطها معرفة العروض

(١) طه حسين في كتاب مع المتنبي وشفيق جبري في المتنبي وكذا أنظر R. Blachére في — About Tayyib al-Motanabbi

(٢) عباس محمود العقاد في كتابه ابن الرومي

والبديع والبيان بدون اعتبار للسليقة الشعرية من حيث تهذب بأساليب وصور الشعر العربي القديم الرائع وكان نتيجة ذلك ان كثر التجنيس والتورية والمطابقة وما اليها من محاسن النظم في منظومات الشعراء واصبحت تطلبها لذاتها ففسد الشعر وانحط

خاتمة

أخذ العالم العربي في مستهل القرن التاسع عشر ينفض عن نفسه ماعلق به من غبار الجمود ويعمل على استعادة ما كان له من اثيل المجد في القرون الوسطى فكان من ذلك نهضة الشرق العربي الحديثة . وقد قامت هذه النهضة في الاصل بعثاً لتراث العباسيين والاندلسيين في الادب والشعر واللغة. فكانت من ذلك امتدداً لثقافة العرب الاتباعية .غيران المدنية الأوروبية التي كانت مركز الثقل في حياة العصور التي يتكون من جماعها التاريخ الحديث ، عملت على غزو الشرق الناطق بالعربية مع حملة نابليون (١٧٩٨—١٨٠١) فقامت من ذلك الحين للثقافة الاوربية مراكز في الشرق الادنى ، وكان من اهم هذه المراكز مصر ولبنان وهكذا ظهر مقترناً بحركة البعث لتراث الماضي حركة اخرى تعمد الى الأخذ بآثار المدنية الاوربية في مختلف ميادين الثقافة ، وكان الانفصال بين القديم وهو رجوع لينابيع الماضي وبين الجديد الذي هو اخذ بما انتهت اليه المدنية الاوربية الحديثة [1] غير ان هذا الانفصال لم يتميز حتى اواخر القرن التاسع عشر

اما مصر فقد بدأت تاريخها الجديد بقدوم نابليون على رأس الحملة الفرنسية لفتحها في اواخر القرن الثامن عشر ، كما أنها وجدت بعده في شخص محمد علي من يبدأ فيها عصر نهضة قامت عملية في عهده،لتنتهي علمية في عهد حفيده اسماعيل . وكان من مظاهر هذه النهضة تأسيس مدرسة الالسن عام ١٨٣٦ وارسال البعوث العلمية والصناعية الى أوروبا وعلى وجه خاص لفرنسا . وكان نتيجة ذلك ان خرج جيل من شباب مصر ينزع منزع الغربيين في تفكيرهم ومنطقهم . غير ان هذا الجيل لم يتمكن من القيام بشيء ذي أثر من حيث رجع الى بيئة وقفت جامدة. على أنهم نقلوا جانباً من تراث أوروبا العلمي والفكري الى العربية والتركية ، وكان ابراهيم باشا ادهم ثاني وزير للمعارف المصرية شاملا هذه الحركة بعنايته . غير ان هذه الحركة لم يكن لها تأثير مباشر في الادب العربي . ذلك أنها قامت عملية في اغراضها فكانت وجهتها المسائل الصناعية الصرفة والعلمية العملية . فلما جاء اسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ حول حركة اتجاه الترجمة بعد ان كانت قد أخذت في التلاشي في عهد سلفيه الى

(٢) H. A.R. Gibb في The Nineteenth Cuturye من مجموعة Studies in Contemporary Arabic Literature في مذكرات مدرسة اللغات الشرقية بلندن م ٤ (١٩٢٨) ص ٧٤٥—٧٦٠

الدائرة العلمية،فكان نتيجة ذلك ان ترجمت الى العربية بعض الآثار الاوربية وأخذ الادب العربي في مصر يتأثر بمتجه الآداب الغربية ، وكان من الاسباب غير المباشرة لهذا التأثر تطور الادب العثماني تطوراً كبيراً على يد شناسي و نامق كمال واخذه صورة قريبة من الآداب الغربية .وكان أثر ذلك غير قليل على جيل أدباء العربية في منتصف القرن التاسع عشر من حيث كانت اللغه التركية اللغة السائدة في مصر . وهكذا أخذ الجديد يستجمع الأسباب مستقلاً بمصدره وغاياته عن حركة بعث القديم التي كانت وقفاً على الرجوع لينابيع العرب الأصلية في الادب والشعر والفنون وارجاعها لعالم الحياة بعد أن طوتها يد الزمان خمسة قرون فارسلت عليها غباراً من النسيان وكان يساعد حركة بعث القديم في الشرق العربي محاولات رجال من الغربيين اوقفوا انفسهم على درس آثار الشرق في عصوره المختلفة من حيث عمدوا لنشر جانب عظيم من المكتبة الادبية العربية من وسائل التحقيق العلمي

اما في لبنان وسوريا ، حيث كانت الهيئات الدينية على صلات وثيقة بأوربا منذ القرن الخامس عشر ، فقد ساعد ترابط الشرق الادنى بالوسائل الصناعية التي انتهى اليها الغرب بالعالم الاوروبي على توافد البعوث اليها ، وأصبح لبنان مركز نشاط عظيم وتنافس بين البعوث المختلفة التي ترجو نشر ثقافاتها ولغاتها الخاصة والتبشير بمذاهبها الدينية وتقوية نفوذ دولاتها سياسيًّا واقتصاديًّا . فكان من أثر هذه المحاولات ان شرعت العقلية العربية في لبنان وسوريا وخصوصاً في بيئاتها المسيحية تنفض عن نفسها غبار الجمود وتعمد لمسايرة المدنية الغربية في اتجاهاتها ومظاهر ارتقائها . وحدث ردّ فعل لهذه الحركة تمثلت في الرجوع لينابيع الماضي في الادب والشعر واللغة ، فكان من ذلك حركة بعث عظيمة للقديم في لبنان تمثلت حيناً في مدرسة اليازجي

وكان أثر هذا التطور كبيراً في الشعر العربي الذي أخذ بدءاً ذي بدء يتحرر من المحاكاة الصرفة الى محاكاة فيها شيء من التحرر والشخصية وهذا ما يظهر في شعر معظم شعراء القرن التاسع عشر، في شعر اليازجي والبستاني في لبنان وسوريا وفي شعر الساعاتي وعبد الله نديم في مصر . وكان من آثار هذا التحرر وبروز الشخصية ان وجد الشعر الاوربي سبيلاً للتأثير في شعراء العربية ، وهذا التأثير يبدو واضحاً في شعر عبد الله فكري من شعراء مصر وشعر سليم عنحوري صاحب آية العصر من شعراء الشام غير ان هذا التأثر كان في العموم بالمدرسة الرومانسية الفرنسية التي بلغت القمة في شعر لامارتين إلاّ ان هذا التأثر لم يبد قويًّا في الاغراض الشعرية وفي التحرر من روح النظم العربي ولكنهُ كان السبيل لانقلاب خطير تمثل في محاولة خليل مطران نقل الشعر العربي من ناحية الاغراض العربية لناحية الاغراض الاوروبية . وبهذه المحاولة تميز الانفصال بين المذهب القديم الاتباعي في الشعر والمذهب الجديد الابداعي



الأخلاق والحضارة

« الحضارة كالخمر تظهر المناقب والمثالب »

لعبد الرحمن شكري

يقولون إن الحضارة مفسدة للاخلاق وهذا قول نصفهُ حق ونصفهُ باطل كما هو شأن الجمل العامة التي تطلق على علاتها فان الحضارات يختلف مستواها الخلقي وللحضارات محاسن خلقية كما ان لها رذائل والحضارات تختلف مظاهر الأخلاق فيها في أطوارها وعلى حسب الآساس التي بنيت عليها ولنقيض الحضارة مفاسد خلقية ايضاً والمتحضر يبالغ في مفاسد نقيض الحضارة قدر مبالغة غير المتحضر في مفاسد الحضارة أو انهما لا يكادان يريان غير المفاسد وهو الاصح لأن النفس البشرية هي التي قد تبالغ في اظهار مفاسدها . ويقولون ان علوم الحضارة الحديثة مفسدة للاخلاق متلفة للمناقب والصواب انها تنشىء فرصاً لاظهار ما استتر في النفس من خير لا يرجو جزاء ومن شر لا يخشى عقاباً وانما مثلها مثل الخمر التي تظهر المناقب والمثالب من خير وشر فمن كان كريماً اظهرت كرمه ومن كان لئيماً كشفت عن لؤمه . ففكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الاضعف او ببقاء الأصلح للحياة وهلاك الأقل صلاحاً لها (لأن الاضعف جثمانيًّا قد يكون في لبه من الهبات الصالحة للحياة أكثر مما في لب الأقوى) أقول هذه الفكرة قد أُولت تأويلا يعذر القوي في استبداد الضعيف ويعذر الضعيف عند نفسه في خنوعهِ ويسخر من المبادىء السامية . قال الاستاذ هولاند روز المؤرخ الانكليزي في اسباب تغلب حب الاستعمار والسيطرة (انهُ لما ذاعت فكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الأضعف جعل الناس يتساءلون لماذا يُحتَمى الضعيف اذا كان صلاح الكون في ضياعهِ وهلاكهِ) . فكانت هذه الفكرة كالخمر زادت وأبرزت ما في النفس من حب الاستعلاء . وقد بالغ المفكرون حتى ظهر بينهم من يقول ان التشبث بالجنس والوطن لا يؤلف القلوب كي تتعاون في نشر السلم والحضارة العالمية والامن والسعادة وكي تسعى في رقي الانسان والانسانية عامة. وقال المؤرخون ان التشبث بمبادىء المحافظة على الجنس والوطن سرعان ماينقلب الى ضراوة استعمارية ورغبة في السيطرة والحروب كما ظهر مراراً في تاريخ أوربا

الحديث كلما قويت جنسية من الاجناس التي كانت تنادي بمبادىء العدل العام والسلم عندما كانت مقهورة مغلوبة على أمرها فانها اذا قويت لا تلبث ان تنادي بأن الحضارة العالمية لا تحقق الاّ بتناحر الأجناس وتقاتلها حتى وإن كان في آلات القتال الحديثة ما يهدد العالم بالخراب

وقد ارتاع بعض المفكرين وخافوا على أممهم من تفشي مبادىء الفلسفة الهادمة وقد جعل بعضهم يروّج العقائد الدينية بوسائل قديمة جديدة مثل تشجيع تحضير الارواح وذلك لأنهم خافوا على الحضارة من مبادىء الفلسفة المادية وخافوا على الأخلاق منها وكان تشجيعهم تحضير الأرواح كي يثبتوا بأدلة مادية عقيدة خلود الروح تلك العقيدة التي كانت تدفع بالمجاهدين من المسلمين في صدر الاسلام في لهوات الموت غير مكترثين له موقنين ان الموت ليس لهُ سلطان على الروح وأنهم اذا خسروا هذه الحياة الدنيا الفانية فقد ربحوا الحياة الباقية فكان من وراء ذلك الاعتقاد استعلاء أمتهم وسيطرتها. ولعل من أسباب زيادة نصرة المفكرين لمذهب استحضار الأرواح ومكالمتها وذيوعه في السنين الأخيرة رغبتهم في مواساة من مات لهُ قريب او حبيب في الحرب العالمية الكبرى (مواساته او ابتزاز ماله) ورغبتهم في حث الجماهير على ان يجودوا بحياتهم لنصرة أمتهم إذ ان لهم وراء هذه الحياة حياة باقية. فان المرء لا يجود بحياة ليس لهُ غيرها قدر ما يجود بحياة وراءها حياة خير منها وبقدر يقين المرء وإيمانه بالحياة الأخرى يكون جوده بهذه الحياة . على ان الدفاع عن الأهل والوطن أصبح طبيعة لا يلبث المفكر طويلاً حتى يؤوب اليها وقد وصف الكاتب الفرنسي موريس لو بلان هذه الحقيقة في قصته المسماة (على الحدود) وقلما تجد من له شجاعة او عناد يمكنهُ من ان يمتنع عن الدفاع عن بلده وان يقف موقف رومان رولان الكاتب الفرنسي الشهير في اثناء الحرب العالمية وان كان قد حاكاه في انجلترا أناس صاروا يسمون بطائفة «اعتراض الضمير». نعم إن هذا الدفاع يصير اندفاعاً آليّاً باعثه الخوف والخوف شجاعة وحماسة في اندفاعه ولكن شتان بين شجاعة اندفاع الخوف وشجاعة العقيدة والأمل والرغبة في الحياة الباقية الأخرى

لكن الباعث عند جمهور الناس هو ان يفدي المرء وطنه بحياته محافظة على عاداته ومبادئه والفوائد التي يشترك فيها اهل الوطن. والشجاعة مزاج في النفس وقد تتوافر بالرغم من اعتناقه آراء الفلسفة الهادمة كما أنها قد لا تتوافر بالرغم من اعتقاده في خلود الروح. فاذا كان المسلمون قد أقدموا على الموت في حروبهم في صدر الاسلام فقد أقدموا لأن اعتقادهم في خلود الروح كان مقروناً عندهم بمزاج الشجاع القوي ولوفرة نصيبهم من الحيوية . وكم من جيوش قد هُزِمت وجبنت بالرغم من اعتقادها في خلود الروح. وتحضرنا الآن ذكرى قصة شائقة من قصص الكاتب الاميركي جاك لندن وعنوانها (دين آبائهِ) وفيها يصف كيف ان قسيساً ضعيف الاعصاب

والارادة عند ما هدده رجل مجرم ثائر من سلالة التزاوج بين البيض والهنود الحمر، وخيّره بين الحياة مع انكار المسيح وشتمه وبين الموت اختار الحياة مع انكار المسيح بالرغم من انهُ كان من المبشرين. ولما خيّر رجلاً آخر من العتاة الملحدين فضل القتال حتى الموت واستحيا من ان يجعل انكار دين آبائهِ وسيلة للنجاة من الموت

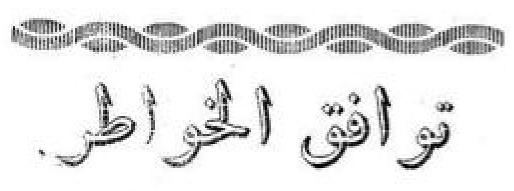
وقس على ذلك أثر الحضارة في المعتقدات الاخرى فان بين الناس من ينصر الفضيلة بالرغم من اعتناقهِ الآراء المادية الهادمة ومنهم من ينصر الرذيلة بالرغم من اعتقاده في الحياة الاخرى والجزاء والعقاب . ولكن مما لا شك فيهِ ان الكفر بالحياة الاخرى قد أصبح مثل الخمر التي تظهر مكامن النفس وكثير من النفوس لا تمتنع عن الاثم والجرم الاَّ رغبة في جزاء في الآخرة او خشية عقاب. فالالحاد كالخمر يظهر ما كمن من الشر فيها وما تعالج من ميوله . فالفضائل والرذائل طبائع في النفوس وقد ترى في الناس من يفخر بالرذيلة وهو منها اقل نصيباً مما يقول اذا شجعتهُ بيئتهُ على ذلك الفخر كما ان من الناس من يفخر بالفضيلة وهو قليل النصيب منها ولكننا نسرع الى تصديق الاول ونسرع الى تكذيب الثاني في كثير من الاحايين وان كان للخداع مجال في الحالتين

وبين الناس طائفة اخذتهم نشوة بعض الآراء الفلسفية فقالوا ان الفضائل من مظاهر الضعف كالولاء والامانة والوفاء والعدل والذمة وقالوا ان النفوس القوية لا تتقيد بها و يسمون الفضائل اخلاق الضعفاء وسجايا العبيد وهم انما يقولون هذا القول كي يقضوا على النظام الاجتماعي الحاضر لمخالفتهم نظمه ومبادئهِ الاقتصادية . فقولهم انما هو سلاحٌ مؤقت لاحقيقة ثابتة ويسرُّ باستخدام سلاحهم هذا المجرمون الذين تدفعهم رذيلتهم الى اعتناق هذه النظريات الهادمة ، لا ان هذه النظريات الهادمة هي التي تخلق رذائلهم . ويقولون ماذا يهمنا ان يلحق الضر غيرنا من الناس ولماذا نبالي الناس ويقولون انهُ فرض عليهم ان ينمّوا انفسهم بأن يطلقوا لها العنان فتسترسل فيما تريد ويقولون سيان ارتكابك الشر وغشيانك الخيرما دامت الحياة فانية. ويقولون ان حياة الملايين من البشر ليست اعظم عند الطبيعة من حياة الضفادع او الحشرات. وتنتشر هذه المبادىء اذا اشتد التناحر على المعاش وقلت الثقة بالنظام الاقتصادي او النظام الحكومي ويزيدها الشعور بالغبن وقلة الانصاف . على ان المرء لو لم يراعِ اخلاق الكمال هذه بعض المراعاة في معاملة من لا يؤمن بها لارتاع ذلك الجاحد لها وذم نفوس الناس. والضرر الذي يلحق الجاحد لها لا يأتيه من ناحية ابناء قومه فحسب بل يلحقهُ ايضاً من الضعف الذي يذل امته بسبب تفشي هذه الاخلاق فيها ولكنهم يقولون اذا كانت الامم تستبيح غشيان الرذائل في معاملة الامم الاخرى فلماذا لا تجيز الأفراد ذلك في معاملة الواحد للواحد منهم كي يبقى الأصلح للبقاء وهم لو فعلوا

ذلك وساروا على هذه الخطة كل السير لاهتضمهم قوم آخرون لتخاذلهم. واما بقاء الأصلح فيكون باتباع مثل الكمال ولو الى حد ما . ومما يجلب الوهن ايضاً والتخاذل وانعدام الثقة بالاخلاق والفضائل تقديس الحقوق الفردية الى حد ان يكون كلُّ فردٍ كجزيرة مستقلة في بحر الانسانية لاشأن له بغيره . ومبدأ الفردية هذا قد يكون من نتائج المغالاة بالحرية الشخصية التي تسنها المبادىء الديمقراطية ولكنهُ ايضاً قد يكون من مظاهر التخاذل والاثرة في الامم القديمة التي مرت بها عصور حكومات مستبدة جعلت كل انسان لا يفكر الاَّ في نفسه وجعلت كل انسان من المحكومين المقهورين على طبائع الحكام فيصير كل انسان من المقهورين مستبدًّا صغيراً يعامل المقهور مثله بطباع الاستبداد في الرأي والفعل والمشيئة . فاذا أتيحت فرصة عمت فوضى شاملة لأن كل انسان في تلك البيئة على طبع الاستبداد لا يقدس غير أثرته وهو يظن ان طبعه هذا فضيلة التمسك بالحرية وبالمبادىء الديمقراطية لنفسه ويمدح نفسه لدى نفسه ولدى غيره اذا لجَّ في فوضى الاستبداد وطبائعه زاعماً أنهُ بطل من أبطال الحرية وهو ضحية عصور الاستبداد القديمة وطبائعه الراسخة في نفسه . واذا انتشرت في بيئة هذا الانسان المبادىء المضللة التي تزري بالفضائل والاخلاق وتعدها من سجايا العبيد كان الاضمحلال أعظم والخطر أشد . ولا سيما اذا تكاثر السكان واشتد التقاتل على المعاش وأبرز هذا التقاتل غثاء النفس كما تبرز القدر الفائرة قذاها ويفوت هؤلاء ان حدود الاخلاق هي من تجارب الانسان ومن ثمرات خبرته وهي تراثه الطارف والتليد وذخره النفيس وقد سمعت انساناً يتغنى بقصيدة لشاعر أوربي هو على ما أذكر من الشعراء الاغريق الحديثين ويقول الشاعر في قصيدته (خذ معولاً واهدم بهِ كل ما يعتقد الناس انهُ جميل او جليل او مقدس من الآراء والانظمة والفروض والاخلاق واهدم ماضي الانسانية كله ولا تذرف عليهِ دمعة) وهذه هي الفوضوية بعينها وقد نسي امثال هذا انهُ لو اتيح للفوضوية ان تنشىء حكومة ثابتة لكان اول همّ هذه الحكومة كي تتمكن من البقاء ان تقضي على الفوضوية ذاتها

وكل مذهب من المذاهب الهادمة للاخلاق قد جرب فيما مضى من الزمن ونبذ بعد حين حتى المذهب الذي يغري بالشرور كي تعرف الانسانية ان الحياة شر وتنقطع عن التناسل

ومهما تعظم شرور الحياة فان في النفوس قلعة للايمان بها وبارادة الله فيها وكلما دُكَّت قلعة في النفس لذلك الايمان بنيت على انقاضها قلعة أخرى أو كما قال امرسون الاميركي (ان في قلب المرء معبداً كلما تهدم بنى الله على انقاضهِ معبداً آخر) وقد يلوّث هذا المعبد ما في النفس من شر ولؤم حتى تحسب النفس ان شرها ولؤمها خير لا ينفصل عن ذلك المعبد ولكن من الايمان بالحياة وبارادة الله فيها أن نعتقد ان شر النفس ولؤمها سيطهر منهما ذلك المعبد



توافق الخواطر

بين العلماء والمخترعين (1)

لمحمد عاطف البرقوقي

توافق الخواطر بين العلماء امثلة كثيرة في تاريخ العلوم والعلماء، ولا غرو فأن الخواطر العلمية نتيجة تسلسل طبيعي، ومقدمات ثابتة، وحقائق علمية، وتثار بين عدد من العلماء بمناسبات، وحيث ان هذه المناسبات علنية وتنشر في المجلات العلمية وتعرف في بيئاتها، فيضطر كثير من العلماء عند الوقوف على اختراع جديد أو نظرية جديدة الى أن يدلوا دلوهم في الدلاء، ويتجه عدد منهم نفس الاتجاه، وهنا تقع منازعات وربما تؤدي الى الدخول في المحاكم وطلب رأي القضاء، واني اتشرف هذا المساء بذكر بعض امثلة من هذه الحالات الشائقة، لعل ذكرها ينفع المؤمنين، ويوجه الشرق نحو العناية بالعلماء والمخترعين

***

﴿ بين فاراداي وهنري ﴾ : وأول مثال أذكره هو ذلك المثال الذي وقع بين فاراداي الانكليزي وهنري الاميركي، وليس بمستغرب ان يقع بينهما توافق الخواطر مع أن المحيط الاطلسي يفصل بينهما، وشتان بين العالم القديم والعالم الجديد

وفاراداي هو ذلك العالم الطبيعي الكبير الذي ولد في انكلترا سنة ١٧٩١، ولم ينل من التعليم الا قسطاً يسيراً كما اعترف هو عن نفسه، ولكنهُ لم يكد يخرج من المدرسة في سن مبكرة حتى التحق كعامل في مكتبة قريبة من بيته يمتلكها رجل انكليزي اسمهُ « جورج ريبو » فعهد اليه هذا أول الامر بمهمة نقل الكتب الى اصحابها، أي كساعٍ او «مراسلة»، يقضي حاجات المكتبة في الخارج. وفي السنة التالية عهد اليه بعمل تجليد الكتب، ومن هذا الوقت تملكه حب الاطلاع واستهوى لبه قراءة الكتب العلمية التي كانت تقع تحت يديه، وكان اول كتاب اطلع عليه هو كتاب عن « العقل » The Mind ولعل هذا الكتاب هو الذي أنار له سبل التفكير، وجاء

---

(1) من محاضرة القيت في اجتماع دسمبر ١٩٣٨ عقده المجمع المصري للثقافة العلمية والاستاذ البرقوقي خريج قسم العلوم بجامعة برستول ثم تولى بعد ذلك تدريس العلوم الطبيعية في مدارس الحكومة المصرية ثم عين مفتشاً لها واخيراً نقل مديراً لادارة السينما

بعد ذلك دور تجليد دائرة المعارف البريطانية ، واستوقف نظره فيها موضوع «الكهرباء» أو الكهربية كما قرر مجمع فؤاد الاول للغة العربية »والى هذا العهد لم يكن معروفاً عن الكهربية الا القليل ، وقد لاحظ فراداي ذلك من المقدار البسيط الذي كتب في الدائرة ولعله قال في نفسه « ان المعلومات الأولية القليلة في هذا الموضوع الجديد لن يستغرق استيعابها مني وقتاً طويلاً » ولم يمض وقت طويل حتى وقف على ما تمَّ في العهود السابقة عن الكهربية . ولعله لم يدُر بخلده عندئذٍ انهُ هو المنتظر لأن يرفع علم الكهربية عالياً ، ويتقدم بهِ خطوات واسعة ، ويضيف الى حقائقها معلومات جديدة توسع في نطاقها وتبعد في مداها

حقاً ان فراداي كان نابغة يمهد لنفسهِ طريق المجد ، ويصارع الجهل والفقر معاً ، وقد تغلب على الجهل بمجهوده في دراسة الكتب بنفسهِ ، والتزود بما فيها من المعلومات . اما الفقر فقد بقي عقبة كأداء في سبيله الى أن انتشله العالم الطبيعي والكيمياني الكبير السر همفري دافي وعينهُ في منصبٍ اشبه بمحضر في دار المعهد الملكي بلندن او مايقرب من صبي محضر اي «فراش» ينظف القارورات ويعد الاجهزة لتجارب العلماء ، فقبلها فراداي راضياً ،وتهيأت له الفرصة التي كثيراً ما كانت تتوق اليها نفسه ، ووجد في المعهد معملاً كامل الاجهزة ووافر المواد ، فصار يجري التجارب التي يريد تحقيقها من الكتب ، او يستمع اليها من محاضرات اكبر علماء عصره ، وقد ظهر استعداد فراداي لدافي فشجعهُ وكافأه على ذكائهِ باستصحابهِ لهُ في رحلة في أوربا قابل فيها اعظم علماء اوربا في هذا العصر ، وما ان رجع فراداي من رحلته الطويلة سنة ١٨١٥ حتى بدأ ابحاثاً مستقلة ، وزادت ثقتهُ بنفسهِ ، وقد كان فراداي بجانب عقله الراجح ، طلق اللسان واضح البيان ، فذاع صيته وطار ذكره ، ووفق الى كشوف كثيرة في الكهربية هي اساس توليد الكهربية بالمولدات واستخدام المحركات بالكهربية ، وبحث في المكثفات والمحولات ، والعلاقات بين الضوء والكهربية ، وبين المغنطيسية والكهربية ، والكيمياء والكهربية ، وقد خلد العلماء اسمهُ فاطلقوه على وحدة السعة الكهربية فاصبحنا نقول الى الآن سعة المكثف كذا « فراد » او كذا « ميكروفراد »

وبينما كان فراداي هذا يعمل ويجد ويبحث في اسرار الكهربية في انجلترا ، كان في الناحية الأخرى من المحيط الاطلسي باميركا العالم يوسف هنري ، الذي أعتبره صورة طبق الأصل لفراداي ، من حيث نشأتهِ وعصاميتهِ ، وتفكيره وابحاثه ، وقد ولد بعد ميلاد فراداي بثماني سنوات اي سنة ١٧٩٩ ، وتوفي بعد وفاة فراداي بتسع سنوات اي سنة ١٨٧٨ ، فما اعجب الصدف وما اتم التوافق ! وقد بدأ هنري حياتهُ في سنة الخامسة عشرة ، أي في سن مبكرة ايضاً والتحق بحانوت ساعاتي للتمرن على اعمال هذا الفن الدقيق ، وقد كان يميل بطبعه الى فن التمثيل ورغب

فعلاً في الاشتغال بهِ ، ولكن صدفة غريبة غيرت اتجاهه ، وبدَّلت مجرى حياتهِ ، فلم تجعل منهُ ساعاتيًا ولا ممثلاً ، وهذه الصدفة هي أنهُ اطلع على كتاب جديد في الفلسفة التجريبية Experimentai Philosophy ، وقد أثار فيهِ هذا الكتاب حب البحث العلمي ، وفي هذا أكبر الشبه بحالة فراداي الذي هوى البحث العلمي من الكتب أيضاً ، ولكن هنري أراد ان يتزود بالعلم بالتحاقهِ بأكاديمية الباني ، وبعد ست سنوات أي سنة ١٨٣٢ عين أستاذاً للفلسفة الطبيعية في كلية برنستون

وقد هوى هنري البحث العلمي في أسرار الكهربية وأول ما استرعى نظر هنري من الابحاث هو المنطيس الكهربي فأدخل عليهِ تحسينات كثيرة ولاشتغاله بهذا البحث خطر لهُ رأي جديد فقال في نفسه « هل يمكن ان نولد التيار الكهربي بوساطة المنطيس ؟ » وهذه الفكرة هي هي التي خطرت لفراداي في انجلترا . وهناك ما يثبت ان هنري بدأ تجاربه لبحث هذا الرأي قبل فراداي ، وذلك في أغسطس سنة ١٨٣٠ ، ولكن فراداي بعد ما أتم بحثه في هذا الموضوع قرأه أمام الجمعية الملكية بلندن في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ ، واطلع هنري اتفاقاً في إحدى المجلات العلمية على نبإٍ وصول فراداي الى النتيجة التي كان يسعى اليها، ولم تكن المجلة قد فصَّلت تجارب فراداي ، ولذلك بادر هنري إلى اتمام بحثه ، فبكر في العمل سنة ١٨٣٢ ، إذ بدأ في يونيه بدلاً من أغسطس كعادته في كل عام ، وأتم بحثه ونشره في يوليه سنة ١٨٣٢ ، أي بعد تسجيل فراداي بثمانية أشهر ، فكان هنري سابقاً في التفكير ، وفراداي سابقاً في التسجيل ، وقد تعارف العلماء على ان الكشف او الاختراع يجب ان ينسب الى السابق في التسجيل ، ومن هنا تنسب فكرة توليد التيار الكهربي بالتأثير الى فراداي

وأكثر من هذا ، فقد خطر لهنري تفكير جديد ، أثبتت الأيام ان فراداي فكر هو أيضاً فيهِ ، ولكن هذه المرة سبق هنري في نشر بحثه عن التأثيرات الذاتية للتيار الكهربي وتأخر فراداي في نشره ومن هنا كان الفضل في هذا الموضوع يعزى الى هنري، وكأن الطبيعة أرادت ان تحقق المثل المعروف « دقة بدقة ، والبادي أظلم »

وقد بعث الشوق هنري لملاقاة فراداي الذي يشابههُ في التفكير، فسافر الى انكلترا سنة ١٨٣٧ وتعرَّف بفراداي الذي أكرم وفادته ، وقضيا مع هويتستون العالم الطبيعي الانكليزي أيضاً أسعد الأوقات في مباحثة أسرار العلم واجراء التجارب

***

﴿ اختراع يؤدي الى المحاكم ﴾ ومن أمثلة توافق الخواطر بين المخترعين هو مثال اختراع التلفون ، وقد وصلت هذه القضية الى المحاكم لتفصل فيها . ومن المعلوم ان التلغراف اخترع قبل

التلَفون وقد نشر أحد عمال التلغراف مقالاً في إحدى المجلات يقول أنهُ يجب على العلماء أن يتمكنوا من اختراع آلة تنقل الكلام وان لاتكتفي بنقل الاشارات فحسب ، وصار يفصل رأيه ويبنيه على الحقائق العلمية المعروفة عن الكهربية والصوت ، ولم يحاول هذا العامل تنفيذ فكرته ، وفي سنة ١٨٦٠ قام أحد أساتذة الطلبة من الألمان هو الاستاذ رايس باختراع أول تلَفون ، ولكنهُ لم يكن وافياً بالغرض ، ولم تشجعهُ حكومته ، فمات فقيراً بل مات كمداً ، وعرض جهازه في المانيا وانكلترا ، وفي سنة ١٨٦٨ احضر أحد علماء الطبيعة نموذجاً من تليفون رايس الى اميركا وعرضهُ على بعض علماء الطبيعة في نيويورك ، ووصفهُ في إحدى الصحف العلمية ، فأثار ذلك كلهُ اهتمام العلماء ، ومنهم العالم الاميركي هنري الذي سبق ذكره ، ومنهم أيضاً «جراهام بل» الذي سجّل اختراعه للتلفون الشائع استعماله الآن كمستقبل سنة ١٨٧٦ ، ومن غرائب الصدف أنهُ في نفس اليوم الذي تقدم فيه جراهام بل لتسجيل اختراعه ، وهو يوم ١١ من فبراير سنة ١٨٧٦ ، تقدم عالم آخر من شيكاغو وهو اليشا غراي لتسجيل جهاز مشابه كل المشابهة لجهاز جراهام بل ، وقد شغلت المحاكم بهذه القضية العالمية لتقضي في ايهما احق بالتلفون ، وقد تولت إحدى الشركات استثمار الجهازين معاً حسماً للنزاع

***

﴿ اديسون وهيوز ﴾ وهاكم مثالاً آخر لتوافق الخواطر بين العلماء والمخترعين وهذا التوافق أدى الى نزاع بين العالمين اديسون الاميركي وهيوز الانكليزي

واديسون هو ذلك المخترع الاميركي النابغة الفذ ، الذي ارتفع في سماء العلم الى السماكين ، ووصل بمخترعاته الى ما تزيد على الألف بل ما يقرب من الألفين ، ولم يصل الى هذا العدد مخترع من قبل ولا من بعد ، فهو بذلك وصل الى الذروة ، وتفوّق على غيره في عدد المخترعات . تدرّج بنبوغه وعبقريته من بائع صحف الى عامل تلغراف فمخترع الى أكبر المخترعين فلهُ مخترعات في التلغراف ثم في التلفون ، وهو الذي اخترع الحاكي والمصباح الكهربي واشترك في اختراع المولد الكهربي وأقام أول محطة اضاءة كهربية لتمد البلاد بالتيار فكان بذلك أول مهندس كهربي

والاختراع الذي اتفق فيه الخاطران هو الميكروفون وهو ذلك الجزء من التلفون الذي يوجه اليه الكلام أي المرسل بتعبير العلماء . وتفصيل ذلك ان العلماء والناس لاحظوا على تلفون جراهام بل ان صوته خافت غير جلي ، وقد اعترف بذلك « بل » نفسه قائلاً ان جهازه غير واف بالغرض ، وهنا دخل ميدان البحث في تحسين التليفون كثير من العلماء منهم

أديسون الاميركي وهيوز الانجليزي وغيرهما ، ولاحظ أديسون ان العيب في جهاز « بل »
هو في الجزء المستعمل كرسل،ولذلك اخترع أديسون سنة ١٨٧٧ مرسلاً جديداً هو الميكروفون
واستعمل فيه حبيبات من الكربون ، فصار الصوت عند المستقبل واضحاً جليًا مسموعاً ،
وناهيك من جهاز يستمع به أديسون الأصم ، أو ما يقرب من ان يكون كذلك

وقد صنع أديسون ستة أجهزة من الميكروفون الحبيبي ، وأرسلها كنماذج الى إحدى
الشركات في انجلترا فقوبلت بترحيب كبير ، حتى لقد طلبت الشركة عقب ذلك مائة أخرى

وفي سنة ١٨٧٨ اخترع الاستاذ هيوز الميكروفون الكربوني ، وقرأ بحثاً في ذلك أمام
الجمعية الملكية بلندن في شهر مايو من تلك السنة ، ومن التجارب التي كان يهواها هيوز لبيان
أثر جهازه تلك التجربة التي كان قوامها ذبابة من الذباب المنزلي العادي يضعها في علبة كبريت ويضع
هذه بالقرب من الميكروفون ، ويقال ان وقع أرجل هـذه الطائرة الدقيقة على خشب العلبة
كان يسمع في الطرف الآخر كأنهُ وقع أقدام فيل ضخم على أرض الغابة

وهيوز كان أستاذاً لعلم الموسيقى ، ولـكنهُ هوى الكهربية وابحاثها ، واخترع كثيراً من
الاجهزة ، وبمجرد ان سمع أديسون باختراع هيوز وتشابه جهازه والجهاز الذي اخترعه
قبله بعام ثار أديسون غضباً ، واحتج بأن هيوز بنى فكرته على فكرة اديسون دون اية اشارة
أو تلميح الى ذلك ، واتهمهُ بانهُ اطلع على نموذج جهازه الذي ارسله الى انكلترا

ومن غريب الصدف ايضاً أن اديسون اشتغل ببحوث اللاسلكي وكذلك هيوز وكلاهما
له مخترعات في التلغراف فما اشد توافق الخواطر بين هذين العالمين

***

﴿بين هرتز ولودج﴾ وها كم مثالاً أخيراً لتوافق الخواطر بين العلماء وهو الذي وقع بين
هرتز الالماني والسر اوليفر لودج الانكليزي ، وكلاهما مشهود له بالتفوق والنبوغ في بحوث
الكهربية واللاسلكي

وتفصيل هذا التوافق ان جيمس كلارك مكسويل العالم الاسكتلندي الذي يعتبر بحق زعيم
علماء الطبيعة النظرية في القرن التاسع عشر ، تنبأ بموجات اللاسلكي من قوانينه الرياضية العالية
الى درجة تحديد سرعتها وبيان خواصها ، ولا عجب في ذلك من حيث قدرة القوانين الرياضية
على التكهن والتنجيم ، فالرياضي اذا عرف سرعة قطار او طائرة او سيارة ، عرف ميعاد وصولها
في مكان ما بالثانية اذا عرفت سرعتها والمسافة التي تقطعها وميعاد بدء حركتها ، ولا اطيل في
شرح هذا فان علم حضراتكم جدير بادراك ما اقصد وا كثر مما اقصد . . . . والشاهد . . . .

انهُ بمجرد ما اعلن مكسويل نبوءته دهش العلماء اية دهشة ، وحفزوا الى السعي وراء تحقيقها ، والعمل على توليد هذه الموجات الحديثة والكشف عن خواصها واختبار مدى صحة آراء مكسويل فيها ، ولعلهم ما كانوا يعلمون انهم بذلك انما يعملون على كشف اللاسلكي والتعجيل بخيره العميم ، بل أؤكد انهم كانوا يعملون للعلم الخالص

وقد حقق هرتز الالماني نبوءة مكسويل كاملة غير منقوصة ، وذلك في سنة ١٨٨٧ المتداخلة في سنة ١٨٨٨ ، وقد اثارت تجاربه وتحقيقاتهُ اعجاب العلماء ، حتى سموا الموجات الجديدة باسمه فاطلقوا عليها اسم « الموجات الهرتزية » واطلق عليه البعض الآخر فيما بعد اسم « اب اللاسلكي »

وكان هرتز طالباً في جامعة برلين وتلميذ هلمهولتز عالم الطبيعة الالماني الاشهر فنال هرتز التلميذ اعجاب استاذه وحسن تقديره ، وكان احب تلاميذه اليهِ وانجبهم ، وقد نال الدكتوراه سنة ١٨٨٠ ، فاختاره هلمهولتز مساعداً له ، واقترح عليهِ في اثناء ذلك ان يعمل بحثاً في تحقيق نبوءة مكسويل النظرية بتجارب عملية ، فكان التلميذ الدكتور — عند حسن ظن استاذه وفي سنة ١٨٨٧ ، سنة ١٨٨٨ وفق بعد بحث مستفيض الى اعلان تجاربه التاريخية في توليد موجات اللاسلكي واختبار خواصها وصفاتها فوجدها مطابقة تمام المطابقة لما تنبأ به مكسويل اذ وجد سرعتها مساوية لسرعة الضوء ، وانها تنعكس وتنكسر وتتداخل كما يحدث لموجات الضوء فكأنما اصبح الخيال حقيقة والنبوءة صادقة واصبح الضوء ظاهرة مغنطيسية كهربية ، وهي حقيقةٌ اغرب من الخيال

وقد قال هرتز عقب كشفهِ الخطير عن السر اوليفر لودج ما يأتي « وارجو ان اسجل هنا ذلك العمل المجيد الذي قام بهِ عالمان انكليزيان في نفس البحث الذي كنت اجريهِ بنفسي ، وكانا يحاولان جهدهما في الوصول الى نفس الغرض الذي كنت ارمي اليهِ في نفس السنة التي بدأت فيها بحثي ، بدأ السير اوليفر لودج في ليفربول نظرية مانعة الصواعق وما يتصل بها من نظريات وتجارب في تفريغ المكثفات الصغيرة ، وادت به هذه الابحاث الى ملاحظة اهتزازات وموجات في الاسلاك ، فقد كان يعتقد بصحة نظريات مكسويل ، وقد حاول جهده العمل على تحقيقها ولو لم اصل الى نتائجي ، لنجح هو في الحصول على الموجات في الهواء وفي اقامة الدليل على انتقال القوة الكهربية » فلو تأخر هرتز لفاز لودج — كما اعترف بذلك هرتز نفسهُ وكما فصل ذلك السير اوليفر لودج شارحاً الخطوات التي اتبعها : قال : —

« هذا الكشف النظري العظيم حرَّك فينا نحن الذين كنا في مقتبل العمر شوقاً شديداً الى البحث والتحرّي ، واتذكر اني تباحثت فيهِ مع من نحترمهُ كلنا الآن « جيمس فلمنج » وذلك سنة

١٨٧١ ، سنة ١٨٧٢ ، وكنا نتلقى العلم معاً ، وبعد سنة او سنتين درست كتاب مكسويل في هيدلبرج وعزمت من ذلك الوقت على توليد الأمواج الكهربية التي قال عنها مكسويل والعمل على ابتداع طريقة للشعور بها ، وتكلمت انا في هذا الموضوع في المجمع البريطاني سنة ١٨٧٩ ، سنة ١٨٨٠ ، وفي جمعية دبلن الملكية سنة ١٨٨٢ ، وكان رأي فتزجرالد « ان توليد الاضطرابات الموجية الاثيرية بوساطة القوى الكهربية غير ممكن » ثم اصلح فتزجرالد خطأه وحذف كلمة « غير » من عباراته المتقدمة ، وبين سنة ١٨٨٣ كيف يمكن ان تولد هذه الامواج — ولو استطعنا حينئذ ان نصنع آلة تلتقط الامواج الكهربية لوصلنا الى التلغراف اللاسلكي »

***

﴿ ماركوني خشي توافق الخواطر ﴾ وآخر مثال أسوقه لحضراتكم هو ماركوني الذي خشي توافق الخواطر ، وتفصيل ذلك ان تجارب هرتز كانت تكرر في كل مكان ، ومنها ايطاليا وكان استاذ الطبيعة في جامعة بولونا هو الاستاذ ريغي ، وبولونا هي بلدة ماركوني ، وحضر ماركوني محاضرة ريغي في الموجات الهرتزية فأعجب بها ، وجال في نفسه خاطر يكاد يكون الهاماً ، اذ رأى بثاقب نظره وعميق تفكيره ان هذه الموجات لا يصح ان تترك للأبحاث العلمية المحضة فقط ، بل يجب ان تستغل للاعمال التجارية ايضاً ، فقال ماركوني لنفسه « ألا يمكن أن استعمل هذه الموجات الجديدة لمواصلات بدون اسلاك ؟ » واذا كانت تستطيع ان تقطع عرض غرفة فلم لا تقطع عرض البحار والمحيطات

بدت الفكرة سهلة كأنها بدهية ، وخشي ان يكون غيره من العلماء قد خطر له نفس الخاطر ويجدّ في العمل لتنفيذها ، وقد اشار الى ذلك فيما بعد ذلك فقال وكان قلقي ناشئاً من ظني بان الفكرة كانت اولية وبسيطة الى درجة يصعب معها الاعتقاد بأن انساناً آخر لم يحاول اخراجها الى طور التنفيذ ، وحاججت نفسي بأنهُ ولا بدَّ وأن يكون هناك علماء ارسخ قدماً مني قد اتبعوا خط التفكير نفسه ووصلوا الى النتائج عينها تقريباً ، وبدت لي الفكرة منذ اول وهلة حقيقية او بدهية الى درجة كبيرة لم تدع لي مجالاً للظن بأن هذه النظرية قد تلوح لآخرين عجيبة غريبة وهمية

ولكنها ارادة ماركوني القوية ، وعزيمته الوثابة دفعتاهُ فلم يتردد في تسجيل فكرته والعمل على تنفيذها ، فكان النجاح حليفه ، والنصر اليفه ، فليكن لنا اذن من ذلك عبر ، ولنتخذ منها قدوة ولنعمل على ان يكون في مصر تشجيع العلماء ، وسبل لتسجيل نظرياتهم واختراعاتهم ، وسنجد بعد ذلك استقلالاً علميًّا ، كما نلنا استقلالاً سياسيًّا

صقر قريش

بحث نفيس

في إحدى هديتي المقتطف السنويتين[1]

« اذا ابتعد المسافر عن مدينة اخذت تظهر له من بعيد الامكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يرى الا أكثر الامكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في تاريخ الامة العربية في عهد الأسلام كلما ابتعدت بنا عنها قافلة الزمن وتلفت الركب الى الوراء صرنا لا نلمح إلا الشخصيات البارزة المتسامية اللائحة في الجو التاريخي للماضي ، ويمكننا ان نرد اكثر ما نلمحه من تلك الشخصيات الى بيتين لعبا اكبر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم ، وهما الشعبتان النابعتان من صلب عبد مناف »

***

قدم الكاتب المحقق الأستاذ علي ادهم فصلاً من فصول رسالته « صقر قريش » بهذه الكلمة الصادقة في تصورها ومجازها — ونعني برسالته تلك التي اجازتها مجلة « المقتطف » الزاهرة واختارتها لنشرها واهدائها إلى قرائها ، من بين الآثار العربية التي تكفل بطبعها السري المعني بالادب والعلم صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا ، تقدمة لذكرى منشىء المقتطف العلامة الدكتور يعقوب صروف

الحق ان تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام حافل بالسير العظيمة التي لا تزال مغبونة مجهولة المقدار في موازين التاريخ الحديث ، لم تصب ما اصابه ابطال اليونان والرومان الاقدمين من درس واستقصاء ، ولم تصب ما اصابه ابطال العصر الحاضر من تنويه وذيوع بين عامة القراء وانها مع ذلك لتتسع للمراجعة والتحليل وتخرج من بوتقة الامتحان على مثال يضارع احسن الامثلة ، ويوافق جميع المشارب والاذواق ، ايا كانت المقاصد التي تبتغيها من القراءة

واليك مثلاً « صقر قريش » الذي كتب عنه الاستاذ ادهم رسالته القيمة ، وهو عبد الرحمن

---

(١) كتب الاستاذ عباس محمود العقاد مقالا في كتاب « صقر قريش » تأليف الاستاذ علي أدهم — وقد كان احدى هديتي المقتطف السنويتين (١٩٣٨) — في جريدة الدستور فاستأذنا حضرته في اثباته في المقتطف

الداخل منشيء الدولة الاموية في الاقطار الاندلسية ، فأي ذوق من الاذواق لايجد كفايته ومتعته في تاريخ هذا الرجل المقدام

من كان يطلب المغامرات القصصية فهذا بطل يقل نظيره بين ابطال القصص التي تقوم وقائعها كلها على المطاردة والتعقب والنجاح في الهرب والتخفي بين المشرق والمغرب والحضر والبادية والاصدقاء والاعداء : رجل نجا من جيوش الدولة القائمة سابحاً في الماء وهو يكاد يعمى من الرمد ، ورأى بعينيه من هربوا مثله سابحين يتعبون فيعودون فيقتلون ، ويذهب هو في الآفاق شريداً منبوذاً يعاني الجوع والشظف حتى يتاح له ملك دولة باذخة يهابها شارلمان والمنصور

ومن كان يطلب الحوادث والعظائم فهذه سيرة لاتنطوي صفحة منها إلاّ على حادث يطيح بأمير ويرفع بأمير، ويتردد في حوادثها جميعاً كل ماينفتق به عقل الانسان من حيلة وتدبير وتقدير

ومن كان يطلب العبرة الاجتماعية فمعرض العبرة هنالك واسع جد السعة بين اطوار التاريخ في الاندلس وهي متداعية ، وبين اطوار التاريخ في امم الاسلام وهي ناهضة كابية ، وبين عرب وبربر وفرنجه ويهود ومسيحيين تتشعب بهم الغايات فتلتقي ساعة وتفترق ساعات ، وحسبك من ذاك انقسام المسلمين وحدهم الى مشارقة ومغاربة والى مضرية ويمنية والى شيع من كل قبيل ، يتبعون اليوم هذا القائد وينحرفون غداً الى ذلك القائد ، ولا يثبتون على نهج طويل

ومن كان يطلب تحليل النفوس ودخائل السرائر فهذا مجال تتكرر فيه عشرات الاسماء كل اسم منها يشتمل على صورة آدمية تخالف سائر الصور وتنبعث في أعمالها بغير بواعث الآخرين

***

ذخيرة لا تنفد من ثروة المعرفة لجميع الطالبين والمريدين ، وقد جاءت هذه الرسالة مثلاً يحتذى في استخراج النفائس من هذه الذخيرة الوافرة ، لأن كاتبها الفاضل رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف وروية العالم وحماسة الأديب ، ويعرف من مذاهب الفلاسفة العظام في أسرار التاريخ ما ليس يعرفهُ عندنا غير افراد معدودين .

فاذا تناول قبيلاً او رجلاً او دولة نفذ الى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله في مذاهب التعليل والتحليل . فيقول مثلاً في التفرقة بين اخلاق العرب واخلاق البربر : « والفارق الكبير بين مزاج البربر ومزاج العرب ان العربي بطبيعته نزاع الى السخرية ميال الى الشك . أما البربري فانهُ عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق لما وراء الطبيعة ولا يفطن من فوره الى الجوانب الفكاهية في الأشياء »

ويقول في التفرقة بين بني هاشم وبني أمية من قريش : « كان بنو هاشم في مكة سدنة

الكعبة وأصحاب السلطة الدينية . أما بنو أمية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم ، وكانت قوافل تجارتهم دائمة الارتحال بين مكة والشام حيث تأثير الحضارة البيزنطية مستفيض . وقد أكسبتهم التجارة معرفة بالحياة وخبرة بأحوال النفوس ، وكانت حماية التجارة تستلزم شحذ مواهبهم الحربية، وكان نفوذهم السياسي في مكة ينضج فيهم ملكات الرياسة وتدبير الأمور . وقد كانوا أقدر من بني هاشم على تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال اعباء الحكم ، وقد قوى فيهم نفوذهم ورحلتهم للشام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل الى فاخر العيش كما زادتهم وفرة الثروة اقداماً وصلفاً ، وكانوا شديدي التمسك بالأرض ليس لهم أحلام متطايرة ولا خواطر محلقة ، والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة فهم لا ينظرون الى الدنيا في ضوء فكرة مقدسة او في ظل مبدإ سام ، وليست نفوسهم من تلك النفوس التي تحاول أبداً ان تقيم الحياة البشرية الزائلة على أساس من الأبدية الباقية وتحرص على ان تستمسك بصخرة من اليقين في بحر الحياة القلب ، بل كانوا يأخذون الحياة كما هي ويقبلونها على علاتها ويعملون على الاستفادة من فرصها والاستزادة من متعها ، والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم ومتسع للغلبة والاستعلاء واحراز الغايات واشباع الشهوات ، وقد قاوموا الاسلام في اول نشأته وكانوا اشد اعداء صاحب الرسالة حرداً عليه ونالوه بألوان من الاذى والاضطهاد شأن الارستقراطية في عداوتها للنظم الجديدة ومستحدث الافكار خشية ان تتزحزح عن مركزها وتفقد نفوذها، ولكنهم ادركوا بغريزة الرجال العمليين ان اليوم للاسلام فلانوا للعاصفة وتكيفوا مع الظروف . وبمهارة فائقة وكياسة عظيمة تمكنوا من تحويل تيار الاسلام الى مصلحتهم واعلاء شأن بيتهم »

***

وبعد ان وصف الطبيعة الاموية هذا الوصف المبين اخذ في وصف « المزايا الشخصية » التي نفعت ذلك الاموي الكبير — عبد الرحمن — في مغامراته ومحاولاته حتى حققت له ما يطمع في تحقيقه رجل طموح ولد من اناس جبلوا على المداورة والعزم واغتنام الفرص والمتعة بالحياة ، فلا تزال ترى هذا الباقعة وهو يجترىء حيناً ويروغ حيناً ويصانع الاعداء تارة ويعتو على الاصحاب والاقرباء تارة ، ويختفي ثم يظهر ويظهر ثم يختفي ، ويرضى بمقدار ويغضب بمقدار ويستيئس استيئاس المجانين حين لا مناص ، ويتماوت تماوت الثعلب حين لا جدوى من الهجوم، ويعامل كل انسان بما ينبغي ان يعامل به من ثقة أو حذر ومن محاسنة او مخاشنة ، حتى بلغ

ما يريد او بلغ ما يريده له غريزة التاريخ — كما يسميها الاستاذ ادهم من توجيه الحوادث وتحويل مجرى الحضارة واقامة النظام في مقام الفوضى

وعندنا ان الرجل قد كشف عن نفسه بيت واحد من نظمه فوق ما كشفته منه الأعمال والمساعي حيث قال

سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادر بلغت وحال حائل

وكان قد سمع ما يتقوله عليهِ بعض حاسديه اذ يستكثرون عليهِ ما فاء ويستصغرون ما عمل ويزعمون « أنها الحظوظ والمصادفات » فجمع لهم اسباب فلاحه في هذا البيت الذي لم يدع سبباً من اسباب نجاحه وعلو نجمه ، وهي توفيق الحوادث وطبيعة العزم وقوة الجيش ، وتحول المقادير باحوال الامم التي نشأ فيها والتي رحل اليها ، فلو نقص سبب واحد من هذه الأسباب لما كان « عبد الرحمن » داخل ولا كانت دولة ولا كان فلاح

***

والا فهل كان عبد الرحمن ينجح هذا النجاح لو لم يكن مولوداً في بيت الملك وكان من طبيعة القبائل البربرية والعربية ان تدين بالطاعة لمن لهُ هذه السابقة في الرئاسة والأمارة ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يسمع نبوءة العراف الذي قال لكبرائه في صباه ان هذا الصبي هو امل العترة الأموية في ظهور السلطان بعد افول النجم وادبار الدولة ؟؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يكن بربريًّا بما ورث من امهِ وعربيًّا بما ورث من آبائهِ فهو بهذه المثابة مولود لسياسة البربر والعرب على السواء ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو رحل الى المغرب في زمان استقرار وصولة ولم يرحل اليه في ذلك الزمان الذي تفرق فيه كل فريق حتى اوشك ان يمتنع الوفاق بين رجلين اثنين مدى ايام بله الشهور والاعوام

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يخطىء اعداؤه كلما احتاج الى خطئهم على النحو الذي يشتهيه كأنما هو الموحى اليهم بالخطأ وهو المفكر لهم بما يرمي اليهِ هو لا بما يرمون هم اليه؟

وكل هذا وأشباهه يقال عن نابليون ويوليوس قيصر وتيمورلنك وموسوليني وهتلر وستالين وسائر هذه العصبة من المغامرين الناجحين : اسباب تكفي في ازمانهم لبلوغ ما بلغوه بالقدرة التي فطروا عليها وعشرة اضعاف هذه القدرة لا تكفي لبلوغ ذلك المبلغ في زمان آخر ، وهذا هو الشأن في جميع عظماء الفتوح والمغامرات حيثما نبغوا بين مشارقة او مغاربة ، وفي عصر قديم او حديث

وخلاصة ما يقال ان هؤلاء المغامرين يولدون وعندهم مرجح صغير في كل مزية من المزايا ينفردون به عند ما يتعادل الميزان للترجيح والتفضيل

فالذين كانوا في ذكاء عبد الرحمن وشجاعته ودهائه كثيرون ، ولكنهم لم ينشئوا الدول ولم يغلبوا الأقران اما لأنهم اخطأوا العصر في الميلاد ، واما لأنهم ولدوا في غير البيت المطلوب ومرة لأن اعداءهم كانوا على خلاف الحالة التي تهون بها مغالبة الاعداء ، ومرة لأنهم غابوا حيث كان ينبغي ان يحضروا او حضروا حيث كان ينبغي ان يغيبوا ، فلو تأخر انتباه عبد الرحمن هنيهة وجيزة للجيش العباسي الداهم لما سمعنا به في الحاكمين ولكان الآن في غمار الألوف الذين فشلوا لأن اعداءهم ادركوهم لحظة من اللحظات قبل الانتباه ، لا لأنهم اقل في الذكاء او اضعف في العزم او اجهل باسباب النجاح

والعجيب في امر هؤلاء المغامرين أنهم ما خلوا قط من عنصر الخرافة والتنجيم والتعويل على امثال النبوءة والفأل التي كان يعول عليها عبد الرحمن ، ونحسب ان الامر طبيعي — بل ضروري — في كل من يعاملون القدر او يعاملون الغيب المحجوب ، ونعني بهم كل من تحتاج مساعيهم الى عنصر غير العناصر المعروفة المكشوفة التي تدخل في الحساب فيبقى في عقولهم مكان خال لحساب المجهول الذي يأتي بما ليس في الحسبان ، ويستوي في ذلك من يخوضون غمار الحوادث ومن يخوضون غمار الحروب ومن يخوضون غمار البحار ويركبون مطايا الأخطار . فسلامتهم جميعاً من هذه المهالك لا ترجع الى شيء من تدبيرهم ولا فرق فيها بين حيطتهم واقتحامهم ، ولهذا تنطبع عقولهم على الحيلة والحيطة من جانب وعلى المجازفة والتسليم للمقادير من جانب ... وبغير ذلك لا ينجح ذو مطمع من هذه المطامع كائناً ما كان ذكاؤه واقتداره وحسن بلائه ، وكفى بذلك دليلاً على قدرة الفطرة الانسانية على خلق الايمان الذي هي محتاجة اليه

نصف من المعلوم ونصف من المجهول
نصف من التدبير ونصف من التوفيق
نصف من الأصدقاء ونصف من الأعداء
نصف من الماضي ونصف من الحاضر
نصف من الخير والمعرفة ونصف من الشر والجهالة
نصف من العظيم ونصف من الناس والاحداث
نصف من الرجاء ونصف من القنوط

ذلك هو « المزيج » الذي لا غنى عنه في اقامة الدول وفلاح المغامرين في هذا الميدان ، وهو في تاريخ عبد الرحمن الداخل وتاريخ عصره كأظهر ما يكون

وجوه التباين بين

ثقافة الغرب

وثقافة الشرق الادنى

للدكتور ستيوارت ضد . د.ف.
استاذ العلوم الاجتماعية بجامعة بيروت الاميركية

٣ — وجوه اخرى للتباين بين ثقافتي الغرب والشرق الادنى

« الميزة الشخصية مقابل الميزة غير الشخصية اي العامة » فرضنا الرابع في التباين بين الشعبين ان سكان الشرق الادنى ينظرون الى الحياة نظرة شخصية بينما الشعب الغربي يتبع الوجهة العامة غير الشخصية . وايضاحاً لهذا نقول انهُ لو دار حديث بين فرد من سكان الشرق الادنى ورجل من بلاد الغرب ثم سألتهما بعد حين عن الحديث الذي دار بينهما لاجابك الاول بصيغة المتكلم « سررت بهِ جدًّا واستفدت منهُ كثيراً » وبالاجمال يكون وصف الامر بصيغة المتكلم . أما الثاني فيقول « كان الحديث لذيذاً مفيداً » ويكون وصف الامر بصيغة الغائب اي ان نظرة القائل غير شخصية بل عامة . ثم اذا أراد الاثنان طلب أمر من رجل يعتمد الاول في طلبه على العلاقة الشخصية ويظهر الحاجه بقوله « افعل هـذا لخاطري » . بينما لا نجد أثراً لهذه الاتجاه في الثاني . « فافعل هذا لخاطري » تعبير غير مستحب في الغرب ولا يأتي بالفائدة المطلوبة . فان الغرب اذا طلب الى رجل ان يترأس عملاً خيريًّا او مشروعاً اجتماعيًّا يعتمد في طلبهِ على اثارة عناية الرجل بالعمل المقصود واقناعه بصحة المشروع . والاختبار يعلمنا ان أبناء الشرق الادنى يعتمدون في عرض أمورهم على رجال الحكومة ، على واسطة تعارف بينهم وبين الموظف الذي يتعلق بهِ الامر ويقوم بالتعارف صديق الطرفين إما بالرسائل وإما بالذات . اما الحالة في الغرب فعلى ضدّ ذلك . فان الغرب يشعر بأنهُ يدفع ضرائب وهذا يخوله الحق بأن يستفيد من معرفة الموظف ووقته ولذلك يذهب اليهِ في قضاء حاجاتهِ دون واسطة . والولايات المتحدة تفاخر بأن حكومتها حكومة شرائع وليست حكومة رجال . والاحزاب السياسية في الغرب تقوم وتعمر طويلاً بصرف النظر عن القائمين بها وكثيراً ما تعيش زمناً طويلاً بغير زعيم . أما في الشرق الادنى فالاحزاب مرتبطة بزعمائها فتفور وتغور وفقاً لفور زعمائها

او غورهم . وكثيراً ما تموت الاحزاب بموت مؤسسيها وزعمائها . والحالة شخصية بحتة كذلك في الاعمال التجارية العملية في الشرق الادنى . فاذا تألفت شركة في الشرق الادنى كان أعضاؤها أفراداً قليلين جميعهم أقارب وأصحاب. أما الاعمال في الغرب فتقوم بها شركات واسعة النطاق ، في نظامها صفة عامة غير شخصية. خذ مثلاً شركة التلفون والتلغراف الاميركية، أعضاؤها يعدون بألوف الالوف لان كل حامل سهم شريك فكثير من الشركاء لا يعرف الواحد منهم الآخر ولا يعرفون مديري الشركة والقائمين باعمالها . والعاملون فيها يعدون بمئات الالوف وبعضهم لا يعرف رؤساء العمل اسماً او وجهاً ومع كل هذا تسير الاعمال بدقة ونظام بحسب تعليمات وجداول وقوانين مطبوعة . واذا جئنا نعدد الشواهد على اثبات هذا الرأي في الغرب ضاق بنا المكان والزمان

ولنبحث فرضنا هذا مسترشدين بالفرض السابق تحت عنوان الميزة التقليدية مقابل ميزة الاختبار الشخصي. فاننا اذا اردنا ان نعرف اي الامرين اكثر شيوعاً في الغرب او في الشرق الميزة الشخصية او الميزة العامية ، فالشرقي في حالة كهذه يعتمد على الثقات وفي كلامه عن الامر يسرد اقوالهم لانهم واقفون على ثقافة الشرق الادنى وثقافة الغرب ويمكنهم ان يقولوا القول الفصل في الموضوع . اما الغربي فيدرس الامر بنفسه فيضع مقياساً عن أوضاع كلٍّ من الشعبين تجاه الاعمال الشخصية والاعمال غير الشخصية ويقوم باحصاء يتناول عدداً وافراً من الامثلة وللقيام بهذه التجارب قواعد وأساليب معروفة عن علماء الاجتماع المجرّبين

وهذا الدرس العلمي الذي يقوم به المدققون لمعرفة الحقائق واثبات فرضٍ ما ، يظهر فساد ما يلجأ اليه الذين يتباحثون في الامور على أساس نظريٍّ فيسردون الامثلة والشواهد التي تدعم آراءهم وفي الوقت نفسه يسردون أمثلة تفسد آراء معارضيهم وبكلمة أخرى ينتقون من الحدّ الاقصى في كل من الحالتين امثلة يستندون اليها في أبحاثهم ويقدمونها بطريقة تفسد عليهم الوصول الى الحقيقة في معرفة مقدار التباين بين الفريقين اذا كان هنالك ثمت تباين . أما الطرق العلمية المبنية على ملاحظة الامور بدقة متناهية بالوسائط التي اشرنا اليها سالفاً في معرفة وضع الامة الواحدة تجاه حالة خاصة فتظهر فساد الحجج المبنية على امثلة شائعة مما يستند اليه الافراد لدعم رأي يأخذون به . وهذه الطرق العلمية تظهر ايضاً ضرورة مقابلة وضع الامة الواحدة بوضع الامة الاخرى تجاه حالة واحدة وذلك يسهل تعيين نوع التباين ومقداره . ولنا في التباين بين الالتجاء الى الثقات والالتجاء الى الاختبار الشخصي مثال ننسج على منواله لمعرفة صحة كل من الفروض الآنف ذكرها وهي تبين التباين بين الغرب والشرق الادنى

﴿ الميزة الاقطاعية مقابل الميزة الدمقراطية ﴾ فرضنا الخامس ان التباين الثقافي بين الشرق الادنى والغرب ظاهر في الصفات الاقطاعية الشائعة في الشرق الادنى والصفات الدمقراطية المنتشرة في الغرب مع بعض الشذوذ للقاعدتين. وقولنا الاقطاعية يعني ان الفرق الاجتماعي والبون الاقتصادي

بين اصحاب الاملاك والذين يعملون فيها شاسع وصارم وفي الوقت نفسه يظهر في كل من الفريقين ميل للبقاء حيث هو دون محاولة التغلب على هذه الحواجز . وقولنا الدمقراطية يشمل المساواة بين ابناء الامة الواحدة في الفرص التي تتاح لهم وهذا يتناول ايضاً المساواة بين الجنسين النشيط والضعيف ويتناول المساواة في جميع الحالات الاقتصادية بحيث تتاح في البلاد الواحدة فرص لابن الفلاح ان يتبوأ أعلى منصب حكومي في بلاده او ان يصير مدير اعمال تجارية أو اقتصادية كبيرة . ويتم هذا الامر بالتعليم المجاني العام الذي تقوم به الحكومات . وزبدة القول ان هذا التباين ظاهر في الثقافتين كل الظهور في عدم التساوي بين الرجل والمرأة وعدم المساواة اقتصادياً بين طبقات سكان الشرق الادنى . بينما المجال في الغرب واسع للمساواة بين الرجل والمرأة وفي جميع طبقات البشر . ولرب قائل يقول ان الدمقراطية التامة ليست من صفات المدنية الغربية على ما هو ظاهر في ايطاليا الفاشستية والمانيا النازية وروسيا البولشفية واليابان العسكرية كما وان الاقطاعية غير شاملة بعض اقطار الشرق الادنى وهذا واضح في نواحٍ كثيرة من جبل لبنان حيث الاملاك ملك الفلاح يستغلها لحسابه . ولكننا نعود ونقول اننا في بحثنا هذا لا نتناول الحوادث الفردية ونقابلها الواحدة بالاخرى بل نقابل المعدلين الغالبين ، لان الحوادث الفردية قد تكون الحد الاقصى لاحدى الثقافتين ولا تظهر المعدل الذي نتوخاه في الابحاث العلمية ونحن لا نود انتقاء حوادث فردية خصوصية يستعين بها الغير لاثبات نظرية ينادون بها

﴿ الجمود مقابل السير في التقدم الديني ﴾ فرضنا السادس في التباين الثقافي يتناول تأثير المركب الثقافي الديني في تغيير الحالة الثقافية كلها . فالديانة في الشرق الادنى عامل قوي ولكنها قوة جامدة نوعاً وفي سكان الشرق الادنى ميل للمحافظة على الانظمة الدينية وإبقاء الطقوس على ما كانت عليه قديماً بحيث تكون مستقرة على حالة واحدة فلا تتحول تحولاً يقتضيه الحال لتساعد على حل المشكلات الاجتماعية الحديثة وما ينجم عن هذه المشكلات من الشرور . واذا نظرنا الى البواعث الفعالة التي دفعت بالبعض في الشرق الادنى الى محاربة الشرور والامراض الناجمة عنها او الى مكافحة التأخر الزراعي او البغاء او الجشع الاقتصادي او غيرها من الامور التي لا يريدها الشعب نجد أنها لم تصدر من الكنيسة الارثوذكسية او الكنيسة المارونية او الهيئات الدينية الاسلامية او غيرها بينما الحالة في الغرب عكس هذا تماماً فزعماء كل ثورة ضد شرور الحرب او ضد التحكم الصناعي او الفساد الادبي في السينما وغير ذلك من الشرور التي تعرقل تقدم الامة هم رجال الدين والعاملون في الكنيسة كالكهنة والقسيسين والمرسلين وغيرهم . والمال اللازم لنجاح كل من المشروعات المذكورة يجمع من الشعب بواسطة الكنائس ولا دخل لجمعيات فردية او مؤسسات اخرى فيه . اجل ان في بعض كنائس الغرب محافظة قصوى ورد فعل

قويًّا ولكن الفرض الذي نحن في صدده يوضح لنا ان الكنيسة في الغرب عامل قوي في تسديد خطوات التطور الثقافي في مناهج التقدم بينما الكنيسة في الشرق الادنى جامدة وكثيراً ما تنتمي الكنيسة الجامدة في الشرق الى الكنيسة العاملة المندفعة في الغرب

﴿ الميزة الفردية مقابل ميزة السهولة لتأليف الجماعات ﴾ فرضنا السابع والاخير في التباين بين ثقافة الشرق الادنى والثقافة في الغرب ان العمل الفردي اكثر شيوعاً في الشرق الادنى منهُ في الغرب بينما العمل بواسطة الجماعات اكثر انتشاراً في الغرب منهُ في الشرق الادنى. ونعني بهذا ان اهل الغرب اقدر على ضم كلتهم للعمل كجماعات موحدة الغاية والمرمى وانهُ بامكانهم ان يعملوا كجماعات زمناً طويلاً وان يكون عدد الافراد في الجماعة الواحدة وافراً . ولايضاح الامر نوجّه نظر القارىء الى الشركات التجارية في الشرق الادنى وهي كناية عن افراد قليلين اجتمعوا لمدة وجيزة بينما نرى الشركات الاقتصادية في الغرب تشمل العدد الوافر والوافر جدًّا من المساهمين وتكون آجالها طويلة مديدة وهذه الشركات إما ان تكون بجموع اصحاب رؤوس المال كشركة الفولاذ في الولايات المتحدة United States Steel Company والشركة المشهورة في تاريخ بريطانيا العظمى المعروفة باسم شركة الهند الشرقية East India Company وإما تكون مؤلفة من غير اصحاب رؤوس المال كالشركة التعاونية الانكليزية لبيع الجمل British Wholesale Cooperatives او تعم جميع ابناء البلاد كما هي الحالة في روسيا. فالبلاد الروسية كلها شركة اقتصادية واحدة .ومن يتصفح الكتاب السنوي الذي يصدر في الولايات المتحدة باسماء الجمعيات الاجتماعية يجد المؤلف كبير الحجم فيهِ الالوف من اسماء الجمعيات وكلها تبين ان الالوف من سكان البلاد قد اتحدوا معاً تحت اسم جمعية واحدة للعمل معاً نهوضاً البلاد باحدى الخدمات المعروفة عندهم . وهذا التباين في الميزة الفردية مقابل ميزة القابلية للعمل جماعات جماعات هو في رأيي وليد ثقافة خاصة شأنها شأن اخواتها الست المار ذكرها ولا دخل للفطرة في هذه الميزة بل هي تتأثر بالمحيط والبيئة. فالاولاد في الغرب يربون منذ حداثتهم على العمل جماعات جماعات بطرق مختلفة تعد بالمئات فبعضهم يكلفون قبل ان يبلغوا الثامنة من عمرهم ان يترأسوا لجاناً تتعلق بصفوفهم المدرسية وللمقابلة نقول قمنا باحصاء في صف المبتدئين في القسم العلمي في الجامعة الاميركية في بيروت (Freshmen) لنعرف مدى هذا الاختبار في هذا الصف وعدده مائتان فوجدنا انه لم تتح لواحد منهم فرصة ليترأس لجنة ما مع ان المعروف انهم بوصولهم الى هذا الصف قد اجتازوا مرحلة واسعة من مراحل التهذيب العالي ومعدل العمر فيهم خمس عشرة سنة. والكل يعرف ما في هذه الناحية من التهذيب من الفوائد اذ تعلم اساليب تسيير الامور باحترام القرارات الصادرة من الاكثرية وخضوع الاقلية لقرار الاكثرية رغم الاختلاف والتباين في الرأي . ومعلوم ايضاً ان هذا غالبة على روح التحاسد

ومن يحص عدد الجمعيات التي قامت في الشرق الادنى في السنوات العشر الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ويدرس معدل عمرها يجد الشواهد العديدة التي تتعلق بفرضنا هذا اعني به التباين بين العمل الفردي والقابلية للعمل جماعات جماعات . واذا نظرنا الى الفروض الاول والثالث والرابع المتعلقة بالتباين الثقافي ان في ادخال الصناعات او في ادخال تغيير ثقافي مرغوب فيه في الانتقال من الميزة الشخصية الى الميزة العامة غير الشخصية وكان نظرنا اليها بدقة وامعان لم نجد فيها تصادماً أو تعارضاً بل نراها تطابق الواحدة منها الاخرى وتلائم الثقافة الاولى الثقافة الاخرى وان في الامكان تشابهها وامتزاجها الواحدة منها بالاخرى

وقد يعجب القارىء لعدم ذكرنا التصادم بين وطنية الشرق في طلب الاستقلال واستعمار الغرب الدافع به الى الرغبة في التوسع والتسلط. والسبب في هذا لا تنالا نرى هذا التباين ثقافياً لانه ليس تبايناً في طرق التفكير والعمل في الحكومة .وهو ليس نزاعاً في الثقافة بل هو نزاع بين جماعات في الشرق الادنى وجماعات في الغرب على من منها يتولى امر هذه الثقافة . فالفريقان وطنيان والجماعات في الشرق الادنى والغرب تود ان تكون مستعمرة وترغب في التسلط على جماعات أخرى اذا وافق الامر مصالحها وفي الوسع تنفيذ هذه الرغائب وعليه يكون هذا النزاع بين فئة وطنية في الشرق الادنى وفئة وطنية في الغرب ولا دخل للتباين الثقافي في الامر .فهاهي تركيا مثلاً قد خلعت عنها كل ما يمت الى الاستعمار الغربي ولكنها بالوقت نفسه تعمل بكل قواها لتقتبس الثقافة الغربية

ومع ان النزاع المذكور ليس نزاعاً بين الثقافتين نجد ان تسلط قوم على قوم آخرين بالاستعمار واسطة لنشر ثقافة الامة المتسلطة في الامة المتسلطة عليها. ولنا في اللغة خير برهان . ولا يسهى عن البال أن هذا التسلط السياسي بطبيعته يخلق جواً ملائماً للمعارضة يحول دون انتشار بعض الصفات الثقافية في الامة المتسلطة بين افراد الامة المتسلطة عليها ويساعد بالاكثر على ان تقتبس الامة المتسلط عليها ثقافة امة ثالثة غير استعمارية ومن هذا يتبين لنا ان التسلط الاستعماري يوجد طريقاً لبعض الصفات الثقافية ويقطع الطريق على البعض الآخر وعليه يجب ان ندرس هذا التصادم وهذا التلاؤم مستقلين عن ابحاثنا السابقة، عوضاً عن درسها تحت مقابلة الميزة الوطنية بالميزة الاستعمارية لان الامر يقتضي الجلاء والوضوح في التفكير والبحث

٤ — اختلاط الثقافتين

﴿ المهارة الفنية في تحليل التصادم في الثقافة ﴾ عند وقوع تصادم في الثقافات يمكن اتباع مبادىء خاصة معينة لتحليل التصادم . هذا اذا كان من يعنيهم الامر راغبين في التخلص من التصادم والنزاع. ولكي لا نشغل محلاً واسعاً في تطبيق هذه المبادىء على كل من النقط السالف ذكرها من التباين الثقافي نجيء على سردها بكل ايجاز

(١) — اذا عاكس البالغون بعض الصفات الثقافية وحاولوا منعها من التطرّق الى صفوفهم فعلى من يعملون على ادخال هذه الصفات ان يلجأوا الى الصغار فيهذبوهم في الثقافة المنوي ادخالها وعلى ذلك لا يمضي وقت الاّ وتعم الثقافة الجديدة كل البلاد والامر معروف في كل العالم ان المدارس هي الواسطة الفعالة لاذاعة الثقافات ونشرها

(٢) — المبدأ الثاني للتخلص من النزاع والتصادم في ادخال صفات ثقافية جديدة لامة ما على من يهمهم الامر ان يعتمدوا على الوقت فلا يعملوا على نشر الامر بسرعة مستخدمين لذلك الاعلانات والدعايات . لان ذلك يساعد على ازدياد المعارضة بينما الامر يكون عكس هذا اذا سار هؤلاء الهوينا، وتركوا للوقت مجاله للعمل. مثلاً لو قام محبذو السفور بنشره بالسكينة والهدوء لانتشر بدون ضجة ومعارضة وان كانت هناك معارضة فبأقل ما يمكن منها . ولكن الامر يستلزم وقتاً أطول منهُ اذا هم فرضوه على الامة بالقوة. فالمرأة التي تود ان تظهر سافرة يمكنها ان تكون مع السافرات سافرة وتبقى في محيط محبذي الحجاب محجبة او اذا شاءت ففي وسعها ان تنقص ثخانة حجابها شيئاً فشيئاً فهي بهذا تخمد نيران كل رغبة للمعارضة أو الثورة ضدها بينما تراها تثير من النزاع والضجة الشيء الكثير اذا وثبت وثبة واحدة من الحجاب الثخين الى السفور المطلق

(٣) المبدأ الثالث ان تربط الصفة الثقافية غير المرغوب فيها بحالة يسعى الجميع اليها . مثلاً اذا قاومت امة الاقبال على لغة الامة المستعمرة بلادها فان افراد الامة المقاومة يقبلون على درس اللغة غير المرغوب فيها اذا جعلت واسطة للفوز بالمناصب الحكومية

(٤) المبدأ الرابع زيادة الامور المشتركة بين المتصادمين وتوسيع نطاقها وتقليل النقط التي يصير الاختلاف عليها . وما اصح الشعار الذي اتخذته جمعية «الاخاء» في جامعة بيروت الاميركية لانقاص الاختلافات المذهبية في اعضائها والشعار المشار اليه سابقاً هو « ان العالم الذي تتقاسم بركاته لاوسع جدًّا من العالم الذي نختلف على ذراته » وبكلمة أخرى نقول في هذا المبدإ « ان تنمّ غايات الجماعات المتصادمة غايةً اوسع وأنفع هي غاية الغايات » ففي الاعمال البرلمانية فئتان لكل منهما وجهة نظر في درس الامور وتقريرها ولكن الخلاف بينهما يحسم بقرار الاكثرية النافذ على الاكثرية والاقلية معاً . فخضوع الاقلية لقرار الاكثرية في تقرير مركب ثقافي خاص وصل اليهم للبحث اما باستدعاء وإما بلائحة تشريعية هو واسطة للوصول الى غاية الغايات وهذه الواسطة معروفة باسم نظام الاكثرية ولكن الفريقين يستخدمان اختلافهما لغاية أوسع وقصد أفضل وهو الاستمرار في العمل للوصول الى قرارات عديدة بحسب نظام الاكثرية . وعند ما ترى الاقلية في الاعمال البرلمانية تنفصل عن الاكثرية فتخفق الابحاث البرلمانية فقل ان اعضاء البرلمان لا يؤمنون بهذه الغاية الواسعة ولا يعتقدون في النتائج العامة الفضلى

الناجمة عن نظام الاكثرية. فعلى رجال الادارة اولاً ان يوجدوا غاية الغايات وان يقدموها الى البرلمان بطريقة يعرفون انها تتمم غايات الفئتين المتفقتين. وما زال لكل فئة الحق ان تصادق على قبول بعض الصفات والمركبات الثقافية ورفضها بصرف النظر عن اشتراكها في بحثها فيجب ان يعرف المجموع الذي يدرس هذه الثقافات انه بحاجة الى الاتفاق على غاية الغايات لكي يحل كل خلاف وتصادم. ولايضاح الامر نضرب المثل التالي: اذا كانت غاية الغايات التقرير بان بناء الجبلة البشرية يجب ان يكون اسياد محيطهم لا عبيده وقد تم هذا فما نراه من التباين والتصادم في الميزة التقليدية مقابل ميزة الاختبار الشخصي لا يطول امره لان الصناعات العلمية تجلو للانسان تدريجيًا بانها تخوله سلطة واسعة على الطبيعة تعجز عنها اقوال الثقات

ثم اذا فرضنا ايضاً ان قد تم الاتفاق على ان تكون الشخصية واحدة من الغايات المنشودة — ونعني بالشخصية ان ترتقي النفس البشرية وتكون حرة كثيرة الاختبار وجزيلة الفائدة للمجتمع البشري وهذا اعلى ما يصبو اليه المرء في حياته البشرية — فاننا اذا درسنا نقط الخلاف بين الذين يقولون بالنظر الى الحياة من وجهة شخصية والذين يقولون بها من وجهة عامة غير شخصية وفهمنا الامر بدقة وامعان مسترشدين بالفرض الذي قلنا قد تم الاتفاق عليه من حيث الشخصية السامية كان في وسعنا ان نقرب بين وجهتي نظر الفريقين وقد يتسنى لنا ان نوفق بينهما توفيقاً تاماً. فهذه الغايات المنشودة كسلطة المرء على محيطه وإنشاء شخصية مولدة مفيدة، هي القانون الذي يسير عليه التقدم والنجاح وهي المقياس الذي به نعرف الزمن الذي به تصير الصفات الثقافية تقدماً ونجاحاً في الامة التي تصبو الى هذه الغايات الفضلى

فالمسألة امامنا ان يتم الاتفاق على تعيين غايات فضلى اكثر عدداً من المعروف وتحديدها قبل اضاعة الوقت وبذل الجهود في درس امور ثانوية هي التباين في الثقافات وهذا ما يضع امامنا السؤال التالي: «ما هي الغايات الفضلى التي يمكن اتخاذها واسطة للوصول الى أبعد مدى ممكن من الاتفاق بين الشرق الادنى والغرب». وقد اشار بعضهم الى الغايات التالية كالغايات الفضلى المنشودة «ارادة الله» «الشخصية السامية» «ان يحصل اكبر عدد ممكن على اعظم قسط من السعادة» «الحصول على افضل عافية واوفر ثروة ممكنة والوصول الى ابعد مدى من الرغد والرفاهية وبالفوز بأوفر قسط من المعرفة في طريقة الحياة لتحقيق معين»

لم نقصد فيما جئنا عليه من المباحث ان نحل المشكلات الظاهرة في مقالنا ولكن قصدنا ان نبث في قارئي مقالتنا هذه التأمل العميق في هذه الامور الحيوية والمعروف ان حل المشكلات الناجمة عن التصادم في الثقافات وكيفية تلاؤم الثقافات المختلفة لا يكون عن طريق الاقوال بل يتم بما يفكر فيه اصحاب هذه الثقافات ويعملونه

[نقلها جورج الاشقر عن الانكليزية]

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشد سيفين

الرموز في الديانة القديمة

(تمهيد) يحسن قبل الكلام عن الرموز ان أمهد لذلك بكلمة عن معبودات قدمائنا ومعتقداتهم

تقوم الديانة المصرية على ركنين عظيمين : عبادة القوة ممثلة في مظاهرها في الكون كالشمس والقمر والنيل وعبادة السلف الذين اهتدوا الى الزراعة وكان لهم فضل اخراجهم من ظلمات البداوة الى نور الحضارة. وقد مثلوا لهؤلاء السلف بالأسرة الرمزية المكونة من الثالوث المشهور أوزيريس الأب وإيزيس الأم وحورس الابن الوارث للعرش . ثم انتقلت هذه الصفة الى الملوك من بعدهم فكان الملك هو الوارث لعرش حورس ويلقب بحورس الحي حتى اذا انضم اليهم في العالم الثاني عبد كالاله . ولهذا أنشئت المعابد للملوك في الغرب حيث مقابرهم ليحج اليها أتباع حورس من شعبهم لتقديم فروض العبادة لهم

وقد اهتدوا الى البعث من النظر الى الشمس فهي تولد في الصباح وتبلغ غاية قوتها في الظهر ثم تنحدر وتصفر وأخيراً تغرب ثم تبعث في اليوم الثاني . وكانوا يزعمون ان «را» وهو اله الشمس اذا بلغ المغرب أخذ هيئة الموتى ليجتاز «الدوات» وهو العالم الثاني ولذلك كان الذين في الشرق عند آون يعبدون الشمس وهي في الاوج باسم «را» والذين في الغرب عند منف يعبدونها وهي في الدوات باسم «بتاح» وكانوا يصورونه لذلك في هيئة مومياء

وقد جعلوا أوزيريس آية على البعث ودليلا فقالوا انه جاء معلماً للناس وهادياً فعلمهم الزراعة وهداهم الى الدين وأعطاهم الشرائع ثم قتل وبعث ورفع الى « را » في السماء وانحدر معه الى العالم الثاني وهو هناك اله الموتى

ويلاحظ انه كان لهذه المعبودات مناطق تتركز فيها عبادتها فلرا اون وهي هليوبوليس باليونانية ومعناها مدينة الشمس ولآمون طيبة ولبتاح منف ومكانها الآن ميت رهينة عند البدرشين حيث يوجد تمثال ضخم لرعمسيس ملقى على ظهره وكان في الاصل قائماً عند معبد بتاح. ولأوزيريس

أبيدوس ومكانها الآن العرابة المدفونة عند البلينا . ولتوت خينو وهي الاشمونين . ولحورس ادفو . وذلك يدل على أنهُ في الزمن السابق للاسرات لما كانت البلاد منقسمة الى أقاليم مستقلة تحت حكم أمرائها كان الشعب موحّداً اذ كان لكل إقليم معبوده الخاص . فلما صارت البلاد مملكة متحدة تحت حكم مينا واتخذ منف العاصمة وكانت العادة منذ أقدم العصور ان يتولى الأمراء الملك في أقاليمهم كورثة للاله كان طبيعيًا وقد أصبحت منف حاضرة المملكة المتحدة ان ينتسب ملوكها الى الشمس معبود هذه المنطقة في الشرق باسم «را» وفي الغرب باسم «بتاح» ليكون الملك لهم حقًا الهيًا بأنهم ابناء الاله وورثته وخلفاؤه في الارض وان يصير اله الشمس ملك الآلهة ورب الأرباب وان تفرض عبادته من ثمَّ على سائر افراد الشعب يعبدونهُ الى جانب معبوداتهم الخاصة في اقاليمهم . وكان هذا بداءة الشرك وتعدد الآلهة

ومع الزمن أصبحت المعبودات جميعها معروفة في سائر أنحاء البلاد فما كان منها متشابهاً في صفاتها عبدوها معاً وخلطوا بين اسمائها في قصصهم الديني حتى ليتعذر ان تفرق بينها . فكثيراً ما تذكر هاتور مثلا ويراد غيرها من اناث المعبودات مثل ايزيس وسيخت وكذلك «بتاح» لكونه يمثل «را» في العالم الثاني فقد عبد كصورة من صور أوزيريس أو آسار وسمي بتاح سيكر آسار وجعلت في معبده حظيرة للعجل ابيس وهو رمز آسار كما سأبينهُ بعد

ولما نجح احمس رأس الأسرة الثامنة عشرة وكان من طيبة، في تخليص البلاد من حكم الهكسوس واستقل بالبلاد متخذاً طيبة عاصمة لملكه أصبح لآمن معبودها المقام الأعلى في البلاد وأدمج فيه «را» وصار يدعى «آمن را»

وفي زمن بطلميوس الاول سوتير مؤسس أسرة البطالسة جيء الى مصر من اليونان بتمثال صنع على هيئة العجل وعلى رأسه شارة مصر المكونة من قرص مجنح يكتنفه أفعوان وعقاب وقيل لتزكيته عند المصريين واليونان انه يمثل اتحاد كل من بلوتو اله العالم السفلي عند اليونان وآسار اله الموتى عند المصريين وسمي سيرابيس وشيّد له في الاسكندرية معبد فخم ظل قائماً الى دخول المسيحية . وكانت الغاية من ذلك اضعاف القومية المصرية وخضد شوكة المقاومة فيهم للحكم الاجنبي من طريق افساد عقائدهم باحلال آلهة غريبة مكان آلهتهم التي ألهمتهم اياها طبيعة الاشياء في مصر وضرورات الحياة واصطبغت بصبغة البلاد وصرفهم عن معابدهم التي تمثل فيها عظمة الماضي ومجد ملوكهم الاقدمين

ونظراً لهذا الامتزاج بين المعبودات فاني في دراستي هذه سأحرص على ان أبين هل كان الرمز للمعبود الذي ادرسه في الاصل او كان لآخر نظيره ثم أضيف اليه بعد ادماجه به

﴿ الرموز ﴾ الرمز أداة يستعان بها لتقريب المعاني المجردة الى الاذهان وتجسيمها لابرازها

للعيان . وقد استعمل قديماً لتعريف الآلهة وتمثيل صفاتهم . وقد اتخذت اكثر الرموز لهذه الغاية من الحيوان لان لاجناسها صفات وغرائز معروفة تميز بها

ومن اجناس الحيوان التي استعملت رموزاً في الديانة القديمة الأيبس والقرد والعجل والبقرة والكبش والجعران . وقد تكلمت في المقال السابق عن الأيبس والقرد . وأضيف الآن اني بعد ارسال المقال قرأت في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري عن طائر اسمه بوقير «انه طائر ابيض تجيء منه طائفة كل سنة في وقت معلوم الى جبل يقال له جبل الطير بصعيد مصر بقرب انصنا» . وهذا الجبل بمديرية المنيا ولا يبعد كثيراً عن الاشمونين . ولعل هذا الطائر هو الايبس كانت تجيء منه طائفة كل سنة عند ارتفاع ماء النيل فتفاءل به الناس واعتبروه بشيراً بالخير وموقتاً يدلهم على وقت الفيضان . ومن ذلك كان تقديسه في هذه المنطقة واتخاذه رمزاً لتوت الاله الذي أرشدهم الى معرفة الاوقات والفصول

وسأتناول في هذا المقال آلهة ورموزاً أخرى وأرجو ان أوفق الى ادراك الصلات المعنوية بين هذه المعبودات ورموزها

﴿ آلهة الشمس ﴾ أنشأ الناس منذ أدركوا عظمة الكون يتأملون في الكائنات مما في السماء وما في الارض وما بينهما ويتساءلون عن مصدر القوة فيها وانتهوا من ذلك الى معرفة الخالق

ولقد صور صاحب المزامير هذا المعنى أحسن تصوير وأبلغه في المزمور التاسع عشر حيث يقول «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه .... في كل الارض خرج منطقهم والى أقصى المسكونة كلماتهم . جعل للشمس مسكناً فيها وهي مثل العروس الخارج من حجلته (مخدعه) يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق . من اقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها . ولا شيء يختفي من حرّها»

وكانت الشمس التي اختصها صاحب المزامير بالذكر أعظم وسيلة الى معرفة الاله ، والآية الكبرى على قوته فعبدت منذ أقدم العصور زلفى اليه . وقد بقيت من عبادة الشمس بعض عبارات لا تزال تطلق على الله مجازاً وهي من صفات الشمس أصلاً كالآية «الله نور السموات والأرض» وقولنا السماء كرسيه والارض موطىء قدميه

ومما كان له أثره في خيال الأولين ومعتقداتهم منظر الشمس وهي ترتفع في الأفق من وراء الجبال تتهادى لتأخذ مكانها في كبد السماء ثم تأخذ في الانحدار حتى تختفي كذلك خلف الجبال التي في المغرب . فقد اختلف الرأي في تفسير ذلك مما ترتب عليه اختلاف الرموز وتنوع العبادات

فنهم من توهم ان للشمس مسكناً خفياً في الجبال وبناء على ذلك بنيت المعابد عليها في بلاد كثيرة تقرباً لها . ومن هذا القبيل الاكروبوليس بقرب آثينا ومعنى الاسم مدينة الرأس لانها

قائمة على رأس جبل . وكذلك المرتفعات التي جاء في سفر الملوك من أسفار التوراة ان العمونيين والموابيين من سكان فلسطين الأولين كانوا يقيمونها لكموش ومولك آلهة الشمس عندهم. وأصبحت الجبال التي أقيمت عليها تلك المعابد مقدسة ولا يزال لبعضها حرمة الى الآن عند بعض الامم

ومنهم من اعتقد ان الشمس تهبط من المغرب الى العالم الثاني عالم الارواح ثم تبعث من المشرق في اليوم الثاني

واختلفوا كذلك في وصفها فمنهم من شبهها فى شروقها والأفق من حولها يتلألأ بأشعتها الذهبية بمركبة تحمل الأله من الشرق الى الغرب . وفي مصر شبهت بالثور القوي ينطلق من حظيرته في الجبل الشرقي هائجاً يتقدمه قرناه يكنى بهما عن أشعتها وأول ما يبدو منها . وشبهت أيضاً بالباشق وكني عن أشعتها بجناحيه .كما شبهت بالسفينة وقيل لذلك ان في السماء نهراً أعد لها تقطعه في رحلتها اليومية من الشرق الى الغرب

وسأجتزىء من ذلك كله بآلهة الشمس فى مصر ورموزها فأجعلها موضوع دراستي فى هـذا المقال

﴿ المعبود « را » ﴾ « را » هو اسم اله الشمس فى أون . ومن هذا الاسم فيما أظن اشتق الفعل « رأى » ولفظة ray بمعنى اشعة . وكان يطلق على الأله اذا كانت الشمس في كبد السماء فاذا ولدت من المشرق في يوم جديد سمي حور ماشيس وهو من أسماء حورس الابن ومن المرجح ان لفظة horizon بمعنى أفق مشتقة من هذا الاسم فاذا انحدرت الى المغرب وآذنت بالغياب في عالم الارواح أطلق على الأله اسم « تمو » أو « آتمو » ولعله في نطقه الصحيح كان اقرب الى لفظة «عتمة» العربية

وبديهي ان هذا الثالوث من الاسماء لم يكن يعني عند الاقدمين ان للشمس آلهة ثلاثة . فالشمس سواء أكانت في كبد السماء أم في المشرق أم في المغرب هي واحدة والهها كذلك واحد. أما هذه الأسماء فهي اكثر ما تكون شبهاً بالاقانيم الثلاثة للاله الواحد في اعتقاد المسيحيين

ويظهر ذلك جليًّا في صلواتهم .وحسبي برهاناً على قولي ان أنقل بضع فقرات من صلاة نشرها مريت باشا بأصلها الهيراطيقي وترجمت منها الى اللغات الاوربية . وفيما يلي ترجمتها من الانكليزية :

« ايها الكائن الواحد خالق الخلق كله . الواحد الاحد .موجد الكائنات » ومنها « ايها الأله آمن وهو (را) وآتمو وحورماشيس موجد الكائنات كلها . ان جميع الناس يسبحونك قائلين انا نمجدك لانك في وسطنا ونسجد لك لانك خلقتنا» ومنها «انه يسمع صلاة المستضعفين ويستجيب دعاء الداعي اذا دعا . وهو ينقذ الودعاء من ايدي قساة القلوب . ويقضي بالحق

بين الاقوياء والضعفاء» ومنها «ان عينه على الناس وهم نيام وهو يكفل لادنى خليقته احتياجاتها»

﴿ رموزه ﴾ تقدم القول ان الأوائل في فطرتهم شبهوا الشمس في شروقها بالثور وبالباشق وبالسفينة. وقد احتفظ قدماؤنا ـ والمصريون محافظون بطبعهم ـ بتلك الصور جميعها كذخيرة مقدسة

أما الثور فقد اتخذوه باسم منفس رمزاً حيّاً لرا ووسيلة للزلفى اليه . وقد جاء في حجر رشيد المشهور ان بطاميوس الخامس أغدق عليه وعلى الحيوانات الأخرى المقدسة الخير وأجزل لها العطاء تقرّباً للآلهة

وأما الباشق فهو رمز حورس الابن وهو حورماخيس الشمس المشرقة وكان يصنع تمثاله من الذهب الخالص لمطابقة لونه لأشعة الشمس عند الشروق . وقد جعل رأس الباشق يتوجه قرص الشمس في موضع الرأس من تمثال « را » وهو على هيئة رجل يقبض باحدى يديه على علامة الحياة وبالأخرى على رمز القوة

وأما السفينة فهي رمز آمن اله الشمس في طيبة وسيأتي الكلام عنها بعد

ولما كانت سلسلة الجبال المحاذية للنيل على امتداده تبعد اكثر اجزائها عن الوادي المعمور ويتعذر لذلك اقامة المعابد للشمس عليها او في سفوحها كما فعلت الأمم الأخرى فقد اصطنع قدماؤنا المسلة التي أصبحت عنواناً على مصر في هذا العصر لتكون رمزاً للافق وجعلوها مرتفعة لتستقبل أول ما يبزغ من أشعة الشمس وجعلت رؤوسها هرمية الشكل وطليت بصفائح مصقولة من الذهب والنحاس لتنعكس عنها ولها لون الأشعة في المشرق وتوهجها ، واتخذوا لها بيتاً في داخل المعبد اطلقوا عليه اسم «هات بن بن» اي بيت المسلات وجعلوه قبلتهم . أما ما كان منها في غير هذا البيت فأريد به الزلفى الى الاله. وقد تنافس الملوك خلال آلاف السنين في اقامتها وحرصوا على ان يسجلوا عليها ما قدموا من صالح الاعمال لمجد أبيهم الاله وعظمة الوطن. لكن لم يبق من ذلك الأعدد يسير

***

وقد بلغت هليوبوليس شأواً عظيماً واصبحت من اعظم المدن في زمانها . وكان معبدها من أكبر المعابد في مصر وأغناها واكثرها حاشية حتى قيل انه في زمن الأسرة العشرين بلغت الحاشية عدة آلاف . الا انها بسبب موقعها في الشرق كانت في طريق الغزاة الذين جاؤا من أسيا الى منف العاصمة . فداسوها واحداً إثر آخر وأعملوا فيها يد الخراب حتى لم يبق من المدينة العظيمة ومعبدها حجر على حجر الا المسلة اليتيمة القائمة في وسط الحقول في قرية المطرية. وهي ثانية اثنتين أقامهما اوزرتسن الاول من ملوك الاسرة الثانية عشرة حوالي عام ٢٤٣٣ ق . م . اما اختها فقد ظلت في مكانها الى القرن السابع ثم اندرست آثارها [للبحث صلة]

لمحات حول نشرة دار الآثار العراقية عن

تاريخ قصر الاخيضر

لتوفيق الفكيكي
حاكم منفرد كربلاء

« تأييد وتفنيد » لقد جالت اقلام الكتاب وتشعبت آراء الباحثين ممن شغفوا بالبحوث التاريخية بخصوص الوقوف على حقيقة تاريخ الاخيضر ذلك القصر الشامخ المنيف . وقد تتالت الهيئات الأثرية في ادوار مختلفة على زيارة هذا الأثر الخالد الدال على عظمة بانيه وواضع حجر اساسه فعادت دهشة وفي حيرة من امره واسراره المجهولة في مطاوي الزمن . وآخر ما ظهر في شأنه ما نشرتهُ دار الآثار العربية عندنا في نشرتها المعنونة (بالاخيضر) . وقد أسدت بذلك خدمة جليلة يقدرها لها هواة التاريخ حق قدرها ويشكرها عليها كل عراقي حريص على احياء مآثر السلف الصالح وهي وان بذلت جهداً كبيراً لاستجلاء ما غمض من أمره وتبسطت في عرض آراء ومذاهب المؤرخين والمنقبين بقصد كشف النقاب عن حقيقته التاريخية، فانها لم تنج من الورطة ويا للاسف لانها أهملت أهم ناحية من نواحي التحقيق العلمي في أمثال هذه الموضوعات الهامة ألا وهي تمحيص الآراء والمذاهب التي أدلت بها بشأن تاريخ الاخيضر فقد اثبتها على علاتها وضعف اسانيدها وغاية ما تذرعت به قولها في صحيفة (٣٣) :

« من الغريب أن تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط ، بالرغم من ضخامة بنائه ودقة تخطيطه واهمية موقعه . لانه لا يوجد في القصر او الحصن كتابة تدل على شيء من تاريخه كما لا يوجد من كتب التاريخ والجغرافيا القديمة اشارات صريحة تدل عليه» . واعتبرت دار الآثار ان اقدم الاشارات التي تدل على الاخيضر بصورة اكيدة ترجع الى القرن السابع عشر حيث شاهده بعض الرواد من الاوربيين ثم اسرفت دار الآثار في حكمها على تاريخ الاخيضر بقولها

« ان كل ما يعرف عن تاريخ الاخيضر لا يتعدى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات » ثم سرعان ما تهدم حكمها هذا وتتراجع عنهُ بصورة عجيبة بعد بسطها اجتهاد الباحثين والمحققين من المستشرقين وغيرهم وتتفق معهم فيما ذهبوا اليه وأجمعوا عليه من ان قصر الاخيضر هو من الآثار العربية الاسلامية بدون شك وريب كما يجده القارىء في صفحة

٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥ من النشرة المطبوعة في مطبعة الحكومة في سنة ١٩٣٧ باهمال التاريخ الهجري مع انها بحثت عن أثر عربي اسمه بالخط الكوفي والناشرة له تسمى دار الآثار العربية في العراق

وأغرب من هذا هو استغراب دار الآثار ان قصر الاخيضر بالرغم من ضخامته ودقة تخطيطه الخ ..غير معلوم فكأن الضخامة ودقة التخطيط من لوازم معرفة تاريخ الآثار والمنشئين لها ومواقيت الانشاء

وجل ما اعتمدت عليه من المصادر في استنتاجاتها التاريخية هي اقوال من نقلت عنهم فقط. وسنأتي على تفنيد معظمها وأهمها . مع انها لو رجعت الى اسفار التاريخ العربي الاسلامي لوجدت ضالتها وسقطت على الخبير ولتخلصت من الشكوك ونجت من الورطة على قدر الامكان ولكانت نتائج مجهودها أقرب الى الصحة وأبعد عن الخطأ وحدود الظن

والآن نثبت الآراء التي استندت اليها الدائرة المشار اليها ثم نقيم الحجة على زيف بعضها وتصحيح البعض الآخر منها وهاهي ذي على الترتيب

التحقيق التاريخي

قال السيد شكري الالوسي ان كلمة (الاخيضر محرفة من اسم (الاكيدر) وهو اسم امير من أمراء كندة أسلم في صدر الاسلام. فالقصر يجب ان يكون قد شيد من قبل الامير المبحوث عنه قبل الاسلام

وقال (موزيل) ان كلمة الأخيضر من القاب شخص معروف في التاريخ وهو اسماعيل بن يوسف (الاخيضر) حاكم اليمامة على الكوفة من قبل القرامطة (في اوائل القرن الرابع الهجري — العاشر الميلادي) وقال ان الاخيضر يجب ان يكون (دار الهجرة) التي اسست من قبل الحاكم المشار اليه

وقد لاحظ (ماسينيون) عند زيارته الاخيضر ان ريازته تشابه الريازة الساسانية فاعتقد لذلك انهُ يجب ان يكون قد شيد من قبل معمار ايراني قبل العهد الاسلامي في العراق ، لاجل احد ملوك الحيرة من اللخميين . وقال ربما كان (قصر السدير) الذي تغنَّى بهِ الشعراء هو الاخيضر نفسه .وقد أيد (ديولافوا) رأي ماسينيون من حيث الاساس واعتبر الاخيضر من المباني المشيدة قبل الاسلام في أواخر القرن السادس للميلاد. وقد قررت (المس جرترود بل) المستشرقة عند زيارتها الاخيضر سنة ١٩٠٩ انهُ من المباني الاسلامية لانها كشفت المسجد ولاحظت المحراب ورجحت ان يكون دومة الحيرة التي شيدت في عهد الامويين. اما موزيل واسكار روتير، وكرسويل فقد أيدوا رأي (المس بل) من حيث الاساس فاعتبروا الاخيضر من المباني الاسلامية . غير انهم اختلفوا في امر تثبيت تاريخ البناء بين اواخر القرن الاول واوائل القرن الرابع للهجرة

ولكن (كرسويل) لم يوافق على رأي (المس بل) في اعتبار الاخيضر من عهد الامويين بل قرر انهُ من عهد العباسيين ورجح ان يكون قد شيد في عهد عيسى بن موسى ابن اخي السفاح

والمنصور وابن عم المهدي وولي عهد المنصور وكان والياً على الكوفة . واما هوسفيلد فقال — يجب ان يكون من مباني اوائل القرن الثالث للهجرة لانهُ وجد شبهاً بين ريازة الاخيضر وريازة سامراء . هذا كل ما جاء في النشرة من الاستدلال على تاريخ الاخيضر وان القائم بطبعها اكتفى بسرد هذه المطالعات على عواهنها قائلاً في صفحة ٤٢ منها (ان العلماء اصبحوا مجمعين تقريباً على القول بان الاخيضر من مباني العهد العربي الاسلامي وان اختلفوا في تقرير العصر الذي تم فيه تشييده)

ان البحث العلمي يقضي على الناشر تمحيص وتفنيد تلك المطالعات والملاحظات على ضوء التاريخ العربي الاسلامي وتثبيت النتيجة الصحيحة التي يدعمها البرهان التاريخي مهما امكن وذلك لئلا يقع طلاب الابحاث التاريخية والذين يهمهم معرفة آثار الماضين في حمأة الخطل

على أننا لا ننكر أهمية النقاط المفيدة القيمة المثبتة في صفحة ٤٤و٤٥ من النشرة حول الريازة العربية الاسلامية واستنباط الحكم منها على عروبة الاخيضر

نقول : ان القول ما قاله المرحوم العلامة السيد شكري الآلوسي الاً في جهة واحدة وهي تعين العصر الذي شيد فيه الاخيضر لانهُ قطع بأن التشييد كان قبل الاسلام مع ان الحقيقة التاريخية كانت خلاف ذلك كما سيطلع القارىء عليها مفصلاً حيث ذكر صاحب معجم البلدان في الجزء الرابع وفي الصفحة ١٠٧و١٠٨ ما يأتي

(وأحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر في كتابه الفتوح وأنا حاكٍ جميع ماقاله على الوجه قال: بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد (رض) سنة تسع الى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل [1] فأخذه أسيراً وقتل أخاه وقدم بأكيدر على النبي (ص) وعليه قباء ديباج بالذهب فأسلم أكيدر وصالح النبي (ص) على أرضه وكتب لهُ ولأهل دومة كتاباً وهو: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى الاسلام وخلع الانداد والاصنام ولأهل دومة ان لنا الضاحية [2] من الضحل [3] والبور والمعامي [4] واغفال [5] الارض والحلقة [6] والسلاح والحافر والحصن [7] ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر النبات تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين. ثم عاد أكيدر الى دومة فلما مات رسول الله (ص) منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء وسماه دومة واسلم حريث بن عبد الملك أخوه على ما في يده فسلم له ذلك وعلى ذلك قال سويد بن الكلبي

(١) تقع في وادي القرى بين الشام والمدينة (٢) الضاحي البارز (٣) الماء القليل (٤) المعامي الارض المجهولة (٥) التي لا آثار فيها (٦) الدروع (٧) هو دومة الجندل المشار اليها

فلا يأمنن قوم زوال جدودهم كما زال عن خبت ظعائن أكدرا

ثم قال صاحب المعجم : وقد روى ان أكيدر كان منزله أولاً بدومة الحيرة وهي كانت منازله وكانوا يزورون أخوالهم من كلب وأنهُ لعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق الاَّ حيطانها وهي مبنية بالجندل فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة وكان أكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة وهذا يزيل الاختلاف . ثم زاد صاحب المعجم قائلاً . وقد ذهب بعض الرواة الى ان التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل وبذلك يقول الأعور الشني

رضينا بحكم الله في كل موطن وعمرو وعبد الله مختلفان

وليس بهادي امة من ضلالة بدومة شيخا فتنة عميان

هذا ما اثبته ياقوت في معجمه حول دومة الجندل اي الاخيضر وقد ايد ذلك شيخ المؤرخين الطبري في الجزء الرابع والصفحة ٢٢ من تاريخه في خبر فتح دومة الجندل من قبل خالد بن الوليد. ومما قاله: ولما بلغ اهل دومة مسير خالد اليهم بعد فتح عين التمر بعثوا الى احزابهم من كلب وغسان وتنوخ والضجاعم وهم على رئيسين اكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة وقد خالف اكيدر جماعته واعتزل الحرب مع خالد ولكن لم ينج منهُ وقد امر بهِ فضربت عنقهُ ثم جعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض. وكان النصارى الذي امدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة وبالاخير تغلب عليهم المسلمون وتحصن اهل دومة في الحصن فلم يحصنهم حتى قتلهم خالد وسد بهم باب الحصن واقام خالد بدومة ثم رجع الى الحيرة وكان منها قريباً حيث يصبحها

ونظراً لما تقدم علم ان تاريخ دومة الجندل او قصر الاخيضر كان بعد الاسلام وبعد ارتداد اكيدر وعدم دفعه الصدقة اي الزكاة ومجيئه الى الحيرة في عهد ابي بكر الصديق . وبهذه الرواية التاريخية الموثقة بقول ثقاة المؤرخين يبطل قول المرحوم الألوسي في ان قصر الاخيضر شيده (الاكيدر) قبل الاسلام . وكذلك رأيُ المستشرق (ماسينيون) الذي بسطناه آنفاً والمتضمن ان هذا القصر قد شيد من قبل معمار ايراني قبل العهد الاسلامي في العراق لاجل احد ملوك الحيرة من اللخميين اصبح مفنداً ولا قيمة له ازاء هذه الحقيقة الناصعة

اما قول ماسينيون (او ربما كان قصر السدير الذي تغنى بهِ الشعراء هو الاخيضر نفسه) فلا صحة لهُ ايضاً حيث ان قصر السدير هو الخورنق ومحل هذا القصر قرب ابي صخير اليوم ولم تزل اطلاله عبرة المعتبرين ويوجد ايضاً قصر (السديري) في منطقة الحياد بين العراق ونجد يعود الى عبد العزيز السديري احد عمال الحكومة السعودية والقصر الآن خربٌ. واما السدير الذي تغنى به الشعراء فلم يكن قصراً بل احد أنهار الكوفة ومثله بارق وهو الذي عناه المتنبي بقوله

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

وبهذا دحضنا قول كل من المستشرق (ديولافوا) مؤيد (ماسنيون) والمستشرقة (المس بل) فيما يتعلق بقولها : في ان الاخيضر هو دومة الحيرة المؤسسة في العهد الاموي في حيرة المناذرة. وعلى هذا سقط ايضاً ما فكر بهِ المستشرق الشهير هرسفيلد الالماني من ان قصر الاخيضر من جملة اعمال الحكومة العباسية التي قامت بها في القرن الثالث والرابع من الهجرة لوجود الشبه بين ريازة بناء قصور سامراء والاخيضر . وبالوقت نفسه دفعنا شبهة المستشرق (كره سويل) التي دفعتهُ الى القول بان الاخيضر قد شيد في عهد عيسى بن موسى بن اخي السفاح والمنصور الذي كان والياً على الكوفة مع ان عيسى بن موسى لم يكن ابن اخي السفاح وانما هو عيسى بن موسى الذي حكم الكوفة وطرد عمالها في عهد الخليفة المعتمد على الله وهو ابن أخت عبدان صاحب دعوة القرامطة بسواد الكوفة وهو الذي ترأس طائفة القرامطة التي نجم قرنها في بلد عين التمر (شفاثه) بلد ابي العتاهية الشاعر الزاهد المشهور والقائل

لهفي على الزمن القصير بين الخورنق والسدير

. أما المستشرق موزيل فقد أخطأ خطأً كبيراً في ما قام بهِ من التحقيق عن تاريخ الاخيضر وكدنا ان نقع في ما وقع فيهِ الاستاذ موزيل وكادت رواية المؤرخ العربي المسعودي تجعلنا في ضلال مبين كما أضلت موزيل من قبلنا ورواية المسعودي كما رواها في كتابهِ (التنبيه والأشراف) صفحة ٣٣٠ و ٣٣١ هي : —

ان القرمطي سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي صاحب البحرين قد سار سنة ٣١٣ الى الكوفة وبعد ان عمل بها ما عمل بالبصرة من سفك الدماء والتخريب قفل الى الاحساء بالذرية والثقلة وسلم البلد الى اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر صاحب اليمامة بن ابراهيم بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الخ

ثم ان المسعودي أيد في صفحة ٤٣٠ و ٥١٣ من كتابهِ مروج الذهب قيام « عقبة » المعروف بني الاخيضر مقام محمد بن يوسف في اليمامة والبحرين بعد هروب محمد بن يوسف أخي اسماعيل بن يوسف المار الذكر من مكة المكرمة من وجه ابن الساج الأشروسي الذي بعثه الخليفة المعتز لأجل خلاص مكة من شره وشر أخيه اسماعيل الذي توفي قبله

وقد عزز هذه الرواية الاخيرة أيضاً الكامل لابن الأثير في صفحة ٥٣ من الجزء السابع وكذلك تاريخ الطبري من قبله في صفحة ١٣٦ و ١٥٢ من الجزء الحادي عشر الا أنهما لم يؤيدا المسعودي في ما ذكره عن تسليم بلد الكوفة الى اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر ولم يتفقا معه في تسميته (بالاخيضر) بل لقباه (بالطالبي) فقط . وبنتيجة استقصاء البحث ظهر

ان الحق كان بجانب الطبري وابن الأثير بتأييد المسعودي نفسه فقد ذكر في كتابيه (مروج الذهب) و (التنبيه والاشراف) ان وفاة اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر كانت في سنة ٢٥٢ هـ في حين ذكر ان في سنة ٣١٣ هـ سلّم أبو طاهر سليمان القرمطي بلد الكوفة الى المومأ اليه. مع ان اسماعيل بن يوسف توفي في مكة المكرمة بعد أن فعل فيها الافاعيل المنكرة وخلفه بعده اخوه محمد بن يوسف والذي هرب من وجه ابن الساج الاشروسي قائد الخليفة المعتز. فأي الروايتين أصح يا ترى. واعتماداً على هذه الرواية قطع المستشرق «موزيل» في ان كلمة الاخيضر اسم شخص معروف في التاريخ. وهو اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر حاكم اليمامة على الكوفة من قبل القرامطة (في اوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) فقال ان الاخيضر يجب ان يكون دار الهجرة التي اسست من قبل الحاكم المشار اليه

وقد مرّ بالقارىء الكريم كيف أثبت التاريخ فساد هذا الرأي وبطلانه وهناك برهان آخر على سقمه وهو ان دار الهجرة التي أسسها القرامطة ، لم تكن هي الاخيضر ولا في الكوفة او الحيرة وانما كانت في واسط على نهر «الموفقيّ» وذلك كما جاء في الجزء الثامن صفحة ٥٨ من كامل ابن الاثير. حيث ذكر ان من حوادث سنة ٣١٦ هـ. بناء دار الهجرة من قبل أحد زعماء القرامطة يدعى حريث بن مسعود وكان يتقلد الحرب في واسط والتحق به أكثر من عشرة آلاف من سواد الكوفة من الذين كانوا يخفون اعتقادهم مع طائفة أخرى تسكن عين التمر كانت تحت أمرة عيسى بن موسى الذي استولى على الكوفة وهزم عمالها في عهد الخليفة المقتدر بالله وهو ابن أخت عبدان صاحب دعوة القرامطة بسواد الكوفة وكان بناء دار الهجرة في (الموفقيّ) — بالضم ثم الفتح — منسوب الى الموفق ابن أحمد الناصر لدين الله بن المتوكل على الله وأخي المعتمد على الله ووالد المعتضد بالله وكان قد ولي عهد أخيه. والموفقي نهر كبير حفره الموفق وفي أعلاه (قصر بزوفر) وفي أسفله قصبة خسرو سابور قرب واسط وخسرو فيروز. كما جاء في معجم ياقوت صفحة ١٩٨ من المجلد الثامن

فأين هذا مما ذهب اليه المستشرق الاستاذ «موزيل»

هذا ولا يعزب عن بال الالباء ان حركات القرامطة في العراق وسورية والحجاز ومصر كانت عبارة عن اعمال عصابات وقطّاع طريق لم يتسع لهم الوقت او تستقر لهم حالة ليقوموا بعمل جبار مثل تشييد (دومة الجندل) او الاخيضر تلك المباني والآثار الخالدة. خاصة وقد استؤصلت مادتهم وذبحوا عن بكرة ابيهم في العراق بعد سنة ٣١٧ هـ كما يخبرنا التاريخ. ومما يؤيد ايضاً زيف رأي موزيل ومن يذهب مذهبه ما نقله صاحب المعجم عن بعض الرواة الى ان التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل وبذلك يقول الأعور الشني

رضينا بحكم الله في كل موطن وعمرو وعبد الله مختلفان
وليس بهادي امة من ضلالة بدومة شيخا فتنة عميان

اما المسجد والمحراب فقد احدثا بعد فتح دومة الجندل اي الاخيضر من قبل خالد بن الوليد وقيام عويم بن الكاهل الاسلمي والياً على عين التمر وعليها بعد مسير خالد الى الحيرة والدليل ان المحراب لا يتناسب وضخامة القصر وحصنه . اما ماجاء في آخر صحيفة (٣٦) من نشرة دار الآثار وهو (فليس من المعقول والحالة هذه الاقدام على استدلال تاريخ الاخيضر من اسمه فغير وجيه لان الآثار قد تسمى باسماء مشيديها كما سمي قصر الجعفري نسبة الى جعفر المتوكل على الله و (الماحوزة) التي شيد فيها الجعفري وغيره من قصور المتوكل (بالمتوكلية) او (الجعفرية) وكما يطلق البغداديون اليوم على جامع مرجان كلمة (مرجان) فقط وعلى قضاء الهاشمية التابعة الى لواء الحلة (الهاشمية) نسبة الى الهاشمي عبد الله السفاح و (اشناس) اى قصر اشناس قائد المعتصم المشهور وهكذا (المستنصرية) الى المستنصر بالله (والنظامية) الى النظام. وأشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر

على اننا نوافق دار الآثار على ما اوردته من الملاحظات الاخرى في اعلى الصفحة المذكورة وبسطنا بعضها في ما تقدم من البحث ولكننا لا نتفق معها في اتخاذها العقل حجة لاستدلالها على نفي نسبة (الاخيضر) المحرفة عن (الاكيدر) الى الملك اكيدر بن عبد الملك بن عبد الحي بن اعيا ابن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن ابامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن اشرس بن ثور ابن عفير وهو كندة السكوني الكندي كما قدمنا وان كان اعتمادها على حجة العقل تؤيد ما ذهبنا اليه لأن العقل يصدق هذه النسبة ويبررها مع ان العقل لا يركن اليه في دراسة الآثار . هذا كان على دار الآثار ان تصل الى معرفة (دومة الجندل) ومشيدها (اكيدر) من طريق البحث التاريخي وألاّ تكتفي بتسجيل استغرابها في صفحة (٣٣) بقولها (من الغريب ان تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط الخ) ثم تعلل ذلك بحجة انهُ لا يوجد في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة اشارات صريحة تدل عليه واخيراً تردف قولها هذا بالجملة الآتية : -

(ولهذا نستطيع ان نقول ان كل ما يعرف عن تاريخ الاخيضر لا يتعدى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات » ولكن نقول لمن نشر نشرة (الاخيضر) لو اجهدت نفسك قليلاً في البحث والاستقصاء في الكتب الصفراء كما ينعتها المجددون لوجدت ضالتك في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة كما نوهنا عنها آنفاً ولعلمت ان قصر الاخيضر هو (دومة الجندل) وان مشيده هو (اكيدر) وان عصر تشييده هو العصر الاول من تاريخ الاسلام وفي عهد الخليفة الاول من الخلفاء الراشدين وليس هناك اية شبهة او تضليل . بيد ان الضلال هو تقليدنا واتباعنا كل ما يقول المستشرقون كوحي منزل بلا تمحيص وروية وآسفاه

أرض شكسبير

زار الشاعر قرية استرادفورد اون أفون بانجلترا . وهي المهد الاول لاحلام شكسبير، وأرض طفولته . فقال هذه الابيات

خفق القلبُ خفقةً في حماكِ وتلقّى الخيالَ من دنياكِ
قسماً بالذي براكِ من الشعـــر وبثّ الجمال فوق ثراكِ
ما عرفت الجمال في غير ناديــك ولا ذقتهُ بغير رباكِ

* * *

ها هنا شاعرٌ أقام وغنّى صبٌّ في مزهر الطبيعة لحنا
كلما شدَّ عُودَهُ وتغنّى ملأ الكونَ والعوالم فنّا
وصف النفس وهو أفصح لفظاً والأحاسيس وهو أصدق معنى

* * *

بقعة أنتِ من بقاع الجمالِ مسرح الشعر و الهوى والخيالِ
رقّ فيك الاصيل تحت الروابي والمساء الحزينُ خلف التلالِ
والحشيشُ الذي حواليك يهـــتز اذا داعبتْـهُ ريح الشمالِ

* * *

وجرى الماء كاللجين الجاري عاكساً ظلّ هـذه الاشجارِ
وسمعنا السنين تنغم فيهِ هازئاتٍ بنغمة الاوتارِ
وسكرنا هنا بغير شرابٍ وانتشينا هنا بغير عقارِ !

* * *

ثم قالوا : هنا تنفّس شاعرٌ وهنا رفّ في الخمائل طائرٌ
وهنا فاض خاطر عبقريٌّ لم يفض قبله من الشعر خاطرٌ
وهنا في ظلال تلك الروابي سحرتني من الجمال مناظرٌ



العمى يبصرون

ترقيع العيون البشرية
والكهربائية في العين

لعوض جندي



« ليست العين عرضة للأدواء التي تعتري اجزاءها الباطنية المختلفة فحسب ، بل قد تتأثر من أمراض غيرها من أعضاء الجسم ، فتظهر اعراض تلك الاسقام جلية في العيون . ونعني بها الامراض التسممية ، والتسمم ببعض العقاقير ، وكذلك الاصابة ببعض امراض الدم وغيرها من الامراض العامة كالبول الزلالي والبول السكري وتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم ، اذ تتبيّن أعراض تلك العلل جميعها لنقريس العين[1] وذلك حينما يلجأ اليه المريض مستشفياً عينيه . ويشفى كل سنة في انكلترا وغيرها من البلدان المتحضرة ألوف من العميان اذ يستعيدون حاسة البصر عقب العمليات الجراحية البديعة التي يعملها لهم الجراحون الرمديون . وغدت ازالة السحابة «الكترا كتا» — أو اظلام عدسة العين — على أيدي مهرة الجراحين ، من اعظم ضروب الظفر التي احرزتها الجراحة الحديثة وقد استطاع أحدهم من عهد قريب نزع قرنية[2] امرىء وترقيع عين آخر بها . وأضحى من الميسور اجتناب كثير من حوادث العمى وذلك باتخاذ الحيطة الواجبة منذ الطفولة »

هذا بعض ما روته مجلة طبيب العائلة الانكليزية منذ بضع سنين وعقبت عليه بقولها ايضاً : — أصيبت بالعمى من سنوات الآنسة «دافني ده موريه الروائية الانكليزية المشهورة وذلك عقب حادثة استهدفت فيها قرنيتا عينيها للضرر ، فقام احد اطباء العيون بترقيع عينيها بقرنيتين جديدتين فاستعادت بصرها» . وجاء في الانباء البرقية من لندن في ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ما يأتي : —

عملت في اوائل الشهر الماضي عمليتان مدهشتان في مستشفى لندن الرمدي المركزي ، وهما تطعيم قرنية العين . وقد أسفرتا عن نجاح باهر . وكان أحد اللذين أجريت لهما هذه العملية كفيفاً منذ ولادته والآخر منذ ٢٨ سنة . ويؤمل ان يعاد اليهما بصرهما قريباً . ففي حالة الذي ولد أعمى منهما ، لا بدّ ان يمضي بعض الوقت حتى يتسنى تدريبه على أن يحل حاسة النظر محل

---

(١) النقريس الطبيب الماهر المدقق (٢) القرنية — السواد الذي في وسط البياض

حاسة الادراك باللمس ، غير انهُ صار الآن قادراً أن يعدَّ أصابعهُ ويميز بين الالوان

قرأنا هذه الانباء ثم نشرت صحفنا المحلية من عهد قريب حوادث تضارعها غرابة فتذكرنا ما كتبناه في هذا الموضوع الخطير من ربع قرن وذلك في مجلة المحيط التي صدرت في شهر مارس سنة ١٩١٣ لصاحبها المرحوم الاستاذ عوض واصف فآثرنا اقتباسه لقرائنا تمهيداً لهذا البحث الطبي الجراحي المستفيض : —

من معجزات العمليات الجراحية الحديثة غير ما سبق أن ذكرناه في الاجزاء الماضية من المحيط — عملية تطعيم العيون اي ترقيعها — فقد قرأنا في احدى المجلات العلمية الانكليزية أن بعض الجراحين أمكنهُ صيانة بصر مريض كان مصاباً بعلة في احدى عينيه وذلك باستئصال الجزء المصاب واستبداله بجزء سليم من عين انسان آخر

وأول ما يخطر على بال القارىء عند قراءة هذا النبأ أن العملية المشار اليها تقتضي تضحية عين من عيون الاصحاء والحقيقة نقيض ذلك لانهُ لو كان اتلاف السليم ضرورياً لنجاح هذه العملية ، لاصبحت عقيمة . والواقع انه من الميسور استعمال عيون ، مما تنزع من الناس لاسباب مختلفة ، بشرط ان يكون الجزء الخاص المطلوب لأجل اجراء الترقيع خالياً من المرض . وهذا العمل لا يستوجب التضحية بعيون الأصحاء . والدليل على ذلك انه قد اجريت حديثاً عملية على أيدي جراح فرنسي لشابٍ كان فاقداً تقريباً حاسة البصر من احدى عينيهِ من احتراقها بحجر سخن ، ونشأ عن ذلك الاحتراق كون قرنية عين الشاب « وهي الجزء الشفاف من غطاء المقلة الذي يعلو القزحية والبؤبؤ » أصيب اصابة بليغة كوَّنت غشاء منع الضوء منعاً كلياً من الوصول الى شبكية العين . ولذلك ثقب الجراح هذا الغشاء وادخل في الثقب قطعة من قرنية أُخذت من عين مريض آخر كان مصاباً بداء الغلوكوما [1] . وبعد مضي ثمانية ايام التحمت الأغشية وتمت عملية الترقيع ، وبعد مضي شهر واحد رُفعت العصائب عن العين المرقعة وتمكن المصاب من الابصار قليلاً ، وفي خلال سبعة أشهر تحسن بصره تدريجاً حتى صار معادلاً لعشر قوة العين الطبيعية أي أنها غدت منطبقاً عليها المثل السائر — نصف العمى ولا العمى كله

وهذه العملية غريبة في حد ذاتها لأن قرنية العين من الأغشية الرقيقة التي تفقد شفوفها بعيد موت الانسان غير انه يمكن حفظها شفافة باستخراجها تواً ووضعها في محاليل معينة تكون درجة حرارتها معادلة للحرارة البشرية فيتيسر حفظها « حية » عدة ايام كما يتضح من الحادثة الآتية وهي التي روتها جريدة «فرنسيسكو كول» التي تصدر بمدينة سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة الأميركية وتعدُّ من اغرب ما حدث في تاريخ الطب وهي : —

(١) الماء الازرق Glaucoma

« ان رجلاً كفيفاً من أهالي دنفر بالولايات المتحدة اسمهُ آبرام طلب الى ولاة الأمور هناك أن ينحوه عيني قاتل سجين في تلك المدينة رهين الحكم عليه باعدام حياته وقد ألحق الأعمى عريضته التي اشرنا اليها بتقرير من أحد اطباء المدينة عينها قال فيه الطبيب إنه فحص عيني آبرام وإنهُ يرى اجراء العملية المطلوبة وأن نجاحها ممكن »

وعقبت الجريدة المذكورة آنفاً على ذلك النبأ بقولها « واذا اجابت الحكومة طلب آبرام حضر الطبيب المذكور مصحوباً بالجراحين اللازمين ، عند اعدام حياة المجرم ليتمكنوا من اخراج عينيه عقب موته في الحال ، قبل نقل الجثة من غرفة الأعدام . وبعد اخراج العينين يضعونهما في محلول ملحي ثم يهرعون من فورهم الى المستشفى القريب من السجن حيث يرقعون قرنيتي الكفيف فيبصر . فان تحققت هذه الآمال ، كان هذا العمل خطوة في سبيل ارتقاء الطب والجراحة ومقللاً للعاهات البصرية » . تمَّ ما نشرتهُ في مجلة المحيط

ثم جاء في جريدة الأهرام المؤرخة في ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٨ ما يأتي : —

الأحياء يبصرون بعيون الموتى — مدير مستشفى الرمد بروض الفرج يحدثنا عن دقائق عملية استبدال القرنية المعتمة بقرنية شفافة . اجراء العملية في مصر في اثناء اجتماع المؤتمر الدولي للرمد

نشرنا منذ أيام رسالة لمراسل الاهرام في نيويورك تحدث فيها على العملية العجيبة التي أجريت لقسيس ولفتى من طلاَّب فن الموسيقى فارتدَّ اليهما بصرهما وانفتحت عيناهما — وذلك في الاسبوع الماضي — على عالم لم ينظراه منذ أعوام كثيرة وهذه العملية هي استبدال القرنية المعتمة بقرنية شفافة ترد الأعمى بصيراً . ولما كان المعروف عن مصر أنها « بلاد العميان » لكثرة العمي . وأمراض العيون فيها ، فقد رأينا ان نحاول الوقوف على أصل هذه العملية وتفاصيلها ومقدار علم الطب الرمدي في مصر بها . ولهذا قصد مندوب الاهرام الى مستشفى الرمد بروض الفرج بصفة كونه أكبر مستشفى للرمد في مصر وطلب الى حضرة الدكتور محمد بكري مديره ، الادلاء ببعض البيانات على هذه العملية فتفضل حضرته بالمعلومات القيمة التالية ، قال : —

﴿ تاريخ العملية ﴾ ترجع فكرة مكافحة العمى باستبدال القرنية المعتمة بأخرى شفافة الى سنة ١٨٨٨ إذ بدأ بعض العلماء في التفكير فيها . ومنذ عشرين سنة تقريباً اتخذت المسألة — راجع ما قلناه في مقالنا الذي نشرناه منذ خمس وعشرين سنة في مجلة المحيط وأعدنا نشره في صدر هذا البحث — شكلاً جديًّا ونجحت بعض العمليات . وفي مقدمة الأطباء الذين توفروا على دراسة هذه العملية ثلاثة وهم : تودور نومس » وهو انكليزي و « الشنج » وهو الماني و « كاسترو نيشو » وهو أميركي وهو من الأطباء المعاصرين الذين نجحوا في تجاربهم ولا يزالون يوالون الدرس والبحث للتقدم في هذه العملية

﴿ الصعوبات التي تعترض العملية ﴾ والعملية مع خطورتها ودقتها ليست صعبة ولكن الصعوبة الجدية هي في إيجاد الحالات التي تستوفي شروط العملية إذ هي نادرة جداً إذ يشترط ان تكون عتامة القرنية تامة وغير لاصقة بالقزحية . وهذا نادر جداً وعلى الاخص في مصر لأن الأغلبية العظمى في العتامات التي تصيب العين عندنا تكون نتيجة قرح لا تكاد تحتل نصف القرنية حتى تكون قد دمّرت طبقاتها وأحدثت ثقباً فالتصاقاً بالقزحية . ولا تزال التجارب مستمرة للتغلب على عقبة الالتصاق حتى يتمكن اكبر عدد ممكن من ضحايا السحابات التامة ، من الأنتفاع بهذه العملية التي تردّ اليهم البصر بعد فقده . اما السحابات غير التامة وهي المركزية فيمكن أن يبصر المريض بها بعملية « النني الصناعي » وهي عملية معروفة وسهلة ويقوم بها كثير من الأطباء — وهذه العملية (ترقيع القرنية) معروفة تماماً لكثير من الاطباء الرمديين في مصر. وتوجد في مصر أحدث الآلات المستعملة لها ، وهي في مستشفى الرمد بروض الفرج . بل ان هذه العملية قد اجريت في مصر في اثناء انعقاد مؤتمر الرمد الدولي الحديث ، اذ قام بها استاذ بلغاري في مستشفى قلاوون أمام بعض اعضاء المؤتمر يوم زيارتهم للمستشفى . وكان الطبيب يحمل الآلات اللازمة للعملية ، وكانت المريضة سيدة . وكان بصرها بعد العملية وعقب خروجها من المستشفى جزئيًّا .وكان المفروض أن تتردد على المستشفى لملاحظة (التطور) في نظرها،ولكنها انقطعت فجأة . وحاولت ادارة المستشفى البحث عنها فلم تعثر عليها حتى الآن . وهناك تجارب جديدة تجري الآن في بعض الحيوانات ونحن نترقب العثور على مريض تتوافر فيه الشروط المطلوبة لاجراء هذه العملية له ونحواها : — استبدال قرص مربع من العتامة بقرص مربع شفاف من قرنية شفافة من ميت ، على أن يجري هذا الاستبدال بعد فترة قصيرة من الوفاة . اي حوالي نصف ساعة . وقد كانت العملية في بدء أمرها تجري بالاستبدال من حيوان الى انسان ثم تطورت من انسان الى انسان آخر ثم من ميت حديثاً الى الحي — ثم ماروته الأهرام وسنزيد هذا البحث وضوحاً في فرصة أخرى

***

﴿ الكهربائية البشرية في العين وسائر أعضاء العيون ﴾ كهربائية العين — «وهي مصدر قول الشعراء سحر العيون» — جاء في صددها في أحدث الانباء من اميركا ما يأتي : —

يعتقد ولتر ميلز Walter R. Miles الأستاذ في جامعة Yale يايل أن العين البشرية بطارية كهربائية مقدّمها مشحون بكهربائية ايجابية ، ومؤخرها ، حيث توجد الشبكية، مشحون بكهربائية سلبية . وأن الفرق بين طاقتي تينك الكهربائيتين ، يمكن اكتشافه وقياسه بلصق قطع رقيقة من الاوراق المعدنية على الجلد العلوي والسفلي للعين ثم وصل الأسلاك الكهربائية

بفولطمتر voltmeter اي مقياس الكهربائية الفلطائية وذلك بعد تقوية التيار في دارة كهربائية في باطن صمام مفرغ من الهواء .

ومتى تتحرك العين ، تجيء المجالات المشحونة بالشحنات الكهربائية المختلفة ، تحت القطبين الكهربائيين اللذين يوصلان بالعين فتتجلى ذبذبات التيار الكهربائي بنفسها على ميناء المقياس

ومقدار الضوء الذي يسقط على العين ، عند قياس كهربائيتها ، يحدث فرقاً طفيفاً في النتيجة. وقد تختلف العين الواحدة عن اختها اختلافاً بيناً كاختلاف الورى بعضهم عن بعض. أما العاهات البصرية الصغرى فتحدث اختلافاً ضعيفاً

أما كون الحدقة نفسها ، لا العضلة المحدقة بها، هي مصدر التيار الكهربائي ، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً وذلك عند اعادة التجارب في الأشخاص العور . فاذا ما زالت الحدقة ، لا يتولد التيار الكهربائي ، بغض النظر عن محجر العين ، سواء أشاغراً كان أم مشغولاً بعين زجاجية

والدماغ مصدر لتلك القوة الكهربائية ، وفروعهُ التي تعدُّ بالالوف المؤلفة ، أي الاعصاب الدقيقة ، وهي بمنزلة اسلاك كهربائية معزولة ، تحمل التيارات من الدماغ الى اعضاء الجسد قاطبة « بيد ان تلك الاسلاك الدقيقة يختلف فعل بعضها عن بعض ، فنها طائفة تسمى الاعصاب المحركة لأنها تنقل النبضات الى العضلات ، وزمرة اخرى تنقل الاحساس بالألم من الجلد الى الدماغ وفي الجسم جماعة من الاعصاب تنقل نبضات الضوء ، واخرى تنقل النبضات التي تتولد من تموجات الهواء حول الاذان وهي ما يترجمهُ المخ ، بالصوت . ومن الاعصاب فرقة تنقل النبضات من اللسان ، ويسمى ذلك الفعل بالذوق . بل ان خلايا الاعصاب تحمل تيارات كهربائية . وقد تبين حديثاً ان كل خلية حية ، بطارية تخزين . وأن في وسع العلماء إحصاء طاقات هاتيك الخلايا وذلك بمقاييس «عدادات» كما تقدم القول اذن يثبت لنا ان للكهربائية شأناً جليلاً في التقلبات الكيميائية التي تطرأ على النسج الجسمية

ولكهربائية الحياة مظهر آخر يتبين في ضرب من السمك ولاسيا في الرعّاد البرازيلي وفي طوائف سمك القرموط والشلبة والبياض الافريقية التي تصيد فريستها بصعقها برعدتها الكهربائية

وفي تلك الانواع الواح عظمية كهربائية تَسكُنُ شحنات ذات قوة تمغنط الابر وتحلل المركبات الكيميائية وتقذف الشرر — ومبعث تلك الظواهر جميعها محرك عصبي يمتد من مخ السمكة الى سائر بدنها . وقد تكفي طاقة التيار الكهربائي الذي يصدر من الورنك الذي يتفاوت طوله من قدمين الى ثلاث اقدام ، لوهن عزيمة رجل صنديد

وقد فصلنا ذلك كله في مقالنا على «العلم واحياء الموتى» في مقتطف ابريل سنة ١٩٣٥ وفي مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ وفي مقال «الكهربائية البشرية» في ديسمبر سنة ١٩٣٦

التصوير الفني

في القرآن الكريم

سيد قطب

منذ نيف وثلاثة عشر قرناً تم القرآن، واصبح المرجع الأول للمسلمين في امور دينهم ودنياهم. وفي خلال هذه الفترة الطويلة درس القرآن دراسة لا بأس بها من نواحي التشريع، واللغة، والتاريخ. ولكنه لم يدرس من الناحية الفنية دراسة حقيقية

ثم تناوله بعض الباحثين في البلاغة، وفي اولهم عبد القاهر والزمخشري، الأول في «اعجاز القرآن» والثاني في تفسيره «الكشاف». ولكن الدراسة الفنية الكاملة، التي تتناول هذا الكتاب الكريم كسجل لأبلغ أسلوب عربي، وتكشف عما حوى من الجمال التصويري، وتشرح خصائصه الفنية، ولوازم أسلوبه، وحيوية تعبيره، وروحانية اتجاهه، هذه الدراسة الواجبة، لم توجد حتى اليوم، ومن الواجب ان توجد في القريب. والذي يلوح غريباً في هذا، ان الناحية المهملة، هي الناحية التي نزل القرآن من أجلها فميزة القرآن الاولى هي اعجازه الفني وعلى هذا الأساس واجه العرب، وبهذه القوة كانت فتوحه في الصحراء. ولكن لا غرابة في الحقيقة. فالبحوث الفنية ترف عقلي ونفسي لا يكون في طفولة الأمم، ولا في أوائل فتوتها. بل يجيء بعد أن تستكمل ضرورياتها، وتستكفي من حاجاتها وتشبع بنيتها، ثم تأخذ في الترف، وقد فرغت من مطالب الضرورة

فأذا هي عنيت بالنواحي الفنية قبل ذلك، فهي عناية المتملي، أو عناية المتذوق، اوعناية المأخوذ ولن تكون عناية الناقد الذي يحلل ويعلل ويحتاج الى قدر لابد منه من التضوج. لذلك عني العرب، وعني المسلمون بدراسة القرآن من وجهة التشريع أولاً، لأنه أهم عنصر من عناصر حياتهم اليومية. ثم عنوا بالنواحي اللغوية والتاريخية، وببعض النواحي الفنية، في أطوار متعاقبة من نموهم الطبيعي. ولعلنا اليوم قد صرنا الى المرحلة التي نتناول فيها القرآن الكريم ككتاب أدبي، وننظر فيه من الوجهة الفنية الحرة، ونتملى ما فيه من جمال روحي غير مقيد بقيود الضرورة، ونحلل ما حواه من مذاهب فنية (١)

---

(١) وجه الاستاذ الفاضل محرر المقتطف نظري الى ان التوراة والانجيل طبعا في أميركا ليدرسا دراسة أدبية بحتة. والقرآن بأسلوبه العربي أولى بهذا

جرّد القرآن — مؤقتاً — من قداسته الدينية ، وجرّده من انهُ كتاب تشريع ونظام حكم ، تجد فيه بعد هذا وذلك كتاباً أدبيًّا ، فيه فن ، وفيه جمال ، وفي كثير من أساليبه سحر خاص ، وخيال خصب . وطبيعي أنك لا تنتظر هذا السحر ، وهذا الخيال في كل آية وكل سورة ، لأن فيه ما هو تشريع ونظام حكم ، وفيه ما هو تاريخ وتسجيل ، وهذا وذلك ليس مستحسناً أن يكون فيهما سحر وخيال ، فانما يستمدان بلاغتهما من صفات أخرى . من الحكمة والسداد في النظم، ومن الصدق والدقة في التاريخ.وفي القرآن صور فنية كاملة تحتاج تارة الى ريشة المصور الماهر ، تبرزها في مظهر خلاّب وتارةً لقلم الروائي القدير ، يخرجها في قالب كامل وهي في كلتا الحالتين تتطلب خيالاً قويًّا يتتبع صورها ويكمل اجزاءها التي حذفت بمهارة كي تدع للخيال فرصة وفسحة يعمل فيها ويستشعر اللذة والجمال

وهذا التصوير الفني في القرآن أربعة أقسام :

صور فنية مجردة،وقصص فنيّ تتتابع فيه الصور وتتلاحق،ونوع بينهما هو الحوار يميل الى القصة تارةً ، والى الصور المجردة تارةً ، وتعبيرات فنية عن حالات نفسية ، أو مناظر طبيعية ... الخ

١ — صور فنية

١ — « والذين كفروا بربهم . أعمالهم كسراب بقيعةٍ ، يحسبهُ الظمآنُ ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد اللهَ عنده ، فوفاه حسابه والله سريعُ الحسابِ

« أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيّ ، يغشاهُ موج ، من فوقهِ موج ، من فوقهِ سحابٌ : ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»

هنا صورة فنية ساحرة ، فيها روح القصص ، وفيها خيال قوي ، وهي بعد في حاجة إلى ريشة مبدعة لابراز الظلمات ، في بحر لجيٍّ ، « يغشاهُ موجٌ ، من فوقه موجٌ ، من فوقه سحابٌ »

وفيها متعة للخيال يتتبع هذا الظمآن ، يسير وراء السراب ، «حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» ووجد مفاجأة عجيبة لاتخطر على البال ، « وجد الله عنده فوفاه حسابه » . ثم يتتبع الظلمات ويتخيل الرجل الضال فيها « إذا أخرج يده لم يكد يراها »

ولست في حاجة الى تطبيق هذا المثل على « الذين كفروا بربهم » وبيان صدق تصويره لحالتهم ، فذلك بحث ديني ، لايعني الناقد الفني كثيراً ، فانما نريد من الدراسة الفنية أن تستقل بنفسها ، وألا تقع في الغلطة التي وقعت فيها الدراسات السالفة ، وحسبنا أن ننوه عن الجمال الفني في الصورة ذاتها ، كتعبير أدبي مستقل

٢ — « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولهُ ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات

لا يبصرون. صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون . أو كصيِّبٍ من السماء ، فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم . كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا اظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير»

ها هنا صور متتابعة ، في كل منها خيال ، ومجال لعمل الخيال . ولاسيما تلك الصورة الفريدة: « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا » بعد التمهيد لها بأنهم « يجعلون أصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت». ولو سجلت الصور المتحركة منظراً كهذا ، بما فيه من الحركة والتتابع ، لكانت موفقة جد التوفيق ، فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ، فلا تنقص منهُ حركة واحدة، تستطيع الصور المتحركة إثباتها . لا بل تبزها وتفضلها في أنها تدع متعة للخيال ، وهو يخلق الصور ويمحوها ، ويكمل الحركات ويتبعها ، بينما الصور المتحركة تحرم الخيال نشاطه لأنها تبرز المناظر كاملة للعين ، فلا يكون فيها من الجمال ، إلا جمالها الذاتي

٣ — ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمَّا يعملُ الظالمون . إنما يؤخرهم ليوم تشخَص فيه الأبصار، مهطعين ، مُقنعي رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء »

إني لا أمل ترديد هذه الآية ، واستحضار تلك الصورة ، وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام : «مهطعين . مقنعي رءوسهم . لا يرتد إليهم طرفهم . وأفئدتهم هواء »

أربع صور متتابعة متواكبة ، أو أربعة أجزاء في صورة واحدة، وإن فيها لغذاء للخيال الخصب ، وإن فيها لمتعة فنية راقية

٤ — وتقرب من هذه في الروعة ، وتزيد عليها في قسوة الفزع : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد »

وعلى الرغم من العنف في تصوير الهول هنا ، وعلى الرغم من الجمال الذي لاشك فيه في هذا التصوير، فان الصورة السابقة أجمل وأسحر ، وأدخل في المعاني الشعرية والصور الفنية

والفرق بينهما، هو الفرق بين صورة الخائف تضطرب أوصاله ، وترتجف أعضاؤه ، وصورة الخائف لا يترك له الفزع قدرة على اضطراب الأوصال وارتجاف الأعضاء

والفرق بينهما أن الثانية مجرد تصوير للفزع المذهل، بينما تزيد الأولى معاني الطاعة الذليلة الذاهلة «مهطعين مقنعي رءوسهم» ومعاني الرهبة الصامتة الواجمة «لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء »

٥ — ومن هذا النحو قوله في يوم الحشر : « لكلِّ امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه »

فما يوجد أخصر من هذا ، ولا ادق ، في بيان اشتغال القلب والفكر ، بالهم الحاضر القاهر حتى لا موضع لسواه ، ولا التفات لغيره في هذا الزحام

٦ — ومن الصور العنيفة الصاخبة : « هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق »

والروح الفنية تهبط في هذه عن سابقتيها معاً ، ولكنها ترتفع فتكاد توازيهما عند « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » لأن الصورة هنا تحيا وتتحرك ، فتغذي الخيال

٧ — وهناك صور أقل فنيّة من هذه المثل جميعاً ، لأنها موكلة بالخيال الساذج ، وذات وجه واحد ، أو حركة واحدة ، يستجليها الخيال في لمحة واحدة . ومثال ذلك

« القارعةُ ما القارعةُ ، وما أدراكَ ما القارعةُ ، يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ »

أو « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب». أو « يومَ تكونُ السماء كالمهلِ ، وتكونُ الجبالُ كالعهنِ ، ولا يسألُ حميمٌ حميما » . وفي هذا المثال الاخير ارتفاع عند : « ولا يسأل حميم حميما » يمت بصلة إلى « لكلّ امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه » ولكنهُ لا يبلغ مبلغه من الناحية الفنية

وفيما عدا هذا ، : منظر واحد تعرضهُ كل آية ، لايحوج الخيال إلى اكثر من لمحة واحدة وهذا هو الفارق بين المثل الأخير والأمثلة الأولى المركبة المتحركة

٢ — قصص فنى

في القرآن قصص كثير ، وهو تارةً قصص تاريخي ، وتارةً قصص تمثيلي ، (لتمثيل حالة ولو لم تقع) وتارةً يصلح لهذا ويصلح لذاك [1] ومن أمثلة القسم الاول: قصص ابرهيم وموسى وعيسى ونوح ، وقصص عاد وثمود ومدين.. الخ ومن امثلة القسم الثاني : قصة الرجلين « جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعا ... الخ » في سورة الكهف

ومن أمثلة القسم الثالث : قصة ابليس وآدم ، وقصة ابني آدم

على أن اكمل ما يمثل به للقصص الفني في القرآن ، هو قصة مريم ، وذلك رغم أن قصة يوسف مثلاً أطول واكثر مناظر . ولكن الأولى أحيا وأدخل في الحبكة الروائية ، وفيها مجال أوسع لشتى الانفعالات النفسية ، وهي تحتوي مشاهد مدهشة لرواية « سينمائية » تتخللها فجوات تترك للخيال الخصب مجالاً متسعاً للتصور ولتكملة الحلقات المحذوفة بمهارة عجيبة

وتبدأ القصة هكذا : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إني أعوذ بالرحمن

(١) يتسع هذا الموضوع لبحث مطول خاص بالقصة في القرآن

منك إن كنت تقيا» وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة العذراء ، الطيبة القلب ، وهي من اسرة صالحة ذات تقاليد، عارية أو شبه عارية ، يفجؤها رجل . . . وهذا هو المنظر الاول من القصة

« قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ! قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيا ؟ »

ثم ليتمثل الخيال مرة اخرى مقدار الفزع والخجل الذي يعتور هذه الفتاة ، وذلك الرجل الغريب يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو انهُ يريد ان يهب لها « غلاماً » . ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها : «أنّى يكون لي غلامٌ ، ولم يمسسني بشرٌ ، ولم أكُ بغيا» هكذا صراحة ! وبالالفاظ المكشوفة ، فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مباغتته لها قد صار واضحاً وما يخفف من وقعه أن يقول لها : « إنما أنا رسول ربك » فهي جديرة أن تكذب هذا القول ، الذي لا يقوم عليهِ دليل لديها ، وأن تعتصم بالشجاعة والصراحة ، فالحياء لا يجدي في مثل هذه الاحوال ، ومن هنا كانت صراحتها في ألفاظ ردها وفي لهجتها

« قال : كذلك قال ربك : هو عليَّ هيِّنٌ ، ولنجعله آيةً للناس ، ورحمةً منا ، وكان أمراً مقضيا » !

ثم ماذا ؟ هنا نجد في القصة فجوة فنية كبيرة ، تدع لخيالك أن ينطلق ، وان يتصور عشرات الصور والأوضاع ، التي تناسب ما انعكس في نفسك من المواقف الأولى

ثم تمضي قصتنا في طريقها بعد هذه الفجوة العميقة :

«فحملته ، فانتبذت بهِ مكاناً قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ، قالت : يا ليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا » . يا ألله . يا للمسكينة !

لئن كانت في الموقف الأول تواجه الأخلاق والحصانة ، بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع ، وهي الآن تواجه الألم الجسمي الحاد ، تمثلهُ في دقة «فأجاءها المخاض» بجانب ما تتوقعهُ من الفضيحة ، وبجانب هذا كله حيرة العذراء في أول مخاض وهي وحيدة جاهلة بكل مايتعلق بهذه الناحية من تحضير وتدبير

كل أولئك يجتمع على فتاة ، لم تك بغيا ، كما قالت هي بحق . فأي هول ، وأي ألم ، وأي عذاب ، يتمثل في قولها : « ياليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيًّا »

« فناداها من تحتها ألاَّ تحزني ، قد جعل ربك تحتك سريًّا ، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا ، فكلي واشربي وقرّي عيناً ، فإمّا ترينَّ من البشر احداً ، فقولي : أني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا »

وسواء كان « عيسى » هو الذي ناداها ، أوكان الروح الامين ، أو كان ذلك هاجساً

هجس في ضميرها ، فحسبته طيفاً مسموعاً ... (وهو مايقع كثيراً للانسان في مثل هذه الحالات التي يغفل فيها العقل الواعي ، فيتنبه العقل الباطن ويتصرف). سواء كان هذا او ذاك أو ذلك لقد هدَّأ من روعها ، وطمأن قليلاً من رجفتها ، وأعادها الى التفكير العملي في مواجهة الموقف وهذا التحليل لم تذكره القصة ، لأنها تركت للخيال تكملة المقال

ثم نحس بفجوة صغيرة بين هذا الحديث ، وبين ذهابها الى القرية ، فلا ندري كم مرَّ من الزمان ، ولا كم تتابع من الافكار . وبعدها

« فأتت به قومها تحمله ! قالوا : يامريم ، لقد جئت شيئاً فريًّا ، يا أخت هرون !. ماكان أبوكِ امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيًّا »

وهنا يعود للقصة عنفها ، وللموقف رهبتهُ . فها هي ذي تواجه قومها بطفل . وهاهم اولاء لا يقتصدون في تعنيفها ، والتهكم بها ، وتذكيرها بخروجها على تقاليد أسرتها « يا أخت هرون ما كان أبوكِ امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا »

فيا لها من مسكينة !

«فأشارت إليهِ ! قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا » ؟

ولعل التهكم الذي بدا في حركاتهم ونظراتهم ، حين أشارت إليهِ أضعاف ما حملتهُ ألفاظهم واستنكارهم «كيف نكلم من كان في المهد صبيا ؟ »

وإن المسكينة لتحتمل الموقف ، وتواجه التهكم ، وإنك لتلمسها من وراء سطور القصة ، تردد مرة ومرة : « يا ليتني مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا »

وما أنقذها من هذا الهول ، إلاَّ أن :

«قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيًّا ، وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا ،وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيًّا ، والسلام عليَّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيًّا »

وهنا يسدل الستار على ذلك الموقف الرهيب العجيب ، والأفئدة ترجف في الصدور ، والأعين تدمع للانتصار ، والأيدي تدوي بالتصفيق

وفي هذا الوقت تسمع في لهجة التقرير ، في أنسب فرصة للاقناع والاقتناع :

«ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيهِ يمترون . ما كان لله ان يتخذ من ولد ، سبحانه . إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون »

إنها قصة فنية ، ذات مناظر مشوقة ، وفيها متعة للذهن والخيال ، ومجال للتحليل النفسي ، والنظرات الفلسفية

[التتمة في العدد القادم]

مطالعات فلكية



سر البقعة الحمراء

على سطح المشتري

حرارة الشمس آخذة في الارتفاع

المشتري اكبر السيارات التابعة للنظام الشمسي . سماه العرب بهذا الاسم لانهُ اشترى الحسن لنفسهِ كما قالوا . ويسمي الغربيون هذا السيّار باسم « جوبيتر » وهو اسم كبير آلهة الرومان يقابله زفس عند اليونان قبلهم ومَردوخ عند البابليين والاشوريين . ولعلهم سمّوهُ بهذا الاسم تشبيهاً لهُ بكبير آلهتهم او لأنهم حسبوهُ أليق الاماكن بسكنى كبير آلهتهم فسمّوهُ باسمهِ

وليس همّنا في هذا المقال ان نصف المشتري من حيث هو كوكب سيّار وصفاً عامّا ، وانما همّنا ان ننظر نظرة خاصة في البقعة الحمراء التي تعلو سطحهُ والرأي الحديث في تفسير سرّها بعد ان اختلفت الآراء في ذلك

كتب العالم الفلكي موريل Morrell في مجلة « انباء لندن المصوّرة » مقالاً في هذا الموضوع ، قال فيهِ ان قوام المشتري كتلة مركزية من الصخر او المعدن قطرها ٤٤ الف ميل يحيط بها طبقة كثيفة من الجمد ثخانتها ١٦ الف ميل ثم طبقة جوية كثيرة الغيم ثخانتها ستة آلاف ميل. والبقعة الحمراء شاسعة المساحة طولها نحو ٣٠ الف ميل وعرضها نحو سبعة آلاف ميل فساحتها تعدل مساحة قارات الارض ومحيطاتها مجتمعة . وهي في رأيهِ تمثل حادثاً كونيّا خطيراً اصيب بهِ المشتري في الزمن الغابر قد يكون قبل قرنين او ثلاثة قرون. وهنا يخطر لنا : اذا اصيب المشتري من قرنين او ثلاثة قرون بحادث اصطدام خطير ترك فيهِ هذا الأثر ، أفلا يجوز ان يقع للارض ما وقع للمشتري؟ والجواب ان ما وقع للمشتري — اذا صحَّ هذا الرأي — يجوز ان يقع للارض. ولكن دع عنك التأمل في مصيرنا جانباً وهلمَّ بنا ننظر في هذه البقعة الحمراء وسرّها

ان علماء الفلك يعلمون انهُ جاء وقت لم يكن فيهِ أثر للبقعة الحمراء على سطح المشتري . وفي ١٩ مايو سنة ١٦٦٤ رآها الفلكي هوك (وهو من معاصري نيوتن) . ومن ثمَّ اكبَّ العلماء على دراسها دراسة مدققة مفصلة رصداً وحساباً . فأسفرت هذه الدراسة عن ان البقعة الحمراء

ليست مستقرَّة في مكان ثابت على سطح المشتري وانها تسير بسرعة متفاوتة بالقياس الى مناطق الغيوم والتيارات التي على سطح السيَّار فكأنها طافية عليه ثم لاحظوا ان منطقة من مناطق التيارات العنيفة على سطح المشتري — وهي التي تعرف باسم الاضطراب الاستوائي الجنوبي South Tropical Disturbance — تمرّ كالاعصار بسرعة ١٦ ميلاً في الساعة امام البقعة الحمراء من دون ان تؤثر في قوامها، فقالوا ان مادة البقعة يجب ان تكون متصفة بخواص عجيبة تمكنها من الاحتفاظ بقوامها

وكان الرأي قبل بضع سنين انها قارة على سطح المريخ في دور التكوين والتجمد، فكأنها جزيرة متجمدة طافية في منطقة نصف مصهورة. وهو تفسير بارع سهل ولكنهُ لم يتفق والحقائق الفلكية والرياضية المعروفة. وقد زاد سرُّ هذه البقعة غموضاً وتعقداً في العهد الاخير منذ أخذ فريق من علماء الفلك كجينز الانكليزي ورسل الاميركي بان قوام المريخ ليس كما كان يظن كتلة حامية يحيط بها غشاء كثيف ثخين من الغيوم تحدث فيه اعاصير وانفجارات، بل هو في رأيهم كما قدمنا من قول موريل كتلة صلبة جامدة باردة

والحسابات الرياضية القائمة على ما يعرف من حرارة سطح الطبقة الغيمية التي تحيط بالمشتري ومعدَّل كثافة موادّه — وهي اقرب في ثقلها النوعي الى الجمد منها الى الحديد او البازلت — حملت العلماء على القول بانَّ داخل المشتري كتلة صلبة من مواد كثيفة وانهُ يحيط بها غلاف ثخانتهُ ١٦ الف ميل من الجمد ice ويحيط بهذا الغلاف جو مثقل بالغيوم ثخانتهُ ستة آلاف ميل. ومن الطبيعي ان تكون الطبقات السفلى في جوّ هذه ثخانتهُ شديدة الكثافة لشدَّة الضغط الواقع عليها. فاذا اجتمع الضغط الشديد والبرد الشديد سالت بعض الغازات كالأيدروجين وبقي بعضها غازيًّا فتكون نتيجة ذلك ان تجد مقادير من العناصر السائلة طافية على العناصر الغازية. وهذا يفسّر الاضطراب الدائم المشاهد في المشتري حتى لقد وصفهُ بعضهم بقوله انهُ دائماً في حالة مخاض

هذا الرأي الجديد يفسر مايصاب بهِ المشتري من الاعاصير الشديدة تثور وتتحرك ثم تزول ويتلوها غيرها. الاَّ ان البقعة الحمراء ليست من هذ القبيل. بل ان وجودها من المصاعب التي مافتئت تحول دون قبول هذا الرأي الجديد القائل بان المشتري كوكب متجمّد. كان اسهل على العلماء ان يقولوا انها شقٌّ في جسم نصف مصهور. اما ان يقولوا انها شقٌّ في طبقة من الجمد ثخانتها ١٦ الف ميل فمتعذّر. ثم ان احتفاظها بقوامها من دون تغير يصيبهُ مدة ٢٧٤ سنة يحول دون التسليم بانها اضطراب جوّي

الغموض يحيط بنشأتها وثبوتها. واذا اخذنا برأي جينز ورسل في ان المشتري كتلة متجمدة غدونا ونحن لا نجد حلاً لنشأة «البقعة الحمراء» الاَّ بان تكون أثراً لاصطدام بين المريخ وجسم سموي آخر. وقد يكون هذا الاصطدام بين المشتري وأحد المذنبات

(انظر الصورة التي امام هـذه المقالة) او بين المشتري وإحـدى النجيمات Asteroids التي اقتربت من المشتري حتى اصبحت على قرب وافر منهُ فجذبها اليهِ فسقطت على سطحهِ وهذا يفسّر مساحة البقعة الحمراء واحتفاظها بقوامها

والرأي الغالب عند موريل ان احتمال نشوء البقعة الحمراء عن اصطدام احدى النجيمات بالمشتري اكبر من احتمال حدوثها باصطدام احد المذنبات بهِ . ولا يخفى على القرّاء ان النجيمات في عرف علماء الفلك نثار سيّار تفتت ، وهي واقعة بين فلك المريخ وفلك المشتري ولكثير منها افلاك شاذّة ، وقصة اكتشاف اولاها ثم تعدُّد المكتشف منها حتى ليُحصى بالآلاف من اروع القصص الفلكية . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان بعض العلماء يظنُّ ان اربعة من اقمار المشتري الصغيرة لم تنشأ كما نشأ قمر الارض او اقمار المشتري الاخرى بل اصلها نجيمات اقتربت من المشتري فجذبت اليهِ واخذت تدور حولهُ مع اقمارهِ الاصلية . ثم هناك للمشتري قمر آخر صغير لا يزيد قطرهُ على ١٦٠ ميلاً يدور حول المشتري على ٦٨ الف ميل من سطحهِ وهي مسافة قصيرة بالقياس الى الابعاد الفلكية ، ولذلك لا يستحيل ان يحدث ما يدخل هذا القمر في منطقة الخطر فاما ان يتفتت كما تفتت بعض اقمار زحل فاصبحت حلقات واما ان ينجذب الى سطح المشتري فيكون جذبهُ وأثره مثلاً حادثاً على نشوءِ « بقعة المشتري الحمراء »

***

هل حرارة الشمس

آخذة في الازدياد ؟

يذهب الدكتور جورج جامو Gamow استاذ الطبيعة النظرية بجامعة جورج وشنطن الاميركية الى ان حرارة الشمس آخذة في الازدياد ، وانها ستبلغ مبلغاً من الحرارة تذوب فيهِ الارض ومن عليها — او بالحرى تتبخر — كما تذوب قطعة من الجمد في فرنٍ حامٍ . الاّ ان الزمن الذي ينتظر ان تبلغ فيهِ الشمس هذه الدرجة من الحرارة بعيد جداً وحالة الارض الجوية لن تتأثر بهذه الزيادة قبل انقضاء بضعة ملايين من السنين

هذا الرأي الجديد ، توصل اليهِ الاستاذ جامو من نظرية جديدة ابتدعها لتفسير مصدر الحرارة في الشمس وهي نظرية تقلب معظم ما يقال عن نقصان طاقة الشمس وفقد حرارتها رأساً على عقب . وعند هذا الباحث ان اكثر المصادر احتمالاً لتوليد حرارة الشمس هو فعل تولُّد الهليوم من الايدروجين في قلب الشمس حيث الضغط والحرارة على درجة عظيمة من الارتفاع ونحن نعلم ان تحويل الايدروجين الى هليوم على سطح الارض يتمُّ باطلاق ذرات الايدروجين

على عناصر اخرى بسرعة وطاقة عظيمتين .اما في قلب الشمس فحرارتها العالية البالغة ٢٠مليون درجة مئوية تحلّ محلّ الطاقة الكهربائية العظيمة التي تطلق بها ذرات الايدروجين في المعامل على الارض

والحرارة تتوقف على حركة الذرات والجزيئات ، فاذا ازدادت سرعتها في حركتها ارتفعت حرارتها واذا كانت الحرارة نحو ٢٠ مليون درجة مئوية فهذه الدقائق تنطلق متحركة بسرعة تقرب من سرعة الضوء . فاذا اصطدمت ذرتان من الايدروجين وهما سائرتان بهذه السرعة لصقت احداهما بالاخرى او اندمجت فيها فينشأ من ذلك ذرة هليوم ووزنها كما لا يخفى مجموع وزن ذرتين من الايدروجين الاَّ قليلاً جداً . اي انهُ عند ما تندمج ذرتان من الايدروجين لتوليد ذرة من الهليوم يضيع مقدار صغير جداً من كتلة ذرتي الايدروجين. فأين يذهب؟ والرأي ان هذا القدر من الكتلة يتحوَّل حرارة بقوة الاصطدام العنيفة . وكلما زادت سرعة التحوُّل من ايدروجين الى هليوم زادت حرارة الشمس وبازدياد حرارة الشمس تزداد سرعة التحوُّل وبذلك تمضي الشمس في زيادة حرارتها كأنها تسير في دائرة

ولم يكتف الدكتور جامو بدراسة تولد الهليوم من اصطدام ذرات الايدروجين بعضها ببعض بل عمل حساباً لتولدها من اصطدام ذرات الهليوم بالليثيوم وغيره من العناصر وفي جميع هذه الحالات تتولد ذرات هليوم ويتحوَّل مقدار يسير من الكتلة الى حرارة

ويرى الدكتور جامو ان في الشمس من المواد الكافية لتوليد الحرارة مائة مليون مليون سنة . اما ما يحدث للشمس بعد ذلك فليس لنا ان نفكر فيه الآن

وقد كانت الشمس في بدئها — بحسب رأيه — كتلة من غاز الايدروجين. فتحول جانب من هذا الغاز الى الهليوم بالطريقة المتقدمة خلال ثلاثة آلاف او اربعة آلاف مليون سنة بحيث لا تجد من الايدروجين في كتلة الشمس الآن اكثر من ٦٠ في المائة منها . والقول الأخير مؤيد بالبحث الطيفي . وبنقص مقدار الايدروجين في النجم تزداد النجم تألقاً الى ان ينفد الايدروجين ثم يبدأ النجم في التقلص فيصبح كثيفاً ويقل اشراقهُ . والنجوم الصغيرة الحجم الكثيفة المادة الضعيفة الاشراق معروفة لعلماء الفلك الحديث وهم يطلقون عليها اسم « الاقزام البيض » وهي تتصف عادة بصغر الحجم وارتفاع حرارة السطح وقلة الضياء واول نجم كشف من هذا القبيل هو النجم المعروف باسم « رفيق الشعرى » . فكثافة مادته تزيد مائتي الف ضعف على كثافة الماء . وهناك نجم آخر من هذا القبيل تزيد كثافتهُ على كثافة الماء سبعة ملايين ضعف. ولا تزال « الاقزام البيض » تشع اشعاعاً ضعيفاً وبه نراها ولولاهُ لما رؤيت . فهي في المراتب الأخيرة من حياتها الاشعاعية قبل ان تتحوَّل اجراماً مظلمة . وهذا هو مصير شمسنا بعد ان يتحوَّل كل ما فيها من الايدروجين الى هليوم



بكر

لعمر أبو ريشة

أفقتِ مع الحُلُم المسفر على نغمٍ شاردٍ مسكرِ

تدفّقَ يسكب في قلبك الـــطريّ ربيعَ الحياة الطري

فألفيتِ دنياك غير التي درجت عليها ... ولم تشعري

مفاتن ربّا الجمال الحيّ مجنّحة بالهوى المبكرِ

وأنت عليها اقلات الحيس من الطيب في البرعم الأخضرِ

***

رويدك لا تزحي بالرؤى خيالك يا عفّة المئزرِ

أنا حفنة من رماد المنى على مجمر الزمن الأزورِ

هويتكِ في غصة المؤمنين الى جرعة من فم الكوثرِ

وفوق جفوني عصاب الذهول فلم أتبصر ولم أبصرِ

ظلمتُك ظلم أنهار الخيال على يقظة الشاعر العبقري

دعيني طروباً أزجي الخطى على مخصب الوهم والمقفرِ

[نقلا عن مجلة الجمهور البيروتية]



عالم الروح

والعلم الحديث [1]

لاحمد فهمي أبو الخير

﴿ **تعليمات بخصوص عقد الجلسات** ﴾ عند ما يكون التواصل ملائماً ومرضياً يسأل الروح المتكلم هل كان الحاضرون مرتبين في جلوسهم ترتيباً صحيحاً . فاذا لم يكونوا كذلك فما هو الترتيب الواجب اتباعه . بعد هذا يسأل الروح من هو . وأي الموجودين هو الوسيط . وما الى ذلك . فاذا حدث اضطراب او اختلال فسبب ذلك يرجع الى تعسر توجيه الحركة في مبدأ الامر التوجيه الصحيح . وعلاج ذلك الصبر والا ناة

واذا رؤي ميل الى ابداء الظواهر بوسائل عنيفة ، أو الى ايقاع الوسيط في الغيبوبة فليطلب الى الروح ان يؤجل هذا الى ان يحضر احد الروحيين المدربين . فاذا لم يلتفت الى هذا الطلب يحسن ايقاف الجلسة . فعملية تدريب وسيط الغيبوبة تكون احياناً عملية مخيبة لامل الباحث غير المدرب

واختبر النتائج التي تحصل عليها بالحجة والبرهان السليم ، واحتفظ لنفسك بالعقل الراجح والمنطق الصحيح ، ولا تصدق كل ما يقال لك ، لأن العالم الكبير غير المنظور يضم عدا الكثيرين من أهل الحجا والعقل مجموعة من أهل الخرق والجهل والغرور — وأولاء أقرب الى سطحنا من العقلاء الأخيار . ولا تثق بالاسماء الضخمة اذا ذكرت لك مالم تكن مستوثقاً منها . ولا تتوان لحظة عن اعمال الفكر ووزن الأمور بالعقل . وحذار ان تدخل في بحث خطير مع روح فضولي أو سخيف . ونم في نفسك الرغبة في كل ماهو تقي طيب صادق . وسوف تتقدم بسرعة في هذا السبيل اذا انت اقتنعت تماماً اقتناعاً مسبباً بأن هناك بعد الموت حياة أخرى ، وان خير طريقة لأن يعد الانسان نفسه لهذه الحياة هي أن تكون حياته هنا قبل الموت حياة طيبة طاهرة نقية

ويزيد على ذلك العلامة الروحي دلاس H. A. Dallas ما يأتي : —

---

(١) بقية مانشر في العدد الماضي من المحاضرة التي القيت في القاعة الشرقية بالجامعة الاميركية

(١) لا تكثر من عمل التجارب . وليكن ذلك بمعدل مرتين في الاسبوع على الاكثر ، على ألا يكون في أيام متتالية

(٢) وكقاعدة عامة حذار أن تقبل على اجراء التجارب وأنت في غير صحة جيدة ، أو كنت متعب الجسم منهوك القوى ، وعلى الاخص اذا كان المجموع العصبي مضطرباً . فلا يمكن أن يرجى تقدم روحي ما لم يكن المجموع العصبي سليماً والمخ متزناً هادئاً

(٣) حذار أن تجري التجارب عرضاً . حدد يوماً وساعة ، وليكن لكل تجربة وقت معين محدود — هو ساعة في العادة — واحتفظ بهذا التحديد وأصر عليه

(٤) واذا طلب اليك الحراس ، وهم الارواح المهيمنون ، أن توقف الجلسة فأوقفها على الفور ، فان في اطالة التجارب بعد أن يعلن الارواح المهيمنون أنهاءها عمل غير مجدٍ ، لان القوة الروحية لا يوجهها عندئذٍ اولئك الذين برهنوا على أنهم مهيمنون قادرون ، بل قد تستخدمها أرواح غير مسئولة ، وقد تكون خبيثة شريرة ، ما دامت فرصة التواصل تكون لا تزال سانحة

(٥) حذار من اجراء التجارب في الاماكن العامة التي يغشاها مختلف الناس حيث تكون التأثيرات مختلطة . وهذا فيما عدا تجارب الجلاء البصري والسمعي — أي رؤية غير المنظور وسماع غير المسموع — فالوسيط عندئذٍ لا يكون في حالة الغيبوبة ، ثم هو يرى ويخاطب الارواح التي تريد مخاطبة بعض الحاضرين . وقد يبلغ الحاضرون الوفاً كما يحدث في الاجتماعات في قاعة البرت هول الملكية بانكلترا

(٦) لا تلتحق بدائرة ما لم تعرف شيئاً عن أخلاق اعضائها

(٧) ابدأ كل تجربة بروح خالصة راغبة في حماية الله وهدايته وارشاده ، واجتهد دائماً أن تحتفظ بعقلك هادئاً رزيناً

(٨) حاول أن تعرف أي الارواح الحارسة المرشدة اكثر ارتباطاً بك من غيرها ، وسلها حمايتك ومساعدتك . فهؤلاء يصدون عنك الارواح غير المرغوب فيها والتي قد تدخل دون استدعاء . وأولاء المساعدون قد يشيرون عليك بما يرون من تفصيلات ، كأن يخبروك مثلاً عن الأشخاص الذين تدعوهم الى دائرتك ، وعن عدد مرات هذه الاجتماعات وما إلى ذلك

﴿حجرة التحضير الحديثة﴾ هي حجرة مبنية بالطوب . مربعة الشكل . طول ضلعها ثمان ياردات وارتفاعها أربع ياردات . صفت في وسطها كراسي تسجل وزن الجالس ابتداء من جلوسه الى قيامه بطريقة الباروجراف

وفي وسط السقف هزاز كهربائي يهز جو الحجرة باستمرار وبه يمكن الاستغناء عن الفونوغراف . وبجوار هذا الهزاز فتحة ركبت عليها آلة فوتوغرافية . وفي ركنين من الحجرة

توجد آلتان أخريان للتصوير السينماتوغرافي تلتقطان باستمرار صوراً طيلة الجلسة

وتوجد على الجانبين آلتان تبعثان بأشعة الضوء تحت الاحمر لتشغيل آلات التصوير الثلاث هذه

وتوجد على الحائط بين الآلتين الفوتوغرافيتين آلة ثالثة يليها ضوء فوق البنفسجي . ولا تتأثر لوحات هذه الآلة بالاشعة تحت الحمراء . وتستعمل لتصوير كل ما يمكن للضوء البنفسجي التقاطه . وعلى الاخص البناء الاكتوبلازمي

وفي الركن الثالث توجد آلة لتسجيل الصوت تسجل كل ما يدور من أحاديث خلال الجلسة

أما الترموجراف الموجود في الركن الرابع فلتسجيل درجة الحرارة . ففي أثناء الجلسة تنخفض درجة الحرارة مع ان الواجب ان ترتفع بسبب حرارة الموجودين . ولذلك وضعت أنبوبة للتسخين لا ينبعث منها ضوء البتة . وتثبت درجة الحرارة عند درجة ٦٠ على مقياس فهرنهيت ما انعدم حدوث الظواهر الروحية . فاذا حدثت الظواهر انخفضت الدرجة الى ٤٠ ولعل العلماء العاملين يستطيعون تعليل هذه الظاهرة وتفسيرها . ذلك بالاختصار هو وصف حجرة التحضير الحديثة

﴿ عالم الارواح ما هو ؟ ﴾ بعد ان تم الاتصال بالعالم الروحي او العالم الاثيري أمكن الاستفسار عن حقيقته من العلماء المقيمين فيه . وما سأذكره من المعلومات خلاصة لما نقل عنهم

يتألف عالم الروح من سبعة مستويات . أو سبع كرات متحدة المركز ، الذي هو مركز أرضنا . وهذه الكرات الاثيرية السبع مع الكرة الارضية الثامنة متداخلة بعضها في بعض ، وتمتد في الفضاء الى ابعاد شاسعة ، وليست هناك مسافة بين السطوح بالمعنى الذي نفهمه ، وانما هي أشبه شيء بالمسافة الموسيقية أي درجة اهتزاز

وتحدث أرضنا في البوصة الواحدة من ٣٤٠٠٠ الى ٦٤٠٠٠ موجة اهتزازية ، نحس بها نحن الكائنات الفيزيقية . ولكل سطح او لكل كرة مجال اهتزاز خاص بها لا يحس به الا المترنمون مع اهتزازاته . ويلي كل مجال تاليه في زيادة السرعة الاهتزازية . وعلى ذلك فأعلى الاهتزازات الارضية درجة تمس أقل اهتزازات السطح الثاني أو الكرة الثانية درجة وهكذا

وتتلقى كل كرة ضوءها وحرارتها من شمس اثيرية متحدة مع شمسنا في المركز . فالشمس كالعالم الاثيري مكونة من ثمان كرات أي ثمان شموس . شمسنا إحداها . وكل سطح من هذه السطوح الشمسية الاثيرية يهتز مترنماً مع السطح المقابل في السطوح المحيطة بأرضنا لتمده بالضوء والحرارة . ولكل سطح في العالم الأثيري جو يحيط به يؤثر فيه كما يؤثر جونا فينا ، إلا أن أحوال المناخ هناك أكثر اعتدالاً . وهناك تتغير الفصول ايضاً ، وانما في السطوح الثلاثة الأولى التي تعلو سطح الارض درجة اهتزاز ، وابتداء من السطح الرابع فما فوق تختفي التغيرات المناخية تماماً . ولا يوجد ليل فوق أي سطح من السطوح بل يوجد شفق . والالوان هناك أجمل كثيراً

منها في عالمنا ، وأكثر تنوعاً وتلألؤاً ، ولذا كانت المناظر هناك أجمل منها هنا لدينا

وحسبي هذا القدر من التفصيل هنا ومن رغب زيادة في التفصيل فليقرأ التعقيب الذي عقبت به على ترجمتي العربية لكتاب « على حافة العالم الاثيري » لمؤلفه العلامة فندلاي رئيس المعهد الدولي للبحث الروحي بلندن . على ان هناك حقائق تجب علينا معرفتها ، ضمنها العلامة فندلاي الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب[1]

﴿ العلاج الروحي ﴾ بقيت كلمة لا بد منها عن العلاج الروحي ، وأرجو ان أوفق لبسطه في محاضرة أخرى . هذا العلاج بعيد كل البعد عن الشعوذة والدجل لانه مبني في الواقع على أحدث طرق العلاج ، ونعني بها طرق العلاج بالاشعاع

ان الكون في الواقع مملوء باشعاعات كثيرة لم نوفق نحن الا الى كشف جزء ضئيل منها . وقد تحدث علماء العالم الروحي عن هذه الاشعاعات ذاكرين أننا نحن سكان الارض لم نستكشفها بعد

فالاطباء المقيمون في عالم الروح بتسليطهم هذه الاشعة النفاذة قد استطاعوا ابراء كثير من الامراض المستعصية ، وفي مقدمتها السرطان . ولا يخفى ان احدث علاج للسرطان هو العلاج باشعة الراديوم ، ولكن هذه قد أخفقت في حالات كثيرة ، وعلى الاخص حالة سرطان المخ .

فالمريض يحضر في الجلسة التي يعمل فيها الوسيط المعالج وقد غشيته الغيبوبة ، وبمعاونة مساعدين ذوي قوة روحية ، ولكن في غير غيبوبة ، يتم العلاج باللمس والتدليك يقوم بهما الوسيط أو مساعدوه . وتشخيص المرض لازم لاتقان العلاج . وفي الحالات الخطيرة يدفع المريض الى النوم الطبيب الاثيري الذي يعمل بطريق الوسيط ، فلا يشعر المريض من ثمَّ بأي ألم . وقد برىء من المرض ألوف باستخدام الاشعة الروحية التي تسلط على الجسم الاثيري للمريض لأن برء الجسم الفيزيقي انما يكون عن طريق الجسم الاثيري . ولقد رد البصر والسمع الى كثيرين ممن فقدوهما ، بل لقد ردت الحياة الى كثيرين ممن حار فيهم الطب والأطباء ، وذلك بالعلاج الروحي

وأغرب ما في العلاج الروحي نوع يسمى العلاج الغيابي . وفيه يكون المريض في بلد ناء عن بلد المعالج الروحي ، ومع ذلك تصل الاشعاعات الروحية وينقه المريض . ولقد حدث علاج من هذا القبيل لمرضى مقيمين في مصر ، والمعالج الروحي في لندن ، وقد كتب الله الحياة لهؤلاء بعد ان عجز الطب والاطباء عن علاجهم[2]

---

(١) تراجع هذه الاقوال في كتاب « على حافة العالم الاثيري » صفحة ١١١ — ١١٥

(٢) المقتطف : وقد روى المحاضر بعد ذلك حادث اصابة بالسرطان في مصر شفيت صاحبتها بهذه الطريقة وعندنا أنه لا يمكن الاخذ بهذا الرأي حتى تتولاه جماعة من نطس الاطباء بالبحث والامتحان فيفحص المرضى حتى يتيقن الاطباء من صحة الاصابة ثم يعاد فحصهم بعد شفائهم بطريقة العلاج الروحي حتى يتيقنوا انهم شفوا



في سورية ولبنان

لم تعرف الحركة الأدبية في لبنان وسوريا ، منذ عشرين سنة ، نشاطاً قائماً على عقيدةٍ صحيحةٍ وايمانٍ راسخ كالنشاط الذي عرفتهُ في السنوات العشر الاخيرة. ففي هذه السنوات العشر انتقل الادب في هذه البلاد من مرحلة اللهو والتردد الى مرحلة الجدّ والعزم ، فلم يبق ألهيَّة يتفرغ لها الاديب على هامش مشاغل الحياة كما يتفرغُ الصانع او التاجر للعبة النرد او الشطرنج

على انَّ الانتاجُ مايزال ضعيفاً بالقياس الى قوة اليقظة الاديَّةِ في مجموع الأمَّة لابالقياس اليهِ قبل اليوم. فقبل اليوم — ولنحصر كلامنا في هذا الثلث من القرن العشرين — كان القلم لا يثمر على الغالب الكثير الا في الصحف والمجلاَّت وقصارى مايطمح اليهِ القارىء ان يقع في الصحف على مقال أدبي في كلّ اسبوع او قصيدةٌ في كلّ شهر أو شهرين . فبشارة الخوري مثلاً ، هذا الشاعر الذي ملات شهرتهُ الاقطار العربية ، لم تتعرف اليهِ المطابع حتى الآن ، فقصائده مشتتة هنا وهناك وقد لا يُفلح — اذا استثنى المأثورة منها — في مهر الادب بأكثر من مائة صفحةٍ، ومهما تكن هذه المائة الصفحة بليغة فلا يصحّ ان تعدَّ انتاجاً في حياة اديب . وما نقوله عن بشاره الخوري نقوله عن شبلي الملاط والمرحومين امين تقي الدين والياس فياض ومعظم الذين حملوا أعلام الحركة الادبية في مطلع هذا القرن. فشبلي الملاَّط لم ينشر الاَّ ثلاث مسرحيَّات او اربع منقولة عن الفرنسية وديوان شعر فيهِ الغثّ وفيهِ السمين واذا نحن ضربنا صفحاً عما في ديوان الملاط من شعر المناسبات العارضة ، هذه المناسبات التى كثيراً ماظهرت على اقلام الشعراء العرب في كل عصر فكانت حائلاً دون انطلاق الفكر الاستقلاليّ مع العاطفة الغريزية ، لا يبق

لنا في هذا الديوان الاّ بضع قصائد لا يصحّ ان تعدّ ا تاجاً في حياة اديب . ولم ينشر الياس فياض الاّ بضع مسرحيّات منقولة عن الفرنجة وديواناً صغيراً قد لا يليق فيه بكرامة الشاعر أكثر من اربع قصائد او خمس . اما أمين تقي الدين فقد يكون الأديب الوحيد الذي لم يعتمد في تلك الحقبة خصلة غيره في الاغارة على تريكة الغير . على انهُ — لسوء الطالع — لم يخلّف من النثر والشعر ما يملأ كتاباً حسنَ العرض

ولا نريد بهذا ان ننكر فضل هؤلاء الأدباء، فقد كانوا فاتحةً حسنة لهذا القرن بخروجهم في حلبة الشعر على غفلة القرن التاسع عشر ، وان قصروا في حلبة النثر وفي التوسع الفكري والابداع عن بعض جهابذته كاليازجي والشدياق واديب اسحق . واذا حقَّ لنا أن نلومهم فعلى كونهم شهدوا أوجع مأساة عرفها التاريخ ولم نشهد لأقلامهم منظراً موجعاً من هذه المأساة ، اللهمَّ إلاَّ بعضَ قطع لا قيمة لها . أيمرُّ بنا المنجل الاسود على شفرته المقدَّسة كجناح الموت سحن الجوع والمرض والذل والظلم والحقد ولا يقوم فينا شاعر أو ناثر يغمس ريشتهُ في هذا البؤس ؟ ألا يقوم فينا شاعر او ناثر اجترّت عيناهُ حصيدَ تلك الشهادة فيطبع على جبين التاريخ الادبي لوحةً خالدة مما انطبع على عينيه ؟

كانت الحركة الادبية التي نشطت في جريدة « البرق » عام ١٩٠٨ على يد طائفة من رجال العلم كالشيخ اسكندر العازار وفليكس فارس والغلاييني وداود مجاعص وبشاره الخوري وشبلي الملاط وغيرهم مسهّلَ النهضة التي حاولت قبل الحرب الكبرى النزوع عن القديم المألوف ، عن الادب البطريركي والسلطاني الذي تفشى في ذلك الحين . على ان هذه النهضة لم تعطِ أكُلها لقرب ما بينها وبين الحرب ، الحرب التي عطّلت الصحف إلاَّ المملوكة منها وغضّت شرف الفكرة الحرّة في البعض الكثير من رجال العلم فاصبح الأدب سلعة تباع على أبواب الحكام بخوراً وقرابين

وبعد أربع سنوات مرَّت على السُّبات السياسي والادبي في لبنان وسوريا لم تجرؤ الناشئة على النظر الى الماضي لهول المشهد ، ولا الى الحاضر لفراغه الموجع .

فاستسلمت الى الغرب الفاتح المنقذ وراحت تعبّ ماهبّ ودبّ من صادراته، مؤمنة بكل مايشحنه حتى بحواشيه . ولشدّ ماتأثرت في ذلك الحين بموجة الأدب المهاجر حامل الروح الشرقية في الجسد الغربي ، واذا هي اصداء مشوهة لذلك الانتاج السماعيّ الخصب . وان يكن الأدب المهاجر قد نفخ في الناشئة اللبنانية والسورية روحاً لاعهد لها بمثله فقد استعبدها للغته المضعوفة وسيّرها في طريق متحيّرة بين الفوضى والتقليد

وفيما هذه الناشئة تضطرب بين الغرب والغرب ، بين الاصوات الشرقية المغرّبة في الاميركيتين والشمالية منهما بوجه خاص ، وما تشحنهُ اوربّا الفاتحة ، سيدةُ مصائر الناس ، كان حملة الاقلام المخضرمون — اولئك الذين لبسوا الوجهين قبل الدستور العثماني وبعده — يحاولون لباس الوجه الثالث باسم التحرر السياسي

***

ولكن ... فيما هؤلاء منصرفون عن الادب الى استثمار السياسة في العهد الجديد كان بعض المفكرين الأحرار في الشباب يلقون في الناشئة بذرة التحرر الأدبي .كان الاستاذ عمر فاخوري في جريدتي « المعرض » « والبيان » ببيروت والمرحوم احمد شاكر الكرمي في « الزمان» بدمشق يقودان طليعة هذه الحركة التحريرية المباركة

وهذه الحركة لم تقبض الى هدفها الا في جريدة « المعرض » الاسبوعية فلعشر سنوات الاّ قليلاً تألفت في هذه الجريدة رابطة من أدباء الشباب وراحت تذيع مبادئها الأدبية فتقسط حيناً وتظلم حيناً ، تهتدي تارة وتضلّ أخرى ، وبين تطرفها واعتدالها قامت في الشباب نهضة لم يخرج الادب منها لاخاسراً ولا مغبوناً

وكانت جريدة « البرق » ماتزال سياسية فحوّلها منشئها الاستاذ بشاره الخوري الى جريدة أدبية أسبوعية . على أن الاعصاب الادبية التي ساهمت في تحريرها لم تكن من العنف بحيث تستطيع مجاراة « المعرض » — وكان الشباب في ذلك الحين أميل الى التطرف والفوضى منه الى الاعتدال والنظام — فلم يُقسط للبرق

في النجاح فوقفت في منتصف الطريق واستغنى صاحبها بشهرته عنها وأغنى العالم الادبي بشعره عن صحيفته . واذا حق لنا أن نلومه فعلى انصرافه في الكثير الغالب الى التغني بما يُحمَّل عليه لا بما يندفع اليه . ولا نزاع في أن الاستاذ بشاره الخوري يشرف في احساسه العاطفي الصرف على العالم الذي عاش قبل الحرب والعالم الذي يعيش بعدها ، فهو انتقال حي من عهد الى عهد ، من عهد رزح فيه الادب تحت ثقلين : الضغط السياسي الحميديّ والرشادي والضغط الروحيّ الناشيء عن ضعف اليقين بالنفس ، الى عهد تحاول فيه الناشئة توطيدَ استقلالها الروحي توطئة لاستقلالها السياسي الصحيح . فهل يستطيع سبيلاً الى تأدية الرسالة الملقاة على عاتقه ؟ فشاعر الأمة يجب أن يكون عظيماً كالأمة

وفي ذلك الحين ، فيما الحركة الأدبية ماضية في نشاطها بجريدة « المعرض » وبعض الصحف اليومية — ومعظمُ صحف بيروت تخص الأدب بصفحة في كل اسبوع — كانت حركة أدبية رصينة تنشط في سوريا ، بمجلة « الحديث » الشهرية في حلب ، وبجريدة « فتى العرب » وغيرها في دمشق . وما عتّمت هذه الحركة أن أعطت ثمارها فأصدرت المطابع مؤلفاً نفيساً عن المتنبيء للاستاذ شفيق جبري ومؤلفاً آخر عن سيد قريش للاستاذ معروف الارناؤط . وأذكر أن المغفور له شوقي قال لي يوماً إنه سلخ ثلاثة أيام على قراءة « سيد قريش » . والواقع أن هذا الأثر الخالد الذي يضارع بلغته وألوانه ملحمة « الشهداء » لشاتو بريان هو ، على ما في إخراجه الفنّي من الهنات ، أفضل كتاب أدبي مُهرت به المكتبة العربية في سوريا . ولم يقف جهد معروف الارناؤط عند « سيد قريش » بل تجاوزه الى كتاب آخر قد يقلّ عنه خطراً هو « عمر بن الخطاب »

وفي تلك الحقبة الطيبة من حياة سوريا الأدبية صدر في بيروت أول جزء من « أدباء العرب » للاستاذ بطرس البستاني ، وتبعه الجزء الثاني فالثالث . وكانت المطابع في الوقت نفسه تصدر كتاب « المراحل » للاستاذ ميخائيل نعيمه و « جبران خليل جبران » للمؤلف نفسه . وقد أحدث هذا المؤلف الأخير ضجة صحفية وخطابية لم يسبق لها مثيل إلاّ في النادر القليل . ويرجع السبب في هذه



الضجة الى بعض حقائق أوردها الاستاذ نعيمه في كتابه الخالد ودرس على ضوئها سلوك جبران في حياته الخاصة وعلاقة هذه الأخيرة بحياته الأدبية .

وكان الاستاذ أمين الريحاني قد بدأ منذ سنوات يقلد جيد المكتبة العربية روائعه ، فبعد الجزء الرابع من الريحانيات « ملوك العرب » وبعد ملوك العرب « النكبات » وبعد النكبات « نجدالجديدة » وبعد نجد الجديدة « قلب العراق » ويعدّ الآن كتاباً عنوانه « قلب لبنان » وأمين الريحاني يقف اليوم على هضبة الانبعاث الفكري موقف نبيٍّ من أنبياء المجتمع الآني ، ففي أدبه إيمان بالشباب ، إيمان بالوطن وإيمان بالمستقبل

* * *

في بيروت اليوم جريدتان اسبوعيتان يغلب عليهما الطابع الأدبي هما « الجمهور » و « المكشوف » ولكلٍّ من هاتين الجريدتين أقلام وهدف تلتقي على صعيد الأدب ومهما بعدت بينهما شقة السياسة الشخصية التي تخلقها أحوال الادباء في كل بلد فلا تستطيعان الاساءة الى الغاية التي تسعيان وراءها . وقد يكون هذا التباعد باعثاً لاحياء الحركة الأدبية وإضرام اللهب في عروقها . واذا نحن قابلنا بين قوتي الاقلام التي تساهم في هاتين الجريدتين رأيناها متعادلتين . على أن لجريدة « المكشوف » داراً للطباعة ما فتئت منذ سنتين تغذي المكتبة العربية بنتاج مرجوّ الفائدة . ويكفي جريدة « المكشوف » فضلاً أنها أفسحت لكثيرين من الأدباء المغمورين سبيل الظهور وشجعت الادباء الآخرين على العمل فنشطوا الى الانتاج نشاطاً لم يُعرَف مثله قبل اليوم

ولا نريد أن نختم هذه التوطئة للفصول المقبلة في « الحركة الادبية بسوريا ولبنان » قبل أن نأتي على عرضٍ سريع لأبطال هذه الحركة . ففي سوريا طائفة من حملة الاقلام قطعت الدليل على إدراكها رسالة الادب وخطرها في حياة الأمة بزرعها البذور المرجوّة الثمر ، في تربةٍ ملائمة وجوّ صالح . وقد ذكرنا من هذه الطائفة الاستاذين جبري والارناؤوط . ونذكر الآن الشاعر خليل مردم بك في دمشق ، والشاعر عمر أبو ريشه في حلب ، والشاعر محمد سليمان الأحمد

المعروف ببدوي الجبل في بلاد العلويين . فللاستاذ مردم وبدوي الجبل قصائد لم تجمع حتى الآن في كتاب ولكنها أحلت شاعريها محلاً موفور الكرامة بين شعراء العصر . أما الاستاذ أبو ريشه فله ديوان حافل بأطيب الشعر ، وقد يكون أبو ريشه الأديب السوري الوحيد المنصرف الى الانتاج في هذه الايام ، فهو يعدّ ملحمة بعنوان « الاساطير » تم مقدمتها التي اتصلت بنا على مجموعها . وقد شاء الشاعر ان يفتتح ملحمته بمثل ما كان شعراء الملاحم الاغريق والرومان يفتتحون ملاحمهم بمخاطبة ربة الشعر . قال :

لا تنامي يا راويات الزمان	فهو لولاك موجةٌ في دخان
تتوالى عصورها وبها منك	ظلالٌ طريّة الالوان
ابداً تبسم الحياة عليها	بسمة المطمئنّ للحدثان
اسمعيني حفيف اجنحة الالهام	من افقك القصيّ الداني
وانثري حولي الاساطير	فالروحُ على شبه غصّة الظمآن
حسبك أن اردّها لك من قلـ	ـبي صلاةً ومن شفاهي أغاني

وفي سوريا ادباء مهيّأوا التربة لانتاج حسن كالدكتور منير العجلاني في دمشق والاستاذ سامي الكيالي،صاحب مجلة « الحديث » الحلبية التي مابرحت منذ سنوات تطلع علينا كل شهر بنماذج طريفة من أدب صاحبها وسائر ادباء العرب

وفي لبنان رهط من حملة الاقلام اكثر انتاجاً وانصرافاً الى الادب من اخوانه في سوريا على ان المذاهب الغربية ماتزال تسطو على بعض الادباء اللبنانيين سطواً يقصيهم عن جوهر نفوسهم ، ولكن هذا البعض بدأ بتحرّر من ربقة الغرب ويخلق لنفسه عالماً روحيًّا له طابعه وله تقاليده . وقد ذكرنا من ادباء لبنان اكثر من واحد ، ونذكر الآن الشاعر امين نخله الذي عرف ان يبدع لنفسه سواء في الشعر او النثر رمزية عربية التعبير متزنة التفكير لايشقى العقل في تفهم اغراضها ومعانيها وصورها . والشاعر الدكتور حبيب ثابت الذي نفض القلم اخيراً من طرفته الشعريّة « ادونيس » والشاعر سعيد عقل الذي امتاز برغبته في التسلل الى دياميس اللاوعي... والاستاذ صلاح لبكي ، شاعر « أرجوحة القمر » الذي ينعطف على



القلب البشري بخشوع موجع. والشاعر الياس خليل زخريا صاحب القلم اللازوردي. والشاعر نقولا بسترس النافخ من الشعر في ناي. والشاعر ميشال طراد الذي ابدع في الشعر الريفي طريقةً هو أقرب فيها الى جاسمان منهُ الى ميسترال. وعمر الزعني، بيرانجه هذا الزمن. والاستاذ بطرس البستاني، صاحب «ادباء العرب» وفي طليعة المنشئين والنقادين. والاستاذ عمر الفاخوري، صاحب «الباب المرصود» الذي يرجع اليهِ فضل المتقدم في توجيه النقد الفني. والاستاذ فؤاد افرام البستاني صاحب «الروائع» الذي ملك على حداثة سنه ناصية العلم واحتلّ مكاناً رفيعاً في عالم الادب. والاستاذ مارون عبود، الاديب الجبّار وأحد أئمة النقد الأدبي في هذا العصر. والاستاذ ميخائيل نعيمه، الأديب الذي وقف من قمم الفكر على واحدة لم يبلغها من نوابغ الشرق إلاّ نفرٌ قليل. والاستاذ رئيف خوري الذي ساهم بقسط وافر في الحركة الفكرية الحديثة. والاستاذ لطفي حيدر الذي عرف في قصتهِ «عمر افندي» أن يحفظ التوازن بين التقاليد الشرقية والغربية فلم تنقطع معهُ شعرة معاوية. والاستاذ توفيق يوسف عواد الذي يحاول مع الاستاذ خليل تقي الدين رفع القصة الى المستوى المنشود. وقد بذل حتى الآن جهداً محموداً في «الصبي الاعرج» و«قميص الصوف» و«عشر قصص». والاستاذ يوسف غصوب، شاعر «العوسجة الملتهبة» وناسج الفصول الجميلة في مختلف نواحي الادب. والدكتور نقولا فياض، الشاعر الخطيب الذي يرجع اليه فضل التقدم في الشعر الوجداني السائد الى يومنا هذا. والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف، حجة التاريخ في هذا العصر. والاستاذ انيس المقدسي صاحب المباحث الرصينة في تطور الأدب العربي. والدكتور أسد رستم صاحب المؤلفات التاريخية القيمة. والدكتور قسطنطين زريق الكاتب الاجتماعي الرصين

***

ومعظم هذه الصراصير المذهبة يدندن في جريدة «المكشوف» للشيخ فؤاد حبيش وجريدة «الجمهور» للاستاذ ميشال ابو شهلا

الياس أبو شبكة



الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

— ١ —

لم تصب الهند كلها بوابل العرب الثادق ، ولا يسهم سلطانهم الخارق ، غير الموجة التي مست سواحلها الغربية ، مثل السند وما جاورها ، حتى لم يضرب فيها ايضاً حكمهم بجرانه الى مدة طويلة ، والاّ لكان مصير الهند من جهة وحدة اللغة والثقافة كمصير مصر ، وإن كان العامل الهام الآخر لتلك الوحدة في مصر هو قربها من جزيرة العرب واتصالها المباشر بها

على ان سكان الهند الوثنيين مع مناعة السياج الطبيعي حول بلادهم وجسامته — اذ يحدق بهم شمالاً همالايا وهو أعلى الجبال في العالم قاطبة ، ويحفهم جنوباً وشرقاً وغرباً المحيط الهندي وهو الثالث في العالم في العمق والسعة — لم يقدروا ان يحافظوا على سكون بالهم ، وركود حالهم من تعكير النزيل ، وتشويش الغريب . فقد طرق ابوابهم النازحون، وقهر بلادهم الفاتحون من اليونان ، والسيث [1] والافغان والعرب ، والترك ، والمغول حيناً بعد حين . فلم يكن للهندي الوثني الغارق في تفكيره الفلسفي العميق بدّ من ان يتأثر في لغته وثقافته وافكاره وآرائه بمن احتك بهم . فاليونان ، والسيث ، والعرب ، والترك ، والافغان ، والمغول وغيرهم جميعاً لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الهند في صوغ الفكر الهندي على طابعهم الخاص بعض الصوغ فكما ان الهند تأثرت بتلك القوى الخارجية في عاداتها واطوارها واديانها واخلاقها كذلك تأثرت منها بلغاتها ولهجاتها

ولا يمكنك ان تقشع غمام ذلك الأثر في لغات الهند ولهجاتها ، ولا ان تدرك مبلغه وتستقصي مداه اذا لم تسبر غور ما وصل اليه مجهود الهنود الوثنيين في اجادة لغات هؤلاء النازحين الى بلادهم ، ولم تختبر حال تضلعهم من فنون الآداب فيها

(١) Scythians

حيث اصبحوا خبيرين بقرض الشعر ، بصيرين بمذاهب الكلام ، عارفين بمواضع النقد، متصرفين في ضروب الأنشاء فيها مسدَّدين فيها بالامر ، وموفقين بالمراد

من تلك اللغات اللغة الفارسية التي حملها الافغان والترك والمغول الى الهند فكانت لغة رسمية طيلة مدة حكومتهم فيها . وللفارسية علاقة دانية وقرابة وطيدة الى أسرة اللغات الآرية التي اليها يمت جميع اللغات واللهجات الهندية . لذلك يجوز انه لم يجد الهندي الوثني تعلمها عزيزاً مُمتناصاً ، ولا الخوض في ادبها شروداً منحاصاً بالقياس الى اللغات الاجنبية الاخرى ، فأطاعتهُ امورُها بأعنتها ، وانقادت له مطالبها بازمتها

كان لهؤلاء الهنود مع جيرانهم في الشمال علائق الجوار الحسنة ، وصلات التجارة المتينة من الزمن الغابر الى قبل عهد سبكتكين [1] اي قبل ان تعبر جيوش ابنهِ السلطان محمود الغزنوي [2] نهر اندس — الحد الفاصل حيئذ بين الهند والدولة الغزنوية — في غاراته الشهيرة على الهند . بيد ان الداعي القوي الذي أهب بهم الى صرف عنايتهم في اتقان لغة هؤلاء الفاتحين النازحين الى بلادهم ، والضاربين فيها بجرانهم ، والذي أجاءهم الى بذل وسعهم وطاقتهم لحوز قصب السبق في حَلبة آدابها واحراز فوق النضال في ميدان نظمها ونثرها ، كان طبعاً في العهد الاخير . وهو عهد — القرن العاشر الميلادي — نجد فيه العلامة الفيلسوف ابو ريحان البيروني مكبًا بين ظهرانيهم على دراسة لغتهم وفلسفتهم وعاداتهم واخلاقهم وعلومهم وفنونهم وجامعاً لكتابه الشهير عن الهند ، أوضاعه المحكمة ، واغراضهُ المتشعبة ، ومناهجه السديدة ، وفوائده الكثيرة. وهو ايضاً عهد بدأت فيه الكلمات الفارسية والعربية تدخل اللغات الدارجة في شمال الهند ، اذ نرى الشاعر الهندي الذائع الصيت « شاندكيو » وهو شاعر بلاط الملك « پرثيوي راج » يستعمل في رثائه الشهير لممدوحه الملك كلمة « پرورد كار [3] » و« سلطان »

---

(١) تولى سبكتكين من سنة ٩٧٦ الى سنة ٩٩٧ ميلادية (٢) تولى السلطان محمود الغزنوي من سنة ٩٩٨ الى سنة ١٠٣٠ ميلادية وأغار على الهند من سنة ١٠٠١ الى سنة ١٠٢٤ ميلادية اثنتا عشر مرة الى ان ضم الى حكومته اقليمي البنجاب والكجرات. (٣) ومعناه باللغة الفارسية « الرب »

ولكن مما يؤسف له ان مصادر المعلومات عندنا في هذا المبحث من مباحث التاريخ الهندي قليلة . لان علماء اللغة الفارسية سواء أكانوا فارسيين أم الذين ترعرعوا في الهند لم يروها في مصنفاتهم — كما يظهر لنا — جديراً بان يوكلوا بها رعايتهم ، ويوفوا عليها عنايتهم ، ويلقوا ضوءاً على هاته الظاهرة من جد الهنود الوثنيين ونشاطهم . فواله داغستاني مثلاً صاحب الكتاب الشهير « رياض الشعراء » في تراجم شعراء اللغة الفارسية يفتخر باهماله في كتابه ذكر الشعراء الهنود الوثنيين باللغة الفارسية . وعليه فاهمال داغستاني المشرب بالكبرياء ومن حذا حذوه قد جعل جمع المواد لهذا الباب الغامض من تاريخ الفكر الهندي صعب المرام ووعر الملتمس . لذلك فالقرون الاولى من استيلاء المسلمين على الهند لا تقدم لنا مراجع تستحق الاعتبار للمبحث

على انهُ في الاخير حين رجحت الاعتبارات السياسية والاجتماعية كفة الموقف لمصلحة هؤلاء الهنود في تعلم اللغة الفارسية واتقانها ، حملوا إصره ، وتكفلوا عبئه ، فبرعوا فيها وحذقوها . لذلك نجد في « تاريخ فرشته » أنهم في عهد دولة لودية[1] في الهند كانوا كلفين بلغة حكامهم ومشغوفين بدراستها ، فمن ذلك الزمن ثابروا عليها كلباً ، واظهروا لها طلباً حتى بلغوا من الاتقان فيها غاية استحقوا بها أعلى المناصب وأرفع المراتب في الدولة فيما بعد . فكان مثلاً لدى اغارة ملك المغول ظهير الدين بابر وابنهُ نصير الدين همايون [2] على الهند ، يتشرف برياسة الوزارة في الدولة الافغانية [3] الآئلة الى الانحلال حينئذٍ ، هندي وثني مسمى « هيموبقال »

اختار المغول بعد فتحهم الهند وطناً لهم — وهي ميزة تميز بها الفاتح المسلم الشرقي عن الفاتح المستعمر الغربي . فان الغربي مهما كانت البلاد المفتوحة أغنى ثروة ، وأعذب ماء ، واجود هواء من بلاده ، لا ينقل مركزه منها الى تلك البلاد ، فتتدفق ثروتها

---

(١) دام عهدها في الهند من سنة ٨٥٥ الى سنة ٩٢٣ هجرية

(٢) تولى ظهير الدين بابر الامر من سنة ١٥٢٦ الى ١٥٣٠ ميلادية وأما ابنه نصير الدين همايون فمن ١٥٣٠ الى ١٥٥٦

(٣) دامت هذه الدولة في ناحية من نواحي الهند من سنة ١٥٣٩ الى ١٥٥٤ حتى استولى عليها المغول

الى الخارج ، فيستحيل ظلها الذي اتسق فيهِ الخفض حروراً ، وماؤها الذي اطرد فيهِ النعيم مهلاً ، وجوها الذي ابلج فيهِ الأنس وحشة فينذ أهاليها من البؤس والفقر بذ ذاً ، تفجر في وجوههم الاهوال ، وتغبر في عيونهم الآمال ، لاشريك من اوليائهم في عواطفهم ، ولا حليف من ساداتهم في مصائبهم ، ولا نصير من حكامهم في حاجاتهم ، ولا مغيث من ولاتهم في استغاثتهم — لذلك لابسهم المغول بحكم اخوة الوطن الواحد ، ومازجوا ، وتزاوجوا ، وعاشروهم مجتمعي الشمل ومتصلي الحبل ، مصيخين لـكلّ أنة العاني ، ومصغين الى كلّ نشجة الباكي،ومغيثين لـكل لهفة المستغيث ، فبلغوا بهِ في قلوبهم منزلة لا تساوى ورتبة لا تدانى

بهذا التمازج والخلطة والمعاملة الحسنة أغرى المغول الهنود الوثنيين ،وأوقدوا في قلوبهم نار الشوق الى التمكن من اللغة الفارسية والتضلع من علومها وفنونها ، أضف الى ذلك ما زاد نزوعهم اليهِ وهو المشابهة والمماثلة بين افكار التصوف الاسلامي بالفارسية وبين أفكار وبدنتا[1] بالسنسكريتية . فكان اكبر مظهر أشرق بهاؤه ، ولاح علاؤه لهذا التمازج بين الحاكم والمحكوم في عهد العاهل المظيم جلال الدين اكبر[2] اذ اصبح الادب الفارسي العربي الذي حمله المسلمون الى الهند في هذا العصر الذهبي مصدراً عامًا لالهام الجميع .ولقد بلغ تقرير الهنود الوثنيين في هذا العهد الزاهر للثقافة الأسلامية مبلغاً حملهم على تعلم العلوم الاسلامية الشرعية واجادة اللغة الفارسية والعربية، وايضاً على بناء المساجد للمسلمين كما بناها لهم «راجا بهكوان داس » وابنه الشهير « راجا مان سنغ»

لم يكن تشجيع الملك العظيم جلال الدين اكبر وعونه للادباء في بلاطه مقصورين على المسلمين ، فقد ترجم بأمره العلماء الهنود البراهمة البارعون في ادب السنسكريتية وعلومها مع اشتراك العالم المسلم المؤرخ الشهير عبد القادر البداوني كتباً نفيسة من اللغة السنسكريتية وادبها الى اللغة الفارسية مثل « سنكهاسن بتّيسي » و«رامايانا» « وويدات » فاصبحوا بهذا على اتصال بعلماء اللغة الفارسية المسلمين في بلاط

---

(١) اسم كتاب مقدس عند الهنود الوثنيين (٢) أكبر ملوك المغول في الهند تولى الامر من سنة ١٥٥٦ الى ١٦٠٦ ميلادية

الملك وأسلم بعضهم على أثره مثل « بهون » . فشاعر بلاط الملك « فيضي » وشقيقه الوزير الشهير والعالم الجليل « ابو الفضل » صاحب الكتابين القيمين « أكبرنامه » « وآئين اكبري » كانا هنديي الاصل . « وفيضي » هذا مع كونه شاعراً مطبوعاً باللغة الفارسية اذ له فيها ديوان عظيم معترف به من الادباء والشعراء ، كان عالماً نحريراً باللغة السنسكريتية فان القصة « نالا دامايانتي » التي كتبها نظماً باللغة الفارسية تدل على استقائه اياها من المصادر السنسكريتية وطول باعه فيها ، وكذلك كان اديباً متفنناً باللغة العربية فان تفسير القرآن الكريم الذي صنفهُ بالعربية بالحروف الغير المنقوطة وسماه « سواطع الالهام » يشهد على براعته وقدرته فيها

***

وعليه فما لاشك فيه انهُ في مثل هذه الاحوال الموفقة في بلاط الملك برع الامراء الهنود الوثنيون في لغة البلاط الفارسية شعراء وكتاباً . فالملك نور الدين جهانكير [١] ينوه في مذكراته « تزك جهانكيري » بامير راجبوتي [٢] وثني مسمى « راجا منوهرداس » الذي كان محبوباً عند والده الملك جلال الدين اكبر لعلمه الغزير واطلاعه الواسع باللغة الفارسية . فهو يجمل ذكره ، وينشر مناقبهُ مظهراً تقديره الكامل لبراعة هذا الامير في الشعر الفارسي مستشهداً لرأيه فيه بالشواهد الكثيرة من شعره . ولم يرفع هذا التقدير الملكي والعطف السامي « راجا منوهرداس » الى الصف الأول من العلماء الهنود الوثنيين الذين ساهموا في ارتقاء الأدب الفارسي وتقدمه في الهند بل ما أحرزه من الأعتراف والتقدير من علماء ايران وادبائها وشعرائها بأنفسهم كالعالم الاديب والشاعر المطبوع بالفارسية لذلك ارتفع بشعره الصوت وسار في البلاد الى ما وراء الحدود الهندية فتداوله الناس بالذكر الجميل ونال اعجابهم حيث ادرج الشاعر الفارسي الكبير الذائع الصيت

(١) تولى الامر من سنة ١٦٠٦ الى ١٦٢٨ ميلادية (٢) نسبة الى قبيلة « راجبوت » في الهند وهي من قبائل الهنود الوثنيين الشهيرة



« صائب » بعض اياته في مجموعته المختارة من الشعراء المختلفين ، فهو عزة رنت اليها حينئذٍ الابصار وطمحت اليها القلوب . وكان شعره رائق الاسلوب يتدفق طبعاً وسلاسة مشبّعاً بالافكار الصوفية الرقيقة واليك ترجمة بعض الابيات المختارة منهُ قال : —

ينبغي لك ان تتعلم الانفراد والاتحاد من عينيك
فانهُ وان كانت كلٌّ منهما منفردة ولكنهما لا تنظران الاَّ بالاتحاد

وقال أيضاً : إن الشيخ يطمئن الى إيمانهِ ، والبرهمي يفتخر بكفره
ولكن سكران جمال الحبيب لا يبالي بالايمان ولا بالكفر

ومن شعره الصوفي ما يلي ترجمته : —
يا ربي اشرح صدري بالحب
واعطني قلباً كنز الأسرار
واطبع قلبي بالحب الخالد
واجعل شعار حبك روحي
أنا أسألك يا ربي فضلك العام
فان القنوط منك حرام
إن أذنت بان اروي غلتي من بحر وحدتك
فذلك لا ينقص شيئاً منهُ
اعطني النطق لحمدك
والقوة للمشي في سبيلك
أنا لا أعرف يا ربي ! ما هو الايمان والكفر ؟
ولا الواقع في شركِ هذا أو ذاك
فان كنتُ كافراً فاعطني الايمان
اعطني اليقين يا ربي فاني اطلبهُ منك

(يتبع) السيد ابو النصر أحمد الحسيني الهندي

«مرتجي ظل الغمامة»

من قصيدة لكثيّر :

وما كنت أدري قبل عزّة ما البكا   ولا موجعات القلب حتى تولّتِ
فوالله ما قاربتُ الاّ تباعدت   بصرمٍ ولا أكثرت الاّ أقلّت
وكنا سلكنا في صَعودٍ من الهوى   فلما توافينا ثبتٌّ وزلّت
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا   فلما تواثقنا شددتُ وحلّت
فان تكن العُتبي فاهلاً ومرحباً   وحقّت لها العُتبى لدينا وقلّت
وإن تكن الأخرى فان وراءنا   منادح لو سارت بها العيس كلّت
فاني وان صدّت لمثنٍ وصادقٌ   عليها بما كانت الينا أزلّت
فما أنا بالداعي لعزّةَ بالجوى   ولا شامتٍ إنْ نعل عزّة زلّت
فلا يحسب الواشون أن صبابتي   بعزّة كانت غمرةً فتجلّت
فوالله ثم الله ما حلّ قبلها   ولا بعدها من خُلّة حيثُ حلّت
وما مرّ من يوم عليّ كيومها   وان عظمت أيامُ أخرى وجلت
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه   وللنفس لما وُطّنت كيف ذلّت
وللعين أسرار اذا ما ذكرتها   وللقلب وسواس إذا العين ملّت
واني وتهيامي بعزة بعدما   تخليت مما بيننا وتخلّت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما   تبوأت منها للمقيل اضمحلّت



السياسة الدولية

في البحر المتوسط(١)

يشاهد الباحث المحقق في السياسة الدولية في البحر المتوسط أربعة عوامل مهمة تتحكم في الموقف الحاضر بين الدول

﴿العامل الأول﴾ : التسلح الذي تتسابق فيه الدول الكبرى والصغرى تسابقاً لم يشهد العالم مثله قبل الآن . واذا كان التاريخ يذكر عهد الفروسية في العصور الوسطى حين كان العرف يقضي على كل رجل حر نبيل بان يتسلح ويتعلم فنون السلاح والقتال فان عهدنا الحاضر سيذكره التاريخ بأنه العصر الذي تسلحت فيه الامم بجميع طبقاتها من قمة رأسها الى اخمص قدمها وان التسلح قد شمل كل شيء وذلت له العناصر جميعها من ارض وماء وهواء

اما اسباب هذه المغالاة في التسلح فكثيرة وتختلف بحسب احوال كل دولة ولكن هناك أسباب عامة تفسر ظاهرة التسلح الحديثة منها ضعف اداة السلم التي تمخضت عنها الحرب العظمى وهي عصبة الامم وضياع الثقة بمبدأ التضامن الدولي للتأمين ضد الحرب الذي يسمونه Collective Security فمعظم الدول التي كانت تؤمن بهذا المبدأ لم تر في اول الأمر ضرورة قصوى تدعوها الى زيادة التسلح فلما تفتحت العيون عن مشهد انهيار هذا المبدأ منذ سنتين حين وقفت دولة واحدة تتحدى الجميع زالت الغشاوة من فوق اعينهم وأخذ الجميع يتسلحون معتمدين على انفسهم

ومن هذه الأسباب ان العالم الحديث قد فقد الثقة فيما كانوا يسمونه بالمحالفات والمعاهدات فقد برهنت الحوادث قبل الحرب العظمى وفي اثنائها وبعدها الى الآن ان المعاهدات ما هي الا قصاصات من الورق يرمى بها في سلة المهملات اذا لم تخدم اغراض صاحبها في الوقت الذي يشاؤه وان القداسة التي كانت للعهود والمواثيق قديماً قد حل بها الهوان كما حل بكثير من النظم والتقاليد التي كان يعتز بها قديماً فجاء التيار الحديث فجرفها ومزقها فيما مزق شذر مذر

وأظن ان الاتجاه الحديث في العلاقات بين الدول سينحرف تدريجياً عن المحالفات والمعاهدات ويتحول الى اتفاقات وقتية تؤلف سريعاً لعلاج حالات معينة ثم تزول وتحل محلها اتفاقات أخرى

---

(١) خلاصة المحاضرة التي ألقيت بقاعة يورت بالجامعة الاميركية في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٨

كما حصل بين دول البحر الأبيض المتوسط حين اشتدت وطأة حركة الغواصات المجهولة والقرصنة فعقدوا مؤتمر « نيون » في سبتمبر سنة ١٩٣٧ وكما حصل في مونيخ في سبتمبر الماضي بين الدول الأربع لحل مشكلة تشيكوسلوفاكيا

لذلك كان من خطر الشأن بمكان عظيم ان تكون كل دولة مستعدة لأية مفاجأة حتى يخشى جانبها ويعمل حسابها فيرتفع سعرها في السوق السياسي الدولي متى أزفت ساعة المساومة

ولهذا كانت المسابقة القائمة الآن بين الدول في التسلح وكان هذا النشاط العصبي الذي نلحظه كل يوم بل كل ساعة في العلاقات السياسية بين الدول

« العامل الثاني » : اضطراب مياه البحر المتوسط — مضى وقت كان فيه البحر المتوسط قبلة أنظار السياح من مختلف أنحاء العالم لما حبته الطبيعة به من جو منعش وسماء صافية وشمس دافئة تبعث الحياة والنشوة في النفوس ومن ألوان زاهية ساحرة وفاكهة وأعناب ونخيل وما أنشأهُ الانسان على سواحله من آثار خالدات ومعابد ومساجد وكنائس ومآذن وتماثيل هي آيات من الفن والذوق والجمال أبدعتها شعوب البحر المتوسط في مختلف العصور واتخذتها المدنية الحديثة نماذج تحاكيها وتقتبس منها. لقد انطفأ فجأة جمال هذه المناظر وكأن عصا سحرية قد حولت هذه المباهج التي كانت ملتقى السياح من جميع أرجاء العالم ومبعث الجمال والشاعرية في نفوسهم الى مناظر حربية تسود سواحل البحر وتعج بها شواطئه فمن قواعد حربية وبحرية تنشأ من جديد الى أخرى قديمة تجدد وتعزز ومن دبابات تسد الطرق الى طائرات تملأ الجو بهديرها ومن مطارات ومصانع وثكنات الى مبان شامخة ظاهرها خدمة العلم وباطنها تغذية الحرب

هذا الى العواصف السياسية التي تهاجه بين حين وآخر فتجعل خطر الحرب والدمار قريب النزول وحينئذ تغشى موجة الاضطراب هذه الشعوب الوادعة التي تفيأ منذ القدم ظلال أغصان الزيتون رمز السلام والسعادة في العالم

وليست هذه اول مرة تهب فيها على هذا البحر العواصف والاعاصير. فقد سار البحر الشعوب التي تسكن ارجاءه في رقيها وتدهورها فكان نصيبهُ تارة الهدوء والسلام وتارة تجذب مياهه وسواحله التيارات السياسية والاجتماعية فتعرضهُ لأشد ما عرفهُ التاريخ من اخطار

ولا اظن انني بحاجة الى تعداد ما قام في البحر المتوسط من كفاح وحروب بين الشعوب في عصور التاريخ المختلفة ففي البحر المتوسط قام النزاع بين الفرس والاغريق ، وبين روما وقرطاجنة ، وبين الصليب والهلال في عهد الحروب الصليبية ، وظلت هذه الحروب تختفي وتظهر في البلاد المقدسة تارةً وتارةً في مصر واخرى في صقلية واسبانيا الى ان تسلط الهلال في شرق البحر وجنوبه وتسلطت المسيحية في الغرب والشمال

ثم جاءت حركة الاستكشافات الحديثة فكشف كولمبس عن القارة الجديدة وساح فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح الى الشرق فأحدث هذان الاستكشافان انقلاباً اقتصادياً هائلاً انتقل على أثره ميدان النشاط في الملاحة والتجارة الى المحيط الاطلسي واتجه مركز الثقل في العالم غرباً تاركاً البحر المتوسط ومدنه ودوله في ركود لم تحركه سوى أعمال القرصنة التي انتشرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر قرب سواحل الجزائر وما جاورها . وظلت شعوب البحر المتوسط تغط في نوم عميق استمر الى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين أيقظها من سباتها دوي الثورة الفرنسية وصرخة نابليون في الشرق

ولقد بلغ من قلة اكتراث الدول الكبرى بشأن البحر المتوسط أن نابليون حين قام بحملته الشهيرة سنة ١٧٩٨ قاصداً مصر أمكنه أن يفلت بأسطوله من رقابة انجلترا سيدة البحار رغم ما ارصدته لمراقبته من سفن وقوات ذلك لأنها لم تدرك قصد نابليون من حملته البحرية ولم تفطن الى انه يريد احتلال مصر . وأخيراً ظهر للبحرية الانجليزية ان نابليون نزل مصر واحتل في طريقه اليها مالطة . عند ذلك تنبهت الدول الى مكانة البحر المتوسط في العصر الحديث وعادت الحركة والنشاط الى مياهه وأعقب الحركة اضطراب سرعان ما أدى الى معارك حربية عنيفة . ثم سكنت العواصف نوعاً واهتمت الدول في منتصف القرن التاسع عشر بالبحر المتوسط لغرض واحد هو منع روسيا من اختراق البوغازات والخروج منها جنوباً مهددة مصالح الدول الأخرى

واستمر الحال كذلك حتى بعد فتح قناة السويس واحتلال انجلترا مصر الى ان نمت قوة ايطاليا في اوائل القرن العشرين واخذت تصبو الى الاستعمار كغيرها من دول أوربا وكان أن تحركت في سنة ١٩١٠ للاستيلاء على طرابلس فاهتاجت مياه البحر المتوسط من جديد وها هي العواصف السياسية تهب على البحر المتوسط من الشرق ومن الغرب ومن الوسط بسبب ايطاليا — في الشرق باستيلائها على الحبشة واهتمامها بطريق القناة . وفي الغرب بتدخلها الى جانب الوطنيين في اسبانيا . وفي الوسط بتهديدها تونس . وبفضل هذا النشاط الايطالي اصبح البحر المتوسط من أهم مواطن القلق والاضطراب في العالم في الوقت الحاضر

﴿ العامل الثالث ﴾ : نهضة الشعوب المحكومة — تختلف الشعوب التي تسكن سواحل البحر المتوسط عن الشعوب الأخرى التي تحكمها الدول الاوربية في افريقيا وآسيا . فشعوب البحر المتوسط شعوب راقية لها قوانين وأديان الهية ولغات وأدبيات وكان لها في الماضي تاريخ مجيد ومدنيات اقتبست منها المدنية الحديثة نوراً وعرفاناً ولها آثار تعتز بها وتحفزها الى العمل على استرداد مجدها الغابر لذلك كان الشعور القومي والوطني بين الشعوب المحكومة في البحر المتوسط قوياً وكان عمل الحاكم الاجنبي في اخضاع هذه الشعوب عملاً محفوفاً باشد الاخطار فمن اضطرابات

الى قلاقل وثورات وحروب قد تقهر فيها الشعوب المحكومة فتسكن فترة من الزمن تستجم في أثنائها لتقوم ثانية تواصل جهادها في سبيل الاستقلال. لذلك ما كادت تعرف نقط الرئيس ولسون الاربع عشرة وتعلن الهدنة في نهاية الحرب العظمى حتى أخذت الشعوب المحكومة تسعى لتحقيق امانيها

وكان من جراء ظهور هذه الروح القومية بين شعوب البحر المتوسط ان اضطرت بريطانيا ثم فرنسا اخيراً الى تصحيح علاقتها مع الشعوب التي كانت تحت وصايتها او حمايتها بعقد محالفات يعترف فيها باستقلال هذه الشعوب وتحتفظ فيها لدولة الحاكمة بمزايا الدفاع عن ارضها وقت الحرب او عند خطر الحرب وذلك باستعمال طرقها وسككها الحديدية وموانيها ومطاراتها . وكانت المحالفة البريطانية العراقية اولى هذه المحالفات سنة ١٩٣١ ثم اعقبتها مصر سنة ١٩٣٦ وها هما سوريا ولبنان تعقدان مع فرنسا مثل هذه المحالفات . والشعوب الاخرى التي لا تزال تجاهد في سبيل استقلالها تطالب بعقد مثلها

والمهم ان الشعوب الاسلامية التي تسكن سواحل البحر المتوسط في حالة تطور جديد يصعب معهُ ان تستكين الى حكم او تدخل اجنبي

﴿ العامل الرابع ﴾ التيارات السياسية المتعارضة في البحر المتوسط — اقليم البحر الابيض المتوسط تعبير جغرافي صرف فليست هناك وحدة تجمع بين شعوبه سوى الوحدة الجغرافية اذ تشترك هذه الشعوب في مظاهر وصفات خاصة تميز جو هذه الاقاليم ونباتها وطبائع سكانها ، كما تشترك في ان المعادن في هذه المنطقة قليلة وان موارد الخامات ليست كثيرة . وان محصولات هذه الاقاليم متشابهة . اما فيما عدا ذلك فالتباين بين هذه الشعوب عظيم

ففي الشرق والجنوب نجد الشعوب التي تعتنق الاسلام والتي تعمل جهدها للتخلص من نفوذ الاجنبي وفي الشمال والغرب نجد الدول المسيحية ذات الأثر الكبير في توجيه السياسة الدولية في البحر المتوسط . ومن هذه الدول ظهرت الآراء الجديدة التي كانت سبباً في اضطراب مياه هذا البحر . وتتلخص هذه الآراء في مبدأين هامين : الاول مبدأ التوسع والتسلط في الحكم وتنادي به ايطاليا : والثاني مبدأ الاحتفاظ بالحالة الحاضرة والديمقراطية في الحكم وتنادي به انكلترا وفرنسا . ويعمل الجانبان جهد طاقتهما في اكتساب الانصار فينحاز الى ايطاليا من دول البحر المتوسط المستقلة البانيا وحكومة فرنكو في اسبانيا وينحاز الى جانب بريطانيا وفرنسا اليونان وتركيا ويوغسلافيا ومصر وحكومة اسبانيا الجمهورية . والكفاح بين هذه الآراء قد بلغ منتهى الشدة وليس أدل على شدته مما نرى الآن في اسبانيا من استماتة الجانبين في سبيل النصر . وهو كفاح سيزداد على مرّ الايام وسيعيد الى الاذهان ما كان بين الصليب والهلال في العصور الوسطى

ولا يتطرق الى الذهن ان مجرد التباين في الآراء والمعتقدات بين الامم كاف لاثارة الحروب بل لا بد من اسباب اقتصادية او استراتيجية أي حربية تستند اليها هذه الآراء فتدفع بمعتنقيها الى الحرب. على هذه الاسس قامت الحروب في الماضي وعليها ستقوم في المستقبل . وسنرى عند بحثنا في سياسة الدول المختلفة ما للعوامل الاقتصادية من أثر في توجيه سياستها غير ان هناك حقيقة ظاهرة وهي انهُ ما دامت الدول التوسعية مصممة على تنفيذ سياستها وما دامت الدول الديمقراطية لا تريد ان تمس الحالة الحاضرة بأي تغيير فان النزاع بين الفريقين لا بد ان يؤدي يوماً الى الحرب

قواعد السياسة البريطانية

ولنبحث الآن في سياسة الدول التي يهمها البحر المتوسط ولنكتفِ في هذه المقالة بسياسة كل من بريطانيا وايطاليا

«بريطانيا» يقولون ان البحر المتوسط هو في منزلة الشريان للامبراطورية البريطانية واظن ان هذا التشبيه مبالغ فيه كثيراً لأنه اذا انقطع هذا الشريان فلن تموت الامبراطورية البريطانية لأن هناك طرقاً اخرى تربط انجلترا بمستعمراتها واهمها طريق رأس الرجا الصالح الذي استخدمه الانجليز في اثناء الحرب العظمى خوفاً من الغواصات الالمانية التي كانت تملأ البحر المتوسط فأسفر استعماله عن نجاح تام. حقـاً ان السرعة عامل مهم في عالم التجارة والحركات العسكرية ولكن الوقت الذي يستغرقه طريق رأس الرجا الصالح الآن لا يزيد كثيراً عمـا كان يستغرقه طريق البحر المتوسط وقناة السويس عند بدء استعمالها

ولكننا اذا انتقدنا قولهم ان البحر المتوسط شريان للامبراطورية البريطانية فلا نستطيع ان ننكر انه طريق سلطاني مهم يقرب المسافة بين بريطانيا واجزاء امبراطوريتها تقريباً تتوقف عليها سلامة هذه الأجزاء في وقت الحرب. فبواسطة البحر المتوسط وقناة السويس تستطيع انجلترا ارسال جيوشها في زمن قريب الى نقط الضعف التي تتطلب المدد والمعونة

لذلك كان من الطبيعي ان تعمل انجلترا على المحافظة على هذا الطريق بانشاء محطات تكون لها بمنزلة نقط بوليس لتأمين الطريق ضد العابثين . ومن حسن حظها ان جاءت مواقع المحطات في نقط استراتيجية على درجة عظيمة من خطر الشأن فلها جبل طارق على الباب الغربي وعدن وجزيرة برين عند مدخل باب البحر الاحمر ولها عند مدخل البحر المتوسط من الشرق فلسطين وحليفتها مصر التي تملك قناة السويس . ولها وسط البحر جزيرة مالطة ثم لها قبرص

وامتلاك انجلترا لكل من هذه المحطات علامة على تطور خاص في الموقف الدولي ويكفي ان نقول كلمة عن كل منها

﴿ جبل طارق ﴾ اما جبل طارق فقد احتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة ارخت التي انتهت بها حرب الوراثة الاسبانية وكانت انجلترا قد خشيت انضمام قوات فرنسا واسبانيا ضدها بعد ان صار حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على اسبانيا كذلك ارادت انجلترا ان يكون لها قاعدة بحرية بعد ان إتسع ملكها في الشرق على أثر إنشاء شركة الهند الشرقية

ويعتبر جبل طارق معقلاً متيناً للانجليز يضربون به المثل في الثبات والمتانة ويبلغ عدد سكانه ٢١٠٠٠ ، ١٥٠٠٠ منهم تقريباً من الاسبان والايطاليين واليهود وهم جميعاً موالون لبريطانيا ولا خوف منهم في أي وقت . وأهم عيب في هذا الحصن أن أرضهُ جبلية ولا تصلح لاقامة المطارات ضماناً لمكانة انجلترا في جبل طارق راعت حكومتها عند توزيع مناطق النفوذ بين فرنسا وأسبانيا أن (سبتة) والأقليم المقابل لجبل طارق في يد اسبانيا وهي الدولة الضعيفة حتى لا تقوم قاعدة بحرية فرنسية تنافس جبل طارق وتعرقل سير الملاحة البريطانية في مضيقه

﴿مالطة﴾ لما إتجهت أنظار الانجليز الى مصر وطريق البر الى الشرق رأوا ضرورة أخذ مالطة من الفرنسيين بعد أن احتلها نابليون لتكون قاعدة بين جبل طارق ومصر وفعلاً لم يجد الانجليز صعوبة في احتلالها سنة ١٨٠٠ وقد تأيد احتلال انجلترا لها في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥

ولقد سار الانجليز في حكم مالطة وفق خطتهم التقليدية فلم يتدخلوا في شئون الدين الكاثوليكي وهو السائد بين السكان كما لم يتدخلوا في استعمال اللغة الايطالية مع الانجليز . وبما أنهُ لا يفصل مالطة عن صقلية سوى ٧٠ ميلاً تقريباً فان أثر ايطاليا في مالطة كان عظيماً ويكفي أن تكون الكنيسة ورجالها تابعين لايطاليا أو للبابا وأن تكون اللغة الايطالية لغة الثقافة بين الأهالي واللغة الرسمية في المحاكم مع اللغة الانجليزية لندرك مدى تغلغل النفوذ الايطالي في مالطة . ولم تكن انجلترا تهتم بذلك كثيراً حين كانت تربط انجلترا بايطاليا أواصر المودة القديمة، ولكن لما تبينت انجلترا ما تكنهُ ايطاليا من سياسة توسعية ظهرت آثارها للعيان في حرب الحبشة أعادت انجلترا النظر في سياستها في مالطة فأغلقت المدارس والاندية الايطالية ومنعت اللغة الايطالية من المحاكم واستبدلت بها اللغة المالطية وأبعدت كثيرين من المعروفين بميولهم الايطالية . واندمج الانجليز مع المالطيين وقبلوهم في أنديتهم وحفلاتهم فاذا أضفنا الى ذلك أن ثروة الجزيرة متوقفة على ما تنفقهُ بريطانيا على قواتها وما تنفقهُ الشركات الانجليزية على سفنها التي ترسو بها أدركنا بسهولة سبب ولاء المالطيين لانجلترا واستقرار الحالة في هذا الحصن البحري استقراراً يدعو الى الاطمئنان

وهناك رأي بأن مكانة مالطة كقاعدة بحرية منذ أن قوي سلاح الطيران قد أخذت تتناقص ويستدلون على ذلك بأن انجلترا لما حشدت أسطولها في أثناء الأزمة الحبشية وأزمة سبتمبر

الماضي فضلت أن يكون ذلك في ميناء الاسكندرية بدلاً من مالطة حتى لا يتعرض الاسطول لهجوم سلاح الطيران الايطالي. ولكن هذا لا يؤثر في مكانة موقع مالطة الحربي وسط منطقة تشتبك فيها مصالح ايطاليا في صقلية وفرنسا في تونس وقد اهتمت بريطانيا أخيراً بتحصين الجزيرة وتعزيز حاميتها وانشاء مطار بها

أما قبرص فعهد انجلترا بحكمها حديث نوعاً . استأجرتها من تركيا سنة ١٨٧٨ عقب انتهاء مؤتمر برلين الذي وضع حداً لمطامع روسيا في تركيا وكانت قناة السويس قد افتتحت سنة ١٨٦٩ واشترى دزرائيلي أسهم الخديو سنة ١٨٧٥ فكان لا بد لانجلترا من قاعدة بحرية قريبة من القناة وتشرف منها على أملاك الدولة العثمانية في الشرق . والقبرصيون من صميم اليونان جنساً ولغة وميولاً سياسية ويودُّون لو أمكنهم الانضمام الى أمهم الكبرى بلاد الاغريق ويعزز مقام الانكليز بالجزيرة وجود أقلية من الاتراك يبلغ عددهم ٦١،٠٠٠ وهم موالون للانكليز وعدد القبرصيين ٣١٠،٠٠٠

ولم يكن في قبرص ما يدعو الى اهتمام انكلترا بها فاتبعت فيها أيضاً سياسة ترك الأمور تجري في أعنتها وتركت الدعوة ينشرها القساوسة الاغريق لنصرة سياسة الضم الى اليونان فقامت الثورة سنة ١٩٣١ وهجم الثوار على بيت الحكومة فأحرقوه عند ذلك تنبهت انكلترا فاشتدت في حكمها وأخضعت الثوار وأبعدت الاساقفة المحرضين على الثورة ومنعت الأعلام الأغريقية من الظهور وقضت على حركة الدعاية لليونان . ثم جاءت الازمة الحبشية فهدأت كثيراً من حماسة القبرصيين لحركة الانضمام الى اليونان إذ وجدوا أنهم في الحقيقة مخيرون لا بين انكلترا واليونان ولكن بين انكلترا وايطاليا. وليس بين ايطاليا واليونان حب مفقود أو غير مفقود فقد حرصت الكنيسة الارثوذكسية على تنشئة الشعب على كره ايطاليا كما أن الاغريق لم ينسوا ضرب ايطاليا جزيرة كورفو سنة ١٩٢٣ تهديداً لليونان . لذلك يكتفي القبرصيون الآن بالعلاقة الروحية وبالحب الافلاطوني بينهم وبين أمهم . وأما العلاقة السياسية فيختصون بها انكلترا لانها أقدر على ملء جيوبهم مالاً وقلوبهم طمأنينة

﴿ فلسطين ﴾ : والآن نصل الى صخرة تصطخب حولها مياه البحر المتوسط وتتكسر عليها أمواجه ألا وهي صخرة فلسطين فقد أصبحت فلسطين منذ الثورة الاخيرة التي قامت سنة ١٩٣٦ أضعف نقطة في جسم الامبراطورية البريطانية. والمدهش أن بريطانيا لا تناهض الفلسطينيين دفاعاً عن كيان الامبراطورية ولكن مدفوعة بعوامل تاريخية وانسانية نحو طائفة معينة

ويرجع تاريخ هذه المسألة الى سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب العظمى إذ استغل الحلفاء شعور العرب بالجامعة العربية ضد الاتراك حلفاء الالمان واستمالوهم الى جانبهم فعقد السر هنري ماكماهون

معتمد انكلترا في مصر مع الملك حسين اتفاقاً سريّاً وعد فيه العرب بالاستقلال بعد الحرب. وفي سنة ١٩١٦ عقدت معاهدة سرية أيضاً بين انكلترا وفرنسا تعرف باسم منشئيها Sykes-Picot وبمقتضاها تأخذ انكلترا من أملاك تركيا في الشرق، العراق بما فيه بغداد والبصرة وتأخذ فرنسا سوريا بما فيها اسكندرونة وعكا . وفي سنة ١٩١٧ أعلن وعد بلفور ويقضي بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين

ويلاحظ ان هذه الاتفاقات السرية والعلنيـة كانت مبهمة وغير محدودة المعنى ففي الاتفاق مع العرب لم تبيَّن حدود الدولة العربية المستقلة كما أن الاتفاق مع فرنسا على ان تأخذ سورية لم يكن ليتفق مع الوعد بانشاء دولة عربية مستقلة

اما وعد بلفور فلم يبين فيه المساحة التي سيشغلها الوطن القومي ولا عدد اليهود الذي يسمح بهجرته الى هذا الوطن

وقد كان من رأي اليهود في ذلك الوقت ان يأخذوا تصريحاً بأن تكون فلسطين وطناً قوميّاً فلم يحوزوا الا بانشاء وطن قومي في فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر. ولو انَّ الحلفاء بروا بوعدهم للعرب فأقاموا دولة عربية واحدة او اتحاداً عربيّاً من سوريا وفلسطين وشرق الأردن لما قامت مشكلة الصهيونيين الحالية لأن اليهود الذين عاشوا مع العرب كأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون ان يوزعوا انفسهم في جهات عدة من الدول الجديدة بدلاً من حصرهم في هذا الاقليم الضيق من الأرض

ويظهر ان الانكليز ارادوا ان يتخلصوا من الفلسطينيين واليهود مرة واحدة فوضعوهما في هذا المأزق كما كان يفعل قضاة العصور الوسطى اذا ارادوا عقاب النساء المشاغبات فكانوا يحجزون كل اثنتين في حجرة واحدة فامَّا ان تصطلحا واما ان تمزق إحداهما شعور الأخرى!

وتواجه انكلترا الآن في فلسطين مشكلة من أعقد المشكلات اذ كما يهم انكلترا ارضاء العالم الاسلامي بانصاف اهل فلسطين فكذلك يهمها ألاَّ تغضب ملوك المال من اليهود في اوربّا واميركا

والخلاصة ان مركز بريطانيا في البحر المتوسط لا خوف عليه ما دامت اسبانيا بحالتها الحاضرة ولا يضعف من مركز بريطانيا سوى مشكلة فلسطين ولذا يبدو ان حلها سيكون سريعاً

اما ما يقول بعضهم من ان بريطانيا بالمحافظة على نفوذها وممتلكاتها في البحر المتوسط تعرض نفسها لهجوم منافسيها وتحمل نفقات باهظة هي اولى بصرفها في جهات اخرى ولذلك فهم ينصحون بانسحاب بريطانيا من البحر المتوسط فقول لا قيمة له

١ — لأن بريطانيا اذا تركت البحر المتوسط رغبة في صون السلم فانها بذلك تمهد الطريق فوراً لأحلال دولة اخرى محلها وبذلك يختل التوازن الدولي وتقوم الحرب التي تعمل على تلافيها

٢ — اذا تركت انكلترا البحر المتوسط تركها حلفاؤها فيه وصعب عليها ايجاد غيرهم اذا قامت الحرب

٣ — ان اقتصار انجلترا على ممتلكاتها فيما وراء البحار من غير ان يكون لها في البحر المتوسط مصالح حيوية يحولها في الحال الى دولة ساحلية من الدرجة الثانية في المقام وتصبح اشبه بهولندا في اوربا وهي تملك مستعمرات كثيرة وراء البحار

٤ — ولا ننسين ان طريق البحر المتوسط يمر على سواحل دول متعددة واستمرار الملاحة والتجارة من هذا الطريق يكون في منزلة اعلان للعالم بعظم نفوذها ورواج بضائعها

٥ — وأخيراً لا ننسين ان بريطانيا تعتبر نفسها دولة عالمية وقد اصبح البحر المتوسط بعد ان اعلنت اميركا مبدأ عزلتها السياسية عن القارة واتبعت سياسة الحواجز الجمركية في الداخل من اهم المراكز السياسية والاقتصادية في العالم فاذا نزلت بريطانيا عن نفوذها في البحر المتوسط فكأنها نزلت عن مكانتها الممتازة بين الدول

اتجاه السياسة الايطالية

ننتقل الآن الى سياسة ايطاليا في البحر المتوسط وهنا تزعجنا صيحة ايطاليا التي لا تنقطع فهي تنادي بكل صوتها ان البحر المتوسط هو بحرها وعليه يطلقون في كتبهم ومقالاتهم وكلامهم Mare Mostrum اي بحرنا ويعتمدون في ذلك على ان سواحل ايطاليا تغمرها مياه البحر المتوسط . ولكن في هذه التسمية مبالغة كما قلنا في حكاية الشريان بالقياس الى الامبراطورية البريطانية

حقاً ان لايطاليا سواحل يبلغ طولها ٢٥٠٠ ميل مغمورة بالبحر وان الرومان القدماء سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله دولة رومانية استمرت عدة قرون حتى انك لتحفر في اي ناحية من سواحل البحر فلا بد انك واجد اثراً رومانياً

وحقيقة ان الخلق الايطالي ومستوى معيشة الايطالي وقدرته على الاندماج في شعوب البحر المتوسط تقربه الى نفوس هذه الشعوب وتميزه عن اهل الدول الكبرى الاخرى ، ولكن قولهم «بحرنا» فيه مس لشعور دولة صديقة كمصر يمتد ساحلها من السلوم الى جنوبي سواكن اذ البحر الاحمر ليس الا امتداداً للبحر المتوسط ، ولمصر في البحر المتوسط والبحر الأحمر تاريخ مجيد قديماً وحديثاً — قديماً حين كانت مصر ترسل اساطيلها في عهد الملكة حتشبسوت تمخر عباب البحر الى بلاد «بنت» وهي ارض الصومال التي تحتلها ايطاليا الآن — وحديثاً حين كانت مصر في عهد محمد علي ثالث دولة بحرية في البحر المتوسط بعد انجلترا وفرنسا وحين كانت تحكم سوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب وجزءاً من آسيا الصغرى وكريد

وحين احتلت جنودها في عهد الخديو اسماعيل مصوع وهرر وزيلع وبربرة ووصلت منارآتها السبع على ساحل البحر الاحمر جنوباً الى بربره

واذا كان الايطالي يمتاز على الآخرين بأنه أقرب الى قلوب أهالي البحر الابيض من غيره فأنا من هذه الشعوب نفسها لحماً ودماً ودينها دين الاكثرية وثقافتنا قد نفذت الى قلوب هذه الشعوب قبل أن تنفذ الكتب الايطالية الى حوانيتهم

تقول ايطاليا أنها في البحر وسط الطريق وهذا حق اذا اعتبرنا البحر المتوسط وحده ولكننا اذا اعتبرنا البحر الاحمر امتداداً للبحر المتوسط فتكون مصر لا ايطاليا هي القابضة على أوسط مكان في البحر وليس أدل على مكانها المتوسط من وجودها في مفترق الطرق بين القارات الثلاث ويكفي أن تكون مصر هي المالكة لقناة السويس التي هي مصدر الحياة والنشاط السياسي والتجاري لهذا البحر لتقول بملء فيها أن البحر المتوسط لها قبل أن يكون لغيرها

كانت ايطاليا تقول منذ سنتين مضتا أن البحر المتوسط يجب أن يكون بحيرة ايطالية ولكنها الآن بعد أن ضمت الحبشة فقد أصبح البحر لها كما هو لانكلترا وفرنسا طريق مواصلات قبل أن يكون بحيرة. ولهذا اتجهت أنظارها أخيراً الى التدخل في شؤون قناة السويس وغيره من المسائل الخاصة بالمواصلات

والحقيقة أن ايطاليا من حيث موقعها في البحر المتوسط في موقع لا تحسد عليه اللهم إلا اذا كانت السيادة البحرية لها فهي كباقي بلاد البحر المتوسط تحتاج الى كثير من المعادن والخامات الاولية ولا يمكنها الاعتماد كلية على ماتنتجهُ البلاد القريبة منها كالمانيا مثلا بل لا بد لها من استيراد أشياء كثيرة مثل الفحم وزيت البترول والقطن والمطاط والبن والقصدير. وهذه الاشياء ترد اليها اما عن طريق القناة واما عن طريق جبل طارق وتبلغ نسبة مايرد الى ايطاليا من خارج البحر المتوسط ٧٥٪ من وارداتها ونسبة مايرد من ذلك عن طريق جبل طارق ٧٠٪ وعن طريق السويس ١٧٪ وعن طريق الدردنيل ١٣٪ لذلك تضطر ايطاليا الى أن تولي وجهها شرقاً نحو السويس وغرباً نحو جبل طارق والمفتاحان بيد بريطانيا أو حلفائها ولأجل ان تكون ايطاليا على استعداد وجب أن تكون لها قوة دولتين بحريتين حتى تستطيع مراقبة الموقعين من الشرق والغرب وهيهات أن يتم لها ذلك لاسيما وأن التسلح في بريطانيا وفرنسا جار على قدم وساق

وكل ما تستطيعهُ ايطاليا في مركزها الحالي اذا جاءت ساعة الخطر ان تعرقل حركة المرور في البحر المتوسط وذلك بالاكثار من السفن السريعة الخفيفة والغواصات التي ثبت في الحرب العظمى أنها تستطيع ان تعوق الملاحة في البحر المتوسط ولكن سلاح الغواصات تستطيع استعماله أية دولة ولو لم يكن لها سواحل على البحر المتوسط بدليل ما قامت به الغواصات الالمانية

في هذا البحر في أثناء الحرب ، كذلك تستطيع إيطاليا الضغط على انجلترا وحليفتها مصر غرباً من طريق ليبيا ومن الجنوب الشرقي من طريق الحبشة وأرترية والصومال وبذلك تكون مصر والسودان مهددتين بعدو واحد من جهتين مختلفتين وهذا يفسر اهتمام إيطاليا بحشد قواتها في ليبيا والحبشة في اثناء الأزمات . يقابل ذلك انهُ اذا اعلنت بريطانيا الحصر البحري على ايطاليا تعذر عليها استيراد ما تحتاج اليه من الخارج كما يتعذر عليها الدفاع عن مستعمراتها خارج البحر المتوسط بدليل ان المانيا لم تستطع الاحتفاظ بمستعمراتها امام قوة انجلترا البحرية

لذلك كان اهتمام ايطاليا بمساعدة القوات الوطنية في اسبانيا اذ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها ايطاليا ان تنفذ الى خارج البحر المتوسط ما دامت القناة وجبل طارق في ايدي الآخرين . وتستند قوة ايطاليا في البحر المتوسط الى الدعامات الآتية :

١ — ﴿ البانيا ﴾ : وهي مرتبطة منذ سنة ١٩٢٧ مع ايطاليا بمعاهدة دفاعية لمدة عشرين سنة ولايطاليا في البانيا رؤوس اموال كبيرة معظمها في السكك الحديدية والطرق والاشغال العامة ولها خبراء في المصالح الحكومية

ومكانة البانيا من الوجهة الحربية ان مرتفعاتها تتحكم في بوغاز ارتنو مفتاح البحر الادرياتي الى البحر المتوسط وبوغاز ارتنو الذي يفصل ايطاليا عن البلقان هو المنفذ الوحيد ليوغوسلافيا الى البحر المتوسط وعرضهُ ٤٥ ميلاً . ولالبانيا ميناءان حربيان فالونا ودورازو . وفضلاً عن ذلك فقد كشفت اخيراً آبار لزيت البترول تستغلها ايطاليا وتنتج مقدار ٣٠٠٫٠٠٠ طن سنويًّا وهو ١٠ ٪ مما تستهلكهُ ايطاليا سنويًّا من البترول . وتتبع البانيا سياسة موالية لايطاليا فهي لم تشترك في ميثاق البلقان الذي يجمع بين تركيا ورومانيا واليونان ويوغوسلافيا كما انها لم تشترك في تنفيذ العقوبات الاقتصادية ضد ايطاليا في اثناء ازمة الحبشة

٢ — ﴿ جزيرة بنتلاريا ﴾ وقد ظهر ما لهذه الجزيرة من الشأن الكبير في السنوات الثلاث الأخيرة إذ تقع هذه الجزيرة في موقع استراتيجي هام بين صقلية وتونس ويبلغ ارتفاع صخورها ٢٥٠٠ قدم وبالجزيرة بحيرة صغيرة تصلح لاقامة قاعدة جوية للطائرات البحرية وقد سارعت إيطاليا في تحصين هذه الجزيرة فأصبحت من أهم قواعدها البحرية في البحر المتوسط . وقد حظرت مرور الطائرات من فوقها

٣ — ﴿ جزيرة رودس وجزر الدودكانيز ﴾ ومركز إيطاليا في هذه الجزر مهدد من ناحية تركيا التي كانت تملك هذه الجزر ولا تزال ترنو اليها لقربها من سواحل آسيا الصغرى ولوجود أقلية تركية في رودس . وكذلك يميل سكان هذه الجزر من الاغريق الى الانضمام الى امهم الكبرى اليونان . وأهمية هذه الجزر وباقي جزر الأرخبيل في الحرب أنها تصلح ان

تكون مخابىء للغواصات والمدمرات وغيرها من السفن الصغيرة السريعة

٤ — ﴿ ليبيا ﴾ وقد اصبح الآن مركز ايطاليا فيها آمناً وقويًّا بعد ان كان مهدداً في الداخل بقيام السنوسيين ضدهم . وقد انشأوا اخيراً طريقاً ممهداً قرب الساحل من حدود تونس الى حدود مصر يبلغ طوله ١٢٠٠ ميل كما انهم اقاموا اسلاكاً شائكة مزدوجة على الحدود الشرقية يبلغ طولها ٢٢٠ ميلاً ويحاول الايطاليون الآن بمختلف الطرق كسب قلوب الأهالي

***

وليس لايطاليا خطة سياسية معينة تنتهجها فليس بينها وبين احدى الدول عداوة مقيمة كما انهُ ليست لها صداقة مقيمة مع احداها رغم قيام محور برلين روما . ولا يزال موسوليني بعد فتح الحبشة متردداً بين رأيين الاول يقول بضرورة التفاهم مع الديمقراطيات الكبرى حفظاً للامبراطورية الايطالية الناشئة التي لا تستطيع البقاء اذا قامت الحرب وكانت ايطاليا في غير صف بريطانيا وفرنسا، وحجة انصار هذا الرأي مايتوجسونه من أثر زيادة قوة المانيا عند حدود ايطاليا الشمالية بعد ضم النمسا والسوديت وبعد تغلغلها سياسيًّا وتجاريًّا في وسط اوربا وشرقها. والرأي الثاني يقول بضرورة استغلال الفرص والمحافظة على محور برلين روما وخلق الاهداف والغايات امام الشعب الايطالي حتى لا تخمد حماستهُ وتضعف رسالة الفاشستية

ولايطاليا على سواحل البحر المتوسط أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ ايطالي يسكنون ارجاءها المختلفة من هؤلاء نحو ٩٠٫٠٠٠ في تونس و ٦٠٫٠٠٠ في مصر ومعظم هؤلاء من العمال والميكانيكيين واصحاب المطاعم والفنادق وليست لهم مصالح حقيقية ذات قيمة اذا قوبلوا بالفرنسيين أو البريطانيين ولكن ايطاليا تعنى برجالها الآن أشد عناية وتعمل على تدريبهم وتزويدهم بمختلف المساعدات من سياحات الى ايطاليا ودخول في جامعاتها الى إنشاء الأندية وإقامة المباني لهم

وقد ارتفع ذكر إيطاليا أخيراً وصارت لها مكانة بين الأهالي تداني مكانة بريطانيا وفرنسا لا بسبب الدعاية التي ينشرونها في الصحف ولا بواسطة الراديو ولا بسبب المدارس والجامعات التي يفتحون أبوابها لمن يريد ولكن لسبب واحد له أثره الفعال في نفوس عامة الناس وهو النصر الذي أحرزتهُ في حرب الحبشة والموقف الذي وقفتهُ إيطاليا وتحدت به اجماع الدول تقريباً ضدها

وهناك سبب معنوي آخر له قيمته بين الشعوب التي تعمل على التوسع وهو روح الثقة والايمان التي تملأ الشعب الايطالي الآن اينما وجد فالجميع لهم قبلة واحدة هي دولة روما ولهم دين وطني واحد هو الفاشستية ورسول واحد يقودهم الى النصر ويكاد في نظرهم يكون معصوماً من الخطأ

باب المراسلة والمناظرة

بين النقد والتقرير

حول « اعترافات فتى العصر » و« هكذا تكلم زرادشت »

في الصفحة ١٣٠ من مقتطف يناير كلمة للاستاذ حبيب الزحلاوي عن ترجمتي لزرادشت ولاعترافات فتى العصر اوردها بعد مقدمة أعلن فيها ان لديه عشرة كتب مترجمة يعد العدة للوقوف حيالها وقفة الناقد الصارم ليحاسب مترجميها « بالدقة والضبط دون هوادة ولا تحيز »

وقد توقعت بعد هذه المقدمة ان اجد ما أتوق اليه من درس وتحليل للترجمة يظهران نواحي الشطط والضعف فيها

وعهدي بالزحلاوي طماحاً الى مجاراة كبار الناقدين فاذا به يأخذ بتقدير مطلق فيقول انه وقف طويلاً عند كتابي يراجع الأصل الفرنسي ويقارنه بالترجمة العربية فتبيّن له ان مترجم « رولا » الصادق الذي استطاع ان يسير مع موسيه على نفس واحد في مراحل القصيدة الكبيرة كلها لم يؤاته التوفيق كله هذه المرة . اما عن ترجمة نيتشه فيقول ان المترجم لم يتيسر له قراءة سائر كتب المؤلف ولو انه فعل لاستطاع ان يماشيه بعض المرحلة

هذا هو النقد الذي وعد به الأخ الزحلاوي وما هو في الواقع الا تعبير عن شعور او ابداء رأي مجرد او افصاح عن ذوق له خاصته وكل هذا له قيمته ولكن في غير مجال النقد الصحيح الذي يقوم عليه اصلاح الاخطاء ومعارضة الشذوذ في كل فن

> تلقينا من العلامة اللغوي الاب انستاس ماري الكرملي رسالة يناقش فيها ما جاء في المقتطف الماضي عن كتابه « نشوء اللغة العربية » فأرجأنا نشرها للعدد القادم آسفين لضيق المقام

ولو ان الاستاذ الزحلاوي من طغمة القراء المتمتعين لا من عداد الكتاب المفكرين لكنا نغتفر له ابداءه التحبيذ وبذله الاستهجان دون ان يعلم سبباً لتحبيذه واستهجانه

ومن غرائب النقد أن يقول لك كاتب ما قاله صديقنا من انهُ لا يردّ شكه وظنونه « الا بقيام الدليل على صدق الترجمة وصحتها وهما الاصل في عمل الترجمة »

وما نعلم ان الشك والظنون المبنية على التوهم يحق لها المطالبة بقيام الدليل على بطلانها

في شرعة اي بلد أو أي عصر ورد النص على تكليف المدعى عليهِ إقامة الدليل

ان الاصل المترجم عنهُ والترجمة امام ناظري حضرة الناقد وما نحن ممن يدَّعون العصمة عن الزلل فليتفضل وليدلنا اين « لم يسعفنا استعدادنا النفساني » على تفوذ فكرة المؤلف واين برزنا نحن لنخفيه . . .

لو ان صديقنا الناقد أتى بأمثلة على ما يقرر ودلنا على المواضع التي قصَّرنا فيها والمواقف التي طغينا فيها على نيتشه وموسيه لكان تفضل على الأدب وهدانا الى التصحيح وما يستكبر على المنطق والدليل الحق إلاَّ الجاهلون

وعسى الصديق يبذل شيئاً من جهده في هذا السبيل وعساه يتخذ هذه الطريقة المثلى في نقده للكتب الثانية الباقية فلا يتعسَّف في احكامه على مترجميها ، إن للأدب محاكمهُ وقضاته فلا يقوم طاغية في دولتهِ

***

وأخيراً نستميح صديقنا الحاكم علينا بمثل هذا التسرع ان نسأله عما دعاه الى الظن « الكبير » باننا لم نقرأ من نيتشه الا كتاب زرادشت الذي أقدمنا على ترجمتهِ واكثر مؤلفات هذا الفيلسوف موجودة في مكتبتنا منذ عهد بعيد ثم ما لناقد يهم بسائر كتب المؤلف فاذا كان يعتقد أننا لم نفهم زرادشت فكيف يحسن بنا الظن ويتراءى له أننا كنا سنفهم كتاب « ما وراء الخير والشر » مثلاً ؟ ان نيتشه هو نيتشه في كل مؤلفاتهِ ومن يقصر في فهم زرادشت فلا بدَّ له من الوقوف عاجزاً أمام « مشيئة القدرة » و« فجر الاصنام ». ونحن لم نعثر فيما طالعنا لكبار النقاد على ماقاله ناقدنا من ان جميع مؤلفات نيتشه تعد كمفاتيح لزرادشت وهب أن أحدهم قال بهذا فان لنا نحن أيضاً ان نقول ان في زرادشت من الجلاء في بعض فصوله ما يعين القارىء على فهم الغامض في سائر مؤلفاتهِ الاساسية . وليس في هذه المؤلفات كلها ما يجلو عنك ما غمض من أقوال زرادشت ولصديقي الزحلاوي ان يقرأ كتاب السيدة لو أندرياس سالومه عن عاشقها فردريك نيتشه فقد حللت هذه الكاتبة التي خشعت عبقرية الجبار أمام عبقريتها فلسفة محبها ورفيقها تحليلاً لم نقرأ خيراً منهُ فكانت كلما وقفت أمام عقبة من تعاريج هذه الفلسفة ترجع الى زرادشت أولاً ثم الى سائر الكتب لتذليل صعابها

وعلى كل فما كنا ملزمين نحن بالرجوع الى أي تأليف لنيتشه عند ترجمتنا زرادشت

لان مهمتنا كانت قاصرة على نقل ما في هذا الكتاب الى العربية دون أن تتخطى دائرته تفكيراً وتعبيراً

***

أما ما يقوله الناقد في ترجمتنا للاعترافات من أننا تهاونا فيها تهاوناً لا نرضاه لنفسنا لاننا كنا على زعمه نترجم الفصل منها بنصف ساعة فقول مجرد عن كل دليل ونحن نصرح هنا أننا لو اعدنا طبع الاعترافات فلن نستطيع تبديل شيء فيه كما يظن لاننا ترجمنا الكتاب وطبعناه تحت اشرافنا وراجعنا نماذجه ثلاث مرات ، هذا ماوصلنا اليه وهذه هي طاقتنا فان تفضل الناقد أو أي أديب آخر بتصحيح فاننا نأخذ به ونشير الى مصدره شاكرين له معاونتنا في عمل ان كان منه فائدة فهي ذاهبة الى محجة كل اديب ومستقرة في رغباته لا في الزمان

ثم ان الناقد يلومنا زاعماً اننا اتهمنا شبيبتنا بضلالات عصر موسيه وشكوكه والحاده ، ولو انه رجع الى تمهيدنا لوفر على نفسه هذا النقد الفاشل لاننا قلنا بصراحة : اما هنا فداء العصر « عصر موسيه » لم يزل يراود الشبيبة وعواطفها مراودة لاتستسلم لها العقول والقلوب فان شمس هذه السماء لم تشرق يوماً على جيل جحد ربه وقتل صيانة حبه بالقضاء على غيرته المقدسة

وقد اختتم صديقنا جميع هذه الانتقادات بقوله انه لم يكن لمصطفى صادق الرافعي او لسواه ممن ذكرنا في تمهيدنا لترجمة زرادشت ان يحفزنا الى هذه الترجمة فان من هدانا الى نيتشه ورينان واضرابهما انما هو فرح انطون

فهل يريد الناقد ان يقول ان احداً لم يكن ليعرف فلاسفة الغرب لولا المرحوم فرح ؟ ان هذا العبقري الكبير عاش قبلنا فكان من الطبيعي ان يقرأ نيتشه وغيره قبل ان قرأه من جاؤا بعده ولا نعلم لماذا يريدالصديق الزحلاوي ان ينكر على أعلام من الأدب العربي ان يكونوا هم من رغبوا الينا في ترجمة زرادشت أثناء محادثة جرت بيننا كما ذكرت في تمهيد الترجمة

***

هذا ما رأينا إيراده بصدد نقد صديقنا الزحلاوي الذي كتبهُ ولاشك في ساعة ملال في حين كنا ننتظر منهُ نقداً يهدينا الى مواطن الخطأ ولعله فاعل في عودة الى زرادشت والاعترافات او لعله على الأقل يأخذ بما عرضناه على رويته عندما يتناول بنقده الكتب الباقية

الاسكندرية فليكس فارس

كيف تدور الارض حول الشمس

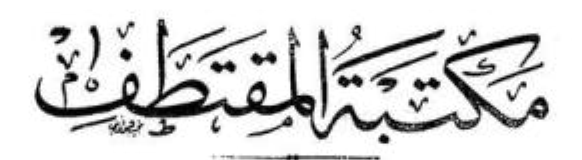
اذا تأملنا في أي رسم للفصول الاربعة نجد ان ميل محور الارض الثابت في جهة واحدة له تغييرات اربعة بالنسبة للمدار وهي أولاً مائل داخل المدار وثانياً مائل جهة السير في المدار وثالثاً مائل خارج المدار ورابعاً مائل جهة عكس السير في المدار—ولو طبقنا هذا الفرض على العمل لما وجدناه ينطبق عام الانطباق . مثال ذلك : اذا نظرنا الى السماء ورأينا الطيور والطائرات وهي طائرة في الفضاء (هذان مثلان يمثلان الحقيقة لدوران الارض لحدوثهما في الفضاء كالارض) ثم نظرنا على الارض ورأينا القطار والترام نجدها كلها اذا دارت في دوائر او في انحناء او في مدار كمدار الارض ان محاورها جميعاً تكون مائلة داخل هذه الدوائر ما دامت تسير فيها واذا غيرت مثلاً هذا الميل لمحاورها من داخلها الى خارجها (وهذه صفة من الصفات الاربع التي اختص بها ميل محور الارض وهو في نفس المدار كما بينا سابقاً) خرجت من السير او الدوران فيها الى اخرى غيرها اي الى دوائر او انحناء أو مدارات اخرى . هذه امثلة نجد فيها الطبيعي كالطيور والصناعي كالطائرات التي هي وليدة العلم وتطبيق العلم على العمل والتي فيها اثبت العلم بصفة عملية انهُ لا يمكن ايجاد دوران او انحناء بدون ميل لمحاورها داخلها ولم يكن العلم قد أثبت هذا في الفضاء فقط وانما أثبتهُ أيضاً على الارض في قضبان الترام والسكك الحديدية في جعلها منخفضة قليلاً عن الأخرى المقابلة لها والخارجية للدوران او الانحناء

نرى مما تقدم ان ما جعل مهندسي الطائرات والترام والقطار ان يميلوا محاورها داخل الدوران او الانحناء كي يحصل الدوران او الانحناء لم يكن عن جهل وانما أمالوها عن علم درسوه فهو ميل اجباري لا اختياري . ومن حيث ان مجرد ميل محور الارض لا دخل للجاذبية فيه ولا هو طبيعي لان الطبيعي هو الاستواء فميل محورها اذن مسبَّب لذلك يجب ان تخضع للنظام السابق وهو ان يكون محورها دائماً مائلاً داخل المدار ما دامت هي الارض تدور في نفس المدار حول الشمس. وبالتجربة نجد ان هذا الميل لم يكن كافياً في تكوين الفصول الاربعة اذن يجب ان نبحث عن كل ما يسبب الميل لنجد سبباً آخر نتم به الميل الاول وهو الناتج من الدوران والذي هو جزء من الحقيقة حتى تحصل الفصول — أما أهم ما يسبب الميل فالآتي : —

(١) ميل ناتج من عدم تساوي أجزاء لاخرى مقابلة لها (٢) ميل ناتج من الدوران (٣) ميل ناتج من وضع أشياء على سطح غير مستوٍ (٤) ميل ناتج من الصعود والهبوط في منحدر (ويحصل في الفضاء وعلى الارض وفي الماء) وبعد الاختبار نجد رقم (٤) متمماً لرقم (٢) حتى تحصل الفصول

اذن مدار الارض يجب ان يكون منحدراً لا أفقيًا . مرتفع من جهة فصل الربيع والصيف ومنخفض من جهة فصل الخريف والشتاء . فاذا سارت الارض في ارتفاع تدريجي من الخط الفاصل بين الشتاء والخريف حتى تصل المستوى الافقي للشمس ليحصل الربيع ومن هناك تأخذ في الارتفاع تدريجيًا عن هذا المستوى حتى تصل الى الخط الفاصل بين الربيع والصيف ومن عنده تأخذ في الهبوط تدريجيًا حتى تصل الى المكان الذي بدأت منه السير . يلاحظ ان السير في هذا المدار المائل مستواه يجعل محور الارض يميل الى اسفل اي الى جهة واحدة، مهما صعدت الارض وهبطت فيه ويجعل له نفس التغييرات الاربعة بالنسبة للمدار وهي السابق شرحها ولكن حاصله هنا بصفة علمية عملية لا بصفة فرضية . بقي اشياء اخرى يجب ان اشرحها . سبق ان ذكرنا ان الانحناء او الدوران يسبب الميل ولكن ميل الانحناء يكون اقل بكثير من ميل الدوران ويمكن ملاحظة ذلك في الامثلة السابقة . ولما كان مدار الارض عبارة عن خطين بهما انحناء قليل عند الاعتدالين فالسير عندهما يسبب ميلاً قليلاً وكذلك السير عند الانقلابين يسبب ميلاً كثيراً لانهما جزءين من دائرتين فيل محور الارض الثابت في جهة واحدة يميل قليلاً من نمرة (٢) داخل المدار عند الاعتدالين . ويميل منها اكثر (٢) عند الانقلابين ولكن يكون عندهما صالحاً في تكوينهما لاني قد وجدت بالتجربة ان بعد الكرة الارضية في ارتفاع او في هبوط عن المستوى الافقي للشمس يسبب هبوط اشعة الشمس قليلاً من عاليها الى اسفل عما لو كانت على استواء هي والشمس فالميل الناتج من الدوران وهو نمرة (٢) يكون معوضاً لما فقدته من نقص في اشعة الشمس عند الصيف الذي احدثته نمرة (٤) وتنقص نمرة (٢) ايضاً ما قد زادته الارض من ظلام عند الشتاء الذي احدثته ايضاً نمرة (٤) فيل المحور اذن لم يكن مستقراً على حالة واحدة . بقي شيء آخر مهم تقوم به أيضاً نمرة (٢) وهو ان الارض اذا كانت مثلاً على مدارها وقت الخريف ومددنا محورها المائل في جهة واحدة الى اعلا المدار في خط مستقيم ثم مددناه بالوصف السابق وهي في الربيع الى اعلا المدار في خط مستقيم لتقابلا المستقيمان بالنسبة لميل كل منهما جهة الآخر من نمرة (٢) فيحصل من التلاقي وجود نجمة قطبية شمالية بالنسبة لوجودها عندها . واما اذا مددنا المستقيمين الى اسفل من نفس المكانين السابقين فلن يتقابلا مهما مددناهما وعدم التلاقي او التقابل لا يعارض طبعاً عدم وجود نجمة قطبية جنوبية بل يكون هناك فقط نجوم تدور في دوائر ولا تقرب عند القطب الجنوبي كالتي حول النجم القطبي الشمالي وجميع السيارات تتصف بهذا الوصف لدورانها في شبه دوائر حول الشمس

سراي القبة محمود متولي علي



مستقبل الثقافة في مصر

للدكتور طه حسين بك

جزآن في ٥٥٠ صفحة ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لا نعرف موضوعاً متعلقاً بالناحية الفكرية اعظم خطراً من موضوع الثقافة في مصر ولون اتجاهها فضلاً عن انهُ مشكلة الساعة . ونظن الدكتور طه حسين بك من احق الناس في معالجته وأقدرهم على النظر فيه ، ذلك بأنهُ عميد كلية الآداب ومعنى هذا انهُ من اصحاب أمر الثقافة العالية وبأنهُ واقف على الطبائع العقلية لابناء مصر ومطلع على ما يجري في ميدان الفكر في البلدان الاوربية

والكتاب غزير المادة مشبع الفصول مسيَّر الى نتائج قائمة

يستهل المؤلف الكلام بحديث الملاءمة بين الحياة المصرية الحديثة ومجد مصر القديم ويجره هذا الى الفحص عن العقل المصري فيفصل في أن هذا العقل ليس بشرقي بل هو أقرب الى العقل اليوناني للصلات التي قامت بين ارض الفراعنة والبطالسة وارض الاغريق ، وفي رأيه ان الحضارة الاسلامية لم تبعد الذهنية المصرية عن الذهنية الاوربية من حيث ان العقل الاسلامي كالعقل الاوربي يرد الى عناصر ثلاثة : حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، الدين . ولولا ان يكون الامر هكذا لما سلختا من الاوربيين في هذا الزمان الوان حياتهم المعنوية وما تأثرنا بنظمهم السياسية وما اخذنا بطرائقهم التعليمية . ويستخلص المؤلف ان مصر ينبغي لها أن تأخذ بأسباب الحضارة الاوربية «في كل نواحي الحياة» من غير تردد ولا مماطلة

ثم ينتقل المؤلف الى مسئلة التعليم فيطالب بإشراف الدولة على التعليم العام في جميع المعاهد سواء كانت وطنية او أجنبية ، حرّة او دينية ، على شرط ان يكون المشرفون من صفوة الامة . ويجب ان ينبسط التعليم الاولي على الفقير والغني لان التعليم امر ديموقراطي ، واذا خشي احد البطالة فانما المعالجة من طريق اصلاح النظام الاجتماعي والموافقة بين التعليم النظري والحياة العملية لا من طريق ايقاف التعليم العام أو تفضيل فئة على فئة

ثم ينظر المؤلف في اضطراب التعليم وينسبه الى رجال الوزارة الفنيين والى المركزية في وزارة المعارف والى اعتداد الناس بالامتحانات وانزالها منزلة الغاية لا الوسيلة والى احتكار التأليف المدرسي . ثم يعرض البرنامج الصالح فيطلب تعليم جغرافية البلاد وتاريخها ، واللغات الاجنبية ، وفرض اللاتينية واليونانية على طلبة العلم الخاص ، واصلاح علوم العربية وتيسيرها

ثم يشير الى اعداد المعلمين وواجب الوزارة في سبيل ذلك . كل هذا تمهيداً لاعلاء شأن الجامعة وجعلها مستقر الحضارة العالية ولا يكون هذا الا اذا استقلت ماليًا وعلميًا ، والجامعة قد بذلت جهوداً محسوسة نافعة . ويجري الكلام بعد هذا على التعليم الديني في الأزهر وعلى مجاراة الأزهر للتحول الاجتماعي على ان يقف عند الاشتراك في الحياة العملية . والتعليم الديني واجب للاقباط كما هو واجب للمسلمين لأن الكنيسة القبطية مصدر ثقافة دينية . ويتلو هذا حديث قوي عن الانتاج في العلم والادب من تأليف وترجمة ونقل. ومما يراهُ المؤلف ان حظ المشتغلين بالكتابة في مصر ضئيل فعلى الحكومة ان تعاونهم وتشجعهم على التأليف. وأما الاقطار العربية الشقيقة فعلى مصر ان تمد يدًا اليها بان تعلم ابناءها سواء في مصر او فيها وان تسعى في نشر ثقافتها في ارجائها وان تعاون على توحيد البرامج لانها مركز من اهم مراكز التعاون الفكري . ويختم المؤلف كتابه بقوله « فان مصر التي انتصرت على الخطوب وثبتت للاحداث ، وظفرت بحقها من اعظم قوة في الأرض في هدوء وأناة وثقة بالنفس وايمان بالحق ، خليقة ان تنتصر على نفسها وتظهر على ما يعترض طريقها من العقبات وترد الى نفسها مجداً قديماً عظيماً لم تنسه ولن تنساه »

كتاب كله جرأة واقدام لا يعرف التردد ولا المراوغة سيغضب ناساً ويحفظ فئة من قادة الرأي في مصر . غير انهُ سيقع عند المستنيرين والتواقين الى المضي قُدُماً موقعاً جليلاً . ومهما يُقال في هذا الكتاب الزاخر فانهُ يقرر حقائق ويدفع اوهاماً ويدافع عن الثقافة ويطالب بالتعليم العام للفقير والغني ويعلي من شأن الأديب والعالم والمفكر ثم يجري الى تعزيز مكانة مصر وتثبيت خطى اهليها

رجمة أبي العلاء

للاستاذ عباس محمود العقاد — ٢٧٤ صفحة من القطع المتوسط

طبع مطبعة حجازي بالقاهرة

ناحية طريفة تلك التي اتجه اليها الاستاذ عباس محمود العقاد في دراسة فلسفة أبي العلاء وتطبيقها على مشكلات العصر الحديث وتياراته الفكرية أو تطبيق هذه المشكلات والتيارات على هذه الفلسفة بمعنى أدق

ولا شك — كما يقول الاستاذ العقاد — ان أحوالاً كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودةً في أيام أبي العلاء ، ولاشك أننا واجدون في كلامهِ حكماً مكشوفاً أو ملفوفاً

على جميع تلك الأحوال فأما مايختلف من شؤون زماننا وزمانه فهل يستطاع قياسهُ والنفاذ الى رأي أبي العلاء فيهِ وفاقاً لذلك القياس ؟ وهل في مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم الى الجهر برأيه فيهِ ؟ ذلك ما أراده الاستاذ العقاد

وليس موضوع كهذا بالسهل الهيّن ، فان التصدي له يحتاج الى احاطة شاملة بفلسفة أبي العلاء مع تقليب لمختلف الآراء التي تناولت هذه الفلسفة وتدقيق في الاغراض التي رمى اليها الشاعر أو ظُنّ أنه رمى اليها واستخراج الايات التي يمكن الاستشهاد بها من مختلف قصائده في ذلك . كما انه يحتاج الى أن يكون القائم بهذا بصيراً بالتيارات الفكرية الحديثة واتجاهات كل منها ومزاياها وعيوبها . والاستاذ العقاد خير من يمثل كل هذا

فقد بعث الاستاذ المؤلف حكيمَ معرّة النعمان من مرقده وردّه الى هذه الحياة وطوّف به في هذا العالم شرقيّه وغربيّه وأطلعه على مشاعر العصر ومخترعاته ومظاهر تقدّمه وتيارات فكرهِ وادبهِ وأنطقه بما يراه في كل منها بالتطبيق على شعره وبالتفسير الذي رآه الاستاذ العقاد في البعض منها كما أوضحه في تفسير قول أبي العلاء :

لو كان لي أو لغيري قدر أنملةٍ من البسيطة خلت الامر مشتركا

أنهُ انما يعني بهِ التوحيد الإلهي ويريد بهِ ان الناس أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون في جانب الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ... فمن أين — يقول المؤلف — تسربت الاشتراكية الى معناه ؟ فما أراد إلاَّ الرفق بالناس بل ما أراد إلاَّ الرفق بجميع الاحياء . راجعاً في ذلك الى كثير من أقوال أبي العلاء

***

وقد وضع الاستاذ العقاد عن لسان المعرّي ،هذا الحكيمَ موضعه بين أبي نواس وعمر الخيام فأعطانا رأيه في فلسفة هذا وفلسفة ذاك

ومن فصوله النفيسة فصل له في المقارنة والمشابهة بين فلسفة أبي العلاء وفلسفة شوبنهور مؤيداً ذلك بأقوالها انتهى بهِ — عن لسان المعرّي — الى « ان هذه قرابة في الطباع لا قرابة في الرأي والاطلاع ، فان تشابه الطباع هو الذي يوحي بالقول الواحد الى أفواه الكثيرين ، أما المتشابهون في العقول فقلما يتفقون ، وقد يتنابذون لأنهم متشابهون »

وفي الكتاب فصلٌ عن دانزيو رسم فيه الاستاذ العقاد صورة للشاعر الايطالي فيها تحليل رائع وسخرية لاذعة

واذا شئنا أن نستطرد الى كل فصل من فصول الكتاب استغرق ذلك منّا الحيّز والوقت فهو معرض حافل لآثار الذهن العربيّ حين ينظر الى حقائق العالم في زماننا الحديث

ديوان ابن الساعاتي

الجزء الاول — قام بتحقيقه ونشره الاستاذ أنيس المقدسي — ٣١٠ صفحة من القطع الكبير — طبع بالمطبعة الاميركانية — بيروت

يعرف أدباء العربية عامة وقراء المقتطف خاصة العلاّمة أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي بجامعة بيروت الاميركية من مؤلفاته النفيسة وبحوثه القيمة . فقد أخرج كتابيه « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي » و « تطوُّر الأساليب النثرية » فلقيا من أندية الأدب تقديراً سامياً . وقد تناول المقتطف الكتابة عن الكتابين وقت إخراجها . ثم طلع الاستاذ المقدسي في العام الماضي على قراء هذه المجلة بالبحث الرائع « العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث » الذي نشر في أعداد متتالية فلمس القراء في فصوله دقة في البحث واحاطة شاملة لنواحي الأدب العربي الحديث في مختلف أقطاره ونفوذ الى أعماق التيارات السياسية التي مرّت بالعالم العربي ، وكان لها أثر في خلق ناحية قوية في الادب كما كان لهذا الادب أثره القوي في بعث الروح الوطنية في أبناء العروبة

وان جهد الاستاذ المقدسي الذي تشغله مهام الدرس أبى عليه إلاَّ أن يخرج للناس ديوان بهاء الدين أبي الحسن عليّ بن رستم بن هَرْدُوز الخراساني المعروف بابن الساعاتي وهو الشاعر الوصّاف المعاصر لابن الفارض والذي اتصل بكثير من ملوك الامويين وامرائهم وعظماء هذا العصر ونظم الكثير من المدائح فيهم . وقد بذل الاستاذ المقدسي جهداً بعيد الغاية في تحقيق شعر هذا الديوان الضخم بعد مراجعات عديدة على نسخ مختلفة لعبت بكلماتها تحريف النساخ فردّ كل بيت الى حقيقته بعد طول الموازنة والروية وقدم لهذا الديوان بمقدمة رائعة في أربع وأربعين صفحة — سينشر في عدد ابريل القادم من المقتطف ملخص لها — تناول فيها نشأة الشاعر وشخصيته وشعره بما عرف فيه من دقة البحث والاستقصاء

ولعلّ الاستاذ — بعد أن يخرج الجزء الثاني من هذا الديوان — يخدم الآداب العربية ببعث دواوين فحول الشعراء بالدقة التامة التي حظي بها ديوان ابن الساعاتي —الصيرفي—

« مكارم الاخلاق الاسلامية »

للدكتور بشر فارس

اهدى الينا صديقنا الدكتور بشر فارس بحثاً جديداً له عنوانه « مكارم الأخلاق الاسلامية » نشرته له باللغة الفرنسية « مجلة المجمع الوطني للعلوم » Rindiconti della Reale Academia Nazionale dei Lincei. Vol. XIII. 193 في مدينة روما وهي من ارفع المجلات الأدبية قدراً وقد كان الدكتور بشر القى هذا البحث محاضرة في مؤتمر المستشرقين المنعقد في روما سنة ١٩٣٥

رأي المغفور له الاستاذ نلينو ان ينشره في تلك المجلة . والبحث قائم على الفحص عن عدة مخطوطات مجهولة والتنقيب عن نصوص مطبوعة لم تستثمر قبل اليوم وهو مسوق على طريقة علمية بدقة وتحقيق وخرج صاحبه بنتائج تتصل بالاخلاقيات الاسلامية تزدان بالجدة والاستقامة

وكان في نيتنا ان نلخص هذا البحث للقراء ، ولكنه بلغنا ان الدكتور بشر فارس سينشره باللغة العربية مع زيادات في كتاب سيصدره بعد اسابيع عنوانه « مباحث عربية » وسيضم هذا الكتاب غير « مكارم الاخلاق الاسلامية » مما سبق للمقتطف ان يصفه وينقده لقرائه ومما لم ينشر من قبل سواء بالعربية أم باللغات الاجنبية

حياة الطفل

تأليف الدكتور مصطفى الديواني — ١٧٦ قطع وسط — مطبعة فتح الله الياس نوري بمصر

لسنا نغالي اذا قلنا ان هذا الكتاب يجب ان تقتنيه كل ربة عائلة في الشرق العربي . ففن رعاية الطفل — على ما يقول المؤلف في مقدمته — اصبح « موضع اهتمام وعناية جميع حكومات العالم الراقية ، اذ به تكفل لاجيال النشء القادمة صحة جيدة كاملة تمكنها وتؤهلها في المستقبل لخدمة الوطن العزيز » والمؤلف عالم عامل وطبيب ممارس مختص بامراض الاطفال وحائز لاعلى الشهادات في هذا العلم من كليات الطب الكبرى في بلاد الانكليز . وطريقة معالجته للموضوع قائمة على قاعدتين من السهولة وتوخي الفائدة العملية وذلك باسلوب عربي يجمع بين السلامة والسلاسة

هنا تجد ربة البيت اهم ما تهمها معرفته مما يتعلق بها وهي حامل ثم اهم ما تهمها معرفته عن تغذية الطفل ونظافته وملابسه ورياضته ونظامه واسنانه وشهيته . والبحث في هذه الموضوعات متدرج تدرجاً وفقاً لنمو الجنين فنمو الطفل ، يبتدىء بالحامل وينتهي بتمريض الطفل

واذا كان القارىء في حاجة اقامة الدليل على ما تقدم فلنسق اليه فقرات خاصة بالرضاعة من الفصل الذي وقفه المؤلف الفاضل على هذا الموضوع . قال على طريقة السؤال والجواب

— كيف تحمل الأم طفلها أثناء الرضاعة ؟

هناك وضعان . الوضع الأفقي وفيه تضع الأم طفلها في حجرها أفقيًا بحيث تكون رأسه أعلى قليلاً من بقية جسمه وقد يمنع هذا الوضع حركة ابتلاع اللبن والتنفس ، أما في الوضع العمودي فان الأم تجلس وتضع الطفل عموديًا على فخذها ، وبذلك يرضع وهو جالس ، وهذا هو الوضع الأصح فهو يسهل حركة الامتصاص والابتلاع والتنفس

— ما هي المدة التي يجب أن يرضعها الطفل كل مرة ؟

مدة الرضاعة لا يمكن تحديدها بالضبط لأنها تختلف حسب قوة امتصاص الطفل . فالطفل

القوي اذا ما رضع ثدياً يحتوي على كمية وافرة من اللبن تكفيه خمس دقائق . أما اذا كان ضعيفاً هزيلاً أو كانت كمية اللبن غير كافية فانهُ يستمر في الرضاعة عشرين دقيقة أو أكثر يترك في خلالها الثدي مراراً ليستريح

وعلى العموم فان متوسط الرضعة هي ١٥ دقيقة تقسم على الثديين . ويجب أن لا تزيد على عشرين دقيقة لأن الطفل يحصل على أكبر كمية من اللبن الموجود بالثدي في الخمس الى العشر دقائق الأولى . فاذا لوحظ أن الطفل بعد الخمسة عشر دقيقة الأولى لا يزال يمتص الثدي بقوة فهذا دليل على أن لبن الأم غير كاف

— هل يجب اعطاء الطفل الثديين في كل مرة ؟

اذا كان افراز اللبن غزيراً وكافياً فيكفي ارضاعه من ثدي واحد في كل مرة . وإلاَّ فيجب أن يرضع الثديين ليحصل على كفايته من اللبن واذا ابتدىء بأحد الثديين في رضاعة ما يبتدأ بالثدي الآخر في الرضاعة التالية

مصطفى كامل

تأليف عبد الرحمن الرافعي بك — ٤٣٠ صفحة تطلع المقتطف — ثمنه ١٥ قرشاً

ليس ثمة ريب في ان دراسة مصطفى كامل وما يدور حول اسمهِ من الحوادث السياسية في تاريخ مصر الحديث ، امر لا يستغني عنهُ من يريد ان يفهم الارتقاء السياسي الوطني في مصر من اواخر القرن الماضي الى مستهل الحرب الكبرى . فهو الذي عزز الشعور الوطني ، بخطبهِ ومقالاتهِ النارية ، وبمساعيهِ التي بذلها في مختلف بلدان اوربا ، لبسط المشكلة المصرية امام الرأي العام الدولي وذلك في مقالات نشرها في الصحف الغربية ورسائل تبادلها مع الحكام والوزراء . وقد خدمتهُ الظروف في حادثة دنشواي فكان في فرنسا عند وقوعها وصدور الحكم فيها ، فكتب مقالهُ الرنان فيها فنشرتهُ جريدة الفيغارو في صدرها ، وذهب الى انكلترا فتحدث مع ممثلي صحافتها ، فأبلغ الى العالم شعور مصر المتألمة المنطوية على ألمها . واذا لم يكن لمصطفى كامل من أرباق الا تنبيه الشعور بالوطنية والكرامة الوطنية ، في وقت قضى فيهِ الاحتلال على هذا الشعور على أثر هزيمة التل الكبير ، فذلك حسبهُ . ولكن للرجل مآثر اخرى تراها هي وآثارهُ السياسية الوطنية مفصَّلة احسن تفصيل في كتاب عبد الرحمن الرافعي بك .

هنا نشأتهُ الاولى ودراسته وتفتح قلبهِ على حبّ مصر وخدمة قضيتها — فقد دوّن اسمهُ بعد تخرجه من مدرسة الحقوق في سجل المحامين ولكنهُ لم يمارس المحاماة لانهُ كان محامياً عن قضية مصر . ولما عاد من رحلتهِ الاولى الى اوربا عاد ومعهُ صناديق حافلة بالكتب عن المسألة

المصرية فأكبَّ على دراستها وفقاً لبرنامج منظم ، وذلك لأنهُ ادرك ان المحامي القوي الحجة هو المحامي الذي يتوفر على دراسة قضيتهِ . وحبذا الحال لو فاز هذا الكتاب من عناية الطابع والناشر بقسط اوفر من القسط الذي فاز بهِ فان ما يحتوي عليهِ من دراسة مفصلة لحياة مصطفى كامل وعملهِ ، وما تنطوي عليهِ صفحاتهُ من مقالات ومختارات ورسائل لم تنشر قبلاً ، دبجتها جميعاً يراعة ذلك الزعيم الوطني ، لجديرة بكتاب افخر ورقاً وغلافاً وأتقن طبعاً من هذا الكتاب. وان كنا نعلم ان قيمة الكتاب ليست في مظهرهِ المادي

مجلة الثقافة

من دلائل إقبال الجمهور العربي على القراءة المفيدة السهلة في آن واحد أن « لجنة التأليف والترجمة والنشر » رأت ان تخرج مجلة اسبوعية وسمتها بالثقافة . وقد برز منها حتى اليوم أربعة اعداد وهي سلعة نافقة لما هي عليه من تغاير الابواب ولما تضمه من المقالات النفيسة على الغالب. أما الابواب فالأدب الصرف ونقد الادب والقصص والرحلة والعلم الخالص والفن على ألوانه . وأما المقالات فما نذكره « مع أدبائنا المعاصرين » للدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب وهي سلسلة نظرات بعيدة المرمى في مؤلفات المحدثين من الكتّاب والشعراء و « مباحث تمهيدية في الفن » للدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية و « تحت مصباحي الأخضر » للقصصي الاستاذ توفيق الحكيم و « على هامش العلوم » للدكتور أحمد زكي بك . ثم مقالات أُخر لامثال الأساتذة شفيق جبري ومحمد كرد علي وأحمد ضيف وابراهيم عبد القادر المازني

ثم اليك بعض ماجاء في تصدير المجلة بقلم رئيس تحريرها الاستاذ احمد امين « أصبح الشرق مرتبطاً بالغرب ارتباطاً وثيقاً في كل مرفق من مرافق الحياة : في الحركات السياسية ، في الحركة العلمية والأدبية والفنية ... ومن الخير للشرق أن يقف على هذه الحركات فيتصرف فيها عن خبرة ويحكم فيها عن علم ... » ثم « لا نريد حرباً إلا حرب الآراء ، فهي حرب خير من سلم، وصراع خير من مهادنة ... أما حرب شخص لشخص في شخصيته وجماعة لجماعة في ذاتها لافي آرائها ، فسخافة نربأ بأنفسنا عنها ... » . فهذان أمران : الأول العناية بما يجري في الغرب والثاني نبذ البواعث الشخصية والتشبث بالآراء لذاتها . وللأمرين جلالتهما

بقي ان مجلة « الثقافة » ضاربة الى بذل الأدب والعلم وقد أراد أصحابها ان تكون كذلك رغبة في التهذيب . وها هم أولاء يشاركون غيرهم من المخلصين للآداب العربية في خدمة مصر وأخواتها من ناحية الفكر ب . ف

مقابر الفجر

صاحب هذا الديوان محمد رشاد راضي شاعر برم بالحياة ضيق الصدر فيها كما يقول هو في آخر الديوان عن نفسهِ . وهذا التبرم قد اعطى لشعره طابعاً خاصًّا يلوح الحزن والضجر في كل سطر من سطوره ولا ادري سر هذه النظرة القاتمة الى الحياة مع ان الشاعر لا يزال على عتبة الصبا وفي شرخ الشباب . واذا كان يضيق بهذه الحياة وهو لا يزال طريّ العود فما باله اذا تعاقبت عليه السنون واصطلحت عليه الايام وهي قاسية لا ترحم ، شديدة لا تلين ؟

وهو يبكي كما يقول النهاية التي وصل اليها في صباه . ولا ادري هذا الشر الذي تحمله هذه النهاية . فامامه السنون تستقبله وتنتظر ما يعد لها من نضال . وما نحب لشاعر ان يستخذى في الحياة او يلقي السلاح او يشعر الناس بأنهُ شقي . ففي استطاعتهِ ان يخلق لنفسهِ اجواء من السعادة يحلق فيها . اسمعه وهو يقول في قصيدة الهاتف

ايها الشاعر يا عصفور قد جاء الخريفْ
الربيع انسل كالمسكين خلف المهرجانْ
ما التقت من بعـده في قبلات شفتانْ
لا ولم يسمع همس الريح في الغصن حفيفْ

مجالس الليلاتْ في أبرد الغاباتْ جلسنَ ندّاباتْ صبا ربيع مات
واهاً على ما فات

فهو هنا يبكي الربيع الفائت او ربيعه هو . وهذه الابيات على شيوع الحزن فيها هي تصوير جميل للجمال العابر . وهي ككل شعر الديوان رقيق جميل

وتعبير الشاعر في شعره صادق رقيق لولا غلبة الاحزان عليه ولهذا الحزن الشائع في نفسه اختار للديوان اسم مقابر الفجر « كأنما دفن فيها املاً ضائعاً . فهو يقول في قصيدته أكفان الذكرى

لما فقدت عزيزتي وحييت في الدنيا وحيدا
عفت الوجود لانها كانت لديَّ هي الوجودا

والديوان مجموعة من السهرات والاماسي الحزينة . وقد لا يميل كثير من الناس الى الأدب الحزين لانهُ يضيف الى هموم الحياة هموماً . ولكن من يقرأ هذا الديوان يجد في قراءة الحزن لذة لانهُ يصور النفس المتألمة اصدق تصوير . نرجو أن تبتسم الحياة للشاعر الفتيّ . فيظهر أثر ذلك في شعره المقبل . فان حراماً أن يقضى على هذه النفس الشاعرة وهذا القلم الفنان بالألم العميق . ونرجو منه أن يحاول تحطيم نايه الحزين ويصنع لنفسه ناياً جديداً تشيع الفرحة والابتسامة في ألحانه

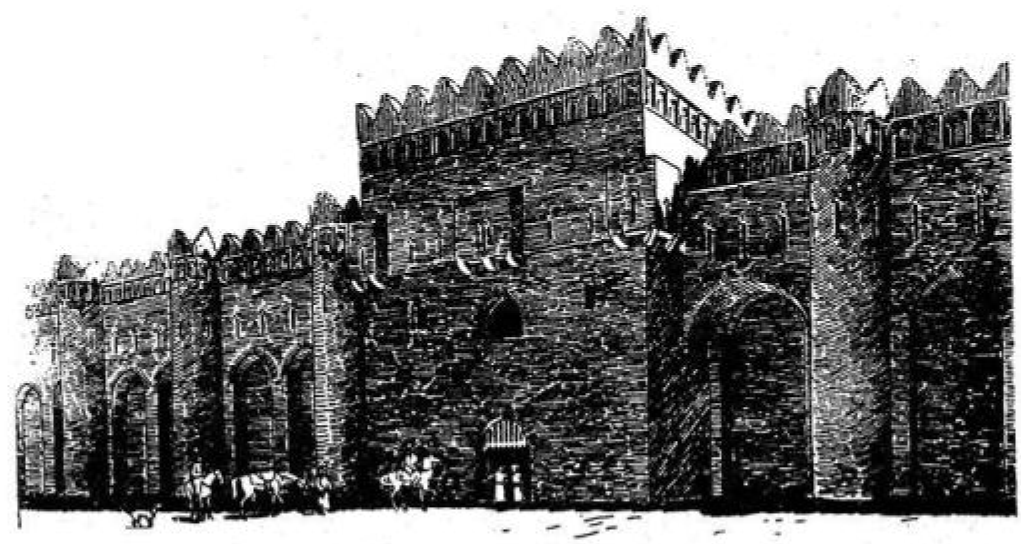
واذا كنا نحن لا نستطيع أن نسعده فنرجو أن تهب له الايام السعادة التي ينشدها

محمد عبد الغني حسن

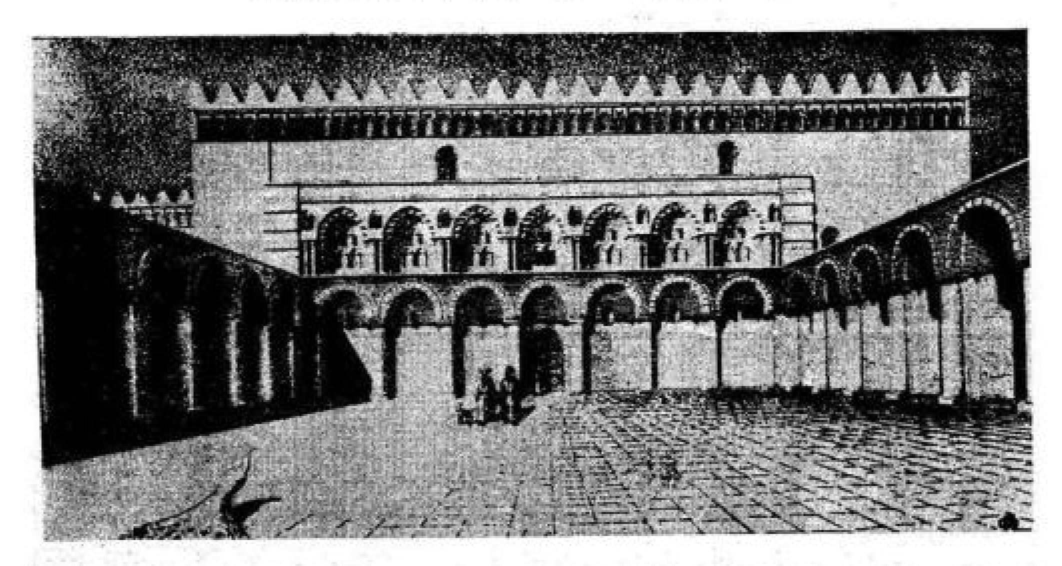


المستشرق نلينو

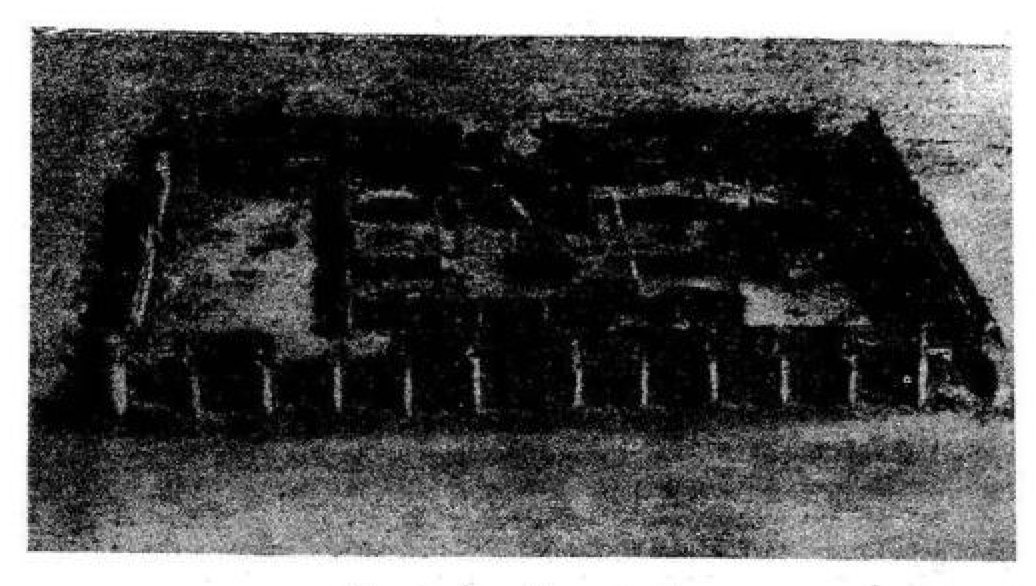
[تفضلت الآنسة ماريا نلينو كريمة المغفور له الأستاذ نلينو باهداء هذه الصورة إلينا وهي من تصوير « أرنفاريا » بروما ونقلها محظور]



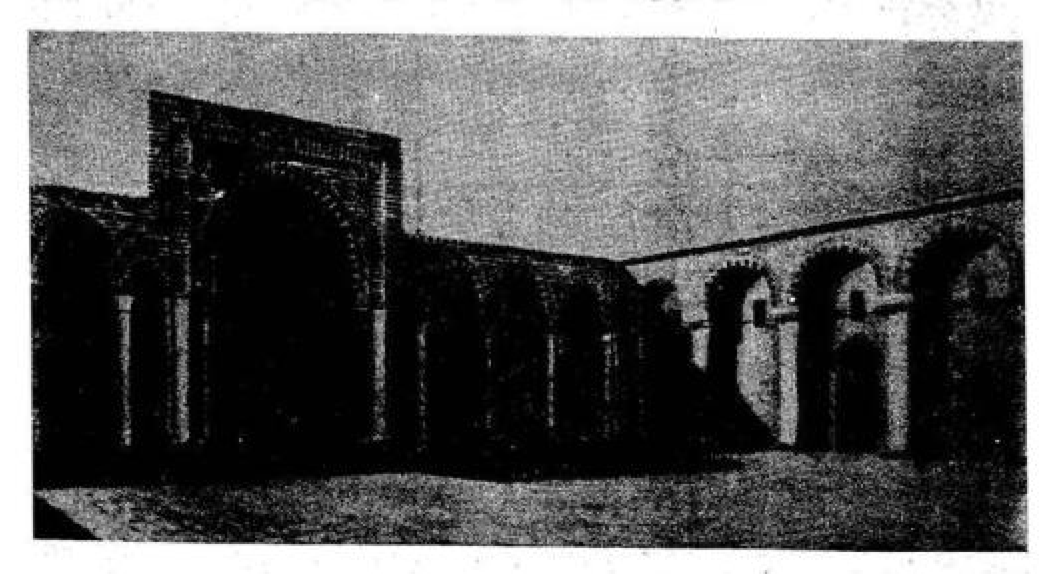
منظر تصوري لجبهة الحصن الخارجية (عن أسكار رويتر)



رحبة قصر الاخيضر (منظر تصوري للقسم الشمالي)

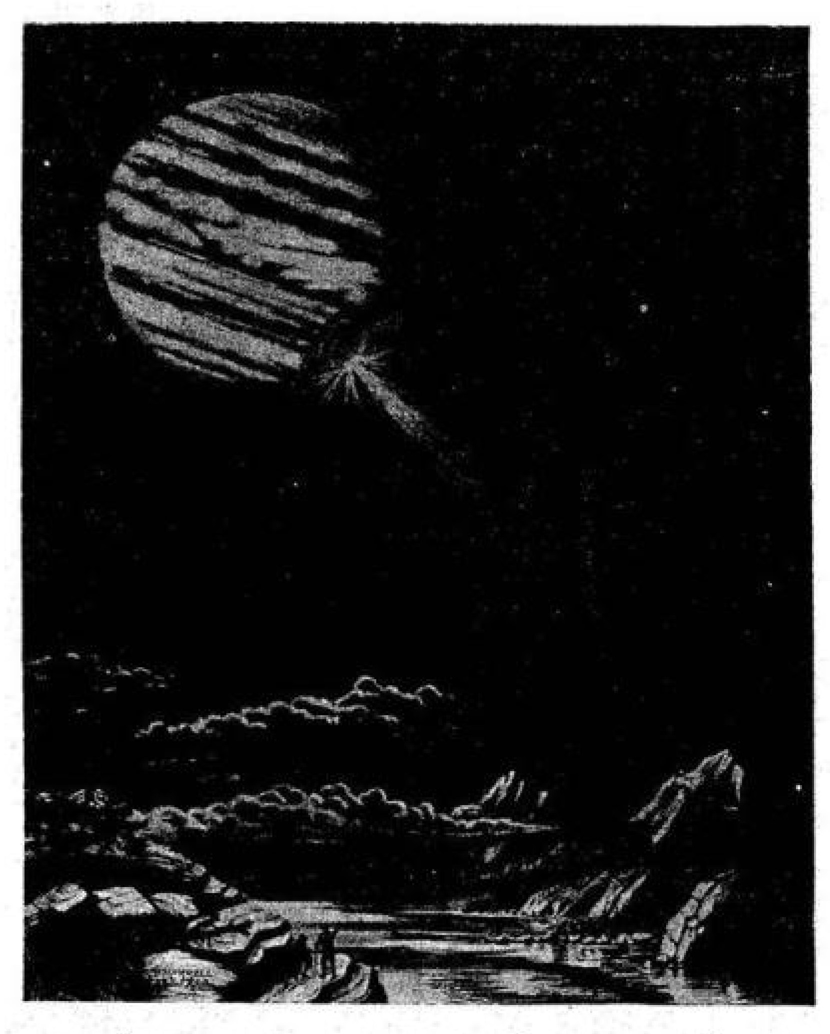


منظر جوّي للقصر والحصن مأخوذ من الجنوب



رحبة قصر الاخيضر (منظر تصوري للقسم الجنوبي)

[نقلت جميع هذه الصور عن نشرة دار الآثار العربية بالعراق]



صورة تخيلية تمثل اصطداماً بين المشتري ومذنب احدث « البقعة الحمراء »
على سطح المشتري بحسب رأي الفلكي موريل . نقلاً عن مجلة « أنباء لندن المصورة »



صورة متخيّلة لعبد الرحمن الداخل منقولة عن كتاب أسباني «تاريخ العرب في أسبانيا» تأليف كونديه (الترجمة الانكليزية)



الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

لالياس ابي شبكة

—

الادب الفارسي

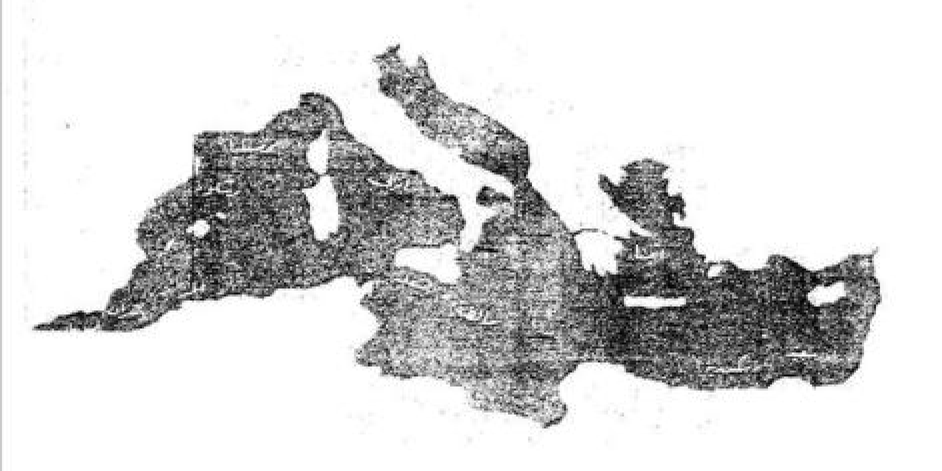
وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني

—

مرتجي ظل الغمامة

من قصيدة لكبلنغ



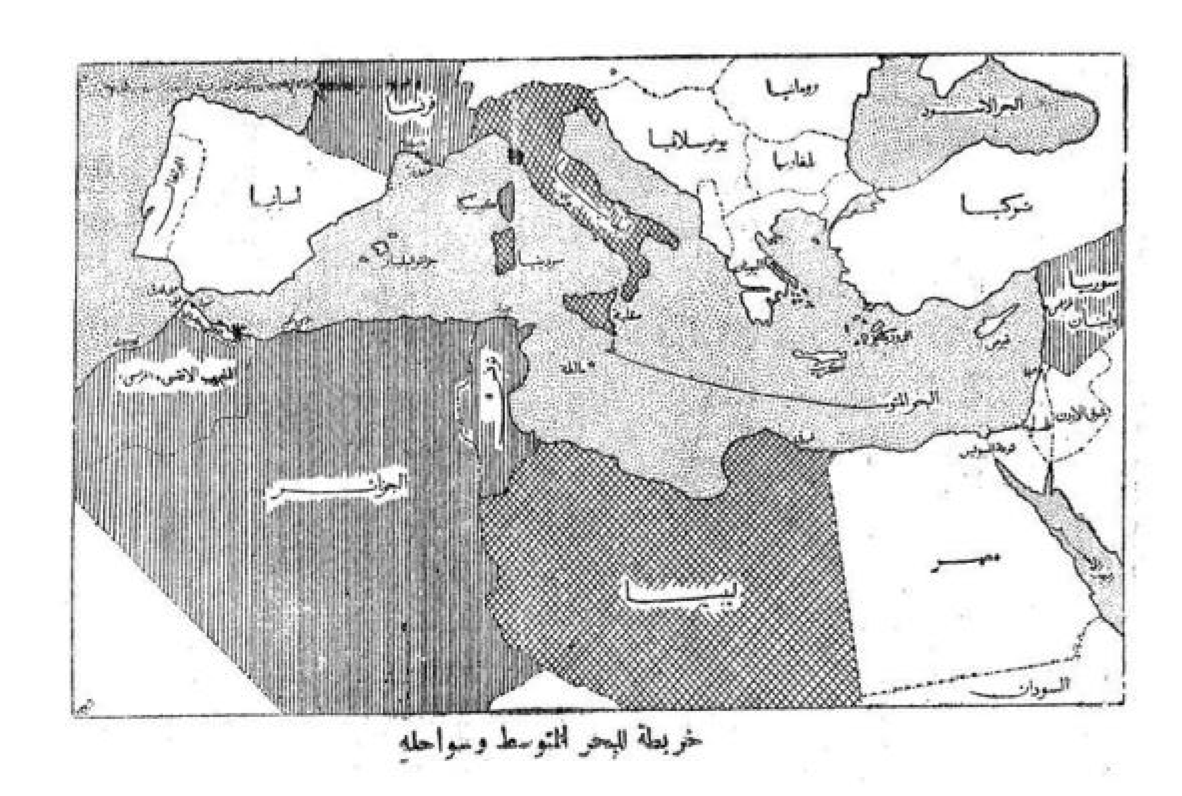
السياسة الدولية

في البحر المتوسط

ملخص محاضرة ألقاها

محمد رفعت بك

المراقب المساعد لتعليم البنات بوزارة المعارف
ومؤلف « تاريخ مصر السياسي الحديث »



خريطة البحر المتوسط وسواحله

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الرابع والتسعين


المقتطف





الجزء الثالث من المجلد الرابع والتسعين

١ مارس سنة ١٩٣٩ — ١٠ محرم سنة ١٣٥٨

الاستهداف

لحالات مرضية غريبة

حقائق جديدة تفسر كثيراً مما كان غامضاً في شؤون الصحة والمرض

في اليوم الرابع من شهر فبراير سنة ١٩٣٦ كان احد العلماء الاميركيين المقيمين في فرنسا جالساً في مقهى بباريس وامامهُ طبق يحتوي على طعام مصنوع من حيوان مائي يدعى الكركند أو السرطان البحري Lobster . كان ذلك العالم في السابعة والاربعين من عمره وكان يستطيب هذا الطعام فأكثر تلك الليلة من اكلهِ . فلما تنفس الصباح استيقظ الرجل وقد تورمت اصابعهُ حتى غدت ضعف حجمها العادي ، ولم يقتصر الورم على الاصابع بل شمل الشفتين والخدين والعينين كذلك

ومنذ ذلك اليوم تبيَّن الرجل انهُ لا يستطيع ان يأكل السرطان البحري او المحار او الاربيان (القريدس في بيروت والجمبري في مصر) او اي نوع آخر من السمك بغير ان يصاب هذه الاصابة العنيفة في جلدهِ . ثم تبيَّن بعد ذلك ان هناك اطعمة اخرى تؤثر فيهِ هذا التأثير منها اللحم والبيض حتى الخبز . فقضى بعد ذلك تسعة اشهر وهو لا يأكل الا الخضراوات . ثم ارتدَّ الى اكل البيض فاستطاعهُ بغير ان يتورَّم ، فبدأ يأكل قطعة صغيرة من زلال بيضة مسلوقة ثم زادها رويداً رويداً حتى ثبت لهُ ان جسمهُ اصبح قابلاً لهذا الطعام وصحب ذلك قبول جسمهِ

للحم . وطعامهُ الآن — على مايروي جورج غراي الكاتب العلمي في مجلة هاربرز الاميركية وعنها نلخص هذا الفصل — يشتمل على البيض واللحم

***

وفي شهر يونيو كان هذا العالم يتناول طعام الافطار وكان على مائدته قليل من مربَّى الشليك strawberries فاكلهُ فعقب ذلك تأثر جلده تأثراً عنيفاً على نحو ما تمَّ لهُ عندما أكل السمك قبلاً ، وقضى بضعة اشهر وهو ممتنع عن الشليك غضراً او مربياً ، ثم عاد الى تناوله فلم يصب بضرر ، وانقضت ستة اشهر وكان يأكلهُ على جاري عادته ،فاكاد يفعل حتى اصيب بالحُماق (وهو شبه الجدري ينتفط به الجسم ويعرف عادة باسم الشري hives) فتنبَّه ذهنه العلميُّ الى حالته الشاذة وكيف يصاب احياناً ولا يصاب اخرى ، فجعل يدوّن في دفتر خاص متى يصاب ومتى لا يصاب،فثبت لهُ ان ثمار الشليك التي كانت تؤذيه كان يأكلها في الصيف . فاذا اكلها في الشتاء لم يصبهُ ضررٌ ما من أكلها ، فكأن هناك عاملاً متقلباً في درجة احساس الجسم بها بين الفصلين

ومع ذلك لا يزال استهداف هذا العالم للتأثر بالسمك كاملاً حتى كتابة هذه السطور لم ينقص ولم يتقلب منذ ذلك اليوم في سنة ١٩٣٢ . ومن الغريب ان اقل أثارة من اي نوع من السمك يثير جسمهُ فيتورم . وقد روى لي انهُ كان في جنيف وذهب الى مطعم فطلب البيض مقلوًا بشكل خاص فجاءهُ الخادم وعلى الطبق مع البيض قطعتان من البلم (الانشوفي) فقال للخادم أعِد الطبق واصنع لي طبقاً جديداً من البيض واحذر ان يمسهُ البلم فانني لا أستطيع ان آكل السمك. ان مجرد لمسهُ يؤذيني . وعاد الخادم بعد قليل فأكلَ الرجل واستطاب ما أكل ولكنهُ عاد في الصباح التالي ونادى الخادم وقال لهُ « تعال وانظر ما فعلت » . ومدَّ يدهُ فاذا اصابعهُ متورمة ورفع قدمه فاذا كعبهُ متورم كذلك . ثم قال : عندما طلبت امس ان تصنع لي طبقاً جديداً من البيض لم اكن واهماً ولا متعنتاً ولكنك رفعت البلم عن الطبق ، وعدت اليَّ به زاعماً انهُ طبق جديد . فاعترف الخادم السويسري بما فعل واعتذر

وكان مع صاحبنا في اليوم التالي صديق طبيب فأعرب عن شكهِ في صحة القول عندما رويت لهُ الرواية . فعرض صاحبنا ان يقيم الدليل. وبعد ايام اجتمعا وكانا الاثنان على خير مايرام فأكل صاحبنا قطعة من سمك التونة بحجم حبَّة الحمص ، وفي اليوم التالي عرض اصابعهُ على صديقه الطبيب فاذا هي متورمة تكاد ثخانة الاصبع تفوق الثخانة الطبيعية ثلاثة اضعاف. فالحالة حتماً ليست حالة سوء هضم عادية . وذلك بأن المادة المثيرة لهذه الحالة مادة معيَّنة ، وجسم الرجل شديد الاحساس بفعلها،والتأثير واضح معيَّن . فيجب ان توضع هذه الحالة في طبقة على حدة مفصولة

عن طبقة الحالات الناشئة عن الاطعمة التي لا تؤاتي بعض آكليها كما لا يؤاتي الفلفل الاخضر كاتب هذه السطور

وقد يقال ان صاحبنا العالم الاميركي عرف انهُ اكل قطعة التونة فأثر وهمه في اعصابهِ فأحدث هذا التأثيرَ في جلدهِ . ويردُّ على هذا القول بوقوع التأثير من غير ان يدري الآكل انهُ يتناول مادة تؤثر فيهِ . ويروى في هذا الصدد ان اميراً هنديًّا قصد الى معهد باستور في باريس لزيارتهِ ، وكان مشهوراً عنهُ انهُ يستهدف لحالة مرضية لشدة تأثرهِ بفرو الارنب ، ولكن احد المساعدين في المعهد لم يصدّق ، فأخفى في احدى الحجر فرو ارنبٍ فما كاد الامير يدخل تلك الحجرة حتى اصيب . ويروى ايضاً عن جرّاح اميركي مشهور انهُ يصاب بحماقٍ شديدٍ اذا دخل طعامه يسيرٌ من زيت بذر الكتان ، ولذلك كان يصطحب طاهيهُ كلما اضطرّ ان يغيب عن بيتهِ اياماً . وكان مرّةً في فلوريدا فاستيقظ في الليل وهو يحسُّ بتفطات الحماق تؤلمهُ ، فراجع كلَّ ما اكل في اليوم السابق . فاستوثق من ان جميع العناصر التي دخلت في غذائهِ كانت مما لا مأخذ عليهِ ، الاَّ قليلاً من الرطب اشتراه من دكان ، فذهب اليهِ وسأل صاحبهُ هل يجوز ان يكون البلح قد لوّث بزيت بزر الكتان فأجابهُ انهُ يمسح البلح كل صباح بزيت بزر الكتان لأن الناس تريد البلح لامعاً

ويؤيد القول بأن هذا الفعل فسيولوجي ، ليس من خلق الوهم ، حدوثه في الاطفال . فقد روي عن طفل كان يستهدف لحالة مرضية اذا دخل البيض في طعامهِ ، فكانت امهُ تشرف بنفسها على ما يأكل حتى لا يتصل البيض بطريقة من الطرق بطعام الطفل . ودعيت السيدة وابنها الى عشاء عيد الميلاد عند صديقة في الجيرة ، وكانت هذه السيدة تعلم شذوذ الطفل من هذا القبيل فأكدت لوالدتهِ ان البيض لم يدخل الخبز ولا الكعك ولا حشوة الديك ، ولكنها نسيت ان خادمتها كانت قد استعملت قليلاً من زلال البيض في صنع البطاطس «البوريه» فما كاد الطفل يأكلها حتى اصيب اصابة عنيفة ، فثقل تنفسه ثم اغمي عليهِ وظل كذلك بضع ساعات [1]

***

اين نضع هذا النوع من الاصابات بين اصابات الجسم المنوعة وكيف نعلّلها ؟ فمن الواضح ان حالة الجسم عامل اساسيٌّ في ذلك . ان المادة الواحدة تكون في حالة معينة غذاء وفي حالة اخرى كالسمّ . ولا يصح لنا ان نقول انها سم لأن التأثر بها فرديٌّ خاصٌّ . حالة ان السمّ — كركب السيانور — يحدث نفس التأثير في جميع متناوليهِ

فتأثير زلال البيض ليس تأثيراً سميًّا . لان السواد من الناس يتناولونهُ فيهضمونهُ ويمثلونهُ .

---

(١) راجع مقتطف يناير سنة ١٩٣٨ صفحة ٦٦ — ٦٩ ففيها أمثلة كثيرة منوعة لهذا النوع من الاصابات وشتى البواعث عليها ومنها ما عرفناه في أصدقائنا واقاربنا

ولكن تأثير زلال البيض لا يكون طبيعيًّا في جميع الناس على الاطلاق . فقد يكون الوليد سويًّا من حيث تأثره بزلال البيض — أي بهضمهِ وتمثلهِ — ولكنهُ بعد قليل او كثير ، قد يتغير تأثره بهِ ، فيصبح زلال البيض وكأنهُ سمٌّ ، فلا يكاد يدخل الجسم ، حتى يسرع النبض كأنهُ سمٌّ آخذ في الانتشار في انساج الجسم ، ويثقل التنفس ، ويصاب جهاز التنفس بما يشبه الربو ، وقد تحدث الوفاة في الاصابات الشديدة . هذا التأثير يختلف باختلاف الناس . ففي المرضين لهُ يبدو التأثير في ثقل التنفس وفي غيرهم في العطاس ومايعرف بحمى التبن وفي آخرين في القيء ، ومنهم من يصاب بالاسهال او بغيره من اضطرابات الجهاز الهضمي ، او بالحاق

والاستهداف للاصابة بحالة مرضية من قبيل الحالات التي تقدَّم ذكرها ، نوع واحد من الاستهداف . فمن الناس من لا يتأثر بالمواد الغذائية ولكنهُ يستهدف للتأثر بحبيبات اللقاح النباتي والروائح وغيرها من دقائق الاشياء التي تسبح في الهواء . ومعظم الذين يصابون بحمى التبن يرتدون باصابتهم الى لقاح نباتٍ معين يدعى Ragweed (عشبة الحرقة : شرف) اما في اوربا حيث لا توجد هذه العشبة الاَّ في مناطق محصورة ضيقة ، فالسبب يردُّ الى لقاح اعشاب اخرى . ولكن طائفة غير يسيرة من حوادث حمى التبن لم تنشأ من حبيبات اللقاح . فثمة رجل مثلاً يغمس ذراعه في حوض من زيت التربنتين فلا يؤثر ذلك فيه تأثيراً مستغرباً ، لكنهُ اذا سار في مصنع يكرر فيه هذا الزيت واستنشق ابخرته اصيب بعطاس عنيف وسال الدمع من عينيه والمخاط في أنفه وعطس وتفط جسمه تفطاً شديداً . وقد عرف عن سيدة لا تتأثر بحبوب اللقاح ولكنها شديدة التأثر بالحرير ، فوجود ثوب من الحرير في غرفة ما يملأ جوه بدقائق غبار الحرير فلا تكاد المرأة تدخلها حتى تصاب اصابة شديدة بمثل هذه الاعراض

وهناك فريق من الناس لا يتأثر بالمواد التي تؤكل او دقائق المواد التي تدخل جهاز التنفس بل يتأثر بما يمس الجلد من حبيبات اللقاح وأوراق النبات والزيوت وغيرها من المواد العضوية وغير العضوية كاليود والنوفوكايين والمواد المتفجرة والباكليت . وقد روي ان فتاة في ولاية فرجينيا اصيبت بلطمة اكزيما في حلقها حيث كانت تتقلد عقداً من البلاتين اهداه اليها خطيبها . فأثبت البحث أنها شديدة التأثر بالنكل لا بالبلاتين ، ففحص العقد فظهر انهُ خليط

ومن الناس من يتأثر هذا النوع من التأثر بمجرد لمس شيء بارد ، فاذا لمس احدهم قطعة من الجمد ، اصيب بورم في مكان اللمس . وفي السجلات الطبية بيانات اصابات كثيرة بين المستحمين والمستحمات اصيبوا اصابات شديدة على أثر تعرضهم للبرد الشديد . وبعض الذين اصيبوا باعتقال في عضلات افخاذهم في اثناء السباحة فعجزوا عنها فأنقذهم الحراس فتبين انهم شديدو الاستهداف للتأثر بالبرد

وهناك فريق من الناس شديد التأثر بالعقاقير . وغيرهم بالاحياء الدقيقة كالبكتيريا والعفن. وغيرهم بالحقن التي تقتضيها ضروب مختلفة من العلاج

***

يرتدُّ منشأ البحث في هذه الحالة الفسيولوجية الغريبة الى سنة ١٨٩٩ . ففي تلك السنة كان الباحثان الفسيولوجيان الفرنسيان شارل ريشيه Richet وهريكور Hericourt ضيفين على امير موناكو ، في رحلة الى الشرق الاقصى . فخطر لريشيه في اثناء اجتيازهم للمحيط الهندي ، ان يقوم بتجربة معيّنة. ذلك بان المجلات التي تعنى بعلوم الاحياء كانت حافلة في العقد الاخير من القرن التاسع عشر بوصف التجارب الخاصة بموضوع المناعة وكانت التجربة النمط في هذا الموضوع ان يؤخذ قليل من سم افعى ويحقن في حمامة بعد حلّه وتخفيفه فتحدث بذلك مناعة في جسم الحمامة ضدَّ لدغ الافعى . وعلى هذا الاساس كان أحدُ الباحثين قد اكتشف المصل المضاد للدفتريا . فخطر لريشيه ان يجري تجربة بسائل مهيج للجلد يستخرج من حيوان بحري يعرف باسم «البارجة البرتوغالية» . فتبين البحث مشتركاً مع هريكور . وبعد عودتهما الى فرنسا استأنف ريشيه البحث مشتركاً مع بورتيه Porteir ولكنهُ غيَّر المادة التي جرَّب تجاربهُ بها اذ بدَّلها بخلاصة مستخرجة من شقائق البحر . فتبين انهُ اذا حقنت هذه المادة في الكلب لم يتأثر جسمهُ بها تأثراً ظاهراً . ولكنهُ اذا اعاد حقن الكلب بها بعد ايام اصيب اصابة شديدة. ومن الكلاب التي اجرى عليها تجاربهُ مامات . وكان غيره قد لاحظ الملاحظة نفسها ولكن تفسيرها ظلَّ مغلقاً الى ان قام ريشيه ببحثه هذا

وفي سنة ١٩٠٢ نشر ريشيه ومعاونوهُ نتائج بحثهم . وقد بينوا في رسالتهم حقيقتين تستوقفان النظر . الاولى : اذا دخلت مادة غريبة جسماً ما لم تحدث ضرراً ، لكن اذ اعيد حقن الجسم بها ظهرت اعراض التسمم وحدث الموت احياناً . والثانية : يجب انقضاء فترة ايام بين الحقنة الاولى والثانية

وكان رأيهم ان تحوّلاً يطرأ على الجسم في خلال هذه الفترة ، فتفقد الانساج وسيلة معيّنة من وسائل الدفاع عن نفسها فيصبح الجسم هدفاً لتأثير هذه المادة الغريبة . ولذلك اطلقوا على هذه الحالة لفظ «انافيلكسيس» Anaphylaxis ومعناهُ الحرفي « بغير حماية »

وكان رأي ريشيه واعوانه ان سبب الاصابة ينجم عن المادة السامة نفسها لان تجاربها كانت بها. ولكن باحثاً فرنسياً آخر يدعى ارتوس Arthus اجرى التجربة نفسها بحقن المصل المأخوذ من دم حصان في جسم ارنب ، فنشأت حالة « الانافيلكسيس » مع ان المصل غير سامٍّ . وتلا ذلك

سلسلة من التجارب ثبت منها ان كلَّ مادة غريبة تقريباً تحدث هذا التأثير

وكان الدكتور فون بيركيه يراقب سلوك المصابين بالامراض العفنة خلال العلاج فلاحظ انهُ اذا حقن مصلاً مضاداً للسمّ — سم الميكروب — كان رجْعُ ذلك في جسم المريض على نمطٍ معيَّن. ثم اذا اعاد حقن المصل نفسهِ كان رجعه في جسم المريض مختلفاً عن الرجع الاول على الغالب . وقد ظهر تأثير الحقن في اجسام بعضهم في تنفط الجلد ، وفي آخرين في تأثر الاعصاب وتورد الجلد ، وفي آخرين في ظهور حالة تشبه الربو . وبعضهم مات بعدالحقنة الثانية.

ونشر فون بيركيه Von Pirquet وشيك Schick رسالة في سنة ١٩٠٥ بيَّنا فيها نتائج بحثهما في ما سُمّي « مرض المصل » وفي سنة ١٩٠٦ نشر فون بيركيه رسالة اقترح فيها اسماً جديداً لهذه الظاهرة وهو Allergy وهو يدل على تحوُّل حدث في احساس الجسم ومبلغ تأثره. وهذا اللفظ هو السائد الآن وقد انتقل من الاستعمال الطبي العلمي باللغة الانكليزية الى ألسنة الشعب

ماذا يحدث في نسيج الخلايا عند ما يلتقي المرء المستهدف بالمادة التي تؤثر فيه ؟ ماذا يحدث في خلايا السيدة المستهدفة لحمى التبن عند ما يدخل انفها حبيبات عشبة الحرقة ، او للفتاة المستهدفة للحماق عند ما تأكل الجمبري ؟ إن العلماء لا يعرفون معرفة وافية ما يحدث ، ولكنهم يعلمون ان اربعة اصناف من انساج الجسم تشترك في هذه الظاهرة

اولاً — هناك نسيج شبيه بالشبكة يغطي المسالك اللمفاوية والاوعية الدموية وغيرها وخلايا هذا النسيج لها صلة بتوليد المواد التي تحدث المناعة في الجسم

ثانياً — تتأثر الاوعية الشعرية فتتخلخل خلاياها ، فتصبح جدرانها كأنها غربال يخرج من عيونهِ مصل الدم الى الفراغ الذي بين الخلايا . وقد اجريت تجارب دقيقة في جامعة ستانفورد فظهر ان الاوعية الشعرية فقدت ثلاثة ارباع محتوياتها عند اصابتها بهذا التخلخل في خلايا جدرانها . وهذا يفسّر الى حدٍ ما التورّم والتورُّد اللذين يحصلان عند الاصابة

ثالثاً — تنقبض العضلات غير الارادية . فاذا اخذت قطعة من عضلة غير ارادية من خنزير هندي وعلقتها في محلول متعادل مضت في حركة انقباضها وانبساطها الدورية فاذا اضفت الى المحلول قليلاً من مادَّة « اليرجية » — اي المادة التي يستهدف جسم الخنزير الهندي الذي اخذت منهُ القطعة للتأثر بها على النمط الذي تقدم ذكرهُ — ترى العضلة وقد انقبضت انقباضاً عنيفاً . وبهذا تفسر حالة الربو مثلاً في مثل هذه الحوادث

٤ — ثم ثبت ان للكبد شأناً كبيراً في هذه الحالة . فوجود المادة الاليرجية في تيار الدم يؤثر في الكبد فتهيج خلاياهُ فتطلق مادة قوية الفعل في الدم. ويرى الدكتور ماينوارنغ Mainwaring — صاحب هذه الأبحاث — ان هذه المادة هي التي تؤثر في جدران الأوعية الشعرية فتتخلخل خلاياها

ما هي هذه المادة ؟

هناك مادة عضوية كيماوية تعرف باسم الهستامين Histamine تحدث اعراضاً مثل الاعراض التي تحدثها المادة الاليرجية . فاذا حقن الهستامين في الحيوانات ، سبب انقباضاً في العضل غير الارادي ، وهبوطاً في ضغط الدم ، وتأخيراً في تخثر الدم ، وتورماً في انساج الشعيات (Bronchioles) ثم تحدث صدمة انافيلكتية (اي زوال قدرة الجسم على حمايته وشدة استهدافه) فالموت . وقد اقترح الباحثان الكيماوان الانكليزيان ديل Dale ولايدلو Laidlaw — وهما رائدا هذا البحث التجريبي الدقيق — ان مادة الهستامين هي المادة التي تطلق في الدم عند التأثر بالمادة الاليرجية فتحدث فيه حالة الانافيلكسيس (اي زوال قدرته على الحماية) ومن المعروف ان الهستامين موجود في كثير من انساج الجسم وانهُ مركّز بوجه خاص في خلايا الرئتين والكبد والغشاء المخاطي في الامعاء والجلد وهي الأعضاء التي تظهر فيها اعراض « الاليرجي » على الغالب

وجاء باحث آخر يدعى السر توماس لويس فاستخرج سوائل من اورام المصابين باعراض اليرجية في الجلد وحقن بها حيوانات فاحدثت ما يحدثهُ الهستامين من التأثير . تخلص من ذلك الى النتيجة التالية وهي ان هناك مادة شبيهة بالهستامين في هذه الاصابات وسمّاها مادة — ه H

واثبت باحث اميركي آخر يدعى كود Charles Code في بحث لهُ بدأهُ في جامعة لندن سنة ١٩٣٦ واتمهُ في معهد مايو بجامعة مينسوتا الاميركية ، ان الهستامين لا يوجد في الخلايا فقط بل في الدم كذلك ، وانهُ في حالة الصدمة الانافيلكتية تطلق مقادير منهُ في تيار الدم . وقد تمكن من استفراد هذه المادة وبلورتها . وتدل مباحثهُ على ان كريات الدم البيض تحتوي على الهستامين او تحملهُ . والراجح من قرن مباحث كود بمباحث السر توماس لويس ان المادة H هي الهستامين

***

واذن نحن امام حالة فسيولوجية معقدة لم يتمكن العلماء من الاجماع حتى الآن على رأي واحد شامل لتفسيرها ، وانما يعلم ان بعض الخلايا في بعض الناس تصبح شديدة الاحساس بمواد معيَّنة غريبة عن الجسم (تدعى مواد اليرجية allergens) فاذا دخلت الجسم تأثرت بها الخلايا الشديدة الاحساس بها تأثراً مرضيًّا ومن نتائج دخولها الجسم انطلاق مواد مضادة في الجسم (لم يثبت انطلاق هذه المواد في بعض حالات الاليرجي) . ونتيجة اخرى انطلاق الهستامين او المادة الشبيهة بهِ ، وتأثير هذا التفاعل يظهر في اعضاء معيَّنة تعرف « باعضاء الصدمة » كالجلد فينتفط ويصاب بالحاق والتورُّد والشعيات فيتأثر عضلها غير الارادي فتحدث حالة شبيهة بالربو او المسالك الانفية فتتخلخل خلايا اغشيتها فيكثر سيلان المخاط المائي من الأنف

علاقة الانتاج

الزراعي بتغذية الشعب

لحسين عنان بك
وكيل وزارة الزراعة (١)

قوة الامة بقوة أفرادها وما ينتجون من مجهود جسماني وعقلي وهذا يتوقف على مقدار ما يتناوله الفرد من الغذاء وقيمته الغذائية . ولما كانت الامة عبارة عن مجموعة أفراد كانت سلامتها بسلامة أفرادها فلا يمكن للامة ان تفوز في ميدان التطاحن إلاّ اذا توفر لأفرادها الغذاء الجيد ولا يتأتى ذلك إلاّ اذا اعتمدت الاعتماد الكلي على تموين نفسها بمنتجات أرضها لتضمن القيام بأود الشعب إبان الحرب وانقطاع السبل الخارجية عنها وهذه سياسة تعمل الأمم في عهدنا الحالي بكل جهدها على تنفيذها وإذا كانت الأمم التي حالتها الزراعية شاذة قد نجحت نجاحاً باهراً في ذلك فان بلادنا وقد خصها الله بتربة خصبة وماء وافر وشمس ساطعة وأيد عاملة رخيصة يمكنها بلا شك ان تستغني عن غيرها

ولم تهتم الامم الاّ من عهد قريب بدراسة ما يحتاج اليه الانسان من الغذاء دراسة علمية وعلاقة ذلك بالزراعة والصحة العامة ولم يشذ القطر المصري في ذلك وان كان قد بدأ متأخراً عن غيره من الاقطار وذلك لأنه كان قبل ان يتبوأ محمد علي عرش مصر يرتع في بيداء الفوضى وكان الشعب المصري معرضاً دائماً للامراض الوبائية تكتسحه اكتساحاً للفقر وانعدام الوسائل الصحية فبادر هذا المصلح بمعونة علماء الغرب ومن تخرج عليهم من المصريين في وضع أسس لمكافحة الأمراض الوبائية بالوسائل المتيسرة لديهم وقد لاقوا في ذلك صعوبات شديدة لجهل الشعب وفقره وخلو المدن من الوسائل الصحية الحديثة كالمياه المرشحة والمجاري وانعدام الرقابة على الاغذية

ولم يحل القرن العشرون إلاّ وقد خطت البلاد خطوات واسعة في سبيل التقدم في شتى مرافقها وأمنت البلاد شر الأوبئة ولكنها لا تزال تشكو من انخفاض أعمارها وضعف الصحة العام بسبب الامراض المتوطنة وسوء التغذية لانحطاط مستوى المعيشة بين عامة الشعب الى درجة

---

(١) القاها الدكتور مأمون عبد السلام في المؤتمر الطبي الشرقي بالقاهرة نائباً عن عنان بك

البهيمية الجائعة . وقد فتح القرن العشرون باب الامل على مصراعيه للعمل على تحسين صحة الجنس الانساني بالتقدم العظيم الذي أحرزه علماء الفسيولوجيا وكيمياء الاحياء فقدكانت الابحاث التي أخرجها السير جولاند هوبكنز على الفيتامينات للعالم سنة ١٩١٠ أعظم هدية قدمت للجنس البشري إذ أنها بينت فائدة الاغذية من حيث قيمتها الحقيقية في حياة الانسان وصحته وتعرضه للامراض ومقاومته لها

فالتغذية من الوجهة العلمية الحديثة ليست مسألة مقدار بل هي عبارة عن توافر المواد التي تحسن الصحة وتحافظ عليها كالفيتامينات والاملاح المعدنية والبروتينات المركبة الموجودة في شتى الأغذية . فقدكان الراسخ في اذهان البشر من اقدم العصور ان الانسان يشبع اذا التهم ما يكفي نهمه من الغذاء فكان الطب الى نحو ثلاثين سنة مضت ينسب كثيراً من الامراض الى اسباب لا علاقة لها بالتغذية

والخدمة الجليلة التي يؤديها لنا علماء التغذية الآن هي انهم يضعون لنا معايير الاغذية standards التي يصلح بها الجسم كاللبن والجبن والزبد وكافة مشتقات الألبان والخضر والفواكه الطازجة والبيض والاسماك واللحوم وكلها اغذية واقية Protective إذ تتوقف صحة الجماهير على ما تستهلكه منها . ولا نزاع في ان الطبقات الغنية في مختلف اقطار الارض تتمتع بما يزيد عن حاجتها بل بما يتخمها من هذه الاغذية أما الطبقات العاملة فلا يتيسر لها ذلك . لذلك دأبت الحكومات الحديثة حفظاً على كيان امها ان توفر الغذاء الصالح الكامل لكافة أفرادها فكانت أول خطوة خطتها في هذا المضمار ان عملت على رفع مستوى المعيشة للشعب وهذه مسألة من الصعوبة بمكان اذ لا بد لرفع مستوى المعيشة بين أفراد الطبقة العاملة ان تكون الأمة قاطبة غنية في مواردها وان تكون ثروتها موزعة توزيعاً عادلاً

فالمملكة البريطانية على الرغم مما هو مشهور عنها من الغنى وارتفاع مستوى المعيشة للفرد العادي ارتفاعاً يحسدها عليه أغلب الامم فان نصف سكانها الفقراء لم يصلوا بعد باعتراف اقطاب علماء التغذية عندهم الى درجة التغذية الصحيحة التي يحتمها العلم الحديث ليضمنوا للفرد بها الصحة ومقاومة المرض — ويكفيك ان تقرأ تقرير السير جون اور عن الغذاء والصحة والدخل لتعلم أن نسبة قليلة من سكان بريطانيا لايحصلون على ما يكفيهم من الاغذية المولدة للطاقة وان هناك نقصاً ذريعاً في الاغذية الواقية كاللبن والبيض والفواكه الطازجة والخضر والزبد واللحم

وفي سنة ١٩٢١ أعلن الرئيس هوفر ان بالولايات المتحدة — وغناها وثروتها مضرب الامثال كما تعلمون — تسعة ملايين طفل يشكون سوء التغذية كما اتضح من الكشف الطبي على الاولاد في المدارس وما ظهر فيهم من امراض الاسنان وتشوه العظام وضعف البنية . وقد اتضح ان

عدداً كبيراً من الذين يسقطون في امتحان القرعة في كافة الممالك الاوربية سقطوا بسبب سوء التغذية في ايام طفولتهم

فاذا كان هذا ما يحصل في بلاد الانكليز فما بالك بالحالة في بلادنا حيث مستوى المعيشة للفرد العادي في درجة من الانحطاط لا تصدَّق . وهذه تستدعي من غير شك دراسات عاجلة وعلاجاً أسرع إذ ان الاغذية الناقصة تضعف حيوية الشخص وتقلل من مقاومته للامراض وتعرضهُ لأمراض خطرة كمرض البلاجرا الذي يموت بسببهِ أربعة آلاف سنويًّا في جنوب الولايات المتحدة وثلاثة آلاف في رومانيا حيث يعتمد الفلاحون في غذائهم على الذرة الشامية وكمرض البري بري المتفشي في البلاد التي يعتمد سكانها على الارز في غذائهم

ويرجع سوء التغذية الى سببين اساسيين (١) الفقر (٢) الجهل . فالفقر هو بلا شك السبب الاول والاهم وعلاجه كما قلنا رفع مستوى المعيشة برفع اجرة العامل . اما الجهل فلهُ شأن خطير هامٌ في سوء التغذية لجهل الافراد بانتخاب ما يصلح منها وعلى الحكومة أن تعمل على ازالته بالارشاد والدعاية بكافة الطرق كالتعليم الالزامي والنصائح بالراديو واشرطة الخيال (السينما)

ومن الوسائل الفعالة التي تتخذها الحكومات لمكافحة سوء التغذية في الطبقات الفقيرة

١ — تنظيم الاسعار بحيث يكون بين ثمن الجملة والقطاعي فرق يسير جداً

٢ — ضمان عدم غش الاغذية

٣ — اعطاء غذاء كامل العناصر مرة في الاسبوع للاطفال في المدارس

٤ — اعطاء وجبات مجانية لأولاد المدارس ليستعيدوا بها ما ينقص أجسامهم من اجزاء التغذية الناقصة بمنزلهم

وقد أنشأت الحكومة الفرنسية سنة ١٩٣٦ باشارة المسيو بول بونكور لجنة لدراسة تغذية الشعب بفرنسا فوضعت برنامجاً قسمتهُ الى ثلاثة أقسام هي

١ — تقدير ما يحتاج اليه الشعب الفرنسي من المواد الغذائية (وقد قامت الحكومة الفرنسية بحصر دقيق لمقاديرها)

٢ — معرفة ما ينال الشخص الواحد رجلاً كان او امرأة أو طفلاً ممن يعيشون سويًّا أي في مجاميع من الأغذية

٣ — معرفة نوع التغذية التي تتناولها بعض العائلات في الريف وفي المدن طول مدة الفصول الأربعة ومرة كل اسبوع ، وهذه العائلات تنتخب بحسب مركزها الاجتماعي ووظيفة عميدها

وقد وزعت هذه اللجنة اعمالها على اربع لجان فرعية هي

١ : اللجنة العلمية ٢ : اللجنة الاقتصادية ٣ : لجنة الدعاية والارشاد ٤ : لجنة المراقبة (الكونترول)

وقد سارعت بولونيا وهي قطر زراعي الى مثل هذه الدراسات وقدرت ما يستهلكه الفرد الواحد منها بالكيلوجرامات في العام من الدقيق والخبز والبسلة والارز والبطاطس والخضر والفاكهة والعسل واللحم والدهن والطيور واللبن والزبد والجبن والقشدة والبيض والسمك والسكر والملح والبن والشاي والحلويات

هذا بعض ما تمّ في البلاد الاجنبية وها قد بدأنا ندرك مكانة التغذية وخطورتها في حياة امتنا المصرية وقبل ان أبسط مقدار انتاجنا الزراعي وكفايته لتغذية الشعب المصري تغذية كافية اودّ ان استعرض حالة التغذية الحالية عندنا

ينقسم الشعب المصري كغيره من الشعوب الى ثلاث طبقات. الغنية والمتوسطة والفقيرة اي العاملة

فالطبقة الغنية يتوفر لها كافة انواع الغذاء . والمتوسطة يتوفر لها الضروري منه لاحتفاظها بصحتها ولكن افرادها لا يتناولون اللبن الاّ في الحلواي كأرز بلبن او مهلبية او اذا كانوا مرضى . اما الفقيرة فهي التي يجب ان تكون محط الدراسة وموضع العناية

وتشمل الطبقة الفقيرة جمهور الفلاحين في الأرياف والصناع والخدم والباعة المتجولين وأمثالهم في المدن وسكان الصحاري وهم فريق مهم من الامة المصرية لهم حق في رقابنا

فالفلاحون وهم سواد الامة المصرية من اتعس مخلوقات الله حالاً وأسوأهم تغذية فهم في جوع مستمر لفقرهم المدقع فترى الكثير منهم لجوعه يقطع جذور النخيل من الارض ويمتص ما هو مخزن فيها من الغذاء

ويقتات الفلاح على العموم بخبز الذرة الشامية في الوجه البحري ومصر الوسطى وبالذرة الرفيعة في الصعيد بعد خلطهما بالحلبة وفي بلاد النوبة بالذرة الرفيعة او بخبز الدخن او الشعير او بخبز مصنوع من دقيق الدخن والكشرنجيج واللوبيا السودانية مع قليل من البامية المسحوقة ويفضل الفلاح جميع اصناف هذا الخبز على خبز القمح . ويقول في ذلك ان القمح لا يمكث في المعدة طويلاً فهو يرغب في اكل مادة جافة صعبة الهضم تمكث في معدته اطول مدة ممكنة حتى لا يشعر سريعاً بالجوع

ويأتدم الفلاح الذي ليس عنده ماشية بالمخللات من البطيخ الصغير والبصل واللفت والخيار الكبير الحجم والفلفل والباذنجان والليمون وما الى ذلك

ويأتدم كذلك بما يجمعه من الحقول من النباتات الحمقاء الشيطانية التي تنمو من تلقاء نفسها كالسريس والجعضيض والخبيزة والكبر والحميض والسلق والبسلة الشيطانية والملوخية والرجلة ونبات عنب الديب . أو يشتري البامية أو قرع الكوسة أو الباذنجان عندما يكبر حجمها كثيراً ويرخص ثمنها فيطبخها مع البصل المقلي في الزيت من غير لحم مرتين في الاسبوع على الاكثر. ويمد فلاحو

الصيد الى طهي العدس واوراق الكشرنجيج وهو ضرب من اللبلاب

اما الفلاح الذي يقتني الماشية فانهُ يبيع سمنها ويأكل جزءاً من اللبن الرايب وما يتبقى منهُ يصنعهُ جبناً قريشاً فيبيع جزءاً منهُ ويخزن الباقي ليكون جبناً قديماً يبيع منهُ جزءاً بالبلاص ويتغذى بالباقي

والفلاح العادي اي عامل الحقل لا يأكل اللحم الاَّ في المواسم والاعياد وهي العيد الاضحى ويوم عاشورا ، ومولد النبي وليلة نصف شعبان و٢٧ رجب وبعض ايام قليلة جدًّا في رمضان إذ من عادته في رمضان ان يأكل في السحور العسل الاسود واللبن الرايب وهو في العادة لا يأكل سوى اللحم الجملي أو الخشن العجالي وما يستهلكهُ الفرد منهُ حوالي ربع رطل على الاكثر في كل موسم . واذا تصادف ومرضت احدى مواشي القرية بمرض اقعدها عن العمل وجعل شفاءها مستحيلاً فانهم يبادرون الى ذبحها وهي في آخر رمق من حياتها ويوزعون لحمها بالكوم بأبخس الأثمان على جمهور القرية فيقبلون عليها بروح تعاونية مساعدة لصاحبها وبذا يمكننا أن نقدر ما يستهلكه الفرد الواحد من جمهور الفلاحين في العام بنحو ثلاثة أرطال الى خمسة على الاكثر من اللحم معظمهُ مريض نحيل وقد يكون فاسداً

***

والعادة ان مقدار استهلاك اللحوم يتمشى مع الحالة المالية للفرد والمجموع — لذلك نرى الذبيح في الارياف اكثر في الشتاء منهُ في الصيف ليسر الفلاح في اثنائهِ وعقب موسم القطن

ويعمد الفلاحون في مناطق الارز الى اصطياد السمك الصغير من قنوات الارز وحقوله قبل نضجه ويقتاتون بلحمهِ وكذلك يصطادون الطيور البرية يأكلونها مع الأرز

وفي الصعيد عند ارتفاع النيل وملء الحياض تكثر البسارية وهي ضرب من السمك الصغير فيجمعونها ليقتاتوا بها مقلوَّة في الزيت أو مسلوقة أو مشوية أو يحفظونها بشكل ملوحة — ومنهم من يصطاد فيران الحقل والقطط البرية ويقتاتون بها بعد شيّها

والفلاح العادي لا يأكل البيض الاَّ اذا جاءه ضيف وهذا نادر — والبيض عنده عملة يشتري بها البترول والملح والكبريت

اما من حيث الفاكهة فيأكل منها البلح وخاصة الرامخ منه والجوافة التالفة الرخيصة والبطيخ الرخيص الأقرع والحرش والفقوس والعجور والجميز والنبق إذا وجد والبرتقال واليوسفي الرخيص جدًّا

وأما الطبقة الفقيرة في المدن فغذاؤها في الصباح الفول أو العدس المدمس بالزيت أو العسل الأسود المغمس بالخبز او الفطير المفتوح بالزيت مع السكر الناعم أو العسل الاسود والطعمية أو

الكشري . وفي الظهر يأكلون الطعمية والباذنجان المقلوّ بالزيت مع سلطة القوطة وسلطة الطحينة المصنوعة من كسب السمسم والفجل والكرات والبصل والخس والعدس والبصارة والجبن مع الفول الاخضر او البطيخ والخيار صيفاً مع خبز القمح او القمح مخلوطاً بالذرة وفي العشاء يأكلون الفول المقلوّ بالزيت مع القوطة أو السلق وكذلك الفول النابت والسمك المقلوّ بالزيت والأرز المسلوق بالدهن مع الطرشي أي المخللات المختلفة وربما أكلوا اللحم إذا تيسر لهم مرة في الاسبوع مطبوخاً بالخضر كالملوخية والقرع والباذنجان والبامية والفول الاخضر والسبانخ والرجلة والخبيزة والكرنب والطماطم وغير ذلك مما هو متوفر في مصر

أما من حيث الفاكهة فهم أحسن حالاً من الفلاح

أما اللبن فلا يدخل بطونهم إلاّ في حالة المرض فقط

***

وسكان الصحراء إما بدو متنقلون وراء المرعى كسكان الصحراء الغربية والصحراء الشرقية من العرب الساميين والحاميين كالبجاه من العابدة والبشاريين او قابعون كسكان الواحات الداخلية والخارجية والبحرية وسيوه والفرافرة وسكان وادي فاران وغيره من أودية جنوب سينا العامرة بالحدائق والبساتين وسكان وادي الجديرات ومنطقة الساحل بشمال سينا وأغلب هؤلاء يعتمدون على التمر في غذائهم — ويعتمد سكان الواحات عدا سيوة والفرافرة على الأرز إذ يزرعونهُ بكثرة فيأكلهُ فقراؤهم مسلوقاً في الماء فقط ومعهُ فلفل أو ليمون مخلل وبعضهم يطبخ العدس بالملوخية ويسمونهُ بصارة ويأكل أهل البحرية البقلية (وينطقونها البغلية) وهي أرز مطبوخ مع العدس المقشور وهي ما نسميها بمصر بالكشري — أما الأغنياء فيطبخون الارز بمرق اللحم أو مع لحم الطيور وتقلية البصل ويسمونهُ أرزاً أبا زفر — ويأكل سكان الواحات قاطبة وسكان الطور ووادي فاران وشمال سينا دبس البلح وهو عسله الذي يعتصر منهُ بالضغط — وأطعمة سكان الواحات وأودية جنوب سينا أحسن حالاً وأكثر تنوعاً إذ يكثر عندهم الخضر كالطماطم والشمام والبطيخ والخيار والملوخية والبامية والقرع والرجلة والخبيزة والسبانخ والسلق والشمر والمقدونس (البقدونس) والكرفس والشبت واللوبيا والحمص وكلها لاكلهم الخصوصي والفاكهة التين والعنب والكمثرى واللوز والزيتون والموالح والتفاح والنخل والمشمش والتوت والنبق

اما عرب الساحل الشمالي للصحراء الغربية فيأكلون التمر كما هو يجلبونه في غرارات من من واحة سيوة او يصنعون منهُ ما يسمونهُ سمنة محلية أي محلاة وذلك بطبخه في الماء الى ان يكثف قوامه ويضيفون اليهِ السمن ثم يخزنونه في قرب من الجلد

ومن اطعمتهم الخروطة ويسمونها عيشاً مقطعاً وهي تشبه الرشته عندنا أي رقاق من العجين يقطع شرائح رقيقة تطبخ في ماء يغلى ومعها قليل من السمن أو شحم الغنم أو الزيت مع قليل من الملح والفلفل . ومنها العصيدة من دقيق الشعير ويأكلونها مع الطماطم أو الفلفل واللحم

ومنها الكسكاس المجهز بالطماطم والقرع ومنها المفروكة ويأكلونها في الربيع وقت كثرة السمن أو يخبزون على لوح من الصاج رقاقاً رفيعاً بدون خميرة يسمونهُ الجردق أو يخبزون القراصة وهي عجينة تخبز فوق الرمل أو الزلط المحمي

ومن أطعمتهم الزقزوق وهو لبن متجمد فيذيبونهُ في الماء ويسمى اذن الشنيشة ويأكلونها مع البلح والخبز وهم يجففون اللحم ويسمونهُ القديد ويطبخونهُ مع البصل ويصنعون منهُ الثريد

ويلوّن عرب الصحراء الغربية طعامهم وخاصة الارز المسلوق والعدس بالبذار كما نستعمل نحن الطماطم. والبذار مخلوط من الكركم والكزبرة والكمون والشطيطة والفلفل الاسود وكثيراً ما يلجأون في سني المحل الى أكل الكلاب والقطط والثعالب والذئاب

اما سكان الصحراء من العابدة فقسمان عابدة ساحليون وعابدة جبليون . فالساحليون صيادو سمك يتغذون بالسمك المجفف بالملح وبما يجلبونهُ من وادي النيل من الذرة الرفيعة والجبليون يرعون الأغنام والماعز والابل وهؤلاء لايختلفون في غذائهم عن اقربائهم البشاريين نخبزهم من الذرة العويجة أو الفترية وأحياناً يمضغون حب الذرة جافاً كما هو ويخبز العابدة نوعاً من الخبز من الذرة الرفيعة يسمونهُ السنسان او الدوكة

ويفطر العابدة بالشاي واللبن مع الخبز بعد صلاة الصبح وإذا لم يوجد اللبن يضعون السمن مع الشاي والسكر

اما البشاريون فيفطرون بلبن النياق وبالتمر المجلوب من السودان او بلاد النوبة ويشربون الشاي او القهوة المصنوعة في الجبنة من البن والفلفل الاسود بمقدار الثلثين والثلث . ولا يتناول العابدة والبشاريون عادة طعاماً في الغداء — اما في العشاء فيأكلون القراصة (وهي الخبز) مع اللبن دائماً في الشتاء. اما في الصيف فيأكلون العصيدة مع حب الذرة ويطبخها المقتدر منهم وخاصة العابدة مع العدس او الارز او الملوخية الناشفة أو البامية الناشفة مع الشطة او الفلفل وفي الموسم يأكلون الفول المدشوش بعد طهيه بزيت الخس او زيت بذرة القطن والأرز المسلوق باللحم او اللبن او السمن يصنعونه من لبن النعاج او الماعز ويشربون اللبن الحامض المتخلف بعد استخراج الزبد . والعادة انهم لا يأكلون اللحم الاَّ نادراً وذلك في الافراح والمواسم عند ما يتجمعون عند قبور اوليائهم فيذبحون الغنم ويطهون لحمها شيًّا بطريقة السلات وهي حفرة يغلّونها بالخشب وفوقه زلط كبير يشوون اللحم فوقه عند ما يصبح كالجمر ويأكلون ما يصطادونهُ

من الغزلان والماعز الجبلي البدن — ومن عادتهم انهم يأكلون الامعاء نيئة بعد ان يعصروا عليها مرارة الذبيحة ولا يأكل البشاريون الطيور والمحالي ولا السمك الذي يعتبرونه بعكس عبابدة الساحل رمة جيفاء ويحتقرون من يأكله

وبدو الصحراء الشرقية الشمالية وأواسط سينا في درجة من الفقر والاعدام لا تصوَّر فقد رأيت بعيني رأسي نساءهم في وادي الكتنلة يفركون بعر الجمال ويلتقطن منها ما لم يهتضم من حب الذرة الرفيعة ثم يجففنها ويسحقنها ويصنعن منها خبزاً أو عصيدة .اما البعر نفسه فيدخنه رجالهم في الشبك بدل الدخان.وقد كان بوادي الكتنلة بأواسط سينا ست عائلات انقرضت كلها في مدى سنتين من الجوع عدا عائلة واحدة

ويصنع البجاة من العبابدة والبشاريين وكذلك عرب الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سينا خبزاً من بذور نباتات برية يجمعونها في الصحراء وهي نباتات السمح Mesembrianthymum Forskaeli ونباتات الحداق Aizoon Canariensis كما يصنع عرب أولاد علي بالساحل الشمالي للصحراء الغربية الخبز من حبوب نبات نجيلي يسمونهُ البشنين وهو الكوراكان Elensine Corakana

***

الآن وقد استعرضنا ما تتناوله الطبقات المختلفة من الاطعمة في بلادنا وجب علينا ان نعرف قيمتها الغذائية وهذه الأغذية على اختلافها تقع في قسمين عظيمين

(ا) أغذية من أصل نباتي

١ — حبوب نجيلية (غلال) ٢ — حبوب بقولية ٣ — خضر (طازجة أو مسلوقة أو مخللة) ٤ — فواكه (طازجة أو مطبوخة أو محفوظة أو مجففة) ٥ — زيوت نباتية ٦ — النقل

(ب) — أغذية من أصل حيواني

١ — لحوم الحيوانات الثدية ٢ — لحوم الطيور ٣ — الاسماك الطازجة والمجففة (كالبكلاه) والمملحة كالفسيخ والملوحة والصبوغة والرنجة والمحفوظة في العلب كالسردين والتونة ٤ — الحيوانات القشرية كالجنبري واللانجوست ٥ — المحار كأم الخلول ٦ — اللبن والزبدة والقشدة والسمن والجبن بأنواعه واللبن الزبادي والحامض والشرش والسرسوب ٧ — البيض

وهذه الأغذية تحتوي على أملاح معدنية هامة من الوجهة الحيوية وهذه الاملاح أما قلوية أي ذات فعل قلوي كأملاح البوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم والمغنسيوم والمنجنيز والحديد والألومنيوم أو أملاح حمضية لها فعل حمضي كأملاح الفُصفور والكبريت والسلسيوم والكلورين

[تجد تتمة الجانب الاول من هذا البحث النفيس في آخر باب الاخبار العلمية]

قيد الماضي

لعبد الرحمن شكري

أخذنا عن الماضي قليلاً من النهى ... واكثر ما نلنا الهواجسُ في النفس

فمِن غامض لا يُدرِكُ الفهمُ فهمَهُ ... ومن واضح كالخط في صفحة الطِرس

فمن قسوِ ذي خوف من الموت والأذى ... ومن ضغن مهموم من الفكر والحدْسِ (١)

ومن حقدِ ذي حقد يرَى العيشَ كلَّهُ ... ظلامةَ مغلوبٍ على الغد والأمس

ومن كيد لامٍ أشربَ العيشُ قلبَهُ ... لذاذةَ صنعِ الشر في الجهر والهمس

لَنِيلَنا وما زال الذي كان كائناً ... يدافع عنهُ المرء بالسيف والقَلْسِ

يدافع عنهُ المرء بالحق والهوى ... ويسعى له الأضداد ندْباً الى نكْسِ (٢)

ويفرى بهِ حتى الذين شقاؤهم ... بان يخذل الاصلاحَ ضغنُ ذوي النحس

حقود قلوبٍ لا يُداوى فسادُها ... فتدعو ذوي الآمال فيهم الى اليأس

***

يريدون منع الحرب والحرب سُنةٌ ... الى ان تُفيقَ النفسُ من إثرة النفس

فهل يدركون الطُهرَ من قبل غمرة ... وطينتُهُمْ معجونة الدم بالرجس

ويا ويلهم شبت عن الطوق حربُهُمْ ... وأزرت بفعل السهم والرمح والترس

وظلوا حيارى خشيةً من دمارها ... وكلٌّ يرجّي نفعَ احداثها الحُمْسِ (٣)

---

(١) الحدس : الظن او الفراسة (٢) الندب : الشهم الذي ينتدب للامور والنكس : المرذول الذي لا خير فيه والهوى هنا الميل الى الباطل (٣) الحمس : الشديدة

وكلٌّ يعاف العدل الأ لنفسه ... سجية لؤم هل تزول من الجنس ؟

وتأبى سجايا الشر طهرةَ عادلٍ ... تغيّرُ فيهم ما أتمَّ العيش بالعُرْس

سواءٌ لعمري طبع فردٍ وامةٍ ... همُ الإنسُ ما أبدوا سوى نجَس الفرْس

وكيف تزول الحرب والسلم بينهم ... كحرب طغت بالقهر والمكر والخلس

وكم قدَّسوا قُدْساً لتطهر أنفس ... فأزرى بجوّارُ النفس بالدين والقدس

خميرة عيش شرهم وحقودهم ... فكيف يرادُ العيشُ للأمن والأنس

بناه المعالي كان بالشرّ قائماً ... وما طربوا إلاّ الى نغم النحس

وما شربوا من لذة العيش شربةً ... صفا ماؤها من كدرة الهم في الكاس

***

غفلنا ونام الهامدون وفوقنا ... نجوم الدجا زُهْرٌ على قبة الرمس

فان كان خَلْقُ الناس للعجز والأسى ... ولم يستطيعوا البرء من خَطلِ المسّ(٤)

وأعجزَ أوصافَ الأطباء داؤهم ... ولم يَشْفِهم من شرهم عملُ النَّطسِ(٥)

وإن قبسوا من شعلة القدس قبسةً ... فما صانها العادي ولا فاز بالقَبْسِ

فان ارتهانَ المرء في سجن شره ... إذا جدَّت الاحداث شرٌّ من الحبس

وإن انغماسَ المرء في لجّ أمسه ... كما يغرق الغوّاصُ من نهكة القمس(٦)

وإن رسيف النفس في قيد شرها ... كما يخلد المحموم في خطأ الحِسّ

يقولون ان الحق في الناس قوةٌ ... وأقوى من الحق الجهالةُ في النفس

---

(٤) المس : الجنون (٥) النطس : بفتح فسكون العالم المجرب مثل النَّطِس

(٦) القمس : الغمس في الماء

باحث يقطن في كهف عميق لكي يعرف

كيف نستيقظ

وكيف ننام

الصلة بين العضلات والحرارة والنوم

عرفنا ان مركز النوم واليقظة في الدماغ ، وانه ذلك الجزء منهُ المعروف باسم « الهيوتالاموس »[1] ولكننا لم نعرف كيف يسيطر على حالي اليقظة والنوم . هذا الموضوع كان مداراً لتجارب قام بها البحاثة Kleitman وقاعدته فيها دراسة طبائع اليقظة والنوم في الكلاب والنساء والرجال ، حتى وفي الاطفال . ففي بعض تجاربهِ مثلاً كان يبقي طائفة من الرجال يقظين ثلاثة ايام او اربعة ايام متوالية لكي يتتبع سلوكهم في اثناء اليقظة المفروضة عليهم بالقوة . ثم انهُ لم يستثنِ نفسه من هذا البحث فاستأجر حرَّاساً لمراقبته — شأنهُ في ذلك شأن بقية الرجال — حتى لا يغفو، وذلك لكي يدرس تأثير اليقظة الطويلة في نفسهِ . وقد بقي يقظاً في احدى هذه التجارب مدى مائة وخمس عشرة ساعة متوالية اي اقل قليلاً من خمسة ايام

وقد خرج الدكتور كليتمان من بحثهِ هذا بأنهُ في وسع الرجال البقاء يقظين اذا كانوا يفعلون شيئاً يقتضي منهم نشاطاً عضليًّا . فاذا انقطع الفعل العضلي بالجلوس مثلاً استولى النوم عليهم حالاً . فالتحدث مع رجل لا يكفي لابقائهِ يقظاً ولكنهُ اذا كان هو المتكلم كفى ذلك لصد النعاس عنهُ . اما الغناء والمشي فأفعل من الحديث . وفي احدى هذه التجارب تبين انهُ عندما بلغ الرجل اليوم الثالث من اليقظة زادت متاعبهُ . فكان يقول لحارسهِ مثلاً « سأمشي قليلاً في البهو لاستنشق الهواء » فيوافقهُ الحارس على ذلك ثم يتبعهُ بعد هنيهة فيجده جالساً في كرسي وهو يغط ويهوِّم فيوقظهُ ويقول لهُ « لم اكن نائماً وانما كنت اريح عينيَّ فقط » . وبازدياد مدة اليقظة المفتعلة ازداد توتر اعصابهِ — وليس في ذلك عجب — واشتدت حاجتهُ الى النوم

---

(١) راجع مقال «النوم والارق» في صدر مقتطف فبراير ١٩٣٩

ولكن حاجتهُ الى النوم لم تزدد ازدياداً مضطرداً ، بل كانت تزداد وتنقص كأنها تسير في خطٍّ مطرد التعاريج ، ففي بعد ظهر اليوم الثالث كان اشد نعاساً منهُ في بعد ظهر اليوم الثاني — وهذا طبيعي — ولكنهُ كان اقل نعاساً منهُ في مساء اليوم الثاني . وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم الثاني كان في اشدّ الحاجة الى التحدُّث والتمشي لكي يصد النعاس عن عينيهِ حالة انهُ في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثالث لم يكن في حاجة ماسة الى ذلك . فالنعاس فيهِ كان متقلباً حالة ان الحاجة الى النوم كانت في ازديادٍ مستمرٍ . الاَّ انها كانت تتفاوت بين الليل والنهار فهي على اشدّها في الأول وعلى اضعفها في الثاني

***

ومن محاسن الاتفاق ان حرارة الجسم متقلبة كذلك ، في حدود ضيقة . فعندما يقول الطبيب ان حرارة الجسم السوية ٩٨ درجة بميزان فارنهيت فهو يعني ان متوسط حرارة الجسم هو ٩٨°. ولكن اذا قيست حرارة الجسم في فترات قصيرة ظهر تقلُّب يسير فيها في الانسان الواحد ، وقد يبلغ هذا الفرق بين اعلاها وأوطاها درجتين ونصف درجة بميزان فارنهيت ، وقد يكون اقلّ من ذلك

وكانت حرارة الرجال في تجارب كليتمان تقاس مرة كلّ ساعتين . وكان الغرض من قياسها تتبع التغيُّر الحادث في الجسم بسبب اليقظة المفروضة عليهِ . وما لبث الباحثون حتى تبيَّنوا ان التقلُّب في الحرارة موافق ومتسق مع التقلُّب في شدة الحاجة الى النوم . فالحاجة الى النوم كانت على اشدّها عند ما كانت حرارة الجسم على اوطاها ، وعلى الضدّ من ذلك كانت الحاجة الى النوم على اقلها عندما كانت حرارة الجسم الطبيعية على اعلاها

واراد كليتمن ان يستشفّ تأثير اليقظة الطويلة المفروضة على الجسم بالقوة ، في قدرة الرجال على القيام باعمال مختلفة . فعهد اليهم في اوقات متفاوتة ، بالقيام باعمال شتى منها العضلي ومنها العقلي ومنها ما يحتاج الى ثبات اليد والسيطرة سيطرة تامة على حركتها . فوجد هنا كما وجد قبلاً ان القدرة بوجهٍ عام تنقص بازدياد الحاجة الى النوم ولكن النقص متقلب تقلباً دوريًّا وفقاً لتقلب الحرارة

فسأل الباحث نفسهُ هل في الوسع ان نحدث تغيراً في دورة اليقظة والنوم . ولم يشأ ان يجيب عن هذا السؤال إجابة عقلية ، فاستنبط سلسلة من التجارب سعياً وراء الحقيقة . فجاء بأسرة الى حجرات المختبرات وطلب الى الرجال ان يناموا عند منتصف الليل وان يستيقظوا في ساعات يقظتهم المألوفة . وان يمضوا في ذلك مدى شهر كامل . إلاَّ انهُ طلب منهم ان يؤخروا وقت نومهم اربع ساعات كلّ يوم . فاذا ناموا في منتصف الليل في اليوم الاول فيجب ان يناموا في

الساعة الرابعة صباحاً في اليوم الثاني وفي الساعة الثامنة صباحاً في اليوم الثالث وان يمضوا على ذلك الى آخر الاسبوع . ثم يبدأ اسبوع جديد ويبتدىء النوم فيهِ عند منتصف الليل

تقدم ستة رجال لهذه التجربة ، فعجز خمسة عن ان يلائموا بين حاجتهم الجثمانية وهذا اليوم المستطيل الذي يزداد اربع ساعات كلَّ يوم . ولكن السادس تمكن من ذلك فكانت حرارتهُ تتغيَّر وفقاً لمقتضى الحال ، فينام عند الظهر بنفس السهولة التي ينام بها عند منتصف الليل . اما الخمسة الباقون فظلت دورة حرارتهم على ماهي بغير تحوُّل او ملاءمة لساعات النوم المتبدلة. فكان النعاس يرين على عيونهم في الليل عند ماكانت حرارة اجسامهم على اوطاها وكان يصعب عليهم الاستسلام لهُ في النهار عند ماكانت حرارة اجسامهم عالية

***

بذل القائمون بهذا البحث كلَّ جهدٍ ليحجبوا عن حجر المختبر العوامل الطبيعية المتقلبة من نور وحرارة وضجيج فعجزوا عن تحقيق ذلك كاملاً ولذلك قرَّر كليتمان نفسهُ وبروس رتشردسن في ربيع سنة ١٩٣٨ ان ينقلا المختبر من مدينة شيكاغو الى كهف مموث في ولاية كنتكي فاستأذنا حكومة الولاية في ان يمكثا في الكهف المدَّة التي تقتضيها التجربة ، واختارا لمكثهما فجوةً واسعة من فجواتها عمقها ١٢٨ قدماً تحت سطح الارض واثثاها بما يلزم من اسرَّة وكراسٍ وخوان واتفقا مع حارسٍ يسكن مضرباً خارج الكهف ان يأتيهما بالطعام وفقاً لجدول معيَّن وضعاهُ على اساس الدورة الاسبوعية التي تقدم ذكرها

والكهف مظلم دائماً ساكن بارد حرارتهُ ٥٤ درجة بميزان فارنهيت (١٤ درجة مئوية) لا تتغير نهاراً ولا ليلاً فجوّه بارد يقتضي اللباس الدافىء في النهار والتدثر الدافىء في الليل

فماذا حدث لكليتمان ورتشردسن ؟

ما لبث رتشردسن حتى لاءم بين حاجتهِ الجسمية ونظام معيشتهِ الجديدة في سكون الكهف وظلامهِ. فكان ينام وفقاً للجدول وكان نومهُ ملء عينيهِ . اما كليتمان فوجد ان نظام نومهِ لا يمكن ان يتلاءم ونظام الجدول المفروض المقرر عليهِ

وهذه التجربة تدلُّ على ان نظام دورة النوم اليومية أرسخ في أجسام بعض الناس منهُ في أجسام البعض الآخر . ونحن نعلم ان هذه الدورة ليست خاصة موروثة . فالوليد ينام عشرين ساعة او أكثر ، كل يوم . وكذلك جراء الهررة الكلاب وغيرها من الحيوانات . ويستيقظ الوليد ليرضع او استجابةً لحاجة أخرى من حاجات الجسم . فاذا اشبع حاجتهُ الى الغذاء ، او حاجتهُ الى التبول مثلاً عاد الى النوم . وليس في ساعات نومهِ ويقظتهِ دورة

منتظمة كأن يكون النوم ليلاً واليقظة نهاراً. ولذلك عمد كليتمان الى البحث في طبائع النوم واليقظة في الاطفال . فوجد ان دورة الحرارة لا أثر لها في الوليد . ولكنها ترسخ رويداً رويداً في الجسم ، الى ان تتركز فيه في السنة الثانية على الغالب ، وهي السنة التي يبدأ فيها الطفل بالمشي

ولكن رسوخ دورة الحرارة في الجسم ، لا يعني ثبوتها الدائم . فقد يصاب أحد الاطفال باصابة في قشرة الدماغ، إما من رجة وإما من خراج وإما بتأثير التهاب الدماغ السحائي فينام معظم الوقت ، وتنتفي دورة الحرارة من حياته. وهناك أطفال ولدوا وفي أدمغتهم تشويه خلقي ، فثبت ان أجسامهم لم تكتسب نظام الدورة اليومية . وقد لاحظ باحث ألماني يدعى جولتز من عهد قريب انهُ اذا أزيلت قشرة الدماغ من دماغ الكلاب أصبحت تدمن النوم . فأعاد كليتمن هذه التجربة بأربعة كلاب فوجد ان طبائعها من حيث النوم جعلتها كأنها جراء

واذاً فالدورة اليومية للنوم واليقظة مكتسبة . نُطل على الحياة والنوم راجح رجحاناً كثيراً في حياتنا خلال الشهور الاولى . ثم تبدأ فترات اليقظة تطول رويداً رويداً حتى تصبح اليقظة وهي الغالبة ، وينحصر النوم في ساعات الظلام

***

والعامل الاول في هذا التحوُّل هو قشرة الدماغ . فالقشرة في دماغ طفل الوليد رقيقة غير نامية ولذلك يمكن أن يحسب دماغهُ بغير قشرة كدماغ الكلب الذي نزعت قشرتهُ . وتتوالى الرسائل الحسيّة على دماغ الوليد فتسجل فيه وتدعى القشرة الى تنسيقها فتنمو بالاستعمال ثم يبدأ الدماغ يدرك رويداً رويداً ان بعض اعمال الجسم يقتضي اليقظة فيقصي النوم عنهُ رويداً رويداً الى ان تستتب للجسم دورة النوم بين الليل والنهار

وعند الدكتور كليتمن ان النشاط العضلي من اهم العوامل تأثيراً في صدّ النوم عن الجسم فالرجال الذين اجرى عليهم تجاربهُ كانوا اذا قضوا يومين او ثلاثة ايام بغير نوم استولى عليهم ميل شديد الى القعود . فاذا قعدوا ناموا. وكانت طريقة حرّاسهم في ابقائهم يقظين ، محادثتهم وحملهم على المشي والغناء — وجميع هذه الاعمال تقتضي نشاطاً عضليًّا . ويزعم كليتمن اننا اذا صرفنا النظر عن العقاقير المنبهة فليس في وسع احد ان يبقي رجلاً في حال اليقظة بغير ان يحملهُ على انفاق نشاط عضلي . وليس النشاط العضلي مقتصراً على النشاط العضلي الارادي بل يشمل كذلك عضلات أخرى غير خاضعة للأرادة

ان الرسائل العصبية من العضلات هي آخر ما ينقطع عن التوارد على الدماغ. فاذا اقبل آخر النهار تنخفض حرارة الجسم ، وتتراخى الاعضاء ، ويأخذ منهُ الاعياء كلَّ مأخذ . الدماغ متعب

والعضلات متعبة ، والحرارة منخفضة ، وهذه العوامل مجتمعة تفضي الى الاسترخاء . فاذا واجه الجسم حالة طارئة استطاع ان يحشد قوته ويتغلب على تراخيه . ولكن في ماعدا ذلك فالنشاط متعذر . الكتاب قلما يستوي في يديك . والقلم يسقط من بين اصابعك . بانخفاض درجة الحرارة تقل الرسائل العصبية الواردة على الدماغ من اعضاء الحس ثم من العضلات وعقب ذلك يقع انفصال بين قشرة الدماغ وسائر الجهاز العصبي ومنه مركز النوم واليقظة المعروف باسم « هيبوتالاموس » . هذه هي الطريقة التي يستولى بها النوم علينا — في رأي كليتمن

***

وعلى ذكر العلاقة بين العضلات والنوم نقول ان باحثاً يُدعى جاكوبسون انشأ مختبراً في شيكاغو لبحث هذا الموضوع . ويؤخذ من مباحثه ان العضلات العاملة تولد كهربائية وان قوة التيار مقياس لتوتر الياف العضلة . وقد اتخذ جاكوبسون هذه الحقيقة اساساً لجهاز وثيق الاحساس صنع له في مختبرات شركة بل التلفونية

يستلقي رجل مثلاً على فراش ويوضع قطبان كهربائيان مصنوعان من احد اخلاط البلاتين على جانبي عضلة من عضلات الذراع او الوجه او اية عضلة اخرى . ويوصل القطبان بالسلك الى الجهاز الحساس ، فيقاس فيه مقدار التيار المتولد في العضلة ، وبذلك يعرف مقدار التوتر في اليافها . فاذا استرخت العضلة ضعف التيار حتى اذا انقطع قيل ان العضلة في حالة استرخاء تام او راحة تامة . وكثيراً ما حدث عندما بلغت العضلة هذه الحالة ، ان ران النوم على صاحبها

حتى عند ما يكون الفكر مشغولاً بموضوع ما ، تتوتر الالياف في طائفة من العضلات . وجاكوبسون يفسر ذلك في كتابه «في وسعك ان تنام نوماً هادئاً » . فقد ثبت في مختبره انه اذا فكر الرجل في عمل من الاعمال التي تقتضي تحريك العضلات ، ولد ذلك تياراً كهربائياً في الوسع قياسه . فاتخذ ذلك دليلاً على ان التفكير أثر في العضلات تأثيراً غير واع . واثبت بالبحث الدقيق انه اذا قال الانسان لنفسه قولاً ما فعضلات الشفتين واللسان والحلق تتحرك كأنها تستعد لتقول ذلك القول . وما يصح على الشفتين واللسان والحلق يصح على العينين مثلاً . ولذلك يشير على من يستعصي عليه النوم اتسيح عقله بان يدرب نفسه على استرخاء جميع العضلات الخارجية في الجسم . قال : دع عضلات العينين والشفتين تسترخي تماماً ولو لمدة قصيرة ، وعندئذ تنام . وستبقى نائماً نوماً هانئاً ما زالت العضلات غير متوترة . ومن هنا نستطيع ان نفهم تأثير الحمامات الفاترة في إحداث النوم ، فانها تفضي الى استرخاء العضلات الخارجية

تحديد النسل

ومشكلة السكان

للدكتور شريف عسيران

تستمد فكرة تحديد النسل اصلها من مفكري اليونان الاقدمين فقد ذكر فلوطوخس مؤرخ العظماء الاقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل الاطفال الضعاف البنية رغبة منهُ في تنشئة شعب قوي . وادرك افلاطون وارسطو طاليس الخطر الناجم عن كثرة الولد وخصوصاً ماكان منها في الاسر الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لضبطه [1] ويظهر ان الرجال عند الشعوب البدائية لم يهتموا بتحديد النسل بل كانوا على الضد من ذلك يميلون الى كثرته ولكنهم يفضلون الذكور على الأناث. فالمرأة هي التي ابتدعت تحديد النسل لتتخلص من عناء تربية الاولاد وتحتفظ بنضارة صباها وتخفي عار علاقاتها خارج الزواج فراراً من الموت وغير ذلك من الدوافع . فكانت ترفض الرجل في اثناء الرضاع الذي يمتد احياناً الى العشر السنوات . واكثر الشعوب البدائية كانت تقتل الوليد اذا كان مشوهاً او مريضاً او لقيطاً اواذا ماتت امهُ في اثناء الولادة . وكثير من القبائل كانت تقتل الأطفال الذين يولدون في اوقات نحس . وكانت بعض القبائل تحسب ولادة تثمين ضرباً من الزنا اذ لا يعقل في عرفها ان يكون نفس الأب والداً لولدين في وقت واحد فلا بد من قتل احدهما وكان الاليونيزيون (Alipones) لا يحتفظون الا بصبي وبنت ويقضون على بقية النسل وعند ما كانت المجاعات تهدد بعض القبائل كانوا يخنقون المواليد الجدد وبعضهم يأكلهم [2]

وقد وصف كتاب عربي في القرن السادس عشر من العصور الوسطى بعض الطرق الكيماوية لتحديد النسل . وذكر فالوبيس المشرح الايطالي الشهير بعض الاغلفة المصنوعة من الكتان الدقيق او امعاء الحمل . وظهر اول نص باللغة الانكليزية سنة ١٨٢٣ ونسب الى

---

(١) المقتطف م ٧٦ ص ١٣٢ راجع ايضاً المقتطف م ٩٢ ص ٣٤

(٢) قصة المدنية لول دورانت The Story or Civilization. By Will Durant p. 49-50 1935

Francis Place وأعقبهُ « كتاب كل امرأة » لكارليل Carlyle's Every Woman's Book[1]

وكتبت الملكة فكتوريا الى خالها ملك البلجيكين سنة ١٨٤١ النبذة الآتية :

اظن يا خالي العزيز انك لا ترغب لي في ان اكون والدة اسرة كثيرة العدد . واخالك تدرك معي سوء مغبة الاسرة الكبيرة لتاجينا ولبلادنا بنوع خاص بصرف النظر عما احمله شخصياً من المشاق . ان الرجال لا يشعرون ابداً او نادراً . ما يشعرون مع المرأة او يقدرون المشاق التي تعانيها من تعدد الاولاد[2]

﴿ اصل اللفظة ﴾ المرجح ان اول من استنبط هذه اللفظة Margaret Sanger سنة ١٩١٤ وهي ممرضة اميركية رأت ما يقاسيه النساء من الآلام والتعس في تربية اولادهنَّ وادركت الخطر الناجم عن كثرة النسل فأخذت تدعو الى مبدأ تحديده وتعمل على نشره خاصة بين الطبقات الفقيرة التي لا تساعدها احوالها الاقتصادية على اعالة اولاد كثيرين وسردت في كتابها « كفاحي في تحديد النسل » قصة امرأة عانت ما عانت من كثرة الاولاد وماتت ضحية الجهل بتعمدها الاسقاط بطرق غير فنية وكانت قضايا كهذه حافزاً لها ومسوغاً للدعاية لتحديد النسل . وقد اضطهدت وحوكمت في سبيل مبدئها وصودرت مؤلفاتها ولا سيما نشرتها لنساء العوام التي موضوعها « ثورة المرأة » وسجنت شهراً سنة ١٩١٧ لفتحها مستوصفاً لتحديد النسل . وتجولت في انكلترا وفرنسا وانحاء اوروبا للتبشير بمبدئها ولاقت دعايتها هوى في نفوس الكثيرين ونفوراً من غيرهم ولاسيما طبقة الاكليروس الذين قاوموا هذه الفكرة بمختلف الاساليب

﴿ انصار تحديد النسل ﴾ طبعت سنة ١٨٦٧ مطبعة جريدة الفكر باميركا طبعة جديدة من كتاب ثمار الفلسفة تأليف الدكتور نولتن Dr. Knowlton من بوسطن الذي الفهُ سنة ١٨٣٣ وذكر فيه طرق تحديد النسل المعروفة في ذلك الوقت فصادرتهُ الحكومة وحاكمت الناشر والبائع فتحمس مصلحان اجتماعيان لهذه الحادثة وهما Char hlesBradlaugh و Annie Besant دفاعاً عن حرية الرأي وتوعدا الشرطة بطبع الكتاب وتوزيعه مجاناً فصادرتهُ السلطة واحالت الناشر الى المحكمة وقد دافع برادلو دفاعاً بليغاً عن هذا الكتاب[3] ومن اشهر انصار هذه الحركة الدكتور جورج درزديل Dr. George Drysdale فقد نشر سنة ١٨٥٤ كتابه « مبادىء علم الاجتماع » وبسط فيه نظرية منع الحمل من الوجهة الاقتصادية والفلسفية وصار فيما بعد رئيساً للعصبة الملتوسية التي بدأت عملها المجيد في ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٧ وصارت اني بيزانت كاتمة سرها

---

(١) غسق الابوة The Twilight of Parenthood,, By Enid, Charles 1934, p. 174 للدكتورة اينيد تشارلس

(٢) The Eugenic Review, April, 1935, p. 16

(٣) تاريخ الاخلاق الحديثة History of Modern Morals, by Max Hodann 1937,p. 180

وبيع في السنة التي حوكم فيها برادلو ١٨٥٠٠٠ نسخة من كتاب « ثمار الفلسفة » و ١٧٥٠٠٠ نسخة من كتاب اني بيزانت « شريعة السكان »

وقد نطق الروائي الشهير ولز بالكلمات التالية في عشاء العيد السنوي سنة ١٩٢٧ :— « تعتبر هذه المحاكمة تاريخاً في حياة البشر . ونرى الناس لأول مرة يسيطرون على مقدراتهم الاحيائية وقد مضى خمسون سنة على تأسيس عصبتنا التي بدأت أعظم انقلاب في كل تاريخ البشر إذ هذه أول مرة يتخلص النوع الانساني فيها من ضغط السكان أي تنازع البقاء الذي كان متسلطاً منذ وجوده على كياننا الاحيائي[١] »

﴿ النظرية الملتوسية ﴾ ومن أبطال هذه الحركة الذين يشار اليهم بالبنان ملتوس وقد ترك اكبر أثر يذكر لأنه لم يتسلح بسلاح العاطفة شأن الذين سبقوه بل بنى نظريته على أسس علمية معتبرة في عصره وتعرف هذه النظرية باسمه «النظرية الملتوسية» . وقد ساعده على نشر مبادئه في ذلك الوقت فقر الطبقة العاملة فقد كتب رسالته في أثناء حروب نابليون التي كانت سبباً في فقر الناس المدقع وعاملاً في قبولهم هذا المذهب[٢]

وجديرٌ بنا ان نلمّ قليلاً بهذه الشخصية البارزة التي كانت المحرك الأكبر لتحديد النسل. الأب ملتوس واسمهُ الكامل Robert Thomas Malthus اقتصادي انكليزي من المعروفين في عصره ولد سنة ١٧٦٦ وتوفي سنة ١٨٣٤ وأبوه دانيال ملتوس من أصدقاء روسو الفرنسي الشهير.وقد نشر ملتوس أول رسالة عن مبادىء السكان سنة ١٧٩٨وأعاد طبعها مراراً وظهرت آخر طبعة وهي السادسة سنة ١٨٢٦ وكانت هذه الرسالة نتيجة مباحثاته مع والده الذي كان موافقاً لرأيه وهو الذي حثهُ على اخراج فكرته الى حيّز العمل.وخلاصة نظريته أنهُ اذا استمر السكان يزدادون عدداً فتكون زيادتهم بنسبة هندسية بينا وسائط العيش تزداد بنسبة حسابية وان هناك حواجز تحول دون تجاوز السكان هذه النسبة وهي الحروب والمجاعات والأوبئة والفقر وتدهور الآداب. وقد حمل حملة شعواء على القوانين الانكليزية المرعية في ذلك العهد وما تغدقه من المنح لحماية الاسر زاعماً ان زيادة السكان وبالٌ على الامة وقد احدثت رسالتهُ ضجة في مختلف الاوساط وانبرى كثيرون للرد عليه وتفنيد آرائه . وقد اضاف الى مذهبه فيما بعد عاملاً جديداً سماه الرادع الادبي Moral Restraint وعنى بذلك تأخير سن الزواج بغية تحديد النسل[٣]

---

(١) تاريخ الاخلاق الحديثة The History of Modern Morals, p. 183
(٢) نظرية السكان لكار صوندرز Theory of Population, Carr-Saunders, 1931, p. 23
(٣) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت عنوان Birth-Control

ومن رأي East ان ملتوس لم يبتدع هذه الفكرة بل استمدها من كتابات بنجامين فرانكلين وهيوم وولسن وطونسند [١]

﴿مجددو الملتوسية﴾ وظهرت بعده فئة من العلماء اطلق عليهم « مجددو الملتوسية » امثال درزديل وزوجه ومنهم هافلوك اليس الشهير وولز وتري وغيرهم . ومن شهيرات المتحمسات لهذا المذهب والعاملين به في هذا العصر الدكتورة الانكليزية الشهيرة ماري ستوبس ولها مؤلفات كثيرة في هذا الموضوع آخرها حسبما اعلم « تحديد النسل اليوم » طبع سنة ١٩٣٤ وقد انشأت جمعية في انكلترا لهذه الغاية سنة ١٩٢١ وفتحت عيادات استشارية لارشاد الامهات وهو نظام منتشر اليوم في اكثر انحاء اوروبا واميركا ويمارس علناً

﴿ردُّ نظرية ملتوس﴾ نظر ملتوس الى العالم نظرة جمود وحسبهُ كياناً لا يتغير ولا يتطور وفاتهُ ان البشر يتطورون في حياتهم العقلية وجميع مظاهرهم الاجتماعية بغذائهم ولباسهم وقوانينهم وتقاليدهم ومقدرتهم في التغلب على المحيط واخضاعه لراحتهم وسعادتهم وأبلغ من رد هذه النظرية بالطرق العلمية الصحيحة الدكتورة بالفلسفة ايند تشارلس الانكليزية Enid Charles في كتابها « غسق الابوة » The Twilight of Parenthood الذي قال عنهُ جوليان هاكسلي الشهير « ان هذا الكتاب من اثبت الكتب عن شؤون السكان منذ الفكار صوندرز Carr Saunders كتابه « مشكلة السكان » فعلى كل من يهتم بالقضايا الاجتماعية والسياسية ان يطالعهُ » . وقد اقتطفنا كثيراً من آرائها الناضجة بهذا الصدد لانها مبنية على البحث المجرد عن العاطفة وعلى المنطق الصحيح . وقد وصفت هذه العالمة القديرة نظرية ملتوس بانها ملذة فقط لمؤرخ اخطاء البشر

الانسان سيد المخلوقات واكثرها سيطرة على المحيط وقد حبتهُ الطبيعة مواهب لم يتمتع بها غيره فهو الوحيد بين الاحياء الذي يتمكن من استعمال الآلات والاستعانة بها في السيطرة على المحيط الى ما يؤول لحفظهِ وسعادته فتمكن ان يقي نفسهُ قارس البرد ولاهب الحر ببناء البيوت وارتداء الثياب واستخدم لهذه الغايات غيره من انواع المخلوقات النباتية والحيوانية وسخرها لحفظ حياته وراحته فبنى من الاحجار سكناً واتخذ من الحراج وقوداً وصنع من الياف النبات وصوف الحيوانات وجلودها لباساً وجعل انواع النباتات والحيوانات مصدراً لغذائهِ فنشأت العلاقة بين الانسان وغيره من المخلوقات الحية . فالانسان يعيش على النبات والحيوان ويعيش الحيوان على النباتات وغيره من الحيوانات . والنبات يعيش على المواد النيتروجينية غير العضوية التي في الهواء والتراب التي تتحول بفعل البكتيريا الى مواد عضوية وعلى المواد

(١) East, Mankind at the Cross Roads, 1926 p. 46

العضوية المتولدة من تفسخ الحيوانات بفعل (البكتيريا) وتعيش الجراثيم على اشلاء الحيوانات والنباتات فهذه العلاقة المتبادلة في الغذاء والتناسل والتنازع والانتشار وغير ذلك بين الانسان والحيوان والنبات هي ما يعبر عنهُ بالمساكنة Ecology[1] . واول من تنبأ عن هذه العلاقة الروائي الانكليزي الشهير ولز

تحكم الانسان بالحيوانات والنباتات وجعلها تكثر وتقل وفقاً لرغائبه وكان يعول على الخيل والجمال والحمير والبقر في قضاء حاجاته وكانت الخيل من الوسائط الاولية في اخراج قواه الحيلية (الميكانيكية) كحمل الاحمال وجر الاثقال والحرث والري وما اشبه . ولما اكتشف البخار واهتدى الى الكهرباء اخذ يستغني عن الخيل وغيرها فقل عددها اليوم بالقياس الى الأمس وليس من المستبعد ان تصبح اثراً بعد عين في خلال قرن او تنقرض كما انقرض غيرها من الحيوانات . كان الناس يستضيئون منذ قرن بانواع الشحوم والزيوت فاعتنوا بمصادرها ولكنهم استعاضوا عنها اليوم بالغازات التي يستخرجونها من باطن الارض والكهرباء التي يسخرون لتوليدها القوى الطبيعية كالماء والمعادن الكيمياوية . وبالامس كانوا يستخرجون الحرير من دود الحرير فاستعاضوا عنهُ اليوم بالحرير الصناعي وكذلك المطاط والنيلة وغيرهما من المواد الصناعية التي استطاعوا استخراجها بالتركيب الكيمياوي . وليس من المستبعد كما قال الاستاذ هالدين ان تتمكن من استخراج مقادير كبيرة من السكر بتأثير البكتيريا المجزئة للمواد الخيطية في نفايا الخضر . هذه بعض الأمثلة من تسلط الانسان على النبات والحيوان

وقد لخص جون رسل الناحية الغذائية في الخطاب الذي ألقاه أمام المجمع العلمي البريطاني بقوله : نجح العلم الحديث بتزييد قوة سلطة الانسان على الطبيعة حتى كثر الانتاج كثرة تربي عن حاجته فاضطر ان يتلف مقادير من محاصيل الحنطة والبن والقطن لأنها زادت عما يستطيع تصريفه في الاقطار الصناعية . فقد زاد محصول قصب السكر في جاوا الهولاندية أربعة اضعاف وانخفض ثمن السكر في الهند الغربية وهدد صناعة هذا الصنف في بريطانيا العظمى وأشار اللورد Bledisloe الى بعض المشكلات الزراعية بالعبارة الآتية : —

إن حرق مقادير كبيرة من الحنطة في بعض مراكز هذا الصنف بسبب زيادتها عن الحاجة المطلوبة تحملنا على ان نفكر في تحديد زراعته كي لا يؤول طغيانهُ الى إفلاس الكثيرين من زراعه[2]

وظهر من الأرقام التي نشرها مجلس زراعة انكلترا بشأن الامبراطورية البريطانية وأوربا

---

(١) لفظة يونانية مركبة من لفظتين ايكس ومعناها البيت ولوجي العلم فيكون معناها الحرفي علم البيت ولم أجد لها مرادفاً عربياً فاخترت لفظة مساكنة للتعبير عنها

(٢) Twilight of Parenthood p. !!

وغيرها من الامصار ومن ضمنها الارجنتين والولايات المتحدة وسيبيريا واليابان والجزائر ان مجموع مساحات الحنطة زاد بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩١١ من ٢٠٠ر٩٣٠ر٠٠٠ اكر الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٧ أي زيادة ٢٣ بالمائة . وقال السر هنري رو ان هذه الزيادة نذير للانبياء ! (١)

وتتلخص طرق تحكم الانسان في الاحياء المساكنة له بما يلي : (١) السيطرة على العوامل الطبيعية التي تحدد مقدار الأنواع الصالحة لمنفعته ونوعها (٢) ابادة الأنواع التي تنازعه البقاء بالقضاء عليها مباشرة او بالواسطة (٣) انتخاب الانواع الصالحة له وتحسينها وفقاً لحاجته . فيدخل تحت العامل الأول مختلف المواد الكيماوية التي استنبطها الانسان لخصب الارض واستعمال الحرارة اللازمة لأنواع النباتات والحيوانات . ولا حاجة ان نتوسع في تفننه في طرق الري وتحويل البراري القاحلة الى ارض خصبة وحدائق غناء . وقد توصل الى اختيار انواع النباتات والحيوانات التي تقاوم الجفاف . وزيادة محصول الحنطة في كندا وحدها حمل بعض العلماء على القول الآتي : لا خطر على العالم من قلة الطعام لمدة قرن على الاقل اذا استمرت زيادة السكان بالمعدل الحاضر

ومن مستنبطات العلم الحديث خزن العلف الذي تقتات به المواشي كالحشيش الأخضر وما اشبه دون ان يهرأ . وقد اكتشف الأستاذ منرو حديثاً ان تلف الحراج ناشيء عن الزنابير التي تضر اشجارها . وتعيش هذه الزنابير على ضرب من العفن (Fungi) يسكن الاشجار ولا ينمو العفن اذا كانت الاشجار في ارض جافة فتجفيف الماء من التراب يقضي على الزنابير ويحفظ الاشجار

﴿ الاسمدة ﴾ اما الاسمدة الصناعية فحدّث عنها ولا حرج فالنيتروجين من العناصر الاساسية في الحيوان والنباتات . وقد زاد معدل مركباته بين سنة ١٩٠٣ ، ١٩٢٨ ثلاثة اضعاف وكان مصدرها الوحيد قبل سنة ١٩٠٣ المعادن التي في جوف الارض . وقد تنبأ بيرل Pearl عن قرب نفاد النيتروجين فلم تمضِ عشر سنوات على نبوءته حتى تمكن العلم من استخراجه من الهواء (٢) مباشرةً ونصف مركباته تستخرج الآن من هذا المعين الذي لاينضب . وقد تمكن الانسان من تحسين الاعشاب التي تقتات بها المواشي في المراعي والتفت الى ضرورة المواد غير العضوية للنباتات كالحديد والمنغنيز والكلس (الجير) والبوتاس وغيرها فعالج فقر التفاح بالحديد مثلاً بشبك مسامير الحديد في جذوع الشجر وزاد محصول الليمون باضافة البوتاس اليه . وتستعمل الاسمدة الكيماوية في اصناف الخضر والفواكه والبقول والحبوب فتأتي بالمدهشات

(١) Population : Carr-Saunders p. 71

(٢) Twilight of Parenthood . p 187

﴿ الحرارة ﴾ وقد صنعوا سقوفاً من زجاج لزرائب الخنازير تخترقها اشعة تحت البنفسجي لمقاومة داء الكساح الذي ينتاب هذه الحيوانات وعوضوا نقص اليود في غذائها فزاد نتاجها زيادة كبيرة لانها حساسة جداً لنقص هذا المعدن وصنعوا بيوتاً زجاجية لوقاية مختلف البقول والخضر والعلف وغيرها مما يقتات به الانسان والحيوان . وتمكنوا بواسطة الحرارة الصناعية من انقاص غذاء الخنازير ٢٠ بالمائة . وزادوا معدل بيض الطيور بتعريضها للانوار الكهربائية . ويضيق بنا المقام اذا اردنا التوسع بهذه الناحية

﴿ ابادة الحشرات ﴾ لقد تمكن الانسان من القضاء على كثير من انواع الحشرات التي تفتك بالحبوب والخضر والفواكه وغيرها مما يقتات به الانسان فتحسنت زراعتها وزاد نتاجها اضعاف الاضعاف. فقدقدروا الاضرار التي تصيب الزراعة من الاعشاب المضرة والرواشن فقط بـ ٢٥ بالمائة من محصولها فاستنبطوا طرقاً متعددة لتلافي تلك الاضرار اهمها اولاً ذر المساحيق الكيمياوية. ثانياً تسليط مضادات الحشرات التي تؤذي الزرع. وثالثاً توليد انواع من النباتات ذات مناعة خاصة ضد الامراض النباتية وامثلة ذلك القضاء على كثير من الحشرات التي تفتك بانواع البرتقال والعنب والتمر والقطن والحنطة وغيرها وقد قدر خسارة الاذرة الصفراء والقطن في الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ بخمسمائة مليون دولار . وقد تمكن الدكتور سولمان من استنبات نوع من البطاطس منيع ضد الجراثيم التي تفتك به واستنبت غيره أنواعاً من الفاكهة منيعة ضد أمراضها . وتمكنوا من تضريب الحنطة في السويد وتحسينها فزاد حاصلها ثلاثين بالمائة وتمكن سوندرس من توليد نوع حنطة يعطي حاصلاً بمدة ١٠٣ ايام

﴿ الناحية الاحيائية ﴾ لقد اعلن المشتغلون في المختبر الحيواني بجامعة انديانا سنة ١٩٣٤ أنهم استطاعوا التحكم في نوع الشق (الجنس) وتمكنوا من زيادة نسبة الاناث بحقن الفسحات الهوائية بأعقاب البيض بمادة الثايلين خلاصة البيض . وتمكن الباحث الروسي كولتسوف Koltsov من تفريق النطف المنوية التي تكون الانثى في الارانب عن التي تكون الذكر بواسطة الكهربائية وتزيد الاناث عن الذكور (١) ولا ندري ما يحمله الغد من عجائب العلم

وقد زادوا انتاج الحيوانات والطيور بتحسين نسلها والقضاء على الامراض التي تفتك بها كانواع الجراثيم والديدان وغيرها فزادت زيادة عظيمة

هذه نظرة عامة ترينا ضعف النظرية الملثوسية وعدم انطباقها على البشر الذين يكيفون انفسهم وفقاً للظروف ويتحكمون بمحيطهم كما يشاؤون فلا خوف على الانسان مهما قلت المواد الغذائية وتعقدت المشاكل الاجتماعية فانه واجد لنفسه مخرجاً

---

(١) Outposts of Science, 1935, p. 191 By Bernard Jaffe

المذاهب السياسية الحديثة وفلسفتها

فلسفة الفاشية

لعلي أدهم

﴿ نظرة عامة ﴾ كان مفكرو اليونان يرون ان الحياة الفاضلة لا تتهيأ اسبابها وتستوفي شرائطها وتستكمل عناصرها الا في كنف الدولة ، وان الدولة هي اقوى الذرائع واقرب السبل الى تحقيق تلك الحياة وتمهيد مقدماتها ، وكانت الاخلاق في رأيهم مرتبطة بالحياة العامة متصلة بالسياسة ، وتصورنا للدولة ووظيفتها يجب ان يلون باللون الاخلاقي ويمتزج بادراكنا للفضيلة ، ثم جاءت المسيحية فباعدت مابين الاخلاق والسياسة وصرفت عناية الانسان الى العالم الآخر ووجهت جهوده الى الحرص على استنقاذ الروح من مفاتن الحياة ومغريات الحواس واغرت النفوس بالزهادة والاستهانة بامور الدنيا واحوالها المتقلبة الفانية ، ومنذ عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وسار كل منهما في طريقه واول من اعلن انفصالهما في جراءة وصراحة هو مكيافلي في كتاب الامير

وقد عادت السياسة الى الاتصال بالاخلاق في العصور الحديثة ويتجلى ذلك في المذاهب السياسية السائدة التي تناوىء الديمقراطية واخصها الفاشية والشيوعية

ونظرية سيادة الدولة المطلقة هي اكبر ينابيع الفاشية واقوى اصولها وامتن دعائمها ، والفاشية الى حد كبير تحقيق عملي لتلك النظرية ، ويزعم شراح المذهب الفاشي ان الفاشية ليست نظرية للدولة فحسب ، وانما هي رأي في طريقة الحكم وموقف تجاه الحياة ونظرة خاصة للكون والمجتمع واسلوب مستحدث في علاج مشكلاته وتفريج ازماته وليست هي مقتصرة على نبذ الديمقراطية والقضاء على الاشتراكية وانما هي في منزلة بعث جديد للروح الانسانية

والمذهب الشيوعي لا يغالي في ادعاءاته الاخلاقية الشاملة كما تفعل الفاشية ، ولكنه مع ذلك يتطلب نظراً معيناً للاخلاق ، والشيوعية تحبذ اسلوباً خاصاً للحياة وترجحه وتؤثره على غيره وتدعو الى الاخذ به والسير بمقتضاه ، ورأيها مستمد من التصور الشيوعي للمجتمع وطبيعة القوى التي تحرك التاريخ وتؤثر في الحركات الاجتماعية ، ومسائل الأخلاق تبحث عند الشيوعيين

من ناحية علاقتها بالعوامل السياسية والاعتبارات التاريخية والظروف الاقتصادية

وكلا الشيوعية والفاشية يفرض على الأفراد الشيوعيين — او الفاشيين — ان يعيشوا على نهج خاص واسلوب يزيد رفعة الدولة ومجدها ، وعليهم ان يعلنوا محاسن ذلك الاسلوب وينشروا مزاياه ويبشروا به ، وهم في سبيل ذلك لا يحجمون عن ايذاء مخالفيهم واضطهادهم ، والشيوعية والفاشية فلسفتان عمليتان ومثل هاتين الفلسفتين قد يحتمل المعارضة ويتسع صدره للمناقشة في ساحات التفكير وميادين البحث ، ولكن عند مايدين بمبادئه حزب من الاحزاب ويصل عن طريقها الى مراكز الحكم ومقاليد السلطة ومعاقل النفوذ يصبح لا يحتمل المعارضة ولا يطيق المناظرة

والشيوعية والفاشية — على نقيض الديمقراطية والفردية — يميلان الى توحيد السياسة والاخلاق ويحاولان ان يجعلا الوطنية قوة ايجابية فعالة عاملة على تحقيق المثل العليا والغايات المنشودة ويتطلعان الى القضاء على كل الاحزاب والشيع التي تخالفهما في الرأي وينكران عليها كل حق من حقوق التعبير عن آرائها ، وغايتهما ان يصيرا عقائد شاملة مستوعبة لنواحي الحياة جميعها مسيطرة على كل فكرة وكل عاطفة وبذلك تصير السياسة والاخلاق شيئاً واحداً

ونظرية الفاشيين في الحكومة هي نظرية سيادة الدولة المطلقة ،فالدولة اعظم من الفرد وحقها في الوجود يفوق حقوق الافراد ويسمو عليها ، وللدولة غاية تبغي طلابها وواجب الافراد معاونتها على اداء تلك الغاية ، ونمو شخصيتهم ونضج ملكاتهم رهن بالمشاركة في النهوض بذلك الواجب، وخدمة الدولة تسمو بالفرد وترفعه الى الذروة وتحلق به فوق المآرب الشخصية وهي لا تحيل الفرد عبداً وانما تعلمه الكفاح والعدوان وتأكيد النفس والاعتزاز بالشخصية في سبيل خدمة الاغراض السامية ، وطاعة الزعيم ترباً به عن الانغماس في الصغائر والاستغراق في الانانية والغرور

والدولة عند الفاشيين ليست مدينة للفرد بشيء لانها اسمى منه والكفة بينهما غير متساوية والمقام متفاوت ، بل هي منبع كيان الفرد واصل آدابه ، وهي حرة من الالتزامات الادبية مع غيرها من الدول لانها قوة لا يتطاول اليها احد ولا يساميها انسان وهي من ثم لا تقبل الخضوع لعصبة الامم . والنظام الفاشي او الشيوعي يتطلب الحجر على حرية الفكر وحرية النقد وحرية الخيال لأن هذا الحجر في زعمه لصالح الدولة وصالح الدولة هو ماتريده الارادة العامة اي «الارادة الحقيقية » للشعب وهذه الارادة يفسرها في المانيا اعضاء الحزب الوطني الاشتراكي وينطق عن لسانها في ايطاليا الحزب الفاشي !

﴿ تعليل ظهور الفاشية ﴾ — يرد بعض الباحثين اسباب ظهور الفاشية الى ظهور حالة عاطفية جديدة مصدرها ان العالم الحديث فيه رجال كثيرون لهم همة ماضية وعقول ثاقبة ولكنهم لا يجدون مجالاً لهمتهم ولا ميداناً لتدريب مواهبهم وهم من ثم تائقون الى النفوذ والقوة ولا يحجمون عن

اصطناع القسوة لبلوغها ، وقد سلبهم العصر الحديث قوتهم وغمطهم حقهم وفوَّت عليهم فرص النجاح ، وشلَّ حركة القادرين على الابتكار والتجديد وقيد نشاطهم واوصد في وجوههم ابواب المغامرة والمخاطرة وسلط عليهم الملل والسأم ، وامثال هؤلاء يجدون في الفاشية خير منقذ

ويرى البعض في الفاشية بديلاً من الدين في عصر وهنت فيه العقائد وضعف سلطانها على النفوس ودالت دولتها ، والطبيعة تكره الفراغ فغير عجيب ان تحل الفاشية محلها وتقوم بمهمتها

ويعللها البعض بانها ثورة على الحضارة ، وذلك لان حركة التقدم تحدث ضغطاً على العقل وتستحثهُ على ان يلائم بين نفسه وبين الوسط المتجدد ، وهذه الملاءمة تستدعي لذلك كبحاً من ناحية وطول احتمال لافكار جديدة واساليب لا عهد له بها ، من ناحية اخرى ، وعندما تسرع حركة التقدم ويشتد ضغطها يبدأ الذين يشعرون بنقصهم وتخلفهم أزاء ذلك التطور المتابع والتقدم المستمر يحسدون المتفوقين البارزين ويتولد في نفوسهم الميل الى رد فعل لايقاف ذلك التقدم واعتراض سيره والعودة الى اساليب ادنى الى البساطة وأيسر للفهم وأقرب الى اظهار الشجاعة والاقدام والطاعة والثقة بالحكام ، وهكذا عندما يفوق تطور الحضارة مقدرة الانسان على التكيف بحسب الاحوال الجديدة يصبح خطر العودة الى الاحوال القديمة والطرق المهجورة ماثلاً ويشتد كره المستوى العالي والحياة المركبة المعقدة ويبدو ذلك في صور مختلفة منها صورة الرغبة في الاحتفاظ بالتقاليد القديمة والعودة الى أساليب الحياة البسيطة الساذجة ومحاولة الحرص على نقاوة الشعب والعمل على استئصال الفساد السياسي والانحلال الاخلاقي

ويعلل الشيوعيون الفاشية بأنها آخر مرحلة من مراحل النظام الرأسمالي ، وهي في عرفهم رأسمالية عجزت عن اجابة مطالب العمال ومواجهة قوتهم النامية دون أن تهدم أساسها وتكشف عن زيفها ولذلك خلعت عن وجهها النقاب وأعرضت عن ادعاء الديمقراطية السياسية

اما أنصار الفاشية فيفسرونها بأنها يقظة جديدة وبعث للروح ، ويشبهونها بنهضة احياء العلوم ووجهة نظرهم ان اوربا قد استولى عليها منذ عهد الحضارة القديمة تياران فكريان ، احدهما تيار الفكر اليوناني والآخر تيار الفكر الروماني ، فالتيار اليوناني هو الذي عمل على تقوية التفكير وشجع نزعة الشك واوحى الميل الى التجربة وألهم الفردية ، والتيار الروماني هو الذي أوحى الولاء وحب التعاون الاجتماعي والرغبة في النظام واحترام التقاليد ، وقد أعاد عصر احياء العلوم للقيم اليونانية مكانتها ورد عليها سالف قوتها لانهُ هو الذي بدأ عهد حرية التفكير وأعاد في عالم البحث طريقة التجربة والاستقراء التي انتهت بانتصار العلوم من ناحية وتحطيم الاديان من ناحية اخرى ، وبدأ في عالم السياسة عهد الديمقراطية والحرية والمساواة وأوجد فكرة أن الحكومة هي وسيلة لاسعاد الفرد ، ولم تجد الروح اليونانية كابحاً فتطوحت وتمالت حتى أشاعت الفوضى

في الآداب والسياسة وعصفت باليقين وثمرتها المرة هي الشيوعية والفوضى في المسائل الجنسية والكفر والتمرد وقد استلزم ذلك العودة إلى حركة بنائية في السياسة والآداب لترجيح جانب التيار الفكري الروماني . وقد تحققت هذه الحركة في الفاشية لأنها عودة الى الفضائل الرومانية ، فضائل الولاء والنظام ، وهي لا تعنى بتقدم الفرد وانما تعنى بالتضامن الاجتماعي ، والمثل الأعلى عندها ليس هو العالم في معمله ولا المفكر في مكتبه وانما هو المجاهد الشجاع الصبور الذي يسحق أهواءه ويغالب شهواته ويتعمق في تدينه ويدافع عن الضعيف ويناضل عن الحق وينتصر للتقاليد ويذود عنها ، ورجل العمل عند الفاشيين أقرب الى فهم الحياة وادراك كنهها من المفكرين لان المفكر يفهم الحياة عن طريق العقل والتحليل في حين ان حقائق الحياة الحيوية انما تفهم بالبداهة الموفقة والألمعية اللامحة ، والفلسفة الفاشية لا تعول على العقل وانما تعتمد على الغريزة والايمان والحياة في نظر الفاشيين تحدٍّ دائم وجهاد متصل يرهف الحواس ويشد أوتار الاعصاب ويشحذ الهمة ويغري بحب المخاطرة ، وليست السعادة عند الفاشيين هي غاية الحياة وانما غايتها المجد والكفاح

﴿ آباء الفاشية ﴾ من المفكرين الذين مهدوا السبيل للفاشية والنازية الفيلسوف الالماني فخت، فقد كان يرمي الى ضم صفوف الالمان لمقاومة نابليون وحاول ان يثير الشعور القومي وان يعزز في النفوس الولاء للوطن فذهب الى ان التربية يجب ان تتجه الى تنشئة الشعب الالماني على منوال يوحد أفكاره وأمانيه ، وأشار الى ان الوسيلة الوحيدة لذلك هي التدريب العسكري والنظام الحربي ، فكل فرد يلزم ان يخضع لهذا النظام ويتناول بهذه الطريقة ، والوطن في زعمه رداء الأبدية وعلى الافراد ان يجودوا بأنفسهم في سبيله ، وهو يقسم الناس الى قسمين كبيرين وهما النبلاء وغير النبلاء ، وغير النبلاء انما يعيشون ليخدموا النبلاء ويلبوا مطالبهم وينقادوا لهم ، وميزة النبيل قوة الارادة ومضاء العزم والارادة عنده أساس الرجل ومحور الشخصية ، وجميع ضروب الفاشية تقوم على اكبار الارادة والاشادة بها ، والارادة في رأي الفاشيين هي العامل الحاسم في التاريخ . ولكن الى أي غرض يوجه الرجل الأسمى ارادته ؟ يرى فخت ان الرجل الاسمى انما يوجه ارادته الى عمل الخير ومصلحة الشعب ونفع الوطن وقد جاء بعده نيتشه ليؤكد ان القوة في نفسها هي غرض الرجل الاسمى

ونيتشه ينكر المساواة ويرى ان البشر غير متساوين وهو يهاجم آداب المسيحية في شدة وقسوة ، وعنده ان التواضع والخشوع من آداب العبيد ، وان الانسانية والعطف والرحمة من علامات الضعف ، وهو من أجل ذلك يعتبر المسيحية ديانة الضعف وهي تؤكد للفاشلين في الدنيا أنهم سيظفرون بالسعادة في العالم الآخر وتقاوم صفات الرجولة والكبرياء وتأكيد النفس ،

والواقع ان نيتشه في تفكيره الاخلاقي قد تأثر بتصور دارون للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء ، وقد ذهب دارون الى ان البقاء للانسب فجاء نيتشه واستنبط من ذلك حكمة اخلاقية فقال ان الانسب يجب ان يبقى اي انهُ حاول ان يستخرج قانون الاخلاق من نظرية التطور ، ومن طبيعة الآداب القائمة على اساس هذه النظرية انها ترى ان الصالح هو ماساعد على التطور وان الشر هو كل ماعاق حركة التطور ومن طبيعة الحياة انها تحاول على الدوام ان تفوق نفسها وان تخرج صوراً ارقى واكمل من ناحية الصفات العضوية ومن جانب الاخلاق ولكن كيف يعرف التفوق الاخلاقي والسمو الروحي؟ سمات الامتياز الاخلاقي والنبوغ الروحي هي رغبة الفرد الممتاز في ان يخضع لارادته الغير وانما ظهرت الدمقراطية لمقاومة ذلك وعكس آيته وابدال سنته وحب القوة عند نيتشه هو أقوى العواطف ، وقد يكون الانسان موفور الصحة وفي نعمة سابغة ولكنهُ يظل مع ذلك تعساً محزوناً لأنهُ ظامىء الى القوة متطلع الى النفوذ والسلطان ، والميل الى القوة هو الزلزال الذي يهدم الفاسد ويبعثر القبور ، واعلاء ارادة القوة وتمجيدها أدى بنيتشه الى تصور نوعين من الآداب آداب العبيد الذين يمقتون القوة وعدم المساواة وآداب السادة التي تعتبر القوة هي غاية الحياة وتحفز السادة على طلب الاستزادة من القوة وتقوية الصفات التي تعين على تحصيلها ، وعنده ان الفرق بين الخير والشر معناه الفرق بين النبل والضعة في حين انهُ عند العبيد هو الفرق بين النافع والخطر ، وآداب العبيد في رأيه آداب نفعية ، وكما ارتقى الانسان وجاوز مستوى القردة فكذلك سيرتقي الانسان الاعلى ويسمو على مستوى الانسانية والانسان الاعلى هو هدف التطور وغايته ، ويمتدح نيتشه الكفاح والغلاب ، وقد كان هجل يمتدح الحرب ويكبر من شأنها لأنها تزيد الدولة قوة وبأساً ونفوذاً ، أما نيتشه فانهُ يمتدح الكفاح لأن الشجاعة وقوة الارادة ومضاء العزيمة هي فضائل الانسان البارزة ، والكفاح يستلزم الشجاعة ويقوي الارادة ويهيىء الفرصة للرجل القوي ليظهر قوته وتفوقه وقد التفت لذلك مكيافلي فأوصى أميرهُ ان يجعل فن الحرب واجبه وشغله الشاغل لأنهُ علم الذين يباشرون صناعة الحكم ، والحرب عند نيتشه دواء ناجع للامم المستضعفة الواهنة اذا كانت تحرص على الحياة وترغب في البقاء

وقد سار في غبار نيتشه جماعة من كتاب الالمان رددوا هذه النغمة وأطالوا فيها واسرفوا اسرافاً لامزيد عليه في طليعتهم ترينشكه وبرناردي ، وكل من يقبل آراء نيتشه ونحلته يصبح يعتقد بنبل نفسه وسموها ، والفاشية تعلي الارادة وتمجد القوة وتقسم الناس الى فريقين فريق من حقه ان يسعى الى القوة وفريق ينقصه قوة العزيمة فواجبه طاعة الأقوياء والانقياد لهم وخطب الفاشيين وأحاديثهم ورسائلهم تنم على نبذ فضائل المسيحية والاخذ بالآداب الوثنية

البحث الثالث

خليل مطران

شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

نشأة الاتجاه الابداعي في الشعر العربي

﴿ توطئة ﴾ يقوم اصطلاح « الرومانسية » في الآداب الغربية من أصل في لغة اللاتين بمعنى غلبة الخيال والشعور على الاحساس والعقل . ومن هنا جاء الاتجاه الإبداعي في الآداب الغربية ارسالاً للخلجات النفسية مترعة بالوجدان بغير تقيدها بأحكام الفكر وقوانين العقل . ولهذا كان الاتجاه الابداعي يحتوي على بذور حركة مضادة للاتجاه الاتباعي من حيث يقوم هذا الاتجاه على أساس من القوالب والتراكيب التي هي من فعل الذهن الصرف ، والتي تصاغ فيها خلجات النفس والوجدان فتخرج خافتة النبرات

على أن الإبداعية في الأدب العربي لم تقم — كما هو الحال في شعر الابداعيين — على أساس الثورة على القوالب والتراكيب العربية ، وانما قامت قبل كل شيء على أساس من نقل الشعر من الأغراض العربية الإتباعية الى الأغراض الأوربية الابداعية ، فبذلك كان اتجاه الحركة الابداعية في الآداب العربية أقرب في روحها الى الحركة « البرناسية » في الآداب الغربية ، آية ذلك أن خليل مطران أول الإبداعيين في الشعر العربي يقول في توضيح المذهب الجديد في الشعر : —

« اللغة غير التصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر لا يجب حتماً ان تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا . ولهذا وجب ان يكون شعرنا ممثلاً لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم ، وان كان مفرغاً في قوالبهم محتذياً مذاهبهم اللفظية » (١)

فخليل مطران يرى أن قوالب العرب في نظم الشعر ومذاهبهم في صوغ الكلام أساس إتباعي

---

(١) خليل مطران في المجلة المصرية ، السنة الاولى ج ٣ (يوليو ١٩٠٠) ص ٨٥

تقوم عليه لغة الضاد ، وأن المذهب الجديد ليس عليه أن يخرج على هذه الأصول . وإن كانت له كل الحرية من جهة صرف المعاني وتوجيه الأغراض الى السبيل الذي يشاء ، غير مقيد بشيء إلاّ أن تكون هذه المعاني والأغراض مستنزلة من روح العصر الذي يعيش الناطقون بالعربية فيه اليوم ، ذلك ليكون هذا الشعر عصريًا من حيث تنعكس من صفحته ظلال روح العصر

على هذا الأساس يتضح جليًا لنا الاتجاه الجديد الذي استحدثهُ خليل مطران في الشعر العربي ، والذي سار في ركابه من بعد ما تميزت خطوطه الشاعر السوري خليل شيبوب والشاعر المصري علي محمود طه ، وقد كانا أمينين على أغراض المذهب الذي استحدثهُ خليل مطران في الشعر العربي من بين كل المجددين

هذا الاتجاه الجديد بثورته على الأغراض الاتباعية في الشعر العربي كان أعظم ثورة في تاريخ الأدب العربي، وكانت هذه الثورة بما تركت من آثار، مقدمة لعهد جديد في تاريخ آداب اللغة العربية منفصلاً كل الانفصال عن القديم . غير أن العهد القديم لم ينقض بهذه الثورة ، وإنما نشأ بجانب امتداده اتجاه جديد ، كان المقدمة للعهد الجديد . ومهما تكن حقيقة الأسباب التي دفعت خليل مطران إلى هذه الثورة ، فلا شك أنها مستنزلة أسبابها من بيئته الشعرية . إلاّ أن هذه البيئة مستقلة بحدودها عن البيئة الشعرية العربية العامة . ذلك أن حركة خليل مطران الأدبية تستند الى قوة من الفكر الفردي فيه تغلبت على قوة الفكر العام . وهذه القوة تخطت حدود التطور في هذا الشرق النائم في بعض أفراده النابغين ووثبت وثبات الى الامام متصلة بالفكر العربي بغير أن تجد في الشرق ما يهيء لها أسباب القيام من الفكر العام (١)

آية ذلك ان حركة خليل مطران الابداعية في الشعر ، وكثيراً من الحركات الفردية التي شهد قيامها الجيل الذي انقضى بقيام الحرب العظمى لم تحظ بشيء كبير من الذيوع ، وان لاقت بعض الاهتمام في بيئات فردية منعزلة عن المحيط العام

هذا وان كانت قوة الفكر الفردي وجدت في خليل مطران وبيئته الشعرية ما تجعله مهيأ الأسباب لرسالة جديدة في الأدب العربي تقوم على محاولة جريئة في نقل دائرة الشعر العربي من الأغراض العربية البدوية الى دائرة الأغراض الأوروبية العصرية ، تلك الأغراض التي كانت تتقوّم حياة جيل من الشباب في العالم الناطق بالعربية ، اتصلت به الأسباب الثقافية بالغرب فتشرّب آدابها في مدارس الارساليات وكليات الأميركان ببيروت ، فكانت من تلك الأسباب التي دفعت هؤلاء الشباب أينما حلّوا ونزلوا الى احتضان حركة الجديد ودفعها الى الامام وخرج من صفوف هؤلاء الشباب مطران محاولاً استحداث انقلاب في الشعر العربي . كما خرج من نفس

(١) I. A. Edham في Al-Zahhawy The Poet ص ١٤ وكذا في Abushády The Poet ص ١-٢

الصفوف زيدان منصرفاً الى ميدان التاريخ محاولاً ان يجنح به الى الطرائق الغربية . وكانت حركة صروف في العلم وفرح انطون في الأدب تستمد الأسباب من نفس هذا الاتجاه ، بحكم كونها من صفوف هؤلاء الشباب

غير ان قوة الفكر العام في العالم الناطق بالعربية من حيث كانت تتصل بالقديم وتمضي خبياً في تطورها ، أخذت تسير بالمجتمع الشرقي في خطوات تدريجية متصلة الأسباب بالقديم ، ومن هنا كانت تقف حائلاً دون تقبل الحركة التي قام بها هؤلاء النفر الذين تخطوا أسباب عصرهم المتصلة بالماضي واتصلوا بالغرب فالتحقوا بقافلة العصور التي لاتزال جنين الدهر في الشرق ، ولم تتمخض عنهم رحم الشرق بعد الى هذا اليوم . وهكذا كان هؤلاء اكبر من العصر الذي نشأوا فيه ، كما كانوا اكبر من العصر الذي لحقوه . ولهذا ذهبوا طي الزمن دون ان يلتفت اليهم ابناء عصرهم الالتفات الذي يتكافأ مع خصائصهم الممتازة

اما تلك الخطوات التدريجية فقد ارتكزت عليها روح الإحياء والبعث لتراث الأدب العربي القديم في جميع الاقطار الناطقة بالعربية . فكانت حركة البارودي وولي الدين يكن وحافظ ابراهيم واحمد شوقي في مصر ، والكاظمي والرصافي في العراق ، وشبلي الملاط وداوود عمون وامين تقي الدين في سوريا ولبنان وغيرهم ممن هم دونهم في الدرجة والشهرة . وكان روح هذا الفريق اتباعياً يقوم على الأغراض العربية البدوية في الشعر العربي من حيث بعثت للحياة من جديد وان رقق منها الحواشي حياة العصر

—١—

يقوم الاتجاه الاتباعي في الشعر العربي على أساس الاغراض النموذجية المصوغة في قوالب من عمل الذهن : وخير الشعر عند العرب ما سبق دبيبه في النفس دبيب الغناء ثم سبح بها في عالم الخيال ، ذلك ان الشعر العربي غنائي في روحه اتباعي في مبناه . ومن هنا « ان كان غزلاً . مر بها على مسارح الظباء وكنس الآرام وطاف بها على أودية العشق والغرام فأراها أسراب الارواح ترفرف على نواحيها غاديات رائحات في مروج الهوى سانحات سارحات في رياض المنى طائرات سابحات في أجواء الهيام حافات بأرواح اولئك الذين قضوا شهداء العيون وصرعى الجفون وأراها جميلاً وهو يرنو الى بثينة وابن حزام وهو يهفو الى عفرائه والمجنون وهو يضرع الى ليلاه ثم ردها بعد ذلك وقد أذابها رقة وأسالها شوقاً »[1] وهكذا تتجلى شاعرية الشاعر العربي من بين هذه الاغراض

وفي الاتجاه الاتباعي يقوم البيت من الشعر محل القصيد ، وتنتهي عندها اغراض الشاعر . ومن هنا لا تجد في الشعر العربي « ارتباطاً بين المعاني التي يتضمنها القصيد الواحد ولا تلاحم بين

(١) حافظ ابراهيم : في مقدمة الديوان — القاهرة ١٩٠٠

اجزائها ولا مقاصد عامة تقام عليها ابنيتها وتوطد بها اركانها ، وربما اجتمع في القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس ولكن بلا صلة ولا تسلسل . وناهيك عمّا في الغزل العربي من الاغراض الاتباعية التي لا تجتمع الا لتتنافر وتتناكب في ذهن القارىء . ولولا اختيار الالفاظ وحسن الاسلوب وبدائع الصور التركيبية . وكذلك لولا مؤالفة أذهان العرب لصيغة القريض وتركيبه من هذه القدد المتنافرة لتناكرت وجوه الشعر عند العرب وهم يرون التقطع بين قول كبير شعرائهم المتنبي :

انا لائمي ان كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعالم

وما يليه من الابيات ذوات الاغراض الغزلية ، وبين قوله مفاجأة على أثر ذلك :

فمالي وللدنيا طلابي نجومها ومسعاي منها في شدوق الأراقم

من الحلم ان تستعمل الجهل دونهُ اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

الى آخر هذه الاغراض المنتهية عند الحكمة. ثم بين قوله بعدها في الفخر :

اذا صلت لم أترك مصالاً لفاتك وان قلت لم أترك مجالاً لعالم

وبين قوله في التخلص الى المدوح :

والاَّ تخانني القوافي وعاقني عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

ولا جرم ان هذه القصيدة نظمت لابن عبد الله . فما الذي كان يعنيه من كل الامور التي تقدمت ذكره فيها ، وهل حق عليه سلفاً من جزاء ما مدح به ان يسمع شكوى غرام الشاعر ويرى رسم حبيبته الموصوفة ثم يثب من هنالك الى النجوم التي جعلها ابو الطيب المتنبي طلابه من الدنيا ثم يرتفع الى مهبط وحيه ومستنزل حكمته ليسمو الى قمة فخره بسيفه وقلمه ثم يعود الى داره، الى المجلس الذي هو فيه منها وبين يديه ابو الطيب ينشده ويسمع عندئذ ما أثنى عليه به»[1]

وهكذا وقفت وحدة البيت محل وحدة القصيد في الشعر العربي لتجعل الشعر عند العرب ينحلُّ الى صور ، كل بيت شعر تحتله صورة كاملة ، لا تصور في الواقع ولا تحكي صور الاشياء التي يعرض لها الشاعر في طبيعتها الموضوعية وانما تعرب عن أثرها في النفس وصداها. ومن هنا كانت ذاتية الشعر العربي ووقوفه عند الضرب الغنائي من الشعر . غير ان هذه الصور الذاتية في الشعر العربي وان اكتملت صورتها من ظاهر آثار الأشياء وصداها في النفس التي تقف في عالم الحس ، فانها لم تكن لتنفذ الى ما وراء الحس فتتصل بعالم المشاعر الداخلية في أعماقها . آية ذلك ما تراه من الصور الحسية المحضة للعواطف والميول عند شعراء العرب ، وحتى أنك تجد

(١) خليل مطران : في المجلة المصرية — السنة الاولى ج ٢ (١٦ يونيو ١٩٠٠) ص ٤٢—٤٤

عمر بن الفارض سلطان العاشقين عند شعراء التصوف لا يتعدى بخياله الشعري الصور الحسية،[1] وإن كانت هذه الصور في شعره رموزاً لمعانٍ روحية، إلاَّ ان ظهور الجانب الحسي في المواقف المعنوية المحضة يستدعي النظر ، خصوصاً اذا كانت هذه المعنويات ميولاً وعواطف ، وهي تنزل من وراء الحس عادة ، فاذا ظهرت حسية ، فذلك ينهض دليلاً على الطبيعة الحسية عند العرب

هذه الطبيعة الحسية جعلت الخيال العربي ماديًا . فلم تسمح له بالتحليق في أودية عالم الابهام والانطلاق في عوالم التخيل ، ذلك ان خيال العرب آت من قبل الحس لا من قبل الوهم Fancy ولذلك كانت صور خيال العرب هواتف وأصداء تسمعها الأذن وصوراً تراها العين ، ولم تكن أشباحاً تبرز للمخيلة مكتملة أسباب تجسدها من العالم الموضوعي

ولا شك ان ضيق خيال العرب[2] وما لوحظ من عدم التنوع والزخامة نتيجة لهذه الطبيعة الحسية عندهم ، التي تقف كل شيء من آثار العرب دليلاً عليها ، حتى ليمكنك ان تجد على ذلك الدليل في لغتها من حيث الاستعارات ، التي يمتزج في الغالب معنويها بحسيها ، ناهيك بالألفاظ الدالة على الميول والعواطف في اللغة العربية كلمات لم تتغلب عليها الصبغة المعنوية الى يومنا هذا .[3]

من هنا كانت ثورة الابداعية على الاتجاه الاتباعي ، من حيث تترسم الابداعية الأغراض الأوربية في الشعر ، ثورة على الأغراض العربية ، ومحاولة للخروج على الروح العربية ، ولما كانت هذه الثورة قائمة في حدود اللغة العربية ، فانها لم تقدر على استيعاب الأغراض الأوربية كاملة ، من حيث ارتبطت بعض الأغراض العربية من جهة المعاني بالألفاظ العربية . مثال ذلك ان الالفاظ الدالة على المعنويات في العربية تتغلب عليها الصبغة الحسية ، ومهما كانت أغراض الشاعر الابداعي معنوية فانها تكتسب الصبغة الحسية من مدلولات الالفاظ. هذا ولما كانت الحركة الابداعية التي قام بها مطران تقوم على الأغراض الشعرية المتصلة بالمعنى دون المبنى . فان المبنى الاتباعي كان يحمل الشعر الابداعي كثيراً من صوره. مثال ذلك قول خليل شيبوب من الشعراء الابداعيين من قصيدته « الشاطيء الخالي » : —

كأنما الريح لما رفَّ ناعمها سالت حنيناً بها أرواح من عشقوا

فهنا مرور الشاعر على أسراب الأرواح وتضمينها في الطبيعة ، لم يخلص فيها من ناحية الكلام عن أرواح العاشقين من الغرض الاتباعي في الغزل العربي

هذه مسائل تستوقف النظر في دراسة الاتجاه الابداعي في الشعر العربي. والحقيقة ان الحركة

(١) زكي مبارك — أبولو ، م ٣ ج ٤ (ديسمبر ١٩٣٤) ص ٤٢٢ — ٤٢٣

(٢) De Lacy O'Leary في كتابه Arabia Before Mohammed وكذا فجر الاسلام لاحمد أمين — الطبعة الثالثة ص ٣٧ — ٤٧

(٣) عباس محمود العقاد في الفصول ص ٣٨

الابداعية التي قام بها خليل مطران لم تكن في جميع نواحيها تجديداً وخروجاً على القديم وثورة عليه . انما كانت في بعض النواحي ، وأكثرها يتصل بالاغراض العامة للشعر دون المبنى ، مثال ذلك قيام حركة مطران الابداعية على اساس ادخال الشعر القصصي والتصويري للادب العربي فهذين الضربين يخلو منهما في الاصل الشعر العربي القديم ، كما يخلو منها الشعر الاتباعي الحديث. ولا شك ان ادخال هذين الضربين كان على اساس خطير . هو محاكاة الأشياء في صورها الخارجية محاكاة موضوعية . وهذه كانت نتيجة للأخذ بالخيال الأوروبي ، ولهذا تطور في الشعر الابداعي الحديث الخيال الشعري من الهواتف والأصداء التي تسمعها الآذان والصور التي تراها العين ، الى صور أشباح تبرز للمخيلة وتمثل للذهن مستكملة أسباب وجودها الموضوعي في الخارج عن الشاعر

ولا شك ان لخيال مطران المنقطع النظير في تاريخ الآداب العربية يداً كبرى في هذا التحول وأياً كانت الاسباب التي ترجع لها قوة الخيال الشعري عند مطران ، فانه عن طريق خياله الغير المحدود والمتنوع تمكن من ان يجعل الشعر العربي يحمل صوراً وضروباً من الشعر لم تكن العربية تحويها من قبل . وسرعان ما أخذ بهذه الصور والضروب بعض الشعراء العرب المتأثرين بمد الآداب الغربية فحاولوا محاكاتها ، وكان من ذلك مع الزمن مدّ الحركة الابداعية التي تمثلت في مصر في عبد الرحمن شكري واحمد زكي ابوشادي وابراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وفي سوريا ولبنان في علي الناصر وعمر ابو ريشه والياس ابو شبكه وسعيد عقل وفي المهجر في جبران ونعيمه والريحاني والمعلوف وابو ماضي والشاعر القروي

— ٢ —

قامت الابداعية العربية على أساس الأخذ بالتناول الرومانسي للموضوعات الشعرية ، وذهبت في تعريف اسلوب الكلام بحسب ذوق العصر ، ولو ادى ذلك الى استخدام الألفاظ والتراكيب احياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب عند العرب[1] غير انها في العموم كانت تدعو الى احترام أصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها . ولما كان العرب يعرفون الشعر على انهُ الكلام الموزون المقفى الذي يجري على أساليب العرب ويقصد به الجمال الفني فهذا جعلهم يعتبرون الشعر صناعة تتبع المعاني فيها الاوزان والقوافي ، بيان ذلك عندهم ان الوزن والقافية اصل اداتهُ الشاعرية . على ان الابداعية قامت قبل كل شيء تحارب مثل هذه الفكرة معتبرة الشاعرية الأصل ولها ان تستعين بالاوزان والقوافي او ما يقوم مقامها لتكون لها تلك النبرات الموسيقية التي تميز الشعر عن بقية ضروب الكلام . وبين هذا التناول للشعر وتناول العرب للشعر

(١) أبو شادي في أصداء الحياة ، ١٩٣٧ ص ١١

يقوم الفرق بين الاتجاه الاتباعي والاتجاه الابداعي . لأن اعتبار الوزن والقافية اصلاً اداتها الشاعرية يجعل البيت وحدة مستقلة في مبناها ومعناها عما بعدها وعما قبلها ، وفي هذا يقول ابن خلدون في المقدمة

«وينفرد كل بيت من القصيدة بافادته في تركيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وعما بعده ، واذا أفرد كان تاماً في بابه ، فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر ويستطرد الخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطيء المقصود الاول ومعانيه الى ان تتناسب مع المقصود الثاني ويبعد بذلك الكلام عن التنافر »

وعلى هذا الاساس يمكنك ان تعدّل وتبدل في ترتيب ابيات شعر الاتباعيين بدون ان تخشى ان يؤثر هذا التبديل على معاني القصيدة واغراضها ، لأن لكل بيت في الشعر العربي وحدته

وبعكس هذا قيام الاتجاه الابداعي على أساس ان الشاعرية هي الاصل ، وان من أدواتها الوزن والقافية ، لذلك تجد تسلسلاً مقبولاً في الشعر الابداعي ، أساسه ان الشاعر يعبر عن خواطر متناسقة في ذهنه وعن عاطفة متمشية في صدره ، ومن هنا كانت وحدة القصيد في شعر الابداعيين أظهر شيء

وعندك الاغراض الشعرية عند الابداعيين ، فهم يرون الشعر فنًّا منبهاً للتصور والحس عن طريق الرمز . وان الشعر يفترق عن الرسم في ان الرسم فن منبه للتصور والحس عن طريق النظر . وهما يفترقان عن الموسيقى في أنها تنبه التصور والحس عن طريق السمع [1] ، فالاساس عندهم واحد في جميع الفنون وان اختلفت ضروبها بطرائقها . فمثلاً الشاعر الذي يتحدث عن عاصفة يصف لك شمساً محمرة كالجمرة في كبد السماء يحيط بها قتام يغتالها الى ان تنطفيء فيشمل الظلام ويكون مهيباً . وينتشر سحائب سوداء كثيفة ترسل في الجو رعوداً قاصفة ثم صادعة ، وبروقاً ملطفة اللسان ثم ساطعة . ويطلق ريحاً عاصفة تمر على البلد الموصوف فتهدم واهي مبانيه وتسف اشجاره وتصفع وجوه زجاجه بالبرد ويجري بطرقه سيولاً فاذا بلغ الهول منتهاه ، وصف لك في خلال هذه الروائع كلها طفلاً يتيماً هائماً على وجهه وقد لجأ الناس الى مساكنهم جزعاً واطمأن الاطفال بين أيدي آبائهم وامهاتهم في مآمنهم وهو يقف بذلك الطفل الصغير في ذلك الموقف الرهيب ليحرك في القلب وتر الحنان والرفق خلال خفقان الهلع وثورة الدهشة. ومن يذهب مع الشاعر في تسلسل خياله واطراد خواطره ، يرَ ما قيل محسوساً بين يديه ينظره بعينه ويسمعهُ بأذنيه مع انهُ في الحقيقة لم يرَ ولم يسمع شيئاً من ذلك . وانما احتال الشاعر عن طريق الرموز الى ما ينبه عند القاريء هذه التصورات الشتى ويجمعها على الشكل الذي احبهُ ،

(١) خليل مطران ، في المجلة المصرية ، السنة الثانية ج ١ (يونيو ١٩٠١) ص ١٢

ويتم لهُ ما أراد على قدر مهارتهِ ، وللالفاظ في بلاغ قصده رنة لا تنكر وللتركيب امتزاج بالنفس لا يجحد ، وان كان كل هذا من المتمميات[1]

ولا شك ان الاغراض الشعرية بلغت الغاية في يد الابداعيين من جهة تسلسل المشاعر واطراد الخواطر واتساق الخيال ، حتى ان مطران انتهى الى روائع من الشعر آية في الإعجاز في السنين الاولى من قيامه بحركتهِ التجديدية ، ومن أبلغ هذه الروائع قصيدتهُ القصصية «الجنين الشهيد» التي لا يوجد لها مثيل في كل تاريخ الشعر العربي

ومن الخطورة في مكان ، التحول الذي حدث على يد مطران من ناحية الاغراض العامة العربية الى ناحية الأغراض الاوربية العامة ، وعلى وجه خاص من جهة الخيال الشعري . ومما لا ريبة فيهِ ان لنشأة مطران يداً كبرى في هذا التحول من جهة بيئته الطبيعية ومحيطهِ الاجتماعي ، فلقد وجدت العقلية السورية اللبنانية في ربوع الشام وفي جبل لبنان تحت تأثير الاتصال بالفكر الغربي ما يجعل الفكر العربي يتقطع في كثير من البيئات الفردية ، فنشأ الخيال في هذه البيئات متقلباً على الأوضاع الطبيعية التي تتركها أجواء القطر الشامي وجبل لبنان فيهِ . وهذه مسألة هامة ، وأهميتها راجعة الى ان الخيال الشعري انطلق في هذه الربوع للمرة الأولى في تاريخ الآداب العربية حرًّا من تأثير الذهن العربي فانطلق الشعور بالحيـاة والخيال هناك بدائيًّا يستوحي الطبيعة والحياة في فطرته . فكان ذلك سبباً لأن تكون لبنان وسوريا موطناً للشعر الابداعي في العالم الناطق بالعربية[2] هذا القطر السوري يقول مطران فيه عند لقاء الشام :

هذي رؤوس القمم الشماء	نواهضاً بالقبة الزرقاء
نواصع العمائم البيضاء	روائع المناطق الخضراء
يا حسن هذي الرملة الوعساء	وهذه الاودية الغناء
وهذه المنازل الحمراء	راقية معارج العلاء
وهذه الخطوط في البيداء	كأنها أسرة العذراء
وذلك التدبيج في الصحراء	من كل رسم باهر للرائي
مشوش النظام في جلاء	منتسق بالحسن والرواء
وهذه المياه في الصفاء	آناً وفي الازباد والارغاء
تنساب في الروض على التواء	خفية ظاهرة اللألاء
ونسم قواتل للداء	يشفين كل فاقد الشفاء
ومعشر كأنجم الجوزاء	يلتمسون سترة المساء
في ملعب للطيب والهواء	ومرتع للنفس والاهواء
ومبعث للفكر والذكاء	ومنتدى للشعر والغناء

وأنت تلمس في هذا الوصف طبيعة الشام وتستحضر في ذهنك صورة محسوسة بين يديك

---

(١) خليل مطران في المجلة المصرية السنة الثانية جزء ١ ص ١٠ — ١١ (٢) انظر الفقرة ٣ من هذا البحث

منها ،حيث تقوم القمم الشماء التي تناهض السماء والتي يغطي شواهقها الثلج ، بينما تكتسي قواعدها بالخضرة وتتجلل بالاشجار . الى تلك الاودية التي تفصل بين هذه الشواهق وتغيب في منعرج الجبال . الى تلك المجاري التي تصفو في بعض الاوقات ويزبد فيها الماء ويرغو في الحين الآخر. مما يسبغ على الطبيعة جواً كله اسرار تجسم في الذهن الوهم الخفيف وتفسح للمخيلة مجال التصور

وهكذا كان ابناء القطر الشامي اصحاب طبيعة فياضة بالشعور وروح نابضة بصور الاشياء غير ان هذه الطبيعة كانت تحت تأثير البيئة الاجتماعية الآخذة الاسباب بالروح العربية تغيب في طيات النفس حتى تفتقده ، فلما تقطعت الاسباب بالفكر العربي ظهرت هذه الطبيعة في فيض شعورها وفي نبضات روحها آخذة الاسباب بأجواء المحيط الطبيعي

— ٣ —

نشرت الابداعية صفحتها الأولى في القطر الشامي في تلك البيئات التي تقطعت فيها اسباب الحياة والذهنية العربية . والواقع ان العالم العربي وعلى وجه خاص لبنان كان في العصر الماضي مسرحاً لبيئات متباينة إن اختلفت في مظاهرها ، الا انها متكافئة مع المؤثرات التي وجدت السبيل للعالم العربي في ذلك العصر . وبعض هذه البيئات انقطع فيها كل اسباب الاتصال بالقديم وأكثر ما كانت هذه البيئات تقوم في ربوع الشام في البيئات المسيحية حيث انطلق نفر من الشباب السوري هنالك من آثار القديم واتصلوا بموجة الجديد التي حملها الغرب بقوة الى الشرق الادنى تحت تأثير الاتصال الذي توثق بين العالمين في ذلك الحين

ومن خطر الشأن في مكان ان نلاحظ ان الانسان من حيث يولد وهو طفل ، فافعاله العكسية الاصلية هي التي تستحكم في سلوكه مستنزلة الأسباب مباشرة من الجهاز العصبي . تلك الافعال — التي كانت تعرف فيما مضى بقواسر الطبع والغريزة — والتي تكون مطواعة في طفولة الانسان للمؤثرات التي تنطوي عليها بيئته الطبيعية ومحيطه الاجتماعي والدوافع الاولية المستنزلة من هذه المؤثرات . والانسان عادة يخرج من طفولته تحت تأثير هذه المؤثرات مصبوباً في قالب معين يكافىء الحالات التي احاطته . ونظراً لأنه في الحالات الاعتيادية تكون الاسباب الطبيعية في تداخلها بالمؤثرات الاجتماعية منتهية الى حالة واحدة . عامة بالنسبة لافراد الجماعة البشرية . فان الناس يخرجون مصبوبين في قالب معين ، ولما كانت المؤثرات الاجتماعية لا تثبت على صورة واحدة وتتحول من جيل الى جيل ومن قبيل الى آخر بما يستجد في محيط الجماعة من عوامل ومؤثرات فان الحالات الخارجية بالنسبة للانسان تتغاير وتأخذ صوراً شتى تكافأ مع كل صورة الجماعة التي يعيشون في ظلها ويتنفسون في اجوائها

والشرق الناطق بالعربية تحت تأثير المدنية الغربية أخذ في التطور ، وكان من آثار تطوره

ان تقطعت في بعض مجتمعاته الاسباب التي تربطهُ بالحياة العربية وتصله بذهنية العرب التقليدية . فكان من ذلك نشوء اجواء جديدة ، تقومت باسبابها الاتجاهات المستحدثة في تاريخ هذا الشرق

على انهُ من المهم لنا في بحثنا هذا ان نلاحظ ان وراثة الاتجاهات الادبية والميول الذهنية مهما تتوزع في حقيقتها من الناحية البيولوجية . فلا ريب في انها تتقوم بالاسباب التي تستنزل من التكافؤ الحادث بين محيط الجماعة البشرية والدوافع التي تحرك الانسان في طفولته في اجوائها . ولا شك انه في الامكان ، عن طريق استقلال العوامل المتصلة الاسباب بالمحيط الطبيعي عن العوامل التقليدية المتصلة بالجماعة ، يمكن قيام الاتجاهات الطبيعية في الانسان مستقلة عن التأثر بالعوامل التقليدية التي تكوّن قرارة الجماعات الا ان هذا كما هو واضح وقف على شيء واحد ، هو تقطع العوامل التقليدية في المجتمع . وفي ذلك الحين تحت تأثير الجو الطبيعي الذي يفعل فعله مباشراً وتحت ظل التكافؤ بين هذا الجو الطبيعي والعوامل الجديدة في المجتمع . يستحدث محيط جديد يتأثر باسبابه ما يقوم في عالمه من الاتجاهات والميول (١)

الا انهُ في الشرق الناطق بالعربية حدث تحت تأثير مدّ الموجة الغربية ، ان أخذت بعض المجتمعات وخصوصاً في الشام تفقد كل اسباب اتصالها بالحياة والذهنية العربية التقليدية التي تكونت قائمة على كرّ الدهور . واختلاف التأثيرات والتواردات على هذه المجتمعات ، خلق اجواء جديدة متباينة ،كل جماعة لها جوها الخاص . الا انها في جماعها تكافيء الحالات العامة التي وجدت طريقها للمحيط الاجتماعي (٢)

في احد هذه الاجواء التي استقلت عن تأثير الماضي عن طريق التفاعل بمدنية الغرب نشرت الابداعية صفحتها الاولى متأثرة باسباب البيئة الطبيعية المتفاعلة مع الجو الجديد . ومما يلاحظ ان تفاعل الشرق بالغرب كان على اشده في لبنان وسوريا ، ومن هنا كانت لبنان وسوريا موطن الاتجاهات الجديدة في الادب والفكر العربي

بدأ الاتجاه الجديد في الشعر العربي وجوده في الشام في شعر سليم عنحوري (المولود عام ١٨٥٥ م) صاحب ديوان « آية العصر »

غير ان هذا الاتجاه قام عنده على اساس تغليب الفن على الصنعة فقط ، ومن هنا جاء ارسال الخلجات النفسية مترعة عنده من الوجدان ، دون ان يحد منها التكلف الصناعي الذي اخذت به العصور المتأخرة في قول الشعر . ولم يقدر عنحوري ان يخرج على الاغراض الاتباعية

(١) اسماعيل أحمد أدهم : « بين الغرب والشرق » مجلة الرسالة،السنة السادسة،العدد ٢٧١ ص١٤٩٣

(٢) ستيوارت ضد في المقتطف ، م ٩٤ ج١ص ٤١ — ٤٩ وج ٢ ص ١٨١ — ١٨٧

العربية، من هنا كانت محاولته حركة محدودة المدى والنتائج الا أنها كانت خطوة واسعة الى الامام من الخطوة التي خطاها رفاعة رافع الطهطاوي في اوائل القرن التاسع عشر حين اخذ ينظم في العربية أوسع المعاني الاوربية، فحمل الشعر العربي بخصائصه التقليدية المعاني الاوربية التي ناء تحتها النظم العربي وفي ذلك يقول الدكتور احمد ضيف ما مؤداه :

« ولكن رجلا من رجال النهضة الادبية بمصر في القرن التاسع عشر كان أول من أدخل في الشعر المصري نوعاً جديداً نقله من الشعر الفرنسي ، ذلك هو الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذي أوفده محمد علي باشا الى باريس مع طلبة الارسالية . على ان الشيخ رفاعة لم يكن شاعراً ممتازاً بين شعراء عصره من شيوخ الازهر ، ولكنه كان شغوفاً بالادب فتعلم الفرنسية وكان أول ما نقله منها الى العربية قصيدة نظمها في مدح الامير محمد علي أحد أساتذة اللغة الذين أرسلوا مع البعثة الى فرنسا

هذا الى ان الشيخ رفاعة أول من أدخل النشيد الوطني الى مصر. فقد نقل المارسيليز الفرنسية الى العربية في شعر حل فيه النظم العربي معاني المارسيليز الفرنسية ، وتصرف فيها بعض التصرف . ومنها :

فهيا يابني الاوطان هيا فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا سويا

ونسج على منوال هذا النشيد قصائد أخرى مزج بعضها بمدح الامراء وولاة مصر

وكان هذا أول ما حدث من أثر جديد في الشعر المصري — بل العربي — وكان هـذا سبباً في انتقال الشعر الى أسلوب حديث وطريقة عصرية لو أن الشعراء نسجوا على منواله ، ولكن النهضة التي قامت في عهده كانت عملية لذلك لم تتأثر بهذا الاتجاه الادبي ، فضلا عن ان الحركة الادبية وقتئذ كانت فردية ، يتأثر الشاعر وحده او الكاتب وحده بأثر خاص ، ينهج منهاجاً خاصاً . ومع هذا لم يقدر الشيخ رفاعة ان يستقل عن القديم فدح الامراء بقصائد هي من صميم أساليب الشعر العربي المعروف » (١)

وبعكس الشيخ رفاعة كان سليم عنحوري الذي نجح نجاحاً يذكر في تحميل الشعر العربي الاغراض الاوربية من ناحية الروح الشعرية ، فكان نجاحه دليلاً على انه في الامكان القيام بحركة جديدة في الشعر العربي لا ترجع الى احتذاء اساليب الفحول من شعراء العرب المتقدمين كما كان امير الشعر العربي في ذلك الحين سامي البارودي يفعل في مصر

هذه الحركة التي قام بها عنحوري مهدت السبيل لخليل مطران او قل جملته يجرؤ على تحميل الشعر العربي تلك الصور والاغراض الجديدة التي لم تعرف لها العربية من مثيل في كل تاريخها الأدبي على اساس من اطراد المشاعر وتسلسل الخواطر وانتظام الخيال. ومهما يكن رأي البعض في شعر مطران ، وان مذهبه الشعري ليس واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار . فان اتجاهات الرجل الفنية في الشعر واضحة جلية فيما قدمنا وستكون اساساً لدراستنا لفنه الشعري

﴿ خاتمة ﴾ طوى الشعر العربي صفحته المجيدة بسقوط الدولة العربية عن عرش الخلافة الاسلامية . وظلت هذه الصفحة مطوية طيلة خمس قرون من عصور الانحطاط، حتى قدر لها ان تنشر في القرن التاسع عشر صفحة جديدة على يد سامي البارودي ، غير ان هذه الصفحة نشرت من الصفحة القديمة لهذا كانت اتباعية الاتجاه . وفي عام ١٨٩٤ طلع مطران ينشر للشعر

(١) المقتطف ، المجلد ٦٨ ج ٦ (يونيو ١٩٢٦) ص ٦٣٧ — ٦٣٩

العربي صفحة جديدة من الاغراض الجديدة المستلهمة من روح العصر ، ومن ذلك التاريخ وقف مطران في تاريخ الادب العربي الحديث رافعاً مشعل الابداعية وممثلاً للاتجاه الاول للجديد في الشعر العربي غير ان حركة الجديد التي قام بها مطران عام ١٩٠٨ في الشعر ، حيث نشر ديوانه « الخليل » لم تكن الحد الفاصل بين القديم والجديد ، لان هذا الحد يرجع بضع سنين الى الوراء الى عام ١٨٩٤ ، حين نظم مطران القطعة الاولى من ديوانه من الاغراض الابداعية

ومطران وان سلك مسلك الجديد من ذلك الحين ، فهو من قبل سلك طريق القدماء في نظم الشعر فلم تعجبهُ فأعرض عن الشعر ثم عاد اليها مجدداً . وجمع شعره الذي نشره على فترة تقرب من خمسة عشر عاماً في « ديوان الخليل » تبين لك مقدار ما انتهى اليه من التجديد بالنسبة لما كان عليه من قبل ، وهو يعرض لك نموذجاً لما قاله من الاغراض الاتباعية . وبعد فقد تأثر باتجاهات مطران الجديدة نفر من شعراء العربية ، وهذا التأثير وان ظهر بقوة من بعد نشر ديوانه ، الا أنهُ كان يستجمع الأسباب للظهور في شعراء ذلك العصر ، من اليوم الذي اعلن فيه ثورته على الأغراض الاتباعية . وأنت يمكنك ان تلمس هذا التأثير واضحاً فيما نظمهُ شاعر مثل ابراهيم بك رمزي عام ١٩٠٠ في الاغراض القصصية ، خصوصاً في منظومة «سيرة يوسف الصديق» التي نظمها شعراً في اثنتي عشرة قصيدة من اروع الشعر القصصي العربي هذا الى انك تلمس معالم تأثر شعراء العقد الاول من القرن العشرين بالاغراض الجديدة التي ينظم على اساسها الشعر خليل مطران ، من مراجعته لشعر نفر من شعراء ذلك العصر ، نذكر منهم نقولا رزق الله الذي يعود تأثره بمطران الى عام ١٩٠٠ حين نظم منظومة « كليوباترة » من الاسلوب العصري الذي استحدثهُ الخليل . ثم عندك القصائد التي فق بها منظومته والتي انتثرت على مر السنين في فترة تزيد على عشرة اعوام ، كلها تنطق بآثار الحركة الجديدة التي استحدثها الخليل

على ان هذا الأثر توضح واستبان في العقد الثاني من قرننا هذا ، اذ ظهر في مصر شاعران كبيران هما الدكتور احمد زكي ابو شادي وعبد الرحمن شكري ثم ظهر في اواخر الحرب خليل شيبوب الذي هبط مصر عام ١٩٠٨ من موطنه باللاذقية ، والذي ينفرد من بين المتأثرين باتجاهات مطران . بأنهُ لايزال الى يومنا هذا أميناً للعناصر التي يقوم عليها مذهب مطران في نظم الشعر . وهو في ذلك عكس زميليه اللذين استقلا بمذهب لهما في قول الشعر مع الزمن ، وان كان مذهبهما يقوم على أساس من مذهب الخليل . فعبد الرحمن شكري كان ذهابه الى انكلترا سبباً لوقوعه تحت تأثير المذهب الطبيعي الانجليزي وكان ان تغلبت عليه نزعة التشاؤم نتيجة لعوامل تتصل بنفسه فاستقل بمذهب في الشعر يقوم على اساس التأمل والتفكير الخصب الذي يماشي الشعر العميق الذي يشوبه مسحة من الكآبة وسرعان ما اجتذب شكري لاتجاهه شخصيتين صارتا من اعلام

الأدب العربي اليوم ، هما عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني الاّ ان العقاد استقل مع الزمن باتجاه جديد عن اتجاه شكري ، وضحت خطوطه وتمايزت في دواوينه الأخيرة بينما ظل المازني حتى اللحظة التي انصرف فيها عن الشعر تحت تأثير اتجاهات شكري الفنية في الشعر

اما الدكتور أبو شادي فهو تفاؤلي النزعة وقد أقام مدرسة شعرية عام ١٩٣٢ عرفت بمدرسة « أبولو » ونجح في ان يجعل شعره محور حلقة أدبية قوية ، تأثر بلونها الشعري بعض شعراء الشباب ، الاّ ان انفراط عقد المدرسة باحتجاب مجلتها الشعرية « أبولو » وبانصراف مؤسسها عن العربية الى الانجليزية كانت سبباً لان يفقد شعر ابي شادي تأثيره المتواصل في العالم العربي . هذا الى انهُ في الوقت الحاضر ينظم الشعر في الانجليزية [١]

هذا ... ومحاولة الخليل ان كانت في قيامها قد استندت الى أساس من الاحتفاظ باصول اللغة وأساليبها فهي في الشام وفي المهجر السوري اللبناني بالاميركيتين . انطلقت من قيود اللغة ، وكان من ذلك الأدب الأميركي الذي فرض سيطرتهُ على العالم العربي فترة ما قبل الحرب العظمى . فلما انقضت سنوات الحرب وانتثر عقد زعماء المدرسة العربية بأميركا ، قامت في القطر الشامي ومصر تحت تأثير الاخيرين محاولات شعرية وسطاً بين مذهب مطران ومذهب أدباء المهجر الذي ذهبوا في التطرف مذهباً جريئاً خرجوا به على الاسلوب العربي وأصول اللغة ، هذه المحاولات تتمثل اليوم في آثار عمر ابو ريشه وعلي الناصر بسوريا والياس فياض وأمين نخله والدكتور حبيب ثابت وسعيد عقل وصلاح لبكي وخليل زخريا ونقولا بسترس في لبنان وحسن كامل الصيرفي وبشر فارس في مصر

على ان موجة التجديد ان كانت قوية في القطر الشامي لأسباب سبق اليها الاشارة في هذا البحث . إلاّ إنها خافتة في مصر ، حيث لا يزال الى اليوم المذهب القديم يتحكم في الأذهان . خصوصاً بعد وفاة الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٦ . وهذا يرجح عندنا ان تكون لبنان وسوريا موطن الشعر الحديث في العالم العربي في المستقبل ، كما هما اليوم موطنه [٢]

اما ما يزعمهُ بعض الناقدين من ان مطران لم يؤثر بعبارته أو بروحه فيمن أتى بعده من المصريين من الشعراء ، لان هؤلاء كانوا يطلعون على الأدب العربي القديم من مصدره ويطلعون على الأدب الاوربي من مصادره الكثيرة ، وانهُ ليس للاستاذ مطران مكان الوساطة في الأمرين [٣] فهذه دعوة يردُّها الواقع من جهة ، كما يثبت زيفها اعترافات أكابر شعراء العربية من الآخذين بأسباب الجديد كأبي شادي وشكري والمازني بأثر شعر مطران في شعرهم [٤]

(١) Leonard S. Harker في كتابه Blazing the Trail – ١٩٣٨ ص ١٢٩
(٢) I. A. Edham في Romantic Current in Modern Arabic Literature بمجلة Z. R. G. I. م ٣٨ ص ٣١١ — ٣٣٤ و ٤١٦ — ٤٣٧ (٣) عباس محمود العقاد في «شعراء مصر وبيئاتهم» ص ١٩٩ — ٢٠٠ (٤) أبو شادي في أنداء الفجر ص ١٢٨ وفي قطارة من يراع في الادب والاجتماع ج ٢ ص ٣



الحرية

للشاعر الانكليزي اللورد تنيسون

(١٨٠٩ — ١٨٩١)

جلست الحرية في القِـدَم على الاعالي ، وكان الرعد يلعلع عند قدميها وكانت السموات المكوكبة تَرَجٌ فوق رأسها ، وفي أذنيها صخب اصطدام التيارات

جلست هناك مغتبطةً ، قنوعاً بعقلها الكشّاف . ولكنَّ مقاطع من صوتها المدوّي جاءت محمولة على أجنحة الرياح .

ثم هبطت الى الحقول والمدائن ، واختلطت بالبشر وأزاحت النقاب رويداً رويداً ، وأشرقت بوجهها الكامل على الناس.

يا أمَّ الاعمال الجليلة الفخمة ، الراتبة الينا من مذبحها .
يا من تحمل كالأرباب الشوكة المثلثة ، وتلبس التاج كالملوك

إن عينيك الصريحتين تطلبان الحقيقة . إن فيهما ألف سنة من الحكمة ! ياليت الشباب الدائم يحتفظ بنورهما متلألئاً فلا تغشيه الدموع.

يا ليت قوامك الحسن يظل منتصباً لامعاً يضيء أيامنا، ويخفف قتام أحلامنا ، ويحقّر بشفتيه القدسيتين أكاذيب المتطرفين

نبات بلا تراب

تطور جديد عجيب
في علوم الزراعة[1]

اذا زعمت أن هناك طريقة جديدة للزراعة تمكن الزارع من ان يحصل من بقعة معينة على ٢١٧ طنًّا من الطماطم حيث كان لا يفوز الاَّ بخمسة اطنان ، فالغالب انكم ستحملون كلامي على محمل المبالغة ، على الاقل . ولـكنني اطلب اصغاءكم لاروي لـكم قصة هذه العجيبة الحديثة :

من الامور المشهودة في بلد زراعي كمصر ان النباتات تنمو نموًّا طبيعيًّا اذا اشتمل غذاؤها على العناصر الاساسية . واكثر هذه العناصر يوجد في الهواء والتراب والماء والاسمدة الطبيعية والكيماوية. والفلاحون يعرفون أن النترات والفصفات والسلفات وغيرها من المركبات الكيماوية تحتوي على عناصر لا بدَّ منها في تغذية النبات وكثيراً ما يطالعون اسماءها في الاعلانات المنشورة في الصحف والاذاعات والنشرات التي تذيعها المكاتب الحكومية المختصة . يقابل ذلك في غذاء الانسان ، المواد الزلالية كالبيض والنشوية كالسكر والدهنية كالزيوت ، ثم الاملاح على اختلافها الاَّ ان العلم الحديث اثبت ان الانسان يحتاج علاوة على ما تقدم الى مقادير يسيرة جدًّا من مواد حيوية تدعى الفيتامينات اذا كانت غير موجودة في غذائهِ افضى ذلك الى اصابتهِ بامراض مختلفة

هذا الاكتشاف وما تفرَّع عليهِ من عجائب البحث والتركيب والشفاء في الانسان ، نبَّه علماء النبات الى ضرورة البحث بحثاً علميًّا في حياة النبات وهل غذاؤها يعتمد على العناصر الاساسية المعروفة او يجب ان يشتمل كذلك على مقادير صغيرة من بعض المواد الكيماوية الحيوية لكي يكون نموُّه صحيحاً وما هي تلك المواد

وكان السؤال الاول الذي تجب الاجابة عنهُ في هذا الصدد ، كيف السبيل الى معرفة العناصر اللازمة وتمييزها عن العناصر غير اللازمة في حياة النبات . والجواب البدهيّ هو زرع نبتة معيَّنة في تربة خالية من ذلك العنصر ومراقبة نموّها مدَّة . ثم اضافة ذلك العنصر الى غذائها اي الى المواد التي تُسمَّد بها تربتها ومراقبة نموّها كذلك ثمَّ الموازنة بين نموّها اولاً ونموّها

---

(١) من حديث في العلوم المبسطة اذاعه رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة المصرية

ثانية وهذه الطريقة هي المتبعة في دراسة أنواع الفيتامينات باجراء تجاربها على الجرذان

الاَّ ان هنالك صعوبة تعترض البحث في ما يخصُّ النبات. فالتربة كثيراً ما تحتوي على مقادير صغيرة جدًّا من عناصر ومركَّبات كيماوية تتعذَّر ازالتها . بل قد يتعذَّر الكشف عنها بالكواشف المعروفة . ولما كان الغرض من هذه التجربة ازالة كلّ أثر من آثار المادة التي تجرَّب التجربة بها من التربة ، حتى لا يختلط أثرها علينا ، فالتربة لا تصلح وسطاً لهذه التجربة

فعمد العلماء حينئذٍ الى زرع النبتة في ماء قطّر اولاً تقطيراً دقيقاً ثم اضيفت اليهِ مركبات العناصر الاساسية اللازمة لنموّ النبات مثل نترات الصودا وسلفات النشادر وغيرها . ثم تزرع النبتة في هذا الوسط ويُراقَب نموُّها . ثم يضاف الى الماء مقدار صغير من عنصر معيَّن ويراقب تأثيرهُ في حياة النبات . هذا هو المبدأ

***

كان الناس يعتقدون حوالي القرن السادس قبل المسيح ان النبات يستمدُّ كل غذائهِ من الماء. ولكن النبات إذا امتصَّ الماء بواسطة جذورهِ ، امتصَّ معهُ المعادن المحلولة فيهِ. حتى في هذا العصر ترى مَن لا يصدق ان النبات يستطيع ان يتناول دقائق الاسمدة بواسطة جذوره وذلك بان هذه المواد الجامدة يجب ان تنحلَّ في الماء اولاً قبل ان تستطيع النفوذ من خلال الاغشية النباتية الرقيقة في الجذور . واذن نستطيع ان نحيط الجذور بمحلولٍ مائي ، وتستطيع هذه الجذور ان تستمدَّ منهُ جميع العناصر اللازمة للنمو اذا كانت تلك المواد والعناصر محلولة في الماء ، واذن ففي وسعنا ان نقول ان التُربة ، من الناحية النظرية غير لازمة لنموّ النبات . ولم تكتشف هذه الحقيقة الاَّ سنة ١٦٩٩ اذ زرعت نباتات في الماء لاول مرة في التاريخ على ما نعلم . ذلك ان باحثاً يدعى ودورد زرع نوعاً من النعناع وآخر من البطاطس في ماء من قناة ، وفي ماء من نهر ، وفي ماء من نبعٍ وفي ماء مقطَّر . ولم يكن غرضهُ البحث في المواد الخفية الحيوية اللازمة لنموّ النبات بل ان يعلم هل يحتوي الماء على موادّ محلولة فيهِ تكفي لغذاء النبات وخرج بان الماء غير المقطَّر يحمل بعض « المادة الارضية » اللازمة لنموّ النبات

وكان الخطوة الطبيعية التالية ، ولو جاءت متأخرة في حساب الزمان ، ان يضيف الانسانُ الباحث الى الماء المقطَّر العناصر المختلفة حتى يعيّن منها ما يجد النبات لا يستغني عنهُ . فجاءت سلسلة من التجارب قام بها الباحثون لتحديد المقادير المختلفة من العناصر التي تجعل نموّ نباتٍ ما اتمّ ما يمكن ان يكون . ونحن نعلم الآن من هذه التجارب ان النبات يحتاج الى مقادير يسيرة جدًّا من عناصر معيَّنة علاوة على المركبات الكيماوية المشهورة مثل الفصفات والنترات وغيرها

ومن هذه العناصر البور (البورون باللغة الانكليزية). وهو عنصر مشهور يستعمل في محلول

الحامض البوريك لغسل العيون وتطهيرها وفي مسحوق البورق لمعالجة الجراح ومنع التقرُّح بين الابهام وهو كذلك سامٌّ في بعض الاحيان . فانك اذا رششت بضعة ارطال من البورق في ما مساحتهُ فدان من الارض المزروعة بالبطاطس فتك بالمزروعات جميعاً . وقد حدثت نكبة من هذا القبيل من بضع سنوات اذ رشَّ في ارض مزروعة بطاطس ، سمادٌ معين ثبت فيما بعد انهُ يحتوي على بورق فتلفت المزروعات كلها

ومع ذلك ، فالنباتات تحتاج الى مقادير يسيرة جداً منه لكي يكون غذاؤها كاملاً ونموها صحيحاً وقد ثبتت حاجة نبات الطماطم الى هذا العنصر بالطريقة التالية : —

اخذت نبتتان من نبات الطماطم من اصل واحد . وزرعت كل منهما في سائل مغذٍّ يشتمل على العناصر الغذائية التي تحسب عادة لازمة لنمو النباتات وكان السائلان متماثلين في كل شيء الاَّ في شيء واحد . ذلك ان احدهما كان يحتوي على مقدار صغير من عنصر البور ، وأما الآخر فكان لا يحتوي على أثارة منهُ . وقد بلغ هذا المقدار الصغير جزءاً من ٢٠٠٠٠٠٠ (مليوني) جزء من السائل . فكانت النتيجة ان النبتة التي في الاول اي السائل المحتوي على البور نمت نمواً طبيعيًّا وأورقت . وأما الثانية وهي التي زرعت في السائل الخالي من البور فكانت ضامرة سقيمة . ثم قلبت الآية . فنُقلت النبتة التي في السائل الاول الى السائل الثاني فسقمت وضمرت ، ونُقلت الثانية الى السائل الاول فنمت نمواً سويًّا

قلنا ان البور في السائل كانت نسبته ١ الى مليوني جزء من السائل . ومع ذلك استطاعت النبتة ان تحس بوجوده وتستفيد به . فمثلها في ذلك مثل رجل يتناول حساء (شوربة) فلا يجد في مرجل يتسع لثلاثين لتراً من الحساء الاَّ حبة حمّص واحدة او كتلة واحدة من اللحم

بل الغريب في هذا ، انهُ اذا زاد مقدار البور عما تقدم أصبح وجوده ذا أثر ضارّ . ولكن النبتة تكون اسوأ حالاً اذا كان سائلها من غير بور على الاطلاق ، منها اذا كان مقدار البور منهُ غير صالح . والنبتة التي في سائل خالٍ من البورق تصاب اذا تُركت فيه ، بما يأتي : يقف جذعها عن النمو طولاً وتموت انساج الجذع الموصلة للسوائل الحيوية ، وهي مؤلفة كما لا يخفى من انابيب دقيقة تنقل فيها تنقلهُ السكر الذي يركب في الاوراق الى الجذع ليخزن فيه . فاذا عجزت الانابيب عن نقل السكر من الاوراق تحول فيها نشاء فتكتنف الاوراق وتلتفُّ وهذه الحالة تشبه مرضاً نباتيًّا يدعى بالانكليزية «رول ليف» أي «التفاف الاوراق»

وللنبات دهاء عجيب في انتزاع البور اين يجدهُ . فقد زرع من سنوات نبات البطاطس في إناء خزفي مُلىء برمل الكوارتز المغسول . وكان هذا النبات يتغذى بما يرش به الرمل من السوائل المغذية . فنما النبات نمواً صحيحاً . ثم استؤصل هذا النبات وزرع غيره فلم ينمُ مثلهُ . وبعد

ما عرف مقام البور في تغذية النباتات عرف الباحثون ان طلاء الاناء الخزفي كان يحتوي على قليل من البور فامتصتهُ النبتة الاولى ولم تبق عليهِ . ثم زرعت النبتة الثانية فلم تجد في المحلول المغذي بوراً ، لا في رمل الكوارتز ولا في طلاء الاناء فجفت وذوت

هذه التجارب التي كانت علمية محضة ، افضت كما يفضي كل بحثٍ عاجلاً او آجلاً ، الى التطبيق العملي . وهذا التطبيق العملي قائم على زرع النباتات التجارية المستعملة في الغذاء خاصة في ماء تضاف اليهِ المحلولات الغذائية اللازمة لها حتى يكون نموها أتم ما يكون ومحصولها اكبر ما يكون

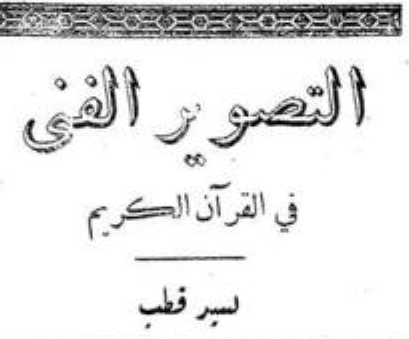
فقد قرأت في المجلات العلمية الاميركية والانكليزية ، ان نبات الطماطم زرع بهذا الاسلوب المستحدث فارتفع حتى اضطر قاطف ثمرهِ ان يستعمل السلّم في الوصول الى الثمر الذي في اعاليهِ وكان محصولهُ عظيماً . في تلك المنطقة كان محصول فدان المزروع طماطم خمسة اطنان من الطماطم ولكن الطماطم الذي زرع في الماء اعطى محصولاً — لو عدّل بسطح الحوض الذي زرع فيهِ — لبلغ محصول الفدان ٢١٧ طناً اي نحو ٤٣ ضعفاً . ويبلغ اعظم محصول البطاطس في الفدان بالولايات المتحدة الاميركية ١١٦ بشلاً وكان ذلك في سنة ١٩٣٤ . ولكن البطاطس المزروع في الماء المغذّى بافضل محلول لتغذية البطاطس اعطى محصولاً بلغ معدّلهُ ٢٤٦٥ بشلاً بالفدان . اي اكثر من ٢١ ضعفاً . وزرع نبات التبغ (اي الدخان) فبلغ ارتفاعهُ ٢٢ قدماً . وهذا بصرف النظر عن تحسُّن الصنف او تأخره بازدياد النمو في النبات

وقد زرع البنجر والجزر بالطريقة نفسها فكان المحصول مما يبعث على الدهشة والاستغراب لكبره

وقد الفت شركات في اميركا لزراعة الطماطم والفراولة بهذه الطريقة . وتجرَّب التجارب الآن بطائفة مختلفة من النباتات الزهرية والثمرية

اما الاسلوب المتبع الآن في هذا الفرع الجديد العجيب من فروع الزراعة فقد استنبطهُ واتقنهُ الدكتور جريك Gericke المساعد لأستاذ فسيولوجيا النبات في جامعة كاليفورنيا الاميركية ، بعد سبع سنوات من البحث والتجربة . وأساس هذه الطريقة استعمال الماء القارّ في احواض من الخشب المتين او الاسمنت المسلّح واضافة العناصر اللازمة لنموّ النبات على اتم وجهٍ — كما اثبتتها تجارب من قبيل التجارب التي اشرنا اليها . وحرارة الماء تختلف على الاكثر بين ٢٢ درجة مئوية (سنتغراد) و٣٠ درجة مئوية وتحتفظ بحرارته بواسطة سلك تجري فيهِ الكهربائية ، وهو الغالب او بطرق اخرى . ويوضع على سطح الحوض مشبَّك من السلك الدقيق يغطى بطبقة من القش او ما هو شبيهٌ بهِ فتزرع فيهِ البذور حتى لا تقع في الماء فاذا انتشت (اي افرخت) تدلّت الجذور الى المحلول فتمتصُّ منهُ الغذاء

وهذه الطريقة نفحة جديدة من نفحات البحث العلمي للعمران . ولنا اليها عودة



في المقال الاول تحدثنا عن نوعين من أنواع التصوير الفني في القرآن الكريم : « صور فنية ، وقصص فني » . وفي هذا المقال نتحدث عن النوعين الاخيرين

٣ — حوار فني

في القرآن كثير جداً من الحوار ، وهو صلب كل قصصه تقريباً ، وكل مناقشاته لمخالفيه في العقيدة . ولكن الحوار الفني الذي سأضرب له الامثال هنا ، هو ما يشتمل على عنصر الخيال ، ويجتاز بهذا الخيال ، إلى دارة الفنون الحرة ، وميدان الآداب الطليق (١)

١ — « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم ، وما أنتم بمصرخيَّ إني كفرتُ بما اشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » . وفي هذا الحوار البارع ، يبدو لك المنظر مؤلفاً من ثلاث فرق :

اولاً : الضعفاء الذين كانوا تبعاً للاقوياء . وهم ما يزالون في ضعفهم ، وقصر عقولهم وإحساسهم ، يلجئون إلى الذين استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف ، أو يعتبون عليهم إغواءهم متمشين في هذا مع طبيعتهم المهزيلة

ثانياً : الذين استكبروا ، وقد ذلت كبرياؤهم ، وواجهوا عاقبتهم وهم ضيقو الصدور بهؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكفيهم ما يرونهم فيه من ذلة وعذاب ، فيسألونهم الخلاص ، وهم لا يملكون لأنفسهم خلاصاً أو يذكرونهم بجريمتهم معهم حيث لا تنفع الذكرى ، فما يزيدون على أن يقولوا لهم : « لو هدانا الله لهديناكم »

ثالثاً : الشيطان . بكل ما في طباعه من مراوغة ومغالطة واستهتار وتبجح و (شيطنة) يعترف لأتباعه

---

(١) يصلح هذا الموضوع لبحث مستقل ، يتناول الحوار في القرآن وعلاقته بالعقلية العربية العامة ، ووسائلها في البرهنة

— الآن فقط — أن الله وعدهم وعد الحق ، وأنهُ هو وعدهم فأخلفهم ثم يعضهم ويؤلمهم وهو ينفض يديهِ من تبعاتهم : « وماكان لي عليكم من سلطان ، إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم »لا بل يزيد في تبجحه فيقول « إني كفرت بما اشركتمون من قبل » الله . الله . يأيها الشيطان !

في الحق إن هذا إبداع في تصوير الموقف الفريد ، الذي يتنكر فيهِ المتبوع للتابع ، ويتخلى الولي عن الاولياء ، حيث لا يجدي احداً منهم أن يتخلى أو يستمسك ، ولكنها طبيعة كل فريق تسيره دون تفكير . وفي الحق إن الشيطان هنا منطقي مع نفسه ، ومع الصورة التي رسمها القرآن له ، وإلا فما يكون شيطاناً بغير هذا التلاعب والتبجح والانكار . والموقف بما فيهِ من هذا الحوار التصويري ، موقف فريد من الوجهة الفنية البحتة ، وله أثره العميق في النفوس ، ولولا أن هذا البحث فني خالص ، لتوسعت في بيان قيمته من وجهة الدعاية الدينية ، ولكن حسبنا الاشارة

٢ — « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعاً ، فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : انا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد » . وفي هذه الصورة ملامح من تلك ، وهي تكرار لبعضها ، مع تغيير طفيف حين تبدو الملالة في قول المستكبرين : « انا كل فيها » فهي قولة الضَّجر وحرج الصدور ، الذي لا يطيق كلاماً ولا جواباً

٣ — ومن هذا النحو : « اذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتَّبعوا لو ان لنا كرَّةً ، فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ! »

وفيها ما يشير الى الغيظ وحب الانتقام يجيش في صدور الضعفاء ، فيتمنون لو يجازون اولياءهم صاعاً بصاع . ولكن هيهات !

٤ وفي موقف نوح من ابنهِ عند الطوفان : « وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ، ونادى نوح ابنَهُ وكان في معزل : يا بنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوي الى جبلٍ يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الاَّ من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

في اللحظة الرهيبة تنتبه عاطفة الأبوة ، ومع اعتقاد نوح كنبيٍّ ان ابنه مغرق لأنه لم يؤمن فقد طغت عليه عاطفة الأبوة ، وراح في لهفةٍ وضراعة يدعو ابنه . ولكن البنوة العاقة ، لا تحفل هذه العاطفة ، والفتوة القوية ، لا ترى الخلاص الاَّ في عملها وفتوتها : « سآوي الى جبل »

وفي لحظةٍ اخرى تتغير صفحة الموقف ، في تعبير خاطف ، يصور الموجة العاتية ، تبتلع كل شيء في لحظة « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

والحوار بقية بين الله ونوح ، ولكن الجزء الذي اثبتناه ، لم يدع مجالاً للنظر فيما وراءه بما تركه في النفس من روعة خاطفة وخيبة ساحقة

٥ — ومن الحوار الممتع المصور للحالة النفسية ، ما يدور بين اهل الجنة واهل النار:
« ونادى اصحابُ الجنة اصحابَ النار : ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ قالوا : نعم . واذَّن مؤذّ ن بينهم ان لعنة الله على الظالمين »
« ونادى اصحابُ النار أصحابَ الجنة ! ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا : انَّ الله حرَّمهما على الكافرين »

فهذا الحوار المختصر في ذينك الشأنين بليغ في اختصاره ، مصور لحالتي الفريقين اتم تصوير وفي مبدئه تهكم خفيّ من المؤمنين ، بأولئك الذين كانوا يكذبون بما وعدهم الله ، حتى اذا تم « اذّن مؤذّن بينهم » . وبين النداءين تصوير للأعراف ، وما يقع عندها من احداث يضم الى القسم الأول من اقسام التصوير الفنيّ ، ويصلح مادة لملاحم خصبة[1] ، ومناظر سينمائية

٤ — تعبيرات فنية

في القرآن غير الأنواع الثلاثة التي مرَّ ذكرها ، تعبيرات فنية مختصرة ، ترتفع الى الذروة في دقة التعبير وجماله ، وافصاحه عما يتصدى له من مناظر طبيعية ، او خطرات نفسية ،اوطبائع خلقية . وفيما يلي نماذج منها

١ — « والصُّبحِ اذا تنفَّس »... فمن ذا الذي يقرأ هذا التعبير ، ثم لاتنبعث في نفسه خيالات شتى ، تصور له كل حي في هذه الدنيا ، ينفض عن نفسه رداء النوم ، عند انبلاج الصباح ، وتدب فيه الحياة والحركة ، وتشيع فيه النشوة واليقظة ؟

وهي بعد جملة واحدة ، بل لفظة واحدة ، تخلق هذا المثال النادر من الاشعاع ، وتمد الخيال بذخيرة ، تنشط لها النفس الحية ، وتستشعر التفتح والاسترواح

٢ - « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »... تقرؤها فتتصور التهالك على الحياة في احط صورها ، وأقل مراتبها، بلا شرط،ولا تمييز بين حياة وحياة. فوراء هذا التنكير والتجهيل ماوراءه من تحقير وتصغير ، يهبط بالحياة التي يحرص عليها هؤلاء الناس المقصودون ، الى مرتبة حياة الديدان والحشرات والهوام ، دون أن يساق لهذا المعنى لفظ ناب ، ولا تعبير مستكره !

٣ — « ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرَقون، لو يجدون ملجأً أو مغارات او مُدَّخلا لولوا اليه وهم يجمحون » . فأي تعبير عن الجبن ، وتأصل الخوف ، وسقوط الهمة ، واعتياد التخلف ، أبين من هذا التعبير المختصر المصور ، الذي لا يواجهك بالوصف ، بل يترك لك استنباطه ، بعد متعة للخيال في التصور اللطيف ؟

(١) كتب الشاعر المبدع المرحوم الاستاذ محمد عبد المعطي الهمشري ملحمة بعنوان « شاطىء الاعراف »

٤ — «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض : هل يراكم من احد ؟ ثم انصرفوا» ! يا للسخرية من قوم لا يحتملون تبعة رأيهم ، ولا يحبون أن يقوم الدليل عليهم ، فيهربون من مواجهته ، وهم يتخافتون بينهم ، ليتأكدوا أن أحداً لم يرهم وهم يهربون

ويا للخيال الممتع يصير بهم ، وهم يتسللون ، بعد أن نظر بعضهم الى بعض ، وقد أمنوا الرقيب

٥ — « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سُكِّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ! . وهذه صورة للمكابرين الصغار ، الذين لا تنبع مكابرتهم من اعتداد بالنفس والرأي ، بل تنبع من الجهل والاستغلاق والعناد المطموس فلا يبالون وضوح الدليل ، ولا نصاعة الحجة ، ولا يخافون سقوطهم بسبب هذا العناد المفضوح

٦ — « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » . أرأيت إلى تصوير الضعف المزري ، وإلى التدرج في تصويره بما يفضي الى السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ؟

« لن يخلقوا ذباباً » هذه درجة . « ولو اجتمعوا له » وهذه اخرى ، « وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » وهذه انكى وأشد ، وليس وراء ذلك من ضعف حقير

ولكن ! أهذه مبالغة ؟ او هل البلاغة فيها هي الغلو ، كما يفهم الكثيرون ان ذلك مدار الاستحسان فيما يقرأون !

كلا ، فهذه حقيقة واقعة بسيطة ، فهؤلاء الآلهة الذين عبدوا من دون الله — وأرقاهم ما كان انساناً — « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صغير حقير ، ولكن الاعجاز في خلقه هو الاعجاز في خلق « الحياة » وهي اكبر شيء واعظم شيء في الوجود . وما تزال الحياة في اول صورها مستهولة مستعظمة ، بجانب الموت الجامد ، والفناء المترامي

ولكن البراعة هنا في عرض هذه الحقيقة ، بصورة تكشف العجز عن بلوغ مسألة هينة صغيرة في ظاهرها

ولعل في هذا ابداء سريعاً لرأي في المبالغة وعلاقتها بالبلاغة وان كان الموضوع يتسع لبحث كبير

٧ — «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين »

في هذه الكلمات القليلة تعبير قوي رهيب عن شمول علم الاله ، مختار له افضل الألفاظ المعبرة ، فضلاً على التركيب كله ، فليس عبثاً أن يقال : « وما تسقط من ورقة الا يعلمها » وليس لغواً ان يقال : « ولا حبة في ظلمات الارض » وان الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها ومجاهلها ، ليتتبع هذه الاوراق الساقطة ، وتلك الحبات المخبوءة المشمولة في مخابئها بعلم الاله

٨ — « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح » . شريط سريع العرض جداً للحياة ، يفي بالغرض المقصود من تجسيم قصرها وسرعتها ، وهو غرض ديني ليس من شأننا ان نبحثه هنا ، ولكنا نبحث الصورة وحدها في جمل ثلاث قصيرة ، تتضمن ثلاث حالات سريعة متداخلة ، ينتهي عرض « شريط » الحياة!

ماء نازل من السماء ، اختلاط هذا الماء بالنبات، النبات هشيم تذروه الرياح!

وبين هذه المراحل الثلاث الخاطفة ، مراحل اخرى طويلة ، ولكنها في الواقع ثانوية في الصورة وفي حياة النبات،ولهذا يعتبر ذلك التصوير صادقاً مع اغفاله المراحل الطويلة الثانوية التي لا حاجة اليها في الغرض الحاضر ، وإثباته المراحل القصيرة الاساسية

وتلك هي المهارة في التعبير ، مع الصدق في المحو والاثبات

كلمة تحليلية

لم يكن قصدي مما قدمت الا ضرب الأمثلة ، ولفت النظر ، فلم أكن أنوي الاستقصاء ، وما يزال وراء ما ذكرت كثير مما لم أذكر ، والموضوع خصب وصالح للدراسات المستفيضة ، والمنتهون في دراسة الآداب ، بالجامعة والازهر ودار العلوم (بعد اصلاحها) يستطيعون ان يضمنوا هذا البحث ، رسالة قيمة للنقاش والدراسة

ولكن من الحق ان اقرر ان ما لم اذكره صورة مما ذكرته ، وكلاهما يلتقي عند لون واحد من ألوان الأدب الفني . وهذه الانواع الاربعة التي مثلت لها ، تلتقي كذلك عند هذا الاصل ولهذا لا يعد من الابتسار والتعجل ، الكلام على التصوير الفني في القرآن ، هنا من وجهة النقد الادبي .[يميل الادب العربي كله الى «الكلاسيك» حينما يميل الى الصور الذهنية ، والتقاليد التعبيرية ذات القوالب المصبوبة المحدودة ، التي تستعار من حالة ، الى كل حالة تشابهها . ولذلك مال النقاد والعرب ، الى تحديد صور العواطف والانفعالات ، وتحديد صور التعبير عنها كذلك

ولذلك غلا بعض ادبائهم ، فانكر نفسهُ وزمانه في سبيل الجري وراء الصور الذهنية والصور التعبيرية ، في مخلفات الاجيال السابقة واعتبروها نوعاً من الطقوس لا ينزع عنها !

ولكن الأدب العربي لم يعدم التنويع في اساليبه واتجاهه الى حدٍّ ما

فقد دخلت فيه « الرمزية » عن طريق « الصوفية » التي ترمز بالظاهر للباطن ، وترى خلف كل محسوس ظاهر ، معنويًّا مغيباً وراء الحجب ، تتملاه البصائر « بالاشراق » وتقصر دونه الابصار . وهذا اساس لا بأس به للرمزية في الأدب

ولكن حدث أن « الصوفية » ظلت طريقة دينية اكثر منها طريقة أدبية . وظلت بمعزل عن الادب العام ، فلم تؤثر رمزيتها فيه الا بمقدار ، ولم تستطع تحويلهُ عن مجراه الاصلي ، وعن

وجهته الكلاسيكية . ويعتبر ابن الفارض أبرز مثل لرمزية الأدب العربي ، وهي كما يراها الباحث رمزية خفيفة ، مناسبة للوسط العربي

وقد دخلت « الرومانتيكية » كذلك دخولاً خفيفاً جدًّا في الأدب العربي في العهد العباسي وفي الاندلس ، وازدادت الى حدٍّ ما في أيامنا هذه وإن كانت آخذة في الانحسار ، تبعاً لانتشار المذهب « الواقعي »

دخلت الصور الموشاة المظللة في الشعر ، ورسمت صور الأبطال والمواقف والمناظر ، ذلك الرسم الهين تحت اشعّة ساجية ، وأحاطت الهالات المرسومة عن قصد بالعواطف والمرائي، وتبع ذلك ظهور التهارض والاصطناع وهما من عيوب الرومانتيكية ، حين تغلو في طريقتها

أما « الواقعية » فقد استعاض عنها الادب العربي قديماً ببساطته وحسيته ، ولو انحرف قليلاً لصار اليها ، وإن الباحث في بعض الانتاج الادبي في الجاهلية ، وفي الشعر الماجن ايام العهد العباسي ، ليجد في كليهما ملامح من « الريالزم » الحديث

الى اي هذه الألوان الاربعة يجنح التصوير الفنّي في القرآن ؟ [يجد الباحث مشابه كثيرة فيه من « الرومانتيكية » وان كان هو سابقاً لظهور هذا المذهب في اوربا وفي الشرق طبعاً ولكنها «الرومانتيكية» الخفيفة ، البعيدة عن التكلف والاصطناع

فتلك الصور الفنية التي يرسمها ليست« كلاسيكية » ذات قوالب وحدود . وليست « رمزية» ولا تميل الى الرمزية ، فليس وراءها ما ترمز اليه ، وإنما هي مقصودة لذاتها .وليست «واقعية» مجردة من الخيال والتوشية والظلال . ولكنها أشبه ماتكون بالرومانتيكية

وليس في ذلك كله من عجيب . فالقرآن يمثل العقلية العربية والاتجاه العربي في التعبير، إذ كان خطاباً للعرب أولاً ، وسجلاً لارقى طبقة معجزة من بلاغتهم

والعقلية العربية لاتميل الى الرمز ، ولا تجد حاجة اليه وهي تكره التوشية والظلال والاغراق في البعد عن المحسوس الملموس ، والرومانتيكية لايهمها المحسوس بمقدار ما تهمها الصورة الخيالية

فلا غرابة أن تنأى العربية عن الرومانتيكية الموغلة ، ويكتفي القرآن بالصور الأولى منها في تصويره الفنّي

اما لماذا لاتميل العقلية العربية الى الرموز والخيالات، ففي طبيعة بلادها تأويل ذلك . فليس في هذه البلاد محجوب ، ولا مستهول مجهول ، فلاداعي اذن لاغراق الخيال ، ولا ضرورة حينئذٍ للرمز ، وكل شيء مكشوف معروف . ثم إن الصراحة التي جبل عليها العربي نتيجة عدم خضوعه لنظم سياسيّة او اجتماعية او اقتصادية قاهرة تميل به عن الرمز الى التصريح

تلك عجالة في هذا البحث البكر الخصيب ، ولعلها تكون مقدمة لبحث شامل كبير ان شاء الله

كشف ناحية جديدة في علم :

تولد الامراض

والدفاع ضدها والمناعة

للدكتور نجيب فرح [1]

— ١ —

« تأثير اليرقان في شفاء الالتهاب المفصلي الشبيه بالروماتيزم » في المؤتمر العالمي للأمراض الروماتيزمية الذي عقد في مدينة باث في انجلترا في ابريل سنة ١٩٣٨ عرض هنش Hench أحد أطباء عيادة مايو الاميركية ما لاحظهُ من تأثير ناجع لليرقان في الالتهاب المفصلي الشبيه بالروماتيزم وفي الروماتيزم العضلي . وقد دونت هذه الملاحظة في محضر المؤتمر صفحة ٣١٥ فأثارت أشد الاهتمام بين المؤتمرين . وتتلخص هذه الملاحظات السريرية في ان حالة المصابين بالروماتيزم تتحسن بمجرد ظهور اليرقان الذاتي او الناتج من الانسداد تحسناً سريعاً وعظيماً لمدة تتفاوت بين الثلاثة أسابيع وأشهر عديدة دون ان يبلغ هذا التحسين في أية حالة مبلغ الشفاء التام . غير ان ظهور هذا اليرقان لم يكن يتبعه أي تحسن في بعض حالات الروماتيزم ولا سيا النقرس

إن ظاهرة التحسن هذه قد شوهدت عرضاً فلاحظها بعض الأطباء ومنهم ويشارت Wishart سنة ١٩٠٣ وجاء بعده من أيدها أمثال هنش نفسه سنة ١٩٣٣ وسيدل Sidel وناتان Nathan وابرامس Abrams سنة ١٩٣٤ وبورمان Borman سنة ١٩٣٦ وطمسن Thompson ووايات Wyatt سنة ١٩٣٨ وقد حاول هذان الأخيران ، بل توصلا منذ عهد قريب الى معالجة المصابين بالالتهابات المفصلية الشبيهة بالروماتيزم معالجة ناجعة بحقنهم في الوريد بالمادة الملونة للصفراء (المعروفة علميًّا باسم بليروبين Bilirubin) والأملاح الصفراوية

وقد جاء البروفسور ڤيل Veil ببيان في مؤتمر باث نفسه أُدرج في صفحة ٣٣٢ من محضره في أثناء مناقشة هذه المسألة فأيد ملاحظات هنش بذكره حادثة حمى روماتيزمية تضاعفت بالتهاب

---

(١) هذا ملخص المحاضرة الطبية العلمية النفيسة التي القاها الدكتور نجيب فرح في المؤتمر السنوي الحادي عشر للجمعية الطبية المصرية والمؤتمر الطبي العربي الثاني المنعقد في القاهرة من ٢٩ يناير الى ٢ فبراير سنة ١٩٣٩ وينتظر ان يطبع نص هذه المحاضرة كاملاً باللغة الفرنسية في مجلة الجمعية الطبية المصرية

سحائي وحالما ظهرت اعراض اليرقان في العليل تقهقرت جميع أعراض هذه الحمى وهذا الالتهاب
ومما يدلُّ أبلغ الدلالة على هذه الظاهرة الطبية ان المصابين أصبحوا يقولون — على ما جاء في مقالة هنش في المؤتمر — « إذا دخل اليرقان من الباب الأمامي خرج الروماتيزم من الباب الخلفي » او « أبيع روماتيزمي باليرقان في أي يوم »

وقد تسنَّى لنا في المؤتمر نفسه[1] ان نوجه النظر الى ان المشاهدات مدار البحث قد تجد تعليلاً من اختبارات قمنا بها وعرضناها على المؤتمر التاسع للجمعية الطبية المصرية (القاهرة، دسمبر ١٩٣٦) ثم نشرت في مجلة اللانسيت[2] مما يؤيد اكتشافنا في سنة ١٩٣٣ أن التوموكوك يحدث الروماتيزم الحقيقي وهي تتناول «ما تؤمنهُ المادة الملونة للصفراء من دفاع في حالات الاصابة بالتوموكوك» . ثم اننا بحثنا موضوع تأثير هذه المادة في دفاع الجسم عند الاصابة بالحمى التيفودية[3] وكذلك موضوع « وجود المادة الملونة الصفراوية في الدم والتشخيص المميز بين الروماتيزم الحقيقي والرماتيزم الدرني — بونسيه Poncet »[4]

— ٢ —

﴿ ماهي المادة الملوَّنة الصفراوية — بليروبين ﴾ هي المادة الملوَّنة التي تدخل في تركيب الصفراء والصفراء سائل يفرزه الكبد . ولكن ثبت ان المادة الملوَّنة الصفراوية يفرزها في انساج الجسم جهاز يعرف باسم جهاز اشوف الفارسي Reticulo-endothelial system وهو عبارة عن شبكة تحوط اعضاء الجسم جميعها احاطة تجعل هذه الاعضاء على اهبة الدفاع عن اي مكان بالجسم عند الاقتضاء

ورأينا القائم على اختباراتنا وتجاربنا حتى في مايتعلق بهذه الظاهرة المستغربة — ظاهرة شفاء التهاب المفاصل الشعبية بالروماتيزم عند حدوث اليرقان — تقوم على ان للمادة الملونة الصفراوية سواء منها ماتكوَّن به موضعيًّا (ريتش Rich ١٩٢٥) او ما انقذف منها في دورة الدم (Bilirubinaenemia) تأثيراً له شأنهُ في المقاومة والمناعة ، وما المقاومة والمناعة في الواقع الأعمل هضمي يسطو على الجراثيم التي تقتحم الجسم فيتغلب عليها ويهضمها

— ٣ —

﴿ تكاثر المادة الملونة الصفراوية او تناقصها في الدم ﴾ يختلف تولد المادة الملوَّنة الصفراوية في الدم باختلاف الناس . ثم يختلف في الانسان الواحد في حالتي الصحة والمرض . فيزداد مقدارها او يسير الى النقصان في الدم بحسب طبيعة الجرثومة التي يجب على الجسم ان يكافحها[5]

(١) محضر المؤتمر صفحة ٣٣٢ (٢) ٢٧ فبراير ١٩٣٧ (٣) جريدة امراض البلدان الحارة والوقاية في لندن ١ فبراير ١٩٣٨ (٤) محضر مؤتمر اكسفورد العالمي للامراض الروماتيزمية والمعالجة المائية ١٩٣٨ صفحة ٢٠٦ (٥) نجيب فرح ١٩٣٨ — جريدة امراض البلدان الحارة وعلم الصحة بلندن ج ٣ ص ٤٠

مثال ذلك ان هذه المادة تزيد في الدم عند ما يصاب الجسم بجرثومة « النوموكوك » فتؤثر فيها تأثيراً يدفعها الى التلبُّد فالانحلال [1]

ومن الغريب ان المادة الملوَّنة الصفراوية تقلُّ غالباً في الدم بدلاً من ان تزيد اذا كانت الاصابة بباشلس ايبرث Eberth المسبب للحمى التيفودية . ولكن هذا الامر الغريب يفهم على صحته متى علمنا ان المادة الملونة الصفراوية من خير الموادالتي يتغذَّى بها هذا الباشلس ، واذن فالجسم يقلّل من مقدارها في الدم دفاعاً عن كيانه لئلا تكون كثرتها في الدم باعثاً على تكاثر الباشلس ونموّه وتمريض الجسم لفتكه . وعندنا ان هذا الاسلوب الدقيق الذي يكيف به الجسم مقدار المادة الملوَّنة في الدم وفقاً لحالته يرجع الى سيطرة نظام الغدد الصم في الجسم ولكن هذا الموضوع في حاجة الى مزيد من البحث والاستقصاء

ثبتت صحة هذه الملاحظة بقياس مقدار المادة الملوَّنة الصفراوية في الدم بطريقة فاندنبرج Van Den Bergh ثم تأيدت بنتيجة التجارب التي اجريناها على الارانب

فالارنب لا توجد في دمه — على ما اثبتنا — هذه المادة الملوَّنة الصفراوية [2] ولذلك لا يؤثر فيه باشلس ايبرت المسبب للتيفود على الغالب . غير ان الارانب التي حقناها بهذا الباشلس ثم حقناها يوميًّا بالمادة الملونة الصفراوية ماتت جميعاً بمرض التيفود اذ انشأت فيها حالة مفتعلة لوجود المادة الملوَّنة الصفراوية في دمها induced Bilirubinaenemia يؤيد هذا ان المصابين بالتيفود تتفاقم اصابتهم اذا صاحبتها الاصابة باليرقان . فاذا ما حقنت الارانب وهي في حالتها الطبيعية بهذا الباشلس في اوردتها تلاشّ بسرعة وافية وذلك لعدم وجود المادة الملونة الصفراوية في الدم على نحو ما اثبتناهُ ، ولذلك لا يصلح دمها لنمو هذا الباشلس وتكاثره ، يدلّ على ذلك وجود الباشلس عادة بعد حقن من هذا القبيل في المرارة ، وهذا يجعل الارنب في حالته الطبيعية ناقلاً للتيفود وان كان لا يصاب بها فيكون من اسباب العدوى بها في الانسان

﴿ ماذا يحدث في حالة الاصابة بالسل ؟ ﴾ — ومن جهة اخرى نرى انهُ في حالة الاصابة بالسل الرئوي — وما هذا الداء الاَّ علة تصيب جهاز التنفس كما تصيبهُ ذات الرئة الناشئة عن جرثومة النوموكوك وحيث تتعرَّض انسجة الرئة للاندثار مع ارتفاع درجة الحرارة كثيراً ويتضخم الكبد احياناً — يتناقص مقدار المادة الملونة الصفراوية في الدم . ويلوح لنا ان هذا النقص قد نشأ من التفاعل الذي يتذرع به الجسم للتغلُّب على باشلس كوخ . ويؤيد رأينا هذا ان الارانب — ودمها على ما اثبتنا خلو من المادة الملونة الصفراوية — لا تصاب عادة بالسل في حالتها الطبيعية . ثم يؤيدهُ ان ظهور اليرقان في مصاب بالسل يتبعهُ تقدم في سير العلة على

(١) نجيب فرح ١٩٣٧ اللانسيت ج ١ ص ٥٠٥ (٢) نجيب فرح مجلة اللانسيت ١٩٣٧ عدد ١ ص ٥٠٥

اتجاه الى نزف الدم مما ينذر دائماً بسوء العاقبة

فاذا كانت هذه الوقائع حقيقية — كما نعتقد — فان بالأخذ بها تقدماً كبير الشأن في علم تولد الامراض كما انها تضيف وسيلة من وسائل دفاع الجسم ضدَّ الجراثيم التي تجتاحهُ ولا ريب في ان هذا النجاح سيوجه الاستقراء الطبي على سبيل سوي محجتهُ خير الفرد والمجموع

— ٤ —

﴿عجائب الملاءمة في نظام دفاع الجسم﴾ قلنا انهُ ثبت لنا بالتجربة ان المادة الملونة الصفراوية تزداد في الدم عند ما تهاجم الجسم جراثيم النوموكوك الثائرة فتلبدها توطئة لحلها وهضمها. ولكن من غريب طبائع هذه الجراثيم، انها تكون حيناً ثائرة وحيناً مستكينة. فاذا كانت ثائرة قاومتها المادة الملونة الصفراوية على الوجه المتقدم. اما اذا كانت مستكينة فليس لهذه المادة تأثير فيها. حتى ولو ازداد مقدارها في الدم ازدياداً كبيراً يفضي الى اليرقان. وهذا يثبت ان جراثيم النوموكوك قادرة على الملاءمة بين نفسها وبين الوسط الذي تكون فيه. فاذا كانت ثائرة وتعرضت لفعل المادة الملونة الصفراوية عمدت الى التغير فتتحول مستكينة بعد ان يكون فريق كبير منها قد سقط في ميدان الكفاح بفعل المادة الملونة الصفراوية. وفي حالة استكانتها لا تحدث اعراضاً مرضية ما. يؤيد هذا ان ما قمنا بهِ من ابحاث حتى اليوم اثبت بغير عناء وجود النوموكوك بصورة اكيدة في كل انف وفم وحلق وبصاق وبراز كل شخص سواء اكبيراً كان ام صغيراً كما ثبت وجوده ايضاً في بول النساء وسوائل ارحامهنَّ وهو يوجد غالباً في بول الرجال كما تحققنا من الابحاث التي اجريناها في حالتي الصحة والمرض منذ بدأنا باستعمال مصل الارنب الصغير السائل التي باتنظام لانماء الجراثيم في السائل تكشف لنا هذه الجرثومة عن هيئتها الحقيقية

كان الظن عند كشف جراثيم النوموكوك انها تحدث ذات الرئة Pneumonia فقط ثم اثبت فريق من الباحثين انها تحدث حالات مرضية اخرى مثل التهاب البريطون النوموكوكي الخ ولكننا نرى ان تشكل هذه الجرثومة في اشكال متعددة — وجدت المس كوبر ان هناك مثلاً ٣٢ صنفاً من النوموكوك — قد يكون مسبباً لاصابات منوَّعة مثل الروماتيزم على نحو ما اثبتناه في سنة ١٩٣٣[1] وذلك وفقاً لدرجات ثورانه. ومن الممكن ان يكون سبباً لامراض اخرى لم تزل جرثومتها الاصلية مجهولة او يفترض انها من نوع الفيروس (كالانفلونزا مثلاً يظن ان سببها فيروس). والفيروس يكون اما جزيئاً كبيراً من البروتين او من البوليساكاريد. ولا يخفى ان جرثومة النوموكوك تنحلُّ عند ما تفعل فيها المادة الملونة الصفراوية الى مواد بروتينية او بوليساكاريدية، وعلى ذلك فقد تكون المواد السامة الناجمة عن انحلالها سبباً في احداث امراض من النوع الذي يعزى الى الفيروس

(١) في مجلتي اللانسيت وامراض البلدان الحارة ١٩٣٤

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشر سيفين

﴿ آمن ﴾ — آمن ومعناه الخفي هو اله الشمس في طيبة ولا يزال هذا الاسم حيًّا الى اليوم على ألسنة المتدينين من سائر الامم يختمون به صلواتهم وادعيتهم سائلين المولى ان تستجاب بقولهم آمن وآمين . ولما اتسع ملك مصر وأصبحت امبراطورية في زمن الاسرة الثامنة عشرة أصبح آمن لذلك امبراطور الآلهة ورب الارباب كافة فعزيت اليه صفات الآلهة المشابهة وخصوصاً را وأدمج الاسمان معاً فصار يعرف باسم « آمن را »

﴿ رموزه — ١ — السفينة ﴾ — شبهت الشمس في حركتها اليومية المستمرة بالسفينة وسميت لذلك سفينة ملايين السنين . وكان يصنع رمز على هذا المثال ويخطط من الخارج بألوان الجمشت وهو حجر كريم لونهُ بنفسجي والزمرد ولونه نيلي واليشب ولونه أخضر واللازورد وهو أزرق والذهب وهو اصفر فيكون من تألف هذه الالوان ما يشبه الشفق زيادة في احكام التمثيل . وتوضع هذه السفينة في الهيكل على اعتبار انها المسكن الرمزي للاله . وكان الملوك يتقربون اليه بأهداء هذا الرمز الى المعابد ويحرصون على ان يسجلوا ذلك على جدرانها . وممن سجلوا لانفسهم هذا الفخر « حرحور » اول ملك من الكهنة مؤسس الاسرة الحادية والعشرين فانهُ أوفد كاهناً يدعى أونو آمن الى سوريا لشراء الخشب اللازم لأنشاء سفينة جديدة للاله

ولا يزال لهذا الرمز حرمة عند العامة وكثيراً ما يرى في اضرحة الأولياء وهم يروون الروايات المختلفة في سبب اسناده اليهم ووضعه في أضرحتهم

وأشهر تلك الأضرحة ضريح السيد ابي الحجاج الأقصري وهو والمسجد قائمان على اطلال معبد آمن . والسفينة التي فيه مخططة بالألوان المأثورة عن سفينة آمن . فاذا كان يوم عيد صاحب الضريح وضعت السفينة على عربة ويطاف بها في المدينة ومن حولها جموع الناس يهتفون. وأغلب الظن ان ذلك كان من عادة أهل طيبة الأولين في أعياد آمن

وكما شبّه الأقدمون الشمس بالسفينة فقد شبّهوا فلكها كذلك بالنهر للمطابقة وقالوا في تفسير تعاقب الليل والنهار ان اله الشمس عند ما تحدر به السفينة من المغرب الى العالم الثاني يموت فيسود الظلام . ثم يبعث ويخرج من المشرق فيملأ الدنيا بنوره ولذلك العالم الثاني واسمه عندهم دوات آلهته وعلى رأسهم آسارو اليهم مآب الأرواح وعندهم الميزان لحسابها . ووصف بانه ينقسم الى اثنتي عشر منطقة والنهر يجري في سائرها الا الأخيرة ولكل منطقة باب عليه آلهة لا تأذن لأحد باجتيازه الا أن يذكر اسمها . وقد حرص القدماء لهذا على ان يضعوا مع موتاهم رقعاً من البردي فيها اسماء سدنة الأبواب وكثير من الادعية لكيلا ينسوا . وقد اجتمع لدى الأثريين من هذه الرقاع مجموعة كبيرة أطلق عليها اسم كتاب الموتى

وعلى جدران مقبرة سيتي الاول بطيبة اخبار رحلة را في ذلك العالم وصورها

والذي يعنينا منها في هذا المقام ما جاء فيها عن موت را وبعثه وخلاصة ذلك ان را عند ما تحدر به السفينة الى العالم الثاني من المغرب تنتقل روحه ونفسه الى « خبر ـ را » الاله الذي يرمز له بالحشرة المعروفة بالجعل أو الجعران . وعند ذلك يتولى لفيف من الآلهة اقتياد السفينة الى نهاية النهر في المنطقة الحادية عشرة . اما المنطقة الأخيرة المسماة « بشائر الميلاد » « لأن فيها يبعث را فهي بالرحم اشبه . اذ قيل في وصفها انها عبارة عن جوف ثعبان هائل فاذا صارت السفينة في اولها وقف خبر را على المقدمة متهيئاً لبعث را وتولى اثنا عشر نفراً من المؤمنين جرها بالحبال حتى اذا دنت من الفم وهو نهاية الدوات تسلم الحبال من المؤمنين اثنتا عشرة آلهة وهؤلاء يجرونها الى الافق الشرقي . وهناك يذرّى جسد را العتيق من السفينة كما تذرّى العصافة من الحب . اما روحه ونفسه فتمكثان في خبر را الى النهاية حتى يبعث من المشرق فيستقبل بالهتاف والنشيد

ولا يزال كثير من هذه الأناشيد محفوظاً وفي احداها يشبه الشروق بالخروج من الرحم في اول فقراتها وهذه ترجمتها «سلاماً ايها السيد الخارج من الرحم » وفي نشيد آخر يخاطب را بما معناه «ان الآلهة تسر برأيته عند ما ينبثق من الطلّ آتياً من بلاد العرب (أي الشرق) »

ومن العجيب ان تكون خلاصة هاتين الفقرتين في فقرة من المزمور العاشر بعد المائة وهي «شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة من رحم الفجر لك طلّ حداثتك »

وقد نسجت قصص كثيرة على منوال هذه الأسطورة اقدمها رؤيا يوحنا . وقد أثبت ان فيها كثيراً من الاقتباس من الاسطورة في مقال عنوانه « الكوميديا الالهية» نشر في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ . واجتزىء هنا من هذا المقال بمقارنة بين المدينة المقدسة النازلة من السماء في الرؤيا وبين سفينة الشمس الخارجة من المشرق في رحلة را

يقول صاحب الرؤيا في الأصحاح الحادي والعشرين « وذهب بي - اي الملك - الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من عند الله ولمعانها شبه اكرم حجر كحجر يشب بلوري » ثم يزيدنا عنها بياناً بقوله « وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم : الأساس الاول يشب، الثاني ياقوت أزرق، الثالث عقيق أبيض، الرابع زمرّد ذبابي، الخامس جزع عقيقي، السادس عقيق أحمر، السابع زبرجد، الثامن زمرد سلقي، التاسع ياقوت أصفر، العاشر عقيق أخضر، الحادي عشر اسمانجوني، الثاني عشر جمشت »

تشبه هذه المدينة في زينتها وفي كونها تنزل من السماء عند جبل عال سفينة را لدى مطلعها في الأفق من المشرق وهي مزدانة بأبهى الألوان تتلألأ بالانوار

ويقول الرسول بعد ذلك « والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها لان مجد الله قد أنارها » ويقول ايضاً « سمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم »

وهذا الوصف لا ينطبق على شيء انطباقه على سفينة را فانها بحسب اعتقاد الأقدمين مسكن اله الشمس وهو الذي ينيرها ومتى تظهر في الأفق يصبح الأله مع الناس

ومن هذه الرحلة الخيالية استلهمت عقيدة البعث اذ قيل ان الموت ليس نهاية الأنسان ولكنه كغروب الشمس فراق الى حين يعقبه بعث ونشور في عالم أفضل من هذا العالم . وقد انكسرت شوكة الموت وخفت مرارته منذ كان للناس في هذه العقيدة مصطبر وعزاء جميل

٢ — ﴿ الكبش ﴾ — في الصحراء حيث النهر والسفينة هما أبعد الاشياء عن خيال سكانها رمز لآمن بحيوان مما يألفون وهو الكبش للتنويه بمقامه كرب الارباب . لان الكبش عند اهل البادية عنوان على الزعامة كما في قول العرب فلان كبش قومه اي سيدهم وزعيمهم . ذلك لان من خليقته اذا خرج في قطيع من الغنم ان ينفصل عنهُ ويتقدم عليهِ كعادة الزعماء والقادة

ولهذا فان آمن يصوَّر وعلى رأسهِ تاج من قرون . ولما زار الاسكندر المقدوني معبد آمن في واحة سيوه ولقبهُ الكهنة هناك بابن الاله اتخذ لنفسه لباساً للرأس على هيئة قرني الكبش محاكياً بذلك تاج الاله وكان يظهر بهِ في الاحتفالات الرسمية فكان من ذلك تلقيبه بذي القرنين

ومن الآثار الباقية لهذا الرمز في طيبة تماثيل الكباش التي على جانبي الطريق المعروف باسمها الذي انشأه امينوفيس الثالث ليصل بين الكرنك ومعبده الذي شيده لآمن في الاقصر وزاد في عمارته رمسيس الثاني وفي القرن الرابع عشر شيد مسجد ابي الحجاج على جانب من البهو الذي بناه هذا الملك

﴿ انتشار الديانة المصرية ﴾ — انتشرت عبادة آمن را في الأقاليم الجنوبية مع امتداد النفوذ المصري

فيها . ولا يزال في مروى وهي في موضع نباتا التي كانت عاصمة مملكة النوبة في الزمن الخالي أطلال معابد باسم آمن را واهرام . وهي في سفح جبل يعرف الآن باسم بركل وكان اسمهُ باللغة القديمة تواب اي المقدس

ومن الآثار الثمينة التي وجدت فيه لوحة للملك يعنخي ملك النوبة الذي غزا مصر في زمن اوسركن الثالث من ملوك الاسرة الثالثة والعشرين وفي هذه اللوحة وصف شامل لهذه الغزوة وآيات على تدينه وشدة تمسكه بعبادة آمن را . من ذلك انهُ لما دخل طيبة قدّم الذبائح للاله وامر عسكره اذا ما بلغوا ابواب الكرنك ان يغتسلوا في النهر ثم يلبسوا ثيابهم عند الشاطىء وأوصاهم ان يلقوا سهامهم ويرخوا قسيّهم وان يكف الرؤساء عن التفاخر بقوتهم ما داموا امام آمن فانهُ لن تدوم للاقوياء قوتهم الا أن يخضعوا له. وهو يقوّي الضعفاء ويشدّ اذرعهم المرتخية ويدخل الرعب في الجيش الكبير فيولّي الأدبار امام فئة قليلة . ويعطي قوة للرجل الواحد فيغلب الفاً

ولما تمّ له اخضاع سائر الامراء واستتب له الأمر في البلاد ذهب بنفسه الى بيت الشمس العتيق في هليوبوليس ليقدّم الشكر للاله را على ما أوتيه من النصر « دخل المعبد بالفرح والتهليل . وبعد الانتهاء من مراسم العبادة للشمس المشرقة ألبس الملك العباءة وتطهّر بالطيب والماء البارد . ثم جيء له بأزهار للهات بن بن . فأخذ الأزهار وهبط الدرج الموصل الى النافذة الكبيرة التي يعاين منها را . وقف الملك وحده ووضع المفتاح في القفل وفتح مصراعي الباب فرأى أباه را في مطلعه »

آلهة العالم الثاني

﴿ خيبر را ﴾ معنى خيبر باللغة القديمة المدحرج وهي تطلق على الحشرة المعروفة بالجعران لكونها تضع بيضها في الجعر وهو ما يخرج من الامعاء ولا تزال تدحرجهُ وتضيف عليهِ حتى يكون من ذلك كرة كبيرة فتدفنها في حفرة وتتركها فيها حتى تتم حضانة البيض فاذا خرجت صغارها وجدت الجعر الذي جعل حولها فتغتذت بهِ

وقد اضيف هذا الاسم الى را لانهُ مثلها يدحرج بيضته وهي الشمس من مشرقها الى مكانها الخفي في المغرب فسمي خيبر را . ولما كان اكثر ما يطلق هذا الاسم على را عند بعثه من المشرق فقد جعل من آلهة العالم الثاني وعزي اليهِ انهُ هو الذي يعيد را الى الحياة ويبعثهُ من الأفق

وكان من آثر ذلك عند الأقدمين ان اصبح الجعران رمزاً للبعث فكانوا يصنعون من انواع الحجر المختلفة والخزف مثل هيئة الجعارين وينقشون عليها ماشاءوا من الأدعية والرموز الموافقة لرغباتهم في طول البقاء وحسن المآل ويجعلونها حلية في أصابعهم او على صدورهم او يكتبون

عليها شذرة من كتاب الموتى ويضعونها مع موتاهم لينتفعوا بها في العالم الثاني . ومن هذه الانواع المختلفة الشيء الكثير في المتاحف وعند الافراد

﴿ آسار ﴾ تروي الأساطير ان آسار او عازار وباليونانية اوزيريس هو الذي علّم الناس فلاحة الأرض وزرعها واستنبط المحراث واستأنس الثور وروّضه على جرّه فأخرجهم بذلك من حالة الفطرة وشق لهم طريق الحضارة . غير انه كان له أخ اسمه ست حسده على المقام الذي صار له بين الناس بصالح الأعمال فأسرّ في نفسه ان يقتله واتفق مع نفر من انصاره على ذلك فما زالوا به حتى استدرجوه الى حفل لهم ثم اغروه على ان ينام في صندوق أعدوه لذلك فلما فعل اطبقوه عليه فمات ثم قطع ارباً ونثرت اشلاؤه في انحاء البلاد

ولما علمت إيزيس وهي زوجه بما اصابه جزعت عليه جزعاً شديداً وتملكها الحزن ثم اصطنعت من البردي زورقاً طافت به في النيل باحثة عن اشلاء زوجها . وكانت كلما وجدت جزءاً خبأته عندها ثم اقامت معبداً حيث وجدته ايهاماً للعدو بانها دفنته في هذا المكان . وقيل انها وجدت الرأس عند أبيدوس فاعتبرت هذه المدينة لذلك منذ أقدم العصور اهم مركز لعبادته وشيد فيها افخم معابده ولما اجتمعت لدى ايزيس سائر الأشلاء ردت اليه الحياة بقدرتها ومكث معها وقتاً قصيراً أوصى في خلاله هيرو وهو حورس ابنه ان ينتقم من ست فلما بلغ أشده عمل بوصية ابيه وأخذ بثاره فدعي لذلك المنتقم لابيه وأصبح عنوان البطولة عند الاقدمين واني اظن لهذا السبب ان لفظة hero الافرنجية بمعنى بطل هي من اسم هذا البطل المصري . وفي يوم وقد آذن را بالمغيب ودع زوجه وابنه وداعاً مؤثراً ثم رفعه را اليه في السماء وحمله معه في سفينته الى العالم الثاني . ومنذ ذلك الحين اصبحت مملكته هناك وهو الذي يحاسب الموتى على أعمالهم في الدنيا فالذين اطاعوا وعملوا صالحاً لهم جنات النعيم والذين عصوا وخالفوا شرائعه لهم النار خالدين فيها وعذاب شديد . وصار لذلك يعبد على هذا الاعتبار وترجى رحمته وشفاعة ايزيس زوجه يوم الحساب . وأصبح العجل الذي روّضه لخدمة بني الانسان الأثر الدال على فضله والرمز الحي للسيد الذي عاش بينهم لهدايتهم

ومما يلاحظ مع العجب ان الأسماء التي يقترن ذكرها في كتبنا بالبعث وبالعالم الثاني مثل لعازر الذي قيل ان المسيح اقامه من الموت وعزرائيل ملك الموت واسرافيل الملك الموكل بالصور ينفخ فيه يوم القيامة . هذه الاسماء جميعها كثيرة الشبه بالاسم القديم عازار او اسار والاحرى انها مستحدثة منهُ

والعجل المقدس كان يدعى حاب واسارحاب وفي زمن البطالسة سمي سيرابيس وأوزيريس ابيس ثم اختصر الى ابيس وقد غلب عليه الاسم الاخير ولا يزال يعرف به الى الآن

وقد وصفه هيرودوت المؤرخ اليوناني المشهور وكانت زيارته لمصر في زمن الفرس بقوله انهُ عجل أسود في جبهته مربع ابيض وعلى ظهره رسم نسر وفي ذيله شعرات مزدوجة وعلى لسانه جعل

ويلوح لغرابة هذه العلامات واستحالة توفرها ان الوصف خيالي لكن هذا لا ينفي انهُ كان لاختياره شروط وان ذلك كان لحكمة هي ان يقتصر التقديس على افراد من العجول دون سائر الجنس تفادياً مما وقع فيه الذين يقدسون البقر اطلاقاً من الهنود ويحرمون لذلك ذبحه

ووصف هيرودوت احتفال المصريين به حين تجليه لهم وعثورهم عليه فقال ان البلاد تصبح لهذه المناسبة في عيد شامل ويلبس المصريون أفخر ملبوسهم . وحدث مرة انهُ تجلّى لهم وقبيز عائد من حرب خسر فيها معظم جيشهِ . واذ رأى قبيز ان البلاد يشملها السرور هجس بنفسهِ ان المصريين انما يقيمون الافراح نكاية بهِ وشماتة فيه . فاستقدم عماله الى منف . ولما مثلوا بين يديه سألهم لماذا لم يصنع المصريون شيئاً من ذلك من قبل وهو في منف ولم تطب لهم أقامة الافراح الا هذا اليوم لما عاد اليها وقد مني جيشه بخسارة كبيرة . فاجابوا بقولهم : ان القوم انما فعلوا ذلك لأن معبودهم قد تجلى لهم اليوم وكانوا في انتظار ذلك منذ زمان بعيد . فقال في نفسه انهم يأفكون . وبناء على هذا الظن أمر بقتلهم ثم استدعى الكهنة وسألهم عن جليّة الامر فكان جوابهم كمن سبق . فقال انه يريد ان يرى بنفسهِ هذا الاله الذي ظهر للمصريين. فانصرف الكهنة لاحضاره واذ دخلوا به عليهِ كان يبدو كأنهُ فاقد الوعي فاستل سيفه وطعن العجل يريد بقر بطنه فاصابهُ في فخذه وانفجر عند ذلك يقهقه ثم قال مخاطباً الكهنة : « ايها الأغبياء كيف تكون الآلهة من لحم ودم وينال منها الحديد . حقّاً انهُ لأله جدير بالمصريين . اني لأخالكم تمكرون بي من غير مبالاة ولن أذركم على ذلك بعد الآن . وعند ذلك أصدر أمره الى الموكلين بذلك من رجاله ان يجلدوا الكهنة ويقتلوا كل مصري يجدونه في لباس العيد . ومات العجل متأثراً من الجرح ودفن خفية من قبيز

وللعجول المقدسة جبانة عظيمة في سقاره لايزال فيها كثير من التواويس الضخمة التي كانت تضم رفاتها . وقد وجد اسم قبيز منقوشاً على احدها ولعلّهُ ناووس العجل الذي قتله

آلهة أُخرى

﴿ هاتور ﴾ معنى هاتور او « هت هيرو » مسكن هيرو . قيل سبب هذه التسمية ان هيرو سكن اليها في طفولتهِ فأرضعتهُ اذ كانت ازيس أمه في شغل عنهُ بالبحث عن اشلاء زوجها

وهي في حقيقتها رمز الرحمة والعناية الربانية . وهذه القصة تصور للرحمة كيف تكون والعناية كيف لا تغفل عن الضعيف والطفل الرضيع . ورمز لها في هذه القصة بالبقرة لأنها تعطي من ضرعها للاطفال وتسخو عليهم بلبنها لأشباعهم

ونسبت لها شجرة الجميز فكان من اسماء هاتور سيدة الجميزة لان هذه الشجرة اعتبرت آية من آيات الرحمة يلجأ اليها العاملون في الحقل وعابرو السبيل فيجدون في ظلها الوارف فيئاً ووقاية من أشعة الشمس المحرقة . ولا نزال لبعض اشجار الجميز القديمة حرمة عند العامة يسندون اليها الكرامات وينسبون لها الفائدة في شفاء بعض الامراض ويتقربون الى الله بوضع الازيار تحتها ويملأونها بالماء من الرحمة ليستقي منها عابرو السبيل

وقد جعلت هاتور في موضع الرحمة في اسطورة انتقام را التي لخصتها في المقال السابق . فان الاله لما أراد إهلاك الناس لعصيانهم أرسل أداة النقمة وهي سيخت التي تصور في التماثيل على هيئة أنثى لها رأس لبؤة وهي من اشرس الوحوش . فأثخنت في الناس حتى أدركت الاله الرحمة فعفا عنهم وأمرهم أن يصنعوا من عصير العنب والشعير شراباً مسكراً ويسكبوه في الانحاء التي وقعت فيها المذبحة . وهنا استبدلت سيخت رمز النقمة بهاتور رمز الرحمة فقيل ان هاتور أرسلت كرسول انتقام فشربت من تلك الخمر حتى ثملت ونامت فنجا الناس من الهلاك . وجعل الاله على الناس الاحتفال بهذه الذكرى وشرب الخمر في تلك المناسبة باسم هاتور فريضة لذكرى الخلاص

في مقال عنوانه أثر الاساطير في قصة خروج بني اسرائيل نشر في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٢ أوضحت أثر هذه الاسطورة في قصة الخروج . وقلت أن التمثال الذي صنعهُ بنو اسرائيل في برية سينا . كان تمثال بقرة وكان ذلك لمناسبة الاحتفال بعيد هاتور . وبنيت رأيي على ماجاء في التوراة انهم اخرجوا في شهر أبيب وصنعوا التمثال في الشهر الثالث من ذلك التاريخ وهو يوافق توت اول الشهور الذي يحتفل فيه بعيد هاتور . وهو العيد الذي اشتق منه بنو اسرائيل الفصح والمصريون شم النسيم

﴿ الخاتمة ﴾ ألمحت في دراستي للرموز بأشهر ما عرف منها عند قدمائنا . وخلاصة الرأي فيها انها كانت من خيال الفطرة لتعريف الله وتمثيل صفاته . واحتفظ بها على مر العصور كيراث قومي من الماضي السحيق وذخيرة مقدسة . وجمد الاقدمون لذلك عن تناولها بالتهذيب فأصبحت نابية بأزاء رموز الامم المجاورة التي يتجلى فيها قوة التخيل وجمال التصور

وبالرغم من ذلك كان الدين ينطوي على اسمى المعتقدات وأكثرها روحانية فانتشر في اليونان وألف بلوتارك رسالة عن أوزيريس هي اوفى ما كتب عن هذا المعبود المصري . وأنشئت المعابد في روما للثالوث المؤلف من اسرة اوزيريس المقدسة . وانتقلت مع الفلسفة اليونانية الى سوريا وفلسطين وهناك تلقحت بالديانة اليهودية وفلسفتها وكانت نتيجة ذلك ثورة التجديد في الدين التي اجتاحت مصر وسائر العالم المتحضر . وانجلت المعركة بين القديم والجديد عن زوال الرموز التي لاخير فيها وبقاء المعتقدات لان فيها ما ينفع الناس وستكون هذه المعتقدات موضوع دراستي في المقال التالي

ابن الساعاتي [1]

لانيس المقدسي

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

﴿نشأة الشاعر﴾ ليس في المصادر التي بين أيدينا عن حياة الشاعر ونشأته الا بضعة أسطر لابن خلكان وابن ابي أصيبعة وسواهما تذكر لنا ان اباه محمد بن علي بن رستم بن هردوز خراساني الأصل والمنشأ وقد انتقل الى الشام وفيها عُرف بعلم النجوم وصنع الساعات وهوالذي صنع الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق في عهد نور الدين محمد بن زنكي وقد انعم عليه من أجلها ، وخلف هذا الرجل ولدين احدهما الشاعر بهاء الدين ابو الحسن علي والآخر فخر الدين رضوان وكان طبيباً لخدمته الايام فوزر للملكين الايوبيين العادل والمعظم

ولد الشاعر بهاء الدين في دمشق وقضى فيها الشطر الاكبر من حياته ثم رحل الى مصر فقضى الشطر الثاني هناك حيث توفي وهو في الحادية والخمسين، والظاهر انهُ لم يرحل عن وطنه الاَكارهاً مدفوعاً بطلب المال وحسن الحال . ولقد يشتم من نفثاته في تلك الآونة ان نفسه كانت مرة من فقره وعدم تقدير مواطنيه إياه

وقد اتصل بكثير من امراء الايوبيين ورجالهم من اعلام عصره فمدحهم ...وبرغم كل ذلك لم ينل منهم أيام اقامته في الشام ماكان يصبو اليه من تقدم وثروة ، ولم يحمل معهُ الى مصر غير الحاجة والمرارة والشعور بظلم الزمان . وبقي على ذلك مدة في وطنه الجديد ثم بدأت حالتهُ تتحسن . وفي السنوات العشر الاخيرة اصبح ذا بسطة ويسار

ولا نعلم هل اذا كان شاعرنا قد تعاطى شيئاً غير حرفة الادب فليس في شعره ولا فيما ترجم له ما يدل على ذلك . والذي نعرفهُ من شعره انهُ كان ربَّ عائلة وكان يقيم بالمحلة الكبرى وانهُ فقد في مصر ثلاثة من اولاده منهم اثنان ماتا حدثين فبكاهما في شعره بكاء الوالد الحزين ولم

---

(١) تلخيص للمقدمة التي وضعها الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية لديوان ابن الساعاتي الذي قام بتحقيقه ونشره . راجع باب مكتبة المقتطف في عدد فبراير الماضي

يمش بعدهما اكثر من ثماني سنوات قضاها مصدوع الفؤاد ،وكان قد تجاوز الاربعين فاصبح أميل الى الجد والتفكير مخالفاً فلسفته الاولى في الحياة فبعد ان كان القائل :

محياً تخاف الفقر أو ترجو الغنى ... وبداك تأخذ ما تشاء وتترك
فاهجر معاتبة الليالي واصلاً ... دم كرمة في عرس لهو يسفك

أمسى يقول في الدنيا وصروفها :

فلا تثقن منها بعهد فانها ... لأغدر أنثى لا تدوم على إلّ
أقل وفاء من شباب مودع ... وأخضع في وقت الظهيرة من ظل
لايامها فينا ونحن رعية ... ولاية سوء لا تؤول الى عدل
نؤمل من آجالنا واهن القوى ... ونمسك من آمالنا واهن الحبل
ونسعى لها والحظ من زخرف المنى ... وخضرتها خط السوام من البقل

﴿ شخصيته ﴾ لا بد للحكم على شخصية رجل ما من النظر في علاقاته الاجتماعية والاطلاع ولو جزئيًّا على طرف من حياته الفردية والعائلية . فاذا كان من الغابرين عمدنا الى دراسة سيرته وتحليل اقوال الناس فيه ، ولاسيما الذين عاصروه وعاشروه وقابلنا كل ذلك بما ينعكس عن اقواله من عواطف وما يتجلى فيها من ميول . على انهُ ليس لدينا في دراسة ابن الساعاتي وتصور شخصيته غير ما نستنتجهُ من خوالجه الشعرية،وهذه وحدها قد تحيد بنا عن سواء السبيل.فلا بدّ لنا من التأني والتحرز لئلا نرسم للشاعر صورة خلقية لا تنطبق عليه تمام الانطباق

والذي يلوح لنا أنهُ كان من الظرفاء يحب مجالس اللهو والطرب ، وهذا الظرف بارز في قصائده الشامية وقد ظلت فيه هذه النزعة في مصر ، ولم يكن الغنى الذي يسعى اليه على ما يظهر إلاّ سبيلاً للحصول على المشتهيات والتمتع بأسباب السرور واذا كان هذا الميل قد خفّ فيه بعد موت أولاده فهو لم يخبت في شعره تماماً ولم تتجرد منهُ طبيعته كل التجرد

ومما يبرز في ديوانه ميله الى التباهي بشعره وآله على طريقة المتقدمين ويساوق تباهيه بنفسه تهجمه على حساده ومنافسيه ولا سيا بعض أدباء الشام ، ولم يكن شاعرنا من ذوي الطباع الهادئة بل كان شديد الحرص على كرامته سريع الانفعال مما يمس سمعته فهو يرد لمنافسيه كيدهم ويطعنهم بأمضى من حرابهم وفي ذلك يذكرنا بالمتنبي وهو في حلب ، ولعل بين جوانح ابن الساعاتي شيئاً من تلك الروح الادبية التي كانت لأمير الشعراء ، فهو مثله نشأ في الشام ومثله قصد مصر بعد ان ضاقت به جوانب العيش وأصابهُ كيد الأعداء . على ان المتنبي كان أصلب نفساً وأبعد مرمى لا يحفل بالملاهي ولا تشغله عن أعز غاياته الشهوات

والمتتبع لمدائح ابن الساعاتي يلمح فيها تطوراً محسوساً من حيث المطالب والمرامي . فكان

أولا ذا فاقة الى المال فلا غرو ان يصرح في قصائده الشامية بما يؤمله من نوال الممدوح كقوله :

إن ضاقت الآفاق عن ذي فاقةٍ فله سبيلٌ من نوالك مَهْيَعُ

ولما أمَّ مصر لم ينقطع عن الاستجداء ولاسيا في المدة الأولى. على أنهُ صار بعد ان تحسنت أحواله يكثر من اللهج بذكر المجد والعلى ، وأنهُ انما يطلبها لا المال كقوله : —

سرتُ دون الوفود ألتمس المجـد وساروا للنائـل المسماحِ

﴿ شعره ﴾ شعر ابن الساعاتي صورة صادقة لعصره الذي بلغت فيه الصناعة البديعية في النثر والنظم أقصى مداها وكان هو وابن الفارض فارسي هذا المضمار وانما يختلفان في ان ابن الفارض قصر شعره على الحب والتصوف. أما ابن الساعاتي فسار في سنن الشعراء من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف ومجون على أنهُ لم يأت بروائع توقد الشعور العالي بل قصر همه على الافتنان بالمحسنات اللفظية والمعنوية

ومن الانصاف ان تنوه بمقدرته التخيلية التي تظهر في تشابيهه واستعاراته كقوله واصفاً حياته :

لا تعجبنَّ لطالب بلغ المنى كهلاً وأخفق في الشباب المقبلِ

فالخمر تحكم في العقول مسنّةً وتداسُ أول عصرها بالأرجلِ

ومن ظواهر هذه المقدرة شغفه بايهام التناقض. وذلك بأن يأتيك بمعنى ذي وجهين متضادين يستحيل الجمع بينهما بحسب الظاهر كقوله :

عجباً لسيف اللحظ يجرح مغمداً ولسهمهِ يمضي وليس يفوّقُ

ولهُ الكثير في هذا الباب . والحق يقال إنا قلما رأينا لشاعر ما لابن الساعاتي من التفطن لمثل هذه الدقائق والتوفر عليها . وقد تؤخذ عليهِ كغيره اصطناع بعض معان عرفت للمتقدمين من الشعراء وما ذلك عند التحقيق إلاَّ لوفرة المدخر في حافظتهِ من أقوالهم ولحرصه الشديد على التفنن في ضروب المعاني فتأتي عفواً دون ان يفطن انهُ مسبوق اليها . أما أهم مزاياه فهي :

١ — إسرافه في الاناقة الفنية فهو شديد الولع بضروب البديع المعنوي واللفظي من تشبيه واستعارة وجناس وطباق وما الى ذلك . ومن ولعه بهذه الاناقة انهُ كتب الى القاضي الفاضل تسعة أبيات ولزم ان تكون قافية كل بيت منه وصف لون ، على ان هذا الولع بالبديع قد دفعه احياناً الى التصنع الذميم

٢ — ميله الى وصف الطبيعة ، وهو وصاف ماهر واكثر وصفه يدور على دمشق وغوطتها يصف الرياض وما فيها من مياه واشجار وازهار وظلال ونسيم ، ويصف الظواهر الجوية من غيث وسحاب وبرق وثلج وشمس وقمر ونجوم وظلام ، ومجالس الانس والشراب وما فيها من اسباب اللهو ومجالي الشراب

على ان اوصافه المصرية لا تضاهي اوصافه في جمال الطبيعة الشامية ، ولعلّ ذلك لأنهُ قضى زمن الصبا والشباب بين غياض دمشق فكان لها التأثير الاعظم في نفسه . وقد بقي هذا التأثير في نفسه طيلة اقامته في مصر ، فلم ينس المطر والثلج والغدران والحدائق والغمام وما الى ذلك مما يألفهُ اهل الشام . واوصافه الشامية مقرونة ابداً بالحنين اليها والولع بمحاسنها

٣ — ولعه بالغزل ، ولهُ في هذا الفن سهم وافر ، ولا نعلم شاعراً عني عنايته بأن يجمع القطع الغزلية التي صدّر بها قصائد المديح ويفرد لها ديواناً خاصاً . وهو شديد الحرص على ان يكون التخلص من الغزل الى المديح تام الاتصال ، وفي ذلك يخالف البحتري الذي عُرف بالاقتضاب أو قطع الكلام واستئناف غيره بلا علاقة بينهما

على ان غزل ابن الساعاتي عموماً — على بلاغته الفنية — لا يستثير في النفس مايستثيره غزل المحبين المدنفين الذين خاضوا غمرات الغرام وعرفوا بالاختبار تلك اللواعج المحرقة وما تسببهُ من اضطرابات وآلام . بل هو من نوع الغزل الذي شاع كثيراً في العصر العباسي وسواه ويتجه الى وصف المحبوب وظواهر الحب وصفاً ينسج على منوال البديع ، فيكثر الشاعر من ذكر الدموع والجوى والسهاد والفراق والمطال والخيال والعهود والعذّال ، ويلهج بوصف الخدود والقدود والعيون والذوائب والثغور . ولشاعرنا في هذا الباب نَفَس طويل قلما يجاريه فيه أحد حتى تكاد تكون مقدماتهُ الغزلية قصائد قائمة بذاتها اكثرها يتجاوز العشرين بيتاً أو الثلاثين ومنها مايتجاوز الاربعين . وفي جميعها تشعر بمقدرته اكثر من شعورك بروحه ، وباسلوبه اكثر من عواطفه

وغزله في اكثر الاحيان صنعة يبرز فيها جهد الشاعر وحرصه على الاتيان بالمحسنات البيانية وليس في ديوانه مايشعر بانصرافه الى فتاة وقف صبابته واشواقه عليها ، بل هو حبٌّ عامٌّ سداه ولحمته الوصف فهو يصدق على كل شخص وفي كل حال . ولم يكن غزله الا توطئة للمديح لم ينظمه مدفوعاً اليه بشعور الجوى أو جمال الحبيب بل هو نسيج كلامي يتكلف حياكته واتقانه فلا يتجلى فيه تواجد جميل بن معمر وقيس بن الملوح وعمر بن ابي ربيعة وكثيّر عزة ، والعباس بن الاحنف وابن زيدون وابن زريق والبها زهير وسواهم ممن كان لهم القدح المعلى في هذا المضمار ولم يقتصر غزله على النساء بل تناول الغلمان

والخلاصة ان ابن الساعاتي فنان ماهر طويل الباع في استخدام الالفاظ للتعبير عن مقاصده واسع الحيلة في التلاعب بالمعاني البيانية . ولا شك انه في ذلك وفي المدح خاصة يقابل بالطبقة الاولى من شعراء العصر العباسي . على اننا اذا وازنّا بينهُ وبين معاصره الاصغر ابن الفارض وجدنا ان الثاني — برغم انصرافه كالأول الى البديع والى الغزل — أرقُّ حسّاً وأبعد خيالاً وله في الشعر رسالة خاصة لا نراها عادةً لامثاله من البديعيين

مجالي الفكر

الحديث

في الاجتماع والفن والاقتصاد والتاريخ

١ — السلطان في العالم الحديث

تأليف الفيلسوف برتراند رسل (١)

قال احد الكتّاب المشهورين في برتراند رسل : « انهُ فيلسوف متصوف والفلاسفة كالصوفيين يرون رؤى . على ان اصحاب الرؤى ليسوا اضعف القوى التي تسيّر هذا العالم ولا اخمل الناس في ما يبذلونهُ من السعي لرفع مستوى الحياة » . وقال رسل نفسهُ : « ان نظري الى الكون والحياة كنظر سائر الناس وليد الحوادث والايام قدر ما هو وليد الطبع الموروث»

هذا الفيلسوف الاجتماعيُّ الكبير ، نشأ عالماً رياضيًّا من الطبقة الاولى ، وقد وضع مع الفيلسوف هوتيهد كتاباً في الرياضيات — مبادىء الرياضيات — يعدُّ من اهم مراجع هذا العلم في العصر الحديث . ولكن الحوادث والايام وجهتهُ الى الناحية الاجتماعية . وقد قال نفسهُ انهُ بقي ثلاث سنوات متردداً — بعد اتمام كتاب المبادىء — في ما عساهُ ان يتجه اليهِ من المباحث والاعمال . وكان حينئذٍ يدرّس في جامعة كمبردج ولكنهُ ايقن — وكأن يداً خفية كانت تحركهُ — ان لا بدَّ لهُ ان ينقلب من بحث المنطق الرياضي الى ميدانٍ آخر. وكانت الحرب الكبرى العامل الحاسم في توجيههِ الجديد . قال : « ولاول مرةٍ في حياتي وجدت شيئاً يشغل طبيعتي بأسرها . ذلك ان اشتغالي بالمجرَّدات من قبل كان قد ترك غرائزي الاجتماعية دون ما يكفيها .... ان الفطرة الوالدية التي لم تكن محققة فيَّ حينئذٍ ، حملتني على ان اغضب وأنفر لمنظر شبان اوربا يخدعون ويساقون الى المجزرة لا كفاء الشهوات الشديدة التي تكتسح صدور كبارهم

---

(١) POWER. A New Social Analysis. By Bertrand Russell, Allen & Unwin London 7/6

واستقامتي الفكرية منعتني من تصديق الخرافات التي اتخذتها الدول المتحاربة عذراً تسوّغ به إثارة الفتن . والواقع ان المفكرين الذين صدقوا هذه الخرافات كانوا قد تخلّوا عن عملهم الصحيح لينعموا بالشعور أنهم واحدٌ من القطيع . وهذا كان في نظري عملاً غير شريف . لانهُ اذا كان للمفكر عملٌ في المجتمع فعمله الاحتفاظ بحكم هادىء مجرّد حين ثورة العواطف والشهوات. ولكنني وجدت اكثر المفكرين لا يثقون بفائدة العقل الاّ في ايام السلم »

وكذلك انقلب العالم الرياضيُّ داعية للسلام فاخرج من كمبردج فتمّ التحوّل من الفلسفة الرياضية العالية الى الفلسفة الاجتماعية العالية . فنفح الفيلسوفُ الاجتماعي العالمَ بطائفة من الكتب الممتازة في « التعليم » و« الزواج » و« مبادىء التنظيم الاجتماعي » و « غزو السعادة » و « طرق الحرية » و« الفكر الحرّ والدعاية الرسمية »

الاّ ان البذرة الصغيرة الحية التي تبينها في بعض كتاباته السابقة وهي « ان اساس الفوضى الدولية هو ميل الناس الى الخوف والبغض وهـذا هو اساس النزاعات الاقتصادية لان حب الاستئثار بالقوة والسلطة—وهو اساس كل نزاع اقتصادي—ليس الاّ صورة جديدة لفطرة الخوف . فالناس يريدون ان يتسلطوا لأنهم يخشون ان يستعمل سلطان الغير لهدم مصلحتهم »— هذه البذر تراها وقد تحوّلت في كتابه الجديد الذي عنوانهُ « السلطان » Power شجرة عتيّة كثيرة الاغصان والورق

والغالب ان حسّ رسل الاجتماعي هداهُ الى بحث هذا الموضوع الخطير في عصرٍ هو اشدُّ ما يكون حاجةً الى فهمه . وقد توصل في بحثه الى قاعدة جديدة توضح كثيراً من الغامض على الفهم وهو ان « السلطان » فكرة اساسية في علم الاجتماع على نحو ما نجد « الطاقة » فكرة اساسية في علم الطبيعة . والسلطان كالطاقة يبدو في اشكال متباينة ، كالثروة والسلاح والمعتقدات والسلطة الحكومية والتأثير في آراء الغير ، وليس في الوسع ان تقول ان احد هذه الاشكال مقدم على الآخر ، او ان احدها اصل والآخر فرع ، فمعالجة الشكل الواحد بمعزل عن الاشكال الأخرى لا يفضي الى الفهم المستقيم ، على نحو ما يتعذر بحث شكل من اشكال الطاقة بحثاً كاملاً من جميع نواحيه الاّ اذا اقترن ببحث اشكال الطاقة الأخرى

قد تنشأ الثروة من السلطان العسكري او من السلطان على الرأي العام ، كما ان السلطان العسكري والسلطان على الرأي العام قد ينشآن من الثروة . ان نواميس التركيب الاجتماعي لا يمكن ان تفرغ الاّ في قالبٍ اساسهُ فهم فكرة السلطان . في العصور الماضية كان السلطان العسكري بمعزل عن غيره من الاشكال الاخرى ، فكان يبدو ان النصر او الخذلان رهن بصفة القائد . ولكننا في هذا العصر نميل الى حسبان السلطان الاقتصادي اصلاً تنبع منهُ صور السلطان

الاخرى ، وهذا في رأي برتراند رسل خطأ يماثل خطأ المفكرين الذين يحسبون الدعاية والسيطرة على العقول والنفوس منبع السلطان . لاريب في انهُ اذا استطاعت الدعاية ان تنشئ اجماعاً عاماً ولدت قوة لاترد . ولكن الذي في ايديهم زمام السلطان العسكري او السلطان الاقتصادي يستطيعون ان يستعملوا سلطانهم للدعاية . ولذلك يرتدُّ الفيلسوف الى التمثيل بين السلطان والطاقة فيقول ان الفهم الصحيح لطبيعة السلطان يقتضي منا ان نحسبهُ كالطاقة دائم التحوُّل من شكلٍ الى آخر ، وان همَّ العلم الاجتماعي يجب ان يتجه الى كشف نواميس هذا التحوُّل وفهمها

هنا يصحّح الفيلسوف الانكليزي ما يذهب اليهِ متطرفو الماركسيين من تفسير التاريخ ونشوء الاجتماع تفسيراً ماديًّا محضاً . فهو يقول : انهم يخطئون في حسبان المصلحة الاقتصادية باعثاً اساسيًّا في علم الاجتماع. ان الرغبة في اقتناء العروض رغبة لها حدٌّ اذا فصلت عن السلطان او المجد الذين يقترنان بها . وفي الوسع اشباعها بيسير . فالرغبة في الترف لا يمليها حب الرفاهة المادية . والرجل الذي يرغب في جمع طائفة من صور اعلام المصورين القدماء انما يرغب فيها، لما يوليهِ اقتناؤها من مجد اوسلطان لا رغبة منهُ في جعل البهو الذي يضعها فيهِ بهواً للراحة. فاذا استوثق الفرد — او الجماعة — من قدر معتدل من الرفاهة ، سعى الى السلطان بدلاً من الثروة. قد يطلب الثروة كوسيلة للسلطان ، او قد يتخلى عن قدر من الثروة ليزيد نصيبه من السلطان، ولكن الباعث في الحالين ليس باعثاً اقتصاديًّا

ولعله من الخير ان نضرب للقارىء مثلاً في هذا الموضوع ساقهُ المستر رسل في كتابهِ في الصفحة ١٢٨ قال : — ان السلطان الاقتصادي في الدولة مع ارتداده الى القانون والرأي العام يسهل عليهِ الفوز باستقلال خاص . فهو يستطيع ان يؤثر في القانون بالإفساد والارتكاب وفي الرأي العام بالدعاية . وفي وسعه ان يجعل رجال السياسة مدينين لهُ فيحدُّ من حريتهم . ويستطيع ان يهدد باحداث ازمة مالية . ولكنَّ هناك حدوداً لتأثيره . فقد رفع قيصر الى مقام السلطان بعون دائنيه الذين ادركوا ان لا امل لهم في استيفاء ما لهم عليهِ إلاَّ بنجاحهِ. فلما اصاب النجاح احسَّ بقوة مكنتهُ من تحديهم . وشارل الخامس اقترض من « آل فوجرز » المال الذي احتاج اليهِ ليبتاع منصب الامبراطور . فلما اصبح امبراطوراً تنكر لهم فخسروا المال الذي اقرضوه اياه . وقد حل بالستي (حي الاعمال المالية بلندن) شيء من هذا القبيل في عصرنا عند ما ساهمت في انعاش المانيا ، وكذلك حلَّ بتيسن الالماني عندما اشترك في رفع هتلر الى مقام السلطان

الاَّ اننا نخطىء الغرض من حديثنا عن هذا الكتاب ، اذا حملنا القارىء على الظن ان الكتاب بحث فقهيٌّ في موضوع « السلطان » وبسط لمذهب خاص فيهِ . لانهُ في الواقع وعلى الغالب بحث واقعي في صور « السلطان » المختلفة . كيف تنشأ وترعرع ثم تضعف وتدول.

والامثلة عليها مستمدة من تاريخ الكنيسة وتاريخ الدول القديمة والحديثة . وعلى ذلك عقد الفيلسوف رسل فصولاً متتالية في سلطان الكهان والملوك والطغاة والزعماء الثوريين والطبقات الاقتصادية ثم تليها فصول في السلطان على الرأي وفي المعتقدات بوصف كونها ينابيع للسلطان ثم الاساس البيولوجي للتنظيم الاجتماعي والعلاقة بين الفرد والجماعة وصلة السلطان بنظم آداب النفس وأخيراً «ترويض السلطان»

فغرض الكتاب ، ان يحلل صاحبه التحول الاجتماعي ، تحليلاً أوفى مما تنطوي عليه تعاليم الاقتصاديين . وهذا التحليل قائم على ان شهوة السلطان هي الباعث الرئيسي على التحولات التي يتجه علم الاجتماع الى دراستها . والسلطان الاقتصادي هو نوع السلطان الرفيع المكانة في هذا العصر ، واسباب ذلك كثيرة . منها ان الجماعة الثرية الماضية في سبيل زيادة ثروتها ، تتيح للشبان منفذاً لإشباع شهوة السلطان فيهم . اما الجماعة الفقيرة الماضية الى الادقاع فتحد من هذه الشهوة في النشيط القوي من الشبان ، فتضطرب اعصابهم وعقولهم فيبحثون في العنف بدلاً من الاكتفاء الاقتصادي عن منفذ لنزعاتهم الاصيلة . وفي اوربا كثير من هذه الجماعات الآن

ولا يذهب بك الظن الى ان شهوة السلطان ضارة حتماً . فهي طبع في كل قوي النفس والجسد وبتدريبها في الصغر يمكن توجيهها في مسالك نافعة . وبرتراند رسل يعتقد أن القاسي الظالم بين الناس نادر اذا احكم تدريبه في صغره ولم يلق مشقة كبيرة في الفوز بعمل يستنفد جانباً من نشاطه . ولذلك يرى ان استعمال السلطان استعمالاً نافعاً يقتضي توافر ثلاثة شروط . يجب على السلطان ان يقترن بهدف معين اي ان لا يطلب السلطان لذاته . ثانياً يجب على هذه الاهداف ان تكون مما يشبع رغبات الغير كهدف الفنان او المخترع او البحاثة العلمي . ثالثاً حتى اذا صلحت اهداف السلطان فيجب ألا تكون وسائله بحيث يتغلب فيها الضار على المفيد او الطالح على الصالح. هنا موطن الخطر في استعمال السلطان ، واشهر مظاهره في نشوب الحروب. فالحروب التي تبدأ لاغراض سامية بوساطة رجال من الصلاح مقتنعين اشد الاقتناع بأنهم على صواب ، يختمها رجال اخذ منهم الغضب والحقد كل مأخذ فلا همّ لهم الا الثأر او اذلال الخصوم

وعند الفيلسوف رسل ، ان اهم صور السلطان ثلاث هي التقاليد والسلطان العاري والسلطان الثوري . فسلطان التقاليد قائم على العادة والمعتقدات العامة والتسليم بالآراء السائدة ، اما السلطان العاري فتعريفه ان الآخذين به يحترمونه لانه سلطان لا لأي سبب آخر، والفترات التي يسودها السلطان العاري هي الفترات التي يميل فيها سلطان التقاليد الى الانحلال بتطرق الضعف الى المعتقدات والعادات في شؤون الدين وأدب النفس . ولذلك نجد في فترات الفكر الحر والنقد المطلق تمهيداً لقيام السلطان العاري . لقد حدث هذا في اثينا في القرن الخامس . وفي ايطاليا في عهد

الاحياء . وهو حادث — على ما يلوح لرسل — في عهدنا هذا

ويقين الفيلسوف رسل ان القيم الادبية مستقرة في الافراد لا في الجماعات وان سلطان الدولة الحديثة اكبر مهدد لسعادة الفرد . ولذلك تراه يبني فصله الاخير في «ترويض السلطان» على تربية الفرد وتدريبه . وانما نبني على ما يقول المستر جود ان السياسيين فقط يفوقون المعلمين في شهوتهم للسلطان والتحكّم . والمستر رسل كاتب بليغ على ما تبين من الفقرات التالية، ولكنهُ يبلغ اوج بلاغته عند ما يتحدث عن الشروط النفسية لترويض السلطان . قال : الخوف والغضب وجميع ضروب التهيج في الجماعات ، تميل بالناس الى ان يسيروا سيراً اعمى وراء الزعيم الذي يغتنم الفرصة في معظم الاحيان ليقيم نفسهُ طاغية . . . اذكر احد البلاشفة لقيته في باكين سنة ١٩٢٠ واتذكرهُ يسير في غرفته ذهاباً واياباً وهو يقول صادقاً « اذ لم نقتلهم قتلونا » . ان هذه الحالة النفسية في الفريق الواحد تولد حالة مثلها في الفريق المقابل . والعاقبة قتال الى النهاية ، يخضع كل شيء فيه للنصر . في خلال القتال ، تتقلد الحكومة سلطاناً استبدادياً لاسباب حربية . فاذا جاء النصر استعملت سلطانها الاستبدادي لسحق ما تبقى من العدو اولاً ، ثم لتأكيد استمرار تحكمها بمؤيديها . فمن الحق ان نعجب بحماسة الجماعة واندفاعها لان ثمرتها القسوة والحرب والموت والاستعباد

ويقول ايضاً وفي قوله سمة السخرية اللاذعة التي تبدو في غير يسير من كتاباته : « ان الرجال الذين يسمحون لشهوة السلطان ان تشوّه نظرهم الى العالم تجدهم في كل مستشفى عقلي . فيظن احدهم انهُ مدير بنك انكلترا وآخر انهُ الملك وثالث انهُ الله عزَّ وجلَّ . فاذا افرغت هذه الاوهام في كلام غامض افضت بقائليه الى مناصب اساتذة الفلسفة في الجامعات . واذا افرغها في قالب فصيح رجال تحركهم الانفعالات الشديدة أدَّت الى الدكتاتوريات . ان المجانين الرسميين توصد الابواب عليهم لميلهم الى العنف عندما يشكُّ احدٌ في ما يزعمون . اما الذين لم تصدر بجنونهم شهادات رسمية فيمنحون السيطرة على جيوش عظيمة . وفي وسعهم ان ينزلوا الموت والخراب بجميع العقلاء الذين في متناولهم . ان نجاح الجنون في الادب والفلسفة والسياسة من خواص هذا العصر ، والجنون في شكله الناجح ينبع كلُّهُ تقريباً من شهوة السلطان

ويقول كذلك : كان الناس في العصور الغابرة يبيعون انفسهم للشيطان ليفوزوا بقوى السحر . ولكنهم يفوزون بهذه القوى الآن عن طريق العلم فيلفون انفسهم مضطرين ان يغدوا شياطين ، وليس للعالم امل الاّ بترويض السلطان ، ووقفه على الخدمة — لا خدمة هذه الجماعة من الطغاة المتعصبين او تلك — بل على خدمة البشر بيضاً وسوداً وصفراً ، فاشيين وشيوعيين ودمقراطيين ، لان العلم اوقعنا في مأزق فاما ان نحيا جميعاً واما ان نموت ..

٢ — دراسة بعض المنسوجات الاسلامية القديمة
في متحف الفنون الجميلة في بُسْطن

صناعة النسيج من أقدم الصناعاتْ التي نشأت مع الانسـان وكانت وليدة حاجته الى وقاية نفسه من العوامل الجوية . وقد تدرَّج فيهـا في سلم التطوُّر كما تدرَّج في غيرها من الصناعات ، فاتخذ ملابسه من ورق الشجر ، ومن جلود الحيوان،ثم ألهمتهُ الطبيعـة فنسجها من الحشـائش والاغصـان ثم اهتدى الى عمل الخيوط من الـكتان والصوف والحرير والقطن بل ومن الذهب والفضة والورق ولب الاخشاب . ومن هذه الخيوط نسج جميع ما يحتاج اليه من المنسوجات

ولم يقف بمنسوجاته عند حد نفعهـا المادي فحسب ، بل عمل على أن تكون الى جانب ذلك أثراً فنيًّا يشعر بالجمال ، ترتاح اليه عيناه ، ويبعث الاعجاب في نفوس اخوانه وعشيرته ، فزينهـا بوسائل مختلفـة : تارةً بأن رقم عليهـا بالاصباغ (painting) زخارف شتى ، وتارةً بنسجها من خيوط متباينة الالوان (woven pattern) ، وطوراً بتطريز (embroidery) اشكال هندسية او نباتية او حيوانية فوق اديمها وطوراً بتزيينها بشرائط ينسجها في صميمها tapestry ويضمنها رسوماً وصوراً مختلفة

ولاتصال المنسوجات بحياة الانسان ، وملازمتها له في كل أدوار حياته ، كانت عناية علماء الآثار بدراستها عظيمة ، لأنها تبين بطريقة نسجها مدى رقي الصناعة، وتعكس بزخارفها مقدار ما بلغتهُ الامة من الذوق الفني . وكثيراً ما كانت هذه الدراسة نبراساً اهتدى الباحثون بنوره الى الوقوف على درجة رقي الامم وحضارتها ، ومدى تأثرها بغيرها من الامم او تأثيرها فيها من الناحية الفنية ، وعرفوا ما كان قائماً من العلاقات التجارية بين البلاد المختلفة في شتى العصور

وكما اقرت مصر البـاحث في آثار فجر التـاريخ بما امدته به من التراث الفني الخالد الذي احتفظت به على سطحها واختزنتهُ في جوفها فاستطاع ان يقف على اعرق مدنية عرفها الانسان، فانها لم تبخل على علماء آثار ضُحى التاريخ بما اماط لهم اللثام عن حضارة تلك العصور، وعرفهم مدى ما بلغته هذه البلاد على الخصوص من الرقي في الصناعة ، والسمو في الفن ، في وقت كانت تسود فيه ظلمات الجهل معظم بقاع العالم ، والفضل كل الفضل في ذلك انما يرجع الى ذلك الجو الجاف الذي حبتنا به الطبيعة والى الارض أمنا الرؤوم ، التي حافظت بطبيعتها على الآثار الفنية لابنائها الاولين ، وكانت حريصة اشد الحرص على العناية بها لتسلمها لنا ، لكي تريناعظمة السلف الـكريم ، وقد أدت هذه الامانة على احسن وجه اذ كان من اهم تلك الآثار بل لعلها اهمها

(1) A Study of Some Islamic Textiles in The Museum of Fine Arts (Boston). By Nancy Peuce Britton.

جميعاً تلك المجموعة النفيسة من المنسوجات الأثرية التي كشف ولم يزل يكشف عنها المشتغلون بالآثار منذ الحملة الفرنسية حتى الآن ، والتي لا تعدو في الحقيقة ان تكون سجلاً كاملاً لتاريخ مصر منذ عصر الفراعنة حتى العصر الاسلامي ، لا تنقصهُ سوى صفحات قليلة ، قد يكشف عنها البحث في مستقبل الأيام . على أن هذا النقص ليس بطاعن في قيمة هذا التاريخ الصادق المكتوب بيد الفن الذي لا ينطق عن الهوى وليس بقلم المؤرخ الذي قلما يبرأ من الغرض

***

واذا نحن استعرضنا هذا التاريخ الحي رأينا عظمة مصر الفرعونية متجلية في القطع التي عثر عليها في مقبرتي تحتمس الرابع وتوتنخ آمون والتي تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها ، وجمال تلوينها ، على أنها نتاج مجهودات طويلة ، وتطورات متعددة ، تقلب فيها فن النسيج قبل سنة ١٤٤٧ ق . م . وتكاد تنطق بمقدار ما بلغتهُ مصر من الدرجة السامية من الرقي في ذلك العصر عند ما كانت من غير شك تقود غيرها من الامم في مدارج التقدم الفني

وتعترضنا بعد ذلك فترة انقطاع هي تلك التي نأمل ان ينكشف عنها الغطاء عما قريب . ثم تجيء تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات التي استخرجتها البعثات الأثرية من بقاع شتى من البلاد ، والتي نلمس في زخارفها دخول عوامل جديدة على الحياة المصرية كان لها ابعد الأثر في كيانها السياسي والديني ؛ وفي حضارتها وفنونها ، ونقرأ في نقوشها مدى تغلغل النفوذ الاجنبي في البلاد ، وتحكمهِ في توجيه الفنون فيها ، وتأثيره في عناصرها الزخرفية ، فمنها ما تم زخرفته على التأثير اليوناني ، وفيها ما يتجلى فيهِ أثر المدنية الرومانية ، وبعضها يذكرنا بظهور الديانة المسيحية ، وبعضها ينطق بسيطرة الفن البيزنطي ، وبعضها يدل على انتشار الفن الساساني ، وطائفة كبيرة منها تبدو فيها زخارف الفن الاسلامي

وايضاح ذلك كله ولو في شيءٍ من الايجاز لا يتسع لهُ فصل كهذا ، وتكفينا هذه الاشارة لندرك ما لدراسة المنسوجات الأثرية من مقام

ولئن كان الكثير من هذه المنسوجات تزدان بهِ اليوم متاحف مصر ولا سيما دار الآثار العربية التي لا تزال حتى اليوم توالي حفرياتها في البقاع التي اتخذها المسلمون في العصور الوسطى مكاناً لدفن موتاهم ، وتستخرج من هنالك كميات وفيرة من المنسوجات الاسلامية ، حتى اضحت اغنى متاحف العالم في هذه الناحية ، يستطيع ان يجد الباحث فيها سلسلة متصلة الحلقات من تلك التحف تمكنهُ من دراستها وتطلعهُ على مدى التطور التدريجي فيها ، فان طائفة كبيرة منها قد تسربت بطرق شتى من وطنها العزيز واتخذت طريقها الى عواصم اوربا واميركا واستقرت في متاحفها . ولئن كان يؤسفنا حقًّا أنها بعيدة عنا ، فان لنا عزاء في أنها سفير دائم لنا ، يطلع علماء

الغرب على مجدنا ، وينبهم الى عظمة اجدادنا ، فضلاً عما تاله في مواطن غربتها من التقدير والاجلال ، اذ كانت ولا تزال موضع دراستهم وبحثهم ، فاظهروا لنا ما انطوى فيها من آيات المهارة في الصنعة والسمو في الفن . ولا ريب ان لذلك من الأثر البعيد في اذكاء الحنين في نفوسنا الى استعادة مجد السلف ما لا سبيل الى انكاره

والكتاب الذي نعرّف به القراء اليوم ليس في الواقع الاّ اثراً من آثار هذا التمجيد لتراثنا الفني القديم . تناولت بالدراسة فيه مؤلفته — السيدة نانسي بنس بريتون — طائفةً من المنسوجات الاثرية الاسلامية المحفوظة بمتحف بُسطن بأميركا الذي كانت تشتغل فيه

وقد قسمتهُ الى خمسة اجزاء تحدثت في الاول منها عن نشأة الفن الاسلامي وعن الكتابة العربية ، وعن الطراز ونظامه ، وختمت هذا الجزء بكلمة موجزة عن الناحية الفنية لصناعة النسيج ، وبينت ما لهذه الناحية من مكانة عند مؤرخي الفن ، اذ هي تساعدهم على تأريخ التحف المختلفة عند ما يتعذر عليهم ذلك من الكتابة التي عليها ، او من طراز حروفها ، او زخرفها

ولقد وفقت الكاتبة في تلخيص هذه الموضوعات تلخيصاً لا يشفع فيهِ الاّ كون الكتاب — على حدّ قولها — دليلاً موجزاً للأنواع المختلفة للمنسوجات الاسلامية التي اختارتها من مجموعة متحف الفنون الجميلة في مدينة بُسطن ، ولكن كلمتها عن الطراز ونظامه ، لا يصح المرور بها دون التنبيه الى انها في حاجة الى شيء كثير من التدقيق ، اذ تسرعت في الحكم على ان «طراز العامة كان يملكه التجار الذين يبيعون بضائعهم للجمهور او يصدرونها للبلاد الأخرى» (ص ١٩) واعتمدت في قولها هذا — كما اشارت في هامش هذه الصفحة — على نص ورد في كتاب الخطط للمقريزي ، ولكن هذا النص لا يحتمل التأويل الذي ذهبت اليهِ بأي حال ، وموضوع دور الطراز ونشأتها ونظمها لم تزل الى اليوم من الامور الغامضة في الفن الاسلامي

وتكلمت في القسم الثاني على المنسوجات العراقية ، بادئة بموجز تاريخي يبصر المطلع بالظروف المختلفة التي نسجت فيها تلك المنسوجات ، ثم عقبت على ذلك بدراسة اثنتي عشرة قطعة دراسة تدل على اتساع أفق اطلاعها ، وقدرتها على مناقشة الآراء بصدد تاريخ بعضها

وتناولت في القسم الثالث المنسوجات المصرية . والواقع ان هذا القسم يعتبر درّة في تاج كتابها ، اذ اجادت كل الاجادة في عرض سلسلة تطور هذه المنسوجات عرضاً تاريخيًّا فنيًّا جديراً بكل اعجاب وتقدير ، وتنقلت مع القارىء من فترة الانتقال من العصر القبطي الى عصر صدر الاسلام ، ثم الى العصر العباسي فالعصر الفاطمي . وبينت في وضوح لا لُبس فيهِ مميزات كل عصر ، في شكل الكتابة والزخرفة ، واشارت الى ما في المتاحف الاخرى من القطع التي قد تمتُّ اليها بسبب ، واوضحت ما أثير من آراء علماء الآثار حول بعض القطع وأبدت

منها ما استحق التأييد — في نظرها — وردت على ماستوجب الرد . ثم درست مجموعة الفيوم والقطع المنسوبة الى طراز الصعيد ، وكانت في دراستها واضحة مفهومة بعيدة عن التعقيد ، مما يدل على حسن فهمها للموضوع الذي تصدت لبحثه . وقد ختمت هذا القسم بدراسة ثلاث قطع لم تتوفر الاسباب ولا القرائن للاستيثاق من أصلها ، أو تاريخها ، فاحسنت عرضها وتحليلها

اما القسم الرابع فقد اختصت به منسوجات بلاد اليمن فأوضحت في جلاء طريقة نسج العصب اليمنية Ikat ثم عقبت على ذلك بدراسة ثلاثة قطع من هذا النوع . وتكلمت في الفصل الأخير على قطعة من الحرير الايرانية الاصل عليها زخارف بعضها مطبوع وبعضها منقوش، وقد قدمت لهذا الفصل بكلمة موجزة بثت فيها طريقة عمل ذالكما النوعين من الزخرفة

اعدّت السيدة نانسي بريتون كتابها هذا على الصورة التي بسطناها هنا ، ثم حضرت الى دار الآثار العربية ، التي لا غنى عنها لباحث في المنسوجات الاسلامية ، وقضت فترة ليست بالقصيرة، درست فيها مجموعتها النفيسة مسترشدة بآراء العالم الكبير المسيو جاستون فيت مدير الدار ، والاستاذ الدكتور زكي محمد حسن امينها . ثم نظرت في كتابها بعد هذا الدرس ، وعدلت فيه ما رأت الحاجة ماسة الى تعديله، وعهدت به بعد ذلك الى الدكتور زكي حسن فقرأه ،واضاف اليه، وحذف منهُ ، حتى خرج الكتاب على الصورة التي بين ايدينا . وما جحدت الكاتبة هذا الفضل بل سجلته

وبعد فالكتاب في الحقيقة دراسة أثرية نفيسة لطائفة من المنسوجات الاسلامية ، امتاز فوق ذلك بأناقة طباعته ، وحسن ترتيب فهارسه ، ولئن كنا نختلف مع المؤلفة في بعض آرائها ، فليس ذلك بمانعنا من الاعتراف بأنها قد دلت ببحثها على سعة اطلاعها ، واعتمادها على المراجع الموثوق بها ، وتملكها من مادتها ، واجادتها تحليل ما يعترضها من الآراء المختلفة

دار الآثار العربية — محمد عبد العزيز
الملحق الفني لدار الآثار العربية

---

٣ — التقدم الاقتصادي في مصر الحديثة (١)

اما ومصر تجتاز مرحلة خطيرة من مراحل تقدمها الاقتصادي فليس ثمة ريب في ان كتاباً يعالج موضوع تقدمها هذا من ايام محمد علي الكبير الى يومنا هذا يغدو مرجعاً ذا شأن في دراسة الاتجاهات الاقتصادية العامة فلا يستغني عنهُ الصحافي او النائب او الاستاذ او الطالب. فاقدام المستر كروتشلي الاستاذ بكلية التجارة في جامعة فؤاد الاول على وضع هذا الكتاب عمل يستحق كل ثناء

ويلوح لنا من مطالعة هذا الكتاب ودراسة بعض فصوله ان الاستاذ كروتشلي اعد المعدات

(١) The Economic Development of Modern Egypt. By A. E. Crouchley, Longmans Green & Co. London

الوافية للاضطلاع بهذه المهمة . ولا نعلم مدى خدمته في مصر ولكن اسلوبه في معالجة الموضوع من الناحية التاريخية وبحثه في الاتجاهات الحديثة يدلان على سعة علم ودقة بحث مقرونتين بذهن منظم فأخرج كتاباً جامعاً لأهم الحقائق والاتجاهات الاقتصادية حسن التبويب والترتيب

قال في توطئته « هذا البحث سعي الى تتبع السمات الغالبة على تقدم مصر الحديثة من الناحية الاقتصادية تتبعاً موجزاً وطالما شعر الطلاب وغيرهم من المهتمين بحياة مصر واحوالها بحاجتهم الى هذا الكتاب وقد مضت سنوات منذ بين المستر كريج ... الحاجة الى بحث من هذا القبيل فكان بحثي في الاموال الاجنبية المثمرة في هذه البلاد — وهو بحث نشرته وزارة المالية — سعياً الى تمهيد الطريق واستجلاء بعض النواحي الغامضة في هذا التقدم . فلما انشئت دراسات خاصة بالتاريخ الاقتصادي في الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الاول الآن) اصبح من الضروري وضع كتاب يحتوي على تاريخ مصر الاقتصادي في العهد الحديث وقد وضع هذا الكتاب تحقيقاً لهذا الغرض والأمل ان يكون مفيداً لجميع المهتمين بتقدم مصر في العهد الحديث »

والكتاب على ما يقول مؤلفه وعلى ما يتبينه القارىء بالمطالعة مستند الى الوثائق الاصلية سواء أكانت رسمية ام شبيهة بالرسمية فكان عليه ان يغربل شتى الحقائق المودعة في تقارير اللجان والوزارات ومحفوظات قصر عابدين ومحفوظات وزارة الخارجية بلندن وتنسيقها ولذلك يعتذر المؤلف عما يبدو في كتابه من وجوه النقص بتنوع الحقائق وتعارض بعضها والحدود التي رسمها لكتابه مما اقتضى منه الاختصار في غير قسم منهُ

الكتاب ستة فصول تملأ مع الذيول وثبت المراجع ٢٨٦ صفحة من القطع الوسط فالفصل الاول يحتوي على ملخص لتاريخ مصر الاقتصادي من الفتح الاسلامي الى اواخر القرن الثامن عشر والفصل نفسه مبوب تبويباً حسناً شأنه في ذلك شأن سائر الفصول. فبعد ان اوجز المؤلف تاريخ مصر (وقد اورد خطأ تاريخ الفتح الاسلامي فجعله ٦٣٩ م وهو ٦٤٠ م وتاريخ فتح السلطان سليم لمصر فجعله ١٤١٥م وهو ١٥١٧م) عالج حالة الزراعة في العقد الاخير من القرن الثامن عشر والمحصولات المختلفة كالقمح والذرة والشعير والرز والبصل والنيلة والتبغ وغيرها . اما القطن فقد قال فيه انه كان يزرع حينئذ في الوجهين القبلي والبحري زراعة واسعة النطاق وان القطن في الوجه القبلي كان يجنى من شجرة تعمر من ثماني سنوات الى عشر سنوات وانها في السنوات الثلاث الاولى من حياتها كانت تنتج ثلاثة قناطير في الفدان . ثم يقل محصولها وتهبط جودة قطنها . ثم عالج الصناعة في الحقبة نفسها من حيث تنظيمها من ناحية، ومن حيث تنوعها وانتشارها من ناحية اخرى. وكانت صناعة النسج اهم هذه الصناعات ففي صناعة نسج الصوف مثلاً كان اجود الصوف ينسج في الفيوم وكان القطن ينسج في اسنا وقوص وقنا وبني سويف والكتان في الدلتا

والفيوم وكان نسيجه يباع في الاسواق الاسبوعية في طنطا وسمنود وكان الحرير المستورد من سوريا ينسج في الدلتا ولاسيما المحلة الكبرى

على هذا النمط الطيب في التحقيق والتبويب عالج المؤلف موضوع التجارة والمواصلات في ذلك العهد ثم اتبع بهِ ما كان للحملة الفرنسية من التأثير الاقتصادي في مصر . قال : ان الحملة الفرنسية وجهت ضربة قاضية الى النظام الاقتصادي والسياسي القديم وفتحت البلاد لتيار المؤثرات الخارجية بعد ان قضت البلاد اربعة قرون وهي في عزلة عن نمو الحضارة والثقافة في العالم الغربي

وعند المؤلف ان البواعث على الحملة الفرنسية اقتصادية وسياسية معاً ولكنهُ اهمل الاهمال من حسابهِ العامل الشخصي ايضاً وهو مطامح بونابرت القائد الذي احرز الانتصارات العظيمة في شمال ايطاليا في اواخر القرن الثاني عشر وعاد الى باريس وهو يأبى ان يغدو فيها نسياً منسيًّا

الفصل الخاص بحالة البلاد الاقتصادية وتقدمها في عهد محمد علي اطول فصول الكتاب اذ يشمل ستين صفحة منهُ عالج فيها المؤلف احوال الزراعة والصناعة ونظم التجارة وملكية الاراضي في عهد مؤسس الاسرة العلوية . ومن الخيران نقول هنا — وقد نقلت الصحف من اسابيع نبأ عقد النية على بناء سفن الاسطول البحري المصري في مصر — ان ساكن الجنان محمد علي باشا بنى الاسطول المصري الثاني — بعد ما دمر معظم أسطوله الاول في معركة نفارين ١٨٢٧ — في الاسكندرية وان من السفن التي بناها سفناً كانت في الصف الاول بين سفن الأساطيل العالمية قطرَ مدافعَ واتقانَ صنعةٍ . بدأ بناء هذا الأسطول في يونيو من سنة ١٨٢٩ فما جاءت سنة ١٨٤٠ حتى كان الأسطول المصري أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط . أنشأ محمد علي الجيوش وبنى الأساطيل وحارب الحروب بغير ان يستدين مالاً من الخارج ولكن الذي خلفوه في الأريكة المصرية كانوا أقل حرصاً منهُ من هذه الناحية فامتدت يد المرابين الدوليين الى مصر مما جلب عليها الكوارث . والحديث في الفصل الثالث وهو الفصل الذي يتناول عهد عباس الاول وسعيد واسماعيل يجلو لك هذا الموضوع ولكنهُ لا يقتصر عليهِ . هنا حديث سكة الحديد الأولى في مصر في بدء النصف الثاني من القرن الماضي وقصة امتياز قناة السويس وشقها والاحتفال بافتتاحها وأعمال الري المختلفة وزيادة الاراضي الصالحة للزراعة وارتفاع قيمة الصادر من البلاد واتساع شبكة المواصلات الحديدية وانشاء خطوط التلغراف (أنشيء الخط التلغرافي الاول سنة ١٨٥٤ بين القاهرة والاسكندرية)

ثم كانت ثورة عرابي وعهد الاحتلال . واذا صرفنا النظر عن نواحي الحياة السياسية في عهد الاحتلال الى مستهل الحرب العامة ، وحصرناه في الحياة الاقتصادية رأينا تقدماً مطرداً وقف عليهِ المؤلف فصله الرابع وجعل عنوانه « السدود والقناطر » وهو عنوان موافق لأن

حديث التقدم في حياة مصر الاقتصادية فيما بين ١٨٨٠—١٩١٤ أما هو حديث توسيع مرافق البلاد الزراعية من الري الصيفي او ري الاحواض الى الري المستديم. وكذلك زادت محصولات البلاد الزراعية ولا سيما محصول القطن . وارتفع مقدار الصادر من البلاد ارتفاعاً كبير الشأن. هنا حديث تقوية القناطر الخيرية وجعلها صالحة للسيطرة على ري الوجه البحري وبناء خزان اسوان وخزان أسيوط وقناطر اسنا فزادت مساحة الاراضي الصالحة للزراعة من ٤٫٧٦٢٫١٧٨ فدان في سنة ١٧٨٩ الى ٧٫٧١٢٫٤١٢ في سنة ١٩١٣

ثم عالج المؤلف موضوع الصرف والسكان (زاد السكان من نحو ٧ ملايين سنة ١٨٨٠ الى أكثر من ١٢ مليوناً سنة ١٩١٤) وتوزيع زراعة المحصولات وارتقاء التجارة الخارجية (زادقيمة الصادر من نحو ١٣ مليوناً سنة ١٨٨٠ الى نحو ٣٢ مليوناً في سنة ١٩١٤) والأموال الأجنبية المثمرة في البلاد ،معالجة سداها التحقيق والاحصاء ولحمتها البيان الواضح وحسن التبويب

وعقب على هذه الفصول بفصلين في حالة مصر الاقتصادية في خلال الحرب الكبرى ثم في العشرين سنة التي انقضت على انتهائها وختم كتابه بفصل موجز في الاتجاهات العامة الخاصة بالسكان وانتشار الصناعة ومشروعات الري الكبيرة وألحق به ذيولاً فيها جداول احصائية عظيمة الفائدة

٤— ضباط امركيون في الجيش المصري [1]

كانت اهم اقسام هيئة اركان حرب الجيش المصري — القسم الجغرافي — وكان اول ما اضطلع به استكشاف الصحارى المصرية. في عام ١٨٧٠ قام الكولونيل بوردي على رأس نخبة من الضباط المصريين لاستكشاف المنطقة الصحراوية بين النيل والبحر الاحمر . وقد استغرقت اعمال هذه البعثة عاماً عادت بعده بحقائق وافية . ورسمت الطرق الصالحة لمرور القوات . وفي عام ١٨٧٣ قام الكولونيل المذكور ببعثته الثانية الى ميناء برنيقة عن طريق البحر الاحمر . والتقى مع بعثة الكولونيل كولستون الى الميناء المذكور عن طريق قنا . ثم اشتركت البعثتان في كشف البقاع التي بين برنيقة وبربر . وفي عام ١٨٧٤ قامت ثلاث بعثات هامة باشراف هيئة اركان الحرب . الاولى — بعثة الكولونيل بوردي في دارفور . وقد تكلم عن اعمالها ، القاضي كرابيتس في الفصل الخامس من الكتاب . الثانية — بعثة الكولونيل كولستون في كوردفان . وقد وصف أعمالها في الفصلين السابع والثامن . الثالثة — بعثة المهندس ميشيل للقيام بأعمال جيولوجية في المنطقة بين النيل والبحر الاحمر . وهنا نلاحظ ان القاضي العادل كرابيتس لم يذكر اسماً واحداً من الضباط المصريين الذين زاملوا رؤساء البعثات الثلاث السابقة مع ان أسماءهم تحتوي

(١) Americans in the Egyptian Army. By Pierre Crabitès راجع القسم الاول من هذا البحث في مقتطف يناير سنة ١٩٣٩

عليها المصادر التي استقى منها القاضي كل معلوماته . فهل أراد القاضي كرابتس ان يكون أميركيًا فقط فلا يذكر اسماً مصريًا إلا فيما ندر لكي يطابق بحثهُ اسم الكتاب ؟

لقد كان حريًا بالقاضي كرابتس ان يذكر أسماء ضباط البعثة الأولى من المصريين الذين زاملوا الكولونيل بوردي هكذا : الملازمون الأول محمود صبري ومحمد سامي وسعيد نصر والملازم الثاني خليل حلمي والطبيب محمد أمين والاثنا عشر صف ضابط وجندي من قوة أركان الحرب . وللكولونيل ميسون بحث لخص فيه أعمال هذه البعثة

واشترك في البعثة الثانية مع الكولونيل كولستون — وكان قدعين في المدرسة الحربية لتدريس الجيولوجيا — الملازمون الأول عمر رشدي ومحمد ماهر وأحمد حمدي ويوسف حلمي وخليل فوزي وأربعة ضباط آخرون . ووصلت هذه البعثة الى مدينة الأبيض في ١٢ يونيو ١٨٧٥ . وفي هذه الرحلة أصيب الكولونيل كولستون بمرض شديد . فعهد بقيادة البعثة الى الميجور بروت (Major Prout) الذي قام بمهمته خير قيام . وكتب تقريراً فخماً عن بعثته

أما البعثة الثالثة ففيها اصطحب المهندس ميشيل، الضابط عبد الفتاح حلمي . وكان غرض البعثة كشف المعادن بين النيل والبحر الاحمر . وقد كشف مناجم الذهب في الحمامات شمالي قنا . ثم عرجت الى ثغور البحر الاحمر وخليج عدن كالقصير ومصوع تاجورة وزيلع . وأوغلت في الداخل ثم عادت الى مصوع . وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة

وقد ذكر القاضي كرابتس (ص ٥١ من كتابهِ النفيس) ان الجنرال ستون رفع في ٢٥ سبتمبر عام ١٨٧٥ تقريراً الى الخديو اشتمل على دراسة فنية عن كيفية استخدام ترع الري كجزء من مشروعات الدفاع الداخلية والانتفاع بالمواد الطينية التي تزال من الترع عند تطهيرها وذلك بعمل جسور يمكن الاستفادة بها في وقت الحاجة

وفي ١١ نوفبر ١٨٧١ رفع الجنرال تقريراً اتبعه بآخر في ٢٨ سبتمبر ١٨٧٣ أشار فيهما الى حرب الغواصات واقتراحه إنشاء سلاح للغواصات والانتفاع بالطوربيد . ولم يفت المؤلف ان يذكر لنا شيئاً عن الضيق المالي الذي وقع فيه الجنرال ستون وهو يجد في إعانه العسكرية في مصر . فقد تسلم الجنرال بواسطة قنصل أميركا بالقاهرة دعوة رفعها عليه الكولونيل أليسون طالبهُ فيها بما عليه من بعض المال، وقد أورد لنا فقرة من الخطاب الذي كتبهُ ستون باشا للقنصل يعد فيهِ بدفع المبلغ مع ضآلة مرتبهِ الذي لا يكاد يكفيهِ

وتضمن الفصل التاسع الحديث عن وصول غوردن الى مصر بعد استقالة السير « صمويل باكر » من خدمة الحكومة المصرية واختيار الليفتننت كولونيل شاييه لونغ للخدمة معهُ في مديرية خط الاستواء لمحاربة تجارة الرقيق في أقاليم أعالي النيل وتعزيز سلطة الحكومة المصرية . ثم

وصف في الفصلين العاشر والحادي عشر كيف وطّد شايه لونج صلاته بالملك « متيثا » وسفره فيما بعد الى اوغنده وقصته الطويلة في توطيد علاقة مصر في تلك البلاد والحملات التأديبية التي قادها لاخضاع الوطنيين والنتائج التي أفضى اليها تولي غوردن حكم تلك المناطق . وكان من أهمها رسم خارطة النيل الأبيض من الخرطوم الى الرجاف والاضرار بتجارة النخاسة وسيادة السلام حوالي غندكرو وتشييد مراكز للحكومة في تلك الانحاء مع تنظيم المواصلات بين النقط البعيدة وأهم من كل ذلك اكتشاف شايه لونج لبحيرة ابراهيم

وفي الفصول التالية يصف القاضي كرابتس ، بالتفصيل المقابلات والأحاديث التي كانت تدور بين شايه وغوردن وحذرهما المتبادل مما اقتبسهُ المؤلف من كتابات الضابط الاميركي وجريدة اركان الحرب الجيش المصري ونشرة الجمعية الجغرافية . وفيما كتبهُ الجنرال ستون في تقرير معروف لهُ قدّمه لأعضاء الجمعية الجغرافية في ٨ ديسمبر عام ١٨٨٢ . ونجد الآن من حسن الحظ تفصيلات هذه الحوادث في كتاب « تاريخ مديرية خط الاستواء » الذي أخرجهُ سمو الأمير الجليل عمر طوسون

وفي الفصلين الرابع عشر والخامس عشر يصف القاضي كرابتس المعارك الذي اشتبك فيها شايه لونج مع الاونيوريين والينباريين . وتجريدة مكراكا بنيام نيام (٣٠ يناير — ١٤ مارس) ووصولها الى مدينة لادو في ١٤ مارس وكيف استقبلهُ استقبالاً عسكريًّا قائد المحطة الضابط المصري البكباشي علي لطفي . وكان شايه لونج في ذلك الحين قد تسلّم خطاباً ورد اليهِ من غوردن وفيهِ رضاء الخديو عنه ومنحه رتبة الاميرالاي . ونحن ننشر هذا الخطاب تسجيلاً للدور الكبير الذي لعبهُ هذا الضابط الاميركي في سبيل مصر

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظارة الجهادية مكتب الناظر

يا حضرة الأميرالاي

لقد تعطف سمو الخديو وأراد ان يظهر للقائمقام لونج التفاته وحسن رضاه نظراً لما ابداه من حسن السلوك والاقدام والثبات في الموقعتين اللتين حدثتا عند مرولي بالقرب من خط الاستواء فمنحهُ رتبة الاميرالاي مع النيشان المجيدي وتجدون مع هذا الفيرمان الصادر بذلك فارجوكم ان تسلموه لأمير الآلاي لونج بك وتقدموا له في الوقت ذاته من قبلي التهانيء

وتفضل يا حضرة الميرالاي بقبول تمنياتي الطيبة امضاء حسين كامل

ثم يصف لنا القاضي وصول شايه لونج الى محطة العاصمة وامتطائه حماراً الى الفندق « نيوجراند هوتيل » وكان أرقى فنادق القاهرة . وبلغ الخديو خبر قدومهِ غداة اليوم الذي وصل فيهِ .

فأرسل يقول لهُ انهُ مستعد لمقابلته في الحال بقصر عابدين . وعند ما أُدخل عليه تقدم نحوه وصافحهُ وشكرله بعبارات مؤثرة الخدمات التي أداها في افريقية الوسطى (١)

وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاه مرة اخرى الى قصر النيل حيث كان الخديو يحيط به وزراؤه وكبار موظفي البلاط وضباط الجيش . فقابله بالايناس والبشر والمجاملة وانتهز شايه لونج هذه الفرصة لتقديم مجموعة الأسلاب والغنائم التي رجع بها من حملاته

وفي ٣٠ مايو ارسل الخديو يستدعيه مرة ثالثة الى قصر النيل حيث اجتمع عدد كبير من الموظفين ملكيين وعسكريين والجنديان السودانيان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوي اللذان أمرا بمرافقته . وقد ألقى الخديو خطبة حافلة بعبارات فصيحة مؤثرة ردد فيها عبارات المدح والثناء على ما أبدوه من الاخلاص والبسالة في واقعة مرولي

وقد اورد القاضي في الفصل السابع عشر حوادث الحملة المصرية في بلاد الحبشة واشتراك الضباط الاميركيين فيها. ووصف أهم العوامل التي أدت الى الهزيمة المنكرة التي مني بها الجيش في تلك البلاد . وكانت تلك الحملة بقيادة راتب باشا ورئيس هيئة اركان حربه الكولونيل داي ومعهُ الكولونيل شارلز فيلد وزملاؤهُ دريك ولوش ولامسون وغيرهم . ثم وصف كرايتس في الفصل التالي الاعمال الطبوغرافية التي قام بها الأميرالاي لوكيت والمهندس ميشيل ثم أتمها فيما بعد ضباط مصريون وكانت أهم أعمال هذا الضابط اشرافه على رسم خارطة افريقية مبيناً عليها جميع الاستكشافات المصرية . وهذه الخارطة النفيسة ما زالت الى اليوم في مكتبة قصر عابدين العامر

وقد خصص المؤلف الفصلين التاسع عشر والعشرين لوصف اعمال الليفتنت كولونيل اسكندر ماسون وأهمها كشفه لنهر السمليكي عقب رحلته في ١٤ يونيو عام ١٨٧٧ على ظهر الباخرة نيانزا وللمهمة التي عهد بها الخديو اسماعيل الى الكولونيل «جريفز» Col. Graves والقائمقام محمد مختار وهي ارتياد شواطىء الصومال لاختيار موقع يقام عليه فنار لارشاد السفن . فخطط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردفوي

وفي الفصول الثلاثة الختامية للكتاب لخص الكاتب اهم اعمال الضباط الاميركيين الباقية وحوادث مصر في عهد اسماعيل وتوفيق الى انتهاء خدمة اعضاء البعثة وسفر رئيسها الجنرال ستون عقب الاحتلال البريطاني بعد ما ادوا خدمة سامية لمصر ولجيشها

لقد كنا ننتظر صدور مثل هذا الكتاب منذ زمان بعيد . الى ان أُتيح للقاضي الاميركي بيير كرايتس تحقيق امنية طالما سعينا الى تحقيقها . فنحن نهنئه ونشكره لأنهُ اتاح لنا مطالعة صفحات مجيدة من تاريخ مصر

عبد الرحمن زكي

(١) راجع تاريخ مديرية خط الاستواء لسمو الامير الجليل عمر طوسون ص ٢١٨ — ٢٢٠



في سورية ولبنان

قال احد الكتّاب وأظنه لوسيان ديكاف ان الكتب ، والقصص منها بوجه خاص ، « تتقدم في السن » كمؤلفيها . فمنها ما يموت في شبابه لا يتجاوز الحداثة الاّ قليلاً ، ومنها — وهو قليل — ما يبلغ الكهولة ، على ان صحته لا تلبث ان تسوء فتشيعَ القلق على حياته

وهذا صحيح ، واكثر ما ينطبق على أدب هذا العصر سواء في الشرق أو الغرب . فمعظم ما ينتجهُ الأدب في هذا العصر مموّه بزخارف لا توائم طبيعة الأدب وليس الجمال في التزيّد والاسراف بالزخرف بل هو في بساطة الأداء والصدق ، شعراً كان أم كان نثراً ، والبساطة هي أمُّ الجمال وهي أظهر مزايا النبوغ ، فعظماء الفنّيين في العالم على تباين نزعاتهم لم يكتفوا يوماً ببساطة ما أنتجوه فهم يريدون دائماً أن يكون عملهم اكثر بساطة مما هو ، ليتفق وعاطفة الحقيقة والشعور الطبيعي

وليست البساطة نقيض الذكاء بل هي نقيض التكلف ، والتكلف رهن الزوال السريع لأنهُ لا يصدر عن الطبيعة ، وكل ما يصدر عن الطبيعة بسيط لأن الطبيعة لا تتكلف ما ليس في طاقتها . وما دامت الطبيعة امّ الحياة فكل ما لا يصدر عن الطبيعة يموت

ومن مزايا الطبيعة أنها لا تقلد ، فهي صورة عن نفسها . فالشعر الجاهلي ما عاش الى يومنا هذا الاّ لانهُ صادق يعبّر عن روح العصر الجاهلي ببساطة ذلك العصر ، وليست قيمة هذا الشعر إلاّ في بساطته الرائعة ، في صدقه الصارخ . وما نقوله عن الشعر الجاهلي نقولهُ عن الشعر في صدر الاسلام وفي الاعصر العباسية الزاهرة . فعمر بن ابي ربيعه لم يخلد في شعره إلاّ لأن شعره صورة عن نفسهِ ولأنهُ هو صورة جريئة لعصره

ولا بدَّ لي بهذه المناسبة أن أعرض لرأي أبداه الاستاذ احمد امين في جريدة الجمهور البيروتية . فقد قال حضرته مفسّراً ظاهرة ضعف الشعر في العالم « ان العالم الآن طغت عليه المادية وكل ما يتعلق بها من علم وسياسة ونحو ذلك ، والمادية

عدو الخيال ولا شعر الا بخيال ، ويتصل بذلك ان الشعر يكثر ويغزر قبل ان يكتمل عقل الأمة كما كان الشأن عند العرب في الجاهلية وعند اليونان فاذا تقدمت الأمة في الرقي حلّ المحل الاول عندها الفلسفة والادب النثري ، فالعالم الآن لما تقدم لم يعد للشعر منزلته الاولى وحلّ محله شيئاً فشيئاً نثر العقل وفلسفة العقل»

فلقد كان يجمل بالكاتب قبل ان يرسل هذا الرأي أن يعرض عصور التاريخ فلو انهُ فعل ذلك لوجد ان ازهرها كانت الاعصر التي ازدهر فيها الشعر على الخصوص . ففي عصر اغسطس الذي كان امجد عصور التاريخ الروماني وضع الشعر تلك الروائع التي تنم على عبقرية اللاتين وقد اقترنت باسماء هوراس وفرجيل واوفيد وغيرهم ، وما نقوله عن عصر اغسطس نقوله عن الاعصر العباسية وعصر لويس الرابع عشر في فرنسا وعصر فيكتوريا في انكلترا ، ولا يسمح لنا المقام هنا بالاسهاب في هذا الموضوع الذي لا يقبل جدلاً ، وكل ما نقوله ان العصور التي سادها اغسطس وهرون العباسي ولويس الرابع عشر وفيكتوريا، لم يكن عقل الامم فيها أقلّ اكتمالاً منهُ في عصر موسوليني وهتلر . وربما كان السبب الاصح في ضعف الشعر في العالم هذا القلق المستحوذ عليه ، فالشعر لا يزدهر الا في عصور الطمأنينة والرخاء ، والطمأنينة والرخاء لم يعرفهما العالم منذ خمس وعشرين سنة إلا في الفترة القصيرة التي عقبت الحرب الكبرى . هذا الى ان الشطر الاكبر من الجهد الانساني ينصرف في الازمنة القلقة الى حل مشاكل هذه الازمنة . وهذه المشاكل لا يحلها الشعر بل السياسة . لذلك تحول جهد الكتّاب في هذا الزمن الى معالجة شؤون العصر توصلاً الى الرخاء والطمأنينة المنشودين اللذين يساعدان الامم على تنمية عقلها . . فكان أن طغت الأبحاث المادية العقلية على الشعر الذي يتصل مباشرةً بالروح . وأكبر الظن ان الأحداث السياسية التي خبطت مصر وسوريا في الحقبة الاخيرة حولت الاتجاه الادبي فيهما عن الشعر الى الشؤون العقلية البحتة فضعفت الناحية الشعرية في هذين البلدين اكثر مما ضعفت في لبنان الذي لم يصرفه حدث سياسي خطير عما فطر عليه ولامشاحة في ان الشعر ينشأ مع الامة ويسايرها في رقيها ، وهو مرآة الامة وعنوان ازدهارها ، على انهُ قد يهادن في المعضلات الاجتماعية الخطيرة ليفسح السبيل الى الانصراف لحل هذه المعضلات



قلت في المقال السابق الذي جعلته توطئة للفصول المقبلة في الحركة الادبية بسوريا ولبنان ان هذين البلدين لا يملكان من الصحف الادبية الاَّ عدداً قليلاً وأقول اليوم ان هذه الحركة لا تظهر في هذه الصحف وحدها بل في الصحف السياسية ايضاً ، فقد لا تخلو صحيفة يومية من صفحة ادبية في كل اسبوع ، وهذه الصفحة تخص بجانب كبير من العناية ، وقد لا اخطىء اذا قلت أنها ارقى صفحة ادبية في الشرق العربي . واحصر كلامي هذا في الصحف اليومية . أما الجمعيات الأدبية فما تزال محاولات لا تعيش عمراً أطول من عمر وردة « دوبريه » Dupérier أي مدى صباح واحد . وأول جمعية فكر رجال الأدب في تأليفها هي « الجامعة الأدبية » التي عاشت سنة ونصف سنة ولم تمرّ إلاَّ مرةً واحدة عندما منحت جائزتها وقدرها مائتا ليرة للشاعر سعيد عقل مكافأةً لهُ على إصداره مسرحيته الشعرية الرائعة « بنت يفتاح » في العام ١٩٣٣ ولدت هذه الجمعية في دار الشاعر شارل القرم وبقيت سنة ونصف سنة تعقد اجتماعات أسبوعية تمهيدية تارة في دار الاستاذ شارل القرم وطوراً في دار رئيستها السيدة الأديبة افلين بسترس حتى انحلت من تلقائها

وفي تلك الاثناء أنشأ بضعة من الادباء والناشئين جمعية باسم « ندوة الاثني عشر » لا تزال الى يومنا هذا ماضية في النشاط ، وقد أصدر أعضاؤها عدة مؤلفات آخرها « يوميات ميشال سرور » للاستاذ ميشال الاسمر . ويقول الاستاذ فؤاد حداد ، أحد أعضاء هذه الندوة ، إن « يوميات ميشال سرور قصة مستحدثة الاسلوب في العربية ، لكل ما يستوحى من الآداب الاجنبية — هي مجموعة ذكريات وعواطف وأفكار وتصورات ، تعطيك أجزاء خطوط تمثل فيها شخصية فتىً نزوع للادب وطموح لان يمتلىء من الحياة . يصطدم في قريته وبيته بمن لا يفهمه فيهجر محيطه الى حيث يضيع بين مجموع يدعه يعيش على هواه ، فينصرف الى تذوق أحاسيس الدنيا ، محصورة بعاطفة الحب حتى يعرف أخيراً اللذة الكبرى ، بعد كبت طويل ، والحبّ الامثل ، بقرب فتاة لقي فيها مجموعاً ما كان يتمثله من كمال في المرأة . ولكن الفتاة مصدورة فتموت ويموت معها جنين في احشائها ، بعد ان رجت من الحبيب الذي أدركت مطامحه الادبية ان يستمد من حياتهما القصيرة المشتركة مادة لقصة يخلدان بها ولم يسعدا بالخلود في الكائن الحيّ عصارة



روحيهما ومزيج قلبيهما . » . وفي الشهر الفائت أسس رهط من الادباء « نادي القلم » وعقد حتى الآن عدة اجتماعات تمهيدية برآسة الشاعر الدكتور نقولا فياض

أما دمشق فليس فيها جمعيات أدبية سوى المجمع العلمي ، وجلسات الادب تعقد فيها تارة بمقهى العباسية وطوراً بمقهى الكمال ، ولكن هذه الجلسات سرعان ما يتحول البحث فيها الى السياسة ، والسياسة شاغلة الشام اليوم . ولم يكن في دمشق حتى الشهر الاسبق جريدة تعنى عناية خاصة بشؤون الادب الى أن نشط الاستاذان يوسف العيسى ، صاحب جريدة « الف باء » ، وايليا شاغوري الى اصدار جريدة اسبوعية باسم « الاحد » أخذت على عاتقها سدّ هذا الفراغ في العاصمة السورية . على ان الانتاج الادبي في المطابع عامة ضئيل في سوريا فالجهود مبذولة فيها لتسوية المعضلات السياسية . وقد لا أُخطىء اذا قلت ان المطابع السورية لم تُصدر في الاشهر الاخيرة كتاباً جريئاً بالاهتمام ، خلافاً للامر في لبنان ، فقد أُصدرت بمطابع بيروت في شهر دسمبر خمسة كتب هي : « ديوان ابن الساعاتي » للاستاذ انيس المقدسي ، و « هل يخفى القمر » أو قصة عمر بن ابي ربيعة للاستاذ رئيف خوري و « نحن في افريقية » ، للاستاذ كامل مروة ، و « قوة الارادة » للامير يوسف أبي اللمع ، و « يوميات ميشال سرور » للاستاذ ميشال الاسمر . وقد شرع الاستاذ توفيق يوسف عواد بطبع قصته الطويلة « الرغيف » وستظهر في مطلع الشهر المقبل

قال الاستاذ رئيف خوري في المقدمة القصيرة التي وضعها لكتابه عن عمر بن أبي ربيعة : ينبغي للادب ان يعلمنا شيئين : الفرح بالحياة وبناء عالم مفرح . وهذا السفر لا يعلمنا بناء العالم المفرح ، وإنما هو يعيننا على استمراء شيء من الفرح . وأقصى أملي أن يكون نزهة مريحة الاعصاب ، ومجددة القابلية للكفاح في سبيل بناء العالم المفرح » . وقد استهل المؤلف قصته — ولنسمّ كتابه قصة ، فهو من نوع التاريخ المموّه أو ما يسميه الفرنجة (histoire romancée) بنبذة تاريخية عن العصر الذي ربي فيه عمر وشبّ وترعرع فجاءنا بصورة بارزة عن انغماس هذا العصر في حياة النعيم والتماسه العيش المرفه خلص منها الى ايراد الاسباب التي وطدت أركان الحضارة الاريستوقراطية وافسحت السبيل الى ايثار بعض على بعض وانفتاح ذلك « الخليج المظلم » بين طبقات العرب ، هذا الخليج الذي كان يسير الشأن في

عهد الخليفة عمر بن الخطاب الحريص على «روح المساواة الفطرية التي سقى بذورها الاسلام الخالص» فاتسع في عهد عثمان بن عفان ، الخليفة « الرخو الدمث الاخلاق » وبقي كذلك في زمن معاوية

والاستاذ رئيف خوري معروف بنزعته الدمقراطية الخالصة فهو لا يطرق موضوعاً إلاَّ تكون المبادىء الدمقراطية الانسانية سداه ولحمته

ومن الأدلة على نشاط الحركة الادبية في لبنان مساهمة الدوائر الرسمية والمؤسسات العلمية فيها ، فقد ارصدت وزارة المعارف في ميزانيتها خمسماية ليرة لتنشيط الادب توزعها كل سنة على المؤلفين ، ووضع المجلس البلدي في بيروت جائزة قدرها مائتا ليرة للغاية نفسها ، وفي السنة الفائتة قررت مدرسة الحكمة في العاصمة اللبنانية منح جائزة سنوية قدرها مائتا ليرة لافضل كتاب نثري او شعري يصدر خلال السنة . كما أن جريدة « المكشوف » توزع كل سنة عدة جوائز مالية لتنشيط القصة والشعر ، وقد أعطت هذه البادرة ثمرتها الطيبة . اما محطة الاذاعة فلا تزال ميزانيتها ضعيفة ، ولكنها لا تتورع عن تأدية قسطها للحركة الفكرية في سوريا ولبنان ، ففي كل اسبوع تدعو خطيباً لاذاعة محاضرة أو قصة ، وقد خصصت للمحاضرة خمس عشرة ليرة وللقصة عشر ليرات

وللحركة الأدبية ميدانها المجدي في المعاهد العلمية الكبرى كالجامعة الاميركية ومعهد الحكمة ومدرسة المقاصد الخيرية ومدرسة القديس يوسف اليسوعية وغيرها فلا ينبغ أديب إلاَّ تتعرَّف اليه منابر هذه المعاهد ، ولا يزور أديب لبنان الاَّ تسمع صوته من أحد هذه المنابر . وفي كل سنة تنظم الجامعة الاميركية سلسلة محاضرات في الادب والاجتماع تعهد بها الى صفوة رجال الفكر في البلاد

اما الحركة الشعرية فقد خفتت في الشهرين الفائتين فلم تنشر الصحف ولو قصيدة غزلية . وهذا «حدث» لا عهد للبنان بمثله ... ومما يدعو الى الدهشة ان جريدة «الجمهور» الاسبوعية أرادت اصدار جزء شعري من الدفة الى الدفة فجمعت طائفة من القصائد لثلاثين شاعراً لم نقع فيها على قصيدة جديدة . ولكنها غمة عارضة باذن الله ... ومهما يكن فقد جاء جزء «الجمهور» ديواناً او معرضاً للالوان الشعرية في لبنان وفي سوريا ايضاً

بيروت ١٠ فبراير

الياس ابو شبكة



الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين لهُ في الهند

—٢—

والامير الهندي الوثني الآخر الذي برع في بلاط الملك جلال الدين اكبر في فنون الشعر بالفارسية هو « راجا بهوبت راني سواني » واسمهُ الرمزي في الشعر « يغم » [1] . فقد ذكرلنا الأستاذ امير بيك المتوفى سنة ١٢١١ هجرية في كتابه « حدائق الشعراء » الذي نسختهُ الخطية محفوظة في مكتبةالجمعية الاسيوية بكلكته (الهند) بيتاً واحداً له يدل على حذقه الشعر الفارسي الغنائي . واليك ترجمته قال

في غيابكِ ياراحة قلبي ! ان في ليالي هجركِ
يئنُّ « يغم » انيناً ضائعَ القلبِ ومنهمرَ الدموعِ

على ان مرور الزمن قرر على هؤلاء الهنود أمره ، فدعا إلى الفارسية وادبها قلوبَهم ،وشغل بها خواطرهم وفكرهم ، فتصدّى لدراستها عددجمّ منهم في الحكومات التي تلت حكومة جلال الدين اكبر ، فأصبح حظهم منها اوفر ، حيث برزت شخصية « شندربهانِ » الشهير باسمهِ الرمزي الشعري « برهمن » في عالم العلم والادب ، فنالت محلاً جليلاً ومنزلةً عليا في قلوب معاصريها من علماء اللغة الفارسية وادبائها وشعرائها

كان والد « شندربهان » هذا خطاطاً عظيماً وموظفاً لدى الحكومة المغولية فتسنى لهُ ان يصرف عنايته ويبذل جهده في تربية ابنه وتعليمه . فاخذ « شندربهان » العلوم العربية والفارسية عن اكبر العلماء في عصره وأوحد زمانه بلا نزاع وهو العالم العلامة الفيلسوف عبد الحكيم السيالكوتي رحمة الله عليه ، فبرع فيها وتبحر

---

(١) من العادة في الادب الفارسي والادب الهندي ان الشاعر يختارلنفسه اسماً رمزياً غير اسمه الحقيقي فيستعمل هذا الاسم في شعره ويشتهر بهذا الاسم في عالم الشعر والادب

حتى استوقفت بسطتهُ في العلم وقدرته بالفارسية نظر سمو الأمير «داراشكوه»[1] ابن الملك شهاب الدين شاه جهان[2] وهو أكثر الأمراء نصرة للعلوم والفنون وأوفرهم تضلعاً منها وأوفاهم تقديراً لها في تاريخ الهند الاسلامي ، فعينهُ كاتم سره الخاص . فترعرعت كفاءة الشاب العالم الشاعر « شندربهان » ولمع نبوغه هكذا في حضن رعاية الامير وتقديره ، حيث صنف كتابه النفيس «جهارجمن» (أي الحدائق الاربع) في انشاء الادب الفارسي وأسلوبهِ . ومهما تكن قيمة « جهارجمن » هذا من وجهة النقد في العصر الحاضر ، فما لا شك فيهِ انهُ أصبح فيما بعد لحقب من الزمن سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع من الكتاب والمنشىء في أحسن الأساليب الفارسية المألوفة حينئذٍ في الهند . فكان كتابَ الطالب والمعلم في المكاتب والمدارس في جنب كتاب الانشاء للعالم الوزير الشهير الآتي الذكر « أبو الفضل » لأجيال كثيرة

كان «شندربهان» شاعراً مفلقاً بالفارسية يعد ديوانه مثالاً في الشعر المطبوع عند أوساط الادب والشعر . وله حكاية طريفة وهي ان الامير « داراشكوه » حين قدمهُ أول مرة الى أبيهِ الملك شاه جهان ورجال حاشيته حوله طلب الملك ان يسمعهُ شيئاً من شعره فقرأ الشاعر بيتاً ترجمتهُ فيما يلي :

إن قلبي يحب الكفر (الى درجة) انني
حملتهُ مراراً الى الكعبة ولكنهُ رجع معي وهو برهمن[3]

فاغتاظ الملك لما في معنى البيت من طعن خفي في الاسلام وهو دين الحكومة وبخاصة في ذلك العهد إذ كان للدين كل الشأن وكاد ان يذهب الشاعر ضحية سوء أدبه هذا ، لولم يتقدم « أفضل خان » أحد كبار رجال الحاشية وينهي الحكاية بقراءة بيت للشاعر الفارسي الشهير « سعدي » . وترجمة البيت كما يلي :

إن حمار سيدنا عيسى لو ذهب الى مكة ورجع
فلا يفتأ حماراً .

---

(١) كان هذا الامير عالماً شاعراً صوفياً خطاطاً رساماً ولد في سنة ١٠٢٥ هجرية ومات قتيلا في سنة ١٠٦٩ هجرية بيد أخيه عالمكير

(٢) تولى الامر من سنة ١٠٣٧ الى سنة ١٠٦٩ هجرية (٣) أي كافر

وغزل « شندربهان » من فيض الخاطر شعر غنائي بليغ يتصف بعضه بشيء من مسحة الافكار الصوفية ، شأن كل شاعر حاسر لثام ما في نفسه من الطموح الى المثل العالي في ذلك العهد. ونحن نزف اليك ترجمة بعض الأبيات منهُ فيما يلي. قال:

ما أشدَّ غفلتي إذ أسد سيل الدموع بالأهداب
ان الطوفان لا يمكن ان يُسَدَّ بحفنة من التبن
ان (الدم) يسيل من (جرح) كبدي فلا غرو
ان يصبح قميصي حديقة شقائق النعمان
ان عذاركِ في حركة دائمة
فكيف يطمئن قلبي ويسكن
إن طيفك زارني ليلة في الحلم فتسليت بهِ
ولم أفتح لذلك عيوني الباكية غداتها
أيها البرهمن[1] ! أنا أطلب منك الاتصال المباشر
فان الأدلة والبراهين لا يعتمد عليها

ان ما نال « شندر بهان » من المنزلة العظيمة في بلاط الملوك ومجالس الامراء واندية الأدب ومسامرة الشعراء لكفاءته وجدارته بالادب الفارسي وشعره حدا اكثرية الهنود الوثنيين على اتقان الفارسية والتضلع من فنونها . ولم يكن الاقبال عليها محصوراً بين اهالي المدن والمقاطعات القريبة من دهلي — حاضرة الامبراطورية الهندية حينئذٍ — بل مهر فيها غير واحد منهم مسجلين آثارهم على صفحات تاريخ الادب الفارسي حتى من اقصى المقاطعات الهندية مثل بنجال . ففي بنجال كما ذكره العالم المؤرخ شاه نوازخان في كتابه « مآثر الامراء » ترعرع الشاعر الخطاط « مثراداس » الذي خدم فن الخط والادب الفارسي خدمة لا يستهان بها في عهد الملك شاه جهان ومن نكد هذا الشاعر انه سجن في اواخر حياته لسوء فهم حدث بينهُ وبين حاكم مقاطعة بنجال « خان زمان » فكتب في السجن قصيدة هي

(١) برهمن اسم الشاعر الرمزي كما قلنا . ومعنى برهمن بالسنسكريتية عابد « برهما » (أي الله) ثم أطلقت كلمة برهمن أحياناً فيما بعد على « برهما » أيضاً على طريق المجاز . وهنا يريد الشاعر بالبرهمن الله وهو ايضاً اسمه الرمزي

آية بالفارسية براعةً وغاية في الشعر بلاغةً استعطف بها الملك وأرسلها بواسطة حكيم ركنا كاشي الى دهلي فأطلق سراحه على أثره

كان في نفس الزمن في الله آباد شاعر مجيد بالفارسية ان اشتهر باسمه الاسلامي محمد علي ولكنه وثني الأصل ، ترّبى عند فارسي علمهُ اللغة الفارسية ثم تبناه في الآخر . واسمه الرمزي الشعري «ماهر» . فهو استفاد في اوائل حياته من مجالس الشاعرين الكبيرين «قدسي» و «كليم» كان ثانيهما شاعر بلاط الملك شاه جهان . واتصل هو ايضاً بالامير «داراشكوه» فحل بهِ في ظل الجود المَديد وآوى الى قصر التقدير المَشيد ، فنح لقب «مراد خان» . ولقد كان للشاعر «ماهر» هذا اليد الطولى في علوم الادب الفارسي وفنونه حيث نجد كبار علماء الفارسية في ذلك الحين مثل محمد افضل خان سركش صاحب الكتاب القيم في تراجم الشعراء الفارسيين من تلامذته

إن كانت غزوة الملك محيي الدين عالمكير اورنك زيب[1] للهند الجنوبية ، وهو الذي باشرها بنفسه زمناً طويلاً ثم فتحها ، حملت كثيراً من اهل العلم والأدب على الانتقال من دهلي — عاصمة الامبراطورية الهندية الى المعسكر الملكي في جنوب الهند ، غير انهُ لم تزل لدهلي جاذبية نزعت الى مؤانستها قلوب العلماء وحنت الى مناسمتها نفوس الادباء فهاجروا من بلادهم اليها . ومن هؤلاء المهاجرين العالم الصوفي الشاعر ميرزا عبد القادر بيدل الذي هجر بلدته عظيم آباد وتوطن دهلي . فتلقى عنهُ كثير من الناس في دهلي وتخرج عليهِ عدد كبير من أدباء الهنود الوثنيين وشعرائهم بالفارسية . منهم الذين برزوا في العلم وتركوا آثاراً في الأدب والشعر الفارسي ، الشاعر (سيورام)[2] «حياء» ، والشاعر (جوربخش) «حضورى» ، والشاعر (بندرابن داس) «خوشكو» ، والشاعر (سوخ راج) «سبقت» ، والشاعر (اندرام) «مخلص» . ومؤخر الذكر من الشهيرين في الأدب الفارسي وفنونه في عصره . فقد ترجمهُ غلام علي آزاد البلغرامي في كتابه «خزانة عامرة» وانتقد شعره . ومما يؤسف له ان عوادي الزمن حالت دون وصول دواوينه الى ايدينا غير ما ذكر في كتب التراجم . وقد نوه بهِ ايضاً العالم المؤرخ الشاعر سراج

(١) تولى الامر من سنة ١٠٦٩ الى سنة ١١١٨ (٢) بين القوسين اسم الشاعر الحقيقي والذي بجنبه اسمه الرمزي الشعري

الدين خان آرزو في كتابه « مجمع النفائس » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الاسيوية بكلكته (الهند) فقال ما هو خلاصته :

« ان وفاء انندرام هو الذي حملني على الاقامة في دهلي . ففي الثلاثين سنة الاخيرة لم يحرمني وفائه وحُبّـهِ الكامل . وفي اوائل شبابه تلقى عن « بيدل » وأخذ الاصلاح منهُ في قصائده ، ومن ذلك الزمن ظل رفيقاً وفيّاً له . وخلاصة القول هو في هذا العصر ممن يشار اليهم بالبنان في العلم والأدب والشعر »

وقد نقل لنا سراج الدين خان آرزو بيتين له يدلان على حذقه الشعر الفارسي . واليك ترجمتها قال :

ايها الحب ! لا تؤذِ مرة اخرى الضعيف مثلي
الغريبَ (في عالمك) المتألمَ وسائمَ الحياة
نحن لا نعرف أحوال العندليب المسكين
غير اننا رأينا حفنة العظام تحت الورد(١)

وما حاز (بندر ابن داس) خوشكو من تقدير العلماء والادباء لطول باعه في الادب الفارسي والشعر لم يكن اقل منزلة لما حازه غيره بين علماء الفارسية من الهنود الوثنيين . فهو ترّبى مثل غير واحد من معاصريه في مدرستي الاديبين الشاعرين ميرزا عبد القادر بيدل وسراج الدين خان آرزو ، وبلغ في الشعر والأدب الفارسي مبلغاً قل ان بلغه غيره حيث يفضل بعضهم كتابه « تذكرة » في تراجم الشعراء من بعض الوجوه على « مجمع النفائس » لاستاذه سراج الدين خان آرزو . وقد نقل لنا العالم الشاعر الوثني (لـكشمي نراين) شفيق في كتابه « تذكرة جل رعنا » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الأسيوية بكلكته (الهند) شواهد كثيرة من شعره ، وروى لنا فيه ايضاً حكاية عن براعته في مجلس ادبي حين اعترض عليه في استعماله الاصطلاح الفارسي « داغ افتادن » (اي التبقع) كيف انهُ نال استحسان المجلس وتقديره على رده بسرعة الخاطر وغاية الظرف والبداهة المليحة بالاستشهاد من الشاعر الفارسي الكبير الذائع الصيت « صائب »

(لها تابع) السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

(١) من أساطير الادب الفارسي ان العندليب يعشق الورد . فمعنى البيت ان الورد أو عشقه أباد العندليب العاشق المسكين لذلك لم نجد الا عظامه تحت الورد

المؤتمر الدولي

الثامن للعلوم التاريخية (١)

ملخص طائفة من الرسائل النفيسة التي تليت فيه

عقد المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية في سويسرا في الأسبوع الواقع بين ٢٨ أغسطس و٤ سبتمبر سنة ١٩٣٨ لأسباب متعددة أهمها :

أولاً — الصراع السياسي القائم بين الدول الكبرى والرغبة الملحة في أن يعقد المؤتمر في جو تسوده الطمأنينة والهدوء. ثانياً — ما تتمتع به سويسرا من مظاهر الطبيعة التي تتجلى في صور منقطعة النظير. ثالثاً — حياتها الفكرية والسياسية التي ترتفع فوق عوامل الاضطراب الأوربي

٢ — « تنظيم المؤتمر » في وسط هذه البلاد التي تمتاز بحياتها الطبيعية والسياسية والفكرية عقد المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية وقد امتاز بالبساطة التامة في اعماله وحفلاته مما يصور الحياة السويسرية أكمل تصوير واشترك فيه ٤٨ دولة يمثلها ١٣٠٠ مندوب وكان أوفر الدول تمثيلاً المانيا ويمثلها ١٨٠ مندوباً وفرنسا ويمثلها ١١٠ مندوبين ، وايطاليا ويمثلها ٩٥ مندوباً ، وبريطانيا ويمثلها ٩٠ مندوباً بحيث كانت الصفة العامة للمؤتمر المانية ايطالية تمثل التعاون الوثيق بينهما في عالم الفكر كما هو ظاهر في عالم السياسة . وقد قسم المؤتمر خمسة عشر قسماً تتناول كافة نواحي الدراسة التاريخية على ماهو مبين بعد

(١) قسم ما قبل التاريخ (٢) قسم التاريخ القديم والآثار الكلاسيكية (٣) قسم المحفوظات التاريخية (٤) قسم العملة وتاريخها (٥) قسم العصور الوسطى وبيزانطه (٦) قسم التاريخ الحديث الى سنة ١٩١٤ (٧) قسم تاريخ الامم غير الاوربية (٨) قسم تاريخ الاديان (٩) قسم تاريخ القانون (١٠) قسم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي (١١) قسم التاريخ الحربي (١٢) قسم تاريخ الفكر (الفلسفة والفنون والآداب) (١٣) قسم تاريخ العلوم (١٤) قسم طرق الدراسة التاريخية ونظرية التاريخ وتعليمه (١٥) قسم الكتابة التاريخية

---

(١) عن تقرير مسهب وضعه الاستاذ محمد قاسم بك عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية في المؤتمر

وقد عرض في هذا المؤتمر ١٥٠ رسالة بينها رسالتان لمندوبين مصريين وقد استعرضت هذه الرسائل اهم الافكار والآراء السائدة في الدراسات التاريخية في العالم في نواحيها المختلفة ونظم العمل في جميع هذه الاقسام بالاشارات الكهربائية على لوحة تسمح للزائر بأن يدرك بنظرة واحدة الرسائل التي تلقى في شتى اقسام المؤتمر في وقت معين. وسنلخص اهم هذه الرسائل فيما يلي

— ١ — السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية ومكانته التاريخية(١)

ان ما يعزى عادة الى السلطان محمد الثاني من المقام التاريخي يحتاج الى إعادة البحث فيه فقدار تفع هذا المقام عن الواقع في بعض النواحي كما انهُ انتقص في نواح أُخرى . مثل هذا الفاتح مثل غيره من ابطال التاريخ ، فقد عزي اليه انهُ بفتحهِ للقسطنطينية قضى على حكم الدولة الرومانية التي ظلت قائمة خمسة عشر قرناً وقضى على الكنيسة المسيحية التي سيطرت على العالم الشرقي اثني عشر قرناً، كما انهُ قضى على الثقافة الاغريقية التي انتشرت في البحر المتوسط حوالى عشرين قرناً وبينما كان اتباع المسيح يطاردون المسلمين في شبه الجزيرة الاسبانية كان سلطان العثمانيين في الطرف الآخر من البحر المتوسط يبسط راية الاسلام في اوربا تلك الراية التي ظلت خافقة اربعة قرون وهو يعتبر بعد هذا اعظم مؤسس للامبراطورية العثمانية التي اخضعت مناطق واسعة في افريقيا وأوربا وهددت في القرنين السادس عشر والسابع عشر العالم المسيحي بأكمله . كذلك يعزى الى محمد الفاتح انهُ ارغم علماء الاغريق على الهجرة حاملين مخطوطاتهم الثمينة الى ايطاليا حيث انبثقت النهضة الاوربية بكل ما انطوت عليه من النتائج للمدنية من علم وفن واختراع . ويعزى اليه ايضاً انهُ اغلق طرق التجارة القديمة بين آسيا وأوربا فحمل خرستوفر كولمبوس وفاسكودي جاما على البحث عن طرق جديدة الى الشرق وبعبارة اخرى عزي اليه انهُ الباعث المباشر على الاستكشاف الجغرافي والتوسع الاوربي. فاذا صح هذا كله فان المكانة التي وضع فيها محمد الثاني يجب ان ترقى كثيراً بين ابطال التاريخ حتى ليوضع الى جانب الاسكندر الاكبر ونابليون . ولكن أكثر ما عزي اليه ليس في الواقع الا نتيجة تطورات تاريخية اقتضت قروناً وأجيالاً عدة . مثال ذلك حركة احياء العلوم وحركة الكشف الجغرافي . أما عظمة محمد الفاتح فترجع في الحقيقة الى إنشائه الامبراطورية العثمانية نفسها فاستيلاؤه على القسطنطينية أضاف الى سلطانه منطقة ذات شأن عظيم قائمة في وسط الأملاك العثمانية وأزال عقبة من طريق التجارة والحرب براً وبحراً ، ثم انهُ باتخاذه هذه المدينة عاصمة للملك أنشأ مقراً مناسباً لحكومته التي كان يمتد سلطانها على البلقان وآسيا الصغرى ، وباحياء القسطنطينية وتجديدها أنشأ مركزاً جديداً للتجارة والثقافة

(١) الاستاذ البيرهوليبر «أربانا»

العلمية والفنية ، ووضع الى جانب ذلك أساس الدولة التي هددت العالم الأوربي قرنين من الزمان ولو ان نظم الحكم القائم على بقاء عناصر الامبراطورية وحدات متفرقة ، أدى في النهاية الى انهيارها

— ٢ — الثورة الفرنسية واستقلال اليونان (١)

وجدت الثورة الفرنسية في بلاد اليونان أرضاً خصبة لنشر بذورها وبث دعوتها فبعد ان تخلت الروسيا عن عهودها التي قطعتها لليونانيين المرة بعد المرة كان طبيعياً ان يتجه هؤلاء الى فرنسا التي أذاعت مبدأ الحرية على لسان المؤتمر الأهلي في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦ وضمنت المعونة لكافة الشعوب التي ترغب في حريتها ، ثم لوحت بهذه المعونة بطريقة فعلية حينما وجهت الحملة الفرنسية الى إيطاليا وأصبح لليونان شأن حربي في تنفيذ مشروعات فرنسا الجمهورية في البحر المتوسط ، فأوفدت الرسل لتحريك الثورة في البلاد وإيقاظ الفتنة وأنشأت في بوخارست وأنكونا مراكز لدعاة الثورة المنتشرين في البلاد وتوزيع الذخائر على المحاربين

وتقارير وكلاء فرنسا السريين وأنصارهم من اليونانيين تبين مدى نشاطهم واتساع نطاق دعوتهم . وكان انتصار نابليون في ايطاليا بشيراً بتحقيق الآمال الجائشة في صدور اليونانيين وخاصة حينما احتلت جيوش فرنسا الجزائر الايونية وقضت على سيادة البندقيين في هذه الارجاء ، فتدفقت حماسة الشعب وظهر نابليون كمبعوث العناية الإلهية لتحرير اليونانيين . ومن ثم أوفدت الرسل الى باريس للمفاوضة في استخدام الجيوش الفرنسية لتحرير اليونان في مقابل استيلاء فرنسا على بعض جزر الأرخبيل واحتكار التجارة في شرق البحر المتوسط بل واحتلال بعض المواقع الحربية على الشواطىء . غير ان هذه الأحلام جميعاً لم تلبث ان تبددت حينما تعقد الموقف الدولي وتعذر على نابليون ان يواصل عمله هناك

ومع هذا كانت الثورة الفرنسية والانقلاب الذي أحدثته في العالم أجمع أحد عناصر النهضة الهلينية فالرجال الذين تزعموا الثورة فيما بعد تدربوا على أعمال الحرب في عهد الحكم النابليوني فنهم من اشتغل بنقل المتاجر الى الموانئ الفرنسية مخترقين نطاق الحصار الانجليزي ومنهم من اشترك فعلاً في حروب الثورة ونابليون ودرسوا أساليبها ووقفوا على دقائقها حتى اذا انتهت حروب نابليون انتشروا في بلادهم ووضعوا خدماتهم وتجاربهم في خدمة الحرية الهلينية

على أن الثورة الفرنسية أثرت في اليونانيين تأثيراً مباشراً بمبادئها القائمة على الحرية والوطنية فعلى رغم التأثير المستمد من المدنية الكلاسيكية والبيزنطية بل وعلى رغم تأثير الكنيسة

(١) الاستاذ ابوستولس داسكالاكيس — أثينا

الارثوذكسية كان اكثر الرجال السياسيين والعسكريين الذين اشتركوا في هذا النضال المقدس مشبعين بمبادىء الثورة الى حد أن اعلان الحقوق الفرنسي اتخذ نموذجاً للدستور اليوناني في كل ما يتعلق بحقوق المواطنين الهلينيين، ذلك الدستور الذي اقره المجلس الاهلي المنعقد في ايدور في نهاية سنة ١٨٢١ وأصبح يعتبر بداية بعث اليونان

— ٣ — أساس القومية الحديثة (١)

١ — يرجع عهد القومية الحديثة الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد كانت القوميات موجودة دائماً ولكن باعتبارها مصطلحات جنسية. اما القومية باعتبارها وحدة فكرية ونفسية فترجع الى عهد الثورة الفرنسية. فحينئذٍ فقط وللمرة الاولى أصبح اقتران كل فرد من افراد الشعب بقومية معينة حقيقةً ثابتة . وفي خلال القرن التاسع عشر أصبحت القوميات ارقى وأتم انواع التنظيم السياسي وغدا الوطن مصدر الثقافة والنفع المادي

٢ — وترجع القومية الحديثة في اصولها الى ذلك المصدر الذي يعتبر أساس المدنية الغربية بأكملها ، «المصدر العبري والهليني» . فهذان الشعبان كوَّنا بعض المظاهر الجوهرية التي تميز القومية الحديثة لا في ناحيتها السياسية وانما في الناحية الثقافية، فكل فرد من أفراد (القوميات) اليهودية والاغريقية كان يشاطر بني قومه الشعور بمميزات خاصة تفرقهُ عن كل الشعوب الأخرى. فكلاهما أنشأ فكرة الملكية والكهنوتية بما يخالف كافة الشعوب القديمة . وكذلك نشأت بين اليهود مبادىء التعاقد والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة ، تلك المبادىء التي أصبحت فيما بعد عناصر القومية الحديثة كما ان الاغريق انشأوا مبادىء الوطنية للمدينة وما يجب ان تكون عليه العلاقة بين الهلينيين والبرابرة

٣ — على ان قومية اليهود والاغريق القدماء لم تلبث ان فقدت طابعها الثقافي والخلقي حين انشأ الاسكندر الاكبر امبراطوريته العالمية التي أوحت فلسفة (الرواقيين) ولما نشأت على أثرها الدولة الرومانية في وقت كان يعاصر انتشار هذه الفلسفة في روما اضحت الدولة الرومانية الوارث الطبيعي للفكرة العالمية — فكرة التوحيد السياسي التي سيطرت على اوربا الى عصر النهضة

٤ — ولما كانت النهضة والاصلاح الديني يقومان على الرجوع الى المصادر الاصلية فقد اوحت الكتب الكلاسيكية والانجيل مبدأ القومية القديم غير ان اكتشاف فكرة القومية بقي محصوراً في دائرة معينة اي دائرة المتأدبين ولم تنتشر الى الجماهير الجاهلة بآداب النهضة ولذا كان من المتعذر ان تنشأ قومية ثقافية بالمعنى الحديث ، قومية تقوم على اشتراك الشعب بأكمله في اليقظة

(١) للاستاذ هانس كوهين — نورثامتن

القومية . على ان اتجاه النهضة نحو احياء فكرة القومية لم يلبث أن جُرف امام حركة الاصلاح التي سيطرت على اوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر وهي حركة تقوم غالباً على أفكار عالمية

٥ — اما في انجلترا فقد انتشرت النهضة متأخرة عن امم القارة بحيث كانت معاصرة للاصلاح ولذا فمبادىء القومية جاءت للانجليز في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عن طريق المصادر الكلاسيكية ، وفي القرن السابع عشر عن طريق الانجيل . ويعتبر كروموبل وملتن اول من يمثل القومية الناشئة تحت ستار ديني مع ادراكهما لكل ما تنطوي عليه من المغزى السياسي ، ولذا نرى الثورة الانكليزية تتضمن جميع مبادىء الانجيل ، مبادىء التعاقد والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة ... الخ . ونجد اليقظة القومية في انكلترا لفكرة الشعب الالهي المختار تطغى على الامة باكملها لان الانجيل كان يقرأ في كل مكان بحيث اصبحت انكلترا اول امة بمعناها القومي،وقوميتها هذه لم تتصادم مطلقاً مع الدين بل نراها تغرس نفسها في الخلق الانكليزي حتى اصبحت طبيعة لا يتطرق اليها الشك

٧ — وفي تلك الاثناء نرى القارة الاوربية تكوّن تحت زعامة فرنسا مبدأ الملكية المستنيرة وهو مظهر سياسي لفكرة القومية لانه يملأ هذه الفكرة بحياة ويقظة جديدة يشترك فيها الشعب باكمله ولا ريب ان اقتران المظهر بالفكرة ، فكرة تحويل الجماهير عن طريق العامل الثقافي والسياسي الى امة بالمعنى المعروف،يعين بداية القومية الحديثة

٨ — ولما جاءت الثورة الفرنسية اتمت عمل الملوك في هذه الناحية بقوة وعنف ولذا فالقومية الفرنسية تحمل جميع مؤثرات القرن الثامن عشر كما فعلت القومية الاميركية . ولما انتشرت مبادىء القومية من فرنسا الى الدول الاوربية الاخرى بذلت جهود عظيمة لتحويل الشعب كله الى امة . وهذه الحقيقة وحدها تفسر مظهر القومية المختلف فبينما نراها تتقدم في اوربا على ضياء الثورة وتعاليمها من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨١٤ اذا بها تتحول بعد ذلك وخاصة في المانيا الى مظهر يخالف الصبغة الفرنسية . فالقومية الفرنسية تقوم على مبادىء الحرية والانسانية والنزعة العقلية ولكنها في المانيا قومية محافظة ووجدانية

وكذلك نرى أن القومية تشمل اتجاهات مختلفة سياسيًا وفكريًا واجتماعيًا . وعلى الرغم من أنها تشمل عناصر مشتركة فهنالك تباين عظيم في اتجاهاتها وهو تباين ناشىء عن طبيعة البلاد ونزعاتها الخاصة. وحيث أن القومية ليست ظاهرة طبيعية ولكنها نتيجة تطورات تاريخية واجتماعية فليس هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بانها ظاهرة خالدة . وقد تحل محلها مرة أخرى اتجاهات عالمية مما يطابق التطور الصناعي والاقتصادي في عصرنا

— ٤ — المسألة الشرقية [1]

قلما نرى اجماعاً في مراجع التاريخ على تحديد قاطع للمسألة الشرقية فتراها تتسع احياناً حتى تشمل كافة المنازعات التي شجرت بين البزنطيين وبين الشعوب الاسلامية في اوروبا وآسيا وافريقيا. حالة ان معناها المحدود يقصر نطاقها الجغرافي والسياسي على المسائل المتعلقة بالشعوب المسيحية القائمة في حوزة العثمانيين في البلقان والليڤنت وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل رئيسية اولاً — مبدأ القومية الذي نادى به اليونانيون معتمدين في ذلك على التساند الاوربي والارتباط الثقافي في اوربا . وثانياً — مراعاة التوازن الاوربي ازاء الامبراطورية الروسية الراغبة في التوسع باسم نصرة الدين وتعزيز التقاليد الموروثة في انتزاع املاك العثمانيين . وثالثاً — البحث في اصلاح الامبراطورية وتجديدها والابقاء عليها وحصر البحث في هذه الاوضاع الثلاثة تضمن بطبيعة الامر قصر المسألة على ظروف لا تتعدى العصر الذي نشأت فيه . اما الحلول التي عرضت لمعالجة هذه المسألة الى نهاية القرن التاسع عشر فهي . اولاً — تقسيم الاملاك العثمانية بين الدول الأوربية وثانياً — اصلاح وتجديد الامبراطورية بما يطابق مقتضيات الروح الأوربي .وقد رفض الحل الاول ابتغاء الاحتفاظ بالتوازن بين الدول . أما الحل الثاني فقد حبط من تلقاء نفسه للتنافر العظيم القائم بين نظام الحكم في الامبراطورية وقواعد المدنية الأوربية . فقد كانت الامبراطورية تقوم على أساس الاحتفاظ بحكم طبقة ممتازة بدينها على حساب الرعايا المسيحيين وهو وضع يؤدي الى القضاء على كل مساواة مدنية اوسياسية او اجتماعية . أما الحل النهائي للمسألة فكان تنفيذ مبدأ القومية بما يلائم الرعايا المسيحيين والدول ذات المصلحة

ولتحديد عصور المسألة الشرقية يجب مراعاة التطورات التي وقعت في سير العلاقات السياسية بين أوربا والامبراطورية العثمانية وعلى هذا الأساس يمكن تمييز عصرين هامين من عصور الحكم العثماني في البلقان والليڤنت . فالعصر الاول هو عصر اتساع الامبراطورية العثمانية الى عهد الحصار الثاني لفينا سنة ١٦٨٣ والعصر الثاني هو عصر التراجع التدريجي الى وقت معاهدة لوزان وهو عصر المسألة الشرقية بمعناها الحقيقي . وفي العصر الاول يمكن تمييز عناصر متعددة هامة . (١) انهيار مقاومة الولايات الصربية المستقلة في معركة كوسوفو سنة ١٣٨٩ . (٢) انتهاء مقاومة الدول البلقانية للغزاة العثمانيين سنة ١٥٠٣ (٣) بلوغ السلطنة العثمانية قمتها في حصار فينا وابتداء التراجع بعد الهزيمة الكبرى أمام أسوارها سنة ١٦٨٣ . وفي العهد الثاني (١) انتقال النفوذ النمساوي الى الروسيا في معالجة الشئون العثمانية سنة ١٧٧٤ (٢) بداية الثورات الأهلية

(١) للاستاذ فزلس بوبوفك — بلغراد

في البلقان ونشوب الثورة الصربية سنة ١٨٠٤. (٣) الا تفاض على خطة التقسيم الروسي والتجديد العثماني التي بدأها سليم الثالث سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠٧ . (٤) إيقاف مطامع الروسيا الخاصة وتحويل الشئون العثمانية الى مصلحة أوربية عامة سنة ١٨٥٦ . (٥) انتصار مبدأ القومية للمسيحيين والمسلمين على السواء وهو الحل الحاسم الذي جعل المسألة الشرقية تختفي من الوجود (١٨٧٥ — ١٩٢٣)

— ٥ — الفلسفة النفعية وعلاقاتها بنشوء مبادىء الاحرار في انكلترا(١)

تحولت مبادىء الاحرار في انكلترا تحولاً . خطيراً في النصف الاول من القرن التاسع عشر بتأثير مجموعة من الآراء المعروفة باسم آراء النفعين في تعديل النظام الاقتصادي والاجتماعي. ومبادىء الاحرار لا تعني من الوجهة السياسية فرض نظام معين من انظمة الحكم ولكنها تنطوي على الاخذ بنظام سياسي يضمن الحرية الدينية والمدنية للافراد وانشاء حكومة مسئولة عن طريق مجالس منتخبة . وقد نشأت ارستقراطية من الاحرار بين ثورة سنة ١٦٨٨ وقانون الاصلاح سنة ١٨٣٢ . وفي خلالها كان يسيطر على البرلمان طبقة الاحرار الملاك وكانت حريات الفرد محدودة من وجوه عديدة غير انه لم يلبث ان نشأت الى جانب الاحرار طبقة متوسطة كان تأثيرها ملحوظاً في سياسة انكلترا التجارية

ذلك ان الثورة الصناعية انشأت نظاماً اجتماعيًا وسياسيًا لا يتفق وسياسة الاحرار الارستقراطيين ولذا تحدت مصالح الصناعة مصلحة الملاك في الاشراف على الدولة ، وكانت مشكلة الاحرار حينئذ هي مشكلة التحول عن الاساس الارستقراطي الى اساس يتفق ومصالح الطبقة الوسطى . واولئك الذين واجهوا المشكلة وقدموا الحلول الناجحة هم جماعة النفعين وعلى رأسهم بنتام واتباعه الذين أثروا في سياسة الاحرار تأثيراً لا يقل في خطورته عن تأثير الفلاسفة في الثورة الفرنسية

فقد كان لهذه الجماعة سياسة وبرنامج وخطة للعمل تمثل آراء ومصالح الطبقة الوسطى من الشعب ومن ثم كان لهم على قلة عددهم شأن عظيم في توجيه سياسة الاحرار لان مبادئهم القائمة على توجيه العناية الى مصلحة الافراد المادية وتعزيز العمل الفردي في كافة الشئون الاقتصادية صادفت قبولاً من جانب الطبقة الوسطى للشعب

وقد كان الفلاسفة الراديكاليون الأداة السياسية لجماعة النفعين فنراهم ينادون بالانتخاب

(١) للاستاذ سلون شابرو — نيويورك

العام واخضاع اللوردات لسلطة النواب والانتخاب السري ... الخ مما يعاون على تحويل السلطة من الطبقة الارستقراطية الى الطبقة الوسطى. ولذا تولوا وحدهم دعوة الاصلاح في وجه الهوج Whig والتورى Tory على السواء حتى صدر قانون الاصلاح سنة ١٨٣٢ ذلك القانون الذي يعتبر فاتحة حكم الشعب في انجلترا . وأما السلاح الاقتصادي للنفعيين فقد شحذه جماعة الاقتصاديين الذين بثوا دعوة مناقضة لمصلحة الملاك ومشايعة لاصحاب رؤس الاموال حتى انتهى الامر باطلاق حرية التجارة التي كانت مقيدة لمصلحة اصحاب الأراضي وحدهم وقد كان اتصال التيارين السياسي والاقتصادي الصادرين من منبع واحد وهو مذهب النفعيين هو الذي ادى الى نشوء حزب الاحرار

وفي النضال الذي شجر بعد سنة ١٨٣٢ بين العمال واصحاب رءوس الاموال كان مذهب النفعيين في جانب رءوس الاموال لان طبيعة مبادئهم تقتضي الدفاع عن حقوق الملكية ولذا استطاع الاحرار الاحتفاظ بقوتهم من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٧٠ . ولما نشأت مبادىء جديدة معارضة لمبادىء النفعيين وهي مبادىء الاشتراكيين انتشرت المبادىء الديمقراطية وتحولت السلطة من الطبقة الوسطى الى الشعب باكمله حتى توفر السعادة لا لطبقة معينة ولكن لجميع الطبقات

— ٦ — الفلسفة السياسية الاسلامية ومكانها بين النظريات السياسية العامة (١)

لقد حان الوقت الذي يجب فيه ان تتخذ الفلسفة الاسلامية السياسية مكانها في الفلسفة السياسية العامة . فالى جانب نصوص القرآن التي تتضمن وجوهاً سياسية متعددة تتعلق بالنظام والقانون والاتحاد والتسلية وصيانة مصالح الدولة والمحافظة على المساواة بين الناس ظهر كتّاب متعددون بين القرنين التاسع والخامس عشر عالجوا كثيراً من النظريات السياسية التي تضعهم بحق بين نظرائهم من اقطاب العالم. واليك نموذج من هذه الكتابات مقسمة وفق الاقسام التي تقسم اليها النظريات السياسية عادةً

اولاً — نظرية الدولة

ا — الفارابي ٨٧٠ — ٩٥٠

تكلم عن البواعث التي ادت الى نشوء الدولة فقال ان الانسان يتحلى بملكتين مميزتين له عن غيره وهما ملكة التقدير وملكة النقاش وهما ملكتان تدفعان الانسان الى التجمع بغيره سواء أكان ذلك في مجتمع عادي او مجتمع دولي عام وأهم وحدة في هذه المجتمعات هي وحدة الدولة (السياسة ٣ ، ٤)

(١) للاستاذ شرواني بالجامعة العثمانية بالهند

ب — الماوردي ٩٧٤—١٠٥٨

قال ان الله تعالى قد وضع القوانين العلوية حتى تحسم الخلافات بالحسنى وتشيع مبادىء الحق والصدق بين الناس كما انهُ عهد برعاية بني البشر الى حكومات تتولى ادارة شؤون العالم بحكمة (الأحكام: مقدمة)

ثانياً — نشوء الدولة

أ — وضع الفارابي بعبارات صريحة نظرية التنازل الاجماعي للحقوق فقال حينما رأى الناس ان كيان المجتمع مهدد بالاعتداءات الفردية اجتمعوا وتنازل كل منهم عن جزء من حريته المطلقة فتكونت بذلك الدولة وهذه النظرية تسبق نظرية «العقد الاجتماعي»

اما الغزالي ١٠٥٨ — ١١١١ فوضع نظرية صريحة عن نشوء الدولة على اساس التطور التدريجي فبدأ ببيئة الانسان الخاصة وحاجتها الى التعاون والتبادل الاقتصادي والحماية وانتهى الى انشاء الدولة والحكومة. (الاحياء ٧،٦)

ثالثاً — السيادة وصاحب السيادة (نظام الملك ١٠١٧—١٠٩١)

يقول ان الامير مكلف رعاية مصالح الشعب وتوفير السعادة والمناعة له وعليه واجب حفظ الامن والسلم في البلاد ومن مميزاته مخافة الله والتقوى والطهارة. والفارق الوحيد بين الملك والرعية هو أن اوامر الملك يجب أن تطاع

رابعاً — نظام الدولة

يستعرض الفارابي انواع الدول المختلفة الى حد يقترب كثيراً من النظريات الحديثة ويتكلم عن المبادىء التي تقوم عليها الدولة والمستعمرات ويقترب من مبدأ الحكم الذاتي في حكم المستعمرات بأن يخول لها حق وضع القوانين او تعديل القوانين التي اتى بها المستعمرون من بلادهم الاصلية طبقاً للحاجة (السياسة ٦٤)

ويتكلم ابن خلدون ١٣٢٢ — ١٤٠٦ باسهاب عن تأثير البيئة في نظام الدولة متقدماً بذلك نظريات منتسكيو في كتاب روح القوانين

خامساً — السياسة الدولية

تكلم الفارابي عن الحوائل الطبيعية والصناعية التي تفصل بني البشر فقال ان الاختلافات الطبيعية بين بلد وآخر ترجع الى الاحوال الجوية التي تؤثر في طبائع الشعب وعاداته. واما الحوائل الصناعية فناشئة عن اختلاف اللغة (السياسة ٤١) وتكلم نظام الملك عن مهمة المبعوثين

السياسيين فقال ان تعيينهم يرجع الى غرضين اولاً نقل آراء حكوماتهم الى الحكومات الموفدين اليها وثانياً القيام ببعض الخدمات السرية واستقصاء الحالة السياسية في البلاد التي يوفدون اليها (سياسة ٢١)

وتكلم الفارابي في مواضع كثيرة عن الجمهورية والشيوعية والفردية فوصف الجمهورية بانها نظام يقوم على المساواة امام القانون فضلاً عن المساواة السياسية والاجتماعية رغماً عن ان الدولة تتكوَّن من عناصر شتى من الميول والآراء . ووصف الشيوعية بأنها نظام يشرك الشعب في مقومات الحياة الاساسية على ان يبقى للفرد حرية العمل وحرية التعليم ووصف النظام الفردي بانهُ نظام يحرر الفرد من كل قيود العمل والصناعة على ان يبقى مع هذا خاضعاً للقواعد والانظمة السياسية

—٧— العوامل الثابتة في التاريخ[1]

كل شيء له قيمته في التاريخ حتى التفاصيل الصغرى وكل أثر من آثار الحياة الانسانية يستحق العناية بهِ لذاتهِ وللغرض الاعلى الذي يستخدم فيه ولكن اذا كانت العناصر الانسانية كلها تستحق العناية فهنالك عناصر ثابتة تسيطر على تاريخ العالم على رغم المفارقات التي تسترعي النظر لاول وهلة . فهذه العناصر هي بمنزلة هيكل ثابت لكل ما يدور حولها من وجوه التغير والتقلب

فما هي هذه العناصر الثابتة وسط التغيرات الوقتية؟ اولاً — البيئة الطبيعية التي تفرض ارادتها على كافة المؤسسات الانسانية القائمة في وسطها بحيث تنشىء ارتباطاً وثيقاً بينها على ممر العصور . وهنالك عامل ثان هو عامل الجنسية فعلى الرغم من ظهور جنسية ما باسماء مختلفة فان لها في اتجاهاتها ميولاً واغراضاً متماثلة وهذا كله واضح في حالة اوربا الشرقية وفي جمهورية السوفيت . وثالثاً تظهر بين الحوادث التاريخية المتزاحمة عناصر بارزة لها قيمة ثابتة. مثال ذلك المدينة الغالية التي نراها تظهر في العهد الروماني في شكل مقاطعة وتبقى في العصر الوسيط دائرة الاسقفية وفي العصر الحديث تتحول الى مقاطعة من المقاطعات الفرنسية مما يشير صراحة الى ميزة ظاهرة في موقع هذه المدينة. فليوجه البحث دائماً في عناصر التاريخ التي تزاحم بعضها بعضاً الى العوامل الثابتة فهذه العوامل هي الركن الأساسي لفهم التاريخ بأكمله فهماً صحيحاً

(١) الاستاذ نقولا يورجا — جامعة بوخارست .

باب المراسلة والمناظرة

نشوء اللغة العربية

اذا نقد المقتطف تأليفاً ، تعرّض لموضوعهِ وجهاً لوجهٍ ، دون القصد الى ما فيهِ من التبسّط استطراداً . فلقد وقفنا على نقد بعض المجلات السورية ، فاذا فيها ذمّ للغة العربية أشنع ذمّ وتقبيح لاصحاب معاجمها ، وتسديد سهام سامّة الى هذهِ اللسان ومحبيها . وما ذلك إلاّ لانا أثنينا عليها ثناءً طيباً في تضاعيف كلامنا ، فأظهر الكاتب بسوأتهِ هذه انهُ من اقحاح الشعوبية ومع ذلك لم يذكر كلمة واحدة للموضوع الذي وقفنا كتابنا عليهِ اي نشوء اللغة العربية ونموّها واكتهالها . ولذا ارتدّ سهمهُ الى صدرهِ فصرعهُ شرّ صرعة

اما المقتطف فقد جرى في الميدان جرياً حثيثاً سديداً مقتحماً اياه بأحسن أسلوب، على مألوف عادتهِ وألطفهِ وأبدعهِ ، ولهذا نجيب على كلمتهِ بما يبدو لنا

قال حضرة الناقد النابه في المجلد ٩٤ : ١٢٥ : « ونحن نرى ان مذهب العلامة الجليل على غرابتهِ وبنائهِ على الافتراض لا على التحقيق العلمي لا يخلو من فائدةٍ ومتعة »

قلنا : ان في ما ذهبنا اليهِ قواعد وضوابط تجري في اغلبها جرياً مطرداً، وليس هناك غرابة ولا افتراض بل كلهُ تحقيق علمي ونظر دقيق، اذ لكل حرف من حروف اليونانية واللاتينية مقابل لا يحيد عن منحاه قيد شعرة . فاذا كان مثل هذا ، يسمى غرابةً وافتراضاً لا علماً ، فلا ندري كيف يكون العلم ، ولا على اي قوائم يقوم او ينهض؟ ولا ما يراد بالعلم في نظر الكاتب الجليل

واما سبب حياة بعض الكلم الدخيلة وتخليدها ، وموت بعضها الآخر وزوالها من عالم اللغة فهو لأن في تلك المفردات مادة وصيغة ووزناً ورشاقة وخفةً مقتبسة كلها من مزايا الضادية وخواصها الخالدة ،على حدّ ما تُرى في العرب انفسهم ، إذ قاوموا جميع الامم وقارعوا الشعوب القديمة ، فامحوا وانقرضوا ، وناهضت لغتهم سائر الالسنة ، فكتب لها الفوز على ضرائرها .فكانت النتيجة انهم بقوا الى عهدنا هذا مستأنسين بلغتهم ، فكأنهم قُدُّوا من الجلمود ، بل قل الحق من صخرة الخلود !

ففي (البنك) مثلاً اصل عربي وان لم يكن المعنى واحداً . فكفاها حياةً انها اقتبست صحة وقوة من المادة العربية (ب ن ك) الضادية .وقل مثل ذلك على (التلفون) ففيهِ مادة (ت ل ف) والواو والنون من الكواسع المألوفة في منطق بني مُضَر ، بخلاف (التلفزة) فاذا سلمنا ان فيها مادة (ت ل ف) العربية ، فالزاي والهاء ليستا من الكواسع ، ولا مما تذيّل بهِ المفردات

العدنانية . زد على ذلك ان السلف منَّا لم يقابلوا الحرف الافرنجي V بالفاء

اما (المباصرة) ومشتقاتها فقد تدخل في جميع مناحي المعاني . فتقول مثلاً : « نقل المشهد بـ (المُبَاصِرِ) ، فيرى المشهد في (المباصرات) المستقبلة في دائرة واسعة» فاذا قرأها العربي لاول مرة ، عرف معناها او يكاد يعرفهُ ، وان لم يسمع باللفظ ، اما (التلفزة) فلا يفهم منها شيئاً . وربما رأى فيها شيئاً من الجربزة ، والجرمزة ، والجلهزة والحرمزة ، والدلمزة ، او ما يشمّ منها رائحة الحَرفشة والحَنبشة ! ! !

وإما (الفيزياء) فمخالف لما جاء منقولاً عن العرب وأنها (علم الطبيعيات) فما نعمل بها ؟ فضلاً عن أنها مخالفة لما صرح بهِ اللغويون إذ قالوا : « وردت خمسة ألفاظ على وزن فعلياء وهي : كيمياء ولمياء وهيمياء وسيمياء وريمياء . (راجع روضات الجنات ص ١٥٦) . ومع قلة هذه المفردات الخمس ، لا نرى لها ذكراً ، اللهمَّ إلاَّ كيمياء وسيمياء ولا نرد عليهما . فهل نضيف الى لغتنا رطانة على رطانة . وعندنا ما نستغني عنها ؟

وأما قول الناقد الجليل : « إن التعريب جرى عليهِ العرب في القرون الاولى ، فقالوا : قاطيغورياس وماليخوليا وإيساغوجي وأرثماطيقا والأسطرلاب (كذا . أي عطف معرفة على نكرة) ، وأقراباذين (كذا) وغيرها » فنحن لا ننكره ولم ننكره ولن ننكره . لكن أيجهل أستاذي العلامة ان جميع المعربات ليست من قبيل واحد ، فبينها الرشيق والمأنوس ، وبينها الوحشي والحوشي ، فالعرب أخذت بناصية الأليف ، ورذلت الغريب المسيخ . فعاش من الدخيل القليل ومات الكثير فلا رحمة عليهِ . أو يجهل صاحب الامام المنتقد ان معرّبي تلك الحروف كانوا أناساً واقفين على الإرَميّة واليونانية أكثر من وقوفهم على المبينة ، إذ كانوا أحداثاً فيها . والدليل ان العرب الخلص وضعوا في مكانها حروفاً أخر ونبذوا في العراء تلك الرطانات التي تفزع الشياطين أنفسهم ، ولذا قتلوها قتلاً وحيًّا فقالوا في مكانها : مقولات وسوداء ومدخلا (إلم ينظر في ايساغوجي علم كتاب في المنطق) وعلم الحساب

بقي الاسطرلاب ، فان ابناء عدنان رأوا فيها روحاً عربية أي (اسطرلاب) على ما يقول صاحب القاموس[1] ، فتركوها بذمّتها تقاسي الأمرين ، والاَّ لو تنفست تلك الأعجمية تنفس

(١) يحسن بنا ان نذكر هنا ما يقوله الخوارزمي في من يؤول بعض الالفاظ الاعجمية تأويلا يناسب الاشتقاق العربي ولا يفكر في ان لا مناسبة بين هذا الاصل وذاك . وان ذلك التأويل من قبيل كلام الرجل الخرف . قال في كلامه على الاسطرلاب وتأويله تأويلا عربياً : «الاسطرلاب معناه » «مقياس النجوم» وهو باليونانية (اسطرلابون) . (وأسطر) هو النجم و (لابون) هو المرآة . ومن ذلك قيل لعلم النجوم (اسطرنوميا وقد يهذي بعض المولعين بالاشتقاقات في هذا الاسم مما لا معنى له . وهو أنه يزعمون ان (لاب) اسم رجل . و (أسطر) جمع سطر وهو الخط . وهذا اسم يوناني اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف » الخ

الاعاجم (لو جاز لنا هذا التعبير) لأجهزوا عليها واوردوها حياض الموارد التي لا مصادر لها

واما (الاقراباذين) فانت أبصر مني فيها وفي اضمحلالها ، فانها لا توجد في معجم تعقر لان العربَ الصميم لم تدخلها في جنة كلامهم ، فهي موجودة فقط في تصانيف بعض الاقدمين في العهد الذي كانوا يأتون بكل كلام اعجمي ، ليوهموا الناس ان إغرابهم هذا يرفعهم الى اعلى مراقي العلم ، ويظهرهم للعوام أنهم واقفون على أسرار العلم لوقوفهم على رطانة الاجانب !!!

واما الآن فانا لا نسمع في معناها إلاَّ (تركيب الادوية) او « علم الصيدلة او الصيدنة »

واما « علم مظاهر الحياة » فهو كقولك « علم وظائف الاعضاء » ، لأنهُ لا مظاهر ان لم يكن ثمَّ وظائف فهما امران متلازمان . زد على ذلك ان بصراء العلماء وحُذاقهم رأوا في (الوظائف) — وهي جمع وظيفة — خروجاً عن معناها الفصيح الصحيح ، الى معنى مولد — وقد ولـدتهُ قابلةٌ غير كسيحة بمهنتها ، فهي « غير قابلة » لان تمتهن مهنتها ، فاصبحت الوليدة « غير قابلة » لتأدية معناها . ولهذا استحسن فريق أن يقولوا (علم مظاهر الحياة)

واما (اللاقطة) فانها — وان كانت تصلح لمعنى آخر عام — تصلح لأن يقيد معناها من باب تخصيص العام . وهذه خاصَّة من خواصّ اللغات الحية . وهو كثير في كلامهم ولا جرم ان حضرة الناقد يدري هذا الامر أحسن دراية ، بل أحسن مني بكثير ، لكنهُ يتجاهل وهذه اللاقطة التي تكلم عليها ، مأخوذة من المثل العربي الذي اشار اليه . فيكون كقولنا : كل كلام ينطق بهِ اللاسلكي قد يلتقطهُ هذا وذاك لسقوطهِ في نصيب الجميع . وفي ذلك من الاشارة الدقيقة اللطيفة ما يقيم العربية في اعلى عرش ينصب لسائر الالسنة

وادخال (اللام) على جواب (لو) المنفي و (ما) ، هو من باب الزيادة اللفظية لا لشيء آخر . وهو — وان كان ضعيفاً — حسن الوقع في السمع

ومجيء (عدة) بمعنى عدد كثير ، وارد في كلام البلغاء الفصحاء قال اللغويون في تفسير اساغ : « اساغ فلان بفلان ، اذا تمّ امره بهِ ، وبهِ كان قضاء حاجته . وذلك انهُ يريد «عدة» رجال او « عدة » دراهم ، فيبقى واحد ، بهِ يتمّ الامر ، فاذا اصابهُ قيل اساغ بهِ »— وفي المخصص في اجناس البُرّ والشعير : « ولسنبله (اي السنبل الجُعْرة) جروف « عدة » — وقال ابن السِكّيت في تهذيب الالفاظ : « يقال أتانا دَهْمٌ من الناس ، اي « عدة من الناس كثيرة » . وهناك غير هذه الشواهد وهي لا تحصى

وقولنا : « ان نفس الكلمة اليونانية » فهو كقول سيبويه في مَذْحج : « الميم من نفس الكلمة » (وراجع اللسان في ذحج) — وقال ابن المبارك وهو من أئمة اللغة والنحو في معنى قفير الطحّان : « هو ان يقول : أطحن بكذا وكذا ، وزيادة قفيز من « نفس »الدقيق »—

وقال ابن الأثير في النهاية في مادة (ثرد) : بل اللذة والقوة ، اذا كان اللحم نضيجاً ، في المرق اكثر ما يكون في « نفس » اللحم — وفي الصبان في باب التوكيد (٣ : ٧١) ! « ويُـرَدّ عليه نحو جاءني « نفس زميلي » « وعين » عمرو ، اي ذاتهما . وفي التنزيل : كتب ربكم على « نفسه » الرحمة اي ذاته انتهى . — وقال ابن شُمَيْل : « السهم نفس « الفصل » (راجع اللسان والتاج في سهم) ولو اردنا الامعان في ذكر مثل هذه الشواهد لملأنا جزءا من اجزاء المقتطف

و (التلغراف) مات حين ظهور (المُبْرِق) للآلة . (والبرقية) للنبأ البرقي ، فهي حيّة فقط على لسان غير العربي الصليب

وقد ذكرنا سبب الرفض لادراج مقالاتنا اللغوية في مجلة مجمع فؤاد الأول ، فلا حاجة في صدرنا الى العود اليه ، اذ لا عظيم جدوى فيه . وسلامٌ على المخلصين في مباحثهم ، كناقد المقتطف العلامة وكنشئه الكاتب الشهير ومنهُ تعالى التيسير

والآن ليسمح لنا حضرة الناقد الجليل الاول ان نسأله كيف جاز لهُ ان يقول في ص ١٢٤ وس ٢٣ : في التاسع عشرة بمعنى التاسعة عشرة

ثم أليس في قوله بعد سطر : في الرومية اليونانية خطأ طبع والصواب في الرومية واليونانية وهل ورد في كلام « فصحاء » العرب مثل قوله : تكلم « عنهُ » (ص ١٢٥) وهو يريد « تكلم « عليه » ! نعمْ يقال : تكلم « عنهُ » اذا تكلم نائباً عن رجل اما في موضوع من الموضوعات فيقال تكلم « عليه »

وقال في تلك ص ٢ س ١٧ : « ولا ادري لماذا يُحلّ الأب شيئاً ويحرّم آخر مثله » — وانا لم احل شيئاً ولم احرم آخر . انما « استحسنت » استعمال بعض الكلم « وهجنت » طائفة اخرى لاغية والفرق ظاهر بين ما قلت وبين ما يعزوه اليّ حضرتهُ

وقال في تلك ص ٢ س ١٩ : « وما دامت الكلمة عن العربية ... » والذي رأيتهُ مستعملاً في كلام بلغاء الفصحاء : « الكلمة على ... » وان لقوله وجه تخريج وتأويل ، لكن الصراط المستقيم اولى من اتباع الصراط الملتوي

وفي تلك ص ٢ س ٢٦ : « تثير المناقشة حول هذا الكتاب » . وانا لم اسمع بمثل هذا التعبير الذي يحتاج الى تخريج عميق وغوص بعيد في بحار التوجيه والتأويل ، ذلك التأويل الذي لا يخلو من تعسف انما المسموع ناقشهُ الحساب او في الحساب وناقشهُ الكتاب او في الكتاب والقائل صاحب اساس البلاغة ، وليس لي في هذا الانكار ناقة ولا جمل . والله أعلم

مصر القاهرة الأب انستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

باب الأخبار العلمية

غرائب الكهربائية البشرية والحيوانية

لعوض جندي

الكهربائية البشرية في نخال مصري

دعاني أحد زملائي في عملي الحكومي بادارة خزانة السكة الحديدية بالقاهرة في ١٠ يناير سنة ١٩٣٩ الى زيارة متجر حضرة محمد افندي السيد بحبح تاجر الدقيق بحارة السيدة زينب بالقاهرة، وذلك لمشاهدة رجل مُكَهْرَبٍ بكهربائية بشرية جلية. فاستقبلني صاحب المتجر بكل ارتياح. وبعد التحية والتعارف استوضحته كيف اكتشف الكهربائية البشرية في ذلك الرجل فأجابني قائلاً: — « تبينتها فيه مصادفة». فقلتُ حسناً، فان كثيراً من المكتشفات القديمة والمخترعات الحديثة قد تمت عفواً. وسألتهُ: — متى اهتديت الى هذه الظاهرة الطريفة مع أنك لم تقرأ ما كتبتهُ عليها في غير مقال، في المقتطف. فروى ما معناه:

« منذ عشرين يوماً كان هذا الشاب مكبًّا على عمله العادي، وهو نخل الدقيق كما تشاهده الآن، فاذا بغلام يدنو منهُ محدثاً اياه في شأن خاص فلمس الغلام عفواً أحد ساعديه وهو ينخل فانتابت اللامس رعدة كهربائية فتقهقر مذعوراً ثم سألنا السبب فلم نستطع تبيانه فلمسنا النخال في مواضع متعددة من جسمهِ فأصابنا ما أصاب الغلام وحينئذٍ جعلنا نفكر في كنه تلك الرعدة الغريبة حتى قيض الله لنا أحد معارفنا فأرشدنا اليكم كي تعللوا لنا تلك الظاهرة « الكهربائية ».

وإزاء ذلك لم يسعني الاَّ أن لمست غير مرة ساعد (عبد العزيز محمد امين النخال) المقصود وظهره وعنقهُ، وهو قائم بعمله فاعترتني كل مرة الهزة الكهربائية وسمعت صوت الشرارة المتولدة من جسمهِ، فأيقنت أنها كهربائية بشرية فسألتهُ هل تقرأ وتكتب فأجاب ايجاباً وأتشعر بألم عند ما يلامسك امرؤٌ فقال نعم، اشعر بألم طفيف فنصحتهُ بألا يسمح لأمرىءٍ بلمس عينيه أو أذنيه اجتناباً للضرر الذي يلحقهُ من الشرارة. والفتيهُ شابٌّا قوي البنية، يبلغ من العمر زهاء ٢٩ سنة فألقيت عليه الأسئلة الآتية: —

(١) هل تظهر هذه الكهربائية حينما تقف النخل؟ فقال: كلاَّ

(٢) هل تحتذي حذاء من الصمغ المرن وجوارب من الصوف؟ فقال نعم

(٣) وبماذا تتغذّى — قال ، بالفول المدمّس والطعمية والجبن والخضراوات والفاكهة ولا آكل اللحم الا مرة واحدة في الاسبوع ولا اتناول مسكراً ولا مخدّراً بل اشرب قليلاً من الشاي ، شأن غيري من العمال الاصاغر الفقراء

ثم طلبت اليه أن يخلع حذاءه ، ففعل مستأنفاً عمله في التخل ، فانقطع حالاً ظهور الشرارة الكهربائية ، فاوضحت للحاضرين ، أن ذلك الحذاء مصدر ظهور الشرارة . فقالوا وكيف ذلك ؟ فأجبتهم بما كان يحضرني وقتئذٍ وهو لا يخرج عن معنى النصّ المثبت فيما يلي ، غير مدعٍ المعرفة ، وانما انا باحثٌ ينشد العلم في مصادره ومن أربابه اينما وجدوا . وربما عرفت شيئاً وغابت عني أشياء فارجو أن يرشدني اليها خبراء الهندسة الكهربائية من قرائنا الافاضل ولهم الشكر سلفاً . واليك التعليل المشار اليه : وفقاً لمعلوماتي الضعيفة : —

تحول الطاقة

« ينبغي للعامل أن يكون ذا طاقة معينة ليُتاحَ لهُ أداء عمله . وان تدّخرَ تلك الطاقة في عضلاته ، متولدة من الغذاء الذي يتغذّى بهِ ، والهواء الذي يستنشقه . والطاقة التي تدخر في عضلاته هي طاقة حرارية تتولد من العمليات الكيميائية المختلفة التي تحدث في باطن الجسد . فاذا تعب المرء ، فذلك لان عضلاته ولّدت مقادير كبيرة من المادة الكيميائية المسماة الحامض اللبنيك وحينئذ يحتاج الى الأوكسيجين ليخلصه من ذلك الحامض . وهذا سبب انقطاع العامل عن شغله ريثما يتنفس الصعداء ، لان مجرى الدم ينقل الأوكسيجين من الرئتين ، جهد استطاعته ، الى العضلات لكي تتمكن من إحراق تلك الفضلات جميعها . ومتى يتم ذلك ، يشعر الانسان بالراحة ، ويحس أنهُ قد استعاد طاقته فيستأنف عمله

« إذن عرفنا كيف تستحيل طاقة الجسم الحرارية ، طاقة ميكانيكية عادية . وعندنا في عملية الاحتكاك ، مثال آخر على تحويل الطاقة من حالة الى أخرى . فالاحتكاك يجعل الطاقة الميكانيكية تستحيل طاقة حرارية . وفي الهندسة الكهربائية ، تحول الطاقة الحرارية ، بالذات او بالواسطة ، الى طاقة كهربائية . فاذا أحرقت الفحم الحجري في أتون مرجل ونقلنا البخار الذي يتولد منهُ الى آلة بخارية ، استطعنا جعل هذه الآلة تدير جهازاً يولد لنا الكهربائية ، فيتيسر لنا بتلك الذريعة ، تحويل الطاقة الحرارية أولاً الى طاقة ميكانيكية ثم الى طاقة كهربائية . واذا تناولنا فلزين مختلفي النوع ولحمنا أحدهما بالآخر عند طرفيهما ، ثم حمينا طرفاً منهما ، وتركنا الآخر بارداً ، حصلنا على تيار كهربائي يسري في السلك الذي يوصل طرفي المعدنين أحدهما بالآخر . وتعرف تلك العملية باسم « التوصيل الحراري » وحينئذٍ نستطيع تحويل الطاقة الحرارية بالذات الى طاقة كهربائية . وحينما يسري التيار الكهربائي في سلك فانهُ يحميه . وهذا مثل لتحويل الطاقة

الكهربائية الى طاقة حرارية . اذن أدركنا أيضاً كيفية تحويل نوع من الطاقة الى نوع آخر . وأعظم مصادر الطاقة الشمس . وطاقة الفحم الحجري انما هي طاقة مدخرة أصلها من الشمس . وطاقة الانسان والحيوان تحصل من الشمس أيضاً ، لان الشمس تمدُّ النبات بالطاقة فتجعله ينمو ، فيأكل الحيوان النبات ، ثم يأكل الانسان الحيوان والنبات كليهما . والغذاء الذي نتغذى به يمدنا بالطاقة الحرارية التي تجعل عضلاتنا تضطلع بما يفرض علينا من الاشغال . وتسمى السرعة التي تؤدى بها الاشغال ، قوة . »

مشاهدة أخرى للتخال

وقد شاهدت ذلك التخّال مرة أخرى في مساء اليوم التالي اي ١١ يناير سنة ١٩٣٩ إذكان الجوّ ممطراً فلاحظت ان الشرارة الكهربائية لم تظهر في جسمه حينئذ والمعروف ان الجسم البشري موصل للتيار الكهربائي فيسري منهُ الى الارض وإن الكاوتشوك غير موصل ولذلك انقطعت الشرارة المتولدة من اللمس حينما أشرنا على التخال في المقابلة الأولى ، بخلع حذائه في أثناء التخل . وان الهواء الرطب موصل للكهربائية كذلك . وهذا سبب انقطاع ظهور الشرارة الكهربائية في اليوم التالي

وقد رأينا الفلاحين في بعض قرى مديرية المنوفية وغيرها حينما يحتاج أحدهم الى إضرام النيران بلاثقاب ، يجيء بعود حطب قطن ثخين متين ، فيثقبه ثم يأتي بقطعة من عود رفيع آخر مبري محدَّد على شكل قلم الجرافيت (الرصاص) ويعكف على برم هذا القلم المحدَّد بكفيه في ذلك التجويف برماً حثيثاً فتتولد الشرارة الكهربائية في هنيهة من الفرك فتشعل النار . وهذه هي الطريقة عينها التي ما زالت القبائل المتوحشة تتبعها في أوستراليا ونيو زيلندة وغيرهما من البلاد النائية غير المتحضرة

كهربائية العين ترشد الطيور المهاجرة

وبعد كتابة ما تقدم قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية مقالاً بعنوان « العين بوصلة كهربائية للجسم » جاء فيه ما يأتي : — كشفت بضع أقراص دقيقة من صفائح المعدن الرقيقة عن حقيقة لغز قديم أعيي العلماء حلّه منذ قرون اذ وُصّلت تلك الاقراص بأسلاك دقيقة في مختبر علمي من مختبرات جامعة يايل Yale في الولايات المتحدة الاميركية . وذلك أن الدكتور وُلتَر .و. ميلز Walter R. Miles أحد علماء النفس بتلك الجامعة ، قد أبلغ منذ بضعة أسابيع ، مجمع العلوم الاهلي الاميركي ، نبأ اكتشافهِ العجيب وهو أن العيون حقيقة (بطاريات كهربائية حية) مشحونة بالكهربائية السلبية والايجابية

ويرى العلميون أنهم سيتوسلون بمباحث الدكتور ميلز هذه الى بلوغ الحلّ النهائي

لمعضلة هجرة الطيور . وهي المعضلة التي استعصى تفسيرها منذ القدم . ونعني بها كيفية اهتداء اسراب الطيور الى تعين طرقها تعيناً مضبوطاً في الدجى والضباب والمناطق البحرية الشاسعة

الكهربائية في العيون

وقد جرَّب الدكتور "ميلز" تجاربهُ العلمية المشار اليها ، في مختبره العلمي في نيوهافن حاضرة ولاية كونيكتيكوت ومقر جامعة يايل حيث جاء بالاشخاص المزمع احداث التجربة في عيونهم ، وألصق الاقراص المعدنية الدقيقة على جلودهم بشُرط مصمغة في أعلى عيونهم وأسفلها ثم ربط الاسلاك المتصلة بالأقراص القصديرية بأجهزة قوية مضخمة للتيار وبمقاييس دقيقة لقياسه فأثبتت تلك الاجهزة ان العين السوية تكون مشحونة بشحنة كهربائية تبلغ زهاء جزء من الف من الڤولط . وان هذه الطاقة تبقى ثابتة حقيقة لا تؤثر فيها الظلمة ولا الضياء . وعدسية العين قطب بطاريتها الموجب، وشبكيتها أي الجزء الخلفي من مقلتها، قطب بطاريتها السالب

واستيقن العلماء منذ سنين أن وظائف البدن ، ومنها التنفس واللمز بالعين والمضغ ، تقترن بتدفق طفيف من التيار الكهربائي

وكان اكتشاف الكهربائية المخية التي تتولد في المادة السنجابية في الدماغ منشأ لمجال واسع جديد من مجالات البحث حول ذلك الاكتشاف . (وقد فصلناه في مقالنا في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٦) كما سبق القول . فقد قيّض للدكتور ميلز باكتشافه كهربائية العين الثابتة (ذلك الاكتشاف الذي قدَّم العلم خطوة جديدة في سبيل حل معضلة اهتداء الطيور المهاجرة الى المسالك القويمة عند هجرتها من اوطانها وعودتها اليها في فصول معيَّنة من السنة، وذلك في الجو دون الاستعانة بخرط مرسومة لتلك السبل) تأييد وجود الكهربائية المخية

***

هجرة الطيور

وكان ذلك اللغز الدائم على مدار السنة في علم دراسة طبائع الطيور وحياتها قد شغل افكار علماء التاريخ الطبيعي منذ عهد ارسطوطاليس الفيلسوف اليوناني المشهور ، ففسره فريق من العلماء تفسيرات متباينة . اذ علل بعضهم اهتداء الطيور الى مسالكها عند هجرتها ، بحاسة سادسة خفية في أبدانها ، لا يستطاع ادراكها . وزعم آخرون ان الطيور تطير من جهة الى اخرى مسترشدة بأبصارها دون غيرها

ومع ذلك ظن فريق آخر ان الرياح التوجيهية المرتفعة في الجو ، تؤلف معالم جوية للطريق ، ترشد الطيور المهاجرة الى الصراط المستقيم في رحلاتها الطويلة في الجو الى البلدان السحيقة

وكان يعترض كل فرض من هاتيك الفروض ، تساؤلات مختلفة وهي : —

اذا كانت الطيور المهاجرة تعول على معالم الطرق الارضية وهي على الارض ، فكيف

يتمكن الطائر الدنان [1] الصغير ، الذي لا يكبر الابهام جرماً،من تعيين منهاجه،على امتداد ٥٠٠ ميل فوق المياه المتلاطمة في رحلة طيران واحدة على الخليج المكسيكي ؟ وكيف يحدد الزقزاق [2] منهاجه بقطع ٢٤٠٠ ميل من نوفاسكوشيا الى الارجنتين طائراً المسافة كلها فوق سطح البحر بعيداً عن رؤية البر ؟ ؟ وان كانت الطيور ترشد نفسها بنفسها بوساطة تيارات الهواء المرتفعة في الجو ، فكيف يتاح لنا تعليل الخبرة الغريبة الموهوبة لتلك الطيور الصغيرة المهاجرة التي تجعلها تطير طيراناً منخفضاً ثم تعود سنة فأخرى الى الحدائق والبساتين التي بنت فيها أوكارها وألفتها من قبل ؟؟

فقام منذ عشر سنوات فئة من علماء التاريخ الطبيعي ومنهم جون . ت . نيكولس John T. Nichols الاستاذ في متحف التاريخ الطبيعي بمدينة نيويورك ، بتعليل استرشاد الطيور عند طيرانها بما سموه البوصلة او (ابرة الملاحة) اللاسلكية . فأحدث ذلك المذهب دهشة في الدوائر العلمية . اذ بين ان الخليقة حبت تلك الخلائق بعضو حساس دقيق مجهول يمكنها من توجيه طيرانها الى الجهة المقصودة وذلك بخطوط القوة المغنطيسية المنتشرة حول الارض أسوة بالطيار الذي يطير في طريقه متبعاً الموجة اللاسلكية

وهذا المذهب قد يفسر لنا كيف يطوف حمام الزاجل عدة مرات عند إزماعه قطع مرحلة طويلة، هائماً كأنهُ يتحسس خطوط المغنطيس الارضي ليهتدي بها في طريقه

ومن الوسائل الكثيرة التي فسر بها العلماء اهتداء الطيور المهاجرة الى السبل المستقيمة، الخطوط الخاصة بالقوة المغنطيسية الثابتة،الممتدة شمالاً وجنوباً بين القطبين المغنطيسيين الداعمين للارض

الكهربائية وحمام الزاجل

وقد تأيد هذا الحدس منذ عهد قريب بالتجارب المفيدة التي جربت في انحاء مختلفة من العالم . ففي مدينة ينجستون Youngstown بولاية أوهيو أطلق حمام الزاجل على مقربة من عمود من الأعمدة الباذخة الحاملة موصلات جوية لاسلكية ، في محطة قوية من محطات الراديو ، فحدث عند وقف أمواج الراديو في تلك المحطة ، أن هام الحمام باحثاً عن السبل القويمة بضع ثوانٍ ثم اهتدى اليها فطار متبعاً اياها الى موطنه.ولما أن استؤنف العمل في محطة الراديو وأطلقت موجاتها في الجو ارتبك حمام الزاجل ، وجعل يصفق بأجنحته ويحوم حول ذلك المكان زهاء نصف ساعة ثم تفرق شذر مذر باحثاً عن الطريق المستقيم فأخفق ، وقد ظهرت هذه النتائج نفسها في فرنسا لمجربين آخرين

ولعلك تسألنا قائلاً : ماذا حدث لتلك

---

(١) الطائر الذبابة او الطائر الذبابي — طائر أميركي وهو اصغر الطيور المعروفة وانواعه كثيرة والطائر الطنان من اوضاع المرحوم الدكتور صروف واقترح الاب انستاس الطائر الذبابة كما يسميه الفرنسيون (معجم الحيوان لمعلوف باشا)

(٢) الزقزاق او القطقاط الذهبي او الدمشق الذهبي (معجم معلوف باشا) لعلم الحيوان

الطيور فقلب قدرتها الخفية ، عجزاً واضحاً عن معرفة طريقها في الجو ؟؟ فنقول « ان التفسير لذلك كون اطلاق الامواج اللاسلكية في الجو ولد شحنات كهربائية على ابدان الحمام، قضت على الطاقة الكهربائية الطفيفة التي في عضو الحس الذي تتألف منهُ بوصلة ذلك الطائر

فاذا سألتنا : اين مقر ذلك العضو الحساس وما كنهه ؟ وما وظائفه ؟؟ أجبناك أن تلك الأمور كانت من المجهولات في دائرة معارفنا البشرية حتى اماط عنها اللثام حديثاً الدكتور ميلز باكتشافهِ المتقدم وصفه إذ قال ان العيون هي دليل ذلك السر

تولد الكهربائية في الجسم

وجاء في كتاب المخترعات الكهربائية لمؤلفهِ الاستاذ (ا . م . لو) العالم الانكليزي في فصل عقده على الكهربائية الطبيعية ما يأتي :

وفضلاً عن الكهربائية الجوية فان الكهربائية الطبيعية تتولد بوسائل شتى. فحركات عضلاتنا مثلاً تتوقف على الكهربائية ومن المرجح ان المخ يرسل رسائله الى العضلات بوساطة تيارات كهربائية ضئيلة جداً تنتقل مصحوبة بتأثيراتها ، بسرعة ٢٥٠ ميلاً في الساعة . وقد جرَّب المجربون ادخال ابرة صغيرة في عضلاتهم على ان يوصلوا تلك الابرة بسلك عازل الى جهاز مضخم للتيار ، ومنهُ الى مسمعة راديو « بوق لاسلكي » فتبين لهم أنهُ عند تحريك العضلات يخرج الصوت من بوق اللاسلكي « مجهار الصوت »

ثم ان العلامة ماتيوس Matthews الذي درس الكهربائية البدنية دراسة فائقة وقد توغل في هذا البحث حتى علل انقراض الحيوانات الضخمة مثل الدبابة المتحجرة برونتوسورس brontausurs البائدة التي كانت تطوف في أنحاء المعمورة ، بكون النبضات الكهربائية كانت تستغرق هنيهة حتى تصل من طرف جسم ذلك الحيوان الى طرفه الآخر فاذا عضه حيوان آخر مثلاً في ذنبهِ كان تأثير تلك العضة لا يصل الى دماغه في أقل من ثانية . وحينئذ كان الحيوان المعضوض يشعر بألم العضة فينبري للدفاع عن نفسهِ ، وعند ذلك يكون الحيوان المعتدي وهو بلا شك أصغر من المعضوض حجماً، قد اختفى من أمامه

والمحقق ان الجسم البشري يحس بالتيارات الكهربائية الضئيلة التي تؤثر تأثيراً عظيماً في صحته. ومن الميسور أن يُعزى النجاح الذي يحرزه احياناً بعض المنقبين عن المناجم والآبار بالمسبار divining-rod الى تفوق احساسهم ببعض أنواع الموجات الكهربائية. وقد استفاد الاطباء من معرفة كون عضلاتنا تتأثر بالكهربائية . فمتى انتاب عضلاتنا اي حادث او استهدفت لعاهة ، عولجت احياناً بالعلاج الكهربائي اي ان العضلات تتقلص وتتمدد بالكهربائية بالتعاقب بحيث يتم ذانك الفعلان دون ان يضطر المرء فعلاً الى تحريك أي عضو من اعضائهِ . وأثبت العلامة ميخائيل فراداي

بالاختبارات التي قام بها أن الكهربائية التي تتولد من السمك الكهربائي ، شبيهة بالكهربائية التي تتولد من البطاريات والدينامو وان اختلفت عنها في المقدار والتيار والضغط . وعلى هذه التفصيلات جميعها يتوقف العلاج الكهربائي الذي يعالج به الناس في هذا العصر

الحركات العضلية تولد الكهربائية

أيدت التجارب العلمية الخطيرة التي جربت حديثاً في المانيا ، العلاقة الوثيقة بين الحياة والكهربائية ، حيث استعان المجربون بالمضخمات الكهربائية ، وغيرها من الاجهزة الحساسة جداً ، على تسجيل الكهربائية التي تتولد على الجلد البشري او تحت سطحه مباشرة . فوضع الشخص الذي اجريت فيه التجارب ، في قفص معدني كبير وروقب اشد الرقابة لكي يوقنوا ان الكهربائية صادرة من حركات عضلاته لا من مصدر آخر . فحصلوا على نتائج مدهشة اذ تبين أن ذبذبات الطاقة الكهربائية تبلغ أوجها تدريجاً بدرجات سريعة . وعند مواصلة مجهود المرء تنخفض الطاقة الكهربائية قليلاً وذلك قبل ان ينتاب العامل الاعياء . فعزا الباحثون تلك النتيجة الى تبلل جلده بالعرق . وأسفر ذلك الامتحان عن وجود علاقة بين الكهربائية والعمل العضلي وهذا ما يبين لنا مصدر الشرارة في جسم النخال المصري عند اجهاده بالنخل

استمداد التيار الكهربائي

من العيون البشرية

وجاء في أحدث المصادر العلمية الانكليزية ما يأتي : — أعلن الدكتور وارد س . هالستد Ward C. Halstead الطبيب في مستوصفات جامعة شيكاغو الطبية أن التيارات الكهربائية الضئيلة التي تقترن بها حركات العين البشرية ، يمكن نقلها بالأسلاك الكهربائية الدقيقة وتضخيمها والاستفادة منها في دراسة بعض أحوال الدماغ الشاذة ، وذلك بطريقة جديدة للدكتور هالستد . ويتوقع ذلك الطبيب البحاثة ان الاستدلال على موضع الآفات التي تعتري المخ ، أو الخلل الذي يصيب نسيجهُ ، ذلك الاستدلال الذي أصبح ميسوراً للاطباء من قبل ، باستمداد التيارات الكهربائية من الصادر نفسه ، يمكن تأييده بدراسة التيارات الدماغ ة من العينين . والطريقة الجديدة المشار اليها تلائم على الخصوص دراسة احوال الاشخاص المصابين بالامراض العقلية . وذلك كما وصفها الدكتور هالستد في تقرير نشره في جريدة علم النفس الانكليزية ، اذ يتاح بها الحصول على حقائق يمكن تسجيلها والوثوق بها ، وذلك في اثناء جولان الشخص الذي يقع عليه الفحص ، كما انهُ يستطاع تسجيل تلك الحقائق حينما يغمض المصاب عينيه

وفي نية المكتشف ان يقوم بتجربة اخرى فيما بعد ، ليتمكن بها من قياس حركات العين ، بذلك الاسلوب في حالة نوم المصاب «راجع ما كتبناه في هذا الموضوع في الاخبار العلمية في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ »

علاقة الانتاج الزراعي

بتغذية الشعب

(تابع المنشور على الصفحة ٢٧٥)

وعلى أساس هذه الاملاح قسم علماء التغذية الأغذية قسمين
١ — أغذية قلوية أو موجبة ٢ — أغذية حمضية أو سالبة

فالأغذية القلوية هي التي بها مقدار زائد من الاملاح القلوية وهي تشمل الفاكهة بشتى أشكالها كالزيتون والتين والزيب البناتي واليوسفي والليمون الأضاليا والبرتقال والزبيب الدرباني والعنب والبرقوق والبلح والخوخ والمشمش والموز والأناناس والكمثرى والشمام وما الى ذلك وأغلب الخضر، وهذه اما شديدة القلوية كالفجل الاسود والخيار الاخضر والسبانخ أو متوسطة القلوية كالهندبة والخس المكبب والطماطم والبنجر الأحمر وجذور الكرفس وأوراق الكرات أبي شوشه واللفت والجزر الاصفر ورءوس الكرات أبي شوشة والخس الطويل والفجل الاحمر والبطاطس. أو قلويتها أقل من المتوسط كالفول الاخضر والشوكروت والكرنب الابيض والفجل الابيض والقنبيط والبصل وورق الكرفس. أو تقرب من المتعادلة كالقرع الاسطنبولي — ومن الأغذية الموجبة عسل النحل والسكر الجلاب (الغير نقي) وسكر النبات ومن الحبوب القطانية الجافة فول الصويا — ومن الاطعمة الموجبة اللبن بأنواعه كلبن البقر والماعز، واللبن القرز والشرش والقشده ولعلّ لحم المحار oysters هو الوحيد الموجب بين اللحوم

اما الأغذية السالبة أو الحمضية فتشمل جميع الغلال كالشعير والقمح والذرتين الشامية والرفيعة والأرز والدخن وكافة اصناف الدقيق والخبز — واكثرها حموضة الارز المبيَّض تبييضاً غير كامل ودقيق الشعير وأقلها حموضة الذرة الرفيعة المقشورة — ومن الاغذية الحمضية الحبوب القطانية كالعدس والفول السوداني والفاصوليا الناشفة واللحوم بكافة اشكالها والاسماك والبيض والجبن بشتى أنواعه والزبد والمرجرين — ومن الخضر السالبة كرنب بروكسل والخرشوف والبسلة الخضراء والقنبيط والكرنب الاحمر وبعض اصناف البصل ومن الفواكه السالبة بعض اصناف من التفاح ومن النقل الجوز واللوز

وكلا الأغذية القلوية والحمضية ضروري جداً للتغذية ولكن يجب ان يكون للأغذية الموجبة أي القلوية القدح الأعلى في أطعمتنا

ونجد درجة القلوية والحمضية لكل من الاغذية السالفة مفصلاً في الجداول الآتية التي تبين أيضاً نسبة البروتينات والدهن والكربوايدرات الذائبة والوحدات الحرارية وما يحويه كل منها من الفيتامينات

[البحث تتمة]



التأليف العلمي والمؤلفات العلمية

باللغة العربية (١)

على الرغم من قلة الاقبال على المؤلفات العلمية، في البلدان العربية اللسان، في وسعي ان اقول ان التأليف العلمي باللغة العربية قد بلغ مستوى جديراً بالاحترام والاعجاب. والفضل في ذلك اولاً وآخراً للمؤلفين انفسهم. ولولا ما يلتهب في نفوسهم من شعلة مقدسة تدفعهم الى النصب في التأليف، ثم الى تحمّل الارهاق في الاشراف على الطبع والتصحيح وتكبد النفقات، لندرت التواليف العلمية التي تتوالى على ادارة المقتطف من جميع انحاء البلدان العربية اللسان

واذا صرفنا النظر عن الكتب العلمية المدرسية — والباعث على العناية بوضعها وطبعها مفهوم — وجدنا المكتبة العربية غير مدقعة الفقر بشتى المؤلفات في علوم الاحياء والطبيعة والكيمياء والنفس والطب على اختلافها. يحضرني منها الآن — وأرجو ان اعذر اذا اكتفيت بالتمثيل دون الحصر — المعجمات العلمية التي وضعها الدكتور محمد شرف بك والدكتور احمد عيسى بك والفريق الدكتور امين باشا المعلوف، والمطول في علم البصريات للدكتور مصطفى نظيف والمطول الآخر في الجولوجيا للدكتور حسن صادق بك والثالث في علم الوراثة للدكتور الخشن وترجمة « اصل الأنواع » لاسماعيل مظهر والمؤلفات الطبية الفخمة التي وضعها طائفة من اساتذة كلية الطب بدمشق والكتب الزراعية التي انشأها الامير مصطفى الشهابي ورجال كلية الزراعة والجمعية الزراعية بمصر والمجلدات التسعة المحتوية على محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية وبعض الكتب التي اخرجتها ادارة المقتطف واهدتها الى قرائها وعشرات غيرها، تدل دلالة قاطعة على ان التأليف العلمي باللغة العربية، بلغ مستوى عالياً، لا اقول انهُ يصحُّ الوقوف عندهُ والاكتفاء بهِ، فنحن لا نزال في مستهلّ المرحلة لاننا نترجم ونقتبس على الغالب وانما اقول انهُ بشير طيّب بما تنطوي عليهِ النهضة الفكرية الحديثة في بلدان الشرق العربي من بذور القوة الذاتية التي يجب ان تنال من اولي الأمر ومن جمهور المثقفين كل تعهد وتشجيع

والاسلوب في هذه الكتب عالٍ بوجهٍ عام، ومعظم اصحابها جاهدوا جهاد الابطال في مصارعة الالفاظ الاجنبية، فعرّبوها او ترجموها، فخلّفوا بذلك لمن يجيء بعدهم، وللمجمع فؤاد الاول للغة العربية، تراثاً فخماً يجب المتح من معينهِ

---

(١) وهو ملخص رد رئيس تحرير المقتطف على سؤال وجه اليه عن التأليف في العلوم الطبيعية وعلوم الاحياء باللغة العربية

ليس التأليف العلمي باللغة العربية جديداً في هذه البلاد ، فأقطاب المصريين الذين نبغوا في شتى العلوم في اواسط القرن الماضي بعد ان تلقوا اصولها في اوربا وضعوا التواليف النفيسة في العلوم المختلفة ولا سيما علوم الطب. وكذلك فعل فريق من المرسلين الاميركيين في لبنان . ولكن التأليف العربي في العلوم اتسع الآن نطاقاً وتنوع فنوناً وألواناً ، مما يدل على ان عدد العلماء والمشتغلين بالعلوم ازداد ازدياداً يتفق من ناحية والهمة المبذولة في نشر العلوم وتخصص المتفوقين، ويساوق من ناحية أخرى حاجة البلاد . والغالب عندي ان ناحية التبسيط في العلوم المختلفة لم توفَّ حظها من العناية حتى الآن ، فالمؤلفات العلمية في آخر الامر تعتمد في رواجها على الجمهور ، والجمهور لا يقبل الا على ما كان في متناوله ، ومن هنا نرى كيف بلغت كتب بعض المؤلفين من الفرنجة في العلوم المبسَّطة ، ككتب السر جيمز جينز في علم الفلك ، مبلغ الروايات في رواجها

وناحية تبسيط العلم تحتاج الى مرانةٍ خاصة في التخيُّل والكتابة ، علاوة على حاجتها الى التعمق في العلم . ومن هنا أرى وجوب اجتماع طائفة من المشتغلين بالعلوم العصرية ، ووضع برنامج خاص لكتبٍ متعدّدة كلٌ منها خاصٌ بعلم من العلوم ، على ان يكون العلم فيه مبسطاً تبسيطاً يرضي الخاصة بصحته ويلذ غير المتوفرين بحسن أدائه . ولعلَّ كتاب « قصة الميكروب » الذي صنفهُ الدكتور احمد زكي بك معتمداً على كتاب بول دي كروف وكتاب « اساطين العلم الحديث » الذي وضعهُ كاتب هذه السطور معتمداً على عدة مراجع انكليزية ، وكتاب « نظرية التطور » للاستاذ سلامه موسى ، وكتاب « النجوم في مسالكها » الذي نقله الاستاذ الكرداني بك عن جينز ، « وسكان هذا الكوكب » للدكتور محمد عوض محمد من خير الامثلة التي تضرب على هذا النوع من التأليف ، وحبذا الحال لو كثر امثالها في المكتبة العربية

وبعدُ فاني مقتنع اتمَّ الاقتناع ، بان ما طالعتهُ من الكتب العلمية باللغة العربية ، دليلٌ على قدرة كتّاب العلوم من اصحاب القلم العربي ، على إخراج او اقتباس دائرة معارف حديثة متوسطة الحجم ، نحن في اشدّ الحاجة اليها الآن ، ولا استبعد بل اني لمتيقّن ان انجازها يكون مرحلة عظيمة الشأن في حياتنا الفكرية ، على نحو ما كانت انسكلوبيذيا ديدرو في القرن الثامن عشر

ثم إني أرجو بعد هذا كله ان ينال المؤلفون العلماء والمشتغلون بالعلم ، تشجيعاً وعناية من أولي الأمر بشراء نسخ من كتبهم لمكتبات المدارس في مختلف البلدان العربية ، ومن الجمهور بالاقبال عليها — ولو كان في مطالعتها بعض العناء فاللذة الفكرية العالية لا تؤخذ بغير مشقة — ومن الصحف على اختلافها بذكر هذه الكتب وعرضها على انظار الجمهور . فالمؤلف عندنا لا يزال مؤلفاً وناشراً وطابعاً ومصحح تجارب وموزّع نسخ ، فحسبهُ جزاء على عمله وجهده ، ان ينال شيئاً من الاعتراف والتقدير !

التقدير الانتقادي [1]

فلسفة الجمال فرع من فروع الفلسفة وعر الناحية كثير الشعاب ولكنهُ يستهوي بعض الباحثين لصعوبته ولاتصاله الشديد بالحياة والنقد، وليست الفلسفة البريطانية غنية في هذا اللون من ألوان البحوث الفكرية مثل ضريبتها الفلسفة الالمانية، ولكبار فلاسفة الالمان جولات بعيدة في هذا المضمار، وفلسفة الجمال تشغل حيزاً ملحوظاً في فلسفة كانت وهجل وشوبنهور وغيرهم من ممثلي الفكر الالماني، ورغم ان ادمند بيرك في رسالته عن « الجليل والجميل » يعد من واضعي أسس تلك الفلسفة فان المدرسة الفلسفية في بريطانيا لم تبادر الى اتمام ما بدأه ولم تقبل على بحثه اقبال المفكرين الالمان، ولقد كان ستيورت مل وسبنسر اكبر ممثلي الفلسفة البريطانية في عصرها وليس لهما مع ذلك أثر مذكور في بحوث فلسفة الجمال

على ان الحال قد تغير منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولمع في سماء الفكر البريطاني مفكرون كبار وجهوا شطراً من عنايتهم الى فلسفة الجمال والفن وفي طليعتهم الفيلسوف المعروف بوزانكيت، وتبعهُ في هذا السبيل فريق من الفلاسفة الناشئين أمثال كولنجود وكارت وغيرهما، ومن ناحية أخرى ظهر بعض النقاد الفنيين وتناولوا الموضوع من نواح أخرى ومن بينهم روجر فراي وكلايف بل وهربرت ريد

والرسالة التي نحن بصددها ترمي الى ايجاد سبيل يستطيع بهِ الانسان ان يفسر لغيره ما يعنيه عندما يقول عن شيء من الاشياء انهُ جميل ولا يترك تقديره لنوبات الحماسة وبوادر الاطراء ولا يكتفي بالاعجاب الصامت والتقدير الأبكم. ومؤلف الرسالة يرى أن ذلك ميسور بالتربية وانماء ملكة التمييز وقوة الحكم على الاشياء، وذلك رغم ان كل انسان مقيد بذوقه الخاص ومزاجه المحدود وان كنا في الغالب نتأى بأنفسنا عن ان نتخذ ذوقنا الخاص حكماً وفيصلاً لان ذلك لا يحل المعضل ولا يرسل في نواحيهِ ضوءاً، والتقدير الخالص ضرب من الشعور الفني يستلزم الشرح والتعبير والتعليل والتحليل، ومجرد اعجابنا بالاشياء لا يرينا خصائصها ولا يكشف لنا عن جمالها، والرسالة تبحث أول الأمر ما هي التقديرات التي يصح ان تصبح مفسرة معبرة وكيف تستعمل كلمة الجمال في الوصف، والمسألتان في نظر المؤلف متصلتان لان الانسان لا يستطيع ان يسمي الشيء جميلاً إلاّ اذا كانت عنده فكرة عن الجمال

والباحثون عن معنى الجمال يؤكدون ان الجمال هو اسم عام للجمال في الموسيقى والشعر والتصوير والنحت والبناء ولكن ما هو ذلك الشيء العام المسمى « الجمال » وما معنى ان الجمال هو صفة مشتركة بين هذه المظاهر التي نصفها بالجمال؟

(١) Critical Appreciation. By R. W. Church. George Allen & Unwin. London

وفي احد فصول الرسالة تفريق بين الاعمال الفنية الجميلة والاعمال المفيدة فالاعمال الفنية الجميلة تقنعنا وترضينا بنفسها وبنفسها ليس بغيره، وأما الاعمال المفيدة فهي ترضينا لانها وسائل صالحة لغرض آخر

والرسالة مكتوبة بلغة فلسفية صعبة تجعل متابعتها من الامور الشاقة في حين ان مثل هذا الموضوع في حاجة ماسة الى التبسيط والتفسير ولكن مؤلف الرسالة على ما يظهر متأثر بجفاف الاسلوب العلمي وصرامة الطريقة الجامعية . ولا غرابة في ذلك فهو احد اساتذة الفلسفة في احدى جامعات اميركا

علي ادهم

الجيش المصري

العددان — الاول والثاني - تصدر كل شهرين — تقوم بنشرها وزارة الحربية والبحرية وبطبعها لمطبعة الاميرية ببولاق

تعني وزارة الحربية اليوم بنشر الثقافة ورفع مستواها بين ضباط الجيش المصري بشتى الوسائل أهمها بألقاء المحاضرات بنادي الضباط ، وتشجيع تعلم اللغات الأجنبية وكتابة المقالات العسكرية والفنية والتاريخية بمجلة الجيش

أمامنا الآن العددان الأول والثاني من مجلة الجيش المصري . وهما عنوان طيب لصحافتنا الحربية الناشئة في هذا العام . فقد كانت لنا في أيام الخديو اسماعيل جريدة اركان حرب الجيش المصري والجريدة العسكرية قام بتحرير صفحاتها نخبة من ضباطنا الممتازين خلال القرن الماضي وها نحن اليوم نطالع منهم ثمرات قرائح جنودنا النابهين

يحتوي العدد الأول على مجموعة طيبة من المقالات المنوّعة في فنون الحرب والتاريخ العسكري والأدارة الحربية وغيرها . اشترك في تحريرها لفيف من كبار الضباط وصغارهم سواء أفي الخدمة العسكرية كانوا أم في التقاعد . وسنلقي نظرة سريعة على محتويات العدد الأول لنبين لقراء المقتطف ما خفي عليهم معرفتهُ من أنواع المعرفة العسكرية

افتتح العدد بكلمة صاحب السعادة اللواء ابراهيم خيري باشا وكيل وزارة الحربية أمام حضرة صاحب الجلالة الملك يوم افتتح نادي ضباط الجيش بالزمالك في يناير ١٩٣٨ ومقال « العصر الذهبي » للأميرالاي حافظ صدقي بك ومقال في الأسلحة الصغيرة للأميرلاي مصطفى بك صادق. ثم هناك مقالات متعددة فنية تاريخية لليوزباشي أحمد حموده تناول فيها التحدث عن النظريات العسكرية والجند والجندية والحرب وفن الحرب والدبابات ومنشإها وبحث في الأسلحة وقطارات السكك الحديدية المدرعة « والشرابنل » والاستعلامات العسكرية وصفوف الجندية الحديثة والمدفعية والتخابر بالأشارات وهانيبال القرطاجني

وهناك مقالات مفيدة للصاغ محمد نجيب في تعميم التدريب العسكري للشبيبة ومقارنتهُ

بالنظم الأوربية . واختيار الضباط للجيش الألماني وخلاصة التجارب التي أجراها الجيش البريطاني عن استعمال الوسائل الآلية وعن اعادة التنظيم والتسليح الجديدين منذ سنة ١٩٣٥ . وديموقراطية الطيران وتسييه في فرنسا . وكلية الدفاع الوطني في فرنسا

وبحث في كتبهُ الصاغ المهندس ابراهيم سعد المسيري في الفرق بين الهندسة المدنية والهندسة العسكرية من محاضرة كان سبق لهُ أن القاها أمام جمعية المهندسين الملكية

ومقال في الخطوات الأولى التي يجب اتباعها في تعليم الضابط الحديث لليوزباشي عبد الرحمن زكي أمين المتحف الحربي ومقال عن مدفع برتا الالماني للاستاذ توفيق وهبي

وعرض سريع للحرب الأيطالية الحبشية والدروس المستفادة منها للملازم الاول محمد عبد الفتاح ابراهيم

اما محتويات العدد الثاني فنلاحظ فيها التنوع واضحاً وسنذكر رؤوس المقالات وكتابها . صدر العدد بمقال نفيس عن «مصر» بقلم الصاغ المهندس ابراهيم سعد المسيري . الحياة العسكرية الاجتماعية الانكليزية للاميرالاي مصطفى صادق بك . مذكرات في تقدير الموقف للتموين والنقل للقائمقام محمود فهمي عبد الرؤوف بك . جيش تشيكوسلوفاكيا للبكباشي مومن لطفي . اعادة تنظيم كلية اركان الحرب بانكلترا ونصب قيمي ردج التذكاري للصاغ محمد بخيت . السينما والتعليم في الجيش — ونواح عسكرية وجغرافية في عهد اسماعيل لليوزباشي عبد الرحمن زكي . الحرب المقبلة لليوزباشي محمد مجدي الزارع . مشاهدات في الصحراء الغربية لليوزباشي رفعت الجوهري . ماذا كان الحلفاء يعرفون عن خطة ألمانيا . ماذا تحتاج مصر اذا خاضت غمار الحرب . التحصينات والدور الذي لعبتهُ الحصون . ثلاث مقالات نفيسة للملازم الاول محمد عبد الفتاح ابراهيم . تقسيم المدفعية — للملازم الاول محمود حسين فراج . حصون ماجينو — للملازم الاول محمد صفوت . الهجوم الاول بالغاز — للملازم الاول محمد فريد سلامه

وقد قام محرر المجلة الاول بتناول موضوعات متعددة أهمها الاستعلامات العسكرية والهندسة العسكرية والمدفعية الثقيلة والازمة التشيكوسلوفاكية

وفي كل عدد من اعداد المجلة مجموعة نفيسة من الصور المختلفة . وقد صدر العدد الأول بصورة لحضرة صاحب الجلالة الملك . كما صدر العدد الثاني بصورة ملونة لجندي مصري من المشاة بملابسه العسكرية في عصر المغفور له محمد علي باشا وهي من مجموعة الرسوم التي اهداها الى المتحف الحربي حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

والمقتطف يهنئ الزميلة الجديدة والزملاء الجنود . . . ويشكر لوزارة الحربية هديتها النفيسة الينا . . .

الصحافة العربية في البرازيل

١ — مجلة الشرق

يحمل الاستاذ موسى كريّم بين جنبيه قلباً فيّاضاً بحب الشرق جياشاً بأجل الذكريات له رهو من خيرة الصحفيين الذين انجبتهم العربية ، ومن أخلص خدّامها وطنية ، انشأ منذ أحد عشر عاماً مجلة «الشرق» للدعاوة عن الشؤون البرازيلية ومآتي النزلاء الشرقيين في البرازيل فما لبث أن أحيا بها الحركة الادبية التي كانت تحتضر في العالم الاميركي واجتذب بين خمائل صحيفته أطيار العربية الصادحين في ذلك المهجر الثاني فكانت الشرق وما زالت مجمعاً أدبياً حافلاً بأعذب أنغام تلك القيثارة الذهبية التي يتردد صداها في العالم العربي . وما من كاتب أو شاعر هناك إلاّ وله أثر فيها .وصحيفته برهان ناصع على مقدار الجهد والتضحية اللذين يبذلهما دون ضن فهي ولا شك تضارع ارقى المجلات الغربية تفنناً في الطباعة والتصوير وهي الى جانب ذلك افصح لسان عن رقيّ الحالة العربية في البرازيل

ولقد قدرت الحكومة السورية في الاستاذ موسى كريم هذا الجهد في خدمة الشرق فمنحته وسام الاستحقاق السوري . واني أقتطف هنا كلمة من خطاب الاستاذ داود بك الخوري ممثل الحكومة السورية الذي تولى تعليق الوسام على صدر صاحب تلك المجلة في الحفلة الرائعة التي أقيمت في سان باولو لهذا الغرض : « الاستاذ موسى كريم قد خدم أمته من هذه الناحية خدمة جلى مع أنهُ طرق في سبيل هذه الخدمة اصعب الطرق وتصدّى لعمل كان الفوزفيه يعدّ من قبيل المستحيلات ولكنهُ بفضل جهاده الكثير وتضحياته الجمة توصل الى جعل ما كان في عداد المستحيلات حقيقة واقعة إذ أبرز الى عالم الصحافة العربي مجلة تضاهي في جمالها وحسن تنسيقها وأهمية منشوراتها أفضل المجلات الاجنبية وقد جعلها معرضاً للأدب والعلم والصناعة . ومساعيه الأخيرة في سبيل جمع الاعانات الى منكوبي الطوفان في سورية أقرب شاهد على صحة وطنيته وصدق عزيمته » . ونحن إذ نهنئهُ بهذا التقدير السامي ننتهز الفرصة لتهنئته بالخطوات الواسعة التي خطتها مجلتهُ الغراء في الاحدعشر عاماً الماضية التي توّجت بعدد الميلاد الأخير الذي جمع الى روعة الاخراج تحفاً ادبية بديعة

٢ — مجلة العصبة

أصدرت مجلة العصبة عددها الممتاز الذي ختمت بهِ العام الرابع من حياتها ، وهو في الواقع من الآثار الادبية الرائعة التي غنمتها المكتبة العربية فقد ضم خير ما تفيض بهِ قرائح أدباء العرب في البرازيل والاقطار الشقيقة

وهذه المجلة خطة فريدة في خدمة الأدب العربي أخذت على عاتقها ان لا تحيد عنهُ . فهي لا تفرد صحائفها الاَّ لكل طريف رائع لا تبالي في سبيل هذه الخطة بالتضحيات التي تبذلها . ولا عجب فصاحبها ورئيس تحريرها الاستاذ حبيب مسعود في طليعة أدباء العربية جمال أسلوبٍ وروعة بيانٍ واتساع أفق

ولقد استطاعت هذه المجلة على حداثة عهدها أن تجتذب اليها أنظار الأدباء في ربوع العربية فقدروا فيها تلك الخطة السامية ، فحفلت صحائفها بأروع آيات البيان العربيّ الى جانب الزهرات الغضّة التي نقلتها من حدائق الغرب . آملين ان تستقبل عامها الخامس بالحفاوة التي هي خليقة بها

الصيرفي

مجلة المسرة

اصدرت مجلة المسرة الزاهرة عدداً ممتازاً بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على تأسيسها وقد تصفحناه فوجدناه حافلاً بالمقالات المختلفة في موضوعات طريفة متنوعة ما بين دينية واجتماعية ولغوية وصحية . وفي هذا العدد مقالان نفيسان لحضرة الاب كامل مدور البولسي عن « الفن والذوق في كنائسنا » و« حالة التشريع في مختلف البلاد لمكافحة الشيوعية » ومقالات اخرى بقلم فريق من افاضل الكتاب والباحثين والمصلحين

فنهنىء « المسرة » بعيدها الفضي ونرجو لها المضي في خدمة الدين والعلم بقدم ثابتة حتى تشهد عيدها الذهبي والماسي بهمة حضرات القائمين على تحريرها

مصور الجيش العراقي

١٣٢ صفحة من القطع الكبير — مطبعة المعارف ببغداد

أهدى الينا مكتب الأخبار العراقي للصحافة والدعاية والاستعلامات ببغداد لمديره النابغ العراقي الاستاذ يونس بحري نسخة من هذا الكتاب الذي صدر أخيراً وهو يحتوي على مجموعة رسوم متقنة مصورة برسم شعار الدولة العراقية فالعلم العراقي فخريطة العراق فرسم المغفور لهُ الملك فيصل الاول منشىء الجيش العراقي فجلالة الملك غازي الاول القائد العام للجيش العراقي فرسم سمو الامير فيصل ولي عهد المملكة العراقية فرسوم كبار الجيش وغير ذلك من الرسوم المبينة عرض الجيش البري والجوي ومختلف أنواع التمارين وجميع هذه الرسوم تدل على مناحي تقدم الجيش والمراحل التي قطعها في سيره على غرار الجيوش الراقية الحديثة في التدريب والتهذيب وتجهيزه بأحدث الأسلحة والمعدات الحربية على اختلاف أنواعها

وقد طبع هذا السفر النفيس طبعاً متقناً في مطبعة المعارف ببغداد على ورق أبيض وقد بذلت لاصداره عناية كبيرة



بردي باشا





محمد رءوف باشا



الكولونيل شايه لونج بك



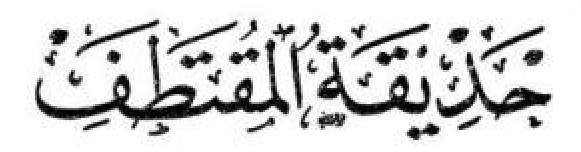
الجنرال ستون



الكولونيل كولستون



الكولونيل براوت



الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

لالياس ابي شبكة

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني



المؤتمر الدولي

الثامن للعلوم التاريخية

ملخص طائفة من الرسائل النفيسة التي تليت فيه

عن تقرير مسهب وضعه الاستاذ محمد قاسم بك
عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية في المؤتمر

السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية ومكانته التاريخية

الثورة الفرنسية واستقلال اليونان

أساس القومية الحديثة

المسألة الشرقية

الفلسفة النفعية وعلاقاتها بنشوء مبادىء الاحرار في انكلترا

الفلسفة السياسية الاسلامية ومكانها بين النظريات السياسية العامة

العوامل الثابتة في التاريخ

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الرابع والتسعين


المقتطف





الجزء الرابع من المجلد الرابع والتسعين

١ ابريل سنة ١٩٣٩ — ١١ صفر سنة ١٣٥٨

المتفجرات

الاساس العلمي للمتفجرات الحربية

النتروجين عنصر اساسي في جميع الكائنات الحيَّة ، فحاجتها اليه دائمة والاستغناء عنهُ مستحيل . ومع ذلك نجد هذا العنصر الحيويّ يفوق جميع العناصر الاخرى في تدمير الحياة لأنهُ عنصر اساسي كذلك في جميع المواد المتفجرة تقريباً

فالبارود خليط من نترات البوتاسيوم (سالتبيتر او ملح البارود) وفحم الخشب والكبريت. وعند ما ينفجر البارود لا يختلف فعلهُ من حيث المبدإ عن احتراق الشمعة . وانما الفرق بينهما ان الاول فعله سريع جدًّا والآخر بطيء. تؤثر الحرارة العالية في مواد البارود فتنحلُّ وتتركب تركباً جديداً . ينطلق الاكسجين من نترات البوتاسيوم ويتحد بفحم الخشب فيتركب ثاني اكسيد الكربون ، وينطلق النتروجين حرًّا . ويتحد البوتاسيوم بالكبريت فيتركب كبريتور البوتاسيوم وجميعها مواد غازية . الا ان الاحتراق والتركيب يحدثان بسرعة عظيمة ، وتتولد الغازات في اثناء التركيب الجديد تولداً سريعاً فلا تتصرف على مهل ، كما يحدث في الغازات الناشئة عن احتراق الشمعة . فاذا كان البارود محصوراً في نطاق ضيق ليس لهُ إلاَّ منفذ صغير ، انفجرت الغازات من هذا المنفذ . ولو احترق البارود في مكان طلق لما حدث الانفجار لأنهُ يتاح لهذه الغازات ان تنطلق وتتمدَّد في الفضاء من جميع النواحي ، فاذا وضع البارود في مدفع او بندقية او ثقب عميق في صخر ، حدث الانفجار لأنَّ هذه الغازات المتولدة من احتراقهِ تتولد بسرعة وتتمدَّد فتحدث ضغطاً عظيماً فاذا كان المنفذ مقفلاً في وجهها مزقت جدران الوعاء الذي يحيط بها

فالمادة المتفجرة هي مادة قوامها جزيئات غير مستقرَّة التركيب . فاذا صدمت صدمة لطيفة أو عنيفة او اذا قرّب منها ثقاب مشتعل كان ذلك كافياً لسلبها استقرارها الوقتي فتبدأ ذراتها تتركب تركُّباً جديداً تنشأ منهُ الغازات فتحدث الضغط والانفجار او التمزيق

ومن غرائب الامور ان النتروجين في حالتهِ الصرفة عنصر غير فعّال ، يصعب حملهُ على التفاعل مع عناصر اخرى لاحداث مركبات جديدة . ولكنهُ اذا كان داخلاً في مركبات كيميوية تراهُ مستعدًّا ان ينفصل عن الذرَّات التي اشترك معها في احداث تلك المركبات ، وهذه الخاصة من خواصهِ تجعلهُ من العناصر التي لا يكاد يستغنى عنها في صناعة المتفجرات الشديدة

الامونيا (النوشادر) من مركبات النتروجين التي يحتاج اليها الانسان في ايام السلام ليصنع منها الاسمدة الكيميوية مثلاً ، وهي تصنع بالاسلوب الذي ابتدعهُ البحَّاثة الكيميوي الالماني هابر من نتروجين الهواء الصرف . ولكن الحامض النتريك المركَّب من جزء من النتروجين وجزء من الايدروجين وثلاثة اجزاء من الاوكسجين ، هو أساس صناعة المتفجرات

ومن ابرع ما وصف بهِ النتروجين كلام للعالم الاميركي ادوين سلوسن Slosson قال : ان فائدة النتروجين في الحرب ترتدُّ الى كون ذرَّاتهِ تفرُّ من الميدان جملة واحدة . وقد تكون ملايين منها مستقرَّة في بندقية او قنبلة مدفع ، فاذا رجَّت او حرقت ارتجفت ذرَّات النتروجين ارتجافاً عنيفاً وعندئذٍ يتعذَّر حصرها . ثم تسري الرجفة في كتلة المادة المتفجرة كلّها ، فتهجم ذرَّات الايدروجين والكربون على ذرات الاكسجين ، ثم تسرع تبحث عن منفذ تخرج منهُ وهي في حركتها هذه ونشاطها تزداد حرارة . ولما كان المنفذ الوحيد في المدفع هو فوهتهُ ولما كانت هذه الفوهة مسدودة وفي الوسع ازالة سدادتها بشيء من القوة ، فأن ضغط هذه الغازات يزيلها فتنطلق من الفوهة وتقذف اميالاً عنها. واذن فانطلاق المدفع الخارجي يسبقهُ انطلاق داخلي من جزيئات الغازات على مؤخر السدادة او القذيفة والعامل الفعَّال في هذا هو ذرة النتروجين المتحدة بذرتين من الاوكسجين . وهذه الطائفة من الذرَّات يطلق عليها الكيميوي اسم « طائفة النترو »

في المواد المتفجرة القديمة كالبارود كانت جزيئات النترو NO2 تستخرج بتولّدها كما قدمنا من نترات البوتاسيوم (ملح البارود). ولكن عنصر البوتاسيوم نفسهُ غير مرغوب فيه في باطن المدفع لانهُ يتلفهُ . ولذلك يستخرج الكيميويون جزيئات « النترو » من نترات البوتاسيوم ثم يضموها الى مركَّب من الكربون والايدروجين يحترق فيولد غازات ولكنهُ لا يترك أثراً وراءهُ . وأشهر هذه المركبات وأبسطها هو مركَّب الغليسرين وهو على ما تعلم سائل لزج صافٍ لا لون له ولكن طعمهُ حلو المذاق وهو الذي تمسح بهِ اليدان عند ما تتقشفان

فاذا خلط الغليسرين بالحامض النتريك والحامض الكبريتيك تولّدت مادة تدعى

« نتروغليسرين » وهي مادة ثقيلة كالزيت الثقيل . ويقول الدكتور سلوسن في وصفها « انها مادة يسهل تركيبها ولكنني لا اشير على احد بصنعها إلاَّ اذا كان مؤمَّناً على حياته »

فاذا كان « النتروغليسرين » سائلاً كان تناوله ونقله في الصناعة او الحرب شاقاً محفوفاً بالخطر وتسهيلاً لتناوله يخلطه الكيميوي بمادة تمتصه كالنشارة مثلاً او بمادة تعرف باسم كيزلجور kieselguhr وهي تراب طبيعي قوامهُ بقايا « الدياتوم » وهي أشكال دنية من النبات تعيش تحت الماء وتفرز كثيراً من المادة الرملية (سيليكا) . والدياتوم من الاحياء المعروفة في هذا العصر ولكن (الكيزلجور) ليس إلاَّ بقايا كائنات الدياتوم التي كانت حية في العصور المتغلغلة في القدم

فاذا امتصت المادة الترابية النتروغليسرين، صُنعت عصياً وتعرف عندئذٍ باسم « الديناميت » وتستعمل كثيراً في نسف الارض عند شق الطرق في الجبال او فتح المحاجر

ولكن الغليسرين لا يستعمل دائماً في صنع المتفجرات ، وتحلُّ محلَّهُ مادة أخرى قوامها الكربون والايدروجين والاكسجين ونعني مادة « السلولوس » وهي المادة الخشبية في النبات وأشهر أشكالها المستعملة في صناعة المتفجرات هي رُبُّ الخشب والقطن . فاذا صنعت المتفجرات من القطن عرفت باسم قطن البارود gun cotton . ومن غرائب الصناعة ان مادة السلولوس هذه تستعمل في الصناعات السلمية فيصنع منها السكر والورق والحرير الصناعي . ولكنها اذا عولجت بالحامض النتريك والحامض الكبريتيك خرج منها قطن البارود او النتروسلولوس وكلاهما من المتفجرات الشديدة . هذه هي المواد الأساسية في البارود الذي لا دخان لهُ ، وهو البارود الذي لهُ أكبر شأن في الحروب الحديثة . ولكن قطن البارود ، يبدو كالقطن المندوف ولذلك يتعذر حشكهُ في المدفع فيحوّلهُ الكيميويون الى مادة عجينية القوام يسهل افراغها في القالب المطلوب وذلك بحلها في الأثير او الكحول او الاستيون

والاستيون مادة سائلة لا لون لها ولكن رائحتها حريفة وهي شديدة الالتهاب وأهم وجوه استعمالها لحل قطن البارود والسلولويد . فاذا عولج قطن البارود على النحو المتقدم سهل افراغهُ في قوالب عصوية الشكل او جعلهُ حبوباً مختلفة الحجوم

وإذن نحن أمام متفجرين أحدهما سائل وهو النتروغلسرين يجب ان يمتصهُ جسم قابل للامتصاص ، والآخر قطن البارود يجب ان يمتص سائلاً حتى يلين ويسهل افراغهُ في شكل يجعلهُ قابلاً للاستعمال . فلماذا لا يمتصُّ أحدهما الآخر فنفوز بمادة مزدوجة التفجُّر ؟ وهي فكرة معقولة ولكن الفرد نوبل ، صاحب جوائز نوبل المشهورة ، كان أول من فكر في تحقيقها ففاز بما يريد سنة ١٨٧٨ وجنى من ذلك الملايين

وُلد الفرد برنارد نوبل في استوكهلم في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٣٣ ومات في سان ريمو في ١٠

دسمبر سنة ١٨٩٦ في الثالثة والستين من عمره . وبموجب الوصية التي تركها وقف جانباً من ثروته على ترقية العلم والادب واحكام روابط الوئام الدولية اذ اشترط ان يقسم ريع هذا الوقف خمس جوائز تمنح للمبرزين من الباحثين في ميادين الطبيعيات والكيمياء والطب والأدب والسلام

وتبدأ قصة هذه المؤسسة سنة ١٨٤٦ إذ اكتشف اسكانيو سوبريرو من سكان مدينة تورين مادة النتروغلسرين ووصف طريقة تحضيرها في رسالة بعث بها الى أكاديمية العلوم بتورين في فبراير سنة ١٨٤٧ وفيها بسط الصفات التي تجعل هذا المركب مادة متفجرة خطرة. وبعيد ذلك ألقى خطبة في مؤتمر علمي ملتئم في البندقية (فينيسيا) فقال فيها : « ولا نستطيع ان نبتَّ الآن في الفوائد التي نستطيع جنيها من هذا السائل الذي يتفجر بصدمة » . وعليهِ ظلَّ النتروغليسرين الى اواخر العقد السابع من القرن الماضي تحفة علمية في نظر العلماء وظل استعماله كمادة مفرقعة في حيّز النظر لما تنطوي عليهِ معالجتهُ من الخطر الدائم

وكانت سنة ١٨٦٧ وكان نوبل قد اخذ يصنع « النتروغلسرين » في معامله . ولكنهُ كان مهدداً بالخطر من كل ناحية . ذلك ان باخرة من البواخر التي كانت في طريقها الى شيلي مشحونة بهذه المادة حدث فيها انفجار وهي في عرض البحر فغرقت بمن عليها . وما حدث لها حدث لسكك الحديد التي كانت تنقل هذه المادة الفتاكة . حتى معامل نوبل نفسه اصيبت بما اصيبت بهِ الباخرة والسكك الحديدية من قبل فتفجرت المتفرقعات فيها وقتل في الحادث شقيق نوبل الاصغر

قلنا : وكانت سنة ١٨٦٧ وكان نوبل يساعد بعض عمالهِ في تنزيل حمل عربة من عرباتهِ يشتمل على عدة صناديق من النتروغلسرين . وكان أحد هذه الصناديق قد ثقب فخرَّت المادة المروّعة على الارض وامتزج قليل منها بالرمل ولم يلبث ان تجمد هذا المزيج . فسرَّ نوبل لهذه الصدفة الغريبة لأنها كشفت لهُ عن طريقة تمكنهُ من تحضير النتروغلسرين تحضيراً يمكنهُ من حمله ونقله من غير ان يتعرض للانفجار لدى أقل صدمة يصاب بها. وكذلك صنع الديناميت. وبعد ذلك استنبط مفرقعاً جديداً أقوى فعلاً من الديناميت على انهُ رخو وشفاف كالهلام وذلك بمزج النتروغليسرين بمادة مفرقعة أخرى تدعى قطن البارود . وسنة ١٨٨٩ استنبط باروداً لا دخان لهُ سماهُ بلستيْت ومن الديناميت وما تلاهُ من المفرقعات جمع ثروتهُ التي مكنتهُ من أن يصبح محسناً للانسانية بعد مماته

وأدرك نوبل حالاً أثر المفرقعات في الحروب مع انهُ طلبها اولاً للاستعانة بها في فروع الهندسة المختلفة. ولولا اكتشافهُ للديناميت وما تلا الديناميت من المفرقعات لكان التقدم الذي تمَّ في فروع الهندسة العملية وأعمال التعدين متعذراً . فان جميع الاعمال الهندسية العظيمة كحفر ترع بناما ، وحفر انفاق القطرات في المدن الكبيرة ، ومد خطوط السكة الحديدية في الجبال ،

وبناء المرافىء الكبيرة وحفر المناجم ، اعتمدت على الديناميت وأشباهه في سرعة انجاز الاعمال

ولكن نوبل كان يدرك ان مستبطاته ومكتشفاته قد تستعمل في غير الاغراض الصناعية التي صنعت لها اولاً اي في الحروب الدولية . وهذا الادراك حلَّ في عقله همَّا تحوَّل الى وسواس جعل أثرهُ يزداد على مرّ السنين . فصار السعي لاحكام روابط السلام بين الناس موضوع عنايته الاول ، والراجح ان العلم والفلسفة لم يكونا حينئذٍ في مقدمة المسائل التي عني بها

بعد هذا الاستطراد نقول انهُ بعد ضمّ النتروغليسرين الى قطن البارود يضاف اليهما قليل من هلام البترول (الفازلين) فتعرف المادة الجديدة حينئذٍ باسم الكورديت وهي من اهم المتفجرات الحربية في هذا العصر وهي تعرف باسم كورديت لأنها تجهز بعد معالجتها الكيميوية في شكل حبل Cord . وعلاوة على المتفجرات التي اشرنا اليها وماكان من قبيلها هناك صنفان من المتفجرات لهما شأن كبير عند رجال الحرب

هناك مركَّب يدعى الحامض الكربوليك (الفنيك) وهو المستعمل مطهراً . فهو من هذا القبيل من المواد التي تقي الكائنات الحية من الفساد . ولكنهُ اذا عولج بالحامض النتريك والحامض الكبريتيك تولدت مادة بلورية صفراء تدعى الحامض البكريك ، والكيميويون يفضلون ان يطلقوا عليها اسم (تراي — نترو — فينول) . والحامض البكريك متفجر شديد ولكنهُ يمزج عادة بمادة « الكولوديون » وهي شكل من اشكال قطن البارود . ثم تضغط المادة الجديدة ويطلق عليها اسم يختلف باختلاف البلاد التي تصنع فيها . فالانكليز يدعونها « ليدينت » Lyddite والفرنسيون « ميلينيت » Melinite واليابانيون « شيموز » Schimose

والصنف الآخر من المتفجرات قائم على اساس مادة غير مشهورة شهرة الغليسرين او القطن او الحامض الفنيك وهي مادة تولوول Tolnol المستخرجة من مادة التولوين tolnene وهي من مستقطرات قطران الفحم الحجري . هذه المادة مركب من الكربون والايدروجين وهي شديدة الالتهاب كالبنزين فاذا عولجت بالحامض النتريك القوي اجتذبت من الحامض جزيئات « النترو » فتصبح مادة تعرف باسم (تراي — نترو — تولوول) . ولكن هذا الاسم الطويل اختصر بالحروف الاولى من اجزائه الثلاثة فاصبح مادة T.N.T. المتفجرة المشهورة . وهي تمتاز على المتفجرات المصنوعة من الحامض البكريك . ذلك بأن الحامض البكريك يتلف فلز المدافع وقد يولّد مركبات شديدة الاحساس ، فتنطلق المادة المتفجرة من تلقاء نفسها احياناً . اما مادة T. N. T. فلا تتفاعل مع فلز المدافع ويسهل حفظها ومن الممكن ان تقرب منها ثقاباً مشتعلاً او ان تطلق عليها رصاصة مسدَّس فلا تنفجر . ولكن اذا رجَّت رجَّة من ذبذبة معينة انفجرت انفجاراً عنيفاً . يقابل هذا ان تناولها يصبغ اليد صبغاً اصفر ويحدث حروقاً فيها وليس بالنادر ان يصاب متناولوها بالتسمم

أغنية الجندول

في كرنفال فينيسيا

لعلي محمود طه المهندس

أين من عينيَّ هاتيكَ المجالي ... ياعروسَ البحرِ، يا حُلمَ الخيالِ

أين عشاقُكِ سُمّارُ الليالي ... أين من واديكِ يا مهدَ الجمالِ

موكبُ الغيدِ وعيد الكرنفالِ ... وسُرى الجندولِ في عرضِ القنالِ

بين كأسٍ يتشهّى الكرمُ خمرَهْ

وحبيبٍ يتمنّى الكأسُ ثغرَهْ

إلتقتْ عيني بهِ أوّلَ مرّهْ

فعرفتُ الحبَّ من أوّلِ نظرهْ

أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي ... يا عروسَ البحرِ، يا حُلمَ الخيالِ

مرَّ بي مستضحكاً في قربِ ساقي ... يمزجُ الراحَ بأقداحٍ رقاقِ

قد قصدناهُ على غيرِ اتفاقِ ... فنظرنا، وابتسمنا للتلاقي

وهوَ يَستهدي على المَفرِقِ زَهرَهْ

ويُسوّي بيدِ الفتنةِ شَعرَهْ

حينَ مسّتْ شفتي أوّلُ قطرَهْ

خِلتُهُ ذوّبَ في كأسي عِطرَهْ

أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي ... ياعروسَ البحرِ، يا حُلمَ الخيالِ

ذَهبيُّ الشَعرِ شَرقيُّ السِّماتِ   مَرِحُ الأعطاف، حلوُ اللَّفتاتِ
كلَّما قلتُ لهُ خذْ قال: هاتِ   يا حبيبَ الروحِ، يا أنسَ الحياة

أنا من ضيَّعَ في الأوهامِ عُمرَهْ
نَسِيَ التاريخَ أو أُنْسِيَ ذِكْرَهْ
غيرَ يومٍ لم يَعُدْ يذكُرُ غيرَهْ
يومَ أنْ قابلتُهُ أوَّلَ مَرَّهْ

أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي   يا عروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيال

قالَ: من أينَ؟ وأصغى، ورنا   قلتُ: من مصرَ، غريبٌ هَهُنا
قالَ: إنْ كنتَ غريباً فأنا   لم تكنْ فينيسيا لي مَوْطِنا

أينَ مني الآنَ أطيافُ البُحَيْرَهْ
وسماءٌ كستِ الشطآنَ نَضرَهْ
منزلي منها على قمةِ صَخرهْ
ذاتِ عينٍ من معينِ الماءِ ثَرَّهْ

أينَ من لوزانَ هاتيكَ المجالي   يا عروسَ البحر، يا حُلْمَ الخيالِ

قلتُ: والنشوةُ تسري في لساني   هجتَ بي الذكرى، فأينَ الهرمانِ؟
أين وادي السحر صداحَ المغاني؟   أينَ ماء النهرِ؟ أينَ الضفتانِ؟

آهِ لو كنتَ معي نختالُ عَبْرَهْ

بشراعٍ تَسبحُ الأنجمُ إثرَهْ
حيث يَروي الموجُ في أرخمِ نَبرَهْ
حُلمَ ليلٍ من ليالي كيلوبترَهْ
أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي يا عروسَ البحرِ، يا حُلمَ الخيالِ

أيها الملاحُ قفْ بينَ الجسورِ فتنةِ الدنيا وأحلامِ الدهورِ
صفَّقَ الموجُ لولدانٍ وحورِ يُغرقونَ الليلَ في يَنبوعِ نورِ
ما ترى الأغيدَ وضَّاءَ الأسرَّهْ؟
دقَّ بالساقِ وقد أسلمَ صدرَهْ
لِمُحبٍّ لفَّ بالساعدِ خصرَهْ؟
ليتَ هذا الليلَ لا يُطلِعُ فجرَهْ!
أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي يا عروسَ البحرِ، يا حُلمَ الخيالِ

رقصَ الجُندولُ كالنجمِ الوضيّ فاشدُ يا ملاحُ بالصوتِ الشجيّ
وترنَّمْ بالنشيدِ الوثنيّ هذه الليلةُ حُلمُ العبقريّ
شاعتِ الفرحةُ فيها والمسرَّهْ
وجلا الحبُّ على العُشّاقِ سِرَّهْ
يَمنةً مِلْ بي على الماءِ ويَسرَهْ
إنَّ للجندولِ تحتَ الليلِ سِحرَهْ
أينَ يا فينيسيا تلكَ المجالي أينَ عُشّاقُكِ سُمّارُ الليالي
أينَ مِن عينيَّ أطيافُ الجمالِ موكبُ الغيدِ وعيدُ الكرنفالِ
يا عروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيالِ!!

جامعة فؤاد الاول

تستقبل جلالة الملك فاروق الاول

مغزى الحفلة الجامعية الملكية وأثرها

في يوم ٢٨ فبراير ١٩٣٩ احتفلت جامعة فؤاد الاول في مشهد مهوب جدير بجلالة العلم، باضفاء لقب دكتور فخري على حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول . وهذا الحدث فضلاً عن مكانته التاريخية فان لهُ أثراً عظيماً في توجيه الفكر المصري نحو البحث العلمي وتشجيع حرية الفكر وحث الشباب على المضيّ في البحوث العلمية والعملية المنتجة التي يحتاج اليها الشرق العربي في هذا العصر أشد الاحتياج . فان طابع هذا العصر، وهو طابع المدنية الحديثة التي أخذت مصر بأكثر أسبابها ، انما يحوّل الفكر الى تيار العمل ، ووزن الاشياء العلمية بما لها من الأثر العملي في زيادة الرفاهية البشرية ، وبما لها من المكانة في توسيع آفاق الفكر الانساني . ولا ريب في ان تفضل جلالة الملك المعظم بقبول هذه الإجازة الجامعية السامية دليلٌ على ان جلالتهُ يحيط هذا الاتجاه بتشجيعه السامي ويعزّز في النشء الميول الضرورية للأخذ بالاسباب العلمية البحتة، وجلالتهُ في عمله هذا انما يتأثر خطوات المغفور له والده العظيم الذي كان له على الجامعة اكبر الفضل في انشائها اولاً وتعهدها بما ينمي دوحتها من بعد ذلك . وقد اعرب صاحبا المعالي وزير المعارف ومدير الجامعة عن هذه الحقائق ابلغ تعبير في الخطبتين النفيستين اللتين القياهما في ذلك الحفل الجامعي الملكي الجليل واليك نصهما [محرر المقتطف]

***

خطبة وزير المعارف

مولاي صاحب الجلالة :

ارجو ان تسمحوا لي بأن ارفع الى مقام جلالتكم الأسمى باسم حكومة جلالتكم وباسم مجلس الجامعة وباسم الجامعيين كلهم اساتذة ومتخرجين وطلاباً ابلغ آيات الشكر لتفضلكم

بتشريف هذا الاجتماع وبقبول درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة فؤاد الاول . بل ان عبارات الشكر والحمد يامولاي ليقصر أبلغها دون التعبير عما يخالج نفوسنا وما يفيض عنها من عرفان لجميل جلالتكم ولما يدل عليه تعطفكم السامي على الجامعة من معنى كريم

مولاي: لقد تبنى المغفور لهُ والدكم العظيم هذه الجامعة مذ برزت فكرتها الى حيز الوجود فخاطها من عنايته وعطفه بما زادها نموًّا وانتاجاً وبما جعل معاهدها موضع اعجاب العلماء من مختلف الامم ومحل تقديرهم واكبارهم فلا عجب وقد كان ذلك شأنها أن تحظى من رعاية جلالتكم ومن عطفكم بما حظيت به في كل حين . وان يكون تفضل جلالتكم اليوم بما تفضلتم به عليها مما يزيد رجالها وابناءها غبطةً وابتهاجاً ومما يجعل المستقبل امامها مشرقاً بالآمال في اطراد نهضتها حتى تبلغ بمصر في أقرب وقت أعز مكان وأكرمه وأمنعه

***

مولاي : لقد كانت غاية البلاد من اقامة الجامعة في اوائل هذا القرن العشرين ان تبلغ مصر بواسطة التعليم الجامعي والبحث العلمي ما بلغتهُ أرقى الامم في سلم الحضارة وان تكشف بنور العلم من اسرار الطبيعة ومن سنة الله في الكون ما يزيدها سلطاناً على الحياة في جانبيها المادي والمعنوي وان تصل بذلك الى المقام الانساني السامي الذي يمكنها من مشاركة الامم في العمل على تقدم الانسانية نحو الكمال . واذا كانت الامم التي سبقتنا الى العلم والتي اتخذت من الجامعات موائل للثقافة الانسانية العليا قد استطاعت — بفضل جهود الاجيال المتعاقبة من ابنائها — ان تقيم في العالم هذه الحضارة التي زادتهُ بالعلم رخاء ورفعت العلم والأدب والفن فيه مكاناً عليًّا ، فان مصر قد حرصت على ان تسرع الخطى بالاستفادة من تجارب هذه الامم ومن علمها مستعينة لذلك برجال العلم والفن من الاجانب وبالبعوث توفد الى جامعات اوربا ليعود ابناؤنا المصريون اليها بثمرات تحصيلهم وبثمرات تفوقهم وابتكارهم . ولقد وجدت هذه الجامعة من جلالة المغفور له والدكم العظيم اعظم العون لها في هذا وفي ذلك مذ تبناها وليدة الى ان تركها قوية ناهضة تجاهد في سبيل العلم والاصلاح عن طريقه وتعمل لتنشر في مصر وفي الشرق العربي كله أنفع الآثار لاحياء الشعوب وان تبث فيهما الثقافة الجامعية التي تبعث الى النفوس قوة الايمان الصادق بالحق وتعوّدها التضحية الخالصة في سبيله

مولاي : لقد كان في مقدور الجامعة ان تكون اسرع سيراً وأغزر في العلم والثقافة انتاجاً لو انها احتفظت بجميع رجالها الذين عادوا اليها بعد ان اوفدتهم كلياتها في بعوثها المختلفة والذين ابدوا في السنوات التي اضطلعوا باعباء البحث والتدريس فيها من الكفاية والمقدرة ما يغبطهم

عليه العلماء الممتازون في ارقى الامم وما كان خليقاً ان يقر نماؤه في لغتنا وبلادنا احدث ما وصل اليه البحث العلمي في نواحيه المتشعبة . لكن الجامعة آثرت ان لا تضن بهؤلاء الرجال على سائر نواحي النشاط في الدولة ليوجهوها وجهة صالحة ولينشروا في جوها روح التقدم وأسباب التفكير السليم وليمهدوا بذلك الى النهوض الصحيح والسير السريع في الطريق السوي . وقد فعلوا. وان من بين رجال الدولة الممتازين اليوم يا مولاي عدداً عظيماً من اولئك اليهم يرجع الفضل في استغناء مصر عن معاونة الاجانب في نواحي النشاط التى يعملون فيها واليهم يرجع فضل أعظم من ذلك في النهوض بهذه النواحي الى مقام حاز رضاء المغفور له والدكم العظيم وحاز رضاء جلالتكم وحاز رضاء الأمة

والآن وقد أنجبت هذه الجامعة جامعة فؤاد الاول نباتاً جديداً هو نواة الجامعة التي تتيمن منذ اليوم باسم جلالتكم الكريم وقد بدأ خريجوها ينبثُّون في مختلف أعمال الدولة والاعمال الحرة وينهضون بها على نحو يتفق وما هو جدير بمن خرجتهم معاهد رعاها والدكم العظيم وهي محل عطفكم وعنايتكم فقد حقَّ للجامعة ان تحتفظ بأبنائها الذين يتولون التدريس والبحث فيها لتتم بهم رسالتها ولتشترك مع جامعات العالم في أداء ما علينا من حق للعلم وللثقافة الانسانية

***

مولاي: ان هذه الامور التي تجول بنفوسنا جميعاً قد تضاعفت اليوم فالجامعيون مستبشرون جميعاً بتفضلكم بقبول درجة الجامعة الفخرية العليا وهم يعتبرون هذا اليوم فتحاً للحياة الجامعية مبيناً وأي فتح أعظم من ان تحظى الجامعة بهذه الرعاية السامية من لدن جلالتكم كما حظيت منذ نشأتها بالرعاية السامية من لدن والدكم العظيم

انهُ لفتح يطمعها في ان تقر ثقافتها على أساس من الايمان بالحق عن طريق العلم الصحيح ونوره وان تضاعف الجهد لترفع اسم مصر في ميادين العلم والادب والفن في ربوع العالم كله

مدَّ الله يا مولاي في حياتكم وأحيا العلم والادب والفن في رحابكم أطيب حياة

وبأذنكم الكريم يا مولاي أختم هذه الكلمة شاكراً لجلالتكم التفضل بسماعها مستأذناً جلالتكم في ان تسمحوا لسعادة مدير الجامعة ان يلقي بين يديكم كلمة الجامعة

***

خطبة مدير الجامعة

مولاي

الي جلالتكم أرفع آيات اغتباط الجامعة لتشريفكم إياها بالزيارة وشكرها الصادق على ان

تفضلتم فنزلتم منها منزلة الشرف وتقلدتم رآسة الأسرة الجامعية على سنة رئيسها الاول ونصيرها الأجل والدكم العظيم رضوان الله عليه

انها ترى في شخصكم الكريم يا مولاي مجد مصر وأملها ماثلين فتستقبلكم وقد استشعرت الاعتزاز بماضيها والثقة بحاضرها والرجاء في مستقبلها

ان الأسرة الجامعية ترى في شخصكم الكريم يا مولاي قوة الشباب ونضرته فحقٌّ لها ان تتيمن بهذا اليوم السعيد الذي يلتقي فيه شباب الملك بشباب العلم تتيمن بهذا اليوم الذي تتلقى فيه يدكم الكريمة لواء الشباب المثقف لترفعهُ عظيماً كريماً يظل طلاب العلم في أقطار الشرق ويهديهم الى مثلهم الأعلى فيما يحتاج اليه العلم من طموح النفس ونبل الخلق والقدرة على الاحتمال، إن هذا الجيل الناشيء من الجامعيين هو جيل جلالتكم قد عاصركم في النشأة وشارككم في الشعور والأمل، وان مصر لتعرف في جلالتكم ميولكم الديموقراطية الشريفة التي تتجلى آثارها فيما ينبغي ان تتجلى فيه من المواطن باعتبار أن المبادىء الديموقراطية هي الوسيلة للتربية السياسية للأمم الناهضة وتعرف في جلالتكم المساواة بين جميع رعاياكم في عطفكم السامي على جمعياتهم وأفرادهم وتعرف فيكم الحزم وسداد الرأي، كل اولئك يجعلها تكل اليكم راضية مطمئنة ابناءها لتقودوهم الى حيث يبلغون من المجد والعزة والكرامة ما تريدون لوطنكم العزيز

هذه الجامعة يامولاي التي غرضها كما قدره لها ضمير الامة وفرضه عليها القانون خدمة العلم لذاته وتنشئة الشباب المصري وتثقيفه، هذه الجامعة انما هي من عمل والدكم العظيم تلقاها فكرة تجيش بها النفوس واملاً يدفع به الشعور بالكرامة الوطنية فحققها وأنشأها معهداً لتربية العقل وتصفية الذوق واذكاء الشعور بواجب مصر لنفسها وللانسانية والعلم. وقد منحها حبه الخالص وأبوتهُ الكريمة وحباها المعونة والتأييد حتى بلغت الى حيث هي الآن فأصبحت مثابة للعلماء وملاذاً للطلاب يفدون اليها من مصر ومن الشرق وكثر عددهم فيها الى حد أشفق منهُ بعض الكليات على مستوى التعليم فاقترحت الجامعة انشاء فروع في الاسكندرية للحقوق وللآداب وللطب نواة لجامعة جديدة ستخلف برعاية جلالتكم مدرسة الاسكندرية. وقد شاءت حكومة جلالتكم مشيئة موفقة ان تضاف الى اسمكم الكريم

مولاي: لقد آثر والدكم العظيم جامعته رجالها وابناءها بفضل من عنايته ومكانة ممتازة من قلبه الكبير فآثره الجامعيون بأصفى ما تفيض به القلوب من الحب وأكرم ما تجود به النفوس من الولاء وهم يرون في تفضلكم اليوم بهذا العطف الكريم مضيًّا على سنته ووفاء بعهده فيملؤهم ذلك غبطة وأملاً ويدفعهم الى ان يؤكدوا لجلالتكم ما أكدوا لوالدكم العظيم من العهد ان تخلص قلوبهم وعقولهم وجهودهم للعلم لا يبتغون بذلك الا مرضاة الحق والملك والوطن



في زراعة النبات بغير تراب

اطلق العلماء لفظ « هيدروبونكس » Hydroponics الاعجمي على هذا الضرب من الزراعة وهو مؤلف من لفظين اولها «هيدرو» Hydro ويعني ماء والثاني « پونوس » Pouos ويعني عملاً. فاذا شئنا ان نصرف النظر عن استعمال هذا الاسم معرباً صحَّ لنا ان نقول «الزراعة المائية» او «زراعة الاحواض » وهما ترجمة اسمين آخرين غير علميين لهذا الضرب الجديد من الزراعة (١)

اذا زرع النبات في التراب امتصَّ غذاءه من المركبات الكيميوية التي في التراب او ما يضاف اليهِ من اسمدة كيميوية او طبيعية . والنبات يعتمد على الماء في هذا الامتصاص . لأن الماء يحلُّ هذه المركبات الكيميوية ويتيحها للجذور في شكل قابل للامتصاص. اما في «زراعة الاحواض» فالجذور تغمس في ماء يضاف اليهِ الغذاء الكيميوي اللازم لنمو النبات ، فيستغنى عن التراب

يصنع الحوض من الخشب او الاسمنت المسلح او الحديد المطلي بالحُمَّر (الأسفلت) . ولا قيد لطولهِ او عرضه وانما يجب ان يكون عمقهُ نحو ست بوصات. ويجدر بالمبتدىء ان يجعل حوضهُ ست اقدام طولاً وقدمين عرضاً وست بوصات (نصف قدم) عمقاً وذلك لانهُ يسهل عليهِ عمل الحسابات اللازمة لمقادير المواد الكيميوية التي يحلها في مائهِ وفقاً للحقائق التي نذيعها في هذا الفصل . ثم يملأُ هذا الحوض بخمسة وعشرين جالوناً من الماء . وتوضع علامة ظاهرة على داخل جدار الحوض عند المستوى الذي يبلغهُ هذا الماء وذلك لأن الاحتفاظ بهذا المستوى شرط اساسي من شروط هذا الضرب من الزراعة

ثم يؤتى بمشبك من السلك ، تكون كل عين من عيونهِ بوصة مربعة اونحو ذلك اذا اريدت زراعة النباتات الصغيرة ، ويجب ان تكون نحو بوصتين مربعتين ، اذا اريدت زراعة النبات الكبيرة . ويطلى سلك المشبَّك بالحُمَّر حتى لا تتركب منهُ مواد معدنية قد ينحلُّ بعضها في السائل المغذي فيغيّر من تركيبهِ بالتفاعل الكيميوي . ثم يوضع على الحوض بحيث يعلو عن سطح الماء الذي فيهِ ثلاث بوصات ، لان طبقة الهواء بين المشبَّك وسطح الماء لازمة لقدر ضروري

(١) راجع على سبيل التمهيد مقال « الزراعة بغير تراب » في مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٣٠٩

من التهوية . ولكن هذه التهوية وحدها غير كافية في زراعة الاحواض فيستطاع دفع مقدار من الهواء في ماء الحوض بمضخة صغيرة كالمضخة التي تستعمل لملء عجل الدرّاجة عادةً، وذلك بوضع طرفها في الماء وتحريك ذراعها بضع دقائق مرتين كل يوم

على سطح المشبَّك السلكي يفرش فرشٌ من القش اوالنشارة وعلى سطحهِ يوضع غطاء من فتات لحاء الصنوبر او غيره من المواد الناعمة غير الفعّالة. وكثافة هذا الفرش تختلف باختلاف النبات الذي تنوي زرعهُ .فاذا كنت تنوي ان تذرو البذور على سطحهِ فمن المستحسن ان تكون كثافتهُ بوصتين . ولكن اذا شئت ان تزرع بصيلات او فروخاً من النبات او « عُقَلاً » فيجب ان تكون الكثافة من ثلاث بوصات الى اربع

بعد ان تعدّ الحوض والمشبَّك والفرش وتبذر البذور على سطح الفرش او تغرس البصيلات فيه يجب ان تزيد مقدار المحلول الذي في الحوض باضافة الماء اليهِ حتى تصبح المسافة الفاصلة بين سطحهِ والمشبَّك بوصةً واحدة بدلاً من ثلاث بوصات. وهذا ضروريٌّ في البدء فقط. وليس يضير المحلول انهُ خفِّف باضافة الماء اليهِ . ولكن بعد ان تكون الجذور المائية البيض، يجب ان تحتفظ بقوة التركيز الأصلية في المحلول وان تبقي المسافة بين سطح الماء والمشبَّك ثلاث بوصات. واذا كان النبات المزروع في الفرش الذي على المشبَّك متقدماً في نموهِ ، فلا تلبث ان تموت جذور التربة وهي سمراء اللون ، عندما تنمو الجذور المائية . وعلى كل حال يجب ان تعتني بازال جذور الفروخ والنباتات المتقدمة من خلال الفرش حتى يغمرها المحلول المغذي

اما في حالة زرع البذور فيجب ان يرطّب الفرش اولاً ، ثم تنثر البذور على سطحهِ وتغطى بغطاء خفيف . اما الفروخ والعُقَل فتزرع في الفرش كانك تزرعها في الارض . وفي نقلها من التراب الى فرش المشبَّك يجب ان تعنى عناية خاصة بريّ الارض حتى لا تؤذى جذورها عند انتزاعها منها ، ثم بعد انتزاعها من التراب تغسل جذورها مما قد يكون عالقاً بها منهُ. ثم توضع في الفرش بحيث تتصل جذورها بالماء.. والبصيلات تزرع في الفرش كما تزرع في الارض فاذا كانت صحيحة لم تلبث حتى تنطلق منها جذور سليمة . ويجب ان يبقى الفرش رطباً دائماً ولكن لا يجب ان يكون مشبعاً بالماء

وليس في الوسع ان يضمن النجاح الكامل في هذه التجربة ، لأول وهلة ، وعلى المجرّب ان يبدأ وان يعيد وان يتعلَّم بالاختبار كيف تطبَّق القواعد العامة على النبات الخاص الذي يجرّب بهِ ، ودرجات الرطوبة والحرارة وغيرها من عوامل البيئة التي يجرّب تجاربهُ فيها فدرجة الحموضة والقلوية في الماء يجب ان تعرف معرفة وثيقة وكذلك تأثيرها في النبات ، وهذا الاخير لا يتاح الا بالاختبار بورق التموس، فيزاد من قلوية الماء — او حموضتها — او ينقص وفقاً لحاجة

النبات . فاذا كانت درجة القلوية عالية وجب ان يضاف قليل من الحمض النتريك او الحمض الكبريتيك

ثم على المجرّب ان يختار الاملاح اللازمة لغذاء النبات فيحلّها في الماء الذي في الحوض .

وقد وضع غير واحد من الباحثين قواعد جرت عليها البيوتات التي تبيع البذور فركّبتها ووضعتها في ظروف خاصة تباع . واستعمالها يجب ان يكون تجريبيًّا في البدء ، ليعرف الباحث هل المركّب الذي اختاره يوافق النبات الذي يريد زرعهُ والبيئة التي يزرع فيها ، والى القارىء بعض هذه المركبات

١ — مونو بوتاسيوم فصفات	٧ ½	ملعقة شاي
نترات الجير	٢٠	»
كبريتات المغنيسيوم	١٢ ½	»
كبريتات الامونيوم	٢ ½	»
٢ — الحمض النتريك (تركيز ٦٩٫٥)	٣٫٨٤	اوقية
ايدروكسيد الامونيوم (تركيز ٥٨٫٦)	٠٫٨٨	»
الحمض الكبريتيك (تركيز ٩٥)	٠٫٦٧	»
الحمض الفصفوريك (تركيز ٩٠)	١٫٢٩	»
ايدروكسيد البوتاسيوم	٠٫٤٨	»
اوكسيد الكلسيوم	٠٫٤٧	»
اوكسيد المغنيسيوم	٠٫٥٥	»
٣ — فصفات الامونيوم	½	»
نترات البوتاسيوم	٢ ½	»
نترات الجير	٢ ½	»
كبريتات المغنيسيوم (ملح انكليزي)	١ ½	»

ولعلَّ المركّب الثاني هو خير مركّب لتغذية النباتات بوجهٍ عام لأنهُ لم يصنع لنبات معيَّن والاوزان المذكورة يجب ان تحلَّ في ٢٥ جالوناً من الماء . وواضع هذا المركّب الدكتور آرنُن وهو يرى ان يضاف قليل من الحديد والبور والمنغنيس وذلك بصنع محلولات مركزة من كلوريد الحديد ، والحمض البوريك ، وكلوريد المنغنيس . ثم تضاف عشر قطرات من كلوريد الحديد وعشر قطرات من الحمض البوريك وخمس قطرات من كلوريد المنغنيس الى ٢٥ جالوناً من المحلول ، وليس من الضروري ان تكون الاملاح المستعملة في صنع هذا المحلول الغذائي نقية من كل شائبة من الناحية الكيميوية

ويرى واضعو المركّب الثالث انهُ يصلح لتغذية اصنافٍ كثيرة من النبات وان وجود ملح

الامونيا (النوشادر) فيه يؤخر زيادة درجة القلوية في المحلول . ثم يجب أن يضاف قليل من الحديد والبور والمنغنيس والزنك والنحاس . اما الحديد فتؤخذ ملعقة شاي من طرطيرات الحديد وتحل في نحو اربع كوبات من الماء ويضاف ما يملأ فنجان شاي لكل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذي مرة في الاسبوع ، او اكثر من مرّة اذا بدا لون النبات شاحباً . واما البور فتؤخذ ملعقة شاي من الحمض البوريك وتحلُّ في جالون من الماء ويضاف نحو ثلاث كوبات من هذا السائل الى المحلول المغذي (٢٥ جالوناً) مرة في الاسبوع . واما المنغنيس فتؤخذ ملعقة شاي من كلوريد المنغنيس النقي وتحلُّ في جالون من الماء ثم تخفف باضافة جالونين من الماء . ويضاف نحو كوبين الى كل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذّي ، وتعمل العملية نفسها بكبريتات الزنك النقية ويضاف ما يملأ اربع ملاعق شاي من المحلول الى كل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذي . اما النحاس فتؤخذ ملعقة شاي من كبريتات النحاس النقية وتحلُّ في جالون ماء ثم تخفف في اربعة جالونات ماء ويضاف ما يملأ ملعقة شاي من هذا السائل الى كل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذّي

وقد تبسطنا في موضوع اضافة هذه العناصر الى المحلول المغذي لأن النبات يحتاج الى مقادير يسيرة منها لكي ينمو نموًّا سويًّا ، علاوة على العناصر التي يستمدُّها من الماء والهواء

ثم هناك مسألة اخرى . فبعض النباتات يستنفد من المحلول المغذي مقادير من عنصر معين اكثر مما تستنفده النباتات الاخرى . بل ان النبات الواحد يختلف في ما يستنفدهُ من أحد العناصر في دور من أدوار نموّه اكثر مما يستنفذه من العنصر نفسهِ في دور آخر من حياتهِ . فاجتناباً لتحليل الماء في فترات قريبة ومعرفة ما يحتاج اليهِ من العناصر التي استنفدت منهُ ، يقترح الباحثون ان يغيَّر المحلول المغذي كلهُ مرة كل أسبوعين ، وأن يلاحظ المجرِّب مستوى الماء في الحوض فيضيف اليهِ ما يبقي سطحهُ عند المستوى المطلوب

وعندما يفرغ الحوض في آخر فترة الأسبوعين ، يجب ان يوضع فيهِ أولاً نصف مقدار الماء (اي ١٢ جالوناً ونصف جالون) ثم تضاف المركبات الكيميوية اللازمة اليهِ ، ثم يضاف المقدار اللازم من الماء لرفع سطح المحلول الى المستوى المطلوب . ويجب تغبير النبات بمسحوق الكبريت لوقايتهِ من بعض الآفات . وقد نجحت التجارب التي أجريت حتى الآن في الدلالة على ان هذا النوع من الزراعة يصيب نجاحاً كبيراً في الشمام والبطيخ والبنجر والجزر وان الورد و«الكريزانتم» و«البيجونيا» و«الجلاديولي» وغيرها تصيب نجاحاً يبعث على الرضا

إن هذا الأسلوب الجديد في الزراعة يفتح أمام الباحثين ميادين واسعة للتجربة والاختبار . ولا يبعد ان يعمد الباحثون بعد ان تتقن وسائلهُ الى استنباط وسائل جديدة للتحكم باللون والنكهة والرائحة . فالزراعة المائية تهيء لهم السبيل لتجارب دقيقة كانت متعذرة في الزراعة في التراب

البحث الرابع

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

عصر مطران وطابعه العام

« توطئة » الجيل الذي نشأ فيه الخليل هو في الحقيقة جيل تداخلت فيه عصور متباينة ، فهو من هذه الناحية ليس بجيل واحد تتناسق فيه الأوضاع والأحوال وان اجتمعت في نطاق واحد من الزمان . هذا الجيل الذي انصرم بانصرام القرن التاسع عشر نسيج لون من الزمان لم ير تاريخ المشرق له مثيلاً من قبل الا في القرن الثاني للهجرة من حيث تداخلت في ذلك العصر أجيال متباينة الألوان وأوضاع مختلفة الأشكال . غير ان هذا الجيل الذي دخل في صفحة التاريخ اجتمعت فيه ثقافات وحضارات — ثقافات العرب المتوارثة عن العصور المختلفة ، والتي تكوّن ثقافة ذلك الجيل التقليدية ، وحضارات الغرب الطارئة وثقافاته التي كانت تنعكس في صورها المتباينة على محيط الجماعة في ذلك الحين — جعلته مضطرباً ، ومنطوياً على أجيال في تضاعيفه ونحن لا يهمنا من هذا الجيل غير ما اتصل بالخليل من أسبابه . فكوّن بيئته المكانية من الزمان. وخليل مطران وان ولد في الجيل الثالث من القرن التاسع عشر ، فقد نشأ بين ذلك الجيل والجيل الذي لحقه المنقضي بانقضاء القرن الماضي . ثم إنهُ وإن ماشى الجيل الأول من قرننا هذا في اتجاهاته فإن شخصيته تقومت بأسباب الجيل الذي نشأ فيه . ذلك ان الانسان ابن نشأته ووليد بيئته الأولى . لأنهُ من الساعة التي يولد فيها حتى يودع أيام الطفولة فان افعاله العكسيّة الأصلية هي التي تستحكم في سلوكه مستنزلة الأسباب مباشرة من جهازه العصبي ، تلك الأفعال — التي كانت تعرف من قبل بقواسر الطبع وأحكام الغريزة — والتي تكون مطواعة في طفولة الانسان للمؤثرات التي تنطوي عليها بيئته المكانية من الزمان ، والتي تستنزل دوافعه

الأولية على الحركة من قواسر الطبع وأحكام الغريزة . والانسان يخرج من طفولته تحت تأثير هذه العوامل مصبوباً في قالب تكوّن شخصيته استناداً اليه . هذا القالب يكافىء الحالات التي أحاطت به من جهة ، والدوافع المستنزلة من جبلته والتي تحركه من جهة أخرى

ونظراً لأنهُ في الحالات الاعتيادية تكون الأسباب الطبيعية في تداخلها بالمؤثرات التي تستنزل من الجماعة منتهية الى حالة واحدة عامة بالنسبة لأفراد الجماعة البشرية في فترة من الزمان، فان الناس يخرجون مصبوبين في قالب معيّن . وبعد ذلك فلكل شخص من الجماعة مقوماته الذاتيّة المستنزلة من دوافعه الشخصية التي تدخل في التكافؤ مع الجو الذي يعيش في ظله ، والتي تكوّن شخصيته استناداً اليها

ولما كانت المؤثرات التي تتفاعل في قلب المجتمع البشري لا تثبت على صورة واحدة ، وتتحول من جيل الى جيل بما يستجد مع الزمن في محيط الجماعة من العوامل والمؤثرات ، وتتغاير من قبيل الى قبيل بما يتقوم من الانفعالات بروح الجماعات ، فان الحالات الخارجية بالقياس الى الانسان تتغاير ، ويتغاير تبعاً لها المحيط الاجتماعي فتتأثر بتغيرها الجماعة التي تعيش في ظل المحيط وتتنفس في أجوائه . وبعد فعصر الخليل من حيث هو جيل تداخلت فيه عصور متباينة ، فهو من هنا منحلٌ في روحه ، يتكافأ مع صورة كل عصر من هذه العصور التي داخلت الجماعة المتأثرة باسبابها

***

اذن ليس لنا ان ندخل في تفاصيل دقيقة على العصر الذي ولد فيه الخليل ، والعصر الذي نشأ فيه ، ونسهب في وصفهما واستقصاء حوادثهما ووقائعهما لان الذي يعنينا من هذه الفترة ما اتصل بشخص الخليل من أسبابه ، وهي مستنزلة من طابع الجماعة العام ، التي عاش الخليل في ظلها وتنفس النسمات الأولى في أجوائها ، ثمّ الخلوص بحقيقة ما اتصل من العصر بشخص الخليل خلوص بالعوامل التي تفاعلت مع شخصه فكانت سبباً في تكوين شخصيته

ولا شك ان خليل مطران وقد تقلب في اجواء مختلفة بعد ان اكتملت شخصيته ، في موطنه بلبنان وفي تونس وفي باريس التي رحل اليها ، وفي مصر التي استقر بها اخيراً فإن شخصيته مهما تظهر خاضعة للاحوال التي استجدت عليه في العوالم الجديدة التي عاش فيها وتقلب ، فان هذا الخضوع كان في حقيقته مماشاة لتلك الاحوال ، وبعد فشخصية مطران التي تكوّنت تحت تأثير التفاعل بين دوافعه الأولية وأسباب محيطه البدائي وبيئته الأولى ، هي التي تظهر في خلجات نفسه وفي منحى تأثره بالاشياء طيلة حياته

قد تبدو هذه الفكرات الاولية غريبة على ابناء العربية الأ انها في صميمها تستند الى حقائق

ثابتة من علم النفس التجريبي ، حققتها معامل البحث التشخيصي للنفس في روسيا وأميركا بتجارب دقيقة [1] وإذن يكون في الوسع ملاحظة القوى الخفية التي تتفاعل في أطواء النفس البشرية ووجه تفاعلها ، كما يكون في الوسع النزول بالشخصية عند الانسان الى حكم الموازنة العصبية ، وبيان وجه تركز هذه الموازنة في الفعل العكسي الأصيل وما تحول عنهُ من ارتفاقات كوّنت الفعل العكسي المتأصل ، والخلوص من ذلك كله بحقيقة الشخصية الانسانية . ولاشك أنّ للاحظة أسباب البيئة التي تدخل في مكافأة مع الدوافع الأولية عند الانسان ، الجانب الاكبر من القيمة في معرفة الشخصية الانسانية ، من حيث تحدث الارتفاقات في الرجوع الاصيلة عند الانسان

ومثل هذا التفكير يجهزنا بتكأة علمية لا لدراسة عصر الخليل فحسب ، بل لتفهم من عصر الرجل شخصيته على وجه علميّ مستنزل من قواعد واصول، تمضي بنا الى أغوار النفس البشرية وتجعلنا على اتصال بنهر المعاني والافكار ، وكيف تتدفق في اطواء النفس البشرية ، بملاحظة آثار الرجل والخلجات التي تظهر في آثاره . الا ان مثل هذا النظر يعتبر مبالغة في اتخاذ الجانب العلمي كما وان تطبيقه على درس الآداب يعتبر انصرافاً عن النقد الفني المباشر الموجه للآداب الى بحث حقيقتها والعوامل التي تفاعلت فكيّفتها على هذه الصورة . الا ان هذه الاعتبارات خاطئة لان مثل هذه الدراسة وان قامت على أسس من التحليل يخشى معها انقلاب البحث الأدبي علماً تحليليًا صرفاً فهي من حيث أنها لا تنسى الاعتبارات الفنية لا تفقد الروح الفنية

هذا المنهج في البحث هو الذي يقتضيه منطق الامور . وإذن لاوجه للاعتراض عليه — كما يفعل البعض — بأنهُ يقتل النقد الفني . لأن الآثار الادبية والفنية ، ان كانت تعكس فيها ظلال روح العصر ، فهي نتيجة للمقدمات الخفية التي تفاعلت في اطواء النفس حيناً حتى برزت ، واذن تكون مهمة النقد الكشف عنها في أصولها ومقدماتها وليس معنى هذا ان يكون درس الأدب نسبيًا للأسباب التي تتمخض عنهُ ، لانهُ لا يعني اغفال شأن الاعتبارات الفنية . فثلُ هذا التفكير لا يؤدي الى رفض ما هو مجرد واحلال كل ما هو نسبي ، وانما هو يعمل للكشف عن الأسس النسبية التي يتقوّم بها هذا المجرد المنتزع من اعيان الاشياء النسبية في صورها المختلفة وأشكالها المتباينة . والواقع انهُ ليس هنالك في الحقيقة ماهو مجرد ، وانما كل ما هنالك تحول دائم وصيرورة متواصلة وتعاقب لانهاية له من الفعل وردّ الفعل ، تأخذ الاوضاع النسبية منها الاشياء ، ثم تراجع القسط المشترك منها ، وهو المجرد المنتزع من أعيان متباينة الأوضاع

هذه أوليات لم نجد بدًّا من الكلام عليها والاستطراد فيها قليلاً ، لنمهد بأساس لدراستنا لعصر الخليل ، وما يستنزل من أسباب شخصيته منها ، وما تقوّم من أدبه وفنه بها

(١) تجارب بافلوف وثورانديك وانظر في وجه خاص آثار ماكدوجل عالم النفس المشهور

— ١ —

ولد خليل مطران سنة ١٨٧١ في بعلبك ، فهو في الثامنة والستين من سني حياته وهذه السنون التي جاوزت جيلين من الزمان تمتاز بما انعكس على صفحتها من مختلف الاحساسات المتناقضة ومتباين المشاعر المتضاربة . وقد كانت هذه الانفعالات كلها تأخذ في ظهورها على صفحة العصر صوراً متباينة وأشكالاً مختلفة نتيجة للتقلقل الذي أصاب المجتمع في صميمه ، وهذه طبيعة عصور الانتقال في التاريخ دائماً

إذن نحن إزاء عصر انتقال ، وأظهر سمات هذا العصر تداخل الثقافتين الشرقية والغربية وتشابكهما . ويمكننا ان نتخذ سنة ١٨٦٠ التي كانت بحوادثها الدامية وما أفضت اليه من استقلال جبل لبنان استقلالاً داخليًا ضمن نطاق الدولة العثمانية ، نقطة ارتكاز لدراسة عصر الخليل . فان هذه السنة تعتبر حدًّا فاصلاً بين عهدين في تاريخ سوريا ولبنان . وتعتبر الفترة التي سبقت عام ١٨٦٠ فترة انتقال ،من عصور الانحطاط الى عصر النهضة الأولى التي ظهرت معالمها الأولى بقوة في ذلك التاريخ في الشرق الأدنى

لقد كان عهد الانحطاط الثقافي في سوريا يشمل فترة من الزمن تمتد من أيام سقوط العرب عن عرش الخلافة الاسلامية في بغداد وتنتهي بغزوة نابليون بونابرت عام ١٧٩٩ لمصر واجتياحه بعد ذلك أودية سوريا الجنوبية حتى أسوار عكا . وكانت حملة نابليون مقدمة لإستيقاظ أهل سوريا ولبنان . فقد أحسوا بآثار المدنية الأوربية في صورها الثقافية والشعورية والمعاشية . ثم بدأت الصلات تتعزّز بين القطر السوري وأوربا وأخذت التجارة وحب التعامل مع الشرق يجذبان بعض الغربيين الى التوافد على الثغور السورية تحدوهم الرغبة من جهة في فتح أسواق جديدة أمام التجارة الأوربية والحصول على مواد أولية من هذه الأسواق من جهة أخرى

والسوريون أهل تجارة من قديم الزمان . بل هم أول من ركبوا السفن وخاضوا عباب البحر وضربوا بالقوافل شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وامتدت تجارتهم من الهند الى أسبانيا وساروا بسفن سليمان ومن بعده بسفن فراعنة مصر الى جنوبي افريقية . وتقلبت الأحوال وكرّت القرون وأهل سوريا لم ينفكوا عن التجارة برًّا وبحراً . فلما اتصلت بهم أسباب التجارة بأوربا في أوائل القرن التاسع عشر وكان الأمر في سوريا قد استتب للأمير بشير الشهابي المعروف بالكبير ثم لابراهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر ، عاد الناس الى الزراعة والتجارة ، فنقبوا أراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دودة القز وبعثوا بها الى فرنسا فانتعشت الحالة الاقتصادية وسارت القوافل من الجمال والبغال تنقل بضائع المشرق من العراق الى دمشق ومنها الى الثغور السورية على ساحل البحر

كما وأنها كانت تحمل بضائع أوربا الى داخلية البلاد ومنها الى إيران حتى تنتهي الى الهند. فلا تمر بك ليلة إلا وتسمع غناء المكارين يحدون جمالهم وأجراس بغالهم تحيي ظلمة الليل وتطرب آذان النيام وتنشر الرخاء على جانب كبير من السكان. خلة جرى عليها أهل الشام من عهد الفينيقيين واستمروا عليها أكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون أخرى والدهر في الناس قلّب[1]

وكان أمراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زراعة التوت وتربية دودة القز فصارت مزارعهم في البقاع التي تنتهي عند حدود بعلبك تأتيهم بما يحتاجون اليه من الحبوب وحراجهم في الجبل تسوّم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربى فيها الدود ويعصر من زيتونها الزيت فتمتعوا برفاء العيش وظهر ذلك في أعراسهم ومآتمهم. وكانت كثرة الخير في هذه الفترة من الزمن سبباً للالتفات للأرض فكثرت غلاتها وتحسن ما تعطيه من الثمرات. كان العصر، عصر رخاء مادي، استتب فيه الأمن والنظام واستقرت الأمور على حال واطمأن الناس الى حياتهم. وكانت الصلات بين أوربا وسوريا تقوى مع الزمن وتتطور الى صلات ثقافية، وأخذت البعوث تتوافد على الثغور السورية والارساليات تتزاحم، والكل يحدوه رغبة في نشر الثقافة الأوربية ومن وراء بعضها الرغبة في تبشير بالمعتقدات والمذاهب، او العمل على نشر اللغات الأوربية، مقدمة لانشاء نفوذ يكون باباً لاستعمار بلدان الشرق الأدنى

كانت حملة نابليون على مصر وحروب ابراهيم باشا مع جيوش السلطان وفتحه لسوريا باعثاً على اهتمام أوربا بالشرق الأدنى واستيقاظ المشرق. وهكذا فعلت الحوادث فعلها في الربط بين العالمين

كان الاتصال بين الشرق الادنى وأوربا سبباً لنشوء حركة جديدة أخذت تستجمع الاسباب للظهور، غير ان معالمها الأولى بدت في آثار فارس الشدياق قبل عام ١٨٦٠، الا أنها لم تظهر مستجمعة الأسباب للظهور بقوة الا بعد عام ١٨٦٠ في آثار كتّاب لبنان، وربما كانت لحوادث الجبل يد في ظهور الحركة الجديدة بقوة. غير أنه بجانب هذه الحركة ظهرت حركة مضادة لها تعمل للرجوع الى الماضي محاولة احياء تراث العباسيين والأندلسيين ومن هنا كانت هذه الحركة بالقياس الى الحركة الأولى رجعيّة، لأنها كانت تستجمع الأسباب من الماضي السحيق وتعمل على ان تصلها بالحاضر لتقيم عليه صرح المستقبل. هذه الحركة المحافظة بدأت وجودها كردّ فعل لحركة الجديد[2] وانتهت بمحاولة جريئة على يد الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) لنقل الأدب العربي من ناحية الأغراض التقليدية التي انتهى اليها في عصور الإنحطاط

(١) يعقوب صروف في امير لبنان ص ٢٧-٢٨ (٢) جورجي زيدان في تاريخ الآداب العربية ج ٤ ص ٣١

الى ناحية الأغراض العربية الصحيحة التي كانت على أيام الازدهار للمدنية العربيَّة . ونجح اليازجي ومن بعده ابنه ابراهيم في أن يعيدا للغة العربية قوتها القديمة وبلاغتها السالفة . كما نجح الشيخ نصيف في ان يرجع بديباجة الشعر العربي الى الديباجة العباسية والأموية ومن هنا كانت حركة الإحياء العظيمة لآثار الماضي التي تركت اكبر الآثار في نهضة مصر في ذلك الحين

عادت العربية الجزلة والديباجة القديمة للحياة ، ولكن عادت والاستقرار أساسها ، وظهر بجانب الميل لبعث تراث الماضي والمحافظة عليه في البيئات الإسلامية ، ميل للتخلي عن هذا التراث خصوصاً في بيئات المسيحيين من أهل الجبل ، وذلك تحت تأثير الاتصال الوثيق بأوروبا المسيحيَّة

***

كان ضعف الدولة العثمانية سبباً لأن تلعب بها أهواء الانتهازيين . وأصبحت محط انظار الطامعين بالاستقلال بشؤون البلاد، وكانت مصر في شبه استقلال عن الدولة، وكانت الثورات والفتن تقوم بين الحين والحين في أنحاء الدولة العلية . وبالجملة كان رأس الدولة قد سرى فيه الفساد ، وكان من معالم سريان هذا الفساد ان أدرك بعض الطامعين في دست الحكم ما يجيش بلبنان من الأحقاد والضغائن وان ساعة الفتنة قريبة فمكنوا لها بالتحريض والتشويق يحدوهم الرغبة في احراج الحكومة القائمة عبر البسفور في استانبول اذا قامت الفتنة وتحركت أوروبا . ومن هنا كانت مساعدة أصحاب الغرض من العسكريين للدروز على النصارى والنصارى على الدروز . . ومن هنا شبَّت النار وانتشر حريق الحرب الأهلية وتعدت المعارك حدود الجبل بتشويق أصحاب الغرض فشملت سوريا ، وكان ان تحول الصراع الى نضال ضد النصرانية في كل القطر الشامي [1]

وتدخلت فرنسا وارسلت قواتها وانتهت هذه الحوادث بعد ان ذهب ضحية لها آلاف الأرواح الى إنشاء استقلال داخلي للجبل أرضى نزعة اللبنانيين الاستقلالية وأشعرهم بكرامتهم الذاتيَّة

وقد وقفت حوادث الجبل هذه بجانب الشعور الاقليمي المتوارث عن الآباء سبباً لانعزال الشعور اللبناني عن المحيط العربي، ورجعت الى لبنان شخصيتها تنفض عنها غبارما علق بها من العروبة . وكذلك كان لحوادث الجبل الفضل في اظهار الشخصية اللبنانية للحياة من جديد من حيث حملها على تقطيع ما كان يغشاها من العقلية العربية [2]

---

(١) يعقوب صروف في امير لبنان ٣٣ و ٣٤ و ٥٥ و ٧١

(٢) انظر Danwiki في مبحثه Hist. des Maronites

— ٢ —

ان لحوادث الجبل التي جرت عام ١٨٦٠ معانيها البليغة من ناحية مقدماتها التي تدل على اضطراب شأن الدولة العثمانية ومن ناحية نتائجها التي ساقت لبنان الى الأخذ بالثقافة الاوربية والعمل على تشربها . والواقع ان هذه الحوادث كانت نقطة تحول خطير في تاريخ المارونيين في الشرق ، اذ دفعتهم نحو الغرب ، فكانوا رسل ثقافتها بعد جيل من تلك الحوادث في الشرق الأدنى . والواقع كما يقول الدكتور صروف :

[شمالي لبنان مقر المردة ومعقل رجال الدين . عصى قياصرة الروم ولم يخضع لخلفاء المسلمين بل كان يناوئهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرائه السيادة المطلقة من أورشليم الى انطاكية يحاربون بني أمية كما يحارب الاكفاء بعضهم بعضاً . واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين أباطرة القسطنطينية معاون الروم العرب عليهم . وتوالت السنون وهم لا يزيدون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً . فضعف شأن الامراء رويداً رويداً الى ان انقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لانهم يتجددون بالانتخاب فبنوا أديرتهم في كل معقل واستأثروا بجانب كبير من أملاك البلاد .] (١)

وأنت ترى ان المارونيين ظلوا محتفظين بكيانهم الشخصي في ذرى جبال لبنان ، لم تؤثر في شخصيتهم الأحداث التي مرت في كيان الشرق في عشرات القرون المتوالية التي كرت عليه . غير انهم تأثروا بالثقافة العربية التي نجحت في ان تغزوهم من حيث عاشوا جزيرة في خضم عربي متلاطم . فأخذوا اللغة العربية غير أنهم مثلوها فكانت لهجتهم اللبنانية الصميمة امتداداً لأحكام فطرتهم في خلجاتها الدقيقة وفي نبراتها . والواقع ان كل شيء في الجبل كان عميق الاتصال بروحها ، غير ان الاخيلة العربية التي كانت تحملها اللغة العربية كانت تلقي ظلالاً على العقلية اللبنانية وتصب خلجاتها ونبراتها الاصيلة في قالب يطغى عليه الشكل العربي ومن هنا كان لبنان في روحه محض لبناني أما في الشكل فكان عربياً (٢)

غير ان حوادث الجبل حين تركت في النفوس أثرها دفعت اللبنانيين الى قطيعة العرب والابتعاد عن العروبة . وكان يساعد على ذلك استقلال داخلي للجبل في نطاق سوريا الكبرى ، اذ جعل له بحسب نصوص مؤتمر بيروت الذي انعقد من معتمدي الدول الست الموقعة على معاهدة بيروت ، حكومة منظمة في جبل لبنان يؤمن بها من العودة الى ما كان من الحوادث . وكان الاتفاق ان يتولى ادارة الجبل متصرف مسيحي تختاره الدولة العثمانية بالاتفاق مع سفراء انجلترا وفرنسا وروسيا ويساعده مجلس ادارة ينتخب اعضاءه سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية ، وقرروا للجبل دستوراً في غاية من الدقة وقررت فيه المساواة التامة بين جميع سكانه وانفضت جلسات المؤتمر في اوائل مارس سنة ١٨٦١ لتطبيق هذا النظام (٣)

---

(١) الدكتور يعقوب صروف في امير لبنان ص ٣٣
(٢) I. A. Edham في ثقافات الشرق الادنى مجلة مجرى الفكر م ٣ ج ٤ ص ٣١٤ — ٣١٥
(٣) الدكتور يعقوب صروف في امير لبنان ص ١١٦ — ١١٧

ان هذه المركزية الخاصة بشؤون الجبل التي تعود لأهلها ومجلس ادارتها المنتخب الذي يساعد المتصرف ، فصلت بين الجبل وبين العالم العربي بحواجز اقتصادية وسياسية ، وكان ان بني نظام التربية والادارة الملكية على اساس من الوحدة لجبل لبنان ، فكان نتيجة ذلك كما يقول العلامة الاستاذ انيس المقدسي

[حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وماعقبها من استقلال لبنان الداخلي تركت صفة خاصة في الادب العربي على ان لهذه الحركة في الادب ظاهرتين كبيرتين — الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا — تلك الحزازات التي كانت ولاتزال من أهم بواعث الشقاق في الشرق والثانية انفصال لبنان عن السلطة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى . فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال وفي تينك الظاهرتين تكون في نفسه ذلك الشعور الاقليمي في سبيل الوحدة العربية

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الخمسين السنة الاخيرة ير شعور ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه ولاينكر ان بعض اللبنانيين أخذ بعد الحرب الكبرى بنزع نزعة وطنية عامة ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لايزال قوياً] (١)

وجاء استقلال لبنان الداخلي سبباً لتأسيس الكليات والمدارس التي تنافس المرسلون من اليسوعيين والاميركيين في اقامتها في بيروت . كما كان التنافس على أشده في الجبل لإنشاء المدارس والمعاهد . وفي الفترة التي انقضت من عام ١٨٦٥ الى عام ١٨٧٥ ،أعني فترة عشر سنين من التي عقبت استقرار الاحوال في لبنان شهدت بيروت وضع الحجر الأساسي لأربع كليات جامعة ، وكان الاب جرجس عيسى من الطائفة اليونانية الكاثوليكية اول من شق الطريق في تأسيس الكليات إذ وضع في تلك السنة الحجر الاساسي للكلية البطريركية في بيروت التي افتتحت عام ١٨٦٦ والتي كان من خريجيها شاعرنا الخليل . وفي السنة نفسها افتتح الاميركيون ابواب الكلية السورية الانجيلية المعروفة الآن باسم « الجامعة الاميركية » في بيروت . ثم أقام اليسوعيون جامعتهم الكبيرة عام ١٨٧٥ . وفي السنة نفسها وضع المنسنيور جان دبس الحجر الاساسي في كلية الحكمة. وكان تأثير انشاء هذه الكليات الجامعية في النشء اللبناني والسوري بليغاً من حيث عمل على تثقيفه على الطرائق الاوربية وانشاء الصلة بينهُ وبين الآداب الغربية . ولما كان هناك بجانب هذه الكليات،عشرات من المدارس التي اقامها المرسلون في الجبل وفي انحاء لبنان وسوريا أخذ التصادم بين الثقافتين الشرقية والغربية يميل الى الثقافة الغربية التي كانت تسبغ على النشء السوري والجيل الجديد في لبنان صور الثقافتين اللاتينية والسكسونية التي كانت قد استقرت في ذرى لبنان وفي الشاطىء (٢)

على ان شعور الانعزال عن العالم العربي في لبنان بجانب مدّ المدنية والحضارة الغربية الجارف

---

(١) أنيس المقدسي المقتطف م ٩٢ ج ٣ ص ٣٠٠

(٢) K. T. Khairallah في La Syrie طبعة Ernst Leroux ، باريس ١٩١٢ ص ٣٢ — ٦٨

عمل على تقطيع العقلية العربية في اهل لبنان ، تلك العقلية التي كانت مسدلة اسدافها على اللبنانيين صابة شعورهم في القالب العربي : وللمرة الأولى في تاريخ لبنان نجح اللبنانيون في ان يظهروا شعورهم وخلجاتهم على حقيقتها في آثارهم ، مستمدة أسبابها من محيطهم الطبيعي . غير ان هذه الخلجات كانت تظهر مشوبة بالشكل الغربي نتيجة لما تركته الثقافة الغربية فيهم من الأثر . غير ان هذا الطابع الغربي أخذ يضعف في لبنان حتى كانت فترة ما بعد الحرب ، فانطلق الشعور اللبناني حراً متغلباً على الاحوال التي تتركها عليها أسباب محيطها الطبيعي

وليس لنا ان ندخل في تفاصيل عن هذه الحقائق ، فما يعنينا في بحثنا لعصر الخليل من هذا الموضوع ، غير شأن واحد ، هو تقطع الثقافة العربية ممثلة في الخلجات العربية التي كانت غالبة على على اهل لبنان الى عام ١٨٦٠ من حيث كان كل من يتثقف منهم يقع تحت تأثير المتون العربية فينصب شعوره في القالب العربي

كان هذا العصر من أزهى العصور التي عرفها تاريخ لبنان . فقد نجحت محاولة اليازجي الكبير وابنه ابراهيم في ان ترجع باللغة العربية الى جزالتها القديمة وبالشعر العربي الى ديباجته العباسية والاموية ، ثم كانت الاحداث التي رجحت جانب الجديد في جوّ لبنان ، فرأينا محاولات في سبيل تمثيل العناصر ذات القيمة في الآداب والفنون والعلوم العربية ولقد حمل اللواء في هذا الغرض بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٩٣) الذي حاول اعادة علوم الماضي في دائرة معارف كانت الأولى من نوعها في تاريخ اللغة العربية ، وفي قاموس (محيط المحيط) الجامع الى جانب غزارة المادة جمال التنسيق . ولقد سار في هذا الطريق من بعده ابنهُ وأحد ابناء عمومته سليمان — فأضافا الى ما تركه بطرس البستاني من الدائرة اربعة اجزاء . وعمل سليمان البستاني (١٨٥٦ — ١٩٢٥) في هذا الميدان ورأى بثاقب نظره ان تطور الأدب العربي وقف على ما يلقح به من طرف الآداب الغربية الكلاسيكية فقام بترجمة (الالياذة) من اللغة اليونانية الى اللغة العربية شعراً في قالب يستطيع تمثيله العالم العربي[1]

اذن فنحن في ذلك العصر ازاء بيئات متباينة تتدرج من بيئة المدرسة القديمة التي ترجع الى ايام الازدهار للمدنية العربية تستوحي منها أخيلتها ، الى بيئة المدرسة القديمة التي تمثل عصور الانحطاط للمدنية العربية ، الى بيئة مدرسة تخلصت من آثار عهود الانحطاط واتصلت بموجة الغرب ومن هنا عملت على ان تقتبس من الغرب الى الحدّ الذي يستطيع المحيط في ذلك العصر تمثيله . الى بيئة انكرت كل ما كان من الماضي وقطعت صلاتها باصول الثقافة العربية التقليدية ومشت سراعاً وراء الثقافة الغربية تحاول ان تقيمها في عالم الشرق الادنى . على ان هذه البيئات كانت

(١) H. R. A. Gibb في B. S. O. S. م ٤ (١٩٣٨) ص ٧٥

تقوى وتضعف بحسب ما تقوم من الاحداث والاسباب

يتحدث خير الله خير الله من كتّاب سوريا المعروفين في كتابه « سوريا » المطبوع بباريس عام ١٩١٢ عن البيئات الجديدة في سوريا ، وهو يذكر منها البيئات الشآمية واليونانية والروسية والجرمانية والسكسونية واللاتينية ، الا أنه يتحدث عن غلبة مدّ البيئة اللاتينية في سوريا ولبنان على غيرها من البيئات الجديدة . والواقع ان البيئة اللاتينية كانت متغلبة في اواخر القرن الماضي في لبنان على كل شيء حتى على البيئة العربيّة ، وكيف لا تتغلب الثقافة الفرنسية وكل المبادىء والعلوم والفنون كانت تدرس في مدارس الإرساليات على العموم باللغة الفرنسية ، ومن هنا خرج ابناء الجيل الجديد في لبنان متشربين الثقافة اللاتينية ومن هنا كانت ميولهم نحو الفرنسيين أيام الحرب

على ان هذه البيئات كانت تتركز في مراكز في لبنان وتخلق حولها جوًّا معيناً . وكان التضارب بينها على أشده ، من حيث كانت كل بيئة منها تحمل ثقافة تباين بخصائصها الثقافة التي تحملها البيئة الأخرى . وعندك بيئة اليسوعيين الذين يمثلون العقلية المسيحية المحافظة وكانت وسائلهم لتمكين عقليتهم في المحيط اللبناني مدارسهم وكليتهم الجامعة ببيروت . وكانوا يمثلون اقوى سلطة بعد سلطة البطريرك في لبنان ، وكان لهم صحيفة «البشير» اليومية ومجلة «المشرق» الشهيرة . وقد وقفت العقلية المحافظة دون ذيوع صور الفكر الجديدة في أوربا واتجاهات الآداب الحديثة . وكانت تنكر على اصحاب « المقتطف » قولهم بدوران الأرض وتحمل عليهم للقول بتسلسل الأنواع ، وتوجّه النقد الى الفيلسوف الدكتور شبلي شميل لآرائه المتطرفة في الدين والاجتماع وتدفعها الى الحملة على الآداب الجديدة التي لا ترجع الى طرائق الأدب الكلاسيكي الفرنسي . ثم عندك بيئة المرسلين الانكليز والأميركيين وهم يمثلون العقلية المسيحية المتحررة ، ولكن كانوا يحملون بيئتهم جوًّا من الحريّة والاتساق المعروف بهما الانكليز والاميركيون ، وكانت بيئة هؤلاء لا تجد جناحاً في مجاراة تيار العصر والرجوع الى التفسير ليوفقوا بين الكتب المقدسة ونتائج العلم الحاسمة ، فكانوا يقولون بدوران الأرض ويعلمونهُ في دروس الجغرافيا في مدارسهم وفي دروس الفلك في كليتهم . ومن هنا كان تباين العقول ومناهج الأذهان في التفكير واختلاف الأذواق الأدبيّة . وكان بعض المتأثرين ببعض هذه البيئات يذهبون الى أوروبا لاكمال علومهم او للتجارة او السياحة ، وكانوا يرجعون وهم يحملون الآراء المتطرفة والمذاهب الجديدة التي عرفتها عقلية القرن التاسع عشر في الغرب

***

كان العصر بجملة القول يمثل عصوراً متباينة — كما قلنا — ومن هنا كان التباين في الثقافة والعقول ومناهج الأذهان والأذواق

— ٣ —

امتاز كل عصر من العصور التي انتقلت به الإنسانية من دور الى دور ، بروح مشت فيه وأصبحت الطابع الذي يوسم به ذلك العصر. فللمدنية الاغريقية طابع ، وللرومانية آخر ، وللعربية ثالث ، وللقرون الوسطى روحها الكنسية التي تداخل في كل شيء حتى في الحياة العائلية في المنزل. وكذلك الحال في الأربعة القرون الماضية ، منذ أن بزغ فجر القرن السادس عشر حتى اليوم نرى ان لكل دورة زمانية من دوراتها روحاً خاصَّة . ولكن أظهر ما كان فيها من الآثار نشاط حركة الفكر وتقوي موجة الثقافة وازدياد تيارات العلم ، التي انتهت بالغرب الى مدنيته الواقعية المادية (١)

والعصر الذي نحن بصدده يمتاز بأن الروح التي تمشى فيه ، هي روح الفكر ، ومن هنا كان ابرز شيء في ثقافة لبنان ، ازدياد حركة الفكر فيها وتقوي موجة الثقافة . غير ان هذه الروح ما كادت تقوى ، وهي متأثرة الأسباب بروح أوربا الواقعية المادية ، حتى قام النضال بين عقلية لبنان المتوارثة المحافظة على روحها الكنسية التي تقرب من روح القرون الوسطى وبين العقلية الجديدة الواقعيَّة الماديَّة التي حملتها الثقافة الغربية اليها

يقول الأديب نشأت المرتيني وهو من شباب سوريا ولبنان المثقفين

[حتى المثقفين منا يرون أننا سنصطنع ما عند الغرب ونفوسنا على ما هي عليه لا تتبدل . وسنفيد كل ما عند الغرب وعقولنا كما خلقها الاقدمون لن تتحول. انطف عقولنا بالعقول الغربية تطيفاً . ونحيط أدمغتنا بالاساليب الغربية احاطة، فتبقى عقليتنا خاضعة لاساليبها الغيبية الميتافيزيكية، ولكنها مستورة بأغشية واقعية مادية] (٢)

هذه كلمات بليغة في دلالتها على حقيقة ذهنية اللبنانيين . والواقع لا ينكر ان العقلية الكنسية المحافظة في لبنان وقفت في سبيل الذهنية اليقينية فلم تسمح للبنانيين ان يتجاوزوا الحدّ الغيبي الى اليقينيات . والحقيقة انه في ذلك الحين لم يقدر على التغلب على هذه الروح الا نفر قليل من مفكري لبنان ، نذكر منهم الدكتور الفيلسوف شبلي شميل والدكتور العالم يعقوب صروف والبحاثة الاديب فرح انطون . وبقي بعد ذلك الطابع العام للذهنية اللبنانية غيبيًّا يظهر في نفس الصورة التي كانت عليها العقلية الكنسية ، والتي تظهر بين صفحات التاريخ في القرون الوسطى الا ان الروح الواقعية المادية المتمشية في ذلك العصر في الغرب ، كانت تنتهي الى جوّ لبنان على يد المرسلين وقد فقدت أصولها اليقينية . واعتاضت عنها بأصول غيبية ، وبعد ذلك فلا جناح ان بقي الشكل يقينيًّا . وهكذا اجتمعت الاسباب على الذهن اللبناني لتخلع على عقليته الغيبية أستار الأساليب الواقعية المادية وهي في صميمها غيبية . وفي هذا وحده ينحصر الفرق بين

(١) أنظر اسماعيل مظهر في ملقى السبيل ص ١٧ (٢) مجلة المكشوف ، العدد ١٩٠ ص ٩ — ٧

ذهنية لبنان في الجيل الماضي والجيل الذي انصرم بانصرام القرن التاسع عشر وبين ذهنية القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر

والطبيعة اللبنانية من حيث هي أقدر طبيعات الشعوب الشرقية على تشرّب الاشياء وتمثيلها assimilé ، فان هذه الطبيعة كانت تسوق اللبناني الى الانطباع بالذهنية الواقية ، لو كانت المدارس والكليات التي قامت فيها علمانية ، ولكن مثل هذا المقدر لم يكن ، فثبّتت العقلية الغيبية وقد اسدلت اغشية واقية عليها لاءمت بينها وبين روح العصر

الاّ ان الروح الاوربية من حيث حلت معها النقد — لان اوضح شيء في المدنية الاوربية حرية الرأي والفكر — كانت تتقوم بالروح الفردية الاستقلالية ومن هنا كان الصراع بين العقلية الاوربية والعقلية الشرقية التي لبست ثوباً من الاصلاح الديني تارة وثوباً من الدعوة والانتصار للحرية الفردية طوراً

***

المدنية الغربية تغزو الشرق الادنى وعلى وجه خاص لبنان . والمدنية الغربية تترك أثرها في كيان المجتمع الشرقي ، وهذا الأثر يبدو طلاء على وجه المجتمع اللبناني . ومن هنا كان الافتتان الظاهر بأشكال المدنية الاوربية ، وهذا الافتتان وان نجح في اعطاء لبنان الاخلاق والعادات الغربية فانه لم يتعدَّ مظاهر الجماعة ، وبعد فالجماعة بخلجاتها ونبضاتها الداخلية لم تتطور تبعاً للحياة التي يأخذ بها المجتمع الغربي في ذلك العصر . ومن الوهم ان نحمل تعقد العلاقات والصلات على الثقافة والاخلاق الغربية ، لانها ترجع الى اجتذاب المدن اهل القرى والدساكر ، وفي المدن يتكاثر الناس ويزيد الازدحام فتزيد العلاقات تعقداً والصلات اشتباكاً . وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها ، وهي تؤدي الى نشوء المشاعر الضامية بدلاً من المشاعر الفردية التي تتجلى في الفردية الاستقلالية للجبلي او ابن الصحراء

مثل هذا الاشتباك في الصلات والتعقد في العلاقات كان يسوق ، نتيجة لما ينتهي اليه المجتمع من التغاير الثقافي ، الى بعض المحذورات التي لا تقبلها الآداب المتعارف عليها والأخلاق القائمة . ولقد كان هذا الانطلاق من قيود الأخلاق القائمة ، وقيام الآداب الاجتماعية على اساس من انتهاز الفرص واقتناص اللذات ، والتكتل الذي كانت تدفع اليه حالة الازدهار الاقتصادي في ذلك العصر كلها ، بجانب ما تتركه الثقافة الغربية من الآثار الثابتة في كيان المجتمع ، والتي تتداخل مع الثقافة التقليدية الشرقية الآخذة في التقطع — كلها كانت تسوق الى التحلل من قيود الأخلاق القائمة والانطلاق من اوضاع الآداب المتواضع عليها . ولقد كان تكتل الناس في المدن واجتماع مجموع مختلف المشارب والنزعات متضارب الاذواق والحاجات يسوق الى خلق اجواء جديدة

كان من مقوماتها هذه الأخلاق المتحللة والآداب المتقطعة. على ان الطبقات الدنيا بما كان فيها من بقية صالحة من الاخلاق ومسكة عاصمة من الغواية ، بحكم كونها مركز الثقل في الاجتماع كانت تعتبر غوايات العصر ورذائله من مساوىء الجاه والغنى والمدنية الغربية ، فكانت ترى في فقرها ما تعتصم به من غوايات العصر ورذائل المدنية . ومن هنا كان ذيوع الاخلاق الدينية بين الطبقات الدنيا التي تقوم على اساس من الدعوة للاعتصام بالصبر والرجاء امام ملمات الحياة. غير ان مغريات العصر كانت اكثر من ان يعتصم منها بالصبر والرجاء والعزاء في عالم اخروي ، فانتشر الرياء والختل والخداع

وهذه طبيعة لعصور الانتقال يجب ألاَّ تتحرَّج من ذكرها

***

وكانت المدنية الأوربية بما تتركه من الأثر الثابت في محيط المجتمع اللبناني تتفاعل مع المؤثرات التي تفعل صميمه ، فتنتهي الى إحداث رجحان لحالة التغاير الثقافي — التي تكلمنا عنها — وكان من النتائج التي أسفرت عنها ، نشأة مذاهب جديدة تتشعب من الدين الاصلي للجماعة وشكوك تعصف بالعقيدة. والواقع ان اختلافات البيئات الثقافية وما كانت مدارس الارساليات تطبع به طلبتها من طابعها الثقافي الخاص ، كانت تمهد لهذا التشعب من جهة ، ولانتشار الشكوك من جهة أخرى. وكان ثمرة هذا كله تقوية ما كان يعرض لمحيط المجتمع اللبناني من عوامل الهدم للعقائد والتشكيك للنحل والأديان . وهذا كله كان يجمع الأسباب ويهيىء الجو حول نزعة النقد التي كانت قرارة روح العصر وبذلك يُمهِّد السبيل للمذاهب المادية . والواقع ان المادية وجدت في بعض الطبقات التي اكتملت اسباب ثقافتها وتحررت عقولها واستقلت شخصيتها على نمط من ذاتها مرتعاً خصيباً، حتى ان الجيل الأخير من القرن التاسع عشر شهد الفيلسوف اللبناني الكبير الدكتور شبلي شميل يكتب الرسائل في فلسفة التطور ويشحنها بنقد الأديان والعقائد وكان ان بذر هذا الاتجاه المائل نحو المادية الواقعية بذوره في عقلية النشء العربي فانتهت به الى حركات التجديد في ميدان الدين والفكر والاجتماع

على ان هذا الاتجاه البالغ حد التطرف كان يقابله اتجاه آخر محافظ يستجمع الاسباب من القوى الساكنة في المجتمع يحاول ان يقيم للغيب عالماً في عوالم الشهادة

الا ان المجتمع اللبناني في العموم لم يكن يتقبل قبولاً حسناً الحركات المتطرفة في الدين والاجتماع والذاهبة مذهب الماديين من الغربيين، كما وأنهُ لم يكن يسمح بتقبل الصورة الكونية التي رسمتها الكتب المقدسة والشريعة الكنسية المستقرَّة ، لان ما كان ينتهي اليه من الحقائق

النهائية للعلم اليقيني الأوروبي كان يعارض الصورة الكونية التي رسمها الكتب المقدسة ، ومن هنا كان الصراع بين الحقائق الجديدة في الكون والصورة القديمة ، وكان مظهر هذا الصراع ، نضالاً بين رجال الدين ممثلي العقلية المؤمنة بالصور القديمة في الكون وبين رجال الفكر من الآخذين بأسباب العلم اليقيني الأوروبي . وامام تيار الافكار العصرية والمستكشفات العلمية اضطرّ رجال الدين ان يفتحوا باب التأويل والتوفيق بين ما في الكتب المقدسة من صور كونية وبين ما انتهت اليه الحقائق العلمية من رسم صورة للكون . ولا يهمنا ما كان من تفاصيل هذا الصراع ، ففي مجلدات المقتطف الأولى شيء من هذا . وبعد فالدين على ما هو عليه من تشعب المذاهب ، والعقيدة على ما هي عليه من الشكوك التي تحف بها ، كانا من أظهر ما يستوقف النظر من طابع ذلك العصر

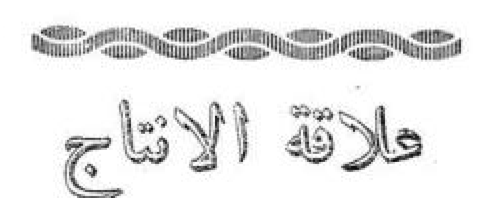
***

خاتمة

كان العصر ، عصر إيمان وشك ، عصر يقين وحيرة ، عصر حكمة وجهالة ، عصر اشراق وقتام عصر نور وظلام ، ومن هنا كان ذلك العصر أحسن الأزمان واسوأها . ولهذا لم يكن من المستطاع لتداخل الحالات المتباينة تعريف العصر بحدٍّ ثابت غير انا يمكننا ان نقول :

[لقد كان روح ذلك العصر قلباً ، كان الجديد يتحول بعد زمن الى حركة أخذ بالقديم ، والقديم يتحول بعد فترة الى حركة أخذ بالجديد . كان العصر تتجاذبه قوى مختلفة ومن هنا كان متقلقلا يمثل عصور الانتقال أحسن تمثيل . لقد كانت نسمات الصحراء من الحجاز تهب عليه ، وكانت الرياح تحمل اليه من بيت لحم اصداء ما تركه المسيح في أجواء فلسطين . وكانت تشده أمراس الماضي لحالات يخرج بها منه ، كما تجتذبه الى أيام ازدهار المدنية العربية ذكريات تخالجه . ثم بعد ذلك الاعصار الذي كان يهب عليه بين الحين والحين من جهة أوربا فتجمع السحب من البحر الابيض المتوسط فوق قمم الجبال في لبنان ، ثم تغسل بها الوادي وتغمرها بسيول المدنية الاوربية فتجري في الوديان والبطاح باعثة الحياة في كيان الشرق الادنى]

كان هذا العصر بطابعه العام خير العصور التي تمهد السبيل من حيث استجماع الأسباب لمثل رسالة الخليل الإبداعيّة . وليس لنا ان نطنب في الكلام عن الطابع العام لهذا العصر مستقصين عن أسبابه محللين لحوادثه أكثر مما فعلنا ، لأن ما يعنينا — كما قلنا من هذا العصر — هو ما اتصل بشخص الخليل من أسبابه ، وهي مستنزلة من طابع الجماعة العام التي عاش الخليل في ظلها وتنفس النسمات الأولى في أجوائها . ولنا بعد ان ننظر في حقيقة ما اتصل من العصر بشخص الخليل ، ونخلص بالعوامل التي تفاعلت مع شخصه فكانت سبباً في تكوين شخصيّته



علاقة الانتاج

الزراعي بتغذية الشعب

— ٢ —

لحسين عنايه بك

وكيل وزارة الزراعة



[المقتطف : كان موضوع الجانب الاول من هذا البحث العلمي العملي النفيس (راجع مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٢٦٨ — ٢٧٥) وصف الشأن العظيم الذي تعلقه الحكومات بتغذية الشعب ثم يليه استقصاء الاغذية المختلفة التي يعتمد عليها الشعب المصري في طبقاته المختلفة وشتى انحاء البلاد . ثم يلي هذه التوطئة جداول عظيمة الشان من الناحية العلمية العملية تحتوي على تحليل واف لمختلف الاغذية من حيث مافيها من البروتين والدهن والسكر بو ايدرات والوحدات الحرارية ودرجة الحموضة والقلوية وهي عناصر لا بد من معرفتها معرفة دقيقة لتعيين القيمة الغذائية لهذه الاطعمة . ونشرها هنا متعذر على فائدتها العظيمة لانها من اختصاص المطولات . ولذلك ننتقل منها الى ما يليها من هذا البحث وهي العوامل التي يجب توافرها لضمان حسن التغذية في الشعب المصري وقد راعينا في نواح منها اختصار الجداول ايضاً]

إذا راجعنا هذه الجداول رأينا ان الطبقات العاملة في وادي النيل لا تعوزها الأغذية المولدة للطاقة كالغلال وكافة الحاصلات النشوية في شتى أشكالها

وقد عمد أهالي مشله بمركز تلا حيث تكثر زراعة البطاطس الى خلط البطاطس المسلوق بعجينة الذرة الشامية في صناعة الخبز وذلك من تلقاء أنفسهم ومن غير ارشاد وهم يجهلون أنهم قد أحسنوا صنعاً لان البطاطس غذاء قلوي موجب ذو فائدة عظيمة في معادلة حموضة الاغذية النشوية كدقيق الذرة الذي يصنع منهُ الخبز

كما أنهُ لا تعوزهم الحبوب القطانية والزيوت والدهون التي يستخرجونها من مختلف الحاصلات الزيتية كالقرطم وبذر الكتان والسمسم والسلجم وخس الزيت

ولا تعوز أغلبهم الخضر الغضة (الطازجة) والفواكه الرخيصة بفيتاميناتها كالبلح والموالح والجوافة وانما تعوزهم الاغذية الحيوانية كاللحوم والألبان ومشتقاتها او ما يعادلها من الاغذية النباتية الغنية في البروتينات المركبة التي تقوم مقام بروتينات اللحوم كفول الصويا مثلا

والقطر المصري ولله الحمد قطر زراعي لا يضارع في خصبهِ ووفرة مياه الري فيهِ وسطوع شمسه وكثرة الأيدي العاملة فيهِ وطاعتها وكدّها وجدّها وسعيها وراء العيش أي أنهُ يتوافر فيهِ

العوامل الضرورية لانتاج ما يكفي غذاء ساكنيه والاستغناء عن الواردات الاجنبية . ولما كان سكان الديار المصرية في ازدياد مستمر وجب ان تكون مسألة تغذيتهم الشغل الشاغل لعلمائنا ورجال الأمر فينا . ولضمان تغذية الشعب المصري يجب ان تتوافر العوامل الآتية

١ — وفرة الانتاج الزراعي — ٢ — تعدد أنواع الحاصلات والخضر والفاكهة ووفرتها للاستغناء بها عما يرد الينا من الخارج — ٣ — توفير الاغذية الحيوانية — ٤ — المحافظة على المحصول سواء النباتي والحيواني وحفظه من التلف في أثناء النمو والتخزين والشحن الى مكان التوزيع والاستهلاك ٥ — التوسع في الصناعات الزراعية واتقانها — ٦ — ضمان توزيعه في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وبأسعار متهاودة لا تزيد الاَّ يسيراً عن سعر الجملة — ٧ — عمل احصاءات دقيقة سنوية عن الانتاج

﴿ وفرة الانتاج الزراعي ﴾ تتوقف على عوامل أهمها : — ١ : توافر الارض الصالحة للزراعة ٢ : كثرة الايدي العاملة المدربة على الشؤون الزراعية — ٣ : توافر الشروط اللازمة لنجاح المحصول ٤ : زراعة الاصناف الكثيرة الغلة . ولنتكلم الآن عن كل بند على حدة

﴿ توافر الارض الصالحة ﴾ زمام اراضي القطر المصري أي وادي النيل بحسب احصاء سنة ١٩٢٩ يبلغ ٨،١١٨،٣٥٣ فداناً

منها منافع عمومية	٩٩٣،١٩٧	فداناً
واراضٍ ملك الحكومة	١،٦٠٨،٦٧٧	»
وأراضٍ للافراد والهيئات	٥،٨١٦،٤٧٩	»
وهذه المساحة مقسمة من حيث زراعتها الى :		
(أراضٍ مزروعة)	٥،٦٠٨،٠٠٢	فداناً منها
محاصيل وخضر	٥،٥٠٧،٦٢٥	»
اشجار فاكهة	٥٤،٢٦٦	»
اشجار خشبية	٢،٦٦٨	»
مراعٍ طبيعية	٤٣،٤٤٣	»
(أراضٍ غير مزروعة)	٢،٥١٠،٣٥١	فداناً منها
منافع عمومية	٩٧٧،٦٥٧	»
مستنقعات	١٥،٣٧٧	»
بور	١،٧٩٩،١٢٥	»
(اراضٍ مقام عليها مبان أو احواش أو اجران)	١٨،١٩٢	»

في القطر المصري إذن ما يقرب من مليوني فدان من الاراضي البور القابلة للاصلاح وهي كافية للقيام بأود الزيادة المضطردة في السكان إلى امد بعيد

«الأيدي العاملة المدربة»: الأيدي الزراعية العاملة بالقطر المصري وفيرة ولله الحمد وكثير منها ولاسيما في الوجه البحري مدرب على الاعمال الزراعية العادية. ولكن الفلاح المصري ينقصه الأساليب الزراعية الحديثة. والطريقة الوحيدة لذلك هي بالتعليم والارشاد العملي — وإلى حضراتكم ما أراه من مقتضيات نهضتنا للنهوض بالزراعة المصرية

١ — يجب أن يوجه التعليم الالزامي والأولي توجيهاً زراعيًّا محضاً فتكون مواد الدراسة جميعاً في موضوعات زراعية

٢ — يجب أن يكون أغلب المدارس الابتدائية مدارس زراعية ابتدائية عامة وتخصيصية بحسب الزراعة السائدة في المناطق المختلفة كمناطق الأرز في شمال الدلتا والقصب في الصعيد وصناعة الألبان في منطقة دمياط والخضر والأزهار في منطقة الاسكندرية الخ ... ومدارس لاخراج بستانين مدربين على زراعة الفاكهة وما تتطلبه من فنون التقليم والتطعيم والطرق العملية لمقاومة الآفات والطرق الحديثة للشحن والتصدير

٣ — يجب أن يعدل نظام التعليم الزراعي المتوسط تعديلاً كليًّا بحيث يكون اكثر فائدة للزراعة المصرية من الوجهة العملية الانتاجية فتقسم مدارسه بحسب التخصص إلى

ا — مدارس متوسطة لاخراج نظار العزب ويتدربون فيها على إدارة العزب ومسك الدفاتر وتنظيم العمل الخ ...

ب — مدارس زراعية متوسطة ميكانيكية لاصلاح الآلات الزراعية وادارتها

ت — مدارس زراعية متوسطة لصناعة الألبان وأخرى لتربية النحل والحرير ومثلها لكافة الصناعات الزراعية كحفظ الفواكه والخضر واستخراج الزيوت وصناعة الخمور للتصدير

ث — مدارس زراعية متوسطة للتخصص في تربية الدواجن والماشية

ج — مدارس زراعية متوسطة لفلاحة البساتين

ح — مدارس زراعية متوسطة للحاصلات الأساسية كالأرز والقطن والغلال والقصب الخ

كما انه يجب أن يعاد تنظيم كلية الزراعة على اساس التخصص في فروع الزراعة المختلفة لتستفيد البلاد منهم إلى اقصى حدود الاستفادة

وبذلك يكون في بلادنا جيش من الزراعين النافعين العمليين المدرّبين على أصول الزراعة الحديثة بأيدي اساتذة يلتهبون حماسةً لتقدم الزراعة المصرية

اما الإرشاد العملي لوفرة الانتاج فن خاص اعمال وزارة الزراعة وفيها الآن قسم للدعاية

والارشاد منظم على أحدث النظم وهو يؤدي رسالة الاقسام الفنية بالوزارة الى كافة طبقات الزراع بما يطبعهُ من النشرات الفنية والمجلات الزراعية والبيطرية ومجلة زميل الفلاح والمنشورات والمجالات المصورة واللوحات المصورة والاشرطة السينمائية الناطقة التي تعرض على جمهور الزراع بسيارات وأجهزة والدعاية بالإذاعة اللاسلكية والمحاضرات الشخصية في الأقاليم والمعارض الموسمية والمسابقات والمتاحف الاقليمية وغير ذلك مما يطول شرحه

٣ — « توافر الشروط اللازمة لنمو المحصول ونجاحه » وهذه الشروط هي :—

ا — جودة التقاوي وخلوها من جراثيم الأمراض : وتعمل وزارة الزراعة على ذلك بأحدث الوسائل فأنشأت محطة لاختبار البذور على أحدث النظم العصرية وانشأت قسم الاكثار لاكثار ما ينتخب من التقاوي الجيدة لتوزع على جمهور الزراع بمعرفة القسم التجاري

ب — حسن الخدمة باستعمال اوفق الآلات الزراعية للحرث والتزبيق وقد توفق الاستاذ حامد البلقيني مدير مزرعة الجيزة سابقاً وأستاذ الزراعة بكلية الزراعة حاليًّا الى اختراع آلات زراعية تسد احتياجات الزراعة الحديثة بأيدٍ مصرية ومواد مصرية يسهل وجودها في كل قرية

ت — حسن اختيار السماد الموافق واضافة المقدار المناسب ويقوم الآن قسما الكيمياء والزراعة الفنية بتجارب في ذلك أسفرت عن نتائج عظيمة في الحاصلات الرئيسية

ث — الزراعة في المواعيد المناسبة من أهم العوامل لضمان وفرة المحصول وتقوم الوزارة بتجارب على كافة الحاصلات

ج — توافر مياه الري وهذا من اختصاص رجال الري وقد خطت البلاد في ذلك خطوات سديدة، واضافة مياه الري في الاوقات المناسبة يتعلمها الفلاح بالاختبار والممارسة

ح — حدوث الصرف وتعميمه وهذا ما تعمل الحكومة المصرية على تحقيقهِ ولا يمكن ضمان احتفاظ الارض بخصبها وانتاجها إلاَّ إذا عمت المصارف ووصلت بالمصارف العامة وهذا واجب صاحب الارض

خ — زراعة الاصناف التي تقاوم المرض في المناطق المناسبة كأن تزرع أصناف القطن التي تقاوم مرض الشلل كجيزة ٧ في الارض الملوثة بهِ وتزرع الأصناف المعرضة للشلل كجيزة ٢٦ في الارض النظيفة منهُ

وقد خطت الوزارة في هذا المضمار خطوات موفقة فأخرجت صنفاً من اللوبيا يقاوم الصدأ ومرض الدودة الثعبانية وصنفاً من الطماطم يقاوم الذبول وهي في طريقها الى استنباط أصناف جيدة من القمح لمقاومة الصدإ ومن الارز لمقاومة مرض خناق السنبلة وغير ذلك

د — الاستعداد لمقاومة الآفات الحشرية والأمراض بالحقل بالوسائل الحديثة بالرش

والتعفير بالمواد الكيميوية وقد توصل قسم الفطريات الى التغلب على مرض صدإ الفول والقمح بالرش بمحلول بردو والتعفير بالكبريت ومقاومة أمراض الياض بمحاليل ومساحيق مختلفة

لذلك يجب لضمان وفرة الغلة من محصولات وخضر وفاكهة ان يلم المزارع بالطرق الحديثة المبسطة لوقاية محصولاته — ووزارة الزراعة بأقسامها المختلفة تقوم بالدعاية اللازمة لذلك بشتى الوسائل — ولكن لنجاح الدعاية يجب ان تكون آذان الفلاح مستعدة لقبولها والعمل على تنفيذها بدقة وإلاَّ فلا فائدة منها ومقاومة الآفات الزراعية الى الآن سواء بالحاصلات أو الخضر أو الفاكهة تقوم بها وزارة الزراعة بناء على نتائج ابحاث قسمي الحشرات والفطريات وهي التي يقوم بتطبيقها في المزارع والبساتين المصابة فرعا الرش والتدخين برشاشاته ومواده الكيميوية. ومع الاسف الشديد ان أغلب الزراع — الاَّ النادر وهذا لا حكم له — يتوسعون مثلاً في إنشاء الحدائق ولا يزودونها بما يلزم من الرشاشات والكيماويات للعلاج عند ظهور المرض لذلك تراهم يتركون الاصابة بدون علاج الى ان يستفحل أمرها وتتعذر مقاومتها فيصرخون طالبين النجدة بعد فوات الوقت من رجال وزارة الزراعة التي تعجز في غالب الاحيان عن المعاونة لتقدم الاصابة فيلومها الزراع وهم في الواقع الملومون وعلى أنفسهم هم الجانون

٩ — اختيار الوقت المناسب لحصاد المحصول والعناية في دراسهما شرطان أساسيان لضمان وفرة المحصول والاحتفاظ به الى أقصى مدة في المخزن . فالبطاطس مثلاً اذا قلع قبل ان يتم نضجه او لم يعتن بتقليعه يكون معرضاً لشتى جراثيم العفن

﴿زراعة الاصناف الكثيرة الغلة﴾ وهذا الموضوع من اختصاص قسم تربية النباتات وقد انتخب فعلاً أصنافاً جيدة عظيمة الغلة من القطن والقمح والذرة الشامية والرفيعة والفول والارز وغير ذلك من الحاصلات بأحدث الوسائل الفنية كالتهجين الصناعي في القطن والارز

﴿ تعدد أصناف الحاصلات الغذائية والخضر والفاكهة ﴾ وهذا شرط أساسي لضمان تغذية الشعب ويتضح من دراسة الاحصاءات الخاصة بمساحات الحاصلات الأساسية المختلفة ومتوسط محصول الفدان وجملة المخصص للاستهلاك والمقادير المستوردة والمصدَّرة في المدة الواقعة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ان القطر المصري يكفي نفسهُ من كافة الحاصلات علاوة على ما يصدرهُ منها ولكنهُ يستورد مقادير قليلة من القمح والحمص والترمس والفول السوداني والسمسم

أما زراعة الخضر في القطر المصري فمساحتها نحو ٢٠٢٫٨٨٩ فداناً يزرع فيها الباذنجان ٢٩٩٦ (فداناً) والباميا (٣٤٣٥) والبصل (٥٥٤١٧) والبطاطا (٢٤٨٨) والبطاطس (٨٧٧٣) والبطيخ (٣٨٣٩٥) والثوم (١١٨٦) والجزر (٧٤٧) والخبيزة (٢١٣٢) والسبانخ (٦٠٢) والشمام والعجور والمقات (١٤١٨٤) والطماطم (٣٤٥٤٥) والفاصوليا (٥٧٢) والفلفل (١٣٣٨) والقرع

العسلي (١٦٢) وفرع كوسة (٣٧٥٦) والقرنبيط (٨٥٠) والقلقاس (٢٦٩٩) والكرات أبو شوشة (٤٥٧) والكرنب (٢٨٧٩) واللفت (١٠٧٣) واللوبيا (٢٥٠٠) والملوخية (١٦٦٣) وخضر أخرى (١٩٠٥٦) ومنتجات هذه المساحة استهلكت منها داخل القطر وصدر مقدار كبير الى الخارج. أما زراعة الفواكه فمساحتها في القطر المصري بحسب تعداد ١٩٢٩ بلغت ٥٤٢٦٦ فداناً وأشهرها البرتقال والليمون الاضاليا والليمون الحلو والليمون المالح والنارنج واليوسفي ومجموع المساحة المزروعة منها ١٧٧٣٤ فداناً. ومنها البرقوق والتفاح والتين والجوافة والخوخ والرمان والزيتون والعنب والكمثرى والمانجو والمشمش والموز والنخيل وأصناف أخرى. ويتضح من دراسة جداول اصدار الفواكه ان مقادير كبيرة من الموالح والموز والبلح والعجوة والبطيخ والقاوون والشمام تصدَّر. وتستورد مقادير كبيرة من البرتقال والليمون المالح (الأضاليا) والتفاح والبرقوق والعنب والكمثرى والرمان والمشمش النضّ (الطازج) والمجفف والخوخ والبلح والعجوة والتين المجفف والكرز ومقادير يسيرة من البطيخ والقاوون والشمام والسفرجل

وجميع هذه الفواكه والثمار تنمو وتجود في القطر المصري عدا التفاح والكرز وكافة انواع النقل والتين المجفف والقراصيا والمشمش المجفف وقمر الدين — فواجب مصر التوسع في زراعة هذه الاصناف للاستغناء عن الخارج كما يجب اقامة ثلاجات كبيرة لحفظ الفاكهة والخضر بالتبريد لسد حاجات السوق وقت الشح

ولما كان البلح من الاغذية الغنية بالمواد المولدة للطاقة وبه نسبة لا بأس بها من البروتين، وهو غني كذلك بالفيتامينات. والاملاح المغذية المفيدة كأملاح البوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والفصفور والفلور والكبريت وبهِ مقادير من الجيلاتينيات والبكتينات والحمض الليمونيك ومادة الكومارين التي تكسبهُ طعمه اللذيذ المعروف ولهُ تأثير مدفيء لما يختزنه من قدر كبير من المجهود الشمسي Solar energy حتى انه يوصف في الحالات التي يشكو فيها الشخص بعدم الدفء — اي للاشخاص الذين يشعرون دائماً بالبرد — فانهُ يجب تشجيع استهلاكه بين الطبقات العاملة اذ يكفي لتغذية شخص واحد منهُ ١٨٠ جراماً

لذلك اتخذ قسم البساتين بوزارة الزراعة سياسة من شأنها الاكثار من الاصناف المصرية الجيدة التي تصلح للحفظ — وتحسين الاصناف الاخرى واستيراد الاصناف الجيدة من الاقطار الخارجية. ويبلغ عدد النخيل بالقطر المصري بحسب آخر احصاء ٥٫٠٨٣٫٤٠٠ نخلة

وهذه المقادير لا تكفي لاستهلاك القطر ويجب ان تتضاعف حتى يتيسر للفلاح والعامل المصري ان يجعل البلح غذاء اساسياً له لرخصه وجودته وهذا هو مشروع وزارة الزراعة والسياسة التي يعمل قسم البساتين على تنفيذها. فقد انتخب فعلاً احسن صنف مصري يصلح للحفظ وهو السيوي

واهتم بتجفيفه وحفظه وتعبئته على الطرق الحديثة فنجح في ذلك نجاحاً ملموساً زاد من استهلاك هذا الصنف في المدن وأصبح يصدر منهُ الى الخارج مقادير لا بأس بها

والاتجاه الآن هو نحو اكثار هذا الصنف وزيادة مساحته بالوجه القبلي ولما كان معظم نخيل الوجه القبلي من الاصناف البذرية المجهولة الاصل الرديئة الصنف فقد وضع القسم مشروعاً لاستبدالها تدريجيًّا بفسائل من الصنف السيوي

وقد أنشأ قسم البساتين مصنعين في سيوه البحرية لتعبئة البلح بشكل نظيف وبطرق مختلفة منها الطريقة البلدية بعد تحسينها — ولما كان البلح الحياني يوجدمنهُ بمصرمقادير كبيرة وهو غذاء عظيم لجمهور الفلاحين وخصوصاً بالوجه البحري وشمال سينا فقد اهتم قسم البساتين بهذا الصنف وبصناعته وتحويله الى مصنوعات كالربى وقد جفف وعمل منه بلحاً كيساً لحفظه كما يفعل سكان شمال سيوه اذ يحمصونه في الفرن وينشرونه في الشمس ثم يكبسونه في الحوص — ويرد لمصر مقادير كبيرة من العجوة من العراق بثمن رخيص يجعل من الصعب علينا تصدير عجوة الى الخارج والأمل معقود على احلال العجوة المصرية محلها — ولهذا استورد قسم البساتين اصنافاً من البلح من العراق والحجاز لهذا الغرض وقد نجح بعضها بالقناطر الخيرية وهو يبشر بمستقبل باهر

هذا من جهة البلح أما من جهة الزيتون فقد كانت مصر مقتصرة على الانواع البلدية للتخليل فقط اذ لم تكن توجد صناعة تخليل الزيتون الأسود الذي يرد الينا بكثرة من بلاد اليونان كما أنهُ لا تزال ترد الينا الى الآن مقادير كبيرة من زيت الزيتون لذلك استورد قسم البساتين أصنافاً كثيرة من الزيتون لاستخراج الزيت ولتخليل الأخضر والاسود نجح أكثرها نجاحاً باهراً وأخذ في اكثارها وقد حللت هذه الاصناف وبوبت الى أصناف للزيت وأخرى للتخليل واختط القسم سياسة زيتونية بموجبها تغرس أصناف الزيت في مناطق معينة في البحيرة والفيوم وعلى طريق الاسماعيلية حتى السويس (وقد عمل بها خريطة) أو أصناف التخليل فتزرع في الاراضي المجاورة للمدن الكبيرة وفي مديرية الفيوم وسيستكثر من جميع هذه الاصناف لسد حاجة القطر من الزيت والزيتون المخلل الأسود والأخضر . وهناك أصناف تصلح للغرضين معاً

وستجعل منطقة مريوط والصحراء الغربية والواحات منطقة لزيتون الزيت وستغرس معظمها بالصنف الشملالي وقد انشئت فعلاً معصرتان لاستخراج الزيت احداهما في سيوه والاخرى في برج العرب وستنشأ اخرى في الجيزة وفي الفيوم قريباً وصناعة الزيتون الاسود المخلل قائمة الآن في سيوه وقد نجحت نجاحاً باهراً بفضل الاصناف التي استوردت لهذا الغرض

ويبلغ عدد اشجار الزيتون بالقطر المصري حوالي ربع مليون شجرة تعطي نحو الفي طن — ويخلل قسم البساتين سنويًّا نحو سبعة اطنان من الزيتون

مشكلة السكان

القواعد الاحصائية الصحيحة

لزيادة السكان ونقصهم

للدكتور شريف عسيران

ان قضية معالجة زيادة السكان ونقصهم من القضايا المعقدة التي يعجز عن حلها الاخصائيون بهذا الموضوع . وقد تطوّرت هذه المشكلة تطوّراً عظيماً فبعد ان كانت الزيادة هي الخطر الذي يهدد الامم ويدفعها الى المنازعات والحروب صار نقص السكان شبحاً يهدد كيان الامم ونذيراً بالفناء اذا استمرت على سيرها الحاضر. ولا ندعي اننا نستطيع القول الفصل في هذا الموضوع الذي تعاصى على جهابذة العلماء بل نبسط أحدث الآراء فيه ومختلف النظريات لأعلامه الذين يشار اليهم بالبنان ونشير الى قواعده الأساسية التي تكشف عن الاخطاء التي يتسلح بها السياسيون والمستعمرون والطامعون ويتخذونها مسوغاً للمجازر التي يدفعون اليها زهرة ابنائهم والنخبة الصالحة من شعبهم ممن تحتاج اليهم البشرية وينتفع بهم العلم

﴿ تاريخها ﴾ يظهر ان فكرة احصاء النسل نشأت لغايتين الاولى معرفة عدد الرجال القادرين على حمل السلاح . والثانية معرفة عدد الافراد القادرين على دفع الضريبة . فالقصد الاساسي من احصاء السكان الحرب والجباية . ومما لاشك فيه ان اول من استنبط فكرة الاحصاء احد رؤساء القبائل ليعرف عدد رجاله المحاربين وهذا ما حمل داود ان يأمر موآب باحصاء الشعب فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذي عنده طف في جميع اسباط اسرائيل من دان الى بئر سبع وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب (١) ثم تحوّلت الفكرة ورغب الحكام في معرفة عدد رعاياهم المتمكنين من دفع الضريبة حرصاً على زيادة دخلهم كما يستدل من نص الانجيل وفي تلك الايام صدر أمر من اوغسطس قيصر بان يكتتب كل المسكونة (٢)

ولما سألت مدام دي ستال (Madame de Staëls) نابوليون عن اعظم امرأة في كل عصر اجابها هي التي تجهز وطنها بأكبر قدر من غذاء المدافع حينما تتطلب ذلك حاجة امتها (٣)

---

(١) العهد القديم : صموئيل الثاني الاصحاح ٢٤ العدد الثاني (٢) العهد الجديد : انجيل لوقا الاصحاح الثاني العدد الاول Population, Carr-Saunders 1931, p. 1

(٣) Mankind at the Cross Roads, East, 1926, P.51

ثم تطورت هذه الاحصاءات وشملت جميع مناحي الحياة من صحة ومرض وعلم وجهل وثراء وفقر وتقدم وانحطاط وصارت الارقام هي اللسان الناطق لكل امة والمرآة التي تعكس فيها حياتها الاجتماعية والدليل الصحيح على مستواها فالارقام الصحيحة هي المعول عليها اليوم في وضع الامم الحقيقي

﴿ تكاثف السكان ﴾ ان قضية تكاثف السكان قضية نسبية تتوقف على حالة الشعب ومستواه الاقتصادي والاجتماعي. وهناك حد لتكاثف السكان يعبر عنه بالحد الملائم Optimum density وهو الحد الذي يتمكن عنده الفرد من الحصول على اكبر دخل ممكن ليعيش أرغد عيش مستطاع. فبعض الشعوب تكون أبرع من غيرها في التفنن في الزراعة واستنباط مختلف الصناعات فهما تكثر ضمن نطاق نتاجها الاقتصادي لا تزدحم بسكانها. وتكون شعوب غيرها اقل منها انتاجاً وليس لديها من مستنبطات العلم ما لدى الاخرى فتتعرض لازدحام السكان

ومما لا شك فيه ان الشعوب البدائية كانت أقل خصباً منا رغماً عن زواجها الباكر ولا تنسب قلة عددها الى المجاعات والحروب فقط بل الى عدة عوامل منها طول امتناعها عن الجماع تقيداً بالتقاليد الدينية والاجتماعية فكانوا يمرضون عنه قبل الذهاب الى الصيد وحين يكون القمر بدراً وفي اثناء الرضاع ويتعمدون الاسقاط وقتل الاولاد وغير ذلك من العوامل في تنقيص عددهم. وكانت هذه الاسباب عاملاً في توازن السكان (٢)

﴿ نمو السكان ﴾ يتوقف نمو السكان على عاملين رئيسين (١) خصب الامة (٢) مقدار وفياتها. فيمثل الاول العوامل التي تشجع التناسل كالقوة الحيوية والميل الشخصي والاحوال الاقتصادية والاجتماعية وما اشبه. والثاني الامراض والاخطار التي تتعرض لها الامم. ومصدر الخطأ في الاحصاءات الاعتماد على معدل الولادات والوفيات البدائية Crude birthrate and crude death rate وهو معدل الولادات والوفيات لكل الف من السكان بالسنة الواحدة. وهذا هو الاحصاء الذي يعرفه اكثر الناس ويعوّل عليه السياسيون في تعزيز شعوبهم والزج بهم في ميادين القتال

والحقيقة ان هذا الاحصاء لا يغير معدّل زيادة امة او نقصانها وقليل من يدرك انهُ من الممكن ان يزداد شعب ما زيادة ظاهرية لامد محدود بينما تؤول ولاداته ووفياته الى انقراضه اذا استمر على ما هو عليه. ان زيادة الولادات الموقتة على الوفيات لا تدل على نمو السكان كما ان هبوط الوفيات لا يضمن لنا زيادتهم. نعم تمكن العالم المتمدن من القضاء على كثير من الامراض الفاتكة كالهيضة والطاعون والجدري والتيفس والبرداء وغيرها فقلت وفياته ولكن ذلك لا يؤول

(٢) Population, Carr-Saunders p. 34

الى زيادة السكان لان معدل الولادات والوفيات البدائية هو النسبة السنوية للالف من السكان بغض النظر عن العمر والشق والفوارق المحيطية والثقافية والاجتماعية فوفيات الاناث لاسباب احيائية اقل من الذكور [1] فالامة التي يزيد فيها عدد الاناث على الذكور تكون وفياتها اقل والعكس بالعكس. والامة التي يكثر فيها عدد الصغار والطاعنين في السن يكون معدل وفياتها اكثر من غيرها . فخصب الامة يتوقف على المزيج المركبة منهُ عناصرها من اناث وذكور على مختلف اعمارهم. وليس عدد الولادات بدليل على قوة الامة التناسلية لان سن تناسل البشر محدود فعدد الولادات يتوقف على نسبة الاشخاص بمختلف الاعمار بين السكان وهذا متوقف على نسبة الوفيات بمختلف الاعمار ولا تدل كثرة الوفيات على نقص الامة لان كثرتها وقلتها تتوقفان على تفاوت الاعمار فالشيب اكثر تعرضاً للموت من الشبان والصغار اكثر من الكبار وهلمَّ جرًّا . فالزيادة والنقصان متوقفان على مزيج الامة ويختلف هذا المزيج باختلاف الظروف فقد تكون نسبة الشيب بالالف عند بعض الامم اكثر من غيرها بكثير. ففي سنة ١٩١١ كانت نسبة الذين تجاوزوا سن ال ٦٥ في فرنسا فوق الثمانية بالمائة بينا كانوا في انكلترا اقل من ٦ بالمائة [2]

ويربي عدد الاناث في اكثر انحاء اوربا على عدد الذكور وعكس ذلك في الاقاليم غير الاوربية .وقد زاد عدد الاناث في اثناء الحرب العامة على عدد الذكور حيث فقد ما ينيف على الاثني عشر مليوناً اكثرهم ذكور وكان متساوياً عند الامم المتحايدة .وتختلف نسبة الذكور والاناث باختلاف الاعمار وعلى نسبة اختلافها يتوقف خصب الامة او عدمه . فقد زاد عدد الذكور في انكلترا وويلز سنة ١٩٢١ بين طوائف السكان التي في اوائل عمرها بينا زاد عدد الاناث في الطوائف التي تجاوزت سن الخامسة عشرة من العمر. وكلما تقدم العمر كانت زيادة الاناث اكثر ويختلف معدل وفيات الذكور عن الاناث لان الذكور اكثر تعرضاً للاخطار [3] وللعامل الاحيائي الذي ذكرناه

﴿ الاحصاء الصحيح ﴾ يعتقد بعض العلماء ان السكان يتضاعفون كل خمسين او ثلاثين سنة فلنبحث الآن عن صحة هذه الزيادة التي يهدد بها العالم المستعمرون والحاكمون بأمرهم والسياسيون هل هي واقعية او تضخم ارقام منشؤه عيب في طرق الاحصاء القديمة التي استندت الى الولادات والوفيات البدائية والتي لا تدل على قابلية الامة التناسلية لان هذه القابلية محدودة بسن معين من العمر يتراوح بين ١٥ — ٥٠ وانما يتوقف الاحصاء الحقيقي على المزيج المركبة منهُ عناصر الامة من ذكور واناث وعلى مختلف اعمار تلك العناصر ومعدل وفياتها بمختلف الاعمار . فالامم المنتشرة

(١) راجع المقتطف ١ مارس سنة ١٩٣٢ ص ٢٨١ عن الجنس

(٢) Population p. 62 (٣) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت لفظة Population

فيها الامراض التي تفتك بالاطفال تدفع ضريبة الموت اكثر من غيرها ممن توفرت عندها الوقاية الصحية فنسبتها عند بعض الامم ١٠ بالالف وعند غيرها ٨٠ بالمائة ويتوقف الاحصاء علاوة على ذلك على نسبة الاناث اللاتي بسن الزواج وعلى السن الذي يتزوجن فيه ومقدار خصبهنَّ وعلى الهجرة والمهاجرة فان الشباب هم الذين يهاجرون عادة فيكثر عددهم في البلاد التي يهاجرون اليها ويقل في التي يهجرونها وعليه لا تتوقف الزيادة او النقصان على عدد الولادات والوفيات البدائية بل على الحاصل الصافي من هذا المزيج الذي يعيش من ابناء الامة الى سن البلوغ ويعوض عما تفقده تلك الامة من عناصرها في جيل كامل ويعبرون عن الجيل بلغة الاحصاء بمقدار ثلاثين سنة وبعبارة اوضح تتوقف الزيادة والنقصان على عدد الآباء والامهات الذين يصيرون آباء وأمهات في الجيل المقبل

استنبط الاقتصادي الانكليزي الشهير كازونسكي R. Kaczunski الذي يعد هو وCarr-Saunders من أشهر الاخصائيين بعلم الاحصاء طرقاً جديدة للاحصاء وهو ثقة يعتمد عليه أكثر العلماء في هذا الموضوع ونلخص طرقه بما يلي (١) يعتمدون في الزيادة والنقصان بالاحصاء الحديث على عدد الاناث البالغات المولودات في الامة ويهملون الذكور ويقدر الاخصائيون سن التناسل بين ١٥—٤٥ ويعرضون عن اللاتي يلدنَ قبل هذا السن وبعده وعن اللقيطات لأنهنَّ قليلات بالقياس الى الشرعيات (٢) يقدرون خصب الأمة بمقدار ما تلده كل الف امرأة بسن معين فالنساء اللاتي بسن ١٥ — ١٩ اخصب ممن هنَّ اكبر منهن سنًّا فيتوقف نمو الأمة على عدد النساء المتزوجات بالالف في مختلف الاعمار وقد اتخذ علماء الانكليز احصاء الامة السويدية سنة ١٨٩١ مقياساً للتفاوت في الانتاج في مختلف الاعمار نسرده مثالاً لتفاوت معدل الانتاج

السن	عدد الولادات بالالف [١]
١٥	٥١٨
٢٠ — ٢٤	٤٥١
٢٥ — ٢٩	٣٧٥
٣٠ — ٣٤	٣١٢
٣٥ — ٣٩	٢٥٠
٤٠ — ٤٤	١٤٢
٤٥ — ٤٩	٠٢٠

فيظهر من هذا الجدول ان اللاتي بسن ١٥ — ١٩ اخصب من غيرهن وتهبط الولادات

(١) Twilight of Parenthood P. 58

بارتفاع السن ومعدل الولادات في مختلف الاعمار ينبيء عن حقيقة خصب الامة ونموها ويعبد عنهُ بمعدل دليل الخصب (The Index Fertility Rate) وهو عدد الولادات بالالف مقسوماً على عدد النساء الولودات بين سن ١٥ — ٤٥ [1]

استنبط كازونسكي ما سماه Gross reproduction rate اي معدل التناسل الاكبر وهو عدد الاولاد الذي يمكن ان تلده كل امرأة طيلة مدة التناسل ويهمل عدد الذكور لاسباب سنوردها فيما بعد فيكون معدل التناسل الاكبر عدد البنات الممكن ان تلدهُ امرأة طيلة مدة التناسل فاذا كان هذا المعدل واحداً حافظت الامة على عددها وتنقص بنسبة نقصه

(٤) ان معدل التناسل الاكبر لا يكفي لقياس نمو الامة لانهُ يبين عدد البنات الممكن ولادتهُ طيلة سن التناسل . ولا يغرب عن البال ان بعض البنات لا يتزوج وغيرهُ عقيم وفريق لا يعيش طويلاً فاستنبط كازونسكي معدل التناسل الصافي Net reproduction rate وهو مقدار البنات اللاتي يعشنَ طيلة مدة التناسل (اسلفنا ان هذا النوع من الاحصاء يهمل الذكور فيكون معدل التناسل الصافي مجموع الاولاد طيلة مدة الولادة) وهو يتطلب معرفة عدد النساء في مختلف الاعمار وعدد ولادتهنَّ السنوي ومعدل الولادات لكل الف امرأة واللاتي يعشنَ بالالف من المولودات ومقدار نسل المولودات الجديدات لكل الف فمعدل التناسل الصافي هو القول الفصل في زيادة الامة او نقصانها فاذا كان واحداً حافظت على كيانها واذا زاد زادت او نقص نقصت

والسر في اهمال الذكور واعتبار الاناث الولودات هو ان الاناث هنَّ اللاتي يحملنَ الاولاد لا الذكور فلو فرضنا ان عدد الاناث القابلات الزواج في امة ما مليون وعدد الذكور مليونان فلا يمكن لتلك الامة ان تنتج اكثر من مليون ولد (اذا اهملنا التوائم) .حالة انهُ لو كان عدد الاناث مليونين والذكور نصف مليون فمن الممكن ان يلد لتلك الامة ما يقرب المليونين . فالاحصاء الحقيقي يتوقف على عدد الاناث لا الذكور. هذه لمحة سطحية عن اسس الاحصاء اخترنا منها ما يتعلق بناحية اصلاح النسل لنبرهن ان لا زيادة حقيقية في السكان عند مختلف الامم توجب تحديد نسلها وتطاحنها . وبعد ان قررنا ان خصب الامة الحقيقي يتوقف على معدل التناسل الصافي الذي هو عدد الاناث الولودات في مختلف الاعمار نبدأ باستنطاق الارقام التي هي القول الفصل في الزيادة والنقصان وهي مأخوذة عن كتاب كازونسكي Population Movements « حركات السكان » الذي صدر سنة ١٩٣٦

﴿ حاصل التناسل الاكبر ﴾ بلغ معدل حاصل التناسل الاكبر في اوروبا الغربية والشمالية منذ خمسين سنة ٢،١ ومعناه انهُ ولد لكل مائة امرأة خلال سن التناسل ٢١٠ بنات و(٢٢٠ صبيًّا) ويشمل هذا العدد المتزوجات وغير المتزوجات. وهبط هذا المعدل سنة ١٩١١—١٩١٤ الى ٦،١

(١) Twilight of Parenthood p. 59

وتدنى الى دون الواحد سنة ١٩٣٣ وبلغ ٠،٩٠ . وتفسير ذلك بلغة خصب الامة انهُ ولد لكل مائة امرأة خلال سن التناسل ٩٠ بنتاً فقط فامة كهذه لا تستطيع تعويض نفسها على مدى الايام. وبلغ هذا المعدل في انكلترا والنمسا اقل من واحد سنة ١٩٢٦ واستونيا سنة ١٩٣٢؟ وفرنسا ولاتفيا سنة ١٩٣٣ وهو فوق الواحد بيسير في الدانمارك وتشيكوسلوفاكيا والمجر والولايات المتحدة [١]

ان المانيا التي انخفض معدل تناسلها منذ ١٨٨٠ اكثر من كافة انحاء العالم بلغت منذ ٣٠ سنة اعظم معدل التناسل الاكبر بين امم اوروبا الغربية والشمالية وسنة ١٩٣٣ اوطأ معدل ثم اخذت بالزيادة سنة ١٩٣٤ والشطر الاول من سنة ١٩٣٥ ولكن ارقام الشطر الثاني لهذه السنة تدل على ان هذا المعدل لايزال دون الواحد واذا استمر على معدل سنة ١٩٣٤ فأن سكان المانيا واوربا الغربية والشمالية مهددون بالفناء ولو بلغت كل مولودة جديدة سن الخمسين . هذه ارقام معدل التناسل الاكبر وهو لا يعني كما بينا ان كل مولودة جديدة تبلغ حقـًا سن التناسل وتتزوج وتلد بل معناه مجموع المولودات فقط

﴿ معدل التناسل الصافي ﴾ لتنظر الآن الى المعدل الصافي الذي هو القول الفصل في زيادة الامة ونقصانها : بلغ هذا المعدل في المانيا والدانمارك والسويد منذ خمسين سنة ١،٤ ، و ١،٥ خلال جيلين ونفس المعدل ينطبق على أوربا الغربية والشمالية عدا فرنسا وإرلندة حيث كان واحداً وهو دون الواحد في كل من أوربا الغربية والشمالية في الوقت الحاضر . وقد تدنى من ١،٣ سنة ١٨٨٠ الى ٠،٧٦ سنة ١٩٣٣ وتفسيره ان كل مائة أم تلد في الحاضر ٧٦ فقط من أمهات المستقبل . وقد وجدوا ان هذا الحاصل لا يتجاوز ٠،٧٥ في انكلترا سنة ١٩٣٤

بلغ عدد الاناث اللاتي دون الـ ١٥ من العمر في انكلترا سنة ١٩٣٤ (١٠٠ و٧١٠ و٤) وعدد الإناث بسن ١٥ ـ ٣٠ بلغ ٤٠٠ و٩٩٨ و٤ فمن الواضح ان الإناث اللاتي دون سن الـ ١٥ لا يستطعن التعويض عن اللاتي بسن ١٥ — ٣٠ ولو اجزن جميعاً سن التناسل لأنهن أقل منهن عدداً [٢]

ويقدر علماء الاحصاء أنهُ اذا استمر مزيج السكان بهذا المعدل فان سكان انكلترا وويلز ينقصون ٦٠ مليوناً في خلال مائتي سنة . وصرح المستر كروذر Crowther التصريح الآتي : اذا انتظرنا جيلاً آخر دون ان تحركنا قضية نقص السكان واستمر معدل الولادات بالهبوط فلا تستطيع قوة على وجه الارض منع هبوط السكان الى ثمن او عشر مقداره [٣]

وقدرت الدكتورة إيند تشارلس ان سكان انكلترا الذين يبلغون الآن أربعين مليوناً وتسمائة الف سيصبحون سنة ١٩٤٣ أربعة وثلاثين مليوناً وثلاثمائة الف [٤]

---

(١) Population Movements p. 42 (٢) Population Movements, p. 45

(٣) Eugenic Review, Jan., 1936, p. 273 (٤) Twilight of Parenthood p. 283

وظهر من احصاءات Thomson and Wheipton في الكتاب النفيس «اتجاه الولايات المتحدة الاجتماعي الحديث» بأن سكان الولايات المتحدة سيبلغون ٠٠٠و٠٠٠و١٣٢ — ٠٠٠و٠٠٠و١٣٤ سنة ١٩٤٠ و ٠٠٠و٠٠٠و١٤٠ — ٠٠٠و٠٠٠و١٤٥ سنة ١٩٥٠ و ٠٠٠و٠٠٠و١٤٥ — ٠٠٠و٠٠٠و١٧٠ سنة ١٩٨٠ ثم تأخذ هذه الارقام بالتناقص بعد سنة ١٩٨٠ وينتظر ان تبلغ ١٥٥ مليوناً مع اعتبار الحد الاقصى للمهاجرة [١] ورغماً عن ضخامة هذه الارقام فان دائرة زراعة الولايات المتحدة تقدر ان لديها من الغذاء ما يكفي لاطعام ٣٠٠ مليون ولو بقيت طرق الزراعة على ما هي عليه اليوم دون ان يطرأ عليها أي تحسن [٢]

﴿ اليابان ﴾ جرى اول احصاء معقول لليابان سنة ١٩٢٨ فبلغ عدد سكانها ٦٢ مليوناً . ويقدر ثقاة حكومة اليابان ان سكانهم سيزيدون ثلاثين مليوناً سنة ١٩٥٧ و ٤٨ مليوناً سنة ١٩٦٥ . ونسبة الاناث اللاتي بسن ١٥ — ٤٩ يقدر بـ ٤٧ بالالف يقابلها ٥٤ بالالف في انكلترا ويرافق قلة عدد الطائفة القابلة للتناسل ارتفاع في وفيات الطائفة التي دون ١٥ سنة من العمر والتي تربي وفياتها على وفيات ما يقابلها عند غيرها من الامم . ثم تناقص معدل الزواج سنة ١٩٠٨ ومع ان عدد نفوس اليابان كان يزداد في الماضي فانهُ آخذ بالتناقص الآن بالقياس الى المعدل الأول ومصيره مصير الامم الاوربية . ويقدر كروكر ان محصول المواد الغذائية نسبة الى الوسائط الزراعية الحاضرة بلغ الحد في اليابان ويعزو ذلك الى انصباب الثروة وتخصيص الطرق العلمية على المشروعات الصناعية واهمال الزراعة التي بقيت في الحالة البدائية عدا تقدم محسوس في استعمال انواع الاسمدة الكيماوية [٣]

﴿ روسيا ﴾ يبلغ حاصل الولادات الصافي في روسيا ضعفهُ في انكلترا . وهمة روسيا منصرفة الآن الى تكثير المواد الغذائية واكتشاف نباتات جديدة صالحة للغذاء . ويظهر ان الاتجاه الصناعي الذي يرافقهُ على الأغلب تناقص النفوس أثر في اكثر الامم ماعدا روسيا ولكن عوامل تحديد النسل شائعة في روسيا الآن فانتشرت طرق منع الحمل وصار الاسقاط قانونيًّا وبالوقت نفسه سهلت روسيا على الامهات مسؤولية الاولاد بالمساعدات والامتيازات التي تمنحها لهنَّ (وسنأتي على بعضها فيما بعد) فأثر ذلك في زيادة نفوسها ولكن هذه الزيادة اخذت تتناقص الآن بالقياس الى المعدل الاول [٤] . هذه لمحة عن مشكلة السكان ولا نستطيع ان نحيط بها وقد رسمنا صوراً منها يدرك منها المرء اتجاه الامم في هذا الطريق الوعر . وسننتقل الآن الى ناحية اخرى في اتجاه السكان وهي نوعهم لاعددهم وهذه الناحية اهم من الاولى وأعظم تأثيراً في الامم ومصير سكانها

---

(١) Recent Social Trends in the United States, 1933 p. 2

(٢) Twilight of Parenthood, p. 93—94 (٣) Twilight of Parenthood, p. 97—98

(٤) Twilight of Parenthood p. 104-105

كيف نتقي

حالات الاستهداف الغريبة

سواء أصحّ التفسير الذي سقناه[1] لحالات الاستهداف المنوّعة كلّه او بعضه ام لم يصح فالإصابات كثيرة ولا بدّ من البحث عن علاج لها وقد ظلّ هذا العلاج متعذراً حتى سنة ١٩١١

في سنة ١٩٠٧ كتب الطبيب الالماني دنبار Dunbar في مجلة طبية فقال انهُ جرّب جميع الاساليب المقترحة لمعالجة « حمّى التبن »[2] في خلال السنوات العشر السابقة فلم يجد بينها اسلوباً ناجعاً . وفي سنة ١٩٠٥ حقن دنبار حبيبات اللقاح الذي يسبب « حمّى التبن » في جواد ثم استخلص المصل من دمهِ ورشّهُ على الغشاء المخاطي في انوف كثير من المصابين او المعرّضين للاصابة بهذه الحمّى فذهب مسعاه ادراج الرياح . واقتفى اثرهُ طبيب الماني آخر يدعى ويشهارت Weichhardt فأخذ مقادير من حبيبات اللقاح وغذّى بها طائفة من الماشية ثم اخذ مقداراً من دمها وفصل عنهُ المصل وحاول ان يستعملهُ علاجاً للمصابين « بحمّى التبن » فأخفق في ما حاول

ولكن في سنة ١٩١١ نشرت مجلّة « اللانسيت » الطبية مقالاً للدكتور لنرد نون Leonard Noon وصف فيهِ طريقة علمية لمعالجة حمّى التبن . وهذه الطريقة كانت مبنية على بحث لرجلين يدعيان روزينو واندرسن من اقطاب مختبر الصحة في وشنطن . كان هذان الباحثان يجربان التجارب في ظاهرة « الانافيلكسيس » . فالكلب الذي حقنهُ ريشيه بمادة غريبة اصيب بحالة الانافيلكسيس اي بسقوط قوة المقاومة فيهِ ، فلما حقن ثانية بالمادة نفسها اصيب باعراض التسمم فالموت . اما روزينو واندرسن فوجدا انهما اذا اتبعا الحقنة الاولى بحقن مقادير صغيرة جدًّا في جسم الكلب ، كانت الاعراض التي يصاب بها خفيفة جدًّا . ثم زادا المقادير رويداً رويداً حتى نشأت مناعة الكلب ضد هذه المادة

هذه المباحث دلّت الدكتور نون على الطريق . فهو لم يحاول ان يخفف فعل المادة « الاليرجية » التي تحدث اعراض الاستهداف ، بحقنها اولاً في دم الجواد او بتغذية الماشية بها على نحو ما فعل دنبار وويشهارت بل صنع خلاصة مركزة من حبيبات اللقاح ثم أخذ جراماً منهُ وخففهُ مليون

---

(١) راجع المقال الاول في مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٢٦١ (٢) Hay fever

مرة ثم قسم المحلول مليون جزء واطلق على كل جزء اسم « وحدة اللقاح » . ثم بدأ تجاربهُ يحقن بضع وحدات من هذا المحلول (بعد حلّها حتى يسهل حقنها) وحقنها تحت جلد المعرَّض لهذه الحمّى . وبعد بضعة ايام حقنهُ حقنة اخرى تحتوي على عدد من «وحدات اللقاح» اكبر قليلاً من وحدات الحقنة السابقة. ثم تلتها حقن اخرى كلٌّ منها اكبر من سابقتها . وكان يحقن المعرَّض لهذه الحمى قبل حلول الفصل الذي يطير فيهِ اللقاح من الاشجار فيسبب أعراضها . وعند حلول هذا الفصل ثبت ان هذا الرجل لم يصب باعراض المرض . وقد جرَّب نون طريقتهُ هذه على المصابين اصابات مزمنة فشفي بعضهم شفاء تامًّا وتحسنت حالة البعض الآخر ففقدت اصابتهُ خفيفة

واذا كان نون اوّل من طبق هذه الطريقة من العلاج على « حمى التبن » فانها استعملت قبلاً في المانيا ضدّ شدة الاحساس ببعض العقاقير ، وضدّ الاستهداف لبعض اصناف الطعام. فالباحث « باداسون » استعملها في سنة ١٨٩٠ لعلاج مرضى كانوا شديدي الاحساس ببعض العقاقير فلا يطيقون تناولها . وتبعهُ سكوفيلد في انكلترا فاستعملها سنة ١٩٠٨ لعلاج رجل كان يصاب باعراض مرضية اذا كان في طعامهِ آثارة من البيض فصنع سكوفيلد حبوباً وضع في كل حبة منها جزءا من عشرة آلاف جزء من بيضة نيئة وأوصى الرجل بان يبدأ بتناول حبة واحدة في البدء ثم زاد جرعتهُ رويداً رويداً حتى اصبح الرجل قادراً على ان يطيق البيض في طعامهِ

واقتفى طبيب اميركي يدعى شلوس Schloss خطى سكوفيلد ، ولكنهُ تقدمهُ خطوة . ذلك بان صبيًّا جاء شلوس ففحصهُ ووجدهُ مستهدفاً لتأثير البيض واللوز والزمير . فأخذ المواد البروتينية في المواد الثلاث وحلَّها فوجدفيها بروتيناً مشتركاً بين بروتيناتها الثلاثة. ثم امتحن هذا البروتين فوجدهُ العامل الفعال في احداث اعراض الاصابة في الصبيّ ، فصنع حبوباً اودعها هذا البروتين واوصى الصبيّ بتناول ثلاث حبَّات منها ثلاث مرات كل يوم مبتدئاً في اواسط اكتوبر عند ما كانت الجرعة تحتوي على مليغرامين من هذا البروتين . فلما اقبل شهر ينايركانت قد اصبحت تحتوي على سبعة غرامات وعندئذٍ وضع الطبيب في غذاء الصبيّ بيضاً فأكلهُ ولم يصب بالاعراض التي كان يصاب بها

على هذه الاسس قامت الطريقة الحديثة في معالجة المستهدفين وقوامها معرفة المادة التي تحدث الاعراض ثم استخراج العنصر الفعَّال فيها الذي تردُّ الاعراض اليهِ ثم تصنع منها حبوب او حقن متدرجة المقادير يتناولها المصاب رويداً رويداً الى أن يصبح قادراً ان يأكل او يشم او يلمس المادة الاصلية نفسها من غير ان يصاب وفي بعض العيادات الطبية حقن وحبوب جاهزة يمتحن فعلها فاذا نجحت فيها وإلا فيجب إجراء بحث خاص على الاسلوب المتقدم

بعض المصابين يشفون شفاء تامًّا باتباع هذه الطريقة وبعضهم لا ينال الاَّ بعض الشفاء وبعضهم يبقى على حالهِ ومن المشكوك فيهِ ان يكون هناك علاج ناجع على اطلاق القول . حتى

اذا استطاع المصاب ان يفيد من هذا العلاج قدرة على تحمُّل المادة التي كانت تؤذيه فهو دائم معرَّض للاصابة اذا كان شرهاً في تناول المادة ، او تعرَّض كثيراً لحبيبات اللقاح او الغبار او غيرها

بعض الاصابات يمكن ردُّه الى سبب معيَّن كحبيبات اللقاح من نبات الخرقة ، اوالأحياء البحرية ، او عقار خاص وعندئذٍ تكون معرفة العلاج ميسورة . ولكن سبب بعض الاصابات الاخرى يبقى غامضاً لا سبيل الى معرفته الاَّ ببحث دقيق . ويمثل الاطباء على ذلك بقصة ربَّان كان يصاب بربوٍ شديد وهو في البحر ويبرأ منهُ عندما ينزل الى اليابسة . ولم يُعلم لحالته هذا سبب معيَّن . وبعد البحث الدقيق رُدَّ سبب اصابته الى تأثره بنبات « الكابوك » Kapok الذي تحشى بهِ وسائده ومقاعد حجره في السفينة فلما عرف السبب سهل العلاج

وقد استنبط العلماء غير وسيلة واحدة لكشف استهداف الجسم للتأثر بأحد العوامل التي تحدث فيه هذه الحالات المرضية الغريبة من مثل حبيبات اللقاح ودقائق الغبار وأنواع الاطعمة والعقاقير وغيرها . ومن اشهرها ما يعرف « بكاشف الخدش » Scratch test وطريقته ان يخدش الجلد ثم يوضع على الخدش خلاصة مستخرجة من المادة التي يراد معرفة تأثيرها في الجسم وهل هو يتأثر بها او لا . فاذا كان الجسم قابلاً للتأثر بها احمرت البقعة حول الخدش وتورَّمت في عشرين الى ثلاثين دقيقة . وقد يطبق هذا الكاشف معدلاً تعديلاً يسيراً بوضع قطرة من خلاصة المادة على الجلد ثم وخزه حيث توضع ومراقبة تأثيرها فيه . او قد تحقن الخلاصة تحت الجلد او قد توضع الخلاصة على الجلد السليم بغير خدشه او وخزه وتبقى هناك ساعات او اياماً بلصق قطعة من ورق « السلوفان » عليها . والمبدأ واحدٌ في جميعها

وهناك كاشف آخر قائم على حذف المادة المشتبه فيها من طعام المعرَّض لهذا الضرب من الاصابات او من لباسهِ او الوسادة التي ينام عليها . فاذا كانت المادة المشبوهة في احداث الربو ريش الطير مثلاً وكانت وسادة الرجل محشوة بهِ صنعت له وسادة محشوة بالصوف او القطن . اما في الطعام فقد صنع الدكتور الفارز Alvarez طعاماً قوامهُ لحم الضأن والرز والزبد والسكر والكمثرى المحفوظة في العلب . وهذه المواد قلما تسبب ضرراً لآكلها . ثم يبدأ الرجل باضافة الاطعمة الاخرى الى هذا الطعام واحداً واحداً ويراقب تأثيرها فيه

الاَّ ان هناك فريقاً من الباحثين يرى ان كواشف الجلد مفيدة ولكنها ليست حاسمة . ومنهم الدكتور بركان احد اطباء عيادة مايو المشهورة وهو يشير الى غير حادثة كان الرجل فيها معرَّضاً للتأثر بالبيض فاذا كان البيض في طعامه اصيب باحدى هذه الحالات المرضية الشديدة ولكن كاشف الجلد كان سلبيًّا . يقابل هذا انهُ رأى اناساً يتأثرون بالكاشف الخاص بالبيض مثلاً ثم اذا وضع البيض في طعامهم اكلوا هنيئاً مريئاً

انواع النسيب

والتشبيب في شعر العرب

لعبد الرحمن شكري

ربما كان من المستحسن ان نميز في الاسماء والمصطلحات انواعاً من النسيب تختلف في طريقتها وأثرها في النفس وقد لايوافقني على هذا التقسيم بعض الادباء ولكنني اراه مما يمنع الخلط في الكلام عن الشعر والشعراء وأراه يسهل تذوق طريقة كل منهم وفهم اسلوب فنه

فالنسيب في الشعر أقسام فمنه ماكان مصدره العشق ومنهُ نسيب الوجدان من غير عشق خاص ومنهُ نسيب الصوفية ونسيب التمثيل او القصص التمثيلية ومنهُ نسيب المحاكاة والصناعة الزخرفية ومنهُ النسيب المشوب بالمجون وهنك انواع اخرى بين بين لانها تجمع بين طريقتين او اكثر وأبعد انواع النسيب هي ما بعدت في هذا الترتيب وأقربها ما اقتربت فيه وقد يجمع الشاعر بين المتقاربين كما قد يخلط الناقد بينهما في حكمه فقد يخلط الناقد بين نسيب العشق ونسيب الوجدان لان الاول جزء من الثاني وهو وجدان متعلق بانسان جميل وقد يخلط بين نسيب الوجدان ونسيب التمثيل لان الشاعر اذا مثل العاطفة في شخصه او في شخص في قصة لا بد ان يكون لهُ من الوجدان الصافي ما يساعد بصيرته الفنية في اتقان ذلك التمثيل ولكن نسيب الوجدان هو شعر قد لا يراد به تمثيل العاطفة وانما قد يأتي من الشاعر عفواً كما يصدح الطائر الغريد فهو قد لايدل على التعلق بانسان معين وقد لا يدل على تمثيل العاطفة تمثيلاً يأتي به مزاج مؤلف القصص التمثيلية او مزاج الفنان الممثل . وقد يخلط الناقد بين نسيب الوجدان ونسيب الصوفية لان نسيب الصوفية يستمد من الوجدان ولكن الحقيقة ان نسيب الصوفية يجمع اخلاطاً كثيرة من الاحاسيس اما في قصيدة واحدة واما في قصائد مختلفة او شعراء مختلفين فتراه يستمد من إحساس العبادة وقد يكون جلال المعبود فيه غالباً لجمال المحبوب وقد يكون العكس وقد ترى في بعض غزل الصوفية قدرة الفنان الممثل للعاطفة وقد تراه يستمد من الصناعة الزخرفية وقد تختلط فيه الافكار وتهوش اذا حاول الشاعر التوفيق بين امور الحياة والكون المتناقضة توفيقاً

لم ينضجه الفكر المنظم. وقد ترى بعض المجون او ما يشبهُ المجون فيه من ذكر محاسن اعضاء الجسم والوصال واللذات والملهى والريق والخمر ويؤول كل ذلك تأويلا قدسيًّا والحقيقة المعروفة في علم النفس ان الشهوة الجنسية الخفية قد تجد لها منفذاً بهذه الوسيلة عن طريق التعبد . وقد يكون الشاعر الصوفي المسكين صادقاً في تعبده وقد يكون آخر من يفطن الى حقيقة علم النفس هذه

وكذلك قد يجتمع شعر المحاكاة والزخارف وشعر المجون من غير ان يخالطها وجدان او عبادة صوفية . وقد يخلط الناقد بين نسيب المزاج التمثيلي وبين نسيب المحاكاة والزخارف لان الشاعر الذي ينظم النوع الثاني يدّعي العاطفة او يدعي وصفها ولكنهُ قد تعوزه بصيرة الفنان النافذة الى اعماق النفوس كما يعوزه الوجدان الرقيق الصافي الذي يساعد البصيرة النفسية (السيكولوجية) فاذا اعوزه الوجدان العميق الصافي وأعوزتهُ البصيرة السيكولوجية كان نسيبه من نوع شعر المحاكاة والزخارف لا من نوع النسيب التمثيلي الذي نراه في القصص التمثيلية وفيما ينحو منحاها وفنها من شعر غير القصص التمثيلية وكما نراه في شعر الشاعر الذي أتيح له مزاج الممثل الذي يمثل العاطفة فتملكه العاطفة وقت تمثيلها

وهذه الاقسام التي ميزناها في شعر النسيب ليست خاصّة كل منها بعصر ففي الجاهلية وصدر الاسلام نرى نسيب العشق في شعر العذريين ونرى نسيب الوجدان اذا لم يتعلق الشاعر الناسب بانسان معين وانما يفيض بوجدانهِ المتعلق بالجمال ويصدح بحنينه ويغني بانغامهِ ونرى نسيباً يقرب من نسيب الصوفية وان كان سببه ان فرط الحب أكسب الحب شيئاً من احاسيس العبادة بينما نرى ان العبادة في شعر الصوفيين كانت وسيلة لارضاء عاطفة الحب . ونرى في ذلك العصر ايضاً شعر النسيب التمثيلي الذي يدل على بصيرة فنية بسيكولوجية تنظم شعراً يمثل نسيب العشق او نسيب الوجدان المحض الذين لا يهمها الفن والصنعة ، ونرى ايضاً نسيب المحاكاة التي تفيض فيها العاطفة وقد يجمع الشاعر الى محاكاة الصنعة وصف اللذات والمجون فنسيب امرئ القيس نسيب المحاكاة والصنعة . وقد يرق ويلطف ويدل على وجدان وعلى تعلق بانسان جميل من غير ان يكون هذا التعلق عشقاً كما كان عشقاً عميقاً عند قيس بن الملوح او قيس بن ذريح فاذا رق شعر امرئ القيس وقارب شعر العاطفة والوجدان قال في وصف حبيبتهِ : —

تُضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتّلِ

ولكن اكثر نسيبه نسيب صنعة ووصف للذات . وكذلك نسيب مشهوري الشعراء في ذلك العصر أمثال الاعشى والنابغة وزهير بن ابي سلمى وكعب بن زهير وطرفة بن العبد وغيرهم وهم الذين سنوا سنة غزل المحاكاة لشعراء الدولة الاموية ومحاكاة المحاكاة للعباسيين والمتأخرين وكان العبث اللفظي يزداد كلما بعد العهد بمن سنّ هذه السنة في صناعة الشعر . وقد فطن جرير في عهد

الدولة الاموية الى ان الصناعة وحدها لا تسيّر الشعر ولا تجعله يأخذ بمجامع القلوب فصار يخلط بين تمثيل العاطفة او بما كانها وبين الوجدان . ومن أجل ذلك كان شعره أرق وأسير في عهده من شعر الشعراء المنافسين له

ولكنا اذا أردنا ان نجمع مجموعة من شعر النسيب في اللغة العربية نفاخر بها اللغات الاخرى لم نلجأ الى شعر امرئ القيس او الاعشى او أمثالها ولا الى شعر جرير والاخطل والفرزدق وامثالهم ولا الى شعر ابي نواس ومسلم بن الوليد وابي تمام والبحتري وامثالهم فان هؤلاء امتازوا بالقول في ابواب مختلفة من الشعر ولكن بزهم في النسيب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأبو صخر الهذلي وعروة بن حزام وابن الدمينة وجميل بن معمر وكثيّر على قلة ما انتهي الينا من اقوال هؤلاء . وهؤلاء هم الذين قالوا أحسن ما قيل في النسيب في اللغة العربية وبهم نفاخر وهم الذين نرشح لينوبوا عن النسيب العربي في معرض النسيب بين الامم. انظر مثلا الى قول قيس بن الملوح من قصيدة في التذكر والتمني وهما موضوعان هامان من موضوعات النسيب قال : —

فوالله ما انساكِ ما هبت الصّبا ... وما غرّد الغِرِّيدُ في وَضَحِ الفجر
وما لاح نجم في السماء وما بكت ... مطوَّقةٌ شوقاً على فننِ السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق ... وما هطلتْ سحب على واضح الزهر

الى ان قال : —

تداويت من ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
اذا ذُكِرَت يرتاح قلبي لذكرها ... كما انتفض العصفور من بلل القطر
ألا ليتنا كنا غزالين نرتعي ... رياضاً من الجوزان في بلد قفر
ألا ليتنا كنا حمام مفازة ... نطير ونأوي بالعشيّ الى وكر

واستمر في ذكر امانيه المختلفة الى ان قال : —

وداعٍ دعا اذ نحن بالخيف من منى ... فهيّج إطراب الفؤاد ولا يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

فهذا الشعر ليس فيه روعة الصنعة التي في غزل اصحاب المعلقات ولكنهُ شعر صادق دافق من القلب يدل على ان قائله شاعر بطبعه وخياله ووجدانه ويدل على عاطفة صادقة تأخذ المألوف من مظاهر الكون والخليقة من تغريد الطيور في وضح الفجر ومن هبوب النسيم وهطول المطر ونضرة الزهر وانتفاض العصفور والحمام في الوكر والغزال في القفر كي تعبر بها عن ذكريات القلب واماني وهذه الوسائل التي تستخدمها والتشبيهات هي الوان مادة الشاعر فليس كل شعر يحتويها

بشعر كما ان ليست كل صورة ذات الوان بصورة. وانما العاطفة هي التي تجعلها شعراً . وانظر الى قول قيس بن الملوح ايضاً : —

واحبس عنكِ النفس والنفس صبة ... بذكراك والمسعى اليك قريب
مخافة ان تسعى الوشاة بظنة ... وأحرسكم ان يستريب مريب
سأستعطف الايام فيكِ لعلها ... بيوم سرورٍ من هواكِ تؤوب

وقوله: — فاصبحت من ليلى الغداة كناظر ... مع الصبح في أعقاب نجم مُغرّبِ

وقوله: — الله يعلم ان النفس هالكة ... باليأس منكِ ولكني امنيها
وساعة منكِ ألهوها وإن قصرت ... أشهى لديَّ من الدنيا وما فيها

وقوله: — وكنتِ كذبّاح العصافير دائباً ... وعيناه من وجدٍ عليهنَّ تهمل
فلا تنظري ليلى الى العين وانظري ... الى الكف ماذا بالعصافير تفعل

وهو لا يعني كل ذباح للعصافير وانما هو فرض كي يمثل معنى فعل الحب به وانظر الى قولهِ في قصيدته الميمية الكبيرة :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنان كل الظن ان لا تلاقيا
وخبرتماني ان تيماء منزل ... لليلى اذا ما الصيف القى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا تصرمت ... فما للنوى ترمي بليلى المراميا
وما طلع النجم الذي يهتدى به ... ولا الصبح الاَّ هيَّجا ذكرها ليا
اعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهراً لا أعدُّ اللياليا
يقولون ليلى بالعراق مريضة ... فياليتني كنت الطبيب المداويا
ولم أرَ مثلينا خليلَيْ جنابة ... أشد على رغم العداة تصافيا
خليلان لا نرجو لقاءً ولا نرى ... خليلين الاَّ يرجوان التلاقيا
واني لأستحييك ان تعرض المنى ... بوصلك او ان تعرضي في الدجى ليا
وأنتِ التي ان شئتِ أشقيتِ عيشتي ... وأنتِ التي ان شئتِ انعمتِ باليا
واني لينسيني لقاؤك كلما ... لقيتكِ يوماً ان ابثك ما بيا
اذا سرت في ارض خلاء وجدتني ... اصانع رجلي أنَّ ليلى حذائيا
يميناً اذا كانت يميناً وان تكن ... شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا
واني لاستغشي وما بيَ نعسة ... لعل خيالاً منك يلقى خياليا
هي السحر لولا ان للسحر رقية ... واني لا القى لها الدهر راقيا

لا اظن ان شاعراً يستطيع ان يميز الشعر الصادق يقول كما قال بعض الكتاب ان شعر قيس

ابن الملوح من وضع الرواة وان قيساً هذا لم يكن له وجود. نحن نفهم هذا القول لو كان الشعر فاتراً او بارداً او كاذباً او مصطنعاً (١) يستطيع ان يقوله كل انسان اما ان يصنع الرواة شعراً من أصدق وأحسن ما قيل في اللغة العربية من النسيب فهذا رأي لا نستطيع الأخذ به وأما ان بعض ابيات الشاعر نسبت الى اكثر من شاعر فهذا لا يدل على شيء ولهُ مثيل في كل عصر. وهذا شعر ابي تمام فيه ابيات وقصائد منسوبة الى شعراء آخرين وهذا لا يدل على ان ابا تمام لم ينظم شعراً ولم يكن لهُ وجود وظاهرة انكار الوجود هذه ظاهرة مألوفة فقد انكروا وجود هومير وشكسبير. وهناك مؤلف مؤرخ ينكر وجود سيدنا عيسى عليه السلام وقد اختلاف الرواة في نسبة شعر كثيّر فاختلفوا في نسبة قصيدة (صاح في العاشقين يا لكنانه) وفيها البيت المشهور

خطرات النسيم تجرح خدَّيـــه ولمس الحرير يدمي بنانَه

وهي ليست من شعر المتقدمين حتى يقال ان قدم الزمن هو الذي انسى الرواة ولم يقل احد انها من صنع الرواة انفسهم واختلفوا في نسبة شعر كثير للمتأخرين كقصيدة:

يا مطلباً ليس لي في غيره أرب اليكَ آل التقصي وانتهى الطلب

فنسبت لابن الخيمي ونسبت لنجم الدين بن اسرائيل. واختلاف الرواة في نسبة بعض شعر قيس بن الملوح لا يدل على شيء فان شعره يدل على شخصية حية وعلى شاعر من الطراز الاول. ومثله في تلك الخصائص وفي تلك المنزلة قيس بن ذريح انظر الى قوله: —

لقد كان فيها للامانة موضع وللنفس مرتاد وللعين منظر
وللحائم العطشان ري بحسنها وللمرح المختال خمر ومسكر
كأني لها ارجوحة بين أحبلٍ اذا ذكرة منها على القلب تخطر

وقوله: — احبك أصنافاً من الحب لم أجد لها مثلاً في سائر الناس يوصف
فمنهنَّ حب للحبيب ورحمة لمعرفتي منها بما يتكلف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر وحبٌ لدى نفسي من النفس ألطف

والى قوله: —

تعلق حي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً وليس اذا متنا بمنصرم العهد
ولكنهُ باقٍ على كل حادث وزائرنا في وحشة الموت واللحد

وقوله: — اذا طلعت شمس النهار فسلمي فآية تسليمي عليك طلوعها

(١) مثل ذلك اذا قارن القارىء المتذوق معلقة عنترة العبسي (وهي لاشك من شعر شاعر) وبعض القصائد الفاترة الركيكة التي تنسب الى عنترة سهل عليه تمييز الشعر الصادق والشعر الموضوع

وقوله: — بلبنى انادي عند اول غشية ... ويثني بها الداعي لها فأفيق
صبوحي اذا ماذرّت الشمس ذكرها ... ولي ذكرها عند المساء غبوق

وقد كان من رأينا دائماً ان شعر العاطفة والوجدان يتقارب في جميع اللغات وانما الذي يتباعد في اللغات شعر الصنعة والمحاكاة بالصنعة لأن هذا أساسهُ العرف والاصطلاح والذوق الاقليمي. أما شعر العاطفة والوجدان فهو واحد في كل إقليم وانك لو نقلت الشعر الذي استشهدنا بهِ من شعر قيس بن الملوح او قيس بن ذريح الى اللغات الأوربية لطرب لهُ القراء كما يطرب قراء العربية اذا نقل اليها شعر العاطفة والوجدان من اللغات الاوربية نقلاً صحيحاً لاسخيفاً.

ويقارب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح في طريقتهما يزيد بن الطثرية الذي يقول: —

برغمي أطيل الصد عنها اذا نأت ... أحاذر أسماعاً عليها وأعينا
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ويقول: أحبك أطراف النهار بشاشة ... وبالليل يدعوني الهوى فأجيب
أحبك حب اليأس لو ينفع الهوى ... وإن لم يكن لي من هواك طبيب

ويقول: بنفسيَ من لو مرَّ بردُ بنانه ... على كبدي كانت شفاء أناملُه
ومن هابني في كل شيء وهبته ... فلا هو يعطيني ولا أنا سائلُه

ويقول: أليس قليلاً نظرة إن نظرتها ... اليك وكلا ليس منك قليل
فيا خلة النفس التي ليس فوقها ... لنا من اخلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبه لم يُطَعْ به ... عدو ولم يؤمن عليهِ دخيل
أما من مقام اشتكي غربة النوى ... وخوف العدا فيهِ اليهِ سبيل
وكنت اذا ما جئت جئت بحاجة ... فأفنيت علاتي فكيف أقول

ومثل هذا الشعر في صدق التعبير عن الأحاسيس النفسية شعر أبي صخر الهذلي الذي يقول:

لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها ... بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا ان أراها فجاءة ... فأبهت لا عرف لديَّ ولا نكر
وأنسى الذي قد كنت فيهِ هجرتها ... كما قد تُنسّي لبَّ شاربها الخمر
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذعر
تكاد يدي تندى اذا ما لمستها ... وينبت في أطرافها الورق النضر
وإني لتعروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلّلهُ القطر

فهذا الشاعر لا ينظر في دواوين الشعراء كي يرى ماذا يقال في وصف هذه العاطفة وكيف يقال وانما ينظر في نفسه وأحاسيسها وهواجسها وما يعتري نفسه وجسمه من أثر العاطفة. ومن

شعراء هذه الطريقة ابن الدمينة فان شعره يرق ويصفو ويكتسب من وجدانه وعاطفته أنغاماً عذبة أنظر الى قوله : —

أرى الناس يرجون الربيع وانما ربيعي الذي أرجو نوال وصالك
أرى الناس يخشون السنين وانما سِنيَّ التي أخشى صروف احتمالك
لئن ساءني أن نلتِني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك

والى قوله : —

وقد زعموا ان المحب اذا نأى يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود

وقوله : وإني لأستحييك حتى كأنما عليَّ بظهر الغيب منك رقيب
بنفسي وأهلي من اذا عرّضوا له ببعض الأذى لم يدرِ كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل به سكتة حتى يقال مريب

وهذه الأبيات الأخيرة انما هي مثل من شواهد الخبرة بعلم النفس التطبيقي التي اكتسبها هؤلاء الشعراء لكثرة تأملهم في صفات النفوس وهذه الخبرة بالنفس تقل في شعر المتأخرين أو تعدم إلاَّ ماكان مأخوذاً بالمحاكاة عمن قبلهم: ومن شعراء هذه الطريقة أيضاً جميل بن معمر انظر الى قوله : —

لقد قلتُ في حبي لكم وصبابتي محاسن شعر ذكرهنَّ يطول
فإنْ لم يكن قولي رضاك فعلمي نسيم الصَّبا يا بثنُ كيف اقول
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها والخيال يزول

وقوله : — ومما شجاني انها يوم أعرضت تولت وماء العين في الجفن حائر
فلما اعادت من بعيد بنظرة اليَّ التفاتاً اسلمتهُ المحاجر

على مثل هذه المشاهد النفسية وأمرها كان يعتمد هؤلاء الشعراء لا على المبالغة والتشبيهات البعيدة فكان شعرهم على سهولة وبساطة مشاهداتهم أوقع في النفس من المبالغة والشبيهات البعيدة وانظر الى نصيب كيف يستخدم ما يشاهد من حياة الطيور لتصور عاطفته في قوله : —

كأن القلب ليلة قيل يُغدَى بليلى العامرية او يُراح
قطاة غرَّها شَركٌ فباتت تُجاذِبُهُ وقد علق الجناح
لها فرخان قد تُركا بوكر فعشهما تُصفِّقُهُ الرياح
اذا سمعا هبوب الريح نصَّا وقد أودى بها القدر المتاح

وللشاعر كُثَيّر اشعار عذبة تدل على وجدان ولو انهُ كان يتهم بادعاء العاطفة انظر الى قوله:

وأدنيتني حتى اذا ما ملكتني بقول يُحل العُصْم سهل الاباطح
تناهيت عني حين ما لي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وقولهُ في تائيته الكبيرة:

وقلت لها يا عزُّ كل مصيبة اذا وُطّنت يوماً لها النفس ذلت
واني وتهيامي بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوَّأ منها للمقيل اضمحلت

وقوله: — كريم يميت السر حتى كأنهُ اذا استخبروه عن حديثك جاهلهُ
ورتاح للمعروف في طلب العلا لِتُحمَدَ يوماً عند ليلى شمائله

وفي هذه الابيات ايضاً خبرة بصفات النفوس ودراسة سيكولوجية وتصور لأثر الحب في النفوس العالية. ومن الشعر العذب الشجي قول ابي بكر الزهري: —

ولما نزلنا منزلاً طلهُ الندى .... انيقاً وبستاناً من النَّور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُهُ منىً فتمنينا فكنتِ الامانيا

وقول الحارثي: —

منىً إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلاَّ فقد عشنا بها زمناً رغدا

وكأنما كانت هذه الطريقة عاصفة اشترك في اثارتها المرقش وعروة بن حزام وابن الدمينة وابو صخر الهذلي وجميل بن معمر وعمر بن ابي ربيعة (وان كان شعره اقرب الى اللهو والعبث) وكثيّر وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح والعرجي والمخزومي وابو دهبل وابن الرقيات وابن الطثرية وابن ميادة والاحوص ونصيب والمخبّل وذو الرمة والابيرد وابو حية النميري وتوبة ابن الحميّر والنهدي ومزاحم ووضاح اليمن وعروة بن اذينة وغيرهم وامتدت الى عصر الحسين ابن مطير والعباس بن الاحنف. ولم ينعدم شعر العاطفة والوجدان بعد ذلك فانا نرى شعراء الصنعة امثال بشار وابي نواس ومسلم وابي تمام لهم بجانب مجونهم نسيب وجداني رقيق ولكنهُ قليل. وقد كان البحتري ذا مزاج فنيّ يشبهُ مزاج الممثل الذي يتملكه ما يمثل من الاحاسيس. ومن اجل ذلك كان لهُ نسيب رقيق عذب. ولابن الرومي نسيب وجداني صادق ولكنهُ قليل[1] وكان الشريف الرضي ذا وجدان فجاء نسيبه وجداني النزعة وحاكاه مهيار ثم اعتمد الشعراء

---

(١) من نسيب ابن الرومي الرائع قوله:

اعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تداني
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى ان يرى الروحين يمتزجان

بعد ذلك على المغالاة والتشبيهات البعيدة او الزخارف. وكان اكثر شعرهم محاكاة لمعاني من سبقهم ولم يخلف شعراء الصوفية مجموعة شعر ثمين عال كما كنا ننتظر ولكني اظن ان محيي الدين بن العربي والسهروردي وابن اسرائيل وابن الفارض لو تقدم بهم الزمن او لو تأثروا بوجدان الشريف الرضي واسلوبه لكان شعرهم ارقى منزلة فإن فيهم طبع الشعراء ومزاجهم ولكن تعوزهم قوة الاداء وفخامة الاسلوب وحسن الاختيار. فقصيدة السهروردي المشهورة التي مطلعها

ابداً تحنُّ اليكمُ الارواح   ووصالكم ريحانها والراح

تبدأ مبدأ رائعاً ولكنها تفتر متأثرة بطريقة المتأخرين من ضعف في الاداء

وقد اشتهر بهاء الدين زهير شهرة لا تناسب قيمة شعره فمالهُ قوة في الأداء ولا فخامة ولا روعة في الأسلوب ولا وجدان عميق وأنغامه أنغام لفظية رخيصة مثل قوله : —

أنا بالعاذل ألهو   أنا بالعاذل ألعب

وأحسن قصيدة في النسيب قالها شعراء الأندلس والمغرب هي قصيدة ابن زيدون النونية التي يقول في مطلعها : —

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهي تجمع بين علو الصنعة وصفاء الوجدان فليس لمحمد بن هانئ الأندلسي في النسيب ولا لابن حمديس ولا لابن خفاجة قصيدة تدانيها في هذه الصفات. وهذه القصيدة تذكرني بما يحكي عن بعض الطيور التي اذا حان حينها جمعت كل قوى روحها واطلقتها في تغريدة قبل موتها. ونسيب ابن زيدون على العموم اكثر وجداناً من نسيب الآخرين وان كان قد بزه الآخرون في صفات أخرى فبزه ابن خفاجة وابن حمديس في الأوصاف وربما كان قد بزه ابن هانئ الأندلسي في الأسلوب الخطابي وإن لم يكن تحت أسلوب ابن هانئ الاندلسي الخطابي دائماً معنى او مزية . على ان لمحمد بن هانئ قصائد رقيقة يتغنى بها مثل قصيدة (فتكات طرفك أم سيوف أبيك) وقصيدة (قفن في مأتم على العشاق)

أما نسيب ابن سهل فهو نسيب رقيق يتغنى ببعضه ولكنهُ ليس فيه روح العباقرة وثروتهم الشعرية ولا يحاول قائله الاناقة في الاداء التي تزيد النسيب عذوبة وبعض الاناقة يفعل ذلك كما أن بعضها يثقل الشعر . ومما يُتغنى به قوله (سل في الظلام أخاك البدر عن سهري)

ومن التقسيم الذي فصلناه يتضح انهُ ليس من المحتوم ان يطالب الشاعر بعشق كي يجيد النسيب ولكنهُ مطالب بوجدان يصدح ويعبر عن نواحي تلك العاطفة وبمزاج فني سليم وبصيرة سيكولوجية تمكنهُ من فهم أحاسيس النفس ومن تصويرها

عالم وكتاب كانا منسيين

ابن بدر

وكتابه النفيس

لقدري حافظ طوقان

عثر المستشرق التشيكي الدكتور (نيكل) في اثناء زيارته لمدريد عام ١٩٣٣ على الكتاب الآتي : « كتاب فيه اختصار الجبر والمقابلة » تأليف ابن بدر ، فتكرم وأرسله الي ، فاستحق بذلك الشكر الجزيل على هذه الهدية العلمية النفيسة

وأول ما استوقف نظري اسم المؤلف «ابن بدر» ، ومع اني من الذين يعنون بتاريخ تقدم العلوم ولا سيا الرياضيات عند العرب والمسلمين لا اذكر اني مررت على هذا الاسم في دراساتي ولدى البحث الدقيق وجدت ان ابن بدر كغيره من علماء العرب اصاب الاهمال تراثه وأحاط الغموض حياته فلا نجد شيئاً يذكر عن مآثره في كتب تاريخ العلوم الرياضية وهو الذي برع فيها ووقف جهوده عليها وأخرج فيها مؤلفاً من انفس المؤلفات كله مادة وكله فائدة وكله متاع

وكل ما استطعنا ان نصل اليه عن ابن بدر انهُ من علماء اشبيلية من اعمال اسبانيا ظهر في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد واسمه ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن بدر

وكتاب «اختصار الجبر والمقابلة» الذي بين ايدينا مطبوع في مدريد عام ١٩١٦ في اللغتين العربية والاسبانيولية وقد وقف على طبعه يوسف شانجاس بيره الجريطي . والطبعة العربية غريبة في اشكال حروفها ، تصعب قراءتها فبعض هذه الاشكال يختلف تماماً عن اشكال الحروف الحالية ، فشكل الحرف (د — دال) هو غير الشكل الذي نعرفه ، وعصا الحرف (ط) مائلة جداً ، وكذلك اشكال الحروف (ج ، ح ، خ ، ر ، ك) شملها تعديل بسيط

والكتاب منسوخ عن مخطوطة نسخها عبد الصمد بن سعد بن عبد الصمد من فاس عن مخطوطة قديمة . ويقول في نهاية الكتاب : « . . . أتممت قراءة هذا الكتاب بعد ان كنت فهمتهُ من غير هذه النسخة ، وأصلحت ما ظهر لي فيها من الفساد بسبب فساد النسخة المنقول منها هذه ، وذلك في الرابع من شوال عام اربع وستين وسبعماية (هجرية) قال ذلك وكتبهُ بخط يده الفانية العبد المعترف بذنبهِ الراجي مغفرة ربهِ عبد الصمد بن سعد بن عبد الصمد، لطف الله تعالى بهِ. وذلك بسجانة القصر من داخل مدينة فاس ... والحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده ... »

يبدأ الكتاب بما يدور عليه الجبر من اعداد وجذور وأموال ، والمقصود من الجذر المجهول (س) ومن المال مربع الجذر (س^{٢}) ، ويوضح كلاً من هذه الاشياء الثلاثة ، ويذكر المسائل الستة وهي المذكورة في كتاب الخوارزمي وكتب غيره من علماء المسلمين والعرب

فالمسألة الاولى — اموال تعدل جذوراً اي ان : م س^{٢} = ح س

والمسألة الثانية — اموال تعدل عدداً اي ان : م س^{٢} = ب

والمسألة الثالثة — جذور تعدل عدداً اي ان : ه س = م

والمسألة الرابعة — اموال جذور تعدل عدداً اي ان : ح س^{٢} + ه س = ب

والمسألة الخامسة — اموال وعدد يعدل جذوراً اي ان : م س^{٢} + ب = ح س

والمسألة السادسة — جذور وعدد تعدل اموالاً اي ان : ح س + ب = ه س^{٢}

ثم يأتي على كيفية حل كل من هذه المسائل بطريقة لا تختلف عن التي نعرفها الآن . وبعد ذلك نجد ابواباً تبحث في الجذور واضعافها وتجزئتها وضربها وقسمتها وجمعها وطرحها ، ويقصد من الجذور هنا الأعداد التي تحت علامة الجذر التربيعي من التي لها جذر والتي ليس لها جذر اي الجذور الصماء . ومن هذه الموضوعات وما حوتها من أمثلة عددية كثيرة نتبين ان ابن بدر كان ملمّاً الماماً جيداً بنظريات القوى والجذور الصماء وكيفية اجراء الاعمال الاربعة عليها مما نجده الآن في كتب الجبر للمدارس الثانوية . وبعد هذا ينتقل ابن بدر الى ضرب المجاهيل في بعضها والى العلامتين (الزايد والناقص) وما يسودها من قوانين حين الضرب وحين القسمة ، وكذلك الى جمع الاشياء والاموال والكعوب بعضها الى بعض ، وطرحها بعضها من بعض ، وقسمتها بعضها على بعض . وقد أتبع هذه البحوث باباً « في معرفة الجبر والمقابلة » جاء فيه : « الجبر هو الزيادة في كل ناقص حتى لا ينقص والمقابلة طرح كل نوع من نظيره حتى لا يكون في الجهتين نوعان متجانسان .. »

اي انهُ لو كان لديك المعادلة : ١٠٠ — ١٠ س = ٧٠

فالجبر تصبح ١٠٠ = ٧٠ + ١٠ س

وبالمقابلة تصبح ٣٠ = ١٠ س .

وهناك من علماء العرب من عرف « الجبر والمقابلة » بغير هذا الاّ ان الاختلاف في التعاريف بسيط جداً حتى يمكننا القول ان الخوارزمي ومن أتى بعده من علماء العرب كأبي كامل وابن البناء والآملي والقلصادي وغيرهم اتفقوا في تفسيرهم الكلمتين — الجبر والمقابلة — . بعد كل هذا اتى ابن بدر على تطبيقات في المسائل الست وهي (على رأيه) : « التي يدور عليها جميع الجبر » كما جاء على مسائل اخرى وضعها في ابواب متنوعة سماها: باب مسألة العشرات ، وباب في مسائل الاموال

وباب في الصدقات ، وباب في القمح والشعير وفي التجارة. وقد يرغب القارىء او بعبارة اصح بعض القراء ان نأتي على امثلة من هذه الاسئلة : جاء في باب العشرات : « عشرة قسمتها الى قسمين فضربت كل قسم في نفسه وجمعت الضربين فبلغ اثنين وثمانين » . وجاء في باب مسائل الاموال : « اذا قيل لك مال طرحت منهُ ثلثه وربعه واربعة دراهم وضربت ما بقي في مثله فعاد المال واثنا عشر درهماً .. » . ومن مسائل باب التجارة : « اذا قيل لك رجل كان معهُ مال قاسمهُ رجل وفضله بدرهم ثم قاسمهُ بالباقي رجل ثان وفضله بدرهمين ثم قاسم بالباقي رجلاً ثالثاً وفضله بثلاثة دراهم وبقي معه عشرة دراهم. كم المال ... » . ومن باب الصدقات : « امرأة تزوجت ثلاثة ازواج فأصدقها الاول شيئاً مجهولاً وأصدقها الثاني جذر ما أصدقها الاول ودرهماً وأصدقها الثالث ثلاثة امثال ما أصدقها الثاني واربعة دراهم فكان المجتمع اربعين .. » . ومسائل باب القمح والشعير لا يختلف حلها عن التي تقدمت . وهكذا سار ابن بدر في المسائل وقد حلها جميعها وكان يُرجع المسألة الى حالة من حالات المسائل الست ثم يجري عليها طريقة حل تلك الحالة . ومن غريب الأبواب التي وجدناها في الكتاب باب الجيوش ادخل فيه مسائل تحتاج الى استعمال المتواليات العددية وقوانين جمعها ويقول بهذا الشأن : « ... وعلة عمل الجيوش وتفاضل القامة نوع من انواع الجمع وهو اذا تفاضلت الاعداد بعدة معلومة دون التضعيف فاضرب التفاضل في عدة الأعداد الا واحداً ، فما بلغ فاحمل عليه اول الاعداد يكن ذلك آخر الاعداد فاحمل عليه اول الاعداد واضربهُ في نصف العدة أعني عدة الاعداد يكن ذلك المطلوب . . . » . وهنا يأتي ابن بدر على قانون جمع المتواليات العددية وقد كان معروفاً قبله فلو اخذنا المتوالية العددية : ٤و٧و١٠و١٣و١٦ . فالتفاضل هو٣ وعدة الاعداد في هذه الحالة ٥

وعلى هذا فمجموع هذه الاعداد بحسب ما يقول ابن بدر كما يلي : —

٣ × (٥ — ١) = ١٢

١٢ + ٤ = ١٦ وهو آخر اعداد المتوالية العددية

١٦ + ٤ = ٢٠

٢٠ × ٥⁄٢ = ٥٠ وهو مجموع الاعداد

وفي الكتاب ايضاً باب البريد وفيه مسائل تتعلق بسير البريد وخروجه واللحاق به منها : « اذا قيل لك بريد خرج من بلدة ، وامره ان يسير كل يوم عشرين فرسخاً فسار خمسة ايام ثم ارسل بعده بريداً آخر وامره ان يسير كل يوم ثلاثين فرسخاً . في كم يوم يلحقهُ ... »

ولا يخفى على مدرسي الرياضيات بالمدارس الثانوية ان هذه المسألة على نمط كثير من المسائل في كتب الحساب الحديثة . ونأتي الآن الى الباب الأخير وقد سماه « باب الالتقاء » ولعل القارىء يدرك نوع مسائله من المسألة الآتية : « اذا قيل لك رجلان التقيا ومع كل واحد

منهما مال ووجدا مالاً فقال احدها لصاحبه اعطني مما معك درهماً وهذا المال الموجود يكون معي مثل ما بقي معك ، وقال الآخر بل انت ان اعطيتني مما معك اربعة دراهم وهذا المال الموجود يكون معي ثلاثة امثال ما بقي معك ، كم كان مع كل واحد منهما وكم المال الموجود »

اي ان : ص + ١ + ع = س

س + ١ + ٤ + ع = ٣ (ص — ٤)

وهنا فرض ابن بدر ان ما مع الاول ص وما مع الثاني س + ١ والمال الموجود ع

وعند حل هذه المسألة وغيرها من مسائل باب الالتقاء وباب القمح والشعير خرج ابن بدر بمعادلات غير معينة وقد اطلق على هذا النوع من المسائل « المسائل السيَّالة » لانها « تخرج بصوابات كثيرة » او بأجوبة كثيرة . وفي هذه المناسبة ارى ان استعمال « المعادلات السيالة » خير من استعمال «المعادلات غير المعينة » واني أوجه نظر لجنة العلوم الرياضية والطبيعية في مجمع فؤاد الاول للغة العربية الى هذا الاصطلاح الرياضي فلعلهم يأخذونه فيكونون قد احيوا — اصطلاحاً — استعمله اسلافنا ويفي بالمعنى المقصود من « المعادلات غير المعينة » . وقد حلَّ ابن بدر كثيراً من المسائل التي تؤدي الى معادلات سيالة بطرق ملتوية تدل على قوة فكره ورسوخه التام في علم الجبر . ويمكن القول إن اكثر المسائل التي اتى بها ابن بدر في كتابه مسائل عملية تتناول ما كان يقتضيه عصره من معاملات في التجارة او الصدقات واجراء الغنائم والمرتبات على الجيوش كما تطرقت الى البريد وسيره واللحاق بهِ والى طرق البيع والشراء في القمح والشعير . وهذه ميزة امتازت بها المؤلفات العربية القديمة فلقد كان رياضيو العرب يفضلون المسائل العملية والتي تتعلق بحاجات العصر ومقتضياته ، وحبذا لو يتبع المؤلفون هذه الطريقة في وضع المسائل الرياضية ففي ذلك ما يعود على الطلاب باكبر الفوائد مما يجعلهم يدركون مكانة العلوم الرياضية من الوجهة العملية في نواحي الحياة المختلفة واتصالها الوثيق بأعمال الانسان المادية . واخيراً نجد « مسألة من شاذ » يظهر انها من وضع عبد الصمد الناسخ الاول للكتاب وقد وضعت في ذيله و هي : « .. إذا قيل لك مائة وزة تعلف في الليلة الواحدة مائة برشالة ومات منها كل ليلة واحدة الى ان فني عددها . كم توفر من الطعام وكم أنفق من الطعام . . . » ولا يخفى ان حل هذه المسألة يتطلب استعمال قانون جمع المتواليات العددية ، وقد جاء الحل كاملاً في الكتاب . ويقال ان محمداً ابن القاسم الغرناطي في القرن الرابع عشر للميلاد شرح كتاب ابن بدر شعراً ولعله محفوظ في احدى المكتبات في المغرب والآن ... وبعد ان أتممنا تقديم كتاب ابن بدر والتعليق عليه يتبين لنا فضل المؤلف على الجبر وسعة اطلاعه فيه ، وقد صاغ قوانينه واصوله في لغة بليغة واسلوب أخاذ . وعلى كل حال فالكتاب يمثل أثراً من الآثار الخالدة التي تركها العرب للاجيال — كانت من أهم عوامل تقدم الرياضيات العالية وسائر العلوم الطبيعية التي قامت عليها الاعمال الهندسية الكبرى والنهضة الصناعية الحديثة

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

شَجَرَةُ الجَوْزِ الهِنْدِيّ

ويقال لثمرها (النَّارجيلُ) و (الشَّعْنَصُورُ) كما جاء في الفيروزبادي وفي « البستان » أنهُ (جَوْزُ البَحْرِ) و (النارجيل البحري) اسمها العلمي (Cocos nucifera, L.) (قوقوس نوسيفرا) وفصيلتها النخلية (Palmeae) (بالمي) وبالانجليزية (Cocoa-nut tree) وبالفرنساويّة (Cocotier commun)

تغرس في جميع بلدان المنطقة الحارة وموطنها الأصلي بلاد الهند او مجموعة الجزائر المجاورة لها . جذعها ليس بالضخم يرتفع كالعمود الى ٢٥ متراً او أكثر ويثبتها في الارض مجموعة بسيطة من جذورها الدقاق وفي أعلى الساق منها طاقة عظيمة من أوراق (سعف) معقوفة في نظام تام كأنها تاج قد يبلغ طول الواحدة منها ستة أمتار وعرضها متراً . أزهارها ضاربة الى الصفرة تنشأ في إبط الأوراق السفلى على شكل نورة عنقودية .الذكرية منها تشغل الجزء العلوي والأنثوية وعددها أقل كثيراً توجد في أسفله . ويكون لهذا العنقود قبل الإزهار غلاف عبارة عن قنابة كبيرة تتفتح من جوانبها كقنو النخل العادي . ثمرتها جوزة في حجم رأس الانسان لكنها مثلثة الزوايا قليلاً . قشرتها ليفية ثخينة مغطاة بأخرى ملساء ضاربة الى الخضرة . نواتها بيضية الشكل صلبة جداً مع ان سمكها لا يزيد على أربعة مليمترات . لوزتها وهي الجوزة التي تؤكل عادة جوفاء تشتمل قبل تمام نضجها على سائل لبني لذيذ الطعم اذا شرب طازجاً .لحمها في أول أمره ذو عصارة ثم لا يلبث ان يصير ذا ألياف كالجلد . وتؤكل جوزة الهند في أواسط نضجها حين تكون مادة اللوزة كالقشدة الثخينة نوعاً كما تؤكل بعدئذ حين تكون لوزتها أشد صلابة وطعمها كطعم البندق . وعلى كل حال يجب الاعتدال في أكلها لأنها عسرة الهضم . ويصنع من جوزة الهند مستحلب منعش كما يتحصل منها على زيت يستعمل وقوداً . وفي الصناعة الحديثة يخلطون دهن جوز الهند مع اللبن فيكون منهُ زبد وهو السمن الصناعي المعروف في التجارة باسم (Cocose, Végétaline) يطهون بهِ الطعام.ويصنع من مبشور اللوز انواع من الحلوى معروفة ومرغوبة . وقشر الجوزة يستعمل كوعاء . والألياف تستعمل في صنع الحبال وفي « جَلْفَطة »

السفن . واذا استقطرت عصارة الشجرة نتج عنها شراب مُسكر كالعرقيّ Eau-de-vie يسمّى في بلاد الهند (عَرَق المنبوذين) (Arrack de paria) ويصنع من الأوراق سلال وشباك وحصر. هذا ويمكن أكل البرعم الطرفيّ من الشجرة chou palmiste كما يؤكل الجُمّار في مصر

الأَنَبُ أو الباذنجان

ورادفهُ من العربيّ الفصيح (الحَدَق) شبّه بحدق المها و (الحَيصَل) و (المَغد) فهو (الباذِنجان) بكسر الذال وقد تفتح كما في المصباح مُعرّب (بادنكان) بالفارسية ومعناها بيض الجانّ ويقال لثمره الذي يؤكل (الوَغد) — عشب من جنس عنب الثعلب يزرع سنويًّا وهو في ملمس القطن على نوع ما يتراوح ارتفاع ساقه بين ٣٠ سنتيمتراً و ٤٠ متفرّع ومزوّد هنا وهناك بأشواك دقاق صفر اللون أو بيض . أوراقه بيضية الشكل حادة الطرف ذات أعناق وعلى سطحها السفليّ اشواك . أزهاره بنفسجية اللون أو بيض ذات أعناق و توجد فرادى متقابلة مع الأوراق . ثمرته وهي الجزء الذي يؤكل من النبات تكون في حجم بيضة الأوزة أو البرتقانة كريّة الشكل أحياناً وأحياناً بيضيّة ذات سطح برّاق كثيرة اللحم من الداخل ولونها بنفسجيّ حادة . وأشهرها ما كان مستطيلاً أسود أو بنفسجيًّا ومنهُ صنف أبيض يحشى

اسمهُ العلمي (Solanum melongena) (سولانوم ملونجنا) وفصيلته الباذنجانية وبالانجليزية (Egg-plant or Aubergine) وبالفرنسية (Aubergine, Mélongène, Morelle Mélongèn)

يزرع في جنوبي اوربا وجزائر الهند الشرقية والغربية ومصر والسودان وثماره مرغوبة جداً تتخذ عند تمام نضجها غذاء وتؤكل مقلوّة او شواء أو تطهى بطرق منوعة كالطاطم

وثمّ نوع يعرف (بالباذنجان الأبيض) وهو غير المعروف عندنا

اسمه العلمي (Solanum ovigerum) (سولانوم اويغروم) وبالانكليزية (Oval-egg-plant) وبالفرنسية (Plante aux oeufs, Poule pondeuse, Morelle à oeuf ou ovigère)

يزرع للزينة ثماره ذات لون ابيض جميل الواحدة منها تشبه بيضة الدجاجة لكنها لا تؤكل لأن فيها عناصر سامة حرّيفة اهمها (السولانين) (Solanine) فقد يوجد في هذه الثمرة قبل تمام نضجها حتى اذا تعاطاه الانسان صير هضمه رديئاً

الإسقالُ أو الإسقِيلُ (العُنصل)

ويقال له (بَصَلُ العُنصُل) و (بَصَلُ الفأر) نبات ذو بصلة مغشاة بطبقات كبيرة الحجم لها ساق جذرية مستقيمة يبلغ طولها في الغالب ٨٠ سنتيمتراً الى متر تنتهي بشوكة مستطيلة من أزهار بيض ذات بقع خضر . أوراقه الناشئة بعد الإزهار بيضيّة الشكل أو شبيهة بالنصل ضيّقة ذات أخاديد طولية يتراوح طول الواحدة منها بين ٣٠ سنتيمتراً و ٤٠ . وقد تبلغ البصلة حجماً كبيراً وتزن الى كيلو جرامين . ولونها من الخارج اسمر ضارب الى الحمرة

اسمهُ العلمي (Scilla maritima) (اسكيلا ماريتما) وفصيلته الزنبقية وبالانكليزية (Squill, Sea onion) وبالفرنسية (Scille maritime ou officinale) وهو ينمو في السواحل الرملية من المحيطات وسواحل البحر المتوسط . وحراشيف البصلة منه ذات طعم حرّيف ومرّ وتستعمل في الطب إما مسحوقة أو صبغة لإدرار البول وتنظيف الصدر . ويدخل الإسقال في كثير من المستحضرات الطبيّة منها : اقراص الإسقال ونبيذهُ وخلّهُ وأُكسيمله والنبيذ المدر للبول كما يستعمل الإسقال طازجاً مُشدَّخاً في بعض امراض الجلد . والحراشيف من شأنها ان تحدث إحراراً في الجلد بالاستعمال

بَقلةُ الحمقاء

قيل لها ذلك لأنها تنبت على مجاري المياه فيطفح عليها الماء فيقتلها ثم تعود فتنبت هناك . ومرادفها (الفَرفَخ) بالخاء المعجمة و(الفرفير) و(الرِّجلة) ومنهُ المثل «هو أحمق من رِجلة»

عشب سنويّ ذو عصارة . أوراقه لحمية مترادفة بيضية الشكل او في صورة الملعقة . أزهاره صفر مجتمعة في خصل كل منها فيه بضع زهرات

اسمهُ العلميّ (Portulaca oleracea) (بورتولاكا أولراسيا) وفصيلته الرجلية (Portulacaceae) وبالانجليزية (Purslane) وبالفرنسية (Pourpier commun) ينبت بطبيعته في الهند ومصر والسودان وجميع الأراضي الزراعية بفرنسا وغيرها ويزرع كالخضر في البساتين ويزرع أنواع منهُ للزينة . وليس لهُ نكهة خاصة ويؤكل نيئاً في السَّلاطة اويطهى بطرق منوعة . وبزوره تستعمل في الطب منعشة ومدرة للبول وقابضة الى حدّ ما

البِيقَة أو البِيقيَّة (الكِرسِنَّة المزرُوعَة)

نبات معروف في مصر باسم (الدُّحريج) زغبيّ يعلق بغيره ويرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه ريشية الشكل في الواحدة منها عدد من الوريقات يتراوح بين ٦ و ٧ . وريقته بيضية الشكل أو مستطيلة مقطوعة الطرف . أذينات أوراقه شبيهة بالسَّهم حافتها مسنَّنة ويندر أن تكون غير مسننة (كاملة) . أزهاره إما فرادى أو كل اثنتين معاً . تويج زهراته بنفسجيّ اللون طوله سنتمتران . ثمرته قَرن زغبيّ اصفر أو في لون الصدأ دقيق الاستطالة يتراوح طول القرن بين ٤ سنتمترات و٦ وعرضهُ بين ٥ مليمترات و٨

اسمهُ العلميّ (Vicia Sativa) (ويسيا ساتيوا) وفصيلته القرنية وبالانكليزية (Common vetch) والفرنسية (Vesce commune) . يزرع في اوربا والشام وحبّهُ اكبر من الجلبان المعروف في مديرية قنا أخضر يؤكل مخبوزاً ومطبوخاً وتعلفه البقر . وهو ينبت في الحروث فطريًّا وبخاصة في حقول القمح بمصر ويكون اطول من العدس

من وحي انكلترا

المانش الثائر

[عبر الشاعر بحر المانش في طريقه الى انكلترا . وما هي الا لحظة حتى ثار البحر ثورة أوحت اليه بهذه الابيات:]

غضب البحرُ غضبةً فحسبنا هذه الارضَ زُلزلت زلزالا
وسمعنا الرياح تصفر في الجـوّ صفيراً يقطّع الأوصالا
وجرى الغيم في السماء عبوساً ساحباً فوق شمسها أذيالا
والصباح الضحوك صار كئيباً والضحى الواقعيُّ أضحى خيالا
وكأن السماء خافت من الأر ض فجادت بدمعها هطالا ...

***

أيها البحر ! قد ركبناك رهواً فلقينا بمتنك الأهـوالا
وحسبنا العبور صفواً ولـكن لا المنى أنجزتْ ولا الصفو طالا
ورأينا فيك الأواذيَّ تعلو فكأن الأمواج صارت جبالا
ومشى الرعبُ في النفوس ومالت شُعُب القلب كلما الفُلك مالا
وظننا الخلاص منك بعيداً وحسبنا النجاة فيك مُحالا

***

ذُعر الرَّكب في مطاكَ وضجوا وتمـادى صُراخهم وتعالى
غمرة لم نُطق عليها اصطباراً ورؤًى لم نُطق لهنّ احتمالا
وسئمنا النضال في شُعَبِ الأر ض فجئنا نعيد فيك النضالا ..!
وحسبنا القفارَ أكثرَ رُعباً فرأينا البحار أسـوأ حالا
أنت يا بحر ساخـرٌ بأناس جهلوا قدرهم وضلوا ضلالا
ملأوا الارض ضجةً وهديراً ثم ما زال كلهم أطفالا ....

***

أين مِنْ غمرةِ البحار العوالي غمراتُ السنينَ وهي تَوالى ؟؟
كلُّ هول يا بحر يأتي ويمضي والليالي تغيّـر الأحوالا

محمد عبد الغني حسن

الغدد الصم

وتأثيرها في شخصياتنا — شخصياتنا المختلفة — طبيعة

الغدد الصمّ — وظائف الغدد الصمّ —

الشذوذ الغددي — علاج

الغدد بالجراحة

لحسن السلمان

مدير ثانوية البصرة

« ان في جسم الانسان صيدلية خفية وطبيباً متوارياً »

«عن العيون ، يصنع الادوية ويصفها ويستعملها بحسب»

« ما تقتضيه الحال . ولو لم يخلق الله تلك الصيدلية »

« وهذا الطبيب لما اجدت مساعي جميع الاطباء — »

« ولعجز اي مخلوق على البسيطة عن الحياة»

« براسلس »

١ — شخصياتنا المختلفة

اعتاد الناس القول ان فلانة غاية في الجمال لولا ما يعوزها من جاذبية ، وان اختها ممتلئة الجسم مرحة طروب . او ان لفلان شخصية فذة لولا بعض تصرف منحرف . او ان فلاناً ذو شخصية متسلطة آمرة كأنما خلق لان يكون قائداً عظيماً . فماذا يعنون بأقوالهم هذه ؟

الشخصية في نظرهم صفة جسدية ، ليس لها علاقة ببناء الجسم الداخلي يسبغونها على فلان وينزعونها من فلانة غير عالمين ان لا فاصل بين بناء الانسان الداخلي وبين شكل جسده وهيئة بنائه الخارجي وبين تصرفه العقلي . فلقد بين العلم ان لكل فرد من الناس شخصية تولد معه وتتكيف بحسب تغير بعض اعضائه الداخلية . ومن الاخطاء الذائعة عند الناس ان الشخصية تقسم أقساماً مختلفة فيقولون الشخصية الجسمية ويقصدون بها ضخامة الجسم وطول القامة وخشونة الصوت، والشخصية العقلية ويعنون بها سعة الاطلاع وحدة الذكاء والتروي في الاحكام . والحقيقة ان كلمة الشخصية تنطوي تحتها جميع صفات الانسان سواء أجسمية كانت ام عقلية ، عاطفية ام خلقية ، وكل طارىء يطرأ على هذه الصفات فيغيرها تغيراً جزئياً او كلياً إنما هو مغير للشخصية ذاتها . وكما تتفاوت صفات الانسان كذلك تتباين التأثيرات في شخصيته . فقد يزداد طول الانسان او قد ينقص وزنه ومع ذلك لا يظهر عليه تغير في خلقه او سلوكه ، حتى وان ظهر تغير بين في اعماله العقلية . وسيتضح لنا في بحثنا هذا ان اي تغير في البناء الداخلي لا بد ان يكون مصحوباً بتغير عقلي ، محسوساً كان ام غير محسوس

والناس وان لم يفرقوا بين صفات الفرد الجسمية والعقلية ، الا أنهم يصنفون الافراد بحسب صفاتهم الفسيولوجية . فالسمين عنوان للفرح وخفة الروح ، والشيخ والعجوز رمز للوقار والرزانة . ويكره الناس رؤية سمين لا يهزل وشيخ لا يجد ، ويستحقرون الشيخ عندما يتصابى والفتى عندما يتمشيخ . واذا ما شذ احد عن المألوف اهتموا بأمره وجدوا في تعليل هذا الشذوذ . وفي احوال كثيرة يتنبؤون عن خلق الفرد بتدقيق صفاته الجسدية فقط . وهذه التنبؤات وان لم تكن جميعها صحيحة الا انها تدل على مبلغ تعلق الصفات الخلقية والعقلية بالتكوين الجسدي

ولنتساءل الآن لماذا اختلفت شخصياتنا ، سواء أطويلي كنا القامة ام قصيريها ، ممتلئي الجسم ام نحيفيه ، جميلي الصورة ام قبيحيها ، سود الشعر ام صفره ، كاملي العقل ام ناقصيه ، بطيئي الحركة ام سريعيها . إن ذلك ناجم عن افرازات بعض الغدد الصغيرة الحجم في الدم أو في اللمف وهذه الغدد تدعى «الغدد الصم» ، اي التي ليس لها قنوات خاصة تصب فيها افرازاتها . وهذه الغدد هي المكونة لشخصياتنا والمكيفة لها . وعلى هذا فاننا اذا اردنا ان نفهم شخصياتنا واذا رغبنا في السيطرة عليها ووددنا ضبط أعمالنا وتصرفاتنا فاننا لن نستطيع ذلك ما لم نفهم حقيقة عمل كل من هذه الغدد ومقدار ما تفرزه من افرازاتها الباطنية في اجسامنا

٢ — طبيعة الغدد الصم

يحتوي جسم الانسان على الآلاف من الغدد، بعضها كبير وبعضها صغير جداً، بعضها بسيط البناء وبعضها معقد التركيب وهي على اختلاف انواعها وتباين حجومها ضرورية لنمو الجسم ولصحة العقل. فغدد العرق في الانسجة الجلدية وغدد اللعاب في الفم والزغابات المعدية في المعدة والكبد والبنكرياس والكليتان والغدد التناسلية وغير هذه من الغدد مهمة في بناء الجسم وضرورية لسلامة الانسان. وجميع هذه الغدد عدا الغدد التناسلية لا علاقة لها علاقة مباشرة بالشخصية ، اللهمَّ الاَّ في حالات عدم قيامها بواجبها . عندئذٍ يتضرر الجسم بأجمعه ويمرض الانسان وربما فقد حياته. وبديهي ان تأثيراً عامًّا كهذا قد يحدث عند ما لا يقوم اي عضو آخر بواجبه حق القيام

وتعرف الغدد المار ذكرها بالغدد « ذات الافراز الخارجي » فهي تستمد المواد الضرورية لها من الدم او اللمف او الامعاء وتصنع منهُ مركباً كيماويًّا على هيئة سائل تفرزه في الاعضاء المتعلقة بها بواسطة أقنية ظاهرة لا تستطيع الغدد بغيرها افراز مادتها . وبهذه الطريقة تفرز الكليتان البول والكبد الصفراء وغدد اللعاب اللعاب اللازم للهضم في مراحله الاولى

وهناك في الجسم نوع آخر من الغدد لا قنوات لها ولا تمر المواد التي تفرزها بأقنية خاصة تقوم بوظيفة التوصيل ، غير ان افرازها تمتصه الاوعية الدموية او الاوعية اللمفية التي تخترقها فينقله الدم واللمف الى جميع اعضاء الجسم . هذه هي الغدد الصم التي نعنيها في دراستنا هذه، ويدعى افرازها بالهورمون Hormone (١)

في طليعة من اهتمَّ بدراسة الغدد الصمّ دراسة فسيولوجية طبيب فرنسي من باريس يدعى براون سيكار Brown Sequard. فقد اعتقد هذا الطبيب ان افرازات الخصيتين تعيد للجسم نشاطه وترجع للهرم شبابه . ولكي يحقق فكرتهُ هذه حضَّر خلاصة مائية من افرازات خصيتي كلب قوي البنية، صحيح الجسم وطعَّم نفسه بها وادَّعى ان تلك الخلاصة أعادت اليه نشاطه الجسمي وحيويتهُ العقلية وزادت في سرعة دورته الدموية . وقد اثبتت التجارب الدقيقة الحديثة بطلان تجربة براون سيكار ، ويؤكد العلماء ان ما شعر به . عندما طعَّم نفسه بتلك الخلاصة انما هو مجرد وهم وتصور. ومع ذلك كان لتلك التجربة من التأثير في علماء الفسيولوجيا ما لا يوصف ، لأنها اثارت فيهم حب البحث عن الغدد الصم وعن تأثيرها في جسم الانسان مما ادى الى اكتشاف اسرارها والى ابتكار أبسط الطرق لاستخلاص افرازاتها واستعمالها في كثير من الامراض المستعصية

ولدراسة هذه الغدد طريقتان (١) الطريقة التجريبية (٢) والطريقة الكلينيكية . ففي

---

(١) المقتطف : اقترح الدكتور محمد شرف بك لفظ نور بفتح فسكون والجمع انوار ومعناه الرسول بين القوم ويمكن تخصيصه للمعنى المقصود باللفظ الاعجمي وقد جرينا على استعماله مقروناً بلفظ هرمون حتى يذيع

الطريقة الاولى تستعمل الحيوانات وسائط للبحث. واسلوب العلماء في ذلك ان تزال من حيوان التجربة ، الغدة التي يراد معرفة تأثيرها وفعلها ، ثم تدون ادق الملاحظات عن نموه وحركاته وجميع مظاهر حياته بعد ازالة الغدة ، وتوازن هذه الملاحظات بالملاحظات المدونة عن حيوان سوي لم تنزع منهُ غدته ، او ان يطعم الحيوان الذي نزعت منهُ غدته بخلاصة غدة حيوان آخر ويدرس درساً دقيقاً بعد هذه العملية

ولما كان من الصعب تطبيق الطريقة التجريبية على الانسان اضطرَّ الباحثون لاستعمال الطريقة الكلينيكية . وكيفية ذلك ان تدرس غدد الاشخاص الذين يولدون وهم مصابون بشذوذ في غددهم فهي اما ان تكون اكبر حجماً او اصغره من الغدة السوية او اشدَّ منها نشاطاً او اقل . وينمو بعض هذه الغدد قريباً من الجلد بحيث يستطاع درس شذوذها من الخارج واذا تعذر ذلك فيستعان بأشعة اكس . وقد لوحظ ان الشخص المصاب بتضخم الغدد او بتكسها او بزيادة فعلها تظهر عليهِ حالات خاصة في جسمه او عقله او في كليهما معاً . وبالاستعانة بالطريقتين السالفتين تمكن الباحثون من جمع اكمل الحقائق عن اشخاص منوا بشذوذ كبير في شخصياتهم مما ساعد على تحضير أنجع الادوية لملافاة شذوذهم والى اعادة صحتهم الى الحالة الطبيعية

٣ — وظائف الغدد الصم

الغدد ذات الافراز الداخلي— الغدد الصم ثمانية مجاميع ، الغدتان الدرقيتان Thyroids والغدد قرب الدرقية Parathyroids وموضع هاتين المجموعتين في الرقبة . والغدة التيموسية (الصعترية) Thymus في الصدر والكظران Adrenals فوق الكلية ، والغدة الصنوبرية Pineal والغـــدة النخامية Pituitary وموضعهما في الجمجمة قرب الدماغ . وهناك غدد تفرز افرازين احدهما خارجي والآخر داخلي ، اي ان لها قناة ومع ذلك تفرز افرازاً داخليًا في الدم مباشرة وليس لهذا الافراز علاقة بما تفرزه في الاقنية . وهذه هي البنكرياس (الحلوة) والخصية والمبيض

حسب الاقدمون ان الغدد الصمَّ اجسام زائدة في الجسد ليس لها وظائف مهمة ، ولكي يفسر بعضهم وجودها زعم ان لها وظائف خيالية ، كزعمه ان الغدتين الدرقيتين ترطبان الحنجرة فيكسب الصوتُ رنة موسيقية مع ان الغدة الدرقية أظهر الغدد وظيفة وأوضحها عملاً . وظنوا ان لمواقع الغدد تأثيراً كبيراً في وظائفها . والامر على عكس ذلك ، كما سيتضح لنا فيما بعد ، فالغدتان الصنوبرية والنخامية وان وجدتا تحت الدماغ الاَّ ان تأثيرهما في الدماغ اقل كثيراً من تأثير الغدة الدرقية فيه مع انها مستقرة في الرقبة . وأغرب من هذا ان الغدة الصنوبرية اكثر شبهاً بوظيفتها للغدة التيموسية من جارتها الغدة النخامية

(١) الغدة النخامية :— في قاعدة الدماغ تحت السقف الانفي تسكن غدة صغيرة الحجم يبلغ

وزنها نصف جرام تدعى الغدة النخامية . وقد حجبت الطبيعة هذه الغدة في صندوق عظمي في منخفض داخل الجمجمة لتقيها اي عطب يصيب الرأس

في اواخر القرن الثامن عشر استرعى نظر طبيب انكليزي ، يدعى جون هنتر ،طول قامة عملاق إرلندي . فلما توفي العملاق بذل الطبيب مالاً وافراً وجهوداً جبارة لامتلاك جثته وعند ما شرّحها وفحص دماغه وجد ان غدته النخامية كانت بحجم البيضة ، ومع ذلك لم يدرك الدكتور هنتر سر طول الرجل الارلندي . وفي اواخر القرن الماضي درس خواص هذه الغدة طبيب اميركي اسمه هربرت مكلين ايفانز ، وتمكن من تحضير افرازها .و استدل من تجاربه الكثيرة التي اجراها على الفيران ان مقدار الهورمون الذي تفرزه الغدة في الدم يعين شكل الجسم وهيئته ، ومع ان التجارب كثيرة والمحاولات متعددة الا ان الهورمون النقي لم يحضر حتى الآن

وقد اثبتت تجارب الدكتور كوشنغ Cushing ان جسم الحيوان يقف نموه عند ماتستأصل الغدة النخامية منه ، ويكون دماغه قليل النشاط وحركته بطيئة واعضاؤه التناسلية ضامرة جدًّا فاقدة لنشاطها التناسلي . كذلك دلت تجارب الباحثين ان الغدة النخامية مكونة من فصين الفص الامامي ويفرزهورموناً يدعى فيون Phyon ولهُ علاقة كبيرة بنمو الجسم وبنشاطه، والفص الخلفي ويفرز افرازين احدهما يدعى برولون Proloue وهذا لهُ علاقة كبيرة بنشاط الاعضاء التناسلية والآخر برولاكتون Prolactone وهو الهورمون الذي يثير الثديين في ذوات الاثداء ويزيد لبنهما بعد الولادة زيادة كبيرة ، ويعتقد بعضهم ان افرازات الفص الخلفي من الغدة تحدث قبض عضلات الرحم قبيل الولادة

(٢) الغدة الصنوبرية والغدة التيموسية : — اما الغدتان الصنوبرية والتيموسية فيصح ان ندعوهما بغدد الطفولة ، لان كلاً منهما يكون كامل التكوين عند ولادة الطفل ثم يزداد نموًّا في الاعوام الاولى للطفولة ويقف عند سن البلوغ عندما يبدأ نشاط الغدد التناسلية . وفي الانسان السوي تضمحل الغدة الصنوبرية تمام الاضمحلال في دور المراهقة ، ولا يبقى من الغدة التيموسية (الصعترية) بعد هذا الدور الا الشيء القليل

وتستقر الغدة الصنوبرية بين ثنايا الدماغ فوق الغدة النخامية بقليل . ولا يزال العلماء في شك من حقيقة وظيفتها ، ولا يدرون هل هي تفرز هورموناً خاصًّا بها او لا تفرز . ولكنهم مجمعون على انها تقوم بوظيفة الضابط للنمو التناسلي . فان ضمورها وتكسها يحدثان تغيرات كبيرة في حياتنا التناسلية قبل أوانها ، كنمو الشعر في جسد الاحداث وحول اعضائهم التناسلية، وبروز النهدين في الفتيات الصغيرات ، وظهور جميع علامات البلوغ عند الاطفال

والغدة التيموسية (الصعترية) رخوة الجسم ، وردية اللون موضعها فوق القلب ويكون وزنها قليلاً عند

الولادة ثم تزداد حتى تعدو كاملة عند سن البلوغ ، ثم تأخذ الغدة في الضمور شيئاً فشيئاً ولا يبقى منها بعد سن المراهقة الا جزء يسير . والمظنون ان خلاصة هذه الغدة تزيد من سرعة نمو الحيوان وتبكر كثيراً في نشاطه التناسلي

(٣) الغدة الدرقية والغدد قرب الدرقية : — في أسفل الحنجرة عند ملتقاها بالقصبة الهوائية تستقر غدة كبيرة مكونة من فصين كل على جانب من القصبة ويصلهما فص ثالث يدعى البرزخ ، وهذه الفصوص الثلاثة تكوّن الغدتين الدرقيتين

لقد لاحظ الباحثون ان تضخم الغدة الدرقية يكون دائماً مصحوباً بجحوظ العينين وخفقان القلب وتضخم العنق (Goitre) . ولاحظ طبيب انكليزي ان المصابين بالكرتينسم (البَلَه) Cretinism يصابون بمرض الغدد الدرقية وان المصابين بالمكسيديما (الخزَج : شرف) Myxoedema يصابون أيضاً بضعف الغدد الدرقية ، كما أنهم وجدوا ان افرازات الغدد الدرقية من حيوانات سوية تشفي هذه الامراض . وهذا مما يثبت ان الغدة الدرقية من أكثر الغدد تأثيراً في صحة الانسان

ومن أهم وظائف الغدة الدرقية أنها تنظم نمو الاطفال ، وتسير التفاعلات الكيماوية التي تجري في خلايا الجسم بصورة سوية . وهي وإن لم تزود الجسم بطاقة ما ، الا أن افرازها يزيد فعل الخلايا فتزداد طاقة الجسم وتمكن من تغير الطاقة من نوع الى آخر

وافراز الغدة الدرقية المدعو ثيروكسين Thyroxine يحتوي على مقادير قليلة من عنصر اليود ، وأن مفعول الأفراز يعود في الأصل الى مفعول هذا العنصر في الخلايا . وتستمد الغدة ما تحتاج اليه من عنصر اليود من الاطعمة التي يتناولها الانسان او من الأملاح اليودية التي توجد مقادير قليلة منها في مياه الشرب . فالبيض واللبن الحليب والبصل والجزر وغيرها من الخضار تحتوي على عنصر اليود بالنسبة الكافية . وقد لوحظ ان تربة بعض المدن يقل فيها عنصر اليود فيقل العنصر كذلك في الخضار التي تزرع هناك وفي مياه الشرب أيضاً فيكثر في تلك المدن تضخم العنق وجحوظ العينين

أما الغدد قرب الدرقية فهي غدد صغيرة الحجم بشكل حبة الفاصوليا تلتصق بالغدد الدرقية او تجاورها وهي زوجان كل زوج منها يستقر عند أحد فصي الدرقية

كان المعتقد أولاً أن هذه الغدد أجزاء من الغدة الدرقية او تصلبات منها غير ان التجارب الدقيقة التي أجريت على الحيوانات آكلة الحشائش اثبت أنها غدد قائمة بنفسها وان لها عملاً خاصاً يختلف تمام الاختلاف عن الغدد الدرقية . وفي عام ١٩٠٩ لاحظ مكالم MacCallum وفوجتلين Voegtlin ان مرض التيتاني Tetany يكون دائماً مصحوباً بنقص في مقدار الكلسيوم في الدم ، وقد اكتشف كولب Collip عام ١٩٢٥ ان الحيوانات التي تزال غددها فوق الدرقية تصاب بتشنج عصبي وتزداد سرعة حركة القلب وتموت بعد ثمان وأربعين ساعة من جراء

التعب الكثير وان دمها لا يتخثر حتى بعد الممات . وعندما حلل دمها وجد انهُ فاقد لعنصر الكلسيوم . واذا أسرع في حقن الحيوان قبل وفاته بخلاصة هذه الغدد عاد الى الحالة السوية وزالت منهُ جميع أعراض مرض التيتاني . وهذا مما يثبت ان أفراز الغدد فوق الدرقية تنظم مقدار الكلسيوم في الدم ، وبدون ذلك يعرض الاطفال للكساح وللزكام وللنزيف الدموي ويعرض الكهول للسل العظمي

(٤) الكظران : — والكظران غدتان صغيرتان تستقر كل منهن فوق كلية من الكليتين ويختلف بناؤهما عن سائر الغدد الصم بكونهما مكونتين من لب رخو وقشرة سميكة

والسابق الى معرفة شأن الكظرين طبيب انكليزي يدعى اديسون Addison وذلك في عام ١٨٥٥ ، فقد اشار هذا الطبيب فيما كتب ان ضعف الجهاز العضلي والجهاز العصبي يكون مصحوباً دائماً بضعف الكظرين . ومما اكتشفهُ براون سيكار ان ازالة الكظرين من الجسم تعرضهُ لضعف كل من الجهاز العضلي والعصبي ، اي لمرض اديسون ، وعاقبة المريض الموت المحتم . غير ان اول من بحث الكظرين بحثاً دقيقاً العالم الاميركي جون جاكوب ايبل J. J. Abel فكان يصنع من غدد الاغنام شرائح رقيقة ثم يعرضها لحرارة لا تزيد على ٦٠ م° حتى تجف ، ويزيل المادة الدهنية التي فيها باذابتها في الاثير فيترسب لديه مسحوق رمادي اللون ، وعندما يذاب هذا المسحوق في الماء ويحقن بهِ حيوان ما يرتفع ضغط دمه

وفي اوائل هذا القرن استطاع كيمياوي ياباني يدعى تاكامين Takamine من تحضير خلاصة افراز الكظرين بشكل بلورات دعاها بالادرينالين Adrenaline والحقيقة ان ما استحضره تكامين هو افراز اللب من الغدة . فمن خواص هذا الافراز انهُ يرفع ضغط الدم لكثرة الانقباضات الحادثة في الشرايين والاوعية الشعرية ، وانهُ يمكّن القلب الضعيف من الاستمرار في عمله عند ما يضنيه التعب . وللادرينالين تأثير كبير في تمثيل المواد السكرية فهو ينقص من الكليكوجين في الكبد فيقوم بعمل معاكس لعمل الانسولين ، وانهُ كذلك يمنع النزف في الانف والاذن والحلق ويبطل القصيبات الرئوية عن العمل فيمنع بذلك التشنج في النزلة الشعبية

والكظران هما غدتا الشجاع والجبان . فقد اكتشف كانون Cannon عام ١٩١٠ بطريقة تجريبية غاية في الدقة ان الادرينالين يكثر إفرازهُ عند ما يتهيج الانسان فيجعله في حالة غضب شديد او خوف مميت ، وينجم عن ذلك احتراق زائد في الجسم وتزداد سرعة الدورة الدموية ويكثر خفقان القلب والتنفس . ومقدار الافراز يعين هل الانسان شجاع او جبان . ومن اهم وظائف الادرينالين كما حققها كيلاوي Kellaway وكوويل Cowell انهُ يفعل كترياق ضد السموم التي تنشأ من الغازات المتكونة في الامعاء

اما قشرة الكظرين فتفرز هورموناً يدعى الكورتين Cortine ، وهذا الافراز غني بفيتامين ج ومن وظائفه ان قلته تنتج مرض ادبسون وللكورتين علاقة كبيرة بالغدد التناسلية فهو الباعث على زيادة نشاطها

(٥) البنكرياس او الغدة الحلوة : — والبنكرياس غدة كبيرة تقع قرب المعدة من الخلف وهي وردية اللون وتتصل بالاثنى عشري من الامعاء بقناة دقيقة

اكتشف لانجرهانس Langerhans عام ١٨٦٩ ان هذه الغدة تحتوي في وسطها على مجموعة من الخلايا تختلف في شكلها عن باقي خلايا الغدة — ولاحظ منكووسكي Minkowski عام ١٨٨٩ ان الحيوان الذي يزال منه البنكرياس يصاب بالمرض السكري الحاد . وبعد هذا بيوم واحد وجد سكوبولو Schobolew ورفيقه ان (الحلوة) اذا ماربطت قناتها ضمرت وفنيت جميع خلاياها عدا الخلايا التي اكتشفها لانجرهانس والتي تدعى اليوم « بجزر لانجرهانس » . ومع ذلك فان الحيوان يبقى سليماً من السكري مما جعل العلماء يدركون ان جزر لانجرهانس تفرز افرازاً داخلياً خلافاً لما تفرزه سائر خلايا الغدة يقي الجسم من المرض السكري وقد سُمّي الانسولين

ولما كان السكري من الامراض الكثيرة الانتشار بين مختلف طبقات الناس جرب الاطباء مداواة مرضاهم باطعامهم قطعاً من البنكرياس ، وحاول البعض منهم تحضير الانسولين من الغدة بكاملها ولكنهم لم يفلحوا لان الافراز الخارجي للبنكرياس يحتوي على مادة تدعى تريبسينوجين Trypsinogen وهذه تبطل عمل افراز « جزر لانجرهانس » اما بانتنج Banting مكتشف الانسولين فقد سعى لتحضير الانسولين من جزر لانجرهانس وحدها بعد ان اباد الخلايا الاخرى ، فكللت مساعيه بنجاح تام عام ١٩٢٠ وفاز بتحضير الانسولين نقياً . وكذلك استطاع الكيمياويون انقاذ الآلاف من الناس الذين يقضي عليهم بالمرض السكري

(٦) الغدد التناسلية (الخصية والمبيض) : — من اعظم الغدد شأناً في جسم الانسان الخصية في الرجل والمبيض في المرأة ، وليس شأنهما متعلقاً بظاهرة التناسل او حفظ النوع فحسب وانما بمقدار افرازاتهما الداخلية . لان مقدار الافراز يعين كثيراً من صفات الانسان العقلية والخلقية والجسمية . وهذه الافرازات هي التي تكسب الرجل رجولته والمرأة انوثتها

يبدأ نشاط الغدد التناسلية عندما ينتهي نشاط الغدة السعترية والغدة الصنوبرية ، فطالما غدد الطفولة في اشد نشاطها لا تقوم الغدد التناسلية باي عمل ما ، وما ان تقف تلك عن افراز هورموناتها حتى تتحرك هذه للقيام بوظيفتها فتتغير شخصية الرجل كما تتغير شخصية المرأة ايضاً ويكون كل منهما قد جاوز دور طفولته ودخل سن المراهقة

وفي طليعة من درس خواص الغدد التناسلية وعرف عن اسرارها الشيء الكثير الدكتور

شتايناخ Dr. Steinach فقد اثبتت تجاربهُ الدقيقة اثباتاً قاطعاً لا يحتمل الشك ان الغدد التناسلية تحتوي نوعين من الخلايا تختلفين في وظائفهما : الخلايا الخارجية وعملها افراز النُطف المنوية في الرجل والبويضات في المرأة . وتحيط هذه الخلايا بخلايا اخرى اكتشفها من قبل ليديج Leydig تقوم بافراز الهورمونات التي نحن بصددها

ومما اجراه الدكتور شتايناخ ان انتزع من حيوان غدده التناسلية وزرعها في غير مواضعها فعاشت هذه الحيوانات عيشة سوية ولم يظهر عليها اي شذوذ جسمي إلاَّ أنها لم تستطع القيام باعمالها التناسلية . وانتزع من بعض الحيوانات خصيتيها وزرع عوضاً عنها مبائض حيوانات اخرى من نوعها فظهرت على هذه علامات الانوثة واختفت صفات الذكورة منها . ولاحظ الدكتور شتايناخ ايضاً ان الحيوانات التي اجرى عليها تجاربه اخذت تميل الى ذكور من انواعها عند ما اسكنت معها . ومما قام به من التجارب ان ربط الحبل المنوي لحيوانات متقدمة في السن مشرفة على الهلاك فلاحظ ان الخلايا الخارجية للخصية ضمرت بينما تكاثرت غدد ليديج وازداد نشاطها وضاعفت من افرازات هورموناتها فكان من جراء ذلك ان شعرت الحيوانات الهرمة بنشاط جديد وبقوة ماكانت تشعر بها من قبل

وفاز بتحضير هورمون الخصية العالم بوتيناند Butenandt وسماه تستوستيرون Testosterone ويعرف اليوم باسم پروفيرون Proviron وتأثير البروفيرون انهُ يظهر على الرجل جميع الصفات التناسلية الثانوية كظهور الشعر على الخصية وخشونة الصوت وضخامة الجسم الى غير ذلك من صفات الرجولة الكاملة . اما هورمون المبيض فقد حضره الدكتور دوزي ويدعى ثيلين Thealin وعمل هذا الهورمون انهُ يكسب المرأة جميع صفاتها التناسلية الثانوية كرقة الصوت وبروز الثديين ودقة الجسم وظهور الطمث وغيرها من صفات الانوثة المغرية

واذا ما حقن البروفيرون في جسم انثى خشن صوتها ونبت الشعر على عارضيها ، اما اذا حقن الثيلين في جسم رجل فقد الكثير من صفات الرجولة فيه وظهرت عليه علامات الانوثة ففي سنة ١٩١٦ اخذ غوديل Goodale المبيض من دجاجة وزرعهُ في ديك ازيلت خصيتاه فتحول الديك دجاجة في مظهره الخارجي وسلوكه ، وذلك لان هورمون المبيض افرز في دم الديك فأكسبهُ صفات الانوثة

٤ — الشذوذ الفردي

الغدد الصمُّ قلما تستقر على حال واحد . فهي تتأثر بعاملي الوراثة والبيئة كما يتأثر اي عضو من اعضاء الجسم . فقد تضمر الغدة قبل اوانها فتتعطل عن القيام بوظيفتها ، وقد يزداد نشاطها زيادة غير طبيعية . وفي كلتا الحالتين تتأثر قوى الانسان الجسمية والعقلية . وكثير من

الشذوذ العقلي والجسمي والخلقي ناجم عن زيادة في افراز الغدد او نقص فيه . وها نحن هنا ندرس الطوارىء التي تطرأ على الانسان عند زيادة نشاط الغدة او عند نقصهِ

شوهد في بعض البالغين ان الغدة الصعترية والغدة الصنوبرية لا تضمران بعد سن البلوغ كما يجب ان يحدث في الحالة الطبيعية ، فيحدث من جراء ذلك ان يبقى الشخص طفلاً عقلاً وسلوكاً ، ويعيش ضعيف الارادة بطيء التفكير لا يستطيع الكد والتعب في هذه الحياة . وتظل غدده التناسلية غير نامية لا تفرز افرازاتها الداخلية فيكون الانسان اشبه بالخصي بهيكله العظمي الطويل المستدق وبصوته الموسيقي المرتفع الترديد ولا ينبت الشعر في عارضيهِ

واذا ضمرت الغدتان والطفل في الخامسة من عمره ظهرت عليه جميع علامات البلوغ وهو في اول عمره ، فيشبه الشخص البالغ بظهور الشعر في جسمه وحول اعضائه التناسلية وبتضخم صوته ان كان ذكراً او برقة الصوت وبروز النهدين ان كان انثى ومن الغريب ان الميول التناسلية تظهر على الطفل وهو بهذا السن

وعندما لا تقوم الغدد الدرقية قياماً تامًّا بوظائفها يتشوه الجسم تشوهاً ظاهراً . اذ يتضخم الانف وتتدلى الشفتان ويخشن الجلد ويزداد البعد بين العينين وتفقد البنان بريقهما وشعلتهما ، وتقصر القامة وترخو العظام ويصاب الانسان من جراء قلة افراز الغدد الدرقية بانخفاض ضغط الدم وبطء حركة القلب فتنزل درجة الحرارة حتى تصل الى ٩٦° م فلا يقوى على الشغل الشديد ويعرض للصداع المزمن والامساك الدائم ولمرض المفاصل ولفقر الدم وضيق التنفس ولمختلف الامراض العصبية . وتعرَّض المرأة لاضطراب الطمث بحيث ينقطع حيناً ويشتدُّ آخر ويكون مصحوباً باوجاع في الظهر فيعتري المرأة من جراء ذلك خمول عام وبطء الحركة

واذا تعطلت هذه الغدة عند الاطفال فانهم يعرضون لمرض الكريتنزم « البله الوراثي » Cretinism وَمن علامات هذا المرض تضخم اليدين والرجلين وقصر اصابع الكفين وضخامتها وقلة نمو الاظافر وتشوه الاسنان وتآكلها لفقدان مادة الميناء منهما ، وخشونة الشعر وكثرة تساقطه وجفاف قشرة الجلد وخشونتها ، وظهور البلادة والكسل والبله على الطفل فيكون دون المتوسط في عقليته وذاكرته وله استعداد للخبل وللجنون

اما اذا ازداد نشاط الغدد الدرقية ، وكثرت افرازاتها فان اعصاب الانسان تهيج فيكون كثير الغضب سريع الحدة ، لايطيق معارضة ولا يتحمل انتقاداً ، وتزداد سرعة حركة قلبهِ ويرتفع ضغط دمهِ وتكون درجة حرارتهِ فوق المعدل ، ويتغير شكل رأسه فيستطيل وتختفي وجنتاه ويبرز جبينه ، وتجحظ عيناه ، وتستدق شفتاه وتكون اسنانه صغيرة قوية لؤلؤية الشكل ويسترسل شعره ويكون على الغالب كثا متموجاً نامياً نمواً زائداً . ويكون احد هؤلاء

كثير الخجل قليل الغضب تحمر وجنتاهُ في حالي الحياء والحدة ، يصل دور المراهقة بسرعة وتكون حساسيتهُ الجنسية على أشدها

والكظران عند ما يضعفان ويعجزان عن القيام بوظائفها ، سواء حين الولادة او من جراء مرض طارىء او من أثر الشيخوخة ، يحدثان في الجسم اضطراباً بيناً فينخفض ضغط الدم وتقل حرارة الجسم وتضعف الاعصاب وتضطرب القوى العضلية ، ويعرض الانسان لمرض النورستانيا او للامساك المزمن او للخفقان . وبعكس ذلك عند ما يزداد مقدار افراز الكظرين فان الشخص يكون كثير الغضب سريع الحركة ميالاً للعراك ، مفتول الساعد قوي العضلات ، وتظهر على الفتاة التي هي من هذا النوع سمنة في الصدر وضخامة في الثديين،واما النسوة المتقدمات في السن فيسمنَّ سمنة مفرطة وينبت الشعر على ظهورهنَّ وفوق شفاههنَّ العليا وعلى ذقونهنَّ .ويرتفع ضغط الدم في الجسم ارتفاعاً عالياً يعرض الجسم في احيان كثيرة لخطر مفاجىء

واذا ما تعطلت الغدة النخامية عن عملها فان قوى الجسم عقلية كانت ام جسمية تتعطل عن العمل ايضاً فيتناقص افراز الغدد الدرقية ويضعف دماغ الانسان فتقل مداركه وينضب معين تفكيره حتى يصبح اقرب الى البلاهة منهُ الى الذكاء ، فلا يقوى على ضبط نفسه ولا يستطيع السيطرة على اهوائه ولا يتردد عن ارتباك افظع الجرائم وحتى القتل منها

والاطفال الذين تضمر غددهم النخامية ينشأون على حب الكذب والسرقة وسوء الاخلاق فلا تجديهم تربية الوالدين نفعاً ولا تعدل المدارس من شذوذهم الخلقي شيئاً ، وعلاوة على هذا فان نموهم العقلي والجسدي يتوقف وهم دون الخامسة فيقضون سني الحياة وهم اقزام في هيئاتهم الجسمية اطفال في عقلياتهم ميالون للاتصاف بصفات الاناث ان كانوا ذكوراً او بصفات الذكور ان كنَّ اناثاً . ويتوقف نمو الاعضاء التناسلية عندهم وتنعدم فيهم قابلية القيام بالاعمال التناسلية وعند ما تضعف هذه الغدة في المتقدمين بالسن فان اجسامهم تتضخم ويكثر الشحم المترهل في اسفل جذع المرأة ويقل في صدرها وفي نهديها . اما الرجل فيسقط شعر رأسه وجسده وتتشوه اسنانه ويصفر رأسه وفي حالة توقف الغدة عن الافراز يعرَّض الانسان لمختلف الامراض العصبية وبصورة خاصة للعته والجنون ، وللاضطرابات التناسلية فيعشق الشخص ابناء شقه Sex ولا يميل الى النوع المخالف لهُ بالشق

ويكون الحال على عكس ما ذكر عند ما يكثر افراز الغدد النخامية ، فيزداد النشاط العقلي والجسدي ويتضاعف الذكاء ويزداد الذهن حدة . ويمثل هذا النوع من الناس المكتشفون والمخترعون والفلاسفة وقادة الرأي . ومن الصفات التي تميز هؤلاء الناس عن غيرهم ضخامة العظام وكبر القدمين والكفين وطول القامة وكثرة الشعر في الرأس وعلى الوجه وفي الاطراف

والجذع وقد يزداد الافراز كثيراً فيزداد طول الشخص ويتضخم عقله وتأخذ غدده التاسلية بالقيام بوظائفها قبل أوانها. والافرازات الداخلية للغدد التاسلية تؤثر تأثيراً كبيراً جداً في شخصية الانسان وفي افعاله العقلية والخلقية . فعند ما تزال الغدد التاسلية من الجسم تنعدم في الشخص جميع الصفات التاسلية الثانوية . وليس من شك ان الحياة لن تكون سعيدة هانئة ما لم تكن الغدد التاسلية في حالة سوية قائمة بوظيفتها على الوجه الاكمل

وتعتقد طائفة كبيرة من علماء النفس وفي مقدمتها العالم النمساوي الكبير سجمند فرويد Freud ان لجميع اعمال الانسان وافكاره عاملاً تاسلياً خفياً وان الشخص السوي في افكاره وفي اعماله لا بد وان تكون اعضاؤه التاسلية في حالة طبيعية سالمة من اي مرض او عطب . ويلاحظ ان الطفل الذي تضعف خصيتاه او تستأصلان منهُ ينشأ ضعيف البنية دقيق العظام رقيق الصوت عالي الترديد ضعيف القوى العقلية اشبه بالمرأة منهُ بالذكر. وكذلك الحال في المرأة التي يضعف مبيضاها فانها تفقد الكثير من انوثتها ورقة صوتها ويخشوشن عظمها ويمتلىء جسمها وينبت الشعر على عارضيها فتميل الى بنات نوعها وتنفر من الرجال . وفي حالة قلة الافرازات الداخلية في المرأة تتعرض لاضطراب الحيض Amenorrhea وللهستريا وفي الرجل يتعرض لمرض العزلة او الخوف من الفضاء Agoraphobia وللنورستانيا ولغيرها من الامراض العصبية

٥ — علاج الفرد بالجراحة

من عجائب الطب الحديث ان الجراح بمبضعه الدقيق استطاع ان يبدل من شخصية الانسان ويغير سحنتهُ ، ويزيل تشويه جسمه ويرجع عقليته الى الطريق السوي ان كانت ضالة من غير هدى ، وان عملية بسيطة يجريها الجراح الحاذق على غدد الانسان عندما تشذ تعيد الى الانسان كثيراً من الصفات التي يجب ان يتصف بها وتكسبه شخصية سوية وتسبغ عليه حياة سعيدة هانئة

في عام ١٩٣٣ اصيب شاب في مقتبل عمره من مدينة سنسناتي في الولايات المتحدة الاميركية بمرض لم يتمكن الاطباء من معالجته . فلقد هزل جسم الشاب وضعفت اعصابه وصارت تنتابه نوبات عصبية عصيبة وجحظت عيناه جحوظاً شديداً وانتابت عضلاته رعشة مستديمة ولم تمضِ بضعة اشهر على ظهور هذا المرض على الشاب حتى فقد عقله ، فعزل في مستشفى المجاذيب خوف الفتك بالناس وقيض الله له جراح ادرك بثاقب بصيرته ان الغدد الدرقية عند هذا الفتى لا بد وان تكون اشد نشاطاً مما هي عليه في الحالة الطبيعية ، وان المقدار الكبير من الثيروكسين الذي يفرز في دمه كان يستنفد جميع المواد المخزونة في الجسم ، فقرر ان يقطع قسماً من غدته الدرقية فما ان اجرى الدكتور دي كنورسي Dr. De Conroy العملية المطلوبة ، وهو الطبيب الذي شخص

المرض ، حتى اخذ الفتى يستعيد قواه العقلية والجسمية قليلاً قليلاً . وبعد بضعة اشهر غادر المستشفى وعاد الى الحياة العامة سليماً معافى يزاول عمله اليومي كما كان قبل ان يعتريه مرضه العصبي

والعمليات الجراحية على الغدد الصم يجب ان تجري بكل عناية ودقة بحيث لا يحدث نزف مهما يكن ضعيفاً لحدوث النزف يؤدي في كثير من الاوقات بالمريض الى الهلاك . وتحقيقاً لهذا ابتكر الجراحون مبضعاً جديداً غاية في الدقة يدعى بالسكين الكهربائي Radio Knife . وهو ابرة كهربائية تقطع الغدة وتخيط الاوعية الدموية التي فيها وتعقم الجرح في آن واحد

وفي عام ١٩٢٦ جيء الى المستشفى العمومي بمدينة بوسطن بملاح مصاب بمرض غريب عجز عن تشخيصه أمهر الأطباء . وكما عرفهُ الأطباء عن هذا المريض انهُ فقد من طوله سبع عقد خلال ثمانية أعوام . فلقد كان طول قامته ستّ أقدام وعقدة واحدة عام ١٩١٨ فأصبحت خمس أقدام وست عقد عام ١٩٢٦ وعلاوة على هذا ضعفت عظامه حتى صارت لا تقوى على حمله . وعندما فحصهُ أحد أطباء المستشفى بأشعة اكس وجد ان مقدار الكلسيوم كان يتناقص في عظامه مما يدل على ان الغدد قرب الدرقية كانت كثيرة النشاط ، فعالجهُ الطبيب المذكور بعملية جراحية أزال فيها غدتين من هذه الغدد فلم يمض على العملية وقت طويلٌ حتى برح المستشفى وهو بكامل صحته

ومما يجب ان يسطر بمداد من الفخر للطب الحديث اكتشافه علاجاً للمرض السكري ، المرض الذي كان يقضي على الآلاف من الناس في مختلف بلاد المعمور . أما اليوم فبفضل الأنسولين زال خطر السكري ، ومع ذلك فان الاطباء المعاصرين يتجهون الى ناحية أخرى من نواحي الطب لمعالجة هذا المرض ، هي ناحية الطب الجراحي

قبل بضعة أعوام قام الدكتور جورج تاكات Takat في مدينة شيكاغو بعملية جراحية لرجل مصاب بالسكري أدت الى نجاته من هلاك محتم . وطريقته في ذلك ان شق الجدار البطني وأزاح المعدة حتى بان البنكرياس فربط القناة البنكرياسية التي توصل العصارة البنكرياسية الى الامعاء الدقيق ، فكانت النتيجة ان ضمرت الغدد الجدارية للبنكرياس وزادت نشاط الخلايا في جزر لانجرهانس فتناقص مقدار السكر في الدم حتى وصل الى المقدار الطبيعي . وقد أجريت عدة عمليات من هذا القبيل نجح بها الجراحون نجاحاً باهراً

وفي عام ١٩٢٩ أتت الى الدكتور كوستر Koster من نيويورك فتاة في ريعان شبابها كانت تشكو السمنة المفرطة . فقد كان وزنها يوم ذاك ٣٣٥ رطلا مصريًا وكان وزنها يتزايد بمعدل ١٢٥ رطلاً في العام الواحد . فقرر الطبيب بعد الفحص الدقيق وجوب ازالة أحد الكظرين. وعندما أجرى العملية وجد ان الكظر الواحد كان قد تضخم حتى بلغ ثلاثة امثال حجمه السوي. وبعد شفاء الفتاة من العملية الجراحية أخذت تفقد الشحم المتراكم في جسدها بذات السرعة

التي اكتسبتهُ بها . ولم يمر عامان حتى كانت الفتاة بشكل طبيعي جذاب ، واستعادت كثيراً من مظاهر جمالها وجاذبيتها الجنسية

والغدة النخامية وان كانت غاية في الصغر ومنزوية داخل الجمجمة الاَّ ان مبضع الجراح وصل اليها واستطاع استئصالها . فالبعض من الاحداث معرَّض لمرض الكائمة (شرف) Acromegaly [1] ومن مظاهر هذا المرض زيادة نمو الكفين والقدمين وتضخمهما . وفي مثل هذه الظروف لا بدَّ من استئصال الغدة النخامية بعملية جراحية . وكذلك الغدة الصنوبرية وان كانت مستقرة بين ثنيات الدماغ فان مبضع الجراح يهددها كلما اعتورها شذوذ ولا سيما حينما يزداد نموها زيادة فاحشة بحيث تضغط ضغطاً شديداً على الدماغ فتسبب الصداع المزمن وأحياناً العمى والموت الفجائي

ومن أشهر العمليات الجراحية التي أجريت على الغدد هي عملية الدكتور شتايناخ وعملية الدكتور فورونوف Voronoff . أما الأولى فتتلخص في ربط الحبل المنوي لمنع افراز المادة المنوية فتضعف من جراء ذلك الخلايا المختصة بأفراز السائل المنوي في حين ان الغدد التي تفرز الهورمون التناسلي تزداد فعالية . أما العملية الثانية فتتلخص في زرع غدد حيوان بكامل قواه ونشاطه في حيوانات ضعيفة متقدمة في السن

لقد أجرى قبل بضعة أعوام طبيبان مصريان في مستشفى بلبيس عملية شبيهة بعملية فورونوف وذلك أنهما زرعا غدتين مستأصلتين من شابين قويين في شيخ مصاب بضعف عام ورعشة مزمنة . ولم يمض اسبوع واحد على هذه العملية حتى ظهرت بوادر النشاط الجسدي والعقلي على الشيخ واختفت الرعشة التي لازمتهُ مدة طويلة . وقد اجريت عدة عمليات على نسوة اصبنَ بأمراض في مبائضهنَّ مما ادى الى حرمانهنَّ في الحمل وزرعت فيهنَّ قطع من مبائض نسوة سالمات فحملنَ وولدنَ اولاداً كاملي الخلقة سالمين من اي مرض مزمن . ولا ريب ان جراحة الغدد الصم هي اليوم في مرحلتها الأولى وسيأتي اليوم الذي يتغلب فيه الطب الجراحي على كثير من الامراض المستعصية الناجمة عن سبب غددي

البصرة — حسن السلمان

مراجع البحث :

1 — Handbook of Physiology. By Halliburton & Mcdowell
2 — How Glands Affect Personality. By Grace Adams
3 — Eugenics & Sex Harmony. By H. H. Rubin
4 — Outline of Modern Belief. By W. Grierson & J. W. N. Sullivan
5 — Encyclopedia of Modern Knowledge. Edited By Sir John Hammerton
6 — Popular Science Monthly. June, 1933.

٧ — مجلة المقتطف عدد ١ ، ٢ ، ٣ من المجلد التسعين

(١) المقتطف : وضعنا خطأ في السطر ٩ صفحة ٤٥٨ من هذا البحث (الخرج) مقابلا لـكسيديميا منسوبة الى «شرف» والواقع أنها في معجمه أوذيميا مخاطية واستسقاء لحمي عن الخوارزمي

الطاقة الذرية

اطلاقها بأسلوب
جديد بارع

هل العالم على عتبة عصر جديد يدخلهُ من ناحية تحقيق حلم طالما ساور أذهان العلماء هو حلم اطلاق الطاقة الذرّية واستخدامها ، مستغنياً بذلك عن الفحم والنفط وغيرهما

ولسنا نوجّه هذا السؤال توهماً او تخيّلاً ، وقد سبق لنا ان نفينا قبلاً أن الطاقة المطلقة من تهشيم الذرَّة اقلُّ من الطاقة المنفقة على عملية التهشيم. ولكننا نوجّههُ اليوم بعد اطلاعنا على نباءِ اسلوب جديدٍ لتهشيم الذرَّة ، كانت فيهِ الطاقة المنطلقة من جرَّاء التهشيم اعظم جدًّا من الطاقة المستعملة في احداثهِ ، وقد ذهب وطسن دايفس رئيس « مكتب العلم » بوشنطن الى ان هذه التجارب قد تكون اعظم شأناً من كشف النشاط الاشعاعي نفسهِ

واول ما يريد علماء الطبيعة توجيه النظر اليهِ في هذا الصدد ألاَّ يسري الذعر الى نفوس الناس عند ما يقرأون هذا الخبر بمجاراتهم لبعض الروائيين الذين ينزعون الى تصوُّر المستقبل وقد اطلقت فيهِ الطاقة من الذرَّات فاستعملت في تدميره ونسفه

إما الجديد في هذه التجارب فهو ان عنصر الاورانيوم على ما يعلم قرَّاء المقتطف اثقل العناصر اطلاقاً ، وهو عنصر مشعٌّ ينحلُّ من تلقاءِ نفسهِ انحلالاً بطيئاً فتنطلق منه طاقة في خلال هذا الانحلال ولكن العلماء استطاعوا ان يشقوا ذرتهُ فأسفر عملهم هذا عن انطلاق قدر كبير من الطاقة منها ، وكانت وسيلتهم الى ذلك الدقيقة المعروفة باسم النوترون (المحايد) وهي الدقيقة المتعادلة الشحنة الكهربائية التي كشفها شدك الانكليزي من نحو سبع سنوات

فاذا اطلقت النوترونات على ذرات الاورانيوم ، حملت الذرات على ان تنشقَّ فتنطلق منها مقادير كبيرة من الطاقة — مهما تكن طاقة انطلاق النوترونات صغيرة — وقد بلغ مقدار الطاقة المنطلقة من الاورانيوم على النحو المتقدم في التجارب التي تمَّت مائة مليون فولط

وليست المسألة بسيطة كما يتبادر الى الذهن لأنهُ لابدَّ من اعداد الاجهزة اللازمة لتوليد النوترونات وإطلاقها بحيث تصيب أكبر كمية مستطاعة من ذرّات الأورانيوم . وهذه

الناحية من العمل لم تبلغ بعد حدًّا بعيداً من الاتقان فاذا أتقنت فالغالب ان يزيد قدر الطاقة المنطلقة على مائة مليون فولط لان الحسابات النظرية تجعل هذا القدر ضعف ذلك

وليس في وسع القارىء ان يدرك مغزى هذا القدر الكبير من الطاقة المنطلقة من انقسام ذرات الأورانيوم بتسديد النوترونات اليها ، الاَّ اذا علم ان أكبر قدر من الطاقة استطاع العلماء اطلاقهُ من ذرَّات مادة ما هو ٢٠ مليون فولط . وقد كان ذلك بتسديد الدوتونات (وهي نوى ذرَّات الايدروجين الثقيل) الى مادة الليثيوم

وقد بدأ الفصل الأخير في رواية تهشيم الذرَّة واطلاق طاقتها ، بمباحث العالم الطبيعي الألماني الدكتور أوتو هان (Hahn) ذلك بأنهُ لاحظ حالة اورانيوم الغريبة عند ما تسدَّد اليه النوترونات . ولكنهُ لم يستطع ان يفسّر ما شاهد . وعرف الدكتور لِز ميتنر (Meitner) والدكتور فرتش من علماء كوبنهاغن عاصمة الدنمارك — وأولهما كان زميلاً للدكتور هان وهو من مشردي العلماء الالمان الآن — بما شاهده الباحث الألماني فاقترحا القول بانقسام ذرَّات الأورانيوم وتحوُّلها الى ذرَّات عناصر أخرى ، تفسيراً لهُ . وكان هذا الرأي جديداً ، ولكن البحث أثبت صحته . ولما اجتمع مؤتمر علوم الطبيعة النظرية من عهد قريب في جامعة جورج وشنطن بالعاصمة الاميركية كانت نتائج هذا البحث قد نشرت ، فكان موضوعها حديث رجال المؤتمر . فهبّت جماعات الباحثين في موضوع الذرَّة الى البحث والتجريب . وقد قرأنا في عدد رسالة العلم الأسبوعية الصادر في ١١ فبراير ان مباحث جماعات أربع قد أيدت أقوال هان وميتنر وزملائهما في برلين وكوبنهاغن ثم علم أيضاً بعد انفضاض مؤتمر وشنطن أن مختبر نيلز بور Bohr العالم الطبيعي المشهور وحائز جائزة نوبل الطبيعية ، أيّد النتائج السابقة

أما وقد ثبتت هذه الحقيقة في ما يخص ذرَّة الراديوم ، فليس ثمة ريب في ان الباحثين سيقبلون الآن على تسديد النوترونات الى جميع العناصر الثقيلة ليتبينوا تأثيرها فيها من حيث انقسام ذرَّاتها وانطلاق الطاقة منها في خلال الانقسام

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ، أن الرأي اتجه أولاً الى ان الذرَّات التي تسفر عن انقسام ذرات الأورانيوم بتسديد النوترونات اليها ، انما هي ذرَّات نظير isotope من نظائر الراديوم . فحاول الدكتور هان — وهو من أبرع الكيماويين الطبيعيين في العالم — ان يتبين الراديوم بالكواشف المعروفة فعجز عن ذلك ثم ثبت لهُ ان ما أمامهُ ليس إلاَّ نظائر عنصر الباريوم فظن أنهُ أخطأ الحساب والاستنتاج ، فأدخل تعديلاً على طريقته ، غرضهُ امتحان النتيجة فثبت لهُ ان ذرَّة الأورانيوم تنقسم قسمين متقاربين كتلة ، إحداها ذرَّة نظير من الباريوم وقد تكون الاخرى ذرَّة نظير الكربتون

المروءة

مصدر مطوي

للدكتور بشر فارس

ذهبت المروءة وجاءت في تآليف العرب حتى انتهى بها الأمر أن وقعت موقع الفضيلة. وقد كثر الكلام عليها لاشتباهها. من ذلك تلك الاقوال التي قيلت فيها والتعريفات التي عرفت بها، وهي متباينة بل متضاربة (1)

واليك فصلاً فيها من «كتاب الفتوة» لأخي أحمد المحب بن شيخ محمد بن ميخائيل الأرديلي (وتاريخ وفاته مجهول). وكثيراً ما يذكر الأرديلي في كتابه هذا أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (٣٣٠ — ٤١٢هـ) صاحب «كتاب الفتوة»، ثم القشيري (٣٧٦ — ٤٦٥هـ) صاحب «الرسالة». فالأرديلي لاحقٌ لهما إذن. أضف الى هذا ان السلمي والقشيري من المتصوفة. ولذلك تدخل الفتوة، على قلم الارديلي، في التصوف، وكذلك المروءة التي هي شعبة من شعبها في كتاب الأرديلي. هذا وبين المروءة والفتوة أوجه شبه، سواء في كتب الادب أو في كتب التصوف

وكتاب الفتوة للأرديلي لا يزال مخطوطاً. وهو مخزون في دار الكتب لآيا صوفيا ورقمهُ ٢٠٤٩، ويقع من صفحة ٩٩ الى صفحة ١٠٧ (2). وأما الفصل الذي في المروءة وعنوانهُ «باب في بيان المروّة» فيقع في صفحة ١٠٦ (3)

ب. ف.

---

(1) في كتاب من هذا القلم اسمه «مباحث عربية» يظهر في شهر ابريل من هذه السنة في مصر، مبحث عنوانه «المروءة: كلمةٌ رمزٌ». وهذا البحث يتناول لفظة المروءة من نواحيها المتعددة

(2) وقد وصف هذا المخطوط المستشرق الاستاذ تيشنر F. Taeschner في مبحثه:
Der Anteil des Sufismus an der Formung des Futuwwaideals في مجلة Der Islam
١٩٣٧ المجلد ٢٤ ص ٥٨. وهذا الباب الذي انشره اليوم قد بعث به الي المستشرق تيشنر، فله الشكر

(3) تنبيه: ما يقع تحت هاتين العلامتين [ ] يفيد تصويباً من عندي — هذا وقد حافظت على رسم الحروف في المخطوط، وأما الترقيم فمن عندي

باب في بيان المروّة

« قوله تعالى : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون) (١)

وقال النبي صلّى الله عليه وسلم : (ستّة من المروّة ثلثة منها في الحضر وثلثة في السفر، فأما اللواتي في الحضر فتلاوة كتاب الله تعالى وعمارة مسجد الله واتّخاذ الاخوان [في] الله ، وأما اللواتي في السفر فبذل الزاد وحسن الخلق وكثرة المزاح في غير معصية الله) (٢)

وقال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه : (سبع خصال عماد المروّة : أن لا تقاتل المسلمين الاّ مع امام عادل ، وان تؤمن بالقدر خيره وشرّه ، ولا تطلب من علم النجوم الاّ ما تهتدي به في البرّ والبحر فانّها تدعو الى الكهانة ،ولا تسبّ احداً من المسلمين ، ولا تغلل ولا تغرر)

وقال الحسين بن علي رضي الله عنه : (المروّة صيانة دينه والجهد باصلاح نفسه والقيام على صفة الاحسان مع خلق ربّه).

وقال مالك بن دينار : (المروّة ترك الآثام وصلة الارحام ولطف الايتام وموافقة الملك العلاّم)

وقال السرّي : (المروّة كتمان الفاقة ورفع الحاجة) يعني حاجة غيره

وقال الشبلي : (المروّة ان تختار حقّ غيرك على حقّك وان تختار ربّك على دنياك ولا تختار من الدنيا الاّ الدين ولا من الآخرة الاّ الربّ)

وقال النوري : (المروّة بذل الندى وكفّ الأذى وترك الهوى والزهد في الدنيا وطاعة المولى)

وقال ابو بكر الوراق رحمة الله عليه : (المروّة ثلثة : الخلق والصدق والرفق)

وقال فضيل رحمة الله عليه: (المروّة الاستغناء عن الناس وترك واليك أ وتركك لواليك؟ الحاجة الى الناس) . وقال : (من اختار الدنيا فلا دين له ومن اختار العقبى فلا مروّة له او اختار غيره عليه)

---

(١) سورة النحل آية ٩٠

(٢) هذا الحديث مما لم يدون في أصول السنة : راجع مبحثنا « المروءة : كلمةٌ رمزٌ » المذكور قبل

وقال محمد بن واسع رحمة الله عليه : (المروّة تقديم حقّ الحقّ على حقّ الخلق)

وقال الجنيد رحمة الله عليه : (المروّة ترك معصية الله تعالى حياء من الله تعالى ، والمحافظة على طاعة الله تعالى خوفاً من الله تعالى)

وقال الحكيم : (المروّة ان يعامل الغير بما يرضى لنفسه ، ولا يعمل في خلواته ما يستحي منه في ملواته [جلواته] [(١)])

قال ابو اسحق الطبري : (المروّة خمسة اشياء : انصاف من النفس وبذل المال وصلة الرحم والتورّع [عن] الشبهات والحلم عن الحاهل [الجاهل]). وقد جمع الله تعالى ذلك في قوله تعالى : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي)

وقال معمر بن كرام رحمة الله عليه : (من لا حياء له لا مروّة له ، ومن لا مروّة له فلا دين له)

وقال الحسن البصري رحمة الله عليه : (ليس من المروّة ان يربح الرجل على صديقه)

سئل عن [سئل] البوشنجي رحمة الله على [عليه] : (ما المروّة) قال : (حسن السرّ)
قيل لمعاوية : (ما المروّة) فقال : (اطعام الطعام وضرب الهام)

قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ : (لا وفاء لملول ولا مروّة لكذوب)

قال أبو الحامد رحمة الله عليه : (المروّة على ثلثة اوجه : مروّة القلب ومروّة الروح ومروّة السرّ . فمروّة القلب اجتاب [اجتناب] الريب والتهمة ، ومروّة الروح مخالطة اهل الصدق والحكمة ، ومروّة السرّ ادامة الذكر والخدمة . فعلامة مروّة القلب القناعة بالقسمة ، وذلك مذكور في قوله تعالى :(من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينّه حيوةً طيّبة) [(٢)] ، والحيوة الطيّبة هي القناعة . وعلامة مروّة الروح الشكر على النعمة ، وذلك مذكور في قوله تعالى : (اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم) [(٣)] . وعلامة مروّة السرّ الصبر في اول الصدمة ، وذلك مذكور في قوله تعالى:(وبشّر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا انّا لله وانّا اليه راجعون) [(٤)] »

(١) « الخلوة : محادثه السر مع الحق حيث لا ملك ولا احد سواه — والجلوة : خروج العبد من الخلوة بالنعوت الالهية » عن « اصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية » ص ٨ تحت ، طبع ذيلا لتعريفات الجرجاني ، مصر ١٢٨٣

(٢) سورة النحل آية ٩٧ (٣) سورة البقرة آية ٤٠ (٤) سورة البقرة آية ١٥٥ ، ١٥٦

الروابط القديمة

بين بلاد العرب والقطر المصري

للدكتور حسن كمال

مدير الصحة القروية والدعاية الصحية بوزارة الصحة

يؤدّي فريضة الحج كل عام حوالي العشرة آلاف نسمة من سكان القطر المصري لأنها الركن الخامس للأسلام فهي واجبة شرعاً على كل مسلم. لكن كلما عاد الحاج المصري المثقف الى وطنه خالجتهُ الرغبة في معرفة الروابط التاريخية القديمة التي كانت تربط القطر المصري بالقطر الشقيق والتي يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام

اما ان هناك روابط عديدة وحوادث تاريخية هامة ونظريات علمية خطيرة ذات علاقة بالموضوع فأمر معروف لدى المشتغلين بالآثار. ورغبةً في اظهار هذه الروابط رأيت ان أجمع الهام منها راجياً بذلك أن أسد فراغاً تتوق اليه أنفس كثير من الباحثين

على الرغم من الرأي الحديث القائل بأن المصريين الاقدمين نشأوا وترعرعوا في القطر المصري ذلك الرأي الذي يطلق عليه الاثريون لفظ (Antochthonism) — فأن هناك اسانيد هامة تشير الى ان المصريين الاقدمين وسكان بلاد العرب من اصل واحد — وهناك رأي كذلك بأن المصريين أتوا من بلاد العرب عن طريق باب المندب فالسودان يعزّز ذلك اولية الجنوب عند قدماء المصريين واشتراك العرب والمصريين في قنا الأنف وديدبة الذقن ونعومة الشعر

اما رابطة اللغة فأني اترك فيها الكلام للمغفور لهُ احمد كمال باشا الأثري حيث ذكر في (مقتطف سبتمبر سنة ١٩٢١ ص ٢٦٣) تحت عنوان بحث لغوي ما يأتي: —

« ان المصريين القدماء ارادوا تخليد ذكر اصلهم فأثبتوه بالحفر على آثارهم قائلين ان اجدادهم يدعون الاعناء (جمع عنو) اي انهم اقوام من قبائل شتى اجتمعوا في وادي النيل وأسسوا فيه مدناً كثيرة منها مدينة عين شمس ويقال لها بالمصرية العين البحرية ومنها العين الجنوبية وهي

ارمنت ومنها عين التي سميت فيما بعد دندرة . ولما نموا وكثروا تفرقوا في الجهات المجاورة لوادي النيل ففريق منهم وهو المعروف باسم اعناء (الحنو") او اللوبيين توجهوا الى بلاد القيروان وتونس والجزائر وسكنوا فيها وفريق آخر يسمى اعناء (المنتو) هاجر الى بلاد الصومال واجتاز البحر الاحمر الى بلاد العرب وانتشر ممتدًّا الى فلسطين . وفريق ثالث يسمَّى اعناء(السيتو) سكنوا القسم الجنوبي من مصر حيث جنادل النيل . وفريق رابع ويقال له اعناء (الكنوز) وهم اهل النوبة . وهكذا تفرق الاعناء وتوطنوا الجهات التي ذكرناها وبثوا فيها لغتهم مدة من الدهر فكانت هي لغة البلاد التي تتكلم الى الآن بالعربية . فاللغة المصرية اي لغة قبائل الاعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الاقاليم هي اصل اللغة العربية بلا مراء ، وعلى هذا الاساس ارجع سعادتهُ في معجمهِ الضخم كل كلمات اللغة المصرية القديمة الى اللغة العربية

واستنتاج سعادته أتى من نصوص الدير البحري — وهو يعزز نظرية النشء الذاتي Autochthonism ومع انه لا يتعارض مع نظرية ارجاع المصريين الاقدمين الى بلاد العرب ومجيئهم من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر إلاَّ انهُ يرجع بالعنصرين المصري والعربي الى أصل واحد بل ولغة واحدة

***

وكم كنا نودّ لو اجريت المباحث الخاصة بالنسب الدموي على عدد كبير من المصريين والعرب لعلنا نستوثق من هل غالبية هذين العنصرين ترجع الى أصل واحد كما هو المظنون . وقد ساهم الاستاذ الفاضل الدكتور علي بك شوشه مدير مصلحة معامل الصحة في بحث هذا الموضوع وشرحه في بعض محاضراته وكذلك الدكتور محمد شرف بك . ونحن نتقدم هنا الى شوشه بك طالبين منهُ ان يضحّي بعض وقته فيصرفه في تحليل دماء عدد كافٍ من المصريين والعرب علّهُ يصل بنا الى نتيجة علمية حاسمة

هل غزا العرب مصر في اواخر حكم الاسرة الثامنة ؟ (حوالي ٢٤٤٥ ق . م) هذا السؤال لا يزال يتكهن به بعض الباحثين أمثال فلندرز بتري . والمعروف انهُ لما سقطت الاسرة الثامنة تفككت عرى الحكومة المصرية وعمت الفوضى البلاد وساد فيها التلف وكثر الخراب . اما الاشخاص المسؤولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهتد اليهم. ويظن الاستاذ بتري انهم كانوا من عنصر عربي غزا مصر عن طريق برزخ السويس كما يستنتج ضمناً من آثار الملك (خيان) الذي تمصر وادَّعى انهُ حكم جميع القطر المصري كما ادَّعى بعده الرعاة لما دخلوا مصر . وقد عثر على الجزء السفلي لتمثال هذا الملك بمعبد تل بسطة . وهو مصنوع على شكل التماثيل المصرية

القديمة ومن الصوان الاسود . كما عثر على صخرة بجبلين منقوش عليها اسم هذا الملك داخل خانة ملكية وغير ذلك من الآثار . وقد نعت هذا الملك بأنه « امير الجبال » — ويعني امير الصحراء — فهو والحالة هذه يشير الى الحكم الصحراوي . وتل بسطة من اوائل الاماكن المصرية التي يحتلها الاجنبي عند دخوله القطر المصري ، ويلي هذا الملك ملك آخر يقال له (خنزر) وملك ثالث اسمه (يعقوب حر) . وهذه الاسماء الثلاثة اجنبية وليست مصرية . اما الاستاذ برستد فينسب هذه الملوك الى عهد الهيكسوس او الرعاة الذين دخلوا مصر حوالي ١٧٠٠ق.م.) وحكموها ومكثوا بها حتى عام ١٥٨٠ ق . م . وقد قال يوسيفوس (Josephus) ان الهيكسوس هم بنو اسرائيل فاذا كان هذا الرأي صحيحاً — وهو على الارجح غير صحيح — فان خروج الهيكسوس من مصر يكون عبارة عن خروج بني اسرائيل .ولم نعثر حتى الآن في آثار هذا العهد عن ذكر لبني اسرائيل قط .وعلى ذلك فيجب اعتبار الهيكسوس غير بني اسرائيل

والهيكسوس او الرعاة من اصل عربي بدليل قول الاستاذ برستد انمعرفة وطن امبراطورية الهيكسوس وأصلهم وأخلاقهم ليس صعباً وان الغالب ان رواية (مانيتون) القائلة بأن هؤلاء القوم فينيقيون صحيحة

***

والثابت ان اهالي بلاد العرب كثيراً ما هاجروا الى سوريا . ولذلك لا يبعد ان هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوي وكوّنا مملكة واحدة . وليلاحظ ان السوريين الذين أتوا الى القطر المصري ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٩ — ١٧٨٨ق.م) كانوا متمدنين راقين كما ان حروب الفراعنة في سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر أثبتت وجود حضارة عظيمة هناك . والظاهر ان انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته في اهالي فلسطين وسوريا استمرت عدة اجيال بعد بسط النفوذ المصري عليها . ولذلك نجد بين اخبار حروب مصر بتلك الجهات بعض معلومات عن امبراطورية الهيكسوس التي تضعضعت

اما هجرة سيدنا ابراهيم من بلاد العراق الى كنعان فحصلت حوالي ١٦٠٠ق.م . ولم نعرف بالضبط تاريخ دخول بني اسرائيل القطر المصري ولا مدة مكوثهم به . لكن يستدل من نصوص الكتاب المقدس ان تاريخ الخروج كان سنة ١٤٩٠ ق . م . وخطابات تل العمارنة التي يرجع تاريخها الى (١٤١٥ — ١٣٦٢ ق . م .) — في عهد اخناطون — تشير الى وجود (عابريا) ؟ العبرانيين في فلسطين

وفي سنة ١٢٢٥ ق . م . قامت ثورة ضد ملك مصر (منفتاح) في فلسطين اخمدت . وورد

ضمن اخبارها « ان الاسرائيليين ابيدوا ولم يبق لهم بذرة » . وفي سنة ۱۰۱۰ ق . م استولى سيدنا داود على مدينة بيت المقدس وفي عام ۹۳۰ ق . م نهب المصريون بيت المقدس. وفي عام ٥٨٦ ق . م سقطت بيت المقدس في ايدي البابليين. وفي عام ۳۳۲ ق.م خضع العبرانيون لسلطة اسكندر الاكبر . وفي عام ۳۲۰ ق . م استولى بطلميوس على بيت المقدس

***

هذا باختصار بيان بعلاقة مصر القديمة بشمال بلاد العرب حتى عهد بطلميوس الاول — وهي علاقة يعوزها الكثير من البحث والاسانيد والمراجع الوثيقة وغير ذلك . وعلى كل حال فهذا هو كل ما يمكن ان يقدمهُ الكاتب للقارىء في ايجاز يناسب المقام

بقي علينا بعد ذلك ان نبحث في علاقة بلاد العرب بالقطر المصري القديم في العهد اليوناني وقد وفى الاستاذ (تارن— Tarn) هذا الموضوع حقهُ في مجلة العاديات المصرية (عام ۱۹۲۹ ص ۱۰ — ٢٥) نقتطف منها ما يأتي مما يهم القارىء معرفته : —

لاشك ان معلومات اسكندر المقدوني عن شبه جزيرة العرب وحجمها كانت ناقصة جدًّا لانهُ أمر هيرون (Hieron) ليطوف حول شبه جزيرة العرب من بابل الى هيروبوليس (خليج السويس) فقام بحراً حتى وصل رأس مسندام فقط وقفل راجعاً وذكر في تقريره ان بلاد العرب لابد وان تكون كبيرة كبلاد الهند . وفي الوقت نفسه امر اسكندر المقدوني بارسال بعثة بحرية للطواف حول شبه جزيرة العرب من خليج السويس الى خليج الفرس فوصلت هذه البعثة حتى باب المندب وقفلت راجعة ايضاً لقلّة الغذاء والماء على الارجح ، وقدذكرت البعثة الاخيرة ان المسافة بين السويس وباب المندب تبلغ ١٤٠٠ فرسخ يوناني وهو تقدير قريب جدًّا من الصواب اذ انها في الحقيقة ١٣١٢ فرسخاً يونانيًّا(Stades) . ولما وصلت البعثة الى حضرموت سمعت بوجود ممالك عربية على الساحل العربي مثل مهرا وحضرموت وسبأ

وفي عهد بطلميوس الثاني (۲۸۳ — ٢٤٧ ق . م) عُهد الى بعثتين لاكتشاف ساحلي البحر الاحمر الشرقي والغربي بدقة وعناية اما البعثة التي قامت باكتشاف الساحل الشرقي.فوصلت الى باب المندب وكانت تحت رئاسة ارستون (Ariston) الذي وردفي مذكراته اقدم ذكر لثمود في النصوص اليونانية

***

ولنبحث الآن في سرّ اهتمام اليونانيين بجزيرة العرب . لاشك ان اليونانيين وغيرهم من الممالك المجاورة كانوا كثيري الاهتمام بالاستيلاء على شمال بلاد العرب لان تجارة العطور

كانت تأتي من الهند والشرق الاقصى الى جنوب بلاد العرب بالسفن وتنتقل منها بواسطة القوافل عن طريق سبأ ويثرب (المدينة المنورة) متبعة بعد ذلك طريق السكة الحديد الحجازية حتى (العلا) و(ميدان صالح) ومن ثمَّ تتفرع الطريق فرعين فرع يتجه نحو (غزة) والآخر نحو (طبرة) و(دمشق) . هذا هو السر الذي من اجله ناضلت مصر نفوذ بابل في شمال بلاد العرب وقتئذٍ

***

الى هنا انتهى ما اردت ذكره عن العلاقات القديمة بين شبه جزيرة العرب والقطر المصري بعد ذلك يأتي العهد الروماني والاسلامي وهما معروفان

ولكن قبل الفراغ من هذا البحث يجب ذكر شيء عن رابطة الدين فالمعروف من الآثار المصرية ان الديانة المصرية قبل حكم الاسر كانت ترتكز في التوحيد. فقد قال المرحوم كمال باشا (بغية الطالبين ص ٥١) ما يأتي : —

لا شك ان سلف اهل مصر كانوا يعتقدون وجود اله واحد يُرى ولا يُرى ومعبود صمديٌّ قديم ازليٌّ لا اول له ولا آخر وانهم كانوا يقدسونهُ باجلال نعمه الجليلة ويتقربون اليه بعمل الحسنات واجتناب السيئات ومعرفته واداء شعائر عبادته وانهم ارتقوا في مادة معنى الالوهية الى درجة قصوى . وقد ورد في آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية الله تعالى وقدرته واحواله وصفاته منها — كل شيء خلقهُ الله العظيم بنفسهِ — ومنها — خالق الكائنات والاشياء — ومنها — الخالق لكل مخلوق الذي لم يخلق (وهو) فاطر السماء والارض . — ومنها — الموجد لكل ما يكون أما ما لم يكن فهو في مكنون علمه — ومنها الله معبود باسمه الأزلي خالق الأرواح في الاشباح — ومنها يمضي الدهور وهو باق دائماً — ومنها — ذو الازلية الذي يمضي دهوراً لا تمضي وهو على حالة وجوده — ومنها — ذو الازلية الذي لا حدَّ له — ومنها — لا يمسك بالذراع ولا يقبض باليد — ومنها — لا تدركه الابصار — ومنها — سميع لمن يتضرع اليه — ومنها — الذي يكون والذي لا يكون مختص به — ومنها ما ورد في معنى التوحيد — الواحد الذي لا شريك له

وقد وافق على اعتقاد المصريين بوحدانية الله كثير من علماء اللغة المصرية القديمة — أما تعدد المعبودات التي قالت بها الآثار فليست إلاَّ أمراً ظاهريًّا قصد بهِ بيان مظاهر الذات العلية ليس إلاَّ »

وهكذا — حتى في الديانة — بدأ أهل مصر وأهل شبه جزيرة العرب نشأتهم بالتوحيد وانتهوا بنفس العقيدة على يد سيد المرسلين عليهِ أفضل الصلاة والتسليم

الفلسفة الماركسية

في الاجتماع والسياسة والاقتصاد

لعلي أدهم

الشيوعية مذهب في الاقتصاد وخطة في السياسة، وعقيدة فلسفية تدين بها في العصر الحاضر دولة عتيدة كثيرة السكان مترامية الاطراف ، وتحاول تثبيت قواعدها وبسط سلطانها ، ولا معدى لنا اذا حاولنا أن نتعرف طبيعة العصر الحاضر ونلم بمشكلاته البارزة وسياساته المتعارضة من ان نختبر في نزاهة ودقة تعاليمها ودعاويها واتجاهاتها ووعودها ، وقد يتراءى للبعض ان الكتابة عنها تزيدها انتشاراً وتأييداً ولكنني لاارى صواب هذا الرأي ، ولو جارينا القائلين به لأمسكنا عن دراسة الكثير من مسائل الفكر ومذاهب الفلسفة ، وفي الشيوعية كما في سائر المذاهب الفلسفية جوانب صادقة وبها كذلك جوانب من النقص والزيف والباطل ، وبين دعاتها رجال خلقوا من طينة البطولة واحتملوا في سبيل عقيدتهم ألم التشريد والنفي وغضاضة الحاجة ومرارة الحرمان ولكن اصدق الناس اخلاصاً واصفاهم نية قد يقع في الخطأ ويتصور المحال ، وكثير من الآراء التي شفيت من جراثها الانسانية لم تصدر عن اشرار الناس وانما أذاعها قوم لا سبيل الى الشك في صدق سريرتهم ، والشيوعية ترى قلب النظام الاجتماعي وترى الحالة الحاضرة ظالمة فتاكة وأنها ستفضي بالعالم الى الفوضى وتؤدي به الى الخراب والدمار فهي اذن امر خطير يستوجب التروية وانعام النظر ، وليس من الحق أن نفرض ضرورة بقاء النظام الحالي وامتناعه على التغيير فالتاريخ كله حركة تحول مستمرة ولكنه في نفس الوقت ليس سلسلة انقلابات مفاجئة وثورات طارئة وانما هو حركة تطور تندر فيها الثورة

والشيوعية مثل الفاشية تحاول التوفيق بين السياسة والاخلاق وهي تفسير خاص للحياة وطبيعة الوجود وهي تتضمن نظرية للمعرفة وفلسفة للتاريخ

والشيوعية من حيث هي نظرية متماسكة ومذهب فلسفي كان يطلق عليها في اول امرها اسم « المادية الجدلية » وتشير هذه التسمية الى تفرعها من فلسفة هجل ، ويذهب هجل الى ان تقدم الفكر وسائر الاشياء انما ينشأ من الصراع بين العناصر المختلفة المتناقضة، ولنظريته جانبان فهي من جانب تصف الطريق الذي اجتازته الاشياء الى الوجود. ومن جانب آخر تصف السبيل الذي ينبغي سلوكه

اذا اردنا الخلوص الى حقائق الاشياء، ويرى هجل ان العمليتين عملية تقدم الاشياء ونمائها وعملية الاهتداء الى الحق — يكونان جانبين مختلفين للحقيقة الواحدة ، وكارل ماركس يرى اسبقية الجانب الاول ولكن هجل يعزو الاسبقية الى الجانب الثاني . وكل نزعة من النزعات في ابان انتصارها تعمل على خلق نزعة معادية لها ولا تزال هذه النزعة الجديدة تشتد وتقوى حتى تتغلب عليها وتجليها عن الميدان، ومن أمثلة ذلك النزعة الفردية في القرن التاسع عشر فقد بلغت القمة وأوفت على الكمال ولكن انتصارها الباهر كان مدعاة الى خلق النزعة الاجتماعية التي قاومتها وقضت على نفوذها

وكان هجل يعتقد ان القوة الدافعة في هذه العملية قوة فكرية صرفة ولكن ماركس أنكر عليه ذلك لأنهُ بمادية الصميمة كان يرى ان الافكار ان لم تكن أفكاراً صادرة من عقول خاصة فهي اوهام عديمة القيمة .وكان يستمسك بالنظرية المادية التي ترى ان الافكار نفسها تتكون من تأثير البيئة وانعكاساتها ، والافكار التي تقوم بالعقل انما منشؤها الاحداث والحركات التي تعرض في العالم خارج العقل ، فكوائن العالم العضوي هي التي تخلق الحوادث في عقل الانسان ومن ثمَّ تخلق الحركة التي نسميها « التاريخ » وعقل الانسان جزء من هذه الحركة ولكنهُ ليس هو المبتكر لها

ويمزج ماركس المذهب المادي بطريقة هجل الجدلية ويستخرج من هذا المزيج تفسيره للتاريخ وتعليله لحوادثه . وملخص نظريته ان الحوادث تنشأ من الصراع بين النزعات المتباينة، ويمكننا ان نصل الى لباب التاريخ بتفهم النزعتين المتصارعتين ، وكما أننا في عالم الفكر اذا اقتفينا أثر نزعة من النزعات لامفر لنا من الانتهاء الى نقيضها فكذلك في عالم الواقع يقتضي نجاح نزعة من النزعات ظهور النزعة المناوئة لها فنظام الاقطاع مهد السبيل لظهور الرأسمالية ، والنظام الرأسمالي يوحي الى الطبقات الفقيرة الشعور بالتفاوت بين الطبقات وبذلك يطبع السلاح الذي يحارب به ويملي للقوة التي تقضي عليه،والقوة الدافعة وراء العملية الجدلية—في زعم ماركس— ليست عقلية وانما هي حادثة طبيعية مادية ، وليست ارادات الناس ولا أفكارهم هي التي تغير وجه التاريخ وتهيمن على اتجاهاته.وانما هي الفواعل الطبيعية وتكشُّف المواد الخام ومبتكرات الصناعة ، ولما كانت فكرة الاختراعات وتأثيرها البعيد في الفنون والصناعات قد تظهر قوة الفكر الانساني في توجيه الحوادث وصياغة التاريخ لذلك عني ماركس بأن يوضح ان الاختراعات لا تثب من عقل المبتكر تامة التكوين ناهضة الجناح وان ما يبتكره الناس في الواقع لا يبتكرونهُ من تلقاء أنفسهم وبتفكيرهم الفردي وانما يمهد لهم سبيله ويذلل لهم عصيه طبيعة المشكلات التي تستقبلهم بها الظروف المطيفة بهم والأحوال العارضة لهم وفضلاً عن ذلك فان طوارىء العصر وبوادر الأحوال هي التي تخمل الاختراع وتهمله او تذيعه وتعلي شأنه وتعمل على اصلاح عيوبه واستكمال نقصه

ويرى ماركس ان أساس المجتمع قائم على انتاج الوسائل التي تصون الحياة البشرية وتدفع عنها غوائل الحاجة وتوزيع ذلك الانتاج انقسام المجتمع الى طبقات أساسه طريقة توزيع

الانتاج والاسباب النهائية لكل التغيرات الاجتماعية والثورات السياسية لا يبحث عنها في عقل الانسان واهتدائه الى الحقائق الخالدة وادراكه للعدالة وانما في تغير أساليب الانتاج والمبادلة ولا تلتمس في فلسفة العصر وانما في اقتصادياته،فاذا اصبح باطلا ماكان يراه الناس حقاً وصار ظلماً ماكان يراه الناس عدلاً فانما سبب ذلك التغيرات الصامتة التي تطرأ على طرائق التوزيع والانتاج وتجعلها منافرة للنظام الاجتماعي السائدالذي يرتكز على اسس اقتصادية قد غمرها التغير وهذا التنافر الذي يؤدي الى نسخ نظام المجتمع وتعديل اسسه ليس وليد الذهن او سليل الرغبات الانسانية وانما مصدره الانتاج وهو مسألة ليست مستقرة في عقولنا وانما هي قائمة خارج عقولنا ومستقلة عن ارادتنا واعمالنا والاشتراكية الحديثة ان هي الا انعكاس هذا الصراع في العقول

ومقومات الحياة الثقافية وخصائص المجتمع الاخلاقية والدينية واتجاهاته القانونية والفنية جميعها في رأي الشيوعية مشتقة من الاصول الاقتصادية ، وادوار التاريخ المتعاقبة منشؤها صراع الطبقات والطبقات المتصارعة من نتاج الاحوال الاقتصادية

وعلى هذا النمط من تحليل بناء المجتمع وعناصر تكوينه وتفسير التاريخ تقوم الافكار الشيوعية وترتكز اسس المذهب ومن منابتها تتفرع فروعه وتطرد أحكامه

والانسان لاجل ان يحصل على القوت الذي يقيم اوده ويستحضر الثياب التي تقيه طوارىء الجو وتقلباته قد تعوّد ان يتناول المواد الخام ويحتال فيها حيلته ويعمل فيها فكره لتوائي حاجته وتفي بمطالبه وتشبع غرائزه ومن ثمَّ تنشأ علاقة بين الانسان وبين الاشياء وهذه العلاقة بضرورة الحال تتضمن كذلك العلاقة بين الانسان والانسان لان طبيعة تناول تلك المواد تستلزم التخصص وتوزيع العمل وعلى مدى الايام ينهض في آثار ذلك حقوق وامتيازات يدعيها بعض القوم لينفردوا باستغلال بعض الاشياء ويذودون عنها الغير ومن هنا تنشأ الملكية من ناحية والحرمان من ناحية اخرى ، ويرى المالكون ان الاشخاص المجردين من حقوق الملكية يمكن استخدامهم في الاستغلال تحت اشرافهم ورقابتهم لقاء اجر زهيد يدفعونهُ لهم . وقد نشأت من اساليب الاستغلال تلك الصور المختلفة في معاملة الانسان للانسان ، وتلمح من ذلك ان العلاقة بين الناس في مختلف العصور قائمة على اسلوب تملك الاشياء وطريقة تناولها وصنعها وقد ظلت تلك العلاقة طوال العصور المنصرمة ثابتة في جوهرها . ومن جرائها انقسم المجتمع الى فريقين كبيرين يتبادلان العداوة والبغضاء ، وعلاقة الاستغلال ولو انها لم تتغير في الجوهر ولكنها مع ذلك قد اخذت صوراً متعددة ويميز كارل ماركس من بينها ثلاثة انواع رئيسية حدثت في تطور المجتمع التاريخي فهناك الأستغلال الذي اتخذ صورة الرق والاستعباد . وهناك استغلال عهد الاقطاع وقد تلتهما صورة الاستغلال في عهد الرأسمالية والاستغلال ظاهر الظهور كله في الصورتين المتقدمتين سواء في علاقة العبد بسيده او الامير الاقطاعي برعيته وفي العصر الرأسمالي ظلت العلاقة

واحدة في الجوهر ولكن يخفي أثرها ويلطف من وقعها بيع المنتجات لا استعمالها المباشر ووجود الوسطاء بين المنتج والمستهلك وذيوع الحرية السياسية وسريان المبادىء الديموقراطية وتقدم الجماعات رهن بتغير العلاقة بين الانسان والاشياء او بلفظ آخر يتوقف تقدمها على الاسلوب الذي يتناول به الانسان المواد الخام ويحيلها سلعاً تنهض بحاجته وتتكفل بمطالبه ومن آونة لاخرى تنبغ في عالم الصناعة مستحدثات تستتبع صوراً جديدة في المجتمع وكلما سمت الاختراعات في معارج الرقي وكبر نصيب الناس من البراعة الصناعية واستفاضت المعرفة واستنارت الافكار استلزم ذلك صوراً جديدة للنظام الاقتصادي

وسنن الآداب وقواعد السلوك وشرائع القوانين في مختلف المجتمعات تنم على حقيقة النظام الاقتصادي السائد لانها نشأت تبعاً لحاجات الطبقات المتحكمة المستغلة وهي ترمي من ورائها الى تحييد العلاقة الخاصة بين الطبقتين وتسويغ استغلال احدى الطبقتين للطبقة الاخرى ، وجميع النظم السياسية ومذاهب التشريع مرتبطة بالنظام الاقتصادي فهي ثمرته ومرآته معاً ، وقد كانت العبودية مباحة ومعترفاً بها في المجتمعات التي كانت تستغل العبيد. ومن ثمَّ يرى ماركس ان ركون الطبقات المستغلة الى التماس الحق وتعويلها على نشدان العدالة امر لا غناء فيه ولا رجاء في مخايله لان تلك العدالة المنشودة قائمة على افتراض صحة النظام الذي يثورون به ويخرجون على ممثليه وليس هناك عدل مطلق ولا حق مجرد — كما يرى ماركس — وانما هناك معايير للحق وتصورات للعدالة ومن بين تلك المعايير والتصورات ما يسوّغ وجهاً خاصًا من وجوه التقدم الاقتصادي ويرى صلاحه ومطابقته للحق ومسايرته للعدالة

ويقف الشيوعيون من الدين موقفاً بعيداً عن الاعجاب والتقدير بل هم لا يحجمون عن مقاومته وشن الغارة عليه والعمل على تقويضه لأنهُ في عرفهم ضرب من ضروب المخدرات التي تراخي العزيمة وتثلم النشاط وتغري بالزهادة والاستسلام ، وهم يرون ان الطبقات المتمولة قد اتخذت الدين وسيلة من وسائلها التي تستعين بها على حشد عقول الطبقات الفقيرة بالأوهام والخرافات وتصرفها عن مجابهة الحقائق وادراك ما ينصب لها من الاشراك وما يحاك لها من الدسائس ويسترعي الشيوعيون النظر الى ما ورد في الكتب المقدسة عن تحبيذ القناعة ومدح التواضع والخشوع وذم الكبرياء والجبروت

ونظر الشيوعيين الى الآداب والفنون وسائر ألوان الحياة الفكرية متأثر بمذهبهم في الاقتصاد والأدب عندهم لا ينظر اليه منفصلاً عن السياسة والاقتصاد لأن الأدب الحق في زعمهم هو الذي يزيد الحياة قوة ، ولما كانت حياة الانسان ممتزجة بحياة المجتمع وتقوية الحياة تتطلب تسهيل توزيع النشاط الانساني بحيث يثمر ثمرته المرجوة ولا يذهب عبثاً لذلك يرى الشيوعيون ان الأدب الذي ينمو عالقاً بأغصان شجرة الرأسمالية نمواً فضوليًّا هو أدب قليل المنفعة زهيد

القيمة والأدب الجيد هو الذي يدعو الى زيادة الانتاج الانساني ويعاون العناصر التي تعمل لتحقيق ذلك فمادته اذن الدعاية ودعايته متجهة الى محاولة التغيير المبدع الخالق وقيمة أدب الماضي هي في أنهُ يقدم لنا صوراً أمينة للظروف الماضية وأحوال الطبقات في العصور الخوالي والادب في العصر الحاضر يجب أن يعين على احداث الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وهم يؤثرون الأدب القريب من لغة الشعب وتصوراته ولا يرتضون الروايات التي تدور حول حياة الافراد وانما يفضلون الروايات التي تصف صراع الطبقات لانها تمهد سبيل التقدم نحو الاشتراكية

ويرى الشيوعيون ان الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية لا يتم بالطرق السلمية ولا مناص فيه من اصطناع الشدة واستعمال العنف والقهر وذلك لان النظم السياسية والقانونية والأدبية القائمة على أساس اقتصادي خاص تولد في النفوس الرغبة في الدفاع عنها والاستبسال في سبيلها حتى عندما يكون ذلك الأساس الاقتصادي قد آذن بالسقوط وأشرف على الزوال ، وكل نظام سياسي قد منح طبقة خاصة حقوقاً تحرص عليها وتستمسك بها لا يمكن تبديله دون الاستهداف لمقاومة الطبقة المستمتعة بامتيازاته والمحتكرة لخيراته وهي تحاول ان تقنع الناس من طريق اشرافها على تربية النشء ان النظام الراهن كفيل بتحقيق العدالة وان الخير في بقائه وحياطته وهكذا يبقى النظام السياسي جامداً في حين ان الاختراعات الحديثة في عالم الانتاج قد جعلت الحاجة الى تغييره شديدة ملحة ويقع في روع الطبقات الفقيرة ان وسائل الاقناع واساليب الديمقراطية غير شافية ولا مقنعة وانهم مضطرون الى احداث الانقلاب بالقوة والصدام

ويرد الشيوعيون الحرب الكبرى الى اسباب اقتصادية وذلك ان قوى الانتاج كانت في تقدم مستمر وزيادة مطردة في حين ان النظام الاجتماعي الراهن ظل بغير تعديل وترتب على ذلك ان أثمان السلع ارتفعت الى ثمن لا يمكن المجتمع من استيعابها جميعها فاشتدت من جراء ذلك الحاجة الى المنافسة لفتح اسواق جديدة تحت ستار الاستعمار وانتج ذلك الحرب

وظهور قوة الطبقات الفقيرة له نظائر في التاريخ لأن كل طبقة استأثرت بالنفوذ استدعى وجودها ظهور طبقة مناوئة لها وهذه الطبقة تزحزحها في النهاية عن مكانها وتغتصب نفوذها ولكن اشتداد قوة الفقراء في العصر الحديث طراز فريد من الحركات الاجتماعية لان نزاع الطبقات في العصور السالفة كان ينتهي بتغلب طبقة على طبقة واما انتصار طبقة الفقراء في العصر الحديث فانها ستؤدي الى خلاص الانسانية وتقضي على نظام الطبقات وهذا هو مصدر قوة العقيدة الشيوعية لأن انصارها لا يعملون لتغليب طائفة وانما يعملون لتحرير الانسانية ويشعل هذا الاعتقاد حماستهم ويبعث في نفوسهم حب التضحية والتفاني في التبشير بالمبدأ وتدعيم العقيدة

ويرى الشيوعيون ان تحرير الانسانية والغاء الطبقات وازالة الفوارق الاجتماعية يستلزم فترة تمهيدية تستولى خلالها على أعنة الحكم ديكتاتورية جريئة لا تحجم عن استعمال القسوة

والارهاب توطيداً لمكانتها ودفاعاً عن حوزتها ومتى استقرت الاحوال وزال الخطر بطلت وظيفة الحكومة وانتهت مهمة الديكتاتورية

ويشك الشيوعيون في نجاح الديمقراطية لانها في عهد الرأسمالية لا يمكن الاَّ ان تكون خيالاً لا حقيقة له وما دامت اكثرية الناس من الطبقات الفقيرة التي لا تملك شيئاً فمن العبث الكلام عن الحرية الفردية او قدرة الفرد على التأثير في نظام المجتمع الذي يعيش فيهِ ، ولا حرية لمن لا يملك شيئاً ومهما تكن الحكومة ديمقراطية فان النفوذ سيظل في يد المسيطرين على القوى الاقتصادية لاستيلائهم على وسائل الانتاج الصناعي ، ولا نزاع في انهُ مما يبعث الارتياح والسرور ان يباح للانسان حرية النقد والمناقشة ولكن الذين لا يتغذون تغذية صالحة او يرهقهم العمل المضني لا يرون في حق الاستمتاع بالنقد سوى نوع من الترف لا قبل لهم بهِ ولا رغبة لهم في تذوقه لانهم احوج الى ملء بطونهم منهم الى تحريك ألسنتهم وما دام ينقصهم القوت فهم زاهدون في الحرية ، وحرية التفكير وحرية المناقشة والبحث والتعبير عن الرأي هي أنفس ذخائر الديمقراطية وأسطع آياتها ولكن الشيوعيين يشكون في وجودها وينكرون قيمتها وهم يرون ان الرأسمالية اذا اشتدت بها الازمة وعضتها الحاجة فانها لا تتردد في الغاء هذه الحرية الوهمية وتظهر على حقيقتها سافرة غير متوارية ويضربون لذلك مثل الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا والشيوعية في نظرهم هي وسيلة انقاذ الحضارة في هذا العصر المضطرب الجائش لأن الرأسمالية ستظل في كفاح عنيف وتظل دولها يصارع بعضها بعضاً صراعاً ينذر بأسوإ النتائج ويقوض العمران ويعصف بثمرات الحضارة

ولعل أقوى نقد يوجَّهُ الى الشيوعية هو قيامها على طريقة هجل الجدلية لأن هذه الطريقة صحيحة من ناحية المنطق وما وراء الطبيعة ولكن تطبيقها العملي على الشؤون الدنيوية والحوادث التاريخية لا يخلو من الاعتداء على الحقائق والاساءة الى التاريخ ، وعند ما نعرض حوادث التاريخ نرى أنها لا تطابق تمام المطابقة الأسلوب الجدلي الذي يقول بهِ هجل والتاريخ مزيج من الضرورة والحرية والنظام والمصادفة والعوامل الهامة الأساسية وكذلك الحوادث التافهة الزهيدة وتياراته مختلفة وعواصفه كثيرة فالطموح له أثره في توجيه التاريخ وكذلك الدسائس والغيرة والمسائل الجنسية والحماسة الدينية والهوسة المثالية ولا يمكن تجاهل اثر الأفراد البارزين الذين نسميهم « ابطال التاريخ » واخضاع التاريخ لعامل واحد يقتضي تجاهل الكثير من حقائقه والألتواء في تفسير حركاتهِ وشؤون الحياة الانسانية ليست جميعها خاضعة للمنطق مترسمة لخطواته ولها ظلال مختلفة وملابسات كثيرة وتاريخ الانسانية يتوقف على كثير من المصادفات التي لو تغير بعضها لتغيرت قصة التاريخ واختلف سير الزمان ومسألة تنازل الديكتاتورية التي تنشأ عقب الثورة الشيوعية عن امتيازاتها وسلطتها امر غير منظور ومن الصعب التسليم بهِ والاعتقاد بصحتهِ

« التربين »

THE TURBINE

للشاعرة الاميركية هاريت مونرو

[التربين Turbine مشتقة من Turbo اللاتينية ومعناها الدوران وTurbinis ومعناها الاعصار وهي تستعمل في الفنون الصناعية الحديثة للدلالة على جهاز خاص استنبط اولا سنة ١٨٢٣ وصنع سنة ١٨٢٧ وقاعدته توليد طاقة محركة بسقوط الماء على عجلة دائرة وهي في عنوان هذه القصيدة رمز للاجهزة المولدة للطاقة في الحضارة الصناعية — المقتطف]

انظر اليها — تتربع هناك على عرشها —
كأنها تجمع بين كمال الانوثة ، وهدوء الراهبة .
ولكنك إذا تعرضت لها ، فان صواعقها تزعزع الارض .
إنها متشامخة كأي ملكة جميلة تدرك واجبها الملكي :
تضيء العالم ... وتفعل ذلك ليلة بعد ليلة ...
عند ما يقلع مولاها الزاهي — الشمس — عن عمله .
أما أنا فعبدها ، استيقظ فأراقبها ...
وأعدو الى جانبها من بدء العتمة حتى بزوغ السحر ...
وهي تدندن بهدوء ... تهز مبتهجة لان الانسان يحمل ثروة الأرض ليطعم نيرانها الجائعة ...
أنفذ مشيئتها ، ولا اجرؤ على التمرد ..
لأن يمناها هي القوة ... ويسراها الرعب ... وسخطها الدمار .
أنظر ! إذا لقيت خيطاً معدنيًّا يقطع طرفي هذا المفتاح المحوّل ،
إنها تفجر حنيّاتها ... وتمزق قرابها
وتصرخ إلى أن ينطلق لهيب سقر الحسودة ،
فيدمر عرشها تدميراً .

أما شعبها ، قطيع العمال الجوابين الحالمين — الحمقى والعقلاء الذين ينتظرون منها النور — فسيسيرون مغمورين في ظلام الليل الدائب .

***

أعجب لها أحياناً ، فيمَ تتنازل لتكون صديقتي ؟
تلك التي تحدثني ، وتلاشي وحدتي بترنيمها .
وبالرغم يا صاحبي من أني تافه حقير ، وهي سامية جليلة .
أترى أنها قاسية القلب ؟ كلاً ! بل رقيقة حنون . . .
كما يكون العظماء جميعاً .
إذ أنها تؤاسي بهدوء كل كآبة طاغية ،
وجميع أفراحي ترقص لها في الليل الطويل الأناة .
انها تتحدث اليَّ ... تنبئني بهمومها ، تماماً كما أنبئها بهمومي .
« ولعلها تشعر بألم عميق لوخزة حصاة موجعة تنال من كُرَيّاتِها» (١)
حينئذ يغير صوتها نغمته . . . فتدعوني منتحبة نادبة لأسكن ألمها . . .
فأسرع اليها — لأني عبدها الذي يسبر غورها كالجراح —
ويخفف ألمها .

***

ولنا كذلك مزاحنا — أضاحيك صغيرة ! —
تلك التي لا يدركها سوانا في هذا العالم المحتشد . . .
انها تهزأ بي لتظهر قدرتها . . .
فقد تنضح أغلفة الفحم بخاراً . . .
وإذا بي أعدو حولها بجنون . . .

---

(١) في الاصل :

Perhaps she feels an ache
Deep down—that agonizing stab
of grit grating her bearings

لأحول دون افلات شياطينها الجهنمية . . .
وفجأة تخنقهم بصمامها ... وتقهقه بهدوء من مخاوفي !

***

ولكن هناك لحظات يأتي فيها دوري ،
حينئذٍ يستطيع عبدها ان يسودها — ويظفر بها ليتحكم فيها .
اذ انها امرأة ينال منها الضيق فوق عرشها ... والملل من نفسها ..
تترنم بالقوة التي لا تلبث ان تنقلب الى شراسة عنيفة . . .
حين يطرأ عليها الخلل فجأة ... انها تهزأ مني ...
وتكيد للاسلاك الواهنة بعناقها الجنوني ...
الذي يهز الفضاء ... ويستنزل آلاف البروق ...
كي تمحق عظمتها ... وتحرر روحها !
حينئذ — بهذه اليد الصغيرة —
ينبغي عليّ — سريعاً كتوعدها —
ان أخمد اضطرابها ... وأقيد من ثورانها المدمر ...
وأنقذها من تهورها العنيف ، ذي الصبغة الطفولية
« وأقيم نفسي — هنيهة — مولى لمن دنا أو بعد من شعبها ،
لأبدد الغموض » (١)
ولقد فعلت ذلك في الليلة الماضية
وحيداً كنت هنا ، ويدي فوق قلبها ..
واجهت ما يسيطر عليها من الجن . . . وطردتها بالسوط !
ولم تخفها بعد ذلك لمحة ظلام من مصابيح المدينة .

***

أنظر يا صاحبي . ههنا رمز !

(١) في الاصل :

And make me the lord of for and near amoment, startling the mystery

ما هذه الكرة البلورية الزجاجية التي أرفعها بخفة !
هذه الفقاعة ذات الوان قزح ...
إن طفلاً صغيراً يستطيع أن يطفئها داخل قصبتها النحاسية ...
أية ألعوبة غريبة هي ؟ !
إنها ترقد في يدي باردة جامدة ...
وشرايينها الصغيرة — ذلك الغشاء العنكبوتي المجعد — ترابية ميتة
ولكن دعها — بدورة أو اثنتين —
تمس ذيل الأهداب البعيدة من ثوب سيدتي ...
وانظر الى الدماء الحية الملتهبة ... تنساب الى قلبها ...
وتبدد الظلام ... مضيئة العالم ...

***

وحين ألمس ثوبها — أنا خادمها في الليل الساكن —
وأتكىء بيدي على حافة برجها ...
أشعر باختلاج نارها ...
إنها تمنحني بعظمة — دون استحقاق —
هذه المرأة الغامضة ، حين تبدد بسنائها ظلامي ،
وحين تقودني بعيداً الى مصانع العالم . . .
حيث أشعر بهاته القوى اللامحدودة، التي تفنيها
كرتنا الصغيرة في الاثير ، بعد أن تختبيء أشعة الشمس ،
وهناك بالقرب من قلب الحياة .. أجد السلام ..

[نقلها : زهدي التاجي الفاروقي]

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين لهُ في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ٣ —

حين بدأ يأفل في الهند كوكب المغول الساطع ، وتميل اركان مجدهم الراسخ ، تزلزلت وطائد دولهم الراسية ، فأصبحت كأنها اعجاز نخل خاوية ، قد تشتت نظامها ، وتشعب التئامها ، فتشذب بولاة الامر بَقَسطا ، وصار حكام الاقاليم طرائق قِددا . وما كان هؤلاء قبلاً الاّ اعضاء حكومة كبيرة منظمة ازدهرت في رعايتها العلوم والفنون ، وترعرعت في حمايتها العلماء والادباء والشعراء . لذلك فلم يكد ذلك الطود يهوى ، والقصر العظيم يخوى حتى انتقلت تلك الرعاية والحماية الى مراكز هؤلاء الحكام. فكان اهم تلك المراكز اقليم « اَوَدْه »واقليم « بِهار»

ففي « اَوَدْه » اسس حكامه بلاطاً فاخراً على نهج البلاط الملكي في دهلي، متوسلين بميسمه ، ومتعلقين بشيمته ، ومقتدين بمحاسنه ، ومتحلين باوصافه ، فأمه اهل العلم والفن والادب والشعر من دهلى ذرافات ووحداناً . فأصبح البلاط بهم طلعة لا تمل وغرة لا تكره . وكان بينهم علماء الفارسية وادباؤها وشعراؤها واشهرهم من الهنود الوثنيين : (كندن لال) عشق ، و (راى سنات سنج) بيدار ، و(كنورجسونت سنج) بروانه ، و (راي سراب سنج)ديوانه ،و(ميرزا محمد حسين) قتيل وهو من اصل وثني من شرفاء الطبقة التشطرية (١) . لم يكن الاخيران مجددين لاسلوب خاص بالادب الفارسي فحسب بل مصدري الالهام للكثيرين من الادباء والشعراء «فكنورجسونت سنج »بروانه تلقى العلوم الفارسية عن (راي سراب سنج) ديوانه ، واصبح (ميرزا محمد حسين) قتيل استاذ الفارسية لعدد وفير من المسلمين في بلدة لـكهنو ، حاضرة اقليم اَوَدْه . وتصانيفه : « نهر الفصاحة »

---

(١) ينقسم الوثنيون على حسب دينهم الى اربع طبقات : طبقة البراهمة وهم السادة واصحاب الامر فيهم،وطبقة التشطرية وهم الذين موكل اليهم الدفاع عن الوطن فهم جيش الامة وطبقة الشودرية وهم اهل التجارة والزراعة ، وطبقة المنبوذين وهم اصحاب المهن الحقيرة

و « شجرة الاماني » و « جهار شربت » في الادب الفارسي وفنونه شهيرة وفي غنى عن البيان

نعم انتقد بعضهم من المتأخرين اسلوب (ميرزا محمد حسين) قتيل . فالشاعر الفيلسوف الكبير (ميرزا اسد الله خان) غالب [1] مثلاً قال في بيت ترجمته فيما يلي

ان الذي اجتاز هذه المواقف
لا يحتاج الى ان يعرف قتيلاً ولا واقفاً [2]

ولكن العالم الكبير نواب صديق حسن خان يعتبره في كتابه القيم «شمع انجمن» من ذوي البسطة في العلم ومن الادباء الافذاذ في عصره . فالرقعات (اي مجموعة مكاتيبه) تدل على انه لم يكن صاحب اسلوب خاص بالفارسية فحسب بل كان قادراً على كتابة العربية والتركية كذلك وبنفس السهولة

لم يكن شعر (راي سنات سنج) بيدار وتضلعه من فنون الادب الفارسي اقل استيقافاً لنظر اهل العلم والادب ، فقد نوه به العالم الأديب ابو طالب الذي ولد عن أب فارسي هجر ايران وتوطن الهند في اوائل القرن الثامن عشر ، في كتابه « حديقة الافكار » المحفوظة نسخته الخطية النادرة في مكتبة المستشرق الانكليزي هارلي Harley . وهو كتاب جمع فيه المصنف أحوال الشعراء الذين لم تكن آثارهم سهلة المنال وعلى حبل ذراع طلاب الفارسية ، فوقف صفحات منه على تقدير كفاءة الشاعر (راي سنات سنج) بيدار ، وذكر فيها أنه كان من شعراء بلاط أوده ، أدرك عهدين من حكامه — عهد شجاع الدولة وعهد آصف الدولة . وله ديوان كبير احتوى على خمسة آلاف بيت . وكان ذا حظ أكفى من فنون الشعر وبخاصة في القصائد ، كما كان له القدح المعلى في استخراج التاريخ من حروف الأبيات . فقد كتب قصيدة طويلة في التهنئة بزواج ممدوحه آصف الدولة ، استخرج فيها تاريخ الزواج اي سنة ١١٨٤ هجرية من كل شطر واليك بعض الابيات منها قال :

---

(١) كان شاعراً مطبوعاً باللغة الفارسية والاوردية ومنزلته بالاوردية بمثابة منزلة شكسبير بالانكليزية أو جويته بالالمانية

(٢) «قتيل» و «واقف» اسمان لشاعرين

تعالى الله عجب أيام عيش جاودان آمد
زبهر راحت گيتي نويد از آسمان آمد
دوسرو جويبار حسن يا مهرومه دوران
و يا سعدين كه ازبهر فرح باهم قران آمد

لم تكن انواع الشعر الفارسي المعروفة مثل الغزل والنسيب والقصيدة مظهراً لكفاءة هؤلاء الشعراء الهنود الوثنيين فحسب ، بل كانت انواعه الاخرى ايضاً مثل الملحم والرباعي والمثنوي التي لا توجد في الشعر العربي ، مجتلى براعتهم . نعم كان الذين فاز قدحهم في مضمار هذه الاصناف من الشعر الفارسي حيث لا ترام مساماتهم ولا تتعاطى مجاراتهم حافظ، وسعدي، ونظامي ، وخيّام، وفردوسي، ورومي وخسرو ، ولكن الجهد الذي بذلهُ فيها هؤلاء الهنود والشأو الذي ادركوه في حلبة اتقانها وحذقها مما يستوقف النظر . فقد كتب الشاعر « بسمل » الذي درس على الشاعر (راي سراب سنج) ديوانه ، كتابه « سلسله مهابت » من صنف المثنوي كما كتب (بهگوان داس) وهو تلميذ الشاعر « فاخر مسين » كتابه « لعبة الصين » ونظم الشاعر (بندرا بن داس) خوشگو تحت قيادة استاذه الشاعر الكبير « بيدل » احوال بلدة « متَرا » وهي من البلاد المقدسة عندهم . وكذلك نظم رفيقه في التلقي (جوربخش) حضوري قصة هندية « كامروب وكامتا » . واضطلع بنقل ملحمتين هنديتين كبيرتين « مها بهارتا » و « رامايانا » الى الفارسية نظماً الاديب الشاعر (لاله مشتاق راي) ، فقام به بمشاركة رفقائه الآخرين مع وعورة مطلبه ، وصعوبة مرامه أحسن قيام . ونظم الشاعر (حكيم شند) ندرت التهانيسوري الأساطير الدائرة حول شخصية الاله « كرشنا »

قبل أن نتكلم عن الكتّاب بالفارسية يجدر بنا ان نذكر بين هؤلاء الشعراء اسم صديقنا المرحوم الشاعر الهندي الفيلسوف الكبير الدكتور محمداقبال تغمده الله برحمته ، اذ كان علاوة على ابداعه في لغته الأوردية شاعراً مفلقاً بالفارسية أيضاً، له فيها سبعة دواوين بين صغير وكبير . والمرحوم وإن كان مؤمناً قانتاً ومسلماً مخلصاً، ومن عشاق النبي العربي عليه الصلاة والسلام، والحضارة العربية الاسلامية،



ومن كبار مفكريها والمدافعين عنها ، كان هندي الأصل ، أسلم أحد أجداده قبل مائتين وثلاثين سنة ولا يزال أفراد نسبه موجودين في الهند على دينهم الى اليوم ولا اصل بتاتاً لما قالهُ كاتب مصري في مجلة اسبوعية انهُ من العرب وانهُ قال له ذلك في مصر . ومستبعد جداً بل مستحيل ان يقول اقبال ذلك وهو قد صرَّح في دواوينه عن اصله الهندي. قال في بيت ترجمته ما يلي :

ان السيد والتركي ربطا قلبيهما ودينهما بالسياسة

فإن يوجد عارف الاسرار غير الذي من سلالة برهمن (١)

وقال ايضاً في بيت آخر ترجمته ما يلي :

انظر اليَّ فانك لا تجد في الهند مثلي

من سلالة برهمن ولكنهُ يعرف رموز روم وتبريز (٢)

ثم من غرائب ما وقع في هذه المجلة تنقل كل شيء فيها عن مقالاتنا في المقتطف بغير الاشارة اليه، وكنا ترجمنا النصوص المستشهد بها عن لغتي الاردية والفارسية ولكن الكاتب مع عدم علمه بهما حرّفها، مع ان النقل امانة، وترجم بعض افكار الدكتور عن مجموعة محاضراته بالانجليزية وقال انها هي المحاضرة التي القاها الدكتور في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، وليس فيه من المحاضرة شيء فان موضوع المحاضرة كان « الاسلام كتحول في التاريخ » ولا يزال صديقنا الفاضل الدكتور عبد الوهاب عزام الذي افتتح الحفلة بكلمة وصديقنا الاستاذ محمد احمد الغمراوي الذي كان يقيد المحاضرة وغيرهما كثيرون ممن حضروا المحاضرة وسمعوها يشهدون على ذلك.

ولا حاجة بنا الى ان نتكلم هنا عن وصف شعر اقبال بعد كل ما نشرناه عنهُ

اما النثر الفارسي فلم تكن براعتهم فيه اقل شأناً من النظم فقد ذكرنا آنفاً غير واحد من كتبهم فيه التي شيعت بالحمد وذكرت بالجميل في اندية العلم والادب. ونتوه الآن بطائفة اخرى منها وقد كانت بعيدة المدى اثراً حيث طاب نشرها في المحافل وحسن ذكرها في المجالس جيلاً بعد جيل . فمنها « دقائق الانشاء » للاديب (منجور راي)، و« جلشن بهار ايران » للاديب الشاعر (بندرابن داس) خوشكو ،

(١) يشير الشاعر الى نفسه (٢) اشارة الى رموز تصوف مولانا جلال الدين الرومي الصوفي المسلم الشهير والى رموز شعر شعراء تبريز مثل شمس الدين التبريزي

و«الانشاء» للاديب (ماد هورام) الذي كان بديوان الامير «جهاندار شاه»[1] محرره الخاص للفارسية . وقد اعتبر كتابه هذا مثالاً للانشاء الفارسي عند الادباء والفضلاء فأصبح كتاب المعلم والمتعلم في المكاتب والمدارس في شمال الهند زمناً

على ان الجمال في النظم والنثر يرجع الى جودة التعبير وحسن البيان والابداع فيهما ولا يمكن ان يتوخى لها وجوه النجح اذا لم يكن الشاعر والاديب راسخَي القدم في اللغة ، غزيرَي المادة وواسعَي الاطلاع فيها . فلم يكن هؤلاء الهنود ممن لا قِوام لهم بها ولا من الراضين بالحرمان عنها ، فقد انضوا اليها ركائب الطلب وسلكوا نحوها سبيل النجاح ، فصنفوا فيها غير واحد من كتب المراجعة الهامة المفيدة التي لا تزال تشهد لهم بفضل المُنّة وسعة الذرع الى اليوم . ففي بلدة سيالكوت مثلاً صنف اديب منهم « مصطلحات الشعراء » الذي ما برح مصدر العلم للادباء والشعراء. صرف صاحبه في اخراجه خمس عشرة سنة من حياته وجمع فيه الكلمات التي استعملها شعراء الفارسية واستعاراتهم واصطلاحاتهم مع الشواهد الى زمنه فأصبح كتاباً فريداً في بابه جم الفوائد ، قريب المنال ، داني القطوف

اما الكتاب الذي كان ارسخ اصلاً ، وأبسق فرعاً ، وأحلى جنىً ، وأعذب ورداً ، وأكرم نتاجاً فهو القاموس الكبير « بهارِ عجم » للعالم اللغوي الاديب الثبت (لا له اودي بهان) الشهير باسم (تيك شندبهار). « فبهار عجم » كتاب جليل جامع في اللغة استوعب فيه صاحبه اصول الكلمات وأحاط بفروعها ، وبيّن مترادفاتها وذكر اضدادها وقدم شواهدها من كبار الأئمة وفطاحل الشعراء ، حيث لا يوجد مثيله حتى بين مصنفات اهل ايران انفسهم . نعم سبقه بعض الكتب ولكن ينقصها هذا الاستقصاء والاستيعاب . وعليه فما لا شك فيه ان (تيك شندبهار) قام بتأليفه هذا من خدمة الفارسية بمثل ما قام ابن منظور بكتابه لسان العرب من خدمة العربية ، او الدكتور جونسون بقاموسه من خدمة الانكليزية . ومما يستوقف النظر ويظهر مكان هذا العالم من الفضل ، ويبين موضعه من الحذق ويبرز منزلته من الذكاء المتوقد انهُ اهتدى في ذلك الزمن — سنة ١٧٧٥ ميلادية — الى طرق الدراسة الحديثة لعلم اللغة المقارن Comparative Philology فقد صنف كتابين جليلين في هذا الموضوع وهما « جواهر الحروف » و « نوادر المصادر » حقق فيهما الكلمات

(١) هو ابن الملك نور الدين جهانكير ولد في سنة ١٠١٤ وتوفي سنة ١٠٥٥ هجرية

الفارسية بالمقارنة والموازنة مع كلمات اللهجات الاخرى الى اصولها الآرية الهندية

من الأمور الغريبة المسلم بها ان التاريخ لا يلائم طبع الفكر الهندي وقد أشار اليه العلامة البيروني أيضاً . فأنت تجد كتباً نفيسة محفوظة عندهم من الزمن القديم الى الآن ولكن لا يمكنك ان تبلغ كنه تاريخها ولو بكلمة ، ولا أن تحيط بنعت أصحابها ولو بلفظة. فهناك عندهم علوم وفنون وحكمة عالية وفلسفة دقيقة ومذاهبها المختلفة ومدارسها المتنوعة ولكن تاريخ ظهورها وأحوال أصحابها مجهولة [1] .

على أنهم لم يقدروا ان يستمروا على تلك الحال . فان المسلمين الذين نزحوا اليهم وتوطنوا بلادهم وحملوا ثقافتهم اليهم وهي اكثر اعتناء بالتاريخ من غيرها فلم يكن لهم بد من ان ينصاغوا بصيغتها ، وينطبعوا بطابعها ، فأخذوا عن كتب منهُ حروفاً مواتية واجتنوا من اطرافه قطوفاً دانية حتى لم يكن عليهم من وعورته إباء، ولا في تعاطي صعوبته عناء. فقد كتب غير واحد منهم كتباً قيمة فيه بالفارسية في اواخر عهد المغول ، تحلت بالبهاء فادُّخر لها الثناء . بعضها في تاريخ الهند العام وبعضها في عهد خاص منهُ فمن القسم الاول «لباب التواريخ» للاستاذ المؤرخ (راي بندرابن)صنفهُ في سنة ١٧٢٣ ميلادية ، و« خلاصة التواريخ » للعالم (سوجن راي) صنفهُ في سنة ١٧٢٣ ميلادية و« منتخبات التواريخ » للفاضل (جك جيون داس) صنفه في سنة ١٧٥٣ ميلادية . ومن القسم الثاني « فتوحات عالمكيري » للفاضل (ايشور داس) صنفه في سنة ١٧٣٠ ميلادية ، و « تاريخ محمد شاهي » للاستاذ (خوشحال شند) صنفه في سنة ١٧٧٧ ، و « خلاصة التواريخ » للاستاذ (كليان سنج) صنفه في سنة ١٨١٠ ميلادية . وجميع هذه الكتب جزيلة المباحث ، جمة الفوائد لا غناء عنها للباحث المحقق حيث لو لم يكن اصحابها للاحاطة بما فيها في تنصب ناصب ، وعناء معنٍّ لبقي كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية والعلمية والادبية من ذلك الزمن في خبايا الغيب . استمرت جهود الهنود الوثنيين هكذا مبذولة في خدمة الادب الفارسي الى اوائل القرن التاسع عشر حتى استولى على البلاد المستعمرون الغربيون وفرضوا عليهم لغتهم فأمحى أثرها عنهم . وما نوهنا به هنا وفي مقالتينا السابقتين من خدماتهم للادب الفارسي ليس الاّ نذراً يسيراً من الجم الكثير

(١) أنظر الفلسفة الهندية مجلد أول للعالم الفيلسوف راد ها كرشنن ص ٥٧

باب المراسلة والمناظرة

بين البطريرك

يؤنس الخامس وملكي مصر والحبشة

كان من محاسن الصدف ان المرحوم الدكتور يعقوب صروف احد منشئي مجلة المقتطف الغراء حصل على النسخة الاصلية من كتاب «لباب الآداب» لواضعه أسامة بن منقذ الكناني الملقب بمؤيد الدولة (١) في اواخر القرن السادس للهجرة ، اغلبه نصائح وحكم عالية على ألسنة الملوك والحكماء والفلاسفة . وكان من محاسن الصدف ايضاً ان اخذت صورة الصفحة ٩٦ من هذه المخطوطة و نشرت في مجلة المقتطف بعدد ابريل سنة ١٩٠٨ بالفوتوغرافيا مرتبة طبعاً بالسطور والكلمات كما هي في الاصل وقال منشىء المجلة تعليقاً : —

« وهو أمر جرى منذ ثمانمئة سنة في هذا القطر وفي هذه العاصمة رآه مؤلف هذا الكتاب بعينه وسمع ما قيل فيه بأذنه ، وهو كأنهُ حدث امس وكتب عنه اليوم ، مرت ثمانمئة سنة والعادات لم تتغير ولغة الكتاب لم تختلف اختلافاً يذكر »

ولئن نظر الى ما جاء بين دفتيه بالنسبة للعادات واللغة فقد يصح النظر اليه هنا بمناسبة ما ورد في هذه العبارة من الناحية التاريخية التي تصادف ان منشىء المجلة رحمهُ الله ان اهتم بتصوير هذه الصفحة فنطقت بما يأتي بالحرف من قول المؤلف

« ... ورع قوي ورعية طايعة قلت اذ كرني قول الحكيم انما سلطان الملك على الأجساد دون القلوب أمراً شهدتهُ بمصر في سنة سبع واربعين وخمس مايه ، وهو ان رسول ملك الحبشة وكتابه وصل الى الملك العادل ابي الحسن علي بن السلار رضي الله عنهُ فسأله ان يأمر البطرك بمصر ان يعزل بطرك الحبشة وتلك البلاد كلها مردودة الى نظر بطرك مصر فأمر الملك العادل باحضار البطرك فحضر وانا عنده فرأيت شيخاً نحيفاً مصفراً فأدناه حتى وقف عند باب المجلس فسلم ثم انحرف فجلس على دكة في الدار وانفذ اليه يقول له ملك الحبشة قد شكا من البطرك الذي يتولى بلاده وسألني في التقدم اليك بعزله ، فقال يا مولاي ما وليته حتى اختبرته ورأيته يصلح للناموس الذي هو فيه ، وما ظهر لي من امره ما يوجب عزله ولا يسعني في ديني ان اعمل فيه بغير الواجب، ولا يجوز لي ان أعزله . فاغتاظ الملك العادل رحمهُ الله من قوله وأمر باعتقاله فاعتقل يومين ثم أنفذ اليه وانا حاضر ايضاً يقول له لا بد من عزل هذا البطرك لأجل سؤال ملك الحبشة في ذلك فقال

(١) طبع حديثاً ووقف على طبعه الشيخ احمد شاكر

يا مولاي ما عندي جواب غير ما قلته لك وحكمك وقدرتك انما هي على الجسم الضعيف الذي بين يديك واما ديني فما لك عليه سبيل. والله ما أعزله ولو نالني كل مكروه، فأمر الملك العادل رحمهُ الله باطلاقه واعتذر الى ملك الحبشة » اه . وهنا يجمل بنا الرجوع الى المناسبات التاريخية واهمها ما يأتي :

١ — كان الأنبا يؤانس الخامس هو الثاني والسبعين في عداد الآباء البطاركة ويعرف بابن ابي الفتح من دير ابي يحنس احد الراهبين اللذين كانا مرشحين للبطريركية عند انتخاب البابا ميخائيل الأول سلفه ، رسم في ١٥ بؤونة ٨٦٢ للشهدا وسنة ١١٤٦ للميلاد في عهد خلافة الحافظ . وبعد ان مضى على كرسي الرئاسة الدينية ١٨ سنة و ١٠ شهور و ١١ يوماً توفي في ١٤ بشنس سنة ٨٨٠ ش ١١٦٤ م

٢ — وقد أشير في سير البطاركة [1] الى ذلك الحادث ان دعيًّا من غير العائلة المالكة اغتصب مملكة الحبشة وقتل ملكها الشرعي وجلس مكانه فوبخه مطران الحبشة بشدة على هذا الظلم فنفاه وأرسل الى البطريرك يطلب منهُ تعيين غيره مدعياً أنهُ كبير وشاخ فامتنع البطريرك عن اجابة طلبه فعمد المغتصب الى والي مصر وأرسل اليه هدايا ورجاه ان يلزم البطريرك بايفاد مطران آخر فلما تكلم الوالي مع البطريرك قال له إن مطران الحبشة لا يزال حيًّا فاقتنع »

هذه بعض المناسبات التاريخية وقد يحق التساؤل عن طريق المواصلات القديم بين مصر والحبشة في تلك الازمنة الغابرة. فقد وجدت مخطوطاً في كتاب « تكريس كبير الشمامسة ثم قسمة الراهب ولبس الاسكيم وقسمة الراهبة والرئيسة ثم قسمة المطران والاسقف « المحفوظ بمكتبة الدار البطريركية بالقاهرة — حين كلفت تعرُّفها وتبويبها — بعنوان « السفر الى بلاد الحبشة » كلمة نقلتها لما لها من الشأن مع المحافظة على لغتها وحرفها قال :

من نقادة تنزل في المعدية لقوص ومن قوص تنزل في المعدية لقنا ومن قنا للقصير . واما السفر على البر فمن نقادة للقصير خمسة ايام واجرة كل جمل اربعين نصف فضة . وقيل ثلاثين نصف. ومن القصير ينزلوا في المراكب لسواكن سفر خمسة عشر يوم مع الطياب والاجرة عن كل شخص ثلاثة أشرفية ، ويعطوا الهدية للعدبرين صاحب سواكن بساط وبرنس اسود عن الجماعة كلهم ان كانوا كثير او قليل ثم ركبوا الجمال ويسافروا في بر الحبشة خمسة عشر يوم أجرة كل جمل أربعماية وخمسين درهم نقرة ، والعربان السكان في هذا البر تحت حكم الحبشة ثم يوصلوا بعد سفرهم في بر الحبشة الى أول بلاد النصارى الحبش التي فيها الكنائس والأديرة والايمان ثم يسافروا من بلد الى بلد الى ان يصلوا الى مواطنهم بالسلامة ان شاء الله تعالى » اه بالحرف

فاين نحن أبناء القرن العشرين من أمس الغابر قبل صنع البواخر ومدّ السكك الحديدية وإنشاء خطوط الطيران : ولله في خلقهِ شؤون

توفيق اسكاروس

(١) كتاب الكنيسة القبطية للمرحوم منسى القمص صفحة ٥٣٧

حول مقال (خليل مطران)

حضرة رئيس تحرير المقتطف

قرأت مقالة الدكتور أدهم وأود ان لا يفهم منها قارىء اني أوافقه على ما جاء فيها خاصاً بي ومع احترامي للدكتور أبي شادي أرجو ان لا يفهم قارىء اني أوافقه على مذهبه في التفكير او على طريقته في صناعة الشعر فان الاختلاف بيننا أكثر من تفاؤل وتشاؤم ومذهب طبيعي وغير طبيعي . وقد نشرت قبل الآن ان الاستاذ العقاد عندما عرفته كان قد اطلع على الادب الغربي والأوربي وكان قد نظم اكثر الجزء الاول من ديوانه وان الاستاذ المازني كان في مدرسة المعلمين يدرّس الادب ولم افده الا باهداء نسخة من ديوان الشريف الرضي اليه

ومع إجلالي واعجابي بالأستاذ خليل بك مطران أقول إني لم أتأثر طريقته أكثر من تأثري طريقة أي شاعر آخر من نوابغ الشعراء وأراني مضطراً أن أنشر بعد الآن مقالاً مطولاً اصحح فيه كثيراً من الآراء التي ينشرها الدكتور ابو شادي وأصدقاؤه . هذا وأرجو من الدكتور أدهم أن يسمح لي بنشر هذا البيان الذي يخالف بعض ما جاء في مقالته وله الشكر وتفضلوا بقبول عظيم الأحترام

المخلص — عبد الرحمن شكري

حول ترجمة فتى العصر وهكذا تكلم زرادشت

جاءنا من كاتب نقد هذين الكتابين في مقتطف يناير — الاستاذ حبيب الزحلاوي — ردّ على ردّ مترجمهما الاستاذ فليكس فارس جاء فيه انه كان قد أعدّ ادلته لتأييد رأيه في الترجمة باختيار نماذج من الأصل وما يقابلها في الترجمة لنشرها مع نقده في المقتطف وانا اعتذرنا بضيق المقام . وهذا صحيح ولكننا لم نطلع على هذه النماذج . وفيه ايضاً انهُ اطلع صاحب الترجمتين على بعض هذه النماذج فاقرّ ما في بعضها من المآخذ . فاقتضى التنويه بمضمون كتابه

تصحيح خطأ

سيدي الاستاذ فؤاد صرّوف المحترم

اشكر لك ادراجك في المقتطف مقالتي في (نشوء اللغة) وكنتُ اودُّ ان أصحح بنفسي مسودّة الطبع لكن لم يتيسر لي الامر . ولذا وجدت فيها اغلاطاً ، اذكر منها

صفحة	سطر	خطأ	صوابه	صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٣٧٠	٧	وإما	وأمّا	٣٧١	١٠	غير كسيحة	غير حكيمة
»	٣	تنفس	تنفُّس	٣٧٢	٢٠	طائفةاخرى	طائفة اخرى
٣٧١	١٠	قابلة	قابلةٌ			لاغية	لاغير

واختم الكلمة بالسلام والشكر والاحترام :

الاب انستاس ماري الكرملي



الحركة الادبية في سوريا ولبنان

المشادة بين أدباء مصر ولبنان — حركة النشر والكتب الجديدة

يؤلمني في هذه المرحلة الشاقة التي تسعى فيها الاقطار العربية الى توثيق عرى الالفة والمحبة عن طريق المصلحة والسياسة ان تقوم بين بعض ادباء مصر ولبنان مشادةٌ عارمة تقطّع عرى الالفة والمحبة عن طريق الأدب والثقافة كأنَّ ما تجمعهُ السياسة يفرّقهُ الأدب. ولا أعلم على من يجب أن تلقى تبعة هذه المشادة التي أصبحت محنةً بعد أن أخرجتها فلتاتُ اللسان عن نطاقها الأدبي الى مناوشات لا أجد فيها ما يحيي العصبية لأدب اللغة، بل ما ينفّر القلوب ويضرم نار البغضاء ويحوّل الجهود المبذولة عن هدفها الصالح الى الأمر الطالح، فَلأهون على الامم العربية أن تفرقها السياسات من أن يفرقها الأدب، فالأدب هو دين القومية، وما السياسات إلاَّ أعراض تزول أو تتبدل مع الرجال

لقد آلمني أن تثور باسم الأدب ضجة فارغة في زمن نحن أحوج ما نكون فيه الى التآخي والتعاون سياسيًّا وأدبيًّا واقتصاديًّا، وأن يكون مثيري هذه الضجة حاملو ألوية الأدب واصحاب الدعوة لتشييد هيكل الفكر على دعائم الوحدة القومية. فبدل أن نلتقي على أشجان الجراحات التي من حقها أن تجمعنا وتؤلف منّا أمة روحية واحدة على تباين مذاهبنا وأدياننا نسعى لنفرق بيننا ونتباعد باسم ادب « مصري » وأدب «غير مصري» خلقها تنافسٌ أقلّ ما يقال فيه انهُ يسيء الى الوحدة العربية الأدبية، أساس الوحدة القومية في الشرق. فمن دعائم النهضة العربية في الشرق أن تتوثق عرى الشعور بين جميع الأقطار الناطقة بالضاد وأن يعمل الجميع لما فيه خير اللغة متضامنين متكاتفين، وفي خير اللغة خيرُ الأمة لأن اللغة هي الرابطة الوحيدة بين شعور الجماعات على تباين مذاهبها. ومتى ارتبطت الامم بروابط الشعور الصحيح نشأت عن هذه الروابط الوحدة السياسية والاقتصادية معاً ونجت البلدان العربية من أشد ويلاتها

***

لستّ سنوات خلت أدلى الدكتور طه حسين برأي في إمارة الشعر، بعد وفاة شوقي، التوى منهُ القصد على الأديب اللبناني الاستاذ ابراهيم سليم النجار كما التوى على الكثيرين غيره، فردَّ

عليه بمقال لاذع عقبته ثورة عصبية ربما تفاقم أمرها لو لم يستدركها الدكتور طه حسين بحكمة دلت على رحابة عقله وإخلاصه للأدب وعلى انهُ يشعر بشعور الأمة العربية فلا يريد أن يسمع في دولة الأدب دويّ حرب أهلية ، ولا يشوقه كما لا يشوق أيَّ حكيم عاقل في الجمهورية العربية الشاخصة الى مستقبلها من بين جراحاتها الدامية — أن يستنشق هواء الخصومة والعداء في دولة الادب يهبّ من مهازل العروش والإمارات

ولسنتين عقد أحد الأدباء اللبنانيين في جريدة « المكشوف » مقالاً عاتب فيه ادباء مصر ، ولكن قلمه طوّح به تطوحاً عنيفاً تنكر فيه وجه العتاب على الدكتور زكي مبارك تخيّل اليه أن جريدة المكشوف « تشتم المصريين لتملأ صدورهم غيظاً وحقداً » وتدلّف الى القول بأن « حملة الأدباء اللبنانيين على الأدباء المصريين ليست جديدة فقد ظهرت طلائعها منذ سنين . » وكان أن واصلت جريدة « المكشوف » من جهة والأستاذ مارون عبود في جريدة « صوت الأحرار » من جهة أخرى نقدها لبعض مؤلفات الأدباء المصريين فزعم بعض إخواننا في مصر أن القصد من نقد أدباء لبنان لما يكتبه أدباء النيل هو اعلان « حملة على الأدباء المصريين » ، في حين أن القصد من ذلك ليس كما توهمه هذا البعض ، فالنقادون اللبنانيون يتناولون أدباء مصر بين حين وآخر كما يتناولون أدباءهم وأدباء سائر الأقطار العربية على أنّ ادباء العرب جامعة واحدة على اختلاف أقطارهم

ومما آلمنا حقاً من هذه المشادة خروجها عن نطاق الأدب والبحوث الأدبية الى نوع من المهاترة نربأ بأي أديب ، مصرياً كان أو لبنانياً ، عن اعتماده للتنويه بفضل أو للاشادة بمأثرة وأي خير يرجى من قول قائل : « اذا كان الله خصّ بلادكم بالأزهار والثمار فقد خصّ بلادنا بحلاوة الأصوات وجمال الأساليب ، والليلة السعيدة هي التي تقضى بين التناريد المصرية والفواكه الشامية ... » ومن قول آخر ردّاً على هذه الدمائة المغفرتة : « نحن لا نريد أن نعتقد بأن المصريين لا يحبون منا إلاّ فواكهنا وإن نكن نفضل نكاتهم على سائر ما خصّهم به الله ... »

***

على أن هذه المهاترة الخطرة لم تقف عند هذا الحدّ بل تجاوزته الى ما ينذر بأسوإ مغبّةٍ ، فقد أصدرت مجلة « الحديث » الحلبية عدداً خاصّاً بالثقافة المصرية نوّهت فيه بفضل بعض الأدباء المصريين على الأدب العربي متوقفة لمصر الأنتداب بثقافتها على الأقطار العربية ، فلم ترق كلمة « الأنتداب » كاتباً فعقد في جريدة « المكشوف » فصلاً قال فيه : إن الأعتراف لمصر بالأنتداب الأدبي معناه رسوب البلدان الأخرى في نطاقٍ من القصور لا يرضاه أدباء لبنان

وحجة أدباء لبنان على إخوانهم أدباء مصر أن هؤلاء الأخيرين يصدقون إلاَّ عمَّا تنتجهُ المطابع المصرية فلا يعرفون شيئاً عن الحركة الأدبية القائمة خارج مصر

ويظهر أن مقالة « زهير زهير » في المكشوف أثارت حفيظة الدكتور زكي مبارك فبعث الى الشيخ فؤاد حبيش ، صاحب المكشوف ، بكتاب يقول له فيه : « يجب أن تثق بأن ضمائرنا لا تسمح بأن تتجنّى على لبنان كما تتجنون على مصر ، لأننا أعرف منكم بأصول الأدب والذوق والعقل ... » وليسمح لي الأستاذ صاحب « المقتطف » بأن أغفر هذه الفلتة لأديب أقدر فضله وأكفّر عنها بما كتبهُ الاستاذ توفيق الحكيم في مجلة « الرسالة » إذ قال بكثير من الأدب التام على كبر في النفس : « اذا كان الواقع هو أن نسيم الثقافة يهبُّ علينا اليوم من جبال لبنان فلا أحب الينا نحن المصريين من هذا ، وهو خير لنا وأشرف من أن يهب علينا من جبال الالب غير أن الذي يؤلمني هو اننا معشر الشرقيين يكبر علينا دائماً أن نرى الفضل يأتينا من شرقي ، ولا نغضب بل نفخر أن يأتينا الفضل من غربي » .واذا حلَّ لي أن أوجه بعض العتاب البريء الى الاستاذ توفيق الحكيم فلكونه يسلك مسلك بعض إخوانه في الاعتصام ببرجهم العاجي ، فلو انهُ اطلَّ من هذا البرج الى ماوراء العريش لأدرك أن في الأقطار العربية من أوتي قوة التحرر من الطابع الغربي فلا يجد نسيم جبال الالب سبيلاً الى نفسه

وصفوة القول إن الادباء اللبنانيين ما فكروا يوماً في الاساءة الى اخوانهم في مصر ، وكيف يسيئون الى من أشربوا محبتهم في قلوبهم قبل أرواحهم ، وخصّوهم بعناية ما خصّوا بمثلها أدباء اي قطر آخر ؟ أما هذه الضجة القائمة في بعض الصحف المصرية واللبنانية فأحرى بها ان تتحول الى ما فيه خير الأدب الذي تشق في سبيله من ان تذكي نار الضغينة بين بلدين لا غنى لأحدهما عن مودة الآخر . وأية قيمة لهذا التنافس بين ادباء يدعون الحرص على اللغة ثم يؤدون مفروض الحقوق لهذه اللغة بادعاء الفضل عليها في شكل من الاستفزاز يخلق للشعور جراحاً بين بلدين أشد ما يربطهما تراث اللغة العربية وآدابها ؟ إن الاقطار العربية جميعاً تشخص في آدابها الى هدف واحد ، ومهما تتباعد انهرها فلا بدَّ ان تلتقي ، لأنها تصبُّ في بحر واحد هو اللغة العربية فليكن قصب السبق لمصر ، وليكن للبنان ، وليكن للعراق ، وليكن لسوريا ، فالرابح هو واحد مهما تتباين وجوهه ، والنتيجة هي واحدة مهما تختلف السبل اليها

***

لا تزال حركة النشر ماضية في النشاط ، فقد أصدرت مطابع بيروت في الشهر الماضي كتاباً عن « دريفوس » للاستاذ يوسف يزبك ، وقصة طويلة للاستاذ ميشال شبلي عنوانها « تلّ السنديانة » وهذه الاخيرة تدور حوادثها حول شاب لبناني يهجر قريته قبل الحرب الكبرى

الى اميركا تاركاً فيها حبًّا أُقسم على الوفاء له . وما ان تضع الحرب أوزارها حتى يعود الى قريته حاملاً من المهجر مالاً وافراً وثقافة جديدة وداء ويلا فيجد المرابين قد استولوا على ملك حبيبته غبناً ، فيقيم دعوى الغبن على المرابين ويستعيد الملك بماله ولكن باسم حبيبته . وسرعان مايحوك حوله الغاضبون دسائس أحقادهم وينطلقون يحاربونه في جبهتين دينية خلقية، وحكومية صحية ... فيسعون به لدى أسقف الأبرشية ويوغرون صدره عليه مدّعين أنهُ عائد من أميركا ليثّ في محيطه اللبناني المبادىء الغربية الملحدة ، ويسعون به لدى السلطة مدعين أنه مصاب بداء ويل فيجب اقصاؤه عن القرية . على أن كاهن القرية ، وهو من أحرار رجال الدين ، ينتصر للشاب ولا يخشى مجابهة الأسقف ، فتنقسم القرية الى قسمين أحدهما يؤيد المطران والآخر يؤيد الكاهن ، وقبل أن يتفاقم الأمر يكون هواء لبنان قد شفى العليل من علته فيتزوج حبيبته ويعيش العروسان باللذة والنعيم

وهذه القصة الجميلة ترينا صورة صادقة عن الحياة اللبنانية في القرية والمدينة . أما «دريفوس» فمأساة يهودية وضعها الأستاذ يزبك مستنداً فيها الى المصادر التي حاربت هذا الرجل ولم يعكف إلاّ قليلاً على المصادر الأخرى التي أثبتت براءته ، ومهما يكن فالكتاب موضوع بأسلوب مشوّق وبلغة نقيّة وبيان رائع . وينصرف الأستاذ أمين نخله الى إعداد العدّة لجمع فصول بليغة في الأدب نشرها في جريدة صوت الأحرار تحت عنوان « تحت قناطر اريسطو »

وقد تصدر « دار المكشوف » قريباً مجموعة شعرية للأستاذ ميخائيل نعيمة ، ومجموعة قصص لبنانية للأستاذ الشيخ خليل تقي الدين يكشف فيها عن لون جديد في الأدب العربي الجريء

اما الدكتور نقولا فياض فسيصدر قريباً الجزء الثاني من « على المنبر » وفيه مجموعة نفيسة من المحاضرات الاجتماعية والأدبية والطبية التي القاها على منابر مصر ولبنان وسوريا وفلسطين

***

هذا في لبنان ، اما في سوريا فالنشاط السياسي مستغرق جهود معظم الادباء ، على ان الاستاذ معروف الارناؤوط منصرف بعض الانصراف الى وضع قصة عن السيد المسيح بلغة «سيد قريش» وقد مضى عليه نحو من سنتين في الاشتغال بها

ومما يجدر بالقول أن المطابع في هذه البلاد لا تصدر الاّ القليل مما تنتجهُ اقلام الادباء والسبب في ذلك عائد الى ان الاستهلاك ما يزال ضعيفاً بالقياس الى عدد القراء لا بالقياس اليه قبل اليوم . فقبل اليوم كانت الالفا النسخة ترسب في السوق ثلاث سنوات او اربع ، أما اليوم فالالفا النسخة قد يستهلكها القراء في سنة واحدة اذا اوتيت قسطاً وافراً من الدعاية . ولا بدّ من القول ان للدعاية الصحفية يداً على ترويج الكتب

بيروت : الياس ابو شبكة

الدكتاتورية في العصور المختلفة (١)

لعلَّ أول ما يضطرب في خيال الانسان وهو يقرأ تاريخ العظماء هو: كيف استطاع هذا او ذاك من بني الانسان أن يسمو على أترابه ؟ أي ملكة أو أي خلّة ارتفعت بهِ إلى أعلى ثم هو ان امعن في قراءة التاريخ بدت له ثغرات نفذت منها يد القدر ترقى بالرجل ليكون عظيماً يبذُّ أقرانه

وفي بطون التاريخ جماعة من العظماء سيطروا على بني وطنهم واستأثروا بالحكم دون سواهم سمَّاهم الاغريق بالمستبدين او الطغاة، وأطلقنا نحن عليهم لقب الدكتاتوريين . أفنستطيع أن نسمهم بسمة واحدة، والدكتاتور في العهد الروماني كان قائداً شوريًّا يختاره جماعة ليواجه أمراً ما ثم ليلبث في منصبه ستة أشهر فحسب ، على حين أن الدكتاتور في أيامنا رجل مستبد أشد استبداد فهو يستمتع بسلطان لايحده زمان ولا قانون ، ويستعبد كيف يشاء امة كانت منذ حين ترفل في ثياب الحرية ؟ لاضير ، فللحكم المطلق حسناته كما أن له سيئاته ، غير أن صاحب كتاب « قصة الدكتاتورية في العصور المختلفة » ساوى بين كل حكم يستبد بهِ فرد واحد ثم أخذ لنفسه بأن يمقت كل حاكم دكتاتوري ، وراح يستشف من وراء نفسه نظرات الجمهور والفلاسفة والمؤرخين الى مثل هذا الحكم وهي — كما يتراءى له — تنزّى حقداً وبغضاً ، .. تلك ، ولاريب ، نظرة فيها التحامل والمغالاة. فنحن نرى أن بعض الدكتاتوريين يفوزون بفنون من حب الشعب وتقديره وان كثيراً من الامم لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة في سبيل المجد إلا على يدي حاكم مستبد ذي إرادة حديدية ونفس عالية وهمة سامية ، يرى بعيني عقله ويعمل بوحي ضميره ؟ ثم هو لا يفسح للشورى سبيلاً فتتسرب إلى حكمه ، وهي مضيعة للوقت ومكسلة للنشاط ومثبطة للهمم، ومن ورائها الرياء والحقد والضغينة والحسد و ... مما ينحط بالامم إلى الدرك الأسفل ، على أن الحكم الشوري في الأمم الناشئة هو العقبة الكأداء التي تتخبط فيها الأمة فلا تستطيع أن تبلغ بعض غايتها ، وكيف وفي المجلس الشوري جماعة يقضون أيامهم يناقشون أمراً واحداً لا يستقرون على رأي ولا يلقون به في غيابات الاهمال

نعم ، لقد ساوى كيليت بين جميع الحكام المستبدين واتخذ هذا لنفسه مبدأ ثم راح يضرب الأمثال يدلل بها على صدق ما زعم ، فنشر أمام قارئه ثبتاً من أسماء أصحاب الحكم الاستبدادي، فاختار من العهد الإسرائيلي أبيمليك ، ومن الأغريقيين كليستيس وبيسستراتس وبوليكراتس، ومن الصقليين جيلو وهيرو وديونيسيس و ... ثم انطلق يقول إن جميع أولئك طلعوا على الناس في غفلة منهم وفي أنفسهم الأنانية والغرور فما منهم الا من يغلظ على منافسيه فيذيقهم وبال

(١) نظرات في كتاب :
The Story of Dictatorship from the Earliest Times till To-day. By E.E. Kellett

أمرهم ثم ينشر على أعين الناس غشاوة صفيقة من الكلام الخلّاب الجميل يأسر بهِ نفوس الناس، ثم يمضي المعاهدات او يسعر نار الحرب لايغفل في ذلك ما يصبو اليهِ من هدوء واستقرار او من مجدٍ وعظمة

وانزلق مستر كيليت دفعة واحدة من القرن الرابع الى عهد النهضة حيث ألفى ما يشبع رغبات مبدئهِ في حياة الديتشي وقيصر بورجيا في وقت معاً ثم وجد مثلاً في نابليون الذي خطفت عظمته أبصار موسوليني وهتلر والكماليين فاتخذوه أستاذاً ينهجون نهجه ويسيرون على سننه

ولقد أعجز كيليت ان يلمس الفروق بين الحكم المطلق القديم والحديث سوى فرق واحد هو ان الحكم المطلق الحديث يمتاز بأنهُ يرتكن على مذهب يكون هو الغاية التي يهفو الحاكم دائماً نحوها . فمثلاً لينين يتشبث بالمذهب الاشتراكي ، وهتلر بالوحدة القومية والنقاء العنصري وموسوليني بالفاشستية

وفي الكتاب حديث طويل عن لينين وهتلر وموسوليني يبدي عن ناحية من نوازع هؤلاء الحكام ويغضي عن ناحية ، ولا عجب فالدكتاتورية أنانية لا تصبر على ند،وهي جحود لحرية الأفراد في سبيل التغني بمجد الدولة . كيف إذن ،يستطيع إنسان أن يجهر برأي ومن ورائه القوة التي لا تستشعر الرحمة والقسوة التي لا تحس بالشفقة ؟ تلك هي الدكتاتورية أو هي الحرية التي يسوقها الينا الظلم والأستبداد . أي معنى فيها سوى أن الأمة لا تصل الى ما تبتغي من حرية ومجد الا حين يلبس ابناؤها جميعاً ثوب الرق والاستعباد ؟

ولقد كان لينين — في نظر المؤلف — هو خير الثلاثة

أما موسوليني فزعم أنهُ يبدو نشيطاً عبقريًّا رغم أنهُ اشتطّ فأودى بناس كثيرين ، والقى بآخرين في أعماق السجون ، ورغم أنهُ تغاضى عن الحرية الفكرية وفتح باب الحرب الحبشية غير أنهُ كان ينفث من روحه الرفّافة في كل ما يأخذ على عاتقه من عمل ، ولقد بدا ذلك في تقريب وجهات النظر بينهُ وبين الفاتيكان وفي اندفاع ايطاليا الى الأعمال العامة ، ولكن ايطاليا الآن تنحدر إلى هاوية من الخراب المالي تقودها اليها الجيوش الجرارة التي تكلفها مالاطاقة لها...به أما هتلر فمازال في موقفه الغموض (كتب هذا الكتاب قبل استباحة النمسا وتشيكوسلوفاكيا)

ومهما يكن في كتاب كيليت من آراء فما تزال الأسئلة تضطرب على شفاهنا عما عساه ان يكون في العصر الحاضر ، عصر الدكتاتوريات ؟ افيجرف هذا العالم تيار الحرب فلا يرتد الا وقد التهم نصف الأرض نصفها الآخر ،ام هذه الدكتاتورية الغالبة ستنسى بعض مطامعها ليستقر الناس في اوكارهم ويطمئنون في حياتهم ؟ لا ريب فالأيام ستحمل الينا — قريباً — الجواب الذي لا يستطيع الحدس ان يرقى اليهِ . . . !

كامل محمود حبيب

الجيش المصري
في عهد محمد علي باشا الكبير

تحتفل مصر في هذا العام بذكرى انقضاء مائة سنة على انتصار بطلها الفاتح ابراهيم باشا في موقعة نزيب . ولهذه المناسبة المجيدة اصدر اليوزباشي الاستاذ عبد الرحمن زكي أمين المتحف الحربي مؤلفاً نفيساً في تاريخ الجيش المصري في عصر المغفور له محمد علي الكبير كتب مقدمته أستاذنا المؤرخ المحقق شفيق غربال وكيل كلية الآداب في جامعة فؤاد الاول

راعى المؤلف تحري الدقة في بحثه ورجع الى اوثق المصادر فأبرز صورة صادقة لجيشنا الحديث لا يسع من يقرؤها الاَّ ان يلمس غيرة الكاتب في احياء ذكرى هذا الجيش ويدرك الشبه العظيم بين مجهودات مصر في ذلك العصر ومجهوداتها الحالية في انشاء جيش قومي قوي

مهد الاستاذ لموضوعه بالكلام عن قوات الدفاع في مصر قبل زمن محمد علي فذكر الوحدات التي تألفت منها الفرق المختلفة وبيَّن كيف تألفت من هذه الوحدات عناصر الفتنة والفساد وكيف عمل محمد علي على التخلص منهم بارسالهم في حرب ضد الوهابيين. ويصف لنا وصفاً ممتعاً محاولة الباشا الاولى في إنشاء جيش منظم بعد عودته من حرب الوهابيين وكيف رفض الجند اصلاحه مقتبساً في ذلك عبارات طريفة من مؤرخ ذلك العصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي

« أمر الباشا جميع العساكر بالخروج الى الميدان قبل الفجر للتعلم على طريقة الافرنج الى الضحوة فأخذوا في الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ورجعوا داخلين المدينة في كبكبة عظيمة وداسوا أشخاصاً بخيولهم بل وحميراً أيضاً — كان قصد الباشا احصاء الجند وترتيبهم على النظام الحديث والباسهم الملابس المقمطة ومن أبى ذلك كان جزاؤه الضرب والنفي بعد سلبه ثيابه فحصل بين الجنود تذمر الخ »

وشرح كيف حاول محمد علي تكوين جيش من أبناء السودان ولم يوفق وكيف أصاب الهدف لما قرر أن يتعلم الفلاح الجندية عنوان القوة ورمز المجد ووجد في الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) عضداً قويًّا فدرَّب الجند المصريين واستعرضهم محمد علي ومعه قنصل فرنسا العام وقنصل انكلترا العام في معسكر التدريب ببني عدي وبعد عودتهم كتب قنصل فرنسا الى حكومته في فبراير سنة ١٨٢٤ يثني على ما رآه من حسن نظام الجيش وبلوغه درجة عظيمة من الدقة في المناورات

وكما وفق المؤلف في شرح محاولة الباشا في انشاء جيش منظم لمصر وفق ايضاً في توضيح نظام هذا الجيش الجديد فتكلم عن ديوان الجهادية وناظره وعن نظام الترقية وما اعتراه من

مساوىء في أول الأمر عند ما كانت المحسوبية العامل الوحيد فيها وتعديل هذه الطريقة المثبطة للهمم وأشار الى مجهودات البعثة العسكرية الفرنسية التي طلبها محمد علي وجاءت الى مصر في أواخر عام ١٨٢٤ برياسة البارون بوييه لتدريب الجيش المصري وتنظيمه وحدثنا عن التسهيلات التي قدَّمتها الحكومة المصرية لاعضائها وعن مرتباتهم وعن تزايد عددهم وكلها موضوعات طريفة لا يسع المرء الاَّ ان يقرنها بمثيلتها في العصر الحاضر

كذلك وصف المؤلف المدارس العسكرية المختلفة التي أنشأها محمد علي وأتى على برامج الدراسة فيها ويلاحظ انها حوت فيما حوته من المواد الدراسية اللغة الفارسية وبيَّن كيف امتزج تاريخ هذا الجيش بتاريخ الاصلاح المحمدي العلوي امتزاجاً فريداً حتى صار تاريخه كما ذكر الاستاذ الجليل شفيق غربال في مقدمة الكتاب « تاريخ التعليم والسياسة الاقتصادية والسياسة الخارجية فوصف مجهودات محمد علي الجبارة في خلق مصر الحديثة وفي الاستغناء عن الخارج بادخال صناعات كثيرة وانشاء مصانع للاسلحة ثم ارسال البعوث من الشبان المثقفين الى اوربا حتى مصَّر تعليم الجيش واستطاع في مدة اثنى عشر عاماً ان يضع تحت امرة ابنه ابراهيم العظيم جيشاً مستقلاً مؤلفاً من مئتي الف جندي في دولة حديثة لم يتجاوز عدد سكانها اذ ذاك ثلث عدد سكانها الحالي »

وبعد ما انتهى المؤلف من وصف الدور الانشائي على هذا النحو عالج الدور الذي قام بهِ هذا الجيش في ميدان العمل ووفق توفيقاً طيباً في توضيح معالمه فتكلم عن الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي وعن انتصارات ابراهيم العظيم في الشام وعن امانيه في الاستقلال واحلامه في مجد العرب — وكلها آمال حالت دون تحقيقها الدول الاوربية — وختم المؤلف بحثه بحديث الارقام ضمنهُ احصائيات عن عدد قوات الدفاع المصرية وتوزيعها في انحاء القطر وعن كادر رجال الجيش في ذلك العصر

وحوى الكتاب فوق كل ذلك صوراً تخطيطية واخرى ملونة لقواد الجيش ولضباطه وجنده بملابسهم واسلحتهم وكذلك خارطات توضيحية مبسطة للامبراطورية المصرية في عصورها المختلفة

***

الحق ان هذا البحث النفيس مزدوج الفائدة فهو كاف لكل من يريد صورة صادقة عن جيش محمد علي وهو أيضاً مثير لهمم الباحثين من القراء فأن المصادر التي استند اليها المؤلف وذكرها في بحثه لا تلبث ان تدفع القارىء الباحث الى صفحاتها حبًّا بزيادة الاطلاع — وكفى المؤلف فخراً ان يصيب الهدف على هذا النحو — هذا فضلاً عن ان البحث في حد ذاته فتح جديد ولا شك في ان اليوزباشي عبد الرحمن زكي قد أسدى باخراجه خدمة جليلة الى بلاده ولا سيا في هذا الوقت الذي أخذت فيهِ بانشاء جيشها القومي

احمد نجيب هاشم

معلقة الارز

لنعمة قازان

طبع بدار الطباعة والنشر العربية بالبرازيل

للعرب الجاهليين معلقات سبع على قول ، أو عشر على قول آخر . فلماذا لا يكون لعرب القرن العشرين معلقات كذلك ؟

ويقال ان العرب الجاهليين علقوا هذه القصائد الخالدة السبع او العشر على استار الكعبة اشادة بذكرها . فان الكعبة كانت مقصد حجيجهم ومكان اوثانهم

واليوم بطلت فكرة تعليق الشعر على الكعبة الاسلامية . فأين يعلّق ؟ لقد فكر الشاعر اللبناني وطناً ، البرازيلي إقامة نعمة قازان، في اهداء قصيدته الى الارز الخالد في لبنان لتعلق هناك على أغصانه الخالدة ....

ففكرة الحنين الى الوطن الأول ظهرت واضحة في اختيار اسم الكتاب . فأي شيء أولى من الارز ليعلق لبنانيٌّ الشعر على شجره العتيق ؟

هذه المعلقة قصيدة واحدة من بحر المتقارب . واذا كان لكل عصر مميزاته في التعبير عن المعاني ، فان معلقات هذا العصر يجب ان تكون سهلة الالفاظ ، لا خشنة ولا غريبة ولا حوشية كما كان الشأن في العصر الجاهلي

والفكرة في معلقة الارز سامية نبيلة . فالأخاء يشيع فيها . والوطنية والحنين الى الوطن كذلك . الاّ أن الشاعر متساهل نوعاً ما في استعمال الالفاظ . ولا نلتمس له العذر بأنهُ بعيد عن وطنه العربي . فان القراءة كفيلة بأن تقوّم اللسان مهما يضرب الانسان في نواحي الارض

وفي معلقة الارز نواح كثيرة من الخلق الكريم . اسمعهُ يقول

وليس التملق من شيمتي ... وليس التأنق من نزعتي
فاني ترعرعت بين الجبال ... على البأس والفقر والشدة
ومن عاش مثلي على جرأة ... فلا يستلذ سوى الجرأة

وحسب الشاعر « نعمة قازان » نبلاً انهُ وقف ريع معلقته على الفقراء والمحتاجين في لبنان والبرازيل

وأشكر لحضرته اهداءه هذا الكتاب اليَّ عن طريق المقتطف الاغر وأرجو ان نرى دائماً من جميل ادبه ما يحفزنا دائماً الى الكتابة عنهُ . وعلى الشاعر السلام

القاهرة محمد عبد الغني حسن

الاطلال

Mahmoud Teymour – Lès Amours de Sami (roman égyptien).
Paris, éditions "Les Ecrivains contemporains„ 1938.

ان فن القصة، على وجه العام، لا ينقاد لكل احد، وإن ظن بعض المحدثين ان سياقة القصص قوامها ارسال القلم مع قليل من التفكير وكثير من التخيل. وسبب ذلك ان القصة تستلزم التجربة العملية والوقوف على الوان التأليف القصصي وقوة الأداء وبراعة التصوير وشدة التأثير

وكثير من هذه الشرائط يجتمع في فن الاستاذ محمود بك تيمور. ولذلك تراه في طليعة القصاصين عندنا. اما اللون الغالب على قلمه فالواقعية، ومعنى هذا انهُ يميل الى الوصف الدقيق للمنظورات والتحليل المباشر للمحسوسات والتعبير الوافي عن المدركات والخلجات. بحيث انهُ يمسك بيد قارئه ويفتح عينيهِ وينبه ذهنه مع شيء من الاستئثار بالأمر

هذا وقد رأت دار فرنسية للنشر ان تنقل الى اللغة الفرنسية قصة طويلة للاستاذ تيمور، عنوانها في العربية « الاطلال » الى جانب عشر أقاصيص. والترجمة الفرنسية قريبة من النص العربي، على غير استكراه ولا تمويه. ولغتها سهلة، سليمة، وإن بعدت عن مطارح الزخرف والتأنق

ومما يسرّنا أن تذاع آدابنا في بلدان الغرب بلغات اولئك القوم، وذلك دليل قائم على جودة أقلام طائفة من كتابنا. وعسى أن يلقى كتاب الأستاذ تيمور في الفرنسية ما لقيه من دلائل التقدير في العربية. فمثل هذا عليهِ وعلينا جميعاً يعود ب. ف

قنال فاروق الاول

تلقينا من حضرة الباحث المدقق والمؤرخ المحقق الاستاذ عزيز بك خانكي المحامي مقالاً اقترح فيهِ ايصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر بقنال نهري يبدأ من ثغر رشيد وينتهي الى ثغر السويس ويمر بفوه فالمحمودية فدسوق فالرحمانية فشبراخيت فكفر الزيات فبنها فالقناطر الخيرية الى القاهرة فالسويس عن طريق ترعة الاسماعيلية وقال ان هذه المسافة تقل مائة كيلو متر عن المسافة التي تقطعها السفن الآن من الاسكندرية الى بور سعيد بالبحر ومن بور سعيد الى السويس بالقنال وتنفيذ هذا الاقتراح لا يحتاج الا الى توسيع النيل وتنظيمه وتعميقه لكي يتسع لاكبر البواخر على ان يسمى هذا القنال — بعد درس الفكرة وقبولها — قنال فاروق الاول. وحجتهُ في هذا الاقتراح ان قنال السويس ينتهي امتياز شركته بعد ثلاثين سنة وللشركة الحق في ان تخفض رسوم المرور فيهِ بلا قيد فقد يخطر لها ان تخفض هذه الرسوم

قبل انتهاء امتيازها تخفيضاً ينقص ما تجنيه مصر منهُ انقاصاً كبيراً فلا تجني منهُ اقل نفع

وقد بسط حضرته هذا الاقتراح بسطاً وافياً ودعمهُ بالارقام والاحصاءات والشواهد وعرضهُ اخيراً على الباحثين والمفكرين ليبدوا رأيهم فيه

دليل موجز
لمعروضات دار الآثار العربية

ظهر هذا الكتاب النفيس والمقتطف ماثل للطبع . فلا يسعنا اليوم الاَّ ان نشير اليهِ ، وفي العدد المقبل سنتناوله بما يستحقه من النقد

وقد كتبهُ بالفرنسية الأستاذ جاستون ڤييت ونقله الى العربية بتصرف الدكتور زكي محمد حسن ، امين دار الآثار العربية وصاحب التآليف الجليلة في الفن الاسلامي على ألوانهِ

ويقع الكتاب في ١١٥ صفحة. وفي آخره ٢٨ لوحاً مما تخزنهُ دار الآثار العربية من الطرائف والبدائع

أساليب الاجرام في مصر

وطرق الوقاية منها ووسائل منعها — تأليف اليوزباشي صالح زكي — صفحاته ١١٢ صفحة طبع بمطبعة النصر بمصر

يسرنا ان يتجه فريق من ضباطنا النشيطين من رجال البوليس والجيش الى ناحية الأدب والتأليف ويقف الجزء الصغير من وقت فراغه على خدمة وطنه وابناء أمته بكل ما أوتيه من علم وذكاء. وقد أخرج أخيراً الضابط النابه النشيط اليوزباشي صالح زكي معاون مكتب حماية الآداب بالقاهرة كتاباً نفيساً عن أساليب الاجرام في مصر وطرق الوقاية منها ووسائل منعها وهو الاول من نوعه في موضوعه وبحثه ويحوي فوائد جمة تفيد جمهور القراء بوجه عام ورجال القانون والبوليس والمشتغلين بالامن والهيئات المحترمة بوجه خاص وليس الغرض من وضع هذا المؤلف البحث في الجرائم من حيث انواعها واسباب انتشارها او الوصول الى وسائل فعالة لاستئصالها ولكن كيفية الاساليب التي يتبعها المجرمون عند ارتكاب جرائمهم والوسائل الممكنة التي يستطيع الانسان اتخاذها لمنع هذه الجرائم وضبط فاعليها واتقاء شرهم . و الكتاب مقسَّم خمسة أبواب في الباب الاول ذكر المؤلف جرائم القتل وأنواعها. وفي الثاني جرائم السرقات وأنواعها المتعددة وطرقها. وفي الثالث جرائم النشل وأساليبها المختلفة. وفي الرابع حوادث النصب. وفي الخامس جرائم التسول وأساليب المتسولين والوسائل الفعالة لمنع التسول

والكتاب مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد ويطلب من مؤلفهِ بمصر وثمنهُ ١٠ قروش



الكشف الأثري الجديد
في صا الحجر (تنيس القديمة)
[حديث الدكتور دريوتون عنه]

أفضى الدكتور دريتون مدير مصلحة الآثار المصرية بالحديث التالي عن الكشف الأثري الجديد الذي اتيح للاستاذ مونتيه بعيد منتصف مارس وعن زيارة جلالة الملك فاروق له فقال : —

قبل ان أحدث اليكم عن الكشف الأثري الجديد في صا الحجر يهمني ان اقول لكم ان ما ذكر عنه في الصحف يتضمن كثيراً من التحريف . وقد كان لي شرف مرافقة حضرة صاحب الجلالة الملك في زيارته لهذه المنطقة وكان جلالته قد تفضل فأبدى رغبته السامية في مشاهدة الكشف الجديد

وتشرفت بالسفر في معية جلالته بقطار الديزل الملكي فوصلنا الى فاقوس في الساعة العاشرة صباحاً وركب جلالته السيارة الى تل صا الحجر وكان يقودها بنفسه بسرعة فائقة

وعند وصول الركب الملكي الحفار كان المسيو مونتيه مكتشف المقبرة في استقبال جلالة الملك وتفضل جلالته فهنأ المسيو مونتيه بتوفيقه الى هذا الكشف الأثري

ولقد ذكرت الصحف أن صاحب المقبرة والتابوت الذي عثر عليه في داخلها هو الملك بسوسنس الثاني ولعل ذلك راجع الى ان النقوش الملونة والبارزة على جدران المقبرة ذكر فيها هذا الاسم كما ان هذه الصحف ذكرت ان هناك تابوتين احدهما وهو الخارجي من الفضة والثاني — الداخلي — من الذهب

والحقيقة أن المقبرة لملك اسمه شي شونك وليس هناك سوى تابوت واحد من الفضة يمثل شكل آدمي له رأس صقر وقد وضحت لنا هذه الحقيقة عندما أمر جلالة الملك برفع غطاء التابوت الفضي فلم نجد تابوتاً ثانياً من الذهب كما ذكر في الصحف خطأ وانما وجدنا مومياء محنطة سليمة مغطاة برداء من الذهب بديع النقش رائع المنظر وقد وضع على رأس المومياء قناع من الذهب الأبريز على شكل رأس صقر وتبين لنا من قراءة النقوش الظاهرة على الغطاء الذهبي ان المومياء للملك شي شونك

***

وهناك خمسة ملوك بهذا الاسم حكموا مصر في المدة الواقعة بين سنة ٨٥٠ الى ٧٥٠ قبل الميلاد واولهم الملك شي شونك الاول الذي احتل القدس واستولى على كنوز الملك رحبعام خليفة الملك سليمان وثروته . ولا شك أن هذه المومياء هي لواحد من هؤلاء الملوك الخمسة وسيسفر البحث العلمي عن حقيقته

وشاهدنا بجوار التابوت جثتين باليتين ورأينا مع بقايا الجثة الموجودة الى يسار التابوت عقداً من حجر احمر ثمين مركباً على سلسلة من الذهب . وعلى مقربة منها وجدنا عدداً من التماثيل الجنائزية الصغيرة التي يعثر عليها عادة في مقابر الموتى من قدماء المصريين

وتناول المسيو مونتيه من بين هذه التماثيل تمثالاً جميلاً على شكل صقر من الحجر الازرق بديع الصنع وقدمهُ الى جلالة الملك ففحصهُ جلالته وابدى اعجابه السامي بهِ

ورأينا في هذه الحجرة ايضاً بعض الأواني الجنائزية وهي مغلقة بالطين فأمر جلالته بفتح بعضها ففتح المسيو مونتيه ثلاثاً منها فاذا بداخلها ثلاثة تماثيل من الفضة تمثل الملك شي شونك واتضح انها عبارة عن اوان على هيئة تماثيل وفي داخل كل منها بعض احشاء الميت وكان اسم الملك شي شونك منقوشاً على هذه التماثيل الفضية الثلاثة فأكد ذلك ان المقبرة للملك شي شونك وليست للملك بسوسنس الثاني

ووجدنا في جانب من الغرفة آنية كبيرة من الفخار مسدودة بالطين وبلغ ارتفاعها نحو ١٣٠ سنتيمتراً وقطرها ٣٠ سنتيمتراً ولم تعرف محتوياتها بعد

ويحيط بهذه الغرفة او المقبرة غرف عديدة لم يفتحها المسيو مونتيه بعد ولكنهُ أحدث ثغرة في احداها فشاهد في داخلها تابوتاً كبيراً سليماً من حجر الجرانيت الاسواني

وقال جلالة الملك انهُ لو كان مكان المسيو مونتيه لاستمرَّ في الكشف عن محتويات هذه الغرف في الموسم الحالي

وترجع مكانة هذا الكشف الى العثور على مقابر لملوك الاسرات ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من ملوك الفراعنة وهي فترة كانت غامضة في تاريخ قدماء المصريين اذ لم يسبق اكتشاف مقابر لملوكها وانما عثر على بعض تماثيل لهم في طيبة ولا شك ان هذا الكشف سيكشف عن الحقائق التاريخية في مدة حكم هذه الاسرات الثلاث وقد ظلت غامضة حتى الآن

كما ان هذه هي المرة الاولى التي يعثر فيها على مقابر لملوك قدماء المصريين في غير الصحراء

ويتضح هذا الكشف ايضاً ما ذكره بعض المؤرخين اليونانيين مثل هيرودتوس من أن احد ملوك الفراعنة دفن في معبد المدينة ولم يتحقق هذا الزعم الاَّ بهذا الكشف الجديد لأن المقبرة التي نحن بصددها تقع على مقربة من معبد مدينة تيس المعروف

وقد ابدى جلالة الملك اعجابه السامي بهذا الكشف وكرر تهنئة المسيو مونتيه ولاحظ جلالته ان المكان في جهة بعيدة عن المواصلات التليفونية والتلغرافية فأصدر امره الكريم بتوفير هذه الوسائل فيها وقد استغرقت الزيارة الملكية نحو ساعتين ثم ركب جلالة الملك وحاشيته السيارات الى فاقوس . وفي الطريق توقف الركب قليلاً ريثما تناول جلالته طعاماً خفيفاً في الصحراء ثم استأنف الركب المسير الى قطار الديزل حيث عاد جلالة الملك الى القاهرة

شركات بنك مصر

والمنشآت الصناعية والاقتصادية في مصر

نشر مجلس الادارة لبنك مصر تقريرهُ السنوي وقد خص الجزء الثاني بالكلام عن أعماله في خلال سنته المالية فدلت الأرقام التي سردها التقرير على استمرار تقدم هذا المعهد المالي الوطني وازدياد الثقة بهِ ازدياداً أبلغ الودائع فيه الى مبلغ ١٥ مليون جنيه واتسع نطاق جميع أعماله مع أن البلاد تجتاز أزمة مالية واقتصادية اخذ تأثيرها يبدو في كل مكان

ولا تزال الشركات التي أسسها البنك آخذة في التقدم ولا سيما شركة المحلة الكبرى للغزل والنسج وقد أكملت بانشاء مصانع نسج للصوف والحرير فصار في طاقتها ان تجهز البلاد بجانب كبير من حاجتها الى هذه المنسوجات

ولقيت هذه المصانع بحق مايضاعف عزمها من تفضل جلالة الملك بشراء بعض منتجاتها فكان ذلك نداء عمليًا عالياً من جلالته الى الجميع بان يحذو حذوه ويؤيدوا هذه المصانع تأييداً فعليًا

ولا يزال البنك ماضياً في سياسته الصناعية المطلوبة وهي درس المشروعات والتدقيق فيها حتى اذا أعدَّ معداتها ووضع أساساً متيناً لها أقدم على مباشرتها بالهمة المأثورة عنهُ وبعد النظر

ومن هذه الشركات الجديدة شركة لعصر الزيت وصنع الصابون وهاتان صناعتان موجودتان في مصر فالمطلوب من الشركة الجديدة ان لا تقتصر على اخراج الصابون العادي الذي تخرجه المصانع الأخرى لان الاكتفاء بهذا وحده لا يليق بعظمة البنك ولا بمساعي اقطابه . فالمطلوب اذاً هو الابتكار واخراج صابون مستوف للشروط التي يشترطها الناس في هذا العصر حتى تستطيع الشركة الجديدة ان تحل منتجاتها محل ما يأتينا من الصابون من أوربا . وقد عالج المقطم هذا البحث وأثبت ان جميع عناصر النجاح موجودة في مصر فليس هناك ما يمنع النهوض بهذه الصناعة القديمة الى المستوى الذي يليق بها والذي يقتضيه تقدم البلاد على نحو ما صنع المستر ليفر (لورد ليفر هيوم) الانكليزي صاحب مصانع صنليت الكبيرة في بلاده

أما شركة المناجم والمحاجر فهذه يرجى ان تمكن البلاد من الانتفاع بمحاجر الرخام والمرمر التي في انحاء القطر كمنطقة اهرام الجيزة وجبل بني سويف وان تنشط صناعة استنباط المعادن ولا تزال هذه الصناعة القديمة في مستهل نهضتها الجديدة

وأما شركة الدخان فقد قال التقرير ان الغرض منها أعادة سمعة السجائر المصرية الى ما كانت عليهِ وهذا جهد محمود سيشمل نفعه المدخنين والتجارة المصرية ومصانع السجاير الاخرى نفسها بما يخلق فيها من نشاط لمجاراة هذه النهضة الجديدة

ويسرنا ان نقول اننا سنبدأ في الشهر القادم في نشر مقالات عن المنشآت الصناعية والاقتصادية الكبيرة في مصر نستهلها بمقال عن قطبها طلعت حرب باشا وشركات بنك مصر

تحسين حالة الصحة في المدارس

جاء في انباء الصحف اليومية ان اللجنة التي ألفها وزير المعارف برآسة الدكتور حافظ عفيفي باشا لدرس موضوع تحسين الحالة الصحية في المدارس المصرية ولاسيما الأميرية منها فرغت من هذا الدرس ووضعت مشروعاً عرض على مجلس الوزراء فأحاله الى اللجنة المالية في وزارة المالية . فلما اطلعت عليهِ رفضت الاعتماد المالي المطلوب له وقدره ٣٥ — على ما قيل — الف جنيه وأبت اقرارهذا الطلب

***

فاذا صحَّ الخبر وهو مستقى من مصدر عليم كانت ماصنعته اللجنة المالية من أغرب ما سمع عندنا فقد أهتزَّ الرأي العام في جميع طبقاتهِ لما اطلع على ما أذاعته وزارة المعارف عن سوء الحالة الصحية في كليات الجامعة والمدارس الثانوية والأبتدائية وضجَّ ذوو الرأي في البرلمان وفي خارجهِ من وجود هذه الحالة وامكان استمرارها . وعمد وزير المعارف الى مواجهة الأمر فألفت هذه اللجنة من رجال أكفاء واختصاصيين منهم اطباء لدرسه والأشارة بما يحسن او ما يلزم لوقاية النشء من عوامل المرض والضعف ورأى من جهة أخرى أن يتوسل بوسائل شتى لاستدرار المال من المحسنين وسواهم عسى أن يتوافر له مبلغ من المال يعينهُ على الأصلاح . وحجة اللجنة المالية هي أن مالية الدولة لا تسمح باجازة هذا الأعتماد

غير ان الرأي العام يقابل هذا القرار بسؤال او أسئلة فيقول اذا كانت مالية الدولة لا تسمح بما يلزم من مال لوقاية تلاميذ المدارس وتلميذاتها فما الفائدة من انفاق بضعة ملايين في كل سنة على مدارس تخرج للأمة شباناً وشابات مزودين بالعلم والمعرفة ولكن تعوزهم الصحة والعافية وهما التاج الموضوع على رؤوس الاصحاء

***

واذا كان اعتماد هذا المال للغاية السامية التي يراد لها غير مستطاع بسبب حالة الخزانة العامة فكيف تسوغ اللجنة المالية اعتماد المال لسيارات الوزراء وكبار الموظفين وسواهم وانفاق المال على الاوبرا وجوقات التمثيل الاجنبية ونحو هذا من الكماليات واي فائدة جنينا من انفاق اكثر من عشرين الف جنيه في السنة على اشتراكنا في جامعة الامم سوى تكليفنا جمع احصاءات واستيفاء معلومات الى آخر القائمة الطويلة التي تبذل فيها بدر المال على كماليات لا تكاد تذكر في جنب المطلوب هنا

***

ان الامر أجل من ان يفصل فيهِ بقرار اللجنة المالية هذا وعلى وزير المعارف ان يعيد الكرة ويصر على طلب المال والاَّ افسد سوء الحالة الصحية معظم الجهود المبذولة لنشر الثقافة واعداد شباب البلاد لما هو منتظر من العمل والجهد الصحيح

خط أنابيب البترول

بين السويس والقاهرة

عرضت احدى احدى شركات البترول العظيمة على الحكومة مشروعاً بمد خط من الانابيب يسيل فيها البترول من السويس الى القاهرة كخطي الانابيب اللذين مدا من شمال العراق احدهما الى حيفا والآخر الى طرابلس الشام من سواحل سوريا

وقد لقي هذا المشروع ارتياحاً في الدوائر الرسمية وهي تدرسهُ الآن بعد ما قبلتهُ مبدئيًّا لوضع الشروط اللازمة. وقلنا كذلك ان مشروعاً كهذا عرض على الحكومة من سنوات فلم تقبلهُ ولأنها رأت فيهِ اجحافاً بارادات سكة الحديد

فلما اصلح الطريق الصحراوي بين القاهرة والسويس صار في الامكان نقل الزيت ولاسيما البنزين بقناطيس كبيرة مركبة على سيارات ضخمة وألف الناس منظر هذه القناطيس وهي قادمة قوافل من السويس تنقل البنزين الى مستودعاته في العاصمة

وقد صار توفير الوقود السائل من اركان الدفاع الوطني ولاسيما اذا تيسر لالمانيا توسيع اتفاقها مع رومانيا على ما يستنبط من زيتها وتوجيههُ الى اسواق المانيا بدلاً من بيعه للبلدان الاخرى وفي جملتها مصر كما هي الحالة الآن. وحيث ان معظم البترول والبنزين في مصر يؤتى بهِ من رومانيا فليس من سداد الرأي الاعتماد على مصدر واحد. بل من الحكمة تدبير مصدر آخر هو هذا الذي يكفله خط الأنابيب الجديد فيستطاع بهِ نقل الزيت المجلوب من منابع شركة الانجلو برشان في بلاد ايران فان الزيت يسيل منها الى جزيرة عبادان بأنابيب فيتصفى هناك ويرسل الى الآفاق

وقد عرض على الحكومة من بضع سنوات مشروع لشراء النصيب الأوفر من أسهم شركة بترول في العراق يؤتى بزيت منابعها لمصر فلم يلق المشروع قبولاً من حكومتنا في ذلك الحين. وقد سمعنا بعض العارفين يأسف الآن على ما مضى ويتمنى لو تيسر اعادة عرض المشروع عليها

بقي أن جهود شركة الأنجلو اجبشن فيلدس في منطقة الغردقة وما يليها على ساحل البحر الأحمر أسفرت عن نجاح فزاد مقدار ما تستخرج من الزيت الطبيعي الى ثلاثة أضعاف ما كان وصار المقدار الأسبوعي يجاوز ١٢ الف متر مكعب وهذا يربي على ستمائة الف طن في السنة ولكن مصر تحتاج الى أكثر من هذا المقدار للأعمال العسكرية والشؤون المدنية. أفلا تستطيع الحكومة أن توسع اتفاقها على توسيع نطاق البحث والتنقيب بعد ما عدلت شروط الرخص تعديلا ينشط الشركة على مواصلة العمل والمجازفة بما يلزم لجس الأرض من جهد فني ومال

الحالة الصحية في القرى

روت الصحف ان الدكتور حسن محمد عثمان مدير قسم الملاريا بوزارة الصحة وضع مشروعاً للمراحيض في القرى يوفر نحو مليوني جنيه في السنة وان الوزارة أرصدت مبلغاً لتجربة هذا المشروع الخ

ويتلخص هذا المشروع في التخلص من المواد البرازية في القرى بطريقة صحية وكفيلة بسلامة موارد ماء الشرب من التلوث وللقضاء على جميع الامراض التي تنتقل فيها العدوى من هذه المواد كالكوليرا والتيفوئيد والدسنطاريا والبلهارسيا والانكلستوما

***

وجاء في المشروع انهُ يوجد بالقطر المصري أربعة آلاف قرية يسكنها ما لا يقل عن اثنى عشر مليوناً من الريفيين تنتشر بينهم طفيليات معوية

ويرى الدكتور حسن عثمان ان انشاء مجار عمومية في القرى في الوقت الحاضر غير مستطاع فضلا عن انهُ يكلف الدولة نحو مائة مليون جنيه ولذلك وضع نموذجاً لمرحاض قروي يمكن بواسطته تحويل المواد البرازية الى سماد من غير ان يتكلف القروي نفقات ما ، بل بالعكس فان قيمة السماد الذي ينتج من هذه المواد يبلغ في السنة نحو مليوني جنيه

ولما كان هذا المشروع من المشروعات التي تهم السواد الأعظم من أهالي القرى فسنأتي على تفاصيله في عدد تالٍ لضيق المقام اليوم

مادة كيمياوية كالتور الجنسي

في كثير من النباتات والحيوانات مادة كيمياوية تدعى ترايمثيلامين Trimethylumine وقد أثبت البحث العلمي على يدي الاستاذ لاسكو هافاس بجامعة روكسل حديثاً ان لهذه المادة فعلاً فسيولوجياً شبيهاً بفعل التور الجنسي (الشقي sex—hormone) هذه المادة شديدة الفعل حتى ولو حلت في ٢٥ الف ضعفها الى ٦٠ الف ضعفها من الماء

فاذا حقن نصف أوقية من هذا المحلول في جذوع نبات الطماطم زاد عدد زهراته ٢٢ في المائة واذا وضعت الضفادع في محلولها ، طرحت جلدها استعداداً للمزاوجة مع انقضاء ثلاثة اشهر على فصل المزاوجة

وقد عولجت حيوانات اخرى من القوازب (امفيبية) غير الضفادع ، فكان تأثير هذه المادة فيها واحداً من حيث ايقاظ الغرائز الجنسية الهاجعة فيها

ولكن المادة سامة ، ولذلك اضطر الباحثون لوقف التجربة بعد ايام لكي لا تصاب الحيوانات بضرر

التقمص في قالب جديد

أساس مسرحية « كنت هنا قبلاً » في الاوبرا الملكية

بريستلي من أدباء الأنكليز المعاصرين جمع بين التفوق في كتابة « القصة » والتفوق في كتابة « المسرحية » وليس الجمع بينهما بالشيء العادي المألوف في أديب واحد فنفحنا في ميدان القصة بكتابيه المشهورين « جود كومبانينز » و « انجل پفمنت » . أما مسرحياته فقد أحرزت رواجاً عظيماً ولكنهُ لم يكتف بالأسلوب الرائج بعد اتقانه فكان يعمد الحين بعد الحين الى وضع مسرحيات يطويها على أفكار أو آراء فلسفية اجتماعية غير مألوفة ومسرحية « كنت هنا قبلاً » من هذا القبيل . وهي تدور على « معرفة المستقبل » وهل في النفس الأنسانية ما يمكنها من معرفته والتحكم به وهي فكرة قريبة من فكرة أخرى له في مسرحية سابقة اذ شبه الأنسان بملاح زورق في نهر وصل الى منعطف فيه فاستطاع من مكانه أن يرى ما اجتازه من النهر من ناحية . وما لا يزال أمامه . فكأنهُ يرى الماضي والمستقبل في آن

الاَّ ان الفكرة الفلسفية ليست بحثاً مملاً في حوار يضني سامعهُ بل هي شائعة في مسرحية محبوكة الحوادث فيتبين المشاهد ما يريده المؤلف من تتبع حوادث المسرحية وأحوال أشخاصها ومن بعض الأقوال الفلسفية التي تتخلل الحوار

وبريستلي في مسرحيته هذه واقع تحت تأثير القائلين بأن الكون يسير في دوائر معادة متشابهة وأن ما يقع من التغير فيها يرجع الى « تدخل » مشيئة الأنسان . فالذين ينعمون بالمعرفة والمشيئة يستطيعون ان يجعلوا من هذه الدوائر لولباً مرتفعاً الى فوق والذين تعوزهم هذه النعمة تتحول الدوائر فيهم الى لولب متجه الى الدرك الاسفل فالبوار

والمسرحية تدور حوادثها في حانة قديمة في الريف الانكليزي ويسيطر على اشخاصها من رجال ونساء شخص رجل غريب الاطوار يدعى الدكتور جورتلر وقد مثله المستر لويس كاسون ابدع تمثيل وهو الذي مثله عندما اخرجت الرواية في لندن اولاً

ففي الحانة صاحبها واسرته ينتظرون زواراً . واذ هم منتظرون يدخل عليهم الدكتور جورتلر ويسألهم هل الزوار الذي ينتظرونهم شاب وزوج وزوجته فيجيبون بالنفي . ولكن ما يقع فعلا هو ان الزوار المنتظرين يعتذرون عن المجيء ويجيء غيرهم وفقاً لوصف الدكتور مع انهُ لم يكن على علم مادي بذلك قبلا . ومن ثم تبتدىء حوادث الرواية في التتابع . وجورتلر يبث في جوها معنى خفيًّا . فهو يقول ما يدل على انهُ عارف بما سيحدث لهؤلاء الناس . وذلك على قوله وفقاً لحلم رأى فيهِ ما يتوقع حدوثه او لان المتوقع يشبه حادثاً حدث قبلا فتذكره اي ان حوادث المستقبل شبيهة — بحسب رأي الدورة في الكون — بما حدث في الماضي

واذن فمعرفة المستقبل من قبيل التذكر. وعندما ترتسم في افق حياة هؤلاء الناس صورة المأساة وفقاً لما يتوقعهُ جورتلر — او لما يتذكرهُ — يبين لهم رأيه في امكان «التدخل» ومنع ما ينتظر حدوثه ثم يتخذ من هذه الخطوة تكأة الى السمو بالحياة الى افق اعلى

فمسرحية « كنت هنا قبلاً » تعد غريبة في الفكرة التي قامت عليها واطوار أشخاصها ولا سيما الدكتور جورتلر ، ولكنها تفتح أمام العقل ابواباً كثيرة التأمل

المكتشفات الاثرية

تؤيد الأقوال الكتابية في الاسفار المقدسة

أثبت علماء الآثار ان جنسي الذكور والاناث في مصر الفرعونية كانا يتحليان بالحلى على السواء . وان تلك الحلى كانت تغدق عليهما من لدن الملك، رمزاً لرضائه عنهما . وأمامنا في المؤلف الانكليزي النفيس الحديث المسمى « تاريخ التوراة » الذي تنقل عنهُ هذه الانباء صورة ضوئية منقولة عن رسم زيتي أثري في حيطان مدافن تل العمارنة ، تذكاراً لانعام اخناتون (الملك الذي حكم مصر في سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد) على احد كبار موظفي بلاطه وعقيلته بسلسلتين من الذهب

وجاء في الكتاب المقدس من عدد ٤١ ـ ٤٤ بالاصحاح ٤١ من سفر التكوين ما يأتي :

ثم قال فرعون ليوسف « انظر قد جعلتك على كل ارض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعلهُ في يد يوسف وألبسه ثياباً من كتان . (وقد سمي في الكتاب المقدس بلبوص) ووضع طوق ذهب في عنقه . وأركبهُ في مركبته الثانية ونادوا أمامهُ ، اركعوا . وجعله على كل ارض مصر . وقال فرعون ليوسف : انا فرعون فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله في كل ارض مصر

وقد عثر علماء الآثار ايضاً على صورة زيتية مرسومة على حيطان احد مدافن بني حسن ، من عهد الاسرة الثانية عشرة الفرعونية تمثل البدو الساميين ، قادمين مصر يحملون المرّ والبهارات والعسل واللوز والكُندُر « اللبان الذكر » وهدايا من حيوانات القنص، الى حاكم الصحراء الشرقية في عهد سنوسريت الثاني Senusret II في سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد

وقال الكتاب المقدس في هذا الصدد

فقال لهم اسرائيل أبوهم خذوا من افخر جَنَى الارض في أوعيتكم وانزلوا للرجل « يقصد يوسف ابنه » هدية قليلاً ، من البلسان [1] وقليلاً من العسل وكثيراء ولاذناً وفستقاً ولوزاً . وخذوا فضة اخرى في أياديكم . والفضة المردودة في أفواه عدالكم ، ردوها في اياديكم لعله كان سهواً . وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا الى الرجل . والله القدير يعطيكم رحمة امام الرجل حتى يطلق لكم اخاكم الآخر وبنيامين . تكوين اصحاح ٤٣ اعداد (١١ ـ ١٤) والمقصود بالبلسان كما حققهُ العلماء المصريون «المصطكى»

أمل جديد

المصابين بالبول السكري — عصارة الكرنب الاخضر بدل الانسولين

قالت مجلة العلم العام الاميركية ما يأتي: —

قد يحل عصير الكرنب الأخضر الحقير، محل الانسولين الخطير في علاج مرضى البول السكري. وذلك بناء على تقرير نشره عالمان انكليزيان، رأيا فيه ان خلاصة الكرنب معوان للجسم على هضم السكر الذي يدخله. وهو العمل الذي يعمله الانسولين عند ولوجه البدن حقناً تحت جلد المريض

وجاء في كتاب الصناعات والصناع المطبوع في القاهرة سنة ١٩٢٧ في باب الغدد ما يأتي:

ويقرب المعدة أيضاً غدة كبيرة تسمى البنكرياس. وهذه تولد عصارة تسمى العصارة البنكرياسية وهي تفرغ في المعى بواسطة قناة. أما الغدد ذات القنوات فبعضها يفرز مفرزات داخلية، عدا ما يسيل من قنواتها. ومنها غدة البنكرياس التي لعصارتها تأثير عظيم في تغذية الجسد من مقدار السكر الطبيعي الموجود فيه. بحيث اذا اعتراها اي خلل فلم تستطع القيام بهذه الوظيفة، أصيب الانسان بمرض البول السكري

وروت مجلة طبيب العائلة الانكليزية في هذا الموضوع ما يأتي: —

اكتشف الأنسولين، وهو الخلاصة البنكرياسية التي تصون حياة المرضى، بداء البول السكري، سنة ١٩٢٢، بيد ان من مساوئه المشهورة، وجوب حقن الجسم به تحت الجلد مباشرة ليمتصه الدم رأساً دون تغيره بدخوله في الجهاز الهضمي. ومن غريب أمر أولئك المصابين أن أغلبهم لا ينزعجون من تواتر غرز إبر محاقن الأنسولين في جلودهم على الدوام. اذ هم يفضلون ذلك على الأحوال السيئة التي كانوا يكابدونها قبل تناولهم اياه

***

ولم يفتُر العلماء في جميع انحاء العالم في استكشاف، مادة طبيعية ايًا كانت، لتقوم مقام الأنسولين بحيث يستطيع المريض، جرعها فتغنيه عن عذاب محاقن الانسولين، على أن ينتفع بها انتفاعه بالانسولين، وقد توغل الباحثون في نواح كثيرة، باحثين في جميع ضروب المواد، ومنها خلاصة جذور البصل ونخالة الزمير والخميرة والتين الشوكي !! حتى هداهم بحثهم حديثاً الى الكرنب الاخضر اذ نجح عالمان في تشيكوسلوفكيا في استخراج خلاصة قوية جدًّا منهُ تشبه الانسولين. غير ان الوسائل الحالية التي توسَّلا بها الى استخلاصها تقتضي استهلاك عدة أرطال من الكرنب يوميًّا، صوناً لحياة مصاب واحد بالبول السكري. وربما يفضي هذا الى اخفاق هذه الطريقة، ولكنا واثقون كل الثقة بأنهُ ستعلن عما قريب، مكتشفات أخرى عوناً للمصابين بذلك الداء الوبيل. اما الانسولين فليس له نظير حتى الآن

عوض جندي



THE TURBINE

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الرابع والتسعين


المقتطف





الجزء الخامس من المجلد الرابع والتسعين

١ مايو سنة ١٩٣٩ — ١١ ربيع اول سنة ١٣٥٨

العقار العجيب

قصة كشف طبي عظيم الشأن

«السلفانيلاميد» ملك العقاقير ، وتأثيره في شفاء الامراض

صبية مستلقية على سرير بمستشفى وهي تلهثُ بغية نفحة من الهواء . لقد بلغت حرارتها اربعين درجة ونصف درجة مئوية وتدل الحركة المتقطعة في مقلتيها على ان العضلات المسيطرة عليها قد اصيبت ببعض الشلل ففقدت سيطرتها . الصبية مصابة بالحمى الشوكية ، وهي مرض قاتل اذا بلغ هذه المرتبة . لقد فحص السائل الذي ينساب في قناتها الشوكية فاذا هو كثيف عكر بدلاً من ان يكون صافياً لا لون له . وهذا دليلٌ على ان ملايين من جراثيم «الستربتوكوكس» ترتع فيه . ولكن الصبية لم تمت . ذلك بأن الاطباء حقنوها بمقادير يسيرة من عقار جديد واخذوا يراقبون تأثير ما فعلوا ، فما انقضى اسبوعان حتى كانت الصبية قد برئت مما اصابها

وقد كان هذا العقار مسحوقاً ابيض أطلق عليه مجلس الصيدلة والكيمياء باميركا اسم «سلفانيلاميد Sulfaniiamide» وقد روى الدكتور ملون [1] في كتابه الخاص بهذا الموضوع ان اول مريض في اميركا عولج بهذا العقار كان مصاباً بالتهاب البريطون الستربتوكوكي على اثر عملية الزائدة الدودية فشفي

---

(١) Ralph R. Meilon مدير معهد الباثولوجيا في مستشفى وسترن بنسلفانيا بمدينة بتسبرج الاميركية . وهذا المقال كتبه كاتب علمي اميركي بناء على كتاب الدكتور ملون وما استخلصه منه من الحقائق الجديدة التي حققت بعد ظهور الكتاب . ونصلنا ملخص منه كما نشر في مجلة هاربرز

كان الباحثون الطبيون يذهبون الى ان البكتريا لا تتأثر بعلاج الامراض المختلفة بمواد كيميائية خاصة . ولكنَّ الاطباء الآن غدوا يملكون مادة كيميائية مركبة Synthetic تحدث تحسناً لاريب فيه في المصابين بالامراض العفنة. ومما يبعث على العجب ان تأثير هذه المادة لايقتصر على مرض واحد . بل انها والمواد التي من قبيلها تؤثر تأثيراً عجيباً في شفاء طائفة من الامراض المكروبية . وقد بلغ من العجب والاعجاب بتأثيرها ان اقبل عليها الباحثون في كل قطر حتى غدا الاطباء وهم عاجزون عن تتبع التقدم في بحثها وغدا على من يريد التوفر على دراستها ان يطلع على ٣٠٥ رسائل علمية في نواحٍ مختلفة عن طبيعتها وفعلها . والحبل على الجرّار

١ — نواحي فعله العجيب

﴿ حمى النفاس ﴾ خذ مثلاً الامومة. يقدرعدد المواليدالسنوي في الولايات المتحدة الاميركية بنحو مليونين ، يولد نصفهم في بيوت الفقراء من الناس بحيث يتعذَّر على ارباب العائلات الفوز بالعناية الطبية الوافية بزوجاتهم ، فيموت في الولايات المتحدة كل سنة ١٤ الف سيدة عند الوضع. ومن اسباب الوفيات حمَّى النفاس وهي تنشأ عن غزو ضرب معين من المكروبات للجروح الداخلية في المرأة التي تحدثها الولادة . وقد جرَّب السلفانيلاميد اولاً في علاج هذه الحمَّى من سنتين في انكلترا حيث كان معدل وفيات المصابات بحمى النفاس يبلغ ٢٢٫٨ في المائة. فعالج الدكتور كولبروك Colebrook مائتي نساء مصابات بهذه الحمَّى فخفض معدَّل الوفيات بها الى ٥ في المائة . ثم ثبت ان النفساء المصابة التي عولجت بهذه المادة استطاعت ان تسبق زميلاتها في العودة الى دارها لان العلاج بها عجل في شفائها . ثمَّ دلت التجارب التي اجريت في احد مستشفيات الولادة بباريس ان استعمال السلفانيلاميد يمنع حمى النفاس. وقد عولجت به الف سيدة عند دخولهنَّ المستشفى للولادة او بعيد الوضع ، فحدثت بعض الاصابات بحمى النفاس ولكن لم تحدث وفاة واحدة ، وهو ما لم يقع قبلا في تاريخ ذلك المستشفى . ويقال ان استعمال هذا العقَّار ينقذ نحو الفي والدة كل سنة في الولايات المتحدة الاميركية

﴿ الحُمرة ﴾ وتأثير السلفانيلاميد في امراض اخرى ليس اقلَّ من تأثيره في حمَّى النفاس. فالحمرة تقتل عُشر الذين يصابون بها . وهي على اشدّ ما تكون فتكاً في الصغار والمتقدمين في السن . فمعدل وفيات الاطفال المصابين بها ٧٥ في المائة او اكثر . ولكن البيانات الطبية المحققة عن الف اصابة بالحمرة عولجت بالسلفانيلاميد تدلُّ على ان معدَّل الوفيات فيها أقل من واحد في المائة . ومن الأمراض التي شفيت بهذا العلاج السيلان — بلغ معدَّل الشفاء من ٧٥ الى ٩٠ في المائة من الاصابات التي عولجت ومعظمها في فترة تتفاوت من ثلاثة أيام الى خمسة — وكذلك الحمَّى القرمزية والحمى الشوكية الوبائية والتهاب اللوزتين الحاد والتهاب الحلق السمّي ، وقد تسفر

المباحث الطبية عن عتوّ أمراض أخرى لهذا العقار العجيب فتنقذ حياة ملايين من الناس

﴿ النومونيا «التهاب رئوي» ﴾ كان أول استعمال لهذا العقار في علاج النومونيا بمعهد الابحاث التابع لمستشفى وسترن بنسلفانيا بمدينة بتسبرج الاميركية. وقد اختار الباحثون من ضروب النومونيا الاثنين والثلاثين أشدها فتكاً وهو المعروف برقم ٣. فلما وجدوا ان تناول الجرذان لهذا العقار عن طريق الفم يسفر عن نتائج طيبة أعطوه لخمسة وعشرين مصاباً به ، وفي الوقت نفسه تركوا ٥٤ مصاباً لا ينالون من الاطباء والممرضات الا العلاج المأثور حتى ذلك الوقت في معالجة النومونيا ٣ . فشفي عشرون من المعالجون بالسلفانيلاميد ومات اكثر من أربعين من الفريق الثاني. اي ان نسبة الشفاء في الفريق الاول كان اربعة الى خمسة ونسبة الوفاة في الفريق الثاني كانت اربعة الى خمسة . اما الآن فالسلفانيلاميد يستعمل استعمالا ناجحاً في علاج جميع ضروب النومونيا

ولكن هذه النتائج سبقها تجارب بالحيوانات . والفئران هي الحيوانات التي يغلب استعمالها في مثل هذه التجارب. الا ان الباحثين اختاروا الجرذان : وذلك لانهم وجدوا ان الجرذان تصاب بضرب من النومونيا شبيه بالنومونيا التي يصاب بها الانسان . ولما كان من المتعذر احداث النومونيا البشرية في الفئران فقد كان هذا الكشف خطوة جديدة في دراسة مادة السلفانيلاميد وتأثيرها في مرض النومونيا قبل تجربتها بالانسان . ومما هو جدير بالذكر ان الباحثين السابقين كانوا قد أهملوا بحث تأثير السلفانيلاميد في النومونيا عند ما اسفرت تجاربهم في الفئران عن نتائج سلبية

﴿ الحمّى الشوكية ﴾ فلنلتفت الآن الى نتائج تطبيق هذا العلاج بواسطة الاطباء الممارسين. فمن المعروف ان الحمّى الشوكية التي يسببها مكروب النومونيا تفتك بالذين يصابون بها ، واذن فعلاج هؤلاء المصابين محكّ لوفاء هذا العقار بالعلاج

فالسجلات الطبية تروي ان ٧٥ اصابة بالحمى الشوكية شفيت منذ سنة ١٨٨٨ الى الآن باساليب مختلفة من العلاج . ولكن المجلات الطبية تبين ان اربعين اصابة بهذا المرض الفتاك شفيت في السنة الماضية بفعل السلفانيلاميد . ولا يمكن ان يسند هذا الى الصدفة . وذلك لأن هذه النتيجة تتفق ونتائج التجارب التي اجريت في بتسبرج على الجرذان ، فقد وجد الباحثون في مستشفى وسترن بنسلفانيا انهُ في الوسع احداث الحمّى الشوكية في الجرذان بجراثيم النوموكوك ، فاذا تركت الاصابات بغير علاج فتكت بجميع المصابين بلا استثناء (مائة في مائة) . ولكن اذا اعطيت الجرذان المصابة مادة السلفانيلاميد عن طريق الفم شفي منها من ٦٠ الى ٧٥ في المائة. واذا قرن اعطاء السلفانيلاميد باستعمال مصل جديد صنع في معهد ركفلر بلغت نسبة الشفاء ٩٠ في المائة . ولا يزال هذا الموضوع في حاجة الى المزيد من البحث والتحقيق حتى تعرف التفاصيل وتقرّر النسبة الدقيقة بين الاصابات التي تشفى والتي لا تشفى ، ولكن المباحث الدقيقة

التي اجريت حتى الآن ، تقرّر القواعد العامة التي تقدم ذكرها

﴿ المقاومة الطبيعية ﴾ الا اننا لا نستطيع ان ننتقل من هذا البحث الى ما يليهِ بغير ان نشير الى ما اسفر عنهُ البحث في ما للسلفانيلاميد من تأثير في النومونيا من توضيحهِ لمعنى « المقاومة الطبيعية » في الجسم . فنحن نعلم انهُ اذا اجتاح وباء جارف منطقة ما اصاب كثيرين من قطانها ، ولكن فريقاً من الناس يبقون غير متأثرين بهِ يروحون ويجيئون ويقومون باعمالهم وقد ينامون في دار مجاورة لدار مصاب او في حجرة واحدة مع مصاب آخر ولا يصابون . وكان ذلك يستوقف النظر فنسأل ما السبب وكيف السبيل الى التفسير القويم فلا نفوز بأكثر من كلمتي « المقاومة الطبيعية » . ولكن ما هي المقاومة الطبيعية ؟ وما اركانها ؟ وكيف تتقوّم ؟ ان مباحث بتسبرج حوّلت هذه العبارة الغامضة الى كاشف يبين لك هل جسمك يتمتع بهذه (المقاومة الطبيعية) أو لا

فقد وجد الباحثون أنهم اذا غطسوا الأرانب في ماءٍ بارد ثم راقبوا الفترة التي تستغرقها قبل ان تدفأ صحّ ان تتخذ هذه الفترة مقياساً لمقاومة الأرانب الطبيعية لاصابات النومونيا . فاذا كانت الفترة طويلة فمقاومتها لمكروبات النوموكوك التي تحقن بها تكون ضعيفة . واذا كانت الفترة قصيرة كانت المقاومة قوية . بل أنهم وجدوا ان تسعة أرانب من عشرة تقاوم طائفة كبيرة من ميكروبات النوموكوك اذا كانت الفترة المنقضية بين تغطيسها ودفئها الطبيعي قصيرة . والعلاقة بين هذه التجارب والعلاج بمادة السلفانيلاميد ، ان السلفانيلاميد لا ينقذ من الذين مقاومتهم الطبيعية ضعيفة الا ٢٥ في المائة . فاذا قويت مقاومتهم باضافة فيتامين C و B ١ الى غذائهم زادت نسبة الشفاء الى ٧٥ في المائة . ثم ان الباحثين في مدرسة هارفرد الطبية ومستشفى بوسطن وجدوا ان القلب الضعيف في مدمني الكحول سببهُ الى حدٍّ بعيد ، نقص فيتامين B ١ من غذائهم . ولما كانت الاصابة بالنومونيا ترهق القلب فهم يشيرون بوصف هذا الفيتامين في مثل هذه الأحوال لارتفاع معدل الوفيات بينهم . ومما يؤيد هذه الطريقة ان اضافة فيتامين B ١ الى غذاء الأرانب التي ضعفت مقاومتها الطبيعية لمكروب النوموكوك ، يقوي هذه المقاومة فيها

وعلى ذلك يمكن ان يقال ان السلفانيلاميد أنجع ما يكون في اصابات النومونيا اذا كانت مقاومة المصابين الطبيعية عالية . والمتداول الآن ان يفحص المصاب ليعرف بأي ضرب من ضروب النوموكوك اصابتهُ ، ثم يعطى المصل الموافق لنوع اصابتهِ . ولكن الفحص واستعمال المصل الموافق عمل مرهق من ناحية النفقة ولأن المعامل التي يعتمد عليها في فحص البصاق لمعرفة ضرب النوموكوك ، غير متوافرة في الأرياف . فجاء السلفانيلاميد ، وهو عقار غير مسجل يفيد في مقاومة ضروب النوموكوك جميعاً ، ونفقتهُ قليلة

ولا يخفى ان المواد الكيميائية تتحوّل في ايدي الباحثين والمجرّبين البارعين بعد اضافة او

حذف الى مواد اخرى تتصل بها بصلة القربى من حيث التركيب وقد تفوقها من حيث التأثير. وقد صنع الباحثون في انكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، مادتين جديدتين من السلفانيلاميد بعد تعديل تركيبه ، فاذا لها على ما يروى — ولاسيما المادة التي صنعت في انكلترا واسمها M & B-693 — تأثير فعّال في مكافحة النومونيا. ولكن المدة القصيرة التي انقضت منذ تفتحت الاعين على فوائد السلفانيلاميد ومشتقاته لم تتح حتى الآن فرصة وافية للبحث المدقق الواسع النطاق الذي يلزم في مثل هذه الحالات لمعرفة فائدة هذه المادة معرفة محققة

واذا صحّ ان هناك مشتقات من السلفانيلاميد تصلح على وجهٍ خاص لمعالجة ضرب معيّن من ضروب النومونيا ، فيجب ان نذكر ان السلفانيلاميد يصلح لمعالجة ضروب النومونيا الاثنين والثلاثين ، ولا تقتصر فائدته على الضرب الثالث كما قيل اولاً

« الامراض الفيروسية » اصاب السلفانيلاميد اعظم نجاح في الامراض التي ترتدّ اسبابها الى الاحياء الدقيقة المعروفة باسم بكتريا . ولكنّ هناك امراضاً ترتدّ الى مايعرف باسم « الفيروس » كمرض النوم وشلل الاطفال والحمى الصفراء والزكام وغيرها . و« الفيروس » مادة راشحة ولذلك تتعذّر دراستها بالوسائل المتبعة في دراسة البكتريا . ومع ذلك فقد ثبت ان السلفانيلاميد قد حمل العلماء على التفكير في فائدة العلاج الكيميائي Chermotherapy في هذه الطائفة من الامراض . والتجارب تجرّب الآن لمعرفة تأثير السلفانيلاميد او غيره مما يشبهه في الامراض « الفيروسية »

ففي المعهد الصحي القومي بوشنطن وجد الباحثون ان مركباً يحتوي على هذا العقار عاجز عن الفتك بالبكتريا في انبوب الاختبار ، ولكنهُ كان فعالاً في قمع مرض فيروسي يصيب الفئران ويدعى Chorio-meniugitis . ولكن هذا المرض ليس بذي شأن خاص حتى بين امراض الفئران ، وفائدة السلفانيلاميد في علاجه لا تقتضي حتماً القول بانهُ مفيد في علاج الامراض الفيروسية التي تصيب الانسان

ولكن هذه التجربة حملت غير واحد على البحث والاستكشاف وقد ظهر في خلال السنة الماضية ما يشير الى ان التجريب بالسلفانيلاميد يساعد الباحثين ويرشدهم الى طريق قد يفضي بهم الى كشف مركب كيميائي لقهر الفيروسات والامراض التي تسببها . ففي جامعة كولومبيا مثلاً استعمل الباحثون مركباً جديداً مشتقاً من السلفانيلاميد او مبنياً عليه يدعى (صوديوم — سلفانيليل — سلفانيلات) فكان لهُ تأثير شافٍ عجيب في داء distemper في بنات عرس والارانب والهررة وفيروسات الـ distemper في الحيوانات قريبة الصلة بالفيروسات التي تسبب الانفلونزا والزكام في الانسان. وفي الوقت الذي نجد فيه علماء كولومبيا يعدون التجارب للاستفادة من هذه الحقائق نجد غيرهم في بلدان اخرى يجرّبون تأثير مشتقات السلفانيلاميد في مكافحة اصابة الانفلونزا

البشرية في القيران . ومن عهد قريب اذاع فريق من الباحثين نتائج تجارب تمكنوا فيها من احداث مناعة جزئية في القيران ضد الانفلونزا البشرية باستعمال احد مشتقات السلفانيلاميد .
وروى جرّاح في الجيش انهُ عالج بالسلفانيلاميد مرضاً فيروسيّاً يدعى granuloma inguinale يصيب الجنود فيحدث تورماً في الغدد اللمفاوية في الحقوين وكان عدد الذين عالجهم خمسة عشر فتحسنت حالة ثلاثة عشر منهم

واذا نظرنا الى هذه الناحية نظرة اجمالية ، صحَّ لنا ان نقول ان ما ثبت حتى الآن يشجع على المضي في بحث السلفانيلاميد وما لهُ ولمشتقاتهِ من اثر في مكافحة الامراض الفيروسية

٢ — كيف كشف وكيف يفعل

يدعي مكتشف السلفانيلاميد جلمو Gelmo وهو ليس بالعالم المشهور او الطبيب المظم ولكنهُ كان عند كشفهِ هذا العقّار كيميائيّاً صناعيّاً في شركة الاصباغ الألمانية الكبيرة المعروفة باسم (فاربن اندستري)

كان جلمو من نحو ثلاثين سنة معنيّاً شأن غيره من الكيميائيين في معامل تلك الشركة الكبيرة بتركيب مواد كيمائية جديدة وكان أحدها أحد مشتقات قطران الفحم الحجري واسمهُ العلمي « بارا — أمينو بنزين — سلفوناميد » وهذا الاسم الضخم اختصر بعد ذلك رحمة بالناس فأصبح « سلفانيلاميد »

ركبت هذه المادة حينئذٍ ولكن أحداً لم يعلم ما لها من تأثير طبيّ لان مادة أخرى كانت موضع عناية الباحثين في ذلك العهد وهي مادة السلفرسان التي كشفها ارلخ لمعالجة الزهري .
وفي سنة ١٩٢٠ أخذ بعض أطباء معهد ركفلر بنيويورك مقداراً من هذه المادة وأضافوا اليها مركبات الكينا التي كان البحث قد أثبت ان لها قدرة على الفتك بمكروبات النومونيا . وكان أملهم معلقاً على زيادة قدرة المركبات الكينية على الفتك بهذه الجراثيم باضافة السلفانيلاميد اليها .
ولكن ارتباط السلفانيلاميد بجزيئات المركبات الكينية حال دون تأثيره التأثير الطبي الذي يعزى اليهِ الآن ، فظلت فائدتهُ الطبية مجهولة

وفي سنة ١٩٣٢ ربط بعض الكيميائيين الألمان السلفانيلاميد بمركب ينطوي على النفثالين — وهو مركّب يشبه المركّب المستعمل في مطاردة العث — ففاز بصبغ أحمر دعي « بروتوزيل »
وقضى أطباء منطقة الرين ثلاث سنوات يجربونهُ في عياداتهم . وتسرّبت روايات الى المجلات الطبية عن فائدة هذا الصبغ الاحمر في معالجة اصابات تسمم الدم وغيرها . وعقب ذلك ظهور رسائل طبية متتالية بسرعة أخذت العالم الطبي دهشة واعجاباً

يُستخلص من هذه الرسائل الاولى أنك اذا أضفت البروتوزيل الى أنبوب يحتوي على

المكروبات الستربتوكوكية ظلّت هذه الاحياء الدقيقة حية كأن شيئاً لم يحدث. ومع ذلك فاضافة هذا الصبغ نفسهِ الى جسم فأرة يعج دمها بالمكروبات نفسها كانت تفضي الى الفتك بالمكروبات. وظلَّ الأمر غامضاً حتى جلاهُ علماء معهد باستور بباريس اذ وجدوا ان الجسم الحي يفصم الصلة بين السلفانيلاميد والمركب الآخر المحتوي على التفالين فينطلق السلفانيلاميد يفعل فعله في المكروبات

وما عرفت هذه الحقيقة حتى أدركت قيمة السلفانيلاميد كعقّار طبي نادر عجيب ومع ذلك فليس هناك ما يدل على ان السلفانيلاميد هو خير مركب من نوعهِ. فكما ان «البرونتوزيل» فعّال لأن السلفانيلاميد داخل في تركيبه وينفصل عنهُ بفعل الجسم الحي فيفعل فعلهِ، كذلك السلفانيلاميد قد يكون فعله ناجماً عن تعديل يحدثهُ الجسم الحي فيهِ. ولعلَّ تعديلاً في ترتيب الذرات في جزيء السلفانيلاميد يفضي الى مادة من نوعهِ ولكنها اشد فعلاً منهُ. ولا ريب في ان التقدم في هذه الناحية متصلٌ اتصالاً وثيقاً بمعرفة الطريقة التي يؤثر بها هذا العقار في الجسم الحي. والتجارب التي جرّبت حتى الآن لم تكشف عن الجواب الوافي

فنحن نعلم ان الوف الملايين من الخلايا تجتمع في تركيب الجسم الانساني، وان الخلايا الجديدة تولد لتحلَّ محلَّ الخلايا المندثرة. ولكن هذه الخلايا تخرج احياناً — كما في السرطان — عن طوقها الطبيعي في النمو فتكاثر تكاثراً لا ضابطَ لهُ فيتولد ورمٌ سرطاني. ولكن الجسم السليم مجموعة من الخلايا خاضعة لضوابط معينة. فاذا غزاهُ حيوين غريب كالبكتريا قامت بين خلايا الجسم وهذه الاجسام الغريبة حربٌ، تعلّق حياة الجسم بمصيرها

والراديوم يصلح في مكافحة السرطان لأنهُ يفتك بالخلايا الشاذة النموّ دون الخلايا السوية. وكذلك كلُّ عقّار تام الاوصاف يجب ان يكون قادراً على الفتك بالمكروبات دون خلايا الجسم. هذا المبدأ يرجع الى مباحث ارلخ الشهير. ولا يخفى ان هناك عقاقير كثيرة تفتك بالمكروبات في انبوب التجارب على اتم وجه ولكن استعمالها متعذر في الجسم لانها تفتك بخلاياه السليمة كذلك. ولكن نواحي اخرى من رأي ارلخ اخذت تتهاوى بين يدي البحث الحديث. فقد كان يرى العقّار التام مادة تسير تواً الى الاجسام المسببة للمرض فتفتك بها بغير ان تضرَّ بالجسم. وكان شأن الجسم في هذا الكفاح — بحسب رأيهِ — شأن المُشاهِد لا اكثر ولا اقل. فالمعركة دائرة بين العقّار والمكروب. وكان يظن كذلك ان لكل نوع من المكروبات عقّاراً خاصاً يفتك به

ومع ان الأطباء الباحثين لا يعرفون الآن كيف يفعل السلفانيلاميد فعلهُ الاَّ انهم يعرفون ان فعلهُ لا يتسق كلَّ الاتساق مع قواعد الرأي الذي وضعهُ ارلخ منشيء طريقة العلاج بالمواد الكيميائية. فالسلفانيلاميد يفتك بغير نوع واحد من البكتريا وهناك ما يدلُّ على انهُ لا يستطيع ذلك بمعزل عن مساعدة الجسم لهُ في المعركة التي تنشب بينهُ وبين الجراثيم. فقد دلت

التجارب على ان السلفانيلاميد عاجز عن التأثير في الميكروبات الستربتوكوكية في انبوب التجارب (وهذا يصدق على تعجز السلفرسان عن التأثير في مكروبات الزهري في انبوب التجارب). وكل ما هنالك انهُ يبطىء تكاثر الميكروبات ولا يقتلها مباشرةً الاَّ في احوال خاصة

وقد جربت تجارب كثيرة في معهد باستور بباريس وجامعة جونس هبكنز في اميركا، أفضت الى حقيقة غريبة لا يسعنا قبولها الاَّ بعد ان تأيَّد نتائج هذه التجارب بنتائج تجارب أخرى من قبيلها في معاهد أخرى . فقد وجد الباحثون ان الفئران المصابة بالتهاب البريطون — وهو التهاب الغشاء الذي يحيط بالامعاء — لم تفد شيئاً من هذا العقَّار اذا حقنت بهِ في موطن الاصابة . ولكنها تجني فائدة كبيرة منهُ اذا اخذ من طريق الفم . فاذا صحَّ هذا ففهمهُ غير مستطاع الاَّ بأحد تفسيرين: — إما ان تكون سوائل الجسم مما تزيد العقَّار قوة وإما ان يكون العقَّار مما يؤثر في تعزيز قوات الدفاع في الجسم ضد البكتريا . وسواء أهذا التفسير صح أم ذاك فالظاهر ان العقَّار وحده عاجز عن الفتك بالمكروبات في الجسم ، وهذا مناقض لاحدى القواعد التي قام عليها رأي أرلخ . ولكن تأثير رأي ارلخ لا يزال حيًّا ولذلك يذهب بعضهم الى القول بان للعقَّار تأثيراً مباشراً في المكروبات او مفرزاتها السامة وان الجسم يدخل ميدان المعمعة بقواتهِ الدفاعية بعد حدوث هذا التأثير

وهم يفسرون فعل السلفانيلاميد باعتمادهم على كريات الدم البيض الطافية في الدم والتي عملها أكل المكروبات النازية للجسم . ولما كان السلفانيلاميد يبطىء تكاثر المكروبات فالغالب — في رأيهم — ان الميكروبات التي تتأثر به تعجز عن المكافحة ضد الكريات البيض فتلتهمها. ويذهب فريق آخر الى ان العقَّار يمنع الميكروبات عن صنع النشاء الواقي لها من فعل اللواهم (الكريات البيض التي تلتهم) . ويقول غيرهم ان السلفانيلاميد يولّد مركبًا كيمائيًّا متعادلاً باتحاده بالسموم التي تفرزها المكروبات ، فيوقي الجسم شرَّها

ومن احدث الآراء في تفسير فعل السلفانيلاميد وتأثيرهِ في جراثيم خاصة رأي صادر عن مستشفى وسترن بنسلفانيا في مدينة بتسبرج الاميركية . وهو قائم على القول بأن الجراثيم المتكاثرة تقتل نفسها بنفسها اذا لم تزح مفرزاتها او يعدَّل فعل هذه المفرزات. ومن غرائب الاتفاق ان من اهم مفرزات النوموكوك والستربتوكوك ثاني اكسيد الايدروجين (بيروكسيد) وهو المطهر المعروف باسم « أو آكسيجنيه » . هذه المادة تنحلُّ حال تكونها في الجسم ، ولذلك تستطيع المكروبات ان تمضي في نموها غير متأثرة بها . والمادة التي تحل ثاني اكسيد الايدروجين في الجسم من نوع الخمائر او الانزيمات وهي تدعى «كاتالاز» وتوجد عادة في الدم . فاذا استطعنا ان نبطل فعل الكاتالاز تراكم ثاني اكسيد الايدروجين فيمنع نمو البكتريا التي تولده . ومن

غريب ما كشفهُ البحث في هذا الصدد ان السلفانيلاميد يتحول داخل المكروب تحولاً يجعله مبطلاً لفعل الكاتالاز ، فيتراكم ثاني اكسيد الايدروجين ويمنع نمو المكروب ، واذ يكون في هذه الحالة يسهل على اللوام التهامهُ

ولكن البكتريا لها حيل في الدفاع عن نفسها ، تخدع بها اللوام ، ومن حيلها أنها تسكن فترة تطول او تقصر فتبدو أنها ميتة ولكنها ليست بالميتة ، فاذا بدا لها أن قوى الدفاع في الجسم قد ضعفت فاءت وهاجت الجسم بكل قواها . وهذا يفسر ما يراه الاطباء ضرورياً من المداومة على اعطاء المريض العقّار حتى بعد أن يتماثل الى النقه . وكذلك يتضح لنا أن بعض المكروبات يموت بتأثير العقار وبعضها يضعف فتلتهمهُ اللوام وبعضها وهو أوسع حيلة وأرهف احساساً يستكنّ ثم يفوع إذا سنحت لهُ الفرصة . وهذا يبطل رأياً من الآراء التي كانت سائدة في مستهل القرن العشرين بين علماء المعالجة الكيمائية وهو أنهُ إذا ثبت أن عقّاراً ما يقتل مكروباً معيّناً فانهُ يقتل جميع المكروبات التي من نوعهِ

وبينا العلماء يبحثون عن الاسباب والتفاسير الاصلية لفعل السلفانيلاميد ، يضطرُّ الاطباء ان يواجهوا كلَّ يوم الحالات العملية التي يشاهدونها ولاسيما ماكان ناجماً منها عن استكنان بعض البكتريا ثم فوعتها . ولذلك عمدوا مبالغة في الحيطة الى إعطاء المريض — اذا كانت اصابتهُ حادة على وجه الخصوص — جرعات كبيرة من السلفانيلاميد اولاً ثم تتبعها جرعات صغيرة حتى يقضى على البكتريا المستكنّة . وموالاة الجرعات لازمة لان تأثير هذا العقّار لا يبقى في الجسم بعد أفرازه منهُ

ومما يؤسف لهُ في تاريخ السلفانيلاميد أن أحد البيوت الصيدلية في اميركا صنع مقادير منهُ في شكل سائل فأفضى بيع ما صنع منهُ إلى وفاة ثلاثة وسبعين مصاباً تناولوهُ فأجري بحث علمي وقانوني في المسألة وثبت أن اللوم واقع على المواد الاخرى الداخلة في تركيب السلفانيلاميد السائل لا على مادة السلفانيلاميد نفسها

ومع ما في حديث هذا العقّار من الاعاجيب ، وما أثبتهُ البحث في اميركا من ان وفاة الذين تقدم ذكرهم لم ينشأ عن مادة السلفانيلاميد نفسها ، لا بدَّ للاطباء من اتخاذ الحيطة العظيمة في استعماله . وقد روت المجلات الطبية أن هذا العقار يؤثر في بعض الاحيان تأثيراً يؤذي الخلايا والانساج ، وقد يفضي استعماله الى شكل خطر من اشكال الانيميا (فقر الدم) بزيادة العدد السويّ المتدثّر كل يوم من كريات الدم الحمر . نعم ان هذه الحوادث ليست كثيرة ، وعند وقوعها يجب ان تتخذ الوسائل الذريعة المبطلة لتأثير النقصان في الكريات الحمر . وفي هذا دليل على وجوب الاعتماد على الاطباء في استعماله

انتظام السفر الجوي

عبر المحيط الاطلنطي

غلب النسر على دوله ... وتنحى لك عن عرش الهواء
وأتتك الريح تمشي أمة ... لك يا بلقيس من أوفى الاماء
روضت بعد جماح وجرت ... طوع سلطانين علم وذكاء

بعد ظهر اليوم الرابع من شهر ابريل ١٩٣٩ نزلت في ميناء سوثمتن بجنوب انكلترا الطائرة الاميركية «يانكي كلبر Yankee Clipper» بعد ان أتمت المرحلة الاخيرة من رحلتها الاستكشافية الأولى والاخيرة لطريق بلطيمور ، الجزائر الخالدات (الأزورس) ، لشبونة عاصمة البرتغال ، مرسيليا ، سوثمتن . هذه الطائرة تتسع لاربعين راكباً ليليًّا في خمس قرات متسعة ، وثمانية آلاف رطل من الامتعة والبريد . فوزنها وهي محملة ٨٠ الف رطل منها ٤٠٠٠ جالون من البنزين وعشرة آلاف رطل للركاب والامتعة والبريد وما يراد نقلهُ بها من البضائع الثمينة

هذه الرحلة جاءت نتيجة لمباحث وتجارب ومغامرات دامت نحو عشرين سنة ، من سنة ١٩١٩ غداة الحرب الكبرى عندما اجتيز المحيط الاطلنطي أولاً بطائرة الى الآن . في خلال هذه السنين عبرت طائرات كثيرة من أميركا الى أوربا ، ومن أوربا الى أميركا . ولكن السفر الجوي بين القارتين في شمال المحيط لم ينتظم حتى الآن ، مع ان أربع سنوات انقضت منذ قامت شركة « پان أميركان أرويز » بتسيير طائراتها من غرب الولايات المتحدة الاميركية الى ساحل الصين من سان فرنسيسكو الى مانيلا عاصمة الفيلبين الى هنغ كنغ على ساحل الصين الجنوبي . والمسافة بين سان فرنسيسكو وهنغ كنغ تسعة آلاف ميل . وقد جارتها شركة « لفت هانسا » الالمانية في تسيير سفنها الهوائية تسيراً منتظماً من ساحل افريقية الغربي الى ساحل أميركا الجنوبية عابرة جنوب المحيط الاطلنطي حيث المسافة بين الساحلين ١٦٠٠ ميل

بعيد انتهاء الحرب في سنة ١٩١٨ نظرت لجنة الطيران بالاسطول الاميركي ، في ما تصنعهُ

بالطائرات التي كانت قد صنعت في اميركا لمطاردة الغواصات في عرض المحيط ، فقررت ان تبهر العالم باجتياز المحيط الاطلنطي . وكذلك تمت الرحلة الجوية الاولى بين اميركا واوربا عبر ذلك المحيط اذ قضت الطائرة NC 4 اثنتين وسبعين ساعة بين لونغ ايلند بنيويورك وبليموث بانكلترا . وكان خط الطيران يشتمل على النزول في ترباسي بجزيرة نيوفنلند والجزائر الخالدات (الازورس) واشبونة عاصمة البرتغال . وصحب هذه الطائرة طائرتان NC1 و NC3 ولكنهما لم تتما الرحلة . وما انقضى أسبوعان على رحلة الطائرة الاميركية حتى فاز الكبتن جون الكوك والملازم آرثر برون الانكليزيان باجتياز المحيط الاطلنطي بغير توقف ، وذلك من سانت جون في جزيرة نيوفنلند الى كليفدن بارلندة ، في ست عشرة ساعة . ولكن المصاعب التي عاناها في اثناء الطيران ، لم تشجع على احتذائهما خلال السنوات التي تلت نجاحهما . ومع ان طائرتهما كانت من اجود الطائرات المصنوعة في ذلك العهد ، دلَّ الاختبار على ان اقتحام جوّ الاطلنطي يجب ان يؤجل الى أن يتقن المهندسون والصناع صنع الطائرات الوافية بجهد عظيم كهذا الجهد

وفي يوم ٢١ مايو سنة ١٩٢٧ سرت هزة كهربائية في اعصاب العالم عند ما اذيع ان الطيار الاميركي لندبرج اجتاز المحيط الاطلنطي وحده من نيويورك الى باريس في ٣٣ ساعة

وقد كتبنا في المقتطف غداة فوز لندبرج مقالاً عنوانه «غلب النسر على دولته» قلنا : «ان تاريخ الاكتشاف والارتياد بل تاريخ العلم يعيد نفسهُ . نرى الروَّاد يسير بعضهم في اثر بعض ، يفوزون آناً ويخفقون آونة ولكنهم مهما تعدَّد وجوه الخيبة والظفر يتخذون من الظفر مرتبة يرقون عليها الى ظفر آخر ، ويتربصون للاخفاق حتى يثأروا لاخوانهم منهُ بظفر جديد . . . . ثم عدَّدنا ما احرزه الطيارون من الانتصارات الباهرة بعد اخفاق اخوان لهم سبقوهم الى الاقدام فكان نصيبهم الخيبة والموت . ثم قلنا : لقد تقدم طيران بليريو من كاليه الى دوفر انتظام السفر الجوي بين لندن وباريس ومهَّد له السبيل . وتقدم طيران الملازم مينارد من نيويورك الى سان فرنسيسكو انتظام البريد الجوي السريع بينهما ومهَّد له السبيل . وتقدم طيران الكوك وهوكر وريد طيران لندبرج وتشمبرلين ومهَّد لهما الطريق . وتقدم طيران فدرين وكوبهام وضباط الجيش الانكليزي في مصر والعراق انتظام السفر الجوّي بين هليوبوليس وبغداد وأثبت امكان انتظامه بين لندن وهليوبوليس . ومن يدري فقد يكون طيران كوبهام الى مدينة الكاب أولاً ثم من لندن الى استراليا ثانياً ، وطيران امندسن ونوبيلي من سبتسبرجن الى الآسكا ، وطيران لندبرج وتشمبرلين من أميركا الى أوربا ، وطيران ده بنيدو من روما الى أميركا الجنوبية ، وطيران كوست من باريس الى طوبولسك — قد تكون جميع هذه الرحلات الجوية مقدمة لانتظام خطوط السفر الجوي البعيد المدى فترتبط البلدان المختلفة باسباب سريعة للمواصلات يصحُّ الاعتماد عليها بل

تتجاوز حدَّ التخمين الى حدّ الترجيح بانها ستكون كذلك

وبعد ان قابلنا بين اجتياز المحيط الاطلنطي بالسفن التجارية في سنة ١٨١٩ — وكان محمولها دون ٧٠٠ طن على الغالب ومدة رحلتها عشرون يوماً تقريباً — وبين اجتيازه الآن بالسفن الفاخرة التي تعدُّ مدناً طافية في اربعة ايام. قلنا : من كان يحلم سنة ١٨٣٨ ان عبور الاطلنطي بالبواخر يبلغ هذا المبلغ من السرعة والانتظام والاتقان وتوفير اسباب الرفاهة والراحة . على أن تقدم الطيران أسرع وأتم . فانهُ لم تنقض الاَّ سنوات قلائل على عبور بليريو لبحر المانش بطيارته — وقد عدَّ عجيبة حينئذٍ — حتى قرأنا ما قاله لندبرغ : «ظهر لي المحيط الاطلنطي كأنهُ مجاز ضيق من الماء». فماذا تكنهُ لنا السنوات العشر القادمة من هذا القبيل؟! انتهى ما اردنا نقلهُ من المقال المذكور

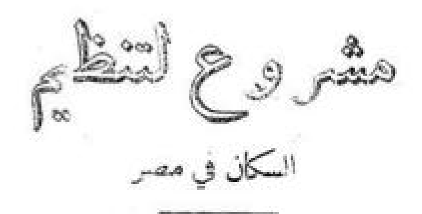
وينتظر ان تتخذ الطائرات الاميركية في اجتيازها المحيط الاطلنطي طريقاً شماليًّا في الصيف من نيوفنلند الى ارلندة وآخر جنوبيًّا الى الجزائر الخالدات (الازورس) فلشبونة فرسيليا فسوثمتن. وقد اتفقت شركة «بان اميركا اروبز» مع «شركة بوئنغ Boeing» من ثلاث سنوات على صنع ست طائرات ضخمة للركاب لتسير بين اميركا واوربا وقد صنع منها حتى الآن اربع طائرات احداها الطائرة الاميركية التي وصلت الى ميناء سوثمتن في اول هذا الشهر وهي التي اسمها «يانكي كلبر» وينتظر ان يتمَّ صنع الباقيتين وتسليمهما في خلال شهر مايو سنة ١٩٣٩

هذه الطائرات اكبر الطائرات التجارية في العالم . طول الجسم في كل منها ١٠٩ اقدام . والمسافة بين طرفي الجناحين ١٥٢ قدماً وهما ثخينان بحيث يستطيع رجل منحنٍ قليلاً ان يسير بين سطحي الجناح ، وكذلك يتاح لمهندس الطائرة ان يتصل بالقواعد التي ركبت فيها المحركات في اثناء الطيران . وللطائرة دكتان فيها القمرات للنوم والاكل والجلوس والمطالعة ، والسقوف فيها طبيعية الارتفاع ، والحجر مربَّعة ، والمكان المعدُّ لرجال الطائرة من مهندسين وخدم وغيرهم — وهم اثنا عشر — فسيح ولعلهُ افسح من المكان المعدّ لجلوس جميع الركاب في طائرة كبيرة الآن

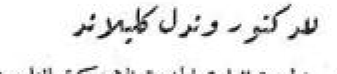
وتتسع الطائرة في اثناء النهار لاربع وسبعين راكباً عدا رجال الطائرة ، ولاربعين راكباً في الليل ، لان اسرَّة النوم وما يتصل بها من فسحة تستأثر من فضاء الطائرة بجانب اكبر مما تستأثر به مقاعد المسافرين الجالسين

وللركاب سبع حجر كبيرة ، اكبرها في الوسط تستعمل لتناول الطعام ولشرب المشروبات قبل الغداء او العشاء وللمطالعة واصغرها في المؤخرة وهي لعروسين او لأسرة تستأجر على نحو ما تستأجر جناحاً خاصًّا في فندق . واثاث هاتين الحجرتين كأثاث الحجر الأخرى في الطبقة الاولى جمالاً وجودة. ويرى القارىء أمام الصفحة الأولى من هذا الجزء تصميم إحدى هذه الطائرات





السكان في مصر



مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة

يعاني المجتمع المصري من كل جانب مشكلات اجتماعية متعددة ، من فقر ومرض وجهل وبطالة . ومع ان هناك بعض الاهتمام بمعالجة هذه المشكلات ، غير ان النشاط المبذول في هذا السبيل بطيء الاثر وغير منتظم السياق ، مما يبعث على التساؤل هل العلاج مفض الى تقويم الامور تقويماً صحيحاً او هو لا يتعدى تهدئة الحالة تهدئة وقتية .

نود جميعاً ان نرى سكان القطر المصري متمتعين بالصحة الجيدة والعقل السليم والحياة السعيدة. ولتحقيق هذه الغاية يجب ان نفكر باخلاص ونعمل بنشاط حتى نتمكن من ابتكار الحلول المطلوبة ونقوم بتنفيذها بسرعة وحزم . وسوف لا نستسلم في بحثنا هذا الى الآراء الخيالية والمشروعات التي يصعب تحقيقها . بل سنحاول فيما يلي ان نبحث بعض الحلول التي يمكن ان تؤدي الى تحسين حالة المجتمع المصري ورفع مستوى المعيشة في مصر

وقبل ان نتقدم كثيراً في هذا البحث الخطير يجدر بنا ان نلقي نظرة سريعة على الاعمال التي تمت من هذا القبيل في البلدان الاخرى . فنجد ان بعض الجماعات كثيراً ما يلجأ الى التحكم في عدد النسل او نوعه . وهذه العادة ليست بوليدة اليوم بل اننا نجد لها مثيلاً في صفحات التاريخ . فقد كان من عادة اهل اسبرطه ان يقتلوا المواليد غير الاصحاء ولا يعنوا بغير ذوي البنية القوية والجسم السليم . وما زالت بعض القبائل المتوحشة تلجأ الى تحديد عدد السكان بينها بشتى الوسائل ، منها قتل الاطفال او الشيوخ او الاجهاض وتحديد الاتصال الجنسي والمحرمات الجنسية ونظام الطبقات الاجتماعية . اما وسائل انماء السكان فأهمها عادة الزواج المبكر وتعدد الزوجات

ونجد غير قليل من الدول العصرية يلجأ قصداً الى بعض الوسائل المتقدمة من طريق رسمي او غير رسمي لتوجيه حركة السكان في الناحية المرغوبة ، ومن الامثلة التي يمكن ذكرها عن الدول

الراغبة في تحديد عدد سكانها ، الولايات المتحدة وهي تتشدد في قبول المهاجرين الى بلادها وتفضل المهاجرين من بعض الاجناس على غيرهم ، وقد سنت ٢٩ ولاية في اميركا قوانين لتعقيم غير الصالحين لاخلاف النسل . ونجد ان حكومات بعض الدول لا تعارض في نشر وسائل منع الحمل بين الجمهور . ومن هذه بريطانيا وهولاندا والدانمرك والنروج وسويسرا وبعض الولايات الاميركية

وهناك دولٌ اخرى تسعى الى زيادة عدد سكانها مع اصلاح النسل . فالحكومة الفرنسية تحرم بتاتاً وسائل منع الحمل وتمنح ارباب الاسر الكبيرة اعانات مالية . وايطاليا تشجع الاكثار من النسل وتنشر الدعاية لذلك وتعاقب كل من يلجأ الى وسائل منع الحمل والاجهاض وتفرض الضرائب الباهظة على العزاب ثم تمنح الاعانات المالية لمن يكثر نسلهُ . والمانيا فضلاً عن تحريمها الاجهاض فانها تقدم مساعدات مالية لراغبي الزواج وتعطي مكافأة لمن له اطفال ولاسيما من يكثر نسلهُ فانها تعفيه من دفع الضرائب

وقد روت الجرائد اليومية ان الهر هتلر أنشأ وساماً خاصًّا يمنح للامهات . يقابل ذلك ان الحكومة الالمانية قائمة بتعقيم ٤٠٠٠٠٠ شخصاً من المصابين بالامراض الوراثية ، وكذلك يحرم على الالمان التزوج من بعض الاجناس « غير الآرية »

وقد قامت الحكومة الروسية اخيراً بسن قوانين ضد الاجهاض وكثرة الطلاق وهي تبدي عناية خاصة بالامهات والاطفال

اما البلدان التي فيها نفوذ الكنيسة الكاثوليكية عظيم فانها لا تشجع اي وسيلة من وسائل تحديد النسل فوسيلته الوحيدة هناك الامتناع عن الزواج او الامتناع عن الاتصال الجنسي بين الزوجين . وتتبع بلاد السويد الآن سياسة حكيمة ترمي الى تحسين النسل مع الاحتفاظ بنسبة عدد السكان في حالة مرضية (وسكان السويد يبلغ عددهم ٦٣٠٠٠٠٠ نسمة) وذلك بالغاء القوانين التي تكافح ضبط النسل ، ونشر التعاليم الصحية والاخلاقية ، ومنح الاعانات للوالدين والشبان الذين يرغبون في الزواج وتهيئة المساكن الصحية للعائلات وتوزيع الاطعمة المغذية والعلاج المجاني للامهات والاطفال . وتوزع المدارس على طلبتها غذاء الظهر مجاناً ، فضلاً عن توزيع الاطعمة الصحية بأسعار رخيصة جداً بين العائلات الفقيرة التي لا عائل لها او التي يكون عائلها عاطلاً عن العمل

ومما يلاحظهُ الباحث ان السياسة الوحيدة التي كان حليفها النجاح في مسألة تنظيم السكان هي التي ترمي الى الاقلال من النسل . فعلى الرغم من القوانين الشديدة والتعاليم الدينية والمكافآت المالية والنداءات الوطنية وغير ذلك من انواع الدعاية فاننا نجد ان عدد المواليد في هبوط مستمر

ولا يستثنى من ذلك الا المانيا فقد ارتفعت نسبة المواليد فجأة فيها فبلغت نسبة الزيادة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٥ نحو ٤ في الالف . ولعل السبب في ذلك يرجع الى قيام حزب النازي في بدء عهده بالحكم بسن قانون يعاقب على الاجهاض ، ولكن العدد أخذ في الهبوط بعد ذلك ، مما يدل على ان أي قانون لتنظيم السكان تضعهُ السلطات على الرغم من رغبة الجماهير لا بد ان يلاقي صعوبات شديدة

العوامل التي تؤثر في نمو السكان

وموقف مصر الحالي

هنالك خمسة عوامل تؤثر تأثيراً كبيراً في حالة السكان ونمو عددهم وهي : — معدل طول العمر بين السكان . والصحة العامة . ومصادر الثروة . ومستوى المعيشة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية . والصلات الدولية

« معدل الحياة الفردية » من المعروف ان نشاط اي جماعة وروحها المعنوية يتوقفان الى حدٍّ بعيدٍ على معدل أعمار الافراد . فاذا كان السواد الأعظم منهم شباباً فان الحياة العامة تكون مرحة نشيطة . واذا كان الحال عكس ذلك فان الحياة الاجتماعية تكون عديمة البهجة . وفضلاً عن ذلك فان الجماعات الفتية يكون عدد الاطفال بينها كبير . أما الشيوخ فإنجابهم للاطفال يكون ضعيفاً . أضف الى ذلك ان ما يُطلب من الطعام والشراب وغيرها من الحاجيات الأخرى يختلف بين الشيوخ عنهُ بين الشبان . أما في وسائل اللهو فانهُ لا يمكن المقابلة بين الفريقين

وكذلك الحال في الأمم الكبيرة . فاذا كان نسبة الشباب بين السكان هو الغالب فان عدد المواليد يكون كبيراً . واذا توافرت بيئة اقتصادية حسنة للافراد نشطت الصناعة والتجارة . وعلى الضد من ذلك اذا كان السكان يغلب بينهم الشيوخ انخفضت نسبة المواليد وتعذر ادخال التعديلات الاجتماعية وسارت الحياة الاقتصادية بخطى بطيئة . وقد كتب أحد علماء الاجتماع في مجلة اميركية شهرية مقالاً عنوانه « تدهور نمو السكان » ورد فيه ما يأتي — اذا نقص عدد الاطفال زاد عدد الشيوخ . . . هذا هو مصير أهل الولايات المتحدة . ويمكننا ان نتصور تأثير ذلك في ازدياد سماعات الصم والنظارات واعانات الشيخوخة والضرائب والتعليم وغير ذلك . »

ما موقف مصر من هذه الناحية ؟ . . .

بلغ عدد سكان القطر المصري في عام ١٩٣٧ نحو ١٥٩٠٤٥٢٥ . وكان معدل حياة الفرد في عام ١٩٢٧ ثلاثين عاماً . وبلغت نسبة الشبان الذين يقل عمرهم عن عشرين عاماً نحو ٤٧٫٧ ٪ من مجموع السكان . بينما بلغت هاتان النسبتان للسكان البيض في الولايات المتحدة

عام ١٩٣٠ نحو ٦١ عاماً لمعدل حياة الفرد و ٣٨٫٨ ٪ لعدد الشبان الذين دون العشرين. وفي الواقع ان القطر المصري في وقتنا الحاضر، ما زال في المرحلة التي بلغتها بلدان غرب اوربا منذ قرن وربع قرن. وهو في مستوى واحد تقريباً مع الهند حيث كان معدل الحياة الانسانية في عام ١٩٣١ نحو ٢٦٫٩ سنة. ويلاحظ ان ثلثي سكان القطر المصري اي ٦٥ ٪ منهم يقل عمرهم عن الثلاثين بينما نجد هذه النسبة في انكلترا وفرنسا بلغت ٥٠ ٪ في عام ١٩٣١ و ٥٣ ٪ في عام ١٩٢١ و ٤٧ ٪ في عام ١٩٢١

ومما يستدعي الانتباه بوجه خاص ان نسبة الاطفال الذين لا يتجاوزون الخامسة من العمر هي ٣ر ١٤ ٪ بينما هذه النسبة في الولايات المتحدة لم تعد ٣ر ٩ ٪. هذا بينما نسبة الشيوخ الذين تتجاوز اعمارهم الستين هي ٨ر ٦ ٪ في مصر و ٥ر٨ ٪ في الولايات المتحدة. و ٦ر ١١ ٪ في انكلترا و ١٤ ٪ في فرنسا. ويمكن تشبيه نسب السكان في مصر بهرم له قاعدة متسعة وقمة ضيقة جداً

ومنذ ١٩٠٧ اخذت نسب الاعمار تتغير فانخفضت نسبة الاطفال الذين دون العاشرة من ٦ر ٢٩٨ في الالف الى ٢ر ٢٧٤ في الالف وازداد عدد الاشخاص ما بين العاشرة والاربعين من ٣ر ٤٨٠ في الالف الى ٩ر ٥٠٧ في الالف. وهذا دليل على ان سكان مصر يتجهون نحو الشيخوخة شيئاً. ولكن يجب ملاحظة ان ذلك من شأنه ان يزيد في عدد الاشخاص المخصبين من الناحية التناسلية اي البالغين من العمر ما بين الخامسة عشرة والتاسعة والاربعين، وهذا يؤدي الى احتمال زيادة حالات الزواج والولادة. وفي الواقع انهُ اذا استمرت الزيادة في عدد المواليد بالنسبة الحالية فلابد ان يتضاعف عدد السكان في مدة الاثنتي والخمسين السنة القادمة. وفضلاً عن ذلك فان تحسن الحالة الصحية وما ينتج عن ذلك من قلة عدد الوفيات بين الاطفال سيؤدي الى زيادة محسوسة في عدد الشباب بين السكان، ولا بد ان تواجه مصر في المستقبل القريب مسؤولية الاهتمام بتعليم الشبيبة وتهيئة العمل لهم، وليس هناك ما نخشاه من خطر اتجاه السكان نحو حالة الشيخوخة والاجداب قبل قرن من الزمان. ولا بدَّ لنا من التسليم بان الكلمة العليا في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ستكون للشباب

***

« الصحة العامة » من البديهي ان الروح المعنوية في اية جماعة وتقدمها يتوقفان الى حد كبير على صحة الافراد. ولا يكفي للافراد ان يتمتعوا بصحة جيدة تسمح لهم بالعمل المثمر بل يجب ان يزخر فيهم الشعور بالنشاط الفياض الذي يحفزهم الى التقدم روحيًّا وعقليًّا

ولكن نسبة الوفيات في مصر عالية جداً فهي ٣٠ في الالف اي اعلى نسبة في العالم.

والسواد الاعظم من الوفيات هو بين الاطفال . فان نسبة الوفيات بين الاطفال بلغت ٢٠٠ في الالف من المواليد في العام

ونجد هذه النسبة بين الامم المختلفة في عام ١٩٣٣ كما يأتي : في الهند ١٧١ وفي اليابان ١٢١ وفي المجر ١٣٦ وفي بلجيكا ٩٢ وفي انكلترا وويلز ٦٤ وفي الولايات المتحدة ٥٨ وفي السويد ٥٠ وفي استراليا ٤٠ وفي زيلندا الجديدة ٣٢ . ولعل البلد الوحيد الذي يزيد فيه عدد وفيات الاطفال عن مصر هو جمهورية شيلي اذ ان النسبة فيها ٢٥٨ . واذا فرضنا انَّ في الوسع انقاذ ٥٠٪ من عدد وفيات الاطفال ، فان النسبة تكون ١٠٠ في الالف . وهذه النسبة مرتفعة اذا قابلناها بالبلدان الاخرى . ومن الواضح اننا اذا بذلنا جهودنا للعناية بالاطفال فان نسبة الوفيات بين السكان لا بد ان تنقص نقصاً محسوساً . اذ ان الوفيات بين الاطفال هي بنسبة ٦٥ ٪ من مجموع الوفيات مع ان نسبة عدد الاطفال من السكان لا تعدي ١٤ ٪ . واذا اضفنا الى ذلك ما ينتظر من توصل العلم الى اطالة العمر تبين لنا ان عدد الوفيات ستقل كثيراً بين جميع الاعمار

ولكن مسألة الوفيات ليست الاَّ ناحية واحدة لحالة السكان العامة . فقد يعيش الانسان عمراً مديداً دون ان يتذوق طعم الصحة والعافية ويكون عاجزاً عن القيام بواجبه في المجتمع على أوفى وجه . وفي مصر ملايين من الناس في مثل هذه الحالة . إذ يوجد ١٢٠٫٠٠٠ أعمى و ١٤٫٥٠٠٫٠٠٠ مصاب بالتراخوما ، و ١٠ ملايين مصاب بالبلهارسيا والانكلستوما . هذا فضلاً عن الأمراض الأخرى الشائعة في العالم . ومن حسن الحظ ان مصر بلد زراعي ولذلك فأثر ضعف الصحة العامة فيها غير محسوس كما لو كانت بلداً صناعيًّا ، ومع ذلك فان العامل الزراعي المصري في حالة صحية غير مرضية

ومما يدعو الى التفكير انهُ على الرغم من ضعف الصحة العامة في مصر فلا يوجد فيها سوى طبيب واحد لكل ٥٠٠٠ من السكان . هذا مع العلم بان السواد الاعظم من الاطباء يشتغلون في المدن وليس في القرى الاَّ عدد يسير منهم . فاننا نجد نسبة الاطباء في المدن هي طبيب لكل ١١٠٠ نسمة من السكان بينما النسبة في القرى لا تتجاوز طبيباً واحداً لكل ١٣٫٠٠٠ من السكان . مع ان ٩٠ ٪ من أهل القطر المصري في حاجة الى العلاج الطبي . وقد بلغ من سوء الحالة الصحية ان المتقدمين للقرعة العسكرية لا يصلح منهم للخدمة دون علاج سوى ٤ ٪ و ١٦ ٪ منهم يصلح للخدمة بعد معالجته . بينما ٨٠ ٪ لا يصلح قط

ونجد ان هذه النسبة في بريطانيا العظمى هي ٣٦ ٪ صالح للخدمة و ٢٢٫٥ في حاجة الى العلاج و ٤١٫٥ ٪ غير صالح للخدمة العسكرية . ومع ما تبذلهُ وزارة الصحة من الجهد في مكافحة امراض العيون وغيرها فان نسبة انتشار هذه الامراض لم تقل كثيراً

﴿ مصادر الثروة الاهلية ﴾ يكثر ذكر الموارد الطبيعية للثروة والخامات وغير ذلك في هذه الايام. ومن الجلي انهُ ليس هناك مجتمع من الناس يمكنهُ ان يعيش بغير ان يتوافر لديه الطعام المغذي الكافي والملابس اللازمة لوقايته من تقلبات الجو. هذا فضلاً عن ضرورة وجود المنتجات بكثرة تفيض عن حاجة السكان حتى يتسنى لهم المتاجرة بها مع غيرهم من البلدان. فما هو مقام مصر من ناحية الانتاج

مصدر الثروة الرئيسي في مصر هو تربتها الخصبة وماؤها الفياض العذب. فنهر النيل المبارك يمنح مصر كل عام ما يزيد عن ٩٠ بليوناً من الامتار المكعبة من الماء. وتبلغ مساحة تربتها ١٣٫٥٠٠ ميل مربع. ويبلغ ما يستعمل منهُ للزراعة ٦٤٪ ما يقرب من ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان، ويمكن زيادتها الى ٧٫١٠٠٫٠٠٠ اذا كان في الوسع تنفيذ بعض مشروعات الري، لانهُ بفضل نظام الري عندنا يمكن للارض ان تنتج محصولاً ونصف محصول لكل فدان مما يجعل قيمة الاراضي الزراعية تعادل ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان من ذات المحصول الواحد. وقد يمكن رفع ذلك الى ما يعادل محصول ١١٫٤٣٠٫٠٠٠ ثم ان كثافة السكان في الاراضي المعمورة بالاهالي في مصر تعادل ١١٧٥ نسمة لكل ميل مربع وهذه اعلى نسبة في العالم تعادل ضعف نسبة الازدحام ببلاد البلجيك التي تعتبر اكثر البلدان الاوربية ازدحاماً بالسكان، ومع ذلك فاننا نجد في مصر ان كل فدان من الاراضي المزروعة يستخدم لاعالة ثلاثة اشخاص، وهم يعتمدون على ما تنتجهُ تلك الفدادين الثلاثة للحصول على ما يلزمهم من الطعام والملبس والمسكن والتعليم والملاهي وغير ذلك من كماليات

ونجد بعض التقدم في عالم الصناعة، فضلاً عن الدلائل التي تبشر بنجاح التعدين في مصر ولاسيما البترول، وكذلك خامات الحديد بالقرب من اسوان غير أنهُ لا يمكن استخدام اكثر من بضعة آلاف من العمال في هذا العمل

ولنبحث الآن في الثروة الاهلية وتوزيعها على الافراد. فقد جاء في بيان اصدرتهُ لجنة دراسة الفاقة في شهر يوليه الماضي ان الايراد الاهلي في عام ١٩٣٥ قدر بمبلغ ١٨٥ مليون جنيه. اي بمعدل ١٢ جنيهاً لكل فرد من سكان القطر المصري الذين يتجاوز عددهم ١٥ مليون ونصف مليون نسمة، ولا شك ان هذا المبلغ ضئيل جداً اذا قابلناه بمثله في الممالك الاخرى، ففي بلاد السويد مثلاً يبلغ معدل ايراد الفرد نحو ٦٠ جنيهاً (عام ١٩٣٥) وفي الولايات المتحدة نحو ٨٠ جنيهاً (عام ١٩٣٤)

***

غير أن ضآلة الايراد العام ليست أسوأ ما في هذه الناحية من موضوعنا. فقد يصعب علينا ان نصدق أن المصري يعيش بمبلغ جنيه واحد في الشهر على المعدل. ومع ذلك فان كثيرين من الناس

كانوا يعيشون في هناءة لو تيسر لهم ذلك . والواقع ان السواد الاعظم يعيش في شقاء وفقر لا يمكن تصوره بسبب سوء توزيع الثروة

فقد بلغ عدد اصحاب الاراضي في عام ١٩٣٥ نحو ٢٫٣٦٥٫٦٠٤ وبلغ ما يملكونه من الاراضي الزراعية ٥٫٨٣٦٫٩٥٩ فداناً . وكانت نسبة الذين يملكون أقل من ٥ فدادين نحو ٩٣٪ من مجموع الملاك. وبلغت نسبة ما يملكون ٣١٪ من مجموع الاراضي . أما عدد الملاك الذين كانوا يملكون أكثر من عشرين فداناً فكانت ١٫٥٪ من مجموع الملاك وبلغ نسبة ما يملكونه ٥٠٪ من جميع الأراضي . وعلى هذا الأساس استولى ١٫٥٪ من مجموع السكان في عام ١٩٣٥ على نصف الايراد الاهلي. أي ان ٢٣٢٫٠٠٠ رجل نال كل منهم ٤٢٠ جنيهاً بينما لم ينل باقي السكان سوى ٦ جنيهات و ٤٠٠ مليم . أما اذا قسمنا ٣١٪ من مجموع الافدنة على سواد الشعب الذي يكوّنون ٩٣٪ من السكان فان نصيب الفرد لا يتعدى مبلغ ٤ جنيهات في العام ومعنى ذلك أن العائلة المصرية العادية التي قوامها خمسة اشخاص تتفاوت ميزانيتها السنوية بين ٢٠ و ٣٢ جنيهاً

ومنذ عهد قريب قدّر الدكتور ويليم ويلسن ان ادنى مبلغ لازم لتوفير غذاء مغذ لشخص بالغ يعيش في عائلة هو ١٩ مليماً في اليوم اي ٦٩٣ قرشاً في العام . مع ان هذا المبلغ هو ايراد عائلة كاملة في معظم الحالات

وهذه الارقام تبين بجلاء ان القطر المصري لم يكشف بعد الموارد اللازمة لاعالة عدد من السكان اكبر من العدد الحالي . بل في الواقع ان هذه الموارد لا تكفي السكان كما هم الآن . فما بالك اذا تضاعف عددهم حوالي عام ١٩٩٠ . ولا شك ان هذه الحقائق مما تبعث على التساؤل اذا كان هناك من يعتقد بان كثرة السكان يعتبر من مظاهر التقدم الاهلي اذا لم يجد الناس ما يكفي قوتهم

***

﴿ المستوى الاجتماعي ﴾ المستوى الاجتماعي في أيّ شعب يشمل كل ما له صلة بالحالة المعنوية للافراد من اذواق ورغبات ومطامع وحالة معيشتهم ومدى انتشار التعليم بينهم ومقدار تمسكهم بالدين وحالة المواصلات فضلاً عن العادات الاجتماعية ووسائل اللهو . فان هذه الامور هي التي تجعل للحياة قيمة . اذ اننا نجد ان كثيراً من الناس الذين يحيون حياة البؤس لم يعدموا احدى وسائل التسلية مهما تكن ضئيلة . فيجدون ما يضحكهم او يحفزهم للكفاح والنضال . ان كثيراً مما نسمعهُ من جلجلة السيوف ليس الاّ وسيلة للتعبير عن طموحهم الى العلا تؤيده دعاية

تخدر الاعصاب قوامها الاقوال الرنانة عن رفع المستوى الاجتماعي وما يلزم لذلك من المستعمرات للحصول على المواد الخام او لتخفيف ضغط السكان فضلاً عما يصحب ذلك من مظاهر المجد والسلطان . وليس هناك وجه لانتقاد اي شعب لما يبدو فيه من دلائل الطموح او عدم القناعة بحياته الحالية وتطلع الى العلا والمجد ولكن ما نعترض عليه هو ان يسعى شعب من الشعوب الى كبح رغبات غيره من الشعوب او السيطرة على شعورهم . هذا ومن الحقائق انهُ لايمكن لجميع الشعوب ان تستوي في مظاهر التقدم والحياة الاجتماعية، بل ان ما ندعوه بالمستوى الاجتماعي ما هو الاَّ مجموع رغبات الافراد الذين يكوّنون الامة ولذلك فهو لا يقاس بالمقاييس المادية

فما هو مستوى المعيشة في مصر . هل يمكننا ان نصدر حكمنا استناداً الى ما نشاهده في المدن الكبرى من عمارات ضخمة وقصور فخمة ومنازل جميلة ومتاحف عامرة وشوارع متسعة وحدائق غناء وغير ذلك من اماكن اللهو والتسلية الجذابة . يحسن بنا ان نزور القرى المصرية ونمر بالاحياء الفقيرة في المدن وان تنفذ ببصرنا الى قلب البيوت الفقيرة حيث يعيش ٩٠ ٪ من سكان القطر ! وعندئذٍ يرى الانسان ان اكثر تلك المساكن تكون من ثلاث غرف صغيرة ارضها وجدرانها مبنية من الطين الاسود وسقفها من القش ، بينما الغرفة الخارجية اتخذت زريبة للماشية وعلى العموم يظهر البناء لمن يشاهده كقطعة من الوحل المجفف على سطح الارض . وقلما يجد الانسان في امثال هذه الاكواخ ما يمكن ان نسميهُ اثاثاً فمتاع العائلة لا يتعدى اناء اواثنين للطعام وكرسيًّا من الخشب لا يكاد يصلح للجلوس وصفيحة للماء وبساط خيش يستعمل للنوم ونادراً ما نجد فراشاً حقيقيًّا للنوم

وفي الواقع ان عائلة الفلاح لايمكنها ان تجد اكثر من جنيه او جنيهين في الشهر لسد حاجتها من طعام وشراب ولباس ووقود ، فلا عجب اذا كان أفرادها يعيشون حياة أشبه بحياة الحيوان منها بحياة الانسان. ويكسب الفلاح رزقه من محصول قطعة أرض صغيرة او بان يشتغل في حقل غيره بأجرٍ لا يتجاوز قرشين او ثلاثة في اليوم . ومن حسن الحظ ان ما يطلب منهُ من جهدٍ ليس شاقاً مما يلائم جسمه الضعيف الذي أنهكتهُ ديدان البلهارسيا والانكلستوما وذهنه الخالي من العلم، وجهله بالأمور العامة . ولا شك ان هذه الحالة لايمكن ان تبعث في نفوس الفلاح أي شعور بالطموح او الرغبة في التخلص من محيطه الضيق . والفلاح بطبيعته يؤمن بالخرافات ويعتقد ان الاقدار هي التي قضت عليه ان يكون في تلك الحالة

سألت منذ أعوام فلاحاً عن رأيه في الصراع السياسي الذي كان قائماً عندئذٍ فكان جوابه مثالاً لأقوال غيره من الفلاحين . فقد أجاب « يا خواجه إحنا مش بتاع سياسة . ما يهمناش مين يحكم في مصر (القاهرة) . كل اللي نطلبه هو أنهم يدونا ميه كثيرة ويسيبونا في حالنا »

ولا شك ان هذه الحالة معناها ان جموع الشعوب بالرغم من الفقر الذي يسودها والامراض التي تعيث في صحتها راضية عن حالتها كل الرضى . ولا يخطر ببالها ان ترفع عقيرتها بالشكوى. ولذا فانهُ من اصعب الامور ان ينفث الانسان في الجمهور روح الطموح والتطلع الى تحسين حالتهم او كسر القيود الاقتصادية والاجتماعية التي تقعدهم عن التمتع بحياة وافرة كغيرهم من بني الانسان . وقد يدعو ذلك الى التساؤل كيف يمكننا ان نشعر هذه الطبقات بخطر ازدحام السكان وضرورة تحديد النسل . ان محاولة حمل انسان على رفع مستوى معيشته شبيهة بمحاولة المنوّم المغنطيسي. وفي كلتا الحالتين لا يمكن التأثير في الشخص بالرغم من ارادته — وكل طبيب في حاجة الى معاونة المصاب

﴿ الصلات الدولية ﴾ مما يزداد وضوحاً لنا ان ليس هناك أمة يمكنها ان تعيش في عزلة عن غيرها من الشعوب . وجميعنا نرى المصاعب التي تعانيها الشعوب التي تحاول ان تعيش بمواردها الذاتية . وقد نسأل ماذا يدعو أية دولة الى اتباع مثل هذه السياسة ما لم تكن ترمي الى شهر الحرب على غيرها من الدول . ولذا فهي لا تريد ان تعتمد على غيرها وتعرقل سياستها . ونتيجة ذلك ان ساءت التجارة العالمية وانكمشت . إذ انهُ من المستحيل على أي شعب ان يقتصر على تجارة الصادر وان يستورد البضائع دون ان يصدر الى الخارج من موارده ومنتجاته، ومما يزيد الحالة سوءاً ما تبديه تلك الحكومات « المعتمدة على نفسها » او « المكتفية بذاتها » من تهديد غيرها من الدول ، مما يبعث تلك الدول بدورها الى الاستعداد للدفاع عن نفسها فتنفق مبالغ فادحة على أدوات التسليح التي ليس لها فائدة عملية ما لم تستعمل لأغراض التدمير . وان سياسة التسابق في التسليح لا بد ان تصل الى عاقبة محزنة مهما يكن امرها

والقطر المصري يجد نفسهُ مرغماً على إنفاق مبالغ هائلة (٢٠ مليون جنيهاً للتسلح فضلاً عن ميزانية سنوية تبلغ ٧ ونصف مليون جنيهاً).وهذه المبالغ تصرف لوسائل الدفاع التي ليس من ورائها اي فائدة انشائية او اجتماعية وهي مدفوعة الى عمل ذلك اقتداء بغيرها من الدول المجاورة لها . الم يكن الافضل ان تصرف هذه الملايين لتوفير العلاج والتعليم وطرق المواصلات الجيدة والمساكن الصحية وغير ذلك . وقد جاء في مقال نشره حسن صبري باشا وزير الحربية السابق في جريدة الديلي تلغراف ، نجد انفسنا مضطرين الى احتذاء مثال غيرنا من الدول في التضحية بجانب كبير من ايرادنا وانفاقه على التسلح بدلاً من العمل على رفع مستوى شعبنا وتوفير السعادة لافراده . اننا نتساءل هل من المتيسر ان تنقذ الفلاح من حالة الشقاء والبؤس ما لم تعد الثقة المتبادلة بين الدول وتنتعش التجارة العالمية ؟ !

[تتمة البحث في العدد القادم]

منشآت مصر الاقتصادية وأقطابها — ١

طلعت حرب

زعيم النهضة الاقتصادية المصرية

[طلبنا الى أحد المصريين الافاضل الذين يجمعون بين الدراسة المستفيضة لنهضة مصر الاقتصادية والصلة الوثيقة بزعيم هذه النهضة وخالقها وراعيها سعادة طلعت حرب باشا كتابة فصل في هذا الرجل الفذ فتفضل ووافانا بهذه الصورة المشرقة التي لاشك في أنها معبرة عما تكنه قلوب ملايين المصريين نحو بطل نهضتها الاقتصادية — المقتطف]

طلب اليَّ المقتطف ان أكتب فصلاً عن صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا — يستهل بهِ سلسلة مقالاتهِ عن منشآت مصر الاقتصادية واقطابها — وهو الرجل الذي تعرفهُ مصر ويعرفهُ الشرقُ والعالم . وهأنذا احاول ان أرسم صورة لشخصيتهِ الفذة متخذاً ألوانها من ألوان الصورة المنطبعة في ذهني ونفسي . وفي لفظ المحاولة اعتراف ، غير صريح ، بالعجز ! ولا غريب في ذلك . وإلاَّ فماذا نقول عن الشمس التي نراها وتلمس الارض نورها ؟ هل في قدرة مصور ماهر وكاتب بليغ ان يبرزا هذا النور الوهاج الجلي في صورة أبدع واروع مما يعرفها الناس؟ وأن يأتيا لهم بالجديد ، ويكون للحديث جماله وسحره وللوصف قيمته ومعناه !

ومع ذلك يحلو للقلم ان يركب الصعب وان يقدم على الكثير ، ففي اقدامهِ اليوم شرف كبير ومعنى وطني سامٍ

***

عرفت محمد طلعت حرب باشا يوم ان عرفتهُ مصر بأجمعها . يوم ان نادى بأنشاء مصرفٍ مصريّ صميم يحفظ للامة ثروتها وللشعب امواله . وقد مددت لهُ يدي — كغيري — على البعد ، قبل ان تراه العين من قرب . فقد كنت عضواً في احدى لجان الطلبة التي تطوعت في ذلك الوقت لحث موسري القاهرة على اقتناء اسهم هذا البنك الجديد . والحق يقال انهُ لو لم تكن لحداثة السن من ميزة غير عدم الاكتراث ، لكفاها ذلك صفة لها جليلة ! كنا نخرج من بيت الى بيت أو

على الأصح ، من قصر الى قصر ، لا يثنينا رفض الأول عن طرق باب الثاني . واستمرت بنا الحال اياماً واسابيع يدفعنا عزم الشباب وتقودنا الفكرة الوطنية الجليلة التي نادى بها محمد طلعت حرب باشا

من اراد الحديث عن هذه الشخصية ، فليبدأ بعرض ذكريات تلك الايام التي صحبت اخراج فكرة تأسيس بنك مصر الى حيز العمل والوجود

كنا حتى ذلك الوقت امة تضن على نفسها — حتى في أحلامها — بما لها نجده بين أيديها . أما المشروعات القومية المالية والاقتصادية الكبرى فقد كان الحديث فيها يؤخذ على أنه قصص من تلك التي ملأت أدمغة الشرق من قديم ، فأصبحت فكاهته ودعابته ومضيعة لوقته . والأجنبي بيننا ، يتغلغل في جسد الامة باحثاً عن مورد يشغله او قطعة من الدهن يمتصها ونحن اهل الارض والماء والهواء ، نفسح له في ارضنا الطريق ، ونعطر له في هوائنا النسيم ، ونقدم له من نيلنا المياه !

امة تعدادها خمسة عشر مليوناً من البشر ، قدمت نفسها قرباناً لجماعة من خليط الامم راضية باسمة ، كأن الطبيعة التي أخرجت للوجود الانسان والحيوان حراً طليقاً ، لم تخطئ في ناموسها الا معهم ! او كأن الله تعالى ، رضي عن اهل الارض قاطبة ، وخص اهل الكنانة بالغضب ، خلقهم ليسيئوا الى أنفسهم بأنفسهم ...... حتى قبلنا النعيم في حياة الذل والخنوع !!

***

هذه كانت حالنا ، وهذا كان مقامنا يوم ان وقف محمد طلعت حرب باشا ينادي بتأسيس بنك مصر

فاين تلك الايام من اليوم ! ?

برهة من الزمن قدرها سبعة عشر عاماً مرت ! هي في عمر الامم ثانية أو أقل . فماذا تم في هذه الثانية ? ومن ذا الذي ازال الصعاب ، وغلب الاوهام ، وقلب عادات تأصلت في الادمغة والعقول ، وبدل أنظمة قديمة تمكنت من النفوس ?

تأسس بنك مصر ! وفي حروف اسمه حرفاً حرفاً ما يغني عن التعريف والوصف ، فهو من مصر ولمصر . أقامته عزيمة جبارة تعاونها أيد مخلصة أمينة على الوطن وأهله . ارتفع بناؤه وعلا بمضي السنين حتى أصبح حجر الزاوية في اقتصاد الأمة ، ومعقل ثقتها ، ورمزاً مجسماً لما فيها من حيوية كامنة ، ظلت نائمة حتى أتاها المحرك القوي والمرشد الأمين فانطلقت حية عاملة

لم يكن لمثل محمد طلعت حرب ان يكتفي بالأساس . بل أنشأ البنك وأحكم بنيانه ، ليقيم عليه صرح الاقتصاد الشامخ ، لا يحد له من طول او عرض

ثلاثة وهبها الله الانسان فيها قوته ومنعته وكرامته

ثلاثة ان هي اغتصبت منه ، سلبته الطبيعة شخصيته ومميزاته فساقه الغير سوق العبيد والانعام

ثلاثة ، هي الارض والهواء والماء ، لا وجود ولا كيان للانسان بغير حرية امتلاكها وحرية السيطرة عليها

ومصر التي أعزّها الله بنعمة الاسلام بعد ان مكّنها في الارض بقوة الفراعنة ، اغتصب الغاصبون — على مرّ السنين والايام — أرضها وماءها وهواءها حتى أصبح زمام أهلها بيد غيرهم

***

بعد ان أسس محمد طلعت حرب باشا بنك مصر ، جعل همه — وهو الذي لا يعرف للهدوء والراحة طعماً — ان يعيد لمصر ولأهلها ما وهبها الله من خيرات هي لهم لا لغيرهم

ولم يكن الأمر أمامه سهلاً ممهداً . فقد كانت الأمة في جوّ سياسي غير مستقر ، تلعب بها أهواء داخلية وخارجية . وللعنصر الاجنبي فيها قوته وجبروته وهو دائب على الحد من سلطة الأمة اقتصاديًا قبل كل شيء ، عاملاً بما امتدّ له فيها من سلطان على عرقلة كل عمل وطني

ولكن أين جميع هذه العوامل من عزيمة قوية وايمان صادق ووطنية حارة ، لا تعرف وهناً ولا استكانة . واذا ارادت شيئاً كان لها ما تريد !

في خمسة عشر عاماً ، نعم في هذا الزمن القصير ، قهر محمد طلعت حرب هذه القوى التي يمتد اصلها الى عهد اسماعيل اي الى اكثر من سبعين عاماً ! !

أرجع لنا من الارض ثروتها ، وأقام لنا في الهواء مكاناً ، وجعل لنا في الماء عزّاً وسلطاناً :

هل زرت مصانع الغزل والنسج في المحلة الكبرى ؟[1] وهل رأيت هذه المدينة الصناعية الكبرى التي لا يملك الشرق مثلها ، والتي يعمل فيها اربعون الفاً من الايدي ، تجري في عروقها دماء المصري الصميم ؟

هل زرت دمياط ولمست حرير مصر ورأيت كيف تنسجه اليد المصرية ؟

هل زرت مصنع جلود الاسكندرية ومصبغة الحرير في حلوان ومصنع النسج الرفيع في كفر الدوار ومعاصر الزيوت في بني قرة ومصنع الكتان في القراطين ؟ ؟

---

(١) المقتطف : في مقتطف يونيو القادم ننشر وصفاً صناعياً اقتصاديا لهذه المصانع العظيمة

هل رفعت رأسك الى الهواء وشاهدت العقبان المصرية محلقة في الجو بطائرات تقطع هواء مصر حرة طليقة شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ؟

هل أبحرت الى الارض المقدسة على بواخر مصرية صميمة ؟ والى اوربا على مثيلاتها ؟

من رأى كل هذا وأمضى اياماً بين كل هذا ، وقف حائراً يستعطف العقل الهامه الاجابة على : كيف ومتى وبأية عزيمة قام كل هذا لمصر ولمصر وحدها ! !

هو محمد طلعت حرب باشا الذي انشأ هذه المصانع وأوجدها وهو الذي أعاد لمصر هذه العظمة التي افتقدتها منذ انتهاء عصر الدولة المتوسطة من حكم الفراعنة !!

***

ثم كان ان اسعدني الحظ بلقائه وجهاً لوجه في جمع — بعيداً عن ارض الوطن — يتحدث فيهم عن صعاب ذللها ، قابلته وهو في طريق انشائه لاحدى شركات بنك مصر . وقد ضمَّ الجمع نخبة من رجال مصر وشبابها في الخارج . أنصت الجمع لحديثه اجلالاً واحتراماً ، ولعلها أبرز لحظة تمثل لك فيها شخصية هذا الرجل حين يتحدث اليك عن عمل من اعماله الجليلة ، هنا ترى وتلمس صفاته بارزة في كل كلمة ينطق بها . يتحدث ولا يضن بالحديث. وتشعر من حديثه بأنهُ يريد منك ان تعي ما يقول ، لانهُ يتعمد القاء الحديث ، دروساً وتعاليم لمن امامه

ثم كان أن وهبني الله حظ معرفته عن كثب . جهد لا يعرف الهدوء ، وحركة لا تعرف الراحة . لاتفوته صغيرة أو كبيرة في كل عمل من هذه الاعمال الكثيرة المتشعبة . هو رأسها المدبر ويدها المحركة . وهو مع شدته في مراقبة عمل موظفيه ، يملك قلباً ملؤه العطف والحنو

***

مرَّت أمامه ذات يوم جموع عمال المحلة الكبرى وقت انصرافهم في المساء ، فما ان شاهدوه حتى تظاهروا امامه في حماسة داعين مهللين

فماذا صنع محمد طلعت حرب باشا ؟ حياهم والدموع تقطر من عينيه !

حنوًّا ؟ عطفاً ؟ سروراً وبهجةً ؟ ام وطنيةً وايماناً ؟ ؟ هي كل هذا !

هي دموع جمعت كل هذه الصفات في قطرات خرجت من العين وان كان منبعها القلب! قلب هذا الرجل الذي وهب نفسه من الصغر لأمته وشعبه ووطنه

ان اراد الله بالوطن فرجاً بعد شدة ، ويسراً بعد عسر ، وكرامة بعد مذلة ، وقوة بعد ضعف ، امدَّ سبحانه وتعالى في عمر محمد طلعت حرب باشا اعواماً مديدة !

هي لنا وليست له !

الزجاج الجديد

يُمدُّ خيوطاً ويُصبُّ عجينة رخوة
ويصنع كرات تقفز ككرات المطّاط

في اساطير القدماء ان حكيماً مثل يوماً امام الامبراطور طيباريوس ليعرض عليه عجيبة الدهور ، زجاجاً تلقيه على الارض فلا ينكسر ، او تطرقهُ بالمطرقة فتصنع منهُ كما تصنع من الذهب ورقاً وسلكاً . فشاهد الامبراطور الروماني ما شاهد معجباً والقى على الحكيم اسئلة علم من ردهِ عليها ان احداً غيرهُ لا يعرف سر هذا الزجاج العجيب، ثم امر بقطع رأسه لانهُ خشي ان تفضي صناعة هذا الزجاج الى بخس جواهره قيمتها

ولكن ما دفن من اسرار ذلك الزجاج في قبر ذلك الحكيم ، كشفهُ علماء الكيمياء الصناعية الحديثة. فهم يصنعون الآن زجاجاً يُمدُّ ويلفُّ كالاسلاك المعدنية الدقيقة، ويُصبُّ كأنه عجينة رخوة او عسل كثيف، ويصنعون منه كرات تضرب بها الارض فتقفز ككرات المطاط . وقد بلغ من عجائب اوصاف هذا الزجاج الجديد ان مشعوذاً هنديًّا كتب الى احدى الشركات التي تصنعه يسألها ما الحيلة التي تمكنهم من هذه الخدعة البارعة! والواقع ان المصانع الاميركية تصنع زجاجاً يقتضي منا ان نغير ما قام في اذهاننا من صورة قديمة عن الزجاج ، وهو انهُ مادة شفافة سهلة التكسر صلبة لا تمد ولا تلوى

صنع الانسان الزجاج من نحو ستة آلاف سنة ، ونوَّع في شكله ولونه ، واستعملهُ في شتى الاغراض ، اوزاناً ونقداً وآنية وزجاجاً للنوافذ والابواب، ومصابيح وثريات ، ولكن الزجاج لم يصبح مادة حديثة بالمعنى الصحيح الاَّ بفضل الكيمياء الصناعية وفي العهد الاخير

خذ مثلاً على ذلك الخيط الزجاجي . ففي سنة ١٨٨٦ كشف الالمان طريقة لمد الزجاج خيطاً دقيقاً كخيط القطن . ولكنه كان قصماً سهل التكسر فظل كذلك حتى خطر لكيمياني مجهول اسلوبٌ يلتقط به الهواء ويجعله فقاعات صغيرة داخل الخيط فجعل الخيط الزجاج ليناً . وفي سنة ١٨٩٢ صنع ثوب نسائي من خيط الزجاج وباعه احد الباعة الى الاميرة اولالي

الاسبانية بستة آلاف جنيه ! اما التقدم الحديث في صناعة الخيط الزجاجي فيتيح الآن شراء الخيط الزجاجي اللازم لثوب نسائي ببضعة قروش ثم يمكن نسجه في مصانع النسيج الخاصة

***

يدفع الزجاج المصهور في ثقوب جهاز خاص بسرعة تفوق سرعة انطلاق الرصاصة من فوّهة البندقية . ومن عجائب ما يصنع بهذه الطريقة خيط من الزجاج يمتدّ ستة آلاف ميل ، ولكنك مع ذلك قادر ان تلفهُ وتمسكهُ في راحة يدك واذا وزنتهُ وجدتهُ لا يتعدّى في وزنهِ رطلاً واحداً . وبلغ من دقة الخيوط التي تصنع ان مائة منها اذا فتلت أصبحت في كثافة الخيط الذي ثبتت بهِ زرّ سترتك . ثخانة لا تزيد على جزء من عشرين جزءًا من الشعرة ومع ذلك فقوة مطّها تعدل قوة مط بعض أسلاك الصلب — نحو مليون رطل للبوصة المربعة

وقد صنعت أثواب نسائية كثيرة وقبعات وأربطة العنق منذ أيام الأميرة الأسبانية في أواخر القرن الماضي . ووجوه استعمال هذا الزجاج لا يحدُّ منها الا خيال المبتكرين من الصناع وقدرة الباعة على اقناع الناس باقتنائها . حتى لقد قيل ان النسيج الزجاجي أخذ ينافس القطن والحرير الصناعي.واذا صحّ ذلك فانهُ سينافس ولا ريب المطاط وحجر الفتيلة وغيرهما كذلك . لأنهُ يصلح لوجوه من الاستعمال يصلحان لها ولكنهُ يفوقهما في رخصهِ . ولعلَّ أكبر عقبة دون ذيوعهِ ، ليست امتياز المنسوجات الأخرى عليهِ ، بل مقاومة الفلاحين والصنّاع الذين تعودوا الاعتماد في دخلهم على القطن والحرير الصناعي والطبيعي وغيرها

***

والزجاج كما لا يخفى مادة غير عضوية ، فهو غير قابل للاشتعال ، ومقاوم لتأثير الأحماض فيهِ،ولا يتأثر بالحرارة ما زالت دون ٢٢٠٠ درجة مئوية.فهو من أصلح ما يكون لستائر المسارح والدور ، بل وللطنافس التي يكثر دوسها

والنسيج المصنوع من خيط الزجاج عازل من الحرارة فهو يقي قيظ الصيف وقرّ الشتاء خارج الدار . ولذلك يصنع نسيج منهُ يوضع طبقة داخل الجدار قبل طليهِ . ثم أنهُ يصلح ان يحلّ محلّ حجر الفتيلة لان الديدان لا تؤثر فيهِ ولا الجرذان ولا النيران ولا الاحماض ولا التعفن . وهو كذلك عازل للكهربائية . وقد صنعت منهُ مراتب للأسرَّة ، وعصيٌّ لصيد الأسماك ، وعلاوة على هذا وذلك فقد روى احد هواة الطيور ان عصفوراً بنى عشًّا لهُ بخيوط الزجاج أخذها من مصنع قريب

ومن أعجب ما صنع حديثاً زجاج يخترقهُ ٩٩ في المائة من النور الواقع عليهِ

وقد كان افضل زجاج من هذا القبيل لا يخترقهُ الاَّ ٩٢ في المائة من النور الواقع عليه — واهمُّ من ذلك ان هذا الزجاج لا يعكس الضوء مهما تكن زاوية وقوع الضوء عليهِ او زاوية النظر اليه ولذلك يبدو لك ، لما يتصف بهِ من شدَّة الشفوف وعدم عكس الضوء ، انهُ غير موجود . ولذلك وصف بأنهُ زجاج خفيّ او لا يُرى

***

ومن عهد قريب فاز شاب طالب بجامعة هارفرد يدعى « ادوين لاند » بصنع زجاج يعرف الآن بالزجاج المستقطب وهو يشبه الزجاج العادي الجيد في جميع خواصهِ ويمتاز عليهِ بخواص بصرية عجيبة . وهو يماثل الزجاج الذي لا يتشظى المصنوع من لوحين من الزجاج بينهما طبقة شفافة من مادة خاصة تلصق احدهما بالآخر وتمسك بشظاياهما عن الانتثار اذا كسر احدهما او كسرا معاً . والزجاج المستقطب قوامهُ لوحان كذلك بينهما طبقة من خلاَّت السلولوس وهي المادة التي يصنع منها الحرير الصناعي . وفي هذه الطبقة التي تلصق اللوحين صفّفت بلورات صغيرة مجهرية باسلوب لا يزال سرُّه مكتوماً . فتفعل هذه البلورات فعل ستار ذي شقوق فلا تسمح باختراقها الاَّ لامواج من الضوء لها خواص معينة وتحجب الباقي . وكذلك تستطيع ان ترى من خلال هذا الزجاج المستقطب الاجسام ، ولكن وهج الضوء في الزجاج نفسه يختفي . فاذا كان الحاجز الزجاجي الذي في مقدمة سيارتك منهُ رأيت السيارة المقبلة عليك ولكن الضوء الوهاج من مصابيحها المقدمين لا تراهُ وهَّاجاً فلا يبهر عينيك ولا يحير بصرك . واذا كانت جميع السيارات التي تنطلق على الطرق العمومية في الليل مجهزة بحواجز من هذا الزجاج سهل السير ليلاً وقلَّ الخطر

ولا يخفى ان الزجاج الذي لا يتشظى كان تحفة جديدة من بضع سنوات فغدا الآن وهو الزاميٌّ بحسب القانون في ٢٧ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية

وفي الوسع استعمال الزجاج المستقطب في صنع افلام السينما فيؤخذ المنظر الواحد بمصوّرة ضوئية مزدوجة العدسة يكون الاستقطاب في إحدى العدستين أفقيًّا وفي الأخرى عموديًّا ، ثم تطبع صورتا المشهد إحداهما فوق الأخرى فيبدو المشهد وهو بارز ولهُ عمق المشهد الطبيعي

وهذه مسألة طالما سعى العلماء الى حلّها بعد اتقان السينما الناطقة فعجزوا وسيجدون في الزجاج المستقطب الحلَّ المرجوّ

ترى هل كان الامبراطور طيباريوس حكيماً — اذا صحت الاسطورة — عند ما أمر بقطع رأس ذلك الحكيم !

فصل من نشأتي الأدبية

رأيي في الشعر الحديث

لعبد الرحمن شكري

بعد ترك المكتب بدأت أتعلم اللغة العربية في مدرسة بور سعيد الابتدائية سنة ١٨٩٥ على الطريقة القديمة أي طريقة حفظ الإعراب قبل دراسة قواعد النحو واللغة وكان ذلك بالسنة الاولى الابتدائية فكان الشيخ مصطفى رحمة الله عليه يملي على التلميذ بيتاً من الشعر فيكتبهُ التلميذ الصغير على السبورة ثم يعربهُ الشيخ ويحفظنا إعرابه بالعصا. ونحن لا نفهم معنى ذلك الإعراب لاننا ما كنا درسنا قواعد النحو وارجو أن لا تكون قد خانتني الذاكرة في هذا الأمر فاني أريد الإنصاف ولكن الذي اذكره ان هذه كانت طريقته وكان الشيخ يغرى بالايات التي تكثر فيها المحسنات البديعية من جناس وغيره. وقد كادت هذه الطريقة تُبغّض اليَّ اللغة العربية وهي على أي حال قد بغضت اليَّ كتب النحو وطريقة الجناس. الاَّ ان تحفيظنا الشعر في الصغر جعلنا نحب الاطلاع عليه. وقد وجدت في مكتبة ابي كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ المرصفي الكبير وكان في الجزء الثاني من كتاب الوسيلة مجموعة صالحة من شعر الشعراء وكان بهِ قصائد كثيرة للبارودي والشعراء الذين احتذى البارودي طريقتهم في قصائد مختلفة مثل الحسن بن هاني والشريف الرضي وغيرهما. وقد أفادني الشيخ المرصفي الكبير لحسن اختياره وسلامة ذوقهِ وموازنتهِ بين الشعراء وسعة اطلاعهِ وعلو ذهنهِ عن التعصب لشاعر واحد أو طريقة واحدة مهما تكن جليلة. فاذا كنت مديناً لأحد فأنا مدين للشيخ المرصفي الكبير بما أفادني في كتاب الوسيلة الأدبية ومدين للشعراء الذين اختار لهم. وكنت أقدم من الشعراء المعاصرين البارودي بسبب هذا الكتاب ولم اكن قد قرأت في ذلك العهد شعر شوقي أو حافظ أو خليل مطران ولم أكن قد سمعت بعضهم فاني ما كنت اقرأ الجرائد أو المجلات. وكان اطلاعي على شعراء الوسيلة الأدبية بين سنة ١٨٩٥ و ١٩٠٠ ثم انتقلت الى مدرسة رأس التين الثانوية وكان استاذنا في اللغة العربية الشيخ عبد الحكيم حسن الاختيار والشرح ولا ازال أذكر شرحه لابيات من شعر المعري يصف فيها غديراً وهي قوله :

تَـظـُـن بهِ ذوبَ الأُجَيـنِ فان بدت له الشمس أجرت فوقه ذوب عسجد
تبيت النجوم الزُهـرُ في حجراتهِ شوارع مثل اللؤلؤ المتبدِّدِ
فأطـمـعْـنَ في أشباحهنَّ سواقطاً على الماء حتى كدْنَ يَلْـقـطْنَ باليد
فـمـدَّتْ الى مثل السماء رقابها وعبَّتْ قليلاً بين نسر وفرقد

ويعني بالضمير في مـدَّتْ الا بلَ في القافلة ويعني بمثل السماء الغديرَ الذي انطبعت فيه صورة النجوم من نسر وفرقد والتي شبهها في البيت الثاني باللؤلؤ في الغدير ووصف الغدير بانهُ اذا سطع عليهِ القمر ليلاً وسطعت النجوم كان كذَوْب الفضة وبالنهار اذا سطعت عليهِ الشمس كان كذوْب الذهب. وهذا الاختيار الحسن جعلني أغرى بأحسن ما في الشعر العربي . وكان استاذنا في اللغة الانكليزية المستر ستيفنز لا يقتصر على الكتب المقررة بل كان يشجعنا على قراءة كتب أدب اللغة الانكليزية في طبعة سهلة رخيصة وكان يجمع منا نقوداً ويشتريها لنا فأطلعنا على مجموعة صالحة من الكتب التي كان قد سهَّل طبعها للتلاميذ المستر ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية . ولم يقتصر على الادب بل كان يشجعنا على اقتناء نسخ رخيصة جدًّا ومتقنة من الصور الفنية واظن ان المستر ستيد كان ايضاً صاحب هذا المشروع. ومما يدل على تأثري بالبارودي اني رثيته عند موته بقصيدة طبعها خليل بك مطران في مجموعة مراثي البارودي ولا اذكرها الآن. ولكن لا احسب انها كانت ذات قيمة . وقد زاد اطلاعي على الادبين العربي والانكليزي في مدرسة المعلمين العليا وكانت الوزارة قد وزعت علينا كتاب الذخيرة الذهبية في الشعر الانكليزي وكتباً اخرى وكتاب الذخيرة يدل على حسن اختيار وسعة اطلاع وهذه هي الكتب التي تأثرت بها في نشأتي الاولى وقد أطلعتُ المرحوم حافظ بك ابراهيم على قصائد من قصائد الجزء الاول من ديواني في حفل حضره ففطن الى اني احتذي شعراء الصنعة العباسية كما في قصيدة البيت الآتي :

عميَ الدجى عن مطلع الفجر في ليلة كسريرة الدهر

وفي هذا البيت احتذاء لقول ابن المعتز

يا ليلة نسيَ الزمان بها احداثه كوني بلا فجر

وفي البيت :

لا تلحَ مشتاقاً على شجن ان الشباب مطيةُ العذْرِ

احتذاء لقول الحسن بن هانيء : (ان الشباب مطية الجهل)

والقصيدة (أشكو أشواقي وأنت دليلها) فيها احتذاء ظاهر لقصيدة الشاعر الذي يقول

(وانت ولا منٌّ عليك حبيبها) وقصيدة (راحة الهوى تعب) فيها احتذاء لقول الحسن بن هاني (حامل الهوى تعب) وقصيدة :

وزاولتُ السباق بها فلما سبقتُ البرقَ جاريتُ المرادا
بلغتُ بها المدى فلو استزادت عُلُوًّا ما وجدتُ المستزادا

فيها احتذاء لقول المعري :

وكم من طالبٍ أمدي سيلقى دوين مكانيَ السبع الشدادا
ليَ الشرف الذي يطأ الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا

والبيت :— أيُّهذا الغريب بالبلد النا زح ماذا دهاك عند الغروب

فيه احتذاء لقول الشاعر ولعله العباس بن الأحنف

يا رحمة للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا

ولو ان الوزن مختلف . وقصيدة

فكأنهنَّ أزاهر منثورة نثر المبشر غُرَّة الخبر النَّدي

في بعض أساليبها محاولة احتذاء مسلم في قوله (عاصى الشباب فراح غير مُفنَّد) والبيت :

ذكرتُ به ليلاً كأن نجومه ثقوبٌ نرى منها الصباح المستَّرا

فيه احتذاء لقول ابن المعتز (ثقوب نرى منها الصباح وأنقابا) وقصيدة :

شكوتُ اليه ذلتي فتحكما وأرسلت دمعي شافعاً فتبرَّما
وقال له الواشون أنت وصلته بعينك طيفاً في الكرى فتظلما
وخبّر اني سوف أخلس نظرة اليه فأضحى بالحياء مُلثَّما

فيها احتذاء ومعارضة لقول أبي تمام

تلقّاه طيفي في الكرى فتجنّبا وقبّلتُ يوماً ظلّهُ فتغضّبا
وخُبّرَ أني قد مررتُ ببابه لاخلس منهُ نظرة فتحجّبا

وقصيدة:— وكيف ألوم الدهر فيما يريبني وأحسن شيء في الزمان عيوبه

في بعضها احتذاء لقصيدة للشريف ومعارضة لها وهي التي يقول فيها :

وإني لعرفان الزمان وغدره أبيت ومالي فكرة في خطوبه

ولم يعب حافظ ابراهيم هذا الاحتذاء وهذه المعارضة بل أثنى عليهما وقال أنهما ينجيان من رطانة الفرنجة وعلى مرّ الزمن قللت من هذا الاحتذاء الظاهر وبقيت في ذهني نصيحة حافظ وأثر الشعر العربي المختار المتنوع الذي احتذيته . وفي هذا الجزء الاول أثر أيضاً لما اطلعت عليه من الشعر الانكليزي مثل قصيدة (تحية للشمس عند شروقها) وقصيدة (حنين الغريب عند

غروب الشمس) وقصيدة (رثاء الحب) وكان احتذائي للشعر الانكليزي في توليد الموضوعات الجديدة لا في أساليبه. وبعد انتهائي من مدرسة المعلمين سافرت في بعثة الى انكلترا سنة ١٩٠٩ اي قبل الحرب العظمى بنحو خمس سنوات وطبعت الجزء الثاني بعد عودتي ولا تغلب عليه نزعة التشاؤم ولا نزعة المذهب الطبيعي ولم افهم تمام الفهم ما يعني الكاتب بالمذهب الطبيعي. ففي الديوان قصائد ونظرات في حياة الامم وفي الايمان والقضاء وفي الحياة والعبادة وفي القلق الذي هو مصدر الرقي وفي الجمال والعبادة وصلتهما وفي ضحكات الاطفال وفي وصف البحر وفي معانٍ لا يدركها التعبير وفي لسان الغيب وفي الشاعر وصورة الكمال وفي عيون الندى وفي الانسان والزمن وفي ابتسامات وفي الحسن والآمال النبيلة وفجر الشباب والايمان بالحياة الخ. ولا يقول ان التشاؤم يغلب عليه الا من لم يتح له الاطلاع عليه او من يتعمد التضليل. وفي الديوان اثر دراسة شعراء مختلفي النزعة فلا يستطيع مطلع ان يقول انهُ تغلب عليه نزعة شاعر واحد او مذهب واحد فان كان فيه تشاؤم وحزن ففيه أمل وسرور وما يصدق على هذا الجزء يصدق على غيره . ومن المشاهد ان الشاعرين الانكليزيين اللذين تأثرت بهما في اول الامر كانا بيرون وشلي وأعجبت بيرون لقوة شعره وبشلي لطموحه الى المثل العليا وهما من شعراء المذهب الخيالي لا المذهب الطبيعي ولولا ان التبسط في الشرح يأخذ من المجلة مكاناً أعظم لتبسطنا

***

كان هذا الشرح التاريخي ضرورة كي استخلص منهُ نصيحة للشبان وهي ان لا يقصروا اطلاعهم على شاعر دون شاعر أو على عصر من عصور الأدب دون عصر وان يكون أساس إطلاعهم الأدب العربي واما الأدب الأوروبي فهو لنا في المنزلة الثانية ولا يكون الأطلاع عليه مفيداً الا بعد دراسة الأدب العربي في العصور المختلفة وينبغي ان لا يغترّوا بالنظريات التي يذكرها نقاد يكتبون مقالات مطولة من غير ايراد الشواهد العديدة والأمثلة من شعر ونثر ومن غير نظر الى جوانب الموضوع، وينبغي أن لا يخدعهم قول من يريد تلقيح اللغة العربية بأساليب افرنجية الا ماكان يمكن قوله على سبيل الاستعارات والتشبيهات بحسب أصول اللغة ولو لم يطلع قائله على الشعر الأوروبي ، ولا أن يخدعهم قول من يفضّل جمال الدين بن نباتة المصري على عبد العزيز بن نباتة السعدي على ضآلة الاول وعظم مرتبة الثاني لان الاول كان مصرياً ولغته أسهل وأقرب الى لغة الكلام فهذا ليس أجل شيء في الشعر وتعمد جعل لغة الشعر قريبة من لغة الكلام لا يأتي بالسهل الممتنع وإلا ماسُمّي ممتنعاً فهو ممتنع لانهُ بعيد عن ركاكة وغثاثة وفتور من يحاكي لغة الكلام ، وأرجو أن لا تخدعهم ايضاً الأزياء التي تذيع في الشعر أو النثر ثم لا تلبث أن تنطوي وتزول كما تطوي الازياء وربما خلّفت قوةُ الشاعر الممتاز الذي

يكتب على منهج تلك الازياء والعادات المؤقتة قصيدة أو قصيدتين فيهما ثمرة وفكرة وروح من العبقرية والخلود ولكن اكثر شعر هذه العادات المؤقتة يُكنس كما تُكنس بقايا الطعام. ومن هذه العادات والازياء التي ينادي بها مذهب الرمزية فكل شاعر يستخدم الرموز ولكن ليس كل شاعر بشاعر رمزي ولا بد أن يذكر الشبان أن الشعر صنعة وأن النثر صنعة وليس معنى هذا القول انهم ينبغي أن يثقلوا قولهم بالاساليب حتى يصبح قولهم كالكابوس فان الصنعة شيء والتصنع والتكلف أمران آخران ولا يُعرف الفرق الا بالاطلاع على الصور المختلفة كي لا يعيش الواحد منهم عالة على شاعر واحد قديم أو حديث مهما يكن كثير الأناقة ولا يغرنهم قول من يريد ان يبشر كالمبشر الديني ببعض الآراء العلمية الحديثة من غير ان تحولها كيمياء النفوس وصنعتها من صيغة العلم الى صيغة الفن ومن غير ان تختمر في وجدان الفنان ومن غير ان يميط ذوقه عنها غثاء المغالاة وقلة الاتزان في المناداة بها فان تعصب الشاعر شلي لآرائه المخالفة للاديان يقل من قيمة فنه وصنعته حتى لدى من لا يؤمنون بالاديان وانما تقل مرتبة شعره عند هؤلاء لا من اجل غيرتهم على الاديان بل من اجل ان بعض التعصب ضد الأديان يفقد الشاعر اتزانه وقدرته الفنية وذوقه. وكذلك كل تعصب لرأي سياسي او اقتصادي قد يفقد الشاعر بصيرته النفسية وذوقه ويقلل من قيمة شعره فالذوق الفني والبصيرة النفسية المتزنة لازمان حتى للشاعر الذي يريد أن يعبر عن شكوك نفسه. وكذلك احذر الشبان مما يسمى بالشعر الحر ويعني به اصحابه قصيدة تكتب اشطرها وأبياتها على بحور عروضية مختلفة وهذا الشعر يذكرني قصة ملك زنجي من اواسط افريقيا ومن رعايا الدولة البريطانية زار لندن عاصمة انكلترا فنظمت له وزارة الخارجية حفلة موسيقية وبعد توقيع الأدوار طلب الملك الزنجي ان يعاد توقيع الدور الاول فوقعه العازفون فقال ليس هذا بالدور الأول فأعادوا توقيع كل الادوار وهو يقول ليس هذا بالدور الاول وأخيراً سكت الموسيقيون للاستراحة وجعل كل منهم يصلح آلته الموسيقية وهو في اثناء اصلاحها يُخرج منها صوتاً يختلف عن اصوات الآلات الأخرى فصاح الزنجي ها هو الدور الأول. والشعر الحر المختلف الأوزان في قصيدة واحدة قصيرة وفي البيت الواحد انما هو من قبيل هذا الدور الاول. وقد بلغ من استهتار بعض الأفاضل انهم يسخرون ممن يتذوّق العبارات كما يتذوّق الشارب شرابه من اللذة. وربما كان فعلهم هذا من قبيل رد الفعل بسبب مغالاة بعض الشعراء في إثقال شعرهم بكابوس من الاساليب العربية الصحيحة التي ليس تحتها طائل والتي يهيلونها حتى تصير اكواماً تخفى تحتها غثاثة المعنى ونضوب العاطفة. وأنا لست ممن يطري طريقة هؤلاء ولا طريقة الساخرين الذين يتجاهلون ان الشعر صنعة وانما يدفعهم الى هذا التجاهل خوفهم من كابوس التصنع

لقد نشرت في المقطم والمقتطف والرسالة قصائد عديدة ففي المقتطف نشرت قصائد موضوعاتها النشوء والارتقاء والحق والحسن وقيد الماضي وحواء الخالدة وحالتان للنفس ونشرت في المقطم قصيدة الى المجهول والخلق العظيم ونشرت في الرسالة قصائد في موضوعات مختلفة وهي مختلفة لاختلاف جوانب الثقافة الفكرية والنفسية التي انشدها . وبالرغم من اجلالي لخليل بك مطران والدكتور ابي شادي اقول انها ليس فيها احتذاء لطريقة خليل بك ولا تقارب من طريقة ابي شادي في الذوق . واهدائي نسخة من ديوان الشريف الرضي للاستاذ المازني سنة ١٩٠٦ يدل على مذهبي في الشعر وان كنت لا اتقاني في أساليب الشريف ولا ارفض ما عداه من شعراء عصره او العصور الاخرى . اما التقارب بيني وبين الاستاذ العقاد في الثقافة الشعرية فسببه اطلاعنا على ثقافة واحدة كما أوضحت . وقد فسر بعض الادباء شيئاً من قولي على غير ما اردت فقصيدة (بين الحب والبغض) في الجزء الثالث وهي القصيدة التي التى عنها الاستاذ المازني محاضرة كما ذكر لي في خطاب انما هي دراسة نفسية اغرت بها ابيات لجميل بن معمر الشاعر العربي يقول فيها (رمى الله في عيني بثينة بالقذى) وقصيدة (ليتني كنت الـهاً) في الجزء الثاني اغرى بنظمها الاطلاع على الخرافات الاغريقية والتأثر بقدوة هيني الشاعر الالماني وهي ليس فيها تمجيد لعمل ذلك الانسان الراغب في صلاح الكون لانه لم يصلحه وفيها تمجيد للفنون ومسراتها ولكن صرف النفس عن الاحاسيس الاخرى غير الفنية مضرّة كما وُصف في هذه القصيدة وكما وصف تيسون الشاعر الانكليزي في قصيدة (قصر الفن) . وكذلك يأبى بعض الافاضل الا ان يسيء تفسير قصيدة (حُلُمٌ بالبعث) وهي سخر بعيوب النفس الانسانية من تقاتل وتهافت ولمثل هؤلاء الافاضل اقول اقرأوا قصيدة (صوت الله) و(الملك الثائر) و (الارواح الطليقة) و(سجن الفضيلة) و(زورة الملائكة) و(المثل الاعلى) و(صلاة مؤمن) و(الكونان) و(الامل) . والظاهر ان القارىء لا يأخذ من قول القائل الا ما يشاء لغرض في نفسه ثم يفسره بما تشاء اهواؤه والا ما ترك قارىء قصيدة (الباحث) وغيرها من القصائد التي تدل على طموح الى المُثُل العليا وعلى امل في الحياة والانسان ولما تغابى احدٌ عن ان الامتعاض والسخر قد يكونان مظهراً من مظاهر الأمل والرجاء ولما ترك القارىء قصائد عديدة في مذاهب جويتي او برونتج الثقافية وتشبث بقصائد فيها وصف خفيف لمقابح النفس الانسانية على طريقة سوينبورن

***

هذا ولست ممن يدعي لنفسه العصمة من خطأ اللفظ أو العقل او النفس ولو اني طبعت شعري لحذفت منهُ اشياء لاقيمة لها ، او يُساء بها الظن على نحو ما اوضحت في هذا المقال

ولعلّ من تمام الفائدة والحجة ان نذكر شواهد أخرى من الجزء الاول للدلالة على ما كان من احتذائي العباسيين في صناعتهم ولابطال زعم الناقد الفاضل في الجزء الاول قصيدة عنوانها (شكوى) منها :

ومُطَّلِبٍ بالعتب هجريَ لم أزل ... أداريه حتى عارضتهُ مَذَاهِبُهْ
يعالج مني باسم الثغر راضياً ... وأخبرُ رغراً أنكرته معائبُهْ
أجود بنفسي في هواه سماحة ... ويبخل بالنزر الذي أنا طالبُهْ
وما كل أمرٍ تستقيم صدوره ... لمن لم يَرُضْهُ تستقيم عواقبه
لقد سامني ان أقبل الذل ضلة ... هل الغبن الا ما تُنِلُ مطالبه
ووكّل بي الاعراض حتى ألفتهُ ... وما كل صافي الوجه تصفو مشاربه
وليلٍ كاغضاء الحليم ادَّرَعْتُهُ ... لأقضيَ او تنجاب عني غياهبُهْ

وفي هذه القصيدة احتذاء لقصيدة لبشار على الوزن والقافية والروي وفيها دعوة أيضاً الى التسامح في الاخاء وهي التي يقول فيها

اذا كنتَ في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئتَ وأي الناس تصفو مشاربه

***

ولعلّ ناقداً يقول كيف يتفق الاحتذاء وارضاء مطالب النفس وهذا الناقد يفوته ان الاحتذاء شيء والنقل والاخذ بالنص أو شبه النص شيء آخر . والاخير هو الذي لا يُرضي مطالب النفس والوجدان . وفي قصيدة (خداع النواظر) في الجزء الاول وصف الطبيعة منه

نسمات الربيع تخفق كالعتـب برفق فيطرق الليب الحبير
فهي تغدو ما بين غصن نضير ... فأن حسنه وغصن نضير
كالرسول الاديب بين محب ... وحبيب أو كالحكيم السفير
يعقد الصلح في أناة كما يعقد ... رب النهى تضاد الامور
وضياء الشمس المنيرة كالبشر ... اذا ما احتواه وجه البشير
وهناك الطير المغرد كالشاعر ... يتلو حمد الزمان النضير
نغمات لم يحوها المطربُ البارع ... الأ دعـوى تفاق وزور

الخ . وهي احتذاء لقصيدة المعري التي يقول فيها : —

فهي تختال في زبرجدة خضـــراء تُنْدَى بلؤلؤ منثورِ

وغدت كل ربوة تشتهي ارقـــص بثوبٍ من النبات قصيرِ

وفي القصيدة بعض قوافي المعري كدعوى شقاق وزور من قول المعري (دعوى شقاق وزور) وتشبيه النسيم بالعتب فيه التفات الى قول جحظة (عتاب بن جحظة والزمان). ومن فكاهات النقد ان ناقداً انتقد في قصيدة رثاء مصطفى باشا كامل قولي (والمنى دانية والمجد عالي) وقال هذه عبارة تعوزها الفخامة قلت هي من قول شاعر الفخامة الشريف الرضي : (فالمُنى وافية والمجد عالي) في قصيدة له في الرثاء. وزعم ناقد آخر ان عبارة (الأمل المعسول) انكليزية قلت هي من قول ابي تمام

كانت لكم اخلاقه معسولة فتركتموها وهي ملح علقم

وقد استخدمها البحتري وغيره اكثر من مرة في وصف الآمال والاحلام والايام والليالي الخ وفي الجزء الاول قطعة عنوانها (غُلالة الصهباء) منها :

تتمشّى الحياء في الخد حتى حجّبتْهُ غُلالة الصهباء

والمراد احمرار كاحمرار الخمر وهذا احتذاء لغلالة خمر في قول ابي تمام

خدش الماء جلده الرطب حتى يخلتهُ لابساً غـــلالة خمر

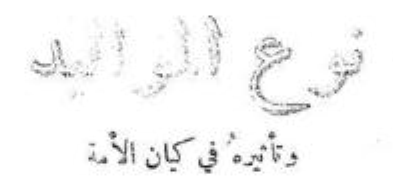
***

هذه الشواهد تدل على منشأ ثقافي في الادب العربي كما ان قصيدة (بيرون) شاعر المذهب الخيالي في الجزء الأول تدل على منشأ ثقافي في الأدب الانكليزي وهي التي قلت فيها :

تقول قولاً فتُذري الدمع من شجن كأنَّ قلبك مداولٌ على الصبر

ألبسته من سواد الحزن ضافية تخلتها من سواد القلب والبصر

ورثائي البارودي فيه دلالة اخرى كما ذكرت . ولحافظ ابراهيم فضل على الادب المصري حتى ان شوقي بك نفسه في اول امره لم يكن يتذوّق الأساليب ويتوخى الاناقة حتى خشي على شهرته من نبوغ حافظ واشباهه بتذوق الأساليب فجاراه شوقي وجاراه مطران . وقد أتمت معرفتي بأقوال جويتي الالماني وقدوته ما بدأته معرفتي بسعة اطلاع الشيخ المرصفي الكبير في كتاب (الوسيلة الادبية) من توخي الثقافة المتعددة الجوانب وهذا موضوع يستلزم مقالاً آخر لاثباته بالشواهد والأدلة وسأكتبهُ



وتأثيره في كيان الأمة

الدكتور شريف عسيران

بحثنا في مقالنا السابق مشكلة زيادة السكان وبينا بالارقام الصحيحة ان لا زيادة حقيقية في الوقت الحاضر تدعو الامم الى النزاع والخصام وتحديد النسل بالوسائط الوحشية . ونتطرق الآن الى ناحية لها التأثير الاكبر في كيان الامم وقوتها الجسدية والعقلية وهي نوع المواليد لا عددهم

ان الزيادة التي يكثر فيها المجانين والحمقى والبله والعمي وضعفاء الجسم والسل والخاملون والعاطلون والشحاذون و المجرمون والمدمنون لاخير فيها وهي انتحار مدمن للامة . وقد بينا في مقالنا « العلل الوراثية الجسمية والعقلية » [1] مدى انتشارها في مختلف الامم . ومما لاشك فيه ان الامة التي قوامها من اجود عناصرها ، خير من التي قوامها من أشدها فساداً

اذا دققنا النظر في مواليد الامم رأينا الطبقة غير المتعلمة اخصب من المتعلمة ويعزى ذلك الى عوامل عديدة أهمها (١) عدم المساواة في انتشار طرق تحديد النسل بين الطبقة المتعلمة وغير المتعلمة فالاولى اكثر الماماً بها واستعمالاً لها (٢) يحصل ارباب الحرف أوالطبقة غير المتعلمة على أعظم حد دخلهم وهم في شرخ الشباب فليس ما يدعوهم الى تأخير سن الزواج حالة ان الطبقة المتعلمة لاتبلغ هذه الدرجة قبل سن الاربعين (٣) ان مشكلة المتعلمين الاقتصادية أعقد من مشكلة غير المتعلمين لان مستوى الطبقة الاولى الاجتماعي أعلى من مستوى الثانية فضلاً عن ان الاخيرة تعتمد على اولادها لاعالتها في شيخوختها اكثر من الاولى [2] . فهذه العوامل وغيرها تشجع كثرة تناسل الطبقات غير المتعلمة وتقلل نسل المتعلمة وتكاد بعض اصناف هذه الطبقة تبلغ العقم كما سنبين

ان عدد خريجات الجامعات اللاتي يتزوجن بعد تخرجهن يربي قليلاً على الخمسين بالمائة وقد وجد « هومز » ان نسبة خريجات جامعة كلفرنيا اللاتي تزوجن بين سنة ١٨٧٠ — ١٩١٠ كان ٥٦ بالمائة ونسبة غيرها من الجامعات تقاربها . ونجد النسبة نفسها في النساء اللاتي فيهن درجة من الذكاء تجعل كسب العيش لهن ميسوراً [3] اما نسبة الرجال الذين يتزوجون فانها أعلى من

---

(١) المقتطف مارس ١٩٣٨ : ص٣١٣ (٢) ملخص من دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت لفظة Eugenics (٣) The Eugenic Predicament, p. 84

النساء اذ تقرب من تسعين بالمائة وتدل ابحاث Muckermann في جامعات المانيا ومدارسها العالية ان معدل العمر الذي يتزوج فيه اساتذتها هو سن الثلاثين والنساء سن العشرين ويتأخر على الاجمال بسن الزواج اصحاب الحرف العالية اكثر من اصحاب المهن التي تتطلب مهارة يدوية (Skilled artisans) وهؤلاء يتأخروا اكثر من تأخر ارباب المهن التي دون ذلك فيقل نسل الفئة الاولى ويكثر نسل الثانية

ان نقص المواليد الذي ابتدأ في اكثر الممالك الاروبية منذ اواخر القرن التاسع عشر من اهم الحوادث التي تستوقف الانظار في تطور النوع البشري الحديث ومن ابرز صفات هذا النقص ان معظمه بين الطبقات الممتازة . ويظهر من احصاءات Whetham ان معدل مواليد الاسر الارستقراطية والمثقفة بلغ ٧ في انكلترا في القرن الثامن عشر وهبط سنة ١٨٨٠ الى ٤،٥ وسنة ١٨٩٠ الى ٣ ويظهر من استقصاء David and Heron لمواليد لندن ان الاسر الكبيرة كانت منتشرة بين الطبقات الرفيعة والوضيعة والارجحية للاولى ثم هبطت وتدنت سنة ١٩٠١ وهكذا شأن اكثر الامم وقد وجد «كاتل» في اثناء تتبعه ٢٦١ اسرة من الاسر الاميركية المثقفة ثقافة علمية ان معدل مواليد الاسرة الواحدة ١٨٨ ويقدر ان الف اسرة اميركية من هذا النوع لا تخلف اكثر من ٣٥٠ حفيداً اذا حذفنا منها من لا يبلغون سن الزواج . ووجد «مكرمان» ان معدل اولاد اساتذة المدارس العالية في المانيا سنة ١٩١٦ بلغ مقدار ٢،٢ . وبلغ نسل اسر خريجي جامعات هارفرد سنة ١٨٨١—١٨٩٠ مقدار ٢،٠٦ لكل اسرة وجامعة يل ٢،٠٤[١] ومن اقوال كاتل المأثورة : لخريج جامعة هارفرد ثلاثة ارباع صبي ولخريج جامعة فاسار نصف بنت

ان جميع الاحصاءات تدل على نقص بارز بين الطبقات المثقفة التي يجب ان يتحدر منها خيرة ابناء الامة . وقد وجدوا بجامعة كليفورنيا ان عدد مواليد تلامذتها ينقص بنسبة درجة تهذيب الآباء فكلما زاد التعليم نقصت المواليد وعكس ذلك نسبة مواليد الذين لم يتجاوز آباؤهم التعليم البسيط فانها تبلغ ٤،٦٧ واذا كان الابوان متعلمين تعلماً كافياً فتبلغ النسبة ٣،٣٨ واذا كانا خريجي احدى الكليات فالنسبة ٣،١٠ وهلم جراً . وقد درس Stevenson خصب الطبقات الصناعية في انكلترا وويلز سنة ١٩١١ فتوصل الى النسب الآتية :—

	عدد أولاد الاسرة الواحدة	عدد من عاشوا منهم
الطبقة العليا والوسطى [٢]	١،٩٠	١،١٨
الطبقة السفلى	٢،٤١	٢،٠٥
طبقة الحرف الصناعية (Skilled)	٢،٧٩	٢،٣٢
طبقة الحرف شبه الصناعية (Semi-skilled)	٢،٨٧	٢،٣٧
طبقة الحرف الدنيئة	٣،٣٧	٢،٦٨

(١) The Eugenic Predicament, Halmes, p.85-88 (٢) The Eugenic Predicament, p. 88

وتوصل غيره الى النتيجة نفسها في المانيا والولايات المتحدة ولا حاجة الى إثبات احصاءاتهم اذ يكفينا النموذج المذكور

ليس من المعقول ان يصير الاحمق استاذاً للرياضيات ولا يستطيع ان ينجح حتى في الحرف البسيطة كالنجارة او تصليح السيارات فهذه الحرف الدنيئة . ومن الممكن ان تلجىء الظروف ذوي المواهب الى احتراف حرف لا تتفق وكفاءتهم ولكن لا بد ان يبلغوا يوماً ما هم اهل له . ان ارتقاء الشخص بارتقاء المهنة ينطبق على البلاد الصناعية التي يتمتع اهلوها بوسائل التعليم على السواء ويتاح لكل منهم نفس الفرص التي تتاح للآخر فيتوصل كل فرد الى الدرجة التي يستحقها والبلاد الاميركية مثال لهذا النوع . ولكن هذا الحكم لا ينطبق على الاقاليم الزراعية حيث معظم الاهلين جهلاء لا تتاح لهم وسائط التعليم والتثقيف كالبلاد الروسية مثلاً"(١)

ومن رأي « هومن » ان ذكاء الفرد يتناسب مع علو المهنة يعلو بعلوها ويدنو بتدنيها وتحصيل ذلك بطريقة غير مباشرة فمن به موهبة للرياضيات او الموسيقى او الرسم تدفعهُ عوامله الطبيعية الى اغتنام الفرص لاعتناقها ومن لا قابلية فيه لا يستطيع احترافها فيحترف ما هو ادنى منها. وهذه القاعدة اجمالية لا كلية وقد ايدتها امتحانات الذكاء في الجيش الاميركي في اثناء الحرب العامة التي مع ما يشوبها من النواقص افادت بعض الفائدة من هذه الناحية . فالاشخاص المنتسبين الى الحرف العالية كانوا أعلى كعباً بمقاييس الذكاء واصحاب الحرف التي لا تتطلب مهارة جاؤوا دونهم والنجارون والباعون والطباخون والخدامون كانوا بين بين بحسب مهنهم (٢) واذا استقصينا سير اذكياء الرجال وجدنا نسبة كبيرة منهم متحدرة من طبقة متعلمة ونسبة اقل من طبقة رجال المال والاعمال اي كبار التجار واصحاب الشركات واضرابهم . ومن النادر ان نجد نوابغ متحدرين من طبقة الذين يمتهنون المهن الدنيئة . وقد جاءت تتبعات De Condelle لاعضاء المجمع العلمي الافرنسي وتتبع Adin لسير ٦٢٣ من مشهوري فرنسا وغالتون لعلماء انكلترا وهافلوك الس لنوابغ انكلترا مؤيدة لهذه النتائج وتوصل Visper الى النتيجة نفسها بتتبع انساب الرجال المذكورين في كتاب مشهوري اميركا Who's who وقد اجرى Duff and Thomson امتحان الذكاء على ١٣٤١٩ شخصاً بين سن ١٠ — ١٣ في مدارس Northumberland فوجد حاصل الذكاء ينقص كلما تدنت حرف آباء الاولاد الذين اجريت عليهم هذه التجارب بالنسب الآتية

اولاد اصحاب المهن الحرّة Professionvl Classes (٣) ١١٢،٢

---

(١) The Eugenic Predicament p. 90-91

(٢) The Eugenic Predicament, p. 92

(٣) عائلتان اميركيتان يضرب بهما المثل بالانحطاط العقلي

نظار الصناعات Industrial ovesers	١١٠٫٦٠
تجار الجملة	١٠٩٫٤٣
الجنود والشرطة ومستخدمو البريد	١٠٥٫٤٩
تجار المفردات	١٠٥٫٠٠
الصناعيون Technicians	١٠٢٫٤٩
الفلاحون وعمال الزراعة	٠٩٧٫٠٦
عمال الحرف البسيطة Unskilled	٠٩٦٫٠٠

وتوصل تيرمان الى نتائج تقرب منها وتتبع بروكين Prokein نسب ٣٦٤ تلميذاً من ضعيفي العقول في مدارس مونيخ الخاصة فوجد اكثرهم من سلالة آباء يمثلون الحرف البسيطة وكان عددهم ثلاثة اضعاف الاولاد الذين يمتون الى آباء يمثلون الحرف المهمة التي تقتضي مهارة Skilled

فيتضح مما تقدم ان درجة الذكاء ترتفع وتنخفض على الاجمال بارتفاع وانخفاض المهنة . ويشذ عن ذلك الطبقة التي تمثل اسفل دركات الذكاء ولكن هذه الفئة قليلة في الوسع اهمالها . والطبقة الخطيرة التي تؤثر في مشكلاتنا الاجتماعية هي طبقة ضعاف العقول امثال Jakes و Kallikas (١) واضرابهم في اميركا والنورّ في العالم اجمع فهذه الفئة ضربت الرقم القياسي بالشحاذة والتنقل والبغاء والجرائم ورغماً عن كثرة وفياتها فانها تزداد بصورة مستمرة ونذكر على سبيل المثال نموذجاً واحداً منها اي من ضعاف العقول : Palley وهو اسم متسولة اميركية في انديانا كان لها بحسب رواية الدكتور بطلر احد عشر ولداً لقطاء لكل منهم اب غير اب الآخر . وكان لأحدى بناتها الضعيفة العقل ايضاً ثمانية أولاد غير شرعيين سبعة منهم يمقياسها الذكائي . وقد ولدت احداهن اربعة اولاد غير شرعيين فتحدر من هذه الفئة فقط ٢٣ ولداً غير شرعيين وتحدر من صلب بولي ٥٦ شخصاً ٣١ منهم قاصرو العقول و ١٨ من هؤلاء عالة على المعاهد الخيرية وعاش ١٦ منهم ٧٢ سنة على النفقات العامة وكلفوا مقدار ١٠٨٠٠ دولار . هذا فرع من اسرة تبلغ ٤٧٧ فرداً يمثلون سبعة اجيال ويوجد كثيرات من هذا النوع . يقول هوبهام ان النساء القاصرات العقول سواء منهن المتزوجات او الداعرات ولودات لدرجة قصوى فيلدن من ٥ — ٧ اولاد قبل سن ٢٧ واكثرهن يورثن ضعف العقل لاولادهن ويقول بوبنو ان اشدهن نقصاً اكثرهن خصباً (٢) . وذكر السير جورج نيومان مدير صحة بريطانيا ان في عُشر الشعب البريطاني من ناقصي العقول (٣)

(١) The Eugenic Predicament, p. 95
(٢) The Eugenic Predicament 96-97
(٣) Eugenic Sterilization 1936



مذهب جديد في الفلسفة الكونية

لا جوهر ولا عرض

ليس في الكون الا حوادث متجاورة

لحنا خباز

برتراند رسل الانكليزي من اعلام الفلسفة الاحياء اليوم ، ان لم اقل انهُ من اعلام الفلسفة في جميع العصور . ولهُ مؤلفات كثيرة لا داعي الى تعدادها هنا ، من أحدثها وأهمها الكتاب المدعو « الفلسفة » Philosophy . أورد في الفصل الثالث والعشرين من ذلك الكتاب موازنة المذاهب الفلسفية ونقدها . وتخلص منها الى الاشارة الى تفكيره الخاص ، او المذهب الفلسفي الذي يأخذ بهِ ، وهو ما دعوتهُ « الفلسفة الحوادثية » ، نسبة الى الحوادث ، جمع حادثة ، وهو مذهب مطبق على آخر نظريات العلوم الطبيعية والنفسيَّة ، وسأورد بعض اقواله في تبيان ذلك المذهب في آخر هذه المقالة

قال رسل « تعنى الفلسفة بالكون اجمالاً ، لا بالانسان وحده . وانما تقوم مكانة الانسان في انهُ الآلة التي بها يمكن فهم الكون »

الثالوث اليوناني

اقول : اذا أحللنا قول رسل هذا محل الاعتبار فأين نضع اول ثواليث الفلسفة . أعني به الثالوث المؤلف من — سقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس — ؟ فإن سقراط لم يُعنَ بغير الانسان من موضوعات هذا الكون في ما نعلم . وخلاصة فلسفته يرد في القول الجامع « اعرف نفسك » . فالانسان ، اخلاقيًّا ونفسيًّا ، هو كل ما عرفناهُ في فلسفة سقراط . ولم يحفظ لنا التاريخ اثراً سقراطيًّا يثبت انهُ عني بغير الانسان من شؤون هذا الكون

اما تلميذه وخلفه افلاطون — ثاني اقانيم ذلك الثالوث — فكان أوسع تفكيراً ، وأبعد مدًى ، من استاذه وسلفه سقراط . وآثاره أوقع في النفس ، وأخلد في ميدان الجهود البشرية من آثار سقراط . على اننا اذا جمعنا تلك الآثار كتلة واحدة ، فلا نجد فيها غير الانسان ، وما يتعلق بالانسان من الابحاث والقضايا والآراء . كما يبدو ذلك واضحاً في كتاب « المائدة »

وهو حديث في الحب . وكتاب « الجمهورية » وهو نظرة في « العدالة » . وكتاب « الشرائع » وهو اسم على مسمّى . وكذلك سائر مؤلفات افلاطون وهي ما يقرب من اربعين كتاباً سداها ولحمتها الانسان والشؤون الانسانية عمرانيًا وسياسيًا ونفسيًا واخلاقيًا . فالانسان عند أفلاطون ، كما هو عند استاذه سقراط ، محور الفلسفة . وقد ذهب ارسطوطاليس — وهو ثالث اقانيم ذلك الثالوث — الى ابعد مما بلغ سلفاه فخاض ابحاثاً لم تلمسها براعة افلاطون ، ولا داناها فكرة سقراط . « كالمنطق » و « علم الاحياء » و « الميتافزكا » ، علاوة على « السياسة » و « الاخلاق » و « الظواهر الجوية » وترك لنا مائة كتاب تشتمل على خلاصة تفكيره وعلومه. وقد كانت تلك المؤلفات غرراً في جبهة الازمان . على انك اذا أنعمت النظر فيها رأيت ان جلّها ان لم يكن كلّها ، يدور حول الانسان والموضوعات المرتبطة بالانسان كما في كتبه في « السياسة » ، وفي « الاخلاق » ، وفي « المنطق » . وقد خص بعض مؤلفاته بـ « ما وراء الطبيعة »

والخلاصة ان اقانيم الثالوث الاول ، من ثواليث الفلسفة ، وهم اساطين الفلسفة القديمة ، على ما لهم من طول الباع ، وثاقب النظر ، كان همهم منصرفاً ، بالاكثر ، الى النظر في الانسان ومعالجة شؤونه الاجتماعية والنفسية . والانسان جزء صغير من الكون ، وصغير جدًّا . فمع وافر احترامي اولئك الفطاحل الثلاثة لا أرى في تفكيرهم ما ينقع غلة ، او يشفي علة ، من حيث النظر في امر هذا الكون . لذلك عرج رسل عن ذكر هذا الثالوث في معرض الموازنة والنقد في مورد المذاهب الفلسفية . وحصر موازنته ونقدهُ في ثالوثين وفرد آخر . فالثالوثان هما الثالوث الاوربي والثالوث الانكليزي . والفرد الآخر هو « كانت » . فوازن رسل بين هذين الثالوثين ونقد مذاهبهم الفلسفية ، وردها الى وحدتين اساسيتين فيتين في نظام التفكير . ثم شرح وحلل فلسفة كانت . وفي آخر الحل أورد مذهبه الخاص

الثالوث الاوربي

ديكارت

ديكارت : هو ابو الفلسفة الحديثة ، وزعيم الفلاسفة في التاريخ الحديث . وبه يدخل التفكير في طوره الجديد المعروف عندنا بانهُ عبارة عن « الفصل بين الديانة وبين الفلسفة » . او استقلال الفلسفة وتحررها من الدين ، على نحو الفصل الحديث بين الكنيسة وبين السياسة

ذهب ديكارت في تفكيره ، الى وجود جوهرين مخلوقين ، او عنصرين أصليين ، هما المادة والروح . وهما غير الجوهر الخالق الازلي . ويرى ديكارت ان المادة والروح « غيران » متباينان . وهما يؤلفان الناسوت ، كما يؤلف عنصرا الاكسجين والايدروجين الماء . فالمادة تؤلف جسد

الانسان . والروح تؤلف نفسه . والناقد النزيه يرى في هذا القول العقيدة الدينية المتوارثة من عهد اوغسطينوس ، وما قبل اوغسطينوس الى عهد باراسلسس ، وما بعد باراسلسس . فالعقيدة الكنسية المأخوذة عن مفكري القدم ، والتي قال بها ابن سينا وابن رشد والفارابي ، هي لحمة فلسفة ديكارت وسداها . وان لم يكن هو يقصد ذلك

لا تناقش الكنيسة في عقيدتها لان مرجعها الوحي وهي مستندة الى الايمان . فهي حرة وهي فوق دائرة البحوث البشرية . وليس للانسان بازائها الاَّ احد امرين ، اما التسليم واما الجحود . فمن شاء آمن ومن شاء كفر . ومن أفدح الاغلاط ، وأشدّها ضرراً الخلط بين العقيدة وبين التفكير او ادماج الفلسفة في الدين ، او الدين في الفلسفة . فرجع الفلسفة العقل ، ومرجع الدين فوق العقل وهو الوحي والالهام . وسبيل الفلسفة التفكير . وسبيل الدين الايمان . فلا دخل للكنيسة في التفكير ولا لهذا فيها ، فالذي يناقش انما هو الفيلسوف ، وفي مناقشته تقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . ثم ان الفلسفة متغيرة والدين لا يقبل التغير والتطور

قال ديكارت بالمادة والروح . وعنده ان صفة المادة « الامتداد » وهو الطول والعرض والعمق ، وهي الصفات التي تؤلف الحجم . اما صفة الروح فهي الفكر . وليس للفكر أبعاد ولا حجم . ويرى ان هذين العنصرين منفصلين تمام الانفصال . فلا تفاعل بينهما . فالرياح تثير الغبار ، وتحمل القش ، والسيول تجرف التراب وقطع الاخشاب او الحصى . على ان الرياح لا تثير الفكر (ماديًّا) ولا تجرف المياه الشعور والرأي . بل ان الحيوان يجر الاثقال المادية ولكنهُ لا يجر العقل ، والروح تثير الفكر ولكنها لا تثير انواء البحار . فكيف تفعل الروح في المادة ؟ كيف احرك يدي ؟ ما الصلة بين فكري ، او روحي ، وبين العصب المحرك الذي يرفع اليد ويخفضها ؟ هذا هو المشكل الذي يعجز عنهُ ارباب الفلسفة الديكارتية ، ويذهب ديكارت في حله الى وجود سائل في جنبات الدماغ ، او تجواته ، ويدعى ذلك السائل الارواح الحيوانية Animal Spirits يؤثر في الاعصاب المحركة ويسوقها الى العمل . ولكن هذا القول لا تؤيدهُ الابحاث الفسيولوجية والنواميس الدينامية . والاختبار يرينا ألاّ صلة بين العقل وبين المادة

ويذهب بعض ذراري ديكارت الى وجود توازٍ بين الروح وبين المادة . ويراد بالتوازي وحدة الميل في الاشياء ، على نحو سير الساعات المتجاورة ، دون اتصالها بعضها ببعض . يقولون هكذا النفس والجسد ، فهما ميلان متماثلان ، او توازٍ . فحين يريد العقل ان يمشي الجسد تتحرك الرجل في الوجهة التي ارادها العقل . وكذلك حين يروم المرء العمل او الكلام ، فان اليدين واللسان تجريان طبق رغبة العقل .. هذا هو مذهب التوازي الفلسفي ولكن التوازي فرض لا يقوم على صحته دليل . ففلسفة ديكارت تترك مشكلة اتصال المادة بالروح غير محلولة

سبينوزا

ابتكر سبينوزا مذهباً فلسفيّاً بديعاً ، يتمشى على قواعد الهندسة ، او المنطق فهو مستكمل الوضع ، واضح الترابط . يبين لنا كتابه في « الاخلاق » Ethics متانة آرائه ، وسامي مداركه في هذا الشأن . فقد شاد فلسفة معقولة على الاسس التي وضعها ديكارت ، ولذلك حسب من ذراريه . الاَّ انهُ تقدم في تفكيره خطوة ، رمى بها الى حل المشكلة الآنف ذكرها — صلة المادة بالروح — فقال بوجود جوهر واحد في الكون او في الاكوان ، هو الجوهر الازلي ، فقال لا يمكن ان يوجد الاَّ جوهر واحد او عنصر واحد ، وهو الله جلَّ وعلا . فهو الكائن الأوحد ، الفرد الصمد . وعبارة سبينوزا الفلسفية هي « لاموجود غير الله » . اما الكون بأجمعه من مادة وعقل ، فهو صفة « الجوهر الازلي » او صفتهُ . وان شئت فقل صيغ جمع صيغة ، قال : للجوهر الأوحد مزيتان الفكر والامتداد . يؤلف الفكر عالم الروح . ويؤلف الامتداد عالم الحس او المادة . وعليهِ فكل ما في الوجود جزء منهُ تعالى ، وهذا هو مذهب ، تأليه الكون او الوهية الكون Pantheism . وهو المذهب الذي يوحّد المادة والروح ، ويجعلهما ظاهرتين او صفتين للجوهر الازلي . ولا أرى سبينوزا قد خرج عن حدود العقيدة الدينية المتوارثة . ففلسفته هي فلسفة ديكارت في الجوهر مع حسن الهندام والقالب الهندسي . فديكارت يجعل المادة والروح عنصرين مخلوقين أبدعهما الجوهر الازلي . اما سبينوزا فيجعلهما ظاهرتين لذلك الجوهر السامي الاوحد . فديكارت وسبينوزا سيَّان

ليبنتز

نبذ ليبنتز مذهب ديكارت ، كما نبذ مذهب سبينوزا ، فلم يقل بثلاثة جواهر جوهر خالق وجوهرين مخلوقين ، ولا بجوهر واحد متصف بظاهرتين ، بل ذهب الى وجود جواهر لا يحصيها العدُّ هي « المونادات » مفردها « موناد » . والموناد جوهر عقلي او قوة . وكل موناد مستقل عن كل موناد آخر . فالموناد كـكرة مقفلة — صامتة — لا كوة ولا حلقة . لا كوة يطل منها على موناد آخر ، ولا حلقة تصله بموناد آخر . فالله موناد . وكل نفس هي موناد . اما الجسد فليس موناداً ، بل هو عبارة عن كتلة مونادات متطمة فهو يشبه القول ان الجسم العضوي مؤلف من عناصر . ولكن المادة ليست جوهراً عند ليبنتز بل ان الجواهر كلها عقلية فهو يذهب مذهب هيرقليط ، ودمقراط في تعدد الاصول ، او مذهب انكساغوراس القائل « بالهوميوميريا » ، او الخلط « ملتئم » الذي منهُ تكوَّن العالمون . ويذهب مذهب التعدد هذا وليم جيمس زعيم الفلسفة العملية « براغماتزم » Pragmatism ولكن اذا كان كل موناد مستقلاً عن كل موناد آخر ، ولا كوة

ولا حلقة ، فكيف امكن انتظام الكون بسير المونادات معاً ؟ فانا نرى الجماد والنبات والحيوان والانسان والكواكب في حالة من الانتظام توحد مجاريها ، كأنها متفاهمة . يجيب ليبنتز عن ذلك بنظرية الترتيب السابق . يقول : ان هنالك تصميماً مرسوماً على كل موناد . فهو مع انهُ يعمل مستقلاً ، الاَّ انهُ يتبع التصميم المرسوم . والنتيجة انتظام الكون . على قياس جوقة الموسيقى المؤلفة من اشخاص عديدين ، يعزف كل على حدة ، بآلة مماثلة او مخالفة الآلة التي في حيازة اخيه . ولكن جميع افراد الجوقة يتبعون في عزفهم « نوتة » مرسومة امامهم ، فيتفقون في النغم مع استقلال كل فرد منهم

او يشبه طائفة من البنَّائين ، يعمل كل منهم في جهة . ولكن كل واحد يتبع التصميم المرسوم امامه ، وهو رسم يبين صورة اجزاء البناء متحدة . والنتيجة هي انهُ مع ان كل واحد يبني مستقلاً عن كل بانٍ آخر ، فجميعهم يعملون طبقاً « لترتيب سابق » . يقول ليبنتز هذي هي المونادات يعمل كل موناد مستقلاً والنتيجة وحدة النظام . والسر في ذلك ان كل موناد يتبع الترتيب السابق

يقول رسل في نقد هذا الثالوث — ديكارت وسبينوزا وليبنتز — انهُ واحد في جوهره ، اواساسه ، فسبينوزا يجعل الكائن جوهراً واحداً ازليًّا . وديكارت يجعل الكوان ثلاثة جواهر ، جوهر ازلي وجوهرين محدثين وليبنتز يجعل الاكوان جواهر لا عدد لها هي المونادات ، ولكن الثلاثة ذوو نزعة واحدة فيدعوهم « الجوهريين » لقولهم بالجوهر والعرض . فهم عنده فلاسفة المبتدا والخبر ، او العين والمعنى . وسآتي في ختام المقالة على نظرية رسل المخالفة الاساس الذي بنى عليه هؤلاء

الثالوث الانكليزي

أقانيم هذا الثالوث لوك وباركلي وهيوم . الاول انكليزي والثاني ارلندي والثالث اسكوتلاندي . فما هو تفكير كل واحد من هؤلاء ؟

لوك هو صديق اسحق نيوتن الشهير ومعاصره . وقد صدر كتاباهما الشهيران في وقت واحد . كتاب نيوتن في المبادىء Principia وكتاب لوك في تلخيص في « الفهم الانساني »

يقولون : ان لوك من مفاخر انكلترا . وانهُ احد مبدعي الحرية التي انتشرت مبادؤها في القرن الثامن عشر . وان في مؤلفاته جراثيم الثورة الانكليزية سنة ١٦٨٨ والاميركية سنة ١٧٧٦ والفرنسية سنة ١٧٨٩ . فتأثيره عميق وبعيد ، في عصره وبعد عصره ، في مصره وفي غير مصره ، يريدون بذلك تأثيره سياسيًّا واجتماعيًّا . على ان الذي يعنينا هنا انما هو مذهبه الفلسفي ، وذلك المذهب مادي في صورته تصوري في جوهره . وبيانه : ان لوك ينكر التصورات

الذاتية . وعبارته الفلسفية الشهيرة « ليس في العقل مالم يكن قبلاً في الاختبار » وقد اضاف ليبنتز الى هذي العبارة قوله « الاّ العقل نفسه » فصارت العبارة هكذا : —

ليس في العقل مالم يكن في الاختبار الاّ العقل نفسه :

يقول لوك ان العقل : يولد، صفحة بيضاء يرسم عليه الاختبار معلوماته الاولى . وهي البداءة . فالبداءة عنده ثمرات الاختبار او الاختبارات . هذا اولاً . وثانياً ينكر لوك الروح . والمفهوم عندي انهُ لا ينكر ما ليس ماديًّا . كلاّ بل يقول ان وجود المادة ثابت بالحس اما وجود الروح فلا دليل حسيٌّ عليهِ ، انما هو في العقل لا في الخارج . لان الروح لا تخضع للاختبارات العلمية التي تخضع لها المادة . فثبت عنده وجود المادة وانتفى وجود الروح . يضاف الى الامرين الآخرين امرٌ ثالث وهو انكاره العلة ، او « العلية » . وهو يحسب ان اعتقاد العلة والمعلول من الأوهام المتوارثة التي سادت العقول البشرية ردحاً من الزمن . وسبب وقوع البشر في هذي الهوة هو انهم حسبوا السابق علة والتالي معلولاً . كالليل والنهار . فان من الاوهام أن نحسب الليل علة النهار ، او هذا علة ذاك ! . ففكرة لوك ان السابقات واللاحقات هي متجاورات او متتاليات . وان الجهل جعل المتقدمات علة المتأخرات . فليس في الكون علة ومعلول . انما هناك سابق وتال

فهذي الامور الثلاثة العلة والبديهة والروح ينكرها لوك . او بعبارة اضبط ينكر أمر اثباتها في الخارج بالاختبار . فهو ينكر ما لا يخضع للاختبار . ولذا تدعى فلسفة لوك المدرسة الاختبارية . اي تعتمد الاختبار لاثبات الحقائق ، ناحياً في ذلك منحى هوب وباكن . والغريب في الأمر هو ان هؤلاء الثلاثة انكليز . فاذا صح ان هنالك فلسفة انكليزية فهي الفلسفة الاختبارية ، أو الحسية

باركلي

هو ثاني اقانيم الثالوث الانكليزي ، وهو اسقف ارلندي . يبني باركلي ، على الاساس الذي وضعهُ لوك ، مذهباً هو ضد مذهب لوك في خط مستقيم . لوك يثبت وجود المادة وينكر وجود الروح ، وباركلي يثبت وجود الروح وينكر وجود المادة . فيقول : لاشيء في الكون الاّ ما هو عقلي. اما المادة فوجودها في العقل وليس في الخارج . مرَّ بك ان لوك يسلم بوجود المادة في الخارج بشهادة الاختبار . اما الروح فلا دليل حسي ، أو اختباري ، على وجودها . وباركلي يرى ان وجود الروح هو الثابت بالاختبار اما وجود المادة فتصوُّر لا اكثر . قال : — اذا رأيتَ شجرة ، فكل ما تعرفهُ عنها انما هو في نفسك لا في الشجرة . كاللون والشكل او الحجم . فهذي الصفات هي في العقل لا في الخارج

يوافق لوك باركلي في الصفات الثانوية . ولكنهُ يخالفهُ في الصفات الاولية . ولايضاح

ذلك اقول : — قسم الطبيعيون صفات المادة الى قسمين ، اولى وثانية او ثانوية . فالاولى ما لا يمكن تصوُّر المادة بدونها . والثانية ما يمكن تصوُّر المادة بدونها . فالصفات الاولى الامتداد ، وعدم التداخل ونحوها . والثانوية الليونة والوزن واللون فيقول لوك ان هذي الاخيرة ليست في الجوهر المادي بل في العقل الذي يعالج ذلك الجوهر ، ولكن باركلي يقول ان كل صفات المادة اولية وثانوية ، هي في العقل لا في المادة . فماذا بقي من المادة ؟ لا شيء الا تصورها في العقل . هذا هو مذهب باركلي ، فهو مذهب تصوُّري باعتبار المادة حقيقيٌّ باعتبار الروح

هيوم .

يبني هيوم على اساس سلفيه مذهباً يناقض مذهبيهما . فان لوك اثبت المادة وانكر الروح ، وباركلي اثبت الروح وانكر المادة. اما هيوم فانكر كلتا الاثنتين المادة والروح . فقال ان المادة والروح كلتيهما في العقل وليس في الخارج . فهيوم تصوريٌّ في المادة وفي الروح

هذا الثالوث الانكليزي يحبذه رسل ويؤثره على ثالوث القارة المؤلَّف من ديكارت وزميليه ويقول ان حجج الثالوث الانكليزي أوضح ، وأكثر إنطباقاً على العلوم العصرية طبيعية ونفسية ولهذي الفلسفة عنده كل الاعتبار والاحترام . ولكنهُ لايعتنق هذا المذهب وان حبَّذهُ انما يورد مذهبهُ الخاص وهو الذي ادعوه « الفلسفة الحوادثية » . او مذهب رسل الفلسفي الجديد. هنا يجدر بنا الانتباه ، وصرف الدهشة عن الافكار ليمكننا ان نتفهم ما يروم رسل ان يملي على مسامعنا . قال في صفحة ٢٤٣ من كتابه « الفلسفة » ما نصه

ان فكرة وجود جوهر Substance دائم الوجود أو راهن ، على كل حال ، وبأي اعتبار كان ، كجوهر متصف بالاستمرار (في متنوع الحالات) يجب نزعها (الفكرة) من عقولنا ، اذا رمنا انشاء فلسفة مطابقة علم الطبيعيات وعلم النفس في العصر الحاضر ، فقد رجعت الطبيعيات ، سواء كان باعتبار النسبية التي اكتشفها اينشتين ، أو نظرية الذرة التي اوضحها شرويدنجر وهايزنبرغ ، الى نظام الحوادث Events تشغل كل حادثة « زمان مكان » ، أو « مكان زمان » . فمعاملتنا الألكترون أو الكهرب . معاملة كائن مفرد ، هي خطأ ، كمعاملتنا سكان لندن ونيويورك معاملة شخص واحد . فالذرة ، أو الجوهر الفرد ، وهو لبنة البناء المادي الاولى ، ليست وحدة ، بل هي مجموع وحدات هي الحوادث . فالشحنة الكهربائية الايجابية هي حادثة . والشحنة السلبية حادثة . ودوران هذي حول تلك حادثة . وارتباط الكهارب بالالكترونات بحيث تتألف منها الذرات "Atoms" كذرة الاورانيوم مثلاً ، هي عبارة عن طائفة من الحوادث مجتمعة مترابطة ، وبزوغ النور حادثة او سلسلة حوادث . ومثله هزيم الرعد ، وقصف المدافع ، وغناء العندليب ،

وصياح الديك بل ان المدفع والديك والمدليب — وجميع الكوائن — ليست الاّ سلاسل ومجاميع من الحوادث متجاورة مترابطة . فقولنا « مادة » للدلالة على ذاتٍ ، قد انتهى وزال . فلا مادة . ليس الاّ الحوادث . هذا ما يقال في علم المادة والاجسام العضوية وغير العضوية

وكذلك في علم النفس Psychology قد زالت الذات Ego وليس الاّ الحوادث . فالشخصية عبارة عن طوائف من الحوادث مجتمعة مترابطة ، يؤلف بعضها ما ندعوه العظم . وبعضها ما ندعوه اللحم . وبعضها ما ندعوه الدم ، او الجلد الخ . وكذلك بعضها يؤلف ما ندعوه الفكر ، او الذكر ، او الخيال ، او الارادة . ولكن مجموع الحوادث في صورة معلومة عندنا هي ما ندعوه الشخصية . وليست الشخصية ذاتاً . انما هي عبارة عن حوادث مترابطة في نظام مقرر . فكل ما في العناصر والمركّبات انما هو كهارب وبروتونات . وهذي الاشياء حوادث مترابطة في نظام او بحسب نظام

فقواعد المبتدا والخبر تقود الى الضلال في الفلسفة . فليس هنالك مسند ومسند اليه في الكون . انما هنالك متساندات . وليس ثمَّ ذات وصفة انما هنالك حوادث تؤلف ما ندعوه ذاتاً وما ندعوه صفة او صفات

فالمبتدا والخبر قد دخلا في خبر كان الناقصة لأنهما من اوهام الاقدمين . ويجب ان تفهم ان الاسباب الداعية الى انكار الجوهر Substance هي نفسها تدعو الى انكار الاشياء Things والاشخاص Persons فالعبارة النحوية «اجلس الى مكتبي» صارت فلسفيًّا كما يأتي : —

ان احدى سلاسل الحوادث المترابطة ترابطاً عليًّا في نوع يجعلها تدعى شخصاً لها علاقة فضائية بسلسلة اخرى من الحوادث المترابطة ترابطاً عليًّا وحجم هندسي يحمل اسم مكتب»

ذلك ما يجب ان يقوله الفيلسوف بدل «قوله اجلس الى مكتبي»

قال رسل في مطلع الفصل السادس والعشرين من كتاب الفلسفة : —

ان كون كل شيء ، في الدنيا ، يؤلف من الحوادث هو القضية التي اعتصم بها وعليه فقد زالت الجواهر والاعراض ، كما زالت العلة والمعلولات وليس ثمَّ سوى الحوادث المترابطة المتجاورة

فتنتهي نظريات ارسطوطاليس ، وتزول سيطرتها على الفكر البشري ، كما تزول نظريات ديكارت ومَن بعده من المفكرين وتحل محلها الحوادث وعلاقاتها كما قال بها منكوفسكي ولورنس واينشتين وبور وبلانك وهايزنبرج وكذلك النظريات الحديثة في علم النفس التي يقول بها فرويد ومكدوجل والمدرسة الالمانية الحديثة «جشتالت» النموذجية ومقررات المجامع السيكولوجية التي تنفي الذاتية الراهنة في مختلف الحالات ، وترى ان الظاهرات النفسية وحدات متجاورة لاصفات ذات مستترة وراءها . هذي هي فلسفة الحوادث التي يقول بها برراند رسل

ومن رام الوقوف عليها بحذافيرها فليراجع كتابه الذي عنهُ أخذت وهو Philosophy



اساطين الكيمياء الحديثة

جستوس فون لايبج

Justus von Liebig

١٨٠٣ — ١٨٧٣

لحسن السلمان



انحدر فون لايبج من عائلة فقيرة كانت تستوطن ارياف دارمستات وتعيش على ما تجنيه من فلح الارض وزرعها . كان والده عطاراً يصنع بعض الاصباغ غير العضوية ويبيعها مع ما كان يبيعه من أدوية وعطور . وقد تمكن هذا العطار على جهله بأسرار الكيمياء وقوانينها من تحضير بعض المواد الكيميائية في مختبره الصغير الذي يشغل الطابق الارضي من حانوته ، فقد ورد في بعض رسائل لايبج ان والده حضر غاز الاستصباح قبل ان يكتشفهُ الكيميائيون وانهُ أجرى تجارب عديدة مختلفة على الاسمدة وعلى بعض المواد العضوية

كان جستوس ثاني ولد لابيه ، وكان لوالده عشرة اطفال لم يوات الحظ احداً منهم مثلما واتى لايبج . واضطرَّ لايبج ان يبرح المدرسة الثانوية قبل إنجاز دراسته لفقر والده ولانهُ عاف الاسلوب الدراسي المتبع يوم ذاك فيها . فلقد كان الهدف الذي ترمي اليه مدرسته هو تحفيظ تلامذتها مفردات اللغة الجرمانية مع استظهار قواعدها ، وهذا ما لم يستسغهُ عقل لايبج ولم تستطبهُ نفسه . فاعتزم ان يطرق ابواب الحياة وهو في الرابعة عشرة من عمره مؤملاً أن تكون دروسها اكثر نفعاً واعمق اثراً . ولما لم يوفق الى عمل يعيش منهُ انتظم بحانوت أبيه يساعده في عمله نهاراً وفي اجراء تجاربه وتحضير مستحضراته ليلا . ولقد قضى على هذا النحو من الحياة عامين كاملين عرف الشيء الكثير من اسرار الكيمياء وحقائقها ووجد متسعاً من الوقت لمطالعة عدد ليس بالقليل من الكتب الكيميائية . ففي هذا الحانوت الصغير هذبت عقلية لايبج فاكتسب اسلوباً تجريبيًّا في معالجة القضايا العلمية واسلوباً ادبيًّا رصيناً فشبَّ وهو ميال لتحرير الرسائل العلمية وللانتاج الكيميائي

كانت جامعات المانيا يوم ذاك مفتقرة الى الاساتذة البارزين في دوائر العلم ، وكان معظم من يدرس فيها يخلط بين البحث العلمي والمذاهب الفلسفية . وكان في مقدمة من اشهر من الاساتذة الجرمان الاستاذ كاستنر Kastner فقد كان يحاضر بجامعة جايسن وكانت في طليعة الجامعات الالمانية تقدماً ورقيًّا . فكانت اولى غايات لايبج ان يتصل بهذا الاستاذ عسى أن

يستمد من علمه ويستفيد من خبرته . وما ان تعرَّف به حتى رجاه ان يقدمه الى دوق هس ليساعده على إتمام دراسته باحدى جامعات فرنسا . وكان للدوق المذكور مستشار يعرف والد لايبج وهو متصل بالاستاذ الفرنسي الكبير كوفيه Cuvier . فلما اكتسب رضى الدوق ارسله المستشار برسالة الى صديقه الفرنسي وهذا بدوره قدمه الى الكيميائي الكبير جي لوساك Gay Lussac ليلحقه بمختبره . وقضى لايبج في هذا المختبر بضع سنوات عين بعدها أستاذاً مساعداً للكيمياء بجامعة جايسن وبعد ان قضى عامين ثبت في منصب الاستاذ . وفي عام ١٨٥٣ انتخب للتدريس في جامعة ميونخ حيث قضى واحداً وعشرين عاماً باحثاً عن خواص العضوية ومكتشفاً أسرار التفاعلات بين المواد الكاربونية . وكان في خلال ذلك رمز الاستاذ الكامل الذي أفنى نفسه في سبيل تحقيق نظرياته العلمية . وفي عام١٨٧٣ فارق هذه الحياة بعد أن استطاع بفضل ما بذل من جهود جبارة من وضع الأسس الثابتة للكيمياء العضوية الحديثة

***

في عام ١٨٣٧ دعي جستوس لايبج لالقاء محاضرة عن « تقدم الكيمياء العضوية » في المجمع البريطاني لتقدم العلوم ، فكانت تلك المحاضرة رسالة وافية اوكتاباً كاملاً طبع عام ١٨٤٠ بعنوان « الكيمياء واستخدامها في الزراعة والفسيولوجيا » ويعترف مؤرخو العلم الحديث بأنهم لا يعرفون لكتاب آخر من التأثير في تقدم الكيمياء العضوية مثل ما كان لهذا الكتاب. فقد رد فيه على المخاوف التي بثّتها نظرية ملتوس Malthus وأشار الى ان الهواء مصدر أساسي للاسمدة

وتتلخص نظرية ملتوس في أن سكان الكرة الأرضية يتزايدون بنسبة هندسية بينما تتزايد منتجات الارض بنسبة حسابية والفرق بين الزيادتين كبير جداً . وهذا معناه ان العالم صائر الى مجاعة هائلة او الى حرب ضروس ستقضي على الحرث والنسل من جراء تناقص المواد الزراعية ولا سيما الاغذية الضرورية لحياة الانسان . وقد دحض هذه المزاعم جستوس مثبتاً ان مياه الامطار تحتوي مقادير ليست بالزهيدة من نترات الامونيوم المتكونة في الجو بتأثير البرق والصواعق وهذه المقادير من النترات كافية لتكثير الانبات ولزيادة المنتجات الزراعية . والذي يؤخذ على لايبج انهُ أغفل مفعول الاسمدة الطبيعية ، ومما يؤسف لهُ انهُ اقتنع برأيه هذا فلم يزاول البحث عن الاسمدة الكيماوية بمختلف أنواعها وعن طرق تحضيرها ، ولو فعل لتوصل الى ما كانت الزراعة الحديثة تصبو اليه وتتعطش طوال القرن التاسع عشر . والمعتقد ان صداقته للكيميائي العظيم وهلر Wöhler كانت سبب ذلك الاهمال ، فقد جذبهُ هذا الرفيق اليه واشتغل الاثنان معاً في تحضير رسالة جديدة بعنوان « حامض البوريك — طبيعته وما يشتق منهُ »

كان لافوازيه وبرزيليوس Berzelius وغيرهما من الكيميائيين يظنون ان حموضة الحوامض

تعود الى وجود الاكسجين في تركيبها . والحوامض وان كان اكثرها يحتوي على الاكسجين في تركيبه الا ان هناك طائفة منها لا تحتوي الاكسجين مطلقاً . وقد توصل لايبج بعد دراسته لحامض البوريك الى عكس نظرية لافوازيه وبرزيليوس ، فقد أثبت ان الحوامض مركبات تحتوي الايدروجين الذي يمكن ان تحلّ الفلزات محله . والحقيقة ان حموضة الحوامض ترجع الى وجود ذرات الايدروجين في تركيبها . ومع ان بحثه هذا كامل في كثير من النواحي الا أنهُ أخطأ في استعمال بعض المصطلحات ، فقد استعمل « المكافىء » عوضاً عن « الجزيئ » واستعمل « الوزن الذري » للحوامض عوضاً عن « الوزن الجزيئي » لها . ومع كل ما ورد بها من اخطاء فان الرسالة كبيرة الشأن لأحتوائها ابحاث تتعلق بقاعدية الحوامض Basicity of Acids ، اي قوة اتحاد الحوامض بالقواعد

فقد قسم لايبج الحوامض الى ثلاثة اقسام احادية القاعدية وهي التي تحتوي ذرة واحدة من الايدروجين ، وثنائية القاعدية وهي التي تحتوي ذرتين من الايدروجين وثلاثية القاعدية وهي التي تحتوي ثلاث ذرات . واثر هذه الرسالة كان كبيراً جداً في ابحاث الكيميائي كيكولي Kekulé الواضع لتصميم بناء جزيئات البنزين — زيت القطران — وغيره من المركبات البنزينية . فقد كتب في رسالتهِ عن بناء جزيئات المواد العضوية « ان اكثر ما جاء في هذه الرسالة ان هو الا توضيح أو استنتاج لما ورد في نظرية تعدد قاعدية الحوامض Polybasicity

وأعظم ماقام بهِ لايبج بالاشتراك مع صديقه وهلر انهما وضعا نظرية الجذور العضوية ، فكيمياء المواد الكاربونية ليست الا كيمياء الجذور المركبة Compounds Radicals . لقد كانا يبحثان في خواص زيت اللوز المر عند ما اكتشفا انهُ مكون من مركب بنزولي . وبعد ان توسعا في البحث ادركا ان كثيراً من المركبات العضوية متصل بعضها بالبعض الآخر بواسطة جذورها المشتركة . فالكحول والفورمالدهايد والأسيتون والحامض الخليك جميعها تشترك بجذر واحد يدعى الجذر المثيلي CH3 وحامض البنزويك وزيت اللوز المر وغيرها من المركبات تشترك بجذر واحد هو الجذر البنزولي C14 H5 O2 . ان لايبج ورفيقه وهلر بعملهما هذا قد وضعا الأسس الثابتة لكيمياء المواد الكاربونية ولقد صنفا المواد العضوية الى طوائف مشتركة بجذور متماثلة

***

وقبل ان نطوي آخر صفحة من حياة هذا الكيميائي العظيم لابد وان نأتي على حادثة جرت له خلفت في قلبه الحسرة حتى أخريات ايامه

كان لايبج شأنه شأن اكثر كيميائي القرن التاسع عشر يطمح الى اكتشاف عنصر جديد

لاعتقاده ان الخلود ملازم للذين يكتشفون عناصر جديدة دون غيرهم غير دار انهُ سيتوصل الى امنيته ولكن الاقدار ستماكسه في هذه المرة . نعم الذي سيكتشف العنصر الجديد الاّ ان شرف الأكتشاف سينسب الى كيميائي آخر . عرف لاييج أن هناك عنصراً كثير الشبه بالكلور لم يكتشف بعد ، وعرف ان خواصه مماثلة لخواص الكلور واليود وان مركباته يكثر وجودها مع مركبات هذين العنصرين . فانصرف الى اكتشاف ذلك العنصر . واستطاع من تحضيره باحلال الكلور محله في مركباته ولكن لسبب مجهول حسب ان المادة المحضرة لم تكن الأ مركباً من اليود والكلور فجمعها في زجاجة صغيرة وكتب عليها بخط يده « كلوريد اليود » . وبعد عام من هذا الحادث اعلن في الدوائر العلمية ان الكيميائي الفرنسي بلارد Balard توصل الى اكتشاف عنصر جديد سماه بر ومين باحلاله الكلور محله في مركباته ولقد كانت وطأة ذلك الخبر جد شديدة على لاييج ولاسيا بعد ان استوثق من ان المادة التي دعاها بكلوريد اليود لم تكن الأ عنصر البرومين نفسه

مقام الكربون في الافعال الحيوية

للكربون مقام خاص بين العناصر لانهُ يدخل في مركبات منوعة متعددة تزيد عددها على مركبات جميع العناصر الاخرى . فمن المسلّم به عند الكيميائيين ان جميع العناصر ما عدا الكربون ، تدخل في تركيب عشرين الفاً الى اربعين الفاً من المركبات مع انها لم تركّب جميعاً منها. يقابل ذلك ان الكربون يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركّب ، ولا يبعد ان يزداد هذا العدد في السنوات المقبلة حتى يصبح ٦٠٠ الف . فليس ثمة حدّ من الناحية النظرية للمركبات التي يمكن تركيبها من الكربون . ولعلّ الصفة المميزة لذرّات الكربون قدرتها على توليد مركبات ذاتية . وهذا يجعل المركبات الكربونية مما لا عدّ له ، وقد اثبتت التجربة في احوال متعددة وجود مركبات كربونية كان الدليل اليها البحث النظري فقط

وعلى ذلك نرى ان تغيراً يسيراً في بناء الجزيء الكربوني من الناحية الكيميائية ، كابدال ذرات بذرات ، او بمجموعات من الذرّات بمجموعات اخرى ، يمكن الباحث من احداث تبديل في الخواص التي يتصف بها ذلك الجزيء . وهذا حمل العلماء على الاعتقاد بان هذا العنصر هو أساس لا غنى لهُ لاعظم ظاهرات الطبيعة ، نعني ظاهرة الحياة . وقد عرّفت الكيمياء العضوية بانها « كيمياء مركبات الكربون »

تعليم الجمهور

اصول الصحة

للدكتور حسن كمال
مدير الصحة القروية والدعاية الصحية بوزارة الصحة (١)

كلمة اجمالية

يجب علينا قبل الكلام في هذا الموضوع ان نفسّر معنى الصحة وقد تبارى في ذلك كثيرون ففسّرها بعضهم بأنها حالة معنوية يشعر فيها الانسان بخلوّه من المرض — وقال البعض الآخر إنها الحالة التي يكون فيها الجسم سليماً في انسجه وأحشائه وأعضائه بحيث يسير فيها الاندثار والترميم بنظام ويحصل فيها النمو والاضمحلال بحسب مقتضيات السن . وهناك كثيرون يفسرونها بغير ذلك . قال بعض الفلاسفة إنها تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى

والدعاية الصحية نوعان . دعاية الطلبة . ودعاية البالغين. اما دعاية الطلبة فالغرض منها :—
(١) ارشاد الأطفال والشبان الى ما يحفظ صحتهم ويحسّنها (٢) انشاء العادات الصحية فيهم وارشادهم الى اصولها حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بالنشاط والسعادة (٣) التأثير في اولياء امور الطلبة والشبان الآخرين حتى يتحظوا بفائدة العادات الصحية وغيرها (٤) تحسين الحياة الفردية والاجتماعية والعمل على تنشئة جيل اصح واقوى واكثر فائدة للوطن. اما الدعاية الصحية عند البالغين فيقصد بها ما ذكر آنفاً مضافاً اليه (٥) ارشاد الجمهور باستمرار الى ما ينفع صحته حتى يبقى دائماً على علم بتقدم الطب في نواحيه المتعددة (٦) افهام البالغين الذين لم يسبق لهم ان تعلموا اصول الصحة بالمدارس وغيرها والمقصود بالبالغ هنا الشخص الذي اتمّ دراسته او وصل الى السن الذي يترك فيه الطالب مدرسته للدخول في معترك الحياة . وتقوم وزارة الصحة بهذه الدعاية في القطر بكافة الطرق

وقد كانت الدعاية الصحية موضوع نقاش وجدال عظيمين. قال بعضهم : إن افهام الجمهور اصول الصحة لا يفيد بل يضر وأصحاب هذا الرأي متحيزون كثيراً لانهم يعتقدون ان محاولة افهام الجمهور اموراً فنية خطر ومضرّ ظنّاً منهم بأنّ هناك فارقاً بين تعليم اصول الطب وتعليم اصول الصحة. هم يقولون ان قراءة اوسماع اعراض الامراض وطرق تشخيصها وعلاجها يجب الابتعاد عنها

(١) محاضرة القيت في مدرسة الثقافة الاجتماعية في مارس سنة ١٩٣٩

ونحن مع مشاركتنا اياهم في ذلك نقول انهُ يجب ايضاً افهام الجمهور تركيب جسمه ووظائف اعضائه وطرق الوقاية من المرض وارشاده الى العادات المفيدة والضارة والغذاء الصحي والمكتشفات الطبية الحديثة ونواحي التقدم في الطب والجراحة وأمراض الاسنان والتمريض والمستشفيات والهيئات الصحية المتعددة التي تساعد على شفاء الانسان وتزيد من سروره ونعيمه وتقلل من شقائه ومرضه كل هذا يمكن عمله بدون الدخول في الاصطلاحات الطبية أو دقائقها مما يحمل الجمهور يسأمها ويتجنبها والى القارىء بعض الاعتراضات التي توجه ضد تعليم الجمهور أصول الصحة

(١) ان تعليم الجمهور ذلك يسبب لديه حالة انحطاط نفساني" والرد على ذلك ان هذا الانحطاط قائم الآن سواء تعلم الجمهور أصول الصحة او لم يتعلمها

(٢) ان تعليم أصول الصحة يساعد كثيراً على معالجة المريض بنفسهِ وتشخيص مرضه بذاته دون الاعتماد على الطبيب والجواب على ذلك ان الذي يحدث هذا هو التعليم الناقص فيجب علينا اصلاح طريقة التعليم لا ان تتجنبهُ كلية"

(٣) ان تعليم أصول الصحة جعل تعليم الطب أصعب مراساً مما كان ، لأن المريض الذي سبق ان تعلم أصول الصحة يفقد جزءاً كبيراً من ثقتهِ بالطبيب فلا ينفذ نصيحته . وهذا أيضاً ليس نتيجة تعليم أصول الصحة بل نتيجة قلة هذا التعليم او خطأ تعليمه

(٤) ان تعليم أصول الصحة للجمهور لم يثمر الثمرة المرجوة وهذا معناه ان المجهود المبذول أقل من الواجب فيتحتم مضاعفته

(٥) ان تعليم الجمهور أصول الصحة بثَّ أفكاراً خاطئة وآمالاً زائفة . والجواب على ذلك ان مثل هذا التعليم لم يصل الى مواطن الأمور بل اقتصر على قشورها فيجب التعمق فيه حتى يفقه الجمهور معناه

(٦) ان تعليم الجمهور أصول الصحة يساعد كثيراً على تشجيع الدجالين المقررين بأذهان الجمهور . لكن ما يقال عن الطب في هذا المضمار يقال أيضاً عن العلوم الأخرى . والجرائد اليومية طافحة بهذه الأمور على اختلاف أنواعها . وعلى الرغم مما قيل من هذه الأمور المثبطة فان تعليم الجمهور أصول الصحة أصبح حقيقة ملموسة لا نظرية معنوية وقد دلتنا التجارب على ان الجمهور المصري شغوف بفهم أصول الصحة وانهُ بدأ يفهم الدجل ويقدر قيمة الدعاية الصحية

وعليه فاهمال الدعاية يضيع فرصة تحسين الصحة والعلاج الناجع والوقاية من الأمراض والمباحث الطبية والتجارب العلاجية ويحطُّ من المستوى الصحي والانتاجي ويكثر من الموت المبكر . يضاف الى ذلك ما يتبعهُ من كثرة مصاريف العلاج وزيادة البطالة

لذلك اهتمت معظم الدول الراقية بالدعاية الصحية وليس ثمة ريب في ان أساس المشروع

هو تضامن الهيئات الطبية بكافة أنواعها من طبية وجراحية وصحية وتمريضية وغير ذلك

« اين يبحث الجمهور عن وسائل التعليم الصحي » . هذا سؤال كثيراً ما يسأله الجمهور المثقف . والجواب عنهُ ان هناك كتباً كثيرة يمكن الجمهور الأطلاع عليها . وربما كانت الكتب التي تدرّس بالمدارس الأبتدائية الأميرية انفعها للجمهور العادي . وتسأل المكاتب العمومية عمّا يجد في هذا الموضوع . اما الكتب الأفرنكية فكثيرة ولا تقع تحت حصر

وهناك مجلات طبية تكتب خاصة للجمهور تتناول الموضوعات الطبية الأجتماعية باللغة العادية موجود منها في أميركا مثلاً مجلتي (Hygeia) و(Journal of Health & Physical Education) الفرض منهما ارشاد الجمهور الى ما يفيد صحته وهي محلاة بالصور والرسوم العديدة

وهناك المتاحف الصحية فتحف فؤاد الأول الصحي يحوى الكثير من النماذج والرسوم والمعروضات المتعددة ذات العلاقة بالصحة العامة والتغذية وغير ذلك

ويحسن بكل شخص ان يزوره ويستعين به . كذلك متحف فؤاد الاول الزراعي بالدقي فأنهُ يحوى التماثيل والنماذج والرسوم الصحية وغير ذلك مما له علاقة بصحة الفلاح والتي تجب عليه معرفتها . وسنشرح الطرق الأخرى التي تتبع في ارشاد الجمهور نحو العناية بصحته

« الأذاعة بالراديو » الأذاعة اللاسلكية واسطة عظيمة لمخاطبة الجمهور وارشاده الى ما ينفعه ونهيهِ عما يضره . وقد ساعد الراديو كثيراً في افهام الجمهور اصول الصحة وتذاع الأحاديث الصحية الرسمية وخلافها من محطة العاصمة كل خمسة عشر يوماً على الأقل وتتناول موضوعات متعددة تهم الجمهور . وقد ابتدأت الأذاعة في شكل محاضرات ثم أخذت تتبدل تدريجيًّا الى محادثات تارة بين شخصين مثل طبيب العائلة ورب العائلة . وطوراً بين عدة اشخاص يتناول حديثهم موضوعاً طبيًّا هامًّا

واختيار اوقات الأذاعة اللاسلكية له شأن كبير من حيث موضوع الحديث ففي ساعات الصباح يكاد يكون موجهاً الى السيدات وحينئذٍ يمكننا ان نذيع فيها بعض الأحاديث التي تهمهنَّ مثل صحة المنزل وأدوات الزينة وتأثيرها في الجسم وطرق التغذية وتهيئة الطعام بالطريقة الصحية والعناية بالأطفال الخ . .

اما ساعات العصر فتماثل ساعات الصباح من حيث موضوعاتها الاَّ ان الجمهور يفضل فيها كثيراً من الروايات الصحية . وحوالي الغروب يستحب محادثة الأطفال في اصول الصحة . اما ساعات الصباح المبكرة فجميعكم تعلمون ان بعضها مخصصٌ للألعاب الرياضية . ويشترط في المذيع ان يكون رخيم الصوت سريع الخاطر جذاب النفسية كما يشترط في الحديث الصحي خلوُّه من الألفاظ والتعبيرات الفنية التي لا يفهمها الجمهور وان يكون اسلوبهُ مشوقاً سهل الفهم يطابق عقول المستمعين

وعلى كل حال فالمعلومات التي تذاع يجب ان تكون حقائق ثابتة غير قابلة للجدل أو التبديل . ويفضل كثيراً في الأحاديث الطبية ان يقوم بها طبيب. وفي بعض البلدان يستعان بالموسيقى في بداءة الحديث الطبي وبشخص يقدم الطبيب المتكلم للجمهور ويصفه لأن ذلك يشرّق المستمعين لحديثه. ويشترط في الألقاء ان يكون بطيئاً واضحاً قريباً ما امكن من الطبيعة حتى يتمكن الجمهور من وعي ما يقال وان لا يستغرق الحديث اكثر من عشرين دقيقة

وقد اثبتت التجارب ان الحوار الطبي والروايات الصحية اعم فائدة من المحاضرات ولا سيما اذا قرنت بالموسيقى . وكثيراً ما تسجل هذه الاذاعات على الشريط المتكلم لاعادتها مراراً من المحطة نفسها أو من غيرها في اي وقت . ويشترط لنجاح الاذاعة الصحية الاعلان عنها في الجرائد والمجلات حتى يتمكن من سماعها أكبر عدد ممكن والى القارىء بعض موضوعات الاذاعة :

ففي يناير مثلاً يفضل الكلام عن الزكام واختيار الطبيب ووسائل التدفئة وطرق التهوية والملابس الشتوية. وفي فبراير عن امراض القلب. وفي مارس عن التهاب الرئة. وفي ابريل عن الحصبة ومخاطر الطرق والتطعيم ضد الجدري. وفي مايو عن التغذية والألعاب الرياضية والفلاحة الصحية والمأكولات المثلجة. وفي أغسطس عن الأجازات المدرسية والحميات. وفي سبتمبر عن ضرورة فحص الأطفال قبل الدراسة وعن السل والحصانة ضد الدفتيريا . وفي اكتوبر عن النزلات الأنفية ومخاطر السيارات. وفي نوفمبر وديسمبر عن أمراض الشتاء وملابس الشتاء الخ.......

《 الموضوعات الصحية 》 معلوم ان الصحة شيء معنوي لا يمكن رؤيته بالعين المجردة ويجوز للإنسان ان يظهر نواحي الصحة المتعددة بوسائل كثيرة فعالة من الوجهة الكيميائية والطبيعية والبيولوجية والفسيولوجية والبكتريولوجية وعلم الحيوان وعلم الأجنة وعلم التشريح والتمريض وغير ذلك . وهنالك ايضاً نواح عديدة لها علاقة وثيقة بالطب يمكن اظهارها للجمهور مثل الهندسة الصحية والتعداد الصحي وعلم الأسنان والطب البيطري . ولذلك يرى القارىء ان المعروضات الصحية تتناول موضوعات لا تقع تحت حصر . والعرض الصحي نوعان نوع ثابت وهو المعروف بالمتاحف الصحية الثابتة مثل متحف فؤاد الاول الصحي بعابدين ونوع متنقل وهو غير موجود للآن بقطرنا هذا إنما هو مألوف في بعض البلدان كأميركا مهمته الانتقال من بلد الى آخر مصحوباً بكل معروضاته

وتمتاز المتاحف الثابتة بكثرة معروضاتها وضخامتها وثقلها وان اكثرها قابل للكسر لدقته

اما المتاحف المتنقلة فمعروضاتها عادة خفيفة صغيرة غير قابلة للكسر سهلة الوضع والنزع يسيرة الحمل. ويجب قبل البت في معروضات المتاحف الصحية بنوعيها معرفة عقلية الجمهور الذي سيشاهدها لأن التجارب أثبتت لنا ان الجمهور ينفر من المعروضات التي لا تسره نفوره من الاذاعة اللاسلكية

التي لا تواقته ، فالطرق الفنية التي تستعمل الآن في تشخيص مرض الدرن الرئوي كثيراً ما ينفر منها الجمهور ولا يفهمها كما ينفر من المعروضات التي لا يفهمها الا الأطباء مثل صور الأشعة السينية والنماذج المرضية الدقيقة المعروفة بدون شرح كاف . وهناك حالات مماثلة لهذه أسيء فهمها فأتت بنتيجة عكسية ضارة ولذلك فالمتاحف الصحية يجب ان تحضر بدقة كما تحضر المحاضرة محاضر نابغ . وبديهي أن تحضير متحف صحي يقتضي زمناً طويلاً ويشترط في معروضاته ان تكون بسيطة منسجمة حديثة زاهية الألوان متحركة أحياناً كبيرة الحجم مطابقة لآراء رجل الشارع او المزرعة سهلة الفهم تعبر عن اشياء جليلة غير حقيرة شاملة لكل ما يساعد على تحسين صحة الانسان ووقايته من الأمراض

وقد ابتدع القوم لهذه المتاحف المعروضات المتعددة مثل الصور الرمزية والشفافة والخارطات والرسوم البيانية والتماثيل المرضية ودورات الدم المتحركة والأدوات الميكانيكية التي تظهر حركات الجسم المتعددة بواسطة العضلات والمفاصل ونماذج الخضراوات والحاصلات الزراعية التي لها علاقة بالتغذية كذلك الحشرات المنزلية وطرق ابادتها ومخاطرها والميكروبات المتعددة المرضية والطفيليات ونحو ذلك

وفيما يلي بيان موجز بالموضوعات التي يجب أن تمثل في المتاحف الصحية الثابتة منها والمتنقلة

(١) تقدم الطب في الجيل الأخير (٢) خطر التشخيص الذاتي (٣) الفحص الطبي الدوري (٤) العقاقير الجاهزة والدجل (٥) الأمراض التي تنتقل بالحشرات (٦) الأمراض المتوطنة (٧) الأمراض السرية (٨) أمراض التنفس (٩) أمراض الجلد (١٠) الغذاء والتغذية (١١) صحة الطالب (١٢) صحة العامل (١٣) صحة الذاكرة (١٤) أمراض الحيوان ذات العلاقة بالانسان (١٥) تعقيم اللبن (١٦) تعقيم مياه الشرب (١٧) ازالة الفضلات (١٨) الاحصاء الصحي (١٩) العدوى والحصانة (٢٠) التطعيم والمصل (٢١) المنزل الصحي (٢٢) وفيات الاطفال (٢٣) الوراثة (٢٤) مراقبة الأغذية (٢٥) الحشرات الناقلة للمرض (٢٦) الأمراض المعدية (٢٧) أمراض الشيخوخة (٢٨) موضوعات عامة مثل الأشعة السينية وغيرها كمقياس الحرارة والتمارين الدبحرية والزار والاحتراس من الحريق ومخاطر الطرق

وعلاوة على ما ذكرته فان هناك الوحدات الصحية المتنقلة وهي عبارة عن سيارات بها آلة سينما ناطقة وجرامافون وراديو وصيدلية متنقلة وسرير لنقل المرضى الى المستشفيات ويلحق بكل سيارة طبيب ومعاون صحة وعامل صيدلية وهذه الوحدات تتنقل في القرى حيث تمكث الواحدة منها حوالي الاسبوعين يمر في خلالها الطبيب على المرضى في منازلهم ويصف لهم الدواء ويطعّم الجمهور ضد الدفتيريا والتيفود ويلقي المحاضرات الصحية وينقل الحالات الخطرة الى اقرب مستشفى

بينما يقوم المعاون بدراسة الاضرار الصحية بالقرية والمنازل منزلاً منزلاً والبحث عن البرك والمستنقعات وعن مورد المياه وتعداد المنطقة ويساعد الطبيب في البحث عن الامراض المتوطنة والمعدية والاجتماعية في القرية

وتقيم الوحدات حفلة سينمائية صحية كل ليلة ويلقي حضرة الطبيب محاضرة صحية كل ليلة ايضاً

وبعد مكوث مدة من الزمن تتقدم الوحدات بتقارير وافية عن تعداد السكان ونسبة الأعمار والحالة الاقتصادية والمحاصيل والصناعات والجمعيات والامراض المتخلفة في القرية ومدارس القرية ومساكنها والاضرار الصحية بها الخ.........

﴿ المحاضرات الصحية ﴾ تعتبر المحاضرات الصحية من اهمّ الوسائل لأفهام البالغين اصول الصحة. ويشترط في المحاضر ان يكون ذا شخصية كبيرة من حيث الفن والالقاء وأغلب الموضوعات التي تلقى بالمحاضرات هي الخاصة بالامور الطارئة كالأوبئة فان الجمهور وقتئذ يكون شغوفاً بسماع كل ما يمكن سماعه عنها . ويفضَّل في المحاضرات ان تلقى في مكان معين وفي ساعة معينة وان لا يتجاوز زمنها الساعة الواحدة . والطريقة الناجحة في جمع الجمهور الكبير لسماع المحاضرات في الارياف هي اذاعة الموسيقى او الأغاني بالجرامافون او الراديو ويشاهد ذلك بوضوح عند ما تبدأ الوحدات الصحية المتنقلة في عملها . أما في المدن فان الأماكن الرسمية أو الجوامع او الاندية الأهلية كثيراً ما تصلح لهذا الغرض . وقد بدأنا نطرق طريقة الوعظ الصحي فعملنا الخطب الصحية المنبرية وبدأ الاطباء يحاضرون الجمهور بعد الصلاة في كل ما له علاقة بالبلدة طبيًّا والى القارىء بعض الموضوعات التي تصلح لأن تعمل عنها محاضرات عامة

(١) التخدير (٢) النزلات الأنفية (٣) الأمراض المعدية (٤) العناية بالعينين (٥) الفحص الطبي الدوري (٦) مرض القلب (٧) تقدم الطب (٨) الأمراض السرية (٩) الدرن (١٠) الفحص بالأشعة السينية (١١) البلهارسيا والانكلستوما (١٢) الرمد الحبيبي (١٣) الديدان المعوية (١٤) فائدة الطب (١٥) الاسعافات الطبية المنزلية (١٦) الحشرات المنزلية وأخطارها وطرق ابادتها (١٧) اللبن (١٨) السمنة (١٩) الألعاب الرياضية (٢٠) فائدة أشعة الشمس (٢١) العناية بالاسنان (٢٢) وسائل التهوية . أما النوع الآخر وهو الخطب المنبرية فتقال في الجوامع أيام الجمع حيث لوحظ ان الجمهور كثيراً ما يهتم بها ويستمع اليها بشغف ديني عظيم لذلك وضعت كتاباً في هذه الموضوعات الطبية يجد فيه القارىء خطباً عن

(ا) علم تدبير الصحة (ب) أسرار الشريعة الاسلامية من الوجهة العلمية (ج) الدعاية الصحية (د) الأمراض المعدية (ه) الحشرات الناقلة للأمراض (و) مباحث طبية اجتماعية كالزار والسحر ونحو ذلك

﴿ النشرات الطبية ﴾ وكتابة النشرات تتطلب مهارة كبيرة ومحتوياتها لا يشترط فيها الصحة فقط بل حسن التلاوة ايضاً فلا فائدة من إخطار الاهالي بطريقة عمل خبرة مرض الدرن الجلدية ولا كيفية اجراء عملية التطعيم ضد الدفتيريا أو الجدري مثلاً بل يكتفى باجمال القول عن فوائد هذه الاجراءات على الفرد وعلى المجتمع ويجب ان تكون العبارة صريحة فالنشرة التي تكتب مثلاً عن الحصبة يتحتم ان تشمل بعضاً من اعراض المرض وبعضاً من دور تفريخ المرض والوقت الذي تكون فيه العدوى بالغة منتهاها والوسائل التي تمنع العدوى وفائدة التحصين بالمصل (اذا كان من الممكن استحضاره) وفائدة العناية الطبية في تجنب المضاعفات ويشترط في كل نشرة ان تكون صغيرة قصيرة العبارة . واليك بيان بعض النشرات التي قامت بطبعها وزارة الصحة

الحمى المخية الشوكية . الدفتيريا . نصائح لراغبي الزواج . القمل . ارشادات . للمصابين بالزهري . الرمد . نصائح للمحافظة على العيون . الذباب . التيفود . المخدرات . البرغوث . الأمراض السرية . التبول أو التبرز . نصائح للحوامل . ارشادات للجمهور عن الغارات الجوية

﴿ الصور الرمزية ﴾ هذه عبارة عن صور ملونة غالباً وغير ملونة احياناً يقصد بها توجيه نظر الجمهور الى موضوع صحي هام بشكل جذاب وقد عملت وزارة الصحة الآن عدة لوحات لهذا الغرض خاصة بخطر الذباب ورعاية الطفل والأمراض السرية والوقاية من السل والبلهارسيا والأنكلستوما وفائدة الماء النقي ومخاطر القمل وغير ذلك

﴿ الأشرطة السينمائية ﴾ بدأت الأشرطة السينمائية تعرض بشكل تجاري عام ١٨٩٥ وكانت كلها صامتة لغاية ١٩٣٠ لما جعلت متكلمة وقد أظهرت التجارب ان الأشرطة السينمائية وسيلة من الوسائل الهامة لنشر التعاليم الصحية بين الجماهير ولاسيما الاجراءات التي تتطلب حركة . وقد بدأت تظهر أخيراً اشرطة سينمائية بشكل روايات دراماتيكية ثم أدخلت الرسوم الصور المتحركة Animated Drawings على الأشرطة الصحية فأتت بفائدة كبيرة واستعملت السينما أيضاً لاظهار الميكروبات الساكنة منها والمتحركة . ومن أهم الأمكنة لعمل حفلات سينمائية هي المعارض الطبية وغير الطبية حيث يجتمع عدد كبير من الجمهور وقد كثرت الأفلام الصحية الأجنبية كثرة تفوق الوصف ويمكن ايجارها بأسعار زهيدة كما يمكن شراؤها . وها كم أمثلة لمواضيع بعض الأفلام السينمائية الصحية : —

(١) اشرطة سينمائية للأطباء خاصة بالطب والجراحة . (٢) اشرطة سينمائية خاصة للجمهور عن الصحة العامة . (٣) اشرطة سينمائية للطبقة المثقفة عن الصحة العامة . (٤) اشرطة سينمائية للأطباء عن امراض الاسنان . (٥) اشرطة سينمائية للجمهور عن أمراض الأسنان

﴿ الواح خاصة لعرضها بالفانوس السحري ﴾ يمكن استعمالها لعمل محاضرات خاصة يستطيع

الطبيب بواسطتها افهام الجمهور كثيراً من الغامض. ويشترط في عرض هذه الألواح شرح الموضوع باسهاب للجمهور وهناك الواح كثيرة من هذا النوع يكرع شراؤها للدعاية الصحية

﴿ المجلات الطبية للجمهور ﴾ هذه مجلات تحررها هيئات طبية القصد منها ارشاد الجمهور الى مايفيد صحته وهي مكتوبة بأسلوب سهل خال من العبارات الفنية. ولنذكر لكم على سبيل المثال

(ا) مجلة الصحة (Hygeia) التي تصدرها الجمعية الاميركية الطبية

(ب) Journal of Health & Physical Education مجلة الصحة والرياضة البدنية

(ج) مجلة الصحة والحياة (Life & Health)

والمجلات الطبية ذات تأثير كبير على الجمهور خصوصاً التي يقوم بتحريرها كبار الأطباء الحائزين على ثقة الجمهور الشخصية

﴿ المراسلات ﴾ هذه وسيلة كثيراً ما تأتي بالفائدة الشخصية الا انها محدودة ويجب عند الرد ان تكون الاجابة من شخص له منزلة علمية وان يكون الاسلوب مختصر ومقنع

﴿ طرق اخرى متعددة للدعاية الصحية ﴾ (ا) كثيراً ما تكتب التعاليم الصحية على ظهر القسائم كالشهادات وعلى أغلفة الكراريس ويشاهد ذلك في ظهر شهادات الميلاد وعلى اغلفة كراريس المدارس

(ب) ﴿ الدعاية الصحية بالسيارات ﴾ هذه السيارات تذهب الى المديريات حيث يتولى أطباء المراكز توجيهها الى الجهات اللازمة وفي كل سيارة آلة سينما وعدة افلام سينمائية صحية وهي خلاف الوحدات الصحية المتنقلة السابق الكلام عليها

(ج) ﴿ روايات تمثيلية صحية ﴾ هذه الروايات موضوعة لحث الجمهور على ما يفيد صحته ورشده الى ما يضره فيتجنبه. وهناك كتب لهذه المواضيع في الولايات المتحدة ولكن للأسف تكاد تكون معدومة في القطر المصري

(د) ﴿ اعطاء مكافآت وشهادات تقدير ﴾ لكل من يهتم بصحة اولاده في المدارس او بصحة عماله في المصانع

(هـ) ﴿ منافسات عمومية لصحة العائلة ﴾ كالتي تقام مثلاً في مراكز رعاية الطفل لمعرفة اي الامهات اكثر عناية بطفلها وملبسه وصحته. هذا ملخص الدعاية الصحية في حالتها الراهنة وهو كما ترون متغلغل في كل نواحي الحياة الاجتماعية والعائلية بأسلوب سهل غير ممل بحيث يتمكن الجمهور من معرفة جزء كبير من اصول الصحة في اوقات مختلفة وأساليب متباينة. وقد أثمرت هذه المجهودات ثمارها الطيبة في البلدان المتمدينة وبدأت تؤتي ثمارها ايضاً في القطر المصري ولا غرابة في ذلك فان الدعاية الصحية هي نوع من انواع النهضة القومية ودليل على تيقظ الأمم وانتباه الأذهان وتقدير للصحة والاهتمام بالكيان القومي وكلنا نعرف المثل الذي يقول العقل السليم في الجسم السليم

ديفون الجميلة

[مقاطعة ديفون بانكلترا هي من اجمل بقاعها. فيها الهضاب الخضر. والغاب الفسيح. والانهار والجداول الجميلة. وألوان تربتها تختلف بين الرمل الأحمر. والجير الابيض. والصخر الاغبر. وتزدحم شطآنها قوارب الصيد وشباكه. وهنا يصفها الشاعر كما رآها]

الربى تضحك والجدول باكي — أين مني يا رُبى الخلد ثَراكِ؟
جلَّ مَن صاغك من فردوسه — وتعالى مَنْ بين الحسن براكِ!
خفق القلبُ لذكراك فهل — تأذنُ الايامُ يوماً فأراكِ؟

* * *

أين وَقعُ الماء في تُربك أم — أين همسُ الريح ما بين رُباكِ؟
كلما مرت عليها نسمةٌ — رددتها من جديد شفتاكِ
وعلى الارض بساط ناضر — صبغتْهُ بالاعاجيب يداكِ
كلُّ لون منهُ لا يبلغهُ — فن ذي فنٍ. ولا يحكيه حاكي

* * *

ما ألذ الليلَ يجري ساكناً — في روابيك وما أحلى دُجاكِ!
ولجين البدر يجري ذائباً — فوق بطحائك أو تحت سماكِ
وخرير الماء في الصخر على — نقرات الليل مِنْ رَجع صداكِ
وحفيف الغصن في الغاب على — لمحات الضوء من بين قُراكِ
يا رُبَى الفردوس سبحان الذي — عطر الارضَ بأنفاس نداكِ!
ضمَّخ الزهرُ حواشيك ولم — تزل الوديانُ سكرى من شذاكِ
وهناك البحر جيَّاش على — تبر حصبائك أو دُرّ حصاكِ
وترى الفلك على شاطئه — غاديات رائحات بالشِّباكِ
وضبابُ البحر يمتد الى الـعالم المجهول من خلف مَداكِ...

* * *

رحم الله زماناً ماضياً — قد سقاني الصفو فيه وسقاكِ
لم يعد من هذه الذكرى سوى — لمح أحلامك. أو طيف رؤاكِ...

محمد عبد الغني حسن

فلسفة

الدمقراطية

لعلي أدهم

من المسائل المعروفة في تاريخ نشوء الفلسفة الحديثة ومراحل تقدمها الباكرة ذلك الخلاف الشديد والنقاش المستفيض الذي ثار بين القائلين بأثر الفكر والقائلين بأثر الاحساس في تحصيل المعرفة وتكوين الافكار ، وقد كان انصار المذهب الحسي يرون ان الاسبقية والفضل للحواس وكانوا يطلقون على انفسهم اسم « التجريبيين » لانهم كانوا يبدأون من التجربة ويتخذونها الاساس الذي يشيدون فوقه فلسفتهم ، وكان الفريق المناهض لهم ينبذ الحواس ويراها غير اهل للتعويل عليها والاحتكام اليها . وكان انصار هذا الرأي يستدلون على صحة مذهبهم بان أسمى الافكار وأجلها شأناً مثل فكرة وجود الله ومثل تصورات الرياضة لا يمكن ان ترد الى الحواس او تستمد من مصادرها ولذا كانوا يقولون باستقلال العقل الانساني ومقدرته على استنباط المعرفة من موارده الخاصة واعماق كيانه وكانوا يرون ان أصفى الافكار وأصدقها مطبوعة بهذا الطابع صادرة من هذا المورد ، اما الافكار المحسوسة بالحواس فهي أهون شأناً وأنزل منزلة لان الاحساس في رأيهم قرين التفكير المشوش والآراء المشوبة ، وكانت هذه النزعة من نزعات التفكير تسمى النزعة « العقلية »

***

وقد نبغ في القرن الثامن عشر الفيلسوف الالماني الكبير « امانويل كانت » فحاول حل هذا المعضل وفض ذلك الخلاف فذهب الى ان الاحساس والتفكير وظيفتان يكملان احدهما الآخر وان المعرفة الحقة تأخذ بنصيبها من هذين الطرفين ، فالحواس تزودها بالمادة القابلة للتنظيم والفكر يفرغها في القالب المناسب ويصورها بالصورة الملائمة ، وكل قضية من القضايا في رأي « كانت »

تشمل العنصرين وتفترض وجود عقل فاعل ومنفعل معاً ، فهو منفعل لانهُ يشعر بأثر البيئة ويتلقى منها مواده الخام اللازمة وهو فاعل لانهُ يهبها الصورة ويشق لها المجرى ، والافكار بدون هذه المواد الواردة من الحواس خواء لاخير فيه والاحساسات الخالية من التصورات عمياء لاتبصر ولا تعي وبذلك وفق «كانت» بين النزعتين واستطاع ان ينصفهما ولا يجور على احديهما

***

وفي الحياة العملية خلاف آخر بين « الغريزة » « والارادة » ، فالغريزة تجنح الى ضرب خاص من ضروب العمل من صوره في الحياة البدائية الجوع والظمأ وما اليهما وهي تحد من حرية العقل وتخضع الارادة للضرورات ، ومن هنا نشأ خلاف بين مذهبين متعارضين مذهب عقلي يقول بتمام حرية الانسان واستعلائه فوق نوازع الحاجة ويحاول ان يبين قدرة الانسان على كبح تلك النوازع وسحق هذه الشهوات وينتهي بفكرة التنسك . ومذهب طبيعي يرى انصاره ضرورة الاستجابة لمطالب الغريزة وتلبية نداء الشهوة . ويقولون ان محاولة اخماد الشهوات ومقاومة الميول خروج على الطبيعة والتواء في الفهم وان العقل السليم ينقاد لها ويلبي احكامها لانهُ يعرف انهُ خادم الاهواء . وقد لجأ بعض المفكرين الى التوفيق بين هذين الطرفين ترسماً لخطوات «كانت» وأخذاً بطريقته فالغريزة في رأيهم هوجاء تسير على غير هدى وقد تفضي بالانسان الى الهلاك المحقق وهي تقدم للعقل مادة يستطيع ان ينتفع بها في عمله ، فالعقل — او الارادة — خادمة الرغبة وسيدتها في نفس الوقت ، وكما ان الفكر الخالي من اثر الاحساس فراغ لاغناء فيه والاحساس الخالي من أثر الفكر أعمى ليس لهُ قائد فكذلك الحياة الخالية من اثر الغريزة حياة شاحبة لاسرور فيها ولا متعة والحياة التي تنقاد للاهواء وتستسلم للشهوة حياة مستهدفة للاخطار متخبطة في الظلام ، والحياة الفاضلة المثلى متوقفة على تنظيم الميول والموازنة بينها في ظلال هيمنة العقل وسيطرة الارادة

وما ينطبق على حياة الفرد في جانبيها النظري والعملي يصدق في حياة المجتمعات الانسانية في ظلال الحكومات ، فكل مجتمع أشبه بوحدة مستقلة منسجمة لها صفات التفكير والعمل ، واذا كان لأي مجتمع منظم تحت سيطرة حكومة من الحكومات « ارادة » فأن الحكومة هي بلا نزاع التي تتمثل فيها تلك الارادة ، وأقصد بالحكومة هنا السلطات التي تملك اصدار القوانين وتبديلها وتشرف على تطبيقها وسريان احكامها وتقوم بمختلف الاعمال باسم المجتمع ، وهذه الاعمال في مختلف انواعها وشتى ميادينها تعد في منزلة الاعمال الصادرة عن ارادة بعينها متخذة غرضاً خاصًا ومتبعة سياسة مرسومة

وعلى هذا الاعتبار اذا كان المجتمع سليماً متحداً وكانت طريقة النيابة والتمثيل في نظام حكمه صحيحة لا غبار عليها فان بت الحكومة في الامور يكون في هذه الحالة نتيجة عاملين عامل ميل افراد الأمة الى الاشتراك في عمل الدولة وسياستها والتعاون مع رجالها في القيام بهذه المهمة وعامل طلب التعاون والتأييد من السلطة المركزية التي تحاول اتباع رغبات الشعب والاضطلاع بمطالبه ، وهذا التبادل المثمر بين الحكومة النيابية الحريصة على شرعية اعمالها وبين رغبة افراد المجتمع في منحها هذا الحق يشبهُ صب المادة في القالب المناسب لانهُ ينظم الدوافع التي تزخر بها نفوس الشعب والميول التي تختلج بين جوانحه ويمثلها في صور واضحة ورموز ناطقة مثل القوانين واللوائح وسائر الاعمال التي تقوم بها الحكومات

***

والدمقراطية في ابسط صورها معناها مساهمة كل فرد في حكومة بلاده ، والطريقة النيابية تفسح لهُ هذا المجال وتتيح لهُ هذه الفرصة اذ يختار بمحض ارادته من يمثلونهُ ويقومون مقامه في الفصل في الامور وحل المعضلات . ومن ثمَّ فان تناول المجالس النيابية لمختلف الشؤون أو بحث مجالس الوزراء ما يعرض من المشكلات يراعى فيه الاستجابة لميول الشعب واتجاهه وتقدير الرأي العام أي ان حرية الفصل في الامور تحد منها المادة الموجودة والمادة هنا هي كتلة الشعب

وأقوى مسوغ لوجود الدمقراطية هو انها تدعو كل فرد الى ان يأخذ بنصيبه في اختيار نوابه وبذلك يعرف هؤلاء النواب ما يضطرب في النفوس من الحاجات سواءٌ من طريق التأييد او من طريق المعارضة ، ومن شأن هذا الاسلوب أن يجعل القوم معنيين بالمسائل العامة مقبلين عليها حريصين على فهمها وتدبرها ويفرض على الحكومة ان تراعي الاعراب عن أماني افراد الشعب وتتوخى اجابة مطالبهم وتحاول ان تكون من المادة « عملا »

واذا حرّم على الشعب انتهاج هذا الاسلوب والاخذ بطريقة الانتخاب فانهُ يظل معنيًا الى حدّ ما بالشؤون العامة ، وتراعي الحكومة رغباته الى حدّ ما . وذلك لانها لا ترى من الحزم ان ترهقهُ وتضطره الى الخروج عن طوره ، ولكن على مرّ الايام يصبح القائمون بامر الحكم غير متأثرين الا بآراء دائرتهم المحدودة ووسطهم الخاص وافكار اصدقائهم والمقربين منهم ، والنزعة الدمقراطية تصلح هذا العيب وتعالجهُ الى حدّ كبير وهي تدعو النائب الى ان يتحسس الرأي العام ويجس نبضهُ ويحاول ان يتعرّف تلك الميول المكظومة والنزعات الخفية ، وحياة النائب السياسية قائمة على هذا التجاوب بينهُ وبين رغبات من يمثلهم وينوب عنهم

وتفسير الدمقراطية على هذا النمط يشابه خطة «كانت» التي أشرت اليها في اول المقال لأنها تعمل على الملاءمة بين رأيين جد مختلفين في علاج المشكلة السياسية التي تعرض للمجتمعات في كل حين وتقدر ما في كل من الجانبين المتعادين من حق جزئي ، فالرأي الاول من شأنه ان يبالغ في ضرورة جعل الحكومة المركزية خاضعة لرغبات الشعب الى اقصى الحدود . ويكاد يقصر وظيفتها على تسجيل تلك الرغبات ومباشرة تنفيذها . والرأي الثاني يرى غموض المطالب الشعبية وترامها الى المستحيل او المتعذر وتجانبها في بعض الاوقات لمنطق الاشياء وعلى الدولة ان تتولى مهمة خلق النظم وابداع القوانين وابتكار الخطط السياسية واساليب الحكم الصالح

***

وهذه المغالاة بقيمة الدولة تشابه من بعض الوجوه موقف العقليين في اشادتهم بقيمة العقل ووجوب ترفعه عن نزعات الحواس واهواء النفوس ولذا يميل اكثر الفلاسفة العقليين الى هذا الموقف تجاه المسائل السياسية ، ومن قبيل ذلك موقف افلاطون الذي كان يرى ان الفلسفة خير مدرسة للسياسة وان الحاكم الفيلسوف يجب ان يسترشد في سياسته بنماذج هابطة من السماء ويعرض عن حقائق الارض والحكومة المثالية في زعمه لا تشرك الشعب في تصريف الامور فهي تناقض الدمقراطية في اصرارها على ان يلتزم الحاكم مراعاة اماني الشعب ومطالبه ، وهي تنزل بالانسان الى مرتبة الجماد وتعتبره كالمواد الخام التي تصاغ منها التماثيل وتصنع الصور ، ولو ذهب افلاطون الى ان الطبيعة الانسانية في عصره كانت غير صالحة لاحتمال اعباء الحكم لكان له عذره ولكنه فرّق تفريقاً حاسماً بين الحكام والمحكومين وبين الاقلية العاملة الفعالة والاكثرية المنفعلة وبذلك قضى على الوحدة والتعاون بينهما ويظهر سوء أثر ذلك عند الانتقال من تفسير الارادة تفسيراً عقلياً الى تفسيرها تفسيراً غير عقلي . وبذلك تنقلب فكرة الحكم المثالية مادية صارخة وتصبح القوة السياسية مرتكزة على العنف والارهاب معتمدة على الحديد والنار. وهذا هو رأي هوبز ومن لف لفه في ايطاليا والمانيا ، فهنالك الزعيم المطلق الذي لا يسأل عن مصادر تفكيره ومراجع وحيه وانما على الشعب الطاعة والخنوع والانقياد لأوامره ، وعقول الشعب في زعمه صحيفة بيضاء يرسم عليها ما يريده قادته وحكامه وهذا هو ما يسمى « الاستبداد المطلق »

وعندما احصى ارسطو الفضائل أظهر ان كل فضيلة هي حالة توسط بين نهايتين متطرفتين كلاهما عيب ونقصان ، ففضيلة الشجاعة مثلاً هي وسط بين رذيلة التهور والطيش ورذيلة الجبن. وقد ذكر ان احد الطرفين المتناقضين في العادة اقرب الى الفضيلة من الطرف الآخر. ولذا

كثيراً ما يشتبه امره بأمرها فالتهور قد يظن شجاعة ولكن الجبن يندر ان يصعب التمييز بينه وبين الشجاعة ، وهذان الطرفان يشبهان طرفي الموضوع هنا. فان الدمقراطية الحقة هي توسط بين انفراد الشعب بالسلطة واستئثار الحكام بها . وان كان حرص الشعب على الاستئثار من السلطة اقرب الى الدمقراطية واشبه بها من محاولة القادة سلب السلطة والانفراد بالامر واشد ما يخشاه بعض كبار نقاد الدمقراطية في العصر الحديث على اساليبها هو محاولتها غل ايدي الحاكمين وعرقلة مساعي السلطة التنفيذية وقصرها على النظر في تفاصيل الامور وصغير الشؤون. ويتضح من ذلك ان احد الطرفين يحاول ايجاد القالب او الصورة بدون استحضار المادة على حين ان الطرف الآخر يستحضر المادة ويهمل امر الصورة وخلق القالب

ومن الخطأ الاعتقاد بأن « الارادة » تهبط من الشعب هبوطاً تلقائيًّا لان الارادة هي الصورة التي تتصور فيها الرغبات والدوافع والاشواق . والشعب بطبيعته عاجز عن تضمين تلك الرغبات الجائشة والاشواق الثائرة والدوافع الغامضة الصور والقوالب المناسبة لها المعبرة عنها وانما الحكومة المستنيرة هي التي تتكفل بجلاء هذه الرغبات المبهمة وتحديد تلك المطالب الغامضة وتكوين الارادة المنشودة وجوهر الدمقراطية قائم على تبادل الفهم بين السياسيين المسؤولين وبين الافراد والجماعات وليست الحكومة الدمقراطية حكومة منفعلة مقصور عملها على تلقي الوحي من الشعب والتمشي مع رغباته وانما هي تتلقى تلك الرغبات وتصقلها وتصفيها وتضفي عليها النظام وتتولى تنفيذها فعملها عمل الموجد الخلاق ولو انها كانت غير ذلك لضعفت آلة الحكم واختل النظام وتفشت تلك العيوب التي يحصيها الكثيرون على النظام الدمقراطي ولاضطر الشعب الى ان يلتمس الزعامة في اسلوب آخر من اساليب الحكم

***

والدمقراطية الحقة توفق بين زعمين من المزاعم السائدة وهما الزعم القائل بأن الحكمة كامنة في الجماهير وان صوت الشعب من صوت الله والزعم القائل بأن الحكمة انما تهبط على البطل الملهم والزعيم المروّع الذي يجب ان يسند اليه الامور وتسلم له القيادة

وبين الروح الدمقراطية والروح العلمية آصرة نسب وصلة قربى ولذا تأصلت الدمقراطية في الامم التي قويت فيها النزعة التجريبية وليس من قذفات الصدفة ان اصبحت انجلترة وفرنسا أعرق الدول دمقراطية في حين ان المانيا مهد الفلسفات الغيبية ومذاهب ما وراء الطبيعة أشد الامم امتناعاً على النظام الدمقراطي



الارضية الدقيقة

ماهيتها ، طرق معيشتها ، أهميتها في الطبيعة

لرضوان محمد رضوان

حقاً ، لقد كان اختراع الميكرسكوب حدثاً هاماً وكشفاً مبيناً ، إذ أنه أضاف الى مملكة الأحياء عالماً جديداً ، لم يكن معروفاً من قبل ، وما كان ليخطر لأحد : ذلك هو عالم الاحياء الدقيقة ،التي لا ترى بالعين المجردة ، والتي تلعب دوراً جليل الخطر ، بعيد المدى في هذه الحياة. ولقد أبان هذا الكشف عن ناحية عجيبة ، فريدة في بابها ، تدل على عظمة هذا الكون الشاسع ، فان تلك الأحياء متناهية في الصغر ، متضائلة في الحجم ، إلا أنها على جانب عظيم من النشاط والعمل المنتج السريع . ويطلق علم الأحياء الدقيقة (الميكروبيولوجي) على العلم الشامل لدراسة البكتريا عامة والفطر والخمائر وبعض أنواع البروتوزوا ، إلا أننا سنقتصر كلامنا هنا على الكائنات الدقيقة التي توجد بالتربة وعملها

ان أغلب العمليات الكيميائية والحيوية التي تحدث في الأراضي ، ناشئة عن فعل الكائنات الحية ، كما سيتضح ذلك فيما بعد ، وتشمل الأحياء الأرضية الدقيقة ، البكتريا والفطر الدنيء وبعض الطحالب وهذه تتبع المملكة النباتية ثم البروتوزوا (الحيوانات الأولية) وتتبع المملكة الحيوانية . وهذه الكائنات لا توجد كلها بنسبة واحدة في الأراضي ، إذ ان عدد البكتريا يفوق عدد الأحياء الأخرى في الأراضي العادية ، وفي العادة أن كل ١٠٠٠ بكتريوم في التربة ، يقابلها ١٠ — ١٠٠ من الفطر و ١ — ١٠ من البروتوزوا والطحالب . وتكثر الفطريات عادة في الأراضي الحمضية ، اما البروتوزوا والطحالب فتكثر في الأراضي الرطبة

تعتبر البكتريا أهم الكائنات الحية الميكرسكوبية على الاطلاق ، إذ أن عليها تتوقف حياة النبات ، واستمرار نشاطه جيلاً بعد جيل ، ولما كان أغلب كلامنا سيشمل هذا النوع من الأحياء ، لهذا لم نر بدًّا من تعريفها بكلمة موجزة

توضع البكتريا غالباً في المملكة النباتية ، تابعة للنباتات اللازهرية ، وهي تلك النباتات التي

لا يميز لها جذر أو ساق أو أوراق ، وتتركب البكتريا من خلية واحدة ، تحتوي على المادة اللازمة للحياة (البروتوبلاسمة) ، وتحاط بجدار غشائي رقيق قوامهُ سواد أزوتية ، وليس للخلية نواة واضحة . اما شكلها فيختلف اختلافاً بيّناً ، فقد تكون كروية الشكل أو عصوية أو حلزونية ، وقد تأخذ شكلاً غير منتظم ، إذا ما صارت في حالة ضعف وانحطاط شديد ، لعدم ملاءمة الوسط الذي تعيش فيه . ولبعض أنواع البكتريا أهداب رفيعة جداً توجد منفردة أو متجمعة ، وبواسطتها تستطيع البكتريا ان تتحرك في السائل الذي تعيش فيه ، بيد أن البعض الآخر يتحرك بالتواء جسمه كالزواحف

وتعد البكتريا أصغر الأحياء الدقيقة على وجه العموم ، ونحن اذا علمنا أن البكتريا العصوية مثلاً ، يتفاوت طولها من ١ — ١½ ، ميكرون وعرضها من ½ — ¾ ميكرون ، وأن الميكرون عبارة عن $\frac{1}{1000}$ من المليمتر ، أدركنا دقة حجم هذه الكائنات المتناهي في الصغر . ولذلك فهي منتشرة في كل مكان ، فهي توجد في التربة والهواء والغذاء والماء وغيرها . وتكاثر البكتريا ، أمر من السهولة بمكان ، فان الميكروب ، وهو عبارة عن خلية واحدة ، ينقسم الى خليتين ، وكل منها ينقسم بدوره الى اثنتين وهكذا ، ويسمى هذا التكاثر بالانقسام البسيط ، ويحصل في الاحوال الملائمة مرة كل ٢٠ أو ٣٠ دقيقة ، واذا استمرّ هذا الانقسام بدون توقف مدة يومين او اكثر ، أخلف عدداً عظيماً جداً من هذه الكائنات ، وملأ الارض جميعاً . وقد ذكر العلامة فيشر ، أنهُ اذا تكاثر بكتريوم واحد من بكتريا الكوليرا بالانقسام ، وكانت الظروف ملائمة ، بلغ عدد الميكروبات التي تنتج في ٢٤ ساعة ما يقرب من ١٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون فرد ، أي ما يبلغ زنته نصف مليون رطل ، ولكن هناك عوامل طبيعية تقف حائلاً في وجه هذا التكاثر الذريع ، منها تناقص المواد الغذائية ، كما أن هناك تخاصماً وصراعاً بين أنواع البكتريا المختلفة

الخلية البكتيرية عديمة الكلوروفيل (اليخضور) ، ولذا فانها تحتاج الى التغذي بأجسام الحيوانات او النباتات ، الحية او الميتة ، والانواع التي تعيش على الكائنات الحية تسمى بالبكتريا الطفيلية ، وتلك التي تستمد نشاطها من الكائنات الميتة تعرف بالبكتريا الرمية . ويمكن لعدد قليل جداً من أنواع البكتريا ان يتغذى بمواد غير عضوية . وتمتص البكتريا غذاءها على هيئة سائل او غاز ، وهذا هو السبب في ان العلماء يعتبرونها نباتات وليست حيوانات . وتأخذ البكتريا الأزوت (النتروجين) اللازم لها من البروتين ، وهو يعتبر أحسن مصدر للازوت ، ولذا نجد ان اللحوم معرضة دائماً لغارات البكتريا ، وأما الكربون فان معظم البكتريا تحصل عليه من المواد العضوية ، في حين ان القليل منها يمكن ان يأخذه من ثاني اكسيد الكربون الجوي . وأما الاكسجين فان بعضاً من أنواع البكتريا يموت اذا ما عرض له ، وتسمى «البكتريا اللاهوائية» وهي تحصل

على المجهود اللازم لها من تحليل المواد العضوية،والبعض الآخر لا بد له من الاكسجين المطلق للتنفس وتسمى « البكتريا الهوائية » . وهناك بعض انواع من البكتريا لها القدرة على ان تتحول من هوائية الى لاهوائية وبالعكس وفقاً للاحوال المحيطة بها . وتحتوي الخلية البكتيرية على ٧٥ — ٩٠ ٪ من الماء،ولذلك كانت حياة البكتريا بدون الماء مستحيلة . وهناك ظاهرة غريبة في حياة البكتريا ، اذا ما صادفتها احوال غير مناسبة ، تلك هي ظاهرة تكوين الجراثيم ، فانهُ اذا ما قلَّ الغذاء مثلاً ، فان البكتريا لا تهلك مباشرة ، انما يتجمع بروتوبلازم الخلية . ويحيط نفسه بغشاء سميك يقيه المؤثرات الخارجية ، ويبقى كذلك حتى ترجع الاحوال الملائمة . وتعرف في تلك الحالة بالجرثومة ، ويكون لها القدرة في غالب الاحايين على الحياة بدون غذاء في حالة سكون عدة سنين ، كما أنها تقاوم الحرارة والافرازات السامة الى حدٍّ بعيد

وهناك تأثيرات طبيعية، تحدثها البكتريا منها انتاج الحرارة ويشاهد ذلك بوضوح عند تراكم مقادير كبيرة من المواد العضوية ، وقد يزداد الارتفاع في درجة الحرارة الى ٧٠ سنتجراد ومنها انتاج اللون ، والالوان الشائعة هي اللون الاصفر والاحمر والأرجواني ،وهناك نوع من البكتريا يتسبب عن نموه نقط حمر مشابهة جداً لنقط الدم تظهر فجأة على الخبز واللحوم . ولبعض الانواع القدرة على انتاج الضوء ، فقد شوهد في ماء البحر وعلى اجسام أنواع من السمك ، ضوء ناشيء عن فعل انواع معينة من هذه الميكروبات

هذا موجز لحياة البكتريا، ننتقل بعده الى الكلام على أهمية البكتريا في التربة ، ولكي نعطي فكرة عامة عن عددها في الاراضي المختلفة ، نثبت هنا نتائج التجارب التي أجريت في هذا الصدد. فلقد وجد أن التربة الخصبة تحتوي من ٦ — ١٠ مليون بكتريوم في الجرام الواحد . ويقل هذا العدد الى ½ مليون بكتريوم أو أقل في الجرام الواحد من الارض الرملية ، ورأى بعض الباحثين ، أن متوسط عدد البكتريا في الارض المناسبة يتفاوت بين ١ — ٦ مليون في الجرام الواحد . وفي الأراضي المسمدة حديثاً بالاسمدة العضوية يرتفع فيها عدد البكتريا حتى لقد يصل الى ٥٠ — ١٢٠ مليون فرد في الجرام الواحد.وفيما يلي تفصيل لأعمال البكتريا في الاراضي

١ — « تحليل المواد العضوية غير الازوتية » من أهم تلك المواد ، السلولوس وهو المكون لجدران الخلايا النباتية ، ثم الكربو ايدرات والاحماض العضوية . والدهون المتخلفة في الارض من بقايا الاسمدة وبقايا النباتات والحيوانات . وتعتبر الميكروبات القادرة على تحليل المواد العضوية المعقدة مثل السلولوس واللجنين ، من أهم الاحياء في التربة ، اذ أن اغلب المواد الكربونية التي تضاف الى الارض وتبقى بها ، تكون على حالة سلولوس أو بكتين و ما شابههما ولا يمكن أن يستفيد منها النبات اي فائدة ، اذا لم تتحلل اولاً إلى مركباتها البسيطة بواسطة البكتريا

تنحل اذاً المواد العضوية غير الازوتية ، ويتوقف انحلالها على الاحوال المحيطة بها ، فان وجدت في وسط يتخلله الهواء ، كان التأثير للبكتريا الهوائية ، ويكون ناتج التحليل غاز ثاني أكسيد الكربون والماء والدبال ، وترجع اهمية غاز الكربونيك للتربة الزراعية في أن جزءاً منهُ ينفرد في الهواء ، فتستفيد منهُ النباتات الخضر اثناء قيامها بعملية التمثيل الكلوروفيلي وأما الجزء الباقي فيذوب في المحلول الأرضي ، ويكوّن حامض الكربونيك الذي يؤثر في كثير من المواد المعدنية فيذيبها ، وبذلك يستطيع النبات أن يستعملها في غذائهِ بسهولة تامة

واما ان وجدت تلك المواد العضوية في احوال غير هوائية ، كأن تكون مدفونة في طبقات عميقة من التربة ، أو في أرض مغمورة بالماء ، أثرت فيها البكتريا غير الهوائية فتحولها الى مواد بسيطة ، فتتحول الكربوايدرات والسلولوس الى انواع بسيطة من السكريات مثل سكر الجلوكوز Glucose والمانوز Mannose والزيلوز (سكر الخشب) Xylose والى بعض الاحماض العضوية مثل الحمض الخليك والبيوتريك والبنيك وغيرها كما تتصاعد بعض الغازات غير التامة التأكسد مثل الايدروجين والميثان والايدروجين المكبرت

٢ — ﴿ تحليل المواد العضوية الأزوتية ﴾ تشمل هذه المواد بقايا الكائنات الحية ، ومتخلفات المحاصيل البقولية ؛ وجميعها تتأثر بالبكتريا الهوائية او غير الهوائية ، بحسب البيئة التي توجد بها ، فان كان التأثير للبكتريا الهوائية سمي بالانحلال . ويسمى بالتعفن إذا ما أثرت عليه البكتريا اللاهوائية . وقد تحدث العمليتان معاً ، فتعمل البكتريا الهوائية في الطبقات الخارجية من المواد العضوية المعرضة للهواء ، وتعمل اللاهوائية في الطبقات الداخلية حيث ينعدم الهواء . وفي الانحلال يتحول الكربون والايدروجين الى ثاني اكسيد الكربون وماء ، ويتحول الأزوت الى نوشادر ، وحقيقة المركبات التي تتكوّن اثناء عملية الانحلال ، غير معروفة بالضبط ، وغاية ما علم ، انهُ عند انحلال اللحم (البروتين) في مقادير كبيرة من الاكسجين ، تتكوّن احماض منها الحمض الأوليك والسكسنيك والباليتيك . وفي عملية التعفن تتكون مركبات عديدة اكثرها سام وغير متحللة تماماً ، فاذا تعفنت البروتينات مثلاً ، تتكون مركبات اليومينية (زلالية) وأحماض أمينية ، ويتصاعد كثير من الغازات مثل الايدروجين المكبرت والميثان وثاني اكسيد الكربون والايدروجين والازوت والفوسفين

اذاً فلكي يستطيع النبات أن يستفيد من المواد العضوية الازوتية التي تضاف الى الأرض ، يجب ان تؤثر فيها الميكروبات اولاً ، والمتحصلات الناتجة هي التي تصلح لتغذية النبات ، وإلى أن تتحوّل تلك المواد العضوية المعقدة ، الى مواد بسيطة ، يجب ان تجتاز عدة حالات يختص بكل حالة منها نوع معين من الميكروبات

وأول تغيير يحدث لتلك المواد ، هو تحويلها الى امونيا ، وتعتبر عمليتا التعفن والانحلال انهما عمليتان تحضيريتان لعملية تكوين النوشادر (النشدرة) Ammonification ويقوم بهذه العملية عدد كبير من البكتريا الهوائية وغير الهوائية ، فمن أهم انواع البكتريا الهوائية ما هو عصوي قصير غير متجرثم مثل الانواع Proteus vulgaris & Fluorescen's وانواع اخرى متجرثمة مثل B. mycoides . واما الانواع غير الهوائية فأهمها Putrificus ونذكر فيما يلي خطوات تحويل المادة العضوية الى نوشادر متخذين لذلك مثلاً اليوريا (البولينا) لانها جزء كبير من المادة العضوية المضافة للارض

يوريا + ماء ← نوشادر + ثاني اكسيد الكربون

ك ا (ز يد ٢) ٢ + يد ٢ ا ← ٢ ز يد ٣ + ك ا ٢

او يوريا + ماء ← كربونات نوشادر ← نوشادر + ثاني اكسيد كربون + ماء

ك ا (ز يد ٢) ٢ + ٢ يد ٢ ا ← (ز يد ٤) ٢ك ا ٣ ← ٢ ز يد ٣ + ك ا ٢ + يد ٢ ا

والنوشادر المتكونة يمكن ان ينتفع بها النبات بان يمثل الازوت اللازم له على حالة نوشادر ، وهناك بعض النباتات كالأرز مثلاً ، يفضل استخدام أزوت النوشادر على أزوت الأزوتات

تلي خطوة تكوين النوشادر ، تكوين الأزوتات وهذه تحدث في التربة على درجتين

١ — أكسدة النوشادر الى الحمض الازوتوز بحسب المعادلة الآتية :

نوشادر + أكسجين ← حمض أزوتوز + ماء

ز يد ٣ + ٣ ا ← يد ز ا ٢ + يد ٢ ا

ثم يتحول الحمض الأزوتوز وأملاحه (الأزوتيت) الى أزوتات كما يلي :

حمض أزوتوز + أكسجين ← حمض أزوتيك

يد ز ا ٢ + ا ← يد ز ا ٣

ويقوم بالدرجة الاولى من العملية بكتريا خاصة يطلق عليها اسم B. nitrosmonas وبالدرجة الثانية بكتريا خاصة تسمى Nitrobacter

وعملية « التأزت » من أهم العمليات التي تحدث في التربة على الاطلاق ، وعليها تتوقف حياة النبات ، فمن المعلوم ان عنصر الأزوت هو من أهم العناصر المكونة للبروتوبلاسمة الحية ، وبدونه يموت النبات ، كما ان النباتات الخضر لا يمكنها امتصاص الأزوت الا على حالة أزوتات .

ولاتمام عملية التأزت ، لا بد من شروط خاصة يجب توافرها ، فلا بد من وجود نسبة كافية من الهواء وان تكون درجة الحرارة مناسبة ، فانها اذا ارتفعت عن ٤٥° سنتجراد فان B. Nitrosomonas يموت في خمس دقائق ، واذا زادت درجة الحرارة الى ٥٥° سنتجراد فان Nitrobacter

يموت أيضاً ، ولا بد أيضاً من توافر النوشادر كما سبق ان بينا ذلك

وعلاوة على تلك الخدمة الجليلة ، التي تسديها تلك الكائنات الدقيقة للنبات، اذ تجهز الأزوت من المواد العضوية المتعددة التركيب ، فان هناك أنواعاً أخرى من البكتريا لها القدرة على امتصاص الأزوت الجوي مباشرة وصنع البروتين . ومن غريب قدرة الله تعالى : أن تثبيت عنصر الأزوت في المعمل الكيمياني ، يستدعي مجهوداً لاغباً ، إذ أن الأزوت عنصر خامل يصعب اتحاده بغيره من العناصر ، لهذا يستعمل في الطرق الصناعية تيارات كهربائية عالية ، ومع ذلك فان مقدار الأزوت الذي يثبت في هذه الحالات ضئيل جداً لا يقاس بجانب المقدار الذي تثبته تلك الميكروبات التي لا ترى بالعين المجردة !

هذه البكتريا التي تثبت الأزوت الجوي ، على نوعين ، نوع يعيش بالاشتراك في جذور النباتات البقولية ، والنوع الثاني يعيش منفرداً . ويعرف النوع الاول بالبكتريا العقدية وأهم أنواعها B. Radicicola ، وهي تصيب جذور نباتات الفصيلة البقولية وتتكاثر فيها وتحدث فيها انتفاخات كثيرة تبرز الى الخارج وتكوّن ما يعرف بالعقد ومعيشة النباتات البقولية والبكتريا العقدية هي معيشة تعاونية Symbiotic ولم يعرف بالتحقيق الحالة التي يستفيد بها النبات من الأزوت الذي يأتيها عن طريق البكتريا. فبعض العلماء يرى أن البكتريا تثبت الأزوت ثم تستعمله أولاً في بناء بروتوبلاسمة الخلية ، ثم بعد موت البكتريا وهضمها ، يمتص النبات المتحصلات المهضومة ، والبعض الآخر يعتقد أن جزءاً من الازوت المثبت تفرزه الميكروبات على حالة ذائبة وبذلك يستفيد منهُ النبات . نظير ذلك عد النبات البكتريا بالكربوايدرات كمصدر لمجهودها والنباتات البقولية تفيد الأرض التي تزرع فيها بعد أن تتحلل بقايا جذورها لأنها تزيد مقدار الأزوت في التربة لوجود البكتريا العقدية بها

وأما البكتريا التي تثبت الأزوت وتعيش منفردة فأهمها النوع المعروف باسم Azotobacter وهو اكثر الميكروبات نشاطاً ، ويوجد في جميع الأراضي ماعدا الأراضي الشديدة الملوحة ، كما انهُ اكثر في الأراضي المزروعة منهُ في الأراضي البكر ، ونشاطه في الربيع اشدّ منهُ صيفاً وشتاء

ومن الأمثلة ايضاً على ما تقوم بهِ الميكروبات في الأرض ويتصل بتكوين التربة الزراعية نفسها ، تلك الظاهرة التي كانت تعزى إلى تأثير الجير في تفكيك المواد العضوية وتحويلها إلى مركبات معدنية ، ولكن الواقع أن هذه الظاهرة هي من عمل البكتريا . إذ انها تفضل الأراضي المائلة إلى القلوية لوجود الجير فيها ، فتنشط في تحويل ما قد يوجد بها من المادة العضوية الى دبال ثم إلى مركبات معدنية

يتضح لنا مما سبق أن الأراضي الزراعية فقيرة جداً في عنصر الأزوت ، وان هذا العنصر

لايوجد في صورة يسهل على النبات الاستفادة منهُ ، اذ أنهُ مركب في المادة العضوية مع الكربون والايدروجين والأكسجين وعلى صورة غير ذائبة فاذا ما تناولتها الميكروبات بفعلها فانها تكفل للنبات غذاءه . وعلى ذلك يمكننا القول أن هذه الكائنات المفيدة تلي النباتات الخضراء شأناً ، لأنهُ اذا كانت هذه أساساً للحياة لأنها تكون المادة العضوية من مواد غير عضوية ، فان البكتريا تقوم بعكس هذه العملية ، فهي تحول المواد العضوية الى أخرى غير عضوية صالحة للنبات

بقي أن نذكر كلمة عن أنواع البكتريا المضرة بخصب الأراضي الزراعية ، فهي تشمل بكتريا عكس التأزت Denitrification وهذه تسبب فصل الأزوت المطلق بأن تأخذ الأكسجين من الأزوتيت والأزوتات تاركةً الأزوت ينفرد ، ولا تعيش هذه البكتريا إلاَّ في احوال غير هوائية

وفي الأراضي الرطبة المغطاة بالمياه ، تحدث عملية أخرى ضارة بخصب الأراضي تعرف باختزال النترات Reduction of nitrate تقوم بها بعض أنواع الميكروبات مثل B. Coli والغرض منها الحصول على الأكسجين اللازم لحياتها وذلك عند ما تكون التهوية محدودة . وكلتا العمليتين يمكن ايقافهما نهائيًا وذلك بتحسين التهوية في الأراضي وذلك بالعناية بالصرف وخدمة الأرض جيداً

﴿ الفطريات ﴾ ننتقل بعد هذا الى الكلام عن القسم الثاني من الكائنات النباتية التي توجد بالارض وهي الفطريات Fungi . ويتميز الفطر بكونه نبات لا يحتوي على الكلوروفيل، فلا بدَّ لهُ اذاً من ان يمتص غذاءه الكربوني مجهزاً سواء من الكائنات الحية او الميتة نباتية كانت أو حيوانية

ويختلف مسلك الفطر عن مسلك البكتريا ، فاذا كانت هذه تفضل الاراضي القلوية الخفيفة نرى الفطر يفضل الاراضي الحمضية ، كما ان الضوء لا يوافق البكتريا ولكنهُ يلائم الفطر ، وينمو كل من البكتريا والفطر غالباً في طبقات الارض العليا المتفككة ، فتجد بعد عمق ٢٥ سنتمتراً يقل عدد البكتريا كثيراً حتى اذا ما وصلت الى عمق ٥٠ سنتمتراً فان نموها يقف ولكن الفطر يوجد منهُ ما يعيش على مسافات اعمق . ووجود الاكسجين شرط ضروري لنمو الفطر

يكثر وجود الفطر في الاراضي الحمضية على وجه العموم، وأما الفطر الشعاعي Actinomyces فدائم الوجود في الارض ، وقد تصل نسبته الى ٥٠ ٪ من مجموع الفطريات النامية بالتربة ويرجع ما للفطر من الشأن في التربة الى ان كثيراً من انواعها تحلل فروع النباتات وجذوع الاشجار المتروكة في التربة فتحولها الى مواد عضوية مفيدة بأن تمتص محتويات خلايا الخشب والاشعة النخاعية وتمتد في الاوعية والالياف فتؤثر بذلك في الخشب اذ تفقد جدره اللجنين ، ويذوب الجدار الوسط فيصبح الخشب هشًا سريع التفتيت. وهناك انواع مثل فطر بنيسلوم Penicillium واسبرجلس Aspergillus لها القدرة على تحليل السيلولوز . وبعض الفطريات الاخرى تستطيع الحصول على غذائها من السماد الطبيعي وبذلك تحلله وتساعد في جعله مفيداً للمحاصيل .

ولانواع معينة من الفطر القدرة على تخمير الكربوايدرات اثناء تنفسها اللاهوائي فتحللها الى كحول وثاني اكسيد الكربون بواسطة ازيم الزيماز، وقد سبق بيان تأثير الغاز الكربونيك في التربة

على انهُ من اهم الاعمال التي يقوم بها الفطر في التربة ، وعلى الاخص الفطر الشعاعي ، هو تكوين الدبال Humus [١] ، وتحلل الدبال ينشأ عنه انفراد جزء من الازوت على حالة نشادر وهذه تتأزت بسرعة ، وفي الوقت نفسه تخرج كميات كبيرة من غاز ثاني اكسيد الكربون . ولا شك ان الدبال يكون جزءًا مهمًا في التربة الزراعية ، فهو فضلاً عن كونهِ غذاء صالحاً للكائنات الدنيئة حيث تستمد منه نشاطها لتأدية العمليات المفيدة ، يساعد على خصب الاراضي بما له من تأثيرات مفيدة للنبات ،فهو يمنع فقد المواد المعدنية الغذائية في الماء وترشيحها في الطبقات السفلى علاوة انهُ يزيد من قوة حفظ الأرض للماء

يعاون البكتريا في عملية النشدرة أنواع من الفطر مثل Mucor و Penicillium فيمكننا القول اذاً ان التفاعلات المفيدة التي تحدثها البكتريا والفطر هي التي تسبب خصب الارض . ويقول في ذلك الاستاذ رامان «ان الانسان ليستطيع ان يضمن للنبات جودة النمو وسرعته بجعل الارض بيئة صالحة له وذلك بمساعدة الكائنات الحية الدنيئة» . والى ذلك يشير أيضاً الاستاذ Ehrenberg «تعمل هذه الكائنات على توفير حمض الكربونيك وحمض الازوتيك في ماء التربة الزراعية باستمرار فيتكوَّن ما يقابل ذلك من املاح الكالسيوم وايضاً املاح المغنسيوم مما يضمن تجمع المواد القروية» . بقي بعد ذلك من الكائنات الحية بالارض ، الحيوانات الاولية Protozoa وهذه قد بين الاستاذ E. J. Russel انها توجد دائماً في الاراضي وتعيش على البكتريا فتنقص عددها وعلى ذلك فهي مضرة بخصب الاراضي، ومن هذا يتضح السبب في معالجة الاراضي المجدبة والقليلة الخصوبة بالحرارة او بالتعقيم الجزئي لاتلاف البروتوزوا وبذا تفسح المجال للبكتريا فتنشط وتقوم بعملها خير قيام

وقد عوملت بعض الاراضي في روثامستد بالحرارة فقل عدد الكائنات الميكروسكوبية من ٧ مليون في الجرام الواحد الى ٤٠٠ فرد فقط ، ووجد ان عددها بعد ترطيبها زاد زيادة عظيمة جداً ومن ثمَّ زادت سرعة تكوين النوشادر من المركبات العضوية

الا ان البروتوزوا مع ذلك لاتخلو من فائدة للاراضي، وذلك انه عند موتها وتحللها تكون غذاء صالحاً للاحياء الدنيئة التي تؤدي مهمتها في هذه الحياة ثم تموت بدورها لتتغذى عليها الكائنات الحية الاخرى ، وهكذا دواليك

رضوان محمد رضوان

---

(١) الدبال عبارة عن مخلوط من جملة مواد عضوية ويعتقد بعض العلماء ان تركيبه هو : —
٥٠٫٠٪ ك و ٣٥٫٠٪ ١٠ ٢ و ٥٫٠٪ ز و ٥٫٠٪ رماد. الاان طبيعته الكيميائية غير معروفة بالتحديد ، ولكن الابحاث الحديثة تشير الى ان مصدره هو اللجنين مع مركبات خاصة ناتجة من التحويل البكتربولوجي Bacterial metabolism وهذه هي منبع الازوت في الدبال وعلى العموم يمكن ان يقال ان الدبال هو مادة عضوية نباتية وحيوانية آخذة في الانحلال

علاقة الانتاج

الزراعي بتغذية الشعب

—٣—

لحسين عنان بك
وكيل وزارة الزراعة

٦ – توفير الاغذية الحيوانية

ولا يكون ذلك الاً بوضع سياسة خاصة لتربية الماشية وتوليد اصناف منها تصلح للذبيح واخرى للبن والعمل على الاكثار من اراضي الرعي وخاصة في الصيف لضمان وفرة اللبن ومشتقاته . كما أنهُ يجب أن تنظم تربية الدواجن والحيوانات الصغيرة كالاغنام والماعز والأرانب ليتوافر اللحم لعامة الشعب. وقد وضعت وزارة الزراعة فعلاً في عهدها الجديد مشروعاً لكل ذلك فأنشأت قسماً خاصاً بتربية الحيوان والدواجن على اختلافها فأنشأت ثلاث مزارع للدواجن في الجيزة (بالغربية) وجزيرة الشعير (بالقناطر الخيرية) وسدس (بني سويف) على أحدث النظم ، وفي البلاد نهضة مباركة في هذا المضمار ففيها عدد كبير من الهواة لهم رابطة تلم شملهم وتقوم كلية الزراعة بتجارب عظيمة الشأن بهذا الخصوص

كما انهُ يجب ان يكون في متناول الشعب ما يكفيه من الالبان ومشتقاتها كالجبن بكافة اشكاله والقشدة والزبد والسمن وما يكفيه من لحوم الاسماك والحيوانات البحرية على اختلافها وهذا يستدعي تنظيم مصايد الاسماك والاكثار منها وتشجيعها بكافة الوسائل لتكون صناعة وطنية محترمة

فانهُ من العجب حقاً ان تستورد مصر وهي قطر زراعي عظيم مقادير كبيرة من الاغذية الحيوانية مع أنهُ كان الواجب علينا ان نصدر منها الى الخارج ما يدر على بلادنا الربح العظيم فتستورد مصر الاغنام من فلسطين وسوريا والعراق ونجد والحجاز وتركيا وتونس وقبرص وبلغاريا وتستورد حيوانات الفصيلة البقرية من بلغاريا وقبرص ويوغوسلافيا والعراق ورومانيا وسوريا وفلسطين والحبشة والولايات المتحدة وساحل الصومال الفرنسي وهولندا وتستورد الجمال من الحجاز ونجد وفلسطين وسوريا وتونس وقبرص والعراق

واليكم مقدار ما تستورده مصر من الحيوانات والاسماك ومنتجاتها عن سنة ١٩٣٧

أغنام	٧٠٩٠٠ رأس	ثمنها ٦١١٠٠	جنيه
الفصيلة البقرية	٧٩٠٠ »	» ٤٧٥٠٠	»
جمال	٢٥٠٠٠ »	» ١٤٩٠٠٠	»
لحوم طازجة مبردة		» ٢٩٠٠٠	»
لحوم مملحة او مجففة او مدخنة او مجهزة		» ١١٠٠٠	»
لحوم محضرة او محفوظة في أوعية		» ٤٨٠٠٠	»
ألبان ومنتجات معامل الالبان وبيض وعسل نحل		» ٢٨٨٠٠٠	»
مواد أولية ومنتجات أخرى من أصل حيواني		» ٦٠٠٠٠	»
مواد دهنية وزيوت وشموع وشحوم غذائية		» ٧٠٨٠٠٠	»
أسماك وذوات القشور والمحار		» ٨٧٠٠٠	»
مستحضرات اللحوم والاسماك وذوات القشور والحيوانات الرخوة		» ١٥٩٠٠٠	»

وكل هذه ممكن انتاجها واكثر منها بل اضعافها في بلادنا واغراق الاسواق الاجنبية بها اذ الواقع ان عدد الماشية في بلادنا قليل لا يقوم بسد حاجة البلاد من اللحوم ومشتقاتها والالبان ومشتقاتها وما تتطلبهُ الارض من الاسمدة العضوية

أما عن تربية الدواجن في مصر صناعة وطنية للتفريخ الصناعي لا مثيل لها في أي بلد آخر في الديار حوالي ثمانمائة معمل للتفريخ يشتغل منها فعلاً الآن ما يأتي: البحيرة ٣٩ الغربية ٦٨ الشرقية ٥٣ القليوبية ٣٩ المنوفية ٧٧ الدقهلية ٧٤ الجيزة ٢٧ الفيوم ٤٩ بني سويف ٣٤ المنيا ٥٤ اسيوط ٩٦ جرجا ٤٥ قنا واسوان ٤٥

وقد يبلغ عدد البيض الذي وضع للتفريخ بهذه المعامل سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ بالقطر المصري ٢٥٢ ر ٤٣٦ ر ١٠١ بيضة أخرجت ٣٠٩ ر ٤٧٦ ر٦٩ فراخ (كتاكيت) والموجود فعلاً من الدواجن سنة ١٩٣٧ بالقطر المصري هو

اوز	١ر٨٩٩ر٤٠٠	أي لكل	٩	اشخاص وزة
بط	١ر٣٦٣ر٣٠٠	»	١٢	شخصاً بطة
دجاج رومي	٣٣٠ر٩٠٠	»	٥٠ »	ديك رومي
حمام	٤ر١٠٨ر٣٠٠	»	٤	اشخاص حمامة
ارانب	١ر٩٦٥ر٦٠٠	»	٨ »	ارنب
دجاج	٢٦ر٨٨٧ر٦٠٠	»	٥ »	٨ دجاجات

ويبلغ عدد خلايا النحل بالقطر المصري سنة (١٩٣٧) ٦٢٤ ر ٤٦٨ خلية بلدية و ٥٩٢٧ خلية افرنكية وهذا عدد غير كاف بحاجة القطر لذلك يجب العمل على اكثار الخلايا الافرنكية وهذا يقوم بالدعاية لهُ فرع النحل بوزارة الزراعة وجماعة من الهواة تجمعهم رابطة النحل بتشجيع وزارة الزراعة

والغرض من الأغذية الحيوانية اعطاء الجسم ما يحتاج اليه من البروتينات ولكن الجسم يمكنهُ ان يحصل على ما يحتاج اليه منها من فول الصويا Glycine Soya وهو محصول قطاني ينمو في بلاد الصين واليابان وقد جرب قسم البساتين زراعة اصناف متعددة منهُ بالديار المصرية سنة ١٩١٨ فنجح منها صنف اسمهُ « ما نشوكو » وقد جربت زراعته صيفياً كالذرة الشامية وهو من جهة المحصول والصنف والصفات لا يقل في مصر عنهُ في البلاد الاخرى التي استورد منها وظهر بالتحليل أن نسبة الزيت فيه هي كما في البلاد الاخرى وكذلك البروتين وخلافه إلاّ أنها أقل قليلاً جداً عما هي عليه في موطنه الأصلي

ولم تعمل لهذا الفول الى الآن دعاية كافية في مصر لانا لم نجد لهُ استعمالاً يشجع الجمهور على استهلاكه كما في اليابان واوربا وأميركا . يستخرج منهُ الزيت والبروتينات وعجينتهُ مفيدة جداً لدرجة أنهُ تصنع منها أدوات صناعية كثيرة كازرار الملابس — هذا خلاف التغذية كالزيت واللبن المصنوع منهُ والدقيق المستعمل في مرض البول السكري وكذلك تغذية الماشية بعد خلطه بمواد مخففة وفي بعض البلاد يطهى بطريقة مخصوصة لأكله

وقد ادخلت البكتيريا التي لا بدَّ منها لنموه من اميركا وجربت في مصر فنجح بعضها ولم ينجح الآخر. والدليل على ذلك ان المحصول عادي النمو ويكفي لنجاح زراعة هذا الصنف في كافة انحاء القطر ان ينقل بعض التراب من الحقول التي نجحت زراعته فيها الى الحقول الجديدة

وقد سلم قسم البساتين ثلاثة اصناف من التي نجحت بمصر الى قسم الزراعة الفنية والاكثار للتوسع في زراعتها ويجري قسم البساتين الى الآن ادخال اصناف جديدة للتجربة والتحسين والأقلمة

وهذا المحصول كثير الغلة غني في البروتينات التي لها نفس القيمة الغذائية كالبروتينات الحيوانية في اللحم والبيض واللبن وهو من الوجهة الحيوية غذاء كامل بمعنى الكلمة ففي كيلو جرام واحد منه غذاء يعادل ما في ٥٨ بيضة أو ٥ و ٦ لتر من اللبن او ٥ر٣ كيلو جرام من لحم العجل الخالي من العظم . وبروتين كيلو جرام واحد منه يوازي بروتين ١٥٠ بيضة وهو يحتوي على ٤١ ٪ بروتين و ٢٠ ٪ دهن و ٢٠ ٪ كربوايدرات وهو غني في مادة الليثيسين التي في صفار البيض وهو علاوة على ذلك سهل الهضم مشبع فاذا عمت زراعة هذا الفول وانتشاره بين الطبقات العاملة في القطر المصري فانهُ يسبب اقتصاداً عظيماً جداً في

مقادير الفول واللحوم والدهن المستهلكة الآن في البلاد . ودقيق هذا الفول مفيد جدًّا للذين يزاولون اعمالاً بدنية مجهدة فهو لذلك اوفق غذاء للفلاح والعامل المصري — وهو علاوة على ذلك غذاء شديد القلوية (+ ٥ و ٢٦)

﴿ المحافظة على المحصول من التلف في اثناء نموه وفي اثناء التخزين ﴾ وهذا من اهم العوامل التي تؤثر في تغذية الشعب فقد تعرضت الامم في الازمان السابقة لمجاعات تشيب من هولها الولدان بسبب الآفات الزراعية والأمراض التي تنتاب الحاصلات فجعلتها اثراً بعد عين كمرض الصدإ في القمح وكمرض اللفحة الارلندية التي أصابت البطاطس بارلندا وسببت فيها مجاعة هائلة وكآفة الفيلوكسيرا التي كادت تقضي على اعناب فرنسا لولا نجدة العلم الحديث وما اتخذه العلماء الزراعيون للقضاء على شرها

ورغماً عن حداثة علوم الآفات النباتية ولاسيما طرق المقاومة فانهُ اصبح في ميسورنا مقاومة الأمراض النباتية الوبائية وغيرها بوسائل كيميائية كتطهير الارض والتقاوي من جراثيم الأمراض ورش النباتات وتعفيرها بمواد سامة لاتضر النبات ولكنها تحميه غائلة ما يسقط على اجزائه الهوائية من جراثيم الامراض وكاستنباط انواع منيعة ضد الأمراض وكرش الاشجار وتدخينها بالغازات السامة لقتل الآفات الحشرية كالبق الدقيقي والحشرات القشرية وغير ذلك

ويقوم بمكافحة الآفات الزراعية الآن قسما الحشرات والفطريات وكلاهما مجهز بمعامل مزوَّدة بأحدث ما ابتكره عقول البشر، ومصر اصبحت كأرقى بلاد العالم في هذا المضمار ولها بحوث نفيسة ويعمل اخصائيو هذين القسمين على تبسيط وسائل المكافحة والعلاج ولكن رغماً عن ذلك نرى الفلاح في جمود لا يأخذ بالنصح والارشاد ولا يتحرك إلاَّ بعد نزول النكبة وحلول الفجيعة

وقد نجحت تجارب وزارة الزراعة في تخزين البطاطس للتقاوي في الثلاجات اعظم نجاح وبذلك اصبح في ميسور مصر الاستغناء عما يرد الينا من الخارج لزراعة الخريف كما أن ابحاث قسم الحشرات فيما يتعلق بمكافحة دودة الرمان وسوس المخازن وكافة حشرات التخزين أسفرت عن نتائج باهرة — وقد أخرج فرع المبيدات الحشرية بقسم الحشرات زيوتاً تستعمل الآن على نطاق واسع لمكافحة الحشرات القشرية — كل ذلك محافظة على سلامة المحصول لضمان تغذية الشعب المصري

﴿التوسع في الصناعات الزراعية وتحسينها﴾ وأقصد بالصناعات الزراعية صناعة المربات والشربات على اختلاف أنواعها والفواكه المجففة والمحفوظة في العلب وحفظ الخضر وعصير الفواكه والمخللات وما الى ذلك مما هو معروف . وهذه الصناعات موجودة في بلادنا من قديم الزمان تزاولها ربات البيوت في المنازل ولكنها اصبحت صناعة منظمة سيكون لها شأن عظيم في مستقبل البلد الاقتصادي

ويرجع الفضل في انشاء هذه الصناعات الى قسم البساتين فقد أنشأ مصنعاً للصلصة والشربات والمربى سنة ١٩٣٠ وكانت مقطوعيته قليلة لأنه كان في دور التجربة

ثم انشأ معملاً لحفظ البلح وآخر لحفظ الفاكهة والخضر والمخللات بالطريقة المبلولة سنة ١٩٣٣ ولم يكن اذ ذاك بالقطر المصري معامل للصناعات الزراعية قط فاصبح فيه الآن ثلاثة مصانع كبيرة للصلصة احدها في الاسكندرية والآخران في القاهرة وهذه المعامل لا تكفي استهلاك القطر لذلك تعمل وزارة الزراعة جهدها في الدعاية الى تعميم انشاء مثل هذه المعامل وذلك بعرض الاصناف في السوق واعطاء الارشادات الفنية والصناعية واظهار الفائدة والربح التجاري من هذه الصناعة

وقد اتضح من تحليل الصلصة المصرية والاجنبية ، تفوّق المصرية من عدة وجوه فالمصرية خلاصة طماطم طبيعية بينما الاجنبية وجدت مخلوطة بالجزر واللفت والبطاطس وملونة بالالوان الصناعية لتظهر بلون الصلصة الطبيعية

ويوجد الآن بالديار المصرية مصنعان للصلصة ولحفظ الخضر أحدهما بمصر والآخر بالاسكندرية هذا علاوة عما يصنع في المنازل ودكاكين الحلوانية وكلها تبشر بالنجاح

وقد جرب قسم البساتين تخليل الزيتون بنوعيه الاسود الاخضر والخيار والبصل الرفيع والجزر والبنجر واللفت والكرنب (في صناعة الشوكروت) وعمل نموذج الخردل (المسطردة) للمائدة والمسطردة مخلوطة بالمخللات (البكاليلي) وكذلك الـ Mango Chutney, Ketchup وكلها نجحت نجاحاً باهراً

وبالقاهرة الآن معملان كبيران لصناعة المخللات علاوة على معامل الطرشي البلدية وعدة مصانع صغيرة حديثة منتشرة في كافة القطر

وقد اتضح من ابحاث قسم البساتين ان المخللات تحتفظ بجميع موادها الغذائية فهي لذلك غذاء مفيد مهم

أما المحفوظات التي تحفظ بالتعقيم بالحرارة فانها تفقد فيتامين (C.) او جزءاً منه والصلصة أقلها فقداناً له والشربات التي تصنع بالطريقة الباردة تحتفظ بجميع خواصها الغذائية وفيتاميناتها

وقد حاول قسم البساتين حفظ كثير من الخضر والفاكهة بالتجفيف فاستورد البامية الأزميرلي الرقيقة فنجحت زراعتها بمصر ونجح تجفيفها فأصبحت كالتي ترد الينا من أزمير واصبح القطر المصري يكتفي في استهلاكه بما يزرع فيه من هذا الصنف فوقف استيراده بتاتاً من الخارج

وجرب القسم تجفيف المشمش والتين المصري فلم يصلحا لارتفاع مقدار الماء فيهما مما يسبب ارتفاع أثمانها عن التي ترد من الخارج . وجرب تجفيف البصل والبطاطا وعمل منها مسحوقاً

وجفف مقادير كبيرة من البسلة الخضراء خصوصاً صنفي Little marvel و Lincoln فنجحا نجاحاً باهراً

وأجريت التجارب على تجفيف البلح الحياني للاستفادة من محصوله الوافر فنجح كما نجح في صناعة المربى منهُ قبل أن يرطب وقد ظهر أنها تفضل مربى البلح السماني

وهذه المصنوعات لا تعطي أكثر من ١٠٪ من استهلاك القطر ورغماً عن ذلك فانه يصدر منها الى بعض البلاد الشرقية كالسودان والحجاز — وقد صدّر معظم محصول البلح المصري المصنوع بقسم البساتين وبمحل سرسق الى المانيا

وقد انشأ قسم البساتين صناعة زراعية جديدة هي حفظ الفول المدمس والعدس اما بهيئة خلاصة أو حساء وكذلك اللوبيا والفاصوليا المطبوختين بالصلصة واللحم في العلب فنجح في ذلك نجاحاً باهراً وعرض منها نماذج على التجار فلاقت اقبالاً عظيماً كما انهُ صنع شوربة الطماطم وعصير الطماطم بالتوابل Tomato Cocktail في العلب وعمل تجارب على حفظ فصوص الليمون الهندي في محلول سكري في العلب فنجحت

﴿ ضمان توزيعه في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وبأسعار متهاودة لا تزيد الاَّ يسيراً عن سعر الجملة ﴾ وهذا من أهم العوامل في تغذية الشعب ولضمان التوزيع يجب ان تنظم اسواق الغلال والحبوب واسواق الخضر والفاكهة وتحسين وسائل نقلها وطرق تعبئتها ليقل تلفها كما يجب ان تنظم السلخانات ونقط الذبيح وتعمم في جميع انحاء القطر

اما عن أسواق الخضر والفاكهة بالقطر المصري فلا تزال وزارة الداخلية تصدر رخصها ولا يتبع وزارة التجارة منها سوى سوق الجملة للخضر والفاكهة بمدينة القاهرة وهما سوقان احداهما بشارع الملكة نازلي والاخرى بساحل روض الفرج . وفي الاسكندرية سوقان للجمعية التعاونية للخضر والفاكهة . وسوق ثالثة للخضر والفاكهة التي ترد من الخارج وجميعها من غير رخص . كما انهُ توجد سويقات كثيرة في المديريات منها ما هو مرخص بهِ من وزارة الداخلية او غير مرخص بهِ . والشكوى عامة منها لعدم وجود لوائح او نظم لها وذلك بسبب عدم وجود تشريع يبيح لوزارة التجارة الترخيص بهذه الاسواق وتحديد طرق التعامل فيها اذ ان التشريع الوحيد القائم هو الخاص بمدينة القاهرة فقط

***

وسياسة وزارة التجارة ترمي الى تعميم الاسواق في جميع المديريات ومناطق الانتاج الرئيسية ولكن الاعتمادات المالية تقف عثرة في سبيل ذلك فقد تقدمت الوزارة بجملة اعتمادات لانشاء سوق عامة في الاسكندرية وبور سعيد فلم يتحقق لها ذلك وهي تحاول نقل السوق الحالية بمصر

الى مكان يتفق واحتياجات التجارة التي أصبح ثلثاها خارج السوق وقد خطت وزارة التجارة خطوات موفقة فتم الاتفاق مع وزارة الاوقاف على المنطقة المزمع بناء السوق فيها

ووسائل نقل الخضر والفاكهة في داخلية القطر تنحصر في ثلاث طرق اساسية :

١ — بالماشية كالحمير والجمال الخ . . . في المناطق المتاخمة للقاهرة والمدن الاخرى وفي الزراعات المحدودة المساحة

٢ — بالسيارات من المزارع المتسعة والتي بالجهات البعيدة اويخشى عليها في اثناء النقل من التلف السريع او بالمراكب في النيل للاصناف التي لا يخشى عليها من التلف السريع كالبصل والبطاطس والبطيخ وأنواع المقات المختلفة وهذه مركزها جميعها في ساحل روض الفرج (الخضرة)

٣ — السكك الحديدية لجميع اصناف الفاكهة التي ترد الى الديار من الخارج ووسائل التعبئة من داخلية البلاد لسوق الخضر بالقاهرة غير متوفرة في جميع الاصناف وخصوصاً فيما يتعامل فيه بالعد كالموالح والمقات والكرنب وأسباب ذلك رخص الصنف وزيادة التكاليف ان عبوءه مما يعيق استهلاكه

***

وطرق التعبئة المتبعة حالياً تسبب تلفاً كبيراً وخاصة للخضر والفاكهة النضة اذ لا يمكن الاحتفاظ بها سوى مدة قصيرة فيتحتم تصريفها بأقصى سرعة خوفاً من الخسارة

وقد عني هذا العام باعتماد مبالغ لانشاء حلقات للاسماك في بحيرة المنزلة وهي مركز الانتاج الهام للاسماك ويرمي المشروع الى تعميم ذلك في جميع مناطق انتاج الأسماك بالمياه المصرية ويتبع ذلك طبعاً انشاء أسواق لتصريف الاسماك

أما بخصوص البيض والطيور والالبان ومشتقاتها فليس لوزارة التجارة سلطة عليها الآن والاتجاه يرمي الى اخضاعها مستقبلاً للمراقبة التجارية والتركيز في مناطق الاستهلاك الرئيسية

ولدى وزارة التجارة الآن مشروع لتخزين الخضر والفاكهة وتقاوي البطاطس إذ البلاد في أشد الحاجة الى ذلك

أما السلخانات ورخص الذبيح فلا تخفى مكانتها في ضمان حصول الشعب على ما يلزمه من اللحم المضمون

وتنقسم السلخانات في القطر المصري ثلاثة أقسام

القسم الأول (ا) سلخانة مصر (ب) سلخانة الاسكندرية

القسم الثاني : سلخانات بنادر مديريات الدرجة الأُولى ومحافظة بور سعيد

القسم الثالث : سلخانات بنادر مديريات الدرجة الثانية والثالثة والمراكز

القسم الرابع : سلخانات شركة الاسواق وقد ضمت اخيراً الى وزارة الزراعة بعد الغاء هذه الشركة وهي سلخانات صغيرة لذبح المواشي في أيام الأسواق الاسبوعية

﴿ تبعية السلخانات ﴾ ا — سلخانات مصر وطره وحلوان والزيتون والاسماعيلية تابعة لوزارة الزراعة — كذلك السلخانات التي آلت اخيراً الى الحكومة بعد انتهاء عقد شركة الاسواق

ب — سلخانة الاسكندرية التابعة لبلدية الاسكندرية المختلطة

أما باقي السلخانات بالقطر المصري فتتبع المجالس البلدية والمحلية والقروية

ويقوم بالرقابة البيطرية في سلخانات وزارة الزراعة والبلديات قسم الطب البيطري التابع لوزارة الزراعة التي تستولي على ايرادات السلخانات التابعة لها وترصد في ميزانيتها الاموال اللازمة للصرف عليها — أما السلخانات التابعة للمجالس البلدية والمحلية والقروية فان هذه المجالس تستولي على ايراداتها وتنفق عليها

﴿ نقط الذبيح في القطر المصري ﴾ وهي منتشرة في القرى بشكل منطقة معينة خالية في الغالب من اي نظام صحي فليس فيها وسائل لتصريف المياه — وبعضها مسور بسور من الخشب وأرضه مبلطة بالاسمنت وبها طلمبة للمياه وبئر لتصريف المياه والدم ويقوم بانشاء هذه النقط الهيئات الآتية

١ — مجموعة الجزارين الموجودين في المنطقة

٢ — اصحاب السويقات الاسبوعية

٣ — بعض المزارعين الذين يهمهم الحصول على سماد الدم والفرث

هذه هي العوامل التي بها تضمن البلاد تغذية الشعب تغذية صحيحة كافية لتصد عنهُ غوائل الضعف والمرض وتنفث فيه روح القوة والعزم

﴿ عمل احصاءات دقيقة سنوية عن الانتاج ﴾ وهذا من اهم العوامل لضمان تغذية الشعب إذ يمكن البلاد من معرفة حالة حاصلاتها ومقاديرها وكفايتها لسد حاجاتها لتبني بذلك سياستها الزراعية في السنين التالية ، لذلك كان الواجب يحتم وضع سياسة عملية يمكن بواسطتها الحصول على بيانات احصائية صحيحة وافية من الملاك مباشرة عن انواع المزروعات ومساحاتها ومقدار غلتها وغير ذلك من البيانات اللازمة وذلك باعطائهم استمارات تصرف مع ورود الاموال ليملأوها بمعرفتهم او بمعرفة الصراف مع تفهيمهم أن نتائج هذا الاحصاء هي في مصلحتهم الشخصية لانها تساعد على تحديد الاسعار بما يتفق والانتاج الحقيقي

لهيب !

ما ترى النار استطارت في الضلوع ؟ وصميم القلب مسفوح النجيع ؟ !

إيه فاضمم راحة الكف إلى جبهة الصدر ففي صدري نزوع

يطفر القلب اليها لاثماً لا يبالي بجراح او ضلوع !

***

إيه لا تبخل . فهذا خافقي دائم التسبيح في فيض الدموع

يرسل الشدو .. ولكن شدوه .. أنة المذبوح أو خفق الصريع

أسمعت الآن في تسبيحه ماحوى التسبيح من شجو مروع ؟ !

أنه يهتف ملتاعاً الى ربه المعبود ذي الحسن الرفيع

هات فاضمم راحة الكف الى جبهة الصدر ففي صدري نزوع

يطفر القلب اليها لاثماً لا يبالي بجراح أو ضلوع ...

***

.... وتمهل .. ثم دعني أحتضنها وأضم الروح .... دعني استطيع !

ايه ماذا قد سرى من كفه ؟ أي سحر ضمن الكف البديع ؟ !

ها هو القلب عليه نائماً نومة الطفل ... بأحلام الرضيع ! ....

القاهرة

محمد فهمي



مكتبة بنك مصر

ناحية من النشاط الثقافي
في هذه المؤسسة القومية



ان الذين يحسبون ان نشاط بنك مصر وهذا العديد من الشركات الذي أنشأه مقتصرٌ على الميادين المالية والاقتصادية يخطئون اكبر الخطإ . فلقد كانت هذه المؤسسات منذ ان خرجت الى الوجود حتى اليوم معاهد للتربية الاجتماعية والثقافية تسير فيها الجهود العلمية جنباً الى جنب مع الجهود الاقتصادية

هذه المؤسسات مدارس ومعاهد يتعلم فيها فريق كبير من الشبان فنوناً ما فتئت حاجتنا اليها قائمة ملحة . فيها يدرَّبون على هذه الفنون تدريباً عمليًّا على هدى التوجيهات العملية التي لم ين المسؤولون في البنك وشركاته عن تسهيلها على العاملين في هذه المنشآت ، وتوفير أسبابها لهم . فاذا كان هذا المصرف القومي — هو وما ترتب عليه من جهود غالية هي هذه الشركات المتباينة الأغراض — قد سدّ نقصاً كبيراً في الاقتصاد المصري ، فانهُ قد سدَّ كذلك نقصاً لا شك فيه في كثير من الفنون العملية ، فضلاً عن مساهمته في تشجيع كل ما من شأنه أن ينهض بالعلم وأدواته

هذه حقيقة يكاد يعرفها كل من في مصر ، وتشهد عليها الأمثلة الكثيرة من نشاط البنك وشركاته . تشهد عليها هذه البعوث التي يرسلها الى شتى البلاد الأوربية لتدريب العاملين فيه على ما يهمه ان يتوفر لشركاته من الخبرة الفنية والتزود من العلوم التي تتصل بما أعدوا انفسهم له من فنون . تشهد عليها بعثات شركة مصر للغزل والنسج التي قوامها عشرات من الشبان ، لدراسة ما يعني شركتهم من الفن والعلم . وتشهد عليها بعثات السينما والطباعة وغيرها التي أوفدها بغية الاستفادة بما يحصله اعضاؤها من البلاد التي تقدمتنا في هذه الفنون ، لاتقانها واجادتها في مصر ، وترقية مستواها ، والوصول بها الى ما يقدر عليه من كمال . تشهد على هذه الحقيقة كذلك تلك الاقسام العلمية الكثيرة التي انشأها فيه او في شركاته ، ورصد لها المختصين فيما يعنيها من فنون وعلوم وهيأ لها كل ما يستطيع للانتاج الذي يفيد البلاد عامة قبل ان يفيد هذه المؤسسات خاصة . فقام بذلك بواحدة من المهام الكبيرة التي اخذ على عاتقه الاضطلاع بها مختاراً منذ ان اعلن رجاله

في سنة ١٩٢٠ وبعد جهد طويل انهم عقدوا عزمهم — معتمدين الله — على ان يكون لمصر وللمصريين مصرف يفتح فتحاً قومياً في عالم الاقتصاد الاجنبي عنها حتى ،وقتذاك

وان الذين يتتبعون نهضة الاقتصاد المصري ليعلمون ان بنك مصر الذي انشىء في فورة الافكار التي اعقبت سنة ١٩١٩ ، كان منذ انشائه معهداً قومياً للتربية الاجتماعية طالما سجل من التقاليد الصالحة في هذا الميدان ما هو حقيق بالفخر به .وجميع الذين يعرفون كيف انشئت شركات بنك مصر يعلمون الى جانب ما ذكرنا — ان كل مؤسسة تحمل اسمه لم تكن صدى لحاجة عارضة ، ولا رجعاً لفكرة طارئة ، او خاطر عابر ، ولكنها جميعاً — واحدة واحدة — كانت نتيجة لدرس علمي وفني طويل لم تدخر وسيلة مما يصطنع العلم والفن الا بذلت في سبيل التدقيق فيه ، وتمحيصه حتى تخرج هذه المؤسسات الى الوجود اقوى ما تكون ارتكازاً الى تطور العلم والفن في العصر الحديث . كذلك كانت مؤسسات بنك مصر ، كل منها — في الميدان الذي اختصت به — ثمرة لثمين الجهود وغالي ما تعرف «الفنية العلمية» من دقة واستقصاء

وفي ابان حياة هذه الدعامة ، الوطيدة على الزمن باذن الله ، والتي الرجالُ الذين عملوا في بنائها رعاية العلم والاسترشاد به ، واستنصاح الخبيرين فيه ، حتى يضمنوا لما يقبلون عليه من مشروعات، حياةً موفورة البقاء والنماء . وهل أبلغ في الدلالة على هذا الاتجاه الجيد من تلك المكافآت التي رصدوها للمتفوقين في الدراسات الاقتصادية في قسمي الليسانس والدكتوراه بكلية الحقوق ، انهاضاً للهمم وحثاً للمجتهدين ، وتسهيلاً على الباحثين في الشؤون العلمية الخالصة التي لا غنى للفنون العملية عنها . وهل دليل أوضح كذلك من الجمعيات العلمية التي يؤلفها موظفو شركات بنك مصر ، وهذه هي الجمعية العلمية في شركة مصر للغزل والنسج ومجلتها التي تعتبر أولى المجلات المصرية التي تبحث في المسائل الفنية البحت . وهذه مطبعة مصر لا تتأخر عن بذل كل ما من شأنه أن يوسع من انتشار الثقافة ، ويرفع من شأن كافة العلوم

كل هذه المجهودات وغيرها يبذلها بنك مصر لنهضة العلم في مصر بذلاً سخياً . فهو يدرّب ويربي ويعلم ويثقف كلما عرضت لهُ الفرصة ، بل كلما استطاع ان يخلق الفرصة لنشر ما يراهُ صالحاً لخير المصريين من المبادىء والتعاليم . ولم يقف بهذه الجهود عند المساهمة في التثقيف العام ، ولكنهُ عمد الى أسرة البنك وشركاته ، فهيأ لأعضائها كل ما يملك من وسائل الاستزادة من العلوم بكافة أنواعها . وفي هذا السبيل أنشأ في داره الفخمة مكتبته الثمينة لتكون في متناول موظفيه وموظفي شركاته يجدون فيها ما يستكملون به أسباب تعليمهم ، وما يسهل عليهم أعمالهم بما عدهم به من آخر ما وصلت اليه العلوم في شتى مرافق الحياة

ولقد يكون من الجناية على الحق والتاريخ ، ان لا نسجل في هذه السطور ، فضل صاحب

الفضل في انشاء هذه المكتبة القيمة . فهي لم تولد مصادفة ، ولكنها أسست بعد تفكير طويل وجمع دائب لثمين المؤلفات والمصنفات

واذا كان سعادة طلعت حرب باشا هو الذي عمل — مع الأبرار الذين استمعوا الى ندائه — على إقامة بنك مصر للمصريين، ثم على رسم الخطط الأساسية لسياسة المصرف القومي والمجموعة الاقتصادية الكبيرة الشأن والعدد التي استندت اليه ، وحرص في هذا السبيل على ان يشمل نشاطه ميادين المال والاقتصاد والاعمال وميادين العلم والفن في وقت واحد ، فانهُ هو كذلك الذي هيأ لبنك مصر ان تكون لهُ مكتبة قليلة النظائر — فيما نعلم — بين مكتبات المنشآت العامة في هذه البلاد

واذا كان يخطىء من لا يلتفت الى الصفة العلمية التي لبنك مصر وشركاته الى جانب الصفة العملية ، فان من لا يلتفت الى جميع وجوه هذه الشخصية الكبيرة التي تزعمت الاقتصاد القومي بحق واقتدار يخطىء كذلك أكبر الخطإ

جمع طلعت حرب باشا هذه المكتبة لنفسهِ أولاً . ولما كان يقدم دائماً أثره الضخم — بنك مصر — على كل ما عداه ، فقد وهبهُ إياها، بجهود سنوات طويلة من جمع واستقصاء

وخصص لهذه النواة المباركة طابقين في دار البنك . أخذت تنمو فيهما — برعايته وتعهده — حتى أصبحت من أغنى المكتبات المصرية في شتى العلوم والفنون

وتحوي مكتبة بنك مصر الآن ما يقرب من الخمسة عشر الفاً من المجلدات العربية والأجنبية، في جميع فروع المعرفة ، في الأدب والتاريخ والاقتصاد والمحاسبة واللغات والطب والهندسة والفنون الصناعية والزراعية والتجارية ، وفي الفلسفة والدين والاجتماع ، وفي كل ما يتصل بكافة المعارف الانسانية في مختلف البلاد وشتى الأزمان . هذا فضلاً عن مجموعاتها الثمينة ومخطوطاتها القيمة ، الى جانب هذا العدد الوافر من المجلات والمراجع والمستندات التي تصدر بمعظم اللغات الحية مما يردالها بانتظام . وقد بوّبت هذه المجموعة الضخمة من الكتب والمؤلفات والمصنفات والمراجع بطريقة علمية حديثة ، ورتّبت أنواعها وأجناسها وفصائلها ، وفهرست لها الفهارس ، ووضعت لها الجداول في نظام محكم سديد . كما أخذ في تبويب الصحف والدوريات وشتى المراجع المنتظمة الصدور بطريقة « التصنيف العشري » العالمية — وهي الطريقة التي وضعها المعهد الدولي للفنون المكتبية في بروكسل وأُخِذَ بها في جميع أنحاء العالم المتمدين — وهي المرة الأولى التي عملَ فيها بهذا النظام في مصر

هذه هي مكتبة بنك مصر — بعض آثار طلعت حرب باشا — عَلَمٌ على العِلْم ، ومورد للثقافة ، ومنهل لا يغيض لمن أراد استزادة من المعرفة

محكمة تأديب

تعقد في سوق

قصة اخلاقية للكاتب الاجتماعي ج . ن . بوني

ليس من حرفة في عاصمة البلاد الفرنسية ، قد تمتُّ الى منابت الشرف الحق بأمتن الأواصر وأوثق الروابط ، كحرفة أولئك النسوة سيدات السوق اللواتي يخفين تحت كلامهن المرسل على السجية ، وجفاء أسلوبهن ، نزعات الأنفس النبيلة ، ولزوم طبائع الاخلاص والكرم

ودارس الاخلاق الممعن المتقصي ، يجد في السوق صورة قد جمعت فأوعت من خسيس المشاهد ومؤثرها معاً ، تحمل على الضحك تارةً ، والاهتمام والعجب تارةً أخرى

وما أنسى لا أنسى ذلك المشهد الرائع البالغ الذي تملأت به عيناي ، يوم تحالفت دول أوربا على أجنادنا المظفرة ، فردتها لأول مرة ناكصة على أعقابها ، إذ صارت فئة قليلة تقاتل فئة كبيرة لا قبل لها بحربها . وكان (ميدان الاربياء) الفسيح يفيض باجساد الجنود بين شيخ وحدث ، جرحى قد ضرجوا بدمائهم ، ينزلونهم من فوق النقالات على عجل ، وكانت وجوههم ترهقها صفرة، قد بدا عليها الاعياء والتضعضع ، وكنت تقرأ في أحداق عيونهم الكيد والكمد مما أصابهم من خذلان واندحار ، وكان تساقط قوى البعض ، وخمود جذوتهم ، وما يتصاعد من أنين البعض الأليم الموجع ، والدماء النزيرة التي لا ينقطع تدفقها من جروحهم ، كل ذلك كان يحرك رقة قلوب سيدات السوق ، فكن يحملن فوق كواهلهن أولئك الجنود المبتورة أعضاؤهم لا يراعين في ذلك رتبة ولا سناً ، ويطرحونهم فوق فرش مهيأة على عجل ، ثم يمضين مرقلات الى الأحواض يغترفن الماء في راحاتهن ليمسحن به في رقة جروحهم المترقرقة بدمائها . ويضممن بين أذرعهن ، ويدفئن بانفاسهن الذين منهم أخذ برد الموت يفتر أجسامهم. وكن يجأرن بالدعاء الى رب السماء ان يحفظهم ، ويثرن شفقة الناس لاسعافهم ، ويجعلن من هذه السوق المعروفة الزاخرة بأشهى ما تخرجه بساتين فرنسا ، ضرباً من مستشفى عسكري

إن الرحمة والانسانية عند أولئك النسوة الفضليات واجب ولذة . وبر الآباء خاصة عبادة وتقوى . وانما نشأت هذه الفضيلة فيهن من مغالبة الصعاب والأحوال، ومعاناة الشدائد والمشاق ليدخرن ما يكون منه لهن في شيخوختهن ، بعض الكفاف والقناء . وان الولد الذي يرى امه

تزايل مهده ، منذ الصباح ، والحسرات تقطع قلبها ، تمضي تقيم في دكان من ألواح الخشب تعاني فيها تقلبات الفصول ، وبجدها تعود اليه لتفيض عليه من حنانها وحدبها ، وتلقم على عجل طعاماً جشباً غليظاً ، ثم تقفل عائدة الى حانوتها الذي استودعته الى حين ، احدى جاراتها ، ان هذا الولد الذي يقع في نفسه ما يلقى من حنان امه وحدبها الدائب ، والذي إذ يحصى ما تلقاه في سبيل ذلك من كد ووصب وبذل لتربية ولدها وإعالة قومها ، لتفيض جوانحه بالمحبة والاكبار النامين على كر الليالي . فيغرسان في قلبه وبنيان صدق الرغبة في الوفاء لها يوماً . لهذا انت ترى لدى قطان الاسواق ، الجم الوفير من شيوخ الرجال والنساء قد احاطهم ابناؤهم بأشد بر وأبلغ رعاية . يلاقون منهم ذلك الحدب وذلك الحنان الذي افاضوه عليهم يوم كانوا احداثاً ناشئين . وتجد لهم عليهم سلطاناً ونفوذاً باقيين ما بقوا هم في قيد الحياة

وذي قصة عجيبة محورها ذلك البر البنوي الذي استكن في ضلوع بائعات السوق واستمسكن بوثيق عراه ، جمعت بين الموعظة والمثل الاعلى ، ملتزماً الدقة والامانة في سرد وقائعها كما جرت ، فانها بذلك حقيقة . عسى ان يكون في سردها حجة بالغة للذين علوا في الناس من ذوي الأبهة والمجد ، اذ نرى كثيراً من السوقة قد استنوا لهم سنّة ونظاماً خُلُقيّاً ، لا تجد مثله عند الخاصة ، ولا يمكن ان يجتمع على مثله اهل الوجاهة واليسار ، وأن محكمة الرأي العام هي احياناً أشد صرامة وأشد رهبة لدى أسافل الناس مما هي لدى اكابرهم

***

كانت لويزه حنة من أروج بائعات السمك في هذه السوق وارفههن حالاً ، واجملهن وجهاً ، واجذبهن ملامح ، مع تلك الطلاقة والشقشقة وتلك السيرة التي لا عوج فيها ولا امت مما تمتاز به أكثر نساء حرفتها . وكانت ابتسامتها المرحة الماكرة تنم على ارادة فيها قوية واستقلال يكاد لا يحفل بأدنى ما تقتضيه اللياقة . فقلما كانت تكترث بمن تحدثه نفسه بالوقيعة فيها ولوك سيرتها . فقد كانت ذات خُلُق ومحمود نقية ، وكانت بشهادة ضميرها راضية قانعة . بيد انها لفت بصرها واسترعى اهتمامها من ضمن اولئك الفتيان الكثيرين الذين يختلفون الى محلها ، ساعي بريد يدعى بروان . وهو غلام مديد القامة شديد فكه ممراح ، محوط برعاية رؤسائه ، مستوثق بالترقية وزيادة المرتب ، ولما كاشفها رغبته في الزواج بها ، دعته الى منزلها وعرفته الى ابيها . وكان أبوها واسمه الأب موران ، يشتغل مراكبيّاً في ميناء نهر السين ، واذ ماتت امرأته كف عن العمل واقام لدى ابنته مع امه العجوز المقعدة التي كان جم الحب لها . يجد قرة عينه في توقيرها وحياطتها بأسباب الرعاية

ورحب ابو الفتاة بخطب ابنته وهشّ له مستبشراً مطمئناً ، وتحدد يوم العقد ، ولكن المراكي الشيخ مرض مرضاً شديداً مات منه . وكان في آخر ايام حياته لا اهتمام له الا بأمه والعناية بها . فلما حضرته الوفاة اوصى ابنته بالقيام مقامه لدى امه ، والتخفيف جهدها ، مما تعاني من آلام الزمانة(٣) واكدارها

وكانت هذه الجدة الكريمة قد اصابها الفالج . وكانت تقضي ايامها جاثمة على مقعدها تحوك اذ كانت لا تزال تجد بقية من قوة ، ولكن كان لا بد كل يوم من انهاضها وإنامتها كطفل في المهد ، وكان لا بد من دفعها بمقعدها لدى النافذة لاستنشاق الهواء والانتعاش بأشعة الشمس . ثم كان لا بد من تجهيز طعامها ، والاحتمال احياناً لبوادر الغضب وقلة الصبر ، مما يكون عادة عند الذين بهم مرض او آلام ، والطاعة ولو لأهون ما تأمر به ، اذ كان موران ابنها قد عوّدها الحكم والتسلط . وللشيوخ بذلك هوى واستمساك . وموتُ هذا الولد الفطن اللبيب النقاد لها ، زاد هذه العجوز المقعدة حنقاً وحدة

وقد احتملتها لويزه حيناً من الزمن لا مستثقلة ولا متذمرة ، إذ كانت لا تفتأ تذكر وصية أبيها الراحل . وكانت بما طبعت عليه من بشاشة وسرعة ردودها المفحمة ، تحمل جدتها على الابتسام وتنصبها على الضحك ، بل كانت كثيراً ما تخمد جمرة اوجاعها . بيد ان لويزه ، لما كانت مضطرة للذهاب الى دكانها في السوق ، والتفرغ لشؤون تجارتها ، فانها أنابت عنها في خدمة جدتها ، صبية يتيمة في جوارها كانت تطعمها تصدقاً وزكاة ، فكانت الصبية تقوم بخدمة العجوز خير قيام

وانقضت على ذلك عدة اشهر والعجوز الكريمة لا تشعر بأدنى فتور في العناية بها والتوقير لها . ولكنها لم تلبث ان تبين لها ان لويزه امسكت عنها ما كانت تغدق عليها من تلطف وتبسط وما كانت تلقاه من برها البنوي واحتفالها بتلبية رغباتها وتخفيف اوجاعها . ولا شيء يسرع بالمرء الى التأثر والشعور بالاهانة من كونه عالة على ناسه وقومه ، ولا شيء يضيق منهُ ذرع الانسان ويفسد عليه نفسه وخلقه كتحكم الاقدار فيه أن يُعنى به ، ممن كأنهم على العناية به مُعنتون كارهون . وكانت لويزه ، وان كانت لا تقذف جدتها باية كلمة جارحة ، انما تقوم بخدمتها كأنما يؤودها حمل ثقيل ، وتضطلع بواجب عسير كتب عليها اداؤه ، وكثيراً ما تؤديه وهي متبرمة باداته متضجرة . وما لبث التذمر ان اعقب السكوت والكظم وما عتمت العجوز موران ان ذكنت سر هذا التذمر ، وانهُ أثر الفتور امسى يقابل به ساعي البريد خطيبته التي صارحها بانهُ لن يكون

(١) عجز او علة تزمن

لها بلاءً ، ما دامت جدتها معها ، وان من كانت في مثل زمانتها وعجزها لتتطلب عناية بليغة واهتماماً بها شديداً وان خلقها الذي ساء واستمر لا قبل له باحتماله

ولبثت لويزه حيناً تجالد في موقفها هذا بين جدتها وخطيبها ، ولكنها لم يسعها الا الاذعان والتسليم . وقد ابدت جدتها نفسها رغبتها في الخلاص مما تقاسي من ألم الثقيل على حفيدتها والاعنات لها في خدمتها . فطابت نفساً بالذهاب الى احد الملاجىء فتكفل لها حفيدتها اسباب العناية وتحوطها بضروب الحنان والتخفيف جهدها . وما قيمة الوعود في مثل هذه الحالة . انما تأتي على قدر الرغبة في الخلاص مما يثقل علينا حمله ويشق علينا اداؤه

وما لبثت العجوز المفلوجة ان حملت الى بعض ملاجىء باريس منقطعة عن الاهل والاصدقاء يلي امرها اولئك الممرضون والملاحظون الذين توزعت عنايتهم وتشعبت خدمتهم بين العدد الكبير من هؤلاء العجزة ، فما يصيب كل واحد منهم الا جانباً ضئيلاً من تلك العناية . مسكينة ايتها المرأة ! كم تشعرين الآن بشدة آلامك وثقل وطأة ما يرهقك من عجز وسوء حال ! وما اشد ما احاط بك من حرمان ووحدة كوحدة القبور قاصمة !

على ان لويزه لم تكن تألو جهداً في زيارة جدتها في مشرق كل نهار ، حاملة لها من الطيبات والمناعم ما عساه يحلي مرارة عيشها ويهوّن بعض شدتها . وكانت تنهضها بنفسها ، وتساعد على جلوسها . وتوصي بها الممرضين رحمةً وبراً . بل لقد رآها الناس غير مرة تنهمر الدموع من مآقيها اذ تفارق جدتها وتغادرها طريحة الوحدة ، فريسة البث والمضض ، وتصعد زفرات اللهفة والحسرات ، ثم اذ تودعها بنظرة أخيرة متحيّرة مشفقة ، تعود الى السوق تأخذ منها موضعها حيث لا تلبث مشاغلها وحضور ساعي البريد ان يمحو من بالها ما كان من امر جدتها

وما انقضت بضعة اسابيع منذ طرحت لويزه جدتها في المستشفى ، حتى نزلت بها نازلة ، وألم بها خطب شديد فعلمت ان الخارجين على حقوق الطبيعة المقدسة لا بدَّ ينالهم القصاص العدل ذلك ان انقيادها لخطيبها والمسارعة في اطاعة أمره واخراج جدتها من بيتها ونبذها في ذلك الملجإ ، ذاع بين جميع بائعات السوق ، ولهؤلاء السيدات ما يشبه محاكم العشائر . تشريع محكم يقضي في كل ما يتعلق بكرامة الطائفة وشرفها وامتيازاتها . واحكامه نافذة لا تنقض ولا تخالف

فذات صباح اذ كانت لويزه في حانوتها تعرض على الشارين احسن ما لديها من الاسماك وهم بسحر حديثها مأخوذون ، إذا بها قد احاط بها رهط من اقدم بائعات السوق ، واخذت احداهنَّ تسألها هل حقٌّ ما بلغهنَّ من امر طرح جدتها في ملجإ

فقالت ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل ، وهي تجاهد في كتمان اضطرابها : ياعجباً لكنَّ ! ومالكنَّ وهذا الأمر ؟

فقالت كيرتهن : ما لنا وهذا الامر ؟ إن لنا أن لا نذر بيننا ابنة جاهرت بالعقوق . تأبى على والديها ما تلقته منهما وهي طفلة ناشئة . قولي لنا يا لويزه ما فعلت بجدتك ؟

قالت : لكن ما منكن احد بحسيب علي

— إنا جئنا موفدات من قبل جميع زميلاتنا بائعات الزهور والفاكهة والسمك ومن ضمتهن السوق في رحابها وجنباتها ، تنذرك بالاقلاع عن موضك هذا او يُمَطْمِطُ(١) بك من في السوق ويلطخون وجهك بالوحل إن عادت بك قدم الى هنا

— فقالت المحكوم عليها متلجلجة تحاول كتمان اضطرابها : إن هذا لأمر مريب ! ما حكومتكن هذه الجائرة ! أيسوغ لكن حرماني من عملي ؟

— تعاطيه في مكان آخر . فما أكثر الاسواق في باريس

— ألكن أن تداخلن في امري وتخضن في سيرتي وشأني ؟

— نعم . ان مسنا من سيرتك ضير

— وأن تقضين بعاري وفضيحتي

— نعم لندفع عن انفسنا العار والفضيحة . وبعد ، لما كنت قد ضحيت بجدتك ارضاء لشهوة خطيبك وانقياداً لارادته ، ونكثت بالعهد الذي واثقك به ابوك الراحل ، فركبت سوأة النبذ لأمه المفلوجة في بعض الملاجيء ، فقد حرمك اهل السوق من رعايتهم وطردوك من حظيرتهم . ولا يمكنك البقاء بين الصالحين الذين حسنت سيرتهم ممن ضمتهم هذه السوق بين اكنافها

— ومن انبأكن أنه في مقدوري أن ابقي جدتي عندي ، وآتي لها بممرضة تقوم على خدمتها ابداً

— عذر اقبح من ذنب . انك لأنفق سلعة وأروج بياعة من كل بائعة سمك في هذه السوق . وانك لتربحين في يوم ما يقوم بنفقة بيتك واهلك اسبوعاً

ثم قالت كيرتهن وهي تومىء الى ما تزينت به لويزه وتبهجت من حلى :

يا ويحك ! أفتجسرين ان تطوقي عنقك بقلادة تُقَوَّم بخمسمائة فرنك ، وتتقرطين بقرطين ثمينين ، وعلى رأسك عصابة من نسج نفيس ، ثم تطرحين جدتك في ملجإ !.... يا زنيمة يا عاقة !... أعزبي من وجهنا ، حبلك على غاربك . أقيمي حيث شئت الا هذا المكان ، قد لزمك عارك والندم على جريرتك

وتعالت اصوات النساء اللواتي اجتمعن من اركان السوق لمشاهدة ذلك الحادث الغريب ، في لحظة واحدة تقريباً يقلن :

---

(١) من المطمطة وهي حكاية صوت الجان اذا قالوا عيط عيط وذلك اذا غلبوا قوما

— نعم . نعم . فلتعزب على عجل . لقد أخلت بأقدس الواجبات ، وخاست بالعهد وخلال الشرف . تالله ما منا احد يرضى ان تقيم بيننا . بغيض والله الينا مقامها وحلولها ، تفتق منه نفوسنا وتمعض ، وان فيه لمثل سوء لاولادنا يحملهم يوماً على العقوق والزراية بنا.... فلترحل الساعة ولتذهب الى حيث ألقت

وحاولت السماكة المسكينة دفع هذا الحكم الذي نطق به رفيقاتها ، ومغالبة لمز(١) المجتمعين وصخبهم من حولها عبثاً . فما وسعها الاّ الانصراف ودمع عينيها سيل منهمر ، وحمرة الخجل تغشى وجهها . تمشي متخاذلة ، نادمة سادمة ، ولكن لات حين مندم . لقد تعجلت في الانقياد لخطيبها . ولكن عسى ان يكون لها من حبه وزواجه بها ، عما لحقها من اهانة بالغة وخسارة متجرها النافق الرائج ، عوض وخلف جميل ! ولكن هيهات . انها ما لقيت بعد الاّ بعض ما حقّ عليها من قصاص

ذلك ان ساعي البريد ، إذ علم ما حاق بها من إهانة وتحقير على ملأ الناس . ولا سيما ذلك الحكم الذي قضى به عليها اهل السوق كافة ، اخذ حبه لخطيبته يختل ويذوي يوماً فيوماً . ذلك ان المحبة بغير احترام لا تدوم . فجعل باديء ذي بدء يتباطأ في رؤيته لها ، وشرع يختلق ضروب المعاذير لتأخير زواجه بها . وكان منتهى امره ان صارحها باستحالة زواجه بفتاة امست مهزأة ومضغة في افواه الناس ، فانه بذلك يتعرض لضياع وظيفته ، ولا سيما ما استوثق منه من امر زيادة مرتبه ورفع درجته . فصرم حبلها ونأى عنها رغم اعترافه بانه كان شريكاً لها في ماصنعت

فما وسعها الاّ ان تمضي تقيم في احدى اسواق باريس النائية عن السوق الكبرى ، فما صادفت ذلك الرواج والنجاح . وما لبث موت جدتها المسكينة التي اعجزها ان تغالب اشتداد كربها وبثها اذ نبذت في احد الملاجيء ، ان ضاعف ندمها وأجج غمها ، فاذا هي كئيبة قد ذهب عنها مألوف بشاشتها ، واضطرت ان تبيع بعض السمك المملح او سمك الماء الحلو في احدى ضواحي العاصمة حاملة سلتها من حي الى حي واخذت تهوي في حالة شبيهة بالبؤس والخلّة . وما لبثت أن مُنيت بعلة مستعصية بسبب ما استكنّ في نفسها من غم وكمد شديد ، وهي التي كانت لا تسعها الدنيا مرحاً ورتوعاً(١) فما وجدت الاّ ان تأوى الى احد المستشفيات حيث ذاقت هجر الاهل والصحاب . وادركت اخيراً ان الله يسم وجوه العاقين من الابناء بوصمة المطرودين المنبوذين ، ويبتليهم عاجلاً او آجلاً بالوحدة القاسية التي أوقعوا فيها آباءهم

[نقلها : أحمد أبو الخضر منسي]

(١) السخرية (١) نعمة العيش وغضارته

خليل مطران

شاعر العربية الابداعية

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

المبحث الخامس

العصر والرجل

﴿ توطئة ﴾ قلنا ان العصر الذي نشأ فيه خليل مطران كان عصر تحوّل في تاريخ المشرق، ومن هنا كان هذا العصر يسمح للعبقريات ان تظهر وللعقول ان تبدو على حقيقتها وقد أخذ الصدأ الذي تراكم على أذهان أهل المشرق ينجلي تحت تأثير مدنية الغرب الجارفة . ولا شك ان طبيعة الخليل الفنيّة من حيث كانت تتخذ من العالم الخارجي ما تفيض به من صور الحياة على الفكرات والخلجات التي تساوره ، كانت تتقوّم بطبيعة عصره المتقلقلة ، التي كانت حافلة بصور الحياة وألوان الإحساس . وهكذا كان عصر الخليل صالحاً أيما صلاح ، لظهور خليل مطران برسالته الشعرية الإبداعية . ومما لا ريبة فيه ان الناحية الشاعرية عند الخليل تطغى على بقية نواحيه . وشاعريته وان وجدت من العصر ما يساعدها على النضوج ، فان الرجل لم يكن ليجد من العصر ما ينضج شخصيته ويجعله أهلاً لدخول معترك الحياة . ولا ريبة ان لطبيعته الفنية أثراً في هذا النكوص الذي كان من أسباب خمول ذكر الخليل في عصره

على أننا حين نتكلم عن هذا الخمول ، فإنما نتكلم عن حقيقة لا يتنازع في شأنها . فالرجل خامل الذكر ، لان ذكره على الوجه الذي هو عليه من عصره ، أضعف من أن يتسق مع خصائص شاعريته ، التي لو وجدت في واحد من الذين ينتهزون الفرص ويحسنون خوض معارك الحياة ، لبلغ من ذيوع ذكره وشيوع شعره مبلغاً لا يدانيه أحد من معاصري الخليل . على ان هنالك بعد ذلك حالات فردية ، لا تناقض ما تلبسها من الأثواب ، الحالة العامة.

---

(١) أبو شادي — قطرة من يراع في الادب والاجتماع . ج ٢ ص ٣٣

فقد شعر بعض الأفراد بقوة شاعرية الخليل التي لا تجارى من ناحية الخيال والتصوير الشعري، فحفظوا للرجل مكانه من عصره . ولكن مثل هذه الحالات لا تقوم دليلاً على ذيوع ذكر الرجل في عصره الذيوع الطبيعي الذي يكافىء خصائصه

على أن هناك أسباباً أخر وقفت في وجه الرجل وذيوع ذكره اجتمع فيها العامل العنصري مع العامل الديني

اذن فالعصر الذي عاش فيه الخليل وان كان مبرز شاعريته ومجلى فنه ، الاَّ انهُ كان يقف في سبيل ذيوع اسمه ، والاعتراف بفضله على فن الشعر ، لاسباب يتصل بعضها بشخص الخليل ، والبعض الآخر بما ماشيها من اتجاهات العصر

ليس لنا ان نبحث ونحن بصدد العصر والرجل ، ماذا كان الخليل لو لم يكن شاعراً ؟ ان ان مثل هذا البحث وان كان مجدياً في اظهار نواحي الرجل الاَّ انهُ يقوم على اساس من النظر المجرد لا يسمح به الواقع المحسوس . فيكفي ان يكون الخليل وجد شاعراً لتقول انهُ لم يكن في مستطاعه ان يكون شيئاً غير شاعر . ذلك ان طبيعة الرجل فنية اتصلت بأسباب جملته يتحول بمنحاه الفني نحو الشعر . آية ذلك أنك تجد طبيعة الرجل الفنية تخلق المواد الشعرية من الطبيعة الخارجية وتسيطر عليها بفكرة متسقة مطردة جزئياتها ، حتى تستوعب الحياة وتطبعها بطابعها الخاص ، ممثلة اياها في صورة العصر التي ادركت نفسها في شخصه

اذن من خطل الرأي ، البحث في الرجل وأي شيء يكون لو لم يكن شاعراً ، لان طبيعة الرجل الفنية لا تجعله غير شاعر

— ١ —

يقول الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب المصرية :

«مطران ثائر على الشعر القديم ناهض مع المجددين وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد اليه وحاول ان يعود اليه مجدداً لا مقلداً . وهو ينبئك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم لتتبين به مقدار ما وصل اليه من التجديد وهو متواضع لا يزعم انه بلغ من التجديد ما يريد وانما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف وانما يعلن ثورته على القديم واغتباطه بالعصر الذي يعيش فيه وحرصه ان يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وانما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها في حرية كما يتأثر القدماء في اطلاق فطرتهم على سجيتها ، يكظم فطرته ولا يغشيها بالاستار الخداعة الخلابة . وهو فني له في مجال الشعر مذهب ان لم يكن

(١) A. Edhem في ثقافات الشرق الادنى — مجلة مجرى الفكر — استانبول م٣ ج٤ ص ٣١٠ — ٣١١ وجريدة برافدا بموسكو — مبحث التقليد وظاهرة الجمود في مصر الحديثة — عدد ٤ — ١ — ١٩٣٩

واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم لانه يمثل شيئاً من المثل الاعلى الفني في هذا العصر فهو يكره هذا الشعر الذي تستقل فيه الابيات وتتنافر وتتدابر ويريد ان تكون القصيدة وحدة ملتئمة الاجزاء» (١)

ولهذا يرى الدكتور طه حسين ان مطران ليس من الطبيعي ان يكون خلفاً لشوقي في امارة الشعر . لأن مذهب مطران في قول الشعر يباين مذهب شوقي . وهذا كلام ظاهره جلي يعتذر عن طه حسين حين كتب عقب وفاة أحمد شوقي أن امارة الشعر انتقلت بعد وفاته من مصر الى العراق . ولكنهُ لا يبين كيف انتقلت امارة الشعر من العراق بعد ذلك على يديه فوضعت على مفرق شاعر مصري يباين مذهبه في نظم الشعر كل المباينة مذهب شوقي . وهذا دليل آخر يتسق مع كلامنا من ان الخليل لم يحظ من أسباب عصره بما يذيع ذكره

هذا وكلام الدكتور طه حسين وان كان صادقاً في عمومه لكنهُ ليس بكل ما ينبغي ان يقال في مطران ، إذ ينقصهُ الاشارة الى الطبيعة الفنية ، وهي كل شيء في الشاعر

هذا والاستاذ احمد الشايب مدرس الادب العربي بجامعة الاسكندرية يقول :

«ليس مطران عندي شاعراً من هذا النوع الذي يشيع بين شعراء العربية قديماً وحديثاً ، وانما هو طراز جديد في الشعر العربي . هو شاعر العقل والشعور جميعاً . وقلما نجد هذا النوع بين السابقين وان حاول بعد المعاصرين ان يكونه . مطران فيما ارى عالم وأديب معاً . وهو اذن ناقد ، واذا كان لا بد من الافصاح فيجب ان نلاحظ ان الثالوث المقدس — الذي جمع بين حافظ وشوقي ومطران على زعامة الشعر الحديث — ليس متحد المزاج والطبيعة وان تجانس في الدرجة والتسامي ، فهم شعراء كبار يتفقون في ذلك ولكنهم يتمايزون بعد ذلك في كل شيء او في اغلب الاشياء . فاذا كان لحافظ سرعة البديهة وحلاوة النفس وصفاء العبارة وترديد آمال مصر وآلامها ، فان لشوقي براعة الغناء . وقوة الاسلوب ، وحسن التصوير ، وان لمطران صحة الفكرة ، ووحدة القصيد ، وصدق النظرة ، والثقافة الشاملة ، وسماحة الطبع وسمو الاخلاق . ومعنى هذا المرة الثانية ان مطران ليس شاعراً فقط او هو شاعر من هذا الطراز المثقف ، هو عالم أديب . صياغة بديعة وشعور صادق ، وخيال عام ، وأفكار سديدة . فاذا التمست عند حافظ وشوقي الجمال الفني فالتمسه عند مطران والتمس معه اللذة العقلية ، وغذاء الفكر والعاطفة او غذاء النفس جميعاً . مطران هو الخطوة الموفقة السابقة امام شكري وأبي شادي والعقاد والمازني وأضرابهم من شعراء الثقافة الحديثة» (٢)

وهذا كلام صادق إذ هو يعدد المناحي الشكلية لاتجاهات مطران الفنية ولكن ينقصهُ الكلام عن معنى الطبيعة الفنية عند مطران . الاّ انهُ من وجهة عامة يمكن ان يقال انهُ توفق أكثر من الدكتور طه حسين في تعديد المناحي الشكلية لاتجاهات مطران الفنية

والاديب أسعد الكوراني يقول :

« من الانصاف للادب والتاريخ ان نقول ان خليل مطران رأس حركة جديدة في تاريخ الآداب العربية ، وانه قد حول مجرى الشعر العربي من الذاتية الى الموضوعية فكان شعره متحد الاجزاء كامل الوحدة» (٣)

---

(١) طه حسين : حافظ وشوقي ، ص ١٧ (٢) احمد الشايب في ابولو ، م ١ ج ١ ، ص ١٣٠٧—١٣٠٨
(٣) اسعد الكوراني في الكلمة ، م ١٣ (تشرين الثاني وكانون الاول) حلب ١٩٣٨ ص ٤٦٩

وهذا كلام يتسق معناه مع ظاهر المناحي الشكلية التي عددها الاستاذ الشايب من اتجاهات مطران الفنية ولكن ينقصه الكلام عن وجه تقوّم شاعرية مطران من الوجهة الموضوعية التي ولاّها

ومن الانصاف ان نقول هنا ان كلام الاستاذ الشايب والاديب الكوراني من أعمق ما قيل في مطران . وبعد ذلك تبقى بعض آراء وان كانت لها قيمتها في اظهار بعض المناحي الشكلية لفن مطران، الاّ انها تقصر من جهة اخرى في الدلالة على روحه . من ذلك قول الدكتور ابراهيم ناجي

«الشعر موسيقى واقناع وخيال وصور . وشعر حافظ موسيقية فقط ، والثلاثة الباقية : الاقناع والخيال والصور غير موجودة ، ومطران لا يعنى بالموسيقية كثيراً ، ويعنى بالخيال والصور » . « حتى ان الخيال واطلاق العنان للتصورات العالية لا للاستعارات والكنايات اللفظية كثير في شعر مطران ، يزخر به ويعلو الى آفاق هائلة » . « ومطران في شعراء العربية ممتاز في هذا : له قصائد منفردة منقطعة النظير في الصور ترسمها وتنقلها الى الاذهان . خذ مثلا قصيدة « فتاة الجبل الاسود » ، او قصيدة « الجنين الشهيد » وأدبه في العموم مشرق عال مطبوع بطابع الخلود » (١)

وللدكتور احمد زكي ابو شادي رأي في شعر مطران له قيمته ، فهو يقول :

« الميزة الخاصة بشعر مطران نظرته الشاملة للحياة ، بحيث انه يجد اي موضوع — مهما كان تافهاً في ظاهره — صالحاً لان يكون مادة شعرية قيمة ، فالشاعر الحقيقي هو الذي يخلق الموضوع الشعري، وليس الموضوع هو الذي ينجب الشاعر » (٢)

وفي هذه العبارة الوجيزة يكشف ابو شادي عن الطبيعة الفنية لمطران . وهو يذهب بعدد مناحي شاعرية مطران من الناحية الشكلية ، وهو موفق في هذا التعديد ، الاّ انهُ لا ينتهي به الى بيان وجه تقوم شاعريته من الطبيعة الفنية . وابو شادي يذكرنا موقفه هذا موقف الاستاذ الشايب ازاء مطران

وهنالك رأي لانطون بك الجميّل رئيس تحرير الاهرام في مطران يمكن ان نلخصهُ في قوله:

« شعر مطران كرسم تتمثل لنا فيه تفاصيل حياة صاحبه . وان هذا ربما كان من أكثر محاسنه وبعض معايبه ، أعني ان هذا ما جعله مبتكراً في ابراز مكنونات صدره لانه لا يصف الا ما يشعر به ولا ينظم الا عواطف قلبه أي شعوره ، ولهذا نسمّيه « شعر شخصي » بكل معنى الكلمة . . . لكن ذلك أحيانا يجعله غير مفهوم عند العموم فلا يقف على جليته الا من كان له المام بحياة صاحبه . فكنا نتمنى حينذاك ان ننسى خليلا ولا نرى الا رجلا ونشعر أننا نحن هذا الرجل ، ولعل ذلك ما دعا البعض الى اتهام شعر الخليل بالتعسف . ونحن في بعض قصائده كنا نرى ضياءه من خلال غيوم — غيوم شفافة لا تحجب ذاك الضياء الباهر لكنها تخفف من لمعانه — بيد أننا كنا نرى شمس العواطف لا تلبث ان تمزق أديمها فتعود تسطع بلا كاف في سماء مخيلته » (٣)

ويؤخذ على هذا الكلام انهُ يخطىء في تعيين نوع شعر مطران ، حين يقول بأنهُ « شعر شخصي » والواقع عكس ذلك فشعر مطران غير « شخصي » subjective — لانهُ وان كان ذوب نفسه فانهُ

(١) ابراهيم ناجي في أبولو م ١ ج ٤ ص ٣٥٥ — ٣٥٧ (٢) أبو شادي في اصداء الحياة — الاسكندرية ١٩٣٧ ص ٦ — ٢٥ وعلى وجه خاص ص ١٣ و١٥ (٣) أنطون الجميل في الهلال م ١٦ ج ٩ (يونيه ١٩٠٨) ص ٥٣١ — ٥٣٩ وعلى وجه خاص ص ٥٣٨

يلبس صورهُ من الطبيعة لا من النفس . فالشعر وان كان عند مطران ذوب النفس الاّ انهُ موضوعي objective لانهُ يلبس صوره من عالم الموضوع . ويكاد يتمثل للذهن شبحاً بتهاويله وتصاويره ومبالغاته . وهذا ما انتبه لهُ الدكتور ابو شادي [١] فيما كتب عن مطران

من هنا نرى أن الآراء تكاد تكون قد أجمعت على تقديم مطران على زميليه شوقي وحافظ من الوجهة الفنية [٢] على انهُ رغم هذا لم تعرف مزاياه معرفة تامة من معاصريه . ولم يذع ذكره الذيوع الذي يتكافأ ومزاياه وخصائصه وبعد ذلك يبقى أدب الرجل أمام الأجيال القادمة كأكبر محاولة جرت في تاريخ اللغة العربية بالانتهاء بالشعر العربي الى مكان بين الشعر العالمي يناسب مقام العرب في التاريخ واللغة العربية بين اللغات

— ٢ —

تكاد تكون كل أخبار خليل مطران وتاريخ حياته ، معروفة صحائفها لأصدقاء الرجل وخلانهِ وهم كثر من الأحياء المعاصرين . الاّ ان هذه الصحائف لم تسجل . وما سجل منها يقف عند حدّ التعميم ولا ينتهي الى حدّ التفاصيل التي تربط بين حياة الرجل وشعره . ونحن يمكننا ان نرد جميع المصادر التي لها صلة بحياة الخليل الى ثلاثة أصول : ما كتبه الخليل عن نفسه ، وما رواه معاصروه عنهُ ، وما نطق بهِ شعره من وقائع حياته

اما عن الأصل الاوّل . فلم يكتب مطران شيئاً يذكر . وقد سألناه مرتين أن يكتب الينا المامة بحياته . ولكنهُ في كل مرة كان يعتذر . حتى جعلنا نولي بالبحث وجهة ، هي أقرب الى دراسة أعلام العصور الغابرة منها لأحد النابهين من المعاصرين . وقد يكون معذوراً في عدم كتابتهِ . ولكن ما عذره حيال نفسه وأدبه ازاء الأجيال القادمة ، وهو يفوّت الفرصة لراغب في دراسة حياته على وجه من التحقيق العلمي . على أنهُ بعد ذلك هنالك بعض فقرات تتصل بحياة الرجل ترد عرضاً في بعض ما كتب ، لو جمعنا بعضها الى بعض لم تدلّك على صورة واضحة منسجمة عن حياة مطران ، الاّ انها بالإضافة الى ما رواه معاصروه وما يمكن ان يستخلص من شعره تعطيك صورة عمومية عن حياة الرجل ، ان حاولت ان تنزل منها الى التفاصيل ، لم تأمن الزلل والوقوع في اخطاء الاستنتاج

ونحن يمكننا ان نلخص القول هنا بخصوص الأصل الثاني من المصادر التي عرضت لحياة مطران ، بأنهُ ليس من المصادر التي تحت أيدينا عن حياة الشاعر ونشأته الاّ بضعة أسطر كتبها الدكتور احمد زكي ابو شادي عام ١٩١٠ في مجلة حدائق الزهور ثم ضمنها فصلاً من كتابه

(١) أبو شادي في اصداء الحياة — ص ١٨ — ١٩ (٢) أنظر كذلك النقاد في شعراء مصر وبيئاتهم — في ذيل الكتاب

« اصداء الحياة » ، وهذه السطور يمكن ان نوجز القول فيها فيما يلي

ولد خليل مطران سنة ١٨٧١ ، فهو لم يتجاوز الاربعين من سني حياته ، ومع ذلك فهو مكثر منجب ، وقد أنشأ (المجلة المصرية) وهو في الثامنة والعشرين . وأتم الجزء الاول من (ديوان الخليل) بعد ذلك بعشر سنين على حين أنه لا يحوي الا قطرة من فيض شعره . وقد حرر في صحيفة (الاهرام) وأسس (الجوائب المصرية) وله كتاب (مرآة الايام) وهو سفر شائق في التاريخ العام . فحياته كلها نشاط ادبي »(١)

وانت كما ترى في هذا الكلام ، التعميم يغلب التخصيص . وماذا يفيدنا هذه السطور في معرفة حياة الرجل . على أننا نذكر لصديقنا الصحافي المعروف توفيق حبيب الذي يكتب زاوية هامش الصحافي العجوز في (الاهرام) بعض الكلام عن مطران ، حدثنا به عصر يوم الاثنين ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٨ في مجلس ضمّ معنا الدكتور احمد زكي ابو شادي والأستاذ سامي الكيالي محرر مجلة الحديث الحلبية ، نذكر منهُ هذا الكلام : —

« نشأ خليل بك مطران من أسرة ثرية في بعلبك . وتعلم في مدرسة الحكمة ببيروت . ثم مال ككل ابناء عصره من أهل سوريا الى الاشتغال بالتجارة فخرج من بيروت وهو شاب ليسافر الى تونس ومنها الى أوربا للتجارة . الا أنه مني بالاخفاق في محاولته هذه ، فرجع الى مصر في طريقه الى بيروت ، وتصادف ان كان يوم وصوله الى الاسكندرية يوم وفاة سليم بك تقلا . فسمع بالخبر ، فجلس وكتب مرثاة للرجل . وخرج مطران مع من خرجوا لتشييع جنازة الفقيد ، وبعد ان ووريت جثته في التراب . وقف مطران ضمن من وقف يلقي مرثاته . فما بلغ من مرثاته البيت الثالث حتى سمرت أقدام المشيعين للجنازة وقد التفتوا لهذا الشاب الشاعر وقد تولاهم الدهشة والعجب

وكان من ضمن المشيعين لجنازة الفقيد أخوه بشارة تقلا باشا صاحب جريدة (الاهرام) : وطلب من الشاعر الشاب بعد الانتهاء من مراسيم الجنازة ان يمرّ به في ادارة الاهرام . فما عرف من أمر مطران ما كان ، ومن شأن أسرته مقامها حتى عمل على جعل خليل مطران نائباً عنه في القاهرة — حيث كان هو في ذلك الحين بالاسكندرية ، حيث كان يصدر عنها صحيفة « الاهرام » فتذاك — وتعرف مطران بكبار رجال مصر في القاهرة . وسرعان ما احتل مكانة بارزة في هيئة المجتمع المصري بأخلاقه الكريمة وسجاياه الطيبة وأدبه العالي . وكانت له في الاهرام كل أسبوع مقالة ، في شأن من الشؤون السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية او الادبية . وكان لمقاله شأن كبير عند الادباء وصفوة القراء . وكان لا يقاس بها في ذلك الحين مقال لكاتب آخر غير ما كان يكتبه دياب بك في صحيفة المؤيد

وحدث ان انتقلت صحيفة « الاهرام » عام ١٨٩٩ من الاسكندرية الى القاهرة ، ورغب صاحبها بشارة تقلا باشا في ان يجعله رئيساً للتحرير غير انه أبى ورفض ، حتى يحفظ لنفسه حريتها في التفكير والعمل ولا يكلفها قيود هذا العمل . وظل مطران يشتغل محرراً ممتازاً في الاهرام . وكانت موارده من الصحافة كثيرة ومن أشغاله الخارجية غير قليلة ، الا أنه على كثرة دخله كانت نفقاته كبيرة ومردّ ذلك الى بسط يده للمعوزين والذين ضاقت بهم الاحوال من الادباء

كان خليل مطران يقيم في هذه الفترة من حياته في « أوتيل الخديوي » Khedivial Hotel ويقضي ساعاته في محل مدام باربييه Madame Barbier التي كانت تقوم تحت الفندق ، والتي تقوم اليوم على أنقاضها محلات « سليم صيدناوي »

وفي عام ١٩٠٠ أنشأ مطران صحيفة نصف شهرية هي « المجلة المصرية » وكانت تصدر عن الادب المحض ، وبذلك كانت أول مجلة مختصة بشؤون الادب في تاريخ الشرق . وقد صدر منها أربعة مجلدات ، تجد فيها جميع شعر اسماعيل صبري وجانباً كبيراً من شعر أحمد شوقي . وكان أكابر كتاب العربية في مصر يساهمون في الكتابة فيها ، نذكر منهم اخوه جورج مطران الذي كان يتناول المواضيع القصصية والتجارية .

(١) أصداء الحياة — ص ١١

ومن الشعراء الاحياء الذين نشروا فيها شعرهم ابراهيم رمزي واحمد رمزي وعبد الرحمن جيجي

وحدث في ذلك الحين ان أصدر جندي بك ابراهيم صحيفة « الوطن » جريدة يومية وضم اليها بادىء ذي بدء نخبة من المحررين الممتازين ، كان منهم مع مطران وابراهيم سليم النجار ، غير ان ضعف الصحيفة جعل مطران ينصرف عن التحرير فيها

وفي عام ١٩٠٢ أنشأ مطران مع أخيه جورج صحيفة « الجوائب المصرية » وهي صحيفة يومية ، اشترك في تحريرها الشيخ يوسف الخازن . الا ان عدم اقتدار مطران وأخوه جورج على ادارة الجريدة من الناحية الاقتصادية عملياً ، جعلهما يسلمان أمر ادارتها من الناحية المالية الى جماعة من الناس واحداً وراء واحد ، نذكر منهم عطا بك حسني . وكان نتيجة عدم اشراف الاخوين على شؤون الجريدة المالية ان غلبت خسائرها مكاسبها فاضطر خليل مطران ان يحجبها

على انه يمكن ان يقال أن صدور جريدة محايدة لا تميل مع الاحزاب كان من أسباب القضاء عليها ، لان كونها محايدة ان ارضى الكبار ، فانه لن يرضي عامة الناس وهم قراء الصحف وعمادها

في تلك الفترة أصدر مطران كتابه (مرآة الايام) في جزئين وهو سفر جليل في التاريخ العام : كما انه جمع (مراثي الشعراء) لسامي باشا البارودي في كتاب وفاء للرجل

وقد كتب مطران في ذلك الحين جملة روايات تمثيلية ، كما بدأ في ترجمة مسرحيات شكسبير من الفرنسية الى العربية ، الا أن ثمرة ترجمته لم تبد الا بعد الحرب العظمى

وخليل مطران من أرسخ الناس قدماً في الادبين الفرنسي والعربي ، يعرف الادب العربي القديم كأحسن المتخصصين فيه . كما أنه مطلع على الادب الفرنسي كأحسن ابنائه اعتناء بدراسته . على أن مطران متعدد النواحي ، فهو فنان ضرب في الشعر بسهم وافر ، حتى انك لا تجد ضريباً له في اتجاهاته الفنية في الشعر ، لا من معاصريه ولا من الذين نشأوا في الجيل الذي أتى بعده : كما انه صاحب فن في الكتابة المسرحية وشؤون التمثيل ، وله عدة مسرحيات من أروع القطع المسرحية العربية . وهو الى هذا صاحب اقتدار في فهم شؤون التجارة والمال . وقد اشتغل في التجارة كثيراً ، فكسب وخسر ، وميله للاتجاهات المالية جعل له دربة في الشؤون الاقتصادية ، حتى لقد كلف وضع البرنامج التأسيسي لبنك مصر . ومن مظاهر اتجاهاته الاقتصادية ترجمته مع حافظ ابراهيم كتاب « الموجز في علم الاقتصاد » وهو كتاب ليس لحافظ ابراهيم منه غير الاسم ، قام بترجمته كله مطران . هذا ومن مناحي مطران المتعددة كلفه بالمسائل الزراعية ، وهذا الكلف تظهر آثاره في صحيفة « المجلة المصرية » حيث كان يفرد فيها باباً خاصاً لشؤون الزراعية . وهذا الكلف اعطاه مقدرة وكفاءة جعلته يؤسس النقابة الزراعية المصرية . وهو الآن يشغل منها منصب السكرتير المساعد . على اننا اذا ذكرنا كل هذه المناحي لمطران في الشعر والحركة المسرحية وعالم التجارة والمال وشؤون الزراعة فيجب الا ننسى ناحية مهمة من مطران تتصل بحركة التمثيل المسرحي الشيء الذي يقوم باتجاهه الفني لكتابة المسرحية . ومن مظاهر نشاط مطران في هذا الميدان أن أسس دار التمثيل العربي قبل الحرب ، كما شغل رئاسة الفرقة القومية المصرية للتمثيل

والواقع انه لا يوجد اليوم من الاحياء من هو في نشاط مطران ، وان كان يذكرنا بنشاطه تلميذه الدكتور أحمد زكي ابو شادي بنواحيه المتعددة : في البكتريولوجيا والشعر والادب والنحالة والصناعات الزراعية وتربية الدواجن وشؤون الاجتماع والاقتصاد

ومما يذكر عن مطران ان المذكرات التي كان يضعها رجال المال والاقتصاد في مصر كانت تعرض عليه ، كما كانت المذكرات القانونية التي يضعها رجال القانون ، وفيها مساس بالشؤون المالية ، تعرض عليه للنظر فيها قبل طبعها وتقديمها للدوائر المختصة . نذكر من هذه المذكرات التي مرت تحت يده المذكرات التي وضعها عبد العزيز باشا فهمي ضد السر برونيت

هذا واشتغال مطران بالادب وكونه رجلا اجتماعياً دفعه لحضور كثير من مجالس الانس والطرب ، وكان هو من هذه المجالس صدرها بأدبه الجم وبروحه الخفيفة وبظله الوارف . وقد اندفع في كثير من الحالات الى وضع الكثير من الاغاني والمقاطيق الأدبية لتغنى في هذه المجالس . ولو جمعت هذه الآثار عن كل ما أحدثه مطران في عالم الادب والشعر من الآثر ، لكان من ذلك تراث قيم للغة العربية

واتجاهات مطران السياسية وان كانت تجعله محايداً عن كل الاحزاب المصرية ، فقد كان يحس للعائلة الخديوية بالتقدير لخدماتها لمصر ، ومن هنا كان اخلاصه لها ، ومن مظاهر هذا الاخلاص قصائده الرائعة في مدح أم الخديوي عباس حلمي ، الذي كان يجمعه الى مطران الكثير من الاسباب وصلات مطران بالخديوي واخلاصه له ، جعلته متهماً بالموالاة للخديوي بعد خلعه من عرش مصر ولا سيما في الايام الاولى من عهد الملك فؤاد

ومطران من أسخى الناس عطاء . يحب خير الناس ، يعمل على ان يخدمهم بكل ما أوتي من قوة ، وهذه هي نقطة الضعف فيه . على أنه مع ميله للاحسان ، تجده ابعد الناس عن الاعلان عن اعمال السخا التي يقوم بها . وهذا راجع الى كرهه الاعلان عن نفسه . وقد يكون ذلك من اسباب خمول ذكره بعد الحرب العظمى حيث انقطعت الصلة بين الفترة التي سبقت الحرب والفترة التي جاءت بعدها ، والتي لم يظهر فيها مطران نشاطاً يقاس لنشاطه في الفترة التي سبقت الحرب الكبرى »

هذه سطور وجيزة عن حياة مطران وهي ان كانت أشمل ما وقفنا عليه عن حياة الرجل من احد معاصريه ، فهي تقف عند حدّ التعميم ولا تصل من حياة الرجل الى الجزئيات التي تفهمنا اياه على حقيقته . ثم عندك فجوات في هذا الكلام ، اذ لا خبر فيها عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن جو أسرته التي نشأ في ظلها وتنفس ، ولا عن شيء من أمور معيشته وحياته الشخصية ، تلك الأشياء التي لا بد منها لبحث جدّي يراد به الترجمة لحياة انسان. على ان هذه القلة في الاخبار والفجوات التي تتخللها كان يمكن ان تعوض وتملأ لو ساعدنا مطران في تحقيق تاريخ حياته باعطائنا المعلومات التي طلبناها منه . ولكن اعتذاراته جعلتنا في موقف حرج من الدراسة . لا يمكننا ان ننكص وقد مضينا منها الى هذا الحدّ وهكذا لم نجد بدًّا من أن نكتفي بهذه الاخبار بالاضافة الى أقواله وأقوال بعض معاصريه التي لها اتصال او دلالة على حياته والتي ترد عرضاً في كتاباته او كتابات معاصريه ، والرجوع اليه في كل ما غمض من المسائل او استرفقنا من المواضيع حتى نلقي على الهيكل العظمي لتاريخ حياته ضوءاً وهو الهيكل الذي تكوّن تحت يدنا من هذه الأخبار ، وبعد ذلك لنا ان ننفخ فيها الحياة من شعره

— ٣ —

يقول انطون بك الجميل

«يمكننا ان ندرس حياة خليل مطران شطراً شطراً من مطالعة ديوانه سطراً سطراً . فان شعر الخليل رسم تمثلت لنا فيه كل اطوار صاحبه وارتسمت في صفحاته كل عواطف قلبه » (١)

وهنا كلام اختلط فيه جوانب من الحق مع جوانب من الباطل . اما جوانب الحق فاعتبار ان حياة مطران الشعورية متمثلة في شعره أحسن تمثيل من حيث ان شعره ذوب نفسه وعصارة قلبه ، اما حياته الماشية فلا يمكنك ان تخلص بها من شعره ، والرجل في هذا كالشعراء الافرنج من الصعوبة في مكان ان تخلص من شعرهم بتاريخ حياتهم ، لأن الموضوعية في شعرهم تطغى على الذاتية فيهم حتى تتلاشى فرديتهم ، فلا تدور على اغراضها شعرهم . وهم في هذا عكس شعراء

(١) الهلال ، م ١٦ ج ٩ (يونيه ١٩٠٨) ص ٥٣١ — ٥٣٢

العرب الذين تدور شاعريتهم حول الأغراض الذاتية من حيث يتلاشى كل شيء فيهم في حياتهم. فأنت لو أمكنك أن تخلص من شعر المتنبي او ابن الرومي المتأثر باتجاهات الشعر العربي بتاريخ حياتهما (١) ، فانك واجد في ذلك كل الصعوبة مع الخليل . من هنا نرى ان شعر خليل مطران في حدّ ذاته وان اعتبر مرجعاً عظيماً في فهم حقيقة حياة الرجل الشعورية ، فانهُ في ذاته ليس بالشيء الذي يذكر في دلالته على شؤون حياته المعاشية . الاّ أن شعر مطران بالاضافة الى ما تجمع لدينا من المعلومات والاخبار عنهُ يمكن أن يعتبر شيئاً لدراسة حياة الرجل ، وملء الفجوات التي بين الاخبار المتجمعة عنهُ ، ونفخ الحياة في الهيكل العظمي لتاريخ حياته . وهكذا تميز معنا جوانب الحق من جوانب الباطل في كلام انطون بك الجميل

ودلالة الشعر الصحيح على الحياة الشعورية لا تحتاج الى اسهاب لأن الشعر ان كان ذوب النفس ، فهو مظهر ما يختلج في الوجدان من نبضات الحياة وخلجات الشعور . من هنا لا نرى في قولنا ان شعر مطران ذو دلالة على حياة الرجل الشعورية ما يحتاج الى الاثبات . فمطران يجعلنا في قصيدته عن بعلبك — مثلا — نتمثل حياته الشعورية في صباه حين يقول:

نزقاً بينهنَّ (٢) غرًّا لعوباً لاهياً عن تبصُّر واعتبارِ
مستقلاًّ عظيمها مستخفًّا ما بها من مهابةٍ ووقارِ
نتبارى كأنَّنا فراشا روضةٍ مالنامن استقرارِ

كما أنهُ يجعلنا نتمثل من شعره حياته الشعورية وقد كبر وخاض معترك الحياة ،ذلك حين يقول

في غربةٍ لا أنس فيها للغريب ولا صفاء
تتقاذف الآفاقُ بي قذف العواصف للهباء
وتحيط بي لجج الصروف فمن بلاء في بلاء

وهكذا يمكننا ان ننتقل في شعر مطران ندرس منها أطوار حياته الداخلية في تقبضها ، ومظاهر حياته الوجدانية والشعورية

وانت قد تجد من الشعراء من يجعلك تركب الصعب في قراءة شعره حين تريد ان تستدل منها على حياته الشعورية . ذلك من حيث تبلغ فيه الصنعة حدًّا تجعله يحاكي صدق العاطفة . على ان هذا الحال وان كان معروفاً في شاعر مثل البحتري يجعلك تحترس في دراستك له ، فانهُ متخالط في غيره من شعراء العربية ، ومن هنا جاءت صعوبة دراسة حياتهم من شعرهم ، اللهمَّ الاّ الذين

(١) انظر عن المتنبي : محمود محمد شاكر في دراسته ، المقتطف م ٨٨ ج ١ (يناير) ١٩٣٦ وهي خير دراسة كتبت عن المتنبي . وانظر عن ابن الرومي دراسة عباس محمود العقاد ، ص ٧٦ — ٢٦٢

(٢) أي بين آثار بعلبك

بلغ فيهم الاحساس الشعري حداً يجعلهم في عصمة عن الارتفاع بالصناعة الى صور لا تمثلها شعورهم ولا تقوم لها في وجدانهم قائمة

ومطران من حيث كون شعره ذوب نفسه وخلاصة ما يضطرب في وجدانه يجعلنا في مأمن من التحرز عند دراسة حياته الشعورية من شعره . ذلك ان الرجل لا يقول الشعر الا عن وجدان صادق ، ومراثيه ومدائحه لا تعتمد على جودة الصياغة وقوة الصناعة التي يرتفع بها الى محاكاة العاطفة ، انما يقوم على فيض الشعور ، وشعور الرجل يتلوّن بصلاته الاجتماعية بالناس الذين يقول شعره فيهم في الظروف السارة او الحزينة ،[1] وهو في هذا يمثل في تاريخ الأدب العربي لوناً قائماً بذاته . وهكذا يمكن النزول من شعر الرجل الى الحالات الشعورية التي تتشكل وفقاً لها صلاته الاجتماعية بالناس

وشعر خليل مطران ان كان في عمومه يمكننا من ان ندرس حياته الشعورية والوجدانية ، دراسة مفصلة دقيقة تغنينا عن تمحص الاخبار والنظر في دلالاتها الشعورية ، فان هذا الشعر كما قلنا ، لا يمكن أن يعتبر مرجعاً قائماً بذاته في دراسة تاريخ حياة الرجل من وجهتها الماشية على وجه من التفصيل . ومع هذا كما قلنا وسبق الى ذلك الاشارة في الامكان ، بالاضافة الى ما بين يدينا من اخبار الرجل ، ان نستوفي ترجمة حياة الرجل جهد المستطاع ، يتداخل في هذا الاستيفاء الاستنتاج والنظر والتعرف والاستطلاع لما وراء هذه النبضات الذي يحملها شعره والرجوع بها الى ما يمكن ان يتجانس في الهيكل العظمى لتاريخ حياة الرجل المتكون من الاخبار التي جمعناها عن مطران

خاتمة

من وجهة نظر خاصة يمكننا ان نقسم تاريخ حياة مطران بالنسبة للأطوار التي لبسها من عمره ، الى ثلاثة ادوار : تبدأ الأولى من ميلاده وتنتهي باستقراره في مصر . وتبدأ الثانية من حيث ينتهي الدور الاول وينتهي بالحرب الكبرى . ويبدأ الدور الثالث يوم وضعت الحرب أوزارها وهو مستمر الى يومنا هذا

اما عن كون هذا التقسيم هو التقسيم الطبيعي . فذلك ما لا نشك فيه ، لأن هذه القسمة تمثل من جهة مراحل نشاط الرجل ، ومن جهة اخرى تكامل شخصيته وظهور فنه . فالطور الاول هو طور النشوء ، والطور الثاني هو طور النضوج ، والطور الثالث هو طور التكامل والتمام

وسيظهر من بحثنا لحياة الرجل من سبل التحقيق الذي سنأخذ انفسنا به ، ان هذا التقسيم منهجي وانه طبيعي في هيكل بحثنا الذي سنقوم به

(١) أبو شادي في أصداء الحياة ، ص ٢٤ — ٣٥

شهر من التاريخ

١٥ مارس — ١٥ ابريل ١٩٣٩

— ١ —

زوال تشيكوسلوفاكيا

بينما الحوادث تجري الى نهايتها المحتومة في اسبانيا [1] على الرغم من القتال بين قوات مجلس الدفاع في اسبانيا المتوسطة وفريق الشيوعيين فيها (في اواخر فبراير واوائل مارس)، وبينما قداسة البابا بيوس الثاني عشر يتوّج [2] في الفاتيكان متخذاً « العدل اساس السلام » شعاراً لعهده، كانت الريح تهبّ في اوربا الوسطى، ثم ما لبثت ان تحوّلت عاصفة هوجاء اضطربت لها مياهُ النهر — نهر الحوادث الدولية — واصطخبت، فطغت حوادث تشيكوسلوفاكيا وما يتعلّق بها على كل ما عداها، فصار حتماً علينا ان نخص الحديث بها، لأنها تحتلّ مكان الصدر في تطور الحوادث الدولية، في كل الفترة المنقضية منذ اتفاق مونيخ في آخر شهر سبتمبر سنة ١٩٣٨ الى اواسط مارس ١٩٣٩

وقد بدأت حوادث تشيكوسلوفاكيا في ولاية سلوفاكيا، يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٩ اذ ارتفعت في مدينة براتيسلافا عاصمة سلوفاكيا صيحة الانفصال مقرونة بصيحة التحية للهر هتلر. وسلوفاكيا على ما تعلم جزء من تشيكوسلوفاكيا واقع في النصف الشرقي منها. يفصل بينها وبين المانيا ولايتا مورافيا وبوهيميا، وتقع الى الشرق منها ولاية روتينيا المعروفة بأوكرانيا الكرباتية. اي اذا شبهنا دولة تشيكوسلوفاكيا — او ماكان دولة تشيكوسلوفاكيا — بسمكة ممتدة في اوربا المتوسطة رأسها الى جهة المانيا وذيلها الى جهة روسيا، وجدنا فيها خمس مناطق اولاها منطقة السوديت — وقد كانت تحف برأس السمكة كالحاشية وهذه ضمت الى المانيا وفقاً لاتفاق مونيخ الذي عقد في آخر سبتمبر من السنة الماضية — ثم يلي ذلك ولاية بوهيميا وفيها العاصمة براغ فولاية مورافيا، فولاية سلوفاكيا فولاية روتينيا او اوكرانيا الكرباتية، وهي في الذيل

في الاسبوع الثاني من شهر مارس الماضي، حفلت الصحف بانباء حالة مضطربة تسود ولاية سلوفاكيا هذه، ولا سيما علاقتها بحكومة براغ. حتى لقد ذهبت بعض البرقيات الى القول باحتمال نشوب حرب اهلية في الدولة التشيكوسلوفاكية المذكورة، وكان سبب الخلاف، بين

---

(١) في ٢٧ فبراير بين المستر تشمبرلين في مجلس النواب البريطاني البواعث التي حملته على الاعتراف بحكومة الجنرال فرانكو (٢) انتخب يوم ٢ مارس وتوج يوم ١٢ مارس ١٩٣٩

براتيسلافا عاصمة سلوفاكيا ، وبراج عاصمة الدولة التشيكوسلوفاكية ، ان فريقاً من متطرفي السلوفاك يريدون الانفصال التام عن الدولة التشيكوسلوفاكية . بل زعمت بعض دوائر براج نفسها أنها كشفت مؤامرة مدبّرة لاحداث هذا الفصل

ولا يخفى ان حديث الانفصال والاستقلال التام في سلوفاكيا ، سبقهُ ان منحت سلوفاكيا على أثر مؤتمر مونيخ ، وبتر تشيكوسلوفاكيا بضم مناطق السوديت الى المانيا ، استقلالاً ذاتياً على ان تبقى جزءاً في دولة متحدة (فدرالية) هي دولة تشيكوسلوفاكيا التي عاصمتها الاتحادية مدينة براج

فما ان قامت حركة الانفصال الاخيرة في ولاية سلوفاكيا ، حتى عالجتها حكومة براج بالحزم فأقالت المنسنيور تيسو رئيس الوزارة السلوفاكية ، واصدر المسيو هاخا رئيس الدولة التشيكوسلوفاكية مرسوماً بتأجيل اجتماع البرلمان السلوفاكي ، وعينت وزارة جديدة واتخذت القوات الحكومية تدابير حازمة لحفظ الامن . وصرحت حكومة براج ان كل ما يهمها في الامر هو الاحتفاظ بوحدة الدولة ، وأنها مستعدة لتوسيع نطاق الاستقلال الذاتي لسلوفاكيا الى اقصى حد يتفق ووحدة الدولة

وقد صحب حوادث سلوفاكيا ، حملة عنيفة في الصحافة الالمانية على التشيك فقد جاء في البرقيات العامة والخاصة التي نشرت عندنا صباح الثلاثاء (١٤ مارس) ان جميع الصحف الالمانية نشرت في صفحاتها الاولى تحت عنوانات ضخمة ان حالة الاقليات الالمانية في تشيكوسلوفاكيا تزداد خطورة ساعة بعد ساعة على أثر الحوادث الاخيرة وان التشيك ينشرون « ارهاباً وحشياً » ويهاجمون الالمان بمنتهى القسوة . وقالت جريدة فولكيشر بيوباختر ان الحالة اصبحت لا تطاق في براتيسلافا وان التشيك غير قادرين على تأليف حكومة سلوفاكية توافق رغبتهم لعداء الاهالي لهم

ثم جاءت الانباء بأن السلوفاك استجاروا بالمانيا ، وان المنسنيور تيسو رئيس الوزارة السلوفاكية المقال ارسل مذكرة الى الهر هتلر يبين فيها عدم شرعية تأليف الوزارة التي تلت وزارتهُ ، وكانت الانباء الاولى التي وردت عن موقف المانيا من هذه الحوادث ، ومن استجارة السلوفاك بها ، ان المانيا انكرت تدخلها في الاضطراب التشيكوسلوفاكي تدخلاً عسكرياً او سياسياً ، بل قيل ان السلطات والدوائر الالمانية واقفة بين نزعتين . ففي صحفها عطف بادٍ على السلوفاك وطلباتهم ، تدل عليه العنوانات والاقوال المنشورة . وفي دوائرها حذر من تأييد السلوفاك تأييداً رسمياً لئلاً تنفر حكومات البلدان المجاورة كبولندة وهنغاريا ويوجوسلافيا ، لأن عملاً من هذا القبيل يعدُّ تشجيعاً للشعوب المحكومة والاقليات المختلفة التي في هذه الدول وما اكثرها

وعند ما بلغت الحالة هذا الحدّ ، اخذت الحوادث تتوالى بسرعة تخطف البصر ، حتى بتنا نترقب البرقيات الواردة من اوربا ساعة بعد ساعة لنعلم كيف تطورت الحالة واي حدّ بلغت.

وصارت الحوادث الجديدة تلغي ما سبقها وتنقض ما قيل فيها . ففي البدء كان الموضوع موضوع استقلال سلوفاكيا استقلالاً تامًّا وانفصالها عن الدولة التشيكوسلوفاكية ، على ان تشملها المانيا برعايتها ، ثم أذاعت الصحف في صباح الاربعاء (١٥ مارس) في نصوص البرقيات التي وردتها في اليوم السابق الى منتصف الليل ان المونسنيور تيسو رئيس الوزارة السلوفاكية المقال ذهب الى برلين ، وان البرلمان السلوفاكي الذي كان المسيو هاخا رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية قد أجل اجتماعهُ ، اجتمع فعلاً واعلن استقلال سلوفاكيا فتقطعت بذلك اوصال تشيكوسلوفاكيا كدولة متحدة ، وتألفت وزارة جديدة برئاسة المونسنيور تيسو خلفت الوزارة التي ألفتها حكومة براج ، فطلبت الوزارة الجديدة حماية المانيا

وما لبثنا بعد ذلك حتى قرأنا ان أوقرانيا الكرباتية قد أعلنت استقلالها كذلك وتولى الوزارة الجديدة فيها ، المسيو فولوسين ، وبعد توليه الحكم أرسل برقيتين الى الهر هتلر والسنيور موسوليني يطلب النجدة ومساعدتهُ على حماية الدولة الأوقرانية التي أعلن استقلالها

عند ذلك رأت الوزارة التشيكوسلوفاكية ان ترفع استقالتها الى المسيو هاخا ، وتلا ذلك ان سافر المسيو هاخا بصحبةُ المسيو شفالكوفسكي وزير الخارجية الى برلين لمقابلة الهر هتلر والهر فون ربنتروب ، واذ كانا في طريقهما الى برلين ، وفي أثناء الاجتماعات التي حضراها كانت الجيوش الالمانية قد استعدت للزحف على بوهيميا ومورافيا فزحفت عند صدور الامر ولم تلق مقاومة ، فدخلت براج ، وأعلن زوال الدولة التشيكوسلوفاكية من الخارطة الأوربية ، بعد انقضاء عشرين سنة عليها من الكيان المستقلّ . ويقال ان المسيو هاخا والمسيو شفالكوفسكي أكدا في خلال الاجتماعات التي حضراها في برلين ان الغاية التي ترمي اليها جميع الجهود هي ضمان السكينة والنظام والسلام في هذا القسم من اوربا الوسطى وصرّح المسيو هاخا بأنهُ يضع مصير الشعب التشيكي والبلاد التشيكية بكل ثقة بين يدي زعيم الريخ خدمة لهذا الغرض وتحقيقاً لهُ . فقبل الهر هتلر التصريح وقرَّر وضع الشعب التشيكي تحت حماية الريخ

[ثم علم ان المسيو هاخا تعرَّض في برلين لمثل ما تعرَّض لهُ الدكتور شوشنج في برختسجادن قبل ضمّ النمسا الى المانيا ، من حملة قوية وتهديد صريح وانهُ سقط اعياء فلما أفاق وقع الوثيقة المعروضة عليه .]

وحدث في أثناء ذلك ان أرسلت حكومة بودابست ، انذاراً الى حكومة براج ، مداهُ اثنتا عشرة ساعة . فلما جاءها الرد لم تقابله بالارتياح ، فقررت الحكومة الهنغارية التدخل في

أوقرانيا الكرباتية فاجتازت قواتها الحدود صباح الاربعاء ١٥ مارس وفي احدى برقيات هذا الصباح (١٦ مارس) ان القوات المجرية توغلت في كل انحاء أوقرانيا الكرباتية بدون مقاومة تقريباً وينتظر ان تنتهي من احتلالها والوصول الى الحدود البولندية في الساعة الرابعة بعد الظهر (أي بعد ظهر اليوم لان البرقية المشار اليها صادرة من بودابست في ١٥ مارس أي أمس)

وكذلك ما كادت تنقضي سنة كاملة على ضمّ النمسا الى الريخ الاكبر، حتى ضمت اليه الولايات الثلاث الكبرى من تشيكوسلوفاكيا ونعني بوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا والفرق بين الحادثين ان النمسويين المان حالة ان سكان تشيكوسلوفاكيا—وهم يشملون التشيك والسلوفاك والروتينيين — يبلغون نحو عشرة ملايين وهم من العنصر الصقلبي وليس في البلاد التي يقطنونها بعد ضمّ المان السوديت الا أقلية المانية صغيرة. أما أوقرانيا الكرباتية فقد ضمّت الى هنغاريا وعلى ذلك فكل خارطة جديدة لأوربا يجب ان ترسم بحيث تكون بوهيميا ومورافيا وحتى سلوفاكيا أجزاء من الريخ الاكبر

كان الكتّاب الى عهد قريب يختلفون في وصف الجمهورية التشيكوسلوفاكية. فبعضهم وصفها بقوله، أنها جزيرة دمقراطية في وسط عجاج دكتاتوري. وبعضهم قال أنها منارة للحرية في أوربا الشرقية والمتوسطة. وبعضهم وصفها بأنها سدٌّ قائم في وجه التوسع الألماني في شرق أوربا وشرقها الجنوبي. وقد ظلت كذلك حتى اتفاق مونيخ. وعندئذ ظهر الصدع في ذلك السدّ. والآن قد تمّ انهياره، فغدا السدُّ قنطرة للعبور

القاهرة: ١٦ مارس ١٩٣٩

— ٢ —

استرداد منطقة ميمل

من أهم الحوادث التي وقعت في النصف الاخير من الأسبوع الماضي (الذي نهايتهُ يوم ٢٥ مارس) ضمّ منطقة ميمل الى المانيا. وهذا الضمّ يصحح خطأً من الاخطاء الكثيرة التي انطوت عليها معاهدات الصلح. فمدينة ميمل مدينة ألمانية شعباً ولغة وتاريخاً. أنشأها فريق من الفرسان الالمان في منتصف القرن الثالث عشر، وكانت دائماً في حوزة المانيا، لم تتبع دولة اخرى، الاّ دولة لتوانيا، بعد عقد معاهدات الصلح، وحينئذٍ دخلت في حوزة لتوانيا قوة واقتداراً. ثم ان اكثرية شعبها المان، واللغة الالمانية لغتهم، اما اللتوانيو الاصل منهم فيتكلمون اللغة الالمانية كذلك

وأين تقع ميمل؟ تصور الجانب الشرقي الشمالي من اوربا، الواقع على ساحل بحر بلطيق تجد بروسيا الشرقية والى الشرق منها منطقة ميمل محاذية لها وواقعة بينها وبين جمهورية لتوانيا وقد نزعت مدينة ميمل والمنطقة المحيطة بها من المانيا، لتكون منفذاً على البحر لجمهورية

لتوانيا ، اي لتكون لتوانيا في منزلة مدينة دانتزج لبولندة . وكان الرأي اولاً ان تكون مدينة حرة لها حكومتها الخاصة ، وان تتصل بلتوانيا بروابط اقتصادية . واذ كان الحلفاء ينظرون في مختلف المسائل المعروضة عليهم ، هاجم احد القواد البولنديين مدينة ڤلنا اللتوانية ، واحتلها سنة ١٩٢٠ فتلفت اللتوانيون حولهم فوجدوا ميمل ، فثأروا لڤلنا باحتلال ميمل ، فاعترف الحلفاء بالامر الواقع ولكن انشىء مجلس دولي لادارة مرفإ ميمل . ومنذ قام النظام النازي في المانيا ، تحوّل فريق كبير من المان ميمل نازيين بزعامة الدكتور نومان وهو طبيب بيطري وجعلوا يطالبون بحقوقٍ معيّنة وبالعودة الى احضان امهم الالمانية ، ويقال ان الحكومة اللتوانية اشتدّت في معاملتهم منذ اشتدوا في مطالبهم ، فلما كانت حوادث تشيكوسلوفاكيا وضم منطقتي بوهيميا ومورافيا الى الريخ ووضع منطقة سلوفاكيا تحت حمايته ، أُنذرت حكومة لتوانيا بوجوب التخلي عن منطقة ميمل واُعطيت مهلة خمسة ايام فسلّمت بما طلب منها بغير ان تستشير دولة من الدول ، ودخل الهر هتلر ميمل عن طريق البحر ذاهباً اليها في سفينة حربية تفادياً من اجتياز الرواق البولندي في قطار مقفل النوافذ ، واعلن ضمّها. وبذلك تمّ عمل يعيد الأمر في هذه المنطقة الى نصابه الطبيعي

زيارة المسيو لبران لانكلترا

المسيو لبران رئيس جمهورية فرنسا منذ سبع سنوات ، ذهب في ٢١ مارس في زيارة رسمية الى لندن ردًّا للزيارة الرسمية التي قام بها الملك جورج السادس والملكة اليزابث لفرنسا في خلال الصيف الماضي . الزيارة كانت رسميةً كما قلنا ، ولو انها جاءت في اوقات عادية غير الاوقات العصيبة التي تجتازها اوربا الآن ، لما كان لها من الشأن الخاص اكثر مما يكون لهذه الزيارات عادة . ولكنها جاءت نحو اسبوع بعد حادث مسح تشيكوسلوفاكيا من الخارطة الاوربية فكانت الحفاوة البالغة التي قوبل بها رئيس الدولة الفرنسية في بريطانيا معززاً جديداً لما بين بريطانيا وفرنسا من آصرة ترتدّ الى وضعهما الجغرافي الذي تنبع منهُ وتستند اليه قواعد السياسة الخارجية في كل بلدٍ من بلاد العالم

ومما هو جدير بالذكر ان وزارة الخارجية البريطانية وضعت مذكرة سرية فاز بها ونشرها في سنة ١٩٢٥ رجل يدعى بولدرستن . وقد كانت هذه المذكرة تنطوي على ما يراهُ رجال وزارة الخارجية لازماً لضمان السلامة البريطانية وفي مقدمة هذه القواعد ان لا يتاح لدولة واحدة الاستيلاء والسيطرة على بحر المانش ومرافىء البحر الشمالي وانهُ يجب على الحكومة البريطانية ان تجتنب عداء فرنسا وبلجيكا وهولندة — ومن ورائها الدنمارك والمانيا — أو أية كتلة منها

لأنها تملك هذه المرافىء . وثالثاً يجب ألاَّ يسمح لأية دولة تحارب فرنسا او بلجيكا بغزو هذه المناطق واقلاق الحالة الراهنة فيها مما يعرّض بريطانيا للغزو الجوي . ولذلك تقتضي شؤون الدفاع الامبراطوري التفاهم مع فرنسا وبلجيكا وهذا يقتضي من بريطانيا ضمان سلامة هذه الاراضي وعدم وقوعها في أيدي دول أخرى

هذا الموجز اليسير لتلك المذكرة الخطيرة بين ما بين فرنسا وبريطانيا من آصرة ترتدُّ الى الوضع الجغرافي ، والمستنبطات الحديثة في فن الطيران الحربي . وسياسة كلّ من فرنسا وبريطانيا بعد الحرب العالمية ، تشهد — على الرغم مما شجر بينهما من الخلافات — بأن هذه القاعدة لم تنسَ في احد البلدين ، بل انها عززت بمختلف التصريحات ، وأشهرها تصريحات ايدن ودلبوس من نحو سنتين ، وتصريحات تشمبرلين وبونيه من نحو شهرين

ومن أظهر مظاهر الحفاوة التي استقبل بها المسيو لبران في لندن ، استقبالهُ في قصر وستمنستر ودار البرلمان التاريخية ، وهذه هي المرة الاولى التي يستقبل فيها رئيس دولة اجنبية في هذا القصر ، والغالب ان مغزى الاستقبال الرمز الى تمسُّك الدولتين بالاوضاع الديمقراطية في لبابها ، لأنها في اعتبار الشعبين صفوة التراث الذي فازت بهِ الكرامة الانسانية بعد نضالٍ طويل خلال عصور التاريخ . ومما تحسن الاشارة اليهِ ان اللغة الاولى التي استعملت في هذه الدار التاريخية ، كانت اللغة الفرنسية وذلك على أثر الفتح النورمندي لانكلترا في القرن الحادي عشر

وعلى الرغم من ان الزيارة كانت رسمية ، فأنها أتاحت للمسيو بونيه وزير خارجية فرنسا ، الذي صحب رئيس الجمهورية ان يتصل بأقطاب انكلترا في خلالها ويتداول معهم في تطور الحالة الدولية . ويقال ان من احاديثهِ هذه ما اثار مشكلة في انكلترا ببعث موضوع التجنيد الالزامي من مرقدهِ وما يقال عن انقسام الرأي حياله

[وبعيد عودة المسيو لبران من زيارتهِ الرسمية لانكلترا جدّد انتخابهُ لرآسة الجمهورية في ٥ ابريل]

المشكلة البولندية ترتسم

في اوائل هذا الاسبوع بدأت ترتسم في افق السياسة الدولية الاوربية خطوط مشكلة جديدة من القدر الاول . وهذه الخطوط تزداد وضوحاً كل يوم . نعني بذلك مشكلة بولندة ازاء الريخ الثالث

كانت الانباء قد وردت في اواخر الاسبوع الماضي ان بولندا قد أبت الانضمام الى التصريح المشترك الذي اريد اصدارهِ باسم فريق من الدول هزتهُ حوادث تشيكوسلوفاكيا . وهذا الرفض

من جانب بولندة معقول . لأنها واقعة على حدود الريخ الشرقية ، ومجازها المشهور يفصل جسم الريخ عن بروسيا الشرقية وفيها اقلية المانية غير يسيرة ، حالة ان المانيا آخذة في التوسع شرقاً . فاذا وقفت بولندة موقفاً تشتمّ منهُ رائحة العداء ، فقد يكفي ذلك عذراً لإثارة مشكلات تبعث على القلق حقّاً

ثم جاءت انباء مستفيضة في صباح الثلاثاء (٢٨ مارس) عن مطالب المانية من بولندة خاصة بمدينة دانتزج والمجاز البولندي . نعم ان ما قيل عن ارسال بلاغ نهائي الماني من برلين الى وارسو كُذّب ولكن جاء بعد ذلك ان هناك اضطرابات في بولندة وان الصحف الالمانية تقول ان الاقلية الالمانية في بولندة مساءٌ اليها، وان الامر كاد يفلت من يد ولاة الامر او انهُ افلت فعلاً وفي هذه الاقوال نذير بان نواحي من موقف بولندة مطروحة على بساط البحث في برلين ، بل ان برقيات مساء الاربعاء (٢٩ مارس) تعترف بأنهُ نشأت في برلين مشكلة تعرف باسم «المشكلة البولندية»

وسبب ذلك انهُ لما انشئت دولة بولندة على أثر انتهاء الحرب الكبرى — وهي دولة سكانها يربون على الثلاثين مليوناً — رؤي ان يكون لها منفذ على البحر ، فأعطيت منطقة تخترق المانيا الى ساحل بحر البلطيق ، وتشمل مدينة دانتزج المشهورة . واطلق على هذه المنطقة اسم المجاز او الممر البولندي . هذه المنطقة تخترق المانيا وتفصل بروسيا الشرقية عن جسم الريخ فلا اتصال بين المانيا وروسيا الشرقية الا عن طريق البحر والا عن طريق سكك الحديد التي تجتاز المجاز البولندي وفقاً لقواعد اتفاق خاص

اما دانتزج فقد جعلت مدينة حرّة لها حكومتها المحلية ولكنها جعلت جزءاً من النظام الاقتصادي البولندي بحسب معاهدة عقدت بين المدينة والدولة . وعلاوة على هذا وذاك منحت بولندة منطقة كبيرة من ولاية سيليزيا ، على أثر استفتاء غير حاسم ، وهذه المنطقة غنية بالمناجم والصناعات

اما الآن وقد ضمّت النمسا وبوهيميا ومورافيا ومنطقة ميمل الى الريخ ودخلت سلوفاكيا في حمايتهِ واستشعر قوتهُ العظيمة وصولتهُ التي تحاذر فلا يبعدان يطالب بضمّ مدينة دانتزج وبحقوق في المجاز البولندي تضمن لهُ الاتصال المباشر ببروسيا الشرقية . وقد جاء في البرقيات ان الريخ في حاجة الى مثل هذا الضمان حتى يتمكن من ارسال المدد الى بروسيا الشرقية ، المفصولة عنهُ بالمجاز المذكور ، في حالة استهدافها لاعتداء من الشرق . وللمشكلة البولندية ناحية اخرى تتصل بما يقال عن النية على انشاء دولة اوقرانية مستقلة تحت حماية الريخ ، ولكن المجال لا يتسع لتفصيل ذلك وهي على كل حال ليست من النواحي التي تقتضي المعالجة السريعة الآن

القاهرة : ٣٠ مارس ١٩٣٩

— ٣ —

انقلاب في سياسة بريطانيا الخارجية

في بحار الارض نوعان من التموجات ، النوع الاول يشمل التموجات السطحية من تجعد صفحة الماء بهبوب النسيم الى الأمواج الكبيرة بهبوب الرياح . ولكن هذه التموجات قلما تتعدّى عمقاً معيناً من سطح الماء . والنوع الثاني يشمل التيارات العميقة القوية التي تسير في الأغوار . وكذلك بحار السياسة . تهبُّ عواصفها فتثير أمواجاً على السطح تتفاوت عنفاً ثم تسكن العواصف فتهدأ الامواج . ولكن التيارات السياسية القوية تسير في ما دون السطح ، وتتصل بطبائع الأمم وتربيتها ومثلها السياسية والاجتماعية وموقعها الجغرافي . فتبيُّن هذه التيارات لازم لفهم اتجاهات السياسة الأصيلة ، لأن الحكم بالاعتماد على الحوادث المنفردة ، والامواج السطحية قد يفضي بنا الى الخطإ

وقد حدث في الأسبوع الماضي (٧ — ١٣ ابريل) حادثان ، اذا أخذا بحدّ نفسها كان لها بعض الشأن ، ولكن اذا أخذا على أنهما دليلان على تيارين عميقين او اتجاهين أصيلين في شؤون الأمم وسياساتها ، برز ما لها من المقام واتضح ما يعلق بهما من خطر الشأن

وقد حدث الحادثان في يوم واحد . نعني يوم الجمعة الماضي (٧ ابريل) . أما الحادث الاول فانتهاء زيارة الكولونيل بك وزير خارجية بولندة لانكلترا . وأما الثاني فتجمع القوات الايطالية أمام ساحل البانيا وضربها ثغوره ونزولها في احدها

فالحادث الاول اذا أخذ على حدة ، كان كالتجعد اللطيف على سطح الماء يحدثهُ نسيم عليل . ذلك ان رجال السياسة جروا في هذا العهد على وجهٍ خاص ، على التزاور للاتصال الشخصي ، لان مقابلة واحدة بين وزيرين مسؤولين ، قد تغني عن مفاوضات طويلة . ولكن رحلة الكولونيل بك الى انكلترا ، جاءت على أثر تصريح خطير الشأن أفضى بهِ المستر نفيل تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية ، فقرَّر فيهِ قاعدة في سياسة بريطانيا الخارجية ، طالما امتنع الساسة الانكليز عن الاخذ بها . ذلك أنهُ لما بدا في الأفق الدولي ، ان بولندة قد تتعرَّض من جهة جارتها الغربية الكبيرة — أي ألمانيا — لضغط قد يؤثر في استقلالها صرَّح المستر تشمبرلين بأن الحكومة البريطانية تتعهد بنجدة بولندة اذا تعرضت لعدوان . ونصُّ التصريح الذي ألقاه المستر تشمبرلين في هذا الموضوع كما يلي :

« يعلم المجلس ان هناك مشاورات دائرة الآن مع حكومات أخرى . ولكي أوضح موقف حكومة جلالة الملك على أوفى وجه ، في خلال ذلك ، عليَّ ان أنبيء المجلس بأنهُ اذا حدث

في خلال هذه المدة ، عمل ما من شأنه تهديد استقلال بولندة تهديداً تحسبهُ الحكومة البولندية ان مصالحها الحيوية تقضي بمقاومته بقواتها الوطنية ، فحكومة جلالة الملك تشعر حتماً عليها ان تمد الحكومة البولندية فوراً بكل التأييد الذي في مستطاعها . وقد اعطت الحكومة (اي البريطانية) حكومة بولندة تأكيداً بهذا المعنى . وأضيف الى ما تقدم ان حكومة فرنسا اذنت لي في ان اصرّح بأنها تقف نفس الموقف الذي تتخذه حكومة جلالة الملك»

ما مغزى هذا التصريح الخطير ؟

مغزاه انهُ خالف مبدأ من المبادىء العريقة في سياسة بريطانيا الخارجية . بل اضاف اليها مبدأ جديداً . ذلك ان السياسة الخارجية البريطانية امتنعت قبل نشوب الحرب الكبرى عن ان تقطع عهداً حاسماً كهذا العهد الذي قطعتهُ الآن ، من حيث صلتها بفرنسا جارتها المتصلة بها بحكم الوضع الجغرافي . ثم انها امتنعت عن قطعه بعد انتهاء الحرب الكبرى الى عهد قريب . نعم ان انكلترا عنيت بعد الحرب الكبرى ، بما يضمن السلامة والاستقرار في غرب اوربا . واكبر مظاهر هذه العناية الضمان المشترك للحدود الالمانية الفرنسية والالمانية البلجيكية المنطوي في معاهدة لوكارنو المعقودة سنة ١٩٢٥ . ثم في تصريح بلدوين بأن حدود بريطانيا على نهر الرين. فلما نقضت معاهدة لوكارنو صرّح المستر ايدن اولاً ثم المستر تشمبرلين من اشهر بأن الدفاع عن فرنسا وبلجيكا اذا كانتا هدفاً لاعتداء غير مستفزّ ، من القواعد الاساسية التي تقوم عليها سياسة بريطانيا الخارجية . وهذه القاعدة ، متصلة بالوضع الجغرافي في تلك الرقعة من اوربا ، والوضع الجغرافي اصل تنبع منهُ وتستند اليه السياسة الخارجية.

اما في شرق اوربا ووسطها ، فان بريطانيا ابت ، على اهتمامها بشؤونها ، ان توسع نطاق التزاماتها هناك بالاشتراك في اي ميثاق يعقد فيها، او بضمان اي ميثاق من هذا القبيل . وما زلنا نذكر انهُ لما سعت فرنسا الى انشاء ميثاق خاص بشرق اوربا على نمط ميثاق لوكارنو الخاص بغرب اوربا ، باركت الحكومة البريطانية المسعى ، ولكنها ابت الاشتراك فيه او ضمانهُ . فلما كانت ازمة تشيكوسلوفاكيا في خريف السنة الماضية كان اهتمام بريطانيا بها عامًا ، من حيث مغزاها الاوسع ، وعاقبتها البعيدة ، ولكنها لم تكن مقيدة شأن فرنسا بنجدة الحكومة التشيكوسلوفاكية اذا اعتدي عليها ، علاوة على كونها كانت ترى بعض الحق في مطالبة المانيا بضم ألمان السوديت في نطاق الريخ الاكبر . نعم ان بريطانيا اقترحت قبل اتفاق مونيخ وبعدهُ ، ان تضمن مع غيرها من الدول سلامة تشيكوسلوفاكيا الجديدة ، ولكن هذا الضمان كان مشروطاً وشروطهُ لم تتحقق ، فلم يكن تنفيذ الضمان حتماً على لندن في مارس الماضي

اما الآن ، فالتصريح الذي القاهُ المستر تشمبرلين بخصوص سلامة بولندة واستقلالها ، يعني ان عهد «العزلة الباهرة» قد انقضى. وللمرة الاولى عينت بريطانيا مقدماً ما تفعل في حالة كذا وأخذت

على عاتقها عهوداً عسكرية في شرق اوربا . وكذلك انتقلت حدودها من نهر الرين ، الى منطقة نهر الفستيولا . والغريب في هذا كله ، في هذا الانقلاب التام ، انهُ فاز بتأييد اجماعي من الشعب الانكليزي والامبراطورية البريطانية ، والاحزاب والصحف على السواء . ويقول مؤرخو انكلترا السياسيون ، أنهُ من النادر ان ترى في تاريخ انكلترا في اثناء السلام ، اجماعاً ووحدة ، على انحراف خطير في السياسة الخارجية ، كالاجماع والوحدة اللذين قوبل بهما هذا الانحراف

فكيف تفسّر ذلك ؟ ان الجواب في رأينا يرتدُّ الى نفسية الشعب البريطاني وتقاليده . فهو شعب متأثر بتقاليد ابتعاده عن اوربا — لان الفاصل بينهما بحرٌ — وذلك قبل اختراع الطائرات الحربية ، وشدة الاعتماد على الاسطول البريطاني في الدفاع . وهذا الابتعاد هو ما يطلق عليه في تاريخ بريطانيا السياسي ، اسم « العزلة الباهرة » او « المجيدة » Splendid isolation ثم ان الجمهور البريطاني كان يعتقد ان في معاهدات الصلح نواحي شديدة الجور على المانيا يجب ان تصحَّح . ويضاف الى هذا انهُ من اشق الامور ان تفهّم شعباً كبيراً متأثراً بتقاليد العزلة ، مدى العواقب التي يسفر عنها عملٌ معيَّن في بلد بعيد كتشيكوسلوفاكيا اذا وقع ضمن نطاق النفوذ الالماني . لذلك كان اتفاق مونيخ ، وبتر تشيكوسلوفاكيا بضمّ مناطق السوديت الى المانيا . ولكن لما حدثت حوادث تشيكوسلوفاكيا الاخيرة في منتصف مارس الماضي ، وبدت في الجوّ نذرٌ تدل على ارتسام مشكلة بولندية المانية في الافق الدولي ، تغير الموقف . فالشعب البريطاني مشهور في تاريخه ، بأن المسائل التي لها مغزى ادبي تستثيرهُ ، وكأنهُ بحسه الأدبي يدرك مغزاها ، ولو كان لا يفهم نواحيها التي تتعلق ببلدان لا يعرفها معرفة طيبة ، ولا يقدر قيمتها كحجر من الاحجار المتنقلة على رقعة الشطرنج . والمسألة كما تبدو لهذا الشعب الآن ، على ما تبسطها صحفهُ المسؤولة ، وبقلم كاتب كان يدعو الى التعاون مع المانيا وايطاليا عندما كانت هذه الدعوة غير محبَّبة ، هي هذه : — « ان السلام على الارض غير منفصل عن الحرية الانسانية . فالتهديد الموجّه الى هذا التراث الانساني ، تحدٍّ ، والتحدي يجب ان يقبل ، وقد قبل » . والامل الوحيد الباقي ان يكون في ايضاح الموقف ما يدعو الى التريث . فقد وُجّه اللوم الى بريطانيا لانها لم توضح موقفها في سنة ١٩١٤ وقيل انهُ لو عمدت الى توضيحهِ لكان هناك امل في اجتناب تلك الكارثة

هذا هو التصريح من حيث مغازيه ومراميه البعيدة . وقد كان عند القائه موقتاً ، فلما جاء الكولونيل بك الى لندن دارت المفاوضات على اساسه بقصد تحويله من تصريح موقت صادر من جانب واحد الى تصريح متبادل ابوابه مفتوحة لدخول الدول التي ترى فيه ضماناً دفاعيًّا لاستقلالها ويلوح مما نشرته الصحف ان المرمى قد اصيب

وقد نقلت الينا البرقيات العامة — ونحن نكتب هذه السطور مساء الاربعاء (١٢ مارس)

وصباح اليوم (١٣ مارس) — ان سفير بولندة في برلين عاد الى عاصمة بلاده حاملاً طلبات المانيا من بولندة وهي تسوية مسألة دانتزج طبقاً لرغبة الألمان، وشق طريق للسيارات خاص بالمانيا عبر المجاز البولندي وتعديلات أخرى خاصة بأراضي سيليزيا العليا وما يجاورها من الحدود البولندية التشيكوسلوفاكية. ولا نعلم مبلغ هذا من الصحة. فاذا صح فعلى الحكومة البولندية ان تقرر ما التسوية التي تتفق ومصالحها الحيوية واستقلالها، ولكنها مهما يكن من أمر فانها ستدخل المفاوضات الخاصة بهذه المطالب وهي واثقة بأنها اذا هدد استقلالها ورأت من مصلحتها الحيوية مقاومة هذا التهديد فلن تقف وحدها. هذا من ناحية زيارة الكولونيل والتصريح البريطاني، ودلالتها على اتجاه جديد في تيار السياسة الخارجية البريطانية

احتلال البانيا

وإذ كان الكولونيل بك يودع مستقبليه في لندن صباح الجمعة الماضية (٧ ابريل)، كانت ايطاليا قد حشدت قوات كبيرة بحرية وجوية وبرية على سواحل البانيا، وضربت ثغورها وأنزلت فصائل جندها الى البر بعدما انكرت — على ما روي — أنها تنوي ذلك

والبانيا دولة صغيرة يعدُّ أهلها مليون نسمة ثلثاهم من المسلمين، وهي واقعة على الجانب الشرقي الجنوبي من ساحل البحر الادرياتيكي يحدها من الناحية البرية يوجوسلافيا وبلغاريا واليونان. وقد اعترف باستقلالها في سنة ١٩١٣ ولكن الفوضى سادتها خلال الحرب الكبرى. فلما وضعت معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ وهي المعاهدة التي دخلت إيطاليا بمقتضاها غمار الحرب الكبرى الى جانب الحلفاء، وعدت ايطاليا بأن تمنح مرفأ فالونا — وهو من أحسن المرافىء على ساحل البانيا — وان يعهد اليها بأن تتولى شؤون البانيا الخارجية

والواقع ان جنوداً ايطاليين كانوا فعلاً محتلين البانيا عند انتهاء الحرب الكبرى. إلا ان الجيش الايطالي لم يحتفظ بهذا الاحتلال، لما بدا في حياة ايطاليا بعيد الحرب من الاضطراب، ولمقاومة بدت من ناحية فريق من الشعب الالباني ومن اليوجوسلافيين الى الشمال. وكان اليوجوسلافيون يعتبرون وجود قوات ايطالية على الساحل الشرقي من البحر الادرياتيكي خطراً على سلامة دولتهم، لان كل سواحل دولتهم واقعة على ذلك البحر، والساحل الايطالي يناوحها من الغرب، فانسحبت الجنود الايطالية من البانيا سنة ١٩٢٠ وانتظمت الحكومة الالبانية في عصبة الامم. ولكن ذلك لم يحلَّ مسألة اخرى تتعلق بالبانيا وايطاليا. فقد زعمت ايطاليا ان الحلفاء وعدوها بالاعتراف بمكانة خاصة لها في شؤون البانيا. فلما اجتمع مؤتمر السفراء، وهو الذي خلف مجلس الحلفاء الاعلى، في شهر نوفمبر من سنة ١٩٢١ باريس وافق على قرار خاص بهذا الموضوع جاء فيه انهُ اذا استهدف استقلال البانيا الى خطر ما، فان الحكومات البريطانية

والفرنسية واليابانية تبعث بتعليمات الى ممثليها في عصبة الامم ليقترحوا على العصبة ان يعهد الى ايطاليا بالمحافظة على هذا الاستقلال ، والواقع ان هذا القرار لم يكن لهُ مغزى عملي . لانهُ اذا هدّد استقلال البانيا فالغالب ان هذا التهديد يجيء من عبر البحر الادرياتيكي . ولكن ايطاليا فسَّرتهُ بانهُ اعترافٌ لها دون غيرها ، بأن البانيا منطقة نفوذ خاصة بها ، وهذا التفسير كان مصدراً من مصادر القلق الذي ساد علاقات ايطاليا بيوجوسلافيا الى عهد قريب . وبعد ذلك عقدت معاهدات بين البانيا وايطاليا وعدّلت غير مرَّة ، ولكنها كانت على كل حال مما يمكن قدم ايطاليا في البانيا . ولايطاليا في البانيا مصالح مالية واقتصادية غير يسيرة في مقدمتها القروض التي عقدتها حكومة روما لحكومة تيرانا — ويقال انها تبلغ ٢٠٠ مليون فرنك ذهب — ثم هناك البترول الذي يستنبط من مناطق في البانيا ولاسيما منطقة برات

الاَّ ان المصالح الحربية — الاستراتيجية — تفوق المصالح الاقتصادية والمالية شأناً . ونظرة واحدة الى خارطة البحر الادرياتيكي توضح ذلك . هذا البحر له ساحلان غربي وهو ساحل ايطاليا وشرقيٌّ وهو ساحل يوجوسلافيا في الشمال وساحل البانيا في الجنوب . والساحلان الغربي والشرقي يلتقيان عند ثغر تريسته المشهور . واذا اخذنا بتشبيه الجانب الجنوبي من شبه الجزيرة الايطالية بالقدم ، فالساحل الالباني يناوح عقب القدم الايطالية . وبين الساحلين مضيق ضيق يدعى مضيق اوترانتو لا يزيد اتساعهُ على اربعين ميلاً . فاستيلاء ايطاليا على البانيا يمكنها من ايصاد هذا المضيق في وجه من تشاء ، فتغدو متحكمة او قادرة على التحكم بمصيره ومصير الدول التي على ساحله — أي يوجوسلافيا

ويوجوسلافيا يهمها كل ذلك من الناحية الاستراتيجية ايضاً . لان استيلاء ايطاليا على البانيا يجعل يوجوسلافيا مطوقة بدول كبيرة تستطيع التأثير في مصيرها وكيانها السياسي — الى الشمال المانيا وايطاليا . والى الغرب البحر الادرياتيكي وهو بحيرة إيطالية . والى الجنوب البانيا الايطالية . اما الى الشرق والشرق الجنوبي ، فلها حدود مشتركة مع رومانيا وبلغاريا واليونان

وقد كان الباعث على هذه الحملة « اقرار السكينة والاستقرار والحرية في البانيا » و« حماية الايطاليين » على ماجاء في بعض البيانات الرسمية الايطالية ، وهذا لا ينهض عذراً كافياً ، ولا سيا اذا نظرنا الى ان النفوذ الايطالي كان سائداً البانيا وبقليل من المفاوضة والحزم كان في الوسع الوصول الى تحقيق ذلك . وعلى كل حال فدولة تعد مليون نفس بين شيوخ ونساء واحداث واطفال ، ماكانت تحتاج في إخضاعها الى هذه القوة الحربية العظيمة التي قوامها على ما جاء في البرقيات ١٧٠ قطعة حربية واربعمائة طائرة والألوف من الجيوش

وإذن فيجب ان يلتمس التفسير الحقيقي لذلك في نواح أخرى . هنا نجد رأيين . فأصحاب الاول يقولون ان خطة انشاء كتلة لصدّ الاعتداء — وهي خطة تكاد تكون في صميمها عوداً

الى السلامة الاجماعية — التي سارت عليها بريطانيا على أثر حوادث تشيكوسلوفاكيا في منتصف مارس الماضي ، كانت الباعث على هذه الحملة الكبيرة لثني دول البلقان عن الانضمام اليها . ويضيفون الى هذا ان الاستيلاء على البانيا يتيح لايطاليا ومن كان لها حليفاً قواعد بحرية وجوية ذات شأن استراتيجي عظيم للتوسع في البلقان . ثم يضيفون الى ما تقدم ، انهُ كان لا بدَّ لايطاليا من ان تكسب شيئاً يوازن ويوازي بعض ما كسبتهُ شريكتها في المحور ، فلا تبقى راضية بما كان حتى الآن قسمة ضيزى بينهما . وأصحاب الرأي الثاني — وهو أقلُّ ذيوعاً واضعف احتمالاً — ان إيطاليا فعلت ما فعلت ليكون لها في البلقان — وهو المنطقة التي تحسبها ميداناً طبيعيًّا لتوسعها الاقتصادي والثقافي — ما يمكنها من ان توازن بهِ توسع شريكتها فيهِ

والمشكلة التي اثارتها الغزوة الالبانية ، انما هي جزء من مشكلة اوسع نطاقاً واعظم شأناً من مشكلة بلادٍ احتلت وضمَّت ، هي مشكلة توازن القوى في البحر المتوسط . فايطاليا ترى ، ان البحر المتوسط حياتها . وتردُّ عليها انكلترا وفرنسا بقولها انهُ شريان حيوي في حياتهما كذلك . وانهما لم تفكرا مطلقاً في انكار حق ايطاليا في الحياة . وعلى هذا الاساس عقد اتفاق روما بين انكلترا وايطاليا في شهر ابريل من السنة الماضية ، عليهِ اليوم سنة الاَّ ثلاثة ايام . ولذلك شاعت أقوال من ايام بان غزوة البانيا وبقاء الجنود الايطاليين في اسبانيا ، وما يحتمل ان ينطوي عليهِ الاتجاه الجديد في البلقان من تهديد لاستقلال بعض دولهِ ، قد تحمل المستر تشمبرلين على نقض اتفاق روما . ولكن ايطاليا انبأت حكومة اليونان بأن لا مطامع لها فيها . وانها محترمة استقلالها وحدودها . وأنبأت حكومة لندن ان عملها في البانيا مقتصر على البانيا دون غيرها . ولذلك ينتظر ان يلقي المستر تشمبرلين هذا المساء تصريحاً في مجلس النوَّاب البريطاني ، يحدّد فيهِ ما تعنيهِ الحكومة البريطانية بالحالة الراهنة في البحر المتوسط ، وهي الحالة المقصودة في اتفاق روما . وكذلك كان من المنتظر ان يلقي تصريحاً ببيان ما تراهُ بريطانيا من مصلحة حيوية بها وللسلام في المحافظة على استقلال دول البلقان وقد يخص دولة اليونان بالذكر . وكان من المنتظر كذلك ان يلقي المسيو دالادييه رئيس الوزارة الفرنسية بياناً بهذا المعنى . والمهم في جميع هذه التصريحات من الجانبين السؤال « الى اي مدى يصح الاعتماد عليها والاخذ بها » [وقد القي البيانان فعلاً بعد ظهر ١٣ ابريل ، وبمقتضاها شمل الضمان البريطاني الفرنسي استقلال رومانيا واليونان]

وقد ختم يوم امس (١٢ ابريل) بعرض تاج البانيا على ملك ايطاليا من قبل الجمعية التأسيسية الألبانيـة وبأنباء من الخارج والداخل تدل على نشاطٍ حربي عظيم استعداداً للطوارىء . ولكن الحالة لا تبعث على القنوط ، ولا يزال في الميدان متسع للحكمة والعقل

القاهرة : ١٣ ابريل ١٩٣٩

باب المراسلة والمناظرة

الحقيقة

ما من شك ان اللغة العربية هي أدوم اللغات على الغير وأسلمها تعبيراً عن الرأي وأقومها في صوغ العبارات وأسلسها في سرد المقال وأصوبها في التمشي مع روح الكتاب ، بل هي خير لغة تنقل للشرق عن الغرب ما لديهم من فلسفات وعلوم ، مجهود عباقرتهم وعقول جبابرتهم وذلك لتضمنها كل اصناف التمييز في اصولها وجوهرها وملكتها ومعانيها

ولست أتجه في ما ورد الي اليوم من وصف ونقد وتحليل الى التحيز لطرف ما خاصًا بكتاب « هكذا تكلم زرادشت » بل كلمة الحق والانصاف أسطرها فما أحسن ما أبدع وما أبدع ما أحسن من متانة وخطرات وثابة ادّى بها الامانة التي في عنقه خير اداء والقت العروبة حكمتها في جنانه واستولى حسن التصريف على قامه ومشاعره فقاده الى الاصل كما احسن القيادة فأخرج كتاب « للكل ولا لأحد » خير اخراج اذ أدرك الناشر بفطرته السليمة وروحه الملهمة ما لفريدريك نيتشه من نزعات مختلفات وكأني به وهو يترسم خطواته ويقتفي أثره احد تلاميذه المعاصرين ومن قاسموه حياته وشاطروه نزعاته فنقل الينا من نبع وحيه وريشة المصور الفنان صورة حية لذلك العبقري فلم أر انحرافاً عن حقيقة ولم يمل عن وجه الرأي ولم ينزع الى تقليد ولم يجنح الى تحريف ولم يغره ناقل ولم يخدعه كاتب ولم تتركه مشورة في حل طلاسم ما خفي على المترجم حله كعرضه الأمر على استاذ من الاساتذة الفطاحل في حل رموز نشيد الصحراء حتى تقمصت روح زرادشت تحمل رعد قلبه الحر وانانه الالهية فاشرق البيان اشراقاً وظهر نور نفس زرادشت القوية في سفر جليل ثمرة مجهود قيم ذخر للأدب يسعد بقراءته ابناء العروبة

ولو استعرضنا « هكذا تكلم زرادشت » في كلمة التمهيد التي صدر بها ، كابناء شرق واحد وتخلينا عن الغل في القلب لشاهدنا آية الابداع والتحليل ولمسنا كنه الاطلاع ودقة المترجم لدراسة فلسفة زرادشت التي بسطها على الصفحات بقلم فياض وتفكير خصب وفؤاد جياش

بالاطلاع ناجى فيها العواطف الكمينة والاسرار الدفينة التي كانت تسيطر على روح وجسد نيتشه فتلاه مثل الساحر الأخاذ الذي يجلو الحقيقة سافرة للعيان

***

ولا يفوتني بعد ما تقدمت به أن أعرج في هذه الكلمة على ماجاء في عدد المقتطف الاخير من نقد للاستاذ حبيب الزحلاوي لترجمة زرادشت اذ ورد في عبارته « أن المترجم الاستاذ فيلكس فارس قد ماشى نيتشه الجبار العملاق وآثار الاعياء بادية في خطواته» ويظن الناقد أن هذا القصور قد نشأ عن أن الاستاذ« لم يقرأ من نيتشه بعض كتبه المشهورة كفجر الاصنام وما وراء الخير والشر الخ »

وكم كنت ارجو لو راجع الناقد نقده قبل نشره وكفانا مؤونة مناقشته فيما أثاره من حرج وخلط في مؤلفات نيتشه اذ ان نيتشه له مؤلف « الفجر » قائم بنفسه والترجمة الصحيحة لمؤلف نيتشه الواردة في نقد الناقد « غسق الاصنام » لا « فجر الاصنام » اذ في هذا المؤلف تناول نيتشه انتهاء عهد الاصنام والفارق بين الفجر والغسق فارق عظيم كالليل نسلخ منهُ النهار

ولذا يتضح لنا انهُ كان الاحرى به أن يقرأ مؤلف « هكذا تكلم زرادشت » باللغة الفرنسية على الاقل ان لم يكن ملمًّا باللغة الالمانية ولو قرأه بالفرنسية لرأى ما رأينا من ان المترجم سار من أول مراحل زرادشت الى آخرها بخطوات قوية وباسلوب زاده في مواضع كثيرة جلاء وروعة

واذا تقدمنا نحن بهذا القول فانما نقدمهُ عن عقيدة صادقة لقراءتنا مؤلفات عديدة لنيتشه وغيره من الادب الالماني بلغته الاصلية وأني اسأل الله ان يسدد خطوات العاملين ويكثر لنا من الفوارس الألى يصولون ويجولون ، بربط الحلقات العلمية والادبية بين الغرب والشرق ورحم الله امرءاً سكت فسلم وقال فغنم

الدكتور
مصطفى حامد نصر

***

جاءنا من الاستاذ فليكس فارس مترجم زرادشت والاعترافات انهُ يشكرنا لتصريحنا بعدم اطلاعنا على نماذج نقد الاستاذ حبيب الزحلاوي وانهُ هو يصرح بدوره بان الناقد أطلعه على قائمة فيها بعض ألفاظ قال أنها مخالفة للاصل فطلب اليه نشرها ليرى رأيه فيها لان كتاب الاعترافات الفرنسي لم يكن تحت يده ليتمكن من المقابلة فهو والحالة هذه لا يزال يعتبر النقد الذي نشر عبارة عن تقدير شخصي لا يستند الى أي دليل ولا فائدة منه ويتمنى لو أتيح له

الاستفادة من نظرات صديقه الزحلاوي ويرجوه ان يرسلها اليه اذا امتنع نشرها في المقتطف لضيق المقام

ووردنا أيضاً مقال من حضرة الدكتور مصطفى حامد نصر عن ترجمة زرادشت يقول فيه أنهُ طالع مؤلفات نيتشه جميعها بالالمانية وهو يرى ان الاستاذ فارس قد أبدع في تحليل فلسفة المؤلف في مقدمته الرائعة كما انهُ سار من أول مراحل زرادشت الى آخرها بخطوات قوية وأسلوب زاد الاصل في مواضع كثيرة جلاء وروعة وهو المقال المنشور في اول هذا الباب

حول مقال

(خليل مطران)

سيدي رئيس تحرير المقتطف

اطلعت على التعليق الذي نشره الاستاذ عبد الرحمن شكري على ما كتبهُ الدكتور أدهم خاصًا بي وبي . ولا اريد أن أخوض في موضوعه بعد أن أعلنت في سنة ١٩٣٧ اعتزالي الأدب العربي ، وعلى هذا فلا شأن لي بما يكتبهُ الدكتور أدهم أو غيره من بحوث عن الأدب المعاصر ، ولا يُعَدُّ سكوتي عنها إقراراً لما فيها ، كما أني لا اعرف أني نشرت شيئاً جديداً في هذا الموضوع أو أن أحداً من اصدقائي — على ما يقول الاستاذ شكري — صنع ذلك

وتفضلوا بقبول تحيتي واحترامي المخلص

الاسكندرية في ٤ ابريل سنة ١٩٣٩ احمد زكي أبو شادي

استدراك

في مقال « المروءة ، مصدر مطوي » للدكتور بشر فارس ، مقتطف ابريل ١٩٣٩

ص ٤٦٩ س ٧ — اقرأ : ميكائيل بدلاً من : ميخائيل

ص ٤٧٠ س ٢١ — » : [وتركك لواليك ؟] » » : وتركك لواليك ؟



عجائب معرض نيويورك العالمي

آلة تكلم وتغني وتغرد بأصوات كهربائية

ممثلة الاصوات البشرية

بما انه سيحتفل في يوم الاحد ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٩ بافتتاح المعرض العالمي في نيويورك فرأينا ان نصف لقرائنا ، بعض غرائب المعروضات الكهربائية والعلمية وغيرها من مشتملاته مبتدئين في هذا الجزء من المقتطف ، بالآلة الكهربائية «فودر» التي تمثل الصوت البشري حديثاً وغناء ، وسنردفها ان شاء الله بسائر عجائب ذلك المعرض الفذ عوض جندي

قالت مجلة العلم العام الاميركية في فبراير سنة ١٩٣٧ ما يأتي : —

تذرع بالكهربائية ، مهندسو المختبرات العلمية في شركة بل التليفونية بمدينة نيويورك ، الى ضمّ الاصوات الصناعية بعضها الى بعض ، وجعلها صوتاً واحداً يكاد يحاكي الصوت البشريّ . ويقوم ذلك التوفيق الصوتي ، بمعاونة دائرة كهربائية لاسلكية لاقطة محكمة ، اخترعت اصلاً لدراسة وسائل النطق البشري والوقوف على كنهها

فاذا ما تكلّم امرؤٌ امام ذلك الجهاز ، حلّل الجهاز نغماته الى العناصر المؤلفة لكلامه ، وجعل تلك العناصر ، تسيطر على تيارات كهربائية ، تنبعث من بطاريات تخزين ، الى الاجزاء التي يتركب منها الجهاز المؤلف للنطق ، وهو الذي يقلد بذاته كل عنصر . ومن ثمة تختلط الاصوات بعضها ببعض و تسمع من مسمعة راديو

وبما ان عملية توليد الصوت ، الصناعي قد تكون مستقلة كثيراً او قليلاً ، عن الصوت البشري المحرك ، فيتسنى وضع الجهاز بحيث يغير المميزات ، مثل نبرة الصوت وارتفاعه ، فيمكن جعل الجهاز يجاري أي مغنٍّ مختلف النبرة ، في التوقيع فيتاح له ان يغني بمفرده أغنية مما ينشدها فريقان

ويرى المجربون أن بطاريات ذلك الجهاز ، تحل محل الرئتين ، وعناصره التي تولد النبضات ، تشبه الاوتار الصوتية . وحينما تضبط دوائره الكهربائية ، تصبح مماثلة للخلايا الهوائية المرددة للصوت في الفم والمجاري الهوائية البشرية

وأسفرت هاتيك التجارب عن كون الكلام البشري ، المعتاد ، مؤلفاً اصلاً من نغمتين مختلفتين ، وكل منهما ليست موسيقية ولا مطربة ، بل ذات نبرة وارتفاع يميزها ولكنهما متى اختلطتا احداها بالأخرى ، سمع الصوت البشري

ثم جاء في المجلة عينها في ابريل سنة ١٩٣٩ ما يأتي —

بيدرو

أو الآلة الاولى الناطقة حقيقة

هي آلة لا فم لها ولا رئتان ولا حنجرة ومع ذلك تتكلم أتقن الكلام ، واسمها بيدرو الفودر Pedro the Voder وسيراها الزائرون لمعرضي نيويورك وسان فرنسيسكو العالميين ، العتيدين ، وذلك بين المعروضات الفنية التي ستعرض هنالك

وقوامها انابيب مفرغة من الهواء ودوائر كهربائية . وهي من مخترعات مهندسي مختبرات شركة بل التليفونية وكان اختراعها ، تاجاً تكللت بهِ مجهودات العلماء منذ قرون في تقليد الصوت البشري

وتستعمل مدبرة الآلة عند ازماعها الحديث بها ، مفاتيح مثلها في الارغن العتيق الذي كان يوضع في البهو — وتؤلف المفاتيح من ١٣ مفتاحاً ابيض وأسود فاذا لمست مدبرتها مفتاحاً اومفتاحين او اكثر منها استطاعت في كل مرة توليد جميع الاحرف المتحركة والساكنة التي يتركب منها الكلام

وفي الآلة مفتاح ينظم ارتفاع ذلك الصوت الصناعي الذي يخرج من مسمعة لاسلكية . وتحتوي الآلة ايضاً على دوّاسة تكيّف في اثناء ذلك . ترخيم الصوت بحيث تصبح الجملة المؤلفة ، دالة على امر ، واقعي ، أو على استيضاح

ويحتاج المرء الذي يدبر الآلة الناطقة الى زهاء سنة يقضيها في المرانة عليها حتى يجعلها تنطق بسهولة ، فتتكلم همساً او زعيقاً مقلدة الرجال او النساء او الاطفال ، بأية لغة كلاماً واضحاً مفهوماً وذلك مع ضؤولة نبرتها الكهربائية

ويرى مخترعو هذه الآلة أنها تفوق الممثلة السينمائية البارعة في كشف الاسرار التي تؤلف منها أجهزة النطق البشري

وتتركب الآلة المغنية من أنبوبين مفرغين من الهواء ، يقومان بتقليد النغمتين المؤلفتين للنطق البشري ونعني بهما الدويّ الذي تحدثهُ الاوتار الصوتية عند النطق بأحرف العلة في اللغة الانكليزية مثل a و e ثم الفحيح المتولد من النفس عند مروره بالفم والشفتين عند النطق بالاحرف الساكنة مثل s و t

وتقوم مفاتيح الآلة بتحريك مرشحات كهربائية تحوّل النغمة الاصلية الى اي صوت من اصوات الكلام المقصود بحيث يكاد يضارع تكييف المرء لفمه ليقوي بعض النبضات الكهربائية او النغمات العليا للاوتار الصوتية

وقد وصفنا فيما تقدم (صانعة الكلام الأولى) وذلك بالدوائر الكهربائية وقد كانت تختلف عن الآلة الجديدة بكونها لا تدور الاّ اذا تكلم فيها امرؤ ، اما الآلة الحديثة المبينة لعملية الصوت واسمها بالانكليزية voice-operation demonstrator فقد اختصروها بكلمة voder اي بالاحرف الثلاثة المبدوءة بها الكلمات الثلاث مضافاً اليها المقطع الاخير من اللفظ الاخير . وقد اقتبس اسمها ايضاً من Dome Pedro دوم پدرو

الامبراطور البرازيلي الذي دهش حينما شاهد التلفون الذي اخترعته شركة بل الاميركية فصاح قائلاً «رباه انه يتكلم !!»

وقالت مجلة خلاصة العلوم الاميركية في جزئها الصادر في مارس سنة ١٩٣٩ بعنوان آلة تتكلم وتغني ما يأتي : —

عرضت لأول مرة الآلة المسماة ڤودر وهي أولى الآلات الناطقة في العالم ، عرضاً عامًّا على الجمهور ، أمام شهود من العلماء وذلك في معهد فرنكلين بمدينة فيلادلفيا . وقوامها أنبوبان مفرغان من الهواء يحدثان دويًّا وهسهسة . وفي مقدور العاملة البارعة التي تتولى ادارتها ، بضغط مفاتيحها التي تشبه مفاتيح الارغن، وكذلك بالدوس على دواستها بقدميها، خلط الاصوات بعضها ببعض والسيطرة على ما يطرأ عليها من التحريف الدقيق ، وذلك على أسلوب الصوت البشري

وقد استعملت هذه الآلة الكهربائية ، «أوتارها الصوتية» اولاً في توليد الأصوات المفردة لحروف العلة ثم تدرجت منها الى الكلمات المفردة المقاطع ثم الى النطق بالجمل التامة فأدهشت المشاهدين السامعين

اخترعت الڤودر Voder لتعرض في المعرضين العالميين المزمع إقامتهما في مدينتي نيويورك وسان فرنسيسكو ، وذلك ضمن معروضات المختبرات العلمية الخاصة بشركة تليفونات بل الاميركية . وأطلق عليها اسم ڤودر اختصاراً للكلمات الانكليزية الثلاث voice operation demonstrator وهي فتمكنت بسهولة من تقليد أصوات الرجال والنساء والاطفال واستطاعت تقديم برنامج موسيقي اشتمل أيضاً على خوار المواشي وثغاء الشياه وقباع الخنازير وتغريد نقار الشجر. وفي طوق الڤودر ايضاً تقليد سائر أصوات الحيوانات الداجنة بلا عناء يذكر تبذله مديرتها

ويرى صناع المختبر العلمي الذين صنعوها برمتها من الادوات المستعملة كل يوم في اشغال التليفونات ، ما عدا مفاتيحها ، أن في وسع تلك الآلة القيام فعلاً بكل ما يأتيه الصوت البشري ، وذلك من توليد احط النبرات التي تؤلف من ٨٠ او ٩٠ نبضة ، الى النغمات العالية التي تؤلف من ١٠٠٠٠ نبضة . وانها تستطيع الغناء ايضاً . وتستغرق ، العاملة التي تديرها ، سنة او اكثر حتى تحذق تحريك مفاتيحها وتتمكن من تقلد زمامها . اما اذا أريد جعل الڤودر ، مغنية شجية الصوت ، فلابدَّ من انتقاء مديرة لها ذات ذوق سليم في الاصوات الموسيقية وفوائدها. وتؤلف الڤودر كما هي عليه، في ردهة الخطابة في معهد فرنكلين، من مفاتيح تكاد تضارع مفاتيح ارغن من الزي العتيق الذي كانت تزدان به أبهاء البيوت ومن صندوق يحتوي على مصادر الطاقة وهي الأنابيب المفرغة من الهواء ، ومضخمات الصوت ، وثلاث مسمعات لاسلكية ، على ان يحدد عدد هاتيك المسمعات طبقاً لحجم القاعة وغيرها من الشؤون الموضعية . وتؤلف

مفاتيح القودر من أحد عشر مفتاحاً أبيض، عشرة منها تسيطر على المرشحات الكهربائية التي تستعمل للحصول على درجة الاهتزاز الملائمة . اما المفتاح الحادي عشر ، فيتحكم في رفع الصوت وخفضه وتحتوي القودر ايضاً على ثلاثة مفاتيح سود تولد اصوات الحروف الساكنة ، وقد جهز المخترعون القودر ، بجهاز كهربائي يطابق نوعي اصوات الكلام البشري . اذ المعروف ان النوع الاول من الصوت البشري ، يتولد من اقحام التنفس في الفم ومروره باللسان والاسنان والشفتين . وأن الهسهسة المحتوية على نبضات الاهتزاز ، تتولد من اضطراب مجرى الهواء . وتتقوى بعض هاتيك النبضات بترديد الصوت في تجويف الفم . وتلك هي الطريقة التي تؤلف بها أصوات الكلام جميعها حينما يتكلم المرء همساً او عندما يلفظ الاحرف s و th و f

وفي القودر هسهسة كهربائية ، وبعض مفاتيحها ، تستطيع مديرتها جعلها تكوّن تلك الاصوات ، وبالمفاتيح الاخرى تستطيع النطق بحروف الوقف الساكنة مثل d و k و h

وأتيح للقودر عند عرضها على الجمهور ، النطق بحرف العلة e ثم بالحرفين الساكنين ch وذلك بصوت التنفس ثم طلب اليها ضم تلك الحروف الثلاثة بعضها الى بعض فركبت منها كلمة each الانكليزية . وداست مديرتها على الدواسة التي تغير نبرة الآلة فتلفظت بكلمة patience الصبر ثم ركبت منها بناء على طلب المشاهدين ، جملة مفيدة وهي الصبر ضروري Patience is necessary وقد قلدت ايضاً أزيز محرك الطائرة ، ودوي القاطرة . وترى مديرة القودر ان الحروف التي يعتاص عليها لفظها هي l و r وانها تلاقي اقصى الصعوبة في نطق كلمتي bull و whom

وبعد كتابة ما تقدم قرأنا في جريدة الاهرام في ١٨ مارس سنة ١٩٣٩ ما يأتي :—

آلة تتكلم وتغني

العجيبة الثالثة بعد الراديو والتلفزيون

نيويورك في فبراير لمراسل الاهرام الخاص :—

اخترع ثلاثة من عمال المعامل الكيماوية التابعة لشركة التليفون ، آلة تحسن النطق كالبشر تماماً اطلقوا عليها اسم (قودر) وجربوها لأول مرة امام رهط من العلماء اقترحوا عليها التلفظ بكلمات وعبارات مختلفة ففعلت . ولم تنحصر مقدرتها على الكلام في اللغة الانكليزية فقط بل في جميع اللغات وهي تقلد اصوات الحيوانات وتحسن الغناء ايضاً الى حد معلوم

كانت تجربة هذه الآلة العجيبة في معهد فرانكلن بمدينة فيلادلفيا حيث ادهشت المشاهدين الذين سمعوها وستعرض في معرض نيويورك ومعرض سان فرنسيسكو . تتكلم هذه الآلة بواسطة أنبوبتين وتسيطر على لسانها أو ألسنتها ، عدة مفاتيح كمفاتيح البيانو تضغطها الانامل كما تضغط مفاتيح البيانو، ولها مثله دواسة للرجل تساعد على رفع الصوت

أو خفضه . وقد أدارتها في هذه التجربة فتاة بقيت سنة وستة أشهر تتمرّن لكي تحسن تكييف ما تريد من الآلة التلفظ به

وكل أقسام الآلة — ما عدا المفاتيح — تماثل الادوات التي تستعمل كل يوم في الخدمة التليفونية . واسمها «ڤودر» مأخوذ من ثلاث كلمات وهي Voice operation demonstrator وكان اول ما تلفظت به الآلة حروف العلة . وتلفظت باقتراح احد الحضور كلمة (الصبر) فاقترح عليها أن تجعلها عبارة ، فقالت « الصبر ضروري » وتطقت عدة كلمات عامية ثم لفظت كلمة انكليزية مؤلفة من ٢٣ حرفاً فخرجت من فيها بأوضح مما يستطيعه الشخص الذي اقترحها عليها . وقال رئيس شركة التليفون للذين سمعوا الآلة انها لا يوجد في جوفها كلمات على اسطوانات أو غيرها ، يدل على ذلك انها تلفظت بكلمات غريبة اقترحها عليها أناس ليسوا من الشركة

وقال ان هذه الآلة ستكون عوناً للذين يفقدون قوة الصوت او الكلام فيتكلمون بواسطتها

وقد أطلق بعضهم على هذه الآلة الناطقة لقب « بدرو » وهو مأخوذ من اسم « دوم بدرو » امبراطور البرازيل السابق الذي عندما تكلم بالتليفون لأول مرة عام ١٨٧٦ صاح مدهوشاً مبهوتاً وقال « يا الهي انهُ يتكلم » والذين سمعوا هذه الآلة في فيلادلفيا بالأمس ، قالوا قوله واستعاذوا بالله

إن هذه الآلة هي الأولى من نوعها في تاريخ العالم . والفتاة التي ادارتها كانت كأنها تعزف على البيانو او الأرغن فتضغط بأناملها المفاتيح البيض والسود ، التي تسيطر على الأصوات والانغام المختلفة . وفي الآلة أداة تدار الى جهة معلومة عندما يراد منها ان تقلد صوت رجل او امرأة او ولد او هدير طيارة او قرقعة قطار حديدي

وبعد ان قلدت الآلة صوت الرجل وصوت المرأة ، شرعت في تقليد مدهش لثغاء الغنم ، وخوار البقر والماشية ، ونخير الخنازير . ويقال أنها لا تتكلم فقط بل تحسن الغناء . ولا يبعد ان تبلغ في الاتقان درجة تؤهلها للغناء الرفيع في الأوبرا . انتهى ما روتهُ الاهرام

ووصفت مجلة الميكانيكا العامة في جزء مارس سنة ١٩٣٩ هذه الآلة فقالت :—

الفودر هي الآلة الأولى من نوعها في العالم لصنع الكلام . وهي جهاز كهربائي عرض حديثاً . ويدور بضغط مفاتيح تكاد تشبهها في الارغنات القديمة التي كانت تزدان بها ردهة البيوت . ويتاح لمديرتها البارعة ، إدارتها وذلك بضغط مفاتيحها إما مفردة وإما جماعة ، فتتمكن من جعل تلك الآلة تقوم بالمحادثة في الأمور الواقعية او الاستفهامية او التأكيدية

وتؤلف الفودر من جهاز كالمستعمل في اعمال التليفونات المألوفة . وفيها ادوات تلائم نوعي صوت الكلام البشري اذ يدفع النفس بأعظم قوة في الفم بحيث يمر باللسان والاسنان

والشفتين فيحدث همسة وهذه هي الطريقة التي تؤلف بها جميع أصوات الكلام حينما يهمس المرء كما تتركب منها اصوات الحروف s و th و f وفي الفودر همسة كهربائية، فيتاح للمرء، بتكييف بعض مفاتيحها، تأليف تلك الاصوات. وفيها ايضاً مفاتيح اخرى تؤلف حروف الوقف الساكنة وهي d و k و p ونوع الصوت الآخر الذي يدخل في الحديث البشري، يكون اغلبهُ في الحروف المتحركة وهي a و e و o. وهذا يصدر من الاوتار الصوتية وهو معقد جدًّا، طفيف الموسيقى

ولذلك يوجد في الفودر، دواسة لتغير نبراتها ولأجل اعطاء الحديث نغمة عالية" او منخفضة على هوى مديرتها. فاذا ما رامت تلك المديرة توليد الاصوات التي تؤلفها الاوتار الصوتية، عوضاً عن الاصوات الهمسية، او الحروف الساكنة، ضغطت مفتاحاً من مفاتيح الفودر التي يستقر عليها ساعدها، فتنتخب حينئذٍ الاجزاء المقصودة الخاصة بذلك الصوت المغني، وذلك بتحريك المفاتيح الصالحة له. ومصدر ذلك الصوت ما يسمى «رقاص التراخي» في الفودر. وهو الذي يولد موجة مضرسة «كأسنان المنشار» بدلاً من الموجة السلسة المستديرة ذات النغمة الموسيقية البحتة ولتلك الموجة المضرسة نغمة اساسية تعطي الصوت باجمعه، نبرة" معينة. والتغييرات العظيمة التي تحدث في هذه النبرة، تبين الفرق بين اصوات الذكور والاناث. ويؤلف التلحين، من تغير انزلاقي للنبرة في صف صغير من صفوف مفاتيح الآلة. ويتسنى جعل الفودر، يمثل رجلاً او امرأة وذلك بتحريك مقبضها المستدير الذي يشبه مفتاح المذياع او ترمسته[1] فتتمكن الفودر من الافصاح عن امر واقعي او القيام بسؤال او توكيد كلة وذلك طبقاً لحركة دواساتها. وتحتاج اصوات حروف العلة الى انتخاب صف او صفين او ثلاثة صفوف او اربعة من مفاتيح الفودر ذات النغمات العليا (المقامات) أما الصفوف الأخرى فلا تؤدي شيئاً للصوت

وقد تبيَّن ان الهمسة أو صوت النفس، المؤلف لعنصر من عناصر الفودر، انما هي اطلاق الكهربات في أحد أنبوبي الآلة المفرغين من الهواء. أما الدوي او العنصر الآخر، فانهُ يتولد في الدائرة الكهربائية للانبوب الآخر، المفرغ من الهواء اي الرقاص الكهربائي. وفي وسع مديرة الفودر، توليد ثلاثة وعشرين صوتاً مختلفة، من مفاتيح الفودر جميعها، من بيض وسود. وقد تحتاج المديرة أحياناً الى ضغط خمسة مفاتيح دفعة واحدة لتوليد الصوت المقصود. ومع قدرتها على توليد أي صوت من أصوات الكلام فان العدد الصحيح الذي يتاح لاية مديرة الانتفاع بهِ، يتوقف على خفة أصابعها

(١) وعندي ان لفظة ترمسة افضل من غيرها لترجمة الكلمة الانكليزية knob لازر شكل المفتاح المستدير لجهازي الراديو والفودر أقرب الى حبة الترمس



كتاب التصوف الاسلامي

في الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكي مبارك المفتش بوزارة المعارف

يقع هذا الكتاب النادر المثال في نيف واربعماية صفحة من القطع الكبير وهو مطبوع طبعاً جيلاً متقناً ويعد بحق موسوعة عظيمة الشأن في الادب الصوفي وقد أهداه مؤلفه الفاضل الى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول بعد إذ اهدى كتابه الاول « الاخلاق عند الغزالي » الى جلالة الملك الراحل فؤاد الاول ونال على كل من الكتابين من الجامعة المصرية لقب الدكتوراه في الفلسفة

والكتاب مصدر بمقدمة بقلم الاستاذ الجليل محمد جاد المولى بك ذكر فيها كيف عرف الدكتور زكي مبارك أوَّلَ مرة معرفة شخصية حين أدى امتحان الدكتوراه الاولى أمام لجنة الجامعة المصرية في سنة ١٩٢٤ . وكان الاستاذ جاد المولى عضواً في هذه اللجنة من قبل وزارة المعارف قال فرأيته يهجم على حجة الاسلام الغزالي ويقسو عليه فلم نجد بدًّا من ان نتشدد في حسابه ليحجم عوده ويسبر غوره . فعرف عند ذلك ان الدكتور زكي مبارك قد يقضي حياته في المصاولة والمجادلة لما استقر في النفوس من انهُ باحث متعسف مشاغب ولكنهُ حين رآه وهو يؤدي امتحانه امام اللجنة في سنة ١٩٣٧ لنيل اجازة الدكتوراه من الجامعة للمرة الثانية رآه يجادل لجنة الامتحان وهو آية من آيات الذوق والادب ومثال من أمثلة التواضع والاستحياء يستمع السؤال بهدوء ويجيب عليه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس ولما خلت اللجنة للمداولة قررت منحه درجة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف وهي شديدة الضن بالالقاب الأعلى المستحقين لا سيما وان اللجنة التي أدى امتحانه أمامها قد ضمت نخبة من أكابر العلماء من بينهم الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق (وزير الاوقاف الآن) والدكتور منصور فهمي بك والدكتور عبد الوهاب عزام

وفي الحق ان كتاب التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق يدل أبلغ دلالة على ان مؤلفه الفاضل قد بذل جهوداً جبارة في تنسيقه وتأليفه حتى جاء ذخيرة أدبية اخلاقية صوفية تضاف الى ثروة الادب العربي . وقد تناول الجزء الاول من الكتاب معالجة موضوعات مهمة منها فصل في اشتقاق كلمة التصوف وعنده ان الأصح انهذه الكلمة مشتقة من الصوف لشواهد

كثيرة رآها تؤيد هذا الغرض منها ان الانبياء والصالحين كانوا يؤثرون لبس الصوف فمن المحتمل ان يكون الصوفية لبسوا الصوف اول الامر ليصح لهم الاقتداء بتواضع رسول الله . ومنها ان الصوف قديماً كان مظهر التخشن والتقشف كما كان من علامات الزهد ومن شعار الصالحين. ومنها « ان الجماهير كانت لا تمثل الصالحين الاَّ في الثياب الصوفية » على ما رواه الزبيدي نقلاً عن كتاب بهجة الناظرين وان الامام الغزالي جعل لبس الصوف من صفات من يصرف اليهم ما يوصى به للصوفية .وختم الدكتور زكي بحثه هذا بقوله ان لبس الصوف كان كذلك من تقاليد النصرانية وهي في اصلها تصوف وروحانية لما ان المسيح عليه السلام كان يؤثر لبس الصوف على ما عداه من أنواع الثياب . ولم يرتض الدكتور ما ارتضاه غيره من ان كلمة التصوف قد تكون مشتقة من كلمة سوفيا اليونانية ومعناها الحكمة بل انهُ لا يرى مانعاً من ان تكون كلمة سوفيا ذاتها جاءت من كلمة صوف العربية لانها قديمة في هذه اللغة ولان التصوف قديم جداً عند العرب وهو أساس المسيحية ولبس الصوف كان علامة التقشف وكلمة سوفيا اليونانية قد تؤدي معنى الحكمة الروحانية فليس من المستبعد ان ترحل كلمة صوف الى المعابد المسيحية . ولكننا نخالف الدكتور زكي مبارك في الذهاب الى ان التصوف مشتق من الصوف ونميل كل الميل الى تقرير ان هذه الكلمة معربة عن كلمة تيوصوفية اليونانية على ما اوضحناه تفصيلاً في رسالتنا في الصوفية وقد كتبت باللغة الانكليزية ونشر المقتطف ترجمتها العربية في عدد يوليو الماضي فليرجع اليها من يشاء

والمهم هنا ان نقول ان ابحاث الكتاب كلها ناطقة بأن المؤلف ذو عقل فلسفي ظاهر كل الظهور في دراساته وهو يدرس الوجوه المختلفة للرأي الواحد وقد يصل حاله كما ذكر الاستاذ جاد المولى بك الى حد الغرابة حين يعرض علينا عدة صور لرأي من الآراء حتى لتراه متشيعاً لكل صورة منها كأنهُ رأيه الوحيد وكأنهُ أشخاص عدة يتحاورون لا شخص واحد

ومن اهم موضوعات الكتاب التصوف في الأدب العربي والذخائر المنسية في الأدب الصوفي ومحاولة فلسفية في نشأة التصوف في الاخلاق ، والدنيا في اذهان الصوفية وهذه كلها فصول لا شك ممتعة دالة على سعة اطلاع المؤلف ورسوخ قدمه في نقد الأدب وتذوق معانيه الى ابعد حد ممكن مع الوضوح التام والجلاء المستفيض . فعبارات الكتاب صريحة فائقة وحماسة المؤلف رائعة واسلوبه متين ولكنني اصرح بانني وان اثنيت على عقله الفلسفي وأطريتهُ كل الاطراء فاني اخالفه في كثير مما ذهب اليه في نقد التصوف والصوفية وفي كثير من آرائه التي بسطها في كتابه واقول انهُ في كتابه هذا العظيم قد عرض للادب والاخلاق في التصوف الاسلامي ولكنهُ لم يعرض للتصوف في ذاته عرض من وقف على حقيقته واسراره . والظاهر

من كلامه في فاتحة الكتاب انهُ اعتمد فيما دوّنهُ في كتابهِ على ما قرأه مع الاستاذ ماسينيون من فقرات من كتاب الزهرة في سنة ١٩٢٧ فعرف ميله الى درس العلاقة بين الحب العذري وبين التصوف فتسرب الى صدره « بصيص من ضوء الفكرة التي يقوم على أساسها هذا الكتاب » وانهُ في خريف سنة ١٩٣٠ وشتاء سنة ١٩٣١ حضر دروس الاستاذ ماسينيون بالكولج دي فرانس في العلاقة بين التصوف والحب الرقيق فازدادت عنده الفكرة وضوحاً وصحت عزيمته «على درس أثر التصوف في الادب والاخلاق »

ومن هذا يتضح ان الدكتور زكي مبارك جعل الاساس الذي بنى عليه كتابه امرين الاول العلاقة بين الحب العذري وبين التصوف والثاني العلاقة بين التصوف والحب الرقيق وهذا ما جعله يعد جميل صاحب بثينة والمجنون صاحب ليلى كما عد العاشق ابن الدمينه من اقدم الصوفية في عالم الحب العذري او الحب الرقيق

فعند الدكتور ان التصوف خليق بأن يعجب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية وهو يتمثله في صور كثيرة « فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة حين تقوم على مبادىء تتصل بالروح والوجدان » وقد ذكر لكل من هذه الصور ما سماه شواهد تدل على صحة ما ذهب اليه فأورد أبياتاً لكل عاشق منها قول ابن الدمينه يخاطب معشوقته اذ قال :

وإني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر الغيب منك رقيب
ولو أنني استغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب علي ذنوب

الى ان قال فلا خير في الدنيا اذا أنت لم تزر محبًّا ولم يطرب اليك حبيب

وقد استخلص من ذلك كله ان هؤلاء العاشقين المترنحين متصوفون قحاح . ولماذا ? لأنهم صادقون في حبهم العذري الرقيق لا يبغون من ورائه شيئاً دنيًّا

ولعمري ان العشق عذريًّا كان او غير عذري والحب رقيقاً كان او غليظاً كلاهما في واد والتصوف في آخر فالعشق هو العشق لا يحتاج الى تعريف واما التصوف الذي يعرفهُ اهله وتواضع عليه اربابه واصحابه والعارفون دون غيرهم ممن اراد ان يتزيا بزيهم وينسب نفسه زوراً اليهم ودون جماعة المستشرقين وغير المستشرقين ممن كتبوا في التصوف على غير ذوق ومعرفة ، فأساسه حب الله وحده وحب رسوله وايثار هذا الحب على ماعداه ثم الزهد في الدنيا وايثار الحياة الآخرة عليها ويتصل بذلك كثرة ذكر الله في السر والعلانية والصلاة والسلام على رسول الله جهد الطاقة . وهذا مع التمسك بأهداب الشريعة والعض عليها بالنواجذ وجعل احكامها في جميع فروعها ومناحيها دستوراً للمتصوف الصادق لا ينفك عن السير على منهاجها في حياته حتى يلقى الله تعالى فيلقاه كما يلقى المحب حبيبه بعد طول النوى والبعاد

وسواء أكان اسم التصوف مشتقاً من الصفا على ما ذهب اليه الدكتور ابراهيم ناجي وجماعتهُ ام من الصوف كما ذهب اليه الدكتور زكي مبارك وجماعته ام من التيوصوفية على ما ذهب اليهِ كاتب هذه الاسطر وجمع آخر فما لامشاحة فيهِ ان مؤداه واحد لا يتغير وهو حب الله وكثرة ذكره وحب رسوله وكثرة الصلاة عليه والتمسك بأهداب الشريعة فيما صح نقله وثبت من الكتاب والسنة وعبادة الله في السر والعلانية والظاهر والباطن جميعاً

ولهذا كان من غير المفهوم عند ارباب التصوف قول المؤلف (ان الصوفي المعتدل يقبل من شيخه كل شيء كما يقبل النصراني المعتدل من القسيس كل شيء والصوفي المعتدل يقدم كلام شيخهِ على القرآن والحديث (حاشا وكلاَّ) كما يقدم النصراني المعتدل كلام الرهبان على كلام الانجيل اما الصوفي الثائر فيرفض جميع النصوص ويتسامى الى مخاطبة الله والفهم عنهُ بلا مرشد ولا دليل وهنا اقول بصراحةٍ (!) ان هذا اساس متين لبناء الشخصية الخلقية وان غضب رجال الدين)

ولسنا ندري من أين عرف الدكتور زكي مبارك ان الصوفي المعتدل او غير المعتدل او الثائر او غير الثائر بل الصوفي مطلقاً يؤثر كلام الشيخ على القرآن او يرفض النصوص ويتسامى الى مخاطبة الله والفهم عنه تعالى بلا حاجة الى مرشد او دليل اللهمَّ ان هذا افتئات على الصوفية والتصوف واي افتئات ونسبة القوم على ما هم منهُ براء فهم اشد الناس تمسكاً بالقرآن والسنة واشدهم قبولاً واذعاناً للنصوص واعتصاماً بها

ولعلَّ الدكتور عرف عنهم ذلك من صحبته لجماعة المستشرقين واخذه التصوف عنهم وقراءتهِ لبعض الكتب التي لا يعول عليها في نقل اخبار القوم ومعرفة حقيقة حالهم ولعله في الطبعة التالية من الكتاب يستدرك هذا الخطأ والشطط والتجني على الصوفية فيعود الى انصافهم ولا يتخذ ذلك الشيخ الذي كان من سوء حظه ان صحبه في سنتريس واتخذه شيخاً له ثم رآه غير اهل للمشيخة ولا للارشاد حجة عليهم ودليلاً على حالهم . كما رجع الدكتور عن التجني على الامام الاكبر حجة الاسلام ابي حامد الغزالي فرأيناه في هذا الكتاب يبرأ الى الله مما رماه بهِ من قبل في كتابهِ « الاخلاق عند الغزالي » وجاء يصرح الآن علناً بأنهُ لم ينصفهُ فيما كتبهُ عنهُ ونسبهُ اليهِ فهذا الرجوع الى الحق هو حقاً من ثمرات العلم الصحيح وحسنات العقل الذي كمل نضجه وليعلم صديقنا الدكتور زكي مبارك ان التصوف لا يوقف عليهِ الاَّ من صحبة الرجال المشتغلين بهِ لا الحاقدين عليه ولا المتصدين لنقده والتصدي — على ما يزعم ارباب البحث الجامعي — الى كشف عيوبهِ ومحاسنه وقوته وضعفه

ثم ان زعم الدكتور ان الصوفية قسموا مريديهم في الصوم ونحوه الى عوام وخواص وخواص الخواص فقضوا بان صوم الخصوص لا يقع فيه الفطر بالطعام والشراب وانما يقع

بارتكاب المآثم ونهش الاعراض — ونقول ان هذا الزعم لا أصل له عند القوم الا من حيث قسمة المريدين الى هذه الاقسام . وأما من حيث أنهم لا يقضون بوقوع الفطر بالطعام والشراب فهذا ما لم يقل بهِ احد قط . وانما هم يشددون على الخواص فيحذرونهم من ارتكاب اي مأثم صغيراً كان او كبيراً مما نهى عنهُ الشرع ولو نهي كراهة فان ارتكابه في حقهم يبطل صومهم كما يبطله تعاطي الطعام او الشراب سواء بسواء

هذه ملاحظات عاجلة او خاطفة كان لا بد لنا منها وهي لا تحول بتاتاً دون تقدير كل منصف لجهود الاستاذ الدكتور زكي والثناء عليهِ اطيب الثناء على ما افنى من عمره المبارك في سبيل الدرس والبحث والتأليف والتصنيف حبّاً منهُ في خدمة الادب والاخلاق. اكثر الله في الامة من اهل الفضل والتضحية وأثابهم على خدمتهم النافعة وتجاوز عن تقصيرهم ما دام حسن النية وحب الخدمة رائدهم فيما يبحثون ويكتبون ويدرسون ويؤلفون الفقير احمد غلوش

محاضرة الدكتور كليلند

كان لمحاضرة الدكتور كليلند التي عنوانها « مشروع تنظيم السكان في مصر » وقعٌ كبير في الدوائر المصرية من وطنية وأجنبية التي تعنى بدراسة مشكلات مصر الاجتماعية . ولذلك عنينا بترجمتها ونشر الجانب الاول منها في مقتطف هذا الشهر على ان ننشر تتمتها في مقتطف يونيو القادم . وقد فعلنا ذلك بموافقة الدكتور كليلند نفسهِ وسماح الدكتور ليفي محرر مجلة « مصر المعاصرة » الفرنسية حيث ينتظر ان ينشر نص المحاضرة كاملاً باللغة الانكليزية في عددها القادم

دليل موجز

لمعروضات دار الآثار العربية

القاهرة ١٩٣٩ — ١١٣ص، ٢٨ لوحة

قد يعجب القارىء أن تعرض هذه المجلة لنقد دليل موجز لدار من دور الآثار . والحق ان النقد يقع على كل شيء نفيس سواء كان بحثاً او رسالة او ورقة او دليلاً

ويسرنا ان نقول إن هذا الدليل مقطوعة عالية لها شأنها . ذلك لأنهُ يسرد تاريخ تكوُّن دار الآثار العربية في أسلوب جذاب ثم يفيض في تاريخ الفن الاسلامي على العموم وفي خصائص هذا الفن الجميل. فهنالك التحليل وتدقيق النظر واستخراج النظريات وشرح الاصول

ويتلو هاتين الافاضتين القائمتين مقام التوطئة والتعريف وصف شامل مفصل لجميع ما تضمه دار الآثار العربية في القاهرة . ويجري الوصف من بهو الى بهو على التدرج والترتيب . وليس الوصف في النسخة العربية بالجافّ ولا بالسطحي ، بل هو لطيف المداخل والمخارج ، بعيد المرمى ، كشّاف ، رشيق

وقد كتب هذا الدليل بالفرنسية الأستاذ المستشرق جاستون فييت ، و نقله الى اللغة العربية بتصرف واضح الدكتورزكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية .وما نظن الترجمة في مثل هذه الحال بأيسر من التأليف .والسبب أن اللغة العربية لا تزال مفتقرة الى أساليب التعبير في صنوف العلوم وضروب الفنون . وقد سبق للدكتور زكي حسن أن ألف كتباً في الفن الاسلامي أشار المقتطف الى نفاستها يوم خرجت .وكان في أسلوب تلك الكتب شيء من التقرّي والتحسس . أما هذا الدليل فقد استوى فيه الأسلوب الفني وأخذ يدنو من التثبت والاستقرار

ولعلّ الدكتور زكي حسن يخرج لنا في كتبه المستقبلة مسارد نصيب فيها ألوان التعبير الفني ، حتى تتم الفائدة ب . ف

مباحث عربية

تأليف بشر فارس ، الدكتور في الآداب من السوربون

١٥٠ ورقة . من القطع الكبير . مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر الثمن ١٥ قرشاً صاغاً عدا اجرة البريد

تلقينا هذا الكتاب الجليل والمقتطف ماثل للطبع . ومثل هذا الكتاب لا تكفيه الاشارة ولا يظفر به النظر السريع . وفي العدد المقبل سنفرد له نقداً يجدر به . وحسبنا اليوم تقدمه لقراء اللغة العربية . وأول ما يستدعي النظر فيه في أسلوب الكتاب من الطرافة مبنىً ومعنىً ومنهجاً . أما المبنى فوضوح العبارة وبلاغتها ودقتها العلمية ، واما المعنى فجدة الموضوعات ومعالجتها بقلم متمكن وذهن مثقف غاية التثقف . واما المنهج فتلك الحواشي المستفيضة والتعليقات الغزيرة والمراجع الوافية وفيها مخطوطات كثيرة ثم تلك العلامات والرموز التي ابتكرها المؤلف تيسيراً للمراجعة ، ثم تلك المسارد للمخطوطات والاصطلاحات العربية وغير العربية

فهذا الكتاب الادبي الموادّ، العلمي الأسلوب والمنهج يُعدّ توجيهاً جديداً في الإنشاء والبحث . ويضاهي جلائل المؤلفات الافرنجية في التأليف العلمي . ولا غرابة في ذلك فالمؤلف ممن له مكانته في الدوائر العلمية الاوربية ، بدليل انهُ يشترك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية الصادرة في هولندة وفي مجلات الاستشراق الرفيعة ، وقد سبق للمقتطف أن أشار الى ذلك

كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية

صدر الكتاب السنوي التاسع لهذا المجمع الجليل محتوياً على المحاضرات التي ألقيت في مؤتمره التاسع السنوي واجتماعاته الشهرية من ابريل سنة ١٩٣٨ الى آخر مارس ١٩٣٩ وهو كجميع الكتب السنوية التي سبقتهُ حافل بالبحوث العلمية المفيدة لكبار المشتغلين بالعلم في مصر . في صدر الكتاب محاضرة الرئيس للدكتور حسن صادق بك وعنوانها « الذهب » وهي بحث تاريخي جيولوجي صناعي اقتصادي فيه نبذة عن الذهب في مصر في العصور القديمة ، ثم كيف يعدّن

الذهب ، والجانب الاخير موقوف على مناجم الذهب التي تشغلها الحكومة المصرية او الشركات الاجنبية في الاراضي المصرية وما يستخرج منها وما قيمته وما المصاعب التي ذللتها الحكومة

ويلي ذلك محاضرتان صحيتان الاولى للدكتور عبد الواحد الوكيل بك في اتجاهات علم الصحة . والثانية للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك موضوعها أثر الامراض المتوطنة في كفاءة الجندي المصري . وقد طالعها القراء في مقتطف يونيو سنة ١٩٣٨ . ثم ثلاث محاضرات نفيسة في شؤون مصرية بيولوجية منها القطن المصري للدكتور محمد عزيز فكري . والثانية تميز الحالة الجنسية في النباتات عامة والنخيل خاصة للدكتور محمد بهجت . والثالثة في بيئة بحيرة المنزلة للدكتور عبد الحليم منتصر . اما المحاضرات الاخرى فهي « ابو الهول » للاستاذ سليم حسن . وتوافق خواطر المكتشفين والمخترعين للاستاذ البرقوقي (انظر مقتطف فبراير ١٩٣٩) . وتبسيط الحساب بالطرق الآلية والتخطيطية للاستاذ فريد بولاد بك

فالكتاب يجمع طائفة ممتازة من البحوث العلمية الدقيقة وهو علاوة على ذلك آية في جودة الطبع وصوره مطبوعٌ اكثرها بالروتوغرافور ومنها صور بالالوان لبعض الآنية والحلى الذهبية عند قدماء المصريين تشهد أنها لا يمكن ان تكون أشد اتقاناً مما هي

شهران في لبنان

وبلاد اليونان وايطاليا وطرابلس الغرب

بقلم الصحافي العجوز — صفحاته ٢٦٨ صفحة طبع بمطبعة الامانة بمصر — ثمنه ١٠ قروش

الناس فريقان ، فريق يتغرب عن الاهل والاصدقاء ويسافر ولا غاية له الا النزهة وراحة الجسم من عناء الاعمال وفريق آخر يتجشم متاعب السفر ووعثاءه وغايته الاستفادة من رحلاته وتنقلاته وجولاته في البلدان التي يزورها ثم الافادة واطلاع الغير على ما شاهده فيشترك القارىء في رحلاته ومشاهداته عن طريق المطالعة والاستاذ توفيق حبيب الصحافي العجوز صاحب المقالات التي يكتبها في الاهرام القراء في طليعة الفريق الثاني فقد كانت رحلته الاخيرة في صيف ١٩٣٨ الى لبنان وبلاد اليونان وايطاليا وطرابلس الغرب فأخرج وصفها في كتاب زيَّنهُ بكثير من الصور . يطالعهُ القارىء فيجد نفسه متنقلاً من بلد الى آخر فهذه بلاد اليونان وآثارها ومتاحفها وحمامات لوتراكي ومعبد الاكروبول وتلك نابولي وفينيسيا وفورنسا مدينة الآثار والفنون وروما المدينة الخالدة . أما لبنان فقد خصهُ بفصول عن نهضته الادبية والصحافية ومصايفه المشهورة وأهل العلم والفضل فيه وأخيراً طرابلس الغرب فذكر لمحة تاريخية عن طرابلس القديمة والجديدة ووصف أسواقها الوطنية ومقاهيها وأحياءها وما اجتمع عنده من أخبار النهضة الادبية والصحافية فيها

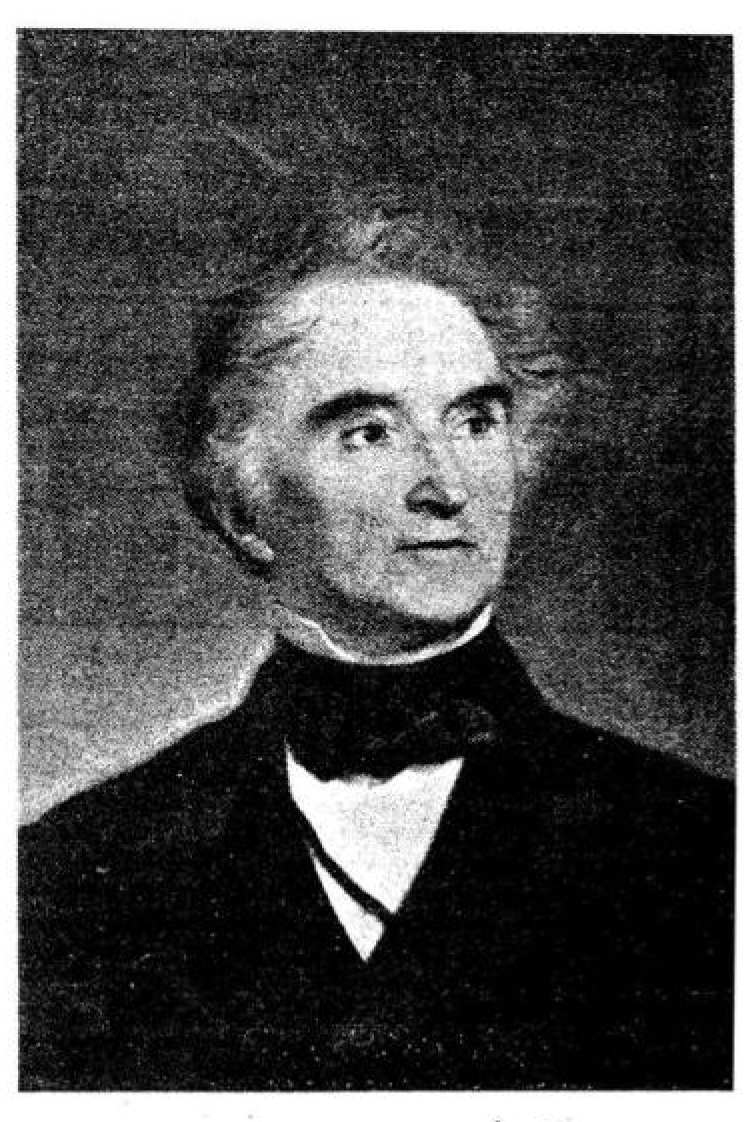
فهرس الجزء الخامس

من المجلد الرابع والتسعين

فهرس المجلد الرابع والتسعين



الدكتور وندل كليلند في مكتبه
مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة



الكيماني الالماني جوستوس فون لايبج
(راجع فصلاً عن حياته وعمله صفحة ٥٦٥)



حضرة صاحب السعادة طلعت باشا حرب



شهر من التاريخ

زوال تشيكوسلوفاكيا

استرداد منطقة ميمل

زيارة المسيو لبران لانكلترا

المشكلة البولونية دنتسج

انقلاب في سياسة بريطانيا الخارجية

احتلال البانيا

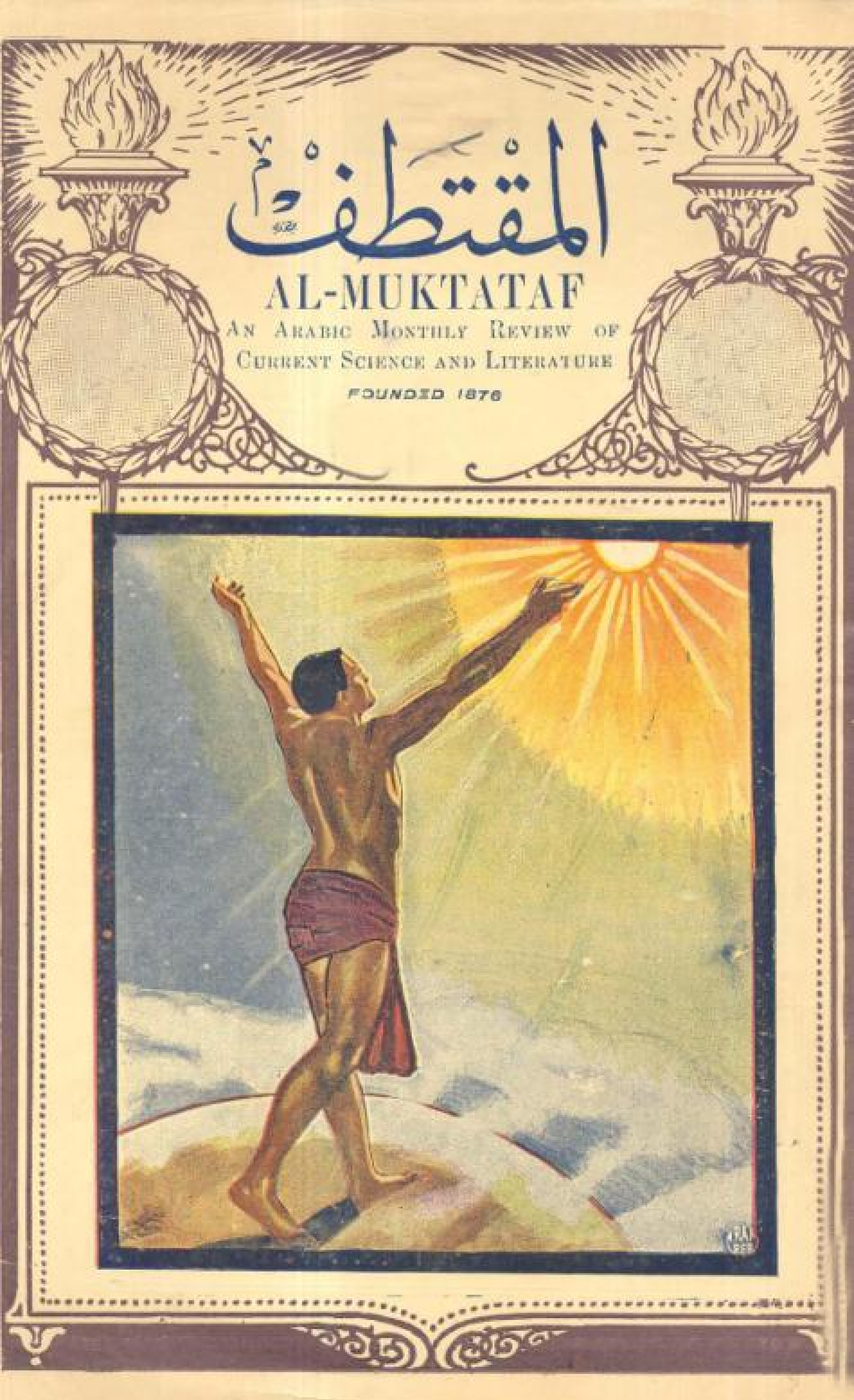
الملابس اللبنانية النسوية التاريخية

في الجناح اللبناني بمعرض نيويورك

توفرت الاديبة اللبنانية الكبيرة الفاضلة السيدة افلين بسترس على دراسة الملابس والازياء النسوية اللبنانية في مختلف العصور وراجعت ما ورد في وصفها من فصول في كتب قديمة او صور ونقوش نادرة محفوظة في دور الكتب والآثار، ثم عنيت باعداد مجموعة نفيسة نادرة من هذه الملابس. بعضها مما أخذته من دور الأسر اللبنانية العريقة، وبعضها مما صنعته من نسيج حيك في لبنان باشرافها وفقاً للصور والنقوش القديمة. فجاءت مجموعة ممتازة في جمالها وفي كونها مجلى لتحول الملابس والازياء في لبنان من عهد الفينيقيين الى اواخر القرن التاسع عشر. وستعرض هذه المجموعة في الجناح اللبناني بمعرض نيويورك ثم يصنع كتاب يحتوي على صورها بالالوان، يسهل اقتناؤه على من يريده تحفة في داره للزينة او للفائدة التاريخية. وعمل السيدة افلين بسترس جدير بكل اعجاب وثناء وحبذا الحال لو عنيت هي وغيرها من سيدات الشرق الفضليات بحفظ ما يتهاوى بين ايدينا من مظاهر الحياة الاجتماعية كالاغاني والتقاليد وعادات الحفلات والاجتماعات في بلدان الشرق الادنى

والصورتان التاليتان تمثلان سيدتين لبنانيتين مرتديتين ثوبين من هذه الاثواب

تدل النجمة امام الموضوع على انهُ موضوع فصل مصوَّر



المقتطف
AL-MUKTATAF
AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE
FOUNDED 1876



الجزء الاول من المجلد الخامس والتسعين

١ يونيو سنة ١٩٣٩ — ١١ ربيع ثاني سنة ١٣٥٨

الطبيب يستشير الطبيعي

من أهم بواعث الارتقاء العلمي، اتصال علم بعلم، فعلم النفس اتصل بعلم وظائف الاعضاء ففهم الاساس العصبي للفكر والانفعال. وبعلم الغدد فأدركنا من خفايا الشخصية ما كنا نجهل. والطبيعة اتصلت بالكيمياء فخرج علم الكيمياء الطبيعية الذي يتناول بناء المادة الدقيق، وتوزيع الذرات والجزيئات في السوائل وشحناتها الكهربائية. والفلك اتصل بالطبيعة والرياضة العالية، فطلع علينا العلماء بالبحوث الدقيقة في الضوء، وصلة المادة بالطاقة، ومصدر الحرارة في النجوم، وشكل الكون ومبدئه ومنتهاه. والطبيعة اتصلت بعلم الاحياء فاذا نحن في علم الكيمياء الحيوية امام اساس لفهم المادة الحية في مظاهرها الاساسية

اما الطبيب فكثيراً ما اعتمد على الكيميائي في تركيب العقاقير وكشف الجديد منها، وعلى الطبيعي في الحصول على الادوات اللازمة للتشخيص والاشعة الشافية. وفي الميدانين، تكشف الآن مواد جديدة (اذكر السلفانيلاميد) وتصنع أجهزة جديدة (اذكر المصورة الكهربائية لخفقان القلب) تسير بعلوم الطب الى عهد نرجو ان يغدو فيه الطبيب قادراً على فهم كل مرض في مبدئه ومعالجته قبل ان يستفحل أذاه. ومدى التقدم نحو هذا الهدف البعيد مرهون بالتعاون الفعَّال بين رجال الطب وأقطاب العلوم المتصلة به

كان من أثر استنباط المجهر وكشف الاشعة السينية، ان امتدَّ بصر الباحث الطبي الى داخل الانسجة البشرية وخلاياها. ولكننا على عتبة عهد، يصبح فيه الطبيب ومعاونوه قادرين

على الاعتماد على أجهزة أدق وأغرب من المجهر وأنبوب الاشعة . فثمة الآن أجهزة كهربائية تمكنهم من الاصغاء الى نبض الحياة في الخلايا، وقياس تيارات الكهرباء في القلب والدماغ والعصب، مع ان فهمنا لهذه التيارات لا يزال في مهده . ثم ان الباحثين يعنون الآن باتقان الاساليب لتوليد تيارات من الكهربات ، تكون أفعل من اشعاع الراديوم ، وأنابيب الأشعة السينية في علاج النواحي الخبيثة في باطن الجسم

ان بعض ما يؤديه علم الطبيعة للطب ، من قبيل ما يؤديه المستنبط الصناع في معمل من المعامل. اي انهُ محصور في عمل خاص ، لا يعرف الطبيب كيف ينهض بهِ فيعهد بهِ الى الباحث الطبيعي . كذلك الباحث الصناعي ، يتجه بطبيعتهِ الى حل مسألة خاصة تعترض سبيل الصناع . فاذا توصل الى حل المشكل قضى لبانتهُ من البحث وانتقل منهُ الى آخر . اما الباحث السامي ، فغايته توسيع نطاق المعرفة بكشف غوامض الطبيعة والحياة . وهذا الكشف يعود عاجلاً أم آجلاً على الصناعات بخير عميم . كذلك في العلاقة بين الطبيعة والطب ، فالاشعة السينية لم تكتشف خاصة لاستعمالها في التشخيص والعلاج . ولا الراديوم . ولكن مضى على الاثنين أكثر من أربعين سنة في خدمة الصحة ومكافحة العلل

وليس من المبالغة ان نقول — استناداً الى فصل للاستاذ هريسون في مجلة الاتلنتيك الشهرية وعنهُ نلخص — ان في علم الطبيعة الآن مكتشفات ، لا تزال في مهدها ، ولكنها قد تعود على علوم الطب بفائدة أعظم من الفائدة التي جنتها من كشف الاشعة السينية والراديوم

عشرات الألوف من الناس يموتون بالسرطان كل سنة . ولكن الأمل معقود على منع هذه الوفيات — او جلها على الاقل . ففي سنة ١٩٣٤ عولج ثلاثة أرباع المصابين بالسرطان في مستشفيات انكلترا ، بالاشعاع المنطلق من أنابيب الاشعة السينية او من الراديوم ، ولو كان في الوسع توجيه الاشعاع بحيث تتأثر بهِ الخلايا السرطانية دون الخلايا السليمة لكان العلاج أنجع . ولكن توصيل الاشعاع الى خلايا السرطان الباطني ، يقتضي اختراقهُ لخلايا الانسجة السليمة ، فيفتك بعدد غير يسير منها . ولذلك فالحاجة شديدة الى أشعة أشد نفوذاً واختراقاً للانسجة من الاشعة المتاحة للاطباء الآن

حتى لو كان الراديوم وافياً بالحاجة من هذا القبيل ، لما كفى كل الراديوم في العالم لعلاج جميع المصابين . فالمتاح منهُ للعلاج الآن أكثر من رطلين قليلاً — ثمنها الآن نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات . ولو جمع هذا القدر من الراديوم في مكان واحد ، لما كفى اشعاعهُ لعلاج بعض الأورام السرطانية الدفينة في اعماق الانسجة الباطنية في رجل واحد

ولذلك يغتبط كل محب للانسانية متى علم ان هناك الآن أنابيب ضخمة لتوليد أشعة سينية أشد نفوذاً من خلال الانسجة ، من أشعة الراديوم

ولاطلاق أشعة سينية من هذا القبيل على نوام سرطانية دفينة ، نحتاج الى أنابيب تستطيع ان تتحمل ضغطاً كهربائياً أعلى جداً من الضغط الذي تتحمله الانابيب المستعملة في تصوير الاسنان والعظام والقرح، لأن قوة الاشعة السينية وقدرتها على النفوذ تزدادان بازدياد الضغط الكهربائي الذي يولدها . والنوامي السرطانية التي على سطح الجسم ، او قليلة النور فيه ، تمكن معالجتها بأشعة سينية مولدة بضغط كهربائي يتفاوت من ١٠٠ الف الى ٢٠٠ الف ڤولط . أما الاشعة الرئيسية المنطلقة من الراديوم ، فتعدل في قوة نفوذها ، اشعة سينية متولدة ضغط كهربائي قدره نحو مليوني ڤولط . ولا يخفى ان علماء الطبيعة المعنيين بتهشيم الذرَّة يستعدُّون لصنع انابيب تتحمل ضغط خمسة ملايين الى عشرة ملايين ڤولط — بعد ان فازوا بصنع انابيب تتحمل ضغط ثلاثة ملايين ڤولط — فعلماء الطب يرقبون بعين ساهرة اعمال زملائهم الطبيعيين

وفي بعض المستشفيات الاميركية الآن انابيب تتحمل ضغط مليون ڤولط في توليد الاشعة السينية فيها ، وكلٌّ منها يولد قدراً من الاشعة يعدل القدر المنطلق من رطلين من الراديوم ، ولكن الفرق بين نفقات العلاج بالانبوب المولد للأشعة السينية ، ونفقات العلاج بالراديوم — على اساس مقدار واحد من الاشعة في الحالين — كالفرق بين ستة قروش وعشرين جنيهاً ، وبعض هذه الأنابيب يبلغ في علوه نحو اثني عشرة قدماً

وفي الوسع ان يستعمل الانبوب الذي صنع لتهشيم الذرَّة ، القادر على تحمّل ضغط ثلاثة ملايين ڤولط ، لتوليد اشعة تستعمل في علاج النوامي السرطانية. فهذا الانبوب الضخم لا يولّد قدراً كبيراً من الاشعة فحسب ، بل يولّد ايضاً اشعة اشدّ نفوذاً من اشعة الراديوم ، فتوصيلها الى النوامي الدفينة في باطن الانساج مستطاع ، فتقصر مدة العلاج . اما نفقة انشائه واستعماله فلا تذكر بالقياس الى نفقة قدر من الراديوم لا يولّد ما يولّده هذا الانبوب المصنوع بيدي الطبيعي وله اولاً . وقد يحسُّ القارىء بشيء من الخطر عندما تذكر الملايين من الڤولطات أمامهُ لأنهُ يعلم ان التيار الكهربائي العالي الضغط يحدث صدمة عنيفة في الجسم ، ولكن العلماء صنعوا من الاساليب والوسائل ما يمنع حدوث الصدمة عند استعمال التيار المنطلق من هذه الانابيب الضخمة ، وجميع الأجهزة الخاصة بها توضع في حجرة على حدة ، ولا يتصل منها بالمريض الأجهاز عادي ، حالة ان المريض مستلقٍ على فراش وثير في حجرة حسنة الزينة

ويعتقد بعض الاطباء انهُ اذا استطاع علماء الطبيعة ان يولّدوا تيارات من الكهربات تنطلق بسرعة وافية ، فقد تكون افعل من الاشعة السينية او مقذوفات الراديوم في علاج السرطان . وذلك بانهُ اذا زادت سرعة الكهيرب ، قلَّ اضرارهُ بخلايا الانساج التي يخترقها . لأنهُ يكون حينئذٍ في منزلة رصاصة منطلقة بسرعة عظيمة فتخترق لوحاً صانعة فيه ثقباً صغيراً غير مشعَّب المحيط . حالة ان الرصاصة البطيئة تخترق اللوح محدثة فيه ثقباً تحيط به كسر وشعوث

ومن هنا يقولون ان استعمال الكهيربات السريعة الانطلاق، لعلاج النوامي السرطانية الدفينة يكون أقل اضراراً بالانساج التي تخترقها الكهيربات الى النوامي الدفينة من انواع الاشعاع الاخرى . الاَّ ان توليد هذه التيارات يقتضي ضغوطاً كهربائية عالية، وهذا مرهون الآن بتقدم علماء الطبيعة المعنيين بتهشيم الذرَّة وبقدرتهم على صنع أنابيب تتحمل ضغط عشرة ملايين ڤولط . وعندئذٍ يتاح للاطباء وللمهندسين ان يتناولوا ما تمَّ على يدي علماء الذرَّة وتحويله الى أسلوب من اساليب العلاج الناجع

الراديوم أشهر العناصر المشعة . ولكن ذرَّتهُ واحدة فقط من أربعين نوعاً من الذرَّات تتصف بعدم استقرار بنائها وتحفزها للانفجار واطلاق الاشعة. وقد استعمل الراديوم في معالجة بعض النوامي الخبيثة . ولكن فعلهُ العجيب أصبح مقروناً بمعانٍ سحرية في عالم العلاج، فكثرت في السوق أدوية وأغذية توصف بأنها تحتوي على الراديوم وهي شديدة الخطر اذا كانت تحتوي على قليل جدًّا من أملاحهِ ، ومعظمها خالٍ منهُ فلا فائدة منهُ

ذلك بأن الراديوم اذا استقرَّ في العظام كان سمًّا زعافاً . وبعض الذين شربوا ماء فيهِ « راديوم » لم يلبثوا طويلاً حتى شعروا أولاً بتحسن في صحتهم لأن الراديوم يحرك المراكز التي تولد كريات الدم، ثم بعد قليل عندما استقرَّت ذرَّات الراديوم في العظام وأخذت تطلق قذائفها على خلايا الانساج المختلفة ، بدأ فعل التسمم المنتهي الى الموت — لولا مداركة العلم لبعضهم

وتفسير ذلك ان الراديوم من الناحية الكيميائية شبيه بالكلسيوم الذي تصنع منهُ العظام . فاذا دار الراديوم في الدم رسبهُ الدم حيث يرسّب الكلسيوم لانهُ لا يفرّق بينهما . فاذا استقرَّت ذرَّات الراديوم في العظام، بدأت تطلق قذائفها حتى تنخر العظام وتحلّ. ولا ينتهي ضرر الراديوم من هذا القبيل بانفجار ذراتهِ وانطلاق اشعاعها ، لأنها تتحول بعد ذلك الى ذرَّة رادون وهذه تنفجر في وقتها فتطلق قذائفها وتتحول الى ذرَّة مشعة أخرى الى ان تخبو نارها بتحولها الى رصاص . ولا فائدة في القول ان ذرَّات الراديوم لا تلبث ان تتحوَّل بالطريقة المتقدمة ، الى ذرَّات غير مشعة . فاذا صبر الجسم على ذلك فنجاتهُ محتملة . ذلك انهُ بعد انقضاء ١٦٩٠ سنة لا يكون الاَّ نصف ذرَّات الراديوم قد تحوّل الى رصاص . فالنجاة لا تكون الاَّ باخراج الذرَّات من الجسم . والاَّ فالموت محتوم وما أشنعهُ موتاً

ولذلك ابتدع العلم الحديث طريقة لجرف ذرات الراديوم من العظام . وذلك بأن يعالج المصاب على نحو يجعل عظامهُ تفقد كلسيومها . فتفقد جانباً من الراديوم معهُ، ثم اذا مالت عظامه الى اللين بفقد الكلسيوم، يعطى كلسيوماً نقيًّا لبناء عظامه بناء جديداً. فاذا عاد الى حالتهِ السوية، أعيد العمل مرة وأخرى الى ان تخرج ذرات الراديوم من الجسم . وغنيٌّ عن البيان ان المصاب يجب ان يلزم الفراش في أثناء العلاج

الا ان هذا الاسلوب من العلاج يحتاج الى معاونة وثيقة بين الطبيب والطبيعي . ونصيب الطبيعي فيه ، ان يأتي بأجهزته الدقيقة التي تمكنهُ من مقياس مقدار ما في الجسم من الراديوم ، في كل مرحلة من مراحل العلاج ، ما خرج منهُ وما بقي فيه ، وكيف خرج ما خرج ، وأين بقي ما بقي ، وقد استنبط الطبيعي لذلك أجهزة شديدة الاحساس دقيقة القياس ، تمكنهُ من معرفة ما يريد معرفتهُ والجهاز على بعد ذراع من المريض !

وأصل هذه الأجهزة انها صنعت لدراسة الذرَّة، ثم ظهرت فائدتها الطبية . وليس يخفى ما يخالج المصاب من الاغتباط عند ما يجيئهُ الطبيعي بعد علاج طال ، وينبئهُ بأن الراديوم الذي كان على وشك ان ينخر عظامهُ او يحلها ويفتك بأنساجه ، قد زال من جسمه!

كان الرأي السائد الى عهد قريب ان الطبيعة فرغت من افراغ مادتها في ذرات عناصرها الاثنين والتسعين ، في زمن متغلغل في جوف التاريخ الجولوجي،ولكن علماء الطبيعة استحدثوا في السنوات الاخيرة من الوسائل ما يمكنهم من صنع ذرات جديدة من الذرات القديمة كتحول البريليوم الى كربون بالتقاط احد جسيمات الفا المسددة اليه واطلاق نوترون . وتحويل النتروجين الى اكسجين بالتقاط النتروجين احد جسيمات الفا وطرح بروتون واحد . وغيرها . ولسنا نملُّ تكرار القول بأن المقدار المتحولَ من عنصر ما الى آخر يسير جداً ، بل هو على الغالب اقل من ان يكشف بالكواشف الكيميائية . ولولا ابتداع طرق عجيبة في دقتها لاحصاء الذرات القليلة المتحولة لتعذر على الباحثين ان يتبينوا نجاحهم في عملهم

وهذا التحول من ذرَّة عنصر الى ذرَّة عنصرآخر تحويل دائم . ولكن الباحثين توصلوا في بضع السنوات الاخيرة الى احداث ضرب آخر من التحويل نصفهُ « بالتحويل غير الدائم » لأن الذرَّة التي تنشأ من ذرَّات اخرى باطلاق احدى القذائف عليها — من بروتونات أو نوترونات أو دوتونات أو غيرها — ليست مستقرة التركيب ، وقد تبقى الذرة الجديدة على ما هي ساعة أو يوماً أو بضعة ايام أو شهراً من الزمان ، وفي هذه الحالة لا يستطيع الباحث ان يميزها عن الذرات الطبيعية التي تشبهها في التركيب ، ولكن اذا جاء اجلها انفجرت وانطلقت منها قذائف هي من قبيل الاشعاع المنطلق من العناصر المشعة بالطبيعة كالراديوم وأشباهه. ولذلك وصفت هذه العناصر بالعناصر المشعة اشعاعاً صناعيًّا . أي ان علماء الطبيعة في هذا العصر استطاعوا ان يولدوا عناصر مشعة من عناصر ساكنة مستقرة غير مشعة كالنحاس والكربون فهي أشبه ما يكون بمقعد مشلول حقنتهُ بعقار عجيب فقفز من سريره وأصر على الاشتراك في حلبة السباق . كذلك صنعوا الصوديوم المشع باطلاق الدوتونات على الصوديوم المألوف . ومدى حياة الصوديوم المشع خمس عشرة ساعة . ويمتاز على الراديوم في انهُ لا يطلق الاَّ أشعة غما

حالة ان الراديوم يقذف كذلك جسيمات الفا وبيتا ، واذن فاستعمال الصوديوم المشع في الطب قد يكون اسهل من استعمال الراديوم

ومن العناصر التي حولت مشعة بالاجهزة الحديثة عنصر اليود ، وقد جربت تجارب في جامعة هارفرد افضت الى امكان الاستغناء عن مبضع الجراح في علاج النوامي السرطانية في الغدة الدرقية ، باستعمال اليود المشع . ذلك بأنهُ اذا حقن اليود المشع في الدم سار بطبيعته الى مستودعه الطبيعي في الجسم وهو الغدة الدرقية . وقد اكتشفت هذه الحقيقة باجراء التجارب على الارانب اولاً . فاذا بلغ اليود المشع الغدة الدرقية جعل يطلق اشعاعه منها الى حين — لأن ذراته لا تبقى طويلاً وهي مشعة — فيفعل فيها فعل ابر مغروزة فيها محتوية على الراديوم

والمقدار اللازم من اليود المشع لعلاج من هذا القبيل ، يمكن توليدهُ في احد الاجهزة الحديثة المستعملة لتوليد العناصر المشعة من العناصر غير المشعة ، ونفقة توليده لا تتعدَّى بضعة قروش . فهو ينافس الراديوم من حيث الفعل والنفقة معاً ، واذا ما انطلق الاشعاع من ذرَّة اليود المشع تحوَّلت الى ذرَّة كسينون وهو عنصر غازي غير فعَّال لا يضرُّ ما زال في الجسم ثم يُفرز

وعلاوة على هذا يمكن استعمال ذرَّات العناصر المشعة اشعاعاً صناعيًّا للتجسس على الذرات التي تشبهها . فذرَّات اليود المشع لا تختلف عن ذرَّات اليود ، الاَّ في ان قلبها يتأجج ولا يلبث ان ينفجر فيحدث اشعاعاً . ولذلك اذا مزج قليل من ذرَّات اليود المشع بذرَّات اليود المألوف وتناول المرء هذا المزيج في دواء ، استطاع الطبيب والباحث ان يضعاهُ تحت المراقبة ، وان يستدلاَّ بأجهزتهما الدقيقة على سير ذرَّات اليود في مسالك جسمه بانفجارات الذرات التي حوِّلت مشعة بالصناعة ، وهذا العمل يشبه عمل المدفعي في الطائرة . فهو يطلق قذائفهُ غير دارٍ مسارها لسرعتها من ناحية ولسرعة الطائرة من ناحية أُخرى . ولذلك يجعل كل قذيفة عاشرة من قذائف مدفعه قذيفة تترك اثراً من الدخان في مسارها فيستدل بالدخان على مسار قذائفه ، والذرَّات المشعة من اليود — في المثل المضروب آنفاً — تشبهُ هذه القذيفة العاشرة . فهي تدلُّ على مسارها بالاشعة المنطلقة منها عند انفجارها

وكذلك يصيب الباحث الطبي عصفورين بحجر واحد ، في هذه الذرَّات المشعة اشعاعاً صناعيًّا ، فهو يستعملها للعلاج ، ويتبيَّن بها نواحي من التركيب العضوي والتمثيل الفسيولوجي في الجسم

ويذكر كاتب هذه السطور انهُ القى محاضرة في مستهل سنة ١٩٣٨ وصف فيها النشاط الاشعاعي الصناعي ، من ناحيته الطبيعية والطبية ، وكانت العناصر الساكنة غير المشعَّة التي حوِّلت مشعة بالصناعة ، تعدُّ على اصابع اليدين . وامامهُ الآن وهو يكتب هذه السطور قول لباحث عالم مؤداهُ ان العلماء استحدثوا نحو مائتي مادة مشعة بالصناعة من نحو ٤٠٠ مادة ساسية في الطبيعية هي العناصر الاثنان والتسعون ونظائرها ، ولا ريب في انهُ متى تمَّ للعلماء

تحويل بقية ضروب المادة الاساسية الى مواد مشعة باطلاق الكهربات او البروتونات ، او النوترونات او الدوتونات او غيرها من القذائف عليها ، فسيكون في متناول الاطباء كشف طويل يختارون منهُ عشرات المواد المختلفة ، التي غدت مشعة بالصناعة لاستعمالها في الطب بدلاً من الراديوم النادر الثمين . واذا انتقلنا من دراسة طبيعة الذرَّة وطرق تهشيمها وتحويلها وما أسدتهُ من خدمة الى الطب الى دراسة الضوء والكهربائية وجدنا فيهما ميداناً حافلاً بالعجائب

فليس ثمة ريب في ان استنباط المجهر خدم العلوم الطبية خدمة عظيمة ولا سيما في دراسة الاحياء الدقيقة ، وتركيب الانساج . وكلُّ تقدم في اتقان المجاهر يستقبل في عالم الطب بآيات الحمد والثناء . وهذا الاتقان مرتبط بعلم الطبيعة أوثق ارتباط ، لأنهُ ينصرف الى طبيعة الضوء المستعمل، أكثر منهُ الى طريقة صنع العدسات . فموجة من الضوء الاصفر تبلغ $\frac{1}{50000}$ من البوصة طولاً ، ومع ذلك فهي عاجزة عن ان تبين عن جسم أصغر منها حجماً ، على نحو ما تعجز البنان عن ان تحلَّ محل الابرة الدقيقة في استخراج الغناء من قرص الجراموفون . وإذن فاتقان المجاهر يقتضي استعمال تلك الموجات الضوئية البالغة حدًّا متناهياً من القصر . وهذه الموجات هي موجات الأشعة التي فوق البنفسجي . ولكنها موجات لا ترى بالعين ولا تخترق عدسات الزجاج العادي . أما تعذر الرؤية بها فلا يحول دون استعمالها ، لأن ما لا تراه العين البشرية تراهُ عين المصورة الضوئية وتسجله على اللوح الحساس . ولذلك كان لا بد من استنباط زجاج خاص ، تخترقهُ هذه الاشعة ، فاستنبط وصنعت منهُ عدسات المجاهر واستعملت فيها الاشعة التي فوق البنفسجي فغدا في مكنة الباحثين ، تكبير اقطار الاجسام المتناهية في الدقة ستة آلاف مرة . فاذا شئنا ان نستعمل أمواجاً أقصر من أمواج هذه الاشعة ، وجب ان يوضع الجهاز في فراغ ، او في حجرة يحيط به غاز الهليوم او غاز الايدروجين ، لأن هذه الأشعة لا تخترق الماء ولا الهواء. وعلاوة على استعمال الضوء للرؤية، يصلح كذلك للعلاج . وبعض الأطباء ينحو نحو القدماء في اعتبار الشمس أعظم وسائل العلاج . ولكن علماء الطبيعة أشرفوا على صنع مصابيح ترسل ضوءًا يحتوي على جميع الاشعة التي يحتوي عليها ضياء الشمس ، وعلاوة عليها أشعة أخرى ليست في ضياء الشمس منها ما يتصف بتأثير قاتل للمكروبات او شافٍ، ومنها ما لم يمتحن بعد من ناحية فعله البيولوجي. والتوسع في دراسة «المطياف» الذي لا يستغني عنهُ الفلكي الطبيعي مكَّن لرجال الطب من فصل الاشعة المختلفة التي تنضمُّ جمعياً في ضياء الشمس ودراسة تأثيرها الطبي شعاعاً شعاعاً

فن الواضح انهُ اذا كان ضياء الشمس يتصف بفعلٍ شافٍ او منشط ، فقد يكون هذا الفعل خاصًّا بأحد أنواع الأشعة التي تدخل في تركيب ضياء الشمس ، كالاشعة الزرقاء او الحمراء . فبفصل هذه الاشعة بعضها عن بعض ودراسة تأثيرها الفسيولوجي غدا في وسع الطبيب ان

يقصر استعمال كلٍّ منها على ما اختصته الطبيعة من تأثير . ولنضرب مثلاً على ذلك بالاشعة التي تحت الاحمر . وهي أشعة طويلة الامواج اذا قيست بالاشعة التي يتألف منها الطيف المرئي . هذه الأشعة تخترق البشرة وتمتصها الطبقة التي تحت البشرة ، فتسكن العضلات المنهوكة والاعصاب المتعبة . ثم ان استعمالها يزيد من جريان الدم في المنطقة المرضة لها وهذا له تأثير طيب في الحالات العصبية والروماتزمية . ثم ان دراسة الضوء وتأثيره الحيوي مكنت العلماء من توليد فيتامين D في الاطعمة بدلاً من الاعتماد على تولده في الطبيعة واستخراجه من كبد سمك القد

والميدان الذي يحتاج الى دراسة عميقة من ناحية تأثير الضوء في الصحة ، هو ميدان الاشعة المختلفة في طيف الشمس ، من مرئي وغير مرئي ، وتأثير كل منها على حدة وبوجه خاص في الجسم . واذا تولى الطبيب او الباحث الطبي هذا البحث ، فانهُ ولا ريب يحتاج الى الاعتماد على الطبيعي في ابتداع الاجهزة لتوليد الضوء وتحليله وقياس قوته وتأثيره

ولا نطيل الوقوف عند موضوع الكهربائية .وقد خصصنا له في السنة الماضية مقالين بعنوان «الفرق بين الكهربائية والكيمياء» . ولذلك نوجز الرأي الحديث ايجازاً وهو يقوم على ان التيارات الكهربائية السارية في جسم الانسان كثيرة ، ولكن معظمها ضعيف يصعب قياسهُ . وليس في الجسم نقط كاقطاب البطاريات ، يسهل للباحث التماس التيار الكهربائي عندها . والاختلاف في اطوار الصحة متصل ولا ريب — بحسب هذا الرأي — بالاختلاف في حالة هذه التيارات ، ولكن اساليب التشخيص الكهربائي لا تزال في المهد . فاعياء المرء او حالته الصحية العامة ، مرتبطان على وجه خفي بالفرق بين مقاومة جسمه لسريان تيار متحول ، ومقاومته لسريان تيار مباشر . ما السر في هذه العلاقة ؟ وكيف نستطيع التوسل بها الى استحداث اساليب جديدة للتشخيص والعلاج ؟ اما مكانة الكهربائية في العلاج فليست بحاجة الى بيان وتفصيل . فالمبضع الكهربائي أحرز نجاحاً باهراً في الجراحة . ذلك بأن تياراً كهربائياً متحولاً يسري من المبضع الى الانسجة واذ يكون المبضع آخذاً في القطع ، يكون التيار عاملاً على تعقيم الجرح وكيه فيقل النزف ويقرب الاندمال . وللمبضع الكهربائي عجائب اخرى يضيق النطاق عن الاشارة اليها . وسنعهد الى طبيب بارع بكتابة فصل وافٍ عنها . ثم هناك استعمال الأمواج الكهربائية في اختراق الجسم لاحداث حمى عالية مفتعلة فيه ، يقاوم بها جرثومة معيَّنة كجرثومة الزهري (راجع اساطين العلم الحديث : صفحة ٢٠٢ — ٢١١ طبعة اولى و ٢٢٧ — ٢٣٧ طبعة ثانية) فيستغنى بها عن حمى الملاريا . ولو كان الغرض من هذا المقال حصر جميع الخدمات التي اسدتها علوم الطبيعة من نظرية وتطبيقية الى علوم الطب لتحوَّل المقال الى كتاب ولضاق الكتاب عن استيعابها جميعاً . وما تقدم ليس الاَّ على سبيل التمثيل



مشروع

لتنظيم السكان في مصر

للدكتور وندل كليلاند
مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة

وضع برنامج للمستقبل

سنعالج الآن المسألة الرئيسية في هذا البحث

هل من المتيسر وضع برنامج منظم نتخذه اساساً للاصلاحات التي نرجو تحقيقها في المستقبل على الرغم من سرعة نمو عدد السكان وسوء الحالة الصحية العامة وانتشار الفاقة فضلاً عن الاخطار التي تحيط بمصر من الخارج ؟ اعتقد انهُ اصبح من الواضح لكل انسان ان السياسة التي اتبعت في الماضي كان مكتوباً لها الحبوط سواء أكانت ترمي الى الحرية التامة للفرد وترك الحبل على الغارب للشعب يعالج مسائله كما شاء او غير ذلك من الوسائل المعتدلة أم لم تكن

اذا اردنا اصلاح الامور لا بد من إنشاء توازن وتعاون بين جميع المشروعات الاصلاحية حتى يكون التقدم متساوياً من جميع النواحي بحركة شبيهة بارتفاع الطيارة المجهزة « بالدوّامة » التي ترتفع عن سطح الارض الى الفضاء بحركة عموديّة ودفعة واحدة . هناك عدة اقتراحات أعرضها فيما يلي واعتقد انها تحقق ما نصبو اليه من وضع برنامج علمي لتنظم مستقبل البلاد

وقبل شرح البرنامج يحسن بي ان اوضح الغاية التي ارمي اليها

فما هو ادنى مستوى للمعيشة نرجو تحقيقهُ للاسرة المصرية ؟ وهنا يجدر بنا ان نحصر انتباهنا في حالة مصر كما هي وألاَّ نحاول تقليد ما نجده عند غيرنا من الامم تقليداً اعمى ، فلكل بلد عادات خاصّة ومطالب قد لا يشعر بها غيره من البلدان . وليس من المتيسر ان تتساوى جميع الشعوب في مستوى معيشة أهلها وتقدمهم في الحضارة ، ومن الخطإ ان نعتقد انهُ بعد قرن من الزمن ستصل جميع الامم الى مستوى واحد من المدنية والرقي

إن المشروع الذي فكرت فيه يرمي الى انشاء أسرة مكونة من والدين يتفاوت عدد

اطفالها بين الثلاثة والخمسة ويتمتعون جميعاً بصحة جيدة ويحيون حياة محترمة في منازل تتوافر فيها النظافة وبساطة الاثاث وينال كل منهم نصيبه من العلم وتتوافر في المجتمع الذي يحيط بهم جميع الوسائل الصحية من ماء مقطر وانوار كهربائية واغذية صحية مقوية وملابس تجمع بين البساطة والمحافظة على الصحة . ويتوافر فيه كذلك العمل المفيد لكل فرد بحيث يمكن ان تنال كل أسرة ما لا يقل عن مائة جنيه سنويًّا فضلاً عن تخفيض أثمان الأراضي وأجور المباني وزيادة التعاون بين طوائف المزارعين والصناع

هذا ولا ننسى ضرورة انشاء العدد الكافي من المعاهد العلمية والاندية الرياضية والثقافية لملء أوقات الفراغ من ابناء الشعب بالنشاط النافع . ثم توفير طرق مواصلات جيدة في جميع جهات القطر وانشاء ادارة صالحة للاهتمام بالامور الصحية والزراعية ونشر العدل في ربوع القطر وغير ذلك . هذا وسنكتفي في برنامجنا بتحقيق الاصلاحات المتقدمة مع أن هناك وجوهاً اخرى عديدة من انظمة الاصلاح . مثال ذلك وضع معاشات للعجزة والعاطلين وسن قوانين للتأمين ضد الحوادث وغير ذلك من مظاهر التقدم كانشاء الحدائق الاهلية والملاعب الرياضية والمتاحف العلمية وغير ذلك

ولنبحث الآن في الأحوال اللازمة لتحقيق المشروعات التي تستطيع الحكومة ان تأخذها على عاتقها وتمهد السبيل لغيرها من الهيئات الأهلية . ولنختر أساساً لحسابنا عدداً من السكان لا يتجاوز ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة او مليونين ونصف مليون من الأسر . وقد يتساءل القارىء ولما لا نتخذ عدد سكان مصر كما هو الآن . وجوابي ان السكان في مصر يزيد عددهم ٥ ملايين عن العدد الذي كان يجب ان يكون عليه . ويبلغ عدد الأسر المصرية في الوقت الحاضر نحو ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ عائلة . فاذا كانت الاعمال الزراعية تتيح عملاً لنحو ١٫٤٠٠٫٠٠٠ أسرة (أي بمعدل أربعة فدادين لكل أسرة) والاشغال التجارية فيها متسع لإعالة مليون أسرة بقي لدينا ٩٠٠٫٠٠٠ أسرة بدون عمل كافٍ . وعلى ذلك يمكننا تقدير العدد الزائد من السكان بنحو ٤ ملايين نسمة ولا نكون مغالين في ذلك . ولننظر الآن في ميزانية النفقات العامة التي يجب على الحكومة انفاقها . ولنعالج أولاً مستلزمات الصحة العامة

إذا أخذنا ما تنفقهُ مدينة نيويورك في هذا السبيل أساساً لتقديرنا بلغ مجموع الأموال اللازمة للميزانية الصحية نحو ٧٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيهاً في العام أي بمعدل ٦٧ قرشاً عن الفرد من السكان . مع العلم بأن هذا المبلغ ليس بالشيء الكثير اذا قابلناه بما تنفقهُ كثير من المدن الأخرى . وكذلك الحالة الصحية في نيويورك أفضل كثيراً مما هي في مصر

أما من ناحية التعليم فاننا نجد ان الاطفال الذين في سن التعليم — أي ما بين الخامسة

والرابعة عشر — يبلغ عددهم ٣٫١٠٠٫٠٠٠ . فاذا خصصنا مبلغ ١٠ جنيهات لتعليم كل طفل فان مجموع ميزانية التعليم لا يقل عن ٣١ مليون جنيه

وفضلاً عن ذلك فيلزم مالا يقل عن ٧١ مليون جنيه بحسب تقدير محمود شاكر أحمد بك وكيل وزارة الصحة لرفع مستوى القطر من الناحية الاجتماعية كانشاء قرى جديدة تتوافر فيها الشروط الصحية والمياه الصالحة للشرب والمجاري العمومية وغير ذلك من المشروعات الصحية . فاذا وزعنا هذا المبلغ على ٣٥ عاماً بلغ ما يلزمنا سنويًّا نحو مليونين من الجنيهات

واذا أردنا تحسين حالة المواصلات بانشاء طرق جيدة تطلب ذلك من ميزانية الدولة ما لا يقل عن مليون جنيه

ويلاحظ ان المشروعات المتقدمة لا تشمل الا الاعمال الاجتماعية العامة التي لا بدَّ من القيام بها لتحقيق غايتنا . ومع ان هناك أموراً عديدة تقتضي الاهتمام غير اننا نترك ذلك للافراد والجماعات بعد أن نرفع المستوى الفكري والاجتماعي بينهم. ومما تقدم يتضح لنا ان مجموع المبالغ اللازمة سنويًّا لا تقل عن ٤١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيهاً . فضلاً عن الميزانية السنوية الحالية التي تخصصها الحكومة للمصروفات اي ما يبلغ نحو ٣٣ مليون جنيه اي ان ميزانية المصروفات السنوية ستبلغ نحو ٥٧ مليون جنيه ، اذا أضفنا اليها ما سيصرف على ميزانية الدفاع الوطني أي ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ وجدنا ان ميزانية الدولة للمصروفات ستتجاوز مبلغ ٨١ مليون جنيه . فاذا علمنا ان هذا المبلغ يعادل خمسي مجموع الايراد الأهلي ، اتضح لنا انهُ مبلغ باهظ جدًّا يثقل كاهل بلد فقير كمصر إذ ان نسبة المصروفات عن كل فرد من السكان لا يقل عن ٦ جنيهات ونصف سنويًّا . وقد يمكن تخفيف الضغط على الميزانية العامة بالالتجاء الى عقد القروض للحصول على المبلغ اللازم لمشروعات الاشغال العامة والالتجاء الى الاحتياطي غير ان ذلك لا يساعد على نقص ميزانية المصروفات اكثر من ٣ ملايين او ٤ ملايين من الجنيهات

ولمقابلة حالتنا بحالة غيرنا من الامم نذكر حالة دولة السويد . فنقول ان ميزانية المصروفات فيها في عام ١٩٣٧ — ٣٨ بلغت نحو ٥٧٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ولا يزيد عدد السكان هناك عن ٦٫٣٠٠٫٠٠٠ نسمة اي النسبة السنوية للمصروفات بلغت ٩ جنيهات لكل فرد . وهذا المبلغ يمثل ثمن الايراد الاهلي . غير ان تلك الميزانية شملت مصروفات عديدة لم نوردها في البرنامج الذي وضعناه للقطر المصري

ولا شك ان اكبر معضلة نواجهها في هذا السبيل هو كيفية التوصل الى رفع الايراد الاهلي بحيث يمكنه تحمل مثل هذه المصاريف وفي نفس الوقت انقاص عدد السكان الى ١٢ مليون نسمة فقط والاحتفاظ بهذا العدد ثم العمل على حفظ التوازن بين عدد السكان والموارد العامة

هناك ثلاثة حلول عامة تخطر ببالي علاجاً لهذه المعضلة . وهي :

(اولاً) ابتكار الوسائل التي تكفل رفع الثروة الاهلية والمحافظة عليها

(ثانياً) إيجاد منفذ للعدد الزائد من السكان عن طريق الهجرة

(ثالثاً) نقص عدد السكان

﴿تحسين الثروة الاهلية وصيانتها﴾ سنتناول هذه النقطة بإيجاز اذ انها تنال اهتمام جهات كثيرة فالجماعات الاهلية تبذل جهدها لكشف طرق جديدة للربح . والحكومة من ناحيتها تبدي اهتماماً جديًّا بهذا الموضوع . فوزير التجارة الحالي يفكر في تعيين لجنة يعهد اليها بدراسة طرق تحسين التجارة والصناعة . ولا شك ان الرغبة في الربح والمطالب السياسية سيكون لها اثر فعال في تحقيق النجاح

غير اني اريد اوجه الانظار الى ضرورة صيانة الثروة الزراعية بالمحافظة على الاراضي الزراعية وزيادتها . فقد سبق ان قلنا ان أكثر من ٩٠ ٪ من الثروة الاهلية في مصر عمادها الاراضي الزراعية . ولا شك ان استعمال جزء من تلك الاراضي لغير اغراض الزراعة كانشاء المساكن والمتنزهات والمدافن والحدائق العامة وغير ذلك من مظاهر الترف سينتج عنهُ نقص الاراضي المخصصة للزراعة . اما الاراضي التي تستعمل لحفر القنوات وانشاء الطرق والخطوط الحديدية وغير ذلك من المشروعات العامة فلا تعتبر من الاراضي التي تخسرها الزراعة اذ ان تلك المشروعات لا بدَّ منها لنجاح الزراعة . ولكي نوفر الأراضي لأغراض زراعية قد نضطر في المستقبل الى انشاء المساكن وغير ذلك من أسباب الترف في الاراضي الصحراوية . وقد برهن الاقبال على بلدتي مصر الجديدة والمعادي على صلاح الصحراء للسكن. وهناك مالا يقل عن ٥٠٠ر٠٠ فدان من الاراضي الزراعية الخصبة تستعمل لأغراض تجارية وإنشاء المساكن في الوقت الحاضر . وإن اتساع بعض المدن الكبرى كاسيوط والجيزة وطنطا اثناء العشرين السنة الماضية على حساب الأراضي الزراعية لما يدعو الى التفكير في مصير الزراعة المصرية في المستقبل . ويبين لنا ضرورة صيانة الأراضي الزراعية من الاستغلال لأغراض أخرى إذ أن كل فدان يؤخذ من الزراعة يؤدي الى حرمان بعض الفلاحين عيشهم

﴿المهاجرة الى الخارج﴾ ماهي البيئة التي تصلح لإيواء المهاجرين من مصر ؟ هناك منطقتان قد نجد فيهما تحقق غرضنا . وهما السودان والعراق . اما الحبشة فبعيدة المنال في الوقت الحاضر لاعتبارات سياسية

وتبلغ مساحة السودان المصري الانكليزي نحو مليون ميل مربع (٠٠٠ ر ٥٩٠ ر ٢ كيلومتر مربع) وهذه المساحة تعادل ضعفي مساحة القطر المصري باكمله ونصف ضعفها ، بما في ذلك

الاراضي الصحراوية. وقد قدر عدد سكان السودان في عام ١٩٣٨ بنحو ستة ملايين نسمة. حقا ان كثيراً من الاراضي السودانية لا تصلح للزراعة في الوقت الحاضر. وهناك مساحات واسعة من المستنقعات والاراضي الرملية غير ان هناك اعتقاداً بامكان تحويل ملايين من الافدنة الى اراض صالحة للزراعة. وفي ارض الجزيرة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الابيض — وهي صغيرة بالقياس الى مساحة السودان — مالا يقل عن ثلاثة ملايين من الافدنة الصالحة للزراعة. وهذا العدد يعادل نصف مساحة الاراضي الصالحة في مصر. وجنوب هذه المنطقة نجد اراضي السد ومستنقعات بحر الغزال عند اعالي النيل الابيض وهي مما يمكن تحويله الى اراض خصبة وتبلغ مساحة تلك الاراضي نحو ٥٠٠ر٦٢ كيلومتر مربع او ما يعادل ضعفي مساحة الاراضي الزراعية في مصر. وهذه المنطقة « نظراً لموقعها الجغرافي ومناخها وغزارة امطارها تعتبر من الاراضي الثمينة التي لا يمكن تركها كما هي الى الابد دون الانتفاع بها. وهناك ما يبعث على الاعتقاد أنها ستتحول في المستقبل الى مراع خصبة او مزارع غنية او غابات ثمينة » (١)

فاذا اضفنا الى ذلك نحو ٠٠٠ر ٥٤١ كيلو متر مربع من الاراضي المرتفعة الواقعة في حوض بحر الغزال بلغ مجموع الاراضي الصالحة نحو ٥٠٠ ر٦٠٣ كيلو متر مربع اي ما يزيد عن مساحة الاراضي الزراعية في مصر نحو ١٧ ضعفاً

وهناك تفكير قائم منذ عدة اعوام يرمي الى نزح المستنقعات وتجفيفها لكي يمكن الانتفاع بما يزيد عن ٠٠٠ ر ١٢ متر مكعب من الماء الذي يتبخر سنويًا دون الانتفاع به، وقد يتحقق هذا المشروع عند انشاء خزان جديد على النيل عند بحيرة البرت. فاذا امكن لمصر الانتفاع بهذه الاراضي باصلاحها واعدادها للزراعة وجد المصريون منفذاً لسد حاجتهم الى الهجرة

اما مملكة العراق وان تكن أبعد عن مصر من السودان غير أنها أكثر مشابهة في مناخها وحاصلاتها ونظمها الاجتماعية لمصر وتبلغ مساحة العراق نحو ٠٠٠ر١٤٣ ميل مربع وعدد سكانها نحو ٠٠٠ر٨٢٤ر٢ نسمة أي بمعدل ٩٠ شخصاً لكل ميل مربع من الاراضي الزراعية ولذا فان هناك حاجة شديدة الى الايادي العاملة في العراق. وبالنظر الى السهول العظيمة الواقعة في شمال العراق والقرى العديدة المنتشرة في كل ناحية والخرائب المدفونة تحت الرمال يمكننا ان نستنتج أن هذه البلاد كانت آهلة بعدد عظيم من السكان في وقت ما. ولا شك انه يمكن اسكان بضعة ملايين اخرى زيادة على السكان الحاليين ونظراً لوحدة اللغة وتشابه العادات والطرق الزراعية بين المصريين واهل العراق لا بد ان تنتفع العراق من هجرة المصريين اليها

فاذا أمكن حل الناحية السياسية للمسألة أمكن تخصيص الاعانات المالية لمن يطلب المهاجرة الى

---

(١) انظر كتاب « ضبط مجرى النيل » لماكدونالد

العراق والسودان . ولاشك ان كثيرين من الفلاحين ذوي الشجاعة والطموح سيقبلون على الهجرة مع ما في ذلك من مجازفة اذا استقطعتهم الحكومة اراضي جيدة وقدمت لهم المساعدة اللازمة لبدء حياة جديدة هناك

ولاشك ان تنفيذ مثل هذا المشروع سيعود بالنفع على كلا البلدين اذ ان الاراضي التي نقترح تقسيمها بين المهاجرين ليست سوى اراضٍ قاحلة لا يفكر احد من الاهلين في الانتفاع بها الآن. بل ان الاراضي المهملة في السودان يمكنها ايواء عدد من السكان يوازي مجموع سكان القطر المصري في الوقت الحاضر مع بقاء نسبة الازدحام في الميل المربع اقل مما هي عليه الآن عشرة اضعاف . هذا وقد اتجهت بعض الانظار الى بلاد البرازيل في اميركا الجنوبية حيث تقع في الجزء الجنوبي الشرقي منها اراضٍ قليلة السكان وهي لا تختلف كثيراً عن مصر في مناخها وحاصلاتها الزراعية . واللغة العربية معروفة هناك نظراً لوجود عدد كبير من المهاجرين السوريين. غير ان هذه المسألة في حاجة الى دراسة دقيقة قبل البت فيها

﴿ ٣ — تحديد النسل ﴾ قبل ان نعالج هذا الموضوع يحسن بنا ان نبحث الاتجاهات الاجتماعية وعادات الجمهور بشأن الأطفال . وقد تيسر لي ان اجمع بعض البيانات من جهات مختلفة عن سبب تعلق الناس في مصر بالاطفال ورغبتهم في الاكثار من الذرية . وفيما يلي خلاصة ما وصلت اليه

١ — الاطفال هبة من الخالق وتحقيق لمشيئته تعالى . ومن يحاول مقاومة مشيئة المولى يستحق العقاب . وكثير من الناس يفسر موت اطفالهم بأنها عقاب لهم فحسب

٢ — يفتخر رب كل أسرة بكثرة الاولاد ويطمع كل رجل ان يصبح شيخاً لقبيلة عند بلوغه سن الشيخوخة . وفي الوجه القبلي حيث تكثر المنازعات تعتز كل أسرة بعدد افرادها وتجد في كثرة عددهم ضماناً لسلامتهم

٣ — يساعد الاولاد آباءهم في كثير من الاعمال فيحرسون ماشيته ويقومون بالعمل في الحقل . بينما نفقات تربيتهم لا تكلف آباءهم الا قليلاً

٤ — كلما زاد عدد ابناء الانسان زاد اطمئنانه للمستقبل وضمن لنفسه الحياة الهنيئة في شيخوخته لتعاون ابنائه على اعالته. ولعل هذا الاعتقاد مما يجعل من الامور الصعبة اقناع المصريين بفائدة المهاجرة . فالشيوخ سيمنعون الشبان من ترك بلدهم . ولذلك فيحسن العمل على هجرة كل أسرة باكملها

٥ — ويعتبر الكثيرون الاطفال أحسن مباهج الحياة ولذلك فهم يريدون انجاب الاطفال في شبابهم حتى يتسع امامهم المجال للتمتع بهم

ولكل من الجنسين رأيه في الأطفال. اما الاسباب التي تحفز المرأة على انجاب الاطفال فهي :—

١ — تريد كل امرأة ان تباهي جارتها بفتوتها وخصب طيعتها ولا سيما الاكثار من عدد الاولاد الذكور

٢ — لتوثق الروابط التي تربطها بزوجها . والاطفال خير رباط بين الزوجين . والمرأة المصرية التي لا يفتأ شبح الطلاق ماثلاً امام عينها تشعر بالطمأنينة كلما زاد عدد الاطفال الذين تنجبهم . وقد دلت الاحصاءات عام ١٩٣٥ ان نسبة حالة الطلاق بين الازواج الذين مضى على زواجهم خمسة اعوام كان كما يأتي ٧ ر٤٩ ٪ من المطلقات لم تخلف اطفالاً . و ٢ ر٣٠ ٪ منهن انجبن طفلاً واحداً و ٦ ر١٤ ٪ طفلين و ٦ ر ٤ ثلاثة و ٩ ر ٠ ٪ اكثر من ثلاثة اطفال. اي ان حالات الطلاق كانت نسبتها لعدد الاطفال ٥ : ٣ : ٥ ر١ : ٥ ر . فالمرأة التي تنجب ابناء تشعر انها في امان من الطلاق والحاجة . والمولود الذي يأتي بعد سنة من الزواج يكون فخراً للوالدين امام المجتمع ودليلاً على حب الرجل لزوجته

٣ — تحاول المرأة ان تجعل زوجها يتعلق بها بجاذبيتها الجنسية فتبذل كل جهودها لكي تتقن فنون الدلال . وهي تشعر بانها اذا اضعفت من حيوية زوجها الجنسية فانها تكون في امان من ان تسلبها اياه امرأة اخرى. ولما كانت وسائل التسلية واللهو تكاد تكون معدومة في القرى فان براعة المرأة من الناحية الجنسية له شأنه

٤ — ومن ناحية اخرى يخشى بعض النساء ان يتأثر جمالها بكثرة الولادة ولذلك كثيراً ما يلجأن الى الاجهاض

اما وجهة نظر الرجل فتلخص فيما يأتي

١ — يحب الرجل الأولاد اكثر من البنات وهو يطلب من زوجته ان تستمر في انجاب الاطفال حتى يتوفر العدد الكافي من الاولاد

٢ — يعتبر الرجل المقدرة الجنسية من اسباب الفخار . وهو كذلك يخشى ان لم يظهر بمظهر القوة أن تتهمه زوجته بمعاشرة غيرها من النساء . ولعل هذا هو السبب في التجاء عدد كبير من الفلاحين الى تعاطي العقاقير التي يظن انها تقوى فيه الحيوية الجنسية . ومما تقدم يمكننا ان نتبين الحقائق الآتية

(اولاً) يعتبر الاطفال ولا سيما الذكور منهم ذوي فائدة اقتصادية عند الفلاح الذي يعيش حياة اقرب الى الفطرة من ساكن المدينة فاذا اردنا تخفيض النسل وجب علينا ان نعوض على الفلاح ما قد يفقده من الناحية الاقتصادية

(ثانياً) ان الخوف من الطلاق عند النساء يحثهن على الاهتمام بالامور الجنسية اهتماماً

عظيما فتزيد قابليتهنَّ للحمل تبعاً لذلك . ولذلك يجب معالجة مساوىء الطلاق . فقد دلت الاحصائيات ان عدد حالات الطلاق بلغت ٢٥ ٪ من عدد حالات الزواج

(ثالثاً) ان السواد الاعظم من الجمهور يعيش في جهل تام لفنون الحياة . وقلما يعرف كيف يستغل أوقات فراغه ويتمتع بحياة عائلية هنيئة . ولا شك في انهُ اذا رفع مستوى المرأة أمكنها ان تكتشف لنفسها مباهج الحياة وكفت عن الحياة البهيمية واصبحت لا تعتبر نفسها مجرد اداة لمتاع الرجل واشباع شهواته

لقد تبينا مما تقدم ان الذرية الكثيرة لها قيمة اجتماعية عظيمة . فاذا أردنا تحديد النسل كان لزاماً علينا ان نحاول تغيير آراء الجمهور وعاداته . وهناك وسيلتان لذلك

الاولى — مباشرة — بسن قوانين تغير بها العادات المتأصلة بسرعة . والثانية — غير مباشرة — وذلك بترغيب الجمهور وتشجيعه على تحديد النسل بشتى الطرق . وأرى ان الوسيلة الاولى هي أقرب الى النجاح من الثانية . ويجب أن نبدأ جهودنا بتوجيه آراء الجمهور وبيان الغرض من انجاب الاطفال وفائدتهم للمجتمع . فبينما نجد للطفل قيمة مادية للوالدين في الجماعات الزراعية نرى أهل المدن ينظرون الى الاطفال كأنهم عالة على الوالدين حتى تخرجهم من المدارس اي حوالى سن الرابعة عشرة . واهل الطبقات الراقية لا ينجبون من الاطفال الا العدد الذي في قدرتهم تربيتهم تربية حسنة . والمشكلة التي يلزم حلها الآن هي كيفية اقناع الفلاحين بأن الاكثار من الاطفال ليس من الامور المستحسنة دائماً . وهناك عدة وسائل نذكر بعضها فيما يلي :

﴿ رفع المستوى الاجتماعي ﴾ وأول خطوة في سبيل تحقيق غرضنا هو ان نعمل على رفع مستوى الحياة الاجتماعية بشتى الوسائل فيؤدي ذلك الى الاقلال من الخصب الجنسي فقد لوحظ منذ اقدم العصور انهُ كلما ارتقى الانسان في سلم التقدم الاجتماعي وتوافرت له اسباب الراحة والرفاهة قلت قابليته للتناسل . وهذه الحقيقة تنطبق على عصرنا الحالي ايضاً كما تدل الاحصاءات الدقيقة . ففي انجلترا والسويد وفرنسا وألمانيا وأميركا نجد التناسل في تدهور تام

ومما يدعو الى الاستغراب ان الاسباب البيولوجية لقلة التناسل المقترنة بالرقي الاجتماعي لم تتضح بعد . فمن الملاحظ ان التناسل ضعيف بين القبائل المتوحشة والطبقات المتعلمة في الامم الراقية وقد يكون من اسباب ضعف التناسل بين المتوحشين ما يحيونه من حياة خشنة جافة وكفاح مستمر . وما يعانونه من العادات والخرافات التي تؤثر في خصب الافراد الجنسي

اما الطبقات المستنيرة في الامم المتمدينة فقد يعود ضعف التناسل بينها الى اسباب نفسية ومؤثرات اجتماعية كالمثل العليا ومطالب المدنية وغير ذلك مما يضعف الشهوة الجنسية بين الافراد بينما نجد ان اللذة الجنسية هي اهم وسيلة للترفيه عن العواطف بين طبقات الفلاحين . وفضلاً عن

ذلك فانهُ من المشاهد ان الوالدين من الطبقات الراقية يجدون في تربية اطفالهم لذة عظيمة تصرفهم عن الرغبة في الاكثار من التناسل . بينما ابناء الفقراء تكثر الامراض بينهم ويكونون معرضين للفناء اكثر من غيرهم ولذلك نرى الوالدين يريدون الاكثار من الاولاد حتى لا تنقرض ذريتهم بسهولة . ولنوضح هذه النظرية بالارقام الحسابية نقول انه اذا عاش طفل حتى سن البلوغ — أي العشرين — فانه يتيح لوالديه سعادة اكثر من اربعة أطفال يعيش كل منهم خمسة اعوام فقط مع ان مجموع سني حياتهم تعادل عشرين عاماً . هذا بينما لا تعاني الام في الحالة الاولى سوى مرة واحدة آلام الولادة

وعلى ضوء الحقائق المتقدمة نجد انهُ يلزم تغذية المشاعر السامية في الفلاحين ورفع مستوى معيشتهم وتنظيم أوقات فراغهم وتهيئة وسائل اللهو والتسلية بينهم . وقد روت احدى المجلات الانكليزية ان العلماء الايطاليين اكتشفوا أن للضوء تأثيراً في الخصب الجنسي . فالنور القوي يضعف من ميل الناس الى التناسل ولا شك ان انارة الريف بالضوء الكهربائي سيكون له تأثير في تحديد التناسل بين الفلاحين . ولا سيما اذا وجدوا ما يملأون به اوقات فراغهم من الملاهي ودور السينما والاندية الرياضية وغير ذلك من وسائل التسلية الصحية . ولا يجب ان ننسى تأثير تعليم المرأة في هذا المجال وقد قال لي احد الرجال البارزين في مصر منذ عهد قريب « علموا الفتيات المصريات فتكفل لكم تحديد النسل »

﴿ تحديد التناسل ﴾ والخطوة الثانية لتحقيق برنامجنا هو انشاء مستشفيات لارشاد الجمهور الى وسائل منع الحمل حتى يتسنى للانسان ان ينظم حياته بحيث يأتي بالاطفال حين يشاء وليس كيفما شاء القدر . وكذلك يمكن لتلك المستشفيات علاج النسوة العاقرات . وقد جاء في تقرير وضعتهُ الدكتورة ماري ستوبس الانكليزية ان ٣ر٣ ٪ من النساء اللاتي عالجتهنّ كنَّ يطلبنَ علاجاً لعقرهنَّ . وبعض النساء يلتجئن الى اجراء عملية ابدال المبيض او التلقيح الصناعي طلباً للحمل

واذا كان هناك من يعارض في السماح باستعمال وسائل منع الحمل فاننا نوجه نظره الى ما نراه في أوربا وأميركا من اعتراف الناس بمسألة منع الحمل بعد ان عارضوها ٧٥ عاماً . وقد اعترفت بعض محاكم الولايات المتحدة بجواز منع الحمل . وكثير من الهيئات الدينية والعلمية عدلت عن محاربة ممارسة هذه العادة. وقد دلت الاحصاءات على ان عدد مستشفيات منع الحمل في الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ بلغت ٢٠٠ مستشفى

﴿ سن القوانين ﴾ الخطوة الثالثة في برنامجنا هي سن القوانين تدريجيًا لمنع توالد غير الصالحين من الاشخاص ورفع سن الزواج وغير ذلك من الأمور الاجتماعية . فان الأشخاص غير الصالحين هم عالة على المجتمع . وقد صرَّح أحد علماء الاسلام ان تعقيم ذوي العاهات

والأمراض الوراثية لا يتفق مع التعاليم الاسلامية . وهناك مشروعات اجتماعية يساعد تنفيذها على تحديد التناسل . منها : —

١ — تنفيذ قوانين التعليم الالزامي حتى لا يسمح للوالدين باستخدام أولادهم في أعمالهم خمسة أعوام او اكثر . ويجب ألاَّ نعلم مجاناً سوى أول ثلاثة من الاطفال . ثم تفرض ضريبة صغيرة على من يأتي بعد ذلك من الاطفال حتى يكون ذلك بمنزلة انذار الوالدين لكي لا يتمادوا في التوالد

٢ — كذلك يمكن انشاء مراكز مجانية لرعاية الطفل على شرط ان تدفع كل أسرة يزيد عدد اطفالها على الثلاثة مبلغاً زهيداً

٣ — تعديل قانون القرعة العسكرية بحيث يعفى الابن البكر من الجندية . ويؤخذ الابن الثاني فترة قصيرة ولكن يقضي من يأتي بعد ذلك المدة كاملة . وحبذا الحال لو منح الوالدين شيء من المكافأة كمنح النياشين إذا كان الولد المجنَّد سليماً من الأمراض

اما من ناحية رفع سن الزواج فيجب اولاً ان نبحث عن الفترة التي تكون فيها المرأة خصبة . تمتد هذه الفترة في مصر من سن الثانية عشرة الى سن الخمسين اي ما يقرب من ٣٨ عاماً . وقد اتضح أن المرأة تكون أشد خصوبة في شبابها أي ما بين سن العشرين والخامسة والعشرين . هذا ومن الملاحظ ان الغريزة الجنسية تكون على اشدها في السنين الاولى . وعلى ذلك اذا تزوجت المرأة في سن صغيرة فان عدد احتمالات الحمل يكون اكبر . وكلما تقدمت في السن نقص ذلك . ومما يستحق الذكر في هذا المقام ما قالهُ احد المحاضرين في قاعة يورت بالجامعة الاميركية من ان سن الواحدة والعشرين يجب ان تكون ادنى سن للزواج . ولو تحقق ذلك لنقصت نسبة المواليد عشرة في الالف على الاقل . واحد عيوب تأجيل الزواج التي يجب تلافيها هو زيادة انتشار البغاء . ولعله يمكن مقاومة ذلك بجعل الشهادة الصحية من شروط السماح بالزواج . وكثير من الحكومات تطالب العريس والعروس بشهادة تبرهن على خلوهما من الامراض المعدية . ولعل اتباع مثل هذه النظم يؤثر في سوق الزواج تأثيراً حسناً جداً

﴿ كيف تنفذ البرنامج ﴾ كيف يمكننا تنفيذ البرنامج المتقدم ؟ ذكرت قبل الآن ان جميع المسائل يجب ان تعالج في آن واحد بقدر الامكان . فمن اي نقطة نبدأ عملنا . وأول ما نرمي اليه هو انقاص عدد السكان من ١٦ مليوناً الى ١٢ مليوناً . مع المحافظة على هذا العدد في الجيل القادم حتى نحقق ما نرمي اليه من رفع مستوى المعيشة . وكان مما ذكرتهُ فيما تقدم انهُ يمكن انقاص عدد السكان حالاً بواسطة المهاجرة . وعلى هذا يمكننا تحريك الآلة السياسية في هذا الاتجاه . وإن هذا العمل وحده يتطلب جهداً كبيراً من رجال السياسة

وبعد ذلك نوجه اهتمامنا الى الوسائل غير المباشرة لتخفيض السكان . أي مشروعات التعليم والصحة وتوفير وسائل التسلية وغير ذلك مما يخلق في النفوس الطموح نحو حياة راقية . ويساعد

على نشر عادة تحديد النسل ، وقد يستغرق تحقيق هذا البرنامج نحو ٣٠ عاماً

هنا قد نتساءل هل تقبل الجماهير ان تعمل لتحديد النسل . لا شك ان هناك شعوراً قوياً ضد ذلك وهو قائم في الغالب على اعتبارات دينية . وقد لا يبدو هذا عجيباً اذا علمنا ان في الولايات المتحدة نفسها نحو ١٥ ولاية لاتعترف بشرعية تحديد النسل . والطوائف الكاثوليكية أعلنت عداءها لتحديد النسل

ولكن لا يوجد في مصر طوائف دينية اخرى تعارض هذه العادة . وفضلاً عن ذلك فقد اصدر المفتي الاكبر منذ عامين فتوى يصرح فيها بممارسة الاجهاض قبل انقضاء الشهر الرابع من الحمل وقد نالت هذه الفتوى موافقة تامة من فضيلة شيخ الأزهر وغيره من علماء الدين . وكان صوت المعارضين ضعيفاً لا يستند الى المراجع الدينية واصول الشريعة . وما زال عدد كبير من رجال الدين والاطباء من المسلمين يقاومون ممارسة تحديد النسل . ومع ذلك فقد ظهرت في العام الماضي جماعة تدعى « جماعة العائلة السعيدة » السواد الاعظم من اعضائها من رجال الطبقة الراقية المسلمين . وغرضها انشاء عيادة لتعليم اصول منع الحمل . ومع أن موقف افراد الجمهور غير معروف تماماً غير اننا نعلم ان هناك كثيراً من الوسائل البلدية لمنع الحمل تمارس سراً وان الاجهاض كذلك تلجأ اليه بعض النسوة مع ما في ذلك من الخطر . وليس من المعقول أن تزداد الحالة سوءاً بمجرد نقل حق الارشاد من ايدي الدجالين الى ايدي الاطباء والعمال الاجتماعيين . غير أن هناك اعتراضات أخرى على تحديد النسل . وهي :

١ — ان منع الحمل قد يؤدي بالجنس الى الانتحار والفناء في نهاية الامر . وان الفساد قد ينتشر بين الشبان غير المتزوجين . وجواباً على ذلك أشير الى ما يشاهد في هولندا وفرنسا . ففي هولاندا مع انتشار وسائل منع الحمل نجد نسبة المواليد فيها بلغت في عام (١٩٣٤) ٢ر٢٠ في الالف بينما هذه النسبة كانت في فرنسا ٢ر١٥ ومع ان القوانين المدنية والتعاليم الدينية في فرنسا تحرم منع الحمل غير أن السواد الاعظم من الناس يمارسون ذلك سراً مما أدى الى تدهور عدد المواليد تدهوراً عظيماً . والفرق بين هولندا وفرنسا ان الهولانديين يمارسون منع الحمل على اسس علمية وتحت ارشاد الاطباء بينما التجاء الناس في فرنسا الى ممارسة منع الحمل في الخفاء وبوسائل غير علمية فيتعرض افراد المجتمع لاخطار صحية ونفسية واجتماعية . وقد ثبتت الآن الفائدة من فهم المبادىء الجنسية بعد ان كان الناس فيما مضى يعارضون في تعليمها في المدارس

٢ — ان منع الحمل يتعارض مع تحسين النسل . وان الطبقات الراقية لايمكن الاعتماد عليها للمحافظة على عدد السكان من التدهور . والواقع أن الأمر على نقيض ذلك . فان افراد الطبقات الراقية ينقص عددهم حقاً لممارستهم طرق تحديد النسل بالرغم من تحريم القانون

وممانعة تعاليم الدين. ولكن يجب ألاّ نتذرع بهذه الحجة لكي نحرم الطبقات الفقيرة من ارشادات منع الحمل ونترك لهم الحبل على الغارب يثقلون كاهل البلاد بالافراد الغير صالحين للمجتمع

٣ — إن نقص عدد السكان يؤدي الى نتائج اقتصادية سيئة ويضعف الأسواق التجارية. إذ ان هناك زعماً بأن ازدياد عدد السكان يؤدي الى رواج التجارة. وقد يكون هذا القول صادقاً عند بعض الامم لكنهُ لا ينطبق على حالة مصر حيث مصادر الثروة لا تدع مجالاً لتوسع الاسواق لازدحام السكان ازدحاماً لا يتفق مع موارد البلاد المحدودة. ومن المبادىء الاقتصادية البديهية ان البلد الذي لا تكفي مواردهُ سوى حاجة الافراد الضرورية جدًّا فان منتجات الصناعات الحديثة لا تجد لها مجالاً الانتشار في ذلك البلد

وفي الختام نرجو ان نوجّه الانظار الى ان البرنامج الذي أوضحناه في هذا المقال يرمي الى بيان النقط الرئيسية لمشروع تنظيم السكان. وهو في حاجة الى دراسة عميقة وبحث دقيق قبل الاقدام على تنفيذه. ويحسن بنا قبل القيام بتطبيقه نهائيًّا على القطر المصري أن نجرب تأثيره في دائرة صغيرة من المجتمع لا يزيد عدد سكانها على ١٠٫٠٠٠ نسمة ولا تزيد مساحتها على خمس قرى حتى نتحاشى الوقوع في خطأ فاحش ويتسنى لنا ادخال التعديلات اللازمة على البرنامج بسرعة وسهولة. ويمكن ان نطبق دقائق كل طور من اطوار المشروع على تلك الدائرة الصغيرة من المجتمع حتى لا يفضي أي خطإٍ من الأخطاء التي لا بد من وقوعها الى عواقب وخيمة

ويمكن تلخيص المشروع كما يأتي:

١ — يمكن تخفيف ضغط السكان بتشجيع الناس على المهاجرة. وبهذه الطريقة يمكن انقاص عدد السكان نحو ٤ ملايين نسمة. وقد لا تقبل البلدان التي تفتح ابوابها للمهاجرين اكثر من هذا العدد ٢ — يجب العمل على تنمية الموارد الاهلية ٣ — يجب العمل على رفع مستوى المعيشة وتحسين الصحة العامة ٤ — يجب تشجيع مستوصفات منع الحمل والعمل على نشرها ٥ — يجب منع الاشخاص غير الأكفاء من التوالد حتى لا يُثقل كاهل المجتمع بضرورة اعالتهم ٦ — يجب رفع سن الزواج

باتباع الوسائل المتقدمة نرجو ان يتيسر تخفيض نسبة عدد المواليد الى نصف العدد الحالي فتصبح تلك النسبة ٢٢ في الالف من مجموع عدد السكان. وكذلك بتحسين الحالة الصحية يمكن تخفيض نسبة الوفيات ٣٠ ٪ من النسبة الحالية فتصبح نسبة الوفيات ٢١ في الالف من مجموع السكان فتصل البلاد الى حالة من الثبات والاستقرار من حيث عدد سكانها. هذا واذا تعرض الشعب الى خطر الانقراض من جراء تدهور عدد المواليد تدهوراً سريعاً فانهُ في وسعنا ان نستبدل الخطط التي اتبعناها بعكسها. وهكذا يمكننا رفع عدد السكان او تخفيضها بحسب مشيئتنا

جبال الجليد

ومخاطرها وكيف تتقى

البحر بين الجزائر البريطانية والطرف الشمالي الشرقي من اميركا يكاد يكون السكة السلطانية للسفن التجارية تجري فيه ذهاباً واياباً اكثر مما تجري في بحر آخر من بحار المسكونة مع انهُ اشدها خطراً تثور فيه الزوابع ويغطيه الضباب وتخطر فيه جبال الجليد . لكن التجارة والمكسب شحذا غرار العزائم وهيّا سنان المخاطر فبنى المهندسون سفناً كالمدن في سعتها والحديد في متانتها واستنبط العلماء آلات تنبيء بالخطر قبل الدنو منهُ

الضباب والزوابع مما الفناهُ واما جبال الجليد فلم يرَها من قراء المقتطف الا من اتفق لهُ ذلك وهو مسافر بين اوربا واميركا الشمالية ولذلك فالكلام عنها لا يخلو من فائدة ولا سيما بعد ما حفلت برقيات الصحف بأنبائها على ذكر رحلة الملك جورج السادس والملكة اليزابيت الى كندا

يتذكر قراء المقتطف ان في اواسط ابريل من سنة ١٩١٢ كانت سفينة كبيرة اسمها التيتانك ذاهبة من اوربا إلى اميركا فصدمها جبل من جبال الجليد وأغرقها وأغرق من ركابها وبحارتها اكثر من ١٥٠٠ نفس وكان بينهم الكاتب النحرير وليم ستد منشيء مجلة المجلات الانكليزية المعروف لدى قراء المقتطف بنصرته للحق على الباطل وتأييده العدل في وجه الظلم وبانهُ استاذ اللورد ملنر الذي وضع المالية المصرية على أساس متين

الى الشرق من الطرف الشمالي من اميركا الشمالية بلاد جبلية واسعة اسمها غرينلندا يغطيها الثلج على مدار السنة ويعلو عليها خمسة آلاف قدم فهذا الغطاء من الثلج يتلبد بعضهُ فوق بعض ويصير جليداً دائم الزحف في الاودية التي بين الجبال الى ان يصل الى البحر فيغور طرفهُ ولكنهُ اخف من الماء ولاسيما من ماء البحر فيحاول الماء رفعهُ الى ان تزيد قوة هذا الرفع على قوة تماسك الجليد بعضه ببعض فينقصف بصوت كالرعد القاصف ويموج به ماء البحر الى بعد شاسع ويكون منهُ جسم كبير من الجليد تسعة اعشاره غائصة في الماء والعشر الآخر عائم فوقهُ كالجبل الشامخ ويشرع يسير الهوينا من أول مارس الى اول يوليو غير هيّاب ولا وجل كأنهُ في نزهة

ولسان حاله يقول من الماء والى الماء . والغالب انهُ يذوب رويداً رويداً ولاسيما اذا لقيهُ مجرى الماء الحار المسمى مجرى الخليج لوروده من خليج المكسيك قرب خط الاستواء . واما اذا كان كبيراً جدًّا فقد يسير ١٨٠٠ ميل ويمرُّ في الطرق التي تجري فيها السفن بين اوربا واميركا

لما حدث ما حدث لسفينة تيتانك قام الناس في اوربا واميركا طالبين ان يراقَب البحر دواماً حيث تكون جبال الجليد وتنبَّهُ السفن لها فلا تتعرض للخطر . فعيَّنت وزارة البحرية الاميركية طرادين يراقبان البحر الى ان لا يبقى فيهِ جبل من جبال الجليد في طريق السفن

والتأم المؤتمر الدولي الذي يهتم بالمحافظة على الناس بحراً في مدينة لندن في الخريف التالي وحضرهُ مندوبون من جميع الدول البحرية السويد والمانيا وايطاليا وبريطانيا وبلجيكا والدنمارك وفرنسا وكندا والنرويج وهولندا والولايات المتحدة وقرَّر وجوب مراقبة البحر واناط ذلك بالولايات المتحدة فأرسلت سفينتين تراقبانهِ حيث تكون جبال الجليد في طريق السفن في الاشهر التي يحتمل ان تكون فيها هذه الجبال هناك وتعهدت كل دولة بأن تدفع نصيبها من النفقات على نسبة سفنها التجارية التي تمر بين اوربا واميركا . ومن ثمَّ لم تفقد سفينة منها بجبال الجليد

قال الكومندور زِسْلر Zeusler رسام هذه المراقبة انهُ عُيّن لها سفينتان اسم احداها «تمبا» واسم الثانية «مودُك» وعينتُ أنا رساماً بحريًّا (اوشيونوغراف) وعلى الرسام البحري أن يعرف موقع السفينة التي هو فيها في كل دقيقة من الزمان نهاراً وليلاً وان يراقب جبال الجليد ويعرف حركات جميع السفن الماخرة في البحر الى بعد ٤٠٠ ميل عنهُ من كل جهة بواسطة الراديو وان يرسل اخبار جبال الجليد التي يراها من السفينة التي هو فيها الى كل السفن ويعين موقعها تماماً واتجاهها في حركتها . ولا تنحصر مراقبتهُ في جبال الجليد بل يجب ان يراقب ايضاً ما في البحر من حطام السفن وان يخبر كل سفينة بمواقع غيرها ويراقب مجاري الرياح ويخبر السفن بها وان يجرب التجارب التي ينتظر منها فائدة . ومن التجارب التي جرَّبها تجربتان يراد بهما ازالة جبال الجليد من طريق السفن أو منع الاصطدام بها

وفيما يلي ملخص ما كتبهُ بضمير المتكلم قال : —

سرنا بالتمبا في ٢١ مارس من مرفإِ بوستن ووجهتنا غراند بنكس (الشفُر العظيمة حيث تمر جبال الجليد) . وطول التمبا ٢٤٠ قدماً وعرضها ٣٩ قدماً وكذلك اختها مودُك فهما صغيرتان جدًّا اذا قوبلتا بجبل من جبال الجليد طولهُ ٧٠٠ قدم وعرضهُ ٢٥٠ قدماً وارتفاعهُ فوق الماء ٢٠٠ قدم والتمبا من اصغر السفن التي سارت في الاوقيانوس الشمالي وراء البنكس لكنها من امتن السفن على مقاومة الزوابع والتيارات التي يمتاز بها ذلك البحر وهي تجري بالكهربائية وقلما تمود وفيها ٨٤ من البحارة ومدفعان كبيران ومدفعان صغيران وآلات للراديو نستطيع

ان نتكلم بها مع سفن جميع الامم على اختلاف اساليبها . واليك بعض المسائل التي كانت تصل الينا من السفن السائرة في عرض الاوقيانوس

— اين ابعد جبل جليد جنوباً

— إلى الشمال الشرقي منا شيء من جبال الجليد

— أنوجد جبال جليد تحت الدرجة ٤٧ من العرض الشمالي

— نحن في ضباب كثيف عند الدرجة ٤٧ والدقيقة ١٠ من العرض (الشمالي) والطول ٤٩ درجة و ٣٥ دقيقة فما هي افضل جهة نتجه فيها لكي لا نلاقي جبال الجليد

— ما هي آخر الاخبار عن الطقس والجليد

وكان عليَّ ان انهض عند الفجر قبلما تغيب النجوم حتى اتحقق موقعنا منها . وعند الساعة السادسة يجب ان نذيع بالراديو ما نعلمهُ من مواقع جبال الجليد والضباب والطقس حتى يصل الى جميع السفن الماخرة في ذلك الوقت فنقول مثلاً « ان سفينتنا على مقربة من جبلين من جبال الجليد في عرض ٣٠ َ ٤٢ ْ وطول ٣٠ َ ٤٨ ْ وهما يسيران نصف ميل بحري في الساعة باتجاه ١٨٠ درجة والبحر رهو والضباب كثير » . ثم نبين مواقع جبال اخرى من جبال الجليد . فتعلم السفن ممَّا نذيعهُ من الاخبار ما نجدهُ في طريقها

وفي الساعة السابعة نتناول طعام الصباح . وفي الثامنة نتناول الاخبار بالراديو من اماكن المراقبة المختلفة ومن السفن الماخرة في البحر فالاولى تخبرنا بما تراهُ وتعلمهُ والثانية تخبرنا ايضاً بمواقعها واتجاهها وسرعتها وبما تراهُ من احوال الطقس وحرارة الماء وما يبلغها من اخبار جبال الجليد فنعيّن نحن مواقعها على الخرائط ونحسب ما يحتمل ان تلاقيهُ في طريقها من المخاطر ونخبرها بهِ . ومعرفة حرارة الماء ضرورية جدًّا لانهُ اذا جاءتنا اخبارها من اماكن كثيرة استطعنا ان نعيّن مواقع جبال الجليد بالضبط

وهناك حد يلتقي فيهِ مجريان من ماء الاوقيانوس الواحد حار وهو مجرى الخليج الآتي من خليج المكسيك والآخر بارد وهو آتٍ من الشمال من جهات لبرادور . ولون الماء الى الشمال من هذا الحد اخضر زيتوني والى الجنوب منهُ أزرق نيلي واللون الاول ناتج عن نوع من الحيوانات الميكروسكوبية التي في الماء . وقد يكون مقدم سفينتنا في الجانب الاخضر وحرارة الماء هناك ٤٠ درجة فارنهيت ومؤخرها في الجانب الازرق وحرارة الماء هناك ٦٠ درجة فارنهيت وعلى نصف ميل منا شمالاً جبل من الجليد وهو الذي برَّد ماء البحر

رأينا في الظهيرة جبلاً من الجليد لم نكن قد رأيناهُ قبلاً فدنونا منهُ وصورناهُ من ناحيتين وقسناهُ هندسيًّا لنعرف طولهُ وعرضهُ وعلوهُ فوق الماء وقسنا درجة الحرارة عند سطح الماء

وعلى خمسة اعماق مختلفة وأخذنا جانباً من الماء لمعرفة مقدار ملوحتهِ ونحن نستدل من هذه المعلومات على الجهة التي يسير هذا الجبل اليها وسرعة سيره ثم نذيع ذلك بالراديو لتعرفهُ كل السفن الماخرة في الأوقيانوس . وكنا في حاجة الى جانب من الثلج لتبريد طعامنا فأمر القبطان ان يذهب بعض الرجال بقارب الى هذا الجبل ويأتونا بقليل من ثلجهِ فذهبوا ولما دنوا منهُ سمعوا أزيزاً كأزيز ماء يغلي سببهُ ان قطعاً صغيرة من الثلج كانت تنفصل منهُ وتذوب في الماء فيسمع لذوبانها هذا الأزيز دلالة على ان الجبل مكون من ثلج ملتحم بعضهُ ببعض ولو سمي جليداً

وفي المساء أوقفنا الآلات ونحن على مشهد من هذا الجبل وأرسلنا أخبارنا بالراديو الى السفن الكبيرة التي فيها آلات راديو حديثة ثم الى السفن التي فيها آلات راديو قديمة وأخبرناها كلها باحوال الطقس فيما يجاورنا وأوصلنا هذه الاخبار براً الى مدينة وشنطون. وأخبار الطقس مهمة تستفيد منها أميركا وأوربا لاننا نحن الوحيدون الذين يخبرون عن تقلباتها في أواسط الأوقيانوس اذا استثنينا سفينة الطقس الفرنسية جاك كارتييه ومقامها في الغالب على ٣٨° درجة من العرض الشمالي و٥٧° درجة من الطول الغربي

لقد سافر ألوف من الاميركيين الى أوربا في الربيع الماضي وقلَّ من عرف منهم مقدار التدابير التي اتخذت لسلامتهم ولو بحثوا لوجدوا في غرف الراديو في السفن التي سافروا فيها انباء متوالية ترد اليها من سفينتينا التمبا والمودك تخبرها عن مواقع الضباب وجبال الجليد. ولوجدوا أيضاً ان أخبار السفن التي هم كانوا فيها تصل الينا فنعلم منها هل هي سائرة في سبيل سليم او في سبيل معرَّض للخطر فنرشدها الى ما يضمن لها السلامة

ورأينا سفينة فرنسية من سفن الصيد وقد رفعت على ساريتها الحرفين RZ ومعناهما « في أي موقف نحن » . لان السفينة كانت قد سارت في زوبعة وضباب حجب الشمس عنها فتعذرت عليها معرفة الموقف الذي هي فيهِ فدنونا منها وأريناها ورقة كبيرة عليها درجات الطول والعرض فأنزلت الحرفين RZ ورفعت بدلاً منها الحروف الثلاثة XOR أي « مع الشكر »

وفي اليوم التالي لقينا اثنتي عشرة سفينة شراعية فرنسية مجتمعة معاً تتقلب في بحر هائج شديد الامواج فأنزلنا قارباً ودنونا منها فطار نوتيتها فرحاً لما رأونا وعرفوا سفينتنا وكلفونا ارسال اخبارهم بالراديو الى عائلاتهم في بريتاني . وطلب أصحاب سفينة منها ان نقايضهم سمكاً بتبغ وشكولاتا ولحم فلبينا طلبهم. وكان في سفينة أخرى مدفع مكسور من مدافع الضباب تهتدي قواربها باطلاقه اذا خيف ضلالها فأتى بهِ الى سفينتنا ثلاثة من رجالها فاصلحناه لهم وأطعمناهم معنا طعاماً حرموهُ منذ ثلاثة اشهر لحماً وبيضاً وبطاطساً وكرنباً فعادوا شاكرين حامدين ووعدوا ان يصلوا لاجلنا . وكان في سفينة أخرى من هذه السفن رجل كسرت ذراعهُ ورجال



فصل ثان من نشأتي الادبية

الشعر والثقافة

—

لعبد الرحمن شكري

قد أوضحت في المقال الاول مصادر الثقافة التي تأثرتها في الجزء الاول من ديواني من عربية واوربية والاحوال التي جعلتني أتأثرها وأوضحت اثر احتذائي بشار بن برد والحسن ابن هاني ومسلم بن الوليد والعباس بن الاحنف وابا تمام وابن المعتز والشريف الرضي والمعري وغيرهم ولم اذكر المتنبي في المقالة ولو ان اثره كان كبيراً من الناحية الفكرية لا من ناحية الاسلوب لأن الذين يُفَضّلون في اتباع احتذاء الاساليب والصنعة البيانية هم الذين ذكرتهم قبل وذكرت شواهد هذا الاحتذاء والتأثر ومهما تكن عيوب الاحتذاء فانهُ افادني ومنعني عند اطلاعي على الشعر الاوربي من الاندفاع وراء الاوهام والمغالاة والتجارب العقيمة ولا سيما ان هذا الاطلاع وهـذا الاحتذاء للشعر العباسي العالي في كتاب الوسيلة الادبية وغيره من الكتب كانا في سن مبكرة جداً وابتدأا من السنة الاولى الابتدائية وكانت وقتئذٍ تعادل في السن والمعارف السنة الثالثة الآن وربما كان من الفائدة اني تأثرت بشعر التنميق والصنعة العباسية قبل ان أتأثر بشعر العاطفة العذري الذي هو أقدم منهُ زمناً ولو ان الصنعة العباسية في بعضها عبث في العاطفة ولم أتأثر بشعر الشعراء العذريين من شعراء العرب الأ بعد عودتي من انكلترة في الجزء الثالث وما بعده . ولعل اطلاعي على نسيب كتاب (الذخيرة الذهبية) في الشعر الانكليزي ونسيب بيرون وشلي قلل من مغالاتي في عبث نسيب الصنعة العباسية واكسبني شيئاً من العاطفة الفنية وكنت في ذلك الوقت لا استطيع أن أنقد بيرون ولا أن أفهم عيوبه ولا ان اعرف ان النفوس التي يصفها متقاربة محدودة الصفات عقيمة في بعض اعمالها وأحاسيسها وانما راقني منهُ ما رأيته من قوة شعره واندفاعه اندفاع السيل الأتيّ وثورته على الاكاذيب.

وقد علمني بيرون نشدان الحرية وان كنت لا أنتصر لها على طريقة السياسي وانما على طريقة الفنان كما في قصيدة (الحرية) و (العصر الذهبي) وغيرها وقد كنت احب شلي ايضاً

ولم اكن استطيع ان انقده في ذلك الوقت وان افهم ان خياله في بعض الاحايين يحلق في السحاب بعيداً عن حقائق الحياة ولا ان تعصبهُ ضد الاديان مما أخلّ باتزانهِ الفني وانما كان يعجبني منهُ طموحه الى المُثُل العليا وحبهُ الحرية وكرههُ النفاق وكانت تعجبني بعض تشبيهاته الرائعة السائغة في كل لغة ونسيبه الرقيق الذي لم يثقله بالخيال المتكاثف كما كان يفعل أحياناً وقد بقي معي من الثقافة الشعرية الاوربية اثر بيرون وشلي حتى بعد عرفاني حدود ونقائص شعرهما . ولعل أعظم مورد لثقافتي الاوربية كان سفري في البعثة العلمية الى انكلترة سنة ١٩٠٩ وهذا المورد كثير الجداول والعيون فمنهُ الثقافة التي ادى اليها اختلاف مظاهر الطبيعة في انكلترة عنها في مصر والثقافة التي دعت اليها دراستي جوبتي الحكيم الالماني ودراستي المعجبين بهِ امثال كارليل وامرسون والثقافة التي كنت أدرسها في جامعة شفيلد في التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسي وعلم السياسة والنظريات السياسية ونُظُم الحكم والثقافة التي سهّلها وجودي في انكلترة وهي ثقافة دراسة الشعراء الذين كانوا في ذلك الوقت يعتبرون الشعراء الحديثي العهد مثل سوينبورن وروزيتي واوسكار وايلد وغيرهم وامثالهم ممن ترجم بعض شعرهم الى الانكليزية امثال بودلير والثقافة التي مكنني منها علمي بطبعات مختلفة في انكلترة لمصادر الثقافة المختلفة وسهولة الحصول على كتب منها اما بالشراء واما بالأستعارة من المكتبات مثل طبعة بوهن وكان بها جميع مؤلفات جوبتي مترجمة الى الانكليزية ومؤلفات هيني الشاعر الالماني الناسب الساخر وغيره من ادباء الالمان وفلاسفتهم امثال شوبنهور وكان بها اكثر كتب الأدب والفلسفة الاغريقية القديمة مترجمة ومثل طبعة فريمان وهي معروفة افادت كثيراً من المطلعين وبها مصادر متعددة للثقافة الانكليزية وثقافات اللغات الأُخرى منقولة الى الانكليزية ولا سيما اكابر شعراء الاغريق القدماء ومنها طبعة كانتربوري وكانت بها مجموعة صالحة من شعر شعراء الانكليز والامم المختلفة مترجمة ايضاً وطبعة سكوت وكانت ايضاً من أكثر الطبقات تنوعاً وطبعة روتلدج على اختلاف اقسامها وطبعة لين التي بها جميع مؤلفات اناتول فرانس مترجمة الى الانكليزية وطبعات اخرى عديدة لا داعي لحصرها وهذه الطبعات قلما كنا نعثر بمؤلفات كثيرة منها في ذلك العهد في مصر واذا عثرنا فلم نعثر بالكثرة التي وجدناها في انكلترا وبالاثمان الرخيصة التي كانت سائدة في ذلك الوقت وهذه الثقافات كلها لم تُنسني الأدب العربي والثقافة العربية لاني اخذت كتبي معي وكنت ادمن قراءتها : (١) فأما الثقافة الاولى وهي ثقافة تعدد مناظر الطبيعة وتنوعها في انكلترا فقد كان لها أثر عظيم في نفسي حتى في اثناء سفري الى مستقر اقامتي وأنا انظر من نافذة القطار ولا ازال اذكر ملاحظتي لاختلاف تلك المناظر التي رأيتها من نافذة القطار عن المناظر التي كنت أراها من نافذة القطار في مصر . ففي مصر نرى الارض سهلاً كأنما

صنعها مهندس بالمسطرة على ورقة وعلى مستوى واحد وفي انكلترا ترى القطعة الصغيرة من الارض تتفاوت في الارتفاع والمظهر تفاوتاً عجيباً وقد بقي أثر تعدد مناظر الطبيعة في نفسي حتى بعد عودتي من انكلترا وفي انكلترا رأيت الوديان الصغيرة التي تحوطها الجبال ورأيت التلال والجبال مكسوة بالاشجار ومغطاة بالجليد او بدقيق الثلج شتاء ورأيت بقايا الغابات الكبيرة القديمة ولهذه البقايا أثر في النفس لا يقل عن أثر الغابات الكبيرة القديمة ورأيت المياه المنحدرة من تلال وكان أثرها في النفس لا يقل عن أثر المساقط المائية العالمية الكبيرة لدى من كان صاحب خيال واحساس ورأيت دقيق الثلج يكسو الشوارع والبيوت ويجعل النهار المشمس كالليل المقمر فزاد معنى قول ابي تمام وضوحاً في نفسي وان كان ابو تمام يشير الى الزهر لا الى دقيق الثلج وهو قوله

تريا نهاراً مشمساً قد زانهُ ... نور الربى فكأنما هو مقمر

وقد زادتني مشاهدة تلك المناظر المتعددة قدرة على الوصف حتى على وصف المناظر غير الانكليزية سواء في ذلك الشعر الذي كتبته في انكلترا او بعد عودتي فنظمت قصيدة في وصف الغابة ومظاهرها وأصواتها المختلفة وأثرها في النفس واقتداء بناة الكنائس الكبيرة (الكاتيدرائية) في القرون الوسطى بمناظرها في فن بناء الاعمدة والسقف على نمط البناء القوطي المعروف وقارنت بين حياة الناس فيها قديماً وبين حياتهم في المدن الكبيرة الحديثة وبقاء أثر شريعة الغابة في النفوس ومنها :

لبث الناس فيكِ دهراً فناجا ... همْ سرار الفنون بالايحاء
حين شادوا للدين بيعة ايما ... نٍ تبدت كالغابة اللفاء
وارتضيتِ الامانَ من بعدذعرٍ ... لم يزل في (المدينة) الشماء[1]
غابةٌ شادها ابن آدم نزلاً ... دوحُها من قصورها الزهراء
ومخوفٍ من الفُجاءة فيها ... كمخوفٍ في الغابة القناء
واحتيال ليقتنص الرزق والصيد سواء في مكرة كسواء
وأفاعٍ في دورها وقرود ... ووحوش من ناسها بالعراء
فكأن الاقوام لم يخرجوا منـك ولا زال عهدك المتنائي
سُنَّةٌ قد سننتِها في نفوس ... إن دعتها كانت جواب النداء

ووصفت المسقط المائي في قصيدة (الشلال) ومنها :

يا أخا الصمت في الجلالة والرو ... ع وصنو النكباء والهوجاء

---

(١) ارتضيت الامان اي انها كانت آمنة معدة للنزهة واللهو

أحسب الخلدَ مثل مائك ينها ر وتفسي في مائه كالهباء
ليت ان الحياة مثلك تعدو لا ترَاخى مثل الجياد البطاء
ان للعيش كدرة تَذرُ النفس ركوداً كآسنٍ في نِهاء (١)
فأعنّي على الأواسن من نفسي بفيضٍ ينهار مثل البناء
ولعل الحياة كالماء تجري بين هذا الثرى وبين السماء
لك في النفس نشوة مثلما استشرفَ راء من شاهقات العلاء

وقد وصفت منظر دقيق الثلج الذي اذكرني قول ابي تمام في قصيدة الشتاء في انكلترة ومنها

نشر الضَّريبُ على البسيطة حلة بيضاء تمحو غبرة الغبراء
يسعى على وضَحِ النهار كأنما يسري الفتى في ليلة قمراء
فكأنَّ نور البدر ما حلَّى الثرى برواء تلك الحلة البيضاء
واذا استراح لِمُقمرٍ من لونه راء ترى الاحلامَ عينُ الرائي

الخ الخ ومنها في وصف المواقد في البيوت

واذا المواقد في البيوت تضاحكتْ من شدة الايقاد والإذكاء
خلتَ الربيعَ سعى اليك بحفله والنارَ زهرَ الجنة الفيحاء
يُذكي الوجوهَ لهيبها فكأنما جمران يشتعلان في الظلماء

وراعتني الاعاصير شتاء فقلت قصيدة الريح ومنها :

يا ريح هيجتِ قلباً شجوه واري كما تهيجين عود الغاب بالنار
يا ريح أي زئيرٍ فيك يُفزعني كما يروع زئير الفاتك الضاري
يا ريح اي أنينٍ حنَّ سامعه فهل بُليتِ بفقد الصحب والجار
يا ريح مالكِ بين الخلق موحشة مثل الغريب غريب الأهل والدار
أم أنت ثكلى أصاب الموت واحدها تظلُّ تبغي يد الاقدار بالثار

وهكذا تستمر القصيدة في وصف مظاهر الرياح من خير وشر وآثارها المختلفة في النفوس الى ان قلت :

يا ليت أنَّ جناحاً منك يُسعدني كيما اطير الى أفنان أشجار
فأنشد الشعر كالغرّيدِ في فننٍ وتحملين أغاريدي وأشعاري
يا ليت نفسيَ ريح لفح لافحها يُطهّرُ الكونَ من شرٍّ واشرار

(١) النهاء بكسر النون الغدران

الخ. فهل هذا التجديد قد اضرَّ بالاسلوب وقطع صلتنا بما تأثرناه في الجزء الاول من الصناعة كما اثبتنا في المقالة السابقة ؟ وحملني ركوب البحر في تلك السفرة على قول قصائد في وصف البحر ومظاهره المختلفة وما يثير في النفس من خواطر وأحاسيس فمنها

ألا ليتني لجٌّ كلجّكَ زاخر ... أعبُّ كما تهوى النهى والبصائر
فكم عبث النفس اللجوج وحاولت ... كبعض سطاك الآبيات النوافر (١)
وأخفت من الدرّ النفوس ومن حلى ... كما اختبأت فيك اللهى والذخائر
كأنَّ بها أفقاً كأفقك نائياً ... ومن دونه كل المَدَى يتقاصر
أنطرب من لحن الخرير كأنهُ ... خواطر تتـــلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته ... فجاشت لديك الراقصات الزواخر
والاً فما للموج في البحر راقصاً ... دعاهُ عَذَارى البحر شادٍ وشاعر

ومنها:— فبينا يريق الضوء فوقك ماءهُ ... وتجري عليك الريح وهي خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم ... يُرَجّعهُ لحن من الماء مائر
ويُسْمِعُك الملاّح من شجو قلبه ... احاديث قد تاقت لهنَّ الحرائر
اذ الجوُّ جهم والرياح كتائب ... وإذ أنت مقبوح السريرة غادر

وهي قصائد كثيرة المعاني والنواحي وقد راقني ايضاً في تلك السفرة تنوع الفصول واختلافها ومباهج مظاهرها فنظمت قصيدة سميتها اولاً الصيف ثم سميتها الفصول لانها تصف الفصول كلها وهي طويلة وفيها اوصاف متنوعة للارض والسماء والازهار وأحاسيس الانسان في الفصول المختلفة ومنها في وصف الربيع :

اهواكِ يا روح الربيع فهيئي ... جسماً كجسم الغيدِ في لألائهِ (٢)
ثم ارقصي بين الخمائل في الضحى ... رقصَ المدلّ بحسنه وبهائه
فلعل في قبلات ثغرك برء ما ... أعيا الانام بحكمهِ وقضائهِ
أردُ الخلود بضمةٍ وبقبـــلة ... تروي ظماء الحسن من آلائهِ

وراقتني الازهار وكانت في البلدة التي كانت مستقر دراستي حديقة خاصة بها ولـكن احسنها حدائق كيو التي قال فيها الفريد نويس انشودته العذبة السهلة وقد قلت قصائد في وصف الازهار منها في وصف الزهرة عابدة الشمس

(١) سطاك جمع سطوة كربوة وربى وأمثالها وهي كثيرة الورود في شعر الشعراء بالرغم من انكار بعض الافاضل لها (٢) هذا الوصف فيه التفات الى وصف ابي تمام والبحتري للربيع

تدرين نحو الشمس وجهاً كأنما ترين بوجه الشمس ما كتب الدهر
وصفراء من نسل المجوس كأنها تعالج امراً لا يعالجه الزهر
تهم الى وجه السماء كأنما لها في صميم الارض من جذرها أسر
كما يشرئب النسر هيض جناحه مقيم على الغبراء ألحاظه طير

وقد راقتني ابتسامات الوجوه في الحياة الاجتماعية التي كان يزينها الحسان من النساء في تلك الارض القاصية كما راقتني ابتسامات الزهور فقلت القصيدة التي منها

وميض ابتسامات يضيء جوانحي ويجلو ظلام الهم واليأس من صدري
اذا ابتسمت ضاء بعيني ابتسامها كما ضاء وجه البدر في صفحة البحر
يكاد يضيء الغيب في مستقره وميض ابتسام فعله صادق السحر
وأسمع في نفسي أغاريد جمة يهيج صداها في الجوانح والصدر
كأن بها من صادح الطير شادياً يغرد في روض من الحب والشعر
وإني لكالبذر الدفين ولحظها غذاء كلحظ الشمس للزهر والبذر الخ .

ولا يتسع المجال لذكر جميع قصائد الوصف التي حركت المناظر المختلفة الجديدة أحاسيسها في نفسي وهذه المناظر مع ذلك لها قيمة عالية لا محلية وقد اكتسبت شيئاً من الشغف بالوصف والقدرة عليه . فوصفت كثيراً من المناظر والآثار المصرية كما في قصيدة أبي الهول ومنها : —

كأنما في طي ألحاظه ذكرى لعهد الزمن الأول
كأنه في صمته حارس يحرس باب القدر المقفل
يا عجباً أبصرت ما قد مضى ونظرات منك لم تقتل
أبصرت أكل الدهر أبناءه ألم ترع من ذلك المأكل

الخ الخ وهذه القصيدة نشرت في المجلات وفي الديوان السادس قبل نشر قصيدة شوقي بك.
ومن الوصف أيضاً قصيدة هرم خوفو ومنها

فوقك أرواح عصور خلت كدينمة سوداء لم تحسم (١)
هدت يد الدهر مشيد البنى وهو اذا امك كالاجذم
يا علم الدنيا الذي قد غدا عجيبة الغائر والمتهم

(١) هذا فيه التفات الى قول نابليون لجنوده قبل معركة امبابة (ارواح العصور الماضية تطل عليكم من قمم الاهرام)

عَلَتْ بِكَ الارضُ كمن قد علا ... برأسِهِ الكِبْرُ فلم يُهْضَمِ
رفعتَ رأساً منك ما طاله ... رأسُ البناء الشامخ الاقوم
كأنما كل البنى سُجَّداً ... من هيبة للملك الاعظم
كم دولةٍ قد ضاع سلطانها ... ودولة الاهرام لم تهرم

الى ان قلت : —

والنفس تبغي ان ترى كُنْهها ... مجسماً في صنعها الاعظم

ومن قصائد الوصف قصيدة الصحراء وقد اتيحت لي فرص لرؤيتها في الفيوم وقنا وبها وصف مشاهدها المختلفة ومنها في وصف الصحو بعد السموم

وكم حار ركب من فجاءة صحوة ... كما راع مرأى الحسن والعري سالب
إذ الجو كالبلور اخلص لونه ... وصبَّ عليهِ من سنا الشمس ساكب
كذلك غبَّ الغيث ريمان بهجةٍ ... كأن طلاءً قطرهُ وهو صائب
تفجّرَ ينبوعٌ من النور غامر ... كما غمر الارضَ المياه السوارب
ضياء ترى المألوفَ من كل منظر ... بهِ فاذا المألوف منهُ الغرائب
وما فرحة الولهان عاد حبيبه ... بأصدق منهُ فرحةً وهو آيب

وقصيدة (ليلة حوراء) ومنها

رق الظـــلام بليلة ... حـــوراء كالطرف الكحيل
سحـر العيون كسحرها ... بين الشـواهد والشُكول

وآخرها : يا ليل بل يا سحـر بل ... يا حُلْمُ ليتك لا تزول

وقصيدة الجبل ومنها :

تَوَحَّدْتَ كالرهبان يارب راهب ... رأى عصمة الاطواد طهر السرائر
تُطِلُّ على السهل الفسيح كأنما ... تفكّرُ في عيش القرى والمعاشر
وانت بناء الله لم يبنِ مثله ... قدير ولم تعبث بهِ يد جائر
ومعتصم في معقل منك مانع ... كما اعتصم الملاَّح بين الجزائر
وأبناؤك الغرُّ الذين تعلموا ... بعز الحمى ان لا يدينوا لقاهر
فيا ملكاً بُرْدُ الجليد كساؤه ... ومن فوقهِ تاج النجوم الزواهر
تشاهد جيلاً بعـد جيل كأنما ... تمر بك الاجيال مرَّ العساكر الخ

وقصيدة (على بحر مويس شتاء) وقصيدة (نحو الفجر) ومنها : —

كأن النجوم الغانيات ترهبت ... تبيت طوال الليل تعبد في دير

اقلب طرفي بينها متفهماً — تفهم معنى اللفظ في صفحة السفر
كأن الدجى دير به البدر راهب — جليل المحيا حوله هالة الحبر
أيحلم هذا الدوح في سحر ضوئه — فقد خلته من هدأة النوم في أسر
ولما تقضى الليل وانجاب جنحه — رأيت صباحاً يصبغ النبت بالتبر

الخ الخ . وهي قصيدة غنية بالاوصاف وقصيدة (عيون الندى) ومنها :

عيون الندى كوني على الزهر انه — يطل على العشاق منك ويشرف
فليس عيون الغيد أشعلها الصبي — بأحسن في لألائها حين تعطف

الخ وقصيدة (سحر الربيع) ومنها :

أتعرف أنفاس النسيم المعطر — وبهجة ازهار الربيع المبكر

وابتداء القصيدة بالتساؤل والاستفهام الوجداني معروف وله أثر في الشعر العربي كقول الشاعر (أتعرف رسم الدار من ام معبد) وهذا مثل قول جوبتي في مطلع أنشودته العذبة في وصف محاسن ايطاليا (اتعرف الارض التي تنبت شجر الليمون) ومن أثر اكتساب القدرة على الوصف ايضاً قصيدة (يوم مطير) وقصيدة (الليل) وقصيدة (ابتسامات) وقصيدة (فجر الشباب) و (يقظة في الفجر) ولا داعي لاحصاء كل القصائد التي من هذا النوع فهي كثيرة

فالمصدر الاول للثقافة كان الحياة الجديدة ومشاهدها الاجتماعية والطبيعية والفنية فكم كنا نظل صامتين في الحدائق العامة بعد عزف الموسيقى ونحس ما وصفته في قصيدة (السكون بعد النغم) التي نشرت في المقتطف

(٢) اما المصدر الثاني للثقافة فكان دراستي جوبتي وقد نقلت مؤلفاته الى الانجليزية في طبعة بوهن واستدرجني الى دراسته اولاً مدح كارليل وامرسون له وثانياً وجود مؤلفاته في الطبعة التي اشترينا منها كتباً تاريخية للدراسة في الجامعة وقد اعجبني من جوبتي شغفه بالثقافة اكثر من اعجابي بمؤلفاته نفسها وان كان بعضها جليلاً ومن الكلمات المأثورة عنه (ادرس نفسك) وقد قالها قبله كثيرون فقالها اسكندر بوب في شعره ولكن جوبتي نظم هذه الدراسة وكان من مبادئه ان يحاول المرء ان يستفيد فائدة ثقافية من كل شيء وامر ومن كل انسان يقابله ومن كل مذهب فكري او مذهب في الاحساس حتى ما لا يلائم طبعه وهذا هو في الحقيقة مغزى قصته (ولهلم ما يستر) وهذا هو سبب اختلاف نواحي الثقافة في شعري ذلك الاختلاف الذي غر بعض الافاضل او مكن بعضهم من نقد قصائد في وصف بعض جوانب النفس كالبغض في قصيدة (الحب والبغض التي احتذيت فيها (جميل بن معمر)

[لها تتمة]

تحديد النسل

في الميزان

للدكتور شريف عسيران

لنستعرض الآن آراء المفكرين والباحثين في هذا الموضوع الحيوي لنميز غثه من سمينه توصلاً الى نتيجة عملية. يدّعي انصار تحديد النسل ان كثرة النسل سبب نزاع الامم واثارة الحروب وطلب التوسع ونشوء البطالة وهبوط مستوى المعيشة ونشر الأمراض بسبب الفقر وان قلته عامل في نشر لواء السلام وبث الطمأنينة في النفوس والتمتع بالعيش الرغيد والتخفيف عن كاهل الأم وجعلها أشدّ عناية باولادها وانهُ يمنع ظهور بعض الامراض الوراثية وغير ذلك . ويدّعي خصومه انهُ يؤول الى انقراض الامم وتدهور الاخلاق وان قلة النسل لا كثرتهُ منشأ البطالة وسبب النزاع وان التحديد يحرم الامة كثيراً من العباقرة والنوابغ الى غير ذلك

وسنأخذ بآراء الذين لا ينطقون عن الهوى بل عن روية وبحث : ان كار صوندرز الشهير يتفق مع غيره بتناقص نفوس البشر ويختلف معهم بالطرق المؤدية لتلافي هذا الخطر . ومن رأيه ان كثافة السكان الملائمة لا تتفق ومقدار الكثافة التي يتطلبها حملة لواء اصلاح النسل الذين راعوا نوع السكان دون عددهم وان النظر الى الوجهة السلبية دون الايجابية حمل الناس على الاستخفاف بحركة اصلاح النسل وعدها من النظريات الفلسفية بينما الناحية الايجابية اضمن لبلوغ الضالة المنشودة وهو لا يعني بذلك نشوء الانسان الاسمى بل زيادة عدد الاشخاص الذين ليسوا دون المعدل السوي اذ ثبت عنده من الاحصاآت الحديثة في السويد والمانيا وهولاندا أن الطبقات السفلى اخذت تحذو حذو العليا بتحديد النسل ومصيرها مصير الاخيرة من هذه الوجهة. فاذا استمرت الحالة على ماهي عليه الآن ازداد الطين بلة واصبح التناقص عامًّا فبدلاً من ان يكون النقص ثلاثين بالمائة يصير خمسين او اكثر فيجب ان يزداد عدد الاسر القليلة الخصب وينقص عدد الكثيرة وهو لا يرى ان فروق الذكاء التي بين الطبقات المهذبة وغير المهذبة تدعو الى الاهتمام لانها متقاربة ونجد فروقاً أكبر منها بين الطبقة الواحدة نفسها فلا يمكننا ان

ندعي ان الطبقات العليا اكثر ذكاء من الطبقات السفلى . والسبب في كثرة تناسل الطبقة الاخيرة ليس جهلها طرق تحديد النسل بل الصعوبات التي تكابدها تحملها على النفور منهُ . فهو يميل الى التوفيق بين زيادة النسل وتحديده . ويعتقد ان التحديد يغني من بهم امراض وراثية عن التعقيم الطبي اذ يلجأون الى طرق منع الحمل عوضاً عن التعقيم فيجب ان لا يكره الناس على التكثير او التحديد بل يترك الخيار للناس يتصرفون بحسب اقتناعهم لان الناس لا يضعون نصب اعينهم في زواجهم وتناسلهم حجم اسرتهم ولا تخطر ببال احدهم هذه الفكرة حين يقدم على الزواج فالاوفق ان تترك الناس احراراً في هذه الناحية (١)

اما كازونسكي فيذهب غير هذا المذهب ولا يعتقد ان كثرة السكان هي منشأ الحروب والبطالة والفقر بل يعتقد ان قلة السكان هي التي تولد الازمات الاقتصادية والبطالة والفقر وما ينشأ عنها من العواقب فكلما قل الناس قلت الحركات الصناعية اذ لا يوجد العدد الكافي لاستهلاك منتجات الصناعة ومتى قلت الحركات الصناعية قلت موارد البلاد فيؤدي ذلك الى البطالة والمزاحمة . والحقيقة ان البطالة ليست وليدة ازدحام السكان بل سببها سوء توزيع الثروة بسبب الحركة الصناعية التي خلقت الرأسماليين وحصرت الثروة في أفراد معينين فالبطالة منتشرة في اميركا اكثر منها في انكلترا مع ان كثافة السكان في الاولى ٥٠ شخصاً للميل المربع وفي الثانية ٧٠٠ وموارد اميركا الطبيعية اكثر من موارد انكلترا كثيراً . ومن رأي كازونسكي ان كثرة العدد تولد حركة اقتصادية تزيد موارد الامة وتؤول الى رفاهها ويضرب مثلاً بالمانيا التي وجدت خلال سنة ١٩١٥ زيادة بوفياتها وقلة بولاداتها سببها الحرب العامة فلم تعد الولادات تربي على الوفيات فمن الضروري ان تتناقص ازمة المساكن لأن عدد الولادات كان يزيد سابقاً عن الوفيات بثمانمائة الف سنويًّا . ويصيب كلَّ اربعة اشخاص بحسب هذا المعدل بيت واحد فيجب ان يبنى كل سنة مقدار مائتي الف بيت لاستيعاب المواليد الجدد . ولكن فاتهم ان ليس الصغار هم الذين يولدون ازمة البيوت بل الكبار هم الذين يخلقون هذه الازمة . وتصديقاً لذلك ازددات ازمة المساكن في المانيا ايام الحرب وكانت حاجتها اليها شديدة فنقص المواليد سنة ١٩١٥—١٩ يؤثر بالمانيا حوالي سنة ١٩٤٠ حينما يكبر الصغار ويزاحمون الكبار فليس الصغار هم الذين يخلقون المزاحمة في ميدان الاعمال . ويمكن ان يكون تحديد النسل نافعاً للفرد مضرًّا للمجتمع فان حالة زيد من الناس اذا كان صاحب ملك وعقار تكون احسن لو كان لهُ ولد واحد ولغيره عدة اولاد ولكن اذا كان لغيره ولد واحد يخف الطلب على ابنه وتسوء حالته . ان الفلاحين هم اكثر الطبقات الرازحة تحت عبء العوز المالي ولكن ضربة فلاحي اميركا ان حاصلاتهم

(١) The Eugenic Review, April 1935 P. 11-20

الزراعية تزيد عن حاجات الـ١٢٨ مليون من سكان الولايات المتحدة ولا يجدون سوقاً لتصريف اطعمتهم لكثرة البلاد التي تصدر نفس الحاصلات فلو كانت نفوس اميركا ١٤٥ مليوناً عوضاً عن ١٢٨ لنفدت هذه الحاصلات وعاش الفلاح بالرفاه (١)

اما الدكتورة ايند تشارلس فلا ترى ما يراه غيرها من ان وسائط منع الحمل هي العامل الاكبر في تناقص نفوس الامم بل ترى لها تأثيراً محدوداً لان الطب لم يتوصل حتى الآن الى طريقة سهلة مضمونة. وهي تتفق مع كار صوندرز في ان الطبقة غير المثقفة لا تستعملها نظراً الى المتاعب التي تحف بها اضف الى ذلك غلاءها وافساحها المجال لتلاعب الشركات التجارية واستعمالها اساليب الخداع لابتزاز اموال الناس وهي لا ترى ان نقص النفوس ابتدأ حين شيوع طرق تحديد النسل وتنسب هذا النقص الى الانقلابات الاجتماعية التي غيرت نفسية الناس وجعلتهم لا يحفلون بالاولاد ولا سيما الانقلابات الصناعية التي خلقت فئة ارتفع مستواها الاجتماعي بما احرزته من ثراء فكان هذا الارتفاع عاملاً في توليد روح تقليل النسل وقد خلعت هذه الفئة اخلاقها على غيرها ممن هم اقل نجاحاً وسرت هذه الروح في طبقات الامة وقد ايدت حجتها بما توصل اليه الدكتور وجنر مانسلو Dr. Wagner Manslu من دراسة الشرافة Nobility بألمانيا والتوصل اليها عن طريق الثراء فصارت الشرافة محصورة تقريباً في العقم من الجنسين الرجال عن طريق الثراء والنساء عن طريق الزواج (١)

ان ارتفاع مستوى الناس الاقتصادي بطعامهم ولباسهم وسائر مظاهرهم الاجتماعية صرفهم عن الاهتمام بالاولاد فصار الاعزب اهنأ عيشاً من المتزوج الذي يرسف بقيود الاولاد وما يتطلبونه من تكاليف الحياة وبعد ان كانوا عوناً لآبائهم صاروا عبأً ثقيلاً ينوؤون به اضف الى ذلك حرية المرأة الاقتصادية وانعتاقها من عبودية الرجل وافساح المجال لها في ميادين العمل فزاحمت الرجل في المعامل والشركات والبيوت التجارية وسائر الاعمال الاقتصادية فخفت فيها روح الامومة ورأت في الخروج من البيت راحة وطمأنينة ولا يعني ذلك ان رغبة تحديد النسل كانت من المرأة فقط بل هناك طائفة من النساء لا يزلن يملن الى الامومة ويجدن فيها لذة وسلوى وليس للرجال هذه العاطفة فكثير منهم اقل رغبة في الاولاد وهم عامل مؤثر في تقليل النسل والرجال هم الذين يلجأون غالباً الى منع الحمل . فتناقص النفوس متولد من النزعة التقليدية والنظام الاقتصادي الذي صرف الناس عن حياة الاسرة بأنواع الملاهي من سياحات وألعاب ونزه وسينمات ورقص وغير ذلك من الحركات الاجتماعية

(١) Population Movements, p. 72-75

(٢) The Twilight of Parenthood, p. 180

وقد تلافت روسيا السوفيتية اخطار قلة النسل بنظام اقتصادي لا يتنافى مع كثرة النسل فأفسحت المجال للمرأة لكي تدخل مختلف الاعمال واخذت الدولة على عاتقها تربية الاولاد وجعلت للحامل عطلة تتقاضى في خلالها مرتبها الكامل ولها حق المعالجة المجانية مع طفلها ومخصصات غذائية اضافية وأسست في المصانع الكبيرة دوراً للحضانة تستطيع المرأة ان تضع ولدها في اثناء النهار وفي الليل اذا رغبت في الذهاب الى دور السينما او الموسيقى. ولها مقعد مجاني في الترام حينما تكون حاملاً وجعلت مدة الشغل ٧ ساعات يومياً فيمكنها ان تتمتع برؤية ولدها وتصرف وقتاً غير قليل معهُ وهي تعترف بالاولاد غير الشرعيين دون الاهتمام بمعرفة آبائهم فلا حاجة تدعو المرأة الى منع الحمل . ومستوصفات الاسقاط لا تقبل تسقيط الحمل إلاَّ لاسباب قوية فلا بد للحامل ان تلد ولادة طبيعية . وقد عممت فكرة الزواج الباكر لتتمكن المرأة من ان تحصر جهودها في عملها وهي بين سن ٣٠ — ٤٠

يقول انصار تكثير النسل ان تحديده مظهر من مظاهر حب الذات وابتعاد عن الروح الانسانية التي تحتم على المرء المساهمة في الحياة فاهتمام الانسان بنفسه فقط انانية ممقوتة وفرار من الواجبات الاجتماعية ونقض لناموس الحياة الذي يتطلب استمرار الحياة فاذا اعتنق كل فرد هذا المبدأ فمناه انقراض النوع البشري والانسان يتميز عن الحيوان بشعوره بالواجبات المعنوية فاذا اقتصر على مجرد اللذة فلا فرق بينهُ وبين الحيوانات. ان الطبقة المثقفة التي تتمتع بواردات اكثر من واردات الطبقة التي دونها هي ارفهُ حالاً من الطبقات الفقيرة وتستطيع ان تعول اولاداً اكثر منها فليست حالتها الاقتصادية هي التي تدفعها الى تحديد نسلها بل تلذذها بالحياة هو الدافع الحقيقي ولو خير الانسان بين طفل وسيارة لفضل السيارة على الطفل. فالطبقة المتعلمة أوسع يداً واعلم بتربية الاولاد واكفأ لايجاد المحيط الملائم لهم وسلوكها مسلك تحديد النسل دليل على فقدان روح التضحية والتخلص من المسؤولية وغيرها من صفات الرجولة الصحيحة

ليست كثرة النسل كما يدعي اخصامها سبباً لاثارة الحروب ولا تبسط بدحض هذه الناحية بل نحيل القارىء الكريم على المقتطف الاغر تحت عنوان «التوسع بالفتح»[1] ففي هذه المقالة الخبر اليقين . ان اكثر الامم المتمدنة أخذت اليوم تسن القوانين الصارمة لتكثير عددها وقد وضعت ايطاليا قانوناً شديداً ضد الدعاية لتحديد النسل والاسقاط المتعمَّد وخفضت الضرائب عن كاهل المتزوجين وزادتها على العزاب وفضلت المتزوجين في ميادين الاعمال ومنحتهم امتيازات خاصة باعطائهم مساكن رخيصة وتوفير الوسائل المريحة لحماية الامهات ويهدي السنيور موسوليني صورته الى كل ام ذات ستة اولاد ورغماً عن هذه السياسة اخفقت في تكثير سكانها لان

(١) المقتطف ١ مارس سنة ١٩٣٧ صفحة ٢٦٥

هذه الحركة الجديدة بدأت سنة ١٩٢٦ فبلغت ولادات ايطاليا السنوية ١٫٠٩٥٫٠٠٠ وتدنت الى المليون منذ سنة ١٩٣١ وقد حذت المانيا حذو ايطاليا وزادت عليها بتشجيع الزواج ومنح قروض لمن يرغبون فيه وسهلت لهم طرق الاستخدام ولم تلجأ الى القوانين الاجبارية بل عمدت الى التشويق والترغيب والدعاية ولا يعلم مدى نجاحها لحد الآن. وتنكر الدكتورة ايند تشارلس تأثير المنح الضئيلة في تخفيف وطأة ازمة المتزوجين نظراً لارتفاع مستواهم الاجتماعي وما يتطلبه من النفقات الباهظة. وقد سنت الحكومة العراقية قانوناً يمنح قروض لمن يرغبون في الزواج وهمت بتخفيض ضريبة الدخل بنسبة عدد الاولاد ثم انطوى ذلك المشروع وقد روت الانباء الاخيرة ان الحكومة التركية ستوزع اكثر من عشرة آلاف مدالية فضية وعدة جوائز مالية على الامهات اللاتي لهن ستة اطفال او اكثر

«الامة العربية وتحديد النسل» يحار المرء اذا اراد الجزم في موازنة آراء كبار العلماء وقد جلنا في نواحي الموضوع وبسطنا فكرة عامة عنه فأي مبدأ نختار وأي الطرق افضل لنا

مما لا ريب فيه ان اكثر الامم أخذت تتخوف من نقص سكانها بعد ان ايدته الارقام وصرنا نسمع نداءها في صحفها وكتبها ومجالسها النيابية وأنديتها العلمية فما هو موقف الامة العربية ازاء هذه الحركات. نحن لا نزال امة فتية في اوائل نهضتنا وليس لدينا احصاءات مضبوطة كاملة لمعرفة مصيرنا فلا بد ان نلجأ الى المقايسات. مما لا شك فيه ان احوال اوربا وأميركا الصحية ارقى مما هي عندنا ونظمهم الاجتماعية انضج من نظمنا ووفياتهم اقل من وفياتنا ويتمتعون بقسط من الوقاية أوفر من قسطنا ومستواهم التهذيبي أعلى من مستوانا ونظمهم الاقتصادية خير من نظمنا ومع ذلك نراهم يتخوفون من تناقص نفوسهم ونحن في أبان نهضتنا تحيط بنا الأمم المفترسة ونحتاج الى العدد الكبير من أبنائنا وسواعد الاقوياء من بني وطننا ولدينا مساحات شاسعة من الاراضي القاحلة التي تحتاج الى الأيدي العاملة والعقول المفكرة ولا يزال الأجنبي حتى الآن يستثمرها وليس عندنا ماعند الغرب من مشكلة كثافة السكان لا بل خيراتنا الطبيعية ومواردنا الخام وعدم وجود من يستثمرها وقلة المدافعين عنها هي علة استعمارنا وطمع الأجنبي فينا

ان الطبقة المثقفة من ابنائنا هي التي تتمتع بالمرتبات العالية والعيشة الراضية وهي التي تعرض عن الزواج وتلجأ الى وسائط تحديد النسل وتفتح المجال لكثرة نسل الطبقة الفقيرة التي تجهل هذه المستنبطات فتمطر الامة وابلاً من نسلها يعيش في مستوى اجتماعي منحط وينشر أنواع المرض ويولد نسلاً عليلاً يحط من جودة الامة ويضعف قوتها بينا نحن في أمس الحاجة الى الفئة الصالحة من أبناء هذه الأمة الكريمة التي بهرت العالم بعلمها وثقافتها وقوتها ففي عنق المتنورين من أبناء يعرب هذه الأمانة العظيمة أمانة تاريخنا العظيم ومجدنا القديم

تأسيس مدينة

سرَّ من رأى

بقلم الكبتن كرزول

استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية ببرلين

يشتغل جناب الكبتن كرزول استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول في اعداد مؤلف ضخم عن تاريخ العمارة الاسلامية منذ فجر الاسلام وقد صدر المجلد الاول في سنة ١٩٣٤ وسيصدر هذا العام الجزء الثاني مشتملا على جميع الآثار التي شيدها السلمون في البلدان الاسلامية حتى نهاية عصر الاخشيديين وهذا احد فصول البحث الرائع الذي قام به

روى اليعقوبي في كتابه البلدان (ص ٣٨) تاريخ تأسيس مدينة سرَّ من رأى ووصفها بما نصه :

« سرَّ من رأى هي المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم وقد سكنها ثمانية خلفاء منهم المعتصم (ابن هارون الرشيد) . وهو ابتدأها وانشأها . والواثق وهو هارون بن المعتصم ، والمتوكل جعفر بن المعتصم والمنتصر محمد بن المتوكل والمستعين احمد بن محمد بن المعتصم والمعتز ابو عبد الله بن المتوكل والمهتدي محمد بن الواثق والمعتمد احمد بن المتوكل

قال أحمد بن ابي يعقوب كانت سرَّ من رأى في متقدّم الايام صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة وصار الدير بيت المال . فلما قدم المعتصم بغداد منصرفه من طرسوس في السنة التي بويع له بالخلافة وهي سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) نزل دار المأمون ثم بنى داراً في الجانب الشرقي من بغداد وانتقل اليها فأقام بها في سنة ٢١٨ وسنة ٢١٩ وسنة ٢٢٠ وسنة ٢٢١ هـ . وكان معهُ خلق من الاتراك وهم يومئذٍ عجم

أعلمني جعفر الخشكي قال : كان المعتصم يوجهُ بي في ايام المأمون الى سمرقند الى نوح بن أسد في شراء الاتراك فكنت أقدم عليه في كل سنة منهم بجماعة . فاجتمع له في ايام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام (منهم طولون الذي اسس ابنهُ احمد الدولة الطولونية بمصر) . فلما افضت اليه الخلافة ألحَّ في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس . كان ممن اشترى

بغداد جماعة منهم اشناس وكان مملوكاً لنعيم بن خازم ابي هرون بن نعيم . وايتاخ كان مملوكاً لسلام بن الابرش . ووصيف كان زرّاداً مملوكاً لآل النعمان . وسيما الدمشقي وكان مملوكاً لذي الرآستين الفضل بن سهل . وكان اولئك الاتراك العجم اذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالاً فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لايعدون على من فعل ذلك فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد

فخرج الى الشمّاسيّة وهو الموضع الذي كان المأمون يخرج اليه فيقيم الايام والشهور فعزم ان يبني بالشماسية خارج بغداد (شمال شرقي بغداد) مدينة فضاقت عليه ارض ذلك الموضع وكرِه ايضاً قربها من بغداد

فمضى الى البردان (شمال شرقي بغداد بنحو ميلين) بمشورة الفضل بن مروان وهو يومئذ وزير . وذلك في سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) واقام بالبردان اياماً واحضر المهندسين . ثم لم يرضَ الموضع فصار الى موضع يقال لهُ باحَمْشا من الجانب الشرقي من دجلة . فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده

فبعد الى القرية المعروفة بالمطيرة فاقام بها ثم مرَّ الى القاطول فقال هذا أصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول

فابتدأ البناء وأقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واختطت الاسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني لهُ وسكن بعض الناس ايضاً. ثم قال ارض القاطول غير طايلة وانما هي حصى (احجار ؟) والبناء بها صعب جداً وليس لارضها لـمَيْمة (سعة ؟)

ثم ركب متصيداً فرّ في مسيره حتى صار الى موضع سرَّ من رأى وهي صحراء من ارض الطيرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها الاَّ دير للنصارى فوقف بالدير وكلم من فيهِ من الرهبان وقال ما اسم هذا الموضع . فقال لهُ بعض الرهبان : نجد في كتبنا المتقدمة ان هذا الموضع يسمى سرَّ من رأى وانهُ كان مدينة سام بن نوح وانهُ سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر منصور لهُ اصحاب كأنَّ وجوههم وجوه طير الفلاة ينزلها وينزلها ولده . فقال أنا والله ابنيها وأنزلها وينزلها ولدي

ثم عرض (عزم) المعتصم على ان ينزل بذلك الموضع فأحضر محمد بن عبد الملك الزيات وابن ابي دواد وعمر بن فرح (فرج) واحمد بن خالد المعروف بابي الوزير وقال لهم اشتروا من اصحاب هذا الدير هذه الارض وادفعوا اليهم ثمنها اربعة آلاف دينار (الفي جنيه انكليزي) ففعلوا ذلك ثم احضر المهندسين فقال اختاروا أصلح هذه المواضع فاختاروا عدة مواضع للقصور وصيَّر الى كل رجل من اصحابه بناء قصر

فسيَّر الى خاقان عرطوج ابي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني والى عمر بن فرح (فرج) بناء القصر المعروف بالعمري والى ابي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري

ثم خطَّ القطائع للقواد والكتاب والناس . وخط المسجد الجامع واختط الاسواق حول المسجد الجامع ووسعت صفوف الاسواق وجعلت كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد

وكتب في اشخاص الفعلة والبنائين واهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات . وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام . وفي حمل الرخام وفرش الرخام (وارسال صناعه) . فأقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام

وأفرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم الا الفراغنة . وأقطع اشناس واصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضمَّ اليه عدة من قواد الاتراك والرجال وأمره ان يبني المساجد والاسواق

وأقطع خاقان عرطوج واصحابه مما يلي الجوسق الخاقاني . وأمر بضم اصحابه ومنعهم من الاختلاط بالناس . وأقطع وصيفاً واصحابه مما يلي الحير ممتداً . وصيرت قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة العجم بعيدة من الاسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره

ثم اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهنَّ ومنعهم ان يتزوجوا ويصاهروا الى احد من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض وأجرى للجواري الاتراك ارزاقاً قائمة وأثبت اسماءهنَّ في الدواوين . فلم يكن يقدر احد منهم يطلق امرأتهُ ولا يفارقها

ولما أقطع اشناس التركي في آخر البناء مغرباً واقطع اصحابه معه وسمى الموضع الكرخ وأمره ان لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم ولا يطلق معاشرة المولدين

فأقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه الدُّور وبنى لهم في خلال الدور والقطائع المساجد والحمامات وجعل في كل موضع سويقة فيها عدة حوانيت للفامين والقصابين ومن اشبههم ممن لا بد لهم منه ولا غنى عنه

وأقطع الافشين حيدر بن كاوس الأسرُوشني في آخر البناء مشرقاً على قدر فرسخين وسمى الموضع المطيرة . فأقطع اصحابهُ الاسروشنية وغيرهم من المضمومين اليه حول داره . وأمرهُ ان يبني فيها هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيها لا بد منه ومساجد وحمامات واستقطع الحسن بن سهل بين آخر الأسواق . وكان آخرها الجبل الذي صار فيه خشبه (جثة) بابك

وبين المطيرة موضع قطيعة افشين. وليس في ذلك يومئذٍ شيء من العمارات ثم احدقت العمارة بهِ حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرَّ من رأى . وامتد بناء الناس من كل ناحية واتصل البناء بالمطيرة وجعلت الشوارع لقطائع قواد خراسان واصحابهم من الجند والشاكرية. وعن يمين الشوارع ويسارها الدروب فيها منازل الناس كافة وكان الشارع المعروف بالسَّريجة (السريحة) وهو الشارع الاعظم ممتداً من المطيرة الى الوادي المعروف في هذا الوقت بوادي اسحق ابن ابراهيم لان اسحق بن ابراهيم انتقل من قطيعة في ايام المتوكل فبنى على رأس الوادي واتسع في البناء

ثم قطيعة اسحق بن يحيي بن معاذ ثم تتصل قطائع الناس يمنة ويسرة في هذا الشارع الاعظم وفي دروب من جانبي الشارع الاعظم تنفذ الى شارع يعرف بأبي احمد وهو ابو احمد بن الرشيد من احد الجانبين وتنفذ الى دجلة وما قرب منها من الجانب الآخر. وتمر القطائع الى ديوان الخراج الاعظم وهو في هذا الشارع الكبير . وفي هذا الشارع قطائع قواد خراسان منها قطيعة هاشم بن باميجور ؟ وقطيعة عُجَيْف بن عَنْبَسة وقطيعة الحسن بن علي المأموني . وقطيعة هرون بن نعيم وقطيعة حرام (حزام ؟) بن غالب

وظهر قطيعة حرام (حزام) الاصطبلات لدواب الخليفة الخاصة والعامة يتولاها حرام ويعقوب اخوه ثم مواضع الرَّطَّابين وسوق الرقيق في مربعه فيها طرق متشعبة فيها الحُجَر والغُرَف والحوانيت للرقيق ثم مجلس الشرط والحبس الكبير ومنازل الناس والاسواق في هذا الشارع يمنة ويسرةً مثل سائر البياعات والصناعات ويتصل ذلك الى خشبة (جبة) بابك ثم السوق العظمى لا تختلط بها المنازل كل تجارة منفردة وكل اهل مهنة لا يختلطون بغيرهم

ثم الجامع القديم الذي لم يزل يجمع فيهِ الى أيام المتوكل فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرف الحير . المسجد الجامع والاسواق من احد الجانبين ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل واسواق اصحاب البياعات الدنية مثل اصحاب الفُقَّاع والهراريس والشَّرَّابات (الشربات ؟) وقطيعة راشد المغربي وقطيعة مبارك المغربي وسويقة مبارك وجبل جعفر الخيَّاط. وفيهِ كانت قطيعة جعفر ثم قطيعة ابي الوزير ثم قطيعة العباس بن علي بن المهدي . ثم قطيعة عبد الوهاب بن علي بن المهدي ويمتد الشارع وفيهِ قطائع العامة الى دار هرون بن المعتصم وهو الواثق عند دار العامة وهي الدار التي نزلها يحيي بن اكثم في ايام المتوكل لما ولاه قضاء القضاة ثم باب العامة ودار الخليفة وهي دار العامة التي يجلس فيها يوم الاثنين والخميس

(وعلى ذلك فالاطلال المعروفة الآن بيت الخليفة هي بقايا قصر المعتصم والايوان الكبير

ثم الخزائن خزائن الخاصة وخزائن العامة ثم قطيعة مسرور سمانة الخادم والي الخزائن ثم قطيعة قرقاس الخادم وهو خراساني ثم قطيعة ثابت الخادم ثم قطيعة أبي الجعفاء وسائر الخدم الكبار . والشارع الثاني يعرف بأبي أحمد وهو أبو أحمد بن الرشيد أول هذا الشارع من المشرق ودار بختيشوع المتطبب (الطبيب — وهو احد افراد اسرة سريانية اشتهرت بتعاطي الطب. وقد كان هؤلاء الناس حلقة الاتصال بين العلوم القديمة —اليونانية وغيرها— والحضارة الاسلامية) التي بناها في أيام المتوكل ثم قطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب ومن اهل قُم وأصبهان وقزوين والجبل وأذربيجان يمنة في الجنوب مما يلي القبلة فهو نافذ الى شارع السَّريحة الاعظم. وما كان مما يلي الشمال ظهر القبلة فهو نافذ الى شارع ابي احمد ديوان الخراج الاعظم وقطيعة عمر وقطيعة للكتاب وسائر الناس وقطيعة ابي احمد بن الرشيد في وسط الشارع وفي آخره مما يلي الوادي الغربي الذي يقال له وادي ابراهيم بن رياح قطيعة ابن ابي دؤاد وقطيعة الفضل بن مروان وقطيعة محمد بن عبد الملك الزيات وقطيعة ابراهيم ابن رياح في الشارع الاعظم

ثم تتصل الاقطاعات في هذا الشارع وفي الدروب الى يمنته ويسرته الى قطيعة بُغَا الصغير ثم قطيعة بغا الكبير ثم قطيعة سيما الدمشقي ثم قطيعة برمش ثم قطيعة وصيف القديمة ثم قطيعة ايتاخ ويتصل ذلك الى باب البستان وقصور الخليفة

والشارع الثالث شارع الحير الاول الذي صارت فيه دار احمد بن الخصيب في ايام المتوكل فأصل هذا الشارع من المشرق ومن الوادي المتصل بوادي اسحق بن ابراهيم وفيه قطائع الجند والشاكرية وأخلاط الناس ويمتد الى وادي ابراهيم بن رياح

والشارع الرابع ويعرف بشارع بَرْغَامُس (برغامش) التركي فيه قطائع الاتراك والفراغنة فدروب الاتراك منفردة ودروب الفراغنة منفردة والاتراك في الدروب التي في القبلة والفراغنة بأزائهم بالدروب التي في ظهر القبلة لا يخالطهم احد من الناس . وآخر منازل الاتراك وقطائعهم قطائع الخزر مما يلي المشرق . وأول هذا الشارع من المطيرة عند قطائع الافشين التي صارت لوصيف وأصحاب وصيف ثم يمتد الشارع الى الوادي الذي يتصل بوادي ابراهيم بن رياح

والشارع الخامس يعرف بصالح العباسي وهو شارع الاسكر (العسكر؟) . فيه قطائع الاتراك والفراغنة . والاتراك ايضاً في دروب منفردة . والفراغنة في دروب منفردة يمتد من المطيرة الى دار صالح العباسي التي على رأس الوادي . ويتصل ذلك بقطائع القواد والكتاب والوجوه والناس كافة

ثم شارع خلف شارع الاسكر يقال له شارع الحَرْيَر (الحير؟) الجديد فيه أخلاط من الناس من قواد الفراغنة والاسروشنية والاشتيخنية؟ وغيرهم من سائر كور خراسان . وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمع الى اقطاعات لقوم هدم (اي الخليفة) الحائط (أي كل ماقرب

من الحائط من اقطاعات الناس كان يضم الى الحير) وبنى خلفه حائطاً غيره . وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمير الوحش والايايل والارانب والنعام وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة

والشارع الذي على دجلة يسمى شارع الخليج وهناك الفُرَض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد من البصرة والابُلَّة والاهواز وما اتصل بذلك ومن الموصل وبَعْربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك . وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم او اكثرهم والموضع المعروف بالاولاج (بالازلاخ ؟) الذي بالرَّجالة المغاربة في أول ما اختطت سرَّ من رأى . واتسع الناس في البناء بسرَّ من رأى اكثر من اتساعهم ببغداد وبنوا المنازل الواسعة . الاَّ ان شربهم جميعاً من دجلة مما يحمل في الرَّوايا على البغال وعلى الابل لان آبارهم بعيدة الرشاء ثم هي مالحة غير سائغة فليس لها اتساع في الماء . ولكن دجلة قريبة والرَّوايا كثيرة . وبلغت غلات ومستغلات سرَّ من رأى واسواقها عشرة آلاف الف درهم في السنة . وقرُب محل ما تؤتى بهِ من الميرة من الموصل وبعربايا وسائر ديار ربيعة في السفن في دجلة فصلحت اسعارها . ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الاساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة ، وهو جانب سرَّ من رأى عقد جسراً الى الجانب الغربي من دجلة فانشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة وحفر الانهار من دجلة وصيَّر الى كل قايد عمارة ناحية من النواحي وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد . وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الشرقي بسرَّ من رأى وصلح النخل وثبتت الاشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه وحسن الريحان . وزرع الناس أصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب وكانت الارض مستريحة ألوف سنين . فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالاسحاقي وما عليه والايتاخي والعمري والعبد الملكي ودالية بن حماد والمسروري والعربات الجدية (المحدثة) وهي خمس قرى والقرى السفلى وهي سبع قرى والأجنة والبساتين وخراج الزرع اربعمائة الف دينار في السنة

وأقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملاً من الاعمال او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغروس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض

وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها . وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر وحمل من الكوفة من يعمل الخزف ومن يعمل الأدهان . ومن سائر البلدان من اهل كل مهنة وصناعة . فأنزلوا بعيالهم بهذه المواضع واقطعوا فيها . وجعل هناك اسواقاً لاهل المهن بالمدينة

وبنى المعتصم العمارات قصوراً وصيَّر في كل بستان قصراً فيه مجالس وبرك وميادين فحسنت

العمارات ورغب وجوه الناس في ان يكون لهم بها ادنى أرض وتنافسوا في ذلك وبلغ الجريب من الارض مالاً كثيراً ومات المعتصم بالله سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) . وولي الخلافة هارون الواثق بن المعتصم (ابو المتوكل)

ولم يقتصر المعتصم على جلب العمال وأهل المهن والصناعات وأشخاصهم الى سر من رأى بل أمر بحمل المواد اللازمة للبناء أيضاً

ويقول الأب انبا ساويرس بن المقفع (أسقف مدينة الأشمونين) بكتابه سير البطاركة القديسين ص ٢٨٢و٢٨٦ في سيرة الأب أنبا يوساب (يوسف) البطرك . بعد ان يروي كثيراً من أخبار مصر وحوادثها في عهد المأمون والمعتصم (ما نصه):—

« وكان الحرب قد أقام أربعة عشر سنة بينهم الى ان ملك ابراهيم أخو المأمون وجعل حفظة على طريق الجبدة والنوبة . . . ص ٢٨٢

« وفي ذلك الزمان أنفذ الملك ابراهيم الى مصر أن يؤخذ من البيع في كل مكان العمد والرخام . وكان الواصل في هذا الطلب انسان مخالف مبغض من النسطورية اسمه العازر . فلما وصل الى مصر اجتمع اليه أهل مذهب النجس الذي هم الهراطقة الخلقدونيين الملكيين بالاسكندرية ولم يزالوا يسعوا بالبيع ليلاً ونهاراً وحسنوا له أن يهدم بيع مدينة الاسكندرية وكانوا يدلوه على المواضع الذي فيها العمد والبلاط فيأخذهم غصباً بيده . فلما أخرجوه الى بيعة الشهيد ماري مينا بمريوط من كثرة حسدهم لها وقالوا له ليس يشبهها شيئاً من البيع وان كلما توجهت لطلبه تجده فيها فقام ذلك النسطوري مسرعاً بمشورة السعاة ودخل الى بيعة الشهيد ماري مينا بمريوط فلما نظر اليها والى زينتها وحسن ما فيها من العمود الرخام الملون تعجب وبهت وقال هذا الذي يحتاج اليه الملك هذا ها هنا ولم أعلم به فلما سمع أبونا أنبا يوساب البطرك أن ذلك الانسان السوء لم يمنع يده لما في قلبه من السوء والبغضة (ولما لقبوه المخالفين) فقال له هو ذا كل البيع الذي بحكمي بين يديك فافعل فيها ما أمرك به الملك وهذه البيعة فقط أحب منك ألا تعترضها . ومهما التمسته مني سامته اليك . فلم يقبل المخالف قوله ولا سؤاله بل يجاوبه مواجهة بما لا يجب ثم بدا وأخرج من البيعة الرخام الملون والبلاط المعدوم الذي هو قائم من كل لون وليس له نظير ولا يعرف له ثمن . فلما وصل الرخام الى مدينة الاسكندرية لينفذوه الى مدينة الملك لحزن الاب حزناً عظيماً على البيعة . وقال أنا أعلم أنك تقدر أيها الشهيد القديس أن تأخذ حقك من هذا المخالف الذي لم يوقر بيتك الذي هو عزاء لجميع المؤمنين ولم يفتر الليل والنهار من هذا الحزن الذي حل بهذه البيعة المقدسة وكان مهتماً بعمارتها الخ » [يتبع]



أحياء غير مرئية

أحدث آراء العلماء في طبيعة الڤيرس والامراض التي يسبّبها

لرضوان محمد رضوان

تبين من مقالنا السابق ، أن هناك أحياء متناهية في الصغر ، متضائلة في الحجم ، تملأ الأرض والهواء والماء ولا ترى بالعين المجردة ، كشف عنها العالم بمجهره ، ودرس خواصها فعلم ما لها من مكانة ممتازة في الحياة ، وما تسديه من خدمات جليلة الشأن ، عظيمة الأثر في حياة الانسان والحيوان والنبات

وقد يتطرق إلى ذهن الانسان ، أن هذه الأحياء هي نهاية ما وصل اليه العلم ، والواقع أن العلماء قد كشفوا في المدة الأخيرة عن عالمٍ جديد من عوالم الأحياء ، فريد في بابه ، خفي في ذاته . ذلك انهُ قد استعصت رؤيته على العلماء قاطبة ، فلقد بلغ من دقة الصغر حداً عجزت معهُ جميع الآلات المكبرة عن اظهاره . ونحن نورد في الكلمات التالية أحدث ما وصل اليه العلم في معرفة خواص هذه الأحياء وطبيعتها

وجد من المشاهدات العديدة ، ان النباتات تصاب بأمراض خطرة معدية لا يعرف لها سببٌ ، فهي ليست من الأمراض الفسيولوجية — أي الأمراض التي تسببها عوامل مختلفة من البيئة وتزول بزوال هذه المؤثرات — اذ انها تختلف عنها في قدرتها على عدوى النباتات السليمة. وهي كذلك ليست من الأمراض البكتيرية التي تسببها البكتريا ، ولا من الأمراض الفطرية التي تتسبب عن الفطر ، فهي تختلف عنهما في كون المسبب للمرض ، لم يمكن مشاهدته إلى الآن. ولكي يدرك القارىء مدى صغر هذه الكائنات ، نذكر أن لدى العلماء الآن مجهراً قوياً جداً يعرف باسم الترا ميكرسكوب Ultramicroscope يبين لغاية $\frac{1}{1000000}$ (جزء من مليون) من المليمتر . وهذا حجم دقيق جداً لا يمكن تصوره ، فاذا كانت هذه الاحياء تستعصى أيضاً على هذا الميكرسكوب ، فلا شك أن حجمها محير للفكر ، مذهل للعقل . ولهذا لم تتمكن المرشحات الدقيقة جداً ، والتي تمنع مرور اصغر انواع البكتريا ، من حجز هذه الكائنات

ولما كانت تلك الاحياء تسبب عدوى الأحياء السليمة ، اتفق العلماء على تسميتها

بالڤيرس Virus . فالڤيرس اذاً هو عبارة عن كائنات خفية ، لم نرها للآن ، وانما نشاهد عملها في الطبيعة ، وتأثيرها في الكائنات الحية

وضعت نظريات عدة لتفسير طبيعة الڤيرس ، فبعض العلماء يرى ان المسبب لهذه الأمراض، هو نوع من الانزيمات[1] ، او على الأقل كائنات شبيهة بها . والاعتراض على هذه النظرية أن الانزيمات لا تتكاثر ، بينما الڤيرس يتكاثر

ويرى علماء آخرون ، ان الڤيرس عبارة عن بكتريا فوق الميكرسكوبية ، ولكن مما يجعل هذا الرأي مشكوكاً فيه ، قدرة الڤيرس على المرور من المرشحات التي تحجز البكتريا مهما دقت في الحجم ، وكذلك تعذُّر نموه في البيئات الصناعية التي تنمو فيها البكتريا

وفي سنة ١٩٢٩ أعلن العالم بويكوت Boycott ان الڤيرس كائن يقع في سلم النشوء بين الأنزيمات والبكتريا ، أي بين المادة الميتة والمادة الحية ، لأنهُ ليس هناك حد فاصل بينهما ، إذ قد تندمج الواحدة منهما في الأخرى بطريقة غير محسوسة . وهو يقترح ترتيب سلسلة في نشوء تدريجي، تصل ما بين الانزيمات (وهي المادة الميتة) والبكتريا (وهي المادة الحية) . ويمكن فهم هذه النظرية بتتبع خطوات السلسلة الآتية :

(١) كائنات لا أثر فيها للحياة وهي الانزيمات Enzymes

(٢) كائنات في طريقها الى الحياة وهي الليزوزيم[2] Lysozyme

(٣) كائنات في المرحلة الاولى من الحياة وهي البكتريوفاج[3] Bacteriophage

(٤) كائنات في المرحلة الثانية من الحياة وهي الڤيرس Virus

(٥) كائنات تدب فيها الحياة الكاملة وهي البكتريا Bacteria

وأحدث رأي في ماهية الڤيرس ، هو ما أعلنهُ العالم الاميركي ستانلي Stanley سنة ١٩٣٦ وقد كان يجري أبحاثه وتجاربه على مرض تبقع الدخان او فسيفساؤه ، فأمكنه عزل الڤيرس ، وأثبت أنهُ جزيء من البروتين المتبلور ذو وزن جزيئي مرتفع جداً . وقد وجد ستانلي ان هذا الجزيء قوي جداً ، لدرجة انهُ لو أذيب منهُ جزء بسيط في مقدار كبير من الماء ، لظل محتفظاً بحيويته وقد بلغت قوته في الاصابة حوالي ٥٠٠ مرة قوة عصير النبات المصاب . فعند ما يصاب نبات ما بهذا البروتين ، تتحول عمليات النبات الفسيولوجية ، فبدلاً من ان يكوّن النبات بروتينه العادي ،

---

(١) الانزيم عبارة عن المواد التي تكونها الخلايا الحية ، وتكون لها القدرة على احداث تغييرات كيمائية بدون ان تصير نفسها جزءا من المحصول النهائي وتسمى أحيانا عوامل مساعدة عضوية

(٢) الليزوزيم عبارة عن مخمر تفرزه خلايا الجسم وله تأثير قاتل في الميكروبات ، وهو يتكاثر ويوجد بكثرة في الدموع (٣) البكتريوفاج عبارة عن ناتج مساعد يفرز مخمراً يؤثر في البكتريا ويذيبها

يكوّن مقادير كبيرة من بروتين الڤيرس تبعاً للتحويل الذي سببتهُ الاصابة

نرى مما تقدم أن طبيعة الڤيرس بالتحديد غير متفق عليها ، والرأي السائد في الدوائر العلمية انهُ كائن حي ، يؤيد ذلك قدرته على التكاثر في خلايا العائل ، كذا تسببه في عدوى النباتات السليمة وتأثره بالمؤثرات الطبيعية والكيميائية

﴿ امراض الڤيرس ﴾ : تتعرض كثير من العائلات النباتية للاصابة بأمراض الڤيرس ، مثل العائلة الوردية والقرعية والخيمية والنجيلية والبقلية والشقيقية والخبازية والمركبة ، وهو يصيب نباتات مهمة اقتصاديًا كالقمح والدخان والشليك وقصب السكر والخوخ والموز والذرة والبرسيم . وتظهر النباتات المصابة بأعراض خاصة تميزها عن الأمراض الاخرى ، وأهم هذه الأعراض ما يلي:—

١ — الموزيك (الفسيفساء) Mosaic وهو من أهم الاعراض التي تظهر على النباتات المصابة بالڤيرس فتظهر الأوراق مبقعة ببقع صفر أو خضر باهتة ، متبادلة مع اجزاء خضر غامقة ، وسبب هذا اللون الاصفر يرجع الى انحلال حبيبات الكلوروفيل نتيجة الاصابة . وقد يؤثر هذا المرض في الأزهار فيسبب تبقعها وتشوهها فتسقط ، وأما الثمار فتضمر في الحجم وتنقص حيوية البذور

٢ — الاصفرار Chlorosis وينشأ عن نقص وانحلال الكلوروفيل ، وبذا تصفرّ الانسجة الخضر ، واذا اشتدت الاصابة تفقد الانسجة لونها بالكلية فتصير بيضاً

٣ — التخطط Streak : فتظهر الاجزاء الباهتة على شكل خطوط قصيرة او طويلة على امتداد الورقة . وتظهر هذه الحالة بوضوح في موزيك قصب السكر

٤ — التورد Rosette : وفيه تتجمع اجزاء النبات المصابة كالسوق او الاوراق في مجموعة مزدحمة ازدحاماً غير طبيعي ، وقد يصحب الازدحام نمو شاذ وظهور تبقع او تخطط ، مثل تورد القمة في الموز والقمح

٥ — التشوه Distortion : وفيه يضعف النبات ويقل حجمه ويظهر بشكل غير طبيعي ، اذ تقل ثخانته كثيراً او تلتوي الاوراق وتتجعد

يؤثر الڤيرس في تركيب الانساج المصابة فيعرقل نمو الخلايا الباهتة ، وبذا تصبح الانساج الباهتة اقل سمكاً من الخلايا الخضر ، ويؤثر الڤيرس ايضاً في الكلوروبلاستيدات فتقل في الحجم والعدد ، واذا اشتدت الاصابة انحلّت هذه الحبيبات وفقدت لونها . وأما في الاجزاء الخضر ، فنجد للڤيرس تأثيراً منبهاً ، فتصبح اكبر حجماً من المعتاد ويكثر بها عدد الكلوروبلاستيدات وبذا يصبح لون الكلوروفيل غامقاً . وأما الانابيب الغربالية والخلايا المرافقة لها التي في اللحاء فتموت ، وقد يصحب ذلك اصفرار اللون في الانسجة الميتة ، وكثيراً ما توجد في الخلايا المصابة أجسام كروية تشبه النواة لم يدرك كنهها الآن ، ولذا اطلق عليها اسم X ، ويرجح أن

هذه الاجسام يكوّنها النبات كرد فعل او كنتيجة الاصابة

وينتقل الڤيرس في انساج العائل اما بالانتشار من خلية الى اخرى ، ففي مرض موزيك الدخان ، امكن نقل العدوى الى نبات سليم بتمرير فرشة ملوثة من شعر الجمل تمريراً بسيطاً جداً على سطح الورقة بحيث تلامس الشعور الرهيفة .وإما ينتقل الڤيرس في الحزم الوعائية وعلى الاخص في اللحاء ، كما انهُ يحتمل ان الڤيرس ينتقل ميكانيكيًا مع حركة البروتوبلازم ، وقد وجد ان المرض يسير بسرعة ٣٠ سنتمتراً في ٣ ساعات في مرض تخطط الذرة ، وينتقل في مرض تجعد القمة في البنجر بسرعة ١٧٫٥ سم في ١/٢ ساعة . وهذا الانتقال اسرع من ان يكون سببه الانتشار من خلية لأخرى ، وأبطأ من ان يكون سببه الانتقال في الحزم الوعائية مع مجرى الماء ، فمن المحتمل اذاً ان يكون للڤيرس حركة مستقلة لا تتوقف على المساعدة التي يقدمها العائل من حيث حركة الماء والغذاء . وقد ثبت ان الڤيرس لا يستطيع الانتقال في الاوعية الخشبية ، واذا ما ادخل صناعيًا في وعاء خشبي ، فانه لا يستطيع ان يخرج منهُ ، ما لم يمزق ذلك الوعاء

وأهم وسيلة لانتقال امراض الڤيرس وانتشارها من نبات الى آخر ، هي الحشرات ، وتعرف باسم الحشرات الناقلة vectors ، ومن اهمها الحشرات التابعة لفصيلة همبترا Hemiptera وهي التي تحتوي على اجزاء فم ثاقب ماص ، وتعتبر حشرة المنّ Aphis أهمها جميعاً . وهناك درجات متفاوتة في تخصص الحشرات في نقلها لامراض الڤيرس المختلفة ، فقد يمكن لنوع منها أن ينقل عدة أمراض مثل حشرة المنّ المساة ميزس پرسيكا Myzus persicae اذ تنقل حوالي ١٤ نوعاً مختلفاً من الڤيرس . بينما يختص المنّ المسمى پنتالوميا نجرونرفوزا Pentalomia Negronervosa بنقل مرض واحد فقط هو مرض تورد القمة في الموز

فاذا ما تغذت احدى الحشرات الناقلة على نسيج نبات مصاب ، غرزت أنيابها في الخلايا فتثقبها فيختلط لعابها بعصير النبات ، ثم تمتص هذه العصارة وبذا ينتقل الڤيرس الى جسم الحشرة وينتشر فيه حتى يصل الى الغدد اللعابية فيمكث هناك ، وبذلك يصبح اللعاب ملوثاً . فحين تعود الحشرة للتغذي على نبات سليم ، وتخلط لعابها الملوث بعصارة النبات ، تنتقل العدوى اليه وهكذا . وفي حالات عديدة وجد أن الڤيرس يحتاج الى مدة كمون في جسم الحشرة ، حتى تصبح الحشرة بعدها قادرة على نقل العدوى الى النباتات السليمة ، فمثلاً حشرة سيكاديولا سكسنوتاتا Cecadula Sexnotata التي تنقل مرض الاصفرار لنبات الآستر ، تمر عليها فترة تتفاوت من ٧ — ١٤ يوماً من وقت تغذيتها على النبات المصاب ، الى ان تصبح قادرة على احداث عدوى اخرى . ويحتمل ان تكون هذه هي الفترة التي يحتاج اليها الڤيرس حتى يستطيع ان ينتقل في جسم الحشرة ويصل الى الغدد اللعابية . ويمكن للحشرة الناقلة اذا ما تلوثت مرة ، ان تحتفظ بقدرتها على نقل العدوى مدة طويلة

بدون أن تتغذى على نبات مصاب آخر ، بل انهُ في كثير من الاحيان ، تحتفظ الحشرة بهذه القدرة مدى حياتها . الاَّ أن هذه الصفة المكتسبة لا تورث ، أي أن نسل الحشرات المصابة يفقد قدرة آبائه على نقل العدوى ، الاَّ اذا تغذى بدوره على نبات مصاب وأصبح ملوثاً

وهناك نباتات لها علاقة بنقل أمراض الفيرس تسمى بالنباتات الحاملة Carriers وهي النباتات التي تصاب بالفيرس فيتكاثر فيها دون أن تظهر عليها علامات المرض ، أي ان ظاهرها سليم وباطنها ملوَّث ، فاذا ما أتت حشرة ناقلة وتغذت على نبات من هذه النباتات ، اصبحت الحشرة ملوثة فتكون بذلك وسيلة لنقل العدوى . ووجود هذه النباتات الملوثة مما يزيد في تعقيد دراسة الفيرس ، اذ أنهُ لم يعرف كيف لم تظهر اعراضهُ على هذه النباتات المصابة أسوة ببقية النباتات ، وهذا مما يزيد في صعوبة مقاومته

واتماماً للفائدة المرجوة من هذا المقال ، رأيت أن أذكر فيما يلي أهم الامراض التي تتسبب عن جراثيم الفيرس وتصيب النبات والحيوان مع ذكر طرق الوقاية منها

﴿ مرض تورد القمح : Rosette of Wheat ﴾ هذا المرض منتشر في مصر انتشاراً كبيراً ، وقد يشتد خطره في بعض الاحيان فيقضي على المحصول كله وتختلف نسبة الاصابة بهِ من ٥ — ١٠ ٪ ، ويسبب هذا المرض ضعف النباتات وضمور الحبوب ، وقد لا تتكون الحبوب قط ، أذا ما اشتدت الاصابة . وتتلخص أعراض هذا المرض في كون النباتات يقف نموها الطبيعي ويزداد التفرع الذي ينشأ عنه مظهر التورد ، وكذلك ظهور البقع على السوق والأوراق . والذي يرجح ان هذا المرض مسبب عن فيرس ، وجود الأجسام الكروية في الخلايا وتشابه الأعراض بأعراض مجموعة الموزيك، والقرائن التي تدل على انهُ مرض معدٍ ، اذ أن هذا المرض غالب الظهور في الحقل بعد محصول مصاب، كما ان تعقيم التربة بالحرارة أو الفورمالين يمنع ظهوره

وخير وسيلة لمقاومة هذا المرض ، هو اتباع دورة زراعية ملائمة ، وعدم زراعة القمح في حقل سبقت اصابته بهذا المرض الاَّ بعد تعقيمهِ ، وزراعة انواع منيعة من القمح

﴿ مخطط قصب السكر : Streak of Sugar cane ﴾ يسبب هذا المرض نقصاً محسوساً في محصول قصب السكر ، واكثر انتشاره في كوم امبو بمصر ، وهو يتميز بوجود أشرطة محدودة ضيقة ، صفر او بيض على طول عروق الورقة ، ويتفاوت طول هذه الخطوط من مليمترين الى ٨ سنتيمترات. وكلما تقدمت الورقة في السن كلما ازدادت الأعراض وضوحاً بتركيز اللون في الأجزاء الخضر القاتمة . وقد وجد أن الحشرة الناقلة لهذا المرض هي نوع من البق المسمى Balclutha Mebila ، وتصبح الحشرة ملوثة بعد امتصاصها لعصارة النبات المصاب مدة ١٥ دقيقة ، ثم تمضي الجراثيم فترة كمون في جسم الحشرة ، حتى تصبح بذلك قادرة على نقل العدوى.

ولمقاومة هذا المرض ، يجب عدم زراعة عقل ملوثة من نباتات مصابة ، وايجاد أصناف لديها مناعة كافية ضد هذا المرض

﴿ تورد القمة في الموز Bunchy top of Banana ﴾ أول ما لوحظ هذا المرض في استراليا سنة ١٨٩٠ ، ثم ظهر بعد ذلك في جزيرة سيلان سنة ١٩١٣ ، وظهر في مصر وانتشر بها وخصوصاً في منطقة الاسكندرية. تبتدىء الأعراض المميزة لهذا المرض ، بظهور خطوط خضر غامقة على طول عروق الورقة مبتدئة بالسطح السفلي للعروق الوسطى وقاعدة الورقة أو على عنقها ، وعند ما تظهر الأوراق تزدحم تبعاً لاصابتها ، وتعطى بذلك مظهر تورد القمة في النبات ويظهر هذا بعد عدة اسابيع من الاصابة . ويسبب هذا المرض قصراً في النبات فيضعف ويقل محصوله وتصبح الاوراق هشة سهلة الكسر . واذا اصيب النبات وهو حديث ، فان نموه يقف وبذلك يصبح عديم القيمة. وينقل هذا المرض المنّ المسمى Pentalomia negronervosa وتظهر الأعراض بعد نحو شهر من وقت تغذية الحشرة الملوثة على عصارة النبات ، ويمكن لهذه الحشرة ان تحتفظ بقدرتها على نقل العدوى مدة لا تقل عن ٨٤ ساعة من وقت ابعادها عن موطن المرض ، ولمقاومة هذا المرض يجب منع استيراد نباتات موز من الجهات الملوثة ، وازالة نباتات الموز المبعثرة في الحدائق الصغيرة ، واقتلاع النباتات المصابة بمجرد ظهورها واعدامها في الحال. ويبتدىء المرض في الظهور في مارس ويستمر الى اكتوبر متمشياً مع موسم ظهور حشرات المن ، فيجب التبكير في ملاحظة المرض وتفتيش مزارع الموز بانتظام ، ويستحسن قبل اقتلاع النباتات المصابة ، أن ترش بمحلول مطهر كالكيروسين أو البترول ، ويصب جزء منهُ في قمة الساق الكاذب وذلك لقتل المن حتى لا ينتشر عند اقتلاع الشجيرات ، ويفضل حرق النباتات المصابة في اماكنها بدلاً من نقلها وذلك زيادة في الاحتياط . وقد اصدرت الحكومة قراراً أعتبرت فيه مصر موبوءة بمرض تورد القمة، وحذرت نقل نباتات الموز او أجزائها من الدلتا الى الوجه القبلي

يتبين مما سبق ان النباتات التي تصاب بالفيرس لا يمكن علاجها ، وانما هناك فرصة لمقاومة المرض قبل استفحاله ، ونذكر فيما يلي أهم طرق المقاومة بصفة عامة :

(١) ازالة النباتات التي تظهر عليها اعراض الاصابة اولا بأول وتحرق . ومن المناسب ان يزال جزء من النباتات المحيطة بالنباتات المصابة، خوفاً من ان تكون من النباتات الحاملة، أو ان اعراض المرض لم تظهر عليها لعدم انتهاء مدة السكون . ومن البديهي ان هذه الطريقة لا تتبع الا اذا كان عدد النباتات المصابة قليلاً

(٢) اتباع طريقة التكاثر بالبذور ، اذ انهُ في كثير من الحالات لا يمرّ الفيرس الى البذور.

أي ان النباتات المصابة تكون بذوراً سليمة فاذا مازرعت ، انتجت نباتات سليمة ، ويلاحظ هنا أن تنظف البذور من اعناق الأزهار او أي جزء من اجزاء النبات تكون العدوى عالقة بها، وذلك لضمان عدم نقل العدوى الى النبات الجديد . وفي النباتات التي تتكاثر خضريًّا ولم تنفع فيها طرق المقاومة المختلفة ، يمكننا أن نبدأ زراعتها من البذور حتى ينتج نسلها سليماً يتكاثر بعد ذلك خضريًّا

(٣) انتقاء تقاوٍ سليمة ، كانتخاب عقل قصب السكر ، أو درنات بطاطس ، أو ازرار للتطعيم من نباتات سليمة من الفيرس

(٤) تعقيم التربة : علمنا ان الفيرس ينتقل بواسطة الحشرات الناقلة ، فاذا عمدنا الى قتلها بالحرارة أو بمطهر كيميائي ، تخلصنا بذلك من عدو خطر. وهذه الطريقة مفيدة جدًّا خصوصاً في نباتات التجارب ذات الشأن الخاص ، والتي تربّى في الصوب الزجاجية

(٥) تعقيم مطاوي التقليم وغيرها من الأدوات المستعملة في العمليات الزراعية، وكذلك تطهير أيدي العمال القائمين بهذه العمليات ، ويكفي محلول الليزول في هذا الغرض

(٦) ابادة الحشرات باحدى الطرق المعروفة كالتبخير والرش باحد المبيدات الفطرية ، وتعد هذه الطريقة من أنجح الطرق الفعالة في مقاومة امراض الفيرس

(٧) الاعتناء بالعمليات الزراعية والنظافة، فتزال الحشائش التي قد تؤوي الفيرس الى الموسم التالي . وكذلك تزال النباتات التي ثبت أنها واسطة في نقل العدوى

(٨) استعمال دورة زراعية مناسبة ، ويجب الاعتناء بالحصاد الكامل ، فلا تترك بقايا نباتات في الحقل وخصوصاً النباتات المصابة حتى لا تكون مصدراً للعدوى في العام المقبل

ننتقل بعد هذا الى ذكر بعض الامراض المعدية التي يسببها الفيرس وتصيب الحيوانات وقد تنتقل منها للانسان مع موجز لطرق الوقاية منها

« الطاعون البقري Cattle Plague » مرض معدٍ وبائي خاص بالفصيلة البقرية يتميز بالتهاب حاد في القناة الهضمية ، ومدة حضانة المرض ٣ — ٤ أيام وسيره نحو ١٥ يوماً ، وعاقبته وخيمة اذ ينفق اكثر ما يصاب به، إلا ان التي تنجو منه تكتسب مناعة لمدة طويلة. وتتلخص الأعراض الظاهرة في كون الماشية المصابة تعتريها حمى تستمر من ٥ — ٨ أيام ، ويسيل اللعاب باستمرار نتيجة التهابات تقرحية بالفم فتتغطى اللثة بقروح صغيرة تعلوها خلايا البشرة مكونة لشكل النخالة. ويسيل من الأنف مخاط يتبعه غور العينين الى الداخل وتساقط الدموع ، ويرتجف الحيوان ، ويضيق تنفسه ، ويصحب الزفير عادة أنين موجع واذا شرّحت جثة الحيوان المصاب في هذا الوقت شوهدت المميزات المرضية الآتية : —

(١) احتقان المعدة الرابعة احتقاناً شديداً يجعلها بلون الطربوش الأحمر

(٢) احتقان الغشاء المخاطي المبطن للمستقيم وتورمه

(٣) التهاب الامعاء الدقيقة فتظهر فيها خطوط حمراء

(٤) تضخم الكبد ، وتمدد المرارة ، وامتلاؤها بصفراء لونها اخضر قاتم مائل الى السواد والعلاج الدوائي لهذا المرض لا يفيد ، ويشمل العلاج الوقائي عزل الماشية المصابة عزلاً تاماً ، ويجب ان تحرق الماشية النافقة وتدفن عميقاً ، ثم تطعم المواشي السليمة ، والتطعيم إما ان يكون :

(١) بالمصل وحده ، وهذا يمنع العدوى من الماشية زمناً قصيراً — نحو ثلاثة أسابيع ويكفي ١٠٠سم^{٣} للمواشي الكبيرة ، ٥٠سم^{٣} للمتوسطة ، ٢٥سم^{٣} للصغيرة

(ب) بالمصل والدم (الدم الموبوء) وهذا يكسب الماشية مناعة لمدة طويلة قد تزيد على الثلاث سنوات

﴿ الجدري (Variola (Pox ﴾ مرض معدٍ حاد ، يتميز بظهور بثرات موضعية يتطور شكلها في أدوار مختلفة ، تنتهي بتكوّن قشور ، تترك بمجرد سقوطها أثراً ظاهراً . وأهم امراض الجدري النوع الذي يصيب الضأن ويحدث طفحاً جلديًّا يبدأ بحبوب صغيرة Papules تتحول الى نفاطات Vesicles ثم الى بثرات Pustules وأخيراً الى قشور Crusts

يدخل الڤيرس الجهاز التنفسي ويمر من الحويصلات الهوائية الى الدم ، ومنهُ ينتهي الى الجلد حيث يسبب الاعراض المحلية . وتحدث العدوى في قطيع الغنم بالاتصال المباشر او غير المباشر. وأشد الأدوار خطورة هو وقت تكوين القشور الموضعية ، حيث يحتفظ بها الصوف عدة أسابيع فتظل مصدراً مستديماً للعدوى ، ولا تتجاوز مدة الحضانة أسبوعاً . وتبتدىء الأعراض بارتفاع درجة الحرارة ، والتهاب العين بالرمد الصديدي ، وزيادة حساسية الحيوان خصوصاً في منطقة القطن حيث يتألم بمجرد وضع اليد . وبعد يوم او يومين تظهر بقع صغيرة حمراء اللون بالأجزاء العارية من الجلد حول العينين ، وداخل الفخذين ، وعلى جانبي الصدر والبطن ، وأسفل الذيل ويمتد الالتهاب والطفح فيشمل الأغشية المخاطية ويسبب نتائج خطيرة في الحلق والفم ، واذا أصاب الامعاء سبب اسهالاً شديداً ، واذا أصاب الشعب ، سبب النزلة الشعبية والالتهاب الرئوي . وبعد ٣—٥ أيام تتحول البقع الجلدية الى نفاطات صغيرة مقعرة يملؤها سائل رقيق ، ثم يتغير شكل هذا السائل في اليوم السابع ويصير صديديًّا مشمشاً أغبر ، ويعرف هذا الدور بالدور البثري

بعد ثلاثة أيام تقريباً تجف أغلب الارتشاحات الصديدية التي تملأ البثرات وتكون قشوراً ، وهذه تسقط في مدة لا تزيد على خمسة ايام تاركة حفراً صغيرة . وبمجرد تكوين القشور ،

تنخفض درجة الحرارة . ويحدث عن هذا المرض مضاعفات كثيرة اذ يذوب الجلد في كثير من اجزائه خصوصاً حول العينين والمنخرين ، وتتقرح القرنية ، وقد يترتب على ذلك أن يفقد الحيوان بصره ، واذا اشتدت الحالة تحدث تسمم صديدي عام ينفق بعده الحيوان ، وللوقاية منه تتبع الارشادات الآتية :

١ — تنظيم الغذاء واعطاء أغذية سهلة الهضم كالأعشاب والبرسيم واضافة قليل من الملح الانكليزي على مياه الشرب

٢ — الحيوانات المصابة اصابة شديدة يجب ذبحها ، واعدام الرأس والجلد والانتفاع باللحم ان كان صالحاً للأكل

٣ — تطهير العينين والاجزاء المصابة بمحلول مطهر

٤ — اتخاذ جميع الاحتياطات لمنع نقل العدوى إلى المناطق السليمة ، واجراء التطعيم الضروري مع حقن المخالط باللقاح الواقي

وهنالك نوع من الجدري يصيب الماشية ، وتنتقل اليها العدوى — في غالب الاحيان — بواسطة الحلابين او غيرهم اذا اتفق تطعيمهم بلقاح الجدري حديثاً ، وتنتقل العدوى منهم الى الضرع اثناء عملية الحليب . والوقاية من هذا المرض ، تنصح بغسل الضرع والحلمات بعد كل حليب بمحلول [illegible] الصوديوم ١٪ أو محلول ملح الطعام [illegible]

﴿ مرض الكلب Rabies ﴾ : مرض معد يؤثر في المراكز العصبية فيحدث هيوجاً خاصاً في الجسم ، وتشنجات في العضلات ، وهو يصيب جميع الحيوانات وكذا الانسان [illegible] عام ، وذات الناب كالكلب والهر بصفة خاصة . وتختلف مدة حضانة المرض من أسبوعين الى شهرين وقد تمتد الى ثلاثة شهور او اكثر ، ومدة سيره اسبوع على انه يكون [illegible] الماشية لا ينجو منه مصاب ، الا اذا عولج بعد العقر مباشرة

تحدث العدوى الطبيعية بالعقر ، اذ يدخل الفيرس المحمل به اللعاب في جسم الحيوان السليم خلال [illegible] الحادث ، وقد لوحظ ان اللعاب يكون محملاً بجراثيم المرض مدة ثلاثة ايام قبل ظهور [illegible] الاعراض ، وتتوقف خطورة الاصابة على قوة الفيرس ومقدار اللعاب [illegible] الجرح الحادث ، وعدد الاوعية الدموية واللمفاوية ، والاعصاب التي [illegible] عقر الحيوانات آكلة اللحوم أشد خطورة من غيرها ، وذلك بالنسبة لشكل الاسنان [illegible] كما أن الخطورة تتوقف ايضاً على مركز الاصابة ، فكلما قربت من المركز العصبي العام ازدادت خطورتها ، كما انها تختلف ان كانت الاصابة فوق جزء عار او مغطى بالصوف او الشعر او الملابس ، اذ أن هذه كلها تمتص جزءاً عظيماً من اللعاب فتلطف من حدة الاصابة الى حد كبير

واعراض هذا المرض تكاد تتشابه في جميع الحيوانات ، وتتأثر الحيوانات الصغيرة السن اكثر من الحيوانات المسنة ، وفي جميع هذه الحالات يتأثر الجهاز العصبي وتنتهي الحالة بالموت السريع

وللمرض نوعان: نوع ساكن ونوع تهيجي ، والواقع انهُ لا يوجد حد فاصل بينهما ، اذ قد ينقلب احدهما الى الآخر اثناء سير المرض . وللنوع التهيجي ثلاثة ادوار :

(١) دور الكآبة Melancholic (٢) دور الجنون Mania (٣) دور الشلل Paralysis

ويلاحظ في الدور الاول ان عادات الكلب تتغير ، فهو يطلب العزلة والانفراد ، بل انه وهو الوفي الامين ، ينكر معرفته لصاحبه ، ويتحاشى مقابلته او الالتقاء به فيختبيء في الاماكن المظلمة . ومن ثمَّ ينتقل هذا الدور الى دور الجنون ، فيشتد هياجه اشتداداً عظيماً ويعض كل من يقابله دون اي تمييز بين العدو والصديق ، وفي فقدانه لوعيه يبتلع قطع الحجارة والورق وكل ما يصادفهُ من أدوات المنزل ، كالسجاد والخشب والمسامير وغيرها. ومن غريب ما لوحظ من طبائع هذا المرض ، ان الحيوان المصاب به يخاف خوفاً شديداً جداً من الماء ولم تعرف الحكمة في هذا الخوف ، ولذا أطلق عليه Hydrophobia ، ينتقل الحيوان بعد ذلك الى دور الشلل ، فتنشل العضلات الفكية ، ويستمر امتداد الشلل الى بقية أجزاء الجسم ، ثم يقضي الحيوان نحبه في اليوم السادس او السابع

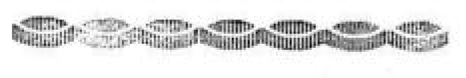
واما في النوع الساكن ، فينتقل الحيوان المصاب من دور الكآبة الى دور الشلل مرة واحدة . ويلاحظ ان طبائع الحيوان الخاصة تؤثر في مظاهر المرض ، فالحصان يرفس والثور ينطح وهكذا . ولما كان كل منا معرض لمشاهدة احدى حالات هذا المرض ، لهذا نلفت النظر الى هذه الاحتياطات الواجب مراعاتها :—

١ — يجب ضبط الحيوان العاقر واخطار رجال الادارة حتى تتسلمهُ

٢ — يرسل الشخص المصاب الى مستشفى الكلب حالاً ليأخذ الحقن الوقائية اللازمة لمدة ٢١ يوماً

٣ — يوضع الحيوان العاقر تحت المراقبة لمدة ١٥ يوماً ، فان كان مصاباً بالمرض نفق خلالها ، واما اذا مات الحيوان قبل ضبطه فلا بد من اعطاء حقن وقائية للمصاب

تبين لنا مما تقدم تلك الاهمية الاقتصادية العظمى التي للفيرس ، فهو يصيب النبات والحيوان بأمراض معدية وفي منتهى الخطورة ، ولهذا كانت دراسة خواص تلك الاحياء ، ومحاولة الكشف عما خفي من أمرها ، خدمة جليلة للانسانية قاطبة . والفيرس لا يقتصر في هجومه على النبات والحيوان فحسب ، بل ان كثيراً من الامراض الشديدة الوطأة على الانسان تسببها تلك الكائنات ، مثل الانفلونزا والجدري والحصبة والصفراء ، وهذه نترك التكلم عنها للاطباء ؟ رضوان محمد رضوان



التقدير الفني

بين النظرتين العلمية والفنية

لعلي أدهم

عندما نحاول أن نتعرّف مظاهر هذا الكون الغاص بالمجاهل والغوامض والحافل بالاسرار والاعاجيب نسلك طريقين ، طريق الفن وطريق العلم ، فكل حقائق الحياة وما تحتويه من عواطف واهواء وخواطر وآراء وموجودات وكوائن مضطرب واسع يتسابق فيه العلم والفن ويتباريان في الوقوف على دقائقه والكشف عن اسراره . والنظرة العلمية للكون تتناول الاشياء من الناحية التحليلية فتحصي صفاتها وخواصها ، وتلحق النظير بنظيره ، وتنظم الأشباه في عقد واحد ، وترد مختلف الاشياء إلى طبقات وأنواع وطوائف وأجناس ، وينتهي بها فرط التحديد والتقسيم الى ربط الأشياء جميعها برباط واحد وهو علاقة السبب بالمسبب . أما النظرة الفنية فهي نقيض النظرة العلمية لانها تقبل على الاشياء في ذاتها وتلمح خصائصها الفذة ومزاياها الفريدة ، ولا تعبأ بالخارجيات والروابط والعلاقات ، وإنما تتأمل فيها ما يملأ الحواس ويفعم الشعور ، فالكون في نظرها كلية عامة مكونة من كليات صغيرة كاملة في ذاتها قائمة بنفسها حرة في نظامها

والنظرة العلمية بتحليلها للمظاهر تنزع الجمال من الاشياء وتذهب بالروح والرونق وتشرف بك على الكون بحراً تتضارب فيه امواج التغيرات والاحداث المتتابعة وتتصارع فيه العناصر وتتعانق ، وتلتقي وتفترق ، وتتركب وتتحلل ، وتستمر هكذا على الدوام في فيض متتابع ، اما النظرة الفنية فتشرف بك على الكون كاسياً بالبهاء رائع المظهر تسمع خلاله انغام الآباد وتلمح صور الخلود . والنظرة الفنية والنظرة الدينية منشقتان من نبع واحد ، وكما أن النظرة الدينية تستشف من وراء مظاهر الكون علة العلل وقدس الاقداس ، فكذلك النظرة الفنية ترى الكون قصيدة رائعة الفاظها مظاهر الاشياء ومعناها الجليل مستتر خلال تلك المظاهر الخلابة ، ومن ثمّ امتزاج الاساطير الدينية بالقصص والاشعار في أديان الامم القديمة وآدابها ، والنظرة الفنية ترى في كل مظهر من المظاهر تحفة من معروضات الفن تثير الخيال وتهز النفس وتفتح اغلاق القلب ، وفي عصور القوة تغلب النظرة الفنية على النظرة العلمية ، اما في العصور التي تضمحل فيها القوى وتذوى الغرائز فتتصدر النظرة العلمية ، على ان النظرتين لازمتان وكل منهما مكملة للأخرى

والتقدير الفني الصادق لمنشآت الفن ونفائس الادب يقتضي وجود عاملين هامين وهما الاستقراء التاريخي ثم الخيال اليقظ المتدرب والذوق السليم المهذب ، ولا بد من تآخي هذين العاملين ، فقد يقترن الاستقراء التاريخي الواسع بالخيال الكسيح الواني والقلب المغلق الفاتر والذوق الفاسد السقيم فيحول ذلك دون تذوق الفن وتقديره ، والمؤرخ الذي لم يرزق حظاً وافراً من الذوق وقوة الخيال ليس في وسعه ان يرتفع الى سماء الفن وعالم التقدير الفني ولو وقف على تلال عالية من المعلومات والاسانيد والوثائق التاريخية ، ولا يمكن ان يتغلغل الى ارواح الفنانين ونفوس الرجال العمليين او ان يسلك طريقه الى لباب الحوادث الكبيرة المعقدة لان استشفاف كنهها والخلوص الى سرها في حاجة الى الرؤية الموفقة والزكانة الملهمة ، فهو يظل خارج حجرات نفائس الفن ومقاصير الارواح وان كان عمله قد يفيد بعض الفائدة اذ يمهد الطريق ويرفع المنائر لمن يجيء بعده من الموهوبين

وكذلك الناقد القوي الخيال السليم الذوق اذا اكتفى بالتعويل على ذوقه الخاص ولم يجل جولته في نواحي الماضي ولم يهبط الى اعماقه تعذر عليه أن يفهم الاشياء على حقيقتها ولم يغن عنهُ ذوقه ولا خياله. وقصاراه ان يقدم لك افكاراً لامعة عن اشياء لفقها خياله المرح ووشاها الوهم والظن وعمله قليل الجداء وسعيه باطل عقيم فلا هو يعد من جامعي الآثار وممهدي الطريق ولا هو يحسب من رجال الأدب والفن

على ان اجتماع الاستقراء التاريخي والذوق الفني ليس كافياً لينشأ منهُ مؤرخ آداب وناقد فني من الطبقة الاولى ، اذ لا بد من توفر ميزة اخرى خطيرة الشأن وهي المقدرة على التعبير وقوة الوصف والتمثيل ، فاذا استكمل المؤرخ هذه الشرائط واستوفى ناقد الفن كل تلك الحدود فهنا تظهر المؤلفات الخالدة في الادب والنقد والتاريخ تلك المؤلفات التي تبدأ عصوراً فكرية وتزخر تيارات الافكار وتجلو العصور الغابرة أبهر جلوة وتعرضها أجمل عرض وأصدقه وتبعث الماضي الدفين من قبره حيًّا ملموساً وتشارف منها ارواح المؤلفين والفنانين ونفوس العظماء البارزين في جلالها وتألقها، بل تكاد تدميها اذا طعنتها كما قال الناقد الاميركي لول عن صور كارلايل التاريخية

وأصدق الطرق لفهم عبقرية من طراز عبقرية شكسبير وتقديرها تقديراً فنيًّا هي ان نضع انفسنا مكانه ونرتفع بخيالنا الى مستواه ، وفي حياتنا الدارجة الرخيصة تفصلنا عن شكسبير وأمثاله مسافات شاسعة وابعاد لا تقاس بالامتار ، ولكن في اوقات التأمل الفني الخالص القائم على صحة الاستقراء التاريخي لحياة شكسبير وعصره وعلى سلامة الذوق وحيوية الخيال تتصل روحنا بروحه وتسري نفسنا مع نفسه ، وفي هذا الاتصال الفني بارواح العظماء تعظم الروح وتتسع آفاقها وتترامى حدودها في عوالم الارواح وتحلق في سماوات الخلود ، ولا عبرة بتفاوت العبقرية بين شكسبير وناقده الفني وقارئه البصير فان الفرق بين العبقري الكبير وسائر الناس فرق نسبي وليس بالفرق

الجوهري ، وقد يكون شكسبير عبقرية كبيرة وناقده عبقرية صغيرة ولكنهما من معدن واحد ولو كان هناك فرق جوهري بين الباقرة وسائر الناس لانقطعت العلاقة بينهم وبين الناس ولعاش كل عبقري ملفوفاً في دخان من الغموض فلا يدنو منه انسان ولا يدنو هو من انسان

والتقدير الفني الصادق لمسائل الاخلاق والتاريخ والاحوال الاقتصادية والسياسية يجري على هذه الطريقة وبقي. الى تلك السنة ، ففي التاريخ لا نستطيع ان نقدر حادثة من الحوادث دون ان نقف على نصوص وتفاصيل كافية لتصورها على حقيقتها ، ولا يمكن الحكم على عمل من الاعمال الاخلاقية الا اذا وضعنا انفسنا مكان صانعه وأحطنا علماً بكل الظروف التي اكتنفته والمؤثرات التي أثرت فيه والا ظل الموقف غامضاً وكانت احكامنا مظنة الخطأ وسوء التقدير ، والتفسير التاريخي للاشياء يفتح الطريق للتقدير الفني وهذا هو سر السرور العظيم الذي يستخف جماعة المفكرين عند عثور علماء العاديات على أثر من آثار الماضي لانه يكمل النقص ويسد الفجوات في تصورنا للماضي ويدنينا من التقدير الفني الصحيح للحضارات الغابرة والامم السالفة

وللاستاذ وندلباند الفيلسوف الالماني رأي ساقه في عرض كلامه عن «المادة» في كتابه النفيس «مقدمة الفلسفة» يقارب ما اذهب اليه في تقرير ما للتقدير الفني من شأن قال «الفردية لا توصف وانما يشعر بها ، وهذا يصدق عن الشخصيات الكبيرة مثل نابليون وشكسبير وجيتي وبسمرك وهو يصدق ايضاً على الشخصيات البارزة في الادب مثل هملت وفاوست ، وانا نستطيع ان نعبر باللفظ عن كل عمل من اعمال العظماء وان نفي كل صفة من صفاتهم حقها من الوصف ، ولكن العنصر السائد المسيطر على الاعمال والصفات يجب ان يحس به ويجرب ، ومن ثم لا يلمح هؤلاء الذين يعبرون بالمقارنات والمشابهات الطبائع الخاصة لشخصية من الشخصيات والافراد وصفاتهم الفردية من الاشياء التي لا تدرك بالعقل . ومن اللازم أن يحس القارئ بظلال الفردية من ناحية الفن وتوصيف حياة الافراد في كل طور من اطوارها حتى تظهر صورهم لعين القارىء وحدة حية كما راءت في الحياة ، ويمكننا بالتحديد التاريخي ان نفهم ونفسر العناصر المختلفة في طبائع الافراد لان كل ما يتعلق بمظهرهم التاريخي خاضع للعقل ، ولكن في نهاية الامر نرى ان مادة فرديتهم متوقفة على تلك «الوحدة» التي لا يعبر عنها والتي لا يمكن ان تصير موضوعاً للفكر والبحث لانها شيء يلمح بالبداهة ويدرك بالبصيرة الواعية»

وكل شيء ازاء التقدير الفني يحمل مقياسه ومثله الأعلى في مطاويه ، فليس هناك مقياس عام توزن به الاشياء وانما لكل شيء مقياسه الخاص الذي لا يصلح لسواه ، فلكل حضارة من الحضارات وعصر من العصور وأثر من الآثار وعظيم من العظماء ميزان خاص متصل بأحواله ومستوى عصره ، وانا نتورط في الخطأ ونغمط الناس فضلهم اذا تمسكنا بمقياس واحد ونظرنا الى كل شيء من زاوية بذاتها ، فالحضارة اليونانية لا تقاس بمقياس الحضارة الرومانية

ولا توزن حضارة بابل وحضارة الصين بنفس الميزان ، ولقد وقع في هذا الخطإ المؤرخ الكبير بكل (Buckle) هو واضرابه ممن يرون ان تقدم الانسانية رهن بتقدم العقل وتغلب قوانين العقل على قوانين الطبيعة ، فكانوا يرون في العصور الوسطى عهد ظلمة وركود وجهل مطبق وسخافات ذائعة وخرافات شائعة ، والعصور الوسطى تبدو كذلك لمن حاول وزنها بميزان العقل المدرك والتقدم الفكري ، ولكن للعصور الوسطى مقياساً آخر لانها لم تكن عصر عقل واستنارة وانما كانت من تلك العصور التي يخمد فيها العقل لتثور العاطفة ، كانت عصور عواطف عميقة ومشاعر جميلة رقيقة تجلت فيها الروح الدينية وبسطت سلطانها على النفوس وألهمت الفنانين القدرة على تشييد الكنائس البديعة وصنع التماثيل المتقنة والصور الخالدة ، وسادت فيه اقاصيص الفروسية واعمال القديسين الاطهار التي يتجلى خلالها صفاء الروح ويتنسم منها اريج التقوى ، ولقد اخذ العقل قسطه في الحضارات السالفة ، اما في العصور الوسطى فنال القلب نصيبه ، فهي اذا قيست بمقياسها الصادق مقياس العاطفة عصر زاهر مشرق ، وقد علل الفيلسوف الألماني هارتمان ازدهار الحركة الادبية الكبيرة في المانيا في اوائل القرن التاسع عشر بما عمقتهُ حياة العصور الوسطى من نفوس الالمان وما أفسحتهُ لهم من مجالات الخيال والتصور

ويصدق هذا كذلك عن العظماء ، فالعظيم في الحياة العملية مثل نابليون والاسكندر وهانيبال لا يقاس هو والقديسون ورجال الفكر والفن والانبياء بمقياس واحد فمن الخطإ ان نلتمس في حياة نابليون دلائل رقة العاطفة وعذوبة الروح ونقاوة الفضيلة الى غير ذلك من شمائل الانبياء والفنانين لأن سر عظمته قائم على ضخامة الانانية وفرط الدنيوية ، وقد روى أحد المؤرخين عن القديس الشهير سنت فرانسيس انهُ أراد ان يثبت للناس حبه للفقر وايثاره مظاهر العوز والحاجة فمشى في الطريق وسط جمع حافل من الناس مجرَّداً من ثيابهِ ليعطيها لأبيه. وظهر مرة على المنبر وقد تجرد نصفه من الثياب ومشى في الطريق والاطفال تعدو وراءه صائحة المجنون! المجنون! وهو من النبل وسمو الروح بحيث حاز اعجاب دانتي وأوحى الى الكثيرين من رجال الفنون — ولا يزال يوحي — طوائف من اسمى الافكار وأعلى المشاعر ، ولو اننا قسناه بمقياس صغار الاطفال او بمقياس من المقاييس العلمية الجديدة لالحقناه بالمجانين وشواذ الخلق ، والحقيقة أن كل مظهر من المظاهر الفنية او الدينية أو العملية يجب أن يقاس بمقياسه الخاص والاَّ كنا كالذي يحاول ان يميز الالوان بسمعه ويختبر الأنغام ببصره ويزن الدر والذهب بميزان الاحجار والصخور ، وليست هناك مقاييس مطلقة ولا موازين عامة ، وليست الحياة قوالب متشابهة ولا نسخاً متكررة ، والعالم بما فيه من خير وشر وفوضى ونظام وحدة كلية لكل شيء فيها مكانه المناسب وأقرب طريق لادراك ذلك ان ترى الحياة في ضوء الشعور والوجدان وتلمح الوجود بنواظر الشاعر والفنان

مياه الشرب

انواعها وأساليب تنقيتها

للدكتور حسن كمال

﴿ مقدمة تاريخية ﴾ اهتم الاقدمون بماء الشرب وساهم في ذلك أجدادنا بقدر كبير يشرف الوطن ويعلي من قدره شأنهم في ذلك شأن كل امة حية ترنو الى العلياء لا تطمئن الى السكون ولا تألف الكسل

فمنذ أقدم العصور التاريخية نجد قدماء المصريين قد شادوا مقاييس النيل في جهاته المتعددة وسجلوا ارتفاعاته السنوية كما هو وارد على حجر (بالرموز) الذي يرجع تاريخه الى ما قبل عهد الفراعنة . وهم اول من انشأ الجسور لحبس المياه وابتكر لتوزيعها نظام الترع وأقام لخزنها الخزانات كما هو واضح في مديرية الفيوم ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ قبل الميلاد) . والى اجدادنا ايضاً يرجع الفضل في استخراج المياه الجوفية للشرب والفلاحة فحفروا الآبار الكثيرة بوادي النيل والصحراء لهذين الغرضين . ثم ابتدعوا طريقة تخزين المياه في الصهاريج . ولما تقدموا وارتقوا خصصوا لمنازلهم دورات مياه صحية وضعوا بها الاواني الخزفية لتقاوة الماء

وما الشادوف والساقية الا بقايا تلك المدنية العظيمة . فلما جاء العصر الاسلامي بدأنا نرى القوم يشيدون مجاري لمياه الشرب مرتفعة على عقود معمارية تعرف عند عامتنا باسم القناطر وعند الفرنجة باسم (aqueduct) كالتي شادها السلطان محمود الناصر عام ١٣١١ ميلادية (وقد كانت سابقاً منسوبة الى صلاح الدين الايوبي) ورممها السلطان الغوري وهي التي تبدأ من باب قاية باي وتنتهي في فم الخليج ويبلغ ارتفاعها حوالي الخمسين متراً

***

﴿ انواع المياه ﴾ الى هنا نكتفي بتاريخ مياه الشرب . والآن نلمس جهات الموضوع المتعددة فنقول أن مياه الشرب تؤخذ عادة من الانهار أو البحيرات وتسمى حينئذ المياه السطحية (Surface Water) او الآبار ويقال لها المياه الجوفية (Ground Water) أو الأمطار المخزونة

في الصهاريج . وبديهي أن كل هذه المياه ترجع في الأصل الى مياه الأمطار لكننا قسمناها هنا هذا التقسيم لأنهُ أقرب تقسيم الى الوجهة الصحية من غيره

***

﴿ اما المياه السطحية ﴾ مثل مياه الانهار والبحيرات فهي مياه تتساقط على مناطق مرتفعة أو جبلية كمياه بحيرات فيكتوريا نيانزا وتانا . ومياه الامطار قبل وصولها الى هذه البحيرات تجرف معها كل ما يعترضها حتى تصل البحيرة . فاذا كانت الاراضي المجاورة غير صحية تحوي القاذورات او كانت تحيط بها مدن غير صحية انتقلت هذه الاضرار الى مياه تلك البحيرة والانهار الخارجة منها . والثابت انهُ كلما بعدت هذه المياه عن المساكن البشرية كلما زادت نقاوتها وكانت صالحة للشرب خالية من الامراض

وتشييد المنازل وانشاء المدن على ضفاف الأنهر لهُ خطره لأنهُ اذا لم تتخذ الاجراءات الصحية فإن قاذورات تلك المساكن تصل الى النهر وتلوّث ماءه . والمقصود بالقاذورات هنا المواد البرازية والنفايات . فاذا كانت المواد البرازية تقذف رأساً في النهر كان التلوث مستمراً . اما اذا كانت المنازل مستوفية شروط الصحة وكانت القاذورات يسمح لها بالبقاء في الشوارع فان التلوث حينذاك يكون رهن الامطار أو بعبارة أخرى يكون متقطعاً . والغالب في وادي النيل أن هاتين الوسيلتين حاصلتان

والقاء القاذورات في الانهر يسمم المياه بالجراثيم المختلفة كالكولرا والزحار والتيفود . اما القاء متخلفات المصانع وعلى الاخص الكيمائية في الانهر فيفسد طعم الماء ويكسبه رائحة كريهة ويحدث تسمماً كيمائيًّا والى جانب هذين الوسيلتين تضاف وسيلة ثالثة لتلويث الانهر وهي القاء القاذورات من البواخر والسفن النهرية

***

﴿ المياه الجوفية ﴾ اذا هطل المطر انحدر الماء في الاودية حتى يصل الى النهر وهذا يجري حتى يصب في بحر أو بحيرة . لكن هناك مقدار كبير من مياه الامطار يخترق طبقات الارض العليا الى ان يصل الى طبقة صلبة تعوق سيره . وحينئذٍ تبقى هذه المياه محفوظة في طبقة الارض العليا . وكلما كانت مياه الامطار غزيرة كلما قربت المياه الجوفية المذكورة من سطح الارض . كذلك اذا كانت الطبقة الصماء قريبة كانت المياه الجوفية قريبة أيضاً من سطح الارض . والعكس بالعكس

وللوصول الى هذه المياه الجوفية طريقتان الاولى حفر الآبار والثانية ارسال أنابيب الطلمبات . وفي الحالة الأخيرة يختلف طول الانابيب باختلاف بعد المياه عن سطح الارض

وقد علمتنا التجارب انهُ اذا ارسلت انابيب الطلمبات في جوف الارض الى مسافة بعيدة فانها تخترق الطبقة الصماء الحابسة للمياه السطحية فتصل الى مياه جوفية عميقة . وأظهر لنا الفحص الطبي أن اغلب المياه الجوفية العميقة تختلف كثيراً عن المياه السطحية . واذا نظرنا الى الشكل رقم ١ وجدناه يمثل قطاع أرضٍ فيه (ا ب) سطح الأرض وفيه منطقتان مخططتان بخطوط مائلة تمثلان طبقتين صمّاوين مانعتين لتسرب المياه الى اسفل . وعلى ذلك فالمطر الهاطل على السطح بين (ا وب) يتسرب في التربة السطحية حتى يصل الى الطبقة الصماء العليا . والطلمبة رقم ١ تستخرج هذه المياه المعروفة بالمياه السطحية . اما الطلمبة رقم ٢ فتخترق الطبقة الصماء العليا وتصل الى طبقة سفلى مياها آتية من الامطار الهاطلة ايضاً ولكن من مسافات بعيدة تقع فيما وراء (ا) مثلاً . ولما كانت عناصر تربة الأرض فوق الطبقة الصماء العليا تختلف غالباً عن عناصر التربة اسفل هذه الطبقة كانت الاملاح في مياه الطلمبة رقم ٢ مختلفة عنها في مياه الطلمبة رقم ١

واذا كانت الاراضي التي تهطل عليها الامطار المغذية للطبقة الجوفية السفلى (اي الواقعة فيما وراء (ا) مثلاً) عالية علواً كافياً نبعت مياه الطلمبة رقم ٢ بشكل عين ارتوازية

بهذه الطريقة امكننا تقسيم المياه الجوفية قسمين مياه جوفية سطحية ومياه جوفية عميقة

***

ودلتنا المباحث ان المياه الجوفية تتنقّى بمرورها في طبقات الارض وان المياه الملوثة اذا اخترقت طبقة رملية أو طينية قلّت اضرارها واصبحت صالحة للشرب . وكلما كانت المياه الجوفية السطحية قريبة من سطح الارض كلما قلّت نقاوتها وكلما بعدت كلما زادت نقاوتها . وعلمتنا التجارب ان معظم المياه الجوفية السطحية غير صالحة للشرب وان اغلب المياه الجوفية العميقة نقية وصالحة للشرب . والسبب في ذلك ان المياه الاخيرة تخترق في سيرها طبقة رمال وطين سميكة تقاس غالباً بمسافات بعيدة

ويستعمل اهل الريف المصري البعيد عن النيل المياه الجوفية السطحية لشربهم . وذلك اما بطريق الآبار واما بطريق الطلمبات . واغلب هذه المياه ملوث غير صالحٍ للشرب لاسباب عديدة منها قربهُ للمراحيض أو المصارف . ومنها تسرب القاذورات من اقدام الاهالي حول الطلمبة الى جوف الارض . لذلك حتم بعضهم رفع مستوى الارض حول الطلمبات من هذا النوع كي يمنع تسرب القاذورات إلى جوف الارض

ومياه العيون مياه جوفية تختلف سلامتها وصلاحيتها للشرب بكونها سطحية أو عميقة . وليس سهلاً دائماً معرفة أصل مياه العيون وكثيراً ما اتضح لنا أن بعض العيون هي في الحقيقة مياه تصافٍ لجرور مجاور

وتحتاج مياه العيون الى نفس الاحتياطات التي تتطلبها مياه الطالبات السطحية كوجوب تمرير المياه المذكورة داخل أنابيب تنتهي بحنفيات خاصة تمنع الاتصال المباشر بها

***

﴿ طرق نقاوة مياه الشرب ﴾ أسهل هذه الطرق هو الغلي. لكنهُ صعب الاتباع في المدن. لذلك عمد القوم الى طرق عملية. واسهل هذه الطرق هي طريقة التخفيف (dilution) والتخزين Storage والترسيب Sedimentation وذلك في خزانات كبيرة. واتضح أن هذه الطريقة تقتل معظم الجراثيم بسبب قلة التغذية أو تأثير اشعة الشمس أو اغتيال الجراثيم بحيوانات مائية متباينة لكن هذه الطريقة لا تكفي لنقاوة المياه الشديدة التلويث حتى تجعلها صالحة للشرب

وأهم وسائل نقاوة مياه الشرب هو المرشح الرملي الذي ابتكره عام ١٨٢٩ ميلادية المهندس الصحي الانكليزي Simpson وهو موضح في الشكل رقم ٢ وفيه تشاهد أن المياه تتسرب من أعلاهُ إلى أسفله مخترقة أولاً طبقة الرمل الناعم ثم الرمل الخشن ثم الحصى الناعم ثم الحصى الغليظ. وفي أثناء مرور المياه بطبقة الرمل الناعم تتكوَّن طبقة قذارة فوق الرمل المذكور تعرف صحيًّا باسم (غطاء القذارة) Schmutz decke وهي ذات فائدة عظمى لأنها تمنع مرور الجراثيم منها. ولما كان تكوين هذه الطبقة يتطلب بضعة أسابيع فان هذه المرشحات لا تأتي بالفائدة المرجوة الاَّ بعد تكوين الطبقة المذكورة. لكن بعد مدة طويلة يصبح (غطاء القذارة) سميكاً لدرجة يمنع مرور المياه بسهولة. لذلك يتحتم ازالة هذه الطبقة من آن لآخر كلما تطلب ذلك صالح العمل

وأصلح القوم بعد ذلك هذه الطريقة فأضافوا الى المياه قبل ترشيحها بعض الشب (Alum) قصد ترسيب ما تحويه المياه من مواد هلامية. وهذا الراسب يقع على سطح مياه الرمل الناعم ويقوم مقام غطاء القذارة الآنف الذكر

ولما كان تكوين الطبقة الهلامية المذكورة سريعاً كان في الوسع الحصول على مياه صالحة للشرب منذ أول استعمال المرشح. وتزال الطبقة الهلامية المذكورة بعكس مجرى المياه في المرشح من اسفله الى اعلاه فتقذف بذلك الطبقة الهلامية السميكة الى الخارج. ثم تعاد العملية كما بدأت من جديد

ودلتنا الاحصائيات على ان كل بلد يستعمل مياه الشرب المرشحة تقل فيها الامراض التي تفشى بهذه المياه مثل الحمى التيفودية. وهناك طريقة أخرى لاصلاح الماء للشرب وذلك باضافة غاز الكلورين اليه — وهي طريقة سهلة أكيدة المفعول كثيرة الاستعمال وكثيراً ما يجمع بين هذه الطريقة وبين المرشح الرملي. وأول من ابتكر تعقيم المياه بالكلورين هو جونسون Johnson عام ١٩٠٨. والمستعمل الآن هو غاز الكلورين المضغوط الى درجة السائل والمحفوظ

داخل اسطوانات كالتي يحفظ فيها سائل غاز حامض الكاربونيك . ويعقم ماء الشرب بالكلورين بمزجه بنسبة ٠,١٪ جزء من الكلورين الى ٠٠٠ر٠٠٠ر١ جزء من الماء . وهذه الطريقة لاتقتل كل الجراثيم إلا انها تهلك السواد الأعظم منها وعلى الاخص ميكروب التيفودية وباشيلس القولون

بعد ذلك ابتكر (داكن) (Dakin) طريقة سريعة لتعقيم مياه الشرب باضافة مادة الكلورامين (Chloramins) اليها

وهناك طريقة اخرى لتعقيم مياه الشرب بواسطة تسليط الأشعة تحت البنفسجية على الماء . ويشترط في ذلك ان تكون المياه رائقة غير حاوية للمواد الطينية

ويجدر بنا في هذا المقام ان ننبه القارىء الى المرشحات المنزلية وهي مرشحات يقصد بها الاستعمال الوقتي . والمرشحات المفيدة جداً باهظة الثمن . أما الرخيصة فضررها أكثر من فائدتها . وأحسن المرشحات المنزلية هي المعروفة باسم Pasteur و Berkefeld وهي اسطوانة معدنية خارجية داخلها اسطوانة خزفية تعرف « بالشمعة » . يدخل الماء اولاً بين الاسطوانتين وتحت تأثير الضغط يخترق الماء مسام « الشمعة » ويخرج منها معقماً صالحاً للشرب ومنعاً لنمو الجراثيم في مسام الشمعة يجب تنظيفها بين حين وآخر ثم تعقيمها داخل الفرن قبل اعادة تركيبها

***

« مراقبة أجهزة مياه الشرب » يجب مراقبة هذه الاجهزة صحياً وتحليلياً ولا يمكن الاستغناء عن احدى الطريقتين . والفحص التحليلي كيمياني وبكتريولوجي . والتحليل الكيمياني يتناول قياس المواد الازوتية وبعض الاملاح مثل الفوصفات والسلفات والكلوريدات . اما الفحص البكتريولوجي فيتناول مقدار الميكروبات في السنتيمتر المكعب وعمل الخبرات لباشيلس القولون . وهذا الاخير دليل التلوث بالمواد البرازية المجاورة . ويعتبر بعضهم الماء الذي يحوي ١/١٠ من السنتيمتر المكعب منه باشيلس القولون ملوثاً وغير صالح للشرب بدون ترشيح أو تعقيم

وقد قصرنا بحثنا على ماء الشرب ولم نتعرض لمياه أحواض الاستحمام التي ثبت أيضاً خطرها وامكان تفشي الامراض بواسطتها مثل الحمّى التيفودية وبعض امراض العيون والأنف والحلق ولذلك وضعت لهذه الاحواض قوانين صارمة في البلاد التي تستعملها كثيراً

لذلك نجد معظمها يشترط على كل شخص ان يغتسل بحمام الرذاذ (الدوش) قبل الدخول في حوض الاستحمام . كما نلاحظ انهم يمنعون البصق في مياه الاحواض . ويعقم بعضهم هذه المياه بالكلورين والبعض يغيرها باستمرار

اقطاب مصر الاقتصادية — ٢

احمد عبود باشا

لنقولا شكري

ثمرة واحدة من نخيل مصر ، أو عنبة واحدة من كرومها ، أو حبة واحدة من برها ، أو ريحانة واحدة من رياحينها ، دليل كل الدليل على ان التربة خصيبة ، خيرة ، تؤتي على حسن التعهد ما تنطوي عليها طبيعتها من ثمر وزهر

وهذا رجل من رجالات مصر الأفذاذ قد شق طريقه الى الذروة ، وضرب المثل الصادق على ذكاء المصري ، واستعداده الفطري لجلائل الأمور ، ونهض مثالاً فريداً نادراً على النبوغ القوي الأخاذ بسعة اطلاعه ، وغزير مادته ، ونعني به حضرة صاحب السعادة احمد عبود باشا .

وعبود باشا مثال الشخصية الوقور المحترمة السريّة البادية على أكملها في المظهر والكياسة والتزام المنطق في البحث ، وأدب الجدل والحوار ، ولطف المدخل على النفوس . بجانب ثقافة ممتازة ، واطلاع واسع وخبرة تلازمهُ في كل الظروف ، وهو الى هذا كله رقيق الحاشية ، حر السجايا ، سامي المكانة عند رجال المال بارز في الندوات والمحافل العالية

تقابله فتلقى رجلاً من الطراز الأول ، ناهز الخمسين من عمره ، اسمر اللون معتدل القامة ، متواضع السمت ، كثير الحركة ، تبدو عليه مخايل الثقة العظيمة بالنفس ، والرغبة العميقة في ان يعمل دون ان يتكلم ، على وجهه الباسم الهدوء العجيب والرقة والحزم معاً يحدثك في صوت هادىء ، وبعبارات سهلة ، فيبهرك بوفرة معلوماته ، لأنهُ دائم الاطلاع على الحركات الفكرية في العالم ، وهو يعيش مع اسرته عيشة غربية المظهر ، ولكنها شرقية بكل ما فيها من محافظة على التقاليد

ولد عبود باشا في القاهرة سنة ١٨٨٩ وتلقى علومهُ الابتدائية والثانوية في مدارسها . وقد كان حقًا ان تتهادى طفولته في أفانين من التربية الصحيحة فحرص على ان يشبع رغبة نفسه في دراسة العلوم الهندسية فسافر الى انجلترا وانتظم في سلك طلبة جامعة جلاسجو الشهيرة وأحرز شهادتها متفوقاً ثم لم يمض بعد ذلك غير قليل من الزمن حتى تفتحت حياته للناس جميعاً فآثر الأعمال الحرة حيث اضفى عليه النبوغ حلة من باهة الصيت في مطلع شبابه . وقد صرف اهتمامه واستخدم مواهبه في الفنون الهندسية فأحرز في الزمن القصير سمعة طيبة ارتفع بها اسمه . وطارت شهرته ، وكان طبيعيًا ان تستعين الحكومة العثمانية في ذلك العهد بكفاية هذا المهندس الشاب

فاختارته وزارة النافعة للقيام باعمال هندسية غاية في الدقة فقام بهذه المهمة احسن قيام وقد كوفيء على نشاطه وما أبداه من مهارة بالنيشان العثماني الرابع وهو من النياشين العثمانية الرفيعة . ثم أنعم عليه برتبة البكوية الممتازة . على ان نشاطه لم يقف عند هذا الحد فسافر الى العراق واشترك في أعمال الري الكبرى مع السر وليم ولكوكس الخبير العالمي حتى اذا أعلنت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ اشترك في انشاء سكة حديد بغداد. كذلك كان له السهم الأوفر في انشاء شبكة المواصلات بالسكة الحديدية في فلسطين وسوريا واختاره اللورد اللنبي بعد ذلك لانشاء طائفة من الجسور والدروب العسكرية في فلسطين وبذلك أصبح من اكبر مقاولي الجيش الانكليزي

وقد اتسعت أعمال عبود باشا وتشعبت بعد ذلك فانشأ عدة شركات صناعية في مصر وانكلترا وهذه الشركات تتولى انشاء السفن والسكك والجسور وهو الى هذا أكبر مساهم في شركة الأمنيبوس العمومية بمصر وفي غيرها من الشركات الصناعية والهندسية هذا الى العمل الكبير الذي نعده أجلّ عنصر في أعمال عبود باشا وهو تمصير شركة البواخر الخديوية بعد ان امتلك معظم أسهمها إذ كانت هذه الشركة في بداية أمرها شركة مصرية صميمة ولكنها انتقلت بعد ذلك الى أيدي الانكليز فما لبث عبود باشا ان اشتراها وأدخل عليها تحسينات جمة وسعى أخيراً في استصدار مرسوم ملكي بتسميتها « شركة خطوط البريد الفرعونية » وهذه الشركة من أقوى شركات الملاحة بما تملكه من الارصفة والاحواض الجافة في الاسكندرية والسويس وتعتبر الورش التابعة لها كمدرسة لتعليم الشبان المصريين فن انشاء السفن . وقد كان طبيعيًّا ان تستوقف اعمال عبود باشا انظار ولاة الامور في مصر فأنعم عليه حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول برتبة الباشوية في سنة ١٩٣٠ تقديراً لمكانته السامية بين رجال الاعمال وعلى الرغم من أنه قد ناهز الخمسين من عمره لم يفارقه نشاط الشباب بل ان الانسان لا يستطيع ان يستخلص من أعماله غير دلائل القوة والحزم والميل الى الانشاء . فان المهمة التي أداها حتى الآن في مضمار الحياة العملية تدل على المواهب العظيمة التي اوتيها في سبيل تحقيق طائفة من المشروعات الحيوية . واذا أردنا أن نتكلم عن هذه المهمة فلابد لنا أن ندرك بادىء ذي بدء المصاعب التي تعترض في بعض الأحايين اولئك الرجال الذين يعملون للنهضة التجارية والصناعية وهو كما نعلم سبيل شاق يحتاج دائماً الى ذكاء وتدبير وقوة على المغالبة. وقد تمثلت هذه المزايا كلها في شخصيته وفي هذه الدائرة سيظل اسم عبود باشا قدوة للنشء الذي يتحتم عليه ان يسير في الحركة الاقتصادية الى الأمام. فاننا بمقدار ما نخبر الصعاب التي تكون عادة في الطريق المحفوفة بالمنافسة والعراك ونعني بها طريق التجارة والاقتصاد نستطيع أن ندرك القوة العظيمة التي اختص بها رجل عصامي استطاع في وقت وجيز ان يحقق عدة من المشروعات لخير هذه البلاد ونهضتها ويضع في الوقت نفسه قواعد الاشتراك في العمل للمستقبل،

ويبني بيده تلك القنطرة العظيمة التي ستمر عليها الذريات المصرية الى الشاطىء الجديد

ونرى أن مجرد التفكير في ان مصر بلد زراعي قبل كل شيء ، وان استعداداته التجارية لا تزال محدودة وان الاجانب ما زالوا يحيطون حياة الاقتصاد والمال بسياج من المنافسة العميقة توحي الينا بمقدرة عبود باشا وذكائه وخبرته وما أوتي من قوة على مغالبة العوائق ، وان يكون لهُ الشأن الذي تقتضيه الحالة لأحياء الاقتصاد الأهلي وان ينحو على المثل الاوربية في انشاء المشروعات التي تستحث النشاط العملي وتبعث في الوقت نفسه امجاداً مندثرة . وبالاختصار استطاع ان يرسم طريقاً للعمل في تشييد مستقبل جليل يكون قدوة للجيل الجديد . ونحن اذا واجهنا مشروعات عبود باشا وطريقة اقتباسه للاساليب المستحدثة في الاعمال المالية الكبرى نطلع على علم واسع ودراية وخبرة . وجلي ان طبيعة العمل للترقي والعمران لا تخلو من جفاف وانها تحتاج الى مرانة طويلة ومناضلة ومقدرة حقيقية على التحقيق ، وان توفر ذلك من الحظوظ التي لا بد ان تتفق للرجل الطموح الذي يعمل للغايات النبيلة . وفي الحقيقة ان نجاح عبود باشا في هذه المهمة الحيوية وتانج علاقاته الواسعة بالاوربيين ولا سيما الانكليز قد عادت على البلاد بخير كثير . وستظل جهوده في هذا السبيل جديرة بالتأمل وقدوة للجيل الحاضر ، وسفراً يحتوي على كثير من مبادىء العمران

وبعد ، فهذه الصفحة المجيدة من التاريخ الحديث لمصر تنسب كلها الى مجهودات زعماء الحركة الاقتصادية التي يعد من ائمتها عبود باشا . ولا شك في ان مظاهر التقدم الاقتصادي التي تحيا بها هذه البلاد اليوم مدينة في الكثير الى صاحب ذلك الاسم والى الشركات التي اسسها وما لها من صلة بحياة مصر المستقبلة من الناحية المادية . فان انشاء هذه الشركات وحده يمثل نظاماً من احدث نظم الحياة المادية في الغرب المتمدن وكأن سعادته أراد ان يخلي مصر من عبء عظيم ، فاستطاع ان ينهض بتحقيق مهمة عظيمة لكي لا يعاب على الجيل الحاضر نقص النظام الاجتماعي

وصفوة القول أن من يلاحظ ما خلفهُ العصر القديم من آثار الخمول وعدم الاطمئنان للمستقبل في طبقات الشعب المصري يدرك مقدار الجرأة التي ابداها سعادته ، وكيف غامر في سلوك هذا السبيل وظهر ولم يبال بأقوال الذين كانوا يحسدون فيه الرجل المالي النظيم الخبرة والمهندس الواسع الاطلاع

وهناك ناحية اخرى ليست مجهولة في حياة عبود باشا وهي تلك الناحية المتعلقة بوطنيته فقد أقام الدليل على حبه لمصر بما كان يبديه من الاهتمام بشؤونها بما كان ينشر من المقالات في أمهات الصحف الانكليزية ليرد فرية او يظهر حقيقة من حقائق الحالة في مصر . كذلك لا ننسى اقدامه على التبرع لمشروع الدفاع الوطني بمبلغ عشرة آلاف جنيه تلبية لنداء الوطن

ونحن نستطيع ان نستخلص من كل هذه المجهودات وطنية حارة واخلاصاً عملياً منتجاً لمصر . وما فتىء عبود باشا حافظاً لهذه الميزة عاملاً في سكون وهو يعلم انهُ يعمل لأسمى غاية . ونرى ان هذه الشخصية التي اقتحمت الحياة المادية بجرأة ولم تبال بالمصاعب ستظل دائماً موضوع اعجابنا واعترافنا بالجميل

الحكمة المشرقية

العقل من وجهة النظر الاسلامية الصوفية

مذاكرة في العقل وشرفه وحقيقة اقسامه

لاحمد غلاوش

١ — بيان شرف العقل

العقل منبع العلم ومطلعه واساسه والعلم يجري منهُ مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين وشرف العلم عظيم جدًّا بحيث لا يستراب فيه فالبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل حتى ان اعظم البهائم بدناً وأشدها ضراوة وأقواها سطوة اذا رأى صورة الانسان احتشمهُ وهابهُ لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من ادراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الشيخ في قومهِ كالنبي في امته وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله. ولذلك ترى أجلاف الاتراك والاكراد وأجلاف العرب وغيرهم ممن تقرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع ولذلك تراهم يتوجهون اليهم ليحكموهم فيما ينشأ بينهم من خلاف في الرأي وينزلون عند حكمهم فيهِ

فشرف العقل مدرك بالضرورة وكفاه شرفاً ان العلم المستفاد منه قد اسماه الله روحاً ووحياً وحياة فقال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحاً من امرنا وقال سبحانه او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا لهُ نوراً يمشي بهِ في الناس . وحيث ذكر النور والظلمة اراد بهما العلم والجهل كقوله تعالى يخرجهم من الظلمات الى النور

وقال صلى الله عليه وسلم يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما امرتم بهِ ونهيتم عنه واعلموا انهُ ينجدكم عند ربكم

وقال عليه الصلاة والسلام اول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال لهُ أدبر فأدبر ثم قال الله عزَّ وجل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك بك آخذ وبك اعطي وبك أثيب وبك أعاقب

وعن انس رضي الله عنه قال اثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل فقال نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال صلى الله عليه وسلم ان الاحمق يصيب بجهله اكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع الناس غداً في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم. وعن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اكتسب رجل مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردى وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله . وقال صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم ايمانه واطاع ربَّهُ وعصى عدوه ابليس

وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته اما سمعتم قول الفجار في النار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير

وعن عمر رضي الله عنه انه قال لتميم الداري ما السُّؤدَد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال كثرت المسائل يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ايها الناس ان لكل شيء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلاً

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون فلان أشجع من فلان وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هذا فلا علم لكم به فقالوا وكيف ذلك يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم أنهم قاتلوا على قدر ما قسم لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فاذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم

وعن البراء بن عازب انهُ صلى الله عليه وسلم قال جدَّ الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجدَّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عزَّ وجلَّ أوفرهم عقلاً

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يارسول الله بمَ يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل قلت وفي الآخرة قال بالعقل قلت أليس انما يجزون بأعمالهم فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة وهل عملوا الاَّ بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء آلة وعدة وان آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعي العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ولكل امرىء عقب ينسب اليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون اليه ويذكرون به العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل

وقال صلى الله عليه وسلم ان أحب المؤمنين الى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عزّ وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح

وقال صلى الله عليه وسلم أتمكم عقلاً أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً

٢ — حقيقة العقل وأقسامه

اختلف الناس في حد العقل وحقيقته حتى كشف العلماء المقربون الى الله عن ذلك وأخصهم الملهمون الذين أضاء الله بصائرهم بنور القرب والطاعة فأوضحوا ان العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة وما يجري هذا المجرى

فالأول — الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي اراده بعض العارفين الحكماء وعبر عنه بقوله انهُ غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم النظرية وكأنهُ نور يقذف في القلب به يستعد لادراك الاشياء على ما هي عليه في ظاهر الامر

الثاني — من اقسام العقل هي العلوم التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد وان الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد وهذا الوصف هو ما قال به أهل المنطق وعلماء الكلام وهو صحيح في ذاته اذ هو التسليم الواجب بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ولا مشاحة في ان هذا الوصف من البداهة بحيث لا يحتاج الى بيان

الثالث — هي علوم تستفاد من التجارب بمجاري الاحوال فان من حنكتهُ التجارب وهذبتهُ المذاهب يقال انهُ عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال له غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً

الرابع — ان تنتهي قوة تلك الموهبة الفطرية الى قوة سامية تسمو بصاحبها الى إدراك

عواقب الأمور وقمع الشهوات الداعية الى اللذة العاجلة وقهرها وضبطها في نطاق محدود لا تتعداه بحال فاذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث ان اقدامه واحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه ايضاً من خواص الانسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان . وان كان بعض الحيوانات البهيمية يصدر منهُ ما يدل على نوع ما من هذا التبصر الاَّ ان ذلك في الواقع يكون عنده صادراً عن غريزة حيوانية لا عن عقل حقيقي (مسألة القرد وانتباهه)

فالقسم الاول هو الاس والأساس والمنبع

والثاني هو الفرع الأقرب اليه

والثالث فرع الاول والثاني ، إذ بقوة قبول العلوم الضرورية وبقوة هذه العلوم تستفاد علوم التجارب

والرابع هو الثمرة الاخيرة وهي الغاية القصوى لكل انسان عاقل

فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب. ولذلك قال علي كرم الله وجهه

رأيت العقل عقلين	فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع	اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس	وضوء العين ممنوع

والاول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ما خلق الله عز وجل خلقاً اكرم عليه من العقل

والاخير هو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء رضي الله عنه أزدد عقلاً تزدد من ربك قرباً فقال بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك فقال اجتنب محارم الله تعالى وأدّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً واعمل بالصالحات تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل في آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز

وروي عن سعيد بن المسيب ان عمر وابي ابن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال صلى الله عليه وسلم العاقل قالوا فمن أعبد الناس قال العاقل قالوا فمن أفضل الناس قال العاقل قالوا أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته فقال صلى الله عليه وسلم وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ان العاقل هو المتقي وان كان في الدنيا خسيساً ذليلاً اي في أعين عوام الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر انما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته

وعندي كما اختاره بعض المحققين من العارفين ان اصل التسمية اي تسمية العقل بهذا الاسم

في اصل اللغة انما هو لتلك الفطرة المغروزة في جبلة الانسان العاقل وهي التي يسترشد بها الى ما هو ضار وما هو نافع وما هو جائز وما هو مستحيل وكذا في الاستعمال والاصطلاح ولكن هذه التسمية اطلقت على العلوم من حيث انها ثمرة العقل كما يعرف الشيء بثمرته ، فيقال العلم هو الخشية والعالم هو من يخشى الله تعالى فان الخشية ثمرة العلم

والخلاصة ان هذه الاقسام الاربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ثم ان العلوم التي تكتسب بالعقل الفطري في الانسان ليست في الواقع بشيء وارد عليه من خارج بل كأنها مستكنة فيه فظهرت كما يظهر الماء في الارض بحفر البئر وكما تظهر النار في الزناد بالقدح وكما يستخرج الزيت من الزيتون والدهن من اللوز بواسطة العصر والمعالجة وهكذا

ومن ذلك ما ورد من ان كل مولود يولد على دين الفطرة الى آخر الحديث المشهور . ومعنى ذلك ان الايمان بالله عز وجل مركوز في جبلة الانسان بالفطرة العقلية وهو يقر بها اقراراً اذا لم يوجد بينهُ وبين هذا الاقرار حائل يمنع ظهوره . فهذه الجبلة او الفطرة هي العقل بعينه وما يصدر عن العقل من الآثار يسمى كذلك عقلاً او علماً او فهماً او ادراكاً الى غير هذه المسميات العديدة

واما من غاب عنه عقله فلا يصدر عنه الا الحمق والجهل والغباء ومثله مثل الاعمى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالاواني المصفوفة في الدار فيقول ما لهذه الاواني لا ترفع من الطريق وترد الى مواضعها فيقال له انها في مواضعها وانما الخلل في بصرك

٢ — في تفاوت النفوس في العقل

اختلف الناس في تفاوت العقل في الاقسام التي ذكرناها ما عدا القسم الثاني وهو الذي قلنا انهُ عبارة عن العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات فان كل انسان ما خلا المجنون يقر معنا بأن الواحد اقل من الاثنين وان الاربعة اكثر من الثلاثة وانه من المستحيل ان يكون الجسم الواحد في مكانين في آن واحد أو ان يكون الشيء الواحد قديماً وحديثاً وكذا سائر النظائر وكل ذلك يدركه الانسان العادي ادراكاً محققاً من غير شك

واما الاقسام الثلاثة الاخرى فالتفاوت يتطرق اليها حتماً ولنتكلم عن القسم الرابع منها وهو المتعلق باستيلاء القوة الانسانية على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس في ذلك بل لا يخفى تفاوت احوال الشخص الواحد في هذا الشأن ويرجع التفاوت في تلك القوة تارةً الى تفاوت الشهوة اذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون البعض الآخر ولكن ذلك غير مقصور عليه فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا فاذا كبر وتم عقله قدر عليه وشارب الخمر قد تشتد به

الرغبة في تناولها حتى تأتيه الامراض بسببها من بين يديه وفي اخص اعضاء جسمه فيحذره الاطباء من تناولها فيمتنع عنها لا بقوته بل بقوة ما احدثهُ تحذير الاطباء له من الخوف على حياته وشهوة الرياء وحب الرياسة تزداد في المرء قوة بالكبر لا ضعفاً

وقد تكون نسبة التفاوت في العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة ولهذا يقدر الطبيب عادة على الاحتماء عن بعض الاطعمة المضرة وقد لا يقدر من لا يساويه في العقل على ذلك اذا لم يكن طبيباً وان كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ولكن اذا كان علم الطبيب اتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جنداً للعقل وعدة له في قمع الشهوات وكسرها

وكذلك يكون العالم اقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي واعني بالعالم العالم الحقيقي الذي قال الله في حقه انما يخشى الله من عباده العلماء

واما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فانهم يتفاوتون بكثرة الاصابة وسرعة الادراك ويكون سببه اما تفاوتاً في الفطرة العقلية واما تفاوتاً في الممارسة فاما الاول وهو الاصل اعني الفطرة فالتفاوت فيه لا سبيل الى جحده فانهُ مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبيحة اي في أول النهار ومبادىء اشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً خفي التدرج الى ان يتكامل قرب الاربعين سنة. ومثاله نور الصبح فانهُ في أوائله يكون طفيفاً ثم يتدرج الى الزيادة الى أن يكمل بطلوع قرص الشمس وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عزَّ وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الايجاد حتى ان غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعةً وبغتةً بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج وكذلك جميع القوى ولولا هذا التفاوت في الغريزة لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا الى بليد لا يفهم بالتفهم الا بعد تعب طويل من المعلم والى ذكي يفهم بادنى رمز واشارة والى كامل تنبعث من نفسه حقائق الامور بدون التعليم كما قال تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسهُ نار نورٌ على نور وذلك مثل الانبياء عليهم السلام اذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عنهُ بالالهام الرباني وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال إن روح القدس نفث في روعي أحبب من شئت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزي به. وهذا النمط من التعريف بالالهام الرباني يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا بالنفث في الروع ويتبع الانبياء عليهم السلام في تلقي الالهامات الربانية والعلوم اللدنية اولياء الله الذين تمسكوا بهديهم وساروا على سننهم وعضوا على سنتهم بالنواجذ وهم من قال الله في حقهم قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني أي أنهم أيضاً

يدعون الى الله على بصيرة من الأمر . وأما الوحي فهو شيء آخر بالمرة يختلف عن الالهام ونور البصيرة ومعرفة العالم حالات الوحي لا يستدعي منصب الوحي اذ لا يعد أن يعرف الطبيب حالات الصحة ودرجاتها ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وحالاتها وان كان ذلك الطبيب خالياً من الصحة او كان العالم الفاسق خالياً من العدالة فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فما كل من عرف النبوة والولاية نبيًا او وليًا ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه تقيًا

***

وانقسام الناس الى من يتنبه من نفسه ويفهم والى من لا يفهم الا بتنبيه وتعليم والى من لا ينفعهُ التعليم ايضاً ولا التنبيه كانقسام الارض الى ما يجتمع فيهِ الماء فيقوى ويتفجر بنفسهِ عيوناً والى ما يحتاج الى الحفر ليخرج منهُ الماء الى القنوات والى ما لا ينفع فيهِ الحفر وهو اليابس من الارض وذلك لاختلاف جواهر الارض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في مزية العقل ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل اي من جهة ما ثبت من الشرع ما روي ان عبد الله بن سلام رضي الله عنهُ سأل النبي صلى الله عليهِ وسلم في حديث طويل جاء في آخره وصف عظم العرش وان الملائكة قالت يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بلغ من قدره قال هيهات لا يحاط بعلمه الخلق هل لكم علم بعدد الرمل قالوا لا قال الله عز وجل فاني خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أُعطي حبة ومنهم من أُعطي حبتين ومنهم من أُعطي الثلاث والاربع ومنهم من أُعطي فرقاً ومنهم من أُعطي وسقاً ومنهم من أُعطي أكثر من ذلك

***

هذه فذلكة في العقل وشرفه واقسامه ومنزلته من وجهة النظر الصوفية ومنها يتبين كيف أن هؤلاء القوم فاقوا غيرهم من عامة الناس وخاصتهم في البحث عن دقائق العقل ورفعوا شأوه وأعلوا شأنه واحلوه المحل الارفع فهم وان كانوا أشد الناس تمسكاً واعتصاماً بالمبادىء الدينية فانهم لم يغفلوا ولم ينكروا ما للعقول من مراتب الشرف والعظمة

وما حملنا على اثبات هذه العجالة الا ما وجدناه في نفوس بعض فلاسفة العصر وفريق كبير من المتفلسفة من الزعم بان الصوفية لا يحفلون في كثير ولا قليل بالابحاث العقلية ولا يلقون اليها بالهم وهو زعم يخالف الواقع ويغاير الحقيقة كما قدمنا

احمد غلوش
دكتور فخري في الفلسفة والآداب
وخادم المجمع الصوفي الخلوتي بالاسكندرية

البحث السادس

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الطور الاول من حياة مطران

﴿توطئة﴾ ينتسب خليل مطران الى أسرة عربية مسيحية عريقة الأصل تعرف ببطن «أولاد نسيم» ترتقي بنسبها الى شعبة «غسان». [1] ولم تكن اقامة بطن «أولاد نسيم» ثابتة فقد كانت تتنقل تماماً كأصولها — من قبائل الغساسنة — في الأقليم الذي حول دمشق وتدمر وحمص. وكانت بعض أفخاذ بطن «أولاد نسيم» تصل في جولانها بأرض الشام شمالاً حتى حمص بسوريا، وجنوباً حتى صفد بفلسطين، ولا زال من بطن «أولاد نسيم» أفخاذ الى اليوم في أرض حوران بجبل الدروز وبوادي البقاع بلبنان الكبير.

وقد استطاع بطن «أولاد نسيم» ان يحتفظوا بالأصل المسيحي في عقيدتهم، رغم الصعوبات التي كانوا يلاقونها ككل اقلية في عصور الظلمات. وكان ان سمي من أفراد البطن على قومه مطران، عرف بيته بآل المطران. وحدث أن سار منهم رهط شرقاً حتى انتهى الى العراق ومضى جانب من هؤلاء من العراق حتى انتهوا الى ما بين النهرين. غير ان هذا الرهط افتقد بابتعاده عن موطنه نوة العصبية القبلية التي كانت تربطه بالنصرانيّة فمال للاسلام واعتنقه. وكان من هؤلاء الذين أسلموا شاعر زمانه ابو محمد المطراني الذي عاش في بخارى في القرن

(١) الغساسنة شعبة من العرب أسسوا دولة في الجاهلية في الشام متأثرين بالمدنية اليونانية، والاخبار المروية عنهم في كتب العرب قلة أن تمد الباحث بما يستطيع أن يؤلف من شتاتها هيكلا تاريخياً، الا أنها بالاضافة الى ما نجده من نتف مبعثرة في كتب المؤلفين البيزنطيين، يمكن أن تساعد على تكوين فكرة عامة عنهم. ويعتبر مقال المستشرق تيودر نولدكه Th· Nöldeke المعنون Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's خير ما كتب عنهم وتجده في Abhand. d. Kon Preuss· Akad. d. Wessenschaften, Berlin 1887

الخامس للهجرة . [١] على ان هذا الرهط الذي ذهب شرقاً واعتنق الإسلام ذاب مع الزمن في مجموع المسلمين حتى غاب خبره في التاريخ . اما العشائر التي بقيت في مواطنها الأولى — بلاد الغساسنة — جوالي حمص وتدمر ودمشق ، وما صاقب تلك المدائن من الأصقاع ، فقد احتفظت بعصبيتها وحافظت على الأصل المسيحي في عقيدتها ، وان افتقدت مع الزمن اسمها الجديد ورجعت تتخذ لنفسها اسم « أولاد نسيم » [٢]

وحدث في القرن السادس عشر ان انتقل من حمص الى الجنوب بعض الافخاذ من بطن « اولاد نسيم » واستقرّت جموعها ببعلبك ووادي البقاع . وكان أن سيم من هؤلاء مطران على بعلبك عام ١٦٢٨ باسم المطران « ايفانوس » . وحيث أن المطرانية في ذلك الوقت لم تكن لها دار بيعة يجلس فيها المطران ليتصرف في شؤن رعاياه الروحية ، فقد كان المطران — عادة — يتخذ من بيته داراً للمطرانية . من هنا عرف ابناء المطران ايفانوس — الذي سيم مطراناً وهو أرمل وذو أولاد — باسم المطران وعرف بيتهم ببيت المطران [٣] وهكذا جدد التاريخ في بطن « اولاد نسيم » بيت المطران ، للمرة الثانية ، ومن هذا البيت الجديد خرج خليل مطران الى الحياة

نشأ من اولاد المطران ايفانوس أسر تكاثرت أفرادها مع الزمن ، بقي بعضها مستقراً في بعلبك ووادي البقاع وما جاورها من البطاح والبعض الآخر غادرها ، فسار رهط منهم شمالاً حتى انتهى الى حمص واستقرّ بها ، ونزلت جماعة من هذا الرهط زحلة وبقيت فيها . ومضى رهط منهم جنوباً الى فلسطين وعاش فيها . ومن هذا الرهط قام جبران المطران المعروف بكحيل في القرن السابع عشر ورحل الى مصر ونزل دمياط وأسس فيها بيت كحيل المعروف [٤]

ويظهر ان هجرة بعض أفراد آل مطران كانت نتيجة لتكاثرهم من جهة ، ولما نزل بهم من التضييق من امراء بني الحرفوش الذين كان لهم السلطان على بعلبك ووادي البقاع [٥] . غير ان صراع الامراء الحرافشة فيما بينهم طيلة خمسة قرون من زمان أضعفهم ، وكان خروجهم المتوالي على ولاة الدولة العثمانية سبباً في ان تجرد الدولة العثمانية عليهم قوة في اواسط القرن التاسع عشر تعقبتهم وقضت عليهم نهائيـاً [٦] . غير ان القضاء على الاسرة الحرفوشية لم يقض على الروح الإقطاعية فقد تجمع أهالي مدينة بعلبك وسكان وادي البقاع جماعات حول أسر ذات نفوذ ومكانة [٧] وكان في طليعة هذه الاسر اسرة آل مطران [٨]

---

(١) الثعالبي في يتيمة الدهر — طبع دمشق — ج ٤ ص ٤٥ — ٥٢ (٢) عيسى اسكندر المعلوف في الاخبار المروية في الاسر الشرقية (٣) ميخائيل موسى آلوف البعلبكي في تاريخ بعلبك ، بيروت ١٩٢٦ ص ١١٨ (٤) خليل مطران في كلام له عن المأثورات في آل مطران (٥) تاريخ بعلبك ، ص ٨٦ — ١٠٦ (٦) المرجع ذاته ، ص ١٠٦ — ١١١ (٧) المرجع ذاته ، ص ١١١ سطر ٧ — ١١ وص ١١٢ (٨) المرجع ذاته ، ص ١١٢ الفقرة ٣

— ١ —

نزل أجداد بيت المطران « بَعَلْبَكَّ » في تاريخ قديم فاختلط تاريخهم بتاريخ بعلبك و « بَعْلَبَكُّ » والعامة تلفظها « بَعَلْبَك » مدينة من اشهر مدائن لبنان ، تقع شمالاً في وادي البقاع على سفح الجبل الشرقي من سلاسل جبال لبنان في خط عرض ١٠ً ٣٤ْ شمالاً وطول ١١ً ٣٦ْ شرقاً علوّها عن سطح البحر ١١٥٠ متراً تقع على مسافة ٣١ ميلاً من دمشق على خط مستقيم الى الشمال الغربي ، ومن طرابلس ٣٢ ميلا ومن تدمر ١٠٩ أميال . والمدينة متسلطة بموقعها على سهل بعلبك. وهو قسم من سهل وادي البقاع الفسيح الذي يمتد اكثر من خمسين ميلاً . وتقع المدينة على رأس المنحدر من الوادي الذي يعتبر أعلى سهول الشام ، ومنهُ تنحدر الاراضي شمالاً وجنوباً الى الاقاصي من بلاد الشام . فتنحدر مع انحدار الارض الانهار التي تنبع من المرتفعات التي تصاقب المدينة ، والتي تروي مياهها جل أرض الشام ، والتي تنتهي شمالاً او جنوباً الى بحر الروم [١]

وجو المدينة صحي جاف لقربه من الصحراء من جهة ، ولوقوعه في سهل وسط سلسلتي جبال لبنان ، الشرقية شرق المدينة ، والغربية غربها

والمدينة تعتبر من أقدم مدائن الدنيا القديمة ورد اسمها بصيغة « بعل بقعوتو » في السريانية بمعنى بعل البقاع [٢] . ويظهر ان العرب عربوها الى بعلبك ولا شك ان هذا التعريب حدث في عهد سحيق من الجاهلية ، فقد كان للعرب القدماء صلات وثيقة بسوريا . ومما يؤيد هذا الظن ان ذكرها ورد في العصر الجاهلي في بعض كلام الشعراء الجاهلين فوردت في قصيدة لأمرىء القيس إذ يقول :

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

وقد ذكرها عمر بن كلثوم كذلك في بيت ضمن معلقته حيث يقول :

وكاس قد شربت ببعلبك وأخرى في دمشق وقاصرينا

ولقد تقلبت الدنيا على المدينة بين رفع وخفض ، فبينما كانت تعتبر من مدائن الدنيا الزاهرة على عهد الفينيقيين ، وصل بها الحال في عهد حكم الأمراء بني الحرفوش من التدهور ، ان اصبحت بلدة صغيرة منزوية بين مدائن الشام ، حتى انهُ لم يكن بها عند احتلال المصريين لها في عام ١٨٣١ غير سبعة وعشرين بيتاً من المسيحيين ، وقليل من البيوت الإسلامية ما بين سنية وشيعية [٣]

---

(١) تاريخ بعلبك ، ص ٧ و ٢١ — ٢٤ (٢) المرجع ذاته ، ص ٤٦ و Ency. d. Isl. مادة بعلبك
(٣) تاريخ بعلبك ، ص ١٠٧

على ان المسيحيين من أهل المدينة كانوا منذ أقدم العصور ينزلون في حيّ خاص بهم كان يعرف بحيّ النصارى ، وكان هذا الحيّ يقع جنوب المدينة لجهة الغرب ، وفيها « الحارة التحتا والحارة الفوقا والحارة البرانية » وهذه الأخيرة كانت خارج السور العربي للمدينة . ومعظم مباني البلدة كانت بدائية كمباني الدساكر في غير فخامة ، وكان أصلحها للسكن وأفخمها بناء وأحسنها موقعاً المباني القائمة بحي النصارى [1] . وكان آل مطران في طليعة وجوه مسيحي المدينة ، وبيتهم كان خير بيوتات الحي المسيحي . وكان موقع البيت على مقربة من باب المدينة المعروف بباب الشام ، وكان على مقربة منها حدائق وبساتين وضياع يمتلكها بيت المطران ، كانت تمتدّ في الوادي الى أبعد من حدود الطرف

في هذا البيت ولد خليل مطران في أوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، من أب من الأسرة المطرانية ومن أم يتصل نسبها بآل الصباغ . اما والد المطران فهو عبده مطران من مبرزي رجالات بعلبك ومن أصحاب الضياع والدساكر في وادي البقاع ومن المشتغلين بالتجارة. وكانت اراضيه ومتاجره تدر عليه ربحاً وفيراً . تزوج بوالدة الخليل في حيفا من مدائن سوريا الجنوبية . ثم استقرّ بها في بلدته بعلبك وعاش معها ، وأنجبت هي منهُ ابناء بنين وبنات ، وكان منهم الخليل

كانت والدة الخليل من آل الصباغ ، أحدى الأسر العربية النصرانية النازلة سوريا الجنوبية في أرض فلسطين جهة حيفا وما صاقبها من الأراضي وكان والدها من أعيان حيفا . اما والدها لأبيها فكان من أبرز مساعدي الجزار أيام ولايته على عكا . غير ان سوء التفاهم وقع بين الجزار وبينهُ ، فتعرض لمخاطر باقامته بفلسطين . فاضطر ان ينزح الى لبنان وان يعيش فيها ردحاً من الزمن ، حتى بادت دولة الجزار ، ودالت أيامه . وقد نشأ أولاده في لبنان . ثم تفرقوا في أرض الشام ، وكان منهم واحد استقرّ بحيفا واحتل فيها مكانة ، زفت أحدى بناته الى عبده مطران ، احد فروع الأسرة المطرانية

وكان عبده مطران رجلاً بسيطاً في غير تكلف مبسوط اليد . نشأ متأثراً بجوّ أسرته ، فأخذ عنها تقاليدها وأخلاقها وبثها في محيط أسرته ، وبثها عن طريق هذا المحيط في ابنائه . اما والدة الخليل فكانت سيدة كاملة ذات شهامة . ربت أولادها تربية مثالية ، وكان يساعدها على هذا ، جو الأسرة بما بينها وبين بعلها من الوفاق والالتئام ، الذي كان يسبغ على العائلة جوًّا هادئاً ، ويجعلها تنصرف عن صغار الأمور الى بذل كل الجهد في تقويم ابنائها . من بنين وبنات بتربية صحيحة . وكان جو الأسرة يدفع الاولاد الى النشاط والحركة في غير صخب

---

(١) تاريخ بعلبك ، ص ١١ — ١٢ وعلى وجه خاص الفقرة الاولى من ص ١٢

ولا ضجيج ، والأم ساهرة من وراء ذلك كله تصلح من البيئة ، او قل تهيء الأسباب فيها الى الحدّ الذي يمكّن لها أغراضها في تقويم ابنائها وتربيتهم . وهذه التربية التي أخذت بها ابناءها جعلتهم يعتمدون على أنفسهم وعلى تعاملهم مع محيطهم معاملة تعتمد على الذات ، وهكذا عملت على ان تمهد لشخصياتهم السبيل للوضوح والاستبانة متقوّمةً بذاتيتها . وكان لهذا أثره الفعّال في التكوين الخلقي لأبنائها [1] ، وتكييف نفسياتهم وتقويم ذاتياتهم على نمط خاص

— ٢ —

ولد خليل مطران بمدينة بعلبك في شهر يوليو عام ١٨٧٢ [2] وعاش الخليل أيام طفولته الاولى مفصحاً بحركاته وأعماله عن مزاج عصبي أصيل وطبيعة ذات حيوية زائدة ومشاعر متقدة واحساسات زاخرة . وكان مظهر هذا المزاج وهذه الطبيعة من الطفل نشاط متصل عجيب وحركة متصلة الحلقات . ومع كل هذا النشاط والحركة اللذين كان يبدو بهما الطفل لم يكن محيطه الاجتماعي العائلي ليتداخل في نشاطه تداخلاً مباشراً . ولهذا كانت حركات الطفل حرة ، يقوم بها عن دافع نفسي داخلي ، وان كان لوالدته بعض الأثر في الحصول على الدافع او تكييفه بصورة خاصة عن طريق غير مباشر ، يتصل بتهيئتها البيئة العائلية على وجه يسمح لاثارة الدافع عند الطفل على الوجه الذي كانت ترغب فيه . ولما كانت حالة الطفل — خصوصاً في هذه الايام المبكرة من الطفولة — تحبب اليه انواع النشاط ، ليصرف بعض الجهد الذي يتكافأ وحيويته الزائدة ، فقد كان خليل مطران في تلك الايام كثير الحركة والفعل ، وكانت كثرة حركاته سبباً في ان تكثر معها عثراته . وكان المحيط الذي يتعامل معه يسمح له ان يتفهّم هذه العثرات، ويقوم من كل عثرة معاوداً الكرة من جديد الحصول على النتيجة التي يرغب فيها والتي تدفعه اليها بواعثه النفسية الاولية . وهكذا كان ترك الخليل في طفولته حرًّا في مواجهة محيطه البدائي يتعامل معه بحرية تامة ، سبباً في أن يخلص مع الزمن بخلة مؤصلة رسخت في نفسه ، وقامت مقام الطبيعة الأصيلة ، هذه الخلة هي : خلة المعاودة والمراجعة

ويمكنك ان تفهم طبيعة خليل مطران كلها على حقيقتها وتدرك شخصيته في تقبّضها الداخلي اذا لاحظت ان الطبع الاصيل من نفسه هو طبيعة الانفعال بقوة والاستجابة للأشياء بشدة وان طبيعة الانفعال الهادىء الذي يطالعك بها الخليل ، والاستجابة ببطء للمؤثرات انما تأصلت في نفسه مع الزمن بحكم المعاودة والمراجعة . ومن هذين الشطرين المتقابلين والمتداخلين في

---

(١) خليل مطران — معلومات شخصية مستقاه بحديث مستفيض معه مساء يوم ٦ مايو ١٩٣٩ م بالاسكندرية . وكل ما استقيناه من خليل مطران نفسه سنشير اليه في الهوامش بعبارة — عن خليل مطران —

(٢) أبو شادي في اصداء الحياة ، يقول ان مطران ولد سنة ١٨٧١ — انظر ص ١١ — وقد جارته كل المصادر الافرنجية في هذا التاريخ . غير ان خليل مطران صحح هذا التاريخ بأنه من مواليد صيف عام ١٨٧٢

شخص الخليل ، تكونت ذاتيته على نمط خاص : شدة في الحساسية وزخور في المشاعر وترسل مع النزوات ، ثم محاسبة دقيقة للنفس و بواعثها ونزواتها ، مهدت السبيل للخليل ان يخلص ببناء ذاتيته على النمط الذي يبدو عليه (١)

فاذا لاحظنا ان المحيط العائلي للخليل ، كان آخذاً بنظام من التربية امتزج فيه طرف من نظام التربية التركية التي تقوم على التضييق والتقييد مع طرف من نظام التربية العربية البدوية التي تقوم على الانطلاق والتحرر ،كان لنا من هذا كله ، ما يمكننا من ان تمثل في اذهاننا صورة — تقريبية — للجو الذي نشأ فيه الخليل وترعرع فتأثر فتكيفت تبعاً لهذا التأثر نفسيته وتقومت تبعاً لها شخصيتهُ

كان نظام التربية الذي أخذ به الخليل يختلط فيه نصف من التضييق والتقييد ، بنصف من الانطلاق والتحرر . وكان جانب التقييد في التداخل في أمر البيئة العائلية وتكييفها على النمط الذي يجعل الأطفال يتعاملون معها على الوجه الذي يرغب فيه الأبوان عادة . اما جانب الحرية فقد كان في اطلاق الأمور للأطفال يتعاملون مع بيئتهم في حرية تامة . وكان مظهر هذا التعامل الحر مع البيئة ان يتداخل الخليل مع اخوته واقرانه من الاطفال يلعبون في حرية، لا تقيدها رغائب الأبوين . وان كانت عين الأم تسهر عليهم ولا تغيبهم عنها ، وقد خلص الخليل من هذه السنين بطبيعته الاجتماعية التي تميل الى خلق جملة صلات اجتماعية — une somme de rapports sociaux — مع الناس ، وهذه أظهر صفة في نفس الخليل في الحياة الاجتماعية التي عاشها كرجل اجتماعي يعيش في المحيط الشرقي الفردي المتصف بصفة الانعزال وهكذا يمكننا ان نفهم في شيء من الحدس الصادق أيام الطفولة التي عاشها الخليل على وجهها الصحيح

أخذ الخليل ينمو ويترعرع ويقطع سني الطفولة. وما بلغ من العمر حدًّا يسمح له بالخروج مع أفراد أسرته حتى هوي ركوب الخيل وقام في نفسه ميل الى ان يجاري آله في السباق على متونها في المضمار . غير ان ركوب الخيل لم يكن من السهولة في مكان . وقد كان دونه للفتى عقبات ، ولكن عزم الغلام وما كان اظهره من الرغبة الملحة والارادة الصادقة والعزم القوي جعلت الغلام يتغلب على كل الصعاب . واذا به يجري مع الكبار في المضمار يسابقهم ويسابقونه ، ولكن قرب عهد الغلام بالطفولة واحلامها وبعض الشيء من طيش الصبا ، كانا يدفعانه وهو راكب جواده الى القيام بحركات صعاب ومغامرات في الجري والسباق . ولم تكن تسلم نتائج حركاته ومغامراته كل مرة فكان كثيراً ما يتردى عن جواده ويسقط من على ظهره . وكان والداه ينصحانه

(١) يقول مطران : في المداومة وحدها تاريخ تكوين شخصيتي ، فقد كان هنالك عاملان يعملان في نفسي: شدة الحساسية ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص

ولكنه لم يكن لينتصح ويستمع الى صوت العقل في كلام ابويه ، فقد نشأ يتصرف طبق هوى نفسه ويتحرك وفق رغباته وما يصور له عقله . ولم يجد والده وقد رأى من غلامه ما يتعرض له من الاخطار الا ان يفكر في الاستفادة من شدة حيوية الغلام ونشاطه في تعليمه وتثقيفه . فقد كان المحيط العام في ذلك الحين يدفع الآباء الى تعليم اولادهم وتثقيف ابنائهم . فقد انتشرت المدارس في ارجاء الشام وغمرت البلادَ موجة تدفع الناس الى تمكين أبنائهم من الانتهال من ورد العلم . وحدث ان خرج الغلام يركض بجواده ويسابق اعمامه وأقرانه . واذا بزمام الجواد يفلت من يده فيسقط ، فتتكسر بعض ضلوع صدره . ويرى والده ان الوقت قد ازف لتعليمه فما يتماثل للشفاء حتى يرسل به الى زحلة ليتعلم فيها اصول الكتابة والقراءة

***

انتقل الغلام الى زحلة وهنالك في مدرسة اولية اخذ يتعلم مبادىء الكتابة وأصول الحساب. وظل الغلام فترة من الزمن يتلقى علومه الاولية في زحلة في قابلية على الدرس حتى اوفى على التمام فأرسله والده الى بيروت وألحقه بالقسم الداخلي من الكلية البطريركية ، وظل الغلام بالمدرسة ردحاً من الزمن حتى بلغ السابعة عشرة . ثم تخرج من الكلية وقد فاز بمحصول ثقافي في العلم والادب واللغة يوازن ما يفوز بهِ الآخرون في اضعاف السنين التي درسها . وقد وجد الفتى في التعلم ما يرضي رغائبه وفي القراءة ما يشبع نوازع نفسه . فتهالك على التعلم وأدمن القراءة بنهم عجيب ، لا يترك كتاباً يقع تحت يده الا ويلتهمه التهاماً . وقد كان يساعده في ذلك تفتح نفسيته للمعرفة واقباله بنشاط عجيب على الدرس والتحصيل

وتخرج الفتى من الكلية بعد ان تثقف ثقافة عربية خالصة من جهة واتصل بالثقافة الاوربية اتصالاً تامًّا من جهة اخرى. وكان من مقومات تثقفه ثقافة عربيّة ان مدرسه في الصف كان الشيخ ابراهيم اليازجي امام اللغة في عصره . وعنه أخذ اللغة العربية والثقافة العربية الخالصة . على ان الشيخ ابراهيم اليازجي ان ازجى بهِ الى ميدان الادب العربي البحت ، فقد كان اتصال الفتى بالآداب الفرنسيّة بالكلية سبباً في ان تتفتح نفسهُ عن آفاق جديدة من الحياة والشعور ، لم يجد ما يكافئها في الأدب العربي الخالص ومن هنا اعتقد الفتى وهو ابن ثقافتين، ان المستقبل في الأدب العربي ، ليس للنماذج التي تذهب تحاكي طرائق القدامى في المعاني والأشكال ، والمشاعر والصور، وانما للنماذج التي تعبر عن روح العصر وخلجاتهِ ومشاعره واتجاهاته في قالب عربي رصين . وحاول مطران ان يطرق الأدب ، خصوصاً في ساحة الشعر على هذا الاعتبار ، فنظم عدة قصائد ، وهو في الصف النهائي من الكلية ، نجد نموذجاً منها في أول ديوانهِ موسومة بالتاريخ

« ١٨٠٦ — ١٨٧٠ » اشارة الى معركة يينا ودخول الألمان باريس [1] وقد لاقى مطران لا تهاجه هذا النهج الكثير من الاعتراضات خصوصاً في محيطه المدرسي من أساتذته ، وعلى وجه خاص من الشيخ ابراهيم اليازجي ، الذي قال له : « كيف يجوز ان يرد في شعرك العربي لفظ نابليون ؟ » وبمثل هذه العقلية المحافظة كان مطران يلاقي الاعتراضات الأولى في حياته بخصوص النهج الجديد الذي حاول ان يأخذ نفسهُ بهِ في نظم الشعر

كان العهد الذي أخذ فيهِ خليل مطران بنظم الشعر من النهج الجديد،خاضعاً لموحيات العصر القديم : فقد كان سريان الشعر — شعر الفحول المطبوعين من شعراء العربية الخلص في العصر الأموي والعباسي،والمشهود لهم بالسبق في الشاعرية — بين أيدي المتأدبين على أثر قيام الطباعة في الشرق الادنى والاهتمام بطبع دواوين شعر الفحول سبباً في احياء الشعر العربي وديباجته الجزلة . وكان يساعد على ذلك احياء اللغة العربية الخالصة من شوائب العجمة . وكان كل هذا يمهد السبيل لتدور الشاعرية على الاغراض القديمة التي دار عليها الشعر العربي القديم . غير أن مطران الذي تفتحت نفسيتهِ على آفاق جديدة من الحياة والشعور في الآداب الاوربية ،ولمس قوة حركة التجديد في الأدب التركي بجهود شناسي وضيا باشا ونامق كمال وعبد الحق حامد ، أدرك ان الحياة التي تدور في عصره غير الحياة التي كانت تدور في العصور السالفة ، وان الاغراض التي يقول فيها الشعر ، شعراء العرب الاقدمون لا تلزم شعراء عصره وهو في هذا يقول:

« اللغة غير التصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر لا يجب حتماً ان تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا. ولهذا وجب ان يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم » (٢)

وعلى هذا الاساس جعل الشاعر نفسه شيئاً يدور حول روح العصر .وجعل البيان الشعري شيئاً مرناً وليس بالشيء الجامد الذي له رسم خاص،يدور مع العصر ويتطور مع تطور الزمان ؛ وان كان يتقوم في كل هذا بالمبادىء الاولى الثابتة

غير ان نشأة مطران متصلاً بالثقافة العربية الخالصة ،من جهة وتلمذته على امام اللغة الفصحى الشيخ ابراهيم اليازجي من جهة اخرى ، مكن تدده في اللغة العربية وجعله راسخ العلم فيها وما كان في مستطاع مطران ان يخرج على اوضاع اللغة العربية من حيث سرت في نفسه اوضاعها مخالطتها لهذا اضطر مطران ان يقول الشعر في الاغراض الجديدة ولكن مصبوبة في القوالب

(١) ديوان الخليل ص ٩ — ١١ والقصيدة منظومة عام ١٨٨٨ و Brockelmann في Gesch. d. Arab. Literatur ملحق الجزء الثاني Leiferung فقرة ١٥ ص ٨٦ — ٩٦

(٢) المجلة المصرية ، م ١ ج ٣ ص ٨٥ والبحث الثالث فقرة ٣ من هذه الدراسة

العربية الخالصة . ولكن حركة الجديد التي أخذ بها مطران لم تكن لتستساغ عند المثقفين من جمهور العربية . وقد تكونت اذواقهم على غرار عربي محض ، فاضطر مطران ان ينظم الشعر في الاغراض القديمة ، ولكن تشعر في روحها شيئاً من الحياة الجديدة التي تفتحت في جنباتها شاعرية مطران . ذلك ليثبت للناس انهُ ما يقول الجديد عن عجز عن القديم ، ولكن نزولاً على روح العصر

— ٣ —

نظم خليل مطران في الفترة التي انقضت بين عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٠ بعض القصائد على النسق القديم الذي كان شعراء العرب ينظمون الشعر على غراره . وكان حديث العهد في التخرج من الكلية غير انهُ اكتسب شهرة واسعة في بيروت ، وكانت حاضرة الادب والعلم والفن في كل القطر السوري ولبنان ، ومن اعظم حواضر الثقافة في الشرق في ذلك العصر . ولم يكن ينازع مطران الشهرة من أقرانه غير الامير شكيب ارسلان الذي كان حديث التخرج من كلية الحكمة والياس صالح الذي تخرج من الكلية الاميركية

وكان نشاط مطران العظيم قد اخذ يظهر في ميدان الحياة الاجتماعية بيروت ، واشتهر مطران بالشعر الثوري، الذي كان يقوله ضد الاستبداد الحميدي فاتهم بأنهُ يعمل للثورة وأوقف، ولكن الحكومة العثمانية لم تعثر على مستندات كتابية وقرائن قوية تدينه بها فأطلقت سراحه ولكن أخذت تضايقهُ . في ذلك الوقت أصيب مطران بداء « ذات الجنب » وأشرف على الهلاك، وكان يعوده في ذلك الحين الدكتور ڤان ديك الشهير ونجا مطران بأعجوبة من الهلاك، وما استرد قواه حتى رأى أهله ان يغادر سوريا الى الخارج تخلصاً من مضايقات الحكومة فعزم على السفر الى باريس

وفي صيف عام ١٨٩٠ خرج مطران من بيروت ووجهته باريس . ووصل اليها وأقام فيها ردحاً من الزمن ، بعد ان عرج في طريقه اليها على الاسكندرية لبضعة أيام [١]

وانتهى مطران من سفره الى باريس ، وأقام فيها ردحاً من الزمن ، متصلاً برجال الحركة الوطنية التركية في باريس ، من أعضاء حزب « جون تورك — تركيا الفتاة — » ، وقد لاقى مطران في باريس زعيمهم أحمد رضا بك الذي انتخب فيما بعد رئيساً لمجلس المبعوثان التركي ، وكانت لمطران جلسات مع رجال — جماعة تركيا الفتاة — في مقهى السلام Café de La Paix

(١) صحيفة المصري ، ١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٦ ص ٣ ع ١ ،

وكان نشاط مطران في باريس سبباً في ان يثير شكوك رجال السفارة التركية الذين دسوا له عند الحكومة الفرنسية ، وهكذا شعر مطران للمرة الثانية بالتضييق من جهة السلطات التركية في ذلك الوقت فكر مطران في ان يهاجر الى شيلي بأميركا الجنوبية ، وكانت حكومة شيلي قد جعلت امتيازات مغرية للمهاجرين . فكانت تقطع لهم الاراضي الواسعة وتعفيهم من الضرائب والمكوس لأعوام وتساعدهم على استغلال الأرض . واكبّ مطران لهذه الغاية على تعلم اللغة الاسبانية والأمل يحدوه ان يتمكن من المهاجرة الى شيلي ، ولكن حدث ما صدفهُ عن هذه الوجهة ، وجعله يولي وجهته نحو مصر فيرحل اليها في صيف عام ١٨٩٢ ، فتربطهُ الظروف لمصر فيستقر بها (١)

كانت حياة مطران في باريس نشاطاً متصلاً ، في سبيل الدرس والتزود من آداب الافرنج من جهة والجهاد في سبيل الدستور وتحرير العناصر التي في الدولة العثمانية من جهة أخرى . ولقد اتصلت الأسباب بين نفس مطران في تلك الفترة وبين شعر « الفرد دي موسيه » ، فقد فتن مطران ، وهو في عنفوان الشباب ، ومشاعره في فورة اتقادها بزخور الاحساسات وعمق المشاعر التي يتميز بها شاعر الفرنسيين الرومانسي ، ومن هنا كان وقوعه تحت تأثير موسيه مما يظهر بعد في القصائد الاولى من ديوانه

وكان مطران قد خلص من أيام دراسته والسنين التي أعقبتها في سوريا بثقافة أدبية يشوبها القليل من الثقافة العلمية . فقد كان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلكية وشؤون علم الفزياء والكيمياء والحياة والحيوان ، وكانت هذه الثقافة العلمية يخالطها اطلاع على الفنون كتواريخ الأمم وفلسفات الشعوب ، ومن هذه الثقافة الخليطة التي يغلب عليها الاتجاه الأدبي كان مطران يتخذ اللبنات الأولى لتفكيره

وكانت طبيعة المعاودة والمراجعة في الفتى تزجيه الى درس آداب مختلف المدارس الأدبية الافرنجية عن طريق اللغة الفرنسية ، وهو مهما يصدف عن بعض الالوان من الآداب وبعض المدارس الأدبية بدافع نفسي ، فانهُ كان يكره نفسه على الدرس والتعمق في البحث ، وبهذا وحده خلص مطران بثقافة أدبية كاملة تنطوي على كل المذاهب الأدبية التي عرفها تاريخ الآداب الى عهده

وكانت معرفة مطران بالتركية والانكليزية ، سبباً في ان يحاول الاطلاع على آداب الاتراك والانكليز في لغاتهم الاصلية فقرأ لأعلام المدرسة الجديدة في تركيا ما كتبوه من الشعر وما اخرجوه من المسرحيات والآثار الأدبية . وتأثر بمطالعاته ، وعلى وجه خاص بآثار نامق كمال وناجي واكرم وحامد من أعلام الأدب التركي ، كما انهُ اطلع على آداب الانكليز اطلاعاً سريعاً في تلك الأيام

(١) هذا الكلام تصحيح في العموم لما رواه لنا توفيق حبيب . والاصل في هذا التصحيح كلام مطران نفسه

وان عاداليها في الطور الثاني وأوائل الطور الثالث من عمره يمعن في مطالعتها ويحاول ان ينقل بعض روائعها الى العربية. ومهما تكن حقيقة هذا الطور من حياة مطران، فلا شك في أنه طور استعداد وتهيؤ واستجماع للاسباب . ولم يظهر من مطران من مظاهر النشاط الأدبي غير بضع قصائد من الطريقة القديمة في النظم ، قال جلها في أغراض ثورية ومناسبات عارضة ، ولم يسجل منها غير قصيدته « ١٨٠٦ — ١٨٠٧ » المثبتة في صدر ديوانه [(١)]

تبدو شاعرية مطران في الطور الأول وان كانت متقومة بطرائق القدامى في نظم الشعر واضحة الخطوط ظاهرة المعالم . وأول شيء يطالعك من شعره مطاوعة الانفعال الشديد للاستجابة الهادئة التي تجعل للذهن مجالاً للتدخل لتصفية ألوان الاحساس وضبط المشاعر والعمل على تناسب الخطوط بين الصورة من حيث كمالها وسكينتها وبين الاسلوب من حيث الوضوح والجزالة . وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تعطيه الوقت للعناية بالتفاصيل والجزئيات ، ومن هنا كان شعره يخرج معبراً عن فكرة مطردة تصاحبها مشاعر متسقة واحساسات مسترسلة تصاحب الفكرة. وانت يمكنك ان تلمس هذا الاصل في شعر مطران منذ الطور الاول من حياته ، تلمسهُ بوضوح في قصيدته عن « يينا وفتح باريس » ولكن الغرض الاتباعي طغى على معظم مواقف القصيدة فحاول ان يخفت من صوت مشاعره ، ولكن الخلجات التي تطالعك من القصيدة لا تجعلك تشك في صحة المقررات التي نعرضها ، خصوصاً اذا نظرت الى قوله في هذه القصيدة :

لبروسيا في أرض « يانا » عسكر ... مجر (٢) شديد البأس وافي الزاد
وخيامه في الافق مائلة على ... ترتيب سلسلة من الاطواد
نفرت طلائع خيله منذ الضحى ... تترقب الاعداء بالمرصاد
فأتوا كما يجري الأتي (٣) مشعبا ... في غير مجرى مائه المعتاد
وكأن نابليون في اشراقه ... علم على علم الزعامة باد
المجد رهن اشارة بيمينه ... والنصر بين يديه كالمنقاد
والفخر في راياته متمثل ... وطلائع العقبان في ترداد
فتهيأ الالمان لاستقباله ... كالحائط المرصوص من أجساد
وعلا هتاف مازجته غمائم ... من سل أسلحة وركض جياد
ورنين آلات تكاد تظنها ... متجاوبات العزف بالايعاد
حتى اذا كمل العتاد تقاذفوا ... بالنار ذات البرق والارعاد
شهب ضخام آتيات والردى ... بمسيرهن ومثلهن غواد
تلقي الرجال على الثرى قتلى كما ... يلقي السنابل منجل الحصاد
لله درهم وقد حمي الوغى ... فتهاجموا كتهاجم الآساد
تدعو الجرامة أختها بصدورهم ... والسيف يتلو السيف في الاجياد
واذا التقى بطلان لم يتجندلا ... الا معاً من شدة الاحقاد
واذا جواد خر فارسه دعا ... بصهيله ذا حاجة بجواد

(١) يوجد بعض الشعر لمطران في الصحف والمجلات العربية التي صدرت في الفترة بين عام ١٨٨٧ — ١٨٩١ وهي تمثل الطور الاول من شعر مطران ، غير ان هذا الشعر أنكره مطران فلم يسجله في ديوانه

(٢) جرار (٣) السيل

والموت في الجيشين غير مجامل يجتاح بالازواج والافراد
يطوي الصفوف ويترك الدم اثره فكأنه فلك بيحر عباد
ما زال يفتك والنفوس زواهق وكأنت تلك هنيهة الميعاد
حتى تولى النصر جيش بروسيا فتفرقوا بين القفار بداد
فسعى الفرنسيون في آثارهم بعزائم لا ينثلمن حداد (١)
واستفتحوا برلين وهي منيعة وقضوا بها الايام كالاعياد

فهذا الوصف لا يكذب قارئه ما نراه فيه من تصفية ألوان الإحساس وضبط المشاعر والعناية الكلية بتفاصيل الواقعة ، والعرض لها ولصورها الحسية في شكل يجلوها بمشهد منك واضحة من الاسلوب الإتباعي الذي كان شعراء العرب يقولون الشعر استناداً اليه

خاتمة

نلخص القول في الطور الأول من حياة مطران ، وهو طور النشوء والبناء للطور الثاني واستجماع الأسباب للظهور فيه ، بأنه كان بما يحتويه من الظروف والاحوال من المهيئات لمطران لحمل شعلة الإبداعية في الشعر العربي الحديث في الطور الثاني من حياته. وقد خلص مطران من هذا الطور بمقومات شخصيته التي تكاملت في الطور الثاني ، وكان أهم الأسباب التي تقومت بها شخصيته من هذا الطور طبيعة المعاودة التي خلص بها عن طريق التعامل الحر مع محيطه وبيئته ، وخلة الحيطة التي تقومت بطبيعة المعاودة التي تأصلت في نفسه. وطبيعة المعاودة من نفسه كانت تدفعهُ للعناية بتفاصيل الامور وجزئياتها ، من حيث تجعلهُ يعيد الكرة بعد الكرة على الشيء الواحد . فينتزع منها مجموع أشكالها وينزل منها الى مقوماتها من الجزئيات والتفاصيل

وهذه العناية بجزئيات الاشياء وتفاصيلها كانت تسبغ على نظره ، الوجهة الموضوعية . والنظر الموضوعي كان يجعل مشاعره تلبس صورها من عالم الموضوع. ولكونها تحمل في طياتها التفاصيل والجزئيات كانت تتمثل للذهن شبحاً بتهاويلها وصورها وتصاويرها ومن هنا يتقوّم الاصل الموضوعي في شعر الخليل

وتعامل الخليل الحر مع بيئته جعلهُ يخلص بروح ضهامية تأنس للجماعة وتتعامل معها وتشارك الجماعة مشاعرها من آلام ومسرات ومن أحزان وأفراح ، غير ان تعامل الخليل مع أفراد الجماعة في حيطة ، نتيجة ما خلص به من طبيعة التريث التي خرج بها من المعاودة والمراجعة

وهكذا يمكننا ان نفهم طبيعة الخليل والاسباب التي تقومت بها والصور التي لبستها في الطور الاول من حياته

---

(١) عزائم ماضية كحدود السيف غير أنها لا تفل

استطلاعات المقتطف في مصر الصناعية

مصانع مصر

للغزل والنسج

جولة في مصانع المحلة الكبرى

الى الاستقلال الصناعي

« يستهلك مصنع شركة مصر للغزل والنسج ١٥٠٠ قنطار من القطن في اليوم يصنع منها ٣٠٠ الف متر من القماش و ٥٠ طناً من الغزل أي ما يوازي ٢٥ في المائة من كل ما يستهلكهُ القطر المصري من المنسوجات». بهذا القول استهل الاستاذ عبد الحميد حمدي وكيل شركة مصر للغزل والنسج في المحلة الكبرى حديثه ثم قال :— «ويشتغل في انتاج هذه المقادير الكبيرة ١٨ الف عامل و ٥٠٠ موظف. ثم ان المصنع يحتل ١٢٥ فداناً من ارض مدينة المحلة الكبرى، هذه البقعة التي امتاز اهلها باقبالهم على صناعة الغزل والنسج من امد طويل »

وانتاج المصنع يضرب عصفورين بحجر واحد . فهو يستهلك من غلتنا القومية الاولى التي يعتمد عليها الفلاح، نصف مليون قنطار من القطن في العام الواحد فيمهد لاستقلال السوق المصرية عن الاسواق الاجنبية باستعمال اقطاننا في الصناعة المحلية فتصبح بعيدة الى حدٍّ ما عن التأثر بالمضاربات الدولية. وثانياً يضع المصنع الحجر الاساسي لاستقلالنا الصناعي فيعيد الينا مجدنا الغابر وثقتنا بأنفسنا فنغدو أمة صناعية لها في عمل ابنائها خير وقاية من تقلب الزمان في الحرب والسلم

ويحتوي المصنع على اربعة عشرة عنبراً صفت فيها آلاف المغازل والانوال. وخطوة واحدة داخل احد هذه العنابر سواء في الليل او في النهار تبين ما في تلك البقعة من حياة النشاط، اذ يطغى صوت الآلات على كل صوت ولا تجد فيها الاَّ دلائل الحركة والعمل . فعيون العمال مفتوحة تحصي حركة كل خيط ، وأيديهم دائمة العمل تصلح كل خلل طارىء . أضف الى هذا تغير النفسية المصرية المعروفة بقناعتها، وتحولها الى الحماسة في العمل والانتاج والكسب . فمن اللحظة الاولى التي تطأ فيها قدمك ارض المحلة الكبرى تشعر بارتفاع مستوى المعيشة فيها عنهُ في سواها من مدائن مصر. فأجر اقل عامل هناك كما اخبرني احد المسؤولين لا يقل عن ثمانية قروش في اليوم الواحد

النشوء والارتقاء

ولا يقتصر انتاج المصنع على الاقمشة القطنية . فهناك مصنع الصوف يصنع الاقمشة الصوفية ومصنع المنسوجات الكتانية . وهناك مصانع «الناموسيات» و« الفانلات » و «الجوارب» التي تظهر في السوق متعددة النقوش والالوان ومنها الرخيص ومنها الغالي الثمن وكلٌ يخضع لما بذل فيه من جهدومادخل في صنعهِ من خامات. فصناعة الغزل والنسج من الصناعات المتشعبة كثيرة التعقيد

ولغزل القطن ونسجه ستة عنابر ثلاثة منها للغزل ومثلها للنسج انشئت في فترات مختلفة ارتقت مع الزمن وفقاً لسنَّة النشوء والارتقاء. فقد صدر المرسوم الملكي بانشاء شركة مصر للغزل والنسج في ٢٦ اغسطس سنة ١٩٢٧ برأس مال قدره ٣٠٠ الف جنيه وفي فترة فقدفيها المصريون كثيراً من الامل في انشاء الصناعات في مصر . فأسس في اول الامر العنبر رقم واحد للغزل والعنبر رقم واحد للنسج . وافتتحا في عصر المغفور له الملك فؤاد الاول . ثم اتسعت دائرة العمل فأسس عنبران آخران. ثم اتسع ثالثة فافتتح جلالة الملك فاروق عنبرين جديدين اطلق عليهما الرقم الثالث وزاد رأس مال الشركة في خلال ذلك الى ان بلغ ٨٠٠ الف جنيه مصري

تبدأ المصانع عمليتها بالقطن الخام بعد حلجه واستخراج بذور القطن من اليافه . فلمصانع الشركة مخازن واسعة . قسمت تقسيماً فنيًّا حتى لاتختلط الاقطان بعضها ببعض. فهنا السكلاريدس وهنا الزاجورة والاشموني ، وهناك جيزة نمرة ٧، الى آخر هذه الانواع التي تنتجها ارض مصر. ولا يجوز خلط هذه الانواع كيفما اتفق لأنَّ كلاً منها ينتج خيطاً يختلف في المتانة والسعر عن سواه . فاذا طلبت المصانع قطناً قدمت لها الانواع التي تتفق ونوع القماش المطلوب. وهنا تبدأ عملية خلط القطن بأقدار خاصة يعرفها الفنيون في غزل القطن ونسجه وعلى هذه الخلطة تتوقف متانة القماش وسعره

آلة تسلم آلة

وتتولى عملية الخلط آلات تبدأ من الطابق الثالث فتنقل الاقطان من مخازنها على عربات صغيرة تسع كل منها بالة واحدة ثم ترفع الى عنابر الآلات بروافع خاصة فاذا استقرت في عنابر الخلط نزعت عنها احزمتها ووضعت الاقطان في الآلات حيث تخلط وتنبذ منها بعض موادها الغريبة كالتراب وبقايا البذور ثم تمضي في سيرها من آلة الى اخرى حتى تهبط الى الدور الثاني في انابيب مصنوعة من الزنك حيث تبدأ عملية التنظيف النهائية

توضع الاقطان على حصائر الآلات فتنقلها الى جوفها حيث تجتاز اربع مراحل للتنظيف وفي كل مرحلة تتولى الآلات ضرب القطن كما يفعل المنجدون ولكن بطريقة آلية ادق وانظف ثم تخرج طبقات القطن من نهاية الآلة ملفوفة لفائف كبيرة طول اللفة متر تقريباً ويتخلف القطن

الذي لا تيلة له داخل الآلة ويستعمل في غير اغراض الغزل كالقطن الطبي

وتنقل اللفائف النظيفة الى آلات التمشيط حيث يعاد ضرب القطن وتنظيم فتله وتختلف امشاط هذه الآلات باختلاف طول تيلة القطن فطول تيلة السكلاريدس ٢٣ مليمتراً بينما طول تيلة الاشموني ١٧ مليمتراً ولذلك يجب تغيير هذه الامشاط وتركيب غيرها على الآلة حتى تحتفظ الخامات بقوتها وطول تيلتها . ويراعى عند خروج القطن من هذه الآلة ان تكون طبقاته رقيقة تكاد تكون شفافة ذات سمك واحد فيلف على اسطوانات عريضة. فاذا اعترضت الآلة طبقة سميكة سارت حصيرتها ببطء واذا اعترضتها طبقة رفيعة سارت بسرعة فتتساوى الطبقات جميعاً في ثخانتها ثم تحول هذه الطبقات في عملية « الكرد » الى خيوط غير مغزولة من القطن

١٤٤ خيطاً

والغزل ثلاث مراحل اولاها البرم الابتدائي فالمتوسط فالنهائي ويصل عدد « الفتل » في الخيط الواحد الى ١٤٤ فتلة تختلف متانتها باختلاف الحاجة اليها وبعضها يستعمل في صناعة « الشلل » التي تصدر الى السوق وبعضها لصنع بكر الخياطة الذي تستعمله السيدات في البيوت . ونوع ثالث يستخدم في الانوال اليدوية خارج المصنع . الى غير ذلك من الصناعات المختلفة . ولما كانت عملية الغزل تحتاج الى درجة عالية من الرطوبة فقد جهزت المنابر بآلات تجعل درجة الرطوبة ٧٥ في المائة

وآخر عمليات الغزل هي عملية « البوش » وفيها تلف الخيوط على «مطاور» وهي اسطوانات كبيرة تسع ١٨٢٤ خيطاً طول كل منها ٥٠٠٠ متر توضع في آلات تدفع الخيوط في مواد كيمائية ونشاء وجلسرين وصابون فتكسبها قوة على تحمل شد آلات النسج وصعود الخيوط وهبوطها في الانوال وتخصص هذه الخيوط لسدى القماش وهو ما مُدَّ من الخيوط طولاً

ويستغرق تركيب الخيوط في الانوال وقتاً طويلاً اذ يجب ضمها في ابر « الدرق » وهو عبارة عن اطار من الخشب في وسطه اسلاك تمر من بين كل سلكين اربعة خيوط . ويحتاج كل نول الى درقتين او ثلاث او اربع وفقاً لنوع النسيج ويقدر عدد خيوط البوصة الواحدة بستين خيطاً في الطول ومثلها في العرض ويستغرق تركيب الخيوط في اربع درقات ثلاث ساعات من وقت العامل

تبييض القماش

يخرج النسيج بعد هذه المرحلة أسمر اللون لاتساخه في أثناء العمل ولذلك يجب ان يمر في مرحلة التبييض (القصر) . وفيها توصل مقاطع القماش أولاً بعضها ببعض ثم يمرُّ شريطها العريض في عدة أدوار فاذا انتهى من واحد انتقل الى الآخر وأول هذه الادوار حرق « الوبرة »

التي تتخلف في النسيج من الناحيتين إذ يدخل الآلة من ناحية فتحرق وبرها وتقلبهُ الآلة لمر على نار ثانية تحرق وبر الناحية الأخرى . فاذا أنتهى حرق الوبر مضى النسيج في سيره فيمر في أحواض كبيرة مملوءة بالماء الجاري لتبريده ثم يدخل أحواض الغسل لازالة ما يعلق به من النشا والاحماض ويتغير الماء المغلى ثلاث مرات يبقى القماش في الماء في كل منها فترة تتفاوت بين ١٠ ساعات و١٢ ساعة .وسألت العامل عن الطريقة التي يعرف بها ان القماش تخلص من موادهِ الغريبة فقال « بالرائحة وبلون الماء » في المرة الأولى يصبح لون الماء أحمر وفي المرة الثانية يصبح أصفر وفي المرة الثالثة يصبح أبيض

وينتقل الى التبييض بالمواد الكيمائية كالحوامض والصودا في عملية واحدة إذ يخرج شريط النسيج من آلة فيدخل في الأخرى ويحفظ في هذه المواد ثماني ساعات يصير لونه بعدها ناصع البياض ولكن الاحماض والمواد الكيمائية تؤثر فيه ولذلك يجب تنقيتهُ منها بغسله بالماء العادي ثم يجفف بمروره في آلة بها ثماني عشرة اسطوانة ساخنة ثم يفرد وينشّى ويكوى بآلات خاصة استعداداً لصبغه ونقشه تبعاً لطلب السوق

مائتا رسم في الاسبوع

وعملية الصباغة والنقش من العمليات الفنية الدقيقة التي تحتاج الى خبرة طويلة وذوق حسن يدرك ما يرغب فيه الجمهور . فأول ما يجب عملهُ هو رسم شكل صغير على الورق بالالوان الطبيعية ثم عرض هذه الالوان والنقوش على تجار الجملة ليختاروا الرسم المناسب وما يوافقهم من نقوش ولذلك أعدت الشركة قلماً خاصًّا بالرسم موظفوه من خريجي مدارس الفنون الجميلة يستلهمون وحيهم من الطبيعة والحياة بما فيها من أشكال طبيعية وصناعية . وينتج هذا القلم مائتي رسم في الاسبوع يعرضها على المكتب التجاري لاختيار الصالح منها

وعندما يستقر الرأي على نقش معين ينقل الى «ورشة» الحفر حيث ينقل رسم كل لون على لوحة من الزنك ويحفر فيها ثم ينقل الى اسطوانة نحاسية لها قلم عندما يمر على لوحة الزنك تسجل الوحدات على اسطوانة النحاس .وتحتاج هذه الطريقة الى عملية حسابية دقيقة فيجب أن ترسم جميع الوحدات بابعاد ثابتة حتى لا يؤدي خطأ يسير فيها تقدرهُ بضعة مليمترات الى ارتباك العمل واعادته من جديد لان معنى هذا ان النقش لن يكون منتظماً وربما تداخلت النقوش بعضها في بعض

وتطبع النقوش ثم تثبت بواسطة البخار تارةً وبالمواد الكيمائية أخرى ثم يغسل القماش بالماء والصابون ويجفف ويشد ويكوى للمرة الاخيرة استعداداً للتجهيز النهائي . وتتشابه آلة

طبع القماش بآلة طباعة الالوان الحديثة من حيث تعدد الاسطوانات والالوان ولكنها تختلف عنها في ارتفاعها الذي يسمح للقماش بأن يجف

وتنقل الاقمشة الى الطابق الأعلى بروافع كبيرة سعة الواحد منها ١٠٠٠ متر مكعب وهناك تعد للتجهيز النهائي إذ تمر بآلات ترتبها بنظام خاص يسمح للعامل بأن يلاحظ ما فيها من عيوب تجارية يعينها بوضع علامة صغيرة على القماش حتى اذا رآها العامل الذي يقصّهُ « أثواباً » فصل الاجزاء غير الصالحة ثم تحزم الاثواب وتلف بالورق استعداداً لارسالها الى التجار

القطن الطبي

اما القطن الذي يتخلف من العمليات التمهيدية للغزل ويسمى « بالعادم » فينقسم قسمين اجودها « الكريتون » وهو الذي يصنع منهُ القطن الطبي وهو قطن « قصير التيلة » لا يصلح في اعمال الغزل والنسج ولذلك يستغل في صنع القطن الطبي . يخرج هذا النوع من آلات التنظيف وهو يحمل مقادير كبيرة من التراب والبذور والبقايا النباتية فيمرُّ في آلات متعددة تختلف في دقة التنظيف باختلاف نظافة القطن فكلما كان القطن نظيفاً انتقل الى آلة أدق حتى يخرج بعد عدة مراحل وهو خال من كثير من مواده الغريبة

ولا تكاد تصدق عينيك عندما ترى التغير التام الذي طرأ على نظافة القطن فبعد ان كان أسود مما لصق بهِ من تراب وقشور تشاهده فاذا هو نظيف أبيض ولكن الاقطان الطبية تحتاج الى تطهير خاص وشكل خاص ترتاح اليهِ عينا المريض او الجريح . ولذلك فان يد العامل تتناوله بالغسل بالمواد الكيميائية والصابون مراراً حتى يزهو لونه ويصبح ناصع البياض

وأخيراً يغمر في حوامض تزيل ما قد يكون عالقاً بهِ من مواد غير مرغوب فيها سواء من الناحية التجارية او الطبية وتحفظ لهُ في الوقت نفسه لونهُ ونقاوته ثم ينقل الى آلة مجوفة تدور بسرعة ليجفف ويعصر بفعل الدوران ويخرج من الجزء الثاني للآلة وهو جاف فيوضع في آلة « تفتيح » تفصل أليافهُ بعضها عن بعض وتلفه على شكل « بكر » كبير استعداداً لعمله ملفات كالملفات التي نراها في الصيدليات . وينتج هذا المصنع ١٢٠٠ كيلو جرام يوميًّا .وقد دلت التقارير التي قدمت من الهيئات الطبية سواء أمصرية كانت أم أجنبية أن منتجاته خير من غيرها لما امتازت بهِ من جودة القطن واتقان تحضيره لا سيما انهُ معد بالجهزات الصحية اللازمة

ملابس الشتاء والصيف

ومصنع الغزل والنسج في المحلة الكبرى قوامهُ عدة مصانع تدخلها عرياناً فتخرج منها مكسوًّا وسواء في الصيف او في الشتاء. فالى جوار مصانع غزل القطن ونسجه مصنع غزل الصوف ونسجه

ويختلف صنع الاقمشة من الصوف عن نسج القطن فيما يحتاج اليه من عمليات كثيرة وآلات دقيقة تقتضي خبرة وعناية

واذا كان القطن يحتاج الى عملية خلط فنية فان غسل الصوف يحتاج الى مواد كيميائية متعددة لكي تزيل ما علق به من مواد دهنية . فان الصوف مادة حيوانية بينما القطن مادة نباتية . ومما يؤسف له ان بلادنا على الرغم من انها قطر زراعي تكثر فيه الاغنام فان محصول الصوف فيها لا يمكن الاعتماد عليه في الصناعة لسقوط صنفه ولذلك فإن الاصواف المستعملة في هذا المصنع تستورد جميعها من الخارج . وأهم نقد يوجه الى صوف اغنامنا قصر تيلته وقذارته وهما صفتان تقفان حجر عثرة في سبيل استخدامه في المنسوجات المتقنة

وقد تمكن المصنع من انتاج اصواف « البدل » مما يوفر علينا كثيراً من الاعتماد على المصانع الخارجية . وينتظر ان تغمر هذه المنسوجات الاسواق المصرية عند ما تتقن هذه الصناعة التي تحتاج الى الخبرة والعناية. فعلى الرغم من ان المصنع حديث العهد بالوجود فانه يستطيع ان يمدنا بالاقمشة التي نستطيع ان نفخر بمصريتها وبأن مردها الى الأيدي المصرية ورؤوس الاموال المصرية

وكما يقدم لنا المصنع الياضات والاصواف فانه يقدم لنا ايضاً « الفانلات » و« الجوارب » و« الناموسيات » وانواع « الدنتلا » . فلكل من هذه المنتجات عنبرها الخاص . وفي مصنع الجوارب والفانلات تشتغل الفتيات والفتيان بصبر وجلد. ولاحظت كثرة الفتيات فسألت عن السر في ذلك فقيل لي ان الفتاة اشد صبراً على العمل بطبيعتها وآلات نسج « الجوارب » و « الفانلات » تحتاج الى كثير من السياسة والرعاية مما لا يتوافر في الرجال فقد يسبب استعجالهم للحوادث خسارة لا داعي لها كالاستغناء عن بعض الابر التي تعيبهم في اثناء العمل

وينتج مصنع الجوارب ٣٠٠ « دسته » في اليوم الواحد من مختلف الالوان والنقوش ويشتغل فيه ١٥٠ عاملاً وعاملة . وينتج مصنع الفانلات ٢٠٠ « دسته » في اليوم ويشتغل فيه ١٥٠ عاملاً وعاملة ايضاً وهو ينتج عدة انواع من الملبوسات الجاهزة « كالجرسات » وقمصان الالعاب الرياضية وغيرها . وينتظر ان يزاد انتاج هذا المصنع في القريب العاجل بتوسيع عنبره وضم عدة آلات جديدة اليه حتى يستطيع ان يسد طلبات السوق وحاجته

الصناعة تغزو الاخلاق

اول ما يستوقف نظر الزائر لهذه المدينة روح الصناعة وقد غيرت من نفسية الناس فما تراه من روح الرضي والتواكل في حقول مصر سواء أفي الصعيد كانت ام في الوجه البحري، تراه طموحاً

في المحلة الكبرى. فهناك لا يرضى أصغر عامل بأقل من ثمانية قروش في اليوم بينما زميله على بعد ساعة واحدة من المحلة يرضى بثلاثة قروش في اليوم. فهذه الروح النامية هي وليدة الصناعة التي غزت هذه البلدة فرفعت مستوى المعيشة فيها وجعلت الناس يبحثون عن المسكن الحسن والطعام المغذي النظيف . فطعام الحقل عاد هناك وهو لا يكفيهم ، ولا السكنى مع البقر والاغنام ترضيهم

وقد تنبهت الشركة الى ما سيصيب هذه البلدة من تطور مفاجيء فاستعدت لذلك وشيدت المنازل لموظفيها فأقامت منازل خاصة بالموظفين غير المتزوجين واخرى للموظفين المتزوجين وفي الأولى يخصص لكل موظف غرفة مؤثثة صنع اثاثها في ورش المصنع ولا يحتاج فيها الموظف الا الى ملابسه الخاصة ، وبعض هذه الغرف مؤجر وبعضها الآخر بالمجان فهناك موظفون تشتد الحاجة اليهم على غير ميعاد ولذلك تطالبهم الشركة بالسكنى في منازلها ليكونوا مستعدين للطوارىء وتتكون هذه العمارات من شقق عدد غرف كل منها اربع وهي مجهزة بالكهرباء والادوات الصحية

طابق في المستشفى

وتهتم الشركة بصحة عمالها ومستقبلهم ولاسيما الحوادث والاخطار التي تحتمها الصناعة ولذلك أمنت على عمالها حتى اذا أصيب احدهم في حادث نال التعويض اللازم كما انها تصرف لهم في حالتي المرض او الاصابة نصف اجورهم . أضف الى ذلك ما اتخذته من استعداد يسهل للعامل العلاج في مستشفيات المدينة ولذلك شيدت دوراً ثالثاً على نفقتها في المستشفى الاميري وهو يسع ١٥٠ سريراً

وقد أعدت المصانع من الداخل بما يضمن منع كثرة تطاير الغبار فثبتت في السقف مراوح وأنابيب للتهوية وامتصاص الغبار وتقوم هذه الانابيب بعمليات أخرى لتأمين سلامة العمال والمصانع فهي مجهزة بأدوات لاطفاء اي حريق . فاذا اشتدت الحرارة داخل عنبر ما فتحت تلك الانابيب بطريقة آلية وأسقطت الماء على النار فأخمدتها

وارادت الشركة ان تنمي الروح الرياضية بين افرادها فأنشأت لذلك نادياً فسيحاً فيه بناء للعب التنس كما انشئت الفرق الرياضية التي تتبارى للحصول على كأس طلعت باشا . اضف الى ذلك انها استغلت احواض ترشيح الماء فزودتها بالادوات التي جعلتها صالحة لان تكون احواضاً للسباحة يجد فيها الموظفون مايشاءون من متعة ورياضة

ولم يقتصر الاهتمام على الروح الرياضية والاجتماعية فالى جوارها نشأت الروح العلمية والتعاونية اذ اسست جمعية علمية تدعو الى المحاضرات المفيدة التي تتصل بصناعتي الغزل وصدرت مجلة خاصة بذلك تطبع على نفقة الشركة . اما الجمعية التعاونية فهي عبارة عن حانوت يجد فيه الموظفون والصناع ما يحتاجون اليه من ملبوسات او مأكولات بأرخص الاسعار بحيث توفر على العامل دراهمه وتعطيه اجود البضائع



في سورية ولبنان

رضا توفيق وعبد الحق حامد

طالع الأدباء بشوق الفصول التي نشرها الدكتور اسماعيل أدهم في «المقتطف» عن الاستاذ خليل مطران ، شاعر العربية الابداعي ، كما سماه ، وكان الدكتور ادهم قد عقد في مجلة « الحديث » الحلبية فصلاً عن الشاعر التركي حامد الذي توفي لسنتين خلت ، عرض فيه — استناداً الى ما كتبهُ الدكتور رضا توفيق في كتابٍ لهُ عن حامد — للعوامل الأدبية التي تأثر بها الشاعر التركي وفي جملتها كورنيل وشكسبير وفيكتور هيغو . وكثيراً ما كان الدكتور رضا توفيق يحدثني عن صديقه حامد ولا يكتمني انهُ تبنّى طائفة لا تحصى من أفكار الشعراء الفرنج على أنهُ طبعها بطابع من نفسه شأن جوتي في « الديوان الشرقي » وكورنيل نفسه في « السيد » .وفيما نحن نتحدث عن مقال الدكتور أدهم في حامد قصَّ عليَّ الدكتور رضا توفيق قصة اكتشافهِ مصدراً غرف منهُ شاعر « المقبرة » حصةً كبيرة من أفكاره . وبما أن صديقي نزيل لبنان اليوم لم يذكر هذه القصة في كتابهِ الضخم الذي نقد فيهِ شعر حامد فقد رأيت أن أسردها بايجاز تفكهة للقراء

كان الدكتور رضا توفيق وحامد صديقين حميمين وكان كلٌّ منهما يحترم الآخر ويجلّه وكثيراً ما كانا يصرفان الليالي بين الخمرة والأدب . وفي احدى الليالي قام الشاعران بجولة على ضفة البوسفور ، وبعد أن نالا من الخمرة حتى اكتفيا دعا حامد صديقه رضا توفيق الى تمضية الليل في بيتهِ . وكأن الخمرة أيقظت في نفس الشاعر الفيلسوف رضا شوقاً ملحًّا الى تصفح ما يطبع الليل على صحائف البوسفور فاستلقى على سريره وأطلق عينيهِ في الابعاد . وهو على ما بهِ شعر بجسم تحت الوسادة فرفعها فرأى كتاب « الله » لفيكتور هيغو . وكان حامد قد أحلَّ صديقه رضا في مخدعهِ . فأخذ هذا الأخير يتصفح الكتاب فاستوقفت انتباهه علامات موضوعة بجانب مقاطع من الشعر عرف الدكتور رضا أن صديقه تبنّى معانيها في شعره .

ومنذ ذلك الحين راح يتعقبهُ فتبين لهُ أن حامد انتحل هيغو ولامرتين وكورنيل وشكسبير وغيرهم

الانتحال والسرقة الادبية

لا أجد بدًّا، في هذا الصدد من ذكر الغارة الهوجاء التي شنها اخيراً بعض الادباء اللبنانيين على بعض ادباء لبنان ومصر متهماً هؤلاء الاخيرين بالسرقة والانتحال. فقد حلا لبعض النقاد ان يحدث حركة أدبية غير مألوفة فراح ينبش بطون الكتب والدواوين لعله يظفر بسرقة ادبية يوقع بها الواقعة. ويظهر ان هذه الشهوة الادبية تفاقم امرها حتى اصبحت مرضاً في بعض النفوس وحتى خيل الى البعض ان ما ينتجه الشعراء والكتّاب والمشهور منهم بوجه خاص « يجب » ان يكون منحولاً أو مسروقاً او مستوحى من الغير على الاقل. ويكفي ان يكون المنقود قد جاء بكلمة او كلمتين ورد مثلهما في عبارة فرنجية ليعد سارقاً . . . فقول الشاعر اللبناني مثلاً:

وو جهك الشاحب الجذاب ترهبني ... ألوانه يتشهى فوقها اللهبُ
ما زلت تقتصين الليل في جهدٍ ... حتى تجمد في اجفانك التعب

مسروق من قول الشاعر الفرنسي:

Et semblable à la mort, seulement quelques pleurs
Montraient encore sa vie en montrant ses douleurs.

فان يكن بين هذين القولين شبه — وليس بينهما أي شبه — فماذا تراه يكون بين قول لامرتين في بحيرته: « ذات مساء، اتذكرين؟ كنا نعوم بسكون. ولم يكن يسمع في الابعاد، على الماء وتحت السماء إلاَّ دويُّ الجذافين الضاربين بايقاع امواجك الموسيقية » وقول روسو في « الوئز الجديدة » قبل سنوات: « كنا صامتين صمتاً عميقاً، وكان دويّ المجاذيف ذات الايقاع المتوازن يهيج في قلبي الشوق الى الاحلام » او قول شاتو بريان في اتالا: « كانت اتالا تنشد فلا يقاطع شكاياتها الاَّ دوي زورقنا على الماء؟ »

او بين قول أبي نواس:

تضحكين لاهية ... والمحب ينتحب

وقول ابن زيدون:

تضحك في الحب وأبكي انا الله فيما بيننا حاكم

او بين قول ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم ماء وظلٌّ وانهارٌ وأشجار

ما جنة الخلد الاّ في دياركم ولو تخيرت،هذي كنت أختار

وقول شوقي :

خلفت لبنان جنات النعيم وما نبئت أن طريق الخلد لبنان

حتى انحدرت الى فيحاء وارفة فيها الندى وبها ظلٌّ وريحان

او بين قول ابن زيدون :

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فيمن نحب وما في ذاك من عار

أكلٌ شهيٌّ أصبنا من أطايبه بعضاً وبعضاً صفحنا عنهُ للفار

وقول ذلك الشاعر الفرنسي في قصيدته « الى امرأة » :

S'il reste encore du vin les laquais le boiront.

وقد نقل الاستاذ بشارة الخوري هذه القصيدة الى العربية ومنها :

ولجةٌ كانت لنا عندما أفرغت كأسي لا كما تزعمين

ففضلة الكأس التي عفتها تركتها للخدم الساقطين

إنهُ لمن الخرق الفاضح بل من الظلم أن نعمد باسم « تطهير الادب » الى انكارنا على كاتب أو شاعر صفحة من حياته وتنسبها الى من لا عهد له بها .

ويؤسفني أن أقول إن مرض تسريق الادباء ما شاع في بلد كما شاع في لبنان وان هذا المرض لمن نواقص الحركة الأدبية في هذا البلد . واكبر الظن ان السبب في هذه الحملة العاثرة يرجع الى ماض كان بعض الادباء والشعراء يغيرون فيه على تركات الغير من ادباء الفرنجة فيغرفون منها ما يلزمهم أو ما يرون فيه غذاء لأدبهم ، ولم يكن الاتصال بأدب الفرنجة كما هو اليوم فكانت السرقة تخفى على الكثيرين ، وكثيراً ماكان الشاعر أو الكاتب ينقل قصيدة برمتها أو مقالاً برمته وينسبهُ الى قلمه . وكأن نقاد الشباب من القافلة التي لم تدرك الادب قبل الحرب الكبرى راحوا يميطون اللثام عن تركة الفرنجة في آثار الأدباء اللبنانيين الذين أدركو العهدين فأورث اسراف بعضهم أحقاداً في نفوس اولئك الاخيرين انتقلت

الى مشايعيهم بشكل حادّ ، وسرعان ما تحوّل ردّ الفعل في أقلام هؤلاء المشايعين الى انتقام ثماوك يهون لأجله البهتان ويسهل التضليل

ابن زيدون

أصدرت مطابع دمشق أخيراً درساً في الشاعر الاندلسي «ابن زيدون» للاديب السوري الاستاذ «نهاد رفعة عناية» ، حاول فيه الكاتب أن يثبت أن شعراء الاندلس وكتابها كانوا عرباً في تفكيرهم واحساسهم، على انهم مع ما اقتبسوا من الآداب اللاتينية عن القوط الاسبان ظلوا يأتمون بالشرق ويقلدون أدباءه في شعرهم ونثرهم . وبعد ان أورد الكاتب الادلة الكافية على ميزة ابن زيدون الغزلية وأحله المحل الاول بين شعراء الاندلس انتقل الى ميزته الوصفية فلم يجد فيها تلك القيمة التي لغزله وخلص الى ان الشاعر كان يتكلف الوصف — مع ان ادباء الاندلس كانوا يلقبون ابن زيدون بـ « بحتري المغرب » . وقد فاضل الكاتب بين البحتري وابن زيدون وخلص الى ان وجه الشبه بين الشاعرين هو قوة الطبع والسلاسة والجزالة ورقة الغزل ، على ان البحتري ان كان أطبع على الشعر من ابن زيدون فهو لا يبلغ شأوه في الثقافة ولا يدانيه في شدة العاطفة

ثورة العاطفة

وأصدر الشاعر السوري «الاستاذ حامد حسن» مجموعة شعرية عنوانها «ثورة العاطفة» وأول ما يواجهك فيها احساس عنيف في تعبير يختلف جرسه باختلاف حالة الشاعر ، فاذا كان الشاعر صادقاً ماشى الجرس الحس وجاراه :

... كلما ناجيتُ طهري والتقى　　نفثت في مضجعي حلماً عربيًّا

تسم العين به حتى غدا　　رغبة صارخة في مقلتيّا

ترعف الاثم ، فلو في خاطري　　مرّت التقوى لارداها بغيّا

واذا لم يكن صادقاً سفل الجرس مع الحس واضطرب حتى الوزن :

نصعد نفسينا أضحيتين　　بمذبح طهر الهوى والجمال

علي أني لم أقع في هذه المجموعة على قصيدة لا تتخللها أبيات رائعة صارخة في صدقها ، بليغة في أدائها

تعالي لنسبح في عالم ،　　بشتى رغائبه يزخر

بغدرانه يستحم الضياء ... رفوق خمائله ينشر
مراقيه من دونهن الجحيم ... تثور ، وفي دربه عبقر
ومهوى سحيق على جانبيه ... تعاصى على الوهم لا يعبر

ويقف الشاعر في مجمل قصائده موقف الخاطىء الراغب في التخلص من جحيمه ، فهو يحلم بالفردوس الهانىء وقدمه في النار

والإثم مطهرة النفوس ولا أرى ... ما الفرق بين الحان والمحراب
...والخمر إن خبثت على شفة امرىء ... طعماً فأيُّ الذنب للأكواب ؟

وقد تكون أجمل قصائد هذه المجموعة قصيدة «امرىء القيس والعذارى» ولا شك في أن الشاعر وجد في موضوع هذه الاسطورة غذاء لخياله الأحمر وألواناً لعاطفته الصاخبة . ولا أعلم على من تتلمذ هذا الشاعر الشاب إذ يبدو لي أن في شعره أثراً من شعر الغير ولكنهُ مطبوع بطابع خاص لا يحق لأحد أن يقاضيه اياه

ديوان «الامواج»

وأصدرت مطابع بيروت طبعة جديدة من ديوان «الامواج» للشاعر أحمد الصافي النجفي ، والصافي — نزيل بيروت منذ أشهر — من أصدق شعراء الجيل ، وقد يكون هو والشاعر الجواهري أشعر من في العراق وسأتكلم في الرسالة المقبلة عن النهضة القائمة في الاقطار العربية الشقيقة . ولا أعتقد أن في الشعراء من ينطبق شعره على حياته كالصافي ، فهذا الشاعر المستقيم كالاسطوانة ، المحتفظ بالعباءة والكوفية والعقال والنعل ، لا يعطيك إلاَّ شعراً مستقيماً كجسده وخلقه ، ساذجاً كنفسه وعباءته ، لا أثر عليه للزخرف والطلاء ، فهو يرسله كما يجيش في نفسه الشاعرة على ما تقتضيه السليقة والطبع فيأتي صافياً نقيًّا لا تكلف في أدائه . وربما كانت أظهر نواحي الشاعر في ديوانه «الامواج» هي ناحية الألم العميق ، والألم كان وما يزال غذاء الشعراء ، وهو على ابتذاله في نفوسهم ما يزال جديداً لأنهُ غلاف النفوس الحساسة او هو شطر منها ، والألم اله الشعراء على الارض اذا لم يجدوه في ذاتياتهم عمدوا الى البحث عنهُ في كل ما يحيط ، وقد يهتدون اليه على وجه فلاح :

في الليل يبتك مثل دهري مظلم ... ما فيه لا شمعٌ ولا مصباحُ
بغضون وجهك للمشقة أسطر ... وعلى جبينك للشقا ألواح

سِرٌّ بؤسك فاضحٌ لذوي الغنى لو ان سرك في البلاد يباح

وهذا البيت الاخير لا ينطبق على الفلاح فحسب بل على من ظلمته بلاهة الاقدار أو سيطرة الاغنياء ومحتكري عرق الجباه ، ولقد شاء الشاعر ببيته هذا ان لا يذل الباحثين من ابناء الألم فلم يدع الفلاح يبوح بؤسه لئلاً يعرضه لشماتة الاغنياء وهزئهم

قلت ان الصافي صادق في شعره فالشاعرية الصادقة ظاهرة في ديوانه ، في ألمه ويأسه ، وحماسته الساذجة ، ومجونه اللطيف وسخريته البريئة ، ودعابته الحلوة وهي ظاهرة في جميع قصائده ، وقد استثني بعضاً منها كقصيدة « اليتيم » مثلاً ، فهذه القصيدة لم يوفق بها الشاعر لا في المعنى ولا المبنى وقد تكون « اليتيم » في عداد القصائد القليلة التي لم ينبض فيها قلب الشاعر ، في حين ان الموضوع ادنى الى نفسه من سواه ، فهو من أبرز موضوعات الالم وربما كان السبب في ذلك ان صاحب « الامواج » كتب قصيدة « اليتيم » عقب قراءته قصيدة «اليتيم في العيد» او « أم اليتيم للرصافي » ولو انه شهد بأم عينه يتيماً بائساً فرقَّ له او توجع — كما هي عادته في كل ما ينظم — لما اعياه الشعور عن ان ينظم في اليتيم قصيدة رائعة

وكنت اربأ بالشاعر ان يدرج مثل هذه القصيدة الى جنب قصائد جميلة تموج بالرقة والموسيقى كقصيدة « الليل والنجوم » التي لا تخلو من السحر قال :

كأن ساقط النجوم أرقمٌ قد ساب في بحر الظلام وانطلقْ
او سطر نورٍ خطَّ في لوح الدجى أو هو ميزاب من الضوء انهرقْ
او هو عفريتٌ سما الى السما ليدخل الخلد فخرَّ واحترقْ
أو رمح نورٍ طعن الظلام أو نهر من النهار في الليل اندفقْ

ولقد تظنه يعمد في هذه الايات الى الزخرفة والطلي ، على انك اذا انعمت الفكر فيها لا تجد اثراً للزخرف والتلوين بل تجد معادن لونتها الطبيعة من تلقائها

وكانت مطابع دمشق قد اصدرت مجموعة شعرية للرصافي عنوانها «أشعة ملونة» بلغ فيها الشاعر حد الابداع . ولا نزاع في ان الابداع الشعري لا يأتي الاّ عن طريق الصدق ، ويكفي شاعراً كالصافي ان يغمس قلمه بدمه ليكون مبدعاً ، فقطرة الدم اصبحت نادرة في الشعر بحيث انك اذا نشقتها في بيت لمست فيه شيئاً جديداً ...

بيروت الياس ابو شبكة

باب الأخبار العلمية

عجائب معرض نيويورك

لعوض جندي

وعدت قراءنا في الجزء السابق من المقتطف ، بوصف محتويات معرض نيويورك العالمي ، وها أنذا موفٍ بوعدي ، بحسب ما تتسع لقلمي صفحات هذا الجزء ، مبقياً هذا البحث المستفيض ان شاء الله للاجزاء التالية . وقد رأيت ان افتتح الوصف بمقال نشرته مجلة الميكانيكا العامة في جزئها المؤرخ أغسطس ١٩٣٨ تمهيداً لسرد تلك العجائب :

ستضم نيويورك ، كبرى مدائن أميركا ، بين جنباتها في السنة القادمة ، أكبر المعارض العالمية . ولا غرو فقد بلغت نفقات تشييده ١٥٠ مليوناً من الريالات ، أي ثلاثة أمثال ما أنفق على انشاء معرض شيكاغو المشهور ، ذلك الذي أطلق عليه اسم « معرض قرن التقدم » . هذا الى ان مساحة المعرض النيويوركي العتيد ، تكاد تعادل ثلاثة أمثالها في معرض شيكاغو السابق الذي كانت مساحته ٤٢٤ فداناً على حين ان مساحة المعرض الحالي ١٢١٦ فداناً . وقد بلغ عدد الذين زاروا المعرض الاول ٣٨٫٦٥٠٫٠٠٠ في فصلين من فصول السنة ، بينما يقدر الخبيرون ، مشاهدي المعرض الحالي بخمسين مليوناً من الانفس في خلال ستة أشهر من افتتاحه

وبيت القصيد في المعرض العتيد ، تمثيل طريقة انشاء « عالم الغد » وعند فتحه في ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٩ (وقد افتتح في ذلك التاريخ تماماً كما قلنا في صدر باب الاخبار العلمية في مقتطف مايو سنة ١٩٣٩) سيكون قد انقضى مائة وخمسون سنة كاملة على ذكرى تنصيب جورج واشنطون في مدينة واشنطون ، رئيساً أول لجمهورية الولايات المتحدة الاميركية .

وسيكشف لنا هذا المعرض عن مصنوعات البشر الأخاذة ، فتبدو للناظرين ، كأنها زنبقة مزهرة قائمة في حمأة . ولا عجب لان الموقع الذي اختير لاقامته في جزيرة لونغ آيلند وهو المسمى بمتنزه فلشنغ ميدوبارك Flushing Meadow Park كان قبلاً مستودعاً للقمامة المنبوذة من المدينة ، فشيدت أركان هذا المعرض العظيم ، على أنقاض ذلك المستودع الذميم . فأصبحت دليلاً على ما تستطيعه الآلات والوسائل والمعارف العصرية من خلق عالم جديد في المستقبل ، يبزّ بميزاته عالمنا الحاضر .

وسيكون مدار حديث زواره وأبرز مشاهده الهندسية الكبرى ، كرة بيضاء ارتفاعها ٢٠٠ قدم . تلوح للرائي كأنها معلقة على عنقود من مطافر المياه « الفسقيات » مستندة الى اسطوانة مثلثة ارتفاعها ٧٠٠ قدم . وتسمى تلك الكرة الضخمة البيضاء بريسفير Perisphere وتؤلف

من ١٨ طابقاً مرتفعة عن سطح الارض . وستكون أوسع رحاباً من رباع (بلوكات) مساكن المدن . والبريسفير أعلى مباني المعرض العالمي ، من دون برجها . وتحتوي على أعجب محتويات المعرض اي مشهد العالم المقبل

وستتقاطر أفواج من الخلق لا حصر لها لمشاهدة تلك الكرة ، أثناء الليل وأطراف النهار، وذلك بسلم يتحرك داخل جدران من الزجاج وهو أطول سلم في العالم

وعلى ارتفاع خمس طبقات من ذلك السلم، ينتقل الزائرون الى ما يسمى « البساط السحري » وهو رصيف مستدير متحرك يقلُّ الركاب الى « عالم الغد » حيث يجوسون خلاله . واتساع الرصيف ١٤ قدماً ومحيطه ٤٥٠ قدماً . ويحمل ١٢٠٠ راكب فيدور بهم دوراناً وئيداً حول الكرة ، حيث تنظر الجموع الحاشدة ، من علٍ ، الى مشهد شامل يبين المدن والبلدان والمصانع والضياع والحقول الممتدة الى مدى البصر ، من النواحي جميعها ، مختلطة بالسحب والأنوار المختلفة المتألقة في كبد تلك القبّة العظمى . وهناك يشاهد الزائرون عناصر المجتمع البشري ، قاطبة ، متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً ، بغية النفع العام ، ويرون البواخر والقطرات وعربات نقل البضائع ، قادمة الحواضرَ والمصانعَ ، من الضياع والحقول ، مقلة الموادَّ الأولية ، وعائدة الى الريف مشحونة بشتى المصنوعات . ويسمعون صوتاً صناعيًّا يشرح خطورة تلك الحركة من جميع نواحيها ، مؤكداً الحقيقة الثابتة وهي أن كل امرىء في هذا العصر ، يتوقف بقاؤه على مجهودات أفراد كثيرين ، مبيناً وسائل تسهيل معضلات الحياة بالتعاون بين أفراد المجتمع البشري

وعند باب الخروج يعبر المشاهدون، قنطرة تصل القبة بالبرج ، ثم ينزلون من سلّم ممتد في باطن الاسطوانة أو يهبطون ٩٠٠ قدم في سلم حلزوني أو منحدر ملتف حول حوض مطفرة المياه تحت الكرة . ورأس ذلك السلم الحلزوني الذي يعلو عن الأرض خمسين قدماً، أشمخ قنة في المعرض يُسمح للزائرين بالتوقل فيها ، حيث يتاح لهم الاشراف على المعرض بأجمعه . ومظهر الاضاءة الكهربائية الرائعة يجعل تلك القبة من المشاهد الليلية الرائعة، اذ تسلط عليها بطاريات قوية للنور فتلونها الواناً مختلفة ، فيخيل للرائي أنها تتألق أو كأنها فقاعة شفافة متقلبة اللون ، تدور دوراناً بطيئاً محمولة على عناقيد من مطافر المياه

وفي الحقيقة أن القبة المشار اليها ، مصوغة من دعامة فولاذية ذات مفاصل . ولها غطاء خارجي خفيف . ويربي ثقلها على تسعة ملايين من الارطال محمولة على ثمانية أعمدة متينة ، ولكن الزائرين لا يستطيعون رؤيتها (الاعمدة) لاستتارها في الزجاج . ثم ان احاطتها بالمياه التي تجذبها اليها المضخات ، يجعلها تظهر بمظهر فقاعة مرفوعة بتدفق الماء وتسمى تلك الاسطوانة الجوفاء تريلون Trylon ويبلغ ارتفاعها قدر نصف ارتفاع تمثال واشنطون ولها قاعدة مثلثة،

طول كل ضلع منها ٦٣ قدماً ، وهي تقوم مقام معلم لشاهد المعرض ، يسترشد به زائروه اذ ترى على أميال . وهي دعامة فولاذية ذات غطاء خفيف . ومع انها لم تصنع لتكون مرصداً ففيها فراغ لتركيب المصاعد التي يصعد بها المشاهدون الى رأسها

ولا تنار التريلون ليلاً ولكن الضوء ينعكس عليها . وستكون بمنزلة مصدر للاذاعات اللاسلكية في المعرض وينبعث منها (صوت المعرض) الذي يقوم بنشر الاعلانات الخاصة بمشاهده وذلك بأسلوب جديد يمتد الى مسافة بعيدة بجهاز صوتي يعم ارجاء المعرض بأسرها

ويؤلف الماء واللهب واللون والصوت متحدة بعضها ببعض ، بنسب لا يكاد يصدقها العقل ، مشهدين ليليين يفوقان بحجمهما وفخامتهما فقط كل ما يتصوره العقل البشري من وسائل التسلية لا غير . فيمثل اول ذينك المشهدين مطافر فاخرة للمياه وألسنة نيران هائلة ، متفقة مع الالوان والموسيقى والصوت ويمثل المشهد الآخر شلالات نياجرا ، من صنع البشر ، مقرونة بشكل بركان قيزوف

وقد اشترك في اختراع ذينك المنظرين الساحرين ، مهندسو علم السوائل وكيمائيو شركات الغاز ، وصناع الاسهم النارية وخبراء الاضاءة والموسيقيون ومهندسو مشاهد المعرض ومهندسو المعار والمتخصصون في الالوان والمصورون وبلغت نفقات اجهزتها ٧٠٠ر٠٠٠ ريال . وبلغ من اتساع نطاقها ان قامت شركتان من شركات الغاز ، بتوريد الغاز اللازم لها من مستودعاتهما

وأحكمت السيطرة على ذينك المشهدين بحيث يتسنى الجمع بين الماء واللهب واللون والصوت . فتطلق من لوحة مركزية . كما يقوم المرء بعزف بعض النغمات الشجية على الارغن وعند ما يلمس امرؤ مفتاحاً من مفاتيحها ، تنطلق المياه حالاً من الف مطفرة من مطافر المياه فيزيد ارتفاعها على ١٥٠ قدماً . وذلك من ينابيع خفية ، وتندلع ألسنة النيران الى مثل ذلك العلو لكي تشتبك مع المياه المتدفقة فينشب بين ذينك العنصرين قتال عنيف

***

وفي خلال ممعمة ذلك المشهد ، يمكن اقفال الاصمة جميعها سريعاً فيخيل للمشاهد ان خمسين طناً من الماء أضحت معلقة في الهواء . وكذلك يستطاع التحكم بمثل تلك السهولة في اللون الظاهري للماء ، وفي اللون الحقيقي للنار . وحينئذٍ تصدح أنغام كقصف الرعد من صميم ذلك المشهد الاضطرابي ويتولد احد المشاهد من بحيرة ضئيلة النور مساحتها ٨٠٠ قدم قائمة في ارض المعرض الاصلية . وينشأ مشهد آخر من بحيرة غيرها في منطقة ملاهي المعرض

ويحتاج مشهد البحيرة الضحلة الى الف صنبور «بزبوز» والى كثير من مشعلات بنصن Bunsen الغازية التي يبلغ اتساع فوهتها ٢٤ عقدة ولتأليف تلك الاعمدة المائية ، تحشد

الصنابير، حتى تكفي لرفع المياه، الى ارتفاع ١٥٠ قدماً. وتؤلف دائرة من مطافر المياه لتولد حزمة ذات لون حنطي ذهبي ارتفاعها ٩٠ قدماً تحتاج الى قوة نزح مثل التي يبذلها ٦٢ رجلاً من مطفئي الحرائق

ولاجل عرض مشهد البحيرة الضحلة، تكون الدوائر الكثيرة وأنواع الصنابير والمشعلات الغازية، ومستودعات الاسهم النارية وسائر الاجهزة مركبة على رصيف من كتل الخشب موضوع تحت سطح البحيرة. ويقوم رجلان او ثلاثة رجال بادارة ذلك المشهد من حجرة السيطرة القائمة على رأس مبنى قريب منها. ولما يقتضيه تضخيم الانغام الموسيقية تضخيماً يجعلها تعلو على خرير المياه، من المصاعب، لابدَّ لاعداد ذلك المشهد، من استخدام عشرات الموسيقات الخاصة

اما منطقة الملاهي، فتمثل جحيماً من المياه والنيران والالوان المختلفة. وتدار من سفن النقل «الصنادل» حيث تقام صنادل لقذف المياه واطلاق النار وتخصص اخرى لحمل الانوار الكشافة ومصابيح بخار الزئبق، ومصابيح بخار الصوديوم الفياضة التي تسلط من سفوح المشاهد المبنية الى قممها، بينما تقوم صنادل اخرى باطلاق الاسهم النارية. وتقذف في الماء صنادل غيرها، تماثيل سود تمثل قوارب البندقية المعروفة بالجندولا. وهناك مناطيد مقيدة تمدّد اليها الانوار الكشافة لكي تظهر عظمة ذلك المشهد ولكي توجد لدى المشاهدين مقياساً يقيسون به روعته. وأنفس مشاهد المعرض الفنيّة واتقنها (المشي العمومي) الرئيسي Central Mall الشبيه بالمتنزه الذي بلغ ما أُنفق على اقامته ٦٠ مليوناً من الريالات. وطوله ميل كامل وهو شبيه بسمط ينتظم الجواهر الفريدة وهو يحد مناطق المعروضات المهمة. ويحف بذلك المشي اكثر من عشرين مبنى من اكبر ما شيد في المعرض وكلها مزدانة بالتماثيل المنحوتة التي تمثل الابطال. ويحدق بها البحيرات الضحلة، وتعلوها الشلالات الصناعية ومئات من مطافر المياه وتجملها ايضاً بوابات ذات ابراج ويحدها صف من الاشجار يربى عدده على الف شجرة فيزيدها رواء على رواء

ويزين احد اقسام المعرض اكبر تمثال صنعهُ البشر منذ نحت الفراعنة تمثال رمسيس الثاني من الصخر، وهو تمثال عظيم لواشنطون ارتفاعه ٦٥ قدماً، يمثله يوم تنصيبه رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة. وهناك ايضاً أنصاب اخرى ضخمة ورسوم غليظة فاخرة وبارزة على الحيطان تجمل تلك المنطقة كما تجملها ساعة شمسية ارتفاعها خمسون قدماً تدل على الوقت حقيقة. ولا يرى السائر على مدى أغلب ذلك المشي العمومي، مصابيح كهربائية من النوع المألوف للاضاءة، ولا مصدراً من مصادر النور المعروفة ليلاً، بل مصابيح بخار الزئبق المستترة في الارض حيث تلقي نوراً لطيفاً على الاشجار واوراق النباتات فتجعل اكنافها السفلية، تتألق تألقاً يأخذ بمجامع الابصار،

وتغمر المنطقة بأسرها بشعاع مضيء يبدو لناظره كانهُ يبرز من الاشجار ومنابت الشجيرات والازهار

ولكل منطقة من مناطق المعرض ،دليل يدل على مشاهدها ، وهو ملخص نظريٌّ بين المعروضات فيها . ففي المبنى الخاص بوسائل النقل والانتقال ، يحتوي المشهد الرئيسي على نموذج معقدلادارة ميناء لاطلاق الاسهم النارية في كبد الكواكب السيارة كما يتصورها العلماء في المستقبل ، حيث يرى الزائرون سفن المستقبل وطائراته وقطراته قادمة بركابها المزمعين السفر الى كوكب المريخ . وحينئذ تدوي المحركات الكهربائية ، وتتلألأ مصابيح الاشارات ،وتصفر الصفارات ، فيتنفس الركاب الصعداء ، اذ يحين ميعاد الارتحال فيلتقط (ونش) المفينة السهمية المعدة للرحلة ويدخلها بلطف في ثغرة المدفع السهمي فيضاء نور خاطف ساطع ويحدث انفجار خافت الصوت،ومن ثمة يلمح المشاهدون السهم الناري يشق عنان السماء

ومن اكبر مباني المعرض التي لا نظير لها ، مبنى على اسلوب عصري ، على شكل حرف السين الانكليزي « S » يبلغ طوله زهاء ربع ميل محتوٍ على اتقن معروضات السكك الحديدية ، التي لم يتم حشدها تحت سقف واحد في غير ذلك المكان في أي زمان ومنها اكبرمثال عملي للسكة الحديدية وقاطراتها وقطار ضخم ومشهد لوسائل النقل والانتقال ويشاهد الزائرون هناك ايضاً في دائرة الطب ، تمثالاً عظيماً بلغت نفقات صناعته مليوناً من الريالات ، وهو يمثل الانسان باطناً وظاهراً حيث يبصرون الدماء تجري في شرايين وأوردة انسان صناعي شفاف ضخم ثم يسمعون خفقان قلبه خفقاناً منتظماً وذلك حالما يدخلون ذلك المبنى . وينظرون ايضاً نماذج للعين والفم والجمجمة البشرية ، بلغ من ضخامتها ، ان تستطيع فئة من الزائرين ، الدخول فيها لكي يبصروا بأنفسهم طريقة دوران الدواليب التي تحركها وفي كثيرمن الاحوال يدل رسم المبنى على كنه المعروضات التي يحويها . فشركة الغازمثلاً ممثلة بشكل مشعلة ضخمة . والمعروضات البحرية ممثلة بمبنى ذي مدخل يشبه رصيف الميناء المواجه للمياه،وعلى جانبيه ، مقدمان شامخان لباخرتين من بواخر المحيط . وجعل مبنى الطيران على شكل طائرة ضخمة خارجة تتهادى من مستودعها . وعرض الراديو المصور في مبنى RCA المتصل مباشرة بجهاز NBC اللاقط القائم على قمة مبنى امبير ستيت ومن ابرز المعروضات (مدينة الغد)وقدانفق على تشييدها مليون و نصف مليون من الريالات حيث مثلت مصائر المجتمع الانساني من الارتقاء في رسم بناء البيوت وهندستها وما تحتاج اليه من جميع مواد البناء الحديثة ووسائل استعمالها وما يصلح لتلك البيوت من الزخارف والاجهزة والمعدات التي تتوافر بها وسائل الراحة جميعها لساكنيها فيعيشون نعيمي البال

وان شاء الله سنصف تلك المعروضات بأجمعها في الاجزاء القادمة

عوض جندي

فلق ذرة اليورانيوم

نشرنا في مقتطف ابريل الماضي فصلاً موجزاً عن فلق ذرَّة اليورانيوم باطلاق النوترونات عليها فتنطلق بانفلاقها مقادير كبيرة من الطاقة — مهما تكن طاقة النوترونات صغيرة نسبيًّا — وقد بلغ مقدار الطاقة المنطلقة من اليورانيوم على النحو المتقدم من رتبة مائة مليون ڤولط

والفضل في ذلك يعود اولاً الى العالمين الالمانيين هان وستراسمان Hahn&Strassmann من علماء معهد القيصر ولهلم للكيمياء

ومما كشفهُ الدكتور هان ان انفلاق ذرَّة اليورانيوم على النحو المتقدم لا يسفر من انطلاق طاقة كبيرة فقط بل وجدت عناصر اخرى في كسر الذرة المنفلقة عرف منها حتى الآن ستة عناصر هي الباريوم واللنثانوم والسترونتيوم والاتريوم والكسينون والكيزيوم

ذلك بأن ذرة اليورانيوم تنفلق فلقتين تكادان تكونان متساويتين وتكون احداهما ذرة عنصر او نظيره والأخرى ذرة عنصر آخر او نظيره . ولما كانت ذرة اليورانيوم لا تتقيد بقواعد معيَّنة — او مفهومة حتى الآن — من حيث نتيجة انفلاقها فلذلك نرى ان هذا الانفلاق يسفر حيناً عن وجود عنصرين معينين من هذه العناصر الستة التي كشفت حتى الآن . وحيناً آخر عن عنصرين آخرين . ولكن مجموع وزن الفلقتين يجب ان يكون ٢٣٩ منها ٢٣٨ الوزن الذري لذرَّة الاورانيوم والواحد وزن النوترون الذي سدّد الى الذرَّة فأصابها فانفلقت على أثر اصابته اياها

فاذا انفلقت ذرَّة اليورانيوم فلقتين متساويتين كان الوزن الذري للعنصر — الذي تمثل كل فلقة منها ذرَّتهُ — ١١٩ واقرب وزن ذري الى هذا الرقم هو وزن القصدير الذرّي البالغ ٧ ر ١١٨ ولكن البحث لم يسفر حتى الآن عن وجود القصدير في نتاج انفلاق اليورانيوم . وقد كان اول عنصر ثبت وجودهُ في نتاج انفلاق ذرَّة اليورانيوم عنصر الباريوم ووزنهُ الذرّي ٩ ر ١٣٧ فالفلقة الثانية يجب ان تكون فلقة عنصر وزنهُ الذري اقرب ما يكون الى المائة ولكن ظهر ان متمم الباريوم كان ذرَّة كربتون مع ان وزنه الذري ٩ر٨٢

ولا يعلم حتى الآن كيف يمكن ان تظهر ذرَّات عناصر خفيفة كالسترونتيوم والاتريوم في نتاج انفلاق اليورانيوم فالاول وزنه الذري ٨٧ والثاني ٩ر٨٨ . وقد اقترح أحدهم ان يفسر ذلك بانفلاق ذرَّة اليورانيوم ثلاثة اقسام قسمين منها ذرتا سترونتيوم مجموع وزنهما ١٧٤ والثالثة ذرة زنك ووزنها الذري ٦٥ فيكون المجموع ٢٣٩ وقد ثبت وجود السترونتيوم ولكن الزنك لم يكشف بعد

« السلفابيرادين » يمنع وفيات النومنيا
اذا عولج بهِ المصابون في اليوم الاول

اذاع الدكتور لونغ احد اساتذة المدرسة الطبية بجامعة جونز هبكنز الاميركية ان في الوسع منع معظم وفيات النومونيا اذا عولجت الاصابات بالعلاج الصحيح في اليوم الاول . والغالب انهُ من المتعذر منع جميع الوفيات لان المصابين بالنومونيا قلما يذهبون الى الطبيب في اليوم الاول من اصابتهم بل قد لا يستدعونهُ الاَّ اذا اشتد المرض عليهم

والعلاج الذي يقترحهُ الدكتور لونغ هو «السلفابيرادين» وهو شقيق «السلفانيلاميد» الذي وصفناه في صدر مقتطف مايو الماضي . وباستعماله هبطت الوفيات بالنومونيا في مستشفيات جونز هبكنز اكثر من ستين في المائة . ولم يتوفَّ بها من اول يوليو الماضي عندما بدأ استعمال هذا العقار الاَّ ثمانية مصابين . ومن هؤلاء الثمانية اعطي اربعة المصل الخاص بالنومونيا وحده . ومصاب واحد اعطي المصل والسلفابيرادين . والثلاثة الباقون اعطوا السلفابيرادين وحده . وكان عدد المصابين بالنومونيا الذين عولجوا في خلال هذه الفترة في المستشفى ١٠٧ مصابين

ويرى الدكتور لونغ ان استعمال المصل ليس لازماً اذا امكن اعطاء المصاب السلفابيرادين في اليوم الاول من اصابتهِ . وفي هذا توفير كبير لان استعمال المصل الخاص يقتضي نفقة كبيرة . ثم ان المصل الخاص بنوع معين من النومونيا ليس في المتناول دائماً حالة ان السلفابيرادين فعَّال في جميع انواعها على السواء

وقد تمكن الدكتور لونغ والدكتور مارشال من زيادة فعل السلفابيرادين باضافة الصوديوم اليهِ . وهذا مكنهما من حقن العقَّار في شريان المريض لأن بعض المصابين يعجزون عن ازدرادهِ ثم ان الحقن يجعل الفعل اسرع من الشرب . فلا تمضي خمس دقائق على الحقن حتى يبدأ فعل العقار

ويلوح ان هذا العقار ينقذ المصابين بالنومونيا من طريق ابطائهِ لتكاثر جراثيمها وهذا يتيح للمصاب ان يستجمع قوى الدفاع عن الجسم لتقوم بمهمتها . وبعد ان يدخل العقَّار الجسم تهبط الحرارة ولكن المصاب يظل في حكم المصاب بالنومونيا حتى تتمكن قوى الدفاع عن الجسم من التغلب على الجراثيم

« السلفابيرادين » والسل

تقدم معنا تأثير «السلفابيرادين» في علاج المصابين بالنومونيا . وبعد ما ثبت ذلك عني طبيبان من أطباء معهد مايو الاميركي وهما الدكتور فلدمان والدكتور هنشو ببحث تأثير

هذا العقَّار العجيب في السل . فأخذا جماعة من الخنازير الهندية ، وهي شديدة التعرض للاصابة بالسل البشري وحصَّناها ضد جراثيم السل بهذا العقار ، فحقناها بجرعات كبيرة منهُ بضعة أيام قبل حقنها بجراثيم سل فائقة ومضيا في حقنها بالعقَّار مرتين كل يوم في خلال مدة التجربة

***

كانت الحيوانات التي عولجت بالسلفابيرادين اثني عشر خنزيراً هنديًّا . وبعد انقضاء ثلاثة اسابيع على حقنها بجراثيم السل ثبت ان ستة منها لم تصب بأعراض السل لا في الكبد ولا في الطحال ولا في الرئتين . وظهرت اعراض سلٍّ لا ريب فيها في هذه الاعضاء في أحد الخنازير اما البقية فقد ظهرت الاعراض في الطحال فقط . وقد ظهرت أعراض السل في جميع هذه الاعضاء في اثني عشر خنزيراً آخر حقنت بنفس حقنة الجماعة الاولى اي بجراثيم سل بشري فائقة ولكنها لم تحصن بالسلفابيرادين

ولا يعني هذا البحث ان الطبيبين يقطعان بفائدة السلفابيرادين في شفاء السل او منعهِ وانما يقولان ان بحثهما يبعث على العناية بنتائجهِ وانهما ماضيان على كل حال فيهِ

احدث « المطاردات » البريطانية

« المطاردة » وصف طراز من الطائرات الحربية يستعمل لمقاتلة قاذفات القنابل . وأحدث ما صنع من هذه الطائرات طائرات بريطانية تدعى « سبتفير » اي « قاذفة اللهب » وهي طائرة تبلغ سرعتها على ارتفاع ١٨٥٠٠ قدم ٣٦٢ ميلاً في الساعة وتستطيع الارتفاع الى علو ١١ الف قدم بحملها الكامل في اربع دقائق وثمانية اعشار الدقيقة وسلاحها ثمانية مدافع رشاشة تستطيع ان تطلق معاً ٩٤٠٠ طلقة في الدقيقة

رئيس الاكادمية الاميركية

انتخب الدكتور فرانك جويت رئيساً للأكادمية الاميركية . والدكتور جويت رئيس قسم المباحث العلمية في شركة التلفون والتلغراف الاميركية . ويذكر القرَّاء انهُ كان احد الذين جاؤوا مصر لحضور مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية في شتاء سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ واتيح لرئيس تحرير هذه المجلة الاجتماع بهِ اجتماعاً طويلاً فاز فيهِ بحديث خاص عن تقدم فنون المخاطبات السلكية واللاسلكية في اميركا

وقد نشر هذا الحديث في باب الاخبار العلمية بمقتطف مارس ١٩٣٨ ص ٣٤١ — ٣٤٤



مباحث عربية

تأليف الدكتور بشر فارس — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر — ١٥٠ ص من القطع الكبير

ثمنه ١٥ قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

نقد بقلم الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

في عنقي لصديقي الشاعر الأديب البحاثة الدكتور بشر فارس ، دين آن أن أؤديه او أقضي، على الأقل، بعض الحق فيه . فقد كان أخرج في مقدمة الصيف من العام الماضي مسرحيته الرمزية «مفرق الطريق» فقرأتها وأعجبت بها ، وأشرت اليها بكلمة وجيزة، وسبقني لساني ، فقلت له اني موفيها حقها ان شاء الله بفصل أقصره عليها ، وشاء الله ألاّ يشاء ، وصرفني عن الوفاء ان الحر شديد، والعمل كثير ، وان الاعياء تحلل بي ، وان بي فوق هذا كسلاً طبيعيًّا . فأنا أرجىء الى الغد — ومتى لا يكون غد ؟ — كل ما يسعني ارجاؤه ، على خلاف ما علموني في المدرسة . وما أعرفني قلت إني فاعل شيئاً ، إلاّ حالت الحوائل دون الانجاز ، وما فعلت قط الاّ ما ظل العزم عليه مضمراً لا يتدهور به في الشدق لسان . ولا أدري كيف هذا ، ولكني أرى من حق اخواني عليّ ان أعرفهم بقيمة ما ابذل من وعد ، ومبلغ الامل في الانجاز

والآن أخرج الصديق كتاباً جديداً سماه « مباحث عربية » . وقد أصبح من عاداته ان يلقي بالكتاب الى الناس ويرحل الى الغرب ! فكل كتاب ينشره يكون ايذاناً بسفر ، فليتنا مثله ، نكتب ونطبع ثم نذهب نركب البحر ، ونجوب البر ، ونطوف في الآفاق، فنستجم وندرس ونحصل ، ونفكر — اذن لوسعنا ان ننتج كما ينتج ، وان نطرف القراء ، في كل ربيع ، بمثل هذه العصارة المركزة ! ولكن شأنه غير شأننا — نحن للثرثرة ، وهو للعصر والتقطير. وأحسب اني لو تسنى لي ان أكون مثله لضاق صدري لطول ما ألفت السح والهطلان

ونهج الدكتور فيما يكتب هو النهج العلمي ، أو كما يقول « الاعتماد على المشاهدة دون الفرض ، والتحقيق دون التخيل ، والموضوعية دون الذاتية ، واقامة الدليل دون القناعة بالمقبولات والمسلمات ، ثم الذهاب من المركب الى البسيط ، ومن الخاص الى العام ، مع تسليط النقد النافذ — من جانبيه الخارجي والباطني — على الواقعات من حيث انها أشياء طبيعية مبذولة للحس ، لا أمثال عالية ، ولا معان منتزعة من المحسوسات مجردة في الذهن أموراً كلية

عامة ، ومع نبذ التشيع للآراء من منحِلة وقبلية ، فلا إيثار هوى ولا تعصب لاحد على أحد ، ومع رد تلك الواقعات الى مصادرها ، من طريق الوصف المباشر او الاستشهاد بالنصوص الصريحة ، حتى لا يرسل الكلام فيضيع حظه من التثبت » ومع التحري في البحث ضمياً في الدنو من الحقيقة ، بفضل المنطق ذي التعرض البين والسلك المتصل والاستدلال القويم ، والنظر الصادق على غير استكراه ولا تحكم ولا مكابرة ، ومع اثبات ما اتى به العلماء العاملون من قبل بالاستناد اليهم أو الاعتراف بجهدهم خروجاً من ظِنة التلصص والسطو »

وخليق بمن يقرأ هذا الوصف لمنهج الدكتور في البحث دون الكتاب ان يظن بهِ الاسراف والغلو في تصوير طريقتهِ في تناول الموضوعات ، ولكني اشهد انهُ هكذا يكتب . ولو كانت هذه مزيته المفردة في الكتابة والبحث ، لاستعذت بالله وأشحت بوجهي عما يكتب فالي صبر على هذا . واني لعلى نقيضه في منحاه ، هو يتناول الحبات فيفحصها ، ويرتبها ، وينظم المتشابهات في سلك متصل ، وأنا لا أبالي شيئاً من هذا ولا اكترث لهُ . وانما انظر ، فالذي يروقني اقف عنده ، واستطرد منهُ الى ما يؤدي اليهِ ، ولو عفواً ، فاذا بي قد شطحت جداً . وهو يعرف ماذا يريد أن يكتب ، وأنا اغمس القلم في المداد ، وأرفع سنهُ على الرقعة ، والله المسئول أن يلهمني كلاماً أخطهُ

ومن حسن حظي ان اسلوب الدكتور هو اسلوب العالم الاديب ، فكل كلمة في موضوعها ، وكل جملة تؤدي المراد بلا زيادة او نقص ، وعبارتهُ مفصلة على قدود معانيه تفصيلاً ليس ادق منهُ ولا أحكم ، مع الوضوح واشراق الديباجة ، ولطف التخير ، وحسن التصرف ، ومع اجتراء العالم الواثق على الاستحداث حين يقصر الموجود عن حاجة التعبير

وهذا اسلوب يُضجر مَن همهم من القراءة ان يتسلوا ويتلهوا ساعة ، لانهُ يحوجهم — بشدة احكامه — الى كد الذهن . ولكن هؤلاء لا قيمة لهم ، ولا عبرة بهم ، ولا نفع للادب او العلم منهم ، فما كان الادب لهو وتزجية الفراغ ، وان كان يلهي ويسلي ويسر ويطرب ، ويقطع بهِ حتى العمر كله . وما لهؤلاء الفارغين يكتب الدكتور بشر ، انما يكتب لطلاب المعرفة من ادباء وعلماء ومن حقه ان نعترف لهُ انهُ يؤدي — بهذه المباحث التي ينشرها — عمل مجمع كامل ، كان الله في عونهِ

***

وقد تناول الدكتور بشر في كتابه هذا مباحث شتى ، بدأها بفصل عن مسلمين عثر عليهم في فنلنده أتى فيهِ على أصولهم ، ونظام جماعتهم ، وأسلوب حياتهم ، ومنزلتهم في الجماعة الفنلندية ، ثم انتقل من هذا الى بحث آخر في « مكارم الاخلاق » غاص فيه على اصل هذا التعبير ،

ومن العسير ان يكابر المرء بخلاف فيما ساقه فانه يحشد من الشواهد والادلة ما يروع ويفحم . ولكني اخالفه في شيء واحد استطرد اليه عرضاً اثناء البحث، وذلك حيث يقول« ان الاستشهاد في اللغة بلفظ الحديث موضع نظر». وليس في هذا جديد في الحقيقة فقد قال به غير واحد من المتقدمين ، ولكني اخالفهم وأرى ان هذا القول منهم تنطع وسخافة ، لان الحديث اما ان يكون مرويًّا بلفظه كما نطق به الرسول ، فلا محل للتردد في الاستشهاد به ، واما ان يكون مرويًّا بمعناه لا بلفظه ، فهؤلاء الرواة من الصدر الاول اهل لان يستشهد في اللغة بألفاظهم . على اني ارى الوقوف عند طبقة معينة لا يجوز الاستشهاد في اللغة بما بعدها ، تحجراً وتنطعاً ، وتحكماً ، ولسنا ملزمين في هذا العصر ان ننزل على هذا الحكم الذي لا يسوغه شيء ، فان اللغة ميراث لابنائها في كل جيل ، واخليق بها ان تجمد وتفقد المرونة والمدونة والصلاح ، والوفاء بحاجات التعبير — كما حدث فعلاً — اذا سلمنا بهذا التعسف . وليس في الدنيا لغة اخرى يقول ابناؤها بعدم جواز الاستشهاد بكلام المتأخرين من ابنائها ، فان اللغات كأن حي كالانسان سواء بسواء ، فاذا الزمته حالة معينة وقضيت عليه ألاَّ يعدوها ، اصابه الفساد . وليس هذا اعتراضاً على الصديق بل على المتقدمين الذين قالوا بذلك

***

وفي الكتاب فصول أخرى : في المروءة وتطور معناها ، وفي « التفرد والتماسك عند العرب ، وفي « البناء الاجتماعي عند « عرب الجاهلية » ، وفي « تاريخ لفظة الشرف » ، وفي بعض الاصطلاحات الموسيقية والفلسفة الخ الخ

ومطلب غير هين أن يحاول المرء تلخيص هذه المباحث لتعذر ذلك اولاً ، ولأن كل تلخيص يفسدها ويذهب بقيمتها وبجمال البحث وطريقته ، ولكني أؤكد للقراء انها مباحث لا تخيف ولا تنفر ، وانهم خلقاء أن يصيبوا منها احلى من متعة القصص والروايات ، وانهم سيجدون في غضون الكلام الفاظاً وعبارات كثيرة استحدثها الدكتور لأمثالها في لغات الغرب مما ليس عندنا له لفظ او عبارة ، وهذا وحده ربح جزيل

***

ومزية اخرى للكتاب ان الدكتور لسعة اطلاعه على كنوز الادب العربي والفلسفة العربية حرص على احياء الالفاظ الفلسفية واستعمالها في معانيها ، فأضاف الى اللغة ثروة اخرى بهذا الاحياء ، واغنى اهل الكسل عن مشقة المراجعة وتعب البحث

اقولها مخلصاً — اني اهنىء صديقي العالم الاديب ابرهيم عبد القادر المازني

فؤاد الاول

الفه بالانكليزية سردار اقبال علي شاه — نقله الى العربية محمد عبد الحميد — طبع بمطبعة التاليف والترجمة والنشر صفحاته ٢٥٠ قطع المقتطف ثمنه ٢٠ قرشا

كان ساكن الجنان الملك فؤاد الاول رجلاً ملء العين والقلب ، عرك الدهر قبل ارتقائه أريكة الملك جنديًّا وأميراً ، وخبر الناس عالماً ورحالة ومصلحاً اجتماعيًّا ، فأعدته التجارب للحكم ، وعلمته غير الزمان سياسة الخلق فسيرته تجمع بين سيرة رجل فذ ، وفصل من تاريخ أمة عريقة وقد هبت نحو الاستقلال والنور

منذ ولادته بالجيزة في سنة ١٨٦٨ ومصر تتقلب بين حوادث التاريخ ، نزل والده من العرش فذهب معه الى أوربا حيث تلقى العلوم العامة والعسكرية ، وعاد الى مصر عندما تولى الاريكة الخديوية ابن شقيقه الخديو عباس الثاني ، فكان الى جانب الخديوي ثلاث سنوات متوالية استقال في نهايتها وانصرف الى خدمة بلاده بخدمة المنشآت والهيئات العلمية والعمرانية فيها. ومن بواعث المجد المقترن باسمه انه أدرك وهو لا يزال في ميعة الشباب مدى التبعة العظيمة الواقعة على امير يحب ان يخدم بلاده ، وعظم المشقة التي يعانيها في سبيل هذه الخدمة واتساع نطاق العمل المجدي ، ومع ذلك انصرف اليه بما عرف فيه من همة عالية ونظر ثاقب وقد أثرت عنه كلمة تلخص فيها هذه الناحية من حياته اذ قال « ليس شيئاً ان تكون اميراً وانما كل شيء ان تكون نافعاً » . وحسبنا الاشارة في هذا الصدد الى الهيئات العلمية والعمرانية التي تنسب اليه الآن « كجامعة فؤاد الاول » و« مجمع فؤاد الاول » « ومعهد فؤاد الاول ... الخ للدلالة على الأثر العظيم الذي خلفه في هذه البلاد . ولما عرض عليه العرش المصري — وليس في هذا الكتاب بسط واف لسبب نزول البرنس كمال الدين حسين عن قبوله — كانت احوال السياسة مضطربة ، وعروش الملوك غير راسخة ، ومستقبل مصر تحيط به غلالة من الغموض ، وكان اعتلاء العرش تبعة لا متعة ، ولكن الامير فؤاد اقدم ثقة منه بأنه وهو على الاريكة يستطيع ان يسدي الى بلاده خدمات لا يستطيعها في ساحة العلم والعمران وحدها . فكان له في منصبه السامي من خبرته السابقة وتجاريبه وحكمته ما جعله العامل الفعّال في حفظ التوازن في فترة الانتقال من الثورة الى الاستقرار والتعمير ، ومن السلطنة الى المملكة الدستورية

تفاصيل هذه الحياة الحافلة بجلائل الاعمال التي طبعت مصر المستقلة بطابعها الحديث تجدها مفصلة في أبواب هذا الكتاب النفيس . ففصلاه الاولان في منزلة تمهيد لأنهما يوجزان حالة مصر عند نزول الخديو اسماعيل عن الأريكة وما تلا ذلك من الأحداث الى ان عاد الامير فؤاد الى مصر بدعوة من ابن اخيه الخديو عباس . وحياة فؤاد الاول اميراً وسلطاناً وملكاً مرتبطة بالمراحل التي قطعتها مصر في نصف القرن الماضي ، فسيرته فصل كذلك من تاريخها الحديث .

تفسير ما بعد الطبيعة

لابن رشد بتحقيق الاب بويج — المطبعة الكاثوليكية ببيروت — ٥٠٣ ص . القطع الكبير
Bibliotheca Arabica Scholasticorum. Tome V, 2. Beyrouth 1938

قد سبق لي ان نوّهت بجهد الاب بويج Bouyges اليسوعي يوم تكلمت على السفرين اللذين نشرهما من قبل : الاول « تهافت التهافت » ، والثاني « تلخيص كتاب المقولات » . وهذا سفر ثالث مما ألفه الفلاسفة من العرب ومما عوّل عليه المتكلمون من الفرنجة في العصور الوسطى او نقلوه الى اللاتينية

وهذا السفر موقوف على تفسير ابن رشد للمقالات الأربع الأول مما بعد الطبيعة لارسطوطاليس . والمقالات على الترتيب : المرسومة بالألف الصغرى ، ثم الألف الكبرى ، ثم حرف الباء ، ثم حرف الجيم . وسيلي هذا السفر سفران آخران فيهما باقي تفسير ابن رشد للمقالات التالية، مع المسارد والجداول والفهارس

واما نشر هذا السفر فعلى أسلوب ما سبقهُ من منشورات الأب بويج في الفلسفة الاسلامية: معارضة المخطوطات العربية بعضها ببعض ، واستشارة النصوص العبرية واللاتينية واليونانية طلباً للفصل في مشتبهات النص العربي . ثم ان الاب بويج فصل كلام ارسطو من تفسير ابن رشد في كل فقرة ، ثم رد هذا الى ذاك باستعمال علامات ورموز معينة في الهوامش ، حتى يهتدي القارىء من غير عناء الى تجاوب النصين : نص أرسطو ثم نص ابن رشد . واما الحواشي فيصيب فيها المتعقّب الروايات المختلفة للنص العربي في المخطوطات العربية وما يتصل بها احياناً في غير العربية

وهنا أصرح بأني لا أوافق الأب بويج على عدوله عن الترقيم (ظ ص ٥ من التصدير) ، وذلك لأن فصل الجمل بعضها من بعض بعلامات الوقوف يسهل القراءة ويقرب العبارة من الفهم . ثم إن الهمزات والمدات ساقطة لغير سبب واضح (ظ مثلاً ص ٤١٨)

هذا وإتماماً للفائدة عقد الناشر في آخر الكتاب جدولاً لمعارضة نص أرسطو في كتاب ابن رشد بنصه في كتابه «ما بعد الطبيعة » المنشور باللغة اليونانية على دفتين (Bekker, Didot) ، مع التنبيه على المواضع المفقودة في النص اليوناني ، المثبتة في النص العربي

ذلك عمل جليل ومفيد يستحق التقدير والثناء [1]

بشر فارس

---

(١) في ص ٢٣ ، س ٩ كلمة : « السوفسطائيين » ، والنون هنا غريبة

مسارد الشواهد

جزآن — ١٢٨ ص . القطع الكبير

Schawahid Indices — von Fischer und Braeunlich
Otto Harrassowitz, Leipzig 1938

هذا عمل له ماله من الفضل ، اذ يثبت توافي شواهد اللغة العربية وشعرائها على ترتيب حروف المعجم . وازاء القافية والشاعر المظانّ التي فيها الشاهد

وقد وصلنا الجزآن الأولان ، وهما للقوافي من حرف الالف الى أول حرف الشين

والغرض من هذه المسارد أن يهتدي الباحث الى شاهد من الشواهد في مظنته أو في مظانه المختلفة ، وأن يظفر بما يجري حوله من الاخبار والاحاديث ثم الفوائد اللغوية ثم المصادر الخاصة بالشعر الجاهلي

أما المظان فكلها من التآليف المعتمدة ، نذكر منها : النوادر في اللغة لأبي زيد الانصاري، والاغاني للاصفهاني ، وشرح الشواهد الكبرى للعيني ، وخزانة الادب لبغدادي ، وأشعار الهذليين ، والاشتقاق لابن دريد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وجمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي ، ومعجم ما استعجم للبكري ، ودرة الغواص للحريري ، والخصائص لابن جني ، وكتاب سيبويه ، وفقه اللغة للثعالبي ، وشرح القاموس للزبيدي ، ومجمع الامثال للميداني ، وغيرها كثير وعددها فوق الستين

هذا وحسبك ان تعلم ان من قام بتدوين تلك المسارد هو المستشرق العلامة الأستاذ فيشر بمعاونة تلميذ له يدعى الاستاذ برونلش. والمستشرق فيشر من اعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية في مصر، وهو صاحب المباحث المستفيضة النفيسة في فقه اللغة العربية،ومما يعرفهُ القارىء أنهُ يعنى الآن بإخراج معجم تاريخي للغة العربية حتى القرن الثالث للهجرة ، وهذا المعجم زبدة اشتغال المستشرق فيشر بأوضاع لغتنا زهاء خمسين سنة

وخاتمة القول أن « مسارد الشواهد »من المراجع الاولى لأخذ العربية ، ولا بد منها لمن يريد الاحاطة بشوارد اللغة ونوادرها ومقاييسها وأوضاعها ب .

الموسيقى العربية

٦١٨ ص . القطع المتوسط

La Musique Arabe, III. par Baron R. d'Erlanger. Edit. Geuthner. Paris 1938

هذا الجزء الثالث من «مجموعة الموسيقى العربية» التي تنشر في باريس،وقد نبّه المقتطف قراءه اليها عند صدور الجزء الاول والثاني . وهذه المجموعة تنقل الى اللغة الفرنسية نفائس المؤلفات

العربية في فن الموسيقى ، تحت اشراف البارون ديرلانجيه (وقد توفي اخيراً ، ويواصل أصدقاؤه النشر). وبعد كتاب الموسيقى الكبير للفارابي، هذا كتاب الادوار ثم الرسالة الشرفية لصفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الأرموي المتوفى سنة ٦٩٣ للهجرة محبوساً بدين لم يوفه من بعدما ظفر عند المعتصم وعند آل الجويني بحظوة عظيمة

وتآليف صفي الدين في المكانة الاولى،وقد عدها اللاحقون أصلاً من أصول علم الموسيقى نظراً وعملاً،فعولوا عليها وشرحوها واقتبسوا منها ما شاؤا . وأما الفرنجة فحسب شرف الدين أن العالم الانجليزي Sir H. Porrey قال في سلمه الموسيقي : « انهُ أتم تقسيم فطن اليهِ أحد » . وهذا يصحح ما ذهب اليه بعض الفرنجة من ان الرسالة الشرفية وكتاب الأدوار انما هما كالتلخيص لكتاب الموسيقى للفارابي . فالوجه ان في كلام شرف الدين في الابعاد والمسافات بعض التعقب لهفوات سابقيه ، وان في كلامه على «الجموع» (أي ملاحقة النغمات بعضها لبعض) تفاصيل وزيادات لم يذكرها العرب السابقون ولا اهل الصناعة من اليونان.هذا فضلاً عن حديثه الطويل الفريد عن « المقامات » وأسمائها وخواصها

هذا ولكتاب الادوار تلخيصات عدة ، منها تلخيص عنوانه : شرح مولانا مبارك شاه بر أدوار،المنسوب الى محمد السيد الشريف الجرجاني . وهذا التلخيص غاية في النفاسة لما فيهِ من الفوائد والاضافات الطريفة،ولا سيما لما فيهِ من بحث في فيسيولوجية الصوت مما لم يسبقه اليهِ أحد ، فضلاً عن أن الملخص صاحب رأي نافذ ونقاد ومعقب . وهذا التلخيص منشور مع نص كتاب الادوار في القسم الثاني من هذا الجزء الثالث . وأما القسم الاول فموقوف على الرسالة الشرفية مستقلة بنفسها. والترجمة كالتي سبقتها من هذه المجموعة النفيسة دقة وعناية ب.

التنقيب عن الجزيرة من قديم الزمان حتى اليوم

٣٥٦ ص.القطع المتوسط

L'exploration de l'Arabie, par Kiernan --Edit- Payot Paris 1938

الف هذا الكتاب باللغة الانكليزية الاستاذ كيرنان ، ونقله الى الفرنسية الاستاذ شارل موريه . وفائدة الكتاب انه يعرض بالتفصيل لشق قلب الصحراء العربية بفضل الرحالين والعلماء والمنقبين على تعاقب الزمان . والغرض منه اظهار الجزيرة على ما تصورها هؤلاء الناس من جهة العمران والجغرافية والاقتصاد ومايتصل بها جميعاً

ومن المنقبين المذكورين في هذا الكتاب التجار وقواد الجيوش الرومانية قديماً (وعلى أقوالهم اعتمد سترابون ، وبطليموس بعده).ثم ابن بطوطة والايطالي دي فارتيما de Varthema في العصور الوسطى . ثم القائد البرتغالي الشهير الفونسو دالبوكرك d'Albuquerque في عصر النهضة.

ثم رجال الشركة الانكليزية للهند الشرقية في القرن السابع عشر . ثم الداغاركي نيبور Niebuhr في منتصف القرن الثامن عشر . ثم الايطالي فيناتي Finati والاسباني لبليش الشهير بعلي بك العباسي في اوائل القرن التاسع عشر. ثم بُركهاردت Burckhardt السويسري، صاحب الكتاب العلمي الحقيق بالاعجاب : « بيان عن البدو » . ومنذ ذلك العهد بدأت الرحلات العلمية المختلفة ، فكان التنقيب عن قلب الجزيرة ، عن مكة والمدينة ، عن عمان وحضرموت ثم عن الربع الخالي . ومما يذكر من اسماء النقابين هنا بعد بركهاردت : برتن Sir Richard Burton صاحب « الحج الى مكة والمدينة » باللغة الانكليزية ، وفون ڤريدي Adolf von Wrede و Walin و Sadlier و Palgrave و Pelly و Doughty و لورنس و Philby

وهنا نحيلنا لاهمال أمين الريحاني صاحب « ملوك العرب » وله ثلاثة كتب منشورة باللغة الانكليزية

ب .

عهد النبي (العربي)

١١٢ ص . القطع الكبير

Le Serment du Prophète, par J. Aubert. Edit. Geuthner. Paris 1938

يقوم هذا الكتاب على صلة المسلمين بالنصارى في العهود المختلفة للحضارة الاسلامية ، والصلة مبنية على عهد منسوب الى النبي ومكتوب بخط علي بن ابي طالب ، والصك فيما يقول المؤلف ثلاث نسخ فقط ، إحداها بين أيدي رهبان سيناء. وقد استند هؤلاء الرهبان الى ذلك العهد لسنتين خلتا لطلب المحافظة على الحقوق التي يتمتعون بها من زمن بعيد جداً (انظر صحيفة الاهرام، ١٢ ديسمبر ١٩٣٧)

وهذا العهد يبدو كأنهُ تصريح من جانب الرسول وثلاثين من صحابته ، يتعهدون فيهِ بأن يحموا النصارى في العالم كله وأن يراعوهم عند دفع الجزية وأن يحترموا قسيسيهم وبيعهم . وعلى هذا — كما جاء في الكتاب — ليس بين المسلمين والنصارى بغض ولم يكن المسلمون ليؤذوا النصارى. الا أن الترك خرجوا على ذلك الميثاق لأسباب معلومة

هذا ، ونشرت مؤلفة الكتاب العهد باللغة العربية مصوَّراً ونقلتهُ الى الفرنسية

ب .

نشأة الصحافة اليومية المصرية وتحولها

لكمال الدين جلال — ١٧٩ ص . القطع المتوسط

Entstehung und Entwicklung der Tagespresse in Aegypten
von Kamal Eldin Galal—Berlin 1939

بهذه الرسالة نال الاستاذ كمال الدين جلال الصحافي المصري المعروف شهادة الدكتوراه من جامعة برلين . والرسالة طريفة ومفيدة ، واسلوبها علمي :

بحث المؤلف عن كيفية تكون الصحافة اليومية في مصر ، فذكر ، أول ما ذكر ، ما اتت به الحملة الفرنسية من طبع صحيفتين تثبت فيها اعمال الحملة ، ثم انتقل الى عهد محمد علي باشا فتكلم على « الوقائع المصرية » وفحص عن رقيها ، ثم وقف عند عهد الخديوي اسماعيل وذكر صحف ذلك العهد ، منها : السلطنة لاسكندر شلهوب ، وحديقة الاخبار لخليل الخوري ، والجوائب لاحمد فارس الشدياق ، ووادي النيل لعبد الله ابي السعود، ونزهة الافكار لابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال ، وكوكب الشرق لسليم حموي ، والوطن لميخائيل عبد السيد . ومن الصحافيين لذلك العهد : محمد على باشا البقلي وابراهيم الدسوقي وحسين المرصفي وسليم النقاش وحمزة فتح الله ورفاعة الطهطاوي ، وأجلهم شأناً : جمال الدين الافغاني

ثم استطرد المؤلف الى عهد توفيق والثورة العرابية ومنها الى عهد الاحتلال الانكليزي ومنهُ الى عهد الاستقلال

ويمتاز الكتاب بأنهُ ينظر في البواعث والاسباب وبين النتائج والمسببات ، بالتحليل والتعليل والتفسير ، من الجهات الثلاث : الاقتصادية والسياسية والثقافية . وهو بذلك يدخل في فن من فنون علم الاجتماع العلمي المنصرف إلى الفحص عن الذهنية من طريق الصحف أو الفحص عن تحول الصحافة من باب الانقلابات الاجتماعية

وهذا الكتاب متمم لمسارد الصحافة العربية ومصادرها ومسائلها التي عني بنشرها الفيكونت فيليب دي طرازي . اذ هنا العرض وبذل المراجع ، وهناك النظر والتحليل والتعليل

ومما فات المؤلف انهُ لم يصنع لهذا الكتاب النفيس مسارد index يُدوَّن فيها أسماء الرجال من ساسة وصحافيين ، وأسماء الصحف وما اليها . والمسارد لاغنى عنها بل لا بد منها لمثل هذا الكتاب

ب .

كتاب الاغاني

الجزء العاشر — طبعة دار الكتب . القاهرة

من مفاخر الثقافة المصرية والطباعة العربية على وجه الاطلاق ما تخرجهُ دار الكتب المصرية الحين بعد الحين من نفائس الأدب العربي القديم ، وعلى رأس هذه النفائس كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، وهو الكتاب العمدة الجامع الظريف . وقد ظهر اليوم الجزء العاشر من هذا الكتاب ، وفيه أخبار دريد بن الصمة ، وابراهيم بن العباس ، ومروان بن ابي حفصة ، وابراهيم بن المهدي ، وابي النجم ، وعلية بنت المهدي ، وابي عيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن محمد ، وعلي بن الجهم ، وابي دلامة ، وعبد الله بن المعتز ، وزهير ، والمرار

ويلي الأخبار تلك الفهارس (أو المسارد على قول الدكتور بشر فارس) للشعراء ورجال

السند والمتن والأعلام والأمم والقبائل والأماكن والقوافي وأيام العرب حتى الأمثال
وعسى ان تواصل دار الكتب المصرية ، بفضل مديرها العالم الدكتور منصور فهمي بك ، جهدها في إعلاء شأن الثقافة العربية بنشر النصوص النفيسة على هذا الوجه الأتم

الرغيف — ليوسف عواد

منشورات دار المكشوف — بيروت — ٣١٥ ص من القطع المتوسط

من حسنات مجلة المكشوف البيروتية أن صاحبها الأستاذ فؤاد حبيش وأصدقاءه فطنوا إلى ضرورة التعاون على نشر الكتب والمؤلفات العربية للكتاب اللبنانيين على وجه التخصيص، وهذه رواية طويلة مما يلحق بمنشورات المكشوف . والرواية حوادثها من العهد الذي فيه دخل الترك لبنان ايام الحرب الكبرى فصالوا وفرطوا حتى غلبتهم العرب على أمرهم
هذه رواية مرسلة على الطريقة الواقعية مبنىً وأسلوباً وسرداً . ومزيتها أن حوادثها محسّة وأن اشخاصها على جانب عظيم من القوة ، بحيث تؤخذ بما تقرأ . وحسب الرواية هذه المزية . وأملنا ان تواصل دار المكشوف جهدها فتخرج لنا التآليف وتبرز المؤلفين

وهل يخفى القمر — لرئيف خوري

منشورات دار المكشوف — ١٥١ ص من القطع المتوسط

هذا كتاب آخر أخرجتهُ دار المكشوف . وهو يسوق حياة عمر بن ابي ربيعة الشاعر الغزل الظريف ، في أسلوب متلطف رقيق . وطريقة السياق تتصل بالفن الابتداعي (الرومانسي)، وربما لصقت به لصقاً . والمؤلف يطلب ، من طريق هذا السياق ، بواعث النشاط ويتطلع الى الأمثال العالية . والحق أن كتابه يأخذ بيدك الى عالم مطمئن النواحي فيه الشعر والرقة وفيه الشعور بالحب والمرح . غير أن اسلوب الكتاب يتجاذبهُ الإنشاء القصصي والنقدي ، فالسلك بهذا غير متصل

حياة الرافعي — لمحمد سعيد العريان

مطبعة مجلة الرسالة ، القاهرة — ٣٠٢ ص . من القطع الكبير . ثمنه ١٥ قرشاً صاغاً

ان المقتطف لتفرح بهذا الكتاب لسببين : الاول ذاتي ، والثاني موضوعي ، كما يقول كتبة هذا العصر . والسبب الأول ان الرافعي كان من أصدقاء هذه المجلة ومن المعاونين على اخراجها والملتفين حولها . والسبب الثاني ان الكتاب جليل من جهتين : اما الجهة الاولى فنشأة فن الكتابة في الادباء المبرزين باللغة العربية ، وهو فن يعرفه الفرنجة من زمن وجهلناه زماناً . واما

الجهة الثانية فهذه الطريقة القائمة على العرض والتحقيق ولمّ الاشتات واستثارة الدفائن في أسلوب عربي فصيح. ومما ندونهُ هنا أن هذا الكتاب لم يظفر بالنقد اللائق بهِ إذ اهملتهُ الصحف والمجلات المصرية الاَّ قليلاً، وذلك لأن الرافعي كان صاحب خصومات. وهكذا نرى أن الأدب عندنا لايزال طوع حركات شخصية. غير ان مجلة « الرسالة » نشرت بعض هذا الكتاب في السنة الماضية وذهبت في النشر على تجهمّ بعضهم لما نشرت. ويؤخذ على هذا الكتاب انَّ صاحبهُ ترك فصوله على حالها، فلم يراجعها وهو يخرجها كتاباً. اما الكتاب اتساق لا تساوق ب.

مشروع تنظيم السكان في مصر

نشرنا في الجزء الماضي من المقتطف وهذا الجزء البحث الوافي الذي وضعهُ الدكتور كليلاند مدير قسم الخدمة بالجامعة الاميركية ويسرُّنا ان نقول ان ناقلهُ الى العربية هو الاديب ابراهيم افراميدس سكرتير الدكتور كليلاند الخاص

مصر بين الاحتلال والثورة

هذا الكتاب الذي اصدره الاستاذ صلاح الدين ذهني يدل اكبر دلالة على ان ادباء الجيل الجديد لهم اتجاه خاص يعيّن نزعتهم وثقافتهم. فمن المظاهر القوية في ادبهم تجنب الاساليب الادبية القديمة التي كان يتسم بها أدباء « الصنعة » والالفاظ. والادب القديم كان ينمو في ظل المديح والهجاء او هو ادب لا يتعدى شؤون بعض الخاصة او اصحاب السلطة. اما الادب الحديث فقد خلع ذلك الرداء المصطنع وبدأ يعنى بالكثير من مظاهر الحياة يصور كل ناحية منها، بل ان هذا الأدب الجديد لا يخلو من الروح المعنوي الذي يتوّج جهود الشعراء والفنانين. وهذا الروح هو تصوير الاحساسات الدفينة التي تختلج بها قلوبهم ومشاعرهم. ورسالة الاديب في هذا الجيل قد لاتنقص شأناً عن رسالة العالم. والحاجة ليست الى ادباء يطلقون لاقسهم العنان في تصوير اخيلتهم ومؤثراتهم الذاتية بدلاً من تصوير الحقيقة الواقعة. وكما يعنى العلماء بحقائق الطبيعة فالمفروض ان يعنى الأدباء بحقائق المجتمع. هذه النظرة الجديدة الى الادب قد تلتمسها عند الادباء الذين قرأوا الأدب الغربي وتثقفوا ثقافة غربية والأساس عندهم ان المعنى له الميزة الأولى في الانتاج الأدبي وهذا المعنى يتصل بالشرح والتحليل والتقرير والدراسة القائمة على البحث العلمي. بدأ الاستاذ صلاح الدين ذهني بوضع خلاصة تحليلية عن الفترة التاريخية بين احتلال الانجليز لمصر وبين عهدها الجديد في الاستقلال. فكتب دراسة على حد قوله تتوسط بين التاريخ والادب. تناول فيها بالبحث عناصر الحياة الاجتماعية للشعب المصري على اختلاف طبقاته. ولقد اظهر في دراسته مدى ما يصل اليه المفكر اذا نزعت به ثقافته نزعة صحيحة. ولقد

اتخذ كتابين من الكتب العربية التي عمد فيها المؤلفون الى وصف طبقات الهيئة الاجتماعية. الكتاب الأول «حديث عيسى بن هشام» الذي وضعه المويلحي على النمط النقدي الخيالي. والكتاب الثاني «عودة الروح» الذي وضعهُ الاستاذ توفيق الحكيم. وهو ايضاً في النقد الاجتماعي. وكتاب «عودة الروح» فيه هذا التشويق والأغراء مما تلمسهُ في كتابة القصصي الفنان الذي يدفع عنك طابع السآمة والملل وينتهي بك الى شيء من الاعجاب غير قليل. وهذه الكتابة تحتاج دون شك الى جهد كبير فليس النقد الاجتماعي لشعب من الشعوب في القالب القصصي بالشيء البسيط السهل الذي يمكن تناوله بالبحث التقريري على ضوء الملابسات التاريخية والحوادث فقط بل هو يحتاج الى لغة شفافة رقيقة لتكون له لباساً مناسباً

يتميز بحث الاستاذ صلاح ذهني بالتحليل الاجتماعي — ان صحَّ هذا التعبير — وهذا التحليل يحتاج الى شيء كبير من المرونة في الوضع والشرح والمقارنات. والمقارنات في بحثه قوية يقيمها على المنطق والعقل. واما الشرح فلم يبسطهُ الكاتب كما كنا نرجو او كما كان ينبغي أن يكون. وأما وضع الصورة النقدية لعمل الكاتبين مؤلفي «حديث عيسى بن هشام وعودة الروح» فهو اصح دليل على خلود هذين الأثرين: ومما يجدر ذكره ان المؤلف ينظر الى مستقبل الحياة الاجتماعية في مصر نظرة ملؤها الثقة والأمل. واما الموضوعات التي عرض لها بالنقد فمنها: طبقات المجتمع. الحكومة والشعب. المرأة والمدنية الغربية. الاتجاهات الأدبية الجديدة. النفس المصرية. الفلاحون. الطلبة الموظفون وتيقظ القومية المصرية

اني أرى ان كتاب «مصر بين الاحتلال والاستقلال» سوف يذكر طالما عرف الأدب كتاب «حديث عيسى بن هشام» وكتاب «عودة الروح»

حليم متري

كتاب الموسيقى الشرقية والغناء العربي

تأليف قسطندي رزق — صفحاته ١٨٣ من قطع المقتطف — طبع بالمطبعة العصرية بالفجالة بمصر

أخرج الاديب قسطندي رزق الجزء الثاني من كتابه الموسيقى الشرقية والغناء العربي قدم لهُ ببحث مطول عن الموسيقى عند قدماء المصريين ثم منشئها وماهيتها مع بحوث مختلفة في تاريخ رجال هذا الفن ومن كانت لهم اليد الطولى في رفع شأنه وعلى رأسهم المغفور له الخديو اسماعيل باشا الذي احيى هذا الفن في مصر

وفي الكتاب مقالات عن الفنان المشهور عبده الحمولي كتبها شاعر الاقطار العربية خليل بك مطران حلل فيها فن عبده الحمولي وعبقريته ومحمد عثمان كما تكلم عن الغناء والحركة الوطنية وفيه مباحث اخرى بأقلام الرجال المبرزين في هذا الفن

توفيق الحكيم

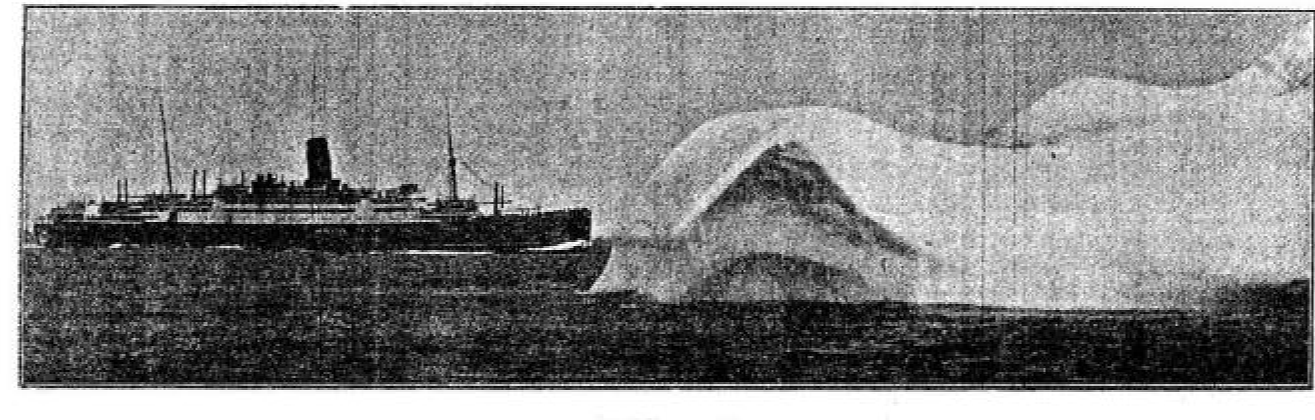
دراسة بقلم الدكتور اسماعيل أحمد أدهم — صفحاتها ١١١ نشرتها مجلة الحديث بحلب

هذه دراسة تناول بها المؤلف حياة الفنان القاص توفيق الحكيم وهي دراسة مستوعبة للفن القصصي والمسرحي في الادب العربي الحديث ويرى المؤلف ان القصة والاقصوصة لم تنشأ في أدبنا الحديث من أصل عربي قديم كالمقامات والقصص الحماسية كما يظن البعض وانما نشأ فنهما تحت تأثير الآداب الاوربية الحديثة وكذلك فن المسرحيات. ثم انتقل المؤلف بعد ان أورد عرضاً موجزاً لحركة النهضة الفكرية في الشرق العربي في مستهل القرن التاسع عشر الى استعراض واف للمحاولات الاولى التي بدأت في كتابة القصة كمحاولات عثمان جلال ونجيب الحداد وسليم وعبدالله وسعيد البستاني ثم جميل نخله المدور وجرجي زيدان. ويرى المؤلف في قصص الاخير نزعة المؤرخ غالبة على مقومات الفن القصصي. كما تناول قصة فتاة الفيوم للدكتور يعقوب صروف واعتبرها بدء القصص الاجتماعي التهذيبي في الادب الحديث. كما تكلم عن محاولات شميل وعن جهود فرح أنطون التي بدأت معها بذور الرومانسية في القصص والمسرحيات العربية ومضى المؤلف يتابع التطور الزمني لهذا الفن مستعرضاً في ذلك جميع الجهود والمحاولات التي بذلها رجال هذا الفن في جميع ميادين الادب العربي الحديث حتى عهدنا الحاضر. ولقد كان من الخير وقد عدد المؤلف جميع الآثار التي ظهرت وتناول في كثير من الاحيان البعض منها ان لا يغفل مسرحية ابراهيم المصري «نحو النور» ولا مسرحية الدكتور بشر فارس الرمزية «مفرق الطريق». وقد انتقل المؤلف بعد ذلك الى الكلام عن توفيق الحكيم فتناول حياته تناولاً أوفى على الغاية مستخلصاً ذلك من روايته «عودة الروح» و«عصفور من الشرق» انتهى منهُ الى الخلوص بأن الحياة التي يحياها الاستاذ الحكيم حياة تردد فانهُ حائر وسيظل حائراً لأن حيرته تنزل من صميم نفسه نتيجة لعدم التوازن في مشاعره وعواطفه، وهذه الحيرة هي التي تسبغ على فنه الطابع الشخصي

ثم تناول في الفصلين أو الكتابين الثالث والرابع من هذه الدراسة — وهما من امتع فصولها بل من أبدع الآثار النقدية بالعربية — فن الحكيم في مسرحياته وقصصه بطريقة مستحدثة حاول فيها اقامة الأدلة على حقيقة تاريخ كل مسرحية وان جاءت متأخرة عن سابقتها مهتدياً الى ذلك بتطور الاسلوبي للكاتب

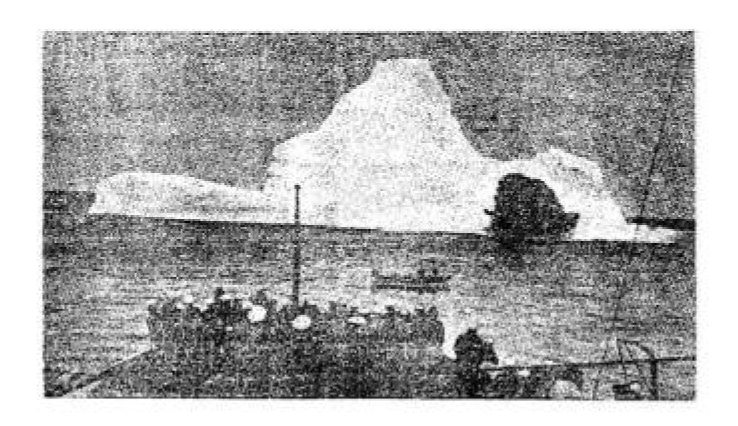
وفي الحق ان هذه الدراسة لمن أمتع الأسس التي وضعت في الادب العربي الحديث، وهي غُنم فاز به هذا الادب بجانب دراسته الممتعة في خليل مطران التي ينشرها لهُ «المقتطف» وغيره

حسن كامل الصيرفي

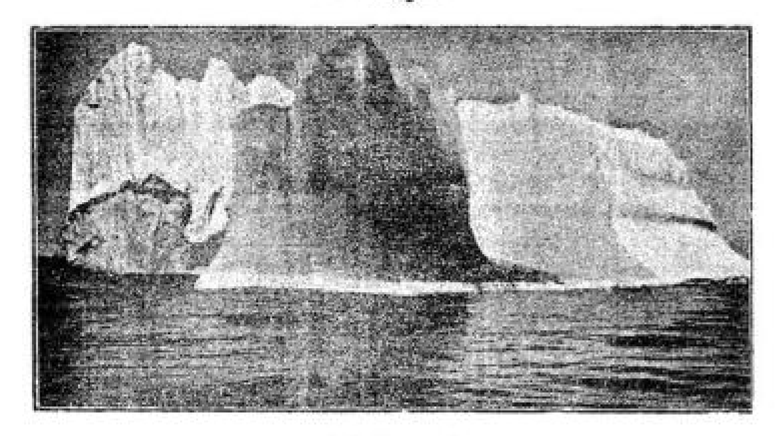


الصورة الاولى

الصورة الثانية



الصورة الثالثة



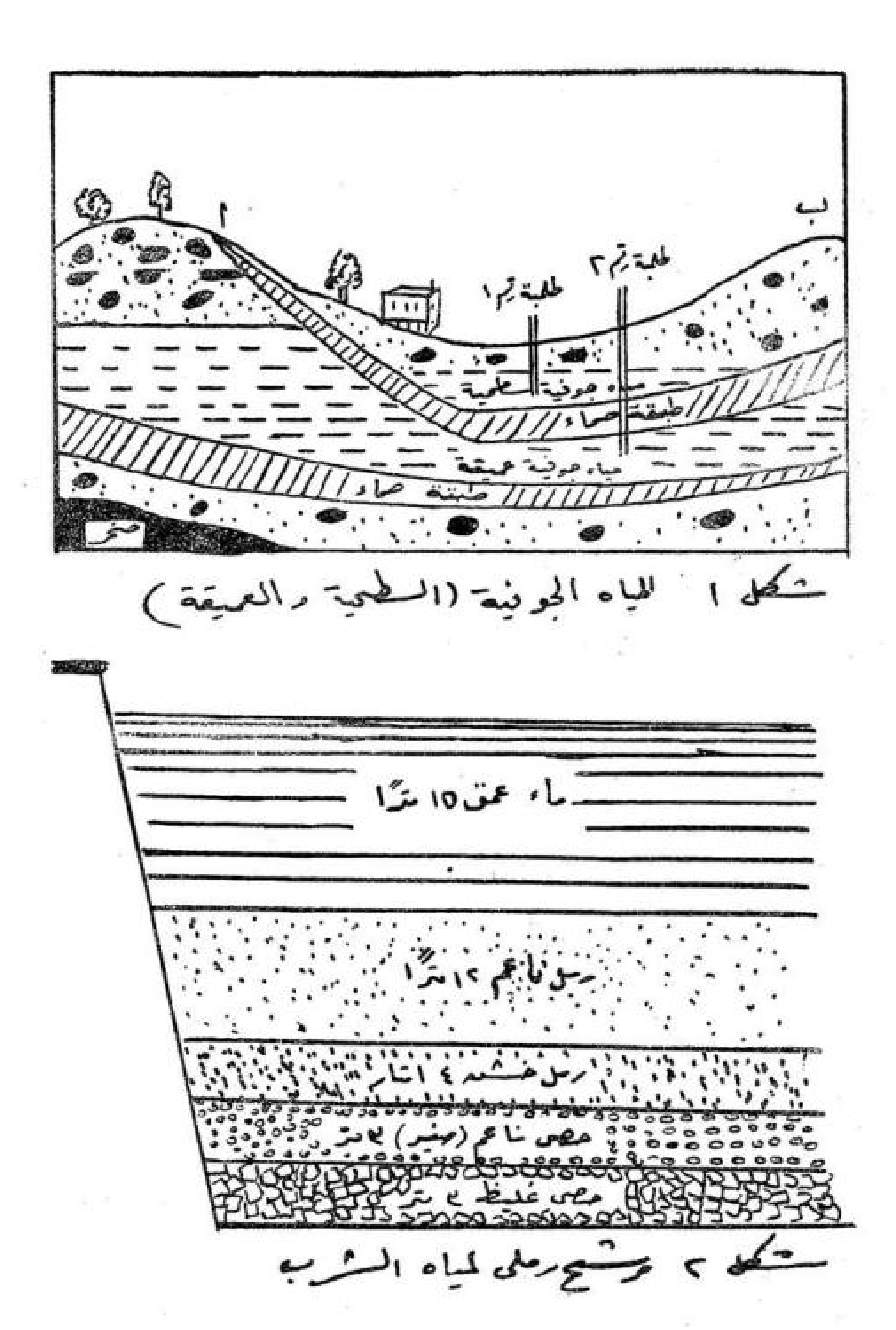
الصورة الرابعة

١ — صورة جانب من جبل جليد كبير انقلب رأساً على عقب والباخرة التي الى جنبه طولها ٥٧٥ قدماً

٢ — الجبل نفسهُ وقد رسمت صورته وهو قريب الى آلة التصوير فبدت السفينة صغيرة

٣ — صورة جبل آخر من جبال الجليد ومؤخر السفينة «مودك» وبحارتها يرقبون فعل الديناميت في جانب الجبل

٤ — صورة الجبل الاكبر الموصوف في آخر المقالة والجانب الذي اسودَّ لما نسف اولا



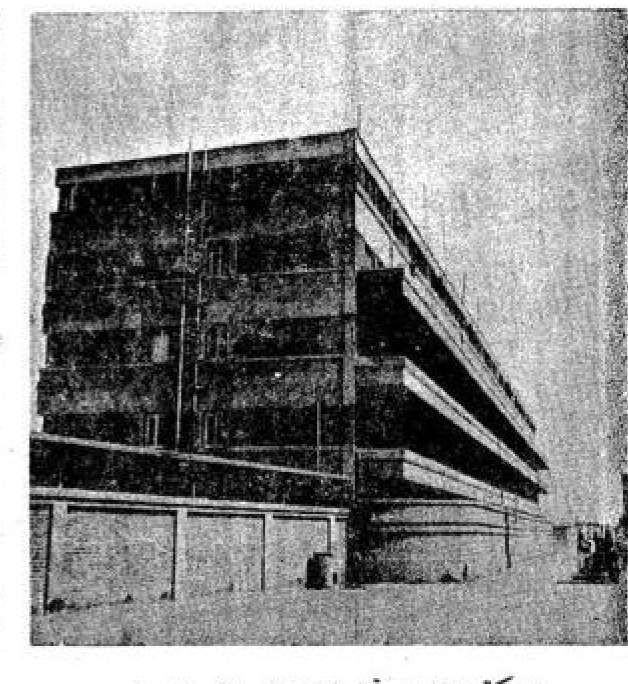
شكل ١ المياه الجوفية (السطحية والعميقة)

شكل ٢ مرشح رملي لمياه الشرب

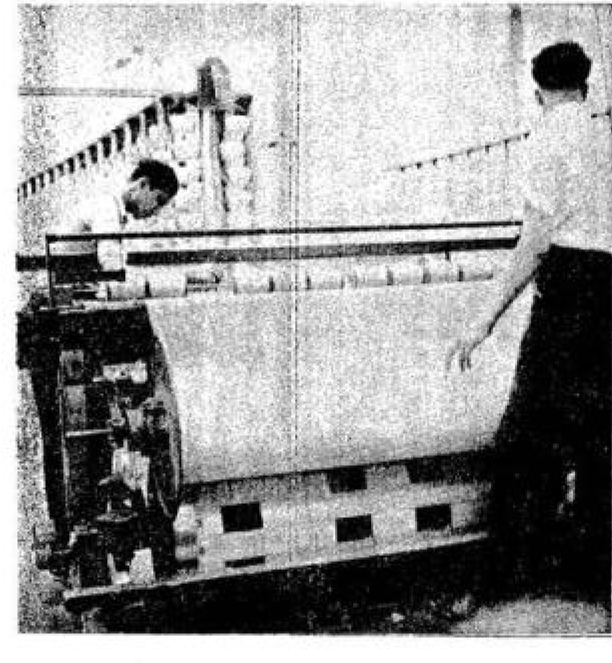


حضرة صاحب السعادة احمد عبود باشا

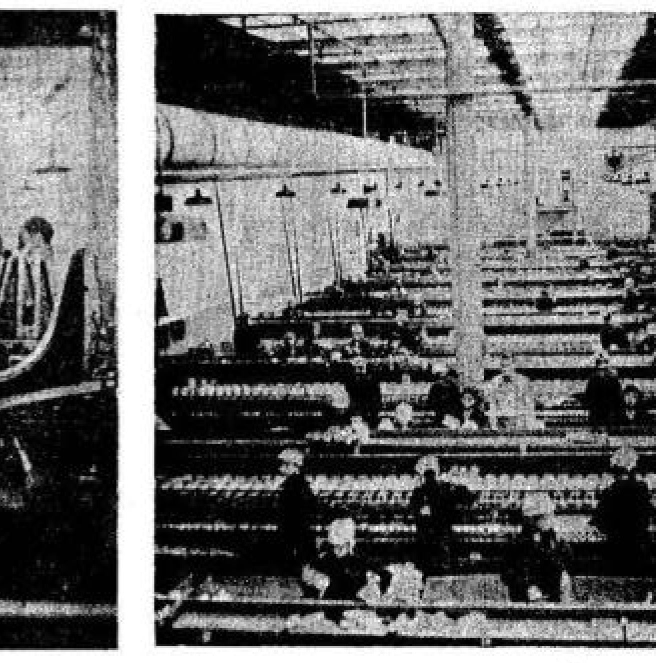
صور بعض المشاهد الصناعية في مصانع
مصر للغزل والنسج بالمحلّة الكبرى



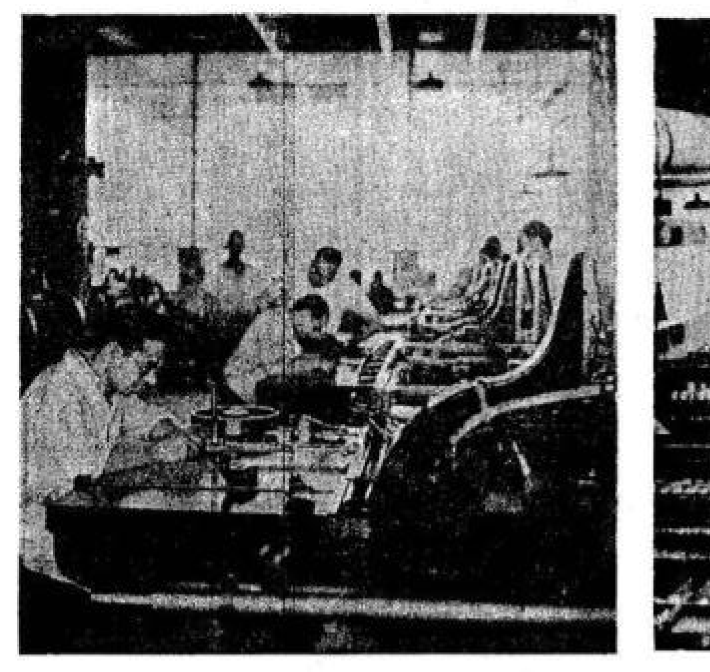
للشركة منازل شيدتها ليقيم فيها موظفوها وهذه
صورة احدى العمارات الضخمة



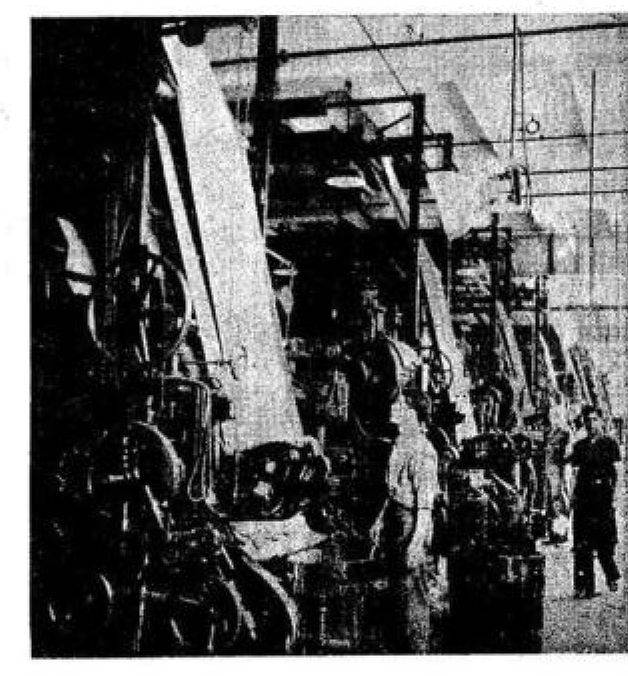
نقل خيوط الغزل الى المطواه (الاسطوانة الكبيرة)
وتسع ١٤٢٨ خيطاً طولها ٥٠٠٠ متر



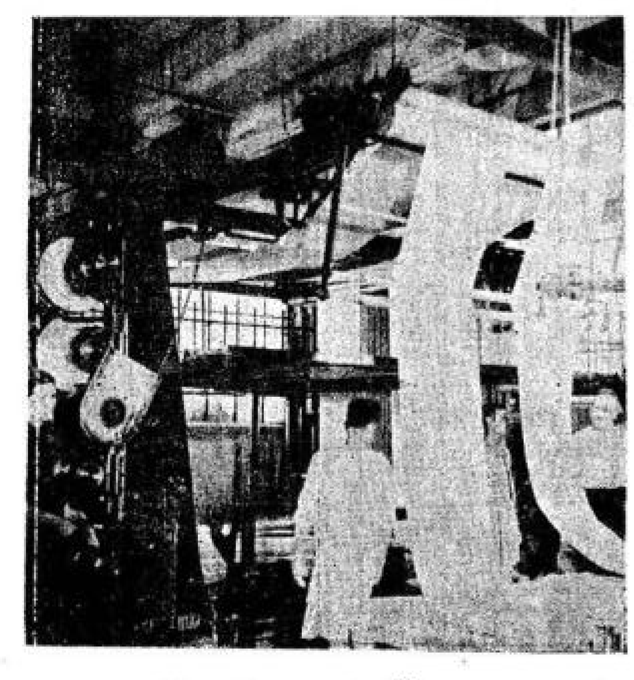
عنبر التدوير وتُرى فيه الفتيات وهنّ يراقبنَ نقل الغزل من بكر صغير الى بكر اكبر



عنبر حفر الرسوم على الاسطوانات استعداداً لطبعها على القماش



عنبر طبع القماش ويرى العمال وهم
يلاحظون سير الآلات



بعد ان يصبغ القماش يمر في آلات التجفيف والفرد والكي ويرى هنا
بعد ان مر بجميع هذه المراحل وهو يوضع على عربات استعداداً لنقله

حديقة المقتطف



لالياس ابو شبكة

الجزء الاول

من المجلد الخامس والتسعين

المقتطف

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature

Founded 1876

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخامس والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٩ — ١٣ جمادى الاولى سنة ١٣٥٨

« زحف الهليوم »

ظاهرة غريبة في الهليوم السائل

في صيف سنة ١٩٠٨ اذاع العالم الهولندي الاستاذ اونس Onnes انهُ فاز باسالة غاز الهليوم فكان لاذاعته شأن كبير في دوائر العلم العالمية ، وتعدتها العناية بالموضوع الى دوائر الصحف الكبيرة فنشرت جريدة التيمس بلندن مقالاً فيه ملأ بضعة اعمدة

ولا تُفهم هذه العناية بمبلغ علمي محض من هذا القبيل، الاَّ اذا تذكرنا ان الباحث الانكليزي المشهور فراداي تمكن في الجانب الاول من القرن التاسع عشر ، من تحويل عنصر الكلور وهو غاز عادة ، الى سائل . وكان رأي فراداي الذي هداه الى هذا ، ان الغاز والبخار يتشابهان في كثير من خواصهما متى كانت درجة حرارة البخار أعلى كثيراً من درجة تكثفهِ وتحولهِ سائلاً . واذن فمن المعقول ان تنظر الى غاز – كالهواء او كالكلور – على أنهُ بخار مرتفع الحرارة بالقياس الى حرارة تكثفه ولو كانت حرارته الفعلية لا تزيد على حرارة الحجرة التي يكون فيها . ثم ان البخار يُسال بالضغط ، أفلا يتحول الغاز سائلاً بالضغط كذلك ؟ فجرى فراداي على هذه الخطة فأسال الغازات المعروفة حينئذٍ الاَّ غازات الاكسجين والايدروجين والنتروجين وبضعة غازات اخرى

وعجز فراداي عن إسالة هذه الغازات كان لهُ شأن علمي . ذلك ان عجزه وعجز من تبعهُ عن إسالتها حملهم على وصفها بأنها «غازات دائمة» . وانقضى نصف قرن قبل ان أُسيل الاوكسجين

وعَنَا بعده النتروجين والايدروجين لاساليب العلماء . وسبب عجز فراداي عن إسالة هذه الغازات ، أنه كان يجهل ان الضغط وحده لا يكفي لاسالة الغازات ، بل يجب أن يقرن الضغط بخفض درجة الحرارة

وما أهلَّ القرن العشرون حتى كانت جميع الغازات قد أُسيلت — اذا استثنينا الهليوم. وعندما اخفقت جميع مساعي العلماء لاسالتهِ قيل إنها متعذرة . فأطلق عليه اسم (الغاز النبيل) تمييزاً له . فلما جاء نبأ إسالتهِ على يدي البحاثة اونس الهولندي سنة ١٩٠٨ كان الاهتمام بذلك النبأ عظيماً

الاكسجين يسيل عند الدرجة ١٨٠ مئوية تحت الصفر إذا كان الضغطُ ضغطَ الهواء العادي. ودرجة إسالة الايدروجين ٢٥٣ درجة مئوية تحت الصفر. والهليوم ٢٦٩ درجة مئوية تحت الصفر . ولكنَّ الطبيعة على ما يلوح تضع حدًّا لا يستطيع العلماء ان يتعدوهُ في درجة البرد الشديد وهذا الحدُّ يعرف بدرجة الصفر المطلق وهي ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر . فهناك ادلة وافية عند العلماء على انهُ من المتعذر ان تهبط حرارة جسم تحت درجة الصفر المطلق (اي ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر) . ومما يستوقف النظر قرب درجة اسالة الهليوم (٢٦٩ تحت الصفر) من درجة الصفر المطلق . بل ان البحث الحديث اقترب بدرجة البرد الى الصفر المطلق حتى صارت على جزء من الف جزء من الدرجة منهُ

والهليوم السائل مادة مألوفة في معامل البحث العلمي مع ان المختبرات المجهزة لصنع مقادير وافية منهُ قليلة لا تزيد على خمسة او ستة . والشأن العلمي العظيم الذي يعلقهُ العلماء بالهليوم السائل ناشئ عن تمكنهم من الهبوط بهِ الى درجة قريبة جدًّا من الصفر المطلق ، لأن المادة عند ما تبلغ هذه الدرجة من البرد تبدو عليها مظاهر تحوّل كبير في خواصها

عند ما يتحدَّث العلماء عن درجات البرد الشديد يعتمد على مقياس للحرارة والبرد غير المقياس المئوي اختصاراً وتسهيلاً . ويسندون هذا المقياس الى العلاَّمة كلفن الانكليزي ويكتفون بحرف K بعد الرقم للدلالة عليهِ . اساس هذا المقياس ان الصفر المطلق هو نقطة البدء . فالدرجة الاولى (1K او ١ ـ ك) هي درجة البرد التي فوق الصفر المطلق وهي تعدل بالقياس المئوي ٢٧٢ تحت درجة الصفر اي درجة الجمد . فاذا اردنا ان نحوّل القول بان غاز الهليوم يسيل عند الدرجة ٢٦٩ مئوية تحت الصفر، الى مقياس كلفن، قلنا ان غاز الهليوم يسيل عند الدرجة ٤ك . واذا كانت درجة غليان الماء ١٠٠ بالمقياس المئوي فانها ٣٧٣ بمقياس كلفن لأن هذه الدرجة هي مائة درجة فوق الصفر و٢٧٣ درجة بين الصفر والصفر المطلق

على اساس هذا المقياس كل شيء ما عدا الهليوم يتجمد اذا هبطت درجة بردهِ دون الدرجة ١٤ك . الايدروجين يسيل عند الدرجة ١٤ك ويغلي عند الدرجة ٢٠ ك . والهواء السائل يتجمد عند الدرجة ٥٥ ك ويغلي عند الدرجة ٩١ ك

هذه المواد على شدة بردها تعد دافئة بالقياس الى الهليوم السائل . فهو يغلي غلياناً اذا كان الضغط عاديًا والحرارة ٢ ر ٤ ك . فاذا أسرع الغليان بازالة البخار المتجمع فوق سطح السائل هبطت حرارة السائل رويداً رويداً. فاذا بلغت الدرجة ١٩ ر ٢ ك رأيت السائل وقد توقف فجأة عن الغليان . أو في الحقيقة انهُ يستمر في غليانهِ ولكن لايدو عليهِ انهُ يغلي أي ان السائل نفسه يسكن . وهذه المشاهدة تؤيد مشاهدات اخرى مؤداها أن الدرجة ١٩ ر ٢ ك هي مرحلة انقلاب في طبيعة الهليوم من صنفٍ يدعى (هليوم ١) الى صنف آخر يدعى (هليوم ٢)

والهليوم السائل ذو خواص غريبة . فوعاء من الماء يزن رطلين لا يزن من الهليوم السائل الا خمس اواق أي ٣/١٠٠ من وزن الماء . ثم ان الهليوم ٢ اشد ايصالاً للحرارة من الهليوم ١ بل هو اشد ايصالاً للحرارة من الفضة عشرة آلاف ضعف. وظن الباحث الروسي كابتزا ان سبب ذلك شدة سيولة (fluidity) الهليوم ٢ فأراد ان يمتحن الرأي وان يعيّن مدى هذه السيولة

لم تكن الاساليب المستعملة لقياس السيولة مما يصلح لقياس سيولة سائل درجة برده ٢ ك أي ٢٧١ تحت الصفر . فاستنبط لذلك طريقة خاصة . أخذ الأنبوب (ا) ولصق بطرفهِ الاسفل لوح زجاج (ب) وثقب في اللوح ثقباً مقابلاً لطرف الانبوب ، ووضع تحت اللوح (ب) لوح زجاج آخر (ت) وصنع جهازاً يمكنهُ من تغيير المسافة بين اللوح (ب) واللوح (ت) وفقاً لرغبتهِ . وكان السطحان المتواجهان في اللوحين (ب) و (ت) مستويين تماماً يوصف استواؤهما بأنهُ استواء ضوئي اي أن الضوء ينعكس من جميع اجزاء السطح انعكاساً واحداً. ثم جعل المسافة بين اللوحين ١/١٠٠ من البوصة، وبعد ذلك اسقط الجهاز كلهُ في حوض فيهِ هليوم ٢ فما لبث مستوى الهليوم السائل في الحوض حتى عادل مستواهُ داخل الانبوب

هنا بدأت التجربة . رفع الجهاز فجأة رفعاً سريعاً بحيث كان مستوى السائل داخل الانبوب اعلى منهُ في الحوض حينهُ . وكان من المنتظر طبعاً أن يهبط المستوى داخل الانبوب بخروج السائل من الثقب حتى يستوي السطحان داخل الانبوب وخارجهُ

ولكن هذا الهبوط كان أسرع مما كان متوقعاً. وفي تجربة أخرى ألصق اللوحان (ب) و (ت) إلصاقاً دقيقاً بعد رفع الانبوب . وهذا الالصاق من شأنهِ ان يحول دون تسرب السائل من الانبوب الى الحوض . لانهُ يسد ثقب الانبوب الذي في اللوح (ب) وعليهِ فمن المتوقع ان يبقى مستوى السائل داخل الانبوب أعلى منهُ خارجه

ولكن الذي وقع فعلاً كان ضد ما هو متوقع . ذلك ان مستوى السائل في الانبوب هبط فما انقضت ثوانٍ حتى تساوى السطحان في داخل الانبوب وخارجهُ . إذن نحن أمام سائل غريب يستطيع ان يتسرب بسرعة من خلال شقٍّ لا يزيد على جزء من الف جزء من كثافة

ورقة رقيقة . ليس في تاريخ علم الطبيعة سائل متصف بمثل هذه السيولة . وبعدما عمل الحساب وجد ان الهليوم ٢ أشد سيولة وانسياباً من غاز الايدروجين. أمرٌ لا يكاد يصدَّق . فما هي الحقيقة ؟

كانت الخطوة التالية هي الخطوة الطبيعية لمن يتنبهُ لها . ذلك انهُ اذا كان الهليوم ٢ يتسرب من خلال شق ّ ضيق جداً فهل يستطيع ان يتسرب من خلال المادة حيث لا يوجد شقٌّ ما ؟

هنا حوض فيهِ هليوم ٢ . سطحهُ مستوٍ شفاف . خذ كوباً ارتفاعهُ اربع بوصات وغطسهُ في السائل ، بحيث يكون قعرهُ الى تحت ، مسافة بوصةٍ واحدة ، أي ان حافتهُ العليا تبقى ثلاث بوصات فوق سطح السائل الهليومي . والمفروض في زجاج الكوب انهُ خالٍ من الشقوق والشعَب . فماذا يحدث ؟ يأخذ السائل يتجمع في قعر الكوب حتى يصبح مستواهُ داخله معادلاً لمستواه في الخارج . كيف دخل السائل الى الكوب ؟ هل نفذ من خلال بلورات الزجاج ؟ لقد اثبتت التجارب ان هذا السائل الهليومي الغريب « زحف » Creep على جدار الكوب من الخارج متسلقاً الى الحافة ثم زحف نزولاً حيث تجمع حتى بلغ مستوى السائل داخل الكوب مثلهُ خارجهُ . أي إنا أمام سائل يسيل ضدّ اتجاه الجاذبية من تلقاء نفسه ، وهذا ما لم يسمع بهِ من قبل

ثم اجريت تجارب اخرى في معاهد اخرى ولا سيما في مختبر جامعة تورنتو الكندية فظهر ان سيولة الهليوم ، ليست في المنزلة التي عينها كابتزا — عندما قال انها اقل من غاز الايدروجين عشرة الآف ضعف — ولكنها مثل غاز الايدروجين . ومع ذلك فانها حملت علماء الطبيعة على مواجهة مشكلة دقيقة ما زالوا يتخبطون في ظلامها . ومن الآراء المقترحة لتفسير ذلك حسبان الهليوم ٢ متوسطاً بين الغاز والسائل . ولا يخفى ان الجزيئات في الغاز مستقلة احدها عن الآخر بوجه عام . ولا يحد من حركتها الأحرارتها وجدار الوعاء الذي يكون فيهِ ، كجدار الاسطوانة التي يوضع فيها الاكسجين مثلاً وتستعمل في اغاثة بعض المرضى . ولكن افتح صمام الاسطوانة يندفع الغاز الى الخارج . وأما الجزيئات في سائل ما فتحافظ على الابعاد بينها بوجه عام ، فكأنها مربوطة بعضها ببعض بأواصر لا تتمدد . فانك اذا فتحت زجاجة تحتوي على دواء سائل فالسائل لا يندفع الى الحجرة كما يندفع الاكسجين من الاسطوانة . اما الهليوم ٢ فهو سائل ، واذن فجزيئاته يجب ان تكون مرتبطة بعضها ببعض بأواصر لا تتمدد . ولكنهُ في الوقت نفسه بلغ درجة من السيولة ان جزيئاتهِ تتصرف كأنها جزيئات غاز

هذه هي المسألة التي يواجهها علماء الطبيعة في حالة الهليوم ٢ . ما طبيعة الاواصر التي تربط بين جزيئاتهِ ؟ المفروض طبعاً انها قوة كهربائية . فهل علماء الطبيعة النظرية سالكون الطريق القويم الى فهم هذه المسألة ؟ اذا كانوا حقاً عليهِ وتمكنوا بعد البحث والامتحان من فهم هذه القوى الكهربائية وطريقة تصرفها ، كشفوا كشفاً خطير الشأن في اسرار القوة الجزيئية

اصلاح التقويم

ومزايا « التقويم العالمي » المقترح

للدكتور ستيوارت ضد (١)
استاذ علم الاجتماع بجامعة بيروت الاميركية



من المحتمل ان يطلب الى المجالس النيابية في البلدان العربية ان تقرر هل تنوي ابرام الاتفاق الدولي الخاص بتقويم عالمي ، وهو اتفاق يحلّ تقويماً دائماً عالميًّا محل التقاويم المنوّعة المعتمدة الآن لقياس الزمان

ومما لاريب فيه انهذا التغيير المقترح فيعاداتنا وطرق تفكيرنا المألوفة سيلاقي مقاومة مهمايكن الاصلاح الذي ينطوي عليه معقولاً . وما علينا الاّ ان تذكر المقاييس المختلفة من بوصة وقدم وذراع ودونم وفدان وأوقية وأقة ومد وغيرها من المقاييس والموازين والمكاييل التي ما فتئت مستعملة في شتى البلدان،على الرغم من ان النظام العشري المتفوق عليها أتيح للناس منذ قرن ونصف قرن من الزمان. انا نبتسم ابتسامة فيها مزيج من السخرية والتسامح عند ما نفكر في اعداد ونقود القبائل الافريقية القائمة على أساس الرقم ٧ . فاذا قيل لنا ان سبع موزات تعدل بطيخة وسبع بطيخات تعدل فرخاً وسبعة افراخ تساوي خنزيراً وسبعة خنازير تعادل ثوراً وسبعة ثيران تعادلزوجة وسبع زوجات تعدل جنديًّا ، ضحكنا لأنا نجد في هذا النظام من التعقيد في الحساب تعقيداً وحيرة ، وتزداد حيرتنا اذا سألنا سائل أو معلم أن نحسب له حاصل ضرب ثلاثة جنود وثورين وخنزير بثلاث زوجات وموزة ! والواقع ان كثيراً من وحدات الطول والوزن والحجم التي نستعملها أقل انتظاماً وبساطة من هذا النظام السبعيّ المعقد

ان المجتمع البشري نسي المقاومة الشديدة التي قوبل بها النظام العشري عند بدء استعماله في اوربا من نحو الف سنة عند ماحمله العرب الى الغرب . ومن هنا نجد ان الارقام التي ندعوها بالعربية « الارقام الهندية » تعرف في اوربا « بالارقام العربية » . كان اختراع الصفر في حسبان اهل الغرب عملاً من اعمال الشيطان اذ كيف يعقل ان يدوّن رجلٌ عاقل مالك لقواه الذهنية

(١) المقتطف: ترجمة محاضرة بالانكليزية للدكتور ستيوارت ضد القيت في حفل من الفضلاء والعلماء في بيروت

اشارة لشيء غير موجود ؟ وفرضت في مرسيليا عقوبات شديدة على كل تاجر يكشف متلبساً بجريمة استعمال الارقام العشرية بدلاً من عمل حساب ربحهِ وخسارتهِ « بالحروف الرومانية الواضحة » . وكل من يحاول ان يضرب الآن XLVIII (اي ٤٨ بالحروف الرومانية) في MMCCCIX (اي ٢٣٠٩) يعلم مبلغ ما كان يتنازع اولئك التجار المساكين من رغبة في استعمال الارقام الجديدة المسهلة للحساب ، واطاعة الاوامر الرجعية الصادرة من السلطات !

ولعلّنا نظن اننا في هذا العصر اقبل لطرق التفكير الجديدة من اسلافنا قبل الف سنة . فهل نحن كذلك حقاً ؟ ولتبيان تردّدنا في الاقبال على الطرق والاساليب الجديدة نكتفي بان نشير الى النظام الاثني عشري في العدد فهو يفوق النظام العشري . ولنفرض ان ارقامنا اثنا عشر رقماً

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ △ □ ١٠

١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ١△ ١□ ٢٠

فالمثلث △ يعني ١٠ والمربع □ يعني ١١ والرقم ١٠ في الترقيم الجديد يعني ١٢ واذن فالرقم ١١ الجديد هو ١٣ القديم و١٢ الجديد هو ١٤ القديم و٢٠ الجديد هو ٢٤ القديم . (ولو وضعت رموز جديدة للارقام في هذا الترقيم لكان ذلك اسهل على الاستعمال لانهُ لا يقع اختلاط في الذهن بين الترقيم الجديد ومعنى الارقام القديمة) . بهذا الترقيم الاثني عشري يمكن التعبير عن الكسور كالثلث والربع والسدس برقم واحد . فالثلث في تعبيرنا العشري هو ٣٣٣٣٣٣ر٠ فيصبح ٤ر (اي ٤ من ١٢) والثلثان ٦٦٦٦٦٦ر٠ يعبَّر عنهما بـ ٨ر (اي ٨ من ١٢) والربع ٢٥ر يصبح ٣ر (اي ٣ من ١٢) وبذلك يتسهّل ويتيسّر كثير من الجداول والاعمال الحسابية [١]

ولكن اذا اقترح علينا استعمال هذا النظام الاثني عشري ، قلنا على الفور انهُ معقَّد وصعب ويشوش علينا الذهن والفكر ، والواقع انهُ ابسط من النظام العشري ، ولكنهُ يبدو صعباً لأنّا نشأنا على استعمال نظام آخر للعد والحساب فألفناهُ . ولو ان الاسرة الفرنسية التي امتاز ابناؤها بست اباهم في كل قدم وست اصابع في كل كف ، ظهرت في زمن قديم في تطور الجنس البشري وغدت الاباهم الست والاصابع الست الصفة الغالبة على الناس ، لكان استعمال النظام الاثني عشري في العد غالباً على النظام العشري ، لان استعمال النظام العشري يرجع على الاكثر الى عادة العد على اصابع اليدين . ولا تزال الكلمة الانكليزية الدالة على الرقم الواحد وهي digit تعني « اصبعاً » كذلك

(١) ومما هو جدير بالذكر ان البابليين القدماء والصينيين وغيرهم كانوا يتخذون الرقم ٦٠ اساساً وهو يجمع بين النظامين العشري والاثني عشري الى حد ما ، ولكنه كثير التعقيد ، فكان الطالب مضطراً ان يتعلم جدول الضرب من ١ × ٢ الى ٦٠ في ٦٠ بدلاً من تعلمه الى مرتبة ١٢ × ١٢ فقط . ومع ذلك فنظام الستين لا يزال مستمراً في دقائقنا وثوانينا

ولا ريب في ان النظام العشري راسخ الاصل في اجتماعنا الحالي، وعلى المصلح ان يحكم قبل الاقدام على اصلاحه، هل النظام المقترح يفوق النظام القائم كثيراً بحيث يجوز ان تكبد الجماعة في سبيله التعب والاختلاط اللذين ينشأ ن عن التغيير؟ ومن المحتمل ان مدى تفوق النظام الاثني عشري على النظام العشري لا يسوّغ الجهد والمال اللذين لا بدّ من بذلهما لاعادة طبع كل ما يحتوي أرقاماً وتعليم الناس قراءة الارقام الجديدة وفهمها

هذا المبدأ، مبدأ الموازنة بين الفائدة المرجوة من اصلاح ما، والبذل المعنوي والمادي اللازم للفوز بتحقيق هذا الاصلاح، يتجلى خاصة في دراسة «اصلاح التقويم» لأن كلّ نظام مقترح من نظم التوقيت لا بدّ ان يلقى صعاباً سببها ان وحدات التوقيت هي الفترات بين الحوادث الفلكية التي تعين اليوم والشهر والسنة، وهذه الوحدات ليس بعضها اضعاف بعض. ولذلك من المتعذر ان نستعمل نظاماً عشريّاً أساساً للتقويم. فلنلق نظرة على وحدات التوقيت واحدة واحدة

وحدة التوقيت الأساسية هي اليوم الكامل — نهار وليل — الناشيء عن دورة كاملة للارض حول محورها. هذه الفترة قسمت تحكماً الى اربع وعشرين ساعة كل منها ستون دقيقة وكل دقيقة ستون ثانية (لاحظ اثر النظام الاثني عشري هنا). وفي الوسع ان نقسم النهار الى عشر ساعات وكل ساعة الى عشرة اقسام أخرى (فيكون عشر الساعة معادلاً لـ ١٤٫٤ الدقيقة من دقائقنا) وكل عشر ساعة الى عشر دقائق (فتكون كل دقيقة جديدة معادلة لـ ١٫٤٤ من دقائقنا الآن، ثم نقسم كل دقيقة (من الدقائق الجديدة) الى عشرة اقسام كلٌّ منها عشر ثوانٍ (وتكون كل ثانية بحسب النظام الجديدة معادلة لخمسة اسداس ثانيتنا الآن)

عندئذٍ تكون الثانية جزءاً من مائة الف جزء من اليوم ($\frac{١}{١٠٠٫٠٠٠}$) اي أن اليوم الكامل من الظهر الى الظهر يحتوي على الف دقيقة في كلّ منها مائة ثانية

وفي الوسع ان نشتق حينئذٍ وحدات صغيرة للتوقيت منها وحدة تكون جزءاً من الف جزء من الدقيقة (اي جزء من مليون جزء من اليوم) فتستعمل في توقيت العدائين والجياد في حلبات السباق وكذلك في قياس سرعة التصوير بالمصوّرة الضوئية. هذه الوحدة تعادل فترةً من الزمن اقلّ قليلاً من عشر الثانية التي تدوَّن في ساعات السباق الآن

ولكن النظام المتبع الآن في تقسيم اليوم وافٍ بالغرض وليس ثمة ما يدعو الى تعديله او تبديله

ولكن أضعاف اليوم سبَّب ضيق وانزعاج. فنحن امام فترتين فلكيتين، لا موافقة بينهما ولا موافقة بين احداهما من ناحية وبين اليوم من ناحية أخرى. الاولى هي الشهر القمري يحدّده دوران القمر دورة كاملة حول الارض وهي تستغرق ٢٩،٥ اليوم تقريباً. والثانية

السنة الشمسية يحدّدها دوران الارض دورة كاملة حول الشمس وهي تستغرق ٣٦٥٫٢٤٢٢ اليوم . ولا يخفى ان « سنة » كل سيار من السيارات الاخرى تختلف من عطارد الذي يدور حول الشمس في نحو ٨٨ يوماً من ايامنا الى بلوتون الذي يدور حول الشمس في نحو ١٦٤ سنة من سنينا

أخذ الناس اولاً بالشهر القمري لأن زيادته واكتماله ونقصانه مما تسهل مشاهدته ولما بدا من أثره في المدّ والجزر والحيض والزراعة . ولكن مجموع ايام اثني عشر شهراً قمريًّا تنقص ١١ ¼ اليوم عن السنة الشمسية ، واذن فالتقويم القمري يتراجع عن التقويم الشمسي . وشهر رمضان الكريم يدور على مرّ السنين متنقلاً بين الشهور الشمسية من الصيف الى الربيع الى الشتاء الى الخريف ثم يعود في الصيف وذلك في خلال فترة طولها ٣٢ سنة ونصف سنة . اما الشهور الشمسية فتقع في نفس المكان كلّ سنة ، فديسمبر ويناير في فصل الشتاء وابريل ومايو في الربيع وهكذا ودورة البرد والحرّ ، والزرع والحصاد ، جعلت السنة الشمسية أهم وحدة من وحدات التوقيت التي تزيد على اليوم . ولكن لكي تنتظم وحدة الايام في السنة الشمسية يجب ان تجعل السنة ٣٦٥ يوماً وان يضاف يوم الى السنة كل سنة رابعة (وهي التي تعرف بالسنة الكيس) وان يدخل عليها تصحيحات أخرى سنشير اليها عند البحث في التقويم الجريجوري «والتقويم العالمي» المقترح

وكأن مشقة تنظيم اليوم والشهر والسنة في التقويم لا تكفي ، فيجب ان يعمل حساب كذلك للاسبوع . ويلوح ان سبعة أيام الاسبوع أقرت أولاً في مصر القديمة عند ما كانت السيارات المعروفة حينئذٍ سبعة سيارات . ثم أخذت بهِ اليهودية والمسيحية والاسلام وغدا أساساً لتقسيم أيام العمل في السنة فستة ايام للعمل واليوم السابع للراحة . وقد جرّبت روسيا تجربة جعل الاسبوع ستة أيام ومما حملها على ذلك باعث ديني وهو قصدها ان تتدخل في عبادة يوم الاحد وايام الاعياد الدينية لان السوفييت يعتقدون أنها خرافات ويجب ان تلغى . والتقويم متصل عادة أوثق الصلة بالشعائر الدينية والمعتقدات ، ولذلك كان تغير التقويم غير مرة في الماضي لاحداث تبديل في المؤثرات الدينية . واسماء الايام تدل على علاقات دينية فيوم الاحد بالانكليزية صندي Sunday كان يوم « اله الشمس » والاثنين مندي Monday يوم إله القمر وهكذا

وقد جرّبوا كذلك ان يحذفوا من سجل الايام يوم الراحة الاسبوعية . ففي اثناء الحرب الكبرى مثلاً جربوا هذا النظام رغبة في زيادة الانتاج في مصانع الذخيرة . ولكن العمل سبعة ايام متوالية افضى الى اعياء كان من شأنه ان انقص الانتاج الاسبوعي . ذلك بأن الناس ينتجون في بضع ساعات من العمل تتخللها فترات من الراحة اكبر مما ينتجون في عدد اكبر من الساعات بغير ان

تتخللها الراحة . وهذا يعني ان الاسبوع ، وهو فترة زمنية غير مبنية على حوادث فلكية، اصبح راسخ الاصل في حضارتنا الحديثة . واذن يجب ان نبحث عن اسلوب يمكننا من ان تنظم الاسبوع في سلك التقويم مع الشهور والسنين ، على الرغم من انهُ لا يقسم ايام الشهر القمري (هي ٥ ر ٢٩) ولا ايام السنة الشمسية (٢٤٢٢ ر ٣٦٥) قسمة صحيحة

***

ابتدعت تقاويم كثيرة لحلّ هذه المشكلات . فالتقويم الجريجوري المتبع على الغالب في العالم الآن، يرتد في اصله الى التقويم المصري الذي صنع من نحو ستة آلاف سنة . وقد نقحهُ يوليوس قيصر في سنة ٤٦ ق . م . وعرف التقويم بالنسبة اليهِ اي « اليولياني » . وبهِ قسمت السنة الشمسية الى اثني عشر شهراً قوام كل منها ٣٠ يوماً او ٣١ يوماً الا شهر فبراير فكان عدد ايامه ٢٩ يوماً في كل سنة عادية و ٣٠ يوماً في كل سنة كبيس . وتلاهُ اغسطس فأثار حسده ان شهر يوليو سمّي كذلك نسبة الى يوليوس قيصر وان ايامه تزيد يوماً واحداً عن ايام شهر اغسطس المسمّى نسبة اليهِ ، فأمر باضافة يوم الى شهر اغسطس ، فأخذ من شهر فبراير المسكين . وكذلك غدت شهورنا تتفاوت اياماً بين ٢٨ و ٢٩ (لفبراير) و ٣٠ و ٣١ لسائر الاشهر

والواقع ان السنة اليوليانية المؤلفة من ٣٦٥ يوماً وربع يوم اطول من السنة الشمسية الصحيحة باحدى عشرة دقيقة وثماني واربعين ثانية . ومجموع هذه الفروق يبلغ يوماً كاملاً في ١٢٨ سنة . فلما نظر البابا جريجوريوس الثالث عشر في الموضوع في سنة ١٥٨٢ ق.م . تبين ان التقويم اليولياني سبق السنة الشمسية بعشرة ايام فصحح التقويم اليولياني بجعل ٥ اكتوبر يوم ١٥ اكتوبر من تلك السنة . ومن هنا منشأ التقويم الجريجوري المعتمد الآن . وقد اغضب عمل البابا هذا بعض الناس

سنه . فلما نظر البابا جريجوريوس الثالث عشر في الموضوع في سنه ١٥٨٢ ق.م . تبين ان التقويم

هذا الاصلاح جعل سنة التقويم على ٢٦ ثانية فقط من طول السنة الشمسية الحقيقي ، وهذه الثواني تتجمع فلا تبلغ مدى يوم واحد الاَّ في ٤٠٠٠ سنة ويمكن اصلاح هذا الخطإ بحذف يوم سنة الكبيس في السنة ٤٠٠٠ ب.م. والسنة ٨٠٠٠ ب.م. والسنة ١٢٠٠٠ ب.م. الخ وبذلك يكون تقويمنا صحيحاً الى مدى مليون سنة — وماذا يهمنا الآن بعد ذلك . فالقاعدة اذاً في اصلاح الخطاء المتجمع ، من الفرق بين طول السنة الشمسية وسنة التقويم هي إضافة يوم كل اربع سنوات ، ثم حذفهُ مرة كل ١٠٠ سنة ثم اضافتهُ ثانية مرة كل ٤٠٠ سنة ثم حذفهُ مرة كل ٤٠٠٠ سنة

ولا تزال كنيسة الروم الارثوذكس تأخذ بالتقويم اليولياني ، وقد بلغ مبلغ الخطاء فيهِ الآن ١٣ يوماً وهذا يفسر الفرق بين يوم الاحتفال بعيد الميلاد في الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية

وللتمثيل على خصائص هذا الشذوذ في التقويم يروى عن طفل ولد في يوم ٢٩ فبراير سنة ١٨٩٦ (وكانت بحكم الطبع سنة كبس) ولذلك كان من المتعذر عليهِ او على اهله الاحتفال بعيد ميلادهِ الاَّ مرة كل اربع سنوات . ولكن سنة ١٩٠٠ لم تكن سنة كبس وفقاً لقاعدة البابا جرجوريوس فاضطر ان ينتظر ثماني سنوات اي الى سنة ١٩٠٤ للاحتفال الاول بعيد ميلاده فلما قرب ذلك اليوم ، كان مع اهلهِ المسافرين عبر المحيط الهادىء ، وفي اجتياز هذا المحيط من الشرق الى الغرب يحذف يوم كامل عند تخطي خط معين . ولسوء حظ الفتى اجتازت السفينة ذلك الخط في يوم كان يجب ان يكون ٢٩ فبراير فحذف من حياتهِ . فانتظر حتى سنة ١٩٠٨ عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة لكي يحتفل اول احتفال بعيد ميلاده . ولكن في تلك السنة ، وذلك الشهر كان اهلهُ يجتازون روسيا وروسيا ما تزال تأخذ بالتقويم اليولياني ، والمانيا جارتها بالتقويم الجرجوري ، والفرق بين التقويمين ١٣ يوماً فسبق يوم ميلاده في روسيا وتأخر عنهُ وهو في المانيا ، وكذلك انتظر حتى بلغ السادسة عشرة قبل ان احتفل اول احتفال بعيد ميلاده

***

وعيد الفصح المسيحي مثل آخر على عدم الاستقرار في حوادث التقويم . فقد وضعت لهُ قواعد رياضية معقدة لكي يقع دائماً في يوم احد (في الدورة الاسبوعية) بعد اول بدر (في الدورة القمرية) بعد الاعتدال الربيعي في ٢١ مارس (الدورة الشمسية) ولما كانت هذه الدورات الزمنية غير متوافقة فميعاد عيد الفصح يختلف باختلاف السنين من ٢٢ مارس الى ٢٥ ابريل

وقد تمكن التقويم الجرجوري ، بالقاعدة التي تقدم ذكرها ، من الموافقة بين الايام والسنين الشمسية ، ولكنه لم يوافق بين الاشهر والاسابيع . فالشهور تختلف طولاً في السنة الواحدة . وأيام العمل في شهر ما تختلف عددها في سنة ما ، عن ايام العمل في نفس الشهر في

سنة اخرى لأن الشهر في سنة ما قد يحتوي على خمسة آحاد ولا يحتوي في اخرى تالية الاّ على اربعة

وكذلك يتعذر على الهيئات الحكومية والتجارية ان توازن موازنة دقيقة بين الشهور لانها تختلف طولاً . وارتقاء العلم والحضارة يقتضي منا امعاناً في الدقة في قياس الفترات الزمنية شأنها في قياس غير الفترات الزمنية من الظاهرات . ثم ان التقويم يختلف كل سنة من حيث وقوع الايام . فأيام الشهر لا تقع في نفس ايام الاسبوع في سنوات متعاقبة . وأيام الاعياد التي تعين بتاريخ الشهر لا تقع في نفس اليوم من الاسبوع في سنتين متعاقبتين. ولذلك نحتاج الى تقويم جديد لكل سنة . واعداد المعدات للمستقبل يقتضي مراجعة التقويم الخاص بالسنة التي انت فيها ، لمعرفة اي يوم من ايام الاسبوع يوافق تاريخاً معيناً من تواريخ شهر معيَّن . وكثير من الناس يودُّ ان يعرف هل يوم عيدٍ معيَّن يقع قبل عطلة آخر الاسبوع مباشرة او هو واقع في منتصف الاسبوع فالحاجة اذاً ماسة الى تقويم مَرِن منتظم دائم لا يتغيَّر من سنة الى اخرى

***

وقد اقترحت مقترحات متعددة لتحقيق هذا الغرض منها جعل شهور السنة عشرة شهور احدها ٣٦ يوماً فيليه آخر ايامهُ ٣٧ يوماً فثالث ايامه ٣٦ يوماً وهكذا . ولكن هذا التقسيم لا يتفق والدورة الاسبوعية اي دورة سبعة ايام في الاسبوع واذا جعل الاسبوع عشرة ايام ، واسابيع الشهر ثلاثة ، وشهور السنة اثني عشر ، كان لنا تقسيم منتظم ولكنهُ يترك خمسة ايام لا ندري ما نفعل بها في السنين العادية . واقترح كذلك ان تكون السنة ١٣ شهراً كلٌّ منها ٢٨ يوماً فيكون قوام الشهر اربعة اسابيع كلٌّ منها سبعة ايام . ولهذا الرأي انصار لأنهُ ينظم الاسبوع في التقويم على وجهٍ مقبول . اي إن ايام الاسبوع تكون دائماً هي هي من حيث موقعها في ايام الشهر . وهذا الاقتراح ينظم ٣٦٤ يوماً في التقويم (لان ١٣ × ٢٨ = ٣٦٤) فيبقى لدينا يوم واحد من ايام السنة العادية وهي ٣٦٥

ولكن الثلاثة عشر شهراً لا تسهل قسمتها الى نصفين ، وأربعة أرباع

وجميع هذه المقترحات تقتضي بذلاً ذهنيًّا كبيراً من الناس ومشقة لانها تخالف العادات المرعية وأساليب التفكير الراسخة

الاّ ان التقويم الذي يحقق لنا الانتظام الدائم مقترناً بأقل قدر من الخروج على العادات القائمة هو « التقويم العالمي » المقترح الآن

هذا التقويم يحتفظ باثني عشر شهراً في السنة مقسمة اربعة ارباع كل ربع منها ثلاثة أشهر والشهر الاول في كل ربع تكون ايامهُ ٣١ يوماً والشهران الباقيان تكون ايام كلٍّ منهما ٣٠ يوماً

واذن فأيام كل ربع تكون ٩١ يوماً ، او ١٣ أسبوعاً تماماً . فاذا أخذ بهذا التقويم في سنة يقع فيها أول يناير في يوم أحد كان كل شهر من الشهور الاربعة التي أيامها ٣١ يوماً منطوياً على خمسة آحاد ، وكل من الاشهر الباقية على اربعة آحاد

وهذا يعني ان كلَّ شهر من الشهور الاثني عشر يحوي ٢٦ يوم عمل تماماً ، وبذلك تصبح الموازنة بين الاعمال والحسابات في اشهر متقابلة من سنوات مختلفة امراً سهلاً ، ولكن مجموع أيام الشهور ٣٦٤ يوماً ولذلك اقترح ان يكون اليوم الباقي عيداً يدعى « يوم السنة » ويقع بين يوم السبت ٣٠ دسمبر ويوم الاحد أول يناير ، وهو ليس يوماً من ايام الاسبوع فلا يدعى باسم معيَّن ولذلك يشار اليه بانهُ يوم ٣١ دسمبر . ثم عندنا يوم إضافي آخر كل سنة رابعة — وهو يوم السنة الكبيس — يضاف على نسق يوم السنة بين سبت ٣٠ يونيو واحد اول يوليو ويجعل عطلة ويعرف « باليوم الكبيس »

***

بهذا الاختراع البديع ، اختراع زجّ « يوم السنة » بين ٣٠ دسمبر وأول يناير يصبح التقويم دائماً . فاذا اخذنا بهذا التقويم كان من اثره وقوع تاريخ كل يوم من ايام الشهر في أيام معيَّنة من الاسبوع دون غيرها سنة بعد أخرى الى ماشاء الله . اي اذا كان يوم الأحد هو أول يونيو فسيقع أول يونيو من كل سنة في يوم الاحد

هذا التقويم ينظم ايام الشهور بين ٣١ و٣٠ يوماً وهو اقرب تقريبٍ الى ايام الشهر القمري وهي ٢٩ يوماً ونصف ثم انهُ متفق مع عادة الجري على التقسيم الاسبوعي وجعل الاسبوع سبعة ايام ، وجعل ربع السنة ١٣ اسبوعاً وعدد اسابيع السنة ٥٢ اسبوعاً

وهذا التقويم اقل التقاويم المقترحة هدماً للعرف والتقاليد التي جرينا عليها . فالتغير في عدد ايام الشهور يسير ، فهو يجعل شهر فبراير ٣٠ يوماً بانتظام ، ويجعل ايام الاشهر ٣٠ أو ٣١ يوماً وفقاً لقاعدة سهلة ويمتنع عن دعوة (يوم السنة) ٣١ دسمبر لعدم دخوله في التقويم ، وعن دعوة (اليوم الكبيس) ٣١ يونيو من كل سنة رابعة باي اسم من اسماء ايام الاسبوع

التقسيم بحسب التقويم العالمي

الربع الاول	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
الربع الثاني	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
الربع الثالث	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
الربع الرابع	٣١	٣٠	٣٠ = ٩١	يوماً	١٣ اسبوعاً
			٣٦٤	يوماً	٥٢ اسبوعاً

ويضاف يوم السنة بعد ٣٠ دسمبر فتصبح أيام السنة ٣٦٥
ويضاف اليوم الكبيس بعد ٣٠ يونيو كل سنة رابعة فتكون ايامها ٣٦٦

***

وتاريخ الحركة في سبيل اصلاح التقويم يرتد الى تعيين لجنة في سنة ١٩٢٣ من قبل عصبة الامم لدراسة الموضوع . وفي سنة ١٩٣١ ارسلت اربع واربعون دولة وفوداً رسمية لحضور مؤتمر اصلاح التقويم . واقترحت شيلي مشروع اتفاق للاخذ بالتقويم العالمي بمقتضى معاهدة دولية ابتداء من سنة ١٩٣٩ وقد أبرم مجلس العصبة هذا الاتفاق في يناير ١٩٣٧ . ولكن الدول لم تسر في ابرامها له بسرعة وافية فكان من المتعذر البدء في تنفيذه هذه السنة . ولذلك لا بدّ من الانتظار الى سنة ١٩٤٦ عندما يقع اول يناير في يوم أحد . والغرض الذي يتجه اليه القائمون بهذه الحركة هو السعي الى حمل الدول على اقراره والبدء في تنفيذه سنة ١٩٤٦

ومما يدلّ على العناية بهذا التقويم واتساع نطاق الموافقة عليه ان ٢٤ امة عينت لجاناً برلمانية لدراسة اصلاح التقويم ، والتقويم العالمي مفضل على الغالب عندها . ثم ان أقطاب انكلترا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة الاميركية واليابان وغيرها أعربوا مباشرة او مداورة عن موافقة حكوماتهم على التقويم العالمي . وقد وافق عليه كذلك مكتب العمل بجنيف والغرف التجارية في الولايات المتحدة وبريطانيا وكذلك الغرفة التجارية الدولية

اما الهيئات العلمية فقد اصدرت قرارات بالموافقة عليه وفي مقدمتها مجمع تقدم العلوم الاميركي واكادمية العلوم والفنون الاميركية . وهناك هيئات دينية كثيرة وافقت عليه كذلك منها الكنيسة الشرقية (الروم الارثوذكس) والانجليكانية ومجلس اتحاد الكنائس وهو يمثل البروتستانت والكاثوليك واليهود في الولايات المتحدة الاميركية . ومن المحتمل أن توافق عليه الكنيسة الكاثوليكية ايضاً لانها تدرسهُ دراسة مشبعة بالعطف ومن المعروف عنها أنها شديدة الرغبة في اصلاح التقويم واقرار تاريخ عيد الفصح

***

ورغبةً في تنوير الرأي الدولي العام في موضوع التقويم وفوائد اصلاحه وتطبيقه على أساس دائم تصدر مجلة ربعية تدعى مجلة اصلاح التقويم (١) واعدادها حافلة بمباحث دقيقة تتضمن كل ما يتعلق بالاساليب التي ابتدعها الانسان لقياس الزمان

(١) 630 Fifth Avenue New York City

مسائل الفن

والجمال في العصر الحديث (١)

للفيلسوف الفرنسي « غيو Guau »

مقدمة

يريد العلم — في عهدنا هذا — ان يهيمن على المنازل العقلية ولقد كانت الانسانية حتى الآن تعتمد في حياتها على ثلاثة أشياء : الدين والاخلاق والفن . أما العلم فقد عدّل مسائل الدين وهو يحول الآن قواعد الاخلاق . ولا يمكن ان يبقى مقيداً أمام الفن الذي هو آخر معقل « للستيالسم » والعاطفة . ان الفنانين العظماء — في كل زمن — كانوا يؤمنون بمجدة الفن وعمقه . بل يرون انهُ أكثر حقيقة من الحقيقة نفسها . فكانوا يجهدون النفس ، ويجرعون الصاب في سبيله . وقد يصبح احترام الفن — على هذا الشكل — عند أكثر الفنانين تصوفاً . نوعاً من العبادة . فان (بيتهوفن) مثلاً وهو يسمع إحدى أناشيده يخيل اليه أنهُ يسمع الآلة نفسه يكلمه . والآن نحن بعيدون عن هذا النوع من الافكار اذا ناقشناها بقواعد العلم للفن

فأول قاعدة علمية فلسفية تقود الفن — كما تقود الجمال — الى لعبة بسيطة في أنفسنا . ولكن هذه القدرة لا نزعم أنها تقدر على تهديمه وانما نتركه يحتل جزءاً كبيراً في حياة الانسان لانهُ تمرين — ولوكان باطلاً — تقوم به اجزاؤنا الرئيسية . ولكن ماهي حدود هذا المذهب؟ هذه مسأله يجدر النظر فيها

إن أصل الفن — في نظرنا — هو في الحياة ذاتها . فله من الجد ما للحياة ، وغايتنا من فصولنا هذه ان نبرز هذه الناحية الجدية من الفن وخاصة الشعر في أصله وعمقه ، وفي تطوره الآتي ، وفي أسلوبه

أن مالا يصل الى الحياة نفسها يظل غريباً عن الجمال ، لان غاية الفن الأسمى هي ان تجمل القلب الانساني بخفق،الفن يجب ان يمتزج بوجود الانسانية،بأخلاقها ومادتها .وما عسى ان يبقى

---

(١) نقلها خليل هنداوي وهي الحلقة الاولى من سلسلة طريفة

لنا من اعتقاداتنا الدينية وأخلاقنا ؟ قد لا يبقى الاً جزء يسير . واذا سألنا ما عسى يبقى من فنوننا من الموسيقى والتصوير ، وخاصة من هـذا الفن الذي يحتوي على فنون مختلفة وهو الشعر . قد يكون الجواب . . . انهُ سيبقى منهُ كل ما هو خير وأكثر عمقاً من غيره . . .

« اصل الفن والشعر »

لقيتُ في احد أيامي ولداً يلعب في حجرة ،وقد لمعت شعاعة من ضوء الشمس من خلال نافذة مغلقة . يعدو الولد نحو هذه الشعاعة اللامعة التي تنفذ في الهواء،مجرباً ان يقبض عليها بيديه اما الشعاعة البيضاء فقد كانت تفر ولكنها كانت في عينيه ؟ واري البشرية قد قامت — في أجيال — بمثل هذه . فبعد ان كان الجمال والخير معتبرين في الزمن القديم كحقائق من وراء الطبيعة دخلا في انفسنا ، وما هما — في نظر علمائنا المحدثين — الاّ نتاج بنات عقولنا . فالجمال مثلاً يعود الى نوع من السرور يرتبط ككل سرور،بالحياة . فاحذف انت الكائنات الحية من الوجود تحذف منهُ الجمال . كما انك اذا حذفت العين حذفت النور والالوان ... وكل شعر الطبيعة يقوم في رؤوس البشر

و « كانت » كان يعود بفكرة الجمال الى فكرة النفع والمفاضلة ويرى — فيه — لعبة تقوم بها مخيلاتنا . وكذلك شيللر لا يرى فيه الاّ لعبة . فالفنان بدلاً من ان يتعلق بالحقائق المادية يلتفت اليها . والفن الاسمى هو حيث تبلغ اللعبة مداها ، وتلعب بكل اعماق وجودنا ، وهذا هو الشعر ! قال شيللر : ان آلهة الاولمبوس الذين انعتقوا من كل حاجة ، وجهلوا العمل والواجب قد اشتغلوا بابتداع اشخاص من الناس ليتاح لهم ان يعبثوا بالاهواء البشرية . وهكذا نحن نمثل — في الدراما — فضائل وعيوباً واحوالاً ليست بأحوالنا

وقد لقي مذهب — كانت وشيللر — مؤيدين بين العلماء المحدثين . واخيراً جاءت مدرسة شوبنهاور معتبرة الفن كلعبة سامية ، همها ان تعزينا بعض لحظات عن بؤسنا وشقائنا . وان تهيء لنا منفذاً بواسطة الاخلاق

« غبطة الجمال وغبطة اللعب »

المعركة التي نشأت — للحياة — ببساطة تستحيل لعبة . وما ألاعيب الاطفال الاّ رواية وساوس الانسانية ! المعركة هي اساس من اعمق أسس اللعب . وكل لعبة عند المتوحشين تعمل على ان تتخذ شكل معركة ، وما رقصهم وغناؤهم الاّ مظاهر تمثل طبيعة المعركة . ولله در ابن كلثوم حيث يقول

كأن سيوفنا منا وفيهم   مخاريقٌ بأيدي لاعبينا !

غبطة الالحان والالوان والطيوب انما تنشأ عادة من لعبة يسيرة مرّنت عليها حاسة من الحواس. فحين نسمع في البرية ناقوس الغداء لا يكون هذا الدق لنا الاّ نداء. وباصغائنا اليه لا نطلبه ولا يكون هو غايتنا. وانما نصغي الى الطعام الذي يدعونا اليه. وعلى عكس ذلك اذا سمعنا قرع ناقوس فلندي احسسنا شيئاً يجبرنا على الانصات له لأنهُ لا يخاطبنا ولا يدعونا الى شيء ولا ينفعنا بشيء وهو خلال ذلك يبدو لنا انهُ جميل

يقول كانت «ان عاطفة الجمال هي اكثر تجرداً وبعداً عن الغرض من عاطفتي الخير والعدل» ويتحد سبنسر وداروين واقطاب المدرسة التطورية على جعل «الحاجة والمنفعة» اساساً أوليًّا للعواطف القائمة على الاخلاق. على ان العاطفة الفنية — على عكس ذلك — تغدو بانقيادها الى اللهو اكثر صفاء وتجرداً من كل فكرة متسلطة. وللجمال السلطة على الخير لانهُ متجرد من المنفعة. ويقول شيللر بهذا الصدد «انك لا تسمع صوت الرغبة في أغنية العصفور»

هذا ملخص مذهب هذه المدرسة في الجمال!

وانا نتمم هذا المذهب فنقول: اذا لم ينفع الفن الحياة بأية وسيلة كانت فهو يساعدها بوجه عام. فالفن هو رياضة بدنية للقوة العصبية، رياضة بدنية للروح والعقل. وللفن دور كبير في الحياة الانسانية. وهنالك ادلة ساطعة وبراهين توحي الينا ان الفن سيمثل دوراً كبيراً في حياة الانسان وهو دور يسمو يوماً بعد يوم. وبامكاننا القول ان الفن — الذي هو وليد المخيلة والترف — سيغدو يوماً شيئاً ضروريًّا للجميع، او نوعاً من الخبز اليومي

اما وان كل فن هو لعبة وليست كل لعبة فناً، فكيف نميز بينهما؟ يقول (كران الين) ان اللعبة تكون تمريناً خالياً من الغرض كالسباق والصيد. اما الفن ففيه ادراك للشيء ذاته كالتأمل في لوحة مرسومة او قطعة موسيقية. على ان هذا التعريف لا يفي بالغرض، اذ ينتج ان حركة ما لطيفة لا تبدو خفتها الاّ لأعين الناظرين وهي لا تخلق اية غبطة فنية لمن يقوم بها. والحركات الايقاعية والرقص تفقد بنفسها كل قيمة فنية. وبالايجاز ان تمييز الاحساس — الصافي المحض — في العمل يكاد يكون محالاً. اذ كل قوة احساس تقتضي لعبة عضلات لا لعبة اعصاب فحسب. فالعين تلمح المدى بقوة عقلية. والاذن كذلك. ومن المحال ان نقسم وجودنا الى مقاطعات... وان نفرض أن الشيء الفني — فينا — هو المنفعل. على ان الأمر بعكس ذلك في الآثار الفنية اذ أن من غبطة الفن ان تمتزج فيها غبطة النظر والعمل. فالشاعر والموسيقي والدهان يحسون غبطة متفوقة في الابداع والتخيل واتاج ما يتأملون فيه، وللناظر من ذلك نصيب. وتلاوة رواية ما معناها انك تعيش — بمقياس خاص — في جوها. فاذا تلونا اشعارها بصوت عالٍ استولى علينا لحنها وحركاتها واشخاصها وليس الممثلون في المسارح هم يمثلون وحدهم

ولكنّ الناظرين يمثلون معهم ايضاً ادوارهم في الباطن . فاذا تزوج بطل الرواية وحظي بسعادته احسستُ ان من في بهو التمثيل يشاركون البطل في سعادته

ان الجمال يتجلى — قبل كل شيء — في عدم قيمته . وفي نوع من المخادعة نأخذ بها انفسنا. ان الحفار يتسلى بإزميله ورخامه كالشبل يتسلى بكرة خشبية في اعماق قفصه . والاثر يبقى جميلاً بمقدار جماله، لايتعلق بأية حاجة، ولايحمل الينا رغبة ولا رهبة . والشيء الحقيقي الحي ينطوي بنفسه على جمال نفسه

هل غبط الجمال

تضاد عاطفة المنفعة والحاجة والرغبة ؟

ان مجموعة اجزاء كل جسد بذهابها الى هدف ، تؤلف نظاماً كاملاً موزوناً وقديماً قرنوا الجمال الى النظام

في الاشياء الظاهرة يظهر ان الوحدة درجة اولى للجمال. ان رغبة ما او ان حبًّا ما يخلق في كل وجودنا اغراء طويلاً ممتدًّا جميلاً لا يلبث ان يغدو فنيًّا بشرط ألاّ تغدو الرغبة حادة

الجمال السامي بحسب نظرية كانت — هو جمال المرأة . على ان الصفات التي نراها اكثر بروزاً في المرأة هي أكثر الصفات تعلقاً بالرغبة والشهوة . فامرأة جميلة — عند رجل عامي — هي امرأة مونقة الخلق عبلة البدن ، شديدة ، ذات الوان ناعمة وشكل رقيق. هذه المرأة هي خير ما يروي الغريزة الجنسية

وهذا الوضع يتحول في الطبقات العليا ، حيث تغدو المرأة الجميلة في اعيننا هي المرأة التي تلائم انفاس وجودنا الفردي، والعواطف والميول التي تشترك فينا في عصرنا . يقولون قديماً انهُ أحب ، أي صار عنده عاطفة مبهمة لمن يكمل معه طبيعيًّا او ادبيًّا . فالحب اذاً هو في صميم الميول الفنية . أليس الاعجاب نفسه حبًّا يبدأ وينتهي بالحب ؟ اتقول ان حب امرأة هو الانتهاء من رؤيتها جميلة ؟ ولهذا تجد الفن — عندنا — تطوراً في الحب . اي انهُ حاجة من حاجاتنا الضرورية . وتأمل العاطفة الفنية للجمال — مستقلة — عن الغريزة الجنسية وحركتها ، يبدو لنا شيئاً سطحيًّا يشبه تأمل العاطفة الخلقية من خلال الغرائز التأثرية حيث نرى — فيه — المدرسة الانكليزية اول اصل من اصول الاخلاق

ألا شكراً لله ! فالوردة التي ينشقها كثيرون لا تفقد أريجها . وظل حديقة باستطاعته ان يؤوي كثيراً من الاصدقاء . وساقية واحدة بامكانها ان تنقع غُلة عُطاش . وهواء نقي يستطيع ان يملأ صدوراً ، وأغنية في بهو واسع تهيج آذاناً كثيرة . ووجه جميل او قطعة حسنة تجلو عيوناً كثيرة دون ان تفقد شيئاً من رونقها

إن ما هو جميل هو مرغوب فيه ايضاً في الوقت ذاته . فالشعر في الاشياء — بحسب كلمة الفرد دي موسيه — يتألف من الخشية والرقة ، من الاضطراب والرغبة . فأي تأثير فني يوقظ فينا جملة أماني ورغاب وحاجات مهما تكن مبهمة

اذا تأثرنا بنشيد حربي رأيتنا نضطر ان نكون قاعدين ارسائرين او راكضين، ومفتشين عن عدو لقتاله . وبعض جمل موسيقية فيها رنة الحب قد تولد القبلة على شفاهنا . ومن ذا يتلو أبيات « موسيه »

« لنرحل !

إننا وحدنا .

والعالم لنا :

هذه أيقوسيا الخضراء !

وايطاليا الشقراء

ومواطن اليونان . حيث يطيب الشهد ! »

من ذا يتلوها ولا يحس شوقاً الى هذه الاقطار الشعرية المجهولة يدفعه الى ارتياد هذه الآفاق الجديدة ؟

وهنالك غبطة في الرغبة نفسها . بل ان تأثير الرغبة يبقى في النفس أجمل من تلك الغبطة . ومن هنا منشأ الغبطات الكبرى في الشاعر الذي يتأمل ان يحيا في المرة الواحدة حياة كل الناس . وهو بهذا التأمل يحياها الى نقطة يقينية . على ان هذه الرغبة التي تنخدع كثيراً قد تولد ألماً . لأنها تظهر له بمجد وهو يريد تحقيقها . واليأس الذي يسوق الفنان الى التشاؤم هو أنهُ يتمنى بدون اتزان ولا يقدر على اشباع أمانيه الاَّ بصورة ضعيفة

هل تتناقض غبطة الجمال

مع عاطفة الحقيقة وعملها ؟

الفن هو عمل لا هوى ، ومن هذه الناحية هو رغبة لا غبطة فقط . وحاجة حقيقية لا لعبة ولهو

ماشعرت يوماً بسمو السماء الاَّ بعد ان شققت طوداً عالياً حتى لأشعر بأني دخلت السماء وانني انتصرت عليها في كل خطوة وجهد أبذله . ورغبة (اللانهاية) خُيِّل اليَّ أنها بُعثت فيَّ بدون انتباه ، بل تيقظت في نفسي تيقظاً شديداً

ان تمثال (زهرة ميلو) يبقى سر روعته في رخامه وجوده . ولو ان عينيه الفارغتين امتلأتا

نوراً داخلاً ولو انه مشى الينا لا نتهى أمر هذه الروعة والاعجاب

ان تلفيق الوهم — دع عنك — انهُ يعد ان يكون شرطاً من شروط الحسن في الفن — هو تحديد له . الحياة او الحقيقة هي قاعدة الفن

هنالك بعض تشويهات تكون ضرورية للأثر الفني وتكون شرطاً من شروط حياته . وهذه تشبه تلك التجاعيد التي تلوح على وجوه المسافرين في الاقطار التاسعة يغمرهم الحر او القر ، وفي ابطال الروايات يجب ان أرى فيهم شيئاً من العيوب والتشويه حتى يمكنني ان أؤمن بوجودهم ، لأن الضروري في الشخص المختلق هو ألاَّ يظهر جميلاً او قبيحاً فحسب ، بل يبدو انهُ موجود ! التهذيب هو الفن السامي الذي يؤثر في الكائنات الحية ، وليس له الاَّ غاية واحدة هي انتاج الامثلة الكاملة ، وجعل الجميل اغنى جمالاً ، وسعادة . هذه غاية الفن ، وعمق كل فن يتجلى في الجنوح الى الابداع ، واذا الفنان استطاع ان يكون مبدعاً حقيقيًّا فهو يريد ويجنح الى تحقيق الجمال والسعادة

اذا كان امامنا اثران فنيان متساويان في ابداعهما فنحن بحكم العادة أميل الى الأجمل ، ونجد الاجمل اغزرهما خيالاً وشاعرية

ان تقليد القبيح يبدو في الحقيقة تقليداً للجمال والنظام العالي . التقليد يجنح الى ان يصبح ابداعاً وخلقاً . والوهم او الاختلاق ينطفىء في الحياة . وفي النهاية نجد الحياة غاية الفن ، والفنان لا يختلق الاَّ ليجعلنا نؤمن بأنه لا يختلق

شروط الجمال في الحركة

رأينا ان كل ما فيه جد ونفع وحقيقة وحياة يستطيع بعض شروط ان يكون جميلاً . الجميل يمكن ان يتحقق آناً في الحركات ، وآناً في الحواس ، وآناً في العواطف . واول شرط في الحركات هو القوة ، فنحن نحس سروراً قيِّماً اذ نشعر بقوتنا او حين نمرن قوتنا او نرى غيرنا يمرن قوته . والصفة الثانية للجمال هي الرقة والايقاع والنظام اي ارتباط الحركة بوسطها وغايتها

ان الجمال السامي للحركات هو استعارة ، وهذا الجمال يهبط من الأعلى ، وفي جو الارادة والعواطف يجب علينا ان نحلق لنجد الى ذلك حلاً . النظر الى الطبيعة ، والتخيل أنها جميلة هو تمثلها أنها حية ، والتخيل انها ممكنة هو تمثلها أنها شكل انساني . وبالامكان ترديد كلمة (تيرانس) « اني لا اهوى الاَّ ما هو انساني »

القوة اول جمال ، تنقاد الى حالة صغيرة من الشعور او ترتبط نفسها بالعواطف من اي نوع كالثقة بالنفس والجرأة . وهل الارادة الاَّ القوة ؟

خذ تمثال « موسى » الذي يمثل قامة مديدة وعضلات متصلبة . وما تمثال شمشون والبطل هرقل الأ مثال القوة والبطش والجمال . فالقوة التي كان يؤلهها الأقدمون كانت تعتبر الفضيلة الأولى ومصدر فضائل كثيرة . بل انها تحتل شيئاً فوق الطبيعة الانسانية ولهذا كانت تحترم . وكانت ذات قيمة فعالة . والنظام والايقاع يجملان الحركة أكثر جلاء . أما العطف فهو يفرض حالة افترار في العضلات ، ولا يمثل الحيوان ذلك الا في ساعة الراحة .اذا رأيت كلباً يلعب ويعبث فاعمل ضجة ما ترَ حاله تبدلت، وعنقه تمددت وكل ما فيه من عضلات قد تحرك . ولبس حالة غير حالته في هدوئه . وأخيراً ليس معنى العطف – دائماً – الا الاستسلام ، ولا يتم هذا الاستسلام الا في ساعة حب . ونقول مع (شيلنغ) ان العطف هو قبل كل شيء عاطفة حب . ومعنى العطف الحب

***

وهنالك عاطفة ثانية ... لنتخيل ما يولده فينا مرأى العصفور ناشراً جناحيه وهو كنقطة في الهواء ، ولنحس أية عاطفة تعرونا ونحن على جواد يعدو خبباً ، او في زورق يخوض العباب اللجي او في زوبعة رقص ومرح . كل هذه الحركات تولد ما لا أعرفهُ من عاطفة اللانهاية ومن رغبة لاحد لها ، ومن حياة تائهة ، ولا أدري ما هي حاجة الذهاب بدون إياب ؟ وحاجة الضياع في هذا الكل ؟ وهذه الافكار المبهمة تدخل كمادة جوهرية في الحالة التي تسبب لنا هذه الحركات ، وتمثال(آدم)« لميشيل آنجلو » الذي يتيقظ للحياة يمد يده — بدون نظام — الى الاشياء ، ناظراً ما حوله . وهذه الحركة وحدها تترجم بشكل منظور عن كل اللانهاية في العالم الذي وقعت انظاره عليهِ لأول مرة

***

واذا كان الجمال السامي في الحركات هو الجمال الذي يترجم الحياة الوافرة الغنى ، فبالامكان القول : ان الجمال هو مزج القوة بالعطف وجعلهما شيئاً يعبر جميعه عن الارادة الاكثر شدة والاكثر عذوبة ورقة . هذه الارادة ليست العبث بالاشياء السطحية ، ولكنها في معاناة الاشياء الجدية والكائنات الاخر ومعاناة نفسها . تضع قوتها كلها في خدمة حنانها

النفس تسمو الى اعلى ما تعجب به . ومن هذه الناحية نجد الفن يلمس الحقيقة ، بل هو الحقيقة وحدها ، وفي عاطفة الاعجاب يشترك الحقيقي والوهمي ، والكون وظهوره . أريد ان استحيل الى من اتأمل فيهِ ، وأن اكون مثله في بعض النواحي وهنا يتحقق مذهب افلاطون بقوله : ان الجمال هو ان تغدو أحسن وأعلى



المجريطي

فلسفته ومكتشفاته (١)

لمعالي محمد رضا الشبيبي
وزير معارف العراق سابقاً ورئيس نادي القلم العراقي

لم اكن اعرف عن ابي محمد احمد عمر بن رضاع المجريطي — امام فلاسفة الاندلس في الرياضيات والطبيعيات المتوفى سنة ٣٩٥هـ — اكثر من تسميته في الكتب العلمية أو ترجمته ترجمة موجزة في اسفار التاريخ الى ان كانت سنة ١٣٣٢هـ اوسنة ١٩١٤م اذ ظفرت خلال التنقيب عن المخطوطات العربية القديمة بنسخة من كتاب « غاية الحكيم واحق النتيجتين بالتقدم » من بين مؤلفات المجريطي فتوفرت على دراسة الكتاب دراسة اتضح لي منها مرمى تفكير المجريطي وفلسفته وخلاصة بعض دروسه ومستنبطاته بحيث اصبح في الوسع اماطة اللثام المسدل على آرائه وافكاره في معظم كتب التاريخ

ذاع اسم المجريطي بما كتب لبعض مؤلفاته في العلوم الرياضية والفلكية من الانتشار وخصوصاً كتابيه « غاية الحكيم » و « رتبة الحكيم » وهما اشهر كتبه التي أوردها المؤلفون الذين عالجوا تاريخ نمو الحركة العلمية والفلسفية عند العرب او كتبوا في موضوعات العلوم وفي مقدمتهم ابن خلدون وشمس الدين السخاوي والقلقشندي وطاشكبري زاده ومنلا چلبي وغيرهم . وقد عول ابن خلدون على كتابي المجريطي السابقين في الفصول التالية من مقدمته .

١ — الكيمياء ، ٢ — السيمياء ، ٣ — الحكمة او العلوم العقلية وأقسامها ٤ — الفلاحة

اضف الى ما تقدم ان المجريطي هو صاحب « رسائل اخوان الصفاء » الاندلسية التي الفها على نمط « رسائل اخوان الصفاء » البصرية او العراقية فبذر بذرة التفكير الواسع في اذهان الاندلسيين على عهده فلم تلبث الفلسفة حتى ازدهرت في العصور التي تلت عصر المجريطي في الاندلس فظهر فيها ابن رشد وابن الصائغ وابن الطفيل وبني زهر وغيرهم من اعيان الحكماء والمفكرين وان لم نعثر على نسخة من رسائله الاخوانية المذكورة ولكن لاريب عندنا انه

(١) عن مجموعة نادي القلم العراقي (راجع باب مكتبة المقتطف)

استهدف في تأليفها اثارة الاذهان وتدريبها على البحث العلمي شأنهُ في كثير من فصول كتابه « غاية الحكيم »

نقح المجريطي كتابه المذكور خلال خمس أوست سنوات وجمعه من ٢٢٤ مؤلفاً سمي أكثرها فيه . وتدلنا دراسة الكتاب على ان المجريطي (فضلاً عن كونه اماماً في العلوم الرياضية والطبيعية عارفاً بجميع فروعها) من جملة الاساتذة في التربية وفي علم السياسة والاجماع على الاجمال على ما يظهر لنا من لهجته ومن بعض ابحاثه في الكتاب . وهو يرى والنص المنقول له « ان الانسان اذا انفرد بعلم الحكمة النظرية والفلسفة سمي حكيماً وان جمع بين الحكمتين النظرية والعملية وتفقه فيهما كان نبيًّا » قال « ولا يكون هذا الا في افراد الناس وهذا الانسان أي النبي في أكمل مراتب الانسانية وفي أعلى درجات السعادة وهي التي من اجلها او من أجلها يطلب كل مقيد واليها ينتهي كل خير لأنّا انما نطلب الفضائل لنكون سعداء ولا نتوصل الى ذلك الاَّ باصلاح الاخلاق واصلاح المنزل واصلاح الأمة وجمعها على كلمة واحدة تقودهم الى السعادة والسعادة هي الخير المطلوب لذاته »

وكذلك يستنتج من مواضيع أخرى من كتابه انهُ فيلسوف يميل الى الدراسة الواسعة ولكنهُ يرجح العلوم الواقعية التي يؤيدها الحس والتجربة ولا يكاد يذعن الاَّ لاحكام العدد والارقام في تفكيره . ومما أكثر الشواهد التي عثرنا عليها في كتابه على ذلك . ومنها ما حكاه عن ثابت بن قرة المؤلف المشهور انهُ اجتمع بانسان كان باقعة في الحساب . فقال ذلك الانسان لثابت « إن الله قادر على كل شيء » فقال له ثابت « أيقدر الله ان يجعل جملة المضروب خمسة في خمسة أقل من ٢٥ او أكثر من ذلك ؟ » فسكت الباقعة في الحساب ولم يحر جواباً . وقد نقلنا هذه الحكاية للتدليل على منحى تفكير المجريطي من حيث انهُ رياضي لا يقبل الجدل في الارقام . أما من حيث انهُ فيلسوف فانهُ لم يصرح لنا برأيه في هذا الشأن إذ من مقررات الفلسفة ان الجزم حتى في مثل هذه المسائل الرياضية البحتة عبث او غرور اذا كان يتضمن دعوى الاحاطة بحقائق الكون وأسراره الأزلية الغامضة

***

هذا وقد صير المجريطي نفسهُ تلميذاً لجابر بن حيان على بعد ما بينهما من المدة متخذاً منهُ قدوة يقتدي بها ، شديد التعظيم له ولآرائه ومستنبطاته في الرياضيات والطبيعيات . كثير الاقتباس من كتبه وقد اقتبس جملة صالحة منها خصوصاً في العلوم التعليمية والطبيعية وفي علم الحيل أوردها باسمائها وأكثرها غير معروف ولا مذكور بين الكتب المنسوبة الى جابر بن حيان . أما رأيه في

الرازي « فانهُ استاذ جدير بأن تؤخذ المعارف عنهُ لكثرة بحثهِ ونظره في العلوم القديمة » وهي عبارتهُ بعينها . وهكذا رأيه في الكندي فقد رأيناه كثير الثناء عليه وعلى تبحره في العلوم وقد استطرف المجريطي له رسالة غريبة في موضوعها اذ سمى رسالته هذه « كمية بقاء دولة العرب » وليس بكثير على الكندي فيلسوف العرب أن يفكر في هذا الموضوع . وقال ايضاً عن الكندي « ذكرتهُ في كتابي تاريخ فلاسفة العرب » . ومن ذلك يعلم أن المجريطي عالج هذا الموضوع الشيق — اعني تاريخ فلاسفة العرب خاصة — والف فيه كتاباً الا اننا لم نعثر عليه بل لم نقف على ذكره الا في هذا الكتاب وقد احالنا المجريطي عليه — أي على تاريخ فلاسفة العرب — غير مرة فهو إذن من كتبهِ الممتعة . ومن الاعلام الذين اعتمد عليهم المجريطي ابو بكر بن وحشية وقد أكثر من النقل عن كتبهِ المترجمة عن النبطية في علم المواليد وفي السلاسة وفي الهندسة المائية وذلك على طريقة القدامى من سكان الرافدين كما انهُ أتى على كتابه في الفلاحة . ومنهم عطارد البابلي وهو رياضي قديم أكثر من النقل عنهُ وعن مؤلفاتهِ خصوصاً كتابه « سر الاسرار »

وللمجريطي في كتابهِ « غاية الحكيم » أسلوب خاص في تلقيب بعض المؤلفين او الفلاسفة بألقاب يخلعها عليهم من تلقاء نفسه وأكثرها مطابق لمقتضى الحال كقوله « افلاطون » « المبرز » او « المقدم » وكقوله « رئيس الصناعة الاحكامية بطليموس » ويقصد بهذه الصناعة صناعة الميقات والتقويم وهي الصناعة التي برز بها بطليموس وألف بها مؤلفاتهِ المشهورة في الاسكندرية وكقوله « سيد يونان على الحقيقة وأولاهم بالفضل أرسطو » الى غير ذلك

***

ويستفيد من هذا الكتاب (اعني كتاب « غاية الحكيم » للمجريطي) من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة في اقدم عصورها وتاريخ مستنبطات الامم الشرقية العريقة في التقدم من انباط وأقباط وسريان وهنود وغيرهم ومكتشفاتها وجهودها في تقدم العمران . وقد أدرج فيهِ ايضاً كثيراً من اساطيرها وخرافاتها الوثنية فيما يتعلق بحقائق الاجرام الفلكية وقواها ودعوتها نحو ذلك مما هو دخيل في عقائد المسلمين او مقتبس من عقائد الامم الوثنية القديمة المذكورة

والمجريطي في كتابهِ هذا أبحاث مقتضبة في الفلك والرياضيات وفي الكيمياء وفي تاريخ السحر وعلم الحيل وفي التاريخ الطبيعي وتأثير المنشإ والبيئة في الكائنات وقد عقد عدة فصول للبحث في مملكة المواليد الثلاثة خصوصاً ما يوجد منها ببلاد الاندلس . ويستنتج من بحثهِ فيها ان لهُ مكتشفات عديدة في هذا . ولا استبعد أنا والحالة هذه ان يكون لبعض آرائهِ وابحاثه اثر

في عمران الاندلس خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد الطبيعية وان سكت مؤرخونا عن ذلك كله على عادتهم المألوفة

ومع كل ما تقدم فان المؤلف يعتقد بالسيمياء او السحر وهما موضوع كتابه « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » كما ان موضوع كتابه الآخر المسمى « رتبة الحكيم » هو الكيمياء وهما (اي الكيمياء والسيمياء) النتيجتان المتحصلتان من جميع جهودنا العلمية حسبما يراه المجريطي كما أنهما مفتاح الأسرار الطبيعية والرياضية ومن لم يصل اليها فليس بحكيم وان احكم نتيجة واحدة منهما فهو نصف حكيم على حد تعبيره لأن الكيمياء بحسب تعريفه هي معرفة الجواهر والأرواح (القوى) الارضية واستخراج لطائفها للانتفاع بها كما ان السيمياء هي معرفة القوى او الارواح العلوية لاستخدامها والانتفاع بها . ويقول في موضع آخر من الكتاب اعلم ان هذه النتيجة اي السيمياء هي المعبر عنها بالسحر وحقيقة السحر على الاطلاق كلها سحر العقول فانقادت اليه النفوس من جميع الأقوال والاعمال وهو علمي غامض الادراك ومنهُ عملي . وبالجملة السحر هو ما خفي على عقول الاكثر (الجمهور) سببهُ وصعُب استنباطه . وأحسن انواع السحر العلمي الكلام بشهادة الحديث المأثور ان من الكلام لسحراً ومن ذلك قول المؤيد أفلاطون في كتاب الفصول « كما يرجع لك الصديق عدوًّا بالكلام اليسير كذلك ينقلب لك العدو صديقاً بالكلام الحسن اليسير . والسحر العملي هو الوقوف على المواليد الثلاثة وما أبثت فيها من قوى . ومن أنواع السحر العملي السحر الحيلي » الى ان قال « لا يبلغ أحد الوقوف على تأثير العالم الأعلى (أي القوى العلوية) في العالم الأسفل الا بعد إحكامه لجميع العلوم الرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعة أيضاً . » ثم شرح سبب ذلك قائلاً في الأخير « فباضطرار لا يعلم هذه الصناعة على الحقيقة الا من علم أوائلها وبالواجب ان لا يعلمها الا فيلسوف »

***

فمن ذلك ومن مواضع أخرى من كتاب المجريطي نعلم اجمالاً ان مدلول كلمة « السحر » في ذهن المجريطي غير مدلولها الخرافي المألوف بل هو مدلولها في الاذهان الوقادة والافكار النيرة التي حاولت او هي تحاول دائماً تسخير قوى الطبيعة واخضاعها لاستخدامها في رفاه الانسان ورفع مستواه في سلم الحضارة والعلوم والعمران ومن هذا القبيل ساحر الكهربائية (اديسون) وساحر البخار (وط) وغيرهما من سحرة الاثير والضوء والحرارة وسائر القوى الطبيعية المبثوثة في هذا الكون . فالمجريطي حسبما نراه في كتابه هذا مفكر او ساحر من هذا الطراز او يكاد يكون من هذا الطراز

الحياة والعبقرية

في ضوء فلسفة المذهب الحيوي

لعلي أدهم

الحياة في رأي القائلين بالمذهب الحيوي دفع غريزي وقوة ينميها الكفاح ويزوّدها ببواعث التطور ويهيء لها اسباب التدرج في الكمال ، وقانون التقدم الحيوي دائب لا تفتر له همة ولا يعروه وهن وهو في النطاق العضوي الطبيعي يبدو في صورة التناحر على البقاء المفروض على الانسان فرضاً في مراحل تقدمه الباكرة لعدم كفاية الغذاء وصعوبة الحصول على وسائل العيش ولكن عندما ذلل الانسان هذه العقبة وجاوز تلك المرحلة لم تبطل اسباب الكفاح وانما انتقلت الى ميادين أخرى وبدت في ازياء جديدة ، فالمجهود الذي يبذلهُ الفنان في خلق آيات الفن وطرف الأدب أو الذي يقوم بهِ العالم في تمحيص البحوث واكتناه اسرار الطبيعة واستكشاف قوانينها هو بمنزلة المعارك الحامية التي يثيرها المستوحشون والحيوانات لينتزعوا من الطبيعة اسباب بقائهم ومقوّمات كيانهم ، وجهد الفنان يعين على صقل المشاعر وتهذيب الاحساس ويزيدنا تقديراً للجمال كما أن جهد العالم يزيد تراثنا العلمي ويوطد الحضارة ويمكّن للانسان

فالحياة اذن قائمة على المدافعة والجهد والمحاولة ولو أنها جردت من مهماز الحاجة لران عليها الخمول وتوقف تقدمها وأصابها الجمود والانحلال سواء أكانت هذه الحاجة عضوية كالحاجة الى الطعام وما اليها أو فكرية كالحاجة الى المعرفة أو فنية كالحاجة الى الخلق والابداع

والحياة لكي تستجد دوافعها وتستثير بواعث الكفاح والمغالبة تحد نفسها وتطامن من سيطرتها ، لأنهُ لو زوّد انسان بكلّ قوى الحياة واستطاع قراءة الافكار واستطلاع الغيوب لضمنت الدوافع التي تحدوه على الكفاح والصراع الذي ينشأ من شعوره بالحاجة وضيق المدى ولظلت الحياة على وتيرة واحدة وفي مستوى لا تتجاوزه ولا تعلو عليهِ ، ومن ثمّ فان تجريد الفرد من كامل قوى الحياة يعد من قبيل اخذه باساليب النظام والتهذيب ، والنظام والتحديد هما كما قال نيتشه اول شرائط الاستكمال ، ومما يستدعي الملاحظة ان قوى الحياة الكامنة لا تبدو للفرد في صورة باهرة قوية الا عند ما يكون وجوده الفردي مشرفاً على الزوال ، فالنزق

الذي غمرتهُ الامواج وأوشك ان يطويهُ اليمّ تمر بهِ في لحظة واحدة حياته جميعها في تفاصيلها الدقيقة وصورها المختلفة ، والجندي الجريح الذي يعاني سكرات الموت قد يستطيع نقل شعوره الى من يعنيهم امره ويشجيهم مصرعه وكأنما الحياة في تلك اللحظات وهي تهم بترك هذا الوعاء المحدود وتعود الى المجرى الاصلي ترفع النقاب وتزيل الحواجز التي تستر عنا مواهبها الكامنة في عالم اللاوعي

وانصار المذهب الحيوي لايعللون سبب امتزاج الحياة بالمادة تعليلاً شافياً ولا يبدون فيهِ رأياً قاطعاً ، وفي رأيهم انهُ ربما كان سبب هذا الامتزاج ان المادة كانت موجودة وكانت الحياة تبحث عنها لتخفف من كثافتها وتحي مواتها وتخضعها لاحكامها ، وربما كان سببه كذلك ان المادة بطبيعتها عقبة في سبيل الحياة وان الحياة تمر خلالها لتتجاوزها وتعلو عليها لان غرض الحياة هو التدرج في الكمال واكتساب صفات اسمى ولا يتم هذا الرقي الاَّ اذا فرضت الحياة على نفسها حصر قواها والحد من حريتها ، ومن طبيعة هذا الحصر انهُ يستلزم ان يكون هناك « أفراد » ولا يمكن ان تتم الفردية الاَّ على هذا النمط ، وهذا الشعور بانحصار القوى وضيق المدى هو الذي يدفع الفرد ويزخر قواه ، فالمادة في منزلة الحافز والدافع معاً فهي تفصل الانسان عن نبع الحياة الاصلي وتحده لان الحياة المحصورة بها والمحدودة بحدودها تضطره الى شحذ قواه وحفز عزيمته لكي يصقلها ويهذبها ، والفرد هو تيار من الحياة منفصل عن مجراها الاصلي انفصالاً مؤقتاً وهو مع ذلك يستمد منهُ القوة والنشاط ، فاذا كانت القوة التي يريد بها الانسان ويفكر ويعمل هي نفسها قوة الحياة فكيف يتيسر ان يخالف « ارادة » الحياة ويتمرد على أحكامها ولا يعمل على تحقيق اغراضها ؟

ولكن الحقيقة هي أنا اذا لم تمكن من التغلب على ارادة الحياة وعرقلة مساعيها فانهُ من الواضح أنا نستطيع ان نتردد في تلبية مطالبها ونتريَّث في تحقيق رغباتها بل في وسعنا ان نعوق أغراضها ونعترض تقدمها ، وبعض الافراد أقدر على النهوض بمطالب الحياة من البعض الآخر ، والعبقري والأبله كلاهما يعبر عن الدافع الحيوي ولكن من الصعب ان نتصور أنهما يخدمان الحياة بطريقة متماثلة ويعملان على تحقيق أغراضها بنصيب متساو ، وقلّ بين الناس العاديين من يستطيع ان يقوم في تقدم الحياة وتطورها بنصيب يعادل نصيب أمثال افلاطون وشكسبير وتولستوي ، والرجل العادي يسير في الطرق المسلوكة ولا يفكر في استحداث شيء ولا يعنيه مستقبل الانسانية وخير الاجيال القادمة واكثر الناس يعبر عن قوة من قوى الحياة بطيئة التغير وكلما تقدمت بهِ السن ازداد محافظةً واستعصاءً على التقدم

والحياة تلتمس الذرائع لبلوغ غايتها وتبذل جهدها في استصلاح وسائلها ولكن كل

الادوات التي أوجدتها لاتلائم اغراضها كل الملاءمة . وذلك لأن قوة الحياة محدودة وهي تعمل وتؤثر في المادة وتبذل مجهوداً ضخماً لتميط عنها الخمول والثقل والبلادة وهي تؤدي خير ما تستطيعه بالوسائل الميسورة لها ، وفضلاً عن ذلك فهي تسلك طريقة التجربة وليست كل الوسائل التي تبتكرها ملائمة لأغراضها المبتغاة وهي في كل مرحلة من مراحل التقدم تلغي بعض الوسائل التي اصبحت غير صالحة وتستجد وسائل غيرها أقوم بتحقيق ماتبغيه من الاغراض وهي لاتألو جهداً في العكوف على شتى التجارب والمحاولات لاختبار الوسائل والآلات التي تسمو بها الى مرتقعات أسمى وأبعد شأواً ولكنها قد يخطئها التوفيق في بعض هذه المحاولات ويصيبها الاخفاق

ويمكننا ان نستنبط من ذلك ان سبب اخفاق الفرد لا يعزى في جميع الحالات الى ان قوة الحياة فيه محدودة ، وانما سببه الى حد ما هو تصرفهُ الحر الذي تقع على عاتقه مسؤوليتهُ ومن الصعب ان ينكر ان الفرد وقد خلق لاداء غرض من أغراض الحياة في وسعه ان يؤديهُ او ان يعوق اداءه وينشد أغراضه الخاصة بدلاً من متابعة أغراض الحياة العامة وهذا يدل على ان للانسان نصيباً كبيراً من حرية الارادة

ولكن كيف نوفق بين حرية الارادة وتصورنا الفرد على انهُ مجرى من ينبوع الحياة وانهُ بناء على ذلك الاعتبار يلزم ان يكون سيره وفقاً للنبع الاصلي الذي انبعث منهُ فهو مثل قطعة من الخشب يحملها التيار المتدفق ، والجواب على ذلك انهُ لولا المادة لكان هذا نصيب الفرد ولما كان لهُ معدى عن الانقياد لدوافع الحياة ولكن المادة تعترض سير الحياة وتضطر نهرها الجاري الى أن ينكسر الى نهيرات عدة تستمد نشاطها من المجرى الاصلي ولكنها تسلك الاتجاه الملائم لمواقع الصخور المعترضة ومن شأن هذه الصخور أن ترغم هذه النهيرات على التعرج في سيرها ومن ثمَّ تتخلص الى حد ما من سيطرة النهر الاصلي

وكذلك يمكننا ان نتصور ان المقدار من الحياة الذي يتصل بالمادة ليكوّن الفرد يستطيع بفضل المادة المتداخلة بينهُ وبين الينبوع الاصلي للحياة ان يتبع طريقاً خاصًا بهِ ، والمادة مع عجزها عن مدافعة الحياة التي تتخذها مطية لبلوغ غرضها تتقاضى ثمن ذلك العجز والخضوع للحياة ، وذلك الثمن هو ان هذا الجزء من قوة الحياة عندما يحل بالمادة ويسمى « فرداً » . يمنح حرية الاختيار ، وبفضل هذه الحرية يستطيع اذا شاء ان يسلك طريقاً غير الطريق الذي تحاول فرضه عليهِ ارادة الحياة

وأعظم الحوادث في حياتنا خارجة عن ارادتنا ، فنحن نولد سواء اردنا ذلك او لم نرده ونجيء الى دنيا لم نسعَ اليها ولا علم لنا بها ومن والدين لا نختارهما ، ونحب بدافع من نفسنا

لا سيطرة لنا عليه واخيراً يدركنا الموت على غير اختيار منا وبرغم انوفنا وانما عند ما ترى الحياة انها في غير حاجة الينا

وقوة الحياة لا تشفق على مخلوقاتها ولا تبالي بسعادتهم وشقائهم ما داموا يحققون اغراضها ، وهي لا تتورع عن خداعهم فتلوّح لهم بالسعادة وتمنيهم بالاماني المعسولة والوعود المغرية ونحن نحقق اغراضها لا لأنا نريد ذلك وانما لان شيئاً داخل نفوسنا تسمو ارادته على ارادتنا ويغلبنا على امر نا يريدها

ولكن هناك مسائل صغيرة في الحياة لنا فيها حرية الاختيار ونحن في حدودها نستطيع ان نحقق غرض الحياة او نعوقه ولذا اوجدت الحياة حلقة متصلة من الوسائل التي تشجعنا على التوجه الى الناحية التي يتجه اليها تقدم الحياة ، ومن اهم تلك الوسائل خلق العظماء والعبقريين ، فلولا كبار المفكرين وعظماء المصلحين ونوابغ الفنانين لظلت الانسانية في تخلف وجمود

والحياة لكي تناوم الرغبة الطبيعية الكامنة في نفوس الناس في ايثار الجمود والكسل والمحافظة ومحاولة استبقاء صنوف الفكر وألوان الفن والادب بعيدة عن حركة التجديد الذي تستلزمه دوافع التقدم — اقول ان الحياة لمقاومة ذلك توجد العبقري لكي ينهض بالعبء الذي يعجز عن القيام به اكثر الناس ، والعبقري بطبيعته يتحدى طرق الفكر المألوفة وقواعد السلوك المرعية ويعيب آدابها وزيفها ، والناس تكره من يعيب معتقداتها ويسفه تقاليدها ولذا تضطهد العبقري وقد تصلبهُ اذا كان داعية اخلاقيًّا وقد تهمله وتغمطه حقه اذا كان فناناً ، ولكن الجماعة البشرية رغم ذلك تتجه الى الناحية التي أشار اليها وبذلك يعنو لآرائه ابناء الذين اضطهدوه ، ورقي الانسان الادبي والفني يتم بوثبات معادلة لما يسمى في علم الحياة بالوثبات المباغتة او التحوُّلات الفجائية ، وظهور العبقري يدل على الاتجاه الجديد وكأنما تتخذه الحياة لساناً لرسالتها التي تريد تبليغها الى الافراد وهذا سبب وصفنا للشعراء والفنانين العظماء والانبياء والمصلحين بأنهم ملهمون وهم يشعرون أنهم مسخرون لاغراض الحياة مسوقون بدوافعها وهم يستسلمون لهذه الدوافع ولا يحجمون عن مواجهة الاخطار ويصرون على القيام برسالتهم رغم كل ما يقام في طريقهم من عقبات وما ينصب لهم من شباك

وتصورنا العبقرية بهذه الصورة يمكننا من ان ندرك الدور الهام الذي لعبه الادب والفن في قصة التاريخ ورواية التطور لان رسالة العبقري تتم بالكلمة المقولة او بالكلمة المسطورة . وقد أخذ الادب في مراحله الاولى شكل الامثال الادبية وصورة المواعظ والنصائح ولم تكن هناك وسائل تمكن العبقري من الولوج الى عقول الشعب الا بهذه الطريقة لان الوصول الى عقل الجمهور في تلك الازمان النائية لم يكن سهلاً ولا ميسوراً ولذا كان الرقي في تلك الفترة

يتم عن طريق الدين ورجاله ولذا نرى منذ فجر التاريخ الانبياء والرسل والواعظين والمصلحين يمرون بالناس ويعظونهم ليتركوا سبل الشر ويحيوا حياة فاضلة . ومن المعروف ان جوهر التعاليم والآداب في جميع الاديان واحد وهو احلال الحب محل الكراهة والبغضاء والتسامح مكان الانتقام وتحبيذ العفو عن الاعداء والعطف على الضعفاء وقد حاول الانبياء بذلك تطهير القلوب وتصفية النفوس

والمسيح وبوذا يوصيان بتوسيع نطاق الاسرة حتى تشمل الانسانية برمتها ويمقتان التحزب والتباغض ويحاولان مقابلة الشر بالخير ويوصيان بكبح الاهواء وقهر الشهوات

وبارتقاء فن الكتابة واختراع الطباعة حلت الكلمة المكتوبة مكان الكلمة المقولة ولكن غايتها لا تزال تعليمية وقد كانت الدراما في اول ظهورها متصلة بالدين وروايات كبار المؤلفين في الدراما من اليونانيين أوحتها روح دينية عميقة وهي تؤكد عدم استقرار حياة الانسان وعجزه حيال سطوة الارباب ، وفي العصور الوسطى كانت اكثر الروايات قائمة على الاغراض الاخلاقية ولا يزال اثر ذلك بادياً في روايات ابسن وبرنارد شو اللذين يهاجمان سخافات العصر وحماقاته

وكبار الفنانين وأعلام الشعراء والكتاب هم معلمو الانسانية الذين يسمون مشاعرنا ويرهفون ذوقها وينشطون الفكر ويوسعون آفاق النفس ، وتعاليمهم تزيدنا احساساً بالجمال وادراكاً لمفاتن الطبيعة ، واحتكاك عقولنا بعقولهم يزيدنا قوة ويؤثر فيما يصدر عنا من الاعمال والاقوال ويسمو بنوازعنا وطموحنا ، ولا نزاع في ان للشعر الغنائي اثراً كبيراً في تهذيب عاطفة الحب والسمو بالميول الجنسية ، وللشعراء فضل كبير في توضيح فكرة ان الحب يعلمنا التضحية ونكران الذات ويستخرج القوى الكامنة في النفس ويبصرنا جمال الطبيعة

ولكن مجهود العبقري يقابل بالانكار والجحود لانهُ يسبق عصره وينقد مقاييسه ويثير في نفوس معاصريه غريزة المحافظة ، ولبعض الناس مصالح خاصة مرتبطة ببقاء الفكر السائد والاحوال الراهنة ولذا يبذلون جهدهم في الدفاع عنها والمحافظة على معالمها والعبقري هو بشير المستقبل ورائده وموجد آدابه ، وقد حوكم سقراط وبرونو وجاليليو وأمثالهم لان افكارهم كانت سابقة لعصرهم ولكن العالم يكرمهم الآن ، والافكار الجديدة تصبح على مر الايام قديمة ولكن الناس تظل مستمسكة بها بحكم غريزة المحافظة ومألوف العادة حتى يجيء دافع جديد وهكذا يظل الفكر الانساني متنقلاً بوثبات مستمرة والعبقري هو الذي يقوم بنقل الفكر من مرحلة الى مرحلة جديدة ومن مستوى الى مستوى ارفع

كيف أفهم

النقد الادبي (١)

لجبرائيل جبور
استاذ بدائرة الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

يروى عن سقراط انه قال في دفاعه إمام القضاة الذين اقترعت اثيناعلى انتخابهم لمحاكمته ، كنت أبحث عن الحكمة فاستعرضت الناس الذين عرفوا بها فأخلفوا ظنوني ، حتى اذا بلغت الى الشعراء عرضت اشعارهم امامي ، ودرستها بعناية فائقة ، وحملتها بيدي اليهم اسألهم عما عنوا بها ، واني اخجل ان اقص عليكم الحقيقة ، ولكني مكره على القول انهُ لم يكن منهم من استطاع ان يحقق رغبتي ، وصدقوني اذا قلت ان اي واحد في بهو هذه المحكمة يفقه معاني هذه الاشعار ويستطيع التحدث عنها اكثر من الشعراء انفسهم . ويروى من ناحية ثانية عن الشاعر جوبتي انهُ كان يخشى النقاد وانهُ قال : اقتلوا ناقد الكتب انهُ كلب . والواقع ايها المحفل الكريم ان كلا الرجلين مخطىء ، فليس كل ناقد كلباً فيقتله الشاعر ، ولا كل شاعر يعجز مثل ما عجز شعراء سقراط عن ان يفهم ما يقول . ومن يدري فلعل جوبتي يقصد ان النقاد لا ينصفون ، ولعلَّ سقراط اراد ان يظهر للناس ان انتاج الادب شيء ، بينما القدرة على تحليله ونقده شيء آخر

ومن زمن سقراط ، الى زمن جوبتي ، بل الى زمننا نحن ، وهذه الخصومة بين النقاد والمنتجين تورى نارها ، وقدماً قال العتابي : « من قرض شعراً او وضع كتاباً ، فقد استهدف للخصوم واستشرف للالسن الاَّ عند من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى ، وقليل ماهم »

ومن أمتع ما يروى عن هذه الخصومة ان احدى الروايات التمثيلية كانت موضوع جدل ومناقشة بين الناس لشيء اثاره بعض النقاد ، وحدث انه بينما كان الممثلون يقومون بتمثيلها ذات ليلة ، بلغت الحماسة بأحد النظارة حداً كبيراً ، فأطل من شرفته العليا ، وانحنى ، واذا به يهوي الى القاعة ، وإن الناس لفي دهشتهم ينظرون الى هذا الجسم هاوياً ، اذا بصوت مؤلف الرواية يصرخ : ربي أسقطه على ناقد

(١) محاضرة القيت امام حفل من الادباء والطلبة في قاعة وست بجامعة بيروت الاميركية

وليرون شعر في النقاد يقول فيه :

اطلب الورد في كانون ، والتمس الثلج في حزيران
وأمل من الريح ان تستقر ، ومن التبن ان يتحول قمحاً
صدق الامرأة اوالزخرف ، أو اي شيء زائف
قبل ان تثق بناقد

وقال بعض النقاد في امثال هؤلاء الادباء :

ان مثلهم مثل طائرٌ صغير ساقه القدر فدخل غرفة من مدخنتها ، حتى اذا بلغ وسطها رآها مغلقة عليه ، ورأى نفسه سجيناً ، وحاول ان يهتدي الى الطريق الذي اتى منه ، فلم يفلح ، فأخذ يضرب النوافذ الزجاجية بجناحيه لجهله النافذة التي اتى منها

ولحسن حظ النقد انه لايحيا عالة على الشعراء واصحاب الكتب، ولا يستمد منهم الحياة بل انه يستمد بقاءه من جماهير الناس الذين يتذوقون الادب ولكنهم لم يؤتوا عبقرية الشعراء ولا نبوغ النقاد

ويجب ألاّ ينكر اثر النقد في توجيه بعض المؤلفين والشعراء الى السبل القويمة ، وتنبيههم الى مواطن الضعف في أقوالهم ، ليتجنبوها فيما يصدر عنهم بعد ذاك ، فكم من كاتب استفاد من آخر بعرضه أمامه ما كتب، ولاسيما اذا كان كلاهما خبيراً في الموضوع الذي يبحث فيه ، حتى زعم بعضهم ان كثيرين من الروائيين المشهورين لم يحرزوا مكانتهم الكبرى الاّ بعد ان دفعتهم نظرات النقاد الى سلوك السبل القويمة ، ولهذا كان « هوراس » على حق حين قال : ان النقاد حجر المسن فهي وان لم تقطع فانها تشحذ الحديد

وفائدة النقد بين الجمهور ، انهُ اعلان سيار بينهم ، ينقل الاخبار عن الكتب والاشعار ، فيشوّق الناس لمطالعتها ، ويمهد السبل الى الناس لفهمها وتذوقها ، ويرفع مستوى الثقافة الأدبية الفنية الى حد يصبح معهُ من الممكن ان تظهر عباقرة الفن ويظهر معهم من يقدرهم قدرهم ، او كما قال أناطول فرانس : ان الناقد يستطيع ، وهو يطوف رياض روائع الفن ، ان يسهل على الناس ارتيادها ، فيهيء لهذا مجلساً ، ولذاك متكأ ، بحيث يمكنهم ان يستمتعوا بجمالها الأخاذ . ويمكن للنقد سواء أمن النوع الهدام كان ام من النوع الذي يكون رائده المنطق والعدل ، ان يكون لذاته أدباً يقرأ ، وفناً يستجلى جماله . وبعد فقد آن لنا ان نحد النقد

***

جاء في المعاجم : « نقد الشيء ينقده نقداً اذا نقره بأصبعه كما تنقر الجوزة ، ونقد الطائر الحب ينقده اذا كان يلقطه واحداً واحداً ، ونقد الرجل الشيء بنظره ونقد اليه اختلس النظر نحوه . وفي حديث أبي الدرداء : « ان نقدت الناس نقدوك ، وان تركتهم تركوك ، اي

ان عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله » . « ونقد الدراهم اذا ميز جيدها من رديثها »

ولعلَّ هذا التحديد الاخير هو اقرب ما يكون الى ما فهمهُ العرب القدماء من النقد الادبي. حكى ابن رشيق ان رجلاً قال لخلف الاحمر : ما ابالي اذا سمعت شعراً استحسنه ، ما قلت انت واصحابك فيه ، فقال له : اذا اخذت درهماً تستحسنهُ ، وقال لك الصيرفي انهُ رديء هل ينفعك استحسانك اياه ؟ . وقال الجمحي :

« وللشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم كسائر اصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفهُ الأذن ، ومنها ما تثقفهُ اليد ، ومنها ما يثقفهُ اللسان من ذلك اللؤلؤ والياقوت ، لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراوة ولا دنس ولا صفة ، ويعرفهُ الناقد عند المعاينة .... ومنهُ البصر بانواع المتاع وضروبه وصنوفه ، ما تشابه لونه ومسه وذرعه واختلاف بلده ، حتى يرد كل صنف منها الى بلده الذي خرج منهُ ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمئة دينار ، وبمئتي دينار ، وتكون أخرى بالف دينار ، والفي دينار ، ولكن لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة »

« ويقال مثل ذلك في المغنين ، يعرف ذلك أهل العلم بهِ ، عند المعاينة والاستماع ، بلا صفة ينتهي اليها ، ولا علم يوقف عليهِ ، وان كثرة المدارسة للشيء لتعين على العلم بهِ وكذلك الشعر يعرفهُ اهل العلم بهِ » وقال ابن رشيق : « سمعت بعض الحذاق يقول : ليس للجودة في الشعر صفة ، انما هو شيء يقع في النفس عند المميز كالفرند في السيف والملاحة في الوجه ، وهذا راجع الى قول الجمحي بل هو بعينهِ وإنما فيهِ فضل الاختصار »

ومن الممتع أن تعلموا أن الخطَّاب في بعض مدننا يبعثون امهاتهم وأخواتهم أو غيرهنَّ من قريباتهم لينقدن لهم العروس ، فينظرون الى محاسنها ومساوئها ، ويزاولن اختبارها ويصدرن عليها احكامهنَّ

واذا كانت المعاجم العربية القديمة لم تعرض لتحديد النقد الادبي ، فإنَّ كتب الادب قد التفتت اليهِ كما لاحظتم ، وقد سموا بعض ائمته في العصور القديمة ، قالوا : « وقد كان ابو عمرو ابن العلاء واصحابهِ لا يجرون مع خلف الاحمر في هذهِ الصناعة في النقد ، ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها وحذقه بها واجادته لها »

أما التحديد الحديث للنقد الادبي فنستطيع أن نجمله بقولنا :

انهُ فن تحاول فيهِ — وانت خال من الغرض والهوى — أن تحكم على الاشياء الفنية

الادبية بعد فهم خصائصها ومزاياها ، ثم تعرض للناس هذا الحكم في قالب فني ادبي . فهو ينطوي قبل كل شيء كما تلاحظون على فهم الأثر الادبي وادراك الجمال ، أو القبح الذي فيهِ ثم ينتقل الناقد الى اصدار الحكم ، وقد تجرد من ميوله ونزعاته الخاصة، ثم يصوغ هذا الحكم في عبارة فنية يعرضها على الناس

ولعل أوجز تحديد في نظري للنقد الادبي هو تطبيق علم الجمال على الادب ، ومن الخير أن نلاحظ ايضاً انهُ متى عرضنا هذا النقد الادبي في قالب فني اصبح النقد الادبي نفسه ادباً وأصبح الناقد بدوره اديباً واذن فكل ناقد ادبي اديب ، ولا يعكس ! فليس كل اديب ناقداً

أما الرأي الشائع عند بعض الناس من ان النقد هو اظهار المساوىء فقط وانهُ لا يعرض للمحاسن فهو رأي مغلوط اذ ليس هناك شيء يخرج عن نطاق النقد أو فوق النقد مهما يبلغ من الكمال والروعة ، ولكن هناك اشياء ادنى من النقد ، اذا كانت سخيفة وكان في نقدها مضيعة لوقت الناقد والقراء

***

ومن البدهي أن النقد لا يمكن أن يكون قد عرف قبل الانتاج الادبي ، ذلك انهُ لا يمكن للناقد أن ينقد في الهواء بل لا بد من اثر ادبي بين يديهِ ولا نستطيع ان نتصور ان النقاد بدأوا عملهم في الخيال كأن نزعم انهم تصوروا وجود قطع ادبية ثم حاولوا نقدها اذ ان مجرد تصور اثر ادبي دليل على أن الانتاج قد سبق هذا التصور ولا يمكن للخيال مهما يحلّق ان يصل الى مالم يختبره الانسان أو يسمع بهِ واذن فالنقد قد عرف بعد الانتاج . وهناك خطوة تفصل بينهما وهي التذوق والاستيعاب والتلذذ بما تقرأ أو تسمع ، وهي الخطوة التي انتقل فيها الادب من طور الانتاج الى طور الاستمتاع بهِ ، وقد بدأ النقد الادبي كما تلاحظون منذ حاول الناس ان يفضلوا اثراً ادبيًّا على آخر ، وليس من شك في ان تفضيل الناس اول الامر لم يزد على انهُ تعبير عن شيء احسوه ولم يستطيعوا ان يتلمسوا أسبابه ، وهو التفضيل المبهم ، ويظهر لي مع الأسف ان كثيراً من نقادنا لا يزالون في هذا الطور . وحسبي ان أوجه انظاركم الى اكثر مقدمات الدواوين الشعرية في هذا العصر ، فترون فيها ان الشاعر الذي كلفوا ان يكتبوا عنهُ هو شاعر عصره وفريد دهره ، طاوعتهُ البلاغة وانقادت اليهِ القوافي ، وهو فوق ذلك اشعر الشعراء بلا منازع . فاذا تركت مقدمة ديوان الى مقدمة ديوان آخر رأيت الكلام نفسه لناقد آخر في شاعر آخر ، او للناقد نفسه في شاعر آخر ، ويذكرني هذا بقصة تروى عن مروان ابن ابي حفصة قالوا انشد يوماً امام جماعة شعراً لزهير ، ثم قال : زهير والله اشعر الناس ، ثم

أنشد للاعشى فقال : الاعشى أشعر الناس ، ثم أنشد شعراً لامرىء القيس فقال : امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم قال : والناس والله أشعر الناس . وأظنهُ يعني انهم اشعر الناس حين ينشد شعرهم

وكذلك يعني اصحابنا في هذه المقدمات ، اما اذا اردت ان تعرف آراءهم في الشعر فقد كلفت نفسك شططاً . فالشعر عند صاحب مقدمة ديوان حافظ مثلاً ، ظرف الحكمة ومسرح الخيال ومغنى الفصاحة وخدر البلاغة ووعاء الحقيقة . قال الدكتور طه حسين « ان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئاً فانت موفق سعيد ، اما انا فلا ارى فيه الا ثرثرة وتكراراً ، كلام مرصوف ولفظ مصفوف لامزية له إلا انهُ منتقى مختار »

وارتقى النقد من طور التفصيل المبهم واصبح اختياراً يستطيع معهُ الناقد ان يصطنع الاسباب والمبررات ، ويستند الى عوامل منطقية وتاريخية يرى لها الاثر الاكبر في تفكيره واحكامه : اي اصبح للنقد في هذا الطور أساس يرتكز عليه ، قوامه بالاكثر النقل والعقل

اما النقل فذلك حين كثر الانتاج الادبي وتعددت فروعه واصطلح الادباء على تقسيمه وتبويبه وتنظيمه فصار الناقد بحكم هذه النظم والتقسيمات الموضوعة مرغماً في اغلب الاحيان ان يلتفت في نقده اليها ، ويتدرج منها الى النظر في الاثر الذي بين يديه ، فيتساءل مثلاً اي شبه بين هذه القصيدة والشعر الغنائي ، او اي شبه بين هذه القصة وقصص الادب القديم ؟ وهو بحكم هذا مضطر ان يكون قد ألمَّ بأنواع الادب المختلفة ونظمها وخصائصها فنًّا فنًّا ، ويحاول ان ينتقل منها الى الاثر الذي بين يديه وهو ما نسميه النقد المبني على كيان الادب وهو في رأيي على علوّ شأنه نقد لم يُبْنَ على نظرية فلسفية صحيحة ويكفي ان يكون مصدره النقل حتى ينهار اكثر بنائه . ولنذكر ان هذه النظم لم توضع قبل الادب ، بل استمدت منهُ ، اي أن النقاد القدماء درسوا الانتاج الادبي القديم ، ورأوا خصائصهُ المشتركة ومزاياه المستقلة ، فبوّبوها ونظموها واستمدوا منها النظريات وجعلوها قاعدة يبنى عليها النقد فيما بعده فاذا كانت الدراما التي مثلت في العصور القديمة مثلاً لم تزد او تنقص عن خمسة فصول فيجب على الدراما الحديثة ان تتقيد بهذا الشرط . واذا كانت الملاحم مثلاً قد حوت خصائص خاصة واقتضت اياتاً كثيرة من الشعر فيجب على كل ملحمة حديثة ان تحوي مثل هذه الخصائص ، وما يقرب من عدد تلك الابيات ، ولا اظنني بحاجة الى التدليل على فساد هذه النظرية في هذا النوع من النقد . ويكفي أن أذكر لكم أن ارسطو كاد يحتم على الرواية التمثيلية ان تتم حوادثها في أربع وعشرين ساعة في يوم واحد — وان يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون

أما النوع الثاني من النقد فقد اصطلحوا على تسميته بالنقد الاساسي . وهنا ينقلب الامر فلا يلتفت الناقد الى الادب بوجه عام ، ولا تهمه النظم التي استمدت منه ، بل جل غايته درس المزايا

التي يراها في الأثر الادبي الذي ينقده من حيث الموضوع واللغة والاخراج والأثر الذي يحدثه في النفس وغير ذاك

فالنقد هنا عبارة عن محاولة يحاول بها الناقد ان يستفهم من الأثر الادبي نفسه عن امور ، ثم يسعى هو نفسه ان يجيب عنها مستمداً افكاره مما بين يديه محكماً عقله فيما يصدر عنه من جواب، اي ان غرض النقد هنا هو فهم كل شيء وقدره قدره ، وهو يستند كما لاحظنا الى العقل لا الى النقل والى الذوق الخاص في فهم الجمال وتذوقه لا الى المصطلحات والنظم . ولكن أيكفل الذوق الخاص وحده الوصول الى الحكم الصائب عن الأثر الادبي ؟ سنرى ذلك بعد حين

***

وتستطيعون اذا شئتم ان تقسموا النقد الى مناحٍ اخرى مختلفة فتذكرون المنحى التاريخي مثلاً وتزعمون بحق اننا لا نستطيع فهم أدب عصرٍ ما دون درسٍ كثير من العوامل الخارجية في ذوق ذلك العصر وانتاجه ، فنحن لا نفهم الادب الجاهلي مثلاً دون ان نعرف الخصومات بين قبائلهم ، او الادب الاموي دون ان نكون قد ألممنا بهذه الفتوحات العربية وما استتبعتهُ من عناصر جديدة دخلت في حياة الشعراء ، او الادب العباسي دون ان نلاحظ قبل ذلك تطور العلم وخضوع العرب للثقافة العلمية الفارسية واليونانية

كذلك قولوا في آداب الامم الاخرى ، فليس هناك من ينكر أثر انتصار الانكليز على اسطول اسبانيا « ارمادا المنيع » في الادب الانكليزي في عصر اليصابات ، وليس هناك من ينكر أثر دك الباستيل في كتاب فرنسا الرومنطيقيين

وتتعمقون في درس هذا المنحى فتصلون الى فروع له قد تستقل بعضها عنه استقلالاً تاماً، وتشاهدون منحى بيئياً ترون فيه من المحتم ان تدرسوا بيئة الشاعر او الاديب وحياته الخاصة التي عاشها مع اهله وذويه ، وتشاهدون منحى سيكولوجياً ترون فيه من اللازم ان تتعرفوا الى اخلاق الشاعر وصفاته وهيئته قبل ان تستطيعوا فهم شعره ، وربما يعرض امامكم من يلوّح بالمنحى النظمي الذي ألممنا اليه والذي يفرض عليكم أن تدرسوا نظم الادب التي وضعها القدماء وسنّها الاجيال قبل ان تلتفتوا الى الأثر الادبي الذي بين ايديكم

وتستطيعون ان تذكروا المنحى المثالي اذا جاز لي هذا التعبير فتزعمون اننا لا نستطيع تقدير الادب ما لم يكن ينزع الى مثل أعلى وغاية عظمى ، وتستعرضون الادب في اكثر اطواره فترونه يتأثر بالمثل العليا التي وضعها الدين وسنّها علم الاخلاق وتلاحظون ان الفضائل والحكمة كادت تستأثر فيه

وهنا يعرض امامنا اصحاب المنحى التأثري ، فنسمع غويته يقول اذا قرأت اثراً ادبيًّا واستسلمت لتأثيره فيك فحينئذٍ فقط تستطيع ان تستسيغ ما فيه وتصل الى حكم عادل عنه ويقول لك غيره من اتباع هذا المذهب: بين يدي أثر ادبي حاول فيه صاحبه أن ينقل اليَّ اختباراً خاصًّا مستعيناً بألفاظ خاصة وأسلوب خاص ، ففي قراءتهِ متعة لي ولذة فنية . وفي هذه المتعة او اللذة وحدها استطيع ان احكم عليه ، وكل ما بوسعي هو ان اصف هذه اللذة واثر هذا الانتاج الادبي فيَّ وباستطاعة غيري ان يستمد منهُ لذة تختلف عن تلك التي اشعر بها وباستطاعتهِ ان يصفها كما يشاء . وفي وسع كل منا اذن ان ينتج انتاجاً فنيًّا جديداً يصف فيه اختباراً جديداً يشغل محل الانتاج الذي قرأه . هذا هو فن النقد وتلك هي حدوده التي لا يتعداها. فاذا اعترض معترض وقال : وما يعنيني من الأثر الذي احدثته فيك هذه القطعة وما شأني وما فعلت بك مثلاً « قفا نبك » ؟ فانا إنما اريد ان افهم القصيدة وانت تبعدني عنها وتقربني اليك . قال : نعم ! ولكن اي نقد لا يبعدك عنها او اي منحى مما تعرف لا يدنيك الى غيرها ؟ ألست مضطرًّا في المناحي الأخرى ان تدرس — اذا استعرضت « قفا نبك » هذه — العصر الجاهلي؟ ألست مضطرًّا ان تدرس حياة امرىء القيس ؟ بلى وانت مضطر بعد الى التعرف الى اخلاقهِ، وهكذا فانت تدرس متى عاش ، واين عاش ، وكيف عاش ، وكيف كان الناس الذين عاش معهم ، ونهج أيهم نهج، وما هي صفاته واخلاقه ، وكل هذه تبعدك عن القصيدة ، وكذلك قل في المنحى النظمي المبني على الآثار الفنية الأخرى التي لم تسألني عن اثرها الفني في نفسي ولا عن اللذة التي استفيدها منها

النقاد الآخرون يصورون لي التاريخ والسياسة وحياة الرجل وأخلاقه ويشرحون لي نظم الادب القديم ، اما انا فرغبتي هي ان اغمض عيني لأحلم الحلم الذي حلمهُ صاحبي وألتذ بهِ ، فاذا رأيتني اشرح لك هذه اللذة فذلك لانني لسوء حظي قد استيقظت من حلمي وتراني ابتسم ان هذه اللذة التي شعرت بها كانت حلماً لا حقيقة

وقد يبدو لأول وهلة ان موقف اصحاب هذا المنحى التأثري منيع ، ولكن هناك فيما أرى ثغوراً في حصنهم هذا الذي امتنعوا فيهِ نستطيع ان نهاجمهم منها ، وهنا اعود الى مسألة الذوق الخاص الذي تركتهُ منذ حين

وأريد قبل كل شيء ان اقرر هنا مبدأين رئيسين يغنينا تفهمهما عن متاعب كثيرة في النقد ومن الغريب انهما متناقضان في الظاهر متفقان في الواقع ، فأما اولهما فهو ان الناس جميعاً متشابهون مهما اختلفت ازمنتهم او تناءت بهم امكنتهم ، واما الثاني فهو ان الناس جميعاً مختلفون مهما اشتدت وجوه الشبه بينهم . فتستطيعون ان تقولوا ان العواطف البشرية واحدة في كل زمان

ومكان ، وانما تختلف باختلاف المؤثرات فيها . وهذا الاتفاق وهذا الأختلاف هما سبب وجود نوعين من الذوق

فانتم تعلمون مثلاً ان الاقطار العربية تشترك بأذواقها في كثير من الامور فتكاد جميعها مثلاً تعجب بالشعر وتطرب له وتقدس المروءة والكرم وحرمة الجار ، وانتم تعلمون ايضاً ان هذه الاقطار نفسها تختلف كثيراً فيما بينها بالنظر الى امور اخرى ، ففي اشتراكهم نرى ذوقاً عاماً وفي اختلافهم نرى اذواقاً خاصةً . وقد تضيق هذه الاذواق الخاصة فتنحصر في المدن .فنقول مثلاً ان ذوق الشاميين غير ذوق اهل بيروت . وقد تضيق اكثر . فنقول مثلاً ان ذوق طلبة جامعة بيروت الاميركية غير ذوق غيرهم من طلبة بيروت . وقد كان الناس الى حين يميزون طلبة هذه الجامعة من سيرهم في شوارع المدينة عراة الرؤوس . وقد يضيق هذا الذوق نفسهُ فينحصر في الافراد . وهنا يتجلى في اقوى مظاهره . ولكن ايكفى هذا الذوق الخاص للحكم على الادب؟ والجواب . لا ! لانهُ لا يزال جزءاً من الذوق العام يختلف احياناً عن سائر اجزائه . وهذا الاختلاف او الاتفاق يجب ان لا يكون العامل الاوحد في الحكم على قيمة الأثر الفني ، ثم ان كلا الذوقين الخاص والعام لا يمكن ان يحلاّ محل العلم ولا هو محلهما بل لا بد من وجودهما كليهما في النقد الحقيقي ، أريد ان اقول ان الذوق الخاص على أهميته لا يمكن ان يكفي لتقرير الاحكام على الاثر الفني حتى ان اتفق في الجوهر مع الذوق العام ، وأنا لا اعني هنا ذوق عامة الناس بل اعني ذوق عامة الادباء . لان احكام عامة الناس يجب ان لا تتخذ مقاييس لنقد الادباء

واذن فان للنقد فيما ارى لونين مختلفين .او كما وصفهما بعض ادباء الغرب. جنسين. لا يستطيع النقد ان يعيش ويستمر دون وجودهما معاً كما ان البشرية لا تستطيع البقاء طويلاً دون ان يكون فيها جنسان متباينان يتمم الواحد الآخر

فقد يقوم على نظم وأسس تعارف عليها العلماء وقد تأثر بها الذوق العام . ونقد قوامه اللذة التي تحس بها وانت مغمور بروعة الفن الذي تستجليه مقرونةً الى عوامل اخرى متعددة كوّنت فيك ما نسميه بالذوق الخاص . فالذوق العام هو الذي يعطي النقد الادبي حظًّا من الموضوعية . والذوق الخاص هو الذي يعطيه حظًّا من الذاتية :

ونستطيع بعد ان نقسم النقد الى نوعين : علم وفن . او الأولى ان نقول ان النقد ينتحل صفتين صفة العلم وصفة الفن . فالنقد وهو تعبير عن النفس وبحث عن الحقيقة والجمال لتذوقهما ينتحل صفة الفن . والنقد وهو فحص لتعبير الغير وطرقه ومحاولة معرفة اصوله ومصادره ينتحل صفة العلم

[للبحث بقية]

ألغ بك

بين الحكم والعلم

تقدمة حافظ طوقان

نشأ أُلُغ بك في القرن الخامس عشر للميلاد في بيت امارة وسلطان فقد كان والده يحكم بلاداً كثيرة ومقاطعات واسعة واتخذ هراة مركزاً له وعاصمة للملك

ولد في سلطانية عام (٧٩٦ هـ — ١٣٩٣ م) وظهرت عليه علامات النجابة والذكاء مما حدا بوالده أن ينصبهُ اميراً على تركستان وبلاد ماوراء النهر ولما يبلغ عشرين عاماً . وقد جعل أُلُغ بك سمرقند مركزاً لأمارته وبقيت كذلك زهاء ٣٩ سنة استطاع فيها أن يقوم بأعمال جليلة ويسدي خدمات جلى للعلوم والفنون على الرغم من اضطراب الحالة ومحاولة بعض الأمراء ازعاجه بالتعدي على حدود بلاده . ولولا والده الذي احاطهُ بعنايته وعمل على دفع كل اعتداء عليه لما استطاع أن يصمد للصعاب التي كانت تنتابهُ بين آونة واخرى

وفي منتصف القرن الخامس عشر للميلاد (حوالي ٨٥٠ هـ — ١٤٤٧ م) توفي والده وانتقل الحكم اليه وجلس على عرش هراة . ومن هنا بدأت النكبات بالأنصباب عليه من كل جانب فقام بعض امراء الولايات يطلبون الانفصال كما قام آخرون يكيدون له ليؤول العرش الى ابنه عبد اللطيف . ومن الغريب ان امّه كانت تسند هؤلاء وتعضدهم فظن (أُلُغ بك) انها تعين علاء الدولة وهو مطالب آخر بالعرش فسجنها وكان ذلك بعد وفاة والده شاهرخ بأيام قلائل ، « .. وذهب بها سجينة الى سمنان ثم غادر المدينة الى هراة ففتحها ونادى بنفسه حاكماً عليها .. »[1] ثم حدث بعد ذلك أن قام بعض الامراء فاستولى احدهم على شيراز واستولى آخر على كابل وغزنة وثالث على جرجان ومازندران وأحاطت به الصعاب وتخللها حروب دامية ومعارك حامية انتهت بالقضاء عليه. فلقد ثار ولده عبد اللطيف واستولى على بلخ وهزم اباه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (المترجمة) مج ٢ ص ٥١٥

وأخاه عبد العزيز عند شاهرخيه وقد سلم اباه (أُلُغ بك) الى عبد فارسي يدعى عباساً فقتله بعد محاكمة صورية وكان ذلك عام (٨٥٣ هـ — ١٤٤٩ م) بعد ان حكم عامين وثمانية أشهر .
ويُرجع العلماء سبب ما وقع بين أُلُغ بك وولده عبد اللطيف الى اعتقاد الاول بالتنجيم فلقد دلتهُ أحكام النجوم على ان الثاني (أي ولده) سيثور عليه ويقتله ، ولذلك كان يرى المصلحة في ابقائه بعيداً عنهُ مما أدى الى تأصل حقد وشحناء بين الاثنين . ويرى بعض الباحثين ان الابعاد لم يكن العامل الوحيد لما حدث بينهما فهناك عوامل أخرى لا تقل شأناً عن (الابعاد) فلقد وضع (أُلُغ بك) اسم ابنه عبد العزيز بدل اسم عبد اللطيف في وصفه لوقعة (ترباب) « ويقال ايضاً ان الأب رفض ان يعيد لابنه ما كان يحفظه في هراة من مال وسلاح . . . » (١)

***

أما في ميادين العلوم والفنون فقد كان أُلُغ بك اكثر توفيقاً، ولا شك انهُ لولا ما انتاب حكمه من محن ومصائب ولولا انشغاله في دفعها والوقاية منها — وقد استغرقت كثيراً من جهده ووقته — لولا هذه لتقدمت بعض فروع المعرفة اكثر من التقدم الذي أصابها في عهده ولكان النتاج العلمي أغزر وثمار المواهب أينع
كان صاحبنا أديباً لهُ مشاركة في العلم والفن « وقد حقق احلام تيمور بأن جعل سمرقند مركز الحضارة الاسلامية . . . » جمع فيها كثيراً من فحول الادباء وكبار الرياضيين وأعلام الهيئة أمثال جمشيد وقاضي زاده رومي والشاعر عصمت البخاري وميرم چلبي وطاهر الابيوردي ورستم الخورياني ومعين الدين القاشاني وغيرهم
أنشأ بسمرقند مدرسة عالية بها حمام مزخرف بالفسيفساء البديعة وعهد بادارتها الى قاضي زاده رومي . وبنى مرصداً زوّده بكل الآلات والادوات المعروفة في زمانه وقد زين احدى دوائره بنقوش تمثل الاجرام السماوية المتعددة جاءت غاية في الاتقان والابداع فأمهُ الناس من مختلف الجهات للتفرج عليه وكان في نظرهم إحدى عجائب الدنيا . امتاز هذا المرصد بآلاته الدقيقة ويقول صالح زكي : « . . . وامتاز المرصد بآلاته الكبيرة وهي من الدقة على جانب عظيم وفيها ربع الدائرة التي استعملت لتعين قطب ارتفاع النقطة الموجود عليها المرصد . . »

(١) دائرة المعارف الاسلامية مج ٢ ص ٥١٧

ويقول (L. Bouvat) : « . . واستطاع المترجم (اي أُلُغ بك) في اثناء عمله معهم (اي مع كبار الفلكيين) استنباط آلات جديدة قوية تعينهم في بحوثهم المشتركة . . . »

***

وقد بُدئت الارصاد عام ٧٢٧ هـ وفُرغ منها عام ٨٣٩ هـ وعُهد لغياث الدين جمشيد وقاضي زاده رومي باجراء الارصاد بقصد تصحيح بعض الارصاد التي قام بها فلكيو اليونان اذ رأى أن حساب التوقيعات للحوادث على ما قرره بطليموس لا يتفق والارصاد التي قام بها هو وكان من ذلك زيجه السلطاني الجديد الذي يقول بشأنه صاحب كشف الظنون : « . . . زيج ألغ بك محمد بن شاهرخ اعتذر فيه من تكفل مصالح الامم فتوزع باله وقل اشتغاله ومع هذا حصر الهمة على احراز قصبات طريق الكمال واستجماع ما ثر الفضل والافضال وقصر السعي الى جانب تحصيل الحقائق العلمية والدقائق الحكمية والنظر في الأجرام السماوية فصار له التوفيق الالهي رفيقاً فانتقشت على فكره غوامض العلوم فاختار رصد الكواكب فساعده على ذلك صلاح الدين المشتهر بقاضي زاده الرومي وغياث الدين جمشيد ، فاتفق وفاة جمشيد حين الشروع فيه وتوفي قاضي زاده ايضاً قبل تمامه فكمل ذلك باهتمام ولد غياث الدين المولى علي بن محمد القوشجي الذي حصّل في حداثة سنه غالب العلوم فما حقق رصده من الكواكب المثيرة أثبتهُ ألغ بك في كتابه ... » [١] وبذلك استطاع ألغ بك أن يكمل زيجه المشهور (زيج كوركاني) او (زيج جديد سلطاني) الذي بقي معمولاً به ومعترفاً بقيمته بين المنجمين في الشرق والغرب بضعة قرون [٢] وعلي القوشجي المذكور ذهب الى بلاد الصين باذن ألغ بك وضبط قياس درجة من خط نصف النهار ومقدار مساحة الارض [٣] . ويحتوي الزيج السلطاني على اربع مقالات :

الاولى : في حساب التوقيعات على اختلافها والتواريخ الزمنية وهي على مقدمة وخمسة ابواب . وقد أبان في المقدمة الباعث الى وضع الزيج كما اشاد بفضل الذين عاونوه

الثانية : في معرفة الاوقات والمطالع في كل وقت وهي اثنان وعشرون باباً

الثالثة : في معرفة سير الكواكب ومواضعها وهي ثلاثة عشر باباً

الرابعة : في مواقع النجوم الثابتة

---

(١) كاتب — كشف الظنون ج ص ١٣ — ١٤

(٢) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ٢٨٩ وكتاب تراث الاسلام ص ٣٩٤

(٣) سيديو — خلاصة تاريخ العرب — ص ٢٣٢

ويعترف صاحب كشف الظنون وصالح زكي ان هذا الزيج هو من أحسن الازياج وأدقها. وقد شرحه ميرم جلبي وعلي القوشجي واختصره الشيخ محمد بن ابي الفتح الصوفي المصري [١] وطبع لأول مرة في لندن [٢] سنة ١٦٥٠ م ونقل فيما بعد الى اللغات الاوربية ، ونشرت جداوله في الافرنسية سنة ١٨٤٧ م [٣] كما نشر (كنوبل) ثبت النجوم بعد ان راجع جميع المخطوطات في مكتبات بريطانيا وأضاف حاشية عربية وفارسية وكان ذلك عام ١٩١٧ م [٤] ويقول سيديو عن اعمال ألغ بك الفلكية : « . . . فكانت تتمة ضرورية للاعمال الفلكية المأثورة عن العرب .. » واشتغل صاحب الترجمة ايضاً بالمثلثات وجداوله في الجيوب والظلال ساعدت على تقدم هذا العلم [٥] واعتنى بفروع علوم الرياضيات الاخرى ولا سيما الهندسة وله فيها جولات وكثيراً ما شغل نفسه في حل اعمالها العويصة ومسائلها المعقدة . ولم يقتصر اهتمام ألغ بك على الفلك والرصد والرياضيات بل تبين لنا من سيرته انه كان فقيهاً أكبَّ على دراسة القرآن الكريم وحفظهُ وجودهُ على القراءات السبع . وفوق ذلك شغف بالشعر وقرَّب الشعراء واتخذ احدهم شاعراً لنفسه ، وعني بالتاريخ ووضع في تاريخ ابناء جنكيزخان الاربعة كتاباً عنوانه (اوغلوسي اربع جنكيزي) ويقول L. Bouvat : « . . . ويظهر انه ضاع ولو بقي لأصبح جليل القيمة في تاريخ ابناء جنكيز خان . . . » [٦]

***

وقبل الختام لا بدَّ لنا من الاشارة الى ان ألغ بك كان عمرانيًّا ذا ذوق فني وقد دفعه هذا الذوق الى العناية بالبناء فشيد (الخانقاه) التي فيها أعلى قبة في العالم والمسجد المقطع وزخرف داخله بالخشب المقطع الملوَّن على النمط الصيني ومسجد شاه زنده « والقصر ذا الاربعين عموداً بأبراج اربعة شاهقة والمزين بصف من عمد المرمر . . . » وأبنية أخرى كقاعة العرش او (الكرمشخانة) و (جيني خانه) ملأ حوائطه بالصور والنقوش الصينية [٧]

(١) كاتب جلبي — كشف الظنون ج٢ ص ١٤
(٢) تراث الاسلام .ص ٣٩٧
(٣) سمث تاريخ الرياضيات — ج ١ ص ٢٨٩
(٤) دائرة المعارف الاسلامية — مج٢ ص ٥١٥
(٥) سمث تاريخ الرياضيات — ج ٢ ص ٦٠٩
(٦) دائرة المعارف الاسلامية مج ٢ ص ٥١٣
(٧) راجع دائرة المعارف الاسلامية مج ٢ ص ٥١٣ — ٥١٤

فصل ثان من نشأتي الادبية — ٢

الشعر والثقافة

لعبد الرحمن شكري

وقد ظهر أثر ثقافة جويتي ومذهبه في قصائد عديدة مثل قصيدة (التجدد في حياة الأمم) ومنها في مذهب التجدد بالثقافة : —

حياة الناس إما ماء نهر فيصلحه التدفق والمسير
وإما ماء آجنة كثير قذاه ويأجن الماء الطهور

ومثل قصيدة (الايمان والقضاء) ومنها :

سكنات الايمان برء من الحز ن ومأوى لهارب من قضاء
يلج النفس بالثبات وبالعز م ويطوى جوانب الضراء

ومثل قصيدة (الحياة والعادة) ومنها :

أكذب الدين ما ينيم قوى النفـس كما يخرس الرياح الركود
انما الدين ان يجد مجد أعمل السعي او يجيد مجيد

وقصيدة (القلق والغفلة) ومنها :

إنّ عتباً على القضاء سفاه غاب عنه مطالع النعماء

وقصيدة (الحياة والعمل) ومنها :

والعيش سر أنت باحثه فعسى تجوب مجاهل السبل
والنجح ليس بخير مكتسب كم نجحة شر من الفشل

وقصيدة (الباحث) الطويلة وهي تقديس لبحث الثقافة والعمل في الحياة وهي من أثر جويتي من الناحية الثقافية ومن أثر شلي من ناحية الطموح الى المثل العليا ومنها : —

أنشد الحق بالتقلب في العيـش وأبغي سريرة الأشياء

والانسان الخيالي الموصوف في القصيدة بانه قد خلده البحث فيه التفات ايضاً الى فكرة اليهودي التائه المحروم من الموت عقاباً. ومن القصائد التي دعت اليها الثقافة ايضاً قصيدة (الامل)

الطويلة و (المجاهد الجريح) و (الانسان والكون) و (الانسان والزمن) التي مطلعها : —

حيوانٌ مُهَذَّبُ ام الٓـه مُعَذَّبُ

وقصيدة (قوة الفكر) وقد نشرت الاخيرة في المقتطم ولعل قصيدة (الأمل) من أحسن ما كتبتُ من الشعر

(٣) والمصدر الثالث لثقافتي الجديدة كان المصدر الجامعي وكنا ندرس التاريخ والجغرافية والاقتصاد والنظريات السياسية ونُظُم الحكم وقد درست فيما درست تاريخ الأغريق والرومان وآدابهم وحياتهم وتاريخ فنونهم في طبعة بوهن وغيرها وكان لهذه الدراسة اثر فيما قلت شعراً ونثراً . فمن قصائد هذه الثقافة قصيدة (الجمال والعبادة) وفيها وصف عبادة الاغريق القدماء للجمال في مظاهره المختلفة مما ادى الى تخليف آثار جليلة من المعابد والتماثيل ومن هذه القصيدة

كم أُمَّةٍ احكمت بالحسن دولتها فَخَلَّفَتْهُ وأودى مجدُها الفاني

تلك التماثيل ام هذي المعابد ام تلك الفنون عليها خير عنوان

يارُبَّ ثَغْرٍ أرى لثامها ورُبَّ مُنىً فيها وحسنٍ قديم العهد(يوناني)

لم يحبس المرء عن آماله فَرَقٌ منها ولم يَثْنِهِ عن عزمه ثاني

لم يُزْرِ بالحق حبُّ الحسنِ بينهم فالحقُّ والحسنُ إن فكرت سيَّان[1]

ومن مظاهر هذه الثقافة قصيدة (ام إسبرطية) قتلت ابنها لجبنه عن الدفاع عن إسبرطة وطنه وقصيدة (الحسن والآمال النبيلة) وفيها تمنى النفس تصور مُثُلِها العليا في شكل تماثيل كتماثيل الاغريق القدماء . وقصيدة (ايكاروس) العبد الروماني في وصف اثر معاملة الرومان للعبيد في النفوس وقد كان لدراسة الفنون الاغريقية وعبادتهم[2] الجمال اثر في النفس جعلني اعد الجمال ثقافة وان افهم قول الاديب ولعله رتشارد ستيل : (إنَّ رؤيتها كانت ثقافةً سخيَّةً) . ومن اثر دراسة خرافات الاغريق قصيدة (ليتني كنتُ إلهاً) والذي يقرأ القصيدة يرى فيها اثر لوسيان الساخر الاغريقي (طبعة بوهن) كما يرى فيها اثر هيني الساخر الالماني ولكن الذي يقصر معناها على اثر الخرافات الاغريقية ولوسيان وهيني يخطىء خطأً كبيراً فان مغزاها الحقيقي بالرغم من اطراء الفنون هو مغزى قصيدة (قصر الفن) للشاعر الانكليزي تنيسون والمغزى هو ان قصر أحاسيس النفس على لذات الفنون ، قد يجلب الضرر والفساد كما يُقرأ في الجزء الاخير من القصيدة . ومن أثر دراسة تاريخ الفنون الاغريقية أيضاً قصيدة (الحياة والفنون) ومنها :

منْ عَلَّمَ المرء في بدايته صُنْعَ مفيد الآلات والقُضُب

---

(١) هذا البيت في الشطر الثاني منه معنى قول للشاعر كيتس الانكليزي

(٢) لم يكن المثقفون من الاغريق يعبدون التماثيل والمراد بعبادتهم للجمال شدة الاعجاب بالفنون

من علَّمَ المرء ان يقيم على ال أرض بيوتاً مرفوعة الطنب
من علَّمَ المرء ان ينال من الـ ـمزمار والصنج لذة الطرب
يحكي بها ضربه مغازلة الـ ـعاشق ليناً وسورة الغضب
يحكي بها الجد إذ يجد بهِ الـ ـدهر وطوراً كرقصة اللعب
من علَّمَ المرء ان يخط على الـ ـقرطاس لوناً من أعجب العجب
يحكي بهِ الضوء والدياجير وال أجسام من ناضر ومن شحب
كأنما يقبس الضياء من الـ ـشمس ويأتي بظلمة السحب

الخ الخ — ومن أثر دراسة الخرافات الاغريقية ايضاً قصيدة (نرجس) وهي انشودة في موضوع يُشبِهُ قصة نرسيس المعروفة في خرافات الاغريق بعد تحوير في المعنى ومنها :—

نرجسُ أنت الحسن يا نرجسُ تشتاقك الابصار والأنفس
تحنو على الغدران مستأنساً يا زهرة في روضها تُغرس
تبصر وجه الحسن في ملئها بحسنه كل امرىء يأنس
حتى اذا البدر بدا ضوءه يزينه في ثوبه الحندس
أفقت في جسم كجسم الدُمى يُلتذُّ منهُ الشم والملمس
كالدر من أصدافه خارجاً والدر في اصدافه يحرس
نرجس أنت الحسن يا نرجس يقبس منك الطرف ما يقبس الخ الخ

(٤) و (٥) والمصدران الرابع والخامس من مصادر ثقافتي الجديدة كانا في دراسة آداب اللغات الاوربية الحديثة انكليزية او منقولة الى اللغة الانكليزية .فمنها دراسة الادباء الساخرين امثال هيني وفولتير وسويفت واناتول فرانس واخيراً سمرست موام . ومنها دراسة الادباء الذين اشتهروا بتحليل النفس اما في قصص طويلة أو قصيرة مثل دكنز وثاكري وتولستوي وتورجنيف ودستويفسكي وميرجكوفسكي ومثل بالزاك وفلوبيرت وموباسان وبروست وكونراد وغيرهم .واصحاب النظرات في كلمات موجزة مثل لارشفوكولد ولا بروبير.وانا مدين لهؤلاء ولكثيرين غيرهم ولا استطيع احصاء كل أثر لهم لأن اكثر تأثري بهم كان عن غير قصد ولكني اذكر على سبيل الامثلة ان قصيدة (الحق والحسن) التي نشرت في المقتطف كانت تعبيراً عن الصراع العنيف الذي قاساه تولستوي بين نشدان الجمال الفني والحقيقة الروحية والذي دعاه الى رفض كثير من مظاهر الفنون والآداب في كتاب (الفن) الذي الفهُ . وقصيدة (حواء الخالدة) التي نشرت في المقتطف ايضاً بعثني الى نظمها إعجابي بوصف جوزيف كونراد لسحر امرأة في قصته (السهم الذهبي) وفيها يتخيل انها جمعت في شخصها سحر النساء

جميعاً قديماً وحديثاً. وقصيدة (عجز التجارب) التي نشرت في الرسالة مؤسسة على فكرة عرضت لبروست ولغيره من القصصيين وهي ان الخبرة والعرفان اللذين يكتسبان بالتجارب قلما يتغلبان على طباع الانسان . وقلما ترى قصيدة ليس فيها اثر لاكثر من مفكر . فقصيدة (قيد الماضي) التي نشرت في المقتطف ايضاً بها بواعث من ادباء عديدين فالمطلع وهو

اخذنا عن الماضي قليلاً من النهى واكثر ما نلنا الهواجس في النفس

مؤسس على مبدأ من مبادىء فلسفة الفيلسوف برجسون الفرنسي والبيت الثاني والثالث والرابع تلخيص لصفات النفوس التي وصفها الكاتب فردريك بروكوش [1] في قصة السبعة الذين هربوا والبيت

بناء المعالي كان بالشر قائماً وما طربوا إلاّ الى نغم النحس

دعت اليه دواع عديدة فنها ما كان من قراءة قول محمد بن هاني الاندلسي

ولم يتجمّع لامرىء كان قبله بناء المعالي واجتناب المآثم

ومنها ما كان من أثر قراءة قصة (الدير) لاناتول فرانس وفيها يصف انساناً ذهب الى الدير وتجنب حتى قول الخير وعمل الخير لأنهُ وجد انهما كثيراً ما يبعثان الناس الى عمل الشر. ومن فكاهات اناتول فرانس انهُ قال لذلك الانسان ساخراً (لكن ألا تخشى ان يتخذ الناس انقطاعك عن الاقوال والاعمال (حتى ما كان منها خيراً) عقيدة يقتتلون بسببها فيرتكبون الشر الذي حاولت ان لا يرتكبه أحد بسبب فعلك أو قولك). ومن دواعي نظم البيت ايضاً وصف الدكتور هافيلوك ايلس في كتاب (رقصة الحياة) لما يخالط معالي الحضارات ويجدها من شرور ودعا اليه ايضاً وصف جورج مور في كتابه (اعترافات شاب) كيف ان جلائل الاعمال الفنية قد مكّن من صنعها ارتكاب الشرور في الحضارات المختلفة. والبيت الاخير مثلاً وهو

يقولون ان الحق في النفس قوة وأقوى من الحق الجهالة في النفس

قد بعث على نظمه قول شيلر الشاعر الالماني ويعني آلهة خرافات الاغريق : (عبثاً تحاول الآلهة ان تقضي على قوة الجهل والغباء)

قد كان من أثر دراسة ادباء السخر أو التحليل نظم قصائد في السخر والتحليل منها (سعار الغرور) و (حلم بالبعث) [2] و (خساسة التعاسة) و (سجن الفضيلة) و (قرد النهى) و (جد أم لعب) و (اختفاء الحق) و (وصف الطباع) و (مظاهر الصداقة والعداوة)

---

(١) في القصص الروسية ايضاً نفوس تشبه هذه النفوس. والظاهر ان بروكوش متأثر بدراسته الادب الروسي أو مزاجه مثل مزاج الكتاب الروس

(٢) أوضحنا ان القصد من قصيدة (حلم بالبعث) نسبة ما كانوا عليه في الحياة من التكالب والتزاحم والتقاتل اليهم فهي سخر بعيوب الانسانية

و (النجاح) و (آلة الضمير) و (درع الحياة) و (صديق البلاء) و (مرآة الضمائر) و (ضلع الدهر) و (اقوام بادوا) و (عبيد الحياة) الخ الخ .

وقد بقي معي أثر بيرون وشلي فقصيدة (الزوج الغادرة) هي (ميلو درامة أو درامة) على نمط قصص بيرون و (لسان الغيب) و (الشاعر وصورة الكمال) من أثر شلي. وقد غالى بعض الكتاب في أثر من سموهم الشعراء الطبيعيين وكانوا يرفضون الطبيعة ويريدون تجميلها بالفنون فهي تسمية غير صحيحة. وأعني أثر سوينبورن وبودلير وروزيتي واوسكار وايلد وأمثالهم. وقد كان يكون غريباً بعد ما شرحت من اسباب تنوع جوانب الثقافة في شعري أن لا يكون لهؤلاء أثر ولكن قصيدة (بين الحب والبغض) لم تكن من أثر سوينبورن بل هي دراسة سيكولوجية دعا اليها قول جميل ابن معمر (رمى الله في عيني بثينة بالقذى). وقصيدة (سلوان الجنون) هي أيضاً دراسة سيكولوجية دعت اليها ابيات في كتاب (مصارع العشاق) تبدأ بكلمة (عسى) كما في قصيدتي وقصيدة (الازاهير السود) ليست من أثر دراسة (ازاهير الشر) لبودلير ولكنها انشودة قيلت على لسان التمساء وما بها من التشبيهات والاستعارات لها اشباه ونظائر في الشعر العربي. وقصيدة (الازاهير السود) قد عدها ناقد من الطريقة الرمزية وهي ليست كذلك واذا كان بها أثر لبودلير فليس من العقل أن يحتكر بودلير وصف الشقاء . ولا انكر أن في بعض شعر بودلير قوة عظيمة وخيالاً قوياً ولكنهُ محدود الثقافة متشابه النتاج ولا يصف الاّ جانباً واحداً من جوانب الحياة والنفوس وقد منعني من أن اتوغل في هذه المذاهب أو ان اقصر قولي عليها أولاً تأثري بمبدأ الثقافة العامة في قول جويتي وقدوته وثانياً اطلاعي على نقد ماكس نوردا و لهذه المذاهب ومن أجل ذلك قلما اعرض في قصيدة جانباً من الاحاسيس أو المشاهد الاّ واعرض ما هو ضده طلباً للاتزان الفكري ففي قصيدة (النساء في الحياة والموت) ابيات في وصف مقابح الموت ربما كانت شبيهة بمذهب سوينبورن أو بودلير ولكن بها عكس ذلك في مثل هذه الأبيات : —

بعد أنْ كُنَّ للعيون جلاءً فاتنات بأعين وخدود
مالئات وجه الحياة ضياءً عابثات بسعدات الجدود
هز منها الهوى نمار صباها هزَّة الريح زهرة الاملود

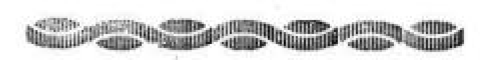
وأما قصيدة (صوت الموتى) فهي وصف لأثر قطعة موسيقية في هذا المعنى . وفي قصيدة (الملك الثائر) بعد اقوال الملك في ثورته أوردتُ ما يجعل النفس تطمئن الى الحياة طلباً للاتزان الفني كما ذكرت وكما في قصيدة (سر الحياة) و (بين الحب والبغض)

(٦) والمصدر السادس وهو الاول الذي بدأت به المقال السابق والأخير الذي اختم

به هذا المقال هو ثقافة الادب العربي والشعر العربي . ومن اطلع على مقالاتي في نقد شعراء العرب والشعر العربي يعرف اني لم اقصّر في اجتباء هذه الثقافة التي بدأتها وأنا تلميذ بالمدرسة الابتدائية ولن انتهي منها في الحياة. وقد ذكرت شواهد عديدة من شعري تدل على أن اطلاعي على الادب الاوروبي لم يصرفني عن الاسلوب والشعر العربي. وفي كل عام اكتب مجموعة جديدة من الشعر العربي. وقد كنت جمعت من شعر العذريين وغيرهم بعد عودتي من انكلترا مجموعة سميتها ذخيرة الذهب في المنتخب من شعر العرب وكانت تغلب عليها النزعة العذرية وهي سبب ظهور تلك النزعة في الجزء الثالث من شعري . ولم استطع ان احصي في هذا المقال كل من تأثرتهم من الشعراء والكتاب والقصصيين والمفكرين والفلاسفة والنقاد من عرب وأفرنج واذا كنت قد عبرت عن جانب التشاؤم فقد عبّرتُ عن جانب التفاؤل في قصائد عديدة . وكان بعض التشاؤم استحثاثاً للهمم كما في قصيدة (شهداء الانسانية) التي اتخيل فيها شهداء الانسانية على باب الحياة يتساءلون هل ضحوا بحياتهم وسعادتهم عبثاً ام تحققت احلامهم وزالت الشقاوة والشر والظلم . وفي قصيدة (الموت) جعلت الموت نفسه مظهراً من مظاهر الامل وباعثاً لهُ وفي قصيدة الامل الطويلة وصفت آثاره في النفس والحياة ومظاهره المختلفة وجعلت حتى إخلافه سعادة وهي التي مطلعها : —

(ألا عِدْ وأخلفْ أنت بالوعد مانح)

ولا يوضح الفرق بين مذهبي في الثقافة الشعرية ومذهب بودلير شيء اكثر من مقابلة قطعة له قصيرة عنوانها الثائر (في كتاب أغاني أوربا) طبعة كانتربوري بقصيدة لي طويلة عنوانها (الملك الثائر) فقطعة بودلير فكرة واحدة — وكثيراً ما يكون بودلير من أصحاب الفكرة الواحدة الملحة المتغلبة على النفس — وهي ان انساناً أبى أن يحب التعساء والتعاسة فجاء ملك وامسك برقبته من الخلف وأراد ان يرغمه بالقوة على ان يحب التعاسة والتعساء فضرب الرجل الارض بقدمه وقال لا أفعل ذلك ما دمت حيًّا . فاذا وجد قارىء اكثر من هذا المعنى في قطعة بودلير فليذكره . اما قصيدتي (الملك الثائر) فهي قصة ملك أخذتهُ الشفقة على الانسانية فأبى عيشة النعيم الأبدي والسعادة الخالدة وكمال الملائكة وهبط الى الارض كي يرد الناس عن شرهم وليجلب لهم السعادة وليزيل عنهم النحس فاضطهدوه وصلبوه وهتف هاتف من السماء بحكمة الله في استخراج الخير والرحمة والفضائل كلها من الشر الذي يقع في الحياة وهذا الختام في القصيدة مظهر من مظاهر الاتزان الفني الذي أشرت اليه وقلت اني التمستهُ بالثقافة في الشعر وربما كان من تمام الدلالة على تلك الثقافة ان أخصص مقالاً لما عالجته من صنوف النسيب والتشبيب ومصادر الثقافة فيها



التعقيم

بين انصاره ومعارضيه

للدكتور شريف عسيران

﴿ تعريفه ﴾ العُقم لغة هَزمة تقع في الرحم فلا تقبل الولد[1] ورجل عقيم وعقام وامرأة عقيم لا يولد لهما ولد . والتعقيم تعمد اجراء العقم بوسائط صناعية. وكان الملوك والخلفاء يعقمون الرجال الذين يستخدمونهم في حرمهم بسل خصاهم[2] فيزول منهم الميل الجنسي. ويقال لمثل هؤلاء خصيان جمع خصي وهو الذي سلت خصيتاه وكان الخصي مذلة . وقد عير المتنبي كافوراً بقوله

من علم الاسود الخصي مكرمة آباؤه البيض ام اجداده الصيد

﴿ تاريخه ﴾ التعقيم طريقة ابتدعتها الأمم الراقية في عصرنا الحاضر لمنع نسل المصابين بعاهات وراثية كالمجانين والحمقى والبله وأضرابهم ممن يكونون عالة على امتهم ويحطون من جودتها

اول من مارس عملية التعقيم بصورة غير شرعية (قانونية) الدكتور هري شارب Dr. Harry Sharp وهو طبيب اميركي من جفرسنفيل بولاية انديانا فقد شرع باجراء هذه العملية سنة ١٨٩٩ وكان القانون الاميركي لا يجيزها وكان يجريها برضاء الشخص فحصل على نتائج مرضية . وقد سنت هذه الولاية قانوناً سنة ١٩٠٧ حلل اجراء عملية التعقيم ثم تممت في غيرها من الولايات المتحدة. وسنت ٢٧ ولاية منها قانوناً يجيز إجراء هذه العملية وحذت حذوها مقاطعتا البرتا وكولومبيا البريطانية بكندا والدانمارك وألمانيا ومقاطعة فود بسويسرا وولاية فيرا كروز بالمكسيك ومدينة دانتزك الحرة[3] ويقدر عدد العمليات التي اجريت لتاريخ سنة ١٩٣٣ بنحو ١٦٠٠٠ عملية[4]

إن لفكرة التعقيم أنصاراً ومعارضين شأن كل فكرة جديدة وسنلخص آراء الفريقين بغاية الاختصار منعاً للتطويل الممل :

﴿ حجج المناصرين ﴾ يقول المناصرون ان معدل الفهم آخذ بالانحطاط عند الأمم المتمدنة فالواجب يقضي برفع مستوى الامم العقلي بتقليل نسل الفئة المنحطة والقضاء عليها تدريجياً .

---

(١) تاج العروس (٢) يقال هو اغفل من خاصي الخنثين وهو مثل اصله ان جماعة من الخنثين كانوا في المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك الاموي فأراد ان ينفيهم منها فكتب الى عامله فيها ابي بكر عمر بن حزم احص من عندك من الخنثين فتاق ان نقطة من السطر الاعلى ونمت فوق الحاء فصارت خاء فخصاهم (البستان)

(٣) Scientific American, July. 1934 p. 18 (٤) Applied Eugenics, p. 150

ويقدرون نسبة ناقصي العقول في انكلترا ممن لا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم بواحد في الالف [١] ويقدر هذا الصنف بالولايات المتحدة بخمسة وعشرين مليوناً . وقد بلغ عدد ضعاف العقول والمصروعين سنة ١٩٢٩ في معاهد الولايات المتحدة ٦٤٢٥٣ نفساً والمترددين الى السجون سنة ١٩٣٠ مقدار ١١٦٣٠ شخصاً . وظهر من احصاء سنة ١٩٣٠ انهُ يوجد حوالي ٦٣٤٨٩ أعمى و ٥٧٠٨٤ أخرس . ويوجد ما يقرب من العشرة ملايين عاطل . ومن أقوال الرئيس فرانكلن روزفلت ان ما يقرب من نصف هذا العدد غير أهل للحياة الصناعية [٢]

وتتلخص عقيدة الولايات المتحدة في الجملة الخالدة التي نطق بها القاضي هومز O.W. Holmes حيث قدمت امرأة ضعيفة العقل عريضة للمحكمة تطلب فيها تعقيمها وقد ولدت هذه الامرأة ولداً ضعيف العقل وكانت امها ايضاً ضعيفة العقل ولما رفعت العريضة الى محكمة الولايات المتحدة العليا قال القاضي الذي اصدر الحكم « يكفي ثلاثة اجيال من البله » [٣]

﴿ المانيا ﴾ سنت المانيا قانون التعقيم في ٢ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٣٤ ولا تختلف مسوغاتها لهُ عن مسوغات غيرها من الامم فانها تنفق في مدارسها على كل تلميذ صحيح العقل ٧٥ ماركاً بينا تنفق على الضعيف العقل اضعاف هذا المبلغ في السنة ويكلف المجنون الواحد الحكومة ودافع الضريبة ٦ — ٨ ماركات يوميًّا . ان الكتبة في المانيا لا يحصلون قدر ما تنفقه الامة على البله والمجانين والمجرمين وأضرابهم . وليس للطبقات المتفوقة في المانيا الآن اكثر من ولد أو ولدين ومن النادر جدًّا ان تجد عدة اولاد للاسر ذات الوراثة الصالحة [٤]

(٢) الحجة الثانية التي يستند اليها المناصرون اقتناع كثير من الامم المتمدنة بصدق هذه النظرية واجماعهم على سن القوانين الاجبارية لتنفيذها

(٣) سهولة اجراء العملية وخلوها من الخطر على حياة المرء وأمياله الجنسية والنفسية

(٤) الاستيثاق من ان الشخص الذي تجري عليهِ عملية التعقيم مصاب بأمراض وراثية تضر النسل بعد فحصه من قبل جماعة اخصائيين وبعد موافقة الشخص نفسه على اجراء العملية

(٥) اعتقادهم ان التعقيم يشجع المصابين على الزواج بعد تعقيمهم ولا ينفرهم منهُ إذ لو لم يعقموا وكان لهم أولاد لعجزوا عن القيام بأودهم لان تحصيلهم دون الاصحاء عقلاً وهذا يثني عن الزواج وإخلاف النسل

﴿ المعارضون ﴾ ذكرنا اهم حجج المناصرين ونلخص الآن حجج المعارضين

(١) ليس من حق الحكومة سن قانون كهذا يرمز الى الاستبداد ويجعل الفرد للحكومة لا الحكومة للفرد فضلاً عن انهُ عمل مخالف للشريعة والآداب

---

(١) Eugenic Sterilization 2nd. Edition (٢) Scientific American vol. 150, p. 292
(٣) Applied Eugenics p 156 (٤) Scientific American, September 1934, p126.

(٢) انكارهم ان الطبقات العالية ارقى عقلاً من الطبقات المنحطة او خيراً منها بنفعها للمجتمع وان نسل الذكي يكون ذكيًّا والأبله أبله والمجنون مجنوناً وأن نسل الطبقات السفلى يزداد اكثر من ازدياد نسل العليا وليس من الضروري ان يكون نسل هذه الطبقة ضيفاً او ابله

(٣) ادعاؤهم ان العالم يحتاج الى الطبقة السفلى لتقوم بالاعمال التي لا تتطلب ذكاء . وان العلماء متفقون على الصفات التي تنتقل بالوراثة وان المحيط عامل كالوراثة في نقل الصفات العاطلة وان الذين يعقمون لا يعيشون سعداء

(٤) حجتهم ان التعقيم لا يحرر الامة من المجانين وضعاف العقول والمصابين بمختلف العاهات الوراثية لان الصحيح يحمل صفات معية قد ينقلها الى نسله وهذه الصفات تكون كامنة اومستورة

(٥) قولهم ان التعقيم يشجع على الزنا ونشر الامراض الزهرية وفساد الاخلاق ومن المعارضين الذين يشار اليهم بالبنان الاستاذ الشهير J. B. S. Haldane ولا بد من ذكر بعض آرائهِ لانهُ من ألمع الاقطاب في علوم الاحياء . ان هالدين لا يعتقد ان التعقيم يفيد من وجهة اصلاح النسل وتتلخص آراؤهُ في ما يلي: (١) ان التعقيم يمنع ولادة الاسوياء وغير الاسوياء على حد سواء (٢) الامراض التي يعقم الناس لاجلها غير خطيرة ولا مقعدة للانسان عن العمل وانما هي مزعجة ويضرب مثلاً للعمى ملتن وللصمم بتهوفن . فان عمى الاول وصمم الثاني لم يحولا دون بروز عبقريتهما (٣) يقضي التعقيم على اكثر الامراض الوراثية ولكنهُ لا يقضي عليها كلها (٤) يموت عدد كبير من المصابين بامراض وراثية خطرة قبل ظهور علامات المرض فيهم وقبل سن البلوغ فلا داعي لتعقيمهم (٥) اذا اردنا القضاء على الامراض الوراثية فلا ينبغي أن نقتصر على تعقيم الاباء بل علينا ان نعقم الابناء أيضاً (٦) ان تعقيم المصابين بنزف الدم الوراثي (هيموفيليا) يعرض حياتهم للخطر (٧) هبك أنا قضينا على الامراض الوراثية بالتعقيم فالتحولات الفجائية Mutations تولد مثلها (٨) من المعلوم في علم الوراثة ان الصفات الجيدة تغطي العاطلة (٩) ان كثيراً من العيوب الوراثية تكون بصورة كامنة (Recessive) فلا تظهر وتنتشر بالرغم عنا (١٠) ان المصابين بالضعف العقلي يستطيعون عمل َ عملٍ ، فلا مسوغ لتعقيمهم (١١) لا يوجد في كل انكلترا اكثر من ستة اطباء وامرأة واحدة يعتمد عليهم في معرفة الامراض الوراثية الخطرة على النسل والتي توجب التعقيم [١]

واذا قابلنا حجج المؤيدين بحجج المعارضين رأينا تطرفاً في الفريق الثاني وميلاً الى العاطفة والمنطق الكلامي فأي عقل أو شرع يبيح انتشار المجانين والبله والمصروعين وأضرابهم. فما لا شك فيهِ أن كل امة ترغب في أن يكون نسلها صحيحاً قويًّا سالماً من العيوب وأن تتخلص من العاهات

---

(١) راجع : Heredity and Politics, J. B. S. Haldane 1938 p. 15,17
ايضاً: Scientific Progress, 936, p. 145

الوراثية . فأنصار التعقيم لا يقولون باجرائه جزافاً بل في العاهات التي يثبت انها وراثية فهم لا يقولون ان كل أنواع الجنون والصرع والبله وراثية بل يعترفون ان منها ما هو وراثي ومنها ما هو غير وراثي ويحصرون التعقم في النوع الاخير بعد التثبت الدقيق بواسطة ثقات الاخصائيين المشهود لهم بالكفاءة العلمية ونزاهة الوجدان . نعم لا يزال العلم يجهل الكثير من حقائق الوراثة ولكنهُ أماط اللثام عن كثير منها واتفق العلماء على ان بعض نواميس الوراثة التي تسري على الحيوان تسري على الانسان أيضاً . واذا كان يحق للحكومة ان تسجن السارق وتعدم القاتل وتتصرف بمصلحة الفرد لما فيه خير المجموع، يحق لها ان تسعى لتقليل عدد المجانين والبله وضعاف العقول والمصروعين والمدمنين ومنع انتشار أمثالهم . ان انصار هذا المذهب لا يدعون ان التعقيم كفيل بازالة كل العاهات الوراثية بل يعترفون انهُ يقلل عددها فقط ويؤول تدريجيًّا الى تحسين النسل فهو خطوة صغيرة الى الامام . وقد اتخذت الامم التي سنت قوانين كهذه كافة الاحتياطات لتأمين مصلحة الفرد وهي تبث الدعايات الصالحة في هذا السبيل حتى ان كثيرين من المصابين صاروا يطلبون من تلقاء أنفسهم اجراء هذه العملية عليهم . ولم يثبت ان اجراءها يدفعهم الى اتيان الفاحشة بل ثبت عكس ذلك فان الفواحش اللاتي أجريت لهنَّ هذه العملية تحسنت أخلاقهنَّ وارتدعنَ عن اتيان المنكر لان دخولهنَّ المؤسسات المعدة لهذه العمليات أسبغ عليهنَّ شيئاً من التربية والاخلاق . أما الخطر الذي يتوقعه المغالون من ضياع بعض النوابغ من جراء التعقيم فقد أجاب عليهِ بوبنو بالعبارة الآتية . لا تحرم الامة شكسبير او ارسطاطاليس من التعقيم الحديث لغاية اصلاح النسل بل بالعكس فان تقليل البله وضعاف العقول يفتح مجالاً أكبر لظهور المتفوقين ذكاء (١)

﴿ الوجهة الدينية ﴾ اما المانع الديني فقد اجابت عنه الحكومة الالمانية في بيانها المسوّغ لسن قانون التعقيم وقد جاء فيه ان غلمان المرتلين (Choir Boys) في كنيسة سستين Sistine Chapel كانوا يخصون في القرن التاسع عشر للاحتفاظ بنعومة أصواتهم (٢)

﴿ الامراض الموجبة للتعقيم ﴾ هي الجنون الوراثي، البله الوراثي، ضعف العقل، الصرع، العمى، الصمم، وغيرها من الامراض والعيوب الوراثية وقد بحثنا موضوعها بحثاً وافياً في مقالاتنا السابقة (٣) . ويشمل بعضهم الاجرام والادمان أي ادمان الكحول والمخدرات ولم يثبت حتى الآن ان الاجرام والادمان وراثيان ويعتقد عدد من الثقات أن المحيط عامل قوي فيها وأن المرء يرث في حالات كهذه مزاجاً خاصًّا يجعله ضعيف الارادة فتتغلب عليه العوامل المحيطية وعلى كل ليس المجرمون والمدمنون قدوة حسنة ولا هم آباء صالحون

---

(١) Applied Eugenics, p. 157 (٢) Secintific American vol 151, p. 127

(٣) راجع المقتطف مارس ١٩٣٨ ص : ٣٣١٣ العلل الوراثية الجسمية والعقلية

﴿ عملية التعقيم ﴾ تجري عملية التعقيم للذكر أو الانثى وهناك ثلاثة اسباب لاجرائها على الانثى (١) طبية (٢) اجتماعية (٣) لاصلاح النسل. والاخير هو بيت القصيد وطرق التعقيم متعددة (١) كيمائية (٢) اشعاعية (بواسطة الاشعة السينية) (٣) جراحية. وسنلم الماماً بكل من الطرق زيادة للفائدة وتتميماً للبحث

﴿ الطريقة الاحيائية الكيمائية ﴾ (Biochemical) تتوقف على اساس استعمال الامصال التي تحقن في الجسم وتكون مادة مضادة لها فيحقنون سائل الذكر المنوي تحت جلد او في وريد أنثى فيتولد في جسمها مواد مضادة للحمل او يحقنون الذكر بخلاصة المبيض فيصير الذكر عقيماً او الانثى بخلاصة خصية الذكر فتعقم . ورغماً عن إيمان بعض ثقات الاطباء بصحة هذه النظرية فلا قيمة عملية لها ولم تخرج من قيد النظريات والاختبارات

﴿ الاشعة ﴾ من المعروف ان أشعة اكس تؤثر في أعضاء التناسل وتسبب العقم لمن يشتغلون بها ولهذا يضعون حاجزاً كثيفاً يحول دون اختراقها أجسامهم فتعريض المبيضين والخصيتين لدرجة خاصة من أشعة رنتجن يسبب العقم ولهذه الطريقة محاذير لا مجال لذكرها هنا وهي كالطريقة الاولى لا تزال نظرية ومحفوفة بالاخطار

﴿ الجراحة ﴾ هي بيت القصيد والمعول عليها في اجراء التعقيم وتجري على الذكر والانثى واجراؤها على الاخيرة أما موقتاً او دائماً فالطريقة الوقتية تعمل بدفن قناتي فالوب في صفاق البطن (البريطون) سنة او سنتين او اكثر بحسب المدة المطلوبة فلا تستطيع البويضات بلوغ الرحم وبعد مضي المدة تعمل عملية ثانية وتعاد القناتان الى حالتهما الطبيعية وتجري عملية التعقيم الدائم بطريقتين (١) سل المبيضين اللذين يقابلان الخصيتين في الذكر وهي عملية بربرية تسلب المرأة حاستها الجنسية وتفقدها شطراً كبيراً من حيويتها وتؤثر تأثيراً سيئاً في نفسيتها وعقليتها (٢) استئصال قناتي فالوب اللتين تدخل منهما البويضات وهي لا تسلب المرأة شيئاً من خصائصها النفسية[1]

﴿ الذكر ﴾ ان عملية التعقيم في الذكر اسهل من الانثى وتجري تحت البنج الموضعي ولا تستغرق اكثر من نصف ساعة بيد المدرب وطريقتها ربط القناة المنوية في الجانبين وقطعها فينسد طريق النطاف المنوية ولا تستطيع الوصول الى الرحم وهي لا تفقد الرجل شيئاً من خصائصه النفسية والجنسية والمعول اليوم على هذه الطريقة نظراً لسهولتها وقصر الوقت الذي تستغرقه وخلوها من الخطر. اما استئصال المبيضين في الانثى فيتطلب فتح البطن وتعريض المرأة للخطر ولهذا يفضلون اجراء التعقيم على الرجل . هذه لمحة صغيرة عن التعقيم ذكرناها من وجهة اصلاح النسل ولم نشأ التطويل فيها لان المقتطف الاغر بسط جانباً منها في اعداده السابقة

(١) راجع Fertility & Sterility in Marriage, Van de Velde 1931, p. 366

تأسيس سامرا

— ٢ —

بقلم الكبتن كرزول
استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية ببرلين

الجوسق الخاقاني او قصر المعتصم

قام بكشف أطلال هذا القصر العظيم العالم الأثري فيولية Viollet سنة ١٩٠٧ غير أن اعماله لم تكن سوى تمهيد للاستكشافات العظيمة التي قامت بها البعثة الأثرية الألمانية فيما بعد باشراف العالمين الكبيرين زره Sarre وهرتسفلد Herzfeld . ومع مضي اكثر من عشرين عاماً على هذه الاعمال فإن البعثة لم تنشر سوى تقرير موجز عن نتائج استكشافاتها بقصر الجوسق الخاقاني

وقد تفضل الدكتور هرتسفلد رئيس هذه البعثة بأعارتي التخطيط العام الذي عملتهُ البعثة عن هذا القصر وقد استعنت بهِ وبغيره من الرسوم والصور الشمسية التي للزخارف المنشورة بكتاب Wandschmuck في دراسة هذا القصر واني أرجو بعد هذه الدراسة واعتماداً على مشاهداتي الخاصة لباب العامة أحد ابواب هذا القصر منذ عامين أن اوفق في رسم صورة واضحة للقارىء عن هذا البناء الهائل . وإن كنت اعتقد أن نشر نتائج ابحاث هذه البعثة واعمالها باقلام اصحابها قد يكون اكثر فائدة وأعظم شأناً . وأنا لنرجو ألاّ يطول انتظارنا نشر هذه الابحاث

يقول هرتسفلد في تقريره : « استمرت اعمال الكشف بهذا القصر سبعة أشهر كان يشتغل في اثنائها عدد يتفاوت بين ٢٥٠ و ٣٠٠ عامل يوميًّا واستخدمت سكة حديدية محلية خاصّة لنقل الأتربة وتزيد مساحة القصر التي يطيف بها السور عن (١٧٥) هكتاراً تشغل منها التي تشرف على نهر دجلة بخمائلها وممراتها وقاعاتها وحماماتها ٧١ هكتاراً

وبناء على ذلك فلو أريد استكشاف القصر جميعه وملحقاتهُ لاستغرق ذلك عشرين عاماً ، ومهما يكن من شيء فان كشف هذه الامكنة لم يكن امراً شاقاً كما يتبادر الى الذهن

لأول وهلة . لانه كان من الممكن تتبع التخطيط العام للقصر وترتيب قاعاته وحجراته المختلفة حتى بدون القيام باعمال الحفر . ولذلك فقد رؤي حصر هذه الاعمال في الاجزاء الرئيسية اي الواقعة على المحور الرئيسي للقصر

وقد كشف حوالي ١٤ الف متر مربع من الارض وأزيل ٣٢ الف متر مكعب من الردم منها ١١ الف متر مربع او ٢٨ الف متر مكعب من الردم من الحفائر التي اجريت في وسط القصر

وقد بدئت اعمال الحفر والتنقيب بعدة اختبارات وابحاث تمهيدية في المحور الرئيسي والمحور العرضي للرحبة الكبرى لتأخر وصول السكة الحديدية المحلية التي طلبت لاستخدامها في نقل الردم وبعد وصولها امتدت اعمال الحفر الى البناء الرئيسي نفسه

وكانت تفاصيل تخطيط هذا البناء تتضح لنا رويداً رويداً الاَّ انها لم تعرف تماماً إلاَّ حينما ظهر أثناء الحفر وكشف تخطيط القصر ورفع الاتربة ان هذه المجموعة الهائلة من المباني لم يكن لها سوى مدخل واحد في وسط جانبها الغربي ما تزال بقاياه موجودة الى اليوم تعرف بباب العامة

وكان نهر دجلة يجري بجوار الجانبين الغربي والجنوبي الغربي للحديقة السفلى وكان الشارع الأعظم يمتد من الجنوب حتى ينتهي الى جدران القصر وهناك يتصل بشاطىء دجلة من جهة الجنوب مكوناً معهُ زاوية حادة حيث يقع باب النزّالة وهناك طريق طوله سمائة متر يخترق الحديقة حتى الحوض الاعظم وسعته ١٢٧ متراً مربعاً حيث يبدأ سلم عرضه ٦٠ متراً وطولهُ مثل ذلك يرقى منه الى شرفة ارتفاعها ١٧ متراً امام باب العامة

﴿باب العامة﴾ يكاد يكون باب العامة افضل الاجزاء الباقية القائمة من هذا البناء الهائل الذي عدت عليه الايام وهو يتكون من واجهة ذات ثلاث قناطر ارتفاعها ١٢ متراً وتشرف على نهر دجلة ويقع خلفها ثلاث حجرات ذات سقوف نصف اسطوانية معقودة والحجرة الوسطى هي الايوان (أو الليوان) الكبير وعرضها ٧٫٨٦ متر وطولها ٥٠ ر ١٧ متر وارتفاعها ١٠ ر ١١ متر وهي مفتوحة بكامل عرضها ومطلة على نهر دجلة يحف بها كتفان من البناء عرض كل منهما ٥٨ ر ١ متر يحملان قنطرة الواجهة ذات العقد المدبب او هي شبيهة في بنائها بقناطر مسجد ابي دلف وباب بغداد من ابواب مدينة الرقة

خلف هذا الايوان الكبير باب سعتهُ ٤ أمتار وارتفاعهُ ١٠ ر ٧ متر تعلوه قنطرة مدببة شبيهة بقنطرة الواجهة الكبرى تعلوها نافذة ذات قنطرة مدببة أيضاً

والايوانان الجانبيان طولهما ١١ ر ٤ متر . والجزء الواقع خلف قنطرة الواجهة مغطى بسقف على شكل نصف قبة مرتكزة على اربعة صفف او محاريب وبين كل صفتين شباك مستطيل . وهذان الايوانان الجانبيان هما في الحقيقة بمنزلة مدخلين عظيمين لحجرتين خلفيتين

سقفاهما معقودان نصف اسطوانيين وسعة كل منهما اربعة أمتار وبكل منها باب سعته ١٫٧٥ متر وارتفاعه ٥٫٥٥ متر

ومع ان ارتفاع هذين الايوانين يقل بمقدار متر ونصف متر عن الايوان الاوسط الاّ ان الغرفتين الخلفيتين تكادان تفصلان الى ارتفاع هذا الايوان (١٠٫٨٠ متر الى ١١٫١٠ متر)

وهاتان الغرفتان لا تتصلان بالايوان الكبير ولا بأي جزء آخر من أجزاء القصر مدخلهما من الواجهة فقط ولذلك يرى هرتسفلد انهما كانتا مخصصتين للحرس والاتباع أيام الحفلات والاستقبالات العامة والاجتماعات التي كانت تعقد في الايوان الكبير . وتبلغ ثخانة الجدران التي تحمل القبو الاوسط حوالي ١٫٧٥ متر . اما الجدران الخارجية للايوانين الجانبيين والجدار الخلفي فثخانتها ١٫٣٠ متر فقط .والى يسار الايوان الغربي حائط بها نافذتان احداهما طويلة ضيقة .وتعلوها اخرى اكثر منها عرضاً وكلاهما مستطيلة الشكل . وتدل ثقوب الحائط من الخلف على انهُ كان هناك طابقان بعضهما سقف من الخشب

وقد تهدمت الحافة الشرقية للواجهة ولم يبق منها الاّ جزء صغير يكسو بعضه الجص وهذا الجزء المكسو لا يصل الى الارض مما يدل على انهُ كانت هنا نافذة أخرى مستطيلة ولكنها أقل طولاً من النافذة الكائنة بالطرف الآخر المقابل

ولا بد انهُ كان هناك طابق آخر ويستدل على ذلك من وجود جزء من حائط ارتفاعه خمسة امتار يرتفع عموديًّا على الجانب الشمالي من الايوان الشمالي

﴿ الزخارف ﴾ تقتصر زخارف الواجهة على صفتين غير عميقتين مدببتي العقد كانتا تحفان بالمدخل الرئيسي . أما في الداخل فكان محلى بزخارف جصية شاهد بعضها العالم ڤيوليه Viollet في موضعها . كما عثر هو وهرتسفلد Herzfeld فيما بعد على البعض الآخر في الردم

وكان بطن عقد الايوان الكبير بالواجهة محلى بزخارف جصية مقسمة الى ثلاثة أقسام . أحدها أكثر عرضاً في الوسط تحصره حافتان أقل منهُ عرضاً سعة كل منهما ٣٢٫٥سم وبهما زخارف من أزواج من اغصان الكرم الصاعدة التي تكون صفاً مزدوجاً من الدوائر الصغيرة بكل منها ورقة من أوراق الكرم ، تفصل كل ثنية من ثنياتها ثقوب تشبه العيون تحيط بها حزوز دائرية محفورة متحدة المركز يتميز بها الطراز المعروف بطراز سامرا الثالث . والجزء الأوسط سعته ٩٥سم وكان محلى بزخارف مكونة من وردات ذات ثمانية جوانب بين كل منها والتي تليها عقدة وفي كل ثنية من ثنياتها ورقة كرم طويلة الساق . ولا يمكننا مع الاسف ان نعرف الآن كيف كانت مراكز هذه الوردات والسطوح التي تفصلها بعضها عن بعض محلاة لان الاجزاء التي عثر عليها ليست كافية لإيضاح ذلك

أما داخل الايوان الكبير فنجد في قمة الحائط مما يلي عقد القبو مباشرة عصابة من الزخارف البارزة الجميلة مكونة من حليتين متعاقبتين احداهما صغيرة والاخرى كبيرة تشبه احداهما زهرة اللوتس ذات الثلاثة الاوراق . والورقتان الخارجيتان تكوّنان حلزونين . أما الورقة الوسطى فرفيعة وتصل حافتها العليا الى الطرف العلوي للعصابة وهي تشبه في مجموعها زهرة الزنبق . اما الثانية فتشبه الاولى ولكنها اقل منها حجماً وليس بها الزخارف الحلزونية التي بالاولى . ويرى هرتسفلد ان هذه العصابة تشبه تمام الشبه عصابة اخرى من الزخارف الجصية بكنيسة (بازيليكا) القديس سرجيوس بالرصافة

ويقول هرتسفلد Herzfeld : والجزء الاوسط من الباب الكبير هو المدخل الرئيسي للقصر وتقع خلفه ست قاعات يرجح أنها كانت قاعات انتظار وكان كبار الضيوف والزوار ذوو المكانة يدخلون من الرواق الشمالي (أي الفتحة الشمالية) للباب الكبير ثم يمرون في ممشى طويل الى هذه القاعات أما الجزء الخاص بالحريم بالقصر فيدخل اليه من الفتحة الجنوبية للباب الكبير التي تصل به رواقان طويلان

وتكوّن هذه المماشي والقاعات والاروقة ما يسمى بالمدخل أو باب القصر يتلو ذلك رحبة مربعة بها نافورة يحيط بها من كل جانب ثلاث حجرات يجلس فيها الزوار وفقاً لمقاماتهم ودرجاتهم والى الشمال نجد حجرات الخليفة وهي تقع حول ثلاث رحبات ويقع الحريم في الجنوب وقد اضيف اليه بناء آخر كثير الحجرات . ويطل الحمام الكبير على الرحبة مباشرة واذا سار الانسان قدماً فانه يمر في قاعة امامية الى رحبة مضلعة جدرانها الشمالية والجنوبية خالية من الزخرفة . اما في الشرق فترى واجهة قاعة العرش بأبوابها الثلاثة وتوصل الدهاليز والممرات السفلية — ويوجد منها كثير بالقصر — بين حجرات الخليفة وقسم الحريم

« قاعة العرش » تتكوّن قاعة العرش من قاعة وسطى مربعة يحيط بها اربع قاعات على شكل حرف T وقد وجد بهذه القاعة طرازان من الزخارف الرخامية شبيهان بالطراز السابق الاشارة اليه ويرجح انها كانت مغطاة بقبة . وقد كانت امثال هذه القاعات على شكل حرف T من الخصائص المميزة لقاعات الاستقبال في جميع المنازل الخاصة . ولكنها تختلف عن جميع الامثلة المعروفة في ان الاجزاء التي تكون الصليب قد بنيت على مثال البازيليكا ذات الثلاثة الاروقة ولكنها هنا مكررة اربع مرات في الحجرات الاربع المكونة لاضلاع الصليب . والسبب في ذلك هو الحاجة الى ضوء كافٍ لاضاءة القاعات جميعها والقاعة الوسطى ايضاً

وقد وجد هرتسفلد قطعاً من الزخارف الجصية في هذه الحجرات وحاول ان يجمعها وان يكوّن منها اشكالاً او موضوعات زخرفية تامة باعادتها الى حالتها الاولى من التركيب والتكوين

وقد عثر بقاعة العرش هذه على عتب خشبي لاحد الابواب يشبه شبهاً تامًّا بعض الاعتاب الخشبية بأبواب مسجد ابن طولون بالقاهرة . وتوجد بين اذرع الصليب قاعات صغرى محلاة بوزرات من الواح ومربعات الرخام ، وكذلك مسجد صغير لصلاة الخليفة ذو محراب جميل

﴿ الحريم ﴾ اذا رسمنا محوراً من الشمال الى الجنوب ماراً بمركز القاعة الوسطى وقاطعاً القاعتين الشمالية والجنوبية اللتين على شكل حرف T فانهُ يقسم هذه الكتلة من البناء الى قسمين متماثلين تقريباً . وقد كشف منهُ القسم الجنوبي فقط وهو يشمل الحريم

وتقع امام القاعة الجنوبية ذات الشكل حرف T قاعة كبيرة العرض تمتد على طول رحبة الحريم . وفي الجانبين الغربي والشرقي لرحبة الحريم تقع حجرات كثيرة أُعيد بناؤها عدة مرات معدة للحياة المنزلية داخل القصر ومجهزة بالمياه الجارية التي تأتي اليها في مواسير كبيرة من الرصاص أو من الخزف المطلي بمادة زجاجية أو من الفخار العادي . كما ان بها حجرات للاستحمام والغسيل والمراحيض. وتقع في مواجهة قاعة العرش في الجانب الجنوبي للرحبة حجرة مربعة تمتد على طول الرحبة وهناك رواق مربع طول ضلعه ٢١ متر يطيف بحجرة مربعة ذات اربعة ابواب واسعة وبها حوض تحف به اعمدة الرخام في اركانه الاربعة

وقد كانت هذه الحجرة محلاة برسوم وصور آدمية واذا رسمنا محوراً يقطعها من الشرق الى الغرب فاننا نجد الى غربها قاعة على شكل البازيليكا ذات ثلاثة اروقة في كل رواق منها اربعة اعمدة من الرخام. وتقع امام القاعة الشرقية ، ذات الشكل حرف T من المجموعة المسماة بقاعة العرش قاعة كبيرة اخرى عرضها ٣٨ متراً وطولها ٤٠ ر ١٠ امتار بها خمسة ابواب تطل على رحبة كبيرة مكشوفة طولها ٣٥٠ متراً وعرضها ١٨٠ متراً تقسمها قناة الى قسمين احدهما الغربي وهو مرصوف ومحلى بنافورتين والشرقي وهو غير مرصوف وبه بعض قنوات ومجاري مياه صغيرة

﴿ السرداب الصغير ﴾ واذا سار الانسان من هذه الرحبة الكبيرة الى الشرق فانه يصل الى سرداب صغير يقع على المحور الرئيسي للقصر . ومدخله عبارة عن حجرة مربعة قد نقش على جدرانها طراز من الزخارف الجصية الملونة قوامها قافلة من الجمال ذات السنامين ويقع سلم مدخل السرداب في الجانب الغربي من البناء العلوي والسرداب نفسه عبارة عن فجوة منقورة في الصخر كل ضلع من اضلاعها ٢١ متراً وعمقها ٨ أمتار وفي كل جدار من جدرها ثلاث مغارات تصلها ببعض مماشٍ أو اروقة وكانت في ارضيتها فسقية أو حوض للماء . وكان يحيط بالسرداب صفوف متوازية من الغرف يظن انها كانت اسطبلات

﴿ ملعب الصوالجة ﴾ وفي وسط الرحبة الشرقية بناء يشرف على ملعب كبير بسور طوله ٥٣٠ متراً وعرضه ٦٥ متراً وهو لا يقع على استقامة محور القصر بل ينحرف عنهُ فيميل بانحناء

بسيط . ويرجح ان هذا كان ملعب الصوالجة وكانت الاسطبلات معدة لخيل اللعب . وكان النظارة يشرفون على اللعب من هذا البناء . والى هنا نصل الى الطرف الشرقي للقصر ويتلوه سور حديقة الحيوان او الحير . وتقع في مواجهة البناء الذي يشرف منهُ النظارة على اللعب على امتداد المحور الرئيسي للقصر سقيفة عظيمة مرتفعة تشرف على ملعب الصوالجة وحلبة السباق في حديقة الحيوان او الحير التي تمتد الى اكثر من خمسة كيلو مترات

ويبلغ طول محور القصر الممتد من نهر دجلة مخترقاً السلم الكبير وباب العامة وقاعة العرش والرحبة الكبرى والسرداب الصغير الى حديقة الحير وشقيقتها رحبة السباق ١٤٠٠ متر

﴿ السرداب الكبير ﴾ ويقع في الركن الشمالي الشرقي للقصر بناء مربع طول ضلعه ١٨٠ متراً يرتكز جانبه الجنوبي على الجدار الشمالي للرحبة الكبرى وبهِ كهف عميق مربع طول ضلعه ٨٠ متراً منقور في الصخر تمتد على محاوره اذرع على شكل صليب يبلغ طولها ١١٥ متراً وفي أرض هذا الكهف فجوة ثانية مستديرة قطرها ٧٠ متراً . ومن المرجح ان هذه الفجوة كانت فسقية او حوضاً . إذ أنها تتصل بقناة سفلية وفي الجزء العلوي توجد حجرات كثيرة صغيرة على غير نظام حول الجانب الداخلي للجدران وبعضها مسقف بأقبية متقاطعة وقد كشف بهذه الحجرات بعض المخازن وعثر بها على بعض قطع من الخزف الصيني وألواح ومربعات القيشاني المموهة بالبريق المعدني ذي اللون الذهبي . ونجد الى الشرق مجموعات متنوعة من المباني على امتداد الحائط الشمالي والوسطى منها أكثر ارتفاعاً من بقيتها

﴿ الزخارف ﴾ وقد كانت عظمة زخارف هذا القصر مما يلتئم ويتناسب مع أبهته وفخامته مما لم يعثر على مثيله للآن . فقد كانت وزرات الجدران محلاة بزخارف جصية بعضها من عصر المعتصم نفسه مؤسس سامرا وباني القصر . وبعضها جدد بعد المتوكل مباشرةً وبعضها من الايام الاخيرة لسامرا وقد أمكن ان نلم بكثير من المعلومات التي كانت تنقصنا في دراسة زخارف المنازل الخاصة التي كشفت في سامرا بالاستعانة بهذه الزخارف . حتى اصبح في استطاعتنا الآن ان نلحظ بوضوح التقدم المطرد في تطور طراز سامرا مدى خمسين عاماً . وان نميز الفروق بين كل من الطرز الثلاثة التي تبين أنها تختلف بعضها عن بعض اختلافاً أساسيًّا مما لم يفطن اليه كثيراً عقب بعثة الكشف الاولى . ففي حجرات العرش استبدلت الوزرات الجصية بوزرات مشابهة من الرخام المنقوش وفي الحجرات الواقعة بين اذرع الصليب نجد الوزرات مغطاة بكسوة من الواح ومربعات الرخام كما ان الاجزاء العلوية من جدران قسم الحريم كانت محلاة بزخارف آدمية ملونة كشف الكثير من بقاياها كما كشف في بعض الحجرات عن زخارف من الزجاج واللؤلؤ لا نظير لها في أي مكان آخر . وجميع القطع الخشبية من ابواب وكتل وسقوف مصنوعة

من خشب الساج المنقوش الملون أو المذهب وقد زادته مسامير البرنز المذهبة رونقاً وبهاء

وقد عثر على قليل من القطع الأثرية في كتلة البناء المكونة للمدخل بقاعاته وممراته وكذلك بقاعة العرش . وذلك امر طبيعي وكان اكثر ما عثر عليه بقسم الحريم وحجرات الحياة المنزلية الداخلية والى جانب القطع الكثيرة المعمارية والفخارية والرخامية فقد عثر على الكثير من الاواني الفخارية المغلقة الطويلة الاسطوانية الشكل . وقد كسيت بطبقة من الجص ونقش على احد جانبيها صور لرجال أو سيدات في ملابس مختلفة وكل صورة منها داخل أطار خاص ويرجح أنها كانت صور لرجال ونساء حقيقيين لا خياليين اضف الى ذلك رسوم وصور آدمية او زخرفية على قطع من الفخار او القاشاني او الرخام ورؤس حيوانية من الرخام وألواح من الزجاج الكثير الالوان . وقطع من الاثاث المنزلي وغيرذلك من القطع المطعمة بالابنوس والعاج الخ.

كما عثر على بعض الكتابات التاريخية على كتل خشبية وعلى كثير من توقيعات الصناع من الروم والسريان والعرب بخطوطهم ولغاتهم المختلفة على الرخام والخشب والصور والفخار . وعلى قطعة من النحاس بها طراز الخليفة المعتضد وأجزاء من خطابات مسطورة على ورق وبعض اوراق البردي الرسمية وغير ذلك

﴿ الخزانة او بيت المال ﴾ يقع الى شمال السرداب الكبير مساحة كبيرة مستطيلة يطيف بها صفوف كثيرة من الجدران القوية التي جلبت مادة بنائها في عصور موغلة في القدم . ويستنتج من مجرى الحوادث التي حدثت بالقصر أن بيت المال كان موضعه في هذا المكان من القصر . والركن الشمالي الشرقي ليس واضح المعالم وقد كانت تمتد منه الى عدة كيلو مترات مجموعات من المنشئات المتعلقة بحديقة الحيوان اوالحير والمتصلة بالقصر . ويمتد الجزء الجنوبي على غير نظام اذ تخترقه ثلاث اودية عميقة وهناك صنف طويل من الرحبات والحجر الصغيرة على الجانبين يظن انها كانت بمثابة مخازن ، ويستنتج من وصف الثورات التي حدثت بالقصر ان دار الصناعة كانت بهذا الجزء ايضاً وقد امكن معرفة مقر صاحب دار الصناعة . والى الشرق نجد رحبات مفردة وابنية لا يعلم الغرض منها وبينها بناء قائم على أعلى نقطة منها يرجح انه كان مسجداً

﴿ الثكنات ﴾ في الركن الشمالي الغربي من المساحة التي وصفناها تقع الثكنات ويرجح انها كانت ثكنات الخيالة. اما ثكنات المشاة فتفصلها عنها قطعة من الارض خالية من البناء وكان بهذه الثكنات ٦٠٠ غرفة ينزل بها ٣٠٠٠ من الجنود . وكان بالرحبة الكبرى ثلاثة مساجد لم تكن محاريبها على سمت القبلة تماماً . وتشرف هذه الثكنات على الحديقة وشاطىء دجلة لبنائها على مرتفع من الارض كما انها تقع الى جانب الشارع الاعظم الذي كان يصلها بالقصر وقد كان الطريق الوحيد الذي كان يصل جنوب المدينة بشمالها

الاصول المعمارية

الواجهة ذات الثلاث القناطر

كانت القصور الشرقية القديمة كقصر خرساباد (القرن السابع قبل الميلاد) تحتوي على قاعات طويلة مسقوفة بعقود نصف اسطوانية وبها ابواب جانبية

أما القصور التي بنيت في عهود تالية كقصور الساسانيين مثلاً (٢٢٨ - ٦٢٨ م) كقصر طيشفون وفيروز اباد وسروستان وقصر شيرين فكانت بعض قاعاتها تغطيها قباب ايضاً

وقد كانت الاقبية النصف الاسطوانية كثيرة الشيوع اذ ان القبو الأوسط الكبير منها كان يمكن ان ترتكز عليه اقبية أخرى اقل منهُ ارتفاعاً واتساعاً من الجانبين وهذه الاقبية اما أن تكون متصلة بهِ على زاوية قائمة او موازية لهُ . وقصرا طيشفون وفيروز اباد من الطراز الأول والقاعات الجانبية ابوابها معقودة وفتحات ابوابها ليست بالواجهة بل في جوانب الايوان الكبير

ويرى هرتسفلد ان الواجهة ذات الثلاث القناطر مستمدة على الارجح من اقواس النصر الرومانية ومن البوابات ذات القناطر الثلاث للشوارع ذات الاعمدة التي كانت قد انتشرت في جميع الشرق الادنى في ذلك الوقت . وكانت ملائمة غاية الملاءمة لتخطيط القصر الفارسي والعراقي لأنها كانت منافذ عظيمة معقودة تصل الواجهة بالحجرتين الصغيرتين الجانبيتين وكان ذلك تجديداً في هندسة القصور المذكورة . ولذلك كان القبوان الجانبيان موازيين دائماً لقبو الايوان الاوسط . ويشاهد ذلك في قصر الحضر (القرن ١ — ٢ ق . م) حيث تظهر هذه الظاهرة لأول مرة . ولكننا نجدها ثانية بعد ثلاثة قرون في قصر سروستان وفي النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي في قصر الاخيضر . وهي الظاهرة السائدة في قصر الخليفة بسامرا

ويقول اليعقوبي :—

« وولي الخلافة هارون الواثق بن المعتصم فبنى الواثق القصر المعروف بالهاروني على دجلة وجعل فيهِ مجالس في دكة شرقية ودكة غربية وانتقل اليهِ وزادت الاقطاعات وقرَّب قوماً وباعد ديار قوم على الخط الأعلى الابعاد فأقطع وصيفاً دار افشين التي بالمطيرة وانتقل وصيف عن داره القديمة الى دار افشين ولم يزل يسكنها وكان أصحابه ورجاله حوله وزاد في الاسواق وعظمت الفرض التي تردها السفن من بغداد وواسط والبصرة والموصل ، وجدد الناس البناء وأحكموه وأتقنوه لما علموا أنها قد صارت مدينة عامرة وكانوا قبل ذلك يسمونها العسكر

ثم توفي الواثق في سنة أثنتين وثلاثين ومائتين (٢٣٢هـ—٨٤٧م) وولي جعفر المتوكل بن المعتصم فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم . وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق وأنزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة وأنزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع

يقال لهُ بلكوار . (قامد) البناء من بلكوار الى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار اربعة فراسخ وزاد في شوارع الحير الشارع الجديد وبنى المسجد الجامع في اول الحير في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل بهِ شيء من القطائع والاسواق . وأتقنهُ ووسعه وأحكم بناءه وجعل فيهِ فوارة ماء لا ينقطع ماؤها وجعل الطرق اليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رياح في كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء لئلا يضيق عليهِ الدخول الى المسجد اذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله . ومن كل صف الى الصف الذي يليه دروب . وسكك فيها قطائع جماعة من عامة الناس . فاتسعت على الناس المنازل والدور واتسع اهل الاسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والاسواق في صفوف المسجد الجامع . وأقطع نجاح بن سلمة الكاتب في آخر الصفوف مما يلي قبلة المسجد وأقطع أحمد بن اسرائيل الكاتب أيضاً بالقرب من ذاك واقطع محمد بن موسى المنجم واخوته وجماعة من الكتاب والقواد والهاشميين وغيرهم

وعزم المتوكل ان يبني مدينة ينتقل اليها وتنسب اليه ويكون له بها الذكر فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين ان يختاروا موضعاً فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة وقيل له ان المعتصم قد كان على ان يبني ها هنا مدينة ويحفر نهراً قد كان في الدهر القديم . فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيهِ في سنة خمس واربعين ومائتين (٢٤٥ هـ) ووجه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة فقدر النفقة على النهر الف الف وخمسمائة الف دينار فطاب نفساً بذلك ورضي بهِ وابتدأ الحفر وأنفقت الاموال الجليلة على ذلك النهر واختط موضع قصوره ومنازله وأقطع ولاة عهوده وسائر أولاده وقواده وكتابه وجنده والناس كافة ومد الشارع الأعظم من دار اشناس التي بالكرخ وهي التي صارت للفتح بن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ الى قصوره وجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه وأقطع الناس يمنة الشارع الاعظم ويسرته وجعل عرض الشارع الاعظم مائتي ذراع وقدر أن يحفر في جنبي الشارع نهران يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي يحفره وبنيت القصور وشيدت الدور وارتفع البناء وكان يدور بنفسه فمن رآه قد جدَّ في البناء اجازه واعطاه فجد الناس وسمى المتوكل هذه المدينة الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسر من رأى مادّاً الى الموضع الذي كان ينزله ابنهُ ابو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ . وارتفع البنيان في مقدار سنة وجعلت الاسواق في موضع معتزل وجعل في كل مربعة وناحية سوقاً

وبنى المسجد الجامع وانتقل المتوكل الى قصور هذه المدينة أول يوم من المحرم سنة سبع وأربعين ومائتين (٢٤٧هـ) فلما جلس أجاز الناس بالجوائز السنية ووصلهم وأعطى جميع القواد والكتاب ومن تولى عملاً من الاعمال وتكامل له السرور وقال الآن علمت أني ملك اذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها . ونقلت الدواوين : ديوان الخراج ، وديوان الضياع ، وديوان الزمام ، وديوان الجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع الدواوين الا ان النهر لم يتم أمره ولم يجر الماء فيه الاَّ جري ضعيف لم يكن له اتصال ولا استقامة على انهُ قد انفق عليه شبيهاً بألف الف دينار ولكن كان حفره صعباً جدًّا انما كانوا يحفرون (حصا) وأنهاراً . لا تعمل فيها المعاول . وأقام المتوكل نازلاً في قصوره بالجعفرية تسعة اشهر وثلاثة أيام وقتل لثلاث خلونَ من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين في قصره الجعفري أعظم القصور وولي محمد المنتصر ابن المتوكل فانتقل الى سرَّ من رأى وأمر الناس جميعاً بالانتقال عن الماحوزة وان يهدموا المنازل ويحملوا النقض الى سرَّ من رأى فانتقل الناس وحملوا نقض المنازل الى سرَّ من رأى وخربت قصور الجعفري ومنازله ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة وصار الموضع موحشاً لا انيس به ولا ساكن فيه والديار بلاقع كأنها لم تعمر ولم تسكن. ومات المنتصر بسرَّ من رأى في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين ٢٤٨ هـ. وولي المستعين احمد ابن محمد بن المعتصم فأقام بسرَّ من رأى سنتين وثمانية اشهر حتى اضطربت اموره فانحدر الى بغداد في المحرم سنة احدى وخمسين ومائتين (٢٥١هـ) فأقام بها يحارب اصحاب المعتز سنة كاملة والمعتز بسرَّ من رأى معه الاتراك وسائر الموالي ثم خلع المستعين وولي المعتز فأقام بها حتى قتل ثلاث سنين وسبعة اشهر بعد خلع المستعين وبويع محمد المهتدي بن الواثق في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين (٢٥٥هـ) فأقام حولاً كاملاً ينزل الجوسق حتى قتل رحمهُ الله وولي احمد المعتمد بن المتوكل فأقام بسرَّ من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل الى الجانب الشرقي بسرَّ من رأى فبنى قصراً موصوفاً بالحسن سماه المعشوق فنزله فأقام به حتى اضطربت الامور فانتقل الى بغداد ثم الى المدائن . و ... »

ويقول اليعقوبي ايضاً « ولسرَّ من رأى منذ بنيت وسكنت الى الوقت الذي كتبنا فيه كتابنا هذا (كتاب البلدان) خمس وخمسون سنة ملك بها ثمانية خلفاء مات وقتل فيها خمسة . المعتصم، والواثق، والمنتصر، والمعتز، والمهتدي، وقتل في حريمها وفيما هو متصل بها وقريب منها اثنان المتوكل، والمستعين، واسمها في الكتب المتقدمة زوراء بني العباس ويصدق ذلك ان قبل مساجدها كلها مروية فيها زوراء ليس فيها قبلة مستوية . الا أنها لم تخرب ولم يذهب اسمها وقد ذكرنا بغداد وسرَّ من رأى وبدأنا بهما لانهما مدينتا الملك والخلافة » ا هـ

[يتبع]

طاقة من الشعر المعاصر

— ١ —

وحي الصحراء　　　　　　　　　　　　خالد الجرنوسي

ويحي وويحُ أخي من الصحراء　　　بانت تجدد لي قديمَ الداء

شفت اصائلها ورق نسيمها　　　وتوالت الأرواح في إغرائي

وصحا فؤاد كنت أحسب انهُ　　　سيزُ أهلَ الكهف في الاغفاء

طافت بهِ أشباح حُلم قد مضى　　　فمضت بهِ في جنة خضراء

كلٌ يذكرني بما أُنسيتهُ　　　بالغادة البيضاء ، بالصهباء

بملاعب البيض الحسان ولهوها　　　بمطالع الأقمار ، بالرقباء

دنيا دخلناها غراماً حافلاً　　　وتركتها نضراء من حوائي

ذهبت باسباب الجمال وأعقبت　　　شعراً ينوح منائح الورقاء

ما كدت أذهب في جديد ودادها　　　حتى ذكرت مودة القدماء

هيهات أنساهم وتلك طيوفهم　　　ملأت نواحي القلب بالاضواء

قد تذهب الأحياء الأ ذكرهم　　　فتجدد الاصباح والامساء

أنا لا أعيش لساعتي لكنني　　　استلهم الساعات وحي بقائي

كم ساعة في عمري الماضي دنت　　　تُروى غليل القلب بالأنداء

ولربَّ يوم بالمودة سرني　　　ذُكَّرته فنسيت يوم شقاء

يا ملعبَ الآرام أين منازلٌ　　　ليَ فيك لم تظفر بها اعدائي

يأوي اليها اللاعبون يلفُّهم　　　ليلُ الهوى بستائر الظلماء

وأنا الذي خلّدت فيك قصائدي　　　عارٍ من الأحباب والخلصاء

ولربَّ أرض لا تضيق بشاعرٍ　　　كانت أبرَّ من الحبيب النائي

— ٢ —

أطلال الماضي — لعبد السلام رستم

لعينيَّ من وحي الشعور مصوِّرُ ... يريها من الأشياء ما ليس تبصر !!
يريها من الاشياء في لمحاتها ... تصاوير أحلام تجيء وتعبر
تشابه أفواف السحاب ، فتنظر ... يلاحقهُ من جانب الفكر منظر
ظلال يوشيها الخيال بوشيهِ ... فتبدو حياة في الحياة وتبهر
حييت بها في سالف العمر حقبة ... وعادت بمكنون السرائر تخبر !

***

سوالف أيام الشباب وصبوتي ... وما كان ، وردٌ للفؤاد ومصدر
تولّت بما فيها من الخير والجنى ... وظل لها في النفس رسمٌ مسطّر
فليس أمامي غير دنيا ، نعيمها ... مضى في طوايا الأمس والأمس مدبر
أقلّب في أغوارها ونجادها ... وأنقب في وديانها وأحفّر
فلا مطلعٌ الآ ولي فيهِ لفتة ... ولا موضعٌ الا ولي فيهِ عنصر (١)
تبين فيهِ ، رنقه المتكدّر !! ... كربهِ الصدى ، أو روقه المتطهر !!
فأخلص منهُ صفوه ، وأعيده ... رقيق الحواشي كالشفافة يظهر (٢)
كأني بهِ — والعمر يقطع خطوه — ... على الدهر لا يبلى ولا يتغيّر
لياليهِ بالعيش البهيج ، وبدره ... كما كان ألآق المحاسن يخطر
وما زال في مغناه يشرق زاخراً ... ويقبل وضاح الجبين ينوّر
وما زال في غدواتنا ورواحنا ... مكان الهوى والحب لا يتحدر !!
فماذا على السالي الذي قد عشقته ... فضاء ، يشيع الحسن فيه ويعطر ؟
وماذا على السالي الذي كان حبه ... ربيعاً بأزهار الملاحة يسفر ؟

(١) العنصر — الروح ومعروف عند علماء الطبيعة بانه جزء من المادة (٢) الشفافة — بقية النهار

لو ارتدَّ بالماضي وضم شتاته فعشنا على تلك الذخائر نذكر !!

فلو كان يدري كيف رق بذكره فؤاد يقيس العمر من حيث يشعر

لجاء بشيراً باللقاء ، وصوته غريد لهُ في القلب صنجٌ ومزهر

فليست حياة المرء في طول عمره ولكنه بالقلب يحيا ويعمر !!

***

سوالف أيامي ، وما أنتِ في البلى فانك في عيني صحائف تنشر

وأنك أطلال الشباب وعهده وأحياؤه عندي وان غبن حضَّر

بل انت في الماضي ، وفي ضوء حاضري الى الموت ، نجواي التي ليس تقبر !

—٣—

صوت الشيطان !! لعبد الحميد الديب

كل شيء أشهد الله عليا فرَّت الدنيا جميعاً من يديا

لا تقل لي كيف تحيا سادراً أنا ميْت بين قومي لست حيا

سر هذا البؤس أني شاعر قد أفاد الدهر مني عبقريا

عند ما كنت بحالي قاصفاً كنت أصغي للمصلي يتهيا

رنة التكبير في سمعي محت رنة الكأس وأودت بالحميا

والمصلون لدى تسبيحهم صيروا الندمان في عيني نسيا

مظهر التسبيح والتقوى بهم قد سقاني الكأس إيماناً سريا

يا صبوحي يا غبوقي ضلة لكما مني بكوراً او عشيا

وهبطت الروض والليل سجى قد أجنَّ الطير والورد النديا

كل ما في الروض حتى تربه سبح الديان تسبيحاً خفيا

وهنا أدركت أني لم أعش وأنا المسلم الاَّ جاهليا

قد تخذت الشعر توحيدي ولم أتطهر فجنى الشعر عليا
بينما أسرف في وصف الطلى والهوى لم ادخر لله شيا
أنا أو أبليس للدنيا عمى هو خافٍ وأنا أبدو جليا
قلت ربي ! وأنا جاثٍ لهُ فحباني لطفه قلباً رضيا
تبت من ذنبي ومن ترجع بهِ نفسهُ لله يبعثهُ نقيا
توبة من بعد أن فزت بها كل شيء صار في عيني هنيّا
فتراني في السموات العلى أصحب الشمس وتعنو لي الثريا
ولدى سدرتها في موكب ما حوى إلاَّ ملاكاً أو نبيّا
وعلى الأرض شهاباً لامعاً من بياض القلب أو نور المحيا
فتحت أبواب أرزاقي بها فسقاني خيرها شهداً وريّا
ونأت عنيّ همومي بعد ما اصبح القلب من الدنيا خليّا
وسل الليل فما أغفو بهِ غير أرماق وما تجدي عليا
هذه آية عشقي كلما جنَّ ليلي ظلت سهران مليا
لا يواتيني الكرى حتى أرى طيف حبي فأحيي واحيّى
فاذا حدثتني ألفيتني غائب المهجة لله تحيّا

***

أين شيطاني وأين ريحه كان يهفو في الدجى روحاً عتيّا
أكله أو شربه من مهجتي في ظلام الشك أفاقاً شقيا
فقضى يوم الهدى اذ لم يجد أي شرع ينتحي منهُ اليا
جنة المحراب تشوي جسمه وأنا لم أخش بيناً او نديا
مات شيطاني وها كم جنده هينموا بالدمع اشباحاً بكيا

ملكا العقاقير

السلفانيلاميد والسلفابيريدين

وصف فعلهما العجيب

المكتشفات العظيمة في حلبة العلاج الكيميائي نادرة . فعلى الرغم مما بذل من جهد عظيم ومال طائل في سبيل الكشف عن مواد او عقاقير جديدة تؤثر تأثيراً شافياً حاسماً في بعض الامراض ، لايسع علماء الطب الا الاكتفاء بالاشارة الى بضعة عقاقير نوعية فقط من قبيل الكينا

ولذلك يجب ان يعتبر التقدم الحديث في كشف مواد كيميائية تصلح للعلاج مستهلَّ عصر جديد في طريقة العلاج الكيميائي . فقد أسفر البحث في خلال الاربع السنوات الاخيرة عن كشف عقارين جديدين يلوح ان قيمتها في الطب عظيمة حقًا

أحد هذين العقارين هو المعروف بالسلفانيلاميد Sulphanilamide (راجع مقتطف مايو ١٩٣٩ صفحة ٥١٧) المستعمل الآن في علاج اصابات كثيرة يسببها نوع من البكتيريا يعرف باسم الستربتوكوك من صنف بيتا الفاتك بكريات الدم الحمر (hemolytic) . ومن الاصابات التي يسببها هذا النوع من البكتيريا ، الحمرة ، حمى النفاس ، تسمُّم الدم، التهاب الحلق، الالتهاب السحائي. ثم ان استعمال السلفانيلاميد قد قلب معالجة السيلان رأساً على عقب وهو يفيد في جميع انواع النومونيا (التهاب الرئة) وان كان بعض الثقات يشك في فائدته في بعضها

وأما العقار الآخر فهو السلفابيريدين Sulphapyridine وهو مشتق من السلفانيلاميد وينافسهُ بل ويفوقهُ في تأثيرهِ ويتميَّز عليهِ في انهُ ناجع في حالات الاصابة بالبكتيريا المعروفة باسم ستافيلوكوك. وهي البكتيريا التي تحدث الصديد الاصفر . ولا يعلم حتى الآن مكانة السلفابيريدين في علاج النومونيا على وجهٍ من الدقة العلمية ، على الرغم مما تنشرهُ الصحف . فالاطباء الانكليز اميل الى التفاؤل من غيرهم ، ولكن يجب ألاَّ ننسى ان هذين العقارين حديثا العهد وأن التجارب بهما لم تستوف بعد ، ولا بدَّ اذن من المضي في الاعتماد على طريق المصل عند معالجة النومونيا ، الى ان ينجلي كل غامض وينقطع كل شك

وسواء انجحت معالجة النومونيا بهما النجاح الباهر المتوقع ام لم تنجح ، فان السلفانيلاميد والسلفابيريدين عقاران نوعيان نادران . واكتشاف الثاني بسرعة بعد البدء في استعمال الاول

يدلُّ على اننا امام جزيء كيمياوي ، يتصف بخواص فسيولوجية عجيبة . واذا كان السلفا بيريدين — وهو مشتق من السلفانيلاميد — افعل من الاصل الذي اشتقَّ منهُ ، فلا يبعدان تكون هناك مشتقات اخرى لها فائدة كبيرة في العلاج ،ضدَّ انواع اخرى من البكتيريا المرضية — اعدى عداة الانسان وأخبثها — التي لم يوجدلها شا كم او رادع حتى الآن

الاسم الكيمياوي للسلفانيلاميد هو (بارا — امينو — بنزين — سلفوناميد) فاختصر رأفة بالكتاب والصيدليين وعامة الناس . كشف جزيئهُ اولاً سنة ١٩٠٨ على يد بعض كيمائيي صناعة الاصباغ بالمانيا . وانقضت خمس سنوات اقترح في خلالها استعمال هذه المادة في العلاج الكيمياوي . وفعلاً كشف ان طائفة من المواد المشابهة لها ، ذات فعل مقاوم للبكتيريا ولكنهُ فعل محدود التأثير . وفي سنة ١٩٣٥ تمكن علماء المان بارشاد الدكتور دوماك Domagk من ان يثبتوا ان البرونتوزيل فعال في مقاومة الالتهاب الستربتوكوكي في الفئران . وفي خلال مدة وجيزة انتشر استعمال البرونتوزيل في عيادات مختلف البلدان . ثم اظهر البحث ان الجزيء الفعَّال في جزيء البرونتوزيل هو (البارا — امينو — بنزين — سلفوناميد) اي السلفانيلاميد . ولكن يلوح ان البرونتوزيل ومشتق جديد منهُ يدعى نيوبرونتوزيل لهما فوائد معينة لا يغني عنها استعمال السلفانيلاميد ولا السلفابيريدين

البكتيريا ثلاثة اشكال بوجه عام . العصوية والحلزونية والكروية . وهي جميعاً مجهرية اي لا ترى الاَّ بالمجهر . وتعرف الكروية بكاسع يضاف الى آخر الاسم « كوكس Coccus »

ومن البكتيريا الكروية ما ينمو كتلاً متصلة بعضها ببعض فتتألف حبال حبيبية منها . هذه البكتيريا تعرف باسم « ستربتوكوكس » وبحذف السين الاخيرة نقول ستربتوكوك وننسب اليه

والبكتيريا الستربتوكوكية اعدى عداة الانسان ، فهي في كل مكان ، وشبح خطرها ابداً ماثل امامنا . عنها تنشأ اصابات وأمراض اكثر مما ينشأ عن اي نوع آخر من البكتيريا . وأشد البكتيريا الستربتوكوكية خطراً هي التي تفتك بكريات الدم الحمر (hemolytic) . والبكتيريا الستربتوكوكية التي تفعل هذا الفعل ضروب شتى ، من اخبثها الضرب الموسوم بحرف « بيتا » اليوناني الذي يحدث تسمُّم الدم والتهاب اللوزتين الحاد والتهاب الحلق التسممي او الوبائي ، والحمرة ، والحمى القرمزية وغيرها . والبرونتوزيل هو العقَّار الاول في التاريخ الذي كان فعَّالاً في مكافحة هذه البكتيريا . واذا استثنينا الحمى القرمزية فالعلم الطبي لم يكشف قبله طريقة ما لعلاج هذه الحالات

ومن المبالغة في القول ان البرونتوزيل او السلفانيلاميد يكفي لعلاج السيلان علاجاً ناجعاً في ثلاثة ايام . والسيلان حالة يسببها احد البكتيريا « الكوكية » التي تنمو ازواجاً ولذلك تعرف باسم « ديبلوكوك » . والعقار الجديد فعَّال في مكافحة هذا النوع من الجراثيم ، وانما العلاج

يحتاج الى اسابيع ، وعدد غير يسير من المصابين لا يفيد من العلاج شيئاً . ولكن هذه العقاقير لا مثيل لها في ما يعرف من العقاقير في فعلها الشديد ضدّ هذا النوع من البكتيريا

وكان من الطبيعي ان يكون اكتشاف البرونتوزيل والسلفانيلاميد وما لهما من فعل عجيب في مكافحة طائفة من انواع البكتيريا المرضية ، باعثاً على اكباب العلماء على البحث والاستقصاء وقد صنعت فعلاً مئات من مشتقات السلفانيلاميد وامتحنت في اصابات شتّى في الحيوانات والانسان ، وفي السنة الماضية نشر الطبيب الباحث الانكليزي وتبي Whitby رسالة وصف فيها تجاربهُ التي امتحن فيها جزيئات اربع وستين مادة مختلفة . فكانت مادة السلفابيريدين Sulphapyridine اقربها الى النجاح بعد امتحانها بالفئران . وتأثيرها بوجه عام يشبه تأثير السلفانيلاميد ويفوقهُ من ناحية التأثير في « الستربتوكوك » ويمتز السلفابيريدين بتأثيره « بالستافيلوكوك » وهو نوع البكتيريا الذي يحدث الصديد في البثور والدمامل

وقد اتسعت الآن ابحاث وتبي الاولى . واذا ثبت ان السلفابيريدين لهُ تأثير ضارّ يجب اجتنابهُ او الاحتياط لهُ احتياطاً شديداً على الاقل ، فالراجح انهُ سيستعمل ضدّ الستافيلوكوك وقد يحلُّ محلّ السلفانيلاميد في علاج السيلان . ولا يخفى ان السلفانيلاميد والسلفابيريدين والمركبات التي تمت اليهما بصلة القرابة الكيميائية مواد سامة ، لان كل عقار فعّال هو بطبيعته مادة يكمن فيها الفعل السام ، لشدة تأثيرها في الخلايا الحية تأثيراً قد يكون هو الفاصل بين موتها وحياتها . ولذلك حظرت الحكومة بيع العقاقير الجديدة الاّ بأمر طبيب. والسلفابيريدين نفسهُ لم يوزع على الصيدليات بعد . فمن المتعذر الحصول عليه ولو وصفهُ الطبيب. واستعماله الآن قاصر على كبار الخبراء والمجربين فقط لانهُ عقار لم يتخطّ دور التجربة بعد . وقد أثبت الاختبار ان المصاب الذي يعالج نفسهُ بالسلفانيلاميد بغير وصف الطبيب او اشرافه قد يقتل نفسهُ . فمن مظاهر تأثيره في الجسم ، الدوار (ولذلك يجب ان ينبه متناولهُ الى الامتناع عن سوق السيارة) وضعف اليقظة الذهنية وارهاف الاحساس بالضوء ، وفقر دم مفاجيء حاد وحموضة حادة في الدم acidosis وفقد كريات الدم البيض ، والصداع والغثيان ، والجنون المؤقت

ولكن اذا كان استعمال السلفانيلاميد وفقاً لارشاد طبيب خبير وباشرافه ، فوفاة المصاب لا تحدث والشفاء التام مؤكد من الاعراض التي قد تظهر نتيجة لتناول العقار . والسلفانيلاميد قد انقذ حتى الآن الوف الناس كل سنة منذ اكتشافه . وما يقال فيه يمكن ان يقال في السلفابيريدين بوجه عام . وكلاهما يحضّر الآن بلورات ومسحوقاً في اقراص وسائلاً للشرب . والأخذ بالفم مفضّل ولكن الحقن ضروري في بعض الحالات حيث تؤثر المادة في نظام هضم المصاب فتقلقهُ . ويؤخذ مع العقار عادة بيكربونات الصودا منعاً لخطر الحموضة الحادة . وعلى كل حال لا بد من اشراف الطبيب اشرافاً دقيقاً

وقد اذاع الدكتور لونغ احد اساتذة المدرسة الطبية بجامعة جونز هبكنز الاميركية ان في الوسع منع معظم وفيات النومونيا اذا عولجت الاصابات بالعلاج الصحيح في اليوم الاول . والغالب انهُ من المتعذر منع جميع الوفيات لان المصابين بالنومونيا قلما يذهبون الى الطبيب في اليوم الاول من اصابتهم بل قد لا يستدعونهُ الاّ اذا اشتد المرض عليهم

والعلاج الذي يقترحهُ الدكتور لونغ هو «السلفابيريدين» . فباستعماله هبطت الوفيات بالنومونيا في مستشفيات جونز هبكنز اكثر من ستين في المائة . ولم يتوفَّ بها من اول يوليو ١٩٣٨ عندما بدأ استعمال هذا العقار الاَّ ثمانية مصابين . ومن هؤلاء الثمانية اعطي اربعة المصل الخاص بالنومونيا وحده . ومصاب واحد اعطي المصل والسلفابيريدين والثلاثة الباقون اعطوا السلفابيريدين وحده . وكان عدد المصابين بالنومونيا الذين عولجوا في خلال هذه الفترة في المستشفى ١٠٧ مصابين

ويرى الدكتور لونغ ان استعمال المصل ليس لازماً اذا امكن اعطاء المصاب السلفابيريدين في اليوم الاول من اصابتهِ . وفي هذا توفير كبير لان استعمال المصل الخاص يقتضي نفقة كبيرة . ثم ان المصل الخاص بضرب معين من النومونيا ليس في المتناول دائماً حالة ان السلفابيريدين فعَّال في جميع انواعها على السواء . وزيد فعل السلفابيريدين باضافة الصوديوم اليهِ . وغدا في الوسع حقن العقَّار في شريان المريض لأن بعض المصابين يعجزون عن ازدرادهِ . ثم ان الحقن يجعل الفعل اسرع من الشرب فلا تمضي خمس دقائق على الحقن حتى يظهر أثره

ويلوح ان هذا العقار ينقذ المصابين بالنومونيا من طريق ابطائهِ لتكاثر جراثيمها وهذا يتيح للمصاب ان يستجمع قوى الدفاع عن الجسم لتقوم بمهمتها . وبعد ان يدخل العقَّار الجسم تهبط الحرارة ولكن المصاب يظل في حكم المصاب بالنومونيا حتى تتمكن قوى الدفاع عن الجسم من التغلب على الجراثيم

وقد عني طبيبان من اطباء معهد مايو الاميركي وهما الدكتور فلدمان والدكتور هنشو ببحث تأثير هذا العقَّار العجيب في السل . فأخذا جماعة من الخنازير الهندية ، وهي شديدة التعرض للاصابة بالسل البشري وحصَّناها ضد جراثيم السل بهذا العقار ، فحقناها بجرعات كبيرة منهُ بضعة ايام قبل حقنها بجراثيم سل قاتلة ومضيا في حقنها بالعقَّار مرتين كلَّ يوم في خلال مدة التجربة

كانت الحيوانات التي عولجت بالسلفابيريدين اثني عشر خنزيراً هنديًّا . وبعد انقضاء ثلاثة اسابيع على حقنها بجراثيم السل ثبت ان ستة منها لم تصب بأعراض السل لا في الكبد ولا في الطحال ولا في الرئتين . وظهرت اعراض سلٍّ لا ريب فيها في هذه الاعضاء في أحد الخنازير . اما البقية فقد ظهرت الاعراض فيها في الطحال فقط . وقد ظهرت أعراض السل في جميع هذه الاعضاء في اثني عشر خنزيراً آخر حقنت بنفس حقنة الجماعة الاولى اي بجراثيم سل بشري قاتلة ولكنها لم تحصن بالسلفابيريدين . ولا يعني هذا البحث انهما يقطعان بفائدة السلفابيريدين في شفاء السل او منعهِ وانما يقولان ان بحثهما يبعث على العناية بنتائجهِ وأنهما ماضيان على كل حال فيهِ

الانزيمات

النظريات الحديثة في طبيعة عمل الانزيم

لرضوان محمد رضوان

من المشاهدات الملموسة ، أن تفاعلات المركبات العضوية داخل الكائن الحي ، تسير بسرعة حثيثة ، ونحن نعلم ان سرعة هذه التفاعلات داخل المعمل الكيميائي بطيئة جداً . فهذا الفارق الذي نراه بين سرعة التفاعلات العضوية في الاحوال الصناعية كالحرارة والضغط والعوامل المساعدة داخل المعمل، وسرعتها داخل الكائن الحي ، ناشئ عن وجود عوامل مساعدة عضوية Organic Catalysts داخل البروتوبلازم الحي يطلق عليها اسم الانزيمات Enzymes فيمكننا القول اذاً ، ان الانزيمات هي عبارة عن المواد التي تكوّنها الخلايا الحية ، وتكون لها القدرة على احداث تغيرات كيميائية بدون ان تصير هي نفسها جزءاً من المحصول النهائي،اي أنها لا تتحد بالمواد التي يحدث فيها التفاعل الكيميائي ، وبعبارة أخرى هي العوامل المساعدة للمادة الحية

وظاهرة العوامل المساعدة مشاهدة بكثرة في الكيمياء المعدنية والعضوية ، فمثلاً يستخدم ثاني اكسيد المنجنيز في تحضير الاكسجين من كلورات البوتاسيوم ، ويساعد البلاتين الاسفنجي على أكسدة ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت في عملية تحضير الحامض الكبريتيك التجاري . ويكون التحليل المائي لسكر القصب الى سكر جلوكوز وفراكتوز بطيئاً جداً في حالة وجود الماء فقط،فاذاما أضفنا قليلاً من الحامض الكبريتيك أو الحامض الكلوردريك الى المحلول ، ازدادت سرعة التحليل ازدياداً عظيماً ، الى غير ذلك من الامثلة العديدة لهذه المركبات الكيميائية التي تقوم بمساعدة التفاعلات دون أن يكون لها أي نصيب فيها . ويمكننا حصر خواص العوامل المساعدة فيما يلي :—

١ — لا يظهر العامل المساعد كمادة أولية initial ولا كمحصول نهائي end product ، كما ان تركيبه لا يعتريه اي تغيير بعد انتهاء التفاعل ٢ — تتغير سرعة التفاعل ، وغالباً ما تزداد، وتتناسب سرعة التفاعلات تناسباً طردياً مع المقدار الموجود من العامل المساعد ٣ — يلاحظ ان العوامل المساعدة لا تحدث تفاعلاً لا وجود له ، فكل عملها ينحصر في معادلة التفاعل الموجود ، فتزيد

من سرعته بعد ابطائه ، كما ان المقدار الصغير من العامل المساعد يساعد على انتاج مقادير كبيرة من المركبات المطلوبة . وان أغلب خواص الازيمات تشابه جميع خواص العوامل المساعدة المذكورة وتختلف عنها في كونها تقتل بالحرارة ، ولكل ازيم تأثير خاص في المادة يخالف تأثير اي ازيم آخر في نفس المادة

***

إن اغلب التفاعلات التي تحدثها الازيمات هي تفاعلات عكسية Reversible ، أي أن التغير الذي تحدثه في مركب ما ، يستمر حتى يصبح المركب الناتج في حالة توازن مع المركب الأول ، ومن هذا يتضح أن الازيمات لا يقتصر عملها على التحليل المائي فحسب ، بل أنها تقوم أيضاً بأعمال بنائية ، أي انها تبني المواد المعقدة التركيب من مواد أخرى أبسط منها ، فمثلاً ازيم الانفرتاز Invertase يحلل سكر المولت مائيًّا الى دكستروز ، ثم اذا وضع في محلول مركّز من الدكستروز ، فانهُ يبني مقداراً صغيراً من المالتوز الى أن يحدث التوازن

الازيمات وخواصها العامة

١ — تتميز الازيمات بنشاطها الشديد عند توافر العوامل المناسبة ، فالمقدار القليل منها لهُ القدرة على احداث تغيير في مقدار من المركب الكيميائي الذي تؤثر فيه ، يعادل وزنهُ مئات المرات ، وذلك بدون أن يتأثر الازيم ، أي انهُ يبقى على حالته قبل احداث التغيير . فمثلاً ازيم الكتالاز Catalase يحلل ٢٢٠ مقدار وزنه من فوق اكسيد الايدروجين الى ماء واكسجين . في وسع أزيم الانفرتاز أن يحلل ستة أمثاله في الوزن من سكر القصب الى سكر محول

٢ — معظم الازيمات غروية التركيب ، أي انها لا تنفذ خلال الأغشية ، وبعض هذه الازيمات يوجد بداخل الخلايا التي كوّنتها مؤدّياً وظائفه الخاصة فلا يمكن استخراجها الاّ بعد اتلاف جدران الخلايا والأنسجة الأخرى التي قد تحيط بها وتسمى Intra-cellular ، والبعض الآخر يوجد على صورة افرازات تفرزها غدد خاصة وتدفع بها الى أعضاء أخرى مثل المعدة والأمعاء في الحيوان ومثل البذور في النبات . وهذه الازيمات يمكن استخراجها من الأنسجة بواسطة الماء وتسمى Extra-cellular

٣ — لكل ازيم تأثير خاص به Specific effect ، أي يكون له اتجاه خاص في التفاعل ، فيؤثر في مجموعة من المركبات لها تركيب جزيئي متشابه ، ولهذا نشاهد أن لكل مركب ازيماً يختص بتحليله ، ولو أن هناك بعض الازيمات القليلة مثل ازيم المالتوز Maltase يساعد في التأثير في مجموعات متعددة من مركبات متشابهة

٤ — لدرجة حرارة البيئة التي توجد بها الازيمات المختلفة تأثيران مهمان : الأول ازدياد سرعة التفاعل بين الازيم ومركبات البيئة ، مثله في ذلك مثل التفاعلات الكيميائية الأخرى . والثاني تأثير الازيم نفسه بارتفاع درجة الحرارة ، فكلما ارتفعت الحرارة قلّ نشاطه وعمله الى أن يتلف تماماً بتأثير الحرارة العالية ، ومعظم الازيمات يتلف عندما تبلغ درجة الحرارة أقل من درجة الغليان اذا ما كانت في محلول مائي ، ولكن اذا كانت في حالة جافة تكون اكثر مقاومة للحرارة ، فتتحمل ارتفاع درجة الحرارة الى درجة اكبر من الغليان . ومتى قتلت الازيمات لا يمكن أن يعود اليها نشاطها ثانية ، وتقوم الازيمات بعملها على الوجه الأكمل على درجات مئوية حرارة مخصوصة ، فالازيمات التي في أجسام الحيوانات يوافقها درجة حرارة الدم أي ٣٧° سنتجراد ، والازيمات النباتية تلائمها ٢٥° مئوية

٥ — يزداد نشاط الازيمات على درجات خاصة من الحموضة والقلوية ، فهي من هذه الناحية شديدة الاحساس جداً ، وهذه الدرجات تختلف كثيراً باختلاف الازيمات ، وإن اختلافاً ولو كان بسيطاً في التأثير المطلوب Reaction للازيم يقلل كثيراً من عمله ، وقد يوقف عمله بالكلية فمثلاً إزيم البيسين (ازيم المعدة) لا يظهر نشاطه الا في وجود وسط حامض بسيط ويحد من نشاطه وجود اي أثر قلوي ، وهذا بعكس ازيم الأمعاء — التربسين — فانه لا يظهر عمله الا في وسط قلوي . وعلى العموم فان جميع الازيمات تتلف صفاتها في البيئات ذات القلوية الزائدة او الحموضة العالية

وفيما يلي بعض الازيمات المهمة وأفضل قيمة لرقم PH بيئة كل منها (اي درجة الحموضة او القلوية)

اسم الازيم	قيمة رقم P H	اسم الازيم	قيمة رقم P H
ازيم البكتاز	٣ر٤ — ٦	« اللاكتاز	٤ر٤ — ٩٨ر٥
« الانفرتاز	٥ر٤ — ٧	« البروكسيداز	٥ — ١ر٥
« المالتوز	٢ر٦ — ٦ر٦	« الكتالاز	٣ر٦ — ٧
« الدياستاز	٥ر٦ — ٧		

ويقلل من نشاط الازيمات ، ولكن لا يقتلها ، وجود اي حامض او قلوي تزيد قوته عن $\frac{س}{١٠}$ (عشر أساسي) ولا يظهر تأثير كل منها الا في وجود مقادير قليلة من املاح متعادلة خاصة

٦ — الازيمات تذوب في الماء ، وتترسب بالكحول والاسيتون ، واكبر ما يكون فعلها الكيميائي في الظلام ، اذ أن أشعة الشمس وكذا اشعة الراديوم والاشعة السينية تعطل عملها ، وبعض الازيمات تحتاج الى املاح مخصوصة لكي تنشط في عملها مثل أزيم Renain يلزم له املاح الكالسيوم

٧ — لا تتأثر الازيمات بالمطهرات ، بينما يتأثر البروتوبلازم به وبذا يضعف نمو الخلية . ومعظم

الازيمات يتأثر بنتاج التفاعل. فمثلاً ازيم الزيماز يتلف بالكحول اذا ما بلغ تركيزه الى درجة معينة

توجد الازيمات في كل كائن حي ، حتى في الاحياء الدنيئة مثل البكتريا والفطر والخمائر ، فنحن نعلم ان هذه الكائنات تتغذى بالانتشار الغشائي وان المواد التي تتغذى بها يجب ان تكون اولاً ذائبة في الماء خارج الخلية ، وذلك ان تلك الاحياء لا تستطيع ان تتغذى بالمواد الصلبة ، ولما كانت الميكروبات تستعمل كثيراً من المواد المعقدة مثل السليولوز والنشا والدهون وغيرها من المركبات التي لا تذوب في الماء ، وعلى ذلك كان لابد لتلك الميكروبات من ان تحدث في هذه المواد تغيرات كيمائية ، حتى تصبح ذائبة فتنتشر في الخلية ، وفعلاً وجد ان للميكروبات القدرة على احداث التغييرات المطلوبة ، ولذا اطلق عليها في بادىء الامر اسم خمائر حية Organised ferments ، تمييزاً لها من الخمائر غير الحية كالعصير المعدي والمعوي وغيرها ، ثم وجد بعد ذلك ان للميكروبات القدرة على احداث تغيرات كيمائية داخل خليتها بواسطة مواد تشابه تلك التي تفرزها خارج الخلية ، وعلى هذا اطلق على هذه المواد عموماً كلمة ازيم ، وقسمت الازيمات الى قسمين رئيسين:

١ — الازيمات الخارجية : وهي التي تفرز خارج الخلايا ، وتؤثر في المركبات الغذائية المعقدة التي لا تذوب في الماء ، فتحولها الى مواد بسيطة يسهل امتصاصها

٢ — الازيمات الداخلية : وهي التي تبقى داخل الخلية ، وتحدث التفاعلات الكيميائية في البروتوبلازم لانتاج المجهود وكافة العمليات النمائية ، كما انه يمكنها بعد موت الخلية ان تسبب الاذابة الذاتية Autolysis

يكثر وجود الازيمات في اعضاء الحيوانات وغددها التي تحدث بها العمليات الحيوية السريعة كما في القناة الهضمية والدم والمخ ، وكذا توجد في جميع الخلايا الحية النباتية ففي انبات البذور مثلاً تحول الازيمات مواد الاندوسبرم المخزنة الى مواد ذائبة ، وبذا يمكن نقلها الى الانساج البارزة

ولقد حاول العلماء بشتى الوسائل ان يفصلوا الازيمات بحالة نقية ، ولكن ذهبت كل تلك المحاولات عبثاً ولم تصادف اي نجاح ، ولذلك فاننا لا نعرف على وجه التحقيق تركيبها الكيميائي ، ولما كانت الازيمات هلامية التكوين ، فهي لذلك تندمج في البروتينات والكربوايدرات وغيرها ، وبذلك تكتسب خواصها حتى ان كثيراً من الباحثين وصفوا بعض الازيمات التي درسوها بأنها كربوايدرات ، والبعض الآخر بأنها بروتينات ، ولكن دلت الابحاث الاخيرة ، على أنه لو عرضت تلك الازيمات للمواد التي تحلل الكربوايدرات او البروتينات ، لفقدت كل خواص البروتين او السكر ، دون ان يتعرض نشاطها لتأثيرما . وهذا يفسر لنا ان صفات البروتين او الكربوايدرات التي في بعض الازيمات انما هي الا صفات مكتسبة وليست هي صفات الازيمات الاصلية ، ولقد كانت تسمية الازيمات في بادىء الأمر ترتكن على اعتبار أنها بروتينات ، فقد كانت

الأسماء المعطاة لها منتهية بالحرفين in على نمط بروتين Protein ، فلما ثبت عدم صحة هذه النظرية، اتجه الرأي أخيراً الى تسمية الانزيمات باسماء المركبات التي تؤثر فيها مضافاً اليها المقطع ase (آز) ، فمثلاً يسمى الانزيم الذي يؤثر في السليولوز ، سليولاز والذي يؤثر في الجلوكوز جلوكاز والذي يؤثر في الدهون ليباز وهكذا ، ويطلق على المادة التي يؤثر فيها الانزيم فيحللها مائيا اويؤكسدها او يحدث بها اي تغير كيماوي آخر اسم Substrate

ومن الانزيمات ما يقوم بعملية التحليل المائي وتسمى هيدرولاز وأخرى تساعد على التأكسد ولسهولة دراسة الانزيمات تقسم الى ثلاثة اقسام رئيسية

تقسيم الانزيمات العلمي

أولاً — انزيمات هيدروليتية ، وهي الانزيمات التي يمكنها أن تحلل المواد المعقدة الى مواد أبسط منها باضافة الماء أي بالتحليل المائي

ثانياً — انزيمات مؤكسدة ومجزئة . فبعضها يؤكسد مركبات مخصوصة بواسطة أكسجين الهواء الجوي، أو الاكسجين المأخوذ من مواد سهلة الاختزال، والبعض الآخر يحدث تغييراً في ترتيب الذرات في داخل الجزيء ، وبذا تنتج اكسدة داخلية وينقسم الجزيء الى جزيئين أو اكثر

ثالثاً — انزيمات مختزلة ، وهي تساعد على الاختزال الذي يحدث دائماً عند ما تبنى المواد الغذائية من مواد بسيطة غير عضوية ، كتكوين السكر من ثاني اكسيد الكربون والماء . والآن سنتكلم عن كل قسم منها بالتفصيل : —

أولاً : (الانزيمات الهيدروليتية) وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام

ا — انزيمات تؤثر في المواد الكربوايدراتية

ب — انزيمات تؤثر في المواد البروتينية

جـ — انزيمات تؤثر في المواد الدهنية

ا — « الانزيمات التي تؤثر في المواد الكربو ايدراتية » : تساعد على انحلالها الى سكريات بسيطة بواسطة التحليل المائي وهي تشتمل على انزيمات عديدة أهمها ما يلي : —

١ — انزيم البكتيناز : وهو الانزيم الذي يذيب المواد البكتينية التي توجد في معظم النباتات مكونة للطبقة الوسطى ، وهذا الانزيم هو العامل الاساسي في تعلق الفطريات ، فهو يؤثر في البكتين في الجدار المتوسط للنبات فيذيبه ، وتكون النتيجة انفصال الخلايا بعضها عن بعض ، وبذا يصبح الطريق ممهداً لدخول الفطر

٢ — انزيما الدياستاز والانيولاز : من اكثر الانزيمات انتشاراً في النباتات، يوجدان في

الحبوب والجذور والدرنات والاوراق وكذا في بعض انواع البكتريا والفطر . ويحلل الدياستاز النشا تحليلاً مائيًا الى دكسترين ثم الى مالتوز ، واما ازيم الانيولاز فهو يحلل الانيولين الى سكر الليفيولوز

٣ — ازيم الانفرتاز : وهو يشتمل على ثلاثة انواع من الازيمات المحللة ، وهي ازيم السكراز وهو الخاص بتحليل سكر القصب فيحوله الى دكستروز وليفيولوز ، ثم ازيم الاكتاز ويختص بسكر اللبن فيحوله الى دكستروز وجالكتوز ، وازيم المالتاز ويحلل سكر المالتوز الى سكر دكستروز . وتوجد هذه الازيمات في أغلب الخمائر وكذا في الفطر والبكتريا وفي الاوراق والازهار والجذيرات لكل النباتات الراقية . ودرجة حرارتها الملائمة من ٥٠° الى ٥٤° سنتجراد ، وتقتل لو سخنت لدرجة ٧٠° سنتجراد في جو رطب ، ويزيد في حيويتها وجود مقادير قليلة من الاحماض ، ويقلل من نشاطها وجود القلويات

٤ — ازيم السيتاز : وله قدرة عظيمة على تحليل المواد السليولوزية التي تكوّن جزءا كبيراً من جسم النبات ، ولولا وجود هذا الازيم ، لتراكمت هذه المواد في الارض في مقادير هائلة ، دون أن يستفيد منها النبات ، او الكائنات الارضية بشيء

ب — « الازيمات التي تؤثر في المواد البروتوينية » : وهي الازيمات التي تحلل المواد البروتوينية المعقدة التركيب الى مواد ابسط منها ، وهناك ثلاثة ازيمات مهمة تابعة لهذا القسم هي ازيم اليسين ويحلل البروتين الى مواد پيتونية واحياناً الى مواد پيتيدية وهو يحتاج الى بيئة حمضية ، وازيم التريبسين ويحول البروتين الى پيتون واحماض امينية واحياناً الى نوشادر وتلزمهُ بيئة قاعدية ، والازيم الثالث هو ازيم الاربسين ويشبه في عمله الازيم الثاني ولكنهُ يفترق عنهُ في كونه يحلل المواد الأقل تعقيداً من البروتين مثل المواد البيتونية . وهناك عدد كبير من الاحياء الدقيقة لهُ القدرة على انتاج أنواع مختلفة من هذه الازيمات ، ويمكن اختبار ذلك بتنمية الميكروب في بيئة بروتينية مثل الجيلاتين ، فتشاهد حينئذ ان الميكروب ينتج ازيماً يذيب الجلاتين ، مثل هذه الميكروبات يكون لها القدرة في غالب الاحيان على تحليل كازين اللبن ومصل (سيرم) الدم . ويلاحظ ان فعل الازيمات في البروتينات ، وتحويلها الى مواد بسيطة ، يكون بطيئاً عن التحليل المائي للكربوايدرات او الدهون ، ويرجع سبب ذلك الى تعقيد الجزيئات البروتينية وصعوبة تفصيصها الى مركبات سهلة . ويمكن اظهار عمل ازيمات البروتينات في اغلب الخلايا وفي البذور ، بدراسة تأثير مستخرجات هذه الانسجة في البروتينات المذابة واحسن مثل ذلك هو ازيم پروتياز الخميرة

جـ — « ازيمات تؤثر في المواد الدهنية » . يمكن لهذه الازيمات ان تحلل الدهون

بواسطة التحليل المائي ، ويكون المتحصل النهائي عبارة عن احماض دهنية وجلسرين . ويظهر أن انحلال الدهون بواسطة الانزيمات من التفاعلات العكسية وبالاخص في الجليسريد ذات الوزن الجزيئي المنخفض ، وذلك ان الانزيم قد يؤثر على الجليسريد فيقسمهُ ، او على الجليسرين والاحماض الدهنية فيركبها . وهناك بعض انواع البكتريا يمكنها ان تحلل دهن الزبد المسمى ستيارين الى حمض ستياريك وجليسرين . وتوجد الانزيمات المحللة للدهون في العصارات الهاضمة المختلفة وعلى الاخص في البنكرياس وكذا في كثير من النباتات ، وتتحلل الدهون الى حوامضهم الدهنية والجليسرين بواسطة البكتريا أيضاً ، واذا ما استمر الانحلال في الحوامض الدهنية والجليسرين باتحادها بالاكسجين بتأثير الانزيمات ، نتجت مركبات ذات روائح كريهة وهو ما يعبر عنهُ بتزنخ الدهن

ثانياً : (انزيمات مؤكسدة ومجزئة) وهي التي تسبب اتحاد المركبات العضوية بأكسجين الهواء ، وتعتبر أكسدة الكحول الى الحمض الخليك، من أهم التغييرات التي تحدثها هذه الانزيمات ويطلق عليها أسم Vinegar Oxiduse . وأما الانزيمات المجزئة فأهمها انزيم الزيماز ويساعد على التخمير الكحولي بالحمار، فتزيد سرعة تحويل السكر السداسي الى كحول وثاني اكسيد الكربون على حسب المعادلة :

سكر سداسي ← كحول الايثيل + ثاني اكسيد الكربون

ك٦ يد١٢ ا٦ ← ٢ ك٢ يد٥ ا يد + ٢ك ا٢

ويمكن عزل الزيماز دون أن يقتل ، ويظن انهُ استر Ester للحامض الفوسفوريك ودرجة الحرارة الملائمة لعمل الزيماز هي ٢٨ — ٣٠° م ويقتل لو رفعت درجة الحرارة الى ٤٥ — ٥٠° سنتجراد في المحلول أو ٨٥° سنتجراد اذا كانت جافة

ثالثاً : (انزيمات مختزلة) : وأهمها الانزيم المسمى پروكسيداز وهو يختزل ثاني اكسيد الايدروجين الى ماء وأكسجين مفرد ، ويوجد هذا الانزيم في جميع النباتات والحيوانات ، وكذا في أغلب انواع البكتريا

***

ولكي لايتشعب هذا البحث على القارىء وتختلط عليهِ اسماء الانزيمات ، ذكرنا أهم انواع الانزيمات مرتبة في جدول بحسب قسمها ونوعها (ألحقناهُ بآخر هذا البحث)

[للبحث تتمة]

بحيرة «دزوانت»

هي بحيرة في منطقة البحيرات الجميلة بشمالي انكلترا وجنوب اسكتلاندة . زارها الشاعر فيما زار من بقاع انكلترا الجميلة ووصفها بهذه الأبيات : ـ

يا فضةً في الصخور ذائبةً بين الهضاب الفساح والمدرِ
كأنما أنت فتنةٌ رقدت تُثير فينا عواطف البشرِ
توحي إلينا بكل مرتجل من المعاني وكلّ مبتكرِ
في نقرات الصخور جارية وتحت ظل الغصون والشجرِ
أناملُ الريح لاعبتك كما تلعب كفُّ القيان بالوترِ
والماء ينساب في حشاك كما يسيل ذوب اللجين بالدررِ
والعين ترتاح في رؤاك كما ترتاح عينُ السارين للقمرِ ....

***

بحيرةٌ في الشمال راقدةٌ لطيفةُ الحسن جمة الصورِ
ركبتها والأصيلُ مؤتلق والشمسُ ترمي المياه بالشررِ
وللنسيم الرقيق تمتمةٌ كهمس أهل الكتاب بالسُّوَرِ !!
ولازوَرْدُ المياه مختلط بعتمةٍ للظلال معتكرِ
وأمَّها العاشقون وانتظروا والحسن يُغري العيون بالنظر ..!

***

وكان لي في حماك أمسيةٌ ضاعت ضياعَ الشباب من عمُري
أظلُّ ما قد حييتُ أذكرها وربَّ ماضٍ يلَذُّ بالذِّكَرِ

محمد عبد الغني حسن

المبحث السابع

خليل مطران
شاعر العربية الإبداعي

الدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الطور الثاني من حياة مطران

﴿توطئة﴾ كانت مصر في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ — ١٩١٤) ملتقى آمال شباب العرب وملجأ أحرار العثمانيين . ذلك أن مصر كانت قد نالت في ظل الاحتلال الانكليزي شيئاً من الحرية ظهرت آثاره فيما كان يتمتع به المصريون في ذلك العهد من الحرية الشخصية التي لم يكن يتمتع بها المواطنون العرب والترك خارج مصر في ظل الدولة العثمانية . وقد هاجر الى مصر من سوريا ولبنان جمهور كبير في تلك الفترة من الزمن تخلصاً من الجو الخانق الذي تعيش فيه شعوب الدولة العثمانية ، وهو الجو الذي كان يخيم في سمائه شبح الاستبداد الحميدي . ذلك لأن هؤلاء المهاجرين لم يكن في استطاعتهم العمل في محيط بلادهم بحرية وفق رغائبهم وأمانيهم ، لأن التضييق كان ينال منهم من كل جهة . وقد أظهر هؤلاء الذين نزحوا الى مصر نشاطاً شمل مع الزمن جميع مناحي الحياة المصرية . غير انه كان واضحاً في ساحات الحياة الأدبية والاجتماعية والتجارية المصرية . والواقع ان المصريين اليوم مدينون بجانب كبير من نهضتهم الحالية لنشاط هؤلاء النازحين الى مصر من سوريا ولبنان ، الذين اكتسبوا مع الزمن حقوق المواطن المصري، وإن احتفظوا داخل المجتمع المصري بكيانهم

وكان يتجاذب هؤلاء اللاجئين الى مصر اتجاهان : الاتجاه الأول يتمثل في شعور الولاء نحو الخلافة والارتباط بفكرة الجامعة العثمانية ، مقترنين بالرغبة في الاصلاح . وكان هذا الشعور اكثر ما يظهر في جمهور المسلمين باعتبار مركز الخلافة في العثمانيين . ومن هنا كانوا مرتبطين

بفكرة الجامعة العثمانية (١) . أما الاتجاه الثاني فكان يتمثل في شعور الانعزال عن الجامعة العثمانية مقروناً بالنقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها والرغبة في إنشاء الوطن العربي وكان هذا الشعور يتركز في الغالب في جمهور المسيحيين من النازحين من سوريا ولبنان (٢)

وهكذا كانت مصر ملتقى الاتجاهين ومسرح العاملين في الحقلين : حقل الجامعة العثمانية وحقل الوحدة العربية . على أننا يمكننا أن نقول إن المجرى العثماني كان غالباً في مصر حتى إعلان الدستور في أنحاء الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ . وذلك يظهر واضح السمات في الآثار الأدبية لذلك الجيل

كان خليل مطران من أولئك الذين اضطروا الى مغادرة بلادهم تحت تأثير تضييق السلطات الحكومية . عاش في فرنسا مدة من الزمن حيث اصطدم بوجوه من التضييق جديدة كان يبعثها سفير تركيا الذي هاله نشاط مطران في حقل الإصلاح للجامعة العثمانية . (٣) وهنا يقف مطران في باريس — عاصمة فرنسا — في المفرق بين الشرق والغرب : أيذهب غرباً حتى شيلي أم يعود شرقاً وينزل مصر ؟ وكان الفتى يعرف أن في ذهابه غرباً ابتعاداً عن الوطن ونأياً عن ميدان العمل في حقل الاصلاح الوطني . ولما كان هذا عزيزاً عليه ، فقد وقف متردداً يتجاذبه دافعان قويان : أحدهما يدفعهُ الى ترجيح فكرة الهجرة الى « شيلي » حيث المغريات والتسهيلات التي كانت تلوّح بها حكومة شيلي لشباب العالم القديم حتى تجذبهم إليها ، اما الدافع الثاني فقد كان يدفعهُ الى ترجيح فكرة سفره الى « مصر » ويردّه عن الهجرة إلى « شيلي » . وقد انتهى هذا التردد بمطران الى فكرة ثابتة هي ان ينزح الى وادي النيل . ولم تكن مصر بالبلد الغريب عنهُ ، فقد كان فيها من عشيرته وقومه جالية كبيرة يمكنهُ ان يأخذ مكاناً لنفسه بينها ويستعين بالظاهرين من أفرادها للوصول إلى الاغراض التي كانت تراود أحلامه كأماني حياته

— ١ —

تحت تأثير هذه الفكرات خرج خليل مطران من باريس ووجهته مصر ، فوصل الاسكندرية صيف عام ١٨٩٢ . وقد تصادف ان كان وصوله لمصر مقترناً بوصول نبإ وفاة سليم بك تقلا مؤسس جريدة « الاهرام » وهو يصطاف مستشفياً بيت مري بلبنان . ولما علم بشارة تقلا باشا بوفاة أخيه التمس لنفسه مساعداً لهُ في إصدار « الاهرام » . فوجد في شخص مطران بغيته فاتخذه نائباً عنهُ في القاهرة ومحرراً بدار « الاهرام »

---

(١) أنيس الخوري المقدسي في مبحث لهتن النزعة العثمانية من دراسة « العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث » المقتطف : م ٩٢ ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٣ (٢) الباحث نفسه في المقتطف : م ٩٢ ج ٣ ص ٢٩٣
(٣) البحث السادس من هذه السلسلة فقرة ٣

يقول خليل مطران عن بدء اشتغاله بالصحافة في دار « الاهرام »

« كان سليم بك تقلا من أساتذة المدرسة البطريركية التي تلقيت فيها دروسي ببيروت . وكان له علي أياد ومنن . فهو الذي ساعدني حين مررت بالاسكندرية عام ١٨٩٠ في طريقي الى أوربا وعرفني بسمو خديوي مصر وكنت أحفظ له الكثير من الود والاخلاص في نفسي وأعلق على معرفته الشيء الكثير من الآمال . لهذا كان خبر وفاة الرجل صدمة عنيفة لي . وبلغني ان النية متجهة لاقامة حفلة جناز على روح الفقيد بالاسكندرية . وقبل اقامة حفلة الجناز بيوم واحد شعرت بدواعي الشاعرية تتحرك في نفسي فمسكت القلم وكتبت في سرعة بضعة أبيات في رثاء الرجل . فلما كان الحفل — وكان يجمع أعيان مصر وكبار رجالاتها — تقدمت الى الحاضرين وألقيت كلمة تأبين للفقيد عددت فيها مآثره وذكرت فيها ما أعرفه عنه ، وتدرجت من ذلك الى القاء مرثاتي ويظهر ان كلمتي كان لها وقع عظيم عند الحاضرين . كما أنها كانت سبباً لتعرفي ببشارة تقلا باشا الذي أظهر ترحيباً كبيراً بي وسرعان ما شملني برعايته وأولاني عملا في تحرير « الاهرام » فقمت بأعماله على الوجه الاكمل . فكان منه ان قدر في نشاطي واخلاصي في العمل فندبني للقاهرة نائباً عنه فيها . ذلك لان « الاهرام » كانت تصدر في ذلك الحين بالاسكندرية » (١)

إلاّ أن مطران — فيما وصل اليه علمنا — لم يغادر الاسكندرية الى القاهرة الاّ في ١٨٩٣ ، بعد أن رافق الخديوي عباس حلمي الثاني في سفرته الأولى الى تركيا . وقد ساعدت مطران نزعته الاجتماعية على ان يتعرّف بالناس فأصبح في قليل من الزمن صاحب مكانة اجتماعية في المحيط المصري [٢] . وقد أهّلتهُ هذه المكانة الاجتماعية للقيام بأعماله على احسن وجه في تحرير « الاهرام »

وربما كان الرجل قد لاقى في بدء اشتغاله بالصحافة بعض الصعوبات . لانهُ لم يكن يألف صناعة التحرير الصحافي . ولكن ليس هنالك من شك في أنهُ تغلب على هذه الصعوبات بما له من عزم ومقدرة على التطبع ومرونة على التكيف وبهذه المؤهلات — بجانب نزعته الاجتماعية — برز مطران محرراً ممتازاً في عالم الصحافة العربية

وقد اشتغل مطران نيفاً وسبع سنوات في دار « الاهرام » حتى انتقالها عام ١٨٩٩ الى القاهرة . وقد حدث ان رغب بشارة باشا تقلا في أن يجعله رئيساً للتحرير ، غير انهُ أبى ذلك حتى يحفظ لنفسه حريتها في التفكير والعمل

وكان مطران اثناء تحريره بالاهرام يكتب كل اسبوع مقالاً في السياسة او الاجتماع او الاقتصاد او الأدب . وكانت لمقالاته هذه صداها الكبير في المجتمع المصري ، وذلك لانها كانت تكتب بطريقة جديدة فقد كان يغلب عليها التدقيق والتحقيق وتتخللها نزعات تأملية واتجاهات علمية . وكتابات الرجل السياسية كانت تكشف عن اتجاهاته الانسانية ونزعاته الاصلاحية [٣] ويظهر ان مطران تأثر بالنزعة الغالبة في مصر من التشيع لفكرة الجامعة العثمانية [٤]

(١) عن خليل مطران وأنظر من هذه الدراسة البحث الخامس : فقرة ٢ حديث الصحافي العجوز

(٢) مجلة سركيس : م ٢ ج ١١ ص ٣٢٢ (٣) صحيفة الاهرام عدد يوم ٢٨ يونيو ١٨٩٣ مقال لمطران عن « حلم سياسي » (٤) أنيس الخوري المقدسي ، المقتطف : م ٩٢ ج ٢ ص ١٤٦

وذلك واضح من المقالات التي كان يكتبها معلقاً بها على حوادث الدولة العثمانية وسير الشؤون والاحوال فيها . وتتجلى هذه النزعة العثمانية في كتابات مطران . وهي اكثر ما تتضح وتستبين في شعره ، واذن فلا غرابة في ان نسمعه يقول من قصيدته (فتاة الجبل الاسود) التي نظمها[1] قبيل استقلال الجبل :

طفت امة الجبل الأسود   على حكم فاتحها الأيّد

ومنها :   وما الترك الا فحول الحروب   رضيعو لظاها من المولد

وهذه الحماسة العثمانية تبدو قوية في كتابات مطران وشعره الى زمن متأخر ، تراها في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر . غير ان الحرب العظمى والحوادث التي حملتها في طياتها من استبداد الاتحاديين بالعرب قضت على وشائج الصلة القائمة بين نفسه وبين العثمانيين

على ان مطران نجده بعد ذلك يقف — في كتاباته في الاهرام — من الحوادث الداخلية موقف الحيدة خشية ان يميل به الرأي الى وجهة تنفق ورأي إحدى الشيع فيتهم بمناصرتها . لهذا كان التحوط أبرز سمات المقالات التي كان يكتبها مطران — في تلك الفترة — في الشؤون المصرية الداخليّة . ويظهر أن هذه الحيطة كانت تقوم من نفسه — بجانب الأصل الطبيعي منهُ — بشعور الانعزال كدخيل في المحيط المصري . الا أن مطران بعد تلك الفترة دخل السياسة المصرية ومال مع الحزب الوطني وناصر مصطفى كامل في جهاده القومي بقلمه

على أن حياة مطران التي ارتبطت بالصحافة طيلة هذه الفترة لم تقض على بقية مناحي نشاطه فقد أظهر في تلك الفترة نشاطاً ادبيًّا نمَّ على شاعرية عظيمة كامنة في نفسه تفتحت براعمها في ذلك الحين . فقد نظم عدة قصائد نشر بعضها في مجلة « أنيس الجليس »[2] وهي صحيفة ادبية كانت تصدرها السيدة الكسندرا دي افرينوه وبزينوسكا بالإسكندرية . وانت تجد بعض هذه القصائد منشوراً في صدر « ديوان الخليل » . واولى القصائد التي نشرها مطران في مجلة « انيس الجليس » ، القصة المنظومة « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » (مجلة انيس الجليس م ١ ج ٦ ص ١٨٤ — ١٨٩ . وقد نشرها مطران بعد سنوات في المجلة المصرية : م ١ ج ١٩ ص ٨٨٦ — ٨٩٠ بعد ان اجرى فيها شيئاً من التهذيب والتشذيب . وقد اثبت الخليل في الديوان ص ٦٤ — ٧٤ الصيغة المشذَّبة من القصيدة ، تلك التي نشرت في المجلة المصرية)

---

(١) ديوان الخليل ص ١٥٤ــ١٥٨ والشعراء الثلاثة للسندوبي ص ٢٧٩ ــ ٢٩٣ (٢) مجلة سركيس ، م ١ ج ٤ ص ٩٨

وتتالت بعد ذلك على صفحات مجلة « أنيس الجليس » قصائد له تجدها في السنوات الثلاث الاولى من المجلة (١٨٩٨ — ١٩٠١) وهي :

[« قصة بين القلب والعين » (أنيس الجليس م ١ ج ٧ س ٢١٥ و ٢١٦ والقسم الاخير منها — وهو النقض والابرام — نشر في عدد تال : ج ٨ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ وقد أثبتها الخليل في الديوان ص ٢٨ — ٣٠ بعد ان أجرى فيها قسطاً كبيراً من التعديل) و « النجمتان » (أنيس الجليس : م ١ ج ٨ ص ٢٥٠ — ٢٥١ وتجدها في الديوان منقحة ص ٢٨ — ٣٠) و « الوردتان » (أنيس الجليس : م ١ ج ٨ ص ٢٥١ — ٢٥٣ وأنظرها في الديوان منقحة ص ٣٥ — ٣٧) وفاجعة في هزل (أنيس الجليس : م ١ ج ١٠ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ والديوان ص ١٦ — ١٧ وهي في الديوان منقحة) و « النرجسة » (أنيس الجليس : م ٢ ج ٨ ص ١[illegible] — ٣٠٢ والديوان ص ٤٤ منقحة) و « العصفور » (أنيس الجليس م ٢ ج ١٠ ص ٣٨٧ — ٣٨٩ والمجلة المصرية م ٢ ج ٧ ص ٢٩٣ — ٢٩٥ وهي منقحة ومنها أثبت في الديوان ص ٧٩ — ٨٢) و « أشعة ر[illegible]ن » (أنيس الجليس م ٢ ج ١١ ص ٤١٢ — ٤١٣ والمجلة المصرية م ٢ ج ١٦ ص ٦٨٢ — ٦٨٣ وا[illegible] ان ص ١٦٨ — ١٦٩ وهي منقحة في كلتا المصدرين الاخيرين) و « يوسف افندي » (أنيس الجليس ٣ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٤ والديوان ص ٣١ — ٣٣ منقحة) و « ان من البيان لسحرا » (أنيس الجليس : م ج ٥ ص ١٨٤ — ١٨٧ والمجلة المصرية م ٢ ج ٥ ص ١٨٥ — ١٨٨ والديوان ٣٧ — ٤١ منقحة و « المرآة الناظرة » (أنيس الجليس : م ٣ ج ٧ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ والديوان ص ١٣ — ١٤)]

ومن الخطإ في مراجعة هذه القصائد الرجوع الى صيغها النهائية التي أفرغت فيها في « ديوان الخليل »، اذ يجب مراجعتها في صيغها الاولى التي نشرت بمجلة « انيس الجليس » وذلك لأن الصيغ النهائية قد اخذتها القصائد بعد تشذيب جرى في فترة من الزمن تلت فترة نظمها ونشرها اولاً . وأنت إذ تراجعها في صيغها الاولى تتبين ان شاعرية الخليل كانت في ذلك العهد في طور التفتح . ومما لاشك فيه ان الخليل وجد من طبيعته الشاعرية ومن العوامل التي اكتنفته — وأهمها حبه — ما ازجى به الى عالم الشعر . ومما لا ريبة فيه ان حب الخليل جعل نفسيته تتفتح وأوتار قلبه تهتز امام مشاهد الحياة ومجاليها . وهذا يظهر من مقارنة شعره الذي نظمه في الفترة التي جاءت قبل عام ١٨٩٧ والتي سبقت تاريخ حبه بالشعر الذي قاله ايام حبه (١٨٩٧ — ١٩٠٣) او في الفترة التي جاءت بعد ذلك . بيان هذا ان حب الرجل جعله منفتح النفس يحس بأدق النبرات ويشعر بأرق الخلجات ، مما جعل له — بحكم طبيعته المعاودة من نفسه — مقدرة على تصوير خلجات النفس ولواعجها وبدراتها ، الشيء الذي لم يظهر الخليل من قبل حبه براعة فيه

ويظهر من مراجعة شعر مطران في هذه الفترة انهُ كان متأثراً — الى حدٍّ كبير — بالمذهب الرومانسي . على ان تأثره بالرومانسية لم يمنع تأثره بالاخيلة الكلاسيكية والنماذج التي تذهب تحاكي الاشياء محاكاة تامة والتصورات النموذجية التي ظهر بها البرناسيون في اواخر القرن التاسع عشر بأوربا . ففي قصيدته « العصفور » و « اشعة رتتجن » تجد اخيلة رومانسية ، بينما تجد في قصيدته « المرآة الناظرة » اخيلة برناسية اقرب ما تكون الى أخيلة الشاعر الفرنسي سولي برودوم . ومن ذلك يظهر أن ثقافة مطران الأدبية متعددة المناحي . ذلك لأن شاعريته

كانت تستعين بمحصوله الأدبي لتدور حول الأغراض الشعرية التي تنفتح أمامها نفسه ، لتنسحب على الموضوعات التي تهز وشائج الصلة بالحياة في نفسه . وذلك ليستنزل منها أخيلتها وتصوراتها

وقد عُرف مطران في أواخر اشتغاله بالتحرير في « الأهرام » بمواهبه الشعرية ، وسرعان ما احتل مكاناً بجانب شوقي وحافظ في عالم الشعر الحديث

***

كانت حياة مطران تدور في هذه الفترة بين مهام التحرير في دار « الاهرام » التي كانت تستغرق كل وقته . وقد أدى ذلك الى أنهُ لم يكن يستطيع أن ينظم الشعر أو يعالج الأدب إلاّ مسارقة من اوقات عمله . ويظهر أن مطران اختار هذا بحكم مشاغله الكثيرة فأصبح من مستلزماته . وقد كان ينظم الشعر عادة وهو جالس في زاوية منعزلة من مشرب أو ندٍ — وأحياناً في مكتبه — دون أن تشغله الجلبة عما هو فيه . وذلك لأنهُ اصبح في مكتبه بحكم العادة ان يحصر ذهنه وان يسترسل في موضوع نثره او شعره وان يستغرق فيه طالما لا يتوجه اليه احد بحديث او كلام يقطع عليه سلسلة افكاره . ولما كان مطران ينظم الشعر بعد ان يكون قد هيأ في ذهنه الغرض بإعداد فكره مُقدَّماً في موضوع القصيدة مجملاً ، واحياناً في جزئياتها وتفاصيلها فقد كان من اليسير عليه — كلما سنحت لهُ فرصة يخلو فيها الى نفسه — أن يعاود عمله وأن يسلسل نظمهُ حتى ينتظم منهُ القصيد . ولم يكن هذا التقطع ليشتت من وحدة موضوع قصيده لأن الموضوع كان يدور في رأسه من قبل ، وكان ذهنه مهيأ له (١)

على أن نظم الخليل لشعره في فترات متقطعة يسترقها من أوقات العمل أو من سهراته ، كان يجعله في كثير من الاحيان لا ينتهي من قصائده التي يبدأها (٢) ومن هنا كانت جناية أعمال الرجل على شاعريته . لذلك لم يبرز مطران في هذه الفترة غير بضع قصائد تجدها في الربع الأول من ديوانه . الاَّ انهُ انطلق بعد تحرره من قيود العمل في دار « الاهرام » عام ١٨٩٩ في عالم الشعر ، فنظم في فترة لا تزيد عن الفترة الأولى ثلاثة أرباع ديوانه الذي صدر عام ١٩٠٨ . ولئن كان لهذا دلالة فعلى أن العمل من جهة وشاعريته التي كانت في بدء تفتحها من جهة أخرى ، كانا يقفان في سبيل الرجل فلم ينظم كثيراً

— ٢ —

إن الفترة التي تقع بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٣ من حياة مطران — والتي يدخل نصفها الأول في الفترة الاولى من الطور الثاني من حياته — تلك التي عرضنا لها — بينما يدخل

(١) صحيفة الدستور ، عدد ٩ نوفبر ١٩٣٨ حديث مع مطران

(٢) مجلة سركيس ، م ١ ج ٤ ص ٩٧ــ١٠٠ قصة تاريخ الجنين الشهيد

النصف الثاني منها في الفترة الثانية منه — تعتبر ردحاً من الزمن عظيم الأثر، فهي تسجل الناحية الشعورية من حياته، وهي تظهر واضحة السمات في « حكاية عاشقين » التي صب فيها مطران تاريخ حبه، والتي افرد لها مكاناً خاصاً من ديوانه حتى يمكن تفهم حوادثها من الاشارات الشعرية ويسهل استقراء وقائعها غير مبعثرة بين متفرقات كثيرة لا صلة لها بها [1]

وتجري هذه القصة (الديوان ص ١٥٩ — ١٩٥) بين مطران وعشيقته مجرى القصص الخيالي، وهي لا يتخللها شعور دانٍ او نزعة دنية، فقد احتفظ مطران فيها بحبه طاهراً فاصبحت بذلك قصة حبه داخلة في نطاق قصص الحب الافلاطوني [2]

كانت حبيبة مطران فتاة . . . ذات حسن وجمال [3] . ويظهر من [illegible] مطالعة شعر الخليل فيها انها كانت فتاة غنية الاحساس [illegible]ية الشعور تفيض بهما على صاحبها وتغمره فاذا بأوتار نفسه تهتز واذا بصحفة وجدانه تتكشف لها وشائج الصلة بين حياة الحب التي يحياها وحياة [illegible] التي تبدو له في مجاليها ومشاهدها [4]

تعرّف اليها مطران ربيع عام ١٨٩٧ في احد متنزهات القاهرة . يقول : « ان أول المعرفة كان اجتماعاً في حديقة فأتت نحلة لسعتها في وجنتها فتألمت واشتكت » [5] فتقدم منها مطران يسري عنها . ويظهر ان حب مطران لها انبعثت شرارته الاولى في نفسه منذ هذه المقابلة، فكانت هي لشاعريته منبع الوحي حيناً والاصل الذي يغذي شعوره حيناً آخر . فقد كانت حياة مطران من قبل قاحلة لا تدور حول ما يرد على نفسه حياتها مليئة بالشعور والاحساس . فلما رآها وجد فيها الفتاة التي كانت تراود أحلامه . وظلّ مطران مخلصاً لها وفيّاً لذكراها يقدسها في خياله ويحمل صورتها بين جوانحه ، يتذكرها فيتحرك في صدره الشوق القديم لها فيجري دمعه . ويذكرها فيذكر معها ايام الشباب فتجري بذكرياتها حياته . ولا زال حبه القديم حتى اليوم يملأ عليه رحاب نفسه وقلبه [6]

عرفها مطران فأولاها كل شعوره وأحاطها بكل ضروب العناية ووضع قلبه وحياته بين يديها . غير ان قليلاً من احساسه الذي تقوّم بالحيطة كان يحمله يكتم هواه بين الضلوع ولا يظهره حرصاً عليها وعلى سمعتها من الناس . وفي ذلك يقول مطران :

كتمتُ هواكِ دهراً لا لخوف وما أنا من يروّعهُ الحمام
ولكني حرصت عليكِ منهم ولو أودى بمهجتي الغرام

(١) الديوان ص ١٥٩ — تنبيه الناظم لحكاية عاشقين (٢) عن مطران — وانظر حكاية عاشقين (٣) عن مطران — وانظر قوله فيها من قصيدته « ليلة سعد » الديوان ص ١٦٤ — ١٦٥ (٤) الديوان ص ١٦٧ الشطر الثاني من قصيدته « اعتذار » ص ١٧٠ الابيات من ٤ — ٧ (٥) الديوان ص ١٦٠ المشهد الاول من حكاية « عاشقين » (٦) الدستور عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٦ حديث مع خليل مطران

هذه النفس الصافية التي غمرها الحبّ فرأت فيه معنى الحياة [1] ماكان في مستطاعها أن تنسى في حبها ما يمكن أن يجره هذا الحب من آلام للحبيبة . لهذا كانت عناية مطران بحبيبته وبذله ما في طاقته حتى لا يسبب لها ألماً ، فكانت مقابلاته لها مسارقة في جنح الظلام او في الضواحي. وفي غير أوقات الالتقاء — التي لم تكن متوافرة للعاشقين — كانت في القلب جمرة يخفيانها في الضلوع عن الناس ، ويجدان في هذا كل الشقاء ، ولكن لا يقويان على مغالبته بالاكثار من اللقاء حتى لا يفتضح حبهما ، وفي هذا نجد الشاعر يقول:

ظللت عليهِ أخفيه وأشقى   الى أن بات وهو بنا سقام

غير أن حبهما لم يلبث كثيراً حتى عرف لبعض اصدقائهما. فعمل بعضهم على الوقيعة بين العاشقين، فوشوا بهِ عندها فوجدت على محبها [2]. وكان ان ألمّ بها داء فذهبت تستشفي في الشام ، وحدث ذلك دون أن يراها الحبيب ، فاذا بهِ وَلِهٌ يرسل من اعماق قلبه زفرة الهمة يودعها في قصيدته « تذكار ». وتنقضي فترة من الزمن يحس فيها الشاعر بتباريح الهوى ، فيصب مشاعره في قصيدة «عتاب» التي كتبها في صيغة مناجاة شاعر لطائره . غير ان مطران وهو في غمرة آلامه يصل اليهِ نبأ اصابتها بداء عضال فينتفض الشاعر فيهِ ويتألم لها ويرسل أحاسيسه في قصيدته « روعة نبأ ». على ان مايظهر عليهِ من الجزع الشديد والالم يدفع بعض أصدقائهِ الى أن يشيعوا خبر شفائها مبشرين مطران بذلك حتى يسكنوا من المهِ فيفرح الشاعر لا بلالها من الداء ويرسل فرحه في قصيدته « تكذيب النبأ » . على انهُ بعد مدة ينتهي اليهِ خبر وفاتها فيصدم ويبكيها في قصائد متتاليات تستغرق الفصل الثاني من « حكاية عاشقين »

ومراجعة الشعر الذي نظمه الخليل في صاحبته وسجل فيهِ قصة حبه وعشقه من ناحية دلالته الوجدانية شيء ادخل في بحث نتناول فيهِ شعره الوجداني بدرس . لهذا نتركهُ لموضعهِ من دراستنا هذه . على انهُ بعد ذلك تبقى قصة حبّ مطران كما صاغها في «حكاية عاشقين » غير مستكملة الخطوط من بحثنا اذا وقفنا عند هذا الحدّ ولم ننزل بها من جهة الى مقوماتها من نفس الخليل مما يساعد على استقراء حياته ، واذا لم نصل بها الى الآثار التي تركها في نفسه من جهة أخرى. والواقع ان حبّ مطران كان عظيم الأثر في حياته. فهو يقول : « الحب ثلاثة ارباع ديوان شعري »[3] ومعنى ذلك ان الحبّ ثلاثة ارباع حياته. لان ديوانه لم يخرج عن كونهِ مظهر حياته الشعورية

وأول شيء نلاحظهُ هو ان شخصية الخليل تبدو من خلال قصة عشقه ، متحوطة الأسباب

(١) الديوان ص ١٦٦ — الابيات الاخيرة من قصيدة « آدم وحواء » (٢) الديوان ص ١٧١—١٧٣ قصيدة « تذكار »
(٣) جريدة الدستور عدد ٩ نوفمبر ١٩٣٨

لا تتساوق مع فورة العواطف والمشاعر وان ارسلتها في قوة . وذلك راجع الى طبيعة المناودة من نفس الخليل ، التي تفسح لعقله مجالاً للتدخل في احساساته ومشاعره وتصفيتها وضبط النسب بينها وبين العقل . وهذا التحوط يبدو واضحاً في تسجيله قصة حبه في «حكاية عاشقين» في صورة كلها صدق وكلها حق. وقد وفق هو الى ذلك دون ان يهتك سراً او يرفع حجاباً. «تعددت في قصة حبه الاسماء التي تشير الى معشوقته وهي واحدة» (١)

على ان طبيعة المناودة من نفس مطران ، من حيث تجعله يعيد الكرة بعد الكرة على الشيء الواحد فينتزع منه مجموع اشكاله وينزل به الى مقوماته من الجزئيات والتفاصيل ، تبدو واضحة في شعره — الذي سجل فيه حبه — بما فيها من افراط من نقص للمعاني وتتبع للجزئيات ، وهذا يعتبر من جهة مظهراً من مظاهر تداخل عقل الرجل مع شعوره ، ومن جهة اخرى سبباً من أسباب فتور شعر الوجدان عنده . على انه بعد ذلك يرسل مشاعره في مواقف قوية — كما نرى في بعض مقاطع من قصائده — فيجيء شعره قوياً ممتلئاً بالشعور الملتهب وبالاحساس الشديد ، وذلك من حيث لم يمارض عقله في شبكة انفعالاته . وهذا اوضح ما يكون في المرثاة التي نظمها حين نعيت اليه محبوبته (٢) ولئن كان كل هذا يسوق الى نتيجة فالى ان حبّ الخليل عميق الأصل في الشعور رغم مظهره الفاتر

على ان مطران الذي حرمهُ الموت حبيبة قلبه وصدمه في حبه ، لم تتغير نظرته الى الحياة ، لان ما في الرجل من ضبط النفس والمرونة جعله يتقبل الصدمة في ألم شديد وحزن دفين الاّ ان الفكر صفّاه من حيث تداخل عقله في انفعالاته فنعهُ عن الاسترسال مع آلامه واحزانه. وان كان هذا يدل على شيء فعلى صدق نظرتنا في طبيعة انفعاله . على ان صاحبته بما كانت قد تركته في نفسه من ذكريات كانت تحضر في ذهنه كل عام فيتحرك في صدره الشجن فينظم فيها مرثاة جديدة ، وهكذا ظل مطران يرثيها كل عام مدة عشرين سنة . وهذا جعله يتفنن في الرثاء ويتمكن منه حتى اصبح صاحب مقدرة على تصوير فضائل الفقيد وحكي خصائصه وتضمين شخصيته في مرثاته في صورة دقيقة لم يعرف تاريخ الادب العربي من قبل مثيلاً لها ؛ حتى اصبح عن حق كما اشتهر «شاعر المراثي» (٣)

على ان اثر حبه لم يقف عند هذا الحد ، فقد جعل في مكنته تصوير ارق خلجات النفس وأدق نبراتها وأشف لامعاتها وبدراتها . وذلك من حيث جعله حبه منفتح النفس دقيق الشعور يحس بأدق النبرات ويشعر بأرق الخلجات من حيث دارت حياته فترة حبه في عالم الشعور

---

(١) المرجع السابق ذكره انظر تنبيه الناظم لحكاية عاشقين ـ الديوان ص ١٥٩ (٢) الديوان ـ مثال في مرآة ـ ص ١٨٢ ـ ١٨٥ وخاصة النصف الثاني من المقطع الاول (٣) مجلة «عطارد باريس» Mercure de Paris

— ٣ —

في صيف عام ١٨٩٩ خرج مطران من مصر متوجهاً الى سوريا ليستشفي من جهة ويجدد اتصاله ببلدته ويحيي ذكرياته من جهة اخرى [1] وعاد مطران الى مصر بعد ان مكث هنالك نحو أربعة اشهر من الزمان . ويظهر أن مطران غادر مصر مصطافاً ومستشفياً الى سوريا بعد ان انطلق من العمل في تحرير « الاهرام » [2]

وقد كانت سفرته هذه حدًّا فاصلاً بين عهدين من الطور الثاني من حياته: عهد الاشتغال بالصحافة في دار «الاهرام» وعهد الاستقلال في العمل في الصحافة . ومن المهم ان نقول ان هذه السفرة التي قام بها الخليل سجلها في ثلاث قصائد : الاولى في « براح مصر » والثانية في « لقاء الشام » واما الثالثة ففي « قلعة بعلبك وتذكارات الصبى » . وأنت تجد هذه القصائد في الديوان : ص ٧٤ — ٧٩ وقد نشرت كلها في الاصل في السنة الاولى من (المجلة المصرية) . والقصيدة الثالثة منها من اروع شعر مطران ومن أبلغ الشعر العربي الحديث

على أن مطران لم يكد يعود من سفرته من ربوع الشام الى مصر حتى شرع في الاستعداد لاصدار مجلة ادبية نصف شهرية . وفي يونيو عام ١٩٠٠ صدر العدد الأول منها حاملة اسم « المجلة المصرية » . وظلت تصدر عامين من الزمن صدر فيهما نحو خمسين جزءا . وكانت مجلة تعنى بالشعر والأدب وفنون التاريخ والزراعة . وكان يعاون الخليل في اصدارها أخوه جورج مطران . وكان مختصًّا بتحرير المقالات التجارية وترجمة القصص لها . وقد نشط مطران ونشر فيها فصولاً في التاريخ من كتاب سفر « مرآة الأيام » الذي اصدره فيما بعد « عام ١٩٠٦ » كما نشر فيها بحوثاً أدبية وقصائد . وانت تجد في مجلداتها التي صدرت كل ما نشره الخليل الى ذلك الحين : معاداً نشره بعد ان أجرى فيه التهذيب والتشذيب . وفيها كذلك قصائد له لم يسبق نشرها نذكر منها :

[قصيدة « السور الكبير » (المجلة المصرية : م ١ ج ١ ص ١١—١٢ وتجدها في الديوان ص ٤١ — ٤٣) و « قلعة بعلبك : تذكار صبي » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢ ص ٤٠—٤٨ والديوان ص ٧٦—٧٩) و « الحمامتان » (المجلة المصرية : م ١ ج ٣ ص ٨٩—٩٠ والديوان ص ٥١—٥٣) و « ١٨٠٦—١٨٧٠ » (المجلة المصرية : م ١ ج ٤ ص ١٢٩—١٣٣ والديوان ص ٩—١١) و « بدري وبدري السماء » (المجلة المصرية : م ١ ج ٥ ص ١٦٧—١٦٨ والديوان ص ١٤—١٥) و « مقتل بزر جمهر » (المجلة المصرية : م ١ ج ٦ ص ٢٠٦—٢٠٨ والديوان ص ٩٩ — ١٠٢) و « وفاء » (المجلة المصرية : م ١ ج ١٢ ص ٤٩٩—٥٠٣ والديوان ص ٨٤—٨٨ منشورة فيها بعد تنقيح كبير) و « الوردة والزنبقة » (المجلة المصرية : م ١ ج ١٧ ص ٧٠٤—٧٠٧ والديوان ص ١١٣—١١٥) و « وداع وسلام — براح مصر ولقاء الشام »

(١) الديوان — ٧٤ — ٧٩ أنظر تواريخ القصائد وما تحملها من مدلولات هذه المقطوعات
(٢) المبحث الخامس من هذه السلسلة ، فقرة ٢ حديث الصحافي العجوز

(المجلة المصرية : م ١ ج ١٨ ص ٧٤٤ـ٧٤٥ والديوان ص ٧٤ـ٧٦) و « الاهرام » : المجلة المصرية: م ١ ج ٢١ ص ٨٦٠ـ٨٦١ والديوان ص ٨٣) و « دمعة » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢٢ ص ٨٥٣ـ ٨٥٤ والديوان ص ١٩٣ـ١٩٤) و « رثاء بشارة تقلا باشا » (المجلة المصرية : م ١ ج ٣ ص ١٠١ـ ١٠٣ والديوان ص ١١٧ـ١١٩ والابيات الاخيرة من المرثاة لم تثبت في الديوان . هذا فضلاً عن ان الخليل نظم ٦ أبيات من الشعر تلاها في صلاة التاسع في الرضوانية على روح الفقيد وتجدها في المجلة المصرية في الجزء المذكور ص ٩٠ ولم يثبتها الشاعر في ديوانه) و « مشاكاة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٤ ص ١٥٩ـ١٦٠ والديوان ص ١٩ـ٢٠) و « يوميات أدبية » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٤ ص ١٣٧ـ ١٤٤ والديوان ص ٩٧ ـ ٩٨) و « حنا الصغير » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٢ ص ٥٢٣ والديوان ص ١٠٧ـ١٠٨) و « تهنئة بزفاف » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٢ ص ٥١٠ والديوان ص ١٠٨ ـ ١٠٩) و « تبرئة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٣ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤ والديوان ص ١٩٧ ـ ١٩٨) و « آدم وحواء » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٥ ص ٦٣٥ـ٦٣٦ والديوان ١٦٥ـ١٦٦) و « الزهرة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٧ ص ٧٧١ـ٧٧٣ والديوان ص ١٠٢ـ١٠٤) و « فنجان قهوة » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٠ ص ٨٤١ـ٨٤٦ والديوان ص ١٢٣ـ١٢٨) و « جواب كتاب هزلي » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢١ ص ٨٨٠ والديوان ص ٦٠ـ٦١) و « الطفلة البوبرية » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٢ ص ٩١٩ـ٩٢١ والديوان ١٣٧ـ ١٣٩) و « تهنئة زفاف » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٣ ص ٩٥٣ـ٩١٠ والديوان ص ١٤٢ـ١٤٣) و « تذكار » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٣ ص ٩٦٥ـ ٩٦٧ والديوان ١٧١ـــ١٧٣) و « العالم الصغير مرآة العالم الكبير » (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٤ ص ٩٩٨ـ٩٩٩ والديوان ١٢٩ـ١٣٠]

وهذه القصائد نظمت خلال فترة تمتد بين نظمها ونشرها وخمسة عشر عاماً . اما القصائد التي نشرها مطران في « المجلة المصرية » وسبق نشرها من قبل فقد سبقت الاشارة اليها عندما تكلمنا عن القصائد التي نشرها مطران في مجلة « أنيس الجليس »

وقد نشر مطران ما نشره في « المجلة المصرية » مدفوعاً بداعي ان يكون له شيء من النظم بجانب ما كان ينشره لاسماعيل صبري واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وسامي البارودي والبستاني من اعلام الشعر العربي الحديث . وكان ينشر من شعره مقطوعات صغيرة . وبدأ بما كان قد سبق له نشره من قبل بعد ان أجرى يد التنقيح فيه حتى يستوفي كماله لفظاً ومعنى . ومن هنا كان من الصعوبة في مكان معرفة الصيغ الأولى لمنظومات الخليل ، لأن يد التنقيح كانت تتناول شعره القديم قبل نشره . على أننا في اثناء تنقيبنا في بطون متون مجلات ذلك العهد انتهينا الى أشياء ذات قيمة من حيث وقفنا على بعض قصائد مطران منشورة في حين نظمها وذلك قبل أن يتعهدها بالتنقيح ويصبها في القالب الذي افرغت فيه عند نشرها في المجلة المصرية . وسيجيء بيان ذلك مفصلاً في موضعه من دراستنا

ويستوقف النظر من كتابات مطران لذلك العهد في « المجلة المصرية » مسرحيته الهزلية « الملاج بالشنق » وهي مسرحية في فصل واحد (المجلة المصرية م ١ ج ٢٢ ص ٨٣٥ ـــ ٨٥٠) وبضع مقالات أدبية تمتاز بمطالعاتها التقريرية . نذكر منها كلمته عن مارتيني الشاعر الايطالي مع ترجمة نثرية لقصيدته في المساء والمدينة (المجلة المصرية : م ٢ ج ٦ ص ٢٥٠ـ٢٥٢) وبحثه عن فيكتور

(١) مجلة سركيس م ١ ج ٤ ص ٩٧ ـــ ١٠٠

هوغو (المجلة المصرية : م ٢ ج ١٧) ودراسته لأدوار الشعر الصيني (المجلة المصرية : م ٢ ج ٢٤) وكلمة عن الموسيقى العربية (المجلة المصرية : م ١ ج ٤). وفي هذه الكلمة يأخذ مطران على الموسيقى العربية تشابهها . كما انك تجد له في نفس هذه المجلة بحثاً في مفهوم الأخلاق ومعنى السعادة (المجلة المصرية : م ١ ج ٢١ ص ٨٥٥ — ٨٥٨) وكلمة عن المرأة الجديدة (المجلة المصرية : م ١ ج ١٨) وذلك بعيد صدور كتاب قاسم بك امين . وخير كتابات مطران الأدبية بحثه في « الكتاب امس والكتاب اليوم » ودراسته عن « الشعر العربي » (المجلة المصرية : م ١ ج ٢) وهو في بحثه الاخير ولاسيا في ص ٤٢ — ٤٤ منه قد نظر الى مطالعات المستشرق الألماني (تيودور نولدكه) عن طبيعة الشعر العربي القديم ، التي كان قد ضمَّنها بحثاً له عن المعلقات نشره في « دائرة المعارف البريطانية »

وكتابات مطران في تلك الفترة تدل على أنهُ صاحب محصول ادبي كبير وثقافة أدبية شاملة . فقد كان الرجل يستفيد من كل صفحة يطالعها وسطر يقرؤه

على ان « المجلة المصرية » لم تقو على الصدور فاحتجبت وأصدر مطران بدلاً عنها صحيفة « الجوائب المصرية » اليومية وذلك عام ١٩٠٢ . وحياة هذه الصحيفة تنقسم الى دورين . الأول حين كان يصدرها مطران ويديرها بنفسه . والثاني حين عهد بها الى عطا بك حسني فالتزم إصدارها . على انهُ في الدور الاول ساعد خليل مطران في إصدار الجوائب شقيقه جورج مطران ، وكان يحرر معهُ فيها الشيخ يوسف الخازن والشيخ علي الغاياتي . غير أن طبيعة مطران التي لم تعتد التصرف مقيدة بنظام ، جعلت شؤون الصحيفة تختل في يده فلم يقو على اصدارها بنفسه وادارتها ، فعهد بادارتها الى نفر من اصدقائه وتنقلت ادارة الصحيفة بين أيديهم حتى انتهت الى يد عطا بك حسني الذي أخذ على نفسه مسألة اصدارها وإدارتها [1] وما وجد مطران في شخص صديقه عطا بك حسني الرجل الذي يمكن أن يدير صحيفته حتى انطلق حرًّا من قيود العمل في الصحافة واشتغل بأعمال البورصة وشؤون التجارة والاقتصاد . على أن اشتغاله بالشؤون التجارية لم يمنعهُ من أن يساهم بين الحين والحين في امداد الصحف العربية بمصر بكتاباته ، وكان في طليعة هذه الصحف — ما عدا الجوائب — صحيفتا « الوطن » و « اللواء » [2]

***

من الاهمية بمكان ان ننظر في حياة مطران الاجتماعية وصلاته بالناس لأن ناحية كبيرة

(١) فيلبدي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، ج ٤ مادة ٢٠٠ من قوائم الصحافة المصرية — الهامش وكذا لنا المبحث الخامس فقرة ٢

(٢) الصحافي المجوز في المبحث الخامس لنا فقرة ٢ وعبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٤٤

من حياة مطران دارت متلونة بصلاته الاجتماعية بالناس في المحيط الذي كان يكتنفه . فقد كان الرجل « صاحب شعور اجتماعي يتلوّن بصلاته بالناس » [١] وكان يسترسل مع هذا الشعور فينظم في اغراض اجتماعية الكثير من الشعر . وهذا ما يظهر من مطالعة ديوانه الذي يتألف جانب كبير منهُ من قصائد دارت حول اغراض اجتماعية واضحة تلونت بها مشاعره واحساساته فشارك الجماعة شعورها واندمج في جوّها وحمّل نظيمه آلامها أو افراحها . ومن هنا جاء جانب كبير من شعر مطران من الأدب الاجتماعي وهذا جعله موضع اتهام عند البعض في أن أدبه : أدب الحفلات والحياة الاجتماعية ومناسباتها [٢] على أننا لا نرى في ذلك ما يدعو الى اتهام الرجل في شاعريته او في ذوقه الشعري فالرجل — كما قلنا — لا يقول الشعر الاّ عن وجدان صادق ، ومراثيه ومدائحه لا تعتمد على جودة الصياغة وقوة الصناعة التي يرتفع بهما البعض الى محاكاة العاطفة ، وانما تقوم عنده على فيض الشعور ، وشعور الرجل — كما قلنا — يتلون بصلاته الاجتماعية بالناس . ومن يطالع ديوان الخليل يرى مصداق كلامنا في الشواهد الكثيرة التي يحملها ديوانه . فقد خلق الرجل وفيه اللطف سجية والميل لمعاشرة الناس . واذا بهذا اللطف يتداخل مع ميله للمؤانسة وحبه للمعاشرة فيكون محوراً تدور حوله بعض اغراض شاعريته . وليس من شأننا هنا ونحن نطوي جانباً من سيرة الرجل في فترة من الزمن ان نتوسع وندل على الشواهد التي اتخذناها واقعات انتهينا منها الى هذا النظر . فان لهذا البحث الاستقرائي مكانه من بحثنا حين نعرض لدراسة شخصية الخليل في البحث التاسع من دراستنا

على أن حياة مطران التي ذهبت تدور حول صلاته الاجتماعية مع الناس ، تأثرت بما يحمله المجتمع المصري في ذلك الحين من فكرة التشيع للجامعة العثمانية . ولكن هذا التشيع — الذي اشرنا اليه من قبل — كان مقروناً عند مطران بالرغبة في صلاح الدولة واصلاح امور رعاياها ورجوع الطمأنينة الى قلوب الناس . ولا شك ان رغبة مطران الاصلاحية تولدت في نفسه من اصطدامه بالمفاسد التي كانت تنخر في جسم الدولة العلية . ولاشك ان مطران الذي كان هدف تضييق قلم المراقبة التركية في بيروت عقب مخرجه من الكلية البطركية — مما ألجأه بداءة ذي بدء الى مغادرة بلاده الى الخارج الى حيث لا يصل اليه تضييق السلطات التركية — لمس جانباً من جوانب خنق الحريات في نطاق الدولة العثمانية . ولا شك ان ما لاقاه في باريس من دسائس وصلت وراءه من تركيا فجعلته ينزح الى مصر ، وضعه في مركز يحس فيه بمقدار تسرب الفساد

(١) الرسالة — السنة السابعة . عدد ٣١٠ ص ١١٧٦—١١٧٧ وعدد ٣١١ ص ١٢٢٤—١٢٢٦

(٢) الرسالة . م ٢ ج ٣٠٢ ص ٧٩٣ وروكس زايد العزيزي في المجلة الجديدة م ٦ ج ٥ ص ٣٥ — ٥٣

الى جسم الدولة، ذلك الفساد الذي جعلها تهتز فرقاً من اي فكرة اصلاحية . وقد ثار مطران على هذه الحالة بغير ان شيئاً من الحيطة في نفسه جعله لا يسترسل ومشاعره فيرسلها بقوة وعنف واضحة في ثورتها على فساد الدولة . وانما كان يداور ويبوح بمكنونات صدره وخلجات نفسه من خلف حجاب من الرمز والايماء . فانت تلمس في قصيدته « شبح اثينا » (الديوان ص ٢٦٤ — ٢٦٦) كيف يجنح مطران الى التاريخ ويتخذ من بعض وقائعه مادة يحتجب وراءها ويرسل مكنونات نفسه . وانت تلمس في كل بيت من ابيات هذه القصيدة روح مطران المتألمة لذل قومه الثائرة على جمودهم الساخطة على استكانتهم . فيقول :

يا عبرة الدهر جاوزت المدى فينا حتى لبأنف أن تتعاه ماضينا

وتراه يندفع بعد ذلك مع شعوره حتى يرسل في نفسك شعوره فيعديك وينقل اليك ثورة نفسه . وتراه يطلب المزيد من الكوارث وأحداث الزمان لعلّها تكون منبهة لشعبه الخامل:

فزد مصائبنا حتى تنبهنا تكن حياة لنا من حيث تردينا

ويمكنك ان تلمس في هذا التضمين لشاعره أغراضهُ الاصلاحية وثوراته النفسية . وذلك من وراء الحجب التي أرسل مشاعره واحساساته من خلفها فلفّها في مشاهد من التاريخ . تجدها في قصيدته عن مقتل « بزرجمهر » (الديوان ٩٩ — ١٠٢) وهو فيها يحمل حملات عنيفة على عبد الحميد طاغية تركيا . وهكذا يمكن الانتهاء الى دراسة مشاعر الرجل الوطنية في هذا الطور دراسة منتظمة دقيقة [١]

على أننا يجب ألاّ ننسى مشاعر مطران ازاء القضية الوطنية المصرية التي تجدها مضمنة في قصيدة له عن « ذكرى حافظ ابراهيم » (القاها عام ١٩٣٣ بمناسبة مرور عام على وفاة حافظ ابراهيم) حين عرض لوصف النهضة القومية المصرية التي كونت حافظاً وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن روح مصر . ومطران يرى أن النهضة الحديثة من غرس مصطفى كامل وأنهُ تعهدها بجهاده الى ان مات وانها اينعت في بستان جهاده [٢] . وهذا ما يبدو لك من مرثاته لمصطفى كامل. على انهُ يمكن ان يقال بعد ذلك أن شعور مطران ساير الشعور المصري ، من حيث اندمج في المحيط المصري مع الزمن وحمل الكثير من خصائصه وبدرات روحه. وهذا هو تفسير شعوره الوطني . ويمكن أن يزاد على ذلك فيقال ان اشتراك مصر وسوريا في ملابسات وأوضاع سياسية واجتماعية واحدة وجهاد كل منهما في سبيل الحرية ، كانا يجعلان مطران حين يتوجه لمصر ، يتوجه بمشاعره في الواقع الى مسقط رأسه، ومن هنا كان يلبس مشاعره نحو مصر صدق البوس

---

(١) روكس زايد العزيزي في المجلة الجديد: م ٦ ج ٥ ص ٣٨ — ٤٠ في «مطران والوطنية»

(٢) عبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٣١٠ — ٣٩٣

خاتمة

في عام ١٨٩٨ شرع مطران — اعتماداً على قصة رويت له وقائعها — ينظم قصيدة في الاغراض القصصية لم ينته منها الا بعد سنوات . هذه القصيدة هي قصة « الجنين الشهيد» التي نشرت عام ١٩٠٥ في (مجلة الهلال)[1] ، وهي التي خلقت لمطران شهرته الأدبية بين شعراء عصره . يقول سليم سركيس في تاريخ نظمها استناداً الى حديث له مع مطران :

« نظمها مطران وهو يتمشى في الجزيرة ومنها الى الهرم وفي يده ورقة يدون فيها خواطره حتى اذا جاء الهرم كان قد كتبها شعراً على ما ظهرت فيه من الوزن والقافية ولكن بلا تشطير وفيها محلات ناقصة ومحلات للتنقيح فاستراح قليلا في مينا هاوس . وهنا خطر له ان القافية لا تسع المعاني ولا تؤدي الفكرة التي يريدها واستصعب ان ينظمها من جديد فعاد من الهرم وهو يخمسها توسيعاً لمجال الفكر فما تمت ليلة حتى فرغ منها . ولكن كانت رمية اولى وأراد الاسراع في انجازها في الاسماعيلية وأوقات فراغه كثيرة فانتهى منها مستكملة في أسبوع وأرسلها الى صديقه الشيخ نجيب الحداد وسأله مراجعتها وتنقيح الضعيف فيها . واذا رأى نشرها في مجلة « أنيس الجليس » فلما قرأوها في الاسكندرية هالهم أمرها واستعظموا التصريح في حقائقها وتراءت لهم فيها كلمات حسبوها غير مناسبة لمجلة نسائية فجاءه كتاب من نجيب الحداد يقول له فيه :

[مع أني رافقتك في تحرير الاهرام زمناً طويلا دهشت لما قرأت قصيدتك . أولا لانني اكتشفت أنك شاعر . وثانياً لان هذا المذهب في اعتقادي هو مذهب الشاعر في المستقبل . وقد استصوبت المديرة — يعني صاحبة مجلة أنيس الجليس — ان لا تنشرها لان في بعض ألفاظها ما يظن فيه تجاوز الاصطلاحات المعروفة فأرجو ان تنشرها في مجلة او جريدة أخرى منتشرة جداً لتطلع بحراً جديداً على الشعر العربي]

واجتمع مطران في مشرب بجماعة من الاصدقاء فقرأها عليهم فألح قوم بنشرها فقال : ما هذا أوانها . واستأذنه آخر ان يقرأها على حدة واذ ذاك نسخها وبعد ايام تناقلت الالسن بعض أبياتها . وألح عليه الادباء ان يذيعها فلما رأى منهم هذه العناية قصد ان يجعلها كاملة فطواها على ان يزيدها تحسيناً ، ولكن عرضت له شواغل منعته عن الشعر طويلا . ولبثت مطوية نحو سنتين من زمان حتى أنشأ — المجلة المصرية — وأراد نشر شيء من طريقته في النظم بجانب ما نشره اصدقاؤه فيها . فأخذ ينشر مقطوعات صغيرة ، وبدأ بتنقيح قصيدته حتى استوفى كمالها معنى ولفظاً . وجاء صيف عام ١٩٠٢ فسافر الى الاسكندرية وأقعده المرض فلما انتقل من بيته فقد القصيدة مع قصيدة أخرى اكبر منها اسمها « نركي ميد » وهي قصيدة رجل بدوي لولا انه من رجالات العرب لجاز ان يكون نابليون او تيمورلنك . كتب منها سبعمائة بيت وكانت هزيمة مسبعة فراجع ذاكرته استبقاء للقصيدتين فلم يتل من الثانية الا بيتين . وأما الجنين الشهيد فحضره منها أبيات كثيرة . وحدث أن تعطلت المجلة وشغلته الجوائب اليومية وقل نظمه حتى ندر وبينما هو يفتش في أوراقه عند نقل الجوائب عثر على نسخة من القصيدة غير منقحة من الاصل فلما أراد أصدقاؤه ان ينشرها قدمها على علاتها كما يرى من كتابة أبياتها . » (٢)

---

(١) الهلال . السنة ١٣ ج ٨ (مايو ١٩٠٥) ص ٤٦٨ — ٤٨١

(٢) مجلة سركيس : م ١ ج ٤ ص ٩٧ — ١٠٠

وما انتشرت القصيدة حتى ثارت من حولها الاقلام وكتب عنها صاحب مجلة سركيس :
(انها البأذة الشعر الحاضر ومعلقة النهضة الشعرية العصرية) [١] . وارتأى اعلام الأدب في عصره « انها فتح جديد في عالم الشعر العربي » . وكانت هذه القصيدة سبباً في اشتهار اسم الخليل . في ذلك الوقت كان الخليل في غمرة من مشاغله لا يجد من وقته فسحة للنظم ، فندر شعره ، وما كان ينظمه من الشعر ، كان يكتبهُ مسارقة من اوقات عمله يخلو الى نفسه قليلاً ويقيد بعض الابيات مسارقة من العمل ثم يعود الى اشغاله وهكذا حتى ينظم القصيدة في أيام . ولم يكن مطران يعنى بنشر شيء من شعره في المجلات لذلك العهد . فاجتمع عنده من هذا القليل الذي نظمهُ طائفة عمدت مجلة « سركيس » الى نشرها عند بدء صدورها . وأنت تجد في مجلداتها الشيء الكثير من شعر مطران نذكر منها

[« فاودج ابرتقال » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٣٧ والديوان ٢٣١) و « شغف وظمأ » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٣٧ والديوان ١٦٣) و « جمال النفس » (مجلة سركيس : م ١ ج ٤ ص ٢٠٢ والديوان ص ٣٧) و « نفحة الزهر » (مجلة سركيس : م ١ ج ٥ ص ٢٥١ — ٢٥٤ والديوان ١٤٥ — ١٤٨) و « نصيحة » (مجلة سركيس : م ١ ج ١٥ ص ٤٨٠ والديوان ص ٣٦) والعقاب (مجلة سركيس : م ١ ج ١٦ ص ٤٨٩ — ٤٩٣ والديوان ٩٢ — ٩٧) و « الزنبقة » (مجلة سركيس : م ١ ج ١٧ ص ٥١٧ — ٥١٨ والديوان ١٣ — ٣١) و « رسالة مفاكهة » (مجلة سركيس : م ١ ج ٢ ص ٦٣٦ — ٦٣٨ والديوان ١٤٤ — ١٤٦) و « عرس قانا » (مجلة سركيس : م ج ١٢ ص ٣٦٩ — ٣٧١ والديوان ٢٦٩ — ٢٧٠) و « عتاب » (مجلة سركيس : م ٢ ج ٢٢ ص ٧٠٠ — ٧٠٣ والديوان ١٧٥ — ١٧٩ وهذه القصيدة الذيت في دار التمثيل العربي مساء ١٨ مارس ١٩٠٦]

وقد نشرت جميع هذه القصائد في الديوان . على انا نجد مطران بعد ذلك يضرب عن نشر شيء من شعره مدة من الزمن ويستجمع نشاطه ويخرج للناس سفر (مرآة الايام) عام ١٩٠٦ في مجلدين كبيرين عن التاريخ العام . وقد كان مطران قد نشر بعض فصوله مبعثرة من قبل في « المجلة المصرية » ايام كانت تصدر

وفي عام ١٩٠٨ جمع مطران كل ما نظمهُ من الشعر الى ذلك الحين وقدمهُ للناس في مجموعة تحمل اسم « ديوان الخليل » . ويستوقف النظر من الديوان ترتيب قصائده الزمني ، غير أن التواريخ التي حمّلها الخليل أواخر قصائده على انها تفيد زمن النظم ليست دقيقة في عمومها ، فينا تجد أنهُ نشر قصيدته القصصية « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » في مجلة « أنيس الجليس » عام ١٨٩٨ (م ١ ج ٦ — ٣٠ يونيو) تجده يعطي القصيدة تاريخاً متأخراً يجعلها من آثار شهر يوليو سنة ١٨٩٩ (الديوان ص ٧٤) . وهذه مثال واحد من أمثلة كثيرة يمكن ان نسوقها

---

(١) مجلة سركيس م ١ ج ٤ ص ٩٧

للدلالة على أن الترتيب الزمني لشعر الخليل في الديوان تقريبي . لهذا يستحسن أن يرجع في ترتيب شعره الى جانب النقد الخارجي الذي يتناول سند القصيدة الزمني — أي تاريخها الخاص — الى النقد الداخلي الذي يتناول القصيدة من جهة المادة والأسلوب والذي يضعها في مكانها بين آثار الخليل

على انهُ يمكن ان يقال بصدد صدور ديوان الخليل في ذلك الحين انهُ احدث أثراً لم يحدثهُ صدور ديوان من قبل . وما كان مذهب الخليل ليذيع فيتأثره أدباء الشباب لو لم يجمع الخليل شعره في مجموعة ، لأنها وهي في ديوان أدل على اغراضه ومناحي مذهبه منها وهي متفرقة في بطون المجلات والصحف . وقد لاقى الديوان حظهُ من الذيوع . وقد كتب في حينه انطون الجميل فصلاً طويلاً عنهُ في الهلال (م ١٦ ج ٩ ص ٥٣١—٥٣٩) كما نشر احمد زكي ابوشادي فصلاً آخر تجده منشوراً في كتابهِ (اصداء الحياة ص ٦ — ٢٥)

وقد خلد مطران الى الهدوء بعد نشر ديوانه ، فلم ينظم الاَّ قليلاً . على ان شعره الذي نظمه بعد ان اصدر ديوانه تجد نماذج منه في « مجلة الزهور » « التي اصدرها انطون بك الجميل عام ١٩١١ . واهم النماذج التي نشرها فيها قصيدتان : الاولى « الزهرات الثلاث » (الزهور م ١ ج ٢ ص ٥٦—٥٨ والشعراء الثلاثة للسندوبي ص ٣٤٧ — ٣٤٨) والثانية « اقرار وعتاب » (الزهور م ٢ ج ٨ ص ٤٣٥ — ٤٣٩) وهذه القصيدة قالها في تكريم قريبته نجلا صباغ . كما تجد له قصيدة في « وداع محمد عبد الهادي بك الجندي » (الشعراء الثلاثة ص ٢٨٤ — ٢٨٦) القاها في حفل وداع له في المحلة الكبرى عام ١٩٠٩ . وله قصيدة رثاء في الشيخ علي يوسف (الشعراء الثلاثة ص ٢٧٤ — ٢٧٧ القاها في حفل الاربعين ٥ ديسمبر ١٩١٣) . كما له قصائد متفرقات تجدها في كتاب الشعراء الثلاثة اهمها مرثاته لجورجي زيدان (الشعراء الثلاثة ص ٣٠٢—٣٠٣ وفي « سبيل الهلال الاحمر » (الشعراء الثلاثة ص ٣٠٨— ٣١١) « ووداع لبنات الهلال الاحمر » (الشعراء الثلاثة ص ٣١٤) وهاتان القصيدتان نظمهما في ابان الحرب الطرابلسية بين تركيا وايطاليا . كما أنك تجد له قصيدة رقيقة عنوانها « الأسد الباكي » (الشعراء الثلاثة ٣١٥ — ٣١٦) وقد نظمها وهو في مصر الجديدة (محمد تيمور في حياتنا التمثيلية ص ١٠٦)

وباشتغال مطران بالشعر هذا العهد الطويل سلك فيه مسلكاً جديداً — وسلوكه ان لم يستمرئهُ اولاً ذوق الشعراء فقد اعترف بهِ مع الزمن كما يقول محمد تيمور — فأصبح من فحول شعراء المعاني الذين يرتفعون بوحيهم الى سماء الخيال[1] . وقد عرف ذلك الزمن هذه الحقيقة فظهر في كتابات أدبائه وأعلامه تقدير الرجل ومزاياه

(١) محمد تيمور — حياتنا التمثيلية : فصل محاكمة خليل مطران ص ١٠٥

استطلاعات المقتطف في مصر الاقتصادية

مصايد الاسماك

ثلاثة ايام مع رجال شركة مصر

كيف يصيدون السمك

على بعد اثنتي عشرة ساعة من ميناء السويس، وفي وسط امواج البحر الاحمر الصاخبة وقف القارب (التمساح) وهو احد قوارب شركة مصر لمصايد الاسماك، يمدّ شباكه ليلقيها في الماء ليقدم لسكان القطر المصري أكلةً من السمك. وكان رجال القارب العشرة منهمكين في ترتيب الشباك (الغزل) على نظام خاص يضمن عدم ارتباكها اذا اصطدمت بالامواج

و (الغزل) في لغة صيادي السمك كيس طوله ثلاثون متراً مفتوح من الجانبين . وضيق الفتحة من جهة فلا يزيد قطرها على متر واحد بينما الفتحة الاخرى واسعة فيصل قطرها الى ثلاثة امتار. والفتحة الاخيرة تشد الى القارب بحبلين طول الواحد منها ٥٥٠ متراً منها ٢٥٠ متراً من الالياف النباتية و٣٠٠ متر من حبال حديدية . فاذا اراد الصيادون ان يلقوا شباكهم سدوا الطرف الضيق بربطه بالحبال حتى لا ينفذ منهُ السمك الى البحر بعد دخوله الكيس والفتحة الواسعة تحيط بها الحبال القوية التي تتحمل مقاومة الاجسام الصلبة مما قد يصادفها في البحر كقطع الحديد (الحلب) التي تخلفها السفن الماخرة . وبين حبال النسيج النباتي وحبال النسيج المعدني توضع لوحة من الخشب طولها متر وعرضها متران. وأحد طرفيها محدب ومكسو بالحديد حتى تحتفظ اللوحة بوضعها الطولي في الماء . فان الحديد أكثف من الخشب ولذلك يرسو الجزء الثقيل في القاع بينما يرتفع الجزء الآخر والغرض من جعلها محدبة ان لا تغرز في القاع وتعطل سير « الغزل » والقارب . ويوضع في كل عملية صيد لوحتان متماثلتان من الخشب الغرض منهما فتح الغزل والهبوط به بعامل الثقل الى قاع البحر لان عملية الصيد التي تتبعها شركة مصايد الاسماك هي « كنس » قاع البحر . ويشد الغزل الى القارب بحبلين يتصل كل منهما باحد جانبي القارب حيث ثبتت روافع عملها جذب «الغزل» بما يضمّهُ من صيد

تسعة اميال لكل جرفة

تبدأ عملية الصيد من وقت القاء الشباك في الماء وتركيزها في قاع البحر وتستمر مدة ساعتين أو

ثلاث ساعات يسير القارب في اثنائها وهو «يكنس» البحر من كل ما يصادفه في طريقه . فاذا دخلت الاسماك في الفتحة الواسعة عجزت عن الخروج لأن سرعة سير «الغزل» اكثر من سرعتها وهي بذلك كلما طال عليها الوقت كلما توغلت داخل الكيس الى أن تستقر في طرفه الاخير المربوط فلا تنفذ منه

ويقطع «الغزل» في الجرفة الواحدة تسعة اميال ثم يجذب بعدها الى القارب بواسطة الروافع التي تعلقه على صار مرتفع فيسهل على الصيادين في هذه الحالة ان يحصلوا على صيدهم اذ يفكون الفتحة الضيقة فيفرغ «الغزل» محتوياته على سطح القارب وعندئذ يشرع الصيادون في فرز انواع السمك بعضها من بعض ثم يوضع في صناديق خشبية ويغطى بالثلج الى ان يعود القارب الى مقره فيسلم صيده الى مكتب الشركة وهو يتولى تصديره الى اسواقه في القاهرة وغيرها من المدن

وتستمر رحلة الصيد ثلاثة ايام يلقي فيها الصيادون تسع «جرفات» بمعدل ثلاث كل يوم هذا اذا لم تعترض سبيلهم احدى العقبات فكثيراً ما تعلق الشباك باحدى المراسي (هلب) التي خلفتها السفن من قبل وبعض هذه المراسي قديم العهد يرجع الى مائة سنة ولذلك فانها تصبح محكمة الالتصاق بالارض اذ تتجمع عليه القواقع والبقايا الحيوانية والنباتية فيحتاج انتزاعها من مكانها الى مشقة ووقت اذ لا سبيل الى تخليص الشباك منها الا بنزعها من مكانها

وقد شاهدت على احد القوارب عدداً كبيراً منها ويقول احد البحارة أنهم اخرجوا من البحر اكثر من مائتي مرساة وكان اول عهدهم بها في سنة ١٩١٩ عند ما كانت سفن صيدهم شراعية وجذب الحبال بالايدي لا بالروافع فاستغرق اقتلاعها نصف يوم واقتضى عمل ٢٥ رجلاً

طرق الصيد

وصيد السمك كما يقول علي افندي وكيل شركة مصر لمصايد الاسماك ثلاثة انواع تبعاً لنوع السمك وطبيعة البحر . فهناك اسماك تعيش طافية على سطح الماء وهذه تحتاج الى مايعرف بالصيد «بغزل البوص» وفيه يكون الغزل عائماً قرب سطح الماء فيجمع الاسماك . وهناك الاسماك الكبيرة وتعيش في الجهات الصخرية ويصيدونها بواسطة حبال طويلة تعلق بها الصنانير . وهناك اسماك تعيش في الجهات الرملية او الطينية وهذه يمكن الحصول عليها بالطريقة التي تتبعها شركة مصر لمصايد الاسماك

ويختلف مقدار الصيد باختلاف المواسم وتبعاً لعدد مراكب الصيد والفترة التي يُترك فيها البحر «ليستريح» كما يقول الصيادون او ليتكاثر سمكه ويتوالد بلغة العلم . ولكنهُ يقل بوجه عام في الصيف عنهُ في الشتاء وتختلف مقادير الصيد بين طنين وخمسة اطنان في الرحلة الواحدة واكثر محصول البحر الاحمر من سمك الحارث المعروف عند العامة «بالفاتورة» وهو اكثر ربحاً من الناحية التجارية لاسيما عند بائعي السمك «المقلي» لأن بقاياه قليلة فلا يخسر التاجر كثيراً في توزيعه

الثروة القومية يجب ان تصان

في خليج السويس ٣٠ مركباً تقريباً منها ثمانية مراكب تملكها شركة مصر وأكثر المراكب الباقية يملكها ايطاليون درسوا طبيعة البحر وعرفوا جميع خباياه . ويقول بعض الصيادين ان الخليج لا يتحمل اكثر من ١٢ مركباً . ولهذا أصبح الصيد فيه عديم الربح في المدة الأخيرة فنفقة الرحلة الواحدة تبلغ خمسة جنيهات ونصف ثمن زيوت لتسيير الآلات علاوة على أجور العمال الذين هبط مستوى معيشتهم في المدة الأخيرة هبوطاً كبيراً لان حكومتنا لاتحدد عددرخص الصيد فلا تتاح الفرصة لتكاثر السمك ولا لربح الصياد

أضف الى ذلك تسرب الثروة القومية الى البلاد الاجنبية التي لا تسمح لصيادينا بالذهاب الى مناطق صيدهم . ولهذا السبب ستنقل شركة مصر أعمالها هذا الصيف الى منطقة بور سعيد حتى يتيسر لها وجود الاسماك بكثرة في الشتاء القادم في خليج السويس. ويجدر بالحكومة ان تضع لهذه الصناعة سياسة ثابتة تسمح لها بالنمو والانتعاش لا سيما أنها تتقاضى رسوماً كبيرة عن قوارب الصيد تبلغ ٧٥ جنيهاً في العام الواحد . ويتفاوت ربح البحار في اليوم الواحد بين ١٠ قروش وعشرين قرشاً تبعاً لمقدار السمك الذي يصيده فان الشركة تسير على سياسة دفع أجور العمال وفقاً للمقادير التي يصيدونها . وتحتم عليهم ان يؤمنوا على أنفسهم ضد الاصابات او فقد الحياة . وتدفع الشركة هذه الاموال ثم تخصمها من أرباحهم كل شهر وبذلك توفر لهم الأمن على عائلاتهم وتقيهم شر الحاجة في أثناء المرض

مصانع فرعية

ولما كان الثلج من العوامل المهمة في صناعة صيد السمك سواء عند صيده او عند تصديره الى مختلف جهات القطر فقد انشأت الشركة مصنعاً لصنعه ينتج ثمانية اطنان في اليوم يستهلك معظمهُ في حفظ السمك ويباع بعضه لاصحاب المراكب التي تتعامل مع الشركة . وللشركة عدة « ورش » فرعية تتولى صنع الآلات التي تستهلك في قواربها سواء كانت من المعادن او الاخشاب كما انها خصصت بقعة لتنظيف القوارب يسميها البحارة « الفزّاقة » وفيها تسحب القوارب التي ثقلها ٧٠ طنّاً الى الشاطئ حيث تعمل فيها الترميمات اللازمة سنويّاً « والفزاقة » عبارة عن بناء من الخشب طرفه منغمر في الماء والطرف الآخر مرتفع فوق سطح الارض ولهُ قطع كبيرة من الخشب المكسو بالحديد توضع في الماء الى ان يعلوها القارب فتسحب الى البناء الخشبي وهناك تبدو جميع أجزاء القارب للعين فيشاهد ما فيها من عيوب . ويفحص كل قارب مرة في السنة

وترسل الاسماك من مقرّ الشركة في بور توفيق الى عملائها في القاهرة على سيارات خاصة تصل مصر في ساعتين و بذلك يصل السمك الى أيدي المستهلكين وهو طازج

المثلث التونسي

بين فرنسا وايطاليا والعالم الاسلامي

تونس ما فتئت مطمح انظار الفاتحين

ليست الضجة القائمة حول تونس بالامر الجديد ، وليس الخلاف بين ايطاليا وفرنسا حول هذا المركز «الستراتيجي» في افريقيا ، بالاول من نوعه. ولم تكن الضجة التي احدثتها زيارة المسيو دلاديه رئيس الوزارة الفرنسية لتونس غير صدى لذلك العراك الذي يعود تاريخه الى ازمان بعيدة . ولقد كانت تونس وما تزال ، مطمح انظار المستعمرين ، لما تمتع به من مزايا طبيعية وستراتيجية ، فهي بلاد غنية ذات جمال طبيعي جذاب ، وتتحكم في كثير من طرق المواصلات البرية والبحرية. ويدرك التونسيون ما لبلادهم من مكانة كما يدركون نتيجة التطاحن عليها . ألا تقع على مقربة من عاصمة بلادهم (تونس) اطلال المدينة الاثرية (قرطجنة) التي كان يطلق عليها في قديم الازمان لقب (ملكة البحار) والتي تركتها الحروب قاعاً صفصفاً ؟

وماكانت ذكريات الحروب الغابرة لتؤثر كثيراً في نفسية التونسيين ، فهم كغيرهم من سكان المدن الواقعة على شواطىء البحر المتوسط يتحدثون دائماً عن الحروب المقبلة . وانك لتسمع الاحاديث المختلفة في السياسة ، في منتدياتهم ومجالسهم الخاصة ومقاهيهم ، وهي تسليتهم التي لا يجدون عنها محيصاً

(تونس لنا) هذه هي الصرخة التي صدرت من اعماق أيطاليا ، فأجاب عليها الفرنسيون فوراً بقولهم (تونس كانت وستظل فرنسية)

اما سكان البلاد ، فيقولون ان تونس غير فرنسية وغير ايطالية ، وانما هي قطر البرابرة [1] هكذا كانت قبل ان يدخل اليها الفينيقيون ويسكنوا شواطئها ، وقبل ان يؤسسوا على شواطئها عدداً من المستعمرات والمدن السامية امثال قرطجنة ، واوتيكا ، ولبدة الصغرى ، وهكذا كانت اثناء نشوب الخلافات والحروب حول امتلاكها بين الرومانيين ، والفاندال ، والعرب ، والاسبانيين والاتراك ، والايطاليين ، والفرنسيين . ومع ذلك فان هناك اختلافاً بين سحن السكان الذين يقطنون القرى التونسية . فبينما يقع نظرك على اشخاص قصار القامة سود العيون ، اذا بنظرك يقع في مكان آخر على اشخاص شقر شعر الرأس واللحية ، طوال القامة . فالتونسيون والحالة

---

(١) البرابرة Berbers اسم يطلق على سكان شمال افريقية الاصليين وكان الرومان يطلقونه على من لايتكلم لغتهم

هذه ، قد اختلطوا بالشعوب الفاتحة وتزاوجوا فيما بينهم

ونصف سكان تونس من البدو الرحل الذين قبلوا الاستعمار الاجنبي على مضض . وهم يتربصون ساعة الفرج لتحقيق احلامهم وهي الاندماج في مملكة الاسلام الكبرى التي تضم افريقيا الى الشرق . ويقوم ببث هذه الفكرة في النفوس زعماؤهم الذين يؤمنون بفكرة الجامعة الاسلامية ايماناً راسخاً . ويعتقد الايطاليون ان تونس في حاجة ماسة اليهم. فمن سواحل صقلية المتاوحة لتونس يشاهد الايطاليون السواحل التونسية التي تسيطر على الطرق التجارية . اما الفرنسيون فيرون ان حمايتهم على تونس قد مضى عليها زمن طويل ، وان تونس فرنسية اكثر من الجزائر ومراكش اللتين يعتبرهما الفرنسيون قطعتين من فرنسا . فتونس هي مفتاح الصحراء وبدونها تفقد كل قيمة للممتلكات الافرنسية في افريقيا . ووجهة النظر الايطالية في استعمار تونس انها تقطع المواصلات بين فرنسا وبريطانيا وبين الشرق لانها تكمل مع بانتيلاريا وصقلية وحذاء ايطاليا حاجزاً يقطع البحر المتوسط في وسطه

وتونس ليست بعيدة المسافة عن فرنسا . وهذه المسافة يمكن قطعها في ثلاثين ساعة براً وبحراً من باريس وعشر ساعات بالطيارة عن طريق مرسيليا . وخط السفر يسير يومياً بانتظام بين باريس وتونس . اما المسافة بين روما وتونس فلا تزيد عن اربع ساعات بالطائرة وهناك خدمة جوية كل يوم من روما وبارمو ، عدا البواخر التي تبحر من نابولي وتجتاز المسافة الى تونس في ليلة واحدة فقط

والمسافر الى تونس بحراً على متن سفينة صغيرة من تراباني بصقلية ، او على باخرة من مرسيليا او الجزائر او الاسكندرية ، او عن طريق الجو ، تمر من امامه مناظر تؤثر في نفسيته ساعة يبدأ يقترب من الشواطىء التونسية . وقبل ان يصل اليها يمر من امام سواحل الجزائر الجرداء حتى اذا ما اقترب منها وقع ناظره على شاطىء اخضر ووراءه اودية وجبال مكسوة بالخضرة وعلى مراج من اشجار البلوط والصنوبر ، فكأن تونس قطعة من اوربا في مناظرها ومواقعها الطبيعية . وفي الاودية تنساب الانهار ، حيث تحول الصحاري الجرداء الى اراض خصبة ترعى فيها المواشي والجياد

هذه الجبال الشاهقة الممتدة وراء السهول ، غنية بما في بطونها من معادن كالحديد ، والرصاص والزنك ، والنحاس . وتستخرج من الجبال في مقادير وفيرة . اما السهول فترتفع في كثير من المواقع بمقدار الفي قدم عن سطح البحر ، وفي السهول الواقعة في الجهة الشرقية تزرع الحبوب وفي كثير من هذه السهول ولاسيا على حدود الجزائر مقادير كبيرة من الفوصفات . وتمتد السهول حتى تلتقي بجبال الاطلس القاحلة التي تكون من الجهة الجنوبية الحد الطبيعي بين تونس والجزائر

ويتمتع شمالي تونس بمناخ معتدل، ولا تتجاوز الحرارة فيها درجة ٩٠ ، بالرغم من ان تونس « العاصمة » وما يجاورها من الشاطىء تتعرض للعواصف التي تهب في كثير من الاحيان من الصحراء ، حاملة معها الحر اللاهب والغبار الخانق والسحب القاتمة

وتميل الشواطىء في تونس نحو الانبساط . وفي الجهة الجنوبية تمتد سلسلة متصلة من التلال مكسوة بكرمات العنب واشجار البرتقال . وبعدها توجد تلال تبلغ مساحاتها ألوف الفدادين مكسوة باشجار الزيتون. ويقوم على الشاطىء التونسي عدد من المدن — كسوسة، وصفاقس، وقابس. وفي داخل تونس فيما يلي : سوسة تقوم مدينة القيروان العظيمة . وفي صحراء تونس توجد واحات تختلف في مساحاتها وجمالها ، مغمورة بالخضرة الفاتنة ، والازهار النضيرة وتفيض بالمياه النميرة ، ومن هذه الواحات تصدر مقادير من البلح الذي تمتاز به . وقابس مثال من الواحات التونسية الواقعة على الشاطىء

وغربي خليج قابس تمتد مساحات من الاراضي في غاية الغرابة . وهي عبارة عن منخفضات من الاراضي تستحيل الى برك في فصلي الخريف والشتاء ، يتعذر على الانسان ان يجتازها . ثم تستحيل هذه البرك الى مستنقعات ، ما تلبث اشعة الشمس ان تجففها واذا بالانسان يرى نفسه امام منبطحات شاسعة من الارض ، تسير عليها الدواب والعربات بسهولة . وفي وسط هذه المساحات عيون ماء معدنية يقصد اليها المرضى الذين يبغون الشفاء من الامراض الجلدية المختلفة التي يصابون بها . وقديماً جذبت هذه العيون المعدنية اليها الملايين من الرومانيين للاستشفاء بمياهها. وفي شمال الايالة التونسية تقع مدينة بنزرته التي تعد من احصن القواعد الساحلية على البحر المتوسط . فهي حصن طبيعي ذو مكانة ستراتيجية عظيمة، وقد اعدتها فرنسا لتكون قاعدة بحرية من الطراز الاول ، وهي الآن تأتي في الدرجة الثانية بعد ميناَئي برست وطولون

وخط الشاطىء تحرسه كثبان من الرمال ، وقد شقت في وسطها قناة تصل البحر ببحيرة بنزرته المالحة . وهذه البحيرة قد اعدتها الطبيعة لتكون حصناً حصيناً وقاعدة بحرية ، يبلغ عمقها في بعض الجهات نحو خمسين قدماً . وفي الداخل على مستوى الشاطىء ،سلسلة من الجبال المنيعة يبلغ ارتفاع بعضها ثلاثة آلاف قدم ، وتؤلف حصناً طبيعياً يقي البلاد كل غارة ، وقد زادت فرنسا في تحصينها ، ولا تنفك الاعمال العسكرية قائمة فيها بقصد تعزيزها

وتقيم البحرية الفرنسية لهذه القاعدة شأناً عظيماً . وتستفيد منها كثيراً وذلك انها اقامت فيها عدداً من مصانعها الرئيسية للقوات البحرية ، في مكان يدعى سيدي عبد الله ويبعد عن البحر عشرة اميال . وببنزرته حوض ممتاز للملاحة ولكن استعماله محظور للملاحة التجارية وفيها الآن مرساة للسفن ، واحواض جافة ، وقاعدة للغواصات ، وقاعدة ثانية للطائرات . وهذه المحطة

البحرية اصبحت منذ اتفاق نيون ، ذات شأن خاص لحماية خطوط الملاحة الانكليزية والفرنسية من غرب البحر المتوسط الى شرقه. وتونس العاصمة تشبه كثيراً من المدن الواقعة على ضفاف البحر المتوسط ، بما تحتوي عليه من احياء وطنية ذات شوارع ضيقة ومبان ذات طراز عربي. وهذه الاحياء منفصلة عن الاحياء الاوربية التي تشبه طولوز او مدن الوسط في فرنسا. والهندسة التونسية ذات طابع خاص وتفترق عن الهندسة البنائية في الدار البيضاء او الجزائر

واذا ما جاس السائح خلال الشوارع في تونس فان عينيه تقعان على خليط من الناس ، فكأنهُ في الجزائر ، أو بيروت ، أو الاسكندرية ، او طنجة . على أن السائح اذا طال مقامهُ بتونس فأنهُ يلحظ كثرة من الايطاليين الذين منهم تتألف اكثرية العمال والموظفين وذوي الاعمال الحرة من الاوربيين . ولهم مزارع واسعة تفوق في مساحتها المزارع التي يملكها الفرنسيون ، واكثرها مزروع عنباً

والباي هو حاكم تونس الاسمي . وقد وسعت فرنسا في المدة الاخيرة الاختصاصات التي اعطتها للمجالس المحلية . ولكن المقيم الفرنسي هو في الحقيقة الكل في الكل . ومعنى هذا ان فرنسا تحكم تونس كما تحكم اي مستعمرة اخرى من مستعمراتها مع قليل من الفارق

وهناك قوات عسكرية فرنسية في تونس وبيزرته وعدد من المراكز العسكرية الاخرى ، ومع هذا توجد حاميات كثيرة فيها جنود وطنيون فقط . وقد رأت فرنسا مؤخراً ، رغبة منها في تعزيز الدفاع العسكري وتقوية خطوط الدفاع ، ان تجعل مركز القوات العسكرية في مراكش تحت قيادة الجنرال نوجيس ، على انه في مستطاع هذه القوات ان تتحرك الى اي جهة في تونس او مراكش او الجزائر . وعلى اثر الحركات العسكرية الاخيرة في ليبيا الايطالية اضطرت فرنسا الى تعزيز الحاميات التونسية ، لتكون على استعداد لصد اي هجوم ايطالي يقع عليها . وهناك خط دفاع على الحدود التونسية الطرابلسية يشبه كثيراً خط ماجينو القائم بين فرنسا وألمانيا

وجرى احصاء عام لسكان ايالة تونس عام ١٩٣٦ فبلغ عددهم مليونين ونصف مليون، مقسمين كمايلي : ٢ر٣٣٥ر٦٢٢ مسلمون و١٠٨ر٠٦٨ فرنسيون و٩٤ر٢٨٢ ايطاليون و٧٨ر٤٨٥ يهود.

وباقي السكان خليط من اليونان والمالطيين والزنوج ، وغيرهم ، وهم من ذوي التأثير والنفوذ . وثلثا المسلمين في تونس من البربر والثلث الباقي من العرب والبدو الذين يسكنون الصحراء . ومن بينهم عدد تجنسوا بالجنسية الفرنسية، كما ان اكثر من عشرين الفاً تجنسوا بالجنسية الايطالية . وهناك كثيرون من سكان تونس من آباء فرنسيين وامهات وطنيات . وكثيرون من الايطاليين الآن يطلبون التجنس بالجنسية التونسية . وقد بلغ معدل الايطاليين الذين يتقدمون لطلب الجنسية التونسية منذ شهر سبتمبر الماضي نحو الالف في كل شهر

وللمهاجرين الايطاليين في تونس حقوق وامتيازات،ضمنتها لهم اتفاقات معقودة مع فرنسا . ولهم صحفهم ومدارسهم ومستشفياتهم ، واكثرهم يأتون من صقلية ،ويمارسون الزراعة والتجارة كما ان بعضهم هاجروا من بيمونت ولومبارديا وهؤلاء يمارسون الهندسة والبناء . وثمانون في المائة من ايطاليي تونس يعتنقون المبادىء الفاشستية . وزعيمهم هو السنيور ساتا ماريا محرر جريدة « الأنيوني » اليومية التي تصدر باللغة الايطالية في تونس . وقد اعد لفاشست تونس برنامجاً يشبه برنامج السوديت ، وهم يحرصون اشد الحرص على تطبيق نظمه والسير عليها

والنزاع بين فرنسا وايطاليا بشأن تونس ليس حديث العهد كما قلنا ، وقد بدأ قبل احتلال فرنسا لتونس . ففي عام ١٨٦٩ حينما اخذ ظل (بايات) تونس يتقلص و نفوذهم يضمحل ،وحينما رزحت تونس تحت اعباء مالية ثقيلة ، رأت دول اوربا ذات المصالح ان تعهد الى مجلس مؤلف من فرنسيين وايطاليين وانكليز للاشراف على شؤون تونس المالية . ومنذ ذلك الحين وايطاليا تتربص الفرص لتستقل بفرض حمايتها على تونس . ولكن حدث في عام ١٨٨١ أن وقعت حوادث على الحدود بين الجزائر وتونس ، ورأت فرنسا الفرصة سانحة لدخول جيشها الى تونس، لاسيما بعد ان شعرت بان بريطانيا لا تمانع في هذا الاحتلال وبسمرك يشجعه. واحتجت ايطاليا على التصرف الفرنسي ولم تعترف ايطاليا بهذا الاحتلال الا في عام ١٨٩٦ ، اي بعد مضي خمسة عشر عاماً على الحادث

منذ ذلك الحين والنزاع قائم على قدم وساق ، ولاسيما ان الايطاليين يزداد عددهم في تونس سنة بعد اخرى . وقد سوي الخلاف عام ١٩٣٥ حينما زار المسيو لافال روما ، فقد عقد اتفاق بين السنيور موسوليني والمسيو لافال سويت بمقتضاه المشكلة الايطالية في تونس ، ومن نصوصه أن يظل الايطاليون يتمتعون بامتيازاتهم الحالية حتى عام ١٩٦٥ ، تلك الامتيازات التي تخولهم حق الاشراف على مدارسهم وادخال ما يريدون من تعاليم فاشستية فيها ، والقيام بالدعاية ، الخ

ولكن ايطاليا الغت هذا الاتفاق في دسمبر الماضي بحجة انه لم يبرم

أما المشكلة السياسية في تونس فذات ثلاث شعب

فهناك فرنسا التي فرضت حمايتها عليها والتي تديرها الآن تحت ستار الحكم الوطني

وهناك ايطاليا التي تتطلع الى افريقيا والى غيرها من البلدان ، للهجرة اليها . ولاستغلال مواردها الصناعية . وهي تخص تونس بمطامعها باعتبار أنها مرتبطة بها ارتباطاً تاريخياً منذ قديم الأزمان ، وباعتبار ان تونس مطلب لازم لها لحماية مركزها الستراتيجي في البحر المتوسط

واخيراً ، هناك الوطنيون التونسيون الذين يمقتون اي نوع من انواع الاستعمار ، والذين يحلم شبانهم بالجامعة الاسلامية المتحدة ، وباحياء تراث الاسلام وامجاده المندثرة ، ويرون ألا حياة لهم الا بالتخلص من الطاغوت الاوربي وضمان الاستقلال [عن مجلة نيويورك تيمس]

النازيون في اسكندناوة

الامم الاسكندناوية تقدس :

السلم والتقدم والحرية والديمقراطية

إن حجر الزاوية في العقيدة النازية انما هو الاعتقاد الغامض في سيادة الجنس النوردي

أجل ، يرى النازيون أن كل ما في هذا الجنس جميل .. وقوي .. ونبيل .. وتقي .. ويتصورون الآري على الصورة التالية :—

رجل جميل التكوين حسن الشكل ، ذو انف مستقيمة ، وذقن مربعة وعينين زرقاوين تدلان على صلابة وعنف كما تدلان على أن صاحبها كثير الاحلام ، وشعر اشقر وقبضة يد مصفحة تقوم مقام الدرع ! ..

ويعتقدون ايضاً أن كل نوردي « سيد كريم » و « بطل عظيم » في آن

ولست في حاجة الى ان اعرض لبحث هذا الموضوع الذي تضاربت فيه الآراء وتباينت تبايناً تامًّا .. لستُ في حاجة الى أن أقول أن هذا الجسم الجميل تجده بين شعوب كثيرة وان الوفاً عديدة تتمتع بهذه الاجسام المتناسبة الأجزاء الحسنة التقاطيع ..

ولكن يكفي ان نذكر ان المتصلفين من النازيين كثيراً ما اشاروا في مواقف مختلفة الى ان اسكنديناوة إنما هي الوطن الحقيقي للجنس النوردي الممتاز المجيد

وقد وصف البروفسور كارل هادشوفر السويدَ بانها وطن أجداد الالمان

والقى البروفسور النازي جوستاف نيكل محاضرة في برلين جاء فيها :—

« ينبغي ان لا تبدو اسكنديناوة — في نظرنا نحن الالمان — بلاداً غريبة عنا كما تبدو الممالك اللاتينية والسلافية المجاورة لنا فالالماني في اسكنديناوه لا يضطر لأن يشعر بأنهُ في بلاد خارجة عن حدود وطنه بل انهُ على النقيض يشعر انهُ لا يزال في المانيا ذاتها »

وقد صرح الدكتور الفريد روزنبرج والدكتور جوبلز وغيرهما من زعماء الحركة الفكرية في الريخ في مواقف عدة وعلى الاخص في رسائلهم بآراء مشابهة لهذا الرأي

ولهذا فانهُ من المناسب ان نتساءل ما هو اثر كل هذا في نفوس الاسكنديناويين وكيف يقابلون هذه العقيدة التي ترفعهم الى هذه المكانة السامية بين الاجناس البشرية

ليس من شك في ان أول اثرها انما هو الشعور بالسرور والارتياح

والشعوب كالافراد على السواء تريد من يتملقها وتحب من يداهنها ويعدها مثالاً للكمال بين الامم المعاصرة . فالاسكنديناويون كغيرهم من هذه الناحية ولا يمكن أن نستثنيهم

ولكن هذه العقيدة تترك في نفوس الاسكنديناويين تأثيراً آخر لا يستسيغه العقل الالماني فهم عند ما يرون النازيين ، يصرفون كل جهودهم لتأييد الجنس النوردي فانهم قد يقولون متهكمين : « كيف يمكن ان يطفو التفاح ؟ » ذلك لانهُ اذا كان الدعاة في الريخ مصممين على اعتبار الدنمارك والسويد والنروج ، ضمن الجزء المفضل من الانسانية — والمفروض طبعاً ان تكون المانيا هي ممثلة هذا الجنس احسن تمثيل وزعيمته — فان الاسكنديناويين مصممون هم ايضاً على ابعاد النازيين عن عالمهم النوردي فهم في نظرهم من اهل « الجنوب » وان الحدود الثقافية الفاصلة بين الجنوب والشمال — اي اسكنديناوة — تمرّ في شلزويج حيث تتصل الدنمارك بالمانيا

وفي الواقع انهُ من بواعث الاستغراب ان يتصور المرء ان حلم النازيين العالمي يمكن ان يتفق مع تصور النورديين الاصليين وفهمهم الحياة . فالاسكندناويون « فرديون » قلباً وقالباً منذ الف عام وهم ديمقراطيون بفطرتهم

ويكفي ان نذكر لاقامة البيّنة على ذلك ان أحد المؤرخين الفرنسيين ذكر عام ١٠٠٠ ان جماعة من القرصان الاسكنديناويين رست على شواطىء فرنسا فجاء شريف تلك المقاطعة يسأل هؤلاء « من هو ملككم ؟ »

فاجابوا : « ليس لنا ملك فجميعنا متساوون وليس فينا احد افضل من الآخر ! »

انا لا ننكر ان سلالة هؤلاء القرصان المتكبرين قد رضخوا للحكم الملكي منذ قرون عديدة بل انهم من اكثر الشعوب تمسكاً بالملكية الاّ ان الروح القديمة لا تزال حية فالاسكنديناويون لا يزالون يعتقدون انهم متساوون وانهم اذا كانوا يحكمون اليوم من قبل ملوك فما ذلك الاّ لأنهم قد تسلموا قبل فوات الوقت ان لا يكونوا مستبدين

ومن هنا نجد الاختلافات الجوهرية بين النازيين والامم النوردية الاصلية التي تؤمن بأوسع حدود الفردية وتعتنق الديمقراطية في أوضح اشكالها وأتم معانيها . فأين ذلك من الحكم النازي الديكتاتوري ! ان هذه الحقيقة وحدها كافية لأن تدل على ان الاسكنديناوي يعتبر المانيا محكومة اليوم وخاضعة لمبادىء الاستبداد الموروثة عن الامبراطوريات الشرقية القديمة وليس للمبادىء النوردية

وفضلاً عن هذا فالشعوب الاسكنديناوية كما يعرف كل انسان مسالمة ، تكره الحرب ، بل ليس هناك شيء يكرهونه من اعماق قلوبهم كالروح العسكرية او النزعة الحربية

ولكن الاسكنديناويين يعشقون الحرية ويقدسون استقلالهم وهم على أتم ما يكون من الاستعداد لردّ من يعتدي على استقلالهم مستميتين وعلى الاخص سكان السويد والنروج

فالسلم ، والحرية ، والتقدم ، والديمقراطية ، هذه الكلمات الاربع التي أصبحت مهملة

في الريخ ولا قيمة لها هي كل شيء وأهم وأبرز مظاهر الحياة الاسكنديناوية

والتى عميد جامعة كوبنهاجن خطاباً جاء فيه :

«أريد ان اعلن بصورة قاطعة انهُ لا يوجد في النظام النازي ما يتفق مطلقاً مع العقلية النوردية»

وقابل الالف والاربعماية طالب الذين استمعوا هذه العبارة بالتصفيق الحاد

ثم قال وسط الحماسة الفياضة : « من الحقائق الثابتة التي قد يستخف بها اهل الجنوب ويسخرون ان الاسكنديناويين الاصليين لم يشعروا في اي وقت من الاوقات بانهم مستعبدون أو دون سواهم ارادة وعزيمة بل على النقيض كانوا يعدون انفسهم على الدوام رجالاً احراراً

«هذه هي الروح النوردية الصحيحة وان روسيا والمانيا لتقاومان الآن المثل العليا النوردية مقاومة مطلقة ذلك لان كلاً منهما قد خفضت من قيمة الانسان وجعلته لا يزيد عن ترس واحد من اتراس دولاب في آلة الحكومة بعد ان قضوا على كل نوع من انواع الحرية الشخصية »

وهذا ما يردده بين حين وآخر زعماء الحركتين الفكرية والسياسية في اسكنديناوة ويوافقون عليه موافقة اجماعية فهم لا يقبلون نظاماً « نوردياً » تكون فيه المانيا صاحبة الامر والنهي

ولكن النازي لم ينثن ولا يزال يمد يده ليخطب ود الاسكنديناوي بجرأته وشجاعته ويقول :

«من الاسرار المفضوحة اننا نحن الالمان نغمر الشمال بعاطفة قوية لم يحس بها بعد ولم تقابل بعاطفة الحب المتبادل، انهم لا يزالون ينفرون منا ولكننا امة قوية تستطيع ان تنتظر الى ان تلبي هذه الامم الشمالية وتبادلنا الحب بالحب وسيأتي هذا اليوم لا محالة . اننا مقتنعون بذلك الاقتناع كله » !

بمعنى آخر ان النازيين يعرفون الآن حق المعرفة ان النورديين يحجمون احجاماً شديداً عن قبول زعامتهم ومع هذا فالنازيون لاسباب سياسية واقتصادية أكثر منها عاطفية رومانتيكية يبذلون قصارى جهدهم لكي يحملوا الأمم الشمالية على الاذعان لمشيئتهم والانقياد لهم وقبول هذه الزعامة والسيادة وهم يتوسلون الى ذلك بعدة وسائل منها الاغراء والاستمالة ومنها المداجاة والمراودة ومنها التخويف والارهاب ووسائل الشدة والعنف في النهاية

إن النازي يلجأ الى الشدة بعد ان يخفق في خطب ود الاسكنديناوي كما يلجأ اليها عند ما يخفق في خطب ود ابناء الشعوب الأخرى التي يريد استمالتها والتزعم عليها

ويعتمد النازيون على الجنود الوطنيين . . . على الاحزاب الاسكنديناوية النازية الكثيرة

وفي الواقع ان الاسكنديناويين قد تأثروا في كل وقت بالحركات السياسية والاجتماعية والدينية الكبرى التي نشأت في المانيا

ولكن تأثر الاسكنديناويين بهذه الحركة الهتارية لم يكن عظيماً كتأثرهم بالحركات الأخرى ذلك

لان البذور الهتلرية قد نبتت في أرض قاحلة فلم تثمر في اسكنديناوة

وفي الواقع ان العوامل التي ساعدت على نجاح النازية في المانيا لا وجود لها في اسكنديناوة فما الذي ينعش اذن الهتلرية في اسكنديناوة ويغذيها ؟

أجل ، لا يشعر الاسكنديناويون بأنهم قد خسروا في الحرب او ظلموا ولا يشعرون ان السواد الاكبر منهم في حالة مالية سيئة

ولا توجد في اسكنديناوة طبقة متوسطة متضجرة متبرمة

وعنصر اليهود الذي اثر في الحياة الالمانية وكان له شأن خاص في تغذية الهتلرية في المانيا يسير في بلدان الشمال. وفوق هذا فان اسكنديناوة ليست مهددة كالمانيا بانتشار البلشفية فيها

اجل ، ان الحالة الاقتصادية والمالية في الممالك النوردية سليمة حسنة فان الازمة لم تصبها الاّ فترة قصيرة وبرفق اذا قيست بالبلدان الاخرى وهي بعد ان استفاقت من هذه الازمة القصيرة بدأت تعيش في عصر جديد كله رخاء ويسر

وعلى هذا فالاحزاب النازية التي تأسست في اسكنديناوة كانت احزاباً عارضة وتعتمد اعتماداً يكاد يكون تامّاً على المساعدات المالية التي تأتيها من المانيا

كما انه لا توجد مشكلة يهود في اسكنديناوة وغيرها من الممالك النوردية اذ ان نسبة اليهود بها لا تزيد عن واحد في الالف

نعم ، قد اخفقت الاحزاب النازية الثلاثة التي تأسست في السويد كما اخفقت الاحزاب النازية الاربعة التي تألفت في النرويج. اما الدانمارك التي رحبت في بادىء الامر بالحركة الهتلرية قد عادت فنفضت يدها منها بعد ان وجدت ان النازيين يريدون اقتطاع بعض اجزاء من الدنمارك واعتبارها من « الاملاك » الألمانية

وفي الواقع أن الاحزاب النازية التي تألفت في الممالك الاسكنديناوية قد اثبتت عجزها وعدم مقدرتها على اجتذاب الاهلين اليها فظلت ضعيفة

وكان كل هم النازيين في هذه الممالك القيام باعمال ارهابية فظيعة منها الاساءة الى الافراد اليهود متى انفردوا بهم وخطف الشيوعيين وتعذيبهم وتشويه التماثيل التي في الميادين العامة بتصوير الرموز النازية عليها ومقاومة المظاهرات التي تقام ضد النازية ومقاومة المحاضرين الذين يخطبون او يحاضرون ضد الهتلرية

ولكن هذه الاحزاب بالرغم من كل تهديداتها قد خابت في كل حركة انتخابية كما انه لم ينجح اي ممثل لها في اي برلمان اسكنديناوي « نشرت المقالة التي ننقل عنها في مجلة الشؤون الخارجية في عدد يوليو ١٩٣٧ »

ولكن الهيئات النازية اهم بكثير من الاحزاب في اسكنديناوة واخطر شأناً

ففي كوبنهاجن حوالي ٤٠٠٠ الماني وفي استوكهلم حوالي ٢٥٠٠

وتوجد جمعية نازية محلية في كل مركز مهم في اسكنديناوة

لكن الالمان النازيين في الدنمارك هم الذين سببوا الاتعاب للحكومة الدنماركية اكثر من سواهم من ذلك ان رئيس الجمعية النازية في كوبنهاجن قام بتحريات وابحاث غريبة فوزع خطاباً دورياً على اعضاء جمعيته استفهم فيه عن عدد السيارات التي يملكونها والموتوسيكلات واللوريات وما الى ذلك من وسائل النقل والسفر

ومن بين الاسئلة الأخرى — « وعددها ٢٧ سؤالاً » — هل تملك آلة كاتبة ؟ هل تعرف الاختزال

قد تكون هذه الاسئلة في مظهرها الخارجي بريئة ولكن « التيب ريتر » اي المكتاب قد يكون في لغة النازيين « بندقية » وقد يكون الاختزال «ضرب النار» واستعمال المسدسات والبنادق

كما انه سألهم هل يعرفون شيئاً عن المنارات الدنماركية وعن مواقعها واقرب الطرق للوصول اليها

هذا وقد وصل عدد كبير من « مراسلي » الصحف الالمانية الى الدنمارك بعد انتشار الحركة الهتلرية في المانيا واكثر هؤلاء لم يكتبوا قبل ذهابهم للدنمارك سطراً واحداً لأية جريدة ومع هذا فقد وقع الاختيار عليهم لنزعتهم النازية فبينما نجد في كوبنهاجن مراسلين او ثلاثة مراسلين فرنسيين او انجليز نجد عشرات الالمان مع ان الصحف النازية الالمانية لا تحتاج الى جزء من هذا العدد الكبير من الصحافيين في بلد صغير كالدنمارك وهذا هو السر الذي لم تفهمه بعد الحكومة الدنماركية. ولكن يلوح ان مساعي الدعاة النازيين في البلدان الشمالية لم تثمر فانخفضت نسبة الصادرات الالمانية من الافلام السينمائية الى النرويج الى النصف ونقص بيع الكتب الالمانية في الدنمارك والسويد بنسبة ٢٠ في المائة كما انه قل الاقبال على تعلم اللغة الالمانية وحلت الانكليزية مكانها في المدارس والاذاعة وعلى الأخص في النرويج ولهذه الحقيقة خطورتها العظمى وفي الواقع ان الممالك الاسكنديناوية تقاوم الدعاية النازية مقاومة كبيرة عن طريق تشجيع كل مظهر من مظاهر الديمقراطية والحرية الشخصية

وقد اصبح للعمال أعظم الشأن في حكم هذه الممالك الاسكنديناوية وهذا بمفرده ما على المانيا النازية

ولكن هذا لا يعني ان اوربا الشمالية قد اصبحت معرضة لانتشار البلشفية ذلك لأن السواد الاكبر من الاسكنديناويين لم يصوّتوا في أي وقت من الاوقات لأحد من البلاشفة

ومع هذا فانهم لا يفترون في تأيدهم لمثلهم العليا ويتمسكون بعقائدهم القائمة على الصروح القوية الاربعة التالية : — السلم ... — التقدم ... — الحرية ... — الديمقراطية ...

الحركة الفنية

في سوريا ولبنان

تقوم بجانب الحركة الأدبية في هذه البلاد حركة فنيّة مباركة قوامها الموسيقى والتصوير . وسأعرض في هذا الفصل للجانب المختص بالأدب من الموسيقى الحديثة وقديماً رافقت الموسيقى الأدب وآخته : وستبقى ترافقهُ وتؤاخيه ما بقيت من عناصره

لا تزال النهضة الموسيقية في لبنان على الخصوص في مستهلها ، وكلّ بداية تبحث عن متكإ لها وكثيراً ما يضطرها الاتكاء الى التقليد ، والتقليد لا يشتدّ خطرهُ إلاّ اذا ماشى المقلّد وامتزج فيهِ واستعبد لهُ . واذا قلت التقليد لا أقول الاقتباس ، فمصر اقتبست عن الترك في الماضي ولم تقلدهم ، بل عرفت أن تدلع الالحان المقتبسة بالطابع الشرقي المصري ، ولم تكن الموسيقى التركية والموسيقى المصرية متباينتين متنافرتين كالشرقية والغربية مثلا

على أن لبنان يستهل عهده بالتقليد الخطر لا بالاقتباس . ولو انهُ يقتبس عن الموسيقى الغربية ما يوائم المزاج الشرقي لهان الأمر ، ولكنهُ يقلّد الغربيين تقليداً خاصًّا ويحاول احلال الموسيقى الغربية الصرف محلّ الموسيقى الشرقية . فقد لحن الموسيقار اللبناني الشهير الاستاذ وديع صبرا مسرحية « الملكين » للاب الفاضل الخوري مارون غصن تلحيناً فرنجيًّا وعرضت هذه المغنّاة في بيروت على أنها أول مغنّاة « اوپرا » شرقية في الشرق الأدنى

وهذا القول ترافقهُ غلطتان : الاولى أن مغنّاة « الملكين » ليست شرقية بل غربية فرنجية متسلقة على الكلام العربي ، والأنكى أنك تسلخ ساعتين ونصف ساعة على سماعها من غير أن تقرع أذنيك قفلة شرقية . والثانية أن هذه المغنّاة ليست فاتحة عهد في الموسيقى الشرقية بالشرق الأدنى . فقد نظم الخوري مارون غصن

هذه المسرحية في العام ١٩٢٧ ولحنها الأستاذ صبرا في العام ١٩٢٨ . ولم تعرض رسميًّا في بيروت إلاَّ في أواخر مايو الفائت . في حين أن المسرحيات الغنائية يرجع عهدها في الشرق الى ستين سنة ، فأول من لحن مسرحية شرقية هو الموسيقار الأرمني التركي جوخه جيان الذي وضع مغناة « ليلي جي حورحور آغا » الهزلية وأول من لحن مسرحية في مصر هو الموسيقار كامل الخلعي . فقد لحن هذا الموسيقار عدة مسرحيات لجمعية « المعارف » التي كان يديرها نسيم المندراوي ، من كبار اساتذة التمثيل في مصر . ولم يكن في مصر ، في ذلك الحين (١٩٠٣) إلاَّ فرقة واحدة لامعة هي فرقة اسكندر فرح ، متعهد فقيد الطرب الاشهر الشيخ سلامة حجازي ، وفي جملة المسرحيات التي لحنها كامل الخلعي رواية « الملك اخناتون » وعدد من المسرحيات الفرعونية المصرية لأن جمعية « المعارف » كانت تعمل على نشر الثقافة المصرية القديمة ، وثاني من لحن المسرحيات في مصر هو بطرس الشلفون ، رئيس جمعية « الآداب » المصرية . فقد لحن مسرحية « اسما » و « هرون الرشيد » و « النبي أيوب » و « الملك متريدات » و « ابو حسن المغفل » وثالث من لحن المسرحيات هو اسكندر الشلفون ، الموسيقار النابغة الذي قتل في حادث انهيار مقهى « كوكب الشرق » في بيروت . فقد لحن لجمعية الاتحاد المصرية عدة غنائيات « أوبرا » منها « النعيس » و « حرب العرب مع شارل مارتيل » و « الهوى العذري » و « الدوق دانجو » و « السبايا » . وغيرها وللشيخ سيد درويش عدة غنائيات يراوح عددها بين خمس عشرة وعشرين

***

ويقول الاستاذ صبرا ان مغنّاة « الملكين » هي أول « اوبرا » عربية ملحنة بحسب أصول فن الموسيقى الراقي ومع احترامي وتقديري العظيم لعبقرية الأستاذ وديع صبرا في الفن الموسيقي الذي لايجاريه فيه كثيرون حتى في اوربا نفسها لا اجد بدًّا من القول بأن مغناته «العربية» لم تصادف اي استحسان لأنها ليست « عربية » . وقد تكون اول مغناة وضعت ولحنت في لبنان ولكنها ليست لبنانية ولا شأن بها البتة للموسيقى التي نريدها على اساس الاوضاع الشرقية

فن التصوير في لبنان

الشعر والتصوير والموسيقى ، ثلاثة فنون من مكملات الحياة كل منها ثالوث يجمع — مع استقلاله — بين الاقاليم الثلاثة ، ففي الشعر تصوير وموسيقى ، وفي الموسيقى شعر وتصوير ، وفي التصوير موسيقى وشعر . على ان التصوير اقل حظاً في المجموع من الفنين الآخرين وإن يكن الشعر أوفر حظاً من التصوير فهو أقل حظاً من الموسيقى ، وهذا المجموع لا يُقبل من الموسيقى إلاّ على اقنوم واحد من أقانيمها الثلاثة : النغم

ويرجع ذلك الى مدى الثقافة في الناس ، فالموسيقى تقع في كل نفس على مادّة حساسة تلائمها ، وفي النفوس البشرية — على اختلاف طبيعتها — أوتار تتأثر بمقدار ما يتهيأ لها من الحس فهي لا تحتاج الى تربية او ثقافة ، الى معرفة أو علم . أما اذا تثقفت هذه النفوس فيتوزع طربها وشجوها على مختلف حواس الانسان ويقويان بقوة الثقافة ، فالموسيقي أو العارف بالموسيقى أشد تأثراً بالنغم من الدهماء فهؤلاء الاخيرون يحسون بهذا النغم ، أما العارفون بالموسيقى فيحسون ويرون ويدركون . ففي كل انسان عناصر حساسة تركد منذ نشأتها ولا تستيقظ إلاّ على محك المعرفة والذكاء — بينما التصوير يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهناك ألحان ملوّنة تحرّك في النفس ما تحركهُ فيها الالحان الموسيقية ، على أن هذه الالحان الملونة تحتاج الى تثقيف العين والشعور لتُدرَك وتُحَس ، وهذه الثقافة في العين والشعور نادرة في الناس لأنها نبت الاجتهاد والذكاء والصبر الطويل

كما أن الطبيعة تلوّن الزهرة بشعورها وذكائها ، هكذا المصور فهو يلونها بشعوره وذكائه فبعد ان يدرس تماوج الالوان في هذه الزهرة تمتزج هذه الالوان بحواسه المدركة المستيقظة وتنسل من أصابعه الى الريشة الفنانة ، واذا النور يغمر كل شيء وينفذ من كل مكان وتدب الحياة في الزهرة . فصورة الفنانة «هدى» مثلاً لا تريك «هدى» كما تريك إياها صورتها الشمسية ، فقد وضع الاستاذ قيصر الجميل على قماشته أحسن ما في نفسه ، فهذه الكآبة الطافية على سيماء الفنانة تبخر من عينيها وفمها وانحناء عنقها أحسها المصور في نفسه قبل أن سالت من

أصابعه على الريشة فعلى القماشة ، فكأني به تناول هذه الكآبة من نموذجه ، تناولها بعينيه وشعوره وذكائه ، فنقعها في حواسه ثم عجنها في لوحة أصابعه ، فلم يعطك الخيال بل أعطاك الروح والحياة ، أعطاك الجوهر . والمصور الصادق كالشاعر الصادق يسمع عظمة الطبيعة في قرارة نفسه ويدرك سحر النور والالوان

وصورة الشاعر « شارل القرم » لا تريك إياه كما تراه في صورته الشمسية فشارل القرم على قماشة قيصر الجميل هو الشاعر الحيّ كما عرفته عينك وأحبته نفسك . ففي عينيه العاكفتين على كتابه ، وعلى وجهه المغمور بابتسامة خفيفة يتقاسمها الذكاء والسذاجة كأن نفسه مرتاحة الى ما يقرأ ، كأنهُ اهتدى الى ما يبحث عنهُ في مطاوي الكتب او في مغالق الآثار ، في هاتين العينين وعلى هذا الوجه سلامة القلب التي لا تحزر الشرّ حتى في شدقي الذئب ولا الخبث حتى في عيني الثعلب ، والاستسلام البريء ، هذا الاستسلام المألوف في الشعراء

ولا أعتقد ان بين قماشات قيصر الجميل مايبرز لك فكرة نبيلة سامية عن الرجل المفكر الحازم كصورة هذا «الكاهن اللبناني» الصامد بكل ما في النفس البشرية من الشعور بالكرامة . ولا أعتقد ان الفردية اللبنانية أثبتت نفسها بمظهر فخور كما اثبتت نفسها في هذا الوجه المتسلط ، في هذا الوجه الحامل كل معاني الحزم الشخصي والجرأة الصلبة في كثير من التساهل الانساني ، في هذا الوجه الهادىء الصارم ، هذا الوجه الكاشف عن « فورة الحياة الداخلية المقموعة المشرف على أسرار الضمائر كأن هذه الاسرار تخضع لحدة النظر وتصلب الفم

ومن مشهوري المصورين في لبنان الاساتذة المورواني والأنسي وفروخ. وهذا الاخير هو في الحقيقة مؤرخ الحياة الريفية ومصور للاجواء الروحية، فقد أعرب عن قدسية الطبيعة في لوحات رائعة تتناقض عليها الاضواء الحارّة والأخيلة الكثيفة فالقرى اللبنانية وأديارها وبيوتها وجنائنها وخرائبها ماثلة حية في أصابعه الرومانطيقية الراعشة

وخلاصة القول أن فن التصوير في لبنان وصل الى مستوى جليل — وليس هذا الفن بمستحدث عندنا فقد نبغنا فيه منذ قرون ، وفي كنائسنا واديارنا آثار جليلة منهُ

الياس ابو شبكة

باب المراسلة والمناظرة

مفردات النبات

ملاحظات علمية ولغوية للامير مصطفى الشهابي

حضرة رئيس تحرير المقتطف

لم التق في رحلاتي الى مصر بالسيد محمود مصطفى الدمياطي الذي ينشر منذ سنة ١٩٣٥ مقالات في المقتطف عنوانها « مفردات النبات بين اللغة والاستعمال » . وقد اتضح لي من تصفح هذه المقالات ومن امعام النظر في بعضها ان السيد المومأ اليه استاذ محقق يراجع الأمهات ويصيب كثيراً ويخطىء قليلاً . وها كم بعض ملاحظات يفيد الاستاذ الأخذ بها ولاسيما اذا كان يود طبع هذه المفردات النباتية في معجم :

١ — قال في جزء اكتوبر ١٩٣٦ : « يقال للكزبرة التقدة بالكسر والفتح مع كسر القاف والجلجلان » . قلت قاف التقدة ساكنة . اما الجلجلان فهو ثمر الكزبرة

٢ — قال في جزء يونيو ١٩٣٦ : « الأرز واحدته أرَزة شجر معروف من الصنوبر يقال له (الشربين) ايضاً » . قلت لا لزوم لفتح راء الأرزة . والأرز من الفصيلة الصنوبرية وليس من الصنوبر . وهو غير الشربين . ويخلط بعض اصحاب المعجمات القديمة بين الأرز والصنوبر أو يعرفون هذا بذاك فيجب على علماء اليوم ان يتعدوا عن مثل ذلك . وأهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تُنبتهُ الطبيعة في جبال الشام هي :

السرو Cupressus وهو انواع

الشربين	sempervirens
الدِفران	Juniperus drupacea
العَرْعَر	oxycedrus
اللِزّاب	excelsa
أرز لبنان . ا بْهُل. أرز الرب	Cedrus libani
الشُوْح. تَنُّوب قيليقية	Abies cilicica
الصنوبر المثمر	Pinus pinea
» الحلبي	» halepensis

٣ — جاء في جزء اكتوبر ١٩٣٥ الجروب بضم الخاء والصحيح بخاء مفتوحة

٤ — لم يذكر في جزء يوليو ١٩٣٥ ان الكباد (ككتان وهي لفظة وردت في التاج)

تطلق في الشام على شجرة الأترج . والشاميون لا يستعملون الاّ لفظة الكباد . وهذه الشجرة مبذولة في الساحل وفي حدائق البيوت بدمشق .

٥ — أورد في جزء يوليو ١٩٣٥ تسعة أنواع من الكمء دون ان يسميها بأسماء عربية فقال مثلاً : « توبر البوم » و « توبر إيسنيوم » و « توبر ميلا نوسبوروم » الخ . وكان من المفيد ان يضع لها أسماء عربية على الطريقة التي كنت حاضرت فيها في مصر والشام ولخصتها في جزء فبراير ١٩٣٤ من المقتطف فليراجع . ولما كانت معظم الالفاظ العلمية الدالة على أنواع النباتات لها معان قابلة للترجمة فلا لزوم لتعريب تلك الالفاظ بل هي تترجم بمدلولاتها فيقال فيما نحن بصدده الكمأة البيضاء والكمأة الصيفية والكمأة السوداء الغبيرات وهكذا

٦ — اتبع الاستاذ القاعدة المارة الذكر في بحثه عن شجر القيقب (الاسفندان) في جزء يونيو ١٩٣٧ فقال الاسفندان الابيض والاسفندان الجبلي والاسفندان الجيزي والاسفندان العادي لكن هذه الالفاظ هي ترجمة ما يقابلها بالفرنسية او بالانكليزية لا ترجمة أسمائها العلمية . ومن الاصلح كما هو معروف ترجمة الحروف العلمية الدالة على الانواع النباتية لأنها مشتركة بين الأمم ، وعدم استعمال غيرها الاّ في حالات استثنائية . وعلى هذا تصبح اسماء هذه الاشجار هكذا : القيقب القطني الثمر والقيقب الدلبي والقيقب الدلبي الكاذب والقيقب الحقلي او السهلي . (أنظر أسماءها العلمية) . وفي آخر بحث القيقب عرف أحد الانواع بجملة طويلة وهي « الاسفندان الشبيه بالدردار في الاوراق » ولو قال القيقب الدرداري الورق لاختصر كثيراً

٧ — جعل لفظة المنجو العامية (جزء ابريل ١٩٣٦) اسماً أصليًّا لشجرة الأنبج . ومن المعروف ان النبات انما يسمى باللفظ العربي او المعرب قديماً ثم تذكر اللفظة العامية ويشار الى كونها عامية

٨ — رأيت الاستاذ يستعمل أحياناً في تحلية اجزاء النبات (كالورق والزهر والثمر) غير الالفاظ التي أقرها العلاّمة الدكتور أمين باشا المعلوف في المجلدين السابع والثامن من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق على حين ان هذه المصطلحات هي أصلح ما وضع في هذا الباب فليراجعها كل مؤلف في النبات

٩ — أطلق لفظة البَلَسان على البلم المكي (جزء مارس ١٩٣٦) . ومن المفيد معرفة ان الشاميين يطلقون لفظة البَلَسان على الشجرة المسماة Sambucus وبالفرنسية Sureau . وهي تكثر في بعض الحدائق وتنبتها الطبيعة في لبنان

١٠ — جاء في الجزء السابق « الفُتنة » بضم الفاء وهي نوع من السنط معروف . والأصلح ان تلفظ بفاء مكسورة

١١ — قدم لفظة القرنبيط على لفظة القنبيط (جزء يناير ١٩٣٧) والثانية أفصح

١٢— ذكر في جزء ابريل ١٩٣٩ البيقة (او البيقية) ووضع بجانبها بين هلالين الكرسنة المزروعة . قلت البيقة نبات والكرسنة نبات آخر والجلبان نبات ثالث . وكلها تزرع في الشام فلتراجع في الصفحات ٣٥٢ — ٣٥٦ من كتابي الزراعة العملية الحديثة (طبعة ثانية) . وها كم مقابلها : —

بيقة Vicia sativa كرسنة Vicia ervilia جلبان Lathyrus sativus

مباحث عربية

كلمة للاب انستاس ماري الكرملي

الى حضرة رئيس تحرير المقتطف الغراء

الكتّاب ثلاث طبقات : طبقة تبدع في التفكير ، وتحسن في التعبير ، وطبقة تجيد التفكير، وتسيء في التعبير

وطبقة تحكم التعبير ، وليس هناك تفكير

فابناء الطبقة الأولى يعدون على الأصابع ، حتى في ديار النيل على كثرة أدبائها. والمنتسبون الى الطبقة الثانية كثيرو العديد ، وتراهم في كل منزل

وأما أرباب الطبقة الثالثة ، فانهم لا يحصون لكثرتهم

والآن ، اذا أردت ان تعرف من هم الذين في رعيل الطبقة الاولى ، فخذ بيدك (مباحث عربية) لتفهم كلامي ومدى مرماه ، فانك تصيب فيه من الآراء المستحدثة ما لا تجد مثيلاً له في مئات من التآليف التي تطبع في هذه الآونة ، وكلها تصانيف قد طويت على غرار واحد ، حتى انك لتتبرم من مطالعة اي كتاب ، من أي ضرب كان

ثم أعد النظر ، مصوّباً اياه او مصعّده ، وأنعمهُ في تلك المفردات ، تُلفها كلها دُرراً مودعةً في اصداف مختلفة الاشكال والاقدار، ولا جرم انك تقول بعد أن تقف عليها: « هكذا يجب ان تكون الكتابة ، لا جمع كلم الى كلم ، ولا صفّ أفكار بجانب أفكار ، وليس هناك رابط، ولا ثمّ صلة ، يربط بعضها الى بعض »

على انا وجدناهُ استعمل (المنضدة) ص ٢٧ وقد شاعت على يراع كتبة هذا العهد ، ناقلاً اياها عن (اقرب الموارد) للشرتوني ، أو عن كاتب عثر عليها في المعجم المذكور، فهي لفظة لم ترد في كلام فصيح ، ولا ترد على أسلة مؤلف بلغ ثقة يعتمد عليه . وصوابها (النَّضَد)، كما ذكرها ارباب الدواوين اللغوية ، وهي من باب تسمية الشيء باسم المصدر . وما هذه الأ شامة في جبين الحسناء !

الاب انستاس ماري الكرملي



الطريق الصحراوي العظيم

بين بغداد وساحل البحر المتوسط

نشرت مجلة « بريطانيا العظمى والشرق الادنى » مقالة تحتوي على حقائق طريفة عن الطريق العظيم الذي يُمَدّ من بغداد الى ساحل البحر المتوسط

في هذه المقالة — وهي لمكاتب خاص — ان الحكومة البريطانية مشغولة الآن بمد اعظم طريق وضع المهندسون البريطانيون تصميمه وقاموا بانشائه في بلاد صحراوية ومتى تم كان مرحلة حاسمة في تاريخ النقل الميكانيكي وفصراً جديداً للنقل بالسيارة على سكة الحديد لأن مشروع هذا الطريق كان قد أقر قبل الفراغ من درس مشروع سكة الحديد

هذا المشروع تقوم بتنفيذه وزارة الحربية البريطانية نائبة عن وزارة المستعمرات البريطانية وتعاونها في ذلك حكومات فلسطين وشرق الأردن والعراق

وينتظر ان يكون طول الطريق ٦٠٠ ميل وسيدهن سطحهُ كلهُ بالاسفلت فيغدو بذلك أطول مضمار سباق في العالم

وقد بنيت جسور (كباري) فوق مجاري الماء في الصحراء والمهندسون يعملون كل ما يجب لجعل الطريق ميسوراً في كل حالة من احوال الجو المتقلبة

ومن هذا الطريق جزء يمتد ستة وخمسين ميلاً في ارض شرق الاردن

والمشروع الآن يقتضي عمل ١٥٠٠ رجل وشغل آلات خاصة بتمهيد الطرق ورصفها ولو اريد تنفيذ المشروع قبل الحرب وقبل ان تستنبط هذه الآلات لاستغرق العمل نشاط الوف من الرجال

وقد كان الميجر برجز مديراً للعمل منذ شرع فيه في يونيو ١٩٣٨ ولكن خلفهُ اخيراً الميجر همند احد الضباط المهندسين الملكيين

***

وتقدر نفقات هذا الطريق بستمائة الف جنيه توفّى بهبة من الحكومة البريطانية

وهذا الطريق يصل بغداد بحيفا ومنهُ تمتد فروع تصله بالقاهرة والقدس ودمشق الشام وعمان وليس ثمة ريب في ان الطريق الاصلي وفروعه ستكون شبكة من اهم شباك المواصلات في العالم تسير عليها مركبات البضائع من بلدان الشرق الادنى الى البحر المتوسط

شبكة الطرق في الشرق الادنى

عود الى سياسة الامبراطورية الرومانية

روى مكاتب المقطم من بيروت ان النية متجهة في المنطقة السورية المشمولة بالانتداب الفرنسي الى مد طرق كبيرة تتصل بالبلدان المجاورة لكي تسهل هذه الطرق الاعمال العسكرية وتساعد على استيفاء وسائل الدفاع اذا نشبت حرب

ومن الغريب ان يكون الخوف من الحرب وسيلة من وسائل الاصلاح وهذا عين ما حدث في مصر فإن هذا القطر من افقر الاقطار الى الطرق الحديثة حتى انهُ لا يضارع الاقطار الشرقية المجاورة لهُ من الشمال والغرب فلما سرى الخوف من وقوع حرب وقضت الحكمة بالاستعداد لها عمدت مصر الى مد طرق عسكرية واخذت تصلح الطرق العامة ولم تكتف بالطرق الداخلية بل عمدت الى اصلاح الطريق الصحراوي الذي يصلها بفلسطين

ومتى فرغوا من هذا الاصلاح صار في طاقة المرء ان يسافر من الاسكندرية اوسواها من مدن القطر الى اقصى بلدان أوربا بالسيارة بالطريق الممتد من السويس او الاسماعيلية الى حدود فلسطين مخترقاً فلسطين الى لبنان فسورية والاناضول ومنهُ الى بلدان البلقان في الطرف الجنوبي الشرقي من قارة اوربا

فالشعوب تعود الآن الى مثل سياسة الامبراطورية الرومانية وقد كان في مقدمة القواعد الاساسية فيها ان يُعنى بمد الطرق العسكرية العظيمة من روما الى اقصى الحدود في الشرق والغرب وتستعمل هذه الطرق في أيام السلام في النقل والانتقال ولا يزال جانب من هذه الطرق الرومانية قائماً في البلدان الشرقية ورومانيا وسواها وفيها دلالة على عظم الاتقان الذي كان يلازم صنع هذه الطرق ومدها والاهتمام بصونها

***

وفوائد هذه الطرق في عهد السلام أعظم منها في الحرب لانها تقرب ما بين الاقطار وتهون على الشعوب مهمة الاتصال . وهذا في مقدمة ما يحتاج الشرق اليه علاوة على ما يستطاع من تسهيل التبادل وقد اخذت العيون تفتح لرؤية مزايا هذا التبادل في عصر اشتد فيه التنافس التجاري واقيمت فيه الحواجز الجمركية في معظم البلدان

ومتى استقر السلام الأوربي ولم يبق في حدود مصر الغربية ما يخشى منهُ على سلامة البلاد لا يبعد ان يمد طريق صحراوي متقن آخر من مرسى مطروح الى الحدود الغربية يتصل بالطريق الايطالي العظيم وهو متصل بالطرق البديعة التي أنشئت في تونس والجزائر والمغرب الاقصى والتي شهد لها جميع الذين سافروا بها

نكبات الغواصات

غرقت الغواصة سكوالوس الاميركية وغرقت بعدها الغواصة ثيتس الانكليزية وثم وردت الانباء بغرق غواصة فرنسية في الشرق الاقصى وقيل ان عدد الذين غرقوا بها ٧٧ وقيل انهُ لا يرجى نجاة احد منهم لان الغواصة غرقت في ماء عميق

وعرت بريطانيا العظمى هزة من الحزن لغرق الغواصة ثيتس لم يسبق ان عراها مثلها قبلاً الا عند احتراق البلون الكبير ر١٠١ في فرنسا

ومما زاد حزن الانكليز عجزهم عن انقاذ الغواصة او من كان فيها في حين ان الاميركيين استطاعوا بعض ذلك وعلل هذا الفرق بالفروق التي في الحالتين فقد غرقت الغواصة ثيتس في خليج لفربول وهو مشهور بشدة تياراته وعواصفه وارتفاع المد فيه فحالت هذه الامور دون النجاح في اعمال الانقاذ غير ان الناقدين قالوا إذا كان الأمر كذلك فلماذا وقع الاختيار على موضع كهذا لامتحان الغواصة ولم يختر للامتحان مكان ليس فيه مثل هذه الصعوبات

ومما زاد في نكبة الغواصة الانكليزية ان عدد الذين كانوا فيها بلغ نحو ضعفي العدد المقرر لها من الضباط والجند وكان في طاقة الغواصة ان تقلهم بسهولة ولكن كثرتهم هذه افضت الى استهلاك الهواء الذي في الغواصة

***

وقد جرى الانكليز على عاداتهم من التوسل بهذه الحوادث المحزنة الى كشف النقاب عن عللها لاجتنابها وهي مهمة شاقة لأن معظم الذين كان في استطاعتهم وصف الحادث واسبابهُ دفنوا في ضريحهم المائي في قعر البحر وانما قيل ان العلة الكبرى في غرق الغواصة ان ماء البحر تطرق الى نصفها الأمامي بفتح باب من أبواب أنابيب الطربيد ولكن الذي يتعين تحقيقه هو هل كان فتح الباب لخلل في صنع الغواصة او لخطاٍ بشري. وفي الحالتين كيف يمكن اتقاء تكرار هذا الخطإ

غير أن جزع الأمة وأخطار « المهنة » لن تحول دون المضي في صنع الغواصات وسواها من معدات الهلاك والدمار ولكن الذي يستغربه الباحث مع هذا كله ان تجزع أمة برمتها لحادث من حوادث القضاء والقدر ثم تعمد هذه الامة ومثيلاتها الى اعداد معدات حرب قد يكون طعامها ملايين من الرجال والنساء والاطفال علاوة على الاموال وثمار قرائح العالم في جميع هذه القرون الماضية

صناديق من الرصاص لحفظ الراديوم

يحفرون في لندن أربع آبار في اربعة من أكبر مستشفياتها ويبطنونها بالصلب ليخزنوا فيها الراديوم الذي في المستشفيات لانه اذا اصابته قنبلة وتناثر استهدفت للخطر ألوف من الخلائق

وهذه المستشفيات هي سنت برثولميو ومونت فرنون ومدلسكس ورويال كنسر

وسيحفرون مثل هذه الآبار في مستشفيات بريطانيا الاخرى وطلبت لجنة الراديوم الوطنية الى الاطباء ورجال الشركات التجارية الذين عندهم راديوم ان يضعوا سجلات بما عندهم حتى اذا شهرت الحرب ارسلوا ما عندهم من الراديوم الى اقرب بئر ليحفظ فيها فلا يبقى عندهم منه الا ما يحتاجون اليه للعلاج

وفي بريطانيا كلها نحو ١٢٠ غراماً من الراديوم قيمتها ٨٤٠ الف جنيه . وقد قال مدير معمل الطبيعة في معهد الراديوم في ليفربول لمندوب احدى الصحف ان في معهده ١٫٦ غرام قيمتها ١٢ الف جنيه فاذا اصابتها قنبلة ونثرتها فقد يقتل هذا الرديوم ١٦٠ الف نسمة فان جزءاً من مائة من المللغرام قد يقتل الذي يتنفسه

ويحفظ الراديوم الآن في صناديق لها جدران من الرصاص سمكها ٦ بوصات وهذه الصناديق موضوعة في غرفة جدرانها من الرصاص كذلك

توحيد المصطلحات الطبية في العربية

وافق مجلس الوزراء على مذكرة لوزارة الخارجية قالت فيها ان الجمعية الطبية المصرية طرحت موضوع (توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية) على مؤتمرها الاخير الذي عقدته في اوائل سنة ١٩٣٨ في بغداد فأصدر قراراً اقترح فيه مقترحاً فصلت الجمعية الطبية قواعده بما يلي :

ان تتصل الحكومة المصرية بحكومات الاقطار العربية في الشرق الادنى للاتفاق على ما يأتي بصفة رسمية

اولاً — ان تؤلف كل منها في بلادها لجنة من الاطباء واللغويين للنظر في موضوع توحيد المصطلحات العربية للعلوم الطبية اي اختيار افضل تلك المصطلحات للاستعمال ويراعى في اختيار هذه اللجان ان تمثل فيها الجمعيات الطبية المختلفة

ثانياً — ان تنتدب كل من تلك الحكومات من اعضاء اللجان المشار اليها عضوين للاشتراك في لجنة دائمة تجتمع بالقاهرة شهراً في كل سنة على نفقة تلك الحكومات لبحث المصطلحات العربية المقترحة بواسطة اللجان المشار اليها او الواردة في المعاجم الطبية العربية والبحوث اللغوية الطبية في مختلف البلاد واختيار أصلحها للاستعمال

ثالثاً — ان تكون قرارات اللجنة الدائمة المشار اليها معترفاً بها للاتباع في جميع المعاهد التعليمية والطبية في الدول المشتركة بحيث توحد المصطلحات الطبية العربية في جميع معاهدها وبالتالي في جميع مؤلفاتها ومجلاتها وعلى ألسن أطبائها

رابعاً — ان يكون انعقاد اللجنة الدائمة في كلية الطب او مجمع فؤاد الاول اللغوي بالقاهرة وتتولى الجمعية الطبية المصرية الاشراف على سكرتيرية اللجنة وتتحمل وزارة المعارف المصرية النفقات الخاصة بالسكرتيرية والمراسلات والمطبوعات التي تصدرها اللجنة

النور الكهربائي البارد
في معرض نيويورك الدولي
لعوض جندي

جاء في مقالنا على النور البارد الذي نشرناه في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ ما يأتي (نقلاً عن السفر العلمي النفيس الذي أصدره الاستاذ فرناس الاميركي)

« ومن البديهي أننا اذا أزمعنا تحسين قوة نورنا الكهربائي تحسيناً بيناً ، وجب علينا التذرع بذريعة عدا تبيض النور بالحرارة لأن اديصون حينما صنع مصباحهُ الكهربائي الأول في سنة ١٨٧٩ ، أحدث اختراعه هذا ، انقلاباً كبيراً فجائيًّا . ولكن ذلك ليس سبباً لنعتقد بأنهُ لا يوجد خير من مصباح اديصون الناجح . واذا نحن اقتدينا بالحشرات أو بسمك أعماق البحار ، كان لا بدَّ لنا من استعمال طريقة الضوء المصحوب ببعض التفاعلات الكيميائية Chemiluminescence ولما كانت اليراعة ، زعيمة ذلك الضوء ، فهي الأمينة على سرّهِ ، ولا تقبل البوح بهِ ، وإن كان بعضهُ قد ذاع . ومتى حُلَّت معضلة الضياء المصحوب بالتفاعل الكيميائي فانها لا تصبح مصدراً صالحاً للانارة لأجل البيوت الا اذا وجد امرؤٌ ذو عبقرية قليلة يمكنهُ تحسين ذلك المشروع »

ويبدو لنا الآن أن المهندسين الكهربائيين، والكيميائيين الاميركيين الحذاق ، قد وفقوا لحل هذه المعضلة على الاسلوب الآتي : —

قالت مجلة العلم العام الاميركية في جزئها المؤرخ يونيو سنة ١٩٣٩ إنهُ اخترعت مصابيح كهربائية للزينة سميت بالمصابيح المتألقة . وهي ذات قوة ضوئية تفوق قوة المشاكي[1] الكهربائية الملونة بالالوان المختلفة من خمسين مرة الى مائتي مرة . وقوام نورها، الاشعة التي فوق البنفسجية والمعروف أن تلك الاشعة ، تضيع عادةً بلا جدوى لانها خفية . ولكنها تستحيل ضوءًا جليًّا ملوناً بألوان مختلفة ، وذلك بمسحوق كيميائي يُغَشَّى به باطن الانبوب الزجاجي لمصباح بخار الزئبق

وقالت مجلة خلاصة العلوم الانكليزية المؤرخة في يوليه ١٩٣٨ بعنوان (مصابيح تولد نوراً كنور الشمس) ما يأتي : — اعلنت حديثاً شركتان أميركيتان وهما وستنجهوس الكهربائية الصناعية ، والكهربائية العامة ، في وقت واحد أنهما قد اخترعتا نوعاً جديداً من المصابيح الكهربائية يستعمل فيه الضوء الذي فوق البنفسجي ، مشفوعاً بمواد كيميائية متألقة تُغَشَّى بها بواطن زجاجات المصابيح المشار اليها وذلك لتولد ضياء دريًّا او ملوَّناً ذا قوة تعادلها في المصابيح الكهربائية الحالية ذات الفتائل ٢٠٠ مرة

وتختلف هذه المصابيح اختلافاً كليًّا في

(١) المشكاة — كل ما يوضع فيه او عليه المصباح والجمع مشاك . وعندي ان هذا اللفظ خير ما تترجم به كلمة bulb الانكليزية .

قاعدة تركيبها، عنها في انواع المصابيح المنتشرة الآن . اذ تحول الضياء الذي فوق البنفسجي غير المنظور، الى ضياء دري أو ملون ، وذلك بالتألق . وقوة مشاكيها تفوقها في المصابيح الدرية الحالية بمراحل . ومن هذه المصابيح المتألقة ، طراز يولد ٦٠ شمعة من النور ، من كل وط في الزجاجات التي حجمها ٣٠ وُطْ . على حين ان الزجاجات المعادلة لها في المعيار المصطلح عليه، تولد ١/٣ شمعة من كل وُطْ . وثمة نموذج آخر منها يولد ضياء ، يكاد يضارع نور الشمس سناء وهو اقصى ما بلغته وسائل الاضاءة الصناعية اتقاناً . وتنطوي المساحيق الكيميائية المغشاة بها جدران الزجاجات (المشاكي) على سر تلك الوسيلة الضوئية الجديدة . ومتى يطلق تيار كهربائي في بخار الزئبق المضغوط ، ضغطاً خفيفاً، يولد اشعاعاً خفيفاً فوق البنفسجي ، ذا قوة عظيمة . وابان يصوب الاشعاع الذي فوق البنفسجي، نحو المساحيق الكيميائية ، يستحل نوراً ظاهراً ويتوقف لونه على نوع المواد الكيميائية الخاصة التي تستعمل ويكون ذلك التحول ايضاً ، شديداً جداً ، ويجتنب معه خسائر الحرارة الشديدة التي تولد من طراز المصباح الكهربائي الدري الحالي

وهذه تختلف عن بعض انواع مصابيح الزئبق إذ تصل الى ذروة سنائها في بضع ثوان . وقد كان اختراع هذه المصابيح المتألقة، مصدراً لأعمال جديدة، مفيدة من كل الوجوه ، في الانوار التي تحتاج اليها الزينات . وقد استعملت الاشعة التي فوق البنفسجية ، لكشف اسرار الجرائم، وذلك بالتألق الذي تحدثه في المواد التي تسلط عليها (راجع مقالنا في هذا الموضوع في مقتطف يناير سنة ١٩٣٢)

ثم قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية في جزئها المؤرخ ابريل سنة ١٩٣٩ النبأ الآتي :—

انتجت المعامل الكيميائية الاميركية ، انابيب سحرية للاضاءة الكهربائية بالنور البارد، تسامي قوس قزح في الوانه وتنافس اليراعة في قوتها المضيئة . وذلك لتزيين المشاهد الليلية، زينة رائعة جديدة تأخذ بمجامع القلوب

قضى مهندسو المباحث في الشركة الكهربائية الاميركية العامة ، سنين يخترعون ويجربون التجارب المختلفة ، حتى تيسر لهم ابراز ذلك الضرب من المصابيح وتقديمه للاستعمال ، مطلقين عليه اسم المصابيح المتلألئة . وهي تمثل قصارى القواعد الجديدة للاضاءة الكهربائية . فأتيح لهم بهذه الوسيلة خفض نفقات الاعلانات المضيئة ذات الالوان المختلفة خفضاً يسهل معه تعميمها في كل مكان كما هي مستعملة حالاً في المسارح

ويرى الآن زائرو معرض كاليفورنيا الدولي باكورة هذا الضياء الحديث ، حيث يشاهدون الانوار الفياضة ، التي تنبعث من سطح الارض « كالتي تضاء بها تماثيل المرحوم سعد باشا زغلول وغيره من عظماء تاريخ مصر في القاهرة وغيرها » الى مباني المعرض المنشاة بمادة تشبه الطلق ، فتسطع المباني كل ليلة بانوار زرقاء تنبعث من المصابيح الفياضة النور التي

تسدد اليها ، مؤلفة من ٢٣٠٠ مصباح من ذلك الطراز . وفي وسع خبراء الاضاءة ، ضم تلك الانابيب ذات الالوان المتلألئة ، بعضها الى بعض، ومثلهم في ذلك مثل المصور الذي يمزج الصبغات بعضها ببعض ، ليصور الصورة المبتغاة، فيولدون منها الواناً شتى . فتم لهم ،على هذا النمط ،فتح ميدان جديد للاعلانات الكهربائية ، متدرجين فيها من اصغر الاحجام الى اضخمها. وتستعمل تلك المصابيح ، في الزينات المختلفة الالوان ، فتبدو لناظريها كأنها قوس قزح ، ويمكن الانتفاع بها انتفاعاً مدهشاً ، في البيوت والمخازن ودوائر الاعمال والفنادق والمسارح وعربات السكك الحديدية

وسرُّ هذا المصباح الكهربائي الجديد المتلألىء ، في انبوبه الزجاجي « وطوله العادي ١٨ عقدة وقد يبلغ ياردة كاملة » ثم في باطنهِ المغشّى بالمواد الكيميائية المسحوقة ، وهي ذات لون أبيض يقق كالثلج . وحينما يُسلَّط عليها التيار الكهربائي ، تتلألأ مثل الصبغات المضيئة التي تصبغ بها أثاثات المسارح ، وذلك بتأثير انطلاق الاشعة التي فوق البنفسجية المتولدة في الانبوب ، من بخار الزئبق . ولهذا المشروع نفع عظيم في الاضاءة ، بحيث أن المصباح المتألق ، يفوق نظيره في الاضاءة من المصابيح الكهربائية المشابهة لهُ في اللون، بقدر يتراوح بين ٥٠ مرة و ٢٠٠ مرة . مع انهُ لا يستنفد من الطاقة الكهربائية على شكل حرارة الاَّ قدراً طفيفاً لا يذكر بجانب ما تستهلكه مشاكي المصابيح المألوفة أو اعلانات غاز النيون.

وتم الى الآن صنع خمسة ألوان من تلك الانابيب وهي الاخضر والأزرق والقرنفلي والذهبي والاحمر . وتبدو للرائي الانابيب جميعها عديمة اللون حتى تنار ، عدا النوعين الاخيرين منها وهما اللذان يستعمل فيهما الزجاج الملون . وتتوقف ألوان اضوائها على المواد الكيميائية التي تستعمل لطلي بواطن انابيبها . ومنها الانابيب البيضاء والأنابيب التي تشبه ربع النهار . والأولى منهما تسامي النوع السخن من انواع الضياء الصناعي . ويتولد النوع المماثل لربع النهار ،من خلط مساحيق كيميائية مختلفة، خلطاً متقناً . وقد تبين انهُ اقرب الاصناف الصناعية شبهاً بضياء النهار الطبيعي . ولذلك انتشر انتشاراً واسعاً في الاعلانات الملونة عن المنسوجات ، وذلك بصنع الرسوم المزخرفة ولاظهار محاسن منتجات المصانع . وانما تحتاج المصابيح المتلألئة عند تركيبها ، الى تجاويف كهربائية ، ذات اشكال صالحة لها . والى مفاتيح كهربائية محكمة ، ذات ملفات دائمة للسيطرة على التيار وذلك لانها في غنى عن جهاز خاص أو اسلاك لانارتها . ويستهلك المصباح المتلألىء طاقة كهربائية تتفاوت من ١٥ وط الى ٣٠ وط . ويضاء إما بالتيار المنزلي وإما بالتيار الشديد الذي يسري في الاسلاك التجارية الممتدة من مصانع توليد القوة الكهربائية . واذا أحسن استعمال هذه المصابيح أضاءت زمناً أطول مما تقتضيه المصابيح

المنزلية المألوفة . وقد ساهم الكيميائيون مع خبراء الهندسة الكهربائية في اتقان صنعها وذلك منذ تجربة اصنافها الابتدائية في أوائل سنة ١٩٣٦ حتى بلغت شأوها الحالي . وكانت أنواع التبر النادرة الوجود، المصدر الفرد لتركيب المواد الكيميائية المضيئة او الفصفور اللازم لها . وكان بعضها يفلح والبعض الآخر يخفق من غير ان يفقه الخبراء علة اخفاقه . فدلّ تحقيقهم أخيراً على ان كثيراً من المعادن المتلألئة ومنها سلفيد الزنك وطنجستات الكلسيوم وسليكات الزنك والكادميوم ، تتألق اذا خلطت بها مقادير طفيفة جداً من المعادن غير النقية ، وبالتوسل بهذا الاكتشاف مقروناً بالمصاهر (الافران) الكهربائية التي توجه حرارة شديدة جداً الى تلك العناصر المؤلفة للخليط المعدني، يتاح لمهرة الكيميائيين تركيب فصفور صناعي يفوق افضل انواع الفصفور الطبيعي للاستعمال في تلك المصابيح الجديدة

المنسوجات الزجاجية
في معرض نيويورك العالمي

قد اصبحت البوتقة التي تصهر فيها المواد الصالحة لصناعة القناني ، التي يجلب لك فيها الحليب صباحاً ، مصدراً ايضاً لصنع ملابسك. وذلك ان عجينة الزجاج ، أتيح تحويلها الى غزل ، أمتن اضعافاً من مواد النسيج المعادلة له حجماً ، يمكن استعماله كغزل القطن أو الصوف

***

وتقوم بصنع هذا الضرب من الزجاج ، شركة أونز بولاية الينوى بالولايات المتحدة الاميركية وقد عرضته في معرض نيويورك العالمي ، والعناصر التي يؤلف منها ذلك الغزل الزجاجي هي عينها المواد المركبة منها زجاجة اللبن غير أن المقدار الذي يقصد استحالته غزلاً عند انتشاله من البوادق ، يشرع نافخو الزجاج في نفخه وتحويله الى خيوط أدق من الشعر البشري ، عشرين مرة ، فتغزل تلك الخيوط ، ثم تنسج . وتمارس عملية تلوينه حينما تكون عناصره في البوادق ، اذ تمزج العجينة بالصبغات الزرقاء والقرنفلية وغيرها من الالوان. وخيوط الزجاج من اخف المواد، اذ تفوق في خفتها زغب ريش بط المحيط المتجمد الشمالي ، وخواصها العازلة ، عظيمة جداً . وهذا مما يجعلها نافعة جداً لعزل الاسلاك الكهربائية ،على اختلاف انواعها .كما انها تنفع في حيطان وسُقُف المباني الداخلية كعازلة للنيران وتستعمل في صنع قبعات النساء والحياكة الشيلان والطنافس . ونفقات صنعها معتدلة اذ تستطيع المغازل والمناسج المصرية غزلها ونسجها دون ادخال اي تعديل في الاجهزة ومن غير حاجة الى اصباغ . وقد وصف المنسوجات الزجاجية وصفاً شافياً رئيس تحرير المقتطف في جزء مايو سنة ١٩٣٩



فرعون الصغير

تأليف محمود تيمور — ١٣١ ص ، القطع المتوسط — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٣٩ — ثمنه ٨ قروش صاغ مطبوع طبعاً انيقاً على ورق ممتاز

بهذه المجموعة من الأقاصيص تأخذ طريقة الاستاذ محمود تيمور ، على مايبدو للناقد ، في جهة جديدة . وذلك ان تيمور كان منصرفاً الى الطريقة الواقعية ، تشهد بذلك قصصه السابقة أمثال « ابو علي عامل ارتيست » و « الاطلال » و «الشيخ عفا الله» . والواقعية عند تيمور تتصل بأسلوب (جي دي موباسان) الفرنسي من حيث بناء القصة وسرد حوادثها ووزن تفاعلها. وقد طغت الواقعية على أدبنا بعد الحرب الكبرى ، بل عند السأم من ابتداعية (رومانسية) المنفلوطي وأضرابه ممن بكى كثيراً واستبكى . هذا الى جانب إهمال تيمور لصقل العبارة ولتغليبه العامية على الفصحى أحياناً ، ومرد هذا الى ما صنعهُ محمد حسين هيكل في « زينب » وما رضي بهِ ادباء المهجر في اميركا

في « فرعون الصغير » تخف وطأة الواقعية بحيث لا تملك على بعض القصص مداخلها ومخارجها . ففي القصة الاولى يشغل الخيال المكان الاول حتى انهُ يرد القصة الى لون معروف هو اللون التخيلي romanesque ، وفي قصة « المخ العجالي» يسطو اللون الباطني المستمد من علم النفس الفرويدي freudisme على المجرى الواقعي للحوادث والاحوال . ثم ان الأداء في هذه المجموعة يأخذ في أساليب الترسل الرفيع والتعبير المتخير ، وأما العامية فلا تكاد تصيب لها أثراً وما ورودها غاية بل هو وسيلة لتلوين مشهد وتلطيف إحساس . وتلمس طلب الانشاء الرصين في التصدير الذي عمله المؤلف ، وعنوانه : «المصادر التي الهمتني الكتابة » وهو جم الفائدة من حيث انهُ يبسط كيف اقبل المؤلف على التأليف القصصي وبأي أنواع التأليف تأثر وعلى أي أسلوب جرى فيه . بقي أن للناقد ان يسأل نفسهُ كيف تغيَّرت طريقة محمود تيمور بعض التغير ولِمَ ه ؟ والجواب غير ميسور اليوم، لأن مثل هذا يرجع الى تاريخ الأدب بالنظر في تحول نفسيات المنشئين وتجارب النزعات بين الادباء ، وحسبنا هنا تدوين ذلك .وإن اذن لي ان أرى في ذلك رأياً قلت إني جد فرح بإفلات طريقة تيمور من قيود الواقعية الجامدة ، لان الفن النابض لا يلفه محيط منظور ولا تحصره حوادث معينة ، وفي توطئة « مفرق الطريق » تفصيل ذلك

وبعد فان هذه المجموعة الحقيقة بالعناية الشديدة لتدل على أن فن الاستاذ تيمور قد استوفى عناصره من جهة السرد ولم الفكرة والخروج من الحوادث بالعبرة التي تحرك النفس الشاعرة

بشر فارس

تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء
عند قدماء المصريين

تأليف الاستاذ عبد العزيز عبد الرحمن صيدلي اول بمستشفى الدمرداش باشا
في ٢٨٦ صفحة . طبع بمطبعة الاعتماد بالقاهرة

الطب والصيدلة والكيمياء في طليعة العلوم التي ساهم فيها المصريون القدماء بقسط كبير . وقد كشف تلك الناحية العلمية الاستاذ عبد العزيز عبد الرحمن في كتابه النفيس فتكلم عن بدء مهنة الطب منذ نشأة الانسان وتدرج في تتبع أساليب تقدم العلاج في العصور الاولى وفي عصورها المتوالية . واستخلص مجموعة الأدوية وطرق استعمالها وكيفية تحضيرها ، والتقاليد التي كان يؤديها كهنة الطب والصيدلة في صناعتها وتعاطيها . وبالاختصار فقد أظهر المؤلف ما كان للطب والصيدلة عند قدماء المصريين من أثر في علوم اوربا حتى القرن الثاني عشر

ففي الفصل الاول الذي لخص فيه المؤلف تاريخ مصر الفرعوني ذكر أهم الكتب الطبية القديمة والتي كان أقدمها الرسالة الطبية التي ألفها الملك « تتا » ثاني ملوك الأسرة الأولى وهي الرسالة التي جددت كتابتها في عهد « رمسيس » الثاني ، وعنوانها مكتوب في الصفحة الخامسة عشرة من كتاب الموتى

وتناول الحديث عن معاهد العلاج التي عرفها وادي النيل قبل أن تعرفها أقدم الدول ، والمكاتب الطبية التي دلت الحفريات العلمية عليها . ثم تدرج منها الى الحديث عن عقائد المصريين واتصالها بمظاهر حياتهم ومنها العلاج والتحنيط وورق البردي ، والحتب آله الطب عند قدماء المصريين الذي عاش أثناء الأسرة الثالثة حوالي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد وكان وزيراً لزوسر

ومن اهم فصول الكتاب القراطيس الطبية الذي عني المؤلف ببحثها ودراستها وخرج منها بان قدماء المصريين كانوا يرتبون طرق العلاج بحسب الاعضاء . وكانت القراطيس عبارة عن وصفات طبية جمعها الاطباء في القرى والمدن وتناقلوها من جيل الى جيل . وكان يكتب اسم المريض بالمداد الاحمر والوصفات بالمداد الاسود وامامها مقاديرها بالمداد الاحمر . وتكلم على المادة الطبية والنباتات الطبية القديمة وأتى على شيء من تاريخها ، وعلى علاقة الدين بالنباتات عند قدماء المصريين . وذكر ان الحقن هي اختراع مصري قديم كذلك

ثم انه تكلم على البخور والعطور والمجمّلات وأتى ببعض شذرات من التوراة وعلى ماء هاتور المظيمة ووصفها التي وجدت منقوشة على اثنى عشر عموداً في معمل معبد « ادفو » كما تكلم على مراهم التجميل والكحل والحناء والاحمر

وانتهى هذا البحث بترجمة حياة المؤلفين القدماء الذين اعتمد عليهم المؤرخون في الدراسات الاثرية لفنون الطب والذين بقي اثرهم قروناً في اوربا ، وكانوا همزة الوصل بينها في العصور الوسطى والقديمة الاثرية وبين العصور التي تلتها حتى القرن الثاني عشر تقريباً

ثم تكلم على الصناعات المصرية القديمة باعتبارها اساساً لعلم الكيمياء الحديثة واتى برسوم بعض الاجهزة التي كان يستعملها قدماء المصريين ، وتحدث في افاضة عن المعادن في مصر وتاريخ استغلالها ، وفي الاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وتكلم على انواعها والوانها وعلى الفخار والصيني والزجاج المختلف الالوان ومواد البناء والالوان التي لا تزال تحتفظ ببريقها وما عرف عن تركيبها ، كما تكلم على المشروبات الروحية

***

ومن طريف ما كتبهُ في باب النباتات الطبية عن اللوتس الابيض الذي ظهر على الآثار منذ الأسر الأولى ، وقد عثر على زهور كاملة وحافظة لحالها تماماً في المقابر كزهورها التي انتظمت في اكليل غطيت به مومياء رمسيس الثاني وعثر عليها في مقابر كاهون (الاسرة الثانية عشرة)

وهذا النبات منصوص عنهُ في القراطيس ويستعمل في الطب كمبرد ، وكانت النساء يحملن دائماً ازهاره في زياراتهنَّ ، وكنَّ يزيِنَّ به عصابات رؤوسهنَّ

وهو لذلك كثيراً ما نراه في الآثار لا سيما في عهد الرومان حين كانت المرأة تلبس عصابة من الذهب وتلف حولها سيقان زهور وكانوا يأكلون من النبات بصيلاته سواء مشوية او مسلوقة ، كما كانوا يأكلون البذور وكانوا يصنعون منهُ الحلوى كما ذكر هيرودوتوس وكما كتب في القراطيس المصرية

والاسم المصري للوتس الابيض « سوشين » لا يزال يتردد حتى اليوم بالاسم العبري شوشان والعربي سوسن كلاهما مشتق من الكلمة المصرية ولكن هذه الاسماء كلها لا تدل على شيء واحد في الحقيقة فانها ما عدا المصري تعني الزنبق او السوسن

واسماء الاعلام سوزان الفرنسية ، وسوشان العبرية ، وسوشن المصرية (الاسرة الثانية عشرة) كلها قريبة ومشتقة من الاسم المصري القديم ويوجد نفس الاسم في اللغة اللاتينية واليونانية والاسم المصري الحالي بشنين يمت بصلة كبيرة الى اصل المصري القديم

وينتهي الكتاب بفصل عن الموازين والاوزان وكيف كان يعنى قدماء المصريين بدقة الموازين وبتوفر شروط الحساسية بها واتى برسم جميع اشكال الموازين كما ظهرت في النقوش ، كما اتى برسم الموازين الموجودة بالمتحف المصري وتكلم عن محاسبة الارواح ووزن الروح

ومما يهم الاشارة اليه أن هذا الكتاب علاوة على كونه ضرورياً للطبيب والصيدلي والكيميائي فانهُ معين ونافع لمن يريد دراسة تاريخ مصر القديمة من ناحية العلوم ونشوئها ولمن يريد معرفة المصريين وصناعاتهم وما كان عليهِ قدماء المصريين من مدنية ورقي

وبعد فالكتاب بحث علمي قيم سد فراغاً ملموساً، ولعل المؤلف يوفق الى إخراج اجزاء تالية فيستكمل الحلقة حتى يصل الى تاريخ هذه المهن في العصور الاخيرة

ولقد وفق المؤلف في بحثهِ وفي تنسيقه للكتاب وفي اخراجه في لغة عربية سليمة قلما تتوافر لرجل الفن. وانا لنهنئهُ بمجهوده الكبير ونرجو ان يجد التشجيع الذي يستحقهُ...

عيوب الحكم في مصر

تاليف حسن الجداوي المحامي — صفحاته ١٥٠ قطع صغير

المقدمة بقلم الدكتور حافظ عفيفي باشا

ليس نظام الحكم في امةٍ ما من الاشياء التي تستطيع ان تبلغ مرتبة الكمال ولكن هناك بون شاسع بين الكمال المطلق في نظم الحكم وبين اتصافها بعيوب في الوسع اصلاحها. والاستاذ الجداوي من النواب المصريين الذين يرون العيوب ويبغون الاصلاح. وعفيفي باشا ومؤلف الكتاب على حق في قولهما ان تبين العيوب توطئة للمطالبة باصلاحها. وفي هذا الكتاب معالجة طيبة وان تكن موجزة لبعض هذه العيوب في مصر

العيب الاول الذي يستغرق الجانب الاول من فصول الكتاب هو ما يتعلق بتطبيق النظام النيابي من ناحية الناخبين ومن ناحية الزعماء والاحزاب. «فأول عيب من عيوب الحكم في مصر هو الصعوبة التي يجدها الناخب المصري في الاختيار. صعوبة تبدأ بهِ وبثقافتهِ وبتربيتهِ السياسية وتمتدُّ الى المرشحين أنفسهم وما يبنون عليهِ طلبهم الثقة بهم» صفحة ٢٦

وعلاج هذا العيب في رأيهِ «يأتي مع الزمن. انتشار العلم وانتشار التربية وتقوية ملكة الحكم على الاشياء، وتفهم الناخب ان يرتكز في حكمهِ على اتجاههِ الشخصية وألاَّ يثق الاَّ بعد الاختبار والاعتبار بعظات الماضي وهذه صفات لا تكوَّن في شعب الاَّ في مدرسة الحياة السياسية ... الطويلة التي تمتدُّ من جيل الى جيل ...»

اما الاحزاب فتفقة في الاغراض الاساسية — الحياة البرلمانية على اساس الدستور القائم. وان المعاهدة مع الانكليز — باستثناء حزب واحد — هي خير اساس تبني عليهِ مصر صرح استقلالها. وليس لحزب من الاحزاب سياسة خاصة بشأن الفلاح او العامل او التاجر او الموظف

او المرأة ولا بشأن أية نظرة اجتماعية، ولا لها مبادىء اقتصادية يختلف فيها حزب عن حزب — وهذا يجعل مهمة الناخب صعبة والمشتغل بالحياة النيابية مرهقاً فلا يكاد يدري على اي أساس ينتمي لهذا الحزب او ذاك الا الميل الخاص للزعيم او الصداقة للاقطاب. وفي هذا يرى المؤلف تفسيراً لخروج أعضاء من حزب والانتماء الى آخر بغير ان يجدوا غضاضة في ذلك. فالتبديل شخصي لا يقوم على مخالفة المبادىء ما زالت المبادىء في جميع الاحزاب متشابهة

وليس هذا كل ما يقوله المؤلف في عيوب الحياة النيابية وانما هو بعض ما يتخذه تكأة لبحث تأثير هذه العيوب في الحياة النيابية وعواقبها

وبعد ذلك يتناول المؤلف عيوب الحكم من ناحية الادارة كالاستثناء في التعيين، وسرطان السيارات الحكومية وما رهق به ميزانية الدولة، والتلفونات المنزلية الموزعة على بيوت كبار الموظفين، وداء المركزية المالية

(وفي هذا الصدد روى رواية يصح ان تكون نمطاً. ملخصهُ ان مهندساً مقيماً في احد سدود مصر رأى بيع سيارتين استهلكتا في العمل ووجد مشترياً باربعين جنيهاً وهو سعر ملائم فكتب يطلب الاذن فقيل له ان مصلحة النقل الميكانيكي تتولى ذلك فلتشحن السيارتان الى مصر فشحنتا فكلف شحنهما اربعين جنيهاً ثم بيعت بعشرة جنيهات!)

وليس الغرض من هذه المراجعة تلخيص الكتاب، وانما التمثيل على جرأة النائب الجداوي وخلوص نيته في مواجهة مسائل تسمع حديثها في كل مجلس وأحياناً تقرأ عنها في الصحف، ولكنه جمعها بين دفتي كتاب فكانت حكماً شديداً على الادارة المصرية. والغريب في امر علاجها، أنها لا تحتاج الى اكثر من وزارة جريئة حازمة في معالجة معظمها العلاج الحاسم

واذا كانت العيوب السياسية لا يمكن ان تعالج الا بالتربية والاختبار خلال زمن، فان العيوب الادارية — او معظمها — لا تحتاج في معالجتها الا الى وضع الخطة الصحيحة والحزم في تطبيقها

***

ومهما يكن من امر فان هذا الكتاب الصغير، حافل بدلائل الاهتمام بمسائل البلاد الداخلية الحيوية وهو امر يدعو الى الغبطة — كما يقول عفيفي باشا — اذ يجب ان يستقر في الاذهان ان اساس الاصلاح في كل بلد هو مطالبة الرأي العام والحاحه في وجوب الاصلاح

والكتاب السياسيون هم قادة الرأي العام ومرشدوه . . . . وهذا كتاب احدهم وهو جدير بالعناية

اوائل الشهور العربية

تأليف أحمد محمد شاكر — مطبعة مصطفى الحلبي — ٣٠ ص — القطع الصغير — القاهرة ١٩٣٩

للشيخ احمد محمد شاكر دراية واسعة بالفقه الاسلامي على العموم وقدم ثابتة في علم الحديث على الخصوص ، يشهد له بذلك ما يؤلفه الحين بعد الحين . ومن الامثلة كتابه : « نظام الطلاق في الأسلام » (مصر ١٩٣٦) ، و « مقدمة سنن الترمذي » (مصر ١٩٣٧) . وهذه المقدمة من خير ما كتب في فن الحديث لهذا العهد من جهة وصف المصادر وسياق الأدلة وإقامة المسارد واثبات المراجع ، إلى ما ذهب اليه المؤلف من العنف بمن يقلد المستشرقين ويلف لفهم غير مجتهدين

وهذا الكتيب الذي بين يدينا يبحث في طريقة اثبات الشهور العربية : أبالحساب ام بالرؤية؟ ثم ينظر في اعتماد مطلع واحد لتعيين الصوم والفطر وعيد الاضحى . واسلوب المؤلف في البحث والنظر الاخذ بالكتاب والسنة ونبذ التقليد والعصبية وايثار التجديد الصادق على منهاج « السلف الصالح » . وقد خرج المؤلف من وراء ذلك الاسلوب بان الشهور العربية تثبت بالحساب فلا يرجع الى الرؤية إلاّ حين يستعصى على الناس العلم بالحساب « كما اذا كان ناس في بادية او قرية ، لا تصل اليهم الاخبار الصحيحة الثابتة عن اهل الحساب» (ص ١٤) ، وذلك لأن الرؤية كان يؤخذ بها ايام كانت الأمّة « أمّية لا تكتب ولا تحسب » . واما اعتماد مطلع واحد لتعيين الصوم والفطر وعيد الأضحى فالذي يراه المؤلف ويرجحه « انه يجب الرجوع الى نقطة واحدة معينة في ذلك ، اشير اليها في اصلي الشريعة : الكتاب والسنة ، وهي مكة . » وذلك استناداً الى الحديثين المرفوعين : (فطركم يوم تفطرون) ، (الصوم يوم تصومون) وقد جاءا خطاباً لأهل الحج في مكان الحج (ص ٢٧)

بشر فارس

مقدمة في الاجتماع

لعبد الفتاح ابرهيم — مطبعة الاهالي ، بغداد ١٩٣٩ — ٢٢٣ ص — القطع المتوسط

علم الاجتماع فن حديث بالنسبة الى الفنون الاخرى للفلسفة . وطريقته لا تزال موضع بحث ومراجعة ، ونتائجه في طور الاستواء والتمكن . إلاّ ان كتباً كثيرة ألفت فيه او على منهاجه . وليس في العربية إلاّ رسائل معدودة ، نذكر على وجه التخصيص : علم الاجتماع ، لمصطفى فهمي (مصر ١٩٣٨) . والكتاب يتناول موضوعات علم الاجتماع النظري فيبحث في روابط المجتمع ومقوماته وتطوره ويحلل النظريتين المثالية والمادية . ومعتمد المؤلف على بعض الاصول الافرنجية ولاسيما الانكليزية منها . ويؤخذ عليه هنا أنهُ كان ينبغي له ان يرجع فيما رجع الى تأليف المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع ، وعلى رأس هذه المدرسة دوركايم Durkheim

ب .

مجموعة نادي القلم العراقي

أتحفنا نادي القلم العراقي بالثمرة الاولى من ثمار نشاطه فاذا نحن امام مجموعة ممتازة من الفصول في العلم والتاريخ والتربية والسياسة والأدب . وقد نقلنا في هذا الجزء من المقتطف احد فصلين لمعالي رئيسه الاستاذ محمد رضا الشبيبي وهو الفصل الذي وضعهُ في « المجريطي » إمام فلاسفة الاندلس في الرياضيات والطبيعيات. وقد كتب هذا الفصل النفيس على اثر ظفر الاستاذ الشبيبي بنسخة من كتاب المجريطي الذي عنوانهُ « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » وتوفره على دراسته واستخراج آراء صاحبه من ثنايا صفحاته

ولمعاليه كذلك فصل في قصة فتح بغداد . ويليها فصول لاعضاء النادي وهم في طليعة أهل العلم والفضل فتجد هنا بحوثاً في التحليل النفسي ومذهب ديوي في التربية والفلسفة للدكتور محمد فاضل جمالي . ثم بحثان سياسيان اقتصاديان في اقتصاد الوفرة واقتصاد العسر . (ولعلَّ العسر مفضلة على الندرة في هذا المعنى) وفي الدولة بين الواقعين والمثاليين . ثم بحث وافٍ في مشروع التعليم الاجباري في العراق للاستاذ متى عقراوي . ومما نريد ان نشير اليه فصل للاستاذ عبد المسيح وزير في صناعة المترجم ، ففيه لباب خبرة مترجم مجيد خبر الترجمة مدخلا ومخرجاً في علوم شتى وحبذا الحال لو توسع في هذا الفصل وجعلهُ رسالة أباح فيها ثمار خبرته للطلبة والصحافيين في البلدان العربية اللسان . وبعد فان الثمرة الأولى من ثمار نادي القلم العراقي تبشّر بخير عميم للعراق وللبلدان العربية . ومما يقال في الجانب المقابل لهذا اننا لم نظفر من نادي القلم المصري بشيء من هذا القبيل، مع انهُ انشيء من سنوات ويضم فريقاً كبيراً من ادباء مصر وكتابها . ولعل السبب كثرة العناصر غير العربية اللسان فيه واكبر همهم الى الادب والاحتفال بالزائرين من كتاب الغرب

الازليان (قصة حلم)

لسليم خياطة — مطابع خياطة طرابلس ١٩٣٩ — ١٦٦ ص . القطع الصغير

كتاب ظريف غريب معاً ، ينعته صاحبه بأنه قصة حلم لانه يدري ان فيه ما يخرج عن نطاق المنطق المتصل . وحسبنا الاشارة الى ان هذا الكتاب يلحق بفن الفكاهة ، وليست الفلسفة فيه الاَّ بقدر. ولكن فكاهته من فكاهة هذا العصر وان بدا فيها أثر « الساق على الساق » للشدياق، وذلك بسبب الالفاظ الحوشية والغريبة (بل المرتجلة) التي ينثرها المؤلف في عباراته . واذا نظرنا الى الادب الافرنجي رددنا بعض ما في هذا الكتاب من الفقر والصور والسياق الى الطريقة التي يعبر عنها بما فوق الواقع ، لما نراه من الشطح في التفكير والاغراب في الأداء

وللكتاب تعليقات لغوية وأدبية جاءت في آخره . وفي رأينا أن التعليقات اللغوية كان يحسن بالمؤلف أن يعدل عنها بالعدول عن استعمال الفاظ مهجورة مماتة في قصته الطريفة ب.

في كتّاب القرية

لمحمد عبد الجواد — مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٣٩ — ١٢٥ ص — القطع الكبير

الأستاذ محمد عبد الجواد ممن يشتغل بالتأليف من زمن . فلهُ دروس في التهذيب والتربية ونظرات في نقد اللغة سبق للمقتطف أن تناولها بالنقد . واما هذا الكتاب فيدخل في فن تدوين الذكريات . والذكرى التي يدونها المؤلف أول اتصاله بتلقي العلم في كتّاب القرية . وهي ذكرى حلوة ، ذكرى الطفولة والحداثة

والذي يعنينا من هذا الكتاب عرضه الظريف للحياة الريفية في مصر ووصفه للتردد على الكتّاب وأخذ مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن . ولذلك يعدُّ هذا الكتاب بعد حين وثيقة تاريخية مصرية ، اما اليوم فقراءتهُ محببة إلى من تشوقه الكتابة السهلة المتجذبة الى التسلية والفكاهة جميعاً . وفي الكتاب صور وألواح تثبت ما يتعلق بالكتّاب وأهل القرية . والكتاب مطبوع طبعاً لطيفاً . وليأذن لنا المؤلف في خاتمة الكلام أن نأخذ عليه اللفظة الفرنسية Filles التي في الصفحة الثانية ، ولعله يستبدل مكانها Jeunes_Filles في الطبعة الثانية

مختارات عالمية من الشعر الغرامي

تأليف ابراهيم المصري ، ١١١ ص ، القطع المتوسط . مطبعة دار الهلال ، القاهرة ١٩٣٨

الاستاذ ابراهيم المصري منشىء مترسل ، اقبل على كتابة الموضوعات الاجتماعية ، ولهُ بعد هذا بصر نافذ في النقد ومقدرة على معالجة القصة والمسرحية

وقد رأى أن يخرج للناس « طائفة من اروع الغزل في العالم كله ، مع مراعاته في جمعها لصدق تعبيرها عن نفسية الشاعر وعن روح الأمة التي ينتسب اليها » على حد قوله في الكلمة التي صدر بها الكتاب ، والمختارات تنبسط على عدة آداب من اوربية وأسيوية : ففيها الشعر الفرنسي والألماني والمجري والانكليزي والايطالي الى جانب العربي والفارسي والياباني والهندستاني . واعتماد ابراهيم المصري في نقل الشعر على الترجمات الفرنسية المختلفة

والمعلوم أن نقل الشعر من لغة الى لغة مشكلة ومعضلة لأن الشعر — يقوم اكثر ما يقوم — على براعة الأداء وتوليد الاستعارات والتشبيهات ، ومثل هذا متصل بروح اللغة المستعملة اتصالاً وثيقاً حتى اذا عمدت الى النقل أغربت أو اعتسفت القول أو جنيت على الأصل . وقد راجعنا طائفة من المختارات وقابلناها بأصولها ، فوجدناها على جانب عظيم من الأمانة مع مجاراة الذوق العربي والمحافظة على قواعد بلاغة العربية بقدر ما يتيسر ذلك للناقل الأمين مع الافتنان

ب .



أسطول الصيد التابع لشركة مصر لمصايد الأسماك
يستعد لرحلته الجديدة

الصيادون يعدون شباكهم على رصيف الشركة
تمهيداً لرحلة طويلة



احد مراكب الصيد تنزل من على « القزاقة » بعد أن تم
اصلاحها والكشف على جسمها



المثلث التونسي

بين فرنسا وايطاليا والعالم الاسلامي

النازيون فى اسكنديناوة

الامم الاسكندناوية تقدس :

السلم والتقدم والحرية والدمقراطية



حديقة المقتطف



فنّا الموسيقي والتصوير

لالياس ابو شبكة

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الخامس والتسعين

المقتطف

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of
Current Science and Literature

FOUNDED 1876



الجزء الثالث من المجلد الخامس والتسعين

١ اغسطس سنة ١٩٣٩ | ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٨



قد تكون الاجابة عن اسهل الاسئلة في بعض الاحيان من اشق الامور . فعلماء الفلك والطبيعة الفلكية في العصر الحديث يعرفون حقائق كثيرة عن طبائع النجوم : أبعادها وأفلاكها ومقدارها واشراقها ، ويعرفون في غير نجم واحد اقطارها الصحيحة . ولكنهم قضوا زمناً قبل ان تمكنوا من الاجابة ، ولو بعض إجابة، عن السؤال التالي : ما سبب اشراقها ؟

والاجابة عن هذا السؤال تبدو سهلة عندما تقول ان سبب اشراق النجوم هو حرارتها. والواقع ان النجوم اجسام مرتفعة الحرارة حتى في طبقاتها الخارجية . ذلك انهُ اذا لم تكن حرارة الطبقات الخارجية في النجوم أعلى من أشد حرارة نستطيع توليدها في فرن صناعي كان من المتعذر عليها ان تشرق اشراقاً نستطيع تبينه على هذه المسافات الشاسعة التي تفصلها عنا . والعلماء يستطيعون قياس حرارة النجوم كما يقيسون حرارة فرن صناعي من حيث المبدإ أي بقوة الضوء المنبعث ولونهِ . وعلى ذلك وجدوا ان نجماً احمر (وهو نجم بارد بالقياس الى النجوم الاخرى) تتفاوت حرارة سطحهِ من الفي درجة مئوية الى ثلاثة آلاف درجة مئوية . اما حرارة سطح الشمس فتبلغ ٥٧٠٠ درجة مئوية ثم تزداد الحرارة في النجوم البيض الى ١٠ آلاف درجة مئوية وتفوقها الى عشرين الف درجة مئوية في نجوم منطقة الجبار وقد تبلغ ٥٠ الف درجة مئوية في احمى النجوم

وفي استطاعتهم كذلك ان يحسبوا حساباً لما يجب ان يكون عليهِ اشراق نجم ما اذا عرفوا حجمهُ وحرارتهُ وبعده. ولكن ذلك لا يجديهم كثيراً في الاجابة عن السؤال المتقدم: ما سبب اشراقه او اشراق النجوم جميعاً

وقد يحاول بعضهم ان يقول ان سطح النجوم حارٌّ لأنَّ باطنها اشد حرارة من السطح فيردُّ عليهم السائل: ولكن كيف تستطيعون النفوذ الى باطن النجوم لتعرفوا انهُ شديد الحرارة؟ والرد على هذا السؤال ان داخل النجوم يجب ان يكون شديد الحرارة، اذا كانت مادة النجوم من نوع المواد التي نتناولها في معامل علم الطبيعة. ان النواميس الطبيعية تقتضي ذلك. واما الادلة على ان مادة النجوم من نوع هذه المواد فتوافرة

تعرف كتلة الشمس من مقدار جذبها للسيارات ثم تحسب كثافتها فاذا هي على المعدل ٤ر١ كثافة الماء. ثم إن جذبها لطبقاتها الخارجية، يحدث ضغطاً عظيماً على باطنها. واذا فرضنا أن كثافة الارض موزعة توزيعاً متساوياً في جميع جهاتها فالضغط على مركزها يبلغ ٩٨ مليون طن على البوصة المربعة. ومن المسائل العادية في علم الطبيعة استخراج حرارة كتلة غازية، اذا ضغطت حتى بلغت كثافتها كثافة الارض بضغط من رتبة الضغط على مركز كرة الارض، وإنما يشترط في ذلك ان تكون قواعد تصرُّف الغازات في معمل البحث منطبقة عليها عند تعرُّضها لمثل هذا الضغط العظيم. واذا كان الغاز ذرات ايدروجين فالحرارة تبلغ ٥ر١١ مليون درجة مئوية

ولكن من المرجح الذي في حكم اليقين أن الضغط ليس موزَّعاً بالتساوي وانهُ في الباطن أعظم كثيراً منهُ على السطح ومتفاوت تدرجاً بين المركز والسطح. ولمعرفة درجات الضغط وتفاوتها بين المركز والسطح يجب ان يصنع مثالٌ لتبين ذلك. ولكن زيادة الضغط في المركز يعني تجمع معظم الكتلة فيهِ وحواليهِ، وهذا يزيد جذب الكتلة المركزية للطبقات الخارجية فيزيد الضغط في المركز. ولكن الحسابات المستخرجة من أمثلة مختلفة صنعها العلماء لدراسة هذه الظاهرة تدل على أن الزيادة في الضغط والحرارة متكافئتان على العموم. ففي المثال الذي صنعهُ ادنغتون جعل الكثافة المركزية ٥٤ ضعف المعدل فزاد الضغط ٩٢ ضعفاً أي بنسبة ١ الى ٢ تقريباً فكانت زيادة الحرارة — الناشئة عن زيادة الضغط — ٧٠ر١. ثم هناك عالم آخر يدعى ساندراسيخار صنع مثالاً جعل فيهِ الكثافة المركزية ٨٨ ضعف المعدَّل فزاد الضغط ١٧١ ضعفاً أي بنسبة واحد الى ٢ تقريباً وزادت الحرارة ٩٥ ر ١

واذا اخذنا بهذين المثالين ظهر لنا أن حرارة مركز الشمس تبلغ ٠٠٠ر٦٠٠ ر١٩ درجة مئوية للمثال الاول و ٠٠٠ر٤٠٠ ر٢٢ درجة للثاني فارضين أن غاز الشمس هو ذرات الايدروجين وهناك ما يحمل العلماء على الظن ان هذين المثالين يمثلان بناء النجوم الداخلي بوجهٍ عام

ولكن الحرارة يجب ان تتناسب مع الوزن الذري للمادة . فاذا كانت مادة الكتلة من الحديد وجب ان تكون الحرارة ٥٦ ضعف الحرارة المقدرة لكتلة من غاز الايدروجين، اي تبلغ الف مليون درجة . وإذن فبحثنا عن طريقة لتعيين حرارة باطن الشمس يتوقف على المادة التي نظن ان كتلة الشمس مؤلفة منها اكثر مما يتوقف على نموذج ضغطها الداخلي

هذا الرأي كان قبل خمس عشرة سنة يبث القلق في اذهان العلماء فلا يجرؤون على المضيّ فيه الى نهايته المنطقية . لأن الرأي كان ان الذرّات تحتشك معاً بفعل الضغط حتى يغدو من المستحيل ان يكون للضغط مهما يعظم ، تأثير في زيادة حشكها وتصغير حجم مجموعها . ولو كانت الذرات اجساماً دقيقة صلبة الكيان لكان لهذا الرأي وجه من الصحة . ولكن عند ما تقدم العلماء في دراسة الذرات تبيّنوا ان كهرباتها تنفصل عنها بفعل الحرارة العالية فلا يبقى من الذرّات الاّ النوى وهي صغيرة الحجم بحيث يمكن حشك كمية عظيمة منها في مدًى يسير . اي ان المادة مهما تكن تتصرف في باطن النجم كأنها غاز

ولا يخفى ان درجة حرارة الغاز التي تمكنهُ من تحمُّل ضغط عالٍ معيَّن ، تتوقف على عدد الجسيمات المتحركة التي فيه — لأنهُ من المفروض ان لكل منها شيئاً من طاقة الحركة . فاذا كانت الذرات جميعاً ذرات عنصر الحديد — ووزنها الذري ٥٦ ضعف وزن ذرة الايدروجين — فالحرارة يجب ان تكون ٥٦ ضعف حرارة كتلة من الايدروجين. وهذا يخيّب ظننا بالحسابات المستخرجة من مثالي ادنغتون وشاندراسيخار . ولكن لذرة الحديد ٢٦ كهرباً خارج النواة فاذا انفصلت جميعاً عن النواة بفعل الحرارة كان عندنا ٢٧ جسيماً (اي ٢٦ كهرباً والنواة) تتوزع فيما بينها طاقة الذرة . اي ان الحرارة تكون اضعف بعد انفصال الكهربات عن النواة بنسبة ٥٦ الى ٢٧ اي ٢٫٠٨ ومن عجيب الاتفاق — او من عجيب النظام الكوني — انهُ مهما تكن المادة التي تتكون منها الكتلة فالنتيجة واحدة تقريباً . وزن الصوديوم الذري ٢٣ ولكن لذرته ١١ كهرباً فالنتيجة نسبة ٢٣ الى ١٢ (١١ كهرباً والنواة) أي ١٫٩٢ والاكسجين وزنهُ الذري ١٦ ولهُ ثمانية كهربات فالنتيجة نسبة ١٦ الى ٩ (ثمانية كهربات ونواة) اي ١٫٧٨

وإذن فتقدير درجة الحرارة في باطن الشمس لا يتوقف كثيراً على تركيبها الكيميائي ، ما عدا حالتين . أما الحالة الاولى فعندما تكون الشمس — فرضاً — مؤلفة من غاز الهليوم وعندئذٍ تكون النسبة ١٫٣٣ وهي أقل كثيراً من النسبة الناشئة من مثالي ادنغتن وشاندراسيخار ومن النسب التي تنطبق على سائر العناصر وهي قريبة كما تقدم من نسبتي أدنغتن وصاحبه. وذلك لان ذرة الهليوم وزنها ٤ ولها كهربان خارجيان فالنسبة تكون ٤ الى ٣ اي ١٫٣٣ . وأما الحالة

الثانية فعندما تكون الشمس مؤلفة من غاز الايدروجين لان النسبة المستخرجة على النمط المتقدم تكون ٥ر. لان ذرة الايدروجين قوامها نواة (بروتون) وكهرب ووزنها واحد فالنسبة ١ الى ٢ أي ٥ر.

فاذا أخذنا بمثال أدنتن وفرضنا أن الشمس إيدروجين فقط، استخرجنا حرارتها المركزية بما نعرفه من كتلتها وحجمها فاذا هي نحو ١٠ ملايين درجة مئوية. واذا كانت هليوماً كانت حرارتها المركزية ٢٦ مليون درجة مئوية واذا كانت مؤلفة من ذرات العناصر الأخرى عدا هذين العنصرين كانت حرارتها المركزية ٤٠ مليون درجة. واذا أخذنا بمثال شاندراسيخار وجب اضافة ١٥ في المائة الى جميع هذه الارقام

واذا قابلنا بين نجم وآخر مصنوعين على نمط المثال، ومن نفس المادة، ظهر لنا ان حرارتها المركزية او حرارتها في اية نقطتين متقابلتين تختلف باختلاف الكتلة مقسومة على نصف القطر. فكتلة الشعرى مثلاً ٤ر٢ (بالقياس الى كتلة الشمس) ونصف القطر ٨ر١ (بالقياس الى نصف قطر الشمس) واذن فحرارتها المركزية يجب ان تزيد على حرارة الشمس المركزية ٣٠ في المائة. وأكبر النجوم المعروفة نجم يعرف باسم (٢٩ الكلب الاكبر) وهو نجم مزدوج اي نجمان يكسف احدهما الآخر ان كتلة كبيرهما تفوق كتلة الشمس ٤٦ ضعفاً ونصف قطره يفوق نصف قطرها ٣٠ ضعفاً. واذن فحرارته المركزية يجب ان تكون اكثر قليلاً من ضعف حرارة الشمس المركزية. وفي الناحية المقابلة هناك النجم المعروف باسم الذراع المبسوطة وهو مزدوج كذلك كتلة أحدهما ٦٣ في المائة من كتلة الشمس وقطره ٥٧ في المائة من قطرها، فحرارته ٩٥ في المائة من حرارتها. وكتلة الآخر — وهما متساويان تقريباً — ٦٦ في المائة من كتلتها وقطره ٦٠ في المائة من قطرها فحرارته نحو ٩٥ في المائة من حرارتها

ونجم الذراع المبسوطة يمثل طائفة من النجوم حرارتها المركزية قريبة جداً من حرارة الشمس المركزية. ولكن نجم البرق وله كتلة تبلغ ٢ر٤ كتلة الشمس وقطره ١٦ ضعف قطرها، فحرارته الداخلية — اذا تساوت العناصر الاخرى في القضية — يجب ان تكون ربع حرارة الشمس. أما النجم الجبار الاحمر المعروف باسم زيتا اريجا (ممسك الاعنة) او نجم العنز فكتلته ١٥ ضعف كتلة الشمس وقطره ٢٠٠ ضعف قطرها فحرارته المركزية ٧ في المائة من حرارتها

ولكي يكون البحث من حرارة باطن النجوم، أقرب الى الصواب، يتعيَّن على الفلكي الطبيعي أن يتوسَّل بما يمكنه من معرفة مقدار الايدروجين والهليوم في باطن النجوم، لأنَّ حرارة باطن النجوم تزيد أو تنقص بالقياس الى قلة مقدارها أو زيادته

وهذه مسألة تبدو معقدة صعبة ولكن العلم لا يعدم وسيلة الى معالجتها: والفلكي في بحثه هذا

اشبهُ ما يكون بالشرطي السرّي ، عليه ان يستخرج النتائج بأعمال الفكر باستعمال قواعد المنطق الدقيق ، من بضع حقائق ومشاهدات تجمعت لديه . ومن هذه الحقائق ، أن الحرارة التي تنساب من باطن النجم الى سطحه ، تعادل بوجه عام الحرارة التي تنطلق من سطحه في الفضاء

وبدراسة الغازات وطبائعها في المعمل ، والذرات وجسيماتها وما لهامن شأن في نقل الحرارة ، تبيّن ادنغتون اولاً ان معدل انسياب الحرارة من باطن النجم الى سطحه يتوقف في الاكثر على كتلة النجم — فمعدل انسياب الحرارة يزداد بازدياد مقدار الكتلة — وقلما يتوقف على قطر النجم او بنائه الداخلي من حيث توزيع الكثافة فيه . ويعتبر استخراج هذه الصلة بين الاشراق والكتلة من أهم القواعد في نظرية بناء النجوم الحديثة

ولكن النظرية نفسها تقتضي ان اشراق النجم يتأثر كثيراً بالمواد التي يتألف منها باطن النجم فاذا كان الباطن كلهُ من عناصر ثقيلة (اي من عناصر عدا الايدروجين والهليوم) كانت حرارة الباطن عالية جداً وكان معدل ما ينساب منها الى سطح النجم كبيراً وعلى ذلك فيكون اشراق النجم عظيماً . فاذا كان هناك ايدروجين كانت حرارة الباطن أقل ، ومن ثمة تقلُّ الحرارة بزيادة مقدار الايدروجين ، وكذلك يقل اشراق النجم بازدياد مقدار الايدروجين في بنائه الداخلي

فاذا بنى الفلكي الطبيعي حساباته على هاتين القاعدتين وعلى ما يعرفهُ من طبائع الغازات وطبقها على مثال نجم كالمثال الذي صنعهُ أدنغتون للشمس ، استطاع ان يعرف مقدار الايدروجين الذي في باطنها . فاذا جعلت الشمس على هذا المثال بغير إيدروجين اطلاقاً كان اشراقها اعظم كثيراً من الحقيقة ، واذا جعل مقدار الايدروجين فيها كبيراً كان اشراقها أقل من الحقيقة . ونتيجة البحث على هذا الاساس في ما يتعلق بالشمس ان ٣٦ في المائة من باطنها وزناً ، إيدروجين ، والباقي عناصر ثقيلة وعلى ذلك تكون حرارة باطنها ٢٠ مليون درجة مئوية

***

ولا عبرة على ما يقول ادنغتون بما تكون العناصر التي يتألف منها أل ٦٤ في المائة الباقية من كتلة الشمس . فقد اختلف هو والباحث ستومغرن stomgren في تقديرهما لمزيج العناصر الاخرى ولكنهما وصلا الى نفس النتيجة تقريباً في ما يخصُّ مقدار الايدروجين . والنجوم متقاربة على العموم في ما يخص نسبة الايدروجين في بنائها . فالنسبة في النجم المشرق المعروف بالشعرى تبلغ ٣٦ في المائة وفي العيوق ٢٩ في المائة اذا لم يكن هناك هليوم . ولكن هناك بضعة نجوم تشذُّ عن هذه القاعدة ، منها « زيتا هرقل » فاشراقها يفوق اشراق الشمس اربعة اضعاف مع انها تماثلها في كتلتها وحرارة سطحها . ولذلك فنسبة الايدروجين المقدرة لها ١١ في المائة ، لانهُ اذا قلَّ الايدروجين — كما تقدم — زادت الحرارة

هذه بعض الحقائق التي اسفر عنها البحث الحديث في دراسة النجوم . ولكنها لا تفسّر بوجهٍ من الوجوه سرَّ استمرار اشراق النجوم

كان الظن في اواخر القرن التاسع عشر ان العلم احاط التام عن هذا السر . فالعلاَّمة هلمهلتز وكلفن من قبله ، بيّنا انهُ اذا تقلصت الشمس — او اي نجم آخر — تقلصاً بطيئاً ، تحوّلت طاقتها الجاذبة رويداً رويداً الى حرارة ، فيستنفد نصف هذه الحرارة او اكثر قليلاً لرفع حرارة الباطن ويكون الباقي معدّاً للاطلاق في الفضاء في شكل اشعاع ضوء وحرارة. وفرض ان الشمس تلائم بين مقدار تقلصها اللازم لتوليد الحرارة الكافية لحاجتها في الداخل والاشعاع الخارجي . فتبقى على ذلك مشعةً مدى طويلاً . وعند ما طبقت هذه النظرية على الشمس فسّرت اشعاعها بالمعدل الحالي مدى ١٥ مليون سنة قبل ان تبلغ حجمها الحالي . وخمسة عشر مليوناً من السنين كانت في اواخر القرن الماضي زمناً طويلاً جداً . ولكن الاستناد الى الادلة المستخرجة من وجود العناصر المشعة ومركباتها في الصخور ، بيّن ان الزمن الجيولوجي يستغرق ١٥٠٠ مليون سنة على الأقل، هو زمن كانت الشمس في خلاله ترسل اشعتها وحرارتها في الفضاء فتأخذ الارض نصيبها منهُ . فكيف استطاعت الشمس خلال هذا الزمن الطويل أن تبقى مشعةً ، ومن أي مصدر كانت — وما زالت — تستمد هذه الطاقة العظيمة التي تسكبها في الفضاء ؟

اقترحت آراء مختلفة لتفسير هذا اللغز ؟ ولكنها عند الامتحان وجدت ناقصة . فقيل اولاً ان مادة الشمس تحتوي على عناصر مشعة . ولكن قام الاعتراض على هذا القول من ناحية ان العناصر المشعة تمضي في اشعاعها على وتيرة واحدة ومعدل واحد غير متأثرة بحرارة او ضغط او غيرهما . والنجوم تختلف اشعاعاً واشراقاً ، فالقول بان مصدر طاقة الاشعاع هو المواد المشعة التي في النجوم ، يقتضي منا القول بان مقادير هذه المواد وزعت قصداً في النجوم توزيعاً مختلفاً جعل النجوم متفاوتة في الاشراق والاشعاع . والاَّ فاذا كان التوزيع بغير قصد ، فقد يصيب نجم معين قدراً من الاشعاع يزيد على حاجته فيضطر ان يعكس آية هلمهلتز وكلفن ، فيتمدد بدل ان يتقلص — لان مقدار الاشعاع لا يتغير — والذي يصيب اقل من حاجته يتقلص ، وقد يمضي الاول في تمدده حتى يصبح سديماً والثاني في تقلصه حتى يغور ، فلا يبقى في الفضاء الاَّ النجوم المتوازنة التي اتفق لها ان كان نصيبها من المواد المشعة على قدر حاجتها اليها . وهذا نظام يصعب الأخذ به

***

عند ذلك تطلع علماء الفلك الطبيعي الى علم الطبيعة الحديث لعلهم يجدون في نظرياته الجديدة ما يسعفهم على حل المشكلة

وما لبثوا حتى وجدوا معوانهم الاول في نظرية النسبية العامة . فبحسب هذه النظرية الكتلة

والطاقة يتحولان ، احدهما الى الآخر . وكان الرأي السابق المشهور المأخوذ به أن المادة تتحول الى مادة ولكنها لا تتلاشى . وان الطاقة تتحول الى طاقة ولكنها لا تتلاشى . فجاء اينشتين وقال ان المادة تتحول الى طاقة والطاقة تتحول الى مادة

فاذا أخذ بهذه النظرية ، فكتلة الجسم تزداد — من الناحية النظرية — برفع حرارته اي باضافة طاقة اليه . والسبب الذي يحول دون قياس زيادة الكتلة بزيادة الحرارة ان الزيادة يسيرة جداً في الاحوال العادية . خذ طناً من الحديد المصهور واتركهُ حتى يبرد الى درجة الحرارة العادية فانهُ يطلق في خلال ذلك ١٥٠ كيلو وط ساعة من الطاقة ولكن كتلتهُ لا تنقص — بفقد هذه الطاقة — الا جزءاً من ١٦٠ جزءاً من المليغرام

ولكن عندما تطبق هذه القاعدة على الاجرام السموية نجد ان الشمس تطلق في الثانية ٣٫٧٨ × ١٠^٣٣ من وحدات الطاقة المعروفة باسم « ارج erg » وهذا المقدار من الطاقة يعدل ٤٫٢٠٠٠٠٠ طن أي ان الشمس تطلق من ذات نفسها اكثر من أربعة ملايين طن في شكل اشعاع في الثانية ، او ١٣٠٠ مليون مليون طن في السنة . وهذا أمر يبدو لأول وهلة — اذا صح — باعثاً على القلق . لانهُ اذا مضت الشمس على هذا فما يكون مدى عمرها ؟ والرد ١٥ الف مليون سنة

وإذن يقتضي منا بحثنا عن مصدر طاقة النجوم ، ان نبحث عن الاسلوب الذي يتحول بمقتضاهُ بعض كتلة ذراتها الى طاقة

أدركت هذه الحقيقة من عشر سنوات او اكثر قليلاً ، فذهب العلماء — قبل ان تتوافر لديهم الحقائق الناشئة عن التجريب — مذهبين . احدهما يقول ان الذرات تتلاشى ، لتحول كتلتها الى طاقة وهذه الطاقة تشع الى الخارج . والثاني ان ذرات عنصر ما تتحول الى ذرات عنصر آخر ، وان كتلة الذرات تنقص في خلال فعل التحول ، أي ان قدراً من الكتلة يتحول طاقة تشع . ولكنهم أهملوا المذهب الاول الآن إذ لم يقم دليل تجريبي عليه

أما المذهب الثاني ، فقد ارتقى من مقام فرض في علم الطبيعة الى مقام حقيقة مجربة . وما على قارىء المقتطف الا الرجوع الى ما كتبناه في خلال السنوات الاخيرة عن تحويل العناصر ، واطلاق بعض طاقتها في أثناء التحول ، لتحقق صدق هذا القول [1] . وهذه التجارب التي يواليها العلماء في شتى المعامل الطبيعية بمختلف البلدان تقيم الدليل على ان تحول المادة الى طاقة حقيقة اثبتتها التجارب

والرأي الحديث ان مصدر حرارة الشمس هو في المقام الاول فعل تولد الهليوم من الايدروجين

(١) راجع محاضرتنا « الاشعاع قديماً وحديثاً » مقتطف فبراير ١٩٣٨ في آخر المقال وصف للجهاز الرحوي الذي استنبطه لورنس الاميركي وكيف يستعمل الآن لصنع عناصر مشعة من عناصر غير مشعة الخ

في قلب الشمس. ثم تولد العناصر الاخرى بفعل الضغط والحرارة العظيمين. ولكن تحول الايدروجين الى هليوم هو الاصل. ذلك بأن كتلة اربع ذرات من الايدروجين تبلغ ٤٫٠٣٢٥٢ فهي تفوق كتلة ذرة من الهليوم بمقدار ٠٫٠٢٨٦٦ اي انهُ عندما تندمج اربع ذرات من الايدروجين لتوليد ذرة من الهليوم تتحول مقدار ٠٫٠٢٨٦٦ من الكتلة الى طاقة وهذا المقدار هو جزء من ١٤١ جزءًا من كتلة ذرة الهليوم . وهو مقدار يبدو صغيراً . ولكن اذا كانت الشمس ايدروجيناً اصلاً وتحول الايدروجين الى هليوم ، فالطاقة المتولدة من هذا التحول كافية لابقاء الشمس متقدة إشعاعها الحالي ١٠٦ بلايين من السنين وهذا مصدر وافٍ لطاقة اشعاع النجوم

اما التحولات الاخرى — اي تحول العناصر بعضها الى بعض — فتسفر عن تولد قدر أقل من الطاقة . فاذا تحولت اربع ذرات من الهليوم الى اكسجين (اذا كان ذلك مستطاعاً) كان مقدار المادة او الكتلة المتحول طاقة جزءًا من ١٠٤٠ جزءًا ، حالة انهُ في تحول الايدروجين الى هليوم جزء من ١٤١ جزءًا

وقد اقترح الدكتور بيث Hans Albrecht Bethe استاذ الطبيعة في جامعة كورنيل هذه الحقائق في قالب نظرية رياضية طبيعية يعدها الدكتور رسل رئيس قسم الفلك في جامعة برنستن وأحد أعلام البحث الفلكي الطبيعي [1] «اهم تقدم في علم الفلك الطبيعي في السنوات الخمس عشرة الاخيرة » . والدكتور بيث لم يكتف بدراسة تحول الايدروجين الى هليوم بل تتبع تولد العناصر الاخرى ومقدار ما يتولد من الطاقة في اثناء تولدها

بنقص مقدار الايدروجين يزداد النجم تألقاً ويزداد حجمهُ قليلاً ثم بعد زمن طويل (يقدره بيث بالتي عشر بليوناً من السنين للشمس) ينفد الايدروجين فيبدأ النجم في التقلص فيصبح كثيفاً ويقل اشراقهُ . والنجوم الصغيرة الحجم الكثيفة المادة الضعيفة الاشراق معروفة لعلماء الفلك الحديث وهم يطلقون عليها اسم « الاقزام البيض » وهي تتصف عادة بصغر الحجم وارتفاع حرارة السطح وقلة الضياء واول نجم كشف من هذا القبيل هو النجم المعروف باسم رفيق الشعرى. فكثافة مادته تزيد ثلاثين الف ضعف على كثافة الماء . وهناك نجم آخر من هذا القبيل تزيد كثافة مادته على كثافة الماء سبعة ملايين ضعف ولا تزال الاقزام البيض تشعُّ اشعاعاً ضعيفاً وبه نراها ولولاه لما رؤيت فهي في المراحل الاخيرة من حياتها الاشعاعية قبل ان تتحول أجساماً مظلمة . والشمس على ما يظهر فيها ٣٦ في المائة ايدروجين فهي — بحسب هذه النظرية — سائرة في هذا السبيل

(١) راجع السيانتفك اميركان أعداد مايو ويونيو ويوليو ١٩٣٩



المحيط بجو الارض

يجعل المواصلات اللاسلكية مستطاعة
وبعض شذوذها مفهوماً

لما فاز ماركوني في سنة ١٩٠١ بارسال الاشارة اللاسلكية الاولى من اوربا الى اميركا ، قام بعمل عُدَّ عجيبة في ذلك العصر ، لانه كان مناقضاً لما يعرف من نواميس الطبيعة . ذلك بأن الرأي العلمي في مستهل هذا القرن كان مجمعاً على ان الامواج اللاسلكية تنطلق من المحطة التي تذيعها ، فلا تجاري في سيرها تحدُّب الارض ، لانها تسير في خطوط مستقيمة كامواج الضوء فتخترق الهواء وتغور في الفضاء . ومن مفاخر ماركوني العلمية أن تثبيط العلماء لهمته من هذه الناحية لم يثن عزمهُ فجرَّب تجربتهُ الحاسمة في ١٢ دسمبر سنة ١٩٠١ فتحقق حدسهُ وخاب رأي العلماء، ولكن تجربتهُ دلت على ان هناك في طبقات الجوّ العالية حالة كهربائية من شأنها أن تعكس الامواج اللاسلكية فتردها الى الارض . واستخرج هفيسيد وكنلي واقرانهما اوصاف هذه الحالة استخراجاً نظريًّا ، ولكن الدليل التجريبي على وجود طبقة او طبقات في اعالي الجوّ تفعل فعل المرآة بالامواج اللاسلكية ، لم يقم إلا في سنة ١٩٢٥ وقد اقامهُ حينئذٍ برَيْت Breit وتوف Tuve بمعهد كارنيجي بواشنطن والاستاذ ابلتن Appleton في بلاد الانكليز وذلك بفوزهم بعكس امواج لاسلكية عكساً مباشراً من طبقات الجوّ العليا

وقد تقدم البحث في المنطقة المكهربة من جوّ الارض تقدماً عظيماً منذ اجرى هؤلاء الباحثون الثلاثة تجاربهم المتقدمة الذكر . ويطلق على هذه المنطقة اسم «ايونوسفير» Ionosphere أي «الغلاف الكروي المؤين» . ونحن نعلم الآن ان الشمس هي العامل الفعَّال في إحداث هذه المنطقة بتأيين Ionization دقائق الهواء وجزيئاته . وليست هذه المنطقة طبقة مؤينة واحدة بل طبقات متعددة منها طبقة E وهي اوطأها اي اقربها الى سطح الارض، وهي تعكس الامواج اللاسلكية الطويلة اوالمتوسطة وارتفاعها ستون ميلاً . ثم هناك طبقة F_1 وارتفاعها ١٢٠ ميلاً وهي تعكس امواجاً لاسلكية اقصر من الأمواج الاولى . وطبقة F_2 وارتفاعها ١٨٠ ميلاً وهي تعكس امواجاً اقصر من طائفتي الامواج المتقدم ذكرها

ان قدرة هذه الطبقات على عكس الامواج اللاسلكية رهنٌ بعدد الدقائق المكهربة التي في الجوّ، وهي إما كهربات ، وإما جزيئات تحوَّلت مكهربةً بانفصال اجزاء منها فتعرف بالأيونات أو الشوارد Ions . فاذا كان عدد الكهربات في البوصة المكعبة من الطبقة مليوناً استطاعت تلك الطبقة أن تعكس موجةً لاسلكية طولها ١٣٠ متراً اذا أصابت الموجةُ الطبقةَ إصابة عمودية . أما الامواج التي اقصر من ذلك فتخترق الطبقة فتعكسها طبقة اخرى فوقها أو تنطلق في الفضاء

ولكن قلّما تصيب الامواج اللاسلكية الطبقات المكهربة اصابة عمودية في اثناء تبادل الاشارات بين المحطات اللاسلكية . والغالب ان تصبها منحرفة وفي هذه الحالة تستطيع الطبقة أن تعكس موجةً طولها ثلاثة أضعاف طول الموجة التي تعكس اذا أصابتها عموديًّا أي ان الطبقة التي تعكس موجة طولها ١٣٠ متراً اذا أصابتها عموديًّا، تستطيع أن تعكس موجة طولها ٣٩٠ متراً اذا اصابتها منحرفة . وهذا يوافق ما يعرف عن انعكاس امواج الضوء عن سطوح المرايا

ولما كان كتلة الأيونات أكبر من كتلة الكهربات ، فتحريكها اعسر من تحريك الكهربات ولذلك يجب ان يكون عدد الايونات في بوصة مكعبة من الهواء ٣٠ الف ايون لكي تكون لها خواص بوصة مكعبة تحتوي على مليون كهرب

هذه الحقائق لا تنطبق الاّ على طبقات «الايونوسفير» العليا حيث لا يكثر اصطدام الكهربات او الايونات بجزيئات غير مكهربة من غازات الهواء . أما في طبقات الايونوسفير السفلى حيث تكثر جزيئات غازات الهواء فالاصطدام بين الكهربات والجزيئات يفقدها بعض طاقتها فتعجز عن ردّ الامواج الى سطح الأرض. والغالب أن عدد الكهربات في هذه الطبقات السفلى من الأيونوسفير قليل فتأثيرها في المواصلات اللاسلكية التجارية البعيدة المدى يسير جداً . ولذلك تخترق امواج هذه الاشارات اللاسلكية الطبقات السفلى من الايونوسفير ولا تعكس الاّ بواسطة الطبقات العليا. ثم أن الطبقات السفلى تمتصُّ في النهار الامواج المعيَّنة للأذاعة وهذا يفسّر تعذر السماع لأذاعة صادرة من محطة بعيدة في اثناء النهار

***

ماذا يكهرب أعالي الجوّ ؟ قلنا ان الشمس هي العامل الاقوى في كهربتها ، والمقام الاول بين أشعة الشمس المختلفة في تأيين طبقات الهواء العالية هو للاشعة التي فوق البنفسجي . بل ان بعض الباحثين يعتقد أنها المصدر الوحيد لهذا التأيين . وقد وضع سكليت Skellet جدولاً لمصادر التأيين في طبقات الجو العليا فاذا المكان الاول فيه للاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس وتليه من بعد الشهب والأشعة فوق البنفسجي والأشعة الكونية والاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء البدر . فاذا أخذنا بهذا الجدول ظهر لنا ان طاقة الاشعة التي فوق البنفسجي

وفعلها في تأيين طبقات الهواء العليا يفوقان عشرة اضعاف طاقة المصادر الاخرى مجتمعة وفعلها .
وليس ذلك لان الاشعة التي فوق البنفسجي أقوى فعلاً وأنفذ من الاشعة الكونية مثلاً ولكن لان ما تلتقطهُ الارض منها اكثر كثيراً مما تلتقطهُ من الاشعة الكونية

***

وقد كشف الباحث الاميركي ديلنجر Dellinger من عهد قريب كشفاً يميط اللثام عن بعض أحوال الغلاف المؤيَّن . ذلك ان أمواج الراديو القصيرة تتلاشى فجأة أحياناً في النصف المضاء من سطح الكرة الارضية . وقد يستمر هذا التلاشي من بضع دقائق الى اكثر من ساعة . وفي هذه الحالة يتعذر الاتصال اللاسلكي على السفن في البحر او الطائرات في الهواء او محطات الهواء اذا كان هذا الاتصال بعيد المدى. وقد حدثت حوادث كثيرة من هذا القبيل . ولوحظ ان هذا التلاشي في الناحية المضاءة من سطح الارض مقترن بأعاصير في الشمس تؤثر في مغنطيسيتها والتيارات الكهربائية التي تسري في قشرتها

وقد درست هذه الظاهرات دراسة دقيقة باشراف معهد كرنيجي وبواسطة مرصديه في هوانكايو في بيرو، وواترلو في غرب استراليا وبواسطة هيئات اخرى . وكانت الطريقة المتبعة في هذه الدراسة اطلاق أمواج لاسلكية قصيرة صوب الغلاف الايوني عشر مرات في الثانية ثم تدوَّن أوقات ارتدادها الى الارض بعد أن تعكسها احدى طبقات الغلاف المؤيَّن . ثم يحسب حساب ارتفاع الطبقة التي ردَّتها بالاستناد الى الوقت الذي استغرقتهُ حتى عودتها . وهي طريقة تستند الى المبدإ المعتمد عند ما تريد ان تقيس بُعد صخر باطلاق صوتٍ صوبهُ ثم قياس المدة المنقضية بين اطلاق الصوت وسمع الصدى . وفي المستطاع ايضاً تقدير عدد الكهربات في الطبقة العاكسة استناداً الى انهُ كلما قصرت الأمواج زاد عدد الكهربات في البوصة المكعبة الذي يلزم لعكسها

وعلى ذلك ظهر انهُ عندما تقع ظاهرة التلاشي ، يتعذَّر الفوز بعكس الامواج اللاسلكية من طبقات E، F_1، F_2 ، فكأنك واقف أمام مرآة ترى فيها شبحك لانها تعكس أمواج الضوء ، ثم لا ترى شيئاً لان المرآة غدت وهي لا تعكس الامواج . فاما أنها انكسرت وهوت شظاياها وإما قام بينها وبينك حجاب صفيق . والتفسير الاول في ما يتعلق بانعكاس الامواج اللاسلكية غير معقول . لذلك فرض ان هناك حجاباً يقوم بين سطح الارض وبين هذه الطبقات المكهربة العاكسة فيحول دون عكس الأمواج اللاسلكية ، بل بالحري يحول دون وصول الأمواج اللاسلكية اليها . وهذا الحجاب قوامهُ كهربات أو ايونات ، قائمة على مرتفع يسير اقرب الينا من طبقة E ويجب أن ينظر الى هذه الطبقة نظرنا الى ملاءة تغطي الجانب المضاء من الكرة الارضية ولا تعلو عن سطحها اكثر من ٤٠ الى ٦٠ ميلاً

وقد تقدم معنا ان الاشعة التي فوق البنفسجي في ضوء الشمس هي اقوى عامل في احداث الطبقات المكهربة في اعالي الجو فظهور هذه الملاءة التي تحدث تلاشي الامواج اللاسلكية، على مرتفعات يسيرة فوق سطح الارض، يقتضي ان تكون الاشعة التي فوق البنفسجي اقوى في هذه الحالة منها في الحالات العادية وهذا يرتد بها الى الاعاصير التي تنتاب سطح الشمس فتقذف الغازات واهمها الايدروجين في الفضاء المحيط بها. واذا اضيف الى ذلك فعل الكلف[1] ايضاً تيسرت قوة فعالة منطلقة من الشمس قادرة على زيادة فعل التأين في طبقات الهواء القريبة من سطح الارض فتنشأ الملاءة التي تغطيه احياناً فوق نصف المضاء فتحدث ظاهرة التلاشي

ومن غريب ما يقال في هذه الطبقات المؤينة أنها ليست طبقات مستوية محدردبة تحيط بغلاف الارض الغازي كأنها قشرة كرة، ولكنها لتأثرها بالضوء والحرارة وغيرهما من العوامل دائمة التحرك فتشق فيها الاودية وتبسط السهول وترفع الجبال، وهذا يفسّر بعض ما يصيب الاذاعات اللاسلكية من شذوذ في بعض الاحيان

ومن الطبيعي ان يخطر للباحث وللقارىء معاً ان يسألا هل وراء او فوق الطبقة F٢ طبقات مؤينة أخرى تردُّ الامواج اللاسلكية القصيرة التي تنفذ من خلال الطبقة F٢ ؟ والردُّ على ذلك ان مهندساً لاسلكيًّا نرويجيًّا يدعى هالز Hals لاحظ سنة ١٩٢٧ انهُ سمع اشارة لاسلكية واحدة ثلاث مرات. فبعدما سمع الاشارة الاصلية لبث سُبع ثانية فسمعها ثانية كأنها واردة من جهة مقابلة ثم بعد انقضاء ثلاث ثوانٍ سمعها ثالثة. أما الصدى الاول (المسموع بعد سبع ثانية) فيمكن تعليلهُ بأنهُ سمع بعد ما دارت الاشارة اللاسلكية حول الارض دورة تامة وهذه الدورة تستغرق سبع ثانية. ولكن من أين جاء الصدى الثالث. ان مجيئه بعد ثلاث ثوانٍ يقتضي ان يكون قطع ٥٤٨ الف ميل. ثم قيل أن آخرين سمعوا صدى لاشارة لاسلكية معيَّنة بعد انقضاء خمس ثوانٍ وان آخرين سمعوا صدًى لاسلكيًّا بعد خمس عشرة ثانية. وأن فريقاً من علماء الفلك الفرنسيين سمعوا مثل هذا الصدى بعد انقضاء ثلاثين ثانية على سماع الاشارة الاصلية. وهذا يقتضي أن يكون هناك طبقات معينة تردُّ هذه الامواج اللاسلكية على ابعاد شاسعة فوق سطح الارض. ولذلك اتجه العلماء الى تفسيرها بطبائع الغلاف المؤيَّن المتقلبة فقال فان درپول الهولندي وابلتن الانكليزي أن افضل تعليل لهذه الاصداء هو فرض انحصار بعض الامواج اللاسلكية بين طبقتين متغيرتين من الايونوسفير فتتذبذب بينهما بضع ثوانٍ ثم يحدث انفراج أو ثغرة في إحدى الطبقتين فتعود الامواج الى الارض. وهو تعليل لا بأس بهِ ولكنهُ لا يزال موضع بحث وتجريب

(١) راجع مقال « الكلف والاشعة الكونية » مقتطف اغسطس ١٩٣٨

فلسفة سياسي

او سياسة فيلسوف

لعلي أدهم

العصر الحاضر من العصور التي اشتدت فيها العناية بدراسة السياسة والوقوف على مذاهبها المختلفة واتجاهاتها المتعارضة ، وقد كان هذا الاهتمام المتزايد نتيجة مرتقبة لذلك القلق السيق والاضطراب الداخلي المستولي على الروح الانسانية في هذا العصر ، وهناك الآن تجارب جديدة في الحكم واساليب مستحدثة تتحدى النظم القديمة التي ظلت زمناً فوق منازع الشك ، وقد رأيت من المناسب ان نقف في تلك الفترة على آراء زعيم خطير وسياسي منجذ مثل توماس ماساريك أول رؤساء الجمهورية التشيكوسلوفاكية التي عصفت بها الحوادث الاخيرة ، ويزيد في قيمة آرائه انها لم تستمد جميعها من حفير الكتب ولم يتكون اكثرها في أبهاء المطالعة وحجرات الدراسة ، وانما نمت وتكونت في ضوء الحوادث الجسيمة ، وهي ثمرة تجربة طويلة وخبرة عريضة ، وسيتبين القارىء من معاريض احاديثه انهُ لا ينتسب الى مدرسة مكيافلي المعروفة ، ولا يرى ذلك التفريق بين السياسة والاخلاق الفاضلة الذي يلو العالم اليوم المر من ثمراته ، ويذهب بعض المفكرين السياسيين الى أن السياسة فرع من علم النفس لأننا اذا عرفنا الكثير من الحقائق عن الطبيعة الانسانية امكننا ان نستنبط النظم الملائمة لها ولكن ماساريك يرى ان الدراسة التاريخية لها المكانة الاولى لأن التاريخ عندهُ هو سجل الحقائق وهو زاخر بالحقائق النفسية لمن يعرف كيف يقرؤه ، واذا جهلنا التاريخ فاننا لا نستطيع ان نتبين الأثر العملي للدوافع والمحركات النفسية والتبس علينا تقدير نتائجها ، والنظرية السياسية التي تكتفي بالبحث عن الطبيعة الانسانية وتتخذها اساساً لاختيار القوانين والنظم تمنى في أغلب الحالات بالفشل والاخفاق وعلم السياسة انما هو ضرب من فلسفة التاريخ ، وكبار فلاسفة العالم السياسيين كانوا يستمدون فلسفتهم السياسية من التاريخ مثل هوبز ولوك وروسو وكارل ماركس . فالسياسة عند ماساريك يلزم أن تدرس في ضوء التاريخ وان تقوم على اساس تنظيم نتائج تجارب الحكم عند الحكومات والدول المختلفة ، وقد بسط جانباً من هذه الفلسفة في المحاورة الآتية وقد اخترتها من احاديثه مع صديقه الكاتب الكبير كارل كابك ، وقد استطاع كابك — قبيل وفاته بقليل — ان يقدم

للعالم بهذه المحادثات خلاصة وافية لآراء زعيم بلاده في السياسة والاجتماع والفلسفة وان يرسم لنا خلالها صورة دقيقة الملامح، قوية الأثر لذلك الزعيم النابه والمفكر الممتاز : —

كابك — هل تعتقد ان شريعة الحب تصلح في السياسة وفي الحياة الخاصة على السواء ؟

ماساريك — نعم هي بلا ريب صالحة للحياة على اختلاف ألوانها وللاعمال والافعال جميعها، وكل سياسي أمين راجح التفكير يعمل على تقوية الانسانية في داخل بلاده وفي خارجها ويجاهد لبلوغها مرتبة الكمال ، والسياسة كسائر الاعمال التي تصدر عن الانسان يلزم ان تكون خاضعة لنواميس الاخلاق ، واني اعرف ان هناك فريقاً من السياسيين يخالون انفسهم عمليين وجد حصفاء فلا يحفلون بهذا المطلب ولا يتوخون تلك الغاية ولكن التجربة — ولست أتحدث في هذا المقام عن تجربتي الشخصية وحدها — ترينا ان السياسيين الامناء ذوي الافكار الثاقبة هم الأبلغ تأثيراً والاقدر على النهوض بالاعباء ومواجهة الحوادث وهم يؤدون لوطنهم وحكومتهم اعمالاً يشكل عن القيام بامثالها الساسة الذين يسمون انفسهم بالعمليين البارعين ومرور الزمن كفيل باظهار غباوتهم وقصر نظرهم

كابك — ولكن الساسة المثاليين قد يخطئهم التوفيق

ماساريك — في بعض الاوقات يصيبون وفي اوقات اخرى يخطئون، واذا كنت أتحدث عن الاخلاق في السياسة فاني واضع نصب عيني في اول الامر الاساليب السياسية والمناورات الحزبية والاعمال الادارية على وجه الاجمال، وممارسة السياسة نفسها يجب ان تكون عملاً اخلاقياً والبرنامج السياسي يجب ان يكون متمشياً مع قواعد الاخلاق . وفي مستطاع كل انسان ان يضع برنامجاً سياسياً محترماً سامي المبادىء ولكن معرفة الاعمال الادارية شيء والعمل على مزاولتها في رفق واعتدال شيء آخر ، ومعرفة مصلحة الدولة ومنفعة الوطن في اوقات الازمات المتحرجة والمواقف الفاصلة تختلف عن ذلك كل الاختلاف . ولذا تتحدث الناس في مناسبة ذلك عن مسائل السياسة العليا ويفرقون بين رجل الدولة والسياسي الحزبي ، والسياسة في هذا المعنى قائمة على ان يحسن السياسي ادراك الظرف المناسب الذي يخدم فيه امته خلال فيض التاريخ وتوالي الحوادث ومما يعين السياسي على ادراك ذلك وقوفه على تاريخ بلاده ومعرفته لحاضرها وعنايته بمستقبلها ولقد عالجت تلك الحياة وتمرست بصروفها وانا رجل سياسة كما قدمت لك وقد همتني المسائل السياسية منذ كنت غض الشباب، وانت تعلم أني في سنة ١٨٩١ كنت نائباً ثم تنازلت عن النيابة. وكان الدافع الحقيقي لذلك شعوري بعدم نضجي السياسي ، وذلك لاني عندما وقفت على سياسة فينا وعلاقتها باوربا وجدت أني رغم ما حصلت من علم غير متأهب تمام الأهبة، فبدأت من جديد دراستي السياسية في دقة وتمحيص وحاولت ان أجلو لنفسي مشكلة العصر، وكان تاريخ أمتي في نظري جزءاً لا يتجزأ من تاريخ العالم ، ولم يقتصر عملي خلال تلك الفترة على تأليف الكتب

كابك — كنت تعتقد في ذلك الوقت ان السياسة يجب ان تقوم على أسس علمية فهل لا تزال مستمسكاً بهذا الرأي بعد تجربتك الطويلة ؟

ماساريك — نعم ان السياسة علم ويجب ان تكون كذلك على الدوام . حقيقة ان جامعاتنا ليس بها أساتذة لتلقين السياسة ، والسياسة عندنا تدرس من حيث هي فرع من علم الاجتماع وناحية من نواحي القانون وجانب من جوانب الفلسفة، وقد خصصت لها في بعض الامم الاخرى مناصب وكثرت فيها المؤلفات واتسعت بحوثها ، وأمامنا مرحلة لا بد لنا من اجتيازها قبل أن نعمل على انشاء منصب استاذ لدراسة السياسة في جامعاتنا

كابك — وهل ترى ان البون شاسع بين السياسة العلمية والسياسة العملية البرلمانية ؟

ماساريك — نعم وكيف لا يكون كذلك ؟ ولكن يوجد كذلك خلاف بين آراء الجماهير التي تؤم الكنائس وآراء المستنيرين من رجال الدين ، وليس الفرق بين الرجل العادي والمحامي الذي درس القانون بأقل من ذلك ، ولكني اذا كنت أقول بالسياسة النظرية العلمية فاني لا أنسى الفرق بين العملي والنظري ، ومما يسترعي النظر في تقدمنا السياسي ان بعض رؤساء الحكومة وقادة الاحزاب وأعضاء البرلمان لم يتلقوا تعليماً جامعيًّا ولكنهم برغم ذلك قد تزعموا الاحزاب وألقيت اليهم مقاليد الأمور وإني اعتقد ان السياسة العليا تستلزم اعداداً نظريًّا ولكني أصرح مع ذلك ان حزمة من الاجازات العلمية لا تغني عن المواهب الطبيعية، ولا تنس كذلك الناحية الاخلاقية لان الاطلاع والعلم واجتياز الامتحانات والحصول على الاجازات والالقاب والدرجات ليس دليلاً على الشرف والشجاعة والاعتدال

كابك — اسمح لي بسؤال لا أريد به شخصك ، عندما تتكلم عن السياسة من حيث هي علم ما هي علاقة السياسة بالفلسفة ؟

ماساريك — تريد ان يكون سؤالك غير شخصي ولكنك في هذا السؤال شخصي الى أقصى حدٍّ لأنك تريد ان تقول أني قد انتقلت من منصب أستاذ في الجامعة الى مسند رآسة الجمهورية وسأحاول في الاجابة عن سؤالك ان أتجرد من شخصيتي . ولعلك تذكر أفلاطون وارسطو وسنت اغسطين وتوما الاكويني وأمثالهم ، ولقد كان الفلاسفة على الدوام معنيين بالمسائل الفلسفية ، والنظريات السياسية هي صورة من صور التفكير الفلسفي وقد كان ذلك نتيجة لتلك العلاقة الأكيدة بين الاخلاق والسياسات ، ولقد كانت الاخلاق على الدوام جزءاً من الفلسفة وفي العصور الحديثة استقل عن الفلسفة علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وهما علمان سياسيان ، وكل علم يعتمد في ناحية من نواحيه على الفلسفة ويستند من ناحية اخرى الى الحياة العملية

وللفلسفة علاقة مباشرة بالاخلاق لأنها تحاول ان تكوّن صورة عامّة للحياة والدنيا ، والحكومة في العصر الحاضر تستغرق جميع فروع الادارة الاجتماعية فهي من ناحية عملية

تجاهد وراء ما تقصد اليه الفلسفة. وعلى هذا الاساس يجب ان تفهم ما رمى اليه افلاطون الذي اراد ان يكون الحكام فلاسفة ، والسياسي الحديث يلزم ان يكون قوي الناقدة غزير العلم صادق الحكمة . والسياسي الذي يتصدى للقيادة يلزم ان يكون خبيراً بالرجال طبًّا باسرار الزعامة وما معنى الزعامة اذا اعجزه النفاذ الى قلوب الناس والولوج الى سرائرهم ؟ ولا تنس ان الفلاسفة او العلماء قد يتورطون في الاخطاء . واكرر ان الكتب او الاجازات ليست كافية لأن الرجل السياسي في حاجة الى التجربة والبراعة وحدها ليست مجدية

كابك — اراك تؤكد العلاقة بين التاريخ والسياسة

ماساريك — نعم وانت تعرف اهتمامي بمادَّة التاريخ ، ولقد كنت على الدوام معنيًّا بالدروس التي تفيدها سياستنا من التاريخ ، ولست ادعي اني مؤرخ ولكن عقيدتي الغائية كانت تستحثني لتبين معنى الدنيا وفحوى اعمالنا وكم اجهدت فكري في ذلك ، وانا المس المعرفة من المؤرخين ولكني في الوقت نفسه اراقب سير الحوادث في بلادي وفي غيرها وفي مدى يجاوز نصف قرن يستطيع الانسان ان يرى كثيراً وان تتسع امامهُ مناحي التفكير وتتكاثر موضوعاتهُ، وقد طالما رددت ان سياستنا يجب ان تقوم على اساس عالمي وان يكون اتجاهنا دوليًّا

كابك — وهل ترى ان السياسة الخارجية اجلُّ شأناً من السياسة الداخلية

ماساريك — في بعض الاوقات ترجح كفة السياسة الداخلية ولكن في المدى المتطاول ستلتقي السياسات الداخلية في الامم والسياسات الخارجية، وسياستنا تفرض علينا ان نكون يقظين لما يحدث حولنا وتحتم علينا مراقبة الاتجاهات والتيارات. وانا اتصور السياسات العالمية تصوراً عمليًّا فهي يلزم ان تقوم على دراسة الدنيا وتاريخها وهي تقتضي ان نكون واقفين على ما يحدث حولنا وما يتصل بشؤوننا، ولا يهولنك ذلك فاني لا أوصي بالابتداء من عهد آدم ولا اقول بالانغماس في تاريخ الدنيا بأسره اذ يكفيني تاريخ اوربا وذلك الجزء من آسيا وافريقية الذي ارتبط تاريخه بتاريخها

كابك — الحدود التي ذكرتها هي على وجه التقريب حدود الجنس الابيض

ماساريك — نعم على وجه التقريب ولنترك آسيا الأسيوية، وآسيا الأوربية أو اوربا الاسيوية. إن جميع الامم القائمة على شواطىء البحر المتوسط قد امتزجت ثقافتها وكثرت العلاقات بينها وفي هذا الجزء من الكرة الارضية بدأ التوفيق بين مختلف المذاهب واللغات والسكان

ومن المظاهر الباهرة انهُ في ذلك الجزء نهضت الحضارات من أقدم الازمنة وجاء تباعاً البابليون والاشوريون والايرانيون والدول المصرية ، وقد انقسم الاغريق شيعاً واحزاباً ولكن الاثينيين حاولوا ان يوحدوا الأمة الهيلينية بعد ان نجحوا في رد غارة الفرس ، وبظهور الاسكندر جاءت الى عالم الوجود امبراطورية ضخمة تضم اليونان ومصر وجميع الاجزاء التي كانت معروفة في آسيا لذلك العهد ، وبعد عهد الاسكندر انهارت دولته وتصدعت أركانها ولكنها لم

تحطم ثقافياً، وقد غزت الثقافة اليونانية روما وأوغلت في الغرب ، وقامت بعد الاسكندر دولة الرومان وقد شملت اليونان ومصر وشمال افريقية واستولت في الشرق على الولايات التي ضمها الاسكندر الى امبراطوريته وانتزعت في الغرب إيبريا وبلاد السلت والالمان، ثم انشطرت الدولة الرومانية شطرين وقد بقي القسم الشرقي في بيزانطة بعد انهيار القسم الغربي، ثم قامت في الغرب دول عظيمة منها دولة الفرانك والدولة الرومانية المقدسة ودولة أسبانيا والنمسا

كابك — ودولة الاسلام ومحاولة السويديين اخضاع شمال اوربا

ماساريك — نعم وفي العصور الحديثة نهض نابليون وظهرت قوة الانكليز والولايات المتحدة والروسيا وتمت الوحدة الايطالية واصبحت ايطاليا تحاول بسط سيادتها على البحر المتوسط

وهذا الدافع الى طلب القوة السياسية ظاهر كذلك في تاريخ الولايات الصغيرة فدولتنا البوهيمية القديمة كانت الى حد ما قوة عالمية ومن الجائز ان يقال مثل ذلك عن بولندة وبلاد الصرب والبلغار ، ففي كل زمان وبكل مكان نلتقي بهذا الدافع الذي يسوق الأمم الى التوسع خارج نطاقها والى أن تضم دولاً اخرى . ولقد كان للعوامل الجغرافية أثر كبير في نشوء الدول العظيمة مثل الجبال والانهار الكبيرة كالنيل والدانوب والراين وعلى الاخص البحر ، وفي تاريخ الغرب كان للبحر المتوسط شأن سياسي بارز ونفس اسمه يدل على ما كان له من أثر في ربط الامم القائمة على شواطئه وبخاصة الاغريق والرومان والفينيقين. ولم تتقدم الملاحة في المحيط الاطلسي الا في العصور الحديثة وهو الصلة بين اميركا واوربا وقد علت منزلة المحيط الباسيفيكي وهو اليوم الصلة بين اميركا والشرق الاقصى وبذلك اصبحت الصين واليابان والهند مرتبطة باميركا واوربا

ولقد نشأت تلك الدول العظيمة مدفوعة بدافع الرغبة في التملك وحب الغزو ولكن التفاهم المتبادل بين الامم الغالبة والامم المغلوبة كان لازماً، ومن ثمَّ نشأت الروابط الثقافية وبذلك بلغت الروح ما لم يبلغهُ حد السيف ،ولقد كان اليونان من اكبر دعاة الثقافة وناشري لوائها وفي عهد الاسكندر وبعده صارت اللغة اليونانية لغة عالمية في أوربا وآسيا وافريقية ، واذا تأملنا الحركة التاريخية وجدنا ان الأمم لا تستطيع ان تعيش في عزلة، والجنس البشري منذ أقدم الأزمنة يتجه تدريجيًّا في سبيل الوحدة وتاريخ الفتوحات والثقافات والدول الخوالي يرينا ذلك في صورة واضحة ولقد كانت الحرب الكبرى هي المرحلة الأخيرة في سبيل هذا التقدم

والمسألة الآن هي هل يتم تنظيم قوى الحكومات والأمم بالغزو والاخضاع او بالسلام والتحالف والاتفاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية ؟ لقد وضعت عصبة الأمم بعد الحرب الكبرى برنامج التنظيم السلمي للدنيا وقامت حركات كبيرة وعقدت اجتماعات جمة لتقريب العلاقات بين الامم ويجوز لنا ان نقول أننا نقف الآن على ابواب التنظيم العالمي الصادق . ولقد أطلت عليك الحديث ولكن نظرة الى الماضي تزودنا بالكثير مما ينفع في الحاضر والمستقبل

يعقوب صروف

و « الاشياء الباقية » في الحياة

الذكرى الثانية عشرة لوفاته (١)

لست ادري كيف اوجّه شكر الى محطة الاذاعة الفلسطينية ، لعنايتها باحياء ذكر العاملين في نهضة الشرق الفكرية والاجتماعية . فالكلام عاجزعن اداء هذه المهمة على اوفى وجه ،وذلك لأن عمل المحطة في الواقع عمل كبير الشأن عظيم الأثر بإذن الله

فنحن نجتاز فترة من حياة الشعوب ، انقلبت فيها الاوضاع ، وطفا على وجه الغمر كل عابر من الصفات والقيم الانسانية ، فحجب كل راسخ مقيم من السجايا والمناقب . وهذا ولا ريب متأثر بهذه الحضارة الآلية التي تبغي السرعة للسرعة ، او هي تبغي السرعة لتحقيق غرض آخر في الحياة هو تخفيف عبء العمل وتوسيع نطاق الفراغ في سبيل الثقافة والرياضة ، ولكنهُ ، غرض على نبله ، لم تألفه الناس ، ولا تعودتهُ الاخلاق الاجتماعية والنظم الصناعية ، فبُهرنا بالوسيلة، وأهملنا الغرض. وليس ثمة ريب ، في ان عناية الناس الآن ، بالدائم الاصيل من النوازع العالية والاخلاق النبيلة والقيم الاساسية في حياة الافراد والاجتماع ، اقل من عنايتهم بكل ما يبهر الطرف ويخطف البصر ويؤتي ثمراً عاجلاً . ولا تكون العودة الى النهج القويم ، في اصلاح الحياة والسموّ بها ، نهج العناية بما ينفع الناس ، نهج التأمل في حقائق الحياة لاستخراج اصولها الصحيحة العميقة ، الا بالعودة الى عظماء الرجال ، ودراسة حياتهم ، واستكشاف فضائلهم ومناقبهم واذاعتها . فليس من العبث ، ان تمر السنون وتكر القرون ، وأسماؤهم كالشاكي تتألق في صفحات تاريخ الفكر والاجتماع ، تضيء الطريق الوعر للسالكين . « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

والواقع ان الحياة عمادها صدق الصالحين وقدوتهم ، وحكمة الملهمين وابداعهم ، واقدام الرواد وفناء اشخاصهم الفانية في سبيل الخير العام . هم ينقونها من الادران . ويخففون من وقع

---

(١) حديث لرئيس تحرير المقتطف اذيع من محطة الاذاعة الفلسطينية في مساء ٧ يوليو ١٩٣٩ على ذكر انقضاء اثنتي عشرة سنة على وفاة الدكتور يعقوب صروف

عبثها على الكواهل . بل ان الحياة لا تعذب ، وقد لا تحتمل الاّ في صحبهم او في كنفهم .
ومن محاسن الحضارة الحديثة ، أنها تتيح لك صحبة الانبياء والفلاسفة والشعراء والعلماء والرواد ، في تراجمهم ومؤلفاتهم ، وفي ما يكتب ويذاع عنهم ، ومن هنا كان فضل محطة الاذاعة الفلسطينية في عنايتها باحياء ذكر العاملين في نهضة الشرق . ومن هنا كان شكرها شكراً وافياً من الامور التي يعجز عنها الكلام

وقد اتاحت لي الحياة ان اصحب واعيش في كنف احد هؤلاء الرجال ، وما فتئت روحهُ تطالعني كلَّ يوم من صورته النضرة وسبعين مجلداً من المقتطف — صدرت في عهده — مصطفة أمامي . وقد تردَّدت كثيراً قبل تلبية طلب المحطة في اذاعة حديث عنهُ لما بين الاسمين من صلة القربى، ولكن الرجل مضى الى لقاء ربهِ من اثنتي عشرة سنة، نضر الوجه طاهر الذيل جزيل النفع ، فهو في غنى عمّا نقولهُ فيهِ ، ولكننا لسنا في غنىً عمّا في حياتهِ الحافلة من العِبَر . فانا عند ما اروي في الدقائق التالية نواحي من حياتهِ ، اجرّد نفسي من صلة الاسم والقرابة — على فخري بهما — واقف موقف واحد من ابناء الامم العربية اللسان تجاه هذا الرجل الذي كان ركناً أصيلاً من اركان النهضة الفكرية والاجتماعية فيها

من مزايا الدكتور يعقوب صرُّوف ، أنهُ كان رجلاً جمع بين الذهن المتوقد والخلق النبيل ، أي العلم والفضيلة ، فكانت حياتهُ حافلة بالنفع

ولو نشأ صاحب هذا الذهن في بيئة تأصلت فيها تقاليد العلم ووطئت مسالكهُ ، لكان على الغالب من العلماء المبدعين الذين تنسب اليهم النظريات والمذاهب العلمية والفلسفية . ولكنهُ نشأ في بيئةٍ ، كانت قد انقطعت صلتها بسير العلوم منذ القرن الثالث عشر على العموم ، وغلبت عليها أساليب من البحث تمتُّ الى الأدب واللغة والفقه بصلة قوية . نشأ متزوداً من اصول العلم الحديث بقدر وافر هيأهُ لأن يكون من رؤوس روّاد عصر جديد . ونحن اذا طوينا الف سنة تقريباً فرجعنا الى مستهل نهضة العلوم في العصر العباسي ، رأينا ان نهضة النقل والترجمة كانت التوطئة التي لا بدَّ منها، لتلقيح الفكر العربي الخصب ، بلقاح العلوم والفنون المنقولة عن اليونان والهند . واذا اتخذنا من جمهور المترجمين والنقلة في ذلك العهد ، من يمثّلهم في شخص حنين بن اسحق ، فإننا لا نقع على ندّ لهُ الاّ بعد الف سنةٍ تقريباً في شخص يعقوب صرُّوف

تلقى العلوم في الكلية السورية الانجيلية ببيروت — وهي المعروفة الآن بجامعة بيروت الاميركية — وكأن الطبيعة ارادت ان تهيئهُ خاصة لعمله العظيم ، عمل تلقيح الذهن العربي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، بلقاح العلوم الغربية الآخذة في التفتح والازدهار في ديار الغرب ، فأتاحت له ان يدرّس مدى أربع عشرة سنة في جامعة بيروت الاميركية ، العلوم

الرياضية فالعلوم الطبيعية والكيمائية ، فآداب اللغة العربية وقواعدها . فاستكملت بذلك عدته ، من اطلاع واسع وفهم دقيق لأصول العلوم الطبيعية الحديثة وطرائق العلم التجريبي ، وقلم بليغ في سهولة وامتناع ، يرتدُّ الى أبلغ الاساليب العربية في صدر الاسلام

فلما حدَّثت نفسهُ ونفس زميلهِ وشقيقهِ الروحي الدكتور فارس نمر باشا — مدَّ الله عمره — باصدار مجلة المقتطف ، كان الصديقان قد اقتسما فيما بينهما أهم طائفة من العلوم الحديثة فاشتركا في العمل إحدى وخمسين سنة متواصلة ، ولا آصرة بينهما من قرابة او نسب ، وانما كانت آصرة التآخي الروحي والاخلاص للعلم وللخير العام ، أوثق وأمتن . وأنت تمضي في مطالعة سبعين مجلداً ضخماً من المقتطف منذ صدوره الى حين وفاة الدكتور صروف في ١٩٢٧ فلا تعرف من منهما منشىء المقالات فيها ، حتى لقد غدت كلمة « أحدنا » تؤثر عنهما للدلالة على اتحادهما في هذا العمل الفكري العظيم ، مع ان الدكتور صروف عكف على انشاء المقتطف خاصًّا اياه بعنايتهِ دون أخيه ، حالة ان الدكتور نمر اضطرَّ ان يقف معظم وقتهِ على المقطم ، ولا يزال عندما تسمح لهُ أعمالهُ بدقائق من الفراغ ، يتحسر على ان مقتضيات العمل ، حكمت عليهِ بأن ينصرف عن العمل العلمي الذي نشأ وترعرع فيهِ ، وملك عليهِ أسباب حبه

إن الخطة العلمية التي وضعها منشئا المقتطف وجريا عليها وجرى عليها من أؤتمن عليها ، مدى ثلاثة وستين عاماً ، جملتهُ الصلة الفكرية الموثقة بين الشرق الحديث والغرب الحديث . فنشر من المقتطف حتى وفاة الدكتور صروف في مثل هذا اليوم من اثنتي عشرة سنة اكثر من سبعين مجلداً في ما لا يقل عن خمسين الى ستين الف صفحة ضمت فصولاً مطولة وموجزة ونبذاً في شتى فروع المعرفة الانسانية . في ساحتها التقت أقلام الكتَّاب والمفكرين بافهام القراء . وهذا الالتقاء ولد احتكاكاً والاحتكاك بعث في العقول والنفوس نوراً وناراً

فمجلة المقتطف كانت باشراف الدكتور صروف وبما دوَّنهُ فيها من حقائق العلوم وتخيُّر الآراء والمذاهب العلمية والفلسفية والاجتماعية ، وما راجعهُ ووافق على نشره فيها من أقلام الكتاب ، تأخذ باليمين لتعطي باليسار ، تأخذ من العالم والمستنبط والفيلسوف لتعطي الزارع والتاجر والصانع والمدرس والطالب وربَّة البيت . فكانت بذلك صلة بين عالم الابداع الفكري وعالم التطبيق العملي . كانت مرتبة متوسطة بين مباحث العلماء الفنية الدقيقة ، ومدارك الجمهور الذي يطلب الحقائق واضحة جلية ، تقبلها العقول وتسيغها الافهام . والعلم لا يرتقي ولا ينال قسطهُ من الذيوع والتأييد ، ولا تجنى الفوائد التي يجب ان تجنى منهُ الا اذا اتصلت نتائج المباحث العلمية بمقتضيات العمران وتغلغلت في كل مصدر من مصادر حياة الفرد والمجتمع . لذلك كان بسط الحقائق العلمية ونشرها لازمين كَكشفها وتحقيقها ، وهذا البسط والنشر جانب من المهمة العظيمة التي أخذها منشئا

المقتطف على عاتقهما عندماعزما في ذلك اليوم التاريخي في بيروت ان ينشئا «مجلة علمية صناعية».

ولا يسعني الاَّ الظن بأنهُ اذا جاء المؤرخ في المستقبل، يحاول إن يكتب تاريخ النهضة الشرقية الحديثة على قاعدتين من الانصاف والتحقيق، فانهُ لا يستطيع ان يغفل ذكر المقتطف وذكر الدكتور صروف الذي اقترن بهِ حتى أصبحا متلازمين. ذلك بأن النهضة في أمرِ ما تبدأ اولاً في صدور النخبة من ابنائها وعقولهم. وأكثر هذه النخبة من ابناء الشرق العربي من اواخر القرن الماضي الى اواخر الربع الاول من هذا القرن، يشهدون بأن المقتطف كان «معلمهم» ومن هنا أطلقوا عليهِ «المعلم الثاني» باعتبار ارسطوطاليس «المعلم الاول».

هذا العمل العظيم الذي لا يتسع الوقت الاَّ لوصفهِ بايجاز، ماكان في الاستطاعة لولا تلك الفضائل الاساسية في خلق الرجل الذي وقف حياتهُ عليهِ، حبٌّ راسخٌ للعلم وللخير العام، ومثابرة لا تسترخي، وتحقيق وتدقيق لا يحرفهما التسرع في المعالجة. وهذه مناقب تتصل بخلق الرجل بعد ان لحنا ناحية من ذهنهِ

والعظمة في الرجال ينظر اليها من ناحيتين، من ناحية النفع الذي تصيبهُ الامة التي ينتمون اليها وسائر الامم من بعد. ومن ناحية السمو والنبل في حياتهم الخاصة وعلاقتهم بالناس

أما الناحية الاولى في حياة الدكتور صروف، فتتمثل في ما أصابهُ «المقتطف» والدكتور صروف نفسه، من مكانة عند كبار الامم العربية من ملوكها وأمرائها الى وزرائها وعلمائها وكتابها، وعند فريق غير يسير من علماء الغرب، وما أسداه من خدمة الى تحرير العقول وتثقيفها ببسط العلوم الحديثة والحثّ على الأخذ بها وبطرائقها. وحسبي ان أشير هنا الى عبارة وردت في خطبة توفيق رفعت باشا رئيس لجنة عيد المقتطف الذهبي الذي شمل برعاية المغفور لهُ الملك فؤاد الاول قال:

«وأنهُ وان أتيح لبيروت ان كانت مهد طفولة المقتطف ومبزغ قرن شمسهِ، فان لمصر ان تفخر بأنها مهد إيناعهِ بإيفاعهِ، ومرقاة اكتهاله باكتهاله، وما تعميرهُ في الشرق الى الخمسين، الاَّ ناجمة يؤبه لها ونادرة يلتفت اليها. وان مصر وهي المتعطشة الى استعادة مجدها السامي الذاهب لا تزال جيدة التربة طيبة المنبت كريمة الجوهر. فكلما حيَّاها صيِّب أو جادها غيث اعشوشبت وتألق جوهرها. فأصحاب المقتطف قد شمَّروا عن ساعد الجدّ وجموا الى غزارة المادة مضاء العزيمة في إخصاب هذه التربة الجيدة... ان مصر الشاكرة دائماً من يعاونونها في شؤونها تناصرت على معاضدة المقتطف بنشره في دور العلم ومعاهد التعليم ... عمَّره الله للعلم الى مئين السنين ونضَّر الله وجه ذويه»

ولا يتسع المقام لاقتباس عبارات موجزة من أقوال سائر الخطباء والشعراء في عيد المقتطف او في حفلة تأبين الدكتور صروف. واملُ قول المغفور لهُ حافظ ابراهيم .

إني قرأتك في الكهولة والصبا وملأت من ثمر العقول وطابي

وقول شوقي : مشينا بنوري علمها وبيانها فلم نسر إلاّ في شعاع شهاب

وعشنا بها جيلين قمت عليهما معلم نشء او إمام شباب

يعبّران عما في نفوس الوف من ابناء مصر وسوريا وفلسطين والعراق حيال المقتطف

واما الناحية الاخرى من حياة الدكتور صرّوف فهي الناحية الذاتية وقد كان في مناقبه العقلية والخلقية على ما وصفهُ الامير شكيب ارسلان : « مما لا أجده الاّ في النادر الأندر من البشر . ولاشك انهُ اذا كان أعلى أفقٍ من الناس متصلاً بأقرب أفق من الملائكة فيكون فقيدنا طيب الذكر في الفوج الاول من الآدميين القارطين الى ذلك الأفق العالي »

فقد افنى الدكتور صروف اطيانا كان يراها كلها في المقام الثاني بعد المقتطف وما كان ينفق عليها من العناية والوقت عشر معشار ما ينفق منهما على هذه المجلة التي كان يحبها كولده ولا يهنأ لهُ عيش الاّ اذا تم عمله فيها على الوجه الاكمل وأتيح لهُ المحافظة على رسالتها العلمية الرفيعة

وكان مثلاً حيًّا للتسامح المسيحي وله في ذلك نوادر يصح ان تجري مجرى الامثال منها ان خصماً صحفيًّا مشهوراً في اشتداد حملته على المقطم جاء — وقد نفد الورق من مخزنه — يطلب ملفات ورق لطبع جريدته من مدير المقطم. فلما سئل الدكتور صروف في ذلك لم يزد على قوله « ان جاع عدوك فاطعمهُ وان عطش فاسقه .... »

وكان مستقيماً كالرمح لا يحيد عن الصدق في القول والعمل قيد شعره. جاءه يوماً رجل عزيز عندهُ وطلب منهُ وساطة عند وزير على ان لا يعلم الوزير ان هذا الرجل في القاهرة . فقال الدكتور صروف « لا استطيع ان اقول غير الصدق . سافر من القاهرة وأنا ابلغك ما يتمّ »

وكان وديع النفس لا يأنف من مقابلة اصغر الطلبة ومحادثتهم وارشادهم وتقبل آرائهم اذا كان فيها صواب، وعندي عشرات من الامثلة على احداث اتوه متهيبين فخرجوا من مكتبه وكأنهم خارجون من حضرة والد حنون . وقد حدثني أحد الكتاب المشهورين بأنهُ رأى، وهو شابٌّ، مأخذاً على بعض ما نشر في المقتطف فذهب الى مقابلة الدكتور صرّوف وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى فأحسن وفادتهُ وقبل نقدهُ ونشرهُ فكان ذلك الحافز الاول الذي دفع صاحبنا الى المضي في الكتابة . وكان ابيّ النفس لا يرضى عن الاباء والكرامة بديلاً. جاءهُ مدير اعماله يوماً وقال لهُ اذا حدثتَ فلان في القضية الفلانية فقد نوفر مبلغاً لا يستهان به . فقال اخشى ان لا اصيب عندهُ ما يرضيني . كم الخسارة المقدَّرة .... لنكن من حساب مما خسرنا او كسبنا

وكان وطنيًّا صادق العقيدة منزهاً عن الاهواء ، اشترك في شبابه في الجمعية الثورية الاولى في لبنان ، على ما حدثني بذلك الدكتور نمر ، وكان من اشدّ اعضائها حماسة ، وشارك

مصر في نهضتها فكان لا يقول إلاَّ ما يراهُ صدقاً وخيراً ، فكان صديقاً مقرباً من جميع أقطاب فرقها السياسية بلا استثناء

وكان يؤمن بالحياة الأخرى ايماناً فلسفياً وكثيراً ما كانت الفلسفة مشكاة وسبيلاً الى كشف الحقائق . ولذلك كان الدكتور صروف يحاول ويتمنى ان يتاح لهُ اثبات الحياة الأخرى عن طريق العلم

هذا بعض ما أُتيح ذكره في هذا الحديث . ويتبقى انهُ عاش خمساً وسبعين سنة لم يأت اثماً وهو يعلم انهُ أثم ، ولم يضر أحداً وهو يعلم انهُ يضرّ ، بذل حياتهُ كلها للخير الخاص والخير العام . وان عناية محطة الاذاعة الفلسطينية باحياء ذكراهُ وذكرى غيره من العاملين لدليل على ان العلم والفضيلة اذا اجتمعا في رجلٍ ، فالزمان لا ينسج على اسمهِ او عبير حياته خيوط النسيان . وفي هذا عبرة لنا نحن أبناء هذا العصر الذي يكاد يكون مصروعاً بجنون السرعة والثمر المعجَّل . ان طريق الخلاص انما هو في العود الى الفضائل الاساسية التي أثبت اختبار البشر خلال الوف السنين انها « الاشياء الباقية »

كلمات للدكتور صروف

فضائل الحرب والسلم

الفضائل التي يدعي أهل الحرب ان الحرب توجدها او تمكّنها في النفوس كالشجاعة الوحشية والجرأة والاقدام وتحمل المتاعب والمصاعب والصبر على المكاره وعدم المبالاة بالخسارة مهما كبرت وعظمت ـ كل هذه وغيرها ليست أعظم من الفضائل التي يوجدها السلم . فالشجاعة الادبية لا تقل منزلة عن الشجاعة الوحشية والاقدام على الاعمال الكبيرة ، اوقع في النفس من الاقدام على خوض ميادين القتال لأن الانسان يكون مدفوعاً في الاول بعامل التعقل والتبصر وفي الثاني بسورة النزق والطيش . وليس احد يقول ان الجنون خير من العقل . وروّاد الحضارة الذين يجتابون البلدان المظلمة لنشر لواء الحضارة ويعانون المشاق والاهوال في سبيل ذلك خير من الجنود الذين ينفقون اعمارهم في خوض ساحات الحرب وميادين القتال . والعالِم الذي يحاول حل سر من اسرار الطبيعة او اكتشاف دواء لداء قتال قاضياً ليلهُ ونهارهُ في البحث والتنقيب والتجربة والاختبار صابراً على فشل امانيهِ مرة وخيبة مساعيهِ اخرى لأرفع مقاماً وأعلى منزلة في عيون الناس من اي قائد كان . فذانك الاسكندر وارسطو ، ونابليون وباستور ووجه التفاضل بينهم لا يخفى على احد



المثل العليا

في الشعر

لعبد الرحمن شكري

كان من خصائص نهضة الاحياء التي حدثت في اوربا بعد العصور الوسطى البحث والتقصي والطموح الى العرفان واختبار الحياة في حالاتها المختلفة وكشف خفاياها وقد ظهر اثر ذلك في الشعر وفي آداب عصر الاحياء على وجه التعميم وقد ازدهر هذا العصر في عهد الملكة اليصابات في انكلترا وظهر اكبر شاعر عُرِفَ بحث النفوس ووصف احاسيسها وخواطرها على طريقة شعر القصص التمثيلية واعني به شكسبير ويصح ان يسمى هذا العصر العصر الرومانتيكي الاول فقد قضى على التزام محاكاة المذهب الكلاسيكي (1) القديم في القيود التافهة وكانت تلك المحاكاة قد قضت على روح المذهب الكلاسيكي الحقيقي بمغالاتها في اتباع ظواهر الامور دون حقيقتها وكان في بعض حرية آداب الرينيسانس (عصر الاحياء) شطط في اصول الفن فلما جاء عصر النقد الفني وخمدت جذوة عصر الاحياء عادت النفوس الى محاكاة طريقة الاقدمين الكلاسيكية في عهد راسين وكورني وأشباههما وذاعت هذه الطريقة في القرن الثامن عشر وهو عصر النقد والمنطق والاناقة الشكلية بين رواد الفنون الا ان نهضة القرن التاسع عشر في اوربا أوجدت حرية وروحاً هما شبيهان بالحرية والروح اللتين كانتا في الآداب في عصر الرينيسانس عصر الاحياء والتجديد الاول فذاع المذهب الرومانتيكي في آداب اللغات وتشعب شعباً كثيرة. وكان من خصائصه ايضاً البحث والتقصي واختبار الحياة وكشف خباياها والطموح الى العرفان وهذه هي المُثُل العليا في ذلك المذهب الرومانتيكي. وقد كان فاوست بطل قصة جوبتي في العصر الرومانتيكي الثاني هو بطل قصة فاوست تأليف مارلو الشاعر الانكليزي المعاصر لشكسبير. ولم يأت هذا الاتفاق عفواً، بل كان اتفاقاً بين العصرين في المُثُل العليا وأعني بها الرغبة في كشف خبايا الحياة واختبار اسرارها والطموح الى العرفان ومصادر القوة فيها وكلا الشاعرين يعترف بما في هذه المثل العليا من خطر قد يؤدي الى شر كما ظهر في حياة فاوست بطل القصة ولكن

---

(1) كان بجانب احتذاء ومحاكاة للمذهب الكلاسيكي في اواخر القرون الوسطى مذهب شعراء الرومانس والتروبادور وهذا كان في الحقيقة مبشراً مبكراً جاء يبشر بنهضة الاحياء

هذا لا يمنع من عد هذه المثل العليا ايضاً منبع الخير ووسائل الرقي في الحياة. وقد كان الطموح الى العرفان والقوة وكشف خبايا الحياة ومعالجة اسرارها المثل الاعلى ايضاً في كل حضارة قديمة او حديثة ولولا ذلك ما قامت الحضارة في عهد قوتها وعهد ازدهارها في حياة البابليين او المصريين او الاغريق او الرومان او الفرس او العرب . وظني ان اتفاق روح أدب جويتي وبيرون في هذه الامور كان سبباً من الاسباب التي قربت بين الشاعرين وأدت الى العطف والتراسل على اختلاف طريقتيهما وثقافتيهما في امور اخرى فان أدب جويتي يعبر عن هذا الطموح الى القوة والعرفان في فاوست كما يعبر عنهما في ولهلم مايستر بمعالجة الحياة ومزاولتها والتثقف بما في هذه المزاولة من ثقافة وبيرون ايضاً يعبر عن تلك الروح الثائرة الطامحة الى القوة والعرفان والى كشف خبايا الحياة بمزاولتها والتقلب في وجوهها وليست رحلات تشايلد هارولد ودون جوان واختبارهما للحياة في احوال مختلفة وإباؤهما الاستقرار على حالة واحدة الا مظهر تلك الروح التي انبثت في اوربا جميعها في القرن التاسع عشر ولعل هذا هو السبب في ولوع غير الانكليز من الاوربيين بشعر بيرون اكثر من ولوعهم بشعر غيره من الشعراء الانكليز وهذه الروح شائعـــة في شعره كله فهي في قصة كين ومانفرد وورنر ومازبّا وغيرها . وقد عبّر شلي ايضاً عن هذه الروح التي كانت أساس صداقتهما ، عبر عنها ، في قصة (بروميثيوس الطليق) و (آلاستور) وغيرهما وقد استشهد العلامة وايتهد في كتابه (العلم في العالم الحديث) بقطعة من شعر شلي للدلالة على انه كان مولعاً بتقصي حقائق العرفان بالرغم من اسلوبه الخيالي. وهذه المثل العليا كانت شائعة ايضاً في شعر تنيسون وبروننج وفي قصص إبسن السكندناوي او قل هي أساس الآداب الاوربية الحديثة بالرغم من اختلاف مظاهر مذاهبها حتى ان الرمزية في اول امرها قبل ان تُطلَبَ الرموز لذاتها وللذة التأمل فيها كانت تستخدم لتوضيح هذه المثل العليا فإبسن في قصة (براند) يرمز الى نشدان المثل العليا والطموح اليها بتسلق براند للجبل وحثه القوم على التسلق. وشلي في قصيدة (الاستور) يرمز بركوب الاستور البحر وانطلاقه فيه الى الرغبة في كشف خبايا الحياة والكون وكشف المجهول من اسرارهما وقبلهما كان جويتي ايضاً يستخدم الرمزية على الطريقة المسماة (الليجوري)

وقد تأثرت عند دراسة هؤلاء الادباء والشعراء بهذه الروح واعني روح الطموح الى العرفان وكشف خبايا الحياة والتمست معيناً على ذلك في كل ناحية من نواحي الآداب التمسته في وصف شكسبير وبروننج للنفوس، وفي وصف النفوس والحياة في قصص كبار القصصيين، وفي كلمات المفكرين في كلمات قصيرة، كما التمسته في الخيال الرومانتيكي الطليق الذي يعبر عن هذه الروح على الطريقة الخيالية الرومانتيكية. وهذا هو السبب في ان جانباً من قولي يمثل الخيال وجانباً آخر يمثل التحليل

النفسي ومظاهر النفوس في الحياة لا على طريقة اميل زولا والمذهب الطبيعي فليس في اميل زولا تحليل للنفوس ولا خبرة بحكمتها وفلسفتها بل على طريقة شكسبير وبروننج في الشعراء ودكنز وثاكري وبلزاك واناتول فرانس وفلوبير وموباسان وتلستوي وترجنيف وغيرهم . وقد ظهر الجانب الاول اي جانب الخيال الرومانتيكي الذي يصف الطموح النفساني في قصائد عديدة منها،قصائد الباحث،والابد في ساعة،والكونين،وابناء الشمال،وشهداء الانسانية،والعصر الذهبي والمثل الاعلى ، والى المجهول،ومصارع النجباء، والبطل المنتظر، وثورة النفس،وجهاد المصلحين ، وصيحةالمصلح وسنة العيش وغيرها فمن قصيدة الابد في ساعة : —

آهِ من لي بساعة أتَقَصَّى كل معنى فيها وكل بيان
ساعة أجرع الحياة رحيقاً ثم أظمَى لسؤر ما في الدنان
ساعة اجتنى الوجود وما كا ن وما قد يكون في الاكوان

ومنها : —

انا فيها كالعيش والموت والدهـــر وحكمي وحكمها سيان
أنا فيها أقوى من العيش والمو ت وأقوى من محكم الايمان
احمل النفس في يدي مثلما يد لف في الحرب فارس بسنان

ومن قصيدة بين الثريا والثرى : —

كأنّا قد قطعنا الدهر نهباً من الآباد للازل القديم
وحوّلنا العوالم كأس لب حسوناها ولم تك من كروم
ولم نعبأ بما تخفي الليالي ولم نخش المنية في الهجوم
وأسلفنا الزمان نعيم عيش ولم نحذر مقاضاة الغريم
وكنا في ائتلاف الشمل نحكي نظام الشهب والدر النظيم

وقصيدة شهداء الانسانية وموضوعها ان شهداء الحياة والعلم والاصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل هالك هل تحقق الخير الذي بذلوا حياتهم من اجله فتدركه الحيرة ايكذب كي يدخل على قلوبهم الاطمئنان ، ام يصدق فيفجعهم في آمالهم ام يغريهم بالصبر الطويل كصبر الاحياء،ام يغريهم بالعودة ان استطاعوا الى كفاح الحياة.ومنها : —

فيا عيش الورى ماذا تراه يقول لهم اذا القى مقالا

ومنها : — يقول لهم اذا استطعتم فعودوا دفاعاً للنوائب او صيالا
وكم من نعمة لولا شقاء قديماً لم تكن إلاّ وبالا
فكم خير الاوائل من شقاء فنلنا من شقائهمُ نوالا

ومن قصيدة النشوء والارتقاء : —

بعقل يبلغ الشمس واقصى الكون عرفانا
وجدتَ لكل ما كان من الاكوان ميزانا
كأنك خالق الخلقين اكواناً وازمانا
وسخَّرت الرياح مطية والبرق فرسانا
وقد أعليتَ عمراناً وقد قدَّستَ اديانا

الى : —

وفقتَ الطير والحيوان آثاماً وأشجانا
وزنت الذرة الصغرى وما اعددت ميزانا
لعيشك كي يكون العيش إسعاداً وإحسانا

وقصيدة العصر الذهبي وقد اولع الناس من قديم الزمن بالتفكير في عصر الانسانية السعيد عصر الخير العميم الشامل فبعضهم كان ينشده في الزمن القديم ويبكي انقضاءه وبعضهم ينشده في المقبل من العصور. وكثيراً ما استخدم اهل الحرص شعاره لنيل اطماعهم واقتياد الناس بذلك الشعار. وكثيراً ما علق الناس بكماله حتى اذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة وهومثل عالٍ لا تحلو الحياة الاَّ به ومنها : —

عصر السلام تحية وسلامُ خلعتْ عليك رجاءها الاقوام
من كل عصر في نسيجك لُحمَةٌ ألاجل صنعك تدأب الاعوام

ومنها :

تتغير المُثُلُ التي شاقتهمُ تتبدَّل الآمال والاحلام
حَسْبُ الورى من حسن عهدك قدوة علياء ما إنْ شانَها استبهام
ما فاتهم طب الطبيب وانما تتباين الارواح والافهام

ومنها : —

واذا العبيدُ تحكموا في فتنة ساروا على نهج الظلوم وضاموا
أرى العبيد ببابلٍ وبطيبة اغرتهمُ بكمالك الآلام
لو انهم ملكوا لعافوا مسلكاً يدني اليك وطاشت الاحلام

وقصيدة قوة الفكر في تقديسها وقد قيلت على لسان حالها . ومنها : —

ألوي برب الفكر عن ذويه وأذهلُ العازم عن اخيه
طوراً وطوراً راحة وسلما اجبر عظماً وأهيض عظما

ومنها :—

ورب غرٍّ كان عبد عمره زوَّدتهُ من خيره وشره
كان صغيراً فغدا عظيما كان يرى عيش النهى أليما
رفعته عن لذة وألمِ فصار ناراً أضرمتْ في علَمِ
مُشتَهراً بين الانام مُعلَما مُبغَضاً طوراً وطوراً مُكرَما

ومنها :—

كم حقبة قد اختمرتُ فيها وكان طعمي قبلها كريها
اقوى على الايام والدهور كما صفت عتيقة الخمور
والناس قد غرهمُ خمودي وهم على غرتهم وقودي

وقصيدة (الشباب) توضح ان مستقبل الانسانية رهن بطموح الشباب الى المُثُل العليا وبان يحاول ان يقهر طاغوت الامور وجبروتها وأنْ :—

يستنقذ الازمان من عبث الورى ويُطهّر الاحشاء من اضغان
ويذلَّ طاغوتَ الامور فيحتذى شرْعُ الحياة شريعةَ الرحمن

وقصيدة (نحو الفجر) وقد جُعل الفجرُ في آخرها رمزاً لآمال الانسانية :—

وأمَّلتُ للدنيا صباحاً مؤجَّلا سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فلكل صباح رمزهُ ومثاله ووعد به يحدو الى الزمن النضر
نُسَرُّ بنعماهُ وان لم تكنْ لنا ونُنشدهُ فيما يكون من الدهر

وقصيدة (الباحث) او الباحث الازلي تعبر عن هذه الروح روح الطموح الى العرفان وكشف خبايا الحياة والشيخ الخالد فيها رمز الى روح الانسانية التي تختبر الحياة دهراً بعد دهر وحالاً بعد حال ومنها :—

همتُ يوماً من فريقي انشد الحــق لعـــلي اراه في الدهماء
كلما لاح شامخ قلت ان الــحق يغدو من خلفه بازائي
ورعيتُ الظلماء علّي أراه خارجاً من سرائر الظلماء
وجزعتِ الصحراء ارجو لقاه منهُ يُرجى في وحشة الصحراء
ولكم غُصتُ في العباب عليه انما الدر منهُ في الاحشاء
وأثرتُ الاصداء أبغي جواباً لسؤالي في منطق الاصداء
وسألت الرياح عنهُ فصمّتْ عن دعائي فلا تجيب دعائي
وسألتُ السماء تبرز وجهاً منهُ يَبهَى في الأفق جم الضياء

وأعارتني الطيور جناحاً ارتجي منه لقية في الفضاء
طالما خاب ناشد الحق لكن رجائي كما عهدت رجائي
قد يجيء الصباح منهُ بوجه طالما كان مضمراً في الخفاء
او تبين الاحلام منهُ ضياء في سماء الآمال مثل ذُكاء

الى :—

أنشد الحق بالتقلب في العيش وأبغي سريرة الاشياء

وقصيدة (المثل الاعلى) تصف ذلك الطموح بخيره وشره فانهُ قد يكون سراباً خداعاً وقد يكون ماء

طوراً كما رقص السراب وتارة يُشفَى به من غلة وأوام

وقد تسوق الرغبة في تحقيقه الى الآثام :—

ولطالما خاض الفتى من أجله كيما يكون زواخر الآثام
أقسى القساة من استبدَّ بهِ الحجا فَسَنها عن العبرات والآلام

وفي بعض الأحايين يمنع الولوع بخياله من معرفة الحياة واختبارها ومعالجتها فيصير قذى في العين واختلالاً في العزم وسقماً في الرأي والنفس :—

ولقد يعود قذى يصيب بهِ العمى فينال من عزم ومن إقدام
كالنار يهلك حرها وضياؤها يُعشِي وفيها من هُدًى وقوام

فان نبذ مثل الكمال العليا يؤدي أيضاً الى الشر :—

والمرء إن نبذ الكمال وهديهُ شقَّ العصا وأحلَّ كل حرام
ورأى الأنام فريسةً مذخورةً لموفقٍ في شرهِ عزّام

وخيال المثل الاعلى من العقل والعقل حقيقة الحقائق :—

ما في الوجود حقيقة غير النُّهى فاطمح بنفسك للذرى والهام
أتنال اوهام الحقائق قانعاً وتعاف خير حقائق الأحلام
والعيش ان لم تبغهِ لعظيمة فالعيش حُلمٌ طوارق الاعوام

ولا تعظم النفس الاَّ بالمُثل العليا :—

والنفس إمَّا شئت كانت عالماً يسع الدنى في طولهِ المترامي

ولا يستطيع المرء ان يرفض المُثُل العليا لانهُ يعرف حدود رقي الانسانية في المستقبل:—

لو كنتَ تعرف قدرَ مقبل علمها او جهلها لكشفتَ كل قتام

والمرء يُضمِرُ للبعيد مهابةً فاذا دنا أَلفاهُ حظٌ طغام

وهي قصيدة طويلة يُنظَرُ فيها الى نشدان المُثُلِ العليا نظرات مختلفة متعددة كهذه النظرات وامثالها . وقصيدة (الى المجهول) تصف طموح النفس الى كشف خبايا الحياة ومغاليق الأمور فهي ايضاً تمثل الروح الحديثة في الادب ومنها : —

قد ثار ثارُ نفس عزَّ مطلبها وطار طائر لب في مراقيهِ
كالنسر لا حاجب للشمس يردعهُ ولا الصواعق والارواح تثنيهِ
وانتَ كالليل والافهام حائرة مثل العيون علاها منك داجيهِ
ليلٌ مهيب كموج البحر خندسه تكاد تسمع منهُ صوت طاميهِ

وقصيدة (ثورة النفس) تعبر أيضاً عن هذه الروح.ومنها : —

ويا حسن ما تُمثّلي الخيالات انها حُليٌّ على جيدٍ من الدهر أجربُ
تُريدين أنَّ الجسم يغدو كأنّما يضيء بهِ منك الضياء المحجَّبُ

ومن قصيدة (الشاعر وصورة الكمال) : —

صورة حسن صاغها لهُ وحدَّها في الحسن حدَّ الكمالْ
يمد نحو النجم كفاً له ويحسب النجم قريب المنالْ

ومن قصيدة (جهاد المصلحين) : —

خليليَّ هذا الكون من أوليائهِ أأصلحهُ في العاملين طبيبُ
وكم من نفوس ساميات أذلّها فعادت بادناس الحياة تطيبُ
ترى دنس الاشياء رؤية آلف يرى ان احلام النفوس لغوبُ
يرى ان خير الكون ما هو كائنٌ ووحيَ النفوس الساميات مريبُ
ويحسب ان الشر ضربة لازب وان أساليب الحياة ضروبُ
ويصبح في مجرى الحوادث ريشة يجوب بهِ الايام حيث تجوبُ
ويطفىء نور النفس حتى كأنّما دواعي النفوس الساميات عيوبُ

وقصيدة(الكونان) في وصف الطموح الى حياة ارقى من الحياة وعيش ارقى من العيش : —

خارجاً منهُ مثلما تُخرِجُ الليلةُ الضُّحَى

فروح البحث والتقصي والطموح الى كشف مغاليق الحياة والخليقة والى المثل العليا للحياة هي الروح الغالبة على المذهب الرومانتيكي وهي الروح التي تأثرتها وتأثرت بها وهي شائعة بمقادير مختلفة في اكثر ما نظمت

بحث في فصلين

الجلجة في الكلام

واستخدام اليد اليسرى
دراسة من التجارب الشخصية

للآنسة زينب الحكيم

الجلجة او التلجلج في اللغة معناه التردد في الكلام — يقال : الحق أبلج والباطل لجلج أي يتردد من غير أن ينفذ . وهذا هو المعنى الذي نقصده فيما سنذهب اليه من شرح وإيضاح في هذا المقال . وقد يشمل هذا المعنى ايضاً ، العقدة والعقلة وهي التواء اللسان عند إرادة الكلام ، وكذلك الحبسة وهي تعذر الكلام عند إرادته . قال تعالى . « رب اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي »

اما (اللثغة) في اللسان وهي أن تصير الراء غيناً أو لاماً ، والسين ثاء مثل : — فلخة أو فغخة عوض فرخة أو أشكت بدل أسكت (والتمتمة ، والفأفأة) وهما التردد في التاء والفاء هذا وامثاله مما سنوضح الفرق بينهُ وبين الجلجة ، إذ هناك فروق جوهرية بين هذه النقائص الكلامية والعوامل المؤدية إلى كل منها. ولقد دعاني إلى دراسة هذا الموضوع المهم ، ما شاهدتهُ بنفسي في نظارتي لروضة الاطفال من خطر يتهدد أطفالنا وهم لا حول لهم ولا قوة

وقد صادفتني حالات كثيرة دقيقة ، أمكنني إصلاح بعضها ، واستعصى اصلاح البعض الآخر من أشق الحالات التي صادفتها ، طفل يستخدم يده اليسرى في الكتابة

انتظم هذا الطفل (محمد) بالروضة ، وهو في الرابعة والنصف من عمره ، وقد كان طفلاً صحيح الجسم والعقل مبدئيًا ، سليم النطق واضح الكلام. وضع الطفل في فرقة خاصة لسبعة عشر طفلا كلهم من سن واحدة ، قبلوا في المدرسة بالاستثناء لصغر السن ، وسمي فصلهم (السنة الأولى جيم) — وقد هيأت هذه الفرقة فرصة ذهبية لعمل التجارب التي أردتها ، فكنت ألاحظ كل طفل فيها ملاحظة دقيقة دون علم منهُ ، وكنت ألاحظ الفصول الاخرى بالدقة نفسها التي أوليها للفرقة المخصوصة ، لكي أرى الفروق التي يحدثها التعليم على أساس برنامج متحد ، في أطفال من أسنان متفاوتة

فدخلت مرة فرقة « السنة الاولى الف » وعمر أطفالها خمس سنوات وبضعة أشهر، وكان عددهم ثلاثين طفلاً ، وكان الدرس هجاء عربيًّا وكتابة أحرف الكلمات التي يتعلمها الاطفال فلما جاء دور الكتابة قالت المعلمة : —

والآن يا أطفال ليمسك كل منكم طباشيرته ويكتب على لوحه الاحرف المكتوبة على السبورة. انظروا إليَّ ، هكذا يكون امساك الطباشيرة ، وأمسكت أصبع الطباشير بيدها اليمنى مواجهة الأطفال فما كان من الأطفال جميعاً إلاَّ أن مسكوا طباشيرهم باليد اليسرى المواجهة تماماً ليد المعلمة اليمنى وهنا لم تدرك المعلمة عكس وقفها بالنسبة للأطفال ، كما لم تلاحظ أية يد يستعملون ... وللقارىء أن يتصور حدوث هذا في كثير من المدارس ، لولا يقظة بعض الناظرات أو بعض أهالي الأطفال وشكواهم مما يشاهدون في أطفالهم ، وحملهم من استخدامهم اليد اليسرى . وهنا يصح أن اسأل . هل الأعسر أحط في شيء من الأيمن ؟ الجواب سلباً ، كما دلَّت التجارب المتقنة — التي قام بها الدكتور « لي أدورد » في احدى جامعات اميركا ، والدكتور « هفنر » الأستاذ في جامعة كولمبيا في نيويورك ، إذ اختار الأخير ثمانية وستين زوجاً من الاولاد يتحد كل زوج منهم في السن والسلوك والنشاط والمزايا الخاصة والجنس ، ولا فرق بينهما مطلقاً سوى أن احدهما أعسر والآخر أيمن . امتحن كل زوج على حدة ، وراقب يديه مراقبة دقيقة فلم يتبين بينهما اختلافاً ، حتى ان المؤثرات الخارجية كان لها تأثير واحد في ميول الفريقين . نشاطهم متشابه وانفعالاتهم متساوية . وإنما بدا له أن الأعسر كان اكثر مرونة في بعض الأحيان وألين في موافقة نفسه البيئة التي يوجد فيها من الذي يستخدم يده اليمنى . من هذه النتائج لانرى داعياً لهلع الوالدين اذا ما كان أحد أولادهم أعسر انما الذي يجب أن يتخوَّفوا منهُ هو ما يحدث من نتائج سيئة بعد محاولة تغيير طفل من استخدام يسراه يمناه إذا كانت هذه طبيعتهُ . وإذاً فليعلم الآباء والأمهات أن المعارضة القاسية لرغبة الطفل الفكرية في استخدام يسراه لا تفيده، بل تضره إذ تفقده الموازنة وتسبب لهُ اضطراباً قويًّا في جهازه العصبي وتجعله قلقاً . وسنشرح أسباب ذلك بالتفصيل مستقبلاً

دخلت الفرقة المخصوصة لأرى نفس التجربة مع أطفالها ، ولا أبالغ اذا قلت أن الخطأ نفسه وقعت فيه معلمة أخرى ، إلاَّ أن بعض الأطفال لم يستخدموا ايديهم اليسرى ، بل استعمل بعضهم اليد اليمنى ، والبعض الآخر استخدم اليد اليسرى . بحثت عن سبب هذا ، فوجدت انهُ ناشىء عن ضعف انتباههم بالنسبة لاطفال السنة الأولى الف ، وذلك يرجع الى الفرق الذي بين أطفال الفريقين في العمر . (وليعلم الآباء والمربون ، أن أقل اختلاف في العمر بين الأطفال يحدث فروقاً لا يستهان بها بينهم)

أمكن اصلاح حال معظم الأطفال ، لأن استخدام أيديهم اليسرى كان حادثاً طارئاً ، أما الأفراد القلائل الذين كانت حالاتهم شاذة فتحسنت حال بعضهم بعد علاجات اختلفت مددها وأما الذي استعصى أمر علاجه ، فكان الطفل (محمداً) — فلم يكن تغيير استخدام يده اليسرى ممكناً ، وقد ضجّ والداهُ بالشكوى من حالتهِ ، فتفاهمتُ معهما في أمره ، واجتهدت ان أقنعهما بترك الطفل يستخدم يده اليسرى لان ذلك استعداد فطري فيه، فلم يقتنعا . فسألتهما هل في أسرة الطفل أفراد يستعملون أيديهم اليسرى ، فأخبراني بأن له جدًّا على قيد الحياة يستخدم يسراه في الكتابة ، وفي أداء معظم أعماله .وله أيضاً بعض الأقارب يستخدمون اليد اليسرى ، فوجهت نظرهما الى ان هذه وراثة قوية في الطفل ، وأنهُ يجب تركه واستعداده فنضبا ، وقالا : نرجو عدم السماح له بالكتابة بيسراه في المدرسة ، وسنشجعه في المنزل بكل وسيلة على استعمال يمناه — قلت حسناً سنفعل ما تريدان ، ورأيت ان نسير بالتجربة الى أقصى حدّ ، ونبهت المعلمات اللاتي يدرسنهُ الى ان يشجعنهُ على استعمال يمناه دائماً في الكتابة والرسم وأعمال الاطفال والاكل وغير ذلك ففعلنَ

ولكني لاحظت بعد أسابيع قليلة ان الطفل اخذ وزنه ينقص تدريجاً نقصاً يستوقف النظر ثم ابتدأ يرتبك في كلامه ، فطلبت من المعلمات عدم التشديد عليه في استخدام يمناه اكتفاء بما يلاقيه من ضغط في المنزل ، فسرّ الطفل وأحبّ المدرسة وكره المنزل وشكامنهُ كما شكا والداه من بطئه وعدم التفاته ، فأخبرتهما بأن كل هذا نتيجة تغيير استخدام يسراه بيمناه،ورجوتهما ان يتساهلا معه فلم يقبلا . فقلت اولم تلاحظا ضعفه العقلي والجسمي ؟ ! قالا .ان ضعفه لم ينتج من استخدام يمناه بدل يسراه قلت وكلامه، قالا : انما نشأ من خوفه لانا نرهبه كثيراً في المنزل . قلت سيتحول هذا الارتباك في النطق الى لجلجة كلامية يكون من العسير علاجها قالا وما لليد اليسرى والكلام ؟

اجتهدت ان أوضح لهما العلاقة بين تغيير استخدام اليد اليسرى باليمنى وبالعكس بقدر ما يقبل عقلاهما ، فكانا اقرب الى الشك منهما الى اليقين.وحضر اليّ الأب في الأسبوع التالي وأخبرني بأنهُ ذهب الى طبيب ماهر واستشاره في أمر ابنه ، وأكد له ان ليس من سبب طبي يمنع استخدام ابنه يده اليمنى . قلت ياسيدي طبيب الامراض الجسمية غير طبيب الامراض التعليمية ، وإني أشير عليك باستشارة عالم مختص بدراسة الاطفال . فقال من استشير ؟ الأمر ليس ذا بال ، فليستعمل الطفل يمناه مهما يكن من الأمر ، فان أمه لا يحزنها شيء اكثر من ذلك . قلت فليكن ما تريدون ، ولكني لن أسأل عن النتيجة ، فلم يمانع . وشدد الجميع على الطفل . . . فساءت حاله . وظهرت عليه الاعراض الآتية —

١ — نسي ما كان قد تعلم كتابته بيده اليسرى بسرعة وسهولة ، وصار ما يكتبه يمناه

عبارة عن سلسلة خطوط معوجة مشتبك بعضها ببعض . ولم يستطع رسمها باعتدال على الخط المسطر أمامهُ ، بل زاغ بها الى أسفل

٢ — ظهر التلجلج في كلامهِ بشكل محزن حتى خشي ان يفقد النطق بتاتاً

٣ — أصيب بضعف هائل في الذاكرة

٤ — صار يبكي لأقل سبب

٥ — نحف جسمه ، وذبلت نضارة وجهه

٦ — كره المدرسة والمنزل والاطفال ، وكره اللعب نفسهُ

وصفوة القول انهُ صار طفلا بائساً لم يرَ لهُ صدراً حنوناً يلجأ اليهِ غيري ، لاني كنت أحادثهُ محادثات ودية خاصة ، كان يفضي اليَّ فيها بما يناله من ضغط في المنزل ، وشدة من المعلمات في المدرسة بسبب هذه اليد اليسرى

قلت له مرة ، واذا تركتك تستخدم يدك اليسرى ماذا تفعل ؟ قال . أحضر لك الخاتم الذهبي الذي وعدوني به اذا انا كتبت بيدي اليمنى ، قلت وهل تكره الخاتم الذي لا بد أن يكون جيلاً ؟ قال . اني اكرهه لأنه يضطرني الى استخدام يدي اليمنى التي تتعبني ، ولكنهم يقولون لي في البيت أنهُ غالي الثمن ، ويدل على أن لابسه ولد شاطر فاذا (لبسته تبقى شاطرة) فلكي أكون شاطرة أعدت الكرة في رجاء والد الطفل ليفكر من جديد في تركه (محمداً) يستخدم يسراه . ويظهر انهُ كان لرجائي بعض القبول هذه المرة ، لما لاحظهُ على الطفل (ولده) من تغير مخيف فتركه يفعل ما يريد وله الخيار في استخدام أي اليدين شاء

غير ان الفرصة كانت قد ضاعت ، ووصل محمد الى حالة تردد وارتباك في تقديم كلتا اليدين وتأخيرها ، وتحيَّر تحيُّراً شديداً الاَّ انهُ كان لا يزال أكثر ميلاً لاستعمال يسراه

وكانت نتيجة هذا كله بقاء الطفل في فرقته للاعادة — ولم يعارض والداه في ذلك على أمل اعطائه فرصة كافية من جديد لاستعمال يده اليمنى . وأعدنا الذي مضى من التشديد تارة والمحايلة أخرى في استخدام يمناه وإهمال يسراه !

سار الطفل بمستوى أقل من المتوسط في جميع العلوم التي تلقاها ، وكان ضعيفاً جداً في الكتابة والقراءة والتفكير والانتباه — الاَّ أنهُ تناسى كثيراً استخدام اليد اليسرى عند ما اقترب من آخر العام الثاني لهُ بالمدرسة ، فاستحق الخاتم الذهبي الذي وعد بهِ ، ونقل الى السنة الثانية بالروضة مع شيء من التساهل تقديراً لحالتهِ . على أني مع هذا لا أتوهم أن هذا التلميذ سيبز زملاءه في المستوى العلمي مهما يحاول . ولعلهُ الآن بالتعليم الثانوي . فاذا رأى هذا المقال وفهم انهُ خاص بهِ ، فرجاؤنا ألاَّ يضن علينا بتقرير عن حالتهِ . وسنوضح في المقال القادم اسباب اللجلجة وعلاجها

طائرات المستقبل

اتجاه جديد في صناعتها

يجعل صنع ٣٦ الف طائرة في مصنع واحد في السنة أمراً ميسوراً

ان الانتاج الواسع النطاق هو الآية العصرية في صناعة السيارات الحديثة . فقد دخل كاتب هذه السطور معامل فورد في هيلند پارك بمدينة دترويت الاميركية من سنوات ، وتجوَّل فيها فرأى كيف وزّعت الاعمال على العمَّال المتقنين ، ثم كيف نظمت هذه الاعمال بواسطة « السير المتحرّك » وهو سير معدنيٌّ يسير بسرعة معيَّنة ناقلاً جزءاً من اجزاء السيارة امام عدد من العمال مرتبين بحسب تدرج مراتب العمل في ذلك الجزء ، فيعمل كلٌّ منهم عملاً خاصًّا فيه ولا ينتهي الجزء الى امام آخر عامل واقف امام السيْر حتى يكون صنعهُ قد تمَّ . ومتى صنعت اجزاء السيارة على هذا النمط وغيره في دور مختلفة من المعامل تركَّب معاً على سير كبير متحرّك بالطريقة نفسها . ثم وقف الكاتب امام نهاية هذا السير الكبير فاذا السيارات وقد استوت كاملة الصنع ، تخرج واحدة أثر واحدة بمعدَّل واحدة كلَّ دقيقة

ولكن صنع الطائرات لم يبلغ هذه المرتبة من الارتقاء الصناعي . ففي صنع « اجسامها » قد يستغرق دق المسامير وتثبيتها في ما مساحتهُ قدم مربعة من « الجسم المعدني » اربع ساعات ويقتضي عمل عاملين . وهذا في عصر الارتقاء الصناعي مفارقة تستوقف النظر ، من شأنها تأخير صنع الطائرات في إبان السلم تأخيراً قد يتحوَّل الى كارثة في حالة نشوب الحرب

ولذلك قضى الضباط والمهندسون ومصمّمو الطائرات سنوات وهم يبحثون عن وسيلة لحلّ هذه العقدة في صناعة الطائرات بحيث تستطيع المصانع ان تختصر الوقت الذي يستغرقهُ صنعها فتخرجها كما تخرج السيارات . وقد اطلعنا في مجلة السينتفك اميركان (يوليو ١٩٣٩) على ان المنافسة بين الامم الصناعية والحربية الكبرى على تحقيق هذا الغرض قد اوشكت ان تسفر عن نجاح طريقة ابتدعها المهندس الاميركي الكولونيل كلارك — وقد كان رئيساً لمهندسي الطيران في الجيش الاميركي في اثناء الحرب العالمية — بالاشتراك مع الدكتور باكلند Backeland

المستنبط المشهور في حلبة المواد المرنة او العجائن الصناعية Plastics وهو الذي تنسب اليهِ مادة الباكليت Baekelite المشهورة

والباكليت مادة جديدة، اي انها لا توجد في الطبيعة ، بل مردُّها الى التركيب الكيميائي، ذلك بأن الكيميائي الألماني باير شرع في سنة ١٨٧٢ يعالج المواد التي تتولَّد من تكثيف الحامض الكربوليك والفورمالدهيد . فاذا سخنت هاتان المادتان احداهما مع الأخرى تكونت مادة عجينية راتنجية يتسنَّى صوغها أو افراغها في قوالب . ثم اذا عرضت للحرارة والضغط تصلبت فتصبح كتلة براقة

وظلَّ هذا النوع الجديد من المواد مطويَّ الذكر — من الناحية الصناعية والتجارية — الى ان نبغ كيميائيٌّ آخر في اميركا هو الدكتور باكلند فأتقن طريقة صنع هذه المادة العجينية العجيبة وأطلق عليها اسم باكليت ، فاشتهرت شهرة واسعة لأن العالم الحديث في حاجة ماسة الى مادة عجينية يتسنى افراغها في القالب المطلوب بحرارة غير مرتفعة ثم تتجمد بسرعة فتصبح صلبة متماسكة وتحتفظ بعد ذلك بشكلها ورونقها ، بغير ان تؤثر فيها عوامل الصدإ أو الاحتكاك أو الذوبان أو الحرارة . ولذلك تصنع من مادة الباكليت الآن الصواني والالواح واقلام الحبر والواح المنضدات ومقابض المظلات وعلب الجواهر وعشرات غيرها من الأدوات ، وما زال البحث فيها لأتقان صنعها مستمرًّا [١]

هذه المادة العجيبة هي أساس الاتجاه الجديد في صنع « اجسام » الطائرات على انواعها ومن هنا قرن اسم الكولونيل كلارك باسم الدكتور باكلند

***

وقد انقضى الآن سنة ونصف سنة ورجال مطارات اميركا الشمالية من غرب الولايات المتحدة الى شرقها ومن جنوبها الى كندا ، يشاهدون طائرة قرمزية اللون لا يعلمون من امرها الاَّ انها تنطوي على سرٍّ . والواقع ان صانعيها قضوا سنة ونصف سنة حتى الآن وهم يجربونها في جميع الأحوال التي قد تتعرض لها الطائرات من عوامل الجو الكثيرة المتقلبة . وكان مجلس الشيوخ الاميركي يجري تحقيقاً في يناير الماضي في موضوع الاحتكار فدعي للشهادة امامهُ ابن الدكتور باكلند — وهو من طياري الحرب الماضية — فلمَّح في شهادته الى وجود

---

(١) راجع مقتطف يونيو ١٩٣٧ ص ١٠٧ هذا وقد بلغ انتاج العجائن الصناعية في الولايات المتحدة الاميركية ما وزنه ١٠ ملايين رطل سنة ١٩٢٦ و ٣٠ مليوناً سنة ١٩٣٢ و١٦٢ مليوناً سنة ١٩٣٧

طائرة جديدة ، جسمها مصنوع من مادة عجينية Plastic ذات صفائح . وكان اهم ما استوقف النظر في كلامه زعمهُ ان في الوسع صنع «جسم» الطائرة من هذه المادة وتركيبهُ على هيكلها في خلال ساعتين ! وهو نصف الوقت الذي يستغرقهُ دق المسامير في ما مساحته قدم مربعة من « اجسام » الطائرات المعدنية الآن

وما سمع مكاتبو الصحف هذا القول حتى بادروا الى صحفهم ينبئونها بالخبر العجيب واذا القول منشور في صباح اليوم التالي على صفحاتها الاولى بحروف ضخام . وكان كلارك عائداً من اوربا ، فأخمد الصيحة التي ثارت حول هذه الطائرة العجيبة ،لانهُ شعر ان النشر لايسوّغه مسوّغ حتى يتم تجاربهُ

ومقال السينتفك اميركان — الذي نلخص عنهُ — هو اول بيان علميّ دقيق عن هذا الاتجاه الجديد

***

شغل كلارك بموضوع صنع الطائرات صنعاً واسع النطاق على اساس افراغ اجسام «الطائرات» في قوالب بدلاً من وصل الواح المعدن بعضها ببعض بدق مساميرفيها ، منذ وضعت الحرب الكبرى اوزارها . ولكنهُ اضطر ان ينصرف عنهُ زمناً لأنهُ عجز عن ابتكار طريقة لصنع جسم الطائرة من نوع مرن من الخشب بلصق رقائقه بصمغ خاص ولأن صون الخشب من النخر كان متعذراً . ولكنهُ أعاد الكرة في سنة ١٩٣٤ بتأييد بعض رجال المال والاعمال لشعورهم ان الوقت قد أزف لا نقاذ صناعة الطائرات من الورطة التي وقعت فيها ولاعتقادهم انهُ اذا لم يفعل كلارك ذلك فلا بد ان يسبقهُ اليه آخر . وكانت مصانع العجائن Plastics قد اتاحت للمستنبطين والصناع مواد جديدة ربما تكون السبيل الى الهدف

ومن ينظر الى صور الطائرات القديمة ويطالع أوصافها يعلم ان قوام أجسامها وأجنحتها كان قضباناً من خيزران وحريراً مغموساً في مادة واقية وألواحاً من خشب شجر التنوب Spruce وهو صنوبر صغير وأسلاكاً تربط هذه الاجزاء بعضها ببعض .ثم جاءت الحرب فاستعمل نوع مصطنع من الخشب يدعى Plywood [1] .ولكن الخشب على كلّ حال لا يصلح لهذا الغرض إذ من المتعذر وقايتهُ من النخر والفطار والرطوبة والتقوّس والاعوجاج . وفي سنة ١٩٢٩ صنع جسم الطائرات وأجنحتها من خليط معدني ، ومعظم الطائرات الحربية والتجارية على هذا الاساس الآن .الاّ أنك اذا فحصت طائرة من هذه الطائرات المعدنية وجدت هيكلاً من الدعائم لتقويتها علاوة على أنها مصنوعة من ألواح مربوطة بعضها ببعض بألوف من المسامير . ودق

(١) وهو رقائق من الخشب تلصق بعضها ببعض بصمغ خاص أو بمادة راتنجية أو بالكهرباء

هذه المسامير وتثبيتها وانجاز صنع الجسم والاجنحة على هذا المنوال يستغرق أسابيع وأحياناً بضعة أشهر . فمصنع دوغلس المشهور باميركا ، لا يستطيع ان يصنع الخمسمائة طائرة التي أوصت بها بريطانيا في أقل من سنة ونصف سنة مع استفاد رجاله جميع وسائل الاسراع في الانجاز

***

ولكن أنظر الى طائرة كلارك . اذا صحّ عنها كلّ ما يقال فيها فانها لا تلبث ان تجعل الطائرات المعدنية من بقايا تاريخ قدم مهما يكن قريباً منا . ان جسمها مشيق مالس كأنهُ من الزجاج لا مسمار فيهِ . دقق النظر في أسفل جسمها ترى خدشاً هنا وبقعة تغير لونها هناك . وسبب ذلك اصطدام الجسم ببعض الاحجار التي تقفز من تحت العجلات عندما تدرج الطائرات على أرض المطار قبل الطيران او بعده . مع ان هذه الاحجار تحدث نقراً في أجسام الطائرات المعدنية

لقد قضت هذه الطائرة ١٦٠٠ ساعة في الهواء في شتى أحوال الجوّ معرَّضة للبرد والحرّ والضغط والرطوبة والمطر والبرد والثلج . دق عليها بقبضة يدك تسمع رنَّة قدح من البلور سليم من أي شعب فيهِ . أدخل اليها ودقق النظر في « جسمها » من الداخل فلا تجد دعامة او سلكاً واحداً وكلّ ما تراهُ خطاً خفيفاً يدلّك على المكان الذي وصل فيهِ نصف الجسم بالنصف الآخر

***

وقد أطلق كلارك على هذه المادة التي صنع منها جسم طائرتهِ « دورامولد » وهو لفظ اذا ترجم بمعناهُ كان « القالب المتين » . ولكنهُ اسم مادة جديدة فلنحتفظ بهِ علماً عليها . وهو يصنع بأسلوب سرّي ، من العجائن التي اكتشفها باير وأتقن صنعها باكلند

ولكن « الدورامولد » ليس من العجائن بحصر المعنى . لأنهُ عجينة مصفحة . والفرق بين العجينة الصميمة والعجينة المصفحة ان المصفحة يتخذ لها أساس من ليف عضوي كالخشب أو القطن ثم تستعمل مادة راتنجية Resin للصق الألياف بعضها ببعض وتغطيتها بطبقة خاصة . أما العجينة الصميمة فاساسها مادة راتنجية وقد يستعمل فيها الليف العضوي أو لا يستعمل لمنحها قواماً . ثم أن العجينة الصميمة تحتاج الى حرارة عالية وضغط شديد لصوغها في الشكل المرغوب فيهِ . اما « الدورامولد » فيفرغ في قالب بغير مشقة تذكر . ومن الطبيعي أن يحتفظ مبتكرو أسلوب صنعهِ بسرّهِ

ومن خواص « الدورامولد » انهُ لا يتشظى ولا يصدأ وهو مقاوم لفعل الماء والزيت والاحماض . وعلاوة على هذا كلهُ انهُ امتن من المعدن . فهو على قول كلارك اذا كان مفرغاً في شكل اسطوانة رقيقة الجدار امتن من الحديد ٤ ر ١٠ الضعف ، ومن الصلب الذي لا يصدأ ٤ ر ٣

الضعف ، ومن خليط الالومنيوم ١ ر ١٢ الضعف . ثم انهُ مركّب من مواد رخيصة شائعة، وفي الوسع افراغهُ في أي قالب تريد وصوغهُ في أي شكل تحتاج اليهِ

***

وطائرة كلارك هذه لم يصنع إلاَّ جسمها من « الدورامولد » . أما اجنحتها فن الخشب واما دفتها وجنيحاتها فن خليط معدني ، وسبب ذلك رغبتهُ في أن يقابل بين « الدورامولد » والخشب والخليط المعدني بعد اجراء تجاربهِ عليها ، وقد اثبت الخبراء الذين يشتغلون معهُ أنهُ بعد امتحان الطائرة مدى عشرين شهراً ثبت ان المادة الجديدة غاية في المتانة . وينتظر ان يصنع قريباً طائرة كل جسمها واجنحتها ودفتها من « الدورامولد »

ولما كانت الطائرة التي جسمها من « الدورامولد » ملساء ، فان مقدار الفرك بين خارجها وبين الهواء في اثناء طيرانها اقل من مقدار الفرك بين خارج طائرة معدنية وبين الهواء . ويبلغ مقدار الفرق ٧ في المائة . وهذا الفرق يزيد سرعة الطائرة ٧ في المائة بغير زيادة القوة المحركة . فالطائرة التي تسير بسرعة ٣٠٠ ميل في الساعة تستطيع أن تسير بسرعة ٣٢١ ميلاً اذا كان جسمها من « الدورامولد »

ولكن اهمّ اثر لهذا الاتجاه الجديد في صنع اجسام الطائرات هو الانقلاب الذي يحدثهُ في صناعتها . ففي احد المصانع المعدّة لهذه التجارب — من الناحية الصناعية — استطاع تسعة رجال ان يفرغوا نصف جسم طائرة كلارك في ساعة واحدة والجسم كله في ساعتين ! ثم أرسل الجسم الى مصنع آخر حيث ركّب تامًّا فاستغرق تركيبه خمس ساعات وثلث ساعة ، لا بَردٌ ولا نقر ولا دقٌّ . وقدتم هذا العمل، والبحث ما يزال في طور التجربة . ولا ريب في ان اتقان العمل يفضي الى نقص الوقت الذي يستغرقهُ

***

وغنيٌّ عن البيان ان تأثير هذا الاتجاه من الناحية الحربية عظيم ومن المتعذر المبالغة فيهِ . فصانع الطيران في المانيا تضمّ ١٦٠ الفاً من العمال يضاف اليهم ٢٤٠ الفاً آخرين في مصانع اجزاء الطائرات والالواح المعدنية . ولكن استعمال « الدورامولد » يغني متى اتقن ، عن معظم هؤلاء . فاذا كان احد المصانع يحتوي على عشر مجموعات من القوالب لجسم الطائرة واجنحتها ودفتها استطاع مائتا عامل في مصنع لا يزيد على بناية كبيرة ان يخرجوا ٣٠٠ جسم طائرة في الشهر . واذا كان في المصنع مائة مجموعة من القوالب استطاع الفا عامل ان يصنعوا ويجمعوا أجسام ٣٦ الف طائرة في السنة

محمد شاكر

شوال سنة ١٢٨٢ — ١١ جمادى الاولى سنة ١٣٥٨
مارس سنة ١٨٦٦ — ٢٩ يونيه ١٩٣٩

لأحمد محمد شاكر

فقدت مصرُ وفقد العالم الاسلامي كله عالماً من كبار العلماء، ومجاهداً من أعلام المجاهدين وقف حياته على خدمة الوطن، وخدمة الاسلام، وخدمة الشرق — : في سبيل الله

وقد رغب الي صديقي الأستاذ فؤاد صرُّوف — محرر المقتطف — أن أترجم له ترجمة موجزة فأجبتُ، ثقةً مني أن سيغلبُ الجانبُ العلميُّ فيَّ عاطفةَ البنوة، وقد مرنَتْ نفسي على فنون الحديث والتاريخ ونقدِ الرجال، وزعمتُ أني مستطيعٌ أن اكتبَ عنهُ تاريخاً صحيحاً، لا غلوَّ فيهِ ولا إسرافَ، وأني إن كتبت مدحاً او ثناءً فانما هو حقٌّ التاريخ عليَّ

السيد محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر، من آل أبي علياء، وهم أسرة معروفة من أشراف الصعيد، بمدينة جرجا

ولد بها في منتصف شوَّال سنة ١٢٨٢ (مارس سنة ١٨٦٦) وحفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادىء التعليم، ثم رحل الى القاهرة، الى الازهر الشريف، فتلقى العلم فيهِ عن كبار الشيوخ في ذلك العهد. وفي ١٥ رجب سنة ١٣٠٧ (٤ مارس سنة ١٨٩٠) عين أميناً للفتوى، مع أستاذه العظيم، الشيخ العباسيّ المهديّ، مفتي الديار المصرية إذ ذاك. ثم أصهر الى جدّي لأمي، العلامة الكبير، إمام العربية غير مدافع، الشيخ هرون بن عبد الرازق (المولود بقرية بنجا من قرى مركز طهطا في يوم الخميس ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٩ والمتوفى بالقاهرة في يوم السبت ٢٦ جمادى الاولى سنة ١٣٣٦ رضي الله عنهُ)

ثم ولي منصب «نائب محكمة مديرية القليوبية» وصدر الأمر العالي بذلك في ٧ شعبان سنة ١٣١١ (١٣ فبراير سنة ١٨٩٤) ومكث فيهِ اكثر من ست سنين

وكان في عمله القضائي يفكر في إصلاح المحاكم الشرعية، بل لعله — فيما نعلم — أول من فكر في ذلك، فقد أخبرني رضي الله عنهُ أنهُ حين كان أميناً للفتوى جاءت امرأة شابة حكم على زوجها بالسجن مدة طويلة، وهي تخشى الفتنة، وتريد عرض امرها على المفتي ليرى لها رأياً في الطلاق من زوجها، حتى تتزوج رجلاً آخر، تعصم بهِ نفسها، فصرفها الوالد رحمهُ الله معتذراً آسفاً

متأثماً ، اذ كانت الأحكام مقيدة بمذهب أبي حنيفة ، والعلماء المقلدون يأبون التفكير في مخالفة مذهبه ، بل يكادون يرون في الخروج عن المذهب أكبر المنكرات . وليس في مذهب أبي حنيفة ما يجيز للقاضي أن يطلق على الزوج المعسر أو المحبوس أو نحو ذلك . ثم عرض الوالد أمرها على شيخه المفتي ، واقترح عليه اقتباس بعض الأحكام من مذهب الامام مالك في مثل هذه المشاكل المعضلة ، فأبى الشيخ كل الإباء ، واستنكر هذا الرأي أشد استنكار ،وكان بين الأستاذ وتلميذه جدال حادٌ في هذا الشأن ، ولكنهُ لم يؤثر في ماكان بينهما من مودة وعطف . وما زال مقتنعاً برأيه ، واثقاً بصحته وفائدته للناس

حتى كانت سنة ١٨٩٩ وقد مكث في المحاكم الشرعية نحو خمس سنوات ، وظهر على كثير من عيوبها ، وما يرهق الناس من أحكامها ، سواء أكان ذلك في التشريع المعمول به ، وهو التقيد بمذهب أبي حنيفة ، أستغفر الله ، بل التقيد بما قال علماء من متأخري اتباعه ، والتمسك بألفاظهم الحرفية ، أم كان في سوء اختيار عمالها ، من قضاة وغيرهم ، أم كان في إجراءاتها المعقدة المطولة ، أم كان في نظمها وحقارة أمكنتها ، أم كان في إعراض الحكومات المصرية عن العمل على إصلاحها ، اتباعاً لسياسة مرسومة في القضاء عليها ، تقليداً للافرنج ولمن أشربوا آراءهم وعقائدهم ، رأى الوالد كل هذا وأكثر منهُ ، فوضع تقريراً نفيساً قدمهُ لأستاذه الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، رحمة الله عليه ، نقد فيه هذه المحاكم وقضاتها وعمالها وكل حالاتها ، وأبان عن أوجه النقص والخطأ في اللائحة التي كان معمولاً بها في ذلك الوقت ، واقترح طرق الاصلاح تفصيلا ، ومنها اقتباس بعض الاحكام من مذهب مالك ، في التطليق للاعسار ، وللضرر ، وللغيبة الطويلة ، وغير ذلك ، وكان ذلك التقرير فاتحة العمل الصحيح في سبيل اصلاح المحاكم الشرعية ، والرقي بها الى مقامها السامي في الاسلام . وهذا التقرير لا تزال صورته الأصلية عندنا بخط الوالد ، وقد قدمته الى دار الكتب المصرية فصورتهُ بالتصوير الشمسي ، ليكون بها أثراً علميًّا تاريخيًّا ، لمن شاء ان يرجع اليه

قدَّم الوالد هذا التقرير في اوائل سنة ١٨٩٩ وفي صيف تلك السنة طاف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على كثير من محاكم الوجه البحري ، واطلع على سير الاعمال فيها ، ليصف لها الدواء والعلاج بحكمته ، ثم وضع هو ايضاً تقريره المشهور في اصلاح المحاكم في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وهو التقرير الذي طبع بمطبعة المنار في شوال سنة ١٣١٧ (سنة ١٩٠٠) ، فاتفق رأي الأستاذ الامام ورأي تلميذه ، في كثير من أنواع النقد وطرق الاصلاح

ولكن يظهر أن الأستاذ الامام لم يجد الفرصة مواتية لاقتراح احكام تخالف مذهب الامام أبي حنيفة ، وخاصة في التطليق من القاضي ، فترك الكلام في ذلك ، وأشار في الكلام

في المرافعات إشارة عامة ، ودعا الى الأخذ بشيء من أحكام المذاهب الثلاثة الأخرى (ص ٣٨)

وأظن أن الاستاذ الإمام رأى أن يمكّن للوالد في بعض البلدان حتى ينفذ آراءه في الاصلاح ولذلك زكّاه لمنصب قاضي قضاة السودان ، وأخذ وليّ الأمر بتزكية الإمام ، فصدر الأمر العالي باسناد هذا المنصب اليه في يوم ١٠ ذي القعدة سنة ١٣١٧ (١١ مارس سنة ١٩٠٠) وكان ذلك بعقب انتهاء الثورة المهدية ، وعودة السودان الى حظيرة مصر مُلكاً واحداً ، ودولة واحدة ، وإن فرقت بينهما في المظاهر مقتضيات السياسة

وكانت بلاد السودان حينئذ كما تكون البلاد بعد الثورات الماحقة ، هدمت النظم والقوانين والحكومة ، فكأنها كانت بلاداً بكراً ، ينشأ فيها كل شيء من ذلك انشاء جديداً ، وكان ذلك أيسر له في وضع النظم للمحاكم هناك على النحو الذي يريد ، وتنفيذ آرائه كلها او أكثرها في الاصلاح والتجديد ، على مثال لم يسبق اليه ، واقتبس في التشريع من المذاهب الاسلامية ما كانت الحاجة اليه ماسة ، مما تنصره أدلة الشريعة وفقهها الصحيح . وأشد ذلك ظهوراً للمتصلين بالقضاء الشرعي الحكم بالتطليق للغيبة والاعسار والحبس والضرار ونحوها ، مما اقتبس في مصر بالقانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ ووضع كثيراً من القواعد الدقيقة الاجراءات مما اقتبس بعضه في مصر في اللائحة التي صدرت سنة ١٩١٠ فسبق السودان مصر في بعض نواحي الاصلاح بعشر سنين ، وفي بعضها بعشرين سنة

ولولا أن السياسة العامة للدولة المصرية في التشريع والقضاء وضعها ناس لا يعرفون الشريعة الاسلامية ودقائقها ، وغرهم ما رأوا من ضعف القضاء الشرعي بضعف رجاله في ذلك العهد ، واحتكر تنفيذها ناس جهلوا دينهم فأعرض عنهُ بعضهم وعاداه بعضهم ، لولا هذا لسار في القضاء الشرعي سيرة تمكّن لهُ في البلاد أن يكون القضاء العامّ في الشؤون كلها ، من مدنية وجنائية وشخصية ، ليكون الحكم في بلاد الاسلام بشريعة الاسلام ، كما هو الواجب على كل مسلم أن يعمل لهُ ، طاعة لله ورسوله . ولا تزال آثاره في السودان قائمة ، يسترشد بها العلماء والقضاة والحكام ، ولا يزال أهل السودان — وهم أهلنا وإخواننا — يحفظون لهُ أجمل الذكرى ، ويعرفون لهُ مواقفه الحازمة في خدمة البلاد ونصر الإسلام ويحفظون لهُ أنهُ لم يشغلهُ القضاء ، ولم يلهه المنصب السامي عن تعليم الناس شؤون دينهم ، بالدروس العلمية والخطب والمواعظ ، وقرأ لهم صحيح البخاري كله ، وهو أصح مصدر للسنّة النبوية

***

ثم في ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ صدر الأمر العالي بتعيينه شيخاً لعلماء اسكندرية فبعث فيها نهضة علمية كانت فاتحة خير ، بزغ نورها في ارجاء المملكة المصرية ، وقصدها الطلاب من أطراف

البلاد ، وبث فيهم من روحه الوثابة ، فأحياهم حياة اخرى غير ماكانوا يعرفون في المعاهد الدينية وضع أسس النظام في التعليم ، وأحسن اختيار الكتب والمقررات في الدراسة ، من العلوم الدينية والعربية وما اليها ، ومن العلوم الاخرى التي يحتاج اليها طالب العلم في ثقافته العامة ، مما يسميه الناس « العلوم الحديثة » واكثرها كان معروفاً في الأزهر يتدارسه أهله ، إنما كانت اختيارية لا اختبار فيها ، فجعلها إجبارية ، واختار لمعونته في عمله نوابغ العلماء من الازهر ، والرعيل الاول منهم اربعة : الشيخ عبدالله دراز والشيخ عبد المجيد الشاذلي والشيخ عبد الهادي مخلوف رحمهم الله ، والشيخ ابرهيم الجبالي شيخ معهد طنطا الآن متعنا الله بحياته . وكانت هذه « العلوم الحديثة » يعلمها للطلاب علماء الازهر أنفسهم

وسنّ حينذاك سنة حسنة ، أن يحتفل في آخر كل عام دراسي احتفالاً رسميًّا بالناجحين من الطلاب ، تعطى لهم المكافآت من الكتب العلمية النفيسة ، ويحضره سموّ الخديوي أو نائب عنه ويحضره الوزراء والكبراء والعلماء والطلاب ، في مسجد ابي العباس ، ويخطب فيه شيخ العلماء خطبة تناسب المقام ، وهي خطب مشهورة معروفة ، ومن أشهرها الخطبة التي ألقاها في الاحتفال يوم السبت ٢٢ رجب سنة ١٣٢٥ (٣١ اغسطس سنة ١٩٠٧) والتي ردّ فيها على اللورد كرومر بكلمات تعرض فيها للاسلام ، وكان من شهود هذا الحفل (اصحاب المطوفة حسين فخري باشا القائم برآسة مجلس النظار ، وناظر الاشغال العمومية ، وأحمد مظلوم باشا ناظر المالية ، وأصحاب السعادة والعزة محافظ الاسكندرية ، ورئيس الديوان العربي الخديوي ، ووكيل ديوان عموم الاوقاف) الى آخر من ذكروا في وصف الاحتفال في (التقرير الرابع عن أعمال مشيخة علماء اسكندرية سنة ١٣٢٤ دراسية المرفوع للحضرة الفخيمة الخديوية) فقام بالواجب عليه من الذبّ عن الاسلام ، في هذا المقام الخطير ، خير قيام

وكان مما قال في هذه الخطبة كلمته المحفوظة السائرة : (ويقولون : «إن هذا الدين يجيز الرق ، ويتضمن سنناً وشرائع في علاقات النساء بالرجال تناقض آراء اهل هذا العصر » . ثم ان الدين الاسلامي أباح الاسترقاق كما اباحته كل الشرائع السماوية من قبل ، ولكنهُ سوّى بين الأرقاء وبين الآباء والأمهات في الوصية بالاحسان ، والرفق والحنان . أليس يقول الله تعالى في كتابه العزيز : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُبِ والصاحب بالجَنْبِ وابن السبيل وما ملكت ايمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً . اباح الدين الاسلامي استرقاق الافراد ، ولكنه محمد الله لم يبح استرقاق الشعوب ، ولا مصادرة الامم في مقومات حياتها القومية والاجتماعية . اما علاقات النساء بالرجال فليس وراء الشريعة الاسلامية غاية في عدل ولا في مرحمة ، ولا في

محافظة على الأعراض المصونة ، يتطلع اليها اصحاب النفوس الابية) . والمناهج التي رسمها للمعاهد الدينية هي الأسس الثابتة للتعليم الصحيح ، الذي يؤتي الثمرة المرجوة منهُ ، ولا يزال اكثرها قائماً الى الآن ، وهي مفصلة في التقارير التي كان يرفعها لولي الامر في آخر كل عام

وكانت غايته من التعليم الديني أن يخرج رجالاً كاملين ، يعرفون دينهم ويخشون ربهم ، يقولون قولة الحق ، لا يخافون في الله لومة لائم . يتصلون بأمتهم اوثق الصلات ، فيشعرون بما تشعر ، ويحسون ما تحس ، في شؤونها الدينية والدنيوية ، يهيؤهم علمهم وتربيتهم وثقافتهم لقيادة الأمة الى طرق المجد ، والى سبل الاصلاح في الاحوال كلها ، اجتماعية كانت او سياسية . وقد اشار الى هذا المعنى في مقدمة التقرير الذي رفعه عن اعمال المشيخة سنة ١٣٢٢ قال : —

« ومما يجب أن يتنبه له عقلاء الاسلام وعظماء الامة ، أن التعليم الديني قد كاد يكون منحصراً في طبقات الفقراء ، وبعض الطبقات الوسطى من الامة الاسلامية ، دون الطبقات العليا منها ، وذلك خطر غير قليل على الجامعة الاسلامية ، بمرور الدهور والاعوام ، اذا قدر أن ينتهي الامر بانحصار التعليم الديني في تلك الطبقات ، فتكون الرئاسة الدينية منحصرة فيهم لا يتولاها سواهم من الطبقات الاخرى ، وبالتالي تكون كل الوظائف الدينية في أيدي أولئك الاقوام ومن خصائصهم ، وبعبارة أصرح : تكون الفضائل والمزايا الدينية مجردة عن القوة المالية ، والقوة المالية بعيدة عن المزايا الدينية . وبين أيدينا من نتائج هذا التفريق في القوى الفعالة وهذا التدلي في التربية الدينية ما يصلح عبرة لكرام القوم ، وخاصة المسلمين وعقلاء الامة . فلينظر العقلاء وسادات الاسلام الى موقفهم هذا ، فلعلهم اذا فكروا فيه كثيراً يترجح عندهم أن يتربى أبناؤهم تربية دينية اسلامية محضة ، تحت كفالة خيرة العلماء العاملين المرشدين ، حتى اذا تخرجوا على هذا المبدأ القويم كانوا أقدر على خدمة دينهم وأمتهم ، الخدمة التي ترجى من أمثالهم ، مع الترفع عن الدناءة وعن السقوط في مهاوي الحرمان . واذا شاء عظماء الامة أن يتربى أبناؤهم هذه التربية فانهم يساعدون على ترقية التعليم الديني ، ويجعلون له المكانة العليا في أفئدة الناس أجمع ، وما ذلك على الله بعزيز . نسأله الهداية والتوفيق لأقوم طريق »

وقد بدأ بنفسه في تنفيذ ما دعا الناس اليه ، ليكون مثالاً يقتدى به ، فأخرجنا — أنا وأخي السيد علي — من المدارس المدنية الى المعاهد الدينية ، وكنت في السنة الرابعة بكلية غردون بالخرطوم ، فاستأنفت الدراسة في السنة الأولى بالقسم الأولي من معهد الاسكندرية

وكان اكثر ما يحرص عليه في طالب العلم ان يكون قويّ الخُلق عزيز النفس مستقلّ الرأي ، تمهيداً لما كان يرجو ، من إخراج رجال يزجّ بهم في معترك الحياة ، ويبث منهم في أعمال الدولة من إدارة وغيرها ، وقد كان متفاهماً على هذا مع ولاة الامور ، كما سمعت منهُ مراراً ، في سبيل الاصلاح العامّ ، حتى تُبَثّ الروح الاسلامية في نظم الدولة ، وتقاوم تغلغل النفوذ الأجنبي ، الذي كاد يخرج بالدولة وبالأمة عن دينها وعن مقومات حياتها . كان يرجو أن يعيد للاسلام مجده لو تحقق ما كان يرجو

وفي اواخر سنة ١٣٢٤ ندب للقيام بأعباء منصب مشيخة الجامع الازهر نيابةً عن المرحوم الشيخ عبد الرحمن الشربيني بالاضافة الى عمله في مشيخة الاسكندرية ، أربعة أشهر ، من رمضان إلى ذي الحجة

وفي ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ (٢٩ ابريل سنة ١٩٠٩)صدرت الارادة السنية بتعيينه وكيلاً لمشيخة الجامع الازهر ، فسار فيه سيرتهُ في الإصلاح ، ومهّد لذلك برحلةٍ واسعة الى الصعيد ، صدر بها اليهِ أمرٌ عالٍ ، زار فيها مدن الصعيد وكثيراً من قراه ، يستطلع أحوال الدراسات الدينية في مساجده ، تمهيداً لانشاء معاهد علمية فيهِ ، تكون فروعاً من الازهر ، كما تحقق اخيراً بانشاء معهد اسيوط وقنا . ثم صدر قانون النظام في الازهر سنة ١٩١١ وانشئت فيهِ (هيئة كبار العلماء) فكان في الفوج الاول منها الى أن مات . وعهد اليهِ بتطبيق هذا القانون ، فأنشىء القسم الاولي ، وعين شيخاً له مع عمله في وكالة الازهر ، وكانت في القانون بعض نظم لا يرضاها ، وضعت على الرغم من معارضته ، فكان يبذل جهده في التخفيف من اخطاء القانون . وله في ذلك مواقف معروفة مشهورة ، لا يسع المقام تفصيلها

وفي سنة ١٩١٣ انشئت الجمعية التشريعية ، وكان في السابعة والاربعين من عمره ، وليس يستطيع ان يطلب الاحالة الى المعاش قانوناً وهو في تلك السن ، وكان من قانون الجمعية ان الموظف اذا انتخب او عين عضواً فيها خُيّر بينها وبين عمله الحكومي ، فان اختارها احيل الى المعاش ، وكان له الحق في العودة الى منصبه ، فرأى الفرصة سانحة لطرح أغلال المناصب الحكومية ، والتفلت من إسارها ، وما يحاك حوله فيها ، في الازهر وخارج الازهر ، فرغب الى اخيه وصديقه وصفيّه ، المغفور له (محمد سعيد باشا) ، وكان ناظر النظار إذ ذاك ، أن يكون عضواً معيناً في الجمعية ، فأجاب طلبه . وبذلك ترك المناصب الرسمية ، وأبى ان يعود الى شيء منها ، ولم يخضع بعد ذلك لشيء من مغرياتها ، بل فضّل ان يعيش حرّ الرأي والعمل والقلب والقلم

وعاش في حريته كما عاش في مناصبه ، للناس لا لنفسه ، ما قصده طالب حاجة إلاّ بذل له من نفسه وماله وجاهه ، يعمل الخير للخير ، ولوجه الله

وكانت له في كبريات الصحف ، وفي المقطم خاصةً ، اثناء الحرب العظمى ، جولات صادقة ومقالات نيرة ، لا يزال صداها يدوي في آذان كثير ممن عُنُوا بالشؤون السياسية في ذلك الوقت . اذ كان مرمى كتاباتهِ كلها الى الدفاع عن بيضة الاسلام ، وردّ كيد المهاجمين ، من المعتدين والخاتلين ، خشية أن يكون ما كان ، من تقطع أوصال الأمة الاسلامية ، وتفرقها أمماً متباينة ، ببدعة القوميات التي اخترعتها أوربة ، لتفرّق بها كلمة المسلمين ، وتضربَ بعضَهم ببعضٍ ، ولتفتنهم عن المبدأ السياسيّ والاجتماعيّ السليم الذي شرعهُ الله لهم ، وأمرهم باتباعهِ والعضّ عليهِ بالنواجذ : (إنّ هذه أُمّتُكُمْ أُمّةً واحدةً) (سورة الأنبياء آية ٩٢ وسورة المؤمنون آية ٥٢)

ثم قامت الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ، فضرب فيها بسهمٍ وافرٍ ، وتبعهُ أهل الأزهر قاطبة ، فكان هو الروحَ الوثابةَ فيهم ، وكان هو القائدَ ، وكان هو الزعيمَ

وكتب في الشؤون السياسية المصرية عشرات من المقالات في الصحف ، أبانت عن بعد نظره ، وصدق فراسته ، حتى لقد توقع فيها كثيراً مما كان بعد سنين ، إذ درس مرامي السياسة الانكليزية ، في شؤون الأمة المصرية والأمة الاسلامية ، وعرف كيف يسعون الى نيل مقاصدهم حتى لقد كنا في العهد القريب ، اذا ادلهمَّ الخطبُ ، واضطربت الأمور ، رجعنا الى مقالاته في الظروف المشابهة لها ، فوجدنا أنهُ يكاد يصف ما نحن فيه ، وكأنهُ يكتبهُ حين قرأناه وكأنهُ ينظر اليهِ بنور الله

ولم يفكر يوماً واحداً في خوض معترك الأحزاب المصرية بل كان يترفَّع عن أن يُسلم مقادته الى أحدٍ من الناس ، كائناً من كان ، كما أبى من قبلُ أن يعودَ الى إسار المناصب الحكومية ، وكان يقول للزعماء والقادة قولة الحقّ ، فينقد خطأ المخطىء ويمدح صواب المصيب ، وعن ذلك كان يظنُّ كثيرٌ من الناس أنَّ لهُ هوًى أو ضلعاً مع بعض الاحزاب أو الزعماء ، إذ كان يكثرُ خطأ المخطىء ، فيُكثِرُ من نقده والنصيحة لهُ ، فيظنُّ المنتقَدُ أو انصارُه وأتباعه أن الناقد من خصومه ، او من انصار خصومه

وبجانب هذا لم يَدَعْ مسئلة شرعية او اجتماعية ، أثيرت في الصحف ، مما يتعلق بشؤون الاسلام والمسلمين — : إلاَّ قال فيها ما يراهُ حقًّا وصواباً . وصَدَعَ بما أمر الله بهِ الدعاة والهداة ، وأعرَضَ عن المنكرين ، ثقةً بربّهِ ، وتوكلاً عليهِ . اذ كان أبرزُ سجاياه ، أنهُ صُلْبٌ في دينه ، صلبٌ في عقيدته ، صلبٌ في رأيه ، شجاعٌ غير جبانٍ ، لا يرهب أحداً من الناس ، ولا يخشى الاَّ الله

***

أما الناحية العلمية منهُ فانهُ كان عالماً بكتاب الله ، يفقههُ ويعرفهُ ، ويداوم مدارسته والغوص على اسراره ، وكانت له في التفسير نظرات دقيقة ، وقد قرأ لنا التفسير مرتين ، مرة في تفسير البغوي وأخرى في تفسير النسفي . وله في السنَّة اطلاعٌ جيدٌ وفقه سليم ، وقرأ لنا صحيح مسلم وسنن الترمذي والشمائل وسنن النسائي وبعض صحيح البخاري . وقرأ لنا فقه الحنفية في كتاب الهداية ، على طريقة السلف ، في استقلال الرأي وحرية الفكر ، ونبذ العصبية لمذهب معين ، وكثيراً ما خالف مذهب الحنفية عند استعراض الآراء وتحكيم الحجة والبرهان ، ورجح ما نصره الدليل الصحيح . وقرأ لنا في الاصول جمع الجوامع وشرح الأسنوي على المنهاج . وفي المنطق شرح الخبيصي وشرح القطب على الشمسية وغيرها . وفي البيان الرسالة البيانية . الى غير ذلك من الرسائل الصغيرة في علوم مختلفة

وكان في العلوم العقلية آيةً من الآيات ، بل هو اقوى رجل ظهر في الأزهر فيها . ولذلك

لم يكن يَصمُدُ لهُ أحد في مناظرة أو جدال ، لا بداعهِ في إقامة الحجة وإفحام المناظر، لخصب ذهنهِ وتسلسل أفكاره ، وانتظامها على قواعد المنطق الصحيح السليم . ولست أقول هذا فخراً أو غلوًّا ، بل أشهد بهِ عن يقينٍ وخبرةٍ ، وقد تلقيتُ عنهُ أكثر العلوم العالية ، ولازمت دروسه أكثر من ثمان سنين ، في الصباح والمساء ، كما يعرف ذلك ويشهد بهِ إخواني في الدرس والطلب ، وكما يقر بهِ المنصفون من أقرانه من أهل العلم

وأخلاقهُ كانت أخلاق العلماء الأولين ، كان رجلاً مسلماً ، يخاف الله ويرجو رحمته ، ولا يخاف غيره ولا يرجوه ، يعمل ما يعمل ، أو يقول ما يقول ، خالصاً لله . أذكر انهُ في أوائل الثورة المصرية ، كتب نداء شديد اللهجة ، يزيد في وقود الثورة ، ثم دعاني أنا وأخي السيد علي ، وقرأه علينا ، يطلب رأينا ، فأعجبنا به ، وقلت له : ولكن بعده الاحتفال ، فما عبأ بذلك ، وأذاعهُ على الناس في الصحف

ولم تكن الدنيا من همه في شيء ، وقد كانت تجري على يديه ، وكان له من النفوذ في الدولة ما يمكن له من الغنى لو أراد ، وكان دائماً مقرباً الى العرش ، بل أتى عليهِ حين من الدهر كان أقرب الناس اليهِ زلفى ، فعصمه زهده وعفته وإباؤه . ولقد حدثني واحد من شيوخي حفظهُ الله ، منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، أنهُ حاوره مرة ليحمله على شراء دار لأولاده ، فأبى رحمهُ الله ، وقال له : انما أحسن تربيتهم وتعليمهم ، ولهم رزقهم عند الله . وكان يضع الميزانية سنويًّا لمعهد اسكندرية ثم في الازهر ، وكان يقرر فيها ما يستحقه العلماء والموظفون من علاوات ونحوها ، فكان يكتب لنفسه أمام اسمه ما لا يخطر على بال اي رئيس او عامل ان يصنعه ، كان يكتب بخطه لنفسه (لا يستحق شيئاً) . ولو أراد لنفسه عرض المال لاستحق شيئاً كثيراً

***

ومنذ سنة ١٩٣١ اعتزل الدنيا ، ثم أقعده المرض في المنزل ، وألزمهُ الفراشَ ، إذ أصابهُ الفالج ، فاحتمله صابراً محتسباً ، راضياً عن ربه وعن نفسه ، موقناً انهُ قضى دينه ، فقام بما وجب عليهِ خيرَ قيامٍ ، نحو دينهِ ونحو أمتهِ ، منتظراً دعوة ربه لعباده الصالحين : (يا أيتها النفسُ المطمئنةُ . ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيةً . فادخُلي في عبادي . وادخُلي جنتي)

الى ان جاءتهُ الدعوةُ فأجاب ، هادئاً راضياً مطمئناً ، فقبضهُ الله اليهِ في منتصف الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس ١١ جمادى الاولى سنة ١٣٥٨ (٢٩ يونيه سنة ١٩٣٩)

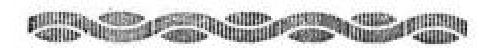
ونسأل الله ان يلحقهُ بآبائه الطيبين الطاهرين ، وإخوانه الصالحين السابقين . (والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جناتِ النعيم . ثُلةٌ من الأولين . وقليلٌ من الآخرين)

وآخرُ دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين



البن والقهوة

بين التاريخ والعلم



شجرة البن من أصل افريقي ولكنها ظهرت أولَ ما ظهرت شجرة تزرع وتجنى ثمارها ، في شبه الجزيرة العربية على ما يعلم . واول وصف لها مرتدٌّ الى مخطوطة عربية من القرن الخامس عشر . ففي ذلك العهد كانت تزرع على السواحل الشرقية للبحر الاحمر ، ولعلها حملت الى البلاد العربية مع الغزاة الاحباش قبل قرن او قرنين من الزمان

وجاء في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة مادة Coffee ما ملخصهُ: ان اللفظة الفرنجية Coffee ترتدُّ على الغالب الى اللفظ العربي « قهوة » وقد ذهب بعضهم الى أنها ترتدُّ الى « كفَّا » وهو اسم مقاطعة في الحبشة حيث تنمو شجرة البن برية

والجنس كوفيا Coffea وهو من الفصيلة الفوّية Rubiacae يشتمل على ٢٥ نوعاً منتشرة في المناطق الحارة في العالم القديم وفي افريقية على الغالب . فعلاوة على وجودها في الحبشة توجد كذلك في منطقة موزمبيق وعلى سواحل بحيرة فكتوريا نيانزا وفي أنجولا على الساحل الغربي . وفي ليبريا بنٌّ يعرف باسم « كوفيا ليبريكا » وقد انتشرت زراعتهُ في بلدان مختلفة . ومنها بنُّ سيراليون ويعرف باسم « كوفيا ستيوفيلا » وبن الكنغو ويعرف باسم « كوفيا روبستا » وهناك نوع آخر يعرف باسم « كوفيا اكسلسا » وينتظر لهُ مستقبل باهر

ولكن أشهر أنواع البن هو المعروف باسم « كوفيا أرابيكا » وشجرتهُ دائمة الاخضرار تنمو حتى يبلغ ارتفاعها من١٨ الى ٢٠ قدماً ولها أوراق بيضية مستطيلة ملساء لامعة يبلغ طولها ست بوصات وعرضها بوصتين ونصف بوصة . والزهر أبيض يفق لهُ عَرْفٌ عطري . والثمر كالكرز الصغير تحتوي كل ثمرة على حبتين مدفونتين في لبٍّ طري

أما البن الليبيري فيختلف عن العربيّ في ان أوراقهُ وازهارهُ وحبوبهُ اكبر ، وشجرتهُ اخصب انتاجاً ، ولكن نكهتهُ دون نكهة العربي . ثم انهُ ينمو على مرتفعات واطئة لا تصلح لشجر البن العربي

والبنُّ في اللغة حبُّ شجرٍ يعرف بهِ على هيئة نواة التمر الصغيرة يحمَّص ويعمل من دقيقهِ

مطبوخ يقال لهُ القهوة ....والقهوة الخمر قيل سمّيت بذلك لانها تقهي أي تذهب بشهوة الطعام. والمولدون يسمّون شراب البن بالقهوة وربما سموا البن نفسهُ قهوة . وتشبيه القهوة بالخمر حمل بعض المشايخ القدماء على تحريمها وعلى ذلك قول الشاعر

قهوة البن حرّمت فاشربوا قهوة الشب

وقد جاء في رسالة عنوانها البن أو القهوة Coffee وضعها الباحث دالغرن Dahlgren الأمين الاول لقسم النبات في متحف فيلد بشيكاغو ما يلي :

ان استعمال شراب البن نشأ اولاً في بلاد العرب وغدت المقاهي مجتمعاً يتبادل فيه الناس النوادر واحاديث التجارة والسياسة ولكن المقاهي اقفلت في مكة المكرمة سنة ١٥١١ بعد تحريم القهوة وكسّرت في القاهرة سنة ١٥٣٤ ومنعت رخصها في الاستانة غير مرة

وكانت بلدة مخا[1] ببلاد العرب اهم مركز من مراكز تجارة البن واحتفظت بلاد العرب مدى قرنين من الزمان بما يكاد يكون احتكاراً لهذه التجارة . وفي مستهل القرن السابع عشر انتشر استعمال القهوة من الاستانة الى ايطاليا ويقال ان ظهورها الاول في ايطاليا كان في البندقية سنة ١٦٢٤ ثم في روما سنة ١٦٢٥ ومن ثم اخذت المقاهي تكثر في شتى المدن حتى قيل ان باريس غدت بمقاهيها الالف والثمانئة مقهًى كبيراً ، وروي ان عددها في لندن بلغ في سنة ١٦٧٥ ثلاث آلاف مقهى

ولم ينتشر شرب القهوة في المانيا بالسرعة التي انتشر في غيرها من البلدان ولكن لم تنقض مائة سنة على ادخالها الى المانيا على يدي فردريك الكبير حتى قال احد الكتاب « ان زيادة المستهلك من البن في المانيا يؤسف لهُ . فكل عامّي وفلاّح تقريباً تعوّد شرب القهوة »

ووصلت القهوة الى روسيا عن طريق النمسا والاستانة ولكن غلاء ثمنها حال دون انتشارها في روسيا . وفي القرن الثامن عشر وصلت الى البلدان السكندناوية حيث يفوق المستهلك منها في البيوت معدل المستهلك في هولندة

***

تبدأ شجرة البن العربي في الازهار في السنة الثالثة من حياتها وتغل غلّتها الاولى في السنة

(١) ومنها الاسم الفرنجي Moka جاء في مقالات وصفي زكريا عن اليمن مقتطف مارس ١٩٣٧ صفحة ٣٢١ ما نصه :— وفي أقصى الجنوب فرضة « مخا » التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد اكبر موانئ اليمن بل كل جزيرة العرب ويدخل مرفأها الامين سفن الهند والحبشة والزنج وتصل اليها قوافل مصر والحجاز وغيرها فتتبادل العطور والطيوب والاصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧—٨ آلاف دار وعشرات من الخانات والمستودعات لا تزال اطلالها ماثلة . وكان البن اليماني الناتج في لواء تعز وأقضيته يصدر منها ويعرفه الافرنج باسم (بن مخا : Moka)

الرابعة وتكون صغيرة وتبلغ اقصى غلتها في السنة السابعة أو الثامنة وتبقى تغلّ غلة متناقصة من عشر سنوات الى عشرين أو ثلاثين سنة وأحياناً الى خمسين سنة . والشائع في بلاد العرب أن أشجار البن في بلاد العرب تبلغ مرتبة النضج في السنة الخامسة ويجب تبديلها بغيرها بعد انقضاء عشرين سنة على زرعها . وفي بعض المزارع الاميركية يبلغ الشجر الذي يقلع ويبدل بغيره كل سنة ١٠ في المائة

وشجرات البن الصغيرة في حاجة الى شيء من الظل ولذلك يزرع عادة في التلوم نبات سريع النمو كالذرة يظللها وفي بلدان أخرى يستعمل الموز لهذا الغرض

في الحبشة ، حيث موطن البن الأصلي ، يزرع نباتهُ في النجود ، وخير ارتفاع للارض التي تزرع فيها أشجار البن في بلاد العرب يتفاوت من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر

صنف البن الذي يستغلّ من منطقة ما يتوقف في المقام الاول على طبيعة الضرب المفروس، ولكن طبيعة التربة والاقليم ووسائل العناية بالشجر ، عوامل ذات شأن في تحديد مقدار الغلة وجودتها. ففي بلاد المكسيك يقلّ ثمن البن المزروع على ارتفاع ٥٠٠ متر ، ثلاثة ريالات في المائة رطل عن البن المزروع على ارتفاع ١٨٠٠ متر ، ثم ان جودة الغلة تتوقف على طريقة جني المحصول واعداده للسوق . فالجني باليد حيث تتخير الحبّات الناضجة وتعرف بلونها القاتم يضمن الفوز بمحصول متناسق جيد . أما حيث يكون الجني غير دقيق فيختلط الحبّ الناضج بغير الناضج وهذا يكفي لافساد نكهة الدقيق بعد التحميص والسحن . ولما كانت الحبّات على الشجرة الواحدة لا تنضج جميعها في وقت واحد فالجني باليد يجب ان يكرّر . واذا خلط الحبّ الناضج بغير الناضج في اثناء الجني ، تعذر فصل بعضهُ عن بعض بعد الجني ، فصلاً دقيقاً يعتمد عليه

وبعد الجني يُعدّ الحب للسوق . وباختلاف اساليب اعداده تختلف جودة مقدارين من البن من صنف واحد . ومن المسلّم به ان تجفيف الحبّ في الفضاء افضل من تجفيفه بالاساليب الصناعية . ولكن هناك اماكن لا يتاح فيها تجفيف الحبّ التجفيف اللازم في الهواء الطلق فيجفّف بالطريقتين الطبيعية والصناعية

***

بلغ مقدار محصول البن سنة ١٩٠٠ عشرة ملايين كيس والمستهلك كذلك . وقد زاد المستهلك بعد ذلك زيادة مطردة حتى بلغ ٢٣٫٩٠٠٠٠٠ كيس سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ ولكن المحصول زاد زيادة أكبر من زيادة المستهلك اذ بلغ في السنة نفسها ٣٧ مليون كيس ونصف مليون ثم زاد الى نحو اربعين مليون كيس في سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ وهذا التوسع المطرد في زراعة البن أفضى الى تجمع مقدار كبير فائض لا سوق لهُ

والبن المزروع في العالم الجديد هو البن العربي على الاكثر (٩٠ في المائة) . ولكن منذ اصبحت زراعة البن وتجارته عملاً كبيراً أخذ الباحثون يبحثون عن اصناف جديدة من نبات البن في افريقية فعثروا باصناف كثيرة

فوجدوا مثلاً ضرباً من البن العربي Coffea Arabica في جزيرة « غراند كومورو » لا كافيين فيها . ووجد نوع آخر في جزيرة ماسكارين ومدغشقر فيه أثارة من الكافيين ولكنه متصف بخواص سامّة

والعنصر المنبه في البن هو مادة الكافيين وأول من كشفها باحث يدعى رنج Runge واستخرجها من حبوب البن سنة ١٨٢٠ . وقد ثبت بعد ذلك ان مادة الكافيين توجد في جميع أجزاء النبات ولا سيما في الاوراق . ولا يزال سبب وجود مادة كالكافيين في النبات ، وما يفيده النبات منها ، غامضاً . واذا استفردت مادة الكافيين نقية وبلورت كانت بلورات بيضاً دقاقاً كالابر . وتأثيرها الفسيولوجي ، في مقادير صغيرة كالمقدار الذي يوجد منها عادة في فنجان قهوة ، هو التنبيه الفسيولوجي والذهني بتنشيط الجهاز العصبي المركزي والنشاط العضلي ، وهي تفرز عن طريق الكليتين بعد انقضاء بضع ساعات على تناولها

وأهم ما تتصف به كمنبّه أن تنبيها لا يعقبهُ هبوط او ضعف ، وهو ما يحدث عادة بعد تناول معظم المنبهات الأخرى . هذه الصفة من اهم البواعث على انتشار عادة شرب القهوة ، علاوة على نكهتها الطيبة

ومادة الكافيين توجد في نباتات اخرى غير نبات البن . « فالتايين » الذي كشف في ورق نبات الشاي هو والكافيين واحد . والواقع أن معظم الكافيين المجهز للبيع في الصيدليات يستخرج مما يعرف « بغبار الشاي » لان استخراجهُ منهُ أفضل من الناحية الاقتصادية من استخراجه من البن

***

ويختلف مقدار الكافيين في البن باختلاف الصنف . فمن ضروب البن ما لا كافيين فيه ومنها ما يحتوي على مقدار من الكافيين يبلغ ٣ في المائة وزناً . وهو يختلف في اصناف البن العربي من نصف واحد في المائة الى ١ ½ في المائة . وأكبر مقدار من الكافيين يوجد في بن كولومبيا وأقله في بن المكسيك . أما بن البرازيل وغواتيمالا فتوسط بين الاثنين ومقدار الكافيين فيه يتفاوت من ¾ الى ½ ١ واحد في المائة . ويبلغ مقدار الكافيين في فنجان عادي من الشاي أو فنجان عادي من القهوة نحو قمحة ونصف قمحة

المبحث الثامن

خليل مطران

شاعر العربية الإبداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الطور الثالث من حياة مطران

« توطئة » كان الطور الثاني من حياة مطران — كما سبقت الاشارة — طور النضج ، ففيه تفتحت شخصيتهُ ووضحت مناحيه على أساس من الأصل الثابت من طبيعته، تلك الطبيعة التي تقومت بالعوامل التي تداخلت معها في الطور الأول من حياته فجملتهُ يخلص بشخصيته واضحة السمات في تلك الفترة من الزمن التي امتدت من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٩١٤ . فمن هنا نرى أن هذا الطور يشغل القسط الأوسط من حياة الخليل . وقد أظهر مطران في هذه الفترة من الزمن نشاطاً أدبيًّا يذكر في ميدان النظم وفي ميدان النثر . فكان من مظاهر نشاطه في الميدان الأول « ديوان الخليل » ، وهو مجموعة ما قالهُ نظماً حتى عام ١٩٠٨ ، وكان من مظاهر نشاطه في في الميدان الثاني كتابهُ « مرآة الأيام » الذي أصدر جزءه الثاني عام ١٩٠٦ وهو سفر جليل في التاريخ العام جاء في جزئين . على أن جهود مطران لم تقف عند هذا الحدّ فقد تعدتها إلى دائرة المسرح ، غير أننا لم نشأ ونحن نعرض للطور الثاني من حياة الرجل في المبحث السابع أن نتناول مايدخل في هذا الطور من جهوده المسرحيّة ، ذلك أن هذه الجهود بدت واضحة آثارها في أواخر الطور الثاني من حياته، وظلت متصلة في حلقاتها ممتدة على صفحة الطور الثالث، حتى تهيأ لمطران من جهوده المتواصلة وخبرته التي خلص بها من اتصاله هذه السنين الطوال بالمسرح العربي أن يكون المهيمن على حركتها بتوليه عام ١٩٣٤ رآسة الفرقة القومية المصرية لرفع مستوى فنّ التمثيل [1] ولهذا ابقينا الكلام فيها لهذا المبحث حيث نعرض لمطران وجهوده المسرحية متماسكة في الجملة غير متقطعة في الأجزاء.

---

(١) « لرفع مستوى صناعة التمثيل » هكذا عند بروكلمان في « تكملة تاريخ الآداب العربية » الملحق الثاني ، فقرة ١٥ ص ٩٠

والواقع ان اشتراك مطران في العمل على انهاض مستوى المسرح المصري ، يعود الى عام ١٩١١ ، تلك السنة التي عاد فيها « جورج أبيض » من فرنسا بعد أن درس في « كونسر فتوار باريس » فن التمثيل المسرحي ، وعمل على تأسيس فرقة قوية جمعت نخبة من أعلام الممثلين في مصر في ذلك الحين نزل بهم ميدان العمل على خشبة المسرح المصري . وكان أن طلب « جورج أبيض » إلى صديقه مطران أن يترجم لهُ شيئاً عن المسرح الانكليزي وخاصة عن شيخ أعلامه « وليم شكسبير » يقوم بتمثيله هو وأفراد فرقته ، فترجم لهُ الخليل مسرحية «عطيل» Othello التي مثلت في الأوبرا الملكيّة (الأوبرا الخديوية في ذلك الحين) مساء ٣٠ مارس ١٩١٢ وقام بتمثيل الدور الرئيسي فيها جورج أبيض نفسه . وكان أن قدّم مطران في نفس الزمن لفرقة جورج أبيض ترجمتهُ لمسرحية « تاجر البندقية» .ومما لاشك فيه أن المسرح المصري وجد في ذلك الحين في هاتين الرائعتين (١) اللتين ترجمهما مطران مادة طيبة تستند اليها . غير أن الروح التمثيلية التي أخذ بها « جورج أبيض » هو وأركان فرقته كانت تدور حول الطرائق التمثيلية التي وضعها الممثل الفرنسي الكبير« سيلفان » فلم تقدر بجوّها الصناعي أن تهضم القوة « الدراماتيكية » التي في مسرحيتي شكسبير ، هضماً يساعد على جلوها بمشهد من « النظارة » على المسرح في جو طبيعي . ومن هنا كان سقوط هاتين المسرحيتين ، وكان لسقوطهما أثر في نفس الخليل جعلهُ يميل عن فكرة تقديم شيء من « المسرحيات الشكسبيرية » الى المسرح المصري ولو الى حين

غير أن شيئاً من طبيعة المعاودة في نفس مطران من جهة وروابط الزمالة من جهة أخرى مع أركان المسرح المصري ، جعلتهُ يعود عقب الحرب العظمى فيشترك في نهضة المسرح المصري فيقدّم ترجمة المسرحية « ماكبث » الى « جورج أبيض» وفرقته التي التأمت من جديد ودخلها عناصر جديدة . غير أن حظ مسرحية « ماكبث » على المسرح لم يكن خيراً من حظ أختيها السالفتين . فقد سقط دور « ماكدَف » الذي قام بتمثيله عبد الرحمن رشدي ، وذلك نتيجة كونه صاحب طبيعة تخالف طبيعة الدور الذي أسند اليه (٢) . الاّ أن شيئاً من الصداقة بين مطران وجورج أبيض جعلهُ يقف من هذا السقوط موقف الآمل خيراً في المستقبل ، فتقدم الى المسرح بترجمته لمسرحية « هاملت » . ولم يكن حظ هذه المسرحية خيراً من حظ أخواتها لهذا لحقتها في مصيرها . ومن هنا أحس مطران إحساساً قويّاً أن حالة المسرح المصري — في صورته في ذلك الحين — لاتقوى على هضم الروح « الدراماتيكية » التي في مسرحيات « وليم شكسبير » ، لأن ذلك يستلزم أن يدور التمثيل في جو طبيعي . ولم يكن الممثلون الذين عرفتهم خشبة المسرح

---

(١) ينظر المفرد وهو رائعة الى التعبير الافرنجي — Chef-d'œuvre — والترجمة لمطران (٢) محمود تيمور في حياتنا التمثيلية ، ص ١٠٨ — ١٠٩

المصري الى ذلك الحين يقدرون على جعل التمثيل يدور في أجواء طبيعية . ومن هنا كان تنوع الحليل بما كان ، واكتفاؤه بطبع بعض الروائع التي ترجمها عن شيكسبير ، فكان أن قدم منها الى الطبع ثلاث مسرحيات : « عطيل » و « تاجر البندقية » و « هملت » . على أن مطران بعد ذلك يحتفظ بين مجموعة أوراقه بترجماته لبقية مسرحيات شيكسبير [١] . هذا فضلاً عمّا يروى من أن له مسرحية « القضاء والقدر » وهي معرّبة . ولكننا لم نقف لها على أثر (صديق شيبوب — البصير ٥ يونيه ١٩٢٥)

على أنهُ مما لا يمكن انكاره ما كان لهذه المسرحيات من أثر في رفع مستوى الجو الذي يدور فيه التمثيل العربي في مصر . كما لا يمكن انكار ما كان لاشتراك مطران من أثر في رفع مستوى المسرح المصري ، فالواقع انهُ في هذه الفترة اتصلت بين مطران وبين حركة المسرح في مصر الأسباب فكان ان اشترك مطران اشتراكاً فعليّاً في حركة تقدّم المسرح . ومن آثار هذا الاشتراك مساهمته في تأسيس « شركة ترقية التمثيل العربي » وتأسيس مسرح لها بحديقة الأزبكية ، تلك المساهمة التي تكللت بالنجاح ، إذ افتتح المسرح ابوابهُ في ٣٠ ديسمبر ١٩٢٠ والقى فيه مطران كلمة الافتتاح متضمنة تاريخ الحركة المسرحية في مصر الى ذلك الحين [٢] . وهذه الجهود آتت أكلها مع الزمن إذ انتبهت حكومة الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٤ الى وجوب الاهتمام بحركة المسرح ، فعملت على تأسيس الفرقة القومية لرفع مستوى فن التمثيل وعينت أغراضها في العمل على رفع مستوى التأليف والتعريب المسرحي وترقية الاخراج وترقية الموسيقى المسرحية والغناء المسرحي الحديث حتى تكون صالحة للتمثيل العربي والأجنبي واعداد الممثلين والمخرجين اعداداً فنيّاً ، وأسندت رآسة الفرقة الى خليل مطران [٣]

ولاشك أن وجود مطران على رأس الفرقة القومية كان مغنماً عظيماً لنهضة المسرح المصري ، لأن وجود هذا الرجل — كما يقول محمود كامل المحامي — « الذي قرأ شيكسبير وفهمهُ وهضمهُ وترجمهُ وقدّم الى الناطقين بالعربية آثاره خير تقديم ، والذي قرأ هيجو وراسين وموليير وفهمهم وحفظ أشعارهم عن ظهر قلب ودرس روح فرنسا من كتبهم وهضم الأدب المسرحي هضماً كاملاً ، وعاش حياة أدبية مسرحية حافلة جديرة بأن يجمل جهود المسرح المصري وثيقة الصلة بالجهود الخالدة التي خلقت الأدب المسرحي » [٤]

---

(١) توفيق حبيب في « شيكسبير في العربية » ـ مقال بالهلال م ٣٦ ج ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠٤

(٢) الهلال م ٢٩ ج ٤ ص ٤٦٥ وتجد نص كلمة مطران من العدد ص ٤٦٥ — ٤٧٢ (٣) الاهرام ١٤ـ١٢ـ١٩٣٧ ص ١٤ نقلا عن اشارة لبروكلمان في تكملة تاريخ الآداب العربية ، الملحق الثاني فقرة ١٥

(٤) محمود كامل في مجلة الجامعة ـ ٣ نوفمبر ١٩٣٨ ـ م ٩ م ٣٠٣ ص ٢٣ .

وفي الفرقة القومية يبدأ مجهود مطران العظيم في رفع مستوى المسرح المصري ، فقد بدأ العمل والفرقة لا تملك شيئاً من المعدات اللازمة فلا مكان للفرقة ولا روايات مختارة ولا اي استعداد — اللهمّ الاّ ثقة الرجل بقدرته على القيام بالعمل الملقى على عاتقه [١] — وسار العمل في أوله يكتنفه بعض الاضطراب . وسرت الاشاعات هنا وهناك ، وتنبأ من يحلو لهم التنبؤ بفشل الفكرة قبل ان تولد ، ولكن بشيء من الصبر والمثابرة اللذين عرف بهما الخليل أمكن للفرقة أن تجتاز الصعوبات التي لاقتها فضت في سبيلها يحدوها الأمل في المستقبل . وبواسطة تشجيع الفرقة للأدباء خصوصاً الناشئين منهم أمكن لها أن تجمع لديها أكثر من ستين مسرحية قدّمت منها في ثلاثة مواسم اثنتين وثلاثين رواية جديدة ، وهو رقم قياسي — كما يرى مطران — لم يقدّمه مسرح من قبل [٢]

على أن الاقوال تختلف بخصوص ما أدته الفرقة وحققته من الاغراض والغايات التي قامت من أجلها [٣] . على أنهُ مما لا ينكر حقيقته بعد ذلك أن جهود مطران في الفرقة أخذت تؤتي اليوم أكلها ، والحق — كما يقول راشد رستم — انهُ لولا مطران على رأس الفرقة بسعة صدره وتحمله وصبره وجلده في هذه السن ، ولولا مكانته الشخصية لضاعت الفرقة القومية [٤] . على انهُ بعد ذلك يمكن ان يقال إن ما عرف بهِ مطران من عدم التقيد بنظام وما اشتهر بهِ من «البوهيمية» التي عرف بها رجال الفن إلى جانب ما عرف عنهُ من حب الاريحية التي تجعله لا يدفع قاصداً لهُ في حاجة هو قادر عليها ، كل ذلك كان سبباً للثورة على رآسته للفرقة القومية وتوجيهه لسياستها العامة . وذلك يتجلى في الحملات الصحفية التي شنت عليهِ [٥] . على أنك بالرغم من كل ذلك تجد هؤلاء الذين يحملون عليهِ لا يقدرون على جحد الرجل ومزاياه وطيب سريرته ، ويحملون ما في ادارته للفرقة القومية من ضعف على عدم تقيده بنظام في العمل ، الأمر الذي يجعل شؤون الفرقة تضطرب بعض الشيء ، وهو بعد ذلك يغطي على هذا الاضطراب أمام الرأي العام وأمام الحكومة بما فيهِ من قوة الشخصية

---

(١) حديث لمطران عن رسالة الفرقة القومية في مجلة ـ الامام ـ ٣ يوليو ١٩٣٩ م ٣٩ م ٦ ص ٦

(٢) المرجع ذاته (٣) مجلة الرسالة ، السنة السابعة عدد ٢٩٢ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ والعدد ٢٩٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ والعدد ٢٩٤ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ والعدد ٢٩٥ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ والعدد ٢٩٦ ص ٤٧٦ ـ ٤٧٨ والعدد ٣٠١ ص ٧٤٩ ـ ٧٥٠ ، آراء زكي طليمات وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وابراهيم رمزي وابراهيم ناجي وراشد رستم في رسالة الفرقة القومية وما قامت به من تحقيق للاغراض التي قامت من أجلها

(٤) راشد رستم في مجلة ـ الرسالة ـ السنة السابعة عدد ٣٠١ ص ٧٥٠ ع ٢ س ٣ ـ ٦ (٥) دكتاتورية المدير في الفرقة القومية بمجلة الرسالة ، السنة السابعة ، العدد ٢٨٨ ص ٩٣ ـ ٩٤

— ١ —

من الاهمية بمكان ان نعود ونحن بمعرض استجلاء ترجمة حياة مطران في الطور الثالث من اواخر الطور الثاني ، تلك الاواخر التي مررنا عليها سريعاً في ختام المبحث السابق ، فنستجلي حياة مطران في الفترة التي جاءت عقب اخراجه للناس مجموعة شعره في ديوان عام ١٩٠٨ .

وأول شيء يستوقف النظر من شؤون هذه الفترة هو تحول الخليل عن عالم الصحافة الى عالم الاقتصاد والمال ، فقد كان مطران يحيا في الدورين الاول والثاني من الطور الثاني من حياته ومعيشته تدور في عالم الصحافة ، الا أن انصرافه عنها الى الاشتغال بشؤون الاقتصاد كان نقطة تحول خطير في حياته . وهو في هذا يقول :

[مارست الصحافة اثنتي عشرة سنة . ثم انتقلت منها الى العمل في الاقتصاديات . فهل تعتقد ان هذا الحادث الذي أثر في مجرى حياتي فحوّلها من حال الى حال ، عظيم الشأن ؟ كلا ، فانه حادث بسيط جداً ، ولكنه هو الذي غير حياتي هذا التغيير الكبير ، فصرفها عن الصحافة الى الاشتغال بالمسائل الاقتصادية

ذلك أنني اشتغلت بالتحرير في جريدتي « الاهرام » و « المؤيد » وغيرهما ثماني سنوات ، ثم عنّ لي ان اشتغل لحساب نفسي ، فأنشأت « المجلة المصرية » نصف شهرية ، وعلى أثرها أصدرت « الجوائب المصرية » فوجدت من الناس اقبالا ومؤازرة عظيمة ، ولكن نوع المؤازرة الذي كان في هذا الوقت لا يلائم طبعي ، فان رواج الصحف لم يكن وقتئذ بالاعلان او بواسطة المتعهدين كما هو اليوم بل كان بالاشتراك وكثرة عدد الاصدقاء والمحبين

ومما يمض النفس ان دافع الاشتراك في ذلك الحين كان يعد نفسه صاحب فضل في حياة الجريدة وفي كل ما يبلغه صاحبها من جاه او مال او كرامة . وكنا نسمع من هذا القبيل منّاً بلا حد فيما يتعلق بالجرائد المعروفة في ذلك الوقت . وأنا بخلقي نفور من سماع امتنان على هذه الصورة خصوصاً أنني كنت على علم بما يعانيه صاحب الجريدة ومحررها من مشقة واعنات

وقد كنت امتعض وأحس ان بي ميلا للعمل لرزقي في غير الصحافة فحينما يعود « الجابي » فيقول ان فلاناً المشترك قال كذا وفلاناً قال كذا من الاقوال التي وان امتزج المدح بها غالباً فهي تسيء الى النفس لانها تأتي أشبه بذكر الجميل او التذكير به

وذات مساء رجع الي الجابي من جولة ، وأبلغني ان صديقاً لي ممن كنت أعاشرهم معاشرة متصلة استمهله في أداء ما عليه ، ولم يكن ذلك المرة الاولى . ويظهر ان ــ الجابي ــ ألح عليه باعتبار ما يعرفه من الصلة المحكمة بيننا ، فالتفت اليه هذا الصديق وجابهه بقوله « هو ممن عيش » . فلما سمعت هذه العبارة ، خيل الي أن كل من أرسل اليه جريدتي ، وان تلطف في الظاهر ، يحسبني متطفلا عليه فيما أتقاضاه منه ، ولا يقدر تلقاء ذلك ما يبذل من جهد في التحرير وفي نفقات الطبع والبريد وما الى ذلك من أعمال تستنفد مجهوداً ووقتاً ومالا

وكان ان صممت على اعتزال الصحافة ، وصرت أتربص للفرصة الاولى حتى سنحت بخروجي من الميدان موفور العرض سليم الشرف والكرامة ، فوهبت جريدتي وبعت مطبعتي وانصرفت الى ممارسة الاعمال الاقتصادية وما زلت عليها الى الآن .] (١)

وكان انصراف مطران عن الاشتغال بالصحافة الى الاشتغال بالشؤون المالية عام ١٩٠٤ .

وقد دارت حياة الخليل منذ ذلك اليوم متصلة بممارسة الشؤون المالية ، حتى اكتسب الخليل

(١) الهلال : م ٣٨ ج ٣ ـ أول يناير ١٩٣٠ ـ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ . رد مطران على استفتاء الهلال عن أهم حادث أثر في حياته

بحكم الممارسة مهارة في الاعمال المالية والاقتصادية أهلته للاشتراك في المشروعات الاقتصادية الكبرى التي عرفتها مصر في تاريخها الحاضر ، وعلى وجه خاص في وضع المذكرة التأسيسية لبنك مصر[1] التي كتبها عام ١٩٢٠

وقد كان من اشتغال مطران بالشؤون الاقتصادية واعتماده عليها في المعيشة أن اخذته حمى المضاربة ، فكانت من ذلك مضارباته التي كسب فيها الخليل كثيراً وخسر كثيراً ، وهو بعد ذلك جلد على المضاربة ، لا يخسر حتى يعاود الكرة من جديد وكله امل في الربح، والمال يجيء ليذهب ، حتى كان ان فوجيء في احدى مضارباته عام ١٩١٢ بخسارة كل ما يملكه، وأصبح الخليل وإذا به صفر اليدين ، والرجل بعد ذلك بصلاته ومكانته من الهيئة الاجتماعية يحتاج الى المادة . لهذا كانت صدمته كبيرة في خسارته التي ذهبت بكل جنى جهوده في حياته الى ذلك الحين . ومن هنا جرفت الخليل موجة يأس برزت معها في ذهنه فكرة « الانتحار » . ولكن طبيعة المعاودة في نفسه ، جعلته يعيد الكرة على هذه الفكرة وينزل بها الى مقوماتها من نفسه ، ومن هنا انتهى الى ان الانتحار هروب من الحياة، ولهذا اعتقد الخليل ان الانتحار جبن . فرجع في حالة يأس الى — مدينة عين شمس — (مصر الجديدة — Heliopolis —). وهنالك قضى اياماً في غمرة من اليأس نظم فيها قصيدته الوجدانية «الاسد الباكي» — « الشعراء الثلاثة » ص ٣١٥ — ٣١٦ — وفي مستهل هذه القصيدة يقول مطران :

دعوتك استشفي اليك فوافني	على غير علم منك انك لي آسي
فان ترني والحزن ملء جوانحي	أداريه فليغررك بشري وايناسي[2]
وكم في فؤادي من جراح ثخينة	يحجبها ردائي عن أعين الناس
تخذت لهمي « عين شمس » مباءة	فثمت إضحائي فريداً واغلاسي
يخالون أني في متاع حيالها	وبئس متاع الحي حيرة دماس
ارى روضة لكنها روضة الذوى	وأصغي وما في مسمعي غير وسواس
وأنظر من حولي مشاةً وركّباً	على مزجيات من دخان وأفراس
كأني في رؤيا يزف الاسى بها	طوائف جنّ في مواكب أعراس

وأنت تلمس في هذه الابيات ما كان يجتاح قلب الخليل من الالم والحزن وما كان يسود عينيه من النظر القاتم الى الحياة ، وما كان يوسوس في صدره بالانتحار . ولا ادل على تلك الحالة الشعورية عنده من رؤيته رياض « عين شمس » روضة موت . وما في نفسه من الاسى

(١) توفيق حبيب : المبحث الخامس ، فقرة ٢ من هذه الدراسة (٢) البيت أثبت عجزه في « الشعراء الثلاثة » هكذا : « أداريه فليغررك بشراي وايناسي » ص ٣١٥ س ٢ وهذا لا يتفق مع الوزن

كان يستولي على بصيرته فيجعل الاشياء تبدو له في صور يشوبها شيء من الابهام ومن خلال هذه الصور تجلت له مرائي « عين شمس » والاناسي الذين يمضون فيها ما بين راكب في القطر وعلى الافراس وما بين مشاة كطوائف جن في مواكب اعراس . وذلك من حيث جرفت وجدانه مشاعر الاسى فجملته يأخذ الاشياء من عالم الواقع لينزل بها من عالم الاحلام تخيالات وأوهام

هذه الابيات — كما سبقت الاشارة — تصور أسى مطران وشجوه وألمه . فلما انتهت القصيدة التي تضمنتها الى اصدقائه قلقوا عليه وكانوا قد قلقوا عليه من قبل لغيابه ، فتضافر هذا القلق وذاك وكان ان اخذوا يفتشون عنه في الاماكن التي كان معتاداً أن يرتادها ، ولكن تفتيشهم هذا لم يجد شيئاً . ثم كان ان سعى بعض العارفين بمكان اقامته اليه ليواسوه في نكبته التي كانت قد ألمّت به وكانت قد أبعدتهُ عن الحياة الصاخبة التي كان يحياها ، فكان ان عاد الخليل ثانية الى تلك الحياة ، وكان في عودته هذه جلداً . ثم لم تلبث ان بسمت له الحياة التي كانت قد عبست له من قبل فذهب يغامر من جديد ......

***

عين الخليل في ذلك الوقت سكرتيراً مساعداً بالجمعية الزراعية الخديوية (الملكية الآن)[١] وقد كان تعيين مطران في هذا المنصب عن رغبة من الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان يريد ان يجعل للشاعر مركزاً ثابتاً وايراداً غير متقلب. وقد اختار الخديوي لمطران ذلك المنصب خاصة نظراً لما يعرفهُ عن الرجل من الاشتغال الطويل بالشؤون الاقتصادية ، ذلك الاشتغال الذي أعطاه دربة فيها ، ومن ادراكه الجيد الذي أظهره فيما يتصل بالمسائل الزراعية ، تلك المسائل التي أظهر فيها الخليل معرفة مستفيضة أيام كان يصدر « المجلة المصرية » ويوقف باباً من أبوابها على الشؤون الزراعية . وبعد أن تقلّد مطران ذلك المنصب انتظمت شؤونه المادية واستقامت . وأصبح الرجل لا يخشى تقلب الزمن وما يمكن أن يحمله في طيات هذا التقلب من كوارث

وظل مطران منذ ذلك الحين حتى الآن يشغل هذا المنصب بجانب المناصب الاخرى التي اتفق له أن يشغلها

وكان عمل مطران في « الجمعية الزراعية » من حيث يتصل بشؤون سكرتاريتها يدور حول الحسابات ، ومن هنا اكتسب مطران بجانب دربته الاولى في الشؤون الاقتصادية والمالية خبرة واسعة بالشؤون الحسابية ظهرت آثارها فيما عهد اليه من القيام بوضع بعض المذكرات الاقتصادية التي تمتّ الى شؤون الحساب بسبب . وقد كان من تلك المذكرات التي راجع جانبها

(١) تأسست في ٢٠ ديسمبر ١٨٩٨ بسراي الجزيرة تحت رعاية سمو الخديوي عباس حلمي الثاني

الحسابي وضبطها تلك المذكرة التي وضعها عبد العزيز باشا فهمي ضد السر وليم برونيت [1]

وكان أن كلّف حشمت باشا وزير المعارف اذ ذاك مطران وصاحبه حافظ بك ابرهيم أن يترجما الى العربية كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» وهو سفر ضخم للبروفسور بول لروا بوليو مدير جامعة بواتيه بفرنسا ، فجاءت الترجمة في خمسة اجزاء كبار في نحو ٩٣٠ صفحة [2]. والكتاب، وما فيه من دقة الترجمة واستيعاب المعاني التي دارت بذهن مؤلفها ، يعود الى مطران لا الى حافظ [3]. هذا فضلاً عن ان بعض الريب يحف بما لحافظ ابراهيم من جهد في الترجمة . ومن ذلك الحين عرف مطران بأنهُ من رجال الاقتصاد والحساب [4]. غير ان ذلك لم يطغ على الاصل الشاعري من نفس الرجل كما ستجيء الإشارة الى هذا

وما كان لمطران من حظ الاشتراك في تقدم مصر الاقتصادي والعمل في ميدان استقلالها الاقتصادي ، جعل محرر الهلال يتوجه اليه بالسؤال عن مصر كما يريدها من الوجهة الاقتصادية، وذلك عام ١٩٣١ ، وكان ذلك ضمن سلسلة الاسئلة التي وجهتها دار الهلال الى اعلام رجالات مصر في النواحي التي برزوا فيها . وقد اجاب مطران وقال :

[أريد مصر عزيزة بكل المعاني . على أن في مقدمة العناصر التي تكوّن عزة الامة : العنصر الاقتصادي . ولما كانت مصر تعاني الآن أزمة اقتصادية لا يذكر التاريخ الحديث أنها عانت مثلها كان الافضل ان اجعل مدار أمنيتي ما اعتقده وسيلة أولية لإبلاغ مصر العزة التي أرجوها لها

مصر غنية — على القول المشهور — ولكن بمعنى ان نيلها يدرّ الخير وأرضها خصبة تجود بأربعة محاصيل . وما عدا ذلك موارد اخرى من طبيعتها وسجايا أهلها التي فيها قابلية عجيبة للصناعات والتنوّر وينبغي ألاّ تقل ثروتها منها عن ثروتها من ارضها

ولكن تصرف السواد الاعظم من الامة في شؤونهم الكسبية والمعيشية قد أفقدهم تلك المزايا فليس نصيبهم منها بأوفر نصيب وعلى هذا لا بد من عكوف كل كاسب في مصر زارعاً كان او صانعاً او تاجراً او ذا منصب على نفسه يحاسبها ويطالبها بما هو واجب عليه لنجاته من هذه الضائقة وبالتالي نجاة قومه وهل الأمة الاّ مجموع أفرادها

يجب ان يعرف كل منا في مصر ان الحياة أداء واجب وان المتاع نتيجة من أداء ذلك الواجب فالصدق في المعاملة وان ابعد صاحبه ، والقصد في النفقة بحيث تستقضى بها الحاجة وان ظن الانسان ترك اللهو واجتناب مباهجه حرماناً — واقبال الفلاح على غيطه يحرثه حق

(١) توفيق حبيب — البحث الخامس فقرة ٢ من هذه الدراسة (٢) صديق شيبوب في البصير — ٥ يونيه ١٩٢٥ ص ١ من مقال له عن مطران (٣) أحمد محمد عيش في مجلة أبولو م ١ ج ١١ — يوليه ١٩٣٣ — ص ١٣٩٣ ص ٨—٩ مقال عن « سيرة حافظ » (٤) الشفق الباكي — ديوان شعر لابو شادي — ص ٧ مقدمة الناشر حسن صالح الجداوي — الهامش ص ٥

جرته ، والعامل على عمله يوفيه ويجيده ، والموظف على وظيفته يؤديها اداء الذمة ، والعريف على ادارته يحكمها بصير وبصيرة الخ الخ . . . كل اولئك مما يكوّن أمة رضية البال قوية العزيمة راضية مرضيًّا عنها

فأنا اريد مصر عاملة بجدة صابرة على ما تقتضيه الحياة الكبرى ، اريدها حاسبة متفقهة خبيرة في الموازنة بين دخلها وخرجها ، اريدها ان تعدل عن السرف حكومة وشعباً وان ترد الرأي التي صدرت عنه قبلها الامم السائدة الآن في العالم ، وهو ان القوة والمنفعة فيا تدخر ، وان الضعف والذلة وراء السرف والتبذير] (١)

هذه وصايا حكيمة ألقاها مطران على شعب مصر وحكومتها عام ١٩٣١ اثناء اشتداد الازمة المالية في العالم ، وهي تدل على شعور مطران نحو مصر من جهة ، كما تدل على خبرته بمواطن الداء في الوضع الاقتصادي في مصر من جهة اخرى

— ٢ —

كان الخديوي عباس حلمي الثاني في اواخر عهد خديويته على مصر ملتقى آمال شباب العرب ومعقد رجاء أحرارهم خصوصاً بعد أن ظهر الاتحاديون بنياتهم العدائية نحو العرب (٢) وقد اراد الخديوي أن يجمع من حوله قلوب العرب ويبادلهم آمالهم فيه بتشجيعهم ، فشمل برعايته رجالاتهم ، وكان من ذلك عنايته الشديدة بخليل مطران الذي كان يعتبر لظهور شخصيته في المجتمع المصري سفير سوريا في مصر . ومن مظاهر عناية الخديوي بمطران توجيهه منصب السكرتير المساعد بالجمعية الزراعية الى مطران ، وانعامه عليه في اواسط شهر اغسطس سنة ١٩١٢ بالوسام المجيدي الثالث (٣) وايعازه بواسطة اسماعيل باشا اباظة المشهور بأدبه واتصالاته بالادباء المصريين والسوريين الى «سليم سركيس» ـ صاحب مجلة «سركيس» ـ باقامة حفل لتكريم الخليل . وقد لاقت الفكرة تحبيذاً عند جمهور الادباء وأولاها سليم سركيس اهتمامه وجرت في شأنها مكاتبات انتهت بنكرة اقامة الحفل (٤) . وفي ٢٤ ابريل سنة ١٩١٣ اقيمت الحفلة في دار «الجامعة المصرية الاهلية» (٥) تحت رعاية سمو الخديوي ونيابة الامير محمد علي عنه . وقد افتتح الحفل الامير محمد علي بكلمة رقيقة اثنى فيها على الشاعر المحتفل به قال فيها :

[لقد سمعت منذ زمان طويل بشهرة ذلك الشاعر الطائر الصيت وهو حضرة خليل مطران فابتهجت بما وصل اليَّ من أفكاره السديدة التي تنبي عما هو من علو في الهمة وثبات في الرأي ووفور في العلم . ولم

(١) مصر كما أريدها من الوجهة الاقتصادية لمطران — الهلال م ٣٩ ج ١ س ١٩ (٢) المقتطف م ٩٣ ج ٤ الحركات العربية لانيس المقدسي (٣) مجلة سركيس — سنة ١٩١٣ ص ٢١١ س ١ — ٣ (٤) مجلة سركيس — ١٩١٣ ص ٢١١ — ٢١٥ (٥) مجلة سركيس — ١٩١٣ — ص ٣٤٤ س ١ — ٢

يكن اعجابي به لما أوتيه من المواهب الجليلة في دولة العلم فقط بل لما تحلى به أيضاً من الاخلاق الكريمة التي تحمله دائماً على سلوك طريق الاستقامة وتباعد بينه وبين التحقير للغير حتى صار بذلك محبوباً مرموقاً بعين الاجلال والاعتبار متأهباً لنيل المجد والفخار

ومن البدهي ان اتصافه بهذه الصفات الممدوحة لم يكن الا نتيجة تربية عالية . . . . وقد وهب الله صديقنا مطران ذكاء فطرياً فجادت قريحته الوقادة بالاشعار الرقيقة والحكم البليغة الدقيقة فرتقى بذلك الى الدرجة التي نال بها الحظوة عند خديوينا المعظم .] (١)

ثم القى احمد شوقي بك رئيس الادباء في الحفل قصيدة حيّا فيها مطران . وتوافد بعده الأدباء فألقى جورجي زيدان كلمة عن شعر مطران والتاريخ (مجلة سركيس ، سنة ١٩١٣ ص ٢١٩ — ٢٢٤) . وكتب أمين الريحاني كلمة (المرجع ذاته ص ٢٣٠ — ٢٣٣) ، والقى حليم دموس شاعر زحلة قصيدة عصماء (المرجع ذاتهُ ص ٢٣٤ — ٢٣٧)

وأرسل جبران خليل جبران من نيويورك أقصوصة عن الشاعر البعلبكي مدارها خليل مطران وعبقريته (مجلة سركيس — ١٩١٣ — ص ٢٣٨ — ٢٤٤) . والقى شبلي بك الملاط مطوقة من الشعر (المرجع ذاته ص ٢٥٠ — ٢٥٦)

والقى انطون الجميل كلمة عن شاعرية الخليل [المرجع السابق ذكره — ص ٣١٨ — ٣٢٩ وهو في الأصل مقال بالهلال م ١٦ ج ٩ — (١ يونية ١٩٠٨) ص ٥٣١ — ٥٣٩] . وفي الختام القى الخليل قصيدة عصماء حيّا فيها الذين احتفلوا بهِ وشكر سمو الخديوي والأمير محمد علي (مجلة سركيس — ١٩١٣ ص ٣٤٥ وما بعدها)

لقد كان الاحتفال بمطران مهرجاناً كبيراً للأدب ، ومظهراً للروابط التي كانت تربط سوريا بمصر . وقد ظهر ذلك في اكثر ما قيل في هذا الحفل ممّا قالهُ الشعراء وما قالهُ الكتاب ، وفيما علقت بهِ الصحف على الحفل (٢) بكل وضوح

كان لهذه الحفلة أثرها الكبير في جو مصر الأدبي ، إذ أظهرت من ثنايا المهرجان وما تلي فيهِ شخص الخليل كألمع شخصية أدبية في العالم العربي . فقد اشترك في هذا المهرجان جميع أدباء العربية وكتابها وشعرائها وأعلامها والنابهين من حملة القلم فيها ، فقد جمعت شوقي بك وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري باشا ونقولا رزق الله وبشارة الخوري وحليم دموس وشبلي الملاط ومسعود سماحه ويوسف بك حيدر وأسعد داغر وأحمد نسيم وشكيب أرسلان ومحمد حمدي النشار الذين اشتركوا بمقطوعات وقصائد من الشعر ، كما جمعت جورجي زيدان وأمين الريحاني وجبران خليل جبران وماري زيادة وانطون الجميل ومحمد لطفي جمعة وعباس محمود العقاد ومحمد كرد علي الذين اشتركوا بنفثات أقلامهم ، والدكتور ابراهيم شدودي الذي اشترك

---

(١) مجلة سركيس ١٩١٣ ـ عدد خاص عن مطران . ص ٣٤٠ — ٣٤٢

(٢) مجلة سركيس ١٩١٣ . ص ٢١ س ١٦ ـ ١٧ و ص ٢٢٦ بالمقطع الثاني من القصيدة وص ٢٤٢ — ٢٤٤ وص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ مثلاً ...

في المهرجان الكبير بقطعة زجلية رائعة . وقد نشر معظم هذه القصائد والنفثات القلمية في مجلة سركيس في عدد خاص [(١)]، كما نشر في الأعداد التالية ما لم يتسع لهُ العدد الخاص . ولا شك أن هذا الحفل كان أعظم مهرجان أدبي شهدتهُ البلاد العربية ومصر الى ذلك الحين ، ولم يجيء بعده ما يضارعهُ غير يوبيل المقتطف عام ١٩٢٦ وحفل مبايعة شوقي بك بأمارة الشعر في دار الاوبرا الملكيَّة عام ١٩٢٧ . ومما لاريبة فيه أن هذه الحفلة حققت أغراضها من حيث القضاء على الدعاية التي كان يروّج لها البعض للتفرقة بين المصريين والسوريين . كما أنها كانت خير مكافأة لمطران على جهوده الأدبية وخدماته للخديوي وليته واخلاصه لمصر ، تلك الاشياء التي شهد له الأمير محمد علي بها فقال في حديث لهُ عام ١٩١٣ :

« قد عرفت مطران من عهد والدي حتى الآن فرأيته قد امتاز بانصرافه كل هذا الزمان الى المحافظة على خطة ولاء مستقيمة لم يحد عنها كل حياته القلمية في مصر وهذا الثبات على المبادىء والاخلاص الدائم لمصر والمصريين هو فضيلة يجب اعتبارها واكرام المتحلي بها (٢)

***

يظهر مطران في الفترة التي جاءت قبل الحرب العظمى متشبعاً بفكرة الجامعة العثمانية ، وذلك بحكم عواطفه التي كانت تجري مع عواطف معظم المصريين في ذلك الحين مما سبق الإشارة اليه . أما بعد الحرب فترى عواطفه مصرية وإن خالطها بعض العطف على بلاده الأولى سوريا . وهذا التطور نتيجة لأحداث الحرب والآثار التي خلفتها في المجتمع المصري ، كالثورة المصرية التي أظهرت الشعور المصري ميالاً الى الاستقلال منقبضاً على نفسه عند حدود قوميته . وقد جارى مطران هذا الشعور الجديد فمال مع الفكرة القومية المصرية وأيَّد سعد زغلول في حركته الوطنية ووقف مع الوطنيين المصريين في حملتهم على السياسة الانجليزية . على أننا يجب ألاّ ننسى ان هذا الشعور طبيعي عند مطران لو نظرنا الى ان الأحوال التي كانت مصر تجتازها كانت سوريا بلاده تجتازها ايضاً . ومن هنا كان صدق الشعور عند الرجل وخلوص العاطفة في ميله مع الفكرة القومية المصرية

ويظهر ميل مطران مع الفكرة القومية المصرية في قصائده التي تتصل بذكريات جهاد مصر في سبيل استقلالها وتأمين دستورها وفي مرثاته لسعد باشا زغلول عام ١٩٢٧ التي ضمنها الكثير من التصاوير والتهاويل الشعرية التي تحمل خلجات نفسه وميول عاطفته نحو مصر [(٣)] . وكذلك في مرثاته لصديقه محمد بك أبو شادي تظهر ميوله واضحة . يقول مطران :

زمان قضينا الجد فيه حقوقه ولم نله عن لهو ورشف رضاب

---

(١) عام ١٩١٣ ص ١٩٠ — ٢٦٠ (٢) مجلة سركيس — عام ١٩١٣ — ص ٢٠٧

(٣) مرثية مطران لابي شادي ص ٧١ — ٧٣ من كتاب محمد أبو شادي - دراسة أدبية تاريخية للسيد عبد الحميد الكيلاني وعبد الحفيظ الروبي

محضنا به مصر الهوى لا يشوبه حذار قصاص او رجاء ثواب
وما مصر الا جنة الارض سيجت بكل كبير الهم غض اهاب
فداها ولم يكترن اى جار حكمها فذل محاميها وعز محابي
فكم وقفة اذ ذاك والموت دونها وقفنا وما نلوي اتقاء عقاب
وكم كرة في الصحف والسوط مرهق كررنا وما نرتاض غير صعاب(١)

وأنت تلمس في وضوح في هذه الابيات شعور الخليل نحو مصر، وما كان يخالجهُ من احساس الميل لها والذود عن حياضها، وهذا الشعور يتسق مع ما قلناه بخصوص عواطف الرجل نحو مصر

— ٣ —

اتصلت في الفترة التي بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٢٤ الصلة بين نفس مطران وآثار الشاعر العالمي «وليم شكسبير». فقد كان مطران في ذلك الحين يترجم بعض الروائع من مسرحيات شيكسبير الشعرية الى العربية نقلاً عن ترجماتها الفرنسية. وما كان له ان يشتغل بالترجمة وبدير معاني شكسبير في ذهنه حتى يستنزل لها قالبها الشكلي في العربية، الا ويعلق بذهنه بعض معاني «شيكسبير» وأخيلته وتصاويره وتشابيه وتهاويله الشعرية. ونظراً لان هذه الاشياء كانت تصطخب في ذهن الخليل، فقد كانت تحضر عنده حين يعرض لنظم الشعر، وتتسرب الى قصائده، ومن هنا جاء ما في شعره لتلك الفترة من التأثر بالاغراض والمعاني الشيكسبيرية. ومطران لم يخرج في ذلك عن كونه انساناً يتأثر بمطالعاته خصوصاً اذا كانت من الطراز العالي. فضلاً عن ان هذه الآثار التي يطالعها كان يعيد الكرة عليها حتى تلين لهُ معانيها فيقدر على صبها في القالب العربي، ومن هنا كان تذوقه للمعاني الشيكسبيرية والاخيلة الخاصة بوليم شيكسبير مائلة الرواء Fresh دائماً. ولهذا يجب ألاَّ تحدث عن الاقتباس والنظر حين ترى مطران يسوق في قصائده الشعرية التي نظمها لتلك الفترة من الزمن بعض المعاني والاغراض والاخيلة الخاصة بشيكسبير. لأن السبب في ذلك واضح ثم عندك لكل من الشاعرين — وليم شيكسبير وخليل مطران — منحاه الخاص في شعره الذي يتسق بطبيعته الخاصة

وشعر مطران لتلك الفترة من الزمن متفرق في بطون مجلات وصحف ذلك العهد وبعضه روي في بعض الكتب الادبية. وهي بعد ذلك لم تجمع في مجموعة شعرية، وأولى القصائد التي تصادفنا من آثار تلك الفترة وتلك القصائد التي تتعلق بالحرب الطرابلسية، تجد نماذج منها في كتاب الشعراء الثلاثة (في سبيل الهلال الاحمر ٣٠٨ — ٣١١ ووداع لبعثات الهلال الاحمر ص ٣١٤) كما تجد مقطوعة في المقتطف (عتاب واستصراخ — م ٨٤ ج ٦ ص ٦٦٣). ثم يجيء بعد ذلك قصائد ومقطوعات في الرثاء، وفي بعض حفلات التكريم التي أقيمت لذلك العهد، من ذلك قصيدته التي القاها عن تحية الشام لمصر في نادي الاتحاد السوري في ٢٨ ابريل ١٩١٥ ومستهلها:

الى مصر أزف عن الشآم تحيات الكرام الى الكرام

ونجدها في الشعراء الثلاثة ص ٣٣٢ — ٣٣٤ ورثاؤه للشيخ علي يوسف (ص ٢٧٤ — ٢٧٧ الشعراء الثلاثة وقد تليت في حفل الاربعين بدار السادات مساء ٥ ديسمبر ١٩١٣) ومرثاته لجورجي زيدان

(١) مجموعة المراثي التي قيلت في سعد زغلول

(ص ٣٠٢ — ٣٠٣ الشعراء الثلاثة) ورثاؤه لنقولا رزق الله (ص ٦٩٥ من الهلال م ٢٣ ج ٨ يولية ١٩١٥) وقصيدته عن ميشيل لطف الله وما ترمز (ص ٢٢٨ — ٢٢٩ من الهلال م ٢٤ ج ٣ ديسمبر ١٩١٥ والقصيدة منشورة بخط مطران)وقصيدته لاحانة الطلبة الشوام بالازهر (الهلال م ٢٠ ج ٦ ص ٥٠٤ والشعراء الثلاثة ص ٣٤٥—٣٤٦) وفي مستهلها يقول :

يا مصر أنت الاهل والسكن وحمى على الارواح مؤتمن

ومن قصائده الغر لذلك الحين قصيدته عن « وفاة وردة » (الهلال م ٢٥ ج ١ ص ٢٣—٢٤) ومرثاة للدكتور شبلي شميل (١) (الهلال م ٢٥ ج ٥ ص ٤٢٤—٤٢٦) وبين الرياض وصاحبته (٢) (الهلال م ٢٥ ج ٨ ص ٦٢٤— ٦٢٦) و« الالم أخاء والوسيلة السخاء » (الهلال م ٢٦ ج ١ ص ٥٤٣—٥٤٤) ومستهلها :

عفوكم ما تقدمه أقـدام حتى مثلما عن مثله الاحجام

وتحية مطران لشوقي عقب عودته من المنفى (الشعراء الثلاثة ص ٢٥٩ — ٢٦٣) وقصيدة الاخاء والوئام بين أبناء مصر وابناء الشام (الهلال م ٢٧ ج ٨ ص ٧٤١ — ٧٤٣ وقد ألقيت في حفل في دار البطريركية المارونية بالقاهرة) و « حكاية وردة » (الهلال م ٢٧ ج ١٠ ص ٨٩٧ — ٩٠٠) وفيها التأثر واضح بسونتات شيكسبير وقصيدة « يوم البرميل او مرقص البر والبحر » (م ٢٩ ج ١ ص ٧٠ — ٧٢) و « الحياة والفن في تكريم محمود مختار المثال بمناسبة نحته تمثال نهضة مصر (الهلال م ٢٩ ج ١ ص ١٧— ١٨)ومرثاته لولي الدين يكن (الهلال م ٢٩ ج ٨ ص ٧٤٣— ٧٤٤ وقد ألقيت في حفلة التأبين) وقصيدة « الحديقة المرشوشة » (الهلال م ٣٠ ج ١ ص ١٦) و « الى تمي » شكراً لها على اهدائها له « ابتسامات ودموع » (الهلال م ٣٠ ج ٢ ص ١٢٥—١٢٧) و « رثاء مريانا مراش » (الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٢١ ٣٢٢ ومقدمة بكلمة من مجلة الهلال فيها ان هذه القصيدة بوصفها لم يسبق مطران اليها سابق في العربية) و « النوارة او زهرة المرغريت » (الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٣٠) و « نشيد الكشافات » (الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٨٧) و « رثاء نعوم شقير » (الهلال م ٣٠ ج ٨ ص ٧٤٤ — ٧٤٥) ومرثاة اسماعيل صبري باشا (الشعراء الثلاثة ص ٢٧٧ — ٢٨٣) و « الشعر الذهبي » (الهلال م ٣٢ ج ١ — ٢ ص ٢٩) و « صيحة ألم » (الهلال م ٣٢ ج ٣ ص ٢٤١) و « يوم الخميس » (الهلال م ٣٢ ج ٥ ص ٤٧٦—٤٧٧) وفي ظل تمثال رعمسيس (المقتطف م ٦١ ج ٢ ص ١٢٩—١٣٤) و « الحسن الجديد » (الهلال م ٣٢ ج ٧ ص ٦٨٩) و « نشيد توت عنخ أمون » (الهلال م ٣٢ ج ٩ ص ٩١٣ وقد لحنتها فيكتوريا ملحمة وأنشدتها في حفل)]

وفي هذا الوقت في صيف عام ١٩٢٤ سافر مطران الى سوريا وطاف في ربوعها وانتهى الى حلب وعملت لهُ حفل تكريم في نادي الشبيبة الكاثوليكية تحت رعاية الحاكم العام لحلب وذلك في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤ وألقى فيها مطران قصيدة عصماء عن حلب (تجدها ص ٤٨٩ — ٤٩٢ من مجلة الكلمة السنة ١٣ عدد تشرين ثاني وكانون أول ١٩٣٨)

ورجع مطران من القطر السوري وعكف على ترجمة كتاب عن البروفسور بايون مدير جامعة اكس موضوعهُ الارادة ، نشر منهُ فصولاً في مجلة الهلال ، تجدها منثورة على صفحاتها لذلك الحين (٣)

---

(١) الهلال م ٣٦ ج ١٠ ص ١٢٠٤ يقول مطران : انه يتعرض لترض الشعر بالبكاء . فاهر مثال ذلك مرثاته لشبلي شميل . فقد جعله الحزن يجيد بدلا من ان يستسلم للدموع ويبكي ، فهو يخرج عن ضيق نفسه وعاطفة الحزن التي عنده بتأليف القصيدة ويخرج منها كالرجل الحزون يبكي حتى يكاد يقتل نفسه من البكاء

(٢) نظمت عام ١٩١٤ وأهديت الى مدام تقلا باشا شكراً لها على اهدائها هدية ثمينة اليه وهي من النوع الرمزي — ص ٢٦٤ س ٢ م ٢٥ ج ٨ من الهلال (٣) الهلال م ٣٣ ج ١ ص ٥٧ — ٦٢ و ج ٢ ص ١٢٥—١٢٧ و ج ٣ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ و ج ٤ ص ٣٥٧—٣٦٠ و ج ٥ ص ٤٧٢ — ٤٧٥ و ج ٦ ص ٦٣٤ — ٦٣٦

وقد أظهر مطران لهذه الفترة من الزمن بجانب نشاطه في عالم الشعر ، نشاطاً يذكر في عالم النثر . فقد نشر ثلاثاً من ترجماته لروائع مسرحيات ولم شيكسبير وقد سبقت الاشارة الى ذلك ، كما كتب مطران فصولاً أدبية تمتاز بمطالعاتها العميقة في الاهرام والهلال والمقتطف ، من تلك الكتابات ما كتبهُ عن دائرة المعارف لفريد وجدي (الأهرام — ١٩ سبتمبر ١٩٢٢) ، وما كتبهُ عن الجزء الثاني من البؤساء ترجمة صديقه حافظ ابراهيم (الأهرام ١٠ اكتوبر ١٩٢٢) ، وما نشرهُ عن كتاب « كلمات وإشارات » للآنسة مي (الهلال م ٣٠ ج ٥ ص ٤٩٩ ـ ٤٥٠) ، وما كتبهُ من دراسة نقدية لديوان ولي الدين يكن (المقتطف م ٦٦ ج ٣ ص ٢٤١ — ٢٤٩)

***

تعتبر الفترة التي بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٣٨ ، الفترة التي بلغ فيها الخليل ذروته من الشعر وقد استهل هذه الفترة بملحمته العظمية « نيرون » التي تعتبر اول ملحمة من الشعر في الادب العربي ، وهي خير ما نظمهُ الخليل ، ويظهر فيها مطران وقد ملك أعنة خياله الوثاب وهضم شيكسبير هضماً قويًّا فلم تتسرب معانيه وأغراضه الى ملحمته الا بعد ان مثلها وأدارها في ذهنه فجاءت من نفسه . وهذه الفترة من حياة مطران يمكن ان نقول عنها ، انها فترة ظهوره بالاغراض الشيكسبيرية في الشعر ، ولكن على اساس من الرجوع الى نفسه

والاشعار التي قالها مطران لهذه الفترة من الزمن غير مجموعة في ديوان ، فهي متفرقة في بطون صحف ومجلات ذلك العهد ، ونحن نذكر منها ونسجل أهم ما استوقفنا منها على ان نعود في المبحث العاشر ونثبتها كلها . وأول ما يصادفنا من شعره لتلك الفترة الزمنية قصيدته « بائعات الازهار » (الهلال م ٣٥ ج ١ ص ٢٤ قيلت في وصف فتيات يبعن الازهار في حفلة لاعانة منكوبي الشام) و« وصف مغنية » (الهلال م ٣٥ ج ١ ص ١٧٧ وهي في وصف مغنية شاهدها في حفلة وئام وائتلاف) و « ايزيس او الحب الخالد » (الهلال م ٣٦ ج ٦ ص ٦٥١ ـ ٦٥٢) و « موليير » (م ٣٧ ج ١ ص ١٨ ـ ١٩ من الهلال) و « في سبيل الصناعة الوطنية » (الهلال م ٣٨ ج ١ ص ٤٤ ـ ٤٥) و « ما مصير القوم » (المقتطف م ٧٧ ج ٣ ص ٢٥٦) و « هند » (الهلال م ٣٩ ج ٢ ص ١٨٩) و « بنت شيخ القبيلة » (المقتطف م ٨٠ ج ١ ص ٢٣ ـ ٢٤) و « مفاخر الهدايا للعروس الحسنة » (ابولو . م ١ ج ٣ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧ وهي في ٩ مقاطع) و « النرجسة » (الهلال م ٤١ ج ٩ ص ١٢٥٩) و« مرثاته لحافظ » (ابولو م ١ ج ١١ ص ١٢٩٨ـ١٣٠٦ وتعليق عليها للاستاذ احمد الشايب في نفس المرجع ص ١٣٠٦ـ١٣١٠) و « بنفسجة في عروة » (ابولو م ١ ج ١ ص ٦ ـ ٨) و « النيل الخالد » (أبولو م ١ ج ٤ ـ ص ٤٨٧ ـ ٤٩١) و « تكريم زكي مبارك » (أبولو م ٢ ج ٩ ص ٨٠٧ ـ ٨٠٨) و « رثاء شيخ العروبة » أبولو م ٣ ج ٤ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٨) و « بين عروسين » (مجلتي م ١ ج ٥ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٥) و « شبل الاسد » (الاهرام ٢٩ ـ ٧ ـ ١٩٣٧ ص ٩)

وقد تضافرت الروايات عام ١٩٣٣ عن عزم مطران ان يخرج مجموع شعره كاملاً في ديوان مشفوعاً بدراسة نقدية وافية من قلم الدكتور طه حسين[1] غير انهُ على الرغم من مضي

(١) ابولو : م ١ ج ٢ ص ٧٠٢ وبروكلمان في تكملة تاريخ الآداب العربية . الملحق الثاني فقرة ١٥ ص ٨٩ ـ ٩٦)

خمس سنوات على ذلك التاريخ ، لم يخرج مطران شيئاً . وان كان يروي من جديد انهُ شارع في جمع شعره وتنقيحه مقدمة لإخراجه في ديوان على ابناء العربية . ولا شك ان صدور مثل هذا الديوان سيكون غنماً عظيماً للادب العربي المعاصر ، لانهُ سيجمع شعر ثلاثين سنة من نظم الخليل مما لم يثبت في ديوانه الاول ومما هو متفرق في بطون الصحف والمجلات العربية في مصر وسوريا ولبنان . على اننا من باب التسجيل التاريخي قد اثبتنا هنا ما قدرنا على اثباته من المواضع التي عثرنا فيها على شعره ، وسنثبت في المبحث العاشر ، كل ما عثرنا عليهِ من كلام منظوم أو منثور في ثبت يساعد من جهة على حصر آثاره ، ومن جهة أخرى على دراسة شعره

***

لقد ساعد ما كان للخليل من حظ في الحياة الأدبية العربيّة أن يجعل لهُ مكاناً بين أدباء العربية المعاصرين ، فذاع وانتشر اسمهُ وأصبح الرجل ملء اسماع الناس في الشرق العربي ، وانتبه لهُ المستشرقون في أوربا ، فكتبوا عنهُ وجعلوهُ رأس مدرسة جديدة في الأدب العربي [1] وذهب البعض يقارن بينهُ وبين شوقي بك ، ومنهم من قدَّمهُ على شوقي واتخذهُ اماماً وزعيماً للشعر المعاصر [2] — ذلك أنهم أخذوا بروعة الجديد الذي حمله شعر الخليل ومنحاهُ الشخصي في شعره الذي يطبعهُ بطابع خاص [3] — وليس هنا مجال الكلام على شاعرية الخليل وأغراض شعره وما يلبسهُ هذا الشعر من الصور التي يرتديها من عالمي الوجدان والطبيعة ، فلذلك مكانه الخاص من دراستنا . اما الذي نريد تقريره هنا ، أن هذه الحياة الحافلة التي عاشها الخليل نظراً لأنها كانت حياة ضخمة ، فقد ملأت أسماع الناس ، وكانت قدوة الكثيرين ، وأحدثت أثراً لم يحدثهُ غير القليل من الأدباء الاعلام الذين عاصروه

والواقع ان مطران عاش عيشتين : عيشة مادية في عالم الواقع ، تتوضح صورتها في جهاده في الاعمال المالية والاقتصادية والزراعية . وعيشة ذهنية تتظاهر في الحياة الشعرية التي عاشها . غير ان الحياة الذهنية كانت غالبة عليهِ ، ولهذا لم ينجح مطران في حياته في عالم الاعمال ، وهو نفسه يعترف بأنهُ لم يخلق للجهد العملي وان مملكته الحقيقية لاتخرج عن عالم الذهن [4]

وحياة مطران التي دارت في معظمها في عالم الذهن ، كانت حياة شعورية يتعارض في

---

(١) بروكلمان تكملة . تاريخ الآداب العربية . الحق الثاني فقرة ١٥

(٢) صديق شيبوب — البصير — العدد ٨٤١٨ — ٥ يونية ١٩٢٥ ص ١

(٣) صديق شيبوب في البصير — ٥ يونية ١٩٢٥ ص ١ والشايب في أبولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ — ١٣٠٨ (٤) مطران في حديث له مع سلامه موسى بالهلال م ٣٦ ج ٩ ص ١٠٣٤ — ١٠٣٨

شبكة اقفالاتها الفكر والعقل . ومن هنا كان مطران شاعر الفكرة في الأدب العربي الحديث [١]، وقد عرف ذلك معاصروه منهُ فاعترفوا له بهِ وفي ذلك يقول حافظ ابرهيم :

« هو في طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد ، وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الاعجمي . وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث وطوفوا بسرد وقائع التاريخ ففتح بذلك فتحاً جديداً » (٢)

كما وان الاستاذ الشايب يعترف له بذلك فيقول :

[ان مطران ليس شاعراً فقط أو هو شاعر من الطراز المثقف ، هو عالم وأديب : صياغة بديعة ، وشعور صادق، وخيال عام ، وأفكار سديدة] (٣) —

هذا والشيخ ابراهيم اليازجي يشهد له بتمكنه في الأدب الى حدّ أنّ ليس بين المعاصرين من يقدر أن يمشي معهُ فيقول عن قصيدتهِ في رثاء نجيب الحداد

« هذا هو شعر خليل مطران الحقيق ولو كان شعره كل هذه الصور والمعاني وهذا الحسن في الصنعة في اظهار العواطف لما مشى معه أحد من المعاصرين (٤)

وليس المجال استقصاء كل ما قيل في الخليل فهو لو جمع لـكان كتاباً ضخماً (٥)

خاتمة

يبلغ الخليل الآن من سني حياته العامرة بحافل الاعمال والآثار الثامنة والستين من عمره . وقد عرضنا لهذه الحياة في خطوطها العامة ونزلنا بها الى الأصل الثابت من نفسهِ مستعينين على ذلك بكلام الخليل حيناً وبما كتب عنهُ حيناً آخر ، مالئين الفراغ الذي في هيكل حياتهِ بما يمكن أن يُستخلص من شعره . وهكذا انتظمت معنا حياته في سلسلة تندرج جميعها في صورة مطردة ترتكز على الواقع. اما امتداد هذه السلسلة في المستقبل فمتروك الى الزمن بحيث لا يخرج ما يجد لمطران من وقائع وآثار عن نطاق الخطوط التي رسمناها لشخصيته في دراستنا

على أنهُ مما يحسن التنبيه اليهِ هنا انا في اثناء استعراض سيرة الرجل لم نتوسع في سرد الشواهد التي اعتمدناها لتفصيل حياته والاستدلال منها على الاصل الثابت من شخصيته لان الـكثير من هذه الشواهد مبثوث في المراجع التي اثبتناها في الحواشي وقد تركناها لمراجعة القارىء وفطنته

---

(١) أحمد الشايب في مجلة أبولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ — ١٣٠٨

(٢) الشعراء الثلاثة ص ٢٥٣ — ٢٥٤ (٣) الشايب في ابولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ (٤) أنيس الجليس، السنة ٩ ج ٩ ص ٣٧١ (٥) أنظر العدد الخاص بمطران من مجلة سركيس — عام ١٩١٣ — والشعراء الثلاثة ص ٣٥٢ — ٢٥٥ ومن المهم أن نقول أن في المصدر الاخير يوجد كلام عن مطران ص ٥٣ منسوب للمنفلوطي وهو في الاصل منشور بمجلة سركيس م ٣ ج ١٩ سبتمبر ١٩٠٦) ص ٢٧٦ جاء ضمن مقال بعنوان طبقات الشعراء بدون توقيع ويظن أنه للرافعي

ان تؤمني ...

للدكتور ابراهيم ناجي

أنتِ ان تؤمني بحبي كفاني   لا غرامي ولا جمالك فاني

أجْدَبَ الهجر خاطري وجناني   وأجَفَّ النوى دمي ولساني

فتعالي روّي الظّما في عيوني   واجنوني لقطرةٍ من حنان

طال والله في بعادك ذُلّي   ووقوفي على ديار الهوان

أي سحرٍ أحسُّهُ أي روحٍ   سكبتْ فيَّ هاته العينان

لكأنَّ الرميم ما تبعثان   وكأنَّ النشور ما تسكبان

وكأنّي محلّقٌ في سماء   ومُطلٌّ منها على الأكوان

مستعزٌّ بما مَنَحْتِ قويٌّ   أجمع الكون كلّه في عناني



وقيمتها الغذائية

للدكتور عبده رزق

تُعدُّ الاثمار بلا مراء في مقدمة الاطعمة المفيدة بل الضرورية لصحة الانسان . وميل الاولاد بدافع الفطرة الى محبة الاثمار من أفضل الأدلة التي تدعو الانسان الى تناولها حسبما يلائم صحته وسنه . فهي تنقل الى الانسان محضّرات « المطبخ الشمسي والجوي » العجيبة التي لا يمكن الشك في منافعها لحظة واحدة . زد على ذلك فالاثمار ليست بالاطعمة التي تجهد الجهاز الهضمي أو تسبب ارتباكاً فيه متى أُخذت باعتدال ، ولا هي فقيرة من ناحية قيمتها الغذائية ، بل على الضدّ من ذلك يجب اعتبارها أطعمة تدّخر فيها قوى حيوية عظيمة

ولذلك فالمداواة بالاثمار أو عصاراتها من الامور المعروفة اليوم كوسيلة لتنقية الجسم من الأدران والفضلات السامة في كثير من الامراض الحادة والمزمنة بفضل فعلها المقوي والمنقي معاً ، وهذه المداواة لا تختلف في تأثيرها في المريض عن الاقتصار على اللبن الحليب في الامراض نفسها

وعدا ذلك فقد ثبت بالاختبار أن الانسان الذي يقتصر على تناول الاثمار يسهل عليه أن يعيش بغير انزعاج خلافاً لما يعتقده بعضهم من انها خالية من المواد المغذية ، ولستُ اقصد بذلك الرجوع الى ما كان عليه اجدادنا الاولون الذين كانوا يقتصرون على تناول الاثمار دون سواها ، انما يجب علينا تعاطيها اكثر مما نتعاطاها عادةً في هذه الايام ، أولاً لانها تعتبر دواء مفيداً جداً ضد الامساك ، وثانياً لكونها مغذية ورخيصة معاً . ثم ان عصيرها يثير الشهية للطعام كما أن رائحتها وطعمها يفعلان فعل التوابل والمقبلات . ولنأخذ مثلاً على قيمة الاثمار الغذائية الموز ، الذي يحتوي في الكيلوغرام الواحد على : ٦ الى ١٢ غراماً من المادة الزلالية و ٣ الى ١٢ غراماً من المواد الدهنية و ١٣١ الى ٢١٨ غراماً من هيدرات الكربون . ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الانسان يستطيع أن يعيش اذا اكتفى بأكل الاثمار . والذين يدعون الى مذهب الاقتصار على الفواكه يفضّل رأيهم على رأي الذين يدعون الى الاقتصار على تناول الخضروات . لأن الاثمار غنية خاصة بالاملاح العضوية : كالطرطيرات والمالات والسيترات التي تسبب افرازاً وافراً من عصير البنكرياس ، كما انها تحتوي ايضاً على الغليكوز والفلوز وغيرهما من المواد التي تحترق وتمد الجسم بالقوة والحرارة . وعلاوة على هذا كله فالاثمار تحتوي على الفيتامين — هذه الاجسام الغريبة التي لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة على كثرة المكشوفات الحديثة في ميدانها ولكن لا يختلف باحثان مختصان في أنها ضرورية للحياة

انما هناك شيء واحد يؤسف لهُ وهو ان تعاطي الفواكه النضة او النيئة يتطلب أولاً النظر في حالة الاسنان والمعدة ، فبعض الناس مثلاً لا تستطيع معدتهم ان تتحمل سوى أصناف معينة من تلك الفواكه لان هذه تسبب غالباً عند المصابين بعسر الهضم مجزاً وارتباكاً في الجهاز الهضمي ، فيشعر المريض إذ ذاك بثقل في المعدة في اثناء النهار ، وباضطراب وأحلام مزعجة ليلاً في أثناء النوم

واليك الآن اصناف الأثمار المسموح بتناولها لذوي المعد الضعيفة : — ١ — الاثمار النضة الناضجة : العنب . الخوخ . الموز . الدراقن . يوسف افندي ٢ — الأثمار المطبوخة : التفاح . الخوخ . الموز . البرتقال . المشمش . الاناناس . الدراقن . الكرز . التوت الافرنجي (Fraises)

اما الأثمار الممنوعة عنهم سواء أنيئة كانت أم ناضجة فهي : الاجاص . الريباس (Groseilles) كذلك الأثمار الجافة الشديدة الحلاوة كالتين والتمور . والدسمة : كالجوز واللوز والبندق

ومن الأثمار ما يسبب اضطراباً في الهضم بالنظر لتركيب انسجتها الخارجية : كالاجاص (الكمثرى) والتفاح فهي على الرغم من نضوجها التام لا تلائم الذين يشكون ارتباكاً في وظائف الهضم وخاصة عند الذين يمضغون مضغاً ناقصاً او الذي تلفت اسنانهم اي أصيبت بالنخر . فو الحالة هذه تؤثر الاثمار المذكورة تأثيراً سيئاً وتسبب نفس الاضطرابات التي تحصل أحياناً من تناول بياض البيض الجامد او الفطر (Champignons) وبذلك تكون عائقاً للعصارات الهضمية وتفعل فعل الاجسام الغريبة في الجسم . كذلك تفعل التمور والتين وقشور بعض الأثمار (كالدراقن والخوخ والاجاص الخ) — عندما يعتري اعضاء الهضم او وظائفه ضعف ما

وبوجه عام يجب الامتناع عن تناول الأثمار الاّ بعد نضوجها التام اي بعد ان تكون قد طرأت عليها الدورة الطبيعية تحت تأثير الشمس ، وبعبارة أخرى التغييرات التي تميزها عن الأثمار الفجة

والثمرة الناضجة تحتوي على : ١ — الماء : وذلك بنسبة ٧٨ الى ٩٠ ٪ اما الموز فماؤه أقل (٧٤ ٪) وأما البطيخ الاصفر فماؤه اكثر (٩٥ ٪) ٢ — السكر وهو ما تتميز به الثمرة الناضجة فيعطيها قسماً وافراً من حلاوتها ٣ — الحوامض : ان حموضة الأثمار تختلف باختلاف نوعها ونسبتها تكون ٢ الى ٣ ٪ ٤ — الروائح العطرة : وهذه تعطي مختلف الأثمار الناضجة طعماً ورائحة خاصين بها ٥ — سيلولس : قسم من هذا على الأقل يغدو من نفايات الجسم . لكنهُ يساعد ميكانيكيًّا حركات الامعاء الدورية التي تحصل بتأثير تقلص أليافها العضلية ، وبذلك يساعد على تفريغ الامعاء بانتظام . فضلاً عن هذا فبعض الأثمار تحتوي على مواد دهنية (كالجوز واللوز والبندق) وأخرى تحتوي على مواد نشوية كالموز مثلاً

اما نسبة السكر في ثمرة ما فتختلف دائماً بحسب حالة نضوجها وبحسب السنين أيضاً . ففي فصول الصيف الجافة والمشمسة مثلاً تكون نسبة سكر الأثمار فيها وافرة . اما في فصول الصيف الرطبة والقليلة شمسها فالأمر يكون على عكس ذلك اي ان نسبة السكر في الأثمار تكون فيها

قليلة وحموضتها شديدة . ومن ذلك نستخلص النتيجة التالية: في بعض السنين الجافة والحارة جداً يكون السكر متجمعاً — الى حدٍّ ما — في لب الاثمار حتى ان عصيرها يلوّث اصابع الذي يتناولها . بينما في السنين الرطبة والقليلة شمسها لا تلاحظ تلك الخاصية على الاطلاق . ولهذا يخشى في فصول الصيف الحارة والجافة من اعطاء الاثمار الى المصابين بضعف ما في الجهاز الهضمي ، واذا اردنا ان نسمح لهم بتناولها فليكن ذلك بالاحتراس التام ، ولا سيما الذين يشكون مرضاً ما في الكبد . أما الذين يهضمون الاثمار ، على انواعها جيداً ففائدتهم الصحية تقضي بأن يتناولوا منها ما يشاءون بدون وجل أو تردد . وأما ذوو المعد الضعيفة فينبغي ان يقتصروا على تناول الاثمار المطبوخة وذلك بشكل (خبيصة) Marmelades بمداضافة السكر اليها او عدم اضافته مع العلم أن الاكثار من السكر يسبب حموضة المعدة . وخبيصة الفواكه المطبوخة تفضل بوجه عام على المربى لكونها تحتوي على قليل من السكر وكثير من الماء

ويجب ألاّ يغرب عن ذهننا ان هضم الاثمار منوط على الخصوص بفعل المضغ. فبقدر ما تكون الثمرة ممضوغة بالاسنان وممزوجة باللعاب يكون هضمها ، كما هو معلوم ، سهلاً وأدنى الى التمام اما اصناف الاثمار المطبوخة الصعب هضمها والتي ينبغي على كل شخص ضعيف المعدة أن يتجنبها فهي:

(١) عصير الاثمار الجمد (Gelée) ومربيات الفواكه لاحتوائها على قدر وافر من السكر (٢) الاثمار المطبوخة عند ما تكون كاملة او مقطعة قطعاً (Compotes) (٣) الاثمار المجمدة والمشربة السكر ، والاثمار المطبوخة المضاف عرق اليها (٤) اقراص المعجنات واقراص الحلوى المحشوة بالاثمار لان عجين هذه الاقراص يكون غير مختمر اختماراً كافياً

ومن فوائد تناول مقادير وافرة من الاثمار في حالة الصحة ، مكافحتها وطأة الامساك لأنها تطرد السموم من الجسم كما ذكرنا اعلاه وتلين الامعاء وتسهل تفريغها بما تحتوي عليه من مقادير وافرة من القلويات والماء . وهذا المفعول الحسن له تأثيره بنوع خاص في الكبد والكلى والدورة الدموية التي يخف التعب عنها كثيراً ولاسيما الكلى التي تستريح لأن الاثمار لا تسبب لها اي تعب او اجهاد . وللحصول على أفضل نتيجة يحسن بنا تناول الاثمار قبل طعام الفطور صباحاً ، وفي الساعة ١٠ صباحاً ، كذلك في الساعة ٤ بعد الظهر . ومما يجدر ذكره ايضاً ان بعض الاطباء كانوا الى عهد قريب يمنعون الاثمار عن المصابين بداء الرثية والنقرس خوفاً من تأثير الاملاح العضوية التي تحتويها هذه الاثمار . لكن أطباء اليوم قد خالفوا هذه الفكرة الخاطئة واوصوا بتناول مقادير وافرة من الاثمار منذ ان تأكدوا ان تلك الاملاح تتحول في الجسم الى كربونات قلوية تزيل حموضة الدم . ولهذا نعرف أن نقدّر اليوم ما للاثمار من المفعول الحسن في داء النقرس والرثية فيوصى يومياً بتناولها وخاصة العنب والكرز والتوت الافرنجي والليمون الحامض الخ . أنما يجب الاحتراس كي لا يحصل اضطراب في الجهاز الهضمي اي ان لا يتجاوز ما يتناوله

الانسان منها الحدّ اللازم . والى القارىء نبذتين خاصتين بالكرز والتوت الافرنجي :

(١) الكرز : يحتوي الكرز الغضّ في حالة نضوجه التام على ٨٠ ٪ من الماء و ١٠ من السكر و ٢ هيدرات الكربون و ١ حوامض و ٠،٧ مواد زلالية و ٦ سليلوس . ومن الضروري التمييز بين الكرز الحلو والكرز الحامض. فالأول منهما يوصى استعماله بنوع خاص في حالة المصابين بعسر الهضم ، بينما الثاني لا يمكن السماح به لجميع المصابين على السواء . وعلى كل ينبغي ان يكون الكرز ناضجاً نضوجاً تامًّا ، وكأغلب الأثمار يجب منعه عن المصابين بالالتهاب المعوي

والكرز يُعتبر صحيًّا من المبردات اللطيفة ولاسيما اذا مزجنا عصيره بالماء وأعطيناه كشراب للمحمومين . كذلك يكون مفيداً جدًّا كمدرّ للبول ومليّن خفيف للامعاء . ومن الكرز الجاف يمكن تهيئة منقوع مغلى كمدرّ للبول ايضاً وذلك باضافة ٥٠ غراماً من الكرز الجاف الى ليتر واحد من الماء . فهذا المنقوع يفيد جدًّا الاشخاص الذين ادرارهم كثيف ونادر ، كذا ينفع المصابين بداء النقرس والرثية . وسواء كان الكرز طازجاً او مطبوخاً فهضمه سهل جدًّا . اما المربيات المستحضرة منهُ فتتطلب معدة سليمة لهضمها دفعاً لحصول ثقل في المعدة والامعاء

اما الكرز الجاف فيحتوي في كل ١٠٠ غرام على : ماء ٥٠ و سكر ٣١ وهيدرات الكربون ١٤ ومواد زلالية ٢ وبقايا ١،٥ . واذا اردنا الآن ان نأخذ مقداراً معيناً من الكرز الجاف والكرز الطازج فالأول منهما يكون اكثر غذاء من الثاني

(٢) التوت الافرنجي : يختلف مفعول هذا الثمر باختلاف الاشخاص . وبوجه عام يُعدّ من الأثمار الملطفة للجسم . اما لذوي المعدة الضعيفة ولذوي الاستعداد لبعض الامراض الجلدية كالشري والاكزيما فيعتبر مضرًّا . وعلى نقيض ذلك يكون مفيداً جدًّا في حالات الرثية وداء النقرس والحرَض Arthritisme وعند ذوي الامزجة الصفراوية والامتلاء الدموي وخاصة في حصى المجاري البولية . والاقتصار على تناول التوت الافرنكي يعادل تماماً بمنافعه الاقتصار على تناول العنب ، كحمية للمريض ، عند المصابين بداء الرثية وامراض الكبد والحرَض . فيؤخذ منهُ قدر ٢٠٠ الى ٤٠٠ غرام يوميًّا مع الاحتراس في مراقبة حالة الجلد والامعاء لأن هذا الثمر يسبب عند بعضهم الحكة او الشري ، ويحدث القبض من ناحية الامعاء . ويحسن باصحاب المعدة الضعيفة تجنب مربيات هذا الثمر لانها تسبب غالباً ثقلاً وارتباكاً في المعدة . أما شراب التوت الافرنجي فنسبة تركيبه كما يلي : سكر ٦ اقسام وماء قسمان وتوت افرنجي ٣ أقسام . وبعد أن يذاب السكر في الماء يضاف اليهما التوت الافرنجي ثم يغلى الخليط بضع دقائق وبعدها يُعصر ويُصفّى . ولا حاجة الى التذكير هنا أخيراً بضرورة غسل هذه الفواكه قبل تناولها لأن الارض التي تُزرع فيها غالباً ما تسقى بمياه أو سوائل أخرى مشكوك في نظافتها

بحث اقتصادي

صناعي مقابل في موقف

ايطاليا وألمانيا منها

— ١ —

القوة الحربية في العصر الحديث تقوم على أساس صناعي، وما الجيوش والاساطيل وأسلحة الطيران الا الحد القاطع من السيف، واما النصل كله فهو ما يعرف باسم «الأمة في حالة حرب» ولاسيما صناعاتها وزراعتها ومواصلاتها، والصناعات الحربية على وجه الخصوص لان ما تطلبه القوات الحربية من الاسلحة والذخائر لاحد له، والصناعات تقوم بعملها على الوجه المطلوب، اذا هي غذيت بتيار لاينقطع من الخامات، وأهم الخامات التي تحتاج اليها الصناعة في حالة حرب، هي خمسة عشر خاماً — الفحم والحديد والبترول والنحاس والرصاص والنترات والكبريت والقطن والالومنيوم والزنك والمطاط والمنغنيس والنيكل والكروم والتنغستن

فما هو موقف ايطاليا من هذه الخامات ؟ أيها يستخرج في أرضها وأيها تحتاج الى استيراده ؟ ليس في ارضها فحم ولا بترول ولا نحاس ولا قطن ولا مطاط ولا نيكل ولا كروم ولا تنغستن، ويستخرج من أرضها ١٥ في المائة مما تحتاج اليه من المنغنيس. أما الكبريت والزنك فيستخرج منهما في أرضها مقدار كبير يفيض على ما تحتاج اليه منهما، وأما الحديد فنطاق استخراجه فيها آخذ في الاتساع ولكن المقدار المستخرج لا يكفي تماماً لما تحتاج اليه صناعتها في أبان السلم وقلما يكفي نصف ما تحتاج اليه في ابان الحرب، وأما الرصاص والنترات والالومنيوم فتستطيع أرضها ان تجهزها بنحو ثلثي الى خمسة اسداس ما تحتاج اليه منها في أبان السلام

وهذا يعني ان إيطاليا لا بدَّ ان تعتمد — وهي في حالة حرب — على استيراد كثير من المواد التي تحتاج اليها لمواصلة تلك الحرب. واحتياجها الى الاستيراد متفاوت اذا استثنينا الكبريت والزنك. ولبيان مدى هذه الحاجة نرجع الى ما استوردته سنة ١٩٣٤ وهي آخر سنة يتاح فيها للباحث احصاء يصح الاعتماد عليه فيما يخص وارداتها

ففي تلك السنة استوردت إيطاليا من الحديد والصلب ما قيمته ٣٦٢ مليون ليرا ومن

الزيوت المعدنية ما قيمته ٣٧٧ مليون ليرا . والدولة المستوردة التي في حالة حرب ، تستطيع ان تفوز بما يعوزها من خامات الصناعة والحرب ، بأحد طرق ثلاثة

١ — فاما ان تصنع بديلاً منها بأساليب صناعية اقتصادية

٢ — وإما ان تعتمد على ما تخزنه منها في إبان السلام

٣ — وإما ان تستوردها في خلال الحرب من الخارج

أما الطريق الاول فلا يعلم أن هناك عوضاً أو بديلاً صالحاً يحل محل الحديد والصلب في صنع الاسلحة ولا هناك عوض آخر يحل محل الفحم في صناعة الحديد والصلب ، ولا عوض للبترول في تسيير السفن الحربية المسيرة بهِ ، والطائرات أو السيارات والدبابات التي اصبحت جزءا اساسيًّا في كل جيش حديث . وهذا على سبيل التمثيل دون الحصر

وأما الطريق الثاني،فقد دل تاريخ الحروب على أن ما يستهلك من مواد الحرب في اثناء الحرب يفوق كل ما يقدر لهُ في اثناء السلام . ويضاف الى هذا أن حالة ايطاليا المالية لا تسمح لها بأن تنفق مبالغ طائلة على شراء مواد وخزنها لليوم العصيب لأنها بذلك « تجمد » القليل الذي تملكه من الكمبيو الأجنبي . وما تستطيع أن تخزنه قد لا يكفي لحرب قصيرة علاوة على ارهاقها من الناحية المالية.وخزن المواد للحرب جزء اساسي من كل خطة حربية. ولكن هذا المخزون لا يقصد منهُ الاَّ سد الثغرة بين استهلاك السلام واستهلاك الحرب في بدئها . ومهما يعظم المخزون فلابد من الاستيراد في حرب كبيرة بين دول متكافئة فلا يبقى امامها الاَّ طريق الاستيراد

والاستيراد من الخارج يقتضي في المقام الأول اعتمادات مالية اجنبية . والاعتمادات المالية الاجنبية تجيء إما من زيادة الصادر على الوارد . وإما من ثروة ابناء الدولة المثمرة في البلدان الاجنبية فتصفى عند الحاجة اليها وتنفق لشراء المواد اللازمة . وإما بتصدير الذهب

وحالة إيطاليا التجارية في العهد الاخير لا تتيح لها الاعتمادات الاجنبية من طريق زيادة صادرها على واردها . ولا من طريق ثروة الايطاليين المثمرة في الخارج لان معظم هذه صفيت في الحرب الحبشية وما تلاها . ففي ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٦ كان ما لحساب ايطاليا في البلدان الاجنبية ٦٣ مليون ليرا وهو خمس ثمن وارداتها العادية السنوية في إبان السلام . وقد كان هذا الحساب سنة ١٩٢٨ يزيد على ست آلاف مليون ليرا فأخذ ينقص تدريجاً حتى بلغ ما بلغهُ في آخر سنة ١٩٣٦ ويضاف الى هذا ان نفقات الحملتين الحبشية والاسبانية قضت على الحكومة بفرض ضريبة على رأس المال قدرها ١٠ في المائة

أما الذهب فالاحتياطي الايطالي منهُ كان يقدر في سنة ١٩٣٣ بنحو ٧٥ مليون جنيه فنقص الى نحو ٦١ مليون جنيه سنة ١٩٣٤ . فالى نحو ٣٢ مليون جنيه سنة ١٩٣٥ فالى نحو ٢٥ مليون

جنيه سنة ١٩٣٦ وهذا المبلغ كان ٧ في المائة من احتياطي ذهب فرنسا و ٨ في المائة من احتياطي ذهب انكلترا في الوقت نفسه . واذا قيل : ألا تعقد لها قروض ؟ كان الجواب أين ؟

فاذا كانت في حرب مع فرنسا وانكلترا فمن المؤكد انهما لن تعقدا لها قروضاً . والمانيا لا تستطيع . واميركا بحسب قانون جنصن حظرت عقد القروض لدولة لم توف ديون الحرب التي عليها لاميركا . هذا من ناحية ثمن ما تحتاج اليه

ولكن المسألة لها ناحية أخرى هي ناحية المواصلات البحرية . فاذا كانت ايطاليا في حرب مع انكلترا وفرنسا فمنفذا البحر المتوسط من الغرب والشرق سيوصدان في وجهها . نعم لهذا الايصاد ناحية استراتيجية من حيث امكانه وقانونيته فيما يتعلّق بترعة السويس . ولكن اذا كان التفوق للقوات البحرية البريطانية والفرنسية ، فالايصاد يمكن أن يتم في المحيط الاطلنطي من الغرب امام مدخل مضيق جبل طارق ، وامام مدخل ترعة السويس في شرق البحر المتوسط . ثم أن القوات البحرية البريطانية المستندة الى قبرص والاسكندرية وحيفا تستطيع أن تعرقل مواصلات ايطاليا في شرق البحر المتوسط وتخفض مقدار ما تستطيع استيراده من بلدان سواحله الشرقية . ووقوف تركيا في جانب فرنسا وبريطانيا يفضي الى قطع مواصلات ايطاليا بتاتاً مع روسيا ورومانيا ومنهما معظم البترول الذي تستورده ايطاليا

وعلى ذلك تبقى مواصلاتها البحرية حرة تماماً في البحر الادرياتيكي فقط مع يوجوسلافيا والبانيا ومن المحتمل مع اليونان ايضاً . ويوجوسلافيا تنتج بعض الفحم والحديد ، ولكنها على العموم تستورد مقادير منهما . وفي اليونان بعض موارد معدنية ولكنها قلما تصدر . وأما البانيا ففيها ينابيع بترول والمعروف عنها أن ما يمكن استخراجهُ منها يكفي ثلث ما تحتاج اليه إيطاليا من البترول في إبان السلام فقط

ولكن . . . اذا كانت هذه حالتها من ناحية المواصلات البحرية ، فما حالتها من ناحية مواصلاتها البرية من الدول التي تجاورها في الشمال

اذا استثنينا فرنسا لان سككها الحديدية لا يحتمل ان تعمل على تموين ايطاليا في حالة نشوب حرب بين ايطاليا من ناحية وانكلترا وفرنسا من ناحية اخرى — فلايطاليا تسع سكك حديدية تصلها بسويسرا والنمسا « المانيا » ويوجوسلافيا ، ثلاث سكك بين كل من هذه البلدان وبين ايطاليا . من هذه السكك سكتان مزدوجتا الخط والباقية مفردة الخط ، وهي جميعاً تسير في جبال فيل الخط الحديدي صعوداً كبير

وفي اثناء الحرب العالمية اهتمّ قسم الهندسة بالجيش الاميركي بوضع دليل دقيق للعمل الذي تستطيع ان تقوم به سكك الحديد في حالة حرب ، واذا اخذنا اقصى رقم في هذا الدليل وطبقناه

على السكك الحديدية التسع التي تصل ايطاليا بجاراتها الثلاث — سويسرا والمانيا ويوجوسلافيا — وجدنا ان اقصى ما تستطيع هذه السكك نقله في السنة يبلغ ٢٠ مليون طن او اقل قليلاً، وهذا الرقم يشمل عمل هذه السكك اذا قصر على نقل المواد دون الركاب او الجيوش، ويفرض ان حركة السكك والقناطر لا يعرقلها عمل الاعداء وان محطات الشحن ومحطات الاستقبال تقوم بعملها كالساعة فلا تأخير ولا ازدحام، ثم يفرض ان جميع الجارات الثلاث مستعدة لتزيد ما تستطيعه الى ايطاليا مع ان احداها سويسرا والغالب انها ستلزم الحياد الدقيق: والاخرى يوجوسلافيا وهي تتأرجح في الميزان بين المعسكرين. ثم انه يهمل من الحساب ان الخطوط الحديدية من يوجوسلافيا وخطين من الخطوط الثلاثة الممتدة من النمسا تجتمع عند مستر قرب البندقية حيث لا بد ان يقع ازدحام مبلبل. ثم ان الخط الممتد من مستر الى المنطقة الصناعية وهي منطقة توران ميلانو، يجتمع بالخط الثالث من المانيا المخترق لمضيق برنر عند فيرونا والازدحام فيها لا بد ان يكون مبلبلاً ايضاً

فاذا اقيم وزن لجميع هذه العوامل فالغالب في رأي الخبراء المهندسين ان قدرة السكك الحديدية الايطالية على نقل المواد من يوجوسلافيا والمانيا وسويسرا، لا تزيد على ١٥ مليون طن في السنة والغالب انها لا تبلغه. ولكن مقدار الواردات الايطالية في سنة ١٩٣٤ عن طريق البحر بلغت ٣٤ مليون طن. فاذا فرضنا ان السكك الحديدية نقلت اليها ١٥ مليوناً مما تحتاج الى استيراده بقي عليها عجز قدره نحو ١٩ مليون طن

وطبيعة ايطاليا الطوبوغرافية في الشمال لا تشير الى احتمال مد سكك حديدية اخرى بسهولة او زيادة قدرة السكك الحديدية الممدودة على النقل بجعلها خطوطاً مزدوجة الا بنفقة فادحة فجعل نفق سمبلون مزدوجاً — وهو احد الخطوط الرئيسية التي توصل الى ميلان — بدىء سنة ١٩١٨ واستغرق اربع سنوات

— ٢ —

تقول المجلة العسكرية الاسبوعية (مليتار دشبلات)، ان المانيا تسيطر الآن في ميدان المستخرج من ركاز الحديد على خمس ما كانت هي وامبراطورية هبسبرج تسيطران عليه سنة ١٩١٤: ومعظم هذا النقص راجع الى خسارة لورين وضمها الى فرنسا. والمانيا تستخرج الآن ستة ملايين طن من ركاز حديد غير جيد (٢٠ — ٣٠ في المائة من الركاز حديد) ثم اضافت الى ذلك مليونين ونصف مليون طن في النمسا على وجه التقدير. فاذا اضيف الى المستخرج، الحديد المهمل الذي يعاد استعماله كان لالمانيا خمسة ملايين طن من الصلب حالة ان حاجتها السنوية — على ما تقوله المجلة الالمانية «جورنال التعدين الالماني» — الى ٢٦ مليوناً ونصف مليون

الاّ ان معظم الاسلحة الالمانية لا تصنع من ركاز الحديد الالماني غير الجيد ، بل من ركاز الحديد السويدي الممتاز (٦٠ — ٧٠ في المائة من الركاز حديد) المستخرج من مناجم جبال لبلندة . والمانيا الآن تستورد كل سنة تسعة ملايين طن من هذا الركاز . ولكن ثلاثة ملايين طن فقط تنقل في خليج بوتنيا فبحر بلطيق . والثلثان الباقيان ينقلان من شمال النروج الى مصب نهر الرين ومنهُ رأساً الى المناطق الصناعية في الرور بسفن نهرية . ثم تبتاع المانيا سبعة ملايين طن من ركاز الحديد من اللورين وهو معتدل الجودة ونحو مليوني طن من طبقة اجود من بلباو بشمال اسبانيا والريف في المغرب الاسباني . ومقادير يسيرة جداً من يوجوسلافيا والبرازيل . وبعد ان تستعمل كل الحديد القديم في المانيا تحتاج الى ان تستورد من الخارج جانباً كبيراً من ٥ ملايين الى ٦ ملايين طن من الحديد المستعمل التي تحتاج اليها كل سنة

وقد صرح المارشال جورنج غير مرة منذ تولى الاشراف على تنفيذ مشروع السنوات الاربع لجعل المانيا مكتفية ان مناجم الحديد التي نسبة الحديد في ركازها واطئة ستفتح على نطاق واسع وان المناجم الجديدة ستخرج عشرين مليون طن في السنة وان مصانع ضخمة ستحول ذلك الركاز الى صلب ، وان المصنع الواحد منها قادر على اخراج مليون طن من الصلب في السنة الواحدة. وعند ما انشئت المصانع المعروفة باسم مصانع هرمان جورنج للحديد صحبها تهليل وتكبير وارسال العمال الى المواقع المختلفة لاعداد مساكن العمال . ودعي اصحاب شركات الصلب الخاصة الى الاكتتاب في رأسمالها ، ولكن سراة صناعة الحديد في المانيا لم يشتركوا وذلك لسبب يسير بسيط جداً ، وهو ان مصانع من هذا القبيل لا تسفر الاّ عن خسارة . ففي مناطق الرين والرور مناجم قريبة من الامكنة التي يكثر فيها الكوك اللازم لاستخراج الحديد من الركاز . ونسبة الحديد في ركاز هذه المناجم من ٢٥ — ٣٠ في المائة ومع ذلك لولا معونة الحكومة المالية لوقف تشغيلها ، فكيف يمكن تشغيل مناجم بعيدة عن ميدان الصناعة وعن موارد فحم الكوك ونسبة الحديد في ركازها لا تزيد على ١٢ الى ١٧ في المائة

ولما ضمت النمسا الى المانيا كسبت المانيا موارد للحديد لا بأس بها كما تقدم وقال يومها المارشال جورنج ان هناك « موارد من الركاز الغني لا حد لها » فصححت له مجلة « الفرنكفورتر تسيتونغ » هذا القول بنشرها الارقام الصحيحة وهي : ٢٤٢ مليون طن من ركاز الحديد « النسبة ٢٧ في المائة » وهذا المقدار يكفي المانيا خمس سنوات ونصف سنة على معدل استهلاكها السنوي من الحديد الآن . اما مناجم النمسا فكان معظم ما يستخرج منها يصدر الى ايطاليا . وفي الوسع توسيع نطاق الاستخراج باستعمال وسائل جديدة فيزيد المستخرج من نحو مليون طن في السنة — وهواقصى ما كان — الى خمسة او ستة ملايين طن على الاكثر وما زالت ايطاليا صديقة المانيا

فيجب ان تمنح حصة وافرة من هذا المقدار. وثمَّ نقل هذا المقدار من شمال النمسا الى الرور مشكلة قائمة بنفسها . المسافة ٧٠٠ ميل والنقل يقتضي كل يوم قيام عشرة قطارات كل قطار منها مؤلف من ٤٥ مركبة من المناجم ومعظمها يجب ان يعود فارغاً . فالى ان تتم ترعة « الرين — الدانوب » تظل مشكلة نقل حديد النمسا الى الرور مشكلة غير يسيرة

ولنحول النظر الآن الى مادة اخرى من المواد الاساسية في الصناعة والحرب ونعني مادة « البترول » وهي فيما يتعلق بالحرب لا غنى عنها للطائرات والدبابات والسيارات على اختلافها والسفن الحربية. فقد نشرت مجلة « الدويتش فهر » وهي لسان الجناح النازي في الجيش الالماني مقالاً في عدد يناير سنة ١٩٣٦ قدرت فيه حاجة المانيا الى البترول في الحرب فاعتبرت تقديره على اساس جيش قوامه ٣٠٠ فرقة منها ٣٠ فرقة ميكانيكية عدتها ١٠٥٠٠ دبابة و ١٤٠ الف سيارة نقل و ٤٠ الف سيارة ركاب و ٦٠ الف موتوسيكل فاذا حاجتها الى البنزين والزيت والشحم خمسة ملايين ونصف مليون طن بالسنة. ثم هناك سلاح الطيران وقوامهُ ٩ آلاف طائرة منها ٦٥٠٠ ذات محرك واحد و ٥٠٠ ذات محركين و ٥٠٠ ذات ثلاثة محركات و ٢٥٠ ذات اربعة محركات و ١٢٠٠ أخرى من طراز « السبور » فاذا حاجتها الى مليون وثلاثة أرباع مليون طن في السنة. يضاف الى ذلك اسطول بحري تبلغ حاجتهُ مليوني طن ثم يضاف الى ذلك ثلاثة ملايين ونصف مليون للصناعة والنقل وراء خطوط القتال

والمجموع الذي قدرته مجلة الدويتش فهر ١٢ مليوناً وثلاثة أرباع المليون من أطنان البترول

وفي ١٦ ابريل سنة ١٩٣٩ أخرجت مجلة «الاقتصادي الالماني» تقديراً آخر فاذا المقدار في حسابها يتفاوت من ١٥ مليوناً الى عشرين مليوناً . ومتوسطه ١٧ مليوناً ونصف مليون من الاطنان . وهذا التقدير قريب من تقدير خبير فرنسي إذ روعيت النسبة بين حجم الجيشين ففرنسا في عرفه تحتاج الى مقدار يتفاوت من ١٢ الى ١٥ مليوناً من الاطنان

فماذا تنتج المانيا من هذا المقدار ؟ . ينابيع البترول فيها تخرج نصف مليون طن في السنة ومجلة (الاقتصادي الالماني) تقول (مارس ١٩٣٨) ان نصف مليون طن من البترول تستخرج كنفاية في مصانع فحم الكوك يستخرج منها ٢٠٠ الف طن من الوقود

ويستخرج من الفحم بالطريق الصناعي ٧٨٠ الف طن من البنزين الصناعي فمجموع ما يستخرج داخل البلاد مليونا طن وهو ثلث ما تستهلكه المانيا الآن وتسع ما ينتظر استهلاكه في أثناء الحرب على التقدير المتوسط لمجلة الاقتصادي الالماني

أتستطيع أن تسد الفرق بتوسيع نطاق البنزين الصناعي المستخرج من الفحم ؟ هذا يعني توسيع نطاق هذه الصناعة عشرين مرة . ولكن أتعلم ما يقتضيه هذا التوسع من مقادير الفحم

وعدد العمال والنفقة ؟ فقد أُلفت في انكلترا لجنة لدراسة موضوع جعل بريطانيا مكتفية من ناحية البترول باستخراج البنزين من الفحم . فقررت اللجنة في تقريرها أن صنع ١٥٠ الف طن من البنزين الصناعي في السنة يقتضي معالجة ٦٠٠ الف طن من الفحم وعمل ستة آلاف عامل في المناجم والنقل والمصانع ورأسمال قدره اربعون مليوناً من الجنيهات . وهذه المنشآت تخرج مقداراً من الزيت يكلفها مليوني جنيه حالة أن ثمنهُ في السوق العالمية ثلث ذلك المبلغ . وأرقام هذه الصناعة في المانيا تؤيد هذه الارقام . ومع ذلك فلم يفت مجلة « الاقتصادي الالماني » نقل خلاصة هذا التقرير الى قرائها

وعلى هذا الاساس لا تستطيع المانيا أن تجعل نفسها قادرة الآن على الاكتفاء الذاتي في مادة البترول وما يشتق منها عن طريق الصناعة الا برأسمال قدره ستة عشر الف مليون مارك وتحويل نحو ٦٥ مليوناً من اطنان فحم الانتراسيت — وهو تقريباً نصف انتاجها — ونصف مليون من العمال الى هذه الصناعة . ونصف مليون عامل يبني ١٥ فيلقاً في الجيش وكذلك يمكن القول ان الفوز بما تحتاج اليه من البترول ومشتقاته لن يجيء الآن من هذا الطريق

والمطاط — لقد صنع المطاط الصناعي في المانيا وهو يعرف باسم « بونا » . وهو مطاط يتصف بأهم صفات المطاط الطبيعي ويفوقهُ . وقد روى — زيشكا في كتابهِ « العلم يحطم الاحتكار » أن الجيش الألماني امتحن مطاط البونا امتحاناً دقيقاً في سنة ١٩٢٥ فجهزت أربعون سيارة بعجلات من مطاط البونا وسيقت ليل نهار سوقاً متواصلاً بواسطة فريقين من السواقين وفي النهاية وجد أن مدى حياة العجلة المصنوعة من مطاط البونا ٣٠ الف ميل

ولكن موطن الضعف في هذا المطاط العجيب أن نفقات صنعه تجعلهُ أغلى كثيراً من المطاط الطبيعي . فالمطاط الطبيعي يباع الرطل منهُ بمبلغ يتفاوت من ٢٤ مليماً الى ٣٠ مليماً . حالة أن رطل البونا في سنة ١٩٣٦ كان يكلف عشرين قرشاً . وفي مجلة لبنك الريخ صادرة في يناير ١٩٣٨ أن الرطل منها لا يزال يكلف من ١٣ الى ١٤ قرشاً

وليس هناك معلومات يوثق بها عن مقدار ما يصنع من هذا المطاط . ولكن كاتباً المانيًّا خبيراً على ما يلوح يقول في كتاب لهُ أن المانيا استهلكت من المطاط في سنة ١٩٣٥ مقدار ٧٢ الف طن وأن جزءاً من اربعة عشر جزءاً (اي أكثر قليلاً من ٥ آلاف طن) من ذلك صنع في المانيا بالتركيب الكيمياني . وفي ٨ فبراير من سنة ١٩٣٨ كتب مكاتب جريدة التيمس اللندنية في فرانكفورت أن مقدار ما يصنع من مطاط البونا ينتظر أن يبلغ قريباً ٢٤ الف طن في السنة وهذه زيادة عظيمة ولكنها قلما تلحق بزيادة المطلوب من المطاط

ثم هناك مواد صناعية أخرى تجمل في قولنا خيوط النسيج من صوف وقطن وكتان .

والحالة في المانيا في ما يتعلق بهذه المواد هي عكس الحالة الخاصة بالمطاط . فصنع الخيوط الصناعية المختلفة سهل ورخيص ولكن خواصها لا تزال دون خواص الخيوط الطبيعية التي تقابلها . فمقطوعية المانيا من هذه الخيوط — وهي مقطوعية مقيدة أشد التقييد — يؤخذ خمسها مما تخرجه المصانع الالمانية من الاعواض الصناعية كالرايون والفيسترا . يضاف الى هذا ان المانيا زادت محصولها من الكتان منذ سنة ١٩٣٢ سبع مرات ، وانتاجها من الصوف ٣٠ في المائة وجمعت كل ما يمكن جمعه من الخرق القطنية البالية القديمة في طول البلاد وعرضها لاعادة استعمال خيطها

ومجموع ما تستهلكه من هذه الخيوط يبلغ في السنة ٨٥٠ الف طن منها ١٠٠ الف طن من الفيسترا و٦٥ الفاً من الرايون و٦٠ الفاً من الخرق القديمة المستردة و٢٥ الفاً من الكتان و١٥ الفاً من الصوف والمجموع ٢٧٥ الف طن أي ثلث ما تحتاج اليه

أتستطيع ان تسد النقص بخيط الفيسترا ؟ هناك مصانع جديدة لصنعه تقام ، وكان في الجو أحاديث عن مضاعفة ما يصنع منهُ سنة ١٩٣٨ كما ضوعف في سنة ١٩٣٧ ولكن المصاعب التي تحول دون توسع عظيم فيه كانت ان صناعته مبنية على الخشب المستورد . ومعظم الاستيراد كان من تشيكوسلوفاكيا وروسيا ، والى حدٍّ ما من فنلندة . وقد جاء دخول النمسا — وفيها حراج غنية — وتشيكوسلوفاكيا في نطاق الريخ مما سهل على المانيا مسألة الاستيراد وتوفية الثمن . وهناك الآن تجارب تجرب لصنع الفيسترا من خشب اشجار الزان والشربين وهي كثيرة في حراج المانيا . ولكن قطع اشجار الحراج في المانيا ماض على وجه يثير مخاوف الخبراء

ثم ان الفيسترا ليس عوضاً صناعيًّا بالمعنى التام . بل يجب ان يخلط بنحو ٧٥ في المائة من القطن الطبيعي ، او الصوف الطبيعي لينتج خيطاً تنسج منه منسوجات قطنية او صوفية تصلح للملبس. وقد شكا احد تجار برلين لمنشيء هذا المقال ان نسيج الفيسترا الذي لا تزيد نسبة القطن الطبيعي او الصوف الطبيعي فيها على ٢٥ في المائة لا يثبت على غسلة واحدة بالماء الساخن ثم هو قصير العمر . والملابس المصنوعة من مزيج كهذا لا تدفيء وشؤبوب واحد من المطر الشديد يقضي عليها . ثم ان الملابس التحتانية التي تصنع منها لا تلبث حتى يشعر لابسها كأن طبقة من المطاط الرقيق تلامس بشرته علاوة على انها تولد عند التفاعل بعرق الجسم رائحة كريهة

وأهم من هذا وذاك انها لا تفي بحاجة ملابس الجنود . وعلاوة على ما تقدم تحتاج المانيا الى استيراد معظم ما تحتاج اليه من الالومنيوم والنيكل والنحاس وتسعة اعشار ما تحتاج اليه من النحاس وثلاثة ارباع ما تحتاج اليه من الرصاص وثلث ما تحتاج اليه من الزنك

(١) نقلاً بتصرف يسير من عدد الاهرام الخاص (بين السلم والحرب) يوليو ١٩٣٩

غنى الجار

لعبد الحميد الرجب

أعلّلُ بها لله راضيةً نفسي … وأشربها في الصبر مترعةً كأسي
على موهبات ألف دَيْن لأمتي … على انني فيها لدى محنتي مَنْسي
وأحتمل الدنيا كأنّي خلقتها … وان جميع الخلق عُلّق في رأسي
رفعتُ حجاب الشمس فيها فأطلعت … عليَّ النهار الصفو خُلواً من الشمس
على القرب مني كنز قارون ماثلاً … ولما أنلْ منهُ سوى حُرقة اليأسِ
ففي بيت جاري آثر المالُ وكرهُ … فيصبح في لمع الثراء كما يُمسي
وجاري جماع الباخلين وظلهم … فلم يَدع محروماً ببيدٍ ولا عُرس
تكبّر فالألفاظ منهُ إشارة … كأن عباد الله طرّاً من الخرس
وان نطق الفصحى فمن طرف أنفه … كنفخة ذي مال وجاه من الفرس
له أسرة كالروض زهراً وصادحاً … فمن شامها ألفى ملائك فردوس
بنون بنات كالورود ملابساً … يمرون كالإصباح معتدل الطقس
يمرُّ على سكناي في ذيل بيته … مرور عيون الموسرين على الفلس
صحوتُ على قصف الرياح وصوته … وما أحدث الطرق الخلي من الجرس
يطالبني بالأجر في غيظ بائع … تصيّده المحتال بالثمن البخس
وقال يواري ظلمهُ أي ضامن … لسكنى تعرت عن سرير وعن كرسي
اراك هنا كلّ الاثاث ولا أرى … سوى قلم ثاو على الارض او طرس
فقلت معاذ الدّين ما كنت مرة … غريماً وما أذللت يومي ولا أمسي
إذا كانت السكنى بأجر مذلةً … فما ارحب المجان في غرف الحبس
وأسمعته صوت الدراهم فانحنى … يقدم أعذار اليهود من الوكس
وأخضع فقري كبره وثراءهُ … وأيُّ غنى للحرّ غير غنى النفس

فليكس فارس

لصديق شبيوب

في أواخر الشهر الماضي فجعت العربية بأديب من خيرة أدبائها ، وخطيب من أبلغ خطبائها. ورزئت العروبة بداعية من أخلص الدعاة لها ، ومجاهد من ابر المجاهدين في سبيلها . وفقدت الانسانية فرداً كان من أنبل أفرادها قلباً، وأقومهم خلقاً، وأصدقهم عاطفة، وأخلصهم أمانة ووفاء

انتقل الى رحمات ربه المغفور له فليكس فارس وقد كان كل هذا . فلا غرو اذا عظم خطبه على اللغة والعروبة ، وبكاه أصدقاؤه وعارفو فضله العديدون المنبثون في الاقطار العربية كلها وبلاد المهجر وشاطرهم حزنهم عليه وشعورهم بالفجيعة فيه جميع الناطقين بالضاد

وإذ نحاول اليوم ترجمة حياته والالمام بمواهبه وصفاته نريد ان يعرف هذا العالم العربي أي رجل فقد بفقده . كان يمثل جيلاً من أبناء العربية يكاد يزول أفراده ، ولوناً من الأدباء يعزّ ان نلقى اليوم نظيره

ولد المرحوم فليكس فارس في ٢٧ دسمبر سنة ١٨٨٢ بقرية « صليما » التابعة لقضاء المتن الاعلى « المحاطة بغابات الصنوبر القاتمة » من اسرة لبنانية قديمة انبتت اكثر من واحد خدم لبنان وحكوماته المتعددة

كان والده المرحوم « حبيب فارس » كاتباً وشاعراً تلقى علومه بمدرسة عينطوره وعين في الثانية والعشرين من عمره رئيساً للدائرة الاجنبية وسكرتيراً خاصاً لمتصرف الجبل رستم باشا وما لبث ان اعتزل الخدمة وأخذ يعارض في اساليب حكم جبل لبنان ، وكان قد تولى متصرفيته واصا باشا . فاضطر اخيراً الى النزوح الى مصر حيث اصدر صحيفة « صدى الشرق » ليحارب على صفحاتها المظالم التي كانت تقع على لبنان واهله في ذلك العهد . وقد حاول واصا باشا الانتقام من أسرته التي ظلت مقيمة في « صليما » فأنزل بها شتى الوان الاضطهاد . وقد شهد فليكس فارس الصغير هذا الاضطهاد فانطبعت نفسهُ منذ صغرها على حب الحرية والثورة بالظالمين

وكان المرحوم حبيب فارس قد تزوج بالسيدة « لويز شفاليه » وهي سويسرية بامها وهولندية بأبيها . وقد حنت هذه السيدة الفاضلة على سرير طفلها الصغير فليكس تنشده الموسيقى الغربية

التي تعلمها من وطن « جان جاك روسو » فاستعد عقله لفهمها ، وصارت فيا بعد « تصل الى شعوره الباطن الخفي اهتزازات هذه الموسيقى كأنها صدى خافت لصوت بعيد . . . » على انه كان اذا رجع « الى كوامن الغريزة يشعر بالفطرة العربية متغلبة على سائر ما ورث من نزعات أوربية »

وما خصهُ فليكس فارس بالموسيقى عند ما تحدث عن نفسهِ نستطيع ان نعممهُ بحيث يشمل الثقافة والادب ، فقد نشأ متغلبة عليهِ نوازع الادب الفرنسي ثم لم يلبث ان تخلص من أثرها فصار اديباً عربيًّا صميماً

تلقى فليكس فارس علومهُ الاولية بمدرسة « بمدات » ثم اخذ العربية عن والده والفرنسية عن أمهِ . ولم يلبث ان برع باللغة الفرنسية وشغف بها وصار يستلهمها فنهُ العربي

في اثناء هذا كانت أسرتهُ قد انتقلت من «صليما» الى «المريجات» ، وهي البلدة القائمة عند منحدر «ضهر البيدر» في اتجاه دمشق . ومنزل أسرته فيها عند منحدر الوادي تحوطهُ الاشجار والكروم ويطل على منبسط سهل البقاع ذي الألوان المختلفة والمناظر البهجة

هذه هي العناصر التي كوَّنت فليكس فارس عند ما استقبل الحياة بعد اتمام دروسهِ في سنة ١٨٩٨ وأخذ يحترف التعليم في بعض مدارس لبنان ويعالج الأدب في صحفهِ وفي بعض المجلات المصرية كأنيس الجليس ومجلة سركيس

فكانت النزعة الفرنسية تتغلب وتتغذى على أدبه العربي . وقد وصفهُ في ذلك العهد الاديب خير الله خير الله في كتابهِ الفرنسي « سوريا » فقال انهُ « حاول أن يقتبس ما في الأدب الفرنسي من جمال ليدخلهُ على الأدب العربي . وكان النقد الذي وجه اليه أن الهامهُ غريب عن العربية » ثم قال : « حقًّا أن اسلوبه كان في بدايته معقداً ، وفكرته مبهمة غير مستقرة تماماً ثم على أن هناك أشياء لم تهضم . وزاد اللغويون على هذا فقالوا انهُ كان يسيء الى قواعد اللغة ولكنهُ عوض عن هذا جميعه بمميزات طيبة كالاحساس والخيال والانسجام واختلاف الافكار والصور وخصبها ، لذلك عند ما ظهر خطيباً للمرة الاولى أثار حماسة فياضة»

وقد كان ظهوره خطيباً عند صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، اذ قام المصلحون ينادون بالحرية والاخاء والمساواة ، فائتلف المتنابذون وتقارب المتباعدون وغمرت البلاد موجة الانسانية الشاملة التي تجمع بين ابناء الوطن الواحد على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم فاذا الهلال والصليب يمشيان جنباً الى جنب في ظل الوطن ، واذا الشيخ والقس يتعانقان تحت راية الامة والدولة

قام فليكس فارس وتغذى خطيباً يستمد من روح ابناء وطنه هذا الوئام الشائع على الوجوه ويغذيه بما في نفسه من حب الحرية وكراهية الظلم والاستبداد فرحب بهِ مواطنوه وانزلوه المنزلة التي هو خليق بها ولقبوه بخطيب الحرية

ولم يكتف فليكس فارس بنضاله على المنابر بل اجرى قلمه للدفاع عن مبادئه ونزعات نفسه فأصدر في ٨ فبراير سنة ١٩٠٩ صحيفة اسماها « لسان الاتحاد » التي ظلت حية الى ٤ أغسطس سنة ١٩١١

في ذلك الطور من حياة فليكس فارس طبعت نفسه بطابعها الخاص واتخذ تفكيره شكله الكامل ونحا النحو الذي ظل يسير عليه طيلة حياته

وكان قد عين استاذاً للغة الفرنسية في المكتب السلطاني بحلب سنة ١٩١٠ فأقام فليكس فارس في هذه المدينة الى اواخر الحرب الكبرى . وحين دخلت الجيوش العربية سوريا التحق بها وعين سكرتيراً لجعفر باشا العسكري ثم جاء بيروت واتصل بحكومة الانتداب فارسله الجنرال « غورو » الى الولايات المتحدة مع الفنان المعروف المرحوم « جان دبس » ليتصلا باللبنانيين والسوريين في مهجرهم ويدعوهم لمساعدة وطنهم ويبينا لهم مهمة فرنسا في الشرق فقاما بالمهمة التي عهد اليهما بها على أوفى وجه

اتصل فليكس فارس في أثناء اقامته باميركا بالاوساط العربية وادبائها وتوثقت اواصر الصداقة بينهُ وبين نفر عديد منهم وفي طليعتهم جبران خليل جبران كما اتصل بالاوساط الفرنسية وممثلي الدولة الفرنسية الرسميين . ثم عاد الى لبنان وفي نفسه مشروعات سياسية لم يستطع تحقيقها على الرغم من اقتناع الجنرال « غورو » بصحتها . وقد هنأه « غورو » بنجاحه في مهمته وعرض عليه منصباً أباهُ رفضل الاشتغال بالمحاماة وقيد اسمه امام محكمة التميز (النقض والابرام) واشتهر بتفوقه في المرافعة امام محكمة الجنايات

عند ما خلا منصب رئيس قلم الترجمة ببلدية الاسكندرية رشح فليكس فارس نفسه لهُ وفاز به فانتقل الى هذه المدينة سنة ١٩٣١ ولم يلبث ان اتصل بالاوساط الادبية المصرية فذاع صيته ونبه ذكره واخذ يؤلف الكتب ويصنف الابحاث ويلقي المحاضرات والخطب بهمة ونشاط عظيمين حتى وافته منيته في صباح يوم الثلاثاء ٢٧ يونيه الماضي فذهب مبكية اخلاقه محمودة آثاره

***

هذا هو الرجل ، اما الاديب فقد ذكرنا فيما تقدم كيف استهل فليكس فارس حياته الادبية قلق العبارة والاسلوب بارز الالهام الغربي . على انهُ لم يلبث ان تخلص من هذا وذاك واصبح كاتباً عربيًّا قوي العبارة صحيح الاسلوب ، دقيقاً في تخير الفاظه تجري على قلمه سهلة سلسة في قوة ورصانة . وقد ظهرت هذه المزايا في نثره وشعره

وقد تطور الهامه وتفكيره كما تطور اسلوبه . وهو اذا ظل يدين للثورة الفرنسية بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة التي جاهد في سبيلها طول حياته ، واذا ظل ينادي بنبذ التعصب

ووجوب تآلف الاديان وعدم التفرقة بينها وبين ابنائها ، فانهُ عكف على تقاليد الشرق فاخذ يقول بوجوب احترامها ، وهي التقاليد التي ارادها مستمدة من الديانات الثلاث القائمة فيه ومن مجموع العادات التي درج الشرق عليها سواء في الاجتماع أو الفن أو الادب

ويطول بنا الحديث اذا شئنا أن نعرض لتفصيل هذه الآراء التي كان يعتبرها جماع رسالته الادبية والاجتماعية فقد فصلها رحمهُ الله في المحاضرات التي القاها في سنواته الاخيرة وجمعها في كتابه « رسالة المنبر الى الشرق العربي » وفيها يجد المطالع كيف كان فليكس فارس يمزج بين فكره وعاطفته ، ولعله كان يستوحي تفكيره من قرارة صدره الفياض بالشعور اكثر مما كان يستنزله من معين عقله الصائب . وقد كان ذا شعور متسع الافق ، وخيال رحب الجوانب

وقد كتب فليكس فارس كثيراً ، وعالج فنوناً شتى من فنون الادب كالشعر والقصة والاقصوصة . ومن تآليفه المطبوعة قصتا « الحب الصادق » و « شرف وهيام » وكتابا « النجوى الى نسام سوريا » و « رسالة المنبر الى الشرق العربي » . وكان قد أعد غيرها للطبع بما فيها ديوان شعر بعنوان « القيثارة » ولكن الاجل لم يفسح له لاتمام مشروعاته الادبية

وقد عكف في سنيه الاخيرة على ترجمة روائع الادب الاوربي فنقل قصيدة « رولا » التي نشرتها « المقتطف » وكتاب « اعترافات فتى العصر » وهما للشاعر الفرنسي « الفريد دي موسه » وكتاب « هكذا تكلم زرادشت » للمفكر الالماني « فريدريك نيتشه »

اما الخطابة فقد بلغ فيها فليكس فارس حداً من التفوق كبيراً . ولعلها كانت مصدر شهرته وذيوع صيته اكثر مما كان أدبه

وكانت له قدرة عجيبة على المواقف الخطابية لا يعرف الكلل ولا التعب حتى قيل انه كان يعلو المنابر اكثر من عشر مرات في اليوم الواحد

وكان لا يعتمد على مواهبه الطبيعية في الخطابة بل يعالجها بأسلوب فني بارع . كان انيقاً في موقفه ، فنياً في اشارته ، بليغاً في عبارته . وقد فطر خطيباً أبلغ منهُ كاتباً ، فقد كان حين يرتجل تواتيه الالفاظ مطواعة تتمثل في بريق عينيه وتجري سحراً حلالاً على لسانه

***

واليوم وقد أسكت الموت ذلك الصوت الجهير وأخمد تلك الجذوة المتقدة وعاد فليكس فارس الى لبنان حيث نقلوا جثمانه كما عاد من قبله جبران خليل جبران فهو يرقد الآن في قرية المريجات الى جوار آبائه واجداده حيث يحنو عليه الجبل الاشم بأرزه وصنوبره وشمسه وارضه ومائه وهوائه ويحتفظ العالم العربي بذكراه ما بقيت في الصدور العربية نزعات الشمم والفخار والاشادة بالرجال العاملين

كيف أفهم

النقد الادبي

—٢—

لجبرائيل جبور
استاذ بدائرة الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

مؤهلات الناقد

ينقلون عن جوته انه قال: هناك ثلاث طبقات من القراء فبعضهم يلتذ بما يقرأ دون ان يَفقه سبباً لذلك، وبعضهم يحكم على ما يقرأ دون ان يلتذ به، وبعضهم يحكم وهو يشعر بلذة ما يقرأ، ويلتذ وهو يحكم، وهو خيرهم. والواقع ان الناقد الحقيقي يستطيع ان يرتفع فوق هؤلاء جميعهم بحيث يدرك ان باستطاعته أن يعجب بأثر دون ان يلتذ به شخصياً او ان يلتذ بأثر لا يستثير اعجابه

ولعل اول ما يحتاج اليه الناقد ادراك غرض صاحب الاثر الفني وفهم المغزى الذي يرمي اليه، هذا سر النقد في نظري، ولست اذكر اين قرأت عن فيدياس وتلميذه الكيمنس، وقد سبق بينهما جائزة في النحت، قالوا، فاخذ كل منهما في عمله حتى اذا تم صنع التمثالين كاد المحكمون وهم ينظرون اليهما بين ايدي صاحبيهما أن يحكموا لالكيمنس لدقة التفاصيل وبهاء الصقل وجمال المسحة الاخيرة، وهنا وقف فيدياس يسأل المحكمين ان لا يبدوا آراءهم قبل ان يوضع التمثالان على قاعدتيهما في الموضع الذي عُيِّن لها، وما ان وضعا حتى انقلبت آراء المحكمين، ذلك ان التقاسيم البارزة والخطوط الخشنة في الظاهر قد نحتت لينظر اليها من بعد، فبرزت روعة جمالها حين ارتفع التمثال على قاعدته. اما حسن الصقل ودقة التفاصيل في تمثال تلميذه الكيمنس فقد زالت معالمها حين ارتفع التمثال، وأضحى التمثال كثوب نصلت عنه الصبغة التي نفضها عليه صانع غير ماهر

فالفنان، او رجل الفن اذا شئتم، يحاسب على الغاية اكثر مما يحاسب على الطريق الذي يسلكه في سبيل تلك الغاية. والناقد الذي يخطىء غرض الأديب قد ضل سبيله، ولأضرب لكم مثلاً بنقد بعضهم لقصيدة بشارة الخوري الشاعر التي قيلت في مهرجان الزهاوي، واسمحوا لي قبل كل شيء ان اقرأ لكم الايات التي دار عليها نقده

بغداد ما حمل السُرى   منّي سوى شبح مريب
جفلت لهُ الصحراء والتفت   الكثيب الى الكثيب

وتصنّتت زمر الجنادب من فوهات الثقوب
يتساءلون : وقد رأوا قيس الملوّح في شحوبي
والتمتمات على الشفاه مضرّجات بالنسيب
تبكي لها قبل الصبا ويذوب فيها كل طيب
يتساءلون : من الفتى العربي في الزي الغريب
صحراء يا بنت السماء البكر والوحي الخصيب
انا لو ذكرت ، ذكرت احلامي وانغامي وكوبي
احدى الشموع الذائبات امام هيكلك الرهيب
انا دمعة الأدب الحزين رسالة الألم المذيب
من قلب لبنان الكئيب لقلب بغداد الكئيب

قال الاديب الناقد في جريدة المكشوف عدد ٣١ اذار (مارس ١٩٣٨) ما يلي: «وبشارة الخوري لو كان من الصحراء ولو كان ابنها وحبيبها لعرف انها لم تعرف في حياتها الجنادب ، فالجنادب لم تطل من ثقب فيها ولا سمعت في رحابها صوتاً على الاطلاق » اه . وانا ارى قبل كل شيء ان اتهم معرفة الناقد بالصحراء فان لم تكن الصحراء ام الجنادب فأين موطنها بل اريد ان اذهب الى ابعد من هذا فازعم ان بشارة الخوري ليس مرغماً على ان يعلم ان الصحراء تعرف او لا تعرف الجنادب، ولايهمهُ ان يعرف، فهو امام الفكرة التي تجلت لهُ قد يستطيع ان يضحي بعلم الحيوان باسره، وقد يستطيع الروائي مثلاً وهو يقص رواية حربية ان يهمل التفاصيل في واقعة يريد ان ينتصر بطله فيها، فيخطىء في وصف فنون الحرب وهو ليس قائداً حربيًّا، بل ربما يخطىء في وصف موضع المعركة ذلك لأنهُ لا ينظر الا الى الغرض الاكبر وقد ملك عليه كل حواسهِ ، ألا وهو انتصار بطله، فليس غرضه ان يعلّم الفن الحربي ولا ان يرسم خارطة لميدان المعركة . ولم يكن بشارة الخوري في قصيدتهِ هذه مدرّساً في علم الحيوان ولا شارحاً يصف مواطن الجنادب والجراد

وفي الالياذة سور قد يغيظ كل النقاد ، بُني في السنة العاشرة من تلك الحرب لا لسبب فيا يظهر الاّ لأن اكلس قد ترك الميدان ، وقد خيل لهؤلاء النقاد ان السور كان يظهر ويختفي في الالياذة بشكل غريب . واذن فقد زعموا ان هوميروس لم يضعهُ ، بل بناه شعراء متأخّرون ودسوه في الياذته ، وقد انبرى لهؤلاء من زعم لهم ان السور لم يتغير ولم يتبدّل ،ولو فعل فذلك لا يضير الشاعر ، لأن غايته الكبرى هي ان يبرز اكلس في اي شكل كان ، ويستطيع في سبيل غايتهِ ان ينقل سور الصين الاكبر الى ميدان القتال في اليونان أو يذريه هباء منثوراً في الفضاء

ولقد قرأت لصديقي الاستاذ المازني وهو احد كبار النقدة في مصر في هذا العصر فصلاً في كتاب « صندوق الدنيا » عن تمثال النهضة الذي نحتهُ محمود مختار ، أخذ فيهِ على

صانعه أشياء أصاب في أكثرها غير أنهُ حين عرض الى أمر نهوض ابي الهول الجديد على يديه عمد الى علم الحيوان فزعم ان الحيوان — من البعير الى الهرة — حين يريد ان ينهض يقوم على قائمتيه الخلفيتين اولاً ثم على الاماميتين وقال : « وأحسب ان مختاراً انما آثر هذا الوضع لأن منظر ابي الهول يكون غريباً ثقيلاً اذا أنهضهُ على رجليه الخلفيتين كما ينبغي ان يفعل اذا كان يقصد الى النهوض » ولا أظن صديقي الاستاذ المازني يسوؤه ان المجترات من الحيوان من ثور وجمل وغيرها تنهض على أرجلها الامامية أولاً

ولو سلمنا جدلاً أنها لا تفعل فذلك لا يضير مختاراً لانهُ يجب ان تنظر قبل كل شيء الى الغاية التي رمى اليها مختار ، فابو الهول القديم يمثل الصبر والانتظار ، اما أبو الهول الجديد فيمثل نهوض مصر ولنذكر كما ذكر الاستاذ أن ابا الهول هذا خليط من الآدمي والحيوان فلهُ أن ينهض كيف يشاء ولكن ليس على رأسه كما يريد الاستاذ المازني متهكماً

ومتى أخذ الناقد يستفهم عن غرض الاديب بدأ النقد عمله . فما هو المعنى الذي رمى الشاعر ؟ وما الذي يقصده بهذا القول ؟ وما الذي نفعله حين نحاول فهم المعنى ؟ وهل بلغ الشاعر غرضه ؟ وكيف عرض غرضه ؟ وبعبارة اوجز نكشف الغرض اولاً ، ثم نحكم على قيمته ، ثم ننقد صنعة الاخراج . تلك هي بكلمة مفاتيح النقد فاذا أحسنا استعمالها تفتحت الابواب المغلقة واخذت الامور المغمضة تظهر شيئاً فشيئاً

وبعد أن يدرك الناقد غرض القطعة الادبية ومبناها ومغزاها واثرها في النفس ينتقل الى التفاصيل وسيرى أن المعنى العام الشامل مركب من معان فرعية مترابطة واضحة في بعض الاحيان ومغمضة في بعض الاحيان الاخرى . ويرى أيضاً ان للعبارة الواحدة في كثير من المناسبات معاني كثيرة اذ أن لغة الادب ، شاء الناقد او لم يشاء تحتمل في كثير من الاحيان غير معنى واحد . وابواب المجاز والكنايات واسعة وقد تنقل العبارة من موضع الى موضع فيتغير معناها وقد يستعار لفظها الى معنى آخر : خذوا مثلاً هذه العبارة « وكانوا في النزهة ثلاثة رابعهم فلان » فمدلولها اللفظي عددي لا أكثر بحيث يصبح المجموع أربعة ، اما مدلولها الناقد الادبي فيجب ان يكون اعمق من هذا وسنستعرض ذاكرته ما جاء في سورة الكهف من القرآن الكريم : سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون... الخ وسيجد ان هذا الكاتب اراد ان يشير من طرف خفي ظاهر الى ان هذا الرابع كان منهم كما كان كلب اهل الكهف من اصحابه

وهناك استعارات من عالم الفنون التي تدرك بالنظر مثال ذلك قولك : وبدا لونها كلون حاشية الافق عند الغروب فالسامع يسمع اللفظ ولا يرى فيه لوناً والقارئ يراه بحروف سود وكلاهما يعمد الى خياله او حافظته وهذه تستعرض الالوان فتشرح للذهن هذا اللون وتصوره له على صفحات الدماغ وقد تخطئه متى كان اللون غير مألوف لها ، فالصورة اللفظية تختلف عن

اللوحة المدهونة فتلك هي نفسها انتاج الرسام وهي تبرز امامك لتفصح عما فيها بينما هذه حروف مصفوفة في كلمات أو اصوات متقطعة تدوي في الآذان وما هي الا رموز يستعين بها الادباء لنقل ما في نفوسهم ومع ان الادب كسائر الفنون قد هيئت له واسطة لايصاله ونقل ما يحويه الى الغير فانه لا يزال أوعر الفنون مسلكاً لان هذه الواسطة كثيرة الصور والمعاني ومن هنا كان الاشكال في النقد

وهناك امور أخرى يجب ان يلتفت اليها في النقد العملي ، منها مسألة ايقاع الالفاظ وحسن جرسها والصفات الصوتية لمقاطعها ولا سيما في الشعر . وعلى الناقد بعد ان يكون قد أدرك المعنى الذي يستخلص من العبارة الواحدة ان ينتقل الى الموسيقى التي يبعثها حسن انتظام الالفاظ ثم ينظر الى الكلمات المفردة ويتفهم معانيها الاولية وما تنتجهُ من خيال . ثم ينتقل الى المزية الصوتية في مقاطعها . وهنا قد يعترضنا ثانية اختلاف الاذواق واسمحوا لي ان اضرب لكم مثلاً على بعض هذه الظواهر واختلاف اذواق الشعراء فيها : نشر منذ زمن قصير الدكتور طه حسين بحثاً نفيساً في المتنبي ونقد فيه اشعاراً وردت للشاعر وأورد هذين البيتين :

بأبي من وددتهُ فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولاً فلما التقينا كان تسليمه عليَّ وداعا

ثم قال : أعجب الفتى بهذا المعنى فاراد ان ينظمهُ وان يصل اليه فتكلف لذلك بيتاً ونصف بيت وانت ترى مظهر التكلف في قوله :

بأبي من وددتهُ فافترقنا ، فكلمة وددتهُ هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار في مكانها الذي هي فيه . أراد الصبي (وقد كان المتنبي وقتئذٍ في صباه) ان يقول أحببتهُ فلم يستقم له الوزن فالتمس كلمة تؤدي له هذا المعنى وتلائم هذا الذوق فلم يجد الا وددتهُ هذه ! وقرأ الاستاذ العقاد كتاب الدكتور طه فانبرى يرد على هذا النقد ويقول : « والخلاف بيننا وبين الدكتور في طريقة النقد هنا جد بعيد فنحن نرى من جهة ان أبا الطيب لو أراد ان يقول أحببتهُ بدلاً من وددتهُ لاستقام له الوزن مع بعض التجوز الكثير في الشعر المقبول في العروض ونرى من جهة ثانية ان أبا الطيب كان مستطيعاً ان يستخدم هنا حبيته الثلاثية بدلاً من احببتهُ الرباعية كما استخدمها في قوله وهو شاعر كبير :

حبيتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غداراً فكن أنت وافيا

فلا ضرورة في الوزن ولا استكراه وفضلاً عن هذا لا نظن كثيرين يحسبون مع الدكتور ان وددتهُ في موضعها من البيتين لا تعبر عن معناها الصحيح . فالمودَّة هي الكلمة العربية التي تقابل كلمة Tendresse في الفرنسية وتطابق معناها تمام المطابقة وهو ذلك الحب الرفيق الذي فيه حنو وشوق وليس فيه عنف ولا اعتلاج . ثم استشهد الاستاذ العقاد بطائفة من الابيات الشعرية التي ذكر فيها الشاعر المتنبي في كبره كلمة وددتهُ او مشتقاتها . وأظن ان باستطاعة الدكتور طه بدوره ان يرد على هذا النقد ويحيل الأمر الى اختلاف الذوق والحكم في مثل هذا الامر هم عامَّة المتخصصين

ثم هناك تعابير او الفاظ شعرية ليس من الضرورة ان تكون الاساس في الاسلوب الشعري وليس الجمال في ايرادها فحسب بل ان الامر يتوقف على الطريق الذي يسلكه الشاعر في استعمالها . ويذهب بعض النقاد في هذا العصر الى ان كل تعبير يناسب المقام يجوز استخدامه في الادب والعيب في نظرهم هو ان يكون الاسلوب عاجزاً عن التعبير غير اني ارى ان هناك الفاظاً اقوى من غيرها لا على نقل المعاني فحسب بل على نقل الجو او الحالة التي يريد الشاعر نقلها الينا ولعلي في غنى الآن عن ان اذكر لكم انه لا بد للناقد في كثير من الاحيان ان يستسلم الى تأثير الشاعر فيه ولو الى حين ليرتفع معه في هذا الجو العلوي او ينتقل الى الحالة التي اسماها بعضهم حالة « اللاوعي » وأسميها الوعي الاكبر او الروع الاكبر الذي يستتبع حتماً غموضاً في الفكرة واضطراباً في التعبير ولنذكر ان الشاعر يستمد حياته وفتنتهُ من العالم الباطني كما يستمدها من العالم الظاهري ، والعالم الباطني لا تحد آفاقه وفي عمقهِ وبعده وعدم وضوحه يستطيع الخيال ان يكسب مناظر فتنة وسحراً

ويجب على الناقد عند يقظتهِ من هذه الغفوة السحرية ان يحلل ولو الى حد محدود اسباب نشوتهِ ولذتهِ والاَّ فقد ضلَّ السبيل . ويحكى عن مصور كان يعرض صورة ان أحد الاغنياء قال له انهُ لا يعرف شيئاً من أصول التصوير . ولكنهُ يعلم اي شيء يحب ، فاستشاط الرسام غيظاً وقال هكذا تفعل الحيوانات أيضاً . ومهما يكن من امر الوقاحة في جوابهِ اليه فانه — اي الرسام — قد لمس ناحية مهمة من نواحي النقد في جوابه له . فان علمنا بما نحب لا يكفي بل يجب ان نقرن اليه الاسباب التي من اجلها تعلقنا بهذا الحب

ونستطيع ان نتتبع صفات الناقد الحقيقي بشيء من التفصيل ، غير ان الوقت لا يسمح ولا اظن ان محاضرة واحدة تكفي للبحث في صفة واحدة من صفات الناقد بل اني ارى ان الغرض من المحاضرات ليس حشد المعلومات وقتل الموضوع درساً وانما هي تنبيه للخواطر وفتح لابواب الوحي للملهمين . وعليه فاسمحوا لي ان اجمل فأقول ان على الناقد في نظري ان يكون قبل كل شيء واسع الثقافة عميقها ، يحسن العلم والفلسفة ويتذوق الادب ، واسع الافق ، رحب الصدر بعيد النظر ، فلا يتعصب لجنس على جنس ولا لوطن على وطن ، متجرداً من الغرض ، فلا يجعل للهوى الشخصي سلطة عليهِ في احكامه على الآثار الفنية ، ولا يكيل الكلام جزافاً في تقريظ او انتقاد ، ذا قدرة على التعبير عما يحسُّ بهِ اذا سئل عن ذاك ، وعليهِ بعد ان لا يتقيد بقيود الزمن ولا باقوال الناس ، فلا يبني نقده لشاعر ما على ما قيل عنهُ في عصره او على اثره فيه ، بل ينظر اليهِ نظراً حرًّا ، مالكاً لعقله اذا اعترضته حالات منهُ قد تؤثر بسيطرتها على احكامه الفنية ، حسن الاستعداد والتخيل والسليقة ، غير جاهل لنظم النقد التي عرفت من قبل ولا متقيد بها ، وعليهِ بعد ان تكون المقاييس التي يحاول هو وضعها مرنة بحيث تستطيع

ان تصمد امام المفاجئات الادبية والتي قد تعصف بكثرة من نظم النقد فتدك معالمها

عند ما تتحقق هذه الامور في الناقد يجيء دور الذوق، وهو أبرز مؤهلات الناقد فيتلمّس الجمال ويتذوقه ويدركه ويميه ، ويكون النقد الادبي عندئذٍ تطبيق شروط علم الجمال على الادب

اما ميدان الجمال فهو لحسن حظنا واسع تكثر فيه المتناقضات حتى زعم اناتول فرانس ان باستطاعة المرء ان يناقش في المواضيع المتعلقة بتقدير الجمال اكثر مما يستطيع في اي موضوع آخر ، ومن يزعم ان المقاييس لتقدير الجمال وتذوقه قد وضعت وضبطت واستقامت وعينت حدودها فهو خادع او مخدوع ، بل لا اظن ان علماء الجمال يستطيعون ان يخضعوه لهذه النظم التي تخضع لها سائر العلوم ، ولا اظن ان الجمال ينتفع بشيء اذا نظم على قواعد وأرقام وقياسات خاصة ليحشر بين العلوم . انهُ عندئذٍ ليجد ان خياله قد دخل بينها ومدلولاته الرقية قد تسربت بين المعادلات العلمية ولكن الجمال والمغزى الذي يحمله الجمال — سحر الجمال يبقى خارج الابواب — ولست اذكر من قال — وأرجو ان لا تحاسبوني على ارقام السنين — اذا استطاع علم الحياة ان يصبح علماً ثابتاً بعد الف سنة فسيقتضي علم الآداب والسلوك مثلها ثم لا بد ان تمر الف سنة أخرى قبل ان يصبح علم الجمال مثلها وسيظل الناس في حيرتهم طيلة الثلاثة آلاف سنة يتساءلون عن مقاييس الجمال ونظمه . غير ان علماء الجمال قد اصطلحوا على وضع بعض النظم لهُ ولكن الخطر كل الخطر أن يوضع هذا السلاح في ايدي الاطفال من الادباء والنقاد فانهم ينتحرون بهِ ولقد يضطرنا درسها — لو شئنا التوسع — الى درس فنون اخرى كالتصوير والموسيقى والرقص والنحت وغيرها وبكلمة ان هذه النظم لا يمكن ان ينظر اليها كما ينظر الى المقاييس المادية ، وان تقدير الجمال وتذوقه يختلفان عن اللذة المادية التي نكتسبها منهُ. واذا سال لعاب احدكم حين ينظر الى رسم تفاحة مثلاً فهذا لا يعني ان الجمال فيها هو هذه اللذة التي اكتسبها — هذه تزول ولكن الجمال يبقى فيها فيؤثر فيك وفي غيرك في اوقات اخرى. فتذوق الجمال اذن هو هذا الرضا الذي تحس بهِ دون ان يكون لك مصلحة مادية : هذه هي في نظري فلسفة علم الجمال بكلمة ، وذلك هو سحر الفنّ الذي لا يدرك بالحواس الظاهرة بل بالحسّ الباطن . هكذا أفهم النقد الآن ، قد تفهمونهُ على غير هذا الشكل ، ولعلي واياكم نفهمهُ غداً على غير ما نفهمهُ الآن ، ولحسن حظي وحظكم وحظ النقد نفسهُ ان الناس تختلف فيهِ اختلافها في أمر الجمال ، ولولا هذا الاختلاف في الاذواق لما وجدت كل هذه الكثرة من الرجال نعمة في عيون النساء ، ولا ألفت كل هذه الكثرة من النساء سبيلاً الى قلوب الرجال . ولا اظن احداً في هذا اليوم يوافق صاحب ليلى في ليلاه حين قال

لقد فضلت ليلى على الناس مثلما — على الف شهر فضلت ليلة القدر

الانزيمات

النظريات الحديثة في طبيعة عمل الانزيم

لرضوان محمد رضوان

طبيعة عمل الانزيم

اتسعت الدراسات لمعرفة طبيعة عمل الانزيم وتأثيره كتامل مساعد، وساعد على تقدم هذه الأبحاث اكتشاف Büchner طريقة عزل الانزيمات بعيداً عن خلاياها الحية

ولقد ظهرت نظريات عديدة في تفسير عمل الانزيم ، أبسطها النظرية القائلة بأن الانزيم يهيء بيئة مناسبة للتفاعل الكيمياني الحادث ، ذلك لأن محلول الانزيم غروي ، فتتسع بذلك الأسطح المعرضة للتفاعل المطلوب . الا أن هذه النظرية قد سقطت أخيراً لأن الابحاث الحديثة تثبت أن هناك اتحاداً فعليًا بين المادة المؤثر فيها وبين الانزيم ، ثم يتحلل هذا المزيج الى المادة المطلوبة ، ويبقى الانزيم ثابتاً دون أن يتغير ، فيتحد بمقدار آخر من المادة وهكذا . وقد امكن اثبات هذا الاتحاد بالتجربة العلمية ، فأخذ محلولان من مادة التفاعل ومن الانزيم ثم رشحا خلال مرشح خزفي وخلط المترشحان، فوجد أنهما لا ينفذان من خلال مسام الترشيح دلالة على امتزاجهما. وهناك رأيان في طبيعة هذا الاتحاد ، رأي يقول أنهُ مركب كيمياني أي انهُ قائم على اتحاد الجزيئات ، والثاني يقول انهُ مركب طبيعي أو غروي ، والرأي السائد الآن في الدوائر العلمية هو انهُ نظام غروي يؤيد ذلك جميع البراهين العملية . والاثباتات النظرية ، ورؤية المواد المتفاعلة بالالترامیکرسکوب Ultramicroscope ، وتأثير الحرارة في الخاليط المتفاعلة

ويؤيد هذا الرأي أيضاً كون التفاعلات التي تقع تحت تأثير الانزيمات هي تفاعلات عكسية ، فالانزيم الواحد يستطيع ان يزيد في سرعة التفاعل في اي جهة ، وكل اتجاه له شروط تفاعل خاصة ، والامثلة على ذلك عديدة مثل تكون «الاستر» الصناعي للدهون بواسطة «الليباز» الذي في البنكرياس ، وكذا تكون البروتين من الحوامض الأمينية المتحللة ، الى غير ذلك

وقد خُصت الانزيمات المؤكسدة بقسط كبير من ابحاث العلماء ووضعت نظريات كثيرة لشرح عملها ، أشهرها النظريتان التاليتان :

١ — نظرية Bach : وتتلخص في ان عملية انتقال الأكسجين ، لا تحدث الاَّ في حالة وجود مادتين ، الأولى صالحة للتأكسد السريع تعرف علميًّا باسم Auto-oxidiser والأخرى أقل قابلية للتأكسد السريع ، وتعرف علميًّا باسم Accebtor ، فتتفاعل المادة الاولى مع الاكسجين الجوي فيتكوّن بيروأكسيد ، وهو مركب يحتوي على الاكسجين في حالة فعالة جدًّا . ففي حالة انحلال هذا المركب ، تتأكسد المادة الثانية بسهولة تامة مكونة للاكسيد فاذا رمزنا للمادة الأولى بحرف س والثانية بحرف ص أمكن شرح التفاعل كما يلي :

/ س \
س + ا ٢ ← ا ا

س اا + ٢ ص ← ٢ ص ا + س

٢ — نظرية ويلاند Wieland : وتعتمد هذه النظرية على الاكسدة أيضاً ، ولكن في صورة اخرى وهي تنشيط أيونات الايدروجين لكي تتحد بالاكسجين . ولقد تمكن العالم ويلاند من استخدام هذه النظرية في شرح العملية الحيوية التي تحدث في الخلايا تبعاً للمعادلة الآتية :

كحول + اكسجين ← استلدهيد + ماء

ك ٢ يد ٥ ا يد + ا ← ك يد ٣ ك يد ا + يد ٢ ا

وتبعاً لهذه النظرية تتكوّن الاحماض من الالدهيد بواسطة انفصال ذرتين من أيدروجين الاستلدهيد كما في المعادلة :

ك يد ٣ ك يد ا يد ٢ ا + ا ← ك يد ٣ ك اا يد + يد ٢ ا

* * *

قد وجد ان حيوية الانزيمات تتأثر تأثراً كبيراً بوجود اجسام أخرى في محاليلها ، وتختلف درجة تأثير اي انزيم عن غيره ، فلقد تزداد سرعة انزيم لوجود مقدار من حامض ما ، وفي نفس الوقت قد يحد هذا المقدار من نشاط انزيم آخر ، مثال ذلك محلول س/١٠٠ من الحامض الكبريتيك يوقف عمل انزيم الاميلاز الذي في اندوسبرم البذور ، وفي الوقت نفسه يزيد في نشاط انزيم البروتياز ، وهناك من المحاليل ما يوقف حيوية الخلايا ، وبالتالي عمل الانزيمات ، مثل محلول الفورمالدهيد ، والحامض السيانيك ، والفلوريدات المذابة . بينما توجد محاليل أخرى توقف نمو الخلايا ولكنها لا تؤثر في حيوية الانزيمات مثل التولوين والزيلين ، وتعرف المواد التي تنشط الانزيمات باسم Activators والمواد التي تحد من هذا النشاط Inhibitors

وقد لوحظ اخيراً ان انزيمات الانساج الحيوانية لا تؤدي عملها الاَّ اذا وجد معها مواد خاصة توجد في الغدد او البروتوبلازم الذي يفرزها، مثال ذلك انزيم التربسين يشترط لنشاطه وجود املاح الصفراء وهذه الاملاح — وما يشبهها — تسمى مساعدة الانزيم Co-enzymes ويمكن فصلها عن الانزيم بواسطة عملية الفصل الغشائي Dialysis خلال ورق الرق (البارشمنت) ، ومن أحسن الامثلة لمساعد الانزيم في انساج النباتات ، هو مساعد انزيم الزيماز في خلايا الخميرة ، فاذا رشحت عصارة الخميرة خلال المرشح الهلامي (الجيلاتيني)، رأيت ان الانزيمات الغروية التي تبقى لا يمكنها القيام بعملية التخمير ، وبتحليل هذا المترشح الذي يحتوي على مساعد الانزيم، وجد انهُ يحتوي على فوسفات ذائبة ومادة اخرى لم تعرف ماهيتها للآن

من جهة ثانية وجدت ظاهرة أخرى تعرف بظاهرة تضاد الانزيم Anti-enzyme وتوجد في الديدان المعوية التي تعيش في قنوات الحيوان الهضمية لتمنع تأثير انزيمات المعدة والامعاء في تلك الديدان . وهي توجد ايضاً في الغشاء المخاطي المبطن لجدران الامعاء نفسها لتمنع الهضم الذاتي للامعاء بواسطة الانزيمات الدائمة الاحتكاك بها

ونختم هذا البحث بذكر أهم الفوائد الفسيولوجية للأنزيمات ، فللانزيمات تأثير هام في جميع الظواهر الحيوية ، ونحن قد علمنا ان الانزيمات لا توجد تفاعلاً جديداً لم يكن موجوداً من قبل ، اذ انها تساعد على التفاعلات العكسية في اي اتجاه ، فهي ولا شك تحدد سرعة التفاعل بعد أن يحدد البروتوبلازم اتجاهه . ومن المستحيل أن يتم التفاعل بين المركبات العضوية غير المتأينة في محتويات الخلية بغير هذه الأنزيمات وبمثل هذه السرعة الهائلة التي تتم بها التغييرات ، حتى يتمكن الكائن الحي من أن ينمو ويقوم بواجباته الحيوية الضرورية

***

ومعلوم أن التفاعلات المختلفة التي تحدث داخل الخلايا كثيرة جداً وأغلبها يختلف عن الآخر ، لهذا كان من الطبيعي أن يكون عدد الانزيمات الذي ننتظر وجوده في النبات أو الحيوان ، كبيراً جداً ، وفعلا أثبتت التجارب ذلك ، فوجد أن هناك ١٤ انزيماً مختلفاً في القناة الهضمية وحدها و١٦ أنزيماً على الأقل في الكبد ، أي أنها توجد في جميع اشكال البروتوبلازم الحي ولا يختلف هذا في أي كائن حي سواء كان ميكرسكوبياً مثل البكتيريا ، أو ضخماً جداً كشجرة البلوط في المملكة النباتية ، ومن الاميبا الى الحوت في المملكة الحيوانية . ولتعدد الأنزيمات وكثرتها ، نشاهد في غالب الأحيان أنزيماً معيناً شائعاً في أنواع مختلفة من الاحياء ، مثال ذلك أنزيم التربسين ، فقد عثر عليهِ في أنواع من الكائنات الدنيئة وفي النباتات آكلة الحشرات وفي بنكرياس الانسان وفي حيوانات أخرى عديدة

جدول

الانزيمات الهامة

القسم والنوع	اسم الانزيم	بيئة الانزيم	المواد الناتجة	مكان وجود الانزيم
اولا انزيمات هيدروليتية				
ا ـ محللة الكربوايدرات	الانفرتاز	سكر القصب	سكر جلوكوز وفراكتوز	الخمائر*
	مالتاز	سكر المالتوز	سكر جلوكوز	شعير المولت
	انيولاز	الأنيولين	سكر فراكتوز	الخرشوف
	پكتيناز	بكتوز	سكر اراپنوز	الثمار
	دياستاز — أميلاز	النشا	سكر مالتوز	شعير المولت
	سليولاز	السليولوز	سكر مالتوز	البكتيريا والفطر
ب ـ محللة البروتينات	پپسين	البروتين	ببتون + البيوموزس	شجرة البابابظ
	تربسين	»	» »	نباتات كثيرة
	رنين	اللبن	باراكازينات	معدة الحيوانات الرضيعة
جـ ـ محللة الاسترات	ليباز	الدهون	جليسرين + احماض دهنية	الحبوب الزيتية
ثانياً انزيمات مؤكسدة	كتالاز	فوق اكسيد الايدروجين	ماء + اكسجين	كل النباتات
	پروكسيداز	»	اكسجين نشوء	»
	يورياز	يوريا	ثاني اكسيد كربون + نوشادر	»
ثالثاً انزيمات مجزئة	زيماز	سكر عنب	كحول + اول اكسيد كربون	خمائر*
	لاكتاسيداز	حوامض دهنية	حامض لاكتيك	بكتريا

ملحق

بالاسماء العلمية التي وردت في هذا المقال ولم نعثر لها على مرادفات عربية حتى تسهل مراجعتها على القارىء

اللفظ العربي	الاصطلاح العلمي	اللفظ العربي	الاصطلاح العلمي
الانزيم	Enzyme	انزيم الاميلاز	Amylase
عامل مساعد	Catalyst	» اليورياز	Urease
سكروز	Sucrose	» الكتالاز	Catalase
جلوكوز	Glucose	» الزيماز	Zymase
مالتوز	Maltose	» بروكسيداز	Peroxidase
انزيمات هيدروليتية	Hydrolases	» لاكتاسيداز	Lactacidase
انزيمات تحلل الكربوايدات	Carbohydrases	» اوكسيداز	Oxidase
» » البروتين	Proteases	» الاميولوزين	Emulsin
» » الدهون	Lipases	» الدكستريناز	Dextrinase
انزيم الانفرتاز	Invertase	» الجلكتاز	Galactase
» مالتاز	Maltase	الببتون	Peptone
» انيولاز	Inulase	الببتيد	Peptides
» دياستاز	Diastase	دهن الاستيارين	Stearin
» سليولاز	Cellulase	الحمض الاستياريك	Stearic acid
» سيتاز	Cytase	جليسيريد	Glycerides
» بكتناز	Pectinase	جليسرول	Glycerol
» ببسين	Pepsin	استرات	Esters
» اربسين	Erypsin	انزيمات مختزلة	Aeductases
» تربسين	Trypsin	استيالدهيد	Acetaldehyde
» رنين	Rennin	سكر الليفيولوز	Levulose
» الزيماز	Zymase	سكر الفراكتوز	Fructose

باب المراسلة والمناظرة

حول «مباحث عربية»

النظر في آراء النقاد

بقلم الدكتور بشر فارس

لا يسعني — و « المقتطف » خارج في أغسطس — الاَّ ان أشكر لطائفة من النقاد عنايتهم بكتاب «مباحث عربية». وهؤلاء النقاد هم (على ترتيب الهجاء) : الأب انستاس ماري الكرملي « المقتطف » يوليه ١٩٣٩ — ابراهيم عبد القادر المازني « البلاغ » ٢٧ / ٥ / ٣٩ و « المقتطف » يونيه ٣٩ — ادجار جلاد Le Journal d'Egypte ٢٣ / ٦ / ٣٩ — اسماعيل أحمد أدهم « الرسالة » العدد ٣١١ و ٣١٢ — بروكلن « تكملة تاريخ الآداب العربية » ج ٣ ص ١٦٩ ليدن ١٩٣٩ — زكي محمد حسن « الاهرام » ٢٩ / ٥ / ٣٩ — سلامة موسى « البلاغ » ٢٣ / ٦ / ٣٩ — صديق شيبوب « البصير » ١٩ / ٥ / ٣٩ — كامل محمود حبيب « المقطم » ٩ / ٦ / ٩٣ — محرر الدستور الأدبي ، « الدستور » ١٠ / ٥ / ٣٩ — محرر « الهلال » يونيه ٣٩ — م . ح . ع . «الدستور» ١٨ / ٦ / ٣٩ — مراد كامل «الرسالة» العدد ٣٠٨ — وشكري للصديقين: القصصي محمود تيمور (« الرسالة » العدد ٣٠٩) والفنان زكي طليمات (« الرسالة » العدد ٣١١) . وشكري أيضاً لمن بعث اليَّ برسائل رقيقة، وأخص بالذكر الاستاذ ميخائيل نعيمة من لبنان، والدكتور فيليب حتي من أميركة الشمالية ، والمستشرق ماسينيون من فرنسة والمستشرق تيشنر من المانية

وقد ورد فيما كتب النقاد كلام لطف أيَّ لطفٍ حتى إنك تراني أنسبهُ الى سماحة الطبع تارةً ، وأعده من باب حسن الظن بالمؤلف أخرى . واهتمام النقاد — على اختلاف مشاربهم، إذ فيهم العالم والأديب والمنشيء — بكتاب كنت أظنه يدفن يوم يخرج ، لعبوس صفحته وثقل مادته ، لأقطع دليل على ان في مصرٍ من ينشط لكتاب يجرى على « أسلوب يُضجر مَن همهم من القراءة أن يتسلوا ويتلهوا ساعة لانهُ يحوجهم بشدة إحكامه الى كد الذهن » على قول الصديق الأديب المترسل ابراهيم عبد القادر المازني

وتتمة لما يجنيه القارىء — على سبيل الفرض — من هذا الكتاب ، ليحسن بي أن أعرض معه جُل ما آخذ عليه . وإن أنا نظرت في المآخذ ، على اختلاف ألوانها ، فانما يكون هذا طلباً للدنو من الحقيقة ورغبة الى القارىء المهذب في أن يرى رأيه فيها

***

أخذ عليَّ العلامة الأب أنستاس ماري الكرملي استعمالي لفظة « المنضدة » بدلاً من « النضد » لأن المنضدة « لفظة لم ترد في كلام فصيح » ، والنضد « من باب تسمية الشيء بالمصدر »

والوجه ان المنضدة لا تصيبها في « لسان العرب » (ج ٤ ص ٤٣٣ وما يليها) ولا في « القاموس » مثلاً ، ففيهما : « النضد : السرير ينضد عليه المتاع » . فالأب العلامة على صواب . إلا أن المعجمات لا تحصر متن اللغة ، فضلاً عن أن باب الاشتقاق ميسور لطالبه . والمنضدة على وزن مفعلة (بكسر الميم) تجري مجرى اسم الآلة . ثم اني يلوح لي ان استعمال لفظة النضد يورث بعض الاشتباه لأن النضد يدل على الشيء ومصدر الفعل في آن ، وفي استعمال لفظة المنضدة تقييد للمعنى ونجاة من الاشتراك

***

يسألني الدكتور مراد كامل — مدرس اللغات السامية في كلية الآداب لجامعة فؤاد الأول — أن « أدون الرموز (التي استعملها) في الطبعة الثانية على ترتيب ما ، نحو الترتيب الابجدي »

وبهذا الأسلوب الرقيق ينبهني الزميل الفاضل أنه كان ينبغي لي ان ارتب الرموز ، مع قلتها . وعليَّ عهد أني متدارك هذا في الطبعة الثانية ان شاء ربك

***

في رأي الأستاذ صديق شيبوب ان استعمالي « النقد الباطني مقابلة للنقد الخارجي لا يتمشى وتقاليد اللغة . فقد قالوا : خارجي وداخلي ، أو ظاهري وباطني »

والحق بين يدي الأستاذ الناقد صديق شيبوب من جهة التقليد اللغوي . الا أن للاصطلاح الفلسفي ان ينحو نحوه ابتغاء الدقة والفرار من اللبس . وبيان هذا أني لو استعملت « الظاهري » لانصرف الذهن الى الأخذ بالـ « ظاهر » ، و « الظاهر هو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص » (أطلب « التعريفات » للجرجاني ، مصر ١٢٨٣ ، كلمة « الظاهر » الأولى) . هذا على حين أني أريد « القضية التي يكون الحكم فيها على الأفراد الخارجية فقط » (اطلب « كشاف اصطلاحات الفنون » كلمة « الخارجي ») . ومن هنا قولي عند الفحص عن حديث نبوي : « واذا بدا لك أن تعدل عن النقد الخارجي critique externe

وهو النظر في الأسانيد ، الى النقد الباطني critique interne وهو النظر في الأسلوب ، فاعلم أن أسلوب هذا الحديث محض اسلامي » (مباحث عربية ص٤٢) . هذا ما يعلل إعراضي عن لفظة الظاهري . وأما انصرافي عن لفظة الداخلي ، وهي المقابلة للفظة الخارجي من باب التقليد اللغوي الى لفظة الباطني ، فسببه مخافة اللبس . وذلك لأن للفظة «الداخل» مُفادات شتى في الكلام والفلسفة (وهي : الركن والأسطقس والهيولى والاصل ، والموضوع — راجع « التعريفات » كلمة الداخل») . هذا فضلاً عن أن « الباطن » أدل على المعنى المقصود من « الداخل » في هذا التعبير : « النقد الباطني » . لأن الباطن يوجه الذهن الى ما هو داخل والى ما في الداخل من خفي ، على حين ان النقد الداخلي لا يقتضي النفاذ الى كنه الاشياء بل يقف عند ما وراء المنظور . وعلى ذلك ترى الباطني أشد إيغالاً وأعم

واذا قلتَ : لمَ لا تستعمل كلمة « خفي » — وهي ضد كلمة « ظاهر » أيضاً على ما جاء في « التعريفات » (كلمة « الظاهر » الثانية)—قلتُ : ان كلمة « الخفي » مَساقة الى اللبس ،لأن الخفاء « في اصطلاح اهل الله هو لطيفة ربانية مودعة في الروح بالقوّة ... » (« التعريفات » كلمة « الخفي ») . واذا اعترضت بعد هذا بقولك : ان كلمة « الباطني » مجلبة للبس أيضاً من حيث ان « الباطنية »فرقة من فرق المسلمين (أطلب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » للرازي مصر ١٩٣٨ ص ٧٦ وما يليها ، ثم أطلب « كشاف اصطلاحات الفنون » كلمة « الباطنية ») ، جعلت ردي أنك إن اردت النسبة الى « الباطنية » قلت : نقد الباطنية ، اي فرقة الباطنية ، لا النقد الباطني أي : طلاّب الباطن (وعلى هذا « الظاهرية »)

***

عدّ الاستاذ م . ح . ع .[1] المبحث الأول من الكتاب ، وعنوانه : مسلمون في فلندة « مقالاً لا يتناسب مع موضوعات الكتاب »

وهذا حق من جهة أن ذلك المبحث لا ينهض ، نحو مبحث « مكارم الاخلاق » أو « المروءة » أو « تاريخ لفظة الشرف » ،على استقراء الواقعات واستقصاء المصادر . فليس هو مبحثاً بالمعنى المتواضع عليه،ولذلك سميتهُ « استطلاعاً » inquiry, enquête وهو بهذا يدخل في باب « المشاهدة بمباشرة وملاقاة » (كما يقول ابن سينا) من علم الاجتماع . ولعلي جعلته رأس المباحث ، لجدّته وخلابة موضوعه مع سهولته ، مدخلاً الى فصول كالحة تأكل حواشيها متنها

---

(١) — محمود حسني العرابي

ثم ان الكاتب المستعرب الأستاذ اسماعيل احمد ادهم ، خريج جامعة موسكو [١] ، نشر في « الرسالة » ، بعد الدكتور مراد كامل ، نقداً مسهباً أحب أن أتمهل عنده :

ألا اني يسوءني ان اقول اني لمست فيما كتبهُ الأستاذ ادهم انحرافاً عن وجه النقد الصحيح واضطراباً في تناول المسائل العلمية ، واجتلاباً للنقد نفسه ، واستسلاماً الى آراء المستشرقين من غير تمحيص للواقعات ذاتها ، ثم تحدياً في القول . واليك تفصيل ذلك :

***

أما انحراف الناقد عن وجه النقد الصحيح ففي مثل قوله في مبحثي « مكارم الاخلاق » — وهو المنشور من قبل باللغة الفرنسية في « مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم في رومة ١٩٣٧ بعد القائي لهُ في مؤتمر المستشرقين (سبتمبر ١٩٣٥) — : « وكان بودنا ان تناقش الباحث آراءه التي اتى بها في الموضوع ولكن المصادر اعوزتنا . لهذا صرفنا النظر عن مناقشتها . على انهُ يظهر ان الباحث وفى حقهُ من التحقيق والفحص العلمي »

هذا أسلوب من النقد لم آلفه قبل اليوم . فاما ان يناقش الناقدُ الباحثَ في مسائل واضحة معينة ، ولا يكون ذلك إلاّ بعد مراجعة المصادر بنظر نافذ . وإما ان يتجنب الكلام او يعرض للبحث من الناحية الموضوعية فيبين مطالبه ويجملها للقارىء دون ان يلقي في وهمه انهُ يستطيع مناقشة الباحث ولكنهُ « صرف النظر عن المناقشة » لان المصادر تعوزه . ذلك أسلوب فيهِ تهويل ، مما يدعو القارىء الى الارتياب في قدر البحث نفسه . افلم يكتب الناقد : « على انهُ يظهر (كذا) ان الباحث وفى حقهُ (اي الموضوع) . . . » ؟

انما وظيفة النقد تحقيق الموضوع ولا سيما اذا كان مما يتصل بالعلم الاستقرائي . وعلى هذا الوجه يستعين الباحث بالناقد على خدمة العلم الصرف

***

وأما اضطراب الناقد في تناول المسائل العلمية ففي استشهاده بفصل من كتاب « ملتقى اللغتين » للأستاذ مراد فرج (القاهرة ١٩٣٠ ج ١ ص ٩٠) . قال الناقد : « كلمة المروءة وردت في اللغة العبرية نازعة فيها لمعنى السيادة » ثم رجع القارىء الى : سفر دانيال ، الإصحاح ١٤ ، الآية ١٩ والواقع ان في كتاب مراد فرج ما حرفه : « مرا : فتح فكسر فمال ممدود بمعنى السيد

---

(١) أورد الاستاذ سامي الكيالي في مجلته مجلة « الحديث » في التصدير الذي عمله لبحث الاستاذ ادهم في « طه حسين » ١٩٣٨ ، ان الاستاذ ادهم أخذ في العلوم والفلسفة اجازتي Sc D., Ph. D. بدرجة شرف من جامعة موسكو سنة ١٩٣٣ وانه غنم من الجامعة نفسها اجازة Ph. D. بصفة فخرية سنة ١٩٣٨ . هذا وان الاستاذ أدهم ، كما يعلم قراء المقتطف ، يجعل تحت توقيع اسمه : « عضو أكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسي للدراسات الاسلامية »

وولي الأمر» . وعليه فمن اين جاءت لفظة «المروءة» ؟ ثم ان الأستاذ مراد فرج استشهد في هذا الموطن بسفر دانيال (من «العهد القديم»)، فكتب : « دانيال ١٤ — ١٩ ، والأصل العبري ١٦ ... (يريد الإصحاح ١٤ والآية ١٩ في الأصل العربي والآية ١٦ في الأصل العبري)

ومن المستحيل ان يكتب الأستاذ فرج : الاصحاح ١٤ (الرابع عشر) ، لأن سفر دانيال اثنا عشر إصحاحاً فقط . ومن هنا اتضح لي ان الاصحاح ١٤ من غلطات الطبع . فسألت زميلي الدكتور مراد كامل — مدرس اللغات السامية بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول — في ذلك، فأخبرني بعد المراجعة ان الصواب هنا : الاصحاح ٤ (الرابع) والآية ١٦ و٢١

وهكذا ترى كيف جاء الاستاذ أدهم ونقل ما في كتاب فرج من غير تحقيق ولا مراجعة . والظريف انهُ استشهد بسفر دانيال أولاً ، اذ قال : « دانيال ١٤ — ١٩ ومراد فرج في ملتقى اللغتين ج ١ ص ٨٩ — ٩١ » ، كأنهُ اطلع على سفر دانيال قبل « ملتقى اللغتين » لمراد فرج

— ومما يتصل بما تقدم أن الناقد كتب عند الكلام على انساب العرب : « ولكننا على الرغم من ذلك نلاحظ جواز أن تكون القبيلة منشؤها اجتماع عدة بطون واتخاذ من قبائل مختلفة : (ابن حزم نقلاً عن الفهرست ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ . والمراجع العربية تروي ان قبائل تنوخ وغسان والعنق تكونت من شتيت البطون التي تناثرت في الصحراء من القبائل العربية التي تفرقت بعد تركها مواطنها في الجنوب : الفهرست ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ وكذلك لنا (يعني كتاباً لهُ) علم الأنساب العربية ص ١٣ — ١٤ »

على هذا النحو ترى الجزء الثالث (؟) من « الفهرست » لابن النديم يُثبَت مرتين على سبيل المرجع . وليس للأستاذ أدهم أن يستنجد بغلط الطبع ، إذ في كتابهِ المستشهد بهِ ايضاً « علم الأنساب العربية » (طبعة مجلة الحديث، حلب ١٩٣٨ ص ١٤) ما جاء في نقده حرفاً بحرف

هذا والمعلوم ان « الفهرست » لابن النديم طبع مرتين : مرة في ليبتسج Leipzig سنة ١٨٧٢ ومرّة في مصر سنة ١٣٤٨ هـ . وفي كلتا المرتين خرج « الفهرست » في جزء واحد . والذي حدث في هذا الموطن أن الاستاذ ادهم اقتبس المرجع الى « الفهرست » من كتاب من الكتب الحديثة من غير ان يراجع المظِنّة (شأنهُ مع «سفر دانيال»)، ولو راجعها لعلم أن الكلام على الأنساب يقع في « المقالة الثالثة » (« الفن الأول : في اخبار الاخباريين والنسابين ... ») من كتاب الفهرست لا في « الجزء الثالث » منهُ . ومن هنا يتبيّن انهُ ظن المقالة جزءاً لحظة اقتبس المرجع ، وأما الصفحة التي يعينها (ص ١٨٧) فلا أثر فيها لما يذكره . بل اني قرأت « الفن الأول » من « الجزء الثالث » كله (طبعة مصر) ولم أعثر على حديث الناقد

وأما قوله في مرجعه : « ابن حزم نقلاً عن الفهرست ... » فغاية الاشتباه . لأنهُ اذا

قال ابن حزم من غير تعيين اراد صاحب « الفصل في الملل والأهواء والنحل » المولود سنة ٣٨٣ (والفهرست صنف سنة ٣٧٧) . ولابن حزم ستة وثلاثون مؤلفاً (راجع : بروكلمن « تكملة تاريخ الآداب العربية » ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٦٩٤ — ٦٩٧) . وعليه فلنا ان نسأل الناقد اي كتاب لابن حزم يعني . ثم اني اعلم ان لابن حزم كتاباً لا يزال مخطوطاً عنوانه : « جمهرة النسب » وقد نشر جانباً منه Khuda Bukhsh في كتابه Contributions to the Hist. of Isl. Civiliz. كلكته ١٩٠٥ ص 1 الى XXXV . فهل يعني الأستاذ ادهم ذلك المخطوط ؟ واذن فاين اسم الكتاب واين الصفحة كما يصنع الناقد الثبت والباحث الثقة ؟ (١)

وخاتمة القول : أين الجزء الثالث في الفهرست ، وأين النص المستشهد به في ص١٨٧ ، بل في الفن الاول من المقالة الثالثة من الفهرست ؟ ثم من ابن حزم هذا وما كتابه ؟

— ومن الاضطراب أيضاً أن يقول الناقد : « ورى (يعنيني) للعربي صلات اجتماعية في حدود الحي والقبيلة . وفكرة البحث وجيهة ، ولكن ما رأيه في كون التحاق العربي بقبيلته او حيه مظهر (كذا) من الاصل الطوطمي totemism عند العرب القدماء ، والطوطمية مصدرها فردية صرفة »

والرد ان الطوطمية جماعية صرفة ، كما قرر ذلك علماء الاجتماع . واليك دليلاً ما كتبهُ (دوركايم) Durkheim صاحب مدرسة علم الاجتماع في فرنسة لهذا الزمان : « ان نوع الاشياء الذي يعين الحي من طريق جماعي collectivement يسمى : طوطم . وطوطم الحي هو طوطم كل فرد من افراده » (اطلب Les Formes élementaires de la Vie Religieuse باريس ١٩٢٥ ص ١٤٣) . وعلى هذا ما جاء في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ١٤ ، كلمة Totemism) : « الطوطمية خاصة اصلية هي ارتباط جماعات من الناس بجماعات من الحيوانات او الاشياء ، لا ارتباط افراد من الناس بحيوانات مفردة . وهذا الارتباط الاخير ظاهرة شائعة لا يستحسن ان تنطوي تحت الطوطمية »

***

واما اجتلاب الاستاذ ادهم للنقد فبين عند كلامه على طائفة المسلمين الذين اهتديت اليهم في فنلندة سنة ١٩٣٤ ، وهم من الترك — التتر الضاربين أصلاً فيما وراء جبال اورال . وقد دونت أنهم هجروا الى الشمال وحلوا بفنلندة عقب الثورة البلشفية في روسية

(١) وهذا يذكرني ان بالاستاذ أدهم ميلا الى ارتجال المراجع . من ذلك ما جرى على قلمه في مجلة الرسالة (العدد ٣١٣ ص ١٣٣١) : « قد تكررت جملة كذا في كتابات العالم الاجتماعي دوركايم Durkheim وخصوصاً في مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون (ص ١١ و١٣ و٢٤ و٢٦ مثلا) » فما هذه « المجموعة » ؟ راجع ما كتبته في الرسالة العدد ٣١٤ « باب رسالة النقد » ص. ١٣٧٩

على ان الناقد يقول : « ونحن نعرف ان المصادر التركية تتحدث عن رحلة جموع من الاتراك المسلمين الى الشمال في القرن السادس عشر للميلاد وانهم نزلوا بلاد (الفنوا) . فهل تحقق الباحث من ان مسلمي فنلندة الذين شاهدهم عن كثب ليسوا من نسل هؤلاء ؟ وان قولهم بأنهم اتوا فنلندة عقب الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا حقيقة تخلو من الريب ؟ »

والرد ان هؤلاء المسلمين الذين اهتديت اليهم في فنلندة خبروني بما دونته ، وقد أيد موظفو الحكومة الفنلندية ما خبرني به القوم ، وصاحب الدار أدرى بالذي فيها . وليس لي ان اشك فيما قاله هؤلاء الموظفون واولئك المسلمون ، اذ لا داعي الى الكذب ، واذ الهجرة قريبة العهد (خمس عشرة سنة) فكيف تُلفّق ؟ والذي يُخيّل اليّ ان الاستاذ ادهم — خريج جامعة موسكو — يريد ان يجعلنا نرتاب في ان نفراً من الناس بل من المسلمين يخطر لهم ان يفروا من الثورة البلشفية (او الثورة الاشتراكية الكبرى ، كما يسميها)

— ومن اجتلاب النقد ايضاً قول الأستاذ ادهم اني كتبت أن هؤلاء المسلمين يقيمون في مدن ، منها مدينة « توركو » ولم اذكر ماصلة هذه المدينة بلفظة « ترك » . وفي رأيه ان هؤلاء المسلمين لم يستطيعوا ان يخلعوا اسماً مشتقاً من جماعتهم (يعني لفظة ترك) على تلك المدينة لأنهم لم يقيموا بها سوى خمس عشرة سنة ولأنهم أقلية ، وعليه « فللموضوع شأن اعمق من القول بأن هؤلاء من الذين نزلوا فنلندة بعد الثورة البلشفية في روسية » . وبهذه الجملة يعود الناقد الى حمل القارىء على الارتياب في تاريخ هجرة اولئك المسلمين ، فيصرف ذهنه الى جماعة الترك الذين رحلوا الى فنلندة في « القرن السادس عشر »

والرد ان مدينة « توركو » عيّدت ، سنة ١٩٢٩ ، انقضاء سبعمائة سنة على انشائها (راجع « دائرة المعارف البريطانية » الطبعة ١٤ كلمة Turku) ثم ان « توركو » هو الاسم الفنلندي الصميم للمدينة (واسمها الأسوجي : آبو Abo ، وقد أهمله الفنلنديون الآن تعصباً لقوميتهم) . وكانت « توركو » عاصمة فنلندة في المائة الرابعة عشرة للمسيح ، وفيها كان مقر الاسقف وقيام الحكم (اطلب La Finlande بقلم J.—L Perret باريس ١٩٣١ ص ١٥ ثم Hist. des Pays Baltiques بقلم Meuvret باريس ١٩٣٤ ص ٧٢) . والمائة الرابعة عشرة للميلاد قبل « القرن السادس عشر له » . فلا تأثير اذن لجماعة الترك الذين ذكرهم الناقد في اسم مدينة « توركو »

— ومن اجتلاب النقد ايضاً ان الناقد يقول في بحثي عن اولئك المسلمين « اني لم اتعمق في البحث » وحجته اني كتبت ان حروف هجائهم هي الحروف اللاتينية — التركية التي وُضعت وشاعت بأمر اتاتورك ، فلم اثبت من ان هذه الحروف هي التي « تـوافق عليها اتراك آسيا الوسطى والقوقاز والاورال في مؤتمر تفليس عام ١٩٢٥ »

وهنا اقول دفعة اخرى : ان هؤلاء المسلمين خبروني بما دونته ، فضلاً عن انهم صرفوا هواهم عن روسية الى انقره ، كما جاء في مبحثي (ص ٢٣) ، وذلك بغضاً للبلشفية وأصحابها. والعهدة في ذلك عليَّ

[هذا وإن منطق الاستاذ ادهم في هذا الاعتراض والذي سبقهُ يذكرني بمنطقهِ في اثبات تاريخ ميلاد صديقي الاستاذ توفيق الحكيم . فقد عين الاستاذ الحكيم لأدهم مولده ولكن الأستاذ ادهم أبى الاَّ ان يسلب صديقي خمس سنوات من عمره ، وذلك على طريقته الخاصة في الاستدلال . اسمعهُ يقول : «هنالك خلاف جوهري بيني وبين الاستاذ توفيق الحكيم بخصوص تاريخ ميلاده ، فهو يقول انهُ ولد عام ١٨٩٨ في خطاب بعثه الينا ولكن هذا التاريخ لا يتفق مع هيكل التحقيقات (كذا) التي قمنا بها . . . . وعلى هذا يكون ميلاد الاستاذ الحكيم اواخر سنة ١٩٠٣ (صيف عام ١٩٠٣) ، اما انهُ مولود في الصيف فهذا محض استنتاج من مجرى تاريخ حياته حيث أفترض ان والديه ذهبا للاسكندرية لقضاء اشهر الصيف ،فوضعته والدته بالاسكندرية» راجع هذه القصة الفريدة في مجلة الحديث ، حلب ١٩٣٩ ص ٣٣٢ المتن والحاشية رقم ٨٧.]

— ومن اجتلاب النقد ايضاً ان الناقد يقول اني « اعتبر كلمة البصيرة مقابلاً لكلمة intuition (يريد ناظرة اليها) في ص ٥٧ (من كتابي) » على حين ان «المرجح عنده لفظة الحدْس لأنها فلسفيًّا كما جرت على اقلام فلاسفة العرب كابن سينا والفارابي تفيد معنى الانتقال دفعة واحدة من المبادىء الى النتائج ، وهذا ما يفيده معنى لفظة intuition اصطلاحيًّا ولغويًّا كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية»

والرد اني لم اثبت كلمة intuition ازاء كلمة « البصيرة » في ص ٥٧ من كتابي ولا في صفحة غيرها ، فمن اين جاء بها الناقد وكيف يجعلني « اعتبر » ما يجهل هل انا « اعتبره » ؟ انه يحملني هذا لينساق الى الكلام على «البصيرة» و«الحدس» فيذيع علمه الغزير ، دون ان يخرج نصًّا لأحد من فلاسفة العرب . واليه نصًّا صريحاً للغزالي : «الحدس وهو سرعة الانتقال من معلوم الى معلوم...» («تهافت الفلاسفة» بيروت ١٩٢٧ طبعة Bouyges ص ٢٧٣ . ثم ليراجع لفظة الحدس في «كتاب الاشارات» و « النجاة» لابن سينا : Goichon, Introduction à Avicenne باريس ١٩٣٣ ص ٣٦ التعليقات) . ومهما يقد «الحدس» فان الناقد يرى ان كلمة intuition تفيد أيضاً الانتقال دفعة واحدة من المبادىء الى النتائج (ولعله يريد «الى المطالب» : كما جاء في « التعريفات » و « كشاف اصطلاحات الفنون») ، وذلك «اصطلاحيًّا ولغويًّا كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية »

وهنا أحب ان أدعو الناقد الى مراجعة معجمات الفلسفة ، نحو « المعجم الاصطلاحي والنقدي للفلسفة (ج ١ ص ٣٩٦ — ٤٠٢) وصاحبه الاستاذ لالند Lalande وعليه أخذت فن المنطق في

السربون . فلعل الناقد يرى ان مدلول كلمة intuition يذهب الى أبعد مما يظن . وذلك لان المصطلحات الفلسفية لا تصاب على وجوهها التامة في « معاجم اللغة » كما يقول الناقد . أضف الى هذا ان لفظة « البصيرة » ولفظة intuition متماثلتان من حيث الاشتقاق اللغوي (راجع «البصيرة» في « كشاف اصطلاحات الفنون » ووازن بينها وبين مدلول intuition عند Bergson خاصة) . ولا أريد ان أعرض لهذا المطلب ، فانهُ يخرجنا عما نحن فيه

***

واما استسلام الناقد الى آراء المستشرقين من غير تمحيص للواقعات نفسها ، فأقطع دليل على هذا ما كتبهُ : « على هذا التفسير يسير اعلام الاستشراق في أوربا » يريد تفسير لفظة المروءة . ذلك التفسير الذي اظنني دفعتهُ دفعاً في مبحث لي نشرتهُ من سنتين دائرة المعارف الاسلامية التي يخرجها « أعلام الاستشراق » في اوربة

وعلى هذا النحو من التثبت يردد الناقد أقوال المستشرق جولدتسيهر ، وهي أقوال تصعد الى سنة ١٨٨٩ ، في نقده لمبحثي في المروءة . والغريب انهُ يعتمد على ما ذهب اليه جولدتسيهر في هذا الباب ، على حين اني عقدت فصلاً كاملاً في المبحث لأدفع مذهب جولدتسيهر وبين يدي الحجج المستخرجة من النصوص الصريحة لا المنتزعة من الذهن تخيلاً وارتجالاً او المنقولة من كتب الفرنجة . وكل ما صنعهُ الناقد انهُ قال : « ان تساؤل معاوية عن معنى المروءة لا يدل على التباس معنى اللفظة لأن مثل هذه الاسئلة التي ترد في كتب الادب واللغة منحولة لاغراض واضحة ظاهرة »

فان صح قول الناقد فما رأيه في النصوص الأخرى التي اثبتها أو رجعت القارىء الى مظانّها وهي كثيرة ، بدليل ان الناقد نفسه يقول : « في هذا المبحث (اي مبحث المروءة) يبرز الباحث رجلاً مدققاً عرض للموضوع في احاطة عجيبة » . ما رأي الناقد مثلاً في كلمة ابي حاتم البستي : « اختلف الناس في كيفية المروءة » والبستي ، بهذه الكلمة ، يصرح بتضارب التعريفات للفظة المروءة وتباين الأقوال فيها (راجع «مباحث عربية» ص ٦٠) . والبستي هذا اقرب الى العصور الاسلامية من المستشرقين ومنا ، فقد توفي سنة ٣٥٤ هـ . ثم ان اختلاف الناس في كيفية المروءة دليل على التباس هذه اللفظة

واما قول الناقد بأن المروءة تنزع في اللغة العبرية الى معنى السيادة ، مستخرجاً ذلك من كتاب مراد فرج ، على ما تقدم ، فمدفوع أساساً . ذلك ان مراد فرج نفسه يقول : ان اصل « مرا » العبرية (ولم يذكر المروءة البتة) آرامي . وفي مبحثي في المروءة فصل أردت فيه

الاستناد الى مادة « م ر ا » الآرامية في سبيل الذهاب — من طريق ذلك الاستناد — الى ان لفظة «مرء» العربية تفيد السيادة . وقد أهمل الناقد ما قاله الأستاذ فرج، في كتابه «ملتقى اللغتين»، في اصل كلمة «مرا» ، مغالطة

— ومن استسلام الناقد الى آراء المستشرقين انه يعول على كتاب Robertson Smith وعنوانه Kinship and Marriage in Early Arabia في «كون التحاق العربي بقبيلته اوحيه مظهر (كذا) من الأصل الطوطمي»

على ان كتاب Smith في هذا الباب لا يحتج به اليوم (راجع مثلاً ما دوّنته في رسالتي «العرض عند عرب الجاهلية» باريس ١٩٣٢ ص ١٩ من «ثبت المصادر»)

— وهنا اذكر اننا اصبحنا ندير النظر في كل ما يذهب اليه المستشرقون ، سواء بالرجوع الى الاصول والفحص عن المصادر الاولى أو بتعقب التبيين والاستدلال . اذ قد مضى الزمن الذي فيه كنا نأخذ العلم عنهم اخذاً فنؤمن بكل ما يقولون به . والرأي ان نقتبس من مناهجهم ونستد بما يؤلفون مع استقلالنا بأقلامنا وبصائرنا : العلم لا يستأثر به ، والعربية وفنونها من تراثنا

***

وأما تحدي الناقد في القول فيدخل تحته كل ما اخذ عليَّ في باب اللغة . من ذلك انه يرى — بعد الاستاذ صديق شيبوب، دون ان يذكره — ان تعبيري: النقد الخارجي والنقد الباطني «ضعيف من جهة السياقة العربية اللغوية الخالصة» . وقد مرَّ ردي على هذا الاعتراض

ومن ذلك أيضاً انه يرى ان استعمالي لفظ «السلوك» لأحد مشتقات المصدر الفرنسي (وهو moralité) تارةً ، ولفظ (الاخلاقيات) لمشتق آخر لنفس المصدر (وهو morale بمعنى éthique) تارة اخرى «يوقع في اللبس والاختلاط»

والرد ان الناقد لم يدرك الفرق الذي بين اللفظين الفرنسيين : moralité و morale (راجع مباحث عربية ص٣٦ و٥٦) ، فالأول يدل على اعمال المرء من الناحية الاخلاقية ، والثاني يفيد علم الاخلاق . وحسب الناقد ان يستفسر معجماً فرنسيًّا للمدارس ذينك اللفظين

— ومن ذلك أيضاً انهُ يرى ان قولي: «ان للفظة الشرف مفادات متجاورة تارةً ، متباينة اخرى» مما «فيه قصور واضح في التعبير العربي فضلاً عن ان التعبير غير مستقيم من جهة ابناء اللغوي العربي» (ابن البناء غير المستقيم؟) وحجته في هذا ان «في هذا التعبير لفظة التجاور تفيد الفرنجيًّا معنى synonyme ، ولكي تتسق مفادات العبارة لا بد من ابدال لفظة المتجاورة من الجملة بالمتشابهة لأنها ادل على المعنى واكثر اتساقاً في الجملة»

وهنا لا اريد ان اطيل الرد ، لاطمئناني الى ان القارىء العربي يفطن بسليقته اين وجه الصواب (وكلمة synonyme في الافرنجية هي الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد او متقارب) وليأذن لي الدكتور أدهم في ان ارشده الى كتب اللغة العربية ليتبين ان معنى synonyme تؤديه في العربية الفصحى لفظة « المترادف » . واليه مثلا فصلاً قريب المنال في « المزهر » للسيوطي (النوع السابع والعشرون) . وأما « المفادات المتجاورة » فهي المتجاورة voisines في الفرنسية ، وأما المتشابهة فغير المترادفة . وبين هذه الألفاظ من الدقائق ما يشق على غير العربي أن يحس به

— ويدخل فيما تقدم ما رآه الناقد في كلمة « الاسلوب » وما كتبهُ في شأن « المشاهدة والتخيل » .
والله لا ادري ما الذي استدرج الناقد الى باب النقد في اللغة ، وهو الذي لا يزال يأخذ لغتنا عنا . ألا تسمعهُ يقول (مجلة الرسالة العدد ٣١٣ ص ١٣٣١ ، وهو يريد الاعتذار من اقتباس تعبيرات لي[1]) : « اني حين اكتب بالعربية فانا اكتب بلغة غير لغتي الاصلية ، ومن هنا بعض ما يجيء على قلمي من التعابير الخاصة لكتّاب اليوم استدراكاً للمعنى الذي في ذهني من تعابيرهم »

***

تلك هي مآخذ الاستاذ أدهم على « مباحث عربية » . وما تمهلت عندها الاّ ارادة ان تستقيم موازين النقد في بلدنا ، ورجاء أن يفطن من يفد علينا من المنصرفين الى النقد انا ندري ما أساليب العلم الحق ، وانا لا يأخذنا القول بالظن ولا الكلام المتحدّي ولا الجدال المتحكم ولا التظاهر بالدراية والتثبت ، وان قال الناقد ، غير متهيب ولا متردد ، انهُ « أكثر الكاتبين في العربية استقصاء للمصادر » . (مجلة الرسالة العدد ٣١١ ص ١٢٢٥)
ألا انا نطلب في مصر النقد الذي تمده الرغبة الصحيحة في خدمة العلم ، والعلم عندنا أمسى شيئاً مقدساً له سَدَنَتهُ وله حرّاسه . والنقد للعلم مصباح على ان يكون الزيت لا دخل فيه

بشر فارس
دكتور في الآداب من السربون

(١) اقتبس الاستاذ ادهم جملا تارة برمتها واخرى محرفة من توطئة مسرحيتي « مفرق الطريق » المنشورة في مقتطف مارس ١٩٣٨ ثم من بحث لي في مذهبي الرمزي منشور في مجلة الرسالة العدد ٢٥١ والظريف أنه استعمل هذه الجمل المنتسبة مني لدرس مذهب توفيق الحكيم في الرمزية . وهذه طريقة في التطبيق في النقد الادبي جديدة (راجع كل هذا في مجلة « الرسالة » العدد ٣١٢ البريد الادبي « في اقتباس الكتاب » والعدد ٣١٤)

حول مقال التعقيم

كتب الدكتور شريف عسيران في عدد المقتطف لشهر يوليو عن التعقيم بين انصاره ومعارضيه افتتحهُ بتعريفه لغويًّا ثم قال (وكان الملوك والخلفاء يعقمون الرجال الذين يستخدمونهم بسل خصاهم فيزول عنهم الميل الجنسي) ثم أشار في الهامش إلى حكاية تؤيد هذا فقال (يقال هو أعقل من خاصي الخنثين وهو مثل أصله أن جماعة من الخنثين كانوا في المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك الأموي فأراد أن ينفيهم منها فكتب إلى عامله فيها أبي بكر عمر بن حزم احص من عندك من الخنثين فاتفق أن نقطة من السطر الأعلى وقعت فوق الحاء فخصاهم)

وليست صحة الرواية كما روى الكاتب الفاضل فهو قد أوفى بحثهُ من الناحية الطبية لذا لزم أن نصحح ما ليس من اختصاص الطبيب بل من أبحاث الأديب

فقد حكى الجاحظ في باب (مساوي شدة الغيرة والعقوبة عليها) من كتابهِ (المحاسن والاضداد) ما نصّهُ:

(حكي عن سليمان بن عبدالملك أنهُ كان في بعض اسفاره فسمر معهُ قوم فلما تفرقوا عنهُ دعا بوضوء فجاءت بهِ جارية فبينا هي تصب الماء على يده اذ استمدها وأشار اليها مرّتين أو ثلاثاً فلم تصب عليهِ فأنكر ذلك ورفع رأسهُ فإذا هي مصغية بسمعها مائلة بجسدها الى صوت غناء من ناحية العسكر فأمرها فتنحت فسمع الصوت فإذا رجل يغني فأنصت لهُ حتى فهم ما غنى فدعا بجارية غيرها فتوضأ فلما أصبح أذن للناس فأجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيهِ حتى ظن القوم أنهُ يشتهيهِ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء والتسهيل لمن سمعهُ وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس فقال هل بقي أحد يسمع منهُ فقال رجل من القوم عندي رجلان من أهل الأبلّة محكمان قال فأين منزلك من العسكر فأومأ إلى ناحية الغناء فقال سليمان ابعث اليهما ففعل فوجد الرسول أحدهما وأقبل به وكان اسمهُ سمير فسأله عن الغناء وكيف هو فيهِ قال محكم قال متى عهدك بهِ قال البارحة قال وفي أي النواحي كنت؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال وما اسم صاحبك قال سنان قال: فأقبل سليمان على القوم فقال هدر الفحل فضبعت الناقة ونبّ التيس فشكرت الشاة وهدل الحمام فزافت الحمامة وغنّى الرجل فطربت المرأة — . ثم أمر بهِ فخصي وسأل عن الغناء أين اصله قالوا بالمدينة وهم الخنثون فكتب الى عامله أن أخص من قبلك من الخنثين) وتلك هي الرواية المعقولة لا ما نقله الدكتور عن البستاني

وحدث الاصمعي ان الشعر الذي سمعه سليمان يتغنى بهِ هو:

محجوبةٌ سمعتْ صوتي فأرّقَها من آخر الليل لما بلّها السحَرُ
تُدنى على الخدّ منها من مُعصفرةٍ والحَليُ بادٍ على لبّاتها خَصِرُ

في ليلةِ البدر ما يدري مُضاجعُها أوجهُها عندهُ أبهى أمِ القمر
لم يمنع الصوت ابوابٌ ولا حرسٌ فدمعها لطروق اللحن ينحدر
لو تستطيعُ مَشتْ نحوي على قدمٍ تكادُ من رقّةٍ في المشي تنفطرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة قاعدة تبكي فوجه إلى سنان فأحضره ووجهت الجارية رسولاً إلى سِنَان يحذّره وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم إن سبق رسول سليمان فلما حضر انشأ يقول :

استبقني الى الصباح أعتذرْ إنَّ لساني بالشراب منكسرْ
فأرسل المعروف في قوم نُكُرْ

فأمر بهِ فَخُصي وكان بعد ذلك يسمى الخصي — ولعلنا نكون بذلك قد أوفينا الغاية تفصيلاً من هذه القصة كما أوفيناها تحقيقاً في الرواية وقد أثبتت ان صحة امر الخليفة الى عامله بالمدينة كان بخصيهم لا باحصائهم وأما المثل (هو أعقل من خاص المخنثين) فليس مراداً بهِ الوالي بل الخليفة نفسه فانَّ النقطة لم تقع اتفاقاً كما يقول الباحث الفاضل ، بل الرواية رويت خطأً كما نقلها البستاني بدون تحقيق . ونقلها عنهُ الدكتور بدون مراجعة

دمنهور عبد الحفيظ نصار

ذيل

لمقال الدكتور بشر

جمع مقال الدكتور بشر فارس (حول مباحث عربية) ومثل الجانب الاول منهُ للطبع في الثلث الاول من الشهر (يوليو ١٩٣٩) لاعتزام الدكتور السفر الى اوربا . ثم صدرت مجلة الرسالة الغراء بتاريخ ١٠ يوليو — وهي ميدان المناقشة الاصيل — وفيها مقالٌ بقلم الدكتور بشر فارس انطوى على أهمّ ما جاء في فصلهِ المنشور في هذا الجزء من المقتطف خاصّاً بالردّ على الدكتور اسماعيل احمد أدهم . فاقتضى التنويه

***

ثم جاءنا من الدكتور بشر من الاسكندرية ليلة سفرهِ ان ما اشار اليهِ في مقالهِ من ان الدكتور أدهم أخذ عن الاستاذ صديق شيبوب فكرة النقد الخاص بلفظي الباطني والخارجي (راجع ص٣٦٦ سطر ١٤ من هذا الجزء من المقتطف) ليس قرين الصواب لأن الدكتور أدهم كان أسبق الى الاشارة الى هذه المسألة من الاستاذ صديق . ولما كان المقال قد طبع عند ورود هذه الكلمة في ١٣ يوليو رأينا إنصافاً للدكتور أدهم وللدكتور بشر أن نوردها هنا



استطلاعات المقتطف في مصر الصناعية

جولة في مصنع مصر للأزرار

خامات السودان تصنع في مصر

فتش ملابسك واحص عدد الازرار التي تحتاج اليها في حياتك فسواء أغنياً كنت ام فقيراً، وسواء أمن انصار الحديث كنت أم من أنصار القديم، وسواء أرجلاً كنت أم امرأة فستجد ازرار الصدف او الدوم تحتل من ملابسك مكانها الممتاز فهي جزء من مظهرك وهي لازمة لوقاية صحتك

وبعض هذه الازرار ظاهر للعيان وبعضها مختفٍ في الملابس الداخلية فهي شيء ضروري كالملح والكبريت وهي تجارة رابحة تنفق فيها مصر كثيراً من مالها وقد كانت الى عهد قريب تجارة خارجية نستورد بضاعتها من الاقطار الاجنبية ومازلنا حتى الآن نستورد بعضها الى ان كفانا مصنع الازرار التابع لشركة مصر لمصايد الاسماك بالسويس عبء الاعتماد الكلي على البلاد الاجنبية. فهو ينتج في اليوم الواحد ١٢٠٠ قاروصة (١٢ دستة) من الازرار الصدف ومثلها من ازرار الدوم [1] . اما بقايا ازرار الصدف فيبلغ وزنها نصف طن تكسر بطريقة خاصة ويصنع من كسرها « بلاط الفسيفساء » ذو الالوان البراقة . ولا يتولى المصنع هذه العملية لبعده عن الاسواق التي تستعمل هذا الضرب من العروض فيبيعها خاماً الى هذه المصانع . أما بقايا ازرار الدوم فانها مادة جيدة للوقود والصبغ. و يعد مصنع الازرار بالسويس احد فروع شركة مصر لمصايد الاسماك التي صدر المرسوم الملكي بتأسيسها في ٢٦ اغسطس ١٩٢٧. بدأ المصنع اعماله بصنع ازرار الصدف وحدها ثم اتسع نطاق العمل فأدخلت عليه صناعة ازرار الدوم ويختلف النوعان مظهراً ومتانة فالاول يستعمل في الجلاليب والقمصان والملابس الداخلية . والثاني في البدل وملابس السيدات

وخامات هذه الازرار لم تظهر بعد في مصر الا ان اكثرها يرد من السودان ولذلك فهي تعتبر تجارة محلية . وأنواع الصدف كثيرة بعضها يرد من السودان كالهيد وبعضها من استراليا وجزائر تاهيتي وغيرها وله بورصة كبورصة القطن . ولم يجرب الصيادون المصريون

---

(١) الدوم من الفصيلة النخلية Palmae واسمه الشائع Doum-Palm واسمه العلمي Hyphaene Thebaica ثمره في حجم التفاحة المتوسطة له حبة خشبية قاسية ولها قشرة طرية حلوة تؤكل

استخراجهُ من البحر لما يقتضيهِ استخراجهُ من جهد واحتياطات شديدة فالاصداف البحرية تسكنها الاحياء المائية . فاذا خرجت الى الارض ماتت هذه الاحياء وتعفنت بقاياها فهي تحتاج الى بقعة منعزلة عن الناس حتى لا يضرهم تعفنها ورائحتها . أما الدوم فبضاعة سودانية وهو يرد من الدويم والعطبرة وكسلا . ويشتغل في هذا المصنع ١٥٠ عاملاً وعاملة يكسب الواحد منهم اجراً يتفاوت بين ١٠ قروش و ١٥ قرشاً . أما العاملات فتتفاوت أجورهن بين ٨ قروش و ١٠ قروش في اليوم الواحد . وتدور آلات هذا المصنع بالكهربائية فتحتاج آلاتهُ الى قوة ١٨٠ حصاناً . ومع ذلك فقد اعدت مولدات كهربائية قوتها ٤٧٣ حصاناً حتى اذا تعطل أحدها اشتغل الآخر . وحتى اذا مست الحاجة الى زيادة الانتاج توافرت القوة الكهربائية المطلوبة

وصناعة الأزرار الصدف من الصناعات المعقدة كثيرة العمليات فالخام الاصلي يجتاز عشر مراحل صناعية قبل ان يصبح أزراراً تباع . ان خاماته ترد الى المصنع اصدافاً مختلفة الاشكال والحجوم فمنها المنبسط ومنها الهرمي، ومنها الخشن ومنها الناعم ورائحتها كريهة ومنظرها لا يسر . يتسلمها العامل فيضعها بين اسنان آلته فتقطعها قطعاً مستديرة بعضها كبير وبعضها صغير تبعاً لمتانة الصدفة ومساحتها . وينتج العامل الواحد في عملية التقطيع ما لا يقل عن ٧٢٠ دستة في اليوم ثم تمر القطع في مرحلة المسح فتنزع عنها القشرة الخارجية القذرة وتخرج من هذه المرحلة وهي بسمك واحد فتعمل لها الحلية وهي تختلف باختلاف الصدفة والطلب . ولكل حلية جهاز خاص يمكن تركيبهُ على الآلة ويبلغ عددها عشر حليات . ثم تفرز الازرار بآلات خاصة يسهل بها نزع الازرار التالفة ثم تمر في ادوار الثقب والتبييض والتلميع ويتم العمل فيها جميعاً بطريقة آلية تسهل على العامل كثرة الانتاج وجودة الصناعة . وتنتقل الازرار الصدف الى مرحلة التجهيز النهائي . هنا العاملات تفرز الازرار الى ثلاث مراتب الاولى وهي التي لا عيب فيها مطلقاً والثانية قليلة العيوب والثالثة كثيرتهُ وتباع الازرار مختلفة المراتب بأثمان مختلفة فازرار المرتبة الثانية يبلغ ثمنها ثلثي ثمن ازرار المرتبة الاولى تقريباً . وتثبت هذه الازرار على ورق ثم توضع في العلب وأحياناً تطلب المصانع ازراراً في أكياس من القماش فتوفر بذلك نفقات تثبيتها على الورق أو وضعها في العلب . ولكل مرتبة علامتها الخاصة ولكل حجم رقم يوضع على العلبة من الخارج ثم تلف وتصدر الى التجار

أزرار الدوم

وتختلف صناعة الازرار من الدوم عن صناعتها من الصدف لاختلاف شكل الدوم عن شكل الصدف ولأن ازراره اكثر متانة وقابلية للتلوين والنقش وصناعتها أدقُّ من صناعة أزرار الصدف . وعنبرها أحدث عنبر بني في المصنع ولهذا كانت جميع آلاتهِ من آخر طراز

يرد الدوم الى المصنع من السودان فيفرز وفقاً لحجمهِ : كبير ومتوسط وصغير. ثم ينتقل الى

المرحلة الثانية حيث ينزع غلافه فيوضع في برميل بهِ سكاكين مدة ٢٤ ساعة يدور فيها البرميل دوراناً يحدث صوتاً مزعجاً ولهذا جهزت الغرفة بابين عازلين للصوت حتى لا يصل الدوي الى الخارج فيقلق العمال . وتختلف عملية تقطيع الدوم عن عملية تقطيع الصدف. ففي حالة الصدف، للآلة سكين مستدير تضغط على الصدفة فتنفصل منها قطع كالقروش، اما في حالة الدوم فانهُ يقطع بمنشار مستدير يدور ٢٨٠٠ دورة في الدقيقة ويقطع الدوم قطعاً عاديًّا. ولما كان الدوم صغير الحجم فانهُ يعرض اصابع العمال للاصابة في أثناء قطعهِ فيلبسون اصابع من الصلب تمنع ٨٠ ٪ من خطر الاصابات

ويستخرج من كل دومة اربع قطع اذا كانت الدومة سليمة فاذا كانت بها بعض العيوب التجارية او الصناعية فانها تضاف الى الفضلات لاستعمالها وقوداً او في تلوين الازرار . وقد كانت اصابات هذه المناشير كثيرة في بدء العمل فلما تمرن العمال على استعمالها قلت الاصابات

ويجتاز الدوم بعد عملية التقطيع عمليات متعددة فيفرز بواسطة غربال ذي سبع عيون الى سبعة مقاييس مختلفة ثم يخرط وتعمل له الحلية المطلوبة ثم يثقب ويلون ويفرز وفقاً لتأثره باللون. ويحتم المصنع على العمال ان يكونوا مدققين في فصل الازرار الملونة بعضها عن بعض ليكوّنوا منها مجموعات متسقة اللون تقدم الى السوق . وتجتاز ازرار الدوم بعد ذلك مراحل اخرى كتلميعها وزخرفتها وتنشيفها بالطرق الفنية والكيمائية . وكل مرحلة من هذه المراحل تحتاج الى وقت يطول او يقصر تبعاً للحاجة . واكثر اصباغ الدوم نباتية وهو سريع التأثر بها لانهُ نبات ولذلك تكون ثابتة لا يتغير لونها رغم المقادير القليلة التي يحتاج اليها الزر للتلوين او الزخرفة

وتتبع العاملات في عد الازرار طريقة بسيطة سريعة فهن يستعملن لوحات مثقوبة بطريقة خاصة كل لوحة فيها مائة ثقب فتأخذ العاملة كمية من الازرار على اللوحة وتهزها فيأخذ كل زر مكانه ويسقط الباقي ومعنى امتلاء ثقوب اللوحة أن عددها مائة زر تحزمها العاملة بطريقة خاصة

وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فشاهد معروضات الشركة وأعجب بها فقدمت الى جلالته مجموعة كاملة من أزرار المصنع . وتهتم الشركة بأن تقدم لعملائها نماذج من جميع أصناف الأزرار وألوانها وحجومها لكي ينتقوا منها ما يوافق حاجة السوق

ويقصر المصنع عمله الآن على ساعات النهار ومع أنهُ مستعد للعمل ليلاً ومضاعفة انتاجه، فيشتغل عماله وعاملاته من الساعة السابعة صباحاً الى الظهر ومن الساعة الواحدة بعد الظهر الى الساعة الرابعة ويشتغل فيهِ الآن ٤٠ بنتاً و ١١٠ عمّال اي نصف عدد عماله اللازم ليكون كامل الانتاج

ويحرص المصنع على راحة عماله وعاملاته ولهذا خصص سيارة لنقل الفتيات من المدينة الى المصنع فينتظرهنَّ امام فندق مصر او ينقلهنَّ اليهِ صباح كل يوم ومساءه

وخصص احدى غرفه لتكون عيادة خارجية يشرف عليها طبيب وممرض فاذا احتاج احد

العمال او العاملات الى علاج او اصيب بحادث تولى الطبيب فحصهُ وصرف العلاج اللازم ويتولى الطبيب فحص العمال مرة كل اسبوع حتى لا تنتشر بينهم الامراض فيحتفظوا بصحتهم ونشاطهم

والمصنع وعماله مؤمن عليهم ضد الاصابات والحوادث فاذا اصيب احد العمال بعاهة في اثناء العمل صرف له التأمين تبعاً لشدة الاصابة وتأثيرها في عمله وتقدر اصابة جزء من اصبع العامل بمبلغ ١٢ جنيهاً يحصل عليها العامل خلاف العلاج

تنشيط الانتاج فى مصر

هو العلاج الوحيد لصون الثروة الأهلية

نشر المقطم من أيام بياناً وافياً من الاسكندرية عن صنع الجبن والزبدة وسائر منتجات اللبن وما يعانيه العاملون في هذه الناحية وما يلقون من صعاب تكاد تقضي عليهم بالكف عن العمل

وهذه حالة جديرة بأن تكون موضوع عناية المسؤولين والذين يهمهم مصير الحالة الاقتصادية في مصر ولا سيما بعد ما هبط سعر القطن هبوطاً يضعف قوة مصر الشرائية ويقضي علينا بالتزام سياسة التوفير والاعتماد على النفس. لقد جاء الانتاج الأهلي ولاسيما الانتاج الصناعي في هذا العصر علاجاً لما اصابهُ من انحطاط في قيمة الانتاج الزراعي. وقد صار من المحقق أن القطن لا يمكن أن تقوم له قائمة فان انتاجهُ آخذٌ في الانتشار في بلدان لم يكن تعرفهُ من قبل وقد نافسهُ الحرير الصناعي والالياف التي استخرجوها في المانيا وسواها وقل استعماله بسبب الأزمة العامة وحرب الصين واليابان الى آخر هذه الأسباب المعروفة ومع أن القطن المصري لا يزال يجد أسواقاً في بلدان العالم فالعبرة ليس بهذا وحده بل بسعر ما يباع منهُ كذلك ليكون منهُ ربح لمنتجه بعد تسديد نفقات الانتاج وفائدة ثمن الارض ومال الضرائب . وإن في اضطرار مصر الى شراء مقادير من الزبدة والجبن وسائر منتجات اللبن بما يبلغ ربع مليون جنيه في السنة وشراء لحم ومواش وغنم من الخارج بمبالغ طائلة ــ ان دوام هذا الامر مما يدهش ويستغرب في الحين الذي تسعى فيه للاقتصاد ومواجهة الحالة الدقيقة التي نشأت عندنا بهبوط سعر القطن. فالمسألة التي يجب الفصل فيها هي هل تستطيع مصر ان تنتج من اللحم واللبن ما يكفي لسد حاجتها أو لا. فاذا كان الجواب بالايجاب تعين على الحكومة ان تسعى لتحقيق المستطاع فان لم يكن في الحال فبالتدريج فاذا كانت الدنمرك وهولندا وهما في أقصى الشمال وليس لارضهما من الخصب ما لارض مصر ولا لشمسهما من الفعل ما لشمس مصر استطاعتا أن تمونا شعبيهما وتصدرا ما قيمته ملايين من الجنيهات من الزبدة واللبن والجبن والبيض واللحم الى انكلترا وسواها فلماذا تعجز مصر عن بلوغ أقل من هذه المنزلة فتطعم شعبها ولا سيما بعد ما صارت حاجتها الشديدة تقضي به

باب الأخبار العلمية

اقتراب المريخ والمشتري وزحل

يشاهد قراء المقتطف في هذه الايام كوكبين متألقين، احدهما محمرٌ والآخر مزراقٌ. فالاول هو المريخ وقد اقترب من الارض حتى صار على اكثر قليلاً من ٣٣ مليون ميل منها. والثاني هو المشتري وقد أخذ في الاقتراب من الارض وسيغدو على اقرب قربه منها في ٢٧ سبتمبر القادم

والصورة التي صدَّرنا بها هذا الجزء من المقتطف رسمها الفلكي موريل G. F. Morrell ونشرت في مجلة « اخبار لندن المصوَّرة »، وهي تبين اقتراب المريخ والمشتري وزحل من الارض. ففي اسفل الصورة جانبٌ من سطح الارض، ثم على مقربة منهُ السيارات الثلاثة (وهي من اليمين صعوداً الى الزاوية اليسرى، المريخ فالمشتري فزحل المعروف بحلقاتهِ). وهي مرسومة هنا كما تبدو لعين الراصد من خلال عدسات المرقب

والغريب في هذه السيارات الثلاثة أنها لم تقترب من الارض هذا الاقتراب وفي مواعيد قريبة بعضها من بعض (يوليو للمريخ، وسبتمبر للمشتري، واكتوبر لزحل) وفي رقعة واحدة من الفضاء حتى لتكاد تقترن منذ مئات السنين على حساب موريل. واقترابها من الارض على هذا النحو لا بدَّ ان يؤثر في مقدار جذبها للارض وهذا كافٍ لاحداث اضطرابات في قشرة الارض وجوّها كنشاط البراكين وحدوث الزلازل واضطراب احوال الجوّ. فالمشتري يفوق الارض وزناً ٣١٨ ضعفاً وزحل يفوقها وزناً ٩٥ ضعفاً. فاشتراك تأثير السيارات الثلاثة لا بدَّ ان يحدث حالة غير عادية في قشرة الارض وجوّها.

والى القارىء بياناً موجزاً عن هذه السيارات الثلاثة من حيث بعدها وقربها من الارض

زحل: — يقترب السيار زحل الى الارض في ٢٢ اكتوبر اقتراباً لم يقاربه من عشرين سنة. فيكون بعدهُ عنها ٢٣٦ر٧٧١ر٠٠٠ ميل مع ان متوسط بعدهِ عنها ٩٠٠ر٨٨٥ر٠٠٠ ميل. وقد اقترب منها في سنة ١٩٢٩ ولكنهُ كان أبعد ٦٦ر٨٨٠ر٠٠٠ ميل مما سيكون في ٢٢ اكتوبر القادم

المشتري: — ويقترب السيار المشتري الى الارض في ٢٧ سبتمبر اقتراباً لم يقاربه من ٢٤ سنة. فيكون بعدهُ عنها ٣٦٧ر١١٠ر٠٠٠ ميل، مع ان متوسط بعدهِ عنها ٤٨٣ر٠٠٠ر٠٠٠ ميل. وقد اقترب الى الارض سنة ١٩٣٤ ولكنهُ كان أبعد ٦٦ر٦٩٠ر٠٠٠ ميل مما سيكون في ٢٧ سبتمبر القادم

المريخ: — اقترب السيار المريخ الى الارض في ٢٣ يوليو اقتراباً لم يقاربه من سنة ١٩٣٣. فكان بعدهُ عنها في ٢٣ يوليو ٣٦ر٠٣٤ر٠٠٠ مع أن متوسط بعدهِ عنها ١٤٢ مليون ميل. وكان بعدهُ عنها عند اقترابهِ في سنة ١٩٣٣ — ٦٢ر٣٧٨ر٠٠٠ ميل

كيميائي مصري وزوجته

يكشفان عقاقير فعالة ورخيصة لشفاء لدغ العقرب

من بواعث اغتباطنا ان نزف الى القراء نبأ كشف علمي مصري تمّ على يدي صديقنا الدكتور علي حسن استاذ الكيمياء الحيوية بكلية الطب في جامعة فؤاد الاول وقرينته السيدة زينب كامل حسن اذ وفقا الى تحضير المادة الفعالة في سم العقرب ومهّدا السبيل الى الشفاء من لدغ العقرب بعقاقير فعّالة ورخيصة. والى القرّاء نص التقرير الرسمي الذي بعث به الدكتور علي حسن الى الدكتور علي توفيق شوشه بك المدير العام للمعامل في وزارة الصحة:—

«حضرة صاحب العزة الدكتور شوشه بك

بعد التحية يسرني أن اخبر عزتكم بأن البحوث الخاصة «بسم العقرب» التي اشتغل بها القسم عندي خلال الثماني السنين الماضية والتي لقيت من عزتكم شخصيًّا ومن بحوثكم القيمة في ذات الموضوع مساعدات طيبة قد وصلت الى نتيجة سارة تبشر بفائدة عملية هامة توفر على الوزارة مبلغاً لا يستهان به سنويًّا

دلتنا البحوث المشار اليها الى جواز علاج لدغة العقرب بواسطة عقاقير لها مفعول مضاد لمفعول السم ذاته واني قبل الكلام في التطبيق العملي لهذه الملاحظة أرى من الفائدة الاشارة الى الخطوات التي سار فيها العمل من أوله الى أن وصل الى هذه النتيجة

١ — في سنة ١٩٣٢ وفقت أنا وزوجتي السيدة زينب كامل حسن الى تحضير المادة الفعالة في سم العقرب في حالة نقاوة وبكميات وفيرة

٢ — رأيت وجوب درس خواص هذا المركب من جديد ولقد قام بدرس هذه الخواص احمد حسن محمد افندي المسيد بكلية الزراعة وقد أهدى عزتكم نسخة من رسالة لهُ في هذا الباب ولقد وصلنا في هذا البحث الى نتيجتين جليلتين

الاولى — أظهرت أن السم يقتل عن طريق تهيج الجهازين السيمبتاوي والباراسيمبتاوي

والثانية — اظهرت ان العقاقير التي تخدر هذين الجهازين مثل الارجوتوكسين ومشتقاته والاتروبين تفيد في وقاية حيوانات التجارب ضد السم حتى ولو أعطيت منهُ مقادير قاتلة

٣ — أمكننا انقاذ كلاب حقنت بكمية من السم وزنها ٠٫٥٤ مليجرام وذلك بعلاجها بالعقاقير التي اشرنا اليها سابقاً (هذا المقدار من السم يكفي لقتل ستة كلاب وزن كل منها ثلاثة كيلو جرامات)

٤ — ثبت لنا ان العقرب البالغة الصائمة من نوع البوذس كوينكوبسترايانس وهي اكثر الانواع شيوعاً بالقطر المصري تفرز اذا هيجت للدغ حوالي ٠٫٢٥ مليجرام من السم في

ثلاث لدغات متوالية وانها اذا لدغت سبع مرات متتالية يصل مجموع ما تفرزه الى حوالي ٥٦ر٠ ملليجرام من السم واما اذا ارغمنا عقرباً بالغاً من النوع ذاته على افراز كل ما في غدتيه وذلك بتهييج الغدد كهربائيًا حصلنا على حوالي ٦٠ر٠ ملليجرام من السم

ولقد استنتجنا من هذا أقصى ما يستطيع عقرب من هذا النوع حقنه

نوع العلاج	عدد الحالات جميعاً	عدد الحالات التي يقل سنها عن ١٢ سنة
المصل المضاد	٢٧	١٢
بالطريقة الجديدة	٣٦	١٦
بالطريقتين معاً	١	١
المجموع	٦٤ حالة شفيت كلها	

ولقد شجعتني هذه النتيجة الطيبة على ان اتقدم الى عزتكم راجياً منكم عرض الامر على من بيديهم الامر بوزارة الصحة بقصد تجربة الطريقة في المناطق التي تكثر فيها العقارب وأنتم بالطبع خير من يقوم بهذه الوساطة لتتبعكم المستمر لهذه البحوث ومعرفتكم للجهود التي بذلت في سبيلها اما الطريقة ذاتها فسهلة للغاية ويمكن تتبعها من اوراق المشاهدات المرفقة طيه وهي تنحصر في الآتي :

اولاً — يعطى المريض ساعة وصوله حقنة تحت الجلد من نصف الى واحد سنتمتر مكعب من الجينارجين او طرطيرات الارجوتامين ويمكن اعادة الحقن اذا عادت الاعراض ولكن هذا نادر الحدوث

ثانياً — يجوز اعطاء الملدوغ حقنة اتروبين تحت الجلد اذا كانت الاعراض مصحوبة بسيلان لعابي شديد وبقيء او اسهال

ثالثاً — تعالج الحالة العمومية بالطرق العادية اذا لزم الامر وفي قصر العيني يعطون الملدوغ لهذه الغاية حقن كافور او كورامين ويضعون المريض في حمام كهربائي

وتمتاز هذه الطريقة على طريقة المصل بانها اسرع في مفعولها وربما كان هذا ناشئاً من ان الجينارجين اسرع في الامتصاص وتمتاز ايضاً بان هذه العقاقير لا تتلف على مر الزمن كالمصل

اما الجينارجين هذا فهو من مركبات الارجوت وقد اتفقت مع مدير قسم الطفيليات بوزارة الزراعة على انتاجه محليًا وسنبدأ التجربة في الموسم المقبل

ولا يصح ان ننسى هنا ذكر الفرق الكبير بين سعر المصل وسعر هذه العقاقير لان علبة الجينارجين تساوي حوالي ستة عشر قرشاً وتكفي ستة اشخاص او اكثر وسيكون ثمنها بحساب الجملة اقل بالطبع

بما ان نتيجة التجربة تهمني كثيراً اقترح في حالة الموافقة على اجرائها ان تستعمل المستشفيات مشاهدات مماثلة لما هو مرفق طيه واني مستعد لتقديم عدد كاف منها توفيراً للوقت اي الى ان تطبع الوزارة منها ما يلزمها

وتفضلوا عزتكم بقبول شكري واحترامي

دكتور علي حسن
استاذ الكيمياء الحيوية

ملاحظة — عند ما لا حظنا المفعول

المعاكس الذي يحدثه الجيناروجين ضد سم العقرب خطر لنا جواز استعماله في علاج اللدغة وجواز الاستعانة به في تحضير المصل المضاد للسم والاستغناء به عن السم الملطف والاناتوكسين الذي يستعمل عادة في بداية عملية تحضير المصل المضاد وقد عرضنا على عزتكم النتائج التي حصل عليها احمد افندي حسن محمد أولاً بأول

ولقد كانت النتيجة الختامية مشجعة للغاية اذ حصلنا على مصل مضاد من الماعز قدرت قوته في معامل الصحة بواسطة الدكتور حسين ابراهيم فوجدت تزيد تسع مرات على مصل ليستر مع العلم بان مصلنا هنا طبيعي لم يركز — على أنني اعتقد ان اكتشاف مفعول هذه العقاقير سيوقف في النهاية استعمال المصل المضاد في علاج لدغة العقرب » آه بنصه

هافلوك إلس

HAVELOCK ELLIS

إن وفاة هافلوك إلس تزيل من ميدان الثقافة الانكليزية العالمية رجلاً يندر نده في هذا العصر المكب على التخصص. ذلك بانه كان يجمع في شخصه كثيراً من مناقب العلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء . ولعله لا ينقضي ربع قرن عليه حتى يطوف طائف النسيان بمعظم ما كتب. ولكن ذكره يبقى خالداً لأنه اقترن بحقيقتين اولاهما انه في مقدمة بحّاث العصر الحديث الذين حاولوا ان يرفعوا النقاب عن حقيقة « الحياة الجنسية » ويزيلوا ما علق بها في أذهان الناس من تحريم بحثها وحظر التحدث فيها . وثانيتهما انه اضطهد في سبيل ذلك ، فقدم الى المحاكمة في إحدى محاكم انكلترا متهماً « بالقذف القذر » وامتنع الناشرون الانكليز عن نشر مجلداته في «سيكولوجية الشق» Studies in the Psychology of Sex بعد ما نشر احدها وحوكم بسببه. فنشرت دراساته هذه اولاً في اميركا . ولذلك يبقى ذكره مقروناً بالحركة الفكرية والاجتماعية الحديثة المتجهة الى تعزيز الصحة الجسدية والعقلية باخراج المسائل الجنسية من دياميس الجهل والتحريم .

ويقال إنه كان يرغب في أن تكون تعزيته كما يلي: « لقد اضاف شيئاً الى حلاوة الحياة ونورها »

اما أنه اضاف شيئاً الى « نورها » أي الى فهم خفاياها فهذا مما لا ينكر ، ولكن هل زادت « حلاوتها » في افواه الأجيال التي اتسع نطاق فهمها لاسرار الحياة الجنسية ؟ هذه مسألة تحتمل النقاش

ولد في سنة ١٨٥٩ في كرويدن على مقربة من لندن ، وكان والداه من اسرتين لهما صلة وثيقة بالملاحة فقضى معظم طفولته على سفينة في المحيط الهادي وتلقى أصول التعلم على غير نظام . ولما كان في السادسة عشرة من عمره عين مدرّساً في مدرسة بولاية نيوسوث ويلس باستراليا فقضى فيها اربع سنوات وكان في معظم هذه المدة يقطن الحراج ويطبخ

ما يحتاج اليهِ من الطعام ويدير شؤون كوخهِ بنفسهِ . ولكنهُ قرأ في خلالها طائفة من آيات الادب الانكليزي ونظم اشعاراً على مثال سونيتات شكسبير ، ودبَّ في نفسه دبيب الرغبة الشديدة في الإصلاح الخلقي . وعاد الى انكلترا في سنة ١٨٧٩ وانتظم طالباً للطب في مستشفى سانت برثولوميو واتمَّ دراستهُ وتخرَّج طبيباً ولكنهُ لم يمارس الطب الاَّ فترة قصيرة إلاَّ أن دراسة الطب وجهتهُ توجيهاً جديداً . في مجاهل استراليا نظم الشعر ، فانقلب بعد دراسة الطب الى حياة علمية . غير أن هذا لم يتمَّ الاَّ بعد نضال نفسي . وفي الفترة المتوسطة بين الشعر والعلم شرع في نشر المسرحيات الانكليزية القديمة . وله عدا ذلك مؤلفات اشتهرت في وقتها بالنحو الفلسفي والنقد الأدبي منها « الروح الجديدة » (١٨٩٠) والرجل والمرأة (١٨٩٤) وعالم الاحلام (١٩١١) و « مهمة علم الصحة الاجتماعية » (١٩١٢) « ورقصة الحياة » (١٩٢٣) ومجموعة قصائده الطفولة والمراهقة وترجمات من الشعر الاسباني (١٩٢٥) وغيرها

ولكن مؤلفهُ الكبير الذي قضى نحو خمس عشرة سنة في وضعهِ ونشرهِ كان ذلك البحث الضافي الذي عنوانهُ « دراسات في سيكولوجية الشق » وهو ستة مجلدات نشر اولها سنة ١٨٩٧ وآخرها ١٩١٠ وموضوعاتها بحسب ارقام المجلدات (نقول ارقام المجلدات لان المجلد الثاني نشر قبل المجلد الاول) كما يلي : — نشوء الحياة الجنسي — الشذوذ الجنسي — تحليل الحافز الجنسي — الانتخاب الجنسي في الانسان — الرمزية الجنسية — الجنس وصلتهُ بالاجتماع

واذا كان البحث الحديث في ظل المدارس السيكولوجية المختلفة ولا سيما مدرسة التحليل النفسي قد بدل بعض الآراء والنتائج التي وصل اليها هافلوك إليس بالاستقراء والنظر البيولوجي ، فان هذه المجلدات الستة تحتوي على طائفة كبيرة من الحوادث التي تمت الى موضوعات الجنس بصلة ، مستخرجة من حياة الامم والشعوب المختلفة على اختلاف مراتبها في الحضارة فهي من هذا القبيل كنز من المعارف الجنسية لا ينفد

التسمم بالكدميوم

يؤخذ من انباء مجمع تقدم العلوم الاميركي أن اطباء معهد الكيمياء والتربة بكلية الطب في جامعة ستانفورد أثبتوا ان الادوات والاواني المطلية بالكدميوم — كاواني اللبن وصنارات الجزارين التي يعلق بها اللحم — خطرٌ على الصحة لأن مواد الطعام التي تحفظ فيها او تلامسها تسبب تسمماً بطيئاً متجمع الاثر

وقد اجريت تجارب على جرذان اضيف الى طعامها مقادير يسيرة من كلوريد الكدميوم (١٢٥ جزءا من الكلوريد في عشرة آلاف جزء من الطعام) فاصيبت بفقر الدم ثم لما شرحت ثبت انها مصابة بتضخُّم القلب . والرأي اي ان سبب تضخُّم القلب جهده المبذول في تجهيز الجسم بعددٍ كافٍ من كريات الدم الحمر

السلفانيلاميد والتيفود

عرف قراء المقتطف مما كتبناه عن عقاري السلفانيلاميد والسلفابيريدين ان لهما تأثيراً عجيباً في شفاء طائفة من الامراض (راجع مقتطف يوليو ١٩٣٩ ص ١٩٥ ومايو ١٩٣٤ ص٥١٧ — ٥٢٥) وقد اطلعنا الآن في رسالة العلم الاسبوعية على نبإٍ خاص باحتمال فائدتهما في علاج التيفود . وقد قام بهذه التجارب ثلاثة اطباء (هرز Harries وسور Swyer وطمسن Thompson) من اطباء مستشفى نورث ايسترن بلندن ومن غريب الحوادث التي وقعت لهما ان احد المصابين بالتيفود كان مصاباً بضرب خاص منها من اوصافه طول زمنهِ وخطرهُ . دخل المستشفى فعولج بالسلفابيريدين ومصل التيفود فما انقضت عليهِ عشرة ايام حتى كان ناقهاً والرأي ان الجمع بين السلفابيريدين والمصل كان العامل الفعال في شفائه

سر الشباب الدائم ؟

في انباء جامعة كاليفورنيا ان الباحثتين أجنس فاي مورغان وهلن دافيسون سمز استخرجتا مقادير مركزة من فيتامين مجهول تابع لفيتامينات B التي تكثر في الخميرة والرز والردة (النخالة) والكبد ، واثبتتا بتجارب اجرياها على الجرذان والخنازير الهندية وجراء الكلاب انها تؤثر في احوال الجسم التي تقترن عادة بالشيخوخة المبكرة فتردها الى ما تكون عليهِ في عهد الشباب . ولما سئلتا عن علاقة ذلك بالشباب والشيخوخة في الانسان قالت الدكتورة مورغان إن تجاربها اجريت على الحيوانات وانها لم تحاول بعد تطبيق هذه التجارب على الإنسان . ولكنها ترى ان الشيخوخة المبكرة في حيوانات التجارب قد يكون سببها نقص هذا الفيتامين في افراز الكظرين فقد اثبت تشريح الجرذان التي يعوزها هذا الفيتامين في طعامها ان قشرة هذه الغدد تتقلص وتحول قبل الوفاة

حكمة المناظرة

قيلَ انَّ السيِّد الجرجاني تناظر مع السعد التفتازاني بمجلس خاصّ . وكان السيد شابًّا حديث العهد . وكان السعد شيخ العلماء في وقتهِ ، فانتهى المجلس بأن السعدَ اقرَّ للسيِّد وان السيد فلج على السعد امام ذلك الجمهور . فساء ذلك تلاميذ السعد . ولما انصرف الناس قالوا لاستاذهم : ما كان ينبغي لك ان تسلم لرجل هو في سن احد تلاميذك فأجابهم . وماذا اصنع اذا كان الحق معهُ . فقالوا له : قد كان يمكنك ان تقول له كيت وكيت في الجواب . فقال لهم ولكنهُ يكون مماحكة ولا يكون من العلم في شيء فقالوا له : لكن الناس قد علموا الآن ان السيد أعلم منك . فقال لهم : أحبُّ اليَّ ان يعلمني الناس جاهلاً وان يعلمني السيد وجده عالماً

عجائب معرض نيويورك العالمي

الجان الكهربائية في المعارض العالمية الحالية

قلت في صفحة ١٠٨ من مقتطف يونيو الماضي في وصف عجائب معرض نيويورك العالمي الحالي ما يأتي : — ويسمعون صوتاً صناعيًّا يشرح خطورة تلك الحركة حركة البواخر والقطرات وعربات نقل البضائع قادمة "الحواضر والمصانع ، من الضياع والحقول مقلة المواد الاولية ، وعائدة الى الريف مشحونة « بشتى المصنوعات » من جميع نواحيها مؤكداً الحقيقة الثابتة ، وهي ان كل امرىء في هذا العصر ، يتوقف بقاؤه على مجهودات أفراد كثيرين ، مبيناً وسائل تسهيل معضلات الحياة بالتعاون بين افراد المجتمع البشري». وها نذا أصف للقراء الجهاز الكهربائي القائم بذلك العمل وصنوه المساعد له في مهمته : —

نقصد بالجان الكهربائية، الاجهزة المعدنية الشبيهة بالانسان التي يطلق عليها الانكليز والاميركان لفظ robots وقد نصب أحدها في معرض نيويورك الحالي وهو الجهاز المسمى اليكترو Elektro وطوله سبع أقدام وثقله ٢٦٠ رطلاً وهو مؤلف من ٤٨ جهازاً لتقوية التيارات الكهربائية ويشتمل على ٩٠٠ عضو تساعده على المشي والمدّ والتدخين والكلام وله ذراعان مغطاتان بصفائح الالومنيوم المزخرفة بستة وعشرين من أشكال الزخارف

واسمهُ ويلي ڤوكاليت Willie Vocalite

ولذلك الجهاز صنو ضخم المعروض في معرض سان فرنسيسكو العالمي

وفي معرض نيويورك جنيٌّ آخر عملاق اسمهُ پوليرهيتور Polyrhetor يلقي على سامعيه كل ربع ساعة ، خطاباً يترجم حالاً الى ١٥٠ لغة مختلفة . وفيه جهاز كهربائي لترديد الكلام الذي يصدر منهُ ، وذلك بدوامات مغنطيسية ، توصل الصوت الى مضخمات صغيرة موضوعة في عربات معزولة ، تطوف بأرجاء المعرض بحيث يستطيع الركاب الاربعة الراكبين في كل عربة من العربات الجائلة فيه ، سماع خطاب على كل مشهد من المشاهد المفيدة التي تصادفهم في اثناء تجوالهم

الاشعة الكونية

مفتاح الاضواء الكهربائية في معرض نيويورك العالمي

حينما اريد افتتاح معرض شيكاغو سنة ١٩٣٣ ، وهو الذي أطلق عليه اسم معرض «قرن التقدم» توخى مديروه ان يفتحوا ابوابه للجمهور بطريقة عجيبة في ذاتها . وهي أنهم رقبوا ظهور النجم المسمى السماك الرامح وهو نجم اصفر نير في النصف الشمالي للكرة الفلكية ويقع في ذنب الدب في المرتبة الرابعة ، وهو النير الرابع في السماء بأجمعها . ويبعد عنا مسافة

يقطعها الضوء في احدى وأربعين سنة ضوئية فسلطوا ضياءه على بصاصة كهربائية متصلة بأبواب المعرض ، فما انعكس على عدسة البصاصة ، ذلك الضوء حتى دار مفتاحها الكهربائي ففك عقال بوابات المعرض ، فانفتحت على مصاريعها ، كأنها ادرت بقوة الجان ، لا بمخترعات الانسان ودخل الزائرون المعرض أفواجاً وهم لا يدرون من طريقة فتحه شيئاً وقد وصفتُ ذلك في مقتطف مارس سنة ١٩٣٢ وديسمبر سنة ١٩٣٣ حيث قلت ما يأتي : —

فتح معرض شيكاغو في أواخر شهر يونيه سنة ١٩٣٣ وكانت طريقة افتتاحه معجزة لم يسبق ان شاهد الناس مثلها اذ اخترقت شعاعة ضاربة للاحمرار ، من كوكب السماك الرامح ، احدى البصاصات الكهربائية ففتح باب المعرض ، بأن مرَّ طيف الكوكب ، أمام عدسة مرقب مرصد يركز الكاسر للأشعة ، ويبلغ قطر تلك العدسة ٤٠ عقدة (بوصة) وهو أكبر مرقب كاسر في العالم ، مركب في جامعة شيكاغو ومثبتة في قاعدته ، بصاصة كهربائية أي بطارية كهربائية حساسة بالضوء ، فالتقطت نوره حالاً ، فولّد فيها ، تياراً كهربائيًّا ، قوي بالاجهزة المضاعفة للتيارات ، ثم نقل بالاسلاك الارضية الى معرض شيكاغو ، حيث استخدم في فتح بابه الضخم ذي العجلات ، وفي إنارة مصابيحه ، فكانت طريقة الافتتاح اول أعجوبة شاهدها زواره

وقد رأى مديرو معرض نيويورك العالمي الحالي ، عند فتحه اختصاص الأشعة الكونية بذلك الشرف وذلك بأن سخروها إذ جمعوها في آلة من آلات جيجر Geiger العدادة ، التي تسجل مرورها فتحرك الجزيئات في الأنابيب المملئة بالغاز الجوي فتسلط الجزيئات قوة على الكهيربات فتؤلف طاقة كافية لتنشيط أنبوب مفرغ من الهواء ، فيدير الآلات الكهربائية التي تضيء أراضي المعرض

البصاصة الكهربائية في مصر

وما دمنا نتحدث في منافع البصاصة الكهربائية فجدير بنا ان نورد الخبر الآتي نقلاً عن جريدة الاهرام الصادرة في ١٨/٦/١٩٣٩ . وهو : طلبت ادارة السرايات الملكية ، الى مصلحة المباني بوزارة الاشغال ، تركيب أجهزة كهربائية لتسهيل فتح واغلاق الابواب الرئيسية الثلاثة بسراي عابدين العامرة نظراً لضخامة هذه الابواب وتعذر فتحها وإغلاقها ، في المناسبات الكبرى والمفهوم بناء على حديث دار بيني وبين رئيس تحرير المقتطف ومهندس خبير من الانكليز أن الاجهزة الكهربائية التي من المحتمل التعويل عليها هي البصاصة الكهربائية قياساً على ماهو حاصل الآن في كثير من الاماكن العظيمة عوض جندي



نخب الذخائر في احوال الجواهر

نشر الاب انستاس ماري الكرملي

هذا كتاب نفيس النفاسة كلها. بل هو في الواقع ثلاثة كتب نفيسة مجتمعة بين دفتيه. اما الاصل فن تأليف محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري السنجاري المعروف بابن الاكفاني واما الثاني فتحقيقات الناشر العلامة، من لغوية وجغرافية وادبية. واما الثالث فمعارضة بعض ما جاء به ابن الاكفاني بما اورده التيفاشي وهو صاحب كتاب نفيس في الجواهر

وقد اخذ الأب العلامة متن « النخب » عن نسخة قديمة كانت برسم احدى خزائن ملوك مصر وهي اليوم في خزانة كتب الآباء الكرمليين في بغداد ثم حرَّرها وعلّق حواشيها اللغوية والادبية وطبعها بالمطبعة العصرية، فجاءت سفراً نفيساً متناً وحاشية وفهارس في ١٨٨ صفحة من حجم المقتطف لا يستغني عنهُ الباحث العربيّ المحقق لما فيهِ من فوائد

جاء في الصفحة ٤٨ القول في الزُمُرُّذ (وفي الحاشية: الزمرذ بذال معجمة وضمّ الاحرف الثلاثة الاولى وتشديد الراء وجاءت بدال مهملة ايضاً مع الضبط المذكور) وقد راجعنا نسخة خطية للتيفاشي في خزانة المقتطف فاذا اللفظ وارد احياناً بالذال المعجمة واخرى بالدال المهملة. اما كلام المؤلف في الزمرذ فاليك بعضهُ « الخضرة تعمّ اصنافهُ كلها، وافضلهُ ما كان (مشبع الخضرة) ذا رونق وشعاع لا يشوبهُ سواد ولا صفرة ولا غش ولا حرمليات ولا عروق بيض ولا تفوت ولبس يكاد يخلص عنها ودونهُ الريحاني الشبيه بورق السلق الطري واهل الهند والصين تفضل الريحاني منهُ وترغب فيهِ واهل المغرب يرغبون لما كان مشبع الخضرة وان كان قليل الماء ويزداد رونقاً اذا دهن بزيت بزر الكتان واذا ترك بدون دهن يذهب ماؤهُ الخ

وقد لاحظنا عند المقابلة بين ما كتبهُ التيفاشي عن الزمرذ اوغيرهِ من الجواهر وبين ما جاء في النخب لابن الاكفاني ان التيفاشي يعنى بوصف « علة تكونهِ » علاوة على اوصافهِ وخواصهِ حالة ان ابن الاكفاني يكتفي باوصافهِ

وقد جاء في ملحق النخب كلام على الجزع نقل فيهِ الاب العلامة كلاماً للتيفاشي قابلناهُ بما في مخطوطتنا فرأينا خلافاً يسيراً اردنا اثباتهُ. فقد جاء في الملحق نقلاً عن التيفاشي « واجوده ما استوت عروقه في الثخن والرقة سليماً من الخشونة ووجود الآثار فيهِ » وفي مخطوطتنا التيفاشية « ... وأجودهُ ما استوت عروقهُ في الحسن والرقة وكان سليماً من الخشونة وقبيح التعرض ووجود الاثار في » ولعلَّ رواية الاب اصح

وبما يزيد قيمة الكتاب الذي اخرجهُ الأب الكرملي الفهرست الاخير بوجهٍ خاص وهو الحادي عشر ويحوي الكلم المكتوبة بالحرف الروماني وفي هذا الفهرست يجد المترجمون اسماء الجواهر باللغة العربية وما يقابلها بالفرنسية ، وحبذا الحال لو عني الأب الكريم باضافة الاسماء الانكليزية مع انها لا تختلف كثيراً عن الاسماء الفرنسية

كتاب نقد الشعر

للاستاذ نسيب عازار

هذا الكتاب يدل على ان مؤلفه الاستاذ عازار واسع الاطلاع ملمٌّ بما جاء في كتب الادب العربية والاوربية خاصًّا بالنقد ويدل على ان المؤلف حصيف الرأي متزنه . وكثير ممن يكتبون في النقد يكتبون كتباً انشائية مطولة للدفاع عن رأي واحد ولا ينظرون الى تعدد المذاهب والآراء ولا الى جانب الصواب في كل منها فيمل القارىء المثقف قراءة كتبهم . اما الاستاذ عازار فانهُ لم يكتب في النقد الاَّ بعد ان درس الموضوع دراسة المؤرخ المحقق. وان القارىء ليتعجب كيف استطاع المؤلف ان يهيء لنفسه هذا الاطلاع الغزير النادر مع الأخذ بأحسن ما قيل في النقد في الكتب العربية والاوربية . وخليق بكل متأدب وقارىء للادب ان يدرس هذا الكتاب وان يتأمل ما جاء فيه من اقوال المتقدمين والمتأخرين . وهذا الكتاب خليق بأن يوسع ثقافة القارىء وان يجعله يشعر كما يشعر الملاح اذا عبر المحيط بعد ان كان لا يتعدى الخلجان والسواحل . وتوطئة الكتاب مكتوبة بلغة المصطلحات العصرية ولولا ذلك لحسبناه من تآليف كبار نقاد العرب الملمين بأقوال المتقدمين وهو قلما يذكر شاهداً او قولاً او قصة الاَّ ويذكر المرجع الذي يستطيع القارىء ان يرجع اليه للتثبت . والمؤلف مثال للناقد المبدع الذي يصفه والذي يلم بمحاسن ما ينتقد ويعرضها على القارىء كي يستطيع ان ينتفع بابداع الشعراء والكتاب وان يعرض اوجه النقد في المحل الثاني وان لا يُغَلِّبَ نظرية يريد تطبيقها قسراً. وهذا الكتاب يعلّم الناقد ايضاً ان لا يطيل من غير جدوى اطالة مملولة فقد كان يستطيع المؤلف ان يجعل حجم كتابه اضعاف ما اكتفى به من الحجم لغزارة مادته وتعدد نظراته وآرائه ولكنه آثر الايجاز على الاطالة المملة . ولا يجد القارىء نقصاً في الشرح مع ذلك الايجاز الاَّ في التوطئة اذا كان القارىء غير مطلع على مذاهب الادب الاوربي ولكن هذا ليس بنقص لان عنوان الكتاب النقد في الادب العربي وما هذه التوطئة الاَّ مقدمة وهي على ايجازها لم تترك رأياً لكاتب الاَّ وعتهُ . فاذا احسَّ قارىء بحاجة الى الاستزادة والافاضة في شرح المذاهب العديدة والآراء المختلفة التي استعرضها في التوطئة كان احساسه

بسبب حاجته الى الاستزادة من الادب الاوروبي نفسه وهذا لا يستطيع المؤلف ان يمده به . وعلى ان هذه الرغبة في الاستزادة دليل على ان الكتاب نفيس مشوق ممتع

وقد يشعر القارىء في اثناء القراءة انهُ لا يوافق رأياً من آراء النقاد القدماء التي يستعرضها المؤلف ولكن هذا لا يطعن في ضرورة استعراضها لان الكتاب في تاريخ النقد في الأدب العربي والمؤلف يقابل بين الآراء المختلفة . ومن الواجب ان لا يهمل رأياً وان لا يغفل مذهباً لناقد مشهور . وقد أدى المؤلف الامانة من هذه الناحية وهو في هذا الاستعراض مؤرخ اكثر مما هو ناقد لما يستعرضهُ وان كان يلخص نقده احياناً لما يستعرض عند ذكره خلاصة حقائق تاريخ النقد بعد كل قول . وأرى الاستاذ قد كسر وزن بيت قيس بن الخطيم : —

قضى الله حين صورها الـــخالق ألا تكنها السدف

فالشطر الاول مكسور . فاما ان يزيد كلمة (لها) بعد قضى واما ان يورده كما جاء في بعض الكتب (أوصى بها) وسقوط لها من الأغلاط المطبعية التي لم يستطع حصرها كلها عند تصحيح الخطأ . وكلمة (الى) في بيت بشار صفحة ١٥١ ينبغي أن تكون أبى (أبى طلَلٌ بالجزع أن يتكلما) وكلمة (لاقت) في البيت السادس من قصيدة مطيع بن إياس صفحة ١٧١ ينبغي أن تكون (لاقيتُ) وسقطت كلمة (مِنيّ) في البيت التاسع من هذه القصيدة فانكسر الوزن وصحته

وبرغمي أن اصبحت لا تراها الـــعين (مِنيّ) واصبحت لا تراني

وهذه أخطاء مطبعية هينة قليلة تقع في كل ما يطبع ويستطيع القارىء ان يفطن لها . ونعود فنقول ان هذا كتاب نفيس جامع لمقاييس النقد عند الاوربيين في التوطئة ولمقاييسه عند العرب في باقي الكتاب وقد تتشابه الموضوعات في القسمين في بعض الفصول وإن اختلفت اساليب التعبير والاغراض . وقد أحسن المؤلف اختيار كلمة خلف الاحمر التي قدمها في أول الكتاب فهو كالصيرف في تلك الكلمة يدل على الصحيح والمزيف من الشعر ***

ملخص الكيمياء

يعرف قراء المقتطف الاستاذ حسن السلمان مدير ثانوية البصرة بما نشر لهُ في المقتطف من مقالات علمية نفيسة منها خدمات العرب للكيمياء وسيرة العلاَّمة فون لابيج وكذلك مقالهُ الطويل في الغدد الصم وتأثيرها في الجسم والخلق

وقد اتحفنا بكتاب صغير الحجم كبير القيمة من ناحية طالب الكيمياء لأنهُ حوى في صفحات لا تزيد على ١١٥ من القطع الصغير التعريفات الكيميائية واوصاف العناصر وخواصها وأهم القواعد المعتمدة في الكيمياء الطبيعية . فهذه الخلاصة في حدود غرضها خير معوان للطلاب « على استذكار الكيمياء النظرية والمعدنية »

الطبع والصنعة في الشعر

تأليف محمد الهياوي — الناشر مكتبة النهضة بمصر — الصفحات ٨ ٢ قطع وسط

الاستاذ محمد الهياوي مؤلف هذا الكتاب، كاتب بليغ وراوية لا يتعصب لروايته معين، أنعم النظر في أدب العرب بحسٍّ صادق وفكر ثاقب فاستقامت لهُ آراء ونظرات يجب أن تفوز من ادباء العصر بما هي جديرة بهِ من العناية

ولعلَّ أجلَّ خدمةٍ اسداها المؤلف الى ادب هذا العصر، هي التنبيه الى وجوب الرجوع الى الاصول في فهم الادب وخاصة الشعر. ففي عصر كالعصر الذي نعيش فيهِ تكثر محسنات الحضارة وتتعارض تيارات الاجتماع وتتبارى اساليب الفكر والفن، فنؤخذ بما يبدو منها خاطفاً للبصر مستوقفاً للعناية ببهرجهِ، فينصرف النظر عن الاصول الى الفروع. وما عنايتنا بما يطلق عليهِ اسم «مدارس الشعر» في العصر الحديث من «رمزية» و«تأثرية» وقديم وجديد وغيرها إلاَّ من هذا القبيل فكتاب الاستاذ الهياوي يعود بنا الى القواعد الاصيلة في طبيعة الشعر واساليبهِ. فهو بذلك يقيم ميزاناً صحيحاً في عهد اضطربت فيهِ الموازين

والاساس في رأيهِ مفرغ في ثلاث قواعد أوردها في الصفحة السابعة. ١ — كلما كان الشعر صادراً عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع او شعر الفطرة. ٢ — وكلما كان صادراً عن غير ذات نفسهِ فذلك هو شعر الصنعة او شعر الانفعال. ٣ — والشاعر المطبوع هو الذي يفيض احساساً فيفيض احساسهُ شعراً. فاذا كان شعره فيض المصانعة على لسانه فهو الشاعر الصانع

أي ان الشاعر المطبوع في الغزل «هو حامل الصبابة والهوى وصاحب القلب الذائب والكبد المحترقة . . . فاذا هو نظم من أنفاسهِ شعراً رأيت على كل شطر جمرة من ناره، ووجدت في كل بيت مزقة من كبده . . . » وبهذا الحساب مجنون ليلى شاعر مطبوع، والشعر المرويُّ عنهُ أصيل لا منحول ولا مفتعل. أما في ما عدا ذلك فليبق الخلاف في هل مجنون ليلى هو قيس بن الملوح او غيره وليستمر النزاع في ان قومه بنو عامر او هم قوم آخرون فليس في ذلك ما يبطل الحقيقة وهي ان لهذا المجنون وجوداً ملأ رحاب الشاق

وعلى هذا الاساس كذلك يعتبر الاستاذ الهياوي عمر بن أبي ربيعة المشهور انهُ شاعر غزل، شاعرَ صنعة لا شاعر طبع. «فهواه مباغتة واقتحام، وتشبيبهُ مخادعة واستهواء، وحبهُ ظلٌّ منسوخ وعرض زائل، وقلبهُ عصفور مستطار لا يقع على فنن حتى يبرحهُ الى آخر . . . والحب في هذه الصورة ... ليس هو الحب الذي تأنس اليهِ الفطرة فيصدقها الحديث وتصدقهُ، والتعبير عن مثل هذا الحب يحسنهُ لسان الصنعة حيث لا يحسنهُ لسان الطبع . . . »

وعلى ذلك يمضي الاستاذ الهياوي في تطبيق رأيهِ على أبواب الشعر وألوانهِ وقصائد الشعراء فيحكم في هل هي الى شعر الطبع أقرب او الى شعر الصنعة

وفي هذا التطبيق يستمد من مَعين معرفتهِ بأدب العرب ونوادره فيأتيك بالمثل بعد المثل ويسوق الرواية في اثر الرواية، فكأنك واقف ومواكب الشعر العربي تمرُّ امامك وأنت تنظر اليها، بيني المؤلف معتمداً على حكمهِ

وليس ثمة ريب في ان هناك مراتب متفاوتة بين شعر الطبع الصافي وشعر الصنعة الخالص، وفي الحكم على قصائد الشعراء ومكانها من هذه المنازل المتفاوتة بين الطرفين يختلف حكم النقاد وهذا الاختلاف لا بدَّ منهُ، لأن النقد ليس الاَّ نظراً الى قطعة فنية من خلال المزاج الخاص. فالاستاذ الهياوي يرى قول امرىء القيس « ألا ايها الليل الطويل ألا انجلي » من شعر الصنعة وانا أراه يعبر عما في ذات نفسي احياناً أبلغ تعبير، فهو بهذا الحكم — وهو من اوصاف الطبع عند الاستاذ الهياوي — بيت من شعر الطبع الخالص

والخلاصة أن الأستاذ الهياوي أخرج كتاباً جديراً بأعظم العناية سواء من ناحية الآراء المبثوثة فيهِ أو من ناحية اسلوبهِ العالي

الطب النفسي : علميًّا ودينيًّا[1]

تأليف الدكتور مرقس غريغوري — طبع ملكن بلندن — صفحاته ٤٩٥ — ثمنه ٢١ شلناً

جاءنا هذا السفر النفيس ومقتطف اغسطس ماثل للطبع فكان لا بدَّ — ونحن مقبلون على عطلة الصيف — من الاشارة اليهِ إشارة موجزة على ان نوفيهُ حقهُ بعد انعام النظر فيه. وهو كما يؤخذ من عنوانه بحث موضوع العلاقة بين العقل والجسد في حالي الصحة والمرض من الناحيتين العلمية والدينية

فدراسة العقل البشري دراسة علمية تطوُّر حديث العهد، وعلم النفس هو آخر علم انفصل من الفلسفة واستقلَّ بذاته. ولا نزال نذكر يوماً في صيف سنة ١٩٢٤ وقف فيهِ الاستاذ وليم مكدوغل في قسم علم النفس بمجمع تقدم العلوم البريطاني. وكان ملتئماً بجامعة تورنتو بكندا — ليلقي محاضرة الرآسة فاستهلها باعلان استقلال علم النفس عن سائر العلوم. ومع ذلك فقد تقدمت الدراسات النفسية تقدماً يسوغ للباحثين استخراج النتائج والاحكام العامة. ومن هذه الاحكام ما يتصل بفعل العقل او النفس في الشفاء

(١) Psychotherapy, Scientific & Religious. Marcus Gregory D. Phil. Macmillan's, London 21/—

وليس ثمة ريب في ان للعقل تأثيراً في الجسم في حالي الصحة والمرض . وقد تبيَّن ذلك زعماء الشعوب القديمة ، فاجتمع الطبيب والكاهن في رجل واحد . ولكن تقدم علم النفس في العصر الحديث ، يقتضي ان يكون الطبُّ النفسيُّ او العقليُّ مستنداً من ناحية الى اساس الارتقاء الحديث في علوم الطب وعلم النفس ، مع انهُ بطبيعته لا بد ان يتعدَّى — من الناحية الاخرى — حدود هذه العلوم ، مستضيئاً بما في الفلسفة والدين من انوار

هذا هو الاساس الذي بنى عليهِ الدكتور غريغوري كتابهُ ، موفياً البحث حقهُ من النواحي التاريخية والنظرية والتطبيقية . وأنت اذ تطالع موضوعات فصوله الاثني عشر — الصحة والمرض ، الشفاء السحري قبل العصر المسيحي ، العلاج المسيحي ، الكنيسة والعلاج الروحي ، تطور الطب النفسي ، تشريح الشخصية البشرية ، نطاق الطب النفسي ، قواعد التحليل والاعتراف ، التنويم المغنطيسي العلمي والوهمي ، الايحاء وعامل الايمان ، فلسفة مركبة للحياة ، من هو الكفوء للنهوض بهذه المهمة — تعلم ان الدكتور غريغوري حقق قول استاذه العلامة الدكتور وليم براون مدير معهد السيكولوجيا التجريبية بجامعة اكسفرد حيث قال في المقدمة « والدكتور غريغوري كتب كتابه من هذه الناحية الواسعة فوفى كل وجهٍ من وجوه الموضوع حقهُ »

وحسبنا هذه الاشارة الوجيزة الآن على ان نعود الى تلخيص فكرة الكتاب تلخيصاً اوفى في عدد تالٍ

النواسي

تاليف زكي المحاسني — استاذ العربية في تجهيز دمشق ١٧٨ صفحة — منشورات المكتبة العمومية بدمشق

لم يفز «ابو نواس» قبل الآن بما هو جدير بهِ من عناية اساتذة الأدب وطلاَّبهِ . ولعلَّ ذلك مردُّهُ الى ما اشتهر بهِ من المجون والخلاعة . وليس هذا بالغريب . فقد كان كاتب هذه السطور يجد امتعاضاً من مدرّسيهِ — وهو طالب — عند ما يشاهدونهُ متأبطاً كتاباً من مؤلفات اسكار وايلد ، وهو كاتب وشاعر بينهُ وبين النواسي وجوهُ شبهٍ على ما بيَّن الاستاذ المحاسني . ولكن اذا كان ادباؤنا ومتأدبونا يقرأون الآن بغير حرج لرامبو وبودلير ووايلد ومن كان على شاكلتهم ويكتبون عنهم وينقلون بعض شعرهم فالناحية الخلقية في حياة «ابي نواس» يجب ألاَّ تقوم حائلاً دون دراستهِ من ناحية عبقريتهِ الشعرية ووضعهِ في المنزلة التي تليق بهِ بين كبار شعراء العربية ، ثم بين كبار شعراء العالم في الخمريات . فهذا شاعرٌ بذَّ شعراء العالم في ناحية هي ألصق ما تكون بقول الشعر ، تقدم بهِ في من تقدَّم بهم من فحول الشعر العربي ، الى ساحة الشعر العالمي

والسرُّ في إبداع ابي نواس ، تركيبهُ الحسّي ونشأتهُ في طفولتهِ وحداثتهِ ، ثم صدقهُ في

التعبير عن ذات نفسهِ كما انعكست على صفحتها الصافية احوال العصر الذي عاش فيهِ . وفي الكلام على أجود شعرهِ من حيث هو تجديد في شعر العرب ، متكأ لفهم التجديد في عصرنا على وجهه الصحيح . (فقد وجد ابو نواس في فاتحة عصر جديد من عهد بني العباس وكانت اسباب الحياة تختلف عن مثلها في عصر بني أمية وفي الجاهلية . انهُ عصر فتح العين على كل جديد في الفكر والحس .... النهضة العلمية .. وتمازج الثقافة الفارسية بالثقافة العربية الاموية ... الترف والبسطة في اللذاذات وامتلاك الجواري ...... فانا اذ اقرأ خمريات النواسي أتمثل ترف بغداد ومجونها ولذاذاتها في لياليها فآسف لهذا الانحطاط الخلقي .ومن يدري فربما كانت الليالي في بغداد أيام ابي نواس بمنزلة ليالي مونبارناس وموغمارتر في باريس في هذا العصر الذي نعيش فيهِ) من الصفحات ٥٧ و ٥٨ و٥٩ من كتاب النواسي

فسر التجديد في شعر ابي نواس انهُ لبي داعي النفس وداعي العصر ، فتنكب جادة التقليد لفحول الشعراء السابقين ، وحين أهمل هذين الداعين كقوله في الرثاء والمدح سقط شعرهُ . فلا تسدُّ أقوالهُ في هذا الباب في جيد شعره ، بل في الوسع اهمالها بغير ان يضير ذلك مكانتهُ بين كبار شعراء العربية .وهذا يبين لنا ان التفريق بين القديم والجديد تفريق مصطنع، وليس هناك الاَّ مقياس أساسي واحدٌ وهو مقياس « الصدق » و « الاجادة » في التعبير سواء أفي عصور الاسلام الاولى قيل الشعر أم في القرن العشرين

استهلَّ الاستاذ المحاسني كتابهُ استهلالاً قصصيًّا على نحو ما فعل موروى مثلاً في ترجمتهِ القصصية لحياة شلي في كتابهِ آرييل ، ولكنهُ عدل عن ذلك النحو في الفصل الرابع ،إذ أخذ نواحي حياة أبي نواس وشعره ناحية ناحيةً فقال في كل منها ما بدا لهُ مستخرجاً الرأيَ من حياة الرجل وحياة عصره ومنطوق شعره ، آناً يستشهد بالشعر النواسي وآناً بأقوال كبار النقدة من أدباء العرب وآناً يقيم الموازنة بين حوادث ذلك العصر وما يقابلها في أوربا في العصور المتأخرة

من آرائهِ التي وقف عليها فصول « الايمان » و « الزهد » و « التوبة » ان النواسي كان مؤمناً بالله، على الرغم مما يبدو مناقضاً ذلك في أبياتٍ لهُ،وزاهداً في أخريات أيامهِ مع ما اشتهر بهِ من المجون والفسق.وتفسيره لذلك « وحين امتلأ من صبابات الوجود انقلب الى الضدّ ففكر بالمعبود . فان لم يكن ذلك لتقوى فهو رجوع الى النقيض بعد الفراغ من المزيد . وقد يتفق مثل هذا لكثير من الخلق فاذا انتهوا من الفسوق انقلبوا الى ضدها فصاروا نساكاً مصلين لأنهم ملوا حياة الجسد فمالوا الى حياة الروح . . . . واذا كان (أبو نواس) إمام الخلعاء ففيم تنكر عليهِ هذا الانقلاب النفسي الذي بدا لهُ في أعقاب عمره فأحب ان يدخل في دور التقوى والنسك من باب التوبة والعفو

« يا كبيرَ الذنب عفو الله من ذنبك أكبر »
« أكبر الاشياء عن أصغر عفو الله أصغر »

ولهُ عدا هذا في شعره شعر كثير جيّد في الوعظ . ولكنهُ على كل حال ليس أجود شعره ولعلّ خيره قولهُ وهو محتضر « دبّ فيَّ الفناء سفلاً وعلواً » الخ . وليس يتسع المقام للتبسط في نواحٍ مختلفة من حياة ابي نواس وشعره كما جلاها الاستاذ المحاسني ولكن يكفي ان نقول انهُ رسم صورة لابي نواس الرجل والشاعر في أطار من حياة عصرهِ ، وعلى الرغم مما في حياة الرجل وعصرهِ من الفحش والخلاعة لا تجد كلمة نابية واحدة في هذا الكتاب

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟

تأليف الامير شكيب ارسلان — مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه — ١٦٨ ص قطع المقتطف — الطبعة الثالثة — القاهرة ١٩٣٩

اشتهر عطوفه الأمير شكيب ارسلان بعلومه ومعارفه الواسعة ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ الاسلام والمسلمين وسر تقدمهم القديم وتأخرهم الحديث. ولقد بعثت شهرته هذه حضرة الاستاذ الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو (جاوى) على أن يكتب الى المرحوم السيد محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار يقترح على عطوفة المجاهد الكبير امير البيان المشهور أن يكتب للمنار مقالاً بقلمهِ السيال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر واسباب قوة الافرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة فسرعان ما لبى هذا الطلب بمقالات نفيسة كان لها اعظم دوي في العالم مما جعل الجمهور يطلب نشرها في كتاب على حدة لسهولة الاستفادة منها فلبى الامير الطلب وطبع الكتاب مرتين فنفدت نسخه بسرعة. وها هوذا عطوفته يعيد نشره للمرة الثالثة في حلة قشيبة وبزيادات مستحدثة . ولقد سرد حفظهُ الله ما كان عليه المسلمون الأولون من عزة وسلطان وعلل ذلك وما صاروا اليهِ من تفكك وتخاذل وضعف وعلل ذلك ايضاً. ومن أظهر ما علل بهِ الامير أن الأولين استرخصوا انفسهم في سبيل نصرة الدين وأنفقوا اموالهم فدانت لهم الدنيا . وأما اليوم فقد قبضوا ايديهم وضنوا بأرواحهم فخسروا كلَّ شيء

وكتب الامير كتابهُ هذا بعد رحلة رحلها في اسبانيا وقف فيها على مشاهد آثار حضارة العرب في الاندلس والمغرب الاقصى وما انقلبت اليهِ حالة العرب والبربر اليوم . ثم كتب كتابه منفعلاً بهذه المؤثرات فكان آية من آيات بلاغته وحجة من حجج حكمته لعلها انفع ما تفجر من ينبوع غيرته وانبجس من معين خبرته فسال من انبوب براعته — كما قال فقيد الاسلام والعرب السيد محمد رشيد رضا

وختم الكتاب بخلاصة وافية لابحاثه كلها منادياً المسلمين بان ينهضوا بمثل ما نهض بهِ غيرهم. وثمن النسخة خمسة قروش وهو يباع في مكتبة عيسى البابي الحلبي بجوار سيدنا الحسين بمصر

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

تأليف الاستاذ سامي الكيالي — ٢٣٦ صفحة من قطع المقتطف
المطبعة الحديثة في حلب

لا يذكر اسم سيف الدولة إلاَّ ويذكر معهُ أزهى عصور الأدب العربي ، ولا يذكر أبطال العروبة الذين جاهدوا في بعث القومية العربية الاَّ ويبرز اسم سيف الدولة مشرقاً زاهياً ، ولا تذكر مدينة حلب الشهباء الاَّ وتندفع الذكريات عن عهد الحمدانيين الزاهر فيها ، فلقد كانت مدينة حلب على عهد عاهلها العظيم خليَّة عامرة تفيض على العالم العربي الادب المصفى الذي خلد على مرّ الزمان . وكانت مجالس سيف الدولة تجمع فطاحل الادب وأساطينه ، ومن الخجل ان يخدم هذا الرجل العظيم العروبة وأدبها وتمر الف سنة ولا يتقدم أديب من أدباء العربية فيضع لهذا الرجل دراسة شاملة بينما يحظى رجال عصره من الادباء بالدراسات الطويلة والبحوث المستوعبة ويكون سيف الدولة هامشاً على حياتهم

وكأنما الرسالة التي يحملها الاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » الغراء الى موطنه حلب مقرّ ملك سيف الدولة لم تزل بهِ تتقاضاه حق الوفاء لهذا العاهل حتى استجاب اليها ، وهو الاديب المثقف صاحب الحركة الادبية المزدهرة في الشهباء وباعثها والثابت في جهادها فأخرج دراسته الممتعة وقد رسمها صورة صادقة لشخصية الرجل وعصره تناول فيها أصل الحمدانيين ونشأتهم والاحداث التي مرَّت بهم الى ظهور سيف الدولة الذي كان مثاليَّ النظرة في خدمة الخلفاء حتى استطاع بفكره الثاقب اقامة دولته. وهنا أفرد المؤلف بحثاً خرج منهُ الى مطابقة دولة الحمدانيين لقانونية الاصطلاح الدولي المعروف . ثم وضع بحثاً تاريخيًّا للمدينة التي جعلها سيف الدولة مقر حكمه إنتقل منهُ الى دخول سيف الدولة هذه المدينة

وعقد بعد ذلك فصلاً تناول فيهِ حروب هذا الرجل وغزواته، واقتضى السياق التاريخي منهُ ان يرسم صوراً متتابعة للابطال البزنطيين الذي ظل يصارعهم سيف الدولة ويصارعونهُ والذي انشأ دولته على تخوم امبراطوريتهم ليحافظ على الكيان العربي ضد مطامع هذه الامبراطورية القوية وانتهى منهُ الى فصل في آخر ايام سيف الدولة ففصل عن الحمدانيين و بني بويه

ولما كان عصر هذا الرجل من ازخر العصور بالشخصيات الادبية البارزة فقد رأى المؤلف نفسه مضطرًّا الى ان يتناول بعض هذه الشخصيات بشيء من التفصيل فعقد فصلين عن ابرز شخصيتين لازمتا عاهل حلب وهما الشاعران المتنبي وابو فراس الحمداني

وإنا اذ نختم كلمتنا السريعة عن كتابه بالاعجاب نرجو ان يتاح له من الوقت متسع لان يتناول في القريب بقية الشخصيات من مفكري ذلك العصر وأدبائه بالدراسة الشاملة على نحو ما قام بهِ

حسن كامل الصيرفي

الخلافة في مذهب رشيد رضا

٢٨٦ ص . القطع الكبير — بيروت ١٩٣٨

Le Califat dans la doctrine de Rashid Rida, par Henri Laouet
Mémoires de l'Institut Français de Damas. Beyrouth 1938

هذا الكتاب الفرنسي ترجمة « الخلافة او الامامة العظمى » للسيد رشيد رضا ، ترجمهُ المستشرق هنري لاوست وعلق عليهِ وأضاف اليهِ بعض الفوائد . والغرض من نقل كتاب صاحب المنار ان يطلع الجمهور الفرنسي المهتم بالتحول الفكري في الشرق الاسلامي على آراء رشيد رضا البعيدة المرمى في الاسلام والجدال عنهُ

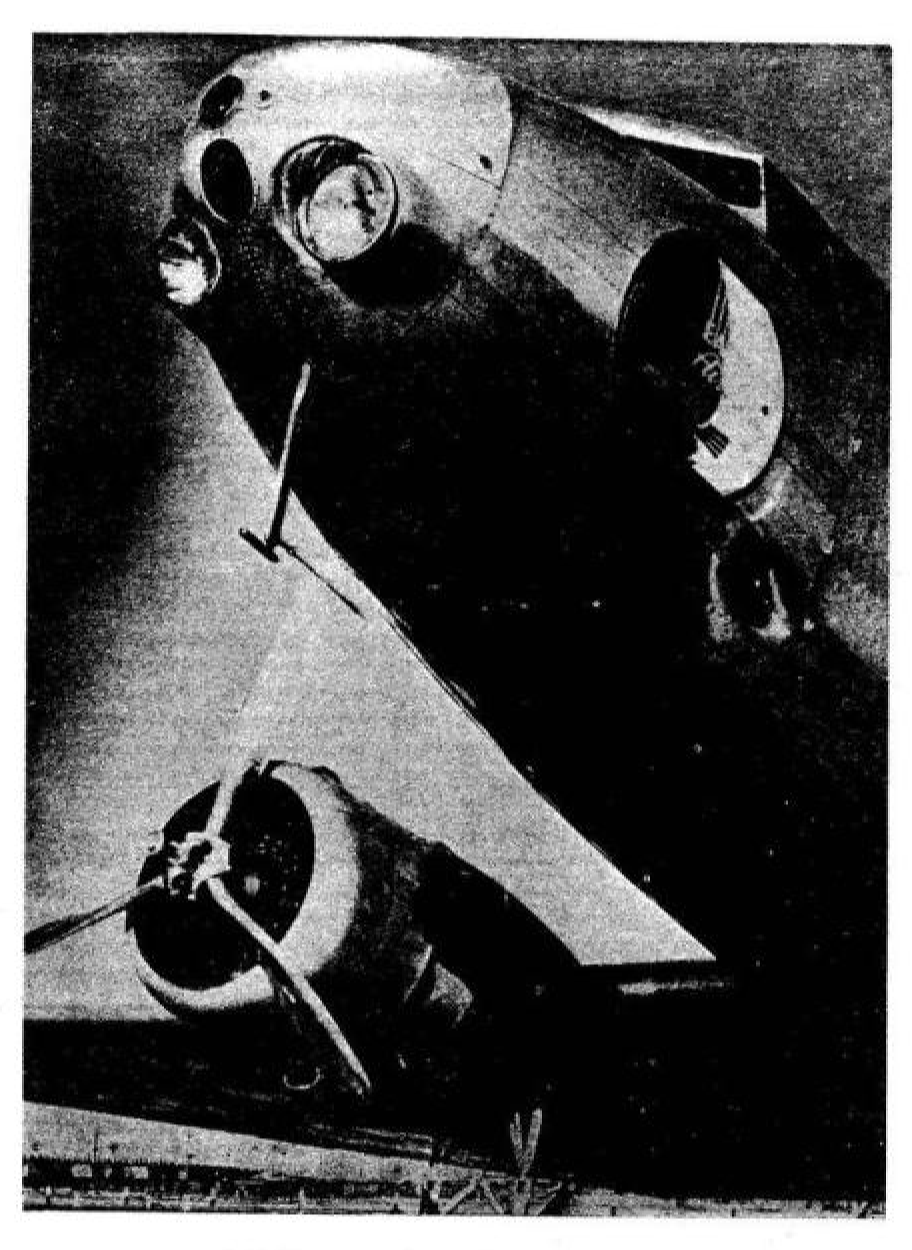
ومزية الترجمة ان صاحبها أثبت المصادر التي نقل عنها رشيد رضا او عول عليها ، ثم أشار الى وجوه التقويم الذي كان يقصد صاحب المنار اليها والتي استتبت الآن في العرف

وفي رأي المترجم ان رشيد رضا، وإن أقام مذهبه على المأثور عن السلف لا يقف عند النقل بل هو متكلم وأصولي وفقيه ولا سيما محدث . وأهم ما كتب في فن الحديث مقدمته لكتاب جمال الدين القاسمي ، وعنوانه : قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث . واعتماد رشيد رضا في تخريج الأحاديث على صحيح البخارى خاصة ، وهو لذلك كثيراً ما يرجع الى شرحه المتأخر لابن حجر العسقلاني : « فتح الباري في شرح البخاري » . ويعتمد ايضاً على صحيح مسلم وشرحه للنووى ومما ذكره المترجم في تعليقاته ان صاحب المنار صرف الى اتحاد الامة الاسلامية اكبر همه، وهي لا تكون الا من طريق التماسك الاجتماعى والثقافي والروحاني على أساس المساواة المطلقة . وعلى ذلك ان الجامعة الاسلامية ان هي الا مودة وصداقة معنوية وأخوة دينية تجري بين الامم والجماعات المسلمة في مختلف البلدان ب . ف

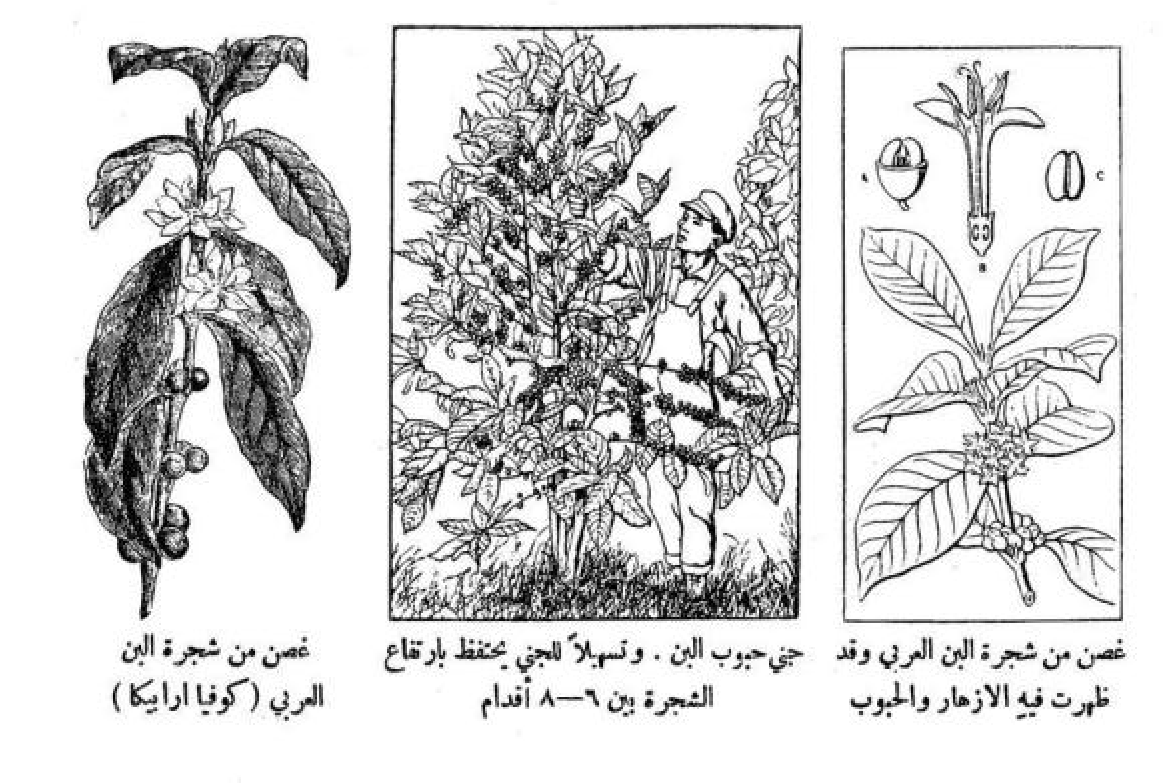
عاصفة فوق مصر

قصة اجتماعية بقلم عصام الدين حفني ناصف ـ ١٢٩ صفحة ـ مطبعة فن النيل مصر

هي قصة مصرية في جوها وأشخاصها — كما يقول مؤلفها الاستاذ عصام الدين — عالية في مشاكلها وفلسفتها ، وقعت حوادثها أبان الازمة الاقتصادية التي خيمت على مصر والعالم في الاشهر الاخيرة من سنة ١٩٢٩ ولم تخف وطأتها قليلاً في سنة ١٩٣٧ الا ريثما اتصلت بها أزمة جديدة ما تزال جاثمة فوق العالم في انتظار الحرب . وقد دفعهُ الى وضعهِ دراسته في أثناء اقامتهِ في الريف للدوافع الحقيقية لحوادث قتل نظار الزراعات تلك الحوادث التي هي وليدة فوضى اجتماعية لا سبيل الى انهائها بغير انهاء أسبابها



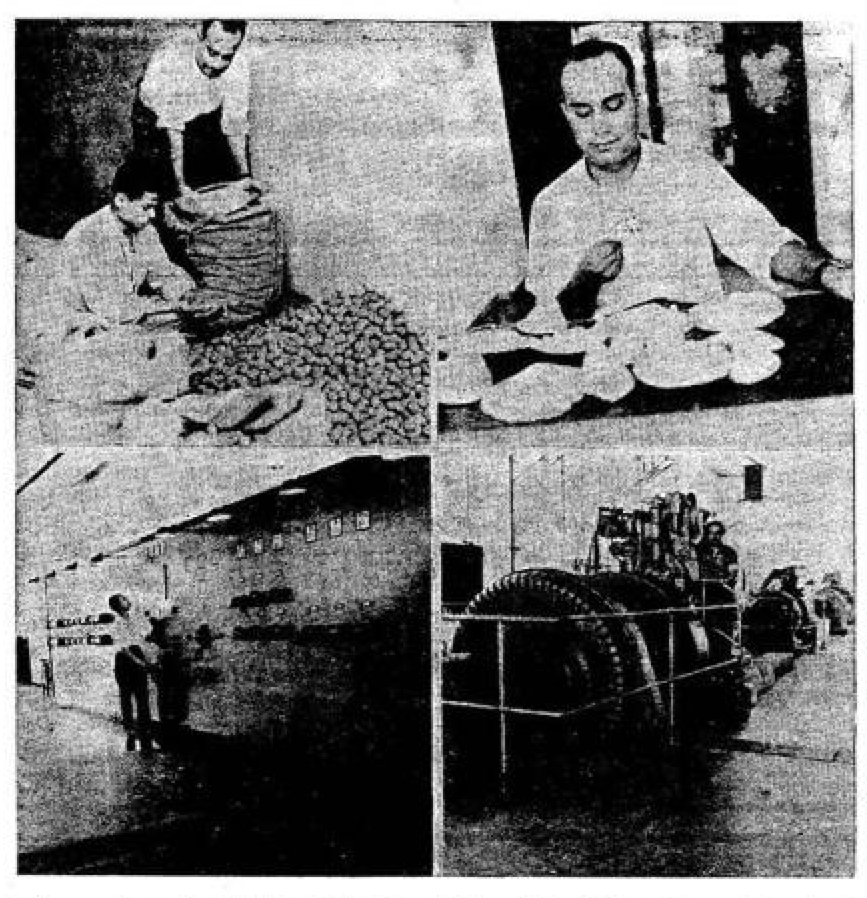
مقدم جسم طائرة معدنية وقد ظهرت فيه مئات المسامير
التي تربط ألواحه بعضها ببعض



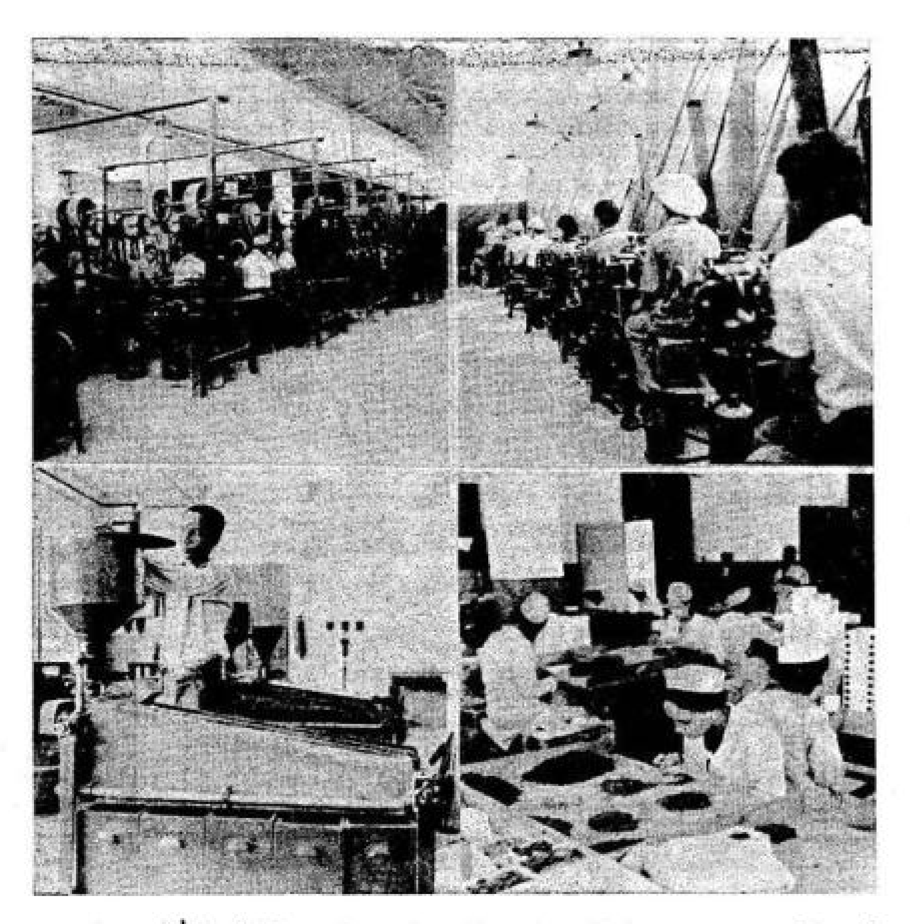
غصن من شجرة البن العربي وقد ظهرت فيه الازهار والحبوب

جني حبوب البن . وتسهيلاً للجني يحتفظ بارتفاع الشجرة بين ٦—٨ أقدام

غصن من شجرة البن العربي (كوفيا ارابيكا)



الصدف والدوم والقوة الكهربائية هي الخامات الاولية لصناعة الازرار ففي الصورة العليا الى اليمين وكيل المصنع يعرض اصناف الصدف وفي الصورة الثانية عامل يفرز حب الدوم تبعاًلحجمه وفي الصورة السفلى الى اليمين المحرك الكهربائي والى اليسار اللوحة الخاصة به



تجتاز الخامات مراحل صناعية متعددة وهنا بعضها . ففي الرسم الاعلى الى اليمين جانب من عنابر الدوم وفي الثاني جانب من عنابر الصدف وفي الثالث والرابع العاملات والعمال يفرزون الازرار بالطريقة اليدوية والميكانيكية

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الخامس والتسعين

المقتطف

AL-MUKTATAF

AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE

FOUNDED 1876



الجزء الرابع من المجلد الخامس والتسعين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٩ — ١٩ رمضان سنة ١٣٥٨

الحرب والحضارة

«ان حيوية الحضارة لا تكبت»

عند ما شبت نيران الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ وانطلقت مدافعها كتب الكاتب الفرنسي المشهور رومان رولان يقول «ان هذه الحرب نزاع دنس تبدو فيه اوربا المجنونة وهي تسير الى حتفها كهرقل الذي قضى على نفسه بيديه» . ونحن اذا تأملنا هذه الحرب المشبوبة الضرام الآن وجدنا أنهُ لا مفرَّ لنا من تذكر كلمة رومان رولان . فكل دولة من الدول المشتركة فيها تنادي بأنها تحارب في سبيل المحافظة على كيانها ولكن يبدو ان العاقبة العامة قد تكون تدميراً عامًّا للمدنية الاوربية مهما تكن الأغراض التي تتجه اليها كل دولة على حدة . وليس من المنتظر ان تنجو الدول المحايدة من نوائبها . ففي يوم ٣ اغسطس سنة ١٩١٤ قال السر ادورد جراي وزير خارجية بريطانيا حينئذٍ : «ونحن اذا خضنا غمار الحرب لم تزد نوائبنا الاَّ قليلاً عنها اذا التزمنا الحياد» . والغالب ان السر ادورد غالى في القول ولكن من يستطيع ان يزعم ان هناك دولة نجت من عواقب الحرب الماضية وما جرته في اثرها من القلق والاضطراب ؟

واذا اتسع نطاق هذه الحرب ، ودامت سنوات فالغالب — في رأي كثيرين — ان يكون الخراب الناجم عنها عظيماً . فالعالم يرقب نفسه وكأنَّ الألغام قد بثت تحت قدميه ، منتظراً الكارثة التي تفجر هذه الالغام فتدمر أنفس مقتنياته المادية والروحية . ولا يقتصر تأثير خرابها على هذا الجيل بل يمتد الى الأجيال القادمة مدىً طويلاً ، فيكون في ذلك دمار

الحضارة وانهيار الثقافة البشرية . ويجد قراء المقتطف في باب سير الزمان فصولاً منوعة تتناول وجوهاً شتى من هذه الحرب . ولكن يهمنا في هذا الفصل ان نقف قليلاً عند هذا السؤال الذي يثيره قول رومان رولان — هل تقضي الحرب على الحضارة ؟

ولا بدَّ من التسليم بادىء بدء بأن ذلك الجانب من حضارتنا الممثل في الآثار الفنية التي لا تقوَّم بمال من مبانٍ وتماثيل وصور وغيرها معرَّض للدمار . وأوربا حافلة بهذه البدائع . ولكن جيوشها تملك كذلك الوفاً من الطائرات . ومهما تكن وسائل الدفاع ضد الطائرات قد بلغت من الاتقان فلا ريب في ان قائد السرب المهاجم المستعد للتضحية ببعض طائراته ورجالها يستطيع ان يبلغ هدفهُ . وفي وسع حملة من هذا القبيل ان تدمّر جامعة اكسفورد او جامعة هيدلبرج فتمحو من سطح الارض بقعة ما اروع جمالها ، ومستودعاً من انفس مستودعات العلم والفلسفة والادب في تاريخ البشر. وقنبلة واحدة تصيب هدفها تستطيع ان تدمر كنيسة من تلك الكنائس التي تتجلّى فيها روائع فن البناء والنقش فيمضي الناس جيلاً بعد جيلاً وهم يتحسرون على ضياعها . وليس في النصف الغربي من اوربا منطقة لا تجد فيها مقرًّا لآيات العبقرية الفنية — في ايطاليا والمانيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها . وقد كنا من ايام نشاهد الصور المتحركة في احدى دور القاهرة فرأينا الرجال يصففون اكياس الرمل خارج المتاحف والكنائس وداخلها بغية صونها من الانهيار ، فانطلقت من صدرنا زفرة حسرة وألم وقلنا لجارنا و« ماذا تغني هذه الاكياس في منع هذه القباب الفخمة والمسلاَّت اللدنة والتماثيل والنقوش التي لا تزال غصَّة على الزمن من الانهيار ، اذا اصابتها قنبلة واحدة من القنابل المتفجرة الضخمة

واذا كان القصد من عبارة « تدمير الحضارة » انتهاء دور من ادوار الحضارة فالتدمير مستطاع بل محتمل . بل يصحُّ ان نقول انهُ لا مفرَّ منهُ . لانا بلا ريب نواجه عهداً جديداً في الثقافة الانسانية . فالحرب العالمية الاولى جاءت حدًّا لقرنٍ استتبَّ فيه السلام بوجهٍ عام بعد النزاع الطويل الذي منيت به اوربا في عهد نبوليون ، ونهايةً للتقدم المطرد نحو انتشار الحكم الذاتي الدمقراطي في انحاء الارض، وكانت مستهلَّ عهدٍ سمته التراخي الادبي والفوضى السياسية والاضطراب الاقتصادي والاضطهاد الديني والعنصري. ولو قال احدٌ لسكان اوربا في سنة ١٩٠٠ ان هذا هو مصيرهم في سنة ١٩٢٠ لأَبوا تصديقه ولوصموهُ بالجهل والتهويل وبأنهُ بوم ينعق . فالثورة الفرنسية تلاها عصر « الرُّشد » reason والحرب العالمية الاولى تلاها عهد الطيش والتهور unreason ولا مفرَّ من ان تضيف الحرب العالمية الناشبة الآن — اذا طالت — أثاويه ومفازات مظلمة اخرى الى هيكل الفوضى

هذان الضالان المظلمان ، الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية ، قد يصفهما

مؤرخو المستقبل بقولهم انهما بداءة حرب الثلاثين السنة في القرن العشرين وختامها — لان القتال لم يقف يوماً واحداً منذ نشبت الحرب الاولى سنة ١٩١٤ — ولابدَّ ان يفرضا على البشر قلب صفحة جديدة بل فتح فصل جديد في كتاب تاريخهم وحضارتهم . انهما يعنيان نهاية حضارة وانبثاق اخرى . ويلوح ان هذه الحضارة الثانية التي نشهد انبثاقها أشدُّ قتاماً وانذل اصولاً من الحضارة التي بدأت تخلفها

ولكن لا يتعين علينا ان نسلّم بأن القول «بتدمير الحضارة» يجب ان يؤخذ على علاَّته. فالحضارة نباتٌ قويٌّ متعدّد الجذور متشعب الفروع ، لا يحتمل اقتلاع جميع جذوره وسقوط كل ورقة وغصن مرَّة واحدة مهما تكن الكارثة التي يصاب بها . واذا كانت الحضارة قد عاشت بعد تدمير أثينا واجتياح البرابرة لروما وقتام القرون المتوسطة والنزاعات الدينية والملكية في العصور التي تلتها ، فانها ولا ريب تستطيع ان تعيش بعد ان تمنى بحربين عالميتين

الانسان وريث جميع العصور السابقة . ومن المتعذر ان تدمر هذا الارث ، لأنهُ منتشر في كل مكان . فالافكار قد أزهرت على كل ساحل . والمكتبات والمتحفات والمجموعات العلمية والفنية قد أنشئت في كل أرض . والذكاء الانساني ينتشر بالمطبعة وأسباب المخاطبات على اختلافها حتى ليستحيل على أحد ان يمنع انتقالهُ من أرض وانغراسهُ في أخرى . ولو حرقت طائفة من المكتبات التي من قبيل مكتبة لوفان لما خسر العالم الا قطرة من بحر الكتب والمؤلفات المخزونة في جميع معاهد الارض . ولو وقف أميركي امام كنيسة مدمَّرة من كنائس فرنسا لما شغل نفسهُ برسم انقاضها بل لقد تتملكه النزعة الى ترميمها او لتشييد صرح جديد نخم مكانها ولاستطاع ان يأتي من وراء المحيطات بالمواد والمبادىء اللازمة لانارة ذلك المصباح العظيم الخافت الضوء او المنطفىء بفعل الحرب — مصباح الحضارة الفرنسية المجيدة

فالخطر الذي تتعرَّض لهُ الحضارة ليس خطر تدميرها الكلي وانهيارها ولكنهُ خطر اصابتها بالكساح أجيالاً متعددة من جرَّاء الحرب . لانهُ اذا طالت هذه الحرب ، فالغالب ان تكون نهايتها باعثاً على استهلال عصر حديديٍّ ماديٍّ في حياتنا . لان الحرب بتدميرها أسباب الثقافة — والعبقرية الانسانية في طليعتها — لابدَّ ان تقسر الانسان على الارتداد الى نمط مادي من الحياة. فيعيش وهو أقرب الى الجذور منهُ الى الفروع والافنان. فالحرب لا تزال في مستهلها ولكن الدول الكبرى المشتركة فيها أخضعت كل شيء في حياتها لضرورة الحرب والدفاع عن الكيان . فمصانع السلاح تزهر ومصانع الافكار تذوي . وما قيمة الادب في نظر هذه الأمم ، وهو الذي كان الصلة الاولى بين الأمم ومبدّد التعصب ، وما قيمة الفلسفة وهي التي كانت الى عهد قريب المأوى الاعلى لتأسية النفس ورفعها ، وما قيمة العلم المحض وهو الذي كان

خادم التقدم — انها غدت جيماً والأمم تناضل في سبيل الكيان، ترفاً يمكن اغفالهُ

وستبقى هذه الاشياء من قبيل الترف عندما تنتهي الحرب. لان المشكلات التي ينتظر ان تواجهها الامم حينئذ لن تكون إتاحة آيات الموسيقى والفن والفكر للجماهير بل تعمير ما دمر وتوفير اسباب الفوز بالمأكل والملبس والمأوى. لان البشر سيجدون انهم مضطرون بحكم ما تدمّرهُ الحرب الى العناية باصول المعاش لا بفروعهِ

ومن غير المحتمل ان تنجو امة ما من هذا الاضطراب. حتى الولايات المتحدة نفسها لن تنجو في اعتقاد آلن نفنز — استاذ التاريخ في جامعة كولومبيا واليهِ نستند في هذا المقال — منها. فقد كان من اثر الحرب العالمية الاولى في الولايات المتحدة الاميركية تعطيل ما يزيد على عشرة ملايين عامل عن العمل. واعتماد خمسة وعشرين مليوناً على العون الحكومي في الفوز بابسط اسباب العيش. وزيادة الدين الاهلي الى اربعين مليوناً من الدولارات. ونقص موارد كل معهد من معاهد البحث العلمي والتعليم. فنشاط الاجيال القادمة سيرهن في الولايات المتحدة وغيرها للعمل في سبيل التعمير وحده

وليس الانسان في حاجة الى الخيال الوثاب لكي يتصور ما ينتظر ان تحدثهُ الحرب في نسيج المدنية من التمزيق وفي صرحها من الشروخ. فقد قدَّر اقتصاديو معهد كارنيجي ان الحرب العالمية الماضية اقتضت خسارة ألوف الملايين من الدولارات. ها هي ذي المدن التي دمرت ومناطق الريف التي اجتيحت والسفن التي غرقت، يمكن احصاؤها ومعرفة قيمتها المالية. اما عدد الذين قتلوا ودفنوا والذين شوّهوا وعجزوا عن العمل فيعدُّ بالملايين

حتى الخسارة التي منيت بها الشعوب في عقول الذين فقدتهم وتدريبهم الفني يمكن تقديرها. فنحن نعلم ان انكلترا خسرت في الشهور الاولى من الحرب الماضية روبرت بروك الشاعر واميركا الآن سيغر وفرنسا شارل بيجو. ونحن نعلم ان الكاتب هربرت هوريل استطاع ان يملأ اعمدة على اعمدة من مجلة «الاتلنتك منثلي» باسماء العلماء والمفكرين من بريطانيا وفرنسا والمانيا الذين فقدوا في الحرب. وما زلنا نذكر كيف تخاصم رجلان في الطبقة الاولى بين رجال الموسيقى واعني كريسلر وشليابين بانضمام أحدهما الى هذا الفريق والآخر الى الفريق الآخر. ونحن ندرك ان هذا التبذير في المواهب استمرَّ اربع سنوات وان زهرة رجولة اوربا وذكائها ذهبت طعمة النيران، وفي الوسع ان تكتب الكشوف الطويلة تضم جميع هذه الأسماء

ولكننا نحتاج أشدَّ الحاجة الى الخيال الوثاب لكي نتصور حضارة المستقبل لولا هذه الخسارة وهذا التبذير. وعلينا ان نقتحم بعين الخيال مستقبلاً مضيئاً — بما سببتهُ الحرب الماضية من التبذير في مواهب العباقرة وما ينتظر ان تسببهُ هذه الحرب — لكي نستطيع أن نتصور

الانتصارات العظيمة في حلبة الاجتماع البشري من جميع نواحيها ، لو اطرد التقدم . ونستطيع ان نمدّ الخيال بعون يسير اذا رجعنا الى التاريخ وتصورنا العواقب التي تبعث على الحزن والهلع التي كانت الانسانية منيت بها لو شبت حرب كبيرة من قبيل حروب اليوم في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٤٠ و١٨٤٥ . اذن لكان من المحتمل ان تفقد انكلترا في تلك الحرب دكنز وثاكري وبروننغ وغلادستن وسبنسر وهكسلي وبسمر . ولا يستبعد ان مصير داروين فيها كان من المحتمل ان يشبه مصير موزلي ، ومصرع تنيسون مصرع روبرت بروك . وان تفقد فرنسا هوجو ودوموسيه وسانت بوف ورينان وفلوبير وباستور . والمانيا وروسيا فاجنر وجوجول . وغيرهم كثير

أنستطيع ان نتصور حالة العصر الفكتوري من ناحيتي الأدب والعلم لو ذهب ربع شبانه طعماً لنيران الحرب، وما تي فرنسا والمانيا في القرن التاسع عشر لو سيق احداثهما الى المجزرة ؟

اننا نستطيع ان نتصور فقط ما يحتمل ان تكون خسارة الحضارة بتكرار هذا التدمير ، ولكننا لا نستطيع ان نعلم ولا ان نتكهن. فنحن نعلم أن السر فيليب سدني مات في الثانية والثلاثين وهو يحارب في سنة ١٥٨٦ في البلاد الواطئة (هولندا وبلجيكا الآن) ليمدّ الهولنديين بالعون لطرد الاسبان من بلادهم . ومن يدرينا ان بين الانكليز الذين حاربوا في بلجيكا سنة ١٩١٤ ليمدوها بالعون لطرد الالمانيين لم يكن هناك شاب كان كتب له — لو عاش — ان يغدو شكسبيراً آخر ؟ ولا تقتصر الخسارة على الذين يموتون في الميدان، بل تشمل اولادهم وحفدتهم، وانت تعلم ما قيمة الوراثة العقلية في تاريخ الحضارة . ولا تقف المصيبة عند حدّ الحقائق التي كان من المحتمل ان يكشفوها فظلت مطوية بفقدهم ، بل تتعداه الى الحقائق التي كانت تولدت من حقائقهم ، والمؤلفات التي كانت تلهَم بمطالعة مؤلفاتهم

ان حيوية الحضارة لا تكبَت ، وستبقى أبداً مولّدة سائرة الى الأمام، ولا بدّ لها في حينها الموقوت ، من ان تستأنف السير في طريق العلم والفن والأدب نحو آفاق جديدة . ولكن اذا طالت هذه الحرب ، فاستئناف السير قد يتمّ بمواكب من الأمم غير مواكب الماضي . ولا ريب في وقوع كثير من وجوه التغيير والتبديل . وقد يكون بعضها باعثاً على الأسى والفجيعة . ومن المحتمل المرجح أن الأمم التي تقذف بنفسها في وطيس النضال، أو تضطر الى ذلك، ستجد نفسها عندما تضع الحرب اوزارها مضطرة الى التخلف عن السير في طليعة موكب الحضارة

وقد تجد اوربا نفسها وهي عاجزة عن البقاء في الطليعة وقد تقدمها أمم العالم الجديد . ثم هناك خطر عظيم وهو ان يفضي التبذير المسرف في شباب أوربا الى اضعاف السلالة القوقاسية فتعجز في ميدان المنافسة والنضال مع السود والصفر . فالقوة الأوربية قلما تستطيع ان تتحمل النزف العظيم في دمائها الذي تقتضيه المجزرة تلو المجزرة ، بغير ان تصاب بالاعياء . وقد تكون

العواقب التي تسفر عنها هذه المجزرة أخطر شأناً وأبعد أثراً مما يخلو للذهن الأوربي ان يتصور

ونحن إذ نقول ما قلناهُ عن الحرب لا نعني ان الحرب أعظم كارثة تواجهها الحضارة . بل هنالك — في رأي الاستاذ نفز — كارثة أعظم وهي ان يسود أوربا طراز من الحكم والاجتماع والثقافة كالطراز الذي أقامهُ جماعة النازي في قلبها . فتوسع المانيا النازية يبسط سيطرتها على أوربا الوسطى وأوربا الشرقية ثم يبسطها على غرب أوربا، أشأم أثراً من نضال طويل . فالحرية تموت حينئذٍ في قلب الغرب موتها الآن في برلين وفينا وبراج . وتفرغ الصناعة والتجارة والسياسة والحكم والأدب والفن والعلم في قالب واحد . فيفر الكتاب والعلماء من اوربا حينئذ كما فرَّ توماس مان من « ارض الظلام » . وعندئذٍ يجلس التجسس والقدع والتعذيب في مجالس الحكم ، ومن يدري فقد يطول جلوسها

وإذن كان لا بد من وضع حدٍّ لهذه المصيبة حتى ولو كان الثمن حرباً بنوائبها . ان منابع الفكر والشعور قد تسممت ، وقام في المانيا جيل يحتقر كرعيه ، الحق والامانة ويعتقد ان كل كذبة وكل حيلة وكل جناية تحقق غرضاً معيناً ، لها ما يسوّغها . فثقافة دولة من هذا القبيل ، مهما تبالغ في طلائها، سمٌّ زعاف . ولو انتشرت عقيدتها في القوة واستعمالها لقضى انتشارها على الحضارة . فاذا قيل ان ذلك يفضي الى النظام قلنا انهُ نظام الاستبداد وهو أبعد عن الحضارة من نظام التتار والمغول . فكل سعي لوضع حدٍّ لهذا النظام وينطوي على الامل في تدمير نوائبه ، رخيص مهما يكن غالياً

لأن الحرية ركن الحضارة وروحها، حرية النشاط الفردي وحرية الروح . فالدفاع عنها هو دفاع عن الحضارة ، وصونها بما يكفل حمايتها في المستقبل ركن لازم لانشاء ثقافة عالمية سليمة

في وسع الحضارة ان تزهر بعض الزهر وتثمر بعض الثمر حتى في احضان الفاقة والخطر والخراب اذا كانت حرة . ولكنها تذوي وتموت اذا كانت روح الانسان مكبلة بالاصفاد . ولذلك نقول ان حرب الامم الدمقراطية — على ما في الحرب من خسائر ونوائب — هي حرب في سبيل الحضارة ويجب ان تفوز بعطف وتأييد كل رجل وامرأة يقيمان وزناً للنور والحق . الحضارة تؤثر السلام . ولكنها قد تقتضي من ذويها القتال في سبيلها احياناً . وأشد احبابها ليسوا الذين يترفعون عن النضال بل الذي يكشفون صدورهم للسيوف

ستكتب السطور التالية في كتاب الحضارة بالدم ومتى انكشفت المعركة عن ظفر الحضارة وابنائها فعندئذٍ يجب التفكير في وضع نظام عالمي جديد لتعزيز الحضارة وصونها . والامل معقود على ان تنهض الولايات المتحدة بنصيبها في وضع هذا النظام ، على وجه اتم وابسل مما فعلت في سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ وبعدها وان يكون أثرها متكافئاً مع قوتها وثقافتها واهتمامها بمصير البشر

سيجموند فرويد

Sigmund Freud

(١٨٥٦ — ١٩٣٩)

للدكتور أمير بقطر
استاذ التربية بالجامعة الاميركية
ورئيس تحرير مجلة التربية الحديثة

ذهبت في عطلة عيد القيامة الماضي (مارس سنة ١٩٣٩) الى « همستد هيث » في انكلترا لزيارة الشيخ العالم للمرة الثانية ، وكنت قد زرته في عيادته الشهيرة في ڤينا منذ ثلاثة أعوام . « وهمستدهيث » هذه ضاحية من أجمل ضواحي لندن يقصد اليها أصحاب المزاج والذوق . وبيوتها الصغيرة و« ڤلاتها » البديعة القائمة على ربوة عالية ،وتكتنفها حدائق وجنات تجري من تحتها الأنهار، يقطنها عدد كبير من الكتاب والادباء والشعراء ورجال الفن ، وقد شاهدنا هناك من علماء النفس غير فرويد « سيرل برت » الاستاذ « بكلية الجامعة »من كليات جامعة لندن، وقد لخصنا كتابه الشهير « الطفل المتأخر » في المقتطف، ولخصت كتابه « الطفل الجامح » في مجلة التربية الآنسة فكرية زكي . ذهبنا لزيارة فرويد في مغتربه هناك فوجدناه عليلاً لا يرجى شفاؤه وقد أشرف على منتصف العقد التاسع من عمره . وبينما كان يناضل النضال الاخير في سبيل البقاء ، كانت المطابع تشتغل بإخراج مؤلفه الاخير « موسى » . وقبل ان نغادر انكلترا كان كتابه معروضاً في واجهات المكاتب في جميع انحاء انكلترا وسكوتلندا . وقد برهن فيه بوثائق تاريخية وحجج علمية ، أن ذلك النبي العظيم لم يكن اسرائيليًّا وانما كان مصريًّا صميماً

واذ ما تحدثنا عن فرويد ، فانما نتحدث عن نظرية اهتزت لها الاوساط العلمية فسمع لهزتها دوي لا يدانيه في عالم الانسانية دويّ آخر سوى نظرية كارل ماركس في الاشتراكية . والحقيقة أن فرويد وماركس يمثلان غريزتين هما بلا منازع أقوى الغرائز البشرية ، بل هما أساس جميع هذه الغرائز او الدوافع الانسانية . فكارل ماركس يمثل غريزة المحافظة على النفس التي هي في الحقيقة أساس عدة غرائز هامة ، كالجوع والخوف والغضب والحسد والقتال. وفرويد يمثل غريزة المحافظة على النسل او الغريزة الجنسية ، التي هي في الواقع أساس عدة غرائز

هامة ، كالحب ، والغيرة ، والميل للجنس الآخر . وجميع المشكلات الاجتماعية وآلام الانسانية أفراداً وجماعات ، تعود في نظر كارل ماركس ، الى غريزة المحافظة على النفس وتتركز في المسائل الاقتصادية — المال . وجميع آلام الافراد وانجاهاتهم العامة ، تعود في نظر فرويد ، الى الغريزة الجنسية — المرأة ، وتتركز فيها ومهما اختلف العلماء في مناهضة كل من هذين العبقريين او تأييدهما ، فانهم يتفقون على ان مشكلات الافراد والجماعات ، مهما تكن أوصافها وأشكالها ، تدور غالباً على محوري هاتين الغريزتين — المحافظة على النفس والمحافظة على النسل — او المسائل الاقتصادية والمسائل الجنسية — او كما سميناها في مقال نشرناه في « الهلال » «المال والمرأة »

وقد كان « الفرد ادلر » الطبيب السيكولوجي النمساوي ، وقد توفي في ڤينا منذ سنوات ثلاث ، زميلاً لفرويد وشريكاً له ، الى ان اختلف معهُ في الذهاب الى هذا الحدّ فيما يتعلق بالدوافع الجنسية (وكان فرويد يسميها libido للتفريق بينها وبين sex) وذهب في طريق آخر نشر فيه مؤلفات متعددة تدور حول رأي آخر ملخصه أن انجاهات المرء تتأثر بحب السيطرة أكثر من تأثرها بأي شيء آخر . وما يقال عن « الفرد أدلر » يقال عن « يونغ » الطبيب السيكولوجي السويسري ، وهو حيّ يرزق ، ويخالف كلاً من أدلر وفرويد في أنهُ يعزو هذه الانجاهات الى قوة أخرى غير « حب السيطرة » وغير « الدافع الجنسي » وهذه القوة مزيج من عدة عناصر حيوية لامحل لذكرها الآن . وسأحاول في هذه العجالة أن أضع أمام القارىء فذلكة عن حياة « فرويد » وشيئاً من أهم آرائه

وُلد سيجموند فرويد من أبوين اسرائيليين في ٦ مايو سنة ١٨٥٦ ونشأ في بيئة اسرائيلية في مدينة فريبرج من أعمال مورافيا Friberg Moravia وانتقل مع افراد أسرته الى ڤينا عاصمة النمسا وهو في الرابعة من عمره وظلّ هناك الى أن طرده النازي مع من طرد من اليهود في العام الفائت على أثر دخولهم النمسا وابتلاعها لقمة سائغة . وكان فرويد في صغره لايميل للطب ، ولكنهُ كان يهوى المباحث العلمية ويؤثرها على ما عداها ، الى أن وقع نظره على رسالة لغوته عنوانها Die Natur ، فتأثر بها تأثراً شديداً حتى اختار الطب دراسة له ومهنة ، وولع في سنواته الأولى بدراسة علم النبات على الأخصّ . واشتغل من سنة ١٨٧٦ - ١٨٨٢ في معمل الفسيولوجيا على يدي الدكتور بروك Brucke ، ومن ثمّ في معهد التشريح المخي على يدي الدكتور Meynert وتخرَّج في الطب سنة ١٨٨١ . ولكنهُ ارتطم بصخرة الأزمة المالية ، كأكثر الأطباء في بدء عهدهم ، فأوقف مباحثه العلمية ، والتحق بعيادة خاصة بالأمراض العصبية

وفي سنة ١٨٨٤ التقى بالطبيب النفساني الشهير يوسف بروير (Brauer) في ڤينا ، فقصَّ عليه

هذا الاخير قصة عجيبة استهوته حتى استولت على مشاعره ، وحولت اتجاهه العلمي الى ناحية قصية من نواحي الأسرار البشرية . وتتلخص هذه القصة في أن « بروير » جاءت اليه شابة مصابة بالهستيريا (وهو مرض يصاب به النساء عادة دون الرجال ، وكلمة هستيريا ذاتها مأخوذة من الكلمة الاغريقية hysteron ومعناها « رحم المرأة » لاعتقادهم ان هناك صلة بين الرحم وهذا المرض) ، فلما نومها نوماً مغناطيسياً hypnoses أخذ يستدرجها في غيوبتها الى الظروف والملابسات التي كانت أصل هذا المرض ، فعلم منها انه يرجع الى ذكريات قديمة تتصل بفترة كانت تمرض فيها والدها ، فأمرها ان تستعيد تلك الذكريات و « تعيش » في جوها ، وتستعرض عواطفها ، ففعلت ، وما لبثت أن شفيت . وقد أصبحت فيما بعد هذه الطريقة الغريبة cathartic أساس التحليل النفساني ، الذي اشتهر بها بعد « يوسف بروير » والطبيب الشهير الفرنسي شاركو Gharcot وزميله بيير جانيه Pierre Janet

وفي سنة ١٨٥٥ رحل فرويد الى باريس حيث قضى أكثر من عام يدرس الأمراض العصبية على يدي « شاركو » ، وقد كان للتشجيع الأدبي الذي لاقاه هناك أثره في تلك الخطوة الجريئة التي قام بها فرويد بعدئذ ، وذلك انه نسب الهستريا إلى اسباب سيكولوجية ، وبحثها على ضوء تلك الأسباب . بيد أن دراساته ثارت عجاجاً من الاستياء بين رجال الطب ، ومنهم زملاؤه وأقرب المقربين اليه . وكان اكثر هذا الاستياء مصدره الحسد ، بيد أن بعضه كان يعزى الى ان مبادىء « فرويد » ثورة على الطب والعلم الذي لم يكن ليقر غير المسائل الجثمانية ، ولم يكن ليعترف بتلك الغوامض والأسرار اللاجثمانية التي تحدث عنها فرويد . وظل فرويد الى حين وفاته يعد في بعض الدوائر العلمية والطبية من المراطقة ، رغم أن جماعات « فرويد » وجماعات التحليل النفساني ومجلاته تملأ الآفاق

ونشر فرويد بعد ذلك مؤلفات متعددة خصوصاً في العجز عن النطق السليم aphasia والشلل المخي عند الاطفال . وفي سنة ١٨٩٣ حمل زميله « بروير » على نشر رسالة فصل فيها حكاية الفتاة المريضة بالهستريا السالفة الذكر ، وعاونه في كتابة مؤلف سنة ١٨٩٥ عن الهستريا ، وهو من اهم ما كتب في الموضوع وعنوانه بالالمانية Studien uber Hysterie

واختلف بعد ذلك مع « بروير » وفض شركته معه ، وأهمل طريقة التنويم المغنطيسي كوسيلة لاخراج الذكريات الدفينة من العقل الباطن ، واستبدلها بطريقة « تداعي المعاني الحر » free association . وهذه العبارة ومثلها كلمة complex التي تحدث عنها فرويد كثيراً ، من العبارات التي صاغها الدكتور يونغ Jung . وهذه الطريقة هي حقيقة نواة التحليل النفساني وقد أدى به البحث الى اكتشاف مسائل كثيرة خاصة بالامراض العصبية النفسية psychoneurosis

وطبق هذه فيا بعد على الاحوال العادية التي يكون فيها العقل سليماً من الامراض

وتتلخص مبادىء فرويد ونظرياته من هذه الناحية في أمور ثلاثة : —

اولها — ان بجانب العقل الواعي الذي نعرفه عقلاً سماه بالعقل الباطن ، وما هذا الاّ مخزن تتجمع فيهِ الرغائب والميول التي لا تسمح لنا العادات والتقاليد والقوانين والأديان والآداب العامة بالجهر بها وقد ننساها حقيقة او نتناساها ظاهراً ، ولكنها على كل حال تنفجر كالبارود اذا لم تجد لها منفذاً . وليس الحدّ الفاصل بين العقلين من الضبط بحيث يمكن تعيينهُ ، وانما العكس صحيح ، فهما متدخلان إلى حد محدود . وقد شبّه أحد علماء النفس هذا التدخل بثلاث طبقات من الماء والهواء ، إذا تصورنا « عوامة من الخشب » ثابتة في نقطة معينة من البحر . فجزء من هذه العوّامة يكون دوماً في الهواء اي خارج الماء ، هذا الجزء يقابل « العقل الواعي » conscious وجزء يكون طوراً في الماء وطوراً في الهواء تبعاً للأمواج والرياح ، وهذا الجزء يقابل العقل الباطن subconcious ، وجزء يكون دوماً تحت الماء وهو يقابل العقل غير الواعي unconscious

ثانيها — ان تقسيم العقل إلى هذه الطبقات الواعية والباطنة واللاواعية يدعو إلى الكبت repression or inhibition ، وإن هذا الكبت كما قلنا يؤدي إلى الانفجار ، واختبال الحياة العقلية والامراض العصبية على اختلاف انواعها ودرجاتها . على ان فرويد لم يدعُ بذلك إلى الإباحية أو إطلاق العنان للميول والشهوات والرغبات ، ولكنهُ حدثنا عن نظرية « الاعلاء » او « التسامي » sublimation التي معناها أن الميول التي لا تتفق والآداب العامة والخلق الكريم والصحة وغيرها ، يمكن « تعليتها » والسموّ بها ، أي تحويل تيارها إلى ناحية اخرى من النواحي التي يستطيع صاحبها أن يظهر مواهبهُ الدفينة فيها ، سواء أكانت هذه المواهب فنية ، رياضية ، دينية ، أم أدبية . ويقول العلماء تطبيقاً لهذه النظرية ان الساعة التي تشتد فيها رغبة الفرد في إشباع دافع جنسي مثلا ، هي عين الساعة التي يستطيع فيها تحويل تلك الرغبة الى نظم قصيدة اذا كان صاحبها شاعراً او ميالاً للشعر ، او رسم صورة اذا كان صاحبها رساماً ، او اعداد تمثال اذا كان صاحبها مثالاً ، أو حلّ لغز علميّ أو اتيان عمل رياضي عظيم الخ الخ

ثالثها — وجود دافع جنسي عند الطفل بعد ولادتهِ بقليل infantile sexuality فمصّ الاصابع ، وفرك الفخذين احدهما بالآخر (ضرب من جلد عميره Masturbation) ، والرغبة في القبض على الثدي بين شفتيه حتى في غير اوقات الرضاع ، جميعها دلائل على هذا الدافع الجنسي ، وكلما كبر الطفل وجد ذاته مكبلا بالحديد ، فيعمد الى كبت ميوله وينشأ عن ذلك النزاع الدائم بين العقل الباطن والعقل الواعي ، ويؤول الصراع في معظم الاحايين الى ارتباكات عصبية تبدو في

السنين المقبلة في الشباب والكهولة ، وليس ذلك وحسب ، بل يكون هذا الصراع عنصراً فعالاً في تكوين خلق الطفل

ولم يلق فرويد مقارعة في آرائه أكثر مما لاقى في الكلام عن الدوافع الجنسية عند الاطفال . ولا يختلف العلماء في ان الطفل يحس باللذة الجنسية قبل بلوغه سن الحلم ، فهو بلا شك يحس بها وهو في السنة الثانية من عمره فما فوق على الأقل . ولكنهم لا يوافقون فرويد في ما ذهب اليه من الاسترسال في الكلام عن تعلق الابن بأمه (Oedipus) أو البنت بأبيها (Electra) تعلقاً جنسيًّا . فقد يكون هذا من قبيل الشواذ والشاذ لا يعوّل عليه . بيد أننا نقول انصافاً لفرويد ان معظم اللوم في هذا الاسترسال عائد على تابعيه او بعضهم ، لا على فرويد ذاته ، فالكثير من هؤلاء يبالغون في هذه المسألة مبالغة لا يسوغها العقل او الواقع . وقد سمعنا سيدة من أصل ألماني ، شديدة الغيرة على مذاهب فرويد ولها فيها مؤلفات هامة — سمعناها تخطب في جامعة من أشهر جامعات انكلترا في فبراير من هذا العام ، على جمهرة من الاساتذة ، ومما جاء في محاضرة من محاضراتها الثلاث ، أنها في تجاربها شاهدت غلاماً تبدو على وجهه علائم الغيرة والامتعاض كلما رأى مسماراً مدفوقاً في حائط ، ولما ان حللته تحليلاً نفسانيًّا وجدت ان هذا الذي يرى يذكره بالعلاقة الجنسية بين أبيه وأمه . ولست أدري الى أي حدّ تبلغ سخافة السخفاء في هذا الموضوع ، وإن كانوا من علماء النفس

كل ما أراد ان يقوله فرويد هو ان الطفل الوليد (يوزع) عطفه وحبه على كل من يتصل بهم من والدين واخوة ومربيات وخدم ، ويغدق هذا الحب مضاعفاً أضعافاً على أمه لشدة اتصاله بها ، فاذا ما اشتغلت بالاعمال المنزلية ، أو ألهاها الزوج عنه ، أخذ عداء الطفل نحوها يجد الى قلبه الرخص سبيلاً ، ودبت في نفسه الغيرة نحو الأب ، ومتى تكررت هذه الوقائع اشتد غيرة وكراهية ، ووجد نفسه بين عاملين ، عامل الحب نحو أحد والديه، وعامل الكراهية او الغيرة . ويسمي فرويد هذا التناقض الشاذ في حياة الطفل بالعاطفة المزدوجة ambivalent ولكن سرعان ما يبلغ الطفل سن الحلم حتى يوجه هذا الحب الذي يشمل عنصراً كبيراً من العاطفة الجنسية نحو فتاة إذا كان ذكراً ، او فتىً إذا كان أنثى . أما اذا لم يوجه التوجيه الصحيح لجهل الأبوين او لشذوذ خاص فيه فتبقى هذه العاطفة فيه كما هي أي ان الابن قد يستمرّ (وهذا في حكم النادر) مولعاً بأمه ، أو لا يهوى فتاة إلاّ اذا كانت شبيهة بها ، وكذلك البنت تستمر مولعة بأبيها أو لا تهوى شابًّا إلاّ اذا كان شبيهاً بأبيها ويصبح هذا « عقدة » Complex أو مرضاً يدعى كما سبق القول Oedipus في الحالة الأولى و Electra في الثانية . وكل من العبارتين مستعار من الاغريقية،فقد كان لقدماء اليونان معرفة بهما ، وما على القارىء

إلاَّ ان يرجع الى مآسي صوفوكليس « التراجيدي » لاستيضاح ذلك . ولا بد ان يذكر القراء رواية « أوديب الملك » التي كانت تمثل على المسرح المصري الى عهد قريب . ويوجد في دار الآثار المصرية لوحات برمتها اكتشفت على جدران قديمة في مصر العليا منذ سنوات تمثل وقائع هذه الرواية ، رواية أوديب Oedipus التي تزوجت فيها امرأة من ابنها ... وفي اميركا رواية تمثيلية مشهورة ، لمؤلفها « أونيل » أشهر كتاب اميركا المسرحيين واسمها Mourning Becomes Electra وهي مأساة حديثة نسج مؤلفها على منوال صوفوكليس ، وتدل الكلمة الاخيرة على مغزاها

وما تحدث عنهُ فرويد من العقل الباطن أمر قد عرفه القدماء كما أسلفنا ، ومن أقوال ماركوس أوريليوس الروماني التي عثرنا عليها في مطالعاتنا قوله « أنظر الى الباطن تجد من الطيبات نبعاً لا ينضب معينه ، فكلما عملت فيه يد الحفر والتنقيب تدفق منهُ الماء وفار « كما تفور القدور » . ومما جاء في الانجيل (متى ١٥ : ١٩) قوله . . . « لان من القلب تخرج أفكار شريرة ، قتل ، زنى ، فسق ، سرقة ، شهادة زور ، تجديف . . . »

وقد أدت نظرية العقل الباطن بفرويد الى الكلام عن الاحلام طويلاً ، وكتابه في الاحلام من أضخم مؤلفاته . فالعقل الباطن في نظره مصدر الاحلام والرؤى والخيالات الغريبة والمخاوف غير المعقولة ، وميول الهواة ورغباتهم ، ومنبع السلوك الشاذ ، وأحلام اليقظة ، والنسيان ، والتمسك بالآراء والمعتقدات تمسكاً أعمى . والفرق عنده بين عالم اليقظة وعالم الاحلام ان الاول متاع مشاع يشترك فيه الجميع ، أما الثاني فيحال فيه الفرد على الاستيداع فيصبح ذلك العالم له وحده

***

لنعد الآن بالقارىء الى الحلقات الباقية من حياة فرويد : اشتغل فرويد بعد ذلك وحده في عيادة سيكولوجية مدة عشر سنوات ، وفي سنة ١٩٠٦ اشترك معه عدد من الزملاء أمثال ادلر ، وبرل ، وفرنزي ، وارنست ، وجونز ، ويونغ — ويذكر القراء على الاقل الاول والاخير منهم — وانضم اليهم سدجر ، وشتكل وغيرهم من علماء التحليل النفساني الذين التقى بهم سنة ١٩٠٨ عند التئام اول مؤتمر للتحليل النفساني ، ذلك المؤتمر الذي اصبح منذ ذلك الحين دوريًّا ينعقد مرة كل سنتين . وفي سنة ١٩١٠ تكونت جماعة دولية انتشرت فروعها في جميع انحاء اوربا وأميركا ، ويرجع عهد الجماعة البريطانية الى سنة ١٩١٣ ولهذه الجماعة ثلاث مجلات رسمية . وقد بلغ عدد الاخصائيين المعروفين في التحليل النفساني منذ سنوات مائتي عالم ، ولا بد ان هذا العدد قد تضاعف اليوم . ولم ينحصر أثر فرويد في علماء التحليل النفساني ، ولكنه تعداهم الى جميع علماء النفس . ورغم ما لقيه من

المقاومة الشديدة — وما تلقاه آراؤهُ الى يومنا هذا — خصوصاً في موضوع العقل الباطن والشأن الكبير الذي يعلقهُ بالعاطفة الجنسية ، قد دفع بلا شك علم النفس الى الامام ، ووضعهُ في مصاف العلوم الطبيعية

ومما يدل على منزلة فرويد انهُ عند ما بلغ السبعين من عمره انهالت عليه التهاني من الأفراد والهيئات العلمية من كل صوب

وفي الالمانية مؤلف ضخم بهِ تاريخ حياته ، وأهم رسائله العلمية ، ويغلب على الظن ان الالمان قد أحرقوها عند طرده من فينا مع سائر العلماء اليهود . ولكن معهد الدراسات التحليلية في لندن نشر أهم كتبه ورسائله بالانكليزية ، علاوة على انهُ يصدر مجلة « التحليل النفساني الدولية »

***

ومن العلماء من يأسف لتحول فرويد من شفاء الامراض بالتنويم المغناطيسي الى شفائها بالتحليل النفساني . فقد ظل التنويم — وكانوا يسمونهُ « المسمرة » Mesmerism نسبةً الى العالم « مسمر » Franz Anton Mesmer ويقول هؤلاء ان التنويم كوسيلة لشفاء الامراض معروف منذ القدم ، ويذهب « كلفورد الن » مؤلف ذلك الكتاب العظيم « الاكتشافات الحديثة في السيكولوجيا الطبية » — يذهب الى مدى بعيد بقوله ان الانبياء كانوا منوّمين. وقد استعمل طبيب بريطاني اسمه « ازدايل » James Esdaille التنويم في ٣٠٠ عملية جراحية في الهند ونجحت جميعها . ويندبون سوء الحظ لاكتشاف الكلوروفورم الذي قضى على تجارب ذلك الطبيب وغيره قضاء مبرماً ، اذ لو تأخر هذا الاكتشاف عشرين سنة ، لكان للتنويم شأن كبير في الجراحة اليوم . ولكن ... بالرغم من هذا كله فان جمهرة العلماء اليوم يؤْثرون التحليل النفساني على التنويم المغنطيسي في شفاء الامراض النفسية Psychotherapy

ولا يسع المطلع الاّ ان يدهش لما طرأ على آراء كبار الأطباء من التغير في نظرتهم الى علم النفس والتحليل النفساني . فبعد ان كانوا جميعهم (رغم ان اعظم علماء النفس اطباء) تقريباً ينظرون الى العلوم النفسية نظرة الازدراء والاحتقار ، أصبح عدد يذكر من فطاحلهم يطبق مبادىء تلك العلوم على الحالات التي تعرض عليهم . وقد شاهدنا هذه الظاهرة في هذا العام بكثرة غريبة في انكلترا ، وقد كانت الى عهد قريب شديدة العداء من هذه الناحية ، وكانت تتهم اميركا بتطرفها . ونظرة واحدة الى مكتبات الجامعات وواجهات المكاتب ومعاهد العلوم النفسية الطبية في بريطانيا ، ولندن على الاخص ، يؤيد ما نقول . وقد نشط الأطباء في

الأعوام الأخيرة، منذ ان كتب دكتوراً كيـل مُنتي كتابهُ «سان ميشيل» والدكتور كرونن[١] كتابه الشهير The Citade (وقد وضع في شريط سينمائي ناطق) ، فأغرقوا السوق الادبي بطوفان من الكتب التي يحاول فيها مؤلفوها تأليه العلوم النفسية وبيان ضرورتها في معالجة المريض في جميع الاحوال

واني أنصح القارىء الذي يهمه هذا الموضوع ان يقرأ الكتاب الاخير الذي وضعهُ سر لنجدن برون الطبيب الشهير والاستاذ بجامعة كمبردج سابقاً[٢] وقد ظهر في ربيع هذا العام ، وأن يطلع على المؤلف الطليّ الذي وضعهُ Loumis[٣] في موضوع « غرفة الاستشارة » والمؤلف طبيب لأمراض النساء ، وقد ضمّن كتابه زبدة أختباراتهِ ورسم للقارىء صورة بديعة لأنهيار الدموع التي سكبها النساء فوق مكتبه في « غرفة الاستشارة ». وأهيب بالقارىء ان يقرأ أيضاً المقالات العظيمة التي ما برح « كرونن » و « الكس كارل » ينشرانها في المجلات الاميركية الشهرية ، اما كتب فرويد فهي متناول الذين يهتمون بالتوسع في هذا البحث

الاّ ان المبادىء التي أوردها فرويد في مؤلفه الجامع « الأحلام » لا يقره عليها العلماء الاّ من ناحية واحدة وهي أن الأحلام منفذ تقذف منهُ ما تكدّس في العقل الباطن من الرغبات المكبوتة . ويكاد « يونغ » يتفق معهُ في نظرية الأحلام من حيث علاقتها بالماضي والحاضر ، على أن « يونغ » يزيد على ذلك أن الأحلام أيضاً تدل على المستقبل بمعنى أنها تبين اتجاه الهدف الذي يرمي اليهِ صاحب الحلم في المستقبل

ولعل علماء النفس يجمعون اليوم على ان كلاً من المذاهب السيكولوجية لها مكانها في النهضة العلمية . « فالفرد ادلر » قد أظهر لنا بصورة لاتقبل الشك ان « حب السيطرة والظهور » لهُ أكبر أثر في تكوين الشخصية ، كما ان « كارل ماركس » في عالم الاقتصاد قد برهن لنا ما للشعور بالطمأنينة الاقتصادية من الأثر في شخصية الافراد والجماعات ، وكما جاهد فرويد في الدفاع عن العاطفة الجنسية كأكبر عامل يؤثر في جميع الافراد . ولعل « لنجدن برون » في كتابهِ السالف الذكر قد أبدع في تعليقهِ على هؤلاء في قوله « ان الفرد في سن الحُلُم (او من يعيش في ذلك الطور وان كبر) يؤثر « فرويد » وفي سن الرجولة يؤثر « أدلر » وفي سن الشيخوخة يؤثر « يونغ » وهو الذي يتكلم عن مجموعة عناصر كما أسلفنا

---

(١) Dr. J. A. Cronin

(٢) Sir W. Langdon-Brown, "Thus We Are Men„

(٣) Frederic Loumis, "Consulting Room»

بقي علينا ان نقول كلمة عن فضل فرويد على علماء التربية وأثره في مبادىء التربية ذاتها.
واول ما يبدو واضحاً في جهاد « فرويد » أنه أخرج الكلام عن الموضوعات الجنسية من سحب الحياء وغيوم الغموض والارتباك ، إلى سماء الصراحة ، وعلّم المهيمنين على شؤون الطفل من والدين ومعلمين ومربين ومربيات ، أن يواجهوا الحقيقة كما هي ، ويحدثوا النشء في مشكلاتهم الجنسية ، كما يحدثهم في كل ما يطالبون بالاجابة عنه ، مما تدفعهم اليه طبيعة حب الاستطلاع وإن إخفاء المعلومات الجوهرية عن النشء في بدء عهده بالاصطدام بها وبال عليه

***

وثانياً بيّن « فرويد » بطريقة لا تقبل الجدل أنّ الشذوذ الجنسي « مرض » أو « عقدة » Complex كما يسميه ، ينبغي علاجها ، وان كثيراً من الانحراف الجنسي perversion يكون نتيجة خطأ في تربية الطفل . فاللواط مثلاً لا يعالج بإنزال العقوبة الصارمة ، او بالنظر إلى الطفل أو الشاب كمجرم يستحق القصاص ، ولكنهُ يعالج بما تعالج به الامراض العقلية ، إذ انهُ قد يكون نتيجة لطبيعة كامنة فيه ، وهذا نادر ، ولكنهُ يكون في الغالب فريسة البيئة وإهمال الوالدين . كذلك الحال فيما يتعلق « بعقدة أوديب » التي سبقت الاشارة اليها

***

وثالثاً انهُ مهما يكن « فرويد » مسرفاً في الشأن الكبير الذي يعلقهُ بالعاطفة الجنسية ، فان من واجب المربين مراعاتها في حلّ مشكلات النشء . إذ انها في كثير من الأحوال تكون اساساً لارتباكات في حياة الطالب المدرسية منها والمنزلية . ومعالجة هذه الارتباكات بالتأنيب او العقوبة البدنية ، كضرب المريض أو المجنون حتى يشفى . ولا يخفى ان الناس كانوا الى عهد قريب ينزلون بالمجنون أشد العقوبات ، ظناً منهم ان مثله مثل المجرم . ومما يدل على ان « فرويد » واثق العقيدة في هذه النقطة انهُ أشار الى « السادزم » و « المسوشزم »[1] كعقد ينبغي علاجها ، وان صاحبها في معظم الاحايين لا ذنب له فيها ، لانها نتيجة « تهيج استي anal eroticism » ولا يخفى ان في كلٍّ من هذين المرضين لا يستطيع المجتمع إلى يومنا هذا العطف على صاحبه او النظر اليه كمريض جدير بالعلاج

« عن مجلة التربية الحديثة بتصرف يسير »

(١) « السادزم » شذوذ جنسي يدفع صاحبه الى ضرب آخر او ايلامه اشباعاً لعاطفة جنسية شاذة فيه . وينسب هذا المرض الى المركيز دي ساد (Marquise de Sad) (١٧٤٠ — ١٨١٤) وقد كتب وهو سجين في سجن الباستيل روايات مخلة بالآداب وحبس في مستشفى المجاذيب مرتين
أما المسوشزم او المسوكزم فهو شذوذ جنسي يتلذذ صاحبه بأن يضربه او يؤلمه آخر . أي انه عكس سابقه وينسب الى الكاتب النمساوي « مسوك » Sacher Masoch (١٨٣٥ — ١٨٩٥)

العلم والحرب

الطائرات الحربية

ومنزلتها في اساليب الحروب الحديثة
أصنافها وأوصافها في الدولة المتحاربة

من الاقوال المأثورة ان الحرب في نظر القائد فنٌّ وفي نظر الضابط علمٌ وفي نظر الجندي صناعة . ولما كان القائد هو الذي يدير رحى الحرب ، معتمداً على الضابط والجندي ، فالحرب في ناحيتها التنفيذية يجب ان تعتبر فنّاً اذا اخذنا بالقول المتقدم . وفن الحرب ، كغيره من الفنون لا يمكن ضبطهُ بقواعد محدودة . وليس امام القائد الا بضعة مبادىء عامة ، تظهر عبقرية القائد في اجادته تطبيقها على حالات شتى تعرض له

والتقدم الصناعي في ادوات الحرب لا يغيّر من قواعدها الاساسية ، ولكنهُ يبدّل من مداها وسرعة الاعمال الحربية وشدتها . ولكن اذا افضى هذا التقدم الى تبديل اساسي في مبادىء الحرب وسير التاريخ عدَّ ذلك التقدم انقلاباً في فن الحرب خطير الشأن

والبحث في تاريخ البشر من هذه الناحية يسفر عن ثلاثة مخترعات عسكرية يصح ان يعتبر كلٌّ منها انقلاباً خطير الشأن في قواعد الحرب ، وتبديلاً اساسيًّا في سير التاريخ ، وهي : ١ — النظام العسكري . ٢ — البارود . ٣ — الطائرة الحربية

فتطبيق النظام العسكري على الجيوش أخضع قدرة الجندي لقدرة الجماعة المنسَّقة من الجنود الخاضعة لقيادة واحدة . ولولاه لما تمكن اليونان من صون حضارتهم ولا الرومان من وضع الحجر الاساسي في امبراطوريتهم . ثم جاء البارود فجعل الجنديَّ الفلاح السائر على قدميه أفعل في الحرب من الفارس لابس الدرع والخوذة ومتقلد السيف والرمح . فسقطت امامهُ سلطة امراء الاقطاع ونشأت الجيوش النظامية التي قوامها ابناء الطبقة المتوسطة وطبقة الفلاحين فكان ذلك مستهلَّ العهد الذي قامت فيه الدول القومية في اوربا . ثم ان البارود وضع في أيدي البحَّارة سلاحاً ضُمَّ الى ارتقاء السفن الشراعية واتقان اساليب الملاحة في العصور المتوسطة فحررت الحرب البحرية من ضرورة اطباق السفن بعضها على بعض ليتمكن رجالها من الالتحام كما تلتحم جنود البرّ . فأفضى هذا الى التوسع الاستعماري ولا سيما لان جنود المستعمرين استطاعوا ان

يستعملوا أسلحة نارية تفوق أسلحة الاهالي في اميركا وآسيا وأفريقية

ولكن تطبيق النظام العسكري واستعمال البارود لم يبدّلا قاعدة واحدة من قواعد الحرب الاساسية ، وهي ضرورة التغلب على الجيش المدافع قبل تحقيق الأهداف السياسية التي نشبت الحرب لتحقيقها

إلاَّ أن الطائرة مكنت قيادات الجيوش ، لأول مرة في تاريخ النضال البشري ، من توجيه الضربة الشديدة الى المراكز الصناعية والتجارية والسياسية في بلاد العدو — علاوة على توجيهها الى جيوشه وأساطيله — من دون ان يقتضي ذلك اخضاع الجيش وتحطيم الأسطول اولاً

الطائرات والخطط الحربية

وهذه القدرة هي عنصر الانقلاب في الحرب الحديثة الناشيء عن استعمال الطائرات . ان نصيب القوة البحرية في حسم النزاع بين دولتين او فريقين من الدول يزيد او ينقص وفقاً لقدرتها على التأثير في حالة الجيوش المتقابلة على البرّ . ذلك ان السفينة الحربية مهما تكن متقنة البناء قوية الدروع بعيدة مرمى المدافع لا بد لها في آخر الأمر من ان تؤوب الى مرفإ . فأعظم الأساطيل لا بد لهُ من الاعتماد على قواعده الساحلية

وما يصدق على الأساطيل البحرية يصدق بوجه خاص على أسلحة الطيران . واذا كانت قدرة السفينة الحربية على البقاء في البحر بغير ان تؤوب الى مرفإ ما تمدُّ بالايام أو بالأسابيع فقدرة الطائرة على البقاء في الجو بغير ان تعود الى المطار تمدُّ بالساعات . فالأساطيل البحرية تستطيع ان تؤثر تأثيرها في نقطة معينة مدة غير يسيرة . ولكن سرباً من الطائرات الحربية لا يستطيع ذلك الاَّ دقائق معدودات . فالسفينة تستطيع أنْ ترسو حيث تشاء او حيث يطيب لربانها . اما الطائرات فيجب ان تبقى ماضية في سبيلها لا تستقرُّ

ولكن السفينة الحربية والطائرة الحربية تملكان قوة لا تملكها الجيوش . فهما غير مقيدتين بوجه عام بالحوائل الطبيعية كالجبال والانهار والبطائح والصحاري ولا بخطوط ومناطق محصنة كخط ماجينو والحائط الغربي اي خط زيجفريد

والفائدة الحربية المقدمة التي تعزى الى الطائرات الحربية ناشئة عن قدرة القيادة الجوية على حشدها وتوجيهها الى الهدف الذي يبدو أهم من غيره ساعة حشدها وتوجيهها . ففي وسع سرب من الطائرات الألمانية مثلاً ان يتجه في احد الأيام الى مرسى السفن في احد المرافيء حيث يظن ان اسطولاً بحريًّا بريطانيًّا يستعد لمهاجمة نقطة معينة على الساحل الألماني. ولكنهُ

قد يوجه في اليوم التالي الى المطارات الحربية البريطانية في اواسط انكلترا

ثم ان « المدى » او « المسافة » ، عنصر من اهم عناصر الخطط الحربية الجوية . فلو نشبت حرب بين روسيا واليابان لاستطاعت الطائرات الروسية ان تصل الى كثير من مناطق اليابان ومراكزها الحيوية ولعجزت الطائرات اليابانية عن مقابلة هذا العمل بمثله، لبعد المراكز الحيوية الروسية في اوربا عن اليابان

وسرعة الطائرات كسرعة البوارج لها نواحٍ حربية عظيمة الشأن . فاذا تقابل سربان من الطائرات المطاردات كان الامتياز للطائرات التي تفوق غيرها في السرعة وسهولة المناورة . وقد جاء في الانباء البرقية من الميدان الغربي ان المطاردات الاميركية التي ابتاعتها فرنسا — وهي من صنع كرتس — أسرع وأسهل مناورة من المطاردات الالمانية . وهناك ناحية أخرى وهي المنافسة في السرعة بين المطاردات والقاذفات . ففي الحرب العالمية الماضية كان تفوُّق المطاردات على القاذفات عظيماً اما الآن فالفرق بين سرعة الطرازين اقل ومع ذلك لا تزال المطاردة متفوقة تفوقاً عظيماً على القاذفة من ناحية المناورة لما بينهما من فرق في الحجم والدرع وحمولة القنابل

لكن القيد الرئيسي للسلاح الجوّي هو قيد « زمن الطيران » . فاذا اضيف الى ذلك قيد « مدى الطيران » وقيد « حمولة الطائرة » فهنا تعجز الطائرة عن الاحتلال وكذلك عن استمرار سيطرتها على منطقة ما في البرّ او البحر بعيدة عن قواعدها أي مطاراتها

وقد ارتقت وسائل مقاومة الطائرات بعد الحرب العالمية الماضية ارتقاء كبيراً ولا سيما في وسائل تبيُّن الطائرات قبل وصولها وضبط اطلاق القنابل عليها . ثم ان زيادة سرعة الطائرة قد زادت المشقة التي يعانيها المدفعيُّ في تسديد مدفعه اليها ولكن تأثر الطائرة الواحدة بقنبلة المدفع لم يقلَّ . فمهندسو الطيران لم يكشفوا حتى الآن وسيلة عملية تمكنهم من تعزيز دروع الطائرة مع الاحتفاظ بمزاياها الاخرى . لأن كلَّ تعزيز للدرع يعني زيادة وزن الطائرة وهذه الزيادة يجب ان تستخرج من مقدار ما تحمله من القذائف والبنزين . ولذلك تستطيع قنبلة واحدة من قنابل المدافع المقاومة للطائرات ، حتى ولو كانت قنبلة صغيرة ، ان تعطل الطائرة الآن كما كانت تعطلها سنة ١٩١٨

إلاَّ ان فعل المدافع المقاومة للطائرات يتوقف على عمق خطوط الدفاع . فاذا كان بين خطوط الدفاع والحدود التي يستطاع عندها معرفة أنباء القاذفات المهاجمة مسافة طويلة — نسبيًّا — زاد فعل المدافع ضد الطائرات لأن الفترة بين الإنباء بوصول القاذفات واطلاق القنابل عليها تمكن المدفعيين من التأهب لها ، اما اذا كانت المدافع منصوبة حيث تضطرُّ ان تسدّد فجأة او على غرَّة الى الطائرات المهاجمة فان فعلها ضد الطائرات يضعف

وما يصدق على فعل المدافع ضد القاذفات المهاجمة يصدق كذلك على الطائرات المطاردة وهي

عماد الدفاع ضد القاذفات . فاذا كانت فترة الانذار بين اقتراب القاذفات وتحليق المطاردات لمقابلتها كافية لعدو الطيارين الى طائراتهم والارتفاع بها في الجو وتعيين مواقع العدو ومهاجمته كان فعلها أعظم جدًّا منها لو كانت فترة الانذار قصيرة

فتعيين القوة الجوية في كل دولة ومقابلتها بالقوة الجوية التي تملكها دولة أخرى يحتمل ان تكون خصمًا لها في الحرب ، لا يتم بجمع عدد الطائرات والطيارين في الاولى ومقارنة ذلك بما يقابله في الثانية . فالاعتبارات التي لا بدّ من اقامة الوزن لها في حساب القوة الجوية كثيرة ومعقدة وفي مقدمتها عوامل الوضع الجغرافي والوصف الطبوغرافي

ومع ذلك يجوز لنا أن نعنى بموضوع « التفوق الجوي » ولكن على أساس آخر غير عدد الطائرات والطيارين فحسب . وهذا التفوق قد يكون محليًّا ووقتيًّا ، وقد يتم لدولة تملك عند بدء الحرب عدداً من الطائرات يفوق عدد طائرات خصمها ، ولكن قد ينقضهُ ويضعف من تأثير قدرة الدولة المقابلة على الانتاج

وتفوُّق دولة في القوة الجوية قد ينقلب ضعفاً بظهور طراز جديد من الطائرات كما حدث غير مرة في الحرب العالمية الماضية ، او بابتكار خطط جديدة لاستعمال الطائرات كما حدث عندما ابتكر طيران الطائرات اسراباً في وضع معين . وقد تتمتع دولة ما بتفوق جوي في ميدان حربي ما ولا تتمتع به في ميدان آخر . كتفوق المانيا الجوي على بولونيا وعدم تفوقها على فرنسا وبريطانيا في الميدان الغربي

اصناف الطائرات وأوصافها

تقسم الطائرات الحربية بوجه عام أربعة أصناف وفقاً للغرض الذي تستعمل لهُ . وهذه الاغراض هي قذف القنابل والمطاردة والمهاجمة والاستكشاف

فقاذفات القنابل هي مشاة الجوّ والعمل الذي يسند اليها يعين عمل الطائرات الأخرى . فهي ذراع القوة الجوية التي تنزل الضربات بالعدو البعيد . وهي طبعاً السلاح الجوي الوحيد الذي في وسعه ان يوقع الأذى بسكان المدن وغيرها من المراكز الشعبية

والمطاردات هي عدوّ القاذفات . ولا عمل لها الا القتال في الفضاء . وهي لا تحسب عند بعضهم سلاحاً هجوميًّا لأنها لا توجَّه الى اهداف ثابتة على الأرض الا في احوال استثنائية

وأما المهاجمات فتستعمل خاصة لمهاجمة الجيوش والأهداف المادية الخفيفة المتحركة كصفوف السيارات على انواعها وسيارات النقل والسيارات المصفحة وغيرها . وقد استعملت في الحرب الاسبانية الاهلية لمهاجمة المشاة ، عندما يبدأون الهجوم بعد ان تكون المدافع قد مهدت لهم الطريق .

وفي وسعها ان تعرقل عمل رجال المدافع الرشاشة عند ما يخرجون من مكامنهم بعد وقوف المدافع الثقيلة عن اطلاق قنابلها . ومن اخص اهدافها صفوف الوحدات الميكانيكية المتحركة والمعقلات وراء صفوف القتال

أما المستكشفات فعملها استكشاف مواقع العدو وهي لا تطلق قنابل ولا رشاشات . فالنسبة بين هذه الأصناف الأربعة في أي سلاح جوي من العوامل التي تحدد منزلتهُ الحربية . فبريطانيا مثلاً تعنى عناية خاصة بالدفاع عن لندن ولذلك يجب ان يكون عدد المطاردات في سلاحها الجوي اكبر من عدد المطاردات في سلاح المانيا الجوي لأن اهتمام المانيا بالدفاع عن نقطة معينة ليس في منزلة اهتمام بريطانيا بالدفاع عن لندن . فاذا شاءت بريطانيا ان يكون لها عدد من القاذفات تستطيع القيام بحملات جوية على المانيا في عدد الحملات الجوية التي تقوم بها القاذفات الالمانية على بريطانيا، وجب ان يكون مجمل عدد الطائرات في سلاحها الجوي اكبر من مجمل عددها في السلاح الجوي الألماني، لكي يتساوى السلاحان في القاذفات ويتفوق السلاح البريطاني في المطاردات

عوامل أخرى

وليس ثمة ريب في ان القدرة الصناعية على صنع الطائرات من اصناف مختلفة عامل اساسي في معرفة القوة الجوية في بلد ما . فهيئات القيادة الجوية في الدول الاوربية كانت تحسب خسارة الطائرات في الشهر الأول من الحرب تتفاوت من ٦٠ الى ٩٠ في المائة من الطائرات المستعملة في شتى الاغراض . فاذا كان للدولة عند دخولها الحرب احتياطيٌّ بقدر طائرات الخطوط الامامية ، واستعملت طائرات الخطوط الامامية في الشهر الاول ، استنفدت طائرات الخطوط الامامية وطائرات الاحتياطي في ٦٠ يوماً الى ١٠٠ يوم. ولذلك يتعيَّن على مصانع الطائرات ان تشرع قبل ذلك في سد الثغرة بصنع طائرات جديدة . ومن المستحسن ان يكون ما تخرجهُ المصانع من الطائرات اكثر مما تخسره الامة في المعارك الجوية

فاذا كانت الحرب قصيرة ، فالطائرات المعدَّة للقتال عند بدئها تكون عاملاً حربيًّا اهم منها لو كانت الحرب طويلة ،لأن طول الحرب يقتضي أن يكون الشأن الاكبر للطائرات التي تخرجها المصانع لا للطائرات المعدة للقتال عند بدئها ، وهذا طبعاً على اعتبار ان التفوق الاول لا يفضي الى تدمير المصانع ذاتها

ومما يتعلق به شأن كبير وجود هيئات علمية منظمة للبحث العلمي الصناعي . وليس في وسع كاتب ان يغالي في قيمة هذه الهيئات . فعلوم هندسة الطيران تتقدم تقدماً حثيثاً . والتخلف في مضمار الاتقان الصناعي قد يكون الباعث على الهزيمة . والحاجة ليست الى اتقان الاطرزة

المستعملة من الطائرات فحسبُ ، بل الى النفوذ الى المستقبل لتبين الاتجاهات الجديدة وتحقيقها

ذلك بأن الباحثين يقدرون ان المدة التي تنقضي بين اختراع طراز جديد من الطائرات وبين شيوع استعماله بخمس سنوات . فكل جنيه ينفق في البحث الصحيح قد يوفر على الحكومة الوفاً من الجنيهات تضيّعها في صنع طائرات لا تلبث ان تحسب قديمة متخلفة من حيث الشكل والسرعة والكفاءة الحربية عن طائرات جديدة أخرجتها مصانع خصمها . ان البحث العلمي الصناعي ذو شأن عظيم في الجيوش والاساطيل الحربية . ولكن لاغنى لاسلحة الجوّ عنهُ

ومن عناصر القوة الجوية، القدرة على توفيرما تحتاج اليه الطائرات من وقود وزيوت للتشحيم واجزاء تبدل بها الاجزاء المطلوبة وغير ذلك . ثم ان السلاح الجويّ الحديث يحتاج الى قواعد متعددة استوفيت فيها جميع ما تحتاج اليه الطائرات من ترميم وتجهيز بالوقود والذخيرة وغيرها. والقاذفات تحتاج بوجه خاص الى مطارات متسعة الجوانب لتعذر نزولها الى الارض في مطار ضيّق ، ولتعذر ارتفاعها منهُ ، مما يعرضها للخطرعندالنزول والجمود عندالهجوم عليها من الجو

فاذا ارسلت كتيبة من الجنود لتعزز حامية بلد ما فان هذه الكتيبة تكون مستعدة للعمل عند وصولها تقريباً . واذا تعذر وجود ثكنات لها اصبت الخيام واقامت فيها بغير ان تصاب كفاءتها الحربية بضعف اساسي. ولكن تعزيز الحامية الجوية في البلد نفسه بارسال خمسين قاذفة اليه يقتضي ارسال قدر كبير من الآلات الصناعية الحديثة والاجهزة اللازمة وانشاء المطارات التي تصلح لنزول الطائرات وقيامها والحظائر لايوائها وغير ذلك لأن هذه الطائرات لا تكاد تصلح لحرب بغير ان تتوافر لها جميع هذه الاسباب

ثم ان مسألة الطيارين والمهندسين وعمال المطارات المتقنين في المقام الاول من عظم الشأن عند ما يحسب حساب للقوة الجوية في دولة ما . فالطيارون يجب ان يدرَّبوا تدريباً دقيقاً على سوق طائرات على انواعها مائة جهاز وجهاز . ويجب ان يكون عددهم وافراً ، لكل صنف من الاصناف . فالطيَّار الذي يتدرب على سوق طائرة مطاردة من صنع كرتس لا يسهل نقله بسرعة الى طائرة قاذفة من صنع بوينج . ورجال الطائرات لا يقتصرون على الطيارين الذي يسوقونها بل يشملون الملاّحين الذين يضعون لها خطط الطيران والمراقبين العسكريين ورجال اللاسلكي وقاذفي القنابل ومطلقي المدافع الرشاشة

ثم ان تنظيم العمل على سطح الارض في المطار يقتضي ميكانيكيين مدرَّبين وكهربائيين وعمالاً واطباء وضباطاً يفهمون مسائل السلاح والذخيرة وآخرين من هيئة اركان الحرب يتولون الادارة العامة وتوجيه الاسراب . وعدد هؤلاء جميعاً يجب ان يكون وافراً في كل مطار والأَضيعت الطائرات الحربية مزيتها لان الطائرة الحربية بغير قاعدة تؤوب اليها للترميم والتموين لافائدة منها

ان مدى القاذفات الاوربية عند ما تسير اسراباً لا يزيد على الغالب على ٥٠٠ — ٧٥٠ ميلاً اذا كانت تحمل حملاً كبيراً من القنابل . والاتجاه الى زيادة مداها يقتضي زيادة حجمها وقلة صنعها وصيانتها ويزيد تعريضها لقنابل المطاردات والمدافع المقاومة للطائرات

والمرجح ان تدمير مدينة كبيرة من مدن اوربا بحملة جوية امر متعذر ، لاتقان وسائل الدفاع من ناحية ، ولأن «زمن طيران» القاذفات محدود. وعامل «الزمن» هذا من اهم القيود التي تكبّل الطيران الحربي . وفي ذلك يقول الجنرال فولر انهُ من المعقول ان تسير قوة مسلحة حديثة من لياج الى باريس في ثماني ساعات اذا كانت الأحوال مؤاتية . والطائرة تستطيع طبعاً ان تجتاز المسافة في ساعة وان تحدث تدميراً غير يسير عند وصولها. ولكن الطائرة لا تستطيع ان تبقى هناك بعد القاء قنابلها وهذه الحقيقة تحد من فعل القاذفات كعامل حربي

مقابيس فنية

الاطرزة الغالبة في الاسلحة الجوية التابعة لحكومات المانيا وبريطانيا وفرنسا ثلاثة وهي المطاردات ومهمتها دفاعية على الاكثر تتربص للقاذفات المهاجمة فترتفع في الجو وتلتحم مع المطاردات في القتال . لذلك يجب ان تكون سرعتها أعظم من سرعة القاذفات . وحجمها أصغر ويجب ان تكون مجهزة بمدافع رشاشة او غير رشاشة وخالية من القنابل . وبذلك تتمكن من ان ترتفع وتنخفض وتحوم حول القاذفات وتطلق عليها رشاش مدافعها ، حتى تصيبها في مقتل في المحرك او في خزان البنزين او في مقتل من جسم قائدها

وقد ارتقى صنع المطاردات في العهد الاخير ارتقاء عظيماً من حيث سرعتها والاسلحة — أي المدافع — التي تجهز بها . والراجح عند خبراء الطيران العسكري ان خير المطاردات في أسلحة الجو هي المطاردات البريطانية المعروفة باسم سبتفاير (قاذفة اللهب) وما كان من طرازها

سرعة هذه المطاردات على ما كانت معروفة في شهر مايو الماضي — ٣٦٢ ميلاً في الساعة اي نحو ستة أميال في الدقيقة. ثم انها تستطيع ان ترتفع من ارض المطار الى علو ١١ الف قدم في أقل من خمس دقائق ومداها ٦٠٠ ميل — المدى الطويل ليس لازماً للمطاردات لانهُ لا ينتظر ان تبعد كثيراً عن قواعدها بحكم أنها من وسائل الدفاع — وهي مجهزة بثمانية مدافع رشاشة تستطيع ان تطلق ٩٦٠٠ طلقة في الدقيقة في جميع الجهات. يقابل هذا ان سرعة المطاردات الالمانية ٣٥٠ ميلاً في الساعة ومداها ٦٠٠ ميل وهي مجهزة بمدفعين رشاشين ومدفعين آخرين قطر كل منهما ٢٠ مليمتراً . أما المطاردات الفرنسية فسرعتها ٣٠٥ اميال في الساعة — ومن المعروف ان صناعة الطائرات الحربية في فرنسا نشطت نشاطاً عظيماً من شهر مايو الى الآن. ومن المتوقع ان يكون مستنبطوها ومهندسو الطيران فيها قد صنعوا أطرزة جديدة من المطاردات لم تتصل بنا حقائق

وافية عنها حتى الآن — ومداها ٦٠٠ ميل وهي مجهزة بمدفعين رشاشين ومدفعين آخرين قطر كل منهما ١٢٠ مليمتراً

أما طائرات الهجوم فهي المعروفة بقاذفات القنابل وهي طرازان المتوسطة والضخمة ولكنها تختلف عن المطاردات بوجه عام في أنها أضخم منها حجماً وأبطأ طيراناً وأطول مدى وتتسع لحمل كبير من القنابل التي ينتظر أن تلقيها من عل

اما القاذفات المتوسطة البريطانية فأقصى سرعتها ٣١٥ ميلاً في الساعة ومداها ١٩٠٠ ميل وحملها من القنابل زنته ٢٠٠٠ رطل يقابلها في السلاح الجوي الالماني ٢٨٠ ميلاً للسرعة و ١٤٠٠ ميل للمدى و ٩٩٠٠ رطل للحمل . وفي الفرنسي ٣٠٠ ميل للسرعة و ١٢٩٠ ميلاً للمدى و ٣٣٠٠ رطل للحمل

وأما القاذفات الضخمة البريطانية فأقصى سرعتها ٢٢٠ ميلاً في الساعة ومداها ١٣١٥ ميلاً وحملها ٤٠٠٠ رطل يقابله في الالمانية ٢٠٥ أميال للساعة و ٩٩٥ ميلاً للمدى و ٨١٠٠ رطل للحمل وفي الفرنسية ٢٠٠ ميل للسرعة و ٧٥٠ ميلاً للمدى و ٩٣٠٠ رطل للحمل

ومن الواضح لمتتبع هذه الارقام ان القاذفة الواحدة لا تستطيع ان تكون متفوقة في السرعة والمدى وزنة الحمل من القنابل في آن واحد . فاذا زدت حمل الطائرة اقتضى ذلك منك ان تنقص ما تضمه في خزاناتها من البنزين فيقصر مدى طيرانها او تقل سرعتها . واذا أردتها بعيدة المدى وجب ان تخفف من سرعتها او من حملها . ولذلك نرى القاذفات الضخمة البريطانية أطول مدى من الالمانية وأقل حملاً بل ان حمل الالمانية ضعفا حمل البريطانية . أما الالمانية فأطول مدى من الفرنسية (٩٩٠ ميلاً للالمانية و ٧٥٠ للفرنسية) ولكنها أقل حملاً كذلك (٨١٠٠ رطل للالمانية و ٩٣٠٠ رطل للفرنسوية)

وعلى ذكر القاذفات الضخمة نقول ان القاذفة الاميركية المعروفة بوصف «القلعة الطائرة» تفوق في المعدل مثيلاتها الاوربية فسرعتها ٢٦٠ ميلاً (مقابل ٢٢٠ في البريطانية و ٢٠٥ في الالمانية و ٢٠٠ في الفرنسوية) ومداها ٢٠٠٠ ميل وهو ضعفا مدى الألمانية (٩٩٥) وأقل قليلاً من ضعفي البريطانية (١٣١٥)

ولكن حملها ٢٠٠٠ رطل وهو ربع حمل الألمانية وأكثر قليلاً من خمس حمل الفرنسية

وأحدث من «المعقل الطائر» قاذفة بريطانية ضخمة يبلغ اقصى سرعتها ٢٦٧ ميلاً في الساعة وحملها من القنابل ٤٦٠٠ رطل ومداها — وهذه الناحية تبعث على الدهشة والاعجاب — يبلغ ٣٦٠٠ ميل . وفي مجلات الطيران الفنية ان الانكليز يملكون عدداً وافراً من طرازها وان انتاج المصانع لاخواتها سابق للمواعيد المضروبة

من الشعر الانجليزي الحديث

أُغنية القطيع

من رمزيات سيتويل

من خلال حظائرنا التي شيدها الجبروت ، رحنا نرقب أحزان هذا العالم في صمت ورباطة جأش

لقد عرفنا الدم المهراق، ورأينا شؤبوبه وكيف ينبثق في غيرما تنهدة او حشرجة ورأينا ذرارينا وكيف تعلف ويزجى سمنها لتختنجر المصلت في يد التاجر

في عيوننا الصافية ترقد كل خفايا الابدية وتتوارى أسرار الفراغ او السدم واذ يترقرق في اسماعنا ثغاء الزعيم نخطر في مرح ورشاقة نجارين ثغاءه . فان أجفل رأيتنا في أثره كموجة متدافعة من الجنون حتى يقصد به الثار واذ ذاك تتطلع الى زعيم جديد نسير تحت امرته

صاح خروف متلكيء في آخر القطيع « ولماذا تروعنا هذه المجزرة الممجدة فننكص على أعقابنا ! ؟ »

ولكن أسراب القطيع راحت تثغو في غضب وكأنها تقول « ألا تذكر كيف ذهبنا بأقدام خالية من القذر ورجعنا بأدمغة فارغة؟ ! » إن نبل الصنيع يقتضينا القرار ما استطعنا اليه سبيلاً »

« اننا نحمي بذلك خرافاً لن تجود بمثلها البطون»

فاذاما أباح قطيع دمه فان المعز ستذكر لنا هذا القول المأثور ؟ »

. . . . . لحظة ثم هوى الراعي علينا بعصاه صارخاً مؤنباً « الى الوراء ! الى حظائركم ايها الحمقى »

[نقلها علي محمود طه]

حقيقة الفيتامين

النظريات الحديثة في طبيعة الفيتامينات وكيميائها وأهم مواردها الطبيعية

لرضوان محمد رضوان

اكتشاف الفيتامين

لاحظ كثير من المشتغلين بالأعمال البحرية ان البحارة والمسافرين في الرحلات الطويلة يتعرضون للاصابة بمرض الاسقربوط ، فيشعر الواحد منهم بالتعب الشديد ، وبآلام في الرأس والمفاصل والأطراف ، وتلتهب اللثة وتظهر بها قروح كثيرة وتتفكك الاسنان وتسقط ، ويحس المصاب بكراهية شديدة للقيام بأي مجهود . فلقد ذكر العالم الدكتور بض في محاضرة ألقاها سنة ١٨٤٢ أنه حدث أن أقلعت من انكلترا أربع سفن شراعية سنة ١٦٠٠ لغرض انشاء شركة الهند الشرقية ، فلم تمض مدة طويلة حتى أصيب بحارة ثلاث سفن منها بمرض الاسقربوط اصابة شديدة ، نجم عنها وفاة عدد كبير منهم لا يقل عن الربع قبل أن يصلوا الى رأس الرجاء الصالح ، أما حالة الباقين فكانت سيئة جداً حتى أن المسافرين التجار وجدوا أنفسهم مضطرين للقيام بأعمال البحارة . ومما يبعث على الدهشة هنا هو أن بحارة السفينة الرابعة التي كانت تقل قائد البعثة ظلوا أصحاء ! وقد تبين ان السبب في ذلك يرجع الى أن القائد أمر لكل بحار منهم بثلاث ملاعق من عصير الليمون صباح كل يوم . ولقد سبق للكابتن لند سنة ١٧٥١ أن وجد أن هذا المرض يختفي اذا ما احتوى غذاء البحارة على الخضروات والفواكه الطازجة

ولقد كانت الحكومة اليابانية تقاسي الأمرين من جراء انتشار مرض البري بري Beri Beri بين بحارة أسطولها ، حيث يسبب هذا المرض هزال الجسم وفقدان قوة تعاون الأعضاء ، فيصيبه الشلل وتختل وظائف أعضاء الهضم ، الى أن توصلت عام ١٨٨٢ الى علاجه باضافة السمك واللحم والشعير الى طعام البحارة

وحدث أن قبطاناً سافر في احدى رحلاته البحرية ومعه زوج من الطيور المغردة أهدته اليه خطيبته ، فأخذ يعتني بها ويقدم لها أجود أنواع الحبوب المقشورة ، ولكن رغماً ما لاحظه

من اعتلال صحتها يوماً بعد يوم ، الى أن أتابها الشلل فلم تعد قادرة على الحركة . فما أن رسا القبطان في أول ثغر صادفهُ حتى سارع بمرض طيوره على الاطباء ، فحار هؤلاء في كنه مرضها ولم يستطيعوا له تعليلاً . ولشد ما كانت دهشتهم حين استردت الطيور كامل صحتها حالما تناولت حبوباً غير مقشورة . ولقد حقق هذه النتيجة العالم الالماني الكبير ايكمان سنة ١٩٠٦ حين وجد أن الطيور تصاب بمرض البري بري اذا ما اقتصر غذاؤها على الأرز المقشور، ولكنها تشفى منهُ عقب تناولها لأرز غير مقشور

عزي سبب تلك الأمراض بادىء الأمر الى نقص في البروتين أو النشاء ، فلقد كانت الفكرة السائدة حتى منتصف القرن الماضي أنهُ اذا احتوى الغذاء على بروتين ودهن وكربوايدرات وأملاح معدنية فهو غذاء كامل يكفل للجسم الصحة الجيدة . ولكن في سنة ١٨٨٨ وجد لينين ان الحيوانات لا يمكنها ان تعيش على مواد غذائية نقية من الناحية الكيميائية ، وانهُ عند اضافة اللبن الى غذاء البعض منها تمتع بصحة كاملة

تقدمت تلك التجارب تقدماً واسعاً عام ١٩١٢ على يد البحاثة هوبكنز Hopkins الذي كان يجري تجاربه في التغذية على الفأر ، فوجد انهُ حين يتناول هذا الحيوان مقادير كافية من البروتين والكربوايدرات والدهون والأملاح وهي نقية نقاوة كيميائية يصاب بالأمراض ويموت ولم يتمكن من حفظه على قيد الحياة الا باضافة قليل من اللبن الى تلك المركبات فلم يبق اذاً مجال للشك في ان اللبن يحتوي على مادة او مواد غير معروفة ضرورية لحفظ الحياة وتمام الصحة، وقد سميت تلك المواد باسم «عامل النمو» او العوامل الخارجية او الاضافية Accessory factors

ولقد حاول كثير من العلماء فصل هذه المواد نقية على اعتبار انها مجموعة امينات Amines (ر ــــ ز يد ٢) [١] ، ولضرورتها للحياة سميت بالفيتامينات أي الامينات الحيوية. وهنا حدث التساؤل ، هل تلك العوامل هي الفيتامينات ؟ ظل الجدال قائماً حتى سنة ١٩١٤ حين تمكن باحثان اميركيان من اثبات وجود عاملين على الأقل ضروريين للنمو : الأول ذائب في المواد الدهنية والزبدة . والثاني ذائب في الماء ويوجد في القمح واللبن والجبن

ثم تبين بعد ذلك ان هذين العاملين ليسا ضروريين للنمو فحسب ، بل وجد ان العامل الأول يشفي مرض الكساح والثاني يشفي امراض البري بري والاسقربوط والبلاجرا ، وبذا قسم كل منهما الى عدة فيتامينات :

الأول	فيتامين ا	ضد امراض العيون
	فيتامين د	ضد مرض الكساح

(١) رمز ر يعبر عن مجموعة الالكيل alkyle مثل ك يد ٣ و ك يد ٣ ك يد ٢ .... الخ

الثاني:
- فيتامين ب { ب١ ضد مرض البري بري / ب٢ ضد مرض البلاجرا }
- فيتامين ج ضد مرض الاسقربوط
- فيتامين د ضد مرض العقم

ونعرف الآن خمسة انواع من الفيتامينات معرفة جيدة ويرمز لها بالحروف الافرنكية E, D, C B, A، وفيما يلي كلمة موجزة عن كل منها :

فيتامين A

اكتشفهُ ماكولم McCollum سنة ١٩١٣ وهو يعرف باسم الفيتامين ضد التهاب العين Anti-ophthalmic او الفيتامين ضد عدوى الأمراض Anti-infective وهو يكثر في الطبيعة وعلى الاخص في زيت كبد الحوت ، وذلك لأن الحيتان تتغذى بالاسماك التي تتغذى بدورها بالطحالب البحرية وهذه تحتوي على مقادير وافرة من الفيتامينات وتوجد منهُ مقادير غير قليلة في الخس والجزر والسبانخ والطماطم والبرسيم الحجازي وكذا في الزبت والجبن والقشدة. وموضعه من النبات في اوراقه الخضراء ، اما الجذور والدرنات فهي فقيرة فيه والدهون النباتية تحتوي على مقادير قليلة جداً من هذا الفيتامين وبعضها لايحتويه مطلقاً مثل زيت الزيتون ، ووجوده قليل في الفواكه والحبوب النجيلية . وهو يوجد أيضاً في اللبن وعلى الاخص لبن الام الجيدة الصحة ، ذلك ان الطفل منذ ولادته حتى الشهر الثامن يقتصر في غذائه على اللبن فقط ، فطبيعي ان يحتوي اللبن على معظم الفيتامينات والاَّ وقف نمو الطفل واتنابهُ شتى الامراض

ولقد ثبت اخيراً ان مايقرب من تسعة أعشار هذا الفيتامين موجود في الكبد، فاذا حرم منهُ شخص ما خرج الجزء المخزون في الكبد تدريجيًا لمعادلة الجزء المفقود من الانسجة ، فاذا استمرَّ هذا الحرمان هلك الشخص وقضى اذ تتسلط على جسمه جراثيم الامراض الفتاكة نتيجة لفقدانه المناعة التي تكتسب بوجود هذا الفيتامين . ولقد ذكر الاستاذ ميلاني في احدى تجاربه انهُ كان يعطي ٢٧٥ سيدة حاملاً محلولاً يحتوي على خلاصة الفيتامين وذلك في الاسابيع الاخيرة من الحمل . فكانت النتيجة ان السيدات اكتسبنَ مناعة ضد الامراض المعدية فلم تحدث بينهنَّ أية وفاة وتبين أن جسم الحيوان قادر على ان يخزن هذا الفيتامين في اعضائه التي يخزن فيها الدهن حين تزيد مقادير الفيتامين عن حاجته ، ولقد تمكن احد العلماء سنة ١٩٢٧ من استخلاص محلول مركز من كبد الحيوانات الثدية وانتشر استعمال هذه الخلاصة في الدوائر الطبية تحت اسم Avoleum

وفقد فيتامين A من الطعام يسبب أعراضاً مختلفة لأمراض كثيرة ، فتلتهب العين وتفقد قوة الابصار اثناء الليل ، وتتلف الغدد المفرزة للدموع ، ويصاب الغشاء المخاطي في القصبة الهوائية والقناة الهضمية والمسالك البولية والتناسلية ، ويتعرض الجسم للانفلونزا والزكام فضلاً عن هجمات الميكروبات والجراثيم المعدية وبذا يضعف الجسم فتقل مقاومته ويقف نموه . كما وجد ان مرض البيوريا الذي يتلف اللثة ويؤثر في سلامة الاسنان سببه في كثير من الحالات نقص هذا الفيتامين

يذوب فيتامين A في الكحول وهو قابل للذوبان في الدهون fat soluble ، ويتأثر بالحرارة الا أن درجة تأثره تتوقف على ظروف البيئة التي قد يوجد بها . فهو يتحمل التسخين في درجة الحرارة العادية ولكن يتحلل اذا عرض لحرارة فوق ١٠٠° سنتجراد . وهو سريع التأكسد في الجو العادي ، فاذا سخن حتى تبلغ حرارته درجة عالية في مجال مفرغ من الهواء امكن ان يحافظ عليه وخصوصاً اذا ما استبدل الاكسجين بغاز الازوت

ويظن ان مادة الكاروتين (ك ٤٠ يد ٥٨) الموجودة في الجزر لها نفس تأثير الفيتامين في شفاء بعض امراض معينة ، وقد يرجع السبب في هذا الى ان الكاروتين يتحول في الكبد الى فيتامين A

فيتامين B1

يعرف باسم الفيتامين ضد مرض البري بري Anti Beri Beri أو الفيتامين ضد مرض الأعصاب Anti neuritic ويكثر وجوده في الخميرة Yeast وكذا في الحبوب الكاملة والبسلة والقمح والذرة والأرز والشوفان وصفار البيض ، وتوجد منهُ مقادير مناسبة في الهليون والفول والجزر والقرنبيط والخس والبطاطس والسبانخ والطماطم الطازج واللفت وأيضاً في التفاح والموز والبلح والعنب والليمون الهندي والبرتقال والأراسيا والأناناس ، ولا يخلو المخ والكبد واللبن من بعض مقادير منهُ . وهناك مستحضر طبي من الخميرة يعرف باسم Marmite يحتوي على مستخلص مركز منهُ

يسبب نقص هذا الفيتامين في الطعام أو عدم وجوده أمراضاً جلدية وعصبية، وكانت أولى المشاهدات في هذا الصدد في بعض جهات آسيا حيث كان السكان يقتصرون في غذائهم على الأرز المقشور فقط ، فأصيبوا بمرض البري بري ، فلما أن درس ستانتون وفريزر Stanton & Fraser هذا المرض وجدا أن سببه يرجع الى عدم احتواء الطعام على مقادير كافية من فيتامين B 1. وهذا المرض معروف في الهند واليابان وسيلان

والطيور تتأثر جداً بفقدان هذا الفيتامين اذ يتأثر جهازها العصبي فتفقد الشهية ويضطرب الهضم ويقف النمو ثم يحل بها الشلل فتموت . واذا أعطيت الطيور المصابة قليلاً من الفيتامين بأن

يجعل طعامها أرزاً غير مقشور أو نخالة ، فانها تسترد صحتها بعد مدة وجيزة من الزمن . ولما كانت الحيوانات لا تستطيع اختزان هذا الفيتامين في جسمها ، لهذا كان من الضروري موالاتها دائماً به

هذا الفيتامين يذوب في الماء ، وهو يتأثر بالحرارة تبعاً لظروف البيئة التي يوجد بها إن كانت حمضية أو قلوية أو متعادلة ، فمثلاً نجد ان المواد الغذائية الطبيعية كالحبوب تفقد هذا الفيتامين عند تسخينها الى درجة حرارة ١٢٠° سنتجراد لمدة نصف ساعة او اكثر في وسط حمضي ، بينما يفقد الفيتامين عند ١٠٠° سنتجراد اذا كان الوسط متعادلاً أو قلويًا نوعاً ما ، وفي الجدول الآتي توضيح هذا

قيمة رقم PH (درجة القلوية او الحموضة)	النسبة المئوية للفقد
٤ر٢٨ — ٥ر٢٠	١٠
٧ر٩	٣٠
٩ر٣	٦٠—٧٠

فيتامين B 2

يعرف باسم الفيتامين ضد مرض البلاجرا anti-pellagric ، ويكثر وجوده في الخميرة واللحوم والكبد وكذلك في البنجر الاخضر والبطاطس والسبانخ واللفت الاخضر والجزر والكرنب والطماطم ، ومن المواد الحيوية يوجد في البيض واللبن والسمك

ويسبب نقص هذا الفيتامين او عدم وجوده ظهور أعراض مرض البلاجرا ، فتحدث الاضطرابات الداخلية ، ويتبقع الجلد ، ويلتهب الفم واللسان ، هذا ويختل المجموع العصبي وتضطرب الاعصاب العقلية

ولا تؤثر الحرارة مطلقاً على هذا الفيتامين ، لذلك لا تفقده المواد الغذائية حين تسخينها ما عدا جزء ضئيل يفقد في الماء اثناء عملية السلق Scalding ، وهو لا يتأثر بقلوية المحاليل او المواد التي يوجد او يعامل بها

فيتامين C

يعرف باسم الفيتامين ضد مرض الاسقربوط Anti Scorbutic ، ويوجد بغزارة في الخضراوات وعصير الطماطم وعصير الليمون الأضاليا والبرتقال ويوجد منهُ مقادير لا بأس بها في الكرفس واللفت والخوخ والأناناس والشليك واليوسفي ، ويوجد أيضاً في الفول المطبوخ والتفاح والبنجر والموز والعنب والخيار والبسلة المطبوخة والفلفل الأخضر والليمون الهندي والبطاطس والقرع العسلي والكمثرى والذرة السكرية واللفت الأخضر والبطيخ والبصل واللبن

نقص هذا الفيتامين في الطعام يسبب مرض الاسقربوط ، فيتحلل كالسيوم العظام وتدمى

المفاصل والاطراف والعضلات ، وتفقد الشهية ، وينقص الجسم في الوزن مع ظهور علامات التعب المستمر عليه

يذوب فيتامين C في الماء ويتلف اذا سخن لدرجة قريبة من درجة الغليان اذ يفقد منه نحو ٩٠ ٪ وهو يحتفظ بطبيعته في المحاليل الحمضية اكثر من القلوية او المتعادلة ولا يتأثر بالاشعة فوق البنفسجية اذا روعي حفظه من التأكسد في اثناء تعريضه للاشعة ، كذلك لا يتلف اثناء التخمر الكحولي بواسطة الخميرة او بواسطة الاحياء الدقيقة الاخرى مثل بكتيريا الحمض الخليك واللاكتيك

ومن المشاهد أن عمليات الطبخ المنزلي تسبب تلف هذا الفيتامين ، ويرجع السبب في ذلك الى ارتفاع درجة الحرارة عند التسخين والاكسدة . ويمكن الاحتفاظ بهذا الفيتامين في بعض انواع المواد الغذائية المجففة اذا ما أجريت عملية التجفيف في وعاء مفرغ من الهواء ، وحبذا الحال لو عرضت المواد الغذائية المراد تجفيفها لأبخرة ثاني اكسيد الكبريت فان هذا يساعد على الاحتفاظ بمقادير أوفر من الفيتامين خصوصاً اذا عوملت تلك المواد بمحلول قلوي درجة تركيزه ٣ ٪ اذ ان هذا يساعد على اكتساب الفاكهة مقادير اكثر من غاز ثاني اكسيد الكبريت وبالتالي لا يتعرض الفيتامين للفقد

فيتامين D

يعرف باسم الفيتامين ضد الكساح او ضد نحافة العظام anti rachitier ويوجد بغزارة في زيت كبد الحوت وكذا في صفار البيض وفي بعض انواع السمك وتوجد مقادير مناسبة منه في الزبدة واللبن الكامل وبعض الخضراوات . ولقد كان يظن اولاً ان هذا الفيتامين هو فيتامين A ، حين شاهد فونك Funk أن امراض الكساح وضعف العظام سببها مادة تشبه فيتامين A ، ثم تمكن ميلانبي Mellanby من ان يفرق بين هذين الفيتامينين وأيده في ذلك كثير من الباحثين

يؤدي نقص هذا الفيتامين من الطعام الى لين العظام والكساح فيتضخم الكوعان والعقبان وتبرز الجبهة ويتغير شكل الصدر ويعوج الساقان وتنحلل الاسنان ويقل مقدار عنصري الكلسيوم والفوسفور في الدم والعظام عن المقادير الضرورية وينتاب الاعصاب ضعف عمومي

يذوب فيتامين D في الدهون ويقاوم فعل الحرارة والاكسدة مقاومة كبيرة ولهذا فان وجوده في بعض انواع المواد الغذائية الطازجة يبقى كما هو عند حفظها في العلب الصفيح

فيتامين E

يعرف باسم الفيتامين ضد العقم anti sterility ويعتبر الخس أغنى مورد طبيعي لهذا الفيتامين كما يوجد في البرسيم الحجازي والشعير والفول والعسل الاسود والقمح الكامل والشوفان والارز الكامل وكذلك في اللحوم

عدم وجود هذا الفيتامين يقلل من درجة الاخصاب وقد لا يتمكن الذكر او الانثى من تأدية عملية التناسل . وهو لا يتأثر بالحرارة او الهواء

طبيعة الفيتامينات

طبيعة الفيتامينات لا تزال مجهولة الى الآن ، ولكن يستدل على وجودها بامكان فصلها من المواد الغذائية الطبيعية باستخدام طرق كيميائية وتركيزها بالامتصاص او التقطير او التجفيف البسيط ، وتدرس الفيتامينات من جهة وجودها وعدمه بطرق حيوية خاصة وذلك باجراء التجارب على الفيران او الارانب الرومية المسماة Guinea pigs فتعطى مادة غذائية تحتوي على جميع الفيتامينات ما عدا الفيتامين المطلوب معرفة تأثيره

وان أحدث ابحاث العلماء تشير الى ان الفيتامينات تشبه في طبيعتها الهرمونات أي العصارات التي في داخل الجسم مثل عصارة البنكرياس — فهي صغيرة في الوزن الجزيئي مثلها . وقد وجد اخيراً ان فيتامين D مركب مماثل لمادة الارجسترول Ergosterol[1] اذ ثبت انهُ بتأثير الاشعة فوق البنفسجية في هذه المادة يمكن الحصول على فيتامين D ولقد ادعت بعض المعامل في السنين الاخيرة انها تمكنت من استخلاصه بحالة نقية وتبيعهُ تحت اسم Vigntol . وهناك رأي يعتبر الفيتامينات مواداً نباتية الا انه يعترض على هذا الرأي بأن الارجسترول — او اي سترول مماثل له — يصلح لان يتحول الى فيتامين C صناعيًا بواسطة الاشعة فوق البنفسجية ، سواء وجد في انسجة نباتية او حيوانية

كيمياء الفيتامينات

لاشك انه يوم سعيد في تاريخ العلم ذلك اليوم الذي يتمكن فيه العلماء من كشف وتحضير الفيتامينات ، وكل ما امكن معرفته الآن هو كيمياء فيتامين A و C

﴿ كيمياء ڤيتامين A ﴾ : قام « ستينبوك » بتحضير مستخلصات كثير من المواد الغذائية وبعض النباتات ابتغاء تقدير مقادير فيتامين A فيها ، فوجد أن هذا الڤيتامين لا يوجد الاَّ في النباتات التي تحتوي على مادة الكاروتين ، فكان من الطبيعي أن يفهم أن هناك علاقة بينهما ، لهذا قام يبحث مادة الكاروتين على حدة ومعرفة تأثيرها الطبي فوجد ان لها نفس تأثير ڤيتامين A وقام بعد ذلك « دراموند » وأعاد تجربة ستينبوك ولكنهُ تحصل على عكس النتائج السالفة ، فعلل هذا الأمر بأن الكاروتين الذي استعمله ستينبوك لا بد وان يكون مشوباً بمواد غريبة . قبلت الدوائر العلمية هذا الرأي وسارت عليه حتى سنة ١٩٢٧ حيث قام العالم الكبير « فون بولر »

(١) مركب عضوي يحتوي على ٢٧ — ٣٠ ذرة كربون مع مركب من كحول وجزيء ايدروكسيد واحد ورمزه ك ٢٨ يد ٤٤ ا

ووفق بين هذين الرأيين ، فابتدأ بتحليل الكاروتين الخالي من ڤيتامين A — وهو الذي استعمله دراموند في ابحاثه — فوجد انها لا تعطي التأثيرات الطبية التي يعطيها فيتامين A ، ثم عرف ان السبب في ذلك يرجع الى ان ذلك الكاروتين لا يحتوي على فيتامين D الذي يجب ان يكون مختلطاً مع فيتامين A حتى تحصل على النتائج الطبية المطلوبة . ازاء هذا جرب اضافة فيتامين D الى نفس الكاروتين فسرعان ما حصل على نتائج مرضية

لم يقبل العلماء هذا الرأي وكانت حجتهم في ذلك أن زيت كبد الحوت — وهو مصدر غني بفيتامين A — لا يحتوي على شيء من الكاروتين ، وكانت هذه الحجة قوية لولا ان «مور» أثبت أن الكبد يفقد الفيتامين المخزون فيه اذا حرم الحوت من غذاء يحتوي على الكاروتين ، فاذا ما اضيف اليه ثانية زادت نسبة الفيتامين زيادة محسوسة . لهذا أعلن مور « أن الكاروتين هو المادة الأساسية المكونة لفيتامين A وهي التي يقوم الحيوان بتحويلها في جسمه الى الفيتامين »

تطور الأمر اذاً الى البحث عن تركيب الكاروتين ، فوجد ان هذه المادة عبارة عن مخلوط لبضع مركبات متشابهة اعطيت اسماء كاروتين A, B, C ... على التوالي ولقد أمكن للمعهد العلمي زيورخ ان يثبت ان كاروتين B عبارة عن ايدروكاربون Hydrocarbon غير مشبع ، ووجد ايضاً أن مركبات الكاروتين مثل الاكسيد oxide والايدروكسيد Hydroxide يمكنها ان تقوم بنفس العملية

اتبعت طريقة التصبن saponification في فصل وتحضير فيتامين A ، وكيفية ذلك أن تصبن زيوت كبد الحوت ثم تفصل المادة غير المتصبنة وتنظف من الشوائب بالتبريد . فالمادة المتبقية تحمل لوناً أصفر وهي مادة لزجة يمكن تقطيرها دون تحليل اذا جعلت تحت ضغط منخفض في درجة ١٣٧ — ١٣٨° سنتجراد ، وتبين أن هذه المادة تشبه كاروتين B . وقد نشر العالمان كار وبرايس سنة ١٩٢٦ طريقة خاصة لكشف ڤيتامين A بواسطة ثالث كلورور الانتيمون ، ولقد اتبعت هذه الطريقة مدة ثم ظهرت لها عيوب عديدة اوقفت استعمالها اذ شوهد أن اللون الناتج من الفيتامين غير ثابت ، كذلك وجد أن هناك بعض المواد يمكنها اعطاء نفس اللون مع ثالث كلورور الانتيمون ، ثم أمكن للاستاذ روزنتال ان يحسن في هذه الطريقة بحيث جعلها ملائمة لكشف الفيتامين فاقترح ان يسخن محلول الفيتامين مع محلول كاتيكول Catechol وثالث كلورور الانتيمون في كلوروفورم نقي جاف فانه يتكون لون أزرق يتغير بسرعة الى لون احمر بنفسجي ثابت

وتتلخص الطريقة العملية في اخذ نموذج الزيت المراد معرفة احتوائه للفيتامين ، ثم يذاب في مقدار من الكلوروفورم النقي ثم يؤخذ مقدار ١ — ٢ سم من هذا المحلول في انبوبة اختبار ويضاف اليه ١ سم من الكاتيكول و ٢ — ٣ سم من محلول كلورور الانتيمون ثم يسخن المزيج في حمام مائي على درجة ٦٠° سنتجراد لمدة دقيقتين فيظهر اللون الأزرق ثم يتحول بالتسخين

الى لون احمر بنفسجي داكن . واللون الناتج بهذه الطريقة يتناسب تناسباً طردياً مع حجمه ولذا استخدمت في تقديره كيًّا . وهذه التفاعلات لا تحدث اذا عرض محلول الفيتامين للاشعة فوق البنفسجية وكذا اشعة X ، ولكن ظهر ان الارجسترول يعطي هذا التفاعل انما ينعكس ظهور الألوان ، بمعنى ان يظهر اللون الاحمر اولاً ثم يتحول الى اللون الأزرق ، أما اذا عرّض الارجسترول لفعل الأشعة فانهُ يتحول الى فيتامين D وبذا لا يعطي التفاعل

﴿ كيمياء فيتامين C ﴾ وجد العالم زلفا أن فيتامين C ذو وزن جزيئي يشبه الوزن الجزيئي للسكر السداسي (الهكسوزس) وفي الوقت نفسه تمكن العلامة كنج من تحضير محلول مركز من الفيتامين من عصير الليمون بطرق بسيطة وأثبت انها عامل مختزل قوي وفي سنة ١٩٣٢ امكن فصل الفيتامين على صورة متبلورة ووجد ان تركيبه الكيميائي ك٦ يد٨ ا٦ ويرجع الفضل في هذا الى العلامة Szent Gyorgiy ولقد سمي المستخلص في بادىء الامر Hexuronic acid ولكن عاد ثانية فسماه ascorbic acid لأن الاول يزيد جزيئاً من الماء عن الثاني

واما فيتامين D فقد استخلص على هيئة بلورية نقية سنة ١٩٣١ وقد ثبت ان جراماً واحداً من هذا المستحضر يوازي عشرين طنًا من الزبدة في تأثيره . ومن التجارب العديدة على الفأر وجد ان المقادير الضرورية من الفيتامين اللازمة لافراز كالسيوم العظام هي ٢٥ × ١٠ـ٦ جراماً في اليوم الواحد ويحضر فيتامين D بتأثير الاشعة فوق البنفسجية على مادة الارجسترول — وهي مادة بلورية — فتفقد تبلورها ثم تتكون مادة صفراء تحتوي على الفيتامين ، ولقد تمكن وندهوس ان يحضر بهذه الطريقة مادة فعالة جداً في شفاء الكساح اذا أعطيت للمرضى بمعدل ١ : ١٠٠٠٠ من المليجرام

ما لاكتشاف الفيتامينات من شأن علمي

رأينا ما لوجود الفيتامين في الطعام من شأن خطير ، وعلمنا كيف ان فقدها يسبب امراضاً خطرة ولهذا اتفق العلماء والاطباء على انهُ لا يكفي للحكم على قيمة غذاء ما بما يحتويه من مجهود او عناصر البناء ، بل لابدَّ من ادخال الفيتامينات في التقدير

ولقد بدأت الامم تعنى باختيار الغذاء الكامل عناية قصوى ، ذلك ان العامل في مصنعه والجندي في معترك القتال لن يستطيع ان يؤدي واجبه على وجهه الأتم الاَّ اذا كان صحيحاً خالياً من الأمراض ، وجسم الانسان ما هو الاَّ آلة لتوليد الحرارة والحركة ولا بدَّ له من وقود ليسير بانتظام ، وما وقوده الاَّ الغذاء الصحي اللازم لبناء الجسم ، ويستطيع كل فرد منا ان يحصل على كفايته من الفيتامينات بسهولة بأن يستمد غذاءه من مواد متعددة ، ولقد ذكرنا في صلب المقال الموارد الطبيعية — الكثيرة الوجود — لكل فيتامين فعسى ان نكون قد ادينا بهذا خدمة لبني وطننا العزيز

بين المد والجزر

لايليا ابو ماضي

سيّرت في بحر الحياة سفينتي
واخترت قلبي ان يكون امامي

فجرت على الامواج قصراً من رؤى
ملء الفضا ملء المدى المترامي

وأقل منها البحر حين اقلّها
دنيا من الاضواء والانغام

ومشى الخيال على الحياة بسحره
فاذا الهوى في الماء والانسام

واذا الرمال ازاهر فواحة
والشط هيكل شاعر رسام

واذا الباب ملاعب ومراقص
واذا انا من صبوة لغرام

أتلقف اللذات غير محاذر
وأعبّ في الزلات والآثام

لا اكتفي واخاف أني اكتفي
فكأنما في الاكتفاء حمامي

وكأن هدي ان تطول ضلالتي
وكأن ربّي ان يدوم اوامي

مرّت بي الاعوام تتلو بعضها
وانا كأني لست في الاعوام

كالموج ضحكي كالضياء ترنحي
كالفجر زهوي كالخضم عرامي

حتى اذا هتف المشيب بلمتي
ودنت يد الماحي الى أحلامي

صرخ «الحجى» بي ساخطاً متهكماً
« هذا الغني شرّ من الاعدام»

« حتى متى تمشي بغير نظام ؟
حتى متى تمشي لغير مرام ؟»

« أسلمتني « للقلب » وهو مضلل
فاضرّني واضرك استسلامي»

« يا صاحبي أطلقني من سجن الرؤى
أنا تائه !
... أنا جائع !
... ... أنا ظام

***

واراد عقلي ان يقود سفينتي
للشط في بحر الحياة الطامي

فطويتُ أعلام الهوى وهجرتها … ونسيت حتى أنها أعلامي
وحسبت آلامي انتهت لما انتهى … فاذا النهاية أعظم الآلام
واذا الطريق وساوس ومخاوف … واذا أنا من هبوةٍ لقتام
أبغي الثراء ولم يكن من مطلبي … وأرى الجمال بناظرٍ متعام
وأشيد مثل الناس مجداً زائفاً … واشد حول الروح ثوب رغام
فاذا انا ـ والارض ملكي والسما ـ … قد صرت عبد الناس، عبد حطامي
فتضايق القلب السجين وقال لي … « يا أيها الجاني قتلت هيامي !
« القفر بالاحلام روضٌ ضاحكٌ … فاذا تلاشت فالرياض موامي »
« اين العيون تذيبني حركاتها … وتموت في سكناتها آلامي »
« وأطل من أهدابها السكرى على … ظلٍّ وانداء وزهرٍ نام »
« لما عصاني ان اشب ضرامها … اعيا عليها ان تشب ضرامي »
« الخمر ملء الجام لكن قد مضى … شوقي الى الخمر التي في الجام »
« أسلمتني للعقل فهو مضللٌ … فأضرني وأضرَّك استسلامي »
« انظر ألست تراك في اوهامه … أشقى وأتعس منك في أوهامي »
« المال ؟ من ذا يشتريه كله … مني بليل صبابة وغرام »

« يا صاحبي اطلقني من سجن النهى

أنا تائهٌ !

انا جائعٌ !

انا ظامي ؟

***

لا تسألوني اليوم عن قيثارتي … قيثارتي خشبٌ بلا انغام !

دراسة علمية

اللجلجة في الكلام

أسبابها وعلاجها

للآنسة زينب الحكيم

إن لكل قاعدة شواذ ، فاذا كان قد ثبت ان الناس يستخدمون أيديهم اليمنى من قبل التاريخ بشكل جلي مؤثرينها على اليد اليسرى ، فليس معنى هذا انك لا تجد من الناس من يستخدم يسراه شذوذاً على هذه القاعدة . ومن حسن التوفيق ان هذا الشذوذ لا يؤثر في أصحابه في شيء ما خصوصاً اذا تركوا لسجيتهم ، أما اذا صادفهم ملاحظات على شذوذهم من أصحابهم فان ذلك يخجلهم وينشأ لهم بسببه مصاعب في نموهم الطبيعي

والآن وقد تغيرت وجهة البحث العلمي ، في السنوات الماضية تغيراً جوهريًا في فهم أسباب اللجلجة في الكلام وطبيعتها وعلاجها ، فنعلم اذن ان اللجلجة ليست عادة نشأت في المتلجلج ، ولا بمجرد حالة عصبية ، وليست علامة لاضطراب او تهيج عقلي او عاطفي نشأ عن خوف أو حياء ، ولا هي مسببة عن سوء تكوين عضلات النطق

ونشك في ان التقليد وحده ينتج لجلجة حقيقية (ولكنه قد ينتج التلعثم واللثغة وغيرذلك)

وانما نفهم الآن ان اللجلجة نفسها لا تورث ولكن الذي يحتمل وراثته هو ميل عضوي سابق معرض لعدم النظام . والمرانة الصحيحة وفق طبيعة الطفل ، هي التي تمنع هذا الميل السابق من التحول الى اللجلجة

والتمرين الخاطيء المضاد لفطرة الطفل مع عوامل اخرى هو الذي يمكن ان ينتج اللجلجة في طفل ليس لهُ استعداد لأي وراثة مهمة او ميل سابق لها ، فضلاً عن طفل قابل للتأثر

على الرغم من عدم انتظام كلام المتلجلجين ، نقدّر أنهم خلقوا عاديين كباقي الافراد ، ونستنتج ان هذا النقص فيهم له اسبابه — فاذا كشفوا لنا عن نقائص اخرى فيهم الى جانب اللجلجة ، ومن المحتمل كثيراً ان يفعلوا ، فان ذلك يكون من قبيل الاشياء التالية : —

١ — ضعف في قدرتهم على القراءة الصامتة ، وربما كان ذلك في الهجاء ايضاً
٢ — يتملكهم حياء شديد يفوق درجة الحياء في الافراد العاديين
٣ — يكونون قلقين على الدوام ، ويبدو عليهم شعور قوي بخور في العزيمة
٤ — يلاحظ عليهم انقباض نفس في معظم اوقاتهم

قد يظن ان هذه الاشياء هي اسباب التلجلج ، ولكن الواقع انها نتيجة التلجلج ، التي تسبب قصور المتلجلج وتوقفه تحت ذل التلجلج ، فتبدو عليه كما لحظنا في حالة الطفل (محمد) — الذي تكلمنا عنه في المقال السابق — . فقد كان خلواً من كل ما اصابه قبل ان يظهر التلجلج عليه

ومن الثابت أن متوسط ذكاء المتلجلجين ، مساوٍ لنسبة ذكاء المتكلمين العاديين ، وقد لوحظ على طلبة الجامعات المتلجلجين ، أنهم أظهروا ذكاء عالياً علوّاً محسّاً

واذكر هنا بعض أمثلة ممن ارتج عليهم عندما ارتقوا منابر الخطابة ، لأني اعتقد ان أشباه هؤلاء من النوع الذي بدّل استخدام احدى يديه بالاخرى ، وتغلب على التلجلج فصار خطيباً مفوّهاً رغم استعداده الاصلي ، على الرغم من صعوبة التغيير التي لا بدّ قد صادفته ، وتغلب عليها بقوة إرادته . أرتج مرة على عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال « انكم الى أمير فعّال أحوج منكم الى أمير قوّال » . وارتج مرة على يزيد بن المهلب ، فلما نزل قال : —

فان لم أكن فيكم خطيباً فأنني بسيفي وان جدّ الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلت هذا على المنبر لكنت أخطب العرب

على أني لا أظن ان يزيداً هذا كان يستطيع استخدام سيفه بنجاح كما توهم اذ أعلم ان أحد مشاهير الجراحين بأوربا ، يستطيع استخدام كلتا يديه ، ولكن هذه الميزة كثيراً ما أربكته وهو يقوم بعمل عملية خطيرة ، إذ يحار بأية اليدين يعمل . (ولعله لا يغيب عن فطنة القارىء ان هذا الجراح مهما ينجح في استخدام كلتا يديه استخداماً متساوياً ، فان ارتباكه في تقديم إحدى اليدين حين ينشغل الانتباه بالعناية بالعملية مؤكد ، لان الطبيعة الأصلية تبدو آثارها في غفلة الوعي بالنسبة لليدين وتسبب التردد بينهما) . ومن المهم جدّاً ان أذكر في هذا الصدد ان بعض العلماء المهتمين بدراسة هذه المسائل فحصوا كثيرين من المسجونين في جهات مختلفة ، فلم يجدوا بينهم من يستخدم كلتا يديه حتى صدور أحدث التقارير التي اطلعت عليها

أظن ان السبب في ذلك لايحتاج الى شرح كثير ، فان المجرم المصر على ارتكاب جريمته ، انما يعتمد على تنفيذ عمله في غير تردد ، فهو لذلك يعتمد على استخدام أعضائه ولا سيما يده وفق استعداده الفطري ، وهذه حال لا تسمح لاحدى اليدين بالاعتداء على الاخرى في استعدادها الطبيعي ، لضرورة انفاذ العمل بغير تردّد

من الغريب أن نرى ، أن نسبة المتلجلجين الذين في سن طلبة المدارس العالية ومدارس المعلمين تساوي نسبتهم في تلاميذ المدارس الاولية ، وهنا نؤكد أن اللجلجة انما تنمو في اكبر عدد من التلاميذ قبل التحاقهم بأول فرقة بالمدرسة

لقد كان يظن أن المتلجلجين أقلية نادرة ، ولا يزال هذا الزعم سائداً ، ولكننا تثبت هنا أن المتلجلجين يبلغون واحداً في المائة على الاقل من سكان كل قرية ، وفق ما اثبتتهُ لنا أحدث التقارير في هذا الباب . والرأي السائد ، هو ان اللجلجة ليست عيباً خطراً ، ولكننا نعلم ان اكثر من واحد في كل أربعة متلجلجين يتعرض للتجربة الخطرة وهي تجربة الانتحار . في حين ان نسبة من يتعرض للتجربة نفسها من المتكلمين العاديين ، تبلغ واحداً لكل سبعة . كما أن اللجلجة تعوق تقدم الاولاد الذين في سن الحادية عشرة تحوسنة مدرسية عن أقرانهم غير المصابين بها . ونلاحظ أن المتلجلجين يميلون ميلاً شديداً الى الاعمال التي تستدعي كلاماً كثيراً ، ولا يخفى ما ينتج عن هذا من ضياع فوائد كثيرة عليهم وعلى المجموع ، فان كثيراً منهم لا يعملون العمل الذي يوافق فطرتهم بسبب هذا النقص

ومما يروى عن « ديموستينس » اليوناني ، انهُ أصيب بأحد عيوب الكلام ، ولكنهُ كان خطيباً بالفطرة ، فضاق صدره ولم ينطلق لسانه ، فجاهد جهاد المستميت حتى تغلب على هذا العيب بعد قضاء الوقت الطويل في وضع الحصوة تحت لسانه تارةً ، وأخرى بالذهاب الى شاطئ البحر وتمرين صوته وفق علو صوت الامواج وانخفاضها ، وهو وان كان قد انزوى عن العالم طويلاً ، الا انهُ صار خطيب اليونان المفوَّه . وكذلك كان الحال مع « تالمج » الاميركي

ومما روى عن واصل بن عطاء ، انهُ كان أقبح الناس لثغةً بالراء . حدثنا عنه « المبرد » في كتابه الكامل فقال : « كان واصل أحد الاعاجيب ، وذلك انهُ كان قبيح اللثغة في الراء ، ولا يفطن لذلك . . . لاقتداره على الكلام . وقال أبو الطروق الضبي الشاعر المعتزلي يمدحهُ باطالة الخطب واجتناب الراء على كثرة ترددها في الكلام حتى كأنها ليست فيه فقال : —

عليم بابدال الحروف وقامع   لكل خطيب ، يغلب الحق باطله

وقال آخر :   ويجعل البرّ قمحاً في تصرفه   وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق ، والقول يعجله   فعاذ بالغيث اشفاقاً من المطر

كل هذا ، وكثير من اشباهه ، أدى الى استنباط طرق لمعالجة النقائص الكلامية كما يأتي : —

(١) التمرن على نطق الكلمات ، وبسط الذراعين وترددهما حين التكلم (٢) التكلم بغير تكلف ، والتكلم بسرعة او ببطء (٣) الاستخفاف بالحروف المتحركة ، وتشديد الصوت على الساكن (٤) التكلم مع انطباق الاسنان العليا على السفلى (٥) التكلم مع وضع حصوة صغيرة تحت اللسان

(٦) استعمال تمارين التنفس، وملاحظة الهدوء والتؤدة في أثناء الكلام مع ملاحظة تشطيب الجمل
(٧) استعمال قوة الارادة الى أقصى حد ممكن لاخراج الكلمات دون لجلجة متناسين هذه اللجلجة

ظلت هذه الطرق تستعمل أعواماً عديدة ، ولكنها لم تؤد الى نتائج مرضية الا في حالات نادرة ، مما دعا بعض العلماء الى البحث والتنقيب ، وبعد عشر سنوات انقضت في الفحص العلمي الدقيق والدراسة الفنية المتقنة لهذه الطرق العلاجية السالفة الذكر ، وصلنا الى عدم صلاحيتها اذ ثبت أنها استعملت عند ظهور علامات اللجلجة ، فأخفت الكثير منها ، مما سبب التواء المشكلة ، وصار علاجها ملتوياً أيضاً ، ولو انها تركت على طبيعتها ، لظهرت جميع علاماتها التي قد تساعد كثيراً على اختيار أمثل الطرق للعلاج . ولكن في علمنا ، أن الطرق التي لا ترمي الى استئصال جذور المرض ، وتنقية أدران المشكلة ، وترد الحالات الكامنة الى سيرها الطبيعي وحالتها الخلقية ، لا يمكن أن تؤدي الى علاج تام دائم مأمون العواقب . اذاً ماذا اكتشفهُ العلم من اسباب اللجلجة وعلاجها عن طريق الدراسة المتقنة ، والطرق العلمية الجازمة ؟!

لكي نفهم هذا ، لامناص لنا من القاء نظرة عاجلة عامة على الآلية الكامنة للكلام الطبيعي الصحيح في الانسان . والنقاش الآتي مؤسس على ما نعلمهُ الآن من علم دراسة الاعصاب ، الذي هدانا كثيراً الى فهم هذه النظريات وأشباهها . كما استوثقنا من صحة ماذهبنا اليه من مذهب ، وبالاطلاع على الدراسات العلمية العملية ، التي قام بها الدكتور «لي ادوارد» في احدى جامعات اميركا ، وغيره كثيرون ممن أجروا التجارب في اوربا في الموضوع ذاته

قدمنا أن علم دراسة الاعصاب ساعدنا كثيراً على فهم هذه النظريات ، ولما كانت مسألة التكلم او مشكلة المتكلم تتوقف اكثر ما تتوقف على الجهاز العصبي ، فلننظر الى بعض الخلايا العصبية في الشكل رقم ١ . فنرى أن أغلبها وان اختلف بعض الاختلاف في الشكل ، يتحد في التركيب ، اذ كل خلية تتركب من جسم الخلية المحتوي على النواة ، ومن المحور الممتد منها ، ومن الاعصاب الدقيقة التي من الوصلة او العصب الذي يوصل التيار العصبي المنبث من جسم الخلية الى وصلة خلية أخرى . وهذه الخلايا هي التي تتكوَّن منها مراكز الجهاز العصبي (هو المخ والحبل الشوكي) وهي التي تنقل آثار الانفعال من المراكز العصبية الى سائر أعضاء الجسم . وهذه هي الاعصاب او الجهاز المحيطي لمراكز الجهاز العصبي

كل تيار عصبي تحمله هذه الخلايا مستعد لان يسير في العضل الذي يناسبهُ . ولما كانت اعضاء التكلم العاملة ، هي العضلات ، فاعلم ان هناك مئات من هذه العضلات متباعدة بعضها عن بعض ، ومع ذلك يجب ان تتحرك جميعها بعضها مع بعض بضبط دقيق جداً حالما يتكلم نحو مائتي كلمة في الدقيقة . خذ اللسان مثلاً ، واشطره نصفين من طرف الى طرف طولاً ، تر ان

كل نصف عضل قائم بذاته ، اي أن اللسان عضو فردي مكون من عضلين منفصلين ، يعملان معاً كعضل واحد ، والجانب الاكبر آلة التكلم مكون على هذا النمط أي من أزواج ، يجب ان تتحرك بعضها مع بعض بفضل ما يصل إليها من تيارات عصبية بتلك الخيوط الدقيقة المتفرعة من جسم الخلية العصبية المكونة للشبكة العصبية

فإذا تتبعنا سير خيط واحد من هذه الخيوط ، رأينا انهُ يتحد مع خيوط اخرى عصبية ليكوّن مراكز عصبية كبيرة . ويمكنك إرجاع هذه الشبكة او ردّها إلى أصولها في نخاع العمود الفقري والمخ . أي أن بعضها يتخلل إلى النخاع ويمتد فيهِ واصلاً الى المخ ، والبعض الآخر يتصل بالمخ مباشرةً دون الاتصال بنخاع العمود الفقري . فاذا دققنا في ملاحظاتنا ، عرفنا أن نصف هذه المراكز العصبية ينتهي الى الجانب الايمن من المخ ، فاذا وضعنا اصبعنا على اقليم عصبي من الناحية الشمالية للمخ ، استطعنا إمرار الاصبع على هذا الأقليم ، وعند ما يصل الى المكان الذي يتصل فيهِ النخاع الشوكي بالمخ ، سيتبع أصبعنا سير العصب او امتداده عابراً الى الناحية اليمنى ونازلاً من النخاع الشوكي ، الى ان يصل الى عضل من الناحية اليمنى للاعصاب التي على جهة الجسم اليمنى

فاذا واصلنا دراستنا بعد هذه الرحلة وجدنا العضلات التابعة للجهة اليمنى من الجسم تتلقى مددها العصبي من النصف الايسر للمخ . والعضلات التابعة للجهة اليسرى من الجسم تتلقى مددها العصبي من النصف الايسر للمخ . والعضلات التابعة للجهة اليسرى من الجسم تتلقى مددها العصبي من الناحية اليمنى للمخ . لهذا تتحقق أو تقوى البقعة المرسلة للمدد العصبي . (ولهذا يكون من السير التغير او الانتقال من جهة الى اخرى)

والآن اذا عاودنا النظر الى اللسان ذلك العضو البسيط المظهر وجدناه يتكون من عضلين ويتلقى مدداً عصبيًّا منفرداً من اجزاء منفردة من المخ ، وليس ذلك مقتصراً على اللسان فحسب ، بل يشمل كل عضل للكلام مركب من عضلتين ، وله الاستمداد ذاته والقابلية التي للسان . فالكلام اذن عبارة من عمل عضلي — اي انهُ يحدث عند ما يستعمل اللسان قدرته في تنظيم التيارات الصوتية المحمولة اليهِ ، وعند ما تؤدي العضلات التي تنظم حجم الفم والحلق وشكلهما عملها ، بحيث يستعمل الهواء الذي يخرج من الرئتين لكثير من انواع النغم والاصوات اللازمة وهذا هو الكلام . وعمل العضلات ، لا يمكن أن يحدث دون تيارات عصبية تتخلل العضلات نفسها ، وتجعلها تتحرك بطرق خاصة ، وهذه التيارات العصبية تأتي من المخ وعن طريق المراكز العصبية

إذن لكي يحدث الكلام بحالة طبيعية ، يجب أن تسير قوتان دافعتان عصبيتان منفصلتان من نصفي المخ المنفصلين ، بحيث تصلان الى العضلين المنفصلين المكون منهما اللسان بعد مرورهما في مركزين عصبيين منفصلين في الوقت نفسه ، ويلزم ان تكون هناك سلاسل متصلة من

هذه التيارات العصبية بنسبة عدة مئات في الثانية ، وان تكون التيارات السارية في العضلين متساوية في القيمة والتناسب ، مع مبلغ القوة ذاتها ، بحيث يتحرك العضلان المكون منهما اللسان من التحرك مماً بتناسب وانسجام في غاية الدقة والضبط

﴿ كيف يحدث ذلك؟ ﴾ قد ينصرف ذهنك اول ما تفكر الى أن ذلك يرجع الى ان جزئي المخ متشابهان تمام المشابهة ، والمخ يشبه نصف البيضة المنقسم الى قسمين ، واجه كل منهما الآخر ولكن الفحص الدقيق اثبت لنا ان الجهاز العصبي مركب جد التركيب ، ولهذا نجد هناك ما يسوغ مخالفة هذا التقدير . فان التناسق الدقيق الذي اوضحناه ، انما يحدث لأن نصفي المخ غير متساويين ، فواحد منهما أقوى من الآخر وأنشط . والنصف الانشط والاقوى يرسل قوى دافعة عصبية بنسبة خاصة ، وبتناسب خاص ولذلك يفرض شكله من النشاط على النصف الأضعف بحيث يجعله يرسل قوة دافعة عصبية بنفس النسبة والتناسب

نتيجة هذا كله ، هي ان العضلات من الناحية اليمنى للجسم تتحرك بنفس النسبة والتناسق كما تفعل العضلات على الناحية اليسرى ، وعلى ذلك يحدث الكلام الطبيعي الصحيح

وفي الوسع ان نزيد ذلك ايضاحاً اذا شبهنا جزئي المخ بفرقتي موسيقى أو غناء في حجرتين متصلتين احداهما بالاخرى ، فاذا كانت احدى الفرقتين صغيرة والاخرى كبيرة فانه يكون من الصعب جداً على الفرقة الصغيرة ان توقع الحاناً مستقلة ، وسترى نفسها مضطرة لأن توقع نفس الالحان او النغمات التي توقعها الفرقة الكبيرة . وسيكون من السهل عليها ذلك . كذلك كان الحال مع نصف المخ لأن احدهما اقوى وأنشط من الآخر

ولكن لنفرض ان فرقتي الموسيقى او الغناء متساويتان في القوى ، فهنا يمكن ان توقع كل فرقة أنغامها بسهولة ، وهذا ما يحدث تماماً حالما يكون نصفا المخ متساويين من حيث النشاط والقوة — فكل نصف يرسل تيارات عصبية وفق قدرته وتناسقه ، والعضلات من الناحية اليمنى للجسم تنشط بتباين عن العضلات من الناحية اليسرى . (لانهما إن اتحدا في القوى ، فمن يضمن بدءهما في ارسال المدد العصبي في وقت واحد ؟) . فاللسان اذن يتلقى قوتين دافعتين مختلفتين متناقضتين ، والنتيجة تكون حدوث تشنج عضلي . وهذا هو التلجلج

ولعله يلاحظ هنا فقد قانون التعويض ، وهذا مما يخالف ناموس الطبيعة انتهينا بهذا الشرح المفصل الى ماهية التلجلج ، ونريد ان نلخص الآن أسبابه :—

﴿ مسببات التلجلج ﴾ (١) كل شيء يعمل على مساواة نصفي المخ ، او مساواتهما على وجه التقريب في القوة والنمو يعمل على تسبيب التلجلج

(٢) للوراثة شأن كبير ، فبعض الاطفال لهم تكوين خلقي واستعداد فطري مقتضاهما

أنهم كلما نموا وكبروا ، لا يتقوى أحد جزءي المخ عن الآخر بنسبة كافية ، ونتيجة ذلك تكون اللجلجة الخلقية ونمو الكلام ببطء . ولعل أحسن وأنجع علاج لذلك ، هو ما تفرضه العادة والتقليد والافضلية على أنفسنا ومنعنا من استعمال اليد اليمنى ، وبهذا نعمل ولو قليلاً على تقوية وتنشيط نصف المخ الأيسر الذي يمد اليد اليمنى بالقوى الدافعة العصبية ، والا لكانت نسبة اللجلجة الطبيعية مرتفعة اذا لم يهدنا العقل الى هذا ولو لم ندرك السبب . ومما يحسن بنا ذكره هنا ان الانسان استعمل اليد اليمنى من قبل التاريخ ، ولهذا يمكن ان نقول ان عادة استخدامها تركزت من زمن بعيد ليس بالتقليد فقط وانما بالاستعداد الوراثي ، وبالضرورة لكل قاعدة شواذ

(٣) الأضرار التي تحدث وقت الميلاد ، وامراض الجهاز العصبي ، والحميات المرتفعة الحرارة ، ومرض الصحة الطويل الأمد . والانفعال النفسي المتوالي ، او الاهتزازات العصبية الشيقة : كالفرح او الحزن المفاجيء ، الذي يسبب تغيراً مفاجئاً في حالة المخ ، فتحدث اللجلجة او الخرس او الشلل ، كما يصاب الانسان بمرض السكر او الزلال او الجنون في حالات متشابهة وكلنا شاهد او سمع بحالات كثيرة من هذه

ومما لا ريب فيه ، ان نصف المخ الاقوى والأنشط اكثر حساسية في كل الحالات سواء أكانت طيبة أم رديئة ، وبذلك يكون أسرع الى التأثر الذي يقعده عن فرض نشاطه وقدرته على النصف الأضعف ، ولهذا يفقد التناسب في العمل ، ومن ثم تحدث اللجلجة . ويحسن بنا ان نشير في إيجاز تام الى كيف تؤثر الانفعالات النفسية ، والاهتزازات العصبية الشيقة في جهة المخ الاكثر حساسية لما لهذه النقطة من شأن . سبق ان رأينا أنواعاً من الخلايا العصبية ، وهذه وان اختلفت في بعض الأعمال التي تقوم بها كل منها ، فانها تتفق في أنها تحس او تنفعل او تثور بما يقع عليها من المؤثرات والمنبهات ، وطبيعيًّا توصل هذا الأثر من الانفعال الى الاعصاب المتفرعة من خلايا أخرى فيقاوم توصيل التيارات العصبية المرسلة عن طريقها ، وتكون لذلك أبطأ ، وتستغرق وقتاً أطول ، ولذلك فالتعب ، والمشروبات الكحولية ، والكوكايين تزيد من مقاومتها التيار العصبي ، ولهذا نرى الثمل لا يستطيع القيام بأي عمل صحيح لأن التيار العصبي لا يصل من المركز الى باقي الاجزاء ، فلا تستطيع ان تعمل عملها

اما الشاي ومثله القهوة ، فيضعف مقاومة الوصلة أو العصب الموصل ، ولهذا اذا اردنا مواصلة العمل الكتابي مثلاً فاننا نشرب كثيراً من الشاي لكي نتنبه ونصحو ، والحقيقة اننا نجهد المراكز العصبية ، ونضعف من قوة الاعصاب الفرعية .... لأننا نحملها من العمل فوق طاقتها

٤ — ومن اهم ما وجدناه في الكثرة الغالبة من الحالات ، عاملاً قويًّا في اللجلجة ، محاولة تغير الأطفال من استخدام ايديهم اليسرى الى اليمنى — ولا نقصد ان نقول ان استعمال اليسرى

في الكتابة أو العمل بها بسبب التلجلج — وإنما هو التغيير من هذه لتلك — وهذه هي النقطة المهمة

ولقد وجدنا في حالات قليلة جداً ، ان التغيير من اليمين الى الشمال كان له نفس التأثير الضار الذي يحدثه التغير من الشمال الى اليمين ، وسبب ذلك سبق شرحه في الحالة العكسية . ومما علمته وهو غريب في بابه من احد اصدقائي الاطباء وأنا اتباحث معه في الناحية الطبية في استخدام اليد اليسرى انه قال : يوجد نوع من المرض اسمه (انفاف روكا) اذا اصاب نصف الدماغ الأيسر وكان صاحبه يستخدم اليد اليمنى حرمه من النطق . اما اذا كان يستخدم اليسرى فيستمر على النطق . ولكن اذا اصاب هذا المرض النصف الايمن من الدماغ وكان صاحبه يستخدم اليسرى فيضربه ، ويبقى مستخدم اليمنى متكلماً

فتبدد غرابة هذا التقرير الطبي عند ما نذكر ان علم التشريح اثبت ، ان المركز الاصلي لأعصاب اليدين في الدماغ انما يكون في الناحية العكسية لكليهما ، وانه متصل ومشتبك بمركز أعصاب اللسان والشفتين كما سبق أن وضحنا . وقد يكون من المسلي للقارىء أن أوجه نظره لا سيما اذا ما كان ممن يهتمون بعلم الكف ، انه من أهم المسائل التي يعتمد عليها المختصون في هذا العلم والتأليف فيه ، ان يثبتوا علاقة اليدين بالدماغ ، ليقنعوا القارىء أو من تقرأ يده ، ان ما يفسر من خطوط على يديه صحيح لأنها الآثار التي تركتها رسالات المخ الى اليدين . ويفسرون خطوط اليمنى غير ما يفسرون به خطوط اليسرى

هذا ولعل كثيراً من الأطفال الذين علموا استعمال أيديهم اليمنى قبل أن تتاح لهم فرصة اظهار الطبيعة التي خلقوا عليها من استخدام اليد اليسرى يتلجلجون عند ما يقدرون على التكلم الذي قد يتأخر شهوراً أو سنين فلا نثبت بهذا السبب أيضاً . وقد لا يظهر التلجلج في حالة التغيير الا بعد عدة سنين من بدأ التغيير أي في الوقت الذي يصير فيه نصفا المخ متساويين تماماً

﴿ علاج التلجلج ﴾ نستطيع الآن ، ان نقول في ايجاز ، أن علاج التلجلج يستلزم قبل كل شيء إنماء استعمال يد خاصة . وأن يمنح المتلجلج كل مزايا قانون الصحة النافع لكل فرد ، سواء أكان متلجلجاً أم طبيعي الكلام . وأن يتمتع بصحة العقل الضرورية لكل فرد أيضاً

ويجب بذل مجهود صادق لمساعدة المتلجلج ، فتعالج صعوبته مباشرة ومن كل الجهات ، وأن تختار أنسب العلاجات لحالته . ولما كان النصف الأقوى والأنشط من المخ هو اشدها احساساً بكل الحالات كما قدمنا ، وكل ما يؤثر فيه يؤثر في الكلام ، كان من الضروري الاقدام على محاولة صادقة تؤثر في مخ المتلجلج ليؤثر هو أيضاً في الكلام على شرط أن يكون المعالج في حالة صحية حسنة . كما يجب اعطاء ما لقيصر لقيصر ، فهذه قاعدة مأمونة العواقب ، فرجوع كلي لاستعمال احدى اليدين وفق طبيعتها الاولى ، يؤدي عادة الى سيطرة طبيعية في الجهة المضادة من المخ ،

وهي التي خلقت بفطرتها ممتازة، وان هذه الطريقة تلائم حال المتلجلجين الكثيرين في الشرق، الذين كانوا شماليين وعلموا استخدام أيديهم اليمين قسراً. وفي كثير من الحالات ولاسيما بين الاطفال الصغار، تعالج المتلجلج بمنحه فرصة أوسع لاستعمال يده اليمنى التي مرن على استخدامها كما فعلنا مع الطفل (محمد) متغاضين عما يصيبهُ من تأخر عن اخوانه، ومشقة يجتازها. وقد لا يفيده ذلك شيئاً، لانا نسيره ضد طبيعته. وأنا شخصيّاً لا أوافق على التغيير من البدء. واذا لم يتخلص المتلجلج من التلجلج وهو في السادسة او السابعة عشرة من عمره، فان نصيبه يكون عدم التخلص منها، لانها نمت متمكنة من زمن بعيد، أي وهو في نحو الخامسة من العمر والشيء الذي نما بتدرج يجب أن يعالج بتدرج وأناة أيضاً

ورجاؤنا أخيراً، أن يستطيع الآباء والمربون، أن يصلوا الى علاج لأولادهم وتلاميذهم الذين من هذا النوع، بفضل ما عرف الآن عن حقيقة التلجلج وأسبابه وطرق علاجه، وأن يكون نصب أعينهم استشارة الاخصائيين، اذا لم تقنعهم ملاحظاتهم الخاصة

وليروّضوا انفسهم على قبول استعمال اليد اليسرى اذا ما كان استعداد اولادهم الفطري كذلك، متأكدين ان ليس في ذلك سبة أو انحطاط، فكم عرفنا من عظماء الرجال وكانوا يستخدمون يسراهم أشباه ليوناردو دا فنشي وهو مصور (لاجوكوندا) كما كان من أقدر المهندسين وأعلمهم في عصره، وكان بارعاً في التأليف والموسيقى والعلوم

وحذار من العبث بأمراض الأطفال النفسية، فرب استشارة أو علاج خاطىء أضر ما كان صالحاً. او اتلف ما كان يمكن اصلاحه. ولا يفوتنا أن نقول، ان التلجلجة مرض أسبابه طبيعية كسبية يمكن علاجها وليس ذلك عسيراً كما كان يعتقد من قبل. اما اللثغة والتمتمة واللكنة الاعجمية. فأمراض كسبية بالتقليد وتغيير البيئة، وهذه علاجها أيسر. أما ما يكون مسبباً منها بمؤثرات خارجية كالحروق (كمن أخذ الجمرة بدل التمرة فصار ألثغ أو جرح لسانه او أصيب بقمة قاسية نقطعت أسنانه لسانه، فهذه أشياء قد تعالج او لا تعالج وفق تقدم الطب والمخترعات، وليس ذلك في نظرنا مستحيلاً وانما كل شيء يأتي في حينه. هذا وقد قيل

وكل امرىء راجع يوماً لشيمته وان تخلق اخلاقاً الى حين

ولعلّ في ذلك تصديقاً لقولنا أن الانسان مهما مرّن اليد التي لم تعد للكتابة خلقيّاً تنتابه الحيرة ويصيبهُ التردد في الكلام في المواقف الدقيقة، كمواقف الخطابة، او الارتباك في تقديم أي اليدين أو تأخيرها اذا اعترضه حيوان مفترس أو لص وأراد الدفاع عن نفسه مثلاً. كل هذا متوقع الحدوث عوداً إلى الحالة الطبيعية الكامنة مهما تووسيت وأهملت وقد قالت العرب قديماً «ليس الفقه بالتفقه، ولا الفصاحة بالتفصح، لأنهُ لا يزيد متزيد في كلامه الا لنقص يجده في نفسه» ومما اتفق عليه العرب والعجم قديماً، وقالت به الفرنجة أخيراً «الطبع أملك»

توليد الطاقة

من المادة

بحث العلماء في الاشهر الأخيرة

فتن الباحثون باحتمال كشف طريقة تمكنهم من اطلاق الطاقة المدّخرة في ذرات المادة منذ ما ادركوا ان موارد القوة في الطبيعة لا تُحَدّ . ومع انهُ من المتعذّر ان نقول الآن ان اطلاق طاقة الذّرات واستعمالها امر قريب التحقيق غداً ، فهناك دلائل تدل على أن العلماء قد خطوا الخطوة الاولى في الاشهر الاخيرة نحو هذا الهدف . ففي نيويورك جماعة من العلماء تمكنوا من أن يستعملوا الطاقة الذرية في إحداث التفاعلات الكيميائية. وفي فرنسا جماعة أخرى من العلماء معنية بهذا البحث ولكنها قد أخذت تقلق لاحتمال انطلاق الطاقة الكامنة في الذرّات انطلاقاً ينسفهم وينسف مختبراتهم كذلك

وقد سبق كل هذا سلسلة من المكتشفات العلمية يرتدّ أولها الى شهر مارس من سنة ١٩٣٤ عندما أثبت العالم الايطالي الشاب فرمي Fermi — وهو أحد أساتذة جامعة روما الملكية — ان اطلاق النوترونات على عنصر الأورانيوم يفضي الى نشوء عناصر مشعة جديدة . والنوترونات على ما تعلم دقائق ذريرية صغيرة تستطيع اختراق النطاق الكهربائي الذي يحيط بنواة الذرّة لانها متعادلة الكهربائية فلا تجذب ولا تدفع

وكان الظن قبل ذلك ان عنصر الاورانيوم هو أثقل العناصر وزناً وان عدده الذري هو أكبر الأعداد الذرية المعروفة ولكن الكواشف الكيميائية اثبتت ان العناصر المشعة المتولدة منهُ — وهي عناصر قصيرة الحياة لأنها غير مستقرة — أثقل وزناً ذريًّا وأكبر عدداً ذريًّا من الاورانيوم ولذلك وصفت بقولهم « العناصر التي وراء الاورانيوم »

ولا يخفى أن عدد الاورانيوم الذري هو ٩٢ وهو يدل على ان عدد الكهيربات التي حول نواة ذرته اثنان وتسعون كهيرباً . ولكن ظهر ان الاعداد الذرية للعناصر المشعة الجديدة المتولدة منهُ هي ٩٣و٩٤و٩٥و٩٦ اي ان عدد الكهيربات التي حول نواة كل منها ٩٣ كهيرباً

و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ كيريا وقد وسمت بالاسماء العلمية التالية على الترتيب التالي — ايكا رينيوم — ايكا اوسميوم — ايكا اريديوم — ايكا بلاتينوم

وقد أكبّ علماء الطبيعة في خلال السنوات الاربع الماضية على دراسة خواص هذه العناصر وطبائعها . ولم يكتفوا بما ظهر منها اولاً بل والوا التجريب والتنقيب فعثروا بعشرة منها احدثها وهو العاشر كشف في اثناء الصيف الماضي (١٩٣٨) على يدي مدام كوري — جوليو كريمة مكتشفة الراديوم المشهورة وزوجة الاستاذ جوليو أحد علماء الطبيعة المحدثين في فرنسا

وقد عنيت مدام كوري — جوليو بالاشتراك مع الباحث سافتش بدراسة هذا العنصر الجديد — أو ما ظنّ انهُ عنصر جديد — فخلصا الى النتيجة بأن مادتهُ ليست في الواقع الاّ عنصر اللنثانوم المعروف وهو من طائفة الاتربة النادرة (rare earths)

فلما علم الباحثان الالمانيان هان Hahn وشتراسمان Strassman بنتيجة بحث كوري — جوليو وسافتش أقبلا على فحص جميع المواد الناشئة من اطلاق النوترونات على الأورانيوم وهل هي عناصر مألوفة أوزانها الذرية أقل من وزن الاورانيوم الذري ، او هي عناصر جديدة مشعة أوزانها الذرية اكبر من وزن الاورانيوم الذري . فوجدا في مستهلّ هذه السنة ان اطلاق النوترونات على الاورانيوم يسفر عن ظهور نظائر قصيرة العمر لعنصري الباريوم واللنثانوم . ولا يخفى ان نظير عنصرٍ ما يشابه العنصر في خواصهِ ويختلف عنهُ قليلاً في وزنهِ الذري

واذن فنحن امام ظاهرة جديدة في علم طبيعة الذرة . ففي العهد السابق كان اطلاق القذائف على الذرّات يفضي الى فصل جزء صغير من الذرة . اما الآن فان اطلاق النوترونات على ذرّة الاورانيوم يفضي الى شطر الذرة شطرين يكادان يكونان متساويين وان كل قسم منهما ذرة عنصر او ذرّة نظيرٍ متوسط الوزن الذري

***

ثم أثبت بحث علماء آخرين ان المواد الناشئة او المتولدة من اطلاق النوترونات على الاورانيوم وهي المواد التي ظل الباحثون اربع سنوات يحسبونها «عناصر وراء الاورانيوم» ، ليست في الواقع الاّ عناصر مألوفة او نظائرها . فالمادتان اللتان اطلق عليها اسم «ايكا اريديوم» و «ايكا بلاتينوم» ليسا الاّ التلوريوم واليود على الترتيب

وانصافاً للباحثين المتقدمين الذين ظنوا هذه المواد عناصر جديدة لها اوزان ذرية اكبر من وزن الاورانيوم الذرّي ، يجب ان نقول ان ما كان يتولد من هذه المواد كان يسيراً جداً وسريع التحول والانحلال فتمييزهُ ومعرفة خواصه كان عملاً شاقاً جداً فأخطأوا معرفتهُ

واذ كان العلماء مهتمين بفهم هذه الحقائق الجديدة قام باحثان يدعيان ميتنر Meitner وفرشى Frisch ببحث طبيعة انشطار ذرة الاورانيوم . فدلَّ بحثهما على ان جانباً يسيراً من كتلة نواة الاورانيوم يضمحل في اثناء الانشطار متحولاً الى طاقة وأثبت فرشى بعد ذلك ان الانشطار يتم فعلاً وان مقدار الطاقة الذي يتولد مطابق لما توقعه بالحساب الرياضي الطبيعي

وكان الاستاذ فردريك جوليو — زوج كريمة مدام كوري وقسيمها في جائزة نوبل الطبيعية — يعنى بدراسة نواح اخرى من هذا الموضوع فتوصل هو ومعاونوه الى نتائج تبعث على الدهشة والاستغراب . فالنوترونات التي اطلقت على الاورانيوم كانت ذات طاقة ضعيفة . ولكنهُ وجد انهُ عند ما يحصل الانشطار في ذرة الاورانيوم تشاهد نوترونات منطلقة من الذرة بسرعة عظيمة وقيست طاقة انطلاقها فاذا هي من رتبة ١١ مليون الكترون فولط . ومغزى هذا ان نوترونات بطيئة جداً — نسبيًا — اطلقت على الاورانيوم فانقذفت من الاورانيوم نوترونات سريعة

استعمل الاستاذ جوليو في مباحثه الأولى قطعاً صغيرة من الأورانيوم فكانت النوترونات السريعة المنطلقة منها غير كثيرة فضيَّع معظمها لتشتتها ولكنه سأل نفسهُ ماذا يقع اذا تولدت هذه النوترونات في قلب قطعة كبيرة من الاورانيوم . أيتولد في قلب قطعة الاورانيوم الكبيرة عدد من النوترونات السريعة يكفي للتأثير في نوى ذرات اورانيوم اخرى في القطعة نفسها فيزداد انطلاق النوترونات السريعة ؟ وبذلك تبدأ سلسلة من التحولات تفضي الى انطلاق قدر عظيم جداً من النوترونات السريعة . والواقع انهُ ليس هناك مأخذ من الناحية النظرية على هذا المنطق وهذا هو ما يقلق بال العلماء الفرنسيين لانهم يخشون اذا بدأوا التجربة ان تتعذَّر عليهم السيطرة عليها متى بلغت حداً معيناً

ولذلك عني بعضهم بالبحث عن اساليب تمكنهم من السيطرة على سلسلة التحولات المتوقعة وذلك بتخفيف الاورانيوم بخلطه بالكدميوم والبحث ماضٍ في هذا السبيل

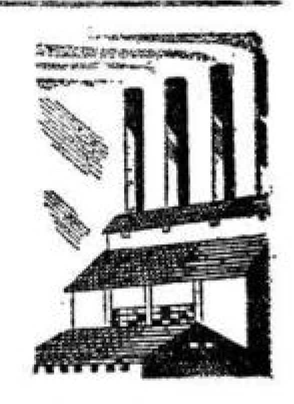
اما علماء نيويورك فقد اقاموا الدليل العملي على ان انشطار نوى ذرات الاورانيوم يولد قدراً من الطاقة يكفي لاحداث تفاعل كيمياني على مسافة . ومن التفاعلات الكيمائية التي احدثها انحلال يودور النتروجين nitrogen iodide وهو مركب كيمياني غير مستقر

***

واخيراً كلمة تحذير للذين يعمدون الى الخيال بعد قراءة هذه السطور فيتصورون عالماً تسيِّره طاقة مستخرجة من قدر صغير من ذرّات المادة — ان ذلك لا يزال بعيداً عنا بُعد الحلم ولكن يجوز لنا ان نقول اننا خطونا الخطوة الاولى نحو تحقيق ذلك الحلم

شعاع الغروب على المسجد

شجاني في جانب الفدفد ... شعاع الغروب على المسجد
كساه على روعة روعة ... وجلاه في بارق العسجد
تألق أفواسه والخطوط ... على صفحة الأفق السرمد
وتسمو منارته في الفضاء ... تروق بقد لها أغيد
دقيق الصناعة مهما تكر ... عليه عوادي البلى يصمد
وحسبه إذ أطال الصمات ... مقيماً هناك الى الموعد
أقام مناراً لمن مسه ... لغوب الى فيئه يهتدي
لمن تاه في غاشيات الحياة ... ومن ضل في ليلها الأسود
يحن على النازلين اليه ... ويحنو على المتعب المجهد
يقولون شيده حاكم ... عظيم المفاخر والسؤدد
بجانب قصر له شاده ... رفيع الذرى شاهق الأعمد
تحوف الكروم بأبهائه ... وبونع زهر نضير ندي
محا الدهر ما كان من قصره ... وما كان من ملكه الأيد
رشيدت بأحجار أبياته ... بيوت أعاديه والحسد
ولم يبق مما حوى وابتنى ... سوى ذلك المسجد المبعد
تسامى بجانبه نخلات ... تطل على ذلك المشهد
ولم ار فيه لدن جئته ... سوى عابد أشمط أدرد
مديم التلاوة والصلوات ... إن يبغ سعياً وان يجهد
يطيب له أن يكون الامام ... ويغرب في صوته المنشد
اذا الجد ألقى الى ظله ... بفوج من النزع القصد
تعجب من عيشه مفرداً ... بذيالك المسجد المفرد
وتعجب كيف يقضي الزمان ... قليل الحطام خلي اليد
وترثي لعيشته وهو راض ... وتزهد فيها ولم يزهد
وتحسبه أوحش الناس سرباً ... لدى ذلك المهمه الاجرد
وتحسبه آنس العالمين ... وأربحهم صفقة في غد



أسطورة زيت القطران

أصباغ زاهية ، وروائح عطرية ، وعقاقير ناجعة ، ومتفجرات فتاكة

بقلم حسن السلمان

مدير ثانوية البصرة

توطئة

.... وكأني أسمع القارىء يقول « وهل لذلك الزيت المعدني ذي اللون الاسود والرائحة الكريهة أسطورة تستحق الذكر ؟ » إلا أنني واثق مطمئن الى انه ما ان يطلع القارىء على أسرار كيمياء هذه المادة وعلى عظم أهميتها للمدنية الا ويتملكه العجب فيؤمن معي بأن لزيت القطران أسطورة لا تقل روعة ولا تنقص غرابة عن أية أسطورة من أساطير التاريخ القديم . أفليس بعجيب ان من هذه المادة السوداء ذات الرائحة الكريهة والاثر السام نستخرج الزاهي من اصباغ منسوجاتنا ، والزكي من روائحنا العطرية ، والنافع من عقاقير أمراضنا ، والشديد من متفجراتنا ؟ ان لزيت القطران على قبح لونه ، وفظاعة رائحته الكلمة العليا في صناعتنا وفي تجارتنا وفي حروبنا وفي المحافظة على صحتنا . فهو يدمي ويفتك ، ويشفي ويجمل ، وهو مادة سحرية ما ان يضع الكيمياوي أصابعه عليها حتى تخرج منها أصباغ ذات ألوان تفوق ألوان الطيف الشمسي عدداً وزهاء ، ومواد تضارع الورد والريحان في زكاء رائحتها ، وتفوق العسل والسكر في حلاوة طعمها

وزيت القطران هذا سائل زيتي القوام ، اسود اللون فاحمه ، يستخرج عادة كمادة ثانوية من تقطير الفحم الحجري . لقد كانت الغاية الاولى من تقطير الفحم الحجري تحضير غاز الاستصباح فقط . وكان أصحاب هذه المعامل في ارتباك من أمرهم لا يعرفون كيفية التخلص من تلك المادة القذرة التي يكثر وجودها ويقل نفعها ، فهم ان طرحوها أرضاً تراكمت وأتلفت الزرع وضايقت الاهلين برائحتها الكريهة ، وان رموها نهراً لوثت مياه الشرب وأبادت الاسماك

فكانوا لا يجدون بدًّا من دفع مبالغ باهظة لمن يحملها الى مواضع نائية عن المدن بعيدة عن عن الاراضي الآهلة بالسكان

عرف الكيمائيون قبل القرن الماضي ان زيتاً قابلاً للاشتعال يتقطر من زيت القطران عندما يعرض هذا لنار خفيفة . واستطاع فاراداي تحضير البنزين Benzene بتقطيره زيت القطران . إلاَّ ان معلومات الكيمائيين بقيت قاصرة عند هذا الحد حتى أواسط القرن التاسع عشر عند ما أُسست أولى كليات الكيمياء في بريطانيا بمدينة لندن واستقدم اليها الكيميائي الالماني المشهور الاستاذ هوفمن Hoffman . ومن غرائب الصدف ان كان هذا الكيميائي أحد تلامذته ومساعديه البحث عن كنه زيت القطران عساه أن يتوصل الى أصلح الطرق لتقطيره تقطيراً كاملاً . فانصرف مانسفيلد Mansfield هذا لتحقيق ما كلفهُ اياه استاذه وكله آمال بالفوز باكتشاف طريقة صناعية للاستفادة من تلك المادة التي اثقلت كاهل أصحاب المعامل وأزعجت الناس . وكان مانسفيلد ذكيًّا ماهراً في التحليل الكيميائي فما ان توغل في بحثه وتجاربه حتى أدرك ان زيت القطران مزيج من مواد متعددة يمكن فصلها بالتقطير الجزئي . ولقد فاز بفصل بعض تلك المواد فكان لديه البنزين والطولوين Tolnene والكزيلين Xylene

وأدرك هذا الكيميائي بثاقب فكره ان سيكون للمواد المستخرجة من القطران شأن عظيم في الصناعة الكيميائية ، ولهذا اعتزم ان يحضر مقادير كبيرة منها بتقطيره مقادير مناسبة من القطران . ولكن مما يؤسف له ان هذا الكيميائي لم يعش طويلاً ليرى نتيجة اتعابه وجهوده فقد داهمهُ الاجل بينما كان يجري اولى تجاربه الكبرى . فلسبب مجهول انفجر انبيق التقطير ففاض السائل الساخن على ارض الغرفة فالتهب من ساعته واتى على كل شيء حتى على الكيميائي المنكود الحظ ، وهكذا طويت آخر صفحة لاول من سعى لتأسيس صناعة زيت القطران . ومانسفيلد وان فارق هذه الدنيا وهو في ريعان شبابه الاَّ ان فكرته بقيت تنمو وتترعرع حتى انشأت للبشرية مصدراً مهمًّا من مصادر الثروة واخذت يد الصناعة الكيميائية فأوصلتها الى غاية ما كان اهل العلم يحلمون بها من قبل

صورة جزيء البنزين

ومن قصص الكيمياء الشائقة التي ترسم للقارىء صورة جلية للجهود الفكرية التي يبذلها العلماء لتوضيح حقيقة من الحقائق او نظرية من النظريات قصة البحث عن بناء جزيء البنزين . يتكوَّن جزيء البنزين من ست ذرات من الكربون وست ذرات من الهيدروجين C_6H_6 وتبدو هذه الحقيقة لاول وهلة مخالفة لنظرية قابلية اتحاد العناصر او ما ندعوها اليوم

بنظرية التكافؤ . فالكربون في اكثر مركباته رباعي التكافؤ ، اي ان ذرته تتحد بأربع ذرات من الهيدروجين كما في المركب CH_4 او بذرتين من الاكسجين كما في ثاني اكسيد الكربون ويكون ثنائي التكافؤ في النادر من المركبات كما في CO . اما في جزيء البنزين فتبدو ذرة الكربون احادية التكافؤ ، ولو صحّ هذا لكان البنزين شديد الفعالية اي لكان سريع الاتحاد بغيره من المركبات ، وهذا مخالف لما نجده عليه فهو لا يتفاعل مع المواد مباشرة ولا تؤثر فيه الاّ الحوامض المؤكسدة القوية

جابهت هذه الحقائق الكيمياني كيكولي Kekulé فتعذر عليه بادىء بدء تفسيرها ، وفي إحدى ليالي الشتاء القارصة جلس الى مدفئته يصطلي بنارها وهو منصرف الى التفكير في حل معميات تلك المشكلة ، ويكثر من رمي الاخشاب الى النار بحالة تكاد تكون عصبية حتى اشتد اللهيب وارتفع عالياً والكيمياني في شغل شاغل عنهُ . وبينا هو غارق في لجة من الافكار لاحظ فجأة ان ذؤابة اللهب ارتفعت كثيراً ثم التوت على نفسها حتى اتصلت بمؤخرتها ، وكانت تلك الصورة كالبرق الخاطف انارت له بصيرتهُ ومهدت له السبيل لوضع صورة واضحة لجزيء البنزين وفي تلك اللحظة اخذ الكيمياني يسأل نفسه الاسئلة التالية : لماذا لا تكون ذرات الكربون متصلة بعضها ببعض على هيئة سلسلة كما اتصلت ذؤابة اللهب بنفسها ؟ ولماذا لا يكون طرفا هذه السلسلة متماسكين احدهما مع الآخر ؟ ولماذا لا تكون ذرات الهيدروجين متفرعة من ذرات الكربون؟ ذلك ما دار في خلد كيكولي وعيناه شاخصتان الى اللهب المتصاعد كانهُ يرى صورة جزيء البنزين من بين اطرافه . فهرول من ساعته الى قلمه وورقه ورسم الصورة النهائية لجزيء البنزين مراعياً بها تكافؤ الكربون الرباعي

يعد هذا الاكتشاف ، بلا ريب ، من اهم اكتشافات الكيمياء العضوية ان لم يكن اهمها ، لانهُ مكن الكيمياني من وضع صورة لجزيئات المواد قبل تحضيرها . فالكيمياني الحديث ليس بمكتشف كما يظن البعض وانما هو مخترع . فان شاء تحضير مركب من المركبات العضوية عمد الى قلمه وورقه بادئاً برسم جزيء البنزين ، ثم يمحو احدى ذرات الهيدروجين معوضاً عنها بجذر مركب آخر كجذر النترو NO_2 — مثلاً ، ويمضي يغير ويبدل في رسم تصميم المركب حتى ينتهي الى الصورة التي وضعها له بمخيلته . وبعد ذلك يسارع الى مختبره ليطبق ما رسمهُ على الورق . فمثل الكيمياني الحديث كمثل مهندس العمارات لا يشرع بالبناء الا بعد ان يصنع التصميمات اللازمة له . ولم يبق اثر لذلك الكيمياني الذي ينزوي في مختبره يضيف المادة الواحدة الى الاخرى مؤملاً ان تتولد بين يديه مادة جديدة تكسبهُ الثروة والجاه

الاصباغ الكيميائية

لتقطير زيت القطران تستعمل انابيق تتسع لثلاثين او اربعين طنّاً من الزيت الخام ، وترتفع الى عشرات الامتار وتتفرَّع منها شعب متفاوتة الارتفاع تنتهي كل شعبة بمكثف . فاذا ما ارتفعت درجة الحرارة في الانبيق تقطرت المواد المطلوبة في زيت القطران كل واحدة منها بحسب درجة غليانها . فيتقطر البنزين اولاً ثم الطولوين فالفينول Phenol فالانتراسين Anthracene ، وبعد ذلك زيوت التزييت Lubricating Oils . وتبقى في اسفل الانبيق مادة قارية تعرَف بالزفت Pitch . وهذه المادة كثيراً ما تستعمل في تحضير الدهان الاسود وكوقود ولحفظ الاخشاب ولرصف الطرق

والبنزين والطولوين لا يمكن الاستفادة منهما مباشرة في تحضير الاصباغ او الروائح العطرية الاَّ بعد ان تجري عليهما تبدلات متعددة وتفاعلات كيميائية مختلفة . يعالج البنزين والطولوين بمزيج من الحامض الكبريتيك والنتريك المركزين ويترك المزيج مدة لا تقل عن عشر ساعات ليتم التفاعل وليتكوَّن النتروبنزين والنتروطولوين . وتفاعل كهذا كثيراً ما يكون محفوفاً بالمخاطر لانه مصحوب بانبعاث حرارة داخلية ولأن النتروطولوين سريع التحلل سريع التفجر . ومما حدث عام ١٩١٤ ان انفجر مرجل يحتوي على هاتين المادتين في معمل قرب برلين فأتى على المعمل برمته وعلى جميع من كان فيه . وقد عزا الخبراء يوم ذاك هذا الانفجار الى اهمال العامل المسؤول واغفاله تبريد المزيج مما ادى الى ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعاً عالياً سبب الانفجار وأحدث الكارثة

والنتروبنزين مادة ذات رائحة كثيرة الشبه برائحة اللوز المر تستعملها بعض معامل الصابون لتعطير الانواع الرخيصة من صابونها ، وتستعمل بكثرة لتحضير مادة الانيلين Aniline . والطريقة المثلى لذلك هي ان يضاف الى النتروبنزين قطع حديدية ثم يعامل بالحامض الكلوريدريك وبالبخار الساخن فينبعث من تفاعل الحديد مع الحامض هيدروجين ذري يختزل النتروبنزين ويحوِّله الى انيلين . ويقدر ما يصنع من الانيلين في المانيا وحدها بما يزيد على عشرين الف طن في العام الواحد

وفي احد ايام عيد الفصح عام ١٨٥٦ كان وليم بركن Perkin منهمكاً في اجراء بعض التجارب بمختبره الصغير لتحضير الكينين من احماثه الاليل طولوئدين Allyl Toluidine مع مادة مؤكسدة قوية ، ولكن عوضاً عن الحصول على الكينين كما كان يتوقع حصل على مسحوق احمر اللون فأعاد التجربة ثانية مستعملاً في هذه المرة الانيلين غير النقي ولما وجد ان حظهُ في هذه التجربة

لحظة في الاولى غضب لسوء طالعه لاخفاقه في تجاربه فاعتزم ترك المختبر وهجر التجارب غير المجدية . فهمَّ بغسل الاجهزة وإعادتها لمواضعها ، ولكن دهشته كانت عظيمة عند ما وجد أن المسحوق الناتج من تجاربه ينحل في الماء فيكون محلولاً بنفسجيًا زاهي اللون تصطبغ الاشياء به . لقد اكتشف بركن طريقة لتحضير الصبغ الكيميائي وهو لا يقصد ذلك . ولقد فاز لاول مرة كيميائي بتقليد الاصباغ النباتية والحيوانية من دون ان يسعى الى ذلك

كان بركن يوم ذاك في الثامنة عشرة من عمره ومع ذلك استطاع اقناع والده واخيه الاكبر بتأسيس معمل خاص بهم لصناعة الانيلين البنفسجي Mauve كما دعاه فأسس المعمل على جهد أسرار الهندسة الكيميائية وعرض في الاسواق مقادير كبيرة من ذلك الصباغ

ما ذاع خبر اكتشاف بركن في أنحاء اوروبا حتى تهافت الكيميائيون على دراسة خواص المواد المستخرجة من زيت القطران لعلهم يفوزون باكتشاف اصباغ كيميائية أخرى. وبعد وقت ليس بالطويل اكتشف رينارد وزميله فرانك طريقة تحضير الصبغ القرمزي ، ومن ثمَّ توالت اكتشافات المواد الصابغة بمختلف الوانها في كل من بريطانيا والمانيا . وكان من جراء ذلك ان أنشأت معامل كبيرة لصناعة الاصباغ أفضت الى قيام صناعات اخرى ما كان الناس يهتمون بها من قبل . ويقدَّر ثمن ما تصدره المانيا اليوم الى مختلف اسواق العالم من الاصباغ الكيميائية بثمانية عشر مليوناً من الجنيهات في العام ومجموع ما يستهلكه العالم منها يزيد على ٣٠٠ الف طن في السنة

وفي عام ١٨١٩ استطاع جاردن فصل النفتالين عن زيت القطران . وفي عام ١٨٣٢ فاز الكيميائيان الفرنسيان دوماس ولورانت في اكتشاف الانتراسين في زيت القطران ايضاً وبعد ذلك بأعوام قلائل تمكن روبيكين وكولان من الحصول على مادة الاليزارين Alizarine من جذور نبات الفوَّة Madder لقد كانت زراعة الفوَّة مصدراً مهمًا من مصادر الثروة في فرنسا وايطاليا وتركيا ، لان جذور هذا النبات كانت تستعمل كمادة خام لصناعة الصبغ الاحمر القاني او ما يسمى «بالحمرة التركية» . ولكن ما ان حلل هذا الصبغ النباتي وعرف أنهُ يحتوي مادة الاليزارين حتى اتجه الكيميائيون الى زيت القطران لتحضيرها منهُ وممّا سهل البحث ان الكيميائيين الالمانيين جريب Graebe ورفيقه لايبرمان Liebermann عرفا تركيب الانتراسين فاكتشفا عام ١٨٦٩ طريقة لتحضير الاليزارين من الانتراسين

ومن أشهر الاصباغ القديمة وأغلاها ثمناً الصبغة الارجوانية . كان الاقدمون يستخرجون هذا الصبغ من حيوان صدفي رخو يكثر وجوده في البحر الابيض المتوسط ، ولغلاء ثمن هذه الصبغة اقتصر استعمالها على صبغ ملابس الملوك والامراء والاشراف من الناس الذين يتمكنون

من إنفاق مائة جنيه ثمناً للرطل الواحد منه . اما العامة من الناس والطبقة الوسطى منهم فكانت ملابسهم تصبغ بالنيلة او بالحمرة التركية . وفي اوائل هذا القرن فاز فرايدلندر بتحليل الصبغة وعرف انها مركبة من ثاني بروميد النيلة ، اي انها تنتج عند ما تتحد ذرات من البرومين مع جزيء واحد من النيلة . فلم يبق الكيمياني بعد هذا الاّ ان يجمع بين البرومين والنيلة فينال صبغة الملوك والامراء . وبهذه الطريقة توفق الكيمياني الى سلب طبقة الاشراف اللونَ الخاص بهم ويسَّر استعماله لجميع طبقات الشعب

والنيلة من اقدم الاصباغ ان لم تكن اقدمها جميعاً ، ومن أثبتها أثراً وأكثرها استعمالاً . فقد استعملها المصريون والهنود وحتى سكان الجزر البريطانية القدماء . وكانت هذه الصبغة تستخرج من نبات تكثر زراعته في الهند . ففي عام ١٨٩٧ كان يقدر مجموع ما زرع من الارض بنبات النيلة بما يزيد على مليون فدان، وبلغت أثمان حاصلاتها أربعة ملايين من الجنيهات، ثم اخذت زراعة هذا النبات تتردَّى الى ان بلغت أثمان ما زرع منها عام ١٩١٤ ستين الفاً من الجنيهات . اما زراعتها اليوم فقد قلت كثيراً جدًّا ، وليس اليوم الذي ستبطل فيه ببعيد عنا . وسبب ذلك ان الكيمياء التحليلية عرفت سر تركيب النيلة فصار في مقدور الكيمياني ان يخرج للاسواق مقادير عظيمة منها بنفقة لا تدانيها نفقة استخراج النيلة من النبات.

اكتشف فرتش Fritzsche عام ١٨٤٠ ان النيلة عندما تحمى مع هيدروكسيد الصوديوم تنفطر منها مادة الانيلين ، الاّ ان ما حير هذا الكيمياني هو كيفية تحضير النيلة من الانيلين . وبقي ذلك سرًّا من الاسرار حتى اكتشفهُ الكيمياني العظيم فون باير Baeyer بعد نيف وأربعين عاماً . لقد قضى هذا العالم الكبير خمسة عشر حولاً وهو يكافح في سبيل حل ذلك السر . وبعد جهود منقطعة النظير استطاع اكتشاف طرق مختلفة لتحضيرها . ويقال ان شركة Badisch Aniline und-Soda Fabrik انفقت مبالغ طائلة لا تقل عن مليون جنيه طيلة سبعة اعوام للبحث عن أسهل الطرق الصناعية لتحضير النيلة . فكان لهم بعد ذلك ان يحتكروا صناعة النيلة في العالم فيربحوا اضعافاً مضاعفة لما انفقوه . ففي اوائل هذا القرن كانت تصرف المانيا ستمائة الف جنيه في العام لشراء النيلة من بلاد الهند ولكنها في عام ١٩١٤ صدرت الى أسواق العالم من النيلة الصناعية ما تزيد قيمته على ثلاثة ملايين جنيه

***

لقد اتسعت صناعة الاصباغ الكيميائية في المانيا اتساعاً جعلها تزاحم بريطانيا والولايات المتحدة فتصدر الى الاسواق العالمية ثلاثة ارباع ما كانت تنتجهُ معامل الاصباغ الكيميائية . حتى اضطرت بريطانيا ان تصرف المبالغ الطائلة في سبيل البحث عن الاصباغ الكيميائية وعن أسهل

الطرق لتحضيرها واضطرّت الولايات المتحدة ان تصرف خلال سني الحرب الماضية اربعين مليوناً من الجنيهات لتأسيس المعامل الخاصة بالاصباغ

العمرج الكيمائي

وليست الاصباغ وحدها مما يحضر من المركبات المستخرجة من زيت القطران فهناك انواع مختلفة من العقاقير والعلاجات الكيميائية تحضر من تلك المركبات ايضاً

كان الكيميائيون يبحثون عن امكان تحضير مادة الكينين بطرق صناعية عندما اكتشفوا انها تحتوي مادة الكوينولين ، Quinoline ولما كانت هذه من مستخرجات مركبات زيت القطران فانهم اقتنعوا بامكان تحضير الكينين من تلك المركبات . ومع انهم لم يكتشفوا تلك الطريقة حتى الآن الا ان بحثهم اوصلهم الى اكتشاف انواع مختلفة من العقاقير. فقد اكتشفوا التالين Thallin والكيرين Kairin ، واستعمل هذا العلاجان مدة من الزمن ضد الحمى الصفراء الا ان الاثر السيء الذي يتركانه في الجسم أبطل استعمالها

وفي عام ١٨٨٣ اكتشف الدكتور نور Knore الانبرين الذي يفوق الكينين بمفعوله وأكثر من استعماله كعلاج للصداع وللحمى قبل ان يكتشف الاسيتانيليد Acetanilide المعروف في عالم الطب بالانتيفبرين . وقصة اكتشاف هذا العلاج على غاية من الغرابة والطرافة

يقال ان مريضاً مصاباً بمرض جلدي استشار طبيبين من جامعة ستراسبورغ فقررا اعطاءه قدراً من محلول النافتالين جرعاً داخلية . ولما كانا لا يملكان هذا المحلول طلباه من صديق لهما يشتغل كيميائياً في معمل لصنع الأنتيبرين بتلك المدينة . فما كان من هذا الصديق الا ان امر خادماً له بملأ قنينة من محلول النافتالين وإرسالها الى الطبيبين . ومن غرائب الصدف ان الخادم عوضاً عن ان يملأ القنينة بما امره به سيده ملأها من محلول الاسيتانيليد وهو لا يدرك مايفعل فما ان استعمل المريض العلاج حتى لاحظ الطبيبان عليه هبوطاً كبيراً في درجة حرارته ما كانا يتوقعانه . وبعد ان استعمل المريض الدواء برمته طلب الطبيبان مرة ثانية من صديقهما مقداراً آخر من النافتالين . وفي هذه المرة زوّد الكيميائي صديقه بما طلب بنفسه . فلما استعمله المريض لاحظا ان العلاج لم يؤثر في الحمى ولم يخفض من درجة الحرارة . وبعد البحث والتحقيق عن العلاج الاول اتضح انه لم يكن نافتالينا وانما هو اسيتانيليد ، وان هذا يؤثر في الحمى فيخفض من درجة حرارتها . وهكذا خدمت الصدف البحث العلمي لاكتشاف علاج عظيم التأثير ضد الحمى والصداع

وهناك انواع مختلفة اخرى من العقاقير التي مصدرها مركبات زيت القطران ، نكتفي منها

بذكر الفيناستين والالاكتوفينون والفينوكول والفينورال والسلفونال . وتحضر ايضاً بعض المواد المخدرة المستعملة بكثرة في العمليات الجراحية كالكوكاين والنوفوكاين والستوفاين . فالكوكاين والنوفوكاين يستعملان في جراحة الاسنان . اما الستوفاين فيستعمل في العمليات الجراحية الكبرى كعملية استئصال الزائدة الدودية او عمليات ازالة الحصى من الكلية او المرارة . فاذا ما حقنت بضع قطرات منهُ في السائل المحيط بالنخاع الشوكي فقد المريض الحس في جزئه الاسفل ويتسنى للطبيب عندئذٍ اجراء عمليته في جوفه الباطني او في اطرافه السفلى والمريض مالك لقواه العقلية لا يتأثر قلبه بالعملية مهما تطل

وان ننس فلا ننسى الادرينالين العلاج الذي يؤثر في الاوعية الدموية فيقلصها ، ويمنع بذلك النزف . ففي بعض العمليات الجراحية عند ما لا يراد التفريط بدم المريض يحقن بمقدار من هذا العلاج فيندفع الدم الى الانساج الداخلية ويتسنى للطبيب بذلك اجراء العملية الجراحية دون اهراق قطرة واحدة من دم المريض

وقبل ان ننتقل بالقارىء من البحث في العلاج الكيميائي لا بد لنا ان نروي له القصة التالية التي ان دلت على شيء فانما تدل على ان البحث العلمي هو اساس لجميع الصناعات ، وان الامم لا يمكن ان تتقدم فتحتل المقام اللائق بها ما لم تبذل قصارى جهدها في سبيل البحث العلمي الذي سيؤدي بها حتماً الى التقدم الصناعي والى الثروة والعظمة

كان فالبرغ Falberg يشتغل مساعداً لاستاذ الكيمياء بجامعة جون هوبكنز ، وكان هذا الكيميائي الفتى يوالي بحثه العلمي عن مركبات زيت القطران وقصده تعيين اكبر عدد ممكن منها . وفي احد الايام اضطر ان يبرح المختبر بعد نهار مضن لكي يتناول شيئاً من الشاي وقسطاً من الراحة في داره . وكان من عادته ان يشرب الشاي مرًّا . فكم كان حنقه شديداً عند ما وجد الشاي والفطير شديدي الحلاوة . ولقد حسب لاول وهلة ان الخادمة أهملت واجبها فوضعت السكر في طعامه وشرابه . ولكن بعد ان استوثق من براءتها تحيّر في امره . وصدفة لعق اصابعه فكانت حلاوتها لا تطاق . عندئذٍ اتضح له ان لا بد أن تكون مادة شديدة الحلاوة علقت باصابعه ، ولا بد ان تكون حلاوة تلك المادة فوق الحلاوة الطبيعية بكثير والاً لما بقي أثرها حتى بعد ان غسل كفيه مراراً . فهرول من ساعته الى مخبره وأنكبَّ على تجاربه يفحصها بامعان ودقة وعثر اخيراً على المادة الشديدة الحلاوة فاكتشف الساكرين Saccharine وهو المادة التي تفوق حلاوتها خمسمائة مرة حلاوة السكر المتبلور

لقد واتى الحظ فالبرج بعد ان أسس معملاً كبيراً لصنع الساكرين فأقبلت على استعماله مصانع المربيات ومعامل حفظ الاطعمة اقبالاً منقطع النظير . ولكن بعد ان اتضح لأهل العلم

ان هذه المادة لا تفيد الجسم بشيء وانما تخرج منه كما دخلت اليه ، وان استعمالها الكثير يؤدي الى تناقص مقدار السكر في الدم وفي ذلك ضرر بليغ على الجسم ، قامت الحكومات بوجه صناعة «الساكرين» وزيدت التعريفة الجمركية عليه وحرم استعماله في الاطعمة والمشروبات فكان من نتيجة هذه التدابير ان قل شأنه واقتصر استعماله على المصابين بالبول السكري الذين يمتنعون عن استعمال اي طعام يحتوي سكراً واية مادة تتبدل الى السكر في داخل الجسم

الروائح والعطور الصناعية

ويرجع تاريخ الروائح والعطور الى القدماء من ساكني ضفاف السند ودجلة والنيل . وكان استعمالها ظاهرة دينية مقتصرة على الكهان وعلى الجالسين على العروش . وكانت تحضر من نباتات او اعشاب يكثر وجودها في بلاد الهند والصين . وطريقتهم في ذلك ان ينقعوا الازهار والاعشاب في زيت من الزيوت التي لا رائحة لها فتتعطر هذه الزيوت بعطر الزهر او العشب المنقوع فيه . واول من فكر في التقطير كواسطة لتحضير عطر الورد وماء الزهر هو ابن سيناء الملك ولقد بقيت طريقته مستعملة حتى اكتشفت الطرق الصناعية الحديثة

ظلت العطور لغزاً من الالغاز حتى اواخر القرن الماضي اذ التفت الكيميائيون الى دراستها وتحليل موادها ، وقد وجدوا ان جميع العطور والروائح زيوت طيارة ممتزجة قوامها مركبات كيميائية مختلفة وعذوبة العطور وذكاء رائحتها ناجم عن مزج هذه المركبات بنسب معينة ثابتة . فالعطور هي استرات حوامض شحمية او مركبات كحولية اوبنزينية فرائحة الاجاص مثلاً ناجمة عن وجود خلات الاميل Amyl Acetate في الاجاص وطعم الاناناس يعزى الى وجود بوتيرات الايثل في الفاكهة . والجيرانيول واللينامول ينفحان الورد برائحته الزكية ويعزو الكيميائيون قوة رائحة بعض العطور الى وجود جزيء البنزين في جزيئات هذه العطور

وتحضر الروائح العطرية الصناعية بذات الطرق التي تحضر بها الاصباغ الكيميائية ، فيبدأ الكيميائي بجزيء البنزين ضاماً اليه جزيئات مواد اخرى حتى يكتمل بناء جزيء العطر المطلوب فاذا اراد تحضير عطر الياسمين مثلاً يمرر الطولوين بغاز الكلورين فيكون لديه كلوريد البنزين ثم تفاعل هذه المادة بخلات الصوديوم لتحضير خلات البنزين وهي المعطار ذاته . اما اذا بدأ بالفينول او ما يسمى بالحامض الفينيك وفاعله بالحامض الكاربونيك ثم فاعل الحامض الساليسيليك الناتج بالكحول الميثيلي تكوّن لديه ساليسيلات الميثيل وهي المادة الموجودة في كثير من العطور وبصورة خاصة في عطر حشيشة البقول

وقد يظن البعض ان هذه المركبات ليست العطور والروائح النباتية ذاتها وانما هي صور ممسوخة

لها . والحقيقة ان ما يحضره الكيميائي في مختبره هو العطر نفسه بصورة نقية غير ممزوج بعطر آخر وباضافة مركبات العطر الطبيعي بنسبه المعينة بعضها الى بعض يحصل الكيميائي على عطر مماثل للعطر النباتي

وهكذا تقدمت صناعة الروائح والعطور تقدماً كبيراً فلم تبق زهرة او فاكهة الاَّ وحضر الكيميائي رائحتها او عطرها . فقد حضر المسك من الكزايلين والزباد من الاندول والعنبر من بزوات البنزيل ورائحة اللوز الحلو من البنزالدهايد وعطر الزنبق من انترانيلات الميثيل والفانيليا من الفانيلين وعطر البنفسج من الآيونون وغيرها مما لا مجال لذكرها ها هنا

لقد بدأت صناعة العطور الكيميائية في بريطانيا عند ما اكتشف السير وليم بركن الملقب بأبي الكيمياء الصناعية ، عام ١٨٦٨ طريقة تحضير عطر الكيومارين ولكنها سرعان ما انتقلت الى بلاد الالمان حيث وجدت عقولاً تستفيد منها وتستغلها كل الاستغلال . ولم تمض سنوات على ذلك الاكتشاف حتى اكتشف تايمن Tiemann طريقة تحضير عطر الفانيليا ثم توالت المكتشفات والمبتكرات في هذا السبيل حتى بلغت صادرات المانيا من هذه الصناعة وحدها ما يزيد على مليوني جنيه

المتفجرات

وللمتفجرات حديث يلذ للقارىء الاطلاع عليه خاصة ونحن في عام توترت فيه الاعصاب وحمل كلٌّ سلاحه للقضاء على أخيه الانسان ، وانصرفت المصانع لصناعة الكوردايت والديناميت وغيرها مما يستعمل لتحطيم اركان المدنية ولدك أسسها . ولسنا نستطيع ان نأتي على جميع أنواع المتفجرات في هذه الدراسة ، فالبحث حريٌّ بالتوسُّع والتبسط ولهذا سنفرد له بحثاً خاصًّا يتناول جميع نواحيه

ويقصد بالمتفجرات المواد التي تحمل بين ذراتها مقادير كبيرة من الطاقة الكامنة ، التي سرعان ما تتحلل الى مواد غازية تتمدد تمدداً عظيماً عند تأثرها بأول مؤثر. فالماء وهو أسلم جميع المواد في الطبيعة وأبعدها عن الخطر قد ينفجر عند ما يعرض لجسم معدني متقد او تقرب درجته من درجة الاتقاد . والمتفجرات اما ان تكون مركبات هيدروكربونية او مركبات بنزينية ، والذي يهمنا التطرق اليه هنا هو المركبات الاخيرة وأهمها الحامض البكريك Picric Acid والنتروطولون الثالث Trinitrotoluene

عند ما يعالج الفينول بمزيج من الحامضين النتريك والكبريتيك المركزين يتكوَّن الحامض البكريك او ما يدعى بالنتروفينول الثالث ، وهذا حامض صلب متبلور اصفر اللون يستعمل في كثير من الاحيان كصباغ أصفر اللون للمنسوجات الحريرية . وهو مادة لا خطر منها حتى وان أُدنيت من النار ولكنها

شديدة التفجر عظيمة الخطر عند ما تقرب من فلمنات الزئبق . وللحامض البكريك صفة التفاعل مع الفلزات ببطء مكوناً بكرات معدنية سريعة التفجر والتحلل ذاتيًا . وهذا ما حمل المختصين بالفنون الحربية وبصناعة النسف على الاستعاضة عنهُ بالترنوطولوين الثالث T. N. T. وهذه المادة وان كانت عظيمة الاثر ، غاية في شدة التفجر الا انها لا تتفاعل مع اغلفة القنابل ، ولا تنفجر بغير فلمنات الزئبق

ولا ريب ان القارىء يظن بعد هذا ان الهدف في اكتشاف المتفجرات القضاء على الاعداء في حالات الحروب فقط ، والحقيقة ان اثر المتفجرات في المدنية كبير جدًّا ، فلو لم تكن لدى الانسان مواد متفجرة لتعذر عليه فتح قناتي السويس وبناما ، ولما تسنى له شق طرق المواصلات بين الجبال ومدّ السكك الحديدية في الانفاق

ودراسة المتفجرات مازالت في اول عهدها ، فالبعض من الكيميائيين الذين يسخرهم الساسة لاغراضهم وتظلل على عقولهم دعايات من لا رحمة في قلبه ، دائبون اليوم على البحث في سبيل اكتشاف انواع جديدة من المتفجرات الشديدة الفتك ، لخير المدنية — او للقضاء عليها

مكتشفات اخرى

ومن الصناعات الحديثة التي تعتمد كل الاعتماد على مركبات زيت القطران ومشتقات البنزين هي صناعة تظهير الرقوق الفوتوغرافية وتحميض الاشرطة السينمائية . فالرقوق والاشرطة بعد ان تعرض للاشعة المنعكسة من الاشياء المراد تصويرها ، تغمر في مادة مختزلة ليكمل اختزال مادة بروميد الفضة التي تأثرت بالاشعة الضوئية وتحللت تحليلاً جزئيًا . واكثر هذه المواد المختزلة ذيوعاً هي الحامض البيروجاليك والهيدروكوانيون والميتول ، وهذه المركبات جميعاً تحضر من البنزين او مشتقاته

ومن أحدث الصناعات عهداً واكثرها نفعاً لرجل الطريق هي صناعة المواد المكيّفة او العجائن الصناعية Plastics . اكتشف الكيميائي العظيم فون باير عام ١٨٧٢ ان الفورمالدهايد او ما يدعى بالفورمالين عند ما يضاف الى الفينول يتحدان ويكونان مادة صمغية . ولقد اهتم عدد من الكيميائيين باستعمال هذه المادة الصمغية في بعض الصناعات ، ولكن تعذّر استعمالها للزوجتها الزائدة ولعدم محافظتها على الشكل الذي تفرغ فيه . وفي عام ١٩٠٩ اجرى الكيميائي الاميركي بيكلند Baekeland تجارب مختلفة لتكثيف الفينول فاكتشف انهُ عندما يمزج وزنين متعادلين من الفينول والفورمالدهايد مع عامل مساعد قاعدي ويحمى المزيج تترسب مادة صمغية كثيرة الذوبان في الكحول والاسيتون ، وعند احماء هذا الراسب تحت ضغط شديد تقسو وتتصلب وتفقد

لزوجتها وتحافظ على الشكل الذي كيفت بهِ بحسبه . وقد دعيت هذه المادة الجديدة بالباكليت نسبة الى اسم مكتشفها .

ومزايا الباكليت ان الخشب عند ما يغمر بهِ ويحمى ويضغط يكتسي طبقة رقيقة منهُ تكسبهُ لمعاناً دونه لمعان أنفس انواع الدهان . وان الورق العادي او الورق المقوَّى عند ما يشبعان بهِ ويحميان تحت الضغط يستعملان كمواد عازلة للتيار الكهربائي . وتصنع من الباكليت اشياء كثيرة عظيمة الشأن في حياتنا اليومية فمنهُ تعمل اوانٍ للطعام ، وحلي للسيدات ومقابض للعصيّ وللمظلات وكرات للبليارد ، واقلام الحبر وغيرها مما لا نستطيع الاستغناء عنهُ في حياتنا العامة

هذا ولا نجد ما نختتم بهِ حديثنا هذا أبلغ مما قاله الأستاذ دوزبرغ Duisberg في خطاب له بالمؤسسة الملكية البريطانية عام ١٩٠٦ « عندما وقفت قبال القنينة الصغيرة المحتوية على البنزين اول المركبات الهيدروكربونية التي فاز بتحضيرها وعزلها فاراداي ، مرت أمام عيني صورة هي أشبه بالحلم . لقد شاهدت هذه القنينة الصغيرة تتضخم وتتسع اتساعاً كبيراً وهي مملوءة بالملايين من الجالونات من تلك المادة وكأني شاهدت بوسطها المعامل الجبارة وهي تنتج الآلاف من المركبات والمواد ذات الشأن الكبير . ثم تصورت أن صوراً لا عدَّ لها ولا حصر مرت امامي وهي تمثل صناعة الاصباغ الكيميائية بالوانها الزاهية . وصناعة المواد الاقراباذينية وما انتجتهُ من مختلف الادوية والعقاقير . . . وكأن انفاسي امتلأت بعبير العطور الصناعية وطرفت نفسي من جمال الصور الفوتوغرافية . . . . . هذه الصناعات بأجمعها هي ركن قويم من اركان التقدم الصناعي وأس ثابت من أسس المدنية الحديثة »

مراجع البحث :

1. Introduction to Industrial Chemistry. By L. J. Levy
2. Modern Chemistry & Its Wonders. By Dr. Geoffrey Martin
3. Creative Chemistry. By E. E. Slosson.
4. Chemistry in Service of Man. By A. Finlay
5. The Progress of the Scientific Chemistry. By Sir W. A. Tilden
6 Chemistry in Commerce Vol. I. Edited by Molloy
7. Encyclopedia of Modern Knowledge Vol. I. Edited by Hammerton.

بين الوطنية والفاقة

لعبد الحميد الديب

رضيت ومن يمرن على حزنه يرضى   فيا ظل احلام تقلص وانقضّا

ويا سامر الدنيا وموكب يسرها   تجافيت بي ثقلاً وانكرتني فرضا

كأني بين الناس لعنة جيلهم   فمن شمتُ منهُ العيش أوسعني رفضا

ويختال حتى لا يفرّج كربتي   اذا عيّ بي كُلاً يجرّحني بعضا

وقدمت نفسي للبلاد بخطبها   فداء فسامتني نواظرهـا غضا

أحتى اذا قدمت مستكرماً دمي   لشعبي اسام البغض منهُ فلا يرضى

يعدونهُ مني انتحاراً لفاقتي   ولسنا ضحايا البؤس مثلهم مرضى

أعلاً هذا الشعب حبي ورحمتي   ويفجعني في كل مضطرب بغضا

أريد سماء بالجهاد تعزني   وشعبي يأبى أن يبوئني أرضا

أحولي هذا الرعد والبرق وامضاً   وتخبو حياتي لا أشيم بها ومضا

لقد جندتني الحادثات لحربها   فأي حقوق للبلاد بها تقضى

قضاء باعدائي غداة شبيبتي   عجزت فلم أملك لضربته نقضا

أريد انتظامي بين أجناد أمتي   أقدم قرباناً شبابي لها غضا

ولـكن عجزي عن كفافي يؤودني   فلم ادر طولاً للجهاد ولا عرضا

لئن كان عزمي ماضياً فنوائبي   اذا عصفت بالعزم ظافرة أمضى

تأسيس سامرا

— ٣ —

بقلم الكبتن كرزول
استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية

المسجد الكبير بسامرا

يكون مسجد سامرا مستطيلاً طوله ٢٤٠ متراً وعرضه ١٥٨ متراً (اي بنسبة ٣ : ٢) تطيف به جدران ذات ابراج مبنية جميعها بالآجر . فساحته على التقريب ٣٨ الف متر مربع . ومحرابه ليس على سمت القبلة فهو منحرف عنها بمقدار ١٫٣٠ درجة وذلك لانه يقع على درجة ١٢ جنوباً بغرب بينما القبلة الحقيقية للمكان تقع على درجة ١٣٫٣٠

ولم يبق من هذا المسجد غير جدرانه الخارجية أما الدعائم والاعمدة والسقف فلا وجود لها . وتبلغ ثخانة هذه الجدران مترين وهي مبنية بالآجر الاحمر الغامق الضارب للسواد الذي تبلغ الواحدة منه ٢٤ سنتمتراً مربعاً . وقد تآكل وجه البناء الى ما فوق قامة الرجل بفعل الرطوبة والاملاح وما تنتجه من التأثير الكيماني في مواد البناء لا بسبب تعرضه لرمال الصحراء وهبوب الرياح كما كانت تعتقد العالمة الاثرية جرترود بل Gertrude Bell وهو يشبه من هذه الوجهة قصر الحير

والابراج نصف دائرية تقريباً وقطرها في المتوسط ٤٫٥٠ المتر وهي تبرز عن الحائط بمقدار مترين . وبين كل برج والذي يليه ١٥ متراً تقريباً . وهناك من هذه الابراج أربعة في الاركان وعشرة في كل من الجدارين الشرقي والغربي وثمانية في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي . فهي جميعاً أربعون برجاً . وتبرز الابراج الواقعة في الاركان الجانبية مترين الى الخارج ومترين في الداخل ولذلك فأقطارها أعظم من أقطار الابراج الأخرى التي لا تبرز سوى مترين الى الخارج فقط

﴿ الابواب ﴾ لهذا المسجد واحد وعشرون باباً كبيراً وبابان صغيران سعة كل منهما ١٫٢٥ المتر ومن هذه الابواب خمسة من الجانب الشمالي للمسجد بين كل منها والذي يليه برجان يحصران بينهما جزءاً من الحائط لا باب فيه . على الترتيب الآتي :

برج الركن الشمالي الشرقي يتلوه الباب الأول
وبرجان يحصران بينهما جزءاً من الحائط لا باب فيه
ثم الباب الثاني ويتلوه برجان بينهما جزء من الحائط مسدود
ثم الباب الثالث » » » » »
ثم الباب الرابع » » » » »
ثم الباب الخامس ويتلوه برج الركن الشمالي الغربي

اي أن البرجين الجانبيين الركنيين الشماليين والابراج الثمانية الشمالية الاخرى تحصر بينها خمسة ابواب مفتوحة في الجدار الشمالي . والرسم الآتي يوضح ذلك :

برج الركن الشمالي الشرقي	برج ٢	برج ٣	برج ٤	برج ٥	برج ٦	برج ٧	برج ٨	برج ٩	١٠ برج الركن الشمالي الشرقي

☼—::—☼——☼—::—☼——☼—::—☼——☼—::—☼——☼—::—☼

باب ١	باب ٢	باب ٣	باب ٤	باب ٥

ويبلغ متوسط سعة البابين القريبين من الركنين ١٫٥٠ المتر ومتوسط سعة الابواب الثلاثة الاخرى ٤ أمتار . وبالحائط الغربي ثمانية ابواب تقع من الشمال الى الجنوب على النظام الآتي :

١ — باب سعته ٤٫٥٥ المتر وحائط . ٢ — باب سعته ٤٫٧٥ المتر وحائط . ٣ — باب سعته ٣٫٨٥ المتر وحائط . ٤ — باب سعته ٢٫٦٢ المتر . ٥ — باب سعته ٤٫٠٠ امتار . ٦ — باب سعته ٢٫٦٢ المتر وحائط . ٧ — باب سعته ٤٫٠٥ المتر وحائط . ٨ — باب سعته ١٫٥٠ المتر

يضاف اليها باب صغير سعته ١٫٢٥ المتر مما يلي البرج الركني الجنوبي . وتتفق مواقع الابواب في الحائط الشرقي المقابل مع مواقع ابواب الجانب الغربي بحسب النظام السابق عدا البابين الرابع والسادس فلا وجود لهما ولذلك نجد مواقع الابواب في هذا الجدار كما يلي

١		٢		٣		
باب	حائط	باب	حائط	باب	حائط	حائط
٤		٥		٦		
باب	حائط	حائط	باب	حائط	باب	

فهناك ستة أبواب فقط يضاف اليها الباب الصغير الخلفي في الطرف الجنوبي ومن ذلك يتضح خطأ التخطيط الذي وضعهُ دي بيليه De Beylié في ثلاثة جوانب من المسجد والذي رسمهُ فيوليه Viollet في الجانب الشمالي ، وخطأ التخطيطين اللذين نشرهما هرتسفلد Herzfeld أيضاً عن هذا المسجد . والرسم الوحيد الصحيح الذي نشر هو الذي عملتهُ جرترود بل Gertrude Bell

وقلما نجد مواقع الابواب في منتصف الحائط المفتوحة فيه تماماً . واذا فحصنا نظام أروقة

المسجد فاننا نجد ان هذه الابواب قد اختيرت مواقعها بحيث تتفق ونظام الاروقة في حرم المسجد ورواقيه الجانبيين وتقع على محاورها

أما في الجانب الجنوبي للمسجد فلا يوجد سوى ثلاث فتحات في الجزء الاوسط من الجدار وقد اثبتت استكشافات هرتسفلد وحفائره ان الفتحة الوسطى لم تكن باباً بل محراباً . ويمتاز البرجان الجانبيان النصف الدائريين اللذان يحفان به عن غيرهما بأنهما مستطيلان من وجههما الداخلي حتى مستوى قمة الابواب وبذلك تكون جملة الابواب واحداً وعشرين باباً يضاف اليها بابان صغيران سعة كل منهما ١٫٢٥ المتر كما قدمنا . وقد سقطت جميع أجزاء البناء التي كانت تعلو الابواب الكبيرة . ولكننا اذا فحصنا الاكتاف الجانبية للابواب الباقية في حالة جيدة اتضح لنا انهُ كانت هناك عقود عاتقة واطئة تقويها كتل خشبية

ففي الباب الجنوبي الكبير في الجانب الغربي مثلاً نجد الى اليمين ان البناء (من الطوب) يميل بانحناء الى الخلف ويستنتج من ذلك ان عقداً واطئاً كان يبدأ من هذا المكان كما ترى في الحائط مواضع الاعتاب او الكتل الخشبية في نفس المستوى وأعلى منهُ قليلاً

أما جزء الحائط الذي يعلو هذه الآثار فهو مبني بالطوب وليس فيهِ ما يستحق الملاحظة سوى أنهُ يبرز قليلاً عن جانب الباب الذي يقع أسفله . فماذا يعني ذلك ؟

إن الجواب عن ذلك يمكن معرفته اذا فحصنا الابواب فحصاً مدققاً . ففي أحد الابواب نرى بدء عقد صغير جدًّا ممتدًّا الى الخلف على هيئة قبو متجه الى داخل الحائط مما يدل على أنهُ كانت هناك عدة نوافذ صغيرة معقودة تعلو قمة كل باب من الابواب الكبيرة أسفل الافريز ذي الحشوات الغاطسة مباشرة . وهذا يفسر السبب في عدم وجود نوافذ في الجزء الجنوبي النهائي في كل جانب . اذ لم تكن هناك حاجة اليها لوجود الفتحات التي تعلو هذه الابواب ولكنها كانت ضرورية في اجزاء الحائط التي تليها حيث لا توجد ابواب بها

﴿ الافريز ﴾ والابراج خالية تماماً من الزخرفة ولكن الحائط محلّى بطراز من الزخارف قوامهُ ست دخلات مربعة في كل منها زخرفة على هيئة صحن الفنجان وهي غير عميقة اذ يبلغ قطرها متراً وعمقها ٢٥ سنتمتراً ولا يزال بعضها تغطيهِ كسوة من الزخارف الجصية وجزؤها العلوي على شكل عقد نصف دائري لا على هيئة دائرة كاملة كما كان ينتظر في مثل هذه الحالة

وفي كل جزء من الحائط شق رأسي عمودي (وفي واحد منها شقان) ، ولا شك ان هذه الشقوق كانت بها انابيب (او مواسير) لتصريف مياه المطر من سطح المسجد المستوي وجملة ارتفاع الحائط في الوقت الحاضر حوالي ١٠٫٥٠ المتر ويظهر ان ارتفاعهُ الاصلي لم يكن يربي على ذلك كثيراً

﴿ الشبابيك ﴾ وبالجزء العلوي من الحائط الجنوبي اسفل مستوى الافريز ٢٤ نافذة اثنتان

منها فوق البابين اللذين يحفان بالمحراب . وتقع هذه النوافذ على ابعاد متساوية الا في منتصف الحائط فان ارتفاع الاطار المستطيل الذي يحيط بالمحراب جعل من المتعذر فتح نافذة في هذا الموضع . وسنرى ان مواقع هذه النوافذ تتفق تماماً مع نظام اروقة حرم المسجد الخمسة والعشرين وانها تقع على محاورها . وقد كانت هناك ايضاً نافذتان اخريان في كل جانب من جوانب الجزء الثاني من الحائط من الجنوب وبذلك يصبح جملة عدد النوافذ ٢٨ نافذة . على انه لم تكن هناك نوافذ اخرى لعدم الحاجة اليها لان الاروقة الجانبية كانت اقل عمقاً من اروقة حرم المسجد

وهذه النوافذ من الخارج عبارة عن فتحات ضيقة مستطيلة . أما من الداخل فتعلوها عقود ذات خمس حنيات تحملها اعمدة جانبية متصلة بالحائط . ويحيط بذلك جميعه اطار مستطيل غاطس

وقد سبق ان اوضحنا ان هذه النوافذ تقع بالضبط على محاور الاروقة ولكنها ليست على نسق واحد في اجزاء الحائط التسع فتارة تكون مفتوحة في الحائط واخرى في جوانب الابراج. وهناك نافذة مفتوحة في وسط احد الابراج تماماً . وقد عثر هرتسفلد في حفائر سنة ١٩١١ على قطع من الزجاج ثخانتها ٥ر٢ السنتمتر هي بلا شك من النوع الذي كانت تملأ وتحلى به هذه النوافذ

المسجد من الداخل

نظراً لعدم وجود الدعائم التي كان يقوم عليها سقف المسجد ، لأخذها من مواضعها بغية الاستفادة من مادتها واستخدامها في أغراض أخرى ، لم يكن من المستطاع معرفة تخطيط المسجد بالضبط حتى قام هرتسفلد باستكشافاته سنة ١٩١٠ اللهم الا فيما يتعلق بعدد اروقة حرم المسجد فإن الاعمدة حين نزعت حتى أسسها تخلفت عن ذلك حفر يستدل بها الآن على انه كان يوجد اربعة وعشرون صفاً من الاعمده تكوّن خمسة وعشرين رواقاً تتفق محاورها مع مواقع النوافذ والرواق الاوسط منها أكثر اتساعاً من بقيتها . وقد كان السقف يرتكز على هذه العمد مباشرة فلم تكن هناك حاجة الى القناطر ولو كانت هناك قناطر لشاهدنا آثار اتصالها بالحائط . ولكن هذه الآثار لا وجود لها مطلقاً في جميع الجدران

وقد أثبتت استكشافات هرتسفلد وأعمال الحفر التي قام بها انه كان يوجد حقيقة بحرم هذا المسجد ٢٥ رواقاً الاوسط منها اكثر اتساعاً من البقية و ٢٤ صفا من الاعمدة في كل منها عشرة عمد ، وبالرواق الشمالي (ويمكن تسميته بالبلاط او الايوان او الليوان الشمالي) ٢٥ رواقاً الاوسط منها اكثر اتساعاً من البقية و٢٤ صفا من الاعمدة في كل صف منها ثلاثة عمد تسير عمودية على الحائط الشمالي

أما الرواقان الجانبيان فكان بكل منهما ٢٢ صفا من الاعمدة مكوّنة ٢٣ رواقا وفي كل صف منها أربعة عمد تسير موازية لحائط القبلة وبذلك تكون جملة عدد الاعمدة ٤٨٨ عموداً

﴿ الاسس ﴾ كانت أسس الجدران مرتكزة على الصخر وكذلك كانت صفوف الاعمدة تقوم على أسس مستمرة قليلة الارتفاع مبنية على الصخر. وقد ملئت المساحات الواقعة بين جدران هذه الاسس الواطئة بالدقشوم والحصى وسُوّيَ سطحها ثم غطي بطبقة من الطوب كانت بمنزلة قاعدة لارضية القاعات الرخامية ، وهذا يؤيد ما رواه المقدسي من ان ارض هذا المسجد كانت مفروشة بالرخام . ويظهر ان صحن المسجد كان مبلطاً بالطوب فقط . وقد وجد هرتسفلد ان الجزء الاكبر من طوب ارضية الصحن لا يزال بحالته الاصلية لم تمتد اليه يد بينما طوب جدران الاسس قد اخذ جميعه ونقل من موضعه ولم يبق منه شيء اصلاً

﴿ الدعائم ﴾ يمكن معرفة شكل الدعائم اذا درسنا بعناية آثار مواضعها الباقية في الردم حيث لا تزال بقية باقية من الجص الذي كان يكسو قواعدها . وقد كانت هذه القواعد مربعة وطول كل ضلع منها ٢٫٠٧ المتر وترتكز عليها ارجل مثمنة مبنية بالطوب في كل ركن من اركانها الاربعة عمود من الرخام ذو تاج مركب . وقد امكن قياس اوجه الارجل الثماني حيث لا تزال بقاياها في الردم . وقد كانت بعض الاعمدة الرخامية مستديراً وبعضها مثمناً قطرها حوالي ٣٠ سنتمتراً . أما بدن العمود فكان يربي على المترين . وترتكز هذه الاعمدة على صفائح من الرصاص وتدور حولها اطواق من المعدن في مواضع هذا الاتصال . وقد لحظ على احدى الارجل (او الاساطين) بعض الرموز اليونانية التى كان يتركها البناءون اليونانيون مما يدل على صدق الرواية القائلة بجلب البنائين والاعمدة من اللاذقية وانطاكية (تراجع رواية اليعقوبي عن ذلك في المقال الاول)

وهذه الاعمدة الجانبية ذات تيجان وقواعد على شكل الساعة . وارتفاع داخل المسجد من البلاط حتى مواضع كتل السقف ٩٫٣٥ المتر وهذا يسمح بوجود تاج وقاعدة ارتفاع كل منهما ذراعان وعمود ركني بدنه مكوَّن من ثلاث قطع يضاف اليها تاج وقاعدة ارتفاعها ٥٠ سنتمتراً وكانت الاعمدة مختلفة الالوان والمواد وقد وجد منها تسعة الوان . أما من حيث المواد فكان اكثرها من الرخام وقليل جداً منها من الجرانيت وكانت الارجل مبنية بالآجر ومطلية بالجص بلون يتفق مع لون بدن العمود المتصل بها

ونحن لا نعلم على وجه الدقة كيف عولجت واجهة الصحن ولا الحالة التي كانت عليها الاَّ ان هرتسفلد عثر على اربعة عمد من اعمدة احدى الارجل في موضع اساس الركن الجنوبي الشرقي للصحن بالضبط واستنتج منها ان واجهة الصحن لم تكن تختلف مطلقاً عن صفوف الاعمدة التي خلفها . الاَّ انهُ لحظ ان اسس واجهة الصحن اعرض من اسس بقية صفوف الاعمدة

﴿ المحراب ﴾ وقد اثبتت حفائر هرتسفلد ان ما كان يظن من قبل انه باب في منتصف الحائط القبلي لم يكن في الحقيقة سوى محراب المسجد ولم يكن تجويف هذا المحراب مستديراً بل مستطيلاً

عرضه ٢٫٥٩ المتر وعمقه ١٫٧٥ المتر. وكان يحف به من الجانبين زوجان من اعمدة الرخام وردية اللون ذات قواعد وتيجان على شكل الساعة جلبت من عينتاب . وكان يرتكز على هذه الاعمدة عقدان مدببان متحدا المركز يضمهما اطار مستطيل يرتفع بارتفاع المسجد ويتكون من حز وخوصة منشورية وحز عريض وقطاعها جميعاً على شكل ثلاثة ارباع دائرة ولا يبرز هذا الاطار عن وجه الحائط . وقد كان خصرا هذين العقدين محلّيين بفسيفساء مذهبة . وقد عثر على عدة قطع من الزخارف الجصية ولكن لم يكن من المستطاع معرفة مواضعها بالضبط

ووجد هرتسفلد ايضاً ان البابين الواسعين اللذين يحفان بالمحراب ويعلوهما عتبان أفقيان لم يكونا مدخلين رئيسيين مفتوحين من الخارج بل كانا يوصلان الى غرف متصلة بالمسجد

وبوجه الحائط حول المحراب والبابين الجانبيين كثير من الحزوز الأفقية يعتقد هرتسفلد أنها آثار مواضع تركيب بعض الحشوات الخشبية

﴿ الزخارف ﴾ يقول المقدسي ان هذا المسجد كان يضارع مسجد دمشق في رونقه وبهائه وان جدرانه كانت مكسوة بالميناء. وقد اختلف رانكنج Ranking ولسترينج Le Strange في ترجمة هذه العبارة فترجمها الاول على انها كانت مطلية بالميناء « Enamel » وترجمها الثاني على انها تعني الواح الخزف او مربعات القاشاني الموهة بالميناء اما هرتسفلد فشك في صحة استنتاج هذين العالمين وذكر ان كلمة الميناء الواردة بهذه العبارة تعني الفسيفساء الزجاجية . وعزز رأيه هذا بالاشارة الى ما رواه اليعقوبي من أن المعتصم « حمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف» . ولكنهُ عاد فيما بعد وغير رأيه هذا وأبدى انها تعني الخزف ذا البريق المعدني لانهُ كان بلا شك شائعاً ومعروفاً في ذلك الوقت . ودليل ذلك اطباق القاشاني التي ارسلت من بغداد الى مسجد القيروان الكبير سنة ٢٤٨ ﻫ (٨٦٢ — ٨٦٣ م) وما زالت تحلي محراب هذا المسجد الى الآن

الاّ ان الاستكشافات التي قام بها في هذا الموضع في سنة ١٩١٠ على رأس البعثة الالمانية اثبتت صدق رأيه حيث عثر على كثير من بقايا الفسيفساء الزجاجية التي يمكن الآن معرفة الطريقة الفنية في صناعتها وان كان من المستحيل معرفة أشكال الموضوعات الزخرفية والرسوم التي كانت تتكوّن منها

﴿ الفوّارة ﴾ ولا تزال في وسط الصحن بقايا الفوارة العظيمة التي كانت بهذا المسجد وذكرها اليعقوبي بقوله « وجعل فيه فوّارة ماء لا ينقطع ماؤها »

ووصفها المستوفي بانها كانت من قطعة واحدة من الحجر . دورها ٢٣ ذراعاً وارتفاعها سبعة أذرع وثخانتها نصف ذراع وكانت تعرف بكأس فرعون . ولم تكن توجد قطعة واحدة من الحجر بهذه الضخامة في جوار سامرا ولا في المناطق المحيطة بها الى اكثر من ثلاثين فرسخاً

وروى المستوفي ايضاً انهُ (اي المعتصم) بنى مئذنة للمسجد ارتفاعها ١٧٠ ذراعاً يرقى اليها

من الخارج وهي متفردة في طرازها ولم يبنَ نظيرها من قبل . ولا شك انهُ بقوله هذا يشير الى فوّارة ومأذنة مسجد سامرا . وان كان قد عزا بناءه خطأً الى المعتصم . وقد أثبتت حفائر هرتسفلد ان الاساس الاسطواني للقاعدة كان مبنيًّا بالطوب ومونة الجير والرماد . وهو الجزء الباقي من هذه الفوارة . اما كأسها فكانت مرتكزة على قاعدة مكسوَّة بالرخام لا تزال بقايا جزء منها موجودة الى الآن . وعثر بجوار الفوارة خارج الاساس الاسطواني على قطع من أعمدة الرخام والتيجان وعلى زخارف جصية منقوشة ومذهبة ومحلاة بفسيفساء زجاجية . ولذلك يظن انهُ كانت هناك سقيفة من الخشب محمولة على دائرة من الاعمدة مرفوعة فوق هذه النافورة المسماة « كأس فرعون »

﴿ الزيادات ﴾ يتضح من دراسة الطرف الجنوبي للجزء الجنوبي من حائطي السورين الشرقي والغربي انهُ كان هناك حائط يتصل بهذين الطرفين . ودليل ذلك انهُ لا يزال يوجد بقايا بدء عقد منخفض بالحائط الغربي . مما يدل على ان هذا الحائط كان محلًّى ببوائك معقودة صماء مماثلة للبوائك المسدودة « برحبة الشرف » بقصر الاخيضر

وتدل الصورة الجوية التي صوّرت لهذا المسجد على ان هذه الحيطان التي لا يكاد يرى السائر آثارها الاَّ بصعوبة كانت جزءًا من سور عظيم كان يطيف بالمسجد من جوانبه الشرقية والغربيةِ والجنوبية وكان يحيط بهذا المستطيل العظيم من جوانبه الاربعة سور آخر يفصله عن السور الاول فضاء مكشوف عظيم الاتساع في الشرق والجنوب والغرب واكثر ضيقاً في الشمال . ويعرف هذا الفضاء المتروك بين السورين بالزيادة . وكانت جدران الزيادات جميعاً مبنية بالطوب ولكنهُ — مع الاسف الشديد — حمل أكثره الى جهات أخرى

ويتضح من حفائر هرتسفلد سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ ان أضلاع السور الخارجي كانت تبلغ ٣٧٦×٤٤٤ متراً أي ان مساحة المسجد والزيادات كانت تربي على ١٧ هكتاراً او أكثر من ٤١ فداناً . ولا شك ان الابنية التي كانت بها المراحيض وأماكن الوضوء او المطهرة كانت جميعاً بهذه الزيادات كما يشاهد ذلك في مسجد ابن طولون الذي بني على مثال هذا المسجد . وإن كان هرتسفلد — لسوء الحظ — لم ينشر للآن نتائج كشفه لهذه المواضع

وقد ذكر اليعقوبي ان المتوكل « جعل الطرق المؤدية الى المسجد من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي ابراهيم بن رباح في كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء لئلا يضيق عليه الدخول الى المسجد اذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله . ومن كل صف الى الصف الذي يليه دروب وسكك فيها قطائع جماعة من عامة الناس. فاتسعت على الناس المنازل والدور واتسع اهل الاسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والاسواق في صفوف المسجد الجامع . . . . الخ »

وقد عالج شفارتش Schwarz موضوع هذه الصفوف وعارض في ان وجودها بهذه العظمة والاتساع يستلزم ان تكون للمسجد واجهة تساوي تقريباً طول احد جوانبه تؤدي اليها هذه الصفوف . ولاجل ان يتغلب على هذه الصعوبة ظن ان هذه الصفوف لم تكن سوى الزيادات او الفضاء المتروك بين جدران المسجد والسور الخارجي . الآن هذه الصعوبة التي تخيلها هي في الحقيقة وهمية لانهُ لم يتنبه الى ان هذا السور الخارجي كانت اطوال اضلاعه ٣٠٦ × ٤٤٩ متراً وهي كافية تماماً لان تنتهي اليها هذه الشوارع او الصفوف الثلاثة

﴿ المئذنة ﴾ وتعرف بالملوية وتقع بالزيادة على بعد ٢٥ متراً من حائط المسجد وعلى محوره الاوسط تماماً وطول ضلع قاعدتها المربعة ٣٢ متراً وهي تتصل بالمسجد بأساس طوله ٢٥ متراً وعرضه ١٣ متراً وفي وسطهِ جسر صغير يوصل الى القاعدة حيث يبدأ المرقى بطريقة تشبه تماماً زيجورات بابل . والقاعدة محلاة الى جانبي الجسر ، بصفة (محراب صغير) مستطيلة قليلة الغور . وتعلو هذه القاعدة مئذنة حلزونية ذات مرقى سعتهُ ٢٫٥٠ المتر يبدأ من مركز او وسط الجانب الجنوبي ويدور في اتجاه عكس عقارب الساعة حتى تتم دورات خمس وكلما صعد الانسان الى اعلى زاد انحدار المرقى شدة . ويعتقد هرتسفلد ان هذا المرقى كان به قديماً درابزين من الخشب لان بالدرجات ثقوباً يظن انها عملت لتثبيت قوائم هذا الدرابزين الخشبي . وفي قمة هذا الجزء الحلزوني طابق آخر اسطواني قطره ستة أمتار وارتفاعه ستة أمتار كذلك محلى بثمانية صفف عقودها مدببة كل منها في اطار قليل الغور مدبب العقد يحمله عمودان صغيران من الطوب . وينتهي المرقى عند الصفة الجنوبية وهي مفتوحة وبها باب يوصل الى سلم شديد الانحدار يبدأ مستقيماً ثم يصير حلزونيًّا بعد ذلك . وفي نهايته نجد قمة المئذنة . وهي ترتفع عن القاعدة بمقدار ٥٠ متراً تماماً . وفي هذه القمة ثمانية ثقوب استنتج هرتسفلد من وجودها انهُ ربما كانت تغطي هذا الموضع سقيفة مرفوعة على ثمانية اعمدة خشبية مثبتة في هذه الثقوب . هذه هي صفة المئذنة الملوية الا ان ريفويرا Rivoira العالم الأثري الايطالي يشير اليها بقوله « ان المئذنة المربعة التي يتوجها في أكثر الاحيان طابق اسطواني علوي كانت الطراز السائد في عصور الاسلام الاولى كمئذنة مسجد الخليفة المتوكل بسامرا ومئذنتي مسجد ابن طولون والحاكم بالقاهرة ! »

﴿ نفقة المسجد ﴾ وقد بلغت النفقة على المسجد خمسة عشر الف الف درهم كما روى ياقوت الحموي أو ما يساوي اربعمائة الف جنيه استرليني بالعملة الانكليزية

﴿ التاريخ ﴾ والمؤرخ الوحيد الذي ذكر التاريخ الحقيقي لبناء هذا المسجد هو — على ما وصل اليهِ علمنا — سبط بن الجوزي وهو يقول انهُ بدىء في بنائهِ في سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٩ م) وانتهى العمل فيهِ في سنة ٢٣٧ هـ (٨٥٢ م)

مباراة الطبيعة

في خلق مواد جديدة للصناعة
والزراعة والزينة والصحة

كان الانسان في فجر التاريخ يعتمد على ما تمده به الطبيعة ليسد حاجات معاشه . أخذ الطعام من النبات والحيوان وكذلك اللباس . وكان يعتمد في السكن على كهف او غار . وقد ظلت الطبيعة ألوف السنين المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه الانسان في اكفاء حاجاته الاولية

ثم تعلم رويداً رويداً ان يدخل بعض التبديل على ما تمده به الطبيعة . فصنع من الظران ادوات للبيت وللقتال . ومن المعادن التي كشفها في الطبيعة كالنحاس خناجر وسكاكين . ومن ألياف الاشجار نسج ملابسه . ولعله توصل اتفاقاً الى الزجاج والحديد ، فكان كشفهما بدء عهد جديد في حياته . ولكن تقدمه كان بطيئاً . فالطبيعة كانت تضن عليه احياناً بالمواد التي لا يستغني عنها للمعيشة والسلامة . فكان الجوع غير نادر والأوبئة كثيراً ما حصدته بالألوف . فلما ارتقى نظامه الاجتماعي والسياسي واشتدت حاجته الى مغالبة آلام الفاقة والجوع وضرورة توفير الاشياء التي تزيد من رفاهيته اندفع الى أخذها بالقوة من غيره اذا تلمسها فلم يجدها فيما يملك

والاستيلاء على الارض بالقوة او بالتهديد بها ليس عملاً شاذاً في التاريخ . والواقع ان الملوك والاباطرة منذ عهد الاسكندر الكبير جروا على توسيع نطاق ممالكهم بالفتح الحربي . وكان الهدف الأول الذي يتجه اليه هذا الفتح الفوز بموارد ومواد تحتاج اليها الدولة الفاتحة كالذهب والمواشي والحبوب . والفتح الحربي في هذا العصر لا يختلف كثيراً عن الفتح الحربي في العصور الماضية . لأن من الأهداف الأولى التي تتجه اليها الدول الفاتحة الاستيلاء على موارد المواد الخام اللازمة للصناعة والغذاء . ولكن العلم الحديث في نواحيه التطبيقية المختلفة مهد للامم طرقاً الى موارد جديدة لا تجدها في الطبيعة فكانت فتوحاته خالية من العنف . وبانشاء الصناعات الجديدة فتح باب عمل جديد لعشرات الالوف من العمال

تعلمنا في كتب مبادىء العلوم ان في الطبيعة ثلاث ممالك — مملكة الحيوان ومملكة النبات ومملكة الجماد . وقد دلتنا المباحث الصناعية الجديدة على أن المواد التي تمدنا بها الطبيعة يجب ان تعتبر على الغالب خامات تصنع منها مواد أخرى صالحة للاستعمال . ومع ذلك ما زلنا نتناول من الطبيعة مواد للغذاء والصناعة نستعملها كما هي وقلما نحدث فيها تبديلاً . منها مواد الغذاء النباتية والحيوانية والفحم

وغيرها . وذلك لان الفنون الصناعية الحديثة ما زالت عاجزة عن صنع ما يحلُّ محلّها أو تحسينها فالانسان لا يزال عاجزاً عن صنع قطعة من الشواء تفوق شواء العجل او وردة تجاري الوردة الطبيعية في لونها وشذاها

ولكن هناك طائفة كبيرة من المواد الطبيعية تناولها الانسان من الطبيعة وعالجها بفنه وعلمه فغير فيها وبدّل فغدت وهي أصلح للاستعمال مما كانت ، او انهُ صنع ما يحلُّ محلّها بالتركيب الكيمائي الصناعي . وهذه المواد هي ما أطلق عليهِ الدكتور بنجر Benger مساعد المدير العام لقسم البحث الكيمائي في شركة دو بونت ده نمور الاميركية وصف « المملكة الرابعة »

كان غزو هذه المملكة الرابعة غزواً بطيئاً في بدئهِ . ولكنهُ بلغ الآن مرتبة عالية من الارتقاء والاتقان بعد قرن من البحث والتنقيب وتمهيد السبيل الوعر . ولعلهُ يصحُّ لنا ان نقول ان تمهيد الطريق الاول ، أو أحد الطرق الاولى ، الى هذه المملكة تمَّ في سنة ١٨٢٨ عند ما ركّب الكيمائي الالماني وهلر Wöhler مادة عضوية — هي اليوريا — بالتأليف الكيمائي . فقد كان الرأي حتى ذلك العهد انهُ من المتعذر على الانسان ان يصنع بالتأليف الكيمائي مركباً من المركبات التي تنتجها المادة الحية . فاقامة وهلر الدليل على فساد هذا القول يصحُّ ان يعتبر الضربة الاولى في غزوة المملكة الرابعة

وبعد انقضاء ثلاثين سنة على عمل وهلر هذا حاول الكيمائي الانكليزي بركن ان يصنع الكينين بالتأليف الكيمائي . فأخفق في ما سعى اليهِ ولكنهُ توصل الى معرفة حقيقة اعظم شأناً من مجرَّد صنع الكينين كما أراد . ذلك انهُ فاز باستخراج الصبغ الاول من قطران الفحم الحجري [1] . واذا كنا لا نزال قادرين على استخراج ما نحتاج اليهِ من الكينين من مورده النباتي الطبيعي فليس هناك أحدٌ يودُّ ان يستغني عن عشرات الاصباغ الزاهية التي تستخرج من قطران الفحم الحجري

هذه البداية البسيطة اقنعت الباحثين بأن في وسعهم ان يأخذوا المواد الطبيعية ويصنعوا منها او يستخرجوا منها مواد اخرى لها الف استعمال واستعمال فاقبلوا بهمم مشحوذة وعقول يقظة على غزو المملكة الرابعة . وهذا الغزو تدور رحاهُ الآن في ١٧٠٠ معهد من معاهد البحث في الولايات المتحدة الاميركية وحدها ويشترك فيهِ جيش من الباحثين عددهُ اثنان وثلاثون الف باحث وتنفق اميركا فيها ٥٠ مليون جنيه في السنة وهي نفقات يسيرة بالقياس الى ثمارها . ومن سخرية الاقدار ان نفقة البحث العلمي الصناعي في اميركا تساوي ما ينفقهُ الشعب الاميركي على مطريات الجمال فقط! فلنلتفت الآن الى بعض المواد التي اسفرت عنها هذه الغزوة العلمية الصناعية

(١) راجع تفصيل ذلك في مقال « اسطورة زيت القطران » في هذا الجزء وعلى اثر تلاوته وتصحيح تجاربه كتبنا مقالنا هذا معتمدين على المجلة الشهرية العلمية

صناعة النسج صناعة قديمة . ولكن الباحثين في العصور الحديثة لم يكشفوا ليفاً جديداً يصلح للنسج يضاف الى الياف الكتان والقطن والحرير مثلاً الا في العهد الاخير . وقرّاء المقتطف يعلمون الشيء الكثير عن خيط النسج الجديد الذي يعرف عادة باسم « الحرير الصناعي » او « الريون » واتساع نطاق استعماله في خلال العشرين الى الثلاثين السنة الاخيرة. فالولايات المتحدة وجدها تستهلك من الريون Rayon سبعة اضعاف ما تستهلكه من الحرير الطبيعي . والريون يصنع من سلولوس القطن والخشب فصناعتهُ تعتمد على الطبيعة في الفوز بمادتها الاساسية

ولكن البحث الصناعي الحديث افضى الى خيط نسج جديد يدعى النيلون (Nylon) وهو اسم عام لطائفة جديدة من خيوط النسج تشبه « البروتين » في تركيبها الكيمائي فهم يصنعون من « البروتين » الآن خيوطاً ادق قواماً واقبل للمطّ من الخيوط الطبيعية وهي اصلح ما يكون لصنع جوارب السيدات . ومن المتوقع ان يتقن صنع النيلون وينوّع بحيث يصلح لبعض منسوجات اللبس وغيرها

ومن النيلون استخرجت مادة تدعى اكستن Exton تستعمل في صنع فرش الاسنان . وهذا الشعر امتن من الشعر الطبيعي ولا يلين مثلهُ عند بله في الماء ومنه تصنع ادوات كثيرة يستعملها الصيادون

تقدمت الاشارة الى اكتشاف بركن الصبغ الصناعي الاول وهو الصبغ المعروف باسم الصبغ البنفسجي Mauve . وقد كانت صناعة النسج تعتمد قبل بركن على الاصباغ النباتية والحيوانية في صبغ الاقمشة بشتى الالوان . وكانت الاصباغ الطبيعية قليلة والمنسوجات التي تصبغ بها غير زاهية اللون ثم ينصل لونها اذا غسلت وجففت او اذا تعرضت للضوء وبعضها كان غالي الثمن . فالصبغ الارجواني المنسوب الى صور كان يستخرج من صدف بحري في البحر المتوسط وكان ثمنهُ غالياً فيعجز عن شرائه عامة الناس ولا يستطيعهُ الا الملوك والاشراف فلذلك اصبح لبس المنسوجات الارجوانية اللون من خصائص الملوك . ولكن الكيميائيين المحدثين يستطيعون ان يستخرجوا من قطران الفحم الحجري عشرات الاصباغ متباينة الالوان وهي ثابتة لا تنصل ورخيصة لا تعجز . ولولا اصباغ المملكة الرابعة وأليافها الكيمائية لما كان لصناعة النسج الحديثة قوام او كيان.

ومن العجب ما صنع في ميدان الالياف الكيمائية الياف تصنع منها أقمشة لا تنثني ولا تنكمش ومانعة لاختراق الماء لها وتسهل ازالة البقع الناشئة عن سقوط المطر عليها بمواد كيميائية معينة . ومنها عشرات من المواد منها ما يصلح لتنظيف المنسوجات في المياه القاسية واللينة على السواء ولكنها ليست صابوناً وأخرى للقصر والصبغ وأخرى لتنفير العث ومنع العفن وطلي المنسوجات فلا يخترقها الماء

ونحن نتناول من المملكة المعدنية الفحم والجير والملح فنصنع منها مادة مركبة جديدة تشبه في كثير من اوصافها مادة طبيعية تعرف بالمطاط . وهذه المادة المركبة تدعى « نيوبرين » فهي مطاطة كالمطاط الطبيعي قوية مثله ولكنها تخالفه في مقاومتها للفواعل الكيمائية . فالمطاط

الطبيعي اذا عولج بالدهون او الشحوم تأكل ولكن النيوبرين لا يتأثر بهما . والنيوبرين أغلى من المطاط الطبيعي اربعة اضعاف ولكن اتصافه بالمقاومة للدهون والشحوم على خلاف المطاط الطبيعي يفتح امامه اسواقاً كان لا بد من بقائها مغلقة لو كان هو والمطاط الطبيعي شيئاً واحداً . ومدى حياة النيوبرين في كثير من هذه الاغراض يفوق مدى حياة المطاط الطبيعي من عشر اضعاف الى اثني عشر ضعفاً او اكثر

وقد استعمل النيوبرين في خمسين غرضاً مختلفاً في صناعة السيارات وحدها . ولعلّ العجائن المصنوعة بالكيمياء والصناعة هي اوسع مواد المملكة الرابعة استعمالاً . فهي تستعمل مع الخشب والمعدن والمطاط والعاج والعنبر وغيرها او تحل محلها تماماً في افلام الصور المتحركة واجزاء السيارات وصناديق الاجهزة اللاسلكية والالواح الشفافة في مقدمة الطائرات والاجهزة الكهربائية والاسنان الصناعية ومنافض السجائر والازرار والجواهر الصناعية والعصي ومقابضها وغيرها . وعلى ذكر العجائن نحيل قرّاء هذا المقال على مقتطف اغسطس ففيه طرف من تاريخ العجائن الصناعية واستعمالها ولا سيما في صناعة الطائرات

ومن احدث هذه العجائن مادة تدعى « لوسيت » Lucite واسمها العلمي « ميثل ميثا كرايلايت » وهي تصنع من الفحم والهواء والماء ومن صفاتها أنها قاسية شفافة فتصلح لصنع أدوات الزينة في البيوت وفي أغراض صناعية اخرى

خذ مثلاً على ذلك الاعمدة التي تقام عند منحنيات الطرق وتثبت فيها أزرار تتوهج كالمصابيح اذا وقع عليها ضوء فتحذر السائق المسرع وتنذره بما امامه . وقد صنعت الازرار التي في ألواح شارع معين بدترويت من مادة اللوسيت فقلت حوادث الاصطدام والسقوط الليلية ٧٩ في المائة في فترة لم تقل فيها حوادث النهار الا ٣٧٫٥ في المائة . وقد أضيف من عهد قريب مادة جديدة الى هذه الطائفة من المواد الصناعية وهي المعروفة باسم « بوناسيت » واسمها العلمي « بوليفنيل اسيتال » واصلح ما تصلح له صنع الزجاج الذي لا يتشظى . وقد صنعت ألواح من هذه الزجاج وامتحنت في معهد فرانكلن بفيلادلفيا باسقاط كرة من الصلب وزنها ٩ أوقيات من ارتفاع ٨٥ قدماً عليه فتشقق الزجاج ولكن المشاهدين لم يصابوا بشظية ما منه مع انهم كانوا على اربع اقدام من اللوح

أما الكافور فمن المواد التي لا غنى عنها في صنع عجائن النتروسلولوس المستعملة في صناعة أفلام الصور المتحركة وعشرات غيرها من الاغراض الصناعية. وقد كان مورد الكافور الطبيعي اشجار الكافور التي كادت تكون محصورة في جزيرة فورموسا اليابانية الواقعة أمام سواحل الصين في المحيط الهادىء . وكانت السيطرة على سوق الكافور لليابانيين يتحكمون باسعاره كما يشاؤون . ولكن الكيميائيين تمكنوا من استنباط طريقة يعالجون بها التربنتينا المستخرجة من

شجر الصنوبر فيتحول كافوراً كالكافور المستخرج من اشجاره في فورموسا . وقد كان سعر الرطل من الكافور الطبيعي في سنة ١٩١٨ خمسة وسبعين قرشاً ولكنهُ لا يزيد الآن عن سبعة قروش!

اما حديث الاسمدة الكيمائية فليس فيه جديد على قرّاء المقتطف فحسبنا الاشارة اليه ولكن حديث اليوريا حديث متكرّر وهو الذي مهّد السبيل الى غزو المملكة الرابعة .

واليوريا على ما تعلم مادة تستخرج من مفرزات الحيوان وكان الظن قبل وهلة ان الفوز بها من غير الحيوان متعذر ولكن شركة دوبونت الاميركية تصنع الآن مقادير كبيرة منها من الفحم والهواء والماء . ومما تستعمل فيه اليوريا صنع معجانٍ قاسية تصنع منها ادوات منزلية كثيرة لا تتكسر كالصحون والاكواب والموازين البيتية ثم انها تستعمل كذلك في شفاء الجراح المستعصية فتندمل

ومن المواد المستعملة في صناعة المعجانٍ مادة الفورمالدهيد — بل هي في الواقع اساس هذه الصناعة . والفورمالدهيد مادة تصنع من كحول الخشب Methyl ولكنها قد تتحد باليوريا او بكاسين اللبن او الفينول المستخرج من قطران الفحم فتتولد معجانٌ متنوعة الاوصاف

وقد كان الخشب مصدر كحول الخشب يستخرج منهُ بالتقطير ولكنهُ يصنع اليوم بالتركيب الكيمائي من الفحم والماء والهواء

ولا تقتصر فائدة المواد التي تشملها المملكة الرابعة على رجال الصناعة بل تتعداهم — الى رجال الزراعة فيفوزون فيها بمبيدات للحشرات تفوق في فعلها وقلة ضررها ما كانوا يستعملونهُ حتى الآن ، والى السيدات والغواني فتفزنَ بكثير من العطور الزكية التي يتعطرن بها ، والى رجال الطب فيحصلون منها على الفيتامينات المركبة بالتأليف الكيمائي والعقاقير والانوار

خذ مثلا على ذلك مادة « لورو » وهي من افعل مبيدات الحشرات واقلها خطراً . والمادة الاساسية في عطر المسك المستخرجة من غزال المسك وكان ثمن الرطل ٨ آلاف جنيه فصنعت بالتأليف الكيمائي فلا يبلغ ثمن الرطل منها الاَّ جزءاً يسيراً من ثمنها الاول . وفيتامين C المصنوع بالتركيب الكيمائي اذ قد ثبت ان حامضاً يدعى الحامض الاسوربيك Ascorbic هو وفيتامين C سواء . والعقّار العجيب المعروف باسم سلفانيلاميد وصنوه السلفابيريدين كلاهما مستخرج من صبغ مستخرج من قطران الفحم الحجري

ولا غنى لنا عن ذكر الاخلاط المعدنية الجديدة قبل ختام هذا المقال . فهناك أصناف متعددة من الصلب فقط تختلف خواصها باختلاف المعادن التي يخلط بها الحديد فمنها صلب للمدافع وآخر للسكاكين والشوك التي لا تصدأ وثالث لكرات مجلات السيارات والقطارات . وهناك الادهان (الورنيش) التي تجف جفافاً سريعاً ولكنها تخلّف طبقة جامدة لامعة . وغيرها عشرات بل مئات من المواد التي تجد متسعاً لها في شتى الصناعات الحديثة وما تقدم ليس الاَّ على سبيل التمثيل

البحث التاسع

خليل مطران
شاعر العربية الابداعية

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

شخصية مطران

(توطئة) في الانسان وراء المظاهر التي تلابسه اصل ثابت هو الشخصية البشرية . وقد تتغير المظاهر التي تلابس الانسان في الحياة . ولكن الشخصية رغم ذلك ثابتة لا تتغير مثلها في ذلك مثل مثلث مختلف الاضلاع، اذا نظرت اليه في مختلف أوضاعه ، فانك تراه يتغير معك في الشكل ، وهو بعد ذلك مع النظر الدقيق لم تتغيّر عناصره في شيء .

والشخصية البشرية مجموعة من الصفات الخَلقية Ethnic (التشريحية والجسدية) والخُلقية Ethic (النفسية والعقلية) تداخلت، فكان منها ذلك الاصل الثابت في طبيعة الانسان الذي يتظاهر من وراء مجموع سلوكه في كلتا حياته : الفردية والاجتماعية . والنزول الى الاصل الثابت من سلوك الانسان في الواقع كشف عن الخطوط الاساسية التي تتداخل في بناء نسيج الشخصية

وشخصية خليل مطران في الواقع لا تخرج دراستها عن هذه القاعدة ولا تشذ عنها . فحركاته وسلوكه في حياته التي انعكست على مدى ثلاثة اجيال من الزمان ، تفصح عن الاصل الثابت من ذاتيته ، ذلك الاصل الذي تقوّم به في سلوكه في حياته، والذي اتخذ امتداداً منتظماً في الزمان

ولفهم شخصية الخليل على حقيقتها من كلتا الناحيتين : الخَلقية والخُلقية يجدر بنا ان تنظر في نشأة الرجل . ومعرفة هذا امر تكتنفه المشاق لتغلغل اصول شخصيته في دور الطفولة حيث لم يكن الوعي قد تيقظ . ومع ذلك في وسعنا ان نضع موضع النظر هذه الحقيقة: وهي ان الخليل أفصح في طفولته عن مزاج عصبي اصيل وطبيعة ذات حيوية مستفيضة . ولا شك ان هذا المزاج وتلك الطبيعة ألجمها في نشاطها ، نشاط الغدة النخامية ، التي كانت سبباً في ان يراجع الخليل اعماله بنفسه self-control . ولا شك ايضاً ان ظاهرة المراجعة لم تبد واضحة الا في سن متأخرة من سني الشباب ، آية ذلك ما كانت تنساق اليه شخصية الخليل الأولى من مغامرات ، الاصل

فيها شدة الحيوية وزخور المشاعر واتقادها . من ذلك ما كان من شأنه حين حاول مجاراة كبار أفراد أسرته في السباق على متن الجياد فكان ان فلت الزمام من يده وتردى من متن جواده على الارض ، فتكسرت نتيجة لسقوطه بعض ضلوعه وعظمة أرنبة أنفه . وهو لا يزال يحمل آثار هذه السقطة في أنفه الى اليوم

والواقع ان هذه الحيوية الفائضة ، لانها لم تكن خاضعة لأية مراجعة من النفس ، كانت تنقلب الى بعض الطيش . وكان يساعد الخليل على ذلك ما كان يلقاه في جو الاسرة من الحرية وعدم المراجعة — فلما شبَّ الخليل وكثرت عثراته أخذ يخلص مع الزمن والتكرار من عثراته بفكرة مراجعة ذاته — ولا شك انهُ عاود نفسه وراجعها كثيراً فيما كان يعزم عليه خصوصاً بعد ان تشبعت عقليتهُ اللاواعية بهذه الفكرة التي أوحتها اليه عثراتهُ — ولا شك في ان نقطة التحول في سلوكه كانت سقوطه من متن جواده وانكسار عظمة أرنبة أنفه . فما كان يحمله من التشويه في أنفه المستوقف للنظر كان اكبر موحٍ له على الحذر . ولا شك ايضاً في أن هذا الحذر لم يكن ليتحقق معهُ ، الاَّ بأن يسندهُ عامل داخلي . ويظهر ان الخليل وجد في ذلك الحين في نشاط غدته النخامية ما يسند محاولتهُ هذه ، فكان من ذلك ان نشأت فيه مع الزمن قوة على ضبط النفس ومراجعتها . وهذا التحول وان كان طبيعيًّا فانهُ لم يكن وليد يوم وليلة . وانما كان نتيجة محاولات من الخليل لضبط نفسه يسندها نشاط العضو الضابط للشخصية . فكان من ذلك مع الزمن تلك القوة على ضبط النفس ومراجعتها

فنحن نرى أول ما نرى في شخصية الخليل قوة العقل وضبط النفس . ولهذا نجد عقل الخليل نما فأصبح أقوى من قلبه . ومن هنا ايضاً كان تفكيره أزخر من عاطفته . ولا شك ان هذا هو الاصل فيما يلاحظ على شعره من تداخل العقل في شبكة الانفعالات والعمل على خلخلتها وضبطها في نسب موزونة تنزل عند حكم الفكر . فأنت ترى قصة غرام مطران كما سجلها في حكاية عاشقين من الديوان رغم ما تتطلب مواقفها من ارسال المشاعر حادة مترعة بالوجدان فائضة وعلى وجه خاص في المواقف التي أملت عليه قصائد « تذكار » و« مثال في مرآة » و« الى حبيب ميت » ، عناية بالتصوير[1] وهذه العناية بالتصوير تبين ان نفسه لم تكن ممتلئة بالموقف ، والاَّ لنسي في غمرة المشاعر ريشة المصور ، وأطلق أحاسيسه نبضات حارة من القلب

كذلك نرى هذه الصفة في اعتكاف الخليل بضاحية « عين شمس » بعدان فقد ثروته في المضاربات المالية

(١) التصوير عناية بالنسب والالوان والظلال والانوار وجعلها متسقة ، وهي تحتاج الى عنصر الفكر الذي يضبطها . ولا شك ان الاستغراق أساس في فن التصوير ، وهو لا يترك المجال لاي شعور آخر . ومن هنا نأخذ عناية الخليل بالتصوير في الحالات النفسية الثائرة دليلا على تداخل عنصر الفكر من جهة وضبطه المشاعر من جهة أخرى حتى لا تطغى وتفسد على الريشة عملها التصويري

التي كان كلفاً بها ، وتفكيره في الانتحار بفقد الروابط التي تربطه بالحياة الاجتماعية في هذا العصر المالي، ثم في تناوله فكرة الانتحار بالنظر،وخلوصه من ذلك بأنها نداء لا يحقق غرضاً الا الهروب من مواجهة الحياة،ثم بعد ذلك تجد في عملية التعويض التي قام بها مفرجاً عن نفسه ، ونظمه قصيدة « الاسد الباكي » ، بعض ما يبين هذه الطبيعة الغالبة على شخصيته

على ان الخليل وان خلص بحكم المراجعة الذاتية بقدرة على ضبط النفس ، فان طبيعته الاصلية كرجل عصبي المزاج مرهف الاحساس سريع الانفعال ، كانت تهيء اعصابه للتأثر بالانفعالات الدقيقة للوهلة الأولى . وهو بعد ذلك يضبطها ويحللها ويصفيها في نسب دقيقة وينزلها عند حكم العقل بادخال عنصر الفكر فيها

— ١ —

كل منا يخرج الى الحياة بمجموعة من الميول الفطرية والغرائز التي تنشط من عقالها وتطلق شحناتها الكامنة تحت تأثير البواعث stimuli المختلفة . وتجاربنا الاولى وأعمالنا في الواقع تلوّن ميولنا وغرائزنا الطبيعية بلون خاص،تدخل في نسيج شخصيتنا الذي يتكوّن مع الزمن. ولما كانت الميول والغرائز التي نخرج بها الى الحياة تقريباً واحدة جميعاً في تأثيرها في دور الطفولة الأول ولا تصل الى دائرة الوعي ، فان تجاربنا وأعمالنا في تلوينها لها تعمل على نشأة الواعية من أعماق اللاواعية ، كجزائر منفصلة تتحد تدريجيًا وتكوّن وحدة من الوعي المستمر . ونشأة الوعي المستمر برجوعها الى تجاربنا التي نخلص بها من معاملتنا الخارجية مع الحياة ، تتقوّم بالمؤثرات التي تكتنفنا ، ومن هنا كان ما للبيئة من شأن وتأثير في انشاء الواعية وبناء الشخصية

ومما هو جدير بالنظر ملاحظة المؤثرات الخارجية التي تعمل كعوامل مساعدة لاطلاق الشحنات الكامنة في غرائزنا ، والموازنة التي خلص بها الخليل في حياته ، تثبت ان المؤثرات الخارجية في تأثيرها في غرائزه كانت متوازنة ، عملت على خلق خلة المراجعة والمعاودة في طبيعته . ولا شك ايضاً ان الخليل نشأ خلواً من التعقيدات complexes النفسية ، لان اطلاق الحرية لميوله الفطرية وغرائزه وعدم الضغط عليها ، اتاح لها ان تنمو نمواً متوازناً طبيعيًا. ومن هنا لا نحس في شخصية الخليل بالتقبض على الذات والتفرد، الشيء الذي يثبت أنهُ لم يعان أزمات نفسية في طفولته . وسلوك الخليل يثبت أن انطلاق الطاقة المخزونة في أعصابه ، لا يسيل في مجرى ضيق يُحشَدُ فيها . ومن هنا يمكن القول بان انطلاق طاقة الرجل تأخذ صورة فيض وسيل في مجرى متسع في غير جلبة او ضجيج ، مثله في ذلك مثل انطلاق السيل في مجرى نهر متسع ، يجري فيه بهدوء حتى يصب في النهر . وهذا ما يبدو في صبه انفعالاته الشعرية في تفاعيل رحيبة متسعة . ومن هنا لا تبدو الذبذبات السريعة والحركات المتلاحقة والاصوات المتعالية الرنين

في توقيع شعره على اوتار نفسه ، لان هذه الاوتار غير مشدودة كل الشد ، وانما هي مربوطة عند الحد الذي يرسل الذبذبات هادئة طويلة النغم خافتة النبرات

والواقع انهُ اذا كان الشعر وما يلبسه من الصور مظهراً لشخصية الشاعر ، فان الايقاع الذي في شعر الخليل مظهر للايقاع الذي تستثيم (تستهوي) لهُ اعصابه من الايقاع الذي في الطبيعة. آية ذلك ان الخليل شاعر تظهر في شعره قوة التوقيع . غير ان اتساع افق النفس ورحابة مدى الانفعالات ، يجعلان هذا التوقيع يظهر في صور خاصة وضروب من التفاعيل يختص بها في شعره. ودراسة تفاعيل شعر الخليل تبين ان جلها يجيء من ابحر محدودة وتفاعيل خاصة . المطرد منها في شعره ، تلك الابحر المعروفة برحابتها واتساعها ، كالمديد والطويل والوافر والكامل فهي اكثر اتساعاً للفكرة . وعنصر الفكرة غالبٌ على شعر الخليل . هذا من جهة ومن جهة اخرى لان نفسية الخليل اكثر استنامة واستهواء لهذه الابحر الرحيبة الواسعة . والواقع ان لهذه الاستنامة دلالتها على روح الرجل ، فان في تلك الابحر من المدات الطويلة التي تلج النفس وتبرز منها ، ولوج الامواج المديدة للشاطىء وبروزها من البحر ، بعض ما في شخصية الخليل

فنحن نعرف ان جميع آثار الشاعر تستمد عادة من سوائق vehicle وخصائص . هذه السوائق في الشاعر غيرها في الناثر وهذه حقيقة تبدو واضحة للنظر من مراجعة آثار شخص مثل الخليل له آثار في كل من بابي النظم والنثر من الكلام. والواقع ان كل انسان منا له مدى ضيق يدور فيهِ بطاقتهِ للوصول الى غرضهِ ، والترابط بين طاقة الشاعر والتفاعيل التي يصب فيها مشاعره واحساسهُ وأفكاره ، تبين نوع استهوائهِ ، الشيء الذي يشير الى طبيعتهِ. هذا ويجب ألاَّ ننسى ما للغرض (او الموضوع) من الاثر في تلوين المدى والطاقة بلون خاص ، فشعر الرثاء يستوجب من ابحر الشعر الوافر او البسيط وما يقاربهما ، وان كان بعد ذلك تقطيع البحر الذي ينظم فيهِ الشاعر هو الذي يدل على طبيعته . ثمَّ يجب ألاَّ ننسى ان للغة اثراً في تكييف آثار الشاعر ، كذلك لضروب التفاعيل المستخدمة في شعر تلك اللغة نفس ذلك الاثر ، وهذا ما فطن اليهِ المتقدمون من نقاد الافرنج [1] فلاحظوه في دراساتهم النقدية . هذا ونحن نعرف من دراسة بحور الشعر العربي دراسة يراعى فيها مقتضى الحال من النفسية — ان بحر الرجز لا يصلح للرثاء ، لأنْ ما فيهِ من الامتدادات السريعة لا يستقيم مع ما في فكرة الرثاء ومقامه من التوجع والتريث ومن هنا نتبين ان الموضوعات والاغراض التي يقال فيها الشعر ان كانت تملي الى حد كبير التفعلة التي يقال فيها الشعر ، ولكن التقطيع الخاص لضرب البحر يدل بعد ذلك على ذاتية خاصة للشاعر

(١) Mathew Arnold, Maurice de Geurin, in Frexiser's Magazine, Jannuary 1863

والواقع اننا لمسنا في نظم مطران غلبة البحر المديد وما يتفرع عنهُ من الأعاريض والأضرب ، وميلاً للتخميس يظهر في اكثر من قصيدة طويلة من منظومات الديوان. فان الاصل في ذلك ليس محاولة افراغ الفكرة المتصلة المتسلسلة في الخاطر فيما يتسع لها من الأبحر فحسب ، وانما الاصل فيه طاقة الشاعر التي تنساب في الأبحر الطويلة المتسعة ، مما يبين ان اعصابهُ ترسل انفعالاتها (التوقيعية) طويلة الذبذبة مديدة الحركة

وهذه الحقيقة ان خلصت بها من دراسة ابحر شعر الخليل ، فانك يمكنك ان تصل الى نفس النتيجة من دراسة موسيقية شعره . فلشعر مطران موسيقى هادئة خافتة النبرات ، ولعلّ هذا الهدوء وخفوت النبرة ، هو السبب في انكار الذوق المصري العام لموسيقية الرجل في شعره . فقد حدّثنا الاديب الشاعر عبد اللطيف النشار ان الذوق المصري لا يؤخذ بموسيقية شعر الخليل ، لأن الذوق المصري لا يستهويه (او يستنيمه) غير النبرات الظاهرة والموسيقى الصاخبة والحركة والجلجلة في التوقيع . وهذا صحيح ، وأظهر ما تكون الروح المصرية في الشعر في موسيقية شعر البها زهير ، ثم موسيقية شاعر كمام حلمي او صالح جودت من المعاصرين

على انهُ بعد ذلك لنا عودة الى الموضوع في شيء من الاستفاضة المدعمة بالشواهد والاستقراءات حين نعمد الى الكلام عن فن مطران وصناعته الشعرية

***

مثل هذه الطبيعة الرحية الجنبات بعيدة عن التعصب ، لأن الأصل في التعصب ، انطلاق الشحنات المفرغة من الاعصاب في مجرى ضيق. ومن هنا يمكننا ان نعرف الاصل في سماحة نفس الخليل واتساع افق شعوره ورحابة مدى ذهنه . فالرجل حرُّ الفكر ، الى اقصى ما تعرفهُ حرية الفكر من حدود . وذاتيته لا تعرف معنى التعصب لمذهبية دينية كانت ام جنسية ، فكرية كانت ام ادبية . فأنت ترى ان الرجل وان كان من المجددين ولف لفهم ، فان الجديد لم يملك على نفسه المسالك . ومن هنا تجده في تجديده ، يعمل للجديد بلا ثورة . يلتزم القديم حين يجد في هذا الالتزام تحقيقاً لغرض فني ، ويتخلص من القديم حين يرى القديم لا يتفق والغرض الفني الذي يرجوه . وهذا يفسر لنا قوله :

[عدت الى الشعر وقد نضج الفكر ، واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي ان يكون الشعر . فشرعت أنظمه لترضية نفسي حيث أتخلى. او لتربية قومي عند وقوع الحوادث الجلى . متابعاً عرب الجاهلية في مجاراة الضمير هواه ومراعاة الوجدان على مشتهاه، موافقاً زمني فيما يقتضيه من الجرأة على الالفاظ والتراكيب لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الاساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدي بأصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها .] (١)

كذلك تجد ان الرجل وان كان من الروم الكاثوليك، وصاحب عقيدة خالصة في الدين،

(١) ديوان الخليل — بيان موجز في تقدمة الديوان

فان الدين لم يملك عليه شغاف قلبه ، ومن هنا نجده صاحب مرونة في عقيدته الدينية ، وصاحب فكرة في الاصلاح الديني بلا ثورة . ويمكن استقراء فكرات مطران في الدين من قصيدته « الطفل الطاهر » من الديوان . وهذه المرونة وهذه الرغبة في الاصلاح تبرز قوية في في انتصاره للحرية الفردية ضد تسلط رجال الكهنوت

والقصيدة كلها انتصار لحرية الشخص في الحياة: في العمل وفي الاعتقاد ، وهو يرى عكس ما يراه رجال الكهنوت من الهوّة السحيقة بين مذاهب ديانة سمحاء مثل المسيحية، فجميع المذاهب عنده تلتقي عند اصل واحد ، ثم تتفرق لصالح الناس لا لضرهم

— ٢ —

الناس أحد اثنين، رجل ذي طبيعة فعالة (مؤثرة) active او رجل ذي طبيعة منفعلة (متأثرة) passive، والطراز الاول من الناس يحملون في نفوسهم صورة الذكر animus بعكس الطراز الآخر فانهم يحملون صورة الانثى anima في روحهم . والطراز (او الطابع) المذكر masculine type يتميز عادة بالقدرة على مراجعة النفس وحب التسلط والقوة ، وطلب الجاه والمقام . ومعظم القائمين بالأعمال من هذا الطراز . اما الطابع المؤنث feminine type من الرجال فيتميزون بقوة الاحساس وزخور المشاعر والجري وراء المثاليات والخياليات. ولاشك ان مطران مزيج من هذين الطابعين ، فله من الطابع الاول القدرة على مراجعة النفس ، وطلب الجاه ، وحب المغامرة . وهذا ما يظهر في الجانب العملي من حياته . كما ان له من الطابع المؤنث الاحساس الدقيق وزخور الشعور والتعلق بالمثل العليا والجري في عوالم الخيال والتحليق في سماوات عوالم الابهام Fantasies على ان خروج الخليل بهذا المزيج في شخصيته ، جعله يلف مشاعره وأحاسيسه في صور. ومن هنا جاء الاصل التصوري في طبيعة الرجل[١]

ولفّ الخليل مشاعره وأحاسيسهُ في صور يبدو من استقراء دقيق لشعره ، فحكاية عاشقين، وهي تسجل قصة حب الشاعر، طغى على مواقفها الشعرية التصوير والوصف ، والواقع ان مطران وصّاف مصوّر من الطبقة الاولى بين شعراء العربية لا ينافسهُ في هذا غير ابن الرومي. وبراعة الخليل في الوصف والتصوير مشهود لهُ بها . والاصل فيها طبيعة المراجعة التي تأصلت في نفسهِ . والتي تدفعه الى العناية بتفاصيل الامور وجزئياتها ، ومن هنا اعادة الكرة تلو الكرة على الشيء الواحد حتى ينتزع منهُ مجموع اشكاله وينزل بها الى مقوماته من الجزئيات والتفاصيل ولعلّ هذه الناحية التصويرية والوصفية هي التي اعانت الخليل على ان يكون شاعراً قصاصًا ، لان القصص يتطلب

(١) B. Hollander في Mechanism of Thought,.. and Conduit ج ٢

الوصف والتصوير ، وهما صفتان غالبتان على شخصية الخليل الفنية

والخليل بعد ذلك كله صاحب شخصية تغلبها صفة التشاؤم . فهو لا يرى من العالم غير جانبه المظلم ، المظلل بالقتام ، والشقاء عنده أغلب على الحياة من السعادة . ولكن هذا اللون التشاؤمي عند الخليل يخفف من قتامه عنده ، غلبة العقل ، الذي يدخل عنصر الفكرة ، فيتحول تشاؤمه الى رجاء في المستقبل . وهذا اللون من التشاؤم ، هو أخف الالوان في الواقع ، ويغلب على ظن الكثيرين انهُ من باب النزعة التفاؤلية من حيث ينعكس منها فكرة الرجاء في المستقبل . ولكن هذا الظن خاطىء . لان الحكم على نزعة انسان بأنها ذات لون تشاؤمي او تفاؤلي هو نتيجة في الواقع لملاحظة غلبة الاضواء المشرقة على آثاره او الظلال القاتمة عليها ، لان الطبيعة الداخلية تتظاهر لنا من آثار الرجل ، في اللون الذي تعكسه عليها . فالطبيعة المتفائلة تأخذ بناحية الالوان المشرقة من الاشياء والطبيعة المتشائمة على الضد تستهويها الظلال القاتمة . ويبدو من استقراء شعر مطران . ان الرجل تستهويه الظلال القاتمة من الاشياء فليست قصة « الجنين الشهيد » وقصيدة « فاجعة في هزل » وقصتا « شهيد المروءة وشهيدة الغرام » و « وفاء » وقصتا « العقاب » و « فنجان قهوة » ثم قصة « فتاة الجبل الاسود » سوى آثار يغلب عليها جانب الفاجعة (المأساة — tragedy — ثم عندك بروز الخليل في الشعر القصصي الذي يغلب عليه عنصر المأساة ، وفي شعر الرثاء ، دليل على ان الرجل ينفعل بعناصر الفواجع في الاشياء اكثر من انفعاله بعناصر الفكاهة او الملهاة منها ، حتى ان عنصر الهزل استحال بين يديه في قصيدة « فاجعة في هزل » الى مأساة فاجعة

***

ان صحّ ان الخليل يغلب على شخصيته اللون التشاؤمي فالاكتئاب قرين هذا اللون . والواقع أن مطران من الطراز المكتئب من الناس . ولكن اكتئابه بلا انقباض وتفرّد . وسرّ هذا ان الرجل يحاول ان ينسى كآبته في الناس . ومن هنا جاء تعلقه الشديد بالعالم الخارجي . وقد لاحظ احد النقاد « ان مطران لم يصور نفسه في شعره بل صوّر الناس الذين يحيطون به »[1] . وهذا صحيح وخطأ . لحقًا ان مطران لم يصور نفسه قدر ما عني بتصوير الناس . ولكنهُ في الآن نفسه كان يصور نفسه في الناس . لان حياته لم تكن لتستقيم الا في خروجه الى العالم الخارجي من ذاته ، ونسيان نفسه في رحاب العالم الخارجي . وتلك خلة لاصحاب الطبائع التي تلونها الكآبة بلون ، والتعلق بالحياة بلون . لان المكتئبين عادة من الناس الذين ينعزلون ويغرقون في طيات أنفسهم . ولكن اذا كان أحدهم من الطراز « الفعال المنفعل » فان هذا الاكتئاب يقترن

(١) روكس زايد العزيزي — خليل مطران وشعره — المجلة الجديدة ، م ٦ ج ٥ (مايو ١٩٣٧) ص ٥٢

بالتعلق بالحياة ، ومن هنا الهرب من النفس الى الخارج . وعادة هذا الطراز أن ينجح في التصوير والتحليل ، فالطراز المكتئب المنعزل ينجح في تصوير خلجات النفس وتحليلها الى ابعد الحدود كما هو الحال في شاعر عبقري كعبد الرحمن شكري . والطراز المكتئب المنسحب على العالم ينجح في تصوير الحياة الخارجية وتصوير الناس كما هو الحال مع شخصية مطران

وهرب مطران من نفسه الى الناس ومحاولته ان ينسى نفسه بينهم ، هو الاصل فيما يبدو فيه من أنس المعشر ، وحب الاجتماع . والحق ان الرجل مشهود له بأنهُ من خير الرجال الذين عرفتهم مجالس مصر . فرحابة صدر الرجل تجعله من كل مجلس ومن جميع الناس في موضع القبول والترحيب . فضلاً عن ان اتساع افق شعوره يجعله يتغاضى عن اخطاء اصحابه ومعارفه ، ويحاول ان يجد لهم العذر في سلوكهم المخطىء . وعلى ذلك كان الخليل صديق الجميع ، حتى ان مجلة سركيس كتبت عنهُ تقول : (ومما انفرد بهِ أن كل انسان في مصر يعرفه من سمو الخديوي فنازلاً) ولا شك أيضاً ان لثقافة مطران المتعددة النواحي ، وحديثه المتنوع الزاخر ، ولباقته في الكلام اثراً كبير في نجاحه كرجل من رجال المجالس . وانا وان كنت لاقيت الخليل مراراً معدودة خلال النصف الثاني من عام ١٩٣٩ ، فان اول ما استرعى نظري منهُ امران : الاول أنهُ يملك على الجالسين شغاف قلوبهم بحديثهِ . وثانياً ان حديثه ليس من مبتذل القول ، وانما تمشي في تضاعيفه حكمة ونظرة صائبة وتعمق في تناول الموضوع وتناوله من مختلف مناحيه واجزائه . وأذكر اننا تقابلنا يوماً صيف عام ١٩٣٩ في الاسكندرية وكان الوقت مساء وجاء الدكتور بشر فارس ، وتجاذبنا اطراف الحديث وانتهى بنا المطاف عند بحث « المروءة » من كتاب جديد للدكتور بشر » فكان الخليل يعرض الموضوع عرضاً شاملاً حتى اني تعجبت من معرفته لدقائق من الموضوع تغيب عن غير الاخصائيين في شؤون اللغة ، ووقفت وفي نفسي فكرة عن الخليل ، لا أظن انَّ أديباً من ادباء العربية المعاصرين ممن الآن عرفتهم شخصيًّا تركها في نفسي . والواقع ان الخليل نسيج وحده بين أدباء العربية المعاصرين

***

قلنا انَّ مطران من الطراز الاجتماعي — sociable — ، وهذا الطراز من الناس عادة يكون متحوطاً في سلوكه رقة ، وفي حديثهِ لباقة سريع الخاطر ، قوي الحافظة (او الذاكرة). لهُ مقدرة في التنقل من حديث الى آخر بلباقة ، يتولى ادارة المجالس وتحريك الكلام فيها من موضوع لآخر ، ويحوّل الحديث ويخرجهُ عن دائرته اذا ما لمس انهُ يمسُّ أحد الحاضرين في المجلس . وهذا الطراز من الناس يعرف « رجال الصالونات » في اوربا ، غير ان مطران وان كان منهم فهو في الواقع اكثر من « رجل صالون » بمواهبه . غير ان حياة المجالس

والروح «الصالونية» جعلت لطفه ينقلب في الكثير من الاحوال الى صورة من الزلفى . ولعل هذا هو نقطة الضعف في شخصية «مطران» . على اننا يمكننا ان نجد في كون مطران غريباً على المجتمع المصري من جهة ، ثم اضطراره ان يحصل معاشه في بلد قام على الزلفى من جهة اخرى، أصل هذا الضعف في شخصيته . على أن مطران بعد ذلك يدل شعره الذي قيل في المدح والمراثي على شعور صادق ، تلونه صلات الرجل بالناس . وما يظهر من التكلف على بعض المواضع من شعره هو بعض جناية المجتمع المصري عليه من جهة واسترساله مع لطفه وطبيعته الاجتماعية من جهة اخرى . على ان هذا قليل في ديوان مطران وهو أقل في القصائد التي نظمها بعد ان اخرج ديوانه ، وهذه القلة تعود الى مقدرة مطران على التخلص من المواقف المتكلفة موضوعاً الى العنصر الشعري الذي ينفعل به ، وهذا يثبت انهُ من الطراز الباطني النظر introverts

آية ذلك اتصاله بالعناصر الباطنية من الاشياء ، كتفرده الى العناصر الشعرية من الموضوعات التي تبدو متكلفة من حيث تمليها الملابسات . دلالة ذلك انهُ طلب الى مطران ان ينظم قصيدة في حفلة زفاف دعي اليها، فكان ان نفذ من هذه المناسبة الى العنصر الشعري المرتبط بفكرة الاقتران ، فكان من ذلك قصيدة من عيون شعره ، تلك هي قصيدة « الاقتران » وهي من منظومات الديوان

— ٣ —

هنالك من الناس من تعرفهم فتشعر وكأن لك بهم معرفة من قبل . ذلك أنهم لا يعرفون عن طريق الحوادث التي يخلقونها ، انما هم يعرفون عن طريق الجو الذي ينشرونهُ حولهم ، وهذا الجو يفعل فعله في النفوس فعل مجال مغناطيسي في برادة الحديد . ولا شك ان خليل مطران واحد من هؤلاء . اول ما تطالعك منهُ مهابة تملأ ما حوله من الأجواء . ويكون في المجلس ، فلا تحس بوجود غيره ، يملأ على النفس شغافها وعلى الانسان مشاعره

تراه فترى من النظرة الاولى امامك صاحب « جسم ضامر نحيل ، ووجه واضح القسمات ، وجبهة عريضة وحاجبان منفرجان وعينان فيهما هدوء وثورة ، وأنف طويل ضخم لو كان قطعة من المرمر لسهل جعله تمثالاً ، ولو كان قطعة من الماس لثارت من أجل الحصول عليها حرب كونية ، وذقن مغموز ، يدل على الطموح وشفتان تنطبقان وتتهدل سفلاهما لتدل على ميل صاحبها للصرامة من جهة وعدم الاكتراث من جهة أخرى . وصدغان ضئيلان يدلان على افراط في تقدير الحب . وصمت غامض يشير الى ان صاحبه خلق للسياسة وغموضها »

هذا هو هيكل الخليل كما خرج من ريشة ناقد فنان[1] من أبناء هذا الزمان

(١) روكس زائد العزيزي — المجلة الجديدة — مايو ١٩٣٧ ص ٣٥

ومطران يتمتع — على حد قول هذا الناقد — بشهرة تكاد تكون عالمية . يعرفهُ أدباء العرب ، ويذكره المستشرقون وهم يذكرون ألمع شعراء العربية وأدبائها . وخليل مطران بعد ذلك اسم من ألمع الاسماء في الشرق العربي . هذا الاسم هو : شاعر القطرين (سوريا ومصر)

والواقع ان مطران لم يصل الى هذه الشهرة وذلك المقام الاَّ عن جدارة ، فله من مواهبه ، ثم من ثقافته ما يؤهله عن حق لهذه الشهرة وذلك المقام

اما مواهب خليل مطران فقد مرت اليها الاشارة متفرقة اثناء تحليل الناحيتين الخَلقية والخُلقية من شخصيته . وأما ثقافته فهنا نقصر الكلام عليها مع عرض لعقليته ومناحيها المتباينة

كان مطران في ثقافته الاولى مثاليًّا خياليًّا . غير ان هذه المثالية والخيالية في ثقافته طرأ عليهما بعد عنصر الواقعية والتحليل ، فكان أن تطورت لذلك ثقافة مطران . والعنصر الاول من ثقافته يظهر في تأثره بالفرد دي موسيه الشاعر الفرنسي . ويظهر أن مطران شغف في شبابه بشاعر الفرنسية وما في شعره من زخور الاحساسات والمشاعر ، ثم كان بعد أن نضجت شخصيته وتغلب عنصر الفكرة على عنصر العاطفة فيه ، ان تلفّت الى الآثار الأدبية التي تتميز بعنصر الفكرة ، ومن هنا كان شغفه بشكسبير وراسين وكورنيل من اعلام الادب الغربي . غير ان الناحية الواقعية والتحليلية التي اخذ بها مطران في الطور الاخير من حياته لم تكن الاَّ نتيجة لنضوجه من جهة ولازدياد خبرته من جهة اخرى . من هنا من الخطأ أن نرى تحليل مطران يعود لفكرة سيكولوجية ، والاصح انهُ يعود الى المدرسة الادبية التحليلية الفرنسية التي تأثر مطران بآياتها

على انهُ بعد ذلك يجب ألاَّ ننسى ان مطران وهو من الطراز الباطنيّ النظر ، يغلب على ثقافته عنصر التأمل والتفكير والنظر . وهذا العنصر يجعل مطران يهضم ويمثل مايخاص به من مطالعته عن طريق ادارتها في ذهنه والتفكير فيها والتأمل في مقوّماتها . ولاشك أن الخليل خلص بالكثير من النتائج من المطالعات التي ساعده الحظ عليها . ولاشك ان هذه النتائج اكثر مما يمكن ان يحصل عليها آخرون من المطالعات نفسها . لأن قيمة المطالعة لما كانت ليست وقفاً على عدد الصفحات التي تشملها وانما على نوع المطالعة ، أمكن لنا معرفة الذهنية التي كانت تتعامل مع الكتب التي يتاح له قراءتها . ولاشك ان مطران وقد تفرغ للادب والشعر على وجه خاص حتى حفظ ديوان اعلام الادب من الفرنسيين ، ثم طالع في العلوم وفلسفتها كثيراً ، خاص بذهنية قياسية سليمة تخضع لمقتضيات التحليل العلمي الذي تسندهُ روح فنية قوية . وآثار هذه الذهنية واضحة في ما كتب الخليل من بحوث في الادب والنقد

على انا بعد ذلك يجب ان نعترف ان لمطران اطلاعاً كبيراً على التاريخ العام في عمومياته ومما لاريبة فيه ان الخليل وقف في اطلاعه التاريخي عند المجمل فلم ينزل الى التفاصيل والدقائق

وهذا يتضح من دراسة كتابه « مرآة الايام في التاريخ العام » . وثم يجب أن ننسى ما له من الاطلاع والمعرفة بشؤون الاقتصاد والمال وقد ساعده على الفقه فيها اشتغاله بالشؤون التجارية ردحاً طويلاً من الزمان

واللغات التي يعرفها هي العربية فالفرنسية فالانكليزية فالتركية فالاسبانية . وقد تعلم الفرنسية والتركية في وطنه الاول : التركية في الدار والفرنسية في الكلية . اما الانكليزية فدعاه اليها حب الدراسة بعكس الاسبانية التي دفعه لها داعي العمل ، حين فكر في الارتحال الى شيلي والاستقرار فيها أيام كان باريس

وأقوى قراءات مطران في الفرنسية والعربية . قرأ في الاولى آثار كورنيل وراسين وموليير وفولتير وفكتور هوغو ولامارتين كما قرأ فيها آثار شكسبير وميلتون وبيرون وشيلي وسوينبورن ووردسورث وكيتس من أعلام الادب الانكليزي . وعن الفرنسية ترجم الى العربية ماترجم من شكسبير مما سبقت اليه الاشارة . وعنها كذلك ترجم ماترجم عن كورنيل وراسين مما سيجيء بيانه في البحث

أما قراءاته العربية فكثيرة . غير ان أقوى قراءاته العربية لابن الرومي . وهو يرى على ما حدثنا به ، ان ابن الرومي لم يعجب الذوق العربي لانه أخذ من أصوله الاعجمية الوصف والسياقة الدقيقة . والطبيعة العربية لا تتذوق ذلك ، وانما تتذوق الاشياء فدداً ، كل فدة منفصلة عما قبلها وعما بعدها ، ولها وحدتها في ذاتها . ومن قراءاته الادبية كذلك مطالعته لشعر البحتري ، وهو عنده — على ما حدثنا — في الطبقة الاولى من شعراء العربية بنسجه الشعري وصناعته . أما المتنبي فيفضل عنده جميع شعراء العرب لا بكل شعره ولكن ببعضه الذي بلغ به الذروة . وهو معجب من الادب العربي برثاء صاحب لامية العرب لزوجته ، وهو يرى ان مرثاته لم تكن مفهومة كل الفهم للعرب ، وان الجيل الحديث يجب ان يدرسها ويتفهمها من جديد ليكشف عما فيها من العناصر الفنية الرائعة . كذلك يروي الخليل انفعاله بمرثية التهامي لولده وبحكم المعري والمتنبي ، ويذكر انه كثير الاستشهاد بحكم المتنبي في كلامه . والواقع ان لمطران ذاكرة يقظة ، لا تخطىء الرواية والنقل وهو في هذا من القلائل الذين عرفوا في هذا الجيل بقوة الحافظة

ويروي الاستاذ محمود كامل المحامي : ان مطران قرأ هوغو وراسين وكورنيل وموليير وفهمهم وحفظ اشعارهم عن ظهر قلب [1] ولا شك ان هذا ان صح ، فان مطران يكون معجزة زمانه في قوة الحافظة

(١) الجامعة — السنة التاسعة العدد ٣٠٣ ص ٢٣ (٣ نوفبر ١٩٣٨) مقال للاستاذ محمود كامل المحامي

ومن الاضافة اللازمة هنا لتمام العلم بجوانب ثقافة مطران الرحيبة ان نقرنها بالخصائص الذهنية التي كانت ظاهرة عليه وهذه الخصائص تجري مجرى الاتساق مع شخصيته : نفوذ نظر الى بواطن الاشياء ، وقدرة على التحليل، وقياس سليم ، ونظر صادق واحساس دقيق بالاشياء وفهم صائب لها . ثم ذاكرة تعي ولا تتعب ، تتذكر ولا تنسى . ولا شك ان لنفس مطالعة مطران أثراً في ذلك — فهو كما حدثنا — حين يعمد للمطالعة . يعالج الموضوع الذي يتناوله في القراءة بصبر وجلد ، يتبين مواضع الجمال في تؤدة فيما يقرأ ، ويترك نفسهُ للكاتب يرتفع به في اجوائه حتى يخلص من الكتاب بروحه التي تمشي بين سطوره . وبعد ذلك يعود معيداً الكرة على الكتاب بنظر الناقد الفاحص في غير ميل او تحامل حتى يخلص من الكتاب بفكرة ثابتة عنهُ . ومثل هذه المطالعة تثبت في الذهن موضوع القراءة ولا تذهبها ، وتعين على الفهم الصائب ، وتمكن على التحليل والنظر الصادق

خاتمة

عاش الخليل أعزب بلا زواج ومن غير نسل . ولم يكن ينتظر من شخص في مكانه غير هذا وله مزاج يلمح السكون في ظلال قاتمة ، وطبيعة لا تحب القيود وان لابستها وبدت عليها أنها رضيت بها . ولا ريبة انهُ وقد صدم في آماله وحبه بوفاة قرينة روحه وهو في أوائل العقد الرابع من عمره ان امسك عن الزواج ، مخلصاً لذكرى تلك التي أحبها وماتت عذراء لم يعرف قلبها حب انسان غيره،ولم يعكر فؤادها رياء المجتمع ونفاقهُ.وعزم مطران على ان يبقى مخلصاً لذكرى حبيبته مثل من أمثلة الوفاء الحبيب ، وهو بعد غير مستغرب عليه ، فهو بعد ان اجتاز دوراً خضع فيه لنزوات الشباب عاد وقد اجتاز العقبات وأصبح صخرة من الاخلاق الثابتة قال:

ولم أر شيئاً كالفضيلة ثابتاً نبت عنه آفات البلى والمعاطب

لا يعرف قلبه الانعطاف لحب او هيام ، ولا تعرف أخلاقه الالف والمصانعة اللذين يعرفهما من عاشوا عزاباً بلا زواج

وخلاصة القول ان الخليل شخصية ، فيها لطف وتسامح وكرم اخلاق ، وعفة لسان ، وسمو نفس يمثل فيه نموذج الاخلاق اللبناني الاشم من سكان السهول شرق الجبل . والواقع ان مطران نموذج كبير لهؤلاء تتمثل في صورة قوية من شخصيته خلال القوم وأخلاقهم

العصر الفائر

تأثير الثورة الصناعية والنزعة الاستعمارية في مشكلات العصر
التفسير النفسي للدكتاتوريات الحديثة

من المحن التي لا قبل لنا إلاّ بمواجهتها ان تتعرض الحضارة لنوائب حربين كبيرتين في جيل واحد . ولكن الحرب الناشبة الآن كانت لا مفرّ من نشوبها لصدّ تيار من التحكم والعدوان والاستهتار كان لا بدّ لهُ لو طغى واستفحل طغيانهُ من ان يقضي على مثل الحضارة الانسانية كما أخذها البشر عن الانبياء والفلاسفة والشعراء والمصلحين . وشهوة السلطان — على ما قال شيلي الشاعر الانكليزي — تلوّثُ كالوباء الجارف كل من تمسُّ . والخضوع آفة كل عبقرية وفضيلة وحرية وحقٍّ ، يستعبد الناس ويحول هذا الهيكل البشري الى آلة عمياء

في هذه الحرب ، يلتحم تياران متعارضان من تيارات الاجتماع البشري . أحدهما هو التيار النابع من القول بان للانسان قيمة في ذاته ، وان الاجتماع البشري لم يبلغ ما بلغهُ من مراتب الارتقاء إلاّ باطلاق الحرية للفرد يفكر ويستنبط ويستكشف ويعثر ثم ينهض من عثرته . كذلك نشأ كبار الفلاسفة والشعراء والعلماء والروّاد . وكذلك ردُّوا آفاق الجهل وهاجموا معاقل أسرار الطبيعة وفتحوا بعضها فحلّقوا بالانسانية رويداً رويداً فوق المستوى الحيواني الوضيع كما تحلّق الطائرة فوق اطباق الغمام القاتمة . هذا التيار العظيم السائر بالانسان من الاستعباد للطبيعة ثم للكهان والطغاة نحو الحرية والكرامة هو خلاصة تراث الانسانية من خمسة آلاف سنة من التاريخ المدون الى يومنا هذا

وأما التيار الآخر فهو النابع من القول بان هذا الهيكل البشري آلة عمياء . ويا ليتهُ آلة تامة . فانهُ في عرف أصحاب هذه الفلسفة الاجتماعية ليس الاّ سنّاً في ترس في آلة عمياء يديرها طاغية ، تحكم لا حدّ لشهوته وتحكمه . وفي هذا المعنى قال الملك جورج السادس عندما وجّه الكلام الى الشعوب البريطانية يوم ٣ سبتمبر الماضي : لقد حملنا على خوض النضال لاننا دعينا نحن وحلفاؤنا لمواجهة تحدٍّ من مبدإٍ لو عمَّ لكان هادماً للنظام المتمدن في العالم ، انهُ المبدأ الذي يسمح لدولة بان تهمل معاهداتها وعهودها تحقيقاً لاغراضها الذاتية ، مبدأ استعمال القوة او التهديد بها ضد سيادة الدول الاخرى واستقلالها . واذا جرد هذا المبدأ من كل تنكر واستخفاء كان تلك النظرية الهمجية بان القوة هي الحق . . . وأدهى من ذلك ان سيادة هذا المبدإ تبقي الناس يرسفون في قيود الخوف فيزول كل أمل ورجاء في السلم والسلامة والعدل والحرية . وقال الرئيس روزفلت : —

عندما تنكر كرامة الروح الانسانية في بلدان كثيرة وعندما يجعل ذلك الانكار شعاراً لدعاية تتحرك بمقتضاها الجيوش لايسع أحداً الاطمئنان الى ان سلامة بلاده او سلامة داره مضمونة . وقال لورد دبلارار : ان التحدي أبعد غوراً من مسائل سياسة القوة . انه يرد جميع الافكار والمذاهب التي قامت عليها الحضارة الى الوقوف موقف الدفاع

ولكن اعلان الحرب ، لم يكن الاّ اعترافاً رسمياً بقيام حالة حرب في اوربا سواء اشتبكت الجيوش في الميادين أم لم تشتبك . فقد انقضى على اوربا خاصة ، والعالم بوجه عام ، سنوات لم تذق الشعوب فيها طعم الطمأنينة . فكأنها كانت مقيمة على جوانب بركان متحفز للفوران حتى ليصح أن نصف عصرنا بأنهُ العصر الفائر ، لما يغلي في صدور الناس من معاني القلق ويضطرب من وراء مظاهر الاجماع من حوافز الانقلاب . وهذا الوصف لاينطبق على السنوات الاخيرة فحسب ، بل هو ينطبق على ما تقدم من سني هذا القرن . وليس علينا الاّ ان تتذكر الحرب الكبرى الماضية وما أعقبهُ من الثورة الشيوعية في روسيا ، ثم ما أفضت اليهِ من قيام النظامين الفاشستي والوطني الاشتراكي في ايطاليا وألمانيا ، وكيف انهارت المعاهدات ، وسلبت الحقوق ، وانقلبت الاوضاع الأدبية ، لندرك ان الاستقرار ليس سمة العصر الذي نعيش فيه ، وأنَّ في ثنايا الحضارة ما يشبه الديناميت يهدّد بالانفجار

***

تتصف حضارتنا في هذا العصر من بين ما تتصف بهِ بروح المنافسة الشديدة والخصومة العنيفة بين دول كبيرة تملك في ايديها طاقة لم يتح للانسان ما يقارب جزءا منها في عصر سابق . وهذه الطاقة ترتدُّ الى الثورة الصناعية التي افضت في نشأتها ونموّها وارتقائها مستندة الى فنون العلم النظري والتطبيقي ، بسمتها وصفها على عصرنا وحضارتنا

فالآلات التي تحركها الطاقة ، واستعمالها في الانتاج ، كانت ظاهرة ثورية في حقيقتها لأنها زادت قدرة الانسان على الانتاج مئات الاضعاف وألوفها . وافرغت الحياة في الحانوت والمعمل في قالب جديد . وجذبت الى المراكز الصناعية والمدن عدداً متزايداً من الناس . وفي الوقت نفسه زاد عدد سكان اوربا زيادة كبيرة

وكانت النتيجة التي لامفرّ منها ، لهذا التقدم في الانتاج وللاحتشاد في المراكز الصناعية والمدن ان اشتدت الحاجة الملحة الى فتح اسواق لبيع المصنوعات واستثمار موارد للخامات الصناعية يعتمد عليها . وكذلك اخذت الدول والشعوب تتنافس في استكشاف مجاهل الارض والاستيلاء على المناطق الغنية بمواردها الطبيعية فبنيت الاساطيل وجيشت الجيوش الكبيرة . ولكن المانيا وايطاليا واليابان دخلت حلبة المنافسة متأخرة عن غيرها

كان «التوسع الامبراطوري» الاسم الذي اطلق على هذا النوع من التنافس في مستهل القرن التاسع عشر. ومراجعة تاريخ ذلك القرن الحافل يقنعنا بان هذه النزعة كانت القوة الاجتماعية الاقتصادية المسيطرة على العالم حينئذٍ ولم تنج أمة من أثرها. ففيها اجتمع حبُّ السلطان لاجل السلطان ومجد الامبراطوريات القديمة، ولكن من وراء هذا وذاك قام شبح ضغط السكان على موارد الرزق

في هذا التضال بين الامم، الناشيء عن نزعة «التوسع الامبراطوري» اشتدَّ الجفاء احياناً بينها وتلبد الافق بغيوم الحرب. خذ مثلاً على ذلك سنة ١٩٠٨ عندما قامت سربيا الصقلبية مدفوعة بعاطفتها القومية بعد تحرُّر شعوب اوربا الجنوبية من نير الاتراك، تعارض معارضة شديدة ضم ولاية البوسنة الى امبراطورية النمسا والمجر. ولكن توازن القوى الاوربية حينئذٍ كان كافياً لاجتناب الحرب، فلما وقع الانفجار في سنة ١٩١٤ استطاع المؤرخون ان يرتدوا به الى نزعة التوسع الامبرطوري التي كانت سمة غالبة على سياسة امبراطورية النمسا والمجر. فالتوتر الدولي المتكرر في مستهلّ هذا العصر، وهو التوتر الناشيء عن الثورة الصناعية والنزعة الامبراطورية، كان بين البواعث الرئيسية على نشوب الحرب العالمية في سنة ١٩١٤

***

وقد انقضى الآن عقدان من السنين على انتهاء الحرب العالمية، كانت سمتها الغالبة قيام حالة «حرب في ابان السلام» اي جفاء مشتد مستمر بين الدول جعل الحالة القائمة حالة لا هي حرب ولا هي سلام. ومن عوامل هذا الجفاء المشتد النازية والفاشستية وهما في صميمهما احتجاج على تسوية الحرب الماضية. وما الازمة العالمية التي اصابت العالم في سنة ١٩٢٩ الاّ طائفة من عواقب التبديد والتبذير اللذين اقتضتهما مواصلة الحرب العظمى الى نهايتها. وانقضت سنوات على الازمة الاقتصادية فلما زالت عواقبها أو بدا انها زالت، ولكنها تركت في كل بلد أثراً عميقاً وطائفة من المشكلات في مقدمتها جميعاً المشكلة الاجتماعية

فاتساع نطاق التعطل عن العمل الذي نجم عن الأزمة الاقتصادية لم يفض بجماهير العمال الى القنوط بل أرهف حسّهم فاتسع نطاق ما يطلبون. ان ضغط السكان في أيام «النزعة الامبراطورية» كان ضغطاً غير واعٍ لان العوامل التي افضت اليه كانت على الغالب غير واضحة فلم تفهم على صحتها حينئذ ومن الثابت ان الجماهير لم تدركها. ولكن الشعور بهذا الضغط الآن غير خافٍ لا على الزعماء ولا على الجماهير. والهدف الذي تتجهُ اليه الجماهير انما هو هدف السلامة الاجتماعية. فالعامل يطلب عملاً يتقاضى عليه أجراً معقولاً يمكنه من العيش ويضمن لهُ

العلاج في اثناء المرض ، والسلامة في أبان الشيخوخة ، والغالب أن حركة الجماهير هذه ترتد الى اعتقادها ان الآلات العجيبة التي ما فتئت مطردة الارتقاء منذ ذرَّ قرن الثورة الصناعية تستطيع أن تغدق على الناس نعمة وراحة اذا أحسنت تدبيرها وتنظيمها حكومات متصفة بالحكمة

ومما لا ريب فيهِ ان حكومة كل بلد من البلدان الصناعية قد اعترفت بما عليها من تبعة في رعاية حال الأمة واصلاح امرها . ولكن ما تطلبهُ الجماهير من الحكومات ، وما اعترفت بهِ الحكومات من نصيبها في تحمل تبعتهِ ، يقتضي بحثاً في أصول التنظيم السياسي والاجتماعي . فأي نظام حكومي أصلح من غيره لحل هذه العقدة ؟ وفي الرد على هذا السؤال نجد الباعث الأول من بواعث الفوران الاجتماعي والسياسي الذي أعقب الحرب العالمية . وبين الشدّ والارخاء في هذه الفترة نشأت ثلاثة فلسفات اجتماعية سياسية منها اثنتان الفاشيستية والنازية ولدتا في احضان النزعة القومية المتطرفة وأخذتا بمبدإ الزعامة . حالة ان الشيوعية تذهب الى ان امتلاك الدولة لموارد الثروة والمرافق وحده يمكنها من تمهيد سبيل العمل لكل فرد . أما النازية والفاشستية فتذهبان الى ان اخضاع الفرد للدولة تحت اشراف حاكم بأمره هو السبيل الوحيد الى حل مشكلة التعطل عن العمل وضمان سلامة الفرد . ويقابل هذا الدمقراطية ، ورأي اصحابها أن حرية الفرد في الاعتماد على قوة ابتداعهِ وابتكاره وظهور قوتهِ ومواهبهِ الكامنة هي العامل الذي يوسع مجال العمل ويفضي الى الرخاء

فالفرق واضح بين طريقة الدولة الدمقراطية والدولة المندمجة في معالجة المشكلة . ان الطريقة الدمقراطية هي طريقة السلام . ولكن الدولة المندمجة ترى استعمال القوة لرفع مستوى المعيشة اذا أنكر عليها التوسع الذي تريد . وقد افرغ جوبلز هذا المعنى في خطبة القاها على عمال كروب من عهد قريب عندما ناشدهم اتباع الهر هتلر اتباعاً اعمى في المعركة التي يشنُّها لضمان المدى الحيوي اللازم لألمانيا . وعنده ان كل دولة — ككل فرد — عليها ان تكافح في سبيل المكانة الجديرة بها بين الامم . قال جوبلز « ان كل عامل الماني يعلم مدار هذه المعركة .... ونحن لا نريد الا حقوقنا . فاذا انكرت علينا فان امة تعد ثمانين مليوناً تعرف كيف تقاتل قتال المتعصب »

***

ولكن التفسير الاقتصادي للمشكلة الاجتماعية واتجاه الامم الى الاخذ بالحكم الدكتاتوري لا يكفي وحدهُ . بل هناك التفسير النفسي كذلك

والواقع انهُ مما يحير الباحث في شؤون أوربا تسليم شعوب عريقة في الحضارة وامجادها العقلية والفنية كالشعبين الألماني والايطالي بالحكم الدكتاتوري على الرغم مما يجره هذا الحكم في أثره من

قيود تثقل على طبع الانسان المثقف. ولا سبيل الى انكار ان الحكم الدكتاتوري أسفر في المانيا وايطاليا بوجه خاص عن انتصارات باهرة في حلبة السياسة الداخلية والخارجية كنجاح موسوليني في تنظيم شؤون بلاده وزيادة أسباب الخير الادبي والمادي فيها وفوزهُ في حملته الحبشية. ونجاح هتلر في تسليح المانيا والغاء معاهدة فرساي واحتلال منطقة الرين وضم النمسا والاغارة على تشيكوسلوفاكيا بغير مقاومة. ونجاح أتاتورك العظيم في تركيا. ولكن هذا النجاح ينطوي على بذور الخطر لانهُ يقتضي من الحاكمين بأمرهم انتصاراً تلو انتصار لكي تبقى أذهان الناس منصرفة عن خواص الحكم الدكتاتوري التي تنفر منها النفس. فهي اذاً لا تكفي لتعليل ما نراه في جماهير هذه الشعوب من تأييد الحاكمين بأمرهم والخضوع لهم. فما هو التعليل؟ للعالم النفسي النمسوي الدكتور فلهلم شتيكل رأي في تعليل هذه الحالة لا يخلو من الطرافة وهو قائم على ما يعرف في علم النفس «بمركب السلطان» او «عقدة السلطان»

يرى الدكتور شتيكل ان في نفس الطفل نزاعاً بين غرائزه والدروس التي يملبها عليه اتصاله بالعالم الخارجي. فالاطفال يميلون الى ان يكونوا قذرين ولكن والديهم ومعلماتهم يعلمونهم انهُ يجب عليهم ان يعنوا أشد العناية بالنظافة. والتربية في رأيه سعي الى افراغ الطفل في قالب يخالف اتجاه غرائزه. والتربية أساسها السلطان — سلطان الوالد والوالدة والمعلم والمعلمة — «فالسلطان» خصم الطفل وعدوه لانهُ يعني التخلي عن نزعاته الفطرية

والسلطان الاول الذي يبدو أثره في حياة الطفل هو سلطان الوالدين فاذا كان الوالدان ضعيفين تحداهما الطفل. ولكنهُ لا يكاد يخرج من نطاق سلطانهما حتى يصطدم بسلطان الاطفال الذين يفوقونهُ سناً وخبرة، وبسلطان المعلم ثم بسلطان القانون وبسلطان الكنيسة إذ لا يخفى ان السلاح الاخير في أيدي مربي الأطفال قولهم للطفل العاصي «إن الله قد يعاقبك على ما تفعل أو على ما فعلت». هذا المركب «مركب السلطان» الذي كان له اكبر الأثر في تربية الصغار أخذ يضعف بعد نشوب الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤. فالأسرة أضحت غير ما كانت عليه لان الوالدين — بحسب رأي شتيكل — لم يحافظوا على القواعد الادبية التي لقنوها لاولادهم فهاج الاولاد على هذا التمييز وطرحوا جانباً سلطان الوالدين وعفروا بالتراب أوامرهم ونواهيهم

وما حدث للاسرة حدث للمدرسة والجامعة وما وقع للوالدين وقع للمعلمين والاساتذة. بل ان أخطر النتائج التي أسفرت عنها الحرب الكبرى كانت اضعاف الشعور بوجوب احترام السلطان واصحاب السلطان في الأسر وبين الأمم. وهذا هو تعليل موجة الاجرام التي طغت على العالم وبلغت ذروتها في الولايات المتحدة الاميركية. واقترن بذلك ان العلم أخذ يضعف من مقام الدين التقليدي في نفوس الناس لان العلم لم يفهم على وجهه الصحيح ولان طائفة كبيرة

من رجال الدين تمسكت بأعراض الدين دون جوهره . فلما اخذ الشبان والشابات يتساءلون كيف يسمح الايمان برب يأذن في نشوب حرب تزهق في مجزرتها أرواح عشرة ملايين من الناس أنهار مبدأ « السلطان » في حياة الافراد وكانت النتيجة موجة الحاكمين بأمرهم

فهتلر وموسوليني وأشباههما ليسوا في رأي الدكتور شتيكل الاَّ رجالاً يحلون في حياة كل فرد محل الوالد والمعلم . وقد يتنكر الناس لصاحب السلطان يفرض سلطانه عليهم ولكنهم لايستطيعون ان يعيشوا من دونه مفرغاً في شكل من الاشكال . لقد ثار الاولاد على آبائهم تجاه هتلر وموسوليني ودلفوس وبلسودسكي وكمال أتاتورك وستالين فحلوا محلهم . ودخل في روع الطفل الحديث ان والده غير جدير باحترامه واجلاله وطاعته فبحث عن زعيم خارج عن نطاق الاسرة يوليه هذا الاحترام وتلك الطاعة . فمركز السلطان خرج من دار الأسرة واستقرّ في دار الحكومة . والواقع ان الحكومة مزيج من فوني الخوف والحب . والحاكمون بأمرهم أبلغ مظهر لهذا المزيج .فدلفوس قتل اشتراكي فيينا بالمدفع والبندقية ثم طلب منهم الغفران والتعاون . واسكندر اليوغوسلافي سعى جهده لاستمالة الكرواتيين اليه بالحسنى وفي الوقت نفسه كان يحاول ان يحملهم على الخضوع بالقوة . وهتلر على الرغم من حب الشعب له اضطرّ ان يطهر الحزب بالدم يوم ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ . فلماذا لا ينفر الانسان من الخضوع لسلطان الدكتاتور او الزعيم كما نفر من الخضوع لسلطان الوالد والمعلم ؟ هذا سؤال طبيعي . والدكتور شتيكل يرد عليه بقوله ان عصمة الدكتاتور عن الخطإ تزداد رويداً رويداً في رأي الفرد كلما زاد عدد اتباعه وكذلك يفشو في الامة مرض نفسي دعاه شتيكل « وباء التمجيد » فتغدو الامة وكأنها جاثية عند اقدام الدكتاتور

يضاف الى هذا انهُ كلما زاد الاتباع الذين يؤيدون الزعيم او الدكتاتور تندمج نقائصهم وتتحول الى مزايا لانهم يحسون أنهم والزعيم وحدة لا تنفصم فيشاطرونهُ في نفوسهم صولجان السلطان الذي يحكمهم بهِ . أي أنهم يصبحون حاكمين لا محكومين . ولذلك ترى الالمان يقولون انهم لا يحاربون في سبيل هتلر بل هتلر يحارب في سبيلهم . عند هذا الحد من التحول النفسي يندمج الخضوع بالتحدي والبغض بالحب ويتحول الدكتاتور الى منقذ . كان الزعماء في العهد القديم ينشئون ديانات جديدة . ولكن الزعماء في هذا العصر رجال سياسة بل ان طائفة من زعماء العصر الحاضر يخشون الدين لانهم يرون ان زعماء الدين ينازعونهم « السلطان » على نفوس اتباعهم . لذلك تراهم يحاولون اسقاط الدين من مكانته العالية في نفس الامة على نحو ما وقع في روسيا والمانيا وغيرها

روسيا والمانيا

علاقاتهما في ربع القرن الماضي
موارد الاولى وحاجات الثانية

— ١ —

إن الصلة بين روسيا والمانيا سابقة لعهد ستالين في الاولى ولعهد هتلر في الثانية بل مما يستوقف النظر ان ترى في المانيا المغلوبة على أمرها بعد انتهاء الحرب الماضية ووضع معاهدة فرساي نزعتين: احداهما الى التعاون مع الدول الاوربية الغربية وزعماؤها الاشتراكيون الالمان وهؤلاء لم يلتفتوا الى التعاون مع روسيا حينئذ على قرب ما بينهم وبينها من اواصر القربى الفكرية وهو من بواعث الاستغراب . والثانية الى التعاون مع روسيا السوفيتية وكان زعماؤها اقطاب الجيش الالماني (الريخسفهر)

فأقطاب الجيش حينئذ كانوا يرون — كما أدرك بسمارك من قبل — روسيا مكملة لالمانيا من الناحية الاقتصادية . ففيها سوق لمصنوعات المانيا . ومورد للخامات الصناعية والحربية . وفيها كذلك مجال لقدرة الالمانيين الفنية على تثمير مواردها الزراعية والصناعية . ثم أنهم رأوا في صداقتها اولاً وسيلة للتخلص من بعض قيود فرساي ثم في محالفتها طريقاً الى هدم تلك المعاهدة وانقاذ المانيا منها وتمكينها من السيطرة على اوربا

فلما اجتمع ممثلو الحلفاء في جنوى سنة ١٩٢٢ للبحث في شؤون اوربا الاقتصادية ، دعي ممثلو روسيا والمانيا الى هذا المؤتمر . ولكنهم لم يعاملوا فيه معاملة الند للند وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية قد ادرك الفائدة المرجوة من التعاون الاقتصادي مع هاتين الدولتين الكبيرتين ولكن تصلب بعض الدول الممثلة في المؤتمر حيال مسائل مالية معينة أسفر عن قنبلة سياسية فوجىء بها المؤتمر والعالم . ذلك ان ممثلي روسيا والمانيا ذهبوا الى بلدة رابالو Rapallo على بضعة أميال من جنوى وعقدوا فيها معاهدة بين البلدين اعترفت بها المانيا اعترافاً شرعياً بحكومة السوفيت وتنزلت الحكومتان عن ديون احداهما للاخرى وهي الديون المعقودة قبل الحرب . فكانت تلك المعاهدة الاشارة الاولى من المانيا الى محاولتها التفلت من قيود فرساي والاشعار الاول من روسيا بأنها لا ترضى ان تبقى في عزلة عن تصريف شؤون اوربا

ولم يلق اقطاب (الريخسفهر) مشقة ما في التعاون مع الجيش الاحمر فأخذ ضباط (الريخسفهر) في تدريب الجنود الحمر وفاز فريق من ضباط اركان الحرب الالمانيين بمناصب عالية للتعليم والتدريب في الجيش الروسي بل فاز الريخسفهر علاوة على ذلك بانشاء مدارس حربية لتدريب

الالمانيين في روسيا ومصانع لصنع الطائرات لان مثل هذه المدارس والمصانع كانت محظورة في المانيا بحسب النصوص العسكرية في معاهدة فرساي

وفي سنة ١٩٢٦ عند ما كانت المفاوضات دائرة لانضمام المانيا الى جامعة الامم عقدت المانيا وروسيا معاهدة جددتا بها الولاء لمعاهدة رابالو وتعهدتا بالتزام الحياد اذا هوجمت احداهما من دولة اخرى او كتلة من الدول . وكانت روسيا في ذلك الحين تخشى تدخل الدول الرأسمالية في شؤونها فرأت حكومتها في هذا الاتفاق مع المانيا ما يعزز من مكانتها كما رأت فيه المانيا سبيلاً الى التملص من قيود فرساي. ولو ان الامر ترك لضباط الجيشين لمضى البلدان في هذا التعاون الى نهايته المنطقية

— ٢ —

ولكن الهر هتلر تقلد منصب المستشار في حكومة المانيا في يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ فكان في مقدمة اعماله فض الحزب الشيوعي في المانيا والفاؤه وتصوير الاتحاد السوفيتي عدواً لدوداً لا بد لالمانيا الهتلرية من قهره ووصف الفورر بأنهُ منقذ اوربا من التيار الشيوعي الجتاح ورائد الضاري البولشفيكي فصاح جوبلز في احدى خطبه «ان اوربا تقوم او تسقط مع ادولف هتلر»

وبدا لسامعي هذه الاقوال ان فيها رنة الصدق . فوقعت وقعاً عظيماً في عواصم البلدان المجاورة لروسيا والمانيا واخذ ساسة البلدان الواقعة بينهما يخشون ان تكون بلدانهم مرطتاً لسنابك الخيل — او الدبابات — الهتلرية في غزوتها لروسيا الحمراء بغية انقاذ العالم من شرورها . فكان لذلك تأثير في توجيه الخطط السياسية . ولذلك سارعت بولونيا وهي الميدان الطبيعي لمثل هذا النضال الى اعلان موقفها وقاعدته انها تحارب الدولة الاولى التي تستبيح حدودها . فاذا حاول الالمانيون أو الروسيون ذلك حاربت السابق منهم الى انتهاك حرمتها وانضمت الى الفريق الآخر

وبينما كانت دول شرق اوربا تُرهف الحس لتتبين المصير اذا اصطدم الجاران ، كانت دول اوربا الغربية تنظر الى احتمال الاصطدام بشيء من الاطمئنان

فالنظام السوفيتي كان لايزال في نظر معظم أقطابها مصدر الخطر الكبير على المجتمع الاوربي من نواحيه الاجتماعية والاقتصادية. فاذا اصطدم الشيوعيون بالنازي أضعف الاصطدام الفريقين وأتاح لاوربا فترة من الطمأنينة . لذلك قوبلت تصريحات هتلر العنيفة ضد الشيوعية بشيء غير يسير من الارتياح في بعض دوائر اوربا الغربية واتقى منها بعض الانتفاء شبح «رابالو» اخرى . اي ان هذه الدوائر كانت تعتقد انهُ على قدر ما تسوء العلاقات الروسية الالمانية يبعد كابوس التحالف بينهما

ولكن الدوائر السياسية في البلدان الواقعة بين ماردي الشيوعية والنازية كانت أرهف حساً

وأصدق حدساً من دوائر اوربا الغربية . فلاحظت هذه الدوائر انهُ على الرغم من اللهجة العنيفة في خطب أقطاب النازي وصحفهم ضد الاتحاد السوفيتي لم يقطع الهرهتلر العلاقات التجارية التي تربط برلين بموسكو . وجاءتها العيون والارصاد (أي دوائر المخابرات) بان الصلة بين الريخسفهر والجيش الاحمر لم تتبدل كثيراً . بل ان أقطاب « الريخسفهر » ترفعوا عن الاشتراك في حملة الدعاية العنيفة ضد السوفيت . وهذه الحقائق حملت هذه الدول — اذا استثنينا تشيكوسلوفاكيا — على الوقوف موقف الحذر الدقيق حيال الاشتباك في عهود واتفاقات مع الدول الغربية لانها كانت تخشى أن تفضي هذه السياسة الى تحقيق ما يبغيه قواد الجيش الالماني من اتجاه الى روسيا . لذلك امتنعت بولونيا في سنة ١٩٣٤ عن الاشتراك في ما وصف حينئذٍ باسم « لوكارنو الشرقية » وأبت الانضمام الى أية كتلة موجهة الى احدى جارتيها الكبيرتين

والغالب على رأي فريق من متتبعي شؤون اوربا الشرقية ان في مقدمة البواعث التي حملت بولونيا على الوقوف هذا الموقف كان خوفها من حمل المانيا على الارتماء في أحضان روسيا الحمراء

ثم كانت ازمة السوديت في سبتمبر ١٩٣٨ وكانت روسيا مرتبطة بتشكوسلوفاكيا من ناحية وبفرنسا من ناحية أخرى بمعاهدة مساعدة متبادلة . ومع ذلك كان السؤال المرتسم في أذهان رجال السياسة حينئذٍ — ماذا تفعل روسيا اذا هاجمت المانيا تشيكوسلوفاكيا ؟ وهل في وسع الجيش الاحمر ان يسدي عوناً فعالاً الى جمهورية ماساريك وبنيش ؟ وكان الرأي في بعض دوائر بخارست وفرسوفيا ان بين برلين وموسكو تفاهماً على ان تنال المانيا ما تبغي في بوهيميا وكان الخوف في لندن وباريس ان يكون هدفُ موسكو زجَّ دول أوربا في حرب كبيرة بسبب تشيكوسلوفاكيا لتجني من الفوضى الناشئة عنها فرصة لبذر بذور الشيوعية في كل مكان . والغالب ان هذا الريب في نية موسكو الحقيقية كان من أهم البواعث على الاذعان لما طلبه هتلر في ميونخ

في ميونخ اجتمع تشمبرلين وهتلر وموسوليني ودلادييه وقضوا فى مصير بلاد السوديت . وأما روسيا المرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا بميثاق تعاون متبادل ومع فرنسا بمثله ، روسيا العضو فى جامعة الأمم وصاحبة القول بأن « السلام لا يتجزأ » فلم تدع الى الاجتماع ، ومن الغرائب أنها لم تدع اذعاناً لامتناع هتلر عن الجلوس مع ممثلها حول مائدة واحدة . فما كان موقف الكرملين من ميونخ ؟ تفريع بريطانيا وفرنسا اعتقاداً من رجاله بان هاتين الدولتين انما مهدتا لالمانيا سبيل التوسع في شرق أوربا لتصطدم بروسيا السوفيتية وقد أعرب الاقطاب الروس عن هذا الرأي فى غير خطبة رسمية واحدة

وما سكنت الضجة التي ثارت حول اتفاق ميونخ حتى ثارت ضجة أخرى حول ما تنويه

المانيا في اوكرانيا استناداً الى قول هتلر في مؤتمر نورمبرج سنة ١٩٣٦ عندما قال : — حبذا لو كانت لي جبال الاورال وما فيها من موارد المواد الخام وسيبيريا وما فيها من حراج واوكرانيا وما فيها من سهول القمح . . . ثم صاح « وسنغلب تحت راية الصليب المعقوف »

وفسرت الدول الغربية هذه الاقوال بانها اعراب عن نية المانيا النازية على غزو أوكرانيا وتفتيت روسيا . ولكن دول أوربا الشرقية خشيت ان يكون معناها مجرد الاتفاق بين المانيا وروسيا على تبادل اقتصادي واسع النطاق يمكن المانيا من استيراد ما تحتاج اليه من خيرات روسيا الطبيعية ولذلك ظل كابوس الاتفاق النازي السوفيتي جاثماً على النفوس

أما ما تمَّ بعد ذلك فقريب العهد بنا وحسبنا الاشارة اليه : استباحة تشيكوسلوفاكيا في مارس ثم السعي لانشاء ما دعي « كتلة السلام » مما افضى مفاوضات في موسكو بين ممثلي بريطانيا وفرنسا وأقطاب الكرملين دامت بضعة أشهر وعند ما ظنَّ الناس أنها أوفت على التمام فوجئوا في أغسطس الماضي بعقد اتفاق عدم الاعتداء بين روسيا والمانيا فهز العالم ولا يزال العالم في حيرة من حقيقته وحقيقة ما تلاه . فقضى عقده على الوهم بان هتلر سدٌّ دون طغيان الشيوعية وان ستالين حائل دون الاعتداء النازي . ثم وردت الانباء بان الاثنين طعنا بولونيا من الامام ومن الخلف واقتسماها وشرعت روسيا السوفيتية تبسط نفوذها على دول بحر بلطيق وقبلت المانيا ان تجلي الألمانيين الذين توطنوا تلك البلدان من مئات السنين

— ٢ —

من الاوليات التي لا ينازع فيها الآن ان الحروب الحديثة لا تحسم في ميدان القتال فقط. وان تفوُّق الحلفاء في الحرب العالمية الماضية في مواد الصناعة والطعام كان له التأثير الفاصل في مصيرها . واذا صحَّ ذلك في الحرب الماضية فأحرى به ان يكون أشد انطباقاً على هذه الحرب . لأن الاعتماد على الاجهزة الميكانيكية فيها وما تحتاج اليه من الوقود اعظم مما كان في سابقتها . والمقابلة بين الحليفتين الغربيتين وألمانيا من هذه الناحية ترجح كفة الحليفتين اكثر مما كانت كفتهم راجحة من ربع قرن

والغالب عند اهل الرأي — على ما جاء في مقال لمكاتب خاص في التيمس — ان الحكومة النازية خزنت تخزيناً منظماً مقادير كبيرة من المواد التي تحتاج اليها في حالة نشوب حرب كبيرة . والمرجح أن النقص في هذه المواد واشتداد الحاجة اليها لا يظهران الَّا بعد انقضاء سنة من الزمان اونحوها. وعلى الرغم من مشروع السنوات الاربع لا تزال مصادر المواد الصناعية والغذائية التي تستخرج اوتصنع في المانيا نفسها ضعيفة. وهي لا تعادل المواد المستوردة من الخارج جودةً . ومما لا ريب فيه ان المانيا النازية ستمضي في اتجارها مع الدول المحايدة .

ولكن هذه الدول لا تستطيع ان تصدر اليها الاّ ما كان من نتاج أرضها وهذا لا يعوّض إلاّ قليلاً مما تحتاج اليه لأن ما تستورده الدول المحايدة من ممنوعات الحرب سيكون خاضعاً للحرب الاقتصادية التي بدأت بريطانيا في تنفيذها منذ نشوب الحرب. ولذلك تتجه آمال الحكومة النازية الى روسيا لاستيراد كثير مما تحتاج اليه منها

ومما لاريب فيه ان روسيا والمانيا تؤلفان وحدة اقتصادية في الاحوال السوية . فالمانيا قليلة الموارد الطبيعية ضعيفة التربة ولكن صناعتها متقنة وطبقة العمال الصناعيين فيها متصفة بالاجتهاد وحسن التدريب . حالة ان روسيا تملك مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية الخصبة وموارد معدنية لا تكاد تحد . فخطة الاولى الطبيعية استيراد المواد الخام وتصدير المصنوعات. والثانية تصدير المواد الخام واستيراد المصنوعات ومن هنا تكمل احداهما الاخرى

ولكن هذا يصدق عليهما في الاحوال الطبيعية السوية فقط. الاّ ان تاريخ السنوات الاخيرة يدل على ان كلاً منهما قد حادت عن طريقها الطبيعي فروسيا السوفيتية وضعت برامج واسعة النطاق لتعزيز الصناعة فيها. والمانيا النازية وضعت برنامج السنوات الاربع وغرضها منهُ الاستغناء عن الاستيراد جهد المستطاع. فكيف يؤثر هذان الاتجاهان في ما تنتظره المانيا من روسيا من معونة ؟

بين سنتي ١٩٢٨ و١٩٣٣ مضت روسيا السوفيتية في تنفيذ مشروع السنوات الخمس الاول فاشتدت حاجتها الى الآلات والاجهزة الميكانيكية اللازمة ، فاضطرت ان تصدر كل ما تستطيع تصديره من محصولاتها الزراعية حتى ولو كان ذلك على حساب غذاء الشعب الروسي الذي عانى من الفاقة الامرّين . ومع ذلك لم تكف جميع صادراتها لتوفية ثمن ما اشترته في الخارج لكي تستورده. وقد كانت المانيا حينئذٍ اكبر عملاء روسيا فبلغ ثمن ما صدرته الى روسيا سنة ١٩٣١ اكثر من ٧٦٢ مليون مارك وثمن ما استوردته منها ٣٠٣ ملايين مارك اي ان ميزان التبادل التجاري بينهما كان منحرفاً في ناحية المانيا بمقدار ٥٤٩ مليون مارك . وبلغ صادر المانيا الى روسيا سنة ١٩٣٢ اكثر قليلاً من ٦٢٥ مليون مارك ووارد المانيا من روسيا ٢٧٠ مليون مارك والفرق ٣٥٥ مليون مارك

الاّ ان هذه الحالة تغيرت تغيراً كبيراً في سنة ١٩٣٣ عند ماتقلد النازي ازمة الحكم في المانيا. ذلك ان اتجاههم الى اعادة تسليح المانيا والى الاكتفاء الذاتي انقص من مقدرة المصانع الالمانية على التصدير الى الخارج وفي الوقت نفسه بدأت روسيا في تنفيذ مشروع السنوات الخمس الثاني فاستغنت جهدها عن استيراد الآلات من الخارج وعنيت بتنظيم ما تمّ حتى ذلك الوقت من انشاء صناعي في شتى انحاء البلاد . وكان استخراج الذهب من مناجم روسيا قد زاد زيادة تذكر فمكن روسيا من الفوز باعتمادات مالية في بلدان شتى ومنها بريطانيا . فبدأت تجارتها مع

المانيا تنقص فما أقبلت سنة ١٩٣٨ حتى كانت صادرات المانيا الى روسيا لا تزيد على ٣٢ مليون مارك (كان المبلغ ٧٦٢ مليوناً في سنة ١٩٣١) وصادرات روسيا الى المانيا على ٤٧ مليون مارك

ولا بدَّ لهذا التحول الصناعي والاقتصادي في البلدين من ان يؤثر في علاقاتهما التجارية. فروسيا تصنع الآن كثيراً مما كانت تستورده من المانيا. ولا تحتاج الا الى صنف خاص من الآلات والاجهزة الدقيقة التي قلما تعنى بها الصناعة الالمانية الآن وقلما تجيدها لهبوط مستوى المواد الخام التي تعتمد عليها في صنعها ولاشتغال العمال المتقنين بالصناعة الحربية. يقابل هذا ان روسيا قد تجد صعوبة — اذا سارت حالتها الاقتصادية والصناعية سيراً طبيعيًّا — في تلبية حاجة المانيا الى المواد الخام لانها — أي روسيا — تحتاج الى معظم ما يستخرج منها في أرضها وتضطر الى سدّ النقص بالاستيراد. فمنتجات المناجم الروسية تكفي الاستهلاك الروسي الداخلي وقلما يفيض منها شيء للتصدير

خذ مثلاً على ذلك — ونحن ننقل عن مقالة لمكاتب خاص للتيمس — مادة البترول. فقد زاد انتاجه في روسيا من ٢١ مليون طن متري في ١٩٣٢ الى ٣٠ مليون طن متري في ١٩٣٨. ولكن ازدياد الحاجة اليه في روسيا نفسها كان باعثاً على نقص المصدر من ٦ ملايين طن متري في سنة ١٩٣٢ الى مليون في سنة ١٩٣٨ الى لا شيء تقريباً في هذه السنة (١٩٣٩)

والحديد الخام زاد انتاجه من ٧ ملايين طن في سنة ١٩٣٣ الى ١٤ مليون ونصف مليون في سنة ١٩٣٦ ولم يزد بعد ذلك لعجز المناجم عن زيادته. وهذا المقدار لا يكاد يكفي ما تحتاج اليه الصناعة الروسية سنويًّا فالتصدير متعذر حتماً. والنحاس المنقى زاد انتاجه من ٤٥ الف طن في سنة ١٩٣٣ الى ١١٦ الف طن في سنة ١٩٣٨ ولكن الاستهلاك الداخلي في روسيا زاد في الفترة نفسها من ٥٣ الف طن الى ١٨٥ الف طن

وبلغ المستخرج من الرصاص في السنة الماضية ٦٩ الف طن متري والمستهلك ٩٠ الفاً

وبلغ المستخرج من الالومينوم في السنة الماضية ٤٨ الف طن والمستهلك ٥٥ الفاً، وبلغ المستخرج من الزنك ٧٠ الف طن والمستهلك ٧١ الف طن. اما النيكل فروسيا تعتمد فيه على الاستيراد من الامبراطورية البريطانية. ولعل الركاز المعدني الوحيد الذي تستطيع روسيا ان تصدره هو ركاز المنغنيس. اما المحصولات النباتية والغذائية الروسية فتكاد على المعدل تكفي زيادة المستهلك منها في روسيا نفسها ويستثنى من ذلك الخشب

فروسيا قلما تنتج من مواد الطعام ما يكفي شعبها ولا يزال مستوى تغذية الشعب الروسي دون ما تبغيه حكومته وتتطلع اليه. ولذلك كانت خطة موسكو في السنوات الاخيرة متجهة الى رفع مستوى تغذية الشعب أكثر من اتجاهها الى زيادة ما تصدره من مواد الطعام. فلم تصدر

من حبوبها الاّ ٩٢٠ الف طن متري في سنة ١٩٣٣ و ٢٣٦ الف طن متري في سنة ١٩٣٧. وهذا التفاوت يرتد الى مقدار الغلة والى ما تحتاج اليه الحكومة الروسية من نقد اجنبي لتوفي به التزاماتها المالية الخارجية . يقابل هذا ان حاجة المانيا الى الحبوب متفاوتة كذلك بتفاوت مقدار المحصول. ففي سنة ١٩٣٦ صدرت ١٢ الف طن متري وفي سنة ١٩٣٧ استوردت اكثر من مليون طن وربع مليون طن متري. وما يصدق على الحبوب يصدق كذلك على الشعير . ومما يستوقف النظر في هذه الناحية ان حقول روسيا الشاسعة التي تزرع حبوباً على اختلافها واقعة في الجنوب ومرفأ تصديرها الطبيعي هو مرفأ أودسا على البحر الاسود فتحويل التصدير الى مرافىء بحر البلطيق يرهق السكك الحديدية الروسية

وتصدر روسيا كذلك الزبدة ولكن ما تصدره منها الى جميع البلدان لم يزد في سنة ١٩٣٧ على ١٥ الف طن متري حالة ان ما استوردتهُ المانيا منها في تلك السنة بلغ ٨٧ الف طن متري

— ٤ —

واذا صرفنا النظر عن مسألة المقادير التي تستطيع روسيا السوفيتية ان تصدرها الى المانيا لتعوّض به ما كانت تستورده قبل الحرب — وهو يبلغ ٧٥ في المائة من حاجتها الى ركاز الحديد و ٩٠ في المائة من البترول و ٣٠ في المائة من القمح و ٩٥ في المائة من النحاس و ٩٠ في المائة من الرصاص و ١٠٠ في المائة من ركاز الكروم وغيرها — وجدنا الموضوع يتناول ثلاثة اعتبارات اساسية هي:

اولاً — الاعتبار السياسي . ان روسيا سواءٌ أكانت سوفيتية ام لم تكن لا بد ان تتردد كثيراً قبل اقدامها على بذل العون كاملاً لالمانيا النازية المشبعة بالروح العسكرية لما يعرف عن رغبة المانيا في السيطرة على معظم القارة الاوربية حتى تغدو — على قول روزنبرج رئيس القسم الخارجي في الحزب النازي — ولا قبل لدولة اخرى او كتلة من الدول بمقاومتها . وهذا المبدأ يمكن ان يحسب مبدأ اساسيًّا دائماً في سياسة روسيا الخارجية . الاّ ان المبادىء السياسية عرضة للتقلب وفقاً لأهواء القائمين بالامر وأغراضهم الخاصة . وقد يكون من مصلحة روسيا ان تمد المانيا بقدر محدود من الخامات الصناعية والحربية يمكنها من مواصلة الحرب مدة طويلة ولكنه لا يمكنها من الانتصار فتكون النتيجة اضعاف المانيا وخصومها في آن واحد

واذن فقد لا يقوم الاعتبار السياسي حائلاً حاسماً دون توريد روسيا الخامات اللازمة الى المانيا بقدر محدود

ثانياً — الاعتبار المالي . انهُ لغني عن البيان ان ما تنوي روسيا ان تصدره الى المانيا لن يكون هدية بلا مقابل . وقد يتم الاتفاق على ان تعقد روسيا قرضاً لالمانيا ولكن الاتفاق التجاري الذي عقد بين الدولتين قبيل عقد ميثاق عدم الاعتداء نص على ان تعقد المانيا قرضاً

روسيا ولذلك فالمرجح ان تكون مقادير المواد التي تبتاعها المانيا من روسيا محدودة بقدرتها على توفية ما تشتري. وحيث أن المانيا لا تملك مبلغاً يذكر من الذهب او من النقد الاجنبي تستطيع ان توفي بهِ ثمن ما تشتري فالغالب ان يكون التبادل بين برلين وموسكو على أساس المقايضة. وأكثر ما تحتاج اليه روسيا من مصنوعات المانيا الآلات الحديثة المتقنة. ومن المعلوم ان استئثار الصناعة الحربية بمعظم المصانع الالمانية حال دون قيام المصدرين الالمان — قبل نشوب هذه الحرب — بتنفيذ العقود التي عقدوها لاصدار الآلات الى الخارج. واذا كان هذا صحيحاً قبل نشوب الحرب فأحرى بهِ ان يكون صحيحاً بعد نشوبها. ولذلك يغلب على الظن ان التبادل التجاري بين روسيا والمانيا على هذا الاساس لا ينتظر ان يكون كبيراً

ثالثاً — اعتبار المواصلات: ان طرق المواصلات الرئيسية بين روسيا والمانيا ثلاثة: —

بحراً عن طريق بحر البلطيق ولكن هذا البحر يتجمد معظم السنة في طرفه الروسي وعلاوة على ذلك ان مدينة لننغراد بعيدة عن اكثر موارد الخامات الروسية والنقل اليها من مناطق هذه المصادر شاق وقد يكون متعذراً لأسباب شتى. ثم هناك طريق البحر الاسود فالدانوب وهذا الطريق خاضع لموقف رومانيا ويوغوسلافيا وهنغاريا او لأية دولة تملك قوة بحرية كبيرة وتستطيع ان ترسل الى البحر الاسود عمارة تعرقل هذه المواصلات — بعد سماح تركيا طبعاً. وعلاوة على هذه وتلك هناك سكك الحديد الروسية. ودرس شبكة السكك الحديدية الروسية يسفر عن حقيقة واضحة وهي ان هذه الشبكة انشئت بقصد تسهيل التجارة الداخلية لا لتسهيل الاصدار. والمسافات بين مصادر الخامات الروسية والمانيا شاسعة وقدرة مركبات السكك الروسية على النقل تبلغ الآن ١٦ مليون طن في السنة فاذا خصص عشر ذلك لتنقل الى المانيا لم تتمكن سكك الحديد الروسية من ان تنقل الى المانيا الاَّ مقدار ما تحتاج اليهِ من ركاز الحديد وحده في أثناء السلم! ثم هناك عقبات فنية اخرى تتعلق بسكك الحديد تجعل حل عقدة المواصلات الحديدية أمراً متعذراً قبل انقضاء بضع سنوات وانفاق نفقات كبيرة على انشاء خطوط جديدة في روسيا وزيادة عدد مركبات الشحن زيادة عظيمة

والخلاصة انهُ اذا نظرنا نظرة اقتصادية مجردة في مبلغ ما تستطيعه روسيا من إمداد المانيا بمواد الغذاء والصناعة وجدناهُ يسيراً. ولكن اذا شاءت روسيا ان تبذل لالمانيا معاونة فعالة في وسعها ان تقتر على شعبها وتحد من حاجاتها الداخلية وتقيِّد اقتصادها الاهلي وترهق سككها الحديدية لتحقيق ذلك. وهو ثمن باهظ لا يلوح ان ضم الاراضي يوازيه لان من شأنه ان يزعزع تقدم روسيا الاقتصادي الصناعي ومن المحتمل ان لا يقدم عليهِ زعيم روسي ولذلك يغلب على الظن أن مساعدة روسيا لالمانيا في هذه الناحية ستكون يسيرة محدودة النطاق

« السيادة التامة

كشعب عالمي »

تحليل اقتصادي اجتماعي لخطط

الوطنيين الاشتراكيين وأهدافهم البعيدة

من المسائل التي تشغل أذهان المفكرين في هذه الحرب وعواقبها مسألة في المقام الاول من خطر الشأن ، وهي : هل كان في الوسع الاتفاق مع الهر هتلر اتفاقاً يجنّب العالم هذه النوائب التي يعانيها ؟ والى القرّاء ردّ رجلٍ ثقةٍ هو الدكتور هرمن روشننج Rouschning رئيس مجلس شيوخ دانتزج سابقاً وهو ملخص بحث مسهب لهُ صدّر بهِ الجزء الاخير من مجلة الشؤون الخارجية الاميركية (اكتوبر ١٩٣٩)

قال روشننج : — ذهب ظن بعض الناس الى انهُ من المستطاع اقناع الهر هتلر بتبديل أساليبهِ وتقييد الاهداف التي يتجه اليها بالاذعان لهُ في مسائل محدودة وتحقيق مطالبهِ الخاصة بها على ان يكون هذا الاذعان مقيداً بشروط معينة يقبلها ، وعند ذلك تغدو المانيا عاملاً من عوامل الاستقرار الدولي . وقد كان هذا الرأي قائماً على قواعد سليمة مستمدة من حركة توحيد المانيا في ما بين سنتي ١٨٦٤و١٨٧٠ على عهد بسمارك . فبسمارك قال غير مرة انهُ متى تمّ توحيد الريخ غدا همّهُ الاول ان يفوز بثقة العالم بنزعتهِ السلمية . اي ان بسمارك كان يرى ان المانيا ستصبح عاملاً قويًّا من عوامل السلام في أوربا متى زالت بواعث برمها عن طريق توحيدها . نعم ان سياسة بسمارك كانت قائمة على استعمال القوة . ولكن اهدافه كانت محدودة لأنهُ كان يدرك الحدود العملية لما يستطاع ولما لا يستطاع

يقابل هذا ان سياسة غليوم الثاني كانت غامضة من حيث الاهداف التي تتجه اليها . وفي قول مأثور للسر ارثر نيكلسون عند ما استحكمت ازمة المغرب الأقصى سنة ١٩٠٥ ان وزارة الخارجية الألمانية لا تعلم ما تريد . ثم قال ان خطر السياسة الالمانية ليس ناشئاً عن اتجاهها الى التوسع بل عن غموضها . فغليوم الثاني بنى سياستهُ على المفاجئات الناشئة عن انفعال طارىء وهذه الحقيقة كانت أبعث على نشوب الحرب الماضية من سعي المانيا الى السيطرة العالمية

أما سياسة الهر هتلر فاختلفت في البدء اختلافاً بيناً عن سياسة غليوم الثاني وعن سياسة جمهورية ڤيمار . فسياسة غليوم كانت غامضة وسياسة جمهورية ڤيمار كانت متسمة بالتردّد . واما سياسة الهر هتلر فكانت صريحة ودلّت في صراحتها على انهُ يعرف تماماً الاهداف التي تتجه اليها فولادتها في احضان النزعة القومية الالمانية حمل اقطابها على السعي الى تنقيح معاهدة ڤرساي وازالة

اسباب البرَم الالماني فتشابهت في ذلك الى حدٍّ ما منهج بسمارك . فكأنها بدأت حيث انتهى بسمارك فوصلت ما انقطع من حبل سياسته

وكانت سياسة هتلر في باديء الأمر سياسة قومية بحصر المعنى . وكان هدفها تحويل « المانيا الصغيرة » التي وضع بسمارك قواعدها الى « المانيا الكبرى » التي ما فتئت حية في اذهان الوطنيين الالمانيين . وكان الطريق الى تحقيق هذا الغرض تنقيح النصوص الجغرافية في معاهدة الصلح وهو تنقيح كان لا بدَّ من ان يتمَّ يوماً ما . وكان لالمانيا في بلدان خصومها في الحرب الماضية، مؤيدون في طلبها هذا . والغالب ان هؤلاء كانوا يوافقون على التعديل المطلوب لو لم يلازم ذلك التعديل بعض الاساليب التي تستند الى القوة والارهاب ، مما أضعف ثقة الدول الاجنبية وحسن نيتها وعزَّز ترددها في قبول ما تطلبهُ المانيا . ومع ذلك ظل فريق منهم يذهب الى ان هذه الناحية من السياسة الالمانية غير اصيلة فيها وانهُ متى تمَّ تنقيح المعاهدة تتحول اساليب السياسة الالمانية الى الاستقرار والأخذ بالقواعد المرعية المحترمة الجانب في العلاقات الدولية

والواقع انهُ لو كانت اهداف السياسة الالمانية في عهد النظام الوطني الاشتراكي اهدافاً محدودة ، أي لو اتجهت هذه السياسة خاصة الى ضم المناطق الالمانية وجمعها في نطاق الريخ الثالث فحسب ، لكان من المرجح تسليم الدول الاخرى بذلك

ولذلك كان النقد الموجه الى النظام الوطني الاشتراكي في عهده الاول ، نقداً متسماً بسمة الاعتبارات الادبية وكان على الاكثر موجهاً الى اساليب النازي في داخل البلاد . وقلما سمع نقد لاهدافهم الخارجية . بل ذهب بعضهم الى حد تصوير الانقلاب الداخلي تصويراً مقبولاً ولاسيما بعد ما نجح رجالهُ نجاحاً باهراً — في الظاهر — في التغلب على مظاهر الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي في البلاد — او اخفائها !

وكان للنظام الجديد معارضون في داخل البلاد فما لبثوا حتى وصلوا الى النتيجة نفسها . ففي المرحلة الاولى استضعفوا النظام الجديد ثم برموا بأساليبه ثم اقتنعوا بأن ما يبدو فيه مما تعافهُ النفس لابدَّ ان يزول عندما تستقرُّ الحالة على اساسها الطبيعي . وكان الرأي في الدوائر غير النازية من رجال الجيش وكبار الموظفين وأقطاب الصناعة والتجارة ان هذه الحال لا تدوم وان الحكمة تقضي بالانتظام في الحزب الوطني الاشتراكي واصلاحه من الداخل وبدا لفريق من كبار الموظفين انهُ يتعذَّر عليهم التوفيق بين اساليب الحزب والواجب عليهم كما يفهمونهُ فيتعين عليهم ان يستقيلوا فقيل لهم إنهم إنْ فعلوا جاءت استقالتهم معززة للجناح المتطرف في الحزب وبهذا وما كان من قبيله يفسَّر بقاء رجال من امثال فون نوراث في وزارة الخارجية والكونت شفرين — كروزيك في المالية وغيرها

ولكن الاساس الذي قام عليه هذا التفكير كان ضعيفاً ، ذلك ان اصلاح الحركة الوطنية الاشتراكية على النحو الذي اراده هؤلاء كان متعذراً ، لانها كانت متجهة قسراً وبدافع من طبيعتها الداخلية الى التطرف شأنها في ذلك شأن كل حركة ثورية . فجاءت معاونة العناصر المحافظة لها معززةً لمنزلتها فاجتنبت المانيا بذلك حرباً اهلية ، ولكن الاتجاه المرجو نحو الاعتدال والاستقرار لم يحقق

ويلوح للهر روشننج ان موقف الدول الدمقراطية الغربية في الحركة الوطنية الاشتراكية كان شبيهاً بموقف العناصر المحافظة الالمانية منها . فمعاونة هذه العناصر في الداخل أفضى الى اجتناب حرب اهلية في المانيا ، ومسلك الدول الدمقراطية في الخارج افضى الى اجتناب حرب أوربية . وقد يتعذَّر على الباحث ان يفهم كيف ظلَّت حقيقة الحركة الوطنية الاشتراكية خافية على اقطاب الدول الغربية بضع سنوات . ولكن العناية بالمسائل الاقتصادية في مستهلّ العهد النازي كانت غالبة على الاذهان . فنظر هؤلاء الاقطاب الى الوسائل الفعّالة التي عالجت بها الحكومة النازية مشكلة التعطل عن العمل فبهرت بنشاطها وتانجها ورأت فيها وسيلة من الوسائل الفعّالة للخروج بالعالم من قتام الازمة الاقتصادية وضيقها

ثم ان النظر الاقتصادي في الموضوع يتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع موارد الخامات الصناعية وحاجة المانيا اليها كبيرة . ولو كان العصر عصر سلام سياسي واقبال تجاري لما تعذَّر على المانيا ان تفوز بما تحتاج اليه من هذه الخامات . ولكن الازمة العالمية ضيَّقت الخناق على التجارة الدولية ، فكان من الطبيعي ان يتجه الرأي الى العلاج الاقتصادي لحالةٍ تكره المانيا على التوسع السياسي . فقيل انهُ اذا ابيحت بعض البلدان لاستغلال المانيا الاقتصادي ، واذا كفيت حاجتها الى الخامات الصناعية فلا يبعد ان تعمد المانيا الى السلام والاستقرار ، لأنها اذا كانت مكتفية من الناحية الاقتصادية فانها تنفق نشاطها حينئذٍ في الانتاج بدلاً من الحرب

وهذا تفكير يلوح انهُ سليم ولكنهُ لايفسّر بوجه من الوجوه ، كيف مضت المانيا تتمادى في الطلب كلما سلمت لها الدول الدمقراطية سنة بعد سنة بما تريد . والواقع انهُ قام على مبادىء خاطئة من حيث انهُ قدَّم الاعتبار الاقتصادي في المانيا على الاعتبارات الاخرى ، مع ان الاعتبارات الاخرى النابعة من النفس لا من الحالة الاقتصادية كانت المحرك الرئيسي للحركة الوطنية الاشتراكية

فالمانيا الوطنية الاشتراكية لم تعمد الى طريقة الاكتفاء الذاتي لغرض اقتصادي او اجتماعي وانما عمدت اليها لأغراض تتعلق بقوة الدولة وسطوتها — اي بالدفاع الوطني والقدرة على الحرب . وجرثومة هذه السياسة ترتد الى عهد بسمارك وكان الوزير الحديديُّ يرى صلة وثيقة بين الحماية التجارية

والسلطان الحربي . ثم خاضت المانيا الحرب العالمية الأولى فرأت كيف قطعت صلاتها بالعالم الخارجي ومنعت عنها موارد الخامات التي تحتاج اليها وما اكثرها ، فحملها كل ذلك على السعي الى توسيع مواردها إما بالاتقان العلمي والصناعي ، واما بالتوسع الجغرافي

حدّث جماعة من مفكري الوطنيين الاشتراكيين في هذا الموضوع ثم رأيتهم يفكرون على النمط التالي : —

ان المانيا تلي روسيا في عدد السكان بين دول اوربا . وضيق ارضها يحول دون « سيادتها التامة » « كشعب عالمي » . ليس ثمة ريب في أنها تستطيع في ابان السلام ان تفوز بكل ما تحتاج اليه من مواد الصناعة . ولكن اعتمادها على الاسواق العالمية يجعلها في ابان الحرب دولة ضعيفة كلَّ الضعف . وما تم من وجوه التقدم والارتقاء في اساليب الحرب وأجهزتها جعل المانيا عاجزة عن القيام بحرب في ميادين قياماً عليه سمة امل بالنجاح . وقدرتها على استعمال مواهب ابنائها الفنية والصناعية يعرقلها ويضعفها اعتمادُها الاقتصادي على الدول الاجنبية . واذن فمن المستحيل على المانيا الى ابد الدهر ان تبلغ المرتبة التي تريدها ، وهي مرتبة « شعب عالمي » وستبقى مضطرة ان ترضى بمقام ثانوي تتقدم عليها امة صغيرة كالامة الانكليزية اوحتى كالأمة الفرنسية

والصفة التي يتميز بها الشعب العالمي — يقول اقطاب النازي — هي حرية العمل السياسي . فللولايات المتحدة الاميركية حريتها ، وكذلك الامبراطورية البريطانية وروسيا . وفرنسا الى حدٍّ محدود . واذا شاءت المانيا ان تجاري هذه الدول وألاَّ ترضى بمقام ثانوي بينها فعليها ان توفق بين منزلتها المرموقة و « المدى الاقتصادي » economic space المتاح لها ، ومن الخطإ ان توصف بأنها دولة محرومة have not تنافس الدول المكتفية haves ووصفها بهذا الوصف ليس الأَّ سلاحاً يستعمله أعداؤها ضدَّها في حرب الآراء . والحقيقة ان المانيا وهي في مقدمة دول أوربا تقدماً واتقاناً صناعيًّا منعت الاَّ من إحراز مقام ثانوي بين الشعوب العالمية . فألمانيا بين الاستسلام لهذه الحقيقة والسعي الى حلها بحدّ السيف . أما الاستسلام وهي دولة فتية تمشي في عروقها حرارة الحياة فتعذر عليها . فلم يبق أمامها الاَّ الطريق الآخر لان العالم تركها في جوٍّ لا يغري بالتعاون

والاكتفاء الذاتي ليس الاَّ سلاحاً مصطنعاً يستعمل الى حين في ميادين الاقتصاد والسياسة بغية تحقيق « الاستقلال الطبيعي » الذي تنشدهُ . فهو حلٌّ غير دائم ، لانهُ غير طبيعي والاعتماد الدائم عليهِ مقضيٌّ عليهِ بالخيبة . ولكنهُ أتاح لالمانيا فترة قصيرة من الاستقلال الذي لا بدَّ منهُ للفوز بالاساليب السياسية والعسكرية لتحقيق هدفها البعيد وهو « سيادتها الكاملة » « كشعب عالمي »

و«المدى الحيوي» Lebensraum, Living space لا يعني في نظر النازي منطقة واسعة يتاح لألمانيا في نطاقها تبادل البضائع تبادلاً حرًّا . بل يعني منطقة على جانب كافٍ من السعة يتاح لألمانيا فيها حرية « مطلقة » للعمل السياسي . وحدود هذه المنطقة تتسع وفقاً لا تساع مقتضيات الحرب الحديثة . فما كان يكفي المانيا سنة ١٨٨٠ لتغدو دولةً مكتفية وذات سيادة مطلقة غدا لا يكفيها بعد انتهاء الحرب العالمية الماضية . ولا بدَّ لألمانيا في نظر النازي من بسط سيطرتها شرقاً الى القوقاس بما فيه أوقرانيا وغرباً الى البحر لكي تحقق السيادة المنشودة في الاحوال التي نشأت بعد الحرب العالمية الماضية . وذلك يقتضي ان يكون لها زيت القوقاس ومعادن أوقرانيا وحبوب رومانيا وهنغاريا وسواحل بلجيكا وهولندة وشمال فرنسا ومستعمرات تابعة الآن لدول اخرى

هذه هي النظرة الاساسية التي تنطوي عليها خطة الحركة الوطنية الاشتراكية . والحقيقة البارزة التي نخرج بها من هذا القول هي ان تقديم اغصان الزيتون لا يكفي ، لان المانيا بزعامة الوطنيين الاشتراكيين تطلب « السيادة التامة كشعب عالمي » ولا ترضى بأقل من ذلك

فالسياسة الخارجية التي جرى عليها هتلر لم تترك له مجالاً واسعاً للاختيار . ان الاهداف المحدودة التي اتجه اليها ليست الاَّ اجزاء من الهدف البعيد وهو « السيادة التامة » لالمانيا « كشعب عالمي » . والمانيا بزعامته لن تكتفي الاَّ بعد ما تبسط سيطرتها على متسع من الأرض تعتقد انهُ كافٍ ليحررها من الاعتماد على الدول الأخرى . فاذا ادركنا هذه الحقيقة فهمنا لماذا لا يرى الوطنيون الاشتراكيون خيراً ما في تنظيم اقتصادي عالمي على اساسٍ من التبادل بين الدول آيتهُ اعتماد الاجزاء على الكل واعتماد الاجزاء بعضها على بعض . ولذلك وقفت اوربا — والعالم في الواقع — بين امرين : فإما ان تتخلى المانيا عن هذا الهدف البعيد واما الحرب ، لأن تحقيقهُ يعني في الحقيقة بسط السيطرة الألمانية على اوربا . وعند ذلك فقط تميل المانيا الى النظر في تنظيم العالم تنظيماً أساسهُ التبادل لانهُ اذا اصيب هذا النظام باضطراب ما ، فانهُ لا يؤثر في السيادة الالمانية ولا في قدرة الدولة الالمانية على خوض غمار الحرب وهي معتمدة على ما تستورده من دول اخرى

وعزَّز من هذه النظرة في اذهان اقطاب الريخ الثالث اعتقادهم ان « الدول العالمية » آخذة في الانحدار . فانكلترا في رأيهم « دولة على ورق » وموقفها الحربي ضعيف وآخذ في الانهيار . وفرنسا امة ماضية في طريق الموت موتاً بيولوجيًّا لانها تريد ان تجمع بين القوة الحربية وضبط النسل فاعتمدت على الزنوج من مستعمراتها فهي لذلك عاجزة عن ان يكون لها شأن كشعب عالمي . والولايات المتحدة الاميركية تخطت دور شبابها علاوة على كونها خليطاً من الامم والعناصر فاذا تعرضت لضغط خارجيّ من نوع معيّن كان ذلك كافياً لقيام الثورة فيها .

وهذا الاعتقاد لم يبدّل منهُ ما بدا في بريطانيا وفرنسا في خلال السنة الماضية من دلائل العزم والحزم . ذلك ان الدول الدمقراطية في نظر الوطنيين الاشتراكيين يعوزها عنصر اساسي وهو الرغبة الشديدة الحازمة في اثبات نفسها بالقوة . بل ان هتلر ذهب الى أبعد من ذلك . فقد دلّه ما أحرزهُ من نصر سياسي تلو آخر على ان مكانتهُ في التاريخ ستقوم على انهُ عجّل انهيار هذه الدول الهرمة فمهّد السبيل للنظام العالمي الجديد الذي تحمل فيه المانيا لواء الزعامة والسيطرة . وطريقة الوطنيين الاشتراكيين في تعجيل هذا الانحلال هي هي طريقة الاحزاب الثورية في كل بلد ، اي دسّ الدسائس ونشر الدعاية الهدّامة وتشجيع الانحلال الداخلي لاضعاف المشيئة القومية ثم تقسيم المطالب والاتجاه الى تحقيقها مطلباً مطلباً حتى لا يبدو احدها كبيراً يحرّك النفوس لحمل السلاح

هذه النظرة الوطنية الاشتراكية الى الاهداف والاساليب حملت الهر هتلر على الاعتقاد بأنّ مقترحات السلام من كل خصم له ليست الاّ دليلاً على استبداد ذلك الخصم للاذعان ، فأرهفت شوقهُ الى الهجوم . وكذلك نشبت الحرب التي ارادت الدول الدمقراطية تجنبها بمجرد رغبتها في معالجة المشكلات بالرشد والمسالمة . ثم ان أحوال المانيا الداخلية أكرهت الوطنيين الاشتراكيين على المضي في خطتهم لان أملهم الوحيد في الاحتفاظ بمنزلتهم في المانيا كان معلقاً بالمضي في حركتهم الثورية والمغالاة فيها ، لذلك كان من المستحيل عليهم ان يتخلوا عن أسباب السيطرة وإحداث تبديل أساسي في النظام الاقتصادي الذي كان أحد مصادر سلطانهم ولا العودة بالمجتمع الالماني الى نظام قائم على الحرية والقانون . كان من المحتمل ان يسلموا بتحديد السلاح بعض الشيء لأنهم قرّروا ان التفوق النفسي لازم لهم كالتفوق الحربي . ولما كانوا قد فازوا بتحقيق الشطر الاول فقد كان في وسعهم ان يتراخوا قليلاً في الثاني اذا لزم الأمر . ولكن من الثابت أنهم كانوا لا يستطيعون ان يقيموا نظاماً أساسهُ القانون ولا ان ينشئوا دستوراً يشمل جميع الطبقات أي انهُ كان يستحيل عليهم ان يتخلوا عن أسلوب البطش والتحكم والارهاب . وفي هذه الحالة كان التعاون السياسي والاقتصادي الصادق مع سائر البلدان متعذراً . لان العلاقات السياسية بين الدول لا يمكن ان تقوم إلاّ على الأخذ والعطاء والاتفاق الوسط . والوطنية الاشتراكية في طبيعتها الثورية والنظام الذي أنشأتهُ داخل البلاد كانت عاجزة عن الاتفاق الوسط . فاما النجاح الكامل وإما الأذعان الكامل . لأن كل تراجع في الخارج كان لا بدّ ان يفضي الى متاعب في داخل البلاد قد تفضي بدورها الى انهيار النظام النازي . ولذلك لم يكن في مستطاع أحد تعمّق في درس الحركة الوطنية الاشتراكية واهدافها وأساليبها إلاّ الاقتناع بأنها لا ترضى بالتسليم لها في نطاق محدود ، بديلاً عن طريقها الى السيطرة على أوربا والثورة العالمية

باب الأخبار العلمية

عجائب الجراحة العصرية او المبضع الكهربائي

ما من شك ان الخوف عدوٌّ أزرق للجرّاح . وقد غير العلم الحديث العمليات الجراحية القديمة ، بقدر ما غيّرها سمبسون بالكلوروفورم ، إذ حوّلها من جزارة بشرية الى عمليات هينة وذلك بفضل المرقدات المخدّرات

وأعظم الاصلاحات التي أدخلت على الجراحة ، سرعة الاستغناء عن مبضع الجراح ذلك الذي طالما كان رمزاً للفرَق ، بل كثيراً ما كان يقضي على المريض ،عوضاً عن ان يكون سبباً لاطالة حياته

أما الآن ، وقد زال مبضع الجرّاح وحلّ محله المشرط الدياثرمي Diathermic knife وهو معجزة الجراحة العصرية ، فقد غدا الجرّاحون يبضعون أعضاء الجسم المختلفة بالتيار الكهربائي وصارت العمليات الجراحية المستعصية التي كانت مستحيلة عليهم منذ عشر سنين ، من الهينات وتيسر لهم سبر الجسم البشري ، والتوغل في زواياه الخفية ، التي لم يكن المشرط المألوف ليبلغها ، فيقوم الجرّاح ببضع ما شاء بلا وجل من نزف الدم من طوائف العروق ، فيتاح له ان ينجز في بضع دقائق ، دون استعجال ، ما كان يستغرق عمله ساعات مع ما كان يعقبه من ضرر محقق . ومن العجب ان الجراح يأتي ذلك العمل بأجمعه دون اراقة قطرة دم واحدة من مريضه

والمشرط الدياثرمي ، ثمرة يانعة مباشرة من ثمار الكهربائية العلاجية التي تولد الحرارة المشعة المعتادة . وهي التي تتولد من مرور التيارات الكهربائية السريعة التذبذب في الجسم البشري ، فكأنها وسيلة صناعية لرفع حرارته الاصلية بضع درجات

ولذلك يوضع قطبان كهربائيان كبيران على جانبي العضو المزمع علاجهُ ، ابتغاء جعل تأثير التيار الكهربائي يشمل أكبر مساحة ممكنة

وتستعمل الآن النتائج الاولى لذلك الاختراع في جميع انحاء العالم لغرضين : اولهما البضع ، وثانيهما تجميد الدم . وما زال السلك الرفيع مستعملا كالمبضع وذلك لتوليد هذه الحرارة الموضعية الشديدة التي تذيب حالاً اللحم البشري من تحتها دون حاجة الى الضغط فيستطيع الجراح القيام بالبضع بكل دقة واتقان ، ولا يصعب عليه الوصول بسلكه الباضع الى اية نقطة في الجسم ، اذ هو يتمكن من ثني ذلك السلك لكي يلتف حول الزوايا . وفي وسعه ايضاً أن يجعله على شكل عروة تُلتف حول قاعدة زائدة بدنية او نامية سرطانيــة فيستأصلها من موضعها في دقائق معدودات . حالة ان المبضع المألوف يستغرق ساعات في اعمال طفيفة ربما يعقبها الخطر . وأفضل من كل ذلك ان الجراح يبضع العضو دون احداث نزف في دمائه على الاطلاق ، اذ حرارة المبضع الكهربائي تغلق اطراف كل عرق تمر به اغلاقاً محكماً . والمعروف ان خطر نزف الدم كثيراً ما كان عقبة كأداء تحول دون

اجراء العمليات الجراحية الضرورية للحياة في كثير من اعضاء الجسد التي تحدق بها طوائف من العروق . فأضحى ذلك الخطر في خبر كان . اذ تتم العمليات الآن بلا خطر ، وذلك في الكبد والمخ وغيرها. والميزة الاخرى العظمى للمشرط الكهربائي ، تسهيله معضلة كبرى من معضلات الجراحة وهي استئصال النوامي السرطانية والاورام المتأصلة في الجسم البشري وانهُ قد انشأ وسيلة اصطلاحية للعلاج فالجراح بضبطه التيار السريع التذبذب ، واستخدامه المشرط المنتهي بالزر ، يستطيع توليد حرارة في عضو الانسان تكفي لاحراق أية نامية وذلك بالملامسة دون غيرها . وتسمى تلك العملية عملية تجميد الدم

ومن سبق الحوادث التنبؤ الآن بمصير ذلك المخترَع (بفتح الراء) المعظم في جراحة السرطان ولكن المعروف انهُ سيقلبها رأساً على عقب ويسهلها ويجعلها خالية من الخطر

المسك الطبيعي ومنافعه — والمسك الصناعي وتركيبه

قالت دائرة المعارف الانكليزية الحديثة للطلبة الطيوب نوعان اصليان ، وهما الحيواني والنباتي . وأعظم الطيوب الحيوانية المسك . وهو مادة سمراء ضاربة الى الحمرة ، قوامها كقوام عسل النحل ، وتستخرج من ظبي المسك ، الذي يقطن بهضاب آسيا الوسطى . والمسك عطر قوي يدوم زمناً طويلاً ويكسب شذاه لكل ما يلامسه او يجاوره حتى الفولاذ الصقيل اذا ادخلته في علبة مع المسك، واغلقتها عليه ، اكتسب الفولاذ رائحة المسك الذكية

وتمزج العطور المختلفة بمقادير طفيفة من المسك ، لكي يكسبها خاصية دوام الشذا الذي تفقده اذا بقيت محضاً . واسعاره باهظة جداً ، وذلك لندرة وجود الحيوانات التي تنتجه

ويدلنا التاريخ على كون ظبي المسك يصاد من اقدم الدهور ابتغاء الحصول على مادة المسك الذكية الرائحة جداً . ويختلف ظبي المسك عن غيره من فصائل الظباء ، بكون ذكوره وأناثه جماء (أي لاقرون لها) الا أن لذكوره أنيابا بأحادة بارزة نحو الاسفل ، من الفك الأعلى وبذينك النابين يدافع الذكر عن نفسه اذا هاجمهُ حيوان آخر

ويسكن ظبي المسك السهول المرتفعة في آسيا الوسطى (كما تقدم القول) . ومن طبيعة ظباء المسك انها تعيش فرادى ، وقلما ترى أزواجاً . ولا تسرح قطعاناً لانها شديدة الوجل ، ولذلك تعلف ليلاً في الغالب . ولصعوبة الدنو منها تصاد بالفخاخ . ويبلغ طول الظبي الكامل النمو ثلاث اقدام وارتفاعه عند كتفيه ٢٠ عقدة وألوان ظباء المسك مختلفة ولكن اكثرها اسمر ضارب الى الشهبة أو الصفرة ونصفها السفلي ضارب الى البياض

ولا يوجد المسك الاَّ في جسم ذكر الظباء ، وذلك في كيس يعادل حجم البرتقالة الصغيرة جداً تحت السطح السفلي لبطنه . ويحتوي كل كيس على أوقية واحدة او اكثر من المسك الخام ويكون لونه وقوامه حينئذٍ

شبيهين بهما في «البسكوت» او بن المتبل بمسحوق الزنجبيل . ولما كان شذا المسك قوياً جداً وثابتاً أصبح مزج العطور الاخرى به ضرورياً احتفاظاً بذكاء روائحها . والمسك من أعظم اصناف التجارة في قارة اسيا بأجمعها

وقال العلامة القزويني في مؤلفه القديم المشهور : — أما ظباء المسك فانها كظباء بلادنا الاّ أن لها نابين ، خارجين من الفم كما للفيل . وربما اصيدت والمسك في سرتها غير ناضج وتكون فيه زهومة . ومثله مثل الثمار ، اذا قطعت قبل الادراك فانها تكون ناقصة الطعم والرائحة . وأجود المسك ما ألقاه الغزال وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم الى سرته فاذا استحكم الدم فيها ، ونضج ، يجمع من ذلك اربة (عقدة) وحكاً في سرته ، فيفزع حينئذٍ الى صخرة حادة فيحتك بها ملتذاً بذلك ، فتنفجر المادة حينئذٍ وتسيل على ذلك الحجر كانفجار الخراج والدماميل اذا نضجت ،فيجد الغزال بخروجها لذة . والناس يتبعون مراعيها في الجبال ، فيجدون ذلك الدم ، قد جفّ على الصخور ، فيحملونهُ ويدعونهُ في نوافج (اوعية المسك) معهم معدة لذلك . فهذا هو اصل المسك الذي يستعمله ملوكهم ويتهادونه فيما بينهم

وجاء في الكتاب المسمى تذكرة ابن ارمانيوس (وهو عازر ارمانيوس افندي الصيدلي المصري الشيخ المشهور) المطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٢٢ على المسك ومنافعه ما يأتي :— المسك مادة حيوانية يحصل عليها من غزال المسك تفرز داخل كيس خاص موضوع بين السرة ، وأعضاء تناسل الحيوان ، وهي صلبة حبيبة ، دسمة الملمس ولونها أسمر مائل للسواد . وتأتي المتجر داخل اكياس مختلفة الطول وأجوده مسك التونكين ويليه مسك سيبريا . والاول يأتي من الصين والثاني من البنجال . وهو منبه عام ومنظم للدورة والوظائف العصبية ، ومضاد للتشنج في الهستريا ، والصرع والربو التشنجي وقد أصبح استعماله مقصوراً على دخوله في الاطياب والروائح والتعطير

وقال الفيروز ابادي في قاموسه المشهور : — المسك مقوٍّ للقلب ، مشجع للسودواويين نافع للخفقان والرياح الغليظة في الامعاء والسموم

وجاء في معجمي المصباح المنير ومختار الصحاح : — المسك طيب معروف وهو فارسي معرب . وكانت العرب تسميه المشموم وهو عندهم افضل الطيب ولهذا ورد خلوف[1] فم الصائم عند الله ، اطيب من ريح المسك — ترغيباً في أبقاء اثر الصوم

وورد في احدث المجلات العلمية الانكليزية ما يأتي : — المسك أعظم أنواع الطيوب الطبيعية وأنفسها ويبلغ ثمن الرطل من المسك النقي ٨٠٠٠ جنيه انكليزي . ولشدة غلائه وندرة وجوده شرع العلماء في تركيبه تركيباً كيمائياً من زيت الخروع

---

(١) الخلوف الاسم من خلف فم الصائم ، تغيرت رائحته وكذا اللبن والطعام اذا تغير طعمه او ريحه

أوانٍ للطبخ من الصلب العديم الصدأ

Stainless Steel

أُدخل الصلب الذي لا يصدأ (منذ فصل الربيع لهذه السنة ١٩٣٩) في صنع طائفة من ادوات الطبخ في اميركا ويصنع جسم الاناء من ذلك الفولاذ العديم الصدإِ ، لانهُ نظيف جداً كالزجاج ، رصين ، جميل المنظر ، يقاوم حوامض الاغذية وقلوياتها . وتلبس قاعدته بالنحاس الاحمر بأن تجعل ثخانتها كثخانة الفولاذ العديم الصدأ مرة ونصف مرة ، وذلك لان النحاس الاحمر يجعل الحرارة توزع بالتساوي على الاناء عند الطبخ ويستعمل الفولاذ العديم الصدإ في صنع الآلات القاطعة كالسكاكين ونحوها ولغيرها من الأدوات التي تحتاج الى دوام النظافة . وهو يؤلف من ١٢٪ من معدن الكروم والباقي من الفولاذ وهو من المنتجات الانكليزية الاصل اخترعهُ المستر. بريرلي H. Brearley وقد وفق لاختراعهِ عرضاً . وذلك أنهُ كان يجرب ذات مرة انتاج فولاذ من نوع جديد إذ أضاف الى إحدى طبخات الفولاذ ١٤٪ من الكروم ، فكانت تلك النسبة تزيد على المعتاد مزجها بالفولاذ ، من قبل ، فاسفرت نتيجة العملية عن عكس ما كان يتوقعه ، ولذلك ألقى الفولاذ الناتج منها قصيًّا ، في إحدى زوايا معمله الكيمياوي

واتفق بعد اسبوعين ان مرَّ احد أعوان بريرلي بذلك الفولاذ المنبوذ فرآه ما زال محتفظاً بلمعانه مع انقضاء تلك المدة عليه معرضاً للتقلبات الجوية فلم يسعه الاّ توجيه نظر رئيسه الى تلك الحقيقة المدهشة . فواصل المخترع تجاربه في الفولاذ حتى ايقن انهُ لا يستهدف الصدأ ولا تؤثر فيه الحوامض . ومن ثمة اعترف العلماء بذلك النوع الحديث من الفولاذ وأدركوا منافعه الجليلة

بطيخ بلا بزر

أعلنت كلية الزراعة في ولاية ميتشيغان بأميركا ، أنها قد توصلت بالتجارب الزراعية العلمية في الاستنبات ، الى انتاج بطيخ بلا بزر ويعزى ذلك الاكتشاف الى طالب صيني نابغة من خريجيها ، وهو تشيونغ ـ ين ـ ونج Cheong-Yin Wong . وهذه بغية ، طالما طمح اليها علماء الزراعة . وذلك عقب نجاحهم في انتاج الطماطم والفلفل الاخضر والاحمر والباذنجان والقرع (ضراف) خالية من البزر . فلم يبق إلا البطيخ واليقطين يحويان البزر . وطعم البطيخ الجديد مثل طعم البطيخ ذي البزر ، وشكله الخارجي يختلف عن البطيخ المألوف إذ هو غالباً كمثري الشكل لا بيضيهُ . والتجارب التي جربت في بطيخ ميتشيغان ، تمت في النوع الذي لا يزيد متوسط ثقله على ثمانية أرطال وهو أصغر من بطيخ البلدان الجنوبية في تلك الولاية . وقال المستر ونج إن انتاج البطيخ العديم البزر ، من الحقول ، قد يكون صعباً ولكنهُ ميسور في الأكنة الزجاجية التي تخصص في البساتين لزراعة النباتات الغضة وتربيتها

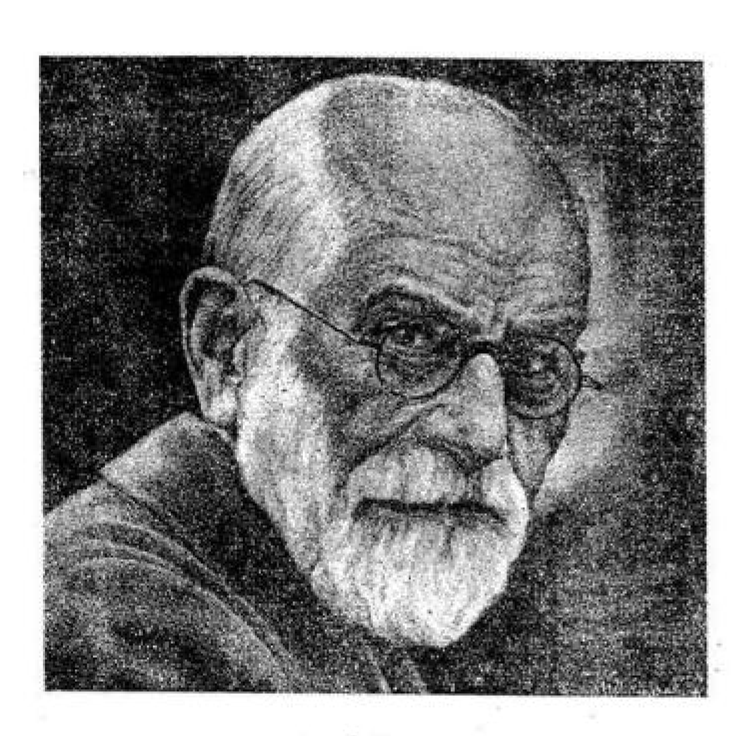
الآلات ذات الثغور اللاقطة الاثمان والاجور

تقوم الآلات ذات الثغور اللاقطة دراهم الاثمان والأجور ، وهي التي يسميها الانكليز penny in-the slot-machines بأعمال شتى في البلاد الأوربية والاميركية وفي عواصمنا المصرية أيضاً وأحدث ما استخدمت فيه من الاعمال ، هنالك موافاة عملائها في أميركا بأحدث الانباء العالمية والمحلية الخطيرة ، وذلك على مثال الحوادث التي تعرض بالشرط السينمائية في معارض الصور المتحركة . إذ يلقى درهم في ثغر الجهاز فتتحرك آلات عرض الصور المتحركة المركبة في قاعدة خزانته الكبيرة فيظهر تواً الشريط المحتوي على الاخبار ، معروضاً أمام نافذة زجاجية . وتركب هذه الآلة العارضة للاخبار والحوادث في محطات سكك الحديد وأبهاء الفنادق وغيرها من المحال العامة . وقد عرضت حديثاً في معرض شيكاغو للآلات البياعة ذات الثغور . وطريقة عملها تتصل أن تُلقى الصور المرسومة على الشريط ، على مرآة صغيرة فتنعكس عنها ، وذلك على ستار من الزجاج المسنفر ، قريب من رأس الخزانة حيث يشاهدها الناظر من فتحة زجاجية صغيرة للعيون . وتؤلف مشاهدها من أربعة فصول ، منفصلة بعضها عن بعض . ومتى تمّ عرض تلك الفصول ، انتهى الشريط واستوقف ملء الجهاز استعداداً لعرض الاخبار على مشاهد آخر

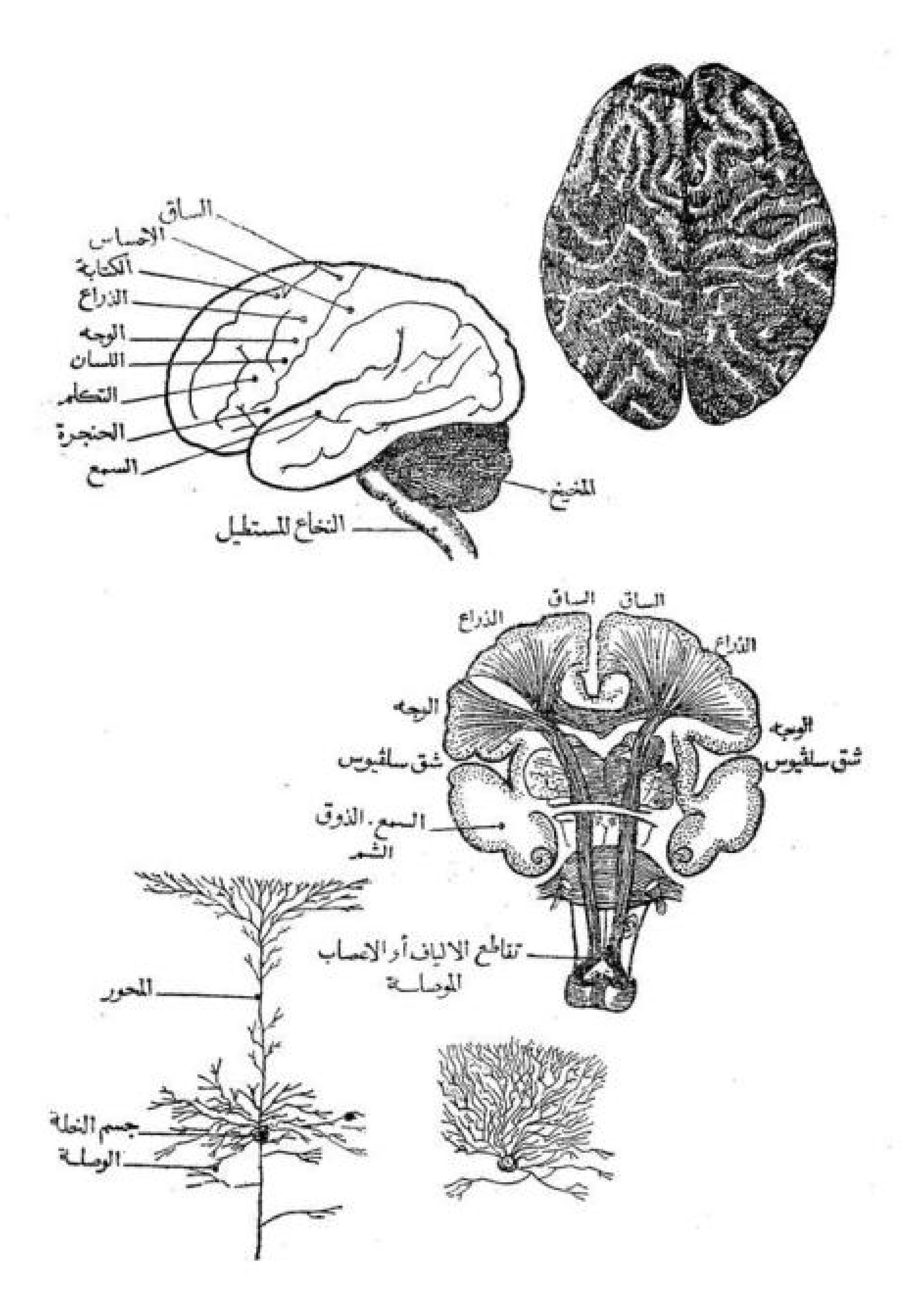
عوض جندي

وفاة المستشرق فنسنك

توفي من شهر المستشرق الهولندي الكبير ا. ي. فنسنك ، وكان من اعلام الاستشراق في اوربا لهذا العهد ، وزع نشاطه بين التدريس والتأليف والتصنيف . اما التدريس فقد كان استاذ اللغات السامية في جامعة ليدن . وأما التأليف فحسبه كتابه النفيس في « العقيدة الاسلامية » The Muslim Creed على ان شهرته تقوم بما صنفه في الحديث . فله كتاب «مفتاح كنوز السنة» الذي نقله الى العربية الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (مصر ١٩٣٣) وهو كتاب يستعان به على اصابة الاحاديث النبوية في موضوعاتها . ثم ان فنسنك اخذ يخرج « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي » منذ سنة ١٩٣٤ ، وهو معجم تفصيلي لمفردات الاحاديث المدونة في الكتب السنية ومسند الدارمي وموطإ مالك ومسند احمد بن حنبل . وقد خرج من هذا المعجم احد عشر جزءاً حتى اليوم . وهو جليل ذو فائدة لا يقدر قدرها من حيث انه يبذل للباحث مظان الأحاديث المختلفة بالتفتيش عن كلة واحدة من الحديث المنشود وكان فنسنك فوق هذا رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية التي تصدر في ليدن . وكان قد عيّن سنة ١٩٣٣ عضواً في مجمع فؤاد للغة العربية ، ثم عدلت الحكومة المصرية عن تعيينه لان بعضهم رأوا ان في مقال له منشور في دائرة المعارف المذكورة ما يجرح شعور المسلمين وان كان مكتوباً بروح علمي



سيجموند فرويد
Sigmund Freud
(١٨٥٦ — ١٩٣٩)


الساق
الاحساس
الكتابة
الذراع
الوجه
اللسان
التكلم
الحنجرة
السمع
المخيخ
النخاع المستطيل
الساق
الساق
الذراع
الذراع
الوجه
الوجه
شق سلفيوس
شق سلفيوس
السمع . الذوق
الشم
تقاطع الالياف أو الاعصاب
الموصلة
المحور
جسم الخلية
الوصلة

١ — صورة صورها من الجو سلاح الطيران البريطاني تبين المسجد الكبير بسامرا
والزيادات التي تحيط به ومدينة سامرا الجديدة وقد ظهر بالصورة السور الذي يطيف بها



العصر الفائر

تأثير الثورة الصناعية والنزعة الاستعمارية في مشكلات العصر
التفسير النفسي للدكتاتوريات الحديثة

روسيا والمانيا

علاقتهما في ربع القرن الماضي
موارد الاولى وحاجات الثانيـة

السيادة التامة

كشعب عالمي

تحليل اقتصادي اجتماعي لاهداف
الحركة الوطنية الاشتراكية وأساليبها

فهرس الجزء الرابع
من المجلد الخامس والتسعين

المقتطف

AL-MUKTATAF

AN ARABIC MONTHLY REVIEW OF
CURRENT SCIENCE AND LITERATURE

FOUNDED 1876



الجزء الخامس من المجلد الخامس والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٩ — ٢٠ شوال سنة ١٣٥٨

اكتشاف السنة

في تركيب الذرة وحلها

هل الانشطار الذرّي اهمُّ من الحرب ؟

روى الدكتور كارل كمطن مدير معهد ماساتشوستس التكنولوجي انهُ عُهد اليهِ في خلال الحرب العالمية الماضية بأن يعرض على خبراء الانكليز والاميركيين جهازاً كان الفرنسيون قد اخترعوهُ لتبين مواقع الغواصات . وكان ارنست رذرفورد — اكبر علماء الذرة في هذا العصر وقد توفي في ١٩٣٧ — احد خبراء الانكليز . فعند ما حان ميعاد الاجتماع تلقى الخبير الانكليزي الآخر — الاستاذ بمستد — بطاقة من رذرفورد يعتذر فيها عن تأخرهِ بوجوب بقائهِ في معملهِ قليلاً لانجاز تجارب كان قد بدأها وان هناك ما يحملهُ على الظن انهُ تمكن من شطر نواة الايدروجين بها . قال : واذا صحَّ ذلك فهذا اهمُّ من الحرب . ولكنهُ وهو العالم الحذر طلب ألاَّ يذاع نبأ هذه التجارب حتى تتأيد نتائجها . وقد كان حذرهُ في محلّهِ لان ما ادركهُ رذرفورد في تلك التجارب لم يكن شطر نواة الايدروجين بل قذف البروتونات من ذرات النتروجين والالومنيوم وغيرهما من العناصر الخفيفة فكان بذلك اول من ادرك الطريقة لتحويل العناصر بعضها الى بعض

وقد ذهب رذرفورد الى لقاء ربهِ سنة ١٩٣٧ وشطر نواة ذرَّة من الذرَّات لم يتم . وها نحن اولاء نعاني اهوال حرب عالمية اخرى ، ولكن ابناء مباحث العلماء لا ينقطع سيلها ، وبينها نبأ

شطر ذرّة، ليست ذرة الايدروجين اخف العناصر ولكنها ذرّة الاورانيوم اثقلها . فاذا صحّ ما يُبنى على هذا الانشطار من الآراء ، فهذا النبأ على قول رذرفورد تسيـة « اهم من الحرب »

— ١ —

في اواخر يناير الماضي (٢٦ يناير ١٩٣٩) عقد في مدينة وشنطن عاصمة الولايات المتحدة الاميركية مؤتمر وشنطن الخامس للطبيعة النظرية . وفي جلسة الافتتاح اعلن العلاَّمتان نيلز بور الدنماركي ، واريكو فرمي الايطالي ، أنباء تجارب استوقفت الانظار واسترعت اهتمام العلماء المؤتمرين . وملخص هذه الانباء ان عالماً المانيًّا يدعى اوتو هان Hahn كان قد فاز قبل بضعة اسابيع بنتائج غريبة في خلال قيامهِ بتجارب طبيعية عادية . ذلك بأنهُ اشترك مع زميله شتراسمان Strassmann في اطلاق النوترونات على ذرات عنصر الاورانيوم جرياً على طريقة اريكو فرمي Fermi الايطالي ثم فحصا المخلّفات الناشئة عن اصطدام النوترونات بالذرات

ولو انهما وجدا راديوماً في هذه المخلفات لما دهشا لأن الراديوم قريب الصلة بالاورانيوم من حيث الوزن والشحنة الكهربائية وهو احد جيرانهِ في الجدول الكيميائي الدوري، فتحويل الاورانيوم الى عنصر آخر باطلاق القذائف عليهِ ليس مستغرباً وتحوُّل بعض ذرات الاورانيوم الى ذرات راديوم ليس مما يبعث على الدهش

ولكن الشيء المستغرب بل العجيب في نتائج هذه التجارب ان هان وشتراسمان وجدا في مخلفات الاصطدام آثار عنصر الباريوم ، وهو بعيد عن الاورانيوم في الجدول الدوري ووزنه الذري نصف وزن الاورانيوم الذري تقريباً ، فاذا صح هذا — والكواشف الكيميائية والطيفية أثبتت ان الباريوم موجود في المخلفات — فمعناه ان قذائف النوترونات لم تفصل في انطلاقها شظايا صغيرة من نواة الاورانيوم بل معناه انها تمكنت من فلق الذرة فلقتين في صدمة عنيفة

فكان وقع هذا النبإ في اذهان العلماء المؤتمرين، كوقع صيحة «الذهب» في اسماع الباحثين عنهُ. وما اقبل المؤتمر على الانفضاض حتى جاءت انباء المختبرات تترى مؤيدة للنتائج التي وصل اليها هان وشتراسمان . ذلك ان الدكتور فرش Frisch والباحثة لِز ميتنر Lise Meitner أثبتا في بحث اجرياه في مختبرها بكوبنهاغن عاصمة الدنمارك قبل عشرة ايام صحة ما قاله هان وشتراسمان. وكان اريكو فرمي قد اجرى تجربة من هذا القبيل في جامعة كولومبيا قبل التئام المؤتمر بيوم واحد. وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير — اي يوم انفضاض المؤتمر — جاءت الانباء من معهد كرنيجي بوشنطن وجامعة جونز هبكنز وجامعة كاليفورنيا وكانت جميعها مؤيدة لانباء برلين

فأطلق في الحال وصف «الانشطار الذري» على هذه الظاهرة الجديدة في علم الطبيعة الذرية ، وفازت دراستها بعناية فريق كبير من كبار علماء الطبيعة كانوا قبل ذلك معنيين بدراسة

الميزوترون او الكهرب الثقيل وهو من مكتشفات سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨

كانت المشكلة الاولى التي واجهها هؤلاء العلماء في بحثهم الجديد سعيهم الى تبين الطريقة التي يحدث بها هذا الانشطار . وكان الدكتور فرش وزميلته ليز ميتنر أسبق الباحثين الى وضع صورة واضحة لهذه الطريقة . قالا : ان نواة الذرة في عرف الطبيعة الحديثة مجموعة من البروتونات والنوترونات محشوكة معاً في حيز ضيق . وعدد البروتونات الحرة في النواة يعين قدر الشحنة الموجبة عليها والخواص الكيميائية للذرة . ولكن النوترونات وحدات وزن ولا تحمل شحنة كهربائية لانها متعادلة الكهربائية . اما نواة ذرة الايدروجين فأبسط نوى الذرات تركيباً وقوامها بروتون واحد . فاذا ارتقيت سلم النوى الذرية وجدت في نواة كل عنصر عدداً متفاوتاً من البروتونات والنوترونات . فاذا بلغت الاورانيوم وهو في رأس السلم وجدت قوام ذرته اثنين وتسعين بروتوناً ومائة وستة واربعين نوتروناً ومجموعها ٢٣٨ وهو وزن الاورانيوم الذري . ولكن الاورانيوم له نظائر isotopes ومن نظائره نظيران وزن احدهما الذري ٢٣٤ ووزن الآخر ٢٣٥ ورغبةً في الاختصار عند الكلام على الاورانيوم ونظائره يكتب الاورانيوم في الرسائل العلمية كما يلي : — فالرقم الأعلى يدل على الوزن الذري والرقم الاسفل على عدد البروتونات — اورانيوم $\frac{٢٣٨}{٩٢}$ او $\frac{٢٣٥}{٩٢}$ او $\frac{٢٣٤}{٩٢}$

ومن الحقائق المعروفة في علم الطبيعة الحديثة ان جميع العناصر التي تفوق الزئبق وزناً — وهي الثاليوم والرصاص والبزموت والبولونيوم والرادون والراديوم والاكتينيوم والثوريوم والبروتاكتينيوم والاورانيوم — لها نظائر مشعة . ونوى هذه النظائر معقدة التركيب غير مستقرته . فتطلق النواة عادة دقيقةً من دقائقها بغية الاستقرار فيكون ذلك اشعاعاً

ولعلَّ خير مثل يضرب لتوضيح هذه الحالة هو تشبيه النواة بقطرة من الماء قوامها جزيئات كثيرة من الماء ، فاذا حدث لاحد هذه الجزيئات التي على سطح القطرة ما جعل طاقته اعظم من طاقة الجزيئات الأخرى فانهُ ينفصل عن القطرة متبخراً . ولكن اذا حدث للقطرة حادث على جانب من العنف فان القطرة نفسها تنشطر قطرتين

وهذا في رأي فرش وميتنر عين ما يحدث لنواة ذرة الاورانيوم ، عندما يحدث لهُ حادث عنيف كاصطدامهِ بنوترون مقذوف عليه ، اي ان النواة تنشطر شطرين يكادان يكونان متساويين ولكنَّ الشطرين غير مستقري التركيب ، ولا يلبثان حتى ينحلاً فتتولد نوى ذرات اخرى . والواقع ان انشطار الاورانيوم على الطريقة المتقدمة يعقبهُ سلسلة من التحولات ، وهذا يقتضي ان تظهر في مخلفات قذف النوترونات على ذرات الاورانيوم عناصر شتى . وفعلاً تمكن الباحثون من وجود الباريوم والانتيمون والتلوريوم واليود والزينون والسيزيوم واللنثانوم في طائفة منها والبرومين

والكربتون والروبيديوم والسترنتيوم والايتريوم في طائفة اخرى ومن المحتمل ان تكون هناك نوى عناصر اخرى لم تحقق بعد

وتفسير هذا التحول سهل لا يمتنع مطلعاً على حقائق الطبيعة الحديثة . فعدد النوترونات في كل من الشطرين الاولين كبير بالقياس الى عدد البروتونات فيه . ولذلك لا بدّ لكل منهما ان يتخلص من احد نوتروناته لكي يستقرّ تركيبهُ . فيحدث احد امرين اما ان يقذف نوتروناً الى الخارج فينقص وزنهُ وحدة كاملة ولكن لا تتغير خواصه. واما ان تنحلّ وحدة النترون فيتحول في داخله الى بروتون حرّ ويقذف كهربه الى الخارج . وفي الحالة الثانية لا يتغير وزن النواة (لأن وزنها في عدد ما فيها من البروتونات) ولكن تزيد شحنتها الموجبة وحدة كاملة باطلاق الكهرب (وهو وحدة الشحنة السالبة) فتتغير بذلك طبيعة النواة الكيمائية اي تصبح نواة عنصر آخر . وقد دلت التجارب ، على ان هذين الفعلين يقعان في خلال التحول

ولا يعلم حتى الآن ما هما المادتان الاصليتان الناجمتان عن الانشطار . فاذا كان عنصر الباريوم احدها — ونواتهُ فيها ٥٦ بروتوناً — فالعنصر الآخر يجب ان يكون عنصراً في نواته ٣٦ بروتوناً (لأن مجموع بروتونات نواة الاورانيوم ٩٢ بروتوناً) وهذا العنصر هو احد نظائر عنصر الكربتون

واذا اتجه الباريوم الى الاستقرار باطلاق كهرب (راجع الطريقة الثانية من طرائق التحول) فانهُ يتحول نظيراً من نظائر اللنثانوم ، وهذا قد يتحول بدوره الى عنصر السيريوم باطلاق كهرب . والكربتون (أو نظيره) ينحل كذلك بالطريقة نفسها الى روبيديوم فسترنتيوم ومن المحتمل ان يتحول الى اتريوم فزركونيوم

واذا كانت نتيجة الانشطار الاول عنصري السترونتيوم والزينوم بدلاً من الباريوم والكربتون حدثت كذلك سلسلة من التحولات من سترنتيوم الى اتريوم الى زركونيوم ومن زينون الى سزيوم الى باريوم الى لنثانوم الى سيريوم

***

انهُ لأسهل على العلماء في كشف في العلم النظري من قبيل هذا الكشف ، ان يتبينوا ما لهُ من الشأن النظري قبل ان يتبينوا وجوه النفع العملي . وكشف « الانشطار الذري » أتاح لعلماء الطبيعة الحديثة فرصة نادرة للبحث في طبيعة قوام الذرة وقلب صفحة جديدة في دراسة القوة التي تربط اجزاء النواة بعضها ببعض

ثم انهُ فسر تفسيراً معقولاً ظاهرة غريبة ما فتىء العلماء محيرين في امرها منذ كشفت في سنة ١٩٣٤ . ذلك ان فرمي الايطالي تبين في تلك السنة عند ما اطلق النوترونات على الاورانيوم ، ان الكهربات تنطلق من الاورانيوم نتيجة لهذا . فذهب ظنهُ حينئذٍ الى

ان نواة الاورانيوم تلتقط النوترون فتستبقي بروتونه وتطلق كهيربه ، وبذلك يزداد وزن ذرة الاورانيوم وحدة كاملة ، فظن انه تمكن بذلك من توليد عنصر جديد ، وزنه الذري ٩٣ مع ان الاورانيوم — ووزنه الذري ٩٢ — كان بحسب جدول مندليف الدولي وجدول موزلي للاعداد الذرية ، آخر العناصر وأثقلها . ثم لاحظ فرمي ان نواة هذا العنصر الجديد تطلق كهيرباً آخر فذهب ظنه كذلك الى ان ذلك يولد عنصراً جديداً آخر وزنه الذري ٩٤ فأطلق على هذه العناصر التي تفوق الاورانيوم وزناً ذرياً وصف «العناصر التي وراء الاورانيوم Transuranic» وتبعه آخرون في هذا الطريق ، فوجدوا عناصر أخرى وزنها الذري ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ الخ :

وقد ظلت هذه الظاهرة سراً مغلقاً محيراً لالباب العلماء الى ان تم الكشف العظيم الخاص بانشطار الاورانيوم على يدي هان . والواقع ان هان نفسه صرح قبل كشفه انه وجد في المخلفات الناتجة من اطلاق النوترونات على الاورانيوم عناصر « ترانس اورانية » لها خواص الباريوم واللنثانوم وغيرها . فزاد ذلك التصريح الحالة غموضاً والعلماء حيرة

فلما اذيع نبأ كشف « الانشطار الذري » وثبت ان الشطرين اللذين ينشآن عنه يتحولان ، أدرك العلماء حالاً ان هذه الكهيربات التي شاهد فرمي انطلاقها من الاورانيوم لا تنطلق منه فعلاً ولكن من مخلفات انشطاره فحل بذلك لغز العناصر التي وراء الاورانيوم (الترانس اورانية)

— ٢ —

هذا يسير من ناحية ما لهذا الكشف من قيمة نظرية . وقد يكون من المتعذر الآن وزن ما له من قيمة عملية . ولكننا نستطيع ان نتصور القدر العظيم من الطاقة التي تنطلق عندما تنشطر ذراة الاورانيوم . وقد قيست طاقة انطلاق الشطرين فثبت انهما متحركان كأن قوة قدرها ٢٠٠ مليون كهيرب فولط تدفعهما . وهذه قوة اعظم من كل قوة مماثلة في ظاهرات عالم الذرات اذا استثنينا الاشعة الكونية

ولا يخفى ان وزن نواة الذرة — مهما تكن الذرة ما خلا ذرة الايدروجين — لا يعدل تماماً مجموع اوزان الجسيمات التي تدخل في تركيبها . والرأي ان جانباً يسيراً جداً من مجموع اوزانها يتحول طاقة تربط هذه الجسيمات بعضها ببعض في نطاق النواة ولولاه لتنافرت وتباعدت

وهذا الفرق بين وزن النواة ومجموع اوزان الجسيمات يوصف بعبارة « نقص الكتلة » mass defect ولما كانت نواة ذرة الاورانيوم أعقد تركيباً من نوى سائر الذرات ، فالطاقة التي تحتاج اليها لتربط بين بروتوناتها (٩٢) ونوتروناتها (١٤٦) يجب ان تكون كبيرة بالقياس الى الطاقة التي تحتاج اليها نواة الهليوم او الليثيوم مثلاً . واذن فنقص الكتلة الذي يولد هذه الطاقة يجب ان يكون كبيراً كذلك

وقد دلَّ البحث الذي قام به الاستاذ فردريك جوليو الفرنسي ومعاونوه ان النوترونات التي اطلقت على الاورانيوم كانت ذات طاقة ضعيفة ولكنهُ وجد انهُ عند ما يقع الانشطار في ذرَّة الاورانيوم تشاهد نوترونات منطلقة من الذرَّة بسرعة وطاقة عظيمتين ومغزى هذا القول ان العلماء توصلوا الى طريقة يستطيعون ان يطلقوا بها الطاقة المعتقلة في نواة الذرة

ذلك ان مدام كوري جوليو — كريمة بيير وماري كوري — كانت قد مهدت السبيل بمباحثها لاكتشاف هان. ثم اقبلت هي وزوجها وزميلها الاستاذ سافتش على بحث هذه النوترونات الثانوية التي تنطلق من العناصر المتولدة من انشطار الاورانيوم الاول، وجاراهم فريق من العلماء في جامعة كولومبيا ومعهد كارنيجي وجامعة كمبردج، فوجدوا ان هذه النوترونات المنطلقة من هذه العناصر قوية الزخم فتحدث انشطاراً في ما تصيبه من نوى ذرات الاورانيوم ومن مخلفات الانشطار الثاني تتولد نوترونات اخرى اقوى زخماً من الاولى والثانية، وهذا فعل لانهاية له ولا يحدُّ منهُ الاَّ مقدار كتلة الاورانيوم المعرضة لفعل النوترونات الاولى المقذوفة من سيكلوترون لورنس [١] . فاذا اتيح للعلماء كتلة كبيرة من الاورانيوم فمن المحتمل ان يسفر هذا الفعل عن تولد طاقة عظيمة متى كثر عدد الذرات المنشطرة في تلك الكتلة . وقد اجمعت الصحف العلمية التي اطلعنا عليها على ان العلماء القائمين بهذه المباحث يتوجسون خيفة من انطلاق طاقة عظيمة بين أيديهم وهم لا يدرون كيف السيطرة عليها

ولكن يجب ألاَّ يذهب بنا الظن الى الاعتقاد ان استعمال الطاقة الذرية غدا وشيكاً. ذلك ان الطاقة المتولدة من انشطار نواة الاورانيوم يسيرة جدًّا بالقياس الى ما نحتاج اليهِ لأغراض الحياة اليومية وان كان عظيماً جدًّا بالقياس الى كتلة النواة نفسها . والباحث يحتاج الى احداث ٢٥ الف بليون انشطار في الثانية لكي يولد قوة حصان واحد . وجل ما تستطيعه معامل البحث الطبيعي إحداث بضع مئات من حوادث الانشطار في نوى الاورانيوم في الثانية . فاذا اتقنت اساليب شطر نوى الاورانيوم وما كان من قبيله من العناصر، فاستعمال الطاقة الذرية يغدو في نطاق المستطاع . وانما يجب ان نذكر ان هذا الاتقان ليس بالامر السهل . فشطر نوى الاورانيوم باطلاق النوترونات عليها اشبه ما يكون الآن بمن يحاول ان ينقل رمال البحار من مكانها بنقلها حبةً حبةً ، او كمن يطلق رشاشاً على مئات من الخرز مثبتة في لوحة كبيرة والمسافة بين كل خرزة وأخرى عشرات الامتار [٢]

---

(١) حائز جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٣٩

(٢) يرجو محرر المقتطف قراءه أن يطالعوا هذا المقال مقروناً بمقال « الطاقة من المادة » مقتطف نوفمبر ١٩٣٩ صفحة ٤٢٧ — ٤٣٩ وما نشرناه في مقتطف ابريل ومايو ١٩٣٩ عن هذا الموضوع وكان في مستهله

اصلاح حالة الفلاح اساس الاصلاح الاجتماعي

صلة الري بالصحة

في المملكة المصرية(۱)

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
استاذ علم الطفيليات بمدرسة الطب

﴿ ١ — تمهيد ﴾ كان نظام الري في القطر المصري من عهد مينا الى اواخر القرن الماضي هو المعروف بري الحياض اي ان النيل عند ما يعلو في إبان الفيضان يطلق في الاراضي الزراعية فيغمرها ويستمر كذلك الى ان ينخفض الماء في مجرى النهر فتنحسر المياه عن الغيطان وتعود الى النهر ثم تزرع الارض محصولاً واحداً وتترك بعده حتى تجف جفافاً تاماً مدة ٧ شهور في السنة ثم تغمرها مياه الفيضان مرة اخرى

وقد كان من أثر هذا من الوجهة الصحية ان جميع الطفيليات التي تصيب الانسان وتقضي جزءاً من حياتها في الارض او في جداول المياه تهلك عن آخرها في فصل الجفاف كل عام ولذلك أصابت هذه الامراض عدداً قليلاً من السكان . وهذا ما نجده الآن في المناطق التي لا تزال تروى بطريقة ري الحياض في مديريات جرجا وقنا واسوان

وفي اواخر القرن الماضي بدىء باستعمال القناطر الخيرية في حجز المياه بمجرى النهر لتغذية الترع الرئيسية التي تروي الدلتا وبذلك أمكن توفير المياه للاراضي الزراعية طوال أيام السنة . فغدا في الوسع زراعة محصولين او ثلاثة محاصيل في السنة الواحدة

ثم انشىء خزان اسوان والقناطر الاخرى في مجرى النهر ، وكان الغرض من هذه الاعمال الهندسية تحويل اكبر مساحة ممكنة من الاراضي الزراعية من ري الحياض الى ري مستديم . ومنذ الحرب العالمية الماضية اتجهت الاعمال الهندسية الى ايصال مياه الري الى الاراضي الزراعية بدون حاجة الى آلات رافعة سواء ما أدير منها بالقوى العضلية كالشادوف والطنبور او بالسواقي والآلات البخارية وآلات الاحتراق الداخلي . وقد تم ذلك في جميع انحاء الدلتا بوجه عام وفي أغلب مناطق الوجه القبلي شمال اسيوط والعمل جار الآن في تحويل المنطقة التي تقع شمال نجع حمادي الى اسيوط من ري حياض الى ري مستديم

(١) ملخص واف لتقرير قدمه الدكتور عبد الخالق بك الى المجلس الاستشاري للزراعة

وكان من اثر ذلك ان ارتفعت المياه الجوفية في باطن الارض حتى اقتربت من سطحها وهذا عامل له دخل كبير في انتشار الامراض وخصوصاً الحشرات التي تصيب الانسان والحيوان والنبات وزيادة على ذلك فانه يؤثر بطريق مباشر تأثيراً سيئاً في نمو النباتات ومقدار محصولها اذ تحول هذه المياه الجوفية دون امتداد جذور النبات في التربة

الري الدائم واضراره الصحية

﴿ ٢ — الماء الجوفي في الارض الزراعية ﴾ ولادراك ذلك يجب أن نعلم ان التربة المصرية المزروعة مكونة من مواد تنفذ منها المياه بسهولة وعلى ذلك فنهر النيل لا تجري مياهه بين شاطئيه المعروفين فحسب، بل انها تجري في باطن الارض الى مسافات طويلة على الجانبين لا يصدها عن الجريان الا سلاسل الجبال الصخرية على جانبي الوادي ، وفي وسعنا ان نسمي هذا الماء المتسرب «النيل الخفي» تمييزاً له عن «النيل الظاهر» المعروف لنا ويمكن التحقق من ذلك بسهولة اذا حفرنا الارض على جانبي النهر فنجد المياه على ابعاد مختلفة تبعاً (١) لبعد المسافة من النهر ، (٢) لمنسوب الماء في مجرى النهر. وهذه العملية تشاهد في القاهرة عند حفر اسس المنازل في إبان الفيضان ، حيث الماء قريب من سطح الارض فاذا غاض النهر بعد الفيضان اختفت هذه المياه ولكنها توجد على عمق اكبر وهذا هو السبب الرئيسي في ظهور كثير من البرك في اماكن بعيدة عن مجرى النهر في زمن الفيضان وجفافها في باقي فصول السنة

وتأثير ترع الري المليئة بالماء من هذه الناحية مماثل تماماً لتأثير النيل وشرح ذلك ان ماء الترع يتدفق ويتسرب في باطن الارض ويبلغ أعلى درجاته بالقرب من مجرى الترعة وينخفض مستواه كلما ابتعدنا عنها . وكلما زاد ارتفاع مستوى الماء في ترع الري بالنسبة للاراضي الزراعية المجاورة ارتفع الماء الجوفي في الارض بل قد يظهر على سطح الارض فيحدث البرك والمستنقعات

﴿ ٣ — علاقة الماء بانتشار الطفيليات ﴾ والماء الدائم عنصر هام من عناصر الحياة التي لا يتهيأ بدونها للحيوانات الدنيئة والتي منها الطفيليات ان تعيش . فعدوى الانكلستوما تتوطن في كثير من الاقاليم التي يكثر فيها المطر وتبدأ العدوى بعد فصل الامطار . ولكن هذا المرض ذاته لا علاقة له بالامطار في مصر لأنها معدومة تماماً في الوجه القبلي وهي قليلة جدًّا في بقية جهات القطر . لكن الاثر الذي تحدثه الامطار في البلاد الاخرى من جراء تشبع التربة بالرطوبة يقوم مكانه في مصر ارتفاع الماء الجوفي في باطن الارض تبعاً لارتفاع المياه في الترع المجاورة . وكلا العاملين (الامطار والمياه الجوفية) يؤدي الى نتيجة واحدة. فعدوى الانكلستوما قليلة جدًّا في قرى مديرية اسوان التي لا امطار فيها ولا ترع ذات منسوب عالٍ على مدار السنة . ولكنها في منطقة كوم امبو الواقعة في نفس تلك المديرية تبلغ ٢٤ ٪ من مجموع

السكان هناك لان هذه المنطقة بالذات تروى ريًّا صيفيًّا بواسطة طلمبات وترتفع المياه الجوفية في ارضها حتى تقترب من سطح الارض ، مما ادى الى تلف اراضي قرية «دراو» المجاورة من تأثير النشع حتى قامت بين اهلها وبين شركة كوم امبو قضايا

ومثل هذا ينطبق تماماً على البلهارسيا التي تعيش القواقع الناقلة لها في مجاري المياه البطيئة الجريان الدائمة الماء والتي بها اعشاب . وهذا لا يتحقق الا في مناطق الري المستديم فبينما تكاد مديرية اسوان تكون خالية من عدوى البلهارسيا نجد ان ٨٢٪ من سكان كوم امبو مصابون بها

ومما تقدم يتبين بجلاء علاقة الري الصيفي بانتشار الامراض المتوطنة على وجه العموم . ولا سيما الانكلستوما والبلهارسيا والملاريا . ولكنه قد لا يوضح تماماً مقدار هذا الأثر ، لذلك اختلفت الآراء في تقدير اثر الري الصيفي في انتشار الامراض المتوطنة وهل هو من الاهمية بحيث يقف حجر عثرة في سبيل هذه المشروعات او هو تافه بالقياس الى مزاياه الاقتصادية

﴿ ٤ — عدوى الطفيليات قبل ادخال الري المستديم وبعده ﴾ وقد سنحت فرصة حسمت هذا الخلاف حينما اعتزمت وزارة الاشغال تحويل الحياض المعزولة في اسوان وقنا من ري حوضي الى ري صيفي ، فقد انتهزتُ هذه الفرصة لفحص سكان مناطق السباعية والكلح وبنبان والمنصورية قبل ادخال الري الصيفي اليها ، فكانت النتيجة ان نسبة البلهارسيا بلغت في هذه المناطق على التوالي : صفر ٪ — ٧ ٪ — ٢ ٪ — ١٠ ٪ والسبب في ان المنطقة الاخيرة (المنصورية) تزيد فيها نسبة البلهارسيا عن المناطق الاخرى ، يرجع الى انها قريبة من كوم امبو التي تبلغ اصابة البلهارسيا فيها ٨٢ ٪ وأكثر سكانها يذهبون الى كوم امبو للاشتغال بها بعض الوقت

وبعد ادخال الري الصيفي الى هذه المناطق واستمراره بها ثلاث سنوات صارت النسبة لعدوى البلهارسيا كما يأتي على التوالي — ٤٤ ٪ — ٥٠ ٪ — ٧٥ ٪ — ٦٥ ٪ مما يثبت بكل جلاء وعلى وجه لا يقبل الشك اثر الري الصيفي بحسب النظام المعمول به الآن في انتشار عدوى البلهارسيا . على انه يتبين من هذه الارقام ان الزيادة ليست متجانسة في هذه المناطق وذلك راجع الى أسباب أهمها قرب مجاري المياه أو بعدها من هذه القرى ، وبالتالي الى سهولة أو صعوبة وصول الأهالي اليها والاغتسال فيها

وقس على ذلك ، مرضي الانكلستوما والملاريا ، فانهما أيضاً يخضعان لعاملي تشبع تربة الارض بالماء ودوام جريان الماء في الترع والمصارف

﴿ ٥ — الخسارة الاقتصادية نتيجة الاصابة بالامراض الطفيلية ﴾ ان رجال الزراعة لم يدخلوا في حسابهم عند المقابلة بين غلة ري الحياض والري الصيفي ، أثر الري الصيفي في انتشار

الامراض وقلة الانتاج من العمل اليدوي وكثرة الوفيات

ومما لا شك فيه أنهُ اذا قدرت هذه العوامل من الناحية الاقتصادية — بغض النظر عن العامل الانساني — رجحت كفة ري الحياض على الري الصيفي . كما يتبين مما يلي : —

(١) فالامراض الطفيلية تصيب ٧٥ — ٩٥ ٪ من سكان مناطق الري الصيفي ، بينما لا تصيب سوى ٥ — ١٠ ٪ من سكان مناطق الحياض . ولو قدرنا ما يجب أن تنفقهُ الدولة كل عام لعلاج المصابين بالبلهارسيا (الذين يبلغون عشرة ملايين) لاقتضى ذلك مليوناً من الجنيهات سنويًا . وستكرر العدوى ما دام هذا النوع من الري قائماً . وتقدر نفقات علاج الانكلستوما في العام الواحد لثمانية ملايين مصاب بما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ الف جنيه

٢ — نظراً الى اصابة السكان في سن مبكرة بالبلهارسيا والانكلستوما في مناطق الري الصيفي فان نمو اجسامهم يبطؤ . وقد أثبت فحص الطول في أنحاء القطر في سنة ١٩٣٥ ان للامراض الطفيلية أثراً في نسبة قصر القامة بين المقترعين فهي اكثر انتشاراً في الدلتا حيث الري الصيفي عام والصرف سيء ، ويقل عن ذلك نوعاً ما في مصر الوسطى حيث الري الصيفي يكاد يكون عامًّا بينما الصرف أحسن منهُ في الدلتا لأن النيل بجريانه وسط الوادي الضيق يؤدي عمل مصرف طبيعي الى حدٍّ كبير . وتقل نسبة قصر القامة جدًّا في مناطق ري الحياض . بينما تكاد تنعدم بين سكان القاهرة والاسكندرية حيث لا سبيل الى العدوى بالطفيليات

٣ — الزيادة في الوفيات خصوصاً وفيات الذكور لانهم اكثر تعرضاً للبلهارسيا لاشتغالهم بالاعمال الزراعية خصوصاً تلك التي تستدعي الخوض في الماء

فقد نشر كوفان الالماني وكان أستاذاً لعلم الامراض في مدرسة الطب بالقاهرة في أواخر القرن الماضي — عند ما كانت البلهارسيا مرضاً غير معروف له علاج — أن البلهارسيا هي السبب المباشر او السبب غير المباشر في ٢٥ ٪ من الوفيات نتيجة لفحص عدد كبير من الاموات في مستشفى قصر العيني بالتشريح وطبعاً قلت هذه النسبة الآن بعد اكتشاف العلاج الشافي

الا انه من الثابت ان نسبة عدد الذكور الى الاناث قد تغيرت على وجه العموم في مصر منذ ادخال نظام الري المستديم بها خصوصاً في المديريات التي حولت كلها الى ري مستديم وقلَّ او انعدم الصرف بها استناداً الى الاحصائيات المأخوذة من كتب التعداد الرسمي الذي تصدره مصلحة الاحصاء التابعة لوزارة المالية مع العلم بأن الري المستديم أدخل الى الوجه البحري سنة ١٨٩١ والى مديرية المنيا سنة ١٩٠٥ وبني سويف سنة ١٩٠٧ والجيزة ١٩٠٩

وعلى ذلك فقد نقص عدد الذكور بالنسبة لعدد الاناث ٤ ٪ في مدة ٣٠ سنة تبعاً لانتشار الري الصيفي وليس هناك أي عامل آخر يفسر هذا التغير . ومما يثبت ذلك السبب ما ذكره الدكتور

كليلاند في حالة بعض المديريات قبل ادخال الري الصيفي اليها وبعده فقد كان عدد الذكور لكل ١٠٠٠ أنثى في مديرية المنيا في تعداد سنة ١٩٠٧ — ١٠١٣ فصار في تعداد سنة ١٩٢٧ — ١٠٠٢ وقد دخلها الري المستديم سنة ١٩٠٥

وكان عدد الذكور لكل ١٠٠٠ أنثى في مديرية بني سويف في تعداد سنة ١٩٠٧ — ١٠١٦ فصار في تعداد سنة ١٩٢٧ — ٩٩٥ وقد دخلها الري المستديم سنة ١٩٠٧

ولو قابلنا الحالة في مديرية من مديريات الوجه البحري حيث الري المستديم عام مع عدم توفر الصرف تماماً في سنة ١٩٢٧ بما يقابلها في مديرية من مديريات ري الحياض لتبين ما يأتي :

مديرية الغربية تبين ان بها ٩٣٠ ذكراً لكل ١٠٠٠ أنثى بينما مديرية جرجا بها في نفس السنة ١٠٢٠ ذكراً لكل ١٠٠٠ أنثى وهذا على الرغم من ان مديرية جرجا تمتاز بكثرة عدد المهاجرين من رجالها للعمل في جهات اخرى . فلو قدرنا أثر الري المستديم في نقص عدد الذكور بالنسبة لعدد الاناث على أساس تعداد الغربية وجرجا لبلغ النقص في مناطق الري المستديم ٩ ٪ وهو رقم مخيف حتماً يمثل ضحايا الري المستديم من مجموع عدد الذكور

٤ — قلة الانتاج في الاعمال اليدوية ، فقد تبين بعد التجربة أن انتاج المصابين بالانكلستوما يقل ٣٣ ٪ في مثل أعمارهم عن الاشخاص الخالين منها . وقد ثبت بالمقابلة ان نسبة عدد الفلاحين الى الارض المزروعة في مصر ، اكبر منها في أي قطر زراعي آخر ، ذلك ان الفلاحين يستعيضون دون ان يفكروا ، عن قلة انتاج الفرد بالاكثار من الايدي العاملة

وقد وجد المستر براون مدير قسم البساتين أن نفقة حفر قناة تزيد في مصر عنها في انكلترا على الرغم من بخس أجرة العامل المصري . وتكاد تكون قوة العامل الصعيدي من اهالي مناطق الحياض ، مضرب الامثال بالقياس الى ضعف فلاح الوجه البحري . ويكاد هؤلاء الصعايدة أن يحتكروا الاعمال اليدوية الشاقة كبناء الموانئ وشق الترع ومد السكك الحديدية .. الخ .

٥ — تؤثر هذه الطفيليات تأثيراً ملحوظاً في بطء نمو القوى العقلية ، وقد قدرت في المصابين بالانكلستوما بسنتين ونصف سنة في سن الحادية عشرة . أي أن الطفل المصاب وهو في الحادية عشرة من عمره يماثل من ناحية القوى العقلية طفلاً سليماً في الثامنة من عمره

ومن أثر هذا الضعف العقلي عدم الاقدام على طلب الرزق والاحتماء بالأهل والأقارب من غائلة الدهر ، وانحطاط مستوى الخلق بالالتجاء الى الكذب والمداورة في المعاملات

٦ — ضياع مقدار كبير من الاغذية التي يتناولها سكان مناطق الري المستديم تأكلها الطفيليات التي تعيش داخل أجسامهم كما هو المشاهد في نهم المصابين بالديدان المعوية بينما لا يظهر تأثير هذا النهم في ابدانهم

وعلى ذلك فسكان أقاليم الري المستديم هم المصابون بأمراض سوء التغذية على الرغم من أنهم يأكلون أضعاف ما يأكلهُ اهالي ري الحياض وزيادة على ذلك فأهل الحياض أقوى بنية وأطول عمراً وأطول قامة

***

العوامل واحدة لتحسين الصحة والزراعة

٧ — عوامل تحسين الصحة هي نفس العوامل التي تحسن الزراعة : ان الاثر السيء الناتج عن الري الصيفي في تدهور التربة ونقص غلة المحاصيل يرجع الى ارتفاع منسوب المياه الجوفية وأثر ذلك في اعاقة النباتات عن النمو وحصر جذورها في طبقة من الارض كما يرجع الى أن المياه الجوفية عند ما تقترب من سطح الأرض السوداء الثقيلة او المتوسطة تصعد بواسطة الخاصة الشعرية الى سطح الارض وتتبخر في الجو فيرسب ما بها من الأملاح على سطح الارض فتتكون طبقة بيضاء اللون تغطيها وهذا عامل هام في اتلاف التربة

ويزيد هذا الضرر كلما زاد منسوب الماء في الترع وازداد تبعاً لذلك ارتفاع المياه الجوفية والعوامل التي تؤثر في نشر الطفيليات بمناطق الري الصيفي هي :

ا — استمرار المياه في الترع والمصارف على مدار السنة فتعيش القواقع الناقلة للبلهارسيا وتتناسل

ب — استمرار المياه يساعد على نمو الكثير من النباتات المائية التي تأوي اليها القواقع ويرقات البعوض الناقل للأمراض . وهذه الحشائش عائق هام في سريان الماء في الترع حتى أن وزارة الأشغال تنفق كل عام حوالي ١٠٠ الف جنيه للتخلص منها

ح — ارتفاع المنسوب في الترع يرفع منسوب الماء الجوفي ويجعل تربة الارض رطبة صالحة لنمو يرقات الانكلستوما التي تموت تماماً اذا جفت تربة الارض

د — ارتفاع منسوب الماء الجوفي هو العامل الهام في ظهور البرك ولو انخفض هذا المنسوب لجفت اكثر البرك وليس لكلها أثر ضار من ناحية انتشار الطفيليات

٨ — أثر المصارف في خفض منسوب المياه الجوفية

تبين مما تقدم ان علو منسوب المياه الجوفية هو العامل الضار الاصلي للصحة والزراعة ويمكن خفض هذا المستوى باحدى الطريقتين الآتيتين او بكلتيهما

ا — انشاء مصارف عميقة يكون من أثرها جمع المياه الجوفية وحملها الى البحر المتوسط بحيث لا يزيد مستوى الماء الجوفي عن مستوى الماء في المصرف الا قليلاً . وعلى ذلك فعمق هذه المصارف عامل أساسي في خفض مستوى الماء الجوفي . ومن الغريب انهُ لم يستقر رأي

الاخصائيين في مصر للآن على (بعد مستوى الماء الجوفي عن سطح الارض بحيث لا يضر بالمحصولات الزراعية مطلقاً) فبعض الزراعيين ورجال الري يكتفي بأن يكون الماء الجوفي في الارض الزراعية على عمق ٧٥ سنتمتراً وبعضهم يطلب متراً وبعضهم يصر على ٢٫٥ متر خصوصاً في الارض المزروعة بحدائق الفاكهة ومما لا شك فيه ان هذا التفاوت العظيم يقابله تفاوت كبير في النفقات اللازمة لحفر المصارف الى الاعماق المطلوبة وتفاوت كبير في مقدار الاراضي الزراعية التي ستشغلها هذه المصارف لان مقدار الارض المشغولة بالمصرف تزيد زيادة كبيرة كلما زاد عمقها

والمطلوب معرفته هو اقل عمق المصارف الحقلية الذي تجود معه الزراعة جودة تامة . ولا يمكن ان نأبه لقول بعض الاخصائيين أنه لا ضرر من زيادة عمق المصارف ، وهو صحيح ولكنهُ يتطلب نفقات كثيرة ويشغل ارضاً كثيرة يمكن الاستفادة منها بزرعها

ب — يمكن خفض مستوى الماء الجوفي بخفض مستوى الماء في ترع الري فلو جرى الماء في هذه الترع على بعد متر او مترين من السطح لما صعد مستوى الماء الجوفي عن ذاك المستوى وفي هذه الحالة تكون فائدة المصارف ثانوية ، ولكن في نفس الوقت يتطلب ذلك ان يستعين الفلاح بآلات رافعة لري أرضه

والمسألة الآن هي تقدير النفقات والاضرار في كلتا الطريقتين . فهل تكون نفقة رفع الماء للري اقل او اكثر من خسائر تدهور التربة ونقص المحصول . وما قيمة النفقات اللازمة لانشاء مصارف وافية مع العلم بأن المصارف لا يمكنها ان تتلافى تماماً ما ينتج من الرشح من الترع ذات المنسوب العالي لان خط المياه الجوفية يبدأ من أعلى منسوب للمياه في المنطقة ويصل الى اوطإ منسوب للمياه فيها والترع تشق في أعلى مكان بالمنطقة ليسهل الري منها ، وتشق المصارف في المنخفضات ليسهل انسياب المياه اليها

اما الاحتياطات التي تجب مراعاتها في مشروعات الري الصيفي لتخفيف عدوى البلهارسيا فأهمها : —

١ — ان تكون مجاري المياه على بعد من القرية لا يقل عن ٥٠٠ متر الى الف متر لأن البحث أثبت ان الاصابة تزداد بالقياس الى قرب المجاري الى القرى والعزب فتكثر زيارة السكان لها ولا سيما الاطفال بقصد اللعب او الاستحمام او الصيد ٢ — العناية باقفال النهايات الصم للترع حتى لا يركد الماء فيكثر نمو الاعشاب والقواقع فيه ٣ — منع ايصال خزانات المواد البرازية في المنازل والمساجد الى الترع والمصارف وهذه كثيرة الحدوث حتى في ضواحي القاهرة . فقد أثبت البحث الاحصائي ان القواقع ولا سيما البلانوربي الناقلة لعدوى البلهارسيا بالامعاء تكثر مكان اختلاط مجرى المواد البرازية بماء الترعة او المصرف وتكون الاصابة شديدة . وقد

شوهدت هذه الحالة في قرية طنان القرية من قليوب مما حمل سكانها على الاعتقاد بأن بالترعة شيطاناً ينزل الموت بمن يخوض ماءها

وقد وضع ابراهيم بك رزق مشروعاً به كثير من المزايا الصحية والزراعية علاوة على انهُ يوفر على خزانة الدولة كثيراً من النفقات وأساسهُ انشاء طلمبات للري في اراضي الحياض الباقية تدار بالكهربائية من خزان اسوان (طلمبة لكل ٥٠٠ فدان على المعدل) وتستمد هذه الطلمبات ماءها من المياه الجوفية . فاذا نجح هذا المشروع من الناحية العملية ادى الى انخفاض المياه الجوفية ، الاحتفاظ بالري الحوضي والمحافظة على خصب التربة وسرعة جفاف الترع بعد الري وهذا يساعد على التخلص من قواقع البلهارسيا ويرقات البعوض . وجفاف تربة الارض يجعلها بوجه عام غير ملائمة لنمو يرقات الانكلستوما ثم يفضي الى الاستغناء عن مشروعات الري في اعالي النيل وبحيرة البرت وهي المشروعات اللازمة لتحويل الحياض الباقية الى الري المستديم

***

سياسة الري ومشكلتنا الاجتماعية

«١١ — تقرير سياسة الري في المستقبل هو مشكلة المشاكل» رأينا مما تقدم ان مسائل الري والزراعة والصحة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً حتى ليكاد اي تغير في احداها يؤثر في الاخرى وللاسف ان النظام الاداري في مصر يجعل من كل من هذه الاعمال الثلاثة وزارة مستقلة عن الاخرى تعمل كل منها في وادٍ مستقل. وقد تبين الآن انهُ من الضروري ان يكون هناك تعاون وثيق بين العاملين في هذه الدوائر الثلاث فان الفلاح متأثر في محيطه بالري والزراعة والصحة بحيث أن حياته وترقيته متوقفة عليها جميعاً وأي ناحية منها تؤثر في الاخرى

وقد سار رجال الري في العهد الاخير على سياسة اعطاء مياه الري بالراحة برفع منسوب الماء في الترع عن الارض المجاورة بقصد تقليل نفقات الزراعة بعدم الالتجاء الى الآلات الرافعة ولكن هذا العمل نفسه قد اضر بالتربة برفع الماء الجوفي فيها وأضر بصحة الانسان لزيادة الرطوبة في سطح الارض ودوام الماء في مجاريه فهل زادت قيمة هذه الاضرار عن مقدار ما اقتصده في الاستغناء عن الآلات الرافعة او لا ؟ ! . . .

فهناك المنوفية مثلاً وهي تكاد تكون حديث جميع الزراع من ناحية خصبها وكثرة انتاجها وزيادة محصولاتها في العهد السابق ايام اعتمادهم على الآلات حتى ليقولون لك ان الفدان (بقيراط) اي ان كل قيراط يأتي بأردب ذرة . . . اي ان محصول الفدان ٢٤ اردباً فانحط بعد ادخال الري بالراحة الى ٤ او ٥ ارادب في اكثر المناطق

وقد حاولت وزارة الاشغال تحسين هذه الحال بخفض منسوب الماء الجوفي بشق المصارف وقد امكنها فعلاً عمل المصارف الرئيسية في المنوفية ولكنها عجزت عن شق المصارف الفرعية والحقلية نظراً للصعوبات القائمة في لائحة الترع والجسور التي تجبر اي مالك على السماح لجاره بمرور ماء الصرف في ارضه وهي مشكلة جد معقدة اذ ان المالك الصغير يكاد يضحي بجميع ما يمتلكه اذا اراد جار له ان يشق طريقاً للصرف في ارضه

وعلى ذلك لم تأت المصارف الرئيسية في القطر كله بأثرها المطلوب فهل آن الأوان لاعادة درس الموضوع من جديد والمقارنة من الوجهة العملية البحتة بين نظام الري بترعة ذات منسوب واطىء وترعة ذات منسوب عالٍ وتقليل مستوى الماء الجوفي الموافق للزراعات المصرية ؟

ان مستقبل مصر يكاد يتوقف على حل هذه المشكلة فهي تؤثر في القطر كله من الوجهتين الاقتصادية والصحية وهما أثمن ما يحرص عليه الفرد وتحرص عليه الأمم

وقد كان رجال الري في ابتداء القرن الحالي أشد حرصاً وأكثر حذراً في تقدير أثر هذه المشروعات في الصحة العامة فعلق مشروع خزان اسوان على موافقة الهيئة الصحية في مصر وكذلك اتخذوا مبدأ ينص على ان لا تنفذ مشروعات ري شاملة لاكثر من مديرية واحدة ما لم يؤخذ رأي مصلحة الصحة

وللأسف لم تكن المعلومات في ذلك العهد كافية يمكن معها التنبؤ بما سيحدثه الري الصيفي من الاضرار الصحية ولكنها صارت الآن جلية جداً لا تحتمل المناقشة والواجب ان يتعاون رجال الري مع رجال الصحة ورجال الزراعة لايجاد حل لهذه المشكلة التي ربما كانت أبعد المشاكل أثراً في مستقبل مصر

ليست أعمال الري الهندسية غرضاً مقصوداً بذاته في مصر بل هي اعمال الغرض منها تحسين الحالة الزراعية لتعود بأكبر نفع اقتصادي على سكان هذا القطر وأغلبهم من المزارعين ولكن يجب أن لا نضحي بصحة وحياة هؤلاء المزارعين في سبيل زيادة الانتاج الزراعي ولم يقف العلم مكتوف الايدي امام ايجاد حل يوفق بين هذه الاغراض مع المحافظة على صحة السكان .

وعلى ذلك يجب ان لا يعمل رجال الري على انفراد في تقرير هذه المشروعات بل يجب ان يتعاون معهم رجال الزراعة ورجال الصحة وربما يكون من الخير ان يؤلف مجلس اعلى لمشروعات الري يكون تابعاً لمجلس الوزراء وتعرض عليه جميع المشروعات الجديدة ، ويكون اعضاؤه مهندسي ري واخصائياً زراعياً وطبياً ، ولكل منهم ان يستعين بالهيئة التابع لها في دراسة ما يعرض من الموضوعات

قلبي ...

لحسن كامل الصيرفي

أُقْصي عنهُ نَداهُ والشقيهِ فهو زهره
غسلتها في سكونِ السَّحرِ المفتونِ قطره
نقضَ الفجرُ عليها سحرهُ، والصبحُ بِشره
وعلاها في الضحى النو رُ فنالتْ منهُ سِمرة
وبدتْ عند الاصيـــل الأرجوانيّ كجمرة
عطف الليلُ إليها فمضى يفتحُ صدره
ورأى الشاعرُ فيها مصدراً يلهمُ شعره
فاقطفيها ! إنها قلـــبي.. فما أرْوَحَ عِطره !

⊙

أرهفي السمعَ اليهِ إنهُ البلبلُ يشدو
ساهرَ الليلِ ، ولكنْ هو لا يضنيهِ سهدُ
أَوَ تدرينَ الذي ينـــشدُ ؟ لا تدرينَ بعدُ !
ملأ الجوَّ اغاريـــدَ فهذا الجوُّ عبدُ
ينقلُ الانغــامَ كالـــوحي أميناً فهي عهدُ
لم يضيِّعْهُ ، ولكنْ سامعُ الانغامِ صلدُ
كلُّهم للنومِ عِبدا نٌ ، وللأوهام جندُ
فاسمعيهِ أنتِ فالبلبـــلُ قلبي باتَ يشدو !

⊙

إملئيهِ فهو كأسٌ لمستها يدُ ربي
جمّعت فيهِ الأماني حُضَّراً من كلِّ صوبِ
وهو من صنعِ يدِ الأحـــلامِ في ليلةِ حب

وهو أنقى من رؤى الشا عرِ في ساعةِ قربِ
انتشت منهُ العذارى وهو أسطورة غيبِ
كان مملوءا ، ولكنْ جفَّ من إدمانِ شربي
فاملئيه خمرةً معصو رةً من كرمِ حبي
واشربيها فهي روحي واحفظيه فهو قلبي !

⊙

أترى الجدولَ الجا ريَ في عطفِ الحليمِ
سكبتْ فيهِ الليالي من أشعّاتِ النجومِ
أدمعاً مازَجْنَ اندا ءً من الفجرِ الوسيمِ
كوثرُ الفردوسِ أوحا هُ الى دنيا الهمومِ
فجرى يبعثُ فيها من تهاويل النعيمِ
راحةَ الله التي حطّتْ على الكونِ الاليمِ
إنهلي منهُ فما تعـدلهُ خمرُ الكرومِ
انهُ قلبي على شطّيهِ اطيافُ رسومي... !

⊙

واذا مرّتْ بكِ الايّامُ تطوي الصفحاتِ
وتلاشتْ من فمِ الدنيا معاني البسماتِ
وتلاشتْ إثرها عندكِ أحلى الذكرياتِ
بقيَ العطرُ الذي استروحتِهِ من زهراتي
والصدى العذبُ الذي استطربتِهِ من أغنياتي
وجلالُ النشوةِ الحلوةِ من كأسِ حياتي
وخريرُ الجدول الحالمِ في هذا السباتِ
فأعادتْ لك أحلامَ الليالي الخالداتِ

عاطفة الحب

وكيف نشأت

لأديب عباسي

مما أثر عن ارسطوفانيس ، شاعر الكوميديا اليونانية قوله هازلاً متظرّفاً : « كان زمان وكان فيه الجنسان ، شيئاً واحداً . ولكن الله رأى ، جزاءً وفاقاً للانسان على شروره العديدة ان يشطره الى شطرين كما تشطر البيضة بشعرة ، وعليه فكلٌ منا ليس الاّ جزءاً من انسان ، ومن هنا ترانا لا تنفك قط عن طلاب جزئنا الآخر المكمّل لنا وهذه الرغبة وذياك السعي في سبيل ما يكمّلنا هما ما أسماها الناس بالحب »

هذا التعريف ، كما جاء على لسان الشاعر الهازل الظريف هو خير تعريف لهذه العاطفة . واذا نحن رجعنا الى علم النشوء نستنطقه ونستوحيه ، وجدناهُ يكاد يساير هذا التعريف الشعري القديم مسايرة تدعو الى اشد الدهشة والاعجاب

وهذا ايجاز شديد لما يقوله علم النشوء في هذا الشأن : يقول علم النشوء : كانت الارض ، ومرّت عليها الحقب الطوال دون ان يكون فيها ذو نسمة من نبات او حيوان ثم أمر الله ان يكون اوّل الاحياء ، فكان . وهذا الحيّ الاول لم يكن يعدو الخلية الواحدة البسيطة غاية البساطة ، الصغيرة غاية الصغر ، وتكاثرت هذه الخلية البسيطة الصغيرة ما شاء الله لها ان تكاثر . الاّ انها تكاثرت لا بطريق العشق والهيام ، انما تكاثرت بطريق النموّ والانقسام : تكاثرت وتعدّدت بالانقسام من خلية واحدة نمت بالغذاء وكبرت الى حد لم تستطع عنده تماسكاً ، فانقسمت الى خليتين ، في كل منها خصائص الخلية الاولى وصفاتها . ومضت الحياة تخلق خلقها وتنتج نتاجها على هذا النحو المتشابه المتماثل احقاباً طوالاً لا يعلمها الاّ الله ، الى ان ملّت الانسجام في التوليد وبرمت بالمتشابه من الخلق . والحياة ، كما نعلم ذلك جيداً ، فتانة بطبعها ترى التنويع وخروج الفرع على الاصل ، شهي أمانيها وأبعد مراميها . ومن هنا هذا الذي نراهُ من استحالة التشابه التام في الحياة استحالة مطلقة

وجاء طورٌ ثانٍ. وخطت الحياة خطوة اخرى جريئة لا ريب تعدُّ فتحاً في عالم الخلق والتكوين، ولا سيما في ذلك الوقت الذي كانت تدبُّ فيه الحياة كمن أُسدل على عينيه ستار وقامت في وجهه غشاوة. رأت الحياة ان تضمَّ بين عددٍ من هذه الخلايا الأحادية، في غلاف هلامي فتتعاون على الحياة والنماء والخلق في اسلوب غير الاسلوب الذي اعتادته وحذقته. وسجل هذا الاكتشاف او الفتح، او ما شئت فسمه، في سجل الحياة ومضت الاحياء تحيا هذه الحياة امداً رأت في خلاله ان من الخير لها ان تجري على شيء من التخصص، فشرعت الخلايا الخارجية في هذه المجموعة تتخصص في استجلاب القوت والغذاء للمجموعة كلها. اما الخلايا الداخلية فقد مضت على سنتها في الخلق والتوليد بطريق الانقسام المعهود

***

والنجاح كما نعلم ذلك جميعاً، يولد النجاح. ومن هنا لم تكتف الحياة بما احرزت من نصر ونالت من فوز في مجال النشوء. فقامت تجرب ان تخطو خطوة اخرى، لا سيما وقد لاحظت ان اسلوب الانقسام الذي ما زالت تجري عليه اسفر، بعد الحقب الطوال، عن ضعف اكيد في الانتاج وخمود في الذرية حتى خشيت معهما ان يفنى النسل ويزول الى غير رجعة. وتشاء القدرة الملهمة ان توجه الحياة عند هذا الطور الخطر من النشوء توجيهاً يعد حقًّا من لحظات الدهر الخالدة. وذلك انه بدل ان تمضي هذه الخلايا تنمو وتتكاثر على اسلوب الانقسام الذي وصفنا احدثت بينها حركة عكسية — اي بدل المضي في التوليد على اسلوب الانقسام وزيادة الضعف ضعفاً أوحت بالوحدة والتضام بين هذه الخلايا المنهوكة. وتقدمت اولى خليتين في تاريخ النشوء وفنت كل واحدة من ذاتها في اخرى ثم انفصلتا وكم كانت دهشة الحياة بالغة لما رأت هذه الخلايا الضعيفة الخائرة تزخر من جديد بالنشاط والحركة وفيض القوة

وكأن الحياة اكتفت بهذا القدر من النجاح تصيبه في هذا النشاط يعود الى هذه الخلايا بعد ان استولى عليها الاعياء ودبَّ فيها الكلال. فمضت حقبة طويلة لا تبدي رغبة ولا تكشف عن عزم في التغيير والتبديل. ولكن الحياة ليس من طبعها الوقوف. فاما سير الى الامام ونماء واما تلكؤ ورجوع ثم فناء، وكأنها — الحياة — شعرت بأن ما نالتهُ من تقدم يكاد يأتي عليه هذا الخمول والرغبة عن الخلق والابداع فجمعت قواها وحشدت جميع وسائلها ولم يمض حتى اسفر هذا الحشد والجمع عن خلق جديد له سمات راسخة من التخصص والتمايز الجنسي

وقد حققت الحياة هذه الخطوة، اول ما حققتها، في الحيوان البروتوزووي المسمى «Eudarina». فقد اخذت خلايا هذا الحيوان تقسم كل واحدة منها اقساماً صغيرة مختلفة بعضها كبير هادئ، وبعضها الآخر صغير ولكنهُ جمُّ النشاط والحركة. وأبى هذا الحيوان ان يتوالد

الاَّ اذا اتَّحد واحدٌ من هذه الاقسام الصغيرة النشيطة بواحدٍ من الاقسام الاخرى الكبيرة الهادئة . وهنا اكتشفت الحياة الجنس ، وهنا فقط كانت بداءة الحب ونواته التي نمت وأفرخت وأخرجت أعجب الأزهار والأثمار . وهنا اصبح مجال الاختيار واسعاً ومدى السعي كبيراً . وذلك ان هذه الحيوانات قامت تتغالب على فرصة الحياة والتناسل . فالضعيف منها فشل ومات وانقرض جنسه . والنشيط نجح وعاش وتكاثر ، وتعدَّدت وسائل النضال على فرصة الحياة وتخليد الجنس ، فكانت حيناً قوة العضل وشدَّة الأسر وحيناً رخامة الصوت ورقة النغم وحيناً جمال الريش وبهجة الألوان ، وآناً لطف الحيلة وحسن التدبير وآونة شيئاً من هذا وذاك وأخرى منهُ جميعاً

وجاء الانسان في آخر الأزمان وجاءت معهُ غرائزه الأولى وعلى رأسها غريزة الجنس التي ما فتئت تدفعهُ الى طلب البقاء والخلود عن طريق اخلاف البنين والبنات . وكان الانسان في اول امره لا يختلف في هذا الدافع عن بقية الحيوان ، فكان اندفاع الجنسين بعضهما الى بعض لا يعدو هذه الحاجة الحسية التي تفضي في نهاية امرها الى ايجادها الذرية الجديدة ، وهذه الذرية الجديدة ، تعيد تمثيل الدور الذي مثله آباؤها وتذهب في سبيل الذاهبين الأولين . واذاً لا ريب ان وراء هذا التجاذب بين الجنسين في الانسان والحيوان شهوة اخلاف النسل وتخليد النوع

ولكن لسائل ان يسأل هنا : وماذا كانت فائدة هذا الاختصاص والتمايز اللذين افضى اليهما التطوُّر وانفصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث اذ كان غرض الحياة ، وهو بقاء النوع وتخليد الجنس محقَّقاً بالانقسام الذاتي الموصوف ؟ والجواب هو ما رأينا من ان الانقسام الذاتي أسفر عن فشل في عملية التطوُّر والنشوء حتى كاد ينقرض النوع ويبيد وان انفصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث ثم اتصالها بعدئذٍ أفضى الى إعادة النشاط والقوة الى جميع الاحياء . وهذا لا ريب ، يفسر لنا ما يفضي اليه الزواج بين الأقارب من ضعف ينتهي مع الزمن الى انقراض الجنس كله ، ويفسر لنا أيضاً زيادة النشاط والحيوية بين الاجناس المختلفة إذ يمتزج بعضها ببعض عن طريق التزاوج ، وهو يفسر لنا أيضاً معنى هذه المحرمات الجنسية التي فرضها الدين حيناً وفرضتها الشعوب على أنفسها أحياناً أخرى ، من تحريم التزاوج بين الأقارب او تقييدهُ بقيودٍ تقلل من أذاه وتلطف من شره . ولعلَّ هذه الشعوب الباسيفكية في بعض جزر المحيط التي رضيت ان تتحلل من جميع القيود بشأن الزواج وغدت من جراء ذلك بسبيل الزوال هي خير دعاية لهذه القيود الجنسية واكبر برهان على فضلها وصلاحها في معركة النزاع على البقاء

ولنعود الى سلسلة النشوء ، فنرى ، ولكن بعد الألوف المؤلفة من الأجيال ، إن الغريزة وما يصحبها من انجذاب الجنسين بعضهما الى بعض ، أصبحا حبًّا رفيعاً يملأ القلوب وينبل الشهوة ، فأضحت الشهوة عاطفة والميل حبًّا والمادة شعراً والنزوة الطارئة هوىً خالداً . ولكن كيف حدث هذا وماذا ساعد عليه ؟ الجواب عن هذا يطول ، وانما يكفي ان نقول ان الانسان لما بدأ يتحضَّر ويتمدَّن رقَّ طبعه وتدمثت أخلاقه وانتظمت غرائزه ، فصار يعمد الى التعبير عن شهوته الجنسية بطريق مداور غير مباشر : فحل الرمز عنده محل التصريح والايماء محلَّ الفضوح والروية محل الجموح ، وأدركت المرأة أنها كلما تمنعت وتعززت كانت أقرب الى القلوب وأحفز للنفوس على الهيام والتقديس، وكانت أخيراً أنجح في الاختيارالذي يرفع مستوى الجنس بدل ان يوطئه ويغنيه بدل ان يفنيه.أدركت المرأة هذا بفطرتها وأدركه الرجل كذلك فراحت هي تحيط نفسها بهالة من الامتناع والطهر والعفاف . ولكن في الوقت نفسه لم تشأ ان توقف الرجل منها موقف اليأس،فلوَّحت له بالنظرة الهائمة والشفة الباسمة واللون الزاهي والعطر الذكي واللفتة الحالمة، ان هناك مجالاً للمطاردة وميداناً للاقتناص ولسان حالها يقول : هيا ارني ايها الرجل ماذا تستطيع وتتقن وماذا تظهر وتبطن من الخلال والصفات التي تساعد على بقاء الجنس وتجميل الحياة . وما يلبث الرجل ان يستجيب ويقدم بين يدي المرأة احسن ما يملك ويستطيع . فهو حيناً يعرض عليها فراهة الشباب وقوة الرجولة وفيض القوة في ميادين اللعب وحلقات الصراع والملاكمة او في ميادين النضال والقتال ، وحيناً يعرض عليها المال وما وراء المال من قوة ومتاع للنفس والحس ، وآناً يقول الشعر وآونة ينحت الصخر واذا اعياه هذا او بعض هذا عمد الى الاغواء والسحر باللفظ المعسول والنظر المطال والآهة المقطوعة وخلاف هذه مما يصطنع البارعون في هذا الفن

وإذاً فأنت ترى لهذه العاطفة غير فضل تخليد الجنس ، فهي ترقق الشعور وترفع النفوس وتسمو بالفكر وتغري الناس بجلائل الاعمال ، وفي ظلها يزكو الشعر ويسمو الفن ويخلد الجمال في قصيدة او صورة او تمثال . ومن هنا ما نرى ونشهد من ان أعظم الأمم ما تي جليلة في فنّ او علم او حضارة هي هذه الأمم التي ارتفعت بغريزة الجنس عن مستوى المادة والحسّ الى مستوى الروح والنفس . ومن هنا ما نرى أيضاً من ان دور الانحطاط في كل أمة وشعب يبدأ حيث يبتذل الحب وتعمُّ الأباحية ويصل الناس الى درجة الشيوع الحيوانية : لقد أفل نجم الاغريق وغاب سعد الرومان وخيم ليل العرب حينما أخذ الحب (ان جاز ان ندعوه حبًّا) يعرض في الأسواق ويباع ويشترى كما تباع جميع السلع ، بدل ان يحتفظ ويصان في القلوب وراء الصدور

فكتور هوجو

قصة حبه الاول

ورسائل غرامه

كتب فكتور هوجو في ديوانه اوراق الخريف مخاطباً « رسائل غرامه » فقال :

يا رسائل الشباب والفضيلة والحبّ
هوذا انت. فليخفق فؤادي ثانية
مستجيباً ، اذ اجثو لاقرأك .
ولأستعدْ عمرك ثانية ، فأعود
صالحاً وراغداً ، كما كنت مرةً . ثم دعيني
أذرف الدمع لانني انقلبت غير ما كنت

كنت في الثامنة عشرة . ما أبهج أحلامي حينئذٍ !
كان الامل يغنّيني فيهز سريري كذباً وختلاً
وكان يتلألأ فوقي نجم لامع .
اما الآن فقلبي فقط يتنفس بذكرك
مع اني كنت حينئذٍ في منزلة ربٍّ لها. ولكن
الرجل الآن يذكر الطفل الذي كان .

يا زمان التأمل والقوة والرشاقة
كنت انتظر كل مساء حتى تمرّ بي ،
فأقبّل قفازها الواقع على الارض
كنت حينئذٍ آمل كلّ شيء من الحياة — الحب والشهرة والقوة
آه — ما السبيل لأعود نقيًّا نخوراً متسامياً
مؤمناً بكل ما هو تقيٌّ !

هذه الرسائل —رسائل الشباب والفضيلة والحب— مجموعة في كتاب يربي على مائتي صفحة. وكانت عروسة احلامه قد دمرت رسائلها اليه وانما احتفظت برسائله. تطالعها الآن فتطالع فيها عفة في عنف. وليونة في رزانة، إنها حافلة بآماله ومخاوفه، بافراحه المنطلقة عفواً كأفراح الطفل وبإباء الخصام واساليبه يتلوها العفو والغفران!

يبدو لك وانت تقرؤها انها لم تكتب ليقرأها احد الا مليكة قلبه. فهو في غير رسالة منها يتوسل اليها ان تحرقها فقيمتها الادبية في الكشف عن نفس هوجو، اعظم من رسائل تكتب والغرض منها النشر، لان نفس هوجو في رسائله هذا مطلقة على سجيتها. وقلما يتاح ان يُرى غراماً كهذا الغرام. يتفتح كالزهرة الطاهرة وينبجس كالنبع الصافي فتراه وهو يتفتح وترافقهُ وهو ينبجس مكشوفاً للعين في كل فور وفي كل غور

***

عرف ڤكتور اديل من ايام الطفولة لان صلة الجوار والصداقة كانت تربط اسرتي هوجو وفوشه، قبل ولادتهما. فنشأ اولاد الاسرتين وترعرعا معاً. وكانوا ينادون بعضهم بعضاً بضمير المفرد المخاطب. وهو بالفرنسية دليل على توثق الصلة ورفع الكلفة

وقد اشار ڤكتور هوجو الى انبثاق حبه الاول بالكلمات الآتية: ارى نفسي ثانية، فتىً، تلميذ مدرسة، مرحاً لعوباً عادياً صارخاً مع اخوتي، في الممرّ المخضرّ في حديقة البيت الذي قضيت فيه ايام الحداثة. ثم يقول: «كنت لا ازال صبيًّا، ولكن الاحلام كانت تراودني، والشهوة تملأ أعطافي». والى جانبه كانت فتاة «نجلاء العينين، كثة الشعر، سمراء البشرة، حمراء الشفتين. متوردة الخدين ...»

«وكانت امّانا تقولان لنا انطلقا والعبا معاً. فكنا نتنزهُ قبل ان نلعب فكنا نفضل ان نتحدث. وكنا من عمر واحد ولكننا لم نكن من جنس واحد. ومع ذلك ظللنا مدى سنة اخرى، ونحن رفيقان، بل لقد جرّبنا غير مرة «ان نتبيّن من منا اقوى من الآخر وأصلب عوداً. خطفت منها مرة اكبر تفاحة في البستان. وصفعتها اخرى لما رفضت ان تعطيني عشّ عصفور. فأخذت تبكي فقلت: لا بأس لنذهب ونخبر والدتينا فتقولان ان كلينا اخطأ وكلتاهما تعتقد في قلبها ان ولدها كان على صواب»

«ولم يمضِ زمن طويل حتى صارت، اذا سرنا، تتكىء على ذراعي، فكنت احسّ بفخر عظيم. وينتابني شعور غريب. فكنا نمشي في رفق. ونتحدث في لطف. اسقطت منديلها مرة فلمستهُ فمست يدي يدها. وشعرنا كلانا بهزّة. فجعلت تتكلم عن العصافير، والنجوم في الفضاء، وحمرة الشفق وراء الاشجار، ورفيقاتها في المدرسة، وملابسها. تحدثنا حديثاً بريئاً عن امور عادية

ولكن خدود كلينا تورّدت لان الفتاة اصبحت صبية». وادبل تؤيد في ما كتبته رواية فكتور .

في اغسطس سنة ١٨١٨ اضطرت اسرة هوجو ان تنتقل من دارها ، لان معاش الوالد الجنرال ، كان لا يكفي ، لكي يحتفظ لزوجه واولاده ، بدار لها حديقة . فانتقلت الاسرة الى شقة في الدور الثالث من شارع بتي اوغسطان رقم ١٨

وكانت مدام هوجو ، تذهب بعد العشاء ، تزور صديقتها مدام فوشه . وكان ابناها يرافقانها في بعض هذه الزيارات. ويقول بواب «أوتل ده تولوز» — حيث كان يقطن المسيو فوشه — انه كان يرى اوجين وفكتور هوجو مع والدتهما قادمين لزيارة اسرة فوشه . وكادت هذه الزيارة تكون رتيبة كل ليلة من ليالي الشتاء في سنتي ١٨١٨—١٨١٩

كان الضجر يخيّم على هذه السهرات في الغالب . فقد كان المسيو فوشه ضعيفاً عليلاً ، فكان يأخذ كتبه وينتحي زاوية خاصة ، ويفضل ان لا تقلقهُ ثرثرة الحديث. وكانت مدام فوشه هادئة الطبع ، لا تميل الى الاستفاضة في الكلام فجعلت الصمت ديدنها رفقاً بزوجها . وكانت مدام هوجو نفسها تقطع عملها — الخياطة — فتأخذ قليلاً من النشوق وهو عمل كان المسيو فوشه نفسه لا يعفّ عنه . وكانت قد نبهت على ولديها اوجين وفكتور ان لا يتكلما الاَّ اذا خوطبا

إلاَّ أن هذه السهرات كان لها اثر خاص في نفس الفتى فكتور . كان اثراً مبهماً يتعذر حتى على من كان مثله بارعاً في استعادة الذكريات وتحليلها ، ان يحدده ويصفه . فكان اذا انتهى العشاء في داره ، كلفا بالاسراع الى منزل مدام فوشه . فاذا كان شقيقه اوجين متأخراً استعجله . وكان في الشارع لا يعجبه البطء في السير ، فاذا حال دون الذهاب الى « اوتل ده تولوز» حائل ما ، كانت الدنيا تسودُّ في عينيه وتستولي الكآبة على نفسه

وهذه الرغبة في زيارة آل فوشه ، لم تكن كلفاً منهُ بمراقبة نار الموقد ، او البقاء جالساً على كرسي ساعتين متواليتين في غرفة يسودها الصمت ، ولا يقطع صمتها في الغالب الاَّ عطاس امه والمسيو فوشه بعد تناول النشوق ، بل كان يكفيه ان يبقى المسيو فوشه مكبّاً على كتبه ، والسيدتان على عملهما ، لانه كان يستطيع حينئذ ، ان يحدق ، ويطيل التحديق ، في اديل

والراجح انهُ كان لايدري ، ما هذا الشعور الذي كان يضطرب به صدرهُ ، ولكن احدى رسائله المكتوبة سنة ١٨٢١ تعيّن لنا بالضبط اليوم الذي ازيح فيه الحائل الفاصل بين القلبين . كان ذاك يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨١٩ وكان فكتور يومها في السابعة عشرة من عمره واديل في السادسة عشرة

كانت اديل أجرأ من فكتور ، وأشد رغبة في الاستطلاع، فرغبت وهي فتاة، ان تتبيّن معنى هذا الغرام الصامت فقالت: « لاريب عندي في انك تخفي أسراراً . أليس بينها سرٌّ يفوقها

جميعاً ؟ »فاعترف ڤكتور بأن عنده أسراراً وان احدها يفوقها جميعاً . فصاحت أديل : وهذا هو حالي : تعال . تعال الآن اطلعني على أهم أسرارك وأنا أطلعك على أهم أسراري . فقال ڤكتور: أهم أسراري اني أحبك . فرددت اديل وسرّي العظيم هو اني أحبك ، وكأن كلامها كان صدىً لكلامه

وكذلك تحطّم الجليد بينهما — على ما يقول الفرنجة — ولكن حبهما كان معتدلاً ، فكأنهما وقد باح أحدهما للآخر بمكنون قلبه، وقفا امام هول الحب وعظمته وقفة المتعبد في هيكل فخم

وقد قال ڤكتور في قصيدة يصف ذلك اليوم ، ان شفاههما الطاهرة لم تتلفظ بعبارات الغرام وانهما ما كانا يملكان الا التفوّه بكلمة واحدة

***

تبادلا بعد ذلك بعض الرسائل أحياناً إلاّ أنها كانت في الغالب « قصيرة فاترة » ولكنْ هذه الرسائل لم تحفظ . ثم جاء الصيف ، وذهبت أسرة فوشه لتصطاف في إسي في ضواحي باريس . فكان ذلك باعثاً على الكآبة تستولي على نفس ڤكتور . وقد حاول عبثاً ان يقنع نفسهُ بأن المرحلة الى إسي كالمرحلة الى « أوتل ده تولوز» . ولكن الزيارات اليومية كانت متعذرة

فلما عاد الخريف عادت أسرة فوشه الى باريس، وكان الميل اللطيف قد تحول في صدر ڤكتور الى شعلة لا تنطفىء على ما قال في قصيدة له في أحد دواوينه[1] . بل ان الحبّ كان قد أخذ يملك على ڤكتور كل ناحية من نواحي شعوره ، وتغلغل في كل جانب من جوانب حياته

وبعيد عودة آل فوشه من إسّي في خريف سنة ١٨١٩ انتظم تبادل الرسائل بين ڤكتور واديل . وكان ڤكتور قد طرح التردد والجبن ، وأصبح عاشقاً جريئاً ، فصار يطلب الى اديل ان توافيهُ في مواعيد معينة واماكن معينة ، فكانت تلبي طلبهُ . وكانت حديقة « الاوتل ده تولوز » احد اماكن الاجتماع ، فكانت اديل اذا غابت والدتها ، تتسلّل الى الحديقة لمقابلة ڤكتور المنتظر في « ظلال اشجار الكستناء » . اوكانت اديل تذهب احياناً الى السوق بدلاً من والدتها وبعد ان تبتاع ماذهبت له ، تسرع الى مقابلة حبيبها في احد الشوارع الهادئة. ولما تحسّنت صحة المسيو فوشه صار يسرّهُ استقبال أصحابه في المساء ، وكثيراً ما كان بين الزوّار صويحبات اديل واصحابها . فكان ڤكتور يجتمع باديل ويتحدث اليها ، ولكن الاجتماع كان بحكم الطبع قصيراً ، والحديث مقتضباً فكان لا بدّ من اتمام ذلك التبادل كتابة

***

لم تحفظ رسائل ڤكتور الاولى ولكنها في الراجح لاتختلف عن معظم الرسائل التي حفظت.

(1) Odes et Ballades

اننا نتبين في رسائله ، ان فكتور كان وهو في السابعة عشرة من العمر يفكر تفكير الرجال . فهو واثق بنفسهِ ، واثق باخلاصه ، واثق بحبهِ وشرف اغراضهِ . ثم انهُ لا يرتاب اقل ارتياب ، في شجاعتهِ وقيامهِ على عهد الوفاء . فاذا كان لا مفرَّ من الانتظار فانهُ ينتظر . واذا قامت في سبيلها العقبات ، فانهُ يتخطَّاها . انهُ لا يسلّم بان هناك شيئاً مستحيلاً . وهو يحسب اديل زوجتهُ ، لذلك تراهُ يجرؤ على توقيع معظم رسائله اليها بكلمة « زوجك » . ولكن اديل لا تزال طفلة . هي ذكية الفؤاد ، نبيلة الشعور ، ولكن قلبها قلب طفل . انها بريئة ، حنونة ، فتردُّ على حبهِ الناضج حبًّا طفلا

ولكن الى اين يفضي حب صغيرين كفكتور واديل في سنهما وأحوالهما ؟ لا ريب في ان الوالدين يفصلون بينهما عندما يطوف الريب باذهانهم . لذلك اتفق الحبيبان ان يمتنعا عن تبادل الحديث الاَّ اذا كانا منفردين . وان يتظاهرا في حضور الناس ، بان احدهما لايهمُّ الآخر ولا يعنى بهِ

ولكن هذا التظاهر كان يؤلم اديل . كان فكتور لا يزال يطيع امه كأنهُ لا يزال في العاشرة من عمره ، وكانت هي تحسبهُ طفلاً فلم تتصوَّر انهُ في هذه السن يمكن ان يقع في شرك الغرام . الاَّ ان أم اديل كانت أقوى ملاحظة وأنفذ بصيرة من صاحبتها ، فظنت انها رأت غير مرة ، ما ينمُّ على تحابّ اديل وفكتور ، ولكنها حسبت ذلك من نوازع الحداثة البريئة ومع ذلك لم تلن في مراقبة بنتها ، وفي توجيه الاسئلة اليها ، وتوبيخها احياناً ، وكان كل هذا يغم اديل فتبوح بغمها الى فكتور ، وأحياناً تلومه عليهِ او ينفجر طبعها النسائي بالتأنيب احياناً اخرى . ولكنها كانت ، اذا رأتهُ كئيباً كاسف البال وبدا عليهِ انهُ يظنُّ انها لا تحبه ، تسرع الى طلب العفو والغفران ، لانهُ كان كما قال في شعره في منزلة ربّ لها

ثم اخذت شهرته الشعرية تذيع ، وبدأ اسمه يلمع في سماء الادب فدعاه شاتوبريان « الطفل العلوي » ، وجعلت الصالونات الادبية تتحدث ببعض قصائده ، ومنحتهُ اكادمية الالعاب الزهرية في تولوز جائزتين من جوائزها الاولى على قصيدتين قدمهما اليها

ولما كانت رسائل فكتور التي كتبت سنة ١٨١٩ لم تحفظ ، فأول شاهد على حبه ، منطوٍ في قصيدة له عنوانها « الزهرة الاولى » نظمت في شهر دسمبر من تلك السنة . فلما قدم هذه القصيدة الى اديل ، طالباً اليها ان تقرأها على حدة ، لأنها نظمت لها خاصة ، طفح كأس صباها بالغبطة . وكان في القصيدة كثير من انغام الحزن والقنوط . ولكنها قصيدة ما أجملها ، في نظر الفتاة . واذ تحدث الشاعر في قصيدته ، عن يوم مماته ، سأل اديل بما تجزي حبه ، ووفاءه فوعدته باثنتي عشرة قبلة !

ولكن هذه القصائد وهذه القبلات ، لم تلبث حتى اصبحت باعثاً من بواعث الكدر والانزعاج

قلنا انهُ كان لاديل صويحبات ، وليس من الطبيعي ان تلقى فتاة قصيدة بارعة كتبت لها خاصة ، من دون ان تريها لاحدى صويحباتها على الاقل ، فاذا ارتها اياها ، فكيف يسعها ان لا تقول ان فتاة القصيدة انما هي نفسها — اديل فوشيه ، حبيبة الشاعر ؟ ! ولا ريب في ان احدى صويحباتها سألتها : ولكن هل تحبينهُ : فتجيب — أيسعني إلاَّ أحبه — وهل يحبك لهُ بحبكِ — كيف أستطيع أن أخفيه . وعندها يرجح أنها باحت لتلك الصويحبة بالقبلات التي دفعتها ثمناً لتلك القصيدة وجزاء لذلك الوفاء ! فتصبح صاحبتها في شيء من الذعر

— ولكنه لا يسعهُ ان يحترمك ما زلت لا تحترمين نفسك

كانت أمها قد حذَّرتها من كل هذا فقالت لها : احذري يا بنيتي ، اذا قال لك رجل انهُ يحبكِ ، وكنتِ على جانب من الضعف ، فلا يمضي وقت طويل حتى يزول ما يكنهُ لكِ من الاحترام

أمضّها الشك . هل التسليم بالحبّ يفضي الى فقدان احترام الحبيب ؟ اذن حبيبها يحتقرها ! وكيف تستطيع ان تصبر على احتقاره اياها ؟ سألتهُ في ذلك ، والألم يفطر قلبها « أصحيح انك تحتقرني ؟ هل يمكن ان تحتقرني ؟ » فأنكر ذلك ، واعترض عليهِ ، وغضب في انكاره واحتجاجهِ ، وجدَّد عهود الحب والوفاء ، وأتى ببراهين حبهِ وأخلاصه . ولكن الريب في ذهنها اصبح فكرة سائدة . وكثيراً ما تعود الى هذا الموضوع في رسائلها . نعم اننا لا نملك رسائلها ، ولكننا نملك جوابات فكتور . كيف يستطيع أن يقنعها ؟ فليس الاحترام والاجلال كل ما في نفسه ، بل هي العبادة ! انهُ يحبها جاثياً . وبمجرد تطويقها بذراعيها ، والفوز منها بوعد بقبلة ، هو كل ما يطلبه منها وهو كل سعادتهِ . وقد كانت اديل جديرة بهذا . فقد كانت وهي في السادسة عشرة صبية بارعة الجمال ، سمراء اللون ، سوداء الشعر ، مقنطرة الحواجب ، دقيقة الانف فأقامها فكتور في هيكل افكاره على مذبحٍ وجثا امامه عابداً متخشعاً . بل ان عبقريته الشعرية انحنت اجلالاً امام عبقريّ جمالها ، بدعةٍ وخشوع . قد تكون زوجه في المستقبل مع انهُ لايجرؤ على تصور هذا . ولكن اذا اصبحت زوج آخر ، فانهُ يموت ، لانه لا يتحمَّل ذلك . وفكرة الموت هذه ، كانت برهاناً لهُ على حبه لها ، فرسخت في ذهنهِ ، وكثيراً ما رددها ، في اشكال مختلفة في رسائل غرامه ، وكان لها وقع عظيم في نفس حبيبتهِ

وضع فكتور كلَّ شيء عند اقدام اديل او تحت اقدامها . فلست تجده يذكر في رسائله شيئاً من كتاباتهِ ، او ما اصابهُ من النجاح الادبي او شهرتهُ الآخذة في الذيوع ، واذا اشار الى ذلك فانما يذكره لكي يؤكد لها ، ان كل ذلك انما هو لاجلها ، ولها ، وانما هي صاحبة الوحي وينبوع الالهام . فالموضوع الوحيد الذي تدور عليهِ الرسائل هو هذا الحب — الحب دون غيره من الموضوعات ، ولذلك سوف تبقى رسائل غرام هوجو مثالاً فذًّا نقيًّا للحب السامي

اسرار اللون



في حياة النبات والحيوان

المادتان الخضراء والصفراء في النبات والحمراء في الدم

تسبغ الطبيعة على الكائنات من نبات وحيوان الواناً تفتن الالباب بجمالها وتحير العقول بأسرارها . ففي حدائق الازهار تجد الاديم مكسواً ببساط سندسي يرتاح اليه البصر وتقوم في جنباتها شجيرات متفتحة النوّار سحرية الالوان فواحة العبير . وفي حديقة الحيوانات بالجيزة طيور تستوقف النظر والذهن بألوان ريشها بين أخضر وأحمر وأصفر . فما سر هذه الالوان وهل في دراستها سبيل الى فهم ناحية من لغز الحياة ؟

إن مباحث علماء الكيمياء الحيوية الحديثة في هذا الموضوع تشير الى اننا على عتبة انقلاب خطير الشأن في فهم بعض اسرار الحياة عن طريق فهم سر التلوين في الطبيعة . ولا يستبعد أن يفضي هذا الفهم الى فوائد عملية جليلة الشأن في توفير اسباب الصحة ومواد الغذاء والوقود

فالمادة الخضراء في النبات،وهي المعروفة باسم الكلوروفيل في اللغات الاجنبية (وقد اقترح لها مجمع فؤاد الاول للغة العربية لفظ اليخضور) تحتوي في تركيبها الكيميائي وطريقة تركيبها للنشاء والسكر على اسرار اذا استطاع العلماء أن ينفذوا اليها ، مكنتهم من مجاراة الطبيعة في صنع مواد الغذاء والوقود على أهون سبيل وبأيسر نفقة

ثم ان اليخضور يهم الاطباء وعلماء الكيمياء الحيوية لأن تركيب جزيئه قريب الشبه بتركيب جزيء مادة أخرى،لاغنى عنها للحياة ونعني الهيماتين وهو المادة الحمراء التي تجري في الدم فلندعهُ اليحمور ومن معانيه في اللغة الاحمر . فكل كشف جديد في معرفة سرٍّ من اسرار المادة الحمراء يسدي خدمة جليلة الى الباحثين في اسرار الاخرى

وقراء المقتطف يذكرون ان العالم الالماني هانس فيشر Fischer منح جائزة نوبل الكيميائية سنة ١٩٣٠ لنجاحه في تركيب مادة الهيماتين — وهي المادة الحمراء التي في كريات الدم الحمر في الحيوان — بالتركيب الصناعي . ولكنهم قد لا يعلمون أن فيشر نفسه من أدق الباحثين وأرسخهم قدماً في دراسة اليخضور كذلك

ومما لاريب فيه ان كثيراً من الحقائق التي توصل العلماء الى معرفتها عن طبائع الحيماتين انما أتيح لهم لان الباحثين في طبائع اليخضور مهدوا لهم السبيل . وليست الشقة بين الوقوف على اسرار اليخضور وطبائعه وفهم الامراض الناشئة عنه بالشقة البعيدة . ثم هناك اللون الاصفر ، وهو عادة من الالوان التي لا يقام لها وزن كبير في خصائص الاجسام الحية واسرار حياتها ، وذلك لان لون اليخضور الاخضر في النبات يغلب عليه ويحجبهُ عن الانظار . ولكن شركة كوداك تمكنت من صنع مصفاة لونية ، تستطيع ان تحجب الاشعة الخضر في ضوء ما ، وتأذن لسائر الاشعة في ذلك الضوء في المرور من خلالها . فاذا نظرت الى غابة خضراء ، او الى حقل سندسي البساط من خلال هذه المصفاة ، رأيتهُ أصفر فاقعاً يخالط صفرتهُ قليل من اللون البرتقالي والاحمر . والواقع ان البحث أثبت وجود اللون الاصفر والاصفر المحمار في كل خلية نباتية . والدليل الحاسم على ذلك ان الطيارين الحربيين يميزون بين الاخضر السندسي في الحقل والاشياء المدهونة باللون الاخضر باستعمال المصفاة اللونية فيرون الحقل أصفر والاجسام المدهونة باللون الاخضر خضراء قاتمة . وفائدة هذا التمييز في الاعمال الحربية لا تخفى

ليس ثمة ريب في أن دراسة اللون الاصفر في الخلايا النباتية قد افضى الى فوائد عملية جليلة القدر . وذلك لأن بين الاجسام الصفر في خلايا النبات مواد تعرف باسم « الكاروتينويد » Cartenoids وهي مصدر غنيٌّ بفيتامين A واذا شئنا ان نقيس بالمال قيمة الصحة التي يجنيها الناس من استعمال هـذا الفيتامين تعذر ذلك علينا . بل يضاف الى ذلك ان هناك فريقاً من العلماء يذهب الى أن هذا الفيتامين عامل ذو شأن في إطالة مدى الحياة الانسانية

***

اللون الاخضر واسع الانتشار في الطبيعة . وفي سعة انتشاره دليل على ان « اليخضور » عامل اساسيٌّ من عوامل الحياة على سطح الكرة الارضية مهما يكن القالب الذي تفرغ فيه الحياة . وسبب ذلك ان اليخضور هو المادة التي تعتمد عليها الطبيعة في تحويل طاقة الشمس الى طاقة الحياة . ولولاه لما كان لنا غذاء ولا فحم ولا نفط ولا ناس

***

يعرف فعل تركيب النشا والسكر في اجسام النبات بوساطة اليخضور بفعل التركيب الضوئي Photosynthesis وطريقتهُ ان يمتصَّ النبات الماء من التربة ثم يقتنص الطاقة من اشعة الشمس ، فيحدث التفاعل بين جزيء الماء وجزيء ثاني اكسيد الكربون فيتولد النشاء والسكر وجزيئاتهما غنية بطاقة الحرارة ، ويطلق الاكسجين نتيجة لهذا التفاعل حرًّا يستنشقهُ الأحياء . ولولا

فعل التركيب الضوئي . لقلَّ مقدار الاكسجين في الهواء بتثبيته في المركبات التي يدخل في تركيبها ولجاء زمن تزول فيه الحياة ، كما نعرفها ، من سطح الارض

***

بعد ذلك يتحوَّل السكر رويداً رويداً الى موادَّ اخرى . فهو يتحوَّل بالتخمير كحولاً ومنهُ تتولَّد المواد التي يصنع منها الجليسرين والزيوت والشحوم والبروتينات والفيتامينات والادهان الخضر والحمر والصفر . جميع هذه المواد ترتدُّ الى السكر المصنوع بطريقة التركيب الضوئي من الماء وثاني اكسيد الكربون وطاقة الشمس بوساطة اليخضور . وليس في أرقى مصانع العالم الآن ما يجاري فعل التركيب الضوئي ، في توليد هذه المواد

وقد دلَّ البحث على ان اليخضور يخضوران في الحقيقة ، يتشابه جزيئاهما في تركيبهما . وقد وسم أحدهما بحرف الألف فيعرفا باسم يخضور (ا) والثاني بحرف الباء بيخضور (ب) . فاذا استخلص الاول وبلور كان أزرق مسوادًّا . واذا حلَّ في الكحول كان أزرق مخضارًّا . أما الثاني فلون بلوراته أخضر مسوادٌّ ومحلولهُ الكحولي أخضر صافٍ . والاول يتحول الى الثاني بازالة ذرتين من ذرَّات الايدروجين من جزيئه واحلال ذرة أكسجين محلها . وقد تبين علماء الكيمياء الحيوية ان اليخضورين متلازمان في خلية النبات ، فكلٌّ منهما عامل لا يستغنى عنهُ في فعل التركيب الضوئي

وجزيء اليخضور نسيج معقد من ذرَّات الكربون والايدروجين والاكسجين والنتروجين . فاذا كان هذا الجزيء مشتركاً في فعل التركيب الضوئي ، شوهدت في وسطه ذرَّة مغنيسيوم . وجزيء الهيماتين (اليحمور) كذلك نسيج معقد من ذرَّات الكربون والايدرجين والاكسجين . ولكنهُ يختلف عن صنوه جزيء اليخضور في انهُ اذا كان جزيء الهيماتين مشتركاً في فعل نقل الاكسجين ، وجدت في مركز الجزيء ذرة حديد ، يقابلها في جزيء اليخضور ذرة مغنيسيوم

ولا يخفى ان الغرض الاول من الهيماتين هو نقل الاكسجين في أجسام الاحياء . ولذلك يصاب المصابون بفقر الدم (ومن أعراضه نقص الكريات الحمر المحتوية على الهيماتين في الدم) بضيق التنفس لان قلة الكريات الحمر تحول دون حصول انساج الجسم على كفايتها من الاكسجين . والشحوب الذي يعلو وجه المصاب بالانيميا دليل على ان الجسم في حاجة الى الحديد مفرغاً في قالب الهيماتين

أما الهيموغلوبين فهو مادة بروتينية يعلق بكل جزيء من جزيئاتها أربعة جزيئات من

الهياتين وهذه المادة هي قوام الكريات الحمر في الدم . وهذه الكريات تمتصُّ الاكسجين من الهواء من خلال انساج الرئتين الرقيقة وتنقلهُ في مجرى الدم الى خلايا الانساج فتأخذهُ منها وتستعملهُ لتوليد الحرارة اللازمة لافعال الجسم الحي . وترتدُّ الكريات الحمر مثقلة بنتيجة الاحتراق — وهي ثاني اكسيد الكربون — فتطلقها من خلال نسيج الرئتين وتمتص الاكسجين بدلاً منها . ولذلك يحتاج الجسم الى تنفس الهواء الطلق التي لكي يأخذ منهُ اكبر قدر من الاكسجين يحتاج اليه ، والى عدد معين من الكريات الحمر في كل سنتمتر مكعب من الدم حتى يستطيع ان يوصل الى خلايا انساجه المختلفة القدر اللازم لها من الاكسجين

***

والاسلوب الكيمائي الذي يتمُّ بهِ فعل نقل الاكسجين من الرئتين الى خلايا الانساج ، قوامهُ ان ذرَّة الحديد في مركز جزيء الهياتين متصفة بالقدرة على اجتذاب ذرة اكسجين اليها والاحتفاظ بها الى ان يحين موعد اطلاقها

ولما كان جزيء الهيموغلوبين مرتبطاً باربعة جزيئات من الهياتين ، ففي قدرة جزيء الهيموغلوبين ان يجتذب اربعة جزيئات من الاكسجين . وكل كرية من كريات الدم الحمر تحتوي على عدد كبير من جزيئات الهيموغلوبين ففي وسعها ان تحمل من الرئتين الى خلايا الانساج عدداً كبيراً من ذرَّات الاكسجين . وعلى ذلك يكون فعل نقل الاكسجين من الرئتين الى خلايا الانساج فعلاً دقيقاً

وليس ثمة عالم يظن ان الشبه بين اليخضور واليحمور جاء اتفاقاً . والرأي الغالب ان الطبيعة ادركت في عصر ماضٍ بعيد ، عند ما كانت الحياة لا تزال في الدرجات الاولى من سلم ارتقائها ، فائدة ابدال ذرة المغنيسيوم بذرة الحديد في جزيء الكلوروفيل فصار في وسع ذلك الجزيء — وقد صار مركزه ذرة حديد — ان ينقل الاكسجين ، وكذلك مهَّدت الطريق لظهور الحيوان الاحمر الدم ، الذي نشأت منهُ الحيوانات العليا

وهذا الرأي ليس تصوُّراً مجرداً بل ان نتائج المباحث الحديثة تؤيده . فالانسان في أشدّ الحاجة الى مقادير يسيرة جدًّا من النحاس والمنغنيس في جسمهِ

وقد ثبت ان من شأن هذين العنصرين ان يؤثرا في تركيب الهيموغلوبين في مراكز معينة في العظام . ثم ظهر ان تركيب الكلوروفيل لا يتمُّ في خلايا ورق النبات اذا خلا الورق من مقادير يسيرة جدًّا من النحاس والمنغنيس

والبحث في سرّ الالوان في الطبيعة أفضى الى كشف من أخطر الكشوف شأناً في علوم

الاحياء . وملخص هذا الكشف ان مادة الهياتين موجودة في كل جسم حيٍّ في البكتريا والشجرة المارِدة والموّارة (الاميبا) والانسان . ومن الطبيعي ان يسأل القارىء لماذا لا يغلب اللون الاحمر على جميع الاحياء . والردّ على ذلك ان مقادير هذه المادة في معظم الاحياء يسيرة جداً لا تتبين العين لونها ، ولكن المطياف جهاز دقيق الاحساس وبهِ استدل العلماء على وجود الهياتين في جميع الاحياء

ومن الغريب ما كشفهُ البحث من ان الهياتين في الاحياء الدنية يفعل فيها فعلهُ في دم الانسان اي ينقل الاكسجين . ولكن الاسلوب يختلف قليلاً في الحالين . فجزيئات الهياتين تتناول الاكسجين من جزيئات أخرى وتنقلها الى جزيئات في حاجة اليهِ فيحدث تفاعل الاحتراق (الأكسدة) فينطلق قدر من الطاقة يمكن الجسم الحي من القيام ببعض أفعالهِ

وبذلك يصحُّ القول ان مادة اللون الاحمر في الدم كانت سبيلاً الى فهم سرٍّ من أسرار الحياة الغويصة . واذا سار العلماء على الطريق السويّ في استيضاح هذا السر لم يقتصر فهمهم على فهم النشاط الحيوي في الكائنات بل تعداه الى فهم الاساليب التي يولد بها النور البارد مثلاً الذي يشبه نور الحباحب والاحياء المائية المضيئة ، فيوفر بذلك نحو ٩٠ في المائة من الطاقة التي ينفقها لتوليد الضوء الكهربائي

***

قلنا ان للون الاصفر شأناً عظيماً في فهم ناحية من أسرار الحياة . وقد تجلّت منزلتهُ هذه في دراسة الجَزَر . فالمادة الملوّنة المستخرجة من الجزر تعرف باسم كاروتينويد Carotenoid وقد ظلّت هذه المادة المصدر الرئيسي لفيتامين A حتى تمكن الكيميائي الحيوي Kuhn من تركيبه بالتأليف الكيميائي

استخرجت مادة الجزر الملونة من جذور الجَزَر سنة ١٩٣١ ودعيت كاروتين ومن المسلّم بهِ الآن انها خليط من ثلاث مواد اسماؤها كاروتين الفا وبيتا وجمّا فاذا حلّت تحوّل اللون الاحمر الى اصفر كصفار الازهار الصفر ومُح البيض ولكن هذا لا يعني ان كلَّ مادة صفراء في النبات كاروتينويد ولا ان جميع المواد المعروفة باسم كارتينويد صفراء

غير ان اسرار هذه المواد لم تفهم إلاَّ بعد ان كشف ترتيب الذرات في جزيئاتها وبعد بحث دقيق في هذه الناحية ظهر ان جزيئها قوامهُ حلقة من ذرات الكربون والايدروجين تتدلى منها سلسلة من ذرات الكربون والايدروجين واحياناً من ذرات الاكسجين . ويلوح ان لطول السلسلة وكيفية ارتباط الذرّات بعضها ببعض صلة باللون . واللون الاصفر هو الغالب فاذا حدث تغير يسير في مواقع الذرّات وفي طول السلسلة تحول لون الجزيء الى برتقالي او

أحمر او الى أحمر بنفسجي او الى أزرق قاتم وهو نادر . فالمادة الحمراء في البطيخ والطماطم كاروتينويد قريبة الصلة بالمادة الصفراء الكاروتينويدية التي في الازهار الصفر . وفيتامين A كاروتينويد ايضاً ولكن لا لون له ولا نعلم سبب ذلك

***

في الحيوانات الفقارية تتحول احدى الكاروتينات الثلاث الى فيتامين A — ويلوح ان الكبد هي مقر هذا التحول — من جزيء اصفر الى جزيء لا لون له . وهذه الحيوانات لا تستطيع ان تحصل على المادة التي تحولها الى فيتامين إلاَّ من نبات يصنع هذه المادة الصفراء

ولا يخفى ان نقص فيتامين A في جسم حيوان ما يفضي الى ضعف مقاومة المرض وتكسّ البشرة والاغشية المخاطية ، وضعف البصر في الضوء الخافت ، وجفاف العينين وضعفهما واخيراً فقد البصر

والاتصال بين الحيوان والنبات لا يجب ان يكون مباشراً . فقد يأكل الحيوان مادة حيوان آخر تغذّى بمادة نباتية فيها الكاروتينويد . و « زيت السمك » من هذا القبيل

ولا يخفى ان المادة الصفراء في الفواكه والخضر والازهار الصفر هي كاروتينويدات ولكن هناك مادة صفراء اخرى مثل فيتامين G تدعى (ريبوفلافين) وهي تستخرج من اللبن . والرأي ان هذه المادة الصفراء او هذا الفيتامين يطيل مدى الحياة اذ ثبت ان حياة الفأر والجرذ تطول متى كثرت هذه المادة في غذائهما

واللون الاصفر يعود بنا الى اللون الاحمر . فقد ظهر ان الريبوفلافين — الاصفر — صلة بين الفيتامينات والانزيمات . والانزيمات كما لا يخفى من العوامل الفعالة في زيادة النشاط الحيوي . فاذا ارتبط الريبوفلافين بجزيئات البروتينات الكبيرة مكنها من ان تزيد نشاط التفاعل الحيوي . واذن فالريبوفلافين الاصفر هو زميل الهماتين الأحمر في السيطرة على النشاط الحيوي

***

ما أحكم الحلقة التي صنعتها الطبيعة ! هوذا فيتامين A المتولد من المادة الصفراء لا غنى عنه للبصر السليم ، لأنهُ مادة اساسية في شبكية العين — لوحتها الحساسة . وهذا الأحمر الذي لا يستغني عنهُ الجسم متولد من يخضور الورقة الخضراء . ثم هوذا الهماتين والريبوفلافين يجهزان الجسم الحي بما يمكّنهُ من تحطيم المواد التي يبنيها اليخضور فيولد من تحطيمها طاقة لا يستغني عنها الجسم الحي في افعاله الحيوية !

البحث العاشر

خليل مطران
شاعر العربية الابداعية

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

آثار مطران

﴿ توطئة ﴾ : لم تخرج بعد مجموعة كاملة لآثار الخليل رغم شهرته العريضة في العالم العربي ، ورغم كونه في الكهولة من حياته لجهاده الأدبي طيلة نصف قرن تقريباً ، واشتراكه الفعال في نهضة الأدب العربي الحديث ، لم تنشر صحائفها جميعاً بعد . والقليل الذي نشر منها وطبع ، نفدت نسخه في حينه ، وأصبح اليوم جلّ آثاره نادر الوجود ، حتى ان بعضها لا تصيبه في دور الكتب العامة كدار كتب « بلدية الاسكندرية » فانها لا تحتوي على نسخة من ترجمة الخليل لمسرحية « عطيل » او « السيد » . كذلك لا تحتوي على نسخة من قصة « القضاء والقدر » التي نقلها الخليل عن قصة افرنجية ، ولا كتاب « الموجز في علم الاقتصاد » الذي ترجه عن الفرنسية بالاشتراك مع المرحوم حافظ بك ابراهيم . على ان هذه الكتب بعد ذلك لو أصبتها محفوظة في خزائن « دار الكتب المصرية » وفي بعض الخزائن الخاصة ، فهي في حالة لا تسمح لها بالتداول وبالتالي بالذيوع والانتشار . وهذا ما يمكن قوله بخصوص الجزء الأول من « ديوان الخليل » النادر الوجود الآن ، وبخصوص بعض آثاره الأخرى ، نخص منها بالذكر ترجمته لمسرحية « تاجر البندقية » وكتابه « مرآة الأيام في التاريخ العام » ، والمجموعة التي جمعها من مراثي الشعراء لمحمود سامي البارودي وبشارة تقلا باشا ، وترجمته لقصة « السيد » احدى روائع كورنيل العظيم . والاخيرة وان كانت محفوظة في خزائن وزارة المعارف المصرية — بعد ان طبعتها الوزارة لحسابها الخاص — الا انه لا سبيل الى الحصول عليها ، ولو ببذل الجهد الشديد (١)

---

(١) هامش الصحافي العجوز بالاهرام — عدد ١٩٨١١

ومن شأن هذه الندرة ان تبعد بين ابناء الجيل الذي نشأ بعد الحرب العالمية وبين هذه الآثار ، كما كانت بدورها سبباً من الأسباب التي وقفت بعد الحرب في وجه الاعتراف بما للخليل من الفضل على حركة التجديد في الأدب العربي[١] . ولم يكن ما نشر له في الصحف والمجلات في الحين بعد الحين كافياً لانشاء فكرة واضحة بينة المعالم والخطوط عنهُ

فاذا اخذنا موضع النظر آثار الخليل ، وجدنا ان جلها لم ينشر ، فمن ثماني مسرحيات او عشر ترجمها عن « وليم شكسبير » لم يقدم للطبع غير ثلاث : « عطيل » و « تاجر البندقية » و « هاملت » ولم يقدر للاخيرة الظهور ، كذلك من بين ترجماته لآثار « كورنيل » و « راسين » لم يطبع لهُ غير رواية « السيد » أخرجتها له وزارة المعارف المصرية . ومن منظوماته لم ينشر له مجموعاً في ديوان غير الشعر الذي نظمهُ في الفترة التي جاءت بين مستهل (يناير) سنة ١٨٩٤ وربيع (مارس) سنة ١٩٠٨ . وما جاء بعد ذلك التاريخ الى اليوم ، مما يشكل ديوان شعر في ثلاثة أضعاف حجم المجموعة الشعرية التي خرجت له ، لم ينشر على الناس مجموعاً في ديوان . هذا فضلاً عن أن هنالك قصة او قصتين ، ومسرحية مؤلفة — على ما يروى — لم تقدم للطبع . وان كانت قد صبت كلها في قالبها ، وروجعت المراجعة التي تؤهل تقديمها للطباعة . والى جانب جميع هذه الآثار ، هنالك طائفة غير يسيرة من آثار الرجل النثرية وكتاباته الأدبية منشورة في صفحات المجلات والصحف ، ولا شك ان جميع هذه المواد لو جمعت ونظمت وروجعت ثم أخرجت للناس ، لكان من ذلك ثروة كبيرة للادب العربي الحديث ومغنم للفن الرفيع . وأظن ان هذا سيكون محل نظر محبي أدب الخليل — وهم كثر — من بين أبناء هذا الجيل

— ١ —

كان كتاب « مرآة الايام في التاريخ العام » أول أثر من آثار خليل مطران أُخرج للناس وقد جاء في جزءين كبيرين ، انتهى فيهما المؤلف الى أخبار أسوج (السويد) ونروج (النرويج) حتى سنة ١٨٩٦ . وخرج الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٨٩٧ عن مطبعة البيان في القاهرة في ٤٠٣ صفحات منها ٣٨٢ متناً والباقي فهارس (مسارد : عن بشر فارس) لمادة الكتاب . اما الجزء الثاني فقد خرج سنة ١٩٠٥ عن مطبعة الجوائب المصرية في ٤٢١ صفحة منها ٤١٢ متناً والباقي مسارد لمادة المتن . وخرج مع الجزء الثاني ، الأول في نفس التاريخ في طبعة ثانية . ومما تجدر الاشارة اليه هنا ، أن الطبعة الثانية للجزء الأول خرجت صورة طبق الطبعة الأولى في صفحاتها وموضوعها وتوزيع الموضوع على الصفحات

والكتاب مصدر بقصيدة توجه فيها المؤلف (الناظم) الى خديو مصر عباس الثاني ،

(٢) انظر التوطئة من — المبحث الخامس — من هذه الدراسة

مقدماً الكتاب الى سموه. وهذه القصيدة نجدها ايضاً في الديوان (ديوان الخليل ٢٦٦/٢٦٧)، وهي من بحر الطويل . ولكنها في الديوان تحمل تاريخاً يجعلها من آثار شهر يونيو سنة ١٩٠٦ (الديوان ٢٦٧ س ٢٠) . على اننا بعد ذلك نجد ان كتاب « مرآة الأيام » صدر عام ١٩٠٥ ، والقصيدة منشورة في صدره ، وهذا يرجع بتاريخ نظم القصيدة الى سنة ١٩٠٥، أعني الى قبل التاريخ الذي وضعهُ لها الناظم . وعلى هذا فيكون الوضع الطبيعي لهذه القصيدة بين قصائد الديوان ومنظوماته فيما بين قصيدتي « الطفل الطاهر » (الديوان ٢٤٢/٢٥٠) و « نفحة زهر » (الديوان ٢٥١/٢٥٤) . والقصيدة في ثلاثين بيتاً منها أبيات يمكن ان تجري مجرى الأمثال السائرة لما فيها من عمق الفكرة وسداد النظرة والحكمة البعيدة (الديوان ٢٦٧ : ١١) . وطريقة الناظم في هذه القصيدة ، ظاهرة بوضوح في مخاطبة خديو مصر بلا تحفظ ، وان كان في أدب يليق بمقام امير البلاد

اما الكتاب فن فن التاريخ... ، وموضوعه التاريخ العام. وفي صفحات جزءيه نرى الخليل يلخص في شيء من الاقتضاب الظاهر الآراء الدائمة (المشهورة) في تواريخ الأمم، بدون اتخاذه قاعدة يفحص على أساسها واستناداً اليها الحوادث والواقعات حتى يتميز الجانب الاسطوري من التاريخ عن الجانب الحقيقي

مثال ذلك كلام المؤلف عن العرب الجاهليين، فهو في العموم تلخيص لما هو شائع عن تاريخ الجاهلية عند كتّاب العرب الاخباريين، الذين وصلتنا آثارهم المدوّنة في القرن الثالث والرابع لتاريخ الهجرة . فما قيل عن العرب البائدة ثم العاربة والمستعربة ، نجد الخليل يردده، معتمداً على ما جاء في تاريخ أبي الفداء (مرآة الايام ، ج ١ ص ٧٢/٨٠) ، وهو كله من باب القصص التي حيكت من حول وقائع الجاهلية مع مرّ الزمان ، والتي كشف عن أوجه حوكها الباحثون في تاريخ الجاهلية العربية من المستشرقين . ولا أحب ان أتوسع في الدلالة على صحة هذا الكلام ، فهو معروف لابناء هذا العصر ولاسيما المتصلين منهم بعد الحركة التاريخية في العالم. غير أنهُ قد يقال في معرض الدفاع عن مطران ، أنهُ ألف هذا الكتاب ، في العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، وهو شاب يافع ، ولم تكن تحقيقات الباحثين من الافرنج في تاريخ العرب قد ذاعت في الاوساط الشرقية ، حتى يطالب الخليل بالاطلاع عليها ، فضلاً عن ان الرجل لم يكن مؤرخاً ، وماكان التاريخ بمادته . وهذا الكلام وإن بدا صحيحاً لدى النظرة الأولى ، الا انهُ لدى الحقيقة تبرير للنقص الملحوظ على كتاب الخليل . ثم إن العالم العربي شهد في نفس ذلك التاريخ جورجي زيدان صاحب الهلال ، يظهر تحوطاً في تقبل مزاعم مؤرخي العرب عن الجاهلية لانهُ كان صاحب عقلية تاريخية فاحصة ناقدة استكملت أسبابها من الارتياض

والاطلاع في كتب البحاث الغربيين . وذهن الخليل في هذا الكتاب ذهن آخذ بطريقة السرد والتقرير في فهم التاريخ ، يستند الى المراجع ، دون ان يمحص ويفحص ، ولا يحاول ان يستخلص العبرة التاريخية من وراء واقعات التاريخ . ولا يعرض لتيارات التي تفعل في كيان المجتمع وتدفعه ليلبس مختلف المظاهر التي يتكون التاريخ من مجموعها . فالكتاب من الآثار التدوينية في التاريخ . ومما يظهر منطق التدوين في تأليفه ان المؤلف اتخذ في تقسيم الكتاب الى فصول : الزمان ثم الممالك والاقطار في عهود حكامها او ولاتها الذين توالوا عليها أساساً . فالكتاب بعيد عن كونه كتاباً تاريخياً في الروح ، وان كان له بعد ذلك من التاريخ الاسم

فالكتاب من الحوليات — Annales — واما ميزته ، فميزة الأسلوب الذي هو نموذج للاسلوب التاريخي في العصر الذي كتب فيه . فهو يمتاز بالدقة والتحديد والوضوح في التعبير ، الى جانب بعض الخصائص الأدبية التي يمتاز بها أسلوب مطران عادة في النثر ، وأظهر ما يكون منها في أسلوب هذا الكتاب الجزالة والقوة ولا عجب فالخليل تلميذ الشيخ اليازجي امام اللغة العربية في عصره وعلى طريقة اليازجي في اللغة نشأ وتقوم أسلوبه على أساس من العربية الفصيحة الجزلة

***

جمع مطران مراثي زملائه الشعراء للمرحوم محمود سامي باشا البارودي في كتاب أخرجه للناس سنة ١٩٠٦ . ولا يهمنا من هذه المجموعة الشعرية الرثائية غير شيئين : الاول مرثاة الخليل لسامي البارودي . والآخر الدلالة النفسية لعمل الخليل . أما عن الامر الاول ، فالمرثاة — كما يرى الاستاذ الشاعر خليل شيبوب — خير مرثاة نظمت في وفاة سامي البارودي وقد جاءت في ديوان الخليل (الديوان ٢٣٨ / ٢٤١) وهي من بحر المتقارب وفي القصيدة يظهر مطران متملكاً فن الرثاء فيمكنك ان تخلص من قصيدته بصورة صادقة الدلالة على نفسية سامي البارودي وشخصيته ثم حياة الرجل وجهاده . والاساس في هذا ما بثه الشاعر في المرثاة عن طريق الوصف من حياة الفقيد . والقصيدة في (٦٤) بيتاً فيها اوصاف وتصاوير فنية وتهاويل شعرية تتمشى مع فكرة الرثاء لانسان جمع بين الوزارة والفروسية والشاعرية . ولقد استوقفت هذه القصيدة باوصافها نظر المستشرق العلامة الدكتور كارل بروكلمان في الفصل الذي عقده عن مطران في الجزء الثالث من « تكملة تاريخ الآداب العربية » وهي الى جانب ما فيها من قوة الوصف القائمة على اتساع الخيال ، قوية في بنائها وفي اسلوبها جزالة وتفخيم وقوة ، تكرّ الابيات بسهولة تحمل في اعطافها ، عاطفة خالصة تجيء من شعور الانفعال بالحزن . ولكن واضح ان العقل ضبط من تأجج هذه العاطفة فخلخلها . ففقدت بذلك تأججها ، وهكذا لم تأت نيراناً

مندلعة من القلب ، وانما جاءت نوراً انعكس على حياة الفقيد فأبرزها . واما الامر الثاني فيقع على ما يحمل هذا العمل من شعور وفاء الخليل نحو علم من اعلام الادب الحديث ، خدم الشعر العربي الاتباعي وقدَّم اليه اعظم ما يقدر ان يؤديها انسان نحو أدب قومه فلقد نقل الشعر العربي دفعة واحدة من ضعف عصور الانحطاط الى جزالة وفخامة الشعر العربي القديم

والكلام عن المجموعة التي أخرجها الخليل من مراثي الشعراء لسامي البارودي ، يحملنا على الرجوع الى مجموعة مراثي الشعراء لبشارة تقلا باشا فقد حدثنا الاستاذ النقادة صديق شيبوب فقال : انه وقف في خلال أيام الحرب العالمية على مجموعة مراثي الشعراء لبشارة تقلا باشا . وهو يذكر ان الخليل هو الذي أصدرها . على ان هذا ان صحَّ فلاشك ان قصيدة مطران في رثائه خرجت ضمن المجموعة . والواقع انهُ لا يهمنا من شأن هذه المجموعة غير قصيدة مطران . وهي منشورة في المجلة المصرية (م ٢ ج ٣ ص ١٠١ / ١٠٣) وقد نقحت وشذبت ونشرت بعد ذلك في الديوان (١١٧/١١٩) والتشذيب يتناول على وجه خاص ختام القصيدة . فقد حذف الخليل ، خمسة أبيات جاءت في الاصل المنشور بالمجلة المصرية وأثبت مكانها البيت الذي يختم به قصيدته في الديوان . والمرثاة من بحر الطويل ، وفي ٣٣ بيتاً في الديوان و ٣٧ بيتاً في المجلة المصرية . ولا تتميز بأكثر من عاطفة الوفاء نحو الفقيد (المجلة المصرية . ص ١٠١ / ١٠٣ : ٣٢ — ٣٤) ومما يحسن الاشارة اليه هنا ، ان الابيات التي تدل دلالة صريحة على هذه العاطفة ، حذفت من النص المثبت في الديوان . ولا شك ان بجثها شخصية هي التي أملت على الخليل فكرة الحذف

— ٢ —

في سنة ١٩٠٨ أخرج خليل مطران الجزء الأول من ديوانه « ديوان الخليل » عن مطبعة المعارف بالقاهرة ، فجاءت في ٣٠٢ صفحة من قطع الثمن . والديوان يحتوي على ١٦٤ منظومة متفاوتة المقدار (الطول) ، فضلاً عن بيان موجز من قلم الناظم استغرق صفحتين وبعض صفحة في اول الديوان ، فيها اشار الى طريقته في النظم والاسباب التي دعته الى قرض الشعر . ويمكن ان ينضمَّ الى هذا البيان قصيدة «حكاية نشر هذا الديوان» (ديوان الخليل ٢٩٠ / ٢٩٤) ففيها توضيح وتأكيد لأغراض الشاعر من النظم والأسباب الدافعة له للقريض . والديوان مصدر بكلمات ثلاث يتوجه بها الناظم في كل واحدة الى بعض خلانه من الأكابر يقدم اليهم الديوان . وفي الكلمة الثانية والثالثة يعبر الناظم عن فكرة اهداء الديوان وتقديمه في بيتين من الشعر . وبعد ذلك تجيء مقدمة الديوان وهي ثلاثة اسطر وجيزة ، فيها براعة التقديم للقراء . والديوان اول ما يطالعك من منظوماته قصيدة «١٨٠٦ — ١٨٧٠» اشارة الى معركة (يانا Jena) ودخول نابليون برلين في الشق الاول ، والحرب السبعينية ودخول الالمان باريس في الشق الآخر

وقد نظمها الشاعر — على حد قوله — سنة ١٨٨٨ ، وهو في السادسة عشرة من سني حياته . فهي من آثار الصبا . والناظم في هذا يقول : « ولقد نشرتها على علاتها اتمم نسمات صباي من خلال سطورها » (الديوان ص٩ سطر ٥—٦). وان كانت طبيعة القصيدة الشعرية تدل على حالة الناظم العقلية والنفسية ، فان دراسة هذه القصيدة في اجزائها المنفصلة تبين ان خيال الشاعر مربوط بصور الاشياء وأوصافها . ينتزعها قطعة قطعة ، ويصبها في البيت ، مستكملا الصورة في البيت مستقلة عما بعدها وقبلها ، متأثراً بالقوالب العربية التقليدية ، فهي من هنا تبين ان الناظم كان في سن التقليد والمحاكاة ، لم تستقم له بعد طريقة في النظم تقوم على اساس تكوّن شخصيته المستقلة . على أنهُ بالرغم من كونه لم يخلص بشخصية مستقلة في ذلك الحين ، فأغراض القصيدة ومعانيها تبين انه كان في حالة نضوج مبكر

ويجيء بعد ذلك قصيدة قوامها اثنا عشر بيتاً من البحر الخفيف عنوانها « في تشييع جنازة » (الديوان ١٢) نظمها الشاعر في مستهل (يناير) سنة ١٨٩٤ من الطريقة التي خلص بها في النظم نتيجة نضوج فكره . وهي ان كانت فيها بدايات فن الخليل الذي عرف به ، لكنها في صورة بدائية ، لا تثبت للخليل مقدرة ممتازة في عالم القريض . على ان هذا الضعف قد يكون مبعثهُ ان القصيدة كانت اول ما نظمهُ بعد الترك الطويل كما اشار الى ذلك في تقدمة القصيدة (الديوان ص١٢ س٣—٤) . وتتوالى المقطوعات والقصائد بعدها في الديوان ، وكلما تقدم الباحث في صفحات الديوان ، وقف على آثار التقدم والنضوج في شعر الخليل ، وأول هذا النضوج قصيدته الوصفية الرائعة « المرآة الناظرة او عين الأم » (الديوان ١٣/١٤) ، ففيها براعة الوصف والاقتدار على التصوير

والديوان يحتوي على ٣٥٧٥ بيتاً مفرداً كاملاً من الشعر و ٣٧ سطراً من الشعر المنثور (النثر التوقيعي) Prose rythmée و ٢٦١ قدة خماسية و ٨٣ قدة ثلاثية وبالجملة ٤٤٦٤ بيتاً من الشعر

وبمراجعة القصائد يتبين ان المتوسط للقصيدة في الديوان ٢٧ بيتاً . أما اذا استثنينا ما جاء في « المزدوجات » ، فاننا نجد المتوسط يرتفع الى ٣٢ بيتاً . وهذا يثبت ان الصفة الغالبة على شعر الخليل القدر المتوسط وما يميل منها الى الطول . ومما يثبت صحة هذا الكلام ان جزءين من خمسة أجزاء من شعر الديوان تقريباً يجيء في القصائد المتوسطة الطول . ويليها في المقدار القصائد الطويلة فهي تجيء جزءين من تسعة أجزاء مما يثبت ان الصفة الغالبة على قصائد الديوان القدر المتوسط وما مال منها الى الطول

هذا الاستقراء يثبت ان نفس الخليل في الشعر طويل ، ولا يجب ان ندخل في حسابنا الشعر الافرنجي ومقدار طوله ، فان خلوص الشعر الاوربي من التزام القافية الواحدة في القصيدة أفسح للشاعر الاوربي مدى لا يمكن ان يفسحهُ للشاعر العربي الشعر العربي الذي يلتزم قافية واحدة في

القصيدة. واذن يكون مرد هذا الحكم ملاحظة اعتبارات الشعر العربي، واستقراء مقدار (طول) القصائد العربية. وهذا وحده هو الذي يملي علينا الرأي في طول النفس الشعري عند الخليل

واستقراء الابحر التي جاء فيها شعر الخليل، تثبت ان أكثر الابحر شيوعاً في شعره، الكامل فالطويل فالخفيف فالمتقارب فالمجتث. وهذا الاستقراء مبني على تقطيع أوزان قصائد ثلثي الديوان الاول تقريباً، اعاننا في اجرائه أخي الشيخ ابراهيم بمعهد الاسكندرية الديني (القسم الثانوي) ثم أثبت الاستقراء الكامل لشعر الديوان — وقد اعاننا عليه الاستاذ الشاعر خليل شيبوب — ان شعر الديوان يجيء في العموم من أبحر محدودة المطرد منها في شعره، تلك الابحر المعروفة برحابتها واتساعها (المبحث التاسع — الفقرة الاولى). فاذا نظرنا الى اغراض (موضوعات) شعر الديوان، وجدنا الصفة الغالبة عليه الوصف، والواقع ان الخليل شاعر وصاف من الطبقة الأولى، ومن فنّ الوصف عنهُ يتفرع شعر القصص والرثاء والوجدان، ويجيء ما يجيء من شعر المناسبات. فمن بين ١٣٠ منظومة تقريباً من منظومات الديوان جاءت نحو ٩٠ منظومة من الوصف، وتبلغ مجموع أبياتها ١٣٧٤ بيتاً و١١ منظومة من باب القصص تبلغ مجموع أبياتها ١٢٥٢ بيتاً و ٢٥ منظومة من باب الرثاء تبلغ مجموع أبياتها ٧٢٦ بيتاً و٢٣ منظومة من الاغراض الوجدانية، تبلغ مجموع أبياتها ٤٥٧ بيتاً. اما شعر المناسبات، فهو يجيء من باب الوصف. وعدد منظوماتها في الديوان ١١ منظومة تبلغ عدداً بياتها ٢٤١ بيتاً. وهذا الاستقراء يبين ان الغرض الوصفي والقصصي غلابة على قصائد الديوان[1]

— ٣ —

من الأهمية في مكان وقد تكلمنا في الفقرة الثانية عن بحور شعر الخليل في الديوان وأغراضه، ان نستعرض هنا في صورة مجملة شعر الديوان، وقد سبقت الاشارة الى قصيدتي مطران في رثاء بشارة تقلا باشا وسامي باشا البارودي، وقصيدتيه اللتين يستهل بهما الديوان من الاغراض الجديدة التي نظم منها الشعر بعد عودته اليها بعد الترك الطويل. وهكذا نجد ان القصيدة «بدري وبدر السماء» (الديوان ١٤/١٥) أولى القصائد التي تصادفنا في استعراضنا لشعر الديوان. وهي في ٢٨ بيتاً جاءت من بحر «المجتث»، وليس فيها ما يستوقف النظر من براعة النظم او القدرة على الوصف، وان كان فيها عاطفة ظاهرة تترقرق مع كرّ أبيات القصيدة. ويجيء بعدها حسب الترتيب الموضعي والزمني في الديوان قصيدة «فاجعة في هزل» (الديوان ١٦/١٧). وموضوع القصيدة ان شباباً في قرية من قرى لبنان، اجتمعوا للمنادمة في دار أحدهم، فسمعوا بجوارهم حفلة نسوة وغناء، فأرادوا ان يتحايلوا عليهنّ ويفوزوا بالاجتماع

(١) المقتطف: وضع الدكتور ادهم جدولين تبيين استقراءين سابقين لهذه المجموعة متى ظهرت في كتاب على حدة

بهن. فماوت أحدهم ، وانسحب الباقون ، وهرعت النسوة وقد راعهن المصاب النازل ، وطفقن يكين الحي الميت . فما كان من صحب الراقد الا أن أسروا اليهن بجيلتهم في دعوتهن اليهم ، لحفلن حول سرير الراقد يعاتبنه ويبهرنه ، ولكن بلا جدوى ، فقد ذهب الراقد ينام النومة الأبدية . وهكذا تحول فرحهن الى مناحة وسرورهم الى بكاء . والقصيدة أتت في ٢١ بيتاً من الشعر من بحر الكامل ، ومعانيها تجري في أكسيتها اللفظية بجلال ، وتكر بسهولة كالنهر الواسع العميق . وقد ساعد على ذلك اتساع البحر ورحابته . وهذه القصيدة نشرت في مجلة أنيس الجليس (م ١ ج ١٠ ص ٣٢٧/٣٢٨) في صيغة تختلف بعض الاختلاف عن الصيغة التي جاءت في الديوان . وأبرز ما يكون الاختلاف بين الصيغتين في مختم القصيدة . فالابيات الخمسة التي في الختام بالديوان ، ليست موجودة في الاصل المنشور بمجلة أنيس الجليس ، ويجيء بدلاً عنها ، ثلاثة أبيات أخرى لم يثبتها الناظم في الديوان . كذلك البيت الحادي عشر في قصيدة الديوان لا وجود له في الاصل المنشور بأنيس الجليس ، فضلاً عما هنالك من الاختلاف في التعبير والصيغ لبعض أبيات القصيدة . ويستوقف النظر بعد ذلك من منظومات الديوان قصيدة « نابليون وجندي يموت » (الديوان ٢٢/٢٤) وهي في ٤٠ بيتاً من بحر الوافر . ويغلب عليها جانب الوصف . ويجيء بعدها بيتان من الشعر من بحر الكامل عن « نابليون وهو يرقب السماء في أخريات أيامه » وهي على الارجح مترجمة عن فيكتور هوغو

ولمطران في الديوان تهنئة لخديوي مصر على أثر فتح السودان (الديوان ٣٥/٣٦) جاءت من بحر الكامل . والجانب الوصفي غالب على بقية الجوانب فيها . وله بعد ذلك بعض مقطوعات وقصائد لا يستوقف النظر منها غير قصيدته « النجمتان » (الديوان ٣٣/٣٤) و« الوردتان » (الديوان ٣٥/٣٧) وقد جاءتا من بحر المجتث ، والصفة الغالبة عليها ، الوصف أما الثانية ففيها سوانح فلسفية من المذهب الفلسفي المعروف باسم الاسمية Nominalism (القصيدة ٣٥/٢:٧) وفيها أثر التوفيق والجمع بين الاضداد ، واعتبار الخليقة جماً لها وعملاً على موازنتها

ويستوقف النظر بعد ذلك قصيدة مطران في « وداع مصر » (الديوان ٧٤/٧٥) وقصيدته في « لقاء الشام » (الديوان ٧٥/٧٦) و« تذكار صبي » (الديوان ٧٦/٧٩) والاولى والثانية من بحر الرجز ، بينما الاخيرة من بحر الخفيف . وقد سبقت الإشارة الى هذه القصائد في غير هذا المكان عند الكلام على قصة حبه . ويجيء بعد ذلك قصيدته عن « الأهرام » (الديوان ٨٣) وقد نظمها الشاعر في ربيع عام ١٩٠٠ على أثر زيارة له لاهرام سقارة ، والقصيدة من بحر الرجز ، فيها قوة الوصف والتصور وسعة اللوحة وبروز الألوان . وتأتي بعدها قصة « وفاء » (الديوان ٨٤/٨٨) جاءت من بحر الطويل وبلغت أبياتها ٨٧ بيتاً . وقد نشرت في الأصل

في المجلة المصرية (م ١ ج ١٢ ص ٤٩٩/٥٣) وهنالك بعض الاختلاف بين ما جاء في الديوان، وما جاء في المجلة المصرية وأبرز هذه الاختلافات قول الشاعر (ص ٨٤ س ٥ — ٧) :

ولو شئت قال الحب امرة قادر لمجدب هذا العيش أزهر وأمرع
وللقفر كن صرحاً مشيداً لأنسها وللصخر كن روضاً وأورق وأفرع
وللظلمة الخابي بها النجم اطلعي لها أنجماً إن تغرب الزهر تسطع

فهي في الاصل المنشور بالمجلة المصرية جاءت هكذا :

ولو شئت قال الحب امرة قادر لمجدب هذا العيش يزهر ويمرع
وللقفر كن نساً لها فهو كائن وللصخر كن روضاً فيورق ويفرع
وللظلمة الخابي بها النجم اطلعي شموساً واقماراً عليها فتطلع

والقصيدة — كما يقول مطران — أخذ طريقتها من الغربيين (المجلة المصرية م١ ج١٥ ص٦١٦) ولم يتقدم قبل الخليل شاعر عربي في كتابه القصة الشعرية على هذا النمط (المرجع ذاته ص٦١٥). وموضوع القصة ليس من وضعه ولكن سمعها الناظم من احد اصدقائه ، فأدار فكرتها في ذهنه حتى اخرجها في الكساء الذي ترفل فيه . ومما يمكن ان يؤخذ على هذه القصة ان الناظم نسي الإشارة متعمداً الى كون قرين الفتاة العوادة التي تحكي القصة حكاية حالها ، بادناً دموي المزاج مع قلق في العاطفة وتقسم في القلب . وقد كانت هذه الاشارة لازمة لاعداد الاذهان لتصديق ما حل به على اثر وفاة قرينته. على ان مطران يدفع هذا المأخذ ، بأنهُ اضرب عن ذكر ذلك متعمداً، لأن موقع الالفاظ الدالة على هذه المعاني تقع موقعاً سيئاً من الشعر (نقد القصيدة في المرجع السابق ذكره) . ويظهر ان مطران قد شجعهُ نجاحه في نظم الشعر في الغرض القصصي ، فنظم بعد قصيدة «وفاء» قصيدتين قصصيتين ، الاولى « العقاب » (الديوان ٩٢/٩٧) وهي في الاصل منشورة بمجلة سركيس (م١ ج ١٦ ص ٤٨٩/٤٩٣) وقد جاءت من بحر الطويل في ٩٥ بيتاً ، والاخرى « فنجان قهوة » (الديوان ١٢٣/١٢٨) وهي في الاصل منشورة بالمجلة المصرية (م ٢ ج ٢٠ ص ٨٤١/٨٤٦) وقد جاءت من بحر الكامل في ١٠٤ ابيات . وفي هاتين القصيدتين تظهر قوة الخيال الشعري وامتلاك الخليل لفن القصص الشعري

وفي النطاق الذي بين القصيدتين ، قصيدة « المساء » (الديوان ١١٩/١٢١) وهي من أروع القصائد الوجدانية التي في الديوان . جاءت من بحر الكامل ، في ٤٠ بيتاً نظمها الشاعر وهو عليل في مكس الاسكندرية ، وهو يظن نفسه مريضاً بنفس الداء الذي ماتت به معشوقته (الديوان ١٨٦) ومن هنا نجد ارتباطاً بين هذه القصيدة وبين قصيدة « من ماتت بدائه » (الديوان ١٨٦) . وهذا الارتباط يوحي بأن نعتبر هذه القصيدة من منظومات قسم « حكاية

عاشقين» (الديوان ١٥٦/ ١٩٥) التي سجل فيها مطران قصة حبه ، لأنها تصور حالته الشعورية في حالة الحب مع الحبيبة وبعد فقده لها

ولمطران قصيدة عن حرب البوير عنوانها «حرب غير عادلة وغير متعادلة» (الديوان ١٤٧/ ١٥٣) وقد جاءت من بحر الكامل وهي تصور في دقة وقوة وقائع هذه الحرب وله كذلك في اول نشوب حرب البوير قصيدة «الطفلة البورية» (الديوان ١٣٧/ ١٣٩) . وفي استئنافها قصيدة اخرى عنوانها « في استئناف حرب جائرة » (الديوان ٢٢٢/ ٢٢٣) . والاولى من بحر المجتث والاخيرة من الرمل . وهذه القصائد الثلاث تنطوي على شعور الشرق العربي ومصر ازاء هذه الحرب والعطف الشعري أساسه الاشتراك في النقمة من العدوان الواقع على جنوب افريقية والشرق العربي وفي هذا يقول (الديوان ١٤٧ ص ٥—٦) :

بين الذين يقاتلون ويننا قربى النقم
من يستبحه عدونا فله بنا صلة الرحم

ويستوقف النظر من منظومات الديوان في القسم الذي يجيء قبل « حكاية عاشقين » التي تشغل حيزاً مستقلاً في قلب الديوان . وبعد قصيدة مطران عن حرب البوير قصيدته القصصية «فتاة الجبل الاسود» (الديوان ١٥٤/ ١٥٨) وهي من بحر المتقارب بلغت جملة ابياتها ٧٣ بيتاً وفيها وصف دقيق لمعارك الترك مع اهل الجبل الاسود وبسالة هؤلاء في الدفاع واقدام الآخرين على الهجوم. ومن بين المعارك يبرز فتى مشرق الجبين ويكر على جموع الترك ويعمل فيهم السيف طعناً ، حتى يحيط به جموع الترك ويأخذونه أسيراً الى حيث امير الجيش التركي الذي يصدر الامر باعدامه ، فيشق الفتى عنه ثيابه بعد ان يقصي عنه حراسه ويظهر للجمع أنه فتاة كعاب ، وتصرخ في وجه جحافل الترك منددة بعدوانهم على قومها ، وان شعور نصرة ابناء جلدتها ، هو الذي دفعها الى هذا المسلك الخشن. فيأخذ العجب بالامير ويأمر ان تنقل الى مضرب وتكرم ويقول لمن حوله : ان بلداً تفتديه النساء كهذا الفداء لن يستعبد. وفي القصيدة وصف رائع لموقف الفتى حين أتوا به الى محضر الامير ، وكيف كشف عن نفسه الغطاء فاذا به فتاة حسناء وفي وصف حسنها يبلغ الناظم الأوج. والابيات التي تصف حسنها جرت مجرى الشعر الذائع فتناقلتها المجلات والصحف (الزهور م ٢ ج ٦ ص ٣١٥ مثلاً) . وأبرز ما في هذا الوصف ، وصف الشاعر لنهدي الفتاة

ومن القصائد الوصفية التي في القسم الاول من الديوان ، وهي تدل على مقدرة الخليل على الوصف، قصيدة في « فنجان قهوة » (الديوان ١٢٩/ ١٣٠) وهي في ١٩ بيتاً من بحر الكامل تدل على قوة في الخيال وسعة في ملكة التصور، يكاد لا يقف فيهما بجانب الناظم أحد من الشعراء المعاصرين . والقصيدة منشورة في الاصل بالمجلة المصرية (م ٢ ج ٢٤ ص ٩٩٨/ ٩٩٩)،

ويظهر أن بيتاً سقط من النص المنشور بالديوان وهو :

أفما ترين عوالم الفنجان في أطوارها كعوالم الوجدان

وموضعهُ من القصيدة بعد البيت الرابع فيها

تشغل « حكاية عاشقين » القسم الثاني من الديوان (الديوان ١٥٦ / ١٩٥) ، فتفصل الديوان الى شطرين . ومعظم شعر هذا القسم تغلبهُ الناحية الوجدانية ، وان لم يخل هذا الشعر الوجداني من أبيات أو مقطوعات وصفية . وقد سبقت الاشارة الى شعر هذا القسم حين الكلام في قصة حب مطران

اما القسم الثالث والاخير وهو الذي يجيء بعد حكاية عاشقين ، فأول ما يستوقف النظر منهُ قصيدة « الجنين الشهيد » (الديوان ١٩٩ / ٢١٨) وهي قصيدة قصصية جاءت من بحر الكامل وعدد أبياتها ١١٦ مخمساً . وتعتبر هذه القصيدة أروع ما في الديوان ، بما فيها من التصاوير الشعرية والاوصاف الفنية والأخيلة المجنحة والاحساسات الجياشة . على انهُ يلاحظ على هذه القصيدة ان الناظم استقصى المعاني والمشاعر والاحاسيس وسبرها الى غورها ، ومن هنا جاء ما في الوصف من الدقة التحليلية والمبنى القوي ، والابيات تكر بسهولة ، رغم طول القصيدة ، تجمعها وحدة الموضوع والفكرة المتمشية في أبيات المنظومة . على انهُ يلاحظ بعض العيوب العروضية في المنظومة ، اضطرَّ اليها الخليل لاطراد الفكرة معهُ وتسلسلها ، وأظهر هذه العيوب التضمين في تعليق بعض الابيات بما بعدها (القصيدة ٣٣ و ٦٩ و ٨٩)

وتجيء بعد هذه القصة قصيدة « الاقتران » (الديوان ٢١٩ / ٢٢٣) وهي من بحر الخفيف مخمسة ، وفيها وصف رائع لخلق حوّاء من ضلع آدم . فالقصيدة القصصية « غرام طفلين » ، (الديوان ٢٢٣ — ٢٢٦) وهي في ٣٤ بيتاً من بحر الكامل ، وفي هذه القصة براعة الوصف والتعمق فيه الى أقصاه ، وهذا ما يظهر في المقطوعة الثانية من القصيدة ، التي تريك المظهر الاول لحب الطفلين . وقصيدة « حلوى العيد » (الديوان ٢٢٧ / ٢٢٨) ، هي ٢٢ بيتاً من بحر الكامل وفيها يظهر عنصر الدعابة البريئة والملاطفة ، ثم يبدو من خلال ابياتها عنصر الرقة . وفيها وصف شائق لسرب غيد اجتمعنَ لصنع حلوى العيد . ثم تجيء بعدها قصيدة « الطفل الطاهر والحق الظاهر » (الديوان ٢٤٢ / ٢٥٠) وهي مخمسة من بحر الكامل ، وفي هذه القصيدة انتصار لحقيقة روح الدين التي تغيب عادة عن رجاله ، وحملة على الجامدين من رجال الدين ، وقد سبقت الاشارة الى هذه القصيدة . أما قصائد مطران عن « عنترة » و (الديوان ٢٦٢ / ٢٦٤) و « شيخ أثينة » (٢٦٤ / ٢٦٦) و « عرس قانا » (الديوان ٢٦٩ / ٢٧٠) و « رثاء الشيخ ابراهيم اليازجي » (الديوان ٢٧٤ / ٢٧٦) فتستوقف النظر من بين قصائد القسم الاخير من الديوان بأخيلتها وصورها . ويجيء في هذا القسم من الديوان سطور من الشعر المنثور (الديوان ٢٧٦ / ٢٧٨)

في الرثاء، وقد توقف عندها البروفسور بروكلمان (تكملة تاريخ الآداب العربية، ج٣ ص٩١) وقرر ان الناحية الغالبة عليها، الناحية التأثرية، وان التأثر واضح فيها بوالت ويتمان Walt Whitman الشاعر الاميركي، الذي كان عظيم التأثير في شعراء المهجر في أميركا

ويختتم الديوان بقصيدة « حق الوطن وحق الآخاء » (الديوان ٢٩٨/٣٠٢) وهي في ٩٥ بيتاً من بحر الكامل، وتعتبر آية في الاعجاز، وهي في رثاء مصطفى باشا كامل رجل الشرق المفرد وبطله الاوحد، كما يقول الناظم (الديوان ٢٩٧) . وفي القصيدة بيتان من الشعر يعتبران مثالاً للوضوح الشعري والبلاغة السافرة . وهما قوله : —

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها　　وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأنني بالقبر أصبح منبراً　　وكأنني بك موشك ان تهتفا

فهنا صورة كاملة تلهمك إياها بخفة السحر هذين البيتان رغم ما فيهما من السهولة في التعبير التي تكاد بوضوحها تشف عن معانيها . وقد توقف عندها معجباً المستشرق الروسي كزميرسكي في كتابه (« منتخبات من الادب الحديث » ج ١ : ص ١٦ الهامش — موسكو ١٩٣٧)

خاتمة

ولما كان الشعر الذي نظمه الخليل بعد خروج ديوانه، متفرقاً بين صفحات الصحف والمجلات، وسبق ان أثبتنا في المبحث الثامن ما أمكن لنا العثور عليه أثناء تنقيبنا في صحف الجيل الماضي وهذا الجيل، فنكتفي هنا باثبات ما لم يتسن لنا اثباته هنالك من باب التسجيل التاريخي[1]. ١ — « تحية الطيارين العثمانيين » (المقطم — الاسبوع الثاني من مايو ١٩١٤) ٢ — « عظة السيد » (الروايات الجديدة م ٢ ج ٣٤ ص ٤١٣ — ٤١٦ ، القيت في فندق شبرد بمناسبة عيد الدستور العثماني) ٣ — « غضبة التمثال » (المصور ، العدد ٧ ص ٢ — ٥ ديسمبر ١٩٢٤) ٤ — « أناشيد وطنية » (الهلال نوفمبر ١٩٣٩) ٥ — « الشباب المنقضي والصداقة الباقية » (الروايات الجديدة ، السنة الثانية ، العدد ٣٢ ص ٣٥٢/ ٣٥٥) ٦ — « الحياة الحب » (السياسة الاسبوعية) « السنة السادسة » عدد ٧٤١ ص ١٨

وهذه القصائد بالاضافة الى ما سبق اثباته وما سيجيء في لحق المبحث، تحصر ما تفرق من شعر الخليل على صفحات المجلات والصحف، ودراسة هذا الشعر واستقراء أغراضه وأنواعه وأبحره من الصعوبة في مكان، لانه غير مجموع في ديوان، ولهذا صرفنا النظر عنه مكتفين باستقراء شعر الديوان واستعراض منظوماته

* * *

في سنة ١٩٢٢ أخرج الخليل عن دار الهلال بالقاهرة ترجمة لمسرحية « تاجر البندقية »

---

(١) أنظر الملحق (سيجيء بعد في ختام الدراسة)

وقد قدم للترجمة بمقدمة (٣ / ٨) تكلم فيها عن أصل القصة ، وبين أنها أحدوثة جرت على الالسن بايطاليا ، ثم تداولتها نقلاً عنها سائر الأمم . وعرض لقصة كتابة شيكسبير لها فقال : « طالبها شيكسبير ، فما أجالها في ذهنه حتى طفق يهيء أجزاءها ويرتب مشوقاتها ويصل بين أوائلها وأواخرها . وصور حادثة انسانية شعرية معطياً إياها من الجدة والندرة ما رفعها الى أروع ما أبدعته القرائح » (المقدمة ٣) . والمسرحية على الغالب مترجمة عن الفرنسية ، وفي هذا يقول ميخائيل نعيمه في الغربال : « لقد لاح لنا من غضون بعض سطور (ترجمة الرواية) ان (مطران) نقلها عن ترجمة افرنسية لا عن أصلها الانكليزي » (الغربال ١٩٦ ص ١٧ — ١٨) وقد أكد هذا توفيق حبيب في الفصل الذي عقده عن تراجم شيكسبير في العربية بمجلة الهلال (م ٣٦ ج ٢ ص ٣٠٣ / ٣٠٤) . ويظهر ان نتيجة هذا ، كان تسرب بعض التعابير والالفاظ الفرنسية الخاصة بالترجمة الفرنسية الى الترجمة العربية . من ذلك — كما يقول نعيمة — استعمال كلمة « موسيو » في الترجمة العربية ، واعتبار لفظ « لطيفة » عربيًا وكأنها ناظرة الى Gentile في الانكليزية . (الغربال ١٩٦ / ١٩٧) . على ان مطران بعد ذلك تمكن من استيعاب اغراض ولم شيكسبير في مسرحيته فنجح في نقلها الى العربية وأداها بأمانة تكاد تبلغ حد الكمال . والواقع انه على الرغم من جميع مآخذ صاحب الغربال على ترجمة الخليل فانه لم يكتم نفسه عن الاعتراف بأن الخليل « أوفر كتاب العربية مادة وأتمهم عدة لتعريب شكسبير »

وقد جاءت الترجمة العربية في اسلوب فخم جزل قوي ، ويظهر ان المترجم وضع نصب عينيه « الكساء اللفظي الخليق بأن تكتسي بها ارواح المعاني الشيكسبيرية » ومن هنا جاءما في الترجمة من شوارد الالفاظ وأوابدها ، التي جعلت البعض يأخذ عليه تعقد الترجمة (الغربال ٢٠١ / ٢١٢) اما ترجمة الخليل لمسرحية « عطيل » فقد خرجت عن مطبعة المعارف خلال الحرب [؟] . وبروكلمان لا يشير في « تكملة تاريخ الآداب العربية » في الفصل الذي عقده عن مطران ، الى تاريخ صدور المسرحية (٣٣ص٩٥) . ولكن بعض القرائن تحملنا على ان نقول بأنها صدرت قبل تاجر البندقية ، في فترة الحرب ، او في سنة الحرب نفسها وما يقال عن ترجمة الخليل لعطيل ، هو صورة مما قيل عن ترجمته لتاجر البندقية . أما ترجمة الخليل لرواية « السيد » عن كورنيل وقصة « القضاء والقدر » فلم نظفر بالاطلاع عليهما ، كذلك كتابه « الموجز في علم الاقتصاد » :

والواقع انه لا يهمنا في دراستنا هذه ، من آثار خليل مطران الا الجانب الشعري منها وما استطرادنا الكلام عن آثاره ، الا من باب استكمال الحديث عنه . اما آثاره المخطوطة واوراقه الخاصة المكتوبة ، فالحديث عنها ملك الاجيال القادمة ، وما على الخليل ومحبيه وابناء هذا الجيل ، الا ان يعملوا على حفظ هذه الآثار وتسليمها الى الاجيال المقبلة

قوام المشتري وزحل

رأي جديد

أمام هذه الصفحة صورة منقولة عن مجلة « السفير » The Sphere الانكليزية وهي تمثل السيارين المشتري وزحل بحسب الرأي القديم في قوامها وبحسب الرأي الجديد الذي أسفرت عنهُ مباحث علماء الفلك والطبيعة الفلكية في العهد الاخير. فأصحاب الرأي القديم كانوا يذهبون الى ان هذين السيارين غازيان مضيئان لشدة حرارتهما . وكانت تنتاب سطح كل منهما أعاصير قيل ان سرعتها ٩٠٠ ميل في الساعة (رقم ٢) ولذلك ظن ان حرارة الشمس الواقعة عليهما غير كافية لاحداث هذه الاعاصير فارتدَّ العلماء في تفسيرها الى شدة حرارة باطنهما . وكان الظن ان كثافة مادتهما مثل كثافة الشمس تقريباً او ١٫٤ كثافة الماء (رقم ٥) وقيل ان حلقات زحل أصلها من النيازك او من تيارات من الدقائق المكهربة « المؤينة » كالكهيربات التي تطلقها الشمس في الفضاء (رقم ٣) وان لكل منهما قطبين مسطحين (يظهر التسطيح في كل منهما بالقياس الى الخط المقطع وهو يمثل دائرة تامة (رقم ٤) وهذا يتفق مع قوامهما الغازي وسرعة دورانهما (فدوران المشتري تبلغ سرعتهُ عن خطهِ الاستوائي ٢٢٠٠٠ ميل في الساعة وسرعة دوران زحل عند خطهِ الاستوائي تبلغ ٢٨٧٠٠ ميل في الساعة)

هذه الحقائق المتقدمة هي ملخص الرأي القديم في قوام هذين السيارين والارقام المثبتة في هذه الصورة أنما وضعت للاشارة الى هذه الحقائق المختلفة

أما الرأي الجديد فأساسه ان باطن زحل كرة صخرية قطرها ٢٨ الف ميل (رقم ١٢) . وباطن المشتري كرة صخرية كذلك قطرها ٤٤ الف ميل رقم (١٩) ويحيط بهذه الكرة طبقة كثيفة من الجمد كثافتها ٦ آلاف ميل في زحل (رقم ١٣) و١٦ الف ميل في المشتري (رقم ٢٠) ويليها طبقة الجو وكثافتها ١٦ الف ميل في زحل (رقم ١٤) و٦ آلاف ميل في المشتري (رقم ٢١). ويبلغ معدل كثافة زحل ٠٫٧ الماء ومعدل كثافة المشتري ٠٫٧٨ الماء. والجو في الحالين مثقل الغيوم ومن الطبيعي ان تكون الطبقات السفلى في جوٍّ هذه ثخانته شديدة الكثافة لشدة الضغط الواقع عليها . فاذا اجتمع الضغط الشديد والبرد الشديد سالت بعض الغازات كالايدروجين ويبقى بعضها غازيًّا فينجم عن ذلك ان تجد مقادير من العناصر السائلة طافية على العناصر الغازية وهذا يفسر الاضطراب الدائم

وقد اشرنا في مقتطف فبراير ١٩٣٩ (صفحة ٢١٢—٢١٤) الى هذا الرأي الجديد في قوام المشتري ولكن الكاتب العلمي في مجلة السفير يذهب الى ان ما يقال في قوام المشتري يقال في قوام زحل كذلك وفي قوام أورانوس ونبتون مع ان رصدها الدقيق متعذر لبعدها

من وحي انكلترا

محمد عبد الغني حسن

قرية نائمة..

هنا يصف الشاعر قرية « ريدنج » الانكليزية وقد زارها واستقبل فيها لمحات الفجر وهو يعدو على شاطئ « التاميز » فيبعث الحياة فيها : —

مال السكونُ على البطاح وهيمنا — والكونُ في أحلامهِ... الاّ أنا
إني على الفجر المضوّء قائم — استقبلُ الإصباح لماحَ السنا
والنهرُ وسنانُ الخرير كأنهُ — غرقانُ في الاحلام ، غافٍ في المنى
وكأن تمتمةَ النسيم بشطه — سوَرٌ يرتلها المسبّح مُوهِنا....

* * *

الصبح في الوادي يرفُّ سكونُه — فكأنه اتخذ الخمائلَ مسكنا
نعسانُ ما بين الهضابِ كأنهُ — يَلقَى بها مهداً طريًّا لينا
لا توقظوا تلك الطبيعة حلوة — لا تُزعجوها بالضجيج معنطينا
لا تُقلقوا باسم الصباح هدوءها — لا تجعلوها للتصايح موطنا . ! !

* * *

يا لوحةً فجريةً أبصرتُها — فرأيت فيها الصانع المتفننا
الله جلاّها وأبدع وشيها — وافتنَّ فيها راسماً وملوّنا
أجدُ الهدوء على تسلسل مائها — وأرى الصفاء على رُباها بيّنا
حتى اذا الشمس المضيئة أشرقت — ومشى الشعاعُ على الربى وتلوّنا
وصحت من النوم الحياةُ وهيأتْ — لكفاحها اليومي أجنادَ الدنى
الفيتَ في الوادي الضجيجَ مدوياً — وسمعتَ بالصبح البشيرَ مؤذّنا

* * *

النهر عاد الى الحياة وجرجرت — فيهِ السفائنُ من هناك ومن هنا
ومشت بشطيه الجموع سريعةً — من بعد ما مالت مساء للونى
وسمعتُ زُمرة الحياة بمائه . . ! — ورأيتُ فيهِ العالم المتمدينا
ومشى بأذنيَّ الضجيجُ كأنهُ — صوتُ النذير على هدوئي أعلنا...
وأفاق من رؤياه كلُّ مهوّم — وصحا على احلامه ... الاّ أنا

الاغـذيـة

الكيميائية الحديثة
في اقراص وحبوب صغيرة
تشفي الامراض وتغذي الابدان

لعوض جندي

« ومن الممكن ، وبعض علمائنا يرى ذلك محتملاً ، حيال تضاؤل غلاّت العالم وعجزها عن سدّ عوز الناس من القوت، أن يوفّى هذا النقص من الاطعمة الصناعية التي تركب في المصانع الكيميائية ، وهي ثمرة من ثمار علومنا العصرية . ومعلوم ان الاطعمة الكيميائية تحتوي على الوقود الحيوي الذي تفتقر اليه الآلة البشرية ، أي بنيـة الانسان ، وتأتي بنتائج تماثل من كل الوجوه ، نتائج العناصر الكيميائية التي تدخل الجسم، بما نتناوله الآن من ألوان الغذاء الطبيعي. وفي زمننا هذا يدرس كثيرون من العلماء هذا العلم الجديد، ونعني به الكيمياء الحديثة الخاصة بالغذاء

« بيد أن بعض علماء الفسيولوجيا والكيمياء قد أقدم على التنبؤ بحلول اليوم الذي فيه ، يأتي الغذاء الى الانسان عفواً صفواً ، لم يخلق له وجهاً ولم يمدد اليه يداً . وذلك بأن يقصد المرء من فوره ، الى القوة الحيوية ، التي هي مصدر الحياة ، التي تستمدُّ من الشمس ، فتكمن في الذرات ومتى وصّل الانسان بدنه بآلة كهربائية معينة انقاد له من مراكزها ، وقودٌ حيوي كافٍ لاضطلاعه بعبء عمله اليومي . غير أن رأياً كهذا لم يجل بخاطري وانما هو من بنات افكار المستر ولز ، فانضرب عن تفصيله صفحاً ، في هذا الكتاب الذي أطلقت عليه اسم (ما بعد غد) لانهُ الآن أقرب الى خيـال الشعراء ، منهُ الى حقائق العلماء (١)

وقد قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية الصادرة في يونيو ١٩٣٦ ما يأتي في الموضوع نفسه : أصبح في وسع الكيميائيين، تركيب الاغذية البشرية، في مختبراتهم ، حيث أتيح لهم استخراج حوامض غريبة، تتغلب على الامراض، ثم تحضير المواد الكيميائية المركبة التي تتألف منها المواد الحيوية التي في اللحم والدم البشريين، وهي أحدث مخترعات أقطاب الكيمياء في معاملهم المدهشة

---

(١) صفحة ٤٢ بمقتطف يوليو ١٩٢٨ في مقال العلم والعمران وهو فصل من الفصول التي عهد الي حينئذ رئيس تحرير المقتطف في ترجمتها من كتاب (ما بعد غد) لمؤلفه السر فيليب جبس

(ومثلهم في ذلك مثل الباحثين في العصور القديمة ، الذين كانوا ينشدون « اكسير الحياة ») اذ يقوم علماؤنا العصريون بتخمير أنواع من المرق الذكي الرائحة ، من أطنان السمك ، وحزَم الخضراوات ، ليستخرجوا منها المواد الاولية في الاحياء ويدرسوها ، فتمكنوا بما كشفوه من الحقائق من مزج بعض المواد الغريبة ، بعضها ببعض ، مزجاً لم تستطعهُ من قبل الاَّ الطبيعة وحدها ، فأصبحوا على وشك الوقوف على سر الحياة او لغزها العويص الذي ما زال العلماء يطمحون الى حله من أقدم العصور. ونعني به ، المادة المؤلفة للجسم البشري ، وقد أدرك كنهها الكيميائيون من عهد قريب

ولعلك تعلم المحاولات ، التي يقصدبها الدعابة والتحقير ، في تقدير الجسم البشري ، بحسب عناصره الكيميائية طبقاً لسعر السوق . ومنها أن في جسم الانسان من الحديد ، ما يكفي لصنع مسمار متوسط الحجم . وفيه من الجير ، ما يكفي لتبييض كن دجاج . ومن الكبريت ما يعادل القدر الذي يستعمل لابادة البراغيث من جسم كلب واحد !! ومن قبيل ذلك التقدير ما هو أدعى الى الدهش ، وهو الثمن الذي تساويه محتويات الجسم البشري من الكربون والايدروجين والاوكسجين والنيتروجين . والرد السديد على اولئك الماجنين ، انك اذا اعطيت ذلك الرجل الذي يبغي ان يحط من سمو الجبلة البشرية ، المواد الكيميائية الاربع الاخيرة ، وطلبت اليه ان يصوغها على غرار المواد المركبة التي يتألف منها النسيج البشري ، عجز كل العجز لأن اقرب ما استطاعت المعامل الكيميائية انتاجه من المواد المقلدة لتلك العناصر الغريبة الداخلة في تركيب الجسم البشري يبلغ ثمن الرطل الواحد منها الف ريال !! وهذا عين ما ذكرناه في مقال نشره المقتطف في نوفمبر سنة ١٩٣٨

وأكبر مراكز صناعة تلك المادة النفيسة ، طائفة من المعامل الكيميائية ، مقامة تحت الارض كالصوامع ، وذلك في مدينة لوس انجليس في ولاية كليفورنيا من اعمال اميركا حيث يشاهد الزائر جمعاً من صفوة الباحثين ، برآسة الدكتور ، ماكس ضن Max Dunn الاستاذ في جامعة كليفورنيا يعالجون بلورات نادرة كأنها الدرر الغوالي . وهناك الجهاز المنظم للحرارة يعلن من حين الى آخر ، وذلك متى برد وعاء من الاوعية الملأى بالسوائل ، برودة بطيئة غير محدودة الزمن ، تقل عن $\frac{1}{1000}$ درجة كل ٢٤ ساعة . وترى الاشكال البلورية التي تتولد في ذلك السائل ، تتشكل تدريجاً بحيث يستطاع تمحيصها جيداً في حالة نقاوتها . وتشاهد اولئك العلماء القائمين بالتجارب مرتدين ميدعاتهم البيض في احدى الحجر الخفية الداخلية الخاصة بالسحر الكيميائي ، محاولين وضع تلك البلورة في آلة غريبة من النحاس الاصفر تسمى المقياس الضوئي للزوايا optical goniometer ليستطيع احدهم التطلع اليها من عين المرقب لقياس زوايا واجهات تلك البلورة الشبيهة بالجوهرة

ثم ترى عاملاً آخر في حجيرة مصفحة بالرصاص واضعاً انبوباً زجاجيًّا مملوءاً بالبلورات المسحوقة ، وذلك في أنبوب قوي من انابيب اشعة رنتجن حيث ينطلق فيه تيار كهربائي شديد الضغط يفوق ١٠٠٠ فولط،ومن ذلك الانبوب المفرغ من الهواء ، تتولد صورة ظلية تدل على التكوين الداخلي لتلك المادة الكيميائية الخفية ترسم على شريط فوتوغرافي

ويقوم العلماء أيضاً في مدينة لوس انجليس بتجارب يتوخون بها ، انتاج مواد ثمينة تكاد تصل بهم الى كشف سرّ الحياة . وعلاقة تلك المواد النفيسة بالبروتينات البشرية ، مثلها في الدقيق والخبز ونعني بها حوامض الأمينو [١] وهي اللبنات التي تبنى بها البروتينات . وقصارى القول ان البروتينات نفسها هي المكونة للمادة الاساسية للجلد والشعر والدم والعضلات أي أنها المادة المصنوعة منها الكائنات البشرية

والخلايا المكون منها الجسم البشري ، وهي تعدُّ بالبلايين ، تؤلف من كريات من مادة البروتوبلاسمة (الجبلة) ، الشبيهة بالهلام ، وهذه أغلبها من البروتين

إذن تركيب البروتين من أعوص وأروع الاعمال الكيميائية التي لما يظفر بها امرؤٌ . بيد ان العلماء المتقدمين قد جزأوا البروتين ابتغاء الوقوف على كنهه ، فعبَّدوا الطريق لكل مقدام يستطيع غداً جمع البروتين في أنابيب الاختبار

وقد توسل أولئك العلماء الى مباحثهم الكيميائية بمواد غريبة أشبه بما يستعمله السحرة في مغاراتهم ، منها بما تطبخه المعامل الكيميائية العصرية في أنابيبها وهي بزر قرع الكوسى وامعاء السمك ، وبيض الدجاج ، والحنطة ، وشعر الخيل ، وريش الوز وغيرها . فتمكنوا باغلاء تلك المواد ، ممزوجة بالاحماض الكيميائية ، من تجزئتها أجزاء دقيقة واستخرجوا منها مادة أشبه بالبروتينات فسموها حوامض الأمينو . وهذا الاسم الغريب يدل الكيميائي على الصفة المميزة للمركبات النيتروجينية التي تحويها تلك الحوامض

وغدا اكثر العلماء يتساءلون :— أهذه المواد الحديثة الاكتشاف ، هي الحلقة المفقودة بين مملكتي المواد الحية والمواد غير الحية ، التي هي ضالة الباحثين منذ زمن طويل ؟ فلم يسعهم إلا ان يواصلوا اختباراتهم حتى ثبت لهم ذلك يقيناً ، ودلهم التحليل الذي عمل بأشعة رنتجن على كون الجزيئات البروتينية التي توجد في المواد الحية ، هي في منزلة شبكة معقدة أو سلسلة من تلك الجزيئات مؤلفة من حوامض الأمينو . وبمزج تلك الحوامض المختلفة بعضها مع بعض يتألف منها ملايين من البروتينات ، تربي كثيراً على ما تنتجه النباتات والحيوانات في الكرة الأرضية

وبلغ من ضرورة هذه الحلقة الكيميائية المفقودة للحياة ، المسماة بحوامض الأمينو ، ان

(١) راجع ما نشرناه في هذا الصدد في مقتطف نوفمبر سنة ١٩٣٨

جميع الحيوانات بما فيها الانسان ، تهلك سريعاً متى حرمت من التموين الدائم بها . ومع ذلك لايستطيع انتاجها انتاجاً طبيعيًّا غير النباتات ، وذلك من المواد المجردة،إذ هي تجذب النيترات من التربة ثم تستخلص النيتروجين من تلك المركبات وتمزجهُ بالحامض الكربونيك والماء ، فتتألف منها حوامض الأمينو . ومن تلك الحوامض تتكوَّن شتى البروتينات النباتية . اما الحيوانات فعاجزة عن القيام بمثل ذلك العمل العجيب . ولا بدَّ لها من التغذي إما بالنباتات واما بحيوانات اخرى نباتية الغذاء ، وذلك ليتسنى لها احراز حوامض الأمينو الضرورية لحياتها . ومتى تغذَّى المرء بالبروتينات النباتية او الحيوانية الأصل ، قامت حالاً السوائل الهاضمة في جسمه بتجزئة تلك البروتينات الى عناصرها الاصلية وهي حوامض الأمينو ، وتولَّت مجاري الدم توزيعها على نسج الجسم حيث تؤلف ثانياً البروتينات الحيوانية الخاصة في النسج المختلفة ، فتساعد على تكوين خلايا جديدة لتحل محل الخلايا التي تندثر دائماً من الاستهلاك الناشىء عن الوظائف الحيوية

ولتلك الحوامض العجيبة وظيفة اخرى حيوية وهي توليد الانوار (الهرمونات أي الرسل الكيمائية) التي تجول في الجسم مسرعة لتنظم نموَّه وتكوّن فيه الشحم وغير ذلك. ثم ان ١/١٠٠ من الأوقية من احد حوامض الأمينو الذي يسمى ثيروكسين thyroxin وهو مركز في الغدة الدرقية تميز الانسان السويَّ من البليد أو الميت فلا غرو اذا طمح الكيميائيون الى اكتشاف كنه تلك المواد الكيمائية الجليلة الشأن وقد اكتشفوا منها ، وسمُّوا ، حتى تحرير هذه السطور نحو ٢٢ نوعاً مختلفاً . ومنها كثير يحتوي على الثيروكسين المركب تركيباً كيمائيًّا

وتستخرج أنواع اخرى وتنقَّى، وذلك من البروتينات الطبيعية مثل زلال البيض (آحهُ او بياضه) والهلام والجبنين . ويعدُّ مختبر الدكتور ضن Dr. Dunn مصنعاً مصغراً ينتج منهُ كل ما تحتاج اليه سائر المختبرات العلمية حيث تتجلَّى خواصها المدهشة

ومن العناصر الكيمائية لتلك الحلقة المفقودة ، مادة السيستين cystine التي ثبت تأثيرها العجيب في إنماء الشعر، بحيث ان الغنم التي تعلف بها ، تنتج صوفاً أجزل وأجود مما ينمو عادة على فرائها . ثم المادة المركبة المسماة الحامض الجلوماتيك المرموز لهُ بحرف د d-glumatic acid وهذه اذا مزجت بالاطعمة اكسبتها طعم اللحم . ويباع منها كل سنة ما يساوي ملايين من الريالات وذلك للشعوب الشرقية التي تشتهي اكل اللحوم ، فتحول دونهُ عقائدها الدينية التي تحظره عليها . ومادة الجليسين glycine التي ثبت ان تناول بضعة غرامات منها يوميًّا ، تعاون على شفاء داء الضعف العضلي myasthenia gravis

واعظم مما تقدم ارادة خاصًّا بالبحث في سر تركيب الاطعمة بالوسائل الكيمائية

ان العلماء طالما حلموا بانتاج أغذية صناعية في شكل حبوب او اقراص صغيرة غذائية تستوعب كل ضروريات الحياة . وهي المأثرة التي تجعل الانسان دائماً في غنى عن المصادر الطبيعية التي اعتاد التغذي بها ، وتقيه غوائل الجدب والمجاعات . وكل منا يعلم ان غذاء الانسان ، مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية وهي الشحم والكربوهيدرات والبروتينات

فالشحوم الصناعية تستخرج من زيت النفط وهي من الحقائق الراهنة . ومنها المادة المسماة انترڤين intervin وقد استعملت كجزء من غذاء المصابين بالبول السكري

اما المواد الكربوهيدرات مثل النشا والسكر فصنعها من الشحم من اصعب الامور . ومع ذلك فقد أعلن باحث بريطاني منذ بضع سنوات وهو المستر بايلي Professor E.C.C. Baly الاستاذ في جامعة ليڤربول ، شيئاً ادهش الدوائر العلمية وهو استطاعته تركيب الكربوهيدرات من الحامض الكربونيك (وهو الغاز الذي يتولد من احتراق الكربون) والملح المعدني المعروف باسم نيترات البوتاسيوم والماء . وذلك انهُ عالج تلك المواد المجردة بالاشعة التي فوق البنفسجية ، فأتيح له اولا انتاج مادة سكرية اشبه بالجلوكوز (سكر العنب الطبيعي) ثم اردفها بغيرها من المواد السكرية والنشوية . فاضحى صنع المواد الكربوهيدراتية ، بالوسائل الكيميائية ، من الاعمال الميسورة ، ولم تبق بعد ذلك الا عقبة واحدة كأداء وهي البروتينات

وقد جرب الباحثون الى الآن الاغذية الصناعية في اغذية الحيوانات التي يستخدمونها في مختبراتهم العلمية فتبينوا وجوب اضافة قليل من اللحم الطبيعي ، او عصارته الى تلك الاغذية الصناعية والا استهدفت الحيوانات التي تحت مراقبتهم، تدريجاً للموت جوعاً

فتساءل العلماء قائلين ، (هل حوامض الأمينو الصناعية ، التي تحوطها الحيوانات نفسها الى البروتينات التي تلزمها ، تسدُّ ذلك النقص ؟)

فجرب الباحثون في جامعة ايلينوي ، تغذية الجرذان البيض عدة أشهر ، بتلك المواد الكيميائية المكونة للبروتينات الصناعية ، فكانوا يغذونها بكل مادة منها على حدتها مدة معينة ثم يسجلون عجزها ، الواحدة بعد الاخرى . فاضطروا حينئذ ازاء تلك النتائج المثبطة ، عقب تركيب سبعة عشر حامضاً صناعيًا واضافتها الى غذاء تلك الجرذان ، الى مزج الغذاء اخيراً بالبروتين الطبيعي ، بعد أن حرمت منهُ الجرذان اذ تبينوا ضرورة اضافة بعض عناصر حيوية أخرى الى ذلك الغذاء ليفي بالغرض المقصود ، فزاد الباحثون حامضاً ثامناً عشر هو حامض أمينو من فصيلة الحوامض التي تتولد في الزبد حينما يزنخ butyric acid (والحامض البوتيريك هذا يعمل من الزبدة بالغلي مع البوتاسا الكاوية) فكان هو العنصر المفقود ! اذ نمت الجرذان من بعد التغذي بذلك الغذاء الجديد . فكان اول حادث في التاريخ نجح فيه الكيمائيون في تركيب

امام من النوع المكوّن للبروتين، مع خلوه من العناصر الطبيعية أيًّا كانت

اذن من المقدور الآن للكيميائيين صنع جميع المواد الثلاث التي في الأغذية الطبيعية . فاذا استطاع الكيميائي ان يصنع الفيتامينات ، ولدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد ان صنعها ليس متعذراً ، بات في وسعه ان يركب في معمله طعاماً صناعيًّا كاملاً . فلا يبقى أمام الكيميائيين الذين يبغون تقليد اعمال الطبيعة العجيبة ، الاّ تحويل حوامض الامينو المكونة للبروتينات حتى تصل الى درجة اتقان البروتينات الناضجة التي في نسج الحيوان والانسان . ومثلهم في ذلك مثل الميكانيكي الذي يروم تركيب آلة بخارية ، فلا بد لهُ من دراسة المراجل والاسطوانات والمكابس . فيجب على الكيميائي ايضاً الذي يبغي تركيب البروتين ان يضع الاساس اولاً وذلك باكتشاف كل ما يتيسر لهُ من متعلقات حوامض الأمينو المؤلفة لهُ . وهذا هو السبب الذي من اجله يقوم علماء نوس انجليس باذابتها في سوائل شتى ثم دراسة طرق سلوكها في الاحماض والقلويات — واطلاق الحرارة والضوء واشعة رنتجن وغيرها من ضروب الاشعة عليها ، وكذلك دراسة ألوانها وخواصها الكهربائية ، بالمقاييس الحساسة ثم فحص اشكالها المتبلورة بالميكروسكوب . ومتى أيقنوا من خواص كل منها وسهل عليهم الحصول عليها ، سارعوا الى ضم بعضها الى بعض وجعلها منتجات مشابهة للمنتجات الطبيعية

ولو نجح أحدهم في ذلك القصد ، لبلغ أعظم شهرة في تاريخ العلوم . ولسنا نستطيع الآن التكهن بما سوف تنتجه مختبارات الكيميائيين من تلك الأغذية . انتهى ما قالته مجلة العلم العام الاميركية

واليك ما قالته حديثاً في هذا الموضوع مجلة انكليزية علمية أخرى صدرت في اغسطس ١٩٣٩ :—

يبذل علماء العالم في هذه الآونة قصارى جهودهم في أشق مهمة عرضت لهم من قدم ، ونقصد بها تحضير غذاء بشري مستوفى الشروط ، وذلك من المواد الكيميائية المألوفة . ومما يجدر ذكره في هذا المقام انهم قد ظفروا من قبل بتغذية الحيوان ردحاً من الدهر بالمحلولات الكيميائية ، ولذلك غدوا يتوسمون بلوغهم تلك الامنية القديمة ، في السنة القادمة وهم يحسبونها آخر حلقة في سلسلة تجاربهم العلمية

فاذا تحققت مقاصدهم ، كانت مثاراً للاعجاب ، اذ تفضي الى اتقاء غوائل الجدب والموت جوعاً في ارجاء العالم . حينئذ يختفي شبح سوء التغذية فتعزز المصادر الحالية التي تمون منها ، دون غيرها مصانع ضخمة لصنع الأغذية الكيميائية تنتج صنوفاً شتى من المأكولات الصناعية تعد بالالوف ، لذيذة الطعم ، مستوفاة الشروط الغذائية اكثر مما ألفناه في الاطعمة حتى اليوم

وان كنت ممن يخالجهم الشك في ذلك ، فينبغي أن تصغي الى ما سنقصه عليك فيما يلي ، فتدرك الشأو الذي بلغهُ اولئك العلماء في تحقيق أمانيهم

فطن العلماء من زمن بعيد الى كون الغذاء البشري ، يجب ان يؤلف من ثلاثة عناصر أولية وهي الشحوم والكربوهيدرات والبروتينات . ورأوا ان الصنفين الاول والثاني ، قد تيسر من قبل انتاجهما بالصناعة . إذ أمكن استخراج أولها من النفط ، وثانيهما من مصادر متعددة ، تشمل مزيجاً بسيطاً من المواد المعتادة، ومواد كيمائية تعالج بالأشعة التي فوق البنفسجية فلم يبق لهم مندوحة عن تركيب الصنف الثالث من تلك العناصر الغذائية ، اي البروتينات ، ونعني بها الاجزاء الشبيهة بالمحمية في الأغذية . وهذه توجد في اللحوم والبيض والسمك والحنطة ، ومنها تتكوّن خلايا الجسم البشري التي تبلغ الملايين ، كما تتولد الجلود والأمعاء والعضلات ، ومن دونها تغدو الحياة مستحيلة

ولكن من سوء الحظ ، ان صنع البروتينات من أصعب الامور . ومع ذلك شرع العلماء في تركيبها . فجربوا تجارب تفوق الحصر بأصناف من المرقات المستخرجة من اللحوم والسمك والبيض والحنطة والشعر والريش، وجميعها مواد بروتينية . فاغلوها في بوتقات، ورسبوها بالحوامض فنتجت منها مقادير تذكر من البروتينات وعند ذلك استقرّ رأيهم على كون البروتينات مؤلفة من جسيمات سموها حوامض الأمينو . وقالوا إن الجزيء الضخم من البروتينات مؤلف من عشرات من جزيئات الأمينو ، فتحروا اكتشاف حوامض الأمينو المختلفة الانواع ومزجها بعضها ببعض بنسب مختلفة

ورأوا ان النتيجة التي تنتج من تلك العملية ، تكون بروتينات جامدة صالحة للغذاء ، ذات أنواع شتى . أي ان المعامل الكيميائية ستتمكن من انتاج أغذية كثيرة مختلفة الطعوم والنسج . وبذلك يفوق العلماء الطبيعة في أخص مبتدعاتها . وهذه هي الخطوة الاخيرة التي خطاها العلماء في سبيل تركيب الغذاء . أما البحث المدهش بأجمعه ، فقد حدث من وقت قريب وذلك في جامعة ايلينوي وهي من أهم المراكز التي تبحث في الطعام الصناعي، حيث قام الباحثون بتغذية الجرذان عدة اشهر بحوامض الأمينو المختلفة المزيج ، إذ استعملوا منها في وقت واحد سبعة عشر حمضاً وكان ينقصها في كل مرة شيء حيوي

فكانت الجرذان تنفق ، ما لم يضف الى غذائها طعام عيني . وفي ذات يوم يئس شاب من الباحثين فأضاف الى غذاء الجرذان حامضاً مجهولاً حديث الاكتشاف، فنمت واستمرت على تلك الحال عدة اشهر ، مقتصرة على ذلك الغذاء دون غيره . ومن ثمّ تمّ اكتشاف الطعام الصناعي

***

أجل إن هاتيك العناصر لما تركب على شكل بروتينات جامدة لذيذة الطعم بحيث أستطيع أنا وأنت تناولها على مائدة الفطور اليومي . بيد ان الكيميائيين اقتنعوا حق الاقتناع انهم قد

اكتشفوا أخيراً العناصر المنشودة لأنها أنت لحوم الحيوانات اي بروتيناتها

وسيخطو العلماء الخطوة الثانية متوسلين اليها بالمواد الكيميائية المألوفة فقط وحينئذٍ يوجد حقيقةً الطعام الصناعي المستوفي الشروط كما أتيح من قبل صنع الشحوم والكربوهيدرات والفيتامينات فتصبح المجاعة في خبر كان ، وبتعبير آخر غير فني نقول ان الخبراء الآخرين يتوسلون بوسائل شتى لانقاذنا من عجز الغذاء في إبان الحرب اذ عجز الطعام من الامور الخطيرة جداً ، والاغذية قابلة للتلف ، ثم انها تستغرق فراغاً عظيماً ولذلك بحثوا عن طريقة دائمة تقلل الفراغ اللازم لخزن الاطعمة حتى اهتدوا اليها

قال الكاتب الانكليزي الذي نقلنا عنهُ هذا المقال : وقد عرض عليَّ أحد الخبراء حديثاً ثلاث قوارير صغيرة تحتوي كل منها على أوقيتين من المسحوق قائلاً أترى فيها شيئاً لذيذاً ? فقلت كلاَّ ، فابتسم الخبير قائلاً : « ان ذلك المسحوق الاسمر يحتوي على رطل من شرائح لحوم البقر وغيره ، والثانية تحتوي على ٤٠ حبة . والثالثة على ٤٠ رأس من الاسباناخ ! اذ نحن نستخرج من الاغذية جميع عناصرها غير الضرورية ، ونحتفظ بالعناصر المغذية فقط حتى لا يضيع منها شيء ذو منفعة ». ومن هذه العملية المدهشة التي ستحدث انقلاباً عظيماً في طريقة خزن الاطعمة ونقلها من مكان الى آخر ، قد اكتشفهُ احد الربابنة ، وذلك انهُ فطن الى حقيقة كون أغلب الأحمال التي تنقلها باخرته يؤلف من مياه لا نفع فيها ، وتشغل في المركب فراغاً نفيساً وتبهظهُ وتكلف صاحبها نفقات فاحشة لاجل نقلها . فعقد ذلك الربان نيته على اختراع وسيلة لاستخراج المياه من تلك الأغذية النضرة فنجح . وبذلك نقص حجم وسق مركبه نقصاً كبيراً ولم تفقد الأغذية طعومها

والطعام المجفف ينبغي ألاَّ يكون مسحوقاً في جميع الاحوال اذ تبقى شرائح اللحوم والخس بعد تجفيفها محافظة على شكلها الطبيعي ، ولكن المسحوق يقلل الفراغ اللازم للخزن بلا شك . ومتى وضعت الفاكهة المجففة في الماء استعادت شكلها وطعمها الطبيعيين . فالشليك مثلاً اذا جفف انكمش وقل ثقله فاذا ما اضفت اليه الماء ثانياً عند الحاجة ، تعذر عليك التفريق بينهُ وبين الشليك الحديث المقطوف من شجرته . وستسفر هذه العملية عن جعل مخازننا وبواخرنا المعدة لنقل البضائع تسع عشرة امثال ما تنقله الآن . وهذا ما يكفل أيضاً منع اكتظاظ الاسواق بالفواكه والخضراوات فوق حاجتها ، ويسهل وقايتها وخزنها حتى تمس حاجة الأسواق اليها . وستتجلى في زمن الحرب المنافع العظيمة للاطعمة المجففة للقوات المحاربة اذ يتسنى نقل المؤن بكل راحة من جهة الى اخرى دون ان تمس بها الطرق الحديدية . وحينئذٍ يمكن تموين كل جندي بغذاء مكثف قد يكفيه أسابيع اذا اقتضت الحال . اذن في وسعنا ان نسمي بحق الطعام المجفف اختراعاً من المخترعات التي نشأت عن الضرورة (والحاجة ام الاختراع او الحاجة تفتق الحيلة على قول العرب) وهو احد اركان الرفاهية

ثم استطرد الكاتب الانكليزي حديثه فقال « وقد أكلت في السنة الماضية ، حينما كنت في نيويورك ، هليوناً وشليكاً في غير موسمهما ، فألفيت طعمهما لذيذاً كأنهما غضان فلم يسعني الا ان عاتبت مضيفي على تبذيره ، ظناً مني انهُ احضر لي بالطائرة ، تلك الاشياء اللذيذة الدالة على الترف ، في غير أوانها » فقال « حاشاي ان أطلبها بالطائرة ، بل هي من موسم الصيف الماضي ثم خزنت في مخزن التبريد الى اليوم » فكدت لا أصدق قوله مع كونه حقاً

واخترعت طريقة جديدة تسمى «التبريد السريع» وبها تبرد عاجلاً الخضراوات والفواكه والدجاج وغيرها من عشرات الاغذية ، الى درجة منخفضة ، دون ان تخترق نسجها الدقيقة ، بلورات الجمد الذي يتكون فيها. وذلك بعكس الطريقة الحالية للتبريد . فيتسنى ابقاء مواد الغذاء الى اجل غير مسمى في مخازن التبريد المعتادة في المتاجر والحوانيت ثم يذاب عنها الثلج عند الحاجة . وذقت كثيراً من الاطعمة المثلجة بالطريقة السريعة فلم استطع قط تمييزها من الاطعمة الجديدة وكذلك اكلت طيوراً ولحوماً مثلجة فظننتها حديثة الذبح

وشرع علماء الزراعة والكيمياء حديثاً في بريطانيا وأميركا وغيرهما ، في القيام بتجارب من أغرب ما جرى في هذا القرن وهي زرع الغلال بلا استعمال التربة لا بانها (وقد وصفها صديقنا رئيس تحرير المقتطف في غير جزء من أجزائه)(١)

وفي المعامل الكيميائية والمصانع ينتجون محصولات عجيبة من المواد الكيميائية ، وذلك في صوانٍ معدنية ملأى بالمواد الكيميائية بل هم يدرؤون الامراض وأوبئة الحشرات والآفات بالمواد التي يصنعونها في معاملهم . وقد ذكرت لفظ (التجارب) تجوزاً ، ولكنها في الحقيقة أعمال جاوزت حدود التجارب بمراحل إذ تمكنوا في اميركا وانكلترا ، حيث تكون الطماطم والشليك والخس وزهر نبات السحلب وغيرها من الازهار نادرة الوجود ، من زرعها زرعاً تجارياً بلا تربة . والحقول الصناعية المستعملة لتلك الغاية هي أحواض من الخرسانة قليلة الغور ، ويملأ نصفها بمحلول كيميائي من الأملاح الضرورية التي توجد في الأرض الحقيقية ويبسط فوق المحلول الكيميائي حاجز من السلك ، يحمل طبقة من التبن الرطب ، وفي تلك الطبقة تغرس البذور ، فاذا ما انقضت بضعة ايام ، بلغت جذورها الصغيرة المحلول الكيميائي في اسفلها حيث تلقى غذاءها . ومتى أتيح اعداد التربة الصالحة المستوفاة الشروط أمكن انتاج الغلات الجزيلة المقدار وذلك بتغيير المواد الكيميائية . وقد تسنى للباحثين انتاج ٤٥٠ رطلاً من الطماطم من حوض نموذجي مسطحه ٢٥ قدماً اي بمتوسط ٢٠ رطلاً من كل غرس

---

(١) راجع مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٣٠١ (نبات بلا تراب) وابريل ١٩٣٩ صفحة ٤٠١ (الاساليب العملية في زراعة النبات بلا تراب)

ناحية المجون

في الادب العربي

لسليم خياطه

لكل أمة عظيمة ناحية ماجنة حتى الخلاعة في أدبها . لكن ربما لم تكن هناك أمة بلغت لغتها في أدبها المجوني ما بلغتهُ لغتنا في آدابنا العربية والاسلامية . ويبدو أن شدّة طابع هذه الناحية في هذه الآداب تأثرت بعاملين ، الاول : إساءةُ الاستعمالِ الطارئة في الحياة الاجتماعية للفكرة الواقعية البديئة : « لا عيب في الدين » . والثاني : ما في اوصاف الملذات المحلّلة للصالح في الجنة من إغراء غير الصالح بتحليلها ، وبالمُبالغة فيها بحسب طبعهِ علاوة على ذلك ، ثم بعدم الشعور ، وفقاً لميله بإدراكه من تحقيقها على الارض . فاذا كانت جائزة المؤمن لذّات ناعمة في آخرته ، فلماذا لا تكون له ، وهو دائماً مؤمن — ومن غير زنديق لا يعتبر نفسه مؤمناً — هذه الجائزة في الحاضرة والأمر أضمن ، كما فيهِ كسبُ الجنّتين ، وإحداهما نقد على منطق الخيامي الضحوك ؟ ....

ثم كانت هناك امور كثيرة تنظر إليها اليوم كأشياء أصبحت ، على العموم ، غريبةً وبعيدةً عن حياتنا الاجتماعية ، ولكنها كانت يومئذ طبيعية مقبولة ومرتبة في النظر والتدقيل وقواعد الحياة المدنية ومسهلاتها: من تعدّد زوجات، ورق عائلي رفيق بالقياس الى الرق الروماني، وانعدام الحالة والفكرة [(١)] الاجتماعية المدنية وهذه امور كانت تربة مؤاتية نوعاً ما للافراط النمو في هذه الناحية من آدابنا العربية. واما المدنية الفارسية والرومية (البيزنطية) فليست هي العامل العقلي او الاجتماعي او الحقوقي فيما ظهر من هذا في الحياة العربية وآدابها . بل أنها قدمت المادة اللازمة من مالٍ وسبي ومعرفة احتكاكٍ واختلاطٍ وتشبهٍ بالحضارة السابقة النامية ، فالاستعانة بالتفنن في الترفه والتلذذ ، حياة وادباً ، اكتسابٌ منها

---

(١) بخصوص الفكرة تجد بذوراً كثيرة منها بل وأزهاراً نامية نمواً يستوقف النظر في المدرسة العقلية الاعتزالية ، المبنية على اعتبار المسئولية الفردية استناداً الى النظر القدري في الوجود وهو عكس روح الجبرية الدينية في الاسلام . وتجدها كذلك على الخصوص ، في خصم المعتزلة أيضاً ابن حزم ، اكبر نظاريي الاسلام بعقلية عملية كما يبدو ، ومن ثم في مفكرين وأدباء وفلاسفة كثيرين غير هؤلاء .

خرج الاسلام من بداوة الجاهلية . ولنا في الجاهلية أدلّة مثالية على بذور هذا الميل الى التماجن المتطرّف . ففي امرىء القيس وحده مثلٌ جدُّ موفق . وفي كثير من حياة الجاهلية وعاداتها وتعبير أنها ما يشير الى وجود نظر عاديّ عندهم إلى ما قد نعتبر بعضهُ اليوم مماجناً خليعاً واموراً لا تخرج عن حدود شهوانية غير خفيفة. وهذا نظر: إما هو عاديٌّ منهم ، وإما هو، على الاكثر مصطبغ بشعور الفكاهة — فكاهة « رابليه » — او بعاطفة شعر تتراوح ما بين حامية وبين إغريقية الروعة فيما تجلب بهِ اكثر الملهيات الشعرية من جمالٍ رخاميٍّ ، مرمريٍّ ، مبتردٍ ، بليل . بل كما أننا كثيراً ما ننظر اليوم الى شبانٍ خفافٍ مستهترين كافذاذٍ وأبطالٍ « دون جوانيين » يحسدون على حظوظهم الطيبة ومواهبهم المجونية ، كذلك كانت الجاهلية تنظر الى مشهوري سكّيريها وتبّاع ملذاتها . ففي أخبار ملوكها في الحيرة واليمن وبصرى ما يشبه ، مع حفظ النسبة ، ولكن بدون نظر استكبار لسلوكهم يومذاك ، طرفاً من أخبار يزيد والوليد وسواهما من خلفاء بني أمية وبني العباس وكبار الاشراف والولاة وملوك الطوائف وفي قبائلها أمثال المهلهل والأعشى كوالبة في الاسلام والأخطل ومطيع وأكثر من قال شعراً من بعد في غير الحكمة والمواعظ والمراثي والمدائح والوصف. ففي الجاهلية، طرفة، أليس هو القائل:

إذا القوم قالوا : « من فتى؟ » خِلت أنني … عُنيتُ ، فلم أكسلْ ولم أتبلَّدِ
ولستُ بحلّالِ التلاعِ مخافةً ، … ولكن متى يسترفد القومُ أرفدِ
وإن تبغني في حلقةِ القوم تلقني … وإن تلتمسني في الحوانيت تصطدِ !
متى تأتني أصبحك كأساً رويّةً … وإن كنت عنها ذا غنىً ، فاغنَ وازددِ !
ندامايَ بيضٌ كالنجوم ! وقَيْنَةٌ … تروحُ علينا بين بُردٍ ومجسدِ
إذا نحنُ قلنا : « اسمعينا ! » انبرت لنا … على رسلها ، مطروفةٌ ، لم تشدّدِ
رحيبٌ قِطابُ الجيبِ منها ، رفيقةٌ … بجسّ الندامى ، بَضّةُ المتجرّدِ
وما زال تشرابي الخمورَ ، ولذّتي ، … وبيعي وإنفاقي ، طريفي ومتلدي !
الى أن تحامتني العشيرةُ كلُّها … وأفردت إفرادَ البعير المعبّدِ ! . . .
رأيتُ بني غبراء [1] لا ينكرونني ! … ولا أهل هذاك الطراف الممدد ! ... [2]
ألا أيهذا اللائمي احضرَ الوغى ، … وأن أشهدَ اللذات ، هل أنت مخلدي ؟ !
فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيّتي … فدعني أبادرها بما ملكت يدي !

---

(١) اللصوص (٢) الاغنياء أصحاب خيام الجلد لا الشعر

فلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى ... وجدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدي!
فمنهنَّ سبقي العاذلات بشربةٍ: ... كُمَيْتٍ، متى ما تُعلَ بالماء تزبدِ
وتقصير يوم الدجن[1] والدجن معجب ... ببهكنةٍ تحت الخباء المُعَمَّدِ!
وكرِّي إذا نادى المضاف، محنَّباً، ... كسيد الغضى ذي السَّورة المتورِّد:
كريم[2] يُرَوِّي نفسه في حياته! ... ستعلم إن متنا غداً، أيُّنا الصدي؟!
أرى الموت اعداد النفوس، ولا أرى ... بعيداً غداً ما أقربَ اليوم من غدِ!
أرى العُمْرَ كنزاً ناقصاً كل ليلة[3] ... وما تنقصِ الايام والدهر ينفد!

ولعلَّ هذا المتجه القوي في الأدب العربي منذ الجاهلية راجعٌ، منذ ذلك الوقت ايضاً إلى ما قد يوافق تسميته بـ « مثالية العكس » . فكما وجد أهل الشمال من السكنديناويين ، وهم في منازل صقيعهم ، صورة جنتهم ومرتع آلهتهم وخالدي ابطالهم في ربوع دافئة ، جنوبية النسيم، لا تغيب عنها الشمس ، وكما تبلورت عند عرب الجزيرة الملتهبة في جنان ذات قرٍّ وأنهار ، ثم عبَّرت عنها اللغة العربية والعقلية ، منذ الجاهلية ، في رسم السعادة والراحة غالباً بألفاظ واستعارات وتشابيه وكنايات البرود والرطوبة ، كذلك رأى هؤلاء ايضاً، وهم في شظف عيش أرض جافة فقيرة ، وبقدر قوة الدافع العكسيّ في ذلك[4]، سعادة عكس الحال ، في صور مرفَّهة رَفيه انحلال جسمانيٍّ للعيش ، على ما كانوا يلتذون مناظرها الممثلة واخبارها ومتخيلاتها فيما أحاط بها من مدنية فارسية — بيزنطية ، انحلالية ، كانت صاحبة الصولة ومثالاً أعلى لحياة المدنية والقوة الارضية للانسان في زمنهم ومدار اقليمهم

(١) الغيم ، والمعنى كثيب رائع الدماجة (٢) يقصد نفسه بالتفات بديع (٣) اخترت جميع هذه الابيات لطرفة لانها تمثل حالة عقلية تامة تنقص صورتها بانقاص شيء منها ، ولانها تبين بكل وضوح وروعة ممكنة نظرة متناسقة مكتملة بمعانيها جميعاً على ان الجمال الشعري في جوه الاعلى مهما أكثر منه معاداً ومكرراً لا يكثر مع ذلك ، ولا يزيد الا تفتحاً وتجدداً وجمالاً ينبع من جمال

(٤) يلاحظ نفس الامر في « الف ليلة وليلة » بل وفي الاقاصيص الشعبية عند مختلف الامم عموماً وانما هو في « الف ليلة وليلة » أبرز وأقرب الى موضوعنا . فالسعادة المصورة دائماً بحالة هائلة من الترفه والتنعم ، الذي تكاد الرسوم الباقية عن بلاطات الخلافة لا تحوي مثل اوصافه حتى لدور التجار فيها ، نابعة مثل هذه القصص نفسها من اقفر الاوساط الشعبية ، من « بافون » (Bas Fonds) القرون الوسطى العربية ، وفي أصولها السابقة من اوساط هندية او فارسية سابقة شبيهة المرتبة ولا شك . وعلماً مني بمثل هذه الحالة النفسية العامة قلت في تعليق في قصتي « الازليان » على عبارة « خرقة المتصوف » انها الخرقة المتصوف الغني ، وهي ، يقال لها ، السجادة عند « الدرويش » وذلك من قبيل التمثيل فقط لانه لا يصح هذا الاطلاق دوماً في الواقع اذ كثيراً مالا ينكر الدرويش خرقته ولا ينكر الصوفي الثري سجادته

على انه لا مجال قط لإنكار أن مجون الآداب العربية في الجاهلية وصدر الاسلام أصح طبيعة ومظهراً جداً منه فيما بعد. فالشهوانية المرضية السماء، هي شهوانية الترف المدني المفرط، والاسراف الأبهي القديم، لم تكن قد لقحت آدابنا بعد بمصلها الانحلالي الشديد. بل على أقصى خلاعة الجاهلية طابع أصيل من حلو السذاجة الفطرية هي دائماً عذبة، فكهة، لطيفة الخشونة البدوية، وجميلة في غاية الجمال، في أروع مرتبة كلاسيكية خالدة منه، في قرابة من الجمال الخالد لامة بدوية أخرى كانت تهيأ لوثبتها: جمال الأوذيسة والالياذة. بل في بعض الشعر الجاهلي، في امرىء القيس مثلاً ملمس من «فينيس ميلو». عري كمال، وغلمة متكبرة. جمال قوي، صلب، جزل. جمال ليس المجون فيه تهتكاً متدنياً. ليس مبتذلاً. ليس مقلداً ولا يقلد.

***

آدابنا في الجاهلية وصدر الاسلام لا تقابل من أي وجه مجوني بمنازع الشهوات اللاحقة فيما بعد. المجون وما يلحقه عند العربي الأول نظيف العقلية والشكل معاً، رجولي، شعبي، بدوي، طلق المحيا، ساذج وفلسفي الطبع مع ذلك، عليه علامة حرية البادية، نور ذهبي من شمسها، طراوة عميقة الغور من ليلها، ودعابة لا مبالية لهوب من هواء نجدها، ومن نسيم الأمسية في قراها ومنازل واحاتها الصغيرة تأخذ بترصيعها أضواء القرى، ولا يشبه مجون هذه الآداب وحياتها من وجه بمجون آداب الخلاعة الرومانية او الفرنسية وحياتهما كذلك. بل يشبه المجون اللاحق منذ زمن العباسيين بهما وتشبه به — خصوصاً الرومانية. ثم انه أعلى وأجزل فناً في تعبيره الشعري عن تعبير جميع هذه الآداب الشعري او النثري. وهذه أبيات طرفة التي قدمتها مثل، لا يعوزها لترى ذلك بكل وضوح وإضاءتها الا قليل من الشرح وبعض المقابلات

أما لا يغيب عن بالنا أننا مع ذلك أصحاب السبق في أخلع المماجن الأدبي. وفي مماجن الحياة كذلك أيضاً، والأدب كما أعيد وكرر مرآتها، حتى أنه ربما حوت المدنية العربية الاسلامية في الفعل بعض ما لم يحوه أبلغ مقترفات خلاعة انكليزية أو شيكاغوية او راسبوتينية الشكل، بأقوى حالات هذه في شذوذها وتهتكها او في أصفق منافقات تسترها. أما في الأدب، فلم تبلغ آداب روما القياصرة، ولا آداب الاستهتار الفرنسي، ولا أظن غيرها أيضاً، حداً من حدود أبي نواس او ابن الحجاج، ولا بعضاً من الدسامة الثقيلة في الأغاني وألف ليلة وليلة. كما أن آداب تلك المجونية كانت محصورة في ناحية وكتابات معينة كاد كثير منها أن يكون

كمواضيع خاصة لاعامة لقلّة انتشار معرفة القراءة والكتابة وانحصار الأدب في طبقة محدودة من الناس . أما سمة الشهوة التي تتسم بها العقلية والتصورات ، فتجدها متفشيةً ، مستمرةً عاديةَ الأمر والترتيب ، في مجرىً عام من مظاهر الحياة والآثار الكتابية العربية . واذا أنت فتحت قاموساً عربيًّا من هذه القواميس الرائعة ، الفيروزآبادي مثلاً ، وأخذت تقرأ فيه من أي صفحة ، لم يطل بك الأمر ، على ما أظن ، حتى ترى في اللغة ، كما صارت على أيامه وكما عبرت عن عقلية وحياة بأصولها ومستحدثاتها ، مصداقاً لما أزعم

***

ويحلو لي ان أمثّل على شيء من هذا القبيل بمخطوط طريف رأيتهُ مرةً عند كتبي دمشقي قرب الجامع الأموي، وكان اسمهُ، على ما أذكر، «تحفة العروس». قال لي الكتبي أن مؤلفهُ واحد إما يُعرف « بالتجاني » ، وهو دمشقي ، او «البجّاني» ، وقد يكون مغربيًّا ، وأن السبب في هذه الحيرة كون الاسم في مفتتحه على ما يبدو الساعة لذاكرتي ، لم يكن منقطاً . غير أنهُ يخطر في بالي الآن تحقيقٌ للويس شيخو اليسوعي ، في حواشٍ له على كتاب « طبقات الامم » للقاضي أبي القاسم صاعد الأندلسي ، حول اسم مؤلف عربي اختلف فيه أيضاً بين « تجاني » و « بجّاني » . فلعلهُ كيفما صحت هويتهُ ، يكون الذي قصده وذكر كتبهُ أبو القاسم هو نفس صاحبنا مصنّف « تحفة العروس »

لم أستطع يومئذٍ اقتناء هذا المخطوط ، فاكتفيت بأن قرأت الكثير منهُ عند الكتبي . رأيتهُ على نسق « رجوع الشيخ الى صباه » ولكنهُ أرقى كثيراً . إذ هو كتاب أدبٍ وأخبارٍ على الطراز الجاحظي أو الجوزي . ومواضيعه ، وان كانت كثرتها في تجهيز لذات الجسد ، الا انها سبكت على أسلوب الفن الكتابي العربي ، فهو إذن، كتاب جهرة ومباسطة من النثر والشعر الأدبي المعروف المثال ، وسمتهُ الخاصة أن أشدّ عنايته بالذات . قد لا يقصد إثارة الشهوة بالذات عمداً ومباشرة، ولا هو يسرد ضروب فنون الاستمتاع الجنوني وغرائبه فحسب . بل عند مؤلفه هذه الثمرة الفنية الحسناء في انهُ يستهدف دقة الوصف وحسن الحديث ، مع نزرة الاخبار والروايات الغريبة والنكات الطريفة ومع ذلك ، فمادة نزرته شديدة الوطء من وجهة الاخلاق الجنسية ، كما قد تصحُّ مثلاً ممتازاً على باب المجون في سفر الادب العربي

إنهُ لمخطوطٌ قروسطيٌّ غريب . وهو من احسن الامثلة التي وقفت عليها وأرى تقدمها على صفة المجون في الأدب العربي اللاحق . وليتني حزته يومذاك حتى كنت أضبط الكلام عنهُ اكثر اليوم.

تاسيس سامرا

— ٤ —

بقلم الكبتن كرزول

استاذ العمارة الاسلامية بجامعة فؤاد الاول
وترجمة السيد محمد رجب عضو بعثة الآثار الاسلامية

الاصول المعمارية

﴿ المئذنة ﴾ من الآراء المسلَّم بها الشائعة ان فكرة بناء مئذنة ذات مرقى حلزوني كمئذنة مسجد سامرا وابي دلف مشتقة من الزيجورات البابلية القديمة ، ولكن هاتان المئذنتان ليستا صورة صادقة للزيجورات اذ أن الاخيرة كانت كلها او جُلُّها رباعية التخطيط بمعنى انها كانت مربعة او مستطيلة بنسبة ٣ : ٢ أضف الى ذلك ان الزيجورات لم تكن جميعها من طراز واحد

وقد أثبتت الدراسات الحديثة لهذا الموضوع ان الطراز الذي كان اكثر شيوعاً من غيره في بناء هذه الزيجورات كان شكل برج مدرج ذي طبقات تتناقص سعتها كلما ارتفع البناء وواجهتها عمودية . ويرقى الى قمة الطابق الاسفل منها بسلم خارجي شديد الانحدار . ويمكن الوصول الى الطبقات العليا باجزاء تعتبر امتداداً لهذا السلم

فاذا فرضنا ان هذا السلم كان يرتفع على ٤٥° فمن البديهي ان يرتدّ كل طابق من البناء الى الداخل مسافة تساوي مقدار ارتفاعه . وليس هذا الطراز هو الاصل الذي بنيت على مثاله المأذنة الملوية ولكنها مشتقة من طراز آخر مسقطه الأفقي مربع ذو سلَّم او مطلع قليل الانحدار يدور حول البناء في دورات كاملة حتى القمة

ومن الغريب انهُ لم يبق من هذا الطراز الا مثال واحد هو زيجورات خرساباد الذي اكتشفهُ پليس Place منذ سبعين عاماً وهو مكوَّن من ثلاث طباق سليمة وبقايا طابق رابع

وقد انتقد بعضهم ملاحظات پليس في هذا الصدد وعارضوا في دقتها وصحتها ، ورفضها كولديوي Koldewey كلية ولكن من الصعب ان نعتقد أن هذه الملاحظات لم تكن في جوهرها صحيحة وهو يقول انهُ بدلاً من ان يجد البناء مستديراً كما كان ينتظر وجده مربعاً تام التربيع

طول ضلعه ٤٣٫١٠ المتر وركنه الجنوبي مبدأ سلم قليل الانحدار سعة درجته متران وعرضها ٨٠ سنتمتراً وارتفاعها ٥ سنتمترات ويمتد هذا السلم على طول الضلع ويدور عند الأركان ثم يستمر صاعداً ماراً بجميع اركان البرج على التعاقب حتى وجد المستكشفون أنفسهم ثانية عند نقطة لا يزيد ارتفاعها عن النقطة التي بدءوا منها سوى ٦٫١٠ من المتر

***

كانت واجهات البرج محلاة بمجموعة من البدنات والدخلات وبالحافة الخارجية للسلم آثار درَوْة وجد بعض اجزائها في نقطتين في حالة سليمة تمكنتا من معرفة شكل الشرافات التي كانت تحليها . وكان السلم يدور حول البرج على طراز سلم سامرا اي عكس عقارب الساعة كما وجدت ثلاثة ادوار او طباق قاعة ارتفاع كل منها ٦٫١٠ المتر وبقايا طابق رابع . وينقص طول ضلع كل طابق عن الذي في اسفله بمقدار اربعة امتار لارتداد كل طابق الى الداخل مترين بسبب السلم وقد وجد پليس Place ان الطابق الاسفل كان محلى بزخارف جصية بيض والثاني ملطخ بالسواد والثالث مائل الى الحمرة والرابع مائل الى الزرقة

واستناداً الى الوصف الذي ذكره هيرودوتس Herodotus عن الزيجورات التي بمعبد بعل ببابل اعتقد پليس إن هذا البرج كان مكوناً من سبع طبقات ارتفاع كل منها ٦٫١٠ المتر اي ان الارتفاع الكلي للبرج كان يبلغ ٤٢٫٧٠ المتر وهو يساوي بالضبط طول ضلع القاعدة

ومع انهُ لم تستكشف امثلة اخرى من طراز هذه الزيجورات فليس من المعقول ان نعتقد كما فعل كولديوي Koldewey أن پليس Place قد انساق وراء خياله بعيداً ولاسيما انهُ لم يعثر من قبل على بناء مماثل مما يمكن أن يوحى اليه بهذا الرأي اذ ان پليس نفسه يقول بصريح العبارة انهُ اما كان ينتظر أن يجد بناء مستديراً لا مربعاً

ومهما يكن من شيء فأن الوصف الذي تركه هيرودوتس Herodotus عن زيجورات معبد بعل ببابل يعتبر القول الفصل في موضوع وجود ابراج ذات سلم حلزوني وفيما يلي ترجمة ما رواهُ هيرودوتس Herodotus منقولاً عن ترجمة رولنصن Rawlinson الانكليزية

قال هيرودوتس:— . . . وفي وسط هذه المنطقة برج من البناء المصمت طوله $\frac{1}{8}$ الميل (اي $\frac{١٧٦٠}{٨}$ = ٢٢٠ ياردة) وعرضه كذلك يعلوه برج آخر . وفوق هذا ثالث ورابع وهكذا حتى يبلغ عدد الابراج ثمانية . ويرقى الى القمة من خارج البرج في ممشى يدور حول جميع الابراج وعند ما يصل الصاعد الى منتصف المسافة يجد مجلساً ومقاعد يستريح عليها الصاعدون الى القمة وفي البرج العلوي معبد فسيح بداخله مقعد كبير الحجم محلى بكثير من الزخارف والى جانبه خوان من الذهب» . اه

ويلاحظ هنا ان هيرودوتس يقول ان الطباق كانت ثمانية بينما پليس Place في اعادة انشائه لزيجورات خرساباد جعلها سبعة فقط

ولحسن الحظ عثر ج. سميث G. Smith في رحلته الاخيرة على لوحة تعرف بلوحة ازاجيلا Esagila وقد نقل نصها على عجل قبيل وفاته . وبهذه اللوحة كتابة ترجع الى ٢٢٩ ق. م. وهي وصف حرم معبد وزيجورات بعل ببابل وأبعاد طبقاته . وقد عاد كولدبوي Koldeway هنا وأبدى كثيراً من الشك قائلاً انهُ ليس هناك اي دليل او اساس يمكن الاستناد اليه في اثبات وجود الابراج المدرجة . وان هيرودوتس نفسهُ لم يقل ان كل طبقة كانت اقل حجماً من التي اسفلها (— يراجع ما رواهُ هيرودوتس ونقلناه فيما سبق وهو القول الفصل في هذه النقطة) وان كان هذا هو المعقول بل المحتم الذي دعت اليه ضرورة مادة البناء نفسه وهي اللبن ، لأن استخدام هذه المادة اقتضى ان ترتد كل طبقة الى الداخل اكثر من التي اسفلها لمنع تداعي الطبقات السفلى وانبعاجها ولهذا السبب نفسه كان من المستحيل من الناحية العملية وجود سلم في جوف البناء ولذلك كان السلم حلزونيًّا خارجيًّا»

ولم يكن احد قد اطلع على لوحة المستر سميث Smith او يعرف اين هي حتى استكشف شايل Scheil مقرها عند احد الافراد ونشرها بنصها الكامل . ومن هذا النص يتضح ان طبقات البناء كانت سبعاً تتناقص تدريجيًّا كلما زاد الارتفاع وبالاخيرة منها حرم او مزار الاله

ومع ان هرتسفلد يسلم بأن المأذنة الملوية بسامرا مشتقة من الزيجورات فانه ينكر او كان ينكر اشتقاقها منها مباشرةً معتقداً أنهُ لم تكن هناك زيجورات مطلقاً بالقرن التاسع معروفة معرفة تامة او قائمة في حالة جيدة من الحفظ بحيث يصح ان تتخذ نموذجاً تبنى على مثاله مأذنة سامرا ولذلك اعتقد ان هذه المأذنة مشتقة مباشرة من برج جور (فيروزاباد) الذي وصفهُ فلاندن Flandin وكوست Cost وديولافوى Dieulafoy . وهذا البرج عبارة عن كومة مستطيلة الشكل مبنية بالحجارة غير المنحوتة ارتفاعها ٢٨ متراً بها آثار سلم يدور حول جوانبها الأربعة . وقد أخبرني الدكتور هرتسفلد بعد زيارته لها سنة ١٩٢٤ بزمن وجيز انهُ مقتنع بأن سلم هذا البرج كان يغطيه قبو اسطواني صاعد لوجود آثار عقد هذا القبو ظاهرة في كثير من المواضع . وبناء على ذلك يكون سلم هذا البرج مغطى كنظائره في الابراج الأخرى . ولا يمكن مقابلته بالزيجورات . فاذا كانت ملاحظات ومشاهدات هرتسفلد صحيحة — وأنا أسلم بصحتها — فلا تكون هناك أية صلة قطعاً بين برج جور والمأذنة الملوية بسامرا

على انهُ لايمكن القول إنهُ لم يكن في العراق بالقرن التاسع الميلادي اي مثال او نموذج تبنى على مثاله المئذنة الملوية لان زيجورات بابل المذكورة آنفاً كانت لا تزال قائمة في حالة جيدة في

سنة ٣٥٥ ب. م وقد وصفها هاربوكراتيون Harpocration الاسكندري في كتابهِ Cyranides بل انها كانت لا تزال قائمة في حالة جيدة ايضاً في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي وقد رآها بنيامين التوديلي Benyamin of Tudela ووصف سلمها الذي كان يدور صاعداً حولها

***

اذا ما تقرر ذلك كان من الواضح ان الابتكار الوحيد الذي استحدثهُ المعار في مئذنة سامرا في عهد الخليفة المتوكل هو انهُ نقل فكرة بناء الزيجورات وطبقها بنظام جديد فجعل المئذنة مستديرة بعد ان كانت الزيجورات مربعة

على انهُ ليس من المؤكد ايضاً ان هذا كان ابتكاراً لانهُ من الممكن الاعتقاد الآن بانهُ كانت هناك زيجورات مستديرة ايضاً . وقد تكون بقايا احدها قائمة في البناء « اللبني » الكبير المصمت الذي كشف في Al Hibba . والذي عارض هلبرشت Helprecht من أجله نظرية Koldewey « الذي يميل الى اعتبار هذا البناء المرتفع اساساً لقبر هام . وهذا البناء عبارة عن برج مدرج ذي طابقين يرتكز على الارض مباشرة وهو بحالته المهدمة التي هو عليها الآن لا يزال يبلغ ارتفاعه ٢٤ قدماً وقطر الطابق الاسفل — الذي يرتفع ١٢ قدماً عن السهل — يبلغ ٤١٠ اقدام بينما قطر الطابق الثاني ٣١٥ قدماً فقط . والبناء مبني كلهُ من اللبن . والطابق الثاني مكسو علاوة على ذلك بطبقة من الآجر والقار والسطح العلوي للطابقين مبلط بهذه المادة نفسها منعاً لتسرب ماء المطر الى البناء

واذا ما استثنينا الشكل الدائري الذي لا يمكن مع ذلك ان يعد اعتراضاً جديًّا على نظريتي فان بناء ال Al Hibba بهِ جميع خصائص الزيجورات المميزة لها . وهو في الحقيقة واحد منها»

ومنذ كتب هلبرشت Helprecht ذلك كشفت بقايا مطلع طوله عشرة امتار في الجانب الجنوبي يرتفع بمقدار متر في كل ١٠٠ متر

ويجب ان نذكر في هذا الصدد ايضاً معبد Paneion بالاسكندرية الذي نبه تيرش Thiersch الى ماله من شأن وقد وصفه سترابون Strabo بقولهِ « وهنا ايضاً معبد البانيون Paneion وهو اكمة صناعية على شكل كوز الشربين شبيهة بكومة من الصخر يصعد الى قمتها بمرقى حلزوني»

ويظهر ان طراز المئذنة الملوية كان شائعاً في العصر العباسي الاول ، لأنهُ علاوة على وجود بقايا مئذنة مشابهة لمئذنة سامرا بجوار مسجد ابي دلف فاننا نسمع عن برج مشابه لهُ بناه الخليفة المكتفي ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ = ٩٠٢/٩٠٨م لاغراض دنيوية . وتقول الرواية ان هذا البرج كان يرقى اليه بسلم حلزوني قليل الانحدار حتى كان الخليفة يصعد الى قمة البرج راكباً حماره. وبذلك كان يستطيع دون اي عناء ان يشاهد الارباض والقرى المحيطة ببغداد . ويقال ان هذه القبة

كانت عظيمة الارتفاع مستديرة الشكل وتعرف بقبة الحمار مما يدل على انها كانت تعلوها في قمتها سقيفة مقبية

ويظهر أن هذا الطراز انتشر حتى وصل الى الصين حيث كانت تعرف امثال هذه الابراج بالتاي Tai او الهو Hu .وقد ذكر بالبولوتسوي Paléolezue ان هذه الابراج كانت من خصائص ومميزات المساكن الملكية بالصين من القرن الحادي عشر الى الثالث عشر

وفي باريس مجموعة من الصور الصينيـة ترجع احداها الى القرن الثـامن عشر وبها صورة بنـاء شبيه بهذه الابراج . على اننا نعتقد انها لا يمكن ان تمثل بناء كان موجوداً فعلاً او انها نقلت عن نموذج حقيقي لأن دورات السلم في الجانب الايسر من البرج تقع في نفس مستوى دورات الجانب الآخر من البرج بعد نصف دورة وفي ذلك مغالطة ظاهرة

وبناء على ذلك لا يمكن الاعتماد على هذا الرسم لانهُ كما قلنا لا يمكن ان يمثل اي بناء كان قائماً فعلاً

« بلكوار » يعرف هذا الموضع اليوم باسم المنقور ويبعد ستة كيلو مترات الى الجنوب من مدينة سامرا الحديثة عند الطرف الجنوبي بمنطقة الاطلال القديمة وقد وجد هرتسفلد في هذا المكان عقداً قائماً من البناء في وسط مساحة كبيرة من الأطلال واضحة المعالم منتظمة التخطيط مما حدا بهِ الى كشف هذه المنطقة من ١٢ يوليه الى ١٩ اكتوبر سنة ١٩١١ وسرعان ما وجد امامه قصراً هائلاً عظيم المساحة يطيف بهِ سور ذو أبراج مستطيل التخطيط طول ضلعه ١٢٥٠ متراً يرتكز جانبه الجنوبي على شاطىء دجلة الذي يرتفع هنا بمقدار خمسة عشر متراً

وفيما يلي ترجمة ما كتبهُ هرتسفلد عن نتيجة اعماله واستكشافاته في هذا القصر وهو على ما نعلم التقرير الوحيد الذي نشر عن ذلك الى الآن :—

« ليس لهذا المربع سوى ثلاثة ابواب تقع في منتصف الحوائط الثلاثة غير المطلة على النهر أي الشمالية والشرقية والغربية (الحائط الجنوبي مطل على النهر) ويخترقه شارعان رئيسيان متقاطعان على طريقة المعسكرات أو الثكنات الرومانية والمساحات التي بين الشارعين في النصف الشمالي مزدحمة بالبناء . وقد لوحظ في تخطيط الابنية وقوعها داخل المربع مع مراعاة مجرى الماء القديم

والقسم الجنوبي الغربي من الشارع الاعظم الى جانب النهر يشغله مستطيل ثانٍ مساحته ٤٦٠ × ٥٧٥ متراً بهِ حصن يطيف بهِ سور ذو ابراج وهو يمتد من شاطىء النهر الى نقطة تقاطع الشارعين

اما القصر فله مدخل واحد في وسط جانبه الشمالي الشرقي وهو يقع في منتصف المساحة

بالضبط عند تقاطع الشارعين. وينقسم القصر ثلاثة اقسام متوازية كما في قصر العاشق بسامرا ايضاً

وبالقسم الاوسط منهُ نجد على الترتيب :— المدخل ورحبة الشرف وقاعات العرش. والرحبات في بلكوار ثلاث. أما القاعات وعددها تسع فهي مرتبة على شكل صليب. وقد روعي التناسق والتشابه التام على جانبي محور القصر . وغرف العرش مفتوحة على الرحبة الثالثة كقاعات كبيرة كما أنها مفتوحة ايضاً على النهر

وهناك حديقة خارج خط حائط الحصن يحيط بها سور ذو دعامات أو فصوص وينتهي عند الشاطىء نفسه بسقيفات غنية بالزخارف . والى جانب الحديقة مرفأ للسفن وفي وسطها حوض للماء

***

والواجهات المطلة على الرحبة والحديقة ذات ثلاثة عقود كما في بيت الخليفة وقصر المشتى وقد اشتقت هذه الواجهات ذات الثلاثة العقود والتي عقدها الاوسط يزيد في اتساعه وارتفاعه عن العقدين الجانبيين من ابواب الشوارع الهلينية (الاغريقية) القديمة وأقواس النصر الرومانية . ويظهر ان القاعات ذات المداخل والواجهات المماثلة كانت معدة للاستقبالات العامة كما يتضح ذلك من دراسة نظائرها في القصور الشرقية القديمة والحديثة. ومن امثلة ذلك قاعة قصر طاق او ايوان (كسرى) بمدينة طيشفون

وقد كانت هذه القاعات معدة لهذا الغرض في قصور الامراء أيضاً ودليل ذلك ماورد بكتاب الاغاني الذي هو من ذخائر الادب العربي ومن اغنى المراجع في تاريخ الثقافة العربية على لسان اعرابي يصف قصر احد امراء سامرا وهو يقول ان هذا الامير اذن له بدخول غرفته فوجدها شبيهة بقاعة كسرى

والقاعتان الخارجيتان الواقعتان على المحور الرئيسي للقصر على شكل حرف T الذي اعتدنا رؤيته في سامرا . اما القاعات الخمس المرتبة على شكل صليب فان الوسطى منها مربعة وكانت لاجتماعات الخليفة الخاصة . وهناك اربع مجموعات متشابهة من الغرف بين أذرع الصليب تتكون كل منها من ثمانية غرف تدور حول رحبة صغيرة مربعة. وبينما نجد القاعات الكبرى مسقوفة بالخشب على شكل قبو على الارجح ، نجد الغرف الصغرى مسقوفة بقبوات معقودة من اللبن ذات حشوات غاطسة قريبة الشبه بالسقوف الهلينية (الاغريقية القديمة) ذات الحشوات الغاطسة

وأمام القاعات ذات الشكل حرف T الواقعة على المحور الرئيسي ، رحبات وغرف كثيرة أخرى لضرورات المعيشة المنزلية بينها حمام فاخر كان مكسواً بالرخام

اما الزخارف فهي على نسق واحد متكرر ويظهر جمالها في اتساقها وتكررها وكبر المساحة

التي تغطيها لا في دقة صناعتها . بينما نجد في البيوت الخاصة التي استكشفت بسامرا على كل حائط منها زخارف كثيرة منوعة دقيقة وغنية . والطراز السائد هنا هو طراز سامرا الاول [١] ويعلو وزرات القاعات الرئيسية صفف حائطية منتظمة في ثلاثة صفوف : اسفلها مربع وتعلوه صفة مدبية العقد فوقها دائرة . اما الغرف الصغرى فنجد بها الصفف المربعة في الاسفل تعلوها أخرى بيضية او أهليلجية مدبية او ذات اربع حنايا . على ان الصفوف الثلاثة لا توجد كاملة في أية حجرة من الحجرات

وعلاوة على زخارف الجص نجد في بعض الحجرات زخارف مصورة منقوشة ومذهبة كما يشاهد ذلك في السقيفات المطلة على النهر . اما الواجهة ذات الثلاثة العقود فكانت محلاة بالفسيفساء الزجاجية على أرضية مذهبة في اشكال زخرفية تغلب فيها الفروع النباتية . اما الالوان فتنحصر في اللون الاخضر الذي يتدرج من الاخضر الذهبي الى الاخضر الغامق وبراعم الازهار والفاكهة من اللؤلؤ والارضية من الذهب. وكانت هذه الالوان موزعة جميعاً بنسب متساوية تقريباً. وكانت ابواب الغرف مصنوعة من الاخشاب الفاخرة وكانت غنية بالزخارف المنقوشة والمذهبة ومحلاة بمسامير النحاس المذهبة أيضاً . وكانت النوافذ تملأ بقطع زجاجية مختلفة الالوان منها الازرق اللازوردي والاصفر الباهت والبني والاخضر الغامق والاحمر البنفسجي . على ان هذه البقايا جميعها لا تكفي لتكوين فكرة واضحة تماماً عن زخرفة الحجرات

ويتكوّن القسمان الآخران من المستطيل العظيم من مجموعة من المنازل المفردة . ونظراً الى كبر مساحة القصر كانت المسافة الواقعة بين حائط النهر وخط الجانب الداخلي من رحبة الشرف الثالثة كافية لتشييد المنازل بها . اما الفضاء المجاور للرحبتين الاولين فبقي خالياً من البناء تقريباً . وبهذه الطريقة نجد المحور الرئيسي يقسم القصر الى قسمين كما في قصر العاشق . وهذه المنازل المفردة تعد نماذج وأمثلة حقيقية لطراز المنازل الخاصة بسامرا. فهي تتكوّن من ست عشرة غرفة مجتمعة حول رحبة. وهذه الرحبات مستطيلة الشكل نسبة اضلاعها ٢ : ٣ وفي احد أطرافها قاعة على شكل حرف "T" . وكان يقطن هذه المنازل خدم وحشم الامير او زوجاته وحرمه

اما في القسم الشمالي فيختلف التخطيط قليلاً اذ نجد شارع السوق ورحبات كبرى يظن أنها كانت ثكنات للمشاة والحرس . وقد لحصنا من قبل في تأسيس سامرا أن المعتصم خط القطائع للقواد والكتاب والناس . وانهُ أفرد قطائع الاتراك والعجم وغيرهم عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم . ومنعهم من الاختلاط بهم . ليس معهم في قطائعهم ودروبهم احد من

(١) هذا الطراز يسمى الآن الطراز الثالث ويرمز اليه بالحرف C

الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره . ولا يطلق لغريب مجاورتهم . ولا يطلق معاشرة المولدين . الخ . وانهُ أمر قواده وأصحابه ورؤساء جنده ان يبنوا لهم في خلال قطائعهم المساجد والاسواق والحمامات . ولا شك ان هذا كان الحال ايضاً في بلكوار

وقد روى المقريزي في وصف قطائع ابن طولون انهُ كان له القصر والميدان لعب الصوالجة ولا بد ان قصر بلكوار كان فيه كل ذلك أيضاً

ولاحظنا في دراستنا لقصري المشتى والأخيضر ان المسجد كان يقع الى اليمين في القسم الاول من رحبة الشرف . ولذلك كنا نعتقد ان هذا هو الحال ايضاً في بلكوار . فمسجد قصر المشتى يقع الى يمين المدخل الكائن بالحائط الجنوبي وهذا الحائط في سمت القبلة . وفي وسطه (اي المسجد) المحراب الذي يدل دلالة واضحة على انهُ مسجد القصر

اما في قصر الاخيضر ، فأن مدخله من الشمال . ومسجده في مثل هذا الموضع أيضاً الى يمين الداخل وهو ذو بوائك واروقة منتظمة وله محراب في رواقه الجنوبي

فالقصران الاولان في سمت القبلة . اما بلكوار فتنحرف عنها بمقدار ٤٥° درجة

ولذلك فاذا أنشيء به مسجد فلا يحتاج الى كبير عناء لمعرفة موقعه لان حائط القبلة به لا بد ان يكون منحرفاً عن بقية الجدران بمقدار ٤٥° درجة

***

وقد ساعدنا هذا الاستنتاج على العثور على موضع المسجد في الرحبة الثانية حيث وجدنا في حائط هذه الرحبة باباً ذا ثلاث فتحات والى يمينه مسجد مساحته ١٥ × ٣٥ متراً به صفان من الاعمدة في كل منهما ثمانية عمد . وقد كانت هذه الاعمدة من خشب الساج أو الرخام ولم يبقَ الاَّ آثار مواضعها وأسسها وقواعدها التي كانت تبلغ ٥٠ سنتمتراً (أو ذراعاً واحداً)

ولم يبقَ شيء كذلك من أسوار هذا المسجد أو أسسها لانها كانت من الآجر وقد أُخذت جميعها وحملت لبنائها الى اماكن اخرى ولذلك لم يمكن معرفة موضع المحراب بهذا المسجد . الاَّ اني وجدت بالقسم الجنوبي المقابل مسجداً صغيراً آخر تبلغ ابعاد قاعدته ٧٫٧٦ × ١٠٫٣٥ المتر (اي ١٥ × ٢٠ ذراعاً) وهو مبني باللبن ولذلك لم تمتد اليه يد بالعبث أو الهدم

ولهذا المسجد ثلاثة ابواب في جداره الشمالي ويتكون محرابه من صفة عميقة مستديرة يحف بها انصاف اعمدة (اعمدة حائطية) يحيط بها رفرف بارز ذو تقوير محدب مكوناً أطاراً مستطيلاً ولذلك يمكن اعادة انشاء المسجد الكبير على هذه الصفة ايضاً

ويعد قصر بلكوار من أعظم المنشآت المعارية لكبر مساحته وحجمه ووفرة الظواهر الفنية المعارية فيه

ومما يزيد في روعته رحباته الواسعة بنسبها وتخطيطها وعظمتها . وابوابه بتنوع اطرزتها واشكالها . وواجهاته بعقودها ورفوفها وفسيفسائها وهي جميعاً أدلة ناطقة على منزلة هذا البناء في تاريخ العمارة الاسلامية . كما ان المادة المبني منها افضل بكثير من المواد المستعملة في بناء الابنية الاخرى فان الاسوار المحيطة بالحصن مبنية من الطين ذي اللون الاسود والرحبة الاولى والاقسام الجانبية مبنية من اللبن بينما الرحبة الثالثة مبنية من الآجر وكذلك قاعات العرش هذا الى حسن اختيار موقعه ودقة تخطيطه . فان الواقف في الحجرة الوسطى (المركزية) مثلا يرى الى الشمال الغربي صفاً هائلاً من القاعات ورحبات الشرف الثلاث بأبوابها العظيمة وشوارع المربع الخارجي والى الجنوب الغربي القاعات والحديقة والنهر وسهل الجزيرة الذي لا يصل الى مداه الطرف

وفي المحور الرئيسي يرى الانسان في الشمال الغربي القاعات والمنازل والاقسام الجانبية ووادي النهر يشرف عليها جميعاً على بعد فرسخين ونصف الفرسخ قصر العاشق وقبة الصليبية والى الجنوب الشرقي رأس قناة القاطول وقبة القائم . ولا شك ان تخطيط القصر على هذه الطريقة مع ما فيه من التناسق وحسن التقسيم على النظام المحوري قد أكسبه كثيراً من العظمة والجلال والروعة والبهاء

كما ان المعمار قد استفاد كثيراً من طبيعة الأرض وأحسن استغلالها من حيث ارتفاعها وانخفاضها . فالقسم الأوسط مثلا اكثر ارتفاعاً من القسمين الجانبيين كما ان الرحبات تختلف من حيث ارتفاع ارضها وانخفاضها . وترتفع قاعات العرش التي يجلس فيها الخليفة عن جميع أجزاء القصر الأخرى وتكاد تكون أرضها في مستوى السطوح المنبسطة بالاقسام الجانبية

***

تحقيق موقع القصر وتاريخه

يقول اليعقوبي : « توفي الواثق في ٢٣٢ هـ (٨٤٧م) وولي جعفر المتوكل بن المعتصم فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم. وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق وأنزل ابنه ابراهيم المؤيد بالمطيرة وأنزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوار (فاتصل) البناء من بلكوار الى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار اربعة فراسخ »

ويقول في موضع آخر : « ان المتوكل بنى مدينة جديدة سماها الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية الى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسر من رأى مادّاً الى الموضع الذي كان ينزله ابنه ابو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ... ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ »

وقد استنتج هرتسفلد من هاتين العبارتين ان هذه الاطلال التي وصفنا تخطيطها وبناءها هي اطلال بلكوار لان هذه المسافات التي ذكرها اليعقوبي وهي الأربعة والسبعة الفراسخ توافق موقعه موافقة تامة وهي تكوّن الطرف الجنوبي لمنطقة الأطلال العظيمة الاَّ بعض الحارات الطويلة والمنازل الممتدة على شاطىء دجلة مسافة خمس دقائق مشياً على الاقدام ويكون سورها الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي حدود ضواحي سامرا

ولذلك فلا بد ان يكون بلكوار قد بني في عهد الخليفة المتوكل على الله بين سنتي ٢٣٢ و٢٤٧ هـ (٨٤٧ — ٨٦١ م) . على انا يمكننا ان نحصر التاريخ في عدد اقل من السنين فقد عثر هرتسفلد على كتابة أثرية بالخط الكوفي البسيط على كتلة من الخشب في احدى القاعات نصها « الامير المعتز بالله بن أمير المؤمنين » وهذا هو لقب ابي عبد الله طلحة ابن الخليفة المتوكل

وقد روى ابن خلدون وابن الاثير ان الخليفة المتوكل أعلن ولاية العهد لأبنائه الثلاثة من بعده وهم : محمد المنتصر وابرهيم المؤيد وابي عبد الله طلحة وذلك في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) وان الاخير منهم لقب بالمعتز بالله وأعطى ولايات خراسان وطبرستان والري وارمينيا وفارس وآذربيجان

وفي رواية هذين المؤرخين خطأ لحظهُ هرتسفلد فيما يتعلق بلقب المعتز بالله لان المعتز كان يتولى الاشراف على دار سك النقود للامبراطورية الاسلامية كلها وظهر اسمهُ على النقود المسكوكة في سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩م) ابو عبدالله . اما لقبه المعتز بالله فلم يظهر على نقود الاَّ منذ سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) مما يدل على انهُ لم يلقب بذلك الاَّ منذ سنة ٢٤٠ هـ

وعلى ذلك لا يمكن ان تكون الكتابة التاريخية الكوفية على كتلة الخشب التي أشرنا اليها آنفاً وفيها اسم المعتز بالله اقدم من سنة ٢٤٠ هـ . وبعبارة اخرى إن قصر بلكوار لا يمكن ان يكون انشىء قبل هذا التاريخ

كما انهُ لم ينشأ بعد ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) لان المتوكل كان معنيًّا في ذلك الوقت بانشاء مدينتهِ الجديدة « الجعفرية » التي كان قد عزم على ان يبتنيها وينتقل اليها وتنسب اليهِ ويكون له بها الذكر وقد ابتدأ النظر في ذلك في سنة خمس واربعين ومائتين وانتقل المتوكل الى قصور هذه المدينة اول يوم من محرم سنة سبع واربعين ومائتين

***

وبناء على ذلك يكون قصر بلكوار قد بني بين سنتي ٢٤٠ — ٢٤٥هـ=(٨٥٤—٨٥٩م)

بريطانيا وفرنسا

وحدة لا تنفصم عراها

لاتحاد الاوضاع الجغرافية والمبادىء السياسية والاجتماعية

تتجه السياسة الالمانية في غير اسلوب من اساليبها الى التفريق بين بريطانيا وفرنسا. فأبواق الدعاية في الميدان الغربي تنادي الجنود الفرنسيين بأن الجيش الالماني لا يبغي محاربتهم، وانهُ يريد ان يأخذ بتلابيب القوّات البريطانية ليريها كيف تكون الحرب. ومكتب وزارة الدعاية في برلين يذيع ان فرنسا رضيت باقتراح الصلح الذي عرضهُ موسوليني قبيل نشوب الحرب ولكن بريطانيا أبت وقسرت فرنسا على مماشاتها. ومن هذا القبيل شيء كثير. ولو ان الحكومة الالمانية ادركت توثق ما بين بريطانيا وفرنسا من صلة، لاستغنت عن بذل الجهد في ناحية لا تجديها نفعاً. فقد طاشت حتى الآن سهام الدعاية الالمانية الموجَّهة الى هذا الهدف ولا ينتظر ان تصيب. ونحن نقول هذا عالمين ان السياسة البريطانية لم تكن على وفاق دائماً مع السياسة الفرنسية بعد الحرب الماضية، وان الدولتين كانتا خصمين لدودين في الماضي قبل مستهلّ هذا القرن، ولكن انعام النظر في العوامل الاصيلة في سياستهما الخارجية وهي عوامل الجغرافية من ناحية وعوامل نفسية الشعبين واصول نظمهما الاجتماعية والسياسية من ناحية اخرى، يسفر عن ان الصلة بينهما محكمة العرى، وان الاعتقاد يسود دوائرهما بان لا قيام للواحدة دون الاخرى

— ١ —

والباعث الاول على هذا الاعتقاد اننا لا نجد سبباً واحداً يبعث على تخاصم بريطانيا وفرنسا الآن. وهذه حالة جديدة في علاقاتهما. ففي العصور الماضية كثيراً ما وقفت بريطانيا وفرنسا في صفين متقابلين. ففي العهد الواقع بين الفتح النورماندي و « حرب المائة السنة » كان ملوك الانكليز قد أحرزوا عن طريق الزواج ملك بعض الولايات في فرنسا وطمحوا من طريقها الى الفوز بالتاج الفرنسي. فأفضى ذلك الى شقاق وحرب بينهما استفحلا بما دخل النزاع من البواعث الدينية كدفاع ملوك فرنسا عن الكاثوليك الانكليز ضدَّ « الانجليكان » و « البيورتان » ثم تفاقم الخلاف بين الدولتين حول المطامع الاستعمارية في الهند وكندا

وفي عهد نبوليون نهجت بريطانيا النهج الذي خطهُ لها الكردينال ولسي في عهد هنري الثامن وقاعدته توازن القوى الاوربية والحيلولة دون سيطرة دولة واحدة على اوربا فحاربت نبوليون وفازت مع حلفائها بخذله وظلّت هي مالكة سيادة البحار. وكان الظن بعد ذلك ان بريطانيا تتقرب من فرنسا ولكنها لم تفعل فظلت علاقاتهما في خلال القرن التاسع عشر مشوبة، بالريبة

المبادلة. وكانت اسباب هذه الريبة ذكرى فرنسا الظافرة في عهدي لويس الرابع عشر ونبوليون وامتناع التعاطف بين الامتين لبعد ما بين آدابهما وكون الملكة فكتوريا تزوجت اميراً المانيًا

ثم نشبت الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ فنيت بها فرنسا بالخذلان ، وكانت خطة توازن القوى تقتضي من بريطانيا حينئذٍ ان تنضم الى فرنسا المغلوبة ، ولكن بسمارك تمكن بدهائه من اثارة الخلافات البريطانية الفرنسية على شؤون المستعمرات ولا سيما ما كان خاصًا بشمال القارة الافريقية وما تزال حادثة فاشودة في سنة ١٨٩٨ مثلاً بليغاً على ذلك

ولكن حكمة الملك ادورد السابع والوزير الفرنسي دلكاسيه ولورد لانزدون استطاعت ان تستخرج من جيفة النزاع الاستعماري عسل الاتفاق الودي فعقد اتفاق سنة ١٩٠٤ بينهما فكان ذلك حدًّا فاصلاً في موقف احداهما من الاخرى حيال المسائل الاستعمارية في مصر ومراكش ونيوفندلند وعندما اقتسمتا الاشراف على معظم البلدان المشمولة بالانتداب في سنة ١٩١٩ فعلتا ذلك على الغالب على اساس من التفاهم والود

وعلى الرغم من تسوية المسائل الاستعمارية بينهما ، واشتراكهما في الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) قامت بينهما بواعث تنافس في قارة اوربا بعد الشروع في تنفيذ معاهدة فرساي . فخشيت بريطانيا ان تكون فرنسا قد ملكت من اسباب القوة ما يمكنها — وقد أنقذت من الخطر الالماني — من بسط سيطرتها على اوربا واقلاق التوازن الدولي فيها

وكانت لا ترى من المصلحة ان يكون لفرنسا طائفة من الاتباع تدور حولها كالتوابع حول الشمس فعارضت في احتلال الرور سنة ١٩٢٣ وذهبت الى ان معاهدة فرساي كانت شديدة الوطأة على المانيا وانهُ يجب بذل السعي لمساعدتها على النهوض . ورغبةً منها في اعادة التوازن الأوربي ألقت بنفوذها في كفة المانيا . فلما استأثر الحزب النازي بمقاليد الحكم في المانيا ظلَّ هذا الرأي غالباً على فريق كبير من أصحاب النفوذ والمقام في بريطانيا . ولمَّا احتلت المانيا منطقة الرين المجردة من السلاح ، ناقضة معاهدة لوكارنو، ثنت بريطانيا فرنسا عن القيام بعمل حربي حاسم لدفع هذا النقض . ولم يتغير هذا الرأي إلاَّ قليلاً عندما ضمت النمسا الى المانيا قوة واقتداراً ثمَّ في أثناء أزمة بلاد السوديت . وقد كان العنصر الغالب في هذا الرأي ان المانيا انما استردَّت سيادتها على أرض المانية (منطقة الرين) وضمت بضعة ملايين من الجرمان . فلم يرَ الانكليز في ذلك شيئاً إدًّا او مما يجوز التعرُّض له بالقوة

ولكن بعد اتفاق مونيخ وطرح مسألة مطالبة المانيا بالمستعمرات على بساط البحث ومضي المانيا في تعزيز أسطولها البحري واستباحة تشيكوسلوفاكيا وتهديد بولندة ، ثبت لبريطانيا ان توازن القوى الأوربية مهدد من قبل المانيا لا من قبل فرنسا . وليس ثمة ريب في ان بريطانيا

كانت — حتى قبل نشوب الحرب — ترغب في ان تكون فرنسا دولة قوية عزيزة الجانب وقد صرّح أقطابها جميعاً — بلدوين وتشمبرلين وإيدن وهاليفاكس — ان حدود فرنسا هي حدود بريطانيا كذلك . فانتفت بذلك كل ريبة لاحداهما في الاخرى . فالتنافس على برّ أوربا بينهما قد زال زوالَ التنافس على المسائل الاستعمارية . فمصلحتهما مهما تعدَّد وجوهها واحدة لا ريب في ذلك

— ٢ —

وثمة باعث آخر على ثقة إحداهما بالأخرى. فالدولتان لا ترغبان في فرض أساليبهما ونظمهما السياسية على أحد ولكنهما ترغبان أشد الرغبة في صون المبادىء والقواعد التي قامت عليها نظمهما السياسية والاجتماعية

وهذه حالة جديدة كذلك . ففي الفترة التي انقضت على انتهاء الحرب العالمية الماضية ، ذهب ظنُّ بعض المفكرين والكتّاب الى ان الفلسفة السياسية التي أخذت بها فرنسا تختلف عما يقابلها في بريطانيا وتعارضها . وقد كان أصحاب هذا الرأي ممن يكتفي بالظواهر دون الأصول ، فقالوا ان فرنسا أميل الى «اليسار» في الآراء السياسية من بريطانيا . ففي فرنسا حزب شيوعي يؤبهُ لهُ وليس له ما يقابله في بريطانيا . وفرنسا عقدت ميثاقاً مع الاتحاد السوفيتي، أما بريطانيا فتعامل السوفيت ولكنها لا توثق الصلة بهم. وفي فرنسا يشترك الراديكاليون مع الاشتراكيين في انشاء جبهة شعبية ولكن شيئاً من هذا لا يقع في بريطانيا . بريطانيا متدينة ، وفرنسا معارضة للاكليروس

ولكن الذين نفذوا من الظواهر الى ما وراءها ، علموا ان الشعب الفرنسي لا يزال شعباً متديناً وان السنوات الاخيرة شهدت بين شبابه نهضة مسيحية قوية وان البابا بيوس الثاني عشر ذهب الى فرنسا عند ما كان كردينالاً — الكردينال باتشلي — فلقي فيها كل اجلال واحترام. وعلموا ان الميثاق مع الاتحاد السوفيتي لم توقعهُ حكومة شيوعية فرنسية بل حكومة محافظة تميل الى اليمين وتخشى الشيوعية . وعلموا ان «كتل اليسار» و «الجبهات الشعبية» في فرنسا ظاهرات دائمة في الانتخابات الفرنسية وان الراديكاليين وهم العنصر المعتدل فيها يميلون دائماً الى الوسط بعيد انشاء هذه الكتل او الجبهات وتحقيق غرضها الانتخابي ، وعليهم المعول في استمرار السياسة الفرنسية المعتدلة الرصينة . وعلموا كذلك ان جمهور الناخبين في فرنسا على الرغم من اقتراعهم في جانب الشيوعيين او الاشتراكيين ، ليسوا في صميم نفوسهم الا طبقة متوسطة معتدلة، لا تطيق ان تشهد قيام النظام الشيوعي في فرنسا او حتى نظام الدولة الاشتراكية الذي تسلم به شعوب الدول الدكتاتورية . يقابل هذا انه كان من رأي الكتاب الذين يكتفون بالظواهر ان بريطانيا ليست دولة دمقراطية لان معظم مقاليدها في أيدي جماعة منحدرة من

الارستقراطية العريقة ولان بعض وزرائها الحاليين من سلالة وزراء القرون الماضية . ولكن الذين تغلغلوا في تفهُّم الحياة البريطانية يعلمون ان هذه الارستقراطية الانكليزية ركن من ارسخ اركان الحكومة الدمقراطية في بريطانيا . فهي جماعة لها من الخبرة والحكمة في تدبير الامور، ومن اللين والخضوع للمشيئة العامة ومسايرتها، ما مكّنها من جعل الدمقراطية السياسية في بريطانيا حقيقة واقعة ومن السير سيراً حثيثاً نحو تحقيق الدمقراطية الاقتصادية

وان الباحث ليضحك عندما يسمع نقداً لخطة تشمبرلين فتوصف بأنها خطة اقلية ارستقراطية متحكمة ، كأن أصحاب هذا القول نسوا او تناسوا ان اقطاب الخطة التي تفوز بإعجابهم — وهي خطة تشرتشل وإيدن ودف كوبر وغيرهم — اوثق صلة بالارستقراطية البريطانية من تشمبرلين وجون سيمون !

ومهما يقل على ألسنة فريق من الكتّاب غير الانكليز عن نزعة الانكليز الى التحكم الفاشستي في بلادهم فليس ثمة دليل على ان هذا الرأي يتعدّى « دوائر ضيقة » من رجال الحياة الاجتماعية وسيداتها . ان الانكليز لا يرضون بديلاً عن الحقوق والضمانات التي أتاحت لهم من المجد والسعادة والثروة والثقافة العالية ما أتاحت . وما هي هذه الضمانات ؟

أولاً ان لا تمنعَ القوانين التي يقرُّها ممثلو الشعب إلاَّ الأعمالَ التي يُنصّ على عقوباتها. ثانياً — ان يتساوى جميع الناس أمام هذه القوانين وان يكون القضاة مستقلين عن التأثير السياسي . ثالثاً — ان يكون للحكومة سلطة عظيمة وهي متقلدة أزمة الحكم وان يملك ممثلو الشعب تغييرها اذا انقلبت أكثريتهم ضدّها . رابعاً — ان لا تخضع حرية الضمير والرأي والقول لقيود ما ، إلاَّ القيود التي يقتضيها احترام حريات جميع الناس

هذه هي الضمانات للحريات العامة في بريطانيا وهي لا تختلف عما يقابلها في الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا . وقد أثبت اختبار البشر الطويل قيمتها العظيمة . قد لا تكون وافية، وقد تكون هذه الأمم مقبلة على تعديل في بيان حقوق الانسان . ومن المحتمل ان لا تقبل هذه الشعوب التي خبرت قيمة هذه الضمانات، جمع السلطة الاقتصادية والسياسية في أيدي جماعة واحدة فيزيل هذا الجمع القدرة على إقامة الميزان بين القوتين في تسيير دفة الدولة . ولذلك يلوح ان الاشتراكية والفاشستية والشيوعية مناقضة في أساسها لهذه الحريات . وقد تظهر هذه الحرب أن اتقان أساليب الدعاية يقتضي وضع قيود لحماية الرأي العام من الانباء المختلفة والحض على العنف، وفي هذا طبعاً حدٌّ من حق حرية القول . ولكن خلاصة الحريات المدنية مطوية في المبادىء والقواعد التي عددناها

هذه المبادىء والقواعد هي اليوم وستبقى غداً أساس الكيان السياسي في فرنسا وبريطانيا

والولايات المتحدة الاميركية وطائفة غير يسيرة من الأمم الأوربية كهولندة وبلجيكا وسويسرا والسويد والنرويج والدنمارك وفنلندة وغيرها . من حق كل انسان ان يعتبر هذه المبادىء خاطئة او ضارّة او لا تتفق مع الارتقاء الاجتماعي الاقتصادي السياسي في هذا العصر وهذا على ما يلوح هو رأي أقطاب الدول الدكتاتورية سواء أفاشستية نازية كانت أم شيوعية . ولكن لا ريب في ان كثرة الأمتين البريطانية والفرنسية حكومة وشعباً تعتقد أنها مبادىء سليمة صالحة ، وهي مستعدّة للدفاع عنها ، فالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على هذا الأساس متين لا تفصم عراه

— ٣ —

إن الشعبين البريطاني والفرنسي مقتنعان الآن بأن لا قيام لاحدهما دون الاخرى وهذه حالة جديدة او تكاد تكون كذلك . فقد جاء زمن ظن فيه بعضهم في هذه الأمة وتلك ، انهُ من المستطاع ان تصاب إحدى الدولتين بضربة قاضية من دون ان تتأثر الاخرى . وقد تقدَّم معنا كيف وقفت بريطانيا الى جانب المانيا في أغلب وجوه النزاع التي نشأت بين المانيا وفرنسا بين سنتي ١٩٢٠و١٩٣٦ .وفي سنة ١٩٣٥ عند ما استفحلت الأزمة الحبشية الايطالية قال فريق من الفرنسيين « ليس هذا النزاع من شأننا ونحن لا نريد ان نشنّ حرباً على ايطاليا لحماية منابع النيل لاجل بريطانيا » وفي سنة١٩٣٨ نظرت بريطانيا الى التزامات فرنسا في شرق أوربا فهالتها فقالت « ليس هذه الالتزامات من شأننا ولن نشنّ حرباً على المانيا للنهوض بالالتزامات الفرنسية »

ففي هذه الحالات كان من السهل دفع الاسفين بين بريطانيا وفرنسا فكان ما كان من خذلان فرض العقوبات ، واحتلال منطقة الرين ونقض معاهدة لوكارنو وفوز المانيا بما فازت به من الطغيان على النمسا وبلاد السوديت

وليس ثمة ريب في ان هذا الخلاف بين الدولتين كان باعثاً من بواعث ضعفهما في حلبة النضال السياسي . ولكن فترة الخلاف على هذه المسائل الاساسية قد انقضت ، والاتفاق بين الدولتين على ما يهمهما من شؤون اتفاقٌ تام . ذلك ان التهديد الموجّه الى كيانهما واحدٌ لا ريب فيه . والمسألة الكبرى المرتسمة في افق السياستين البريطانية والفرنسية هي هذه : — أتبقى اوربا مجموعة من الدول الحرّة ام تطغى عليها دولة واحدة تأخذ بأسلوب القوة والعنف في تحقيق أهدافها ؟ أيستطيع الشعبان البريطاني والفرنسي الاحتفاظ بالحريات التي يقدسانها ، وهل في وسعهما المحافظة على مستعمراتهما ؟ وهذه مسائل لا تعقيد فيها ولا غموض . وجمهرة الشعبين تفهمها مدركة انها انما تحارب للدفاع عن الكيان كما تريد ذلك الكيان ان يكون . وقد كانت جمهرة الشعبين راضية بالمسالمة في سبيل اجتناب الحرب ولكنها أبت ان ترضى بالتخلّي والتسليم المطلقين في سبيل في اجتنابها

ويلوح الآن انهُ من العبث ان يسعى خصوم بريطانيا وفرنسا الى التفريق بينهما في سبيل خذل كلٍّ منهما على حدة ، فاذا تعرضت الامبراطورية الفرنسية في افريقية لخطرما فالانكليز يعلمون ان هذا الخطر غير مقتصر على فرنسا وانها اذا خذلت فدورهم آتٍ لاريب فيهِ . ولقد فاه أقطاب ساستهم في غير موقف رسمي واحد بأنهم يعتبرون كل تهديد موجه الى سلامة الأراضي الفرنسية (في أوربا وخارجها) اعتداء يضطرهم الى الوقوف صفًّا واحداً مع فرنسا . قالها إيدن عندما كان وزيراً للخارجية ولورد هاليفاكس خلفهُ فيها والمستر تشمبرلين . أما وقد انتهت المسألة الاسبانية ، فليس ثمة سبب يحمل أحداً على الاعتقاد بأنَّ هناك مسألة في الوسع أن تبث بواعث الخلاف والشقاق بين دولتي المانش

— ٤ —

ويضاف الى كل هذا ان الوضع الجغرافي وتغيُّر أساليب الحروب الحديثة يجعلان التعاون العسكري بين الدولتين ضرورة محتومة ، يدل على ذلك وثيقة سرية أعدتها وزارة الخارجية البريطانية ولم تنشر الا سنة ١٩٢٤ نشرها صحافي اميركي فازبها اتفاقاً . وقد جاء فيها : —

ماهي أذن العناصر الاساسية في ضمان سلامة الامبراطورية البريطانية ؟

ليست السياسة الموصوفة بالعزلة سياسة عملية الآن . قد تكون خطة من هذا القبيل متاحة الآن لاميركا القوية البعيدة . ولكن الامبراطورية البريطانية لا يسعها ان تجعل العزلة ديدنها . فالتاريخ والاقتصاد يثبتان ان العزلة في الأحوال الحاضرة تعني الخطر والضعف والتعرض للهزيمة . ثم ان الجغرافية والطيران يثبتان انها (اي العزلة) في حالتنا ليست حقيقة علمية

والدفاع عن بريطانيا العظمى يقتضي ما يلي : —

١ — أن لا يسمح لدولةٍ واحدة بان تبلغ من القوة مرتبة تمكنها من السيطرة على مرافىء المانش والبحر الشمالي

٢ — أن تجتنب بريطانيا عداء فرنسا وبلجيكا ثم من بعدهما عداء هولندة والمانيا والدنمارك او اية مجموعة منها وهي جميعاً الدول التي تملك المرافىء المذكورة

٣ — أن لا يسمح لأية دولة ثالثة تحارب فرنسا وبلجيكا بأن تغزو هذين البلدين وتهدد الحالة الراهنة لمرافىء المانش او منطقة من أراضي فرنسا وبلجيكا تعرّض بريطانيا منها للغزو الجوّي

٤ — من المصالح البريطانية الثابتة ومن مبادىء دفاعها الأصيلة الاتفاق معفرنسا وبلجيكا اتفاقاً من شأنهِ صون هذه الاراضي من الوقوع في أيدٍ أخرى

روسيا والبلطيق

من ايفان الرهيب الى ستالين

ليست سياسة الاتحاد الروسي السوفيتي في البلدان الواقعة على سواحل بحر بلطيق في الشهرين الأخيرين بالسياسة الجديدة في تاريخ روسيا . ولكنها تدل على أن روسيا عادت الى حلبة سياسة القوة عازمة على تحقيق هدف قديم وضعته نصب عيونها منذ تسعة قرون وهو الاتجاه الى البحر . ففي سنة ١٠٣٠ في عهد القيصر ياروسلاف وفي سنة ١١٠٦ في عهد القيصر فيسيسلاف بذلت روسيا مساعيها الاولى للوصول الى بحر بلطيق عن طريق المنطقة التي تقطنها القبائل اللتفية Latvian . وتمكنت في اواخر العصور المتوسطة من تحقيق وحدتها الجغرافية وانشاء حكومة قوية ، وذلك بعد ان ردّت جحافل المغول الغازية وفازت بأراض واسعة غنية بالموارد الطبيعية . ولكن صلتها بالبحر حينئذ كانت ضعيفة او مفقودة . فالبحر الاسود كان في قبضة الترك . والبحر الابيض في الشمال كان لا يزال مجهولاً . فلم تر منفذاً لها الى البحر الا في بحر بلطيق . ولكن عصبة المدن الالمانية المنسوبة الى هانسا Hanseatic League كانت سيدة امواجه حينئذٍ ، مستأثرة بمسالك التجارة فيه وأسبابها . اما استونيا ولتفيا فكانتا خاضعتين للفرسان التوتونيين Teutonic Order فوقفتا حائلاً دون توسع روسيا نحو سواحل ذلك البحر

وفي سنة ١٤٩٢ — سنة اكتشاف كولومبوس للقارة الاميركية — أنشأ الروس قلعة ايفانجورود التي ما فتئت تسيطر على خليج نارفا . (وهو خليج واقع في اقصى الشرق من ساحل استونيا ولا يبعد عن لننغراد الا نحو ١٥٠ كيلو متراً كما يسير الطير) وقد كان انشاء هذه القلعة الخطوة الاولى نحو البحر وهي خطوة حسبها القيصر ايفان الرهيب وسيلة يدخل بها الى روسيا عناصر الحضارة التي عززت جانب الدول الاوربية . وقد كان ايفان الرهيب طاغية مستبداً ولكنه كان سياسياً ألمعياً . وكان يعلم ان دول اوربا الغربية يهمها أن تبقى روسيا معزولة عن سائر اوربا بسياج من الفطرة . ولذلك رسخ في ذهنه ان الحاجة في روسيا انما هي الى رجال الصناعة والفن والتعلم ولا سيما الى البارود الذي لا غنى عنه في كسب الحروب

فاغتنم ايفان الفرصة السانحة له — كما اغتنمها ستالين في الشهرين الاخيرين — بضعف المانيا وانصرافها الى شؤون اخرى تهمها ، فطلب ان تباح الحرية لرعاياه على صفحة بحر بلطيق والغاء المعاهدة الدفاعية بين الفرسان التوتونيين وبولندة وحل « اللاندسنخت » الذي يحمي لتفيا واستونيا . وذهب وفد الماني الى موسكو للمساومة وبعد جدال سلّم بطلبات الروس . فأرهف هذا النصر قابلية ايفان فرنا الى مرفإ على ساحل البحر يكون خاصاً به

ويلوح ان ذلك لم يكن اندفاعاً وراء شهوة التوسع ،لان شهوة التوسع كانت قد اشبعت في الشرق ، ولكنهُ كان استجابة الى حاجة روسيا الملحة الى الاتصال بالغرب. فاجتاح ايفان البلدان البلطيقية اجتياحاً خرج منهُ بلفظ الرهيب Terrible مضافاً الى اسمهِ . وبسط سلطانهُ على مرفإ نارفا وسيادتهُ على استونيا ولتفيا . ولاح لهُ ان طريقهُ الى الغرب قد مهّد امامهُ

ولكن السويديين حصروا مرفأ نارفا واشتركوا مع البولنديين في طرد الروس من المناطق الساحلية . وكذلك اضطر المارد الروسي ان يرتدّ ثانية عن البحر بعدان ضيّع خمسين سنة من السعي السياسي والقتال في سبيل ذلك . هوذا البحر ولكن الحائل قائم دونهُ !

وتلا ذلك قرن من الضعف والاضطراب في روسيا فلم تعاود الكرَّة على تحقيق ما حاوله إيفان الرهيب الاّ في عهد بطرس الكبير . وقد كان الوصول الى البحر في منزلة وسواس يدفعهُ الى العمل ، ففكر اولاً في كاريليا (على البحر الابيض في الشمال) وانشاء مرفإ فيها على ساحلهِ . وفي سنة ١٧٠٠ زحف على نارفا ولكن السويديين بقيادة كارلوس الثاني عشر ردوه مهزوماً . فتربص الفرصة السانحة سنتين وهو يتأهب ثم بدأ زحفه فسقطت المدائن في يديهِ وبلغ نارفا فاحتلها ثم زحف الى مصبّ نهر النيفا فأنشأ عليهِ مدينة بطرسبرج (لننغراد الآن) فكانت اول مرفإ روسي . ولكنهُ لم يكن واثقاً بنفسهِ وشعبهِ فتوقف عن الفتح وبذل ما في وسعهِ ليرسخ قدمهُ في بعض المناطق التي احتلها .فعرض على السويديين ان يعيد اليهم الأراضي الواقعة على ساحل البلطيق الجنوبي مكتفياً بمصب نهر النيفا حيث أنشأ مدينة بطرسبرج وبجزء من كاريليا بل وعرض ان يدفع تعويضاً لقاء استبقائه. ولكن الملك كارلوس الثاني عشر ملك السويد أبى فمضت الحرب الى نهايتها واحتل الروس سائر دول البلطيق في سنة ١٧١٠ وكذلك غدت روسيا التي لم تكن تملك ، بحسب قول فولتير ،زورقاً واحداً قبل ذلك بعشرين سنة وهي سيدة ذلك البحر

بعد ذلك لم تقف روسيا عند حدّ من الفتح ، وجاءت كاترين العظيمة بعد بطرس الكبير فاتفقت مع الالمانيين على اقتسام بولندة وفازت علاوة على ذلك بلتوانيا ودوقية كورلند وهي شبه جزيرة الى الغرب من خليج ريغا . وكذلك امتدت حدود مملكتها الى حدود بروسيا ، وغدت روسيا دولة في الطبقة الاولى بين دول أوربا ، ونصبت مدافعها في جميع المرافئ اللتفية واللتوانية التي غنمتها . وفي سنة ١٧٨٠ اقنعت السويد والدنمارك وبروسيا بعقد اتفاق من شأنه ان يمنع دخول السفن الحربية الاجنبية الى بحر بلطيق ، ولكن هذا الاتفاق ألغي سنة ١٨٥٧ وما فتئت روسيا منذ ذلك التاريخ تسعى الى فرض سيطرتها على ذلك البحر وفي سبيل ذلك حاول القيصر نقولا الثاني سنة ١٩٠٧ ان يقنع القيصر الالماني بالاتفاق على إيصاد منافذه في وجه جميع السفن الحربية التي ليس لها قواعد فيه

ولكن هذا الاتفاق لم يجدِ . لأن خصم روسيا في البحر البلطيق لم يكن دولة أجنبية عنهُ وانما كان دولة من دوله ونعني المانيا . فالريخ الالماني متجه الى التوسع في الشرق . وكانت



المرحلة الاولى في ذلك التوسع تحويل بحر البلطيق الى بحيرة المانية . فأنشأت الحكومة الالمانية أسطولاً عزيز الجانب وشقت ترعة كيال . ووضعت الخطط لغزوة ولايات روسيا البلطيقية ،

على ان يكون الهدف من غزوها السيطرة على منافذ روسيا الى البحر ثم تحويل مرافئها الى قواعد تستند اليها القوات الالمانية في توسيع آفاق فتوحاتها الشرقية . وقد كانت هذه الخطة من اخطر ما هدّد بهِ الكيان الروسي ومن أفعل البواعث التي حملت روسيا على خوض غمار الحرب العالمية الماضية . فلما نشبت الثورة الروسية الاولى في مارس سنة ١٩١٧ ادركت الحكومة الروسية الجديدة الموقتة ما للولايات البلطيقية من مكانة حربية فوافقت على استقلالها الذاتي ولكنها لم توافق على انفصالها عن الامبراطورية الروسية. ولما استوثق الالمان من عجزهم عن الاحتفاظ بتلك الولايات ، اذنوا للرفيقين لنين وتروتسكي في اجتياز المانيا الى روسيا ظنّاً منهم بأن نشوب ثورة شيوعية في روسيا يحدث فيها من الاضطراب والاختلال ما يحملها على موآتهم . فصدق ظنهم . لأن روسيا بعد الثورة الشيوعية قلبت سياستها الخارجية رأساً على عقب

كان الهدف الذي تطلع اليهِ الشيوعيون الروس في بدء عهدهم احداث الثورة العالمية ولذلك لم يكن للمصالح الروسية القومية منزلة في نظرهم كمنزلتها في نظر الحكومات السابقة ، فاذاعوا بياناً يستنكرون فيهِ التوسع الامبراطوري وسياسة القوة واعلنوا تطبيق مبدإ تقرير المصير على جميع الشعوب التي كانت خاضعة للقياصرة من قبلهم . فاستقلت دول البلطيق عندما اضطرت المانيا الى التخلي عنها بعيد عقد الهدنة في شهر نوفبر من سنة ١٩١٨. وكذلك عادت روسيا في القرن العشرين الى ما كانت عليها في مستهل القرن الثامن عشر وليس لها على بحر بلطيق الاَّ منفذ ضيّق عند مدينة لننغراد ، وهو منفذ من أسهل السهل على دول البلطيق سدهُ

هل كانت روسيا السوفيتية صادقة النية في مافعلت وهل كان في وسعها ان تكتفي بما تمَّ وتقف عنده اذا كان في نيَّتها ان تكون في الطبقة الاولى بين دول اوربا ؟

ليس ثمة ريب في ان الانقلاب الذي احدثهُ الشيوعيون في سياستهم الخارجية كان وفقاً لتعاليمهم . وما زال هناك امل في احداث الثورة العالمية فالقواعد والمبادىء القديمة التي انجه اليها ايفان الرهيب وبطرس الاكبر ليس لها شأن كبير عندهم .ولكننا عندما نتأمل في أحوال روسيا في تلك الفترة التي تلت الانقلاب الشيوعي لا يسعنا الاَّ الظن ان الضرورة قضت على اقطاب الشيوعيين بالنهج الذي نهجوهُ فحولوا «الضرورة الى فضيلة »وطنطنوا بها . فالجيش الروسي في سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ كان ضعيفاً ، والحرب العالمية التي كانت قد دامت اربع سنوات كانت قد انهكت البلاد ونزفت دماءها . وكان في روسيا حينئذٍ قوات معادية للثورة الشيوعية تتحفز للوثوب عندما تسنح الفرصة . فالحكمة كانت في ازالة احد اسباب الضعف بالتخلي عن ولايات البلطيق لخصمهم الكبير — المانيا — في صلح برست ليتوفسك . ومع ذلك تدل الكتابات السياسية الروسية ان لنين نفسه كان متلكئاً في التخلي عن ولايات البلطيق مع ادراكه لضرورة ذلك . وما كادت تعقد الهدنة وترتفع

يد المانيا عن هذه الولايات حتى حاولت القوات الروسية الاستيلاء عليها واعادتها الى الحظيرة الروسية ولكن هذه الدول الصغيرة دافعت واستقلت وفازت بتأييد الحلفاء في استقلالها هذا فسلمت روسيا بذلك في سنة ١٩٢٠ . ومما لا ريب فيه ان اقطاب الاتحاد السوفيتي كانوا يواجهون في بدء عهدهم بالحكم مشكلات اجتماعية وسياسية وحربية كبيرة فأقنع تروتسكي زعيمهُ لنين بوجوب تأمين حدودهم الغربية للتفرغ للمشكلات المتعددة فعقدت روسيا مع دول البلطيق معاهدات سلام اعترفت فيها باستقلال هذه الدول وبتخليها عن كل حق من حقوق السيادة عليها . وأيد ذلك الاتفاق مع الدول الغربية . وكذلك ما كادت سنة ١٩٢٠ تشرف على ختامها حتى ظن متتبعو احوال البلطيق ان روسيا تخلت عن امانيها فيه

ولكن هذا الظن كان خاطئاً . لأن الروسيين اخذوا يبثون الدعاية الشيوعية في هذه البلدان رغبة في تشجيع احزاب شيوعية صغيرة فيها على النشاط السياسي فتسقط الحكومات القائمة وتتولى هي الامر فيها . فكأن روسيا حاولت ان تسترد بأساليب الثورة ما عجزت عنهُ بالحرب والسياسة . نعم ان الحكومة الروسية انكرت تبعتها في هذا العمل . ولكن الكومنترن او الحزب الشيوعي الروسي مضى في عمله هذا بدافع من الرغبة في نشر الثورة الشيوعية ولعلمه بأنهُ اذا قامت حكومات شيوعية في هذه البلدان مهد الطريق لانضوائها في نطاق الاتحاد السوفيتي فتعود روسيا السوفيتية كما كانت روسيا القيصرية تطل على مياه بحر البلطيق من سواحل بلدان تابعة لها او في حكم التابعة لها

ولكن الكومنترن أخفق في ما سعى اليهِ عند ما قمعت محاولة شيوعية في استونيا لقلب حكومتها وجاراتها البلدان الاخرى مما اثبت ان ارض البلطيق ليست بالتربة الصالحة لنمو البذور الشيوعية فامتنعت الحكومة الروسية عن الثأر لقمع الحركة الشيوعية في هذه البلدان . بل ان تحسن العلاقات الروسية بدول البلطيق جارى تحسن الحالة الاوربية واستقرارها في الفترة السابقة لقيام النازي في المانيا . وأحست دول البلطيق بابتعاد شبح الخطر عنها فتنفست الصعداء، وعادت الثقة فاستحكمت أواصرها بعقد معاهدات تجارية واسعة النطاق ثم تلتها اتفاقات سياسية غرضها جميعاً المحافظة على الحالة الراهنة في شرق أوربا . وكان آخرها مواثيق عدم الاعتداء التي عقدت سنة ١٩٣٢

ولكن الاساس الذي قام عليهِ هذا التعاون الودي بين روسيا وجاراتها البلطيقيات كان امتناع هذه الجارات عن الحيلولة دون وصول روسيا الى البحر . ان الف سنة من التاريخ أثبتت لروسيا ان مصلحتها تقتضي الوصول اليهِ . وهي في حالتها الجديدة أشد ما تكون حاجة الى مرافىء لتفيا وأستونيا ، ولا سيما لان هذه المرافىء كانت متصلة قبل الحرب الماضية بمراكز الانتاج الروسي بسكك الحديد والترع والانهار، وإذن فاستقلال هاتين الدولتين (لتفيا واستونيا) رهن مجاراتهما لروسيا في تحقيق هذه الرغبة . وأدركت هاتان الدولتان حقيقة موقف

روسيا فأتاحتا لها كل تسهيل مستطاع على سكك الحديد وفي المرافىء وخصتها بتفضيل جمركي . وقد كان هذا الاتفاق في مصلحة الفريقين

فلما قامت دولة النازي في المانيا ووضحت أغراضها البعيدة وأساليبها ، غيرت روسيا سياستها. فعندما كان لعصبة الامم ومبدإ السلامة الاجماعية المنزلة التي كانت لها من سنوات اعتقدت روسيا ان العصبة والسلامة الاجماعية تضمنان مصالحها كما تضمن مصالح الدول الاخرى . وكانت روسيا حينئذ قد انصرفت — ولو الى حين — عن فكرة الثورة العالمية وعمدت الى الاصلاح الداخلي ، فكانت مصلحتها في استتباب السلام والاستقرار الدولي . فاذا استتبا فخير ضامن لمصالحها في الغرب الاحتفاظ بدول مستقلة تبيح لها الوصول الى البحر بالاتفاق المتبادل. ولكن ماحدث في العصور المتوسطة وفي سنة ١٩١٤ حدث في سنة ١٩٣٨ و١٩٣٩ ، ذلك ان المانيا هددت مسالك هذا البحر الذي لا تستغني عنهُ روسيا ، يبسط نفوذها على مياهه وسواحله . ورسخ في أذهان أقطاب الكرملين ان أحد أهداف السياسة النازية الى التوسع في الشرق ، فخشيت روسيا ان يعمد أقطاب النازية الى الاقليات الالمانية الكبيرة في لتوانيا ولتفيا واستونيا فيستعملوها للضغط على حكومات تلك الدول ، ومما لا ريب فيهِ ان روسيا كانت تعتبر خضوع تلك الدول للنفوذ الالماني في منزلة الانتحار لها

كانت روسيا أضعف من المانيا حتماً في بحر بلطيق . ليس لها مرفأ روسي عليهِ الاّ مرفأ لننغراد . وهو بعيد عن مسالك البحار الحرّة ، تتجمد مياههُ في الشتاء ، ومعرّض للحصر من قبل الدولة التي تسيطر على خليج فنلندة . يقابل هذا ان المانيا كانت سيدة البحر . لها فيهِ اسطول قوي ولحكومتها في عواصم بلدانهِ منزلة عالية ونفوذ عظيم

وبدا لروسيا السوفيتية انهُ ما زالت المانيا قاصرة جهدها على اوربا الوسطى فلروسيا ان تطمئن ولكنها عند ما تبينت في خططها نية لا ريب فيها على اجتياح بولندة — على ان يكون هذا الاجتياح مرحلتها الاولى في الاندفاع الى الشرق — قررت روسيا ان تعمل . وسواء أكان هناك اتفاق سابق بين مولوتوف وربنتروب ، على اقتسام بولندة ام لم يكن ، فالامر الذي لا ريب فيهِ ان روسيا غزت شرق بولندة لصدّ الالمانيين . ثم عمد ستالين الى ما عمد اليهِ إيڤان الرهيب ، اذ اغتنم فرصة انشغال المانيا بالحرب في غرب أوربا ، فكسب مزايا جديدة لدولتهِ في دول البلطيق الثلاث — وما زال الاتفاق مع فنلندة موقوفاً — وأملى على المانيا ترحيل أقلياتها الالمانية من بلدان البلطيق حتى يستريح منهم أبد الدهر ، من ناحية استعمالها أداة للضغط على حكومات تلك الدول واخضاعهم لنفوذ برلين . ولو ان ستالين أراد فون ربنتروب وزيراً لهُ يحقق لهُ كل هذا لما استطاع على ان يحققهُ على وجهٍ أتمّ

يوميات دولية

١ — نموت لنحيا[1]

بولندا بين طي التاريخ ونشره

«نموت لنحيا» ! بهاتين الكلمتين البليغتين وصف غاندي الموقف الباسل الذي وقفته بولندا في الدفاع عن كيانها القومي واستقلالها . وانباء الشركات البرقية ومحطات الاذاعة العالمية مجمعة على ان البولنديين لا يزالون يقاومون ويستبسلون في المقاومة على الرغم من توغل جحافل الحمر والسمر في بلادهم من الشرق ومن الغرب . ومقاومتهم هذه حركت اعجاب العالم بهم حتى اعجاب اعدائهم . واذا كان مصير هذه المقاومة الى الانهيار الآن لتألب ماردين من مردة الجيوش الحديثة عليهم، فليست هذه بالمرة الاولى التي نكبت بها الامة البولندية في تاريخها العريق المرتد الى الف سنة من يومنا هذا . فقد اجتاحتها في فترات شتى من تاريخها جيوش القواد والملوك وداستها سنابك الخيل وهدم استقلالها ومزقت وحدتها ولكنها كانت دائماً تتغلب على المحن ، محتفظة بروحها القومية حية على الزمن ، فتنهض من الانقاض المنهارة أمامها وورائها وبين يديها نهوض «الفينكس» طائر الاساطير من رماده

وسبب هذه المحن المتوالية على الامة البولندية انها تقطن في منطقة من اوربا اكثرها سهول لا حدود طبيعية لها تسهل الدفاع عنها، وهي واقعة بين عنصرين من أكبر العناصر الاوربية العنصر الصقلبي في الشرق والعنصر التوتوني في الغرب فكانت ارضها دائماً ميداناً للنضال بينهما. فالامة البولونية ضحية موقعها الجغرافي

***

اجتمعت عليها روسيا وبروسيا والنمسا في سنة ١٧٧٢ فاتفقت على ان تقتطع كل منها منطقة تضمها اليها وقد أفرغ هذا التقسيم في معاهدتين وقعتا في مايو وأغسطس من تلك السنة . وسمح للبقية الباقية من بولندة بعد هذا التقسيم — وهي المنطقة المتوسطة — ان تحتفظ باستقلال خاضع لآراء الدول الثلاث . وهذا شبيه بما روته الانباء البرقية عن مقترحات تمد الآن للفصل في حالة بولندا . فقد روي ان المانيا ستحتفظ بدانتزج والمجاز البولندي وسيلزيا العليا وتضم روسيا المناطق التي يقطن فيها اكرانيون وروسيون يعرفون بالروسيين البيض . وينشأ من المنطقة

---

(١) يومية كتبت يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩

المتوسطة دولة صغيرة خاضعة لبرلين — على نمط بوهيميا ومورافيا — تكون كالمجن بين روسيا والمانيا ومن المحتم ان مصير هذا الاقتراح معلق بمصير الحرب نفسها ؟

***

ثم اقتسمت بولندة مرتين بين الدول الثلاث التي تقدم ذكرها في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٢ و ١٧٩٥) وعند ما نشبت الثورة الفرنسية — وكان من مبادئها مبدأ القومية — سارت الجيوش الفرنسية مظفرة مرفوعة الاعلام الى النمسا وبروسيا فتطلع البولنديون الى استرداد استقلالهم بأمل ورجاء وجاءهم نبوليون فأنشأ غراندوقية بولندة بعد صلح تيلسيت سنة ١٨٠٧ ولكنها لم تضم جميع المناطق التي يقطنها بولنديون فلما زحف نبوليون الى غزو روسيا عقد البولنديون آمالهم على فوزه لكي يضموا المناطق البولندية التابعة لروسيا ولكن نبوليون أخفق في كسر روسيا وبعد انقضاء سنوات سقط وعقد مؤتمر فينا للحكم في مقدرات الامم الاوربية فأيد هذا المؤتمر قسمة بولندة التي تمت سنة ١٧٩٥ بين روسيا وألمانيا والنمسا وظلت الحال كذلك الى مستهل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤

عند ما نشبت الحرب سنة ١٩١٤ وجد البولنديون أرضهم ساحة قتال عنيف وأبناءهم يحاربون بعضهم بعضاً في الميدان الشرقي لان منهم من كان مجنداً في الجيش الروسي ومنهم من كان مجنداً في الجيش الالماني أو النمسوي وكانت روسيا في صف والمانيا والنمسا في صف مقابل. وكان رأي الزعماء البولنديين مختلفاً حيال الوسيلة التي تمكنهم من تحقيق أمانيهم القومية فبادروفسكي الموسيقي المشهور كان يرى ان تؤيد الامة البولندية قضية الحلفاء وبلسودسكي القائد المشهور كان يرى ان الخطوة الاولى لتحقيق الأماني القومية هي القضاء على روسيا فساعد المانيا بجيش صغير وعندما غلبت روسيا على أمرها في بولندة وخرجت منها ، أنشأت المانيا حكومة بولندية شبه مستقلة . الاَّ ان بلسودسكي أدرك في ربيع سنة ١٩١٨ ان المانيا ليست خالصة النية من حيث انشاء بولندة مستقلة فانقلب عليها وانحاز الى رأي بادروفسكي فاعتقل وسجن واتهم بأنهُ متمرد ولكنهُ فرَّ من السجن بحيلة بارعة وظل يحارب حتى انهارت امبراطورية النمسا والمجر وخارت قوى المانيا فعقد الصلح وقامت بولندة الجديدة على انقاض تاريخها بعد ان جعل الرئيس ولسن وحدتها واستقلالها من شروطه الاربعة عشرة المشهورة

وكذلك نهض طائر الأساطير من رماده مرة أخرى . وغدت بولندة الجديدة في المرتبة الاولى بعد الدول الكبرى في أوربا

وها هي ذي الآن تعاني محنة أخرى من المحن الكثيرة التي عرفها تاريخها العريق ولكن الصفات التي مكنتها وهي تحت نير الضغط والاستبداد من الاحتفاظ بحيوية الشعب والاتصال

بتقاليده وآدابه المجيدة ودرس لغته في حين كان هذا كله محظوراً عليها لا بد ان تمكنها من ان تنهض نهضة أخرى . ان أمة تنجب أمثال كوبرنيكوس واضع علم الفلك الحديث وشوبان ملحن شجون القلب الانساني ومدام كوري مكتشفة الراديوم وغيرهم لا يمكن ان تبقى ذليلة . فقد ضمت هذه الاسماء الى كوكبة العبقريين الذين رفعوا الانسانية قليلاً فوق مستوى المعنى الترابي نحو العرش الاعلى . وأما جالبو هذه المحنة عليها — ولا نقول الشعوب — فستنضم أسماؤهم الى كشف كبار المدمرين في التاريخ المحتوي على آتيلا وهولاكو وجنكيزخان

٢ — الحرب لا تتجزأ (١)

والسلام الذي يطلبه هتلر هو هدنة بين حربين

كان الشعار السياسي الذي ساد دوائر الدول الاوربية في السنوات التي سبقت الحرب الحبشية وتلتها « ان السلام لا يتجزأ » وهو قول وضعه سياسي سوفيتي والغالب انه الرفيق مايسكي سفير الاتحاد السوفيتي في لندن ، وذلك عندما كان الاتحاد السوفيتي يخشى المانيا واليابان في وقت واحد

ومعنى هذا القول أن سلامة كل أمة هو جزء من سلامة الدول جميعاً . وان كل تهديد يوجه الى سلامة أمة انما هو تهديد موجه الى سلامة الجميع . وليس في هذا القول جديد الا افراغه في هذا القالب الموجز الذي يستوقف النظر . فارتقاء الحضارة الحديثة أفضى الى ترابط الامم واشتباك مصالحها . فأصبحت العزلة التامة في هذا العصر متعذرة . وقد اعترف واضعو ميثاق جامعة الامم بهذا المبدإ عندما قالوا في المادة العاشرة من الميثاق ان أعضاء الجامعة يتعاونون في رد كل اعتداء موجه الى أحدهم . ثم في المادة السادسة عشرة حيث أقروا الاساليب العملية الفعالة لهذا التعاون . واذا كانت الجامعة قد اخفقت في تطبيق هذه الاساليب تطبيقاً فعالاً فتاريخ السنوات العشر الماضية بينة ناهضة على صدق القول بأن « السلام لا يتجزأ » فالاعتداء على منشوريا في ١٩٣١ وامتناع الجامعة عن التصدي لوقفه أضعف من هيبتها فمهد السبيل لحوادث الحبشة فلانتهاك معاهدة لوكارنو فضم النمسا فاتفاق ميونخ فاستباحة بوهيميا ومورافيا فاكتساح بولونيا واخضاع دول البلطيق

***

ويقابل هذا أن « الحرب لا تتجزأ » . فالباعث المباشر على هذه الحرب القائمة الآن هو اعتداء المانيا على بولندا بغير أن تستفز الثانية الاولى مهما يبدِ دعاة المانيا ويعيدوا في أن

(١) يومية كتبت في ٧ أكتوبر ١٩٣٩ على أثر خطبة الهر هتلر

استفزاز بولندا لالمانيا كان لا يطاق . وقد اعتدت عليها كذلك بدون أن تعرض عليها شروط التسوية التي زعم فون ربنتروب أن بولندا رفضتها . ومن هنا عزمت بريطانيا وفرنسا على النهوض بالعهود التي قطعتاها لها

ولكن الباعث الاصيل على هذه الحرب هو في قول المستر تشمبرلن « انقاذ اوربا من الخوف الدائم المتكرر من العدوان » . وقول المسيو دلاديه «انقاذ اوربا من ضرورة التعبئة كل ستة أشهر »

واذا كانت الاعمال الحربية التي تمت حتى الآن قد مسحت بولندا المستقلة من خارطة اوربا فهذا المسح لا يعني ان النظام قد استقر في شرق أوربا استقراراً يجعل المضي في الحرب أمراً لا مسوغ له . اذ كيف يعقل ان يكون هناك استقرار في البلاد الممتدة من جبال السوديت الى ما وراء نهر الفستولا حيث يقطن ثلاثون مليوناً على الاقل من التشك والسلوفاك والبولنديين يسامون أشد ألوان الخسف والظلم وهم يتحفزون كل يوم للانتقاض في سبيل استرداد ما سلبوه من حياة قومية مستقلة حرة لها من تاريخهم وثقافتهم وادبهم أقوى سند؟

واذا كان الهر هتلر لا يفتأ يذكر معاهدة فرساي وما فيها من مظالم كلما وقف يخطب فلماذا لا يذكر ان اخضاع هؤلاء الملايين والاستبداد بهم شر من جميع مساوىء فرساي مجتمعة . واذا جاز لنا ان نأخذ الالمان بما يفرضونه على الشعوب التي يغلبونها في الميدان مقياساً، فلنرجع الى معاهدتي بخارست وبرست ليتوفسك وهما المعاهدتان اللتان فرضتهما المانيا القيصرية على رومانيا وروسيا في سنتي ١٩١٦ و١٩١٨ فان فيهما من ضروب الجور والعسف ما يفوق المآخذ التي أخذت على فرساي أضعافاً مضاعفة

واذن فتغلب المانيا وروسيا على بولندا وتقطيع أشلائها الدامية ومحوها من صفحة الخارطة الاوربية الآن لا يمكن ان يقوم دليلاً على ان النظام قد استتب هناك وان العدل قد وضع في نصابه الحقيقي وان سياسة العدوان قد انتهت الى حد تقف عنده

والواقع ان جماعة النازي ما كانوا يرضون بمبدإ « ان السلام لا يتجزء » لانهم وجدوا ان أخذ كل دولة بمفردها كان أسهل عليهم فأبوا أن يدخلوا الا في مفاوضات ثنائية . وكما فعلوا في السلم يحاولون ان يفعلوا في الحرب اي انهم يريدون ان يجزئوا الحرب . فهم يقولون ان بولندا غلبت وانتهينا منها فلنتفاهم على الباقي الآن لعلهم يشغلون الناس بحديث السلام عما اقترفوه قوة وبطشاً

وهذه خطة وضع الهر هتلر لها القاعدة في كتابه كفاحي عندما قال ان الظافر اللبيب يمضي في فرض الطلبات على خصمه طلباً طلباً فتضعف مقاومة خصمه ويصبح وهو لا يرى في اي مطلب جديد مهما يكن مرهقاً سبباً لحمل السلاح

وقد طبق هذه القاعدة مرة بعد مرة . خرج من مؤتمر نزع السلاح وجامعة الامم وصرح انهُ بعد تسوية السار يحترم معاهدة لوكارنو حرفاً وروحاً وعقد اتفاقاً مع النمسا على احترام استقلالها السياسي لكي يعزلها ثم طالب بالسوديت على اعتبار أنها آخر مطلب جغرافي له في أوربا . ولكن ذلك كله لم يمنعهُ من نقض لوكارنو في مارس ١٩٣٦ وضم النمسا في مارس ١٩٣٨ واستباحة مورافيا وبوهيميا في مارس ١٩٣٩

وكان فوزه في جميع هذه الاعمال بغير مقاومة تذكر فزز من هيبته ومكن لرجاله من استعمال سلاحهم الفعال وهو « سلاح الهدم الداخلي » بالدعاية الهدامة على اختلاف أساليبها وما قوله الآن انهُ انتهى او أوشك وان أمامه في شرق أوربا وشرقها الجنوبي عملاً يستغرق خمسين سنة الى مائة سنة وانهُ يبغي السلام لانهُ يعرف ويلات الحرب ويعد بنقص السلاح واحترام حدود هذه الدولة وتلك الاَّ من قبيل ما قاله عشرات المرات قبلاً ولكنهُ ما أعلن مرة احترامهُ لمعاهدة ما او حدود دولة ما الاَّ وهو عاقد النية على ان هذا الاحترام لا يدوم الاَّ مدى ما تقضي بهِ مصلحته كما يراها

فالسلام الذي يطلبه على هذا الاساس « لا ينقذ أوربا من الخوف الدائم المتكرر من العدوان » على ما قال المستر تشمبرلين ولا يكون الاَّ « هدنة بين حربين » على ما قال المستر دلاديه

٣ — تعديل قانون الحياد الاميركي[1]

لم تكد تنقضي عشرة أيام على توقيع ميثاق انقره حتى تلقت الدوائر الصحافية في القاهرة أنباء من الولايات المتحدة الاميركية بأن مجلس الشيوخ الاميركي أقر في الساعة التاسعة من مساء أمس (الجمعة ٢٧ اكتوبر) التعديل الخاص بمادة رفع الحظر عن شحن الاسلحة الى الدول المتحاربة ثم أقر مشروع قانون الحياد في جملته باتفاق ٦٣ صوتاً على ٣٠ صوتاً فكان ذلك فوزاً كبيراً للرئيس روزفلت ومؤيديهِ ونصراً ثانياً للدولتين الدمقراطيتين بريطانيا وفرنسا كان ميثاق انقره اولهما

نفى مجلس الشيوخ خمسة أسابيع في مناقشة التعديلات المقترحة على قانون الحياد ارتفع فيها غير صوت واحد بالمعارضة من اقطاب عرفوا بمكانتهم السياسية والاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية كالسناتور بوراه والمستر هوفر والمستر فورد والكولونيل لندبرج. ولكن ذلك لم يحل دون انتهاء المناقشة الى نتيجتها المنطقية لان قانون الحياد المعدَّل اعراب يكاد يكون دقيقاً عن شعور الرأي العام الاميركي بوجوب بذل العون للدول الدمقراطية بكل وسيلة مستطاعة الاَّ خوض الحرب. ولم يبق امام المشروع الاَّ مرحلة رسمية فقط ينتظر ان يجتازها في ايام[2]

يرتد أصل قانون الحياد الاميركي الى رغبة الشعب الاميركي في الاحتياط دون الانسياق

(١) يومية كتبت يوم ٢٨ اكتوبر ١٩٣٩ (٢) وقد اجتازها فعلا ووقعه الرئيس في ٤ نوفمبر

الى خوض حرب لا يريدها . ثم أن حكومة الولايات المتحدة الاميركية تؤثر على الغالب خطة الحياد الدولي . وفعلاً ما كاد ينقضي يومان على نشوب الحرب الناشبة الآن حتى أعلن الرئيس روزفلت حياد دولة الولايات المتحدة . ولكن البلاد الاميركية بلاد صناعية كبيرة ويحق لها بحكم كونها دولة محايدة أن تصنع ما تشاء وتبيعه لمن يرغب فيه من الدول المتحاربة . الا ان هذا الحق خاضع لما يتفرع على حق الحصر البحري من زيارة وتفتيش ومصادرة . وهذا بطبعه يعرض السفن التجارية الاميركية للاصطدام بالسفن الحربية التابعة للدول المتحاربة وربما نشأت عنهُ حوادث دبلوماسية قد تكره الحكومة الاميركية على خوض الحرب بسببها دفاعاً عن الرعايا الاميركيين والعلم الاميركي الخافق على سفنها

ولذلك كان الرأي ان الامتناع بتاتاً عن تصدير الاسلحة قد يكون خير وسيلة لضمان الحياد الاميركي . وكان الأفق الدولي ملبداً في أثناء الازمة الحبشية (١٩٣٥) فوضع قانون الحياد على جناح السرعة وأقر ثم عدل تعديلاً يسيراً بعيد نشوب الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦) لانهُ ثبت ان نصوصه لا تشمل حرباً أهلية

هذا القانون يقوم بوجه عام على قاعدتين أولاهما — إباحة تصدير المواد التي لا تعتبر مواد حربية على ان يوفّى ثمنها قبل تسلمها . ثم يجب ان تنقل على سفن غير أميركية . والحكمة في توفية الثمن مقدماً الحيلولة دون تراكم ديون للدول المتحاربة في أميركا قد تعجز بعد الحرب او تمتنع عن إيفائها . ثم قد يكون من شأنها ان تحرك الدائنين الاميركيين على الدعوة الى الحرب لمساعدة الدول المدينة لهم لكي يضمنوا بفوزها إيفاء ديونهم

والقاعدة الثانية تفادي تعرض السفن الاميركية لسفن الاعداء وما قد ينشأ عن ذلك من حوادث تسبب جفاء وقد تكره اميركا على خوض الحرب

هذا هو القانون في مجمله قبل تعديله . ولكن فريقاً كبيراً من المشتغلين بالسياسة في أميركا ومن حملة الاقلام ودعاة تأييد الدمقراطية وكبح جماح الدول المعتدية ذهبوا الى ان الاحتفاظ بهذا القانون مشجع على الاعتداء قبل نشوب الحرب . ومضعف للدول التي ينتظر ان يعتدى عليها بعد نشوبها . وكان رأيهم ان المانيا مسوقة حتماً الى الاعتداء بسبب خططها السياسية فيجب ان لا ترى في الاحتفاظ بهذا القانون سبباً يسوغ لها الاعتقاد بأن الولايات المتحدة نفضت يدها من كل عون يبذل للدول الدمقراطية . ولذلك كتبوا كثيراً وخطبوا مطالبين بتعديل القانون تعديلاً يكفل عون الدول الدمقراطية ويقي الولايات المتحدة في الوقت نفسه من خطر الانسياق الى الحرب . وجميع الاستفتاءات الشعبية التي قام بها معهد كمعهد « جالوب » ومجلة كمجلة « فورتشون » أيدت هذا الرأي تأييداً لاريب فيه . ولذلك اقترح رسميًّا تعديل القانون وكان

الظن ان التعديل يقر قبل انفضاض «الكنغرس» الاميركي في الصيف ولكن مجلس الشيوخ امتنع حينئذ عن بحث الموضوع فحذره الرئيس روزفلت من عاقبة امتناعه وصرح انهُ اذا سارت الحوادث السير الذي يتوقعهُ فسيدعو الكنغرس الى اجتماع استثنائي للنظر في قانون الحياد وفعلاً دعاه في منتصف سبتمبر وبدأ الاجتماع الاستثنائي يوم ٢١ سبتمبر الماضي . فما مغزى هذا التعديل ؟

اولاً — الغي الحظر على شحن الاسلحة الى الدول المتحاربة . فيحق للفريقين ان يبتاعا في اميركا ما يحتاجان اليهِ بلا تمييز بينهما . ولكن الغاء الحظر مقيد بقاعدة « ادفع وانقل » او «ادفع وشيل» ومعنى هذا ان الدولة التي تريد ان تبتاع طائرات اميركية عليها ان توفي الثمن فوراً قبل ان تنتقل ملكية الطائرات اليها . وثانياً عليها ان تنقل هذه الطائرات بسفن غير اميركية والحكمة في هذا التقييد ظاهرة وقد اشرنا اليها في ما تقدم

ومغزى هذا ان بريطانيا وفرنسا تستطيعان دون المانيا ان تبتاعا ما تحتاجان اليهِ في اميركا وذلك لان المانيا لا تملك من النقد الاجنبي ما يمكنها من توفية الثمن فوراً . وأما بريطانيا وفرنسا فلهما في أميركا ١٧٥٠ مليون دولار سبائك ذهبية وودائع مالية مختلفة . ثم ان السفن الالمانية التجارية اختفت من مسالك البحار منذ نشبت الحرب . وأما السفن البريطانية والفرنسية فكثيرة تمخر البحار السبعة وتحميها سفن الاسطولين . ولا يخفى أن المصانع الاميركية كانت متوقعة ما حدث ولذلك لم تنِ يوماً عن صنع الطائرات الحربية وغيرها من الاسلحة التي ينتظر ان يكثر الطلب عليها وجميعها معدة للسفر عند ما يوضع قانون الحياد المعدل موضع التنفيذ

ثانياً — الغيت مهلة التسعين يوماً بين تسلم البضاعة وتوفية ثمنها وجعل الدفع فوراً (كانت هذه المهلة مقترحة في مشروع التعديل) والغالب ان الاتفاق على الغاء هذه المهلة كان ترضية لجماعة المعارضين في تعديل القانون ومفاداة لمد أجل المناقشة قبل القرار الاخير

ثالثاً — حظر السفر على الاميركيين بسفن تابعة للدول المتحاربة وحظر دخول السفن الاميركية التجارية مناطق معينة يحددها الرئيس وتعرف « بمناطق الحرب » . وذلك لكي لا تتعرض الارواح الاميركية والسفن الاميركية لحوادث قد يكون من تأثيرها الخروج بالحكومة الاميركية عن نطاق الحياد الدولي الذي التزمته

إن ما نقلتهُ الينا أنباء القتال في الميدان الغربي عن تفوق المطاردات الاميركية التي من طراز « كرتس » ينطوي على اشارة يسيرة الى ما يجوز لنا ان نتوقعه من تعزيز لقوات بريطانيا وفرنسا الحربية باستيراد ما تحتاجان اليهِ من أميركا علاوة على التأييد الأدبي . فالقرار الذي اتخذه مجلس الشيوخ الاميركي فوز عظيم الشأن للدولتين الدمقراطيتين يعزز من شأنهِ وتأثيره انهُ تم بعد انقضاء تسعة أيام فقط على عقد ميثاق أنقرة



مفردات النبات

حضرة رئيس تحرير المقتطف الاغر

استميحكم عفواً في تأخر ردّي على ما نشرتموه للأمير مصطفى الشهابي في مقتطف يوليو من ملاحظات على مقالاتي في « مفردات النبات بين اللغة والاستعمال » التي كنت انشرها تباعاً في مقتطفكم. ولقد سرّني اهتمام الأمير وتتبعهُ لها بالنقد والكتابة فان الحقيقة بنت البحث. فجزاه الله احسن الجزاء. وها كم ردّي مرتباً على تلك الملاحظات واحدة فواحدة

(١) ذكرت في جزء اكتوبر سنة ١٩٣٦ انهُ « يقال للكزبرة التقدة بالكسر والفتح مع كسر القاف والجلجلان » فقال الأمير ان « قاف التقدة ساكنة. اما الجلجلان فهو ثمر الكزبرة » ولا جدال في ان بزر الكزبرة يُعرف بالجلجلان كما جاء في المعجمات العربية ولكن ألا تجوز هذه التسمية كما يطلق (القَرَض او القَرَظ) وهو ثمر السنط على شجر السنط نفسه من قبيل تسمية الشيء ببعضه في اصطلاح النباتيين

فقد جاء في مؤلف المستشرق الهولندي دوزي — تكملة المعجمات العربية — المطبوع بليدن سنة ١٩٢٧ جزء ثان ص ٣٢٩ ما ملخصه: —

« ان القرض او القرظ = acacia » وهو السنط

أما كسر قاف (تقدة) التي قال الامير أنها ساكنة، فقد جاء في الجزء الثاني من تاج العروس ص ٣٠٨ ما يأتي: « التقدة بالكسر وتفتح مع كسر القاف الاخيرة - عن الهروي - الكزبرة الخ »

(٢) وذكرت في جزء يونيو سنة ١٩٣٦ ان « الأرز واحدته أرزة شجر معروف من الصنوبر يقال له (الشربين) أيضاً ». فقال الامير « لا لزوم لفتح راء الأرزة. والأرْز من الفصيلة الصنوبرية وليس من الصنوبر. وهو غير الشربين. ويخلط بعض أصحاب المعجمات القديمة بين الارز والصنوبر او يعرفون هذا بذاك فيجب على علماء اليوم ان يبتعدوا عن مثل ذلك » الى آخر ما أورده الأمير خاصًا بأهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تنبتهُ الطبيعة في جبال الشام

وأود أولاً توجيه النظر الى أني لم اتعمد فتح راء الأرزة التي وردت مفتوحة خطأ مطبعيًا ودليلي على ذلك ان عنوان هذا المفرد النباتي « الارز » بتسكين الراء فيجب ان تكون واحدته أرْزة ساكنة الراء كذلك كما لا يخفى

اما كون الأرز ليس من الصنوبر وهو غير الشربين فحسبي أن أورد اولاً ما جاء في المعجمات العربية مما يثبت ان الأرز من الصنوبر كما ذكرت . فقد جاء في معجم البستان المطبوع سنة ١٩٢٧ ص ٢٦ ما نصه :

«الارْز بسكون الراء ذكر الصنوبر الخ» وجاء في تاج العروس الجزء الرابع ص ٣ ما نصه «الأرز بالفتح ويضم شجر الصنوبر»

اما كونه غير الشربين فحسبي ان أورد هنا ما جاء في مؤلف دوزي الآنف الذكر جزء اول ص ٧٤٢ تحت مادة شربين : «انهُ معرب عن اللغة الارامية يقابلها في اللغة الفرنسية (le cèdre "ordinaire") وهو الأَرْز وجاء في ص ٩٥ من معجم المصطلحات الفنية للعلوم والآداب والفنون باللغتين الفرنسية والتركية لمؤلفيه : تنغير وسناپيان المطبوع بالقسطنطينية سنة ١٨٩١ تحت مادة (سدر ، شربين ، أرزة "Bot." cèdre, sm. — سدر لبنان ، شجر سليمان Cèdre du Liban » فهل لنا بعد ذلك ان نقول ان الأرز هو الشربين او انهُ يغايره وهل لنا أيضاً ان نقول باتفاق المعجمات العربية — التي وصفت في قول الامير بأنها قديمة — مع المعجمين المذكورين فيما سلف أوليس لنا ان نقول ذلك ؟ وليسمح لي الأمير ان ألفت النظر الى ان ما أورده من اسماء أهم أشجار الفصيلة الصنوبرية مما تنبتهُ الطبيعة في جبال الشام انما هو صحيح في ذاتهِ من حيث بلاد الشام كما جاء في كتاب النبات لمؤلفهِ جورج بوست الذي نقل الأمير تلك الاسماء عنهُ . ولا يعزب عن فكره انها تختلف باختلاف البلدان العربية . فمثلاً الشربين أو السرو في الشام هو السرو في مصر وبلاد الجزائر . والعَرْعَر في الشام هو الشربين في بلاد الجزائر . اما العرعار في بلاد الجزائر فهو من جنس Thuya الى غير ذلك

(٣) اورد الأمير انني قلت في جزء اكتوبر ١٩٣٥ أن الخروب بضم الخاء وأن الصحيح عنده أنها بخاء مفتوحة . وهذا صواب أما ضبطها بالضمة فوقع خطأً مطبعيًّا بدليل انني لم أشر الى الضم بالكتابة لا بالشكل كما أفعل دائماً في الكلمات التي يلتبس الأمر في ضبطها

(٤) لم اذكر في جزء يوليو ١٩٣٥ ان الكباد (ككتان وهي لفظة وردت في التاج) تطلق في الشام على شجرة الأترج الى آخر ما ذكره الأمير . وليسمح لي مرة اخرى ان الفت النظر الى ان كلمة كباد التي يطلقونها هناك على شجرة الأترج انما هي صحيحة من حيث استعمالها في بلاد الشام كما جاء في كتاب النبات لمؤلفهِ بوست . ويؤيد ذلك ما جاء في مؤلف المستشرق دوزي الذي سبقت الأشارة اليهِ . ففيهِ : كبّادة = cédrat بالفرنسية ولكن قد يطلق كبّاد ايضاً على bigarade بالفرنسية وهو النارنج المعروف عندنا كما يطلق على poncire وهو نوع من الليمون كما جاء في مؤلف دوزي . وفي بلاد الجزائر يطلقون الأترج على citron

بالفرنسية الذي هو نوع من الليمون كما جاء في تاج العروس جزء ٢ ص٤٨٢ وعبارته « الكباد كَكتّان نوع من الليمون » وعلى ذلك فالتسمية قد تختلف باختلاف البلدان

(٥) وصحيح اني أوردت في جزء يوليو سنة ١٩٣٥ تسعة أنواع من الكمء دون أن أسميها بأسماء عربية الى آخر ما ذكره الأمير

ولكن ليسمح لي في هذا الصدد ان أقرر ان مقالي عن الكمء كان في البداية ولم يكن من غرضي حينئذٍ وضع اسماء عربية لجميع النباتات التي أكتب عنها مع علمي بامكان ترجمتها بعد الالمام الى حدٍّ ما باللغتين اللاتينية واليونانية . فقد كان غرضي إيراد ما جاء في المراجع المعول عليها من أسماء على قدر ما يسمح الجهد . والذي يؤيدني في ذلك ان الامير حينما أراد ان يذكر أهم أشجار الفصيلة الصنوبرية في جبال الشام اقتصر على ما جاء في كتاب پوست فقط ولم يذكر ما جاء عن هذه النباتات في المراجع العلمية الاخرى من أسماء عربية

(٦) ويقول « أني اتبعت القاعدة المارة الذكر في بحثي عن شجر القيقب (الاسفندان) في جزء يونيو سنة ١٩٣٧ فقلت الاسفندان الابيض والاسفندان الجبلي والاسفندان الجميزي والاسفندان العادي . ولكن هذه الالفاظ هي ترجمة ما يقابلها بالفرنسية او الانكليزية لا ترجمة أسمائها العلمية . ومن الاصلح كما هو معروف ترجمة الحروف العلمية الدالة على الانواع النباتية لانها مشتركة بين الامم » الى آخر ما ذكره . وأقول إن هذا الرأي حصيف ويا حبذا لو أمكن اتباعه . ولكن هذا لا يتحقق الا اذا تضلع الباحث من اللغتين اللاتينيـة واليونانية مما لم يتوفر لي الى الآن . ولا يفوتني أن أذكر هنا أني عند ما كتبت هذا البحث اعتمدت على معجم المصطلحات الفنية الآتي الذكر وهو لا يذكر غير الكلمة الفرنسية ومقابلها من التركية والعربية أحياناً

(٧) ويقول أني جعلت لفظة المنجو العامية (جزء ابريل سنة ١٩٣٦) اسماً أصليًّا لشجرة الأنبج وأن المعروف أن النبات أنما يسمى باللفظ العربيّ أو المعرب قديماً ثم تذكر اللفظة العامية ويشار الى كونها عامية . وقد كنت احب أن لا يفوت الأمير أن هذا الاسم العاميّ هو المتداول في مصر واني أردت تقريب الفائدة الى أقرب المطلعين ممن حولنا

(٨) ويؤاخذني الأمير بعدم استعمال الالفاظ التي أقرها العلامة الدكتور امين باشا المعلوف في المجلدين السابع والثامن من مجلة المجمع العربي بدمشق ، وأنا مع احترامي الصادق الدكتور المعلوف باشا لا أرى من الانصاف أن أتقيد أنا أو غيري بهذه الألفاظ ما دامت هناك الفاظ تساويها في القيام بالغرض ، على اني مع ذلك لم تتح لي فرصة الاطلاع على هذين المجلدين من المجلة المذكورة

وهناك ملاحظات اخرى لا اراني في حاجة الى الرد عليها لأنها من قبيل هذه الملاحظة الاخيرة . وقبل ان اختم هذه الكلمة اشكر لحضرة الأمير مصطفى الشهابي حسن عنايته بتتبع مقالاتي في هذا الموضوع ١٠ اغسطس ١٩٣٩ محمود مصطفى الدمياطي

حول رسائل الدكتور اسماعيل أدهم

حضرة رئيس تحرير المقتطف

بعد تقديم واجب التحية : قرأت في العدد الاخير من المقتطف بحثاً للدكتور اسماعيل احمد أدهم عن اتجاهات الشعر العصري . وقد نسب اليَّ الدكتور أدهم رأياً قال أني حدثتهُ به . وهذا الرأي يتناول الادب المصري عامة وشعر مطران خاصة

ولقد أفهم ان يروي عني خبراً ولكن نقل الآراء في هذا المعرض من الامور غير المألوفة الا ان يكون الرأي مدوناً في كتاب او مقتبساً من محاضرة او غير ذلك مما يكون صاحبهُ قد هيأه للنشر

وانهُ لمن المتعين عند رواية الاخبار في كل حديث أن تكون مطابقة الواقع ولذلك يجوز نقلها في كل حال . أما أحاديث السمر التي لا يعرف المتحدثون فيها ان كلامهم سينشر فهي من أسرار المجالس ان كانت . على أني انما اتلطف بهذه المقدمة تحاشياً من صريح التكذيب ومنعاً للاحراج وأعلن أني لا أرى الرأي الذي نسبهُ اليَّ الدكتور وليس من حقه ان ينشره ان كنت حدثتهُ بهِ لاني لا أعلمهُ يزورني ليشرفني بعقد حديث صحفي معي

على أني بعد ذلك لم أحدثهُ بهذا الرأي وعليهِ مني أزكى التحيات وأطيب السلام

عبد اللطيف النشار

حول مناظرة « مباحث عربية »

روى الدكتور بشر فارس في مقاله « حول مباحث عربية » المنشور في مقتطف اغسطس ١٩٣٩ (صفحة ٣٥٦) ان الدكتور اسماعيل احمد ادهم أخذ فكرة النقد الباطني والخارجي عن الاستاذ صديق شيبوب . ثم تلقينا منهُ كتاباً من الاسكندرية لحصناه في قولنا أن ما اشار اليهِ ليس قرين الصواب لان الدكتور ادهم كان اسبق الى الاشارة الى هذه المسألة من الاستاذ صديق . وبعد ظهور مقتطف اغسطس كتب الاستاذ صديق في « البصير » مصححاً الرواية قال « حقيقة ما جرى ان لا الدكتور ادهم اخذ عني ولا أنا أخذت عنه . ومثل هذا النقد سهل يدور في ذهن كل اديب مارس قليلاً الكتابة باللغة العربية . وقد جرى أني بينما كنت اطالع « مباحث عربية » تنبهت الى هذا المأخذ ثم جاءني الدكتور ادهم زائراً وتحدثنا عنهُ فأشار في معرض حديثهِ الى هذا النقد فأجبته انهُ جال في خاطري » . فوجبت علينا الاشارة الى ذلك وضعاً للحق في نصابه



أنواع القنابل

التي يستهدف الناس خطرها من الجو

لا يخفى ان عواصم الدول الاوربية ، والعاصمة المصرية وكذلك الاسكندرية ، وغيرها من مدن البلاد المختلفة قد اعدت المعدات لوقاية الشعب من اضرار الحملات الجوية . ففي الحرب الحديثة تختلط الاهداف العسكرية البحتة بالمدن الآهلة بالسكان والعامرة بالصناعة مع احتمال خلوها من المعاقل والحصون وحشد الجيوش وبعدها عن خطوط القتال .

والخطر المرتقب من الجو ، هو خطر القنابل المختلفة التي ينتظر ان تمطرها الطائرات المهاجمة وهي ثلاثة اصناف بوجه عام

اولاً — القنابل المنفجرة وهي احجام متفاوتة وقد تبلغ من الضخامة بحيث تحتوي القنبلة منها على طن من المادة المتفجرة . فتدمر كل ما تصيبه من هدف . وقد اثبتت التجارب ان الوقاية من هذه القنابل تقتضي طبقة عمقها ٨٠ قدماً من التراب او ١٢ قدماً من الاسمنت المسلح . ويفضلون في انكلترا طبقتين سميكتين من الاسمنت المسلح بينهما طبقة سميكة من التراب . وفي وسع قنبلة من هذا الصنف ان تدمر بناية ضخمة وتصدع المباني التي حوالها اما الاهلون فمن المتعذر عليهم ان يصنعوا شيئاً للوقاية من هذه القنابل ، الا الالتجاء الى المخابىء المعيقة التي تنشئها الحكومات ، او إلى الانفاق ، او الادوار الارضية من بعض المباني الضخمة العالية المبنية بالاسمنت المسلح

ومن حسن الحظ ان هذه القنابل الضخمة لا تحمل الا في قاذفات القنابل الكبيرة . وهي على الغالب بطيئة الحركة بالقياس الى سرعة المطاردات علاوة على أنها أهداف سهلة لقنابل المدافع المضادة للطائرات لكبرها . وعلى ذلك فهناك فريق من الخبراء مثل كومودور الجو الانكليزي تشارلتن يذهب الى ان الحماية ضد قاذفات القنابل حماية تامة متعذرة ولو اجتمع ضدها المطاردات والمدافع المقاومة للطائرات والانوار الكشافة وسد البلونات وذلك لانها تصبح خطراً من ساعة قيامها من مطارها لان ما فيها من المتفجرات خطر عظيم سواء أقذف منها قصداً أم أصيبت وهوت محطمة الى الارض

ثانياً — قنابل الغازات — والدليل على ما ينطوي في هذا النوع من القنابل من خطر الاستعدادات الواسعة النطاق لتجهيز الشعب كباراً وصغاراً بالاقنعة الواقية من الغازات

والتعليمات التي تصدرها مصالح الوقاية، الخاصة بانشاء حجرة خاصة في كل بيت يستطيع أهله أن يلجأوا اليها الى أن تعلن الصفارة أن خطر الغارة قد انتهى ، وتمرين الشعب ورجال البوليس على مقتضيات حفظ الأمن في اثناء هذه الغارات ومنع الذعر وهو اعدى اعداء الشعب في مثل هذه الغارات

***

وكثيراً ما يتناقش الناس في احتمال وجود غاز جديد سري كشفته احدى الدول وأخفته الى اليوم المطير ، وليس هناك ما يمنع ان يكون ذلك كذلك ولكن ما عرف من دراسة الغازات التي تصلح للاستعمال في الحرب ، اقنع الباحثين، بأن احتمال ذلك ضعيف جداً . ففي الحرب الكبرى درست ٣٠٠ مادة كيميائية تصلح من حيث خواصها الكيميائية للاستعمال في الحرب، ولكن اكثرها لم تجتمع له الخواص والصفات العامة الاخرى (وقد اوجزناها في النبذة التالية) فلم يصطفوا من الـ ٣٠٠ مادة بعد التجربة والامتحان الا ست مواد

ثالثاً — قنابل الاحتراق ، وخطرها على الحياة قليل بالقياس الى خطرها على الاملاك فالقنابل المتفجرة الضخمة تدمر ما تصيب ولكنها غالية الثمن ثقيلة الوزن وقد لا تستعمل الا ضد الاهداف العسكرية الرئيسية . ولكن قنابل الاحتراق خفيفة الوزن صغيرة الحجم اشبه ما تكون بقنابل اليد ، وهي اذا مست جسماً صلباً ولدت حرارة تتفاوت بين ٢٣٠٠ درجة و٢٧٠٠ درجة سنتغراد والمادة التي تولد هذه الحرارة العالية فيها هي مادة الترميت فاذا لم تعد المعدات الواقية لمقاومتها وحصر تأثيرها حيث تقع ففي وسع الطائرة المغيرة ان تلقي مئات منها أو ألوفاً فتحدث حرائق صغيرة حيث تقع ولا تلبث حتى تتحول الى نار كبيرة مشبوبة يعجز رجال المطافىء عن السيطرة عليها فتشل الادارة من ناحية وتحدث خسائر كبيرة مادية وفي الارواح من ناحية اخرى ، وخصوصاً اذا كانت الريح مساعدة على نشر النار بعد شبوبها

والقاعدة في الوقاية منها حصر تأثيرها وذلك بفرش السطوح بالرمل، لانهُ اذا وقعت القنبلة وولدت الحرارة التي تقدم ذكرها، واحيطت بالرمل منعت من ان تصيب اشياء قابلة للاحتراق فلا تلبث حتى تنطفىء وينقضي شرها وخطرها

أهم الخواص
التي يجب ان تتصف بها المادة الكيميائية الحربية

١ — يجب ان تكون فعالة اذا وجدت مقادير يسيرة منها منتشرة في مقادير كبيرة من الهواء . والمقصود أجزاء صغيرة من المادة الكيميائية في ملايين الاجزاء من الهواء . فاذا كانت المادة غير فعالة في هذه الحالة فهي لا تصلح للاستعمال في الحرب ، ويقول أحد

الثقات الكيميائيين ان غاز الفوسجين يكون قتالاً اذا وجد منهُ ٤ / ١٠٠ من الأوقية في ألف قدم مكعبة من الهواء . أي ان تكون نسبة الغاز الى الهواء كنسبة واحد الى ١٠٠ الف واذا كانت أقل من ذلك واستمرَّ المرء يستنشق ذلك الهواء بضع دقائق متوالية فقد يستنشق منهُ ما يكفيهِ للاصابة بتسمم مميت . وغاز الخردل فتاك في مقادير صغيرة كذلك ، ويكفي ان يكون منهُ ٦ / ١٠٠ الى ٢ / ١٠ من الأوقية في الف قدم مكعبة من الهواء ليفعل فعله القاتل . والتفاوت سببهُ طول مدة التعرض المستمر لاستنشاقه او قصرها

٢ — يجب ان تكون المادة الكيميائية الحربية مما تصعب الوقاية منها . اي يجب ان تخترق الأجهزة التي يستعملها العدو للوقاية منها . او اضعاف عملها على الأقل . اي انهُ لا يكفي ان تحمل هذه المادة الجنود على لبس الاقنعة ، مهما يكن في لبسها من عرقلة لعمل الجندي بل يجب ان تؤثر في اجزاء الجسم المختلفة ، في اغشية الرئتين والعينين والانف والجلد ، لأن تغطية الجسم كله من الرأس الى اخمص القدم والاطراف ليس بالامر السهل . وغاز الخردل يتصف بهذه الخاصة ، والوقاية منهُ تقتضي ان يرتدي الجندي رداء مصنوعاً من قماش لا يخترقهُ الغاز وهذا الرداء اذا غطى الجسم تغطية تامة أرهق الجندي وعرقل عمله وجعل القتال وهو مرتديه متعذراً عليهِ اكثر من بضع دقائق

واذا كان لا يؤثر في اعضاء كثيرة في الجسم فيجب ان يكون في وسعهِ اختراق الاقنعة ، اي يجب ان لا تمنعهُ المواد التي توضع في الاقنعة للتصفية . والكلور وهو اشد الغازات فتكاً لا يصلح من هذا القبيل لانهُ سهل الامتصاص . وقطعة من القماش المغموس في الصودا تكفي اذا وضعت على الانف لمنع وصوله الى الرئتين . ولكن هناك مركب منهُ يدعى «كلور بكرين» الوقاية منهُ صعبة جداً

٣ — يجب ان يكون صنعه سهلاً ، ونفقته غير مرهقة . وهذا لاسباب اقتصادية ولا سيما اذا عرفنا ان مقادير كبيرة من الغاز تبذل في الجو ، في هذا المحيط الهوائي المتسع ، حتى يتاح لقليل منها ان يفعل فعله . ومما يتصل بهذه الناحية منهُ ان صنعهُ يجب ان يكون متاحاً من مواد متوافرة في البلاد نفسها فلا ترهق باستيراد مواد اجنبية علاوة على ما تحتاج الى استيراده من المواد الاخرى اللازمة للصناعات الحربية والغذاء

ثم ان نقله يجب ان يكون سهلاً وغير محفوف بالخطر . وكل مادة يصعب حصرها في انابيب او اسطوانات ، او تأكل الاسطوانات بتفاعلها الكيميائي معها ، او قابلة للتفجر ينقص صلاحها للاستعمال الحربي . ثم يجب ان يكون مستقرَّ التركيب اذ ما الفائدة من غاز تصنعهُ وتخزنهُ في اسطوانات ثم اذا انقضت عليهِ أيام او اسابيع تحلل الى مواد لا تضر ولا تؤذي

وأخيراً يجب ان يكون لا لون لهُ ولا رائحة ولا طعم . وليس هناك غاز يجمع هذه الخواص الثلاث ويفتك بالانسان الاَّ غاز واحد

وهو أول اكسيد الكربون. ولكنهُ لا يتصف بالخواص الاخرى . وغاز الخردل يفوقهُ بوجه عام كما يفوق جميع المواد الكيمائية الحربية بوجه عام

جوائز نوبل العلمية

منحت جائزة نوبل الطبية (سنة ١٩٣٩) للدكتور جيرارد دوماك Domagk الالماني الذي أنقذ ألوفاً من براثن الموت باكتشافه مادة البرنتوزيل وهي صبغ أحمر غير سام عرف دوماك انهُ يقي الفيران من فعل الجراثيم الستربتوكوكية اذا تناولتهُ عن طريق الفم

صنع هذا الصبغ أولاً على يدي الباحثين الدكتور فرتز ميتش Mietsch والدكتور جوزيف كلارر Klarer ومن المرجح ان عشرات من الكيميائيين والاطباء في شتى أنحاء العالم جربوا التجارب بمركبات كيمائية من قبيل البرونتوزيل سعياً وراء مادة كيمائية تقتل الجراثيم وتقي الناس شرورها

ولكن بحث الدكتور دوماك في الفيران ورسالتهُ التي ضمنها نتائج بحوثهِ كانت الحافز الذي حفز علماء أميركا والمانيا وبريطانيا وفرنسا الى موالاة البحث والتجريب، فأحلوا السلفانيلاميد والسلفابيريدين محلَّ البرونتوزيل فأحدثوا انقلاباً خطير الشأن في علاج الامراض بالمواد الكيمائية . وقد عرضنا لهذا الموضوع في المقتطف وكتابنا الجديد « آفاق العلم الحديث » (راجع صفحة ١٩٧ — ٢٠٥)

***

وقد منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٨ (وقد تأخر منحها) للاستاذ هيمانس Heymans أحد أساتذة جامعة جنت Ghent البلجيكية لكشفه أحد الاساليب التي تضبط التنفس وهو بحث فسيولوجي دقيق لا يتسع المجال هنا للتبسط في نواحيهِ الفنية

***

ومنحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٩ للاستاذ لورنس أحد علماء معهد كاليفورنيا التكنولوجي جزاء لهُ على استنباط السيكلوترون (الجهاز الرحوي) فاستطاع ان يقذف بهِ دقائق ذرية رذرفوردية على نوى الذرات بطاقة عظيمة فتتحول العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة . (راجع آفاق العلم الحديث صفحة ٨٩ — ٩٩)

اغلاق الجامعات الالمانية

تلقت مجلة « العلم » الاميركية من مكاتبيها في اوربا ان الحكومة الالمانية قررت اغلاق جميع جامعاتها ما عدا جامعات برلين وميونخ وينا وفينا . واذا اخذنا بعدد الطلاب الذين كانوا يتلقون العلوم العالية في جامعات المانيا في خلال سنة ١٩٣٧ — ١٩٣٨ علمنا ان ايصاد

ابواب الجامعات عدا الجامعات الاربع التي تقدم ذكرها سيوصد أبواب العلم العالي في وجوه ثلاثين الى خمسة وثلاثين الف طالب الماني غدوا مكرهين على الانصراف عن الطلب الجامعي . ففي ١٩٣٧ — ١٩٣٨ بلغ عدد الطلاب في جامعات المانيا ٤٧٤٧٠ طالباً منهم ٧٤٦٣ طالباً في جامعة برلين و ٤٩٣١ طالباً في جامعة ميونخ و ١٠٣٣ طالباً في جامعة يانا ومجموعهم ١٣٤٢٧ فاذا لم تتسع هذه الجامعات الثلاث لعدد من الطلاب اكبر من العدد الذي كان منتظماً فيها في السنة الماضية (١٩٣٧ — ١٩٣٨) فسيضطر الباقون الى التخلي عن طلب العلم الجامعي

وليس ثمة ريب في أن هذا سيحط من مستوى العلم والبحث العالي في المانيا في الجيل المقبل اذا لم يتدارك هذا النقص

خط الدفاع الاول ضد الزكام

يرى الطبيب الاميركي الدكتور كنت ليجر Loisure ان الغشاء المخاطي الرطب في داخل الانف هو خط دفاعنا الاول ضد الزكام . فاذا اصيبت الغدد التي تفرز هذا المخاط بما يعجزها عن الافراز مدى نصف ساعة تمكن فيروس الزكام من اختراق هذا الخط من خطوط الدفاع الى انساج الجسم . فاذا أحسست بجفاف في الغشاء المخاطي الذي يغطي باطن الانف والحلق فاعلم ان حصونك الاولى ضد مسببات الزكام قد استسلمت او بدأت تستسلم للعدو

لو كان لينين حياً . . . !

قيل ان تروتسكي الزعيم الشيوعي المبعد — المقيم الآن بدار في مدينة المكسيك ببلاد المكسيك — غافل حراسه في احد الايام وقصد الى جدول ليصطاد السمك رغبةً في الرياضة . واذ كانت صنارته في الماء وهو على الضفة بعالجها طلع عليه فلاح صياد كذلك فتبادلا التحية واشتركا في حديث الصيد . ثم انتقل موضوع الحديث فالتفت الفلاح الى تروتسكي — وهو لا يعرف من هو — وقال أصحيح ان تروتسكي مات ? فقال تروتسكي لا إن تروتسكي لم يمت لانهُ لو مات لما كنت أصطاد هنا . فلم يلمح الفلاح النكتة في العبارة فقال لعلني اخطأت القراءة او اخطأت التذكر ولعله ستالين هو الذي مات . فقال تروتسكي لا لا ستالين لم يمت لانهُ لو مات ستالين لما كنت هنا اصطاد . فكانت هذه العبارة اشد غموضاً على صاحبنا الفلاح وكأنهُ ظن الرجل الذي امامه يواجههُ بالالغاز فقال له : طيب لنين حي . كيف تفسر ذلك ? فقال تروتسكي لا . لا . لنين مات لانهُ لو كان لنين حيًّا لكان حتماً يصطاد هنا . . !

جزائر آلند

جزائر آلند أرخبيل واقعة في خليج بوثنيا الممتد شمالاً من بحر بلطيق بين ساحلي فنلندة الى الشرق والسويد الى الغرب. والجزائر تبعد ٢٥ ميلاً عن ساحل السويد و١٥ ميلاً عن ساحل فنلندة. ومجموع مساحتها ٥٥١ ميلاً مربعاً وسكانها نحو ثلاثين ألفاً معظمهم من أصل سويدي

الجزائر تابعة لفنلندة ولكن لها نظام اداري خاص بها قاعدته الاستقلال الذاتي وهناك اتفاق على الامتناع عن تحصينها قضت به عصبة الامم وذلك عوداً الى تنفيذ اتفاق دولي سابق من هذا القبيل عقد سنة ١٨٥٦

وليس للجزائر قيمة اقتصادية . وانما قيمتها الاستراتيجية عظيمة . فخلجانها الصخرية تتحكم بالمواصلات البحرية من الشمال الى الجنوب — وعن هذا الطريق تستورد المانيا جانباً كبيراً من ركاز الحديد السويدي الممتاز — ثم أنها واقعة أمام مدخل خليج فنلندة

وفي نهاية هذا الخليج مدينة لننغراد الروسية وعلى ضفته الجنوبية قاعدة كرونستاد البحرية ويضاف الى كل هذا أن استعمالها قاعدة جوية يهدد كثيراً من مناطق فنلندة والسويد الصناعية ولاسيما السويد ومن هنا حكم عصبة الأمم بعدم تحصينها ولا يعلم مايكون مصيرها الآن والحالة هي ما هي بين روسيا وفنلندة

ذكاء القردة : قرد ينصرف كانسان مهذب

جرَّب حديثاً الدكتور مينرا Meanerat الجرَّاح البيطري الذائع الصيت في مدينة باريس تجربة مفيدة جدًّا في علم النفس الحيواني ، وهي انهُ احضر معهُ منذ عشر سنوات ، عند أوبته الى وطنهِ من سياحة علمية قام بها في مجاهل أفريقية ، قرداً من نوع الشمبنزي ، عمره سنتان ، كان قد صاده في أحد الادغال

وما استقرَّ بهِ المقام في داره ، حتى بذل هو وزوجته وولداهما ، أقصى جهودهم في حسن معاملة ذلك القرد الصغير وتهذيبه ، حتى جعلوه ينسى وحشيته ثم أطلقوا عليهِ اسم فاطو Fatou

فكانوا يعاملونهُ كأنهُ بشر ، مجتنبين تدريبه تدريباً خارقاً للعادة ايًّا كان نوعه ، ولم يكتفوا بجعلهِ يسلك سلوك انسان ، بل حملوهُ على تكييف نفسه رويداً رويداً ، تكيفاً يتفق والاوساط الراقية . وقد أدب حديثاً الدكتور مينرا مأدبة في داره ، دعا اليها نخبة من العلماء ومندوبي الصحف ، حيث عرض عليهم « فاطو » عرضاً عامًّا اول مرة . فدخل ذلك القرد المهذَّب حجرة المائدة ماشياً على قدميه الخلفيتين ، منتصب القامة ، فأغلق بابها خلفه ، ثم دنا من ضيوف سيده وصافحهم واحداً فواحداً غير وجل ولا مضطرب . ثم جلس في مؤخرة المائدة وشرع في تناول الطعام أسوة بالمدعوين جميعاً ، بكل اعتدال دون ادنى زلل

وكان الغذاء حساء وسمكاً ولحماً وبطاطس وحلوى وفواكه ، فسلك القرد سلوكاً ينم على كبح النفس الى أقصى حدّ ، فكان يتناول

في دوره الصحون من جاره، ويغرف منها قسطهُ من الطعام، ثم يناولها لمن يليهِ من الجلوس مباشرةً ولم يؤخذ عليهِ من سلوكه في الاكل، إلاَّ تناولهُ من الفواكه والخضراوات اكثر مما ناله كل ضيف

وأمسك فاطو كأس الخمر بيده بكل اناقة ورشف ما فيها رشفاً وئيداً. وما أخذ نصيبه من الحلوى والفواكه، حتى انتصب واقفاً على غرة من الحضور، وقصد الى سيدته، مدام مينيرا، فربت على كتفها. وفاه بكلمة «ماما» يا ماه، بصوت واضح. ثم قصد الى قارورة خمر أبيض من منتجات بردو، وهو مشروبه المحبوب فشربها

وعندما قدمت القهوة الى الضيوف، طلب الدكتور مينيرا السجائر، فأسرع فاطو الى خزانتهِ فأخرج منها علبة من السيجار ورزمة من السيجارات، وقدمها الى ضيوف سيده، واحداً فواحداً ولم ينسَ ان يقدم الى كل منهم أيضاً القداحة، ليشعل بها سيجاره او سيجارته. ثم تناول هو كذلك سيجارة وجلس على أريكة وبجانبه منفضة السجائر حيث جعل يدخن السيجارة، متلذذاً بالتدخين. وما فرغ منها حتى اطفأ عقبها في المنفضة بكل حذر

وكان فاطو وقتئذٍ مرتدياً قميصاً فضفاضاً وبنطلوناً خفيفاً وحذاء من الخيش. ولفاطو حجرة خاصة محتوية على مائدة وكرسي هزاز وسرير ومشجب وحوض للاستحمام. ويفتح فاطو الحنفية لنصب له الماء الذي يحتاج اليهِ ويقيس درجة حرارة الماء. ثم يستحمّ ويجفف جسمه ويرتدي ثيابه كأنهُ انسان.

وقد ابيح له ان يطوف بأرجاء دار سيده كيف شاء. وهو يفعل ذلك دون احداث اي تلف في اثاثها. ولكنه لا يدخل مخزن المؤونة بغير استئذان. ولا يعتقل في حجرته الاَّ في ساعات اشتغال سيده الطبيب بعلاج الحيوانات، وذلك خشية خوفها منه

وعند انتهاء المأدبة، بسط الدكتور مينيرا تجربته فقال، ان تدريب فاطو ليس على غرار تدريب القرود التي تعرض في ملاعب الحيوانات (السرك) بل ان كل ما يستطيع الشيمبنزي فعله قد تعلمه فاطو، من تلقاء نفسه. وان عائلة الطبيب مينيرا لم تتعب قط في تعليم ذلك القرد اذ هو يسلك ذلك السلوك كشيء معتاد لا على سبيل التمثيل. وان الطريقة التي اتبعت في تهذيبه، لم تختلف عنها في تهذيب الطفل البشري

وقد تعلمُ كيفية فتح الابواب والادراج، وفتح مفاتيح المصابيح الكهربائية وأسلوب استعمال الشوك والسكاكين، بذكائه الفطري. وأما كلامه فلا يزيد على لفظ واحد وهو «ماما» الذي اقتبسهُ من ولدي سيده عن طريق التقليد. ويرى الدكتور مينيرا أن تلك الكلمة الفريدة، أساس اللغات البشرية جميعها وانها تكاد توجد في لغات العالم أجمع. وهي أسهل لفظ يتاح للقرد التلفظ بهِ إذ هو يتولد بذاته عند فتح الشفتين فتحاً مقروناً بالصوت مرتين متعاقبتين

عوض جندي



مع ابي العلاء في سجنه

تأليف الدكتور طه حسين بك ـ صفحاته ٢٤٥ — طبع بمطبعة المعارف بمصر

أتاحت لي مطالعة هذا الكتاب النفيس لمؤلفه الاديب العظيم الدكتور طه حسين ، نهزة من نهزات الفن الرفيع والأدب العالي ، قلما تسنح النفس في وسط ما يحيط بها اليوم من شواغل الحياة واحداث العالم المضطرب ، واني لأجد علاقة وثيقة بين هذه الشواغل والاحداث ، وبين موضوع الكتاب نفسه ، بل بينها وبين الفلسفة العلائية إطلاقاً ونفاذ نظرتها في السياسة والاجتماع ، فلا يذهب بنا الفكر قريباً او بعيداً في مشكلات أنفسنا وفيما يصطرع حولنا في العالم الذي نعيش فيه من مذاهب الاجتماع او السياسة ، حتى نذكر أبا العلاء ونذكر قوله : —

كلابٌ تغاوت اوتعاوت لجيفةٍ وأحسبني أصبحت ألأمها كلبا

فهذا الشاعر الضرير ، الذي فرضت القدرة على بصره سجن الظلام وفرضت روحانيته على نفسه سجن الدار ، وفرضت الحياة على روحه سجن الجسم ، هذا الشاعر المسكين ، المنفرد بأشد ألوان الألم ، وأقسى ضروب الحرمان ، لم تستطع سجونه الثلاثة هذه ان تفصله عن الحياة ، ولا ان تلقي حجاباً بينه وبين حقائقها ولا ان تعطل تفكيره بالعالم الذي يحيط به ، ولا ان تسلم احساسه بحركات الزمن ، الى الغفوة والاضطراب

فلو انهُ كان المبصر المؤانس ، المندمج في الحياة أشد الاندماج ، المختلط بالناس اكثر الاختلاط ، المستغرق في دنياه بكل جوارحه ، لو انهُ كان هذا الرجل حقاً ، لما كان غير أبي العلاء نفسه الذي نقف منهُ اليوم ونعرفهُ باستقامة تفكيره وسلامة منطقه ونفاذ النظرة وصواب الحسية ، ولما غير هذا الافتراض من آرائه حكماً ولا زاد عليها رأياً ولما ظفرنا بأوضح من هذه الصور الرائعة التي رسمها عقله ، فأطلعنا بها على طبائع الناس وغرائزهم ، وأظهرنا بها على أخفى سرائرهم ، وأدق ميولهم ، وسيتجدد الليل والنهار دائماً دون ان نجد في يوم خلاف ما خاطب به هذا القطيع الخالد من البشر بقوله : —

يرتجي الناسُ ان يقوم امامٌ ناطقٌ في الكتيبةِ الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما أطعتهُ جلب الرحمـــة عند المسير والارساء
انما هذه المذاهب أسبا بٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

تكلم الدكتور طه حسين في كتابه هذا عن هذه السجون الثلاثة التي لزمها شاعرنا الفيلسوف ، فأربى على الابداع ، وصورها اجمل تصوير وعلل فلسفة الزهد والتسامي التي آثرها أبو العلاء تعليلاً صادقاً، يرجع الى أصول من المنطق ، وأسباب من النفس ، وظروف كانت تلابس حياة الشاعر وقومه في ذلك العهد ، وتكلم الدكتور طه عن الايمان في نفس الشاعر ، وعن الشك الذي اضطربت به نفسه احياناً ذلك الشك الذي تلقي بعض اشعاره ظلالاً عليه ، فيمعن في الغموض والابهام وهو القائل : —

دنياكَ لو حاورتك ناطقةً خاطبتَ منها بليغةً لسنه
ليفعل الدهر ما يهم به إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تيأس النفس من تفضله ولو أقامت في النار الف سنه

وهو القائل معترفاً متعبداً : —

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجدُّ كما جدوا وألهو كما لهوا
وأشهد اني بالقضاء حللتها وأرحل عنها خائفاً اتأله

فهذه الآراء وما يناقضها في مثل قوله : —

أفيقوا ، افيقوا ، يا غواة فانما دياناتكم مكر من الزعماء

قد افرد المؤلف لها حديثاً جامعاً احاط بقضيتها إحاطة دقيقة شاملة فقال (ففي نفس أبي العلاء اذن اسرار مكتومة قد طال ضنه بها ، وكتمانه لها ، فما عسى ان تكون هذه الاسرار ، أظن انها هذه المذاهب التي يتقدها أبو العلاء في اللزوميات مصرحاً مرة ، وملمحاً مرة ، ومحتاطاً دائماً ، وهو على كل حال يصطنع فيها التقية ، فقل انهُ يذهب في هذا مذاهب الشيعة ، أو قل انهُ يذهب في ذلك مذاهب كثير من الفلاسفة القدماء الذين كانوا يرون من العلم ما يباح للناس جميعاً ، ويرون منهُ ما لا يجوز الافضاء بهِ الاَّ للاكفاء القادرين جميعاً على تلقيه وتحمله)

أما اللزوميات ، وما اصطنعهُ فيها ابو العلاء من التزام الجناس في الالفاظ وتشابه الحروف في الكلمات ، فقد كشف لنا المؤلف عن حقيقته ، وأبان لنا عن دوافعه وبواعثه ، فما مهد بهِ لحياة الشاعر في اكثر فصول الكتاب وما كان يضيق بهِ من الفراغ والسأم والوحشة ، فيفزع الى هذا الضرب من النظم تسلية ولهواً ، يصفهما المؤلف بأنهما لون من الوان العبث البريء فيقول « وربما اكتفى ابو العلاء أحياناً بالجناس المقارب الذي لا تشابه فيهِ الحروف كلها في الكلمتين وانما يتشابه اكثرها ، ولو ان أبا العلاء عمد الى هذا الجناس في البيت بين حين وحين لكان هذا منهُ مستطرفاً مستحبًّا كشأنه في هذا العبث اللغوي او في ذلك العبث النحوي ولكنهُ يلتزمهُ في القصيدة كلها او في اكثرها والغريب انهُ اذا عمد الى هذا النوع من الجناس في

قصيدة ، طوّلها وتجاوز بها قدر المألوف في القصائد والمقطوعات في اللزوميات مبالغة في اظهار براعته وتفوقه وسيطرته على اللغة ، افتظنه لم يفعل هذا الاّ لانهُ أراد ان يروّض نفسه على الجهد في الانشاء ؟ كلاّ . بل هو قد فعل ذلك ليسلي نفسهُ ألم الوحدة وليهوّن عليها احتمال الفراغ ويشعرها ويشعر الناس بأنهُ قد ملك اللغة وسيطر عليها فهو قادر أن يسخّرها لما يشاء ويصرفها كما يريد ، ويعبث بها ان اراد العبث »

وأشهد ان هذا التعليل البديع الذي ساقه المؤلف في امتع سياق ، قد حبب اليّ مراجعة اللزوميات وصرف عني الضيق بها والتمرد عليها ، وأشهد ان هذا التعليل قد عطف سمعي على رنين هذه الكلمات المصطنعة ، وأقنعني باستقراء هذا العبث المفيد الذي اكسب اللغة لوناً فريداً لم يكن لها حظ فيه لو ان الشاعر وجد تسليته في متع الحياة ولذاتها ، كما فعل بشار ، وفيما صنعهُ الخيام شاعر الفرس العظيم ، فأبو العلاء والخيّام شاعران كانت لكل منهما فلسفة متقاربة المرامي غايتها استكناه أسرار الكون ، واستشراف المجهول من الحياة ، واستطلاع حقائقها ، ولكن القصور الانسانيّ ردّهما عن غايتهما ، وأشعرهما بالعجز وأورث كبرياء عقلهما حسرة وندامة ، فأما الخيّام فقد انصرف الى متعة الحس انتقاماً من هذا الضعف والعجز ، فأقبل على الشراب واستمرأ لذة الجسد ، مع أنهُ المبصر المؤانس ، المشغوف بعجائب السماء ، وأما أبو العلاء ، وقد كان أحق منهُ بهذا الاتجاه ، وحسب هذا الظلام الخالد الذي ضرب على حياته نطاقاً ان يثير فضوله لتذوق هذه المتع ويقوي فيه شهوة الانتقام ويدفعهُ الى جانب لين من الحياة ينسيه هذا الجفاء وهذا التيه المقفر الذي يضرب فيه ، ولكن أبا العلاء كان غير ذلك لأن روحه طغت على آدميته وكان غير ذلك أيضاً لأنهُ كان رجلاً خيراً بكل ما في هذه الكلمة من المعاني ، ولأنه كان يؤمن بفلسفته ، ويؤثر الناس بحبها ، ويدعوهم ملوكاً وسوقة الى التفلسف في الحياة كما تخيّل أفلاطون في جمهوريته ، ومع أن أبا العلاء قد أخذ على الناس خضوعهم لأحقادهم وشهواتهم الاّ أنهُ لم يأخذهم بالوعيد الكاذب كما قال المتنبي : —

ومن عرفَ الايامَ معرفتي بها وبالناسِ روَّى رمحهُ غير راحمِ

ولكنهُ التزم في دعوته طريق الفلاسفة وهدوء منطقهم واتزانه فقال : —

وأيٌّ بني الأيام يحمد قائلٌ ومن جرَّب الأقوام اوسعهم ثلبا

ولو نظر الناس الى الحياة نظرة ابي العلاء في قوله : —

ولو اني حبيتُ الخلدَ فرداً لما احببتُ بالخلد انفرادا

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

لما كان هناك شاعر يقول كعروة الصعاليك : —

وإني لاستحي إلهي ان أرى أسيراً وحبلي ليس فيه بعير
وان اسأل الحيس اللئيم بعيره وبعران ربي في البلاد كثير

ولما ارتفعت منهُ هذه الصيحة النكراء : —

ذريني للغنى أسعى فاني رأيتُ الناسَ شرهمُ الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسبٌ وخيرُ
ويُقصيه النديُّ وتزدريه حليلتُه وينهره الصغيرُ
وتلقى ذا الغنى وله جلالٌ يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليل ذنبه والذنب جمٌّ ولكن للغنى ربٌّ غفورُ

وبعد ، فأني لأدعو مخلصاً الى الاحتفال بهذا الكتاب الثمين ، الذي أشعر ان نفس المؤلف تتكلم في كل حرف منهُ وأن روحه القوية المشرقة تتدفع في كل عباراته ، ذلك أنها منبثقة من ينابيع عميقة ثرة ، مطلة من آفاق سحيقة رحبة ، هذه الينابيع العميقة والآفاق السحيقة ، لم تكن إلاَّ لأديب فذ ، مطلع محب لأبي العلاء متجاوب معهُ انفرد دون أدباء جيله بالاحتفال بهذا الشاعر منذ سنوات بعيدة

ولقد يبدو الدكتور طه حسين متطرفاً في بعض آرائه وأحكامه ذلك أنه رجل ثورة ، ورائد من روّاد الحركات الفكرية التي يدعو اليها تطور الحياة في الامم ،ولكنهُ لا يبدو في هذا الكتاب إلاَّ منصفاً شديد الانصاف ، قرأ أبا العلاء لأنهُ أحبَّه وقدَّره وكتب عنه لأنه أعجب به وآثره ، أحبه لأن الأدب العربي لم يجد مثال الصدق إلاَّ في أدبه ،ولم يرفع منار الاستقلال في الرأي إلاَّ به ، وآثره لأن عظمة هذا الشاعر لم تكن إلاَّ دعة وتواضعاً ولم تكن فلسفتهُ سبيلاً الى نيل الشهرة ، وإصابة المنفعة ، ولكنها كانت حقائق مستمدة من الحياة التي زاولها وزهد فيها ، ومستمدة أيضاً من نفس الشاعر وذات تجاربه ولأنها مبنية على أصول من المنطق والمعرفة ، ولأن الشاعر قد جعل حياتهُ مثلاً على سمو هذه الفلسفة ودليلاً على إصالتها ، وبرهاناً على صدقها

ولو أني قلت ان هذا الكتاب من أعظم ماظهر في انتاجنا الادبي هذا العام ، لما تعديت القول انهُ من أعظم المؤلفات الحديثة ، ان لم يكن أرفعها مثالاً وأنبلها غاية ، وأوسعها تخيلاً واستقراء لشخصية شاعر من أعظم شعراء العربية وأكبر فلاسفتها ، ولم يكن لها غير الدكتور طه حسين ليقدم ويسبب ويستخرج هذه النتائج منها

علي محمود طه

قواعد العربية الفصحى

٥١٤ من القطع الكبير — باريس ١٩٣٧ (ظهر في ١٩٣٩)

Grammaire de l'Arabe classique, par Gaudefroy Demombynes et R. Blachère
Librairie Orientale et Américaine, G. P. Maisonneuve, Paris.

صاحبا هذا الكتاب من اساتذة المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس : احدهما اسمه جودفروا دومامبين وعليه كان بعض تأدبي في السربون — حفظه الله، والآخر اسمه بلاشير وهو مؤلف كتاب نفيس في ابي الطيب المتنبي قد سبق لي ان عرضته على قراء هذا الباب من المقتطف

ان للفرنجة طائفة من المصنفات في قواعد العربية . ورأس هذه المصنفات كتاب دي ساسي De Sacy ، واليه رجع من عرض لذلك الفن وكتب فيه . ولكن علم اللغة خرج من حال الى حال في مختتم المائة التاسعة عشرة بفضل اجتهاد اهل اللسان بعد ان نشروا اطراف البحث على فصائل اللغات المختلفة من هندية — اوربية وسامية . فألف العالم الالماني سوسين Socin كتاباً في القواعد العربية اجراه على منهج علم اللغة الحديث ، وأعاد بروكلمن طبع الكتاب . وهذان مستشرقان من مستشرقي فرنسة يخرجان القواعد العربية بلغتهما مستظهرين بأصول علم اللسان ، مع زيادة في شرح المسائل وعناية بالترتيب والتفصيل مما يقرب منال احكام العربية لطلابها . والقواعد على قسميها المشهورين : الصرف والنحو . ففي الصرف قدم المستشرقان النطق بالحرف على رسمه ، وفي النحو وقفا عند عرض المسائل من طريق الاستشهاد بالفصيح وعدًّا الفصيح من المائة الاولى للهجرة حتى آخر المائة الرابعة . فاستشهدا فيما استشهدا به بالقرآن والحديث الصحيح وكتب الجاحظ وابن قتيبة والأمالي للقالي ، ثم انهُ بدا لهما ان يستشهدا بعد ذلك بمقدمة ابن خلدون على سبيل الاستثناء . هذا وانهما استعانا بما الفه المستشرقون من قبل في ذلك الفن ، فأثبتا ذلك في درج المصادر

وهذا الكتاب جليل الفائدة حسن الترتيب واضح المسلك طويل النفس . على اني اصبت فيه ما لا بدَّ من الاشارة اليه ، وان كان ما اصبته حقير الشأن . واليك بعضه :

١ — في رسم الشواهد — في صفحة ٥٨ : شكي ، والوجه : شكا — بنت حسنة . . . ، والوجه : بِنت — هذا وهل لي ان أسأل المؤلفين لم لا يستعملان علامة الاستفهام في العربية اذا ما استعملاها في الفرنسية للنص المترجم ? (ص ٣١٢ — ٣١٣). ان علامات الترقيم للميسرة

٢ — في ترجمة الشواهد — ص ٢٤٨ : النص العربي : « قد خلقنا فوقكم سبع طرائق » (القرآن س ٢٣ آ ١٧) فجاء في النص الفرنسي : « عليكم » بدلا من فوقكم sur vous ولعل الوجه au-dessus de vous — ص ٢٧٤ : النص العربي : «أراني أعصر خمراً»

(القرآن س١٢ آ ٣٦). فجاء في النص الفرنسي: «أراني أدوس خمراً (أي عنباً لا صنع منه خمراً)» je me vois (en songe) en train de fouler (du raisin pour faire) du vin.

والوجه : en train de presser du vin (du raisin) .. والخمر هنا العنب وسمي العنب خمراً باعتبار مايؤول اليه، على ماهو مشهور

— ص ٣٣٠ : النص العربي : بالامس — وجاءت الترجمة : «أمس» hier. ولعل الوجه (naguère ou jadis) أي فيما مضى

— ص ٣٦٤ النص العربي : «هو كبير جداً» — fort gros. ولعل الوجه fort grand او نحو ذلك

٣ — في احكام القواعد — ص ٢٧٣ : لم يفرق المؤلفان بين «ودّ أن» و «ودّ لو» فان التعبير الاول يفيد : أحب أنّ ، على حين أن في التعبير الثاني معنى التمني (راجع لسان العرب ج ٤ ص ٤٦٨ س ٤ و ١٢ و ١٤).

— ص ٢٧٣ أيضاً : أهمل المؤلفان ورود «قال» بالباء

— ص ٢٧٣ أيضاً : قال المؤلفان إنّ كاد إذا سبقها نفي فهي انما تدل على المقدرة والقوة. والصواب أن كاد اذا سبقها نفي دلت على نفي مقاربة (كما في المفصّل للزمخشري مصر ١٣٢٣ ص ٢٧١) أو على الفعل بعد إبطاء (كما في رواية صاحب المصباح المنير) مادة ك ا د عن الازهري)

وبعدُ فالكتاب فوق أن يعيبه مثل هذه المآخذ وهو حقيق بأن يستضيء به الطالب ويستأنس العالم

بشر فارس

الشعراء اليهود العرب

٢٢٧ صفحة من القطع الكبير : مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

للاستاذ مراد فرج شاعر الاسرائيلية العربي في العصر الحديث ولعٌ باللغة وبحوثها والتعمق في فقهها، ولهذا الولع اثر بارز في شعره الرصين، وهذا نتيجة اشتغاله بمعجمه الكبير «ملتقى اللغتين العربية والعبرية» الذي أصدر منهُ ثلاثة مجلدات ضخمة آخرها في العام الماضي وهو قائم الآن بطبع المجلد الرابع منهُ علاوة على مؤلفاته العديدة التي تبلغ ثلاثة وعشرين مؤلفاً في اللغة والادب والقانون والدين. كما اصدر من شعره اربع مجموعات

وقد أخرج في العام الماضي امثال سليمان منظومة شعراً ومشروحة ومفسرة وقد قصد في ذلك التوفيق بين النص العبريّ للامثال وما يقابله في اللغة العربية فاجتهد ان تكون الكلمة هي هي في اللغتين او من عين المادة بقدر المستطاع وبقدر ما سمح به النظم

ثم قام في هذا العام باخراج الطبعة الثانية من كتابه «شعراء اليهود العرب» بعد أن أضاف

اليها ديوان ابن سهل الاندلسي وتولى شرح كل لفظة شرحاً وافياً ، وقد ناقش في اثناء الكلام عن السموأل القصيدة التي سبق ان نشرت في مجلة المشرق وقيل انها لهذا الشاعر والتي شكَّ المقتطف (٦-١٩٠٦ ص٤٠٤) ومرجليوث في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية (١٩٠٦ ص ٣٦٣) في نسبتها الى السموأل فجارى هذا الرأي مؤيداً ذلك بكثير من البراهين

والكتاب مصدر بمقدمة للدكتور اسماعيل أحمد ادهم عرض فيها الصلات التي قامت بين العرب واليهود وهجرتهم الى الحجاز وتكاثرهم فيه على اثر قيام الثورة الكبرى ضد طبقة الحكام من الرومان وقيام هؤلاء بقمع تلك الثورة ، وانتهى منهُ الى الكلام عن شرح المؤلف لشعر السموأل فقال انهُ « شرح شعر الرجل شرحاً لغويًّا دقيقاً يتضافر فيه العلم الواسع بمفردات اللغة والذوق الشعري والادراك لأسرار النظم العربي مما لا يترك مجالاً لباحث آخر في هذا الباب على ان شعر السموأل غير مطروق في هذا الكتاب من الناحية الفنية من حيث يدل هذا الشعر على اصل ثابت في نفس الرجل وقريحة ذات نمط خاص ، ووجدان يفيض بصور الشعر وذلك لان مؤلفه عالم لغوي يغلبهُ روح التحليل اللفظي والتدقيق في شكل القصيدة مما يحجبه بصرف النظر عن استقراء الروح الشعرية القائمة وراء الجسم المادي للقصيدة . واذا كانت كل قصيدة شعر تخفي وراء جسمها المنظور حالة نفسية غير منظورة فوظيفة النقد العليا هي الكشف عن هذه الحالة النفسية والنزول بها الى الاصل الثابت من نفسية الشاعر »

وهذا الكتاب ولو انهُ اقتصر على الشرح اللغوي فهو مجهود مشكور على الوحدة الظاهرة فيه وهو أساس بعد ذلك للدارسين والباحثين

الصيرفي

نداء المجهول — لمحمود تيمور

منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٣٩

هي قصة جديدة للاستاذ محمود بك تيمور نشرتها له دار مجلة المكشوف في بيروت رغبةً في تمكين الصلة الادبية التي بين القطرين الشقيقين . والقصة مما لم يسبق للاستاذ تيمور ان ينسج على منوالها نسجاً متواصلاً في كتاب تام قائم برأسه . وبيان ذلك ان الاستاذ تيمور عدل في هذه القصة عن الطريقة الواقعية التي اشتهر بها عدولاً وراح تستهويه الطريقة التخيلية Romanesque على حدّ ترجمة صديقنا الدكتور بشر فارس . فقد كتب صديقنا في مقتطف يوليو الماضي كلمة في قصة تيمور السابقة وهي « فرعون الصغير » فدلّ على نهضة هذه الطريقة الاخيرة عند تيمور . ثم كتب في مجلة « الرسالة » (٦/١١/١٩٣٩ رقم ٣٣٠) بحثاً طريفاً في « نداء المجهول » فصل فيه اللون التخيلي وميزه من اللون الرمزي :

قال : « واللون التخيّلي يجري الى سرد الحوادث النوادر و «المغامرات» (كما نقول اليوم في مصر adventures) والى وصف العوالم التي تبهت العقل والى الكشف عن آفاق تضطرب فيها الأسرار والألغاز ، كل ذلك رغبة في الفرار مما نعرفه ونلمسه ونؤمن به ، كل ذلك إرادة أن تلبيّ النفس نداء يأتيها من وراء حجب. هذا وبين التخيليّة والرمزية المستحدثة وشائج من جهة ذلك الفرار من العالم المبذول لنا . غير أن هذه تتشبث بما يجول في النفس خفية فتبرزه عزمات وتصوّرات وانفعالات ، ثم تستخرج ما وراء الحس وتدون ما يهجم على القلب ويرد على الوهم وذلك من طريق التمثيل ، وانتزاع الصور من الأشكال والهيئات، واستنباط المطابقات والمقابلات والاضافات مما يجري مجرى الموازنة البعيدة أو القريبة بين الحيّ والجامد . وجملة القول أن التخيليّة تتناول الخارجيات من بلدان نائية وغرائب مستملحة وحوادث شاذة ، على حين ان الرمزية المستحدثة تركز اوتادها في وادي المضمرات والسوانح وما يلي المادة المباشرة»

والقصة تجري حوادثها في لبنان ، في قرية من قراها المطمئنة، وأبطالها مصري (وهو المؤلف) وانجليزية ونفر من اللبنانيين . وهي قائمة على فكرة تلحق بعلم النفس مجملها ان النفس الرقيقة لا بدّ لها ان تضحي وان تلبي دعوة بعيدة خفية . وحوادث القصة من محض الخيال ولكن من غير إسراف ولا إغراب ،ولغتها سليمة بسيطة لا تكلف فيها ولا توثب

وبالجملة ان قصة الاستاذ تيمور حقيقة بأن يطالعها من يرتاح الى دقائق الفن ويود ان يفر لحظة من هذا العالم ليطير في آفاق البطالة والغرابة

مصر الغد

تاليف محمود كامل المحامي — صاحب مجلة الجامعة — صفحاته ١٣٠ قطع صغير

هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير القدر يحتوي على نواة برنامج للاصلاح الاجتماعي والسياسي في مصر المستقلة . وضعه مؤلفهُ على لسان الشباب المصري المثقف . فهو دراسات اجتماعية سياسية في قواعد برنامج للاصلاح العام في عهد مصر الجديد الذي بدأ منذ توقيع معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا

في الكتاب نقد شديد لشتى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مصر . والنقد قائم على تحقيق دقيق للاحصاءات الرسمية . واتصال وثيق بأعمال الحكومة . ولكنه لا يقف عند حدّ النقد بل يتعداهُ الى اقتراح طرق عملية للاصلاح قد لا يوافقهُ عليها كلُّ قارىء ولكن لها ميزة الوضوح والحسم على الاقل وهي في رأيه محور وسائل الاصلاح التي تدور في ذهن الشباب المصري

هنا بحث في حالة الفاقة في مصر وأسبابها ، وصلتها بالاجرام . فانتشار الفاقة في مصر شيء يهول كل باحث لهُ متسع من الوقت للتنقيب كما نقب الاستاذ محمود في جداول الاحصاء

وعنده ان هذه الحالة المزرية تجعل ملايين من المصريين « عيد القرن العشرين » على حدّ قوله في احدى فقراته. وهنا بحث ايضاً في شركات الاحتكار وتحكمها وما يجب على الحكومة حيالها. والتعليم العالي في الجامعة يفوز بقدر غير يسير من عنايته ومن مسائله انتخاب العمداء وما يحيط بها من نواح تجعل العميد مقيداً في القيام باعباء منصبه على الوجه الذي يرتضيه ضميره العلمي . ومنها عيادات الاطباء الاساتذة في كلية الطب ووجوب اقفالها

ومما يقترحهُ تعديل الدستور المصري وقانون الانتخاب تعديلات من شأنها ان تفسح المجال في الشركات الكبرى للشباب المصري وذلك بتحتيم جعل مكاتباتها التجارية باللغة العربية . وتطعيم النظام النيابي بدم جديد وذلك باعفاء المرشحين حاملي الشهادات العليا من شرط التأمين المالي وأن يضاف الى عدد الاصوات التي ينالها هؤلاء المرشحون ربع الاصوات الصحيحة

ومن الطبيعي ان لا يلقي المؤلف مقترحاته جزافاً بل هو يؤيدها بالحجة

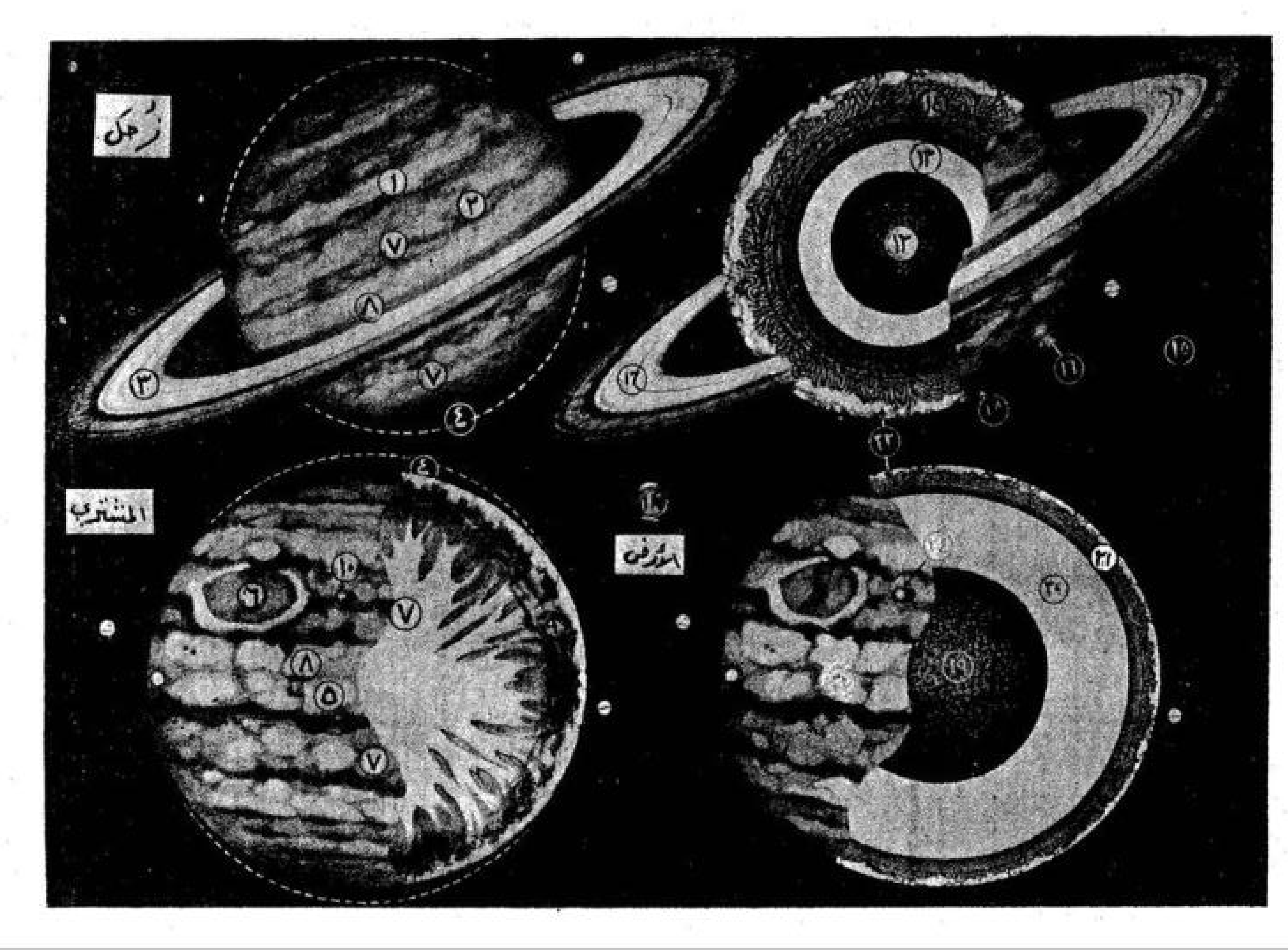
والمهم في نظرنا الاهتمام بكل ما يكتب في موضوع الاصلاح الاجتماعي والسياسي ، لأنَّ الكتَّاب هم الروّاد الذين يهيئون الرأي العام ويرشدونهُ فاذا تكوَّن هذا الرأي العام ونضج فالاصلاح لا يتأخر بعد ذلك كثيراً

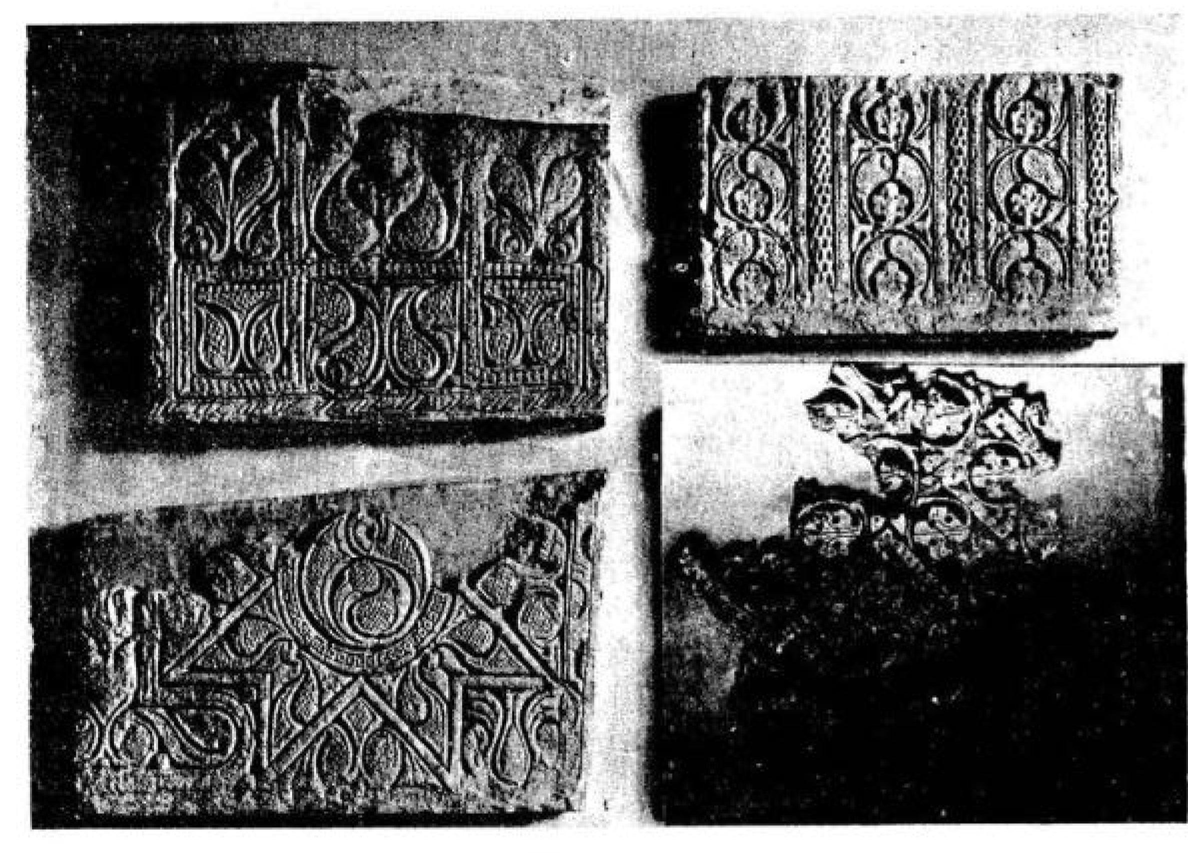
من أدب الفراعنة

بقلم محمد صابر — صفحاته ٣٢٦ من القطع المتوسط — طبع بمطبعة حليم بمصر

يسعى الاستاذ محمد صابر في جميع مؤلفاته لنشر المعارف والثقافة المصرية القديمة بين ابناء العربية فقد سبق له ان أخرج « صفحات من حياة الفراعنة ومصر تحت ظلال الفراعنة » واليوم يتحف العالم العربي والقصة المصرية بكتابه الجديد « من أدب الفراعنة » وهو يعد الاول من نوعه في اللغة العربية أوضح فيه مؤلفه الأديب منزلة الفراعنة في الادب وأدبهم العظيم وفضلهم على القصة والشعر والنثر

وفي هذا المؤلف عشر قصص مأخوذة من أوراق البردي وهي قصص مصرية بحتة مشوقة السياق تظهر لك عادات الفراعنة وأخلاقهم والاحتفالات في عهدهم وقد اعجبنا بقصة الامير الهالك وبأسلوبها ونأمل ان يوفق المؤلف في البحث عن بقية هذه القصة الممتعة مكتوبة في مدرج بردي آخر او منقوشة في احدى المقابر لنعرف الى اي حد وصل خيال المصري في نسج القصة وتصوير وقائعها . وفيه بعض الأغاني التي تعبر عن مشاعر الشباب والاغاني الشعبية التي تلقى في الحفلات مع عزف الموسيقى وتسمى « نشيد العازف » وبعض نماذج من الرسائل المتداولة في ذلك العهد والحكم والنصائح . والكتاب مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد ومزين بصور كثيرة وهو تحفة ادبية مختارة تشهد للمؤلف ببراعته ودقة بحثه وحسن اختياره


زُحل
المشتري



زخارف جصية من الجوسق الخاقاني بسامرا



بريطانيا وفرنسا

وحدة لا تنفصم عراها

روسيا والبلطيق

من ايفان الرهيب الى ستالين

يوميات دولية

١ — بولندة تموت لتحيا

٢ — الحرب لا تتجزأ

٣ — قانون تعديل الحياد الاميركي

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الخامس والتسعين